جمهرة رسائل العرب

في

عصور العربية الزاهرة

العصر الجاهلي • عصر صدر الإسلام

تأليف

أحمد زكي صفوت

المكتبة العلمية

بيروت - لبنان

جمهرة رسائل العرب

في

عصور العربية الزاهرة

جمهرة رسائل العرب

في

عصور العربية الزاهرة

الجزء الأول

العصر الجاهلي ، عصر صدر الإسلام

تأليف

أحمد زكي صفوت

وكيل كلية دار العلوم جامعة القاهرة سابقا

المكتبة العلمية

بيروت - لبنان

مُقَدِّمَة
الطبعة الأولى

بسم الله الرحمن الرحيم

أحمدك اللهم على سابغ نعمائك ، وضافى آلائك ، وأصلى وأسلم على صفوة أنبيائك ، سيدنا ومولانا محمد صلى الله عليه وعلى آله وصحبه الأخيار الأطهار .

وبعد : فقد كنت عند اختتام « جمهرة خطب العرب » ، قطعت على نفسى عهداً بإتلائها بصنوٍ لها فى الرسائل ، وقد يسّر لى القدير المنان السبيل إلى إنجاز عدتى ، فهأنذا أصدر :

جمهرة رسائل العرب فى عصور العربية الزاهرة

حاوية ماوسعه اطلاعى من رسائل أبناء العربية فى عصور البلاغة ، فى أجزاء أربعة :

الجزء الأول : ويحوى الرسائل فى العصر الجاهلى ، وعصر صدر الإسلام .

« الثانى : ويحوى الرسائل فى العصر الأموى .

« الثالث : ويحوى الرسائل فى العصر العباسى الأوّل .

« الرابع : ويحوى رسائل الأندلسيين .

ولم أورد فى الجزء الأول ، مما أورده الشريف الرضى فى نهج البلاغة من رسائل.

الإمام علىّ كرم الله وجهه ، إلا ما اقتضاه المقام : مما كان حلقة مكملة لسلسلة مكاتبات ، أو رسالة مختصرة عثرت على تتمتها فى مصدر آخر ، أو ما شا كل ذلك .

وقد أخرجت هذه الجمهرة على غرار سابقتها ، ونهجت فيها منهجها ، فدأبت على التوفيق بين الروايات المختلفة للرسالة الواحدة ، وصغت منها صورة كاملة تؤلف بين أشتاتها ، وعنيت بضبط المشكل من ألفاظها ، وتصحيح المحرف ، وتحقيق المشوّه منها ، ورده إلى أصله ، وشفعتها بنبذة تاريخية توضح المقام الذى كتبت فيه ، وذيلتها بشرح مسهب يجلى للقارئ فحواها . ولست أغلو إن قلت إن ذلك الشرح بما حواه من فوائد لغوية ، وفرائد أدبية ، وطرائف تاريخية ، حرىّ أن يعد كتابا قائما بذاته .

وإخالنى بإصدار هاتين الجمهرتين قد عبّدت طريق النثر القديم : الخطابى والكتابى : للمتأدبين ، ووطأت لهم مهاده ، ويسرت لمؤرخى الأدب العربى أن يتصفحوا خطب كل عصر ورسائله مجتمعة الشمل ، قريبة المأخذ ، سائغة التناول ، ووفّرت عليهم ما يضطرهم إليه البحث من بذل مجهود شاق ، وإضاعة وقت طويل ، فى التنقيب عنها ، وما تتطلبه من التحقيق والتعليق .

كما أرانى قد حببت إلى شبابنا المتعلمين أن يجتنوا من ثمر الأدب العربى الشهى ، وينهلوا من مناهله العذبة ، ويلفوا فيه من فصاحة اللسان ، ورصانة البيان ، ما يؤمنون معه بثراء لغتهم ، وعلوّ كعبها ، وسمو مكانتها ؛ بين لغات الأمم ، أجل لقد كان من أكبر البواعث التى حدت بى إلى تأليف تينكم الجمهرتين ، ما رأيته فى طلابنا المتأدبين من عزوف عن كتب الأدب العربىّ القديم وصدوف عنها ، لأنها عطل من الضبط ، خلو من التعليق والشرح ، فضلا عما أفعمت به من التحريف الشائن ، والتشويه الشنيع ؛ فهم إذا ما تاقت نفوسهم إلى مطالعتها لم يعتموا أن يمسهم الضيق والضجر ، ويستحوذ عليهم السأم والملل ، لوعورة مسلكها ، وصعوبة مرتقاها ، فسرعان ما يطوونها ، ويلقون بها دون أن يفيدوا منها ما ينشدون .

وإنى لا أستطيع أن أصور للقراء مبلغ ما عانيت من نصب فى هذا السبيل الذى يبدو لأول وهلة لاحِبًا سهل المسلك ، وحسبى أن يطلعوا على عملى فيلمسوا بأيديهم ما بذلته فيه من جهد مضن ، وكدّ ممضّ ، ضحيت فيه بالكثير من وقتى وراحتى ، وبالنفيس من صحتى وقوتى ، لا أبتغى بذلك مالا ولا صيتا ، ولا ألتمس فيه جزاء إلا من العدل القدير ، وإنما هو واجب البر بهذه اللغة الشريفة ، والإخلاص فى خدمتها والوفاء لها ، حفزنى أن أضع حجراً فى بنيان نهضتها ، وأنظم خرزة فى عقد زينتها .

اللهم سدد إلى طريق الخير خطانا ، ووفقنا إلى ما تطيب به ذكرانا ، وتحمد به عقبانا ، وهيئ لنا من أمرنا رشدا ؟

أحمد زكى صفوت

وحرر بالقاهرة فى { المحرم ١٣٥٦ / إبريل ١٩٣٧ }

فهرس

مآخذ الرسائل فى هذا الجزء

الأغانى : لأبى الفرج الأصبهانى	: الجزء الثانى ـ السادس ـ الخامس
	: عشر ـ الحادى والعشرون
تاريخ الأمم والملوك : لابن جرير الطبرى	: الجزء الثانى ـ الثالث ـ الرابع ـ
	: الخامس ـ السادس
تاريخ الكامل : لعز الدين بن الأثير	: الجزء الأول ـ الثانى ـ الثالث
صبح الأعشى : لأبى العباس القلقشندى	: « الأول ـ الثانى ـ الرابع ـ
	: السادس ـ التاسع ـ العاشر ـ
	: الثالث عشر ـ الرابع عشر
مجمع الأمثال : لأبى الفضل الميدانى	: الجزء الأول ـ الثانى
العقد الفريد : لابن عبد ربه	: « الأول ـ الثانى
جمهرة الأمثال لأبى هلال العسكرى	: « الأول
سيرة النبي صلى الله عليه وسلم : لابن هشام	: « الأول ـ الثانى
السيرة الحلبية : لابن برهان الدين الحلبي	: « الثانى
صحيح الإمام البخارى	: « الأول ـ الثانى ـ الرابع
الجامع الصحيح : للإمام مسلم	: « الخامس
سنن النسائى	: « الخامس ـ الثامن
المواهب اللدنية : للقسطلانى شرح الزرقانى	: « الثالث ـ الرابع
أسد الغابة فى معرفة الصحابة : لعز الدين	: « الأول ـ الثانى ـ الثالث ـ
لابن الأثير	: الرابع

الإصابة فى تمييز الصحابة لابن حجر العسقلانى	: الجزء الثالث ـ السادس
المواعظ والأعتبار بذكر الخطط والآثار للمقريزى	: « الأول
حسن المحاضرة فى أخبار مصر والقاهرة للسيوطى	: « الأول
معجم البلدان : لياقوت الحموى	: « الثانى ـ الثالث ـ الرابع ـ الخامس
تهذيب تاريخ ابن عساكر	: الجزء الأول ـ الثانى ـ الثالث
الروض الأنف : السهيلى	: « الثانى
البيان والتبيين : للجاحظ	: « الثانى
نهج البلاغة : للشريف الرضى	: « الثانى
شرح نهج البلاغة : لابن أبى الحديد	: المجلد الأول ـ الثانى ـ الثالث ـ الرابع
زهر الآداب : لأبى إسحق الحصرى	: الجزء الأول
الكامل : المبرد	: « الأول ـ الثانى
لسان العرب : لابن منظور	: الجزء السادس ـ السابع
أشهر مشاهير الإسلام : لرفيق بك العظم	: « الثالث ـ الرابع
الإمامة والسياسة : لابن قتيبة	: « الأول
الأمالى : لأبى على القالى	: « الجزء الثانى
مروج الذهب للمسعودى	: « الأول ـ الثانى

نهاية الأرب : لشهاب الدين النويرى : الجزء السابع
عيون الأخبار : لابن قتيبة : المجلد الثانى
النجوم الزاهرة فى ملوك مصر والقاهرة : الجزء الأول
لابن تغرى بردى :
المثل السائر فى أدب الكاتب والشاعر :
لضياء الدين بن الأثير :
الشفا بتعريف حقوق المصطفى صلى الله عليه :
وسلم : للقاضى عياض :
خاص الخاص للثعالبى :
الخراج : لأبى يوسف :
فتوح الشام : لأبى إسمٰعيل محمد بن عبد الله :
الأزدى البصرى :
ثمرات الأوراق : لابن حجة الحموى :
إعجاز القرآن : لأبى بكر الباقلانى :
فتوح البلدان : للبلاذرى :
تاريخ آداب اللغة العربية : للأستاذ :
حسن توفيق :
مفتاح الأفكار : للشيخ أحمد مفتاح :

بسم الله الرحمن الرحيم

الرسائل في العصر الجاهلي

لسنا نَعْرِض في هذا المقام الكلام على نشأة الكتابة العربية وتاريخها في العصر الجاهلي ، وإنما يَعْنينا هنا أن نقول : إن جَمْهرة العرب في ذلك العصر كانت مُتَبَدِّيَة[1] ، فلم تكن الكتابة فيهم فاشية ، ولذا كانوا يعتمدون في تراسُلهم على المشافهة ، فيبعثون برسالاتهم شفهيّةً مع أُمَناء ينتجبونهم[2] لإبلاغها ، وكانوا يحتفظون بآثارهم الأدبية فيستظهرونها في الصدور ، ويتناقلونها على الألسن ، ولم يزاولوا من العلوم والفنون ما يقضي عليهم أن يدوِّنوه ويقيدوه في سِجِلٍّ يَدْرَأ عنه عادِيَةَ الضياع والامِّحاء .

أما أهل الحاضرة منهم فقد ألمّوا بالحضارة بعض الإلمام، وكانوا يمارسون الكتابة ، ويتبادلون الرسائل المكتوبة ، ولكنهم لتقادُم العهد لم يُؤْثَر عنهم إلا رسائلُ قلائل معدودة ، سنُوردها لك بعدُ ، وهي لنَزُورتِها[3] لا تَقِفُنَا على صورة صحيحة تامة لكتابة الرسائل في ذلك العهد .

---

(1) تبدى : أقام بالبادية . (2) انتجبه : اختاره .

(3) نزر الشيء : ككرم نزراً ونزارة (بالفتح) ونزورة ونزورا (بالضم) : قل .

١ — كتاب المنذر الأكبر إلى أنوشروان

روى أن المنذر الأكبر(١) أهدى إلى أنُوشِرْوانَ جاريةً ، كان أصابها إذ أغار على الحِرث الأكبر بن أبي شَمِر الغسَّاني(٢) ، فكتب إلى أنوشروان بصفتها ، فقال : « إني قد وجَّهتُ إلى الملك جاريةً معتدلةَ الخَلْق ، نقيَّةَ اللون والثَّغر، بيضاءَ قَمْراء ، وَطْفاءَ كَحْلاء ، دَعْجاء حَوْراء عَيْناء ، قَنْواء شَمَّاء ، بَرْجاء زَجَّاء(٣) ، أَسِيلة الخدّ ،

---

(١) هو المنذر الثالث بن امرئ القيس اللخمى ملك الحيرة ، وقد اشتهر بأمه ، فقيل له : المنذر ابن ماء السماء (سميت بذلك لحسنها وجمالها ، واسمها ماوية) وهو جد النعمان بن المنذر صاحب النابغة الذبيانى ، وقد ولى إمارة الحيرة من سنة ٥١٤ إلى سنة ٥٦٣ م ماعدا فترة طرده فيها قباذ ملك الفرس ، وقتل فى حربه مع الحرث بن أبى شمر الغسانى يوم أباغ (وأباغ كغراب : موضع بين الكوفة والرقة) وكانت إمارة الحيرة (وهى على ثلاثة أميال من الكوفة على موضع يقال له النجف) يليها المناذرة من قبل ملوك الفرس . ومعنى أنو شروان : صاحب العقل الراجح .

(٢) هو الحرث الأعرج بن أبى شمر جبلة الغسانى أحد ملوك الغساسنة ، ويلقبه مؤرخو العرب بالأكبر كما ترى ، وقد رجعت إلى سلسلة ملوك الغساسنة فى الجدول الذى وضعه الأستاذ برسيفال فى كتابه « العرب قبل الإسلام » . فوجدت أن الحرث الملقب بالأكبر هو أبو شمر جبلة، وهو الحرث الرابع الذى ولى من سنة ٤٩٥ إلى سنة ٥٢٩ م ، وأن من يلقبه مؤرخو العرب بالأكبر هو ابنه الحرث الأعرج هذا وهو الحرث الخامس الأوسط الذى ولى من سنة ٥٢٩ إلى سنة ٥٧٢ م. ولعلهم لقبوه بالأكبر لقوة سلطانه وعظم شأنه ، وكانت إمارة الغساسنة بالشام يليها ملوك غسان من قبل الدولة الرومانية الشرقية ، وقد عين الحرث بن أبى شمر من قبل العاهل الرومانى جوستنيان (الذى حكم من سنة ٥٢٧ إلى سنة ٥٦٥ م). قال المسعودى فى مروج الذهب ج ١ : ص ٢٩٩ « وكانت ديار ملوك غسان باليرموك والجولان وغيرهما من غوطة دمشق وأعمالها ، ومنهم من نزل الأردن من أرض الشام » . وقد نشبت بين المناذرة والغساسنة حروب شديدة امتلأت بها كتب التاريخ .

(٣) الثغر : الأسنان . ووجه أقمر : مشبه بالقمر . وقال ابن قتيبة « الأقمر : الأبيض الشديد البياض والأنثى قمراء » . ووطفاء : وصف من الوطف بالتحريك ، وهو كثرة شعر الحاجبين والعينين والأشفار مع استرخاء وطول . وكحلاء : وصف من الكحل بالتحريك ، وهو سواد يعلو الجفون خلقة . والدعج بالتحريك والدعجة بالضم : شدة سواد العين مع سعتها . والحور بالتحريك : شدة سواد المقلة فى شدة بياضها فى شدة بياض الجسد . والعين بالتحريك ، والعينة بالكسر : عظم سواد العين فى سعة . وقنا الأنف : ارتفاع أعلاه ، واحديداب وسطه ، وسبوغ طرفه ، وهو أقنى ، وهى قنواء . والشمم بالتحريك : ارتفاع قصبة الأنف وحسنها واستواء أعلاها وانتصاب الأرنبة ، وهو أشم ، وهى شماء . والبرج بالتحريك : تباعد ما بين الحاجبين ، وقيل هو سعة العين فى شدة بياض صاحبها ، وقيل سعة بياض العين وعظم المقلة وحسن الحدقة ، وقيل أن يكون بياض العين محدقا بالسواد كله . والزجج بالتحريك دقة الحاجبين فى طول .

شَهِيَّة المُقَبَّل ، جَثْلَة الشعر ، عَظِيمة الهامة[1] ، بَعيدة مَهْوى القُرْط ، عَيْطَاء عريضة الصدر ، كاعِبَ الثَّدْى ، ضَخْمَة مُشَاشِ المَنكِب والعَضُد ، حَسَنَة المِعْصَم ، لطيفة الكفّ ، سَبِطة البَنان ، ضامِرة البطن ، خَمِيصة الخَصْر[2] ، غَرْثَى الوِشاح ، رَدَاح الأَقْبَال ، رابية الكَفَل ، لَفَّاء الفَخِذين ، رَيَّا الرَّوادِف ، ضخْمة المأكَمَتَيْن ، عظيمة الركبة ، مُفْعَمة الساق ، مُشْبَعَة الخَلْخال[3] ، لطيفة الكَعْبِ والقَدَم ، قَطُوفَ المشى ، مِكْسال الضُّحَى ، بَضَّة المُتَجَرَّدِ[4] ، سَمُوعاً للسَّيِّد ، ليست بخَنْساء ولا سَفْعاء ، رقيقة الأنف ، عزيزة النفس[5] ، لم تُغْذَ فى بؤس ، حَيِيَّة حَصِينة رَزينة ، حليمة رَكِينة[6] ،

---

(١) الحد الأسيل : الطويل المسترسل ، وفعله ككرم . وفى الطبرى وابن الأثير . « شهية القد » محل قوله « شهية المقبل » والشعر الجثل : الكثير الملتف ، وفعله كسمع وكرم ، والهامة : الرأس .

(٢) بعيدة مهوى القرط : كناية عن طول العنق ، قال الشاعر :

أكلت دما إن لم أرعك بضرة   بعيدة مهوى القرط طيبة النشر

والعيط محركة : طول العنق والعنط أيضاً محركة : طول العنق وحسنه ، أوالطول عامة . وكعب الثدى كضرب ونصر : نهد . والمشاش جمع مشاشة : وهى ما أشرف من عظم المنكب . والمعصم: موضع السوار (أو اليد) . وسبطة : طويلة . وفى الطبرى وابن الأثير « لطيفة طى البطن » . بدل قوله « ضامرة البطن » . وخميصة : ضامرة .

(٣) الغرث بالتحريك : الجوع ، وهو غرثان وهى غرثى . والوشاح بالضم والكسر أديم عريض يرصع بالجوهر تشده المرأة بين عاتقها وكشحيها ، ويقولون امرأة غرثى الوشاح: أى خميصة البطن دقيقة الخصر ، ووشاح غرثان : لا يملؤه الخصر ، فكأنه غرثان . وامرأة رداح : عجزاء ، ثقيلة الأوراك ، تامة الخلق . والأقبال بالفتح : ما استقبلك من مشرف ، جمع قبل بالتحريك . والمعنى : أنها رابية الوركين مشرفتهما ، أو هو الإقبال بالكسر : أى تمتلىء ما تقبل به من ساقيها ووركيها . وفى الطبرى وابن الأثير « رداح القبل » . والكفل : العجز . واللفاء : الضخمة الفخذين . وريا : ممتلئة ، مؤنث ريان . والردف بالكسر : الكفل والعجز ، وخص بعضهم به عجيزة المرأة ، والجمع أرداف ، والروادف : الأعجاز ، قال ابن سيده : ولا أدرى أهو جمع ردف نادر أم هو جمع رادفة . والمأكة وتكسر كافه : لحمة على رأس الورك . ومفعمة : ممتلئة . وأراد بالخلخال المخلخل : أى موضعه من الساق .

(٤) القطوف من الدواب : المتقارب الخطو البطىء ، وقد يستعمل فى الإنسان ، وفعله كضرب . ومكسال الضحى : كناية عن التنعم ، وهو كقول امرىء القيس « نئوم الضحى لم تنتطق عن تفضل » والبضة : الرخصة الجسد الرقيقة الجلد الممتلئة . والمتجرد إن كسرت راؤه ، فهو الجسم : أى الجسم المتجرد ، وإن فتحت فهو مصدر ميمى : أى بضة عند التجرد .

(٥) الخنس بالتحريك : تأخر الأنف عن الوجه مع ارتفاع قليل فى الأرنبة ، وهو أخنس وهى خنساء . والسفع بالتحريك ، والسفعة بالضم : فى الوجه سواد فى خدى المرأة الشاحبة ، وفى الطبرى وابن الأثير : « ذليلة الأنف ، عزيزة النفر » وعليه ، فمعنى ذليلة الأنف أنها طيعة سلسة القياد .

(٦) الحصينة : العفيفة . والركينة : الرزينة .

كريمة الخال ، تقتصر على نسب أبيها دون فَصيلتها ، وتستغنى بفَصيلتها دون جِماع قبيلتها . قد أحكمتْها الأمورُ فى الأدب ، فرأيُها رأْىُ أهل الشرف ، وعَمَلُها عَمَلُ أهل الحاجة ، صَناع الكفَّين ، قطيعة اللسان (١) ، رَهْوَة الصوت ساكِنَته ، تَزِين الوَلِيّ (٢) ، وتَشين العدوّ ، إن أردتَها اشتَهتْ ، وإن تركتَها انتهت ، تُحَمْلِق (٣) عيناها ، وتحمرّ وَجْنَتاها ، وتَذَبذَبُ شفتاها ، وتبادِرُك الوَثْبة إذا قمتَ ، ولا تجلس إلا بأمرك إذا جلست » .

(الأغانى ج ٢ : ص ٢٨ ، وتاريخ الطبرى ج ٢ : ص ١٥٠ ، وتاريخ الكامل لابن الأثير ج ١ : ص ٢١٨)

٢ — كتاب عمرو بن هند إلى عامله بالبحرين

« صحيفة المتلمس »

وروى أن طَرَفة بن العَبْد وخاله المُتَلَمِّس — واسمه جَرِير بن عبد المَسِيح (٤) — كانا ينادمان عَمْرو بن هِنْد (٥) ملك الحِيرة ، فهَجَواه ، فكتب لهما إلى المُكَعْبَر عامله على البَحْرين كتابين ، أوهمهما أنه أمر لهما بجائزة ، وكتب إليه يأمره بقتلهما ، فخرجا فلقيا غلاما من أهل الحِيرة ، فقال له المتلمس : أتقرأ يا غلام ؟ قال : نعم ، ففكّ صحيفته ، ودفعها إليه ، فإذا فيها :

---

(١) امرأة صناع اليدين : ماهرة حاذقة . وقطيعة : مقطوعة ، والمعنى أنها تكف لسانها ، ليست بكثيرة الكلام ولا بذيئة .

(٢) الرهو : الساكن ، والرهو : المكان المنخفض (والمرتفع أيضاً) ، والمعنى : ساكنة الصوت منخفضته ، وفى الطبرى وابن الأثير : « تزين البيت » محل قوله « تزين الولى » .

(٣) حلق : فتح عينيه ونظر شديدا ، والمراد تحملق لبعلها .

(٤) كذا فى الأغانى ، وفى الشعر والشعراء أيضا ؛ وفى مجمع الأمثال « عبد المسيح بن جرير » .

(٥) هو عمرو بن المنذر بن ماء السماء ، آل إليه الملك بعد قتل أبيه فى يوم عين أباغ ، ويعرف باسم أمه هند بنت الحارث بن عمرو عمة امرئ القيس بن حجر بن الحارث (الشاعر المشهور) ، وكان يلقب بمضرط الحجارة لشدته وقسوته ، وقد ولى إمارة الحيرة من سنة ٥٦٣ إلى سنة ٥٧٨ م .

« بِاسْمِكَ اللّهُمَّ(١) ، من عمرو بن هند إلى المُكَعْبَر . أما بعدُ فإذا أتاك كتابي هذا مع المتلمس فاقطع يديه ورجليه ، وادفنه حيًّا » .

فقال الطرفة : ادفع إليه صحيفتك يقرؤها ، ففيها واللهِ ما في صحيفتي ! فقال طرفة : كلا !

---

(١) كانت قريش قبل البعثة تكتب في أول كتبها « باسمك اللهم » . وقد روى الرواة في تعليل ذلك قصة سنوردها على علاتها ، وللقارئ حكمه عليها ، وهي : « ذكر جماعة من أهل المعرفة بأيام الناس، وأخبار من سلف ، كابن دأب والهيثم بن عدي وأبي مخنف لوط بن يحيي ومحمد بن السائب الكلبي : أن السبب في كتابة قريش واستفتاحها في أوائل كتبها باسمك اللهم هو أن أمية بن أبي الصلت الثقفي خرج إلى الشام في نفر من ثقيف وقريش في عير لهم ، فلما قفلوا راجعين نزلوا منزلا واجتمعوا لعشائهم ، إذ أقبلت حية صغيرة حتى دنت منهم ، فحصبها بعضهم بحجر في وجهها فرجعت ، فشدوا على إبلهم وارتحلوا من منزلهم ، فلما برزوا عن المنزل أشرفت عليهم عجوز من كثيب رمل متوكئة على عصاً لها ، فقالت : ما منعكم أن تطعموا رحيمة ، (وفي رواية : رحيبة ، وفي أخرى : رجيمة) الجارية اليتيمة التي جاءتكم عشية ؟ قالوا : ومن أنت ؟ قالت : أم العوام ، أرملت منذ أعوام ، أما ورب العباد ، لتفترقن في البلاد ثم ضربت بعصاها الأرض ، وأثارت بها الرمل ، وقالت : أطيلي إيابهم ، وتفرى ركابهم . فوثبت الإبل كأن على ذروة كل بعير منها شيطانا ، ما يملكون منها شيئا ، حتى افترقت في البوادي ، فجمعوها من آخر النهار إلى غدوة ، فلما أناخوا الرواحل طلعت عليهم العجوز وفعلت مثل فعلتها الأولى ، فتفرقت الإبل ، فجمعوها من غد فلما أناخوها ليرحلوها فعلت العجوز مثل فعلها في اليوم الأول والثاني ، فنفرت الإبل، وأمسوا في ليلة مقمرة ويئسوا من ظهورهم ، فقالوا لأمية بن أبي الصلت : أين ما كنت تخبرنا به عن نفسك وعلمك ؟ فقال : اذهبوا أنتم في طلب الإبل ودعوني ، فتوجه إلى ذلك الكثيب الذي كانت تأتي منه العجوز حتى هبط من ثنيته الأخرى ، ثم صعد كثيبا آخر حتى هبط منه ، ثم رفعت له كنيسة فيها قناديل ، فإذا رجل مضطجع معترض على بابها ، وإذا رجل جالس أبيض الرأس واللحية ، قال أمية : فلما وقفت عليه ، رفع رأسه إلى وقال : إنك لمتبوع ؟ قلت : أجل ! قال : فمن أين يأتيك صاحبك ؟ قلت : من أذني اليسرى ، قال : فبأي الثياب يأمرك ؟ قلت : بالسواد ، قال : هذا خطيب الجن ، كدت والله أن تكونه ولم تفعل ! إن صاحب النبوة يأتيه صاحبه من قبل أذنه اليمنى، فيأمره بلباس البياض ، فما حاجتك ؟ فحدثته حديث العجوز ، فقال : صدقت ، وليست بصادقة ، هي امرأة يهودية ، هلك زوجها منذ أعوام وإنها لن تزال تفعل بكم ذلك حتى تهلككم إن استطاعت ، قال أمية : قلت فما الحيلة ؟ قال : اجمعوا ظهوركم ، فإذا جاءتكم وفعلت ما كانت تفعل ، فقولوا لها : سبعاً من فوق وسبعاً من أسفل : باسمك اللهم » . فإنها لن تضركم ، فرجع أمية إلى أصحابه فأخبرهم بما قيل له ، وجاءتهم العجوز ففعلت كما كانت تفعل ، فقالوا : سبعاً من فوق وسبعاً من أسفل « باسمك اللهم » فلم تضرهم ، فلما رأت الإبل لا تتحرك قالت : قد علمت صاحبكم، ليبيضن الله أعلاه، وليسودن أسفله! وثاروا، فلما أدركهم الصبح نظروا إلى أمية قد برص في عذاريه ورقبته وصدره واسود أسفله ، فلما قدموا مكة ذكروا هذا الحديث ، فكتبت قريش في أول كتبها « باسمك اللهم » . فكان أول ما كتبها أهل مكة ، وفي رواية: وكان أمية أول من كتب « باسمك اللهم » إلى أن جاء الإسلام فكتب « بسم الله الرحمن الرحيم » . انظر مروج الذهب ج ١ : ص ٤٢ . والأغاني ج ٣ : ص ١٨١ . وصبح الأعشى ج ٦ : ص ٢١٧ .

لم يكن اليحتريّ عليّ ، فقذف المتلمس صحيفته فى نهر الحيرة ، وأخذ نحو الشأم ، وأخذ طَرَفةُ نحو البحرين ، فأتى المكعبر ، فقطع يديه ورجليه ودفنه حيا .

(الأغانى ج ٢١ : ص ١٢٧ ، ومجمع الأمثال للميدانى ج ١ : ص ٢٧١)

٣ — كتاب عبد العزى بن امرئ القيس الكلبى إلى قومه

وروى الطبرى أن عبد العُزَّى بن امرئ القيس الكَلْبِيّ أهدى أفراساً إلى الحرث ابن مارِيَة الغسانى[1] ، ووفد إليه ، فأعجبته وأُعجِبَ بعبد العُزَّى وحديثه ، وكان للملك ابن مسترضع فى بنى الحميم بن عوف من بنى عبد وُدّ من كلب ، فنهشته حية ، فظن الملك أنهم اغتالوه ، فقال لعبد العزّى : جئنى بهؤلاء القوم ، فقال : هم قوم أحرار ، وليس لى عليهم فضلٌ فى نسب ولا فَعال[2] ، فقال : لتأتِيَنِّى بهم ، أو لأَفعلَنَّ ولأفعلن ... فقال : رجونا من حِبائك[3] أمراً حال دونه عِقابُك ، ودعا ابنيه شَرَاحِيل وعبد الحارث ، فكتب معهما إلى قومه :

جزانى (جزاه الله شرَّ جَزائه) جَزاءَ سِنِمّارٍ وما كان ذا ذانب[4]

---

(١) هو الحرث السادس الأصغر بن الحرث الخامس الأعرج بن أبى شمر الغسانى ولى من سنة ٥٧٢ إلى سنة ٥٨٧ م ، ومارية أمه ، وهى مارية بنت ظالم بن وهب الكندى ، قال حسان بن ثابت :

أولاد جفنة حول قبر أبيهم قبر ابن مارية الكريم المفضل

وكان لها قرطان فيهما درتان كبيضتى الحمام لم ير الناس مثلهما ، وبهما ضرب المثل فقيل : « خذه ولو بقرطى مارية » يضرب فى الشيء الثمين : أى لا يفوتنك بأى ثمن يكون .

(٢) الفعال : اسم الفعل الحسن ، والكرم (أو يكون فى الخير والشر) .

(٣) الحباء : العطاء .

(٤) من أمثال العرب « جزاء سنمار » : أى جزانى جزاء سنمار ، وهو رجل رومى بنى قصر الخورنق بظهر الحيرة للنعمان بن امرىء القيس فلما فرغ منه ألقاه من أعلاه فخر ميتا ، وإنما فعل ذلك لئلا يبنى مثله لغيره ، فضربت العرب به المثل لمن يجزى بالإحسان الإساءة ، وورد فى تاريخ الطبرى ج ٢ : ص ٧٢ « أنه لما مات امرؤ القيس البدء بن عمرو بن امرئ القيس بن عمرو بن عدى فى عهد يزدجرد ملك الفرس ، استخلف يزدجرد مكانه ابنه النعمان بن امرئ القيس ، قال وهو صاحب الخورنق ، وكان سبب بنائه الخورنق فيما ذكر أن يزدجرد كان لايبقى له ولد ، فسأل عن منزل برى مرىء صحيح من الأدواء والأسقام ، فدل على ظهر الحيرة ، فدفع ابنه بهرام جور إلى النعمان هذا ، وأمره ببناء الخورنق مسكنا له وأنزله إياه ، وأمره بإخراجه إلى بوادى العرب ، وكان الذى بنى الخورنق رجلا يقال له سنمار ، فلما فرغ من بنائه تعجبوا من حسنه وإتقان عمله ، فقال : لو علمت أنكم توفوننى أجرى وتصنعون بى =

سوى رَصِّه البُنيانَ عشرين حِجَّةً ... يَعِلُّ عليه بالقَراميدِ والسَّكْبِ(١)

فلمَّا رأى البُنيانَ تَمَّ سُحُوقُه ... وآضَ كمثل الطَّودِ ذي الباذخِ الصَّعبِ(٢)

فأتْهَمَه من بعد حَرْسٍ وحِقْبَةٍ ... وقد هدَّه أهلُ المَشارِقِ والغَرْبِ(٣)

وظنَّ سِنِمَّارٌ به كلَّ حَبْرَةٍ ... وفاز لديه بالمَوَدَّةِ والقُرْبِ(٤)

فقال اقذفوا بالعِلْجِ من فوق بُرْجِه ... فهذا لَعَمْرُ اللهِ من أعجب الخَطْبِ!(٥)

وما كان لىَ عند ابن جَفْنة فاعلموا ... من الذنب ما آلى يمينا على كَلْبِ(٦)

لَيَلْتَمِسَنْ بالخيل عُقْرَ بلادهم ... تَحَلُّلَ (أبَيْتَ اللَّعنَ) من قولكَ المُزْبِى(٧)

= ما أنا أهله بقيته بناء يدور مع الشمس حيثما دارت ، فقال : وإنك لتقدر على أن تبنى ما هو أفضل منه ثم لم تبنه ! فأمر به فطرح من رأس الخورنق » .

وقال الميدانى فى مجمع الأمثال ج ١ : ص ١٠٧ « ويقال إن سنمار هو الذى بنى أطم أحيحة بن الجلاح (والأطم بضمة وضمتين : القصر) ، فلما فرغ منه قال له أحيحة : لقد أحكمته ، قال : إنى لأعرف فيه حجراً لو نزع لتقوض من عندآخره (كذا) فسأله عن الحجر فأراه موضعه ، فدفعه أحيحة من الأطم فخر ميتا » وأورد صاحب القاموس هذا الخبر ، وقال كان سنمار غلاما لأحيحة .

(١) الحجة : السنة . والقرمد بالفتح والقرميد بالكسر : الآجر، وحجارة لها خروق يوقد عليها حتى إذا نضجت بنى بها ، قال ابن دريد : هو رومى تكلمت به العرب قديما . والسكب : النحاس أو الرصاص ويحرك . والعلل بالتحريك : الشرب بعد الشرب تباعا ، عله يعله كضرب ونصر، وعل الضارب المضروب : إذا تابع عليه الضرب ، ومعنى يعل عليه هنا : يتابع رفع البنيان ويواليه ، وربما كان الأصل « يعلى » . (٢) سحق النخل ككرم : طال ، ونخلة سحوق كصبور : طويلة (وسمق النخل أيضاً كنصر سمقا وسموقا : ارتفع وعلا وطال ، فهو سامق وسميق) وآض : صار . والطود: الجبل العظيم والباذخ : العالى . والصعب : أى الصعب المرتقى .

(٣) أتهم الرجل وأتهمه وأوهمه : أدخل عليه التهمة أى ما يتهم عليه . والحرس : وقت من الدهر. والحقبة : مدة من الدهر أيضاً . ويقال : فلان يهد بالبناء للمجهول : إذا أثنى عليه بالجلد والقوة . ويقال: لهد الرجل (برفع الرجل) أى ما أجلده ، وفى الأصل « وقد هره » وهو تحريف (وهره : كرهه) وربما كان « وقد هزه » من هز الحادى الإبل : أى نشطها بحدائه ، والمعنى : أثنوا عليه .

(٤) الحبرة : السرور . (٥) العلج : الرجل الشديد الضخم ، والعلج : الرجل من كفار العجم ، والمراد به هنا سنمار وهو رومى كما تقدم لك . والخطب : الشأن والأمر .

(٦) ابن جفنة : يعنى به الحرث الأصغر المذكور ، وجفنة أحد أجداده،وهو جفنة الأول بن عمرو مزيقياء أول ملوك الغساسنة ؛ ولى من سنة ٢٠٥ الى سنة ٢٤٨ م . وآلى : أقسم .

(٧) عقر الدار بالضم ويفتح وسطها . وتحلل من يمينه : إذا خرج منها بكفارة . وأبيت اللعن : من تحايا الملوك فى الجاهلية والدعاء لهم ، معناه : أبيت أن تأتى من الأمور ماتلعن عليه وتذم بسببه . والمزبى المزعج ، جاء فى اللسان : « ... فقلت له كلمة أزبيه بها : أى أزعجه وأقلقه ، من قولهم أزبيت الشىء إذا حملته ، ويقال فيه زبيته ، لأن الشىء إذا حمل أزعج وأزيل عن مكانه » .

ودون الذى مَنَّى ابنُ جَفنةَ نفسَه رجالٌ يَرُدُّون الظَّلُومَ عن الشَّغْب
وقد رامَنا مِن قبلك المرء حارثٌ فغُودِرَ مَسْلوبًا لدَى الأَكَمِ الصُّهْبِ[١]

(تاريخ الطبرى ٢ : ٧٣)

٤ — كتاب عدىّ بن زيد العبادى إلى أخيه أُبىّ

ولما مات المُنْذِر بن المنذر[٢] بن ماء السماء ، ولّى كسرى أَبْرَوِيز بن هُرْمُز ملك الفرس ابنَه النُّعْمَانَ بن المنذر على الحِيرة ، وكان عَدِىُّ بن زيد العِبَادىُّ وإخوته فى كُتّاب كسرى يترجمون له[٣] ، وكان لعدى يَدٌ فى فوز النعمان بالإمارة ، إذ احتال له حتى آثَرَه بها كسرى دون إخوته[٤] ، فجعل أعداء عدىٍّ يكيدون له عند النعمان ، وَوَشَوا

(١) الأكم كسبب ، وعنق ، وأجبل ، وجبال ، وأجبال جمع أكمة كرقبة : وهى دون الجبل . والصهب جمع أصهب ، والأصهب من الإبل : الذى يخالط بياضه حمرة .

(٢) ولى من سنة ٥٨٢ إلى سنة ٥٨٥ م ، قيل إنه قتل يوم مرج حليمة فى حربه مع الحرث الأعرج الغسانى ، وكان قد سار إليه المطلب بثأر أبيه عنده، وقيل إنه لم يقتل ، وولى ابنه النعمان بن المنذر من سنة ٥٨٥ إلى سنة ٦١٣ م ، وكسرى أبرويز هو الذى كتب إليه رسول الله صلى الله عليه وسلم يدعوه إلى الإسلام ، قال الزرقانى فى شرحه على المواهب ج ٣ : ص ٣٨٩ « بفتح الواو وكسرها ، ومعناه بالعربية المظفر » .

(٣) كان قابوس بن المنذر الأكبر (عم النعمان) بعث إلى كسرى أبرويز بن هرمز بعدى بن زيد وإخوته فكانوا من تراجمته ، وكان عدى شاعرا خطيبا ، وقد قرأ كتب العرب والفرس ،والعبادى نسبة إلى العباد بالكسر : وهم قوم من قبائل شتى من بطون العرب اجتمعوا على النصرانية بالحيرة ، فأنفوا أن يتسموا بالعبيد وقالوا نحن العباد .

(٤) كان المنذر بن المنذر لما ملك جعل ابنه النعمان فى حجر عدى بن زيد فهم الذين أرضعوه وربوه وكان للمنذر ثلاثة عشر ولدا ، وكان يقال لهم الأشاهب من جمالهم ، وكان النعمان من بينهم أحمر أبرش قصيراً ، فلما مات المنذر دعا كسرى عدى بن زيد ، فقال له : من بقى من آل المنذر ، وهل فيهم أحد فيه خير ؟ قال : نعم ، إن فى ولد المنذر لبقية، وفيهم كلهم خير ، قال : ابعث إليهم. فكتب فيهم، فقدموا عليه ، فأنزلهم على عدى بن زيد ، فقال عدى للنعمان: لست أملك غيرك، فلا يوحشنك ما أفضل به إخوتك عليك من الكرامة ، فإنى إنما أغترهم بذلك ، ثم كان يفضل إخوته جميعاً عليه فى النزل والإكرام والملازمة ويريهم تنقصا للنعمان ، وجعل يخلو بهم رجلا رجلا ، فيقول لهم : إن سألكم الملك : أتكفوننى العرب؟ فقولوا : نكفيكهم إلا النعمان ، وقال للنعمان: إن يسألك الملك عن إخوتك، فقل له : إن عجزتُ عنهم فأنا عن غيرهم أعجز . وفى رواية الأغانى : (وجعل يخلو بهم رجلا رجلا : فيقول : إذا أدخلتكم على الملك ، فقال لكم : أتكفوننى العرب فقولوا : نعم ! فإذا قال لكم : فإن شذ أحدكم عن الطاعة وأفسد،أتكفوننيه فقولوا: لا،إن بعضنا لا يقدر على بعض، ليهابكم ولا يطمع فى تفرقكم ، ويعلم أن للعرب منعة وبأسا ، =

إليه أنه يقول : إن الملك « يعنى النعمان » عاملُه ، وإنه هو ولّاه ما ولاه ، فلم يزالوا بذلك حتى أضغنوه عليه ، فأرسل إليه : عزَمتُ عليك إلّا زُرْتنى ، فإنى قد اشتقت إلى رؤيتك وعدىٌّ يومئذ عند كسرى ، فاستأذن كسرى فأذن له ، فلما أتاه لم ينظر إليه حتى حبسه فى مَحْبِس لايدخل عليه فيه أحد ، فجعل عدىّ يقول الشعر وهو فى السجن[1] ، وكان كلما قال شعرا بلغ النعمانَ وسَمِعه ، فندم على حبسه إياه، وجعل يُرسل إليه ويَعِده ويُمَنّيه، ويَفْرَقُ أن يُرسله فيَبْغِيَه الغوائلَ . فلما طال سَجْن عدى كتبَ إلى أخيه أُبَىّ وهو مع كسرى بشعر فقال :

أبلِـغْ أُبَيًّا على نأيه ... (وهل ينفعُ المرءَ ما قد عَلِمْ)[2]
بأنـ أخاكَ شَقيقَ الفؤا ... د كنت به واثقًا ما سَلِمْ[3]
لَدَى مَلِكٍ ، مُوثَقٌ بالحديــــد ، إمَّا بحَقٍّ وإما ظُلِمْ
فلا أعرِفَنْك كذاتِ الغُلا ... مِ مالم تَجِدْ عارمًا تَعْتَرِمْ[4]
فَأَرْضَكَ أرْضَكَ إنْ تأتِنا ... تَنَمْ نَوْمَةً ليس فيها حُلُمْ[5]

= فقبلوا منه ، وخلا بالنعمان فقال له : إذا سألك هل تكفينى العرب؟ فقل نعم ! فإذا قال لك : فمن لى بإخوتك فقل له : إن عجزت عنهم فإنى عن غيرهم لأعجز !) ففعلوا جميعاً ما أمرهم به عدى ، فملك كسرى النعمان وكساه وألبسه تاجا .

(١) أورد صاحب الأغانى فى هذا الخبر عدة مختارات من قصائد مطولة قالها فى سجنه ، ثم عقب عليها بقوله : « هذه رواية الكلبي فى قصائد كثيرة كان يقولها فيه ، ويكتب بها إليه ، فلا تغنى عنده شيئا » فارجع اليها إن شئت .

(٢) هذا البيت دخله الخرم . (٣) فى الطبرى « كنت به والهاً » .

(٤) ورد هذا البيت فى الأغانى والطبرى :

فلا أعرفنك كدأب الغلا ... م ما لم يجد عارما يعترم

وهو تحريف ، والصواب ما ذكرنا ، والتصحيح عن لسان العرب، وإليك ماجاء فيه «عرم الصبى» أمه (كنصر) : رضعها ، واعترم ثديها : مصه ، واعترمت هى : تبغت من يعرمها . قال :

ولا تلفين كأم الغلا ... م إن لم تجد عارما تعترم

يقول : إن لم تجد من ترضعه درت هى ، فحلبت ثديها ، وربما رضعته ثم مجته من فيها . وقال ابن الأعرابى : إنما يقال هذا للمتكلف ماليس من شأنه ، أراد بذات الغلام : الأم المرضع إن لم تجد من يمص ثديها مصته هى ، قال الأزهرى : ومعناه لا تكن كمن يهجو نفسه إذا لم يجد من يهجوه » . وعلق عليه مصححه، فقال : « قوله : أراد بذات الغلام ... الخ » هذه عبارة الأزهرى لإنشاده له : « كذات الغلام » وأنشده فى المحكم : « كأم الغلام .

(٥) فى الأغانى : « تنم ليلة » .

٥ — رد أخيه أبى عليه

فكتب إليه أخوه :

إنْ يكن خانك الزّمانُ ، فلا عَا جِزُ بَاعٍ ، ولا أَلَفٌّ ضعيفُ (١)
ويَمِينِ الإِلٰهِ ! لو أنّ جَأْوَا ءَ طَحُونًا تُضِيءُ فيها السيوفُ (٢)
ذاتَ رِزٍّ مُجْتَابَةً غَمْرَةَ المو تِ صحيحٌ سِرْبَالُهَا مكفوفُ (٣)
كنتَ فى حَمْيِها ، لجئتُك أسعَى فاعلَمَنْ لو سمعتُ ، إذ تستضيفُ (٤)
أو بمالٍ سُئِلْتُ دونك لَمْ يُمْـ ـنع تِلَادٌ لحاجـة أو طَرِيفُ (٥)
أو بأرضٍ أسْطِيعُ آتيكَ فيها لم يَهُلْنى بَعيدُها أو مَخُوفُ (٦)
فى الأعادى وأنت منى بعيد عَزَّ هذا الزمانُ والتعنيفُ (٧)
إن تَفُتْنِي واللهِ إلْفًا نَجُوعًا لا يُعَقِّبْك مايَصُوبُ الخريفُ (٨)

---

(١) الألف : الرجل الثقيل البطىء ، واللفف فى الكلام (بالتحريك) ثقل وعى مع ضعف، رجل ألف : أى عيي بطىء الكلام إذا تكلم ملأ لسانه فه ، وفى الأغانى : « باغ » ، وهو تصحيف .

(٢) جأى الشىء كسعى جأيا وجأوا : ستره وغطاه ، وكتيبة جأواء : بينة الجأى ، وهى التى يعلوها لون السواد لكثرة الدروع . والطحون : الكتيبة ذات الشوكة والكثرة تطحن ما لقيت .

(٣) الرز: الصوت تسمعه من بعيد أو أغم،أو صوت الرعد. مجتابة:أى مقتحمة مخترقة،جاب واجتاب قطع وخرق . والغمرة : الشدة . والسربال : الدرع ، أو كل مالبس . وكف الثوب : خاط حاشيته ، وهى الخياطة الثانية بعد الشل ، ومنه قولهم : « عيبة مكفوفة » : أى مسرجة مشدودة على ما فيها ، وستأتى فى كتاب صلح الحديبية .

(٤) حميت النار كرضى حما وحموا : اشتد حرها . واستضاف : استغاث .

(٥) التلاد والتليد والتالد والمتلد : المال القديم الأصلى الذى ولد عندك . والطارف والطريف : المال المستحدث . (٦) هاله الأمر . أفزعه ، وفى الأغانى : « بعد بها » .

(٧) فى الطبرى« والتعريف » وأراه محرفا،والصواب « والتعنيف » كما فى الأغانى . والمعنى : ليس تجدى تعنيفنا الزمان ولومنا إياه وعتبنا عليه فيما رمانا به من خطوبه وملماته ، وهو كقول القائل :

أخلاى لو غير الحمام أصابكم عتبت ، ولكن ما على الدهر معتب

أو عز بمعنى غلب (عزه كمده : غلبه) والتعنيف بمعنى الإيلام ، أى غلبنا الزمان على أمرنا وقهرنا بمؤلماته وفواجعه .

(٨) إلفا حال من فاعل تفتنى. ونجوعا مبالغة من ناجع. لا يعقبك . لا يخلفك . والخريف : المطر فى فصل الخريف . وأول المطر فى أول الشتاء . وصاب المطر صوبا : نزل ، وكنى بصوب الخريف عن =

فَلَعَمْرِى لَئِن جَزِعْتُ عليه لَجَزُوعٌ على الصديقِ أَسُوفُ[١]
ولَعَمْرِى لئن ملكتُ عَزَائى لَقليلٌ شَرْوَاكَ فيما أطوف[٢]

فلما قرأ أُبَىٌّ كتاب عَدِىّ قام إلى كسرى فكلمه فى أمره وعرَّفه خبره ، فكتب إلى النعمان يأمره بإطلاقه ، ولكن النعمان اغتاله ، وتقدَّم إلى رسول كسرى أن ينبئه بأنَّ عديا قد مات قبل أن يَقْدَم عليه[٣] .

(تاريخ الطبرى ٢ : ١٤٩ ، والأغانى ٢ : ٢٦)

٦ — كتاب النعمان بن المنذر إلى كسرى

وندم النعمان على قتل عَدِىّ . وعَرَف أنه احتيل عليه فى أمره ، واجترأ أعداء عدِىّ على النعمان ، وهابهم هَيْبةً شديدة ، ثم إنه خرج إلى صيده ذات يوم فلقِىَ ابنا لعدى يقال له زيد ، فلما رآه عرَف شبهه فقال له : من أنت ؟ فقال : أنا زيد بن عدى بن زيد ، فكلَّمه فإذا غلام ظريف ، ففرح به فرحا شديداً ، وقرَّبه وأعطاه ووَصَله ، واعتذر إليه من أمر أبيه وجهَّزه ، ثم كتب إلى كسرى :

= الخير والنعمة ، والمعنى : إن تذهب عنى وتفجعنى ببعدك ، فإن ما ألقاه بعدك من نعمة — وإن جلت — لن تكون خلفا عنك ، ولن أرى فيها بديلا منك ، وفى الأغانى : « إن يعنى والله إلف لجوع لايعنيك ... » ، وهو تحريف . (١) الأسوف والأسيف : الحزين .

(٢) الشروى : المثل .

(٣) وذلك أن أبيا كان قد تقدم إلى رسول كسرى ورشاه وأمره أن يبدأ بعدى ، وقال له : ادخل عليه فانظر ما يأمرك به ، فدخل الرسول على عدى ، فقال : إنى قد جئت بإرسالك ، فما عندك ؟ قال : عندى الذى تحب ، ووعده عدة سنية ، وقال له لاتخرجن من عندى ، وأعطنى الكتاب حتى أرسله إليه ، فإنك والله إن خرجت من عندى لأقتلن ، فقال : لا أستطيع إلا أن آتى الملك بالكتاب فأوصله إليه ، فانطلق بعض من كان هناك من أعدائه ، فأخبر النعمان أن رسول كسرى قد دخل على عدى وهو ذاهب به ، وإن فعل لم يستبق منا أحداً أنت ولا غيرك ، فبعث إليه النعمان أعداءه فغموه حتى مات ثم دفنوه ودخل الرسول على النعمان بالكتاب ، فقال : نعم وكرامة ، وأمر له بأربعة آلاف مثقال ذهبا وجارية حسناء ، وقال له إذا أصبحت فادخل عليه فأخرجه أنت بنفسك ، فلما أصبح ركب فدخل السجن ، فأعلمه الحارس أنه قد مات منذ أيام ، فلم نجترىء على أن نخبر الملك للفرق منه وقد علمنا كراهته لموته . فرجع إلى النعمان فقال : إنى قد دخلت عليه وهو حى ! فقال له النعمان ، أيبعث بك الملك إلى فتدخل إليه قبلى ؟ كذبت ! ولكنك أردت الرشوة والخبث ، فتهدده ثم زاده جائزة وأكرمه ، واستوثق منه ألا يخبر كسرى إلا أنه قد مات قبل أن يقدم عليه ، فرجع الرسول إلى كسرى فقال : إنه قد مات قبل أن أدخل عليه .

« إن عديا كان ممن أعينَ به الملك فى نُصحه ولُبّه ، فأصابه مالا بُدَّ منه ، وانقطعت مُدَّته ، وانقضى أجلُه ، ولم يُصَبْ به أحد أشدَّ من مصيبتى ، وأمّا الملِكُ فلم يكن لِيَفقِدَ رجلا إلا جعل الله له منه خَلَفا ، لِما عظَّم الله من ملكه وشأنه ، وقد بلغ ابن له ليس بدونه ، رأيته يصلح لخدمة الملك فسرَّحْته إليه ، فإن رَأَى الملك أن يجعله مكان أبيه فليَفْعَلْ ، وليصرِفْ عمّه عن ذلك إلى عمل آخر » .

فلما قَدِم الغلام على كسرى ، جعله مكان أبيه ، وصرف عمه إلى عمل آخر ، فكان هو الذى يلى المكاتبة عن الملك إلى ملوك العرب فى أمورها ، وفى خواصِّ أمور الملك . (تاريخ الطبرى ٢ : ١٥٠ ، والأغانى ٢ : ٢٧)

٧ — كتاب النعمان بن المنذر إلى كسرى

وروى صاحب العقد الفريد أن النعمان بن المنذر قَدِم على كسرى ، وعنده وفودُ الروم والهند والصين ، فذَكروا من ملوكهم وبلادهم ، فافتخر النعمان بالعرب وفضَّلهم على جميع الأمم ، لايستثنى فارسَ ولا غيرها ، فانبَرَى كسرى يعدِّد مآثرَ الأمم ومَفاخِرها ، ثم تنقَّص العرب ، وهجَّن[(١)] أمرهم وامتهنهم ، فردَّ عليه النعمان مُفَنِّدًا قوله ، مُباهياً بمَناقِب العرب ومحاسنها .

فلما رجع إلى الحِيرة ، وفى نفسه ما فيها مما سمع من كسرى ، بعث إلى بعض وجوه العرب[(٢)] ، فاقتصَّ عليهم مقالاتِ كسرى ، وما ردَّ عليه ، وقال لهم : الرأى أن تسيروا بجماعتكم أيُّها الرَّهْطُ ، وتنطلقوا إلى كسرى ، فإذا دخلتم نَطَقَ كل رجل منكم بما حَضَرَه ليعلم أن العرب على غير ما ظن أو حدَّثَته نفسه ، ثم جَهَّزَهم وكتب معهم كتابا وهو :

---

(١) هجنه : قبحه . (٢) بعث إلى أكثم بن صيفى وحاجب بن زرارة التميميين . وإلى الحرث ابن عباد ، وقيس بن مسعود البكريين . وإلى خالد بن جعفر ، وعلقمة بن علاثة ، وعامر بن الطفيل العامريين . وإلى عمرو بن الشريد السلمى . وإلى عمرو بن معد يكرب الزبيدى . والحرث بن ظالم المرى . وقد أتيت على خطبهم ، وما رد به كسرى عليهم فى كتابى « جمهرة خطب العرب ج ١ : ص ١٥ » .

« أما بعدُ ، فإن الملك أَلْقَى إلىّ من أمر العرب ما قد عَلِمَ ، وأجبْتُه بما قد فهِم ، مما أحببتُ أن يكون منه على عِلْم ، ولا يتلجلج فى نفسه أن أمة من الأمم التى احْتَجَزَتْ دونه بمملكتها ، وحَمَتْ ما يليها بفضل قوتها ، تبلُغها فى شىء من الأمور التى يتعزَّز بها ذوو الحزم والقوة والتدبير والمكِيدة ، وقد أوفدتُ أيها الملك رَهْطًا من العرب ، لهم فضلٌ فى أحسابهم وأنسابهم وعقولهم وآدابهم ، فلْيَسْمع الملك ، وليُغْمِضْ عن جَفاء إن ظهر من مَنْطِقهم ، وليُكْرِمنى بإكرامهم وتعجيل سَراحهم ، وقد نسبْتُهم فى أسفل كتابى هذا إلى عشائرهم » . (العقد الفريد ١ : ١٠٣)

٨ — كتاب عبد المطلب بن هاشم إلى أخواله بيثرب

وروى الطَّبَرى أن هاشم بن عبد مَناف كان شخَصَ فى تجرة له إلى الشام ، فسَلَك طريق المدينة إليها ، فلما قدِمَ المدينة نزل على عَمْرو بن زيد الخَزْرَجى ، من بنى عَدِىّ ابن النجار فخطب إليه ابنته سَلْمَى ، فأنكحه إياها ، وشَرَط عليه ألّا تَلِد ولداً إلا فى أهلها ، ثم مضى هاشم لوِجْهته قبل أن يَبْنِىَ بها ، ثم انصرف راجعًا من الشام ، فبنى بها فى أهلها بيَثْرب فحَمَلَتْ منه ، ثم ارتحل إلى مكة وحَمَلها معه ، فلما أثْقَلَتْ ردّها إلى أهلها ، ومضى إلى الشام فمات بها بغَزَّة ، فولدت له سلمى عبد المطلب — وكان اسمه شَيْبَة — فمكث بيثرب سبع سنين أو ثمانى سنين .

ثم إن عمّه المطَّلِب بن عبد مناف خرج إلى المدينة ليأتى بابن أخيه ، فأقبل به إلى مكة قد أردفه ، فإذا لَقِيه اللّاقى وقال : من هذا وراءك يا مطَّلبُ ؟ قال : عبدٌ لى ، فسمِّى عبد المطلب .

فلما قَدِم مكةَ وقَفه على مِلْك أبيه وسلَّمه إليه ، فعَرَض له عمُّه نَوْفَلُ بن عبد مناف فى رُكْحٍ (١) له ، فاغتصبه إياه ، فمشى عبد المطلب إلى رجالات قومه ، فسألهم النُّصْرةَ عَلَى عمه ، فقالوا : لسنا بداخلين بينك وبين عمك ، فلما رأى ذلك كتب إلى أخوالِه يَصِف لهم حالَ نوفل ، وكتب فى كتابه :

(١) ركح الدار : ساحتها وفناؤها .

أبلِـغْ بنى النَّجَّار إن جِئْتَهُمْ ... أَنِّىَ منهمْ وابنُهُمْ والحَمِيسْ[١]
رأيتُهمْ قوما إذا جئتُهمْ ... هَوُوا لِقائى وأحبُّوا حَسِيسْ[٢]
فإن عمِّى نَوْفلا قد أَبَى ... إلَّا التى يُغْضِى عليها الخَسِيسْ

فخرج أبو أسعد بن عُدَس النجَّارى فى ثمانين راكبًا حتى أتى الأَبْطَحَ[٣] ، فتلقاه عبد المطلب ، وكان نوفل جالسًا فى الحِجْر[٤] فى مشايخ قريش ، فأقبل أبو أسعد حتى وقف على رأسه ، ثم استلَّ سيفه ، ثم قال : وَرَبِّ هذه البَنِيَّة[٥] لَتَرُدَّنَّ على ابن أختنا رُكحه ، أو لأملأنَّ منك السيفَ ، قال : فإنى وربِّ هذه البنية أرُدُّ ركحه ، فأَشْهَدَ عليه من حضر[٦] .
(تاريخ الطبرى ٢ : ١٧٨)

٩ — كتاب عبد المطلب إلى أخواله

وروى الطبرى أيضًا حديثًا فى أمر عبد المطلب وعمه نوفل بن عبد مناف ، قال : كان سبب بَدْء الحِلْف[٧] الذى كان بين بنى هاشم وخُزَاعَة الذى افتتح رسول الله صلى الله عليه وسلم بسببه مكةَ[٨] ، أن نَوْفَلَ بن عبد مناف — وكان آخِر من بقى من بنى عبد مَنَاف — ظَلَمَ عبد المطلب بن هاشم بن عبد مناف على أركاحٍ له — وهى الساحات —

(١) رجل حمس كفرح وحميس وأحمس : شجاع ، وفى الأصل : « والخَميس » وهو تصحيف . « والخميس : الجيش ، لأنه خمس فرق : المقدمة والقلب والميمنة والميسرة والساقة » .

(٢) هويه كرضيه : أحبه والحسيس والحس (بالكسر) الصوت .

(٣) أى أبطح مكة ، والأبطح والبطحاء : بطن الوادى — مسيل واسع فيه دقاق الحصى .

(٤) الحجر : حجر الكعبة ، وهو ما حواه الحطيم المدار بالكعبة من جانب الشمال .

(٥) البنية : الكعبة .

(٦) ورد فى الطبرى بعد ذلك : « قال محمد بن أبى بكر الأنصارى ، فحدثت بهذا الحديث موسى ابن عيسى ، فقال : يا ابن أبى بكر ، هذا شىء ترويه الأنصار تقربا إلينا إذ صير الله الدولة فينا ، عبد المطلب كان أعز فى قومه من أن يحتاج إلى أن يركب بنو النجار من المدينة إليه . قلت : أصلح الله الأمير ، قد احتاج إلى نصر من هم من كان خيراً من عبد المطلب قال : وكان متوكئا فجلس مغضبا وقال : من خير من عبد المطلب؟ قلت : محمد رسول الله صلى الله عليه وسلم ، قال : صدقت وعاد إلى مكانه وقال لبنيه : اكتبوا هذا الحديث من ابن أبى بكر » .

(٧) الحلف : العهد بين القوم ، والصداقة .

(٨) وذلك أن رسول الله صلى الله عليه وسلم لما عقد مع قريش صلح الحديبية (سنة ٦ هـ) كان من شروط الصلح وضع الحرب عن الناس عشر سنين ، وأنه من أحب أن يدخل فى عقد محمد وعهده دخل =

وكانت أم عبد المطلب سلمى بنت عمرو النَّجارية من الخَزْرج ، فتنصَّف[1] عبدُ المطلب عمّه فلم يُنصِفْه ، فكتبَ إلى أخواله :

يا طُولَ لَيْلِي لِأَحزانِي وأَشْغَالِي هل من رسول إلى النَّجَّار أخوالى ؟

يُنْبِي « عَدِيًّا » و « دِيناراً » و « مازِنَها »

و « مالِكا » عِصْمةَ الجيرانِ ، عن حالى

قد كنتُ فيكم ولا أَخشَى ظُلامــةَ ذى

ظُلْمٍ عزيزاً مَنيعاً نَاعمَ البـــالِ[2]

حتى ارتحلتُ إلى قومى وأَزْعَجَنِي عن ذاك « مُطَّلِبٌ » عمِّى بترحالِي

وكنتُ ـ ما كان حياً ـ ناعِمًا جَذِلاً أَمْشِي العِرَضْنَةَ سَحَّاباً لأذيالى[3]

فغاب « مُطَّلِبٌ » فى قَعْرِ مُظْلِمَةٍ وقام نَوْفَلُ كى يَعْدُو على مالى[4]

أَأَنْ رَأَى رجلا غابت عُمُومَتُهُ وغاب أخوالُهُ عنـــه بلا والى

أَنْحَى عليه ولم يحفظ له رَحِمًا ما أَمْنَعَ المَرْءِ بين العَمِّ والخالِ !

فاستنفِرُوا وامْنَعُوا ضَيْمَ ابنِ أُخْتِكُمُ لا تَخذُلوه وما أنتمْ بِخُذَّالِ[5]

ما مِثْلُكُمْ فى بَنِي قحطان قاطبةً حَيٌّ لِجَارٍ وإنعـامٍ وإفضالِ[6]

= فيه، ومن أحب أن يدخل فى عقد قريش وعهدهم دخل فيه، فتواثبت خزاعة، فقالوا: نحن فى عقد محمد وعهده ، وتواثبت بنو بكر فقالوا : نحن فى عقد قريش وعهدهم ، كما سيأتى، وكان بين خزاعة وبكر دماء فى الجاهلية كنت نارها بظهور الإسلام ، فلما كانت الهدنة ، وقف رجل بكرى يتغنى بهجاء رسول الله صلى الله عليه وسلم على مسمع من رجل خزاعى ، فضربه الخزاعى ، فحرك ذلك كامن الأحقاد ، وهب بنو بكر للثأر من أعدائهم ، واستعانوا بأوليائهم من قريش ، فأعانوهم سرا بالعدة والرجال ، ثم قصدوا الى خزاعة وهم آمنون ، فقتلوا منهم ما يربو على العشرين ، فبعثت خزاعة وفدا منهم الى رسول الله ليخبره بما فعل بهم بنو بكر وقريش ، فقال لهم : والله لأمنعنكم مما أمنع منه نفسى، وكان ذلك سبب فتحه مكة .

(١) تنصفه : سأله أن ينصفه .

(٢) الظلامة : ماتطلبه عند الظالم ، وهو اسم ماأخذه منك . (٣) من قولهم : فلان يمشى العرضنة والعرضنى بالقصر : أى فى مشيته بغى من نشاطه . (٤) عدا عليه : ظلمه . منع نوفل من الصرف لضرورة الشعر . (٥) استنفره : دعاه أن ينفر معه، ونفر الحرب كضرب : أسرع إليها.

(٦) قاطبة : جميعاً .

أنتم لِيانٌ لمن لانت عريكته سِلْمٌ لكمْ وسِمَامُ الأبْلَخ العالى[1]

فقَدِم عليه منهم ثمانون راكبا ، فأناخوا بفِناء الكعبة ، فلما رآهم نوفل بن عبد مناف . قال لهم : أنعِمُوا[2] صباحاً ، فقالوا له : لا نعِم صباحُكَ أيها الرجل ! أنصِفْ ابن أختنا من ظلامته ، قال : أفعلُ بالحُبِّ لكم والكرامة ، فرد عليه الأركاحَ وأنصفه ، فانصرفوا عنه إلى بلادهم .

فدعا ذلك عبد المطلب إلى الحِلْف ، فدعا عبد المطلب بُسْرَ بن عمرو ووَرْقاء بن فلان ورجالا من رجالات خُزاعة ، فدخلوا الكعبة وكتبوا كتابا .

(تاريخ الطبرى ج ٢ : ص ١٧٩)

١٠ — كتاب التحالف بين عبد المطلب بن هاشم وبين خزاعة

« باسمك اللهمَّ ، هذا ما تحالَفَ عليه عبد المُطَّلب بن هاشم ورجالاتُ عمرو بن ربيعة من خُزاعةَ[3] : تحالَفُوا على التناصُر والمواساة ، ما بَلَّ بَحْرٌ صُوفَةً[4] ، حِلفًا جامعًا غير مُفرِّق ؛ الأشياخ على الأشياخ ، والأصاغر على الأصاغر ، والشاهد على الغائب ، وتعاهدوا وتعاقدوا أوْكَدَ عَهْدٍ وأوثق عَقْدٍ ، لا يَنْتقِضُ ولا يُنكَث ، ما أشرَقَتْ

---

(١) ليان : إما بفتح اللام مصدر لان كاللين ، فهو على تقدير مضاف أى ذوو لين ، أو بكسر اللام مصدر لاين كالملاينة ، فهو على تقدير مضاف أيضاً ، أو جمع لين بالتشديد كجيد وجياد وعيل وعيال . والعريكة : الطبيعة ، وفلان لين العريكة : سلس الخلق . والسلم : المسالم . أى أنتم ليان لمن هو سلم لكم . وسمام بالكسر (وسموم بالضم) جمع سم مثلث السين ، وهو السم القاتل . والأبلخ : المتكبر ، وصف من البلخ بالتحريك وهو التكبر ، أى وأنتم سموم للمتكبر الطاغى المتجاوز الحد .

(٢) من تحية العرب فى الجاهلية « عم صباحا » بكسر العين ، وفى كتب اللغة « كأنه محذوف من نعم ينعم بكسر العين فيهما ، كما تقول كل من أكل يأكل ، فحذف منه الألف والنون تخفيفا » . ويقولون أيضاً : أنعم الله صباحك ، من النعومة . (٣) خزاعة : حى من الأزد ، وهم بنو عمرو بن ربيعة قيل سموا بهذا الاسم لأنهم لما ساروا مع قومهم من مأرب فانتهوا إلى مكة تخزعوا عنهم (أى تخلفوا) فأقاموا وسار الآخرون إلى الشام . (٤) جاء فى اللسان « وصوف البحر : شىء على شكل هذا الصوف الحيوانى ، واحدته صوفة ، ومن الأبديات قولهم : لا آتيك مَا بَلَّ بحرٌ صُوفة . وحكى اللحيانى : مابل البحر صوفة » والمفهوم من صوف البحر أنه الإسفنج .

شمسٌ على ثَبِير[1] ، وحَنَّ بِفَلَاةٍ بعيرٌ ، وما أقام الأَخْشَبَانِ[2] ، واعتمَرَ بمكة إنسان ، حِلْفَ أَبَدٍ ، لطول أَمَدٍ ، يَزِيده طلوعُ الشمس شَدًّا ، وظلامُ الليل مَدًّا ، وأن عبد المطلب وولده ومن معهم ورجال خزاعة متكافِئون متظاهرون[3] متعاوِنون ، فعلى عبد المطلب النُّصْرَة لهم بمن تابعه على كل طالب ، وعلى خُزاعةَ النُّصْرَة لعبد المطلب وولده ومَن معهم على جميع العرب في شرْق أو غرب ، أو حَزْنٍ[4] أو سَهْلٍ ، وجعلوا اللهَ على ذلك كفيلا ، وكفى بالله جميلا » .

وروى هكذا :

« باسمك اللهم : هذا حِلْفُ عبد المطلب بن هاشم لخزاعةَ إذ قَدِم عليه سَرَوَاتُهُم[5] وأهلُ الرأى منهم ، غائبُهم يُقِرّ بما قاضى عليه شاهدُهم : إن بيننا وبينكم عُهودَ الله وميثاقَه ومالا يُنْسَى أبداً ، اليَدُ واحدة ، والنصر واحد ، ما أشرف ثبير ، وثبت حِرَاءُ[6] بمكانه ، وما بَلَّ بحرٌ صُوفَةً » .

(مفتاح الأفكار ص ٣١)

١١ — كتاب أكثم بن صيفى إلى طيء

وروى أبو الفضل المَيْدَانى فى مجمع الأمثال أن أكثم بن صَيْفِيّ كتَبَ إلى طيِّئ بوصية ، وهى :

« أوصيكم بتقوى اللهِ وصِلَةِ الرَّحِمِ ، وإياكم ونكاحَ الحَمْقاء ، فإن نكاحها غَرَرٌ[7] ، ووَلَدَها ضَياع ، وعليكم بالخيل فأكرموها ، فإنها حُصُونُ العرب ، ولا تَضَعوا رِقَابَ الإبل فى غير حقِّها ، فإن فيها ثَمَنَ الكريمة[8] ، ورُقُوءَ الدم[9] ، وبألبانها يُتْحَف

---

(١) ثبير : جبل بقرب مكة . والفلاة: البادية . (٢) الأخشبان : جبلا مكة ، أبو قبيس والأحمر .
(٣) تظاهروا : تعاونوا . (٤) الحزن : ما غلظ من الأرض . (٥) السرو بالفتح : المروءة فى شرف ، سرو فهو سرى ، واسم الجمع سراة بالفتح ، وجمعها سروات .
(٦) حراء : جبل بمكة . (٧) الغرر : الخطر ، غرر بنفسه تغريراً: عرضها للهلكة ، والاسم الغرر . (٨) يريدمهرها (٩) رقأ الدم : جف وسكن . والرقوء كصبور : ما يوضع على الدم ليرقئه . والمعنى أنها تعطى فى الديات فتحقن بها الدماء .

الكبير[١] ، ويُغذّى الصغير ، ولو أنّ الإبل كُلِّفتِ الطَّحْنَ لَطَحَنَتْ ، ولن يَهْلِكَ امرؤ عَرَفَ قَدْرَه ، والعُدْمُ[٢] عُدْمُ العقل لا عدم المال ، ولَرَجلٌ خير من ألف رجل ، ومن عَتَب على الدهر طالت معتَبَتُهُ ، ومن رَضِيَ بالقَسْم[٣] طَابت معيشتُهُ ، وآفةُ الرأى الهوى ، والعادةُ أَمْلَكُ[٤] ، والحاجة مع المحبة خير من البغض مع الغِنَى ، والدنيا دُوَل : فما كان لك أتاك على ضعفك ، وما كان عليك لم تَدفَعه بقوتك ، والحسد داء ليس له دواء ، والشماتةُ تُعقِبُ ، ومن يَرَ يوما يُرَ به . قَبْلَ الرِّماء تُملأُ الكَنائِن[٥] . الندامة مع السفاهة . دِعامة العقل الحِلْمُ . خير الأمور مَغَبَّةً الصبْرُ . بقاء المودَّة عَدْلُ[٦] التعاهُد . من يَزُرْ غِبًّا يزدَدْ حبًّا . التغرير مِفتاح البؤس . من التوانى والعجز نُتِجَتِ[٧] الهَلَكَةُ . لكل شىء ضَرَاوةٌ[٨] ، فضَرِّ لسانك بالخير . عِيُّ الصَّمْت أحسن من عِيِّ المنطق . الحزم حِفظُ ما كُلِّفتَ وتركُ ما كُفِيتَ . كثيرُ التَّنَصُّح يَهْجُم على كثير الظِّنَّة[٩] . من أَلحَفَ[١٠] فى المسألة ثَقُل . من سأل فوق قدره استحق الحِرْمَانَ . الرِّفقُ يُمْنٌ ، والخُرْق شؤم . خير السَّخاء ما وافق الحاجة . خير العفو ما كان بعد القدرة » . (مجمع الأمثال للميدانى ج ٢ : ص : ٨٧)

---

(١) التحفة: البر واللطف (بالتحريك) والطرفة (بالضم) وقد أتحفته تحفة .

(٢) العدم بالضم وبضمتين وبالتحريك : الفقدان ، وغلب على فقدان المال.

(٣) القسم : القدر . (٤) وفى رواية : « العادة أملك من الأدب » .

(٥) الرماء مصدر رامى كالمراماة . والكنائن جمع كنانة (بالكسر) ، وهى جعبة (بالفتح) السهام ، وهو مثل معناه : تؤخذ للأمر أهبته قبل وقوعه . ومثله قولهم : « قبل الرمى يراش السهم » أى يوضع له الريش . (٦) العدل : الاستقامة . أى بقاء المودة فى استقامة التعاهد والحرص على سلامة شروطه . (٧) ويروى « نتجت الفاقة » . (٨) يقال : ضرى الكلب بالصيد كفرح ضراوة : أى تعود ، وكلب ضار . وأضراه صاحبه : عوده . وأضراه به : أغراه . وضراه أيضاً تضرية . (٩) أى التهمة . (١٠) ألح .

١٢ — كتاب أكثم بن صيفي إلى النعمان بن خميصة البارقي

وروى أبو هلال العسكرى فى جمهرة الأمثال قال :

كتب النعمان بن خَمِيصةَ البارقىّ إلى أكثم بن صيفى (١) : « مثل لنا مثالا نأخذ به » ، فقال :

« قَدْ حَلَبْتُ الدهرَ أَشْطُرَه (٢) فعرفتُ حُلوَه ومُرَّه ، عينٌ عَرَفَت فَذَرَفَت (٣) ، إن أمَامِى مالا أُسَامِى (٤) ، رُبَّ سامعٍ بخبرى لم يسمع بعُذْرى ، كلُّ زمان لِمَنْ فيه ، فى كل يوم ما يُكْرَه ، كل ذى نُصْرَةٍ سيُخْذَل ، تباروا فإن البِرَّ يَنْمِى (٥) عليه العَدَدُ ، كُفُّوا ألسنتكم ، فإن مَقْتَلَ الرجل بين فكّيه ، إن قول الحق لَمْ يَدَعْ لى صديقا ، الصدق مَنْجاة ، لاينفع مع الجَزَع التَّبَقِّى ، ولاينفع مما هو واقعٌ التوقِّى ، ستُسَاقُ إلى ما أنت لاقٍ ، فى طلب المَعَالِى يكون العَنَاء (٦) ، والاقتصاد فى السعى أبقى للجَمَام (٧) من لم يَأْسَ على ما فاته ودَّعَ بَدَنَهُ ، ومن قَنِعَ بما هو فيه قَرَّتْ عينه ، التقدُّم قبل التندُّم (٨) ، أُصبحُ عند رأس الأمر أَحَبُّ إلَىَّ من أن أُصْبِحَ عند ذنبه . لم يَهْلِكْ من مالك ما وَعَظَك . ويلٌ لِعَالِمِ أمرٍ مِن جاهِلِهِ ، يتشابه الأمر إذا أقبل فإذا أدبرَ

---

(١) هكذا روى أبو هلال . وذكر الميدانى أن أكثم وصى بهذه الوصية بنيه حين جمعهم . ورواية أبى هلال أطول بكثير من رواية الميدانى ، وقد جمعت بين الروايتين ، وليتنبه إلى أنه قد ورد فى هذا الكتاب بعض ماورد فى الكتاب السالف . (٢) الناقة شطران : قادمان وآخران ، فبكل خلفين من أخلافها شطر بالفتح (والخلف بالكسر لها كالضرع للبقرة) وأشطره بدل من الدهر . والمعنى أنه اختبر شطرى الدهر خيره وشره ، فعرف مافيه ، وهو مثل يضرب فيمن جرب الدهر .

(٣) ذرفت عينه كضرب : سال دمعها ، وذرفت العين دمعها : أسالته ، وهو مثل يضرب لمن رأى الأمر فعرف حقيقته . (٤) ساماه : باراه فى السمو . (٥) يزيد ، وفى مجمع الأمثال « يبقى »

(٦) فى جمهرة الأمثال « يكون العز » . (٧) أى أبقى للقوة ، من جم الفرس جاما (بالفتح) : ترك الضراب فتجمع ماؤه ، وجم الماء يجم بضم الجيم وكسرها جموما : كثر واجتمع ، والبئر : تراجع ماؤها ، والجمام بالفتح أيضاً : الراحة . ولم يأس : لم يحزن .

(٨) أى فكر فى التقدم قبل أن تندم .

عرَفه الـكيِّسُ والأحمق . الوحشة ذَهَابُ الأعلام[١] . البَطَر عند الرخاء حُمْقٌ ، والعجز عند البَلاء أفَنٌ[٢] . لا تغضبوا من اليسير فربَّما جَنَى الـكثيرَ . لا تُجيبوا فيما لم تُسْأَلوا عنه ، ولا تضحكوا مما لا يُضْحَك منه . حِيلةُ مَن لا حِيلةَ لَهُ الصَّبْرُ ، كونوا جميعاً فإن الجَمْعَ غالب ، تَثَبَّتُوا ولا تُسَارِعوا فإنّ أحزَم الفريقين الرَّكين . رُبَّ عَجَلةٍ تَهَبُ رَيْثاً[٣] . ادَّرِعُوا الليل واتَّخِذُوه جَمَلا ، فإن الليل أخْفَى للوَيْل ، ولاجماعةَ لمن اختلف. تناءَوا فى الديار ولا تباغَضوا ، فإنه مَن يجتمعْ يتقعقعْ[٤] عَمَدُه . ألزِمُوا النساءَ المهابةَ[٥] ، نِعْمَ لَهْوُ الغرَّةِ المِغْزَل . إن تَعِشْ تَرَ مالم تَرَهُ ، قد أقرَّ صامتٌ ، المكثارُ كحاطب[٦] لَيْل ، من أكثر أسْقَطَ[٧] . لا تجعلوا سِرًّا إلى أمَةٍ . لا تفرَّقُوا فى القبائل ، فإن الغريب بكل مكان مظلومٌ . عاقِدُوا الثَّرْوَةَ[٨] ، وإياكم والوشائظَ[٩] ، فإن مع القلة الذِّلَّةَ ، لو سُئِلَتِ العاريةُ قالت : أبغى لأهلى ذُلاًّ . الرسول مُبلِّغ غير مَلُوم . من فَسَدَتْ بطانته غَصَّ بالمَاء . أساء سَمْعًا فأساء جَابةً[١٠] ، الدَّالُّ على الخير كفاعله . إن المسألة من أضعف المَسْكَنة ، قد تجوع الحرَّة ولا تأكلُ بِثَدْيَيْهَا[١١] ، لم يَجُرْ سالكُ القصْدِ ،

---

(١) الأعلام جمع علم بالتحريك ، وهو سيد القوم . (٢) الأفن : ضعف الرأى والعقل . وفى الأصل « أمن » : وهو تحريف . (٣) الركين : الرزين . والريث : الإبطاء .

(٤) تقعقع : اضطرب وتحرك . وفى الأصل : « غنده » بدل « عمده » ، وهو تحريف ، وهذا مثل معناه : لابد من الافتراق بعد الاجتماع . أو معناه : إذا اجتمع القوم وتقاربوا وقع بينهم الشر فتفرقوا ، أو من غبط بكثرة العدد واتساق الأمر فهو بعرض الزوال والانتشار. (٥) أى أن يهبنكم ويوقرنكم وفى الأصل : « المهانة » وهو تصحيف . والغرة : الشريفة . (٦) الحاطب : الذى يجمع الحطب ، وهو حاطب ليل : أى يخلط فى كلامه . (٧) أسقط كلمة ، وأسقط فى كلمة : أخطأ .

(٨) عاقدوا : حالفوا . والثروة : كثرة العدد من الناس . (٩) يقال : هم وشيظة فى قومهم : أى حشو فيهم. (١٠) جابة أى بمعنى إجابة: اسم وضع موضع المصدر ومثلها الطاعة والطاقة والغارة والعارة قال المفضل : أول من قال ذلك سهيل بن عمرو ، وكان تزوج صفية بنت أبى جهل بن أبى هشام ، فولدت له أنس بن سهيل ، فخرج معه ذات يوم ، فوقف بحزورة مكة (والحزورة كقسورة : الرابية الصغيرة) . فأقبل الأخنس بن شريق الثقفى . فقال ، من هذا ؟ قال سهيل ابنى . قال الأخنس : حياك الله يافتى ! قال لا ، والله ما أمى فى البيت ، انطلقت إلى أم حنظلة تطحن دقيقاً . فقال أبوه : « أساء سمعا فأساء جابة » : فأرسلها مثلا .

(١١) أى لاتعيش بسبب ثدييها وبما يغلان عليها من أجرة الإرضاع . يضرب فى صيانة الرجل نفسه عن خسيس المكاسب . وذكروا أن أول من قاله الحارث بن سليل الأسدى ، وكان شيخاً كبيراً ، وكان =

ولم يَعْمَ قاصِدُ الحقِّ . مَن شدَّد نَفَّرَ ، ومن تَرَاخَى تألَّفَ . الشَّرَفُ التغافلُ . أوْفَى القول أوجَزُهُ . أصوبُ الأمور تَرْكُ الفُضُول . التغريرُ مفتاح البؤس . التوانى والعجز يُنْتِجان الهَلَكَةَ . لكل شىء ضرَاوة . أحوجُ الناس إلى الغنى من لايُصْلِحه إلاّ الغنى وهم الملوك . حُبُّ المدح رأس الضَّياع . رِضا الناس غاية لا تُبْلَغ . لا تكرَهْ سُخطَ مَن رِضاه الجَوْرُ . مُعالجة العَفافِ مَشقَّةٌ فتعوَّدْ بالصبر . اقصُرْ لسانك على الخير ، وأخِّر الغَضَب ، فإن القدرة من ورائك . مَن قَدَر أزمع . أمَرُّ أعمال المقتدرين الانتقام ، جازِ بالحسنة ولا تكافِئْ بالسيئة ، أغنَى الناس عن الحِقْد مَن عظُم عن المجازاة ، مَن حسَدَ مَن دونه قَلّ عُذْرُه . من جعل لحسن الظن نصيباً روَّح عن قلبه . عِيُّ الصمت أحْمَدُ من عِيِّ المنطق . الناس رجلان : محترِسٌ ومحترَسٌ منه . كثير النُّصْح يَهْجُم على كثير الظِّنَّة . من ألحَّ فى المسألة أبْرَمَ[1] . خير السخاء ما وافقَ الحاجةَ . الصمتُ يُكسِبُ المحبة . لن يغلِبَ الكذب شيئاً إلا غَلَبَ عليه الصِّدْق ، القلب قد يُتَّهَمُ وإن صدق اللسانُ . الانقباضُ عن الناس مَكْسَبَةٌ للعداوة ، وتقريبُهم مكسبةٌ لِقَرِين السوء ، فكن

= حليفا لعلقمة بن خصفة الطائى، فزاره فنظر إلى ابنته الزباء، وكانت من أجمل أهل دهرها ، فأعجب بها فقال له : أتيتك خاطباً ، وقد ينكح الخاطب ،ويدرك الطالب ،ويمنح الراغب . فقال له علقمة : أنت كفء كريم ، يقبل منك الصفو ،ويؤخذ منك العفو ،فأقم ننظر فى أمرك، ثم انكفأ إلى أمها .فقال : إن الحرث ابن سليل سيد قومه حسباً ومنصباً وبيتاً ، وقد خطب إلينا الزباء ، فلا ينصرفن إلا بحاجته . فقالت المرأة لابنتها : أى الرجال أحب إليك ؟ الكهل الجحجاح (أى السيد) الواصل المناح ، أم الفتى الوضاح ؟قالت لا ، بل الفتى الوضاح ، قالت : إن الفتى يغيرك ،وإن الشيخ يميرك ؛وليس الكهل الفاضل ، الكثير النائل، كالحديث السن ، الكثير المن ، قالت : يأمتاه ، إن الفتاة تحب الفتى كحب الرعاء أنيق الكلا ، قالت :أى بنية ، إن الفتى شديد الحجاب ، كثير العتاب ، قالت: إن الشيخ يبلى شبابى ، ويدنس ثيابى ، ويشمت بى أترابى ، ، فلم تزل أمها بها حتى غلبتها على رأيها ، فتزوجها الحرث على مائة وخمسين من الإبل وخادم وألف درهم فابتنى بها ، ثم رحل بها إلى قومه ، فبينا هو ذات يوم جالس بفناء قومه وهى إلى جانبه ، إذ أقبل إليه شباب من بنى أسد يعتلجون :(أى يتصارعون و يتقاتلون) فتنفست الصعداء،ثم أرخت عينيها بالبكاء. فقال لها : مايبكيك ؟ قالت : مالى وللشيوخ ، الناهضين كالفروخ ! فقال لها : ثكلتك أمك ! تجوع الحرة ولا تأكل بثدييها ، أما وأبيك لرب غارة شهدتها ، وسبية أردفتها ، وخمرة شربتها ، فالحق بأهلك فلا حاجة لى فيك .

(١) أبرمه : أضجره وأمله .

من الناس بين القرب والبعد ، فإن خير الأمور أوساطها . فُسُولة[1] الوزراء أضرُّ من بغض الأعداء . خير القُرَناء المرأة الصالحة . وعند الخوف حُسْنُ العمل ، من لم يكن له من نفسه زاجر لم يكن له من غيره واعظ ، وتمكّن منه عدوُّه على أسوإ عمله . لن يَهْلِكَ امرؤ حتى يَمَلَّ[2] الناس عَتِيد فعله ، ويشتد على قومه ، ويُعْجَب بما ظهر من مروءته ، ويغتر بقوته ، والأمر يأتيه من فوقه . ليس المُخْتال فى حسن الثناء نصيبٌ ، لا نَماءَ مع العدم ، إنه من أتى المكروه إلى أحد يدأ بنفسه ، العِيُّ أن تتكلم فوق ما تَسُدُّ به حاجتَك . لاينبغى لعاقل أن يثق بإخاءِ من تضطره إلى إخائه حاجة . أقلُّ الناس راحةً الحَقُودُ ، من تَعَمَّدَ الذَّنْبَ لا تَحِلُّ رحمته دون عقوبة ، فإن الأدب رِفق والرفق يُمْنٌ »

(جمهرة الأمثال ١ : ٣٢٠ ، ومجمع الأمثال ٢ : ١٤٥)

(١) فسل ككرم وعلم فسولة ، فهو فسل كضخم : أى رذل لامروءة له ، والوزراء جمع وزير ، وهو النصير والظهير . (٢) فى الأصل : « يملك » . وأرى صوابه : « يمل » .

الرسائل في عصر صدر الإسلام

كتب سيدنا ومولانا محمد صلى الله عليه وسلم، وما يتصل بها

---

١ — كتاب رسول الله صلى الله عليه وسلم

بين المهاجرين والأنصار واليهود بالمدينة

لما قرَّ رسولُ اللهِ صلى الله عليه وسلم بالمدينة ، كتب كتابا بين المهاجرين والأنصار وَادَعَ فيهِ اليهودَ وعاهدهم ، وأقرَّهم على دينهم وأموالهم ، وشرط عليهم واشترط لهم ، وهو :

« بسم الله الرحمن الرحيم : هذا كتاب من محمد النبي بين المؤمنين والمسلمين من قُرَيش ويَثْرِب ومن تَبِعهم فلَحِق بهم وجاهَدَ معهم ، أنهم أُمَّة واحدة من دون الناس، المهاجرون من قريش على رِبَاعَتِهم يتعاقلون[1] بينهم ، وهم يَفْدُون عانِيَهم بالمعروف

---

(١) رباعة الرجل : شأنه وحاله التي هو رابع عليها، أي ثابت مقيم ، ويقال : تركناهم على رباعتهم بفتح الراء وكسرها ، ورباعهم بفتحها ، وربعاتهم بالتحريك ، وربعتهم ككتف ، وربعتهم كعنبة : أى على حالة حسنة من استقامتهم وأمرهم الأول ، لا يكون فى غير حسن الحال ، والمعنى : إنهم على أمرهم الذى كانوا عليه . والتعاقل : تفاعل من العقل (وعقل القتيل عقلا : أعطى ديته) والمعاقل : جمع معقلة (بضم =

والقِسْط[٢] بين المؤمنين. وبنو عوف على رباعتهم يتعاقلون معاقِلَهم الأولى ، وكل طائفة تَفْدِي عانيَها بالمعروف والقِسْط بين المؤمنين . وبنو ساعِدَةَ على رَباعتهم يتعاقلون معاقلهم الأولى ، وكل طائفة منهم تَفْدِي عانيَها بالمعروف والقسط بين المؤمنين . وبنو الحْرث على رباعتهم يتعاقلون معاقلهم الأولى ، وكل طائفة تَفْدِي عانيها بالمعروف والقسط بين المؤمنين . وبنو جُشَم على رباعتهم يتعاقلون معاقلهم الأولى ، وكل طائفة منهم تَفْدِي عانيَها بالمعروف والقسط بين المؤمنين . وبنو النَّجّار على رباعتهم يتعاقلون معاقلهم الأولى ، وكل طائفة منهم تَفْدِي عانيها بالمعروف والقسط بين المؤمنين . وبنو عمرو بن عوف على رباعتهم يتعاقلون معاقلهم الأولى ، وكل طائفة تَفْدِي عانيها بالمعروف والقسط بين المؤمنين. وبنو النَّبِيتِ على رباعتهم يتعاقلون مَعَاقِلهم الأولى ، وكل طائفة تَفْدِي عانيها بالمعروف والقسط بين المؤمنين . وبنو الأَوْسِ على رباعتهم يتعاقلون معاقلهم الأولى ، وكل طائفة منهم تَفْدِي عانيها بالمعروف والقسط بين المؤمنين.

وأن المؤمنين لا يتركون مُفْرَحًا[٣] بينهم أن يُعطُوه بالمعروف فى فِداء أو عَقْل ، ولا يحالِفُ مؤمن مَوْلَى مؤمنٍ دونَه، وأن المؤمنين المتّقين على من بَغَى منهم ، أو ابتغى دَسِيسة ظلم ، أو إثمٍ ، أو عُدْوانٍ ، أو فسادٍ بين المؤمنين ، وأن أيديَهم عليه جميعاً ، ولو كان ولد أحدهم، ولا يَقْتُلُ مؤمن مؤمناً فى كافر، ولا يُنْصَر كافر على مؤمن ، وأن ذمة الله واحدة . يُجير[١] عليهم أدناهم ، وأن المؤمنين بعضهم مَوالى بعض دون الناس .

= القاف) وهى الدية : ومعنى يتعاقلون معاقلهم الأولى : أى يكونون على ما كانوا عليه فى الجاهلية من أخذ الديات وإعطائها ، أو على مراتب آبائهم ، وأصله من ذلك .

(٢) العانى : الأسير . والقسط: العدل . (٣) المفرح : الذى قد أفرحه الدين والغرم : أى فدحه وأثقله ، ولا يجد قضاؤه (ومعنى أفرحه هنا : سلبه الفرح) ويروى : « مفرجا » بالجيم . والمفرج : هو الرجل يكون فى القوم من غيرهم فيلزمهم أن يعقلوا عنه. وقيل: هو المثقل بحق دية أو فداء أو غرم . وقيل : أن يسلم الرجل ولا يوالى أحداً ، فإذا جنى جناية كانت جنايته على بيت المال ، لأنه لا عاقلة له . وقيل : هو الذى لا مال له . وقيل : هو الذى لا عشيرة له. وقيل: هو القتيل يوجد فى فلاة من الأرض ، فهو يودى من بيت المال ولا يبطل دمه ، وكان الأصمعى يقول هو مفرح بالحاء وينكر قولهم مفرج بالجيم .

(١) أى إذا أجار واحد من المسلمين حر أو عبد أو امرأة واحداً أو جماعة من الكفار أو خفرهم وأمنهم جاز ذلك على جميع المسلمين ، لا ينقض عليه جواره وأمانه وفى الأصل : « يخير عليهم » وهو تصحيف.

وأنه من تَبِعنَا من يَهودَ(١) ، فإن له النصر وَالأُسْوة(٢) غير مظلومين ، ولامتناصَر عليهم ، وأنّ سِلْمَ(٣) المؤمنين واحدة ، لا يسالِمُ مؤمن دون مؤمن فى قتال فى سبيل الله إلا على سَواء(٤) وَعَدْل بينهم ، وأن كل غازية غزَتْ معنا يَعقُبُ بعضُها بعضاً(٥) ، وأن المؤمنين يُبىء(٦) بعضهم على بعض بما نال دماءهم فى سبيل الله، وأن المؤمنين المتقين على أحسن هَدْيٍ وأقومه ، وأنه لا يُجير مشركٌ مالا لقريش ، ولا نفْسًا ، ولا يحول دونه على مؤمن ، وأنه من اعتبَط(٧) مؤمناً قَتْلاً عن بَيِّنَةٍ فإنه قَوَدٌ(٨) به إلى أن يَرْضَى وَلِيُّ المقتول ، وأن المؤمنين عليه كافّةً ، ولا يحِلّ لهم إلا قيامٌ عليه ، وأنه لا يَحِلّ لمؤمن أقرّ بما فى هذه الصحيفة ، وآمَنَ بالله واليوم الآخر أن يَنْصُر مُحْدِثاً(٩) وَلا يؤْوِيه ، وَأنه مَنْ نَصَره أو آوَاه ، فإن عليه لعنةَ الله وَغَضَبه يوم القيامة ، وَلا يؤخذ منه صَرْف وَلا عدْل(١٠) ، وَأنكم مهما اختلفتم فيه من شىء ، فإن مَرَدَّهُ إلَى الله عز وجل ، وَإلى محمد .

---

(١) يقال : « يهود » . بدون ألف ولام ، وهو اسم للقبيلة وعليه قول الشاعر : « أولئك أولى من يهود بمدحة » . وقالوا : « اليهود » فأدخلوا الألف واللام فيها على إرادة النسب يريدون اليهوديين . (٢) الأسوة بالضم والكسر . القدوة : ويقال : القوم أسوة فى هذا الأمر : أى حالهم فيه واحدة . (٣) السلم بكسر السين وفتحها : الصلح ويؤنث ، والمعنى : لايصالح واحد دون أصحابه، وإنما يقع الصلح بينهم، وبين عدوهم باجتماع ملئهم على ذلك .

(٤) السواء : العدل والنصفة كالسوية ، ومنه قوله تعالى : « قُلْ يَاأَهْلَ الكِتَابِ تَعَالَوْا إلَى كَلِمَةٍ سَوَاءٍ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ » أى عدل . (٥) أى يكون الغزو بينهم نوبا ، فإذا خرجت طائفة ثم عادت لم تكلف أن تعود ثانية حتى تعقبها أخرى غيرها .

(٦) أباءه به : سواه به. من البواء بالفتح وهو السواء والتكافؤ . يقال القوم بواء : أى سواء وما فلان ببواء لفلان : أى ما هو بكفء له .

(٧) أى قتله بلا جناية كانت منه ولاجريرة توجب قتله ، وأصله من اعتبط الذبيحة إذا نحرها من غير داء ولا كسر ، وهى سمينة فتية . (٨) القود : القصاص أى فإن القاتل يقاد به ويقتل .

(٩) أى أن ينصر جانيا ويجيره من خصمه ويحول بينه وبين أن يقتص منه .

(١٠) الصرف : التوبة . والعدل : الفدية . وقيل الصرف : القيمة . والعدل : المثل ، وأصله فى الفدية. يقال: لم يقبلوا منهم صرفا ولا عدلا ، أى لم يأخذوا منهم دية ، ولم يقتلوا بقتيلهم رجلا واحداً : أى طلبوا منهم أكثر من ذلك، ثم جعل بعد فى كل شىء حتى صار مثلا فيمن لم يؤخذ منه الشىء الذى يجب عليه وألزم أكثر منه .

وأن اليهود يُنفِقون مع المؤمنين ما داموا محاربين ، وأن يهود بنى عوف أمّة مع المؤمنين ، لليهود دينُهم ، وللمسلمين دينُهم ، موَاليهم وأنفسُهم ، إلا من ظَلَمَ وأَثِمَ ، فإنه لايُوتِـغ[1] إلا نفسَه وأهل بيته ، وأن لِيَهُودِ بنى النجار مثلَ ما ليهود بنى عوف ، وأن لِيَهود بنى الحرث مثلَ ما ليهود بنى عوف ، وأن ليهود بنى ساعدة مثلَ ما ليهود بنى عوف ، وأن ليهود بنى جُشَم مثل ما ليهود بنى عوف ، وأن ليهود بنى الأَوْس مثل ما ليهود بنى عوف ، وأن ليهود بنى ثَعْلَبَة مثلَ ما ليهود بنى عوف ، إلّا من ظَلَمَ وأَثِمَ فإنه لايُوتِـغ إلا نفسه وأهلَ بيته ، وأن جَفْنَةَ بَطْنٌ من ثعلبة كأنفسهم ، وأن لبنى الشطنة مثل ما ليهود بنى عوف ، وأن البِرَّ[2] دونَ الإثم ، وأن مَوالِىَ ثعلبة كأنفسهم، وأن بِطانة يهود كأنفسهم ، وأنه لايخرج منهم أحد إلا بإذن محمد ، وأنه لا ينحجز على ثأرجرح ، وأنه من فَتَكَ فبنفسه فتَكَ وأهلِ بيته إلا من ظَلِم، وأن الله على أَبَرِّ هذا[3] ، وأن على اليهود نَفَقَتَهم ، وعلى المسلمين نفقتهم ، وأن بينهم النصر على من حارب أهل هذه الصحيفة ، وأن بينهم النصح والنصيحة ، والبرّ دون الإثم ، وأنه لم يأثم امرؤ بِحَليفه وأن النصر للمظلوم ، وأن اليهود ينفقون مع المؤمنين ماداموا محاربين، وأن يثرب حرامٌ جَوْفُها لأهل هذه الصحيفة[4] وأن الجار كالنفس غير مُضَارٍّ[5] ، ولا آثم ، وأنه لاتُجار حُرْمَةٌ إلا بإذن أهلها .

وأنه ما كان بين أهل هذه الصحيفة من حَدَث أو اشتجار[6] يُخاف فسادُه ، فإن مَرَدَّه إلى الله عز وجل ، وإلى محمد رسول الله ، وأن الله على أَتْقى ما فى هذه الصحيفة وأَبَرِّه ، وأنه لا تُجار قريش ولا مَن نَصَرَها ، وأن بينهم النَّصْرَ على من دَهِمَ يَثْرِبَ ، وإذا دُعُوا إلى صلح يصالحونه ويلبسونه ، فإنهم يصالحونه ويلبسونه ، وأنهم إذا دُعُوا

(١) أوتغه : أهلكه ، وألقاه فى بلية .

(٢) أى أن البر والوفاء ينبغى أن يكون حاجزا عن الإثم . (٣) أى أن الله وحزبه المؤمنين على الرضا به . (٤) أى حرم لهم لايحل انتهاكه . (٥) ضاره ضراراً ومضارة : ضره . والحرمة : مالا يحل انتهاكه . (٦) الاشتجار : التخالف والتنازع .

إلى مثل ذلك فإنه لهم على المؤمنين إلا من حارب فى الدين ، على كل أناس حِصَّتهم مِن جانبهم الذى قِبَلَهم ، وأن يَهُودَ الأوس مواليهم وأنفسهم على مثل ما لأهل هذه الصحيفة ، مع البرّ الحسن من أهْلِ هذه الصحيفة ، وأن البرَّ دون الإثم ، لا يكسِبُ كاسِبٌ إلا على نفسه ، وأن الله على أصدق ما فى هذه الصحيفة وأَبَرّه ، وأنه لا يَحُول هذا الكتاب دون ظالم وآثم ، وأنه من خرج آمن ، ومَن قعد آمن بالمدينة ، إلا من ظَلَم أو أثِم ، وأن الله جارٌ لمن بَرَّ واتقى ، ومحمد رسول الله[١] » .

(سيرة ابن هشام ١ : ٣٠١)

٢ ـ كتاب الصلح بينه صلى الله عليه وسلم وبين قريش عام الحديبية

ولما صَدَّت قُرَيْشٌ رسولَ الله صلى الله عليه وسلم عن زيارة البيت الحرام عامَ الحُدَيْبِيَةِ[٢] ـ سنة ستٍّ للهجرة ـ وكان بينه وبينهم ما كان[٣] ، بعثوا إليه سُهَيْلَ بن عَمْرو فى طلب الصلح ، فدعا صلى الله عليه وسلم عليَّ بن أبى طالب رضى الله عنه فقال : اكتب : « بسم الله الرحمن الرحيم » فقال سهيل : لا أعرف هذا[٤] ، ولكن

(١) وجاء فى الروض الأنف للسهيلى شرح السيرة النبوية لابن هشام : « وقال أبو عبيد فى كتاب الأموال: إنما كتب رسول الله صلى الله عليه وسلم هذا الكتاب قبل أن تفرض الجزية ، وإذ كان الإسلام ضعيفا ، قال : وكان اليهود إذ ذاك نصيب فى المغنم إذا قاتلوا مع المسلمين كما شرط عليهم فى هـذا الكتاب النفقة معهم فى الحروب » . (٢) الحديبية: بئر بقرب مكة على طريق جدة ، ثم أطلق على الموضع ، وكان عليه الصلاة والسلام قد نزل بها حين قصد إلى مكة لزيارة البيت سنة ست هجرية .

(٣) بعث صلى الله عليه وسلم عثمان بن عفان رضى الله عنه إلى قريش يخبرهم أنه لم يأت لحرب ، وإنما جاء زائراً لهذا البيت معظما لحرمته ، فانطلق عثمان حتى أتى أبا سفيان وعظماء قريش ، فبلغهم ما أرسل به ، فقالوا له : إن شئت أن تطوف بالبيت فطف به . فقال : ما كنت لأفعل حتى يطوف به رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فاحتبسته قريش عندها ، فبلغ رسول الله والمسلمين أن عثمان قد قتل . فقال عليه الصلاة والسلام: لا نبرح حتى نناجز القوم، ودعا الناس إلى البيعة على قتال قريش، فكانت بيعة الرضوان تحت الشجرة . وذلك قوله تعالى: « لَقَدْ رَضِيَ اللهُ عَنِ الْمُؤْمِنِينَ إِذْ يُبَايِعُونَكَ تَحْتَ الشَّجَرَةِ » ولما علمت قريش بهذه البيعة خافوا وجنحوا إلى الصلح . (٤) وفى صحيح البخارى : « أما الرحمن فوالله ما أدرى ما هى ؟ » .

اكتب « باسمك اللهمَّ[1] » كما كنت تكتب ، فقال المسلمون : والله لانكتبُ إلا بسم الله الرحمن الرحيم ، فقال النبي صلى الله عليه وسلم اكتب : « باسمك اللهمَّ » فكتبها ، ثم قال اكتب : « هذا ما صالَحَ عليه محمدٌ رسول الله سُهَيْلَ بن عمرو » فقال سهيل : والله لو كنا نعلم أنك رسول الله ما صَدَدْناك عن البيت ولا قاتلناك ، ولكن اكتب « محمد بن عبد الله » فقال صلى الله عليه وسلم : والله إنى لَرسول الله وإن كَذَّبتمونى ، ثم قال لعلىّ كرم الله وجهه : امحُ رسول الله ، فقال : والله لا أَمْحُوك أبدا ، فقال : أرِنِيه ، فأراه إياه ، فمحاه بيده الشريفة ، وقال : اكتب :

« هذا ما صالحَ عليه محمدُ بنُ عبد الله سُهَيْلَ بنَ عمرو : اصطلحا على وضع الحرب عن الناس عَشْرَ سنين ، يأمَن فيهن الناسُ ، ويكُفُّ بَعْضُهُم عن بعض ، على أنه مَن أتَى محمداً من قريشٍ بغير إذن وَلِيِّه رَدَّه عليهم ، ومن جاء قريشاً ممن مع محمدلم يَرُدّوه عليه ، وأنَّ بيننا عَيْبَةً مكفوفة[2] وأنه لا إسْلالَ ولا إغلال[3] ، وأنه من أحبَّ أن يدخل

---

(١) قدمنا أن قريشاً كانت قبل البعثة تكتب فى أول كتبها : «باسمك اللهم» . وجاء فى السيرة الحلبية أنه عليه الصلاة والسلام كتبها فى أربعة كتب. ج ٢ : ص ١٤٣ . وجاء فى صبح الأعشى . ج ٦ ص ٢١٩ . «روى محمد بن سعد فى طبقاته أن رسول الله صلى الله عليه وسلم كان يكتب كما تكتب قريش: «باسمك اللهم». حتى نزل عليه : « وَقَالَ ارْكَبُوا فِيهَا بِسْمِ اللهِ مَجْرَاهَا وَمُرْسَاهَا » فكتب : « باسم الله » . حتى نزل : « قُلِ ادْعُوا اللهَ أَوِ ادْعُوا الرَّحْمٰنَ » . فكتب : « بسم الله الرحمن » . حتى نزل : « إِنَّهُ مِنْ سُلَيْمَانَ وَإِنَّهُ بِسْمِ اللهِ الرَّحْمٰنِ الرَّحِيمِ » . فكتب : « بِسْمِ اللهِ الرَّحْمٰنِ الرَّحِيمِ » وكذا ورد فى السيرة الحلبية .

(٢) العيبة فى الأصل : زبيل من أدم ، وما يجعل فيه الثياب والجمع عياب بالكسر ، وعيبة مكفوفة : مشرجة مشدودة على ما فيها ، والعرب تشبه الصدور التى فيها القلوب بالعياب التى تشرج على حر الثياب وفاخر المتاع ، فجعل عليه الصلاة والسلام العياب المشرجة على ما فيها مثلا للقلوب طويت على ماتعاقدوا عليه ، مثل بها الذمة المحفوظة التى لاتنكث . أو معناه أن الشر يكون مكفوفا بينهم كما تكف العياب إذا أشرجت على مافيها من المتاع ، كذلك الدخول التى كانت بينهم قد اصطلحوا على أن لاينشروها، بل يتكافون عنها كأنهم قد جعلوها فى وعاء وأشرجوا عليها . (٣) لا إسلال: أى لاسرقة. وقيل: لارشوة، من أسل إذا سرق ، وسله كنصر سلا مثله، ولا إغلال : أى لاخيانة، من أغل إذا خان، وغل كنصر غلولا مثله:

فى عَقْدِ محمد وعَهْده دخل فيه ، ومن أحب أن يدخل فى عَقْدِ قريش وعَهْدِهم دخل فيه[١] » .

قال سهيل : « وأنَّك تَرْجِع عنّا عامَك هذا فلا تدخل علينا مكةَ ، وأنه إذا كان عامٌ قابِلٌ[٢] خرجنا عنك ، فدخلتَها بأصحابك ، فأقمتَ بها ثلاثاً معك سِلاحُ الراكب : السيوفُ فى القُرُب[٣] ، لاتدخلها بغير هذا » .

فلما فَرَغ من الكتاب أشهد على الصلح رجالا من المسلمين ورجالا من المشركين : أبا بكر بن أبى قُحَافَةَ ، وعُمَر بن الخطاب ، وعبد الرحمن بن عَوْف ، وعبد الله بن سُهَيْل ابن عمرو ، وسعد بن أبى وَقَّاص ، ومحمود بن مَسْلَمَة ، ومُكْرَز بن حَفْص ـ وهو يومئذ مشرك[٤] ـ وعلىّ بن أبى طالب .

(سيرة ابن هشام ٢ : ٢١٦ ، وتاريخ الطبرى ٣ : ٧٩ ، وصبح الأعشى ٤ : ١٤ ، والسيرة الحلبية ٢ : ١٤٤ ، وتاريخ الكامل لابن الأثير ٢ : ٧٧ ، وكتاب الخراج لأبى يوسف ص ٢٥٠ ، وصحيح الإمام البخارى ٢ ص ٧٩ ، وإعجاز القرآن ص ١١٤ والجامع الصحيح للإمام مسلم ٥ : ١٧٥)

٣ ــ كتابه صلى الله عليه وسلم إلى هرقل ملك الروم

وبعث رسول الله صلى الله عليه وسلم دِحْيَةَ بن خَلِيفَةَ الكَلْبِىّ ، إلى هِرَقْلَ قيصر الروم[٥] سنةَ سِتٍّ[٦] بكتاب يدعوه فيه إلى الإسلام ، ونسخته :

---

(١) فتواثبت خزاعة . فقالوا : نحن فى عقد رسول الله وعهده ، وتواثبت بكر . فقالوا : نحن فى عقد قريش وعهدهم . (٢) قبل العام والشهر قبولا كقعد قعوداً ، فهو قابل . وأقبل فهو مقبل : ضد دبر دبورا . (كقعد قعوداً أيضاً) وأدبر . (٣) القرب جمع قراب ككتاب : وهو غمد السيف . (٤) وقد أسلم سهيل بن عمرو يوم الفتح . (٥) وقيل أمر صلى الله عليه وسلم دحية أن يدفع الكتاب إلى عظيم بصرى (بصرى كحبلى : بلد بالشام) وهو الحارث ملك غسان ، ليدفعه إلى قيصر ، ولما انتهى دحية إلى الحارث أرسل معه عدى بن حاتم ليوصله إلى قيصر ، فذهب به إليه ، وقد لقيه ببيت المقدس. (٦) كان ذلك زمن هدنة الحديبية أواخر سنة ست، وقيل كتب إليه صلى الله عليه وسلم من تبوك سنة تسع. وجمع بينهما بأنه عليه الصلاة والسلام كتب لقيصر مرتين، والأول هو ما فى الصحيحين، فقد حدث أبو سفيان أن هرقل أرسل إليه فى ركب من قريش كانوا تجاراً بالشام فى المدة التى كان رسول الله صلى الله عليه وسلم ماد فيها أبا سفيان و كفار قريش ، فأتوه وهو بإيلياء وحدثه هرقل فى شأنه ـ إلى أن قال : ثم دعا بكتاب رسول الله الذى بعث به مع دحية إلى عظيم بصرى فدفعه إلى هرقل .

بسم الله الرحمن الرحيم ، من محمدٍ عبد الله ورسوله إلى هِرَقْلَ عظيم الروم ، سلامٌ على من اتَّبع الهُدَى ، أَمَّا بعدُ : فإنى أدعوك بدِعاية(١) الإسلام ، أَسْلِمْ تَسْلَمْ ، أَسْلِمْ يُؤْتِكَ اللهُ أجْرَكَ مرتين(٢) ، فإنْ تَوَلَّيْتَ فإنَّمَا عَلَيْكَ إِثْمُ الأَرِيسِيِّينَ(٣) ، و « يَا أَهْلَ الكِتَابِ تَعالَوْا إِلَى كَلِمَةٍ سَوَاءٍ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ ، أَلاَّ نَعْبُدَ إلاَّ اللهَ ، وَلَا نُشْرِكَ بِهِ شَيْئاً ،

---

(١) أى بالكلمة الداعية إلى الإسلام ، وهى كلمة التوحيد : أى أدعوك إليها ، فالباء بمعنى إلى .

(٢) أى لإيمان أتباعك بسبب إيمانك ، أو لإيمانك بعيسى ، ثم بمحمد عليهما الصلاة والسلام .

(٣) وردت هذه الكلمة فى متن البخارى : « اليريسين » . وجاء فى إرشاد السارى لشرح صحيح البخارى للقسطلانى . ج ١ : ص ٩٣ . « اليريسين » جمع يريس على وزن كريم ، وفى رواية : « الأريسين » بقلب الياء الأولى همزة ، وفى أخرى : « اليريسيين » . بتشديد الياء بعد السين جمع يريسى ، وفى أخرى : « الأريسيين » . بتشديد الياء بعد السين أيضاً : وقلب الياء الأولى همزة جمع أريسى ، وجاءت فى صحيح مسلم مرة بالرواية الثالثة : « اليريسيين » . وأخرى بالرواية الرابعة : « الأريسيين » . وفى لسان العرب : « الإرِّيسيين » جمع إرِّيس كسكيت ، ومن ذلك يتبين لك أن فى مفردها لغات : أريس ويريس ككريم . وأريسى ويريسى كحقيق : وإريس كسكيت . وهو الأكار : أى الفلاح . قال الأزهرى : أحسب الأريس والإريس بمعنى الأكار من كلام أهل الشام ، وقد جاء فى رواية الطبرى : « فإن إثم الأكارين عليك » . وكذا فى تاريخ ابن الأثير ، وقال صاحب السيرة الحلبية : « وجاء فى رواية : إثم الفلاحين » . وكذا فى شرح الزرقانى على المواهب » وفى فتح المبدى بشرح مختصر الزبيدى . ج ١ : ص ٣٦ .

وفى الكلام حذف دل عليه المعنى : أى فإن عليك مع إثمك إثم الأريسيين ، وإنما خص هؤلاء : لأنهم أغلب رعاياه ، وأسرعهم انقياداً ، لجهلهم وسذاجتهم . وقيل المراد بالفلاحين أهل مملكته ، لأن كل من كان يزرع فهو عند العرب فلاح ، سواء كان يلى ذلك بنفسه أم بغيره ، والعجم عند العرب كلهم فلاحون لأنهم أهل زرع وحرث . فالمعنى : فإن عليك إثم رعاياك الذين يتبعونك وينقادون لأمرك . وقيل : كان أهل السواد ومن هو على دين كسرى أهل فلاحة وإثارة للأرض ، وكان أهل الروم أهل أثاث وصنعة ، فكانوا يقولون للمجوسى أريسى نسبوهم إلى الأريس ، وهو الأكار وكانت العرب تسميهم الفلاحين ، فأعلم النبى صلى الله عليه وسلم الروم أنهم وإن كانوا أهل كتاب ، فإن عليهم من الإثم إن لم يؤمنوا بنبوته مثل إثم المجوس وفلاحى السواد الذين لا كتاب لهم . وقيل : أراد أن عليه إثم الضعفاء والأتباع إذا لم يسلموا تقليداً له ، لأن الأصاغر أتباع الأكابر . وقيل : الإريس كسكيت : الأمير والأصل فيه رئيس كسكيت أيضاً من الرياسة فقلب : أى فعليك إثم كبرائهم ، وقد جاء فى رواية الأغانى : « فإن إثم الأكابر عليك » . والمعنى : أنك إن توليت عن إجابة الدعوة لم يجب إليها كبراء دولتك تبعاً لك ، ولو أنهم أسلموا لهدوا قومهم إلى الإسلام ، لما لهم فيهم من الأمر المطاع والكلمة النافذة وقوة التأثير ، فامتناعك عن الإسلام يحملهم إثماً مضاعفاً : إثم الامتناع عنه ، وإثم القعود عن نصرته ونشره والسعى فى التنفير منه والصد عنه .

وَلَا يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضًا أَرْبَابًا مِنْ دُونِ ٱللَّهِ ، فَإِنْ تَوَلَّوْا فَقُولُوا ٱشْهَدُوا بِأَنَّا مُسْلِمُونَ[1] » .

(السيرة الحلبية ٢ : ٣٦٦ ، وصحيح الإمام البخارى ١ : ٥ ، والجامع الصحيح للإمام مسلم ٥ : ١٦٥ ، وتاريخ الطبرى ٣ : ٨٧ ، وتاريخ الكامل لابن الأثير ٢ : ٨١ ، والأغانى ٦ : ٩٣ ، وصبح الأعشى ٦ : ٣٧٦ ، والمواهب اللدنية للقسطلانى شرح الزرقانى ٣ : ٣٨٤)

* * *

وجاء فى صبح الأعشى :

وذكر أبو عُبَيد فى « كتاب الأموال » أن كتابه صلى الله عليه وسلم إلى هرقل ، كان فيه :

« من محمد رسول الله إلى صاحب الروم :

إنى أدعوك إلى الإسلام ، فإن أَسْلَمْتَ فَلَكَ ما لِلْمُسْلِمِينَ ، وعليك ما عليهم، وإن لم تدخل فى الإسلام ، فَأَعْطِ الْجِزْيَةَ ، فإن الله تعالى يقول : « قَاتِلُوا الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَلَا بِالْيَوْمِ الآخِرِ وَلَا يُحَرِّمُونَ مَا حَرَّمَ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَلَا يَدِينُونَ دِينَ الْحَقِّ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ ، حَتَّى يُعْطُوا الْجِزْيَةَ عَنْ يَدٍ وَهُمْ صَاغِرُونَ[2] » وَإِلَّا فَلَا تَحُلْ بين الفلاحين وبين الإسلام أَنْ يَدْخلوا فيه أو يُعطوا الْجِزْيَةَ[3] » .

---

(١) الآية من سورة آل عمران .

(٢) الجزية : الخراج الذى يضرب عليهم كل عام . واليد : الذلة والاستسلام ، أى حتى يؤدوها منقادين خاضعين ، أو عن يدهم أى مسلمين بأيديهم غير باعثين بأيدى غيرهم، واليد أيضاً : القدرة والقوة: أى عن قدرة عليهم وغلب ، أو عن قدرة منهم على الدفع وغنى ، ولذلك قيل لاتؤخذ من الفقير . واليد : النعمة والصنيعة، أى عن إنعام عليهم وإحسان فإن إبقاءهم بالجزية نعمة عليهم ، أو معناه : نقداً مسلمة عن يد إلى يد لانسيئة ، وهم صاغرون : أى أذلاء منقادون لحكم الإسلام ، فهو توكيد لقوله : « عن يد » على المعنى الأول ، والآية من سورة التوبة .

(٣) وروى أن هرقل لما رجع إلى حمص دار ملكه ، كان له فيها قصر عظيم ، فأغلق أبوابه ، وأمر مناديا ينادى : ألا إن هرقل قد آمن بمحمد واتبعه ، فأقلت الأجناد فى سلاحها ، وطافت بقصره تريد قتله ، فأرسل إليهم إنى أردت اختبار صلابتكم فى دينكم ، فقد رضيت ، فرضوا عنه . وفى صحيح البخارى: « وسار هرقل إلى حمص فأذن لعظماء الروم فى دسكرة له بحمص (والدسكرة بفتح الدال والكاف : بناء الملوك يشبه القصر حوله بيوت الخدم والحشم) ، ثم أمر بأبوابها فغلقت ، ثم اطلع فقال : يامعشر =

٤ ــ كتابه صلى الله عليه وسلم إلى كسرى ملك الفرس

وبعث صلى الله عليه وسلم عبد الله بن حُذَافَةَ السَّهْمِيَّ[(١)] إِلَى كِسْرَى أَبْرَوَيزَ ملك الفرس ، سنة ست ، وبعث معه كتابا فيه :

« بسم الله الرحمن الرحيم ، من محمد رسول اللهِ إلى كسرى عظيم فارس ، سلام على من اتَّبع الهُدَى ، وآمَنَ بالله ورسوله ، وَشَهِدَ أن لَا إِلَهَ إِلاَّ اللهُ وَحْدَه لاشَرِيكَ له ، وأن محمدا عبدُه ورسوله ، أدعوُك بدِعاية الله عزّ وجل ، فإني أنا رسول الله إلى الناس كَافَّةً لِأُنْذِرَ مَنْ كَانَ حَيًّا ، وَيَحِقَّ الْقَوْلُ عَلَى الْكَافِرِينَ ، أَسْلِمْ تَسْلَمْ ، فإن أَبَيْتَ فعليك إثم المجوس[(٢)] » .

فلما قرأ كسرى الكتاب غضب ومزّقه وقال : يكتب إليّ هذا وهو عبدى ، فقال صلى الله عليه وسلم حين بلغه ذلك مُزِّق ملكه .

(السيرة الحلبية ٢ : ٣٦٨ ، وصبح الأعشى ٦ : ٣٧٧ ، وتاريخ الطبرى ٣ : ٩٠ ، وتاريخ الكامل لابن الأثير ٢ : ٨١ ، وإعجاز القرآن ص ١١٣ ، والمواهب اللدنية القسطلانى « شرح الزرقانى ٣ : ٣٨٩ »)

٥ ــ كتابه صلى الله عليه وسلم إلى النجاشي ملك الحبشة

وبعث صلى الله عليه وسلم عَمْرو بن أُمَيَّةَ الضَّمْرِيّ إلى النَّجَاشِيِّ ملك الحبشة سنة ست ، وبعث معه كتابا فيه

= الروم : هل لكم في الفلاح والرشد ، وأن يثبت ملككم ، فتبايعوا هذا النبي ؟ فحاصوا حيصة حمر الوحش إلى الأبواب فوجدوها قد غلقت ، فلما رأى هرقل نفرتهم ، وأيس من الإيمان منهم ، (إذ قالوا له : أتدعونا أن نترك النصرانية ونصير عبيدا لأعرابى ؟) قال : ردوهم على ، وقال : إنى قلت مقالتى آنفا أختبر بها شدتكم على دينكم ، فقد رأيت ، فسجدوا له ورضوا عنه » . وروى أنه كتب كتابا وأرسله مع دحية إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول فيه : إنى مسلم ، ولكننى مغلوب ، وأرسل بهدية ، فلما قرئ عليه الكتاب ، قال : كذب عدو الله ليس بمسلم ، وقبل هديته وقسمها بين المسلمين .

(١) وكان يتردد على كسرى كثيراً ، وقيل بعث أخاه خنيسا ، وقيل أخاه خارجة ، وقيل شجاع ابن وهب ، وقيل عمر بن الخطاب رضى الله عنهم .

(٢) أى إثم أتباعك ورعاياك .

« بسم الله الرحمن الرحيم، من محمد رسول الله إلى النجاشيِّ الأَصْحَم[١] ملك الحبشة، سِلْمٌ[٢] أنت، فإنى أَحْمَدُ إليك اللهَ[٣] الذى لا إله إلا هو المَلِكُ القُدُّوسُ السَّلامُ المُؤْمِنُ المُهَيْمِنُ، وأشهد أن عيسى بن مَرْيَمَ روحُ الله، وَكَلِمَتُهُ أَلْقَاهَا إلى مَرْيَمَ البَتُولِ[٤] الطيِّبة الحصينة، فحَمَلت بعيسى، حَمَلَتْه من رُوحه ونَفَخِه، كما خَلَقَ آدمَ بيده ونفخه. وإنى أدعوك إلى الله وَحْدَه لا شريك له، والموالاةِ على طاعته، وأن تتَّبعنى، وتؤمن[٥] بالذى جاءنى، فإنى رسول الله، وقد بعثت إليك ابن عمى جعفرا[٦] ونفراً معه من المسلمين، فإذا جاءك فأَقْرِهِم[٧] ودَعِ التَّجَبُّرَ، وإنى أدعوك وجنودَك إلى الله عزَّ وجل، وقد بَلَّغْتُ وَنَصَحْتُ، فاقبلُوا نُصْحِى، والسلام على من اتَّبع الهدى » .

(السيرة الحلبية ٢ : ٣٦٩، وتاريخ الطبرى ٣ : ٨٩، وصبح الأعشى ٦ : ٣٧٩، وأسد الغابة ١ : ٦٢، وإعجاز القرآن ص ١١٣، والمواهب اللدنية للقسطلانى « شرح الزرقانى » ٣ : ٣٩٣ » .

٦ — رد النجاشى على كتابه صلى الله عليه وسلم

فكتب إليه النجاشى :

« بسم الله الرحمن الرحيم، إلى محمد رسول الله، من النجاشى الأصحم بن أَبْجَرَ، سلامٌ عليك يا نبيَّ الله ورحمة الله وبركاته من الله الذى لا إله إلا هو، الذى هدانى إلى الإسلام، أما بعد : فقد بلغنى كتابُك يا رسول الله فما ذكرتَ من أمر عيسى عليه

---

(١) هكذا فى رواية الطبرى، وفى السيرة الحلبية وصبح الأعشى والمواهب وكتب اللغة: « أصحمة ». والأصحم انظر ج ١ : ص ٦١ و ٩٩ . (٢) السلم بالكسر والفتح : السلام، وهو مصدر وصف به : أى أنت ذو سلم . (٣) أى أحمده معك، فأقام إلى مقام مع . وقيل: معناه أحمد إليك نعمة الله بتحديثك إياها . (٤) البتول : المنقطعة عن الرجال التى لاشهوة لها فيهم، أو المنقطعة عن الدنيا وزينتها إلى الله تعالى، ومن ثم قيل لفاطمة بنت النبى صلى الله عليه وسلم البتول، وأصله من بتله كنصر وضرب إذا قطعه .

(٥) وفى رواية: « وتوقن » . (٦) هو جعفر بن أبى طالب رضى الله عنه، وكان ممن هاجر إلى الحبشة حين اشتد إيذاء كفار قريش للمسلمين بدء الإسلام . (٧) قرى الضيف كرمى قرى بالكسر والقصر وقراء بالفتح والمد : أحسن إليه .

الصلاة والسلام ، فوَرَبِّ السَّماء والأرض إن عيسى ما يزيد على ما ذكرت ثُفْرُوقا[١] ، إنه لكما قلت ، وقد عرَفنا ما بُعِثْتَ به إلينا ، وقد قَرَيْنا ابن عمك وأصحابه ، فأَشْهَدُ أنك رسول الله صادقا مُصَدَّقا ، وقد بايعتُك وبايعت ابن عمك ، وأسلمت على يديه لله رب العالمين ، وقد بعثتُ إليك بابنى أرها بن الأصحم بن أبجر[٢] ، فإنّى لا أملِكُ إلا نفسى ، وإن شئتَ أن آتيَك فعلْتُ يا رسول الله ، فإنى أشهد أن ماتقولُ حق ، والسلام عليك يا رسول الله » .

(السيرة الحلبية ٢ : ٣٧٠ ، وتاريخ الطبرى ٣ : ٨٩ ، وصبح الأعشى ٦ : ٤٦٦ ، وأسد الغابة ١ : ٦٢ ، والمواهب اللدنية للقسطلانى « شرح الزرقانى ٣ : ٣٩٤ »

٧ — كتابه صلى الله عليه وسلم إلى المقوقس عظيم القبط

وبعث صلى الله عليه وسلم حَاطِبَ بن أبى بَلْتَعَةَ إلى المُقَوْقِس[٣] عظيم القبط سنة ست ، وبعث معه كتابا يدعوه إلى الإسلام فيه :

« بسم الله الرحمن الرحيم ، من محمد رسول الله إلى المُقَوْقِس عظيم القِبْط ، سلامٌ على من اتَّبع الهُدَى . أما بعد : فإنى أدعوك بدِعاية الإسلام ، أَسْلِمْ تَسْلَمْ ، يُؤْتِكَ اللهُ أجْرَكَ مرتين ، فإن تَوَلَّيْتَ فإنما عليك إثْمُ القبط . و « يٰأَهْلَ الْكِتَابِ تَعَالَوْا إِلَى كَلِمَةٍ سَوَاءٍ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ أَلاَّ نَعْبُدَ إِلاَّ اللهَ وَلَا نُشْرِكَ بِهِ شَيْئاً ، وَلَا يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضاً أَرْبَاباً مِنْ دُونِ اللهِ ، فَإِنْ تَوَلَّوا فَقُولُوا اشْهَدُوا بِأَنَّا مُسْلِمُونَ » .

(السيرة الحلبية ٢ : ٣٧١ ، وصبح الأعشى ٦ : ٣٧٨ ، وخطط المقريزى ١ : ٢٩ ، وحسن المحاضرة ١ : ٤٣ ، والمواهب اللدنية للقسطلانى « شرح الزرقانى ٣ : ٣٩٧ ») .

* * *

---

(١) الثفروق : قمع التمرة ، أو ما يلتزق به قمعها ، وماله ثفروق : أى شىء .

(٢) وفى أسد الغابة : « أرمى » بالميم . وفى شرح الزرقانى على المواهب: أرخى . بالخاء أو أريخا، وروى أن النجاشى بعث ابنه فى ستين من الحبشة فى سفينة ، فلما كانوا فى وسط البحر غرقت بهم فهلكوا .

(٣) اسمه جريج بن مينا .

وجاء فى صبح الأعشى :

وذكر الْوَاقِدِىّ أن كتابه إليه كان بخط أبى بكر الصّدّيق رضى الله عنه ، وأن فيه :

« من محمد رسول الله إلى صاحب مصر .

أما بعدُ : فإن الله أرسَلَنى رسولا ، وأنزَلَ علىّ قُرْآنا ، وأمرنى بالإعذار والإنذار ومُقاتلة الكفار ، حتى يَدِينوا بدينى ، وَيَدْخُلَ الناسُ فى مِلّتِى ، وقد دعوتُك إلى الإقرار بِوَحْدَانِيَّتِهِ ، فإن فعلْتَ سَعِدْتَ ، وإنْ أَبَيْتَ شقِيتَ ، والسلام » .

٨ — رد المقوقس على كتابه صلى الله عليه وسلم

فكتب المقوقس إليه :

« بسم الله الرحمن الرحيم ، لمحمد بن عبد الله من الْمُقَوْقِس عظيم القبط .

سلام عليك ، أما بعد : فقد قرأتُ كتابك ، وفهمتُ ما ذكرتَ فيه ، وما تدعو إليه ، وقد علمتُ أن نبيّا قَدْ بَقِىَ ، وقد كنتُ أظن أنه يخرج بالشأم ، وقد أكرمتُ رسولَكَ[١] ، وبعثت إليك بجاريتين[٢] لهما مكانٌ فى القِبط عظيم ، وبثياب[٣] ، وأهديتُ إليك بغلةً لتركَبَها ، والسلام عليك .

(السيرة الحلبية ٢ : ٣٧٢ ، وخطط المقريزى ١ : ٢٩ ، وحسن المحاضرة ١ : ٤٣ ، وصبح الأعشى ٦ : ٤٦٧ ، والمواهب اللدنية للقسطلانى « شرح الزرقانى ٣ : ٤٠٠ »)

---

(١) ذكروا أنه دفع له مائة دينار وخمسة أثواب . (٢) هما مارية التى تسرى بها عليه الصلاة والسلام ، وجاء منها بولده إبراهيم ، وأختها سيرين — بكسر السين — وقيل : أهدى إليه ثلاث جوار وقيل أربعاً ، ووهب عليه الصلاة والسلام سيرين لحسان بن ثابت فولدت له عبد الرحمن بن حسان ، فهو وإبراهيم ابن النبى صلى الله عليه وسلم ابنا خالة . انظر أسد الغابة ، ج ١ : ص ٣٨ .

(٣) هى عشرون ثوبا من قباطى مصر . وفى كتب السيرة أنه أهدى إلى النبى صلى الله عليه وسلم عسلا من عسل بنها ، وأرسل مع الهدية طبيبا . فقال له النبى : ارجع إلى أهلك ، نحن قوم لا نأكل حتى نجوع . وإذا أكلنا لا نشبع . ولم يسلم المقوقس .

وجاء فى صبح الأعشى أيضاً :

وذكر الواقدى أن فى كتابه إليه :

« باسْمِكَ اللهمَّ ، من المقوقس إلى محمد .

أما بعد : فقد بلغَنى كتابك وفهمته ، وأنت تقول : إن الله أرسلك رسولا وفَضلك تفصيلاً ، وأنزل عليك قرْآناً مُبيناً ، فكشَفْنا عن خبرك فوجدناك أقربَ داعٍ دعا إلى الله ، وأصْدَق من تكلم بالصدق ، ولولا أنى مَلَكْتُ ملكا عظيماً ، لكنتُ أوَّلَ من آمن بك ، لعلمى أنك خاتمُ النبيين ، وإمام المرسلين ، والسلام عليك منِّى إلى يوم الدين » .

٩ — كتابه صلى الله عليه وسلم إلى الحارث بن أبى شمر الغسانى صاحب دمشق

وبعث صلى الله عليه وسلم شُجَاع بن وَهْب الأسدىّ إلى الحارث بن أبى شِمِر الغَسَّانِى[(١)] صاحب دِمشْق — من قبل قيصر — سنة ست ، وبعث معه كتابا فيه :

« بسم الله الرحمن الرحيم ، من محمد رسول الله إلى الحارث بن أبى شمر .

سلام على من اتبع الهدى وآمن بالله وصَدَّق ، وإنى أدعوك أن تُؤمن بالله وَحْدَه لا شريك له يبقى لك مُلْكُك » .

---

(١) ليس هو الحرث الخامس بن أبى شمر الذى أسلفنا ذكره فى صفحة ١٠ فإنه قد توفى سنة ٥٧٢م أى بعد ميلاده عليه الصلاة والسلام بسنتين ، وكان هذا الكتاب سنة ست الهجرة أى سنة ٦٢٨ ميلادية ، فلا يعقل أن يكون هو المكتوب إليه وإنما هو الحرث السابع شرحبيل بن عمرو الرابع المعروف بأبى شمر الأصغر الذى ولى من سنة ٦١٥ إلى سنة ٦٣٠ م . (انظر بيان الأستاذ برسيفال فى كتابه العرب قبل الإسلام) ، وقد ذكر الطبرى فى تاريخه مرة أنه الحرث بن أبى شمر . ج ٣ : ص ٨٤ . وأخرى أنه المنذر بن الحرث ابن أبى شمر . ج ٣: ص ٨٨ والأول هو ما فى السيرة الحلبية، وسيرة ابن هشام. ج ٢: ص ٣٩٢ ، والمواهب.

فلما قرأ الكتاب رمى به ، ثم قال : مَن يَنزِعُ منى ملكى ؟ أنا سائر إليه ، فقال صلى الله عليه وسلم : باد مُلْكُه ، وقد ثناه قيصر عن عزمه .

(السيرة الحلبية ٢ : ٣٧٦ ، وتاريخ الطبرى ٣ : ٨٨ ، والمواهب اللدنية « شرح الزرقانى ٣ : ٤٠٨ »)

١٠ — كتابه صلى الله عليه وسلم إلى المنذر بن ساوى ملك البحرين

وبعث صلى الله عليه وسلم العَلاَءَ بن الحَضْرَمِىّ إلى المُنْذِر بن سَاوَى العَبْدِى[1] صاحب البَحْرين[2] من قبل الفرس ، سنة ست[3] ، وبعث معه كتابا فيه :

« بسم الله الرحمن الرحيم : من محمد رسول الله إلى المنذر بن ساوى : سِلْمٌ أنت ، فإنى أَحْمَدُ إليك الله الذى لا إله إلا هو ، أما بعدُ : فإنَّ من صَلَّى صلاتنا ، واستقبل قِبْلتنا ، وأكل ذبيحتنا ، فذلك المُسْلِمُ ، له ذِمَّةُ الله وذمة رسوله ، فمن أحبَّ ذلك من المجوس ، فإنه آمنٌ ، ومن أَبَى فإن عليه الجِزْية » .

(صبح الأعشى ٦ : ٣٧٦ ، وكتاب الخراج لأبى يوسف ص ١٥٦ ، وأسد الغابة ٤ : ٤١٧ ، والإصابة ٦ : ١٢٩ ، وفتوح البلدان البلاذرى ص٨٨ وشرح الزرقانى على المواهب ٢ : ٤٠٠)

---

(١) هو المنذر بن ساوى بن الأخنس بن بنان بن عمرو بن عبد الله بن زيد بن عبد الله بن دارم ابن مالك بن حنظلة بن مالك بن زيد مناة بن تميم ، وذكر الطبرى فى تاريخه أنه أخو بنى عبد القيس . ج ٣ : ص٨٥ . وجاء فى أسد الغابة : « وقيل هو من عبد القيس » . وفى الإصابة : « وزعم غير الكلبى أنه من عبد القيس ، وبين الرشاطى السبب فى ذلك أنه يقال له العبدى لأنه من ولد عبد الله بن دارم ، فظن بعض الناس أنه من عبد القيس » . (٢) شرق جزيرة العرب على خليج فارس .

(٣) وجاء فى معجم البلدان لياقوت الحموى - ج ٢ : ص ٧٤ . « فلما كانت سنة ثمان للهجرة وجه رسول الله صلى الله عليه وسلم العلاء بن الحضرمى إلى البحرين ، وكتب معه إلى المنذر بن ساوى والى سيبخت مرزبان هجر — قصبة البحرين — يدعوهما إلى الإسلام ، أو إلى الجزية ... ... إلى أن قال وقد قيل : إن رسول الله وجه العلاء حين وجه رسله إلى الملوك سنة ست » . وكذا ورد فى فتوح البلدان البلاذرى : ص ٨٥ .

١١ — رد المنذر على كتابه صلى الله عليه وسلم

فأسلم المنذر وكتب إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم :

« أما بعد يا رسول الله : فإني قرأت كتابك على أهل البحرين ، فمنهم من أحَبَّ الإسلام وأعْجَبَه ودخل فيه ، ومنهم من كَرِهَه ، وبأرضي مَجُوسٌ ويهودٌ ، فأَحْدِثْ لى فى ذلك أمرك » .

(السيرة الحلبية ٢ : ٣٧٤ ، والمواهب اللدنية القسطلانى « شرح الزرقانى ٣ : ٤٠٢ »)

١٢ — رده صلى الله عليه وسلم على كتاب المنذر

فكتب إليه صلى الله عليه وسلم :

« بسم الله الرحمن الرحيم : من محمد رسول الله إلى المنذر بن ساوَى .

سلام عليك ، فإنى أحْمَد إليك اللهَ الذى لا إله إلا هو ، وأشهد أنْ لا إله إلا اللهُ ، وأن محمداً عبده ورسوله . أما بعدُ : فإنى أذكِّرك اللهَ عز وجل ، فإنه من يَنْصَحْ فإنما ينصحُ لنفسه ، وإنه من يُطِعْ رُسُلِى ويتبع أمرهم فقد أطاعنى ، ومن نصح لهم فقد نصح لى ، وإن رسلى قد أثنَوْا عليك خيراً ، وإنى قد شفَّعتك فى قومك ، فاترك للمسلمين ما أسلموا عليه ، وعفوتُ عن أهل الذنوب فاقْبَلْ منهم ، وإنك مهما تُصْلِحْ فلن نَعْزِلَكَ عن عملك ، ومن أقام على يهوديته ، أو مجوسيَّته فعليه الجزية » .

(السيرة الحلبية ٢ : ٣٧٤ ، وصبح الأعشى ٦ : ٣٦٧ ، والمواهب اللدنية القسطلانى « شرح الزرقانى ٣ : ٤٠٢ »)

١٣ — عهد العلاء بن الحضرمى لأهل البحرين

وصالح المَجُوسُ واليهود والنصارى من أهل البحرين العلاءَ بن الحضْرمىّ وكتب بينه وبينهم كتابا نسخته :

« بسم الله الرحمن الرحيم : هذا ما صالح عليه العَلاء بن الحَضْرَمِىّ أهل البحرين : صالحهم على أن يكفونا العَمَلَ ، ويقاسِمُونا التَّمر ، فمن لم يَفِ بهذا فعليهِ لَعنَةَ الله والملائكة والناس أجمعين » .

وأما جزية الرءوس فإنه أخذ لها من كل حالِمٍ ديناراً .

(معجم البلدان ٢ : ٧٤ ، وفتوح البلدان للبلاذرى ص ٨٦)

١٤ — كتابه صلى الله عليه وسلم إلى أهل البحرين

وروى أن رسول الله صلى الله عليه وسلم كتب إلى أهل البحرين :

« أما بعدُ : فإنكم إذا أقمتم الصَّلاة ، وآتيتم الزكاة ، ونَصَحتم لله ورسوله ، وآتيتم عُشْر النَّخْل ، ونصف عشر الحَبِّ ، ولم تُمَجِّسوا أولادكم ، فلكم ما أسلمتم عليه ، غير أن بيت النارِ لله ورسوله[1] ، وإن أبيتم فعليكم الجِزية » .

(فتوح البلدان للبلاذرى ص ٨٦)

١٥ — كتابه صلى الله عليه وسلم إلى أهل هجر

وروى أن رسول الله صلى الله عليه وسلم كتب إلى أهل هَجَر[2] :

« بسم الله الرحمن الرحيم : من محمد النبي إلى أهل هَجَر ، سِلْمٌ أنتم ، فإني أحْمَد إليكم اللهَ الذى لا إله إلاّ هو ، أما بعدُ : فإني أُوصيكم بالله وبأنفسكم ألاّ تَضِلُّوا بعد إذ هُدِيتم ، ولا تَغْوُوا[3] بعد إذ رَشَدْتم ، أما بعدُ : فإنه قد أتانى الذى صنعتم ، وإنه من يُحْسِن منكم لا يُحمَل عليه ذنبُ المسىء ، فإذا جاءكم أمرائى فأَطِيعُوهم وانصُروهم وأَعِينُوهم على أمر الله وفى سبيله، فإنه مَنْ يعمل منكم عملا صالحا فلن يضلَّ له عند الله

---

(١) أى مال بيت النار كما سيأتى فى كتابه إلى جيفر وعبد ابنى الجلندى ملكى عمان .

(٢) قاعدة البحرين .

(٣) غوى بفتح الواو كرمى غيا وغوى بكسرها غواية : ضل ، ورشد كنصر فهو راشد ورشد كفرح فهو رشيد .

وعندى ، وأما بعـــدُ : فقد جاءنى وفدُكمْ فلم آتِ إليهم إلا ما سَرَّهم ، وإنى لو جَهَدْتُ(١) حتى فيكم كلَّه أخرجتكم من هَجَر ، فشفَّعتُ غائبكم ، وأفضَلْتُ على شاهدكم(٢) ، فاذكروا نعمةَ الله عليكم » . (فتوح البلدان البلاذرى ص ٨٧)

١٦ — كتابه صلى الله عليه وسلم إلى هوذة بن على صاحب اليمامة

وبعث صلى الله عليه وسلم سَلِيطَ بن عَمْرو العامرىّ إلى هَوْذَة بن علىّ صاحب اليمامة(٣) ، سنة ست ، وبعث معه كتابا فيه :

« بسم الله الرحمن الرحيم ، من محمد رسول الله إلى هَوْذَة بن على ، سلام على من اتبع الهدى ، واعْلَمْ أن دِينى سَيَظْهَرُ إلى مُنتهى الخفِّ والحافِرِ(٤) ، فأَسْلِمْ تَسْلَمْ وَأَجْعَل لك ماتحت يديك » .

(السيرة الحلبية ٣ : ٢٧٦ ، وصبح الأعشى ٦ : ٣٧٩ ، والمواهب اللدنية « شرح الزرقانى ٣ ، ٤٠٧ »)

١٧ — رد هوذة على كتابه صلى الله عليه وسلم

فكتب إلى النبى صلى الله عليه وسلم :

« ما أحسَنَ ما تدعو إليه وأجْمَلَه ، وأنا شاعر قومى وخطيبهم ، والعربُ تهابُ مكانى ، فاجْعَلْ إلَىَّ بعضَ الأمر أتَّبِعْك » .

---

(١) أى فرقت واستنفدت ،من جهد الرجل ماله ، جاء فى اللسان : « وفى حديث الحسن : لايجهد (على وزان يمنع) الرجل ماله ، ثم يقعد يسأل الناس . قال النضر : قوله لايجهد ماله : أى يعطيه ويفرقه جميعه هاهنا وهاهنا » . وجاء فى القاموس : « وأجهد ماله : أفناه وفرقه » . وأورد شارح القاموس ماورد فى اللسان ، ثم قال : « ولكن الذى ضبطه الصاغانى بخطه فى الحديث : « لا يَجهد الرجل » من حد ضرب وذكر المعنى المذكور عن النضر ، فتأمل » . (٢) وجاء فى مفتاح الأفكار : « فشفعت شاهدكم ومننت على غائبكم » . (٣) صقع شرق الحجاز غربى البحرين .

(٤) أى حيث قطع الإبل والخيل .

فلما قرأ رسول الله صلى الله عليه وسلم كتابه قال : لو سألني سَيَابَةً[1] ما فعلتُ ، بَادَ وَبادَ ما في يديه :

(السيرة الحلبية ٢ : ٣٧٦ ، والمواهب اللدنية « شرح الزرقاني ٣ : ٤٠٨ »)

١٨ — كتابه صلى الله عليه وسلم لرفاعة بن زيد الخزاعي

وقَدِم على رسول الله صلى الله عليه وسلم في هُدْنة الحُدَيْبِيَةِ — أواخر سنة ست — رِفاعةُ بن زيد الخُزَاعِيّ[2] ، فأسلم وحسن إسلامه ، وكتب له رسول الله صلى الله عليه وسلم كتابا إلى قومه ، وفيه :

« بسم الله الرحمن الرحيم : هذا كتابٌ من محمد رسول الله لِرِفاعةَ بن زيد : إني بعثتُه إلى قومه عامّةً ، ومن دخل فيهم ، يدعوهم إلى الله وإلى رسوله ، فَمَنْ أقبل منهم فمنْ حِزب الله وحزب رسوله ، ومن أدبَرَ فله أمان شهرين » .

فلما قَدِم رفاعة على قومه أجابوا وأسلموا ، ثم ساروا إلى الحَرّة حَرَّةِ الرَّجْلاء[3] فنزلوها » .

(تاريخ الطبري ٣ : ١٦٣ ، والسيرة الحلبية ٢ : ٣٥٢ ، وسيرة ابن هشام ٢ : ٢٨٥ ، وصبح الأعشى ٦ : ٣٨٢و١٣ : ٣٢٣)

١٩ — كتابه صلى الله عليه وسلم إلى جيفر وعبد ابني الجلندى ملكي عمان

وبعث صلى الله عليه وسلم عَمْرو بن العاص إلى جَيْفَرٍ وعَبْد ابني الجُلَنْدَى[4] الأزديَّيْنِ ملكي عُمَان[5] ، سنة ثمان ، وبعث معه كتابا فيه :

---

(١) السياب كسحاب ورمان : البلح أو البسر الأخضر واحدته سَيَابة كسحابة ورمانة .

(٢) في الطبري وسيرة ابن هشام : « الجذامي » . وفي السيرة الحلبية : الخزاعي ، وقد ضبطه بالعبارة . فقال : « بالخاء المعجمة والزاي » .

(٣) علم لحرة في ديار بني القين بن جسر بين المدينة والشام .

(٤) قال صاحب القاموس : « جلنداء بضم أوله وفتح ثانيه ممدودة ، وبضم ثانيه مقصورة : اسم ملك عمان ، ووهم الجوهري فقصره مع فتح ثانيه » .

(٥) شرق جزيرة العرب على خليج عمان .

«بسم الله الرحمن الرحيم : من محمد عبد الله ورسوله إلى جَيْفَرٍ وعَبْد ابنى الجُلُنْدَى. سلام على من اتَّبع الهدَى ، أما بعدُ : فإنى أدعوكما بدِعاية الإسلام ، أسْلِما تَسْلَما ، فإنى رسول الله إلى الناس كافَّةً ، لِأُنْذِرَ مَنْ كان حَيًّا ، ويَحِقَّ القَوْلُ على الْكَافِرِينَ ، وإنكما إن أقْرَرْتُما بالإسلام ولَّيتُكما ، وإن أبَيْتما أن تُقِرَّا بالإسلام ، فإن مُلْككُما زائِلٌ عنكما ، وخَيْلِى تَحُلُّ بساحَتِكما ، وتَظْهَر[1] نبوّتى على ملككما » وكتب أبىّ ابن كعب . وقد أجابا إلى الإسلام .

(السيرة الحلبية ٢ : ٣٧٤ ، وصبح الأعشى ٦ : ٣٨٠ ، والمواهب اللدنية « شرح الزرقانى ٣ : ٤٠٤ »)

وجاء فى صبح الأعشى :

وفى رواية ذكرها أبو عبيد فى كتاب الأموال أنه كتب إليهما :

« من محمد رسول الله ، لعِباد الله الأَسْدِيِّينَ[2] ملوك عُمَانَ ، وأَسْدِ عُمَانَ ، ومَن كان منهم بالْبَحْرين ، إنهم آمنوا وأقاموا الصلاة ، وآتَوُا الزَّكاة ، وأطاعُوا الله

---

(١) ظهر عليه : غلبه .   (٢) فى الأصل : لعباد الله أسيد بن ملوك عمان ، وأسيد عمان من كان منهم بالبحرين » . وهو تحريف ، وقد أصلحته كما ترى ، والأسد لغة فى الأزد ، قال صاحب القاموس : « أزد بن الغوث وبالسين أفصح: أبوحى باليمن، ويقال : أزد شنوءة وعمان والسراة» . وفى صبح الأعشى ج ١ : ص ٣١٨ : « قال أبو عبيد . ويقال : بالسين بدل الزاى وقال الجوهرى : بالزاى أفصح » . وقد رجعت إلى صحاح الجوهرى فوجدته يقول « هو بالسين أفصح » . ولعل الخطأ فى صبح الأعشى من الناسخ ، وقد جاء عقب هذا الكتاب فى صبح الأعشى :

« قال أبو عبيد ، وبعضهم يرويه« لعباد الله الأسبيين » اسما أعجميا نسبهم إليه . قال : وإنما سموا بذلك لأنهم نسبوا إلى عبادة فرس ، وهو بالفارسية « أسب » فنسبوا إليه ، وهم قوم من الفرس ، وفى رواية من العرب » . أقول : وربما كان الأصل « لعباد الله الأسبذيين » نسبة إلى « أسبذ » كجعفر ، وهى مدينة بعمان أو بالبحرين ، قال ياقوت فى معجم البلدان (ج ١ ص ٢١٩) « أسبذ : قرية بالبحرين ، وصاحبها المنذر بن ساوى ، وقد اختلف فى الأسبذيين من بنى تميم لم سموا بذلك ؟ فقيل : هم ولد عبد الله ابن زيد بن عبد الله بن دارم (جد المنذر بن ساوى) ، وقيل لهم الأسبذيون لأنهم كانوا يعبدون فرسا . قلت أنا : الفرس بالفارسية اسمه « أسب » زادوا فيه ذالا تعريبا ، وقيل : كانوا يسكنون مدينة يقال لها أسبذ بعمان فنسبوا إليها، وقيل : أسبذ اسم ملك كان من الفرس ملكه كسرى على البحرين فاستعبدهم وأذلهم ، فنسب العرب أهل البحرين إلى هذا الملك على جهة الذم ، وعليه قول طرفة :

خذوا حذركم أهل المشقر والصفا   عبيد أسبذ ، والقرض يجرى من القرض

« والمشقر كمعظم والصفا : حصنان بالبحرين » اهـ باختصار .

ورسولَه ، وأعطَوا حق النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ ونَسَكوا نُسُكَ[١] المسلمين ، فإنهم آمنون ، وإن لهم ما أسلموا عليه ، غيرَ أن مال بيت النّار ثُنْيا[٢] لله ورسوله ، وإن عُشُورَ التَّمْرِ صَدَقةٌ ، ونِصْفَ عُشُورِ الحَبِّ : وإن للمسلمين نَصْرهم ونُصْحَهم ، وإنّ لهم على المسلمين مِثْلَ ذلك ، وإنّ لهم أرْحاءَ يَطْحَنونَ بها[٣] » .

٢٠ ـ عهده صلى الله عليه وسلم لأهل أيلة بالأمان

ولما كان صلى الله عليه وسلم بِتَبُوكَ[٤] ـ سنة تسع ـ أتاه يُحَنَّة بن رُؤْبة صاحب أيْـلَة[٥] ، وصُحبته أهل جَرْبَاء ، وأهل أذْرُح ، وأهل ميناء ، فصالح رسول الله صلى الله عليه وسلم على إعطاء الجزية ، وكتب له ولأهل أيلة كتابا صورته :

« بسم الله الرحمن الرحيم ، هذا أَمَنَة[٦] من الله ومحمد النبيِّ رسول الله لِيُحَنَّةَ بن رُؤْبَةَ ، وأهلِ أَيْلَةَ ، سُفُنِهِمْ وَسَيَّارَتِهِم[٧] في البَرِّ والبحر ، لهم ذمة الله وذمةُ محمد النبي ، ومن كان معهم من أهل الشأم ، وأهل اليمن ، وأهل البحر ؛ فمن أحدث منهم حَدَثا فإنه لا يَحُوزُ مَالَهُ دون نفسه ، وإنه طَيِّبٌ[٨] لمن أخذه من الناس ، وإنه لا يَحِلُّ أن يُمْنَعوا ماءً يَرِدُونَه ، ولا طريقا يُريدونه من برّ أو بحر » .

السيرة الحلبية ٢ : ٢٦٤ ، وسيرة ابن هشام ٢ : ٣٣٨ ، والمواهب « شرح الزرقاني ٣ : ٤١٢ » وتهذيب تاريخ ابن عساكر ١ : ١١٤ .

---

(١) النسك مثلث النون وبضمتين : العبادة وكل حق لله تعالى .

(٢) الثنيا والثنوى : ما استثنيته .

(٣) الأرحاء جمع رحى ، وهي التي يطحن بها معروفة ، والمعنى : أنهم يستقلون بشئونهم ، ويديرون أمورهم كما يشاءون . وجاء من هذه المادة في لسان العرب : « والأرحى (كالأيدى) القبائل التي تستقل بنفسها وتستغنى عن غيرها. وفي أساس البلاغة : وهؤلاء رحى من أرحاء العرب وهي قبائل لاتنتجع ولا تبرح مكانها ». (٤) موضع بين وادى القرى والشام، وكان عليه الصلاة والسلام قد سار إليها لغزو من انتهى إليه أنه قد تجمع بها من الروم وعاملة ولخم وجذام فوجدهم قد تفرقوا، وهي آخر غزواته (٥) مدينة على خليج العقبة من شماليه . (٦) أي أمان أمن كفرح أمنا بالسكون وأمانا وأمنا وأمنة محركتين وإمنا بالكسر . (٧) السيارة: القافلة . وفي تاريخ ابن عساكر والمواهب «أساقفتهم وسائرهم». أي باقيهم مكان قوله : «سفنهم وسيارتهم» . (٨) وفي السيرة الحلبية : « وإنه لطيبة » . وهو على تقدير أنه صفة لموصوف محذوف : أي لغنيمة طيبة لمن أخذه .

٢١ ـ كتابه صلى الله عليه وسلم لأهل أذرح وجرباء بالأمان

وكتب لأهل أَذْرُحَ وَجَرْبَاء ما صورته :

« بسم الله الرحمن الرحيم . هذا كتاب من محمد النبي رسول الله لأهل أَذْرُحَ وَجَرْبَاء : إنهم آمنون بأمان الله وأمان محمد ، وإن عليهم مائة دينار في كل رجب وافيةً طَيِّبَة ، والله كفيلٌ عليهم بالنُّصْح والإحسان إلى المسلمين ومَن لجأ إليهم من المسلمين في المخافة والتَّعزير[1] » .

وصالح أهل مِيناء على رُبع ثمارهم .

(السيرة الحلبية ٢ : ٢٦٤ ، وتهذيب تاريخ ابن عساكر ١ : ١١٥ ، والمواهب شرح الزرقاني ٣ : ٤١٣)

٢٢ ـ كتابه صلى الله عليه وسلم لأكيدر دومة

وكتب صلى الله عليه وسلم لِأُكَيْدِر دُومَة ، وهو أُكَيْدِرُ بن عبدالملك الكِنْدي[2] ، وكان ملكا على دُومة الجَنْدَل ، وكان نصرانيا :

بسم الله الرحمن الرحيم . هذا كتاب من محمد رسول الله لِأُكَيْدِر دُومَة ، حين أجاب إلى الإسلام ، وخَلَع الأنداد والأصنام[3] ، مع خالد بن الوليد سيف الله في دُومَة الجندل وأَكْنَافِهَا[4] .

---

(١) التعزير : الإعانة والنصر . (٢) بعث صلى الله عليه وسلم خالد بن الوليد في سريه إلى أكيدر بن عبد الملك بدومة الجندل (بين الشام والمدينة) في رجب سنة تسع ، فخرج للقاء خالد ، وتلقته خيل رسول الله صلى الله عليه وسلم فأخذته ، وقتلوا أخاه حسان ، وقدم خالد بأكيدر على رسول الله ، فحقن له دمه ، وصالحه على الجزية ، ثم خلى سبيله فرجع . وقد اختلف في إسلامه ، فقيل إنه أسلم لما قدم على رسول الله ـ كما يدل عليه كتابه له ـ ثم ارتد بعد موت الرسول ، وحاصره خالد في خلافة أبي بكر الصديق وقتله لنقضه العهد . وقيل إنه لم يسلم وإنه لما صالحه صلى الله عليه وسلم عاد إلى حصنه وبقي فيه على نصرانيته.

(٣) الأنداد : جمع ند بالكسر وهو ضد الشيء الذي يناده أي يخالفه ، والمراد ما كانوا يتخذونه آلهة من دون الله تعالى . الأصنام : جمع صنم ، وهو ما اتخذ إلها من دون الله .

(٤) الأكناف : جمع كنف بالتحريك . وهو الجانب والناحية .

إن لنا الضاحيةَ من الضَّحْلِ وَالْبَوْرِ وَالمَعَامِيَ وأغفالَ الأرض والحَلْقَةَ والسلاحَ والحافِرَ والحِصْن ، ولكم الضامِنةُ من النخل ، والمَعِين من المعمور[١] ، لاتُعْدَل سارِحَتُكم ، ولا تُعَدُّ فَارِدتكم[٢] ولا يُحْظَر[٣] عليكم النبات ، تُقيمون الصلاة لوقتها ، وتؤتون الزكاةَ بحقِّها ، عليكم بذلك عهد الله والميثاق ، ولكم بذلك الصدق والوفاء ، شهد الله ومن حضر من المسلمين .

(صبح الأعشى ٢ : ٢٤٦ ، و ٦ : ٣٧٠ ، والسيرة الحلبية ٣ : ٣٢٩ ، وفتوح البلدان البلاذرى ص ٦٨ ، والعقد الفريد ١ : ١١٢ ، والروض الأنف ٢ : ٣١٩ ، ومعجم البلدان ٤ : ١٠٨ والمواهب شرح الزرقانى ٣ : ٤١٤)

٢٣ — كتابه صلى الله عليه وسلم لبنى كلب

وقَدِم قَطَنُ بن حارثةَ العُلَيْمِيّ[٤] فى وفد كَلْب على النبى صلى الله عليه وسلم فذكر كلاما ، فكتب له رسول الله كتابا ، نُسْخته :

---

(١) الضاحية : الناحية البارزة التى لاحائل دونها ، والمراد هنا أطراف الارض . الضحل : القليل من الماء يكون فى الغدير ونحوه ، وبالتحريك مكان الضحل . وقال أبوعبيد « الضاحية من الضحل : ما ظهر وبرز ، وكان خارجا من العمارة فى البر من النخل » ويروى : الضاحية من البعل ، والبعل: النخل الراسخ عروقه فى الأرض ، فهو يشرب بها من غير سقى. البور : الأرض التى لم تزرع ، وهو بالفتح مصدر وصف به ، ويروى : بالضم وهو جمع بوار (بالفتح) ، وهى الأرض الخراب التى لم تزرع . المعامى : الأراضى المجهولة التى ليس فيها أثر عمارة واحدها معمى (كمذهب) وهو موضع العمى كالمجهل . أغفال الأرض : أى المجهولة التى ليس فيها أثر يعرف ، وحكى اللحيانى : « أرض أغفال » كأنهم جعلوا كل جزء منها غفلا (بالضم) . الحلقة : السلاح عاما ، وقيل : الدروع خاصا. والسلاح : ما أعد للحرب من آلة الحديد مما يقاتل به ، والسيف وحده يسمى سلاحا . الحافر : الخيل والبراذين والبغال والحمير . الحصن : هو حصن أكيدر بدومة الجندل ، وكان يقال له : « مارد » . وفى العقد الفريد : « ... ... والحلقة ، ولكم السلاح والحصن ، ولكم الضامنة من النخل ... » . الضامنة من النخل : ما تضمنته أمصارهم وقراهم ، وكان داخلا فى العمارة وأطاف به سور المدينة . وقيل: سميت ضامنة لأن أربابها ضمنوا عمارتها وحفظها ، فهى ذات ضمان ، كعيشة راضية بمعنى ذات رضا . المعين من المعمور : الماء الذى ينبع من العين فى العامر من الأرض ، وفى العقد « ... والمعين من المعمور بعد الخمس » .

(٢) لا تعدل سارحتكم : لا تصرف ما شيتكم ولا تمال عن المرعى ولا تمنع . الفاردة : الزائدة على الفريضة ، ولا تعد فاردتكم : أى لاتضم إلى غيرها وتحشر إلى الصدقة حتى تعد مع غيرها وتحسب .

(٣) الحظر : المنع ، أى لاتمنعون من الزرع والمرعى حيث شئتم .

(٤) نسبة لبنى عليم من كلب .

« هذا كتاب من محمد رسول الله لِعَمَائِرِ كَلْب وأحلافها، ومَن ظَأَرَه[1] الإسلام من غيرها ، مع قَطَن بن حارثة العُلَيْمِىّ ، بإقامة الصلاة لوقتها ، وإيتاء الزكاة بحقها ، فى شدة عَقْدها ، ووفاء عهدها ، بمحضر شهود من المسلمين : سَعْدِ بن عُبادةَ ، وعبد الله ابن أُنَيْسٍ ، وَدِحْيَة بن خليفة الكلبىّ ؛ عليهم فى الهَمُولَةِ الرَّاعيةِ البِساطِ الظُّؤار : فى كل خمسين ناقةً غيرُ ذَاتِ عَوارٍ[2] والحَمُولةُ المَائِرَةُ لهم لاغيةٌ[3] ، وفى الشَّوِىِّ الْوَرِىِّ مُسِنَّةٌ حامِلٌ أو حافِلٌ[4] ، وفيما سَقَى الجَدْولُ من العَين المَعِينِ[5] العُشْرُ من ثمرها مما أخرجت أرضُها، وفى العِذْىِ شَطْرُه بقيمة الأمين[6] ، فلا تُزاد عليهم وظيفةٌ[7] ولا تفرَّق ، يَشْهد اللهُ تعالى على ذلك ورسوله » .

وكتب ثابت بن قيس بن شماس . (العقد الفريد ١ : ١٠٩)

٢٤ — كتابه صلى الله عليه وسلم لثقيف

ولما قَدِم رسولُ الله صلى الله عليه وسلم المدينةَ من تَبُوكَ فى رمضان سنة تسع ، وَفَدَ عليه فى ذلك الشهر وفد من أشراف ثَقِيفٍ[8] ، فأسلموا وبايعوا ، وقد كتب لهم خالد بن سعيد بن العاص كتابا فيه :

---

(١) العمائر : جمع عمارة بالفتح وتكسر ، وهى أصغر من القبيلة . الأحلاف : جمع حلف بالكسر وهو المحالف (الصديق يحلف لصديقه أن لا يغدر به) . ظأره : عطفه وجمعه (وفى العقد « ومن ساده » وهو تحريف) . (٢) الهمولة : التى قد أهملت ترعى بنفسها . البساط : يروى بالفتح والضم والكسر ، جمع بسط بالكسر، وهى الناقة التى تركت وولدها لايمنع منها ولا تعطف على غيره. الظؤار: جمع ظئر بالكسر وهى العاطفة على غير ولدها المرضعة له فى الناس وغيرهم . العوار : مثلثة العيب .
(٣) الحمولة : ما احتمل عليه القوم من بعير وغيره . المائرة : التى تحمل عليها الميرة ، وهى الطعام ونحوه مما يجلب للبيع . لاغية : أى ملغاة ، فاعلة بمعنى مفعولة : أى لا تعد عليهم ولا يلزمون لها صدقة لأنها عوامل . (٤) الشوى : جمع شاة . الورى : السمينة . شاة حافل : احتفل لبنها ، أى اجتمع فى ضرعها . (٥) العين : مطر أيام لايقلع . المعين : الماء الجارى على وجه الأرض ، من معن الماء كـكرم ومنع أى جرى، فوزنه ، فعيل . وقيل من عان الماء يعين إذا جرى أيضاً فوزنه مفعول فى الأصل .
(٦) العذى : النخل والزرع الذى لايسقى إلا من ماء المطر لبعده من المياه ، ويسمى أيضاً العثرى بفتح أوله وثانيه وتشديد الياء ، سمى به لأنه لايحتاج فى سقيه إلى تعب بدالية وغيرها ، كأنه عثر على الماء عثراً بلا عمل من صاحبه . الشطر: نصف الشىء: بقيمة الأمين : أى بتقويمه . (٧) الوظيفة : النصاب فى الزكاة ، وأصله الشىء الراتب . (٨) كانوا ينزلون بالطائف شرقى مكة .

« بسم الله الرحمن الرحيم . من محمد النبي رسول الله إلى المؤمنين :

إن عِضَاهَ وَجٍّ[1] وصَيْدَه حرام . لا يُعْضَد[2] شَجَرُه ، ومن وُجِد يفعل شيئاً من ذلك فإنه يُجْلَد وَتُنْزَعُ ثيابُه ، فإن تعدَّى ذلك فإنه يؤخذ فيُبْلَغُ به النبيُّ محمد ، وإن هذا أمْرُ النبي محمدٍ رسول الله .

وكتب خالد بن سعيد بأمر الرسول محمد بن عبد الله فلا يتعدَّه أحد ، يَظْلِم نفسه فيما أمره به محمد رسول الله » .

(سيرة ابن هشام ٢ : ٣٥١ ، والسيرة الحلبية ٢ : ٣٣٩ ، والمواهب : شرح الزرقانى ٤ : ١٠)

* * *

وروى صاحب العقد قال :

وَفَدت ثقيف على النبي صلى الله عليه وسلم ، فكتب لهم كتابا حين أسلموا : أن لهم ذمَّةَ الله ، وأن واديَهُمْ حَرامٌ عِضَاهُه ، وصَيْدُه ، وظُلْمٌ فيه ، وأن ما كان لهم من دَيْنٍ إلى أجَلٍ فبلَغَ أجَلَهُ ، فإنه لِيَاطٌ[3] مُبَرَّأٌ من الله ورسوله ، وأن ما كان لهم من دَين في رهن وراء عُكاظ ، فإنه يُقْضَى إلى رأسه ويُلاطُ بعكاظ[4] » .

(العقد الفريد ١ : ١١٠)

٢٥ — كتابه صلى الله عليه وسلم إلى ملوك حمير

وقَدِم على رسول الله صلى الله عليه وسلم كتابُ ملوكِ حِمْيَر ، مَقْدَمَه من تَبُوكَ ، ورُسُلُهُمْ إليه بإسلامهم : الحارث بن عبد كُلَالٍ ، ونُعَيْمُ بن عبد كُلَالٍ والنَّعمان

---

(١) العضاه : كل شجر يعظم وله شوك ، واحدها عضاهة كقلادة ، وعضهة كعنبة ، وعضه بالهاء كعنب ، وعضة بالتاء كعدة . وج : اسم واد بالطائف . وقيل هو الطائف ، وكانت تسمى «وجاء» بوج ابن عبد الحي من العماليق ، وهو أخو أجأ الذى سمى به جبل طيء .

(٢) عضده : كضربه قطعه (وكنصر : أعانه ونصره ، وأصاب عضده) .

(٣) اللياط : الربا ، سمى لياطا لأنه شيء لا يحل ألصق بشيء ، وكل شيء ألصق بشيء وأضيف إليه ، فقد أليط به ، والربا ملصق برأس المال ، واللياط فى هذا الحديث : الربا الذى كانوا يربونه فى الجاهلية ، ردهم الله إلى أن يأخذوا رءوس أموالهم ويدعوا الفضل عليها .

(٤) وفى لسان العرب بعد ذلك « ولا يؤخر » انظر مادة « ليط » .

قَيْلُ ذى رُعَيْنٍ، وَهَمْدَان، ومَعَافر . وبعث إليه زرْعَةُ ذو يَزَن مالكَ بن مُرَّةَ الرَّهَاوِيّ[١] بإسلامهم، ومفارقتِهِمُ الشِّرْكَ وأهله، فكتب إليهم رسول الله صلى الله عليه وسلم :

« بسم الله الرحمن الرحيم، من محمد النبيّ رسول الله إلى الحارث بن عبد كُلال، ونُعَيْم بن عَبْد كُلال، والنُّعمان قَيْلِ ذى رُعَيْنٍ، وهَمْدَان، ومَعَافر .

أمّا بعدَ ذٰلكم، فإنى أَحْمَدُ إليكم الله الذى لا إله إلا هو، أما بعدُ فإنه قَدْ وَقَعَ[٢] بِنَا رَسُولُكم مَقْفَلَنَا[٣] من أرض الروم، فَلَقِينَا بالمدينة، فبلَّغَ مَا أَرْسَلْتُمْ به، وخبَّر ما قِبَلَكم، وأنبأنا بإسلامكم وقتلِكم المشركين، وأنّ الله قد هدا كم بهدايته . إن أصلحتم، وأطعتم الله ورسوله، وأقمتم الصلاة، وآتيتم الزكاة، وأعطيتم من المغانم خُمْس الله، وَسهْمَ نَبِيِّهِ وصَفِيِّه، وما كَتَبَ على المؤمنين من الصَّدَقة، مِن العَقَار[٤] عُشْرُ ما سَقَتِ العَيْنُ، وما سَقَتِ السماء، وكل ماسُقِيَ بالغَرْبِ[٥] نصف العُشر، وفى الإبل : فى الأربعين ابنةُ لَبُونٍ، وفى ثلاثين من الإبل ابنُ لَبُونٍ ذَكَرٌ[٦]، وفى كل خَمْسٍ من الإبل شاة، وفى كل عَشْرٍ من الإبل شاتان، وفى كل أربعين من البقر بقرة[٧]، وفى كل ثلاثين من البقر تَبِيعٌ : جَذَعٌ أو جَذَعَةٌ[٨]، وفى كل أربعين من الغنم سائمةً[٩] وَحْدَها شاةٌ، وإنها فريضة الله التى فَرَض على المؤمنين فى الصدقة، فمن زاد خيراً فهو خيرٌ له، ومن أدَّى ذلك وأشهد على إسلامه، وظَاهَرَ[١٠] المؤمنين على المشركين، فإنه من المؤمنين : له ما لهم وعليه ما عليهم، وله ذمة الله وذمة رسوله،

---

(١) نسبة إلى رهاء كسماء : حى من مذحج . (٢) أى نزل بنا، من وقع الطائر عنى الشجرة إذا نزل عن طيرانه . (٣) وقت قفولنا أى رجوعنا، وفعله كنصر وضرب، وفى رواية « منقلبنا » . (٤) العقار : الضيعة أى يجب العشر فى كل ما سقى بماء يجرى على الأرض وماسقى بالمطر . (٥) الغرب : الدلو العظيمة. (٦) ابن لبون: ولد الناقة إذا استكمل العام الثانى ودخل فى الثالث والأنثى ابنة لبون، وذلك لأن أمه وضعت غيره فصار لها لبن، وهو نكرة ويعرف بأل فيقال: ابن اللبون. (٧) وحددت بأن تكون ذات سنتين . (٨) التبيع : ولد البقرة أول سنة . والجذع من البقر : ما دخل فى السنة الثانية . (انظر النهاية لابن الأثير ج ١ : ص ١٥٠) فالمعنى : فيها تبيع دخل فى السنة الثانية (٩) أى راعية لا معلوفة، من سامت الماشية : إذا رعت . (١٠) ناصر وأعان .

وإنه من أسلم من يهودىّ أو نَصْرانى، فإنّ له مثل ما لهم، وعليه مثل ما عليهم، ومن كان على يهوديَّته أو نَصرانيته، فإنه لا يُفتَن عنها، وعليه الجزية، على كل حالمٍ[1]، ذكرٍ أو أنثى، حُرٍّ أو عبدٍ، دينارٌ وافٍ، أو قيمته من المَعَافِرِ[2] أو عِوَضه ثيابا، فمن أدَّى ذلك إلى رسول الله، فإن له ذمة الله وذمة رسوله، ومن منعه فإنه عدو لله ولرسوله.

أما بعدُ: فإن رسول الله محمداً النبي أرسل إلى زُرْعة ذى يَزَن: أنْ إذا أتتكم رُسُلى، فأُوصيكم بهم خيراً: مُعَاذ بن جَبل، وعبد الله بن زيد، ومالك بن عُبادة، وعُقْبة بن نَمِر، ومالك بن مُرّة وأصحابهم، وأن اجْمَعُوا ما عندكم من الصدقة والجزية من مَخَالِيفكم[3] وأبلغوها رسلى، وأن أميرهم مُعاذ بن جبل فلا ينقلبَنَّ إلاّ راضيا.

أما بعد: فإن محمداً يشهد أنْ لا إله إلا الله، وأنه عبده ورسوله، ثم إن مالك ابن مُرّة الرَّهاوىّ، قد حَدَّثنى أنك قد أسلمت من أول حِمْير، وقتلت المشركين، فأبشرْ بخير، وآمُرُك بحمير خيراً، ولا تَخُونوا، ولا تَخَاذَلوا، فإن رسول الله مَوْلَى غنيِّكم وفقيركم.

وإن الصدقة لا تحلّ لمحمد ولا لأهله، إنما هى زكاة يتزكَّى بها على فقراء المؤمنين وأبناء السبيل، وإن مالكا قد بلَّغ الخبرَ، وحَفظَ الغيبَ، وآمركم به خيرا.

وإنى قد بعثت إليكم من صالحى أهلى، وأُولِى دِينهم، وأُولِى عِلْمهم، فآمركم بهم خيرا، فإنهم منظورٌ إليهم، والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته».

(تاريخ الطبرى ٣ : ١٥٣، وسيرة ابن هشام ٢ : ٣٨٠، والسيرة الحلبية ٢ : ٣٥١، وفتوح البلدان للبلاذرى ص ٧٧ وص ٧٨)

---

(١) حلم الصبى كقتل، واحتلم: أدرك وبلغ مبلغ الرجال فهو حالم ومحتلم.

(٢) معافر بفتح الميم: بلد باليمن، وأبو حى من همدان باليمن أيضاً، وإلى أحدهما تنسب الثياب المعافرية، وجاء فى اللسان: «وثوب معافرى لأنه نسب إلى رجل اسمه معافر. ولا يقال بضم الميم وإنما هو معافر غير منسوب، وقد جاء فى الرجز الفصيح منسوبا. قال الأزهرى: برد معافرى: منسوب إلى معافر اليمن. ثم صار اسما لها: (أى البرود) بغير نسبة. فيقال: معافر. وفى الحديث: أنه بعث معاذا إلى اليمن وأمره أن يأخذ من كل حالم ديناراً، أو عدله من المعافرى، وهى برود باليمن ... الخ». وجاء فى معجم البلدان «قال الأصمعى: ثوب معافر غير منسوب، فمن نسب، وقال معافرى فهو عنده خطأ، وقد جاء فى الرجز الفصيح منسوبا».

(٣) مخاليف: جمع مخلاف بالكسر، وهو بلغة اليمن الكورة

٢٦ — كتابه صلى الله عليه وسلم إلى همدان

وقَدِم ذو المِشْعارِ مالكُ بن نَمَطٍ فى وَفْدٍ من هَمْدَانَ(١) على رسول الله صلى الله عليه وسلم مَرْجِعَه من تَبُوكَ ، فخطب مالك بين يديه ، وكتب لهم رسول الله كتابا فيه :

« بسم الله الرحمن الرحيم . هذا كتابٌ من محمدٍ رسول الله لِمِخْلاف خارِفٍ(٢) ، وأهل جَناب الهَضْب ، وحِقافِ الرَّمْلِ ، مع وَافِدِها ذى المِشْعار مالِكِ بن نَمَطٍ ، ومن أسلم من قومه ، على أن لهم فِرَاعَهَا وَوِهَاطَهَا(٣) ، ما أقاموا الصلاة وآتَوُا الزكاة ، يأكلون عِلافَهَا ، ويَرْعَوْنَ عافِيَهَا(٤) ، لهم بذلك عَهْدُ اللهِ ، وذِمامُ رسوله، وشاهِدُهُم المهاجرون والأنصار » .

(صبح الأعشى ٢ : ٢٤٥ ، و ٦ : ٣٧٤ ، وسيرة ابن هشام ٢ : ٣٨٦)

رواية أخـــرى

وفى رواية أخرى أن كتابه إليهم :

« إن لكم فِرَاعَها وَوِهاطَها وَعَزَازَها(٥) ، تأكلون عِلافَها، وتَرْعَوْنَ عَفَاها(٦) ، لنا من دِفْئِهِمْ وصِرَامِهم(٧) ماسَلَّـموا بالميثاق والأمانة ، ولهم من الصـدقة

---

(١) قبيلة من اليمن . (٢) خارف : بطن من همدان . الجناب : الناحية كالجنبة (بالفتح) الحقاف : جمع حقف بالكسر وهو المعوج من الرمل ، أو الرمل العظيم المستدير أو المستطيل المشرف ، أو هى رمال مستطيلة بناحية الشحر (ساحل البحر بين عمان وعدن ، بالفتح ويكسر) ويجمع الحقف أيضاً على أحقاف وحقوف . (٣) الفراع : جمع فرعة كوردة ، وهى ما ارتفع من الأرض . الوهاط : جمع وهطة وهى ما اطمأن من الأرض ، لغة فى وهدة . (٤) جمع عاف (كجبل) وهو ما تعتلفه الدواب من نبات الأرض . العافى : ما ليس لأحد فيه ملك ، من قولهم . عفا الأثر إذا درس .

(٥) العزاز : ما صلب من الأرض واشتد وخشن ، ويكون ذلك فى أطرافها .

(٦) العفا : العافى ، وهو فى العقد واللسان والقاموس بالقصر ، وفى الشفاء بالمد .

(٧) الدفء : نتاج الإبل وما ينتفع به منها ، سمى دفئا لأنه يتخذ من أوبارها وأصوافها ما يستدفأ به ، والمراد هنا الإبل والغنم . الصرام : النخل وأصله قطع الثمرة .

الثِّلْبُ ، والنابُ ، والفَصِيل ، والفارِضُ ، والداجن[(١)] ، والكَبْشُ الحَوَرِىّ[(٢)] ، وعليهم فيها الصَّالِغُ والقَارِحُ[(٣)] » .

(الشفا للقاضى عياض ص ٤٨ ، وصبح الأعشى ٦ : ٣٧٤ ، والعقد الفريد ١ : ١٠٩)

٢٧ — كتابه صلى الله عليه وسلم إلى بنى نَهد

وكتب صلى الله عليه وسلم مع طَهْفَةَ بن أبى زُهَيْرٍ النَّهْدِىّ حين وفد عليه كتاباً إلى بنى نَهْدٍ[(٤)] ، فيه :

« بسم الله الرحمن الرحيم . من محمد رسول الله إلى بنى نهد بن زيد : السلام على من آمن بالله ورسوله ، لكم يابنى نَهْدٍ فى الوظيفة الفَرِيضَةُ[(٥)] ، ولكُمُ العَارِضُ[(٦)] ، والفَرِيشُ ، وذو العِنان الرَّكوبُ ، والفَلُوُّ الضَّبِيسُ لا يُمْنَع سَرْحُكم ، ولا يُعْضَدُ طَلْحُكم ، ولا يُحْبَسُ دَرُّكم[(٧)] ولا يؤكل أُكُلُكُمْ ، مالم تُضْمِرُوا الإماق[(٨)] ،

(١) الثلب : الجمل تكسرت أنيابه هرما . الناب : الناقة المسنة . الفصيل : ولد الناقة اذا فصل عن أمه من الرضاع . الفارض : المسن من الإبل : الداجن : الشاة التى يعلفها الناس فى منازلهم ، والمراد أنه لايؤخذ منهم فى الزكاة . (٢) الكبش الحورى : منسوب إلى الحور ، وهى جلود تتخذ من جلود الضأن . وقيل : هو ما دبغ من الجلود بغير القرظ .

(٣) الصالغ : بالصاد والسين هو من البقر والغنم الذى كمل وانتهى سنه ، ويكون ذلك فى السنة السادسة . القارح : الفرس إذا استتم السنة الخامسة ودخل فى السادسة . (٤) قبيلة باليمن

(٥) الوظيفة : النصاب فى الزكاة ، وأصله الشىء الراتب . الفريضة : الهرمة المسنة ، والمراد أنها لاتؤخذ منهم فى الزكاة ، بل تكون لهم . ويروى « عليكم فى الوظيفة الفريضة » أى فى كل نصاب مافرض فيه . (٦) يروى بالعين وبالفاء ، فالعارض بالعين : المريضة ، وقيل : هى التى أصابها كسر ، يقال : عرضت الناقة إذا أصابها آفة أو كسر أى إنا لا نأخذ ذات العيب فنضر بالصدقة . الفارض بالفاء : المسنة كالفريضة . الفريش : هى التى وضعت حديثا كالنفساء من النساء ، والفرس بعد نتاجها بسبع ليال ، وهو خير أوقات الحمل عليها . ذو العنان الركوب : الفرس الذلول . الفلو : كحمل وعدو وسمو المهر الصغير ، وقيل العظيم من جميع أولاد الحافر . الضبيس : العسر الصعب الذى لم يرض .

(٧) السرح : المواشى السائمة ، أى أنها لاتمنع من المرعى . يعضد : يقطع . الطلح : شجر عظام . الدر : اللبن ، والمرادذوات الدر من المواشى ، أراد أنها لاتحشر إلى المصدق ، وتمنع المرعى إلى أن تجتمع الماشية ثم تعد ، لما فى ذلك من الإضرار . (٨) الإماق : مخفف من الإمآق ترك الهمز منه ليوازن الرباق ، الإمآق : نكث العهد من الأنفة ، من أمأق إذا صار ذا مأقة (بالفتح) وهى الحمية والأنفة . يقول : لكم الوفاء بما كتبت لكم مالم تأتوا بالمأقة فتغدروا وتنكثوا ، وقيل الإماق مصدر أماق ، وهو أفعل من الموق (بضم) أى الحمق ، والمراد إضمار الكفر والعمل على ترك الاستبصار فى دين الله تعالى .

وتأكلوا الرِّبَاقَ[١]، مَن أقَرَّ بما فى هذا الكتاب فله من رسول الله الوفاء بالعهد والذمّة، ومن أبَى فعليه الرِّبْوَة[٢]».

(صبح الأعشى ٢ : ٢٤٤ و ٦ : ٣٦٨، والعقد الفريد ١ : ١١٤، والشفا للقاضى عياض ص ٤٨، والمثل السائر ص ٦٣، والمواهب اللدنية القسطلانى شرح الزرقانى ٤ : ١٩٢)

٢٨ — كتابه صلى الله عليه وسلم إلى وائل بن حجر وأهل حضرموت

وكتب صلى الله عليه وسلم إلى وائل بن حُجْر وأهل حَضْرَمَوْتَ:

«من محمد رسول الله إلى الأقْيَالِ العَبَاهِلَة من أهل حَضْرَمَوْتَ[٣]، بإقامة الصلاة، وإيتاء الزكاة، على التِّيعَةِ[٤] الشاةُ، والتِّيمةُ[٥] لصاحبها، وفى السُّيُوبِ[٦] الخُمْسُ،

---

(١) الرباق: جمع ربق بالكسر وهو حبل فيه عدة عرى تشد به البهيمة من يدها أو عنقها، كل عروة ربقة بالكسر والفتح، والمعنى: وتقطعوا رباق العهد الذى فى أعناقكم وتنقضوه. واستعار الأكل لذلك لأن البهيمة إذا أكلت الربقة خلصت من الشد.

(٢) الربوة: الزيادة، أى من تقاعد عن أداء الزكاة فعليه الزيادة فى الفريضة الواجبة عليه كالعقوبة له ويروى «من أقر بالجزية فعليه الربوة» أى من امتنع عن الإسلام لأجل الزكاة كان عليه من الجزية أكثر مما يجب عليه بالزكاة. (٣) الأقيال: جمع قيل (كشمس) وهو الملك من ملوك حمير أو هو دون الملك الأعلى، فهو فى حمير كالوزير فى الإسلام. العباهلة: الذين أقروا على ملكهم فلم يزالوا عنه (بالبناء للمجهول) وجاء فى اللسان «وواحد العباهلة عبهل (كجعفر) والتاء لتأكيد الجمع كقشعم وقشاعمة، ويجوز أن يكون الأصل عباهيل جمع عبهول (كعصفور) أو عبهال (كقرطاس) فحذفت الياء وعوض منها الهاء... الخ». حضرموت بفتح الميم وتضم: فى أقصى اليمن. (٤) التيعة: اسم لأدنى ما تجب فيه الزكاة من الحيوان، كالخمس من الإبل، والأربعين من الغنم، قال ابن الأثير: وكأنها الجملة التى للسعاة عليها سبيل، من تاع إليه يتيع: إذا ذهب إليه.

(٥) التيمة: الشاة الزائدة على الأربعين حتى تبلغ الفريضة الأخرى، وقيل هى الشاة التى تكون لصاحبها فى منزله يحلبها وليست بسائمة، وهى بمعنى الداجن.

(٦) السيوب جمع سيب (كشمس) وهو الركاز (ككتاب) ويشمل المعدن والكنز، فالمعدن ما خلقه الله تعالى تحت الأرض. والكنز مادفنه العباد، وسمى سيبا لأنه من سيب الله أى من عطائه وفضله لمن أصابه.

لاخِلَاطَ ولا وِرَاطَ(١) ولا شِنَاقَ(٢) ولا شِغَارَ(٣) ، ومن أَجْبَى فقد أَرْبَى(٤) ، وكل مسكر حرام » .

(صبح الأعشى ٢ : ٢٤٦ ، ٦ : ٣٧١ . والعقد الفريد ، ١ : ١١٢ ، والبيان والتبيين ٢ : ١٣)

رواية أخرى

وفى رواية أخرى أن كتابه لهم :

« إلى الأقيال العبَاهِلَة ، والأَرْوَاعِ المَشَابِيبِ(٥) ، فى التِّيعَة شَاةٌ ، لا مُقْوَرَّة الأَلْيَاطِ ولاضِنَاكَ(٦) ، وأَنْطُوا الثَّبَجَةَ(٧) ، وفى السُّيُوبِ الخُمُسُ ، ومن زَنَى مِمْ بِكرٍ(٨)

---

(١) الخلاط : مصدر خالط كالمخالطة ، والمراد أن يخلط الرجل إبله بإبل غيره أو بقره أو غنمه ليمنع حق الله تعالى منها ، ويبخس المصدق (بتشديد الدال المكسورة : آخذ الصدقات) فيما يجبله والوراط : أن تجعل الغنم فى وهدة من الأرض لتخفى على المصدق ، مأخوذ من الورطة (كوردة)وهى الهوة من الأرض .

(٢) الشناق : المشاركة فى الشنق بالتحريك ، وهو ما بين الفريضتين من كل ما تجب فيه الزكاة، فى الغنم مثلا فى أربعين شاة شاة واحدة ، وفى مائة وإحدى وعشرين شاتان ، وما بينهما عفو أى لازكاة فيما بين النصابين ، ولا تؤخذ من الشنق حتى يتم . وقيل أى لا يشنق الرجل غنمه أو إبله إلى مال غيره ليبطل ما يجب عليه من الصدقة ، وذلك أن يكون لكل واحد منهما أربعون شاة ، فيجب عليهما شاتان ، فإذا أشنق أحدهما (أى أضاف) غنمه إلى غنم الآخر ، فوجدها المصدق فى يده أخذ منها شاة ، وهو مثل قوله « لاخلاط » لكن حمله على الأول أولى لتعدد المعنى . (٣) الشغار : نكاح معروف فى الجاهلية ، وهو أن يزوج الرجل الرجل ابنته أو أخته على أن يزوجه ابنته أو أخته بغير مهر .

(٤) الإجباء بيع الزرع قبل بدو صلاحه ، وقيل هو أن يغيب إبله عن المصدق أخذا من أجبأته : إذا واريته ، وقيل هو أن يبيع من الرجل سلعة بثمن معلوم إلى أجل معلوم ، ثم يشتريها منه بالنقد بأقل من الثمن الذى باعها به . أربى : وقع فى الربا . (٥) الأرواع جمع أروع ، وهو من يعجبك بحسن منظره أو بشجاعته كالرائع ، وقيل هم الذين يروعون الناس أى يفزعونهم بشدة الهيبة . المشابيب : السادة الرءوس ، الزهر الألوان ، الحسان المناظر واحدهم مشبوب كأنما أوقدت ألوانهم بالنار ، ويروى الأشياء جمع شبيب ، فعيل بمعنى مفعول .

(٦) الألياط : جمع ليط (بالكسر) وهو الجلد وقشر كل شيء . الإقورار : استرخاء الجلد، والمقورة الألياط : المسترخية الجلد لهزالها . الضناك : الكثير اللحم المذكر والأنثى ، والمراد أنه لا تؤخذ المفرطة فى السمن كما لا تؤخذ الهزيلة . (٧) أنطوا : هو بلغة أهل اليمن بمعنى أعطوا خاطبهم صلى الله عليه وسلم بلغتهم — الثبجة : الوسط من المال التى ليست من خياره ولا رذالته أخذا من ثبجة الناقة : ما بين الكاهل إلى الظهر . (٨) جرى فيه على لغة أهل اليمن حيث يبدلون لام التعريف ميما . قال ابن الأثير : وعلى هذا فتكون راء بكر مكسورة من غير تنوين لأن أصله من البكر ، فلما أبدلت الألف واللام ميما بقيت الحركة بحالها ، ويكون قد استعمل البكر موضع الأبكار . قال : والأشبه أن تكون بكر منونة . وقد أبدلت نون من ميما ، لأن النون الساكنة إذا كان بعدها باء قلبت فى اللفظ ميما نحو عنبر ومنبر ، ويكون التقدير ومن زنى من بكر .

فاصْقَعوه مائةً واستَوْفِضُوه(١) عاما ، ومن زنى مِمْ ثَيِّبٍ فضرِّجوه بالأَضَامِيمِ(٢) ، ولا تَوْصِيمَ(٣) فى الدين ، ولا غُمَّةَ(٤) فى فرائض الله تعالى ، وكل مسكر حرام . ووائل ابنُ حُجْرٍ يترفَّلُ(٥) على الأَقْيَال » .

(الشفا للقاضى عياض ص ٤٩ ، وصبح الأعشى ٢ : ٢٤٦ و ٦ : ٢٧١)

٢٩ — كتابه صلى الله عليه وسلم إلى فروة بن عمرو الجذامى

وكتب صلى الله عليه وسلم إلى فَرْوَةَ بن عمْرو الُجذَامِيِّ(٦) — وقد بعث إليه رسولا بإسلامه :

« من محمد رسول الله إلى فروة بن عمرو :

أما بعدُ ، فقد قَدِمَ علينا رسولُك ، وبلَّغ ما أَرْسَلْتَ به ، وخبَّر عما قِبَلَكم خيراً ، وأتانا بإِسلامك وأن الله هداك بهُداه » (صبح الأعشى ٦ : ٣٦٨)

٣٠ — كتاب خالد بن الوليد إليه صلى الله عليه وسلم

وكتب خالد بن الوليد رضى الله عنه إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم ، يُنبئه بإِسلام بنى الحٰرث(٧) بن كعب سنة عشر :

---

(١) أى اضربوه ، وأصل الصقع الضرب على الرأس، وقيل الضرب ببطن الكف . استوفضوه : انفوه وغربوه ، أخذا من قولهم استوفضت الابل إذا تفرقت فى رعيها .

(٢) أى أدموه بالضرب ، تضرج بالدم : تلطخ به الأضاميم : جمع إضامة بالكسر وهى الحجارة، والمعنى ارموه بالحجارة . (٣) التوصيم : الفترة والتوانى أى لا تفتروا فى إقامة الحدود ولا تتوانو فيها . (٤) الغمة : الستر أى لا تستروا فرائض الله ولا تخفوها ، بل اجهروا بها وأعلنوها .

(٥) أى يسود ويترأس ، استعارة من ترفيل الثوب ، وهو إسباغه وإرساله .

(٦) وكان فروة عاملا للروم على من يليهم من العرب ومنزله معان (كسحاب : مدينة فى طرف بادية الشام تلقاء الحجاز من نواحى البلقاء) وما حولها من أرض الشأم، فلما بلغ الروم إسلامه طلبوه حتى أخذوه ، فحبسوه ثم قتلوه وصلبوه .

(٧) وكان عليه الصلاة والسلام قد بعثه إليهم بنجران فى ربيع الآخر — أو جمادى الأولى — سنة عشر ، ليدعوهم إلى الإسلام .

« بسم الله الرحمن الرحيم ، لمحمدٍ النبي رسول الله صلى الله عليه وسلم ، من خالد ابن الوليد : السَّلَامُ عليك يا رسول الله ورحمة الله وبركاته ، فإنى أَحْمَدُ إليك الله الذى لا إلٰهَ إلا هو ، أمَّا بعدُ يا رسول الله صلى الله عليك ، فإنك بعثتنى إلى بنى الحٰرث بن كَعْب ، وأمَرْتنى إذا أتيتُهُمْ أنْ لا أقاتِلهم ثلاثةَ أيام ، وأن أدعُوَهم إلى الإسلام ، فإن أسلموا أقمتُ فيهم ، وقبِلْتُ منهم ، وعلّمتُهم مَعَالِمَ الإسلام وكتابَ الله وسنةَ نبيه ، وإن لم يُسْلِموا قاتلتُهم ، وإنى قَدِمتُ عليهم فدعوتُهُم إلى الإسلام ثلاثةَ أيام كما أمرنى رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وبعثت فيهم رُكْباناً قالوا يا بنى الحرث أَسْلِموا تَسْلَموا ، فأسْلَموا ولم يقاتلوا ، وأنا مقيمٌ بين أظْهُرِهم ، آمُرُهم بما أمَرَهم الله به ، وأنهاهم عما نَهاهم الله عنه ، وأعلِّمهم معالم الإسلام ، وسنةَ النبي صلى الله عليه وسلم ، حتى يكتب إلىَّ رسول الله صلى الله عليه وسلم ، والسلامُ عليك يا رسول الله ورحمة الله وبركاته » .

(تاريخ الطبرى ٣ : ١٥٦ ، وسيرة ابن هشام ٢ : ٣٨٣ ، وصبح الأعشى ٦ : ٤٦٥)

٣١ — رده صلى الله عليه وسلم على خالد

فكتب إليه صلى الله عليه وسلم :

« بسم الله الرحمن الرحيم . من محمد النبى رسول الله إلى خالد بن الوليد : سَلامٌ عليك ، فإنى أحمَد إليك الله الذى لا إله إلا هو . أما بعد فإن كتابك جاءنى مع رسولك يُخْبِرنى أن بنى الحٰرث بن كعب قد أسلموا قبل أن تقاتلهم ، وأجابوا إلى ما دَعَوْتَهم إليه من الإسلام ، وشَهِدوا أنْ لا إله إلا الله وحده لا شريك له ، وأنَّ محمدا عبده ورسوله وأن قدهداهم الله بِهُداه ، فَبَشِّرهم وأنذِرهم ، وأقْبِلْ ولْيُقْبِلْ معك وَفْدُهم ، والسلام عليك ورحمة الله وبركاته » .

(تاريخ الطبرى ٣ : ١٥٦ ، وسيرة ابن هشام ٢ : ٣٨٣ ، وصبح الأعشى ٦ : ٣٧٦)

٣٢ — عهده صلى الله عليه وسلم لعمرو بن حزم الأنصارى حين ولاه اليمن

وبعث رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى بنى الحارث بن كعب — بعد أن ولّى وفْدُهم — عَمْرَو بن حَزْمٍ الأنصارىَّ ، ليفقِّهَهم فى الدين ، ويعلِّمهم السُّنّة ، ومَعالِمَ الإسلام ، ويأخذَ منهم صَدَقاتِهِمْ ، وكتب له كتابا عَهِد إليه فيه ، وأمَرَه فيه بأمره :

« بسم الله الرحمن الرحيم . هذا بيانٌ من الله ورسوله « يٰأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَوْفُوا بِالْعُقُودِ » عَقْدٌ من محمدٍ النبى رسول الله لِعَمْرِو بن حَزْمٍ ، حين بعثه إلى اليمن ، أمره بتقوى الله فى أمْرِه كلّه فـ« إِنَّ اللهَ مَعَ الَّذِينَ اتَّقَوْا وَالَّذِينَ هُمْ مُحْسِنُونَ » وأمَره أن يأخذ بالحقِّ كما أمَرَ به اللهُ ، وأن يبشِّر الناس بالخير ويأمرهم به ، ويعلِّم الناس القرآن ، ويفقِّههم فى الدين ، وينهى النّاس فلا يَمَسَّ أحد القرآنَ إلا وهو طاهر ، ويُخبر الناس بالذى لهم وبالذى عليهم ، ويَلِينَ للناس فى الحق ، ويشتدَّ عليهم فى الظلم ، فإن الله عز وجل كرِه الظلم ونهى عنه ، وقال « أَلاَ لَعْنَةُ اللهِ عَلَى الظَّالِمِينَ » ويُبَشِّر الناس بالجنة وبعملها ، ويُنْذِر بالنار وبعملها ، ويستألِف الناس حتى يتفقَّهوا فى الدين ، ويعلِّم الناس معالِمَ الحج وسُنّته وفريضته ، وما أمر الله به فى الحج الأكبر ، والحج الأصغر ، وهو العُمْرَة ، وينهى الناس أن يصلى أحد فى ثوب واحد صغير ، إلا أن يكون ثوباً واحداً يَثْنِى طَرَفيه على عاتقيه ، وينهى الناس أن يَحْتَبِيَ[1] أحدٌ فى ثوب واحد يُفْضِى بفَرْجِهِ إلى السماء ، وينهى أنْ لا يَعْقِصَ[2] أحدٌ شعرَ رأسه إذا عَفَا[3] فى قفاهُ ، وينهى — إذا كان بين الناس هَيْج[4] — عن الدعاء إلى القبائل والعشائر ، وليكن دُعاؤهم

---

(١) احتبى الرجل : جمع ظهره وساقيه بثوب أو غيره ، وقد يحتبى بيديه .
(٢) عقص شعره : ضفره وفتله . (٣) أى كثر وطال .
(٤) أى ثوران ، هاج هيجا وهيجانا وهياجا بالكسر فى الأخير .

إلى الله وحدَه لا شريكَ له ، فمن لم يدعُ إلى الله ودعا إلى القبائل والعشائر ، فليُقَطَّعوا بالسيف حتى يكون دعاؤهم إلى الله وحده لا شريك له ، ويأمر الناس بإسْبَاغِ الوضوء[١] : وجوهِهِمْ وأيديهم إلى المرافق وأرجلِهِمْ إلى الكعبين، ويمسحون برءوسهم كما أمرهم الله عز وجل ، وأمَرَه بالصلاة لوقتها ، وإتمام الركوع والخشوع ، ويُغَلِّسُ[٢] بالفجر ، ويُهَجِّرُ[٣] بالهاجرة حين تميل الشمس ، وصلاة العصر والشمسُ فى الأرض مُدْبِرةٌ ، والمغربِ حين يُقبل الليل ، لا تؤخَّر حتى تبدوَ النجوم فى السماء ، والعِشاء أول الليل ، ويأمر بالسَّعْيِ إلى الجُمُعة إذا نُودِيَ لها ، والغُسْلِ عند الرَّواح إليها ، وأمَرَهُ أن يأخذ من المغانم خُمْسَ الله وما كَتَب على المؤمنين فى الصَّدقة ، من العَقَار عُشْرُ ما سقت العَين[٤] وما سقت السماء ، وعلى ما سَقَى الْغَرْبُ نِصْفُ العشر ، وفى كل عَشْر من الإبل شاتان ، وفى كل عشرين من الإبل أربعُ شِياهٍ ، وفى كل أربعين من البقر بقرة ، وفى كل ثلاثين من البقر تبيعٌ : جَذَعٌ[٥] أو جذعة ، وفى كل أربعين من الغنم سائمةً وَحْدَها شاةٌ ، فإنها فريضة الله التى افترض الله عزّ وجل على المؤمنين فى الصدقة ، فمن زاد خيراً فهو خير له .

وإنه من أسلم من يهودى أو نصرانى إسلاما خالصاً من نفسه ، ودان بدين الإسلام، فإنه من المؤمنين، له مِثلُ ما لهم وعليه مثل ما عليهم، ومن كان على نصرانيته أو يهوديته فإنه لا يُفْتَنُ عنها ، وعلى كل حالِمٍ ذكرٍ أو أنثى ، حُرٍّ أو عبدٍ دينارٌ وافٍ أو عِوَضه

---

(١) إسباغ الوضوء : إتمامه . (٢) الغلس محركة : ظلمة آخر الليل إذا اختلطت بضوء الصباح ، وغلس فى الصلاة : صلاها بالغلس أى وبكر بصلاة الفجر . (٣) التهجير : التبكير إلى الصلوات ، وهو المضى فى أوائل أوقاتها . قال صلى الله عليه وسلم : « المهجر إلى الجمعة كالمهدى بدنة » وقال « ولو يعلمون ما فى التهجير لاستبقوا إليه » والهاجرة نصف النهار عند زوال الشمس . والمراد صلاة الهاجرة : أى الظهر . وفى رواية صبح الأعشى : « ويهجر بالظهر » . (٤) وفى الطبرى وفتوح البلدان « ما سقى البعل » وفسره البلاذرى بأنه « السيح » أى الماء الجارى ، وفى كتب اللغة « البعل : كل نخل وشجر وزرع لا يسقى ، أو ما سقته السماء » وربما كان « الغيل » كما سيأتى فى الكتاب التالى ، جاء فى اللسان « الغيل (بالفتح) الماء الجارى على وجه الأرض ، وفى الحديث : ما سقى بالغيل ففيه العشر ، وما سقى بالدلو ففيه نصف العشر » . (٥) انظر ص ٥٦ .

ثياباً ، فمن أدَّى ذلك ، فإن له ذمة الله وذمة رسوله ، ومن منع ذلك فإنه عدو لله ولرسوله وللمؤمنين جميعاً .

صلوات الله على محمد والسلام عليه ورحمة الله وبركاته » .

(تاريخ الطبرى ٣ : ١٥٧ ، وسيرة ابن هشام ٢ : ٣٨٤ ، وصبح الأعشى ١٠ : ٩ وفتوح البلدان للبلاذرى ص ٧٧)

٣٣ — كتابه صلى الله عليه وسلم إلى معاذ بن جبل

وكتب صلى الله عليه وسلم إلى مُعاذ بن جَبَل رضى الله عنه ، وهو باليمن(١) « أن فيما سَقَتِ السماء أَوْ سُقِىَ غَيْلاً العُشْرَ ، وفيما سقِىَ بالْغَرْب وَالدَّالية(٢) نصفَ العشر ، وأن على كل حالم دينارا أو عِدْل ذلك من المَعَافِر(٣) ، وأن لا يُفْتَنَ يهودى عن يهوديته » . (فتوح البلدان للبلاذرى ص ٧٨)

٣٤ — كتابه صلى الله عليه وسلم إلى معاذ بن جبل

وكتب صلى الله عليه وسلم إلى مُعَاذ بن جبل(٤) رضى الله عنه يعزّيه بابن له مات :

« من محمد رسول الله إلى مُعَاذِ بن جَبَل :

سلامٌ عليك ، فإنى أَحْمَدُ إليك الله الذى لا إله إلا هو ، أما بعدُ فعظَّم الله لك الأَجْرَ ، وألهمك الصبرَ ، ورَزَقَنا وإياك الشكرَ ، ثم إن أنفسَنا وأهْلينا وَمَوَالِينا(٥) من مواهب الله السَّنِيَّة ، وعَوارفه(٦) المستودعَة ، نُمَتَّعُ بها إلى أجل معدود ، وتُقْبَضُ

---

(١) وكان عليه الصلاة والسلام بعث سنة عشر معاذبن جبل عاملا على الكورة العليا من جهة عدن، وبعث أبا موسى الأشعرى على الكورة السفلى ، وقد مكث معاذبن جبل باليمن حتى توفى رسول الله .

(٢) الغرب : الدلو العظيمة. الدالية : هى مايعرف عندنا « بالشادوف ».

(٣) انظر هامش ص ٥٧ . (٤) هو معاذبن جبل الأنصارى الخزرجى ، شهد بدرا ، وبعثه عليه الصلاة والسلام واليا على اليمن كما قدمنا وكان ممن جمع القرآن، وتوفى فى طاعون عمواس بالشام سنة ١٨ هـ.

(٥) الموالى جمع مولى: وهو القريب والصاحب والعبد . (٦) العوارف : جمع عارفة وهى المعروف بالعرف بالضم .

لوقت معلوم ، ثم افترض علينا الشكرَ إذا أعطى ، والصَّبْرَ إذَا ابتَلَى ، وكان ابنُك من مواهب الله الهَنِيَّة ، وعوارفه المستودعَة ، مَتَّعك به فى غبطة[1] وسرور ، وَقَبَضَه منك بأجرٍ كثيرٍ : الصلاةِ[2] والرحمةِ والهدى ، إن صَبَرْتَ وَاحْتَسَبْتَ[3] ، فَلَا تَجْمَعَنَّ عليك يامُعاذُ خَصْلَتين[4] : أن يُحْبِطَ جَزَعُك صَبْرَك ، فتندمَ على ما فاتك ، فلو قَدِمْتَ على ثواب مصيبتك ، قد أطعتَ ربَّك ، وتنجَّزْتَ موعودَه ، عرَفْتَ أن المصيبة قد قَصُرَت عنه ، واعلم أن الجزع لا يَرُدّ ميتا ، ولا يَدْفَع حُزْنا ، فَأَحْسِنِ الجزَاءَ وتنجَّزِ الموعودَ ، وَلْيَذْهبْ أسفَكَ ما هو نازلٌ بك فكأَنْ قَدْ[5] » .

(صبح الأعشى ٩ : ٨٠)

٣٥ — كتابه صلى الله عليه وسلم لمجاعة بن مرارة

وقَدِم على رسول الله صلى الله عليه وسلم وفد بنى حَنيفة ، وفيهم مُسَيْلِمة بن حبيب ، وَمُجَّاعة بن مُرارة ، فسأل مجاعة رسولَ الله أن يُقْطِعه أرضا ، فأقطعه إياها ، وكتب له كتابا ، وهو :

« بسم الله الرحمن الرحيم . هذا كتاب كتبه محمد رسول الله لِمُجَّاعة بن مُرارة ابن سلمى ، إنى أقطعتُك الْغَوْرَةَ وَغُرابة والْحُبَل[6] ، فمن حاجَّك فإلىّ » .

(فتوح البلدان للبلاذرى ص ١٠٠)

٣٦ — كتاب مسيلمة بن حبيب إليه صلى الله عليه وسلم

فلما عاد وفد بنى حنيفة إلى اليمامة ، ادَّعى مسيلمة النبوة ، وكتب إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم — وكان ذلك آخر سنة عَشرٍ — :

---

(١) الغبطة : المسرة . (٢) الصلاة وما بعدها بدل من أجر . (٣) احتسب يكذا أجرا عند الله: اعتده ينوى به وجه الله، واحتسب فلان ابنه إذا مات كبيرا، فإن مات صغيرا قيل افترطه .
(٤) أى فقد الولد وفقد الثواب، ويحبط: يفسد . (٥) أى فكأن قد نزل بك الموت لأنه لامحالة مدركك . (٦) الغورة بالفتح ، ورواه بعضهم بالضم، وغرابة والحبل: مواضع باليمامة .

« من مُسيلمة رسول الله إلى محمد رسول الله .

سلام عليك ، أما بعدُ فإني قد أُشْرِكْتُ في الأمر معك ، وإن لنا نِصْفَ الأرض ، ولقريش نِصْف الأرض ، ولكنّ قريشا قوم يعتَدُون[1] » .

وكتب عمرو بن الجارود الحنفي .

(تاريخ الطبرى ٣ : ١٦٦ ، وسيرة ابن هشام ٢ : ٣٨٨ ، والسيرة الحلبية ٢ : ٣٤٧ ، وصبح الأعشى ٦ : ٤٦٨ ، والكامل لابن الأثير ٢ : ١١٥ ، وفتوح البلدان للبلاذرى ص ٩٤ ، والمواهب شرح الزرقانى ٤ : ٢٥)

٣٧ — رده صلى الله عليه وسلم على مسيلمة

فكتب صلى الله عليه وسلم إليه :

« بسم الله الرحمن الرحيم . من محمد رسول الله إلى مسيلمةَ الكذاب . سلام على من اتبع الهدى ، أما بعدُ ، فإنّ الأرضَ لِلّهِ يُورِثُهَا مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَالْعَاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ » .

وكتب أُبَيّ بن كعب .

(تاريخ الطبرى ٣ : ١٦٧ ، وسيرة ابن هشام ، ٢ : ٣٨٨ ، والسيرة الحلبية ٢ : ٣٤٧ ، وصبح الأعشى ٦ : ٣٨١ ، والكامل لابن الأثير ٢ : ١١٥ ، وفتوح البلدان للبلاذرى ص ٩٥ ، والمواهب شرح الزرقانى ٤ : ٢٥)

٣٨ — كتابه صلى الله عليه وسلم لبنى زهير بن أقيش

وكتب صلى الله عليه وسلم لبنى زُهَير بن أُقَيْش :

« بسم الله الرحمن الرحيم . من محمد رسول الله لبنى زهير بن أُقَيْش من عُكْل[2] ، إنهم إن شَهِدُوا أنْ لا إله إلا الله ، وأن محمدا رسول الله ، وفارقوا المشركين ، وأقاموا

---

(١) وفى فتوح البلدان « ولكن قريشاً لاينصفون »وفى السيرة الحلبية « وليس قريش قومايعدلون»
(٢) اسم قبيلة ، وهم بنو عكل بن عبدمناة بن أد بن طابخة بن إلياس بن مضر،ومنهم النمر بن تولب. وكان فى هذه القبيلة غباوة وقلة فهم ولذلك يقال لكل من فيه غفلة ويستحمق : عكلى .

الصلاة ، وآتَوُا الزكاة ، وأقرُّوا بالخمْسِ من غنائمهم[1] ، وسَهْمِ النبي وصَفِيّه ، فإنهم آمنون بأمان الله ورسوله » .

(شرح الزرقانى على المواهب ٣ : ٣٨٢ ، وصبح الأعشى ١٣ : ٣٢٩)

٣٩ — كتابه صلى الله عليه وسلم إلى أكثم بن صيفى

وكتب صلى الله عليه وسلم إلى أكثم بن صيفى :

« من محمد رسول الله إلى أكثم بن صيفى .

أَحْمَدُ اللهَ إليك ، إن الله أمرنى أن أقولَ لا إله إلا الله . أقولُهَا ، وآمُرَ الناس بها والخَلْقُ خلق الله ، والأَمْر أمر الله ، خَلَقَهم وأماتهم ، وهو يُنْشِرهم[2] ، ولَتَعْلَمُنَّ نَبَأَهُ بَعْدَ حِينٍ[3] » .

(تاريخ آداب اللغة العربية للأستاذ حسن توفيق ص ٧٩)

---

(١) وفى صبح الأعشى « وأعطيتم من الغنائم الخمس » .

(٢) نشر الله الموتى كقعد، وأنشرهم : أحياهم. (٣) وجاء فى سرح العيون ص١٤ فى ترجمته: « أدرك مبعث النبى صلى الله عليه وسلم وراسله ، واختلف فى إسلامه ، والأكثر على صحته .

حكى أنه لما بلغه مبعث النبى صلى الله عليه وسلم قال لقومه : احملونى إليه ، فقالوا : لا والله ، وأنت سن من أسنان العرب ، قال : فليأته أحدكم فليسأله عن ربه وعما أمره به ، فأتاه حبيش بن أكثم ، فقال : يامحمد ! بم بعثك ربك ؟ قال : بعثنى بأن أكسر الأوثان. قال : بم أمرك ؟ قال : « إِنَّ اللهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالْإِحْسَانِ وَإِيتَاءِ ذِي الْقُرْبَى وَيَنْهَى عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ وَالْبَغْيِ يَعِظُكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ » فانصرف حبيش إلى أبيه ، فأخبره بكلام رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وتلا عليه الآية الشريفة ، فجعل يرددها ويقول : إن هذا لرب كريم ، يأمر بمحاسن الأخلاق ، وينهى عن مساويها . ثم جمع إليه بنى تميم وقام فيهم خطيباً يدعوهم إلى الإسلام (وقد أوردنا خطبته فى جمهرة خطب العرب . ج ١ : ص ١٥٩ فقام مالك بن نويرة، وقال :لقد خرف شيخكم، فلا تتعرضوا البلاء ! فقال أكثم : ويل الشجى من الخلى ، لهفى على أمر لم أدركه ولم يسبقنى . (وفى مجمع الأمثال ج ٢ : ص ٢١٧ « ولم يسعنى ») ثم رحل إلى النبى صلى الله عليه وسلم فمات فى الطريق ، وبعث بإسلامه مع من أسلم ممن كان معه . وذكر عن ابن عباس رضى الله عنهما أن آية : « وَمَنْ يَخْرُجْ مِنْ بَيْتِهِ مُهَاجِراً إِلَى اللهِ وَرَسُولِهِ ثُمَّ يُدْرِكْهُ الْمَوْتُ فَقَدْ وَقَعَ أَجْرُهُ عَلَى اللهِ » نزلت فى أكثم ومن تبعه من أصحابه . وقال قوم آخرون : خرج مهاجرا ولم يسلم . وجاء فى أسد الغابة ج ١ :ص ١٢٤) فى ترجمته :« ولما بلغ أكثم ظهور رسول الله صلى الله عليه وسلم أرسل

٤٠ — كتابه صلى الله عليه وسلم لأبى ضميرة

وكتب صلى الله عليه وسلم لأبى ضُمَيرة وأهل بيته[1] :

« بسم الله الرحمن الرحيم . هذا كتاب من محمد رسول الله لأبى ضُمَيرة وأهل بيته ، إن رسول الله أعتقهم ، وإنهم أهل بيت من العرب ، إن أحبُّوا أقاموا عند رسول الله ، وإن أحبوا رَجَعوا إلى قومهم ، فلا يُعْرَض لهم إلا بحقّ ، ومن لَقِيَهُمْ من المسلمين فَلْيَسْتَوْصِ بهم خيرا » .

وكتب أُبَىّ بن كعب .

فاختار أبو ضميرة الله ورسوله ، ودخل فى الإسلام .

(المواهب اللدنية للقسطلانى شرح الزرقانى٣ : ٤١٤ : وأسد الغابة ٣ : ٤٧ ،والإصابة ٣:٢٧٥)

٤١ — كتابه صلى الله عليه وسلم لبنى ضمرة بالموادعة

« بسم الله الرحمن الرحيم . هذا كتاب من محمد رسول الله لبنى ضَمْرة ، بأنهم آمِنون على أموالهم وأنفسهم ، وأن لهم النصر على من نَاوَأَهم[2] ، وأن لايحارَبوا فى دين الله ما بَلّ بَحْرٌ صُوفَةً[3] ، وأن النبى إذا دعاهم لنَصْره أجابوه ، عليهم بذلك ذِمّةُ الله وذمة رسوله ، ولهم النصر على من بَرّ منهم واتقى » .

(مفتاح الأفكار ص ٤٩)

= إليه رجلين يسألانه عن نسبه ، وما جاء به فأ خبرهما وقرأ عليهما : « إن الله يأمر . . . . الآية » . فعدا إلى أكثم فأخبراه وقرأا عليه الآية ، فلما سمع أكثم ذلك قال : ياقوم أراه يأمر بمكارم الأخلاق، وينهى عن ملائمها، فكونوا فى هذا الأمر رءوسا ولا تكونوا أذنابا، وكونوا فيه أولا ولاتكونوا فيه آخرا، فلم يلبث أن حضرته الوفاة » . (١) روى أن رسول الله صلى الله عليه وسلم مر بأم ضميرة وهى تبكى فقال : ما يبكيك؟ أجائعة أنت أم عارية ؟ فقالت : يارسول الله! فرق بينى وبين ابنى — وكانوا أهل بيت من العرب مما أفاء الله على رسوله فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: لايفرق بين الوالدة وولدها : ثم أرسل إلى الذى عنده ضميرة فابتاعه منه ببكر وأعطاه لأمه ، وأبو ضميرة قيل اسمه سعد ، وقيل روح .
(٢) أى عاداهم . (٣) انظر هامش ص ٢٤ .

٤٢ — كتابه صلى الله عليه وسلم للداريين وهو بمكة

وروى أنه قَدِم من الشام إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم بمكة قبل الهجرة نَفَر من الدارِيِّين[(١)]، فأسلموا وسألوا رسول الله أن يُقْطِعَهم أرضاً من أرض الشأم[(٢)]، فدعا بقطعة من أَدَم، وكتب لهم فيها كتابا نسخته :

« بسم الله الرحمن الرحيم. هذا كتاب ذُكِرَ فيه مَا وَهَبَ محمد رسول الله للدَّارِيِّين إذا أعطاه اللهُ الأرضَ. وَهَبَ لهم بيتَ عَيْنُونَ[(٣)] وحَبْرُونَ والمرطوم[(٤)]، وبيتَ

(١) هم بنو الدار بن هانئ بن حبيب بن نمارة بن لخم بن عدى ... ينتهى نسبهم الى كهلان بن سبأ ابن يشجب بن يعرب بن قحطان، وفى حديث أحدهم « أبى هند الدارى » أنهم كانوا ستة نفر وهم : تميم ابن أوس، ونعيم أخوه (بضم النون) ويزيد بن قيس، وأبو هند بن عبد الله، والطيب أخوه، وفاكه ابن النعمان — كما جاء فى صبح الأعشى نقلا عن تاريخ ابن عساكر، وفى المواهب — وسماهم ابن هشام تسعة. زاد على هؤلاء: عرفة بن مالك، ومروان بن مالك، وجبلة بن مالك، — انظر سيرة ابن هشام ج ٢: ص ٢٣٩ — وفى السيرة الحلبية أنهم سبعة، قال : « ووفد عليه صلى الله عليه وسلم قبل الهجرة الداريون: أبو هند الدارى وتميم الدارى وأخوه نعيم وأربعة آخرون» وفى تاريخ ابن عساكر عن الواقدى أنهم لما وفدوا على رسول الله منصرفه من تبوك (أى فى المرة الثانية) كانوا عشرة نفر، يزاد على من ذكرنا هانئ ابن حبيب .

(٢) فقال لهم عليه الصلاة والسلام : سلوا حيث شئتم. فنهضوا من عنده يتشاورون، فقال تميم : أرى أن نسأله بيت المقدس وكورها . فقال أبو هند : هـذا محل ملك العجم، وكذلك يكون فيها ملك العرب، وأخاف أن لا يتم لنا هذا . فقال تميم : فنسأله بيت جبرين وكورتها (هكذا فى صبح الأعشى، وبيت جبرين بالجيم المكسورة وبالباء الساكنة : قرية غربى بيت المقدس، وبين عسقلان . وفى المواهب اللدنية « بيت جيرون » بالجيم المفتوحة وبالياء الساكنة، وقد ضبطها بالعبارة، وهو مافى السيرة الحلبية، وجيرون : هى دمشق أو بابها الذى يقرب الجامع) فقال أبو هند : هذا أكبر وأكبر ! فقال : فأين ترى أن نسأله ؟ فقال : أرى أن نسأله القرى التى يقع فيها تل (أى لتكون حصونا لهم) وقد جاء فى المواهب: أرى أن نسأله القرى التى نصنع فيها حصونا مع آثار إبراهيم . فقال تميم : أصبت ووفقت ! ثم نهضوا إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم . فقال : يا تميم أتحب أن تخبرنى بما كنتم فيه أو أخبركم ؟ فقال تميم: بل تخبرنا يا رسول الله فنزداد إيمانا . فقال صلى الله عليه وسلم : أردت يا تميم أمرا، وأراد أبو هند غيره، ونعم الرأى رأى أبى هند ! فدعا بقطعة من أدم، وكتب لهم الكتاب المذكور .

(٣) عينون : من قرى بيت المقدس . حبرون : اسم القرية التى فيها قبر إبراهيم الخليل عليه السلام جنوبى بيت المقدس، وقد غلب على اسمها « الخليل » ويقال لها أيضا حبرى كسكرى .

(٤) وردت هذه الكلمة فى السيرة الحلبية، وفى المواهب فى هذا الكتاب، وفى الكتاب التالى بالميم فى أولها « المرطوم » ولم ترد فى تاريخ ابن عساكر، وصبح الأعشى فى الكتاب الأول، ووردت =

إبراهيم عليه الصلاة والسلام بمن فيهن لهم إلى الأَبَد[١] .

شهد بذلك عباس بن عبد المطلب ، وخُزَيمة بن قيس[٢] ، وشُرَحْبيلُ بن حَسَنة ، وكتب وأعطاهم الكتاب ، وقال : انصرفوا حتى تسمعوا أنى قد هاجرت ، فانصرفوا .

(السيرة الحلبية ٢ : ٣٣٥ ، وصبح الأعشى ١٠ : ١١٩ ، وتهذيب تاريخ ابن عساكر ٣ : ٣٥٢ ، والمواهب شرح الزرقانى ٢ : ٤١١)

٤٣ — كتابه صلى الله عليه وسلم للداريين وهو بالمدينة

فلما هاجر صلى الله عليه وسلم إلى المدينة ، قَدِموا عليه فسألوه أن يُجدِّد لهم كتابا آخر ، فكتب لهم كتابا نسخته :

« بسم الله الرحمن الرحيم . هذا ما أَنْطَى[٣] محمدٌ رسول الله لتَميم الدارِىّ[٤] وأصحابه ، إنى أنطيتكم بيت عَينون وحَبْرُون والمرطوم ، وبيت إبراهيم عليه الصلاة والسلام برُمَّتهم[٥] ، وجميع مافيهم نَطِيَّةَ بَتٍّ[٦] ، ونفَّذْت وسلمت ذلك لهم ولأعقابهم من بعدهم

= فى الكتاب الثانى فى صبح الأعشى بدون ميم فى أولها « الرطوم » وفى ابن عساكر فى رواية بالميم ، وفى رواية أخرى بدونها . وأورد ياقوت فى معجمه الكتاب الثانى ، وفيه « المرطوم » ولم يورد كلتا الكلمتين بين أسماء البلدان . وفى شرح الزرقانى على المواهب بياض بالأصل ، وعلى هامشه « وفى بعض النسخ المرطهوم » ولم أجدها فى كتب اللغة ولا فى مصور فلسطين الكبير ، وقد سألت بعض أهل فلسطين عنها فلم يعرفوا موقعها ، والمفهوم من سياق العبارة أنها قرية تاريخية بقرب حبرون وعيون .

(١) يقال لا آتيه أبد الأبد ، وأبد الآباد ، وأبد الأبدين ، وأبد الأبدية ، وأبد الدهر . . . بمعنى ، وفى المواهب « ومن فيهم إلى أبد الأبد » وقال الزرقانى فى شرحه : عبر بجمع الذكور العقلاء فلم يقل من فيها تنزيلا لها منزلة العقلاء تجوزا . (٢) فى ابن عساكر وصبح الأعشى « وجهم بن قيس » .

(٣) أنطى : أعطى ، والنطية العطية بلغة أهل اليمن . (٤) ورد فى أسد الغابة (ج ١ : ص ٢١٥) فى ترجمته أنه « تميم بن أوس بن خارجة بن سود بن خزيمة بن ذراع بن عدى بن الدار ... الخ ، كان نصرانيا فأسلم سنة تسع من الهجرة (تنبه إلى أن الخبر الذى أوردناه فى تقدمة الكتاب الأول ، فيه تصريح بأنه هو وأصحابه أسلموا بمكة قبل الهجرة ، أجل إنهم وفدوا عليه ثانية منصرفه من تبوك أى سنة تسع كما قدمنا) وأقطعه النبى صلى الله عليه وسلم قرية عينون بفلسطين ، وكتب له كتابا ، وكان يسكن المدينة ، ثم انتقل إلى الشام بعد مقتل عثمان ، وهو أول من قص ، استأذن عمر بن الخطاب فى ذلك فأذن له » .

(٥) يقال أعطيته هذه الأشياء برمتها : أى بجملتها ، والرمة بالضم ويكسر : قطعة من حبل . وأصله أن رجلا دفع إلى آخر بعيرا بحبل فى عنقه ، فقيل لكل من دفع شيئا بجملته ، أعطاه برمته ، وفى معجم ياقوت « بنمتهم » . والرواية الأولى أصح لقوله بعد « وجميع مافيهم » .

(٦) البت : القطع ، أى عطية لا تردد ولا رجعة فيها ، وفى السيرة الحلبية « نطية بيت » وهو تحريف .

أبد الأبد ، فمن آذاهم فيها آذاه الله[١] » .

شهد بذلك أبو بكر بن أبى قُحافة ، وعمر بن الخطاب ، وعثمان بن عفان وعلىّ ابن أبى طالب ، ومعاوية بن أبى سفيان ، وكتب .

(السيرة الحلبية ٢ : ٣٣٦ ، وصبح الأعشى ١٣ : ١٢٠ ، ومعجم البلدان ٣ : ٢٠٨ وتهذيب تاريخ ابن عساكر ٣ : ٣٥٢ ، والمواهب شرح الزرقانى ٣ : ٤١١)

٤٤ — كتاب أبى بكر رضى الله عنه لهم[٢]

فلما قُبض رسول الله صلى الله عليه وسلم ووَلِى أبو بكر رضى الله عنه ووَجَّه الجنود إلى الشأم ، كتب لهم كتابا نسخته :

« بسم الله الرحمن الرحيم . من أبى بكر الصِّديق إلى أبى عُبَيْدَةَ بن الجرّاح ، سلام عليك ، فإنى أَحْمَد إليك اللهَ الذى لا إله إلا هو .

أما بعد ، فامْنَعْ من كان يُؤْمن بالله واليوم الآخر من الفَساد فى قُرَى الدَّاريِّين ، وإن كان أهْلُها قد جَلَوا عنها ، وأراد الدَّاريُّون أن يزرعوها ، فلْيَزْرَعوها بلا خَراج ، فإذا رجع أهلُها إليها فهى لهم ، وأحقُّ بهم ، والسلام عليك » .

(تهذيب تاريخ ابن عساكر ٣ : ٣٥٢ وصبح الأعشى ١٣ : ١٢٠ والمواهب شرح الزرقانى ٣ : ٤١١)

رواية أخـــرى

٤٥ — كتابه صلى الله عليه وسلم للداريين

وروى أن تميم بن أَوْس الدَّارىّ قام فقال : يا رسول الله ! إن لى جيرةً من الرُّوم بفِلَسْطِينَ لهم قريةٌ يقال لها حَبْرَى ، وأخرى يقال لها بيت عَيْنُون ، فإن فَتَحَ الله عليك الشأمَ فَهَبْهُمَا لى ، قال : هما لك ، قال : فاكتب لى بذلك ، فكتب له :

(١) وفى معجم ياقوت « أبد الآبدين » وفيه « آذى الله » .

(٢) أوردنا هذا الكتاب هنا. ولم نرجئه إلى خلافة أبى بكر ، كى تتصل حلقة خبر الداريين .

« بسم الله الرحمن الرحيم . هذا كتابٌ من محمد رسول الله لتَميم بن أوْسٍ الداريّ ، إن له قريةَ حَبْرَى وَبَيْتَ عَيْنُونَ قَرْيتَها كُلَّهَا : سَهلَهَا وجَبَلَها وماءها وحَرَّتها وأنباطها[١] ونَفَرها[٢] ولِعَقِبِه من بعده ، لايُحَاقُّه[٣] فيها أحد ، ولا يلجها[٤] عليهم أحدٌ بظلم ، فمن ظلمهم ، أو أخذ من أحدٍ منهم شيئاً ، فعليه لعنة الله والملائكة ، والناس أجمعين » .

(تهذيب تاريخ ابن عساكر ٣ : ٣٥٣ ، وصبح الأعشى ١٣ : ١٢١

٤٦ — كتاب أبي بكر رضي الله لهم

فلما ولى أبو بكر رضى الله عنه كتب لهم كتابا نسخته :

« هذا كِتاب من أبي بكر أمين رسول الله صلى الله عليه وسلم الذى استُخْلِفَ فى الأرض بعده . كَتَبه للدَّاريِّين أن لاتفْسَد عليهم مأثُرَتُهم[٥] قريةُ حَبْرَى وبيت عَيْنون ، فمن كان يَسْمَع ويُطيع فلا يُفْسِد منهما شيئًا ، ولْيَقُمْ عَمْرو بن العاص عليهما فَلْيَمْنَعْهُمَا من المفسدين » .

(تهذيب تاريخ ابن عساكر ٣ : ٥٣ ، وصبح الأعشى ١٣ ، ١٢١)

رواية ثالثة

٤٧ — كتابه صلى الله عليه وسلم لهم

وروى أن النبي صلى الله عليه وسلم أقطع تميما الدارى ، وكتب :

« بسم الله الرحمن الرحيم . هذا كتاب من محمد رسول الله لتميم بن أوس الداريّ ،

---

(١) وفى صبح الأعشى « وحرتهـا » والحرة بالفتح : أرض صلبة غليظة ذات حجارة سود نخرة كأنها أحرقت بالنار ، والأنباط جمع نبط بالتحريك : وهو الماء الذى ينبط كينصر ويضرب : أى ينبع من قعر البئر إذا حفرت. (٢) وفى صبح الأعشى: «وبقرها» . (٣) حاقه : خاصمه ، وفى ابن عساكر « لايخيفه » . (٤) فى صبح الأعشى : « ولا يلجه » وهو تحريف .

(٥) المأثرة بضم الثاء وفتحها: المكرمة المتوارثة . وفى ابن عساكر « أن لايفسدعليهم مابيدهم ».

إن له صِهيَوْن[1] قريتَها كلها ، سهْلَهَا وجبلَها وماءها وكُرُومها وَأَنباطَها وَوَرَقَها ، ولِعَقِبه من بعده لا يُحاقُّه فيها أحد ، ولا يَدْخل عليه بظُلم ، فمن أراد ظُلْمهم أو أَخْذه منهم فإن عليه لعنة الله والملائكة والناس أجمعين[2] » . (صبح الأعشى ١٣ : ١٢٢)

٤٨ — كتابه صلى الله عليه وسلم إلى نصارى نجران

وكتب صلى الله عليه وسلم إلى نصارى نَجْران[3] .

« بسم الله الرحمن الرحيم ، إِلٰهِ إبراهيمَ وإسْحاق ويعقوب .

أما بعدُ ، فإنى أدعوكم إلى عبادة الله من عبادة العباد ، وأدعوكم إلى ولاية الله من ولاية العباد ، فإن أبيْتم فالجزية ، فإن أبيْتم فقد آذَنْتُكُمْ بحرب الإسلام[4] » .

(صبح الأعشى ٦ : ٣٨٠ و ٣٨١)

٤٩ — عهده صلى الله عليه وسلم لأهل نجران

وفتحت « نَجْران » سنة عَشْرٍ صُلحا ، وفى هذه السنة قدِم على النبى صلى الله عليه وسلم وفْدُ نجران ، وفيهم السيِّد واسمه وَهْب ، والعاقب واسمه عبد المسيح ، والأُسْقُفّ وهو أبو حارثة ، وأراد رسول الله صلى الله عليه وسلم مُبَاهَلَتهم فامتنعوا وصالحوه ، فكتب لهم كتاب الصلح[5] ، ونسخته :

---

(١) صهيون : اسم لبيت المقدس أو موضع به .

(٢) وعقب القلقشندى على ذلك فقال: قلت « وهذه الرقعة التى كتب بها النبى صلى الله عليه وسلم موجودة بأيدى التميميين خدام حرم الخليل عليه السلام إلى الآن ، وكلما نازعهم أحد أتوا بها إلى السلطان بالديار المصرية ليقف عليها ، ويكف عنهم من يظلمهم ، وقد أخبرنى برؤيتها غير واحد ، والأديم الذى هى فيه قد خلق لطول الأمد » .

(٣) فى شمالى اليمن .

(٤) وفى مفتاح الأفكار : « بحرب ، والسلام » .

(٥) انظر معجم البلدان لياقوت الحموى (ج ٨ : ص ٢٦٢ ، ٢٦٤) وتاريخ الطبرى (ج ٣ : ص ١٦٣) المباهلة : الملاعنة ، أى الدعاء باللعنة على الكاذب . وحديثها أنهم لما قدموا عليه ، قالوا له : يا محمد لم تعيب عيسى وتسميه عبداً ؟ فقال : أجل ! عبد الله ورسوله وروحه وكلمته ألقاها إلى مريم . قالوا: فأرنا مثله يحيي الموتى ويبرئ الأكمه والأبرص ، ويخلق من الطين كهيئة الطير ، وبايعنا على أنه ابن الله، ونحن نبايعك على أنك رسول الله !! فقال صلى الله عليه وسلم: معاذ الله أن يكون لله ولد أو شريك =

« بسم الله الرحمن الرحيم . هذا ما كتب محمد النبي رسول الله لأهل نَجْرَانَ ، إذ كان له عليهم حُكْمُهُ فى كل ثَمَرَةٍ وفى كلِّ صَفْرَاءَ وبيضاءَ وسوداءَ ورَقيقٍ[1] ، فأفضلَ[2] ذلك عليهم ، وتَرَكَ ذلك كلَّه لهم ، على أَلْفَىْ حُلَّة من حُلَل الأَوَاقِ ، فى كل رجب ألف حُلَّة ، وفى كل صَفَر ألف حُلَّة ، كل حُلَّة أوقيَّة[3] من الفضة ، فما زادت

= فما زالوا يحاجونه فى عيسى ويلاحونه ، حتى أنزل الله : « فَمَنْ حَاجَّكَ فِيهِ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَكَ مِنَ الْعِلْمِ فَقُلْ تَعَالَوْا نَدْعُ أَبْنَاءَنَا وَأَبْنَاءَكُمْ وَنِسَاءَنَا وَنِسَاءَكُمْ وَأَنْفُسَنَا وَأَنْفُسَكُمْ ثُمَّ نَبْتَهِلْ فَنَجْعَلْ لَعْنَةَ اللَّهِ عَلَى الْكَاذِبِينَ » . فقال لهم : إن الله أمرنى إن لم تقبلوا الحجة أن أباهلكم ، فقالوا : يا أبا القاسم ! بل نرجع فننظر فى أمرنا ثم نأتيك . فلما رجعوا ، قالوا للعاقب — وكان ذا رأيهم — ياعبد المسيح ماترى ؟ فقال : والله لقد عرفتم يا معشر النصارى أن محمداً نبي مرسل ، ولقد جاءكم بالكلام الحق فى أمر صاحبكم ، والله ما باهل قوم نبيا قط فعاش كبيرهم ولانبت صغيرهم، ولئن فعلتم لكان الاستئصال ، فإن أبيتم إلا الإصرار على دينكم والإقامة على ما أنتم عليه، فوادعوا الرجل وانصرفوا إلى بلادكم. وكان صلى الله عليه وسلم خرج وعليه مرط من شعر أسود (المرط بالكسر : كساء من صوف أوخز) وقد احتضن الحسين ، وأخذ بيد الحسن ، وفاطمة تمشى خلفه ، وعلى رضى الله عنه خلفها ، وهو يقول « إذا دعوت فأمنوا» . (وروى أنه عليه الصلاة والسلام لما خرج فى المرط ،جاء الحسن فأدخله، ثم جاء الحسين فأدخله ، ثم فاطمة ، ثم على رضى الله عنهم، ثم قال « إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنْكُمُ الرِّجْسَ أَهْلَ الْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيرًا » فمن ذلك الوقت سمى الخمسة أصحاب الكساء)فقال أسقف نجران : « يامعشر النصارى ! إنى لأرى وجوها لو سألوا الله أن يزيل جبلا من مكانه لأزاله لها ، فلا تباهلوا فتهلكوا ولا يبقى على وجه الأرض نصرانى إلى يوم القيامة » ثم قالوا : « يا أبا القاسم ! رأينا أن لانباهلك » فقال عليه الصلاة والسلام « فإذا أبيتم المباهلة فأسلموا، يكن لكم ما للمسلمين وعليكم ماعلى المسلمين » فأبوا . فقال « فإنى أناجزكم القتال » . فقالوا « ما لنا بحرب العرب طاقة، ولكن نصالحك على أن لاتغزونا ولاتردنا عن ديننا،على أن نؤدى إليك فى كل عام ألفى حلة ، ألفا فى صفر،وألفا فى رجب، ثمن كل حلة أوقية من الفضة » فصالحهم على ذلك وقال « والذى نفسى بيده ، إن الهلاك قد تدلى على أهل نجران ، ولو لاعنوا لمسخوا قردة وخنازير ، ولاضطرم عليهم الوادى ناراً ،ولاستأصل الله نجران وأهله، حتى الطير على رءوس الشجر ،ولما حال الحول على النصارى كلهم حتى يهلكوا »(انظر كتاب ثمار القلوب فى المضاف والمنسوب للثعالبى ص٤٨٣ وتفسير الفخر الرازى مفاتيح الغيب ٢ : ٦٩٩ وغيره من كتب التفسير والسيرة الحلبية ٢ : ٣٢٤) .

(١) الصفراء : الذهب . البيضاء : الفضة . سوداء ورقيق : أى جارية وعبد .

(٢) أى أبقاه لهم . (٣) أى ثمن كل حلة أوقية. والأوقية :زنة سبعة مثاقيل ، وزنة أربعين درهما ، والجمع الأواقى بالتشديد والتخفيف . وفى كتاب الخراج : « مع كل حلة أوقية من الفضة ».وكلمة « مع » محرفة عن « ثمن » أو « قيمة » .

على الخراج ، أو نَقَصَت عن الأواقى فبالحساب(١) ، وما قَضَوا من دُرُوع ، أو خيل ، أو رِكاب ، أو عُرُوض(٢) أُخِذ منهم بالحساب .

وعلى نجرانَ مَثْوَى(٣) رُسُلى شهراً فدُونَه ، ولا تُحْبَس رُسُلى فوق شهر ، وعليهم عارِيَّة(٤) ثلاثين درعا ، وثلاثين فرسا ، وثلاثين بعيراً، إذا كان كَيْدٌ باليمن ومعرَّة(٥) ، وما هلك مما أعاروا رُسُلى من دروع أو خيل ، أو ركاب ، أو عروض ، فهم ضُمُنٌ(٦) حتى يردُّوه إليهم .

ولنجرانَ وحاشيتها جِوارُ الله ، وذِمَّة محمد النبى رسول الله، على أموالهم وأنفسهم ، وأرضهم وملَّتهم ، وغائبهم وشاهدهم ، وعشيرتهم وبِيَعِهم(٧) ، وكل ما تحت أيديهم من قليل أو كثير ، لا يُغيَّر أُسْقُفٌ عن أُسْقُفِيَّته ، ولا راهب عن رَهْبانيته ، ولا كاهن

---

(١) أى أنهم إن أدوا حلة بما فوق الأوقية حسب لهم فضل ذلك ، وإن أدوها بما دون الأوقية أخذ منهم النقصان . (٢) قضوا : أدوا . الركاب : الإبل ، واحدتها راحلة . العروض : الأمتعة جمع عرض كشمس وهو المتاع ، وكل شىء عرض إلا الدراهم والدنانير فإنها عين .

(٣) مثوى الرجل: منزله ، من ثوى بالمكان كرمى إذا نزل فيه ، أى مسكنهم مدة مقامهم ونزلهم. والمعنى : وعليهم إضافتهم . وفى كتاب الخراج « وعلى نجران مئونة رسلى ومتعتهم ، ما بين عشرين يوما فما دون ذلك » . (٤) العارية بالتشديد وقد تخفف : الشىء المستعار . قال الأزهرى « نسبة إلى العارة ، وهى اسم من الإعارة » والمراد بها هنا المعنى المصدرى ، أى الإعارة .

(٥) هكذا فى كتاب الخراج ، والمعرة : الخيانة والأذى والإثم . وفى نسخة أخرى « ذو معرة » وجاء فى فتوح البلدان « إذا كان كيد باليمن ذو مغدرة » معقبة بتفسيرها وهو « أى إذا كان كيد بغدر منهم » وعليه فمغدرة مصدر ميمى من الغدر ، وهو ترك الوفاء ، وهو معنى مستقيم . وأرى له أيضاً معنى آخر : وهو أن يكون مفعلة من الغدر بمعنى التخلف ، يقال : غدر الرجل عن أصحابه بكسر الدال غدرا يكونها : أى تخلف . والمعنى : إذا كان كيد باليمن يدعو إلى تخلفهم هنالك وليثهم لدرء هذا الكيد .

(٦) أى فهم ضامنون له وكافلون . والضامن والضمين : الكافل . وفى كتاب الخراج : « فهو ضمين على رسلى حتى يؤدوه إليهم » . أى مضمون مكفول ، فهو فعيل بمعنى مفعول .

(٧) هكذا فى كتاب الخراج : وفى نسخة أخرى « وعبادتهم » محل « عشيرتهم » . والبيع جمع بيعة : وهى متعبد النصارى . وفى فتوح البلدان « على أنفسهم وملتهم وأرضهم وأموالهم وغائبهم وشاهدهم وعيرهم وبعثهم وأمثلتهم » والعير : بالكسر القافلة ، أو الإبل تحمل الميرة بلا واحد من لفظها. الأمثلة : جمع مثال وهو الفراش .

عن كِهانته(١) ، وليس عليهم دَنِيَّة(٢) ، ولا دمٌ جاهليّة ، ولا يُحْشَرُون ، ولا يُعْشَرُون(٣) ، ولا يَطَأُ أرضهم جيش . ومن سأل منهم حقا فبينهم النَّصَفُ(٤) غيرَ ظالمين ، ولا مظلومين ، ومن أكل منهم رِبًا من ذى قِبَل(٥) فذمّتى منه بريئة ، ولا يؤخذ رجلٌ منهم بظلم آخر ، ولهم على ما فى هذا الكتاب جوارُ الله ، وذمة محمد النبى رسول الله أبداً ، حتى يأتى الله بأمره ما نَصَحُوا وأصلحوا فيما عليهم غير مُنْقَلِتين(٦) بظلم » .

شهد أبو سفيان بن حرب ، وغَيلان بن عمرو ، ومالكُ بن عوف من بنى نصر ، والأقرع بن حابس الحَنْظَلى ، والمُغيرة بن شُعْبَة ، وكتب(٧) .

(كتاب الخراج لأبى يوسف ص ٨٠ ، وفتوح البلدان البلاذرى ص ٧١)

---

(١) وفى نسخة أخرى من كتاب الخراج « ولا رافه من رفهاه » وهو تحريف وصوابه « ولا واقه عن وقهيته » والواقه بالواو والقاف: قيم البيعة بلغة أهل الجزيرة كالواهف ، والوقاهة بالكسر : وظيفته . والوقهية بفتح الواو وسكون القاف : رتبته . وفى لسان العرب : ويروى واهف . وزاد « ولا قسيس عن قسيسيته » . وفى فتوح البلدان واللسان « ولا واقه عن وقاهيته » الواقه بالقاف : الوافه . قال فى اللسان : « والصواب الفاء » . الوقاهية كضواعية وكراهية : قيامه بها .

(٢) الدنية: الشيء الدنىء الخسيس .وفى فتوح البلدان « وليس عليهم رهق » والرهق بالتحريك: الظلم ، واسم من الإرهاق ، وهو أن تحمل على الإنسان ما لا يطيقه .

(٣) لايحشرون : أى لاينديون إلى المغازى ولاتضرب عليهم البعوث . ولا يعشرون : أى لايؤخذ عشر أموالهم من عشرت ماله كنصر إذا أخذت عشره . وفى الحديث « ليس على المسلمين عشور . إنما العشور على اليهود والنصارى » . وفى كتاب الخراج « ولا يخسرون ولايسرون » وهو تصحيف (أخسرت الشيء وخسرته كضرب : نقصته . أعسرت الغريم وعسرته كنصر وضرب :طلبت منه الدين على عسرة ولم ترفق به إلى ميسرة) . (٤) النصف : ملث النون وبالتحريك :الإنصاف والعدل.

(٥) أى فى المستقبل . تقول : أفعل ذلك من ذى قبل بفتح الباء وفتح القاف وكسرها : أى فيما أستقبل ، وافعل ذلك من ذى قبل : أى فيما تستقبل . وفى كتاب الخراج « قيل » وهو تصحيف . وفى نسخة أخرى « من ذى قتل » وهو تحريف . (٦) هكذا فى كتاب الخراج . وفى نسخة أخرى « غير متغلبين» .وفى فتوح البلدان « غير مكلفين شيئا بظلم » . (٧) وفى كتاب الخراج: « وكتب لهم هذا الكتاب عبد الله بن أبى بكر » . وفى خبر فى فتوح البلدان : « وكتب على بن أبى طالب » .

٥٠ — عهد أبي بكر رضى الله عنه لهم[1]

ثم جاءوا بعد وفاته صلى الله عليه وسلم إلى أبي بكر رضى الله عنه، فكتب لهم :

« بسم الله الرحمن الرحيم . هذا ما كَتَب به عبد الله أبو بكر خليفة محمد النبي رسول الله صلى الله عليه وسلم، لأهل نَجْرَانَ . أجارهم بجِوار الله وذِمَّةِ محمد النبي رسول الله صلى الله عليه وسلم على أنفسهم وأَرَضيهم، وملّتهم وأموالهم، وحاشيتهم وعبادتهم، وغائبهم وشاهدهم، وأساقفتهم ورُهبانهم وبِيَعهم، وكلٍّ ما تحت أيديهم من قليل أو كثير، لا يُحْشَرون، ولا يُعْشَرون، ولا يُغَيَّر أُسْقُفٌ عن أُسقفيَّته، ولا راهب عن رهبانيته، وَفاءٌ لهم بكل ما كتب لهم محمد النبي صلى الله عليه وسلم، وعلى ما في هذه الصحيفة جوارُ الله وذمة محمد النبي صلى الله عليه وسلم أبداً، وعليهم النُّصْحُ والإصلاح فيما عليهم من الحق » .

شهِد المستورِدُ بن عمرو أحد بني القَيْنِ، وعمرو مولى أبي بكر، وراشد بن حُذيفة والمُغِيرة، وكتب . (كتاب الخراج ص ٨٧)

صورة أخـرى

وروى الطبري هذا العهد، بصورة تختلف بعض الأختلاف عن الصورة السالفة، قال : ولما بلغ أهلَ نجرانَ وفاةُ رسول الله صلى الله عليه وسلم، بعثوا وفدا ليجددوا عهدا، فقَدِموا إليه، فكتب لهم كتابا :

« بسم الله الرحمن الرحيم . هذا كتاب من عبد الله أبي بكر خليفة رسول الله صلى الله عليه وسلم لأهل نجران .

---

(١) ذكرنا هنا عهود الخلفاء الراشدين لأهل نجران، ولم نرجئها إلى خلافتهم، كي تتصل حلقة خبر النجرانيين .

أجارهم من جُنْده ونفسه ، وأجاز لهم ذِمَّةَ محمد صلى الله عليه وسلم ، إلا ما رجع عنه محمد رسول الله صلى الله عليه وسلم ، بأمر الله عز وجل فى أرضهم وأرض العرب ، أن لا يَسكُنَ بها دينان .

أجارهم على أنفسهم بعد ذلك ومِلَّتهم وسائر أموالهم وحاشيتهم وعبادتهم[1] وغائبهم وشاهدهم وأُسْقُفِّهم ورُهْبانهم وبِيَعِهم حيثما وقَعَتْ ، وعلى ما ملكت أيديهم من قليل أو كثير ، عليهم ما عليهم ، فإذا أدّوه فلا يُحشَرون ولا يُعْشَرُون ، ولا يُغَيَّر أُسْقُفٌ من أسقفيَّته ، ولا راهب من رهبانيته ، ووَفَّى لهم بكل مَا كَتَبَ لهم رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وعلى مافى هذا الكتاب ذمةُ محمد رسول الله صلى الله عليه وسلم وجِوار المسلمين ، وعليهم النصح والإصلاح فيما عليهم من الحق » .

شهد المِسْوَر بن عمرو وعمرو مولى أبى بكر . (تاريخ الطبرى ٣ : ٢٦٥)

٥١ — عهد عمر رضى الله عنه لهم

ثم جاءوا من بعد أن استُخْلِفَ عمر رضى الله عنه إليه ، وقد كان عمر أجلاهم عن نجران اليمن ، وأسكنهم بنجران العراق[2] لأنه خافهم على المسلمين ، فكتب لهم :

« بسم الله الرحمن الرحيم . هذا ما كتب به عمر أمير المؤمنين لأهل نجران ، من سار منهم فهو آمن بأمان الله لا يضرّه أحد من المسلمين ، وفاء لهم بما كتب محمد النبى صلى الله عليه وسلم وأبو بكر رضى الله عنه .

---

(١) فى الأصل « وعاديتهم » وهو تحريف .

(٢) موضع على يومين من الكوفة فيما بينها وبين واسط . سكنه نصارى نجران لما أخرجوا ، وسمى باسم بلدهم . وجاء فى معجم ياقوت : وإنما أجاز عمر إخراج أهل نجران وهم أهل صلح بحديث روى عن النبى صلى الله عليه وسلم فيهم خاصة عن أبى عبيدة بن الجراح رضى الله عنه عن النبى أنه كان آخر ما تكلم به أنه قال : « أخرجوا اليهود من الحجاز ، وأخرجوا أهل نجران من جزيرة العرب » وروى البلاذرىّ فى فتوح البلدان أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال فى مرضه : « لا يبقين دينان فى أرض العرب » . فلما استخلف عمر أجلى أهل نجران إلى النجرانية واشترى عقاراتهم وأموالهم .

أما بعد فمن مروا به من أمراء الشأم وأمراء العراق فليوسعهم[١] من حَرْثِ[٢] الأرض ، فما اعْتَمَلُوا من ذلك فهو لهم صَدَقَة لوجه الله ، وعُقْبَة[٣] لهم مكان أرضهم ، لاسبيلَ عليهم فيه لأحد ولا مَغْرَمَ .

أما بعد : فمن حَضَرَهم من رجلٍ مسلم فَلْيَنْصُرهم على من ظلمهم فإنهم أقوام لهم الذمة ، وجِزْيَتهم متروكة أربعةً وعشرين شهراً بعد أن يَقْدَموا ، ولا يُكَلَّفوا إلاّ صُنْعَهم البر ، غيرَ مَظلومين ولا مُعْتَدًى عليهم » .

شهد عثمان بن عفان ومُعَيْقِيب[٤] ، وكتب .

(كتاب الخراج ص ٨٧ ، وفتوح البلدان للبلاذرى ص ٧٢ ، ٧٣)

٥٢ — عهد عثمان رضى الله عنه لهم

فلما قبض عمر رضى الله عنه واستُخْلِف عثمان أتوه إلى المدينة ، فكتب لهم إلى الوليد ابن عُقبة — وهو عامله على الكوفة — :

« بسم الله الرحمن الرحيم . من عبد الله عثمان أمير المؤمنين إلى الوليد بن عقبة ، سلام الله عليك ، فإنى أحمَد إليك الله الذى لا إله إلا هو .

أما بعد : فإن الأُسْقُفَّ والعاقِبَ وسَرَاةَ أهل نَجْرانَ الذين بالعراق أتَوْنى فشكَوْا إلىّ وأَرَوْنى شَرْطَ عُمَرَ لهم ، وقد علمتُ ما أصابهم من المسلمين ، وإنى قد خَفَّفْتُ عنهم ثلاثين حُلَّةً من جزيتهم تركتها لوجه الله تعالى جل ثناؤه ، وإنى وَفَّيتُ لهم بكل أرضهم

---

(١) فى كتاب الخراج « فليوسقهم » وفى نسخة « فليسعهم » وهما محرفتان والصواب « فليوسعهم » وقد وجدتها كذلك فى فتوح البلدان للبلاذرى ، من أوسعه الشىء : إذا حمله يسعه . وفى الدعاء « اللهم أوسعنا رحمتك » أى اجعلها تسعنا . والمعنى : فليحل بينهم وبين حرث الأرض ، وليبح لهم زرعها .

(٢) أوردها كذلك البلاذرى فى فتوح البلدان . ثم قال : وسمعت بعضهم يقول : من خريب الأرض وهو تحريف وصوابه خرب كفرح .

(٣) اعتمل : عمل بنفسه . العقبة : البدل .

(٤) هو معيقيب بن أبى فاطمة الدوسى وكان من كتاب رسول الله صلى الله عليه سلم .

التى تصدَّقَ عليهم عمر عُقْبَى[1] مكان أرضهم باليمن ، فاستوْصِ بهم خيرا فإنهم أقوام لهم ذِمَّةٌ ، وكانت بينى وبينهم معْرِفة ، وانظر صحيفةً كان عمر كتبها لهم فأوْفهم مافيها ، وإذا قرأت صحيفتهم فارْدُدْها عليهم والسلام » .

وكتب حُمْران بن أبان ، للنصف من شعبان سنة سبع وعشرين .

(كتاب الخراج ص ٨٨)

رواية أخرى

وروى البلاذُرىّ فى فتوح البلدان عهد عثمان لهم هكذا :

« أما بعدُ فإن العاقِبَ وَالأُسْقُفَّ وَسَرَاةَ نجران أتونِى بكتاب رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وَأَرَوْنى شرط عمر ، وقد سألت عثمان بن حُنَيف عن ذلك ، فأنبأنى أنه كان بَحَث عن أمرهم فوجده ضارًّا للدَّهاقين[2] اردعهم عن أرضهم ، وإنى قد وَضَعْت عنهم من جزيتهم مائتى حُلّةٍ لوجه الله ، وَعُقْبَى لهم من أرضهم ، وإنى أُوصِيك بهم فإنهم قوم لهم ذمة » . (فتوح البلدان البلاذرى ص ٧٣)

٥٣ — عهد علىّ رضى الله عنه لهم

فلما استخلف علىّ رضوان الله عليه وقَدِم العِراقَ أتاه أُسْقُفُّ نجران ومعه كتاب فى أديم أحمر فقال : أسألك يا أمير المؤمنين خَطَّ يدك وشفاعةَ لسانك ـ يعنى لَمَّا ردَدْتَنا إلى بلادنا ـ فأبى علىّ أن يردهم وقال : ويْحَكَ ! إن عمر كان رشيد الأمر ـ وكان عمر أجلاهم لأنه خافهم على المسلمين ، وقد كانوا اتخذوا الخيل والسلاح فى بلادهم ، فأجلاهم عن نجران اليمن وأسكنهم نجران العراق ـ

(١) العقبى : البدل كالعقبة .

(٢) الدهاقين : جمع دهقان بكسر الدال وضمها : وهو زعيم فلاحى العجم .

ثم كتب لهم عليّ رضى الله عنه :

« بسم الله الرحمن الرحيم . هذا كتاب من عبد الله عليّ بن أبى طالب أمير المؤمنين لأهل النجرانية ، إنكم أتيتمونى بكتاب من نبى الله صلى الله عليه وسلم فيه شَرْطٌ لكم على أنفسكم وأموالكم ، وإنى وفيت لكم بما كتب لكم محمد صلى الله عليه وسلم وأبو بكر وعمر ، فمن أتى عليهم من المسلمين فَلْيَفِ لهم ولا يُضَامُوا ولا يُظْلَمُوا ولا يُنْتَقَصُ حق من حقوقهم » .

وكتب عبد الله بن أبى رافع ، لعشرٍ خلون من جمادى الآخرة سنة سبع وثلاثين .

(كتاب الخراج ص ٨٨)

٥٤ — كتابه صلى الله عليه وسلم فى الصدقات

ومن كتبه صلى الله عليه وسلم كتابه فى الصَّدَقات الذى كان عند أبى بكر الصديق رضى الله عنه .

روى عن أنس بن مالك رضى الله عنه أن أبا بكر لما استُخْلِف بعثه إلى البحرين عاملاً عليها ، وكتب له هذا الكتاب ، وهو :

« بسم الله الرحمن الرحيم . هذه فَرِيضة الصَّدَقة[(١)] التى فَرَضَ رسول الله صلى الله عليه وسلم على المسلمين ، والتى أَمَرَ اللهُ بها رسولَه ، فمَن سُئِلَها من المسلمين على وجهها فليعطها ومَن سُئِل فوقها فلا يُعْطِ .

فى أربع[(٢)] وعشرين من الإبل فما دُونَها من الغنم ، فى كل خَمْسٍ شاةٌ ، فإذا بلغتْ خمساً وعشرين إلى خمسٍ وثلاثين ففيها بنتُ مَخَاضٍ[(٣)] أنثى (فإن لم تكن بنتُ مَخَاضٍ

---

(١) أى هذه نسخة فريضة الصدقة ، فهو على تقدير مضاف حذف للعلم به . الصدقة : الزكاة . فرضها رسول الله : أى أوجبها أو شرعها بأمر الله تعالى . وقيل معناه: قدرها لأن إيجابها ثابت بالكتاب ففرضه صلى الله عليه وسلم لها بيان مجمله بتقدير الأنواع والأجناس . التى أمر الله بها رسوله : أى بتبليغها

(٢) خبر لمبتدإ محذوف ، ومن الغنم متعلق بالمبتدإ المحذوف ومن البيان : أى فيها زكاة واجبة من الغنم . (٣) هى أنثى الإبل التى أتى عليها حول . دخلت فى الثانى : سميت به لأن أمها آن لها أن تلحق بالمخاض (أى الحوامل) . وإن لم تحمل ، وقيدت بأنثى للتوكيد .

فابنُ لَبُونٍ ذَكَرٌ[1]) فإذا بلغَتْ ستًّا وثلاثين إلى خمس وأربعين ففيها بنت لَبُونٍ أنثى ، فإذا بلغَتْ ستًّا وأربعين إلى ستين ففيها حِقَّةٌ طَرُوقَةُ[2] الجمل ، فإذا بلغَتْ إحدى وستين إلى خمس وسبعين ففيها جَذَعة[3] ، فإذا بلغت ستًّا وسبعين إلى تسعين ففيها بنتا لبون ، فإذا بلغت إحدى وتسعين إلى عشرين ومائة ففيها حِقّتان طَرُوقتا الجمل ، فإذا زادت على عشرين ومائة ففي كل أربعين بنتُ لَبون ، وفي كل خمسين حِقّة ، ومن لم يكن معه إلا أربع من الإبل فليس فيها صدقةٌ إلا أن يشاء رَبُّها ، فإذا بلغت خمساً من الإبل ففيها شاةٌ .

ومَن بلغَتْ عنده من الإبل صدقةُ الجَذَعةِ ، وليست عنده جَذَعةٌ ، وعنده حِقّةٌ ، فإنها تُقْبَلُ منه الحِقَّةُ ويَجعل معها شاتين إن استَيْسَرَتا[4] له ، أو عشرين درهما ، ومن بلغت عنده صدقةُ الحِقَّة ، وليست عنده الحقة ، وعنده الجذعة ، فإنها تُقبل منه الجَذَعَة ، ويعطيه المُصَدِّقُ[5] عشرين درهما أو شاتين ، ومن بلغت عنده صدقة الحِقَّة ، وليست عنده إلا بنتُ لَبون ، فإنها تقبل منه بنت لَبون ، ويُعطي المُصَدِّقُ[6] شاتين أو عشرين درهما ، ومن بلغت صدقته بنتَ لبون ، وعنده حِقَّة ، فإنها تقبل منه الحِقَّة ، ويعطيه المصَدِّق عشرين درهما أو شاتين ، ومن بلغت صدقته بنتَ لبون ، وليست عنده ، وعنده بنتُ مَخَاضٍ ، فإنها تقبل منه بنتُ مَخَاض ، ويُعْطِي معها عشرين درهما أو شاتين ، ومن بلغت صدقتُه بنتَ مخاض ، وليست عنده ، وعنده بنت لَبُون ، فإنها تُقْبَل منه ،

---

(١) هو ولد الناقة إذا استكمل السنة الثانية . دخل في الثالثة : سمي به لأن أمه وضعت غيره فصار لها لبن . وقيد بذكر للتوكيد أيضاً ، وهذه العبارة التي وضعناها بين قوسين وردت في المواهب . ولم ترد في صحيح البخاري ، وقد جاء في فتح الباري شرح صحيح البخاري أن حماد بن سلمة زادها في روايته .

(٢) طروقة : أي مطروقة (فعولة بمعنى مفعولة) أي بلغت أن يطرقها الفحل ، وهي التي أتت عليها ثلاث سنين ودخلت في الرابعة . (٣) هي التي لها أربع سنين ودخلت في الخامسة، سميت بذلك لأنها أجذعت مقدم أسنانها أي أسقطته وهي غاية أسنان الزكاة .

(٤) أي وجدنا في ماله . (٥) المصدق بتخفيف الصاد : الساعي الذي يأخذ الزكاة .

(٦) المصدق بتشديد الصاد : المالك الذي يدفع الصدقة .

ويعطيه المُصَدِّقُ عشرين درهما أو شاتين[١] فإن لم يكن عنده بنتُ مَخَاض على وجهها[٢] وعنده ابنُ لَبون ، فإنه يُقْبَل منه[٣] وليس معه شيء .

وفى صدقة الغنم فى سائمتها[٤] ، إذا كانت أربعين إلى عشرين ومائةٍ شاةٌ[٥] ، فإذا زادت على عشرين ومائة إلى مائتين شاتان ، فإذا زادت على مائتين إلى ثَلَثمائة ففيها ثلاثُ شِياه ، فإذا زادت على ثلثمائة ففى كل مائة شاة ، فإذا كانت سائمة الرجل ناقصةً عن أربعين شاةً واحدةً[٦] ، فليس فيها صدقة إلا أن يشاء ربُّها .

ولا يُجْمَع بين متفرِّق ، ولا يُفَرَّق بين مجتمِع خَشْيَةَ الصَّدقة[٧] .

وما كان من خليطين فإنهما يتراجعان بينهما بالسَّوِيَّة[٨] . ولا يُخْرَج فى الصدقة هَرِمَة ولا ذاتُ عَوارٍ ولا تيس[٩] إلا أن يشاء المصدق[١٠] ، وفى الرِّقَة ربعُ

---

(١) أى أنه جبر كل مرتبة بشاتين أو عشرين درهما . (٢) أى المفروض .

(٣) أى وإن كان أقل قيمة منها ولا يكلف تحصيلها .

(٤) أى فى راعيتها لا المعلوفة . (٥) أى جذعة ضأن لها سنة ، ودخلت فى الثانية ، أو أجذعت مقدم أسنانها بعد مضى ستة أشهر ، أو ثنية معز لها سنتان ، ودخلت فى الثالثة ، وقيل سنة . وشاة بالرفع خبر لمبتدإ محذوف ، أو مبتدأ وفى صدقة الغنم خبره .

(٦) مفعول ناقصة . (٧) معناه : أن يكون النفر الثلاثة لكل واحد منهم أربعون شاة وجبت فيها الزكاة فيجمعوها حتى لا يجب عليهم كلهم فيها إلا شاة واحدة، أو يكون الخليطين مائتا شاة وشاة فيكون عليهما فيها ثلاث شياه فيفرقاها حتى لا يكون على كل واحد إلا شاة واحدة . قيل : هو خطاب لرب المال من جهة ، والساعى من جهة . فرب المال يخشى أن تكثر الصدقة ، فيجمع أو يفرق لتقل ، والساعى يخشى أن تقل الصدقة ، فيجمع أو يفرق لتكثر ، فأمر كل واحد منهما ألا يحدث شيئا من الجمع والتفريق ، خشية الصدقة . وقيل : حمله على المالك أظهر .

(٨) السوية : العدل . ومعناه : أن المصدق إذا أخذ ما وجب أو بعضه من مال أحد الخليطين ، فإن ذلك الخليط يرجع على صاحبه بقدر حصته من مجموع المالين ، فلو كان لكل منهما عشرون شاة رجع الخليط على خليطه بقيمة نصف شاة ، ولو كان لأحدهما مائة وللآخر خمسون، فأخذ الساعى الشاتين الواجبتين من صاحب المائة رجع بثلث قيمتهما ، أو من صاحب الخمسين رجع بثلثى قيمتهما ، أو من كل واحد شاة رجع صاحب الخمسين بثلث قيمة الشاة، وفى إرشاد السارى للقسطلانى: « أو من كل واحد شاة رجع صاحب المائة بثلث قيمة شاة وصاحب الخمسين بثلثى قيمة شاة » . وكذا فى فتح المبدى للشرقاوى، وهو خطأ فحرره .

(٩) الهرمة : الكبيرة التى سقطت أسنانها . العوار مثلث العين : العيب أى ولا معيبة بما ترد به فى البيع ، والتيس هو فحل الغنم أو مخصوص بالمعز .

(١٠) قيل : هو بالتخفيف وهو آخذ الصدقات كما قدمنا : أى بأن يؤدى اجتهاده إلى أن ذلك خير للفقراء الذين وكل عنهم فى قبض الزكاة، فالاستثناء راجع إلى الثلاثة قبله . وقيل : بالتشديد أى المالك. =

العُشر[١] ، فإن لم تكن إلا تسعين ومائة[٢] فليس فيها شيء ، إلا أن يشاء ربها » .

وختمه بخاتم النبي صلى الله عليه وسلم ، وكان نقش الخاتم ثلاثة أسطر ، محمد سطر ، ورسول سطر ، والله سطر[٣] .

(المواهب اللدنية للقسطلانى شرح الزرقانى ٣ : ٣٧٤ ، وصحيح الإمام البخارى ج ١ : ١٧٣ ، ١٧٤ و ج ٢ : ٥١ ، ١٢٩ و ج ٤ : ٢٤ ، ١٢٩ ، وسنن النسائى ج ٥ : ص ١٨)

٥٥ — كتاب آخر له صلى الله عليه وسلم فى الصدقات

ومن كتبه صلى الله عليه وسلم كتابه الذى كان عند عمر بن الخطاب رضى الله عنه[٤] فى الصدقة .

عن سالم عن أبيه عبد الله بن عمر رضى الله عنهما قال : كتب صلى الله عليه وسلم كتاب الصدقة ولم يخرجه إلى عماله ، وقَرَنه[٥] بسيفه ، حتى قُبض ، فعمل به أبو بكر حتى قبض ، ثم عمل به عمر حتى قبض وكان فيه :

= وتقديره : لا تؤخذ هرمة ولا ذات عيب أصلا ، ولا يؤخذ التيس إلا برضا المالك لاحتياجه إليه ، فنى أخذه بغير رضاه إضرار به ، فالاستثناء مختص بالثالث .

(١) أى وفى مائتى درهم من الرقة ، وهى الفضة الخالصة مضروبة كانت أو غير مضروبة ، والهاء فيه عوض عن الواو المحذوفة فى الورق (بكسر الراء) كالعدة والوعد . ربع العشر : أى خمسة دراهم وما زاد على المائتين فبحسابه ، فيجب ربع عشره ، ولا شيء على ما زاد عليها حتى يبلغ أربعين درهما ففيه درهم واحد ، وكذا فى كل أربعين .

(٢) المعنى : أنه لا صدقة فيما نقص عن المائتين ، وإنما ذكر التسعين لأنه آخر عقد قبل المائة ، ويدل عليه قوله صلى الله عليه وسلم « ليس فيما دون خمس أواق من الورق صدقة » . والأوقية أربعون درهما .

(٣) هذا الكتاب ورد متفرقا فى عشرة مواضع من صحيح البخارى . ستة فى كتاب الزكاة ، ثلاثة أبواب متوالية ، ثم فصل بباب ، ثم ثلاثة متوالية ، وفى كتاب الجهاد والسير (فى باب فرض الخمس) . وكتاب المظالم (فى باب الشركة) . وكتاب اللباس وكتاب الحيل .

(٤) قال الزرقانى فى شرحه على المواهب : « وهو صريح فى أنه غير الذى كتبه أبو بكر لأنس ، وهو مقتضى تغاير ألفاظهما أيضاً » .

(٥) وقال هنا : « أى وضعه فى مرض موته فى قراب سيفه ، قاله ابن رسلان ، وحكمة ذلك : الإشارة إلى أنها تؤخذ كرها وإن بقتال ، ومن ثم قال أبو بكر : والله لو منعونى عناقا كانوا يؤدونها إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم لقاتلتهم على منعها » اهـ . والعناق : كسحاب الأنثى من أولاد المعز .

« فى خمسٍ من الإبل شاةٌ ، وفى عَشْرٍ شاتان ، وفى خمسَ عشرةَ ثلاثُ شياهٍ ، وفى عشرين أربعُ شياهٍ ، وفى خمس وعشرين بنتُ مَخاضٍ إلى خمسٍ وثلاثين ، فإن زادت واحدة ففيها بنتُ لَبونٍ إلى خمس وأربعين ، فإن زادت واحدة ففيها حِقّةٌ إلى ستين ، فإن زادت واحدة ففيها جَذَعةٌ إلى خمس وسبعين ، فإن زادت واحدة ففيها ابنتا لبون إلى تسعين ، فإن زادت واحدة ففيها حِقّتان إلى عشرين ومائة ، فإن كانت الإبل أكثر من ذلك ففى كل خمسين حقةٌ ، وفى كل أربعين ابنة لَبون .

وفى الغنم فى كل أربعين شاةً شاةٌ إلى عشرين ومائة ، فإذا زادت واحدة فشاتان إلى مائتين ، فإذا زادت على المائتين ففيها ثلاثُ شياهٍ إلى ثلثمائة ، فإن كانت الغنم أكثر من ذلك ففى كل مائة شاةٍ شاةٌ ، ثم ليس فيها شىء حتى تبلغ المائة ، ولا يُفرّق بين مجتمع ولا يجمع بين متفرِّق مخافةَ الصدقة ، وما كان من الخليطين فإنهما يتراجعان بينهما بالسَّوِيّة ، ولا يؤخذ فى الصَّدَقة هَرِمةٌ ولا ذاتُ عيب » .

(المواهب اللدنية للقسطلانى شرح الزرقانى ٣ : ٣٢٨)

٥٦ ـــ كتابه صلى الله عليه وسلم إلى أهل اليمن

عن أبى بكر بن محمد بن عمرو بن حَزْم عن أبيه عن جَدِّه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم كتب إلى أهل اليمن كتابا فيه الفرائضُ والسُّنَنُ والدِّياتُ ، وبعث به مع عمرو ابن حَزْم ، فقرىء على أهل اليمن ، وهذه نسخته :

« بسم الله الرحمن الرحيم . من محمد النبي إلى شُرَحْبيل بن عبد كُلَال ونُعَيْم بن عبد كُلَال والحَرث بن عبد كُلَال قَيْلِ ذى رُعَيْن ومَعَافِر وهَمْدَان .

أما بعد : وكان فى كتابه « أنَّ من اعتَبَطَ[١] مؤمنا قَتْلا عن بيِّنةٍ فإنه قَوَدٌ إلا أنْ يَرْضَى أولياء المقتول ، وأن فى النفس[٢] الدِّيَةَ ، مائةً من الإبل ، وفى الأنف إذا

---

(١) أى قتله بلا جناية كانت منه ولا جريرة توجب قتله .

(٢) القود : القصاص : أى فإن القاتل يقاد به ويقتل ، وأن فى النفس : أى فى قتل النفس .

أُوعِبَ جَدْعُهُ[1] الدية، وفى اللسان الدية، وفى الشَّفَتين الدية ، وفى البَيْضتين[2] الدية، وفى الذَّكَر الدية ، وفى الصُّلْب الدية ، وفى العينين الدية ، وفى الرِّجْل الواحدة نصف الدية ، وفى المأمومة ثُلُث الدية ، وفى الجَائِفَة ثلث الدية ، وفى المُنَقِّلَة خمسَ عشرةَ من الإبل ، وفى كل أصْبُع من أصابع اليد والرجل عشر من الإبل ، وفى السِّنِّ خمس من الإبل ، وفى المُوضِحَة[3] خمس من الإبل ، وأن الرجل يُقْتَل بالمرأة ، وعلى أهل الذهب ألف دينار » .

وفى رواية « وفى العين الواحدة نصف الدية ، وفى اليد الواحدة نصف الدية ، وفى الرجل الواحدة نصف الدية » .

(سنن النسائى ج ٨ : ص ٥٧ ، والمواهب اللدنية شرح الزرقانى ج ٣ ص ٣٨١) .

(١) أى قطع جميعه . (٢) أى الخصيتين .

(٣) المأمومة : الشجة التى بلغت أم الرأس وهى الجلدة التى تجمع الدماغ ويقال: شجة آمة ومأمومة. الجائفة: الطعنة التى تبلغ الجوف. وطعنة جائفة: تخالط الجوف، وقيل: هى التى تنفذه. المنقلة: الشجة التى تنقل العظم أى تكسره حتى يخرج منها فراش العظام . الموضحة: الشجة التى بلغت العظم فأوضحت عنه .

خلافة أبى بكر الصديق

رضى الله عنه

٥٧ — رسالة مفتعلة على أبى بكر

وهى الرسالة التى زعم أبو حَيَّانَ التوحيدى أنَّ أبا بكر أرسلها إلى الإمام علىّ على لسان أبى عُبَيدة بن الجرَّاح ، وما انضم إليها من كلام عمر ، وما كان من جواب علىّ رضى الله عنهم [1]

---

(١) ليس عندى من ريب فى أن هذه الرسالة موضوعة مفتعلة ، وقد كتبت عنها كلمة فى كتابى : « ترجمة على بن أبى طالب » . ص ٩ . قلت : « أما مارواه أبو حيان التوحيدى عن القاضى أبى حامد بن بشر من تلك الرسالة التى زعم أن أبا بكر بعث بها إلى على حين تلكأ عن مبايعته على لسان أبى عبيدة بن الجراح ، وما انضم إلى ذلك من المقال الذى حمله إياه عمر ليبلغه عليا إلى آخر ماورد فى هذه القصة ، فيشهد الله أنا ما بدأنا قراءتها حتى ساورتنا منها ريبة ، ولم نأت عليها حتى تجسمت فى نظرنا تلك الريبة، واستيقنا أنها قصة موضوعة منحولة ، لما غلب عليها من الصنعة البديعية البينة الأثر فى أسلوبها مما لم يعرف فى رسائل أبى بكر وعمر وخطبهما ولا فى كلام أحد من أهل هذا العصر ، فضلا عما فيها من إسهاب مديد لم يعهد منهم ، وإن ما تراه فيها من الفقر القصيرة المسجوعة المجنسة ليحملك على الاعتقاد بأنها شبيهة بنسج البديع الهمذانى وأضرابه من كتاب العصر الذى نشأ فيه أبو حيان (القرن الرابع) .

ولقد صدق حدسنا حين قرأنا تعليق ابن أبى الحديد شارح نهج البلاغة عليها (وسنورد لك كلمته) ثم إنك إذا تدبرت ماعزى إلى أبى حامد من قوله « هى والله من درر الحقاق المصونة ، ومخبآت الصناديق فى الخزائن المحوطة ، ومنذ حفظتها ما رويتها إلا للمهلبى فى وزارته، فكتبها عنى فى خلوة بيده عرفت أن هذا القول نفسه يحمل فى تضاعيفه تكذيبها .

وكيف يقول عمر لعلى فى مستهل خلافة أبى بكر« تأمل لإخوان فارس وأبناء الأصفر ، قد جعلهم الله جزرا لسيوفنا ، ودريئة لرماحنا ،ومرمى لطعاننا ، وتبعا لسلطاننا» مع أن المسلمين فى ذلك الحين لم يكونوا قد بدءوا الفتوح ، ولا غزوا الفرس والروم !

أما كلمة ابن أبى الحديد عنها فهى قوله «الذى يغلب على ظنى أن هذه المراسلات والمحاورات والكلام كله مصنوع موضوع، وأنه من كلام أبى حيان التوحيدى لأنه لكلامه ومذهبه فى الخطابة والبلاغة أشبه وقد حفظنا كلام عمر ورسائله وكلام أبى بكر وخطبه فلم نجدهما يذهبان هذا المذهب ،ولا يسلكان هذا السبيل فى كلامهما ، وهذا كلام عليه أثر التوليد ليس يخفى ، وأين أبو بكر وعمر من البديع وصناعة المحدثين؟ومن تأمل كلام أبى حيان عرف أن هذا الكلام من ذلك المعدن خرج،ويدل عليه أنه أسنده =

قال أبو حيَّان على بن محمد التَّوحيدىّ البَغدادىّ :

سَمَرْنَا ليلةً عند القاضى أبى حامد أحمد بن بِشْر المَرْوَرُوذِىّ(١) ببغداد . فتصرَّف فى الحديث كل مُتَصَرَّف ، وكان غزيرَ الرواية، لطيف الدِّراية، فجَرَى حديثُ السَّقيفة،

= إلى القاضى أبى حامد المروروذى ،وهذه عادته فى كتاب البصائر يسند إلى القاضى أبى حامد كل مايريد أن يقوله هو من تلقاء نفسه إذا كان كارها لأن ينسب إليه .

ومما يوضح لك أنه مصنوع أن المتكلمين على اختلاف مقالاتهم من المعتزلة والشيعة والأشعرية وأصحاب الحديث وكل من صنف فى علم الكلام والإمامة لم يذكر أحد منهم كلمة واحدة من هذه الحكاية،ولقد كان الرضى رحمه الله يلتقط من كلام أمير المؤمنين عليه السلام اللفظة الشاذة والكلمة المفردة الصادرة عنه فى معرض التألم والتظلم فيحتج بها ، ويعتمد عليها ، نحو قوله « ما زلت مظلوما مذ قبض رسول الله حتى قوم الناس هذا » وقوله « لقد ظلمت عدد الحجر والمدر » وقوله « إن لنا حقا إن نعطه نأخذه ، وإن نمنعه نركب أعجاز الإبل ، وإن طال السرى » وقوله « فصبرت وفى الحلق شجا وفى العين قذى » وقوله « اللهم إنى استعديك على قريش فإنهم ظلمونى حقى وغصبونى إرثى» . وكان الرضى إذا ظفر بكلمة من هذه فكأنما ظفر بملك الدنيا، ويودعها كتبه وتصانيفه ، فأين كان الرضى عن هذا الحديث ؟ وهلا ذكر فى كتاب (الشافى فى الإمامة) كلام أمير المؤمنين عليه السلام هذا ؟ وكذلك من قبله من الإمامية كابن النعمان وبنى نوبخت وبنى بويه وغيرهم، وكذلك من جاء بعده من متأخرى متكلمى الشيعة وأصحاب الأخبار والحديث منهم إلى وقتنا هذا، وأين كان أصحابنا عن كلام أبى بكر وعمر له عليه السلام ؟ وهلا ذكره قاضى القضاة فى المغنى مع احتوائه على كل ما جرى بينهم حتى إنه يمكن أن يجمع منه تاريخ كبير مفرد فى أخبار السقيفة ،وهلا ذكره من كان قبل قاضى القضاة من مشايخنا وأصحابنا ومن جاء بعده من متكلمينا ورجالنا ؟ وكذلك القول فى متكلمى الأشعرية ، وأصحاب الحديث كابن الباقلانى وغيره ، وكان ابن الباقلانى شديدا على الشيعة عظيم العصبية على أمير المؤمنين عليه السلام،فلو ظفر بكلمة من كلام أبى بكر وعمر فى هذا الحديث لملأ الكتب والتصانيف بها، وجعلها هجيراه (بكسر الهاء والجيم مع تشديدها أى دأبه وشأنه) ودأبه والأمر فيما ذكرناه من وضع هذه القصة ظاهر لمن عنده أدنى ذوق من علم البيان ومعرفة كلام الرجال،ولمن عنده أقل معرفة بعلم السير ، وأقل أنس بالتواريخ » اه .

وقال النويرى فى نهاية الأرب فى هذا الصدد: « وهذه الرسالة قد اعتنى الناس بها وأوردوها فى المجاميع، ومنهم من أفردها فى جزء وقطع بأنها من كلامهم رضى الله عنهم ، ومن أنكرها ونفاها عنهم . وقال إنها موضوعة ، واختلف القائلون بوضعها : فمنهم من زعم ان فضلاء الشيعة وضعوها ،وأرادوا بذلك الاستناد إلى أن على بن أبى طالب رضى الله عنه إنما بايع أبا بكر الصديق بسبب ما تضمنته ، وهذا الاستناد ضعيف وحجة واهية . والصحيح أن على بن أبى طالب بايع بيعة رضى باطنه فيها كظاهره ، والدليل على ذلك أنه وطىء من السبى الذى سبى فى خلافة أبى بكر واستولد منه محمد بن الحنفية ،ولا جواب لهم عن هذا، ومنهم من زعم أن فضلاء السنة وضعوها، والله أعلم،وعلى الجملة فهذه الرسالة لم نوردها فى هذا الكتاب إثباتا لها أنها من كلامهم رضى الله عنهم ولانفيا وإنما أوردناها لما فيها من البلاغة واتساق الكلام وجودة الألفاظ »اه.

وأقول أنا أيضاً : إنى مع يقينى أنها منحولة موضوعة لم أوردها فى جملة الرسائل إلا لأنها أثر أدبى بليغ .

(١) مرو الروذ :مدينة بخراسان .ينسبون إليها فيقولون : مروروذى بضم الراء الثانية. ومروذى بضم الراء مشددة .

فركِبَ كُلَّ مَرْكَباً ، وقال قولاً ، وعرَّض بشيء ، ونَزَع إلى فنّ ، فقال هل فيكم من يحفظ رسالة لأبى بكر الصديق رضى الله عنه إلى علىّ بن أبى طالب كرم الله وجهه ، وجوابَ علىّ عنها ، ومبايعته إياه عَقِيبَ[١] تلك المناظرة ؟ فقال الجماعة . لا والله ، فقال : هى والله من دُرَر الحِقاقِ المَصونة ، ومخبّآت الصناديق فى الخزائن المحُوطة[٢] ومنذُ حَفِظْتُها ما رويتها إلا لأبى محمد المُهَلَّبىّ فى وزارته[٣] ، فكتبها عنى فى خَلْوة بيده . وقال: لا أعرف فى الأرض رسالة أعقلَ منها ولا أبينَ ، وإنها لَتَدُلّ على علم وحِلْم ، وفصاحة ونباهة ، وبُعْد غَور ، وشدة غَوْص ، فقال له العَبَّادَانىّ[٤] : أيها القاضى ! فلو أَتممْتَ المِنَّة علينا بروايتها ؟ أَسْمِعْناها فنحن أَوْعَى لها عنك من المُهَلَّبى ، وأَوْجَبُ ذِماماً[٥] عليك ، فاندَفَع وقال :

حدَّثنا الخُزاعىُّ بمكة ، عن أبى مَيْسَرة ، قال حدثنا محمد بن فُلَيْح[٦] عن عيسى ابن دَأْب ،[٧] نبَّأ صالح بن كَيْسَان ويَزيد بن رُومان ، قالا : حدثنا هشام بن عروة ، نبَّأ أبو النَّفَّاح[٨] ، قال : سمعت مولاى أبا عُبيدة يقول :

---

(١) قال صاحب مختار الصحاح «وأما قولهم : جاء عقيبه بمعنى بعده فليس فى الصحاح ولا فى التهذيب جوازه . ولم أرفيهما عقيبا ظرفا ، بل بمعنى المعاقب فقط كالليل والنهار عقيبان لا غير » .

(٢) وفى رواية صبح الأعشى ونهاية الأرب « هى والله من بنات الحقائق ومخبآت الصنادق » .

(٣) هوالوزير أبومحمد الحسن بن محمد ينتهى نسبه إلى المهلب بن أبى صفرة ، كان وزير معز الدولة بن بويه الديلمى ببغداد ، وتوفى سنة ٣٥٢ ، انظر ترجمته فى وفيات الأعيان ج ١ : ص ١٤٢ .

(٤) نسبة إلى عبادان ، وهو موضع تحت البصرة قرب البحر الملح ، منسوب إلى عباد بن حصين الحبطى لأنه أول من رابط به . وأما زيادة الألف والنون فهو لغة كانت مستعملة فى البصرة ونواحيها ، كانوا إذا سموا موضعا أو نسبوه إلى رجل أو صفة يزيدون فى آخره ألفا ونونا كقولهم فى قرية عندهم منسوبة إلى زياد بن أبيه زيادان ، وأخرى إلى عبد الله عبد اللبان ، وأخرى إلى بلال بن أبى بردة بلالان — انظر معجم البلدان لياقوت ج ٦ : ص١٠٥ .

(٥) الذمام : الحق والحرمة .

(٦) هكذا فى نهاية الأرب ، وفى صبح الأعشى « محمد بن أبى فليح » . وجاء فى خلاصة تذهيب الكمال فى أسماء الرجال الخزرجى ص ٢٦٥ « فليح بن سليمان الأسلمى أو الخزاعى أحد أئمة العلم مات سنة ١٦٨ هـ » .

(٧) كذا فى نهاية الأرب ، وفى صبح الأعشى « عن عيسى بن دوأب بن المتاح » . وفى شرح ابن أبى الحديد « عيسى بن دأب عن صالح بن كيسان عن هشام بن عروة عن أبيه عروة بن الزبير عن أبى عبيدة بن الجراح » .

(٨) مولى أبى عبيدة .

لـما استقامت الخلافة لأبى بكر رضى الله عنه بين المهاجرين والأنصار بعد فِتْنة كاد الشيطانُ بها ، فدَفع الله شَرَّها ، ويسَّرَ خيرها ، بلغ(١) أبا بكر عن علىّ تلكُّؤٌ وشِماسٌ ، وتَهَمُّم ونِفاسٌ(٢) ، فكَرِه أن يتمادى الحال فتبْدُوَ الْعَوْرة ، وتشتعل الجَمْرة ، وتتَفرَّق ذاتُ البَيْن ، فدعانى لحضَرْته فى خَلْوة ، وكان عنده عمر بن الخطاب رضى الله عنه وحْدَه فقال(٣) : يا أبا عبيدة ما أيْمنَ(٤) ناصِيَتَك ، وأَبْيَنَ الخيرَ بين عينيك ، وطالما أعزّ الله بك الإسلامَ ، وأصلح شأنه على يديك ، ولقد كنتَ من رسول الله صلى الله عليه وسلم بالمكان المَحُوط ، والمحل المَغْبُوط(٥) ، ولقد قال فيك فى يوم مشهود « لكل أمةٍ أمينٌ ، وأمينُ هذه الأمة أبو عُبَيدة(٦) » ولم تزل للدين مُلْتَجًا ، وللمؤمنين مُرْتَجًى ، ولأهلك رُكْناً ، ولإخوانك رِدْءا(٧) ، قد أردتك لأمر له خَطَرٌ مَخُوف ، وإصلاحه من أعظم المعروف ، ولئن لم يندَمِل جُرْحه بيَسَارك ورِفقك ولم تُجَبَّ حَيَّته برُقْيتك(٨) ، وقع اليأسُ ، وأعضَل البأسُ ، واحتيج بعد ذلك إلى

---

(١) وفى ابن أبى الحديد « لما استقامت الخلافة لأبى بكر بين المهاجرين والأنصار ، ولحظ بعين الوقار والهيبة بعد هنة كاد الشيطان بها يسر ، فدفع الله شرها ، وأدحض عسرها ، فركد كيدها ، وتيسر خيرها ، وقصم ظهر النفاق والفسق بين أهلها — بلغ . . . » . (٢) من شمس الفرس كدخل شموسا وشماسا : أى منع ظهره . تهمم الشىء : طلبه . النفاس بالكسر : المنافسة . نفس عليه بخير كفرح: حسد. ونفس عليه الشىء نفاسة بفتح النون : لم يره أهلا له . (٣) وفى شرح ابن أبى الحديد : « فكره أن يتمادى الحال ، وتبدو العورة ، وتنفرج ذات البين ، ويصير ذلك دربة لجاهل مغرور ، أو عاقل ذى دهاء ، أو صاحب ملامة ضعيف القلب خوار العنان. فدعانى فى خلوة لحضرته وعنده عمر وحده . وكان عمر قبسا له وظهيرا معه يستضىء بناره ، ويستملى من لسانه . فقال لى . . . الخ » . والدرية مخفف الدريئة ، وهى فى الأصل : الحلقة يتعلم الطعن والرمى عليها . القبس بالتحريك : شعلة نار تقتبس من معظم النار . والظهير : المعين . (٤) من اليمن بالضم : وهو البركة .

(٥) أى المصون المحفوظ. غبطه بما نال كضرب : تمنى مثل نعمته من غير أن يريد زوالها عنه .

(٦) حديث شريف روى عن أنس رضى الله عنه . انظر أسد الغابة ٣ : ٨٦ ، وسبب هذه التسمية أن أهل نجران لما صالحوا رسول الله صلى الله عليه وسلم على أن يؤدوا إليه فى كل عام ألفى حلة ألفا فى صفر وألفا فى رجب (كما قدمنا لك فى ص ٧٦) قالوا له : أرسل معنا أمينا، فأرسل معهم أبا عبيدة، وقال لهم : هذا أمين هذه الأمة، وكان لذلك يدعى فى الصحابة بذلك . انظر السيرة الحلبية ٢ : ٣٣٥ .

(٧) أى عونا. (٨) اندمل الجرح: تماثل وبرئ . اليسار واليسر : السهولة ، وفى رواية « بمسبارك » . المسبار: ما يسبر به الجرح ليعرف عمقه . الجب : القطع . الرقية: العوذة ، وفى ابن أبى الحديد « ولم تخب جذوته برقيتك » وخبت النار تخبو : سكنت وانطفأت . الجذوة مثلثة : الجمرة .

ما هو أمرُّ منه وأَعْلَقُ ، وأعْسَرُ منه وأغْلَقُ ، والله أسأل تمامَه بك ، ونظامَه على يديك ، فتَأَتَّ[(١)] له أبا عبيدة وتلطَّفْ فيه ، وانصح لله عزّ وجل ولرسوله صلى الله عليه وسلم ، ولهذه العِصابة ، غيرَ آلٍ جُهْدا ، ولا قالٍ حَمْدا، والله كالِئُك[(٢)] وناصِرُك ، وهاديك ومبصِّرك ، إن شاء الله . امضِ إلى عليّ ، واخفِضْ له جناحك ، واغضُضْ عنده صوتك ، واعلم أنه سُلَالة أبي طالب ، ومكانُه ممَّن فَقَدْناه بالأمس صلى الله عليه وسلم مكانُه ، وقل له :

* * *

« البحرُ مَغْرَقة ، والبَرُّ مَفْرَقة ، والجوُّ أكْلَفُ ، والليلُ أغْدَفُ[(٣)] ، والسماء جَلْواء ، والأرض صَلْعاء ، والصعود متعذِّر ، والهُبُوط متعسِّر ، والحقُّ عَطوف رَءُوف ، والباطل عَنُوف عَسُوف[(٤)] ، والعُجْب قدَّاحة الشر ، والضِّغن رائِد البَوار[(٥)] ، والتعريضُ شِجارُ الفتنة ، والقِحَة ثَقُوب[(٦)] العداوة ، وهذا الشيطان متَّكئٌ على شِماله

---

(١) تأتى للأمر : ترفق وأتاه من وجهه .

(٢) ألا يألو :قصر . قلاه كرمى ورضى : أبغضه ،وفى ابن أبى الحديد « ولا قال جدا » . كالئك: أى : حافظك وحارسك .

(٣) مغرقة : أى مظنة الغرق ، يخاف الغرق فيه ويخشى . مفرقة : أى مكان فرق بالتحريك : أى خوف وفزع .والمعنى:أن الفتنة عامة قد شملت البحر والبر فهى مخوفة فى كل النواحى . أكلف وصف من الكلف بالتحريك : وهو لون بين السواد والحمرة . أغدف لم يرد فى كتب اللغة إلا فعلا ، قال صاحب اللسان « وأغدف الليل : أقبل وأرخى سدوله ، وأغدف الليل ستوره : إذا أرسل ستور ظلمته وأنشد: حتى إذا الليل البهيم أغدفا » وفى ابن أبى الحديد « والليل أغلف » وقلب أغلف : كأنه غشى بغلاف ، والمعنى هنا مظلم .

(٤) سماء جلواء : مصحية . الصلعاء : الأرض لا نبات فيها. العنوف أراد به كثير العنف، ولم ترد هذه الصيغة فى كتب اللغة . العسوف : الظلوم، صيغة مبالغة من العسف وهو الظلم ،وفى ابن أبى الحديد « والباطل نسوف عصوف ». النسوف مبالغة من النسف (النسوف أيضا من الخيل : الواسع الخطو ، وناقة نسوف : تنسف التراب فى عدوها ، وبعير نسوف : يقتلع الكلأ من أصله بمقدم فيه) وريح عصوف وعاصف وعاصفة .

(٥) القداح والقداحة: حجر الزند، وفى ابن أبي الحديد « مقدحة الشر » والرائد : أصله المرسل فى طلب الكلأ، والبوار : الهلاك.

(٦) هكذا فى ابن أبى الحديد وصبح الأعشى :الشجار والمشجر كـكتاب ومنبر ويفتحان : عود الهودج ، وقيل : هو مركب أصغر من الهواج مكشوف الرأس ، وقيل : هو خشب الهودج فإذا غشى غشاءه صار هودجا . والمعنى : التعريض مركب الفتنة ، وفى نهاية الأرب « سجال الفتنة » وسجال بالكسر جمع سجل بالفتح وهو الدلو العظيمة . والقحة بالكسر والفتح : الوقاحة أى قلة الحياء . الثقوب والثقاب كـكتاب : ماتثقب أى توقد به النار .

متحيِّل[١] بيمينه ، نافِجٌ حِضْنَيه[٢] لأهله ، ينتظر الشَّتاتَ والفُرقة ، ويَدِبُّ بين الأمة بالشَّحْناء والعداوة ، عِناداً لله عزّ وجل أولا ، ولآدَمَ ثانيا ، ولنبيه صلى الله عليه وسلم ودينه ثالثا ، يُوَسْوِس بالفجور ، ويُدَلِّي[٣] بالغُرور ، ويُمَنِّي أهل الشرور ، يُوحِي إلى أوليائه زُخْرُفَ القول غُرُوراً بالباطل ، دَأْبًا له منذ كان على عهد أبينا آدم صلى الله عليه وسلم ، وعادةً له منذ أهانه الله تعالى فى سالف الدهر ، لامَنْجَى منه إلا بِعَضِّ الناجذ[٤] على الحق ، وغَضِّ الطَّرْف عن الباطل ، ووَطْءِ هامَةِ[٥] عدوِّ الله بالأشَدِّ فالأشدِّ ، والآكَدِ فالآكَد[٦] ، وإسلام النفس لله عزّ وجل فى ابتغاء رضاه ؛ ولا بد الآن من قول ينفعُ إذْ قد أضَرَّ السكوت وخِيفَ غِبُّه ، ولقد أرشدك من أفاء[٧] ضالَّتَكَ ، وصافاك من أحيا مودَّتَه بِعتابِك وأراد لك الخيرَ مَن آثرَ البقاء معك .

ما هذا الذى تسوِّل لك نفسُك ، ويَدْوَى[٨] به قلبُك ، ويلتوى عليه رأيُك ؛

---

(١) التحيل : الاحتيال ، وهو بالياء فى صبح الأعشى ، وضبطه شارح نهاية الأرب بالباء الموحدة وقال: « المتحبل : المتصيد بالحبالة، وفى الأصل « متحيل » بالياء المثناة وهو تصحيف »وأقول: إن الوارد فى كتاب اللغة من هذه المـادة فى ذلك المعنى هو احتبل لا تحبل ، وفى ابن أبى الحديد « باسط يمينه» .

(٢) فى صبح الأعشى « خصيبه » وهو تصحيف ، ونافج أورده صاحب اللسان فى مادة نفخ فقال « وفى حديث على : نافخ حضنيه أى منتفخ مستعد لأن يعمل عمله من الشر » وأورده أيضا فى مادة نفج بالجيم فقال : « وفى حديث على : نافجا حضنيه ، كنى به عن التعاظم والتكبر والخيلاء » ونافجا : أى رافعا ، من نفج ثدى المرأة قيصها إذا رفعه ، وقوله « فى حديث على » يريد ماورد فى خطبته المعروفة بالشقشقية انظر نهج البلاغه ١ : ١٧ وقد وردت فيه بالجيم وكذا فى شرح ابن أبى الحديد .

(٣) أخذه من قوله تعالى « فَدَلَّاهُمَا بِغُرُورٍ » قالوا فى تفسيره : دلاهما فى المعصية بأن غرهما ، وقيل معناه : فأطمعهما ، وأصله الرجل العطشان يدلى فى البئر ليروى من مائها فلا يجد فيها ماء . فوضعت التدلية موضع الإطماع فيما لايجدى نفعا ، وقيل: جرأهما على المعصية بغروره.

(٤) الناجذ : واحد النواجذ وهى أقصى الأضراس ، ويقولون:عض عليه بالنواجذ : أى تمسك به كما يتمسك العاض بجميع أضراسه . (٥) الهامة : الرأس .

(٦) وفى ابن أبى الحديد « والأحد فالأحد » . (٧) الغب : عاقبة الشىء كالمغبة،وأفاء رد.

(٨) دوى كفرح : مرض ، والدوى كالغنى : داء باطن فى الصدر ، ويصح أن يكون « ويدوى » بالتشديد ، من دوى الطائر : إذا دار فى طيرانه .

ويتخاوص[١] دونه طَرْفُك ، ويَسْتَشْرِى[٢] به ضِغْنُك ، ويترادف معه نَفَسُك ، وتكثُر عنده صُعَداؤك[٣] ، ولا يَفيضُ به لسانُك؟ أعُجْمَةٌ بعد إفصاح؟ أتلبيسٌ[٤] بعد إيضاح؟ أدِينٌ غيرُ دين الله؟ أخَلق غير خُلُق القرآن؟ أهُدًى غير هدى النبى صلى الله عليه وسلم؟ أمِثلِى تَمْشِى له الضَّرَاء ، وتَدِبُّ له الخَمَر[٥] أم مثلك ينقبض عليه الفضاء ، ويُكْسَف[٦] فى عينه القمر؟ ما هذه القَعْقَعةُ بالشِّنَان؟ وما هذه الوَعْوَعةُ[٧] باللسان؟ إنك والله جِدُّ[٨] عارف باستجابتنا لله عزَّ وجل ولرسوله صلى الله عليه وسلم ، وبخروجنا عن أوطاننا وأموالنا وأولادنا وأحِبَّتنا ، هجرةً إلى الله عزّ وجل ، ونُصرةً لدينه ، فى زمان أنت فيه فى كِنِّ الصِّبا ، وخِدْر الغَرارة ، وعُنْفُوان الشَّبيبة[٩] ، غافل عما يُشِيب ويُرِيب ، لا تَعِى ما يُراد ويُشاد ، ولا تحصِّل ما يُساق ويُقاد ، سوى ما أنت جارٍ[١٠] عليه إلى غايتك التى إليها عُدِل بك ، وعندها حُطَّ رَحْلك ، غيرَ مجهولِ القَدْر ، ولا مجحود الفضلِ ، ونحن فى أثناء ذلك نعانى أحوالا تُزِيل الرَّواسِى ، ونقاسِى

---

(١) تخاوص : إذا غض من بصره شيئا وهو فى ذلك يحدق النظر ، وكذا إذا نظر إلى عين الشمس .

(٢) استشرى الأمر : عظم وتفاقم ، وفى صبح الأعشى ونهاية الأرب «ويسرى فيه ظعنك» والسرى : سيرعامة الليل ، وظعن كمنع ظعنا ويحرك : سار .

(٣) أى يتتابع ، وفى صبح الأعشى وابن أبى الحديد «ويتراد» أى يتراجع ، والصعداء : تنفس طويل . (٤) التلبيس : التخليط . (٥) الضراء : الشجر الملتف فى الوادى ، يقال : توارى الصيد منه فى ضراء ، وفلان يمشى الضراء إذا مشى مستخفيا فيما يوارى من الشجر . والخمر : كل ما واراك من شجر أو بناء أو غيره ، وخمر كفرح توارى ، ومن أمثالهم : «يدب له الضراء ويمشى له الخمر» وهو مثل يضرب للرجل يختل صاحبه . (٦) جاء فى اللسان والمصباح : «قال ثعلب : أجود الكلام خسف القمر وكسفت الشمس» . (٧) القعقعة : تحريك الشىء اليابس الصلب مع صوت مثل السلاح وغيره ، والشنان : جمع شن بالفتح وهو القربة البالية ، وهم يحركونها إذا أرادوا حث الإبل على السير لتفزع فتسرع ، ومن أمثالهم «ما يقعقع له بالشنان» مثل يضرب لمن لا يروعه ما لا حقيقة له . الوعوعة والوعواع : صوت الذئاب والكلاب . (٨) قالوا : هذا العالم جد العالم ، وهذا عالم جد عالم : يريد بذلك التناهى وأنه قد بلغ الغاية فيما يصفه به من الخلال . (٩) الغرير والغر بالكسر : الشاب لا تجربة له ، وقد غر يغر بالكسر غرارة بالفتح ، عنفوان الشباب : أوله ، أو أول بهجته .

(١٠) رابه الأمر وأرابه : رأى منه ما يكرهه ، والإشادة : رفع الصوت بالشىء ، وتعريف الضالة ، وفى ابن أبى الحديد : «سوى ما أنت جار عليه من أخلاق الصبيان أمثالك ، وسجايا الفتيان أشكالك ، حتى بلغت إلى غايتك هذه التى إليها أجريت ، وعندها حط رحلك» .

أهوالا تُشِيب النَّواصِى ، خائضين غِمارها ، راكبين تَيَّارها ، تتجرَّع صابَها ، ونُشْرِج عِيابَها ، ونُحْكِم آساسَها[1] ، ونُبْرِم أَمْرَاسَها[2] ، والعيونُ تُحَدِّج[3] بالحَسَد ، والأنوف تَعْطِسُ بالكِبْر ، والصدور تَسْتَعِرُ بالغيظ ، والأعناق تتطاولُ بالفخر ، والألسنة[4] تُشْحَذ بالمكر ، والأرض تَمِيد بالخوف ، لانَنْتظر عند المَساء صباحا ، ولا عند الصباح مساء ، ولا ندفع فى نَحْر أمر[5] إلا بعد أن نَحْسُوَ الموت دونه ، ولا نبلغ مُراداً إلا بعد جَرْع العذاب معه ، ولا نُقيم مَنَاراً إلا بعد الإياس[6] من الحياة عنده ، فادِينَ فى جميع ذلك رسولَ الله صلى الله عليه وسلم بالأب والأم ، والخال والعَمّ ، والمال والنَّشَب[7] ، والسَّبَد واللَّبَد[8] ، والهِلَّةِ والبِلَّة[9] ، بطِيب أنفس ، وقُرَّةِ أعين ، ورُحْبِ أعطان[10] وثباتِ عزائم ، وصِحَّة عقود[11] وطَلاقة أوجه ، وذَلاقة أَلسُن .

هذا مع خَبِيئات أسرار ، ومكنونات أخبار ، كنتَ عنها غافلا ، ولولا سِنُّكَ

---

(١) الرواسى أى الجبال الرواسى أى الثابتة، والنواصى جمع ناصية: وهى منبت الشعر فى مقدم الرأس، والصاب : عصارة شجر مر ، وأشرج العيبة وشرجها وشرحها : أدخل بعض عراها فى بعض ، والعيبة بالفتح: وعاء من أدم، وما يجعل فيه الثياب، والآساس جمع أس مثلثا: وهو أصل البناء وأصل كل شىء.

(٢) المرسة بالتحريك: الحبل والجمع مرس بالتحريك أيضا وجمع الجمع أمراس وقد يكون المرس للواحد

(٣) التحديج : التحديق . (٤) فى صبح الأعشى ونهاية الأرب « والشفار» بالكسر جمع شفرة بالفتح وهى السكين العظيمة وحد السيف ، والمراد بها الألسنة أيضا . وتميد : تضطرب .

(٥) فى صبح الأعشى « امرئ » . (٦) أى اليأس .

(٧) النشب : المال الأصيل من الناطق والصامت . (٨) جاء فى اللسان « السبد : الوبر ، وقيل : الشعر ،واللبد من الصوف لتلبده ، والعرب تقول :ماله سبد ولا لبد ،أى ماله ذو وبر ولاصوف متلبد ، يكنى به عن الإبل والغنم ، وقيل يكنى به عن المعز والضأن ، وقيل : يكنى به عن الابل والمعز ، فالوبر للإبل والشعر للمعز ، وقال الأصمعى : ماله سبد ولا لبد، أى ماله قليل ولا كثير،وكان مال العرب الخيل والإبل والغنم فدخلت كلها فى هذا المثل » . (٩) يقال : جاءنا فلان فلم يأتنا بهلة ولا بلة ، وما أصاب عنده هلة ولا بلة : أى شيئا والهلة من الاستهلال والفرح ، والبلة : أدنى بلل من الخير ، وحكاهما كراع جميعا بالفتح . (١٠) الرحب : الاتساع ، والأعطان جمع عطن بالتحريك . ويقال : رجل رحب العطن ، وواسع العطن أى رحب الذراع كثير المال واسع الرحل ، وفى ابن أبى الحديد « ورحب أعطاف » والأعطاف جمع عطف بالكسر وهو الجانب .

(١١) وفى صبح الأعشى ونهاية الأرب « وصحة عقول » وذلاقة اللسان : حدته .

لم تسكن عن شيء منها نا كِلًا[١] ، كيف وفؤادُك مَشْهوم ، وعُودُك مَعْجُوم[٢] ، وغَيْبك مخبور ، والخير منك كثير ، والآن قد بَخّ الله بك ، وأرهص[٣] الخيرَ لك ، وجعل مُرادَك بين يديك ، وعن عِلْمٍ أقول[٤] ما تسمع ، فارتقِبْ زمانك ، وقَلِّصْ أردانَك ، ودع التقعُّسَ والتجسُّس لمن لا يَظْلَعُ لك إذا خطا ، ولا يتزحزح عنك إذا عَطَا[٥] ، فالأمر غَضٌّ ، والنفوس فيها مَضٌّ ، وإنك أديمُ هذه الأمة فلا تَحْلَمْ لَجاجا ، وسَيْفُها العَضْبُ فلا تَنْبُ اعوجاجا ، وماؤها العَذْبُ فلا تَحُلْ أُجاجا[٦] ، والله لقد سألت رسول الله صلى الله عليه وسلم عن هذا الأمر ، فقال لى « يا أبا بكر : هو لمن يرغب عنه لا لمن يُجَاحِش عليه ، ولمن يتضاءل عنه لا لِمَنْ يَنتفِج إليه[٧] ، هو لِمَنْ يقال له هو لك لا لمن يقول هو لى » .

ولقد شاورنى رسول الله صلى الله عليه وسلم فى الصِّهر ، فذكر فِتْيانا من قريش فقلت : أين أنت من على ؟ فقال صلى الله عليه وسلم : إنى لأكرَهُ لفاطمةَ مَيْعةَ[٨] شبابه ، وحَداثةَ سِنِّه ، فقلت له : متى كنَفْتَهُ يدك ، ورَعَتْه عينُك ، حَفَّتْ بهما[٩] ، البَرَكةُ ، وأُسْبِغت عليهما النعمةُ ، مع كلام كثير خاطبْته به رغبته فيك ، وما كنتُ

---

(١) نكل عنه كضرب ونصر وعلم نكولا : نكص وجبن .

(٢) المشهوم والشهم : الذكى الفؤاد المتوقد ، وعجم عوده كنصر : عضه ليعلم صلابته من خوره .

(٣) فى كتب اللغة : أرهص الله فلانا للخير أى جعله معدنا للخير ومأتى . وفى صبح الأعشى ونهاية الأرب « وأنهض » . (٤) وفى ابن أبى الحديد : « فاسمع ما أقول لك ، واقبل مايعود قبوله عليك ، ودع التجسس والتعسس . . . الخ » . (٥) التقليص : التشمير ، والأردان : جمع ردن بالضم ، وهو أصل الكم ، والتقعس والتقاعس : التأخر ، وظلع البعير كمنع : غمز فى مشيه . وعطا الظبى : تطاول إلى الشجر ليتناول منه . (٦) الغض : الطرى ، ومضه الشيء مضا : بلغ من قلبه الحزن به كأمضه ، والأديم : الجلد ، وحلم الجلد كفرح : وقع فيه الحلم بالتحريك : وهو دود يقع فى الجلد فيأكله فإذا دبغ وهى موضع الأكل ، وسيف عضب : قاطع ، ونبا السيف عن الضريبة : كل ، فلا تحل : أى فلا تتحول ولا تصر ، وماء أجاج : أى ملح مر . (٧) يجاحش : يدافع ، ونفج وانتفج وتنفج : ارتفع ، ومنه انتفج جنبا البعير : أى ارتفعا ، وانتفجت الأرنب : أى وثبت ، وفى ابن أبى الحديد « لا لمن يشمخ إليه » .

(٨) ميعة الشباب : أوله . (٩) أى بعلى وفاطمة ، وأسبغ الله عليه النعمة : أتمها .

عرَفت منك فى ذلك حَوْجَاءَ ولا لَوْجَاءَ[١] ، فقلتُ ما قلت وأنا أرى مكانَ غيرك ، وأجِدُ رائحةَ سواك ، وكنت لك إذ ذاك خيراً منك الآن لى ، ولئن كان عرّض بك رسول الله صلى الله عليه وسلم فى هذا الأمر فلم يكن مُعْرِضاً عن غيرك ، وإن كان قال فيك فما سكت عن سواك .

وإن تَلَجْلَجَ[٢] فى نفسك شىء فهَلُمَّ فالحكمُ مَرْضِىٌّ ، والصوابُ مسموعٌ ، والحق مطاع ، ولقد نُقِل رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى الله عزّ وجل ، وهو عن هذه العصابة راضٍ وعليها حَدِبٌ[٣] يسرُّه ماسرها ، ويسوءه ما ساءها ، ويَكيده ما كادها ، ويُرضيه ما أرضاها ، ويُسْخِطه ما أسخطها . أمَا تعلم أنه لم يدع أحداً من أصحابه وأقاربه وسُجَرائه[٤] إلا أبانه بفضيلة ، وخَصَّه بمزيّة ، وأفرده بحالة لو أصْفَقَتِ الأمة عليه لأَجلها ، لكان عنده إيالتُها وكفالتُها ، أتظن أنه صلى الله عليه وسلم ترك الأمة سُدًى بَدَدًا[٥] عبَاهِلَ مَبَاهِلَ ، طَلاَحَى[٦] مفتونةً بالباطل ، مغْبُونةً عن الحق ، لا رائدَ ولا ذَائِدَ ، ولا ضابطَ

---

(١) الحوجاء : الحاجة وكذا اللوجاء ، ويقال : مالى فيه حوجاء ولا لوجاء ، ولا حويجاء ولا لويجاء أى مالى فيه حاجة .

(٢) تلجلج : تردد ، وفى ابن أبى الحديد « اختلج » .

(٣) حدب عليه كفرح : تعطف ، وفى صبح الأعشى ونهاية الأرب « حذر » .

(٤) سجراء جمع سجير ، وهو الخليل الصفى ، وأصفقوا على كذا : أطبقوا . وآل على القوم إيالا وإيالة : ولى .

(٥) سدى بالضم والفتح والضم أكثر : أى مهملة للواحد والجمع ، وبددا : أى متفرقة ، يقال : جاءت الخيل بددا بددا على المصدر ، وتفرقوا بداد ، وفى الدعاء : « اللهم أحصهم عددا واقتلهم بددا » يروى بكسر الباء جمع بدة بالكسر وهى الحصة والنصيب : أى اقتلهم حصصا مقسمة لكل واحد حصته ونصيبه ، ويروى بالفتح : أى متفرقين من التبديد ، أى بدد شملهم .

(٦) عبهل الإبل : أهملها ، وإبل عباهل ومعبهلة : أى مهملة لا راعى لها ولا حافظ ، قال الراجز : عباهل عبهلها الوراد . وأبهل الإبل : أهملها أيضا كعبهلها . والعين مبدلة من الهمزة وهى مبهلة ومباهل الجمع (وقد ضبط مباهل فى لسان العرب والقاموس بضم الميم وكسر الهاء ، وكتب مصحح اللسان على هامشه : « كذا وقع فى الأصل ميم مباهل مضموما وكذا فى القاموس ، وليس فيه لفظ الجمع فانظر وحرر اه » والظاهر أنه بفتح أوله كما فى عباهل) وطلح البعير كمنع طلاحة بالفتح : أى كل وأعيا ، فهو طلح بالفتح والكسر وطليح وطالح ، وإبل أطلاح وطلاح بالكسر وطلح كركع وطلائح ، وجاء أيضا إبل طلاحى بفتح الطاء والحاء : أى تشتكى بطونها من أكل الطلح (والطلح كشمس : شجر عظام) قال فى اللسان « وأنكر أبو سعيد إبل طلاحى إذا أكلت الطلح ، قال : والطلاحى هى الكالة المعيية ، قال : ولا يمرض الطلح الإبل ، لأن رعى الطلح ناجع فيها » وفى ابن أبى الحديد « طلاحا » .

ولا حَائِطَ ولا رابِطَ ، ولا ساقِيَ ولا واقِيَ ، ولا هادِيَ ولا حَادِيَ[١] ؟ كلّا ! واللهِ ما اشتاق إلى ربه تعالى ، ولا سأَلَه المصيرَ إلى رضوانه وقُرْبه ، إلا بعد أن ضَرَب المَدَى ، وأوضح الهُدَى ، وأبان الصُّوَى ، وأمَّنَ المسالِكَ والمَطَارِحَ ، وسَهَّل المَبارِكَ والمَهَايِعَ[٢] ، وإلاَّ بعد أن شَدَخ يافُوخَ الشرك بإذن الله ، وشَرَم وجْهَ النفاق لوجه الله سبحانه. وَجَدَع أنف الفتنة فى ذات الله، وتَفَل فى عين الشيطان بعون الله، وصَدَع[٣] بملء فيه ويده بأمر الله عزّ وجل .

وبعدُ ، فهؤلاء المهاجرون والأنصار عندك ومعك فى بُقْعة واحدة ، ودارٍ جامعة ، إن استقالونى[٤] لك ، وأشاروا عندى بك ، فأنا واضعٌ يدى فى يدك، وصائر إلى رأيهم فيك ، وإن تكن الأخرى فادخل فى صالح ما دخل فيه المسلمون ، وكن العَوْن على مصالحهم ، والفاتح لِغَلَاقهم[٥] ، والمُرْشِد لضَالَّتهم، والرادع لغَوايتهم ، فقد أَمَر الله تعالى بالتعاون على البرِّ والتقوى والتناصُر على الحق ، ودَعْنا نقضى هذه الحياة الدنيا بصدور بريئة من الغِلّ ، ونلقى الله تعالى بقلوب سليمة من الضِّغن .

وبعدُ ، فالناس ثُمامة[٦] فارفُق بهم ، وأحْنُ عليهم ، ولِنْ لهم ، ولا تسوِّل لك

---

(١) عننت الفرس وأعننته : حبسته بالعنان ، وفى صبح الأعشى « مغبونة » وهو تصحيف ، وفى ابن أبى الحديد « ملوية » والذائد : الدافع ،وفى صبح الأعشى « زائد » وهو تحريف ،وحائط : أى حافظ وصائن من حاطه ، وفى ابن أبى الحديد « خابط » وهو تحريف . والحادى : سائق الابل .

(٢) المدى : الغاية ، والمعنى : بين الغاية . والصوى جمع صوة كقوة : وهى حجر يكون علامة فى الطريق . والمطارح : الأماكن البعيدة ، طرحه : أبعده ، والطروح كصبور: المكان البعيد ،وطرحت به النوى كل مطرح : أى نأت به . والمهايع : جمع مهيع كمقعد ، وهو الطريق البين .

(٣) شدخ : كسر ، واليافوخ: ملتقى عظم مقدم الرأس ومؤخره. وشرمه كضرب :شقه ، وجدع أنفه : قطعه . وتفل كنصر وضرب : بصق . وصدع كمنع : جهر ، وقيل فى قوله تعالى:

«فَاصْدَعْ بِمَا تُؤْمَرُ» أى شق جماعاتهم بالتوحيد أو اجهر بالقرآن أو اظهر أو احكم بالحق وافصل بالأمر أو اقصد بما تؤمر أو افرق به بين الحق والباطل . (٤) وفى ابن أبى الحديد « إن استقادوا لك» واستقاد له:أعطاه مقادته له وانقاد له. (٥) الغلائق جمع مغلق كمنبر: وهو ما يغلق به الباب كالمغلاق.

(٦) الثمامة : واحدة الثمام ، وهو نبت ضعيف قصير لا يطول ، وفى حديث عمر « اغزوا والغزو حلو خضر قبل أن يصير ثماما ثم رماما ، ثم حطاما » .

نفسُك فُرقتَهُم ، واختلاف كلمتهم ، ولا تُشْقِ نفسَك بنا خاصَّةً منهم ، واترك ناجِمَ الحِقْد حَصِيداً[١] ، وطائر الشر واقعاً ، وباب الفتنة مُغْلَقًا ، فلا قالَ ولا قِيلَ ، ولا لومَ ولا تعنيفَ ، ولا عِتاب ولا تثريبَ[٢] ، والله على ما نقول شهيد، وبما نحن عليه بصير » .

* * *

قال أبو عبيدة : فلما تأهَّبت للنهوض ، قال عمر رضى الله عنه : كن لَدَى الباب هُنَيْهَةً[٣] فلى معك دَورٌ من القول ، فوقفتُ وما أدرى ما كان بعدى ، إلا أنه لحقنى بوجه يُبْدى[٤] تهلُّلاً وقال لى : قل لعليّ :

« الرُّقاد مَحْلَمَة ، والهوى مَقْحَمَة[٥] ، « وَمَا مِنَّا إِلَّا لَهُ مَقَامٌ مَعْلُومٌ » ، وحق مُشاع أو مقسوم ، ونبأ ظاهر أو مكتوم ، وإن أَكْيَسَ الْكَيْسَى[٦] مَنْ مَنَحَ الشارِدَ تألُّفا ، وقاربَ البعيد تلطُّفا ، ووَزن كل شىء بميزانه ، ولم يَخْلِطْ خَبَره بعِيانه ، ولم يجعل فِتْرَه مكان شِبره ، دينا كان أو دنيا ، ضلالا كان أو هدى ، ولا خيرَ فى عِلْم مستعمَل فى جهل ، ولا خير فى مَعْرِفة مَشُوبة بنُكْر ، ولسنا كجِلْدة رُفْغِ البعير بين العِجَان والذَّنَب ، وكل صالٍ فبِناره يَصْلَى[٧] ، وكل سيلٍ فإلى قَراره يجرى ، وما كان سكوت هذه العصابة إلى هذه الغاية لِعِىّ[٨] وَشِىّ ، ولا كلامها اليوم لفَرَقٍ

---

(١) نجم النبات : طلع وظهر . حصيداً : محصودا .

(٢) فى صبح الأعشى « ولاتبيع » وهوتصحيف وصوابه « تبيغ » وتبيغ عليه الأمر : اختلط . والدم : هاج وغلب . والتثريب : اللوم .

(٣) هن كأخ معناه شىء ، وهو كناية عن كل اسم جنس ، والأنثى هنة بفتح النون . وقالوا هنت بالتاء ساكنة النون فجعلوه بمنزلة بنت وأخت ، ولامها محذوفة، فى لغة هى هاء فيصغر على هنيهة، ومنه يقال: مكث هنيهة أى قليلا من الزمان، وفى لغة هى واو فيصغر على هنية، وقيل هنية هو القياس، وهنيهة على إبدال الهاء من الياء فى هنية .

(٤) فى صبح الأعشى « يندى » كيفرح .

(٥) قحم فى الأمر كنصر : رمى بنفسه فيه فجأة بلا روية .

(٦) الكيس كشمس : خلاف الحمق ، وهو كيس كجيد والجمع كيسى كمرضى .

(٧) الرفغ بالضم والفتح : أصل الفخذ من باطن ، وكل موضع يجتمع فيه الوسخ من الجسد، كالإبط وغيره . العجان : الاست . ووجه الشبه الخسة وضعة المنزلة . صلى النار كفرح وصلى بها : قاسى حرها .

(٨) العى : الحصر . الشى : إتباع له . قالوا جاء بالعى والشى وفلان عيي شيي وشوى ، وما أعياه وأشياه وأشواه : وفى ابن أبى الحديد « لعى وحصر ، ولا كلامها اليوم لفرق وحذر » . الفرق : الخوف.

أو رِفق ، وقد جَدَع الله بمحمد صلى الله عليه وسلم أنفَ كل ذى كبر ، وقَصَم ظَهْرَ كل جَبّار ، وقطَع لسان كل كذوب ، فماذا بعد الحق إلا الضلال ، ماهذه الخُنْزُوانة التى فى فَراش رأسك ؟ ما هذا الشَّجا المعترض فى مَدارِج أنفاسك ؟ ما هذه القَذَاةُ[1] التى أعشَتْ ناظِرَك ؟ وما هذه الوَحَرَة[2] التى أكلت شَراسِيفَك[3] ؟ وما هذا الذى لبِسْتَ بسببه جِلْد النَّمِر[4] واشتملت عليه بالشَّحْناء والنُّكْر ؟

لَشَدَّ ما استَسْعَيْتَ[5] لها ، وسرَيْتَ سُرَى أنقَد[6] إليها ، إن العَوان لاتعَلَّمُ الخِمْرَةَ[7] ما أحوَجَ الفرْعاءَ إلى فالِيةٍ[8] وما أفقَرَ الصَّلْعاءَ إلى حالية ، ولقد قُبِض رسول الله صلى الله عليه وسلم، والأمرُ مُقَيَّد مُحَبَّس ، ليس لأحد فيه مَلْمَس، لم يسيِّرْ فيك قولاً ، ولم يستنزِلْ لك قرآنا ، ولم يَجزِم فى شأنك حكما ، لَسْنا فى كِسْرَويَّة كِسْرَى ، ولا فى قَيْصَرِية قَيْصَر ، تأمّلْ لإخوان فارسَ وأبناء الأصفَرِ ، قد جعلهم الله جَزَرا[9] لسيوفنا ، ودَرِيئةً لرماحنا ، ومَرْمَى لِطِعَانِنا ، وتبَعا لسلطاننا ، بل نحن فى نور نبوَّة ،

---

(١) الخنزوانة : الكبر . فراش الرأس : عظام رقاق تلى القحف . الشجا ما اعترض فى الحلق من عظم ونحوه. القذى : ما يقع فى العين والشراب . (٢) الوحرة : وزغة تكون فى الصحارى أصغر من العظاءة (بكسر العين) وهى على شكل سام أبرص . وقيل : الوحرة : ضرب من العظاء وهى صغيرة حمراء تعدو فى الجبابين لها ذنب دقيق تمصع به إذا عدت وهى أخبث العظاء، لاتطأ طعاما ولاشرابا إلا سمته ، ولا يأكله أحد إلا أخذه قىء وربما هلك آكله . والوحر بالتحريك أيضاً : غش الصدر وبلابله ، ويقال : إن أصل هذا من تلك الدويبة شبهوا العداوة ولزوقها بالصدر بالتزاق الوحرة بالأرض .

(٣) شراسيف جمع شرسوف: كعصفور وهو غضروف معلق بكل ضلع،أو مقط الضلع وهو الطرف المشرف على البطن . (٤) من أمثالهم « لبست له جلد النمر » أى تنكرت له. مثل يضرب فى إظهار العداوة الشديدة وكشفها . وقالوا أيضاً : نمر له أى تنكر وتغير ، وأصله من النمر لأنه من أنكر السباع وأخبثها، ولا تلقاه أبداً إلا متنكراً غضبان . قالوا وكانت ملوك العرب إذا جلست لقتل إنسان لبست جلود النمر ثم أمرت بقتل من تريد قتله. (٥) يريد به «سعيت» أو هو على بابه أى لشد ماطلبت إلى نصرائك أن يسعوا حتى تنال الخلافة ، وفى كتب اللغة استسعى العبد : كلفه من العمل مايؤدى به عن نفسه إذا أعتق بعضه ليعتق به ما بقى . (٦) أنقد : اسم للقنفذ معرفة لايصرف ،كقولهم : أسامة للأسد وذؤالة للذئب. ومن أمثالهم « أسرى من أنقد » و « بات بليلة أنقد » إذا بات ساهراً ،وذلك أن القنفذ يسرى ليله أجمع ، لاينام الليل كله . (٧) العوان من النساء : التى كان لها زوج . والخمرة : اسم هيئة من الاختمار ، وهو لبس الخمار بالكسر (مانسميه بالطرحة) أى أنها لا تحتاج الى تعلم الاختمار ، وهو مثل يضرب للرجل المجرب . (٨) الفرعاء : التامة الشعر . فالية : اسم فاعل من فلى رأسه من القمل يفليه كفلاه . (٩) تركهم جزرا للسباع والطير أى قطعاً . والدريئة : الحلقة يتعلم عليها الطعن والرمى.

وضياء رسالة ، وثمرة حكمة، وأثرة رحمة ، وعنوان نعمة ، وظل عصمة ، بين أمة مهدية بالحق والصدق ، مأمونة على الرتق والفتق ، لها من الله تعالى قلب أبي ، وساعد قوي ويد ناصرة ، وعين باصرة .

أتظن ظنا يا علي أن أبا بكر وثب على هذا الأمر مفتاتا على الأمة ، خادعا لها ، ومتسلطا عليها ؟ أتراه امتاخ أحلامها، وأزاغ أبصارها، وحل عقودها، وأحال عقولها ، واستل من صدورها حميتها[١] ، ونكث رشاءها[٢] ، وصب ماءها، وأضلها عن هداها ، وساقها إلى رداها ، وجعل نهارها ليلا ، ووزنها كيلا ، ويقظتها رقادا ، وصلاحها فسادا ؟ إن كان هكذا فإن سحره لمبين ، وإن كيده لمتين ، كلا والله بأي خيل ورجل ، وبأي سنان ونصل ، وبأي منة وقوة ، وبأي مال وعدة ، وبأي أيد وشدة ، وبأي عشيرة وأسرة ، وبأي قدرة ومكنة ، وبأي تدرع وبسطة[٣] ؟ لقد أصبح بما وسمته منيع الرقبة ، رفيع العتبة ، لا والله لكن سلا عنها فولهت[٤] له ، وتطامن لها فلصقت به ، ومال عنها فمالت إليه ، واشمأز دونها فاشتملت عليه ، حبوة حباه[٥] الله بها ، وعاقبة بلغه الله إليها ، ونعمة سربله الله جمالها ، ويد أوجب الله عليه شكرها ، وأمة نظر الله به إليها ، وطالما حلقت فوقه في أيام النبي صلى الله عليه وسلم وهو لا يلتفت إليها ، ولا يرتصد وقتها ، والله تعالى أعلم بخلقه ، وأرأف بعباده ، يختار ، ما كان لهم الخيرة[٦] ، وإنك بحيث لا يجهل موضعك من بيت النبوة ، ومعدن الرسالة ، وكهف الحكمة ، ولا يجحد حقك فيما آتاك ربك من العلم ، ومنحك من الفقه والدين ، هذا إلى مزايا خصصت بها ، وفضائل اشتملت عليها ، ولكن لك من يزاحمك بمنكب

---

(١) امتلخها : انتزعها . الأحلام : جمع حلم بالكسر وهو العقل . الحمية : الأنفة .
(٢) نكث الحبل : نقضه . والرشاء : الحبل .
(٣) رجل : جمع راجل وهو ضد الفارس . والمنة : القوة . والأيد : القوة أيضاً ، وكذا المكنة . البسطة : السعة .
(٤) الوله بالتحريك : ذهاب العقل والتحير من شدة الوجد ، وفعله كفرح
(٥) حباه : أعطاه . والحبوة مثلثة، والحباء ككتاب : العطاء .
(٦) الخيرة : اسم من الاختيار .

أضْخَمَ من مَنْكِبك ، وقُرْبَى أمسّ من قُرْباك ، وسِنّ أعلى من سنك ، وشَيْبةٍ أورع من شَيْبتك ، وسِيادة لها أصل فى الجاهلية ، وفَرْعٌ فى الإسلام ، ومواقف ليس لك [illegible]

وتجزع الماء ممزوجاً بدم ، وحينئذ تأسى[1] على ما مضى من عمرك ، ودارج قوتك[2] فتود أن لو سقيت بالكأس التي أبيتها ، ورددت إلى حالتك التي استغويتها، ولله تعالى فينا وفيك أمر هو بالغه ، وغيب هو شاهده ، وعاقبة هو المرجو لسرائها وضرائها ، وهو الولي الحميد الغفور الودود » .

* * *

قال أبو عبيدة : فمشيت متزملاً أنوء كأنما أخطو على أم رأسي ، فرقاً[3] من الفرقة ، وشفقاً على الأمة ، حتى وصلت إلى علي رضي الله عنه في خلاء ، فأبثثته[4] بثي كله ، وبرئت إليه منه ، ورفقت به ، فلما سمعها ووعاها ، وسرت في مفاصله حمياها ، قال : حلت معلوطة[5] ، وولت مخروطة . وأنشأ يقول :

إحدى لياليك فهيسي هيسي ... لاتنعمي الليلة بالتعريس[6]

نعم يا أبا عبيدة ، أكل هذا في أنفس القوم يحسون به ويضطبعون[7] عليه ؟

قال أبو عبيدة . فقلت : لا جواب لك عندي ، إنما أنا قاض حق الدين ، وراتق فتق المسلمين ، وساد ثلمة الأمة ، يعلم الله ذلك من جلجلان[8] قلبي ، وقرارة نفسي .

فقال علي رضي الله عنه : « والله ما كان قعودي في كسر[9] هذا البيت قصداً

---

(١) أسى كفرح : حزن . (٢) وفي ابن أبي الحديد « وانقضى وانقرض من دارج قومك، وتود أن لو سقيت بالكأس التي سقيتها غيرك ، ورددت إلى الحال التي كنت تكرهها في أمسك » . درج القوم : انقرضوا . (٣) متزملا : أي متلففا، وفي ابن أبي الحديد « متباطئا » وناء بالحمل : نهض مثقلا . الفرق : الخوف . (٤) أبثثته السر : أظهرته له. والبث : الحال . ورفق به وعليه مثلثة . والحميا من كل شيء: شدته. حميا الكأس: سورتها وشدتها وأخذها بالرأس. وحميا الشباب: أوله ونشاطه.

(٥) يقال : اعلوط فلان رأسه . إذا ركب رأسه وتقحم على الأمر بغير روية . واخروط البعير في سيره : إذا أسرع . (٦) هاس يهيس هيساً : سار أي سير كان . وهو مثل يضرب للرجل يأتي الأمر يحتاج فيه إلى الجد والاجتهاد.وعرس القوم: نزلوا في آخر الليل للاستراحة كأعرسوا والأول أكثر.

(٧) اضطبع الشيء : أدخله تحت ضبعيه ــ أي عضديه ــ والمعنى هنا يشتملون عليه وينطوون . وفي شرح ابن أبي الحديد : « يستبطنونه ويضطغنون عليه » والاضطغان : الاشتمال أيضا .

(٨) جلجلان القلب : حبته . (٩) أي في جانبه .

الخلاف ، ولا إنكاراً للمعروف ، ولا زِرايةً على مسلم ، بل لما قد وَقَذَنى به رسول الله صلى الله عليه وسلم من فِراقه ، وأودعنى من الحزن لفَقْده ، وذلك أنى لم أشْهَد بعده مَشْهَدا إلا جدّد علىّ حزنا ، وذكرنى شَجَنا[١] ، وإن الشوق إلى اللحاق به كافٌّ عن الطمع فى غيره ، وقد عَكَفتُ على عهد الله أنظُر فيه ، وأجمع ما تفرق منه ، رَجاء ثوابٍ مُعَدٍّ لمن أخلص لله عملَه ، وسلَّم لعلمه ومشيئته ، وأمْرِه ونهيه، على أنى ما علمت[٢] أن التظاهُر علىّ واقِعٌ. ولا عن الحق الذى سِيق إلىّ دافع، وإذ قد أفْعَم[٣] الوادى بى ، وحُشِد النادى من أجلى ، فلا مَرْحَباً بما ساءَ أحداً من المسلمين وسَرَّنى ؛ وفى النفس كلام ، لولا سابقُ عَقْدٍ ، وسالِفُ عَهْدٍ ، لَشَفَيْتُ غيظى بِخِنْصِرِى وَبِنْصِرِى ، وخُضْتُ لُجَّته بأَخْمَصِى وَمَفرِقى[٤] ولكننى مُلْجَمٌ إلى أن ألْقَى الله ربى ، وعنده أحتسِبُ ما نزل بى ، وإنى غادٍ إن شاء الله إلى جماعتكم ، مبايع صاحبكم ، صابر على ما ساءنى وَسَرَّكم ، لِيَقْضِىَ اللّٰهُ أمْراً كان مفعولا ، وكان الله على كل شىء شهيدا » .

قال أبو عبيدة : فعُدتُ إلى أبى بكر رضى الله عنه . فقصَصْتُ عليه القول على غَرِّه[٥] ، وَلم أختزِل شيئًا من حُلْوه وَمُرِّه ، وبكَّرْتُ غُدْوَةً[٦] إلى المسجد ، فلما كان صباحُ يومئذ ، إذا علىّ يخترق الجماعة إلى أبى بكر رضى الله عنهما فبايعه ، وقال خيرا ، ووصف جميلا ، وجلس زِمِّيتا[٧] ، واستأذن للقيام فمضى ، وتبعه عمر مُكْرِمًا له مستثيرا لما عنده .

---

(١) وقذه : صرعه وسكنه وغلبه وتركه عليلا . والشجن : الهم والحزن .
(٢) وفى ابن أبى الحديد « على أنى أعلم » . (٣) أى ملئ .
(٤) الخنصر بكسر الخاء والصاد . وبفتح الصاد . الإصبع الصغرى . البنصر : الإصبع بين الوسطى والخنصر. والمعنى: لشفيت غيظى بيدى. والأخمص من باطن القدم: ما لم يصب الأرض. المفرق كمقعد ومجلس: وسط الرأس. وهو الذى يفرق فيه الشعر. (٥) الغر: كل كسر متثن فى ثوب أو جلد. ويقولون : اطو الثوب على غره . أى على كسره الأول كما كان مطويا . والمعنى هنا : على أصله .
(٦) الغدوة : البكرة . أو مابين صلاة الفجر وطلوع الشمس .
(٧) الزميت كسكريم : الوقور . والزميت كسكيت : أوقرمنه .

وقام أبو بكر إليه فأخذ بيده وقال : إن عصابةً أنت منها يا أبا الحسن لمعصومة ، وإن أمةً أنت فيها لمرحومة ، ولقد أصبحت عزيزا علينا ، كريمًا لدينا ، نخاف الله إذا سخطت ، ونرجوه إذا رضيت ، ولولا أنى شُدِهتُ[١] ، لما أجبتُ إلى مادُعيتُ إليه ، ولكنى خفتُ الفرقة ، واستئثار الأنصار بالأمر على قريش ، وأعجلتُ عن حضورك ومشاورتك ، ولو كنتَ حاضرا لبايعتُك ولم أعْدِل بك ، ولقد حطَّ اللهُ عن ظَهْرِك ما أثقل كاهِلِي به ، وما أسَدَّ مَن ينظر الله إليه بالكفاية ، وإنا إليك لمحتاجون ، وبفضلك عالون ، وإلى رأيك وهديك فى جميع الأحوال راغبون ، وعلى حمايتك وحفيظتك[٢] مُعَوِّلون ، ثم انصرف وتركه مع عمر ، فالتفت علىّ إلى عمر فقال : يا أبا حَفْص والله ماقعدتُ عن صاحبكم كارهاً له[٣] ، ولا أتيته فَرَقا منه ، ولا أقول ما أقول تَعِلَّةً[٤] ، وإنى لأعرف مَسْمَى[٥] طرفى ، ومَحَطَّ قدمى ، ومَنْزِعَ قوسى ، ومَوْقِعَ سهمى ، ولكن قد أزَمْتُ على فأسِي[٦] ثقةً بربى فى الدنيا والآخرة ، وقد تخلفت إعذاراً إلى الله وإلى من يعلم الأمر الذى جعله لى رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وأتيت فبايعت حفظًا للدين ، وخوفا من انتشار أمر الله .

فقال له عمر رضى الله عنه : كَفْكِفْ غَرْبَكَ ، واستوقِفْ سِرْبَكَ[٧] ودع العَصا بلحائها ، والدِّلاءَ على رِشائها[٨] ، فإنّا مِن خَلفِها وورائها ، إن قَدَحْنا أوْرَيْنا ،

---

(١) شده . دهش .

(٢) الحفيظة : اسم بمعنى المحافظة والحفاظ .

(٣) وفى ابن أبى الحديد « جزعا على ماصار إليه » . (٤) التعلة والعلالة : مايتعلل به .

(٥) اسم مكان من سما وكذا ما بعده . (٦) الفأس من اللجام : الحديدة القائمة فى الحنك .
وأزم الفرس على فأس اللجام كضرب: قبض وعض. والمعنى هنا: كتمت ما فى نفسى .

(٧) الغرب : الحدة . والسرب : القطيع . وفى ابن أبى الحديد « كفكف من غربك ، ونهنه من سربك » ونهنهه عن الأمر : كفه وزجره . والسرب : النفس .

(٨) اللحاء : القشر . والرشاء : الحبل .

وإن مَتَحْنَا أَرْوَيْنا ، وإن قَرَحْنا(١) أَدْمَيْنا ، وقد سمعتُ أماثيلك التى لَغَزْتَ(٢) بها صادرةً عن صدر أكله الجَوَى ، ولو شئتُ لقلتُ على مقالتك ما إن سمعتَه نَدِمتَ على ما قلت ، وزعمت أنك قَعدت فى كِسر بيتك لِماَ وَقَذك به رسول الله صلى الله عليه وسلم من فقده ، فهو وَقَذَك ولم يَقِذْ غيرك ؟ بل مُصابه أعظم وأعمُّ من ذلك ، وإن مِن حقِّ مصابه أن لا تَصْدَع شَمْلَ الجماعة بفُرقةٍ لاعِصامَ لها(٣) ، ولا يؤمَن كيد الشيطان فى بقائها ، هذه العرب حولنا ، والله لو تداعَت علينا فى صبح نهار لم نلتقِ فى مَسائه ، وزعمت أن الشوق إلى اللَّحاق به كافٌّ عن الطمع فى غيره ! فمن علامة الشوق إليه نُصرة دينه ومؤازرة أوليائه ومعاونتهم ، وزعمت أنك عكفْتَ على عهد الله تجمع ماتفرق منه ، فمن العكوف على عهد الله النصيحةُ لعباد الله ، والرأفةُ على خلق الله ، وبَذْل ما يصلحُون به ، وَيَرْشُدون عليه ، وزعمتَ أنَّك لم تعلم أن التظاهر وقع عليك ، وأىُّ حَقٍّ لُطَّ(٤) دونك ؟ قد سمعتَ وعلمت ما قال الأنصار بالأمس سِرا وجهراً ، وتقلَّبَتْ عليه بَطْنًا وظَهرا ، فهل ذكرتْك أو أشارتْ بك أو وجَدْتَ رضاهم عنك ؟ هل قال أحد منهم بلسانه إنك تَصْلُح لهذا الأمر ؟ أو أَوْمَأ بعينه ؟ أو هَمْهم(٥) فى نفسه، أتظن أن الناس ضلُّوا مِن أَجْلك ، وعادوا كفاراً زهدا فيك ، وباعوا الله تحامُلاً عليك ؟ لا واللهِ ، لقد جاءنى عَقِيل بن زِياد الخَزْرَجِىّ فى نَفَر من أصحابه ، ومعهم شُرَحْبيل بن يعقوب الخزرجى وقالوا : إن عليا ينتظر الإمامة ، ويزعم أنه أَوْلَى بها من غيره ، ويُنْكِر على من يَعقِد الخلافة ، فأنكرت عليهم ، وَرَدَدْتُ القول فى نحورهم حيث قالوا : إنه ينتظر الوحى ،

---

(١) ورى الزند كوعى وولى : خرجت ناره وأوريته . متح الماء كمنع : نزعه . قرحه كمنع أيضا : جرحه. (٢) الأماثيل: جمع أمثولة بالضم، تمثل إذا أنشد بيتا ثم آخر ثم آخر وهى الأمثولة . وفى ابن أبى الحديد «أمثالك التى ألغزت بها » وألغز كلامه وفيه ولغز : عمى مراده .

(٣) العصام : حبل تشد به القربة . ورباط كل شىء .

(٤) لط حقه : جحده ، وفى ابن أبى الحديد « وزعمت أن التظاهر عليك واقع ، أى تظاهر وقع عليك : وأى حق استؤثر به دونك ؟ » . (٥) الهمهمة: الكلام الخفى ،وفى صبح الأعشى «أوهم».

ويتوكَّف[١] مُناجاة المَلَك ، فقلت : ذاك أمر طواه الله بعد نبيه محمد صلى الله عليه وسلم ، أكان الأمر معقوداً بأُنشُوطة ، أو مشدوداً بأطراف لِيطةٍ[٢] ؟ كلا ! والله لا عجماء بحمد الله إلا وقد أفصَحَتْ ، ولا شَوكاء[٣] إلا وقد تفتَّحَت ، ومن أعجَبِ شأنك قولك : ولولا سالفُ عهْد ، وسابق عَقْد ، لشفيْتُ غيظى بِخنصِرى وبِنصِرى ، وهل ترك الدينُ لأهله أن يَشفُوا غيظهم بيد أو بلسان ؟ تلك جاهلية وقد استأصل الله شأْفَتها واقتلع جُرثومتَها ، وَهَوَّرَ ليلَها ، وَغَوَّرَ سَيْلها ، وأبدل منها الرَّوحَ والرَّيْحان[٤] ، والهدى والبرهان ، وزعمتَ أنك مُلْجَم ، ولعمرى إن من اتقى الله ، وآثَرَ رضاه ، وطلب ما عنده ، أمسَكَ لسانه ، وأطبَق فاه ، وغلب عقله ودينه على هواه ، وجعل سعْيَه لما وراه .

وأما قولك : إنى لأَعْرِفُ مَنْزِع قوسى ، فإذا عرَفْتَ مَنْزِعَ قوسك عَرَف غيرك مَضرِب سيفه ، ومَطْعَن رمحه ، وأما ما تزعمه من الأمر الذى جعله رسول الله صلى الله عليه وسلم لك فتخلَّفْتَ إعذارًا إلى الله وإلى العارفة به من المسلمين ، فلو عرَفه المسلمون لجنحوا إليه وأصْفَقوا عليه ، وما كان الله لِيَجْمَعَهم على العَمَى ، ولا لِيضربَهم بالضلال بعد الهدى ، ولو كان لرسول الله صلى الله عليه وسلم فيك رأى ، وعليك عزم ، ثم بعثه الله ، فرأى اجتماعَ أمتـــه على أبى بكر لَمَا سَفَّهَ آراءهم ، ولا ضَلَّلَ أحلامَهم ، ولا آثَرَك عليهم ، ولا أرضاك بسُخطهم ، ولأَمَرَك باتباعهم والدخول معهم فيما ارتضَوه لدينهم » .

---

(١) التوكف : التوقع والانتظار . (٢) الأنشوطة : عقدة تحل إذا جذب أحد طرفيها . والليطة : قشرة القصبة. (٣) أى ولا نبتة شوكاء يريد ذات شوك، والذى فى كتب اللغة « شجرة شاكة بتخفيف الكاف وشوكة كفرحة وشائكة ومشيكة بضم فكسر : ذات شوك ، وحلة شوكاء : عليها خشونة الجدة ، أقول : وقد لوحظ فى وضع شوكاء للحلة الجديدة أن ملمسها خشن كأنه مغشى بالشوك .
(٤) الشأفة : الأصل ، وقرحة تخرج فى أسفل القدم فتكوى فتذهب ،واستأصل الله شأفته : أزاله من أصله : أو أذهبه كما تذهب تلك القرحة . وجرثومة الشيء : أصله ، وهوره : أزاله وأذهبه . من هور البناء إذا هدمه ، وفى ابن أبى الحديد « ونور ليلها » والروح : الراحة . والريحان : الرزق الطيب .

فقال عليّ رضى الله عنه: مَهْلاً يا أبا حفص، أرشدك اللهُ، خَفِّضْ عليك والله ما بذلت ما بذلتُ وأنا أريد نَكْثَهُ، ولا أقررتُ ما أقررتُ وأنا أبتغى حِوَلا عنه، وإنّ أخسَرَ الناس صَفْقَةً عند الله من آثَرَ النفاق[1]، واحتضن الشِّقاق، وفى الله خَلَف عن كل فائت، وعوض من كل ذاهب. وسَلْوَةٌ عن كل حادث، وعليه التوكل فى جميع الحوادث، ارجع يا أبا حفص إلى منزلك ناقِع القلب، مبرودَ الغليل، فَسِيح اللَّبَان، فصيح اللسان، فليس وراء ما سمعتَ وقلتُ إلا ما يشُد الأَزْرَ، وَيَحُطُّ الوِزْرَ، ويَضَع الإِصْرَ[2]، ويجمع الأُلْفة، ويرفع الكُلْفة، بمشيئة الله، وحسن توفيقه.

قال أبو عبيدة رضى الله عنه، فانصرف عليّ وعمر رضى الله عنهما، وهذا أصعب ما مَرّ عليّ بعد رسول الله صلى الله عليه وسلم.

(صبح الأعشى ١ : ٢٣٧، ونهاية الأرب ٧ : ٢١٣، وشرح ابن أبى الحديد م ٢ : ص ٥٩٢)

٥٨ — كتاب أبى بكر إلى أهل الرِّدّة

كتب أبو بكر الصديق رضى الله عنه إلى قبائل العرب التى ارتدَّت عن الإسلام بعد وفاة رسول الله صلى الله عليه وسلم — سنة ١١ هـ — كتابًا واحداً، ونصه:

« بسم الله الرحمن الرحيم: من أبى بكرٍ خليفةِ رسول الله صلى الله عليه وسلم، إلى مَن بلغه كتابى هذا من عامَّة وخاصَّة، أقام على إسلامِه أو رجع عنه.

سلامٌ على من اتبع الهُدَى، ولم يرجِع بعد الهدى إلى الضَّلالة والعَمَى، فإنى أحمَد إليكم اللهَ الذى لا إلهَ إلا هو، وأشهَد أنْ لا إلهَ إلا اللهُ وحدَه لا شريكَ له، وأن محمداً عبده ورسوله، وأُقِرُّ بما جاء به، وأُكفِّر مَنْ أَبَى وأجاهِدُه.

أما بعدُ، فإن الله تعالى أرسل محمداً بالحقِّ من عنده إلى خَلْقه بشيراً ونذيراً، وداعياً إلى الله بإذنِه وسراجاً مُنيراً، لِيُنذِرَ مَنْ كَانَ حَيًّا، ويَحِقَّ القَوْلُ عَلَى

(١) وفى ابن أبى الحديد « من استبطن النفاق ».

(٢) اللبان: الصدر. الأزر الظهر والقوة. الإصر: الذنب والثقل.

الكافرينَ ، فهدى الله للحق من أجاب إليه ، وضرب رسولُ الله صلى الله عليه وسلم بإذنه من أدبر عنه ، حتى صار إلى الإسلام طوعا وكَرْهاً ، ثُمَّ تَوَفَّى اللهُ رسولَه صلى الله عليه وسلم وقد نَفَّذَ لأمر الله، ونصح لأمته ، وقضى الذى عليه ، وكان الله قد بَيَّنَ له ذلك ولأهل الإسلام ، فى الكتاب الذى أنزَلَه فقال : «إنَّكَ مَيِّتٌ وَإنَّهُمْ مَيِّتُونَ» وقال : «وَمَا جَعَلْنا لِبَشَرٍ مِنْ قَبْلِكَ الْخُلْدَ أَفَإنْ مِتَّ فَهُمُ الخَالِدُونَ» وقال للمؤمنين: «وَما مُحَمَّدٌ إلاَّ رسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِ الرُّسلُ أَفإنْ مَاتَ أَوْ قُتِلَ انْقَلَبْتُمْ عَلَى أَعقَابِكُمْ ، وَمَنْ يَنْقَلِبْ عَلَى عَقِبَيْهِ فَلَنْ يَضُرَّ اللهَ شيئاً ، وسَيَجْزِى اللهُ الشَّاكِرِين» فمن كان إنما يعبد محمداً ، فإن محمداً قد مات ، ومن كان إنما يعبد الله وحْدَه لا شريك له ، فإن الله له بالمِرْصاد حىّ قيُّوم[1] لا يموت ، ولا تأخذه سِنَـةٌ[2] ، ولا نوم ، حافظ لأمره ، منتقمٌ من عدوهِ بجزْيه .

وإنى أُوصيكم بتقوى الله وحظِّكم ونصيبكم من الله ، وما جاءكم به نبيكم صلى الله عليه وسلم ، وأن تهتدوا بهُداه ، وأن تعتصموا بدين الله ، فإن كل من لم يهده الله ضالٌّ ، وكل من لم يُعافه مُبتلى ، وكل من لم يُعِنْهُ مخذول ، فمن هداه الله كان مهتديًا ، ومن أضله كان ضالاً ، قال الله تعالى : «مَنْ يَهْدِ اللهُ فَهُوَ الْمُهْتَدِ وَمَنْ يُضْلِلْ فَلَنْ تَجِدَ لَهُ وَلِيًّا مُرْشِداً» ولم يُقْبَلْ منه فى الدنيا عمل حتى يُقِرَّ به ، ولم يُقْبَلْ منه فى الآخرة صَرْف ولا عَدْلٌ[3] .

وقد بلغنى رجوعُ من رَجَع منكم عن دينه بعد أن أقَرَّ بالإسلام وعمِل به ، اغترارًا بالله ، وجَهالة بأمره ، وإجابة للشيطان ، قال الله جلَّ ثناؤه : «وَإذْ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ

(١) المرصاد : الطريق . وفلان يرصد فلانا أى يقعد له على طريقه يترقبه . والمعنى أن الله يرصد كل إنسان حتى يجزيه بأعماله لا يفوته منها شىء . القيوم : الدائم القيام بتدبير خلقه وحفظه .

(٢) السنة : فتور يتقدم النوم . قال ابن الرقاع :

وسنان أقصده النعاس فرنقت ... فى عينه سنة وليس بنائم

(٣) انظر هامش ص ٣٣ .

اسْجُدُوا لِآدَمَ فَسَجَدُوا إلاَّ إِبْلِيسَ كَانَ مِنَ الْجِنِّ فَفَسَقَ عَنْ أَمْرِ رَبِّهِ أَفَتَتَّخِذُونَهُ وَذُرِّيَّتَهُ أَوْلِيَاءَ مِنْ دُونِي وَهُمْ لَكُمْ عَدُوٌّ بِئْسَ لِلظَّالِمِينَ بَدَلاً » وقال جلّ ذكره : « إِنَّ الشَّيْطَانَ لَكُمْ عَدُوٌّ فَاتَّخِذُوهُ عَدُوًّا إِنَّمَا يَدْعُو حِزْبَهُ لِيَكُونُوا مِنْ أَصْحَابِ السَّعِيرِ » .

وإنى أنفذتُ إليكم فلاناً فى جيش من المهاجرين والأنصار والتابعين بإحسان ، وأمرته ألا يقاتل أحداً ولا يقتله ، حتى يدعوَه إلى داعية الله ، فمن استجاب له وأقرّ وكفّ وعمِلَ صالحًا ، قَبِلَ منه وأعانه عليه ، ومن أبى أمرته أن يقاتله على ذلك ، ثم لا يُبْقِى على أحد منهم قدَر عليه ، وأن يُحَرِّقهم بالنيران ، ويقتلهم كلّ قِتْلة ، وأن يَسْبِىَ النساء والذرارىّ ، ولا يقبل من أحد إلا الإسلام ، فمن اتبعه فهو خير له ، ومن تركه فلن يُعْجِزَ اللّهَ .

وقد أمرتُ رسولى أن يقرأ كتابى فى كل مَجْمَع لكم ، والداعيةُ الأذانُ ، فإذا أذَّن المسلمون فأذَّنوا كفُّوا عنهم ، وإن لم يؤذِّنوا عاجَلوهم ، وإذن أذّنوا سألوهم ما عليهم ، فإن أبَوْا عاجَلوهم ، وإن أقرُّوا قَبِلَ منهم وحَمَلَهم على ما ينبغى لهم » .

(تاريخ الطبرى ٣ : ٢٢٦ ، وصبح الأعشى ٦ : ٣٨٤)

٥٩ – كتابه لأمراء جيوش الردة

وعقد رضى الله عنه أحدَ عشرَ لواء لمحاربة المرتدين ، وكتب لأمراء الجيوش عهداً ، هذا نصه :

« بسم الله الرحمن الرحيم : هذا عَهْدٌ من أبى بكرٍ خليفة رسول الله صلى الله عليه وسلم لفلان .... حين بَعَثه فيمن بَعَثه لقتال من رَجَعَ عن الإسلام ، عَهِدَ إليه أن يتّقِىَ اللّهَ ما استطاع فى أمره كلّه ، سِرِّه وعلانيته ، وأَمَرَه بالجِدّ فى أمر الله ، ومجاهدة من تولّى عنه ، ورجع عن الإسلام إلى أمانىِّ الشيطان ، بعد أن يُعْذِر إليهم ، فيدعوهم

بداعية الإسلام ، فإن أجابوه أمسك عنهم ، وإنْ لم يجيبوه شَنَّ غارتَه عليهم[١] حتى يُقِرُّوا له ، ثم يُنَبِّئُهم بالذى عليهم والذى لهم ، فيأخذ ما عليهم ، ويعطيهم الذى لهم ، لا ينظِرهم[٢] ، ولا يردّ المسلمين عن قتال عدوهم ، فمن أجاب إلى أمر الله عزَّ وجل ، وأقرّ له ، قبِلَ ذلك منه ، وأعانه عليه بالمعروف ، وإنما يقاتِلُ من كفَر بالله ، على الإقرار بما جاء من عند الله ، فإذا أجاب الدعوة لم يكن له عليه سبيل ، وكان الله حَسِيبَه بعدُ فيما اسْتَسَرَّ به[٣] ، ومن لم يُجِبْ داعية الله قُتِلَ وقوتِلَ حيث كان ، وحيث بلغ مُراغَمَه[٤] ، لا يَقْبل من أحد شيئاً أعطاه إلا الإسلامَ ، فمن أجابه وأقرَّ به قبِلَ منه وعلَّمه ، ومن أبَى قاتَلَه ، فإن أظهره الله عليه قَتَل فيهم كلَّ قِتْلَةٍ بالسلاح والنيران ، ثم قَسَمَ ما أفاء الله عليه إلا الخُمْس فإنه يبَلِّغُناه ، وأن يمنع أصحابه العَجَلَةَ والفسادَ ، وأن لا يُدْخِلَ فيهم حَشْوا حتى يعْرِفهم ويَعْلَمَ ما هم ، لِئَلاَّ يكونوا عُيُوناً ، ولِئَلاَّ يُؤْتَى المسلمون من قِبَلِهم ، وأن يقصِدَ بالمسلمين ، ويَرْفُقَ بهم فى السير والمَنْزِل ، ويتفقدهم ولا يُعْجِل بعضهم عن بعض ، ويستوصِى بالمسلمين فى حُسن الصُّحبة ولِين القول » . (تاريخ الطبرى ٣ : ٢٢٧ ، وصبح الأعشى ١٠ : ١٩٢)

٦٠ — كتاب خالد بن الوليد إلى أبى بكر

وسيَّر أبو بكر خالدَ بن الوليد رضى الله عنهما لقتال طُلَيْحَةَ بن خُوَيْلِد الأَسَدىّ — وكان قد ادَّعى النبوّة فى حياة رسول الله صلى الله عليه وسلم ، واستطار أمرُه ، واجتمعت إليه غَطَفَانُ وطيِّئٌ — فناجزهم خالد على بُزَاخَةَ[٥] ، وكان بنو عامر قريباً منهم يقدِّمون رِجْلا ويؤخِّرون أخرى ، يتربَّصون على مَن تكونُ الدَّبْرَةَ[٦] ، فلما أُحيطَ بأسد

(١) شن الغارة عليهم : صبها من كل وجه . (٢) أى لا يؤخرهم .
(٣) استسر : استتر . (٤) المراغم : المهاجر (اسم مكان) .
(٥) بزاخة : ماء من مياه بنى أسد بأرض نجد . (٦) الدبرة : الهزيمة فى القتال .

وغطفان ، وقرّة طليحة[١] ، أقبل بنو عامر يقولون : ندخل فيما خرجنا منه ، ونؤمن بالله ورسوله ، ونسلّم لحُكْمه فى أموالنا وأنفسنا ، فبايعهم ولم يقبل منهم إلا أن يأتوه بالذين حرّقوا ومثّلوا وعدَوْا على أهل الإسلام فى حال ردّتهم ، فأتوْه بهم ، فقبِلَ منهم إلا قُرَّة بن هُبَيْرَة[٢] ونفرا معه أوثقهم ، ومثّل بالذين عدَوا على الإسلام ، فأحرقهم بالنيران ، ورضَخهم بالحجارة ، ورمى بهم من الجبال ، ونكّسهم فى الآبار ، وخزَق[٣] بالنبال ، وبعث بقُرَّة وبالأسارَى ، وكتب إلى أبى بكر :

« إن بَنِى عامر أقبلتْ بعد إعراض ، ودخلتْ فى الإسلام بعد تربُّص ، وإنى لم أَقْبَلْ من أحد قاتلنى أو سالمنى شيئاً حتى يجيئونى بمن عدَا على المسلمين ، فقتلتُهم كُلَّ قِتْلَةٍ ، وبعثتُ إليك بقُرَّةَ وأصحابه » . (تاريخ الطبرى ٣ : ٢٣٣)

٦١ — رد أبى بكر على كتاب خالد

فكتب أبو بكر إلى خالد رضى الله عنهما :

« لِيَزِدْك ما أنعم اللهُ به عليك خَيْرًا ، واتّقِ الله فى أمرك فـ«إنَّ اللهَ مَعَ الَّذِينَ اتَّقَوْا وَالَّذِينَ هُمْ مُحْسِنُونَ» جِدَّ فى أمر الله ، ولا تَنِيَنَّ ، ولا تظفَرَنَّ بأحدٍ قَتَل المسلمين إلا قتلتَه ، ونكّلتَ[٤] به غيرَه ، ومن أصَبْتَ[٥] ممَّنْ حادَّ اللهَ أو ضادَّه ، ممن تَرَى أن فى ذلك صلاحاً فاقتله » . (تاريخ الطبرى ٣ : ٢٣٣)

---

(١) وقد لحق بالشأم ثم أسلم هنالك حين بلغه أن أسدا وغطفان وعامرا قد أسلموا .

(٢) وكان على سادتهم وقادتهم فى كعب ، وهى بطن من عامر .

(٣) رضخهم: أى رماهم ، وراضخه : راماه بالحجارة ،وهم يتراضخون بالسهام أى يترامون ،وخزقه كضربه :طعنه . (٤) نكل به تنكيلا : صنع به صنيعا يحذر غيره ، والنكال :ما نكلت به غيرك.

(٥) فى الأصل « ومن أحببت » وأراه محرفا وصوابه ماذكرت. وحاده : غاضبه وخالفه .

٦٢ — كتاب أبى بكر إلى عكرمة بن أبى جهل

وبعث أبو بكر رضى الله عنه عِكْرِمَةَ بن أبى جَهْل إلى مُسَيْلِمَة ، وبنى حَنِيفَة باليمامة ، وأتبعه شُرَحْبِيلَ بن حَسَنة ، فَعَجِلَ عكرمةُ ، فبادر شرحبيلَ لِيَذْهَبَ بِصَوْتِها[(١)] ، فواقَعَهم فنكبوه ، وأقام شرحبيل بالطريق حيث أدركه الخبر ، وكتب عكرمةُ إلى أبى بكر بالذى كان من أمره ، فكتب إليه أبو بكر :

« يابن أم عِكْرِمة ، لا أَرَيَنَّكَ وَلا تَرانى على حالها[(٢)] ، لا ترجِعْ فتُوهِنَ[(٣)] الناس ، امْضِ عَلَى وجهك حتى تساندَ حُذَيفة وعَرْفَجَة[(٤)] ، فقاتِلْ معهما أهلَ عُمَانَ ومَهْرة ، وإن شغلا فامض أنت ، ثم تسير وتسير جندك تَسْتبرِئون مَن مررتم به ، حتى تلتقوا أنتم والمهاجربن أبى أُمَيَّةَ باليمن وحَضْرَمَوْت » .

(تاريخ الطبرى ٣ : ٢٤٣)

٦٣ — عهد خالد بن الوليد لبنى حنيفة

ثم كتب أبو بكر رضى الله عنه إلى خالد بن الوليد أن يسير إلى مُسَيْلِمة، فسار إليه ، واقتتل الفريقان قتالا شديدًا ، ودارت الدائرة عَلَى بنى حَنيفة ، وقُتِل مسيلمة ، فقال مُجَّاعة ابن مُرارة ـ أحد سادات بنى حنيفة ـ إنه واللهِ ما جاءك إلا سَرَعانُ[(٥)] الناس ، وإن جماهيرهم لفى الحصون ، فَهَلُمَّ لأصالِحَك عَلَى قومى ، وكان المسلمون قد نَهِكَتهم الحربُ ، واستحرَّ[(٦)] فيهم القتال ، فجنح خالد إلى الصلح ، وكتب لهم بذلك كتابًا نصه :

---

(١) أى ليكون له فضل الفوز خاصة . (٢) وقال الطبرى فى موضع آخر « ٣ : ٢٦٢ »: وكتب إلى عكرمة يعنفه لتسرعه ويقول : « لا أرينك ولا أسمعن بك إلا بعد بلاء » .

(٣) وهنه: أضعفه . (٤) وكان أبو بكر رضى الله عنه سير حذيفة بن محصن إلى أهل دبا ، وعرفجة بن هرثمة إلى مهرة . (٥) سرعان الناس بالتحريك وسرعانهم بسكون الراء : أوائلهم المستبقون إلى الأمر . (٦) استحر : اشتد .

« هذا ماقَاضَى عليه خالد بن الوليد مُجّاعةَ بن مُرارة وسَلَمَـة بن عُمَيْر وفلانًا وفلانا قاضاهم عَلَى الصَّفْراء والبيضاء ، ونصفِ السَّبْي[1] ، والحلْقَة وَالـكُراع[2] وحائطٍ من كل قرية ومَزْرَعة عَلَى أن يُسْلموا ، ثم أنتم آمِنون بأمان الله ، ولـكم ذمة خالد بن الوليد ، وذمة أبى بكر خليفة رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وذمم المسلمين عَلَى الوفاء » .

(تاريخ الطبرى ٣ : ٢٥٣)

٦٤ — كتاب أبى بكر إلى خالد بن الوليد

ثم إن خالداً تزوج ابنة مُجّاعة بن مُرارة ، فبلغ ذلك أبا بكر فـكتب إليه كتاباً يَقْطُر الدم :

« لعمرى يا بن أمِّ خالد ، إنك لفارغ تَنْـكِح النساء ، وبِفِناء بيتك دَمُ ألفٍ ومائتى رجل من المسلمين لم يجفف بعد » .

فلما نظر خالد فى الـكتاب جعل يقول: هذا عَمَلُ الأُعَيْسِر[3]، يعنى عمر بن الخطاب .

(تاريخ الطبرى ٣ : ٢٥٤)

٦٥ — كتاب العلاء بن الحضرمى إلى أبى بكر

وكتب العَلاء بن الحضْرَمِيّ ، وهو على قتال المرتدّين بالبحرَين ، إلى أبى بكر رضى الله عنه :

---

(١) وكان قد صالحه أولا على نصف السبى ، فقال مجاعة : أنطلق إليهم فأشاورهم وننظر فى هذا الأمر ثم أرجع إليك ، فدخل مجاعة الحصون وليس فيها إلا النساء والصبيان ومشيخة فانية ورجال ضعفى ، فظاهر الحديد على النساء ، وأمرهن أن ينشرن شعورهن ، وأن يشرفن على رءوس الحصون حتى يرجع إليهم ، أتى خـالدا فقال : قد أبوا أن يجيزوا ما صنعت وقد أشرف لك بعضهم نقضا على وهم منى براء ، فنظر خالد إلى رءوس الحصون ، وقد اســـودت . فخالهـا ممتلئة بالرجال وعليهم الحديد ، فقال مجاعة : إن شئت صنعت شيئا فعزمت على القوم ، قال : ما هو ؟ قال: تأخذ منى ربع السبى وتدع ربعا، قال خالد: قد فعلت ، قال : قد صالحتك ، فلمـا فرغا فتحت الحصون فإذا ليس فيها إلا النساء والصبيان ! فقال خالد لمجاعة : ويحك خدعتنى ! قال : قومى ، ولم أستطع إلا ما صنعت .

(٢) الحلقة : الدرع ، والـكراع: اسم يجمع الخيل . (٣) الأعيسر مصغر الأعسر : وهو من يعمل بالشمال (وهو أعسر يسر — كـيبب — أى يعمل بيديه جميعاً) .

« أما بعدُ ، فإن الله تبارك وتعالى فجَّر لنا الدَّهْناءَ[١] فَيضاً لا تُرَى غَوارِ بُه[٢] ، وأرانا آيةً وعِبْرَة بعد غمٍّ وكرب[٣] ، لنَحْمَدِ الله ونمجِّده ، فادعُ الله واستنصِرْه لجنوده وأعوان دينه » .

فحمِد أبو بكر الله ودعاه . (تاريخ الطبرى ٣ : ٢٦٠)

٦٦ — كتاب العلاء إلى أبى بكر

ثم كتب إليه العلاء بهزيمة أهل الخندق وقتل الحُطَم بن ضُبَيْعة[٤] :

« أما بعدُ : فإن الله تبارك اسمهُ سَلَب عدوَّنا عقولَهم ، وأذهب ريحَهم ، بشرابٍ أصابوه من النهار ، فاقتحَمْنا عليهم خَندقَهم ، فوجدناهم سُكارى[٥] ، فقتلناهم إلا الشريدَ ، وقد قتل الله الحُطَمَ » (تاريخ الطبرى ٣ : ٢٦١)

٦٧ — كتاب أبى بكر إلى العلاء

فكتب إليه أبو بكر :

« أما بعد : فإنْ بلغك عن بنى شَيْبان بن ثَعْلبة تَمامٌ على ما بلغك وخاض فيه المُرْجِفون[٦] ، فابعث إليهم جُنداً فَأَوْطِئْهم وشرِّدْ بهم مَن خلفهم »

فلم يجتمعوا ولم يَصِرْ ذلك من إرجافهم إلى شىء (تاريخ الطبرى ٣ : ٢٦١)

---

(١) الدهناء : من ديار بنى تميم . (٢) غوارب الماء : أعالى موجه .

(٣) وذلك أن العلاء سلك بالمسلمين الدهناء ، حتى إذا كانوا فى بحبوحتها نزل وأمر الناس بالنزول ، فنفرت الإبل فى جوف الليل حتى لم يبق لهم بعير ولا زاد ، فغشيهم من الغم ما غشيهم ، فقال لهم العلاء : أيها الناس لا تراعوا ، ألستم مسلمين ألستم فى سبيل الله ، ألستم أنصار الله ؟ قالوا : بلى ، قال : فأبشروا فوالله لا يخذل الله من كان فى مثل حالكم ، فلما صلوا الصبح دعا ودعوا معه ، حتى لمع لهم ماء فمشوا إليه ، فشربوا واغتسلوا ، فما تعالى النهار حتى أقبلت الإبل من كل وجه ، فأناخت فقام كل رجل إلى ظهره فأخذه .

(٤) هو الحطم بن ضبيعة أخو بنى قيس بن ثعلبة ، وكان متولى جيش المرتدين .

(٥) خندق كل من المشركين والمسلمين على نفسه ، وكانوا يتراوحون القتال ويرجعون إلى خندقهم فكانوا كذلك شهرا ، فبينا الناس ليلة إذ سمع المسلمون فى عسكر المشركين ضوضاء شديدة كأنها ضوضاء هزيمة أو قتال فقال العلاء : من يأتينا بخبر القوم ؟ فجاءه الخبر أن القوم سكارى ، فخرج المسلمون عليهم حتى اقتحموا عسكرهم ووضعوا فيهم السيوف ، واستولوا على ما فى العسكر وقتل الحطم .

(٦) يقال : تم على الأمر وتم عليه (بفتحات) أى استمر عليه . وأرجفوا : خاضوا فى أخبار الفتن ونحوها .

٦٨ — كتاب أبى بكر إلى الطاهر بن أبى هالة

وانتقَضَ بتهامةَ عَكٌّ والأشعرون ، حين بلغهم موت النبى صلى الله عليه وسلم ، وتجمع منهم طَخَارِير[(١)] ، وأقاموا على الأَعْلاب[(٢)] طريق الساحل ، وتأشَّبَ إليهم أوزاعٌ[(٣)] على غير رئيس ، فسار إليهم الطاهر بن أبى هالة ومعه مسروق العَكِّىّ ، وكتب إلى أبى بكر بمسيره إليهم ، فأجابه :

« بلغنى كتابك تُخبرنى فيه مَسِيرك ، واستنفارك مسروقًا وقومه إلى الأخابثِ[(٤)] بالأعلاب ، فقد أصبْتَ ، فعاجِلوا هذا الضربَ ، ولا ترفِّهوا[(٥)] عنهم ، وأقيموا بالأعلاب حتى يأمَنَ طريقُ الأخابث ، ويأتيكم أمرى[(٦)] » .

(تاريخ الطبرى ٣ : ٢٦٥)

٦٩ — كتاب أبى بكر إلى وجوه اليمن

وكتب أبو بكر رضى الله عنه إلى وجوهٍ من وجوه أهل اليمن :

« من أبى بكر خليفة رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى عُمَيْر بن أفلَحَ ذى مَرَّان ، وسَعِيد بن العاقب ذى زُود ، وسَمَيْفَع[(٧)] بن ناكور ذى الكَلَاعِ ، وحَوْشَب ذى ظُلَيْم ، وشَهْر ذى يناف :

أما بعدُ : فأعِينُوا الأبناءَ[(٨)] على من نَاوَأَهم ، وحُوطُوهم[(٩)] ، واسمَعُوا مِن فَيْرُوزَ ، وجِدُّوا معه فإنى قد ولَّيْته » . (تاريخ الطبرى ٣ : ٢٦٦)

---

(١) طخارير: جمع طخرور (كعصفور) أى أشابة من الناس متفرقون (والأشابة بالضم: الأخلاط). (٢) أرض لعك بين مكة والساحل . (٣) أوزاع : أى فرق وجماعات ، ولا واحد له وتأشبوا إليهم : انضموا. (٤) وقد سميت تلك الجموع من عك ومن تأشب إليهم «الأخابث» وسمى ذلك الطريق طريق الأخابث . (٥) رفه عنه : نفس . (٦) وقد التقى بهم الطاهر فاقتتلوا فهزمهم الله وقتلوهم كل قتلة ، وأنتنت السبل لقتلهم، وكان مقتلهم فتحا عظيما . (٧) وقد تضم سينه وحينئذ يجب كسر الفاء . (٨) الأبناء : هم قوم من الفرس استوطنوا اليمن ، وهم الذين أرسلهم كسرى مع سيف بن ذى يزن لما جاء يستنجدهم على الحبشة ، فنصروه وملكوا اليمن وتزوجوا فى العرب ، فقيل لأولادهم الأبناء ، وغلب عليهم هذا الاسم لأن أمهاتهم من غير جنس آبائهم (كغلبة الأنصار) وفيروز منهم . (٩) أى احفظوهم وصونوهم .

٧٠ — كتاب أبي بكر إلى المهاجر بن أبي أمية

وكتب أبو بكر رحمه الله إلى المهاجر بن أبى أُمَيَّة، وهو على قتال كِنْدة بمَحْضر مَوْت حين ارتدت :

« إذا جاءكم كتابى هذا ولم تظفروا ، فإن ظَفِرتم بالقوم فاقتلوا المُقَاتِلَة ، واسْبُوا الذُّرِّيَّة إن أخذتموهم عَنْوَةً أو ينزلوا على حُكمى ، فإن جرى بينكم صلح قبل ذلك ، فعلى أن تُخْرِجوهم من ديارهم ، فإنى أكرَهُ أن أُقِرَّ أقوامًا فَعَلوا فِعْلهم فى منازلهم ، ليعلموا أنْ قد أساءوا ، وليذوقوا وَبَالَ بعضِ الّذِى أَتَوْا » .

(تاريخ الطبرى ٣ : ٢٧٤)

٧١ — كتاب أبي بكر إلى عمال الردة

وكتب أبو بكر رضى الله عنه إلى عمال الرِّدَّة :

« أما بعدُ : فإنَّ أحبَّ من أدخلتم فى أموركم إلىَّ مَن لم يرتدّ ، ومن كان ممن لم يرتد ، فأجمِعُوا على ذلك ، فاتخذوا منها صنائعَ ، وأْذَنُوا لمن شاء فى الانصراف ، ولا تستعينوا بمرتَدٍّ فى جهاد عدو » .

(تاريخ الطبرى ٣: ٢٧٦)

٧٢ — كتاب أبي بكر إلى المهاجر بن أبي أمية

ووَقَع إلى المهاجر بن أبى أمية امرأتان مغنيِّتان ، غَنَّت إحداها بشتم رسول الله صلى الله عليه وسلم فقطع يدها ، ونَزَع ثَنِيَّتَها[1] ، فكتب إليه أبو بكر رحمه الله :

« بلغنى الذى سِرْتَ به فى المرأة التى تَغَنَّت وزَمَرَت بشتيمة رسول الله صلى الله عليه وسلم ؛ فلولا ما قد سبقْتَنى فيها لأمرتُك بقتلها ، لأن حَدَّ الأنبياء ليس يُشْبه الحدودَ ، فمن تعاطَى ذلك من مسلم فهو مرتدّ ، أو مُعَاهَدٍ فهو محارب غادِر » .

(تاريخ الطبرى ٣ : ٢٧٧)

---

(١) الثنية : واحدة الثنايا من الأسنان ، وهى الأربع التى فى مقدم الفم ، ثنتان من فوق وثنتان من أسفل.

٧٣ — كتاب أبي بكر إلى المهاجر

وكتب إليه أبو بكر فى التى تغنّت بهجاء المسلمين :

« أما بعدُ : فإنه بلغنى أنك قطعت يد امرأة فى أن تغنّت بهجاء المسلمين ونزَعْت ثَنيَّتَهَا ، فإن كانت ممن تدَّعِى الإسلام فأدبٌ وتَقْدِمَةٌ دون الْمُثْلة[1] ، وإن كانت ذِمِّيَّة فلعمرى لَمَا صَفَحْتَ عنه من الشرك أعظم ، ولو كنتُ تقدمتُ إليك فى مثل هذا لَبلغت مكروهاً ، فاقْبَلِ الدَّعَة ، وإياك والْمُثْلَةَ فى الناسِ فإنها مَأْثَمٌ ومُنَفِّرة ، إلا فى قِصَاص » . (تاريخ الطبرى ٣ : ٢٧٧)

٧٤ — كتاب أبي بكر إلى خالد بن الوليد ومن معه

وكان أبو بكر رضى الله عنه قد بعث الْمُثَنَّى بن حارثة الشَّيْبَانِىّ على جيش إلى العراق، فقدِم العراق فقاتَلَ وأغار على أهل فارس ونواحى السَّواد، فقاتل حوْلا أو نحوه، ثم بعث أخاه مسعود بن حارثة إلى أبى بكر يستمده، فكتب أبو بكر إلى خالد بن الوليد، وهو باليمامة .

« بسم الله الرحمن الرحيم . من عبد الله أبى بكر خليفةِ رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى خالد بن الوليد ومن معه من المهاجرين والأنصار والتابعين بإحسان ، سلام عليكم ، فإنى أَحْمَدُ إليكم اللهَ الذى لا إلٰهَ إلا هو ، أما بعد ، فالحمدُ لله الذى أنجزَ وَعدَه ، ونَصَر دينَه ، وأعزَّ وَلِيَّه ، وأذلَّ عدوَّه ، وغلَب الأحزابَ فَرْداً ، فإن اللهَ الذى لا إله إلا هو ، وَعَدَ الَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِي الْأَرْضِ كَمَا اسْتَخْلَفَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ ، وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ الَّذِي ارْتَضَى لَهُمْ ، وَلَيُبَدِّلَنَّهُمْ مِنْ بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْنًا يَعْبُدُونَنِي لَا يُشْرِكُونَ بِي شَيْئًا ، وَمَنْ كَفَرَ بَعْدَ ذَٰلِكَ فَأُولَٰئِكَ هُمُ

---

(١) مثل به : كنصر مثلا بالفتح ومثلة بالضم ، ومثل به تمثيلا : نكل به .

الفَاسِقُونَ ، وَعْداً لَاخُلْفَ له ، ومقالاً لَارَيْبَ فِيهِ ، وَفَرَضَ عَلَى المؤمنين الجهاد ، فقال عزّ مِنْ قائل : « كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِتَالُ وَهُوَ كُرْهٌ لَكُمْ ، وَعَسَى أَنْ تَكْرَهُوا شَيْئًا وَهُوَ خَيْرٌ لَكُمْ ، وَعَسَى أَنْ تُحِبُّوا شَيْئًا وَهُوَ شَرٌّ لَكُمْ ، وَاللهُ يَعْلَمُ وَأَنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ » فاستتِمُّوا مَوْعِدَ الله إياكم ، وأطيعوه فيما فَرَض عليكم ، وإن عَظُمت فيه المَئُونة ، واشتدت فيه الرزيَّة، وبَعُدَت فيه الشُّقة[1]، وَفُجِعْتم فى ذلك بالأموال والأنفس، فإن ذلك يسيرٌ فى عظيم ثواب الله ، ولقد ذكر لنا الصادقُ المَصْدُوق صلى الله عليه وسلم أن الله يبعث الشُّهَدَاء يوم القيامة شاهرين سيوفَهم لايتمنَّوْن على الله شيئًا إلا آتاهُمُوه ، حتى أُعطُوا أمانِيَّهم، وما لم يَخْطُر على قلوبهم، فما شيء يتمناه الشهيدُ بعد دخوله الجنةَ ! إلا أن يردَّهم الله إلى الدنيا ، فَيُقْرِضُون[2] بالقاريض فى الله لِعظيم ثواب الله ، انْفِرُوا — رحمكم الله فى سبيل الله — خِفَافًا وثِقَالًا ، وَجَاهِدُوا بِأَمْوَالِكُمْ وَأَنْفُسِكُمْ فِي سَبِيلِ اللهِ ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ ، فقد أمرتُ خالد بن الوليد بالمسير إلى العراق لا يَبْرَحُه حتى يأتيَه أمرى ، فسيروا معه ، ولا تَثَّاقَلُوا عنه ، فإنه سبيل يُعْظِمُ الله فيه الأجرَ لمن حَسُنَت فيه نيّتُه، وعظُمَتْ فى الخير رغبتُه، فإذا قَدِمتم العراقَ فكونوا بها حتى يأتيكم أمرى ، كفانا الله وإياكم مُهِمَّ أمور الدنيا والآخرة ، والسلام عليكم ورحمة الله »

(فتوح الشام للأزدى ص ٤٦)

٧٥ — كتاب أبي بكر إلى المثنى بن حارثة

وكتب أبو بكر رضى الله عنه مع مسعود بن حارثة إلى المُثَنَّى بن حارثة :

« أما بعد ، فإنى قد بعثتُ إليك خالدَ بن الوليد إلى أرض العراق ، فاستَقْبِلْه بمن

(١) الشقة بالضم والكسر : الناحية يقصدها المسافر والسفر البعيد ، والمشقة .

(٢) أى فيجزون بما فعلوا فى سبيل الله ، قرضه كضربه : جازاه كقارضه ،والقاريض جمع مقروض بمعنى قرض وهو البلاء الحسن . قال تعالى . « مَنْ ذَا الَّذِى يُقْرِضُ اللهَ قَرْضًا حَسَنًا » وأصل القرض : مايعطيه الرجل أو يفعله ليجازى عليه، والله عز وجل لايستقرض من عوز ولكنه يبلو عباده ، فمعنى يقرض : يفعل فعلا حسنا فى اتباع أمر الله وطاعته .

معك من قومك ، ثم ساعِدْه ووَازِرْه وكانِفْه[1] ، ولا تعصِيَن له أمراً ، ولا تخالِفَنَّ له رأيًا ، فإنه من الذين وَصَفَ اللهُ تبارك وتعالى فى كتابه فقال : « مُحَمَّدٌ رَسُولُ اللهِ وَالَّذِينَ مَعَهُ أَشِدَّاءُ عَلَى الْكُفَّارِ رُحَمَاءُ بَيْنَهُمْ تَرَاهُمْ رُكَّعًا سُجَّدًا » فما أقام معك فهو الأمير ، فإن شَخَص عنك فأنت على ما كنت عليه ، والسلام عليك » .

(فتوح الشأم للأزدى ص ٥١)

٧٦ — كتاب مذعور بن عدى إلى أبى بكر

وكتب رجل من بنى عِجْل يقال له مذعور بن عَدِىّ إلى أبى بكر رضى الله عنه :

« أما بعدُ : فإنى امرؤ من بنى عِجل أحلاس الخيل ، وفُرْسانِ الصَّبَاح[2] ومعى رجال من عشيرتى، الرجل منهم خير من مائة رجل،ولى عِلْمٌ بالبلد ، وجُرْأة على الحرب، وبَصَر[3] بالأرض ، فولِّنى أمر السَّوَاد أكْفِكَهُ إن شاء الله ، والسلام عليك » .

(فتوح الشام للأزدى ص : ٥٢)

٧٧ — كتاب المثنى بن حارثة إلى أبى بكر

وكتب المُثَنَّى بن حارثة إلى أبى بكر رضى الله عنه :

« أما بعدُ : فإنى أُخبِر خليفة رسول الله صلى الله عليه وسلم أن امرأً من قومنا يقال له مذعور بن عَدِىّ أحد بنى عِجْل فى عدد يسير ، وأنه أقبَلَ ينازعنى ويخالفنى ، فأحببتُ إعلامَكَ ذلك ، لِتَرَى رأيك فيما هنالك ، والسلام » .

(فتوح الشأم ص : ٥٢)

---

(١) وازره وكانفه: ساعده وعاونه .

(٢) الأحلاس: جمع حلس بالكسر ، وهو كساء يكون على ظهر البعير والدابة تحت الرحل والقتب والسرج ، والمعنى : أنهم يلزمون ظهور الخيل كما يلزم الحلس اللازم لظهر الفرس ، وفرسان الصباح : أى يشنون الغارة على عدوهم وقت البكرة . (٣) فى الأصل « ونصر » وهو تصحيف .

٧٨ – كتاب أبى بكر إلى مذعور بن عدىّ

فكتب أبو بكر رضى الله عنه إلى مذعور بن عدىّ :

« أما بعدُ : فقد أتانى كتابك ، وفهِمْتُ ما ذكرتَ ، وأنت كما وَصَفْتَ به نفسَك ، وعَشيرتُك نِعْمَ العشيرة ، وقد رأيت لك أن تنضمّ إلى خالد بن الوليد فتكونَ معه ، وتُقيمَ معه ما أقام بالعراق ، وتَشْخَص معه إذا شَخَص منها » .

(فتوح الشأم ص ٥٣)

٧٩ – كتاب أبى بكر إلى المثنى بن حارثة

وكتب إلى المثنى بن حارثة :

« بسم الله الرحمن الرحيم . أما بعدُ ، فإن صاحبك العِجْلِيَّ كتب إلىَّ يسألنى أموراً ، فكتبت إليه آمُرُه بلزوم خالد حتى أرى رأيى ، وهذا كتابى إليك آمُرُك أَلَّا تَبْرَحَ العراق حتى يخرج منه خالدُ بن الوليد ، فإذا خرج خالد منه فالزَمْ مكانك الذى كنت به ، فأنت أهل لكل زيادة ، وجدير بكل فضل ، والسلام عليك ورحمة الله » .

(فتوح الشأم ص ٥٣)

٨٠ – كتاب أبى بكر إلى خالد بن الوليد

وروى الطبرى أنه لما فرغ خالد بن الوليد من حرب المرتدّين باليمامة ، كتب إليه أبو بكر الصديق رضى الله عنه – أول سنة ١٢ هـ أن : « سِرْ إلى العراق حتى تدخلَها ، وابدأْ بفَرْجِ الهند ، وهى « الأُبُلَّة »[1] ، وتألَّفْ أهلَ فارس ، ومن كان فى ملكهم من الأمم » .

---

(١) ثغر على الخليج الفارسى عند مصب دجلة ، وهى قرب البصرة من جانبها البحرى .

وفى رواية أخرى أنه كتب إليه :

« إن الله فَتَح عليك فعارِقْ[1] حتى تَلْقَى عِيَاضًا » . (تاريخ الطبرى ٤ : ٢ و ٤)

٨١ — كتاب أبى بكر إلى عياض بن غنم

وكتب إلى عِيَاض بن غَنْم وهو بين النِّبَاج[2] والحِجَاز أن : « سر حتى تأتِىَ المُصَيَّخَ فابدَأْ بها ، ثم ادخل العراقَ من أعلاها ، وعارِقْ حتى تَلْقَى خالداً ، وأْذَنَا لمن شاء بالرجوع ، ولا تَسْتَفْتِحَا بمُتَكارِه » . (تاريخ الطبرى ٤ : ٤)

٨٢ — كتاب أبى بكر إلى خالد وعياض

فقَفَلَ أهل المدينة وما حولها ، فاستمدا أبا بكر فأمدهما ، وكتب إليهما أن :

« استنفِرا مَن قَاتَلَ أهلَ الرِّدَّة ، ومن ثَبَتَ على الإسلام بعد رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ولا يغْزُوَنَّ منكم أحد ارتدَّ حتى أرى رأيى » .

فلم يشهد الأيامَ[3] مرتَدٌّ . (تاريخ الطبرى ٤ : ٤)

وفى رواية أخرى :

أن أبا بكر كتب إلى خالد بن الوليد — إذ أمَّره على حرب العراق — أن يدخلها من أسفلها ، وإلى عياض — إذ أمَّره على حرب العراق — أن يدخلها من أعلاها ، ثم يستَبِقا إلى الحِيرة[4] ، فأيُّهما سَبَقَ إلى الحيرة فهو أمير على صاحبه .

---

(١) معناه : ادخل العراق ، ولم توردِه كتب اللغة ، وفى اللسان : « أعرقنا : أخذنا فى العراق وأعرق القوم : أتوا العراق » وقد جاءت صيغة أفعل وفاعل . وفعل فى كلام العرب فى هذا المعنى . من ذلك أنجدنا وأتهمنا وأعرقنا وأعمنا ، من نجد وتهامة والعراق وعمان ، وأيمنا ويمنا ويامنا ، من اليمن وأشأمنا من الشأم ، وكوفنا وبصرنا من الكوفة والبصرة ، وشرقنا وغربنا من الشرق والغرب ، وأسهلنا وأحزنا من السهل والحزن ، وعالينا أتينا العالية ، وأحجزنا أتينا الحجاز ، وساحلنا أخذنا على الساحل ، وأسفنا أخذنا على السيف (بكسر السين وهو الساحل) وأريفنا صرنا إلى الريف ، وأبررنا ركبنا البر ، وأبحرنا ركبنا البحر — انظر المخصص ج ١٢ ص ٥٠ .

(٢) النباج : بين مكة والبصرة ، والمصيخ : فى بادية الشام بين حوران والفرات .

(٣) العرب تقول الأيام فى معنى الوقائع ، والمراد بالأيام هنا وقائع خالد بن الوليد فى فتح العراق .

(٤) غربى الفرات بالقرب من الكوفة .

وقال : إذا اجتمعتما بالحيرة وقد فَضَضْتُما مَسَالِحَ[١] فارس ، وأمِنْتُما أن يُؤْتَى المسلمون من خَلْفهم ، فليكن أحدكما رِدْءاً[٢] للمسلمين ولصاحبه بالحيرة ، ولْيَقْتَحِمِ الآخَرُ عَلَى عدو الله وعدوكم من أهل فارس دَارَهم ، ومُسْتَقَرَّ عِزِّهم « المَدَائِنَ[٣] » .

(تاريخ الطبرى ٤ : ٥)

٨٣ — كتاب خالد بن الوليد إلى هرمز

وكتب خالد بن الوليد قبل خروجه إلى الأُبُلَّةِ كتابا إلى هُرْمُز صاحب ذلك الثغر :

« أما بعد ، فأَسْلِم تَسْلَم ، أو اعتقد لنفسك وقومك الذمةَ ، وأَقْرِر بالجزية ، وإلا فلا تَلُومَنَّ إلا نفسَك ، فقد جئتك بقوم يحبُّون الموت كما تحبُّون الحياة » .

وجمع هرمز جموعه ونشِبَت الحرب بينه وبين خالد فى « كاظِمة[٤] » وانجلت عن قتل هرمز وهزيمة الفرس . (تاريخ الطبرى ٤ : ٥)

٨٤ — عهد خالد بن الوليد لأهل الحيرة

وتقدم خالد فى فتح العراق شمالا حتى بلغ الحِيرةَ ، فحاصر قصورها[٥] ، ودعا أهلها أن يختاروا واحدة من ثلاث : الإسلام أو الجزية أو المنابذة ، فاختاروا الجزية ، فكتب بينه وبين أمرائها كتابا فيه :

---

(١) المسالح : جمع مسلحة بالفتح : وهى الثغر والقوم ذوو سلاح .

(٢) أى عونا وعمادا وقوة . (٣) مدائن كسرى على نهر دجلة ، وكانت قاعدة فارس .

(٤) على الخليج الفارسى بينها وبين البصرة مرحلتان .

(٥) أمر خالد بكل قصر رجلا من قواده يحاصر أهله ويقاتلهم ، فكان ضرار بن الأزور محاصرا القصر الأبيض ، وفيه إياس بن قبيصة الطائى ، (وكان كسرى ولاه الحيرة بعد النعمان بن المنذر) وكان ضرار بن الخطاب محاصرا قصر العدسيين وفيه عدى بن عدى ، وكان ضرار بن مقرن المزنى محاصرا قصر بنى مازن وفيه حيرى بن أكال ، وكان المثنى بن حارثة محاصرا قصر ابن بقيلة وفيه عمرو بن عبد المسيح .

« بسم الله الرحمن الرحيم : هذا ماعاهد عليه خالد بن الوليد عدِيًّا وعَمرًا ابنَىْ عدِىّ، وعمْرَو بن عبد المَسيح ، وإيَاسَ بن قَبِيصة وَحيرىّ[1] بن أ كَّال - وهم نُقَبَاء أهل الحِيرة - ورضى بذلك أهل الحيرة وأمروهم به .

عاهَدَهم على تسعين ومائة ألف درهم ، تقبل فى كل سنة ، جِزَاءً[2] عن أيديهم فى الدنيا ، رُهْبانِهم وقِسِّيسيهم ، إلا من كان منهم غير ذى يَدٍ[3] حَبِيساً عن الدنيا تاركًا لها ، وسائحًا تاركا للدنيا ، وعَلَى المَنْعَة ، فإن منلم يمنعهم فلا شىء عليهم حتى يمنَعَهم ، وإن غدَروا بفعل أو قول فالذِّمة منهم بريئة » .

وكتب فى شهر ربيع الأول من سنة اثنتى عشرة . (تاريخ الطبرى ٤ : ١٤)

صـورة أخرى

وأورد القاضى أبو يوسف يعقوب بن إبراهيم صاحب الإمام أبى حنيفة هـذا العهد فى كتابه « الخراج » بصورة أخرى ، وهى :

«بسم الله الرحمن الرحيم ، هذا كتاب من خالد بن الوليد لأهل الحيرة ، إن خليفة رسول الله صلى الله عليه وسلم أبا بكر الصديق رضى الله تعالى عنه أمرنى أن أسير بعـد مُنْصَرَفى من أهل اليمامة إلى أهل العراق من العرب والعجم ، بأن أدعوَهم إلى الله جل ثناؤه ، وإلى رسوله عليه الصلاة والسلام ، وأبشِّرَهم بالجنة ، وأُنْذِرَهم من النار ، فإن أجابوا فلهم ما للمسلمين ، وعليهم ما عَلَى المسلمين .

وإنى انتهيت إلى الحيرة فخرج إلىّ إيَاسُ بن قَبِيصة الطائى فى أُناس من أهل الحيرة من رؤسائهم ، وإنى دعوتُهم إلى الله وإلى رسوله ، فأبَوْا أن يجيبوا ، فعَرَضْتُ عليهم الجزية أو الحرب ، فقالوا : لا حاجَةَ لنا بحربك ، ولـكن صالِحْنا على ما صالحتَ عليه غيرَنا من أهل الـكتاب فى إعطاء الجزية ، وإنى نظرت فى عِدَّتهم فوجدت عِدَّتهم

---

(١) وقيل « جبرى ». (٢) جمع جزية . (٣) اليد : القدرة .

سبعة آلاف رجل ، ثم ميزتهم فوجدتُ مَن كانت به زَمانة [١] ألفَ رجل، فأخرجتهم من العدة فصار مَن وقعت عليه الجزية ستةَ آلاف ، فصالحونى على ستين ألفًا [٢]، وشرطتُ عليهم أن عليهم عَهْدَ الله وميثاقَه الذى أخذ عَلَى أهل التوراة والإنجيل أن لا يخالفوا ، ولا يعينوا كافرًا عَلَى مسلم من العرب ولا من العجم ، ولا يدلُّوهم عَلَى عَوْرات المسلمين، عليهم بذلك عهد الله وميثاقه الذى أَخَذَه أشدَّ ما أخذه عَلَى نبى من عهد أو ميثاق أو ذِمَّة، فإن هم خالَفُوا فلا ذمة لهم ولا أمان ، وإن هم حفِظوا ذلك وَرَعَوْه وأَدَّوْه إلى المسلمين فلهم ما للمعاهد ، وعلينا المنع لهم ، فإن فتح الله علينا فهم عَلَى ذمتهم ، لهم بذلك عهدُ الله وميثاقُه أشدَّ ما أخذ عَلَى نبى من عهد أو ميثاق ، وعليهم مثل ذلك لا يخالفوا فإن غُلبوا فهم فى سَعَة يَسَعُهم ما وَسِعَ أهل الذمة ، ولا يحلُّ فيما أُمِروا به أن يخالفوا ، وَجَعَلْتُ لهم : أيُّما شَيْخٍ ضَعُف عن العمل ، أو أصابَتْه آفة من الآفات ، أو كان غنيا فافتقر وصار أهل دِينه يتصدقون عليه ، طرَحْتُ جِزيته ، وعِيل [٣] من بيت مال المسلمين وعياله ، ما أقام بدار الهجرة ودار الإسلام ، فإن خرجوا إلى غير دار الهجرة ودار الإسلام فليس على المسلمين النفقةُ على عيالهم ، وأيُّما عَبْدٍ من عبيدهم أسلم أُقيم فى أسواق المسلمين فيبيعَ بأعلى ما يُقْدَر عليه فى غير وَكْس ولا تعجيل ، ودُفِع ثمنه إلى صاحبه ، ولهم كل ما لَبِسوا من الزِّىّ إلا زىَّ الحرب من غير أن يتشبهوا بالمسلمين فى لباسهم ، وأيُّما رجل منهم وُجد عليه شىء من زى الحرب سئل عن لِبْسِه [٤] ذلك ، فإن جاء منه بِمَخْرَج ، وإلاَّ عوقب بقدر ما عليه من زى الحرب ، وشَرطْتُ عليهم جباية ما صالحتهم عليه حتى يؤدوه إلى بيت مال المسلمين ، عُمَّالُهم منهم ، فإن طلبوا عَوْنًا من المسلمين أُعينوا به ، ومئونة العون من بيت مال المسلمين » .

(كتاب الخراج ص ١٧١)

---

(١) الزمانة : العاهة ، وفعله كفرح .
(٢) وفى نسخة أخرى من كتاب الخراج أنه صالحهم على تسعين ألفاً .
(٣) عاله مانه وكفاه.
(٤) اللبس بالكسر : مايلبس واللبس بالضم مصدر .

٨٥ — عهد خالد بن الوليد لصاحب بانقيا

وروى ياقوت فى معجم البلدان قال :

وسار خالد بن الوليد من الحيرة ، فلما نزل « بانِقيا[١] » على شاطئ الفرات قاتلوه ليلةً حتى الصباح ، فلما رأوْا أنه لا طاقَةَ لهم بحربه طلبوا منه الصلح فصالحهم ، وكتب لهم كتابا فيه :

« بسم الله الرحمن الرحيم : هذا كتاب من خالد بن الوليد لصَلوبا بن بُصْبُهْرِى ، ومنزله بشاطئ الفرات .

إنك آمِنٌ بأمان الله على حَقْن دمك فى إعطاء الجزية عن نفسك وجِيرتك وأهل قريتك بانِقْيا وسُمَّيا[٢] ، على ألف درهم جزيةً ، وقد قبلنا منك ، ورضى مَنْ معى من المسلمين بذلك ، فلك ذِمَّةُ الله ، وذمة النبى محمد صلى الله عليه وسلم ، وذمة المسلمين على ذلك » .

شَهِد هشام بن الوليد ، وجَرِير بن عبد الله بن أبى عوف ، وسعيد بن عمرو ، وكتب سنة ١٢ هـ . (معجم البلدان ج ٢ : ص ٥١)

* * *

وروى الطبرى هذا الخبر قال :

ومضى خالد حتى نزل بِقُرَيَاتٍ من السَّواد يقال لها « بانِقيا ، وبارُسْما ، وأُلَّيْس » فصالحه أهلها ، وكان الذى صالحه عليها ابن صَلُوبا ، وذلك فى سنة اثنتى عشرة ، فقبِلَ منهم خالد الجزيةَ ، وكتب لهم كتاباً فيه :

« بسم الله الرحمن الرحيم : من خالد بن الوليد لابن صلوبا السَّوادِىِّ ، ومنزله بشاطئ الفرات .

(١) ناحية من نواحى الكوفة . (٢) ضبطت فى معجم البلدان بتشديد الميم فى (ج ٢ ص ٥١) وبضم السين ، وتشديد اليـاء فى (ج ٥ : ص ١٣٤) .

إنك آمن بأمان الله إذ حقن دمه بإعطاء الجزية ، وقد أعطيتَ عن نفسك ، وعن أهل خَرْجك[١] وجزيرتك[٢] ، ومن كان فى قريتيك بانِقيا وبارُسْما ألف درهم ، فقبِلتها منك ، ورَضِى من معى من المسلمين بها منك ، ولك ذمة الله ، وذمة محمد صلى الله عليه وسلم ، وذمة المسلمين على ذلك » .

وشهد هشام بن الوليد . (تاريخ الطبرى ٤ : ٣)

٨٦ — عهد خالد لصاحب قس الناطف

ورَوَى أنه : لما صالح أهل الحيرة خالداً ، خرج صَلُوبا بن نَسْطونا صاحب قُسِّ الناطِفِ[٣] ، حتى دخل عَلَى خالدٍ عسكره ، فصالحه على بانِقْيا وبسما[٤] ، وضَمِن له ما عليهما ، وعلى أرضيهما من شاطئ الفُرات جميعًا ، واعتقد لنفسه وأهله وقومه على عشرة آلاف دينار ، سوى الخَرَزَة خَرَزَةِ كسرى[٥] ، وكانت على كل رأس أربعة دراهم ، وكتب لهم كتابًا نصه :

« بسم الله الرحمن الرحيم : هذا كتاب من خالد بن الوليد لصَلُوبا بن نَسْطُونا وقومه .

إنى عاهدتكم عَلَى الجزية والمَنَعَة ، على كل ذى يَدٍ بانِقْيا وبسما جميعًا ، على عشرة آلاف دينار ، سوى الخَرَزَة ، القوىُّ على قدر قوته ، والمُقِلُّ على قدر إقلاله ، فى كل سنة ، وإنك قد نُقِّبتَ[٦] على قومك ، وإن قومك قد رَضُوا بك ، وقد قبِلْتُ ومن معى من المسلمين ، ورضيتُ ورضِىَ قومك ، فلك الذِّمةُ والمنعة ، فإن مَنَعْنا كم فلنا الجزيةُ ، وإلاَّ فلا حتى نمنعكم » .

---

(١) الخرج : الإتاوة . (٢) إذا تأملت مصور العراق إبان الفتح وجدت فروعا لنهر الفرات تكون فى تلك الجهة جزرا . (٣) بقرب الكوفة على شاطىء الفرات الشرق .
(٤) لم ترد فى معجم البلدان ، والظاهر أنها هى باروسما . (٥) خرزات الملك : جواهر تاجه ، ويقال : كان الملك إذا ملك عاما زيدت فى تاجه خرزة ، ليعلم عدد سنى ملكه .
(٦) أى نصبت نقيبا عليهم ، وقد نقب الرجل على القوم نقابة ككتب كتابة .

« شهد هشام بن الوليد ، والقَعْقاع بن عمرو ، وجرير بن عبد الله الحِمْيَرى ، وحنظلة بن الربيع .

وكتب سنة اثنتى عشرة فى صفر[1] . (تاريخ الطبرى ٤ : ١٦)

٨٧ — عهد خالد لدهاقين العراق

وروى الطبرى أيضًا قال :

كان الدَّهاقين[2] يتربَّصون بخالد وينظرون ما يصنع أهل الحيرة ، فلما استقام ما بين أهل الحيرة وبين خالد واستقاموا له ، أتته دَهَاقِينُ المِلْطاطَيْن[3] وأتاه زاذ بن بُهَيْش دِهْقان فُرات سِرْيا[4] ، وصَلوبا بن نَسْطُونا بن بصبهرى[5] فصالحوه على ما بين الفَلَالِيج[6] إلى هُرْمُزجِرْدَ على ألفى ألف ، وأن للمسلمين ما كان لآل كسرى ، ومن مال معهم عن المُقَام فى داره فلم يدخل فى الصلح ، وكتب لهم كتابا هذا نصه :

« بسم الله الرحمن الرحيم : هذا كتاب من خالد بن الوليد لزاذ بن بُهَيْش وصلوبا بن نسطونا .

إن لكم الذمة وعليكم الجزية ، وأنتم ضامنون لمن نقَّبتم عليه من أهل البِهْقُبَاذ[7] الأسفل والأوسط على ألفى ألف تقبل فى كل سنة ، ثم كل ذى يد ــ سوى ما على بانِقْيا

---

(١) تقدم لك أن عهد خالد لأهل الحيرة كتب فى ربيع الأول من سنة ١٢ ، وهنا ترى أن عهده لصاحب قس الناطف كتب فى صفر من هذه السنة ، وكذا العهد التالى ــ عهده للدهاقين ــ فكيف يكون ذلك ، وهذان العهدان كتبا بعد صلح الحيرة! اللهم إلا أن يقال إن خالدا كان قد صالح أهل الحيرة فى أواخر صفر دون أن يكتب لهم عهدا ، ثم جاءه صاحب قس الناطف ودهاقين العراق فكتب لهم عهد الصلح ، ثم كتب لأهل الحيرة عهدهم فى أوائل ربيع الأول . (٢) الدهاقين جمع دهقان : بالكسر والضم ، وهو زعيم فلاحى العجم ورئيس الإقليم ، معرب . (٣) الملطاط : حافة الوادى وساحل البحر ، والمراد هنا شاطئا الفرات . (٤) سربا صقع بالعراق بالسواد قريب من بغداد .

(٥) وفى رواية « وصلوبا بن بصبهرى ونسطونا » . (٦) فلاليج السواد : قراها ، إحداها فلوجة بفتح الفاء وتشديد اللام المضمومة . وهرمز جرد : ناحية بأطراف العراق .

(٧) البهقباذ : اسم لثلاث كور من أعمال سقى الفرات منسوبة إلى قباذ بن فيروز : وهى البهقباذ الأعلى ، والأوسط ، والأسفل (وفى هذا الأخير الكوفة وهرمزجرد) .

وبسما - وإنكم قد أرضيتمونى وللسلمين ؛ وإنا قد أرضينا كم ، وأهل البهقباذ الأسفل ، ومن دخل معكم من أهل البهقباذ الأوسط على أموالكم ليس فيها ما كان لآل كسرى ، ومن مال ميلهم » .

شهد هشام بن الوليد ، والقعقاع بن عمرو ، وجرير بن عبد الله الحميرى ، وبشير ابن عبيد الله ، وحنظلة بن الربيع .

وكتب سنة اثنتى عشرة فى صفر . (تاريخ الطبرى ٤ : ١٧)

٨٨ - كتاب البراءة لأهل الخراج

وجُبِى الخراج إلى خالد فى خمسين ليلة ، وكان الذين ضَمِنوه - وهم رُءوس الرَّساتيق[١] - رُهُناً فى يديه ، وكتب عُمَّال الخراج البَراءات لأهل الخراج من نسخة واحدة ، وهى :

« بسم الله الرحمن الرحيم . بَراءةٌ لمن كان كذا وكذا . . . . . من الجزية التى صالحهم عليها الأمير خالد بن الوليد ، وقد قَبَضْتُ الذى صالحهم عليه خالد ، وخالد والمسلمون لكم يَدٌ على من بَدَّل صُلْحَ خالدٍ ، ما أقررتم بالجزية وكَفَفْتم ، أمانكم أمانٌ ، وصلحُكم صُلْحٌ ، نحن لكم على الوفاء » .

وأشهدوا لهم النَّفَر من الصحابة الذين كان خالد أشهدهم .

(تاريخ الطبرى ٤ : ١٨)

٨٩ - كتاب خالد إلى ملوك فارس

ولما غلب خالد بن الوليد على أحد جانبى السَّواد بعث بكتاب إلى ملوك فارس ، وفيه :

---

(١) الرساتيق : جمع رستاق بالضم ، وهو الناحية التى هى طرف الإقليم ، معرب .

« بسم الله الرحمن الرحيم . من خالد بن الوليد إلى ملوك فارس ، أما بعدُ : فالحمد لله الذى حلّ نِظَامَكم[١] ، ووهّن كيدَكم ، وفرّق كلمتكم ، ولو لم يفعل ذلك بكم كان شرًّا لكم ، فادخلوا فى أمرنا نَدَعْكم وأرْضَكم ونَجُوزُكم إلى غيركم ، وإلا كان ذلك وأنتم كارهون على غَلَب ، على أيدى قوم يحبُّون الموت كما تحبون الحياة » .

(تاريخ الطبرى ٤ : ١٨)

٩٠ — كتاب خالد إلى مرازبة فارس

وبعث إلى أهل المدائن كتابًا فيه :

« من خالد بن الوليد إلى مَرَازِبة[٢] أهل فارس : سلام على من اتبع الهدى أما بعد : فالحمد لله الذى فَضَّ خَدَمَتكم[٣] وسَلَب ملككم ، ووهّن كيدكم ، وإنه من صَلَّى صلاتَنَا ، واستقبل قِبْلَتِنَا ، وأكل ذبيحتنا ، فذلك المسلمُ الذى له ما لَنا ، وعليه ما علينا .

أما بعدُ : فإذا جاءكم كتابى فابعثوا إلىّ بالرُّهُن ، واعتقِدُوا منى الذِّمةَ ، وأدُّوا إلىّ الجِزيةَ ، وإلاَّ فوالله الذى لا إله غيرُه ، لأبْعَثَنَّ إليكم قومًا يحبون الموت كما تحبون الحياة ، ويرغبون فى الآخرة كما ترغبون فى الدنيا » .

فلما قرءوا الكتاب أخذوا يتعجبون .

(تاريخ الطبرى ٤ : ٤ ، والعقد الفريد ١ : ٤٠ ، وفتوح الشأم ص ٥٥ ، وكتاب الخراج ص ١٧٣)

---

(١) النظام فى الأصل : الخيط الذى ينظم به اللؤلؤ ونحوه . (٢) المرازبة جمع مرزبان بفتح الميم وضم الزاى ، وهو الرئيس من الفرس ، والمرزبة كمرحلة : رياسة الفرس .

(٣) يقال : فض الله خدمتهم : أى فرق جماعتهم ، والخدمة بالتحريك : سير غليظ مضفور مثل الحلقة يشد فى رسغ البعير ، ثم يشد إليه سرائح النعل (أى سيورها جمع سريحة) فإذا انفضت الخدمة انحلت السرائح وسقطت النعل ، فضرب ذلك مثلا لذهاب ما كانوا عليه وتفرقه ، وشبه اجتماع أمرهم واتساقه بالحلقة المستديرة . وفى العقد الفريد وفتوح الشأم «حرمتكم» وهو تحريف ، وفى العقد « الحمد لله الذى فض خدمتكم ، وفرق جمعكم ، وأوهن بأسكم ، وسلب ملككم ، وأذل عزكم ، فإذا أتاكم كتابى . . . » وفى كتاب الخراج « فالحمد لله الذى فض خدمتكم ، وفرق جمعكم ، وخالف بين كلمتكم وأوهن بأسكم ، وسلب ملككم ، فإذا جاءكم كتابى هذا » .

٩١ — كتاب خالد إلى مرازبة فارس

وكتب إلى مرازبة فارس كتاباً فيه :

« بسم الله الرحمن الرحيم . من خالد بن الوليد إلى مرازبة فارس . أما بعدُ : فأَسْلِمُوا تَسْلَمُوا ، وإلاَّ فاعتقِدُوا منى الذمة ، وأدُّوا الجزية ، وإلاَّ فقد جئتكم بقوم يحبون الموت كما تحبون شرب الخمر » . (تاريخ الطبرى ٤ : ١٨)

٩٢ — كتاب أبى بكر إلى خالد بن الوليد

وبعد أن تمّ النصر لخالد بن الوليد فى وقعة الفِرَاض[١] أمر الجيش بالقَفَل[٢] إلى الحيرة ، وتخلَّف هو مظهراً أنه فى السَّاقَة ، وخرج حاجًّا لخمسٍ بقين من ذى القعدة سنة ١٢ هـ ، مكتتماً بحجِّه ، ومعه عِدَّة من أصحابه حتى أتى مكة ، ثم عاد إلى الحيرة لم يعلم بحجه إلا من أفْضَى إليه بذلك من السَّاقة ، ولم يعلم أبو بكر بذلك إلا بعدُ ، فعَتَب عليه ، ووافاه كتاب أبى بكر بالحيرة مُنْصَرَفَه من حجِّه أن :

سِرْ حتى تأتِيَ جموع المسلمين باليَرْمُوك ، فإنهم قد شَجُوا وأَشْجَوا[٣] وإياك أن تعود لمثل مافعلت ، فإنه لم يُشْجِ الجُموعُ من الناس بعون الله شَجاكَ[٤] ، ولم يُنزَعِ الشَّجَى[٥] من الناس نَزْعَك ، فَلْيَهْنِئْكَ أبا سليمان النيةُ والحُظْوَة[٦] ، فأَتْمِمْ يُتْمِمِ الله لك ،

---

(١) تخوم الشام والعراق والجزيرة على الشاطئ الشرقى للفرات .

(٢) القفل والقفول : الرجوع ، وساقة الجيش : مؤخره .

(٣) أشجاه قرنه : قهره وغلبه حتى شجى به (كفرح) شجى (كفتى) .

(٤) أى لم تقهر الجموع قهرك ، وفى الأصل « شجيك » وهو تحريف ، ولعله كان فى الأصل المنقول عنه هكذا « شجك » بألف قصيرة فوق الجيم .

(٥) والشجى أيضا : ما اعترض فى حلق الإنسان من عظم وغيره .

(٦) الحظوة: المكانة . أى منزلتك عند الله .

ولا يَدْخُلْكَ عُجْب فتَتَخَسَّرَ وتَذِلَّ ، وإياكَ أن تُدِلَّ بعمل ، فإن الله له المَنّ ، وهو وَلِيُّ الجزاء » .

(تاريخ الطبرى ٤ : ٢٦ ، ٤٠)

٩٣ — كتاب أبى بكر إلى أهل اليمن

ولما أزْمَعَ أبو بكر رضى الله عنه فتحَ الشأم ، استنفرَ الناسَ لجهاد الروم ، فنَفَروا إليه ، ثم رأى أن يكتب كتابًا إلى أهل اليمن يدعوهم إلى الجهاد ، ويرغّبهم فى ثوابه ، فكتب إليهم :

« بسم الله الرحمن الرحيم . من خليفة رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى مَن قُرِئَ عليه كتابى هذا من المؤمنين والمسلمين من أهل اليمن ، سلام عليكم ، فإنى أحمَد إليكم اللهَ الذى لا إلٰهَ إلا هو . أما بعدُ : فإن الله كتب على المؤمنين الجهادَ ، وأمرهم أن يَنْفِروا خِفَافًا وثِقَالاً ، وقال : « جَاهِدُوا بِأَمْوَالِكُمْ وَأَنْفُسِكُمْ فِي سَبِيلِ ٱللهِ » فالجهادُ فريضة مفروضة ، وثوابُه عند الله عظيم ، وقد استنفَرْنا مَن قِبَلَنَا من المسلمين إلى جهاد الروم بالشام ، وقد سارَعوا إلى ذلك وعَسْكَروا وخرجوا ، وحَسُنَت فى ذلك نيَّتهم ، وعظُمَتْ فى الخير حِسْبَتهم[1] ، فسارِعوا عبادَ الله إلى ما سارعوا إليه ، ولْتَحْسُنْ نيَّتُكم فيه ، فإنكم إلى إحدى الحُسْنَيَيْن : إما الشَّهادة ، وإما الفتح والغنيمة ، فإن الله تبارك وتعالى لم يرضَ من عباده بالقول دون العمل ، ولا يترك أهل عداوته حتى يَدِينوا بدين الحق ، ويُقِرّوا بحكم الكتاب ، أو يُؤَدّوا الجِزْيَة عن يَدٍ[2] وهم صاغِرون ، حفِظ اللهُ لكم دينكم ، وهَدَى قلوبكم ، وزَكّى أعمالكم ، ورزَقكم أجر المجاهدين الصابرين ، والسلام عليكم » .

(فتوح الشام ص ٥ ، وتهذيب تاريخ ابن عساكر ١ : ١٢٨)

---

(١) الحسبة : الأجر ، واسم من الاحتساب . احتسب بكذا أجرا عند الله : اعتده ينوى به وجه الله .

(٢) انظر هامش ص ٣٩ .

٩٤ — كتاب أبي بكر إلى عمرو بن العاص

وكان أبو بكر رضى الله عنه قد رَدَّ عمرو بن العاص على عِمالةٍ كان رسول الله صلى الله عليه وسلم ولاَّها إياه من صَدَقات سَعْدِ هُذَيْم وعُذْرة قبل ذهابه إلى عُمَان ، فخرج إلى عُمَان[1] وهو على عِدَة من عمله إذا هو رجع ، فأنجز له ذلك أبو بكر .

فلما اهتاج أبو بكر لفتح الشام كتب إلى عمرو :

« إنى قد كنت رددتك على العمل الذى كان رسول الله صلى الله عليه وسلم وَلاَّكَهُ مَرَّةً ، وسمَّاه لك أخرى ، مَبْعَثَك إلى عُمَان ، إنجازا لمواعيد رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فقد وُلِّيتَه ثم وُلِّيتَه[2] ، وقد أحببتُ أبا عبد الله أن أفرِّغَك لما هو خير لك فى حياتك ومَعَادِك منه ، إلاَّ أن يكون الذى أنت فيه أَحَبَّ إليك » .

٩٥ — رد عمرو على كتاب أبي بكر

فكتب إليه عمرو :

« إنى سَهْمٌ من سهام الإسلام ، وأنت بعد الله الرامى بها ، والجامعُ لها ، فانظر أشدَّها وأخشاها وأفضلَها ، فارْمِ به شيئًا إن جاءك من ناحية من النواحى » .

وكتب إلى الوليد بن عُقْبة — وكان على النصف من صَدَقات قُضاعة — بنحو ذلك ، فأجابه بإيثار الجهاد .

فكتب إليهما : « استخْلِفَا على أعمالكما ، واندُبا من يليكما » فندبا الناس فتتامَّ إليهما بَشَر كثير .

---

(١) كان رسول الله صلى الله عليه وسلم قد بعث عمرو بن العاص إلى جيفر (ملك عمان) منصرفه من حجة الوداع (سنة عشر) فمات رسول الله وعمرو بعمان (انظر تاريخ الطبرى ٣ : ٢٣١) .

(٢) أى وليته مرة فى عهد الرسول صلى الله عليه وسلم . ثم وليته مرة أخرى فى عهدى .

ثم جَهَّز أبو بكر الجيوش لفتح الشأم ، فجعلها أربعةً : على أحدها عمرو بن العاص ، ووجهته فلَسْطِين ، وعلى الثانى الوليد بن عقبة ، ووجهته الأُرْدُنّ ، وعلى الثالث يزيد ابن أبى سفيان ، ووجهته البَلْقاء ، وعلى الرابع أبو عبيدة عامر بن الجرَّاح ، ووجهته حِمْص ، وقدِم شُرَحْبِيل بن حَسَنة وافداً من عند خالد بن الوليد ، فاستعمله أبو بكر على عمل الوليد بن عقبة ، وكان ذلك أول سنة ١٣ هـ .

(تاريخ الطبرى ٤ : ٢٩ ، وتاريخ الكامل لابن الأثير ٢ : ١٩٦ وتهذيب تاريخ ابن عساكر ١ : ١٣١)

٩٦ — كتاب أبى بكر إلى خالد بن سعيد بن العاص

ولما انهزم خالد بن سعيد بن العاص أمام جيش الروم ، وهرب إلى ذى المَرْوَة[١] ، وأتى أبا بكر الخبرُ كتب إليه :

« أقِمْ مكانك ، فلَعَمْرِى إنك مِقْدام مِحْجَام ، نَجَّاء من الغَمَرَات ، لاتخوضُها إلى حق ، ولا تَصْبِرُ عليه » . (تاريخ الطبرى ٤ : ٣١)

٩٧ — كتاب أبى عبيدة بن الجراح إلى أبى بكر

وسار أبو عُبَيدة بن الجراح إلى الشأم ، حتى إذا دنا من « الجابية » أتاه آتٍ فقال :

---

(١) ذوالمروة : قرية بوادى القرى ، وذلك أن أبا بكر رضى الله عنه لما عقد الألوية لقتال أهل الردة ، عقد له فيمن عقد ، ووجهه إلى مشارف الشأم ، وأمره أن ينزل تيماء لايبرحها ، وأن يدعو من حوله إلى الانضمام إليه ، وألا يقبل إلا من لم يرتد ، ولايقاتل إلا من قاتله ، حتى يأتيه أمره ، فاجتمع إليه جموع كثيرة ، وبلغ خبره الروم ، فجهزوا إليه جيشا من العرب التابعين لهم ، فكتب خالد إلى أبى بكر بذلك ، فكتب إليه أبو بكر أن أقدم ولا تحجم واستنصر الله ، فسار إليهم خالد ، فلما دنا منهم تفرقوا وأعروا منزلهم ، فنزله ودخل عامة من كان تجمع له فى الاسلام ، وكتب إلى أبى بكر بذلك فكتب إليه : « أقدم ولاتقتحمن حتى لاتؤتى من خلفك » فتقدم ، وسار إليه بطريق من بطارقة الروم يدعى باهان ، فهزمه خالد وقتل جنده ، وكتب بذلك إلى أبى بكر واستمده فأمده ، ثم لما علم خالد أن أبا بكر أمر الأمراء وجيش الجيوش لفتح الشأم — كما تقدم — اقتحم على الروم طلبا للحظوة وأعرى ظهره واستطرد له باهان وتراجع هو ومن معه إلى دمشق ، واقتحم خالد فى الجيش ، فما تطوت مسالح باهان عليه ، وأخذوا عليه الطرق ولا يشعر ، فخرج خالد هاربا فى جريدة إلى ذى المروة ، وأقام عكرمة فى الناس ردءا لهم ، فرد عنهم باهان وجنوده .

إن هِرَقل ملك الروم «بأَنْطَاكِيَة» وإنه قد جمع لـكم من الجموع مالم يجمعه أحد كان قبله من آبائه لأحد من الأمم قبلـكم ، فـكتب أبو عبيدة إلى أبى بكر رضى الله عنهما :

« بسم الله الرحمن الرحيم . لعبد الله أبى بكر خليفة رسول الله صلى الله عليه وسلم من أبى عبيدة بن الجرّاح ، سلام عليك ، فإنى أحمَدُ إليك الله الذى لا إله إلا هو ، أما بعدُ : فإنا نسأل الله أن يُعِزّ الإسلام وأهله عِزًّا متيناً ، وأن يَفْتَح لهم فتحاً يسيراً ، فإنه بلغنى أنّ هِرَقْل ملك الروم نزل قرية من قُرَى الشأم تدعى « أنْطَاكِيَة » وأنه بعث إلى أهل مملـكته، فحَشَرَهم إليه وأنهم نفروا إليه عَلَى الصَّعْب والذَّلُول، وقد رأيت أن أُعْلِمَك ذلك ، فترى فيه رأيَك ، والسلام عليك ورحمة الله وبركاته ». (فتوح الشام ص ٢٤)

٩٨ — ردأبى بكر على أبى عبيدة

فـكتب إليه أبو بكر رضى الله عنه :

« بسم الله الرحمن الرحيم . أما بعدُ ، فقد بلغنى كتابك ، وفهِمْتُ ما ذكرتَ فيه من أمر هِرَقْل ملك الروم ، فأمّا مَنْزِله « بأنطاكية » فهزيمة له ولأصحابه ، وفتْحٌ مِنَ الله عليك وعلى المسلمين ، وأمّا ما ذكرتَ من حَشْره لـكم أهلَ مملـكته ، وجَمْعِه لـكم الجموعَ ، فإن ذلك ما قد كنا وكنتم تَعْلَمُون أنه سيكون منهم ، وما كان قوم لِيَدَعُوا سلطانَهم ، ولا يخرجوا من ملـكهم ، بغير قتال ، وقد علمت ـ والحمدُ لله ـ أن قَدْ غزاهم رجال كثير من المسلمين يُحِبُّون الموت حُبَّ عدوهم الحياة ، ويُجْزَوْن[١] من الله فى قتالهم الأجرَ العظيم ، ويحبّون الجهاد فى سبيل الله أشدَّ من حبِّهم أبكارَ نسائهم ، وعقائِلَ[٢] أموالهم ، الرجلُ منهم عند الفتح خير من ألف رجل من

---

(١) فى الأصل : « ويجذبون » وهو تحريف وقد أصلحته كما ترى .

(٢) أى وخيارها : جمع عقيلة كسفينة ، وهى من كل شىء أكرمه .

المشركين ، فالْقَهُم بجندى ولا تستوحِشْ لمن غاب عنك من المسلمين ، فإن الله معك ، وأنا مع ذلك أُمِدُّك بالرجال حتى تكتفِيَ ، ولا تريدَ أن تزداد إن شاء الله ، والسلام عليك ورحمة الله » . (فتوح الشأم ص ٢٤)

٩٩ — كتاب يزيد بن أبي سفيان إلى أبي بكر

وكتب يزيد بن أبي سفيان إلى أبي بكر رضى الله عنه :

« بسم الله الرحمن الرحيم . أما بعد ، فإن مَلِكَ الروم هِرَقْلَ لمَّا بلغَه مسيرُنا إليه ، ألقى اللهُ الرعبَ في قلبه ، فتحمَّلَ[1] فنزل أنطاكية ، وخلَّف أمراءَ من جنده على مدائن الشأم ، وأمرهم بقتالنا ، وقد تيسَّرُوا لنا واستعَدُّوا ، وقد أخبرنا مسالِمَةُ الشأم أن هِرَقْل استنفرَ أهل مملكته ، وأنهم قد جاءوا يَجُرُّون الشَّوْكَ والشَّجَرَ[2] فمُرْنا بأمرك ، وعجِّل علينا في ذلك برأيك نتَّبِعْهُ إن شاء الله ، ونسأل الله النصر والصبرَ والفتحَ ، وعافيةَ المسلمين ، والسلام عليك ورحمة الله » .

(فتوح الشأم ص ٢٥)

١٠٠ — رد أبي بكر على يزيد بن أبي سفيان

فكتب إليه أبو بكر :

« بسم الله الرحمن الرحيم . أما بعدُ ، فقد بلغني كتابك تذكر فيه تَحَمُّلَ[3] ملك الروم إلى أنطاكية ، وإلقاءَ الله الرعبَ في قلبه من جموع المسلمين ، فإن الله — وله الحمد — قد نَصَرَنا ونحن مع رسول الله صلى الله عليه وسلم بالرُّعْب[4] ، وأمدَّنا بملائكته الكرام ، وإن ذلك الدينَ الذى نصرنا الله به بالرعب ، هو هذا الدين الذى

(١) تحمل : ارتحل . (٢) من أمثال العرب : « جاء بالشوك والشجر » وهو مثل يضرب لمن جاء بالشيء الكثير من كل ما كان من جيش عظيم وغيره .

(٣) في الأصل : « تحويل » وهو تحريف. (٤) في الأصل : «بالمرعب» وهو تحريف أيضا.

تدعو الناسَ إليه اليوم ، فَوَرَبِّك لايجعلُ اللهُ المسلمين كالمجرمين ، ولا مَن يشهدُ أَنْ لا إلهَ إلا الله كَمَن يعبدُ معه آلهة أخرى ، ويَدِين بعبادة آلهةٍ شَتَّى ، فإذا لقيتموهم فانْهَدْ[1] إليهم بمن معك وقاتِلْهم ، فإن اللهَ لن يَخْذُلَكَ ، وقد نبأنا الله تبارك وتعالى أن الفِئة القليلة تغلب الفئة الكثيرة بإذن الله ، وأنا مع ذلك مُمِدُّك بالرجال في إِثْرِ الرجال ، حتى تكتفوا ولا تحتاجوا إلى زيادة إنسان إن شاء الله ، والسلامُ عليك ورحمة الله » .

وجعل أبو بكر يبعث بالأمداد إلى الشأم مَدَداً تِلْوَ مَدَد .

(فتوح الشأم ص ٢٦)

١٠١ – كتاب هرقل إلى أهل الشأم

فلما رأى أهل مدائن الشأم أن العرب قد جاشَت[2] عليهم من كل وجه ، وكَثُرت جموعُهم بها ، بعثوا رسلهم إلى ملكهم يُعلِمونه ذلك ، ويسألونه المَدَد ، فكتب إليهم :

« إني قد عجبت لكم حين تستمدُّونني[3] ، وحين تكثِّرون عليَّ عددَ من جاءكم من العرب ، وأنا أعلَمُ بهم وبمن جاء منهم ، ولَأَهْلُ مدينة واحدة من مدائنكم أكثرُ مما جاءكم أضعافاً مضاعَفَةً فالْقَوْهم قاتِلوهم ، ولا تظنوا أني كتبت إليكم بهذا ، وأنا أريد ألاَّ أُمِدَّكم ، لَأَبْعَثَنَّ إليكم من الجنود ما تَضِيق بهم الأرض الفضاء » .

فكتب أهل مدائن الشأم بعضهم إلى بعض ، وأرسلوا إلى كل من كان على دينهم من العرب فدَعَوهم إلى قتال المسلمين فأجابوهم .

(فتوح الشأم ص ٣٦)

---

(١) أي انهض . (٢) من جاش البحر: إذا هاج ، وجاشت القدر إذا غلت ، وفي الحديث : « ستكون فتنة لايهدأ منها جانب إلا جاش منها جانب » أي فار وارتفع .
(٣) في الأصل : « تستهدونني » وهو تحريف .

١٠٢ — كتاب أبي عبيدة إلى أبي بكر

وبلغ أبا عبيدة مراسلتُهُمْ وخبرهم فكتب إلى أبى بكر :

« بسم الله الرحمن الرحيم . أما بعدُ ، فالحمد لله الذى أعزَّنا بالإسلام ، وأكرَمنا بالإيمان ، وهدانا لما اختلف المختلفون فيه بإذنه ، إنه يَهْدِى من يشاء إلى صراط مستقيم ، وإن عيُونى من أنْبَاطِ أهل الشأم أخبرونى أن أوائل أمدادِ ملكِ الروم قد وقعوا إليه ، وأن أهل مدائن الشأم بعثوا رسلهم إليه يستمدونه ، وأنه كتب إليهم : « إن أهل مدينة من مدائنكم أكثر ممن قَدِم عليكم من العرب ، فانهضوا إليهم فقاتِلُوهم فإن مَدَدى يأتيكم من ورائكم » فهذا ما بلغنا عنهم ، وأنفُسُ المسلمين ليِّنةٌ بقتالهم ، وقد أخبرونا أنهم قد تهيئوا لقتالنا ، فأنزل الله على المؤمنين نصره ، وعلى المشركينَ رِجْزَه(١) ، إنه بما يعملون عليم ، والسلام » . (فتوح الشأم ص ٣٢)

١٠٣ — رد أبي بكر على أبي عبيدة

فكتب أبو بكر إلى أبى عبيدة رضى الله عنهما :

« بسم الله الرحمن الرحيم . أما بعد ، فقد جاءنى كتابك تذكر فيه تسيير عدوكم لمواقعتكم ، وما كتب به مَلِكُهم إليهم من عِدَته إياهم أن يُمِدّهم من الجنود ماتَضِيق به الأرضُ الفضاء ، ولعَمْرُ اللهِ لقد أصبحت الأرض ضيقة عليه وعليهم برُحْبها(٢) بمكانكم فيهم ، وايْمُ اللهِ ما أنا بآيسٍ أن تُزيلوه من مكانه الذى هو به عاجلا إن شاء الله ، فَبُثَّ خيلَك فى القرى والسَّواد ، وضيِّقْ عليهم بقطع المِيرة والمادَّة ، ولا تحاصِرَنَّ للمدائن حتى يأتيَك أمرى ، فإن ناهضوك فانْهَدْ إليهم واستعِنْ بالله عليهم ،

---

(١) الرجز : العذاب .

(٢) الرحب : الاتساع ، وفى الأصل « برجها » وهو تحريف .

فإنه ليس يأتيهم مدَدٌ إلا أمددناك بمثليهم أو ضِعفهم(١) ، وليس بكم — والحمد لله — قِلّةٌ ولا ذلة ، فلا أعرِفنَّ ما جَبُنْتم عنهم ، ولا ما خِفْتم منهم ، فإن الله فاتح لكم ومُظْهِركم(٢) على عدوكم بالنصر ، وملتمس منكم الشكر لينظر كيف تعملون ، وعمرو فأوصيك به خيراً ، وقد أوصيتهُ أن لا يضيع حقًّا يراه ويعرفه ، فإنه ذو رأى وتجربة ، والسلام عليك ورحمة الله » . (فتوح الشأم ص ٤٢)

١٠٤ — كتاب أبي عبيدة إلى أبي بكر

وكتب أبو عبيدة وهو بالجابية إلى أبي بكر رضي الله عنهما :

« بسم الله الرحمن الرحيم . أما بعد ، فإن الروم وأهل البلد ومن كان على دينهم من العرب ، قد اجتمعوا على حَرْب المسلمين ، ونحن نرجو النصرَ وإنجازَ موعود الربِّ وعادَتَه الحُسْنَى ، أحببتُ إعلامَك ذلك لترى فيه رأيك إن شاء الله ، والسلام » .
(فتوح الشأم ص ٥٧)

١٠٥ — كتاب أبي بكر إلى خالد بن الوليد

فكتب أبو بكر إلى خالد بن الوليد رضي الله عنهما :

« أما بعدُ : فإذا جاءك كتابى هذا فدَعِ العراقَ وخلِّفْ فيه أهلَه الذين قَدِمْتَ

---

(١) جاء في المصباح المنير : « قال الأزهرى : الضعف في كلام العرب المثل ، هذا هو الأصل ، ثم استعمل الضعف في المثل وما زاد وليس للزيادة حد ، يقال هذا ضعف هذا أى مثله ، وهذان ضعفاه أى مثلاه ، قال: وجاز في كلام العرب أن يقال هذا ضعفه أى مثلاه وثلاثة أمثاله ، لأن الضعف زيادة غير محصورة » . وجاء في لسان العرب في هذا الصدد : « ألا ترى قوله تعالى « فَأُولَٰئِكَ لَهُمْ جَزَاءُ الضِّعْفِ بِمَا عَمِلُوا » لم يرد به مثلا ولا مثلين ، وإنما أراد بالضعف الأضعاف ، وأولى الأشياء به أن نجعله عشرة أمثاله لقوله سبحانه « مَنْ جَاءَ بِالْحَسَنَةِ فَلَهُ عَشْرُ أَمْثَالِهَا ، وَمَنْ جَاءَ بِالسَّيِّئَةِ فَلَا يُجْزَى إِلَّا مِثْلَهَا » فأقل الضعف محصور وهو المثل ، وأكثره غير محصور » .

(٢) أى ناصركم .

عليهم وهم فيه ، وامضِ متخففاً فى أهل القوة من أصحابك الذين قَدِموا العِراق معك من اليمامة ، وصَحِبوك من الطريق ، وقَدِموا عليك من الحجاز ، حتى تأتى الشأم ، فَتَلْقَى أبا عبيدة بن الجراح ، ومن معه من المسلمين ، فإذا الْتقيتم فأنت أمير الجماعة ، والسلام عليك » . (فتوح الشأم ص ٥٧)

١٠٦ — كتاب خالد بن الوليد إلى المسلمين بالشام

فلما أقبل خالد إلى الشأم كتب إلى المسلمين بها :

« بسم الله الرحمن الرحيم . من خالد بن الوليد إلى من بأرض العرب من المؤمنين والمسلمين ، سلام عليكم ، فإنى أحمَدُ إليكم اللهَ الذى لا إله إلا هو ، أما بعدُ : فإنى أسأل الله الذى أعزَّنا بالإسلام ، وشرَّفنا بدينه ، وأكرمنا بنبيه محمد صلى الله عليه وسلم ، وفضَّلَنا بالإيمان ، رحمةً من ربنا لنا واسِعةً ، ونِعْمَةً منه علينا سابِغَةً[1] ، أن يُتِمَّ ما بنا وبكم من نعمته ، واحمَدُوا الله عبادَ الله يَزِدْكم ، وارغَبوا إليه فى تمام العافية يُدِمْها لكم ، وكونوا له على نعمه من الشاكرين .

وإن كتاب خليفة رسول الله صلى الله عليه وسلم أتانى يأمرنى بالمسير إليكم ، وقد شَمَّرْتُ وانكمشْتُ[2] ، وكأنَّ خيلى قد أطَلَّتْ عليكم فى رجال ، فأبْشِروا بإنجاز موعود الله ، وحُسْنِ ثوابه ، عصَمنا الله وإياكم بالإيمان ، وثبَّتنَا وإياكم على الإسلام ، ورزَقنا وإياكم حُسْنَ ثواب المجاهدين ، والسلام عليكم » .

(فتوح الشأم ص ٦١)

١٠٧ — كتاب خالد إلى أبى عبيدة

وكتب إلى أبى عبيدة :

« بسم الله الرحمن الرحيم . لأبى عبيدة بن الجرَّاح من خالد بن الوليد : سلام عليك ،

---

(١) أى تامة وافية . (٢) انكمش وتكمش : أسرع .

فإنى أحمَدُ إليكَ اللهَ الذى لا إله إلا هو . أما بعدُ : فإنى أسأل الله لنا ولك الأمنَ يومَ الخوف ، والعِصْمةَ فى دار الدنيا ، فقد أتانى كتاب خليفة رسول الله صلى الله عليه وسلم يأمرنى بالمسير إلى الشأم ، وبالمُقام على جندها ، والتَّوَلِّى لأمرها ، والله ما طلبتُ ذلك ولا أرَدْتُه ، ولا كتبتُ إليه فيه ، وأنت - رحمك الله - على حالك التى كنتَ بها لا يُعْصَى أمرُك ، ولا يُخالَفُ رأيك ، ولا يقطع أمرٌ دونك ، فإنك سيد من سادات المسلمين لا يُنكَر فضلك ، ولا يُستغنى عن رأيك ، تَمَّم الله ما بنا وبك من نعمة الإحسان ، ورحِمنا وإياك من عذاب النار ، والسلام عليك ورحمة الله » .

(فتوح الشأم ص ٦٢)

١٠٨ — كتاب أبى بكر إلى أبى عبيدة

وكتب أبو بكر إلى أبى عبيدة بن الجراح رضى الله عنهما :

« بسم الله الرحمن الرحيم . أما بعدُ : فإنى قد ولَّيتُ خالداً قتال الروم بالشأم ، فلا تخالِفْه ، واسمع له وأطِعْ أمره ، فإنى وليته عليك ، وأنا أعلم أنك خيرٌ منه ، ولكن ظننتُ أن له فِطنةً فى الحرب ليست لك ، أراد الله بنا وبك سُبُلَ الرشاد ، والسلام عليك ورحمة الله » .

(فتوح الشأم ٧٤)

١٠٩ — كتاب خالد إلى الأمراء

وَوَلِىَ خالدٌ أمر الناس ، فلما أراد الشخوص من أرض دمَشق إلى الروم الذين اجتمعوا بأَجْنادَيْن[1] ، كتب نسخة واحدة إلى الأمراء .

« بسم الله الرحمن الرحيم . أما بعدُ : فإنه قد نزل بأجْنادَيْن جموع من جموع

---

(١) قال ياقوت فى معجمه : « وتفتح الدال فتكسر معها النون الأخيرة فيصير بلفظ التثنية ، وتكسر الدال وتفتح النون بلفظ الجمع » .

الروم غير ذى عدد ولا قوة ، والله قاصمهم(١) ، وقاطِعُ دابِرِهم(٢) ، وجاعلٌ دائرةَ(٣) السَّوْء عليهم ، وقد شخَصْتُ إليهم يومَ سَرَّحتُ رسولى إليكم ، فإذا قَدِم عليكم فانهضوا إلى عدوكم رحمكم الله فى أحسن عُدَّتكم ، وأصَحِّ نيتكم ، ضاعَفَ الله لكم أجوركم ، وحَطَّ أوزاركم ، والسلام عليكم ورحمة الله » .

(فتوح الشأم ص ٧٤)

١١٠ – كتاب خالد إلى أبى بكر

فأقبلوا حتى اجتمعوا جميعاً بأجنادين ، وحملوا على الروم فهزموهم وقتلوا منهم عدداً كثيراً ، فلَحِقوا بإيليا ، وقَيْسارِيّة ، ودِمَشق ، وحِمْص ، فتحصنوا فى المدائن العظام ، وكتب خالد بن الوليد إلى أبى بكر رضى الله عنهما : يفتح الله عزّ وجل عليه ، وعلى المسلمين :

« بسم الله الرحمن الرحيم . لعبد الله أبى بكر خليفة رسول الله صلى الله عليه وسلم من خالد بن الوليد سيف الله المصبوب على المشركين ، سلام عليك فإنى أحمَد إليك اللهَ الذى لا إله إلا هو ، أما بعدُ ، فإنى أُخبرك أيها الصِّدِّيق أنا التقينا نحن والمشركون ، وقد جمعوا لنا جموعا جَمّة كثيرة بأجنادين ، وقد رفعُوا صُلُبهم ، ونشروا كُتُبهم ، وتقاسموا بالله لا يَفِرُّون حتى يُفْنُونا ، أو يخرجونا من بلادهم ، فخرجنا إليهم واثقين بالله متوكلين على الله ، فطاعَنّاهم بالرماح ، ثم صرنا إلى السيوف فقارَعْناهم بها ، ثم إن الله أنزل نصره ، وأنجز وعدَه ، وهزَم الكافرين ، فقاتلناهم فى كل فَجّ وشِعْبٍ وغائطٍ(٤) ، فاحمَد الله على إعزاز دينه ، وإذلال عدوه ، وحسن الصُّنع لأوليائه ، والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته » .

---

(١) قصمه : كسره . (٢) الدابر : آخر كل شىء ، والأصل . (٣) الدائرة : الهزيمة .
(٤) الفج . الطريق الواسع بين الجبلين . الشعب : الطريق فى الجبل ، ومسيل الماء فى بطن أرض ، أو ما انفرج بين الجبلين . الغائط : المطمئن الواسع من الأرض .

وكانت وقعة أجنادين أول وقعـــة عظيمة بالشأم ، وكانت في جُمادَى الأُولى سنة ١٣ هـ ، ثم جمع هرقل للمسلمين فالتقوا باليَرْمُوك ، وجاءهم الرسل وهم مُتَصافُّون بخبر وفاة أبي بكر ، واستخلاف عمر ، وولاية أبي عبيدة حرب الشأم ، وعزل خالد ابن الوليد ، فكتموا الخبر الناس حتى ظفر المسلمون ، وذلك في رجب سنة ١٣ هـ .

(فتوح الشأم ص ٨٠)

١١١ — عهد أبي بكر عند موته لعمر بن الخطاب

ولما حضرت الوفاة أبا بكر الصديق دعا عثمان بن عفان رضي الله عنهما فقال : اكتب عهدي ، فكتب عثمان ، وأملى عليه :

« بسم الله الرحمن الرحيم . هذا ما عَهِدَ به أبو بكر بن أبي قُحافَةَ خليفةُ محمد رسول الله صلى الله عليه وسلم عند آخرِ عَهْدِه بالدنيا نازِحًا عنها ، وأول عَهْدِه بالآخرة داخلاً فيها ، في الحال التي يُؤْمِنُ فيها الكافِرُ ، ويَتَّقِي فيها الفاجِرُ ، ويصدُق الكاذب : إني استخلفت عليكم عُمَرَ بْنَ الخَطّاب ، فإن بَرَّ وعَدَل فذلك عِلمِي به ورَأْيِي فيه ، وإن جار وبَدَّل فلا عِلْمَ لي بالغيب ، والخَيْرَ أردْتُ ، ولكل آمرئٍ ما اكتسَبَ ، وسَيَعْلَمُ الَّذِينَ ظَلَمُوا أَيَّ مُنْقَلَبٍ يَنْقَلِبُونَ » .

(الكامل للمبرد ١ : ٦ ، وصبح الأعشى ٩ : ٣٥٩ والإمامة والسياسة ١ : ١٦ ، والعقد الفريد ٢ : ٢٠٧ ، وإعجاز القرآن ص ١١٥)

خلافة عمر بن الخطاب

رضى الله عنه

١١٢ — كتابه إلى أبي عبيدة بن الجراح

روى الطبرى أن أول كتاب كتبه عمر بن الخطاب رضى الله عنه حين ولى الخلافة هو كتابه إلى أبى عُبَيْدة عامر بن الجرَّاح يوليه على جند خالد بن الوليد [١]، وهو :

« أوصِيك بتقوى الله الذى يَبْقَى وَيَفْنَى ما سواه ، الذى هدانا من الضَّلالة وأخرَجنا من الظلمات إلى النور .

---

(١) كان عمر قبل أن يلى الخلافة غاضبا على خالد بن الوليد. وسبب ذلك: أن خالدا لما فرغ من أمر طليحة — كما قدمنا سار لقتال المرتدين من بنى تميم بالبطاح (كغراب) وعليهم مالك بن نويرة ، وقد تردد عليه أمره ، فلما قدمها بث السرايا وأمرهم بداعية الإسلام . وأن يأتوه بكل من لم يجب ، وإن امتنع أن يقتلوه ، فجاءته الخيل بمالك بن نويرة فى نفر معه من بنى ثعلبة بن يربوع ،فاختلفت السرية فيهم — وفيهم أبو قتادة — فكان فيمن شهد أنهم قد أذنوا وأقاموا وصلوا ، وشهد آخرون أنه لم يكن من ذلك شىء . فلما اختلفوا فيهم أمر بهم فحبسوا فى ليلة باردة لايقوم لها شىء ، وجعلت تزداد برداً ، فأمر خالد مناديا فنادى : أدفئوا أسراكم — وكانت فى لغة كنانة بمعنى القتل — فظن القوم أنه أراد القتل فقتلوهم ، وسمع خالد الواعية (الصراخ) فخرج وقد فرغوا منهم ، فقال : إذا أراد الله أمراً أصابه ، وقد اختلف القوم فيهم ، فقال أبو قتادة : هذا عملك . فنهره خالد . فغضب ومضى حتى أتى أبا بكر ، ثم تزوج خالد امرأة مالك، وقد ألح عمر على أبى بكر فى خالد أن يعزله. وقال إن فى سيف خالد رهقا (بالتحريك وهو السفه والخفة وركوب الشر والظلم) . فإن لم يكن هذا حقا حق عليه أن تقيده ، وأكثر عليه فى ذلك ، فقال : هيه ياعمر ، تأول فأخطأ ، فارفع لسانك عن خالد ،لم أكن لأشيم (أى أغمد) سيفا سله الله على الكافرين، وودى مالكا (أى أعطى ديته) وكتب إلى خالد أن يقدم عليه ، وأقبل خالد إلى المدينة حتى دخل المسجد معتجرا بعمامة له قد غرز فيها أسهما ، فقام إليه عمر فانتزع الأسهم من رأسه فحطمها ثم قال: أرئاء ؟ أقتلت امرأ مسلما ثم نزوت على امرأته ! والله لأرجمنك بأحجارك ، وخالد لايكلمه حتى دخل على أبى بكر ، فأخبره الخبر واعتذر إليه فعذره ، وخرج خالد حين رضى عنه أبو بكر فقال لعمر وهو جالس فى المسجد : هلم إلىّ يابن أم شملة، فعرف عمر أن أبا بكر قد رضى عنه، فلم يكلمه ودخل بيته . فلما ولى عمر الخلافة عزله عن قيادة جند الشأم . وولى مكانه أبا عبيدة .

وقد استعملتُك على جند خالد بن الوليد ، فقم بأمرهم الذى يَحِقُّ عليك ، لا تُقَدِّم المسلمين إلى هَلَكَةٍ رَجاءَ غنيمةٍ ، ولا تُنْزِلهم مَنزلا قبل أن تَسْتَرِيده(١) لهم ، وتَعلَمَ كيف مأتاه ، ولا تَبْعَثْ سَرِيَّةً إلا فى كَثَف(٢) من الناس ، وإياك وإلقاء المسلمين فى الهَلَكة ، وقد أبلاك(٣) الله بى وأبلانى بك ، فغمِّضْ بصرك عن الدنيا ، وأَلْهِ قلبك عنها ، وإياك أن تُهْلِكَك كما أهلكَتْ من كان قبلك ، فقد رأيتَ مَصارِعَهم » .

(تاريخ الطبرى ٤ : ٥٤)

١١٣ - كتاب عمر إلى الأمصار

وكتب عمر إلى الأمصار :

« إنى لم أعزِل خالدًا عن سَخْطةٍ ولا خيانة ، ولكن الناس فُتِنُوا به فخفتُ أن يُوكَلوا إليه ويُبْتَلَوْا به ، فأحببتُ أن يعلموا أن الله هو الصانع ، وأن لا يكونوا بعَرَض فِتْنةٍ » .

(تاريخ الطبرى ٤ : ٢٠٦)

١١٤ - كتاب عمر بن الخطاب إلى أبى عبيدة

وفى رواية: أن أبا بكر تُوُفِّىَ ، وخالدُ بن الوليد على حصار دمشق، فكتب عمر إلى أبى عبيدة يَنْعَى أبى بكر ، واستعمالِهِ أبا عبيدة ، وعَزْلِه خالدًا :

« بسم الله الرحمن الرحيم . من عبد الله عمر أمير المؤمنين إلى أبى عَبيدة بن الجرَّاح، سلام عليك ، فإنى أحمَد إليك اللهَ الذى لا إله إلا هو ، أما بعد : فإن أبا بكر الصديق خليفة رسول الله صلى الله عليه وسلم قد تُوُفِّىَ ، فَإِنَّا لِلهِ وَإِنَّا إليه رَاجِعُونَ ، ورحمةُ الله

---

(١) الرائد : الذى يتقدم القوم يبصر لهم الكلأ ومساقط الغيث ،وقد راد أهله منزلا وكلأ ، وراد لهم ، وارتاد ، واستراد . (٢) السرية: قطعة من الجيش . الكثف: الجماعة .

(٣) أبلاه : امتحنه كابتلاه .

وبركاته على أبى بكر الصِّدِّيق العامل[١] بالحق ، والآمر بالقِسْط[٢] ، والآخِذ بالعُرْف ، اللَّيِّن السَّتِير الوَادِع[٣] ، السَّهْل القريب الحكيم ، نحتسبُ مصيبتنا فيه ومصيبة المسلمين عامَّةً عند الله تعالى ، وإنا نرغب إلى الله فى العِصْمة برحمته من كل معصية ، ونسأله العمل بطاعته ما أحيانا ، والحُلولَ فى جنته إذا توفَّانا ، إنه على كل شىء قدير .

وقد بلغنا حِصاركم لأهل دمَشق ، وقد ولَّيتك جماعة المسلمين فبُثَّ سَرَاياك[٤] فى نَواحى أهلِ حمص ودمشق وما سواها من أرض الشأم ، وانظر فى ذلك برأيك ، ومَنْ حَضَرك من المسلمين ، ولا يحمِلَنَّكَ قولى هذا على أن تُعْرِيَ عسكرك فيطمَع فيك عدوك ، ولكنْ مَن استغنيتَ عنه فسَيِّره ، ومن احتجت إليه فى حصارك فاحتبِسْه ، وليكن فيمن يُحْتَبَس خالدُ بن الوليد ، فإنه لاغِنى بك عنه ، والسلام عليك ورحمة الله» .

(تهذيب تاريخ ابن عساكر ١ : ١٥١ ، وفتوح الشام ص ٨٦)

١١٥ — كتاب أبى عبيدة بن الجراح ومعاذ بن جبل إلى عمر بن الخطاب

فكتب أبو عُبَيدة بن الجرَّاح ، ومُعاذ بن جَبَل إلى عمر بن الخطاب رضى الله عنهم كتابًا واحداً ، وهو :

« بسم الله الرحمن الرحيم . من أبى عُبَيدة بن الجَرَّاح ، ومُعاذ بن جبل إلى عمر ابن الخطاب ، سلام عليك ، فإنا نحمَد إليك اللهَ الذى لا إله إلا هو ، أما بعدُ : فإنا عهِدناك ، وأمرُ نفسك لك مُهِمٌّ ، وإنك يا عمر أصبحت وقد وَلِيتَ أمر أمَّة محمد :

(١) فى فتوح الشأم « القائل » . (٢) القسط : العدل .

(٣) الستير : العفيف . الوادع : الوديع أى الساكن . وفعله : ككرم . وفى فتوح الشأم « والآخذ بالعرف والبر الشيم السهل القريب . . . » .

(٤) جمع سرية كغنية : وهى القطعة من الجيش .

أحْمَرِها[١] وأسْوَدِها ، يقعد بين يديك الصديق والعدو ، والشريف والوضيع ، والشديد والضعيف ، ولِكُلٍّ عليك حق وحِصّة[٢] من العدل ، فانظر كيف أنت يا عمر عند ذلك ، وإنا نذكِّرك يوماً تُبلَى[٣] فيه السرائر ، وتُكشَف فيه العَوْرات ، وتظهر فيه المُخَبَّآت، وتعنو فيه الوجوه لملِكٍ قاهر ، قَهَرهم بجَبَرُوته ، والناسُ له داخِرُون ينتظرون قضاءه ، ويخافون عقابه ، ويرجون رحمته .

وإنه بلَغنا أنه يكون في هذه الأمة رجال يكونون إخوانَ العَلاَنية ، أعداءَ السريرة وإنّاً نعوذ بالله أن تُنْزِل كتابَنا من قلبك سوى المنزل الذى نزل من قلوبنا ، فإنا إنما كتبنا إليك نصيحةً لك ، والسلام عليك ورحمة الله وبركاته » .

(فتوح الشأم ص ٨٨ ، وإعجاز القرآن ص ١١٦)

١١٦ — رد عمر على أبي عبيدة ومعاذ

فكتب عمر رضى الله عنه جواب كتابهما :

« بسم الله الرحمن الرحيم. من عبد الله عمر أمير المؤمنين إلى أبىعبيدة بن الجراح ، ومُعاذ بن جبل ، سلام عليكما ، فإنى أحْمَدُ إليكما ٱللهَ الذى لا إله إلا هو ؛ أما بعدُ : فإنى أوصيكما بتقوى الله ، فإنه رضا ربكما ، وحظُّ أنفسكما وغَنيمة الأكياس لأنفسهم عند تفريط العَجَزة ، وقد بلغنى كتابكما تذْكران أنكما عَهِدْتُمانى وأمرُ نفسى لى مُهِمّ ، فما يُدْريكما ؟ وهذه تزكيةٌ منكما لى ، وتذكران أنى وَليت أمر هذه الأمة يقعد بين يدىّ الصديق والعدو ، والشريف والوضيع ، والقوى والضعيف ، ولِكُلٍّ حِصّته من العدل ، وكتبتما أنِ انْظُر كيف أنت يا عمر عند ذلك ، وَإنه لا حَوْلَ ولا قوة لعمر

---

(١) الحمراء : العجم لأن الغالب على ألوانهم البياض والحمرة . (٢) الحصة : النصيب . وفى إعجاز القرآن « ولكل حصته » من العدل . (٣) تبلى أى تختبر وتكشف . تعنو: تذل وتخضع . داخرون : صاغرون ذليلون. من دخر كمنع وفرح دخورا ودخرا بالتحريك أى صغر وذل. وفى إعجاز القرآن « فإنا نحذرك يوما تعنو فيه الوجوه ، وتجب فيه القلوب (أى تضطرب) وإنا كنا نتحدث أن هذه الأمة ترجع فى آخر زمانها أن يكون إخوان العلانية أعداء السريرة » .

عند ذلك إلا بالله، وكتبتما تخوِّفانني(١) يومًا هو آتٍ، وذلك باختلاف الليل والنهار، فإنهما يُبْليان كل جديد ، ويُقرِّبان كل بعيد ، ويأتيان بكل موعود ، حتى يأتيا بيوم القيامة ، يوم تُبْلَى فيه السرائر ، وتكشَف العورات ، وتَعْنُو فيه الوجوه ، لِعزّة ملك قَهَرهم بجَبَرُوته ، فالناسُ له داخِرُون يخافون عقابه ، وينتظرون قضاءه ، ويرجون رحمته ، وذكرتما أنه بلغكما أنه يكون فى هذه الأمة رجال يكونون إخوان العلانية أعداء السريرة ، فليس هذا بزمان ذلك ، إنما ذلك فى آخر الزمان إذا كانت الرغبة والرهبة رَغبة الناس بعضهم إلى بعض . . . .

. . . . (٢)

لولا أنك علمته من غيرى ، وما سُلطانُ الدنيا وإمارتها ؟ فإن كل ما ترى يصير إلى زوال ، وإنما نحن إخوان ، فأيُّنا أَمَّ أَخاه أو كان أميرًا عليه لم يضرَّه ذلك فى دينه ولا دنياه ، بل لعل الوالى أن يكون أقربهما إلى الفِتنة ، وأوقعهما بالخطيئة لأنه بعَرَض هَلَكة إلا مَن عصَمَ اللهُ عزّ وجل ، وقليلٌ ماهم ، وكتبتما تعوِّذانني بالله أن أُنْزِل كتابكما منى سوى المنزل الذى نزل من قلوبكما ، وإنما كتبتما نصيحةً لى ، وقد صدقتما، فتعهَّدانى منكما بكتاب ، ولا غنى بى عنكما » .

(فتوح الشأم ص ٨٩ ، وإعجاز القرآن ص ١١٧)

---

(١) وفى إعجاز القرآن : « وكتبتما تحذرانى ما حذرت به الأمم قبلنا ، وقديما كان اختلاف الليل والنهار بآجال الناس يقربان كل بعيد ، ويبليان كل جديد ، ويأتيان بكل موعود ، حتى يصير الناس إلى منازلهم من الجنة أو النار ، ثم توفى كل نفس بما كسبت إن الله سريع الحساب » .

(٢) بياض بالأصل فى فتوح الشام. وفى إعجاز القرآن : « وكتبتما تزعمان أن أمر هذه الأمة يرجع فى آخر زمانها أن يكون إخوان العلانية أعداء السريرة ، ولستم بذاك ، وليس هذا ذلك الزمان ، ولكن زمان ذلك حين تظهر الرغبة والرهبة ، فتكون رغبة بعض الناس إلى بعض إصلاح دينهم ، ورهبة بعض الناس إصلاح دنياهم » .

١١٧ — كتاب عمر إلى أبي عبيدة

وبعد أن تم الظفر للمسلمين فى وقعة « اليَرْمُوك » بلغ أبا عبيدة أن الروم أرَزُوا[1] إلى « فِحْل » ، وأن المدد قد أتى أهل دمشق من حِمص ، فكتب إلى عمر بن الخطاب يستشيره : أبدمشق يبدأ أم بفِحْل من بلاد الأردُنّ ؟ فكتب إليه عمر :

« أما بعدُ ، فابدءوا بدمشق فانْهَدُوا[2] لها ، فإنها حِصْن الشأم ، وبيت مملكتهم ، واشْغَلوا عنكم أهل فِحْل بخيل تكون بإزائهم فى نحورهم ، وأهلَ فلسطين وأهل حمص ، فإنْ فتحها الله قبل دمشق فذاك الذى نحب ، وإن تأخر فَتْحُها حتى يفتح الله دمشق فلْيَنْزل بدمشق من يُمْسِك بها ، وَدعُوها وانطلِقْ أنت وسائرُ الأمراء حتى تُغِيروا على فحل ، فإن فتح الله عليكم فانصرف أنت وخالد إلى حِمْص ، ودع شُرَحْبيل وعَمْرا وأَخْلِهما بالأُرْدُنّ وفِلَسْطين ، وأمير كل بلد وجُنْدٍ على الناس حتى يخرجوا من إمارته » . (تاريخ الطبرى ٤ : ٥٧)

١١٨ — عهد خالد بن الوليد لأهل دمشق

وسار المسلمون إلى دمشق وحاصروها ، فنزل خالد بن الوليد على الباب الشرقى ، وعمرو بن العاص على باب توما ، وشُرَحبيل على باب الفراديس ، وأبو عبيدة على باب الجابية ، ويزيد بن أبى سفيان على باب كيسان ، وألحوا عليها ، فقال الأسْقُفُّ يوماً لخالد : صالحنى على هذه المدينة ، فدعا خالد بدواة وقِرْطاس وكتب :

« بسم الله الرحمن الرحيم : هذا ما أعطى خالد بن الوليد أهلَ دمشق إذا دخلها[3] ،

---

(١) أرز كضرب : تجمع وثبت . أرزت الحية : لاذت بجحرها ورجعت إليه وثبتت فى مكانها .

(٢) أى انهضوا .

(٣) وفى تاريخ ابن عساكر «يوم فتحها» وذلك يدل على أن هذا العهد كتب بعد الفتح، كما يدل على ذلك أيضاً ماورد فى رواية ابن عساكر من قوله عقب إيراد الكتاب: «شهد هذا الكتاب يوم كتب عمرو بن العاص وعياض بن غنم ويزيد بن أبى سفيان وأبو عبيدة بن الجراح ومعمر ابن عتاب وشرحبيل بن حسنة وعمير بن سعد ويزيد بن نبيشة وعبد الله بن الحارث وقضاعة بن عامر » .

أعطاهم أمانا على أنفسهم وأموالهم وكنائسهم وسُور مدينتهم لا يُهْدم ولا يُسْكَن شىء من دُورِهم ، لهم على ذلك عهدُ الله وذمة رسوله صلى الله عليه وسلم والخلفاء والمؤمنين ، لا يُعرَّض لهم إلا بخير إذا أعْطَوا الجزية » .

وكتب فى رجب من سنة أربع عشرة .

(فتوح البلدان البلاذرى ص١٢٧ ، وتهذيب تاريخ ابن عساكر ١ : ١٤٨ ، ٢ : ١٠٥)

١١٩ — عهد أبى عبيدة لأهل دمشق

وشمَّر خالد لفتح المدينة ، فدخلها من جهته عَنْوَةً ، فلما رأى ذلك الروم قصدوا أبا عبيدة ، وبذلوا له الصلح ، فقبل منهم ، وفتحوا له الباب ، فالتقى خالد والقواد فى وسطها[١] ، ثم كتب لهم أبو عبيدة كتاب الصلح ، وهو :

« بسم الله الرحمن الرحيم . هذا كتابٌ لأبى عُبَيْدة بن الجراح ممن أقام بدِمَشق وأرضها ، وأرض الشام من الأعاجم ، إنك حين قَدِمْتَ بلادنا سألْناك الأمانَ على أنفسنا وأهل ملَّتنا ، وإنا اشترطنا لك على أنفسنا أن لا نُحْدِث فى مدينة دمشق ، ولا فيما حولها كنيسةً ، ولا دَيْرًا ولا قَلاَّيَة[٢] ولا صَوْمَعَةَ راهِب ، ولا نجدِّد ما خرَب من كنائسنا ، ولا شيئًا منها مما كان فى خِطَطِ[٣] المسلمين ، ولا نمنع كنائسنا من المسلمين أن ينزلوها فى الليل والنهار ، وأن نوسِّع أبوابها للمارّة ، وأبناء السبيل ، ولا نُؤْوِى فيها ، ولا فى منازلنا جاسوساً ، ولا نكتُم على مَنْ غشَّ المسلمين ، وعلى أن لا نضرب بنواقِيسِنا إلا ضَرْبا خَفِيًا فى جوف كنائسنا ، ولا نُظهر الصليب عليها ، ولا نرفع أصواتنا

(١) وجاء فى فتوح البلدان البلاذرى ص١٢٨ : « فلما رأى الأسقف أن أبا عبيدة قد قارب دخول المدينة بدر إلى خالد فصالحه ، وفتح له الباب الشرقى ، فدخل والأسقف معه ناشراً كتابه الذى كتبه له ، فقال بعض المسلمين: والله ما خالد بأمير فكيف يجوز صلحه؟ فقال أبو عبيدة : إنه يجير على المسلمين أدناهم ، وأجاز صلحه وأمضاه . . . . » .

(٢) القلاية : من بيوت عبادات النصارى كالصومعة ، وفى الأصل : « قلامة » وهو تحريف .

(٣) الخطط جمع خطة بالكسر : وهى الأرض التى يختطها الرجل لنفسه .

فى صلاتنا وقراءتنا فى كنائسنا ، ولا نُخرج صليبنا ولا كتابنا ، ولا نُخرج بَاعُوثاً ولا سَعَانِين[١] ، ولا نرفع أصواتنا بموتانا ، ولا نُظهر النيران معهم فى أسواق المسلمين ، ولا نجاورهم بالخنازير ، ولا نبيع الخمور ، ولا نُظهر شِرْكاً فى نادى المسلمين ، ولا نرغب مسلماً فى ديننا ، ولا ندعو إليه أحداً ، وعلى أن لا نتخذ شيئاً من الرَّقيق الذين جرت عليهم سِهامُ المسلمين ، ولا نمنع أحداً من قرابتنا إن أرادوا الدخول فى الإسلام ، وأن نَلْزَم ديننا حيثما كنا ، ولا نتشبَّه بالمسلمين فى لُبْس قَلَنْسُوة ولا عِمامة ولا نَعْلين ، ولا فَرْق شعر ، ولا فى مراكبهم ، ولا نتكلم بكلامهم ، ولا نتسمَّى بأسمائهم ، وأن نَجُزَّ مقادِمَ رءوسنا ، ونَفرق نواصِيَنَا ، ونشُدَّ الزَّنانيرَ[٢] على أوساطنا ، وأن لا ننقُش فى خواتيمنا بالعربية ، ولا نركَبَ السُّرُوج ، ولا نتخذ شيئاً من السلاح ، ولا نجعله فى بيوتنا ، ولا نتقلد السيوف ، وأن نوقِّر المسلمين فى مجالسهم ، ونُرشدهم الطريق ، ونقوم لهم من المجالس إذا أرادوها ، ولا نطَّلِع عليهم فى منازلهم ، ولا نعلِّم أولادَنا القرآن ، ولا نشارك أحداً من المسلمين إلا أن يكون للمسلم أمرُ التجارة ، وأن نُضِيف كل مسلم عابر سبيل من أوسَطِ ما نجد ، ونُطعمه فيها ثلاثة أيام ، وعلينا أن لا نشتُم مسلماً ، ومن ضرب مسلماً فقد خَلَع عهدَه .

ضَمِنَّا ذلك لك على أنفسنا وذَرارِيِّنا وأرواحنا ومساكِينِنا ، وإن نحن غَيَّرْنا أو خالفنا عما اشترطنا لك وقَبِلْنا الأمان عليه ، فلا ذمَّة لنا ، وقد حَلَّ لك منا ما حَلَّ من أهل المعاندة والشقاق ، على ذلك أَعْطِينا الأمانَ لأنفسنا وأهل ملَّتنا ، فأَقِرُّونا فى بلادكم التى ورَّثكم اللهُ إياها .

شهِدَ اللهُ على ما شَرَطْنا لكم على أنفسنا ، وكفى بالله شهيداً » .

(تهذيب تاريخ ابن عساكر ١ : ١٤٩)

---

(١) الباعوث عند النصارى كالاستسقاء عندنا ، وهو اسم سريانى ، والسعانين : عيد لهم قبل عيدهم الكبير بأسبوع وهو سريانى أيضاً. (٢) الزنانير جمع زنار كرمان: وهو مايشد على وسط النصارى والمجوس .

١٢٠ - كتاب عمرو بن العاص إلى أبي عبيدة

ولما ظهر أبو عبيدة على دمشق أمَرَ عمرَو بن العاص بأن يسير إلى أرض الأرْدُن وفلسطين فيكون بينهما ، ففعل ما أُمر به ، وبلغه وهو هناك أن الروم قد جمعوا جموعهم، وتأهبوا لقتال المسلمين ، فكتب إلى أبي عبيدة بن الجراح :

« بسم الله الرحمن الرحيم . أما بعدُ فإن الروم قد أعْظَمَتْ فتح دمشق ، واجتمعوا من نواحي الأُرْدُنّ وفلسطين ، فتكاتبوا وتواثقوا وتعاقَدوا أنْ لا يرجعوا إلى النساء والأولاد حتى يُخْرِجوا العرب من بلادهم ، واللهُ مُكَذِّبٌ قولَهم وأمَلَهم ، ولنْ يَجْعَلَ اللهُ لِلْكَافِرِينَ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ سَبِيلًا ، فاكتب إليّ برأيك في هذا الحَدَثِ ، أرشد اللهُ أمرَكَ ، وسدَّدك وأدام رُشْدك ، والسلام عليك ورحمة الله وبركاته » .

فأمده أبو عبيدة بجيش عظيم . (فتوح الشأم ص ٩٤)

١٢١ - كتاب أبي عبيدة إلى عمر بن الخطاب

وكتب أبو عبيدة بن الجراح إلى عمر بن الخطاب رضي الله عنهما :

« بسم الله الرحمن الرحيم. لعبد الله عمر أمير المؤمنين من أبي عبيدة بن الجراح، سلامٌ عليك ، فإني أحمَدُ إليك اللهَ الذي لا إله إلاَّ هو ، أما بعدُ : فإنّ الروم قد أقبلَتْ فنزلت « فِحْلَ » طائفةٌ منهم مع أهلها ، وقد سارع إليهم أهل البلد ، ومَنْ كان على دينهم من العرب ، وقد أرسَلوا إليَّ أن : « اخرُج من بلادنا التي تُنْبِت الحِنْطة والشعير والفواكه والأعناب ، وإنكم لستم لها بأهل ، والحَقُوا ببلادكم بلاد الشقاء والبؤس ، فإن أنتم لم تفعلوا سِرْنا إليكم بما لا قِبَلَ لَكُمْ به ، ثم أعطيْنا اللهَ عهداً أنْ لا ننصَرِف عنكم ، ومنكم عين تَطْرِف[1] » فأرسلت إليهم :

---

(١) طرفت العين كضرب : تحرك جفناها .

« أمّا قولكم : « اخرُجوا من بلادنا ، فلستم لها بأهل » فلعمرى ما كنا لِنَخْرُجَ منها ، وقد دخَلْناها وَوَرَّثَنَاها اللهُ منكم ، ونزَعْناها من أيديكم وإنما البلاد بلاد الله ، والعباد عباده ، وهو مَلِك الملوك ، يُؤْتِي الْمُلْكَ مَنْ يَشَاء ، وَيَنْزِعُ الْمُلْكَ مِمَّنْ يَشَاء ، وَيُعِزُّ مَنْ يَشَاءُ وَيُذِلُّ مَنْ يَشَاءُ ، وأمّا ما ذكرتم من بلادنا وزعمتم أنها بلاد البؤس والشقاء ، فقد صدقتم ، وقد أبْدَلَنا اللهُ بها بلادَكم بلادَ العيش الرَّفيغ[1] ، والسِّعْر الرَّخِيص ، والفواكه الكثيرة ، فلا تحسبُونا بتاركيها ، ولا منصرفين عنها ، ولكن أقيموا لنا فواللهِ لا نُجَشِّمكم إتياننا، وَلَنَأْتِيَنَّكم إن أقمتم لنا » .

فكتبت إليك حين نهضتُ إليهم ، متوكِّلاً على اللهِ ، راضياً بقضاء الله ، واثقاً بنصر الله ، كفانا الله وإياك والمؤمنين مكيدة كل كائد ، وحسَدَ كل حاسد ، ونصَر الله أهلَ دينه نصراً عزيزاً ، وفتَحَ لهم فتحاً يسيراً ، وجعل لهم من لَدُنه سلطانا نصيراً » . (فتوح الشأم ص ١٠٩)

١٢٢ — رد عمر على أبى عبيدة

فكتب إليه عمر رضى الله عنه :

« بسم الله الرحمن الرحيم . من عبد الله عمر أمير المؤمنين إلى أبى عبيدة ابن الجرّاح ، سلام عليك ، فإنى أحمَدُ إليك الله الذى لا إلهَ إلا هو ، أما بعدُ : فإن كتابك جاءنى بنَفِيرِ الروم إليك ، ومَنزِلِهم الذى نزلوا به ، ورسالَتِهم التى أرسلوا ، وبالذى رجعْتَ إليهم فيما سألوك ، وقد سدَدْتَ بحجتك ، وأُوتيتَ رُشدك ، فإن أتاك كتابى هذا وأنتم الغالبون ، فكثيرا ما نذكُر من ربنا الإحسان إلينا وإليكم ، وإن أتاكم وقد أصابكم نَكْب[2] ، أو قَرْح فلا تَهِنوا ولا تحزنوا ولا تستكينوا ،

---

(١) الرفاغة والرفاغية: سعة العيش والخصب والسعة؛ وعيش أرفغ ورافغ ورفيغ : خصيب واسع طيب ، وفعله ككرم ، وفى الأصل « العيش الرفيع » بالعين ، والمعنى عليه مستقيم ، ولكنه بالغين أحسن.

(٢) النكب والنكبة : المصيبة. القرح : الجرح وعض السلاح ونحوه . وهن يهن : ضعف .

فإنكم الأَعْلَوْن ، وإنها دار الله ، وهو فاتِحُها عليكم تصديقا منا لِقَوْل نبينا صلى الله عليه وسلم[١] فاصْبِروا إن الله مع الصابرين .

واعلم أنك متى ما لَقِيتَ عدوّك ، فاستعنتَ بالله عليهم ، وعَلِمَ منك الصدقَ ، نَصَرك عليهم ، فقلْ إذا أنت لَقِيتَهم : اللهم إنك النـاصِرُ لدينك ، والمُعزّ لأوليائك قديماً وحديثاً ، اللهم فتوَلَّ نصرهم ، وأظهِرْ فَلْجَهم[٢] ولا تَكِلْهم إلى أنفسهم فيعجِزُوا عنها ، وكُن الصانِعَ لهم ، والدافعَ عنهم برحمتك ، إنك الوليُّ الحميد » . (فتوح الشأم ص ١١١)

١٢٣ — كتاب أبي عبيدة إلى عمر

ونهض المسلمون لقتال الروم فهزموهم ، وقتلوا منهم مَقْتَلة عظيمة ، وغلبوا على سواد الأُرْدُنّ وعلى أرضها ، وكتب أبو عبيدة إلى عمر رضى الله عنهما :

« بسم الله الرحمن الرحيم . لعبد الله عمر أمير المؤمنين من أبى عبيدة بن الجراح ، سلام عليك ، فإنى أحْمَد إليك اللهَ الذى لا إلٰهَ إلا هو ، أما بعدُ : فالحمد لله الذى أنزل على المسلمين المؤمنين نصرَه ، وعلى الكافرين رِجْزَه ، أُخْبِرُ أمير المؤمنين — أصلحه الله — أنا التَقَيْنا نحن والرومُ ، وقد جمعوا لنا الجموع العِظام ، فجاءونا من رءوس الجبال ، وأسيافِ[٣] البحار ، وظنّوا أنه لاغالبَ لهم من الناس ، فبرزوا لنا

---

(١) جاء فى سيرة ابن هشام فى الكلام فى غزوة الخندق ج ٢ ص ١٥٨ . « قال ابن إسحاق : وحدثت عن سلمان الفارسى أنه قال : ضربت فى ناحية من الخندق فغلظت على صخرة ، ورسول الله صلى الله عليه وسلم قريب منى ، فلما رآنى أضرب ورأى شدة المكان على ، نزل فأخذ المعول من يدى فضرب به ضربة لمعت تحت المعول برقة (والبرقة بالضم ذات حجارة وتراب وحجارتها الغالب عليها البياض وفيها حجارة حمر وسود) . ثم ضرب به ضربة أخرى فلمعت تحته برقة أخرى ، ثم ضرب به الثالثة فلمعت تحته برقة أخرى . قال قلت : بأبى أنت وأمى يارسول الله ، ما هذا الذى رأيت يلمع تحت المعول وأنت تضرب ؟ قال : أو قد رأيت ذلك يا سلمان؟ قلت : نعم قال: أما الأولى فإن الله فتح على بها اليمن ، وأما الثانية فإن فتح على بها الشام والمغرب ، وأما الثالثة فإن الله فتح على بها المشرق » .

(٢) الفلج : الظفر والفوز . (٣) سيف البحر بالكسر : ساحله .

وبغوا علينا ، وتوكلنا على الله ، ورفعنا رغبتنا إليه ، وقلنا : حَسْبُنَا اللَّهُ وَنِعْمَ الْوَكِيل ، ونهضنا إليهم بخيلنا ورجّالتنا ، وكان القتال بين الفريقين مَلِيًّا[1] من النهار ، أهدى الله فيه الشهادة لرجال من المسلمين ، منهم عمرو بن سعيد بن العاص ، وضرب الله وجوه المشركين ، واتبعهم المسلمون يقتلونهم ويأسِرُونهم ، حتى اعتصموا بحصونهم ، فأصاب المسلمون عسكرهم ، وغلبوا على بلدهم ، وأنزلهم الله من صَيَاصِيهم[2] ، وقَذَفَ فِي قُلُوبهم الرُّعْبَ ، فاحْمَدِ اللهَ يا أمير المؤمنين أنت ومن قِبَلك من المسلمين على إعْزاز دينه ، وإظهار الفَلَج على المشركين ، وادعوا الله لنا بتمام النعمة ، والسلام عليك » .

(فتوح الشأم ص : ١٢٢)

١٢٤ - كتاب أبي عبيدة إلى عمر

فلما رأى أهل « فِحْل » أن المسلمين قد غلبوا على أرض الأُرْدُنّ ، سألوهم الصلح فصالحوهم ، وأما أهلُ الأُرْدُنّ وأهل القرى ، فإن المسلمين أخذوا ذلك عَنْوَةً بغير صلح ، فاختلفوا فيهم ، فقالت طائفة : نقتسمهم ، وقالت طائفة : نتركهم ، وكتب أبو عبيدة ابن الجراح إلى عمر بن الخطاب رضي الله عنهما :

« بسم الله الرحمن الرحيم . أما بعدُ فإن الله ذا المَنّ والفضل والنِّعم العظام فتَحَ على المسلمين من أرض الروم ، فرأت طائفة من المسلمين أن يُقِرّوا أهلَها على أن يُؤَدّوا الجزية إليهم ، ويكونوا عُمّارَ الأرض ، ورأت طائفة منهم أن يقتسموهم ، فليكتب إلينا أمير المؤمنين برأيه في ذلك ، أدام الله لك التوفيق في[3] جميع الأمور » .

(فتوح الشام ص ١٢٣)

---

(١) أي زماناً طويلا .

(٢) الصياصي: الحصون وكل ما امتنع به جمع صيصية .

(٣) في الأصل : « وجميع الأمور » .

١٢٥ — رد عمر على أبي عبيدة

فكتب إليه عمر رضى الله عنه :

« بسم الله الرحمن الرحيم . من عبد الله عمر أمير المؤمنين إلى أبى عبيدة بن الجراح، سلام عليك ، فإنى أحمَدُ إليك اللهَ الذى لا إله إلا هو ، أما بعدُ : فإنه بلغنى كتابك تذكُر إعزازَ اللهِ أهلَ دينه ، وخِذْلانَ أهل عداوته ، وكفايَتَه إيانا مُؤْنَةَ من عادانا ، فالحمد لله على إحسانه إلينا فيما مَضَى ، وحُسْنِ صنيعه لنا فيما غَبَر(١) ، الذى عافَى جماعة المسلمين ، وأكرَمَ بالشهادة فريقا من المؤمنين ، فهنيئاً لهم برِضَا ربِّهم ، وكرامَتِهِ إياهم ، ونسأله ألَّا يَحْرِمنا أجْرَهم ، وألَّا يَفْتِنَنَا بعدهم ، فقد نصحوا لله ، وقَضَوا ما عليهم ، ولربهم كانوا يعملون ، ولأنفسهم كانوا يهتدون . وقد فهِمْتُ ما ذكرتَ من الأرض التى ظَهَر عليها وعلى أهلها المسلمون ، فقالت طائفة : تُقِرُّ أهلها على أن يُؤَدُّوا الجزية إلى المسلمين ، ويكونوا عُمَّارَ الأرض ، وقالت طائفة : نقتسِمُهم ، وإنى قد نظرتُ فيما كتبتَ إلىَّ من هذا ، ففَرَقَ رأيى فيما سألْتَنى عنه ، إلَّا أنى قد رأيتُ أن تُقِرَّهم ، وأن تجعلَ الجزيةَ عليهم ، وتقسِمَها بين المسلمين ، ويكونوا عُمَّار الأرض ، فهم أعلَمُ بها، وأقوى عليها من غيرهم ، أرأيتم لو أنّا أخذنا أهلها واقتسمناهم ، مَن كان يكون لِمَن يأتى بعدنا من المسلمين ؟ واللهِ ما كانوا إذن ليجدوا إنسانا يكلّمونه ، ولا يكلمهم ، ولا ينتفعون بشىء من ذات يده ، وإن هؤلاء يأكلهم المسلمون ما داموا أحياء ، فإذا هلكنا وهلكوا أكل أبناؤنا أبناءهم أبدا ما بَقوا ، وكانوا عبيداً لأهل الإسلام أبداً ما دام دين الإسلام ظاهراً ، فضع عليهم الجزيةَ ، وكُفَّ عنهم السَّبْىَ ، وامنع المسلمين من ظلمهم ، والإضرار بهم ، وأكْلِ أموالهم إلا بحقها » .

فلما جاء أبا عبيدة هذا الرأى من عمر عمل به . (فتوح الشأم ص ١٢٤)

---

(١) غبر الشىء كدخل : بقى ومضى ، ضد .

صورة أخرى

وجاء في كتاب الخراج لأبي يوسف :

وكتب أبو عبيدة إلى عمر رضي الله عنه بهزيمة المشركين، وبما أفاء الله على المسلمين، وما أعطى أهلَ الذمة من الصلح، وما سأله المسلمون من أن يَقْسِمَ بينهم المدن وأهلَها، والأرضَ وما فيها من شجر أو زرع، وأنه أبَى ذلك عليهم، حتى كتب إليه فيه، ليكتب إليه برأيه فيه فكتب إليه عمر :

« إني نظرتُ فيما ذكرتَ مما أفاء الله عليك، والصلح الذي صالحتَ عليه أهلَ المدن والأمصار، وشاورتُ فيه أصحابَ رسول الله صلى الله عليه وسلم، فكل قد قال في ذلك برأيه، وإن رأيي تبعٌ لكتاب الله تعالى، قال الله تعالى : « وَمَا أَفَاءَ اللَّهُ عَلَى رَسُولِهِ مِنْهُمْ فَمَا أَوْجَفْتُمْ[1] عَلَيْهِ مِنْ خَيْلٍ وَلَا رِكَابٍ وَلَٰكِنَّ اللَّهَ يُسَلِّطُ رُسُلَهُ عَلَى مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ. مَا أَفَاءَ اللَّهُ عَلَى رَسُولِهِ مِنْ أَهْلِ الْقُرَى فَلِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ وَلِذِي الْقُرْبَى وَالْيَتَامَى وَالْمَسَاكِينِ وَابْنِ السَّبِيلِ كَيْ لَا يَكُونَ دُولَةً[2] بَيْنَ الْأَغْنِيَاءِ مِنْكُمْ وَمَا آتَاكُمُ الرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَاكُمْ عَنْهُ فَانْتَهُوا وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ. لِلْفُقَرَاءِ الْمُهَاجِرِينَ الَّذِينَ أُخْرِجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ وَأَمْوَالِهِمْ يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِنَ اللَّهِ وَرِضْوَانًا وَيَنْصُرُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ أُولَٰئِكَ هُمُ الصَّادِقُونَ » هم المهاجرون الأولون « وَالَّذِينَ تَبَوَّءُوا الدَّارَ وَالْإِيمَانَ مِنْ قَبْلِهِمْ يُحِبُّونَ مَنْ هَاجَرَ إِلَيْهِمْ وَلَا يَجِدُونَ فِي صُدُورِهِمْ حَاجَةً مِمَّا أُوتُوا وَيُؤْثِرُونَ عَلَى أَنْفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ[3] وَمَنْ يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِ فَأُولَٰئِكَ هُمُ

---

(١) أفاءه عليه: أعاده عليه ورده بمعنى صيره له. ووجف الفرس كوعد وجيفاً: عدا. أوجفته: أعديته. ومن في الآية زائدة : أي لم تقاسوا فيه مشقة . (٢) أي يتداوله الأغنياء ويدور بينهم كما كان الجاهلية . (٣) الخصاصة : الحاجة والفقر .

المُفْلِحُونَ » فإنهم الأنصار « وَالَّذِينَ جَاءُوا مِنْ بَعْدِهِمْ » ولد آدم الأحمر والأسود ، فقد أشرك اللهُ الذين من بعدهم فى هذا الفَيْءِ إلى يوم القيامة ، فأَقِرَّ ما أفاء الله عليك فى أيدى أهله ، واجعل الجزية عليهم بقدر طاقتهم تقسمُها بين المسلمين ، ويكونون عُمَّار الأَرض ، فهم أعلم بها وأقوى عليها ، ولا سبيل لك عليهم ، ولا للمسلمين معك أن تجعَلَهم فَيْئاً وتقسمهم ، للصلح الذى جَرَى بينك وبينهم ، ولِأَخْذِكَ الجزيةَ منهم بقدْر طاقتهم ، وقد بَيَّن الله لنا ولكم فقال : فى كتابه « قَاتِلُوا الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِاللهِ وَلَا بِالْيَوْمِ الآخِرِ وَلَا يُحَرِّمُونَ مَاحَرَّمَ اللهُ وَرَسُولُهُ وَلَا يَدِينُونَ دِينَ الْحَقِّ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ حَتَّى يُعْطُوا الْجِزْيَةَ عَنْ يَدٍ وَهُمْ صَاغِرُونَ » .

فإذا أخذتَ منهم الجزية فلا شىء لك عليهم ولا سبيلَ ، أرَأَيْتَ لو أخذنا أهلها فاقتسمناهم ، ما كان يكون لمن يأتى من بعدنا من المسلمين ؟ والله ما كانوا يجدون إنسانا يكلمونه ، ولا ينتفعون بشىء من ذات يده ، وإن هؤلاء يأكلهم المسلمون ما داموا أحياء ، فإذا هلكنا وهلكوا أكل أبناؤنا أبناءهم أبداً ما بقوا ، فهم عبيد لأهل دين الإسلام مادام دين الإسلام ظاهراً فاضرب عليهم الجزية ، وكُفَّ عنهم السَّبْيَ ، وامنع المسلمين من ظلمهم والإضرار بهم ، وأكل أموالهم إلا بِحِلِّهَا وَوَفِّ لهم بشرطهم الذى شَرَطْتَ لهم فى جميع ما أعطيتهم .

وأما إخراج الصُّلْبان فى أيام عيدهم فلا تمنعهم من ذلك خارج المدينة بلا رايات ولا بُنُود[1] ، على ماطلبوا منك يوماً فى السنة ، فأمَّا داخِلَ البلد بين المسلمين ومساجدهم فلا تظهر الصلبان » .

فأذن لهم أبو عبيدة فى يوم من السنة ، وهو يوم عيدهم الذى فى صومهم ، فأما فى غير ذلك اليوم فلم يكونوا يخرجون صلبانهم . (كتاب الخراج ص ١٦٧)

---

(١) البنود: جمع بند كشمس وهو العلم الكبير .

١٢٦ - عهد أبي عبيدة لأهل بعلبك

ثم خرج أبو عبيدة نحو حِمص فمرَّ ببَعْلبَكَّ ، فطلب أهلها الأمان والصلح ، فصالحهم ، وكتب لهم :

« بسم الله الرحمن الرحيم . هذا كتابُ أمان لفلان بن فلان وأهل بعلبك ، رُومِها وفُرْسِها وعرَبها ، على أنفسهم وأموالهم وكنائسهم ودُورهم داخِلَ المدينة وخارِجَها ، وعلى أرْحائِهم ، وللرُّوم أن يرْعَوْا سَرْحَهم(١) ما بينهم وبين خمْسَةَ عشرَ ميلا ، ولا ينزلوا قريةً عامرة ، فإذا مضى شهر ربيع وجُمَادى الأُولَى ، ساروا إلى حيثُ شاءوا ، ومن أسلم منهم فله مالنا وعليه ما علينا ، ولِتُجَّارهم أن يسافروا إلى حيثُ أرادوا من البلاد التى صالَحنا عليها ، وعلى من أقام منهم الجزية والخراج ، شَهِد الله ، وكفى بالله شهيداً » . (فتوح البلدان للبلاذرى ص ١٢٦)

١٢٧ - كتاب أبي عبيدة إلى عمر

ثم دخل أبو عبيدة حِمْصَ وطلب أهلها الصلح، فصالحهم المسلمون، وكتبوا لهم كتاباً بالأمان على أنفسهم وأموالهم وكنائسهم، وكتب أبو عبيدة بن الجراح إلى عمر بن الخطاب رضى الله عنهما .

« بسم الله الرحمن الرحيم . لعبد الله عمر أمير المؤمنين من أبى عبيدة بن الجراح ، سلام عليك ، فإنى أحْمَدُ إليك الله الذى لا إلهَ إلا هو ، أما بعدُ ، فالحمد لله الذى أفاء علينا وعليك يا أمير المؤمنين أفضلَ كُورَة فى الشأم أهلا وقلاعًا ، وأكثرهم عدَداً وجَمْعًا وخَراجا ، وأكْبَتَهم للمشركين كَبْتاً(٢) ، وأيسَرَه على المسلمين فتحًا ، أُخبرك يا أمير المؤمنين - أصلحك الله - أنا قَدِمْنا بلادَ حِمْصَ وبها من المشركين عدد كثير ،

---

(١) السرح : المال السائم . (٢) الكبت كشمس : الجمع . أى وأكثرهم جمعا وجندا .

وَالمسلمونَ يَزْفُونهم(١) ببأس شديد ، فلما دخلنا بلادهم ألقى الله الرعبَ فى قلوبهم ، وَوَهَّن كيدهم ، وَقلَّ أظفارهم ، وَسألوا الصلح وأذعنوا بأداء الجزية ، فقبلْنا منهم وَكففنا عنهم ، وَفتحوا لنا الحصون ، وَاكتتبوا منا الأمان ، وَقد وَجَّهنا الخيول إلى الناحية التى فيها مَلِكُهم وَجنوده ، فنسأل الله مَلِكَ الملوك ، وَناصِرَ الجنود ، أن يُعِزَّ المسلمين بنصره ، وَأن يُسْلِمَ(٢) المشركَ الخاطِئَ بذنبه ، وَالسلام عليك » . (فتوح الشأم ص ١٢٨)

١٢٨ — رد عمر على أبى عبيدة

فكتب إليه عمر :

« أما بعدُ : فقد بلغنى كتابك تأمرنى فيه بحمد الله على ما أفاء الله علينا من الأرض ، وَفتحَ علينا من القِلاع ، وَمكّن لنا فى البلاد ، وَصَنَعَ لنا ولكم وأبلانا وإياكم من حسن البَلاَء ، فالحمد لله حمداً كثيراً ليس له نَفَادٌ ، ولا يُحْصَى له تَعْداد ، وَذكرتَ أنك وجَّهتَ الخيول نحو البلاد التى فيها ملك الروم وجموعهم ، فلا تفعل ، وَابعَثْ إلى خيلك فاضمُمْها إليك ، وَأقِمْ حتى يَمْضِيَ هذا الحَوْلُ ، ونرى من رأْينا ، وَنستعين بالله ذى الجلال والإكرام على جميع أمورنا ، والسلام » . (فتوح الشأم ص ١٢٩)

١٢٩ — كتاب أبى عبيدة إلى ميسرة بن مسروق

وكان أبو عبيدة رضى الله عنه قد قَدَّم مَيْسرة بن مسروق إلى ناحية حَلَب ، فكتب إليه :

« أما بعدُ : فإذا لَقِيك رسولى فَأقْبِلْ معه ، ودَعْ ما كنتُ وجَّهتك فيه ، حتى ترى مِنْ رَأْينا ، وننظر فيما يأمر به خليفتنا ، والسلام عليك » .

فأقبل ميسرة فى أصحابه حتى انتهى إلى أبى عبيدة بحمص فنزل معه .

(فتوح الشأم ص ١٣٠)

---

(١) زفاه يزفيه زفيا وزفيانا : طرده ودفعه ، يقال : زفت الريح السحاب إذا طردته واستخفته . وزفت الأمواج السفينة .   (٢) أسلمه : خذله .

١٣٠ — كتاب أبي عبيدة إلى عمر

وبعث أبو عبيدة بن الجراح ليلَةَ غَدَا من حِمْص إلى دمشق سُفْيان بن عَوْف ابن مَعْقِل رسولا إلى عمر رضى الله عنه ، وكتب معه :

« أما بعدُ : فإن عُيُونِي قَدِمَتْ علىّ من أرضْ عدونا من القرية التي فيها مَلِكُ الروم ، فحدّثونى بأن الروم قد توجّهوا إلينا ، وجمعوا لنا من الجموع مالم يجمعوه لأمة قط كانت قبلنا ، وقد دعوتُ المسلمين ، وأخبرتهم الخبرَ ، واستشرتُهُم فى الرأى ، فأجمعَ رأيُهم على أن يتنحَّوا عنهم حتى يأتِيَنا رأيُك ، وقد بعثتُ إليك رجلا عنده عِلْمُ ما قِبَلَنا ، فسلْه عما بدا لك ، فإنه بذلك عليم ، وهو عندنا أمين ، ونستعين بالله العزيز العليم ، وهو حَسْبُنا ونعم الوكيل ، والسلام عليك » . (فتوح الشأم ص ١٣٨)

١٣١ — رد عمر على أبي عبيدة

فكتب إليه عمر رضى الله عنه :

« بسم الله الرحمن الرحيم . من عبد الله عمر أمير المؤمنين إلى عبيدة بن الجراح ، وإلى الذين معه من المهاجرين والأنصار ، والتابعين بإحسان ، والمجاهدين فى سبيل الله ، سلام عليكم ، فإنى أَحْمَدُ إليكم اللهَ الذى لا إله إلا هو ، أما بعدُ : فإنه بلغنى توجُّهكم من أرض حِمْص إلى أرض دمشق ، وترككم بلاداً قد فتحها الله عليكم ، وخَلَّيْتموها[(١)] لعدوكم وخرجتم منها طائعين فكرِهْتُ هذا من رأيكم وفِعْلكم ، وسألت رسولكم : أعَنْ رَأْيٍ من جميعكم كان ذلك ؟ فزَعم أن ذلك كان من رَأْى خِيارِكم وأُولِى النُّهَى[(٢)] منكم وجماعتكم ، فعلمتُ أن الله عز وجل لم يكن ليجمع رأيَكم إلا على توفيق وصواب

(١) فى الأصل « وفليتموها » بالفاء وهو تحريف . (٢) النهى : العقل يكون واحدا وجمعا لنهية كغرفة .

ورشد فى العاجلة والعاقبة ، فهوَّنَ ذلك عليَّ ما كان دَخَلَنِي من الكراهية قبل ذلك لتحوُّلكم(١)، وقد سألنى رسولكم المَدَدَ لكم ، وأنا مُمِدُّكم قبل أن يُقرأ عليكم كتابى هذا ، وأُشْخِصُ إليكم المدد من قِبَلِي إن شاء الله ، واعلموا أنه ليس بالجمع الكثير كنا نَهْزِم الجمع الكثير ، ولا بالجمع الكثير كان الله يُنزِلُ النصر عليهم ، ولربما خَذَلَ الله الجموعَ الكثيرة ، فوهَنت وفُلَّت وفشِلَتْ ، ولم تُغنِ عنهم فئتهم شيئاً ، ولربما نَصَر الله العِصابة القليلَ عَدَدُها على الكثير عَدَدُها من أعداء الله ، فأنزل الله عليكم نصره ، وعلى المشركين من أعداء الله وأعداء المسلمين بأسَه ورِجْزَه ، والسلام عليكم » .

(فتوح الشأم ص ١٤١)

١٣٢ — كتاب عمرو بن العاص إلى أبى عبيدة

وخرج أبو عبيدة حتى قَدِم دمشق ، وبها خالد بن الوليد ، فأتاه خالد وضَمَّ عسكره إلى عسكره ، ثم قَدِم على أبى عبيدة عبدُ الله بن عمرو بن العاص بكتاب من أبيه :

« بسم الله الرحمن الرحيم . أما بعدُ : فإن أهل إيليا وكثيراً ممن كنا صالَحْناهم من أهل الأُرْدُنّ قد نقضوا العَهْد فيما بيننا وبينهم ، وذكروا أن الروم قد أقبلت إلى الشأم بقَضها وقَضِيضِها(٢) ، وأنكم قد خلَّيتم لهم عن الأرض ، وخرجتم منها ، وأقبلتم منصرفين عنها ، وقد جرَّأهم ذلك عليَّ وعلى من قِبَلِى من المسلمين ، وقد تَراسَلوا وتَواثقوا وتَعاقَدوا ليَسِيرُنَّ إليَّ ، فاكتب إليَّ برأيك ، فإن كنت تريد القدوم عليَّ أقمتُ لك حتى تَقْدَم ، وإن كنت تريد أن تنزل مَنْزِلا من الشأم ، أو من غيرها ، وأن أَقْدَم عليك ، فأعلمنى برأيك أُوَافِك به ، فإنى صائر إليك أينما كنت ، فابْعَثْ إليَّ مَدَداً أَقْوَى بهم على

---

(١) فى الأصل « لتحويلكم » وهو تحريف .

(٢) القض : ما كبر من الحجارة . القضيض : ماتكسر وصغر منها . أى جاءوا بالكبير والصغير .

عدو على ضبط ما قِبَلى ، فإنهم قد أَرْجَفُوا(١) بنا ، واَغتمزوا فينا(٢) ، واستعدُّوا لنا ، ولو يجدونا فينا ضعفاً أو يَرَوْن فينا فُرْصةً ما ناظرونا(٣) ، والسلام عليك » .

(فتوح الشأم ص ١٤٣)

١٣٣ — رد أبى عبيدة على عمرو

فكتب إليه أبو عبيدة بن الجراح :

« أما بعدُ : فقد قَدِم علىَّ عبد الله بن عمرو بكتابك ، تذكر فيه إرْجاف المُرْجفين ، واستعدادهم لك ، وَجُرْأتهم عليك ، الّذِى(٤) بَلَغهم من انصرافنا عن الروم ، وما خَلَّينا لهم من الأرض ، وإن ذلك — بالحمدُ لله — لم يكن من المسلمين عن ضعف من بصائرهم وَلا وَهْن من عدوهم وَلكنه كان رأيا من جماعتهم كادوا به عدوهم من المشركين ليخرجوهم من مدائنهم وَحصونهم وَقلاعهم وليجتمع بعض من المسلمين إلى بعض ، ويجتمعوا من أطرافهم ، وينضمّ إليهم من كان قُرْبَهم ، وَينتظرون قدوم أمدادهم عليهم ، ثم يناهضونهم إن شاء الله ، وَقد اجتمعت خيلهم وَتتامَّت فُرْسانهم ، ووثقنا بنصر الله أولياءه ، وَإنجازِ مَوْعِدِه ، وَإعزاز دينه ، وَإذلال المشركين ، حتى لا يمنَعَ أحدهم أُمَّه ، ولا حَليلَته ، ولا نفسه ، حتى يتوقَّلوا(٥) فى رءوس الجبال ، ويعْجَزوا عن منع الحصون ، ويَجْنَحُوا للسِّلْم(٦) ، ويلتمسوا الصلح ، « سُنَّةَ ٱللهِ ٱلَّتِى قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلُ وَلَنْ تَجِدَ لِسُنَّةِ ٱللهِ تَبْدِيلاً » .

ثم أعلِمْ مَن قِبلك من المسلمين أنى قادم عليهم بجماعة أهل الإسلام إن شاء الله ، فليُحْسِنوا بالله الظنّ ، ولا يجدن أهل حربكم وعدوكم فيكم ضعفاً ، ولا وَهناً ، ولا فَشَلاً ، فيغتمزُوا فيكم ، ويتجرءوا عليكم ، أعزَّنا الله وإياكم بنصره ، وألبَسَنا وإياكم عافيته وعفوه ، والسلام عليك » . (فتوح الشأم ص ١٤٤)

---

(١) أرجف القوم : خاضوا فى أخبار الفتن . (٢) اغتمزه : طعن عليه ووجد بذلك مغمزا.
(٣) المراد : ما أنظرونا: أى ما أخرونا بل سارعوا بالهجوم علينا . (٤) فى الأصل « الذى » وهو تحريف . (٥) وقل فى الجبل كوعد وتوقل : صعد . (٦) السلم : الصلح .

١٣٤ – كتاب عمرو بن العاص إلى بطارقة إيلياء

فلما ورد على عمرو كتاب أبى عبيدة سار إلى إيلياء « بيت المقدس » وكتب إلى بطارقتها :

« بسم الله الرحمن الرحيم . من عمرو بن العاص إلى بطارقة إيلياء ، سلام على من اتبع الهدى ، وآمن بالله العظيم الذى لا إله إلا هو ، ومحمدٍ صلى الله عليه وسلم ، أما بعدُ : فإنا نُثْنى على ربنا خيراً ، ونحْمَده حمداً كثيراً كما رَحِمَنا بنبيِّه ، وشرَّفنا برسالته ، وأكرمنا بدينه ، وأعزَّنا بطاعته ، وأكرمنا بتوحيده والإخلاص بمعرفته ، فلسنا - والحمد لله - نجعل له نِدًّا ، ولا نتخذ من دونه إلهًا ، لَقَدْ قُلْنَا إِذَنْ شَطَطًا ، سبحانه وبحمده وجَلَّ ثناؤه ، والحمد لله الذى جعلكم شِيَعاً ، وجعلكم فى دينكم أحزاباً بكفركم بربكم ، فكلُّ حِزْب بما لَدَيهم فَرِحون . فمنكم من يزعم أن لله وَلَداً ، ومنكم من يزعم أن الله ثانى اثنين ، ومنكم من يزعم أن الله ثالث ثلاثة ، فبُعْداً لمن أشرك بالله وسُحْقاً ، تَعَالَى اللهُ عَمَّا يَقُولُونَ عُلُوًّا كَبِيرًا ، والحمد لله الذى قتل بطارقتكم ، وسلب عِزَّكم ، وطرد من هذه البلاد ملوككم ، وأورثَنَا أرضكم ودياركم وأموالكم ، وأذلكم بكفركم بالله ، وشِرْككم به ، وترككم ما دعوناكم إليه من الإيمان بالله ورسوله ، فأعقبكم اللهُ الجوعَ والخوفَ والذّل بما كنتم تصنعون ، فإذا أتاكم كتابى هذا فأَسْلِمُوا تَسْلَموا ، وإلاَّ فأقبلوا إلينا حتى أكتب لكم كتاباً أمانا على دمائكم وأموالكم ، وأعْقِد لكم عَقْداً تؤدّوا إلىّ الجزية عن يَدٍ وأنتم صاغِرون ، وإلاَّ فو الله الذى لا إله إلا هو لَأَرْمِيَنَّكم بالخيل بعد الخيل ، وبالرجال بعد الرجال ، ثم لا أُقْلِعُ عنكم حتى أقتل المقاتِلَةَ ، وأَسْبِيَ الذرية ، وتكونوا كأمة كانت ، فأصبحت كأنها لم تكن » .

(فتوح الشأم ص ١٤٧)

١٣٥ — كتاب أهل إيلياء إلى عمرو بن العاص

وكان أهل إيلياء قد بعثوا عيناً لهم ، فأتاهم فأخبرهم أن باهان قد أقبل من قِبَل ملك الروم فى ثلاثة عساكر، كل عسكر منها أكثر من مائة ألف مقاتل ، وأن العرب لما بلغهم ما سار إليهم من تلك الجموع ، عَلِموا أنه لا قِبَل لهم بما جاءهم ، فانصرفوا راجعين ، وقد كان أوائل العرب دخلوا أرض قِنَّسْرِين فأخرجوهم منها ، ثم أتَوْا أرض حِمْص فأخرجوهم منها ثم أتَوْا أرض دمشق فأخرجوهم منها ، ثم أقبلت العرب نحو الأُرْدُنّ نحو صاحبهم الذى كتب إليكم ، والروم فى آثارهم يسوقونهم سَوقا عنيفاً سريعًا إلى ما قِبَلكم من البلاد فتباشَرُوا بذلك وسُرُّوا به ، وكتبوا إلى عمرو :

أما بعدُ : فإنك كتبت إلينا كتاباً تُزَكِّى فيه نفسَك، وتَعيب ما نحن عليه ،والقولُ بالباطل لا ينفع به أحد نفسَه ، ولا يضرُّ به عدوَّه ، وقد فَهِمْنا ما دعوتنا إليه ، وهؤلاء ملوكنا وأهل ديننا قد جاءوكم ، فإن أظْهَرهم الله عليكم فذلك بلاؤه عندنا فى القديم ، وإن ابتلانا بظهوركم علينا ، فلعمرى لَنُقِرّنّ(١) لكم بالصَّغار ، وما نحن إلا كمن ظَهَرْتم عليهم من إخواننا ، ثم دَانُوا لكم ، فأعطَوْكم ما سألتم » . (فتوح الشام ص ١٤٩)

١٣٦ — كتاب أبى عبيدة إلى عمر

وخرج أبو عبيدة من دمشق بالمسلمين إلى بلاد الأُرْدُنّ ، وعلى مقدمته خالد ابن الوليد حتى نزل اليَرْموك وأقبل عمرو حتى نزل معه ، وجاشت الروم على المسلمين ودَنَوْا منهم ، فقال مُعاذ بن جَبَل ، ورجال معه من المسلمين لأبى عبيدة : ألَا تكتبُ إلى أمير المؤمنين تُعْلِمه علم هذه الجيوش التى قد جاءتنا وتسأله المَدَد ؟ فكتب إليه مع عبد الله بن قُرْط الثُّمَالِىّ :

---

(١) فى الأصل « لنقرب » وهو تحريف ، والصغار : الذل ، ودانوا : خضعوا .

« أما بعدُ : أخبر أمير المؤمنين ـ أكرمه الله ـ أن الروم نَفَرت إلى المسلمين برًّا وبحراً ، ولم يخلِّفوا وراءهم رجلا يُطيق حمل السلاح إلاَّ جاشُوا به ، وأخرجوا معهم القِسِّيسين والأساقِفة ، ونزلت إليهم الرُّهبان من الصوامع ، واستجاشوا بأهل أرْمِينِيَةَ ، وأهل الجزيرة ، وجاءونا وهم نحو من أربعمائة ألف رجل ، وإنه لما بلغنى ذلك من أمرهم كرِهتُ أن أغُرَّ المسلمين من أنفسهم ، أو أكتُمَهم ما بلغنى عنهم ، فكشفتُ لهم عن الخبر ، وشرحت لهم عن الأمر ، وسألتهم عن الرأى ، فرأى المسلمون أن يتنَحَّوا[1] إلى أرض من أرض الشام ، ثم يضم إلينا أطرافنا وقواصِينا ، وتكون بذلك المكان جماعتنا حتى يَقْدَم علينا من قبل أمير المؤمنين المددُ لنا ، فالعَجَلَ العَجَلَ يا أمير المؤمنين بالرجال بعد الرجال ، وإلاَّ فاحتسِبْ أنفُسَ المؤمنين إن هم أقاموا ، ودينَهم منهم إن هم تفرقوا ، فقد جاءهم مالا قِبَل لهم به ، إلاَّ أن يُمِدهم الله بملائكته ، أو يأتيهم بغياث من قِبَله ، والسلام عليك » . (فتوح الشأم ص ١٦٠)

١٣٧ — رد عمر على أبى عبيدة

فكتب عمر إلى أبى عبيدة :

« أما بعدُ : فقد قَدِم علىّ أخو ثُمَالة بكتابك يخبرنى فيه بنَفِير الروم إلى المسلمين برًّا وبحراً ، وبما جاشوا عليكم من أساقفتهم وقِسِّيسهم ورهبانهم ، وإن ربنا المحمود عندنا ، والصانع لنا ، والعظيم ذا المنّ والنعمة الدائمة علينا ، قد رأى مكان هؤلاء الأساقفة والرهبان حيثُ بعث محمداً صلى الله عليه وسلم بالحقّ ، وأعزه بالنُّصرة ، ونصره بالرعب على عدوه ، وقال ـ وهو لا يخلف الميعاد : « هُوَ الَّذِى أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَى وَدِينِ الْحَقِّ لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ وَلَوْ كَرِهَ الْمُشْرِكُونَ » فلا تَهُولَنَّك كثرةُ

(١) فى الأصل « تنحوا » .

ما جاءك منهم ، فإن الله منهم برىء ، ومن برئ الله منه كان قَمِناً[١] أنْ لاتنفعه كثرة، وأن يكله الله إلى نفسه ويخذله ، ولا توحشك قلة المسلمين فى المشركين[٢] فإن الله معك، وليس قليلاً من كان الله معه، فأقم بمكانك الذى أنت به حتى تلقى عدوك وتناجزهم ، وتستظهر بالله عليهم ، وكفى به ظهيراً ووليًّا ونصيراً ، وقد فهمت مقالتك : « احتسب أنفس المسلمين إن هم أقاموا ، ودينهم إن هم تفرقوا ، فقد جاءهم مالا قِبَلَ لهم به ، إلا أن يمدَّهم الله بملائكته ، ويأتيهم بغياث من قبله » وايمُ اللهِ لولا استثناؤك بهذا لقد كنتَ أسأتَ ، ولعمرى إن أقام[٣] لهم المسلمون وصبروا فأصيبوا ، لما عند الله خيرٌ للأبرار . ولقد قال الله عز وجل : « فَمِنْهُمْ مَنْ قَضَى نَحْبَهُ[٤] وَمِنْهُمْ مَنْ يَنْتَظِرُ وَمَا بَدَّلُوا تَبْدِيلا » ،فطوبى[٥] للشهداء، وإنّ لمن عقَل عن الله ممن معك من المسلمين لأسوة بالمصرَّعين حول رسول الله صلى الله عليه وسلم فى مواطنه ،فما عجز الذين قاتلوا فى سبيل الله، ولا هابوا الموت فى جنب الله، ولا وهن الذين بقوا من بعده، ولا استكانوا لمصيبتهم ، ولكنهم تأسَّوا بهم، وجاهدوا فى الله مَنْ خالفهم منهم ، وفارق دينهم، ولقد أثنى الله على قوم بصبرهم فقال: «وَكَأَيِّنْ مِنْ نَبِيٍّ قَاتَلَ مَعَهُ رِبِّيُّونَ[٦] كَثِيرٌ فَمَا وَهَنُوا لِمَا أَصَابَهُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَمَا ضَعُفُوا وَمَا اسْتَكَانُوا وَاللَّهُ يُحِبُّ الصَّابِرِينَ ، وَمَا كَانَ قَوْلَهُمْ إِلاَّ أَنْ قَالُوا رَبَّنَا اغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَإِسْرَافَنَا فِي أَمْرِنَا وَثَبِّتْ أَقْدَامَنَا وَانْصُرْنَا عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ . فَآتَاهُمُ اللَّهُ ثَوَابَ الدُّنْيَا وَحُسْنَ ثَوَابِ الآخِرَةِ وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ » فأما ثواب الدنيا فالغنيمة والفتح ، وأما ثواب الآخرة فالمغفرة والجنة .

واقرأ كتابى هذا على الناس ، ومُرْهم فليقاتلوا فى سبيل الله ، وليصبروا كيما يؤتيهم الله ثواب الدنيا ، وحسنَ ثواب الآخرة .

---

(١) القمين كأمين ، والقمن ككتف وجبل : الخليق الجدير (والمحركة لا تثنى ولا تجمع) .
(٢) أى فى جنب المشركين. (٣) فى الأصل « أقاموا » وهو تحريف .
(٤) النحب : الأجل : (٥) الطوبى : الحسنى والخير .
(٦) قيل الربيون : العلماء الأتقياء الصبر ، وقيل : الجماعات الكثيرة .

فأما قولك : إنهم قد جاءهم مالا قِبَلَ لهم به ، فإن لا يكن لكم بهم قبل ، فإن لله بهم قِبَلا ، ولم يزل ربنا عليهم مقتدِرا ، ولو كنا والله إنما نقاتل الناس بحَوْلنا وقوّتنا وكثرتنا ، لهيهاتَ ما قد أبادونا[(١)] وأهلكونا ، ولكن نتوكل على الله ربنا ، ونبرأ إليه من الحَوْل والقوة ، ونسأله النصر والرحمة ، وإنكم منصورون إن شاء الله على كل حال ، فأخلِصوا لله نيتكم ، وارفعوا إليه رَغْبَتكم ، واصبروا وَصابِرُوا وَرَابِطُوا وَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ » . (فتوح الشأم ص ١٦٢)

وبعث إليه عمرُ سعيد بن عامر بن حِذْيَم في جَيْشٍ مَدَدا له .

١٣٨ — كتاب باهان إلى قيصر

وكتب باهان إلى قيصر :

« أما بعدُ : فإنا نسأل الله لك أيها الملك ولجندك وأهل مملكتك النصر ، ولدينك وأهلِ سلطانك العِزَّ ، فإنك قد بعثتني فيما لا يُحصِيه من العدد إلا اللهُ تقدَّمْتُ على قوم فأرسلت إليهم ، وهيَّبْتهم فلم يهابوا ، وأطمعتهم فلم يطمعوا ، وخوَّفتهم فلم يخافوا ، وسألتهم الصلح فلم يقبلوا ، وجعلت لهم الجُعْلَ على أن ينصرفوا فلم يفعلوا ، وقد ذُعِر منهم جندك ذُعْراً شديداً ، وقد خشيت أن يكونوا الفشل قد عَمَّهم ، والرعبُ قد دخل في قلوبهم ، إلاّ أن منهم رجالا قد عرَفتهم ليسوا بفُرَّار عن عدوهم ، ولا شُكَّاك[(٢)] في دينهم ، ولو قد لقُوهم لم يَفِرّوا حتى يظهَروا أو يُقتَلوا ، وقد جمعتُ أهل الرأي من أصحابي ، وأهل النصيحة لملِكنا وديننا، فاجتمع رأيهم على النهوض إليهم جميعاً في يوم واحد ، ثم لانُزايلهم حتى يحكم الله بيننا وبينهم » .

ونشِبت بين الفريقين وقعة اليَرْموك ، وكانت النُّصرة فيها للمسلمين ، والدَّبْرة[(٣)] على المشركين ، ولما انتهى خبر الهزيمة إلى ملك الروم وهو بأنطاكية ، نادى في أصحابه

---

(١) مامصدرية ، والمصدر المؤول فاعل هيهات ،أى لوقعت إبادتهم لنا منذ زمن بعيد .

(٢) فُرّار وشكاك جمع فاروشاك . (٣) الدبرة الهزيمة .

بالرحيل إلى القُسْطَنْطِينِيَّة راجعاً ، فلما خرج من أرض الشأم، وأشرف على أرض الروم، استقبل الشأم بوجهه ، فقال : السلام عليك يا سُورية سلامَ مودِّع لايرى أنه يرجع إليك أبدا » .

وكانت وقعة اليَرْمُوك فى رجب سنة خمس عشرة[١] . (فتوح الشأم ص ١٨٧)

١٣٩ــ كتاب أبى عبيدة إلى ميسرة بن مسروق

ثم إن أبا عبيدة دعا مَيْسَرة بن مسروق فسَرَّحه فى ألفى فارس، فمضى فى آثار القوم حتى قطع الدُّرُوب[٢] ، وبلغ مرج القبائل وهى ناحية أنطاكية والمَصِيصة ، ثم انصرف راجعاً ، وكان أبو عبيدة قد أشفق عليهم حين بلغه أنهم أدْربوا وجَزِع جزعا شديداً ، وندم على إرساله إياهم فى طلب الروم فكتب إلى ميسرة :

« أما بعدُ : فإذا أتاك رسولى هذا فأقبِلْ إلىَّ حين تنظر فى كتابى هذا ، ولا تُعَرِّجَنَّ على شىء ، فإن سلامة رجل واحد من المسلمين أحَبُّ إلىَّ من جميع أموال المشركين ، والسلام عليك » .

فوافاه كتاب أبى عبيدة وقد هَبَط من الدروب راجعاً ، وأقبل حتى قَدِم على أبى عبيدة . (فتوح الشام ص ٢١٨)

١٤٠ - كتاب أبى عبيدة إلى أهل إيلياء

وكتب أبو عبيدة إلى أهل إيلياء .

« بسم الله الرحمن الرحيم. من أبى عبيدة بن الجراح إلى بطارقة أهل إيليا وسُكَّانها، سلام على من اتبع الهدى ، وآمَن بالله العظيم ورسوله ، أما بعدُ : فإنا ندعوكم إلى شهادة

---

(١) هذا فى رواية ، وفى رواية أخرى أن وقعة اليرموك كانت فى أواخر خلافة أبى بكر رضى الله عنه كما قدمنا انظر ص ١٥٤ .
(٢) الدروب : جمع درب بالفتح : وهو كل مدخل الى الروم ، وأدربوا : دخلوا الدرب .

أنْ لا إلهَ إلا الله ، وأن محمداً عبده ورسوله، « وَأَنَّ السَّاعَةَ آتِيَةٌ لَارَيْبَ فِيهَا وَأَنَّ اللهَ يَبْعَثُ مَنْ فِي الْقُبُورِ » فإذا شَهِدتم بذلك حَرُمت علينا دماؤكم وأموالكم ، وكنتم إخواننا فى ديننا ، وإن أبَيْتم فأقِرُّوا لنا بإعطاء الجزية عن يَدٍ وأنتم صاغرون ، وإن أبَيْتم سِرت إليكم بقوم هم أشد حُبًّا للموت منكم للحياة ولشُرب الخمر ، وأكل لحم الخنزير ، ثم لا أرجع عنكم إن شاء الله حتى أقتُلَ مقاتِلتكم ، وأسْبِيَ ذَرَارِيَّكم » .

(فتوح الشأم ص ٢١٩)

١٤١ — كتاب أبى عبيدة إلى عمر

وكتب أبو عبيدة إلى عمر بن الخطاب رضى الله عنهما حين أظهره الله على أهل اليرموك وخرج يطلبهم :

« بسم الله الرحمن الرحيم . لِعَبْدِ الله عمر أمير المؤمنين من أبى عبيدة بن الجراح ، سلام عليك ، فإنى أحْمَدُ إليك اللهَ الذى لا إله إلا هو ، أما بعد : فالحمد لله الذى أهلك المشركين ، ونَصَر المسلمين، وقديماً ما تَوَلَّى اللهُ أمرهم، وأظهرَ فَلْجَهم ، وأعَزَّ دعوتهم، فتبارك الله رب العالمين .

أُخْبِر أمير المؤمنين ـ أكرمه الله ـ أنَّا لَقِينا الرومَ ، وهم فى جموع لم تَلْقَ العربُ مثلها جموعا قطُّ ، فأتَوا وهم يَرَون أنْ لا غالبَ لهم من الناس أحد ، فقاتَلُوا المسلمين قتالا شديداً ما قُوتِل المسلمون مِثْلَه فى مَوْطِنٍ قَطُّ ، ورزق الله المسلمين الصبرَ ، وأنزل عليهم النصرَ ، فقتَلَهم اللهُ فى كل قرية ، وكل شِعْبٍ[1] ، وكل وادٍ وجبل وسهل ، وغَنِم المسلمون عسكرهم ، وما كان فيه من أموالهم ومَتاعهم ، ثم إنى أتبعتهم بالمسلمين حتى بلغتُ أقاصِيَ بلاد الشأم ، وقد بعثت إلى أهل الشأم عُمَّالى ، وقد بعثتُ إلى أهل إيلياء أدعوهم إلى الإسلام ، فإن قبلوا وإلاَّ فليُؤَدُّوا إلينا الجزية عن يد وهم صاغرون ،

(١) الشعب : الطريق فى الجبل .

فإن أبَوا سرتُ إليهم حتى أنزِل بهم، ثم لا أزايلهم حتى يفتح الله على المسلمين، إن شاء الله، والسلام عليك » . (فتوح الشأم ص ٢٢٠)

١٤٢ — رد عمر على أبي عبيدة

فكتب إليه عمر رضى الله عنه :

« من عبد الله عمر أمير المؤمنين إلى أبى عبيدة بن الجراح، سلام عليك فإنى أحمَدُ إليك اللهَ الذى لا إله إلا هو، أما بعدُ : فإنه أتانى كتابك وفهمتُ ما ذكرتَ فيه من إهلاك الله المشركين، ونُصْرة المؤمنين، وما صنع الله لأوليائه، وأهل طاعته، فأحْمَدُ الله على حسن صنيعه إلينا، وأسْتَتِمُّ اللهَ ذلك بشكره، ثم اعلموا أنكم لم تظهَروا على عدوكم بعَدَد، ولا عُدّة، ولا حَوْلٍ ولا قوة، ولكنه بعون الله ونصره ومَنِّه وفضله، فلله الطَّوْل والمَنّ، والفضل العظيم، فتبارك الله أحسن الخالقين، والحمد لله رب العالمين، والسلام » . (فتوح الشأم ص ٢٢١)

١٤٣ — كتاب سعيد بن زيد إلى أبي عبيدة

وانتظر أبو عبيدة أهل إيلياء فأبَوا أن يأتوه فيصالحوه، فأقبل إليهم حتى نزل بهم فحاصرهم حصاراً شديداً، وضيّق عليهم من كل جانب، فخرجوا إليه ذات يوم فقاتلوا المسلمين ساعة، ثم إن المسلمين شَدُّوا عليهم من كل جانب فقاتلوهم ساعة، ثم انهزموا فدخلوا حِصْنهم، فكان الذى ولى قتالهم خالد بن الوليد، ويزيد بن أبى سفيان، كل واحد منهما فى جانب، فبلغ ذلك سعيد بن زيد بن عمرو بن نُفَيل، وهو على دمشق، فكتب إلى أبى عبيدة :

« من سعيد بن زيد إلى أبى عبيدة بن الجراح، سلام عليك، فإنى أحمَدُ إليك اللهَ الذى لا إله إلا هو، أما بعدُ : فإنى لَعَمْرِى ما كنتُ لِأُوثِرك وأصحابَك بالجهاد

فى سبيل الله على نفسى ، وعلى مايقرِّبنى من مَرْضاة ربى عز وجل ، فإذا أتاك كتابى هذا فابعث إلى عملك مَن هو أرغَبُ فيه منى ، فَلْيَعْمَل لك عليه مابدا لك ، فإنى قادم عليك وَشِيكا إن شاء الله والسلام » .

فلما وصل كتابه إلى أبى عبيدة قال : أَشْهَد لَيَفْعَلَنَّها ، فقال ليزيد بن أبى سفيان : ا كْفِنى دمشق ، فوجَّهه إليها ، فسار يزيد إليها فَوَلِيَهَا . (فتوح الشأم ص ٢٢١)

١٤٤ — كتاب أبى عبيدة إلى عمر

فلما حصر أبو عبيدة أهلَ إيلياء ورأَوْا أنه غير مُقْلِع عنهم ، وأنهم لاطاقَةَ لهم بحربه ، سألوه الصلح ، فقبل منهم فقالوا : أرسِلْ إلى خليفتكم عمر فيكونَ هو الذى يعطينا العهد ، وهو يصالحنا ويكتب لنا الأمان ، فقبل ذلك أبو عبيدة منهم وهمَّ بالكتاب ، فقال له مُعاذ بن جبل : تكتب إلى أمير المؤمنين ، وتسأله القدوم عليك فلعلَّه يَقْدَم عليك، ثم يأبَى هؤلاء الصلح، فيكون مسيره عناء وفضلا[(١)] ، فلا تكتب إليه حتى تتوثق من هؤلاء ، وتستحلفهم بأيمانهم المغَلَّظة: لئن أنت سألت أمير المؤمنين القدوم عليهم ، وكتبت إليه بذلك فقَدِم عليهم فأعطاهم الأمان ، وكتب لهم كتابا على الصلح لَيَقْبَلُن ذلك ، ففعل أبو عبيدة ما أشار به مُعاذ ، ثم كتب إلى عمر رضى الله عنه :

« بسم الله الرحمن الرحيم . لعبد الله عمر أمير المؤمنين من أبى عبيدة بن الجراح ، سلام عليك فإنى أحمَدُ إليك اللهَ الذى لا إله إلا هو ؛ أما بعد : فإنا أقَمْنا على إيلياء ، وظنوا أن لهم فى المطاولة بهم فَرَجا ورجاء ، فلم يَزِدْهم الله بها إلا ضِيقاً ونقصاً وهُزُولًا وأَزْلًا[(٢)] ، فلما رأَوا ذلك سألونا أن نُعطيهم ما كانوا به ممتنعين قبل ذلك ، وله كارهين، وإنهم سألوا الصلح على أن يَقْدَم عليهم أمير المؤمنين فيكونَ هو المؤَمِّن لهم ، والكاتب لهم كتابا ، وإنا خشِينا أن يَقْدَم أمير المؤمنين ، ثم يغدر القوم ، فيرجعون ،

---

(١) الفضل : الزيادة . (٢) الأزل : الضيق والشدة .

فيكون مسيرك ـ أصلحك الله ـ عناء وفضلًا ، فأخذنا عليهم المواثيق المغلّظة بأيمانهم : لئن أنت قَدِمتَ عليهم فأمّنتهم على أنفسهم وأموالهم ليقبلُنَّ ذلك ، وليؤدُّن الجزية ، وليدخلن فيما دخل فيه أهل الذمة ، ففعلوا وأخذنا عليهم الأيمان بذلك ، فإن رأيت يا أمير المؤمنين أن تَقْدَم علينا فافعل ، فإن في مسيرك أجْراً وصلاحًا وعافيةً للمسلمين ، أراكَ الله رَشَدَك ، ويَسَّرَ أمرك ، والسلام عليك » .

(فتوح الشام ص ٢٢٤)

١٤٥ — كتاب عمر إلى معاوية

قال الطبري : وكتب عمر إلى يزيد بن أبي سفيان أن يسرِّح معاوية إلى قَيْسَارِيَة ، وكتب إلى معاوية :

« أما بعد : فإني قد وَلَّيتك قَيْسارِيَة ، فسِرْ إليها واستنصِر الله عليهم وأكثر من قول : لا حَولَ ولا قوة إلا بالله ، اللهُ ربُّنَا وثِقتُنَا ورجاؤنا ومولانا ، نعم المولى ، ونعم النصير » .

فسار معاوية إلى قيسارية وفتحها سنة ١٥ هـ . (تاريخ الطبري ٤ : ١٥٦)

١٤٦ — كتاب أرطبون الرومي إلى عمرو بن العاص

وقال : وكتب عمر إلى عمرو بن العاص يأمره بصدم أرْطَبُون ـ وكان أدْهَى الروم وأبعدَها غَوْرا وأنكالا فعلا ـ فصَمَد إليه(١) ، والتقوا بأجنادَيْن ، فاقتتلوا قتالا شديدًا كقتال اليرموك ، حتى كثرت القتلى بينهم(٢) ، ثم انهزم أرطبون فأوَى إلى إيلياء ، ونزل عمرو أجنادين ، وكتب أرطبون إلى عمرو :

---

(١) وقد كتب إلى عمر يخبره أن أرطبون أعد لقتاله جنداً عظيما ، فلما جاءه كتاب عمرو قال : قد رمينا أرطبون الروم بأرطبون العرب ، فانظروا عم تنفرج. (٢) ذكر الطبري خبر تلك الموقعة في حوادث سنة ١٥ ، وفي رواية أخرى له ولغيره أنها كانت في أواخر خلافة أبي بكر في جمادى الأولى سنة ١٣ ، كما قدمنا انظر ص ١٥٤ .

« إنك صديقي ونظيري ، أنت في قومك مثلي في قومي ، والله لا تفتتح من فلسطين شيئًا بعد أجنادين ، فارجع ولا تغترَّ فَتَلْقَى ما لَقِيَ الذين قبلك من الهزيمة » .

١٤٧ – رد عمرو على كتاب أرطبون

فكتب إليه عمرو :

« جاءني كتابك ، وأنت نظيري ومثلي في قومك لو أخطأتك خَصْلَةٌ ، تجاهلت فضيلتي ، وقد علمتَ أني صاحب فتح هذه البلاد ، وأَسْتَعْدِي[1] عليك فلانا وفلانا وفلانا – لوزرائه – فأقرِئْهُمْ كتابي ولْيَنْظروا فيما بيني وبينَك[2] » .

(تاريخ الطبري ٤ : ١٥٨)

١٤٨ – عهد عمر بن الخطاب لأهل إيلياء

ولما قدِمَ عمر بن الخطاب رضي الله عنه الشأم ، ونزل بالجابية ، أتاه أهل إيلياء ، فصالحهم عمر ، وكتب لهم أمانا ، نصه :

« بسم الله الرحمن الرحيم . هذا ما أعطى عبد الله عمر أمير المؤمنين أهل إيلياء من الأمان .

أعطاهم أمانا لأنفسهم وأموالهم ، ولكنائسهم وصُلْبانهم ، وسقيمهم وبريئهم ، وسائر ملّتهم ، أنه لا تُسْكَنُ كنائسهم ، ولا تُهْدَم ، ولا يُنْتَقَص منها ، ولا من

---

(١) استعداه : استعانه واستنصره .

(٢) ذكر الطبري أن عمرا لما جاءه كتاب أرطبون ، دعا رجلا يتكلم بالرومية ، فأرسله إلى أرطبون ، وأمره أن يغرب ويتنكر ، وقال : استمع ما يقول حتى تخبرني به إذا رجعت إن شاء الله ، فخرج الرسول إلى أرطبون ، فدفع إليه الكتاب بمشهد من النفر ، فاقترأه فضحكوا ، وأقبلوا على أرطبون ، فقالوا : من أين علمت أنه ليس بصاحبها ؟ قال : صاحبها رجل اسمه عمر ، ثلاثة أحرف ، فرجع الرسول إلى عمرو فعرف أنه عمر فكتب إلى عمر يستمده ويقول: «إني أعالج حربا كئودا صدوما وبلادا ادخرت لك فرأيك» فنادى عمر في الناس . ثم خرج فيهم حتى نزل بالجابية ، وكتب إلى أمراء الأجناد أن يوافوه بها ليوم سماه لهم ، وأن يستخلفوا على أعمالهم ، وقد قدمنا أن عمر قدم إلى الشأم ، لأن أهل إيلياء طلبوا أن يكون هو المتولي لعقد الصلح وهو الأرجح .

حيِّزها ، ولا من صليبهم ، ولا من شىء من أموالهم ، ولا يُكْرَهون على دينهم ، ولا يُضارَّ أحد منهم ، ولا يسكن بإيلياء معهم أحد من اليهود .

وعلى أهل إيلياء أن يُعْطوا الجزية ، كما يعطى أهل المدائن[1] ، وعليهم أن يُخْرِجُوا منها الروم واللُّصُوت[2] ، فمن خرج منهم ، فإنه آمِنٌ على نفسه وماله ، حتى يبلغوا مَأْمَنَهم ، ومن أقام منهم فهو آمِن ، وعليه مثل ما على أهل إيلياء من الجزية .

ومن أحبَّ من أهل إيلياء أن يسير بنفسه وماله مع الروم ، ويُخَلِّيَ بِيَعَهم وصُلُبَهم، فإنهم آمنون على أنفسهم ، وعلى بِيَعهم وصلبهم حتى يبلغوا مَأْمَنَهم .

ومن كان بها من أهل الأرض قبل مَقْتَل « فلان » فمن شاء منهم قعد ، وعليه مثل ما على أهل إيلياء من الجزية ، ومن شاء سار مع الروم ، ومن شاء رجع إلى أهله ، فإنه لا يؤخذ منهم شىء حتى يُحْصَد حصادهم .

وعلى ما فى هذا الكتاب عَهْدُ الله ، وذمة رسوله ، وذمة الخلفاء ، وذمة المؤمنين ، إذا أعطَوُا الذى عليهم من الجزية » .

شهد على ذلك خالد بن الوليد ، وعمرو بن العاص ، وعبد الرحمن بن عوف ، ومعاوية بن أبى سفيان .

« وكتب وحضر سنة خمس عشرة .

وكتب لأهل « لُدّ » ومن دخل معهم من أهل فلسطين أمانا كأمان أهل إيلياء .

(تاريخ الطبرى ٤ : ١٥٩)

وروى القلقشندى فى صبح الأعشى ج ١٣ ص ٣٥٧ كتابا كتبه عمرٌ لنصارى الشأم حين صالحهم ، ونصُّه نص عهد أبى عبيدة لأهل دمشق الذى ورد آنفا مع تغيير يسير .

---

(١) أى مدائن الشأم .

(٢) اللصوت جمع لصت مثلث اللام : وهو اللص ، قال رافع بن عميرة الطائى :

رعيت الضأن أحميها بكلبي   من اللصت الخفى وكل ذيب

(انظر أسد الغابة ٢ : ١٥٦) .

١٤٩ — كتاب عمر إلى عمار بن ياسر

ولما كان عمر رضى الله عنه بالشأم قال له عمرو بن العاص: يا أمير المؤمنين. إن أهل هذه البلاد يأتوننا بعصير قد عَصَروه وطبخوه قبل أن يَغْلِيَ، فيأتون به حُلْوا كأنه الرُّبّ[1]، قد طبخوه حتى ذهب ثلثاه، وبَقِي الثلث، فنظر إليه عمر وقال: لا أظن بهذا بأساً، ذهب حرامُه وبقِيَ حلالُه ثم قال: اشرب منه يا عمرو فلا بأس به، وقال: كأن هذا طِلاء الإبل، فسمى يومئذ «الطِّلاء».

ثم إن عمر كتب فيه بعد ذلك إلى عَمَّار بن ياسر[2]. «أما بعد: فإنى هبطتُ أرض الشأم، فأتَونى بشراب لهم، فسألتهم كيف تصنعون به؟ فأخبرونى أنهم يطبخونه حتى يذهب ثلثاه، ويبقى ثلثه، وذلك حين يذهب رَتَبُه[3]، وريحُ حَنُونه، ويذهب حرامه، ويبقى حلاله والطيِّب منه، فمُر من قِبَلك من المسلمين فليستعينوا به فى شرابهم، والسلام». (فتوح الشأم ص ٢٣٠)

١٥٠ — كتب بين عمر وبين خالد

وبلغ عُمَرَ أن خالد بن الوليد دخل الحَمَّام فتدَلَّك بعد النُّورة[4] بثَخِين عُصْفُر معجون بخَمْر، فكتب إليه:

«بلغنى أنك تدَلَّكتَ بخمر، وإن الله قد حَرَّم ظاهِرَ الخمر وباطنه، كما حرَّم ظاهر الإثم وباطنه، وقد حرَّم مَسَّ الخمر إلا أن تُغسَل كما حرَّم شربها، فلا تُمِسُّوها أجسادَكم فإنها نَجَسٌ، وإن فعلتم فلا تعودوا».

* * *

(١) الرب: سلافة كل ثمرة بعد اعتصارها. (٢) وكان عمر ولاه الكوفة سنة ٢١ هـ.
(٣) الرتب بالتحريك: الشدة، وفى الأصل «رتبته» وأراه محرفا، والحنون: الريح التى لها حنين كحنين الإبل. (٤) النورة: حجر يحرق ويسوى منه الكلس ويحلق به شعر العانة.

فكتب إليه خالد :

« إنا قتلناها فعادتْ غَسُولا[1] غيرَ خَمْرٍ » .

* * *

فكتب إليه عمر :

« إنى أظن آلَ المُغيرةِ[2] قد ابتُلُوا بالجَفاء ، فلا أماتكم الله عليه » .

(تاريخ الطبرى ٤ : ٢٠٤ ، وتاريخ الكامل لابن الأثير ٢ : ٢٦٣)

١٥١ — كتاب عمر إلى أبى عبيدة

وكان خالد بن الوليد بعد أن فتح قِنَّسرين أدْرَبَ وَرَاء هِرَقْلَ[3] هو وعياض ابن غَنْمٍ (سنة ١٧ هـ) فأصابا أموالا عظيمة ، فلما قَفَلَ خالد ، انتجعه رجال من أهل الآفاق ، فكان الأشعث بن قيس ممن انتجعه بقنسرين ، فأجازه بعشرة آلاف — وكان عمر لا يَخْفَى عليه شىء فى عمله : كُتب إليه من العراق بخروج من خرج ، ومن الشأم بجائزة من أُجيزَ فيها — فدعا البريد ، وكتب معه إلى أبى عبيدة :

« أن يقيم خالداً ويَعْقِله بعمامته ، وينزِعَ عنه قَلَنْسُوته ، حتى يُعْلِمَهم من أين إجازة الأشعث : أمِنْ مالِه أم من إصابةٍ أصابها ؟ فإن زعم أنها من إصابة أصابها ، فقد أقرّ بخيانة ، وإن زعم أنها من ماله فقد أسرف ، واعزله على كل حال ، واضمُم إليك عَمَلَه » .

فكتب أبو عبيدة إلى خالد ، فقدم عليه ثم جمع الناس ، فقام البريد فقال : ياخالد ، أمِن مالك أجزْتَ بعشرة آلاف أم من إصابة ؟ فلم يجبه حتى أكثر عليه ، وأبو عبيدة ساكت لا يقول شيئاً ، فقام بلال إليه ، فقال : إن أمير المؤمنين أمَرَ فيك بكذا وكذا ،

---

(١) قتل الخمر : مزجها بالماء فأزال بذلك حدتها . والغسول : ما يغتسل به .

(٢) المغيرة : جد خالد . (٣) ولما بلغ عمر ما فعل خاله قال : أمر خالد نفسه ، يرحم الله أبا بكر ، هو كان أعلم بالرجال منى .

ثم تناول قلنسوته فَعَقَلَه بعمامته ، وقال ما تقول : أمِنْ مالك أم من أصابة ؟ قال : لا ، بل من مالى ، فأطلقه وأعاد قلنسوته ثم عمَّمه بيده ، ثم قال : نسمع ونطيع لِوُلاتنا ، ونفخِّم ، ونخدُمُ موالِيَنا[١] » . (تاريخ الطبرى ٤ : ٢٠٥)

١٥٢ — كتب بين أبى عبيدة وبين عمر

وكتب أبو عبيدة إلى عمر :

« إن نَفَرًا من المسلمين أصابوا الشرابَ ، منهم ضِرارٌ وأبو جَنْدل ، فسألناهم فتأَوَّلوا ، وقالوا : خُيِّرنا فاخترنا ، قال : « فَهَلْ أَنْتُمْ مُنْتَهُونَ[٢] » ، ولم يعزِم علينا » .

* * *

فكتب إليه عمر :

« فذلك بيننا وبينهم ، « فهل أنتم منتهون » يعنى فانتهوا » .

* * *

(١) قالوا : وأقام خالد متحيرا لا يدرى : أمعزول أم غير معزول ؟ وجعل أبو عبيدة لا يخبره ، حتى إذا طال على عمر أن يقدم ، ظن الذى قد كان ، فكتب إليه بالإقبال ، فأتى خالد أبا عبيدة فقال : رحمك الله ، ما أردت إلى ما صنعت ؟ كتمتنى أمرا كنت أحب أن أعلمه قبل اليوم ، فقال أبو عبيدة : إنى والله ما كنت لأروعك ما وجدت لذلك بدا ، وقد علمت أن ذلك يروعك ، فرجع خالد إلى قنسرين فخطب أهل عمله وودعهم وتحمل ثم أقبل إلى حمص فخطبهم وودعهم ، ثم خرج نحو المدينة حتى قدم على عمر فشكاه وقال : لقد شكوتك إلى المسلمين ، وبالله إنك فى أمرى غير مجمل يا عمر . فقال عمر : من أين هذا الثرى ؟ قال : من الأنفال والسهمان (بالضم جمع سهم) وما زاد على الستين ألفاً فلك ، فقوم عمر عروضه ، فخرجت إليه عشرون ألفاً ، فأدخلها بيت المال ، ثم قال : يا خالد والله إنك على لكريم ، وإنك إلى لحبيب ، ولن تعاتبنى بعد اليوم على شىء ، ومات خالد رحمه الله سنة ٢١ هـ .

(٢) قال تعالى : « يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّمَا الْخَمْرُ وَالْمَيْسِرُ وَالْأَنْصَابُ وَالْأَزْلَامُ رِجْسٌ مِنْ عَمَلِ الشَّيْطَانِ فَاجْتَنِبُوهُ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ . إِنَّمَا يُرِيدُ الشَّيْطَانُ أَنْ يُوقِعَ بَيْنَكُمُ الْعَدَاوَةَ وَالْبَغْضَاءَ فِي الْخَمْرِ وَالْمَيْسِرِ وَيَصُدَّكُمْ عَنْ ذِكْرِ اللَّهِ وَعَنِ الصَّلَاةِ فَهَلْ أَنْتُمْ مُنْتَهُونَ » .

وجمع الناس ، فاجتمعوا على أن يُضْرَبوا فيها ثمانين جلدةً ، ويُضَمَّنوا الفسق ، ومن تأوَّل عليها بمثل هذا ، فإن أبَى قُتِل ، فكتب عمر إلى أبى عبيدة :

« أن ادْعُهم على رُءوس الناس واسألهم : أحرامٌ الخمرُ أم حلال ؟ فإن قالوا : حرام ، فاجلدهم ثمانين جلدة واستَتِبْهم ، وإن قالوا : حلال فاضرب أعناقهم » .

* * *

فدعا بهم فسألهم ، فقالوا : بل حرام ، فجلدهم ، وحُدَّ القوم ونَدِموا على لجاَجتهم ، فاستحيَوْا فلزِمُوا البيوت ، ووَسْوَس أبو جندل ، فكتب أبو عبيدة إلى عمر :

« إن أبا جندل قد وسوس ، إلا أن يأتِيَه الله على يديك بفَرَج ، فاكتب إليه وذكِّره » .

* * *

فكتب إليه عمر وذَكَّره :

« من عمر إلى أبى جندل :

« إِنَّ اللهَ لاَ يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذٰلِكَ لِمَنْ يَشَاءُ » . فتُبْ وارفع رأسك ، وابْرُز ولا تقنَط ، فإن الله عز وجل يقول : « يَا عِبَادِيَ الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَى أَنفُسِهِمْ لاَ تَقْنَطُوا مِن رَحْمَةِ اللهِ إِنَّ اللهَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعًا إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ » .

* * *

فلما قرأه عليه أبو عبيدة ، تطلَّقَ وأسفر وجهه ، وكتب إلى الآخرين بمثل ذلك فبرزوا ، وكتب إلى الناس :

« عليكم أنفسكم ، ومن استوجب التغيير فغيِّروا عليه ، ولا تعيِّروا أحدا فيفشوَ فيكم البَلاء » .

(تاريخ الطبرى ٤ : ٢٢٢ ، وتاريخ الكامل لابن الأثير ٢ : ٢٧٣)

١٥٣ — كتاب عمر إلى أبي عبيدة

وقد كان أهل الشأم حصروا أبا عبيدة وأصحابه فأصابهم جهد، فكتب إليه عمر :

« سلام عليك ، أما بعدُ : فإنه لم تكن شدة إلا جعل الله بعدها فرَجا ، ولن يغلب عُسْر يُسْرَيْن[1] « يٰأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اصْبِرُوا وَصَابِرُوا وَرَابِطُوا وَاتَّقُوا اللهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ » .

١٥٤ — رد أبي عبيدة على عمر

فكتب إليه أبو عبيدة :

« سلام عليك ، أما بعدُ : فإن الله تبارك وتعالى قال : « إِنَّمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا لَعِبٌ وَلَهْوٌ وَزِينَةٌ وَتَفَاخُرٌ بَيْنَكُمْ وَتَكَاثُرٌ فِي الْأَمْوَالِ وَالْأَوْلَادِ كَمَثَلِ غَيْثٍ أَعْجَبَ الْكُفَّارَ نَبَاتُهُ ثُمَّ يَهِيجُ فَتَرَاهُ مُصْفَرًّا ثُمَّ يَكُونُ حُطَامًا وَفِي الْآخِرَةِ عَذَابٌ شَدِيدٌ

---

(١) أى أن الله يبدل المؤمن بعسره يسراً فى الدنيا ويسرا فى الآخره ، أى فرجا عاجلا فى الدنيا وثوابا آجلا فى الآخرة .

« وجاء فى لسان العرب : قال الله تعالى : « فَإِنَّ مَعَ الْعُسْرِ يُسْرًا، إِنَّ مَعَ الْعُسْرِ يُسْرًا » روى عن ابن مسعود أنه قرأ ذلك وقال : لا يغلب عسر يسرين ، وسئل أبو العباس عن تفسير قول ابن مسعود ومراده من هذا القول . فقال : قال الفراء : العرب إذا ذكرت نكرة ثم أعادتها بنكرة مثلها صارتا اثنتين، وإذا أعادتها بمعرفة فهى هى تقول من ذلك : إذا كسبت درهما فأنفق درهما، فالثانى غير الأول ، وإذا أعدته بالألف واللام فهى هى تقول من ذلك : إذا كسبت درهما فأنفق الدرهم فالثانى هو الأول قال أبو العباس : وهذا معنى قول ابن مسعود ، لأن الله تعالى لما ذكر العسر ثم أعاده بالألف واللام علم أنه هو ، ولما ذكر يسراً ثم أعاده بلا ألف ولام علم أن الثانى غير الأول ، فصار العسر الثانى العسر الأول ، وصار يسر ثان غير يسر بدأ بذكره » .

وجاء فى حاشية الصبان فى أول باب النكرة والمعرفة : « قالوا إن النكرة إذا أعيدت نكرة كانت غير الأولى ، وإن أعيدت معرفة أو أعيدت المعرفة معرفة أو نكرة كانت نفس الأولى ، وحملوا على ذلك ما روى : لن يغلب عسر يسرين . . . . الخ » :

وَمَغْفِرَةٌ مِنَ ٱللَّهِ وَرِضْوَانٌ وَمَا ٱلْحَيَاةُ ٱلدُّنْيَا إِلَّا مَتَاعُ ٱلْغُرُورِ سَابِقُوا إِلَى مَغْفِرَةٍ مِنْ رَبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا كَعَرْضِ ٱلسَّمٰوَاتِ وَٱلْأَرْضِ أُعِدَّتْ لِلَّذِينَ آمَنُوا بِٱللَّهِ وَرُسُلِهِ ذٰلِكَ فَضْلُ ٱللَّهِ يُؤْتِيهِ مَنْ يَشَاءُ وَٱللَّهُ ذُو ٱلْفَضْلِ ٱلْعَظِيمِ » .

فلم يلبث أن ورد البشير على عمر بفتح الله على أبى عبيدة وهزم المشركين .

(كتاب الخراج ص ١٧٧)

١٥٥ — كتب بين أبى عبيدة و بين عمر

ولما وقع بالشأم طاعون عمواس[1] سنة ١٨ هـ ، وقيل سنة ١٧ هـ ـ واشتعل الوَجَعُ فى الناس ، وبلغ ذلك عمر ، كتب إلى أبى عبيدة ليستخرجه منه :

« سلام عليك ، أما بعدُ : فإنه قد عرَضَتْ لى إليك حاجةٌ أريد أن أشافِهَك فيها ، فعزَمْتُ عليك إذا نظرتَ فى كتابى هذا ألَّا تضعَه من يدك حتى تُقْبِلَ إلىَّ » .

* * *

فعرَف أبو عبيدة أنه إنما أراد أن يستخرجه من الوباء ، وقال : يغفر الله لأمير المؤمنين ! ثم كتب إليه :

« يا أمير المؤمنين إنى قد عرَفت حاجَتك إلىّ ، وإنى فى جُنْدٍ من المسلمين لا أجد بنفسى رَغبةً عنهم ، فلستُ أُريد فِراقَهم حتى يَقْضِىَ الله فىَّ وفيهم أَمْرَه وقضاءه ، فحَلِّنى من عَزْمتك يا أمير المؤمنين ودَعْنى فى جندى » .

* * *

فلما قرأ عمر الكتاب بكى ، فقال الناس : يا أمير المؤمنين ، أمات أبو عبيدة ؟ قال : لا ، وكأنْ قَدْ ، ثم كتب إليه :

---

(١) « ضبط فى لسان العرب بفتح أوله وسكون ثانيه ، وقال ياقوت فى معجمه : رواه الزمخشرى بكسر أوله وسكون الثانى ، ورواه غيره بفتح أوله وثانيه ، هى كورة من فلسطين بالقرب من بيت المقدس على ستة أميال من الرملة ، ومنها كان ابتداء الطاعون فى أيام عمر بن الخطاب ثم فشا فى أرض الشأم » .

« سلام عليك ، أما بعدُ : فإنك أنزلت الناس أرضاً غَمِقَةً(١) ، فارفعهم إلى أرض مرتفعة نَزْهة(٢) » .

(تاريخ الطبرى ٤ : ٢٠١ ، وتاريخ الكامل لابن الأثير ٢ : ٢٧٥)

وفى لسان العرب ـ فى مادة غمق ـ أنه كتب إليه :

« إن الأُرْدُنَّ أرض غَمِقة ، وإن الجابية أرض نزهة ، فاظْهَر بمن معك من المسلمين إليها » .

١٥٦ — كتاب معاذ بن جبل إلى عمر

وعمَّ طاعون عمواس أهل الشأم ، ومات فيه بَشَر كثير ، منهم أبو عبيدة ابن الجراح رحمه الله ، وكان قد استخلف مُعاذَ بن جَبَل رضى الله عنه ، فكتب إلى عمر رضى الله عنه يَنْعى أبا عبيدة .

« لعبد الله عمر أمير المؤمنين من مُعاذ بن جَبَلٍ . سلام عليك،فإنى أَحمَدُ إليك اللهَ الذى لا إله إلا هو ، أما بعدُ : فاحتَسِبِ امْرأً كان لله أميناً ، وكان اللهُ فى عَيْنه عظيما ، وكان علينا وعليك يا أمير المؤمنين عزيزاً : أبا عُبَيْدَة بن الجرَّاح ، غفَرَ الله له ما تقدَّم من ذنبه وما تأخر : « وَإِنَّا لِلهِ وَإِنَّا إِلَيْهِ رَاجِعُونَ » وعند الله نحتسِبُه ، وبالله نثِقُ له ، كتبتُ إليك ، وقد فشا الموتُ وهذا الوباء فى الناس ، ولن يُخْطِئَ أحداً أجَلُه من الموت ، ومن لم يَمُتْ فسيموت ، جعل الله لهُ ما عنده خيراً لنا من الدنيا ، إن أبقانا أو أهلَكنا ، فجزاكَ اللهُ عن جماعة المسلمين ، وعن خاصتِنا وعامّتنا رحمتَه ومَغفِرتَه ورِضْوانَه وجَنَّته ، والسلامُ عليك ورحمة الله وبركاته » .

(فتوح الشام ص ٢٤٧)

---

(١) أرض غمقة كفرحة : ذات ندى وثقل ووخامة ، أو قريبة من المياه ، وفى الأصل « عميقة » وهو تحريف . (٢) أرض نزهة بفتح فسكون وتكسر الزاى ، ونزيهة : أى بعيدة عن الريف وغمق المياه وذبان القرى وومد البحار وفساد الهواء .

١٥٧ — كتاب عمرو بن العاص إلى عمر

ثم طُعِنَ مُعاذُ بن جَبَل فمات رحمه الله ، وكان قد استخلف عَمْرَو بن العاص ، فكتب إلى عمر يَنْعى مُعاذاً :

« لعبد الله عمر أمير المؤمنين من عمرو بن العاص، سلام عليك، فإنى أحمَدُ إليك اللهَ الذى لا إله إلا هو ، أما بعدُ : فإن مُعاذ بن جبل رَحِمَه الله هَلَك ، وقد فشا الموت فى المسلمين ، وقد استأذنونى فى التنحِّى عنه إلى البَرِّ ، وقد علمتُ أن إقامة الْمُقيم لاتقرِّبُه من أجَلَه ، وأن هرَب الهارب منه لايُبَاعِدُه من أجله ، ولا يَدْفع به قَدَرَه ، والسلام عليك ورحمة الله » . (فتوح الشام ص ٢٤٧)

١٥٨ — كتاب عمر إلى يزيد بن أبى سفيان

ثم إن عمر رضى الله عنه كتب إلى يزيد بن أبى سفيان :

« أما بعد ، فقد ولَّيتك أجناد الشأم كلِّه ، وكتبت إليهم أن يسمعوا لك ويُطيعوا ، وألاّ يخالفوا لك أمرا ، فاخرج فعسْكِر بالمسلمين ثم سر إلى قَيْسَارِيَة ، فانزِلْ عليها ثم لاتفارِقْها حتى يفتحَها الله عليك ، فإنه لاينبغى افتتاح ما افتتحتم من أرض الشأم مع مُقام أهل قيسارية فيها ، وهم عدوّكم وإلى جانبكم ، وإنه لايزال قيصر طامعاً فى الشأم ما بَقِىَ فيها أحد من أهل طاعته مَنِيعاً[1] ، ولو قد فتحتموها قَطَعَ الله رجاءه من جميع الشأم ، والله عز وجل فاعل ذلك وصانع للمسلمين إن شاء الله » . (فتوح الشأم ص ٢٥٠)

١٥٩ — كتاب عمر إلى أمراء الأجناد

فخرج يزيد بن أبى سُفيان فعسْكَر بالمسلمين ، وجاء كتاب من عمر رضى الله عنه إلى أمراء الأجناد نسخةً واحدة :

---

(١) فى الأصل « متبعا » ، وهو تحريف .

« أما بعدُ : فقد ولَّيتُ يزيد بن أبي سفيان أجنادَ الشأم كلِّه ، وأمرته أن يسير إلى أهل قَيْسارِية ، فلا تَعْصُوا له أمرا ، ولا تخالِفُوا له رأياً ، والسلام » .

(فتوح الشأم ص ٢٥٠)

١٦٠ — كتاب يزيد بن أبي سفيان إلى أمراء الأجناد

وكتب يزيد بن أبي سفيان إلى أمراء الأجناد نسخة واحدة :

« أما بعدُ : فإني قد ضربتُ على الناس بَعْثاً أريد أن أسير بهم إلى قيسارية ، فأخرِجوا من كل ثلاثةٍ رجلًا ، وعجِّلوا إشخاصَهم إليَّ والسلام » .

فلم يلبث إلا قليلا حتى توَافَتْ عنده عساكر الأجناد فسار إلى قيسارية وكان بها جموع من بطارقة الروم وفُرسانهم وأشدائهم كثيرة ، وكل من كَرِه الدخول في دين الإسلام من النصارى ، ومن كَرِه الجزية ، فحمل عليهم ، وقتل منهم مَقْتلة عظيمة ، وانهزموا انهزاما شديداً[١] . (فتوح الشأم : ص ٢٥١)

١٦١ — كتاب عمر إلى معاوية

وكتب عمر رضي الله عنه إلى معاوية[٢] كتاباً في القضاء يقول فيه :

« أما بعدُ ، فإني كتبت إليك بكتاب في القضاء لم آلك[٣] ونفسي فيه خيراً ، الْزَم خمسَ خِصال يَسْلَمْ لك دينُك ، وتأخذ فيه بأفضل حَظِّك : إذا تقدم إليك الخصْمان فعليك بالبَيِّنَة العادلة ، أو اليمين القاطعة ، وأَدْنِ الضعيفَ حتى يشتدَّ قلبُه ، وينبَسط لسانُه ، وتعهَّد[٤] الغَريب ، فإنك إن لم تتعهده ترَكَ حقه ، ورجع إلى أهله ، وإنما

---

(١) وفي رواية الطبري أن عمر كتب إلى يزيد بن أبي سفيان أن يسرح معاوية إلى قيسارية ، وأن فتحها كان سنة ١٥ هـ ، انظر ما قدمناه في ص ١٧٤ . (٢) ذكر الطبري أن يزيد بن أبي سفيان توفي في طاعون عمواس ، فلما انتهى مصابه إلى عمر ، أمر أخاه معاوية بن أبي سفيان على جند دمشق وخراجها .

(٣) ألا كعدا : قصر ، وهو لا يألوك نصحا أي لا يقصر .

(٤) وفي العقد الفريد « وتعاهد » وتعهده وتعاهده واعتهده : تفقده .

ضيَّع حقه مَن لم يَرْفُق به ، وآسِ بين الناس فى لَحْظك وطَرْفك ، وعليك بالصلح بين الناس مالم يستبِنْ لك فَصْلُ القضاء[1] » .

(البيان والتبيين ٢ : ٧٥ ، والعقد الفريد ١ : ٢٧ ، وكتاب الخراج لأبى يوسف ص ١٤٠)

١٦٢ — كتاب عمر إلى عمرو بن العاص

ولَمَّا قَدِم عمر الشام سنة ١٨هـ خلا به عمرو بن العاص، وجعل يرغّبه فى فتح مصر، وما زال به حتى أجابه فعَقد له على أربعة آلاف رجل ، وقال له : سر وأنا مستخيرٌ الله فى مسيرك ، وسيأتى كتابى إليك سريعاً إن شاء الله ، فإن أدركك كتابى وأمرتك فيه بالانصراف عن مصر قبل أن تدخلها ، أو شيئاً من أرضها فانصرف ، وإن أنت دخلتها قبل أن يأتيك كتابى فامض لوجهك . واستعِنْ بالله واستنصره ، فسار إليها عمرو ، واستخار عمرُ اللهَ فكأنه تخوف على المسلمين فى وجههم ذلك ، فكتب إلى عمرو ابن العاص أن ينصرف بمن معه من المسلمين ، فأدرك الكتاب عمراً وهو برَفَح ، فتخوَّف إنْ هو أخذ الكتاب وفتحه أن يجد فيه الانصراف كما عهد إليه عمر ، فلم يأخذ الكتاب من الرسول ودافَعَه وسار حتى نزل قرية فيما بين رَفَح والعَريش ، فسأل عنها فقيل إنها من مصر ، فدعا بالكتاب فقرأه على المسلمين ، ثم قال : ألستم تعلمون أن هذه القرية من مصر ؟ قالوا : بلى ، فقال : إن أمير المؤمنين عهد إلىّ وأمرنى إن لحقنى كتابه ولم أدخل مصر أن أرجع ، وإن لم يلحقنى كتابه حتى دخلنا أرض مصر فسيروا وامضوا على بركة الله ، وكان كتاب عمر إليه :

---

(١) روى أبو يوسف فى كتاب الخراج هذا الكتاب ، وذكر أنه كتبه عمر إلى أبى عبيدة بالشأم، وقد جاء فيه موضع قوله : « وإنما ضيع حقه من لم يرفق به » هذه العبارة « وإن الذى أبطل من لم يرفع به رأساً » وهو تحريف ، وصوابه « وإنما الذى أبطل حقه من لم يرفع له رأساً » أو هو : « وإنما الذى أبطل حقه من لم يرفق به ، وآس . . . . » ثم حرف « وآس » إلى « رأساً » . ورواه ابن أبى الحديد فى شرحه جزءا من كتاب كتبه عمر إلى أبى موسى الأشعرى كما سيرد عليك بعد .

« من عمر بن الخطاب إلى عمرو بن العاص ، أما بعدُ : فإنك سرت إلى مصر ومن معك ، وبها جموع الروم ، وإنما معك نَفَر يسير ، ولعمرى لو ثُكِلَ بك ماسِرْتَ بهم ، فإن لم تكن بلغتَ مصر فارجع » .

(خطط المقريزى ١ : ٢٨٨ ، وحسن المحاضرة فى أخبار مصر والقاهرة ١ : ٤٦)

١٦٣ — كتاب عمر إلى عمرو بن العاص

وسار عمرو بن العاص إلى أن بلغ « الفَرَما » فقاتله بها الروم قتالا شديداً ثم فتحها الله على يديه ، وتقدم إلى بُلْبَيْس ففتحها ، ومضى حتى أتى أُمَّ دُنَيْن[1] فناهضوه مناهضة عنيفة وأبطأ عليه الفتح ، فكتب إلى عمر يستمده فأمده بأربعة آلاف ، فسار بمن معه حتى نزل على حصن بابِلْيُون[2] وقاتلهم قتالا شديداً يصبِّحهم ويمسِّيهم ، فلما أبطأ عليه الفتح كتب إلى عمر يستمده ، فأمده بأربعة آلاف رجل ، على كل ألف رجلٍ منهم رجلٌ وكتب إليه :

« إنى قد أمددتك بأربعة آلاف رجل ، منهم رجال مقام الألف : الزُّبير بن العوام والمِقْداد بن الأسود ، وعُبادة بن الصَّامِت ، ومَسْلَمَة بن مَخْلَد ، واعلم أن معك اثنى عشر ألفاً ، ولا يُغْلَب اثنا عشر ألفاً من قِلَّة » .

وحاصر عمرو الحصن سبعة أشهر حتى فتحه .

(حسن المحاضرة ١ : ٤٧ وخطط المقريزى ١ : ٢٨٩)

١٦٤ — عهد عمرو بن العاص لأهل مصر

ولما رأى القِبط أنْ لا طاقةَ لهم بحرب قومٍ فَلُّوا كسرى وقيصر وغلبوهم على بلادهم ، طلبوا الصلح ، فقبل منهم عمرو بن العاص ، وكتب لهم كتاباً . صورته :

---

(١) هى قرية كانت على النيل ، وموقعها الآن ما بين عابدين والأزبكية بالقاهرة — ومن ذلك تعلم أن النيل غير مجراه منذ ذلك العهد وتحول إلى الغرب .

(٢) هو حصن قديم لا يعرف مؤسسه ، وقيل بناه الفرس أيام ملكوا مصر ، وقد جدده الامبراطور تراجان على الطراز الرومان ، ولا تزال بعض مبانيه باقية إلى الآن بالقرب من كنيسة مارى جرجس بمصر القديمة ، وكان العرب يسمونه قصر الشمع .

« بسم الله الرحمن الرحيم : هذا ما أعطى عمرو بن العاص أهل مصر من الأمان على أنفسهم وملّتهم وأموالهم ، وكنائسهم وصُلُبهم ، وبَرِّهم وبحرهم ، لا يُدْخَل عليهم شيء من ذلك ، ولا يُنتَقَص ، ولا تساكنهم النُّوبَة .

وعلى أهل مصر أن يُعطُوا الجزيةَ — إذا اجتمعوا على هذا الصلح وانتهت زيادة نهرهم — خمسين ألفَ ألفٍ ، وعليهم ما جَنَى لُصُوتُهم[1] ، فإن أَبَى أحدٌ منهم أن يُجيبَ رُفِعَ عنهم من الجزاء[2] بقَدْرِهم ، وذمَّتنا ممن أَبَى بريئة .

وإن نَقَص نهرهم عن غايته إذا انتهى ، رُفِعَ عنهم بقدر ذلك ، ومَن دَخَلَ في صُلْحِهم من الروم والنُّوبة ، فله مثلُ مالهم ، وعليه مثل ما عليهم ، ومن أَبَى واختار الذهاب فهو آمِنٌ حتى يبلغ مَأْمَنه ، أو يخرج من سلطاننا ، وعليهم ما عليهم أثلاثاً ، في كل ثُلُثٍ جِبايةُ ثلثِ ما عليهم .

على ما في هذا الكتاب عهدُ الله وذمته ، وذمة رسوله ، وذمة الخليفة أمير المؤمنين ، وذمم المؤمنين .

وعلى النُّوبة الذين استجابوا أن يُعينوا بكذا وكذا رأساً ، وكذا وكذا فرساً ، وعلى أن لا يُغزَوا ، ولا يُمْنَعُوا مِن تجارة صادرة ولا واردة » :

شهد الزُّبير ، وعبد الله ، ومحمد ابناه ، وكتب وَرْدانُ وحضر .

(تاريخ الطبرى ٤ : ٢٢٩ ، وصبح الأعشى ١٣ : ٣٢٤ ، والنجوم الزاهرة فى ملوك مصر والقاهرة ١ : ٢٤)

١٦٥ — كتاب عمر إلى عمرو بن العاص

ثم خرج عمرو إلى الإسكندرية لقتال من تجمع بها من الروم ، وأقام على حصارها أربعة عشر شهراً ، حتى فتحها يوم الجمعة مستهلَّ المحرم سنة عشرين هـ .

---

(١) اللصوت جمع لصت مثلث اللام وهو اللص ، وفى رواية صبح الأعشى « وعليه ممن جنى نصرتهم » أى وعلى عمرو أن ينصرهم ويعينهم على من اعتدى عليهم ، مقابل دفعهم الجزية .

(٢) الجزية مايؤخذ من الذمى ، والجمع جزى كلحية ولحى وجزى كحمل وجزاء كجبال .

وذكروا أنه لما أبطأ على عمر بن الخطاب فتحُ مصر (يعنى الإسكندرية) كتب إلى عمرو بن العاص .

« أما بعدُ : فقد عجِبْتُ لإبطائكم عن فتح مصر ، إنكم تقاتلونهم منذُ سنتين ، وما ذاك إلا لما أحدثتم وأحببتم من الدنيا ما أحبَّ عدوكم ، وإن الله تبارك وتعالى لا ينصر قوماً إلا بصِدْق نياتهم ، وقد كنتُ وجَّهت إليك أربعةَ نَفَر . وأعلمتُك أن الرجل منهم مقام ألف رجل على ما كنت أعرِف ، إلا أن يكون غيَّرهم ما غيَّرهم ، فإذا أتاك كتابى فاخطُب الناس ، وحُضَّهم على قتال عدوهم ورغِّبْهم فى الصبر والنية ، وقدِّم أولئك الأربعةَ فى صدور الناس ، ومُرِ الناس جميعاً أن يكون لهم صَدْمة كصدمة رجل واحد ، وليكن ذلك عند الزَّوال يوم الجمعة ، فإنها ساعة تنزل الرحمة فيها ، ووقتُ الإجابة ، وليَعِجَّ[(١)] الناسُ إلى الله ، ويسألوه النصر على عدوهم » .

فلما أتى عمراً الكتابُ جمع الناس وقرأ عليهم كتاب عمر ، ثم دعا أولئك النفر فقدَّمهم أمامَ الناس ، وأمَرَ الناس أن يتطهروا ويصلوا ركعتين ثم يرغبوا إلى الله تعالى ، ويسألوه النصر على عدوهم ، ففعلوا ، ففتح الله عليهم .

(حسن المحاضرة ١ : ٥٣ ، وخطط المقريزى ١ : ١٦٥)

١٦٦ — كتاب عمر إلى عمرو بن العاص

وأرسل صاحب الإسكندرية إلى عمرو بن العاص : إن أحببتَ أن أعطيك الجزية على أن تردَّ علىَّ ما أصبتم من سبايا أرضى فعلت ، فبعث إليه عمرو : إنَّ ورائى أميراً لا أستطيع أن أصنع أمراً دونه ، فإن شئت أن أُمْسِكَ عنك وتمسك عنى حتى أكتب إليه بالذى عرَضْت علىَّ ، فإن هو قبل ذلك منك قبلتُ ، وإن أمرنى بغير ذلك مضيتُ لأمره ، فقال : نعم ، فكتب عمرو إلى عمر بن الخطاب فى ذلك ، فجاءه كتاب عمر ، وفيه :

---

(١) عج يعج كفر ومل : صاح ورفع صوته .

« أما بعدُ : فإنه جاءنى كتابك تذْكُرُ أن صاحب الإسكندرية عرَض أن يُعْطِيَكَ الجزية ، على أن تردَّ عليه ما أصيب من سَبَايَا أرضه ، ولعَمْرِى لجِزْيةٌ قائمة تكون لنا ولمن بَعْدَنَا من المسلمين أَحَبُّ إلىّ من فَىْء يُقْسَم ، ثم كأنه لم يكن ، فاعرِضْ على صاحب الإسكندرية أن يعطيك الجزية ، على أن تُخَيِّروا مَن فى أيديكم من سَبْيهم بين الإسلام وبين دين قومه ، فمن اختار منهم الإسلام ، فهو من المسلمين ، له مالهم وعليه ماعليهم ، ومن اختار دين قومه وُضِعَ عليه من الجزية ما يوضع على أهل دينه ، فأمَّا مَن تفَرق مِنْ سبيهم بأرض العرب فبلغ مكةَ والمدينة واليمن ، فإنا لا نقدر على ردهم ، ولا نحبُّ أن نصالحه على أمر لا نَفِى له به » .

فبعث عمرو إلى صاحب الإسكندرية يُعْلِمه الذى كتب به أمير المؤمنين ، فقال قد فعلت .

(تاريخ الطبرى ٤ : ٢٢٧)

١٦٧ — كتاب عمر إلى عمرو بن العاص

وروى أن عمرو بن العاص لما فتح الإسكندرية همَّ أن يسكنها ، فكتب إلى عمر بن الخطاب يستأذنه فى ذلك ، فسأل عمر الرسول : هل يحول بينى وبين المسلمين ماء ؟ قال : نعم ياأمير المؤمنين إذا جرى النيل ، فكتب إلى عمرو :

« إنى لا أحب أن تُنْزِل المسلمين منزلا يَحُول الماء بينى وبينهم فى شتاء ولا صيف » .

فتحوَّل عمرو من الإسكندرية إلى الفسطاط .

(خطط المقريزى ١ : ١٦٧ ، حسن المحاضرة ١ : ٥٧)

١٦٨ — كتاب عمرو بن العاص إلى عمر

ولما استقرَّ عمرو بن العاص على ولاية مصر ، كتب إليه عمر بن الخطاب رضى الله عنه أنْ صِفْ لى مصر ، فكتب إليه :

«وَرَدَ كتاب أميرالمؤمنين ـ أطال الله بقاءه ـ يسألني عن مصر: اعلم يا أمير المؤمنين أن مصر قَرْيَةَ غَبْراء(١) ، وشجرة خضراء ، طُولُها شَهْر ، وعَرْضُها عَشْر(٢) ، يَكْنُفُها جبلٌ أغبَر ، ورمل أعْفَر(٣) ، يخطُّ وسَطَهَا نيلٌ مُبَارَكُ الغُدُوات ، ميمونُ الرَّوْحات ، تَجْرِى فِيهِ الزيادةُ والنقصانُ كَجَرْىِ الشمس والقمر ، له أوَانٌ يَدِرُّ حِلاَبُه(٤) ، ويكثر فيه ذُبَابُه ، تُمدُّه عيون الأرض وينابيعها ، حتى إذا ما اصْلَخَمَّ عَجَّاجه(٥) ، وتعظَّمت أمواجُهُ ، فاض على جانبيه ، فلم يمكن التخلص من القُرَى بعضها إلى بعض إلا فى صغار المراكب ، وخِفاف القَوارب ، وزَوارق كأنهن فى المَخَايِلِ وُرْقُ الأصائل(٦) ، فإذا تكامل فى زيادته نَكَصَ على عَقِبَيْه كأوَّل ما بدأ فى جَرْيته ، وطَمَا فى دِرَّته(٧) ، فعند ذلك تخرج أهلُ مِلَّةٍ مَحْقُورة ، وذِمَّة مَخْفُورة(٨) ، يَحْرُثُون الأرض ، ويبذُرُون بها الحبَّ ، يرجُون بذلك النَّماء من الربّ ، لغيرهم ما سَعَوا من كَدِّهم ، فناله منهم بغير جِدِّهم(٩) فإذا أحْدَق(١٠) الزرع وأشْرَق ، سقاه النَّدى ، وغَذَاه من تحته الثَّرَى ،

---

(١) غبراء : وصف من الغبرة بالضم ، وهى لون الغبار ، مثل صحارى مصر بقرية غبراء ، وواديها الخصيب بشجرة خضراء . (٢) المراد عشرة أيام (وإذا حذف المعدود جاز تذكير العدد وتأنيثه كحديث : وأتبعه ستا من شوال) . والمعنى أن عرضها أقل من طولها

(٣) الأعفر : الرمل الأحمر ، والأعفر أيضاً : الأبيض وليس بالشديد البياض .

(٤) الدر بالفتح : اللبن ، وقد در الضرع كنصر وضرب ، والحلاب : استخراج ما فى الضرع من اللبن كالحلب (واستعمل هنا لما يحلب) والمعنى : له وقت يغزر فيه ماؤه ويفيض .

(٥) اصلخم : اشتد ، بعير مصلخم : أى جسيم شديد ماض ، ونهر عجاج : أى كثير الماء تسمع لأثه المتدفق عجيجا أى صوتا . (٦) المخايل جمع مخيلة كمعيشة ، خال الشىء مخيلة : ظنه ، والأصائل جمع أصيل وهو العشى . والورق : جمع ورقاء وهى الحمامه فى لونها بياض إلى سواد ،

(٧) نكص : رجع ، وطما الماء يطمو ويطمى : علا ، والدرة بالكسر : اسم من الدر بالفتح وهو اللبن كما تقدم ، والمعنى فى زيادته وفيضه .

(٨) خفر به كضرب : نقض عهده وغدره كأخفره ، ومعنى قوله «أهل ملة محقورة وذمة مخفورة» أن الرومان كانوا يحقرونهم ويمتهنونهم ويستذلونهم ولا يرعون لهم عهداً ولا ذمة ، وكذا قوله «لغيرهم ما سعوا من كدهم» أى إنهم كانوا يكدون فى حرث الأرض وزرعها ثم يستحوذ الرومان على محصولها ، وقد ذكر المؤرخون أن أهل مصر فى آخر الحكم الرومانى كانوا بمثابة آلات لإنبات القمح ، وأن مصر كانت مزرعة تصدره إلى رومة .

(٩) الضمير فيه يعود على « لغيرهم » وأعاد الضمير مجموعا مراعاة بمعنى غير ، فهى مفردة لفظا متعددة معنى ولعل الأصل « بغير جده » ثم حرف ، وهو الأظهر .

(١٠) أحدق : أى استدار ، وأشرق : تفتح نوره .

فبينما مصرُ ياأمير المؤمنين لؤلؤةٌ بيضاء، إذا هي عَنْبَرة سوداء، فإذا هي زُمُرُّدَةٌ خضراءُ، فإذا هي دِيبَاجَة رَقْشاء[١] ، فتبارك اللهُ الخالق لما يشاء ، والذى يُصْلِحُ هذه البلاد ويُنَمِّيها ، ويُقِرّ قاطِنيها فيها ، ألّا يُقبَلَ قولُ خَسِيسها فى رئيسها ، وألّا يُستَأدَى[٢] خَراجُ ثمرة إلا فى أوانها ، وأن يُصْرف ثلثُ ارتفاعها فى عَمَل جُسُورِها وتُرَعها ، فإذا تقرَّر الحال مع العمال على هذه الأحوال ، تضاعَفتَ ارتفاعُ المال ، والله تعالى يوفِّقُ فى المَبْدإِ والمآل » .

فلما ورد الكتاب على عمر بن الخطاب رضى الله عنه قال : لله دَرُّكَ يابن العاص ! لقد وَصَفْتَ لى خبراً كأنى أشاهده .

(النجوم الزاهرة فى ملوك مصر والقاهرة ١ : ٣٢)

١٦٩ — كتاب معاوية إلى عمر

وألحّ معاوية على عمر فى غزو البحر ، وكتب إليه كتاباً يرغِّبه فيه ، ويقول :

« يا أمير المؤمنين ، إن بالشأم قريةً يسمع أهلُها نُبَاحَ كلاب الروم ، وصِيَاح ديوكهم ، وهم تِلْقَاءَ ساحل من سواحل حِمْص[٣] » .

---

(١) الديباجة : الخد ، والرقشاء المنقطة بسواد وبياض ، يصف بذلك طريقة إرواء الحياض التى كانت مستعملة فى ذلك العهد (ومازالت حتى اليوم فى أعالى الصعيد) إذ تطلق المياه فى الحياض فتغمر الأرض فتبين كأنها لؤلؤة بيضاء، ثم تصفى منها وقد رسب على وجهها ماحملته المياه من الغرين الأسود (والغرين: كأمير ودرهم : الطين) فتبدو كأنها عنبرة سوداء، ثم ينبت فيها الزرع الأخضر وينمو ، فكأنها زمردة خضراء، ثم يتلون بألوانه المختلفة فتظهر كأنها صفحة رقشاء ، وقد جاء فى خطط المقريزى (١ : ٢٦) .

« ووصف بعضهم مصر فقال : ثلاثة أشهر لؤلؤة بيضاء ، وثلاثة أشهر مسكة سوداء ، وثلاثة أشهر زمردة خضراء ، وثلاثة أشهر سبيكة ذهب حمراء ، فأما اللؤلؤة البيضاء فإن مصر فى أشهر أبيب ومسرى وتوت يركبها الماء فترى الدنيا بيضاء ، وضياعها على روابى وتلال مثل الكواكب قد أحيطت بالمياه من كل وجه ،فلا سبيل إلى قرية من قراها إلا فى الزوارق، وأما المسكة السوداء فإن فى أشهر بابه وهاتور وكيهك ينكشف الماء عن الأرض فتصير أرضاً سوداء ، وفى هذه الأشهر تقع الزراعات ، وأما الزمردة الخضراء فإن فى أشهر طوبة وأمشير وبرمهات يكثر نبات الأرض وربيعها فتصير خضراء كأنها زمردة ، وأما السبيكة الحمراء فإن فى أشهر برمودة وبشنس وبئونه يتورد العشب ويبلغ الزرع الحصاد ، فيكون كالسبيكة التى من الذهب منظراً ومنفعة » (٢) أى يطلب إليه أداؤه .

(٣) يعنى جزيرة « قبرس » وقد غزاها معاوية وفتحها فى خلافة عثمان سنة ٢٨ هـ .

فاتّهمه عمر ، لأنه المُشِير ، فكتب إلى عمرو بن العاص وهو عامله على مصر أن صِفْ لى البحر وراكبَه ، فكتب إليه عمرو .

١٧٠ — كتاب عمرو بن العاص إلى عمر

« يا أمير المؤمنين، إن البحر خلق عظيم ، يَرْكَبُه خلق صغير ، إنْ رَكُنَ[1] خرّق القلوبَ ، وإن تحرّك أزاغ العقولَ، يزداد فيه اليقين قِلّةً والشكُّ كثرةً ،ليس إلا السماء والماءُ . وإنما هم فيه كَدُودٍ على عُودٍ ، إن مال غَرِقَ ، وإن نجا بَرِقَ[2] » .

فلما قرأه عمر كتب إلى معاوية : « لا ، والذى بعث محمداً بالحق لا أحْمِل فيه مُسْلِماً أبدا » .

(تاريخ الطبرى ٥ : ٥١ ، والعقد الفريد ١ : ٢٨ ، والبيان والتبيين ٢ : ٥٧)

١٧١ — كتاب عمر إلى عمرو بن العاص

وروى أنه لما ولى عمرو بن العاص مصرَ ، أتاه أهلها حين دخل شهر بَؤُونة ، فقالوا : أيها الأمير ، إن لنيلنا سُنَّةً لايجرى إلا بها ، فقال لهم : وما ذاك ؟ قالوا : إنه إذا كان فى اثنتى عشرة ليلة تخلو من هذا الشهر عَمَدْنا إلى جارية بِكر من عند أبويها ، فأرضينا أبويها وأخذناها وجعلنا عليها من الحُلِىِّ والثياب أفضل ما يكون ، ثم ألقيناها فى النيل فيجرى ، فقال لهم عمرو بن العاص: إن هذا لا يكون فى الإسلام، وإن الإسلام يَهْدِم ما كان قبله ، فأقاموا بؤونة، وأبيب، ومِسْرَى، لا يجرى النيل قليلًا ولا كثيراً حتى همُّوا بالجلاء ، فلما رأى ذلك عمرو كتب إلى أمير المؤمنين عمر بن الخطاب رضى الله عنه ، فكتب إليه عمر بن الخطاب أن :

---

(١) أى هدأ وسكن ،ويقال رجل ركين إذا كان ساكنا وقورا رزينا ، وقد ركن ركانة كفصح.

(٢) برق كفرح ونصر : تحير حتى لا يطرف ، أو دهش فلم يبصر .

« قد أصبتَ ، إنّ الإسلام يهدم ما قبله ، وقد بعثتُ إليك ببطاقةٍ فألْقِها فى النيل إذا أتاك كتابى » .

فلما قَدِم الكتاب على عمرو بن العاص ، فتح البطاقة ، فإذا فيها : « من عبد الله عمر أمير المؤمنين إلى نيل مصر :

أما بعدُ ، فإن كنت تجرى من قِبَلِكَ فلا تَجْرِ ، وإن كان الله الواحد القهار هو الذى يُجْرِيك ، فنسأل الله الواحد القهار أن يَجْرِيَك » .

فعرّفهم عمرو بكتاب أمير المؤمنين ، وبالبطاقة ، ثم ألقى البطاقة فى النيل قبل يوم عيدالصَّليب بيوم ، وقد تهيأ أهل مصر للجلاء والخروج منها ، لأنه لا يقوم بمصالحهم فيها إلا النيل ، فأصبحوا يوم عيد الصليب ، وقد أجراه الله ستة عشرَ ذراعًا فى ليلة واحدة ، وقطع تلك السنة القبيحة عن أهل مصر ببركة سيدنا عمر بن الخطاب رضى الله عنه » .

(النجوم الزاهرة فى ملوك مصر والقاهرة ١ : ٣٦ ، وخطط المقريزى ١ : ٥٨)

١٧٢ — كتاب عمر إلى عمرو

وأصاب الناس بالمدينة جَهْد شديد فى خلافة عمر ، فكتب إلى عمرو بن العاص وهو بمصر :

« من عبد الله عمر أمير المؤمنين إلى عمرو بن العاص ، سلام عليك . أما بعدُ : فَلَعَمْرِى يا عمرو ماتُبالى إذا شَبِعْتَ أنت ومن معك ، أن أهْلِكَ أنا ومن معى ، فيا غوثاه ، ثم يا غوثاه » .

(حسن المحاضرة ١ : ٦٨ ، وخطط المقريزى ٢ : ١٤١)

١٧٣ — رد عمرو على عمر

فكتب إليه عمرو بن العاص :

« لعبد الله عمر أمير المؤمنين من عبد الله عمرو بن العاص ، أما بعد ، فيا لبَّيْك ثم يا لبَّيْك ، قد بعثتُ إليك بِعِيرٍ (١) أولها عندك ، وآخرها عندى والسلام عليك ورحمة الله »

---

(١) العير : القافلة ، أو الإبل تحمل الميرة بلا واحد من لفظها .

فبعث إليه بعيرٍ عظيمة ، فكان أولها بالمدينة وآخرها بمصر يَتْبَع بعضها بعضاً .

(حسن المحاضرة ١ : ٦٨ ، وخطط المقريزى ٢ : ١٤١)

١٧٤ — كتاب عمر إلى عمرو

وذكروا أن أول من بَنَى غُرْفة بمصر خارجة بن حُذَافة، فبلغ ذلك عمر بن الخطاب رضى الله عنه ، فكتب إلى عمرو بن العاص :

« سلام عليك ، أما بعد : فإنه بلغنى أن خارجة بن حُذَافة بنى غُرفة أراد أن يطَّلع على عَوْرات جيرانه ، فإذا أتاك كتابى هذا فاهدِمْها إن شاء الله ، والسلام » .

(حسن المحاضرة ١ : ٥٩)

١٧٥ — كتاب عمرو إلى عمر ورده عليه

ولما اختطَّتِ القبائل استحبَّت هَمْدانُ ومن والاها « الجِيزَة » وكتب عمرو ابن العاص إلى عمر بن الخطاب يُعلِمُه بما صَنَع الله للمسلمين ، وما فتح الله عليهم ، وما صنعوا فى خِطَطهم ، وما استحبَّتْ همدان ، ومن والاها من النزول بالجيزة ، فكتب إليه عمر : « يَحْمَد الله على ما كان من ذلك ، ويقول له : كيف رضيتَ أن تفرِّق أصحابك ، ولم يكن ينبغى لك أن تَرْضَى لأحد من أصحابك أن يكون بينك وبينهم بَحْرٌ ، لاتَدْرِى ما يَفْجَؤهم ، فلعلك لاتقدر على غِياثهم حين ينزل بهم ما تكرَه ، فاجمعهم إليك ، فإن أبَوْا ، وأعجَبَهم موضِعُهم ، فابْنِ عليه من فَىْء المسلمين حِصْنا » .

فعرض ذلك عمرو عليهم ، فأبَوا وأعجَبَهم موضِعُهم بالجيزة ومن والاهم على ذلك من رَهْطهم يافع وغيرها ، وأحبُّوا ما هنالك ، فبنى لهم عمرو بن العاص الحِصْن بالجيزة فى سنة إحدى وعشرين ، وفرغ من بنائه فى سنة اثنتين وعشرين .

(حسن المحاضرة ١: ٥٩)

١٧٦ – كتاب عمر إلى عمرو

وكتب عمر إلى عمرو بن العاص :

« أما بعدُ : فإنى فَرَضْتُ لمن قِبَلِى فى الديوان[١] ، ولمن وَرَدَ علينا فى المدينة من أهل المدينة وغيرهم ممن توجه إليك وإلى البُلدان ، فانظر من فرضتُ له ، ونزل بك فارْدُدْ عليه العطاء وعلى ذرِّيته ، ومَن نَزَلَ بك ممن لم أفرِضْ له فافرِض له على نحوِ مما رأيتَنى فرضتُ لأشباهه ، وخذ لنفسك مائتى دينار[٢] ، فهذه فرائض أهل بَدْر من المهاجرين والأنصار ، ولم أبلغ بهذا أحداً من نُظرائك غَيْرَكَ ، لأنك من عمال المسلمين فألحقتُك بأرفَعِ ذلك .

وقد علمتَ أن مُؤَناً تَلْزَمُك ، فَوَفِّر الخراج وخذه مِن حَقِّه ، ثم عِفَّ عنه بعد جَمْعِه ، فإذا حصل إليك وجَمَعْتَه أخرجتَ عطاءَ المسلمين وما يحتاج إليه مما لا بُدَّ منه ، ثم انظر فيما فَضَل بعد ذلك فاحمِلْه إلىّ .

واعلم أن ما قِبَلك من أرض مصر ليس فيها خُمْسٌ ، وإنما هى أرض صُلح[٣] ،

---

(١) أى فرضت لهم عطاءهم . (٢) علق على ذلك صاحب « أشهر مشاهير الإسلام » قال: « لعل هذا الفرض الذى فرضه لعمرو هو جرايته » (مرتبه) على عمله لافرض العطاء ، إذ أن عمر رضى الله عنه كان يجرى على العمال جراية هى غير نصيبهم من العطاء ، فقد ذكر فى « سراج الملوك » أن عمر أجرى على عمار فى كل شهر ستمائة درهم مع عطائه لولاته وكتابه ومؤذنيه ومن كان يلى معه لمابعثه وبعث معه عثمان بن حنيف ، وابن مسعود إلى العراق وأجرى عليه فى كل يوم نصف شاة ورأسها وجلدها وأكارعها ، ونصف جريب كل يوم ، وأجرى على عثمان بن حنيف ربع شاة وخمسة دراهم كل يوم مع عطائه (وكان عطاؤه خمسة آلاف درهم) وأجرى على عبد الله بن مسعود مائة درهم فى كل شهر وربع شاة فى كل يوم ، وأجرى على شريح القاضى مائة درهم فى كل شهر وعشرة أجربة ومن هذا يعلم أن عماله كان لهم جرايات على هذه النسبة وهى غير العطاء ، كما يتضح ذلك من قوله مع عطائه » اه .

(٣) اختلف المؤرخون فى فتح مصر : هل فتحت صلحا أو عنوة ، ومما قيل فى ذلك إن مصر فتحت صلحا (المعهد الذى كتبه عمرو بن العاص لأهلها وقد تقدم) غير الإسكندرية وثلاث قريات ظاهروا الروم على المسلمين فانها فتحت عنوة ، فجعلها عمر بن الخطاب جميعا ذمة ، وأجرى ما فتح عنوة مجرى الصلح (اقرأ فصلا فى خطط المقريزى « ١ : ٢٩٤ » وفى حسن المحاضرة « ١ : ٥٥ »)

وما فيها المسلمين فيء : تَبدَأ بمن أغنى عنهم[١] فى ثغورهم ، وأجزَأ عنهم فى أعمالهم ، ثم أفِضْ ما فَضَل بعد ذلك على من سَمَّى اللهُ .

واعلم يا عمرو أن الله يراك ويرى عملك ، فإنه قال تبارك وتعالى فى كتابه : « وَاجْعَلْنَا لِلْمُتَّقِينَ إِمَامًا » يريد أن يقتدى به ، وأن معك أهل ذِمَّة وعَهْد ، وقد أوصى رسول الله صلى الله عليه وسلم بهم وأوصى بالقبط فقال : « استوصُوا بالقبط خيراً فإن لهم ذِمَّةً وَرَحِمًا[٢] » وَرَحِمُهم أن أم إسمعيل[٣] منهم ، وقد قال صلى الله عليه وسلم : « من ظلم معاهَداً أو كلَّفه فوق طاقته فأنا خَصْمُه يوم القيامة » احذر يا عمرو أن يكون رسول الله صلى الله عليه وسلم لك خَصْماً ، فإنه من خاصَمَه خَصَمَه[٤] والله يا عمرو لقد ابتُليتُ بولاية هذه الأمة ، وآنَسْت من نفسى ضَعْفًا ، وانتشَرَتْ[٥] رعيتى ، ورَقَّ عَظْمى ، فأسألُ الله أن يقبضنى إليه غَيْرَ مُفَرِّط ، والله إنى لأخشى لو مات جمل بأقصى عملك ضَيَاعا أن أُسْأَلَ عنه » .   (أشهر مشاهير الإسلام ج ٣ : ص ٦١٤)

١٧٧ — كتاب عمر بن الخطاب إلى عمرو بن العاص

ولما استبطأ عمر بن الخطاب رضى الله عنه الخراج من قبل عمرو بن العاص كتب إليه :

« بسم الله الرحمن الرحيم : من عبد الله عمر أمير المؤمنين إلى عمرو بن العاص ، سلام عليك ، فإنى أحمَدُ إليك اللهَ الذى لا إله إلا هو ، أما بعدُ : فإنى فكّرتُ فى أمرك والذى أنت عليه ، فإذا أرضُك أرضٌ واسعة ، عريضةٌ رفيعة ، قد أعطى الله أهلَها

---

(١) أغنى عنهم ، أى ناب عنهم وكفاهم مئونة الدفاع ، وكذا أجزأ عنهم .

(٢) ورد فى الحديث الشريف أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : « إذا افتتحتم مصر فاستوصوا بالقبط خيرا فإن لهم ذمة ورحما » وفى رواية أخرى : « إن الله سيفتح عليكم بعدى مصر فاستوصوا بقبطها خيرا فإن لكم منهم صهرا وذمة » .   (٣) هى هاجر (بفتح الجيم) وهى جارية مصرية أعطاها ملك مصر (ويظن أنه أحد ملوك الأسرة التاسعة أو العاشرة اللتين حكمتا من سنة ٢٤٤٥ إلى سنة ٢١٦٠ قبل الميلاد) لسارة زوج إبراهيم فتسراها إبرهيم فولدت له ابنه إسماعيل أبا العرب المستعربة .

(٤) أى غلبه فى الخصومة .

(٥) أى تفرقت وتناءت .

عَدَدًا وجَلَدًا وقوةً فى بر وبحر ، وإنها قد عالجتْها الفراعنةُ ، وعَمِلوا فيها عَملاً مُحْكما مع شِدة عُتُوّهم وكفرهم ، فعجِبتُ من ذلك ، وأعْجَبُ مما عَجِبْتُ أنها لاتؤدِّى نصفَ ما كانت تؤدِّيه من الخراج قبل ذلك على غير قُحُوطٍ ولا جَدْب ، ولقد أكثرتُ فى مكاتبتك فى الذى على أرضك من الخراج ، وظننتُ أن ذلك سيأتينا على غير تريُّث[(١)] ، ورجوتُ أن تُفيقَ فترفعَ إلىّ ذلك ، فإذا أنت تأتينى بمَعَاريض[(٢)] تعبأُ بها ، لاتوافِقُ الذى فى نفسى ، ولستُ قابلا منك دون الذى كانت تؤخذ به من الخراج قبل ذلك ، ولست أدرى مع ذلك ، ما الذى نفَّرك من كتابى وقبضَك ، فلئن كنتَ مجرِّبا كافياً صحيحًا إن البراءة لنافعة ، ولئن كنت مُضَيِّعاً نطعًا[(٣)] إن الأمر لعَلَى غير ما تحدِّث به نفسَك ، وقد تركتُ أنْ أبتَلِىَ[(٤)] ذلك منك فى العام الماضى ، رجاءَ أن تُفِيقَ فترفعَ إلىَّ ذلك ، وقد علمتُ أنه لم يمنعك من ذلك إلاّ عُمَّالُك عمال السوء ، وما تُوَالِسُ[(٥)] عليك وتُلفِّفُ ، اتخذوك كَهْفًا ، وعندى بإذن الله دواءٌ فيه شفاء عما أسألك عنه ، فلا تجزَعْ أبا عبد الله أن يُؤْخذ منك الحق وتُعطاه ، فإن النهر يُخْرِج الدُّرَّ ، والحقُّ أبْلَجُ[(٦)] ، ودَعْنى وما عنه تَلَجْلَجُ ، فإنه قد برِحَ الخفاءُ ، والسلام » .

(حسن المحاضرة ١ : ٦٤ ، وخطط المقريزى ١ : ٧٨)

---

(١) التريث والريث : الابطاء ، وفى حسن المحاضرة « تراث » وهو تحريف وقد أصلحته كما ترى ، وفى خطط المقريزى « نزر » ونزر الشيء ككرم نزرا كشمس : قل .

(٢) التعريض : خلاف التصريح ، والمعاريض : التورية بالشيء عن الشيء ، والمعاريض من الكلام ما عرض به ولم يصرح ، جمع معراض من التعريض ، وأعراض الكلام ، ومعارضه ومعاريضه : كلام يشبه بعضه بعضا فى المعانى ، كالرجل تسأله : هل رأيت فلانا فيكره أن يكذب وقد رآه ، فيقول إن فلانا ليرى ، وفى حديث عمر : أما فى المعاريض ما يغنى المسلم عن الكذب ! وقوله : تعبأ بها : أى أنت تعبأ بها وتظنها مما يقبل لدى ، ولكنها ليست عندى بشيء . (٣) تنطع فى الكلام فهو متنطع وهو المتعمق فى الكلام المغالى فيه الذى يتكلم بأقصى حلقه تكبرا ، قال ابن الأعرابى : النطع كعنق المتشدقون فى كلامهم ، ولم أعثر له على مفرد ، والظاهر أنه بصيغة واحدة للمفرد والجمع . (٤) أى أمتحن ، وفى حسن المحاضرة : « أبتغى » .

(٥) الموالسة : الخداع والمداهنة ، وتوالسوا عليه : أى تناصروا عليه فى خب وخديعة ، ولفف : جمع من هاهنا وهاهنا كما يلفف الرجل شهادة الزور ، وفى حسن المحاضرة : « وما تواليت عليه وتلفف الجدول كهفا » وهو تحريف . (٦) أى واضح مضيء مشرق من بلج الصبح كدخل إذا أضاء وأشرق ، واللجلجة والتلجلج : التردد فى الكلام ، وبرح الخفاء : أى وضح الأمر .

١٧٨ — رد عمرو بن العاص على عمر بن الخطاب

فكتب إليه عمرو بن العاص :

« بسم الله الرحمن الرحيم : لعبد الله عمر أمير المؤمنين من عمرو بن العاص ، سلام عليك ، فإنى أحمَدُ إليك اللهَ الذى لا إله إلا هو ، أما بعدُ : فقد بلغنى كتاب أمير المؤمنين ، فى الذى استبطأنى فيه من الخراج ، والذى ذكر فيه من عمل الفراعنة قَبلى ، وإعجابه من خراجها[١] على أيديهم ، ونقْص ذلك منها منذ كان الاسلام ، ولَعَمْرِى لَلخَراجُ يومئذ أَوْفَرُ وأكثر ، والأرض أَعْمَرُ ، لأنهم كانوا على كفرهم وَعُتُوِّهم أرْغَبَ فى عِمَارة أرضهم مِنَّا منذ كان الإسلام ، وذكرتَ أن النهر يخرج الدَّرَّ فحَلَبْتَهَا حَلْبًا قَطَعَ دَرَّها ، وأكثرتَ فى كتابك وأنَّبْتَ وَعرَّضْتَ وَتَرَّبْتَ[٢] ، وعلمتُ أن ذلك عن شىء تُخفيه عَلَى غير خُبْر[٣] ، فجئتَ لعمرى بالمُفْظِعات المُقْذِعَات ، ولقد كان لك فيه من الصواب من القول رَصِينٌ صارمٌ ، بليغٌ صادق ، وقد عملنا لرسول الله صلى الله عليه وسلم ولمن بعده ، فكنا بحمد الله مؤدِّين لأماناتنا ، حافظين لِمَا عظَّم الله من حق أئمتنا ، نرى غير ذلك قبيحاً والعملَ به شَيْناً ، فيُعرَفُ ذلك لنا ، ويصدق فيه قلبنا، مَعاذَ الله من تلك الطُّعَم ، ومن شر الشِّيَم ، والاجتراء على كل مَأْثَمٍ ، فاقبِضْ عملك فإن الله قد نزَّهنى عن تلك الطعم الدنيَّة والرغبة فيها ، بعد كتابكَ الذى لم تستبْقِ فيه عِرْضاً ، ولم تُكرم فيه أخاً ، والله يابن الخطاب : لَأنا حين يُراد ذلك منى أشدُّ لنفسى غضباً، ولها إنزاهاً[٤] وإكرامًا، وما عَمِلْتُ من عملٍ أرى علىَّ فيه مُتَعَلَّقًا،

---

(١) أى من خراج مصر . (٢) تربه : جعل عليه التراب ، فترب أى تلوث وتلطخ بالتراب. والمعنى : وصمتنى بالمعايب والمثالب ، وفى نسخة أخرى من حسن المحاضرة « ونزبت » من نزبت الظبى كضرب إذا صوت . أقول : وربما كان الأصل « وتنزيت » أى توثبت وتسرعت .

(٣) أى خبرة ومعرفة ، وفظع الأمر ككرم ، وأفظع : اشتدت شناعته وجاوز المقدار فى ذلك وقذعه كمنعه ، وأقذعه وأقذع له : رماه بالفحش وسوء القول ، وقول مقذع بكسر الذال : فيه فحش وقذف وسب يقبح نشره . (٤) أى إبعادا وتنحية عن القبائح .

ولكني حفظتُ مالم تحفظ ، ولو كنتُ من يهود يثرب ما زدتَ ، يغفر الله لك ولنا وسكتُّ عن أشياء كنتُ بها عالما ، وكان اللسان بها منى ذَلُولا ، ولكن الله عظّم من حقك مالا يُجْهل ، والسلام » .

(حسن المحاضرة ١ : ٦٤ ، خطط المقريزى ١ : ٨٨)

١٧٩ — رد عمر على عمرو

فكتب إليه عمر بن الخطاب :

« من عمر بن الخطاب إلى عمرو بن العاص ، سلام عليك ، فإنى أحمَد إليك اللهَ الذى لا إله إلا هو ، أما بعد : فقد عجِبْتُ من كثرة كتبى إليك فى إبطائك بالخراج ، وكتابك إلىّ بِبُنَيّاتِ الطرق[1] ، وقد علمتَ أنى لست أرضى منك إلا بالحق البيِّن ، ولم أُقدِمْك إلى مصر أجعلها لك طُعْمَة ولا لقومك ، ولكنى وجهتك لما رجوتُ من توفيرك الخَرَاجَ وحُسْن سياستك ، فإذا أتاك كتابى هذا فاحمل الخراج فإنما هو فَىْءُ المسلمين ، وعندى مَن قد تعلم ، قوم محصورون ، والسلام » .

(حسن المحاضرة ١ : ٦٥ ، خطط المقريزى ١ : ٧٨)

١٨٠ — رد عمرو على عمر

فكتب إليه عمرو بن العاص :

« بسم الله الرحمن الرحيم ، لعمر بن الخطاب من عمرو بن العاص ، سلام عليك ، فإنى أحمَدُ إليك اللهَ الذى لا إله إلا هو ، أما بعد فقد أتانى كتاب أمير المؤمنين يستبطئنى فى الخراج ، ويزعم أنى أعْنَدُ[2] عن الحق ، وأنكُب عن الطريق ، وإنى والله ما أرغبُ عن صالح ما تعلم ، ولكن أهل الأرض استنظرونى إلى أن تُدْرِك

---

(١) بنيات الطرق : هى الطرق الصغار تتشعب من الجادة وهى الترهات (جمع ترهة كقبرة) أى الأباطيل ، وفى الأصل « بنيات الطرق » وهو تحريف . (٢) عند عن الطريق كنصر وسمع وكرم عنودا : مال ، ونكب عنه كنصر وفرح نكبا (كشمس وسبب) ونكوبا : عدل .

غَلَّتهم، فنظرتُ للمسلمين، فكان الرِّفْقُ بهم خيراً من أن نَخْرُقَ[١] بهم فيَصيروا إلى بيع مالا غِنى بهم عنه ، والسلام » . (حسن المحاضرة ١ : ٦٥ ، خطط المقريزى ١ : ٧٩)

١٨١ — كتاب عمر بن الخطاب إلى عمرو بن العاص

وروى أن عمر بن الخطاب رضى الله عنه كتب إلى عمرو بن العاص — وهو يومئذ أمير مصر — :

« من عبد الله عمر أمير المؤمنين إلى عمرو بن العاص ، سلام عليك ، أما بعدُ : فقد بلغنى أنه فَشَت لك فاشِيةٌ[٢] من خيل وإبل وغنم وبقر وعَبيد ، وعَهْدِى بك قبل ذلك ولا مَالَ لك ، فا كْتُبْ إلىَّ : من أينَ أصلُ هذا المال ، ولا تَكتُمه » .

(صبح الأعشى ٦ : ٣٨٦ ، والعقد الفريد ١ : ١٦)

١٨٢ — رد عمرو بن العاص على عمر

فكتب إليه عمرو بن العاص :

« لعبد الله عمر أمير المؤمنين، سلامٌ عليك،فإنى أحمدُ إليك الله الذى لا إله إلا هو، أما بعدُ ، فإنه أتانى كتابُ أمير المؤمنين يذكُر فيه فاشية مالٍ فشا لى ، وأنه يعرِفنى قبل ذلك ولا مال لى .

وإنى أُعْلِم أمير المؤمنين أنى ببلدٍ ، السِّعْرُ فيه رخيصٌ ، وأنى أعالِجُ من الحِرْفة[٣] والزراعة ما يعالِجُ أهله ، وفى رزق أمير المؤمنين[٤] سَعةٌ ، ووالله لو رأيتُ خيانتك حَلالًا ما خُنتك ، فأَقْصِر[٥] أيها الرجلُ ، فإن لنا أحسابا هى خير من العمل لك ،

---

(١) الخرق كقفل وسبب : الرفق وفعله كفرح . (٢) الفاشية : كل ما انتشر من المال كالغنم السائمة والإبل وغيرها ، لأنها تفشو أى تنتشر فى الأرض ، وجمعها الفواشى .

(٣) الحرفة : كل ما اشتغل الانسان به . يريد بها هنا التجارة كما سيأتى .

(٤) أى أن الرزق الذى فرضه لى أميرالمؤمنين عظيم يسع حاجاتى ويفضل عنها فأدخر الفضل وأثمره.

(٥) أقصر عن الشيء : كف عنه وانتهى .

إن رجَعْنا إليها عِشْنا بها ، ولَعَمْرِى إن عندك مَن لاتَذُمّ معيشتَه ، ولا تُذَمُّ له[1] فإن كان ذلك فلم تَفْتَح قُفْلَك ، ولم نَشْرَ كْك فى عملك » .

(صبح الأعشى ٦ : ٤٧٧ ، والعقد الفريد ١ : ٦١)

١٨٣ — رد عمر على عمرو بن العاص

فكتب إليه عمر :

« أما بعد ، فإنى وَٱللهِ ما أنا من أساطيرك التى تسطِّر[2] ، ونَسْقِك الكلامَ فى غير مَرْجِع ، لا يُغْنِى عنك أن تزَكِّىَ نفسك ، وقد بعثتُ إليك محمد بن مَسْلَمَة فشاطِرْه مالك ، فإنكم أيها الرَّهْطُ الأمراء جلستم على عُيون[3] المال لم يُفزعكم عذر ، تجمعون لأبنائكم ، وتمهدون لأنفسكم ، أما إنكم تجمعون العار ، وتورِّثون النار ، والسلام » .

(العقد الفريد ١ : ١٦)

رواية ثانية

ورويت هذه المكاتبات بصورة ثانية ، وهى :

كتب عمر إلى عمرو بن العاص :

« إنه قد فَشَتْ لك فاشِيَةٌ من مَتاعٍ ورقيقٍ وآنيةٍ وحيوانٍ لم يكن حين وَلِيتَ مصر » .

فكتب إليه عمرو :

---

(١) فى هذه العبارة وما بعدها تحريف فى صبح الأعشى والعقد ، وقد أصلحتها بما يستقيم به المعنى وسيتضح لك المراد حينما تقرأ الروايات التالية .

(٢) الأساطير: الأباطيل والأحاديث لانظام لها جمع إسطار وإسطير بالكسر وأسطور بالضم وبالهاء فى الكل؛ وقيل جمع أسطار بالفتح وأسطار جمع سطر ، وسطر فلان علينا: أتانا بالأساطير وفى الأصل: « من أساطيرك أتسطر » وهو تحريف ، ونسق الشىء كنصر نسقا ونسقه : نظمه على السواء ، وربما كان الأصل «وتشقيقك الكلام» كما سيأتى فى الرواية الثالثة فى غير مرجع: أى فى غير فائدة . يقال رجع كلامى فيه أى أفاد ، وهو متعلق بنسقك وخبر ما محذوف أى فى شىء كما سيأتى. (٣) أى خياره .

« إن أرضنا أرض مُزْدَرَع وَمُتَّجَر[١] ، فنحن نصيب فضلا عما نحتاج إليه لنفقتنا » .

فكتب إليه عمر :

« إنى قد خَبَرت من عمال السوء ما كفى ، وكتابك إلىّ كتاب من أقلقه الأخذ بالحق ، وقد سُؤْتُ بك ظنا[٢] ، وقد وجهت إليك محمد بن مَسْلَمَة ليقاسمك مالك ، فأَطْلِعْه طِلْعه[٣] وأخرج إليه ما يطالبك ، وأعْفِه من الغلظة عليك فإنه قد برح الخفاء » . (فتوح البلدان البلاذرى ص٢٢٦)

رواية ثالثة

وفى رواية ثالثة : أنه لما قلد عُمَرُ عمرَو بن العاص مصرَ ، بلغه أنه قد صار له مال عظيم من ناطق وصامِتٍ ، فكتب إليه :

« أما بعد ، فقد ظهر لى من مالك مالم يكن فى رزقك ، ولا كان لك مال قبل أن أستعمِلَك ، فأنّى لك هذا ؟ فوالله لو لم يُهِمَّنِى فى ذات الله إلا من اختان[٤] فى مال الله لكَثُر همى ، وانتثر أمرى ، ولقد كان عندى من المهاجرين الأولين من هو خيرٌ منك ، ولكنى قلَّدْتك رجاء غَنائِك[٥] ، فا كتب إلىّ : من أين لك هذا المالُ ؟ وعجِّلْ » .

فكتب إليه عمرو :

« أما بعدُ : فقد فهمت كتاب أمير المؤمنين ، فأمَّا ما ظَهَرَ لى من مال فإنا قَدِمنا بلاداً رخيصة الأسعار كثيرة الغزْو ، فجعلْنا ما أصابنا فى الفُضُول التى اتصل

---

(١) مصدران ميميان ، أى أرض زراعة وتجارة ، والفضل : الزيادة .
(٢) يقولون : سؤت به ظنا وأسأت به الظن ، يثبتون الهمزة إذا جاءوا بالألف واللام ، وإنما نكر ظنا فى الأول لأنه منصوب على التمييز ، وأما الظن فمفعول به .
(٣) أطلعه على الأمر : أعلمه به ، والاسم الطلع بالكسر ، وأطلعه طلعه : أعلمه إياه .
(٤) خان واختان بمعنى . (٥) أى كفايتك .

بأمير المؤمنين نَبَوْها ، ووالله لو كانت خيانتك حلالا ما خنتك ، وقد ائتمنتنى ، فإن لنا أحسابا إذا رَجَعنا إليها أغنتنا عن خيانتك ، وذكرتَ أن عندك من المهاجرين الأولين مَن هو خير منى ، فإذا كان ذاك فوالله ما دققتُ لك يا أمير المؤمنين بابا ، ولا فتحتُ لك قُفْلاً » .

فكتب إليه عمر :

« أما بعدُ ، فإنى لستُ مِن تسطيرك الكتابَ وتشقيقك[١] الكلامَ فى شىء ، ولكنكم مَعْشَرَ الأمراء قَعَدْتم على عيُونِ المال ، ولن تعدَمُوا عُذْراً ، وإنما تأكلون النار ، وتتعجَّلون العار ، وقد وجَّهت إليك محمد بن مَسْلَمَة ، فسلِّم إليه شَطْرَ مالك » .

(شرح ابن أبى الحديد م ١ : ص ٥٨)

رواية رابعة

وفى رواية رابعة أن عمر كتب إلى عمرو :

« أما بعد ، فقد بلغنى أنه قد ظهر لك مال من إبل وغنم وخَدَم وغِلْمان ، ولم يكن لك قبله مالٌ ، ولا ذلك من رزقك ، فأنَّى لك هذا ؟ ولقد كان لى من السابقين الأولين مَن هو خيرٌ منك ، ولكنى استعملتك لغَنائك ، فإذا كان عملك لك وعلينا[٢] فبِمَ نُؤْثِرك على أنفسنا ؟ فاكتب إلىَّ : من أين مالك ؟ وَعَجِّل ، والسلام » .

فكتب إليه عمرو بن العاص :

« قرأت كتاب أمير المؤمنين ، ولقد صدق ، فأمَّا ما ذكره من مالى فإنى قدِمْتُ بلدةً الأسعارُ فيها رخيصةٌ ، والغزوُ فيها كثير ، فجعلت فُضُول ما حصل لى من ذلك فيما ذكره أمير المؤمنين ، والله يا أمير المؤمنين لو كانت خيانتك لنا حَلالا ما خُنَّاك حيث ائتمنتنا ، فأقصر عنا عناك ، فإن لنا أحسابا إذا رَجَعنا إليها أغْنَتْنا عن العمل لك ،

---

(١) شقق الكلام : أخرجه أحسن مخرج .

(٢) أى لك غنمه وعلينا جرمه .

وأما من كان لك من السابقين الأولين فهلَّا آستعملتَهم ! فوالله ما دقَقْتُ لك باباً » .

فكتب إليه عمر :

« أما بعدُ ، فإنى لست مِن تسْطيرك وتشقيقك الكلامَ فى شىء ، إنكم مَعْشَر الأمراء أكلتم الأموال ، وأخلدتم إلى الأعذار ، فإنما تأكلون النار وتورثون العار ، وقد وجّهت إليك محمد بن مسلمة ليشاطرك ما فى يديك ، والسلام »[1] .

(شرح ابن أبى الحديد م ٣ ص : ١٠٤)

١٨٤ — كتاب أبى عبيد بن مسعود الثقفى إلى عمر

ولما انتصر أبو عُبَيْد بن مسعود الثَّقفى على جيش الفرس فى وَقْعة السَّقَاطِيَة[2] سنة ١٣ هـ ، وجمع الغنائم بعث بخُمْسها إلى عمر بن الخطاب ، وكتب إليه :

---

(١) فلما قدم عليه محمد بن مسلمة صنع له عمرو طعاما كثيرا وقدمه إليه ،فأبى أن يأكل منه شيئا ، فقال له عمرو : مالك لاتأكل ؟ أتحرمون طعامنا ؟ فقال : لو قدمت إلى طعام الضيف لأكلته ، ولكنك قدمت إلى طعاما هو تقدمة الشر،نح عنىطعامك ! وأحضر لىمالك واكتب لى كل شىء هو لك ولاتكتمه. فشاطره ماله بأجمعه حتى بقيت نعلاه فأخذ إحداها وترك الأخرى ، فلما رأى عمرو ما حاز محمد من المال غضب وقال : قبح الله زمانا عمرو بن العاص لعمر بن الخطاب فيه عامل ! والله إنى لأعرف الخطاب يحمل فوق رأسه حزمة من الحطب وعلى ابنه مثلها ،وما منهما إلا فى نمرة لا تبلغ رسغيه (والنمرة بفتح فكسر: شملة فيها خطوط بيض وسود ، أو بردة من صوف يلبسها الأعراب) والله ما كان العاص بن وائل يرضى أن يلبس الديباج مزررا بالذهب . فقال له محمد : إيها ياعمرو ،فعمر والله خير منك ،وأما أبوك وأبوه فى النار ، ووالله لولا ما دخلت فيه من الاسلام لألفيت معتقلا عنزا يفناء دارك يسرك غزرها،ويسوءك بكؤها (غزرت الماشية ككرم غزارة وغزارا بالفتح وغزرا بالضم : درت ألبانها ، وبكأت الشاة والناقة كجعل وكرم ، بكأ وبكاءة بالفتح وبكوءا وبكاء بالضم : قل لبنها) فقال له عمرو : أنشدك الله أن تخبر عمر بقولى فان المجالس بالأمانة ، فقال لا أذكر شيئا مما جرى بيننا وعمر حى .

(٢) كان أول ما عمله عمر رضى الله عنه فى خلافته أن ندب الناس إلى أهل فارس مع المثنى بن حارثة الشيبانى أمير جند العراق ، فكان أول منتدب أبو عبيد بن مسعود الثقفى . فقدم العراق وهو الأمير على المثنى وغيره، وكان الفرس قد عسكروا بالنمارق، فقاتلهم أبو عبيد قتالا شديدا ،وهزم الفرس ،وأخذوا نحو كسكر (كجعفر) وكانت قطيعة لنرسى ابن خالة كسرى ،فسار إليهم أبو عبيد والتقوا بالسقاطية أسفل من كسكر ، ودارت الدائرة على جيش الفرس ،وهرب نرسى وغلب على عسكره وأرضه ،وجمع أبو عبيد الغنائم ، وأخذت خزائن نرسى وفيها النرسيان بكسر النون والسين وهو تمر كان النرسى يحميه . لايأكله إلا ملوك الفرس ، أو من أكرموه بشىء منه ، ولا يغرسه غيرهم — فجعلوا يطعمونه الفلاحين ، وبعث أبو عبيد بخمسه إلى عمر ، وكتب إليه الكتاب المذكور .

« إن الله أطعَمَنا مَطاعِمَ ، كانت الأكاسرة يَحْمُونها ، وأحبَبْنا أن ترَوها ، لِتَذْكروا إنعام الله وإفضالَه » .　　　　(تاريخ الطبرى ٤ : ٦٥)

١٨٥ — كتاب عمر إلى المثنى بن حارثة الشيبانى

ولما ملَّكَ الفرسُ يَزْدَجِرْدَ بن كسرى ، واطمأنت فارس واستوثقت[١] ، كتب الْمُثَنَّى بن حارِثة[٢] إلى عمر بما ينتظر المسلمون ممن بين ظَهْرَانَيْهم[٣] ، فجاءه كتاب عمر :

« أما بعدُ ، فاخرُجوا من بين ظَهْرَىِ الأعاجم ، وتفرَّقوا فى المياه التى تلى الأعاجم على حدود أرضكم وأرضهم ، ولا تَدَعوا فى ربيعةَ ولا مُضَرَ ولا حُلَفَائِهم أحداً من أهل النَّجَدات ولا فارساً إلا اجتلَبْتُموه ، فإن جاء طائعاً وإلاَّ حَشَرْتموه ، احملُوا العرب على الجِدِّ إذ جَدَّ العَجَمُ ، فلْتَلْقَوا جِدَّهم بجِدِّكم » .

فكانوا فى أمواه العراق من أولها إلى آخرها مَسَالِحَ[٤] يُغِيثُ بعضهم بعضاً إن كان كَوْن .　　　　(تاريخ الطبرى ٤ : ٨٢)

---

(١) كان الفرس قد شغلوا عن المسلمين بما شجر بينهم من خلاف على من يلى أمر الملك ، ثم نصبوا بوران بنت كسرى . فدعت رستم إلى القيام بأمر أهل فارس ، وشكت إليه تضعضعهم وإدبار أمرهم على أن تملكه عشر سنين ، ثم يكون الملك فى آل كسرى ، وأمرت أهل فارس أن يسمعوا له ويطيعوا . فدانت له فارس بعد قدوم أبى عبيد ، ولكنهم لم يلبثوا حتى انشعبوا فرقتين : فرقة معه ، وفرقة مع الفيرزان ، فلما رأوا المسلمين يخرون السواد ويتقدمون فى الفتح . قالوا لرستم والفيرزان : أين يذهب بكما لم يبرح بكما الاختلاف حتى وهنتما أمر فارس وأطمعتما فيهم عدوهم ، والله لتجتمعان أو لنبدأن بكم قبل أن يشمت بنا شامت ، فبحثوا حتى وجدوا غلاما يدعى يزدجرد من ولد شهريار بن كسرى ، فجاءوا به فملكوه واجتمعوا عليه واتحدت كلمتهم.　　(٢) وكان أبو عبيد بن مسعود قد مات فى « وقعة الجسر » التى نشبت بين الفرس والمسلمين بعدوقعة السقاطية . إذ كانت الفيلة كثيرة فى جيش الفرس ، فهابتها خيل المسلمين واشتد الأمر عليهم ، فقال أبو عبيد : احتوشوا الفيلة واقطعوا بطانها واقلبوا عنها أهلها ، ووثب هو على الفيل الأبيض ففعل به ذلك ، فخبطه الفيل بيده فسقط ، ووطئه الفيل فمات .

(٣) ولم يصل الكتاب إلى عمر حتى كفر أهل السواد : من كان له منهم عهد ، ومن لم يكن ، ويقال : هو بين ظهريهم وظهرانيهم (ولا تكسر النون) وبين أظهرهم : أى وسطهم وفى معظمهم .

(٤) مسالح جمع مسلحة كمرحلة : وهى القوم ذوو سلاح .

١٨٦ — كتاب عمر إلى عماله

وكان أول ما عَمِل به عمر حين بلغه أن فارس قد ملَّكوا يزدجردَ أن كتب إلى عُمَّال العرب على الكُوَر والقبائل ـ وذلك فى ذى الحِجَّة سنة ثلاث عشرة ـ :

« لاتَدَعُوا أحداً له سلاح أو فرس أو نَجْدَة أو رأى إلا انتخبتموه ، ثم وجِّهتموه إلىّ ، والعَجَلَ العَجَلَ » . (تاريخ الطبرى ٤ : ٨٢)

١٨٧ — كتاب سعد بن أبي وقاص إلى عمر

وكان سعد بن أبى وَقَّاص على صَدَقات هَوَازِن ، فكتب إليه عمر فيمن كتب إليه بانتخاب ذوى الرأى والنجدة ممن كان له سلاح أو فرس ، فجاءه كتاب سعد :

« إنى قد انتخبتُ لك ألفَ فارسٍ مُؤْدٍ (١) ، كلهم له نَجْدة ورأى ، وصاحب حِيْطة يَحُوط حَرِيمَ قومه ، ويمنع ذِمَارَهم ، إليهم انتهت أحسابهم ورأيُهم ، فشأنك بهم » .

وقد أرسل عمر إلى سعد فقَدِم عليه ، فأمَّره على حرب العراق (٢) .

(تاريخ الطبرى ٤ : ٨٤)

---

(١) آدى فهو مؤد : قوى ، ويحوط : يصون ، والذمار : ما يلزمك حفظه وحمايته .

(٢) لما كتب عمر إلى عماله يستنجدهم ، وافاه بالمدينة مرجعه من الحج كثير من أهل النجدة — ومن كان أقرب من العراق انضم إلى المثنى بن حارثة — وخرج عمر بمن اجتمعوا لديه من المدينة ، بعد أن استخلف عليها على بن أبى طالب ، حتى نزل على ماء يدعى صراراً ، فعسكر به ولا يدرى الناس ما يريد أيسير أم يقيم ، فسأله عثمان عن وجهته ، فأخبرهم الخبر ، ثم نظر ما يقولون ، فقالت العامة : سر وسربنا معك ، وأشار عليه ذوو الرأى أن يقيم ويبعث رجلا من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم ويرميه بالجنود . فقال عمر : فأشيروا على برجل ، ووافق كتاب سعد بن أبى وقاص إليه مشورتهم ، فقالوا : قد وجدته . قال : فمن ؟ قالوا : الأسد عاديا ، قال : من ؟ قالوا : سعد ، فانتهى إلى قولهم .

١٨٨ — كتاب عمر إلى سعد بن أبي وقاص

وكتب عمر إلى سعد مُرْتَحَلَه من زَرُود[١] :

« أن ابعث إلى فَرْج الهند رجلا ترضاه يكون بحِياله ، ويكون رِدْءًا لك من شيء إن أتاك من تلك التُّخُوم » .

فبعث المُغيرة بن شُعْبة فى خمسمائة ، فكان بحِيال الأُبُلَّة من أرض العرب .

١٨٩ — كتاب عمر إلى سعد

فلما نزل سعد بشَراف[٢] كتب إلى عمر بمنزله ، فكتب إليه عمر :

« إذا جاءك كتابى هذا ، فعشِّر الناس وعَرِّف عليهم ، وأمِّر على أجنادهم وعَبِّهم ، ومُرْ رؤساء المسلمين فليَشْهَدوا وقدِّرْهم وهم شهود ، ثم وجِّهْهم إلى أصحابهم ، وواعِدْهم القادِسِيَّةَ[٣] واضمم إليك المُغيرةَ بن شُعْبة فى خَيْلِه ، واكتب إلىَّ بالذى يستقر عليه أمرهم » .

فأنفذ سعد ما أمره به عمر[٤] . (تاريخ الطبرى ٤ : ٨٧)

١٩٠ — كتاب عمر إلى سعد

وقدم على سعد وهو بشراف كتاب عمر بن الخطاب ، وفيه :

« أما بعد : فسِرْ من شَراف نحو فارس بمن معك من المسلمين ، وتوكَّلْ على الله ، واستعنْ به على أمرك كُلِّه ، واعلم فيما لديك أنك تَقْدَمُ على أمّةٍ عَدَدُهم كثير ،

---

(١) على طريق الحاج من الكوفة ؛ والردء : العون . ولما كان سعد بزرود بلغه أن المثنى بن حارثة مات من جراحة كان جرحها يوم الجسر . (٢) ماء بنجد . (٣) بقرب الكوفة .

(٤) فبعث إلى المغيرة فانضم إليه ، وإلى رؤساء القبائل فأتوه ، فقدر الناس وعباهم ، وأمر أمراء الأجناد ، وعرف العرفاء ، فعرف على كل عشرة رجلا كما كانت العرافات زمن النبى صلى الله عليه وسلم ، وأمر على الرايات رجالا من أهل السابقة وعشر الناس ، وأمر على الأعشار رجالا لهم وسائل فى الإسلام ، وولى الحروب رجالا ، فلم يفصل إلا عن تعبية ، ولم يفصل منها إلا بكتاب عمر وإذنه .

وعِدَّتهم فاضلة[1] ، وبأسُهم شديد ، وعلى بلد مَنيعٍ وإن — كان سهلا — كَئُودٍ[2] ، لبُحُوره وفُيُوضه ودَآدِئِه[3] إلا أن تُوافِقوا غَيْضاً من فَيْض[4] .

وإذا لقيتم القومَ ، أو أحداً منهم فابدءوهم الشَّدَّ والضربَ ، وإياكم والمناظرة لجموعهم ، ولا يخدعنّكم فإنهم خَدَعةٌ مَكَرَة ، أمرُهم غير أمركم ، إلا أن تجادُّوهم ، وإذا انتهيتَ إلى القادِسِيَّة — والقادسيةُ بابُ فارس فى الجاهلية ، وهى أجمع تلك الأبواب لِمادَّتهم ، ولِما يريدونه من تلك الآصُلِ[5] ، وهو منزل رَغيبٌ ، خَصيبٌ حَصين ، دونه قناطرُ ، وأنهارٌ ممتنعة — فتكون مَسالِحُك[6] على أنقابها ، ويكون الناس بين الحجَرِ والمَدَر ، على حافَاتِ الحجَر ، وحافَاتِ المَدَر ، والجِرَاعُ بينهما ، ثم الزَمْ مكانَك فلا تَبْرَحْه ، فإنهم إذا أحَسُّوك أنغَضْتَهم[7] رَمَوك بجَمْعهم الذى يأتى على خَيْلهم ورَجْلهم ، وحَدِّهم وجِدِّهم ، فإن أنتم صَبَرْتم لعدوكم ، واحتسبتم لقتاله ، ونويتم الأمانة ، رجوتُ أن تُنْصَروا عليهم ، ثم لا يَجتمع لكم مثلهم أبداً ، إلا أن يجتمعوا وليست معهم قلوبُهم ، وإن تكن الأخرى كان الحجَرَ فى أدباركم ، فانصرفتم من أدنى مَدَرةٍ من أرضهم ، إلى أدنَى حَجَر من أرضكم ، ثم كنتم عليها أجْرَأ ، وبها أعْلَمَ ، وكانوا عنها أجْبَنَ ، وبها أجْهَلَ ، حتى يأتى الله بالفتح عليهم ، ويَرُدَّ لكم الكَرَّة » .

وكتب إليه أيضاً باليوم الذى يرتحل فيه من شَرَاف :

« فإذا كان يوم كذا وكذا، فارتحل بالناس حتى تنزلَ فيما بين عُذَيْب الهجانات ، وعُذَيب القَوادِس ، وشَرِّق بالناس ، وغرِّب بهم » . (تاريخ الطبرى ٤ : ٨٩)

---

(١) زائدة . (٢) عقبة كئود وكأداء : صعبة .
(٣) الدآدئ جمع دأداء وهو الفضاء وما اتسع من التلاع والأودية .
(٤) غاض الماء غيضاً : قل ، وفاض فيضاً : كثر ، والمعنى قليلا من كثير .
(٥) الآصل والأصول : جمع أصل، ورغيب : أى يرغب فيه للاءمته .
(٦) المسالح : جمع مسلحة كمرحلة ،وهى القوم ذوو سلاح . والأنقاب جمع نقب بالفتح، وهو الطريق بين الجبلين . والمدر : قطع الطين اليابسة ، والمدن والحضر ، والجراع جمع جرعة كوردة وتحرك : وهى الرملة الطيبة المنبت لاوعوثة فيها . (٧) أى حركتهم وأثرتهم .

١٩٠ — كتاب عمر إلى سعد

وكتب عمر إلى سعد ، ومن معه من الأجناد :

« أما بعدُ : فإنى آمُرُك ، ومَن معك من الأجناد بتقوَى الله على كل حال ، فإنَّ تقوَى الله أفضلُ العُدَّة على العدو ، وأقوى المكيدة فى الحرب ، وآمُرُك ومن معك أن تكونوا أشدَّ احتراساً من المعاصى منكم من عدوكم ، فإن ذنوبَ الجيش أخوفُ عليهم من عدوهم ، وإنما يُنْصَر المسلمون بمعصية عدوهم لله ، ولولا ذلك لم تكن لنا بهم قوة لأن عدَدَنا ليس كعَدَدهم ، ولا عُدّتنا كعدّتهم ، فإن استوَيْنا فى المعصية ، كان لهم الفضلُ علينا فى القوّة ، وإلاَّ تُنصَرْ عليهم بفضلنا لم تغلِبْهم بقوّتنا ، فاعلموا أن عليكم فى سَيْركم حَفَظَةً من الله يعلمون ماتفعلون ، فاستحْيُوا منهم ، ولا تَعْمَلوا بمعاصِى الله وأنتم فى سبيل الله ، ولا تقولوا : إن عدونا شرٌّ منا ، فلن يُسَلَّط علينا ، فرُبَّ قومٍ سُلِّط عليهم شرٌّ منهم ، كما سُلِّط على بنى إسرائيل — لَمَّا عملوا بمَساخِط الله — كُفَّارُ المَجُوس ، فجَاسوا خلال الدِّيَارِ ، وكانَ وَعْداً مَفْعُولاً ، واسْأَلُوا اللهَ العَوْنَ على أنفسكم كما تسألونه النصر على عدوكم ، أسأل الله تعالى ذلك لنا ولكم .

وترَفَّقْ بالمسلمين فى مسيرهم ، ولا تُجَشِّمْهم مَسِيراً يُتْعِبُهُم ، ولا تَقْصُر بهم عن مَنزِل يَرْفُق بهم ، حتى يبلغوا عدوَّهم (والسَّفَرُ لم يَنْقُصْ قوّتَهم) فإنهم سائرون إلى عدو مُقيمٍ ، حَامِى الأنفُس والكُرَاع[١] ، وأقِمْ بمن معك فى كل جمعة يوماً وليلة ، حتى تكون لهم راحَةٌ يُحْيُون فيها أنفسَهم ، ويَرُمُّون[٢] أسلحتهم وأمتعتهم ، ونَحِّ منازلهم عن قرى أهل الصلح والذِّمَّة فلا يدخُلْها من أصحابك إلا من تَثِقُ بدينه ، ولا يَرْزَأْ[٣] أحداً من أهلها شيئاً ، فإن لهم حُرْمةً وذِمَّةً ابتليتم بالوفاء بها كما ابتُلُوا

(١) الكراع من كل شىء: طرفه واسم يجمع الخيل.

(٢) رمه كضرب ونصر : أصلحه . (٣) رزأه ماله: أصاب منه شيئاً .

بالصبر عليها ، فما صَبَرُوا لكم فتولَّوهم خيراً ، ولا تستنصروا على أهل الحرب بظلم أهل الصلح ، وإذا وَطِئْتَ أرضَ العدوِّ فأَذْكِ(١) العُيُونَ بينك وبينهم ، ولا يَخْفَ عليك أمرهم ، وليكن عندك من العَرب أو من أهل الأرض مَن تطمئنّ إلى نُصحه وصدقه ، فإن الكذوب لا ينفعك خبَرُهُ ، وإنْ صَدَقَك فى بعضه ، والغاشّ عَيْن عليك ، وليس عينا لك ، وليكن منك عند دُنُوِّك من أرض العدو أنْ تُكْثِر الطلائع ، وتَبُثَّ السَّرايا(٢) بينك وبينهم ، فتقطع السرايا أمدادهم ومَرَافِقَهم ، وتَتَّبِع الطلائعُ عَوْرَاتِهم، وتَنَقَّ(٣) للطلائع أهلَ الرأى والبأس من أصحابك ، وتَخَيَّرْ لهم سوابِقَ الخيل ، فإن لَقُوا عدوًّا كان أول ما تلقاهم القوة من رأيك، واجعل أمْرَ السرايا إلى أهْلِ الجهاد ، والصَّبرِ على الجِلاد ، ولا تَخُصَّ بها أحداً بِهوًى فتضيِّعَ من رأيك وأمرك أكثَرَ مما حابَيْتَ به أهل خاصّتك ، ولا تبعَثَنَّ طَلِيعةً ، ولا سَرِيَّةً فى وجهٍ تتخوَّف فيه غَلَبَة أو ضَيْعةً أو نِكاية ، فإذا عاينتَ العدو ، فاضْمُم إليك أقاصِيَك وطلائعَك وسَراياك ، واجمع إليك مكيدتك وقوَّتك ، ثم لا تعاجِلْهم المُناجَزَةَ ، مالم يستكرِهْك قتال ، حتى تُبصِرَ عَورة عدوك ومَقَاتِله ، وتَعرِف الأرضَ كلها كمعرفة أهلها ، فتصنع بعدوك كصُنْعه بك ، ثم أَذْكِ أحراسَك على عسكرك ، وتيقَّظْ من البَيات جُهْدَك ، ولا تُؤْتَى بأسير ليس له عَقْد(٤) إلا ضربْتَ عُنُقه ، لِترْهِبَ به عدوَّ الله وعدوك ، والله ولىُّ أمرك ومن معك، وولىُّ النصر لكم على عدوكم ، والله المستعان » . (العقد الفريد ١ : ٤٠)

١٩١ — كتاب عمر إلى سعد

وكتب إليه :

« أما بعدُ : فتَعاهَدْ قلبَك ، وحادِثْ جندكَ بالموعظة والنيَّة والحِسْبَة(٥) ، ومن

(١) أذكى عليه العيون : أرسل عليه الطلائع . (٢) سرية كغنية : وهى القطعة من الجيش.
(٣) تنقاه وانتقاه : اختاره. (٤) عهد . (٥) الحسبة : اسم من الاحتساب ، احتسب بكذا أجراً عند الله : اعتده ينوى به وجه الله .

غفَلَ فليُحدِثْهما ، والصَّبْرَ الصَّبْرَ ، فإن المعونة تأتى من الله على قَدْر النية ، والأجْرَ عَلَى قَدْر الحِسْبة ، والحَذَرَ الحذَرَ على من أنت عليه ، وما أنت بسبيله ، واسألوا اللهَ العافية ، وأكثِرُوا من قولِ « لاحَوْلَ ولا قوة إلا بالله » واكتب إلىّ : أين بَلَغَك جَمْعُهم ؟ ومَن رأسُهم الذى يَلِي مُصَادَمَتَكم ؟ فإنه قد مَنَعَنى من بعض ما أردتُ الكتابَ به ، قِلّةُ علمى بما هَجَمْتم عليه ، والذى استقرَّ عليه أمْرُ عدوكم ، فصِفْ لنا مَنازلَ المسلمين ، والبلدَ الذى بينكم وبين « المدائن » صِفَةً كأنى أنظُرُ إليها ، واجعلنى من أمركم على الجَلِيَّةِ[(١)] وخَفِ اللهَ وارْجُه ، ولا تُدِلَّ بشىء ، واعلم أن الله قد وَعَدَكم ، وتوكَّلَ لهذا الأمر بما لاخُلْفَ له ، فاحذَرْ أن تَصرِفَه عنك ، ويستبدل بكم غيركم » .

(تاريخ الطبرى ٤ : ٨٩)

١٩٢ — رد سعد على كتاب عمر

فكتب إليه سعد بصفة البُلْدان :

« القادسية بين الخَنْدق والعَتيق ، وإن ما عن يسار القادسية بحرٌ أخضرُ فى جَوْفٍ[(٢)] لاحٍّ إلى الحِيرَة بين طريقين ، فأمَّا أحدهما فعلى الظَّهر ، وأما الآخر فعلى شاطئ نهر يُدْعى « الحَضُوض[(٣)] » يَطلُع بمن سَلَكه على ما بين الخَوَرْنق والحيرة ، وإنّ ما عن يمين القادسية إلى الوَلَجَة فَيْضٌ من فُيُوض مياههم ، وإن جميع مَنْ صالَحَ المسلمين من أهل السَّواد قِبَلِى أَلْبٌ[(٤)] لأهل فارس قد خَفُّوا لهم ، واستعدُّوا لنا ، وإن الذى أعدُّوا لصادمتنا رُستَمُ فى أمثالٍ له منهم ، فهم يحاولون إنْغَاضَنا[(٥)] وإقْحَامَنا ، ونحن نحاول إنغاضَهم وإبرازَهم ، وأمْرُ اللهِ بعدُ ماضٍ ، وقضاؤه مُسَلِّمٌ إلى ما قُدِّر لنا وعلينا ، فنسأل الله خيرَ القضاء ، وخيرَ القَدَر فى عافيةٍ » .

(تاريخ الطبرى ٤ : ٩٠ ، ومعجم البلدان ٧ : ٦)

---

(١) الجلية : الخبر اليقين . (٢) الجوف : المطمئن من الأرض ، ومكان لاح ولحح ككتف ولحلح كجعفر : أى ضيق . (٣) ضبطه صاحب القاموس فقال: كصبور: نهر كان بين القادسية والحيرة . (٤) يقال : هم عليه ألب واحد : أى مجتمعون عليه بالظلم والعداوة . (٥) أنغضه : حركه .

١٩٣ — رد عمر على كتابه

فكتب إليه عمر :

« قد جاءنى كتابك وفهمتُهُ ، فأقِمْ بمكانك حتى يُنْغِضَ اللهُ لك عدوَّك ، واعلم أنَّ لها ما بعدها ، فإنْ مَنَحَكَ اللهُ أدبارَهم ، فلا تَنْزِعْ[1] عنهم حتى تقتحِم عليهم « المدائنَ » ، فإنه خَرابُها إن شاء الله » . (تاريخ الطبرى ٤ : ٩٠)

١٩٤ — كتاب عمر إلى سعد

وكتب عمر إلى سعد رضى الله عنهما :

« إنى قد أُلقِيَ فى رُوعِي[2] أنكم إذا لَقِيتم العدو هزمتموهم ، فاطَّرِحُوا الشكَّ ، وآثِرُوا التَّقيَّةَ عليه ، فإن لاعَبَ أحد منكم أحداً من العجم بأمان ، أو قَرَفَه[3] بإشارة ، أو بلسان كان لايدرى الأعجمى ما كلَّمه به ، وكان عندهم أماناً ، فأَجْرُوا ذلك له مُجْرَى الأمان ، وإياكم والضَّحِكَ ، والوفاءَ الوفاءَ ، فإن الخطأ بالوفاء بَقِيَّةٌ ، وإن الخطأ بالغَدْر الهَلَكة ، وفيها وَهْنُكُمْ ، وقوة عدوكم ، وذهابُ رِيحِكم[4] ، وإقبال ريحهم ، واعلموا أنى أحذِّركم أن تكونوا شَيْناً على المسلمين ، وسَبَباً لتوهينهم » .

(تاريخ الطبرى ٤ : ٩٠ ، وتاريخ الكامل لابن الأثير ٢ : ١٧٤)

١٩٥ — كتاب سعد إلى عمر

ونزل سعد القادسيةَ ، فأقام بها شهراً ، ثم كتب إلى عمر : « لم يوجِّهِ القوم إلينا أحداً ، ولم يُسْنِدُوا حربا إلى أحد عَلِمْناه ، ومتى ما يَبْلُغنا ذلك نكتبْ به ، واستنصِرِ اللهَ فإنا بمَنْحَاةٍ[5] دُنْيَا عريضةٍ دُونَها بَأْسٌ شديد ، قد تقدَّمَ إلينا فى الدعاء إليهم فقال : « سَتُدْعَوْنَ إلَى قَوْمٍ أُولِي بَأْسٍ شَدِيدٍ » . (تاريخ الطبرى ٤ : ٩١)

---

(١) أى فلا تكف . (٢) الروع : القلب .
(٣) أى داناه . (٤) أى قوتكم . (٥) أى بناحية.

١٩٦ — كتاب عمر إلى سعد

وبعث سعد عيونًا ليعلموا له خبر أهل فارس ، فرجعوا إليه بالخبر بأن الملك قد ولى رستم حَرْبَه ، فكتب سعد بذلك إلى عمر ، فكتب إليه عمر :

« لا يَكْرُبَنَّك[1] ما يأتيك عنهم ، ولا ما يأتونك به ، واستعن بالله ، وتوكَّلْ عليه، وابعث إليه رجالًا من أهل المَنْظَرَة[2] والرأى والجَلَدِ يَدْعُونه،فإن الله جاعِلٌ دعاءهم توهينًا لهم ، وفَلْجًا عليهم ، واكتُبْ إلىَّ فى كل يوم » . (تاريخ الطبرى ٤ : ٩٢)

١٩٧ — كتاب سعد إلى عمر

ولما عسكر رستم بساباط ، كتب سعد إلى عمر .

« إن رستم قد عسكر بساباط ، وزحف إلينا بالخُيول والفُيُول ، وزُهَاء[3] فارس ، وليس شىء أهمَّ إلىّ ، ولا أنَا لَهُ أكثر ذكراً منى ، لما أحببتَ أن أكون عليه ، ونستعينُ بالله ونتوكل عليه ، وقد بعثتُ فلانًا وفلانًا وهم كما وصفتَ[4] » .

(تاريخ الطبرى ٤ : ٩٢)

١٩٨ — كتاب عمر إلى سعد

وسار رستم بجيشه حتى نزل القادسية، ونشِبَت الحرب بين الفريقين ، فدارت الدائرة على جيش الفرس ، وحَمَل هِلالُ بن عُلَّفَةَ على رستم فقتله ، وحمل زُهْرَة بن الحَوِيَّة على الجالِينُوس—أحد عظماء الفرس—فقتله، وجاء بسَلَبه[5] إلى سعد بن أبى وَقَّاص فنفَّلَه[6] سلَبَه.

---

(١) كربه الغم كنصر: اشتد عليه . (٢) المنظرة :منظر الرجل إذا نظرت إليه فأعجبك .

(٣) يقال : هم قوم ذوو زهاء : أى ذوو عدد كثير ، والزهاء أيضاً : الكبر والفخر كالزهو.

(٤) جمع سعد جماعة من وجوه أصحابه ،منهم النعمان بن مقرن وحنظلة بن الربيع والمغيرة بن زرارة ابن النباش وعطارد بن حاجب والأشعث بن قيس وعاصم بن عمرو وعمرو بن معد يكرب والمغيرة بن شعبة، وبعثهم دعاة إلى يزدجرد بالمدائن، وقد جرى بينه وبينهم حوار أوردناه فى جمهرة خطب العرب ج١ ص١١٣

(٥) السلب : ما يسلب . (٦) النفل بالتحريك: الغنيمة، ونفله النفل، ونفله :وأنفله أعطاه إياه.

وكان سعد قد استكثر له سَلَبَه، فكتب فيه إلى عمر، فكتب إليه عمر « تَعْمِد إلى مثل زُهْرَة ، وقد صَلِيَ بمثل ما صَلِيَ به ، وقد بقِيَ عليك من حَرْبك ما بقِيَ تكسير قَرْنه ، وتُفْسِد قلبه ! أَمْضِ له سَلَبَه ، وفَضِّله على أصحابه عند العطاء بخمسمائة » .

وفى خبر آخر أن عمر كتب إلى سعد :

« أنا أعلم بزهرة منك ، وإن زهرة لم يكن ليغيِّب من سَلَبِ سَلَبَه شيئاً ، فإن كان الذى سَعَى به إليك كاذباً فلقَّاه الله ، مِثلُ زُهرةَ فى عَضُدَيه يَارَقان(١) ، وإنى قد نفَّلْتُ كلَّ من قَتَل رجلا سَلَبَه » .

فدفعه إليه فباعه بسبعين ألفاً . (تاريخ الطبرى ٤ : ١٣٥)

١٩٩ — كتاب سعد إلى عمر

وبعد أن تم الظفر للمسلمين فى هذه الوقعة « وقعة القادسية ، وكانت سنة ١٤ هـ » كتب سعد إلى عمر : بالفتح .

« أمّا بعدُ : فإن الله نصَرَنا على أهل فارس ، ومَنَحَهم سُنَنَ مَن كان قبلهم من أهل دينهم ، بعد قتال طويل ، وزِلْزَالٍ شديد ، وقد لقُوا المسلمين ، بعِدّة لم يَرَ الرّاءون مثلَ زُهائها(٢) ، فلم ينفعهم الله بذلك ، بل سَلَبَهُمُوه ونَقَله عنهم إلى المسلمين .

واتّبعهم المسلمون على الأنهار، وعلى طُفُوفِ(٣) الآجام ، وفى الفِجَاج ، وأُصيب من المسلمين سعد بن عُبَيد القارئ، وفلان وفلان، ورجال من المسلمين لا نَعلَمهم ،الله بهم عالم كانوا يَدْوُونَ بالقرآن إذ جَنَّ عليهم الليلُ دوِيَّ النحل ، وهم آسادُ الناس لا يُشْبِهم الأسود ، ولم يفضُلْ مَن مَضى منهم مَن بَقِيَ إلا بفَضْل الشهادة ، إذ لم يُكْتَبْ لهم » .

(تاريخ الطبرى ٤ : ١٤٤)

---

(١) اليارق : السوار ، كنى بذلك عن عظم شأنه ، أى ومن كان فى مثل منزلته فلايعيب من سلب سلبه شيئاً . (٢) يقال : هم زهاء مائة بضم الزاى وكسرها : أى قدر مائة .

(٣) الطفوف: جمع طف بالفتح . وهو الجانب والشاطىء . الآجام : جمع أجمة بالتحريك ، وهى الشجر الكثير الملتف . الفجاج : جمع فج ، وهو الطريق الواسع .

٢٠٠ — كتاب سعد إلى عمر

وكتب سعد إلى عمر مع أنس بن الحُلَيْس يستفتيه فى شأن أهل السَّواد وقد نقضوا عهودهم مُدَّعِين أن الفرس أكرهوهم وحشروهم :

« إن أقواماً من أهل السَّواد ادَّعَوْا عهوداً ، ولم يُقِمْ على عهد أهل الأيّام لنا ولم يَفِ به أحدٌ عَلِمْناه ، إلا أهلُ بانِقيا وبَسما وأهل أُلَيْس الآخِرة ، وادَّعى أهل السَّواد أن فارس أكرهوهم وحَشَروهم ، فلم يُخَالفوا إلينا ولم يذهبوا فى الأرض » .

(تاريخ الطبرى ٤ : ١٤٥)

٢٠١ — كتاب سعد إلى عمر

وكتب إليه أيضاً مع أبى الهياج بن مالك الأَسَدى :

« إن أهل السواد جَلَوا فجاءنا من أمسك بعهده ولم يُجْلِب علينا ، فتمَّمْنا لهم ما كان بين المسلمين قَبْلنا وبينهم ، وزعموا أن أهل السواد قد لحِقوا بالمدائن ، فأحدِثْ إلينا وفيمن تَمَّ[١] وفيمن جَلَا ، وفيمن ادَّعى أنه استُكْرِه وحُشِر فهَرَب ولم يقاتل أو استسلَمَ ، فإنا بأرضٍ رَغيبةٍ ، والأرضُ خَلاء من أهلها ، وعددنا قليل ، وقد كثُر أهلُ صلحنا ، وإنَّ أعمَرَ لها وأوهَنَ لعدوّنا تألُّفُهم » .

(تاريخ الطبرى ٤ : ١٤٥)

٢٠٢ — كتاب عمر إلى سعد

فجمع عمر الناس ، واستشارهم فى الأمر ، فأشاروا عليه بما يَرَوْن ، فكتب إلى سعد جواب كتاب أنس بن الحليس :

« أما بعدُ ، فإن الله جل وعلا أنزل فى كل شىء رُخْصَةً فى بعض الحالات ، إلا فى أمرين : العَدْلِ فى السِّيرة ، والذِّكْرِ ، فأمّا الذِّكْرُ فلا رُخصةَ فيه فى حالة ، ولم

---

(١) تم على الأمر وتمم عليه بإظهار الإدغام : استمر عليه .

يَرْضَ منه إلا بالكثير ، وأما العَدْلُ فلا رُخصةَ فيه فى قريب ولا بعيد ، ولا فى شدة ولا رخاء ، والعدلُ وإن رُئِىَ لَيِّناً فهو أقوى وأطفأ للجوْر ، وأقمع للباطل من الجَوْر ، وإن رُئِىَ شديداً ، فهو أنكَشُ[(١)] للكفر ، فمن تَمَّ على عهده من أهل السواد ، ولم يُعِنْ عليكم بشىء ، فلهم الذمة وعليهم الجزية ، وأمَّا من ادَّعَى أنه استُكْرِه ممن لم يخالفهم إليكم ، أو يذهب فى الأرض فلا تصدِّقوهم بما ادَّعَوْا من ذلك ، إلا أن تشاءوا وإن لم تشاءوا فانبِذْ إليهم ، وأَبْلِغوهم مأمَنَهُمْ » .

٢٠٣ — كتاب عمر إلى سعد

وأجاب فى كتاب أبى الهياج :

« أما من أقام ولم يَجْلُ وليس له عهد فلهم ما لِأهل العهد بمُقامِهم لكم وكفِّهم عنكم إجابة ، وكذلك الفلاحون إذا فعلوا ذلك ، وكل من ادَّعَى ذلك فصُدِّق فلهم الذمة ، وإن كُذِّبوا نُبِذَ إليهم ، وأما من أعان وجلا فذلك أمر جعله الله لكم ، فإن شئتم فادعوهم إلى أن يُقِيمُوا لكم فى أرضهم ، ولهم الذمة وعليهم الجزية ، وإن كرِهُوا ذلك فاقسِمُوا ما أفاء الله عليكم منهم » . (تاريخ الطبرى ٤ : ١٤٥)

٢٠٤ — كتاب عمر إلى سعد بن أبى وقاص

وكتب عمر رضى الله عنه إلى سعد بن أبى وَقّاص حين افتتح السَّوَاد :

« أما بعدُ : فقد بلغنى كتابُك تذكر فيه أن الناس قد سألوك أن تَقسِم بينهم مَغَانِمَهم وما أفاء اللهُ عليهم ، فإذا أتاك كتابى هذا ، فانظر ما أجلَبَ الناس عليك به إلى العَسكر من كُرَاعٍ[(٢)] ، ومال ، فاقْسِمهُ بين من حضر من المسلمين ، واترك

---

(١) نكشه كنصر وضرب : استخرج ما فيه .

(٢) الكراع : اسم يجمع الخيل ، وفى فتح البلدان ومعجم البلدان : « فانظر ما أجاب عليه أهل العسكر بخيلهم وركابهم من مال أو كراع فاقسمه بينهم بعد الخمس » .

الأَرَضِينَ والأنهار لعُمّالها[1] ، ليكون ذلك فى أَعْطِيَاتِ المسلمين ، فإنك إن قسمتها بين مَنْ حضَر لم يكن لمن بعدهم شىء .

وقد كنتُ أمرتُك أن تدعوَ مَن لقِيتَ إلى الإسلام قبل القتال ، فمن أجاب إلى ذلك قبل القتال فهو رجل من المسلمين ، له مالهم وعليه ما عليهم ، وله سَهم فى الإسلام ومن أجاب بعد القتال ، وبعد الهزيمة فهو رجل من المسلمين ، ومالُه لأهل الإسلام ، لأنهم قد أحْرَزُوه قبل إسلامه ، فهذا أمرى وعَهْدى إليك » .

(كتاب الخراج ص ٢٨ ، وفتوح البلدان ص ٢٧٤ ، ومعجم البلدان ٥ : ١٦٣)

٢٠٥ — كتاب عمر إلى قطبة بن قتادة

وكان قُطْبة بن قَتَادة السَّدُوسِىّ يُغير بناحية الخُرَيْبة من البصرة (كما كان المثنى ابن حارثة يغير بناحية الحيرة) فكتب إلى عمر يُعْلمه مكانَه ، وأنه لو كان معه عدد يسير ظفِرَ بمن قِبَلَه من العجم ، فنفاهم من بلادهم ، فكتب إليه عمر :

« إنه أتانى كتابك أنك تُغير على من قِبَلَك من الأعاجم ، وقد أصبتَ ووُفِّقْتَ ، أقِمْ مكانك واحْذَر على من معك من أصحابك حتى يأتيَك أمرى[2] » .

(تاريخ الطبرى ٤ : ١٥)

٢٠٦ — كتاب عمر إلى عتبة بن غزوان

ووجه عمر بن الخطاب عُتْبة بن غزْوان إلى البصرة سنة ١٤ هـ[3] وأمره بنزولها بمن معه ، وقَطْعِ مادَّةِ أهل فارس عن الذين بالمدائن ونواحيها منهم .

وروى صاحب العقد قال :

---

(١) وفى معجم البلدان « بحالها » . (٢) وقد وجه عمر شريح بن عامر إلى البصرة ليكون ردءا للمسلمين ، فأقبل إليها ثم مضى إلى الأهواز فقتله الأعاجم ، وبعث عمر عتبة بن غزوان .

(٣) قال الطبرى : هذا فى قول المدائنى وروايته ، وزعم سيف أن البصرة مصرت فى ربيع سنة ١٦ هـ ، وأن عتبة بن غزوان إنما خرج إلى البصرة من المدائن بعد فراغ سعد من جلولاء ، وتكريت والحصنين ، وجهه إليها سعد بأمر عمر .

كتب عمر بن الخطاب إلى عُتْبة بن غَزْوان عامله على البصرة :

« أما بعدُ : فقد أصبحتَ أميراً تقول فيُسْمَع لك ، وتأمر فيَنْفُذُ أمرُك ، فيا لَها نِعْمَةً إن لم ترفَعْك فوق قدرك ، وتُطْغِك على مَن دونك ، فاحترس من النعمة أشدَّ من احتراسك من المعصية ، وإياك أن تسقُطَ سَقْطَةً لا شَوَى[1] لها ، وتعثُر عَثْرَةً لا لعًا لها[2] » (العقد الفريد ١ : ٣٠٠)

* * *

وروى الطبرى قال :

قال عمر لعُتْبة بن غزْوان إذ وجّهه إلى البصرة :

« يا عتبةُ : إنى قد استعملتك على أرضِ الهند[3] ، وهى حَوْمة[4] من حَوْمة العدو ، وأرجو أن يكفِيَك اللهُ ما حوْلَهَا ، وأن يُعينَك عليها ، وقد كتبتُ إلى العَلاء ابن الحضْرَمِيّ أن يُمِدَّك بعرْفَجَةَ بن هرْثَمَة ، وهو ذو مُجاهدة العدو ومكايدة ، فإذا قدِمَ عليك فاستشِرْه وقرِّبْه ، وادعُ إلى الله ، فمَن أجابك فاقبَلْ منه ، ومن أبَى فالجزيةُ عن صَغَارٍ وذِلّة ، وإلاّ فالسيفُ فى غير هوَادة .

واتّقِ اللهَ فيما وُلّيتَ . وإياك أن تنازعَك نفسُك إلى كِبْرٍ يُفسِدُ عليك إخوتَك ، وقد صَحِبْتَ رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فعَزَزْتَ به بعد الذِّلّةِ ، وقَوِيتَ به بعد الضعف ، حتى صرتَ أميراً مسلَّطًا ، وملِكًا مُطاعا تقول فيُسْمع منك ، وتأمر فيُطاع أمرك ، فيالها نعمةً إن لم ترفعك فوق قدرك ، وتبْطِرْك على من دونك ، احتَفِظْ من النعمة احتفاظَك من المعصية ، ولَهِىَ أخْوَفُها عندى عليك أن تستدرجَك وتخدَعَك ،

---

(١) أشوى من الشىء : أبقى منه بعضا ، والاسم الشوى ، ولا شوى لها : أى لا إبقاء لها ، أو لا برء لها .
(٢) لعا : كلمة يدعى بها للعاثر معناها الارتفاع ، فاذا دعى له بأن ينتعش قيل : لعا له ويقال : لا لعا له أى لا أقامه الله.
(٣) وكانت البصرة يومئذ تدعى أرض الهند ، فيها حجارة بيض خشن ، والبصرة كل أرض حجارتها جص — انظر الطبرى ٤ : ١٤٩ ومروج الذهب ١ : ٤٢٦ .
(٤) حومة القتال وغيره : أشد موضع فيه .

فتسقُطَ سَقْطةً تصير بها إلى جهنَّمَ ، أُعيذك بالله ونفسى من ذلك، إن الناس أسرعوا إلى الله حين رُفِعتْ لهم الدنيا فأرادوها ، فأرِدِ الله ولا تُرِدِ الدنيا ، واتَّقِ مَصارِعَ الظالمين » .

وكانت إمارة عتبة على البصرة ستة أشهر . (تاريخ الطبرى ٤ : ١٥٠)

٢٠٧ — كتاب عمر إلى عتبة بن غزوان

وكان العَلاء بن الحضْرَمِىّ على البَحْرَين ، وكان يُبارِى سعد بن أبى وقَّاص ، فلما رأى ما أحرزه سعد من الظفر والفتح ، رام أن يبلغ مكانته ، فندَبَ أهل البحرين إلى فارس ، وحَمَلهم فى البحر إليها بغير إذن عمر — وكان عمر لا يأذنُ لأحد فى ركوبه غازِياً ، يَكْرَه التَّغرير بجنده — وعَبَرَتْ جنود العلاء إلى فارس فخرجوا فى إصْطَخْر ، ولَقِيَهم الفرس ، فحالوا بينهم وبين سفنهم ، واقتتلوا قتالا شديداً ، قُتِل فيه بعض قواد جيش العلاء ، وكثير من الفرس .

ثم رأى المسلمون أن يقصِدوا إلى البصرة ، ولم يجدوا إلى الرجوع فى البحر سبيلًا إذ غُرِّقت سفنهم ، ووجدوا الفرس قد أخذوا عليهم الطرق ، فعسكروا وامتنعوا .

ولما بلغ عمر ما صنع العلاء ، كتب إلى عتبة بن غزوان :

« إن العلاء بن الحضرمىّ حَمَل جنداً من المسلمين فأقطعهم أهل فارس وعصانى ، وأظنه لم يُرِدِ اللهَ بذلك ، فخشيتُ عليهم إنْ لا يُنصروا أن يُغلَبوا ويَنْشَبوا (١) ، فاندُبْ إليهم الناس ، واضْمُمْهم إليك من قَبل أن يُجتاحوا » .

فندب عتبة جيشاً لقى الفرس فهزمهم ، وأصاب المسلمون منهم ما شاءوا ، واشتد غضب عمر على العلاء ، وكتب إليه بعزله ، وأمره بأثقل الأشياء ، وأبغض الوجوه إليه ، بتأمير سعد عليه ، وقال : الْحَقْ بسعد فيمن قِبَلك ، فخرج بمن معه نحو سعد .

(تاريخ الطبرى ٤ : ٢١٣)

---

(١) أى يؤسروا ، من نشب الصيد فى الحبالة كفرح : إذا علق بها .

٢٠٨ – كتاب عمر إلى عتبة بن غزوان

« وكتب عمر إلى عُتْبة بن غَزْوان :

« أن أعْزِبِ[1] الناسَ عن الظلم ، واتَّقُوا واحذَروا أن يُدَالَ[2] عليكم لِغَدْر يكون منكم أو بَغْى ، فإنكم إنما أدركتم بالله ما أدركتم ، على عَهْدٍ عاهَدَكم عليه ، وقد تقدَّم إليكم فيما أَخَذَ عليكم ، فأَوْفُوا بعهد الله ، وقوموا على أمره يكن لكم عَوْناً وَناصراً » . (تاريخ الطبرى ٤ : ٢١٢) .

٢٠٩ – كتاب عمر إلى المغيرة بن شعبة

واستعمل عمرُ على البصرة بعد عُتْبة بن غَزْوان المُغيرةَ بن شعبة . فبقى بها سنتين ، ثم رُمِىَ بما رُمِىَ[3] به ، فعزله عمر وولّى مكانه أبا موسى الأشعرى سنة ١٧ هـ وكتب إلى المغيرة – قال الطبرى : وإنه لأوجز كتاب كتب به أحد من الناس : أربع كَلِم عزل فيها وعاتب واستحث وأمّر –

« أما بعدُ فإنه بلغنى نَبأٌ عظيم . فبعثتُ أبا موسى أميراً ، فسلِّمْ ما فى يدك ، والعَجَل » .

(تاريخ الطبرى ٤ : ٢٠٧ ، وتاريخ الكامل لابن الأثير ٢ : ٢٦٦)

---

(١) أبعد . (٢) الإدالة : الغلبة . يقال : اللهم أدلنى على فلان وانصرنى عليه .

(٣) وذلك أن أبا بكرة – أخا زياد بن أبيه – ونفرا معه اتهموه بأنه زنى بأم جميل بنت الأفقم ، وكتبوا بذلك إلى عمر . فعزله وولى مكانه أبا موسى الأشعرى ، وارتحل المغيرة وخصومه وهم أبو بكرة وزياد ونافع بن كلدة وشبل بن معبد ، حتى قدموا على عمر ، فجمع بينهم وبين المغيرة ، وقد أقسم بين يدى عمر أنه ما أتى إلا امرأته – وكانت شبهها – فبدأ عمر بأبى بكرة فشهد عليه أنه زنى بأم جميل ، وشهد شبل ونافع بمثل ذلك ، ولم يشهد زياد بمثل شهادتهم ، إذ سأله هل تعرف المرأة ؟ قال : لا ولكن أشبهها . فنحاه وأمر بالثلاثة فجلدوا الحد وقرأ : « فَإِذْ لَمْ يَأْتُوا بِالشُّهَدَاءِ فَأُولَٰئِكَ عِنْدَ اللهِ هُمُ الْكَاذِبُونَ » فقال المغيرة : اشفنى من الأعبد . فقال : اسكت أسكت الله نأمتك (والنأمة كوردة الصوت أى أماتك الله) أما والله لو تمت الشهادة لرجمتك بأحجارك.

٢١٠ — كتاب عمر إلى أهل البصرة

وكتب إلى أهل البصرة :

« أما بعدُ : فإني قد بعثت أبا موسى أميراً عليكم ، ليأخُذ الضعيفكم من قويكم ، وليُقاتِل بكم عدوَّكم ، وليَدْفَع عن ذمَّتكم ، وليُحْصِيَ لكم فَيْئَكم ، ثم لِيَقْسِمَه بينكم ولِيُنَقِّيَ لَكُمْ طُرُقكم » . (تاريخ الطبرى ٤ : ٢٠٧)

٢١١ — كتاب عمر إلى أبي موسى الأشعرى

وكتب عمر رضى الله عنه إلى أبى موسى الأشعرى :

أما بعدُ : فإن للناس نُفْرَةً عن سلطانهم، فأعوذُ بالله أَنْ تُدْرِكَنِي، وإيَّاكَ عَمْياءَ[(١)] مجهولة ، وضغائنَ محمولة ، وأهواءً مُتَّبعة ، ودُنْيا مُؤْثَرة[(٢)] ، فأقِمِ الحُدُودَ ولو ساعةً من النهار ، وإذا عرَض لك أمران : أحَدُهما لله ، والآخر للدنيا ، فآثِرْ نصيبَك من الآخرة على نصيبك من الدنيا : فإن الدنيا تَنْفَدُ ، والآخرة تَبْقَى ، وكن من خَشْيَة الله على وَجَل ، وأَخِفِ الفُسَّاق واجْعَلْهم يَدًا يَدًا ، ورِجْلًا رِجْلًا[(٣)] وإذا كانت بين القبائل نائرةٌ[(٤)] ، وتَداعَوا ، يا لفلان ، فإنما تلك نَجْوَى[(٥)] الشيطان : فاضربهم بالسيف حتى يَفِيئوا[(٦)] إلى أمر الله ، وتكون دعوتهم إلى الله والإسلام ، واستدِمِ النعمةَ بالشكر ، والطاعةَ بالتألُّف ، والمقدرةَ والنُّصْرَةَ بالتواضع والمحبة للناس .

وقد بلغ أميرَ المؤمنين أن ضَبَّة تدعو يا لَضَبَّة ، وإني والله ما أعلمُ أن ضَبَّةَ ساقَ الله بها خيراً قَطُّ، ولا مَنَعَ بها من سوء قطّ ، فإذا جاءك كتابى هذا فانْهَكْهم عُقُوبةً[(٧)]

---

(١) العمياء والعماية : الغواية والضلال ، واللجاجة فى الباطل .

(٢) آثره : فضله وقدمه .

(٣) أى كبل أيديهم وأرجلهم بالأغلال والقيود .

(٤) النائرة : العداوة والشحناء .

(٥) النجوى : اسم من المناجاة وهى المسارة ، وفى العقد « فإنما تلك نخوة من الشيطان » والنخوة : الكبر والعظمة .

(٦) أى يرجعوا .

(٧) نهكه السلطان عقوبة من بابى نفع وتعب وأنهكه : بالغ فى عقوبته .

حتى يتفرقوا إن لم يَفقهوا ، والصَقْ بغَيْلان بن خَرَشَة من بينهم ، وعُدْ مَرْضَى المسلمين، واشْهَدْ جنائزَهم ، وافتح بابك لهم ، وباشِرْ أمرهم بنفسك ، فإنما أنت امْرُؤٌ منهم - غَيْرَ أن الله جَعَلَك أثقَلَهم حِمْلا .

وقد بلغ أمير المؤمنين أنه فَشَت لك ولأهل بيتك هيئةٌ فى لباسك ومطعَمك ومَرْكَبك ليس للمسلمين مثلها ، فإياك يا عبد الله أن تكون بمنزلة البَهيمة التى مَرّت بوادٍ خِصْب ، فلم يكن لها هِمّةٌ إلا السِّمَن ، وإنما حَتْفُها فى السِّمَن .

واعلم أن للعامل مَرَدًّا إلى الله ، فإذا زاغ العامِلُ زاغت رعيته . وأن أشقَى الناسِ من شَقِيَتْ به رعيَّته ، والسلام » . (البيان والتبيين ٢ : ١٥٥ ، والعقد الفريد ١ : ٢٨)

* * *

وجاء فى كتاب الخراج لأبى يوسف :

كتب عمر رضى الله عنه إلى أبى موسى :

« أما بعدُ : فإنَّ أسْعَدَ الرُّعاةِ عند الله مَنْ سَعِدَتْ به رعيَّته ، وإن أشقَى الرُّعاةِ مَنْ شَقِيَت به رعيَّته ، وإياك أن تَزِيغَ فَيزِيغ عُمَّالُك ، فيكون مَثَلُك عند الله مثل البهيمة : نظَرتْ إلى خُضْرة من الأرض فرَتَعَتْ فيها ، تبتغى بذلك السِّمَن ، وإنما حَتْفُها فى سِمَنِها ، والسلام[1] » . (كتاب الخراج ص ١٧)

٢١٢ — كتاب عمر إلى أبى موسى

وكتب إلى أبى موسى وهو بالبصرة :

« بلغنى أنك تأذَنُ للناس الجَمَّاء الغفيرَ[2] ، فإذا جاءك كتابى هذا فأْذَن لأهلِ الشَّرَف ، وأهل القرآن والتقوى والدين ، فإذا أخذوا مجالِسَهم فأْذَنْ للعامة ، ولا تؤخِّرْ

(١) أورد ابن أبى الحديد أيضا هذا الكتاب فى شرحه (م ٣ : ص ١١٩) وقال فى ديباجته كتبه عمر إلى بعض عماله ، وفيه « فتزيغ رعيتك » بدل « فيزيغ عمالك » .

(٢) تقول : جاءوا الجماء الغفير : أى جاءوا مجتمعين كثيرين ، وأصل الجماء من الجموم وهو الاجتماع والكثرة، والغفير من الغفر (كضرب) وهو التغطية والستر، فجعلت الكلمتان فى موضع الشمول والإحاطة.

عمل اليوم لغد ، فتَمَدَاكّ[1] عليك الأعمالُ فتضيعَ ، وإياك واتّباع الهَوَى ، فإن الناس أهواءٌ مُتّبعة، ودُنْيامُؤْثَرة ، وضغائن محمولة، وحاسب نفسك فى الرَّخاء قبل حساب الشدة فإنه من حاسب نفسَه فى الرّخاء قبل حساب الشدة كان مَرْجِعُه إلى الرضا والغِبْطة ، ومن أَلْهَتْهُ حياتُه ، وشغلَتْهُ أهواؤه ، عاد أمره إلى الندامة والحسرة ، إنه لايقيمُ أمْرَ الله فى الناس إلا حَصِيفُ[2] العُقْدَة ، بعيدُ القَرارة[3] ، لايَحْنَق على جِرَّة[4] ، ولا يطّلع الناسُ منه على عَوْرَة ، ولا يخاف فى الحقّ لَوْمَةَ لائم .

الزَم أربعَ خِصال يسلَمْ لك دينُك ، وتَحْظَ بأفضل حظّك : إذا حضر الخصمان فعليك بالبينات العُدُول ، أو الأيمان القاطعة ، ثم أَدْنِ الضعيف حتى ينبسطَ لسانُهُ ويجترئَ قلبه ، وتعاهَدِ الغريب فإنه إذا طال حبسُه ترَكَ حاجته وانصرف إلى أهله ، واحرِص على الصلح ما لم يَبِنْ لك القضاء[5] » .

(شرح ابن أبى الحديد م : ٣ ص ١١٩)

٢١٣ — كتاب عمر إلى أبى موسى

وكتب عمر إلى أبى موسى :

« إنه لم يزل للناس وُجوهٌ[6] يرفعون حوائجهم ، فأكرِمْ مَن قِبَلَك من وجوه الناس ، وبِحَسْبِ المسلم الضعيفِ من العدل أنْ يُنْصَف فى الحُكم وفى القَسْم » .

(تاريخ الطبرى ٥ : ١٨)

---

(١) أى تزدحم ، من تداك الناس عليه إذا ازدحموا .

(٢) حصف ككرم : استحكم عقله فهو حصيف ، وأحصف الحبل : أحكم فتله .

(٣) فى الأصل « القرة » وأراه محرفا عن القرارة ، والقرارة والقرار : ما قر فيه المــاء ، كنى بذلك عن حصافة عقله وبعد نظره . (٤) أحنق : حقد حقدا لاينحل . والجرة : ما يفيض به البعير فيأكله ثانية ، والمراد أنه لا يضمر الحقد والحنق .

(٥) انظر ص ١٨٦ . (٦) سادة وكبراء .

٢١٤ — كتاب عمر بن الخطاب إلى أبى موسى الأشعرى في القضاء

وكتب عمر بن الخطاب رضى الله عنه إلى أبى موسى الأشعرى :

« بسم الله الرحمن الرحيم : من عبد الله عمر بن الخطاب أمير المؤمنين إلى عبد الله ابن قيس : سلام عليك ، أما بعدُ : فإن القضاء فريضة مُحْكَمَة ، وسُنَّة مُتَّبَعة ، فافهمْ إذا أُدْلِىَ(١) إليك ، وانفُذْ إذا تبيَّن لك ، فإنه لاينفع تكلُّم بحق لانفاذَ له ، آسِ(٢) بين الناس فى وجهك وعدلك ومجلسك حتى لايطمعَ شريف فى حَيْفك(٣) ، ولا ييأسَ ضعيف من عدلك(٤) ، البيِّنَةُ على من ادَّعَى واليمينُ على من أنكر ، والصلحُ جائز بين المسلمين ، إلا صلحاً أَحَلَّ حراماً ، أو حَرَّم حلالا ، ولا يمنَعَنَّك قضاءٌ قضيتَه اليومَ(٥) فراجَعْتَ فيه عقلَك ، وهُدِيت فيه لِرُشْدك ، أن ترجِعَ إلى الحق(٦) ، فإن الحق قديم ، ومُراجعَة الحق خير من التمادى فى الباطل .

الفهمَ الفهمَ فيما تَلَجْلَجَ(٧) فى صدرك مما ليس فى كتاب الله ولا سنة النبى صلى الله عليه وسلم ، ثم اعرِفِ الأشباهَ والأمثالَ ، فقِسِ الأمورَ عند ذلك بنظائرها ، واعمِد إلى أقربها إلى الله ، وأشبهها بالحق ، واجعل لمن ادَّعى حقًّا غائباً أو بيِّنةً أمَداً يَنتهى إليه ، فإن أحضر بيِّنتَه أخذْتَ له بحقّه ، وإلاَّ استحلَلْتَ عليه القضية ، فإن ذلك أَنْفَى للشك ، وأجْلَى للعمَى ، وأبلغُ فى العُذر .

(١) أدلى بحجته : احتج بها . (٢) آس : سو بينهم ، وتقديره : اجعل بعضهم أسوة بعض .
(٣) أى فى ميلك معه لشرفه . (٤) وفى البيان والتبيين والعقد الفريد : « ولا يخاف ضعيف من جورك » وفى صبح الأعشى : « ولا ييأس ضعيف من عونك » .
(٥) فى البيان والتبيين ، والعقد الفريد وصبح الأعشى وإعجاز القرآن : « بالأمس » .
(٦) فى البيان والتبيين والعقد الفريد « أن ترجع عنه » .
(٧) تلجلج : تردد ، وأصل ذلك المضغة والأكلة يرددها الرجل فى فمه ، فلا تزال تتردد إلى أن يسيغها أو يقذفها ، والكلمة يرددها الرجل إلى أن يصلها بأخرى ، ويقال للصبى لجلاج ، ومن أمثال العرب : « الحق أبلج والباطل لجلج » أى يتردد فيه صاحبه فلا يصيب مخرجا .

المسلمون عُدُولٌ بعضُهم على بعض إلا مجلوداً فى حَدّ ، أو مجرَّبا عليه شَهادَةُ زور ، أو ظَنِينا[١] فى وَلاَء أو نَسَب ، فإن الله قد تولَّى منكم السرائر ، ودَرَأ[٢] بالبينات والأيمان ، وإياكَ والقَلَقَ[٣] ، والضَّجَرَ ، والتأذِّىَ بالخصوم ، والتنكُّر عند الخصومات ، فإن الحقّ فى مواطِن الحق يُعظِم الله به الأجْرَ ، ويُحْسِن به الذُّخْرَ ، فمن صحَّت نيتهُ ، وأقبل على نفسه ، كفاه الله ما بينه وبين الناس ، ومَن تخلق[٤] للناس بما يعلم اللهُ أنه ليس من نفسه ، شانَه اللهُ ، فما ظنُّك بثوابٍ عند الله[٥] عزّ وجل فى عاجِلِ رزقه وخزائن رحمته ! والسلام » .

(الكامل للمبرد ١ : ٧ ، والبيان والتبيين ٢ : ٢٤ ، والعقد الفريد ١ : ٢٧ ، وصبح الأعشى ١٠ : ١٩٣ ، وشرح ابن أبى الحديد م ٣ : ص ١١٩ ، وإعجاز القرآن ص ١١٧ ، وكتاب الخراج ص ١٤٠)

٢١٥ — كتاب سعد بن أبى وقاص إلى عمر

وسار سعد بن أبى وقّاص بعد انتصاره فى وَقْعة القادسيَّة ، حتى نزل على بَهُرَسِيرَ[٦] ، فبثّ الخيول ، فأغارت على ما بين دِجْلَة إلى من له عهدٌ من أهل الفرات ، فأصابوا مائة ألف فلاح ، فكتب سعد إلى عمر :

---

(١) ظنيناً : متهما ، وهو فعيل بمعنى مفعول من ظن المتعدية إلى واحد ، تقول ظننت زيدا وظننت بزيد أى اتهمته ، وفى قراءة : « وَمَا هُوَ عَلَى الْغَيْبِ بِظَنِينٍ » وإنما قال عمر رضى الله عنه ذلك لما جاء عن النبى صلى الله عليه وسلم : « ملعون ملعون من انتمى إلى غير أبيه ، أو ادعى إلى غير مواليه »

(٢) درأ : دفع . قال صلى الله عليه وسلم : « ادرءوا الحدود بالشبهات » وفى البيان والتبيين . « ودرأ عنكم بالشبهات » وفى العقد الفريد : « ودرأ عنكم الهنات » .

(٣) القلق : ضيق الصدر وقلة الصبر ، وأصله من أغلق عليه أمره إذا لم يتضح ولم ينفتح ، ومن ذلك قولهم « غلق الرهن » كفرح : أى استحقه المرتهن ، وذلك إذا لم يفتكك فى الوقت المشروط ، وفى البيان والتبيين : « ثم إياك والقلق والضجر ، والتأذى بالناس ، والتنكر للخصوم فى مواطن الحق التى يوجب الله بها الأجر ، ويحسن بها الذخر ، فانه من يخلص نيته فيما بينه وبين الله تبارك وتعالى ولو على نفسه ، يكفه الله ما بينه وبين الناس ، ومن تزين للناس بما يعلم الله خلافه منه ، هتك الله ستره ، وأبدى فعله ، والسلام عليك » وكذا فى العقد الفريد .   (٤) أى تكلف وتصنع .

(٥) فى الكامل للمبرد « بثواب غير الله » وهو تحريف .

(٦) هى المدينة الدنيا الغربية من مدائن كسرى على نهر دجلة .

« إنا وَرَدْنا بَهُرَسِيرَ بعد الذى لَقِينا فيما بين القادسية وبهرسير . فلم يأتنا أحد لقتال ، فبثَثْتُ الخيول . فجمعتُ الفلاَّحين من القُرَى والآجام ، فرَ رأيك » .

٢١٦ — رد عمر على كتاب سعد

فأجابه عمر :

« إنَّ مَن أتاكم من الفلاحين ، إذا كانوا مقيمين لم يُعِينوا عليكم ، فهو أمانُهم ، ومن هَرَب فأدركتموه فشأنكم به » .

فلما جاءه الكتاب خَلَّى عنهم . (تاريخ الطبرى ٤ : ١٦٨)

٢١٧ — كتاب عمر إلى سعد

وفتح سعد المدائن (سنة ١٦ هـ) وغادرها يزدجرد هاربا إلى حُلْوان ، ثم أتاه الخبر أن الفرس قد عسكروا بجَلُولاء بقيادة مِهْران ، وأن أهل المَوْصِل قد عسكروا بتَكْرِيت بقيادة الأنطاق .

فكتب بذلك إلى عمر ، فكتب إلى سعد :

« أن سَرِّح هاشم بن عتْبة إلى جَلُولاء فى اثنى عشر ألفاً . واجعل على مقدِّمته القَعْقاعَ بن عمرو ، وعلى ميمنته سِعْر بن مالك ، وعلى ميسرته عمرو بن مالك بن عُتْبة ، واجعل على ساقته عمرو بن مُرَّة الجُهَنِيّ » .

فسار إليها هاشم وافتتحها سنة ١٦ هـ ، وبلغ ذلك يزدجرد ، فخرج من حلوان سائرا نحو الرّيّ . (تاريخ الطبرى ٤ : ١٧٩)

٢١٨ — كتاب عمر إلى سعد

وكتب عمر إلى سعد :

« إنْ هَزَم الله الجندين : جند مِهْران وجند الأنطاق ، فقدِّم القعقاعَ حتى يكون بين السَّواد وبين الجبل على حَدِّ سوادكم » (تاريخ الطبرى ٤ : ١٧٩)

وفى خبر آخر أنه كتب إلى سعد :

« إنْ فتَح الله عليكم جَلُولاء ، فسَرِّح القَعْقَاعَ بن عَمرو فى آثار القوم ، حتى ينزل بحُلْوان ، فيكون رِدْءا للمسلمين ، ويُحْوِز الله لكم سوادكم » .

فلما فتح هاشم بن عُتبة جَلولاء ، أقام بها ، وخرج القعقاع فى آثار القوم إلى خانِقين ، فهزمهم وقتل مهران ، ثم سار إلى حُلوان ، وافتتحها سنة ١٦ هـ .

(تاريخ الطبرى ٤ : ١٨٥)

٢١٩ — كتاب عمر إلى سعد

وجمع سعدٌ مَنْ وراء المدائن ، وكتب فى ذلك إلى عمر ، فكتب إليه عمر :

«أن أَقِرَّ الفلاحين على حالهم ، إلا من حارَبَ أو هرَب منك إلى عدوك فأدركْتَه ، وأَجْرِ لهم ما أجْرَيْتَ للفلاحين قَبْلَهم ، وإذا كتبتُ إليك فى قوم ، فأَجْرُوا أمثالهم مُجراهم » .

فكتب إليه سعد فيمن لم يكن فلاحا ، فأجابه :

« أمَّا مَن سِوى الفلاَّحين،فذاك إليكم مالم تَغْنَمُوه « يعنى تقتسموه» ومَن تَرَك أرضَه من أهل الحرب فخلاَّها فهى لكم ، فإن دعوتموهم وقبلتم منهم الجِزَاءَ ، ورَدَدْتموهم قبل قسمتها فذِمَّةٌ ، وإن لم تدعوهم فَفَيْءٌ لكم ، لمن أفاء الله ذلك عليه » .

(تاريخ الطبرى ٤ : ١٨٣)

٢٢٠ — كتاب عمر إلى سعد

وكتبوا إلى عمر فى الصَّوافى[١] ، فكتب إليهم :

« أَنِ اعْمِدوا إلى الصوافى التى أصْفا كُموها[٢] اللهُ ، فوزِّعُوها على من أفاءها اللهُ

---

(١) الصوافى : الأملاك والأرض التى جلا عنها أهلها ، أو ماتوا ولا وارث لها ، واحدها صافية . وذلك أنه لم يثبت أحد من أهل السواد على العهد إلا أهل قريات أخذت عنوة ، فلما دعوا إلى الرجوع صاروا ذمةوعليهم الجزاء إلا ما كان لآل كسرى ومن لج معهم فانه صافية فيما بين حلوان والعراق .

(٢) أصفاه بكذا : آثره .

عليه ، أربعة أخماس للجند ، وخُمْس فى مواضعه إلىّ ؛ وإن أحبُّوا أن يَنْزِلوها فهو الذى لهم » . (تاريخ الطبرى ٤ : ١٨٤)

٢٢١ — كتاب عمر إلى سعد

وكتب عمر :

«أن احتازُوا فَيْئَكم ، فإنكم إن لم تفعلوا فتَقَادُمُ الأمرِ يُلْحِجُ(١) ، وقد قضيتُ الذى علىّ ، اللهمّ إنى أُشْهِدك عليهم فاشْهَدْ » . (تاريخ الطبرى ٤ : ١٨٤)

٢٢٢ — كتاب عمر إلى سعد

وكتب عمر إلى سعد :

« أنْ سَرِّحْ إلى الأنطاق عبدَ الله بن الْمُعْتَمّ ، واستعمِلْ على مقدمته رِبْعِيّ بن الأفْكَل العَنَزِىّ ، وعلى مَيْمَنته الحارث بن حَسَّان الذُّهْلِى ، وعلى مَيْسرته فُرَات بن حَيَّان العِجْلِىّ ، وعلى ساقته هانئ بن قيس ، وعلى الخيل عَرْفَجَة بن هَرْثَمَة » .

ففَصَل عبد الله بن الْمُعْتَمّ من المدائن إلى تَكريت ففتحها سنة ١٦ هـ .

(تاريخ الطبرى ٤ : ١٨٦)

٢٢٣ — كتاب عمر إلى سعد

ولما رجع هاشم بن عُتْبة من جَلُولاء إلى المدائن بلغ سعداً أن ابن الهُرْمُزان قد جمع جمعاً ، فخرج بهم إلى سَهْل ما سَبَذان ، فكتب بذلك إلى عمر ، فكتب إليه عمر :

« ابعث إليهم ضِرَار بن الخطاب فى جند ، واجعل على مقدمته ابن الهُذَيل الأسَدى وعلى مجَنِّبَتَيه عبد الله بن وَهْب الرَّاسِبىّ ، والمُضارب العِجْلِىّ » .

فخرج ضرار إليهم فهزمَهُم وقتل ابن الهرمزان . (تاريخ الطبرى ٤ : ١٨٧)

---

(١) لحج بينهم شر (كفرح) نشب ، فمعنى يلحج : يدعو إلى الخلاف عليه لنسيان حدوده وضوابطه ، ويفضى إلى نشوب الشر .

٢٢٤ — كتاب عمر إلى سعد

واجتمعت جموع أهل الجزيرة بعد وقعة جَلُولاء ، فأمدوا هِرَقْل على أهل حِمْص ، وبعثوا جنداً إلى أهل هِيت ، وكتب بذلك سعد إلى عمر ، فكتب إليه عمر :

« أن ابعث إليهم عمر بن مالك بن عُتْبة بن نَوْفل بن عبد مناف فى جند ، وابعث على مقدمته الحارث بن يزيد العامرى ، وعلى مجنبتيه رِبْعِىّ بن عامر ، ومالك ابن حبيب » .

فسار إليها عمر بن مالك وفتحها . (تاريخ الطبرى ٤ : ١٨٧)

٢٢٥ — كتب بين سعد وبين عمر

وقَدِمَتِ الوفود على عمر رضى الله عنه بفتح جَلُولاء وحُلوان وتَكريت فلما رآهم قال : واللهِ ما هيئتكم بالهيئة التى أبدأتم بها ، ولقد قَدِمَت وفود القادسية والمدائن ، وإنهم لكما أبدءوا ، فما غيَّرَكم ؟ قالوا : وُخُومة البلاد ، فنظر فى حوائجهم ، وعَجَّل سَرَاحهم .

وكتب حُذَيفة بن اليَمَان — وهو يومئذ مع سعد — إلى عمر :

« إن العرب قد أُتْرِفَتْ بطونُها ، وخفَّت أعضادُها ، وتغيَّرتْ ألوانُها » فكتب عمر إلى سعد : « أنبئنى : ما الذى غيَّر ألوان العرب ولحومهم ؟ » ، فكتب إليه سعد : « إن العرب خدَّدهم (١) ، وكَفَأ ألوانَهم ، وُخُومةُ المدائن ودجلة » ، فكتب إليه عمر : « إن العرب لا يوافقها إلا ما وَافقَ إبلَها من البُلدان » فابعث سَلْمان رائدًا وحُذَيفةَ — وكان رائدَى الجيش — فلْيَرتادا منزلاً بَرِّيًا بَحْرِيا . ليس بينى وبينكم فيه بحر ولا جِسر »

---

(١) أى هزل لحمهم ، وكفأ ألوانهم : أى غيرها من كفأ الإناء إذا كبه وقلبه .

فبعث سعد حذيفة وسلمان ـ الفارسى ـ فسار كل من جهة حتى اجتمعا بالكوفة ، والكوفة على حَصْباء[1] ، فأعجبتهما البُقْعة وأخبرا سعداً بها ، فتحول بالناس من المدائن إليها .

ولما نزل سعد الكوفة كتب إلى عمر :

« إنى قد نزلتُ بكوفةٍ مَنْزِلاً بين الحِيرة والفُرات بَرّيا بَحْريا يُنْبِت الحَلِىَّ والنَّصِىَّ[2] ، وخيَّرتُ المسلمين بالمدائن ، فمن أعجبه المُقَامُ فيها تركتُه فيها كالمَسْلَحَة : فبقى أقوام من الأفناء[3] ، وأكثرهم بنو عَبْس » .

وكان اختطاط الكوفة سنة ١٧ هـ . (تاريخ الطبرى ٤ : ١٨٩)

٢٢٦ ـ كتاب عمر إلى سعد

وخرج الروم وقد تكاتبوا هم وأهل الجزيرة يريدون أبا عبيدة والمسلمين بحِمْص ، فكتب إلى عمر بخروجهم عليه ، فكتب عمر إلى سعد بن أبى وقّاص :

« أن انْدُب الناس مع القَعْقاع بن عمرو ، وسَرِّحهم من يومهم الذى يأتيك فيه كتابى إلى حِمْص ، فإنّ أبا عبيدة قد أُحِيط به ، وتقدَّمْ إليهم فى الجِدِّ والحَثّ » .

(تاريخ الطبرى ٤ : ١٩٥)

٢٢٧ ـ كتاب عمر إلى سعد

وكتب أيضاً إليه :

« أن سَرِّح سُهَيل بن عَدِىّ إلى الجزيرة فى الجند ، ولْيَأْتِ الرَّقَّةَ ، فإن أهل الجزيرة هم الذين استثاروا الروم على أهل حِمْصَ ، وإن أهل قَرْقِيسِياء لهم سَلَف ،

---

(١) وكل رملة حمراء يقال لها سهلة (بالكسر)، وكل حصباء ورمل هكذا مختلطين فهو كوفة.

(٢) النصى : نبت ، يقال له نصى مادام رطبا ، فاذا ضخم ويبس فهو الحلى ، وهو من خير مراتع أهل البادية للنعم والخيل . (٣) الأفناء: الأخلاط جمع فنو بالكسر ،ويقال هو من أفناء القبائل: أى لا يدرى من أى قبيلة هو .

وسَرِّح عبد الله بن عِتْبان إلى نَصِيبين ، فإن أهل قَرْقِيسِياء لهم سَلَف ، ثم لِيَنْفضا[1] حَرَّان والرُّهاءَ ، وسرِّح الوليد بن عُقْبة على عرب الجزيرة من ربيعة وتَنُوخ ، وسَرِّح عِياضاً، فإن كان قتال فقد جعلتُ أمرهم جميعاً إلى عِياض بن غَنْم » .

(تاريخ الطبرى ٤ : ١٩٥)

٢٢٨ — كتاب عمر إلى أبي عبيدة

ولما بلغ أهل الجزيرة الذين أعانوا الروم ، واستثاروهم أن الجنود قد ضَرَبت من الكوفة،ولم يدروا: الجزيرة يريدون أم حِمْص، تفرقوا إلى بلدانهم، وخلَّوا الروم،وعندئذ قاتل أبو عبيدة الروم فانتصر عليهم،وقدم القعقاع فى أهل الكوفة فى ثلاث من يوم الوَقْعة، فكتب أبو عبيدة إلى عمر بالفتح ، وبقدوم المدد عليهم فى ثلاث ، وبالحكم فى ذلك ، فكتب إليه عمر : « أن أشرِكوهم فإنهم قد نفروا إليكم ، وتفرّق لهم عدوكم » وقال : « جَزَى الله أهلَ الكوفة خيراً ، يكفون حَوْزَتَهم ويُمِدّون أهلَ الأمصار » .

(تاريخ الطبرى ٤ : ١٩٦)

٢٢٩ — كتاب عمر إلى سعد

وفى خبر أن عمر كتب إلى سعد :

« إن الله قد فتح على المسلمين الشأم والعراق ، فابعَثْ من عندك جنداً إلى الجزيرة، وأمِّر عليهم أحد الثلاثة : خالد بن عُرْفُطَة ، أو هاشم بن عُتْبة ، أو عِياض بن غَنْم » .

فلما انتهى إلى سعد كتاب عمر ، قال : ما أخَّر أمير المؤمنين عياض بن غنم آخِرَ القوم إلا أنه له فيه هوًى أنْ أوَلِّيَه ، وأنا مُوَلِّيه .

وخرج عياض هو ومن معه إلى الجزيرة فافتتحوها سنة ١٧ هـ .

(تاريخ الطبرى ٤ : ١٩٦)

---

(١) أى ليحركا ، والمعنى ليقاتلا .

٢٣٠ – عهد عياض بن غنم لأهل البصرة

وكتب عِياض بن غَنْم لأهل الرَّقَّة كتابا ، وهو :

« بسم الله الرحمن الرحيم . هذا ما أعطى عِياض بن غَنْم أهلَ الرَّقة يوم دَخَلها : أعطاهم أمانا لأنفسهم وأموالهم وكنائسهم لا تُخَرَّب ولا تُسكَن إذا أعطَوا الجِزية التى عليهم ، ولم يُحْدِثُوا غِيلَةً[1] ، وعلى أن لا يُحْدِثوا كنيسةً ولا بِيعةً ، ولا يُظْهِروا ناقوساً ، ولا باعُوثاً[2] ، ولا صليبا ، وَكَفى بِاُللهِ شَهِيداً » .

(فتوح البلدان للبلاذرى ص ١٨١)

٢٣١ – كتاب عياض إلى أسقف الرها

وكتب عياض إلى أُسْقُفّ الرُّها :

« بسم الله الرحمن الرحيم . هذا كتاب من عياض بن غنم لأُسْقُفّ الرُّها ، إنكم إن فتحتم لى باب المدينة على أن تُؤَدّوا إلىّ عن كل رجل ديناراً ومُدَّىْ[3] قمحٍ ، فأنتم آمنون على أنفسكم وأموالكم ومن تبعكم ، وعليكم إرشادُ الضَّالِّ ، وإصلاحُ الجُسور والطرُق ، ونصيحةُ المسلمين ، شَهِدَ اللهُ وَكَفى بِاُللهِ شَهِيداً » .

(فتوح البلدان للبلاذرى ص ١٨٢)

٢٣٢ – عهد عياض لأهل الرها

وكتب لأهل الرُّها :

« بسم الله الرحمن الرحيم . هذا كتاب من عياض بن غَنْم ومن معهُ من المسلمين لأهل الرها ، إنى أَمَّنتهم على دمائهم وأموالهم ، وذَرارِيِّهم ونسائهم ، ومدينتهم

---

(١) الغيلة : الخديعة والاغتيال ، وفى الأصل « مغيلة » ولم أجدها ، وفى لسان العرب : فلان قليل الغائلة والمغالة : أى الشر . (٢) الباعوث عند النصارى كالاستسقاء عندنا .

(٣) المد : مكيال ، وهو ملء كفى الانسان المعتدل اذا ملأهما ومد يديه بهما .

وطواحينهم ، إذا أدَّوا الحق الذى عليهم ، ولنا عليهم أن يُصْلحوا جسورنا ، ويَهْدُوا ضالَّنا ، شَهِدَ ٱللهُ وَمَلاَئِـكَتُهُ وَالْمُسْلِمُونَ » . (فتوح البلدان للبلاذرى ص ١٨٢)

٢٣٣ - كتاب عمر إلى ملك الروم

وفى أثناء فتح الجزيرة ارتحلت إياد بن نِزار ، واقتحموا أرض الروم ، فكتب بذلك الوليد بن عُقْبة إلى عمر ، فكتب عمر إلى ملك الروم :

« إنه بلغنى أن حَيًّا من أحياء العرب تَرَكَ دارَنا وأَتَى دارك ، فوالله لتُخْرِجَنَّه ، أو لَنَنْبِذَنَّ(١) إلى النصارى ، ثم لَنُخْرِجَنَّهُمْ إليك » .

فأخرجهم ملك الروم . (تاريخ الطبرى ٤ : ١٩٨)

٢٣٤ - كتاب عمر إلى حرقوص بن زهير

وافتتح حُرْقُوص بن زُهَيْر السَّعْدى سُوقَ الأهواز ، وانهزم الهُرْمُزَان وتوجَّه إلى رَامَهُرْمُز ، ثم طلب الصلح فأُجيب إليه ، وبلغ عمر أن حُرْقوصا نزل جبل الأهواز ، والناس يختلفون إليه ، والجبل كَئُود(٢) يَشُقُّ على مَنْ رامه ، فكتب إليه :

« بلغنى أنك نزلتَ مَنْزِلا كَئُودًا ، لا تُؤْتَى فيه إلا على مشقَّة ، فأَسْهِلْ(٣) ، ولا تشُقَّ على مُسْلِم ، ولا مُعاهَد ، وقُمْ فى أمرك على رِجْل(٤) تُدْرِكِ الآخرة ، وتَصْفُ لك الدنيا ، ولا تُدْرِكَنَّك فَتْرَةٌ ، ولا عَجَلَة ، فتُكَدِّرَ دنياك ، وتُذْهِبَ آخرتك .

(تاريخ الطبرى ٤ : ٢١٢)

---

(١) يقال : نابذناهم الحرب ، ونبذنا إليهم الحرب على سواء ، والمنابذة : أن يكون بين فريقين مختلفين عهد وهدنة بعد القتال ، ثم أرادا نقض ذلك العهد ، فينبذ كل فريق منهما إلى صاحبه العهد الذى تهادنا عليه . (٢) كئود : صعب .

(٣) أى انزل السهل ، وشق عليه الأمر : صعب ، وشق على فلان أوقعه فى المشقة .

(٤) الرجل بالكسر : الخوف والفزع من فوت الشىء ، يقال : أنا من أمرى على رجل : أى على خوف من فوته .

٢٣٥ – كتاب عمر إلى سعد

ولم يزل يَزْدَجِرْدُ يُثير أهلَ فارس، أسَفاً على ما خرج منهم، فتحركوا وكاتبوا أهل الأهواز، وتعاقدوا وتواثقوا على النُّصرة، وبلغ ذلك عمر، فكتب إلى سعد – أمير الكوفة –:

أن ابْعَثْ إلى الأهواز بَعْثاً كَثِيفاً مع النُّعمان بن مُقَرِّن وعجِّل، وابعث سُوَيْد ابن مُقَرِّن، وعبد الله بن ذى السَّهمين، وجَرير بن عبد الله الحِمْيَرى، وجَرير ابن عبد الله البَجَلى، فلْيَنْزِلوا بإزَاء الهُرْمُزان حتى يتبيَّنوا أمره.

(تاريخ الطبرى ٤ : ٢١٥)

٢٣٦ – كتاب عمر إلى أبى موسى

وكتب إلى أبى موسى – أمير البصرة –:

« أن ابْعَث إلى الأهواز جنداً كثيفاً، وأمِّر عليهم سَهْل بن عَدِىّ أخا سُهَيل ابن عدىّ، وابعث معه البَرَاء بن مالك، وعاصم بن عمرو، ومَجْزَأة بن ثَوْر، وكَعْب بن سُور، وعَرْفَجَة بن هَرْثَمَة، وحُذَيفَة بن مِحْصَن، وعبد الرحمن بن سَهْل، والحُصَيْن بن مَعْبَد، وعلى أهل الكوفة، وأهل البصرة جميعاً أبو سَبْرة بن أبى رُهْم، وكل من أتاه مَدَدٌ له ».

وخرجت جيوش المسلمين إلى الأهواز، والهُرْمُزان يومئذ برامَهُرْمُز، فلما سمع بتسيرهم إليه بادَرَهم الشدَّة، واقتتل الفريقان قتالا شديداً، وهزم الهرمزان، ولَحِق بتُسْتَر، فتبعه المسلمون إليها، وحاصروها ثم فتحوها وأسروا الهرمزان، وأوفده أبو سَبْرة إلى عمر، وقد أسلم بين يديه.

(تاريخ الطبرى ٤ : ٢١٥)

٢٣٧ - كتاب عمر إلى أبي سبرة

وساروا إلى السُّوسِ ففتحوها ، ثم نزلوا على جُنْدَيْسَابُور فحاصروها ، وما زالوا مقيمين عليها ، حتى رُمِيَ إليهم بالأمان من عسكر المسلمين ، فإذا أبوابها تفتح ، فأرسل إليهم المسلمون أنْ مالكم ؟ قالوا رميتم إلينا بالأمان فقبلناه ، فقالوا : ما فعلنا ، فقالوا : ما كذَبْنا ، فسأل المسلمون فيما بينهم، فإذا عَبدٌ يُدعَى مُكنِفاً كان أصله منها هو الذى كتب لهم ، فقالوا : إنما هو عبد ، فقالوا : إنا لانعرف حُرَّكم من عبدكم ، قد جاء أمان فنحن عليه قد قبلناه ولم نُبدِّل ، فإن شئتم فاغدِروا ، فأمسَكُوا عنهم ، وكتبوا بذلك إلى عمر ، فكتب إليهم :

« إن الله عظَّم الوفاء ، فلا تكونوا أوفياء حتى تَفُوا مادمتم فى شك ، أَجيزُوهم وفُوا لهم » .

فوَفوا لهم وانصرفوا عنهم . (تاريخ الطبرى ٤ : ٢٢١)

٢٣٨ - كتاب النعمان بن مقرن إلى عمر

وكان النُّعمان بن مقرِّن عاملا على كَشْكَر ، فكتب إلى عمر رضى الله عنه يخبره « أن سعد بن أبى وقَّاص استعمله على جِباية الخراج، وقد أحببتُ الجهاد، ورغبتُ فيه » .

(تاريخ الطبرى ٤ : ٢٣١)

* * *

وروى أنه كتب إلى عمر :

« يا أمير المؤمنين إن مَثَلى ومثل كَشْكَر كمثل رجل شابٍّ إلى جَنْبه مُومِسَة[1] تَلوَّنُ له وتَعطَّرُ ، فأنشُدُك اللهَ لَمَا عزَلْتَنِى عن كَشْكَر ، وبعثْتَنى إلى جيش من جيوش المسلمين » . (تاريخ الطبرى ٤ : ٢٣٩ ، وكتاب الخراج ص ٣٨)

(١) امرأة مومس ومومسة : فاجرة أو مجاهرة بالفجور ، من الومس كوعد ، وهو احتكاك الشىء بالشىء حتى ينجرد ، وأومست : أمكنت من الومس .

٢٣٩ — كتاب عمر إلى سعد

فكتب عمر إلى سعد :

« إن النعمان كتب إلىّ يذكر أنك استعملته على جباية الخراج ، وأنه قد كَرِه ذلك ورَغِب فى الجهاد ، فابْعَث به إلى أهم وجوهك : إلى نَهاوَنْد » .

(تاريخ الطبرى ٤ : ٢٣١)

٢٤٠ — كتاب عبد الله بن عبد الله بن عتبان إلى عمر

وكانت جموع الفرس قد تجمَّعت بِنَهاوَنْد ، وتأهَّبوا لقتال المسلمين ، وبلغ الخبر سعداً، وقد استخلف عبد الله بن عبد الله بن عِتْبان على الكوفة، وشَخَص إلى عمر فلَقِيه بالخبر مُشافَهَةً ، وقد كان كتب إلى عمر بذلك وقال : إن أهل الكوفة يستأذنونك فى الإنسياح فى أن يبادروهم الشِّدَّة — وقد كان عمر مَنَعَهم من الإنسياح فى الجبل — وكتب إليه أيضاً عبد الله :

« إنه قد تَجَمَّع منهم خمسون ومائة ألفِ مقاتل ، فإن جاءونا قبل أن نُبَادرهم الشِّدَّة ، ازدادوا جُرْأةً وقوة ، وإن نحن عاجَلْناهم كان لنا ذلكم عليهم » .

(تاريخ الطبرى ٤ : ٢٣٧)

٢٤١ — كتاب عمر إلى النعمان بن مقرن

فكتب عمر إلى النعمان بن مُقَرِّن :

« بسم الله الرحمن الرحيم . من عبد الله عمر أمير المؤمنين إلى النعمان بن مقرن ، سلام عليك ، فإنى أحمَدُ إليك اللهَ الذى لا إله إلا هو ، أما بعد : فإنه قد بلغنى أن جموعا من الأعاجم كثيرة قد جَمَعوا لكم بمدينة نهاوند ، فإذا أتاك كتابى هذا ، فسِرْ بأمر الله ، وبعَوْن الله ، وبنصر الله بمن معك من المسلمين ، ولا تُوطِئْهم وَعْراً فتُؤْذيَهم ،

ولا تَمْنَعْهم حقّهم فتُكفرهم ، ولا تُدْخِلنّهم غَيْضَةً ، فإن رجلا من المسلمين أحبُّ إليَّ من مائة ألف دينار ، والسلام عليك » . (تاريخ الطبرى ٤ : ٢٣٢)

٢٤٢ - كتاب عمر إلى النعمان بن مقرن

وكتب عمر إليه أيضًا :

« إنى قدْ وَلَّيتك حَرْبَهم ، فسِرْ من وجهك ذلك حتى تأتِيَ « ماهَ » فإنى قد كتبتُ إلى أهل الكوفة أن يُوافُوك بها ، فإذا اجتمع لك جنودك فسِرْ إلى الفَيْرُزان ، ومن تجمَّع إليه من الأعاجم من أهل فارس وغيرهم ، واستنصِرُوا الله ، وأكْثِروا من قول : لاحَوْلَ ولا قُوَّةَ إلا بالله » . (تاريخ الطبرى ٤ : ٢٣٩)

٢٤٣ - كتاب عمر إلى عبد الله بن عبد الله بن عتبان

وكتب عمر إلى عبد الله بن عبد الله بن عِتْبان :

« أنِ اسْتَنفِرْ من أهل الكوفة مع النعمان كذا وكذا ، فإنى قد كتبتُ إليه بالتوجُّه من الأهواز إلى « ماه » فليُوافُوه بها ، ولْيَسِرْ بهم إلى نهاوند ، وقد أمَّرتُ عليهم حُذَيفَة بن اليمان ، حتى ينتهِيَ إلى النعمان بن مقرِّن ، وقد كتبت إلى النعمان: إن حَدَثَ بك حَدَثٌ فعلى الناس حُذيفة بن اليمان ، فإن حَدَث بحذيفة حَدَثٌ . فعلى الناس نُعيْم بن مُقَرِّن » . (تاريخ الطبرى ٤ : ٢٣٩)

٢٤٤ - كتاب عمر إلى القواد بفارس

وكتب عمر إلى قوّاد فارس الذين كانوا بين فارس والأهواز :

« أن اشْغَلوا فارس عن إخوانكم ، وحُوطوا بذلك أمّتكم وأرضكم ، وأقيموا على حدود ما بين فارس والأهواز حتى يأتِيَكم أمرى » .

(تاريخ الطبرى ٤ : ٢٣٩)

٢٤٥ — عهد النعمان بن مقرن لأهل ماه بهراذان

وأتى النعمان بن مُقَرِّن ماه بَهْرَاذَان فجاءه أهلها يطلبون الصلح فأجابهم وكتب لهم كتاباً ، نصه :

« بسم الله الرحمن الرحيم ، هذا ما أعطى النعمان بن مُقَرِّن أهل ماه بَهْرَاذان: أعطاهم الأمان على أنفسهم وأموالهم وأراضيهم، لا يُغيَّرون عن ملّة، ولا يحال بينهم وبين شرائعهم، ولهم المَنعةُ ما أدَّوا الجزية فى كل سنة إلى مَن وَلِيَهم، على كل حَالِمٍ فى ماله ونفسه على قدر طاقته، وما أرشَدُوا ابنَ السبيل ، وأصلحوا الطرقَ ، وقَرَوا[1] جنودَ المسلمين ممن مَرَّ بهم فأَوى إليهم يوما وليلة، ووَفَوْا ونصَحُوا ، فإن غشُّوا وبدَّلوا فذمَّتنا منهم بريئة » .

شهد عبد الله بن ذى السَّهْمين والقعقاع بن عمرو وجرير بن عبد الله .

وكتب فى المحرم سنة تسع عشرة .

* * *

وكتب حُذَيفة بن اليَمَان لأهل ماه دينار كتابا صورته كذلك .

(تاريخ الطبرى ٤ : ٢٤٠)

٢٤٦ — كتاب عمر إلى النعمان بن مقرن

ولما قَدِم أهل الكوفة على النعمان بالطَّزَر جاءه كتاب عمر :

« إن معك حَدَّ العرب ورجالهم فى الجاهلية فأَدْخِلْهم دون من هم دونهم فى العلم بالحرب ، واستعِنْ بهم ، وَأَشْرِبْ[2] برأيهم ، وسَلْ طُلَيْحة وعَمرًا وعَمرًا[3] ، ولا تولِّهم شيئاً » . (تاريخ الطبرى ٤ : ٢٤٠)

---

(١) أى أضافوهم وأكرموهم . (٢) شرب : أى روى ، والمعنى : وتقو برأيهم .

(٣) هم طليحة بن خويلد الأسدى ، وعمرو بن أبى سلمى العنزى ، وعمرو بن معد يكرب الزبيدى ، وقد بعث بهم النعمان طليعة من الطزر ليكشفوا له الطريق إلى نهاوند ، ونجح منهم فى ذلك طليحة ، فأتى النعمان وأعلمه أن ليس بينه وبين نهاوند شىء يكرهه .

٢٤٧ ـ كتاب عمر إلى النعمان

وسار النعمان بجيشه إلى نَهاوند حتى نزل عليها ، وكتب إليه عمر :

« إذا لَقِيتم العدوَّ فلا تَفِرّوا ، وإذا غَنِمتم فلا تَغُلُّوا[1] » .

(كتاب الخراج ص ٤٠)

ونشِب القتال بين الفريقين ، ودارت الدائرة على جيش الفرس ، وفتحت نهاوند سنة ١٩ هـ ، غير أن النعمان اسْتُشْهِد فى أثناء المعركة ، فسَجَّاه[2] أخوه نُعَيم بن مُقَرِّن بثوب ، وكَتَم قَتْلَه عن الجند لئلا يَهِنوا حتى فَتَح الله عليهم .

٢٤٨ ـ كتاب عمر إلى نعيم بن مقرن

وانهزم الفرس هاربين نحو همَذان فكتب عمر إلى نُعَيم بن مُقَرِّن :

« أن سِرْ حتى تأتِيَ همَذان ، وابعث على مُقَدّمتك سُوَيْد بن مُقَرِّن ، وعلى مجنَّبتيك رِبْعِيّ بن عامر ومُهَلْهِل بن زيد .

فسار إليها نعيم وافتتحها . (تاريخ الطبرى ٤ : ٢٥١)

٢٤٩ ـ كتاب عمر إلى عبد الله بن عبد الله بن عتبان

ولما أتى عمرَ فتحُ نهاوند ، ورأى أن يَزْدَجِرد يبعث عليه فى كل عام حربا ، أَذِن الناس فى الانسياح فى أرض العجم ، فكتب إلى عبد الله بن عبد الله بن عِتبان :

أنْ سِرْ من الكوفة حتى تنزلَ المدائن ، فانْدُبهم ولا تنتخِبْهم ، واكتب إلىّ بذلك » ثم سَيَّره إلى أصبهان . (تاريخ الطبرى ٤ : ٢٤٦)

---

(١) غل : كنصر . وأغل : خان . (٢) تسجية الميت : تغطيته .

٢٥٠ — كتاب عمر إلى أهل الكوفة

وكتب عمر إلى أهل الكوفة :

إنى بعثتُ إليكم عَمَّار بن ياسر أميراً ، وجعلت عبد الله بن مسعود مُعَلِّما ووزيراً ، ووليّت حُذَيفة بن اليَمان ماسَقَتْ دِجْلَةُ ، وما وراءها ، ووليّتُ عثمان بن حُنَيف الفُرَاتَ وما سَقَى » . (تاريخ الطبرى ٤ : ٢٤٧)

٢٥١ — عهد عبد الله بن عبد الله للفاذوسفان وأهل أصبهان

وسار عبد الله بن عبد الله إلى أصبَهان ، ومَلِكها يومئذ الفَاذُوسفان ، ونزل بالناس على « جَىَّ » فحاصرهم ، ثم طلب الفاذوسفان المصالحة ، فصالحه عبد الله ، وكتب له كتاباً نصه :

« بسم الله الرحمن الرحيم . كتاب من عبد الله بن عبد الله للفاذوسفان وأهل أصْبَهان وما حواليَها .

إنكم آمنون ما أدَّيتم الجزية ، وعليكم من الجزية بقدر طاقتكم فى كل سنة ، تُؤَدُّونها إلى الذى يَلى بلادكم ، عن كل حالم ، ودَلالةُ المسلم ، وإصلاحُ طريقه ، وقِرَاهُ يوماً وليلةً ، وحُمْلان[1] الرَّاجِلَة إلى مَرْحَلَة ، لا تُسلطوا على مسلم .

وللمسلمين نُصْحُكم وأداء ما عليكم ، ولكم الأمانُ ما فعلتم ، فإذا غيَّرتم شيئاً أو غيّره مغيِّرٌ منكم ولم تُسَلِّموه فلا أمانَ لكم ، ومن سَبَّ مسلماً بُلِغ منه فإن ضربه قتلناه » .

وكتب وشهد عبد الله بن قيس ، وعبد الله بن وَرْقاء وعصمة بن عبد الله .

(تاريخ الطبرى ٤ : ٢٤٨)

(١) الحملان مصدر حمل كالحمل . والمرحلة : المسافة التى يقطعها المسافر فى نحو يوم .

٢٥٢ ـ كتاب عمر إلى عبد الله بن عبد الله

وكتب عبد الله بن عبد الله بذلك إلى عمر ، فكتب إليه عمر :

« أن سِرْ حتى تَقْدَم على سُهَيل بن عدِيّ ، فتجامِعَه على قتال من بكَرْمان ، وخلِّف فى جَىّ مَنْ بَقِى عن جَىّ ، واستخلِفْ على أصْبَهان السائِبَ بن الأقرع » .

(تاريخ الطبرى ٤ : ٢٤٨)

٢٥٣ ـ كتب بين عمر وبين حذيفة بن اليمان

وبعث عمر إلى حُذَيْفة بن اليَمَان بعد ما ولّاه المدائن :

« إنه بلغنى أنك تزوجت امرأة من أهل المدائن من أهل الكتاب فطلِّقْها »

فكتب إليه :

« لا أفعلُ حتى تُخبِرَنى : أحَلالٌ أم حَرَامٌ ؟ وما أردتَ بذلك » فكتب إليه :

« لا ، بل حلال ، ولكن فى نساء الأعاجم خِلابة[1] ، فإن أقبلتم عليهن غَلَبْنكم على نسائكم » .

فقال : الآن « فطَلَّقها » . (تاريخ الطبرى ٤ : ١٤٧)

٢٥٤ ـ كتب بين عمر وبين عثمان بن حنيف

وأقطع عمرُ رضى اللهُ عنه نفراً منهم جَرِير بن عبد الله ، فكتب إلى عثمان ابن حُنيف مع جرير :

« أما بعدُ : فأَقْطِع جرير بن عبد الله قَدْرَ ما يقُوته ، لا وَكْسَ[2] ، ولا شَطَطَ » ، فكتب عثمان إلى عمر :

---

(١) خلبه كنصره : خلبا بالفتح وخلابا وخلابة بالكسر : خدعه .
(٢) الوكس : التنقيص .

« إن جريراً قَدِم عليَّ بكتاب منك تُقْطِعه ما يقوته ، فكرِهت أنْ أُمضِيَ ذلك حتى أراجعَك فيه » .

فكتب إليه عمر :

« أنْ قد صَدَقَ جرير فأنفِذْ ذلك ، وقد أحسنتَ فى مُؤامرتى[1] » .

(تاريخ الطبرى ٤ : ١٤٨)

٢٥٥ - كتاب عمر إلى نعيم بن مقرن

وبينا نُعَيم بن مُقَرِّن فى هَمَذان ، تكاتب الدَّيْلمُ ، وأهلُ الرَّىِّ ، وأهل أَذْرَبِيجان ، واجتمعت جموعهم بواج رُوذ ، وبلغ الخبر نعيماً فاستخلف يزيد بن قيس ، وخرج إليهم ، واقتتلوا قتالاً شديداً كان النصر فيه حليف المسلمين ، ثم كتب إلى عمر بالفتح ، فكتب إليه عمر :

« أما بعدُ : فاستخلِف على هَمَذان ، وأمِدَّ بُكَيْر بن عبد الله بِسماك بن خَرَشَة[2] ، وسِرْ حتى تَقْدَمَ الرَّىَّ ، فتَلْقَى جمعهم ، ثم أَقِمْ بها ، فإنها أوسطُ تلك البلاد ، وأجمعُها لِمَا تريد » .

فأقرَّ نعيم يزيد بن قيس الهَمْدانى على هَمَذان ، وسار إلى الرىّ ففتحها ، وكتب إلى عمر بالفتح . (تاريخ الطبرى ٤ : ٢٥٢)

٢٥٦ - عهد نعيم بن مقرن لأهل الرى

وكتب نعيم لأهل الرى كتابا ، نصه :

« بسم الله الرحمن الرحيم . هذا ما أعطى نُعَيم بن مُقَرِّن الزينبى بن قُولهْ ، أعطاه الأمانَ على أهل الرَّىِّ ، ومن كان معهم من غيرهم ، على الجزاء طاقةَ كلِّ حالِمٍ فى كل سنة ، وعلى أن يَنْصحوا وَيَدلُّوا ، ولا يَغُلُّوا ولا يَسُلُّوا[3] ، وعلى أن يَقْرُوا المسلمين

---

(١) المؤامرة : المشاورة . (٢) ليعينه على فتح أذربيجان .

(٣) غل كنصر ، وأغل : خان ، وسل كنصر أيضا . وأسل: سرق .

يوما وليلةً ، وعلى أن يفخِّموا المسلمَ ، فمن سب مسلماً ، أو استخفَّ به ، نُهِكَ عُقوبةً[١] ، ومن ضربه قُتِل ، ومن بدَّل منهم فلم يُسَلِّمْ بِرمَّته فقد غيَّر جماعَتَكم » ،
وكتب وشهد . (تاريخ الطبرى ٤ : ٢٥٣)

٢٥٧ — عهد نعيم بن مقرن لأهل دنباوند

وأرسله المصْمَغان فى الصلح على شيء يفتدى به منهم من غير أن يسأله النصر والمنعة ، فقبل منه ، وكتب بينه وبينه كتاباً ، نصه :

« بسم الله الرحمن الرحيم . هذا كتاب من نُعيم بن مقرِّن لِمَرْدانْشاه مَصْمَغان دُنْباوَنْد ، وأهلِ دُنْباوند ، والخُوَار ، واللارِز ، والشِّرِّز :

« إنك آمِنٌ ومن دخل معك ، على الكَفِّ : أن تَكُفَّ أهل أرضك ، وتتقى مَنْ وَلِيَ الفرْجَ[٢] بمائتى ألف درهمٍ وَزْنَ سَبعةٍ[٣] فى كل سنة ، لا يُغار عليك ، ولا يُدْخل عليك إلا بإذن ، ما أقمتَ على ذلك حتى تغيِّر ، ومن غيَّر فلا عهدَ له ولا لِمَنْ لم يُسلِّمه» .

وكتب وشهد . (تاريخ الطبرى ٤ : ٢٥٣)

---

(١) أى بولغ فى عقوبته .
(٢) الفرج : الثغر وموضع المخافة .
(٣) أى وزن كل عشرة دراهم سبعة مثاقيل ، وذلك أن الدراهم فى عهد عمر كانت مختلفة ، فنها ما كان وزن عشرة دراهم منه على وزن عشرة مثاقيل ،ومنها ما وزن العشرة منه على وزن ستة مثاقيل، ومنها وزن العشرة منه على وزن خمسة مثاقيل ، فاختلف أصحاب الأموال وعمال بيت المال ، فأراد الأولون أن يؤدوها من النوع الثالث ، وأبى الآخرون أن يأخذوها إلا من النوع الأول ، فجمع عمر رضى الله عنه الأنواع الثلاثة وأخذ ثلثها فكان سبعة ، فصار المعتبر من ذلك الوقت أن وزن عشرة دراهم سبعة مثاقيل فى كل المقدرات الشرعية،حتى فى الزكاة ونصاب السرقة والمهر وتقدير الديات،منعاً للخصومة فى المعاملة . انظر حاشية ابن عابدين على الدرج ٢ص ٢٨ ، وشرح العناية على الهداية ،وشرح فتح القدير ج ١ ص ٥٢١ وفتوح البلدان للبلاذرى ص ٤٧١ .

٢٥٨ – كتاب عمر إلى نعيم بن مقرن

ولما كتب نُعيم بفتح الرَّىِّ إلى عمر ، كتب إليه عمر :

« أنْ قَدِّمْ سُوَيد بن مُقَرِّن إلى قُومِس ، وابعَثْ على مقدِّمته سِمَاك بن مَخْرَمة ، وعلى مجنِّبَتَيه عُتَيْبة بن النَّهاس ، وهِند بن عمرو الجَملى » .

فصَل سُوَيدنحو قومِس وفتحها . (تاريخ الطبرى ٤ : ٢٥٤)

٢٥٩ – عهد سويد بن مقرن لأهل قومس

وكتب سويد لأهل قومس كتاباً نصه :

« بسم الله الرحمن الرحيم . هذا ما أعطى سُوَيد بن مقَرِّن أهل قومس ، ومن حَشَوا ، من الأمان على أنفسهم ومِلَّهم وأموالهم ، على أن يُؤَدُّوا الجزية عن يَدٍ ، عن كل حالم بقدر طاقته ، وعلى أن ينصحوا ، ولا يَغُشُّوا ، وعلى أن يَدُلُّوا ، وعليهم نُزُل[1] مَن نَزَل بهم من المسلمين يوما وليلةً من أوسطِ طعامهم ، وإن بَدَّلوا واستخفُّوا بعهدهم فالذِّمة منهم بريئة » .

وكتب وشهد . (تاريخ الطبرى ٤ : ٢٥٤)

٢٦٠ – عهد سويد بن مقرن لأهل جرجان

وسار سويد إلى جُرْجان فبادره ملكها بالصلح على أن يؤدى الجزاء فأجابه ، وكتب له كتاباً ، نصه :

« بسم الله الرحمن الرحيم . هذا كتاب من سُوَيد بن مُقَرِّن لرُزْبان صُول بن رُزْبان ، وأهل دِهِسْتان ، وسائر أهل جُرْجان .

---

(١) النزل كعنق وقفل : ما هيئ للضيف أن ينزل عليه ، أى القرى .

إن لكم الذمة وعلينا المنعة ، على أن عليكم من الجزاء فى كل سنة على قدر طاقتكم على كل حالم ، ومن استعنا به منكم فله جزاؤه فى معونته عِوَضاً من جزائه ، ولهم الأمان على أنفسهم وأموالهم ومِللهم وشرائعهم ، ولا يغيَّر شىء من ذلك هو إليهم ، ما أدَّوا وأرشدوا ابنَ السبيل ، ونَصَحوا وقَرَوا المسلمين ، ولم يَبْد منهم سَلٌّ ولا غَلٌّ ، ومن أقام فيهم فله مثلُ ما لهم ، ومن خرج فهو آمن حتى يبلغ مأمَنَهُ ، وعلى أن من سَبَّ مسلماً بُلِغ جَهْدَهُ ، ومن ضربه حَلَّ دمه » .

شهد سَواد بن قُطْبة ، وهند بن عمرو ، وسِمَاك بن مَخْرَمة ، وعُتَيْبة بن النَّهَّاس ، وكتب فى سنة ثمانى عشرة . (تاريخ الطبرى ٤ : ٢٥٤)

٢٦١ — عهد سويد بن مقرن لأهل طبرستان

وراسله صاحب طَبَرِسْتان فى الصلح ، فقبل منه ، وكتب له كتابا نصه :

« بسم الله الرحمن الرحيم . هذا كتاب من سُويد بن مُقَرِّن للفَرُّخان أَصْبَهْبَذ خُراسان على طَبَرِسْتان وجيل جَيْلان من أهل العدو

إنك آمِنٌ بأمان الله عز وجل على أن تكُفَّ لُصُوتَك[1] ، وأهل حَوَاشِى أرضك ، ولا تُؤْوِى لنا بُغْيَةً ، وتتقى من وَلِىَ فَرْج أرضك ، بخمسمائة ألف درهم من دراهم أرضك ، فإذا فعلت ذلك فليس لأَحد منا أن يُغِير عليك ، ولا يَطْرُق أرضك ، ولا يدخل عليك إلا بإذنك ، سبيلُنا عليكم بالإذن آمِنَةٌ ، وكذلك سبيلكم ، ولا تُؤْوُون لنا بُغْية ، ولا تَسُلّون لنا إلى عدو ولا تَغُلّون ، فإن فعلتم فلا عَهْدَ بيننا وبينكم » .

شهد سواد بن قُطْبة التميمى ، وهند بن عمرو المُرَادى ، وسِماك بن مَخْرَمة الأسدى ، وسِماكُ بن عُبَيد العبسى ، وعُتَيْبة بن النَّهَّاس البكرى ، وكتب سنة ثمانى عشرة .

(تاريخ الطبرى ٤ : ٢٥٤)

---

(١) اللصوت : اللصوص جمع لصت مثلث اللام .

٢٦٢ — عهد عتبة بن فرقد لأهل أذربيجان

وسار بُكَير بن عبد الله إلى أذَرَبيجان ، وأمدَّه نعيم بن مقرن بِسماك بن خَرَشة ، وعُتْبة بن فَرْقد ففتحوها ، ثم ولَّى عمر عتبةَ على أذربيجان ، فكتب بينه وبين أهلها كتاباً ، نصه :

« بسم الله الرحمن الرحيم . هذا ما أعطى عُتْبة بن فَرْقد عامل عمر بن الخطاب أمير المؤمنين أهلَ أذْرَبيجان سَهْلها ، وجَبَلها ، وحواشيها ، وشِفارِها[1] ، وأهل مِلَلِها كلهم ، الأمانَ على أنفسهم وأموالهم ، ومِلَلِهم ، وشرائعهم ، على أن يؤدوا الجِزْية على قدر طاقتهم ، ليس على صبى ، ولا امرأة ولا زَمِن[2] ليس فى يديه شىء من الدنيا ، ولا متعبِّد مُتَخلٍّ ليس فى يديه من الدنيا شىء ، لهم ذلك ولمن سكن معهم ، وعليهم قِرَى المسلم من جنود المسلمين يوماً وليلةً ودلالتُه ، ومن حُشِرَ[3] منهم فى سنة وُضِع عنه جِزاء تلك السنة ، ومن أقام فله مثل ما لمن أقام من ذلك ، ومن خرج فله الأمان حتى يلجأ إلى حِرْزِه » .

وكتب جُنْدُب ، وشهد بكير بن عبد الله الليثى ، وسماك بن خَرَشة الأنصارى ، وكتب فى سنة ثمانى عشرة . (تاريخ الطبرى ٤ : ٢٥٥)

٢٦٣ — عهد سراقة بن عمرو لأهل أرمينية

وسار سُرَاقة بن عمرو إلى الباب — وملكها يومئذ شَهْرَبَراز — فكلَّم سراقة فى الصلح فأجابه ، وكتب لهم كتاباً نصه :

« بسم الله الرحمن الرحيم . هذا ما أعطى سُراقة بن عمرو عامِلُ أمير المؤمنين عمر بن الخطاب شَهْرَبَرازَ ، وسُكَّان أرْمِينِيَة والأرمن ، من الأمان ، أعطاهم أماناً

---

(١) الشفر بالضم والشفير : ناحية كل شىء . (٢) الزمانة بالفتح : العاهة ، زمن كفرح فهو زمن وزمين . (٣) أى ندب إلى المغازى .

لأنفسهم ، وأموالهم ، ومِلّتهم : ألاّ يُضارُّوا ، ولا يُنتقَصوا ، وعلى أهل أرمينية والأبواب : الطُّرّاءِ منهم والتُّنّاء[1] ، ومن حولهم فدخل معهم أن يَنفِرُوا لكل غارة ويَنفُذوا لكل أمر ناب أو لم يَنُبْ رآه الوالى صلاحا ، على أن توضعَ الجِزاء عمن أجاب إلى ذلك : إلى[2] الحَشْر ، والحشرُ عِوَضٌ من جزائهم ، ومن استُغنى عنه منهم وقعد فعليه مثلُ ما على أهل أذْرَبيجان من الجِزاء والدّلالة ، والنُّزْل يوماً كاملا ، فإن حُشِروا وُضِع ذلك عنهم ، وإن تركوا أُخذوا به » .

شهد عبد الرحمن بن ربيعة ، وسَلْمان بن ربيعة ، وبُكَيْر بن عبد الله ، وكتب مَرْضِيّ بن مُقَرِّن وشهد .

ووجّه سُراقة بعد ذلك، بُكير بن عبد الله، وحبيب بن مَسْلَمة، وحُذَيفة بن أَسِيد ، وسلمان بن ربيعة إلى أهل الجبال المحيطةَ بأرمينية ، فوجّه بكيراً إلى مُوقان ، وحبيباً إلى تَفْلِيس، وحُذَيفة إلى جبالِ اللّان، وسلمان إلى الوجه الآخر . (تاريخ الطبرى ٤: ٢٥٧)

٢٦٤ — عهد بكير بن عبد الله لأهل موقان

ومضى أولئك القواد ، فلم يفتح أحد منهم ما وجه له إلا بكير ، فإنه فَضّ مُوقان ، ثم تراجعوا على الجزية ، فكتب لهم كتابًا ، نصه :

« بسم الله الرحمن الرحيم . هذا ما أعطى بُكَيْر بن عبد الله أهلَ مُوقان من جبال القَبج : الأمان على أموالهم وأنفسهم وملتهم وشرائعهم على الجِزاء دينار عن كل حالم أو قيمته ، والنُّصح ودلالة المسلم ، ونُزُله يومَه وليلَته ، فلهم الأمان ما أقرُّوا ونَصَحوا ، وعلينا الوفاء ، والله المستعان ، فإن تركوا ذلك واستبان منهم غش فلا أمانَ لهم إلا أن يسلِّموا الغَشَشَة برُمّتهم ، وإلاّ فهم متمالِئون[3] » .

---

(١) طرأ على القوم كمنع : طلع عليهم من بلد آخر ، فهو طارئ والجمع طراء ، وتنأ بالمكان كمنع أيضا فهو تانئ ، والجمع تناء . (٢) فى الأصل « إلا » وهو تحريف .
(٣) مالأه على الأمر : ساعده وشايعه ، وتمالئوا عليه .

شهد الشَّمَّاخ بن ضِرار ، والرُّسارِسُ بن جُنادِب ، وحَمَلة بن جُوَيَة ، وكتب سنة إحدى وعشرين . (تاريخ الطبرى ٤ : ٢٥٧)

٢٦٥ — كتاب عمر إلى الأحنف بن قيس

وسار الأحنف بن قيس إلى خُراسان للاقاة يزدجرد — وقد نزل بمَرْو ويُثير أهل فارس على المسلمين — فلاقى جموعه ، وانهزم يزدجرد حتى عَبَرَ النهر ، وكتب الأحنف إلى عمر بفتح خراسان ، فكتب إليه عمر :

« أما بعدُ : فلا تجوزَنَّ النهر ، واقتصر على ما دونه ، وقد عرَفتم بأى شىء دخلتم خراسان ، فداوموا على الذى دخلتم به خراسان يَدُمْ لكم النصر ، وإياكم أن تعبُروا فتنفَضُّوا » . (تاريخ الطبرى ٤ : ٢٦٤)

٢٦٦ — كتاب عمر بن الخطاب إلى ابنه عبد الله

وكتب عمر بن الخطاب إلى ابنه عبد الله رضى الله عنهما :

« أمّا بعدُ : فإنه من اتقى اللهَ وَقاه ، ومن توكّل عليه كَفاه ، ومن شَكَرَ له زادَه ، ومن أقرَضَه[1] جزَاه ، فاجعل التقوى عِمَادَ قلبك ، وجِلاء بصرك ، فإنه لا عَمَلَ لمن لا نيّةَ له ، ولا أجرَ لمن لا حَسَنة له ، ولا مال لمن لا رِفقَ له ، ولا جَدِيدَ لمن لا خُلَقَ له » . (زهر الآداب ١ : ٤١ ومجمع الأمثال ٢ : ٢٧٧)

---

(١) أى أنفق ماله فى سبيل الله ، وقدم العمل الصالح الذى يطلب به ثواب الله فى الآخرة . قال تعالى : « مَنْ ذَا الَّذِى يُقرِضُ اللهَ قَرْضًا حَسَنًا فَيُضاعِفَهُ لَهُ أَضْعافًا كَثيرَةً » . وقال : « وَأَقْرِضُوا اللهَ قَرْضًا حَسَنًا ، وَما تُقَدِّمُوا لِأَنْفُسِكُمْ مِنْ خَيْرٍ تَجِدُوهُ عِنْدَ اللهِ هُوَ خَيْرًا وَأَعْظَمَ أَجْرًا » .

٢٦٧ - كتاب عمر إلى شريح

وعن شُرَيْح(١) بن الحارث أن عمر رضى الله عنه كتب إليه :

« لا تُشارِ(٢) ، وَلا تُمارِ ، وَلا تَبِعْ ، ولا تَبْتَعْ فى مجلس القضاء ، وَلا تقضِ بين اثنين وأنت غضبان » . (البيان والتبيين ٢ : ٧٥)

٢٦٨ - كتاب عمر إلى النعمان بن عدىّ

واستعمل عمر النُّعْمانَ بن عَدِىّ بن نَضْلَةَ على مَيْسانَ(٣) ، فبلغه عنه الشعر الذى قاله ، وهو :

وَمَنْ مُبْلِغُ الحَسْناءِ أَنَّ خَلِيلَهَا ... بِمَيْسانَ يُسْقَى من زُجاجٍ وحَنْتَمِ(٤)
إذا شئتُ غَنَّتْنِى دَهاقِينُ قريةٍ ... وصَنَّاجَةٌ تَحْدُو على كل مَنْسِمِ(٥)
فإن كنتَ نَدْمانِى فبالأكبرِ اسْقِنِى ... ولا تَسْقِنِى بالأصغرِ المتثلِّمِ(٦)
لعلَّ أميرَ المؤمنين يسوءه ... تَنَادُمُنا بالجَوْسَقِ المتهدِّمِ(٧)

فكتب إليه :

---

(١) كان من كبار التابعين وأدرك الجاهلية ، واستقضاه عمر على الكوفة ، فأقام قاضيا خمسا وسبعين سنة لم يتعطل فيها إلا ثلاث سنين امتنع فيها من القضاء فى فتنة ابن الزبير ، واستعفى الحجاج بن يوسف من القضاء فأعفاه ، وتوفى سنة ٨٧ هـ وهو ابن مائة سنة ، وقيل غير ذلك .

(٢) المشاراة : الملاجة ، يقال هو يشارى فلانا أى يلاحه .

(٣) اسم كورة واسعة بين البصرة وواسط .

(٤) الحنتم : جرار خضر تضرب إلى الحمرة كانت تحمل الخمر فيها إلى المدينة ، ثم اتسع فيها فقيل للخزف كله حنتم ، واحدتها حنتمة . (٥) الدهاقين جمع دهقان بالكسر والضم : وهو زعيم فلاحى العجم ، ورئيس الإقليم ، معرب ، والصنج كشمس : شىء يتخذ من صفر (بالضم أى نحاس) يضرب أحدهما على الآخر ، وآلة بأوتار يضرب بها ، معرب ، واللاعب به يقال له : الصناج والصناجة (وكان أعشى بكر يسمى صناجة العرب لجودة شعره) وحدا الإبل وحدا بها : غنى لها ، والمنسم الطريق والمذهب والوجه (والمنسم أيضا : خف البعير) . (٦) الندمان : المنادم وجمعه ندامى (وقد يكون الندمان جمعا) . (٧) الجوسق : القصر .

« بسم الله الرحمن الرحيم . حٰمٓ تَنْزِيلُ الْكِتَابِ مِنَ اللهِ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ . غَافِرِ الذَّنْبِ وَقَابِلِ التَّوْبِ شَدِيدِ الْعِقَابِ ذِي الطَّوْلِ[1] لاَ إِلَهَ إِلاَّ هُوَ إِلَيْهِ الْمَصِيرُ » ، أما بعد : فقد بلغني قولك : « لعل أمير المؤمنين يسوءه . . . . . البيت » ، وايمُ الله إنه ليسوءني ، فاقدَم فقدْ عزلتك » فلما قدِم عليه ، قال : يا أمير المؤمنين ، والله ما شربتها قط ، وإنما هو شعر طفَح على لساني ، وإني لشاعر ، فقال عمر : أظنّ ذاك ، ولكن لاتعمَلُ لي على عَمَلٍ أبداً . (شرح ابن أبي الحديد م ٣ : ص ٩٨)

٢٦٩ — كتاب نصر بن حجاج إلى عمر

وروى أنه بينا كان عمر بن الخطاب يَعُسُّ[2] ذات ليلة في سكك المدينة إذ سمع امرأة تقول :

هل من سبيل إلى خمرٍ فأَشْرَبَها ... أم من سبيل إلى نصر بن حَجَّاج ؟

فقال عمر : أمّا ما عِشتُ فلا ، لا أرَى معي في المدينة رجلًا تهتِفُ به العَواتِق[3] في خُدورهن ، عليّ بنصر بن حجاج ، فلما أصبح أُتي به ، فإذا هو من أحسن الناس وجهاً وعيناً وشَعْراً ، فقال له : فتَنْتَ نساء المدينة يا بن حجاج ، والله لاتساكنني ببلدة أنا فيها ، فقال : يا أمير المؤمنين ما ذنبي ؟ قال : هو ما أقول لك ، وسيّره إلى البصرة .

وأبرَدَ عمر بَريداً إلى عُتْبة بن أبي سفيان بالبصرة فأقام بها أياما ، ثم نادى منادى عُتبة : من أراد أن يكتب إلى أهله بالمدينة أو إلى أمير المؤمنين شيئاً فليكتب ، فإن بريد المسلمين خارج ، فكتب الناس ، ودسّ نصر بن حجاج كتاباً فيه :

« بسم الله الرحمن الرحيم . لعبد الله عمر أمير المؤمنين من نصر بن حجاج ، سلام عليك ، أما بعد يا أمير المؤمنين :

---

(١) الطول : الفضل والقدرة . (٢) عس كرد : طاف بالليل .
(٣) العواتق ، جمع عاتق : وهي الجارية أول ما أدركت ، أو التي لم تتزوج .

لَعَمْرِى لئن سَيَّرْتَنِى أو حَرَمْتَنِى ... لَمَا نِلْتَ من عِرْضِى عليك حرامُ
أأَنْ غنَّتِ الذَّلفاء يوما بمُنْيَةٍ ... وبعضُ أمانِىِّ النساء غـرامُ[1]
ظننتَ بِىَ الظنَّ الذى ليس بعده ... بقاء، وما لى جُـرْمُه فألامُ[2]
فأصبحتُ منفيًّا على غير رِيبة ... وقد كان لى بالمَكَّتَيْنِ مُقَامُ[3]
سيمنعنى مما تظنُّ تكرُّمى ... وآباء صِـدقٍ سالفون كِرامُ
ويمنعها مما تمنَّتْ صَـلاتُها ... وحالٌ لها فى دينها وصِيامُ
فهاتان حالانا، فهل أنت راجِعِى؟ ... فقد جُبَّ منى كاهِلٌ وسَنامُ[4]

فقال عمر: أما وَلِىَ ولايةٌ فلا، وأقطَعَه أرضاً بالبصرة وداراً، فلما قتل عمر ركب راحلته، ولحق بالمدينة. (شرح ابن أبى الحديد م ٣: ص ٩٩ - وثمرات الأوراق ص ٢٤٦)

٢٧٠ — كتاب عمر لأنس بن مالك

عن أنس بن مالك قال: بعثنى عمر بن الخطاب رضى الله عنه على العشور، وكتب لى عهداً: «أن آخُذَ من المسلمين مما اختلفوا فيه لتجاراتهم ربع العُشْر، ومن أهل الذِّمَّة نصف العشر، ومن أهل الحرب العشر». (كتاب الخراج ص ١٦١)

٢٧١ — كتاب أبى موسى الأشعرى إلى عمر

وكتب أبو موسى الأشعرى إلى عمر بن الخطاب:

«إن تجارا من قِبَلنا من المسلمين يأتون أرض الحرب فيأخذون منهم العشر».

---

(١) الذلفاء: اسم امرأة، وأصله من الذلف بالتحريك: وهو صغر الأنف واستواء الأرنبة.
(٢) وفى شرح ابن أبى الحديد «بقاء، فمالى فى الندى كلام».
(٣) أى مكة والمدينة، على التغليب. (٤) راجعى: أى رادى، وجب: قطع، والكاهل: مقدم أعلى الظهر مما يلى العنق، عبر بذلك عما لقيه فى غربته من الشدة والشقاء.
وذكروا أن المتمنية: هى الفارعة أم الحجاج، ولما تمنت كانت تحت المغيرة بن شعبة، وقيل إن المتمنية هى جدة الحجاج أم أبيه وهى كنانية — انظر ابن خلكان ١: ١٢٤.

٢٧٢ - رد عمر عليه

فكتب إليه عمر :

« خذ أنت منهم كما يأخذون من تجار المسلمين، وخذ من أهل الذمة نصف العشر، ومن المسلمين من كل أربعين درهماً درهماً، وليس فيما دون المائتين شيء، فإذا كانت مائتين ففيها خمسة دراهم، وما زاد فبحسابه » . (كتاب الخراج ص ١٦١)

٢٧٣ - كتاب عمر إلى عماله

وكتب عمر إلى عماله يوصيهم، فقال فى جملة الكتاب :

« آرْتَدُوا وأْتَزِرُوا وانتَعِلُوا، وَأَلْقُوا الخفافَ والسَّراويلاتِ[١]، وألقوا الرُّكُب[٢]، وانْزُوا نَزْوًا على الخيل، واخْشَوْشِنوا وعليكم بالمَعَدِّيَّةِ - أو قال وتَمَعْدَدُوا[٣] - وارْمُوا الأغراضَ، وعلِّموا فِتْيانَكم العَوْمَ والرِّمَايَة، وذَرُوا التنعُّم وزِيَّ العَجَم، وإياكم والحريرَ، فإن رسول الله صلى الله عليه وآله نهى عنه وقال : لاتلبَسوا من الحرير[٤] إلا ما كان هكذا وأشار بإصبعيه » .

(شرح ابن أبى الحديد م ٣ : ص ١١٩)

---

(١) السراويل : فارسى معرب، مؤنث ويذكر على لفظ الجماعة، وهو مفرد وجمعه سراويلات وقيل جمع سروال وسروالة، وأنشدوا :

عليه من اللؤم سروالة فليس يرق لمستعطف

والسراوين بالنون لغة فيه، والشروال بالشين لغة أيضا .

(٢) الركب جمع ركاب ككتاب وهو السرج كالغرز للرحل، ونزا ينزو : وثب .

(٣) تمعددوا : تشبهوا بعيش معد بن عدنان، وكانوا أهل قشف وغلظ فى المعاش، يقول : كونوا مثلهم ودعوا التنعم وزى العجم ، وهكذا هو فى حديثه الآخر : « عليكم باللبسة المعدية » أى خشونة اللباس . (٤) وفى صحيح البخارى عن عمر رضى الله عنه « أن رسول الله صلى الله عليه وسلم نهى عن الحرير إلا هكذا ، وأشار بأصبعيه اللتين تليان الإبهام (أى السبابة والوسطى) يعنى الأعلام (جمع علم بالتحريك وهو رسم الثوب ورقمه فى أطرافه) - انظر باب اللباس .

٢٧٤ — كتاب أمير الطائف إلى عمر

وكتب بعض أمراء الطائف إلى عمر :

« إن أصحاب النخل لا يُؤَدُّون إلينا ما كانوا يؤدُّون إلى النبي صلى الله عليه وسلم » ويسألون مع ذلك أن نَحْمِيَ أوديتهم ، فاكتب إلىّ برأيك فى ذلك » .

٢٧٥ — رد عمر عليه

فكتب إليه عمر :

« إن أدَّوْا إليك ما كانوا يؤدُّون إلى النبي صلى الله عليه وسلم ، فاحْمِ لهم أوديتهم ، وإن لم يؤدُّوا إليك ما كانوا يؤدون إليه فلا تَحْمِ لهم » .

(كتاب الخراج ص ٦٦)

٢٧٦ — كتاب عمر إلى يعلى بن أمية

عن يَعْلَى بن أُمَيَّة قال : لما بعثنى عمر بن الخطاب رضى الله عنه على خراج أرض نَجْران — يعنى نجران التى قُرْبَ اليمن — كتب إلىّ أن :

« انظر كل أرض جَلَا أهلُها عنها ، فما كان من أرض بيضاء تُسْقَى سَيْحا[1] ، أو تسقيها السماء ، فما كان فيها من نخيل أو شجر ، فادفعه إليهم يقومون عليه ويسقونه ، فما أخرج الله من شىء فلِعُمَر وللمسلمين منه الثلثان ، ولهم الثلث ، وما كان منها يُسْقَى بغَرْب[2] ، فلهم الثلثان ، ولعُمَر وللمسلمين الثلث .

وادفع إليهم ما كان من أرض بيضاء يزرعونها ، فما كان منها يُسْقَى سَيْحا أو تسقيه السماء ، فلهم الثلث ، ولعُمَر وللمسلمين الثلثان ، وما كان من أرض بيضاء تُسْقَى بغَرْب ، فلهم الثلثان ، ولعمر وللمسلمين الثلث » .

(كتاب الخراج ص ٨٩)

---

(١) السيح : الماء الجارى الظاهر . (٢) الغرب : الدلو .

٢٧٧ — كتاب غلام لعبد الله بن عمر إليه

وكتب غلام لعبد الله بن عمر إلى عبد الله بن عمر :

« أما بعدُ : فقد أعْطِيتُ بفضل[1] مائَى ثلاثين ألفاً بعد ما أرويت زَرْعى ونَخْلى وأصلى ، فإن رأيتَ أنْ أبيعَه وأشترىَ به رَقِيقًا أستعينُ بهم فى عملك فعلت » .

٢٧٨ — رد عبد الله بن عمر على غلامه

فكتب إليه :

« قد جاءنى كتابك ، وفهمتُ ما كتبتَ به إلىّ ، وإنى سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : « من مَنَعَ فَضْلَ ماء ليمنَعَ به فضل كَلَأٍ منعه الله فضله يوم القيامة » فإذا جاءك كتابى فاسْقِ نخلك وزرعك وأصلك، وما فضَل فاسْقِ جيرانك الأقربَ فالأقربَ ، والسلام . (كتاب الخراج ص١١٤)

٢٧٩ — كتاب عمر إلى الحصين بن الحر

وكتب الحُصَيْن بن الحُرّ كتاباً إلى عمر ، فلَحَن فى حرف منه ، فكتب إليه عمر :

« أنْ قَنِّعْ[2] كاتبَك سَوْطًا » . (البيان والتبيين ٢ : ١١٢)

٢٨٠ — كتاب عمر إلى المغيرة بن شعبة

وكتب عمر إلى المغيرة بن شعبة :

« إن النساء يُعْطِينَ على الرَّغبة والرَّهْبة ، وأُيّما امرأةٍ نَحَلَتْ[3] زوجَها فأرادت أن تَعْتَصِر[4] فهوَ لها » . (لسان العرب ٦ : ٢٥٦)

---

(١) الفضل : الزيادة . (٢) قنع رأسه بالسوط : غشاه به .
(٣) نحله . أعطاه . (٤) أعطيت فلانا عطية فاعتصرتها : أى رجعت فيها .

٢٨١ - كتاب المغيرة بن شعبة إلى عمر

وكان عمر رضى الله عنه لايترك أحداً من العجم يدخل المدينة ، فكتب إليه المُغيرة بن شُعْبة :

« إن عندى غلاما نَقَاشًا نَجّاراً حداداً فيهَ منافِعُ لأهل المدينة ، فإن رأيت أن تأذن لى فى الإرسال به فعلتُ » .

فأذِنَ له ، وكان يدعى أبا لُؤلؤة ، وكان مجوسيّا من أهل نَهاوَند ، وهو الذى قتل عمر[1] . (مروج الذهب ١ : ٤٢٦)

(١) كان المغيرة جعل عليه كل يوم درهمين فلبث ماشاء الله ، ثم أتى عمر يشكو إليه ثقل خراجه فقال له عمر : وما تحسن من الأعمال ؟ قال : نقاش نجار حداد ، فقال له عمر : ما خراجك بكثير على ما تصنع من الأعمال ، قد بلغنى أنك تقول : لو أردت أن أعمل رحى تطحن بالريح فعلت ، قال : نعم ، قال : فاعمل لى رحى، قال : لأصنعن لك رحى يتحدث بها من بالمشرق والمغرب ، ثم انصرف عنه وقد أضمر له السوء ، فقال عمر : لقد توعدنى العبد آنفاً ، وتربص له وهو خارج لصلاة الفجر فقتله .

خلافة عثمان بن عفان رضى الله عنه

سنة ٢٤ — ٣٥

٢٨٢ — كتابه إلى عماله

كان أول كتاب كتبه عثمان بن عَفّان رضى الله عنه إلى عماله :

« أما بعدُ : فإن الله أمر الأئمة أن يكونوا رُعَاةً ، ولم يتقدَّم(١) إليهم أن يكونوا جُبَاةً ، وإنّ صَدْرَ هذه الأمة خُلقوا رعاة لم يُخلَقوا جُباة ، وليوشِكَنّ أَئمتكم أن يصيروا جُباة ، ولا يكونوا رُعاة ، فإذا عادوا كذلك انقطع الحياء والأمانة والوفاء . ألا وإن أَعْدَلَ السِّيرة أن تنظروا فى أمور المسلمين ، وفيما عليهم فتعطوهم ما لهم ، وتأخذوهم بما عليهم ، ثم تُثَنُّوا بالذِّمَّة فتعطوهم الذى لهم ، وتأخذوهم بالذى عليهم ، ثم العدوّ الذى تنتابون فاستفتِحُوا عليهم بالوفاء » . (تاريخ الطبرى ٥ : ٤٤)

٢٨٣ — كتابه إلى أمراء الأجناد

وكان أول كتاب كتبه إلى أمراء الأجناد فى الفروج(٢) :

« أما بعدُ : فإنكم حُمَاةُ المسلمين وذَادَتهم(٣) ، وقد وضع لكم عُمر مالم يَغِبْ عنا، بل كان عن مَلَأٍ(٤) منا ، ولا يَبْلُغَنى عن أحد منكم تغيير ، ولا تبديل ، فيغيِّرَ الله

---

(١) تقدم إليه فى كذا : أمره وأوصاه به .
(٢) فروج : جمع فرج، وهو الثغر وموضع المخافة.
(٣) ذادة جمع ذائد من ذاد عنه أى دفع . (٤) الملأ : التشاور ، والجماعة .

ما بكم ، ويستبدلَ بكم غيرَكم ، فانظروا كيف تكونون ، فإني أنظر فيما ألزمني الله النظرَ فيه ، والقيام عليه » .

(تاريخ الطبرى ٥ : ٤٤)

٢٨٤ — كتابه إلى عمال الخراج

وكان أول كتاب كتبه إلى عمال الخراج :

« أما بعدُ : فإن الله خلق الخلق بالحق، فلا يقبل إلا الحق، خذوا الحق وأعطوا الحق، والأمانةَ الأمانةَ قوموا عليها، ولا تكونوا أول من يَسْلَبها، فتكونوا شركاء مَن بعدَكم إلى ما اكتسبتم ، والوفاءَ الوفاءَ ، لا تظلموا اليتيم ولا المعاهَد فإن الله خَصْم لمن ظَلَمهم » .

(تاريخ الطبرى ٥ : ٤٤)

٢٨٥ — كتابه إلى العامة

وكان كتابه إلى العامة :

« أما بعدُ : فإنكم إنما بلغتم ما بَلغتُم بالاقتداء والاتِّباع، فلا تلفِتَنَّكم الدنيا عن أمركم، فإن أمرَ هذه الأمة صائر إلى الابتداع بعد اجتماعِ ثلاثٍ فيكم : تكامُلِ النعم ، وبلوغِ أولادكم من السَّبَايا، وقراءةِ الأعرابِ والأعاجمِ القرآن، فإن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : « الكفر فى العُجْمة » فإذا استعجَم عليهم أمر تكلَّفوا وابتَدَعوا » .

(تاريخ الطبرى ٥: ٤٥)

٢٨٦ — كتابه إلى عماله

وكتب إلى عُمَّاله :

« أما بعدُ : استعينوا على الناس وكلٍّ ماينُوبكم بالصَّبر والصلاة، وأمرَ الله أقيمُوه ، ولا تُدْهِنوا[1] فيه ، وإياكم والعَجَلَةَ فيما سوى ذلك ، وارضَوا من الشرِّ بأيْسَره ،

---

(١) الإدهان : إظهار خلاف ما يضمر والغش .

فإن قليلَ الشرِّ كثير ، واعلموا أن الذى ألَّف بين القلوب هو الذى يفرِّقها ، ويباعِدُ بعضَها من بعض ، سِيرُوا سِيرة قوم ٍ يريدون الله لِئَلا تكون لهم على الله حُجَّة » .

٢٨٧ — كتابه إلى عماله

وكتب إليهم أيضًا :

« إن الله ألَّف بين قلوب المسلمين على طاعته ، وقال سبحانه : « لَوْ أَنْفَقْتَ مَافِي الْأَرْضِ جَمِيعًا مَا أَلَّفْتَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ » وهو مُفَرِّقها على معصيته ، ولا تعْجَلُوا على أحد بحدٍّ قبل استيجابه ، فإن الله تعالى قال: « لَسْتَ عَلَيْهِمْ بِمُسَيْطِرٍ إِلَّا مَنْ تَوَلَّى وَكَفَرَ » من كفر داويناه بدوائه ، ومن تولَّى عن الجماعة أنصفناه وأعطيناه حتى نقطع حجته وعُذره ، إن شاء الله » . (أشهر مشاهير الإسلام ج : ٤ ص ٧٥٥)

٢٨٨ — كتاب عثمان إلى الوليد بن عقبة

وولَّى عثمانُ الوليدَ بن عُقْبة الكوفةَ ، ومنع أهلُ أذْرَبيجان وأرْمينية ما كانوا صالحوا المسلمين عليه أيام عمر ، فغزاهم الوليد ووَطِئهم بجيشه ، فانقادوا له ، وطلبوا إليه أن يَتِمَّ لهم على ذلك الصلح ، فقبِلَ وقبض منهم المال — وكان ذلك سنة ٢٤ هـ

ولما أصاب حاجته من أرمينية ، ودخل المَوْصِلَ فنزل الحديثَةَ ، أتاه كتاب من عثمان رضى الله عنه :

« أما بعدُ : فإن معاوية بن أبى سُفيان كتب إلىّ يُخْبِرنى أن الروم قد أجْلَبَتْ على المسلمين بجموع عظيمة ، وقد رأيتُ أن يُمِدَّهم إخوانُهم من أهل الكوفة ، فإذا أتاك كتابى هذا ، فابعث رجلا ممن ترضى نَجْدته وبأسه وشجاعته وإسلامه ، فى ثمانية آلاف ، أو تسعة آلاف ، أو عشرة آلاف إليهم ، من المكان الذى يأتيك فيه رسولى والسلام » .

فسيّر الوليد إلى الشام ثمانية آلاف رجل بقيادة سَلْمان بن رَبيعة الباهلى ، فشنوا الغارات مع جند الشام على أرض الروم ، فأصاب الناس ما شاءوا من سَبْى ، وملئوا أيديهم من المغنَم ، وافتتحوا بها حصونًا كثيرة . (تاريخ الطبرى ٥ : ٤٦)

٢٨٩ — كتابه إلى عماله

وكتب عثمان إلى عماله :

« أما بعدُ : فقُومُوا على ما فارقتم عليه عُمَرَ ولا تبَدِّلوا ، ومهما أشكَل عليكم فرُدُّوه إلينا نَجْمَعْ عليه الأمة ثم نردّه عليكم ، وإياكم وأن تغَيِّرُوا فإنى لست قابلا منكم إلا ما كان عُمَرُ يَقبل » . (تاريخ الطبرى ٥ : ٥٣)

٢٩٠ — كتابه إلى أهل الأمصار

وكتب عثمان إلى الناس فى الأمصار :

« أنِ ائتمِرُوا بالمعروف ، وتناهَوْا عن المنكر ، ولا يُذِلَّ المؤمن نفسَه ، فإنى مع الضعيف على القوىّ ما دام مظلومًا ، إن شاء الله » . (تاريخ الطبرى ٥ : ١٣٤)

٢٩١ — كتاب عثمان إلى أهل الكوفة

وعزل عثمان الوليد بن عقبة عن الكوفة حين اتهم بشرب الخمر(١) سنة ٣٠ هـ وولاها سعيد بن العاص ، وكتب إلى أهل الكوفة :

« أما بعدُ : فإنى كنت ولَّيتكم الوليدَ بن عُقْبة غلاما حين ذهب شَرَهُه وثابَ حِلْمُه ، وأوصَيْتُه بكم ولم أُوصِكم به ، فلما أعْيتكم عَلَانيتُه طَعَنْتم فى سريرته ، وقد ولَّيتكم سعيدَ بن العاص وهو خيرُ عشيرته ، وأوصِيكم به خيراً ، فاسْتَوْصُوا به خَيْرًا » .

(العقد الفريد ٢ : ٢٢٣)

---

(١) روى أنه شرب الخمر بالكوفة وسكر حتى دخل عليه ، وأخذ خاتمه من إصبعه وهو لا يعلم ، وصلى بالناس الصبح ثلاث ركعات وهو سكران ثم التفت إليهم فقال : وإن شئتم زدتكم ، وقامت عليه البينة بذلك عند عثمان ، فجلده على ثمانين .

٢٩٢ — كتاب سعيد بن العاص إلى عثمان

ولما قدم سعيد بن العاص الكوفة سأل عن أهلها، فأُقيمَ على حالهم، فكتب إلى عثمان بالذى انتهى إليه:

« إن أهل الكوفة قد اضطرب أمرهم، وغُلب أهلُ الشَّرَف منهم والبيوتاتِ والسَّابِقة والقُدْمة[(١)]، والغالبُ على تلك البلاد رَوَادِفُ[(٢)] رَدِفَتْ، وأعرابٌ لَحِقَتْ، حتى ما يُنظَرَ إلى ذى شرف ولا بَلاء من نَازِلتها، ولا نَابِتَتِها » .

٢٩٣ — رد عثمان على كتاب سعيد

فكتب إليه عثمان:

« أمّا بعدُ: فَفَضِّلْ أهلَ السابقة والقُدْمة ممن فَتَحَ اللهُ عليه تلك البلادَ. وليكن من نَزَلها بسببهم تبَعاً لهم، إلا أن يكونوا تثَاقَلوا عن الحق، وتركوا القيام به وقام به هؤلاء، واحفَظْ لكلٍّ منزلته، وأعْطِهم جميعاً بِقِسْطِهم من الحق، فإن للمعرفة بالناس بها يُصاب العَدْلُ » . (تاريخ الطبرى ٥ : ٦٣)

٢٩٤ — كتب بين عثمان وبين سعيد بن العاص

وروى أن سعيد بن العاص تزوّج وهو على الكوفة هند بنت الفَرَافِصَة[(٣)] بن الأحوص بن عمر بن ثَعْلَبَة الكلبى، فبلغ ذلك عثمان فكتب إليه:

« أما بعد: فإنه قد بلغنى أنك تزوجت امرأة من كَلْب، فاكتب إلىّ بنَسَبِها وجمالها » .

---

(١) القدمة: السابقة فى الأمر.

(٢) الروادف: أتباع القوم المؤخرون، وردفه بالكسر: تبعه.

(٣) قال صاحب اللسان: « ليس فى العرب من تسمى بالفرافصة بالألف واللام غيره » .

فكتب إليه :

«أما بعدُ : فإن نسبها أنها بنت الفَرافِصة بن الأحوص، وجمالها أنها بيضاء مَديدة» .

فكتب إليه :

« إن كانت لها أخت فزوِّجْنيها » .

فبعث سعيد إلى الفرافصة يخطب إحدى بناته على عثمان ، فأمر الفرافصة ابنه ضَبًّا فزوجها إياه . (الأغانى ١٥ : ٦٧)

٢٩٥ — كتاب معاوية إلى عثمان

وقام أبو ذَرٍّ الغِفَارِيّ[1] بالشام — سنة ٣٠ هـ — وجعل يقول : « يامَعْشَرَ الأغنياء ، واسُوا الفقراء ، بشِّر الذين يَكنِزُون الذهب والفضَّة ولا ينفقونها فى سبيل الله بمكاوٍ من نار تُكْوَى بها جِباهُهُم وجُنُوبهم وظُهورُهم » فما زال حتى وَلِعَ الفقراء بمثل ذلك ، وأوجبوه على الأغنياء ، وحتى شكا الأغنياء ما يَلقَوْن من الناس[2] ، فكتب معاوية إلى عثمان .

« إن أبا ذَرٍّ قد أعضَلَ[3] بى ، وإنه تجتمع إليه الجموع ، ولا آمَنُ أن يُفسِدَهم عليك ، فإن كان لك فى القوم حاجة فاحمِلْه إليك » .

(تاريخ الطبرى ٥ : ٦٦ ، ومروج الذهب ١ : ٤٣٨)

---

(١) هو جندب بن جنادة أسلم والنبى صلى الله عليه وسلم بمكة أول الإسلام ،فكان رابع أربعة ، وقيل خامس خمسة ، وقد هاجر إلى الشام بعد وفاة أبى بكر ، وتوفى بالربذة سنة ٣٢ هـ انظر ترجمته فى أسد الغابة ١٠ : ٣٠١ ،والاصابة ٧ : ٦٠ . (٢) كان الذى بعث أبا ذر هو عبد الله بن سبأ ، وهو يهودى من أهل صنعاء أمه سوداء ، وقد أسلم فى زمان عثمان ، ثم تنقل فى بلدان المسلمين يحاول ضلالتهم ، فلما ورد الشام لقى أبا ذر . فقال : يا أبا ذر ألا تعجب إلى معاوية . يقول : المال مال الله ، ألا إن كل شىء لله، كأنه يريد أن يحتجنه دون المسلمين ويمحو اسم المسلمين، فأتاه أبو ذر فقال: مايدعوك إلى أن تسمى مال المسلمين مال الله ؟ قال : يرحمك الله يا أبا ذر ، ألسنا عباد الله ، والمال ماله، والخلق خلقه ، والأمر أمره ؟ قال : فلا تقله ، قال : فإنى لا أقول إنه ليس لله ، ولكن سأقول :مال المسلمين.

(٣) أعضل به الأمر ، وأعضله وعضل به : اشتد وغلظ واستغلق .

٢٩٦ — كتاب عثمان إلى معاوية

فكتب إليه عثمان :

« إن الفتنة قد أخرجت خُطُمَها[١] وعينيها ، فلم يبق إلا أن تثب ، فلا تنكأ[٢] القرح ، وجهز أبا ذر إلىّ وابعث معه دليلا وزوده ، وارفق به ، وكفكف الناس ونفسك ما استطعت ، فإنما تُمسك ما استمسكت .

فأشخصه معاوية إلى عثمان ، فقال له : يا أبا ذر ما لأهل الشأم يشكون ذَرَبك[٣] ؟ فأخبره أنه لا ينبغي أن يقال مال الله ، ولا ينبغي للأغنياء أن يقتنوا مالا ، فقال : يا أبا ذر علىّ أن أقضي ما علىّ وآخذ ما على الرعية ، ولا أجبرهم على الزهد . وأن أدعوهم إلى الاجتهاد والاقتصاد ، قال : فتأذن لي في الخروج ، فإن المدينة ليست لي بدار ؟ فأذن له فخرج فنزل الرَّبَذَة[٤] . (تاريخ الطبرى ٥ : ٦٦)

٢٩٧ — كتاب عثمان إلى عبد الرحمن بن ربيعة

وكتب عثمان إلى عبد الرحمن بن ربيعة وهو على « الباب » .

« إن الرعية قد أبطر كثيراً منهم البِطْنة[٥] ، فقصِّرْ ولا تقتحم بالمسلمين ، فإني خاشٍ أن يُبتلَوا » .

فلم يزجُرْ ذلك عبد الرحمن عن غايته ، وكان لا يقصِّر عن بلنجر ، فحصرها وقاتله الترك فأصيب وانهزم المسلمون وتفرقوا .

وكان ذلك سنة ٣٢ هـ . (تاريخ الطبرى ٥ : ٧٨)

---

(١) الخطم جمع خطام ككتاب : وهو الزمام .
(٢) نكأ القرحة كمنع : قشرها قبل أن تبرأ فنديت .
(٣) ذرب كفرح ذربا : صار حديدا ماضيا . (٤) قرب المدينة .
(٥) البطنة : الامتلاء الشديد من الطعام ، والبطر والأشر .

٢٩٨ — كتاب مرزبان مرو إلى الأحنف بن قيس

وسار الأحنف بن قيس سنة ٣٢ هـ إلى مَرْوَرُوذ فَحصَر أهلها ، فخرجوا إليهم فقاتلوهم ، فهزمهم المسلمون حتى اضطروهم إلى حِصْنهم ، فأشرفوا عليهم فقالوا : أمهِلونا ننظُرْ يومنا وارجعوا إلى عسكركم ، فرجع الأحنف ، فلما أصبح غاداهم ، فخرج رجل من العجم معه كتاب من المدينة فإذا رسول من مَرْزُبان مَرْو : ابن أخيه وتَرْجُمانه ، وإذا كتاب المرزبان إلى الأحنف . فقرأ الكتاب فإذا هو :

« إلى أمير الجيش :

إنا نَحمَد اللهَ الذى بيده الدُّوَلُ يغيِّر ما شاء من الملك ، ويرفع من شاء بعد الذِّلة ، ويَضَع من شاء بعد الرِّفعة :

إنه دعانى إلى مصالحتك وموادعتك ما كان من إسلام جَدى ، وما كانَ رَأى من صاحبكم من الكرامة والمنزلة ، فَمَرْحَباً بكم وَأَبْشِروا ، وأنا أدعوكم إلى الصلح فيما بينكم وبيننا ، على أن أؤَدِّىَ إليكم خَراجاً ستين ألفَ درهم : وأن تُقِرُّوا بيدى ما كان مَلِكُ الملوك كسرى أَقْطَعَ جَدَّ أبى ، حيث قتل الحية التى أكلت الناس ، وقَطَعَتِ السُّبُلَ من الأرَضِين والقُرَى بما فيها من الرجال ، ولا تأخذوا من أحد من أهل بيتى شيئاً من الخراج ، ولا تخرج المَرْزَبَة[1] من أهل بيتى إلى غيرهم ، فإن جعلتَ ذلك لى خرجتُ إليك وقد بعثتُ إليك ابن أخى « ماهك » ليستوثقَ منك بما سألت » .

---

(١) المرزبة كمرحلة : رياسة الفرس .

٢٩٩ — رد الأحنف على كتابه

فكتب إليه الأحنف :

« بسم الله الرحمن الرحيم . من صخر بن قيس أمير الجيش إلى باذان مَرْزُبان مَرْوَرُوذ ، ومن معه من الأساورة[1] والأعاجم :

سلام على من اتبع الهدى ، وآمَنَ واتقى ، أما بعد : فإن ابن أخيك ماهك قَدِم علىّ ، فنَصَح لك جُهْدَه ، وأبلغ عنك ، وقد عرضتُ ذلك على من معى من المسلمين ، وأنا وهم فيما عليك سَواء ، وقد أجبناك إلى ما سألتَ وعرَضْتَ ، على أن تؤدى عن أكَرَتك[2] وفلاَّحيك والأَرَضين ستين ألف درهم ، إلىّ وإلى الوالى من بعدى من أمراء المسلمين، إلا ما كان مِنَ الأرَضين التى ذكرتَ أن كسرى الظالمَ لنفسه أقطع جَدَّ أبيك ، لِما كان من قَتْلِه الحيَّةَ التى أفسدت الأرض ، وقطَعَتِ السُّبُلَ ، والأرضُ لله ولرسوله يُورِثُها من يشاء من عباده ، وإن عليك نُصرةَ المسلمين ، وقتال عدوهم بمن معك من الأساورة إن أحب المسلمون ذلك وأرادوه ، وإن لك على ذلك نُصرة المسلمين على من يقاتل مَن وراءك من أهل ملتك ، جارٍ لك بذلك منى كتاب يكون لك بعدى ، ولا خراجَ عليك ، ولا على أحد من أهل بيتك من ذوى الأرحام .

وإن أنت أسلمتَ واتبعتَ الرسول ، كان لك من المسلمين العطاء والمنزلةُ والرزقُ وأنت أخوهم ، ولك بذلك ذمتى وذمة أبى ، وذمم المسلمين وذمم آبائهم » .

شهد على ما فى هذا الكتاب جَزْءُ بن معاوية السَّعدى ، وحمْزة بن الهِرْماس ، وحميد بن الخِيار المازنيَّان ، وعِياض بن وَرْقاء الأُسيدِىُّ .

وكتب كيْسان مولى بنى ثعلبة ، يوم الأحد من شهر الله المحرم سنة ٣٢ هـ .

---

(١) الأساورة : قوم من العجم . (٢) الأكار بالتشديد : الحراث وجمعه أكرة كأنه جمع آكر فى التقدير .

وكتب أمير الجيش الأحنف بن قيس ، ونَقْش خاتم الأحنف « نعبد الله » .

(تاريخ الطبرى ٥ : ٨١)

٣٠٠ — عهد حبيب بن مسلمة لأهل دبيل

وكتب عثمان إلى معاوية وهو عامله على الشام يأمره أن يوجِّه حَبيب بن مَسْلَمَة الفِهْرى إلى أرْمينية — وقيل بل كتب عثمان إلى حبيب يأمره يغزو أرمينية — فنهض إليها ففتح ما مرّ به إلى أن وصل إلى دَبيل فغَلَب عليها وعلى قُراها ، فطلب أهلها منه الأمانَ والصلح ، فصالحهم ، وكتب لهم كتاباً نسخته :

« بسم الله الرحمن الرحيم . هذا كتابٌ من حبيب بن مَسْلَمَة الفِهْرى لنصارى أهل دَبِيل وَمجُوسِها ويهودها ، شاهدِهم وغائبهم: إنى أمَّنتكم على نفسكم وأموالكم وكنائسكم وبِيَعكم وسُور مدينتكم ، فأنتم آمنون ، وعلينا الوفاء لكم بالعهد ما وَفَيتم وأدَّيتم الجزية والخراج ، شَهِد الله وكفى بالله شهيداً » .

وختم حبيب بن مسلمة .

(فتوح البلدان للبلاذرى ص ٢٠٨ ، ومعجم البلدان ٤ : ٢٥)

٣٠١ — كتاب حبيب بن مسلمة إلى أهل جرزان

وافتتح حبيب أكثر مدن أرمينية ، ثم سار يريد جُرْزان[1] ، فجاءه بالطريق رسول بِطريق جُرْزان وأهلها يسأله الصلح وأماناً يكتبه لهم ، فكتب حبيب إليهم :

« أما بعد : فإن « نقلى » رسولكم قَدِم علىّ وعلى الذين معى من المؤمنين ، فذكر عنكم أنكم قلتم إننا أمّة أكرَمَنا اللهُ وفضَّلنا ، وكذلك فعل الله بنا ، وله الحمد كثيراً ، وصلى الله على سيدنا محمد نبيه وخِيرته من خلقه وعليه السلام .

---

(١) اسم الناحية بأرمينية ، وكانت قصبتها تفليس .

وذكرتم أنكم أحببتم سِلْمنا ، وقد قوَّمْت هديتكم وحَسَبْتها[1] من جزيتكم ، وكتبت لكم أمانًا ، واشترطت فيه شَرْطًا فإن قبلتموه ووفيتم به ، وإلاَّ فأْذنوا بحرب من الله ورسوله ، والسلام على من اتبع الهدى » .

(فتوح البلدان البلاذرى ص ٢٠٩ ، ومعجم البلدان ٢ : ٣٩٦)

٣٠٢ — عهد حبيب لأهل جرزان

ثم ورد تَفليس ، وكتب لهم كتابًا بالصلح والأمان ، وهو :

« بسم الله الرحمن الرحيم . هذا كتاب من حبيب بن مَسْلَمَة لأهل تَفليس من رُسْتاق[2] مَنْجَلِيس من جُرْزان الهُرْمُز ، بالأمان على أنفسهم وبِيَعهم وصوامعهم وصلواتهم ودينهم ، على إقرار بالصَّغار[3] والجزْية عَلَى كل أهل بيتٍ دينارٌ ، وليس لكم أن تجمعوا بين أهل البيوتات تخفيفًا للجزية ، ولا لنا أن نفرِّق بينهم استكثاراً منها .

ولنا نصيحتكم وضَلَعكم[4] على أعداء الله ورسوله صلى الله عليه وسلم ما استطعتم ، وقِرَى المسلم المحتاج ليلةً بالمعروف من حَلاَلِ طعام أهل الكتاب لنا ، وإن انقُطِعَ[5] برجل من المسلمين عندكم فعليكم أداؤه إلى أدْنَى فِئةٍ من المؤمنين ، إلا أن يحال دونهم .

وإن أَنَبْتُم وأقمتم الصلاة فإخواننا فى الدين ، وإلاَّ فالجزيةُ عليكم ، وإن عَرَض للمسلمين شغل عنكم فقهَرَكم عدوُّكم فغير مأخوذين بذلك ، ولا هو ناقِض عهدكم ، هذا لكم ، وهذا عليكم ، شهد الله وملائكته . وكفى بالله شهيداً[6] » .

(فتوح البلدان البلاذرى ص ٢٠٩ ، ومعجم البلدان ٢ : ٣٩٧)

---

(١) حسب كنصر : عد. (٢) الرستاق : يستعمل فى الناحية التى هى طرف الإقليم ، معرب.
(٣) الذل . (٤) الضلع بالتحريك : القوة واحتمال الثقيل ، والمعنى وتقويتكم .
(٥) انقطع — بالبناء للمجهول — عجز عن سفره. (٦) هذه رواية البلاذرى فى فتوح البلدان، وياقوت فى معجم البلدان، وفيها التصريح بأن كتاب حبيب بن مسلمة لأهل جرزان وعهده لهم كتبا فى خلافة عثمان ومعاوية أمير على الشام ، وروى الطبرى فى تاريخه (ج ٤ : ص ٢٦٠) قال : « وكفر أهل أرمينية زمان معاوية ، وقد أمر حبيب بن مسلمة على الباب ، وحبيب يومئذ بجرزان ، وكاتب أهل تفليس وتلك الجبال ثم ناجزهم حتى استجابوا واعتقدوا من حبيب وكتب بينه وبينهم كتابا بعد ما كاتبهم » ثم أورد الكتاب والعهد — وفيهما اختلاف عن الصورة التى أوردناها — ومن ذلك ترى أنهما كتبا فى خلافة معاوية ، وسنورد لك رواية الطبرى فى الجزء الثانى إن شاء الله .

٣٠٣ - كتاب سعيد بن العاص إلى عثمان

ولما قَدِمَ سعيد بن العاص الكوفةَ ، جعل يختار وجوه الناس يدخلون عليه ويَسْمُرون عنده فسَمَر عنده ليلة وجوهُ أهل الكوفة ، وفيهم مالكُ الأَشْتَر فى رجال ، فقال سعيد : إنما هذا السَّواد بُسْتان لقريش ، فقال الأشتر : أتزعُم أن السَّواد الذى أفاءه الله علينا بأسيافنا بستان لك ولقومك ؟ والله ما يَزيد أوفاكم فيه نصيبًا إلاَّ أن يكون كأَحَدِنا ، وتكلم معه القوم ، فقال عبد الرحمن الأَسَدىّ - وكان على شُرْطَة سعيد - أتردُّون على الأمير مقالته ؟ وأغلظَ لهم ، فقال الأشتر : مِن هاهنا لا يفوتنكم الرجل ، فوثبوا عليه ، فوطِئوه وَطْأً شديداً حتى غُشِى عليه ، ثم جُرَّ برجله فأُلْقِىَ فنُضِح[1] بماء فأفاق ، فقال له سعيد : أبِكَ حياةٌ ؟ فقال : قتلَنى من انتخبْتَ -زعمْتَ- للإسلام، فقال: واللهِ لا يَسْمُر منهم عندى أحد أبداً، فجعلوا يجلسون فى مجالسهم وبيوتهم يشتُمون عثمان وسعيداً ، واجتمع الناس إليهم ، حتى كثر من يختلف إليهم ، فكتب سعيد إلى عثمان يخبره بذلك ، ويقول :

« إن رَهْطًا من أهل الكوفة سمّاهم له ، عشرة ، يؤلِّبون[2] ويجتمعون على عَيْبِك وَعيبى ، والطعنْ فى ديننا ، وَقد خشيتُ إن ثبَتَ أمرهم أنْ يكثُروا » فكتب عثمان إلى سعيد أنْ سَيِّرهم إلى معاوية - وهو يومئذ على الشأم - .

٣٠٤ - كتاب عثمان إلى معاوية

وكتب عثمان إلى معاوية :

« إن أهل الكوفة قد أخرجوا إليك نفَرًا خُلقوا للفتنة ، فراعِهم وقُمْ عليهم ، فإن آنَسْتَ منهم رُشْداً فاقبل منهم ، وإن أعْيَوك فارْدُدهم عليهم .

---

(١) أى رش . (٢) يحرضون .

فلما قَدِموا على معاوية أنزلهم ، وأجرى عليهم بأمر عثمان ما كان يجرى عليهم بالعراق ، وجعل ينصح لهم بلزوم الجماعة ، وكراهة الفُرقة ، وأن يوقّروا أئمتهم ، ويدلّوهم على كل حسن ما قدَروا ، ويَعِظوهم فى اللين ولُطف فى شىء إن كان منهم ، وطال بينه وبينهم الجَدَلُ واللَّجاجُ ، حتى وثبوا عليه فأخذوا برأسه ولِحْيته .

٣٠٥ — كتاب معاوية إلى عثمان

فكتب إلى عثمان :

« بسم الله الرحمن الرحيم . لعبد الله عثمان أمير المؤمنين من معاوية بن أبى سفيان : أما بعدُ ، يا أمير المؤمنين فإنك بعثْتَ إلىّ أقواماً يتكلمون بألسنة الشياطين وما يُملُون عليهم ، ويأتون الناسَ — زعموا — من قِبَل القرآن ، فيُشَبِّهُونَ(١) على الناس ، وليس كلُّ الناس يعلم ما يريدون ، وإنما يريدون فُرْقةً ، ويقرِّبون فتنةً ، قد أثقلهم الإسلامُ وأضْجَرهم ، وتمكَّنَتْ رُقَى(٢) الشيطان من قلوبهم ، فقد أفسدوا كثيراً من الناس ممن كانوا بين ظَهْرانَيهم من أهل الكوفة ، ولست آمَنُ إن أقاموا وسط أهل الشأم أن يَغُرُّوهم بسحرهم وفجورهم ، فارددُهم إلى مصرهم . فلتكن دارُهم فى مِصْرهم الذى نَجَمَ(٣) فيه نفاقُهم والسلام » .

وفى خبر آخر أن معاوية كتب إلى عثمان :

« إنه قدِم علىّ أقوام ليست لهم عقول ولا أديان ، أثقلهم الإسلامُ وأضجرهم العدلُ ، لا يريدون الله بشىء ، ولا يتكلمون بحجة ، إنما هَمُّهم الفتنةُ وأموال أهل الذمة ، والله مُبْتليهم ومختبرهم ، ثم فاضِحُهم ومُخْزِيهم ، وليسوا بالذين يَنْكُون(٤) أحداً إلا مع غيرهم ، فانْهَ سعيداً ومن قِبَله عنهم ، فإنهم ليسوا لأكثر من شَغَب أو نَكِير » .

---

(١) أى يلبسون عليهم ويأتون لهم بالشبه . (٢) الرقى جمع رقية كغرفة : وهى العوذة .

(٣) أى ظهر . (٤) نكى العدو وفيه : قتل وجرح .

فكتب إليه عثمان يأمره أن يردهم إلى سعيد بن العاص بالكوفة ، فردهم إليه ، فلم يكونوا إلا أطلَقَ ألسنةً منهم حين رجعوا ، وكتب سعيد إلى عثمان يضِجُّ منهم ، فكتب عثمان إلى سعيد :

أن سَيِّرهم إلى عبد الرحمن بن خالد بن الوليد » وكان أميراً على حِمْص .

٣٠٦ — كتاب عثمان إلى الأشتر وأصحابه

وكتب إلى الأشتر وأصحابه :

« أما بعدُ : فإنى قد سيَّرتكم إلى حمص ، فإذا أتاكم كتابى هذا فاخرجوا إليها ، فإنكم لستم تَأْلُون الإسلامَ وأهلَه شرا ، والسلام » .

فلما قرأ الأشتر الكتاب ، قال : اللّهم أسْوَأنا نظرا للرعية ، وأعمَلنا فيهم بالمعصية ، فعجِّل له النِّقمةَ ، وسار الأشتر وأصحابه إلى حمص ، فأنزلهم عبد الرحمن بن خالد الساحل ، وأجرى عليهم رزقًا .

وكان ذلك سنة ٣٣ هـ . (تاريخ الطبرى ٥ : ٩٠)

٣٠٧ — كتاب عثمان إلى أهل الكوفة

واستغْوَى يزيدُ بن قيس الناسَ على سعيد بن العاص ، واستعفَوا عثمانَ منه ، وطلبوا أبا موسى الأشعرى ، فكتب إليهم عثمان :

« بسم الله الرحمن الرحيم . أما بعدُ ، فقد أمَّرْتُ عليكم مَن اخترتم ، وأعفَيْتكم من سعيد ، والله لأُفرِشَنَّكم (١) عِرْضى ، ولَأَبذُلَنَّ لكم صَبْرِى ، ولأَستصلِحَنَّكم بجُهْدى ، فلا تَدَعوا شيئا أحببتموه لا يُعْصَى اللهُ فيه إلا سألتموه ، ولا شيئا كرِهتموه لا يُعْصَى اللهُ فيه إلا استعفيتم منه . أنزِل فيه عند ما أحببتم حتى لا يكون لكم علىَّ حُجَّةٌ » .

وكتب بمثل ذلك فى الأمصار — وكان ذلك سنة ٣٤ هـ . (تاريخ الطبرى ٥ : ٩٦)

---

(١) تقول : فرشت فلانا بساطا ، وأفرشته وفرشته : أى بسطته له .

٣٠٨ — كتاب عثمان إلى أهل الأمصار

وفَشَت المقالة فى الطعن على عثمان ووُلَاته ، ونسبوا إليه أموراً ، ونَقِمُوا منه أحداثاً أهمُّها إيثارُ أقربائه — ونَمَتْ هذه الأنباء إلى أهل المدينة فأتوا عثمان ، فقالوا : يا أمير المؤمنين أيأتيك عن الناس الذى يأتينا ؟ قال : لا واللهِ ، ما جاءنى إلا السلامة ، فأخبروه بما نَمَي إليهم ، فكتب إلى أهل الأمصار :

« أما بعدُ : فإنى آخُذُ العمال بمُوَافاتى فى كل مَوْسِم ، وقد سلَّطْتُ الأمة منذ وَلِيتُ على الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر ، فلا يُرْفَع علىَّ شىء ولا على أحد من عُمَّالى إلا أعطيتهُ ، وليس لى ولعِيالى حقٌّ قِبَل الرعية إلا متروك لهم ، وقد رَفَع إلىَّ أهلُ المدينة أن أقواماً يُشتَمون ، وآخرون يُضرَبون ، فيامَنْ ضُرِب سرًّا ، وشُتِم سرًّا ، من ادَّعَى شيئاً من ذلك فليوافِ المَوْسِم ، فليَأخُذْ بحقِّه حيث كان : منى ، أو من عُمَّالى ، أو تَصدَّقوا فإن الله يَجزِى المتصَدِّقين » .

فلما قرئ الكتاب فى الأمصار أبْكَى الناسَ وَدَعَوا لعثمان ، وقالوا : إن الأمة لَتَمَخَّضُ بشَرٍّ .

(تاريخ الطبرى ٥ : ٩٩)

٣٠٩ — كتاب أهل المدينة إلى من بالآفاق

وروى الطبرى قال :

« لما رأى الناس ماصنع عثمانُ كتب مَنْ بالمدينة من أصحاب النبى صلى الله عليه وسلم إلى مَنْ بالآفاق منهم ، وكانوا قد تفرَّقوا فى الثغور :

« إنكم إنما خرجتم أنْ تجاهدوا فى سبيل الله عزّ وجل تطلبُونَ دين محمد صلى الله عليه وسلم فإن دين محمد قد أُفسِدَ مِن خِلْفكم وتُرِك ، فهَلُمُّوا فأقيموا دين محمد صلى الله عليه وسلم » .

فأقبلوا من كل أُفُق حتى قتلوه .

(تاريخ الطبرى ٥ : ١١٥)

٣١٠ — كتاب أهل المدينة إلى أهل مصر

وروى ابن قتيبة فى الإمامة والسياسة أنه جاء أهلَ مصر كتابٌ من المدينة صورته :

« بسم الله الرحمن الرحيم . من المهاجرين الأولين ، وبقية الشُّورَى إلى من بمصر من الصحابة والتابعين :

أما بعدُ : أَنْ تعالَوا إلينا وتداركُوا خلافة رسول الله قبل أن يُسْلَبها أهلُها ، فإن كتاب الله قد بُدِّل ، وسُنَّة رسوله قد غُيِّرت ، وأحكام الخليفتين قد بُدّلت ، فَنَنْشُد اللهَ مَن قرأ كتابنا من بقية أصحاب رسول الله والتابعين بإحسان إلاَّ أقبلَ إلينا ، وأخَذَ الحق لنا وأعطاناه ، فأَقبِلُوا إلينا إن كنتم تؤمنون بالله واليوم الآخر ، وأقيموا الحقَّ على المِنهاج الواضح الذى فارقتم عليه نبيَّكم وفارقكم عليه الخلفاء ، غُلِبْنا على حقنا ، واستُولِىَ على فَيْئنا ، وحِيلَ بيننا وبين أمرنا ، وكانت الخلافة بعد نبينا خلافة نُبُوَّة ورحمة ، وهى اليوم مُلْك عَضُوض[(١)] ، من غَلَبَ على شىء أَكَلَه » .

(الإمامة والسياسة ١ : ٢٩)

٣١١ — كتاب مفتعل على عثمان

وتكاتب أهلُ الأمصار المنحرفون عن عثمان ، وتواعدوا جميعاً أن يخرجوا فى شوّال (سنة ٣٥ هـ) مُظهرين الحجَّ ، فخرجت جموعهم من البصرة والكوفة ومصر ونزلوا فى ضواحى المدينة ، وعَلِم بأمرهم عثمان ، فبعث إلى علىّ كرم الله وجهه وسأله أن يخرج إليهم ، ويضمَن لهم عنه كل مايريدون من العدل ، وحسن السيرة ، فركب إليهم ،

---

(١) ملك عضوض . أى شديد فيه عسف وعنف ، وفى الحديث « ثم يكون ملك عضوض » أى يصيب الرعية فيه عسف وظلم ، كأنهم يعضون فيه عضا ، وفى الأصل « عضود » بالدال ، وهو تحريف .

وردهم عنه ، فسمعوا لقوله ، وانصرفوا مظهرين الرجوع إلى بلادهم ، ثم كرّوا راجعين ، فلم يفجأ أهل المدينة إلا والتكبيرُ فى نواحى المدينة ، وأحاطوا بعثمان ، فأتاهم الناس فكلموهم وفيهم علىّ فقال : ما ردَّكم بعد ذهابكم ؟ قال المصريون : أخذنا مع بَرِيدٍ كتابا بقتلنا ، وذكروا أنهم بينما هم سائرون إذا بغلام على بَعير وهو مُقْبل من المدينة فتأمّلوه فإذا هو ورش غلام عثمان ، ففتّشوه فوجدوا معه كتابا إلى عبد الله بن أبى سَرْح عامل مصر ، ونصه (كما ورد فى مروج الذهب) .

« إذا قَدِم عليك الجيش فاقطع يد فلان ، واقتل فلاناً ، وافعل بفلان كذا » وأحصَى أكثر من فى الجيش وأمر فيهم بما أمر .

وفى إحدى روايتى الطبرى : « أما بعد ، فانظر فلاناً وفلاناً فاضرب أعناقهم إذا قَدِموا عليك ، وانظر فلاناً وفلاناً فعاقِبْهم بكذا وكذا » .

وفى روايته الأخرى :

« بسم الله الرحمن الرحيم . أما بعدُ : فإذا قَدِم عليك عبد الرحمن بن عُدَيْس فاجْلِده مائةً ، واحلِقْ رأسَه ولحيته ، وأطِلْ حبسه حتى يأتيَك أمرى ، وعمرو بن الحَمِق فافعل به مثل ذلك ، وسودانَ بن حُمْران مثل ذلك وعروة بن النِّباع اللَّيثى مثل ذلك[1] » .

وفى رواية العقد الفريد : « إذا جاءك محمد[2] وفلان وفلان ، فاحتَلْ لقتلهم ، وأبطِلْ كتابهم ، وقِرَّ على عملك حتى يأتيَك رأيى ، واحتبِسْ من جاء يتظلم منك ، ليأتيَك فى ذلك رأيى إن شاء الله » .

وسألوا عثمان عن الكتاب ، فأقسَمَ أنه ما كتب ، ولا أمَرَ ، ولا عَلِم ، فقال علىّ ومن معه من كبار الصحابة : صدق عثمان ، وقال محمد بن مَسْلَمة ، والله إنه لصادق ،

---

(١) هؤلاء الأربعة : هم رؤساء الخارجين من المصريين .

(٢) يعنى محمد بن أبى بكر ، وكان الثائرون من المصريين طلبوا إلى عثمان أن يستعمله عليهم ، فكتب عهده وولاه . ورواية الإمامة والسياسة نحو من رواية العقد وتنقص عنها الفقرة الأخيرة .

ولكن هذا عمل مَرْوان، قالوا: يُكتب إلى عاملك بهذه الأمور العظام، وأنت لاتدرى؟ قال نعم، قالوا: ما أنت إلا صادق، أو كاذب، فإن كنت كاذبا فقد استحققتَ الخلع، لِمَا أمرت به من سفك دمائنا بغير حقها، وإن كنت صادقًا فقد استحققتَ الخلع، لضعفك وغفلتك وخُبْث بِطانتك، ولا ينبغى لنا أن نترك على رقابنا من يُقتطَع مثل هذا الأمر دونه .

(تاريخ الطبرى ٥ : ١٢٥ ، ١١٩ ، والعقد الفريد ٢ : ٢١٦ ، ومروج الذهب: ١ : ٤٤٠ ، والإمامة والسياسة ١ : ٣١)

٣١٢ — كتاب عثمان إلى أهل الأمصار

وكتب عثمان إلى أهل الأمصار يستمدهم :

« بسم الله الرحمن الرحيم. أما بعدُ، فإن الله عزّ وجل بعث محمداً بالحق بشيراً ونذيراً، فبلَّغ عن الله ما أمَرَه به، ثم مَضَى وقد قَضَى الذى عليه، وخلَّف فينا كتابه، فيه حَلالُه وحَرامه وبيانُ الأمور التى قدَّرَ، فأمضاها على ما أحبَّ العبادُ وكرِهوا، فكان الخليفة أبو بكر رضى الله عنه، وعمر رضى الله عنه، ثم أُدخلتُ فى الشُّورَى عن غير علم ولا مسألة، عن مَلَإٍ من الأمة، ثم أجمع أهل الشُّورَى عن مَلَإٍ منهم، ومن الناس على غير طَلَب منى ولا محبَّة، فعمِلت فيهم مايعرِفون، ولا يُنْكرون، تابِعًا غير مُسْتَتْبِع، متَّبِعا غير مُبْتَدِع، مقتديا غير متكلِّف، فلما انتهت الأمور، وانتكث[1] الشَّرُّ بأهله، بدَتْ ضغائنُ وأهواءٌ على غير إجرام، ولا تِرَةٍ[2] فيما مضى إلا إمضاء الكتاب، فطلبوا أمراً، وأعلَنوا غيرَه بغير حُجَّة، ولا عُذر، فعابوا علىَّ أشياء مما كانوا يرضَون، وأشياء عن ملإٍ من أهل المدينة لايَصلح غيرها، فصَبَرْتُ لهم نفسى، وكفَفْتُها عنهم منذ سنين، وأنا أرى وأسمع، فازدادوا على الله عز وجل

(١) من انتكث الحبل إذا انتقض . (٢) الترة : الثأر .

جُرْأة ، حتى أغاروا علينا فى جِوار رسول الله صلى الله عليه وسلم، وحَرَمه، وأرض الهجرة، وثابت إليهم الأعرابُ ، فهم كالأحزاب[1] أيام الأحزاب ، أو مَن غزانا بأُحُدٍ إلاَّ ما يُظهِرون[2] ، فمن قَدَر على اللَّحاق بنا فليَلْحَق » . (تاريخ الطبرى ٥ : ١٠٥)

٣١٣ — كتاب أهل مصر إلى عثمان

وكتب أهل مصر — الذين ساروا إلى عثمان — بكتاب ، فكان فيما كتبوا إليه :

« بسم الله الرحمن الرحيم . أما بعدُ فاعلَمْ أنَّ الله لا يُغيِّر ما بقومٍ حتى يغيِّروا ما بأنفسهم ، فاللهَ اللهَ ، ثم اللهَ اللهَ ، فإنك على دُنيا فاستَتِمَّ إليها معها آخرةً ، ولا تَنْسَ نَصيبك من الآخرة فلا تَسُوغ[3] لك الدنيا . واعلم أنا واللهِ لله نغضبُ ، وفى الله نَرْضَى ، وإنا لن نضع سيوفنا عن عَواتِقِنا ، حتى تأتِيَنا منك توبةٌ مُصَرِّحة[4] ، أو ضلالة مُجَلِّحة مُبْلِجَة ، فهذه مقالتنا لك ، وقضيَّتُنا إليك ، والله عَذِيرنا منك والسلام » .

وكتب أهل المدينة إلى عثمان يدعونه إلى التوبة ويحتجون ويُقسمون له بالله لا يُمسكون عنه أبداً حتى يقتلوه ، أو يعطيهم ما يلزمه من حق الله . (تاريخ الطبرى ٥ : ١١٦)

٣١٤ — كتاب عثمان إلى الامام على

وتفاقمت الفتنة واستطار شررها ، حتى حصر الثوار عثمان فى داره ، وكانوا يهتفون باسم الإمام على كرم الله وجهه الخلافة ، فبعث عثمان عبد الله بن عباس إلى الإمام على

---

(١) هم قريش وغطفان وبنو مرة وأشجع وسليم وأسد الذين تحزبوا واجتمعوا لقتال رسول الله صلى الله عليه وسلم فى غزوة الأحزاب (غزوة الخندق) وكانت سنة خمس للهجرة ، وكانت عدتهم عشرة آلاف قائدهم العام أبو سفيان . (٢) أى من الاسلام ، فلا فرق بينهم وبين هؤلاء إلا إظهارهم الاسلام . (٣) ساغ الشراب : سهل مدخله فى الحلق .

(٤) مصرحة : أى خالصة ، يقال صرحت الخمر تصريحا : انجلى زبدها فخلصت . قال الأعشى :

كميتا تكشف عن حمرة إذا صرحت بعد إزبادها

والتجليح : المكاشفة فى الكلام ، والإقدام الشديد والتصميم فى الأمر والمضى فيه والجرأة ، وضلالة مجلحة : أى مجلح صاحبها ، ومبلجة : أى واضحة ظاهرة ، بلج الصبح وأبلج : أضاء وأشرق .

وقال : قل له فليخرج إلى ماله بينبُع[1] فلا أغتمّ به ولا يغتمّ بى ، فخرج علىّ إلى ينبع ، فكتب إليه عثمان حين اشتد الأمر :

« أما بعدُ : فإنه قد بلغ السَّيْلُ الزُّبَى[2] ، وجاوز الحِزامُ الطُّبْيَيْن[3] ، وتجاوز الأمر بى قَدْرَهُ[4] ، وطمِعَ فِىَّ من لايدفع عن نفسه[5] .

وإنك لم يَفْخَر عليك كَفَاخِرٍ ضعيفٍ ولم يَغْلِبْك مثلُ مُغَلَّب[6]

ورأيت القوم لا يقصّرون دون دمى ، فأقبل إلىّ ، على أىّ أمريك أحببتَ : معى كنت أو علىّ ، صديقاً كنت أو عدوًّا .

فإن كنتُ مأكولاً فكن أنت آكلِي وإلاّ فأدرِكنى ولمّا أُمَزَّقِ[7]

فرجع علىّ .

(الكامل للمبرد ١ : ٩ ، والعقد الفريد ٢ : ٢٢٤ ، وزهر الآداب ١ : ٤٤ ، ومجمع الأمثال ١ : ١١١ ، وجمهرة الأمثال ١ : ١٥٥ ، وصبح الأعشى ٦ : ٣٨٨ ، والإمامة والسياسة ١ : ٢٨ ، وإعجاز القرآن ص ١١٩)

* * *

(١) وكان فيها نخل للامام علي . (٢) الزبى جمع زبية كغرفة : وهى حفرة تحفر فى ربوة من الأرض وتغطى ويجعل عليها طعم ، فيراه الأسد من بعيد فيأتيه . فاذا استوى عليها انقض غطاؤها فيهوى فيها ، وأصل الزبية : الرابية لايعلوها الماء ، فاذا بلغها السيل كان جارفا مجحفا . وهو مثل يضرب للأمر يبلغ غايته فى الشدة والصعوبة .

(٣) الطبى بالضم والكسر لذات الحافر والسباع كالضرع لغيرها والجمع أطباء . وهو مثل يضرب أيضا عند بلوغ الشدة منتهاها ، ورواية الكامل المبرد: « فانه قد جاوز الماء الزبى ،وبلغ الحزام الطبيين» . (٤) ورواية الإمامة والسياسة: « وارتفع أمر الناس فى شأنى فوق قدره وزعموا أنهم لايرضون دون دمى » . (٥) ورواية العقد: « وطمع فى من كان يضعف عن نفسه » .

(٦) المغلب : المغلوب مرارا (وهو أيضا المحكوم له بالغلبة ضد) ورواية زهر الآداب بدل هذا البيت : « ولم يعجزك كلئيم ، ولم يغلبك كمغلب » ورواية الإمامة والسياسة بين هذا البيت والذى بعده : « وقد كان يقال : أكل السبع خير من افتراس الثعلب ، فأقبل على أولى » .

(٧) ورواية الكامل للمبرد والعقد وإعجاز القرآن وصبح الأعشى والإمامة والسياسية « فكن خير آكل » وقال صاحب زهر الآداب: « وهذا البيت للممزق العبدى، وبه سمى الممزق ، واسمه شاس وإنما تمثل به عثمان رضى الله عنه ، وحذاق أهل النظر يدفعون هذا ويستشهدون على فساده بأحاديث تناقضه ليس هذا موضعها » .

ثم جاءه ابن عباس برسالة من عثمان وهو محصور ، يسأله فيها الخروج إلى ماله بينبع ، ليقل هَتْفُ الناس باسمه للخلافة ـ بعد أن كان سأله مثل ذلك من قبل ، كما رأيت ـ فقال :

« يابن عباس ، ما يريد عثمان إلا أن يجعلني جملا ناضحاً بالغَرْب[1] أقبِل وأُدْبِر ، بعث إليّ أن أخرج ، ثم بعث إليّ أن أقْدَمَ ، ثم هو الآن يبعث إليّ أن أخرج ، والله لقد دفعتُ عنه ، حتى خشيتُ أن أكون آثما » . (نهج البلاغة ١ : ٢٩٥)

٣١٥ ـ كتاب عثمان إلى معاوية وأهل الشام والبصرة

وروى الطبري قال :

فلما رأى عثمان ما قد نزل به وما قد انبعث عليه من الناس ، كتب إلى معاوية ابن أبي سفيان وهو بالشأم :

« بسم الله الرحمن الرحيم : أما بعدُ ، فإن أهل المدينة قد كفروا وأخلفوا الطاعة ، ونكثوا البَيْعة ، فابعث إليّ من قِبَلك من مُقاتِلة أهل الشأم على كل صَعْب وذَلول » .

فلما جاء معاويةَ الكتابُ تربَّص به ، وكَرِه إظهار مخالفة أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم وقد عَلِمَ اجتماعَهم . فلما أبطأ أمره على عثمان كتب إلى يزيد بن أسَد ابن كُرْز وإلى أهل الشأم « يستنفِرُهم ويعظِّم حقَّه عليهم ، ويذكر الخلفاء وما أمر الله عزّ وجل به من طاعتهم ومناصحتهم ، وَوَعَدهم أن يتخذهم جُنداً أو بِطانةً دون الناس ، وذكَّرهم بَلاءَه عندهم وصنيعَه إليهم ، فإن كان عندكم غِيَاثٌ فالعَجَل العَجَلَ ، فإن القوم مُعاجِلِيَّ » .

فلما قُرِئ كتابه عليهم قام يزيد فعظَّم حق عثمان ، وحضَّهم على نصره ، وأمرهم بالمسير إليه ، فتابعه ناس كثير ، حتى إذا كانوا بوادي القُرى بلغهم قتل عثمان فرجعوا

---

(١) نضح الجمل الماء : حمله ليسقى به الزرع ، والغرب : الدلو العظيمة .

وكتب عثمان إلى عبد الله بن عامر أمير البصرة أن آندُبْ إلىَّ أهل البصرة ـ نسخة كتابه إلى أهل الشأم ـ فصار إليه جمع كثير حتى إذا نزلوا الرَّبَذة[1] ونزلت مقدِّمتهم عند صِرَار أتاهم قتلُ عثمان » . (تاريخ الطبرى ٥ : ١١٥)

٣١٦ — كتاب عثمان إلى معاوية وأهل الشام

وروى ابن قُتيبة فى الإمامة والسياسة قال :

وكتب عثمان إلى أهل الشأم عامة ، وإلى معاوية وأهل دمشق خاصة :

« أما بعدُ : فإنى فى قوم طال فيهم مُقَامِى ، واستعجلوا القَدَرَ فىَّ ، وقد خيَّرونى بين أن يَحْمِلُونى على شارِفٍ[2] من الإبل الدَّخيل[3] ، وبين أن أنزِعَ لهم رداء الله الذى كسانى ، وبين أن أُقِيدهم[4] ممن قتلتُ ، ومَن كان على سُلطان يخطئْ ويصيب ، فيا غوثاه يا غوثاه ، ولا أمير عليكم دونى ، فالعجَل العجَل يا معاوية ، وأَدْرِكْ ثم أَدْرِكْ ، وما أراك تُدْرِك » . (الإمامة والسياسة ١ : ٣٠)

٣١٦ — كتاب عثمان إلى أهل الموسم

وأمر عثمانُ عبد الله بن عباس أن يحجَّ بالناس فى السنة التى قتل فيها ـ سنة ٣٥ هـ ـ وكتب معه إلى أهل المَوْسِم بكتاب يسألهم أن يأخذوا له بالحق ممن حَصَره ، وهو :

« بسم الله الرحمن الرحيم . من عبد الله عثمان أمير المؤمنين إلى المؤمنين والمسلمين : سلامٌ عليكم ، فإنى أحمَدُ اللهَ إليكم الذى لا إلهَ إلا هو ، أما بعدُ : فإنى أذكِّركم بالله

---

(١) الربذة : قرب المدينة ، وكذا صرار .

(٢) الشارف من النوق : المسنة الهرمة كالشارفة .

(٣) الدخيل : أى الغريبة ، يعنى : من الإبل الضعيفة المهزولة . يقال فلان دخيل فى بنى فلان : إذا كان من غيرهم فتدخل فيهم ، والأنثى دخيل ، وكلمة دخيل : أدخلت فى كلام العرب وليست منه ويقال أيضا : بغير مدخول أى مهزول داخل فى جوفه الهزال ، فيجوز أن يكون فعيل هنا بمعنى مفعول ، والمعنى: من الإبل الدخيل: أى المدخولة المهزولة، ولم تلحقه التاء لأنه تبع موصوفه — وفى نسخة من الإمامة والسياسة « الدحيل » بالحاء وهو تحريف .

(٤) أقاد القاتل بالقتيل : قتله به .

جل وعزّ الذى أنعم عليكم ، وعلّمكم الإسلام ، وهداكم من الضّلالة ، وأنقذكم من الكفر ، وأراكم البيِّناتِ ، وأوسع عليكم من الرزق ، ونصركم على العدو ، وأسبغ عليكم نِعَمَه ، فإن الله عزّ وجل يقول وقولُه الحقُّ : «وَإِنْ تَعُدُّوا نِعْمَةَ ٱللهِ لاَ تُحْصُوهَا إِنَّ الْإِنْسَانَ لَظَلُومٌ كَفَّارٌ» ، وقال عزّ وجل : «يٰأَيُّهَا ٱلَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا ٱللهَ حَقَّ تُقَاتِهِ[1] وَلاَ تَمُوتُنَّ إِلاَّ وَأَنْتُمْ مُسْلِمُونَ ، وَٱعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللهِ جَمِيعًا وَلاَ تَفَرَّقُوا وَٱذْكُرُوا نِعْمَةَ ٱللهِ عَلَيْكُمْ إِذْ كُنْتُمْ أَعْدَاءً فَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ فَأَصْبَحْتُمْ بِنِعْمَتِهِ إِخْوَانًا وَكُنْتُمْ عَلَى شَفَا[2] حُفْرَةٍ مِنَ النَّارِ فَأَنْقَذَكُمْ مِنْهَا كَذٰلِكَ يُبَيِّنُ اللهُ لَكُمْ آيَاتِهِ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ ، وَلْتَكُنْ مِنْكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى الْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَأُولٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ، وَلاَ تَكُونُوا كَالَّذِينَ تَفَرَّقُوا وَٱخْتَلَفُوا مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ الْبَيِّنَاتُ وَأُولٰئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ» وقال وقوله الحق: «يٰأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اذْكُرُوا نِعْمَةَ اللهِ عَلَيْكُمْ وَمِيثَاقَهُ الَّذِي وَاثَقَكُمْ بِهِ إِذْ قُلْتُمْ سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا» وقال وقوله الحق : «يٰأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنْ جَاءَكُمْ فَاسِقٌ بِنَبَإٍ فَتَبَيَّنُوا أَنْ تُصِيبُوا قَوْمًا بِجَهَالَةٍ فَتُصْبِحُوا عَلَى مَا فَعَلْتُمْ نَادِمِينَ ، وَٱعْلَمُوا أَنَّ فِيكُمْ رَسُولَ اللهِ لَوْ يُطِيعُكُمْ فِي كَثِيرٍ مِنَ الْأَمْرِ لَعَنِتُّمْ[3] وَلٰكِنَّ اللهَ حَبَّبَ إِلَيْكُمُ الْإِيمَانَ وَزَيَّنَهُ فِي قُلُوبِكُمْ وَكَرَّهَ إِلَيْكُمُ الْكُفْرَ وَالْفُسُوقَ وَالْعِصْيَانَ أُولٰئِكَ هُمُ الرَّاشِدُونَ ، فَضْلاً مِنَ اللهِ وَنِعْمَةً وَٱللهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ» وقال عزّ وجل : «إِنَّ الَّذِينَ يَشْتَرُونَ بِعَهْدِ اللهِ وَأَيْمَانِهِمْ ثَمَنًا قَلِيلاً أُولٰئِكَ لاَ خَلاَقَ[4] لَهُمْ فِي الْآخِرَةِ وَلاَ يُكَلِّمُهُمُ ٱللهُ وَلاَ يَنْظُرُ إِلَيْهِمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَلاَ يُزَكِّيهِمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ» ، وقال وقوله الحق : «فَٱتَّقُوا ٱللهَ مَا ٱسْتَطَعْتُمْ وَٱسْمَعُوا وَأَطِيعُوا وَأَنْفِقُوا خَيْرًا لِأَنْفُسِكُمْ وَمَنْ يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِ فَأُولٰئِكَ

---

(١) أى حق تقواه وأصل تقاة : وقية ، قلبت واوها المضمومة تاء كما فى تؤدة وتخمة ، وقلبت الياء ألفا لتحركها وانفتاح ما قبلها . (٢) الشفا : الحرف . (٣) أى لوقعتم فى العنت ، والعنت بالتحريك : دخول المشقة على الإنسان . (٤) الخلاق : النصيب من الخير .

هُمُ الْمُفْلِحُونَ » وقال وقوله الحق : « وَلاَ تَنقُضُوا الأَيْمَانَ بَعْدَ تَوْكِيدِهَا وَقَدْ جَعَلْتُمُ اللهَ عَلَيْكُمْ كَفِيلاً إِنَّ اللهَ يَعْلَمُ مَا تَفْعَلُونَ . وَلاَ تَكُونُوا كَالَّتِي نَقَضَتْ[(١)] غَزْلَهَا مِنْ بَعْدِ قُوَّةٍ أَنكَاثًا تَتَّخِذُونَ أَيْمَانَكُمْ دَخَلاً بَيْنَكُمْ أَنْ تَكُونَ أُمَّةٌ هِيَ أَرْبَى مِنْ أُمَّةٍ إِنَّمَا يَبْلُوكُمُ اللهُ بِهِ وَلَيُبَيِّنَنَّ لَكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ مَا كُنْتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ ، وَلَوْ شَاءَ اللهُ لَجَعَلَكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَلَكِنْ يُضِلُّ مَنْ يَشَاءُ وَيَهْدِي مَنْ يَشَاءُ وَلَتُسْأَلُنَّ عَمَّا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ وَلاَ تَتَّخِذُوا أَيْمَانَكُمْ دَخَلاً بَيْنَكُمْ فَتَزِلَّ قَدَمٌ بَعْدَ ثُبُوتِهَا وَتَذُوقُوا السُّوءَ بِمَا صَدَدْتُمْ عَنْ سَبِيلِ اللهِ وَلَكُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ . وَلاَ تَشْتَرُوا بِعَهْدِ اللهِ ثَمَنًا قَلِيلاً إِنَّمَا عِنْدَ اللهِ هُوَ خَيْرٌ لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ . مَا عِنْدَكُمْ يَنْفَدُ وَمَا عِنْدَ اللهِ بَاقٍ وَلَنَجْزِيَنَّ الَّذِينَ صَبَرُوا أَجْرَهُمْ بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ » وقال وقوله الحق : « أَطِيعُوا اللهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَأُولِي الأَمْرِ مِنْكُمْ فَإِنْ تَنَازَعْتُمْ فِي شَيْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى اللهِ وَالرَّسُولِ إِنْ كُنْتُمْ تُؤْمِنُونَ بِاللهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ ذَلِكَ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلاً » وقال وقوله الحق : « وَعَدَ اللهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِي الأَرْضِ كَمَا اسْتَخْلَفَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ الَّذِي ارْتَضَى لَهُمْ وَلَيُبَدِّلَنَّهُمْ مِنْ بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْنًا يَعْبُدُونَنِي لاَ يُشْرِكُونَ بِي شَيْئًا ، وَمَنْ كَفَرَ بَعْدَ ذَلِكَ فَأُولَئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ » وقال وقوله الحق : « إِنَّ الَّذِينَ يُبَايِعُونَكَ إِنَّمَا يُبَايِعُونَ اللهَ يَدُ اللهِ فَوْقَ أَيْدِيهِمْ فَمَنْ نَكَثَ فَإِنَّمَا يَنْكُثُ عَلَى نَفْسِهِ وَمَنْ أَوْفَى بِمَا عَاهَدَ عَلَيْهُ اللهَ فَسَيُؤْتِيهِ أَجْرًا عَظِيمًا » .

---

(١) نقضت : أفسدت ، أنكاثا جمع نكث بالكسر : وهو ما ينكث أى ينقض ليغزل ثانية ، وأنكاثا منصوب على الحال ، أو مفعول ثان لنقضت فإنه بمعنى صيرت ، والمراد به تشبيه الناقض بمن هذا شأنه ، وقيل هى ريطة بنت سعد بن تيم القرشية فإنها كانت خرقاء تفعل ذلك ، دخلا : أى مفسدة وخديعة ، ومعنى الآية : تتخذون أيمانكم فساداً ودخلا بينكم لأن تكون جماعة أزيد عدداً ، وأوفر مالا من جماعة ، أى لاتغدروا بقوم لكثرتكم وقلتهم ، أو لكثرة منابذيهم وقوتهم ، وذلك أن قريشاً كانوا يحالفون الحلفاء فإذا رأوا شوكة فى أعادى حلفائهم نقضوا عهدهم ، وحالفوا أعداءهم ، يبلوكم : أى يختبركم ، فتزل قدم ، أى فتزل أقدامكم عن محجة الإسلام ، ينفد : أى يفنى وينقضى .

« أما بعدُ : فإن الله جلَّ وعزَّ رضى لكم السَّمْعَ وَالطاعة والجماعة، وحذَّركم المعصيةَ وَالفُرْقةَ والاختلاف ، ونبَّأكم ما قد فعله بالذين من قبلكم ، و تَقَدَّمَ إليكم فيه ، ليكون له الُحجّةُ عليكم إن عَصَيْتموه ، فاْقبَلُوا نصيحةَ الله جل وعزّ واحذَرُوا عَذابَه ، فإنكم لن تجدوا أمَّةً هلكتْ إلا من بعد أن تختلف ، إلا أن يكون لها رأسٌ يَجْمَعها ، ومتى ما تفعلون ذلك لاتقيموا الصلاة جميعاً ، وسُلِّطَ عليكم عدوكم، ويستحلّ بعضُكم حُرَم بعض ، ومتى يُفعل ذلك لا يَقُمْ لله سبحانه دين ، وتكونوا شِيَعًا ، وقد قال الله جل وعزّ لرسوله صلى الله عليه وسلم : « إنَّ الَّذِينَ فَرَّقُوا دِينَهُمْ وَكَانُوا شِيَعًا لَسْتَ مِنْهُمْ فِى شَىْءٍ إنَّمَا أَمْرُهُمْ إلَى اللهِ ثُمَّ يُنَبِّئُهُمْ بِمَا كَانُوا يَفْعَلُونَ » وإنى أوصيكم بما أوصاكم الله ، وأحذركم عذابَهُ ، فإن شُعَيْبًا صلى الله عليه وسلم قال لقومه : « وَيَا قَوْمِ لَا يَجْرِمَنَّكُمْ[1] شِقَاقِى أَنْ يُصِيبَكُمْ مِثْلُ مَا أَصَابَ قَوْمَ نُوحٍ أَوْ قَوْمَ هُودٍ أَوْ قَوْمَ صَالِحٍ وَمَا قَوْمُ لُوطٍ مِنْكُمْ بِبَعِيدٍ ، وَاسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوا إلَيْهِ إنَّ رَبِّى رَحِيمٌ وَدُودٌ » .

« أما بعدُ : فإن أقواما ممّن كان يقول فى هذا الحديث أظْهَرُوا للناس أنّما يَدْعُون إلى كتاب الله عزَّ وجل والحقِّ ، ولا يريدون الدنيا ولا مُنَازَعَةً فيها ، فلما عُرِض عليهم الحقُّ إذا النّاسُ فى ذلك شتّى[2] ، منهم آخِذٌ الحق ونازعٌ[3] عنه حين يُعْطاه ، ومنهم تارِكٌ الحق ونازِلٌ عنه فى الأمر يريد أن يبتزَّهُ[4] بغير الحق ، طال عليهم عُمْرِى، وَراثَ عليهم أملُهم الإمْرَةَ[5] ، فاستعجَلُوا القَدَرَ ، وقد كتبوا إليكم أنهم قد رَجَعوا بالذى أعطيتُهم ، ولا أعلم أنى تركتُ من الذى عاهَدْتُهم عليه شيئاً ، كانوا زَعَموا أنهم يطلبون الحدودَ فقلتُ : أقيمُوها على من عَلِمْتم تَعدَّاها فى أحَد ، أقيموها على من

---

(١) لا يجرمنكم : أى لايحملنكم . (٢) أى مختلفون مفترقون . وهو جمع شتيت .
(٣) نزع عن الأمر كضرب : كف وأبى . (٤) أى يستلبه .
(٥) راث : أبطأ ، وأمر عليهم إذا ولى ، والاسم الإمرة .

فَلَكُم من قريبٍ أو بعيد ، قالوا : كتابُ الله يُتلَى ، فقلت : فليَتلُه مَن تلاه غيرَ غالٍ فيه بغير ما أنزل الله فى الكتاب ، وقالوا : المحرومُ يُرْزَق ، والمال يُوَفَّى ليُستَنَّ فيه السُّنَّةُ الحَسَنةُ ، ولا يُعْتَدَى فى الخُمس ولا فى الصَّدقة ، ويؤمَّر ذو القوة والأمانة ، وتُرَدُّ مَظالمُ الناس إلى أهلها ، فَرضِيتُ بذلك واصطَبَرْتُ له ، وجئتُ نسوة النبى صلى الله عليه وسلم حتى كلمتهن فقلتُ : ماتأمُرْنَنى ؟ فقلن : تُؤَمِّر عمرو بن العاص[1] ، وعبد الله بن قيس[2] ، وتَدَعُ معاوية ، فإنما أمَّرَه أمير قبلك ، فإنه مُصْلِح لأرضه ، راضٍ به جندهُ ، واردُد عَمْرا فإن جُنْدَه راضون به ، وأمّره فليُصْلِح أرضه ، فكلَّ ذلك فعلتُ[3] وإنه اعْتُدِى علىَّ بعد ذلك ، وعُدِى عَلَى الحق ، كتبت إليكم وأصحابى الذى زَعموا فى الأمر استعجَلوا القَدَر ، ومنعوا منّى الصلاة[4] ، وحالوا بينى وبين

(١) مات عمر وعلى مصر عمرو بن العاص ، فلما ولى عثمان أقره على عمله أربع سنين أو نحوها ، ثم عزله وولى مكانه عبد الله بن سعد بن أبى سرح — وهو أخو عثمان من الرضاع .

(٢) هو أبو موسى الأشعرى ، وكان عاملا على البصرة لما قتل عمر ، فأقره عثمان عليها ، وظل عامل عثمان على البصرة ست سنين ، ثم عزله عنها سنة ٢٩ وولاها عبد الله بن عامر — وهو ابن خال عثمان — فسار أبو موسى من البصرة إلى الكوفة فلم يزل بها حتى أخرج أهل الكوفة سعيد بن العاص وطلبوا من عثمان أن يستعمل أبا موسى عليهم فاستعمله سنة ٣٤ ، فلم يزل على الكوفة حتى قتل عثمان فعزله على عنها — انظر تاريخ الطبرى ٥ : ٥٤ وأسد الغابة ٣ : ٢٤٦ —.

(٣) إن كان المراد بهذا القول وهو « اردد عمرا » تثبيته فى ولايته ، فالأمر ظاهر ، إذ قد أقره عثمان وعلى ولاية مصر أربع سنين أو نحوها ثم عزله كما قدمنا ، وإن كان المراد به رده بعد عزله ، فلا يعرف فى التاريخ أن عثمان رد عمرا إلى ولاية مصر — ولا إلى غيرها — بل الثابت أنه لما عزله عن مصر قدم المدينة وجعل يطعن على عثمان ، فلما حصر عثمان الحصر الأول خرج عمرو من المدينة إلى أرض له بفلسطين فنزل بها وكان يقول : والله إن كنت لألقى الراعى ، فأحرضه عليه — كما سيأتى — فقول عثمان فى تلك الرسالة « فكل ذلك فعلت » لم يتحقق بالنسبة لعمرو بن العاص ، ولعله كان قد أزمع أن يرده إلى مصر تهدئة لثورة الثائرين عليه ، ثم حالت الظروف دون تنفيذ ذلك ، أو لعله يقصد الحادث الآتى :

روى أنه لما عزل عمرو عن مصر وولى عبد الله بن سعد ، نزلت الروم بالإسكندرية ، فسأل أهل مصر عثمان أن يقر عمرا حتى يفرغ من قتال الروم ، فإن له معرفة بالحروب وهيبة فى قلب العدو ففعل ، وخرج عليهم عمرو فى البر والبحر ، فلما انهزم الروم أراد عثمان عمرا أن يكون على الحرب وعبد الله بن سعد على الخراج ، فقال عمرو : أنا إذن كماسك البقرة بقرنيها وآخر يحلبها ، وأبى ذلك — انظر حسن المحاضرة ١ : ٦٩ —.

(٤) معناه : لم يمكنونى من الصلاة .

المسجِد ، وابتَزّوا ما قَدَروا عليه بالمدينة ، كتبت إليكم كتابى هذا وهم يخيِّرونني إحدى ثلاث : إمّا يُقِيدُونى بكل رجل أصَبْتُه خطأ أو صوابا غير مَتروكٍ منه شيء ، وإمّا أعتزِل الأمر فيؤمِّرون آخرَ غيرى ، وإمّا يُرْسِلون إلى من أطاعهم من الأجناد ، وأهل المدينة فيتبرّءون من الذى جعل اللهُ سبحانَه لى عليهم من السمع والطاعة ، فقلت لهم : أمّا إقَادتى من نفسى فقد كان مِنْ قَبلى خلفاء تُخطِئُ وتُصيب ، فلم يُستَقَدْ[1] من أحدٍ منهم ، وقد علمتُ أنما يريدون نفسى ، وأمّا أنْ أتبرّأ من الإمارة فأَنْ يَكْلُبُونى[2] أحبُّ إلىّ من أن أتبرّأ من عملِ الله عزّ وجل وخلافته ، وأما قولهم : يُرْسِلون إلى الأجناد وأهل المدينة فيتبرّءون من طاعتى ، فلست عليهم بوكيل ، ولم أكُن استكرَهْتُهم من قبلُ على السّمع والطاعة ، ولكن أتوها طائعين يبتغون مَرْضاةَ الله عزّ وجل وإصلاحَ ذاتِ البَيْن ، ومن يكن منكم إنما يبتغى الدنيا فليس بنائلٍ منها إلا ما كَتَبَ اللهُ عزّ وجل له ، ومن يكن إنما يريد وَجْهَ اللهِ والدارَ الآخرة وصلاحَ الأمّة وابتغاء مرضاةِ الله عزّ وجل ، والسُّنّة الحَسَنة التى استَنّ بها رسولُ الله صلى الله عليه وسلم والخليفتان من بعده رضى الله عنهما ، فإنما يَجزِى بذلكم اللهُ ، وليس بيَدِى جزاؤكم ، ولو أعطيتكم الدنيا كلَّها ، لم يكن فى ذلك ثمن لدينكم ، ولم يُغنِ عنكم شيئاً ، فاتقوا اللهَ واحتَسِبوا ما عنده ، فمن يَرْضَ بالنَّكْثِ منكم فإنى لا أرضاه له ، ولا يرضى الله سبحانه أن تَنكُثوا عَهْدَه ، وأمّا الذى يخيِّرونني فإنما كله النَّزْعُ والتأمير ، فَمَلَكْتُ نفسى ومن معى ، ونظرتُ حُكْمَ الله وتغيير النعمة من الله سبحانه ، وكرِهتُ سُنّة السوء وشقاقَ الأمة وسفك الدماء .

فإنى أنشُدُكم[3] بالله والإسلام أن لا تأخذوا إلا الحقَّ وتُعطوه منى ، وتركَ البَغْى على أهله ، وخذوا بيننا بالعدل كما أمركم الله عزّ وجل ، فإنى أنشدُكم اللهَ سبحانه

(١) استقاد الحاكم: سأله أن يقيد القاتل بالقتيل أى يقتله به . (٢) كلبه: ضربه بالكلاب، والكلاب كرمان: المهماز، أى الحديدة التى على خف الرائض يقال ساط الدابة يسوطها أى ضربها بالسوط، وكلبها أى ضربها بالكلاب . (٣) نشدتك بالله ونشدتك الله : استحلفتك .

الذى جعل عليكم العهدَ وَالْمُوَازَرَةَ[1] فى أمر الله ، فإن الله سبحانه قال وقولُه الحق : «وَأَوْفُوا بِالْعَهْدِ إِنَّ الْعَهْدَ كَانَ مَسْئُولاً» فإن هذه معْذِرَةٌ إلى الله ولعلكم تذَّكَّرون.

« أما بعدُ : فإنى لا أبرِّئُ نفسى إِنَّ النَّفْسَ لَأَمَّارَةٌ بِالسُّوءِ إِلاَّ مَا رَحِمَ رَبِّى إِنَّ رَبِّى غَفُورٌ رَحِيمٌ ، وإن عاقبتُ أقواما فما أبتغِى بذلك إلا الخيرَ ، وإِنِّى أتوب إلى الله عزّ وجل من كل عمل عَمِلْته وأستغفِرُهُ ، إنه لا يَغفِر الذُّنوب إلا هو ، إنّ رحمةَ ربى وَسِعَتْ كلَّ شيء ، إنه لا يَقْنَطُ من رحمة الله إلا القومُ الضَّالُّون ، وإنه يَقْبَلُ التَّوْبةَ عَن عِبَاده وَيَعْفُو عن السَّيِّئَاتِ ويعلم ما يَفعلون . وأنا أسأل الله عزّ وجل أن يغفر لى ولكم ، وأن يؤلِّف قلوبَ هذه الأمة على الخير ، ويكَرِّه إليها الفسق ، والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته أيها المؤمنون والمسلمون » .

فقرأ ابن عباس هذا الكتاب على الناس قبل التروية[2] بمكة بيوم ، ثم قَفَلَ إلى المدينة وإذا عثمان قد قتل . (تاريخ الطبرى ٥ : ١٤٠)

٣١٨ — كتاب آخر إلى أهل الموسم

وروى ابن قتيبة فى الإمامة والسياسة ، قال :

وكتب عثمان كتابا بعثه مع نافع بن طَرِيف إلى أهل مكة ومَن حَضَر المَوْسِمَ يستغيثهم، فوافَى به نافعٌ يومَ عَرَفة بمكة ، وابن عباس يخطب — وهو يومئذ على الناس كان قد استعمله عثمان على الموسم — فقام نافع ففتح الكتاب فقرأه فإذا فيه :

« بسم الله الرحمن الرحيم . من عبد الله عثمان أمير المؤمنين إلى من حضر الحج من المسلمين .

أما بعدُ : فإنى كتبت إليكم كتابى هذا ، وأنا محصور ، أُشْرَب من بئر القصر ، ولا آكل من الطعام ما يكفينى ، خِيفَةَ أن تَنْفَدَ ذخيرتى فأموتَ جوعا أنا ومن معى ،

---

(١) الموازرة : المساعدة والمعاونة .

(٢) يوم التروية : ثامن ذى الحجة . لأن الماء كان قليلا بمنى ، فكانوا يرتوون من الماء لما بعد

لا أُدْعَى إلى توبة أقبلها ، ولا تُسْمَع منى حجة أقولها ، فأَنْشُدُ اللهَ رجلا من المسلمين بلغه كتابى إلاّ قَدِمَ علىّ ، فأخذ الحق فىّ ، ومنعنى من الظلم والباطل » .

(الإمامة والسياسة ١ : ٢٩)

٣١٩ — كتاب أبى الدرداء إلى معاوية

وكتب أبو الدَّرْداء(١) إلى معاوية :

« أما بعدُ : فإنه من يلتمسْ رضا الله بسُخْط الناس ، كفاه الله مُؤْنة الناس ، ومن التمسَ رضا الناس بسُخْط الله وكَلَه الله إلى الناس » . (العقد الفريد ١ : ٢٠)

٣٢٠ — كتاب أبى الدرداء إلى سلمان الفارسى

وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم قد آخَى بين سَلْمان الفارسى(٢) ، وبين أبى الدَّرْداء ، فسكن أبو الدَّرْداء الشام ، وسكن سلمان العراق ، فكتب أبو الدرداء إلى سلمان :

« سلام عليك ، أما بعدُ : فإن الله رزقنى بعدك مالا وولدًا ، ونزلت الأرض المقدَّسة » .

---

(١) هو أبو الدرداء عويمر الأنصارى الخزرجى . اختلف فى اسمه فقيل هو عامر ، وعويمر لقب ، واختلف فى اسم أبيه فقيل عامر أو مالك أو ثعلبة أو عبد الله أو زيد ، وقد أسلم أبو الدرداء يوم بدر وشهد غزوة أحد وأبلى فيها ، قال رسول الله صلى الله عليه وسلم يوم أحد : نعم الفارس عويمر وقال : هو حكيم أمتى ، وقد ولاه معاوية قضاء دمشق فى خلافة عمر . ومات لسنتين بقيتا من خلافة عثمان وقيل مات سنة ٣٢هـ، وقيل مات بعد صفين سنة ٣٨ أو سنة ٣٩ هـ — انظر ترجمته فى الإصابة فى تمييز الصحابة ٥ : ٤٦ وأسد الغابة فى معرفة الصحابة ٤ : ١٥٩ — .

(٢) هو سلمان الفارسى أبو عبد الله ويعرف بسلمان الخير مولى رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وسئل عن نسبه فقال: أنا سلمان بن الإسلام، أصله من فارس، وكان اسمه قبل الاسلام مابه بن بوذخشان، وكان ببلاد فارس مجوسيا سادن النار ، وهو الذى أشار على رسول الله بحفر الخندق لما جاءت الأحزاب، وتوفى سنة ٣٥ هـ فى آخر خلافة عثمان ، وقيل فى خلافة عمر ، والأول أكثر — انظر ترجمته فى أسد الغابة ٢ : ٣٢٨ ، والإصابة ٣ : ١٣٣ .

٣٢١ — رد سلمان الفارسى على أبى الدرداء

فكتب إليه سلمان :

« سلام عليكم ، أما بعدُ : فإنك كتبتَ إلىّ أنّ الله رزقك مالا وولدًا ، فاعلم أن الخير ليس بكثرة المال والولد ، ولكن الخير أن يكثر حِلمك ، وأن ينفعك عِلمك ، وكتبت إلىّ أنك نزلت الأرض المقدسة ، وإن الأرض لا تَعْمَل لأحد ، اعمل كأنك ترى ؛ واعدُد نفسك من الموتى » . (أسد الغابة ٢ : ٣٣١)

٣٢٢ — كتاب سلمان الفارسى إلى أبى الدرداء

وكتب سَلْمان الفارسىّ إلى أبى الدَّرْداء :

« أما بعدُ : فإنك لن تنالَ ما تريد إلا بتَرْك ما تشتهِى ، ولن تنال ما تأمُلُ إلا بالصبر على ما تكره ، فليكن كلامُك ذِكْرًا ، وصَمْتُك فِكْرًا ، ونظرُك عِبَرًا ، فإن الدنيا تتقلب ، وبهجتها تتغيَّر ، فلا تغترَّ بها ، وليكن بيتَك المسجدُ والسلام » .

٣٢٣ — رد أبى الدرداء على سلمان

فأجابه أبو الدرداء :

« سلام عليك ، أما بعد: فإنى أوصيك بتقوى الله، وأن تأخذ من صحتك لسَقَمك، ومن شبابك لهَرَمِك ، ومن فَراغك لِشُغْلك ، ومن حياتك لموتك ، ومن جَفائك لودتك ، واذكر حياةً لاموتَ فيها فى إحدى المنزلتين إما فى الجنة ، وإما فى النار ، فإنك لاتَدْرِى إلى أيهما تصير[1] » . (العقد الفريد ١ : ٣٠٠)

(١) ليس لدينا ما يؤكد لنا : فى أى تاريخ صدرت كتب أبى الدرداء وسلمان الفارسى المذكورة ، ولكنا أوردناها فى خلافة عثمان باعتبار أنهما توفيا فى عهده .

٣٢٤ - كتاب نائلة بنت الفرافصة إلى معاوية

وروى أن نائلة بنت الفَرَافِصَة زوج عثمان رضى الله عنه كتبت إلى معاوية ، وبعثت بقميص عثمان مع النُّعمان بن بَشير ، أو عبد الرحمن بن حاطب بن أبى بَلْتَعَة :

« من نائلة بنت الفَرَافِصَة إلى معاوية بن أبى سفيان :

أما بعدُ : فإنى أذكِّركم بالله الذى أنعَم عليكم ، وعلَّمكم الإسلام ، وهَدَاكم من الضَّلالة ، وأنقذَكم من الكفر ، ونصَرَكم على العدو ، وأسْبَغ[1] عليكم النعمة ، وأَنْشُدُكم[2] بالله وأذكِّركم حقَّه وحقَّ خليفته الذى لم تنصروه وبعَزْمة الله عليكم فإنه قال : « وَإِنْ طَائِفَتَانِ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ اقْتَتَلُوا فَأَصْلِحُوا بَيْنَهُمَا فَإِنْ بَغَتْ إِحْدَاهُمَا عَلَى الْأُخْرَى فَقَاتِلُوا الَّتِي تَبْغِي حَتَّى تَفِيءَ[3] إِلَى أَمْرِ اللهِ » وإن أمير المؤمنين بُغِىَ عليه ، ولو لم يكن له عليكم حقٌّ إلا حقُّ الولاية ، ثم أُتِىَ إليه ما أُتِىَ ، لَحَقَّ على كل مسلم يرجو أيامَ اللهِ أن ينصره لِقدَمه فى الإسلام ، وحُسْن بَلائه ، وأنه أجاب داعِىَ الله ، وصدَّق رسولَه ، واللهُ أعلم به إذ انتخبه فأعطاه شَرَفَ الدنيا ، وشرف الآخِرة .

وإنى أقُصُّ عليكم خبره لأنى كنت مشاهِدَةً أمْرَه كلَّه ، حتى قَضَى الله عليه ، إن أهل المدينة حَصَروه فى داره ، يحرُسُونه ليلَهم ونهارَهم قِيامًا على أبوابه بسلاحهم ، يمنعونه كلَّ شىء قَدَروا عليه حتى منعوه الماء يُحضِرونه الأذى ، ويقولون له الإِفْكَ[4] فمكث هو ومن معه خمسين ليلةً ، وأهلُ مصر قد أسندوا أمرهم إلى محمد بن أبى بكر ، وعمَّار بن ياسر ، وكان علىٌّ مع المحرِّضين من أهل المدينة ، ولم يقاتل مع أمير المؤمنين ، ولم ينصره ، ولم يأمر بالعدل الذى أمر الله تبارك وتعالى به ، فظلَّت تُقاتِل خُزاعةُ ،

---

(١) أسبغ الله النعمة : أتمها . (٢) نشدتك الله وبالله : استحلفتك به .
(٣) أى ترجع . (٤) الإفك : الكذب .

وسعد بن بكر ، وهُذَيل ، وطوائِفُ من مُزَيْنة وجُهَيْنة ، وأنباطِ[1] يَثْرِبَ ، ولا أدرى سائرهم ، ولكنى سَمَّيت لكم الذين كانوا أشد الناس عليه فى أول أمره وآخره .

ثم إنه رُمِيَ بالنَّبل والحجارة فقُتِل ممن كان فى الدار ثلاثةُ نَفَر ، فأتوه يصرُخون إليه ليأْذَنَ لهم فى القتال ، فنهاهم عنه وأمرهم أن يردُّوا عليهم نَبْلَهم ، فردوها إليهم ، فلم يَزِدهم ذلك على القتال إلا جَراءة ، وفى الأمر إلا إغراء ، ثم أحرقوا باب الدار فجاءهم ثلاثة نفر من أصحابه فقالوا : إن فى المسجد ناساً يريدون أن يأخذوا أمر الناس بالعدل ، فاخرج إلى المسجد حتى يأتوك ، فانطلق فجلس فيه ساعةً ، وأسلِحَةُ القوم مُظِلَّة عليه من كل ناحية ، وما أرى أحداً يَعْدِلُ ، فدخل الدار وقد كان نفر من قريش على عامَّتهم السلاح ، فلبس دِرْعَه ، وقال لأصحابه : لولا أنتم ما لبِسْتُ درعاً ، فوثب عليه القوم فكلمهم ابن الزبير ، وأخذ عليهم ميثاقاً فى صحيفة وبعث بها إلى عثمان : إن عليكم عهد الله وميثاقه ألَّا تغزُوهُ بشيء ، فكلموه وتحرَّجوا فوضع السلاح فلم يكن إلا أن وَضَعه حتى دخل عليه القوم يَقْدُمهم[2] ابن أبى بكر ، حتى أخذوا بلحيته ودَعَوه باللَّقَب[3] ، فقال أنا عبد الله وخليفته ، فضربوه على رأسه ثلاث ضَرَبات ، وطعنوه فى صدره ثلاثَ طعَنات ، وضربوه على مقدَّم الجبين فوق الأنف ضربة أسرعَتْ فى العظم فسَقَطْتُ عليه وقد أثخنوه[4] وبه حياةٌ ، وهم يريدون قطع رأسه ليذهبوا به ، فأتتنى بنت شَيْبة بن ربيعة ، فألقت نفسها معى عليه ، فَتَوُطِّئْنا[5] وطأً شديداً ،

---

(١) الأنباط : جيل كانوا ينزلون بالبطائح بين العراقين .

(٢) قدمهم من باب نصر : تقدمهم . (٣) اللقب الذى تشير إليه هو « نعثل » كجعفر ، وهو اسم رجل من أهل مصر ، كان طويل اللحية قيل : إنه كان يشبه عثمان ، فكان شاتموه يسمونه نعثلا تشبيها بذلك الرجل ، قال الطبرى . فى تاريخه (٥ : ١٣١) « فتقدمهم محمد بن أبى بكر ، فأخذ بلحية عثمان ، فقال : قد أخزاك الله يانعثل ، فقال عثمان: لست بنعثل ، ولكنى عبد الله وأمير المؤمنين » .

(٤) أثخنه : أوهنه بالجراحة وأضعفه . (٥) وطئه بالكسر ووطأه وتوطأه: داسه .

وعُرِّينا من ثيابنا[1] ، وحُرْمةُ أمير المؤمنين أعظمُ ، فقتلوه رحمةُ الله عليه فى بيته وعلى فراشه ، وقد أرسلت إليكم بثوبه وعليه دمُه ، وإنه واللهِ لئن كان أَثِمَ مَنْ قتَلَه لَمَا سَلِمَ مَنْ خَذَلَه، فانظروا أين أنتم من الله جل وعز، فإنا نشكى ما مَسَّنا إليه، ونستنصر وَليَّه وصالِحِى عباده ، ورحمة الله على عثمان ،ولَعَن الله مَنْ قَتَله ، وصَرَعهم فى الدنيا مَصَارِعَ الخزى والذلّة ، وشَفَى منهم الصدور » .

فحلف رجال من أهل الشأم أن لايطئوا النساء حتى يقتلوا قتلته ، أو تذهبَ أرواحهم . (الأغانى ١٥ : ٦٨)

---

(١) قال الطبرى : « وجاء التجيبى مخترطا سيفه ليضعه فى بطنه ، فوقته نائلة فقطع يدها » وفى الأغانى « فقطع أصبعين من أصابعها » .

خلافة الامام على بن أبي طالب

كرّم الله وجهه

٣٢٥ – كتاب الإمام على إلى عثمان بن حنيف

وبويع الإمام على كرم الله وجهه بالخلافة ، لخمس بقين من ذى الحِجّة سنة ٣٥ هـ ، فبعث عمّاله على الأمصار ، فكان عامله على البصرة عثمان بن حُنَيف الأنصارى ، ثم بلغه أن ابن حُنَيف دُعِىَ إلى وليمة قوم من أهلها فمضى إليها ، فكتب إليه الإمام علىّ :

« أما بعد : يابن حُنَيف ، فقد بلغنى أن رجلا من فِتْية[1] أهل البصرة دعاك إلى مأدُبَة فأَسْرَعْتَ إليها ، تُستَطَابُ لك الألوانُ[2] ، وتُنقَلُ إليك الجفانُ ، وما ظننتُ أنك تجيبُ إلى طعام قومٍ[3] ، عائلُهُم مجفُوٌّ ، وغنيُّهم مدعوٌّ ، فانظر إلى ماتَقْضمه[4] من هذا المَقْضَم ، فما اشتبَه عليك علمُه فالفِظْه ، وما أيقنْتَ بِطيب وجوهه فنَلْ منه .

أَلَا وإن لكلّ مأمومٍ إماماً يَقْتَدى به ، ويستضىء بنور علمه ، أَلَا وإن إمامكم

---

(١) أى من شبابها أو من أسخيائها ، يقال للسخى : هذا فتى ، ويروى « أن رجلا من قطان البصرة » أى سكانها ، والمأدبة : طعام يصنع لدعوة أو عرس ، وأدبهم كضرب : دعاهم إلى طعامه .

(٢) تستطاب : يطلب لك طيبها ، والألوان . أصناف الطعام ، والجفان : جمع جفنة بالفتح وهى القصعة ويروى « وكثرت عليك الجفان فكرعت وأكلت أكل ذئب نهم ، أو ضبع قرم » وكرع فى الماء أو فى الإناء كمنع وسمع : تناوله بفيه من موضعه من غير أن يشرب بكفيه ولا بإناء ، وقرم كفرح شديد شهوة اللحم . (٣) وروى « وما حسبتك تأكل طعام قوم . . . » والعائل : الفقير .

(٤) قضم كسمع : أكل بأطراف أسنانه (أو أكل يابساً) والمراد الأكل مطلقا ، والمقضم : المأكل ، ولفظه وبه كضرب وسمع : رماه وطرحه .

قد اكتفى من دنياه بِطِمْرَيْه[1] ، ومن طُعْمه بقُرْصَيه ، ألَا وإنكم لاتقدرون على ذلك ، ولكن أعينونى بورَع واجتهاد ، وعِفَّة وسَداد ، فوالله ما كنزْتُ من دنيا كم تِبْرًا ، ولا ادَّخرتُ من غنائمها وَفْراً ، ولا أعددْتُ لِبالِي ثوبى طِمْرًا[2] ، ولا حُزْتُ من أرضها شِبْرًا ، ولا أخذت منها إلاَّ كقُوت أتَانٍ دَبِرَة[3] ، ولَهِي فى عينى أوْهَى وأهون من عَفْصَة مَقِرَةٍ ، بَلى كانت فى أيدينا « فَدَكُ[4] » من كل ما أظلَّته السماء فشَحَّتْ عليها نفوسُ قوم[5] ، وسَخَتْ عنها نفوسُ قوم آخَرين، ونِعْمَ الحَكَمُ اللهُ ، وما أصنع بفدك وغير فدك ؟ والنفسُ مظانُّها فى غدٍ جَدَثٌ[6] ، تنقطِعُ فى ظُلْمته

---

(١) الطمر: الثوب الخلق البالى، والطعم :الطعام ، وروى « قد اكتفى من الدنيا بطمريه ، وسد فورة جوعه بقرصيه ، لايطعم الفلذة فى حوليه إلا فى يوم أضحيته » ـ والفلذة بالكسر : القطعة من اللحم. والتبر : فتات الذهب والفضة قبل أن يصاغا ، والوفر : المال الكثير الواسع .

(٢) يقسم أنه ماأعد ثوبا بالياليلبسه بدلا عن ثوبه الذى يبلى ، فضلا عن أن يعد ثوبا قشيبا جديدا كما يفعل الناس . (٣) هى التيعقر ظهرها فقل أكلها، أو هى أضعف. وأهون: أخس. والعفص : الذى يتخذ منه الحبر ، ويدبغ به ، ومقرة : أىمرة ، مقر الشىء بالكسر وأمقر : صار مرا .

(٤) فدك : قرية بخيبر فيها عين ونخل كثير ، بينها وبين المدينة يومان ، أفاءها الله على رسوله صلى الله عليه وسلم سنة سبع صلحا ، فكانت خالصة له ينفق ما يأتيه منها فى أبناء السبيل ، فلما قبض عليه الصلاة والسلام جاءت فاطمة رضى الله عنها أبا بكر رضىالله عنه تطلب ميراثها من أبيها، وهو أرضه من فدك وسهمه من خيبر ، فقال لها أبو بكر : أما إنى سمعت رسول الله يقول : نحن معاشر الأنبياء لانورث ماتركنا فهو صدقة، إنما يأكل آل محمد من هذا المال، وإنى والله لا أدع أمرا رأيت رسول الله يصنعه إلا صنعته،فهجرته فاطمة فلم تكلمه فى ذلك حتى ماتت ،وروى أنه قال لها :سمعت رسول الله يقول: إنما هى طعمة أطعمنيها الله تعالى حياتى ، فاذا مت فهى بين المسلمين . وروى أيضا أنها قالت له : إن رسول الله جعل لى فدك فأعطنى إياها ، وشهد لها على بن أبى طالب رضى الله عنه ،فسألها شاهداً آخر ،فشهدت لها أم أيمن مولاة رسول الله ،فقال: قد علمت يا بنت رسول الله أنه لايجوز إلا شهادة رجلين أورجل وامرأتين ، فانصرفت ، كما روى أيضا أن فاطمة سألت أباها أن يهبها لها ، فأبى وقال : ما كان لك أن تسأليني ، وما كان لى أن أعطيك ، ثم أدى اجتهاد عمر لما ولى الخلافة وفتحت الفتوح واتسعت على المسلمين أن يردها إلىورثة رسولالله ، فكان على والعباس بنعبد المطلب يتنازعان فيها،فكان علىيقول: إن رسول الله جعلها فى حياته لفاطمة ، وكان العباس يأبى ذلك ويقول :هى ملك رسول الله وأنا وارثه، فكانا يتخاصمان إلىعمر فيأبى أن يحكم بينهما ويقول : أنتما أعرف بشأنكما ، أما أنا فقد سلمتها إليكما، وسنعود إلى استيفاء الكلام فى هذا الموضوع فى الجزء الثانى فى(خلافة عمر بن عبد العزيز) إن شاءالله.

(٥) يعنى العباس كما تقدم لك ، وسخت عنها : أى أغمضت وسامحت ، يعنى نفسه .

(٦) مظان جمع مظنة :وهى الموضع الذى يظن فيه وجود الشىء، والجدث: القبر،والمدر: قطعالطين اليابس ، وضغطه : زحمه وعصره وضيق عليه ، وأضغطها الحجر : أى جعلها ضاغطة للميت عاصرة له

آثارُها، وتغيبُ أخبارُها، وحُفْرَةٌ لو زِيدَ في فُسْحتِها، وأوسَعَت يدَا حافِرِها، لأَضْغَطَها الحجرُ والمَدَرُ، وسَدَّ فُرَجَها الترابُ المتراكِمُ، وإنما هي نفسي أرُوضها[1] بالتقوى، لِتأتِيَ آمِنَةً يومَ الخوف الأكبر، وتثبُتَ على جوانب المَزْلَق.

ولو شئتُ لاهتديتُ الطريقَ إلى مُصَفَّى هذا العسل. ولُباب هذا القمح، ونسائج هذا القزّ، ولكن هيهاتَ أن يَغلِبَني هواي، ويقودَني جَشَعي[2] إلى تخيّر الأطعمة، ولعلَّ بالحجاز واليمامة من لاطمعَ له في القُرْص، ولا عَهْدَ له بالشِّبَع، أو أبيتَ مِبْطانا وحَوْلي بُطونٌ غَرْثَى، وأكبادٌ حَرّى، أو أكونَ كما قال القائل:

وحَسْبُكَ عاراً أن تبيتَ ببِطْنَةٍ ... وحَوْلَكَ أكبادٌ تَحِنُّ إلى القِدِّ[3]

أأقنع من نفسي بأن يقال: هذا أميرُ المؤمنين، ولا أشاركهم في مكارِه الدهر، أو أكون أُسْوَةً لهم في جُشُوبة العيش[4]؟ فما خُلِقْتُ لِيَشْغَلَني أكلُ الطيّبات. كالبَهيمة المربوطة، هَمُّها عَلَفُها، أو المُرْسَلة شُغْلُها تَقَمُّمُها[5]، تكترش من أعلافها، وتلهو عما يُراد بها، أو أُترَكَ سُدًى وأُهْمَلَ عابثاً، أو أجُرَّ حَبْلَ الضلالة، أو أعتسِفَ طريقَ المتاهَةِ[6].

---

(١) أروضها: أذللها، والمزلق: أي الموضع الذي يخشى فيه الزلق والزلل وهو الصراط.

(٢) الجشع: شدة الحرص، والمبطان: الذي لا يزال عظيم البطن من كثرة الأكل، وغرثى: جائعة، مؤنث غرثان، وفعله كفرح، وحرى: عطشى، مؤنث حران وفعله كظل، وروى «ولو شئت لاهتديت إلى هذا العسل المصفى، ولباب هذا البر المنقى، فضربت هذا بذاك حتى ينضج وقودا، ويستحكم معقودا» وروى «ولعل بالمدينة يتيما تربا، يتضور سغبا، أبيت مبطانا وحولي بطون غرثى. إذن يحضرني يوم القيامة وهم من ذكر وأنثى» — والترب كفرح: الفقير، والتضور التلوي من وجع الجوع، والسغب كسبب وشمس: الجوع.

(٣) البطنة: الكظة بالكسر، وذلك أن يمتلىء الانسان من الطعام امتلاء شديدا، والقد بالكسر الشيء المقدود: أي المقطوع، من قده قدا بالفتح إذا قطعه، والقدة بالكسر: القطعة من الشيء. والمعنى أنها تحن إلى كسرة من خبز أو فلذة من لحم. . . ، والبيت لحاتم بن عبد الله الطائي.

(٤) الأسوة بالضم والكسر: القدوة، والجشوبة: الخشونة.

(٥) تقممها: أي تتبعها القمامات. أي الكناسات والتقاطها، أو أكلها ما بين يديها بتقمتها والمقمة (كمكنسة وتفتح) لذوات الظلف كالثور: الشفة، وتكترش: أي تملأ كرشها.

(٦) اعتسف: ركب الطريق على غير هدى، والمتاهة: الأرض يتاه فيها.

وكأنى بقائلكم يقول : إذا كان هذا قوتَ ابن أبى طالب ، فقد قعد به الضعفُ عن قتال الأقران ، ومنازلة الشُّجعان ، ألا وإن الشجرة البَرِّيَّة أصلبُ عُوداً[١] ، والروائعَ الخَضِرَة أرقُّ جُلُوداً ، والنابتاتِ البدوية[٢] أقوى وَقوداً ، وأبطأ خموداً ، وأنا من رسول الله كالصِّنْو من الصِّنو[٣] ، والذراع من العَضُد ، والله لو تظاهرَتِ العرب على قتالى لَمَا ولَّيتُ عنها ، ولو أمكنَتِ الفُرَصُ من رقابها لسارعتُ إليها ، وسأَجْهَدُ فى أن أُطَهِّرَ الأرض من هذا الشخص المعكوس[٤] ، والجسم المركُوسِ ، حتى تخرج المَدَرَةُ من بين حَبِّ الحصِيد .

إليكِ عنى يا دنيا ، فحَبْلُكِ على غاربِكِ[٥] ، قد انْسَلَلْتُ من مخالبك ، وأفلتُّ من حبائلك ، واجتنبتُ الذَّهاب فى مَداحِضِك ، أين القومُ الذين غرَرْتِهِمْ بمَداعبك ؟ أين الأممُ الذين فتَنْتِهم بزخارفكِ ، هاهم رهائنُ القبور ، ومضامينُ اللُّحود ، والله لو كنتِ شخصاً مَرْئيًّا ، وقالَباً حِسِّيًّا ، لأقمتُ عليك حدود الله فى عباد غرَرْتِهم بالأمانى ، وأمَمٍ ألقيتِهم فى المهاوى ، وملوكٍ أسْلَمْتِهم إلى التَّلَف ، وأورَدْتِهم مواردَ البلاء ، إذ لاوِرْدَ ولا صَدَرَ[٦] ، هيهات ! من وَطِىءَ دَحْضَكِ زَلِقَ ، ومن رَكِبَ لُجَجَك غرِقَ ، ومن ازْوَرَّ عن حبائلك وُفِّق ، والسالم منك لايبالى إن ضاق به مُناخُهُ ،

---

(١) الشجرة البرية التى تنبت فى البر الذى لا ماء فيه ، فهى أصلب عودا من الشجرة التى تنبت فى الأرض الندية ، والروائع الخضرة : أى الأشجار والأعشاب التى يروعك (أى يعجبك) حسنها .

(٢) ورواية ابن أبى الحديد « والنابتات العـذية » والعذى بكسر فسكون : الزرع الذى لايسق إلا من ماء المطر لبعده من المياه ، وهو يأخذ من الماء أقل من النبت سقيا .

(٣) إذا خرجت نخلتان أو ثلاث من أصل واحد ، فكل واحدة منهن صنو ، والاثنان صنوان ، والجمع صنوان برفع النون ، ورواها ابن أبى الحديد « كالضوء من الضوء » وشرحه فقال : « وذلك لأن الضوء الأول يكون علة فى الضوء الثانى . . . الخ » وأفاض فى ذلك وأطنب ، وتكلف فيه تكلفاً لا داعى إليه .

(٤) عنى به معاوية ، والمراد انعكاس عقيدته وأنها ليست عقيدة هـدى ، بل هى معاكسة للحق والصواب ، والمركوس من الركس : وهو رد الشىء مقلوبا ، وقلب أوله على آخره ، والمدرة : قطعة الطين اليابس ، وحب الحصيد : أى حب النبات المحصـود ، والمعنى : حتى يتطهر الدين وأهله منه .

(٥) الغارب : الكاهل وما بين السنام والعنق ، والجملة كناية من كنايات الطلاق : أى اذهبى حيث شئت ، والمداحض : المزالق ، والمداعب جمع مدعبة ، من الدعابة بالضم وهى المزاح ، ومضامين اللحود : أى قد تضمنتهم اللحود وحوتهم . (٦) الورد : ورود المـاء ، والصدر : الصدور عنه بعد الشرب ، ومكان دحض : أى زلق لاتثبت فيه الأرجل ، وازور : مال وانحرف .

والدنيا عنده كيوم حَان انسلاخهُ ، اعزُبى[1] عنى ، فوالله لا أذِلُّ لك فتستذلِّينى ، ولا أسْلَسُ لك فتقودينى ، وايمُ الله يميناً أستَثنى فيها بمشيئة الله ، لَأَرُوضَنَّ نفسى رياضة تهَشُّ معها إلى القُرْص إذا قدَرت عليه مطعوماً ، وتقنَع بالمِلح مأدوماً ، ولَأَدَعَنَّ مُقْلتى كعين ماء نَضَب[2] مَعِينُها ، مستفرَغَةً دموعُها .

أتمتلئُ السائمةُ من رِعْيها[3] فتبْرُك ، وتشبع الرَّبيضةُ من عُشْبها فترْبِض ، ويأكل علىٌّ من زاده فيَهْجع ؟ قرَّتْ إذَنْ عينه إذا اقتدى بعد السنين المتطاولة بالبهيمة الهامِلة[4] ، والسَّائمة المَرْعِيَّة !

طُوبَى لنفس أدَّت إلى ربها فرضَها ، وعَرَكَتْ بجنبها بؤسَها[5] ، وهجرتْ فى الليل غُمْضَها ، حتى إذا غلَبَ الكَرَى عليها ، افترشَتْ أرضَها ، وتوسَّدَت كفَّها ، فى مَعْشَر أسْهَرَ عيونَهم خوفُ مَعادهم ، وتجافَتْ عن مضاجعهم جُنوبُهم ، وهَمْهَمَتْ[6] بذكر ربهم شفاهُهم ، وتقشَّعَت بطول استغفارهم ذنوبهم أولئِكَ حِزْبُ اللهِ ، أَلَا إِنَّ حِزْبَ اللهِ هُمُ الْمُفْلِحُونَ .

فاتق الله يابن حنيف ، ولتكفِك أقراصُك ، ليكون من النار خَلاصُك » .

(نهج البلاغة ٢ : ٥٠)

٣٢٦ — كتاب معاوية إلى الزبير بن العوام

وكان أول الأحداث فى خلافة الإمام على ، أن السيدة عائشة وطلحة والزبير ومن تَبِعهم خرجوا إلى البصرة يطلبون بدم عثمان رضى الله عنه .

---

(١) عزب كدخل : بعد ، وسلس كتعب : لان وسهل قياده .

(٢) نضب الماء كدخل : غار . (٣) الرعى : الكلأ ، والربيضة : الغنم برعاتها المجتمعة فى مرابضها ، وربضت الغنم (كجلس) كبركت الابل .

(٤) الهاملة : السارحة بغير راع . (٥) أى صبرت على بؤسها والمشقة التى تنالها ، يقال عرك فلان بجنبه الأذى : أى صبر عليه كأنه حكه حتى عفاه الغمض : النوم وكذا الكرى .

(٦) الهمهمة: الكلام الخفى ،وترديد الصوت فى الصدر. تقشعت: انكشفت وزالت كما يتقشع السحاب

وروى ابن أبى الحديد أن عليا عليه السلام لما بويع بالخلافة كتب إلى معاوية يأمره أن يبايع له[1] ، فلما قدِم رسوله على معاوية وقرأ كتابه ، بعث رجلا من بنى عُمَيْس ، وكتب معه كتابا إلى الزُّبير بن العوّام ، وفيه :

« بسم الله الرحمن الرحيم . لعبد الله الزبير أمير المؤمنين من معاوية بن أبى سفيان سلام عليك ، أما بعدُ فإنى قد بايعت لك أهل الشأم ، فأجابوا واستوسقُوا[2] كما يستوسقُ الحَلَب ، فدُونك الكوفةَ والبصرةَ لا يسبِقْك إليهما ابنُ أبى طالب ، فإنه لا شيء بعد هذين المِصْرَيْن ، وقد بايعتُ لطلحة بن عُبَيْد الله من بعدك ، فأظهِرَا الطَّلَبَ بدم عثمان ، وادعُوا الناس إلى ذلك ، وليكن منكما الجِدُّ والتشمير ، أظفرَكما الله ، وخذَل مُنَاوِئكما[3] » .

فسُرّ الزبير بهذا الكتاب ، وأعلم به طلحة ، ولم يشكّا فى النُّصْح لهما من قِبَلِ معاوية ، وأجمعا عند ذلك على خلاف على عليه السلام .

(شرح ابن أبى الحديد م ١ : ص ٧٧)

---

(١) سيرد كتابه بعد .   (٢) أى اجتمعوا ، الحلب : اللبن المحلوب . وروى الطبرى أن طلحة والزبير سألا عليا أن يؤمرهما على الكوفة والبصرة ، فقال : تكونان عندى فأتجمل بكما فإنى وحش لفراقكما (انظر ج ٥ : ص ١٥٣) .

وروى ابن أبى الحديد أنهما طلبا من على أن يوليهما المصرين البصرة والكوفة . فقال حتى أنظر ، ثم استشار المغيرة بن شعبة فقال له : أرى أن توليهما إلى أن يستقيم لك أمر الناس ، فخلا بابن عباس ، وقال : ماترى ؟ قال : يا أمير المؤمنين إن الكوفة والبصرة عين الخلافة ، وبهما كنوز الرجال ، ومكان طلحة والزبير من الإسلام ماقد علمت ، ولست آمنهما إن وليتهما أن يحدثا أمراً ، فأخذ على برأى ابن عباس (انظر ج ٢ : ص ٧٧) .

فلما يئسا منه استأذناه فى العمرة ، فقال : لعلكما تريدان البصرة أو الشأم ! فأقسما أنهما لا يقصدان غير مكة ، فأذن لهما ، فلحقا بعائشة (انظر مروج الذهب ج٢ : ص ٦) .

وروى الطبرى أيضاً أن سعيد بن العاص لقى مروان بن الحكم وأصحابه بذات عرق — حين خرجوا إلى البصرة — فقال : أين تذهبون ؟ قالوا : نسير فلعلنا نقتل قتلة عثمان جميعاً ، فخلا سعيد بطلحة والزبير، فقال : إن ظفرتما لمن تجعلان الأمر ؟ اصدقانى ، قالا : لأحدنا ، أينا اختاره الناس ، قال : بل اجعلوه لولد عثمان ، فإنكم خرجتم تطلبون بدمه ، قالا : ندع شيوخ المهاجرين ونجعلها لأبنائهم ! !) انظر ج ٥ص ١٦٨) .

وروى أنه لما تواقف الفريقان بالبصرة (أصحاب على وأصحاب عائشة) خرج على على فرسه فدعا الزبير فتواقفا ، فقال على له . ماجاء بك ؟ قال : أنت ، ولا أراك لهذا الأمر أهلا ، ولا أولى به منا ، فقال على لست له أهلا بعد عثمان ! ! ! (انظر ج ٥ : ص ١٦٨) .   (٣) المناوىء : المعادى .

٣٢٧ - كتاب مروان بن الحكم إلى معاوية وإلى يعلى بن منية

وروى ابن أبي الحديد عن الزبير بن بكّار قال :

لما حُصِرَ عثمانُ أبْرَدَ مَرْوانُ بن الحكم بخَبَره (١) بَرِيدَيْنِ : أحدهما إلى الشأم ، والآخر إلى اليمن - وبها يومئذ يَعْلَى بن مُنْيَة - ومع كل واحد منهما كتاب فيه :

« إن بنى أُمَيَّةَ فى الناس كالشَّامَةِ(٢) الحمراء ، وإن الناس قد قَعَدوا لهم برأسِ كلِّ مَحَجَّةٍ(٣) ، وعلى كل طريق ، فجعلوهم مَرْمَى العَرّ والعَضِيهة(٤) ، ومَقْذِفَ القَشْب والأَفِيكة(٥) ، وقد علمتم أنها لم(٦) تأتِ عثمانَ إلا كَرْهاً تُجْبَذ من ورائها ، وإنى خائف - إن قُتِل - أن تكون من بنى أمية بمَناطِ الثريّا(٧) ، إن لم نَصِرْ كَرَصِيف(٨) الأساس المُحْكَم ، ولئن وَهَى(٩) عمُودُ البيت لتَتَداعَيَنَّ جُدْرانُه ، والذى عِيبَ عليه إطعامُكما(١٠) الشامَ واليمنَ ، ولا شكَّ أنكما تابِعاه(١١) إن لم تَحْذَرا ، وأما أنا فمساعِفٌ كلَّ مستشير ، ومُعِينٌ كل مُسْتَصْرِخٍ(١٢) ، ومُجِيبٌ كلَّ داعٍ ،

---

(١) البريد : الرسول ، ومنه قول بعض العرب : الحمى بريد الموت أى رسوله ، وقيل : البريد البغلة المرتبة فى الرباط ، ثم سمى به الرسول المحمول عليها ، ثم سميت به المسافة التى تقطعها ، وقد أبرد إليه فهو مبرد أى أرسل . (٢) الشامة : علامة تخالف البدن الذى هى فيه.

(٣) المحجة : الطريق الواضح . (٤) عره كنصره : ساءه ، وعره بشر : لطخه به ، وفى الأصل « العز » وهو تصحيف، والعضيهة : البهيتة ، وهى الإفك والبهتان، عضهه كمنعه عضها وعضيهة: قال فيه مالم يكن . (٥) القشب : الإصابة بالمكروه المستقذر ، والافتراء ، قشبه بالقبيح كضرب: لطخه به وعيره وذكره بسوء ، والأفيكة: الكذب . (٦) الضمير فى أنها للخلافة، وكذا فى تكون، وتجبذ : تجذب . (٧) ناط الشىء نوطا : علقه ، وهو منى مناط الثريا أى بعيد .

(٨) رصيف : فعيل بمعنى مفعول . وهو من إضافة الصفة للموصوف . أى كالأساس المرصوف بعضه إلى بعض ، والمعنى : إن لم نتماسك كالبنيان المرصوف . (٩) وهى : ضعف .

(١٠) أى أنه ولا كما الشام واليمن وتركهما طعمة لكما .

(١١) أى صائران إلى مصيرة . (١٢) استصرخه : استغاثه

أتوقع الفرْصة فأثبُ وثبةَ الفهْد أبصَرَ غفلةَ مُقتَنِصِه، ولولا مخافةُ عطَب البَريد وضياع الكتب، لشرحتُ لكُما من الأمر ما لا تفزعان معه إلى أن يحدث الأمر، فجِدّا فى طلب ما أنتما وَليّاهُ، وعلى ذلك فليكن العملُ إن شاء الله، وكتب فى آخره:

وما بلغَتْ عثمانَ حتى تخطَّمَتْ رجالٌ ودانَتْ للصِّغار رجالُ(١)

لقد رجَعتْ عوْداً على بَدْء كونها وإن لم تَجِدًا فالمَصِيرُ زَوالُ

سيُبْدِئُ مكنونَ الضمائِرِ قولُهم وَيظْهَرُ منهم بعد ذاك فعالُ

فإن تقعُدا لا تطلُبا ما وَرِثتما فليس لنا طولَ الحياة مَقالُ

نعيشُ بدار الذُّل فى كل بلْدةٍ وَتَظهَرُ منا كَأْبةٌ وهُزالُ(٢)

٣٢٨ — كتاب مروان بن الحكم إلى معاوية

فلما ورد الكتاب على معاوية أذّن فى الناس: الصلاةُ جامعةٌ، ثم خطبهم خطبةَ المستنصِر المستصرِخ، وفى أثناء ذلك وَرَد عليه قبل أن يكتب الجوابَ كتابُ مَروان بقتل عثمان، وكانت نسخته:

« وهب الله لك — أبا عبد الرحمن(٣) — قوّةَ العَزْم، وصلاحَ النية، ومَنَّ عليك بمعرفة الحقّ واتّباعه، فإنى كتبتُ إليك هذا الكتاب بعد قتل عثمان أمير المؤمنين، وأىَّ قِتْلة قُتِل؟ نُحِرَ كما يُنْحَرالبعير الكبير عند اليأس من أن يَنُوء(٤) بالحِمْل،

---

(١) خطمه بالخطام وخطمه به: جعله على أنفه، أوجر أنفه ليضع عليه الخطام، وخطمه بالكلام: قهره ومنعه حتى لا ينبس ولا يحير (والخطام بالكسر: الزمام).

(٢) الكأبة والكآبة: الغم وسوء الحال الانكسار من حزن.

(٣) كان معاوية يكنى أبا عبد الرحمن باسم ابنه عبد الرحمن الذى ولد له من زوجته فاختة بنت قرظة ابن عمرو بن نوفل بن عبد مناف، وقد مات عبد الرحمن صغيرا.

(٤) ناء بالحمل: نهض مثقلا، ونقب الخف كفرح: رق وتخرق، وصفحة كل شئ: جانبه، والمراحل جمع مرحلة: هى المسافة التى يقطعها المسافر فى نحو يوم، وطى المراحل: قطعها، والهجير والهاجرة: نصف النهار عند زوال الشمس.

بعد أن تقبت صفحته بطيٍّ للراحل ، وسَيْر المجير ، وإنى مُمْلِك من خبَره غيرَ مقصِّر ولا مُطيل :

إن القوم استطالوا مُدَّته ، واستقلُّوا ناصِرَه ، واستضعفوه فى بدنه ، وأمَّلوا بقتله بَسْطَ أيديهم فيما كان قبَضَه عنهم ، واعْصَوْصَبوا[(١)] عليه ، فظلَّ مُحاصَرًا قد مُنِع من صلاة الجماعة ، ورَدِّ المظالم ، والنظر فى أمور الرعية ، حتى كأنه هو فاعل لما فعلوه ، فلما دام ذلك أشرفَ عليهم ، تخوّفهم اللهَ وناشَدَهم وذَكَّرهم مواعيدَ رسول الله صلى الله عليه وسلم وقوله فيه[(٢)] ، فلم يَجْحَدُوا فضلَه ولم يُنْكِروه ، ثم رَمَوه بأباطيل اختلقوها . ليجعلوا ذلك ذريعةً إلى قَتْلِه ، فأظهر لهم التوبةَ مما كرِهُوا ، ووَعَدهم الرَّجْعةَ إلى ما أحبوا ، فلم يقبلوا ذلك ، ونهبوا دارَه ، وانتهكوا حرْمتَه ، ووَثَبوا عليه فسَفَكوا دمه ، وانقشَعُوا[(٣)] عنه انقِشاعَ سحابةٍ قد أفرغَتْ ماءها ، مُنْكفئين قِبَل ابن أبى طالب انكفاءَ الجرادِ أبصرَ المَرْعَى ، فأخلِقْ ببنى أمية أن يكونوا من هذا الأمر بمَجْرَى

---

(١) من اعصوصبت الإبل : أى اجتمعت .

(٢) وروى الطبرى قال : « أشرف عليهم عثمان رضى الله عنه ذات يوم ، فقال : أنشدكم بالله هل علمتم أنى اشتريت رومة من مالى يستعذب بها (ورومة بالضم: بئر بالمدينة) فجعلت رشائى منها كرشاء رجل من المسلمين ؟ قيل : نعم ، قال : فما يمنعنى أن أشرب منها حتى أفطر على ماء البحر ؟ قال : أنشدكم الله هل علمتم أنى اشتريت كذا وكذا من الأرض فزدته فى المسجد ؟ قيل : نعم ، قال : فهل علمتم أحداً من الناس منع أن يصلى فيه قبلى؟ قال : أنشدكم الله هل سمعتم نبى الله صلى الله عليه وسلم يذكر كذا وكذا ، أشياء فى شأنه . . . الخ » — ج ٥ : ص ١٢٥ .

وروى ابن الأثير فى أسد الغابة (ج ٣ . ص ٣٨٠) قال : « أشرف عثمان من القصر وهو محصور فقال : أنشد بالله ، من سمع رسول الله صلى الله عليه وسلم يوم حراء إذ اهتز الجبل فركله برجله ، ثم قال : اسكن حراء ، ليس عليك إلا نبى أو صديق أو شهيد ، وأنا معه ، فانتشد له رجال ، ثم قال : أنشد بالله ، من شهد رسول الله صلى الله عليه وسلم يوم بيعة الرضوان ، إذ بعثنى إلى المشركين إلى أهل مكة ، قال : هذه يدى وهذه يد عثمان ، فبايع لى ؟ فانتشد له رجال ، قال : أنشد الله ، من شهد رسول الله قال : من يوسع هذا البيت فى المسجد ببيت له فى الجنة ؟ فابتعته من مالى فوسعت به فى المسجد ، فانتشد له رجال ، ثم قال : وأنشد بالله ، من شهد رسول الله يوم جيش العسرة قال : من ينفق اليوم نفقة متقبلة؟ فجهزت نصف الجيش من مالى ، فانتشد له رجال ، قال : وأنشد بالله ، من شهد رومة يباع ماؤها من ابن السبيل ، فابتعتها من مالى فأبحتها ابن السبيل ؟ فانتشد له رجال » .

(٣) أى تفرقوا .

العَيُّوق(١) ، إن لم يَثْأَره ثائرٌ ، فإن شئتَ أبا عبد الرحمن أن تكونه فكُنْه ، والسلام » .

فلما ورد الكتاب على معاوية أمر بجمع الناس ، ثم خطبهم خطبةً أبكى منها العيون ، وقلقلَ القلوب ، حتى عَلَتِ الرَّنَّة(٢) ، وارتفع الضجيجُ ، وهمّ النساء أن يتسلَّحْنَ .

ثم كتب إلى طلحة بن عُبيد الله ، والزبير بن العوّام ، وسعيد بن العاص ، وعبد الله ابن عامر ، والوليد بن عُقْبة ، ويَعْلَى بن مُنْيَة(٣) .

٣٢٩ — كتاب معاوية إلى طلحة بن عبيد الله

فكان كتاب طلحة :

« أما بعدُ : فإنك أقلّ قريش في قريش وَتْراً(٤) ، مع صَبَاحة وجهك ، وسَماحة كفّك(٥) ، وفصاحة لسانك ، فأنت بإزاء مَن تَقَدَّمَك في السابقة(٦) ، وخامسُ المبشَّرين بالجنة(٧) ، ولك يومُ أُحُد وشرفُه وفضلُه(٨) ، فسارِعْ — رحمك الله — إلى ما تقلِّدك

---

(١) العيوق : نجم يتلو الثريا، وثأربه كمنع وثأره : طلب دمه وقتل قاتله.

(٢) الرنة : الصوت . (٣) منية : اسم أمه ، وإنما اسم أبيه أمية .

(٤) الوتر (كالذحل بالفتح) الثأر . قال صاحب المصباح « والوتر : الفرد . والوتر : الذحل بالكسر فيهما لتميم ، وبفتح العدد وكسر الذحل لأهل العالية ، وبالعكس وهو فتح الذحل وكسر العدد لأهل الحجاز » والصباحة : الجمال . (٥) وقد قال عمرو بن العاص حين بلغه مقتل عثمان : من يلي هذا الأمر من بعده ؟ إن يله طلحة فهو فتى العرب سيباً أي عطاء (تاريخ الطبري ٥ : ٢٣٤) .

(٦) كان طلحة من السابقين الأولين إلى الإسلام ، دعاه أبو بكر إلى الإسلام فأخذه ودخل به على رسول الله صلى الله عليه وسلم . (٧) قال صلى الله عليه وسلم : « عشرة في الجنة : أبو بكر في الجنة ، وعمر في الجنة ، وعثمان في الجنة ، وعلي في الجنة . وطلحة في الجنة ، والزبير في الجنة ، وعبد الرحمن ابن عوف في الجنة ، وسعد بن أبي وقاص في الجنة ، وسعيد بن زيد في الجنة ، وأبو عبيدة ابن الجراح في الجنة » — انظر أسد الغابة ٣ : ٣١٤ .

(٨) أبلى طلحة يوم أحد بلاء عظيما ، ووقى رسول الله بنفسه ، واتقى عنه النبل بيده حتى شلت أصبعه ، وضرب ضربة على رأسه ، وحمل رسول الله على ظهره حتى صعد الصخرة ، وقال عليه الصلاة والسلام : « أوجب طلحة » وقال علي بن أبي طالب رضي الله عنه : سمعت أذني رسول الله يقول : « طلحة والزبير جاراي في الجنة » — أسد الغابة ٣ : ٥٩ .

الرعيةُ مِن أمرها ، بما لا يَسَعُك التخلفُ عنه ، ولا يَرضَى اللهُ منك إلا بالقيام به ، فقد أحكمتُ لك الأمرَ قِبَلى ، والزبيرُ فغيرُ متقدِّم عليك بفَضل ، وأيُّكما قدَّم صاحبَه فالمُقَدَّم الإمام ، والأمرُ من بعد للمقدِّم له ، سَلَكَ اللهُ بك قَصْدَ(١) المهتدين، ووهب لك رُشْدَ الموفَّقِينَ ، والسلام » .

٣٣٠ - كتاب معاوية إلى الزبير بن العوام

وكتب إلى الزبير :

« أما بعد : فإنك الزبير بن العوام ، ابنُ أبى خديجة(٢) ، وابن عَمَّة(٣) رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وحَوَارِيّه(٤) وسِلْفه(٥) ، وصِهْر أبى بكر ، وفارسُ المسلمين ، وأنت الباذلُ فى الله مُهجتَه بمكةَ عند صَيْحة الشيطان ، بعثك المنبعث ، فخرجتَ كالثعبان المنسلِخ بالسيف المُنْصَلِت ، تَخبِط خَبْطَ الجمل الرَّدِيع(٦) ، كل ذلك قوة إيمان وصدْق يقين ، وسبَقَتْ لك من رسول الله صلى الله عليه وسلم البشارةُ بالجنة ، وجعلك عُمَرُ أحدَ المستخلَفِين(٧) على الأمة .

واعلم يا أبا عبد الله أن الرعية أصبحت كالغنم المتفرقة لِغَيْبة الراعى ، فسارِعْ

---

(١) القصد : استقامة الطريق . (٢) هو الزبير بن العوام بن خويلد بن أسد بن عبد العزى ابن قصى بن كلاب ، فالسيدة خديجة بنت خويلد زوج الرسول عليه الصلاة والسلام عمته .

(٣) أم الزبير هى صفية بنت عبد المطلب عمة رسول الله .

(٤) الحوارى : الناصر ، أو ناصر الأنبياء . وعن على رضى الله عنه قال : قال رسول الله : « إن لكل نبى حواريا ، وحوارى الزبير بن العوام » . (٥) سلفه : أى زوج أخت امرأته ، فقد تزوج الزبير أسماء بنت أبى بكر ، وتزوج رسول الله عائشة أختها .

(٦) كان الزبير أول من سل سيفاً فى الله عز وجل . وسبب ذلك أن المسلمين لما كانوا مع النبى صلى الله وسلم بمكة ، وقع الخبر أن النبى قد أخذه الكفار ، فأقبل الزبير يشق الناس بسيفه ، والنبى بأعلى مكة فقال له : ما لك يازبير قال : أخبرت أنك أخذت ، فصلى عليه النبى ودعا له ولسيفه - أسد الغابة ٢ : ١٩٦ - والسيف المنصلت : أى الصقيل الماضى ، والرديع : (بالعين والغين) الصريع يركب ظله .

(٧) لما طعن عمر أوصى أن تكون الخلافة شورى فى ستة نفر توفى رسول الله وهو عنهم راض : وهم : عثمان وعلى والزبير وطلحة وسعد بن أبى وقاص وعبد الرحمن بن عوف.

— رحمك الله — إلى حَقْنِ الدماء، ولَمِّ الشَّعَث(١)، وجَمْعِ الكلمة، وصلاحِ ذات البَين، قبل تَفَاقُمِ الأمر، وانتشارِ الأمة، فقد أصبح الناس على شَفَا جُرُفٍ هارٍ(٢)، عمّا قليلٍ ينهارُ إن لم يُرْأَب، فشمِّر لتأليف الأمة وابتغِ إلى ربك سبيلا، فقد أُحكمتُ الأمر من قِبَلِى لك ولصاحبك على أن الأمر للمقدَّم، ثم لصاحبه من بعده، جعلك الله من أئمة الهدى، وبُغَاةِ الخير والتقوى، والسلام».

٣٣١ — كتاب معاوية إلى مروان

وكتب إلى مَرْوان بن الحكم:

«أما بعدُ: فقد وصل إلىَّ كتابك بشَرْحِ خبر أمير المؤمنين، ومارَكِبوه به، ونالوه منه، جَهْلاً بالله، وجَراءة عليه، واستخفافاً بحقه، ولأمانِيَّ لوَّح الشيطانُ بها فى شَرَكِ الباطل، ليُدَهْدِهَهم(٣) فى أُهْوِيَّاتِ الفِتَن، ووَهَدَاتِ الضلال، ولعَمْرِى لقد صَدَّق عليهم إبْليسُ ظَنَّهُ، ولقد اقتنَصَهم(٤) بأنشوطة فَخِّه، فعَلَى رِسْلِك(٥) أبا عبد الله تَمْشِى الهُوَيْنَى وتكون أوّلا، فإذا قرأتَ كتابى هذا فكن كالفَهْد لا يَصْطاد إلا غِيلةً(٦)، ولا يَتَشَازَرُ إلا عن حِيلة، وكالثعلب لا يُفْلِت إلا رَوَغاناً، وأَخْفِ نفسَك منهم إخفاءَ القُنفُذ رأسَه عند لَمْسِ الأكُفّ، وامتهِنْ(٧) نفسَك امتهانَ مَن ييأسُ القوم من نصره وانتصاره، وابحث عن أمورهم بَحْثَ الدَّجاجة عن حَبِّ الدُّخْن عند فقاسها(٨)، وأَنغِلِ(٩) الحجاز، فإنى مُنْغِلٌ الشامَ، والسلام».

---

(١) الشعث: انتشار الأمر. (٢) شفا: أى حرف، وهار الجرف هوراً كقال: انصدع ولم يسقط، فهو هار — وهو مقلوب هائر — فإذا سقط فقد انهار، ويرأب: يصلح.

(٣) دهده الحجر فتدهده: دحرجه فتدحرج، والأهوية: الهوة.

(٤) فى الأصل «اقتضهم» وهو تحريف، وصوابه «اقتنصهم» بدليل ما بعده — واقتض المرأة: افترعها — والأنشوطة: عقدة يسهل انحلالها. (٥) أى على مهلك وتؤدتك.

(٦) الغيلة: الاغتيال، وتشازر القوم: نظر بعضهم إلى بعض شزرا، والشزر: النظر بمؤخر العين، وأكثر ما يكون النظر الشزر فى حال الغضب. (٧) امتهنه: احتقره وابتذله.

(٨) الذى فى كتب اللغة «فقس» «فقس الطائر بيضه فقساً: كسرها وأخرج ما فيها».

(٩) أى أفسده عليهم، نغل الأديم كفرح: فسد فى الدباغ، وأنغله: أفسده.

٣٣٢ - كتاب معاوية إلى سعيد بن العاص

وكتب إلى سعيد بن العاص :

« أما بعدُ : فإن كتاب مَرْوانَ وَرَدَ علىَّ مِن ساعةِ وقعتِ النازلةُ ، تُقبِل به البُرُدُ[١] بسَيْرِ المَطِىِّ الوَجِيفِ ، تتوجَّسُ[٢] توجُّسَ الحيَّةِ الذَّكرِ خوفَ ضَرْبةِ الفأس ، وقبْضَةَ الحاوِى ، ومَرْوَانُ الرائِدُ[٣] لا يكذِبُ أهلَه ، فعَلامَ الإفكاكُ[٤] يابن العاص ولاتَ حينَ مَناصٍ ؟ ذلك أنكم يا بنى أمية عَمَّا قليل تسألون أدْنَى العيش من أبعد المسافة ، فيُنْكِرُكم من كان منكم عارفاً ، ويصُدُّ عنكم مَن كان لكم واصِلا ، متفرِّقين فى الشِّعاب[٥] ، تتمنَّوْن لُماظَةَ[٦] المعاش .

إن أمير المؤمنين عُتِب عليه فيكم ، وقُتِل فى سبيلكم ، ففيم القعودُ عن نُصرته ، والطلب بدمه ! وأنتم بنو أبيه وذوو رَحِمه ، وأقرَبوه وطُلَّاب ثأره ،أصبحتم مستمسكين بشَظَفِ[٧] مَعاشٍ زَهيدٍ ، عَمَّا قليل يُنزَع منكم عند التخاذُل ، وضَعْفِ القُوَى ، فإذا قرأتَ كتابى هذا فدِبَّ دَبيبَ البُرْء فى الجسد النَّحيف ، وسِرْ سيرَ النجوم تحت الغَمام ، واحشُد حَشْدَ[٨] الذَّرَّة فى الصيف لانجِحارها فى الصَّرْد ، فقد أيدْتكم بأسَدٍ وتَيْمٍ .

وكتب فى الكتاب :

---

(١) البرد جمع بريد ، ووجف الفرس والبعير وجيفاً : عدا .

(٢) توجس : تسمع إلى الصوت الخفى ، ورجل حاو وحواء: يجمع الحيات .

(٣) الرائد : أصله المرسل فى طلب الكلأ . (٤) أى التراخى،من أفكت الناقة إذا أقربت فاسترخى صلواها (والصلا : وسط الظهر أو ما على يمين الذنب وشماله) والمناص : الفرار .

(٥) الشعب بالكسر : الطريق فى الجبل . ومسيل الماء فى بطن أرض .

(٦) اللماظة : ما يبق فى الفم من الطعام ، ويستعار لبقية الشىء القليل ، وفى الأصل « لمظة » وهو تحريف - واللمظة بالضم : بياض فى جحفلة الفرس السفلى . (٧) الشظف : يبس العيش وشدته

(٨) أى اجمع جمع الذرة ، وفى الأصل « واحسد حسد الذرة » وهو تصحيف ، والصرد بالفتح وبالتحريك : البرد ، وقيل : شدته ، وانجحر : دخل فى جحره .

تالله لا يَذْهَبُ شَيْخِى باطِلاَ حتى أُبِيرَ مالِكاً وكاهِلاَ[١]
القاتِلِين المَلِكَ الحُلاَحِلاَ خيرَ مَعَدٍّ حَسَباً ونائِلاَ

٣٣٣ — كتاب معاوية إلى عبد الله بن عامر

وكتب إلى عبد الله بن عامر :

« أما بعدُ : فإن المنبر مَرْكَب ذلولٌ سهل الرياضة لاينازعك اللِّجام ، وهيهات ذلك إلا بعد ركوب أثباج[٢] المَهالِك ، واقتحام أمواج المَعاطب ، وكأنى بكم يابنى أميَّة شَعَارِيرَ كالأَوارق تقودها الحُداة[٣] ، أو كَرَخَم الخَنْدَمة[٤] تَذْرِفُ خوفَ العُقاب ، فثِب الآن - رحمك الله - قبل أن يستشرِىَ[٥] الفساد ، ونَدَبُ السَّوْطِ جديد ، والجُرْحُ لَمَّا يَنْدَمِل ، ومن قبلِ استضراء[٦] الأَسَد ، والْتِقاء لَحْيَيْهِ على فريسته ، وساوِرِ الأمر مساورةَ الذئب الأَطْلَسِ كَسِيرةَ القطيع ، ونازِل الرأى ، وانْصِب الشَّرَك ، وارْمِ عن تمكن ، وضَعِ الهِناء مواضعَ النُّقَب[٧] ، واجعل أكبرَ عُدَّتك الحذَرَ ، وأحدَّ سلاحِك التحريضَ ، وأَغْضِ عن العَوْراء ، وسامِح اللَّجُوجَ ، واستعطِفِ الشاردَ ، ولايِنِ الأَشْوَسَ[٨] ، وقوِّ عزم المُريد ، وبادِرِ العَقَبة ، وازحَفْ زَحْفَ الحَيَّة ، واسبِقْ

(١) شيخى ، يعنى به عثمان ، أبيره : أهلكه. والحلاحل :السيد الشجاع الركين ، والنائل :العطاء.
(٢) أثباج جمع ثبج بالتحريك : وهو ما بين الكاهل إلى الظهر ، ووسط الشىء ومعظمه .
(٣) يقال : ذهبوا شعاليل وشعارير أى متفرقين ، واحده شعرور كعصفور ، والأوارق جمع أورق، وجمل أورق : أى لونه لون الرماد، والحداة جمع الحادى :وهوسائق الإبل،وهذه العبارة فى الأصل: « وكأنى بكم يابنى أمية شعارير كالأوْراك تقودها الحداة » وأراها محرفة . والأوراك جمع أورك : وهو العظيم الوركين . (٤) الخندمة : جبل بمكة ، وذرفت عينه : سال دمعها .
(٥) استشرى الأمر : عظم وتفاقم ، والندب : جمع ندبة : وهى أثر الجرح الباقى على الجلد بعد البرء ، وفى الأصل « يدب » وهو تحريف واندمل الجرح : تماثل .
(٦) أى من قبل أن يصير ضاريا ، ضرى به كرضى ضراوة : لهج ، وأضراه : أغراه ، وساوره: واثبه وأخذ برأسه ، والذئب الأطلس : الذى فى لونه غبرة إلى السواد .
(٧) الهناء : القطران ،والنقب بضم فسكون ،والنقب بضم ففتح : القطع المتفرقة من الجرب الواحدة نقبة كغرفة ، وفى قول دريد بن الصمة : « يضع الهناء مواضع النقب » .
(٨) الشوس بالتحريك : النظر بمؤخر العين تكبرا أو تغيظا ، وقد شوس كفرح فهو أشوس .

أن تُسْبَقَ ، وقم قبل أن يقامَ لك ، واعلم أنك غيرُ متروك ولا مُهْمَل ، فإنى لكم ناصح أمين ، والسلام » .

وكتب فى أسفل الكتاب أبياتاً :

عليك سلامُ الله قيسَ بن عاصمٍ ... ورحمتُه ، ما شاء أن يترحّما[1]

تحية مَن أهدى السلام لأهله ... إذا شَطَّ داراً عن مَزارك سَلّما

فما كان قيسٌ هُلْكُهُ هُلْكَ واحدٍ ... ولكنه بنيان قومٍ تهدّما

٣٣٤ — كتاب معاوية إلى الوليد بن عقبة

وكتب إلى الوليد بن عُقْبة :

« يابْن عُقْبة : كِنُّ الجيش ، وطِيبُ العيش ، أطيبُ من سَفْعِ سَمُوم[2] الجَوْزاء عند اعتدال الشمس فى أفقها ، إن عثمان أخاك[3] أصبح بعيداً منك ، فاطلب لنفسك ظِلاًّ تستكِنُّ به ، إنى أراك على التراب رَقُودا ، وكيف بالرُّقادِ بك ؟ لا رُقادَ لك ! فلو قد استتبَّ هذا الأمر لِمُريده أُلفيتَ كشَرِيد النعام يفزَع من ظِلّ الطائر ، وعن قليل تشرَبُ الرَّنْقَ[4] ، وتستشعر الخوف ، أراك فسيحَ الصدر ، مُسْتَرْخِيَ اللَّبَب[5] ، رِخْوَ الحِزام ، قليلَ الاكتراث ، وعن قليلٍ يُجْتَثُّ أصْلُك ، والسلام » :

---

(١) الأبيات لعبدة بن الطبيب (وعبدة بسكون الباء) يرثى بها قيس بن عاصم ، وشط كضرب ونصر : بعد ، والمزار : موضع الزيارة ، وفى رواية الأغانى :

تحيــة من أوليته منك نعمــة ... إذا زار عن شحط بلادك سلما

(ج ١٨ : ص ١٦٣) وفى الشعر والشعراء ص ٢٨٠ : « تحية من ألبسته . . . » وفى ديوان الحماســة ج ١ : ص ٢٣٦ « تحية من غادرته غرض الردى . . . » والشحط بالسكون والتحريك : البعد ، وهى هنا بالسكون . (٢) السموم : الريح الحارة ، وسفعته السموم : لفحته لفحا يسيراً فغيرت لون البشرة ، والجوزاء : من بروج السماء — ونجم يعترض فى جوز السماء .

(٣) الوليد بن عقبة أخو عثمان لأمه . (٤) ماء رنق : أى كدر ، واستشعر الخوف جعله شعارا له . والشعار ككتاب : ما يلبس على شعر الجسد .

(٥) اللبب : ما يشد فى صدر الدابة ليمنع استئخار الرحل ، ويجتث : يقتلع .

وكتب فى آخر الكتاب :

اخترتَ نومَك أنْ هبَّت شآمِيَةٌ عند الهَجِير وشُرْبا بالعَشِياتِ[1]

على طِلابك ثأراً من بنى حَكَمٍ هيهاتَ مِن راقدٍ طلَّابُ ثاراتِ

٣٣٥ — كتاب معاوية إلى يعلى بن أمية

وكتب إلى يَعْلَى بن أُمية :

« حاطَك اللهُ بكِلاءَته[2] ، وأيَّدك بتوفيقه ، كتبتُ إليك صبيحةَ وَرَدَ علىَّ كتابُ مرْوان بخبر قَتْل أمير المؤمنين، وشرْح الحال فيه ، وإن أمير المؤمنين طال به العمر حتى نقصَت قُواه ، وثقُلت نهضتُه ، وظهرت الرَّعْشة فى أعضائه ، فلما رأى ذلك أقوام لم يكونوا عنده موضِعاً للإمامة والأمانة ، وتقليدِ الولاية ، وثبوا به وألَّبوا عليه[3] : فكان أعظمَ ما نقموا عليه وعابوه به ، ولايتُك اليمنَ ، وطولُ مدّتك عليها ، ثم ترامَى بهم الأمرُ حالاً بعد حال ، حتى ذبحوه ذَبْحَ النَّطيحةِ[4] مبادَراً بها المَوْتُ ، وهو مع ذلك صائم ، مُعَانِقٌ المصحفَ ، يتلو كتابَ الله فيه ، عَظُمت مصيبةُ الإسلام بِصِهْرِ[5] الرسول ، والإمامِ المقتول على غير جُرْم ، سفكوا دمه ، وانتهكوا حُرْمته ، وأنت تعلم أن بَيْعتَهُ فى أعناقنا ، وطَلَبَ ثأره لازمٌ لنا ، فلا خيرَ فى دنيا تَعْدِلُ بنا عن الحق ، ولا فى إمْرَة تُورِدنا النارَ ، وإن الله جل ثناؤه لا يَرْضَى بالتَّعْذِيرِ[6] فى دينه ، فشمِّر لدخول العراق ، فأما الشام فقد كفيتُك أهلها ، وأحكَمْتُ أمرها ، وقد كتبتُ إلى طلحة بن عُبيد الله أن يلقاك بمكة ، حتى يجتمع رأيُكُما على إظهار الدعوة ،

(١) شآمية : أى ريح شآمية ، وشربا معطوف على نومك .
(٢) كلأه كمنعه كلأ وكلاءة وكلاءة بكسرهما : حرسه .
(٣) التأليب : التحريض . (٤) النطيحة : التى ماتت من النطح .
(٥) تزوج سيدنا عثمان السيدة رقية بنت رسول الله صلى الله عليه وسلم، ثم تزوج بعد موتها أختها السيدة أم كلثوم . (٦) المعذر : المقصر الذى لا عذر له ولكن يتكلف عذرا .

والطلب بدم عثمان أمير المؤمنين المظلوم ، وكتبت إلى عبد الله بن عامر ، يمهِّد لكم العراق ، ويسهِّل لكم حُزُونة عِقَابها[1] ، واعلم يابن أمية أن القوم قاصِدُوك بادِئَ بَدْء ، لاستنزاف ما حوته يداك من المال ، فاعلم ذلك واعمل على حَسَبِه إن شاء الله » .

وكتب فى أسفل الكتاب :

ظَلَّ الخليفةُ محصورًا يناشِدُهم ... بالله طَوْرًا ، وبالقرآن أحيانَا

وقد تألَّفَ أقوامٌ على حَنَقٍ ... عن غير جُرْمٍ ، وقالوا فيه بُهْتانَا

فقامَ يُذْكِرهم وَعْدَ الرسول له ... وقولَه فيه إسرارًا وإعلانَا

فقال : كُفُّوا ، فإنى مُعْتِبٌ لكم ... وصارِفٌ عنكمُ يَعْلَى ومَرْوانَا[2]

فكذَّبوا ذاك منه ، ثم سَاوَرَهُ ... مَنْ حَاضَ لَبَّته ظُلْمًا وعُدْوانَا[3]

٣٣٦ — كتاب مروان إلى معاوية

فكتب إليه مَرْوان جوابا عن كتابه :

« أما بعدُ : فقد وصل كتابك ، فنِعْم كتابُ زعيم العشيرة ، وحامِى الذِّمارِ[4] وأُخْبِرك أن القوم على سَنَن استقامةٍ إلا شَظَايَا[5] شُعَب ، شَنَّتْ بينهم مِقْوَلى على غير مجابَهَةٍ ، حَسَبَ ما تقدَّم من أمرك ، وإنما كان ذلك دَسِيس[6] العُصاة ، ورَمْىَ الجِذْر من أغصان الدَّوْحة ، ولقد طويتُ أدِيمهم[7] على نَغَلٍ يَحْلَم منه الجلدُ ، كذَبَتْ

---

(١) حزونة الأرض : غلظها وخشونتها . والعقاب جمع عقبة بالتحريك : وهى المرق الصعب من الجبال

(٢) أعتبه : أرضاه وسره بعد ما ساءه . (٣) اللبة : النحر ، وساوره : واثبه وأخذ رأسه ، وحاض السيل : إذا سال — واستعمل هنا بمعنى أسال .

(٤) الذمار : ما يلزمك حفظه وحمايته .

(٥) الشظايا جمع شظية : وهى كل فلقة من شىء ، والمقول : اللسان ، وشنه : صبه ، وأصله من شن الماء على الشراب إذا فرقه ، وجبهه كمنعه : استقبله بما يكره .

(٦) الدسيس : إخفاء المكر ، وفى الأصل « رسيس » وهو تحريف « ورس الحمى ورسيسها : بدؤها وأول مسها ، وذلك إذا تمطى المحموم من أجلها وفتر جسمه وتختر » .

(٧) الأديم : الجلد المدبوغ ، ونغل الأديم كفرح : فسد فى الدباغ . وحلم الجلد كفرح : وقع فيه الحلم ، والحلم بالتحريك دود يقع فى الجلد فيأكله ، وهو القراد ، واحدته حلمة ، وفى المثل : « كدابغة وقد حلم الأديم » .

نَفْسُ الظَّانِّ بنا تَرْكَ المَظْلِمَةِ ، وحُبُّ المُجوعِ إلا تَهْوِيمَةَ[1] الراكبِ العَجِلِ ، حتى تُجَذَّ الجماجمُ جذَّ العَراجينِ المُهَدَّلَةِ حين ابْتِياعِها ، وأنا - على صحة نيَّتي ، وقوة عزيمتي ، وتحريك الرحِمِ لي وغَلَيانِ الدم مني - غير سابِقِكَ بقول ، ولا متقدِّمك بفعل ، وأنت ابنُ حَرْبٍ طَلَّابُ التِّراتِ[2] ، وآبِي الضَّيْمِ ، وكتابي إليك وأنا كحِرْباء السَّبْسَبِ في الهَجِيرِ تَرقُّب عين الغَزالة ، وكالسَّبُعِ المُفْلِتِ من الشَّرَكِ يَفْرَقُ من صوت نفسِه ، منتظِراً لِمَا تَصِحُّ به عزيمتك ، ويَرِدُ به أمرك ، فيكون العمل به والمحتَذَى عليه » .

وكتب في أسفل الكتاب :

أَيُقْتَل عثمان وتَرْقَا دموعُنا ... ونَرْقُدُ هذا الليلَ لا نتفَزَّعِ ؟[3]

ونشربُ بَرْدَ الماء رِيًّا ، وقد مَضَى ... على ظَمَإٍ ، يتلو القُرآن ويَرْكعُ ؟

فإني ومَن حَجَّ المُلَبُّون بيتَه ... وطافوا به سَعْيًا ، وذو العرش يسمعُ

سأمنَع نفسي كلَّ ما فيه لَذَّةٌ ... من العيش حتى لا يُرَى فيه مَطْمَعُ

وأقتُلُ بالمظلوم مَن كان ظالمًا ... وذلك حكمُ الله ما فيه مَدْفَعُ

٣٣٧ - كتاب عبد الله بن عامر إلى معاوية

وكتب إليه عبد الله بن عامر :

« أما بعدُ ، فإن أمير المؤمنين كان لنا الجَناحَ الحاضِنةَ تأوى إليها فِراخُها تحتها ، فلما أقْصَدَه[4] السهمُ صِرْنا كالنَّعام الشارِد ، ولقد كنتُ مشرَّدَ الفِكر ، ضالَّ الفهم ، ألْتمِسُ دَرِيَّةً أستجِنُّ بها من خَطَأ الحوادث ، حتى دُفِعَ إليَّ كتابُك فانتبهتُ من

---

(١) التهويم : هز الرأس من النعاس ، وتجذ : تقطع ، والعراجين جمع عرجون كعصفور ، وهو أصل العذق (بالكسر) الذى يعوج ويقطع منه الشماريخ فيبقى على النخل يابساً ، والرحم : القرابة .

(٢) الترات جمع ترة وهى الثأر ، والسبسب المفازة ، والغزالة : الشمس ، ويفرق : يخاف .

(٣) رقأ الدمع كجعل : جف وسكن .

(٤) أقصد السهم : أصاب فقتل مكانه ، والدرية والدريئة : كل ما استتر به الصيد ليختل ، واستجن : استتر ، والمحجة : الطريق الواضح

غفلةٍ طال فيها رُقادى ، فأنا كواجِدِ المحجّةِ كان إلى جانبها حائراً ، وكأنى أعايِنُ ما وصفتَ من تصرُّف الأحوال ، والذى أُخبرك به أن الناس فى هذا الأمر : تسعةٌ لك ، وواحد عليك ، وواللهِ لَلموتُ فى طلب العزِّ أحسنُ من الحياة فى الذِّلة ، وأنت ابن حَرْب فتى الحروب ، ونصَّار بنى عبد شمس ، والهِمَمُ بك منوطةٌ وأنت مُنْهِضُها ، فإذا نهضْتَ فليس حينَ قعود ، وأنا اليومَ على خلاف ما كانت عليه عزيمتى : من طلب العافية ، وحُبِّ السلامة ، قبل قَرْعِك سُوَيداء[1] القَلْبِ بِسَوْطِ المَلام ، ولنِعْمَ مؤدِّب العشيرة أنت ، وإنا لنرجوك بعد عثمان، وهأنا متوقع ما يكون منك لِأَمْتَثِلَه[2] وأعمَلَ عليه إن شاء الله .

وكتب فى أسفل الكتاب :

لاخيرَ فى العيش فى ذلٍّ ومَنْقَصَةٍ ... والموتُ أحسنُ مضن يمٍ ومن عارِ
إنا بنو عبد شمس مَعْشَرٌ أُنُفٌ ... غُرٌّ جَحَاجِحَةٌ طُلَّابُ أوتار[3]
واللهِ لو كان ذِمِّيًّا مُجاوِرُنا ... ليطلبَ العز ، لم نَقعد عن الجار
فكيف عثمان لم يُدفَنْ بمَزْبلة ... على القُمامةِ مطروحا بها عارِى[4]
فازْحَفْ إلىَّ فإنى زاحِفٌ لهُمُ ... بكل أبيضَ ماضِى الحدِّ بتَّار

٣٣٨ — كتاب الوليد بن عقبة إلى معاوية

وكتب إليه الوليد بن عقبة :

« أما بعدُ : فإنك أسَدُّ قريش عَقْلا ، وأحسنهم فَهْما ، وأصوبهم رأيا ، معك حُسْنُ السياسة ، وأنت موضِع الرِّياسة ، تُورِد بمعرفة ، وتُصْدِر عن مَنْهَل رَوِىٍّ ،

(١) سوايداء القلب وسوداؤه : حبته .

(٢) امتثل طريقته : اتبعها فلم يعدها . (٣) ربما كان : « إنا بنى عبد شمس » منصوبا على الاختصاص ، ورجل أنوف: شديد الأنفة والجمع أنف، غر : مشهورون. جمع أغر ، وجحاجحة جمع جحجاح بالفتح وهو السيد . (٤) القمامة الكناسة .

مُناويك[١] كالمنقلب من العَيُّوق ، فهوَى به عاصفُ الشِّمال إلى لُجَّة البحر .

كتبتَ إلىّ تذكر كِنَّ الجيش ، ولِينَ العيش ، فملأتُ بطنى على حَرامٍ ، إلّا مُسْكَةَ[٢] الرَّمَق ، حتى أَفْرِىَ أوْداجَ قَتَلةِ عثمان فَرْىَ الأُهُبِ بِشَبَاَ الشِّفار ، وأما اللِّينُ فهيهاتَ ، إلا خُفْيةَ المرتقِبِ يرتقِبُ غَفلةَ الطالب ، إنا على مُداجاةٍ[٣] ، ولَمّا نُبدِ صَفَحاتِنا بعدُ ، وليس دون الدَّم بالدم مَزْحَلٌ ، إن العار مَنْقصَة ، والضعف ذل ، أيَخْبِطُ قتلةُ عثمانَ زهرةَ الحياة الدنيا ، ويُسْقَوْن بَرْدَ المصير ، ولَمّا يَمتطُوا[٤] الخوفَ ، ويَسْتَحْلِسُوا الحذَر بعد مسافة الطَّرد ، وامتطاءِ العَقَبة الكَئُود فى الرِّحْلة ؟ لادُعيتُ لُعُقْبةَ إن كان ذلك ، حتى أنصِبَ لهم حَرْبا تضَعُ الحوامِلُ لها أطفالها ، قد أَلْوَتْ[٥] بنا السَّاقةُ ، ووَرَدْنا حِياضَ المنايا ، وقد عَقَلْتُ نفسى على الموت عَقْلَ البعير ، واحتسبتُ أنى ثانى عثمان أو أَقْتُلَ قاتلَه ، فعجِّل علىَّ ما يكون من رأيك ، فإنَّا مَنُوطون بك مُتَّبِعون عَقِبَك ، ولم أَحْسِبِ الحال تتراخَى بك إلى هذه الغاية لِمَا أخافُه من إحكام القومِ أمْرَهم » .

وكتب فى أسفل الكتاب :

نَومِى عَلَىَّ محرَّمٌ إن لم أقُمْ ... بدم ابن أُمّى من بنى العَلَّاتِ[٦]
قامت علىَّ (إذا قعدتُ ولم أقُمْ ... بِطِلَابِ ذاك) مَناحَةُ الأموات
عَذُبَتْ حِياضُ الموت عندى بعدما ... كانت كريهةَ مَوْرِد النَّهَلاتِ[٧]

---

(١) المناوى : المعادى ، وعاصف الشمال : أى ريح الشمال العاصفة .

(٢) المسكة : ما يمسك الأبدان من الغـذاء والشراب أو ما يتبلغ به منهما ، وفرى كرمى : شق وقطع ، والأوداج جمع ودج كسبب وهو عرق فى العنق ، وهما ودجان ، والأهب جمع إهاب ككتاب وهو الجلد ، وشبا جمع شباة وهى حد كل شىء والشفار جمع شفرة بالفتح وهى السكين العظيم .

(٣) المداجاة:المداراة ، وأبدى له صفحته : جاهره بالعداوة ، ومزحل ، معبد : منزحل كثم .

(٤) امتطى الدابة : جعلها مطية ، وفى الأصل « ولما يتمطوا » وهو تحريف ، واستحلس فلان الخوف : إذا لم يفارقه الخوف ، وعقبة كئود وكأداء : صعبة .

(٥) ألوى بهم الدهر : أهلكهم ، والساقة جمع سائق : يعنى من صار يسـدهم زمام الأمر ؛ وفى الأصل « المسافة » وأراه محرفا ، وعقل البعير : ، شد وظيفه إلى ذراعه .

(٦) بنو العلات . بنو أمهات شتى من رجل واحد .

(٧) نهل كفرح نهلا بالتحريك : شرب الشرب الأول حتى روى .

٣٣٩ - كتاب يعلى بن أمية إلى معاوية

وكتب إليه يعلى بن أمية :

« إنا وأنتم يابنى أمية كالحجر ، لا يُبْنَى بغير مَدَر[١] ، وكالسيف لايقطع إلا بضَارِبه ، وصل كتابك بخبر القوم وحالهم ، فلئن كانوا ذبحوه ذَبْحَ النَّطيحة بُودِرَ بها المَوتُ ، لَيُنْحَرنَّ ذابحُه نحْرَ البَدَنة[٢] وافَى بها الهَدْىُ الأجَلَ ، تكِلَتنى مَن أنا ابنُها إن متُّ عن طلب وَتْرِ عثمان ، أو يقالَ لم يبقَ فيه رَمَق ، إنى أرى العيش بعد قتل عثمان مُرًّا ، إنْ أدلجَ[٣] القومُ فإنى مُدْلج ، وأما قَصْدُهم ماحوَته يدى من المَال ، فالمال أيسرُ مفقود إن دفعوا إلينا قَتَلة عثمان ، وإنْ أبَوا ذلك أنْفَقْنا المالَ على قتالهم ، وإن لنا ولهم لَمَعرَكةً نتناحر فيها نحر الجَزَّار النقائعَ[٤] عن قليلٍ تصِلُ لحومُها » .

وكتب فى أسفل الكتاب :

لِمثْل هذا اليوم أوصَى الناسُ لاتعط ضَيْما أو يَخِرَّ الراسُ

فكلُّ هؤلاء كتبوا إلى معاوية يحرِّضونه ويُغرونه ويحركونه، إلا سعيدبنَ العاص ، فإنه كتب بخلاف ما كتب به هؤلاء ، كان كتابه :

---

(١) المدر : قطع الطين اليابس .   (٢) البدنة من الإبل والبقر كالأضحية من الغنم تهدى إلى مكة وتنحر بها . والهدى : ما يهدى إلى مكة ، وثكلته أمه كفرح : فقدته .

(٣) أدلج: سار من أول الليل .   (٤) النقائع: جمع نقيعة كسفينة، وهى كل جزور جزرت للضيافة ، ومنه : « الناس نقائع الموت » أى يجزرهم : جزر الجزار النقيعة » وصل اللحم كضرب صلولا وأصل . أنتن .

٣٤٠ — كتاب سعيد بن العاص إلى معاوية

« أما بعدُ : فإن الحزم فى التثبُّت ، والخطأ فى العَجَلة ، والشُّؤم فى البِدار ، والسهمُ سَهمُك مالم يَنْبض به الوَتَرُ ، ولن يَرُدَّ الحالبُ فى الضَّرْع اللبَنَ ، ذكرتَ حقَّ أمير المؤمنين علينا ، وقرابتَنا منه ، وأنه قُتِل فينا ، فخَصْلتان ذِكْرُهما نَقصٌ ، والثالثة تَكَذُّب[1] ، وأمرتَنا بطَلَب دم عثمان ، فأىَّ جهة تَسْلُك فيها أبا عبد الرحمن ؟ رُدِمَت الفِجاج[2] ، وأُحْكِم الأمرُ عليك ، وَوَلِىَ زِمامَه غيرك ، فدعْ مُناوأةَ مَن لو كان افترش فِراشَه صَدر الأمر لم يُعْدَل به غيره ، وقلتَ : كأنا عن قليل لا نتعارف ، فهل نحن إلا حَىٌّ من قريش ، إن لم تنَلنا الولايةُ لم يضِقْ عنا الحقُّ ؟ إنها خِلافةٌ مَنَافِيَّة[3] ، وبالله أُقسِم قَسَما مبروراً لئن صَحَّت عزيمتك على ما ورد به كتابك لأُلْفِيَنَّكَ بين الحالين طَلِيحا[4] ، وهَبْنى إخالُك بعد خَوْض الدماء تنالُ الظَّفَر ، هل فى ذلك عِوَض من ركوب المَأْثم ، وَنَقْص الدين ؟ أمَّا أنا فلا على بنى أُمَيَّة ولا لهم ، أجعلُ الحَزْمَ دارى ، والبيتَ سِجْنى ، وأتوَسَّد الإسلام ، وأستشعرُ العافيةَ ، فاعْدِلْ أبا عبد الرحمن زِمامَ راحلتك إلى مَحَجَّة الحق ، واستَوْهِبِ العافيةَ لأهلك ، واستعطِفِ الناس على قومك ، وهيهات مِنْ قَبولك ما أقول حتى يفجِّر مروانُ ينابيعَ الفِتَن تأجّجُ فِى البلاد ، وكأنى بكما عند ملاقاة الأقران تعتذِران بالقَدَر ، ولبئس العاقبةُ الندامةُ ، وعمّا قليل يَضِحُ لك الأمرُ والسلام » .

(شرح ابن أبى الحديد م ٢ : ص ٥٧٩)

---

(١) تكذب : تكلف الكذب . (٢) الفجاج : جمع فج بالفتح وهو الطريق الواسع ، وردم الباب والثلمة كضرب : سده ، والمناوأة . المعاداة .

(٣) نسبة إلى عبد مناف جد معاوية وعلى ، فالأول هو معاوية بن أبى سفيان بن حرب بن أمية بن عبد شمس بن عبد مناف ، والثانى هو على بن أبى طالب بن عبد المطلب بن هاشم بن عبد مناف ، يعنى بذلك أن الخلافة إن صارت إلى على فهى لم تخرج عن قبيلتنا .

(٤) طلح كمنع طلحا وطلاحة: إذا أعيا وكل فهو طليح .

٣٤١ — كتاب السيدة أم سلمة إلى السيدة عائشة

وكانت السيدة عائشة خرجت إلى مكة للحج عامَ مَقْتَل عثمان ، فلما قضت حجَّها بلغها وهى عائدة مقتلُ عثمان ، فارتدَّت إلى مكة ، وأزمَعَتْ أن تطلب بدمه ، وجاءت إلى السيدة أم سَلَمَة زوج رسول الله صلى الله عليه وسلم — وكانت أم سلمة بمكة فى هذا العام — تُغْرِيها بالخروج معها للطلب بدم عثمان ، فأبت أن تُجيبها ، وأظهرت موالاة علىّ عليه السلام ونُصْرته .

وكتبت إلى السيدة عائشة إذ عزمت على الخروج إلى البصرة :

« من أم سَلَمَة زوج النبى صلى الله عليه وسلم إلى عائشة أم المؤمنين :

سلام عليكِ فإنى أحْمَدُ إليكِ اللهَ الذى لا إله إلا هو ، أما بعد : فإنك سُدَّة[1] بين رسول الله صلى الله عليه وسلم وبين أُمَّته ، وحِجابك مضروب على حُرْمَته[2] ، قد جَمَعَ القرآن ذيلَكِ فلا تَنْدَحيه[3] ، وسَكَّن عُقَيْراك[4] فلا تُصْحِريها ، الله من

(١) السدة : الباب ، والمعنى . أنت باب بين رسول الله وبين أمته ، فتى أصيب ذلك الباب بشىء ، فقد دخل على رسول الله فى حرمه وحوزته واستبيح حماه ، فلا تكونى أنت سبب ذلك بالخروج الذى لا يجب عليك فتحوجى الناس إلى أن يفعلوا ذلك ، وهذا مثل قول النعمان بن مقرن للمسلمين فى غزاة نهاوند . « ألا وإنكم باب بين المسلمين والمشركين إن كسر ذلك الباب دخل عليهم منه » ، ويروى « إنك جنة » والجنة بالضم : الوقاية . (٢) الحرمة ما لا يحل انتهاكه .

(٣) أى فلا تفتحيه ولا توسعيه بالحركة والخروج إلى البصرة ، يقال : ندحت الشىء كفتح إذا وسعته ، ومنه يقال : فلان فى مندوحة عن كذا أى فى سعة ، تريد قول الله تعالى « وَقَرْنَ فى بُيُوتِكُنَّ » وروى « فلا تبدحيه » بالباء من باب فتح أيضاً ، من البداح كسحاب وهو المتسع من الأرض وهو بمعنى الأول . (٤) عقر الدار : أصلها (وأهل الحجاز يضمون العين ، وأهل نجد يفتحونها) وعقيرى مقصوراً : اسم مبنى من عقر الدار ، على صيغة التصغير ، (ومثله مما جاء مصغراً : الثريا ، والحميا : وهى سورة الشراب) قال ابن قتيبة : ولم أسمع بعقيرى إلا فى هذا الحديث ، قال الزمخشرى : كأنها تصغير العقرى على فعلى بالفتح ، من عقر كفرح إذا بقى مكانه لا يتقدم ولا يتأخر فزعا أو أسفا أو خجلا ، وأصله من عقرت به بفتح القاف إذا أطلت حبسه كأنك عقرت راحلته فبقى لا يقدر على البراح ، أرادت أم سلمة بعقيراك نفس عائشة ، أى سكنى نفسك التى حقها أن تلزم مكانها ، ولا تصحريها : أى لا تبرزيها وتجعليها بالصحراء ، يقال : أصحر ، كما يقال : أنجد وأسهل وأحزن ، وفى العقد الفريد : « قد جمع القرآن ذيولك فلا تسحبيها ، وسكن خفارتك فلا تبتذليها » والخفارة بالفتح والخفر بالتحريك : شدة الحياء ، خفرت المرأة كفرح فهى خفرة ، وابتذله : ضد صانه .

وراء هذه الأمّة[١] ، لو علم رسول الله صلى الله عليه وسلم أن النساء يحتمِلنَ الجهاد عَهِدَ إليك[٢]، عُلْتِ عُلْتِ! بل قد نهاكِ عن الفُرْطة[٣] فى البلاد ، إن عمود الدين لا يُثابُ[٤] بالنساء إن مال ، ولا يُرْأبُ[٥] بهن إنْ صُدِع ، حُمَادَيَاتُ[٦] النساءِ غَضُّ الأطراف وَخَفْضُ الأصوات ، وخفَر الأعراض ، وضَمُّ الذيول ، وقِصَرُ الوَهَازَة[٧] ، ما كنتِ قائلةً لرسول الله صلى الله عليه وسلم لو عارَضَك ببعض الفَلَوات ، نَاصَّةً[٨] قعُوداً من

---

(١) أى محيط بهم وحافظ لهم كقوله تعالى «وَٱللَّهُ مِنْ وَرَآئِهِم مُّحِيطٌ»

(٢) وفى رواية ابن أبى الحديد عن ابن قتيبة فى كتابه المصنف فى غريب الحديث : « لو أراد رسول الله أن يعهد إليك عهداً » قال فى شرحه : الجواب محذوف أى لفعل ولعهد ، كقوله تعالى : « وَلَوْ أَنَّ قُرْآنًا سُيِّرَتْ بِهِ ٱلْجِبَالُ أَوْ قُطِّعَتْ بِهِ ٱلْأَرْضُ » أى لكان هذا القرآن .

(٣) عال عولا : جار ومال عن الحق ، قال تعالى « ذَٰلِكَ أَدْنَىٰٓ أَلَّا تَعُولُوا » أى جرت فى هذا الخروج وعدلت عن الصواب ، ومن الناس من يرويه : « علت علن » بكسر العين ، أى ذهبت فى البلاد وأبعدت السير ، يقال : عال فلان فى البلاد عيلا أى ذهب وأبعد ودار .

(٤) فى رواية ابن أبى الحديد عن ابن قتيبة « نهاك عن الفرطة فى بلاد » وفى تفسيره : « أى عن السفر والشخوص ، من الفرط (كالضرب) وهو السبق والتقدم » وفى رواية العقد « نهاك عن الفرطة فى الدين » وقال صاحب اللسان : الفرطة بالضم : اسم للخروج والتقدم ، وأورد الروايتين المذكورتين ثم قال : يعنى السبق والتقدم ومجاوزة الحد . (٥) أى لا يرد ولا يعاد بهن إلى استوائه إن مال ، من قولك ثاب فلان إلى كذا يثوب : أى رجع إليه وعاد ، وفى ابن أبى الحديد « لا يثأب » مهموزاً ، وفى العقد « لا يثبت » وفى الإمامة والسياسة « لا يثيب » وكل ذلك تحريف .

(٦) رأب الصدع كمنع : أصلحه ، والصدع : الشق ، ويروى « إن صدع» بفتح الصاد والدال، أجروه مجرى قولهم : جبرت العظم فجبر . (٧) يقال : حماداك أن تفعل كذا أى مبلغ جهدك وغايتك مثل قصاراك وزنا ومعنى ، وجمعه حماديات أى غاية ما يحمد منهن ، الخفر : شدة الحياء كما قدمنا ، والأعراض جمع عرض بالكسر : وهو : النفس والجسد .

(٨) قال فى اللسان « وقصر الوهازة » أى قصر الخطى ، والوهازة : الخطو ، وقد توهز يتوهز : إذا وطئ وطئاً ثقيلا ، وعلى هامشه «الوهازة ضبطت بفتح الواو فى الأصل ومتن القاموس شكلا ، وضبطت فى النهاية بكسرها ، ونقل الكسر شارح القاموس عن الصاغانى اه مصححه » وقال شارح القاموس « وضبطه الصاغانى بالكسر وقال : وهو قول ابن الأعرابى » . أقول : وقد جاءت هذه الكلمة فى لسان العرب أيضاً فى مادة « حد » : « وقالت أم سلمة حماديات النساء غض الطرف وقصر الوهادة » وضبطت كلمة قصر بفتح القاف وسكون الصاد . والوهادة بالدال ، وهو تحريف ، وفى العقد « جهاد النساء غض الأطراف ، وضم الذيول ، وقصر الموادة » وفى الإمامة والسياسة « خمرات النساء » وكل ذلك تحريف أيضاً . (٩) نص ناقته : استخرج أقصى ما عندها من السير ، والقعود : البعير الشاب ، سمى بذلك لأن ظهره اقتعد أى ركب ، وفى رواية ابن أبى الحديد « قلوصاً » والقلوص : الناقة الشابة أيضاً .

مَنْهَل إلى مَنْهَل ، قد وجَّهتِ سِدَافَتَه[1] ، وتركتِ عُهَيْدَاهُ[2] ، إنّ بِعَيْنِ الله مَهْوَاكِ[3] ، وعلى رسوله ترِدِينَ ، وأُقْسِم لو سِرْتُ مَسِيرَكِ هذا ثم قيل لي : يا أمَّ سَلَمَة : آدخلي الفِرْدَوْسَ ، لاُستحييتُ أن ألْقَى محمداً صلى الله عليه وسلم هاتكةً حِجاباً قد ضَرَبه عليَّ .

اجعلي بيتك حِصْنَك ، ووِقَاعَةَ[4] السِّتر قَبْرَك ، حتى تَلْقَيْه وأنتِ على تلك ، أطوَعُ ما تكونين لله إذا لَزِمْتِه ، وأنصَرُ ما تكونين للدين ما جَلَسْتِ فيه ، ولو ذكَّرْتُكِ قولًا من رسول الله صلى الله عليه وسلم تعرفينه ، لَنُهِشْتِ به نَهْشَ الرَّقْشَاءِ المُطْرِقة[5] ، والسلام » .

(شرح ابن أبي الحديد ٢ : ٧٩ ، والعقد الفريد ٢ : ٢٢٧ ، والإمامة والسياسة ١ : ٤٥)

---

(١) السدافة : الحجاب والستر ، من أسدف الليل إذا أرخى ستوره وأظلم ، وأسدفت المرأة القناع ، أى أرسلته ، وسدفته أيضاً ويروى بفتح السين ، ويروى سجافته بكسر السين وفتحها أيضاً ، والسدفة والسجافة بمعنى ، وتوجيهها : كشفها ، فمعنى وجهت سدافته : أى هتكتها وكشفتها وأخذت وجهها ، وقيل معناه : أزلت السدافة عن مكانها الذى أمرت أن تلزميه ، وقيل معناه : أخذت وجهاً هتكت ستره فيه ، وذكر صاحب اللسان هذه المعانى فى مادة « سجف » و « سدف » و « وجه » ونقل ابن أبى الحديد فى شرحه : « ووجهت سدافته » أى نظمتها بالخرز ، والوجيهة : خرزة معروفة ، وعادة العرب أن تنظم على المحمل خرزات إذا كان للنساء .

(٢) العهيدى بالتشديد والقصرى فعيلى من العهد ، كالجهيدى من الجهد ، والعجيلى من العجلة .

(٣) أى أن الله يرى سيرك وحركتك والهوى كقضى : الانحدار فى السير من النجد إلى الغور ، والإسراع فى السير . (٤) الوقاعة بالكسر : موضع وقوع طرف الستر على الأرض إذا أرسل ، وهى موقعه وموقعته ، ويروى بفتح الواو أى ساحة الستر ، وأنت على تلك الحال فحذف ، والضمير فى « لزمته » راجع إلى « بيتك » وفى العقد الفريد « فاجعليه سترك ، وقاعة البيت حصنك ، فإنك أنصح ما تكونين لهذه الأمة ما قعدت عن نصرتهم » وفى الإمامة والسياسة : « فاجعلى حجابك الذى ضرب عليك حصنك ، فابغيه منزلا لك حتى تلقيه ، فإن أطوع ما تكونين إذا ما لزمته وأنصح ما تكونين إذا ما قعدت فيه » .

(٥) وفى الإمامة والسياسة : « ولو ذكرتك كلاما قاله رسول الله صلى الله عليه وسلم لنهشتنى نهش الحية » وفى العقد الفريد « ولو أنى حدثتك بحديث سمعته من رسول الله صلى الله عليه وسلم لنهشت نهش الرقشاء المطرقة » ، والمعنى : لعضك ونهشك ما أذكره لك وأذكرك به ، كما تنهشك أفعى رقشاء . والحية الرقشاء : هى المنقطة بسواد وبياض ؛ والأفعى توصف بالإطراق ، قال الشاعر :

فأطرق إطراق الشجاع ولو رأى ... مساغا لناباه الشجاع لصمما

(والشجاع : الحية) ؛ هذا وقد أوردنا ذلك الكتاب والذى يليه فى عداد الرسائل ، وفاقا لما ورد فى العقد الفريد ، والإمامة والسياسة ، ولإحدى روايتى ابن أبى الحديد ، وفى الأخرى قال : وقد ذكر =

٣٤٢ — رد السيدة عائشة على السيدة أم سلمة

فأجابتها السيدة عائشة :

« من عائشة أم المؤمنين إلى أم سَلَمَةَ :

سلام عليك فإنى أَحْمَدُ إليكِ اللهَ الذى لا إله إلا هو ، أما بعد : فما أَقْبَلَنى لِوَعْظِك ، وأعرَفَنى لحق نُصْحِك ، وما أنا بِعَمِيَةٍ عن رأيك ، وليس مَسِيرى على ما تظنِّين ، ولَنِعْم المَسِيرُ مسيرٌ فزِعَتْ فيه إلىّ فئتان متناجزَتان[١] من المسلمين ، فإن أقْعُد ففى غير حَرَج[٢] ، وإن أَمْضِ فإلى ما لا بُدَّ لى من الأزدياد منه ، والسلام » .

(شرح ابن أبى الحديد م ٢ : ص ٧٩ ، والعقد الفريد ٢ : ٢٢٧ ، والإمامة السياسة ١ :٤٥)

٣٤٣ — كتاب السيدة أم سلمة إلى على

وكتبت السيدة أم سَلَمَةَ إلى علىّ عليه السلام من مكة :

« أما بعدُ : فإن طلحة والزبير وأشياعهم أشياعَ الضَّلالة يُريدون أن يخرجوا بعائشة إلى البصرة ، ومعهم ابن الحزان[٣] عبد الله بن عامر بن كُرَيْز ، ويذكرون

= هذا الحديث أبو محمد عبدالله بن مسلم بن قتيبة فى كتابه المصنف فى غريب الحديث ، قال: لما أرادت عائشة الخروج إلى البصرة، أتتها أم سلمة فقالت لها.... «ومنه ترى أن ذلك الحديث كان مشافهة لا مكاتبة» وقد وجدت صاحب اللسان عند تفسير كل كلمة يوردها من هذا الحديث يقول : « وفى حديث أم سلمة أنها قالت لعائشة لما أرادت الخروج إلى البصرة » .

(١) وفى رواية « متناحرتان، وفى العقد والإمامة والسياسة : ولنعم المطلع مطلع فرقت فيه بين فئتين متناجزتين من المسلمين » . (٢) أى فى غير إثم .

(٣) هكذا فى الأصل ، أقول : ولعل صوابه « ابن الجزار » أو « ابن الجزاز » من جز الصوف أو ابن الجران أى الطحان من جرن الحب أى طحنه ، أو « ابن الخزان » من خزن المال واكتنزه وقد ورد فى ترجمة عبد الله بن عامر (فى أسد الغابة ج٣ : ص ١٩١) «أنه أول من لبس الخز بالبصرة — وكان عثمان قد استعمله عليها بعد أبى موسى الأشعرى — لبس جبة دكناء ، فقال الناس : لبس الأمير جلد دب ، فلبس جبة حمراء» فلعل صواب الكلمة « ابن الخزاز » تكنى أم سلمة بذلك عن أنه امتلأت يده من بيت مال البصرة ، فغدا مترفا منعماً يرتدى الخز ويرفل فيه (وليست تعنى أن أباه كان يبيع الخز) .

أن عثمان قُتِل مظلوماً ، وأنهم يطلبون بدمه ، والله كافيهم بحَوْله وقوّته ، ولولا ما نهانا الله عنه من الخروج ، وأمَرَنا به من لزوم البيوت[1] ، لم أدَع الخروج إليك ، والنُّصرة لك ، ولـكنى باعِثة نحوك ابنى ، عَدْلَ[2] نفسى ، عمرَ بن أبى سَلَمَة ، فاستوْصِ به يا أمير المؤمنينَ خيراً » .

فلما قدِم عمر على علىّ عليه السلام ، أكرمه ولم يزل مقيماً معه حتى شَهدَ مَشاهِدَه كلّها ، ووَجَّهه أميراً على البحرين . (شرح ابن أبى الحديد م ٢ : ص ٧٨)

٣٤٤ — كتاب الأشتر إلى السيدة عائشة

وكتب الأشتر من المدينة إلى السيدة عائشة ، وهى بمكة :

« أما بعدُ : فإنك ظَعِينة[3] رسول الله صلى الله عليه وآله ، وقد أمَرك أن تَقَرِّى فى بيتك ، فإن فعلتِ فهو خير لك ، وإن أبَيْتِ إلا أن تأخذى مِنْسَأتكِ[4] ، وتُلقِى جِلْبابَك ، وتُبْدِى للناس شُعَيْراتِك ، قاتلتُك حتى أرُدَّكِ إلى بيتك ، والموضع الذى يرضاه لك ربك » . (شرح ابن أبى الحديد م ٢ : ص ٨٠)

٣٤٥ — رد السيدة عائشة على الأشتر

فـكتبت إليه فى الجواب :

« أما بعدُ : فإنك أول العرب شَبَّ الفِتنةَ ، ودعا إلى الفُرقة ، وخالَفَ الأئمّة ، وسَعَى فى قتل الخليفة ، وقد علمت أنك لن تُعْجِزَ الله حتى يُصيبَك منه بنقمة ينتصر بها

---

(١) تشير إلى قوله تعالى « وَقَرْنَ فِى بُيُوتِـكُنَّ » .

(٢) العدل بالفتح والـكسر والعديل : المثل والنظير .

(٣) يقال للمرأة ظعينة ، فعيلة بمعنى مفعولة ، لأن زوجها يظعن بها ، والظعينة فى الأصل وصف للمرأة فى هودجها ، ثم سميت بهذا الاسم وإن كانت فى بيتها ، لأنها تصير مظعونة .

(٤) المنسأة : العصا . لأن الدابة تنسأ بها أى تزجر وتساق .

منك الخليفة المظلوم ، وقد جاءنى كتابك ، وفهمت ما فيه ، وسيكفيكَ اللهُ ، وكُلٌّ من أصبح مماثِلا لك فى ضلالك ، وغَيِّك إن شاء الله » .

(شرح ابن أبى الحديد م ٢ : ص ٨٠)

٣٤٦ — كتاب طلحة والزبير إلى كعب بن سور

ولمّا أجمعتْ عائشةُ وطَلْحة والزبير وأشياعهم على المَسير إلى البصرة ، قال الزبير لعبد الله بن عامر — وكان عاملَ عثمان على البصرة ، وهرَب عنها حين مَصير عثمان ابن حُنَيف عاملِ علىٍّ إليها — : مَن رجالُ البصرة ؟ قال: ثلاثة، كلُّهم سيِّد مطاع : كَعْب ابن سُور فى اليمن ، والمُنْذر بن ربيعة فى ربيعة ، والأحنف بن قيس فى البصرة .

فكتب طلحة والزبير إلى كعب بن سُور .

« أما بعدُ ، فإنك قاضِى عمرَ بن الخطاب ، وشيخُ أهل البصرة، وسيِّد أهل اليمن ، وقد كنتَ غضِبْتَ لعثمان من الأذَى ، فاغضَبْ له من القتل ، والسلام » .

(الإمامة والسياسة ١ : ٤٧)

٣٤٧ — كتابهما إلى الأحنف بن قيس

وكتبا إلى الأحنف بن قيس :

« أما بعدُ ، فإنك وافِدُ عمر[1] ، وسيِّد مُضَر ، وحَلِيم أهل العراق ، وقد بلغك مُصابُ عثمان ، ونحن قادمون عليك ، والعِيَانُ[2] أشفَى لك من الخَبَر ، والسلام » .

(الإمامة والسياسة ١ : ٤٨)

---

(١) كان الأحنف وفد فى أهل البصرة وأهل الكوفة على عمر رضى الله عنه وخطب بين يديه، وقد أوردنا خطبته فى جمهرة خطب العرب ج ١ : ص ١١٢ : (٢) العيان : المعاينة والمشاهدة .

٣٤٨ — كتابهما إلى المنذر بن ربيعة

وكتبا إلى المنذر :

« أما بعدُ : فإن أباك كان رئيساً فى الجاهلية ، وسيِّدا فى الإسلام ، وإنك من أبيك بمنزلة المُصَلِّى(١) من السابق ، يقال كاد أو لَحِقَ(٢) ، وقد قَتَل عثمانَ مَن أنت خيرٌ منه ، وغَضِبَ له من هو خيرٌ منك ، والسلام » .

(الإمامة والسياسة ١ : ٤٨)

٣٤٩ — رد كعب بن سور على طلحة والزبير

فكتب كعب بن سُور إلى طلحة والزبير :

« أما بعد : فإنا غضِبْنا لعثمان من الأذى والغِيَر(٣) باللسان ، فجاء أمرُ الغِيَر فيه بالسيف ، فإن يكن عثمان قُتِلَ ظالِمًا فما لَكُمَا ولَه ؟ وإن كان قتل مظلوما فغيرُ كما أولَى به ، وإن كان أمْرُه أشكَلَ على مَن يَشْهَدُه ، فهو على من غاب عنه أشكَلُ » .

(الإمامة والسياسة ١ : ٤٨)

٣٥٠ — رد الأحنف عليهما

وكتب الأحنف إليهما :

« أما بعدُ : فإنه لم يأتنا من قبلكم أمرٌ لا نَشُكُّ فيه إلا قَتْلُ عثمان ، وأنتم قادمون علينا ، فإن يكن فى العِيان فضل نظرْنا فيه ونظرتم ، وإلاَّ يكن فيه فضل فليس فى أيدينا ولا أيديكم ثقة، والسلام » .

(الإمامة والسياسة ١ : ٤٨)

---

(١) المصلى . التالى السابق .

(٢) هذه العبارة رواها صاحب العقد فى كتاب عائشة إلى زيد بن صوحان كما سترى

(٣) غير الدهر : أحداثه .

٣٥١ — رد المنذر عليهما

وكتب المنذر إليهما :

« أما بعد : فإنه لم يُلحِقنى بأهل الخير إلا أن أكون خيراً من أهل الشر ، وإنما أوجب حقَّ عثمان اليومَ حقُّه أمس ، وقد كان بين أظهُرِكم فخذَلتُموه ، فمتى استَنْبَطْتم هذا العلم ، وبدا لكم هذا الرأىُ ؟ » .

فلما قرأ ا كتب القوم ساءهما ذلك وغضبِا . (الإمامة والسياسة ١ : ٤٨)

٣٥٢ — كتاب السيدة عائشة إلى زيد بن صوحان

وكتبت السيدة عائشة إلى زيد بن صُوحَان العَبدى[1] إذ قدِمَت البصرة :

« من عائشة ابْنَةِ أبى بكر أم المؤمنين حَبيبة رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى ابنها الخالص زيد بن صُوحان :

سلام عليك ، أما بعدُ : فإن أباك كان رَأْسًا فى الجاهلية ، وسَيِّدا فى الإسلام ، وإنك من أبيك بمنزلة المُصَلِّى من السابق ، يقال : كاد أو لَحِق ، وقد بلغَك الذى كان فى الإسلام من مُصاب عثمان بن عفّان ، ونحن قادمون عليك ، والعِيانَ أشفَى لك من الخبر .

فإذا أتاك كتابى هذا ، فاقْدَمْ فانصُرنا على أمرنا هذا ، فإن لم تفعل فثبِّطِ[2] الناس عن علىّ بن أبى طالب ، وكن مكانَك حتى يأتِيَك أمرى ، والسلام » .

* * *

(١) هو من أشراف الكوفة .

(٢) وفى رواية الطبرى : « اخذل » والمعنى واحد .

وفى رواية ابن أبى الحديد :

« أما بعدُ : فأقِمْ فى بيتك ، وخَذِّل الناس عن علىّ ، وليَبْلُغنى عنك ما أحِب ، فإنك أوْثَقُ أهلى عندى والسلام » .

(العقد الفريد ٢ : ٢٢٧ ، تاريخ الطبرى ٥ : ١٨٣ ، وشرح ابن أبى الحديد م ٢ : ص ٨١)

٣٥٣ — رد زيد بن صوحان على السيدة عائشة

فكتب إليها زيد :

« من زيد بن صوحان إلى عائشة أم المؤمنين :

سلام عليك : أما بعدُ : فإن الله أمَرَكِ بأَمْر وأَمَرَنا بأَمْر : أَمَرَكِ أن تقَرِّى فى بيتك، وأمَرَنا أن نقاتل الناس حتى لا تكون فِتْنَة[١] : فتركتِ ما أُمِرتِ به، وكتبتِ تَنْهَيْنَنا عما أُمِرْنا به[٢] ، فأَمْرُكِ عندى غير مُطاع ، وكتابك غير مُجاب ، والسلام » .

* * *

وفى رواية الطبرى :

فكتب إليها :

من زيد بن صُوحان إلى عائشة ابْنَةِ أبى بكر الصديق رضى الله عنه ، حبيبة رسول الله صلى الله عليه وسلم :

أما بعدُ : فأنا ابنك الخالص إن اعتزلتِ هذا الأمر ، ورَجَعتِ إلى بيتك ، وإلاَّ فأنا أولُ من نَابَذَكِ[٣] » :

(العقد الفريد ٢ : ٢٢٧ ، تاريخ الطبرى ٥ : ١٨٤ ، وشرح ابن أبى الحديد م ٢ : ص ٨١)

---

(١) يشير إلى قوله تعالى: « وَقَاتِلُوهُمْ حَتَّى لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ وَيَكُونَ الدِّينُ كُلُّهُ لِلَّهِ »

(٢) وفى ابن أبى الحديد : « وقد أتانى كتابك ، فأمرتنى أن أصنع خلاف ما أمرنى الله ، فأكون قد صنعت ما أمرك الله به وصنعت ما أمرنى الله به » .

(٣) وفى الطبرى بعد ذلك : « قال زيد بن صوحان : رحم الله أم المؤمنين، أمرت أن تلزم بيتها، وأمرنا أن نقاتل ، فتركت ما أمرت به وأمرتنا به ، وصنعت ما أمرنا به ونهتنا عنه » .

٣٥٤ - كتاب الصلح بين أصحاب الجمل وبين عثمان بن حنيف

وخطب طلحةُ والزبير والسيدة عائشة أهلَ البصرة ، وحثّوهم على مؤازرتهم في الطلب بدم الخليفة المظلوم ، حتى استمالوا فريقاً منهم ، ونشِبَ القتال بين أصحاب عائشة وبين أصحاب ابن حُنَيف ، وفشَتِ الجراحاتُ في الفريقين ، حتى إذا مسَّ الشرُّ أصحابَ ابنِ حنيف وعَضّهم ، نادَوا أَصحابَ عائشة إلى الصلح ، فأجابوهم ، وكتبوا بينهم كتاباً على أن يبعثوا رسولاً إلى المدينة ، وحتى يرجِعَ الرسول من المدينة ، فإن كان طلحة والزبير أُكْرِها على بيعة عليّ ، خرج ابن حنيف عنهما ، وأخلَى لهما البصرةَ ، وإن لم يكونا أُكْرِها خرج طلحة والزبير ، ونص الكتاب :

« بسم الله الرحمن الرحيم . هذا ما اصطلح عليه طلحة والزبير ومن معهما من المؤمنين والمسلمين ، وعثمان بن حُنَيف ومن معه من المؤمنين والمسلمين :

أنَّ عثمان يُقيم حيثُ أدركه الصُّلْح على ما في يده ، وأن طلحة والزبير يقيمان حيث أدركهما الصلح على ما في أيديهما ، حتى يرجِعَ أمينُ الفريقين ورسولُهُم كَعْبُ بن سُور من المدينة ، ولا يضارّ واحد من الفريقين الآخر في مسجد . ولا سُوق ، ولا طريق ، ولا فُرْضة[1] ، بينهم عَيْبة[2] مفتوحة ، حتى يرجع كَعْب بالخبر ، فإن رجع بأن القوم أُكرهوا طلحة والزبير ، فالأمرُ أمرُهما ، وإن شاء عثمان خرج حتى يَلْحَق بطِيَّته[3] ، وإن شاء دخل معهما ، وإن رجع بأنهما لم يُكْرَها فالأمر أمر عثمان ، فإن شاء طلحة والزبير أقاما على طاعة عليّ ، وإن شاءا خرجا حتى يَلْحَقا بطِيَّتهما ، والمؤمنون أعوانُ الفالج[4] منهما » .

---

(١) الفرضة : من النهر ثلمة يستقى منها ، ومن البحر : محط السفن .
(٢) هكذا في الأصل ، والتعبير الوارد عن العرب في هذا الصدد « عيبة مكفوفة » انظر تفسيرها في ص ٣١ . (٣) يقال : مضى لطيته أي لوجهه الذي يريده ولنيته التي انتواها .
(٤) أي الظافر الفائز .

فخرج كعب حتى قَدِم المدينة ، واجتمع الناس لقدومه، فقام فقال : « يـأهل المدينة إنى رسول أهل البصرة إليكم : أأ كْرَهَ هؤلاء القومُ هذين الرجلين على بيعة علىّ ، أم أتياها طائعين؟ فلم يُجبه أحد من القوم ، إلا ما كان من أسامة بن زيد ، فإنه قام فقال : اللهم إنهما لم يبايعا إلا وهما كارهان » . (تاريخ الطبرى ٥ : ١٧٧)

٣٥٥ — كتاب علىّ إلى عثمان بن حنيف

وبلغ عليًّا الخبرُ ، فبادَرَ بالكتاب إلى عثمان بن حنيف يعجِّزه ويقول :

« واللهِ ما أُكرِها إلا كَرْهاً على فُرْقة ، ولقد أُكرها على جماعة وفَضل[1] ، فإن كانا يريدان الخلع ، فلا عُذْر لهما ، وإن كانا يريدان غير ذلك نَظَرْنا ونَظَرا » :

فقدِم الكتاب على عثمان بن حنيف ، وقدِم كعب ، فأرسلوا إلى عثمان أن آخرج عنا ، فاحتجّ بالكتاب ، وقال : هذا أمر آخر غير ما كنا فيه ، فجمع طلحة والزبير الرجال ، ثم قصدا المسجد وقت صلاة العشاء ، وأبطأ ابن حنيف ، فقدّما عبد الرحمن ابن عتّاب ، فشَهرَ الزُّطُّ والسَّبَابِجَةُ[2] السلاح ، ووضعوه فيهم ، فأقبلوا عليهم فاقتتلوا فى المسجد .

ثم أخذ أصحاب عائشة ابن حنيف فضربوه أربعين سوطاً ، ونتفوا شعر لحيته ، ورأسه وحاجبيه ، وأشفار عينيه وحبسوه . (تاريخ الطبرى ٥ : ١٧٨)

---

(١) روى أن الناس لما بايعوا علياً تشاوروا فيما بينهم ،وقالوا: إن دخل طلحة والزبير فقد استقامت فبعثوا إليهما وجاءوا بهما يحدونهما بالسيف للبيعة ، فتلكأ طلحة فقال له مالك الأشتر — وسل سيفه — والله لتبايعن أو لأضربن به ما بين عينيك ، فقال طلحة : وأين المهرب عنه ؟ فبايعه وبايع الزبير والناس ، وروى أن علياً قال لهما :إن أحببتما أن تبايعا لى ، وإن أحببتما بايعتكما ،فقالا : بل نبايعك، وقالا بعد ذلك: إنما صنعنا ذلك خشية على أنفسنا ، وقد عرفنا أنه لم يكن ليبايعنا » (تاريخ الطبرى ٥ : ١٥٣) .

(٢) الزط : قوم سود من أهل السند والهند ، وكـذا السبابجة : قوم ذوو جلد من السند والهند يكونون مع رئيس السفينة البحرية يخفرونها ، وكانوا بالبصرة جلاوزة وحراس السجن .

٣٥٦ – كتاب طلحة والزبير إلى أهل الأمصار

وأصبح طلحة والزبير وبيتُ المال فى أيديهما ، والناسُ معهما ، وبعثت عائشة : لا تحبِسا عثمان بن حنيف ودعاه ففعلا فخرج عثمان فمضى لطِيَّته ، وثار حَكيم بن جَبَلة فيمن تبعه لنُصرة ابن حنيف ، وهو يقول : لست بأخيه إن لم أنصُره ، وجعل يشتم عائشة ، وقالت عائشة : لا تقاتلوا إلا من قاتلكم ، ونادَوا من لم يكن من قَتَلة عثمان فليكفُف عنا ، فإنا لا نريد إلا قتلة عثمان ، ولا نبدأ أحداً ، فأنشَبَ حكيم القتال ، واقتتل الفريقان قتالا شديداً ، وكان النصر لأصحاب عائشة .

ثم كتبوا إلى أهل الشأم بما صنعوا وصاروا إليه .

« إنا خرجْنا لوضع الحرب ، وإقامةِ كتاب الله عزّ وجل بإقامة حدوده فى الشريف والوضيع ، والكثير والقليل ، حتى يكون الله عزّ وجل هو الذى يردُّنا عن ذلك ، فبايَعنا خِيارُ أهل البصرة ونُجباؤهم . وخالَفَنا شِرارُهم ونُزَّاعهم[١] ، فردُّونا بالسلاح ، وقالوا فيما قالوا : نأخذ أم المؤمنين رهينةً أنْ أمرَتْهم بالحق وحثَّتْهم عليه ، فأعطاهم الله عزّ وجل سُنَّةَ المسلمين مرةً بعد مرة ، حتى إذا لم يبق حُجة ولا عُذر استبسل قَتَلَةُ أمير المؤمنين ، فخرجوا إلى مَضاجِعهم ، فلم يُفْلِت منهم مُخْبِرٌ[٢] إلا حُرقوص بن زُهَيْر ، والله سبحانه مُقِيده[٣] إن شاء الله ، وكانوا كما وصف الله عزّ وجل[٤] .

وإنا نُناشِدُكم الله فى أنفسكم إلاَّ نَهضْتم بمثل ما نَهَضْنا به فنَلْقَى اللهَ عزّ وجل وتلقَوْنه وقد أعذَرْنا ، وقضَيْنا الذى علينا » .

وكتبوا إلى أهل الكوفة بمثله ، وكذا إلى أهل اليمامة وأهل المدينة .

(تاريخ الطبرى ٥ : ١٨١)

---

(١) نزاع القبائل : غرباؤهم الذين يجاورون قبائل ليسوا منهم . الواحد نزيع ونازع .
(٢) أى إنسان يخبر بخبرهم .   (٣) أقاد القاتل بالقتيل : قتله به .
(٤) قال تعالى « فَقُطِعَ دَابِرُ الْقَوْمِ الَّذِينَ ظَلَمُوا وَالْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ » .

٣٥٧ — كتاب السيدة عائشة إلى أهل الكوفة

وكتبت السيدة عائشة رضى الله عنها إلى أهل الكوفة :

« أما بعدُ : فإنى أذكِّركم الله عز وجل والإسلامَ ، أقيموا كتاب الله بإقامة ما فيه ، اتقُوا اللهَ واعتصِموا بحبله وكونوا مع كتابه ، فإنا قدِمنا البصرة فدعَوْناهم إلى إقامة كتاب الله بإقامة حدوده ، فأجابنا الصالحون إلى ذلك واستقبلَنا مَن لا خَيْرَ فيه بالسلاح . وقالوا : لَنُتْبِعَنَّكم عثمان ، ليَزيدوا[1] الحدودَ تعطيلاً ، فعانَدوا فشهدوا علينا بالكفر ، وقالوا لنا الْمُنكَرَ ، فقرأنا عليهم : « أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ أُوتُوا نَصِيباً مِنَ الْكِتَابِ يُدْعَوْنَ إِلَى كِتَابِ اللهِ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ » فأذعن لى بعضهم ، واختلفوا بينهم فتركناهم وذلك ، فلم يمنع ذلك مَن كان منهم على رأيه الأول من وَضْع السلاح فى أصحابى ، وعزَم عليهم عثمان بن حُنَيف إلاّ قاتلونى ، حتى منعنى الله عز وجل بالصالحين ، فردَّ كيدهم فى نحورهم ، فمكثنا ستًّا وعشرين ليلةً ندعوهم إلى كتاب الله ، وإقامة حدوده ، وهو حَقْنُ الدماء أن تُهَرَاقَ[2] دون من قد حَلَّ دمه ، فأَبَوا واحتجُّوا بأشياء فاصطلَحْنا عليها ، فخانوا وغدَروا ، وحافُوا وحَشَروا ، فجمع الله عز وجل لعثمان رضى الله عنه ثأره ، فأقادهم فلم يُفلِت منهم إلا رجل ، وأرْدَأَنا[3] الله ، ومَنَعنا منهم بعُمَير بن مَرْثَد ، ومَرْثَد بن قيس ، ونفر من قيس ، ونفر من الرِّباب والأَزْد ، فالزَموا الرِّضا إلا عن قَتَلة عثمان بن عفان حتى يأخذ الله حقه ، ولا تُخاصِموا عن الخائنين ، ولا تمنعوهم ، ولا ترضوا بذَوِى حُدُودِ الله فتكونوا من الظالمين » .

* * *

(١) فى الأصل « ليرتدوا » وهو تصحيف .

(٢) هراق الماء يهريقه بفتح الهاء هراقة بالكسر ، وأصله أراق .

(٣) أردأه : أعانه ، والردء بالكسر : العون .

وكتبتْ إلى رجال بأسمائهم : أما بعد : فثبِّطوا الناس عن منع هؤلاء القوم ونصرتهم ، واجلسوا فى بيوتكم ، فإن هؤلاء القوم لم يرضَوا بما صنعوا بعثمان بن عفان رضى الله عنه ، وفرّقوا بين جماعة الأمة ، وخالفوا الكتاب والسنة ، حتى شهِدوا علينا - فيما أمرناهم به ، وحثثناهم عليه من إقامة كتاب الله وإقامة حدوده - بالكفر ، وقالوا لنا المنكر ، فأنكر ذلك الصالحون ، وعظّموا ما قالوا ، وقالوا ما رضيتم أنْ قتلتم الإمام حتى خرجتم على زوجة نبيكم صلى الله عليه وسلم أنْ أمرتكم بالحق لتقتلوها ، وأصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وأئمة المسلمين ، فعزموا وعثمان بن حنيف معهم على من أطاعهم من جُهَّال الناس وغوغائهم على زُطِّهم وسَبَابجتهم ، فلُذْنا منهم بطائفة من الفُسْطاط[1] ، فكان ذلك الدأب ستة وعشرين يوماً ندعوهم إلى الحق ، وألاَ يَحُولوا بيننا وبين الحق ، فغدروا وخانوا فلم نقايِسْهم[2] ، واحتجُّوا ببيعة طلحة والزبير فأبردوا بريداً فجاءهم بالحجّة ، فلم يعرفوا الحق ، ولم يصبروا عليه ، فغادَوْنى فى الغَلَس[3] ليقتلونى ، والذى يحاربهم غيرى ، فلم يبرحوا حتى بلغوا سُدَّةَ[4] بيتى ، ومعهم هادٍ يَهديهم إلىّ ، فوجدوا نفَرًا على باب بيتى ، منهم عُمَير بن مرثَد ، ومرثَد بن قيس ، ويزيد بن عبد الله بن مرثَد ، ونفر من قيس ، ونفر من الرباب والأزد ، فدارت عليهم الرَّحَى ، فأطاف[5] بهم المسلمون ، فقتلوهم ، وجمع الله عزّ وجلّ كلمة أهل البصرة على ما أجمع عليه الزبير وطلحة ، فإذا قَتَلْنا بثأرنا وسِعَنا العذرُ ، وكانت الوقعة لخمس ليال بقين من ربيع الآخر سنة ٣٦ هـ .

وكتب عُبَيد بن كعب فى جمادى . (تاريخ الطبرى ٥ : ١٨١)

---

(١) الفسطاط : مجتمع أهل الكورة . (٢) قاس الشيء قدره على مثاله ، والمقايسة : مفاعلة من القياس ، والمعنى لم نحاكهم ولم ننسج على منوالهم فى ذلك .

(٣) الغلس : ظلمة آخر الليل . وغاداه : باكره . (٤) السدة كالظلة على الباب لتقى الباب من المطر ، وقيل : هى الباب نفسه . (٥) أحاط .

٣٥٨ — كتاب على إلى أهل الكوفة

أما علىّ فإنه حين نَمَى إليه أن عائشة وأشياعها قد توجَّهوا نحو العراق ، خرج فى أثرهم وهو يرجو أن يُدْركهم ويردّهم ، فلما انتهى إلى الربَذة أتاه عنهم أنهم قد أمْعَنوا يريدون البصرة ، فأقام بالرَّبذة أياما ، وكتب إلى أهل الكوفة :

« بسم الله الرحمن الرحيم . أما بعدُ فإنى قد اخترتكم ، وآثَرْتُ النزول بين أظهُرِكم لِمَا أعرفُ من مودَّتكم وحبِّكم لله عزَّ وجل ، ولرسوله صلى الله عليه وسلم ، فمن جاءنى ونصَرنى فقد أجاب الحقَّ ، وقضى الذى عليه » .

(تاريخ الطبرى ٥ : ١٨٤ ، وشرح ابن أبى الحديد م ٣ : ص ٢٩٤)

* * *

وفى رواية أخرى رواها الطبرى أيضاً أنه لما قَدِمَ الرَّبذةَ أقام بها وسرَّح منها إلى الكوفة محمد بن أبى بكر الصديق ، ومحمد بن جعفر بن أبى طالب ، وكتب إليهم :

« إنى اخترتكم على الأمصار ، وفَزِعْتُ إليكم لِمَا حَدَث ، فكونوا لدين الله أعوانا وأنصارا ، وأيِّدُونا وانهَضُوا إلينا ، فالإصلاحَ ما نُريد ، لِتَعودَ الأمة إخوانا ، ومن أحبَّ ذلك وآثَرَه ، فقد أحبَّ الحقَّ وآثَرَه ، ومن أبغض ذلك فقد أبغَضَ الحقَّ وغَمَصَه(١) » . (تاريخ الطبرى ٥ : ١٨٥)

٣٥٩ — كتاب على إلى أهل الكوفة

وروى أنه لما نزل الرَّبذة متوجها إلى البصرة بعث إلى الكوفة المحمدَين : محمد ابن أبى بكر الصديق ، ومحمد بن جعفر بن أبى طالب ، وكتب إليهم :

---

(١) غمصه كضرب وسمع وفرح : احتقره وعابه وتهاون بحقه كاغتمصه .

« من عبد الله عليّ أمير المؤمنين إلى أهل الكوفة ، جَبْهَة الأنصار[١] ، وسَنَام العرب[٢] .

أما بعد ، فإني أخبركم عن أمر عثمان حتى يكون سَمْعُهُ كَعِيانه : إن الناس طعنوا عليه ، فكنت رجلا من المهاجرين أُكْثِرُ استعتابَه[٣] وأُقِلُّ عِتابَه ، وكان طلحة والزبير أهونُ سَيْرِهما فيه الوَجِيفُ[٤] ، وأرْفَقُ حُدَائهما العنيفُ ، وكان من عائشة فيه فَلْتَةُ غَضَب[٥] ، فأُتيح[٦] له قوم فقتلوه ، وبايعني الناس غير مستكرَهين ولا مُجْبَرِين ، بل طائعين مخيَّرين .

---

(١) الأنصار هنا : الأعوان ، وليس المراد بهم بني قيلة (وقيلة بالفتح : أم الأوس والخزرج) وجبهة القوم : سيدهم ، على المثل ، لان جبهة الإنسان أعلى أعضائه ، فالمعنى « سادة الأنصار وأشرافهم » والجبهة أيضاً : الجماعة من الناس ، والمعنى « جماعة الأنصار » والأول أرجح يؤيده ما بعده .

(٢) أى أهل الرفعة منهم ، لأن السنام أعلى أعضاء البعير .

(٣) استعتبه : طلب إليه العتبى (بالضم وهى الرضا) . (٤) وجف الفرس والبعير وجيفا: عدا . والجملة خبر كان ، ومعناها هى وما بعدها أنهما بلغا فى الشدة عليه أقصى حد ،والحداء : سوق الإبل

(٥) جاء فى شرح ابن أبى الحديد م ٢ . ص ٧٧ : « قال كل من صنف فى السير والأخبار : إن عائشة كانت من أشد الناس على عثمان ،حتى إنها أخرجت ثوبا من ثياب رسول الله صلى الله عليه وآله، فنصبته فى منزلها ، وكانت تقول للداخلين إليها : هذا ثوب رسول الله صلى الله عليه وآله لم يبل ، وعثمان قد أبلى سنته ، قالوا : وأول من سمى عثمان نعثلا عائشة ، وكانت تقول : اقتلوا نعثلا ، قتل الله نعثلا » اه — وقد تقدم لك تفسيره فى ص ٣٢٧ — وجاء فى لسان العرب أيضاً : « وفى حديث عائشة : اقتلوا نعثلا، قتل الله نعثلا ، تعنى عثمان ، وكان هذا منها لما غاضبته وذهبت إلى مكة » اه .

وذلك أنه لما اشتد الحصار على عثمان جاءت إليه أم حبيبة زوج رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فضرب الثوار وجه بغلتها ، فقالت : إن وصايا بنى أمية إلى هذا الرجل ، فأحببت أن ألقاه فأسأله عن ذلك ، كيلا تهلك أموال أيتام وأرامل ، قالوا : كاذبة وأهووا لها وقطعوا حبل البغلة بالسيف ، فندت بأم حبيبة، فتلقاها الناس وقد مالت رحالتها فتعلقوابها وأخذوهاوقد كادت تقتل فذهبوا بها إلى بيتها، وتجهزت عائشة خارجة إلى الحج هاربة . وجاءها مروان بن الحكم فقال : يا أم المؤمنين ، لو أقمت كان أجدر أن يراقبوا هذا الرجل ، فقالت : أتريد أن يصنع بى كما صنع بأم حبيبة ثم لاأجد من يمنعنى ؟ لا والله .

فلما قضت حجها لقيها وهى عائدة عبد بن أم كلاب فأنبأها بقتل عثمان وخلافة على ، فقالت:ردونى ردونى فانصرفت إلى مكة وهى تقول :قتل والله عثمان مظلوما والله لأطلبن بدمه ، فقال لها ابن أم كلاب: ولم ؟ فوالله إن أول من أمال حرفه لأنت،ولقد كنت تقولين :اقتلوا نعثلا فقد كفر ، قالت: إنهم استتابوه ثم قتلوه وقد قلت وقالوا ، وقولى الأخير خير من قولى الأول ، فقال لها ابن أم كلاب أبياتا منها :

منك البداء ومنك الغير ومنك الرياح ومنك المطر
وأنت أمرت بقتل الإما م وقلت لنا إنه قد كفر

انظر تاريخ الطبرى ج ٥ ص ١٢٧ ، و ص ١٧٣ (٦) أى قدر له .

واعلموا أن دار الهجرة(١) قد قلَعَتْ بأهلها وقلَعوا بها ، وجاشت(٢) جَيشَ المِرْجل وقامت الفتنة على القطب ، فأسرعوا إلى أميركم ، وبادروا جهاد عدوكم إن شاء الله ، فَحسْبِي بكم إخوانا ، وللدِّين أنصاراً ، فانفرُوا خِفَافًا وَثِقَالاً وَجَاهِدُوا بِأَمْوَالِكُمْ وَأَنفُسِكُمْ فِي سَبِيلِ اللهِ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ(٣) » .

(نهج البلاغة ٢ : ٢ ، وشرح ابن أبي الحديد م ٣ : ص ٢٩١)

٣٦٠ — كتاب علي إلى أبي موسى الأشعري

وروى أيضاً أنه لما نزل الرَّبذة بعث هاشم بن عُتْبة بن أبي وقَّاص إلى أبي موسى الأشعري ـ وهو يومئذ أمير الكوفة ـ ليُنْفِر إليه الناس ، وكتب إليه معه :

« من عبد الله عليّ أمير المؤمنين إلى عبد الله بن قيس :

أما بعد: فإنى قد بعثت إليك هاشم بن عُتْبة، لِتُشْخِصَ إليَّ مَن قِبلَك من المسلمين، ليتوجَّهوا إلى قومٍ نَكَثُوا بَيْعتى ، وقَتَلُوا شِيَعتى ، وأحْدَثوا فى الإسْلامِ هذا الحدَثَ العظيمَ فأشْخِصِ الناسَ إليّ معه حين يَقْدَم عليك ، فإنى لم أُوَلِّك المِصْرَ الذى أنت فيه ، ولم أُقِرَّك عليه، إلاّ لتكون من أعوانى على الحق، وأنصارى على هذا الأمر ، والسلام» .

(شرح ابن أبي الحديد م ٣ : ص ٢٩١ ، وتاريخ الطبرى ٥ : ١٩٨)

٣٦١ — كتاب هاشم بن عتبة إلى علي

وجاء أهل الكوفة أبا موسى يستشيرونه فى الخروج ، فثبَّطهم وقال لهم : أمَّا سبيلُ الآخرة فأَنْ تُقيموا ، وأمَّا سبيل الدنيا فأن تخرجوا ، وأَبَى أن يتبع ما كتب به إليه ، وبعث إلى هاشم يتوعده ويخوِّفه ، فكتب هاشم إلى عليّ :

---

(١) دار الهجرة : المدينة وقلعت بأهلها وقلعوا بها : فارقت أهلها وفارقوها .

(٢) جاشت القدر : غلت ، والمرجل : القدر ، والقطب حديدة تدور عليها الرحى .

(٣) الآية الكريمة « انفرُوا خِفَافًا وَثِقَالاً وَجَاهِدُوا بِأَمْوَالِكُمْ وَأَنفُسِكُمْ فِي سَبِيلِ اللهِ ذَلِكُمْ خَيْرٌ لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ »

« لعبد الله علىّ أمير المؤمنين من هاشم بن عُتبة :

أما بعدُ : يا أمير المؤمنين ، فإنى قَدِمْتُ بكتابك على امرئٍ غالٍ[1] مُشاقٍّ ، بعيدِ الرَّدِّ ، ظاهر الغِلِّ والشَّنَآن ، فتهدَّدنى بالسِّجْن ، وخوَّفنى بالقتل ، وقد كتبت إليك هذا الكتاب مع المُحِلِّ بن خليفة أخى طَيِّئٍ ، وهو من شيعتك وأنصارك ، وعنده عِلْمُ ما قِبَلَنا ، فاسأله عما بَدَالك ، واكتب إلىّ برأيك والسلام » .

(شرح ابن أبى الحديد م ٣ : ص ٢٩١ ، وتاريخ الطبرى ٥ : ١٩٨)

٣٦٢ — كتاب على إلى أبى موسى

فلما جاء عليًّا كتابُ هاشم وعلم ما كان من أمر أبى موسى قال : واللهِ ما كان عندى بمؤتَمَن ولا ناصح ، ولقد أردت عزله ، فأتانى الأشتر فسألنى أن أُقِرَّه ، وذكر أن أهل الكوفة به راضون فأقررته ، وبعث إليه علىّ عبد الله بن عباس ، ومحمد بن أبى بكر وكتب معهما :

« من عبد الله علىّ أمير المؤمنين إلى عبد الله بن قيس :

أما بعدياً بن الحائك . . . . . . فواللهِ إنى كنت لأرى أن بُعْدَك من هذا الأمر الذى لم يجعلك الله له أهلاً ، ولا جَعَل لك فيه نصيباً ، سيمنعك من ردِّ أمرى والانتزاءِ[2] علىَّ ، وقد بعثت إليك ابن عباس وابن أبى بكر فخلِّهما والمِصْرَ وأهلَه ، واعتزِلْ عملنا مَذْءوماً[3] مَدْحُوراً ، فإن فعلت ، وإلاَّ فإنى قد أمرتهما أن ينابذاك على سَواء ، إن الله لا يَهْدِى كَيْدَ الخائنين ، فإذا ظهرا عليك قطَّعاك إرْباً إرْباً[4] ، والسلام على من شكر النعمةَ ، ووفى بالبيعة ، وعَمِلَ برجاء العاقبة » .

وبعث إليه علىٌّ الأشترَ ، فأخرجه من الكوفة .

(شرح ابن أبى الحديد م ٣: ص ١٢٩)

---

(١) غال : وصف من الغلو ، ومشاق : مخالف ، والشنآن : البغض. (٢) انتزى : وثب .
(٣) ذأمه كمنعه : حقره وذمه وطرده وخزاه ، ودحره كمنعه : طرده أيضاً وأبعده .
(٤) الإرب: العضو .

وهذا الكتاب فى رواية مروج الذهب : « اعتزِلْ عملَنا يا بن الحائك مذموماً مدحوراً ، فما هذا أول يومنا منك ، وإن لك فيها لَهَنَاتٍ وَهَنَاتٍ[(١)] » .

(مروج الذهب ٢ : ٧)

وفى تاريخ الطبرى : أن عليًّا بعث الحسن ابنه ، وعمَّار بن ياسر يستنفران له الناس، وبعث قَرَظَة بن كعب الأنصارى أميراً على الكوفة ، وكتب معه إلى أبى موسى : « أما بعدُ : فقد كنت أرى أن تُعْذِب[(٢)] عن هذا الأمر الذى لم يجعل الله عز وجل لك منه نصيباً ، سيمنعك من رَدِّ أمرى ، وقد بعثت الحسن بن علىّ ، وعمار بن ياسر يستنفران الناس ، وبعثت قرظة بن كعب والياً على المصر ، فاعتزِلْ عملنا مذموماً مدحوراً ، فإن لم تفعل فإنى قد أمرته أن ينابذك ، فإن نابذته فظفِرَ بك أن يقطِّعك آراباً » .

فلما قدم الكتاب على أبى موسى اعتزل. (تاريخ الطبرى ٥ : ١٩٨)

٣٦٣ — كتاب على إلى أبى موسى

وروى الشريف الرضىُّ رحمه الله فى نهج البلاغة أن عليا عليه السلام كتب إلى أبى موسى وهو عامله على الكوفة ، وقد بلغه عنه تثبيطه الناس عن الخروج إليه لمَّا ندَبَهم لحرب أصحاب الجمل :

« من عبد الله علىّ أمير المؤمنين إلى عبد الله بن قيس :

أما بعدُ ، فقد بلغنى عنك قولٌ هو لك وعليك ،[(٣)] فإذا قَدِمَ عليك رسولى فارفع ذَيْلك[(٤)] ، واشدُدْ مِئْزَرَكَ ، واخرج من جُحْرِك[(٥)] ، واندُبْ من معك ، فإن حقَّقْتَ

---

(١) جاء فى حديث سطيح «ثم تكون هنات وهنات» أى أمور عظام شدائد . وفى الحديث «ستكون هنات وهنات فمن رأيتموه يمشى إلى أمة محمد ليفرق جماعتهم فاقتلوه» أى شرور وفساد ، واحدها هنت كشمس وقد يجمع على هنوات ، وقيل واحدها هنة كسنة تأنيث هن . (٢) الإعذاب : المنع والكف والترك . (٣) وذلك أن أبا موسى كان يقول لأهل الكوفة : إن عليا إمام هدى وبيعته صحيحة إلا أنه لايجوز القتال معه لأهل القبلة . (٤) هذه الجملة وما بعدها كناية عن التشمير للجهاد .

(٥) كناية فيها غض من أبى موسى واستهانة به ، ولو أراد إعظامه لقال : واخرج من خيسك أو من غيلك كما يقال للأسد ، ولكنه جعله ثعلباً أو ضبا .

فانفُذْ وإن تَفَشَّلْتَ فابعُدْ[1] ، وآيْمُ اللهِ لَتُؤْتَيَنَّ حيثُ أنت[2] ، ولا تُترك حتى يُخلَطَ زُبْدُك بخاثرك[3] ، وذائبُكَ بجامدك ، وحتى تُعْجَلَ عن قِعْدتك ، وتَحْذَرَ مَن أمامَك كحَذَرك مَنْ خَلفَك، وما هى بالهُوَيْنى[4] التى ترجو ، ولكنها الداهية الكبرى يُرْكَبُ جَمَلُها ، ويُذَلّ صَعْبُها ، ويُسَهَّل جَبَلُها ، فاعْقِلْ[5] عَقْلَك ، واملِكْ أمرك ، وخذ نصيبَك وحظَّك ، فإن كرِهْتَ فتَنَحَّ إلى غير رُحْب[6] ولا فى نَجَاة ، فبالحَرَى[7] لتُكْفَيَنَّ وأنت نائم حتى لايقالَ أينَ فلان ، واللهِ إنه لَحَقٌّ مع مُحِقٍّ ، ما يُبالِى ماصَنَعَ الملْحِدون ، والسلام » . (نهج البلاغة ٢ : ٨٨)

٣٦٤ — كتاب على إلى أهل الكوفة

ورُوِى أنه لما أبطأ ابن عباس وابن أبى بكر عن على عليه السلام ولم يدر ماصَنَعا رَحَل عن الرَّبَذة إلى ذى قار . فلما نزلها بعث إلى الكوفة ابنه الحسن وعمَّار بن ياسر وزيد بن صُوحان وقيس بن سعد بن عبادة ، ومعهم كتاب إلى أهل الكوفة ، وفيه :

« من عبد الله على أمير المؤمنين إلى من بالكوفة من المسلمين ، أما بعد فإنى خرجْتُ مَخرَجى هذا إمّا ظالماً وإما مظلوما ، وإما باغيا وإما مَبْغِيًّا علىّ ، فأَنْشُدُ الله

---

(١) أى إن أمرك معى مبنى على الشك ، فإن حققت لزوم طاعتك لى فانفذ وسر إلى ، وإن أقمت على الشك فاعتزل العمل ، وأراد بتفشلت : فشلت أى ضعفت وجبنت وتراخيت (وتفشل الماء : سال).

(٢) أى إن أقمت على الاسترابة والتثبيط وقولك لأهل الكوفة : لا يحل لكم سل السيف لا مع على ولا مع طلحة والزموا بيوتكم واكسروا سيوفكم ، ليأتينكم أهل البصرة مع طلحة ، أو لنأتينكم نحن بأهل المدينة . (٣) الخاثر : اللبن الغليظ ، وأخثرت الزبد تركته خاثرا وذلك إذا لم تذبه ، وفى المثل : « مايدرى أيخثر أم يذيب » يضرب للمتحير المتردد فى الأمر . وأصله أن المرأة تسلأ السمن (أى تذيبه) فيختلط خاثره برقيقه فلا يصفو ، فتبرم بأمرها فلا تدرى أتوقد تحته حتى يصفو ؟ وتخشى إن هى أوقدت أن يحترق ، فتحار لذلك . (٤) القعدة : هيئة القعود ، والمعنى : ليشتدن عليك الأمر حتى يحال بينك وبين جلستك فى الولاية . (٥) الهوينى تصغير الهونى بالضم مؤنث أهون .

(٦) أى فقيده بالعزيمة ، ولا تدعه يذهب مذاهب التردد من الخوف.

(٧) رحب المكان رحبا بالضم : أى اتسع ، فهو رحب بالفتح .

(٨) يقال : بالحرى أن يكون كذا : أى جدير وخليق ، والمعنى فجدير أنا نكفيك القتال ونظفر وأنت نائم خامل لا يسأل عنك .

رجلا بَلَغَهُ كتابى هذا لمَّا(١) نَفَر إلىّ ، فإن كنت مظلوما أعاننى ، وإن كنتُ ظالماً استَعْتَبَنى ، والسلام » .

(شرح ابن الحديد م : ٣ ص ٢٩٢ ، ونهج البلاغة ٢ : ٨٢)

٣٦٥ — كتاب السيدة عائشة إلى السيدة حفصة بنت عمر

ولما نزل على عليه السلام ذا قار ، كتبت السيدة عائشة إلى السيدة حَفْصَة بنت عمر :

« أما بعد ، فإنى أُخْبِرُكِ أن عليا قد نزل ذا قار ، وأقام بها مرعوبا خائفاً، لِمَا بَلَغه من عُدَّتنا وجماعتنا ، فهو بمنزلة الأشْقَر ، إن تَقَدَّمَ نُحِر ، وإن تأخر عُقِر(٢) » .

(شرح ابن أبى الحديد م ٣ : ص ٢٩٢)

٣٦٦ — كتاب على إلى طلحة والزبير

ولما تَعَبَّأ القوم للقتال كتب علىّ عليه السلام إلى طلحة والزبير :

« أما بعدُ : فقد علِمْتُمَا ـ وإن كتمْتُمَا ـ أنّى لم أُرِدِ الناس حتى أرَادونى(٣) ، ولم أبايِعْهم حتى بايَعُونى ، وإنكما لِمَّن أرادنى وبايَعَنى ، وإن العامَّة لم تبايِعْنى لسُلْطانٍ غالبٍ ، ولا لعَرَض حاضرٍ(٤) ، فإن كنتما بايعتمانى طائِعَيْن فارجعا وتُوبا إلى الله من

(١) لما هنا بمعنى إلا كقوله تعالى « إنْ كُلُّ نَفْسٍ لَمَّا عَلَيْهَا حَافِظٌ » .

(٢) الشقرة (بالضم) فى الخيل : حمرة صافية يحمر معها العرف والذنب ، والعرب تقول : أكرم الخيل وذوات الخير منها شقرها ، وفى الأمثال « كالأشقر إن تقدم نحر ، وإن تأخر عقر » وهو مثل يضرب لما يكره من وجهين ، والعرب تتشاءم من الأفراس بالأشقر ، قالوا : كان لقيط بن زرارة يوم جبلة على فرس أشقر ، فجعل يقول : أشقر ، إن تتقدم تنحر ، وإن تتأخر تعقر ، وذلك أن العرب تقول شقر الخيل سراعها ، وكمتها صلابها ، فهو يقول لفرسه : يا أشقر إن جريت على طبعك فتقدمت إلى العدو قتلوك ، وإن أسرعت فتأخرت منهزما أتوك من ورائك فعقروك ، فاثبت والزم الوقار وانف عنى وعنك العار — انظر مجمع الأمثال للميدانى ج ٢ : ص ٥٨ .

(٣) أى لم أرد الولاية عليهم حتى أرادوا هم ذلك منى .

(٤) أى لم تبايعنى خوفا من قوة قهرتم بها ، ولا طمعا فى مال حاضر فرقته عليهم ، وفى رواية ابن أبى الحديد « ولا لحرص حاضر » والمعنى واحد .

قريب ، وإن كنتما بايعتمانى كارِهَيْن ، فقد جعلتما لى عليكما السبيلَ بإظهاركما الطاعةَ وإسرارِكما المعصيةَ ، ولعمرى ما كنتما بأحَقِّ المهاجرين بالتَّقِيَّة والكِتْمان ، إنك يا زبير لَفارسُ رسول الله صلى الله عليه وسلم وحَوَارِيُّه ، وإنك يا طلحة لَشَيْخُ المهاجرين . وإنَّ دَفْعَكما هذا الأمرَ من قبل أن تدخُلا فيه ، كان أوسعَ عليكما من خروجكما منه بعد إقراركما به .

وقد زعمتما أنى قتلتُ عثمان ، فبينى وبينكما مَن تخلَّفَ عنى وعنكما من أهل المدينة[1] ، ثم يُلزَم كلُّ امرئ بقدر ما احْتَمَل ، وزعمتما أنى آويتُ قَتَلة عثمان ، فهؤلاء بنو عثمان فلْيَدْخلوا فى طاعتى ، ثم يخاصِموا إلىَّ قَتَلَةَ أبيهم ، وما أنتما وعثمانَ ، إن كان قُتِل ظالما أو مظلوماً ؟ ولقد بايعتمانى وأنتما بين خَصْلتين قبيحتين : نَكْثِ بَيْعتكما ، وإخراجكما أمَّكما . فارجِعا أيها الشيخانِ عن رأيكما ، فإن الآن أعظم أمركما العارُ ، من قبل أن يتجمع العارُ والنارُ ، والسلام » .

(نهج البلاغة ٢ : ٨٠ والإمامة والسياسة ١ : ٥٥)

٣٦٧ – كتاب على إلى السيدة عائشة

وكتب إلى السيدة عائشة :

« أما بعدُ : فإنك خرجتِ غاضبةً لله ولرسوله تطلبين أمراً كان عنك موضوعًا ، ما بالُ النساءِ والحرب والإصلاح بين الناس ؟ تطلبين بدم عثمان، ولعمرى لَمَن عرَّضَك للبلاء ، وحَمَلك على المعصية أعظمُ إليكِ ذَنباً من قتلة عثمان ، وما غضِبْتِ حتى أُغضبتِ ، وما هِجْتِ حتى هيّجتِ ، فاتَّقِى الله وارجعى إلى بيتك » .

(الإمامة والسياسة ١ : ٥٥)

---

(١) أى جعلت الحكم بينى وبينكما من تخلف عن نصرى ونصركما من أهل المدينة كمحمد بن مسلمة وأسامة بن زيد وعبد الله بن عمر وغيرهم .

٣٦٨ — رد طلحة والزبير على عليّ

فأجابه طلحة والزبير :

« إنك سرتَ مَسيراً له ما بعدَه ، ولستَ راجعاً وفى نفسك منه حاجة ، فامضِ لأمرك ، أما أنتَ فلستَ راضيًا دون دخولنا فى طاعتك ، ولسنا بداخلين فيها أبداً ، فاقضِ ما أنت قاضٍ » . (الإمامة والسياسة ١ : ٥٥)

٣٦٩ — رد السيدة عائشة على عليّ

وكتبت السيدة عائشة :

« جَلَّ الأمْرُ عن العِتَاب ، والسلام » (الإمامة والسياسة ١ : ٥٥)

٣٧٠ — كتاب على إلى عامله بالكوفة

ونَشِب القتال بينه وبين أصحاب السيدة عائشة فى وقعة الجمل المشهورة — فى جمادى الآخرة سنة ٣٦ هـ — وكانت له عليهم الغَلَبة ، وكتب بالفتح إلى عامله بالكوفة .

« من عبد الله عليّ أمير المؤمنين :

أما بعدُ : فإنا التقينا فى النصف من جمادى الآخرة بالخُرَيبة[١] فأعطاهم الله عز وجل سُنَّة المسلمين ، وقُتِلَ منا ومنهم قَتْلَى كثيرة ، وأُصيب ممن أُصيب منا ثُمَامة بن المُثَنَّى ، وهند بن عمرو ، وعِلْباء بن الهَيْثَمِ ، وسَيْحان وزيد ابنا صُوحان ومحدوج » .

وكتب عبد الله بن رافع . (تاريخ الطبرى ٥ : ٢٢٤)

---

(١) فناء من أفنية البصرة ، ويسمى البصيرة الصغرى .

٣٧١ — كتاب الأحنف بن قيس إلى قومه

وسار عليّ عليه السلام عن البصرة بعد أن أمَّر عليها عبد الله بن عباس ، وولّى زياد بن أبيه الخراجَ وبيت المال[١] ، فلما قَدِم الكوفة ، وأراد المسير إلى الشأم ، قام إليه الأحنف بن قيس — وكان لم يَشْهَد وقعة الجمل مع أحد الفريقين — فكان فيما قال : يا أمير المؤمنين إن يكُ بنو سعد لم ينصروك يومَ الجمل ، فلن ينصروا عليك غيرك ، وإن عشيرتنا بالبصرة ، فلو بعثنا إليهم فقَدِموا علينا فقاتَلْنا بهم العدو ، وَأدركوا اليوم ما فاتهم أمس ، ولنا من قومنا عَدَد ، ولا نَلْقَى بهم عدوًّا أعْدَى من معاوية ، ولا نَسُدُّ بهم ثغراً أشدَّ من الشأم ، فقال له على : اكتب إلى قومك .

فكتب الأحنف إلى بنى سعد :

« أما بعدُ : فإنه لم يبق أحد من بنى تَميم إلا وقد شقُوا برأى سيدهم غيركم ، وعَصَمَكم الله برأيي حتى نلتم ما رجوتم ، وأمِنْتم مما خِفْتم ، فأصبحتم منقطعين عن أهل البَلاء ، لاحقين بأهل العافية .

وإنى أخبركم أنا قدِمْنا على تميم بالكوفة ، فأخذوا علينا بفضلهم مرتين مَسِيرهم إلينا مع عليّ ، وتهيُّئهم المسير إلى الشأم ، ثم انحشرنا إليهم ، فصرنا كأنا لا نُعْرَفُ إلا بهم ، فأقْبِلوا إلينا ولا تتَّكِلُوا علينا ، فإن لهم أعدادنا من رؤسائهم ، فلا تبطئوا عنا ، فإن من تأخير العطاء حِرْماناً ، ومن تأخير النصر خِذْلانا ، بِحِرْمان العطاء القِلّة ،

(١) كان زياد ممن اعتزل ولم يشهد وقعة الجمل ، فلما ظفر على أخذ البيعة على أهل البصرة ، وجاءه عبد الرحمن بن أبي بكر فى المستأمنين مسلما بعد ما فرغ على من البيعة . فقال له على : وعمك المتربص المتقاعد بى ؟ فقال : والله يا أمير المؤمنين إنه لك لواد ، وإنه على مسرتك لحريص ، ولكنه بلغنى أنه يشتكى ، فأعلم لك علمه ثم آتيك ، وكتم عليا مكانه حتى استأمره ، فأمره أن يعلمه فأعلمه ، فقال على : امش أمامى فاهدنى إليه ففعل ، فلما دخل عليه قال : تقاعدت عنى وتربصت ، ووضع يده على صدره وقال: هذا وجع بين ، فاعتذر إليه زياد ، فقبل عذره واستشاره ، وأراده عليّ على البصرة فقال : رجل من أهل بيتك يسكن إليه الناس ، فإنه أجدر أن يطمئنوا وينقادوا وسأكفيكه ، وأشير عليه ، فأمر على ابن عباس على البصرة وولى زيادا الخراج وبيت المال ، وأمر ابن عباس أن يسمع منه .

وخِذْلان النصر الإبطاء ، ولا تنقضِى الحقوق إلا بالرضا ، وقد يرضى المُضْطَرُّ بدون الأَمل » .

فلما أتى كتاب الأحنف إلى بنى سعد ، ساروا بجماعتهم حتى نزلوا الكوفة .

(الإمامة والسياسة ١ : ٦٦)

٣٧٢ — كتاب على إلى جرير بن عبد الله البجلى

وكتب مع زُفَر بن قيس إلى جَرير بن عبد الله البَجَلِىِّ ـ وكان جرير على ثَغْر هَمَذان ، كان استعمله عليه عثمان ـ :

« أما بعدُ : فَإِنَّ اللهَ لَا يُغَيِّرُ مَابِقَوْمٍ حَتَّى يُغَيِّرُوا مَا بِأَنْفُسِهِمْ ، وَإِذَا أَرَادَ اللهُ بِقَوْمٍ سُوءًا فَلاَ مَرَدَّ لَهُ ، وَمَا لَهُمْ مِنْ دُونِهِ مِنْ وَالٍ ، ثم إنى أخبرك عنا وعمن سرنا إليهم من جمع طلحة والزبير عند نَكْثِهِما بَيْعتَهما ، وما صنعا بعامِلى عثمان ابن حُنيف : إنى نهضتُ من المدينة بالمهاجرين والأنصار ، حتى إذا كنت ببعض الطريق بعثتُ إلى الكوفة الحسن ابنى وعبد الله بن العباس ابن عمى ، وعَمَّار بن ياسر وقيس بن سعد بن عُبادة ، فاستنفرتُهم بحق الله وحق رسوله ، فأجابوا وسرت بهم ، حتى نزلت بظهر البصرة ، فأَعْذَرتُ فى الدعاء ، وأَقَلْتُ العَثْرةَ ، وناشدتهم عَقْدَ بيعتهم ، فأَبَوا إلا قتالى ، فاستعنت بالله عليهم ، فقُتِل من قتل ، وولَّوا مُدْبِرين إلى مصرهم ، فسألونى ما كنت دعوتهم إليه قبل اللِّقاء ، فقبلت العافية ، ورفعت عنهم السيف ، واستعملت عليهم عبد الله بن عباس ، وسرت إلى الكوفة ، وقد بعثت إليك زُفَر ابن قيس ، فاسأله عما بدا لك ، والسلام » .

(الإمامة والسياسة ١ : ٦٩ : وشرح ابن أبى الحديد م ١ : ص ٢٤٦)

٣٧٣ — كتاب على إلى الأشعث بن قيس

وكتب مع زياد بن كعب إلى الأشعث بن قيس ـ والأشعث يومئذ بأذْرَبيجان ، كان استعمله عليها عثمان ـ :

« من عبد الله علىّ أمير المؤمنين إلى الأشعث بن قيس .

أما بعدُ : فلولا هَناتٌ وهَنَاتٌ[1] كانت منك ، لكنت أنت المقدم فى هذا الأمر قَبْل الناس ، ولعلّ أمْرَكَ يحملُ بعضُه بعضاً إن اتقيتَ الله عزّ وجل ، وقد كان من بَيْعة الناس إياى ما قد علمت ، وقد كان طلحة والزبير أول من بايَعَنى ثم نَقَضَا بيعتى على غير حَدَث ، وأخرجا أمّ المؤمنين فساروا إلى البصرة ، وسرت إليهم فيمن بايعنى من المهاجرين والأنصار ، فالتقينا فدعوتُهم إلى أن يرجعوا إلى ماخرجوا منه فأبَوا فأبْلَغتُ فى الدعاء ، وَأحسنتُ فى البُقْيا ، وأمرتُ أن لا يُذَفَّفَ[2] على جريح ، ولا يُتّبَع منهزم ، ولا يُسْلَب قتيل ، ومن ألقى سلاحه ، وأغلق بابه فهو آمن .

وإن عملك ليس لك بِطُعْمة[3] ، ولكنه فى عنقك أمانة ، وأنت مُسْتَرْعًى لمن فوقك ، ليس لك أن تفتاتَ فى رَعية ، ولا تُخاطِرَ إلا بِوَثيقة[4] ، وفى يديك مال من

---

(١) انظر تفسيرها فى ص ٣٣٠ وذلك أن الأشعث بن قيس الكندى كان ممن ارتد بعد النبى صلى الله عليه وسلم ، فلما سير أبو بكر الجنود إلى اليمن أخذوا الأشعث أسيرا فأحضر بين يديه ، فقال له : ماذا ترانى أصنع بك ؟ قال: تمن على فتطلق إسارى وتقيلنى عثرتى وتقبل إسلامى وترد على زوجتى (وقد كان خطب أخت أبى بكر أم فروة بنت أبى قحافة ، مقدمه على رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فزوجه وأخرها إلى أن يتقدم الثانية ، فمات رسول الله وفعل الأشعث ما فعل فخشى أن لا ترد عليه) تجدنى خير أهل بلادى لدين الله ، فقال أبو بكر: قدفعلت ، وتجافى له عن دمه وقبل منه ورد عليه أهله . وقال : انطلق فليبلغنى عنك خير، وقد ولدت له أم فروة ابنه محمد بن الأشعث ،انظر تاريخ الطبرى ج٣ : ص٢٧٥ وأسد الغابة ج ١ : ص ٩٨ . (٢) ذفف على الجريح : أجهز عليه وحرر قتله .

(٣) الطعمة : المأكلة ، وتفتات : أى تفعل ما تفعل بغير إذن منى ، وهو افتعال من الفوت : أى السبق ، كأنه يفوت آمره فيسبقه إلى الفعل قبل أن يأمره .

(٤) أى إلا بعد أن تتوثق وتحتاط للأمر .

مال الله عز وجل ، وأنت من خُزَّانى عليه حتى تسلِّمَه إلىَّ إن شاء الله ، ولعلّى أن لا أكون شَرَّ وُلَاتِكَ لك والسلام » .

(شرح ابن أبى الحديد م : ٣ ص ٢٩٩ ، ونهج البلاغة ٢ : ٤ ، والإمامة والسياسة ١ : ٧٠ والعقد الفريد : ٢ ص ٢٣٢)

٣٧٤ — كتاب جرير إلى الأشعث

وكتب جرير إلى الأشعث :

« أما بعد : فإنه أتتنى بَيْعة علىّ فقبِلْتُها ، ولم أجد إلى دفعها سبيلًا ، وإنى نظرت فيما غاب عنى من أمر عثمان فلم أجده يَلْزَمنى ، وقد شَهِدَ المهاجرون والأنصار فكان أوثق أمرهم فيه الوقوف ، فاقْبَلْ بيعته ، فإنك لا تنقلب إلى خير منه ، واعلم أن بَيْعة علىّ خيرٌ من مصارع أهل البصرة ، وقد تُحْلَب الناقة الضَّجور ، ويُحْلس العَوْدُ والبعير الدَّبِر[1] ، فانظر لنفسك ، والسلام » .

وأخذ جرير والأشعث البيعة لعلىّ على مَنْ قِبَلهما من الناس وانصرفا إليه .

(الإمامة والسياسة ١ : ٧١ وشرح ابن أبى الحديد م ١ : ص ٢٤٧)

٣٧٥ — كتاب على إلى معاوية

وروى الشريف الرضى أن عليًّا عليه السلام كتب فى أولى ما بويع له بالخلافة إلى معاوية :

« من عبد الله علىّ أمير المؤمنين إلى معاوية بن أبى سفيان :

أما بعدُ : فقد علمْتَ إعذارى فيكم[2] ، وإعراضى عنكم ، حتى كان مالا بُدَّ منه ،

---

(١) الحلس كقرد وسبب : كساء على ظهر البعير تحت الرحل، وحلس البعير كضرب ونصر وأحلسه: إذا جعل عليه الحلس، أى هيأه للركوب ، والمعنى هنا : وقد يركب ، والعود : الجمل المسن. والدبر : الذى أصابه الدبر بالتحريك وهو قرحة الدابة، وفى الأصل « ويجلس العود على البعير الدبر » وهو تحريف .

(٢) الكتاب لمعاوية والخطاب لبنى أمية جميعا ، وإعذارى فيكم : أى كونى ذا عذر ، حتى كان مالابد منه يعنى قتل عثمان.

ولا دَفعَ له ، والحديثُ طويل ، والكلامُ كثير ، وقد أدبَرَ ما أدْبرَ ، وأقبَل ما أقبَلَ ، فبايِـعْ مَن قِبلَك ، وأقبِلْ إلىَّ فى وفدٍ من أصحابك والسلام » .

(نهج البلاغة ٢ : ٩٨)

* * *

وروى ابن أبى الحديد أن عليًّا عليه السلام لما بويع كتب إلى معاوية :

« أما بعد : فإن الناس قتلوا عثمان عن غير مَشُورة منى ، وبايعونى عن مشورة منهم واجتماع ، فإذا أتاك كتابى ، فبايع لى ، وأوفِدْ إلىَّ أشراف أهل الشأم قِبلَك » .

(شرح ابن أبى الحديد م ١ : ص ٧٧)

* * *

وروى ابن قتيبة فى الإمامة والسياسة أنه كتب إليه :

أما بعد : فقد ولَّيتك ما قبلك من الأمر والمال ، فبايِـعْ مَن قِبلك ، ثم اقْدَمْ إلىَّ فى ألف رجل من أهل الشأم » . (الإمامة والسياسة ١ : ٤٠)

٣٧٦ — رد معاوية على علىّ

فلما أتى معاوية كتاب على دعا بطُومار[1] ، فكتب فيه :

« من معاوية إلى علىّ ، أما بعد : فإنه

ليس بينى وبين قيس عتابُ غيرُ طَعْنِ الكُلَى وضربِ الرِّقاب »

(الإمامة والسياسة ١ : ٤٠)

٣٧٧ — كتاب علىّ إلى معاوية

وروى ابن قتيبة أيضاً أن عليًّا عليه السلام لما فرَغ من وقعة الجمل ، وبايع له أهل العراق ، واستقام له الأمر بها ، كتب إلى معاوية :

---

(١) الطومار : الصحيفة .

« أما بعدُ : فإن القضاء السَّابِقَ ، والقَدَر النافِذ، ينزل من السماء يَقْطُر كالمَطَر[1]، فتَمْضِى أحكامه عزّ وجل، وتَنفذُ مَشِيئته بغير تَحَابِّ المخلوقين ، ولا[2] رِضاَ الآدَمِيِّين، وقد بَلَغَك ما كان من قتل عثمان رحمه الله ، وبَيْعةِ الناس عامَّةً إياى ، ومَصَارِع الناكثين لى ، فادخُلْ فيما دخل الناس فيه ، وإلاَّ فأنا الذى عرَفْتَ ، وحَوْلِى مَن تعلَمُه ، والسلام » . (الإمامة والسياسة ١: ٦٤)

٣٧٨ — رد معاوية على علىّ

فكتب إليه معاوية كتابا عنوانه « من معاوية إلى على » وداخله :

« بسم الله الرحمن الرحيم » لا غيرُ .

فعرف على أن معاوية محارِبٌ له ، وأنه لا يُجيبه إلى شىء مما يريد .

(الإمامة والسياسة ١ : ٦٤)

٣٧٩ — كتاب على إلى معاوية

ولما قَدِم جَرِير بن عبد الله البَجَلى على علىّ عليه السلام ـ بعد وقعة الجمل ـ وجّهه علىّ إلى معاوية فى أخذ بيعته ، وكتب معه كتابا إليه :

« سلام عليك ، أما بعد فإن بَيْعتى بالمدينة لَزِمَتك وأنت بالشأم ، لأنه بايعنى القوم الذين بايَعوا أبا بكر وعمر وعثمان على ما بايعوهم عليه ، فلم يكن الشاهِدِ أن يختار ، ولا الغائب أن يَرُدَّ ، وإنما الشُّورى للمهاجرين والأنصار ، فإذا اجتمعوا على رجل وسَمَّوه إماما ، كان ذلك لِلهِ رِضاً ، وإن خرج عن أمرهم خارج بطعن أو بدعة ردوه إلى ما خرج عنه ، فإن أَبَى قاتلوه على اتباعه غيرَ سبيل المؤمنين ، وَوَلَّاهُ اللهُ ما تَوَلَّى وأصْلاه جَهَنَّمَ وَساءَتْ مَصِيراً .

---

(١) فى الأصل « ويقطر المطر » وهو تحريف. (٢) فى الأصل « إلا » وهو تحريف أيضا.

وإن طلحة والزبير بايعانى ، ثم نَقَضا بيعتهما ، وكان نَقْضُهما كردَّتهما ، فجاهدتهما بعد ما أعذرتُ إليهما ، حتى جاء الحقُّ وَظَهَرَ أمْرُ اللهِ وَهُمْ كارِهُونَ ، فادخل فيما دخل فيه المسلمون ، فإنَّ أحبَّ الأمور إلىَّ قَبولك العافية ، إلا أن تتعرَّضَ للبَلاء ، فإن تعرضتَ له قاتلتُك واستعنتُ بالله عليك ، وقد أكثرتَ فى قَتَلة عثمان . فإن أنت رجعت عن رأيك وخِلافك ، ودخلتَ فيما دخل فيه المسلمون ، ثم حا كمتَ القومَ إلىّ ، حَمَلْتُك وإياهم على كتاب الله ، وأما تلك التى تريدها فهى خُدْعة الصبى عن اللبن(١)

ولعمرى يا معاوية لئن نظرتَ بعقلك دون هواك ، لَتَجِدَنّنِى أبْرَأ الناس من دم عثمان ، ولَتَعْلَمَنَّ أنى كنت فى عُزْلة عنه ، إلا أن تَتَجَنّى(٢) ، فَتَجَنَّ ما بدا لك .

واعلم أنك من الطُّلَقاء(٣) الذين لا تَحِلُّ لهم الخلافة ، ولا تُعقدُ معهم الإمامة ، ولا يدخلون فى الشُّورى ، وقد بعثتُ إليك وإلى مَن قِبَلك جَرِيرَ بن عبد الله البَجَلىّ ، وهو من أهل الإيمان والهجرة ، فبايِعْه ، ولا قوّة إلا بالله » .

(العقد الفريد ٢ : ٢٣٣ ، ونهج البلاغة ٢ : ٥ ، وشرح ابن أبى الحديد م ٣ ص ٣٠٠ ، م ١ : ص ٢٤٨ ، والإمامة والسياسة ١ : ٧١)

٣٨٠ — كتاب معاوية إلى عمرو بن العاص

« وقَدِم جَرِير على معاوية بكتاب علىّ ، فلما أبطأ عليه معاوية برأيه ، استحثه بالبيعة ، فقال له معاوية : يا جرير إن البيعة ليست بخُلْسة ، وإنه أمْرٌ له ما بعده ،

---

(١) وذلك ما تصنعه له أمه فى أول فطامه مما يكره إليه الثدى ويلهيه عنه . وفى الحديث « الحرب خدعة » مثلثة وبضم ففتح . روى بهن جميعا : أى تنقضى بخدعة .

(٢) تجنى عليه : ادعى عليه ذنبا لم يفعله .

(٣) لما فتح رسول الله صلى الله عليه وسلم مكة سنة ثمان دخل الكعبة وجلس فى المسجد والناس حوله فقال : يامعشر قريش ما تظنون أنى فاعل بكم ؟ قالوا: خيرا ، أخ كريم وابن أخ كريم، فقال :اذهبوا فأنتم الطلقاء ، وكان معاوية ممن أسلم فى هذا اليوم .

فأبلِعني رِيقي ، ودعا أهل ثِقَته فاستشارهم ، فقال له أخوه عُتْبة : استعِن على هذا الأمر بعمرو بن العاص ، فإنه من قد عَرَفْتَ ، فكتب معاوية إلى عمرو ، وهو بفِلَسْطِين(١) :

---

(١) فتح عمرو بن العاص مصر في خلافة عمر بن الخطاب ، وولاه عمر عليها ، وبقي كذلك واليا عليها أول خلافة عثمان ، ثم إن عثمان عزله عن الخراج واستعمله على الصلاة ، واستعمل على الخراج عبدالله ابن سعد بن أبي سرح — وهو أخو عثمان من الرضاع — ثم جمعهما لعبد الله بن سعد وعزل عمرا ، فلما قدم عمرو المدينة جعل يطعن على عثمان ، فأرسل إليه يوما عثمان خاليا به ، فقال : يابن النابغة ، ما أسرع ماقمل جربان جبتك (جربان القميص بضم الجيم والراء وكسرهما وتشديد الباء : جيبه) إنما عهدك بالعمل عاما أول ، أتطعن علي وتأتيني بوجه وتذهب عني بآخر ؟ والله لولا أكلة ما فعلت ذلك ، فقال عمرو : إن كثيرا مايقول الناس وينقلون إلى ولاتهم باطل ، فاتق الله يا أمير المؤمنين في رعيتك ، فقال عثمان : والله لقد استعملتك على ظلعك وكثرة القالة فيك (الظلع في الأصل غمز البعير في مشيه ، والمراد : على ما فيك من عيب وميل) فقال عمرو : قد كنت عاملا لعمر بن الخطاب ففارقني وهو عني راض ، فقال عثمان: وأنا والله لو آخذتك بما آخذك به عمر لاستقمت ، ولكني لنت لك فاجترأت علي . . . — فخرج عمرو من عند عثمان وهو محتقد عليه، يأتي عليا مرة فيؤلبه على عثمان، ويأتي الزبير مرة فيؤلبه على عثمان ، ويأتي طلحة مرة فيؤلبه على عثمان ، ويعترض الحاج فيخبرهم بما أحدث عثمان .

ولما قصد الثوار إلى المدينة أخرج لهم عثمان عليا فكلمهم فرجعوا عنه ، وخطب عثمان الناس فقال « إن هؤلاء القوم من أهل مصر كان بلغهم عن إمامهم أمر ، فلما تيقنوا أنه باطل ما بلغهم عنه رجعوا إلى بلادهم » فناداه عمرو بن العاص من ناحية المسجد : اتق الله ياعثمان فإنك قد ركبت نهابير (جمع نهبورة بالضم : أي مهلكة) وركبناها معك ، فتب إلى الله نتب ، فناداه عثمان . وإنك هناك يابن النابغة ! قملت والله جبتك منذ تركتك من العمل .

فلما كان حصر عثمان الأول خرج عمرو من المدينة حتى انتهى إلى أرض له بفلسطين يقال لها السبع فنزل بها ، وكان يقول : أنا أبو عبد الله إذا حككت قرحة نكأتها ، (نكأ القرحة كنمع : قشرها قبل أن تبرأ فندبت) والله إن كنت لألقى الراعي فأحرضه عليه .

فلما بلغه مقتل عثمان ، قال : أنا أبو عبد الله قتلته وأنا بوادي السباع ، من يلي هذا الأمر بعده ؟ إن يله طلحة فهو فتى العرب سيبا (أي عطاء) وإن يله ابن أبي طالب فلا أراه إلا سيستنظف الحق (استنظف الشيء : أخذه كله ، واستنظف الوالي ماعليه من الخراج : استوفاه) وهو أكره من يليه إلي ، فبلغه أن عليا قد بويع له ، فاشتد عليه وتربص لينظر ما يصنع الناس ؟ ثم نمي إليه أن معاوية بالشأم يأبى أن يبايع عليا ،وأنه يعظم قتل عثمان ويحرض على الطلب بدمه، فاستشار ابنيه عبد الله ومحمد في الأمر وقال :ماتريان؟ أما علي فلا خير عنده ، وهو رجل يدل بسابقته ، وهو غير مشركي في شيء من أمره . فقال له عبد الله : أرى أن تكف يدك وتجلس في بيتك حتى يجتمع الناس على إمام فتبايعه ،وقال له محمد: أنت ناب من أنياب العرب ، فلا أرى أن يجتمع هذا الأمر وليس لك أي صوت ولا ذكر ، فرجح لديه أن يلحق بمعاوية ، وكتب إليه يهزه ويشير عليه بالمطالبة بدم عثمان، وكان فيما كتب به إليه : « ما كنت صانعا إذا قشرت من كل شيء تملكه ؟ فاصنع ما أنت صانع » فبعث إليه معاوية ، فسار إليه .

« أما بعدُ : فقد كان من أمْرِ علي وطلحة والزبير ما قد بلغك ، وقد سقط إلينا مَرْوان بن الحكم في نفر(١) من أهل البصرة ، وقَدِم علينا جَرير بن عبد الله في بيعة عليّ ، وقد حَبَسْتُ(٢) نفسي عليك ، فاقْدَم على بركة الله أذا كِرْك أموراً لا تَعْدَم صلاح مَغَبَّتها إن شاء الله »

(الإمامة والسياسة ١ : ٧٢ ، وشرح ابن أبي الحديد م ١ : ص ١٣٦ وص ٢٤٩)

= وذكروا أنه قال له : ياعمرو اتبعني ، قال : لمــاذا ؟ للآخرة ؟ فوالله ما معك آخرة ، أم للدنيا ؟ فوالله لا كان ، حتى أكون شريكك فيها ، قال : فأنت شريكي فيها ، قال : فاكتب لي مصر وكورهــا طعمة ، فكتب له ، وكتب في آخر الكتاب : « وعلى عمرو السمع والطاعة » قال عمرو : اكتب إن السمع والطاعة لاينقضان من شرطه شيئا ، قال معاوية : لا ينظر الناس إلى هذا،قال عمرو : حتى تكتب، فكتب، مايجد بدا من كتابتها،وقيل إنه كتب عليه « ولا ينقض شرط طاعة » فقال عمرو :ياغلام!كتب « ولا تنقض طاعة شرطا » وقال عمرو في ذلك :

معاوى لا أعطيك ديني ولم أنل ... به منك دنيا ، فانظرن كيف تصنع
فإن تعطني مصرا ، فأربح صفقة ... أخــذت بها شيخا يضر وينفع

(انظر تاريخ الطبري ج ٥ : ص ١٠٨ — ١١١ وص ٢٣٤ ، ومروج الذهب ٢ : ٤ ، والعقــد الفريد ٢ : ٢٣٨ ، والكامل للمبرد ١ : ١٥٥ ، وشرح ابن أبي الحديد م ١ : ص ١٣٧) .

أما قول عثمان لعمرو : « يابن النابغة » فشتم له ، والنابغة أم عمرو ، قال ابن أبي الحديد في شرحه (م ٢ : ص ١٠٠): « فأما النابغة فقد ذكر الزمخشري في كتاب ربيع الأبرار قال : كانت النابغة أم عمرو بن العاص أمة لرجل من عنزة (بالتحريك) فسبيت ، فاشتراها عبد الله بن جدعان التيمي بمكة فكانت بغيا ثم أعتقها ، فوقع عليها أبو لهب بن عبد المطلب وأمية بن خلف الجمحي وهشام بن المغيرة المخزومي وأبو سفيان بن حرب والعاص بن وائل السهمي في طهر واحد ، فولدت عمرا ، فادعاه كلهم فحكمت أمه فيه ، فقالت : هو من العاص بن وائل ، وذلك لأن العاص كان ينفق عليها كثيرا ، قالوا : وكان أشبه بأبي سفيان ، وفي ذلك يقول أبو سفيان بن الحرث بن عبد المطلب في عمرو :

أبوك أبو سفيان لاشك قد بدت ... لنا فيك منه بينات الدلائل

وقال أبو عمر بن عبد البر صاحب كتاب الاستيعاب: كان اسمها سلمى ، وتلقبت بالنابغة بنت حرملة من بني جلان بن عنزة بن أسد ، أصابها سباء فصارت إلى العاص بن وائل بعد جماعة من قريش فأولدها عمرا ، ويقال : إنه جعل لرجل ألف درهم على أن يسأل عمرا وهو على المنبر من أمه ؟ فسأله ، فقال : أمي سلمى بنت حرملة تلقب بالنابغة من بني عنزة ، أصابتها رماح العرب ، فبيعت بعكاظ ، فاشتراها الفاكه بن المغيرة ، ثم اشتراها منه عبد الله بن جدعان، ثم صارت إلى العاص بن وائل فولدت فأنجبت ، فإن كان جعل لك شيء فخذه (انظر أيضا العقد الفريد ١ : ١٨) وقال المبرد في الكامل اسمها ليلى ، وذكر هذا الخبر وقال : إنها لم تكن « في موضع مرضي . . . » .

ورأيي فيما روي من نسب عمرو بن العاص أن الإسلام يجب ماقبله .

(١) في الإمامة والسياسة : « في رافضة » والمراد بالرافضة هنا من رفضوا طاعة علي .

(٢) وفي الإمامة والسياسة « وقد حسبت »و حسبه كنصره : عده .

٣٨١ — كتاب عليّ إلى جرير بن عبد الله

وذكروا أن معاوية قال لجرير : إنى قد رأيتُ رأيًا ، قال جرير : هاتِ ، قال : اكتُب إلى عليّ أن يجعل لى الشأم ومصر جباية ، فإن حضرته الوفاة ، لم يجعل لأحد من بعده فى عُنق بيعةً ، وأسلِّم إليه هذا الأمر ، وأكتب إليه بالخلافة ، قال جرير : اكتب ماشئت ، فكتب إلى عليّ يسأله ذلك ، فلما أتى عليًّا كتاب معاوية ، عرف أنها خُدْعة منه ، وكتب إلى جرير بن عبد الله :

« أما بعدُ : فإن معاوية إنما أراد بما طَلَب ألاّ يكون لى فى عُنُقه بيعةٌ ، وأن يختار من أمره ما أحَبَّ ، وأراد أن يُرَيِّثك وَيُبَطِّئك حتى يذوق أهل الشأم ، وقد كان المُغيرة بن شُعبة أشار عليَّ وأنا بالمدينة أنْ أستعمله على الشأم ، فأبيْتُ ذلك عليه[1] ، ولم يكن الله لِيَرانى أن أتخِذَ المُضِلِّين عَضُدا ، فإن بايَعك الرجل وإلاَّ فأقْبِل ، والسلام » .

(الإمامة والسياسة ١ : ٧٣ ، وشرح ابن أبى الحديد ١ : ص ٢٥٠)

٣٨٢ — كتاب الوليد بن عقبة إلى معاوية

وفشا كتاب معاوية فى العرب ، فبعث إليه الوليد بن عُقْبة بن أبى مُعَيط (وهو أخو عثمان لأمه) :

---

(١) فى حديث على عليه السلام مع ابن عباس قال : « جاءنى المغيرة بن شعبة بعد مقتل عثمان بيومين فقال : أخلنى ، ففعلت ، فقال : « إن النصح رخيص ، وأنت بقية الناس ، وأنا لك ناصح ، وأنا أشير عليك ألا ترد عمال عثمان عامك هذا ، فاكتب إليهم بإثباتهم على أعمالهم ، فإذا بايعوا لك واطمأن أمرك ، عزلت من أحببت ، وأقررت من أحببت ، فقلت له : والله لا أداهن فى دينى ، ولا أعطى الرياء فى أمرى ، قال : فإن كنت قد أبيت فانزع من شئت . واترك معاوية فإن له جراءة وهو فى اهل الشأم مسموع منه ، ولك حجة فى إثباته ، فقــد كان عمر ولاه الشأم كلها . فقلت له : لا والله لا أستعمل معاوية يومين أبدا » — مروج الذهب ٢ : ٥ —.

مُعاوِىَ : إنَّ الشأمَ شأمُك ، فاعتَصِمْ بِشَأمِك ، لا تُدْخِلْ عليك الأفَاعِيا
وحَامِ عليها بالصَّوارِمِ والقَنا ولا تكُ مَوْهُونَ الذِّراعين وانِياَ(١)
وإنَّ عليًّا ناظِرٌ ما تُجيبُهُ فأَهْدِ له حَرْبا تُشِيبُ النَّواصيَا(٢)
وإلاَّ فسَلِّمْ ، إنَّ فى السِّلْمِ راحةً لمن لا يريد الحرب ، فاختَرْ مُعاوِيَا
وإن كتابًا يابنَ حربٍ كتبتَهُ على طَمَعٍ يُزْجِى إليك الدَّواهيا(٣)
سألتَ عليًّا فيه ما لن تنالَه وإن نِلتَه لم تَبْقَ إلا لياليَا
وسوف تَرَى منه التى ليس بعدها بقاءٌ ، فلا تُكْثِرْ عليك الأمانيَا
أمِثْلَ علىٍّ تعتَرِيه بخُدعةٍ وقد كان ما جرَّبْتَ من قبلُ كافيا ؟

(شرح ابن أبى الحديد م ١ : ص ٢٥٠)

٣٨٣ — كتاب الوليد بن عقبة إلى معاوية

وكتب الوليد بن عُقْبة إلى معاوية أيضاً يُوقظه ، ويشير عليه بالحرب ، وألاَّ يكتب جواب جرير :

مُعاوِىَ : إن المُلْكَ قد جُبَّ غارِبُهْ وأنت بما فى كفِّك اليومَ صاحِبُهْ(٤)
أتاك كتابٌ من علِىٍّ بخُطَّةٍ هى الفَصْلُ ، فاخترْ سِلْمَه أو تُحارِبُهْ(٥)
فلا تَرْجُ عند الواتِرِينَ مَودّةً ولا تأمَنِ اليومَ الذى أنت راهِبُهْ(٦)

---

(١) الصوارم جمع صارم ، وهو السيف . القنا جمع قناة ، وهى الرمح ، والوهن بالسكون ويحرك : الضعف ، وفعله كوعد وورث وكرم ، وهو واهن وموهون : لابطش عنده ، وونى فى الأمر كوعى ينى ونيا وونى (كفتى) : ضعف وفتر .

(٢) النواصى جمع ناصية : وهى قصاص الشعر فى مقدم الرأس .

(٣) زجاه يزجوه وزجاه وأزجاه : ساقه ودفعه .

(٤) جب: قطع . والغارب : ما بين السنام والعنق ، والمعنى : قد قتل صاحبه وهو عثمان ، وقوله بما فى كفك : أى بما فى يديك من القوة والعدة . (٥) الخطة : الأمر .

(٦) وتره يتره من الوتر وهو الثأر كالترة بالكسر ، ووتره أيضا أفزعه وأدركه بمكروه ، أى فلاترج عند الواترين لنا مودة ، يريد عليا فقد وتر بنى عبد شمس بمن قتله منهم كما سيأتى ، وقد قدمنا لك أنه جلد الوليد بن عقبة ثمانين لشربه الخمر — انظر ص ٢٩٤ ، ورهبه كعلم : خافه .

وحاربه إن حاربت حرّ بن حرّة ... وإلا فسلّم لا تدبّ عقاربُه[(١)]
فإن عليًّا غيرُ ساحب ذيله ... على خدعة، ما سوّغ الماء شاربُه[(٢)]
فلا تدعن الملك والأمر مقبلٌ ... وتطلب ما أعيت عليه مذاهبُه
فإن كنت تنوى أن تجيب كتابه ... فقبّح مُمليه وقبّح كاتبُه
وإن كنت تنوى أن تردّ كتابه ... وأنت بأمر لا محالة راكبُه
فألق إلى الحىّ اليمانين كلمةً ... تنال بها الأمر الذى أنت طالبُه
تقول: أمير المؤمنين أصابه ... عدوٌّ، وما لاهم عليه أقاربُه[(٣)]
أفانينَ: منهم قاتلٌ ومحرّضٌ ... بلا ترة كانت، وآخر سالبُه[(٤)]
وكنتُ أميرًا قبلُ بالشأم فيكمُ ... فحسبى وإياكم من الحق واجبُه
تجيبوا (ومن أرسى ثبيرًا مكانه) ... تدافع بحر لا تردّ غواربُه[(٥)]
فأقلل وأكثر، مالها اليوم صاحبٌ ... سواك، فصرّح، لست ممن تواربُه[(٦)]

(شرح ابن أبى الحديد م ١: ص ٢٥٠)

٣٨٤ — كتاب الوليد بن عقبة إلى معاوية

وكتب الوليد أيضًا إلى معاوية يستبطئه فى الطلب بدم عثمان، ويحرّضه، وينهاه عن قطع الوقت بالمكاتبة:

ألا أبلغ معاويةَ بن حرب ... فإنك من أخى ثقة مُليم[(٧)]

---

(١) لا تدب عقاربه: أى لا تشوبه شائبة ولا يفسده شىء (ويقولون أيضا للرجل الذى يقترض أعراض الناس: إنه لتدب عقاربه). (٢) ما: مصدرية ظرفية، وساغ الشراب يسوغ: سهل مدخله فى الحلق، وأساغ فلان الشراب: ابتلعه (وسوغ مثله).

(٣) أمير المؤمنين أى عثمان، ومالاهم مسهل عن مالأهم، أى ساعدهم وشايعهم.

(٤) أفانين جمع أفنون كعصفور: وهو النوع والضرب من الشىء كالفن (وجاء أفانين جمع جمع لفنن بالتحريك وهو الغصن). (٥) ثبير: جبل بمكة، وغوارب الماء: أعالى موجه.

(٦) المواربة: المخادعة والمداهاة.

(٧) ألام الرجل فهو مليم: أتى مايلام عليه.

قَطَعْتَ الدهرَ كَالسَّدِمِ المُعَنَّى ... تُهَدِّرُ في دِمَشقَ ولا تَرِيمُ(١)
فإنك والكتابَ إلى عليٍّ ... كدابغةٍ وقد حَلِمَ الأَدِيمُ(٢)
فلو كُنْتَ القتيلَ وكان حيًّا ... لشَمَّرَ لا أَلَفٌ ولا سَئُومُ(٣)
لك الوَيْلاتُ ، أَقْحِمْها عليهمْ ... فخيرُ الطالبِ التِّرَةَ الغَشُومُ(٤)

(شرح ابن أبي الحديد م ١ : ص ٢٥٤ ، و م ٣ ص ٣٠١ : ومجمع الأمثال ٢ : ٦٤)

٣٨٥ — رد معاوية على الوليد بن عقبة

فكتب معاوية إليه الجواب بيتاً من شعر أَوْس بن حَجَر :

ومستعجبٍ مما يَرَى من أَناتِنا ... ولو زَبَنَتْه الحربُ لَمْ يَتَرَمْرَمِ(٥)

(شرح ابن أبي الحديد م ١ : ص ٢٥٤)

٣٨٦ — كتاب على إلى جرير

وأقام جَرِير عند معاوية ثلاثة أشهر(٦) وهو يماطله بالبَيْعة ، فكتب عليّ إلى جرير :

« سلام عليك ، أما بعدُ : فإذا أتاك كتابى هذا فاحمِلْ معاوية على الفصل(٧) ،

---

(١) الفحل السدم : الذى يرغب (بالبناء المجهول) عن فحلته فيحال بينه وبين ألافه ، ويقيد إذا هاج ، فيرعى حوالى الدار ،وإن صال جعل له حجام يمنعه عن فتح فمه،وهدر البعير كضرب وهدر :صوت فى غير شقشقة ، ورام المكان ورام منه يريم ريماً : برحه .

(٢) الحلم بالتحريك : دود يقع فى الجلد فيفسده ، وحلم الجلد كفرح . وقع فيه الحلم . وهو مثل يضرب للأمر الذى قد انتهى فساده .

(٣) رجل ألف : أى عي بطىء الكلام إذا تكلم ملأ لسانه فمه .

(٤) أقحمه فى الأمر : رماه فيه بلا روية ، والغشوم : الظلوم .

(٥) زبنت الناقة حالبها كضرب : ضربته برجلها ودفعته فهى زبون بالفتح ، وزبنت الحرب الناس: صدمتهم ودفعتهم . على التشبيه بالناقة ــ فهى زبون أيضا ، وترمرم : تحرك للكلام ولم يتكلم .

(٦) وقيل أربعة (ابن أبى الحديد ــ ٣ : ص ٣٠١) .

(٧) أى لا تتركه متلكئا مترددا ، يطمعك تارة ويؤيسك أخرى ، بل احمله على أمر فيصل ، إما البيعة وإما الحرب ، وكذا قوله « وخذه بالأمر الجزم » أى الأمر المقطوع به .

وخُذه بالأمر الجزْم ، وخيِّره بين حَرْب مُجْلِية[1] ، أو سِلْم مُخْزِية ، فإن اختار الحرب فانبذ إليهم على سَواء إن الله لايحبُّ الخائنين ، وإن اختار السلم فخذ بيعته وأقبِلْ إليّ والسلام » .

(العقد الفريد ٢ : ٢٣٢ ونهج البلاغة ٢ : ٦ وشرح ابن أبى الحديد م ١ : ص ٢٥١)

٣٨٧ — كتاب عياض الثمالى إلى شرحبيل بن السمط

وكتب معاوية بإشارة عمرو بن العاص إلى شُرَحْبِيل بن السِّمْط الكِنْدى ، وهو بحِمْص (وكان رأس اليمنيَّة وشيخَها والمقدَّم عليها) « إن جَرِير بن عبد الله قَدِم علينا من عند علىّ بن أبى طالب بأمر مُفْظِع[2] فاقْدَم » ودعا معاوية يَزِيد بن أَسَد ، وبُسْر ابن أرطاة ، وعمرو بن سُفيان ، ومُخارق بن الحرث الزُّبَيدى ، وحمزة بن مالك ، وحابس ابن سعد الطائى ، وهؤلاء رءوس قَحطان واليمن ، وكانوا ثِقاتِ معاوية وخاصّتَه ، وبنى عم شرحبيل بن السمط ، فأمرهم أن يَلقَوه ويخبروه أن عليًّا قتل عثمان ، فلما قَدِم كتاب معاوية على شرحبيل ، استشار أهل اليمن فاختلفوا عليه ، وأبى شرحبيل إلا أن يسير إلى معاوية ، فكتب إليه عِياض الثُّمالى[3] — وكان ناسكاً — :

يا شَرْحُ يابن السِّمْطِ : إنك بالغ بوُدِّ علىٍّ ما تُريد من الأَمْر
يا شَرْحُ إن الشام شأمُك ، ما بها سواك ، فدع عنك المضلِّل من فِهْر[4]
فإن ابن هندٍ ناصبٌ لك خُدعةً تكون علينا مثل رَاغِيَةِ البَكْرِ[5]

---

(١) أى حرب تجلى المقهورين فيها عن ديارهم أى تخرجهم ، والسلم : الصلح، يؤنث ويذكر ، وسلم مخزية : أى فاضحة ، وإنما جعلها مخزية لأن معاوية امتنع أولا عن البيعة، وفى رواية العقد «حرب معضلة» وفى ابن أبى الحديد « بين حرب مخزية أو سلم محظية » .

(٢) فظع الأمر فهو فظيع ، وأفظع فهو مفظع .

(٣) بنو ثمالة : بطن من الأزد . (٤) فهر : هو قريش .

(٥) من أمثال العرب « كانت عليهم كراغية البكر » والراغية : الرغاء ، والبكر : ولد الناقة . يعنون رغاء بكر ثمود حين عقر الناقة قدار بن سالف . وهو مثل يضرب فى التشاؤم بالشىء .

فإن نال ما يرجو بنا كان مُلْكُنا هنيئاً له ، والحربُ قاصِمَةُ الظهر(١)
فلا تَبْغِيَنْ حَرْبَ العراق ، فإنها تُحرِّمُ أطهارَ النساء من الذُّعْرِ
وإنَّ عَلِيًّا خيرُ مَنْ وطئَ الثَّرَى من الهاشِمِيِّين المَدَارِيكِ للوَتْرِ(٢)
له فى رقاب النــــاس عَهدٌ وذمَّة كعهد أبى حفص وعهد أبى بكر
فبايِعْ ولا ترجِعْ على العَقْب كافراً أُعِيذُكَ بالله العزيز من الكفر
ولا تَسمَعَنْ قولَ الطُّغَاة ، فإنهم يريدون أن يُلقُوكَ فى لُجَّة البحر
وماذا عليهم أن تُطاعِنَ دونَهم عَلِيًّا بأطراف المُثَقَّفَةِ السُّمْرِ ؟(٣)
فإن غَلَبــوا كانوا علينا أئمةً وكنَّا بحمد الله من وَلَد الطُّهْرِ
وإن غُلِبُوا لم يَصْلَ بالخطْب غيرُنا وكان علىٌّ حَرْبَنا آخرَ الدهرِ(٤)
يَهون على عُليا لُؤَىٍّ بن غالب دماء بنى قَحْطانَ فى ملكهم تجرى
فَدع عنك عثمانَ بن عفَّان ، إنمــا لك الخير لا تَدْرِى بأنك لا تَدْرِى
على أى حال كان مَصْرَعُ جَنْبِهِ فلا تسمَعَنْ قول الأُعَيْرِ أو عمرو(٥)

فلما قَدِم شرحبيل على معاوية أمر الناس أن يتلقَّوه ويعظِّموه ، حتى دخل عليه فتكلم معاوية ، فقال : يا شرحبيل ، إن جرير بن عبد الله قدم علينا يدعونا إلى بيعة على ، وعلىٌّ خيرُ الناس لولا أنه قَتَلَ عثمان بن عفان ، وقد حبَسْتُ نفسى عليك ، وإنما أنا رجل من أهل الشأم أرضَى ما رَضُوا وأكرَهُ ما كرِهوا ، فقال شرحبيل : أخرُجُ فأنظر ، فلقِيه هؤلاء النَّفَر ، فكلهم أخبره أن عليا قتل عثمان ، حتى ملئوا صدره حقداً وإحْنَةً على علىّ فرجع مغضَبًا إلى معاوية ، فقال : يا معاوية أبَى الناس إلا أن عليا

(١) قصمه : كسره . (٢) مداريك جمع مدراك .
(٣) ثقف الرمح : سواه ، والأسمر : الرمح .
(٤) يقال : فلان حرب فلان : أى محاربه ، وفلان حرب لى : أى عدو محارب ، وإن لم يكن محاربا . والمعنى : وكان على عدوا محاربا لنا إلى آخر الدهر ، وفى الأصل « وكنا حربنا على آخر الدهر » ولا يستقيم عليه الوزن . (٥) الأعير : مصغر الأعور ، يعنى أبا الأعور عمرو بن سفيان السلمى وهو أحد خاصة معاوية وثقاته .

قتل عثمان، واللهِ إن بايعتَ لهُ لنخرِ جَنَّك مِن شأمنا أو لنقتلنَّك، فقال معاوية: ما كنتُ لأخالفَ عليكم ، ما أنا إلا رجل من أهل الشأم . قال : فرُدَّ هذا الرجل إلى صاحبه إذَنْ، فعرَف معاوية أن شرحبيل قد نفذَتْ بصيرتُه فى حرب أهل العراق ، وأن الشأم كله مع شرحبيل . (شرح ابن أبى الحديد م ١ : ص ١٣٩)

٣٨٨ — كتاب آخر إلى شرحبيل بن السمط

وكُتِب كتاب لا يُعْرف كاتبه إلى شُرَحْبيل يقول :

شُرَحْبيلُ يابنَ السِّمْطِ لا تَتْبَعِ الهَوَى ... فما لَكَ فى الدنيا من الدِّين مِنْ بَدَلْ
ولا تَكُ كالمُجْرَى إلى شَرِّ غايةٍ ... فقد خُرِّقَ السِّرْبَالُ واسْتَنْوَقَ الجَمَلْ[(١)]
وقُل لابن حَرْبٍ : مالكَ اليومَ خُلَّةٌ ... تَرومُ بها ما رُمْتَ واقْطَعْ له الأمَلْ[(٢)]
شُرحبيلُ : إنَّ الحقَّ قد جَد جِدُّه ... فكن فيه مأمونَ الأديم مِنَ النَّغَلْ[(٣)]
وأَرْوِدْ ولا تَفْرُط بشىء نخافه ... عليك ، ولا تَعْجَلْ فلا خيرَ فى العَجَلْ[(٤)]
مقالُ ابْنِ هندٍ فى علىٍّ عضيهَةٌ ... ولَلّهُ فى صدر ابن أبى طالب أجَلّْ[(٥)]
وما مِنْ علىٍّ فى ابن عفَّان سَقْطةٌ ... بقولٍ ، ولا مَالَا عليه ، ولا قَتَلْ[(٦)]
وما كان إلاَّ لازِمًا قَعْرَ بيتِه ... إلى أن أتى عثمانَ فى داره الأَجَلْ

---

(١) السربال : القميص ، أو الدرع ، أو كل ما لبس ، ومن أمثالهم : « قد استنوق الجمل » أى صار ناقة . وهو مثل يضرب فى التخليط . ذكروا أن المسيب بن علس أنشد بين يدى عمرو بن هند :

وقد أتلافى الهم عند احتضاره ... بناج عليه الصيعرية مكدم

بناج : أى ببعير ناج ، أى مسرع ، وصف النجاء بالفتح : وهو السرعة فى السير — وفى القاموس المحيط : وناقة ناجية ونجية : سريعة ، لا يوصف به البعير ، أو يقال ناج — والصيعرية : سمة لأهل اليمن توسم بها النوق خاصة فى أعناقها دون الفحول (وفحل مكدم بضم فسكون ففتح : إذا كان قويا شديدا).
وكان طرفة بن العبد حاضرا وهو غلام فقال : قد استنوق الجمل ، فغضب المسيب وقال : ليقتلنه لسانه فكان كما تفرس فيه . (٢) الخلة : الصداقة .
(٣) نغل الأديم كفرح : فسد فى الدباغ . (٤) أرود: أمهل وفرط كنصر :سبق وتقدم.
(٥) العضيهة : الإفك والبهتان . (٦) مالا مسهل عن مالأ: أى ساعد وشايع .

وَصِىُّ رسولِ الله من دون أهله ومَن باسْمِه فى فضــــله يُضرَبُ المَثَلْ
فمن قال قولاً غيرَ هذا فَحَسْبُه من الزُّور والبُهْتان بعضُ الذى احتَمَلْ

فلما قرأ شُرَحْبِيل الكتاب ذُعِر وفكّر ، وقال : هذه نصيحة لى فى دينى ، لا والله لا أَعْجَلُ فى هذا الأمر بشىء ، وكاد يَحُول عن نصر معاوية ويتوقّف ، فلفّق له معاوية الرجال يدخلون إليه ويخرجون ويُعْظِمون عنده قتل عثمان ، ويرمُون به عليًّا ، ويقيمون الشهادة الباطلة ، والكتب المختلفة حتى أعادوا رأيه ، وشَحَذوا عزمه .

(شرح ابن أبى الحديد م ١ : ص٢٤٩)

٣٨٩ — رد معاوية على علىّ

وكتب معاوية إلى علىّ جوابا عن كتابه إليه مع جرير :

« بسم الله الرحمن الرحيم . من مُعاويةَ بن صَخْرٍ إلى علىّ بن أبى طالب : أما بعدُ فلعَمرِى لو بايَعَك القوم الذين بايعوك وأنت برِىءٌ من دم عثمان لكنتَ كأبى بكر وعمر وعثمان رضى الله عنهم أجمعين ، ولكنك أغْرَيْت بدم عثمان المهاجرين ، وخذّلت عنه الأنصارَ ، فأطاعك الجاهلُ ، وقَوِىَ بك الضعيفُ ، وقد أبَى أهل الشأم إلا قتالَك ، حتى تدفعَ إليهم قَتَلَةَ عثمان ، فإن فعلتَ كانت شُورَى بين المسلمين ، وإنما كان الحجازيون هم الحُكّام على الناس والحقُّ فيهم ، فلما فارقوه كان الحكام على الناس أهل الشام ، ولَعَمْرى ما حُجّتُك علىّ كحُجّتك على طَلْحَةَ والزُّبَيْر ، لأنهما بايعاك ولم أبايِعْك ، وما حجتك على أهل الشأم كحجتك على أهل البصرة ، لأن أهل البصرة أطاعوك ، ولم يُطِعْك أهلُ الشأم ، فأما شرفُك فى الإسلام ، وَقَرَابَتُك من رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وموضِعُك من قريش فلستُ أدفعه ، ثم كتب إليه فى آخر الكتاب بشعر كَعْبِ بن جُعَيْلٍ ، وهو :

أَرَى الشامَ تَكْرَه مُلْكَ العِراق وأهلَ العِراق لهم كارِهِينا

وكُلاًّ لِصاحبِهِ مُبْغِضاً ... يَرَى كُلٌّ ما كان من ذاكَ دِيناً
إذا ما رَمَوْنا رَمَيْناهُمُ ... ودِنَّاهُمُ مثلَ ما يُقْرِضُونا[(١)]
فقالوا : عَلِيٌّ إمام لنا ... فقلنا : رَضِينا ابنَ هِنْدٍ رَضِينا[(٢)]
وقالوا : نَرَى أَنْ تَدِينوا له ... فقلنا : أَلاَ لا نَرَى أن نَدِينَا[(٣)]
ومِن دون ذلك خَرْطُ القَتَادِ ... وضَرْبٌ وَطَعْنٌ يَفُضُّ الشُّئُونَا[(٤)]
وكلٌّ يُسَرُّ بما عنده ... يَرَى غَثَّ ما في يديه سَمِينا[(٥)]
وما في عليٍّ لمُسْتَعْتِبٍ ... مَقَالٌ سوى ضَمِّه المُحْدِثينا[(٦)]
وإيثارِهِ اليومَ أهلَ الذنوبِ ... ورَفْعِ القِصاصِ عن القاتلينا[(٧)]
إذا سِيلَ عنه حَذَا شُبْهَةً ... وعَمَّى الجوابَ على السائلينا[(٨)]
فليس براضٍ ولا ساخطٍ ... ولا في النُّهاةِ ولا الآمِرِينا
ولا هو ساءَ ولا سرَّه ... ولا بُدَّ من بعضِ ذا أن يكونا

(العقد الفريد ٢ : ٢٢٣ ، والكامل للمبرد ١ : ١٥٥ ، والإمامة والسياسة ١ : ٧٧ ، وشرح ابن أبي الحديد م ١ : ص ٢٥٢ و ص ١٥٨)

---

(١) دانه (وأدانه) أقرضه ، ودانه أيضا دينا بالفتح ويكسر : جزاه ، قال تعالى : « مَالِكِ يَوْمِ الدِّينِ » أي يوم الجزاء والحساب .

(٢) ابن هند : هو معاوية بن أبي سفيان،وأمه هند بنت عتبة بن ربيعة بن عبد شمس بن عبد مناف

(٣) دان له : خضع وأطاع ودخل في دينه (بالكسر) أي في طاعته.

(٤) القتاد : شجر صلب له شوك أمثال الإبر، والخرط : قشر الورق عن الشجرة اجتذابا بكفك. وهو مثل يضرب للأمر دونه مانع ، يفض : أي يكسر ويفرق . والشئون جمع شأن ، وهي مواصل قبائل الرأس وملتقاها . وذلك أن الرأس أربع قبائل : أي قطع مشعوب بعضها إلى بعض ، فالشئون هي الشعب التي تجمع بين تلك القبائل ، وقالوا إن مجاري الدموع منها ، ولذا أطلقوا الشئون على مجاري الدمع من الرأس إلى العين. فقالوا : استهلت شئونه . ومنه قول أوس بن حجر :

لا تحزنيني بالفراق فإنني ... لا تستهل من الفراق شئوني

وفي رواية « وضرب وطعن يقر العيونا » يقال : قرت عينه أي بردت « من القر وهو البرد وهو خلاف قولهم سخنت عينه » أو رأت ما كانت متشوفة إليه . (٥) الغث : المهزول .

(٦) استعتبه : طلب إليه العتبى (بالضم) أي الرضا ، والمحدث الجاني (٧) آثره : فضله وقدمه .

(٨) سيل مبنى للمجهول من سال يسال كخاف يخاف لغة في سأل ، وحذا : قدر ، والمعنى ذكر ، أو هو « حدا » أي ساق .

٣٩٠ - رد علىّ على معاوية

فكتب إليه الإمام علىّ رضى الله عنه :

« بسم الله الرحمن الرحيم . من على بن أبى طالب إلى معاوية بن صخر : أما بعدُ ، فقد أتانى كتابُك كتاب امرئٍ ليس له بَصَرٌ يَهْديه ، ولا قائدٌ يُرْشِده ، دعاه الهوَى فأجابه ، وقاده فاتَّبَعه ؛ زعمتَ أنك إنما أفسَد عليك بَيْعتى خَفْرِى[1] بعثمان ، ولعمرى ما كنتُ إلا رجلا من المهاجرين ، أوردتُ كما أوردوا ، وأصْدَرتُ كما أصْدَروا ، وما كان الله لِيَجْمَعهم على ضلال ، ولا لِيَضْرِبَهم بالعَمَى ، وما أمرتُ فلزِمَتْنِى خَطِيئة الأمر ، ولا قتلتُ فأخافَ على نفسى قِصاصَ القاتل .

وأما قولك إن أهل الشأم هم حُكام أهل الحجاز ، فهاتِ رجلا من قريش الشأم يُقْبَل فى الشُّورى ، أو تَحِلُّ له الخلافة ، فإن سَمَّيتَ كذَّبك المهاجرون والأنصار ، ونحن نأتيك به من قريش الحجاز .

وأما قولُك ادفع إلىَّ قتلة عثمان ، فما أنت وذاك ؟ وها هنا بنو عثمان ، وهم أولى بذلك منك[2] فإن زعمتَ أنكَ أقوى على طلب دم عثمانَ منهم ، فارجِع إلى البيعة التى لَزِمَتك[3] وحاَكِمِ القومَ إلىّ[4] .

وأما تمييزُك بين أهل الشأم والبصرة ، وبينك وبين طَلْحَةَ وَالزُّبَيْر ، فلعمرى

---

(١) خفر به كضرب خفرا وخفورا : نقض عهده وغدره . وفى رواية الكامل « خطيئتى فى عثمان » وكذا فى الإمامة والسياسة .

(٢) وفى رواية الكامل : « وبعد فما أنت وعثمان ؟ إنما أنت رجل من بنى أمية ، وبنو عثمان أولى بمطالبة دمه » .

(٣) وفى رواية الكامل : « فإن زعمت أنك أقوى على ذلك فادخل فيما دخل فيه المسلمون ثم حاكم القوم إلى » (٤) وفى رواية الكامل : « لأنها بيعة شاملة لايستثنى فيها الخيار ، ولا يستأنف فيها النظر » وفى رواية النهج : لأنها بيعة واحدة لا يثنى فيهـا النظر ولا يستأنف فيها الخيار » وسيرد عليك فقر مكررة فى بعض الرسائل ، لاختلاف رواياتها .

فما الأمر هنالك إلا واحد ، لأنها بَيْعَةٌ عامَّة ، لا يتأتى فيها النظر ، ولا يُستأنف فيها الخِيار .

وأما شرفى فى الإسلام وقرابتى من رسول الله صلى الله عليه وَسلم ، وَموضعى من قريش ، فلعمرى لو استطعت دَفْعَه لَدَفَعْته » .

(العقد الفريد ٢ : ٢٣٣ ، والكامل للمبرد ١ : ١٥٧ ، وشرح ابن أبى الحديد م ١ : ص ٢٥٢ ، والإمامة والسياسة ١ : ٧٧ ، ونهج البلاغة ٢ : ٥)

٣٩١ — كتاب معاوية إلى علىّ

وفى رواية عن جرير قال : إن معاوية لما جاءه كتاب الوليد بن عُقْبة الأخير ، وصل بين طُومارين أبيضين ، ثم طواهما وكتب عنوانهما :

« من معاوية بن أبى سفيان إلى على بن أبى طالب » ودفَعَهما إلىّ لا أعلم ما فيهما ، ولا أظنهما إلا جوابا ، وبعث معى رجلا من بنى عَبْس لا أدرى ما معه ، فخرجنا حتى قدِمْنا الكوفةَ ، واجتمع الناس فى المسجد لايشكون أنها بيعة أهل الشأم ، فلما فتح علىّ عليه السلام الكتاب لم يجد شيئاً ، وقام العَبْسِىّ فدفع إلى علىّ كتابا من معاوية ففتحه فوجد فيه :

أَتَانِىَ أَمْرٌ فيه للنفس غُمَّةٌ وفيه اجْتِداعٌ للنفوس أصيلُ
مُصابُ أمير المؤمنين ، وهَدَّةٌ تكاد لها صُمُّ الجبالِ تَزولُ

(شرح ابن أبى الحديد م ٣ : ص ٣٠١)

٣٩٢ — كتاب معاوية إلى أهل مكة والمدينة

وكتب معاوية — أيام كان جرير عنده ينتظر جوابه — إلى أهل مكة والمدينة :

« أما بعد ، فإنه مهما غاب عنا من الأمور ، فلم يغِبْ عنّا أن عليًّا قتل عثمان ،

والدليل على ذلك أن قتلَته عنده[1] ، وإنما نطلب بدمه حتى يدفعَ إلينا قتلته ، فنقتلَهم بكتاب الله تعالى ، فإنْ دفعَهم إلينا كففْنا عنه ، وجعلناها شُورَى بين المسلمين ، على ما جعلها عليه عمر بن الخطاب ، فأمّا الخلافةُ فلسنا نطلبها ، فأعِينونا على أمرنا هذا يرحمكم الله ، وانهضوا من ناحيتكم ، فإن أيدينا وأيديَكم إذا اجتمعت على أمر واحد هابَ عليٌّ ما هو فيه والسلام » .

(الإمامة والسياسة ١ : ٧٥ ، وشرح ابن أبي الحديد م ١ : ص ٢٥٨)

٣٩٣ — رد المسور بن مخرمة على معاوية

فلما قرئ عليهم كتابه ، اجتمع رأيهم على أنْ يُسْنِدوا أمرهم إلى المِسْوَر بن مَخْرَمة فجاوب عنهم ، فكتب إليه :

« أما بعد : فإنك أخطأتَ خطأ عظيما ، وأخطأتَ مواضع النُّصرة ، وتناولتَها من مكان بعيد ، وما أنت والخلافةُ[2] يا معاوية ، وأنت طَلِيق وأبوك من الأحزاب ؟ فكُفَّ عنا فليس لك قِبَلنا وَلِيٌّ ولا نصير » . (الإمامة والسياسة ١ : ٧٥)

* * *

وفي رواية ابن أبي الحديد :

فكتب عبد الله بن عمر إلى معاوية ، وعمرو بن العاص :

« أما بعدُ : فلعمري لقد أخطأتما موضع النُّصْرة ، وتناولتماها من مكان بعيد ، وما زاد اللهُ مَن شَكَّ في هذا الأمر بكتابكما إلا شَكًّا ، وما أنتما والمشورةُ ؟ وما أنتما والخلافةُ ؟ أمّا أنت يا معاوية فطليق، وأما أنت يا عمرو فظَنِين[3] ، ألاَ فكُفَّا أنفسكما ، فليس لكما فينا وَلِيٌّ ، ولا نصير » . (شرح ابن أبي الحديد م ١ : ص ٢٥٨)

---

(١) وفي ابن أبي الحديد : « والدليل على ذلك مكان قتلته منه » .

(٢) الأرجح فيه الرفع ، ويجوز فيه النصب على تقدير ما تكون والخلافة ثم حذف الفعل وانفصل الضمير . (٣) الظنين : المتهم .

٣٩٤ — كتاب رجل من الأنصار إلى معاوية وعمرو

قال أيضاً : وكتب رجل من الأنصار إلى معاوية وعمرو بن العاص مع كتاب عبد الله بن عمر :

مُعاوِيَ : إن الحقَّ أبْلَجُ واضِحٌ ۞ وليس بما ربَّصْتَ أنت ولا عَمْرُو(١)
نَصَبْتَ ابن عَفَّانَ لنا اليومَ خُدعةً ۞ كما نَصَبَ الشيخان إذ قُضِيَ الأمرُ(٢)
فهذا كما ذاكَ البَلَا حَذْوَ نَعْلِهِ ۞ سواءٌ كرَقْرَاقٍ يُغرُّ به السَّفْرُ(٣)
رمَيْتُمْ عليًّا بالذى لا يَضِيرُه ۞ وإن عظُمتْ فيه المَكِيدةُ والمَكْرُ(٤)
وما ذَنْبُهُ أنْ نال عثمانَ مَعْشَرٌ ۞ أتَوْه من الأحياء تجمَعُهم مِصْرُ
فثار إليـــــه المسلمون ببَيْعةٍ ۞ عَلَانيــة ما كان فيها لهم قَسْرُ(٥)
وبايعَهُ الشيخانِ ثم تَحَمَّلا ۞ إلى العُمْرَةِ العظمى وباطِنُها الغَدْرُ(٦)
فكان الذى قد كان ، مما اقتصاصُه ۞ يَطُولُ ، فيا لله ما أحْدَثَ الدَّهرُ
وما أنتما والنصرُ منا ؟ وأنتما ۞ بَعِيثا حُروبٍ ما يَبُوخُ لها جَمْرُ(٧)
وما أنتما ؟ لله دَرُّ أبيكما ! ۞ وذِكْرُكما الشُّورَى وقد وضَحَ الفجرُ(٨)

(شرح ابن أبي الحديد م ١ : ص ٢٥٨)

---

(١) أبلج : مضيء مشرق ، وربص بفلان وتربص : انتظر به خيرا أو شرا يحل به .
(٢) يعنى بالشيخين : طلحة والزبير . (٣) من أمثالهم : « حذو النعل بالنعل » وهو مثل يضرب فى التسوية بين الشيئين . والرقراق : ترقرق السراب (وكل شيء له بصيص وتلألؤ فهو رقراق) والسفر : المسافرون . (٤) ضاره : ضره .
(٥) القسر : القهر . (٦) انظر ص ٢٩٥ ، وتحمل : ارتحل وذهب .
(٧) البعيث : الرسول وهو فعيل بمعنى مفعول ، وباخت النار : سكنت .
(٨) لله دره ، كلمة تقال لمن يتعجب منه ، والدر : اللبن ، والمراد هنا اللبن الذى ارتضعه من ثدى أمه وأضيف إلى الله تعالى تشريفا ، أى أن اللبن الذى تغذى به يستحق أن ينسب إلى الله تعالى لشرفه وعظمه، وقيل: معناه لله الثدى الذى أرضعه وهو قريب من الأول، والدر أيضا العمل والنفس، أى أن عمله عظيم جليل جدير به أن يضاف إلى الله تعالى ، أو أن نفسه شريفة كريمة كذلك .

٣٩٥ — كتاب معاوية إلى ابن عمر

وكتب معاوية إلى عبد الله بن عمر كتاباً خاصًّا دون كتابه إلى أهل المدينة :

« أما بعد : فإنه لم يكن أحد من قريش أَحَبَّ إلىّ أن يجتمع الناس عليه بعد قتل عثمان منك ، فذكرتُ خَذْلَكَ إياه ، وطَعْنَك على أنصاره ، فتغيّرتُ لك ، وقد هوّن ذلك علىّ خِلافُك عليًّا(١) وطَعْنُك عليه ، ومحا عنك بعضَ ما كان منك ، فأعنَّا يرحمك الله على حق هذا الخليفة المظلوم ، فإنى لست أُريد الإمارة عليك ، ولكنى أريدها لك ، فإن أنت أبَيْت كانت شُورَى بين المسلمين » .

(الإمامة والسياسة ١ : ٧٥ ، وشرح ابن أبي الحديد م ١ ص ٢٦٠)

٣٩٦ — رد ابن عمر على معاوية

فكتب إليه عبد الله بن عمر :

« أما بعدُ : فإن الرأى الذى أطمعك فىّ هو الذى صَيّرك إلى ما صَيّرك إليه ، تركتُ عليًّا فى المهاجرين والأنصار ، وتركتُ طلحة والزبير وعائشة وأَتّبعُك ! وأمّا قولُك إنى طعنتُ على علىّ ، فلعمرى ما أنا كعلى فى الإسلام والهجرة ومكانه من رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ولكن أَحْدَثَ أمراً لم يكن إلينا فيه من رسول الله صلى الله عليه وسلم عَهْد ، ففزِعْتُ إلى الوقوف ، وقلتُ : إن كان هذا هُدًى ، فَفَضْلٌ تركته ، وإن كان ضلالة ، فشَرٌّ منه نجوتُ ، فأَغْنِ عنى نفسَك ، والسلام » .

(الإمامة والسياسة ١ : ٧٦ ، وشرح ابن أبي الحديد م ١ ص ٢٦٠)

---

(١) قال الطبرى (ج ٥ : ص ١٥٤) « وبايع الناس عليا بالمدينة ، وتربص سبعة نفر فلم يبايعوه منهم سعد بن أبى وقاص ، ومنهم ابن عمر ، وصهيب ، وزيد بن ثابت ، ومحمد بن مسلمة ، وسلمة بن وقش ، وأسامة بن زيد » .

٣٩٧ — كتاب معاوية إلى سعد بن أبي وقاص

وكتب معاوية إلى سعد بن أبى وقاص ، يدعوه إلى القيام معه فى دم عثمان :

« سلام عليك ، أما بعد : فإن أحقَّ الناس بنُصْرة عثمان أهل الشورى من قريش، الذين أثبتوا حقَّه واختاروه على غيره ، وقد نصره طلحة والزبير ، وهما شريكاك فى الأمر والشورى ، ونظيراك فى الإسلام وخفَّتْ لذلك أم المؤمنين ، فلا تكرَهن ما رَضُوا ، ولا تردَّنَّ ما قَبِلوا ، وإنما نريد أن نردَّها شُورَى بين المسلمين ، والسلام » .

(العقد الفريد ٢ : ٢٣٥ ، والإمامة والسياسة ١ : ٧٦ ، وشرح ابن أبى الحديد م١ : ص٢٦٠)

٣٩٨ — رد سعد على معاوية

فأجابه سعد :

« أما بعد ، فإن عمر رضى الله عنه لم يُدْخِل فى الشُّورى إلا من تحلّ له الخلافة ، فلم يكن أحد منا أولَى بها من صاحبه إلا باجتماعنا عليه ، غير أن عليًّا كان فيه ما فينا ولم يكن فينا ما فيه ، ولو لم يطلبها ولَزِم بيته لطلبَته العرب ولو بأقصى اليمن ، وهذا الأمر قد كرِهْنا أوّلَه وكرهنا آخره ، وأما طلحة والزبير فلو لزما بيوتهما لكان خيراً لهما ، والله يغفِر لأم المؤمنين ما أتَتْ ، والسلام » .

(العقد الفريد ٢ : ٢٣٥ ، وشرح ابن أبى الحديد م ١ : ص ٢٦٠)

* * *

وفى رواية الإمامة والسياسة :

فكتب إليه سعد : « أما بعد فإن أهل الشورى ليس منهم أحد أحق بها من صاحبه ، غير أن عليا كان من السَّابقة ، ولم يكن فينا مافيه ، فشاركَنا فى محاسننا ولم نشاركه فى محاسنه ، وكان أحقَّنا كلنا بالخلافة ، ولكن مقادير الله تعالى التى صرفتها عنه حيث شاء لعِلْمه وقَدَره ، وقد علمنا أنه أحقُّ بها منا ، ولكن لم يكن بُدٌّ

من الكلام فى ذلك والتشاجر فدَعْ ذا ، وأما أمرك بإمعاوية فإنه أمر كرِهْنا أوّله وآخره ، وأما طلحة والزبير فلو لزما بيتهما لكان خيراً لهما ، والله تعالى يغفر لعائشة أم المؤمنين » . (الإمامة والسياسة ١ : ٧٦)

٣٩٩ – كتاب معاوية إلى محمد بن مسلمة الأنصارى

وكتب معاوية إلى محمد بن مَسْلَمَة الأنصارى - وكان فارس الأنصار وذا النجدة فيهم - :

« أما بعدُ : فإنى لم أكتب إليك وأنا أرجو مبايعتك ، ولكنى أردت أن أذَكِّرك النعمة التى خرجت منها ، والشكَّ الذى صِرْتَ إليه ، إنك كنت فارس الأنصار وعُدَّة المهاجرين ، وقد ادّعيت على رسول الله صلى الله عليه وسلم أمراً لم تستطع أن تَمْضِيَ عليه ، وهو أنه نهاك عن قتال أهل القِبْلة . أفَلا نَهَيْتَ أهل القبلة عن قتال بعضهم بعضاً ؟ فقد كان عليك أن تكرَهَ لهم ما كرِهَ رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ألم تَرَ عثمان وأهل الدار[1] من أهل القِبلة ! فأمّا قومُك الأنصار فقد عَصَوُا اللهَ تعالى، وخَذَلُوا عثمان ، والله سائِلهم وسائِلُك عن الذى كان يوم القيامة والسلام».

(الإمامة والسياسة ١ : ٧٦ ، وشرح ابن أبى الحديد ١ : ص ٢٦٠)

٤٠٠ – رد ابن مسلمة على معاوية

فكتب إليه ابن مسلمة :

« أما بعدُ : فقد اعتزل هذا الأمرَ مَن ليس فى يده من رسول الله صلى الله عليه وسلم مِثْلُ الذى فى يدى ، وقد أخبرنى رسول الله بالذى هو كائن قبل أن يكون ، فلما كان كسَرْتُ سيفى ، ولزِمْتُ بيتى ، واتَّهمت الرأىَ على الدين ، إذ لم يَصِحَّ لى معروف آمُرُ به ، ولا مُنكر أنْهَى عنه ، ولعمرى يا معاوية ما طلبتَ إلا الدنيا ،

---

(١) هم الذين تسوروا الدار على عثمان وقتلوه .

ولا اتَّبعتَ إلا الهوى ، ولئن كنت نصرت عثمان ميِّتاً ، لقد خذَلته حيًّا ، ونحن ومَن قِبَلنا من المهاجرين والأنصار أوْلَى بالصواب » .

(الإمامة والسياسة ١ : ٧٧ ، وشرح ابن أبي الحديد م١ : س٢٦٠)

٤٠١ — كتاب معاوية إلى أبي أيوب الأنصارى

وروى ابن أبي الحديد قال :

كتب معاوية إلى أبي أيّوب خالد بن زيد الأنصارى — وكان سيداً معظماً من سادات الأنصار ، وكان من شيعة علىّ عليه السلام — كتاباً : سطراً واحداً ، وهو :

« حاجَيتك[1] : لا تَنْسَى الشَّيْبَاء أبا عُذْرِها[2] ، ولا قاتِلَ بِكْرِها »

فلم يدْرِ أبو أيوب ما هو ! فأتى به عليًّا عليه السلام فقال: يا أمير المؤمنين إن معاوية كهفَ المنافقين كتب إلىّ بكتاب لا أدرى ما هو ؟ قال علىٌّ : فأين الكتاب ؟ فدفعه إليه فقرأه وقال : « نعم ، هذا مثل ضربه لك ، يقول : لاتنسى الشيباء أبا عُذرها ، والشيباء : المرأة البكر ليلة افتضاضِها[3] ، لا تنسى بَعْلها الذى افترعها أبداً ، ولا تنسى قاتل بكرها وهو أول ولدها ، كذلك لا أنسى أنا قتل عثمان » .

وروى أن معاوية كتب فى أسفل كتابه إلى أبي أيوب :

أبْلِـغْ لديْك أبا أيُّوبَ مَأْلُـكَةً أناً وقومك مثل الذئب والنَّقَد[4]

---

(١) حاجاه : فاطنه أى باراه فى الفطنة .

(٢) العذر بالضم : البكارة ، وافتضاض الجارية ، ويقال : فلان أبو عذر فلانة وأبو عذرتها: إذا كان افترعها وافتضها (بالفاء وبالقاف) .

(٣) وجاء فى لسان العرب فى مادة شيب: « وكانت العرب تقول للبكر إذا زفت إلى زوجها فدخل بها ولم يفترعها ليلة زفافها : باتت بليلة حرة (بالإضافة) وإن افترعها تلك الليلة قالوا : باتت بليلة شيباء (بالإضافة أيضا) وقيل : ياء شيباء بدل من واو لأن ماء الرجل شاب ماء المرأة ، غير أنا لم نسمعهم قالوا بليلة شوباء ، جعلوا هذا بدلا لازما كعيد وأعياد ، وقال أيضا فى مادة شوب (وباتت المرأة بليلة شيباء) قيل إن الياء فيها معاقبة (بكسر القاف) ، وإنما هو من الواو لأن ماء الرجل خالط ماء المرأة » ويقال باتت بليلة شيباء ، وباتت بليلة الشيباء .

(٤) المألكة بضم اللام وتفتح : الرسالة ، والنقد : جنس من الغنم قبيح الشكل .

إمّا قتلتم أمــــير المؤمنين فلا   تَرجُوا المَوادةَ منا آخرَ الأبد
إن الذى نِلتموه ظالِمينَ له   أبقَتْ حَزازَتُه صَدْعًا على كَبِدِى[(١)]
إنى حلَفْتُ يمينًا غــيرَ كاذبةٍ   لقد قتلتم إمامًا غــيرَ ذى أوَدِ[(٢)]
لا تحسَبوا أننى أنسَى مُصيبتَه   وفى البلاد من الأنصار من أحد
قد أبدلَ اللهُ منكم خيرَ ذى كَلَعٍ   واليَحْصَبِيِّينَ أهلَ الجَوْفِ والجَنَدِ[(٣)]
إن العراقَ لنا فَقْعٌ بِقَرْقَرَةٍ   أو شَحْمَةٌ بَزَّها شاوٍ ولم يَكَدِ[(٤)]
وَالشامُ يَنزِلها الأبرارُ ، بَلْدَتُها   أمْنٌ ، وبَيْضَتُها عِرِّيسَةُ الأسد[(٥)]

(شرح ابن أبى الحديد م ٢ : ص ٢٨٠)

٤٠٢ ـ رد أبى أيوب على معاوية

فكتب أبو أيوب إلى معاوية :

« أما بعدُ : فإنك كتبتَ « لاتنسى الشيباء أبا عذرها ، ولا قاتل بكرها » فضربتَها مَثلا بقتل عثمان ، وما نحن وقتل عثمان ؟ إنّ الذى تربَّصَ بعثمان ، وثبَّط يزيدَ بن أسَدٍ وأهلَ الشأم عن نُصْرته لأنت[(٦)] ، وإن الذين قتلوه لَغيرُ الأنصار » .

وكتب فى آخر كتابه :

لاتُوعِدَنّا ابنَ حربٍ ، إننا نَفَر   لانبتغِى وُدَّ ذى البَغْضاء من أحدِ

(١) الحزازة : وجع فى القلب من غيظ ونحوه ، والصدع : الشق .
(٢) الأود : الاعوجاج ، وفعله كفرح .
(٣) يعنى بذى كلع ذا الكلاع (كسحاب) الحميرى ، وكان من أعظم أصحاب معاوية شأنا وقدرا وهو ذو الكلاع الأصغر سميفع بن ناكور بن عمرو بن يعفر بن ذى الكلاع الأكبر يزيد بن النعمان وهما من أذواء اليمن ، ويحصب مثلث الصاد : حى باليمن ، والنسب إليه يحصبى مثلث الصاد أيضا ، والجوف بالجيم : موضع بناحية عمان ، وكذا الحوف بالحاء (وفى الأصل بالخاء وهو تصحيف) والجند : بلد باليمن.
(٤) الفقع بالفتح ويكسر : البيضاء الرخوة من الكمأة ، والقرقرة : أرض مطمئنة لينة كالقرقر ويقال الذليل : « هو أذل من فقع بقرقرة » لأنه لايمتنع على من اجتناه ، أو لأنه يوطأ بالأرجل ، وبزها : نزعها وأخذها بجفاء وقهر ، وشاو : اسم فاعل من شوى اللحم (والشاوى أيضا صاحب الشاة) .
(٥) البيضة : حوزة كل شىء وساحة القوم ، والعريس والعريسة : مأوى الأسد .
(٦) انظر ص ٣٧٧ .

واسعَوا جميعًا بَنى الأحزاب كلّكمُ ... لسنا نُريد رِضاكم آخِرَ الأبَدِ
نحن الذين ضرَبْنا الناس كلَّهمُ ... حتى استقاموا وكانوا بَيِّنِى الأَوَدِ
والعامَ نَضْرِبُك منّا إنْ ثبَتَّ لنا ... ضربٌ يُزَيِّلُ بين الرُّوح والجسد (١)
أمّا علِىٌّ فإنا لا نُفارِقه ... ما رَفَّتِ الآلُ فى الدَّوِّيَّة الجَرَدِ (٢)
إمّا تبدَّلْتَ منا بعــدَ نُصْرَتنا ... دينَ الرسول أُناسًا ساكِنى الجَنَدِ
لا يعرفون (أضلَّ الله سَعْيَهُم) ... إلاَّ اتِّبَاعَكُم يا راعِىَ النَّقَدِ
فقد بَغَى الحقَّ هَضْماً شرُّ ذى كَلَعٍ ... واليَحْصَبِيُّون طُرًّا بَيْضَةُ البَلَدِ (٣)

فلما أتى معاوية كتاب أبى أيوب كسره .

(شرح ابن أبى الحديد م ٢ : ص ٢٨١)

* * *

وروى ابن قتيبة فى الإمامة والسياسة قال :

وكتب معاوية إلى أبى أيوب الأنصارى ــ وكان أشد الأنصار على معاوية ــ :

« أما بعدُ : فإنى نَسِيتك مالا تَنْسَى الشَّيْباء » .

---

(١) يزيل يفرق .

(٢) الآل : السراب ، أو خاص بما فى أول النهار . ويؤنث ، ورف لونه كضرب : برق وتلألأ وفى الأصل « ما رفرف الآل » من رفرف الطائر إذا حرك جناحيه ، والمعنى عليه صحيح على المجاز ، والاظهر عندى أنه (مارفت الآل) كما أوردته . والدو والدوية والداوية ومخفف الفلاة. والجرد: فضاء لانبت فيه . (٣) طرا جميعا ، وجاء فى أمثال العرب « هو أذل من بيضة البلد » وهى بيضة تتركها النعامة فى الفلاة فلا تحضنها ، فتبقى تريكة بالفلاة ، وهى من الأضداد تستعمل مدحا وذما ، يقولون للرجل الكريم هو بيضة البلد ، يمدحونه ، ويقولون للآخر : هو بيضة البلد ، يذمونه ، فإذا ذم بها فهى التى قد خرج الفرخ منها ورمى بها الظليم، فتقع فى البلد القفر فيدوسها الناس والإبل، ومن ذلك قول الراعى يهجو ابن الرقاع العاملى :

لو كنت من أحد يهجى هجوتكم ... يابن الرقاع ولكن لست من أحد
تأبى قضاعة أن تعرف لكم نسبا ... وابنا نزار فأنتم بيضة البلد

(وأن تعرف بالجزم على لغة من يجزم بأن المصدرية) وإذا مدح بها فهى التى فيها الفرخ ، لأن الظليم حينئذ يصونها ويوقيها الأذى . والمعنى على المدح أن ذلك الرجل هو واحد البلد الذى يجتمع إليه، ويقبل قوله ، أو هو فرد ليس أحد مثله فى شرفه .

فلما قرأ كتابه أتى به عليًّا ، فأقرأه إياه ، قال على : يعنى بالشيباء المرأة الشمْطاء لاتَنْسَى ثُكْلَ ابنها[1] ، فأنا لا أنسى قتل عثمان .

فكتب إليه أبو أيوب :

« إنه لاتَنْسَى الشيباء ثُكْلَ ولدها ، وضربتَها مَثَلا لقتل عثمان ، فما نحن وقتلة عثمان ؟ إن الذى تربَّصَ بعثمان ، وثبَّط أهل الشأم عن نُصْرته لأنت ، وإن الذين قتلوه غير الأنصار ، والسلام » . (الإمامة والسياسة ١ : ٨٢)

٤٠٣ — كتاب شرحبيل بن السمط إلى معاوية

وروى ابن قتيبة فى الإمامة والسياسة : أن معاوية دعا أهل الشأم إلى الطلب بدم عثمان ، فقاموا إليه فقالوا : هو ابن عمك وأنت وَلِيُّه ، ونحن الطالبون معك بدمه ، فبايَعُوه أميراً عليهم ، وكتب وبعث الرسل إلى كُوَر الشأم ، وكتب إلى شُرَحْبِيل ابن السِّمْط الكِنْدِىّ ، وهو بحمص أن يبايع له بحمص كما بايع أهلُ الشأم ، فقال شرحبيل : هذه سَقْطة ، ولكنا نبايع له بالخلافة ، ولا نطلب بدم عثمان مع غير خليفة ، فبايع لمعاوية بالخلافة هو وأهل حمص ، ثم كتب إليه :

« أمَّا بعدُ : فإنك أخطأتَ خطأً عظيما حين كتبتَ إلىَّ أن أُبايع لك بالإمْرة ، وأنك تريد أن تطلب بدم الخليفة المظلوم ، وأنت غير خليفة ، وقد بايعتُ ومَن قِبَلى لك بالخلافة » .

فلما قرأ معاوية كتابه سَرّه ذلك ، وأخبر الناس بما قال شرحبيل ، ودعاهم إلى

---

(١) هـذا مارواه ابن قتيبة ، وقد جاء فى لسان العرب : « ويقال : رجل أشيب ، ولا يقال امرأة شيباء ، لا تنعت به المرأة ، اكتفوا بالشمطاء عن الشيباء ، وقد يقال شاب رأسها » وفى القاموس المحيط « وهو أشيب ولا فعلاء له » والثكل : الفقد .

بيعته بالخلافة ، فأجابوه ولم يتخلف منهم أحد[1] . (الإمامة والسياسة ١ : ٦٢)

٤٠٤ — كتاب معاوية إلى على

قال ابن قتيبة : فلما بايع القوم له بالخلافة ، واستقام له الأمر ، كتب إلى على :

« سلام الله على من اتبع الهدى .

أما بعدُ : فإنا كنا نحن وإياكم يداً جامعة ، وأُلْفَةً أَلِيفةً ، حتى طمِعْتَ يا بن أبى طالب ، فتغيَّرتَ وأصبحتَ تَعُدُّ نفسك قويا على من عاداك بِطَغَامِ[2] أهل الحجاز ، وأوباش أهل العراق ، وحَمْقَى الفُسْطاط[3] ، وغَوْغاء السَّواد ، وايْمُ الله لَيَنْجَلِيَنَّ عنك حَمْقاها ، ولَيَنْقَشِعَنَّ عنك غَوغاؤها انقشاعَ السَّحاب[4] عن السماء .

قتلتَ عثمان بن عفّان ، ورَقِيتَ سُلَّما أَطْلَعَك الله عليه مُطْلَع سوء عليك لا لك ، وقتلت الزبير وطلحة ، وشرَّدت أمك عائشة ، ونزلتَ بين المِصْرين فَمَنَّيت وتمنّيت ، وخُيِّل لك أن الدنيا قد سُخِّرت لك بخَيْلها ورَجْلها[5] ، وإنما تعرِفُ أُمْنِيَّتَكَ ، لو قد زرتُك فى المهاجرين من أهل الشأم بَقِيَّة الإسلام ، فيُحيطون بك من ورائك ، ثم يَقضِى الله عِلْمَه فيك والسلام على أولياء الله » (الإمامة والسياسة ١ : ٦٢)

---

(١) الوارد فى تاريخ الطبرى أن عمرو بن العاص بعد أن خدع أبا موسى الأشعرى فى مجلس التحكيم انصرف هو وأهل الشأم إلى معاوية وسلموا عليه بالخلافة (انظر ج ٦ : ص ٤٠) .
وروى أيضا : أن أهل الشأم لما انصرفوا من صفين ، كانوا ينتظرون ما يأتى به الحكمان ، فلما انصرفا وتفرقا ، بايع أهل الشام معاوية بالخلافة ولم يزدد إلا قوة (ج ٦ : ص ٥٥) وفى مروج الذهب أن عمرا بعد فشل التحكيم رجع إلى الشأم ، وأحضر معاوية الخواص من أهل الشأم ، فقال لهم عمرو : قد رأيت أن أبايع معاوية ، فلم أر أحدا أقوى على هذا الأمر منه ، فبايعه أهل الشأم ، وانصرف إلى منزله خليفة — انظر ج ٢ : ص ٣٥ — .

(٢) الطغام : أوغاد الناس .

(٣) الفسطاط : علم مصر العتيقة التى بناها عمرو بن العاص ، يعنى مصر .

(٤) انقشع السحاب : انكشف . (٥) رجل : جمع راجل ، وهو ضد الفارس .

٤٠٥ — رد علىّ على معاوية

فأجابه علىّ :

« أما بعد ، فقدِّر الأمور تقديرَ مَن ينظر لنفسه دُون جُنده ، ولا يشتغل بالهَزْل من قوله ، فلعمرى لئن كانت قوّتى بأهل العراق أوثق عندى من قوتى بالله ومعونتى به ليس[1] عند مَنْ كان على هذا بالله تعالى يقين ، فناج نفسك مناجاةَ مَنْ يستغنى بالجِدّ دون الهَزْل ، فإن فى القول سَعَةً ، ولن يُعْذَر مِثلُك فيما طَمَحَ إليه الرجال .

وأما ما ذكرتَ من أنا كنا وإياكم يداً جامعة ، فكنا كما ذكرت ، ففرّق بيننا وبينكم أن الله بعثَ رسولَه منا فآمَنَّا به وكفرتم ، ثم زعمتَ أنى قتلت طلحة والزبير ، فذلك أمرٌ غِبْتَ عنه ولم تَحْضُرْه ، ولو حَضَرته لَعَلِمتَه ، فلا عليك ، ولا العُذْرُ فيه إليك ، وزَعمت أنك زائرى فى المهاجرين ، وقد انقطعت الهِجْرةُ حين أُسِرَ أخوك[2] ، فإن كانَ فيك عَجَلٌ فاسْتَبْقِهِ ، وإن أَزُرْكَ فَجَدِيرٌ أن يكون الله بَعثنى عليك للنِّقمة منك ، والسلام » . (الإمامة والسياسة ١ : ٦٢)

ورُوى هذان الكتابان بصورة أخرى ، وها كما :

---

(١) جملة ليس جواب القسم ، وبالله متعلق بيقين ، وفى الأصل : « ليس عند الله تعالى يقين من كان على هذا » وهى عبارة مضطربة ، وقد أصلحتها كما ترى .

(٢) فى الأصل « أبوك » وهو تحريف ، يعنى أخاه يزيد بن أبى سفيان ، أسر يوم فتح مكة فى باب الخندمة ، وكان خرج فى نفر من قريش يحاربون ويمنعون المسلمين من دخول مكة ، فقتل منهم قوم وأسر يزيد ، أسره خالد بن الوليد ، فخلصه أبو سفيان منه وأدخله داره فأمن ، لأن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال يومئذ : من دخل دار أبى سفيان فهو آمن ، والمعنى : ليس معك مهاجر ، لأن أكثر من معك ممن رأى رسول الله صلى الله عليه وسلم هم أبناء الطلقاء ومن أسلم بعد الفتح ، وقد قال عليه الصلاة والسلام « لا هجرة بعد الفتح » .

٤٠٦ — كتاب معاوية إلى علىّ

روى ابن أبى الحديد قال :

كتب معاوية إلى علىّ :

« من معاوية بن أبى سفيان إلى علىّ بن أبى طالب :

أما بعدُ : فإنا بَنى عبد مَنَافٍ لم نَزَلْ من قَلِيبٍ[١] واحد ، ونَجْرِى فى حَلْبَةٍ واحدة ، ليس لبعضنا على بعض فَضْل ، ولا لِقَائِمنا على قاعدنا فخر ، كلمتُنا مؤتلفة ، وألْفَتُنَا جامعة ، ودارنا واحدة ، يجمعنا كَرَمُ العِرْق[٢] ، ويَحْوِينا شَرفُ النِّجار ، ويحنُو قويُّنا على ضعيفنا ، ويُواسى غنيُّنا فقيرَنا ، قد خَلَصَت قلوبنا من غِلِّ الحسد ، وطَهُرت أنفسنا من خُبْث النيّة ، فلم نَزَل كذلك حتى كان منك ما كان من الإدْهان[٣] فى أمر ابن عمك والحَسَدِ له ، وتضرِيبِ[٤] الناس عليه ! حتى قُتِل بمَشْهَد منك لاتدفعُ عنه بلسان ولا يد ، فليتك أظهرت نصره حيث أسرَرْتَ خَتْرَه[٥] ، فكنتَ كالمتعلِّق بين الناس بعُذر وإن ضَعُف ، والمتبرِّى من دمه بدَفْعٍ وإن وَهَنَ ، ولكنك جلست فى دارك تَدُسُّ إليه الدواهى ، وتُرْسِل إليه الأفاعى ، حتى إذا قضيتَ وَطَرك[٦] منه أظهرتَ شماتةً ، وأبديتَ طَلَاقةً ، وحَسَرت[٧] للأمر عن ساعدك ، وشمَّرتَ عن ساقك ، ودعوتَ الناس إلى نفسك ، وأكرهت أعيان المسلمين على بَيْعتك .

ثم كان منك بعدُ ما كان من قتلك شَيْخَىِ المسلمين أبى محمد طَلْحة ، وأبى عبد الله

---

(١) القليب : البئر ، والمعنى : من أصل واحد ، والحلبة : الخيل تجتمع للسباق .
(٢) العرق . أصل كل شىء ، والنجار : الأصل أيضا .
(٣) الإدهان : الغش وإظهار خلاف ما يضمر ، وعنى بابن عمه عثمان .
(٤) التضريب بين الناس : الإغراء . (٥) الختر : الغدر والخديعة ، أو أقبح الغدر .
(٦) الوطر : الحاجة . (٧) حسر عن ساعده : كضرب : كشف .

الزبير ، وهما من الموعودين بالجنة ، والمبشَّر قاتلُ أحدهما[١] بالنار فى الآخرة ، هذا إلى تشريدك[٢] بأم المؤمنين عائشة ، وإحلالِها مَحَلَّ الهُون[٣] ، مُبتذَلَةً بين أيدى الأعراب ، وفَسَقة أهل الكوفة ، فمن بين مُنْتَهِرٍ[٤] لها ، وبين شامتٍ بها ، وبين ساخرٍ منها ، ترى ابن عمك كان بهذه العَوْراء[٥] راضياً ؟ أم كان يكون عليك ساخطاً ، ولك عنه زاجرًا أن تُؤذِىَ أهلَه ، وتشرِّد بحَليلته ، وتَسْفِكَ دماء أهل ملته !

ثم تركك دار الهجرة التى قال رسول الله صلى الله عليه وسلم عنها : « إن المدينة لَتَنفِى خَبَثَها ، كما يَنفِى الكِيرُ خَبَثَ الحديد[٦] » فلعمرى لقد صَحَّ وعدُه ، وصدق قولُه ، ولقد نَفَتْ خَبَثَها ، وطردت عنها من ليس بأهل أن يستوطنها ، فأقمتَ بين المِصْرَين ، وبَعُدْتَ عن بركة الحرَمين ، ورضيتَ بالكوفة بدلاً من المدينة ، وبمجاورة الخَوَرْنَق والحِيرة ، عِوَضاً عن مجاورة خاتَم النبوة .

ومن قبل ذلك ما عَيَّبْتَ خليفَتَىْ رسول الله صلى الله عليه وسلم أيام حياتهما ، فقعدت عنهما ، وألَّبت[٧] عليهما ، وامتنعت من بيعتهما ، ورُمْتَ أمراً لم يَرَكَ اللهُ تعالى له أهلا ، ورَقِيتَ سُلَّما وَعْراً ، وحاولت مَقاما دَحْضاً[٨] ، وادّعيتَ مالم تجد عليه ناصراً ، ولعمرى لو وَلِيتَها حينئذ لَمَا ازدادت إلا فسادا واضطرابا ، ولا أعقَبَتْ

---

(١) هو الزبير بن العوام ، وذلك أنه لما انهزم أصحاب عائشة يوم الجمل ، انصرف الزبير حتى أتى وادى السباع ، فتبعه عمرو بن جرموز فقتله فى الفلاة وأتى عليا بسيفه فقال على : سيف طالما جلى الكرب عن وجه رسول الله صلى الله عليه وسلم ، لكنه الحين ومصارع السوء ، وبشر قاتل ابن صفية بالنار ، قال ابن أبى الحديد « وقوله : بشر قاتل ابن صفية بالنار ، اختلف فيه ، فقال قوم من أرباب السير وعلماء الحديث : هو كلام أمير المؤمنين عليه السلام غير مرفوع ، وقوم منهم جعلوه مرفوعا ، وعلى كل حال فهو حق لأن ابن جرموز قتله موليا خارجا من الصف مفارقا للحرب ، فقد قتله على توبة وإنابة ورجوع عن الباطل ، وقاتل هذه حاله فاسق مستحق للنار » . (٢) شرده : طرده ، وشرد به سمع بعيوبه .

(٣) الهون : الذل . (٤) انتهره ونهره : زجره .

(٥) العوراء : الفعلة (والكلمة) القبيحة ، ويعنى بابن عمه رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وحليلته : زوجته ، يعنى عائشة . (٦) كير الحداد : منفاخه ، وخبث الحديد : ما نفاه الكير منه ، وهو ما لاخير فيه . (٧) التأليب : التحريك .

(٨) مكان دحض بالفتح ويحرك زلق .

ولا يَتُسكها إلا انتشاراً وارتداداً ، لأنك الشامخ بأنفه، الذاهب بنفسه، المستطيل على الناس بلسانه ويده .

وها أنا سائر إليك فى جَمْع من المهاجرين والأنصار ، تحفُّهم سيوف شامية ، ورِماح قحطانيّة ، حتى يحاكموك إلى الله ، فانظر لنفسك وللمسلمين ، وادفع إلىّ قتلة عثمان ، فإنهم خاصَّتك وخُلَصاؤك(١) والمُحْدِقون بك ، فإن أبَيْتَ إلا سلوكَ سبيل اللَّجاج والإصرار على الغَىّ والضلال ، فاعلم أن هذه الآية إنما نزلت فيك ، وفى أهل العراق معك : « وَضَرَبَ اللهُ مَثَلاً قَرْيَةً كَانَتْ آمِنَةً مُطْمَئِنَّةً يَأْتِيهَا رِزْقُهَا رَغَداً مِنْ كُلِّ مَكانٍ فَكَفَرَتْ بِأَنْعُمِ اللهِ فَأَذاقَهَا اللهُ لِبَاسَ الْجُوعِ وَالْخَوْفِ بِمَا كَانُوا يَصْنَعُونَ » .

(شرح ابن أبى الحديد م ٤ : ص ٢٠١)

٤٠٧ — رد علىّ على معاوية

وروى الشريف الرضى رحمه الله أن عليًّا عليه السلام كتب إلى معاوية جوابا عن كتابه :

« أما بعدُ : فإنا كنا نحن وأنتم على ما ذكرتَ من الأُلفة والجماعة ، ففرّق بيننا وبينكم أمْسِ أنّا آمنّا وكفرتم ، واليومَ أنّا استقمنا وفُتِنْتم ، وما أسلم مُسْلِمُكم إلا

(١) الخلصاء : جمع خلص بالكسر كخدن ، وهو الصاحب .
وأنت إذا تدبرت هذا الكتاب وجدت أسلوبه أسلوب مغالطة فى إلصاق هذه التهم بعلى ، فإن عليا لم يقتل طلحة والزبير ، وإنما قتلا فى خروجهما عليه ، ولم يشرد بعائشة بل هى شردت بنفسها ، وخرجت إلى البصرة الطلب بدم عثمان فتعرضت لما نالها . على أن عليا بعد أن هزم أصحابها أمر أخاها محمد بن أبى بكر أن يضرب عليها قبة ، وقال : انظر هل وصل إليها شىء من جراحة ؟ فوجدها سليمة لم تصب بشىء ، ثم جاءها فقال : كيف أنت يا أمه ؟ قالت : بخير يغفر الله لك . قال : ولك ، ثم جهزها بكل ما ينبغى لها من مركب أو زاد أو متاع ، واختار لها أربعين امرأة من نساء أهل البصرة المعروفات يرافقنها إلى المدينة ، وقال تجهز يا محمد فبلغها ، وشيعها هو أميالا ، وسرح بنيه معها يوما ، والعجب كل العجب أن يصم عليا بتركه دار الهجرة . وأن يقول له إن المدينة قد نفتك عنها لأنك خبث ، مع أن هذا القول مردود عليه هو ، فقد نفته المدينة عنها منذ ولى الشام من عهد عمر فهل هو إذن خبث ! وكذلك طلحة والزبير وعائشة الذين خرجوا إلى البصرة ، والذين يتعصب لهم ويحتج بهم ! والكلام فى ذلك طويل نجتزئ منه بهذا القدر اليسير .

كَرْهاً(١) ، وبعد أن كان أَنْفَ(٢) الإسلام كلَّه لرسول الله صلى الله عليه وآله حَرْبا .

وذكرتَ أنى قتلتُ طلحة والزبير ، وشرَّدت بعائشة ، ونزلت المِصْرَين ، وذلك أمرٌ غِبْتَ عنه ، فلا عليك ، ولا العُذْرُ فيه إليك .

وذكرتَ أنك زائرى فى المهاجرين والأنصار ، وقد انقطعتِ الهجرة يوم أُسِرَ أخوك(٣) ، فإن كان فيك عَجَلٌ فاسْتَرْفِهْ(٤) ، فإنى إنْ أَزُرْكَ فذلك جَدِير أن يكون الله إنما بعثنى إليك للنِّقْمة منك ، وإنْ تَزُرْنى فكما قال أخو بنى أَسَد :

---

(١) خرج رسول الله صلى الله عليه وسلم سنة ثمان لفتح مكة فى جيش عدته عشرة آلاف مقاتل ، ومضى حتى نزل مر الظهران ، فأمر أصحابه أن يوقدوا النار ، وبعثت قريش أبا سفيان وحكيم ابن حزام وبديل بن ورقاء يتجسسون الأخبار ، وسمع العباس بن عبد المطلب أبا سفيان وهو يقول لبديل : مارأيت كالليلة نيرانا قط ولا عسكرا ، فعرف صوته ، فقال له: والله لئن ظفر بك ليضربن عنقك ، فاركب عجز هذه البغلة حتى آتى بك رسول الله فأستأمنه لك ، فركب خلفه ورجع صاحباه ، حتى مر به عمر بن الخطاب فلما رآه على عجز البغلة ، قال : أبو سفيان عدو الله ! الحمد لله الذى أمكن منك بغير عقد ولا عهد ، وخرج يشتد نحو رسول الله ، وقال له : دعنى فلأضرب عنقه ، فقال العباس : يارسول الله إنى قد أجرته ، وأكثر عمر فى شأنه ، فقال رسول الله : اذهب به ياعباس إلى رحلك ، فإذا أصبحت فأتنى به ، فلما أصبح غدا به إلى رسول الله ، فقال له : ويحك يا أبا سفيان ! ألم يأن لك أن تعلم أن لا إله إلا الله ؟ قال : بأبى أنت ما أحلمك وأكرمك وأوصلك ، والله لقد ظننت أن لو كان مع الله إله غيره لقد أغنى عنى شيئاً بعد ، قال : ويحك يا أبا سفيان ! ألم يأن لك أن تعلم أنى رسول الله ؟ قال : بأبى أنت وأمى ما أحلمك وأكرمك وأوصلك ، أما هذه والله فإن فى النفس منها حتى الآن شيئاً بعد ، فقال له العباس : ويحك ! أسلم واشهد أن لا إله إلا الله وأن محمدا رسول الله قبل أن تضرب عنقك ، فتشهد وأسلم ، فقال العباس: يارسول الله إن أبا سفيان رجل يحب الفخر فاجعل له شيئاً ، فقال : نعم ، من دخل دار أبى سفيان فهو آمن ، ومن أغلق عليه بابه فهو آمن ، ومن دخل المسجد فهو آمن — انظر سيرة ابن هشام ٢ : ٢٦٧ وشرح ابن أبى الحديد م ٤ ص ٢٠٨ وقد أسلم معاوية يوم الفتح كما قدمنا .

(٢) أنف كل شىء: أوله ، أى وبعد أن كان من أسلم منكم محاربا لرسول الله طوال أول الإسلام ، وقد كان أبو سفيان قائد الجيوش الغازية لرسول الله يوم أحد والخندق وأنف هنا منصوب على الظرفية واسم كان ضمير مستتر يعود على مسلمكم .

(٣) هو يزيد بن أبى سفيان أسر يوم الفتح كما قدمنا ، وقد أسر أيضا أخوه عمرو بن أبى سفيان يوم بدر — انظر سيرة ابن هشام ٢ : ٣١ — ولكن ليس هو المراد هنا كما جاء فى تفسير الأستاذ الشيخ محمد عبده ، لقوله «وقد انقطعت الهجرة » .

(٤) أى تكن ذا رفاهية واسترح ولا ترهقن نفسك بالعجل فلابد من تلاقينا ، فأى حاجة بك إلى أن تعجل ؟

مستقبلين رِياحَ الصَّيف تَضرِبُهم بحاصِبٍ بين أغوارٍ وَجُــلمودِ[1]

وعندى السيفُ الذى أعْضَضْتُه[2] بجَدِّك وخالِك وأخيك فى مَقام واحد ، وإنك واللهِ ـ ما علِمْتُ ـ الأغْلَفُ[3] القلب ، المُقَارِبُ العقل ، والأَوْلَى أن يقال لك إنك رَقِيتَ سُلَّما أطْلَعَك مُطْلَع سوءٍ عليك لا لك ، لأنك نَشَدْتَ غير ضالَّتك[4] ، ورعَيْتَ غير سائمَتك ، وطلبتَ أمرا لست من أهله ولا فى مَعْدِنه ، فما أبْعَدَ قولَك من فعلك[5] وقريبٌ ما أشْبَهْتَ[6] من أعمامٍ وأخوالٍ حَمَلَتهم الشقاوةُ ، وتَمَنِّى الباطِل على الجحود بمحمد صلى الله عليه وآله ، فصُرِعوا مَصارِعَهم ، حيث لم يدفعوا عظيماً ، ولم يَمنَعُوا حَرِيماً ، بوَقْع سُيوفٍ ما خَلاَ منها الوَغَى ، ولم تُماشِها[7] الهُوَيْنَى .

وقد أكثرتَ فى قتلة عثمان ، فادخل فيما دخل فيه الناس ، ثم حاكِم القومَ إلىّ ، أحمِلْك وإياهم على كتاب الله تعالى ، وأمَّا تلك التى تُريد فإنها خُدْعة الصبىّ عن اللَّبن (فى أوَّل الفِصال[8] ، والسلامُ لأهله) » . (نهج البلاغة ٢ : ٨٩)

---

(١) ريح حاصب : أى تحمل الحصباء وهى صغار الحصى ، وأغوار : جمع غور بالفتح ، وهو ماسفل من الأرض ، والجلمود : الصخر ، ولا يخفى أن ريح الصيف إذا كانت كذلك كانت شديدة اللفح عظيمة الضرر ، والمعنى : وإن تغزونا تكونوا مستقبلين .. الخ أى تعرضوا أنفسكم لأشد الأخطار .

(٢) يقال : أعضضته الشىء : جعلته يعضه ، وأعضضته سيفى : ضربته به ، فهمزته للتعدية، وقوله: أعضضته بجدك أى جعلته يعضه ويضربه والباء فيه زائدة، وقال ابن أبى الحديد: وأعضضته أى جعلته معضوضا برءوس أهلك ، وأكثر ما يأتى أفعلته أن تجعله فاعلا ، وهو هنا من المقلوب أى أعضضت رءوس أهلك به . وجده هو عتبة بن ربيعة جده لأمه ، وخاله الوليد بن عتبة ، وأخوه حنظلة بن أبى سفيان ، قتلهم على يوم بدر . (٣) الأغلف القلب : الذى لابصيرة له كأن قلبه فى غلاف .مقارب العقل : ناقصه ضعيفه ، كأنه يكاد يكون عاقلا وليس به .

(٤) الضالة : ما فقدته من مال ونحوه ، ونشد الضالة : طلبها وعرفها ، والسائمة : المال الراعى، والمعنى طلبت ماليس لك .

(٥) كان معاوية بادىء الأمر يزعم أنه إنما نهض للطلب بدم عثمان الذى قتل مظلوما ، وأنه لن يكف حتى يقتل قتلته، ثم تكون الخلافة شورى بين المسلمين ، ولكنه كان يعمل لنيل الخلافة وتبوء عرشها .

(٦) مامصدرية ، أى وقريب شبهك .

(٧) لم تماشها : أى لم تصاحبها ، بل مضت مسرعة فى الرءوس والأعناق .

(٨) الفصال : فطم المولود ، وما بين القوسين زائد فى رواية ابن أبى الحديد .

٤٠٨ — كتاب علي إلى معاوية

وكتب علي إلى معاوية :

« من عبد الله على أمير المؤمنين إلى معاوية بن أبي سفيان :

« أما بعد : فإن الدنيا دار تجارة ، وربحها أو خسرها الآخرة ، فالسعيد من كانت بضاعته فيها الأعمال الصالحة ، ومن رأى الدنيا بعينها وقدّرها بقدرها ، وإني لأعظك مع علمي بسابق العلم فيك مما لا مردّ له دون نفاذه ، ولكنّ الله تعالى أخذ على العلماء أن يؤدّوا الأمانة ، وأن ينصحوا الغويّ والرّشيد ، فاتّق الله ولا تكن ممن لا يرجون لله وقارًا ، ومن حقّت عليه كلمة العذاب ، فإن الله بالمرصاد ، وإن دنياك ستدبر عنك ، وستعود حسرة عليك ، فأقلع عما أنت عليه من الغيّ والضلال على كبر سنّك ، وفناء عمرك ، فإن حالك اليوم كحال الثوب المهلهل[(١)] الذى لا يصلح من جانب إلا فسد من آخر .

وقد أرديت جيلا[(٢)] من الناس كثيراً خدعتهم بغيّك ، وألقيتهم فى موج بحرك ، تغشاهم الظلمات ، وتتلاطم بهم الشبهات ، فجاروا عن وجهتهم ونكصوا[(٣)] على أعقابهم ، وتولّوا على أدبارهم ، وعوّلوا على أحسابهم ، إلا من فاء[(٤)] من أهل البصائر ، فإنهم فارقوك بعد معرفتك ، وهربوا إلى الله من موازرتك ، إذ حملتهم على الصّعب وعدلت بهم عن القصد[(٥)] ، فاتّق الله يا معاوية فى نفسك ، وجاذب الشيطان قيادك ، فإن الدنيا منقطعة عنك ، والآخرة قريبة منك ، والسلام » .

(شرح ابن أبي الحديد م ٤ : ص ٥٠ ، ونهج البلاغة ٢ : ٤١)

---

(١) ثوب مهلهل : أى رقيق سخيف النسج ، وفى الأصل « المهيل » وهو تحريف .

(٢) أى أهلكت قبيلا وصنفا . (٣) أى رجعوا .

(٤) أى رجع ، والموازرة : المعاونة والمعاضدة . (٥) القصد : استقامة الطريق .

٤٠٩ — رد معاوية على عليّ

فكتب إليه معاوية :

« من معاوية بن أبي سفيان إلى عليّ بن أبي طالب :

أما بعد : فقد وقَفْتُ على كتابك ، وقد أبَيْتَ على الفِتَن إلا تمادِيًا ، وإني لَعالِمٌ أن الذي يدعوك إلى ذلك مَصْرَعُك الذي لابُدَّ لك منه ، وإن كنت مُوائِلا[1] ، فازْدَدْ غيًّا إلى غيك ، فطالما خفَّ عقلُك ، ومَنَّيْتَ نفسَك ما ليس لك ، والْتَوَيْتَ على من هو خير منك ، ثم كانت العاقبةُ لغيرك ، واحتمَلْتَ الوِزْرَ بما أحاط بك من خَطِيئتك ، والسلام » . (شرح ابن أبي الحديد م ٤ : ص ٥٠)

٤١٠ — رد عليّ على معاوية

فكتب عليّ عليه السلام إليه :

« أما بعد : فإن ما أتيتَ به من ضلالك ليس ببعيد الشَّبَه مما أتى به أهلُك وقومُك ، الذين حَمَلَهم الكفر ، وتمنِّي الأباطيل على حَسَدِ محمد صلى الله عليه وآله حتى صُرِعوا مَصَارِعَهم حيث علمتَ ، لم يمنعوا حَريمًا ، ولم يدفعوا عظيمًا ، وأنا صاحِبُهم في تلك المواطن ، الصَّالي[2] بحربهم ، والفَالُّ لحدِّهم ، والقاتل لرءوسهم رءوس الضَّلالة ، والمُتْبِع إن شاء الله خَلَفَهم بسَلَفِهم ، فبئس الخَلَفُ خَلَفٌ اتَّبع سَلَفًا مَحلُّه ومَحَطُّه النارُ ، والســلام » . (شرح ابن أبي الحديد م ٤ : ص ٥٠)

٤١١ — رد معاوية على عليّ

فكتب إليه معاوية :

« أما بعدُ : فقد طال في الغَيِّ ما استمَرّت أَدْرَاجَك[3] ، كما طالما تمادَى عن

---

(١) وائل : طلب النجاة. (٢) صلى النار كرضي وصلى بها: قاسى حرها ، وفل حد: ثلمه.

(٣) الأدراج : جمع درج بالتحريك وهو الطريق ، ويقال : استمر فلان درجه وأدراجه : أى استمر في طريقه كما يقال . رجع فلان درجه وأدراجه : أى رجع فى طريقه الذى جاء منه ، والنكوص الإحجام .

الحرب نُكوصُك وإبطاؤك ، فتوعدُ وَعيدَ الأسد ، وتَرُوغُ رَوَغانَ الثعلب ، فَحتّامَ تَحِيدُ عن لِقاء مباشَرَة[(١)] الليوث الضارية ، والأفاعى القاتلة ، ولا تستبعدنّها فكلُّ ما هو آتٍ قريبٌ ، إن شاء الله ، والسلام » .

(شرح ابن أبى الحديد م : ٤ ص ٥٠)

٤١٢ — ردّ علىّ على معاوية

فكتب إليه علىّ عليه السلام :

« أما بعدُ : فما أَعْجَبَ ما يأتينى منك ، وما أَعلَمنى بمنزلتك التى أنت إليها صائر ونحوها سائر ، وليس إبطائى عنك إلا ترقّبا لوقت أنت لَهُ مُكَذِّبٌ ، وأنا به مُصَدق ، وكأنّى بك غدًا وأنت تضِجُّ من الحرب ضَجِيجَ الجِمال من الأثقال ، وستدعونى أنت وأصحابُك إلى كتابٍ تعظِّمونه بألسنتكم ، وتجْحَدونه بقلوبكم ، والسلام » .

(شرح ابن أبى الحديد م ٤ ص ٥٠ ، و م ٣ ص ٤١١)

٤١٣ — رد معاوية على علىّ

فكتب إليه معاوية :

« أما بعدُ : فدَعْنى من أساطيرك ، واكفُفْ عنى من أحاديثك ، وأقْصِر[(٢)] عن تقوُّلك على رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وافترائك من الكذب مالم يقل ، وغُرورِ مَن مَعك والخداعِ لهم ، فقد استغوَيْتَهم ويُوشِكُ أمرك أن ينكشف لهم فيعتزلوك ، ويعلموا أنّ ما جئتَ به باطل مُضْمَحِلٌّ ، والسلام » .

(شرح ابن أبى الحديد م ٤ ص ٥٠)

---

(١) أى عن لقاء جنودى مباشرة الليوث : أى مقاتلتها .
(٢) أقصر عن الشىء : كف عنه وانتهى .

٤١٤ — رد عليّ على معاوية

فكتب إليه عليّ عليه السلام :

« أما بعدُ : فطالما دعوتَ أنت وأولياؤك أولياء الشيطانِ الرجيمِ الحقّ أساطيرَ ، ونبذتموه وراء ظهوركم ، وحاولتم إطفاء نورِ الله بأيديكم وأفواهكم ، وَيَأْبَى ٱللهُ إلاَّ أَنْ يُتِمَّ نُورَهُ وَلَوْ كَرِهَ الْكَافِرُونَ ، ولعمرى ليتمنّ النورُ على كُرْهك ، ولينفذن العلم بصغارك[1] وقمأتك ، ولتخسأنّ طريداً مدحوراً ، أو قتيلاً مثبوراً ، ولتجزينّ بعملك حيث لا ناصرَ لك ولا مُصْرِخَ[2] عندك ، فعثْ فى دنياك المنقطعة عنك ما طاب لك ، فكأنك بباطلك وقد انقضى ، وبعملك وقد هوَى ، ثم تصـــير إلى لظَى[3] ، لم يظلمك الله شيئاً ، وَمَا رَبُّكَ بِظَلَّامٍ لِلْعَبِيدِ .

وقد أسهبتَ فى ذكر عثمان ، ولعمرى ما قتلَه غيرُك ، ولا خَذَلَه سواك ، ولقد تربَّصْتَ به الدوائرَ[4] ، وتمنَّيْتَ له الأمانىّ ، طمعاً فيما ظهر منك ، ودل عليه فعلُك ، وإنى لأرجو أن أُلحقك به على أعظمَ من ذنبه ، وأكبرَ من خطيئته ، فأنا ابن عبد المطلب صاحب السيف ، وإنّ قائمته[5] لَفِى يدى ، وقد علمتَ مَن قتلتُ به من صَنَادِيد بنى عبد شمْس ، وفَرَاعنةِ بنى سَهْم وجُمَح وبنى مَخْزوم ، وأيتمتُ أبناءهم ، وأَيَّمْت نساءهم .

وأذكِّرك ما لستَ له ناسياً يوم قتلتُ أخاك حَنْظلة ، وجررْتُ برجله إلى القَلِيب[6] ،

---

(١) الصغار : الذل ، وكذا القمأة والقماءة ، وخسأه كمنع : طرده ، ودحره كمنع : طرده أيضا ، مثبورا : هالكا ، ثبره الله ثبورا كقعد : أهلكه ، وثبر هو ثبورا ، يتعدى ولا يتعدى .

(٢) المصرخ : المغيث ، وعاث يعيث : أفسد . (٣) أى جهنم .

(٤) الدوائر : جمع دائرة وهى الهزيمة ، وتربص به : انتظر به شرا (أو خيرا) يحل به .

(٥) قائمة السيف وقائمه : مقبضه ، والصناديد جمع صنديد بالكسر : وهو السيد الشجاع ، وبنوسهم وجمح ومخزوم : بطون من قريش ، وأيمها : جعلها أيما (كجيد) أى بلا زوج .

(٦) القليب : البئر ، وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم يوم بدر أمر بالقليب أن تغور ، ثم أمر بقتلى المشركين فطرحوا فيها ، وكان على قتل حنظلة وأسر عمرا يوم بدر كما قدمنا .

وأسرتُ أخاك عَمراً فجعلتُ عنقه بين ساقيْه رِباطًا ، وطلبتك ففرَرْتَ ، ولك حُصَاص[١] ، فلولا أنى لا أُتْبَع فارًّا لجعلتُك ثالثهما ، وأنا أُولى[٢] لك بالله أَلِيَّةً بَرَّة غيرَ فاجرة : لَئِن جَمَعَتْنِى وإياك جَوامِعُ الأقدار ، لأَترُكَنَّك مَثَلاً يتمثّل به الناس أبداً ، ولأُجَعْجِعَنَّ[٣] بك فى مُناخك ، حتى يحكمَ اللهُ بينى وبينك وهو خير الحاكمين ، ولئن أَنْسَأَ الله[٤] فى أجَلى قليلا ، لأُغزِيَنَّك سَرَايَا المُسْلِمينَ ، ولأَنْهَدَنَّ إليك فى جَحْفَل من المهاجرين والأنصار ، ثم لا أَقبَلُ لك مَعْذِرة ولا شفاعة ، ولا أُجيبك إلى طلب وسؤال ، ولتَرْجِعَنَّ إلى تحيُّرك ، وتردُّدك وتَلدُّدك[٥] ، فقد شاهدتَ وأبصرتَ ، ورأيت سُحُبَ الموت كَيْفَ هَطَلَتْ عليك بصَيِّبها ، حتى اعتصمتَ بكتابٍ[٦] أنت وأبوك أَوَّلُ مَنْ كفَر وكذَّبَ بنزوله .

ولقد كنتُ تفرَّسْتُها[٧] وآذنتُك أنك فاعِلُها ، وقد مَضَى منها ما مضى ، وانقضى من كيدك فيها ما انقضَى ، وأنا سائر نحوك على أثَرِ هذا الكتاب ، فاَختر لنفسك وانظُرْ لها وتَدارَكْها ، فإنك إن فَطَرْتَ[٨] ، واستمررتَ على غَيِّك وغُلَوَائك حتى يَنْهَد إليك عبادُ الله ، أُرْتِجَتْ عليك الأمورُ ، ومُنِعْتَ أمراً هو اليوم منك مقبول .

---

(١) الحصاص : أن يصر الحمار بأذنيه ويمصع بذنبه (أى يحركه ويضرب به) ويعدو ، والحصاص أيضا الضراط . قال ابن أبى الحديد . سألت النقيب أبازيد عن معاوية هل شهد بدرا مع المشركين ؟فقال: نعم ، شهدها ثلاثة من أولاد أبى سفيان : حنظلة وعمرو ومعاوية ، قتل أحدهم ، وأسر الآخر ، وأفلت معاوية هاربا على رجليه فقدم مكة وقد انتفخ قدماه وورمت ساقاه فعالج نفسه شهرين حتى برأ .

(٢) آلى :أقسم ، والألية: اليمين . (٣) جعجع الإبل ،وجعجع بها :حركها للاناخة.أو النهوض .

(٤) أنسأ : أخر ومد ، وسرايا جمع سرية بالفتح وتشديد الياء : وهى القطعة من الجيش ، وقوله : لأغزينك سرايا المسلمين : أى لأجعلنها تغزوك ، ونهد كمنع : نهض ، والجحفل : الجيش العظيم .

(٥) تلدد : تلفت يمينا وشمالا وتحير متبلدا وتلبث ، وسحاب صيب : ذو صوب أى مطر .

(٦) أى حتى آمنت وصدقت بالقرآن فاعتصمت به من القتل .

(٧) ها فى تفرستها يعود على مفهوم من السياق ، أى تفرست فعلتك التى فعلت ، وهى مغالبتك لى على الخلافة ، وتفرستها أى عرفتها بفراستى ، وآذنتك : أى أعلمتك .

(٨) فطره كضرب ونصر : شقه ، أى إن شققت وحدة المسلمين وفرقت كلمتهم ، والغلواء : الغلو ، وأرتج الباب : أغلقه إغلاقا وثيقا .

يابن حرب ، إن لجاجك فى منازعة الأمر أهله من سفاه(١) الرأى ، فلا يطمعنك أهل الضلال ، ولا يوبقنك سفه رأى الجهال ، فوالذى نفس على بيده ، لئن برقت فى وجهك بارقة من ذى الفقار(٢) لتصعقن صعقة لا تفيق منها حتى ينفخ فى الصور النفخة التى يئست(٣) منها كما يئس الكفار من أصحاب القبور » .

(شرح ابن أبى الحديد م ٤ : ص ٥٩ و م ٣ : ص ٤١١)

٤١٥ — رد معاوية على على

فكتب إليه معاوية :

« أما بعد : فما أعظم الرين على قلبك(٤) ، والغطاء على بصرك ، الشره من شيمتك ، والحسد من خليقتك ، فشمر للحرب ، واصبر للضرب ، فوالله ليرجعن الأمر إلى ما علمت(٥) ، والعاقبة للمتقين ، هيهات هيهات ! أخطأك ما تمنى(٦) ، وهوى قلبك مع من هوى ، فاربع على ظلعك(٧) ، وقس شبرك بفترك ، لتعلم أين حالك من حال من يزن الجبال حلمه ، ويفصل بين أهل الشك علمه ، والسلام » .

(شرح ابن أبى الحديد م ٤ ص ٥١ ، وم ٣ ص ٤١٠)

---

(١) السفاه والسفه والسفاهة واحد ، وأوبقه : أهلكه .

(٢) ذو الفقار : هو سيف العاص بن منبه ، قتل يوم بدر كافراً فصار إلى النبى صلى الله عليه وسلم ، ثم صار إلى على ، وسمى بذلك لأنهم شبهوا ما فيه من الحزوز بالفقار ، ويقال سيف مفقر (بتشديد القاف المفتوحة) : أى فيه حزوز مطمئنة عن متنه ، والصور : البوق .

(٣) أى إبان كفرك ، فقد كانوا قبل الإسلام لا يؤمنون بالبعث والنشور .

(٤) وفى الرواية الأخرى : فإنك المطبوع على قلبك ، المغطى على بصرك ، الشر من شيمتك ، والعتو من خليقتك » والرين : الدنس ، وران ذنبه على قلبه رينا وريونا : غلب .

(٥) أى إلى ، يبغى أن يقول لعلى : (على سبيل المغالطة) إنك تعلم أن الخلافة صائرة إلى ولكنك تخفى ذلك وتتجاهله .   (٦) أى ما تتمنى .

(٧) ظلع كمنع : غمز فى مشيه ، وربع كمنع أيضا : وقف وانتظر وتحبس ، ويقال : اربع على ظلعك أى إنك ضعيف فارفق بنفسك ولا تحمل عليها أكثر مما تطيق ، أى اسكت على ما فيك من العيب ، وأبصر نقصك وعجزك .

٤١٦ - رد عليّ على معاوية

فكتب إليه عليّ عليه السلام :

« أما بعدُ : فإن مَساوِيَك مع علم الله تعالى فيك حالت بينك وبين أن يَصْلُح لك أمرُك ، وأن يرعوِيَ قلبُك ، يابن صَخْر ، يابن اللَّعين(١) ، زعمتَ أنْ يَزِن الجبالَ حِلمُك ، ويَفصِلَ بين أهل الشك عِلمُك ، وأنت الجِلْف المنافق، الأغلَف القلبِ ، القليلُ العقلِ ، الجبَان الرَّذْل(٢) ، وقلتَ : فشمِّر للحرب ، واصبِر للضرب ، فإن كنت صادقاً فيما تزعم ، ويُعينك عليه ابنُ النابغة(٣) ، فدَعِ الناس جانباً ، وتيسَّرْ لِمَا دعوتنى إليه من الحرب ، والصبر على الضرب ، وأعْفِ الفريقين من القتال ، وابرُزْ إلىّ لِتعلمَ أيُّنا المَرِينُ(٤) على قلبه ، المُغَطَّى على بصره ؟ فأنا أبو الحسن قاتِلُ جَدِّك وأخيك وخالك شَدْخاً(٥) يومَ بَدْرٍ ، وذلك السيفُ معى ، وبذلك القلبِ ألْقَى عدوى ، وما أنت منهم ببعيد » .

(شرح ابن أبى الحديد م ٤ : ص ٥٦ وم ٣ ص ٤١١)

٤١٧ - كتاب معاوية إلى عليّ

وروى صاحب العقد قال :

وكتب معاوية إلى عليّ :

« أما بعد : فإنك قتلتَ ناصِرَك ، واستنصرت واتِرَك(٦) ، فأيمُ الله لأَرْمِيَنَّك

---

(١) من كلام الحسن بن على رضى الله عنهما يخاطب معاوية : « وأنشدك الله يامعاوية، أتذكر يوم جاء أبوك على جمل أحمر ، وأنت تسوقه ، وأخوك عتبة هذا يقوده ، فرآكم رسول الله صلى الله عليه وآله فقال : اللهم العن الراكب والقائد والسائق » - انظر شرح ابن أبى الحديد م ٢ : ص ١٠٢

(٢) الجلف : الرجل الجافى ، والأغلف القلب : الذى لابصيرة له كأن قلبه فى غلاف ، وفى الرواية الأخرى : « وأنت الجاهل ، القليل الفقه ، المتفاوت العقل ، الشارد عن الدين »

(٣) هو عمرو بن العاص السهمى ، وفى الرواية الأخرى : « ويعينك عليه أخو بنى سهم » والنابغة أم عمرو - انظر ص ٣٤٣ .

(٤) المرين اسم مفعول من ران .

(٥) الشدخ : كسر الشىء الأجوف وبابه قطع ، شدخ رأسه فانشدخ .

(٦) الوتر : الثأر، وقد وتره يتره كوعد. والشهاب: شعلة من نار ساطعة ، وأذكى النار: أوقدها.

بشهاب تُذْكِيه الريحُ ، ولا يُطفِئه الماء ، فإذا وقع وَقَبَ[1] ، وإذا مَسَّ ثَقَبَ ، فلا تحسَبَنِّي كَسُحَيْمٍ[2] ، أو عَبْدِ القَيْس ، أو حُلْوان الكاهن » .

(العقد الفريد ٢ : ٢٣٣)

٤١٨ — رد علىّ على معاوية

فأجابه علىّ :

« أما بعدُ : فوالله ما قَتَل ابنَ عمك غيرُك ، وإنى أرجو أن أُلحِقَك به ، على مِثْلِ ذنبه وأعظَمَ من خطيئته ، وإن السيف الذى ضربتُ به أباك[3] وأهلك لَمَعِى دائم ، والله ما استحدثتُ ديناً ، ولا استبدلتُ نبيًّا ، وإنى على المِنْهاج الذى تركتموه طائعين وأُدْخِلتم فيه كارهين » .

(العقد الفريد ٢ : ٢٣٣)

٤١٩ — كتاب علىّ إلى معاوية

وروى الشريف الرضى رحمه الله فى نهج البلاغة قال :

ومن كتاب لعلىّ عليه السلام إلى معاوية :

« وكيف أنت صانعٌ إذا تكشَّفَت عنك جَلابيبُ ما أنت فيه من دنيا : قد تَبَهَّجَت[4] بزينتها ، وخَدَعَت بلذّتها ، دَعَتْك فأَجَبْتَها ، وقادتك فاتَّبعْتَها ، وأمرتْك فأطَعْتَها ، وإنه يوشك أن يَقِفَك واقِفٌ على مالا يُنْجيك منه مِجَنٌّ[5] ،

---

(١) المعنى : أحرق كل ما يصادفه ، من وقب الليل إذا دخل فى كل شيء .

(٢) سحيم : هو عبدبنى الحسحاس ، من المخضرمين أدرك الجاهلية والإسلام ، وكان حبشياً يرتضخ لكنة حبشية ، وقتل فى خلافة عثمان — انظر خزانة الأدب للبغدادى ج ٢ : ص ٨٧ ، وقد نقل أخباره عن الكامل للمبرد والأغانى ج ٢٠ ص ٢ وغيرهما وانظر أيضا البيان والتبيين ج ١ : ص ٤٠ — والمعنى لاتظننى ممن لايعتد بشأنه ولايقام له وزن كسحيم ، وأما عبد القيس فلا أدرى المراد به ، وقد أورد صاحب الأغانى أخبارا لعبد قيس بن خفاف البرجمى مع حاتم الطائى (ج ٧ : ص ١٤٥) ومع النابغة الذبيانى (ج ٩ : ص ١٥٨) ولكنها لاتدل على أنه المراد هنا إذ يقول فيه « وكان شريفاً شاعرا شجاعا » وحلوان الكاهن : ما يعطاه الكاهن ويجعل له أجرا على كهانته .

(٣) يعنى جده عتبة بن ربيعة، وربما كان الأصل «أخاك» . (٤) تبهجت: صارت ذات بهجة.

(٥) المجنّ : الترس ، وفى رواية ابن أبى الحديد : « ما لاينجيك منه منج » .

فاقْعَسْ[١] عن هذا الأمر ، وخُذْ أُهْبَةَ الحساب ، وشَمِّر لما قد نزل بك ، ولا تمكّن الغُواةَ مِن سَمْعك ، وإلاّ تفعَلْ أُعلِمْك ما أغفلتَ من نفسك ، فإنك مُتْرَف[٢] قد أخذ الشيطان منك مأْخَذَه ، وبَلَغ فيك أمَلَه ، وجرى منك مَجْرَى الرُّوح والدم[٣] .

ومتى كنتم يا معاويةُ ساسَةَ الرَّعِيَّة ، ووُلاَةَ أمرِ الأُمَّة[٤] ، بغير قِدَم سابق ، ولا شرف باسِق[٥] ؟ ونعوذ بالله من لُزُوم سَوَابق الشقاء ، وأُحَذِّرك أن تكون متمادياً فى غِرَّة الأُمْنِيَّة ، مختلِفَ العلانية والسريرة .

وقد دعوتَ إلى الحرب ، فدَعِ الناس جانباً واخرج إلىّ ، وأَعْفِ الفريقين من القتال ، لِتَعلم أيُّنا المَرِينُ على قلبه ، والمغطَّى على بصره ؟ فأنا أبو حَسَن قاتلُ جَدِّك وخالك وأخيك شَدْخاً يوم بدر ، وذلك السيفُ معى ، وبذلك القلب أَلْقَى عدوى ، ما استبدلتُ ديناً ، ولا استحدثتُ نبيًّا ، وإنى لَعَلَى المِنْهاج الذى تركتموه طائعين ، ودخلتم فيه مُكْرَهين .

وزعمت أنك جئتَ ثائراً[٦] بعثمان ، ولقد علمتَ حيثُ وقع دم عثمان ، فاطلبه من هناك إن كنت طالباً ، فكأنى قد رأيتُك تضِجُّ من الحرب إذا عضتك ، ضجيجَ الجمال بالأثقال ، وكأنى بجماعتك تدعونى ـ جزَعا من الضرب المتتابع ، والقضاءِ الواقع ، ومَصَارِعَ بعدَ مَصَارِعَ ـ إلى كتاب الله ، وهى كافرة جاحِدَة ، أو مُبايِعَة حائِدة » .

(نهج البلاغة ٢ : ٧)

صورة أخــرى

وقال ابن أبى الحديد فى شرح النهج :

إن هذه الخطبة ـ يريد الرسالة ـ قد ذكرها نصر بن مزاحم فى كتاب صِفِّين على

---

(١) أى تأخر . (٢) أى قد أترفتك النعمة وأطغتك .

(٣) أخذها من قوله عليه الصلاة والسلام : « إن الشيطان ليجرى من ابن آدم مجرى الدم » .

(٤) يعنى الأمة الإسلامية ، وإلا فقد كان بنو عبد شمس فى الجاهلية ذوى رياسة وسيادة ـ لا على بنى هاشم ـ وكان عتبة بن ربيعة رئيس الجيش المحارب لرسول الله يوم بدر ، وأبو سفيان قائدهم يوم أحد والخندق . (٥) باسق : عال ، والغرة : الغفلة . (٦) ثأر به : طلب دمه .

وجه يقتضى أن ما ذكره الرضى رحمه الله منها قد ضم إليه بعض خطبة أخرى ، وهذه عادته ، لأن غرضه التقاط الفصيح والبليغ من كلامه .

والذى ذكره نصر بن مزاحم هذه صورته :

« من عبد الله علىّ أمير المؤمنين إلى معاوية بن أبى سفيان :

سلام على من اتّبعَ الهُدى ، فإنى أحمَد إليك اللهَ الذى لا إله إلا هو ، أما بعدُ : فإنك قد رأيتَ مُرورَ الدنيا وانقضاءها ، وتَصَرُّمها[1] ، وتصرُّفها بأهلها ، وخيرُ ما اكتُسِب من الدنيا ما أصابه العباد الصالحون منها من التقوى ، ومن يَقِسِ الدنيا بالآخرة يجِدْ بينهما بعيداً .

واعلم يا معاوية أنك قد ادَّعَيْت أمراً لستَ من أهله ، لا فى القديم[2] ، ولا فى الحديث ، ولستَ تقول فيه بأمر بَيِّنٍ يُعْرَف له أثَر ، ولا عليك منه شاهد ، ولست متعلِّقا بآية من كتاب الله ، ولا عهدٍ من رسول الله صلى الله عليه وسلم .

فكيف أنت صانع إذا تَقَشَّعَتْ عنك غَيَابةُ[3] ما أنتَ فيه من دنيا قد فُتِنْتَ بزينتها ، ورَكَنْتَ إلى لذّاتها ، وخُلِّىَ بينك وبين عدوك[4] فيها ، وهو عدُوّ كَلِب مضِلّ جاهد مُلِحّ مُلِيحٌ ، مع ما قد ثبت فى نفسك من جهتها . دَعَتْك فأجَبْتها ، وقادتك فاتبعتها ، وأمرَتْك فأطعتها ، فاقعَس عن هذا الأمر ، وخُذْ أُهْبَةَ الحساب ، فإنه يوشك أن يَقِفك واقفٌ على مالا ينجيك منه مِجَنّ .

ومتى كنتم يا معاويةُ ساسةَ الرعية ، أو وُلاةً لأمر هذه الأمة ، بلا قدم حَسَن ، ولا شرف تَلِيد[5] على قومكم ؟ ، فاستيقظ من سِنَتك ، وارجع إلى خالقك ، وشمِّر لما سينزل بك ، ولا تمكِّن عدوك الشيطان من بُغيته فيك ، مع أنى أعرف أن الله ورسوله صادقان ، نعوذ بالله من لزوم سابق الشقاء .

---

(١) أى انقضاءها أيضا (٢) يعنى فى أول الإسلام ، لأن معاوية من الطلقاء كما تقدم ، وليس له سابقة فى الإسلام . (٣) غيابة كل شىء : ماستر ك منه (٤) أى الشيطان ، وكلب كفرح اشتد ، وألاحه : أهلكه (٥) أى قديم

وإلّا تفعلْ فإنى أُعْلِمك ما أغفَلْتَ من نفسك ، إنك مُتْرَف قد أخذ منك الشيطان مأخذه : فجرى منك مَجْرَى الدم فى العروق ، ولستَ من أئمة هذه الأمة ، ولا من رُعاتها .

واعلم أن هذا الأمر لو كان إلى الناس ، أو بأيديهم لحَسَدُوناه ولاَمْتَنُّوا علينا به ، ولكنه قضاء ممن مَنَحَنَاهُ ، واختصَّنا به ، على لسان نبيه الصادق المصدَّق ، لا أفلح مَن شكَّ بعد العِرْفان والبَيِّنة ، ربِّ احْكم بيننا وبين عدونا بالحق وأنت خير الحاكمين » .

(شرح ابن أبى الحديد م ٣ : ٤١٢)

٤٢٠ — رد معاوية على علىّ

فكتب معاوية إليه :

من معاوية بن أبى سفيان إلى على بن أبى طالب :

أما بعد فدَعِ الحسَدَ ، فإنك طالما لم تنتفع به ، ولا تُفْسِد سابقَة جهادك بِشِرَّة نَخْوَتك(١) ، فإن الأعمال بخواتيمها ، ولا تُمَحِّص(٢) سابقَتك بقتال مَنْ لاحَقَّ لك فى حقه ، فإنك إن تفعل لاتضُرّ بذلك إلا نفسَك ، ولا تَمْحَق(٣) إلا عملَك ، ولا تُبْطِل إلا حُجَّتك ، ولعمرى إن مامضى لك من السابقات ، لَشَبيهٌ أن يكون مَمْحوقا ؛ لِمَا اجترأْتَ عليه من سَفْك الدماء ، وخلافِ أهل الحق ، فاقرأ السُّورة التى يُذْكر فيها الفَلَق(٤) ، وتعوَّذْ من نفسك ، فإنك الحاسدُ إذا حسَدَ » .

(شرح ابن أبى الحديد م ٣ : ص ٤١٢)

---

(١) النخوة : الكبر والعظمة ، والشرة : النشاط والحدة .
(٢) التمحيص : التنقيص . (٣) محقه كمنع : أبطله ومحاه .
(٤) وأولها « قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ الْفَلَقِ » والفلق : الصبح ، يشير إلى الآية الأخيرة فيها وهى « وَمِنْ شَرِّ حَاسِدٍ إِذَا حَسَدَ » .

٤٢١ — كتاب علي إلى معاوية

وكتب علي إلى معاوية :

« أما بعدُ : فقد بلغني كتابك تذْكر مُشَاغَبتي ، وتستقبِحُ مُوازَرَتِي ، وتزعُمُني متحيِّراً ، وعن حقِّ الله مُقصِّرًا ، فسبحانَ الله ! كيف تستجيزُ الغِيبَة ، وتستحسِن العَضِيهةَ[1] ؟ إني لم أُشاغِبْ إلا في أمرٍ بمعروف ، أو نهيٍ عن مُنكر ، ولم أضْجَر إلا على باغٍ مارِقٍ ، أو مُلْحِدٍ منافق ، ولم آخُذ في ذلك إلا بقول الله سبحانه : « لَا تَجِدُ قَوْمًا يُؤْمِنُونَ بِاللهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ يُوَادُّونَ مَنْ حَادَّ[2] اللهَ وَرَسُولَهُ ، وَلَوْ كَانُوا آبَاءَهُمْ أَوْ أَبْنَاءَهُمْ » . وأما التقصير في حق الله تعالى : فمعاذَ اللهِ ! والمقصِّر في حق الله جل ثناؤه مَن عَطَّل الحقوق المُؤَكَّدَة ، ورَكَنَ إلى الأهواء المبتَدَعة ، وأخلَدَ إلى الضَّلالة المحيِّرة .

ومن العَجَب أن تصف يا معاويةُ الإحسانَ ، وتخالِف البُرْهان ، وتنكُثَ الوثاق التي هي لله عزّ وجل طَلِبةٌ[3] ، وعلى عباده حُجَّةٌ ، مع نَبْذِ الإسلام ، وتضييعِ الأحكام ، وطَمْسِ الأَعْلام ، والجَرْيِ في الهوَى ، والتَّهَوُّسِ في الرَّدَى !

فاتَّقِ الله فيما لديك ، وانظر في حقه عليك ، وارجع إلى معرفة ما لا تُعْذَرُ بجَهَالته فإن الطاعة أعْلاما واضحة ، وسُبُلا نَيِّرَة ، ومَحَجَّةً نَهْجَةً[4] وغايةً مُطْلَبَةً[5] ، يَرِدُها الأَكْيَاسُ[6] ، ويخالفها الأنْكاسُ ، مَن نَكَبَ عنها جار عن الحق ، وخَبط

---

(١) العضيهة : الإفك والبهتان . (٢) حاده : غاضبه وعاداه وخالفه .

(٣) الطلبة : ما يطلب . (٤) المحجة : الطريق الواضحة ، والنهجة : الواضحة أيضا .

(٥) يجوز أن تكون « مطلبة » بتشديد الطاء المفتوحة بمعنى مطلوبة : أي يطلبها المطيعون (وقد جاءت مطلوبة في نهج البلاغة شرح الأستاذ الشيخ محمد عبده) من طلبه كافتعل أي طلبه ، ويجوز أن تكون مطلبة بسكون الطاء وكسر اللام من اطلبه إذا : أعطاه ماطلبه ، أي تؤتى أصحابها مايطلبون من ثواب الله ورحمته وهذا أحسن .

(٦) الأكياس : جمع كيس كجيد ، وهو العاقل . والأنكاس : جمع نكس كقرد ، وهو الدنيء الخسيس ، ونكب عنه كنصر وفرح : عدل ، وخبط : مشى على غير هدى ، والتيه : الضلال .

فى التِّيه ، وغيَّر اللهُ نعمتَه ، وأحلَّ به نِقْمتَه ، فنفسَك نفسَك ، فقد بيَّن الله لك سبيلَك .

وحيثُ تناهتْ بك أمورُك ، فقد أجْرَيتَ(١) إلى غاية خُسْر ، ومَحَلة كُفر ، فإن نفسك قد أوْلَجَتْك شرًّا ، وأقحَمَتْك غيًّا ، وأوردتْك المَهالكَ ، وأوعرَتْ عليك المسالكَ .

وإن للناس جماعةً يَدُ اللهِ عليها ، وغَضَبُ اللهِ على من خالَفها ، فنفسَك نفسَك قبل حُلول رَمْسِك(٢) ، فإنك إلى الله راجع ، وإلى حَشْرِه مُهْطِع(٣) ، وسَيَبْهَظُك كَرْبُه ، ويَحِلّ بك غمُّه ، يوم لا يُغني النادمَ ندَمُه ، ولا يُقْبَلُ من المعتذر عُذْرُه ، يوم لا يُغني مَوْلًى عَنْ مَوْلًى شَيْئًا وَلَا هُمْ يُنصَرُونَ » .

(شرح ابن أبى الحديد م ٤ : ص ٣ ، ونهج البلاغة ٢ : ٢٦) .

٤٢٢ — كتاب على إلى معاوية

« أما بعدُ : فإن الله سبحانَه جعل الدنيا لِمَا بَعْدها ، وابتلى(٤) فيها أهلَها ، ليَعْلَمَ أَيُّهُمْ أَحْسَنُ عَمَلاً ، ولسنا للدنيا خُلِقْنا ، ولا بالسَّعى فيها أُمِرنا(٥) ، وإنما وُضِعْنا فيها لِنُبْتَلَى بها ، وقد ابتلانى الله بك وابتلاك بى ، فجَعَلَ أحدنا حُجَّةً على الآخر ، فغدوتَ على طلب الدنيا بتأويل القرآن(٦) ، وطلبْتَنى بما لم تَجْنِ يدى ولا لسانى ،

(١) أى أجريت مطيتك ، والمعنى سارعت ، والمحلة : المنزل ، وأولجتك : أدخلتك ، وأقحمتك رمت بك . (٢) الرمس : القبر .

(٣) هطع كمنع وأهطع : أقبل مسرعا خائفاً ، لايكون إلا مع خوف ، وقيل المهطع من ينظر فى ذل وخضوع لايقلع بصره ، أو الساكت المنطلق إلى من هتف به ، وبهظه الأمر كمنعه : غلبه وثقل عليه وبلغ به مشقة ، ويغنى: يفيد ، والمولى: الصديق والنصير . (٤) أى اختبر .

(٥) أى لم نؤمر بالسعى فيها لها بل لغيرها وهو الآخرة .

(٦) وذلك أن معاوية كان يقول لأهل الشام ، أنا ولى عثمان ، وقد قتل عثمان مظلوما ، وقد قال تعالى « وَمَنْ قُتِلَ مَظْلُومًا فَقَدْ جَعَلْنَا لِوَلِيِّهِ سُلْطَانًا » (ومعنى التأويل هنا أنه يجعل الآية منطبقة عليه ويقيم نفسه وليا لعثمان مع وجود أبناء عثمان) ثم يعـــدهم الظفر والدولة على أهل العراق بقوله تعالى عقب ذلك « فَلَا يُسْرِفْ فِى الْقَتْلِ إِنَّهُ كَانَ مَنْصُورًا »

وعَصَبْتَه[1] أنت وأهل الشأم بى، وألَّب عالمكم جاهلكم، وقائمكم قاعدكم، فاتق الله فى نفسك ونازع الشيطان قِيادَك ، واصرف إلى الآخرة وجهك ، فهى طريقنا وطريقك ، واحذر أن يصيبَك الله منه بعاجلِ قارعةٍ[2] تَمَسُّ الأصلَ ، وتقطع الدَّابِرَ ، فإنى أُولِى لك بالله أَلِيَّةً غيرَ فاجرة : لئن جَمَعَتْنِى وإياك جوامِعُ الأقدار لا أزال بِباحَتِك حتى يحكم اللهُ بيننا وهو خيرُ الحاكمين » . (نهج البلاغة ٢ : ٨١)

٤٢٣ — كتاب معاوية إلى علىّ

وكتب معاوية مع أبى مُسْلِم الخَوْلانى إلى علىّ قبل مَسِيره إلى صِفِّين[3] :

« من معاوية بن أبى سفيان إلى على بن أبى طالب :

سلام عليك، فإنى أحمَدُ إليك الله الذى لا إله إلا هو ، « أما بعد : فإن الله اصطفى محمداً بعلمه ، وجَعَلَه الأمين على وَحْيه ، والرسولَ إلى خَلْقه ، واجْتَبَى له من المسلمين أعواناً أيَّدَهُ بهم ، وكانوا فى منازلهم عنده على قدر فضائلهم فى الإسلام ، فكان أفضلَهم فى الإسلام ، وأنصحَهم لله ولرسوله ، الخليفةُ من بعده ، ثم خليفةُ الخليفة ، ثم الخليفة الثالث المظلوم عثمان ، فكلَّهم حسَدْت ، وعلى كلِّهم بغَيْتَ ، عرَفنا ذلك فى نظرك الشَّزْر[4] ، وقولك الهُجْر ، وتنفسُّك الصُّعَداء ، وإبطائك عن الخلفاء ، وأنت فى كل ذلك تُقاد كما يقاد البعير المَخْشوش[5] حتى تبايعَ وأنت كارهٌ ، ولم تكن لأحد منهم أشدَّ حَسَداً منك لابن عمك عثمان ، وكان أحقَّهم ألاَّ تفعلَ ذلك به ، فى قرابته

---

(١) أى ربطته بى وألزمتنيه ، وألب : حرض ، والقياد : الزمام .

(٢) القارعة : الداهية ، وتمس : أى تقطع، ومنه ماء مسوس كصبور أى يقطع الغلة « وهى حرارة العطش » والدابر : التابع وآخر كل شىء ، أى ويقطع العقب والفرع (والدابر أيضاً : الأصل) وباحة الدار وساحتها : وسطها .

(٣) صفين: موضع بقرب الرقة على شاطئ الفرات من الجانب الغربى، كانت به وقعة صفين المشهورة بين على ومعاوية سنة ٣٧ هـ .

(٤) النظر الشزر: النظر بمؤخر العين . والهجر : القبيح من الكلام . والصعداء : تنفس طويل .

(٥) المخشوش من خششت البعير : إذا جعلت فى أنفه الخشاش : (ككتاب) وهو مايدخل فى عظم أنفه من خشب لينقاد .

وصِهْره[١] ، فقطعْتَ رَحِمَه ، وقبَّحْتَ محاسِنه ، وأَلَّبتَ عليه الناس ، وبَطَّنت وظهرتَ حتى ضُرِبَتْ إليه آباطُ[٢] الإبل ، وشُهِر عليه السلاح فى حَرَم الرسول ، فقُتل معك فى المَحلّة وأنت تسمع فى داره الهائعةَ[٣] ، لا تُؤَدّى عن نفسك فى أمره بقول ، ولا فعل برّ[٤] ، وأُقْسِم قَسَما صادقا : لو قمتَ فى أمره مَقاما واحداً تُنَهْنِه[٥] الناس عنه ، ماعَدَل بك مَنْ قِبَلنا من الناس أحداً ، ولَمَحا ذلك عنك ما كانوا يَعْرِفونك[٦] به من المجانبة لعثمان والبغى عليه ، وأُخْرَى أنت بها عند أولياء ابن عفان ظَنِين : إيواؤك قَتَلَةَ عثمان ، فهم بِطانتك وعَضُدك وأنصارك ، وقد بلغنى أنك تنتَفِى من دمه ، فإن كنت صادقا فادفع إلينا قتلته نَقْتُلْهم به ، ثم نحن أسرعُ الناس إليك ، وإلاّ فليس لك ولأصحابك عندنا إلا السيف ، والذى نفسُ معاوية بيده : لأَطْلُبَنَّ قتلة عثمان فى الجبال والرمال والبر والبحر حتى نقتلهم ، أو تَلْحَقَ أرواحُنا بالله » .

(العقد الفريد ٢ : ٢٣٣ ، وصبح الأعشى ١ : ٢٢٨ ، وشرح ابن أبى الحديد م ٣ : ص ٤٠٧)

٤٢٤ — رد علىّ على معاوية

فكتب إليه على :

« من عبد الله علىّ أمير المؤمنين إلى معاوية بن أبى سفيان :

أما بعد : فإن أخا خَوْلانَ قَدِم علىَّ بكتاب منك تذكُر فيه محمداً صلى الله عليه وآله ، وما أنعم الله به عليه من الهُدَى والوَحْى ، فالحمدُ لله الذى صَدَقَه الوعدَ ، وأَيَّده

---

(١) أى ومصاهرته لرسول الله صلى الله عليه وسلم فقد تزوج ابنتى الرسول رقية وأم كلثوم .
(٢) آباط جمع إبط كحمل وتكسر الباء : وهو باطن المنكب ، أى حتى سار الثوار إليه .
(٣) الهائعة : الصوت تفزع منه .
(٤) فى ابن أبى الحديد « لاترد الظن والتهمة عن نفسك بقول ولا عمل » .
(٥) تنهنه : تكف ، وماعدل بك : أى ماسوى بك .
(٦) هكذا فى الأصول ، والمعنى عليه صحيح ، وربما كان « يقرفونك به » أى يتهمونك به وبابه ضرب ، والظنين : المتهم .

بالنصر ، ومكّن له فى البلاد ، وأظهَرَه على أهل العَدَاوَةِ والشَّنَآنِ(١) من قومه الذين وَثَبوا عليه ، وشَنِفُوا له(٢) ، وأظهروا تكذيبَه ، ونابذُوه بالعداوة ، وظاهَروا على إخراجه وإخراج أصحابه وأهله ، وأَلَبُوا عليه العرب ، وحزَّبوا الأحزاب(٣) ، وجَهِدوا فى أمره كل الجَهْد ، وقلّبُوا له الأمور ، حتى جاء الحقُّ وظَهَر أمرُ الله وهم كارهون ، وكان أشدَّ الناس عليه تأليباً وتحريضًا أُسْرَتُه ، والأدْنى فالأدْنى من قومه إلاَّ مَن عَصَمَ اللهُ .

وذكرتَ أن الله تعالى اجتَبَى له من المسلمين أعوانًا أيّدَهُ بهم ، فكانوا فى منازلهم عنده على قدر فضائلهم فى الإسلام ، فكان أفضلَهم (زَعَمْتَ) فى الإسلام ، وأنصحَهم لله ولرسوله ، الخليفةُ وخليفةُ الخليفة من بعده ، ولَعَمْرى إن كان مكانهما فى الإسلام لعظيماً ، وإن المُصَابَ بهما لجُرْح فى الإسلام شديد ، فرحَمهما الله وجزاهما أحسن ما عملاَ ، وذكرتَ أن عثمان كان فى الفضل تاليًا ، فإن يكُ عثمان مُحْسِنًا فسيَلْقَى ربًّا شَكوراً يضاعِف له الحسنات ، ويَجْزِيه الثوابَ العظيم ، وإن يك مسيئًا فسيَلْقَى رَبًّا غفوراً لا يتعاظَمُه(٤) ذنْبٌ أنْ يغفِرَه .

ولعَمْرِى إنى لأرجو إذا أعطى اللهُ الناسَ على قدر فضائلهم فى الإســلام ، ونصيحتِهم لله ولرسوله ، أن يكون سَهْمنا فى ذلك ـ أهلَ البيت ـ أوفر نصيب ، إن محمداً صلى الله عليه وآله لمَّـا دعا إلى الإيمان بالله والتوحيد له ، كنا أهلَ البيت أولَ مَن آمنَ به وصدّقه فيما جاء ، فبِتْنا أحوالاً كاملة محرَّمة تامة ، وما يعبُدُ اللهَ فى رَبْعٍ(٥) ساكنٌ من العرب غيرُنا .

---

(١) الشنآن : البغض والكراهية . (٢) شنف له كفرح : أبغضه وتنكره ، ونابذوه : جاهروه ، وفى ابن أبى الحديد « وبارزوه » وظاهره : أعانه .

(٣) يعرض بمعاوية فقد كان أبوه رئيس الأحزاب فى غزوة الأحزاب « غزوة الخندق » كما تقدم

(٤) تعاظمه : عظم عليه . (٥) الربع : المنزل .

فأراد قومنا قتلَ نبينا ، وأجتياح[١] أصْلنا ، وهمُّوا بنا الهُمُومَ ، وفَعَلوا بِنـا الأفاعيلَ[٢] ، ومنَعُونا المَسيرةَ ، وأمسكُوا عنا العَذْبَ ، وأحْلَسُونا[٣] الخوفَ ، وجعلوا علينا الأرصادَ والعيونَ، واضْطرّونا إلى جَبل وَعْر[٤]، وأوقَدوا لنا نار الحرب، وكتبوا بينهم كتاباً[٥] : لا يُؤاكِلوننا ولا يُشَارِبوننا ولا يُناكحوننا ولا يبايِعوننا ، ولا نأمَن منهم حتى ندفعَ إليهم محمداً يقتلونه ويمثِّلون به ، فلم تـكن نأمَن فيهم إلا من مَوْسِم ،

---

(١) الاجتياح : الاستئصال ، والهموم منصوب على المصدرية وأل فيه عهدية ، أى وهموا بنا تلك الهموم التى تعرفونها . (٢) الأفاعيل جمع أفعولة بالضم : أى فعلوا بنا الأفعال المنـكرة ، والمسيرة : السير ، والعذب : أى العيش العذب أى الهنيء –وقد نقل أنهم منعوا من الماء العذب أيام الحصار فى شعب بنى هاشم . (٣) أحلسونا الخوف : أى ألزموناه ، والحلس بالـكسر وكتيب : كساء رقيق يكون على ظهر البعير تحت الرحل ، وما يبسط فى البيت تحت حر المتاع، وأحلس البعير : إذا جعل عليه الحلس ، ويقال : فلان حلس بيته إذا لم يبرحه على المثل ، فالمعنى : وجعلوا الخوف ملازما لنا كالحلس الملازم لظهر البعير، أو كالحلس الملازم للبيت ، والرصد بالتحريك : القوم يرصدون كالحرس ، يستوى فيه الواحد والجمع والمؤنث ، وربما قالوا أرصاد ، والعيون : الجواسيس جمع عين .

(٤) مثل ضربه عليه السلام لخشونة مقامهم وشظف منزلهم إبان مضايقة قريش لهم،ويجوز أن يكون حقيقة لامثلا ، لأن الشعب (بالـكسر) الذى حصروهم فيه مضيق بين جبلين .

(٥) اشتد إيذاء قريش لرسول الله صلى الله عليه وسلم وللمسلمين معه أول الإسلام ، وطال عليهم البلاء والعذاب كما هو مشهور . ثم إن قريشا اجتمعوا وأتمروا أن يكتبوا كتابا يتعاقدون فيه على بنى هاشم وبنى المطلب : على أن لا ينكحوا إليهم ولا ينكحوهم ، ولا يبيعوهم شيئا ولا يبتاعوا منهم ، فـكتبوا ذلك فى صحيفة وتعاهدوا وتواثقوا عليه ، ثم علقوا الصحيفة فى جوف الـكعبة توكيدا على أنفسهم – وكان كاتبها منصور بن عكرمة بن عامر بن هاشم بن عبد مناف – فلما فعلت ذلك قريش انحاز بنو هاشم وبنو المطلب (مسلمهم وكافرهم) إلى أبى طالب بن عبد المطلب ، فدخلوا معه فى شعبه فاجتمعوا إليه،وخرج منهم أبولهب ابن عبدالمطلب إلى قريش فظاهرهم على قومه ، وضاق الأمر ببنى هاشم ، وعدموا القوت إلا ما كان يحمل إليهم سرا وخفية ، وهو شيء قليل لايمسك أرماقهم ، وأخافتهم قريش فلم يكن يظهر منهم أحد ، ولا يدخل إليهم أحد ، وذلك أشد ما لقى رسول الله صلى الله عليه وسـلم وأهل بيته بمكة ، وأقاموا على ذلك سنتين أو ثلاثا ، حتى ائتمر خمسة نفر من قريش – وهم هشام بن عمرو بن الحارث وزهير بن أبى أمية بن المغيرة والمطعم بن عدى بن نوفل وأبو البخترى بن هشام بن الحارث وزمعة بن الأسـود ابن المطلب – وتعاقدوا على القيام فى الصحيفة حتى ينقضوها ، (وكان أولهم أحسنهم بلاء فى ذلك) وقام المطعم إليها فحطها وشقها – وذكروا أنهم وجدوا الأرضة قد أكلتها إلا ما كان من باسمك اللهم ، وأن كاتبها شلت يده – فلما مزقت الصحيفة خرج بنو هاشم من حصار الشعب – انظر سيرة ابن هشام ج ١ ص ٢١٥ – ٢٢٩ وشرح ابن أبى الحديد م ٣ ص ٣٠٨ .

فعزَمَ[١] الله لنا على مَنْعه، والذَّبِّ عن حَوْزَته، والرَّمْيِ من وراء حُرْمته[٢]، والقيام بأسيافنا دونه، فى ساعاتِ الخوف بالليل والنهار، مُؤمِنُنا يَبْغِى بذلك الأجْرَ، وكافِرُنا يحامى عن الأصل[٣]، وأما من أسلَمَ من قريش فإنهم مما نحن فيه خَلاء[٤]، منهم الحَلِيفُ الممنوعُ، ومنهم ذو العَشِيرة التى تدافع عنه، فلا يَبْغيه أحد بمثل ما بَغانا به قومُنا من التَّلف، فهم من القتل بمكانِ نَجْوَةٍ[٥] وأمْنٍ، فكان ذلك ما شاء اللهُ أن يكون.

ثم أمَرَ الله تعالى رسوله بالهجرة، وأذِنَ له بعد ذلك فى قتال المشركين، فكان إذا احمَرَّ الباس[٦]، وأحْجم الناسُ ودُعِيَتْ نَزَالِ، أقام أهلَ بيته فاستقدَمُوا، فوَقَى بهم أصحابَه حَدَّ الأسِنَّة والسيوف، فقُتِل عُبَيْدَةَ[٧] بن الحارث يوم بَدْر، وقُتِل حمزة يوم أُحُدٍ، وقُتل جعفر وزيد يوم مُؤْتَة، وأراد من لو شئتُ ذكرتُ اسمَهُ[٨] مثلَ الذى أرادوا من

---

(١) أى قضى الله لنا ووفقنا له وجعلنا عازمين عليه، والذب: الدفع، والحوزة: الناحية وبيضة الملك. (٢) وفى رواية ابن أبى الحديد «من وراء حومته»، وحومة الماء والرمل: معظمه، والرمى عنها المناضلة والمحاماة. (٣) أى يدافع عن محمد حمية ومحافظة على النسب.

(٤) أى خالون منه. وفى نهج البلاغة «ومن أسلم من قريش خلو مما نحن فيه، بحلف يمنعه، أو عشيرة تقوم دونه» والحلف بالكسر: العهد.

(٥) النجو مصدر نجا، كالنجاة والنجاء، والنجوة بالتاء: المكان المرتفع الذى تظن أنه نجاؤك، وهذه الكلمة زائدة فى رواية ابن أبى الحديد، وهى هنا مستعملة بمعنى المصدر، أو هى محرفة عن نجو.

(٦) أى اشتد القتال حتى احمرت الأرض من الدم، وهو مجاز كقولهم الموت الأحمر، وأحجم الناس: أى كفوا عن الحرب وجبنوا عن الإقدام، يقال: حجمت فلانا عن كذا وأحجمه بالضم فأحجم هو، وهذه اللفظة من النوادر كقولهم كبيته فأكب، ونزال: اسم فعل بمعنى انزل بمعنى المنازلة، ولذا أنث قال الشاعر:

ولنعم حشو الدرع أنت إذا   دعيت نزال ولج فى الذعر

وقال آخر:

وقد علمت سلامة أن سيفى   كريه كلما دعيت نزال

واستقدموا: تقدموا، ونهج البلاغة «قدم أهل بيته».

(٧) هو عبيدة بن الحارث بن المطلب بن عبد مناف، بارز يوم بدر عتبة بن ربيعة، فاختلفا بينهما ضربتين، كلاهما جرح صاحبه، فحمل على وحمزة على عتبة فأجهزا عليه، واحتملا عبيدة جريحا، ثم مات من جراحته، وحمزة بن عبد المطلب عم الرسول قتل يوم أحد غافله وحشى - وهو مولى حبشى لجبير بن مطعم - وضربه فقتله، ومؤتة: قرية فى حدود الشأم، وكان عليه الصلاة والسلام جهز جيشاً للقصاص ممن قتلوا الحارث بن عمير الأزدى رسوله إلى أمير بصرى، وأمر عليهم مولاه وحبه زيد بن حارثة بن شراحيل الكلبى - وكان ذلك سنة ثمان للهجرة - وقال لهم: إن أصيب فالأمير جعفر بن أبى طالب، فإن أصيب فعبد الله بن رواحة، وقد قاتل ثلاثتهم حتى استشهدوا فى تلك الغزوة. (٨) يعنى نفسه.

الشهادة مع النبي صلى الله عليه وآله غير مرّة ، إلا أن آجالهم عُجِّلت ، ومنيَّته أُجِّلتْ ، واللهُ وَلِيُّ الإحسان إليهم ، والمِنَّة عليهم ، بما أسلفوا من أمر الصالحات ، فما سمعتُ بأحد ولا رأيتُه هُوَ أَنْصَحَ فى طاعةِ اللهِ ورسوله ، ولا أَصْبَرَ عَلَى اللَّأْواء[1] ، والسَّرّاء والضَّرّاء ، وحينَ البأس ، ومواطن المكروه مع النبى صلى الله عليه وآله ، من هؤلاء النَّفَر الذين سمَّيتُ لك ، وفى المهاجرين خير كثير يُعرَف ، جزاهم الله خيراً بأحسن أعمالهم .

فيا عَجَباً للدهر ! إذ صرتُ يُقرَن بى من لم يَسْعَ بقَدَمى ، ولم تكن له كسابقتى التى لا يُدْلِي أحد بمثلها ، إلاّ أن يَدَّعِيَ مُدَّع ما لا أعرفه ، ولا أظن الله يعرفه ، والحمد لله على كل حال .

وذكرتَ حَسَدى الخلفاءَ وإبطائى عنهم وبغيى عليهم ، فأما البغىُ فمعاذَ اللهِ أن يكون ، وأما الإبطاء عنهم والكراهية لأمرهم فلست أعتذر إلى الناس من ذلك ، إن الله تعالى ذكرُهُ لما قبض نبيه صلى الله عليه وآله ، قالت قريش : منا أمير . وقالت الأنصار : منا أمير ، فقالت قريش : منا محمد ، فنحن أحقُّ بالأمر ، فعرَفَتْ ذلك الأنصارُ ، فسلَّمت لهم الولايةَ والسلطان ، فإذا استحقوها بمحمد صلى الله عليه وآله دون الأنصار ، فإن أَوْلَى الناس بمحمد أحقُّ به منهم ، وإلاّ فإن الأنصار أعظم العرب فيها نصيباً ، فلا أدْرِى : أصحابى سَلِمُوا من أن يكونوا حَقِّى أخذوا ، أو الأنصارَ ظَلَموا ؟ بل عرَفْتُ أن حقى هو المأخوذ ، وقد تركته لهم ، تجاوز الله عنهم .

وأما ما ذكرتَ من أمر عثمان ، وقطيعتى رَحِمَه ، وتأليبى عليه ، فإن عثمان عَمِل ما قد بلغك ، فَصَنَعَ الناس به ما رأيتَ ، وإنك لتعلم أنى قد كنت فى عُزْلة عنه ، إلا أن تتجنَّى ، فتَجَنَّ ما بدا لك . وأما ما ذكرتَ من أمر قتلة عثمان ، فإنى نظرت فى هذا الأمر ، وضرَبْتُ أنفَه وعَيْنَه[2] ، فلم أره يَسَعُنِي دَفْعُهُم إليك ولا إلى غيرك ، ولعمرى

---

(١) اللأواء : الشدة . (٢) جاء فى الأمثال « ضرب وجه الأمر وعينه » وهو مثل يضرب لمن يداور الشئون ويقلبها ظهرا لبطن من حسن التدبير .

لَئِنْ لم تنزِع[1] عن غيِّك وشِقاقك ، لَتعرفَنَّهم عمّا قليل يطلبونك ، لا يكلِّفونك أن تطلبَهم في برّ ولا بحر ، ولا جبل ولا سهل ، إلا أنه طَلَبٌ يَسُوءك وجْدانُه ، وزَوْر[2] لا يسرُّك لِقْيانُه .

وقد كان أبوك أبو سفيان أتاني حين قُبِض رسول الله صلى الله عليه وآله ، فقال : أنت أحقُّ بمقام محمد ، وأوْلَى الناس بهذا الأمر ، وأنا زعيم[3] لك بذلك على مَنْ خالَف ، ابْسُط يدك أُبايِعْك[4] ، فلم أفعل ، وأنت تعلم أن أباك قد قال ذلك وأراده ، حتى كنت أنا الذي أَبيْتُ عليه ، مخافةَ الفُرقة بين أهل الإسلام ، لِقُرْب عَهْد الناس بالكفر ، فأبوك كان أعرَف بحقِّي منك ، فإن تعرِفْ مِن حقِّي ما كان أبوك يعرفُ تُصِبْ رُشْدك ، وإلاّ فنستعين الله عليك ، والسلام لأهله » .

(شرح ابن أبي الحديد م ٣ : ص ٤٠٨ ، ونهج البلاغة ٢ : ٦ ، والعقد الفريد ٢ : ٢٣٤)

٤٢٥ — كتاب معاوية إلى عليّ

وكتب معاوية إلى عليّ كتاباً أنفذَه إليه مع أبي أُمامة الباهلي ، ونسخته :

« من عبد الله معاوية بن أبي سفيان إلى علي بن أبي طالب :

أما بعدُ : فإن الله تعالَى جَدُّه اصطفى محمداً عليه الصلاة والسلام لرسالته ، واختصَّه بوَحْيه وتأدية شريعته ، فأنقذَ به من العَمَاية[5] ، وهَدَى به من الغَواية ، ثم قبَضه إليه

---

(١) أي تكف . (٢) الزور : الزائرون .

(٣) أي كفيل . (٤) روى أنه لما بويع أبو بكر بالخلافة . قال أبو سفيان لعلي: ما بال هذا الأمر في أقل حي من قريش ؟ والله لئن شئت لأملأنها عليه خيلا ورجالا ، فقال علي : يا أبا سفيان طالما عاديت الإسلام وأهله فلم تضره بذاك شيئاً ، إنا وجدنا أبا بكر لها أهلا. وروى أيضاً أنه لما اجتمع الناس على بيعة أبي بكر أقبل أبو سفيان وهو يقول : والله إني لأرى عجاجة لا يطفئها إلا دم ، يا آل عبد مناف، فيم أبو بكر من أموركم ؟ أين المستضعفان ، أين الأذلان علي والعباس ؟ وقال : أبا حسن ابسط يدك حتى أبايعك ، فأبى علي عليه ، فجعل يتمثل بشعر المتلمس :

ولن يقيم على ضيم يراد بــه ... إلا الأذلان عير الحي والوتد
هذا على الخسف معكوس برمته ... وذا يشج فلا يبكي له أحد

فزجره علي، وقال: إنك والله ما أردت بهذا إلا الفتنة، وإنك والله طالما بغيت الإسلام شرا، لا حاجة لنا في نصيحتك ــ انظر تاريخ الطبري ٣ : ٢٠٢ . (٥) العماية : الغواية ، والإفك : الكذب :

رشيداً حميداً ، قد بلَّغ الشرعَ ، ومَحَق الشِّرك ، وأخمَد نارَ الإفك ، فأحسَنَ اللهُ جَزاءه، وضاعَفَ عليه نِعَمه وآلاءه[١]، ثم إن الله سبحانه اختص محمداً عليه الصلاة والسلام بأصحاب أيَّدوه ونصروه وكانوا كما قال الله سبحانه لهم : « أشِدَّاء عَلَى الكُفَّارِ رُحَمَاء بَيْنَهُمْ » فكان أفضلَهم مَرتبةً ، وأعلاهم عند الله والمسلمين منزلةً الخليفةُ الأول، الذى جَمَع الكلمة ، ولَمَّ الدَّعوة وقاتل أهل الرِّدَّة ، ثم الخليفة الثانى الذى فَتح الفتوح ، ومَصَّر الأمصار ، وأذلَّ رقاب المشركين ، ثم الخليفة الثالث المظلوم الذى نَشَر المِلَّة ، وطبَّق[٢] الآفاق بالكلمة الحنيفيَّة .

فلما استوثق الإسلام وضرب بجِرَانه[٣] ، عَدَوْتَ عليه ، فبغَيْتَه الغَوائلَ ، ونَصَبْتَ له المكايدَ ، وضربت له بَطْنَ الأمر وظَهْرَه ، ودَسَسْتَ عليه وأغرَيْتَ به ، وقعدت - حيث استنصرك - عن نصره ، وسألك أن تُدْرِكه قبل أن يُمزَّق فما أدركتَه ، وما يومُ المسلمين منك بواحد ، لقد حَسَدْتَ أبا بكر والْتَوَيْتَ عليه ، ورُمْتَ إفساد أمره ، وقَعَدتَ فى بيتك ، واستغوَيْتَ عِصابةً من الناس حتى تأخَّروا عن بيعته ، ثم كرِهْتَ خلافة عُمَرَ وحَسَدته ، واستطلْتَ مدته وسُرِرْتَ بقتله ، وأظهرت الشماتة بمُصابه ، حتى إنك حاوَلْتَ قتلَ ولده[٤] لأنه قَتَل قاتلَ أبيه ، ثم لم تكن أشدَّ منك

---

(١) الآلاء : النعم ، واحـدها إلى كحمل وألو وألى كشمس ، وألى كفتى ، وإلى كرضا .

(٢) من طبق السحاب الجو : أى غشاه . (٣) جران البعير : مقـدم عنقه من مذبحه إلى منحره ، ومعنى ضرب الإسلام بجرانه . أى استقام وقر فى قراره كما أن البعير إذا برك واستراح مـد جرانه على الأرض .

(٤) يعنى عبيد الله بن عمر ، وذلك أنه لما قتل أبو لؤلؤة فيروز المجوسى أباه عمر بن الخطاب رضى الله عنه كما قدمنا ، قال عبد الرحمن بن أبى بكر غداة طعن عمر : مررت عشى أمس على أبى لؤلؤة، ومعه الهرمزان وجفينة(وجفينة رجل نصرانى من العباد - بكسر العين - من أهل الحيرة أقدمه إلى المدينة سعد ابن أبى وقاص ليعلم بها الكتابة) وهم نجى (أى يتناجون ويتسارون) فلمـا رهقتهم (بكسر الهاء أى غشيتهم) ثاروا وسقط منهم خنجر له رأسان نصابه فى وسطه ، فانظروا بأى شىء قتل ، فجىء بالخنجر الذى وصف ابن أبى بكر ، فسمع بذلك عبيد الله بن عمر فأمسك حتى مات عمر ، ثم اشتمل على السيف فقتل الهرمزان وجفينة وابن فيروز ، فنهاه الناس فلم ينته وكان يقول : والله لأقتلن رجالا ممن شرك فى دم أبى - يعرض بالمهاجرين والأنصار- فأرسل إليه صهيب (وكان عمر أوصى أن يصلى صهيب بالناس إلى =

حسداً لابن عمك عثمان ، نَشَرْتَ مَقابِحَه ، وطَوَيْتَ محاسِنَه ، وطَعَنْتَ فى فِقهه ، ثم فى دينه ، ثم فى سِيرته ، ثم فى عقله ، وأغرَيْتَ به السُّفهاء من أصحابك وشِيعتك ، حتى قتلوه بمَحْضَرٍ منك ، لا تدفع عنه بلسان ولا يد ، وما مِن هؤلاء إلا مَنْ بغيتَ عليه ، وتلكّأتَ فى بَيْعَتِهِ حتى حُمِلْتَ إليه قَهْراً تُساقُ بخزائم الاقتسار(١) كما يساق الفَحْلُ المخشوش ، ثم نهضت الآن تطلبُ الخلافة ، وقَتَلَةُ عثمان خُلَصاؤك وسُجَراؤك(٢) والمُحْدِقون بك ، وتلك من أمانِي النفوس وضَلالات الأهواء .

= أن يقوم خليفة) عمرو بن العاص فأخذ السيف من يده، فلما أخذ عمرو السيف وثب عليه سعد بن أبى وقاص فتناصيا (أى أخذ كل منهما بناصية صاحبه) وقال : قتلت جارى وأخفرتنى ! وحبسه صهيب فى دار سعد حتى سلمه إلى عثمان لما استخلف ، فقال عثمان : أشيروا على فى هذا الرجل الذى فتق فى الإسلام ما فتق ، فقال بعضهم ومنهم على : نرى أن تقتله ، وقال آخرون ومنهم عمرو بن العاص : قتل عمر أمس، ويقتل ابنه اليوم ! أبعد الله الهرمزان وجفينة ، وقال عمرو أيضا : ياأمير المؤمنين إن الله قد أعفاك أن يكون هذا الحدث كان ولك على المسلمين سلطان، إنما كان هذا الحدث ولا سلطان لك،فتركه عثمان وأعطى دية من قتل واحتملها فى ماله ، وقيل إنما تركه عثمان لأنه قال للمسلمين : من ولى الهرمزان ؟ قالوا: أنت، قال : قد عفوت عن عبيد الله ، وقيل . إن عثمان سلم عبيد الله إلى القماذبان بن الهرمزان ليقتله بأبيه ، قال القماذبان : فأطاف بى الناس وكلمونى فى العفو عنه ، فقلت : هل لأحد أن يمنعنى منه ؟ قالوا : لا ، قلت : أليس إن شئت قتلته ؟ قالوا : بلى ، قلت : قد عفوت عنــه ، وتركته لله ولهم ، فاحتملونى فو الله ما بلغت المنزل إلا على رءوس الرجال وأكفهم ! وفى هذا نظر، لأنه لو عفا عنه ابن الهرمزان لم يكن لعلى أن يقتله ، وقد أراد قتله لما ولى الخلافة) .

ولم يزل عبيد الله كذلك حيا حتى قتل عثمان وولى على الخلافة ، وكان رأيه أن يقتل عبيد الله فأراد قتله ، فهرب منه إلى معاوية ، وشهد معه صفين ، وكان على الخيل ،فقتل فى بعض أيام صفين ــ انظر أسد الغابة ج ٣ : ص ٣٤٢ وتاريخ الطبرى ج ٥ : ٤١ ــ ٤٤ ــ .

وجاء فى مروج الذهب أيضا (ج ٢ : ص ٢٠) : « كان عبيد الله بن عمر لحق بمعاوية خوفا من على أن يقيــده بالهرمزان ، وذلك أن أبا لؤلؤة غلام المغيرة بن شعبة كان قتل فى أرض العجم غلاما للهرمزان ، فلما قتل عمر شد عبيد الله على الهرمزان فقتله ، وقال : لا أترك بالمدينة فارسيا ولا فى غيرها إلا قتلته ، وكان الهرمزان عليلا فى الوقت الذى قتل فيه عمر ،فلما صارت الخلافة إلى على أراد قتل عبيدالله ابن عمر بالهرمزان لقتله إياه ظلما من غير سبب استحقه ، فلجأ إلى معاوية اهـ » .

هذا ولا يفوتنا أن نقول إن أبا لؤلؤة لما طعن عمر فى الصلاة (وقد طعن فى المسجد معه ثلاثة عشر رجلا مات منهم سبعة) أقبل رجل من بنى تميم يقال له حطان ، فألقى كساءه عليه ثم احتضنه ، فلما علم أبولؤلؤة أنه مأخوذ طعن نفسه ــ انظر العقد الفريد ٢ : ٢٠٩ ــ .

(١) فى كتب اللغة : الخزام والخزامة بالكسر : ما حزم به ، والجمع حزم ككتب ، وقسره على الأمر واقتسره : قهره ، وقد تقدم معنى المخشوش .

(٢) الخلصاء جمع خلص بالكسر ، وهو الخدن بالكسر أيضا أى الصاحب، والسجراء جمع سجير ككريم : وهو الخليل الصفى ، وفى الأصل « شجرؤك » وهو تصحيف .

فَدَعِ اللجاجَ والعَبَثَ[1] جانباً ، وادفع إلينا قتلة عثمان ، وأَعِدِ الأمر شُورَى بين المسلمين ، ليتفقوا على مَن هو لِلّهِ رِضًا ، فلا بيعة لك فى أعناقنا ، ولا طاعةَ لك علينا ، ولا عُتْبَى[2] لك عندنا ، وليس لك ولأصحابك عندى إلا السيف ، والذى لا إله إلا هو لأطلُبَنَّ قتلةَ عثمان أين كانوا وحيث كانوا حتى أقتلهم ، أو تَلْحَقَ رُوحِي بالله .

فأمَّا مالا تَزال تَمُنُّ به من سابقتك وجهادك ، فإنى وجدت الله سبحانه يقول : « يَمُنُّونَ عَلَيْكَ أَنْ أَسْلَمُوا قُلْ لَا تَمُنُّوا عَلَيَّ إِسْلَامَكُمْ ، بَلِ اللَّهُ يَمُنُّ عَلَيْكُمْ أَنْ هَدَاكُمْ لِلْإِيمَانِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ » ولو نظرتَ فى حال نفسك لوجدتَها أشد الأنفس امتناناً على الله بعملها ، وإذا كان الامتنان على السائل يُبْطِل أجر الصدقة ، فالامتنان على الله يُبْطل أجر الجهاد ، ويجعله كصَفْوانٍ[3] عَلَيْهِ تُرَابٌ فَأَصَابَهُ وَابِلٌ فَتَرَكَهُ صَلْدًا لَا يَقْدِرُونَ عَلَى شَيْءٍ مِمَّا كَسَبُوا وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْكَافِرِينَ » .

(شرح ابن أبى الحديد م ٣ : ص ٤٤٨)

٤٢٦ — رد علىّ على معاوية

فكتب إليه علىّ :

« أما بعدُ : فقد أتانى كتابك تذكُر فيه اصطفاء الله محمداً صلى الله عليه وآله لدينه وتأييدَه إياه بمن أيَّده به من أصحابه ، فلقد خبَّأ لنا الدهر منك عجبًا ، إذ طفقتَ تُخْبِرنا ببلاء[4] الله عندنا ، ونعمَتِه علينا فى نبيِّنا ، فكنتَ فى ذلك كناقِلِ التَّمْر إلى هَجَرَ[5] ، أَوْ داعِي مُسَدِّدِه إلى النِّضال ، وزعمتَ أن أفضل الناس فى الإسلام

---

(١) ربما كان والعنت . (٢) العتبى : الرضا .

(٣) الصفوان واحدته صفوانة ، وهى الحجر الصلب الضخم . (٤) أى إنعامه وإحسانه .

(٥) هجر : قاعدة البحرين وهى كثيرة النخل فهى معدن التمر ، وفى الأمثال « كمستبضع التمر إلى هجر » ويقال أيضا « كمستبضع التمر إلى خيبر » قال النابغة الجعدى :

وإن امرأ أهدى إليك قصيدة كمستبضع تمرا إلى أرض خيبرا

ومسدده : أى معلمه الرمى وموفقه للسداد ، وفى صبح الأعشى ونهاية الأرب « أو داعى مدره » والمدره كمنبر : المقدم فى اللسان واليد عند الخصومة والقتال .

فلان وفلان(١) ، فذكرتَ أمراً إن تَمّ اعتزَلَك كُلُّه ، وإن نَقَص لم يَلحَقْك ثَلْمُه، وما أنت والفاضلُ والمفضول ، والسائس والمَسُوس ؟ وما للطُّلقاء ، وأبناء الطلقاء ، والتمييزَ بين المهاجرين الأولين ، وترتيبَ درجاتهم ، وتعريفَ طَبَقاتهم ؟ هيهاتَ لقدحَنَّ قِدْحٌ ليس منها(٢) ، وطفِقَ يحكُمُ فيها(٣) مَن عليه الحُكْمُ لها ! ألَا تَرْبَعُ أيها الإنسانُ على ظَلْعك ، وتعرفُ قُصورَ ذَرْعك(٤) ، وتتأخَّر حيثُ أخَّرك القَدَرُ ؟ فما عليك غَلَبةُ المغلوبِ ، ولا لك ظَفَر الظافر !

وإنك لذَهَّابٌ في التِّيهِ(٥) ، روَّاغ عن القَصْدِ ، ألَا ترَى ـ غيرَ مُخْبِر لك ، ولكنْ بنعمة الله أُحدِّث ـ أن قوما استُشْهِدُوا في سَبِيلِ اللّٰهِ تَعَالَى مِنَ المُهَاجِرِينَ وَالأَنْصَارِ ـ وَلِكُلٍّ فَضْلٌ ـ حَتّى إذا استُشْهِد شَهيدنا ، قيل : سيِّد الشُّهداء(٦) ، وخَصَّه رسول الله صلى الله عليه وآله بسبعين تكبيرةً عند صَلاته عليه(٧) ، أوَلَا ترَى أن قوماً

---

(١) أي أبو بكر وعمر ، وثلمه : أي عيبه ، وفي صبح الأعشى ونهاية الأرب « قله » بالضم ، وهو القلة ، وفيهما أيضا « والسائل والمسئول » محل « والسائس والمسوس» والرواية التي أوردناها (وهي رواية نهج البلاغة) أنسب .

(٢) في الأمثال « حن قدح ليس منها » حن: صوت ، والقدح أحد قداح الميسر ، وإذا كان أحد القداح من غير جوهر أخواته ثم أجاله المفيض خرج له صوت يخالف أصواتها ، فيعرف به أنه ليس من جملة القداح ، يضرب للرجل يفتخر بقبيلة ليس هو منها ، أو يتمدح بما لا يوجد فيه ، وها في منها راجعة إلى القداح ، وقد تمثل به عمر بن الخطاب رضي الله عنه حين قال له الوليد بن عقبة بن أبي معيط : أأقتل من بين قريش ؟ فقال عمر : حن قدح ليس منها (وقد ذكر جماعة من النسابين أن جد أبيه ذكوان بن أمية بن عبد شمس كان مولى لأمية ، وكان يلقب بالصفوري نسبة إلى صفورية بلد بالأردن ، فتبناه أمية ، فبنوه موال وليسوا من بني أمية لصلبه ـ انظر شرح ابن أبي الحديد (م ١ ص ١٥) .

(٣) أي في الطبقات . (٤) ذرع الإنسان طاقته التي يبلغها .

(٥) التيه : الضلال والكبر ، وراغ عنه مال وحاد ، والقصد : استقامة الطريق .

(٦) هو حمزة بن عبد المطلب ، قتل يوم أحد كما قدمنا وسماه رسول الله صلى الله عليه وسلم سيد الشهداء ، وأشهد مجهولا واستشهد كذلك : قتل في سبيل الله . (٧) روي أنه كان عليه السلام كلما أتي بشهيد وضع إلى جنب حمزة فصلى عليه وعلى الشهيد حتى صلى عليه سبعين مرة ، لأن الشهداء في أحد سبعون (ابن أبي الحديد م ٣ : ص ٣٩٥) وجاء في ترجمته في أسد الغابة ج ٢ : ص ٤٩ : « عن أنس بن مالك قال: كان النبي صلى الله عليه وسلم إذا كبر على جنازة كبر عليها أربعا ، وأنه كبر على حمزة سبعين تكبيرة ، وعن ابن عباس قال : صلى رسول الله صلى الله عليه وسلم على حمزة فكبر عليه سبع تكبيرات . ثم لم يؤت بقتيل إلا صلى عليه معه حتى صلى عليه ثنتين وسبعين صلاة» ـ انظر قول ابن عباس أيضا في سيرة ابن هشام ج ٢ ص ٨٧ .

قُطِعَتْ أيديهم في سبيل الله — ولكُلٍّ فضل — حتى إذا فُعِل بواحِدِنا[١] ما فُعِلَ بواحدهم، قيل الطَّيَّارُ في الجنة وذو الجَناحَيْن، ولولا ما نَهى الله عنه من تَزْكيةِ المرءِ نفسَه، لَذَكَرَ ذاكِرٌ[٢] فضائِلَ جَمَّةً، تَعْرِفها قلوبُ المؤمنين، ولا تَمُجُّها آذان السامعين.

فدَعْ عنك مَنْ مالت به الرَّمِيَّةُ[٣]، فإنا صنائِعُ ربنا[٤]، والناسُ بعدُ صنائعُ لنا، لم يَمْنَعنا قديمُ عزِّنا، ولا عادِيُّ طَوْلِنا[٥] على قومك، أنْ خَلَطْناكم بأنفسنا، فنكحْنا وأنكَحْنا، فِعلَ الأكفاء، ولستم هُناكَ، وأنَّى يكون ذلك كذلك[٦]؛

---

(١) يعني جعفر بن أبي طالب قتل في غزوة مؤتة كما تقدم، وقد قطعت يداه، أخذ اللواء بيمينه فقطعت، فأخذه بشماله فقطعت، فاحتضنه بعضديه حتى قتل واللواء معه لم يلقه، ولذلك قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: لقد أبدله الله بهما جناحين يطير بهما في الجنة، ولذا سمي الطيار (ابن أبي الحديد م٣: ص ٤٠٥ وأسد الغابة ١: ٢٨٨ وسيرة ابن هشام ٢: ٢٥٣).

(٢) يعني نفسه.

(٣) الرمية: الطريدة التي يرميها الصائد، وهي فعيلة بمعنى مفعولة، وأنثت لأنها جعلت اسماً لانعتا والمراد بها الدنيا، والمعنى: دع من مال الى الدنيا ومالت به أي أمالته إليها: أي لاتستمع لهؤلاء الذين يغرونك بالمضي فيما تطمح إليه من الخلافة طلبا للدنيا وطمعا فيها، يعرض بعمرو بن العاص فقد ملأ معاوية وشايعه على أن يجعل له مصر طعمة كما قدمنا، وفي نهاية الأرب «الدنية» وهي الأمر الخسيس.

(٤) أي اصطفانا الله واختصنا بفضله، وجعل النبوة في بيتنا، ومنه فاضت الهداية على الورى، أي فنحن أحق بالخلافة.

(٥) الطول: الفضل، وعادي: أي قديم، نسبة إلى عاد إحدى قبائل العرب البائدة. فنكحنا وأنكحنا: أي تزوجنا منكم وزوجناكم منا، قال ابن أبي الحديد: «وينبغي أن يحمل قوله «قديم» و«عادي» على مجازه لاعلى حقيقته لأن بني هاشم وبني أمية لم يفترقا في الشرف إلا مذ نشأ هاشم بن عبد مناف، وعرف بأفعاله ومكارمه، ونشأ حينئذ أخوه عبد شمس، وعرف بمثل ذلك، وصار لهذا بنون، ولهذا بنون، وادعى كل من الفريقين أنه أشرف بالفعال من الآخر، ثم لم تكن المدة بين نشء هاشم وإظهار محمد صلى الله عليه وآله الدعوة إلا نحو تسعين سنة، ومثل هذه المدة القصيرة لايقال فيها «قديم عزنا، وعادي طولنا» فيجب أن يحمل اللفظ على مجازه، لأن الأفعال الجميلة كما تكون عادية بطول المدة تكون بكثرة المناقب والمآثر والمفاخر وإن كانت المدة قصيرة، ولفظة قديم ترد ولايراد بها قدم الزمان، بل من قولهم لفلان قدم صدق وقديم أثر أي سابقة حسنة اهـ» وفسره الأستاذ الشيخ محمد عبده فقال. «العادي: الاعتيادي المعروف» والأول هو الصحيح بقرينة قوله قبل «قديم عزنا» وقال أيضاً «قديم مفعول يمنع، وأن خلطناكم فاعله» والصحيح العكس، وفي رواية صبح الأعشى «ومديد طولنا».

(٦) أي وكيف يكون شرفكم كشرفنا.

ومنا النبيُّ ، ومنكم المكذِّب[1] ؛ ومنا أسَدُ الله[2] ، ومنكم أسَدُ الأحْلاف

(١) يعني أبا سفيان بن حرب ، كان عدو رسول الله والمكذب له والمجلب عليه ، وقال الأستاذ الشيخ محمد عبده في تفسيره (ونقل عنه ذلك شارح نهاية الأرب) : « المكذب : أبو جهل» وهو خطأ ، أجل إن أبا جهل كان من ألد أعداء رسول الله ، والمكذبين له ، ولكنه ليس من بني أمية ، بل هو أبو جهل عمرو بن هشام بن المغيرة المخزومي من بني مخزوم بن مرة من قريش .

(٢) يعني حمزة بن عبد المطلب ، وأسد الأحلاف : يعني عتبة بن ربيعة . وذلك أنه لما تدانى المسلمون والمشركون في غزوة بدر ، خرج عتبة وشيبة والوليد حتى فصلوا من الصف ثم دعوا إلى المبارزة ، فخرج إليهم فتيان ثلاثة من الأنصار ، فقالوا لهم : من أنتم ؟ قالوا : رهط من الأنصار ، فقالوا: ارجعوا فما لنا بكم من حاجة ، ثم نادى مناديهم : يا محمد أخرج إلينا أكفاءنا من قومنا ، فأخرج لهم صلى الله عليه وسلم حمزة وعليا وعبيدة بن الحارث ، فقال حمزة : أنا حمزة بن عبد المطلب، أسد الله وأسد رسوله، فقال عتبة: كفء كريم ، وأنا أسد الحلفاء ، من هذان معك ؟ قال :علي بن أبي طالب وعبيدة بن الحارث بن المطلب، فقال : كفئان كريمان .

قال الواقدي : قال ابن أبي الزناد :حدثني أبي قال : لم أسمع لعتبة كلمة قط أوهن من قوله « أنا أسد الحلفاء » يعني بالحلفاء الأجمة (وعلى ذلك فهي بفتح الحاء وسكون اللام ، وهي نبت ينبت في مغايض الماء ؛ أي أنا أسد الأجمة ، لأن مأوى الأسد الآجام ومنابت الحلفاء) .

قال ابن أبي الحديد:« قلت:قد روى هذه الكلمة على صيغة أخرى « وأنا أسد الحلفاء » يعني (بضم ففتح) وروى « أنا أسد الأحلاف » (كما جاء في كتاب الإمام علي) قالوا في تفسيرها : أراد أنا سيد أهل حلف المطيبين (وسنبينه بعد) ورد قوم هذا التأويل ، فقالوا : إن المطيبين لم يكن يقال لهم الحلفاء ولا الأحلاف ، وإنما ذلك لقب خصومهم وأعدائهم الذين وقع التحالف لأجلهم ، وقال قوم في تفسيرها : إنما عني حلف الفضول (وسنبينه بعد أيضا) وهذا التفسير أيضا غير صحيح لأن بني عبد شمس لم يكونوا في حلف الفضول ، فقد بان أن ما ذكره الواقدي أصح وأثبت — (انظر شرح ابن أبي الحديد م ٣ : ص ٣٣٣) .

غير أن ابن أبي الحديد مع ما ذكره من تفنيد هذين التفسيرين ، لم يبين المراد بالأحلاف أو الحلفاء في رواية من روى « أنا أسد الأحلاف » و« أنا أسد الحلفاء » جماء، وأقول : إننا إذا بحثنا عمن قتلوا من مشركي قريش يوم بدر وجدناهم : من بني عبد شمس بن عبد مناف ، ومن بني نوفل بن عبدمناف ، ومن بني أسد بن عبد العزى بن قصي ، ومن بني عبد الدار بن قصي ، ومن بني تيم بن مرة بن كعب بن لؤي ، ومن بني مخزوم بن يقظة بن مرة ، ومن بني جمح بن عمرو بن هصيص بن كعب بن لؤي ، ومن بني سهم ابن عمرو بن هصيص ، ومن بني عامر بن لؤي : (راجع كتب السيرة) أي أن هذه البطون من قريش كانت قد تآزرت واتفقت كلمتها على حرب محمد وإن شئت فقل إنهم قد تحالفوا على قتاله — وإن لم ينقل إلينا التاريخ أنهم قد عقدوا بينهم على ذلك حلفا بمعناه الأخص — ثم ولوا أمرهم عتبة بن ربيعة فكان قائدهم وصاحب حربهم ، فهو إذ يقول : « أنا أسد الأحلاف » يبغي أن يقول إنه أسد هذه البطون القرشية المتناصرة على قتال المسلمين .

ومن تفسير الأستاذ الشيخ محمد عبده(وتابعه أيضا شارح نهاية الأرب):« أسد الأحلاف: أبوسفيان. لأنه حزب الأحزاب وحالفهم على قتال النبي في غزوة الخندق » وقد قدمنا لك خبر الأحزاب في ص ٢٧٥ — وهو تفسير ملائم ، غير أن التنظير في كتاب الإمام يقتضي حينئذ أن يكون «المكذب» شخصا آخر غير أبي سفيان .

. . . .

وقال ابن أبي الحديد: «قال الراوندى: المكذب من كان يكذب رسول الله صلى الله عليه وآله عنادا من قريش ، وأسد الأحلاف: أسد بن عبد العزى، قال : لأن بنى أسد بن عبد العزى كانوا أحد البطون الذين اجتمعوا فى حلف المطيبين ، وهذا كلام ظريف جدا ، لأنه لم يلحظ أنه يجب أن يجعل بإزاء النبى صلى الله عليه وسلم مكذب من بنىعبد شمس ، فقال : المكذب من كذب النبى من قريش عنادا ،وليس كل من كذبه عليهالصلاة والسلام من قريش يعير معاوية به، ثم قال: أسد الأحلاف أسد بنعبدالعزى،وأى عار يلزم معاوية من ذلك ؟ ثم إن بنى عبد مناف كانوا فى هذا الحلف ، وعلى ومعاوية من بنى عبد مناف ولكن الراوندى يظلم نفسه بتعرضه لما لايعلمه اﻫ » .

وهاك كلمة عن حلف المطيبين : كان قصى بن كلاب جعل إلى ابنه عبد الدار الحجابة واللواء والسقاية والرفادة ، ثم إن بنى عبد مناف بن قصى(عبد شمس وهاشما والمطلب ونوفلا)أجمعوا على أن يأخذوا ماباًيدى بنى عبد الدار بن قصى من ذلك ، ورأوا أنهم أولى به منهم لشرفهم عليهم وفضلهم فى قومهم ، فتفرقت عند ذلك قريش فكانت طائفة مع بنى عبد مناف على رأيهم ، كان معهم بنو أسد بن عبد العزى بن قصى وبنو زهرة بن كلاب ، وبنو تيم بن مرة بن كعب ، وبنو الحارث بن فهر بن مالك ، وكانت طائفة أخرى مع بنى عبد الدار، يرون أن لاينزع منهم ماكان قصى جعل إليهم ، كان معهم بنو مخزوم بن يقظة بن مرة وبنو سهم بن عمرو بن هصيص بن كعب، وبنو جمح بن عمرو بن هصيص وبنو عدى بن كعب ، فعقد كل قوم على أمرهم حلفا مؤكدا على أن لايتخاذلوا ولا يسلم بعضهم بعضا ، مابل بحر صوفة ، فأخرج بنو عبد مناف جفنة مملوءة طيبا فوضعوها لأحلافهم فى المسجد عند الكعبة ، ثم غمس القوم أيديهم فيها فتعاقدوا وتعاهدوا هم وحلفاؤهم ، ثم مسحوا الكعبة بأيديهم توكيدا على أنفسهم فسموا « المطيبين » بفتح الياء المشددة — وتعاقد بنو عبد الدار وتعاهدوا هم وحلفاؤهم عندالكعبة حلفا مؤكدا على أن يتخاذلوا ولا يسلم بعضهم بعضا، فسموا «الأحلاف» — انظر سيرة ابن هشام ١ : ٨٢ .

أما حلف الفضول: فسببه أن رجلا منزبيد منأهل اليمن قدم مكة معتمرا ببضاعة فاشتراها منه العاص ابن وائل السهمى ومطله بالثمن ، فجاء إلى بنى سهم يستعديهم عليه ، فأغلظوا له — وكان بنو سهم وبنو جمح أهل بغى وعدوان — فطوف فى قبائل قريش يستصرخهم فتخاذلت القبائل عنه ،فلما رأى ذلك أشرف على أبى قبيس حين أخذت قريش مجالسهاحين ناشدهم ظلامته، فاجتمع بنو هاشم وبنو المطلب وبنو أسد وبنو زهرة وبنو تيم فى دار عبد الله بن جدعان التيمى ، فتحالفوا وغمسوا أيديهم فى ماء زمزم بعد أن غسلوا به أركان البيت وتعاهدوا على أن لايجدوا بمكة مظلومامن أهلها أوغيرهم ممن دخلها من سائر الناس إلاقاموا معه ، وكانوا على من ظلمه حتى ترد عليه مظلمته ، وأن يأخذوا على يد الظالم وينهوا عن كل منكر ، مابل بحر صوفة ، ثم انطلقوا إلى العاص بن وائل فقالوا له : أد إلى هذا حقه ، فأدى إليه حقه فكثوا كذلك دهرا ، لايظلم أحد بمكة إلا أخذوا له حقه . وكان حلف الفضول بعد حلف المطيبين بزمان ، وقد شهده رسول الله صلى الله عليه وآله ، وهو شاب ابن خمس وعشرين سنة ، قال عليه الصلاة والسلام : « لقد شهدت فى دار عبد الله بن جدعان حلفا ما أحب أن لى به حمر النعم (به أى بدله: أى مقابل نقضه) ولودعيت به اليوم لأجبت ، ولا يزيده الإسلام إلا شدة » وإنما سمى حلف الفضول لأنهم تحالفوا أن ترد الفضول على أهلها (فالفضول: جمع فضل وهو الزيادة، لأن الظالم يأخذ فضلا عن حقه) وقيل إنه كان قد سبق قريشا إلى مثل هذا الحلف «جرهم» فى الزمن الأول، فتحالف منهم ثلاثةهم ومن تبعهم: أحدهم الفضل بن فضالة —

ومنا سيِّدا شَباب أهل الجنة(١) ، ومنكم صِبْيَةُ النار(٢) ؛ ومنا خيرُ نساء العالَمين(٣) ،

والثانى الفضل بن وداعة ، والثالث فضيل بن الحارث ، فلما أشبه حلف قريش الآخر فعل هؤلاء الجرهميين سمى حلف الفضول (فالفضول جمع فضل ، وهى أسماء أولئك الذين تقدم ذكرهم) انظر سيرة ابن هشام ١ : ٨٣ والروض الأنف ١ : ٩١ وشرح ابن أبى الحديد م ٣ : ص ٣٣٤ وص ٦٤ .

(١) يعنى الحسن والحسين عليهما السلام ، قال صلى الله عليه وآله : « الحسن والحسين سيدا شباب أهل الجنة » (أسد الغابة ٢ : ١١) .

(٢) كان عقبة بن أبى معيط أبان بن أبى عمرو وذكوان بن أمية بن عبد شمس من أشد المستهزئين برسول الله المؤذين له (وأخباره فى ذلك مشهورة فراجعها فى كتب السيرة) وكان من أسرى المشركين يوم بدر فقتله رسول الله صبرا ، فقال له عقبة كالمستعطف له : من للصبية يامحمد ؟ قال : النار (سيرة ابن هشام ١ : ٣٩٣) .

قال ابن أبى الحديد : ولم يعلم الراوندى ماالمراد بهذه الكلمة فقال : صبية النار أولاد مروان بن الحكم الذين صاروا من أهل النار عند البلوغ ، ولما أخبر النبى صلى الله عليه وآله عنهم بهذه الكلمة كانوا صبية ثم ترعرعوا واختاروا الكفر ، ولاشبهة أن الراوندى قد كان يفسر من خاطره فمهما خطر له قال : اه » ، وأقول : إن ماذكره الراوندى خطأ فاحش، وتحصيل القول فى ذلك أن الحكم بن أبى العاص (أبامروان) كان قد قدم المدينة بعد الفتح — وكان قد أسلم يوم الفتح سنة ثمان للهجرة — فأخرجه رسول الله إلى الطائف ، وقال له : « لا تساكننى فى بلد أبدا » لوقيعته فيه (قيل : كان يتسمع سر رسول الله ويطلع عليه من باب بيته ، وهو الذى أراد رسول الله أن يفقأ عينه بمدرى فى يده لما اطلع عليه من الباب وقيل كان يحكى رسول الله فى مشيته وبعض حركاته ، وكان النبى عليه الصلاة والسلام يتكفأ فى مشيته) فطرده رسول الله ولعنه وأبعده حتى صار مشهورا بأنه طريد رسول الله، ولم يرابنه مروان رسول الله لأنه خرج إلى الطائف طفلا لايعقل لما نفى النبى أباه — وقد ولد بمكة سنة اثنتين للهجرة — وقيل إنه ولد بالطائف إبان نفى أبيه بها « انظر أسد الغابة ج ٢ : ص ٣٤ و ج ٤ : ص ٣٤٨ » فكيف يقول الراوندى : « ولما أخبر النبى عن أولاد مروان بهذه الكلمة كانوا صبية » مع أن أباهم مروان نفسه كان على عهد الرسول صبيا ، على أن أولاده لما ترعرعوا لم يختاروا الكفر كما يقول ، وهو واضح ظاهر . وذكر الجاحظ أن عبد الملك بن مروان كان عابد قريش قبل أن يستخلف ، ورعا وزهدا « العقد الفريد ٣ : ٨ » .

(نعم روى عنه عليه الصلاة والسلام أنه مر به الحكم بن أبى العاص فقال : ويل لأمتى مما فى صلب هذا)

وذكر الأستاذ الشيخ محمد عبده فى تفسيره ماذكره الراوندى فقال : « وصبية النار قيل هم أولاد مروان بن الحكم ، أخبر النبى عنهم وهم صبيان بأنهم من أهل النار ، ومرقوا من الدين فى كبرهم اه » (وتابعه أيضا شارح نهاية الأرب) وقد بينا فساده .

(٣) يعنى فاطمة عليها السلام ، جاء فى الإصابة ج ٨ : ص ١٥٨ (عن أبى هريرة مرفوعا : خير نساء العالمين أربع: مريم وآسية وخديجة وفاطمة) (وآسية هى امرأة فرعون، نزل فيها وفى مريم قوله تعالى : « وَضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا لِلَّذِينَ آمَنُوا امْرَأَةَ فِرْعَوْنَ إِذْ قَالَتْ رَبِّ ابْنِ لِي عِنْدَكَ بَيْتًا فِي الْجَنَّةِ وَنَجِّنِي مِنْ فِرْعَوْنَ وَعَمَلِهِ وَنَجِّنِي مِنَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ وَمَرْيَمَ ابْنَةَ عِمْرَانَ

ومنكم حَمَّالَةُ الحطَب(١)، فى كثير مما لنا وعليكم :

فإسلامُنا ما قد سُمِع ، وجاهليَّتُنا لاتُدْفع ، وكتابُ الله يجمع لنا ما شَذَّ عنا ، وهو قوله سبحانه وتعالى : « وَأُولُوا الْأَرْحَامِ بَعْضُهُمْ أَوْلَى بِبَعْضٍ فِى كِتَابِ اللهِ » وقوله تعالى : « إِنَّ أَوْلَى النَّاسِ بِإِبْرَاهِيمَ لَلَّذِينَ اتَّبَعُوهُ وَهَٰذَا النَّبِىُّ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَاللهُ وَلِىُّ الْمُؤْمِنِينَ » فنحن مرةً أَوْلَى بالقَرَابَةِ ، وتارَةً أَوْلَى بالطاعة ، ولما احتج المهاجرون على الأنصار يوم السقيفة(٢) برسول الله صلى الله عليه وآله فَلَجُوا عليهم ، فإن يكن الْفَلْجُ به فالحقُّ لنا دونَكم ، وإن يكن بغيره فالأنصار على دعواهم .

وزعمتَ أنِّى لكل الخلفاء حَسَدتُ ، وعلى كلِّهم بَغَيْتُ ، فإن يكن ذلك كذلك فليس الجنايةُ عليك ، فيكونَ العُذْرُ إليك :

* وَتِلْكَ شَكَاةٌ ظَاهِرٌ عنك عارُها(٣) *

وقلتَ إنى كنت أُقادُ كما يقاد الجمل المَخْشُوشُ حتى أُبايعَ ، ولَعَمْرُ الله لقد أردتَ

الَّتِى أَحْصَنَتْ فَرْجَهَا فَنَفَخْنَا فِيهِ مِنْ رُوحِنَا وَصَدَّقَتْ بِكَلِمَاتِ رَبِّهَا وَكُتُبِهِ وَكَانَتْ مِنَ الْقَانِتِينَ » .

(١) هى أم جيل بنت حرب بن أمية امرأة أبى لهب وعمة معاوية ، وقد ورد فيها التنزيل بذلك « وَامْرَأَتُهُ حَمَّالَةَ الْحَطَبِ » وقيل لها حمالة الحطب ، لأنها كانت تحمل الشوك والسعدان وتلقيه فى طريق النبى صلى الله عليه وسلم إيذاء له (وكانت جارته) أو هو النميمة، إذ كانت تسعى عليه بالنمائم وتوقد بذلك نار الخصومة ، أو حطب جهنم ، فإنها كانت تحمل الأوزار بعاداته ، وتحمل زوجها على إيذائه .

(٢) لما قبض رسول الله صلى الله عليه وسلم اجتمعت الأنصار فى سقيفة بنى ساعدة فقالوا: نولى هذا الأمر بعد محمد سعد بن عبادة ، وكان بينهم وبين المهاجرين حجاج انتهى باستخلاف أبى بكر كما هو معروف ، وفلج على خصمه كنصر : فاز عليه وظفر .

(٣) هو شطر بيت لأبى ذؤيب الهذلى ، قال :

أبى القلب إلا أم عمرو فأصبحت ... تحرق نارى بالشكاة ونارها
وعيرها الواشون أنى أحبها ... وتلك شكاة ظاهر عنك عارها

والشكاة فى الأصل : المرض ، وتوضع موضع العيب والذم كما فى هذا البيت ، فمعناها هنا العيب والنقيصة ، ويقال : ظهر عنى هذا العيب : إذا نبا عنك ولم يعلق بك منه شىء .

أن تذمَّ فَقَدَحْتَ، وأن تفضحَ فافتضحْتَ، وما على المسلم من غضاضةٍ[١] فى أن يكون مظلوماً، ما لم يكن شاكاً فى دينه، ولا مُرْتاباً بيقينه، وهذه حُجَّتى إلى غيرك قَصدُها[٢]، ولكنى أطلقتُ لك منها بقدر ما سَنَحَ[٣] من ذكرها.

ثم ذكرت ما كان من أمرى وأمرِ عثمان، فلك أن تُجابَ عن هذه، لِرَحِمك[٤] منه، فأيُّنا كان أعدَى[٥] له، وأهدَى إلى مَقَاتِلِه، أَمَنْ بَذَلَ له نُصرَته فاستقْعَدهُ واستكَفّه[٦]، أم من استنصَرَه فتراخَى عنه[٧]، وبَثَّ المنُونَ إليه، حتى أتى قَدَرُه عليه؟ كَلاَّ واللهِ، لقَدْ عَلِمَ اللهُ الْمُعَوِّقِينَ[٨] مِنكُمْ وَالْقَائِلِينَ لإِخْوَانِهِمْ هَلُمَّ إِلَيْنَا وَلَا يَأْتُونَ الْبَأْسَ إِلاَّ قَلِيلًا.

وما كنتُ لأعتذرَ من أنى كنتُ[٩] أنقِم عليه أحداثاً، فإن كان الذنب إليه إرشادى وهدايتى له، فرُبَّ مَلُومٍ لاذَنْبَ له[١٠].

---

(١) غض منه : نقص ووضع من قدره.

(٢) أى إنى إذا احتججت لحقى فى الخلافة فإنما أحتج إلى غيرك لا إليك، إذ ليس لك فى الخلافة شأن. (٣) أى عرض. (٤) الرحم : القرابة.

(٥) أى أشد عدوانا، والمقاتل : وجوه القتل.

(٦) استقعده واستكفه : طلب قعوده وكفه، ويعنى «بمن بذل له نصرته» نفسه فقد كان الإمام على عليه السلام فى الدفاع عن عثمان موقف مجيد لاينكره إلا كل مكابر، وقد قال : «والله مازلت أذب عنه حتى إنى لأستحى» وقال أيضاً : «والله لقد دفعت عنه حتى خشيت أن أكون آثما» وبعث إليه بالماء حين منعه عنه المحاصرون، كما بعث إليه بابنيه الحسن والحسين ومواليه للذب عن داره، وقال لابنيه: اذهبا بسيفيكما حتى تقوما على باب عثمان فلا تدعا أحداً يصل إليه بمكروه، وقد خضب الحسن بالدماء فى سبيل مدافعة الثوار وشج قنبر مولى على، حتى قال عثمان للحسن : إن أباك الآن لفى أمر عظيم فأقسمت عليك لما خرجت، فأبى وشاء الله أن ينفذ القضاء فى عثمان فجاء على فقال لابنيه : كيف قتل أمير المؤمنين وأنتما على الباب ولطم الحسن وضرب الحسين، وقد فصلنا القول فى هذا الموضوع فى كتابنا «ترجمة على بن أبى طالب باب مقتل عثمان».

(٧) يعنى به معاوية، وقد كان عثمان كتب إليه يستنصره فتربص به (انظر ماقدمناه فى ص ٢٧٧) والمنون : الموت، وبث المنون إليه : أى أنه تقاعس عن نصرته فأفضى ذلك إلى بلوغ الثوار مأربهم فيه فقتلوه. (٨) أى المانعين من النصرة.

(٩) نقم منه كضرب وعلم : عابه، والأحداث جمع حدث كسبب وهو البدعة.

(١٠) هو مثل من قول أكثم بن صيفى يقول : قد ظهر للناس منه أمر أنكروه عليه وهم لايعرفون حجته وعذره فهو يلام عليه.

* وقد يستفيد الظِّنَّةَ المتنصِّحُ(١) * وما أردتُ إلّا الإِصْلَاحَ ما استَطَعْتُ وَمَا تَوْفِيقِي إلاَّ بِاللهِ عَلَيْهِ تَوَكَّلتُ وَإِلَيْهِ أُنِيبُ .

وذكرتَ أنه ليس لي ولأصحابي عندك إلا السيف، فلقد أضحكْتَ بعد استِعْبار(٢) ! متى ألفيتَ بني عبد المطلب عن الأعداء نا كِلين(٣) ، وبالسيوف مُخَوَّفين ؟ « فَلَبِّثْ قليلًا يَلْحَقِ الهَيْجا حَمَل(٤) » فسيطلبك مَن تَطْلُب ، ويَقْرُب منك ما تستبعد ، وأنا مُرْقِلٌ(٥) نحوك في جَحْفَلٍ من المهاجرين والأنصار والتابعين لهم بإحسان ، شديدٍ

---

(١) الظنة: التهمة ، والمتنصح هنا : المبالغ في النصح لمن لاينتصح ، وهو شطر بيت ، وصدره :

* وكم سقت في آثاركم من نصيحة *

(٢) استعبر : جرت عبرته ، أي بكى، فقوله يبكى لأنه يطلب مالاحق له فيه ، ويشق عصا الجماعة ويضحك لتهديده من لايهدد .   (٣) نكل عنه كضرب ونصر وعلم نكولا : نكص وجبن .

(٤) لبث : من اللبث بالفتح وهو المكث أي انتظر ، والهيجا يقصر ويمد: الحرب ، وحمل اسم رجل (وستعرفه بعد) وهو مثل يضرب للتهديد بالحرب ، رواه أبو هلال العسكرى في جمهرة الأمثال ج ٢ : ص ١٧٧ ، فقال : (« لبث رويداً يلحق الهيجا حمل » أي انتظر حتى يتلاحق الشبان) وفي لسان العرب ج ١٣ ص ١٩٣ « ضح قليلا يدرك الهيجاء حمل » وفي مجمع الأمثال للميداني ج١ ص٢٨٣ « ضح رويداً يدرك الهيجا حمل » (ومعنى « ضح رويداً » لاتعجل في الأمر وتأن وارفق) ضحي الإبل: غذاها في الضحى فتضحت هي أي أكلت في الضحى، وأصله أن العرب كانوا يسيرون في البادية يوم ظعنهم ،فإذا مروا ببقعة من الأرض فيها كلأ وعشب ، قال قائلهم : ألاضحوا رويداً ، أي ارفقوا بالإبل حتى تتضحى ،أي تنال من هذا المرعى ، ثم وضعت التضحية مكان الرفق، لتصل الإبل إلى المنزل وقد شبعت اهـ لسان العرب ج ١٩ : ص ٢١٥) .

أما حمل فهو حمل بن سعدانة (بالفتح) الصحابي . جاء في أسد الغابة ج ٢ : ص ٥٢ وفي شرح القاموس ج ٧ ص ٢٩٠ : « حمل بن سعدانة الكلبي ، وفد إلى النبي صلى الله عليه وسلم وعقد له لواء وشهد مع خالد بن الوليد مشاهده كلها ، وهو القائل :

لبث قليلا يلحق الهيجا حمل   ما أحسن الموت إذا حان الأجل

وشهد صفين مع معاوية ، وقد تمثل بقوله سعد بن معاذ يوم الخندق اهـ » وفي سيرة ابن هشام ج ٢ : ص ١٦٣ ، في غزوة الخندق : « فمر سعد بن معاذ وعليه درع له مقلصة قد خرجت منها ذراعه كلها ، وفي يده حربته يرقل بها (أي يسرع) يقول :

لبث قليلا يشهد الهيجا حمل   لابأس بالموت إذا حان الأجل

وفي لسان العرب : « حمل : إنما يعني به حمل بن بدر » وكذا في مجمع الأمثال ، وقال شارح القاموس : وفي المحكم : إنما يعني به حمل بن بدر ، قلت : وفيه نظر .

وقد جاء في تفسير الأستاذ الشيخ محمد عبده أنه حمل بن بدر ، وكذا ذكر شارح نهاية الأرب مستنداً إلى ماورد في لسان العرب ، وقد عرفت ما فيه ، ولم يرد في شرح ابن أبي الحديد تفسيره. وأكبر ظني أنه سقط في أثناء الطبع ، لأن شرح ذلك الكتاب واقع في نهاية المجلد الثالث ، ولم يذكر تفسير الجزء الأخير منه .   (٥) مرقل : مسرع . والجحفل : الجيش العظيم

زِحامُهم، ساطِعٍ قَتامُهم[1]، متسربلين سَرابيلَ الموت، أَحَبُّ اللِّقاء إليهم لقاء ربهم، وقد صَحِبتهم ذُرِّيَّة بَدْرِية[2]، وسيوف هاشمية، قد عرَفْتَ مواقعَ نِصالها فى أخيك وخالك وجدك وأهلك، وما هِيَ مِنَ الظَّالِمِينَ بِبَعِيدٍ ».

(نهج البلاغة ٢ : ٢١، وصبح الأعشى ١ : ٢٢٩ ونهاية الأرب ٧ : ٢٣٣)

٤٢٧ — كتاب على إلى مخنف بن سليم

ولما أجمعَ علىّ عليه السلام أن يسير إلى الشأم لقتال معاوية، كتب إلى عُمّاله يستفِزّهم، فكتب إلى مِخنف بن سُلَيْم عامِلِهِ على أَصْبَهان وهَمَذان :

« سلام عليك، فإنى أحمَدُ إليك اللهَ الذى لا إله إلا هو، أما بعد : فإن جِهادَ مَن صَدَف[3] عن الحق رغبةً عنه، وهَبَّ فى نُعاس العَمَى والضلال اختياراً له، فريضةٌ على العارفين أنَّ الله يَرْضَى عمن أرضاه، ويَسْخَطُ على من عصاه.

وإنا قد همَمْنا بالسير إلى هؤلاء القوم الذين عمِلُوا فى عباد الله بغير ما أنزل الله، واستأثروا بالفَىْء، وعطَّلوا الحدودَ، وأماتوا الحقَّ، وأظهروا فى الأرض الفسادَ، واتخذوا الفاسقين وَلِيجَةً[4] من دون المؤمنين : فإذا ولىُّ اللهِ أعظَمَ أحداثَهم أبغَضوه وأقْصَوْه وحرَموه، وإذا ظالِمٌ ساعدَهم على ظلمهم أحبُّوه وأدْنَوه وبَرُّوه، فقد أصَرُّوا على الظلم، وأجمعوا على الخلاف، وقديماً صدُّوا عن الحق، وتعاوَنوا على الإثم وكانوا ظالمين.

فإذا أُتيت بكتابى هذا فاستخلِف على عملك أوثقَ أصحابك فى نفسك، وأقبِلْ إلينا

---

(١) القتام : الغبار. وساطع : أى منتشر. والسرابيل : جمع سربال بالكسر : وهو القميص أو الدرع أو كل مالبس، وقد تسربل به : أى لبسه، والمعنى : أنهم مستعدون للموت مرحبون به.

(٢) أى من ذرارى أهل بدر الذين قاتلوا أهلك يوم ذاك وقتلوا منهم.

(٣) صدف عنه كضرب : أعرض.

(٤) الوليجة : خاصتك من الرجال، أو من تتخذه معتمدا عليه من غير أهلك.

العلك تَلْقَى معنا هذا العدوّ المُحِلّ(١) ، فتأمر بالمعروف ، وتَنْهَى عن المنكر ، وتُجامع المُحِقّ ، وتباين المُبْطِل ، فإنه لا غنى بنا ولا بك عن أجر الجهاد ، وحَسْبُنَا اللهُ ونعم الوكيل » .

وكتبه عبيد الله بن أبى رافع فى سنة سبع وثلاثين .

فاستخلف مخنفٌ على أصْبَهان الحرث بن أبى الحرث بن الربيع ، واستعمل على همذان سعيدَ بن وهب وكلاهما من قومه ، وأقبل حتى شهد مع علىّ عليه السلام صِفِّين » .

(شرح ابن أبى الحديد م ١ : ص ٢٨٢)

٤٢٨ — كتاب على إلى عبد الله بن عباس

وكتب عبد الله بن عباس من البصرة إلى علىّ عليه السلام يذكر له اختلاف أهل البصرة ، فكتب إليه علىّ عليه السلام :

«أما بعدُ : فقد قَدِم علىّ رسولك ، وقرَأت كتابك تذكر فيه حال أهل البصرة واختلافَهم بعد انصرافى عنهم ، وسأُخْبرك عن القوم :

هم بين مُقيم لرغبةٍ يرجوها ، أو خائفٍ مِن عقوبةٍ يخشاها ، فأرْغِبْ راغِبَهم بالعدل عليه ، والإنصاف له ، والإحسان إليه ، واحْلُلْ عُقْدَةَ الخوف عن قلوبهم ،

---

(١) قال صاحب القاموس : (ورجل محل: منتهك الحرام ،أو لايرى للشهر الحرام حرمة). وجاء فى اللسان : (ويقال : المحل الذى يحل لنا قتاله ، والمحرم : الذى يحرم علينا قتاله ، ويقال : المحل الذى لاعهد له ولاحرمة ، والمحرم : الذى له حرمة ، وجاء فى كتاب الإمام إلى أخيه عقيل (وسنورده بعد) (فإن رأيى قتال المحلين) وفسره ابن أبى الحديد م ٤ : ص ٥٧ . قال : أى الخارجين من الميثاق والبيعة يعنى البغاة ومخالفى الإمام ، ويقال لكل من خرج من إسلام أو حارب فى الحرم أو فى الأشهر الحرم محل، وعلى هذا فسر قول زهير : (وكم بالقنان من محل ومحرم) أى من لاذمة لهومن له ذمة،وكذلك قول خالد ابن يزيد بن معاوية فى زوجته رملة بنت الزبير بن العوام :

ألا من لقلب معنى غزل بحب المحلة أخت المحل

أى ناقضة العهد أخت المحارب فى الحرم أو أخت ناقض بيعة بنى أمية . وقال المبرد فى الكامل أيضا (ج ٢ : ص ١٦٨) (وكان عبدالله يدعى المحل لإحلاله القتال فى الحرم ، وفى ذلك يقول رجل فى رملة بنت الزبير . . . الخ) وكذا فى العقد الفريد ج٤ : ص ٢٦٨ .

وانتهِ إلى أمرى ولا تَعدُهُ ، وأحسن إلى هذا الحىِّ من ربيعة وكلُّ من قِبَلك فأحسنْ إليه ما استطعْتَ إن شاء الله » .

وكتب إلى أمراء عماله كلهم بنحو ما كتب به إلى مخنف بن سليم ، وأقام ينتظرهم . (شرح ابن أبى الحديد م ١ : ص ٢٨٢)

٤٢٩ — كتاب على إلى عبد الله بن عباس

وكتب إلى ابن عباس أيضاً :

« أما بعدُ : فاشْخَصْ إلىّ بمن قِبَلك من المسلمين والمؤمنين وذكِّرهم بلائى عندهم ، وعفوى عنهم فى الحرب ، وأعْلِمْهم الذى هُم فى ذلك من الفضل ، والسلام » .

فقدِمَ عليه ابن عباس بأهل البصرة . (شرح ابن أبى الحديد ١ : ص٢٨٣)

٤٣٠ — كتاب زياد بن النضر إلى علىّ

وأمر علىّ فنودى فى الناس أنِ اخرجوا إلى مُعَسْكركم بالنُّخَيْلة ، واستخلف عَلَى الكوفةِ ، ثم خرج وخرج الناس معه ، ودعا زياد بن النَّضْر وشُرَيْح بن هانئ ، وكانا على مَذْحِج والأشعريين ، فأوصى زياداً وقال له : إنى قد وليتك هذا الجند ، ثم أمرهما أن يأخذا فى طريق واحد ولا يختلفا ، وبعثهما فى اثنى عشر ألفاً على مقدِّمته ، وكل واحد منهما على جماعة من ذلك الجيش ، فأخذ شريح يعتزل بمن معه من أصحابه على حِدَة ، ولا يَقْرَبُ زياداً فكتب زياد إلى علىّ عليه السلام :

« لعبد الله علىّ أمير المؤمنين من زياد بن النَّضر :

سلام عليك ، فإنى أحمدُ إليك الله الذى لا إله إلا هو ، أما بعد : فإنك ولَّيتنى أمر الناس ، وإن شُرَيْحاً لا يرى لى عليه طاعةً ولا حقا ، وذلك من فِعْله بى استخفافٌ بأمرك ، وتَرْكٌ لِعَهْدك ، والسلام » . (شرح ابن أبى الحديد م ١ : ص ٢٨٥)

٤٣١ — كتاب شريح بن هانئ إلى علي

وكتب شريح بن هانئ إلى عليّ عليه السلام :

« لعبد الله عليّ أمير المؤمنين من شريح بن هانئ :

سلام عليك ، فإني أحمدُ إليك اللهَ الذي لا إله إلا هو ، أما بعد : فإن زياد ابن النَّضْر حين أشركتَه في أمرك ، ووَلَّيْتَهُ جنداً من جندك ، طَغى واستكبر ، ومال به العُجْب والخُيَلاء والزَّهْو إلى ما لا يَرْضَى الله تعالى به من القول والفعل ، فإن رأى أمير المؤمنين عليه السلام أن يعزله عنا ، ويبعثَ مكانه مَن يُحِبُّ فليفعلْ ، فإنا له كارهون ، والسلام » . (شرح ابن أبي الحديد م ١: ص ٢٨٥)

٤٣٢ — كتاب علي إلى زياد وشريح

فكتب عليّ عليه السلام إليهما :

« من عبد الله عليّ أمير المؤمنين إلى زياد بن النضر ، وشريح بن هانئ :

سلام عليكما ، فإني أحمَدُ إليكما الله الذي لا إله إلا هو ، أما بعدُ : فإني قد وليتُ مقدّمتي زيادَ بن النضر وأمَّرْتُه عليها ، وشريح بن هانئ على طائفة منها أمير ، فإن انتهى جَمْعكما إلى بأس فزياد بن النضر على الناس كلهم ، وإن افترقتما فكل واحد منكما أمير الطائفة التي ولّيناه أمرها .

واعلما أن مقدمة القوم عيونهم ، وعيون المقدمة طلائعهم ، فإذا أنتما خرجتما من بلادكما فلا تَسْأَما من توجيه الطلائع ، ومن نفضِ الشِّعاب[1] والشجر والخَمَر في كل جانب ، كي لا يغترَّكما[2] عدو ، أو يكون لهم كَمِين ، ولا تُسَيِّرُنَّ الكتائب

---

(١) الشعب بالكسر : الطريق في الجبل ، ومسيل الماء في بطن أرض ، أو ما انفرج بين الجبلين ، والجمع شعاب. والخمر : كل ما واراك من شجر أو بناء أو غيره، ونفض المكان كنصر واستنفضه وتنفضه: إذا نظر جميع ما فيه حتى يعرفه ، وفي الأصل « نقض » بالقاف وهو تصحيف .

(٢) اغتررت الرجل : إذا طلبت غرته . والغرة بالكسر : الغفلة .

والقبائل من لَدُن الصباح إلى المساء إلّا عَلَى تَعبية[1] ، فإن دَهمكم عدوٌّ أو غشيكم مكروهٌ كنتم قد تقدّمتم فى التعبية ، فإذا نزلتم بعدو أو نزل بكم فليكن مُعَسكركم فى قُبُل الأشراف[2] ، وأسفاح الجبال ، وأثناء الأنهار ، كيما يكون ذلك لكم رِدْءا ، وتكون مُقَاتَلتكم من وجهٍ واحد ، أو اثنين ، واجعلوا رُقَبَاء كا فى صَيَاصِى[3] الجبال ، وبأعالى الأشراف ، ومَنا كِب الأنهار ، يَرَوْنَ لكم ، لا يأتيكم عدوٌّ من مكان مخافة أو أمْنٍ ، وإيا كم والتفرقَ ، فإذا نزلتم فانزلوا جميعًا ، وإذا رَحَلْتم فارحَلُوا جميعاً ، فإذا غشيكم الليلُ فنزلتم فحُفّوا عسكركم بالرِّماح والتِّرَسَة ، ولتكن رُمَاتكم من وراء تِرَاسِكم ، ورماحكم يَلُونَهم ، وما أقمتم فكذلك فافعلوا ، كى لا يصابَ لكم غَفْلة ، ولا يُلْفَى لكم غِرّة ، فما قومٌ يحفّون عسكرهم برماحهم وتِرَسَتهم من ليل أو نهار ، إلا كانوا كأنهم فى حصون ، واحرُسا عسكركما بأنفسكما ، وإيا كما أن تذوقا نومًا حتى تُصْبحا إلا غِراراً[4] أو مَضْمَضَةً ، ثم ليكن ذلك شأنَكما ودَأْبَكما حتى تنتهيا إلى عدوكما ، وليكن كلَّ يوم عندى خبرُ كما ورسولٌ من قبلكما ، فإنى ـ ولا شىء إلا ماشاء اللهُ ـ حَثِيثٌ[5] السير فى إثْرِكما ، وعليكما فى جريكما بالتُّؤَدة ، وإيا كما والعجلةَ إلا أن تُمكِنكما فرصةٌ بعد الإعذار والحجة ، وإيا كما أن تقاتلا حتى أقْدَم عليكما ، إلا أن تُبدَأا ، أو يأتيكما أمرى إن شاء الله » .

(شرح ابن أبى الحديد م ١ : ص ٢٨٥)

---

(١) فى الأصل « بقية » وهو تحريف .

(٢) الأشراف : جمع شرف بالتحريك وهو المكان العالى . وقبل الجبل بضمة وبضمتين . سفحه ، وهو أصلة أو الحضيض الأسفل ، وقد ورد فى كتب اللغة جمعه على سفوح ، والأثناء جمع ثنى بالكسر وثنى النهر منعطفه ، والردء : العون .

(٣) الصياصى جمع صيصية : وهى كل ما امتنع به وتحصن .

(٤) الغرار : القليل من النوم ، ومضمض النعاس فى عينه : دب ، وما مضمضت عينى بنوم أى مانامت .

(٥) أى سريع .

٤٣٣ – كتاب على إلى أمراء الأجناد

وكتب على عليه السلام إلى أمراء الأجناد :

« أما بعدُ فإنى أبرأ إليكم من مَعَرَّة الجنود ، فأَعْزِبوا[1] الناس عن الظلم والعُدْوان، وخُذوا على أيدى سفهائكم ، واحترسوا أن تعملوا أعمالًا لايَرْضَى الله بها عنا ، فيَرَدّ بها علينا وعليكم دعاءنا ، فإنه تعالى يقول : « مَا يَعْبَأُ بِكُمْ رَبِّى لَوْلَا دُعَاؤُكُمْ » وإن الله إذا مَقَتَ قوماً من السماء هلكوا فى الأرض ، فلا تَأْلُوا أنفسكم خيراً ، ولا الجندَ حُسْنَ سِيرة ، ولا الرعيَّةَ مَعُونةً ، ولا دين الله قوةً ، وأَبْلُوا فى سبيله مااستوجَبَ عليكم ، فإن الله قد اصطنَع[2] عندنا وعندكم مايجب علينا أن نشكره بجُهْدنا ، وأن ننصره مابلغت قوَّتُنا ، ولا قوة إلا بالله » .

(شرح ابن أبى الحديد م ١ : ص ٢٨٥)

٤٣٤ — كتاب على إلى الأجناد

وكتب علىّ عليه السلام إلى جنوده يخبرهم بالذى لهم وعليهم :

« أما بعدُ : فإن الله جعلكم فى الحق جميعاً سواءً : أسودَكم وأحمرَكم[3]، وجعلكم من الوالى منكم بمنزلة الولد من الوالد ، والوالد من الولد ، فحَقُّكم عليه إنصافكم والتعديلُ بينكم والكفُّ عن فَيْئكم ، فإذا فعل معكم ذلك وجبت عليكم طاعته فيما وافق الحق ، ونُصرتُه والدفع عن سلطان الله، فإنكم وَزَعة[4] الله فى الأرض ، فكونوا

---

(١) أعزبه : أبعده .   (٢) اصطنع عنده صنيعة : اتخذها.

(٣) جاء فى حديثه صلى الله عليه وسلم « أرسلت إلى الأسود والأحمر » يعنى العرب والعجم، والغالب على ألوان العرب السمرة والأدمة ، وعلى ألوان العجم البياض والحمرة .

(٤) الوزعة : جمع وازع ، من وزعه كوضعه إذا كفه ، أى أنتم جنود الله الذين تكفون الناس عن الظلم والعدوان .

له أعوانًا ، ولدينه أنصاراً ، وَلاَ تُفْسِدُوا فِى الْأَرْضِ بَعْدَ إِصْلاَحِهَا إِنَّ اللهَ لاَ يُحِبُّ الْمُفْسِدِينَ » . (شرح ابن أبى الحديد م ١ : ص ٢٨٥)

٤٣٥ — كتاب على إلى معاوية ومن قبله من قريش

وسار على عليه السلام حتى نزل الرَّقَّة[١] ، فقالت له طائفة من أصحابه : يا أمير المؤمنين ، اكتب إلى معاوية ومَن قِبَله من قومك ، فإن الحُجّة لا تزداد عليهم بذلك إلا عِظَما ، فكتب إليهم :

« من عبد الله علىّ أمير المؤمنين إلى معاوية ومن قِبَله من قريش :

سلام عليكم فإنى أَحمَدُ إليكم اللهَ الذى لا إله إلا هو ، أما بعدُ : فإن لله عباداً آمنوا بالتنزيل ، وعرَفوا التأويل ، وفَقِهُوا فى الدين ، وبَيَّن الله فضلَهم فى القرآن الحكيم ، وأنتم فى ذلك الزمان أعداء للرسول تكذّبون بالكتاب ، مُجمِعون على حرب المسلمين ، مَن ثَقِفتم[٢] منهم حبستموه أو عذّبتموه أو قتلتموه ، حتى أراد الله تعالى إعزازَ دينه ، وإظهار أمره ، فدخلَتِ العربُ فى الدين أفواجًا ، وأسلَمَتْ له هذه الأمة طَوْعًا وكَرْهًا ، فكنتم فيمن دخل فى هذا الدين إمّا رغبةً وإمّا رهبةً ، على حينَ فاز أهلُ السَّبْق بسَبْقهم ، وفاز المهاجرُون الأولون بفَضْلهم ، ولا ينبغى لمن ليست له مِثلُ سوابقهم فى الدين ، ولا فضائلهم فى الإسلام ، أن ينازِعَهم الأمرَ الذى هم أهلُه وأَوْلَى به فيَحُوبَ[٣] ويَظْلِمَ ، ولا ينبغى لمن كان له عقل أن يجهل قَدْرَه ، ويعدُوَ طَوْرَه ، ويُشْقِيَ نفسه بالتماس ما ليس بأهله ، فإن أولَى الناس بأمر هذه الأمة قديمًا وحديثًا أقرَبها من الرسول ، وأعلمها بالكتاب ، وأفقهها فى الدين ؛ أولهم إسلاما ، وأفضلهم جهاداً ، وأشدهم بما تحمله الأئمة من أمر الأمة اضطلاعا[٤] ، فاتقوا الله الذى إليه ترجعون

---

(١) بلد على الفرات مقابل صفين . (٢) ثقفه كسمعه : صادفه أو ظفر به وأدركه .
(٣) حاب يحوب : أثم . (٤) اضطلع بالأمر : قوى عليه .

ولا تَلْبِسُوا الْحَقَّ بِالْبَاطِلِ وَتَكْتُمُوا الْحَقَّ وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ ، واعلموا أن خِيار عباد الله الذين يعملون بما يعلمون ، وإن شِرَارهم الجُهَّال الذين ينازعون الجهل أهل العلم ، فإن للعالم بعلمه فضلا ، وإن الجاهل لا يزداد بمنازعته العالمَ إلا جهلا ، ألاَ وإنى أدعوكم إلى كتاب الله وسُنة نبيه ، وحَقْن دماء هذه الأمة ، فإن قبلتم أصَبْتم رشدكم ، واهتديتم لِحظّكم ، وإن أَبَيْتم إلا الفُرقةَ وشَقَّ عصا هذه الأمة ، لم تزدادُوا من الله إلاَّ بُعْدًا ، ولا يزداد الرَّب عليكم إلا سُخْطا ، والسلام » . (شرح ابن أبى الحديد م ١ : ص ٢٩٠)

٤٣٦ — رد معاوية على علىّ

فكتب إليه معاوية جوابَ هذا الكتاب سطراً واحداً وهو :

« أما بعد : فإنه :

ليس بينى وبين قَيْسٍ عِتابٌ غيرُ طَعْنِ الكُلَى وَضَرْبِ الرِّقاب[1]

فقال علىّ عليه السلام لما أتاه هذا الجواب : « إِنَّكَ لاَ تَهْدِى مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَـكِنَّ اللهَ يَهْدِى مَن يَشَاءُ وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ » .

(شرح ابن أبى الحديد م ١ : ص ٢٩٠)

٤٣٧ — كتاب عمرو بن العاص إلى ابن عباس

ولم تُجْدِ الكتب بين على ومعاوية نفعًا ، فعَبَّأ كل منهما جيشه ، ودارت رَحَى الحرب بين الفريقين فى صِفِّين ، على ما هو مشهور .

فلما اشتد الأمر وعظُم على أهل الشأم ، بعث معاوية أخاه عُتْبة للقاء الأشعث ابن قيس الكِنْدى[2] ، فجعل يستهويه ويستكِفُّه ، وكان فيما قال له : إنا لا ندعوك إلى ترك علىّ ونُصرة معاوية ، ولكنا ندعوك إلى البقِيَّة التى فيها صلاحُك وصلاحنا ، فقال له الأشعث : لستم بأحوجَ إلى البقية منا ، ولم يَلْقَ عند عُتبة ما يحبّ .

---

(١) انظر رواية ابن قتيبة التى قدمناها فى ص ٣٣٩   (٢) وكان من رءوس جند على .

فلما يئس معاوية من الأشعث قال لعمرو بن العاص : إن رأس أهل العراق بعد عليّ هو عبد الله بن عباس ، فلو كتبت إليه كتابًا لعلك ترقّه ، ولعله لو قال شيئًا لم يخرج عليّ منه ، وقد أكلتنا الحربُ ولا أرانا نصل إلى العراق إلا بهلاك أهل الشأم ، فقال عمرو : إن ابن عباس لا يُخْدَع ، ولو طمِعْتَ فيه لطمعت في علي . قال معاوية : على ذلك فا كتب ، فكتب عمرو إلى ابن عباس:

« أما بعدُ : فإن الذى نحن وأنتم فيه ليس بأولُ أمر قادَه البلاء ، وأنت رأس هذا الجمع بعد عليّ ، فانظر فيما بَقِيَ ودع ما مضى ، فوالله ما أبقَت هذه الحرب لنا ولا لكم حياةً ولا صبراً . واعلم أن الشأم لا تَهلِك إلا بهلاك العراق ، وأن العراق لا تَهلِك إلا بهلاك الشأم ، فما خيْرُنا بعد هلاك أعدادِنا منكم ؟ وما خيركم بعد هلاك أعدادكم منا ؟ ولسنا نقول : ليت الحرب عادت ، ولكنا نقول : ليتها لم تكن ، وإن فينا مَن يكره اللِّقاء كما أن فيكم من يكرهه ، وإنما هو : أمير مطاع ، ومأمور مطيع ، ومؤتمَن مشاوَر وهو أنت ، فأما الأشتر(١) الغليظ الطبع القاسى القلب فليس بأهل أن يُدْعَى فى ثقات أهل الشُّورى ، ولا فى خواصِّ أهل النَّجْوَى » .

وكتب فى أسفل الكتاب :

طال البَلاء وما يُرْجَى له آسي — بعد الإله سوى رِفْقِ ابنِ عبَّاس(٢)

قُولاَ له قَوْلَ من يرجو مَودَّتَه — لا تَنْسَ حَظَّك ، إن الخَاسِرَ النَّاسِي

انظر (تُفَدِّيك نفسى) قبل قاصِمَة — الظهر ليس لها راقٍ ولا آسي(٣)

إن العراقَ وأهلَ الشأم لن يجدوا — طَعْمَ الحياة مع المُسْتَغْلِق القَاسِي(٤)

---

(١) هو مالك بن الحارث ، وكان من رءوس جند على أيضا ، كان على الميمنة ، وابن عباس على الميسرة ، وعلى فى القلب . (٢) الآسى الطبيب ، أسا الجرح يأسوه : داواه .

(٣) قصمه كضرب : كسره . والرقية بالضم : العوذة (بالضم أيضا) وقد رقاه يرقيه أى عوذه .

(٤) المستغلق : استغلقنى فلان فى بيعه : إذا لم يجعل لى خيارا فى رده .

يا بْنَ الذى زَمْزَمٌ سُقْيا الحَجيج له أعْظِمْ بذلك من فخرٍ على الناس[1]
إنى أرى الخير فى سَلِم الشآم لـكم واللهُ يعلم ما بالسِّلم من بَاسِ[2]
فيها التقَى وَأمورٌ ليس يجهلها إلا الجهولُ، وما نَوْكَى كأكْياسِ[3]

(شرح ابن أبى الحديد م ٢ : ص ٢٨٨، والإمامة والسياسة ١ : ٨٣)

٤٣٨ — رد ابن عباس على ابن العاص

فلما انتهى كتاب عمرو إلى ابن عباس أتى به إلى علىّ عليه السلام : فأقرأه إياه فضحك ، وقال : قاتل الله[4] ابن العاص ! ما أغراه بك يا عبد الله أجبهُ ، وليرُدَّ عليه شعره الفضل بن العباس فإنه شاعر ، فكتب ابن عباس إلى عمرو :

« أما بعد : فإنى لا أعلم أحداً من العرب أقلَّ حياء منك ، إنك مال بك الهوَى إلى معاوية ، فبعتَه دينك بالثمن الأوكَس[5] ، ثم خبَطْتَ الناس فى عَشْواء[6] طمعاً فى الدنيا فأعظمْتَها إعظام أهل الدنيا ، فلما ترامينا أعظمتَ الحربَ والدِّماء إعظامَ أهل الدين ، وأظهرت فيها كراهية أهل الوَرَع لا تريد بذلك إلا تمهيد الحرب ، وكَسْرَ أهل الدين ، فإن كنت تريد الله ، فارجِع إلى بيتك ، ودَعِ الطمعَ فى مصر ، والركونَ

---

(١) الحجيج جمع حاج ، وزمزم بئر بمكة حفرها عبد المطلب بن هاشم جد رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وكان ابنه العباس فى الجاهلية رئيسا فى قريش ، وإليه كانت السقاية فى الجاهلية (انظر أسد الغابة ج ٣ : ص ١٠٩) وجاء فى شرح ابن أبى الحديد م ٣ : ص ٤٦١ « وكانت السقاية فى الجاهلية بيد أبى طالب، ثم سلمها إلى أخيه العباس» . وزمزم مبتدأ خبره الجار والمجرور وسقيا الحجيج بدل من زمزم أو عطف بيان. (٢) النسب إلى شأم ويمن: شأمى ويمنى بياء مشددة، وقد قالوا فيهما شآم ويمان (منقوصين) وأصلهما شأمى ويمنى ، حذفوا إحدى ياءى النسب تخفيفا وعوضوا عنها الألف ففتحت همزة شأمى بعد سكونها فصارا شآمى ويمانى ، ثم أعلا كقاض ، وقالوا فيهما أيضا شآمى ويمانى بياء مشددة مع الألف ، والبأس : الشدة والقوة ، وفى الأصل « ناس » وهو تصحيف.

(٣) الضمير فى « فيها » يعود على السلم وهو يذكر ويؤنث ، والنوكى : الحمقى ، والنوك بالضم والفتح : الحمق ، نوك كفرح فهو أنوك، والأكياس : العقلاء جمع كيس كجيد

(٤) قاتله الله : لعنه ، أو قتله أو عاداه .

(٥) أى الخسيس . (٦) يروى « فى عشوة » و « فى عشواء » والعشوة مثلثة : ركوب الأمر على غير بيان ، وبالفتح : الظلمة كالعشواء .

إلى الدنيا الفانية . واعلم أن هذه الحرب ليس فيها معاوية كعلى ، بدأها علىّ بالحق ، وانتهى فيها إلى العُذْر ، وبدأها معاوية بالبغى ، وانتهى فيها إلى السَّرَف ، وليس أهل الشأم فيها كأهل العراق : بايعَ أهلُ العراق عليًّا وهو خير منهم ، وبايع أهل الشأم معاوية وهم خير منه ، ولست أنا وأنت فيها سواء : أردتُ الله ، وأنت أردت مصر ، وقد عرفتُ الشىء الذى باعَدَك منى ، ولا أعرف الشىء الذى قرّبك من معاوية ، فإنه تُرِد شرا لانَسْبِقك به ، وإن تُرد خيراً لا تَسْبِقنا إليه ، والسلام » .

ثم دعا أخاه الفضل فقال : يابن أمِّ أجِبْه ، فقال الفضل :

يا عمرُو : حَسْبُك من مَكرٍ ووِسْواسِ ... فاذهب فليس لداء الجهل مِن آسِى[(١)]
إلاّ تَوَاتُرُ طَعْنٍ فى نحورِكُم ... يُشْجِى النفوس ويَشفِى نخوة الراسِ[(٢)]
أمَّا علىٌّ فإن الله فَضَّله ... بفضلِ ذى شَرَفٍ عالٍ على الناسِ[(٣)]
إن تَعْقِلوا الحرب نَعقِلْها مُخَيَّسَةً ... او تبعثوها فإنا غيرُ أنكاسِ[(٤)]
قَتْلَى العراق بِقَتْلَى الشام ذاهبة ... هذا بهذا ، وما بالحق من باسِ

ثم عرَض الشعر والكتاب على علىّ عليه السلام ، فقال : لا أراهُ يجيبك بعدها أبداً بشىء إن كان يعقل ، وإن عاد عُدْت عليه ، فلما انتهى الكتاب إلى عمرو بن العاص عرضه على معاوية فقال : إن قلب ابن عباس وقلب على قلب واحد ، وكلاهما ولد عبد المطلب ، وإن كان قد خشُن فلقد لان ، وإن كان قد تعظَّم وعظّم صاحبه فلقد قارب وجَنَح إلى السّلم . (شرح ابن أبى الحديد م ٢ : ص ٨٨ والإمامة والسياسة ١ : ٨٤)

---

(١) وسوست إليه نفسه أو الشيطان : حدثته بما لا نفع فيه ولا خير ، والمصدر وسوسة ووسواس بكسر الواو فى الثانى ، والوسواس بالفتح : اسم منه .

(٢) التواتر : التتابع ، وشجاه : حزنه وطربه كأشجاه فيهما ، ضد ، ويصح المعنيان فى البيت أى يحزن نفوسكم ، أو يسر نفوسنا ، والنخوة : الكبر والعظمة .

(٣) بفضل ذى شرف : أى بفضل نبى ذى شرف .

(٤) من عقل الدابة إذا قيدها وحبسها ، والمعنى : إن تكفوا عن الحرب « وخيسه تخييسا : ذلله والأنكاس جمع نكس بالكسر : وهو الرجل الضعيف والمقصر عن غاية النجدة والكرم .

٣٣٩ — كتاب معاوية إلى ابن عباس

وقال معاوية لأكتبنّ إلى ابن عباس كتاباً أستعرض فيه عقله ، وأنظر ما فى نفسه ، فكتب إليه :

« أما بعدُ : فإنكم مَعْشَرَ بنى هاشم لستم إلى أحد أسرَعَ منكم بالمساءة إلى أنصار ابن عفان ، حتى إنكم قتلتم طلحة والزبير لطلبهما بدمه ، واستعظامهما ما نِيلَ منه ، فإن كان ذلك منافسةً لبنى أمية فى السلطان ، فقد وَلِيَها عَدِىٌّ وتَيمٌ[1] ، فلم تنافسوهم وأظهرتم لهم الطاعة .

وقد وقع من الأمر ما قد ترى ، وأدالت[2] هذه الحربُ بعضَنا من بعض حتى استوينا فيها ، فما يُطْمِعكم فينا يُطْمِعنا فيكم ، وما يُؤْيِسُنا منكم يؤيسكم منا ، ولقد رَجونا غير الذى كان ، وخشينا دونَ ما وقع ، ولستُم ملاَقِينا اليوم بأحَدَّ من حدِّكم أمس ، ولا غدًا بأحَدَّ من حدكم اليوم وقد قنِعْنا بما فى أيدينا من ملك الشأم ، فاقْنَعوا بما فى أيديكم من ملك العراق ، وأبقُوا على قريش ، فإنما بقى من رجالها ستة : رجلان بالشأم ، ورجلان بالعراق ، ورجلان بالحجاز ، فأما اللذان بالشأم فأنا وعمرو ، وأما اللذان بالعراق ، فأنت وعلىّ ، وأما اللذان بالحجاز فسَعْد وابن عُمر[3] ، فاثنان من الستة ناصبان[4] لك ، واثنان واقفان فيك ، وأنت رأس هذا الجمع ، ولو بايع لك الناس بعد عثمان كنا أسرع منا إلى علىّ » .

(شرح ابن أبى الحديد م ٢ : ص ٢٨٩ ، والإمامة والسياسة ١ : ٨٥)

---

(١) أى وليها عمر وأبو بكر ، فالأول من عدى بن كعب بن لؤى ، والثانى من تيم بن مرة بن كعب بن لؤى .

(٢) أداله الله من عدوه : نصره عليه .

(٣) يعنى سعد بن أبى وقاص وعبد الله بن عمر .

(٤) نصب له : عاداه .

٤٤٠ — رد ابن عباس على معاوية

فلما أتى كتاب معاوية إلى ابن عباس ضحك ثم قال : حتى متى يخطب ابن هند إلىَّ عقلى ، وحتى متى أجمجم[1] عنه ما فى نفسى ؟ فكتب إليه :

« أما بعد : فقد جاءنى كتابك وقرأته ، فأما ما ذكرتَ من سُرْعتنا بالمساءة إلى أنصار عثمان وكراهتنا لسلطان بنى أمية ، فلعمرى لقد أدركتَ فى عثمان حاجَتَك حين استَنْصرَك فلم تنصره حتى صِرْتَ إلى ما صرت إليه ، وبينى وبينك فى ذلك ابنُ عمك وأخو عثمان الوليدُ بن عقبة ، وأما طلحة والزبير ، فإنهما أجْلَبا عليه وضيَّقا خِناقه[2] ، ثم خرجا ينقُضان البيعة ويطلبان الملك ، فقاتلناهما على النَّكْث كما قاتلناك على البغى ، وأما قولك إنه لم يبق من قريش غير ستة ، فما أكثر رجالها ، وأحسنَ بقيَّتها ! وقد قاتلك من خيارها مَن قاتلك ، ولم يخذُلنا إلا من خذَلك . وأما إغراؤك إيانا بعدِىّ وتَيْم ، فإن أبا بكر وعمر خير من عثمان كما أن عثمان خير منك ، وقد بقى لك منا ما يُنْسيك ماقبله وتخاف مابعده ، وأما قولك : إنه لو بايعنى الناس استقمت ، فقد بايع الناسُ عليًّا ، وهو خير منى فلم تستقم له ، وما أنت وذكرُ الخلافة يا معاوية ؟ وإنما أنت طَلِيق ، وابن طليق والخلافة للمهاجرين الأولين وليس الطُّلَقاء منها فى شىء ، والسلام » .

(شرح ابن أبى الحديد م : ٢ ص ٢٨٩ ، والإمامة والسياسة ١ : ٨٥)

٤٤١ — كتاب على إلى معاوية

وكتب معاوية إلى علىّ عليه السلام يسأله إقراره على الشأم ، فكتب إليه علىّ :

« أما بعدُ : فإن الدنيا حُلْوة خَضِرة[3] ذات زينة وبهْجة ، لم يَصْبُ إليها أحد إلا

(١) جمجم فى صدره شيئاً : أخفاه ولم يبده . (٢) الخناق : الحبل يخنق به .

(٣) أخذها من قوله صلى الله عليه وسلم فى إحدى خطبه « ألا إن الدنيا خضرة حلوة » انظر جمهرة خطب العرب ١ : ٥٤ ، وخضرة : أى ناضرة من خضر الزرع كفرح فهو أخضر وخضر ، وصبا إليه : مال .

شَغَلَتْه بزينتها عما هو أنفع له منها ، وبالآخرة أُمِرْنا ، وعليها حُثِثْنا ، فدع يا معاوية ما يَفْنَى ، واعمل لما يَبْقَى ، واحذر الموت الذى إليه مَصِيرُك ، والحسابَ الذى إليه عاقبتُك ، واعلم أن الله تعالى إذا أراد بعبد خيراً حال بينه وبين ما يكره ، ووفَّقه لطاعته. وإذا أراد الله بعبد سوءاً أغراهُ بالدنيا وأنساه الآخرة ، وبَسَط له أمله ، وعاقَه عما فيه صلاحُه ، وقد وصلنى[1] كتابك فوجدتك تَرْمى غير غرَضِك ، وتَنْشُد غير ضالَّتك ، وتخبطُ فى عَمايةٍ[2] ، وتَتِيه فى ضَلالة ، وتعتصم بغير حُجَّة ، وتلوذُ بأضعف شُبْهة .

فأما سؤالك المتاركةَ والإقرارَ لك على الشأم ، فلو كنتُ فاعلا ذلك اليوم لَفَعلتُه أمس ، وأما قولُك إن عمر ولاَّكَه فقد عَزَلَ[3] من كان وَلاَّه صاحِبُه ، وعزل عثمان من كان عمرُ ولاَّه[4] ، ولم يُنْصَب للناس إمامٌ إلا ليَرَى مِن صلاح الأمة ما[5] قد كان ظهر لمن قبله ، أو أُخفى عنهم عيبُه ، والأمر يَحْدُثُ بعده الأمر ، ولكل والٍ رأىٌ واجتهاد .

فسبحانَ الله ! ما أشدَّ لزومَك للأهواء المبتَدَعة ، والحَيْرة المتَّبعة ، مع تضييع الحقائق ، واطِّراح الوثائق ، التى هى لله تعالى طِلبة ، وعلى عباده حُجَّة ، فأما إكثارك الحِجَاج فى عثمان وقتَلَته ، فإنك إنما نصرتَ عثمان حيث كان النصرُ لك[6] ، وخَذَلْتَه حيثُ كان النصر[7] له ، والسلام » .

(شرح ابن أبى الحديد م ٤ : ص ٥٧ ، ونهج البلاغة ٢ : ٤٤)

---

(١) جاء فى القاموس المحيط : « وصل الشىء ووصل إليه : بلغه وانتهى إليه » — فهو بهذا المعنى يستعمل متعديا ولازما . (٢) العماية : الضلال .

(٣) يريد خالد بن الوليد ، فقد تقدم لك أن عمر لما ولى الخلافة عزله وولى أبا عبيدة قيادة جند الشأم بدله . (٤) أى من عمال الأمصار غير معاوية فقد استبقاه على الشام .

(٥) فى الأصل « أما ما قد كان . . الخ » وهو تحريف

(٦) أى حيث كان فيه فائدة لك ، فأنت الآن تنهض للثأر به رجاء تحقيق مآربك .

(٧) أى حيث كان فيه فائدة له ، فقد استنصر بك حين حصر فتربصت به .

٤٤٢ — كتاب معاوية إلى ملك الروم

وبلغ معاويةَ أن صاحب الروم يريد قَصْد بلاد الشأم أيام صِفِّين، فكتب إليه:

«تاللهِ لئن تَمَمْتَ(١) على ما بَلَغَنى لَأُصالِحَنَّ صاحبى، ولَأَكونَنَّ مقدِّمتَه إليك، ولَأَجْعلَنَّ القُسْطَنْطِينِيَّةَ الحمراء حُمَمَةً(٢) سوداء، ولَأَنْزِعَنَّك من الملك نَزْعَ الإِصْطَفْلِينَةِ(٣)، ولَأَرُدَّنَّك إِرِّيساً(٤) من الأَرارِسَةِ تَرْعَى الدَّوابِلَ(٥)».

وفى رواية: «كما كنت تَرْعَى الخنانِيصَ(٦)».

(لسان العرب ٧ : ٣٠٠)

٤٤٣ — كتاب معاوية إلى علىّ

وكتب معاوية إلى علىّ فى أواخر حرب صِفِّين:

«من عبد الله معاوية بن أبى سفيان إلى علىّ بن أبى طالب:

أما بعد: فإن الله تعالى يقول فى محكم كتابه: «وَلَقَدْ أُوحِيَ إِلَيْكَ وَإِلَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكَ لَئِنْ أَشْرَكْتَ لَيَحْبَطَنَّ عَمَلُكَ(٧) وَلَتَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ» وإنى أحذِّرك اللهَ أن تُحْبِط عملَك وسابقتَك بشَقِّ عَصا(٨) هذه الأمة، وتفريق

---

(١) تم على الأمر وتمم عليه بإظهار الإدغام: استمر عليه.

(٢) الحممة: الفحمة والجمع حمم. (٣) الإصطفلينة: الجزرة، قال ابن الأثير: ليست اللفظة بعربية محضة، لأن الصاد والطاء لا يكادان يجتمعان إلا قليلا.

(٤) الإريس: الأكار — انظر ص ٣٨.

(٥) الدوابل جمع دوبل كجوهر: وهو الخنزير أو ذكره أو ولده.

(٦) الخنانيص جمع خنوص بكسر الخاء وتشديد النون مفتوحة: وهو ولد الخنزير.

(٧) أى ليفسدن. (٨) هو مثل. يقولون: شق عصاهم، أى فرق جماعتهم: وأصل العصا الاجتماع والائتلاف، وذلك أنها لا تدعى عصا حتى تكون جميعا، فإن انشقت لم تدع عصا، فالمعنى: شق اجتماعهم وائتلافهم، قالوا: وأصل هذا أن الحاديين يكونان فى رفقة، فإذا فرقهم الطريق شقت العصا التى معهما، فأخذا هذا نصفها وهذا نصفها، يضرب مثلا لكل فرقة.

جماعتها ، فاتّق الله واذكُر موقِفَ القيامة ، وأَقْلِعْ عما أسرفتَ فيه من الخوض في دماء المسلمين ، وإني سمعتُ رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : « لو تمالأَ(١) أهلُ صَنْعاء وعَدَن على قتل رجل واحد من المسلمين ، لأَ كَبَّهم الله على مَناخِرِهم في النار » فكيف يكون حال مَن قتل أعلام المسلمين ، وسادات المهاجرين ، بَلْهَ(٢) ما طَحَنَتْ رَحَى حربه من أهل القرآن ، وذوى العبادةْ والإيمان ، من شيخ كبير ، وشابٍّ غَرِيرٍ(٣) ، كلُّهم بالله تعالى مؤمن ، وله مُخْلِص ، وبرسوله مُقِرٌّ عارفٌ ، فإن كنت — أبا حسن — إنما تحارب على الإمرة والخلافة ، فلَعَمْرِي لو صَحَّت خلافتك لكنت قريباً من أن تُعْذَر في حرب المسلمين ، ولكنها ما صَحَّتْ لك ، أَنَّى بِصحّتها ، وأهلُ الشأم لم يدخلوا فيها ، ولم يرتضوها ؟ وخَفِ اللهَ وسَطَواتِه ، واتَّقِ بأسه ونَكالَه ، وأغمِدْ سيفَك عن الناس ، فقد واللهِ أكلتهم الحربُ ، فلم يَبْقَ منهم إلا كالثَّمْدِ(٤) في قَرارة الغَدِير ، والله المستعان » .

(شرح ابن أبي الحديد م ٣ ؛ ص ٣٠٢)

٤٤٤ — رد عليّ على معاوية

فكتب عليّ عليه السلام إليه جوابًا عن كتابه :

« من عبد الله على أمير المؤمنين إلى معاوية بن أبي سفيان .

---

(١) تمالئوا على الأمر اجتمعوا ، وكبه وأكبه وكبكبه : قلبه وصرعه ، والمناخر جمع منخر بفتح الميم والخاء وبكسرهما وضمهما وكمجلس : وهو الأنف .

(٢) قال جماعة من أهل اللغة : بله معناها على ، وقال الفراء : من خفض بها جعلها بمنزلة على وما أشبهها من حروف الخفض ، فالمعنى : زد قتله أعلام المسلمين على طحن رحى حربه أهل القرآن ، وضمه إليه ، وذكر النحويون أن بله تستعمل اسم فعل بمعنى اترك فينصب ما بعدها بالمفعولية (والمعنى حينئذ : دع واترك طحن رحى حربه أهل القرآن وذوى العبادة ، فإنه أشد وأفظع) ومصدرا بمعنى الترك فيجر ما بعدها بالإضافة ، واسم استفهام بمعنى كيف . فتكون خبرا مقدما ويرفع ما بعدها على الابتداء .

(٣) الغرير والغر بالكسر : الشاب لا تجربة له .

(٤) الثمد كشمس وسبب وكتب : الماء القليل لا مادة له .

أما بعدُ : فقد أتتني منك مَوْعِظَةٌ مُوَصَّلَة(١) ، ورسالة مُحَبَّرة ، نَمَّقتَها بضلالك ، وأمضيتها بسوء رأيك ، وكتابُ آمرئٍ ليس له بَصَرٌ يَهديه ، ولا قائِدٌ يُرْشده ، قد دعاه الهوى فأجابه ، وقاده الضلال فاتَّبعَه ، فهَجَرَ(٢) لاغِطًا ، وضَلَّ خابطًا ، فأما أَمْرُك لى بالتقوى فأرجو أن أكون من أهلها ، وأستعيذُ بالله من أن أكون من الذين إذا أُمِروا بها أخذَتْهُم العِزَّةُ بالإثم ، وأما تحذيرُك إياى أن يَحْبَطَ عملى وسابقتى فى الإسلام ، فلعمرى لو كنتُ الباغِيَ عليك ، لـكان لك أن تحذِّرَنى ذلك ، ولـكنى وجدت الله تعالى يقول : « فَقَاتِلُوا الَّتِي تَبْغِي حَتَّى تَفِيءَ(٣) إِلَى أَمْرِ اللهِ » فنظَرْنا إلى الفئتين ، أما الفئة الباغية فوجدناها الفئة التى أنت فيها ، لأن بَيْعتى بالمدينة لزِمَتك وأنت بالشأم ، كما لزِمَتْك بَيْعة عثمان بالمدينة ، وأنت أمير لعُمَرَ على الشأم ، وكما لزِمَتْ يزيدَ أخاك بيعةُ عمر ، وهو أميرٌ لأبى بكر على الشأم .

وأما شَقُّ عصا هذه الأمة ، فأنا أحق أن أنهاك عنه ، فأما تخويفك لى من قتل أهل البغى ، فإن رسول الله صلى الله عليه وآله أمرنى بقتالهم وقتلهم وقال لأصحابه : « إن فيكم من يقاتل على تأويل القرآن كما قاتلتُ على تنزيله » وأشار إلىَّ ، وأنا أَوْلَى من اتَّبَع أمره ، وأما قولك إن بيعتى لم تصح ، لأن أهل الشأم لم يدخلوا فيها ، فكيف ؟ وإنما هى بيعة واحدة ، تَلْزَم الحاضرَ والغائبَ ، لا يُثَنَّى(٤) فيها النظر ، ولا يُسْتَأْنَفُ فيها الخِيار(٥) ، الخارِجُ منها طاعِن(٦) ، والمُرَوِّى(٧) فيها مُداهِنٌ ، فارْبَعْ

(١) أى ملفقة من كلام مختلف جم من هاهنا وهاهنا ووصل بعضه ببعض فبدا متـكلفا غير متسق ، ومحبرة : أى محسنة مزينة ونمق الـكتاب : حسنه وزينه أيضا .

(٢) هجر فى نومه ومرضه هجرا بالضم : أى هذى ، واللاغط : ذو اللغط (كشمس وسبب) وهو الصوت والجلبة ، أو أصوات مبهمة لاتفهم وخبط البعير فهو خابط : إذا مشى ضالا فخبط بيديه كل مايلقاه لا يتوقى شيئاً . (٣) أى ترجع .

(٤) أى لا ينظر فيها ثانية . (٥) أى لاخيار لمن عقدها ولا لغيرهم فيها بعد عقدها .

(٦) أى طاعن على الأمة التى ولت الإمام باختيارها .

(٧) روى فى الأمر نظر وفـكر ، أى الذى يفـكر ويروى فيها ويبطئ عن الطاعة مداهن أى منافق .

عَلَى ظَلْعِك ، وانْزِعْ سِرْبالَ غَيِّك ، واترك مالا جَدْوَى له عليك ، فليس لك عندى إلاّ السيف ، حتى تَفِيء إلى أمر الله صاغرًا ، وتدخل فى البيعة راغمًا[1] ، والسلام » .

(شرح ابن أبى الحديد م ٣ : ص ٣٠٢ ، ونهج البلاغة ٢ : ٥)

٤٤٥ — كتاب معاوية إلى على

وكتب معاوية إلى على ثانية (قبل ليلة الهرير[2] بيومين أو ثلاثة) يسأله إقراره

---

(١) أى ذليلا .

(٢) بدأ القتال بين على ومعاوية فى وقعة صفين يوم الأربعاء غرة صفر سنة ٣٧ هـ ، واستمر عشرة أيام إلى يوم الجمعة عاشر صفر ، وقد اقتتل الناس ليلة الجمعة كلها حتى الصباح ، حتى تقصفت الرماح ونفد النبل وصار الناس إلى السيوف ، وأصبح صباح الجمعة والناس يقتتلون من كل جانب ، وأخذ الأشتر يزحف بالميمنة ويقاتل فيها ، وكان قد تولاها عشية الخميس وليلة الجمعة إلى ارتفاع الضحى ثم كانت مكيدة عمرو ابن العاص برفع المصاحف على رءوس الرماح على ماهو مشهور ، وقد سميت ليلة الجمعة المذكورة (ليلة عاشر صفر) بليلة الهرير — انظر تاريخ الطبرى ٦ : ٢٦ ومروج الذهب ٢ : ٢٧ وليست هذه التسمية بالأولى فى بابها ، فقد سبق أن سميت ليلة من ليالى وقعة القادسية (وكانت سنة ١٤ هـ) بليلة الهرير ، جاء فى معجم البلدان لياقوت ٧ : ٧ « ذكر أصحاب الفتوح أن القادسية كانت أربعة أيام ، فسموا اليوم الأول يوم أرماث ، واليوم الثانى يوم أغواث ، واليوم الثالث يوم عماس (وضبطه ياقوت فى معجمه بالكسر) وليلة اليوم الرابع ليلة الهرير ، واليوم الرابع سموه يوم القادسية ، وفيه كان الفتح للمسلمين ، وقتل رستم ولم يقم الفرس بعد قائمة » وجاء فى تاريخ الطبرى ٤ : ١٣١ : ١٣٢ « واجتلدوا تلك الليلة من أولها حتى الصباح لاينطقون ، كلامهم الهرير ، فسميت ليلة الهرير » وجاء فيه أيضا « وأصبحوا ليلة القادسية وهى صبحة ليلة الهرير ، وهى تسمى ليلة القادسية من بين تلك الأيام ، والناس حسرى لم يغمضوا ليلتهم كلها ... » — ويطلق الهرير على صوت غير الكلب ، ومنه الحديث « إنى سمعت هريرا كهرير الرحى » أى صوت دورانها ، انظر لسان العرب مادة هرر — ومن قبل وقعة القادسية سمت العرب « يوم الهرير » أيضا ، جاء فى القاموس المحيط فى مادة هرر « ويوم الهرير يوم بين بكر بن وائل وتميم ، قتل فيه الحرث بن بيبة سيد تميم » وجاء فى معجم ياقوت ٨ : ٤٦١ « والهرير من هرير الفرسان بعضهم على بعض كما تهر السباع ، وهو صوت دون النباح ، ويوم الهرير من أيامهم ما أظنه سمى إلا بذلك ، إلا أنه كان الأغلب على أيامهم أن يسمى بالمكان الذى يكون فيه ذلك ، وهو من أيامهم القديمة قبل يوم الهرير بصفين كانت به وقعة بين بكر بن وائل وبين بنى تميم قتل فيه الحرث بن بيبة المجاشعى .. الخ وورد فى مجمع الأمثال للميدانى فى باب أسماء أيام العرب ٢ : ٢٦٩ « يوم الهزبر » مضبوطا بوزن اسم الأسد وهو تصحيف ، ولم يذكره صاحب العقدين أيام العرب — راجع الجزء الثالث — ولا صاحب صبح الأعشى — راجع الجزء الأول — .

وتتمة الفائدة أقول : قال ياقوت فى معجمه عند الكلام على أسماء أيام القادسية « أرماث وأغواث =

على الشأم ، وذلك أن عليًا عليه السلام قال : لأناجزنّهم(١) مُصْبِحاً ، وتناقل الناس كلمته ، ففزع أهل الشأم لذلك ، فقال معاوية : قد رأيت أن أعاود عليًا وأسأله إقرارى عَلَى الشأم ، فقد كنت كتبت إليه فى ذلك فلم يجب إليه ، ولأ كتبنّ ثانية ، فألقى فى نفسه الشك والرِّقة ، فكتب إليه :

« أما بعدُ : فإنك لو علِمتَ وعلمنا أن الحرب تبلُغُ بنا وبك ما بَلَغَتْ ، لم يجْنِها بعضُنا على بعض ، ولئن كنا قد غُلِبْنا على عقولنا ، لقد بقى لنا منها ما نَنْدمُ(٢) به على ما مَضَى ، ونُصْلِح به ما بَقِىَ ، وقد كنت سألتك الشأم على أن لا تلزمَنى لك بَيْعة وطاعة ، فأبَيْتَ ذلك علىّ ، فأعطانى الله ما مَنعتَ ، وأنا أدعوك اليومَ إلى ما دعوتُك إليه أمسِ ، فإنى لا أرجُو من البقاء إلا ما ترجو ، ولا أخاف من الفناء(٣) إلا ما تخاف ، وقد واللهِ رقَّتِ الأجنادُ ، وذهبت الرجال ، ونحن بنو عبد مَنافٍ ليس لبعضنا على بعض فضلٌ ، إلاّ فضلٌ لا يُستذلُّ به عزيزٌ ، ولا يُسترقُّ به حرٌّ ، والسلام » .

(شرح ابن أبى الحديد م ٣ : ص ٢٤ ، ومروج الذهب ٢ : ٦٠ والإمامة والسياسة ١ : ٨٨)

= وعماس»: ولا أدرى : أهذه الأسماء مواضع ، أم هى من الرمث والغوث والعمس اهـ ج ١ : ص ٢٩٦ (والرمث كسبب : خشب يضم بعضه إلى بعض ويشد ثم يركب فى البحر ، وجمعه أرماث ، والعمس كسبب أيضا : الشدة ، وأمر عمس كشمس وعماس كسحاب : شديد مظلم لا يدرى من أين يؤتى له) وأقول : لعل تسمية اليوم الأول بيوم أرماث أن رستم قائد الفرس لما أراد عبور نهر العتيق ، أمر بسكره (وسكر النهر كنصر ســـده) فباتوا ليلتهم يسكرونه حتى الصباح بالتراب والقصب والبراذع والأمتعة حتى جعلوه طريقا (انظر تاريخ الطبرى ٤ : ١١٢) وذلك أشبه بالأرماث ولعل تسمية اليوم الثانى بيوم أغوات : أنه قدم على المسلمين فيه مدد من الشام ، بعثه أبو عبيدة بأمر عمر ، وعليه هاشم بن عتبة بن أبى وقاص، وعلى مقدمته القعقاع بن عمرو (تاريخ الطبرى ٤ : ١٢٠) فكان ذلك المدد غوثا لهم ، ولعل تسمية اليوم الثالث بيوم عماس ، لما كان فيه من الشدة ، ولم يكن فى أيام القادسية مثله (تاريخ الطبرى ٤ : ١٢٦):

(١) المناجزة : المعاجلة فى القتال . وقد ذكروا أنه بعد انتهاء القتال يوم الثلاثاء سابع أيام صفين قال على : حتى متى لا نناهض هؤلاء القوم بأجمعنا ؟ ثم خرج إليهم فى اليوم الثامن يـوم الأربعاء بنفسه (انظر تاريخ الطبرى ٦ : ٧ ومروج الذهب ٢ : ٢٠) .

(٢) فى الإمامة و السياسة « ما نذم به مامضى » وفى مروج الذهب « ماترد به مامضى » .

(٣) فى مروج الذهب « من القتال » وفى ابن أبى الحديد « من الموت » .

٤٤٦ — رد عليّ على معاوية

فأجابه عليّ :

« أما بعدُ : فقد جاءنى كتابك تذكر أنك لو علمت وعلمنا أن الحرب تبلغ بنا وبك ما بلغت لم يَجْنِها بعضنا على بعض ، فإنى[١] لو قُتِلْتُ فى ذات اللهِ وحَيِيت ، ثم قتلت ثم حييت سبعين مرة ، لم أرجِع عن الشدة فى ذات الله ، والجهاد لأعداء الله ، وأما قولك إنه قد بقى من عقولنا ماننندم به على مامضى ، فإنى ما تنقّصْت[٢] عقلى ، ولا نَدِمْت على فعلى ، وأما طلبُك[٣] إلىَّ الشأم ، فإنى لم أكن لأُعطِيَك اليومَ ما منعتك أمس ، وأما قولك إن الحرب قد أكلت العرب إلا حُشاشات[٤] أنفسٍ بقِيَتْ ، ألَا ومَن أكله الحقُّ فإلى الجنة[٥] ، ومن أكله الباطل فإلى النار ، وأما استواؤنا فى الخوف والرجاء ، فلست بأَمْضَى على الشك منى على اليقين ، وليس أهل الشأم بأَحْرَصَ على الدنيا من أهل العراق على الآخرة ، وأما قولك إنّا بنو عبد مناف ليس لبعضنا على بعض فضل ، فلعمرى إنا بنو أب واحد ، ولـكن ليس

---

(١) وفى الإمامة والسياسة « وأنا وإياك فى غاية لم نبلغها بعـد » وفى مروج الذهب « وأنا وإياك نلتمس منها غاية لم نبلغها بعد .

(٢) انتقصه وتنقصه واستنقصه : نسب إليه النقصان ، وفى الأصل « شرح ابن أبى الحديد » « ماتقصت » وأراه محرفا لأن تنقص وانتقص أدل على المعنى المراد هنا. (٣) طلب إليه : رغب .

(٤) جمع حشاشة : وهى بقية الروح فى المريض .

(٥) معناه : من هلك فى سبيل الحق والدفاع عنــه فمصيره إلى الجنــة ، وكذا ما بعده وقال ابن أبى الحديد : « وروى : ألا ومن أكله الحق فإلى النار ، وهذه الرواية أليق من الرواية المذكورة فى أكثر الـكتب ، لأن الحق يأكل أهل الباطل ، ومن روى تلك الرواية أضمر مضافا تقديره أعداء الحق ومضافا آخر ، ويجوز أن يكون من أكله الحق فإلى الجنة أى من أفضى به الحق ونصرته والقيام دونه إلى القتل فإن مصيره إلى الجنة . . . » .

أُمَيَّة كهاشم(١) ، ولا حَرْب كعبد المطلب(٢) ، ولا أبو سفيان كأبي طالب ، ولا

(١) ولى هاشم بعد أبيه عبد مناف ما كان إليه من السقاية والرفادة (والسقاية : إسقاء الحجيج الماء العذب ، والرفادة بالكسر : خرج كانت قريش تخرجه فى كل موسم من أموالها ، فتدفعه إليه ، فيصنع به طعاما للحاج يأكله من لم يكن له سعة ولازاد) فحسده أمية بن عبد شمس بن عبد مناف على رياسته وإطعامه ، وكان ذامال ، فتكلف أن يصنع صنيع هاشم ، فعجز عنه ، فشمت به ناس من قريش، فغضب ونال منهاشم، ودعاه إلى المنافرة، فكره هاشم ذلك لسنه وقدره، فلم تدعه قريش حتى نافره على خمسين ناقة سود الحدق ينحرها ببطن مكة،والجلاء عن مكة عشر سنين،فرضى بذلك أمية، وجعلا بينهما الكاهن الخزاعى — وهو جد عمرو بن الحمق . ومنزله بعسفان بالضم : موضع على مرحلتين من مكة — وكان مع أمية همهمة بن عبد العزى الفهرى ، وكانت ابنته عند أمية ، فقال الكاهن « والقمر الباهر ، والكوكب الزاهر، والغمام الماطر ، وما بالجو من طائر ، وما اهتدى بعلم مسافر (والعلم بالتحريك : ما نصب فى الطريق يهتدى به) من منجد وغائر (وأنجد : أتى نجدا ، وغار وأغار : أتى غورا) لقد سبق هاشم أمية إلى المآثر ، أول منه وآخر ، وأبو همهمة بذلك خابر » فقضى لهاشم بالغلبة ، وأخذ هاشم الإبل فنحرها وأطعمها ، وغاب أمية عن مكة بالشأم عشر سنين ، فكانت هذه أول عداوة وقعت بين هاشم وأمية—انظر تاريخ الكامل لابن الأثير ٢ : ٦ والسيرة الحلبية ١ : ٤ وتاريخ الطبرى ٢ : ١٨٠ .

(٢) حرب هو حرب بن أمية جد معاوية ، وعبد المطلب جد على وقد تنافرا أيضا . وسبب ذلك، أن عبد المطلب كان له جار يهودى يقال له أذينة ، يتجر وله مال كثير ، فغاظ ذلك حرب بن أمية ، وكان نديم عبد المطلب ، فأغرى به فتيانا من قريش ليقتلوه ويأخذوا ماله ، فقتله عامر بن عبد مناف بن عبد الدار ، وصخر بن عمرو بن كعب التيمى جد أبى بكر ، ولم يعرف عبد المطلب قاتله ، فلم يزل يبحث حتى عرفهما ، وإذا هما قد استجارا بحرب بن أمية ، فأتى حربا ولامه ، وطلبهما منه فأخفاهما ، فتغالظا فى القول ، حتى تنافرا إلى النجاشى ملك الحبشة فأبى أن ينفر بينهما (نفره عليه : قضى له عليه بالغلبة) فجعلا بينهما نفيل ابن عبدالعزى بن رياح ، فقال لحرب : « يا أبا عمرو : أتنافر رجلا هو أطول منك قامة ، وأعظم منك هامة . وأوسم منك وسامة (والوسامة بالفتح :الحسن والجمال) وأقل منك ملامة ، وأكثر منك ولدا، وأجزل صفدا (والصفد بالتحريك : العطاء) وأطول منك مذودا (والمذود كمنبر : اللسان) وإنى لأقول هذا وإنك لبعيد الغضب ، رفيع الصوت فى العرب ، جلد المريرة (أى العزيمة) جليل العشيرة ، ولكنك نافرت منفرا » فغضب حرب وقال : إن من انتكاس الزمان أن جعلت حكما ، فترك عبد المطلب منادمة حرب ، ونادم عبد الله بن جدعان ، وأخذ من حرب مائة ناقة . فدفعها إلى ابن عم اليهودى ، وارتجع ماله إلا شيئا هلك فغرمه من ماله — انظر تاريخ الطبرى ج ٢ : ١٨١ وتاريخ الكامل لابن الأثير ٢ : ٦ .

فقد بان لك وجه التنظير فى قول الإمام ، وقال ابن أبى الحديد : « وكان الترتيب يقتضى أن يجعل هاشما بإزاء عبد شمس لأنه أخوه فى قعدد (والقعدد كبرثن : القربى) وكلاهما ولد عبد مناف لصلبه ، وأن يكون أمية بإزاء عبد المطلب وأن يكون حرب بإزاء أبى طالب وأن يكون أبو سفيان بإزاء أمير المؤمنين عليه السلام ، لأن كل واحد من هؤلاء فى قعدد صاحبه ، إلا أن أمير المؤمنين عليه السلام لما كان فى صفين بإزاء معاوية اضطر الى أن جعل هاشما بإزاء أمية بن عبد شمس» وهذا القول ليس هناك لما قدمنا ، ولأن سلسلتى نسب على ومعاوية إلى عبد مناف ليستا متكافئتين بطبيعتهما ، فهى تزيد فى معاوية حلقة ، فمعاوية هو ابن أبى سفيان بن حرب بن أمية بن عبد شمس بن عبد مناف ، وعلى هو ابن أبى طالب بن عبد المطلب ابن هاشم بن عبد مناف ، فكيف يكون التنظير على قول ابن أبى الحديد ؟

المهاجِر كالطَّليق(١)، ولا الصَّريح كاللَّصيق(٢)، ولا المُحِقُّ كالمُبْطِل، ولا المؤمن كالمُدْغِل(٣)، ولَبِئْسَ الخَلَف خلف يتبع سَلَفًا هوَى فى نار جهنم(٤).

وفى أيدينا بعدُ فضلُ النبوَّة التى أذلَلْنا بها العزيز، ونَعَشْنا(٥) بها الذليلَ، ولما أدخل الله العربَ فى دينه أفواجا، وأسلمتْ له هذه الأمة طَوعا وكَرْها، كنتم ممن دخل فى الدين إما رغبةً وإما رهبةً، على حينَ فاز أهل السبق بسبقهم، وذهب المهاجرون الأولون بفضلهم، فلا تجعلن للشيطان فيك نصيباً، ولا على نفسك سبيلًا».

(شرح ابن أبى الحديد م ٣ : ص ٤٢٤، ونهج البلاغة ٢ : ١٢، ومروج الذهب ٢ : ٦١، والإمامة والسياسة ١ : ٨٨)

٤٤٧ — كتاب معاوية إلى على

واشتد القتال بين الفريقين ليلة الهَرِير، واقتتل الناس تلك الليلةَ كلَّها حتى الصباح ولما رأى عمرو بن العاص أن أمر أهل العراق اشتد، وخاف فى ذلك الهلاك، دعاهم إلى تحكيم كتاب الله، فرفع أصحاب معاوية المصاحف بالرماح وقالوا: هذا كتاب الله عزَّ وجل بيننا وبينكم، فوقعت الفُرقة بين أصحاب على، فريق يقول: نُجيب إلى كتاب الله ونُنِيبُ إليه، وفريق يأبى إلا القتال حتى يتم الأمر، ويَرَون أنَّ رفع

---

(١) يعنى بالمهاجر: نفسه، وبالطليق: معاوية، وقد تقدم ذلك، وفسره الأستاذ الشيخ محمد عبده فقال: «والمهاجر: من آمن فى المخافة وهاجر تخلصا منها» وأقول: إن التنظير الذى تنطق به عبارة الإمام على يقتضى التخصيص لا التعميم.

(٢) أصل اللصيق: الدعى فى قوم الملصق بهم وليس منهم، والمراد به هنا اللصيق فى الإسلام، فالصريح فيه: من أسلم اعتقادا وإخلاصا، واللصيق فيه: من أسلم كرها أو رغبة فى الدنيا وقد صرح بذلك بعد فقال: كنتم ممن دخل فى هذا الدين إما رغبة وإما رهبة.

(٣) أدغل فى الأمر: أدخل فيه مايفسده، والدغل بالتحريك: الفساد.

(٤) لا يعيب على معاوية بأن سلفه كانوا كفارا، بل بكونه متبعا لهم، فقد نهج فى معاداة على نهج أجداده فى معاداة أجداد على.

(٥) وفى رواية «وأعززنا» ونعشه كمنعه وأنعشه ونعشه: رفعه، الأفواج: جمع فوج، وهو الجماعة من الناس.

المصاحف خُدعة ، وعليٌّ فى جانب هؤلاء ، ورَجَحت كِفةُ الفريق الأول ، فأجاب عليٌّ إلى التحكيم على كُرْه منه .

وكتب معاوية إلى على :

« أما بعدُ : فإن هذا الأمر قد طال بيننا وبينك ، وكل واحد منا يَرَى أنه عَلَى الحق فيما يطلب من صاحبه ، ولن يُعْطِيَ واحد منا الطاعة للآخر ، وقد قُتِل فيما بيننا بَشَر كثير ، وأنا أتخوَّف أن يكون ما بَقِى أشدَّ مما مَضى ، وإنا سوف نُسْأل عن هذه المواطن ، ولا يُحاسَب غيرى وغيرك ، وقد دعوتك إلى أمر لنا ولك فيه حَياةٌ وعُذْر وبَراءةٌ وصلاح للأمة ، وحَقْن للدماء ، وأُلْفَة للدين ، وذهاب للضغائن والفتن : أن تحكمَ بينى وبينكم حَكَمين مَرْضِيَّيْن ، أحدهما من أصحابى ، والآخر من أصحابك ، فيحكُمان بيننا بما أنزَلَ الله ، فهو خير لى ولك ، واقْطَع لهذه الفتن ، فاتَّق الله فيما دُعِيتَ إليه ، وأرضَ بحكم القرآن إن كنت من أهله » والسلام » .

(شرح ابن أبى الحديد م ١ : ص ١٨٨)

٤٤٨ — رد علىّ على معاوية

فكتب إليه على عليه السلام :

« من عبد الله علىّ أمير المؤمنين إلى معاوية بن أبى سفيان : أما بعد فإن أفضل ما شَغَل به المرء نفسَه اتباعُ ما حَسُن به فعلُه ، واستوجب فضلَه ، وسَلِم من عيبه ، وإن البغى والزُّورَ يُزْرِيان[1] بالمرء فى دينه ودنياه ، ويُبْدِيان خَلَلَه عند من يَعيبه ، فاحذر الدنيا فإنه لا فَرَح بشىء وصلتَ إليه مِنْها ، ولقد علمتَ أنك غيرُ مُدْرِكٍ ما قُضِى

---

(١) وفى رواية : يوتغان أى يهلكان ، والوتغ بالتحريك : الهلاك والإثم ، وفعله كوجل ، وأوتغه الله : أهلكه ، وأوتغ دينه بالإثم : أفسده ، وفى رواية أخرى « يذيعان » .

فَوَاتُه ، وقد رام قوم أمراً بغير الحق فتأوّلوا[١] على الله جل وعزّ فأكذبهم وَمَتّعهم قليلا ، ثم اضطرّهم إلى عذاب غليظٍ ، فاحذَرْ يومًا يَغتبِطُ[٢] فيه من أَحْمَدَ عاقبةَ عمله ، ويندم فيه من أمكن الشيطانَ من قياده فلم يجاذبْه ، وغرّته الدنيا ، واطمأن إليها .

ثم إنك قد دعوتنى إلى حُكْم القرآن ، ولقد علِمْتُ أنك لست من أهل القرآن ، ولا حُكْمَه تريدُ ، والله المستعان ، ولسنا إياكَ أجَبْنا ، ولكنا أجَبْنا القرآنَ فى حُكْمه ، ومن لم يَرْضَ بحكم القرآن فقد ضَلّ ضلالاً بعيداً » .

(شرح ابن أبى الحديد م ١ : ص ١٨٨ ، ونهج البلاغة ٢ : ٥٦)

٤٤٩ — رد معاوية على علىّ

فكتب معاوية إلى علىّ :

« أما بعدُ : عافانا الله وإياك ، فقد آنَ لك أن تُجيب إلى ما فيه صلاحُنا وأُلْفة بيننا ، وقد فعلتُ الذى فعلتُ ، وأنا أعرف حقى ، ولكنى اشتريتُ بالعفو صلاحَ الأمة ، ولم أُكْثِر فَرَحا بشيء جاء ولا ذهب ، وإنما أدخلنى فى هذا الأمر ، القيامُ بالحق فيما بين الباغى والمبغىّ عليه ، والأمرُ بالمعروف ، والنهىُ عن المنكر ، فدعوت إلى كتاب الله فيما بيننا وبينك ، فإنه لا يجمعنا وإياكَ إلا هو ، نُحْيِى ما أحيا القرآن ، ونُميت ما أمات القرآن ، والسلام » .

(شرح ابن أبى الحديد م ١ : ص ١٨٩)

---

(١) أى تعلقوا بشبهة فى تأويل القرآن انتصارا لمذاهبهم وآرائهم ، فأكذبهم الله بأن أظهر للعقلاء فساد تأويلهم ، وفى رواية (فتألوا على الله) وتألى : أقسم كائتلى وآلى ، وفى الحديث « من تألى على الله أكذبه الله » ومعناه : من أقسم تجبرا واقتدارا لأفعلن كذا أكذبه الله ولم يبلغه أمله .

(٢) يغتبط أى يفرح ويسر ، والغبطة بالكسر: السرور ، وفى رواية « يغبط فيه » أى يتمنى مثل حاله ، وأحمد أمره : صار عنده محمودا .

٤٥٠ — كتاب على إلى عمرو بن العاص

فكتب علىّ عليه السلام إلى عمرو بن العاص — وهو أول كتاب كتبه إليه — :

« أمّا بعدُ : فإن الدنيا مَشْغَلة عن الآخرة ، وصاحِبها مَنْهوم عليها[1] ، لم يُصِبْ شيئاً منها قطُّ إلا فتحَتْ له حِرْصاً عليها ، ولَهَجًا بها[2] ، وأدخلَتْ عليه مُؤْنة تَزيده رغبةً فيها ، ولن يستغنِيَ صاحِبُها بما نال فيها عما لم يَبْلُغه منها ، ومِن وراءِ ذلك فِراقُ ماجَمع ، ونَقْضُ ما أبْرَمَ ، والسعيد مَن وُعِظ بغيره ، فلا تُحْبِط[3] أجرَكَ أبا عبد الله ، ولا تَشْرَكْ معاويةَ فى باطله ، فإن معاوية غَمَص[4] الناسَ ، وسَفِه الحقّ ، والسلام ».

(شرح ابن أبى الحديد م ١ : ص ١٨٩ ، و م ٤ ص ١١٤ ، ونهج البلاغة : ٢ : ٥٦)

٤٥١ — رد عمرو على علىّ

فكتب إليه عمرو جوابه :

« أما بعدُ : فإن الذى فيه صَلاحُنا ، وأُلْفَةُ ذاتِ بيننا الإنابة[5] إلى الحق ، وقد جَعلْنا القرآنَ بيننا حَكَما ، وأجَبْنا إليه ، فصَبَرَ[6] الرجلُ منّا نفسَه على ما حكم عليه القرآن ، وعَذَرَه النّاس بعد المُحاجَزة ، والسلام » .

(شرح ابن أبى الحديد م ١ : ص ١٨٩ ، و م ٤ : ص ١١٤)

---

(١) من النهم بالتحريك ، وهو الشره وإفراط الشهوة فى الطعام .
(٢) لهج بالأمر كفرح : أغرى به فثابر عليه ، والمؤنة والمئونة : الثقل. (٣) أحبطه : أفسده.
(٤) غمصه كضرب وسمع وفرح : احتقره وعابه وتهاون بحقه ، وسفه الحق. جهله .
(٥) أى الرجوع ، وفى رواية أخرى «أن تنيب إلى الحق، وأن تجيب إلى ما ندعوكم إليه من الشورى »
(٦) أى أمسكها وحبسها عليه.

٤٥٢ — رد عليّ على عمرو

فكتب إليه علي :

« أما بعدُ : فإن الذى أعجبَك من الدنيا مما نازَعَتْكَ إليه نفسُك ، ووثِقْتَ به منها ، لمنقلِبٌ عنك ، ومفارق لك ، فلا تطمئنَّ إلى الدنيا فإنها غرَّارة ، ولو اعتبرتَ بما مَضَى لحفِظتَ ما بقى ، وانتفعتَ منها بما وُعِظْتَ به والسلام » .

(شرح ابن أبي الحديد م ١ : ص ١٨٩)

٤٥٣ — رد عمرو على عليّ

فأجابه عمرو :

« أما بعدُ : فقد أنصفَ مَن جَعَلَ القرآنَ إماماً ، ودعا الناس إلى أحكامه ، فاصبِرْ أبا حسن ، فإنا غير مُنيليك إلاّ ما أنالك القرآنُ ، والسلام » .

(شرح ابن أبي الحديد م ١ : ص ١٨٩)

٤٥٤ — رد عليّ على عمرو

وفى رواية أخرى أن عليًّا كتب إلى عمرو كتاباً غليظاً جوابًا عن رده الأول ، وهو :

« أما بعد : فإنك قد جعلتَ دينَك تَبَعاً لدُنْيَا أمْرِئٍ(١) ظاهرٍ غيُّه ، مهتوكٍ ستْرُه(٢) ، يَشِينُ الكريمَ بمجلِسه(٣) ، ويُسَفِّه الحليم بخِلْطته ، فاتَّبعْتَ أثَرَه ، وطَلَبْتَ فضلَه ، اتّباعَ الكلب الضِّرْغام ، يلوذُ بمخالبه ، وينتظر ما يُلْقِى إليه من

---

(١) انظر ما قدمناه فى ص ٣٤٣ .

(٢) فقد كان معاوية يعلن للملأ أن غضبته تلك إنما هى غضبته لمقتل عثمان، وأن نهضته ليست إلا للثأر به ، ويخفى فى نفسه ما يطمح إليه من التوثب إلى الخلافة والتربع فى دستها ، ولم يخف على على أمره وتوهيمه.

(٣) لطالما شتم بنى هاشم وقذفهم فى مجلسه ، والخلطة بالكسر : العشرة ، والضرغام ، الأسد .

فَضْل فريسته ، فأذهبتَ دنياك وآخرتك ، ولو بالحق أخذتَ ، أدركتَ ما طلبتَ[1] ، فإن يُمكِّن الله منك ومن ابن أبى سفيان ، أجزِكما بما قدَّمتما ، وإن تُعجِزا[2] وتَبقَيا فما أمامَكما شرٌّ لكما ، والسلام » . (نهج البلاغة ٢ : ٥٠)

صورة أخرى

وقال ابن أبى الحديد فى شرح النهج :

ذكر نصر بن مُزاحِم فى كتاب صِفِّين هذا الكتاب بزيادة لم يذكرها الرَّضِىّ . قال نصر : كتب علىّ عليه السلام إلى عمرو بن العاص :

« من عبد الله علىّ أمير المؤمنين إلى الأبتر بن الأبتر عمرو بن العاص بن وائل ، شانئ محمد وآل محمد فى الجاهلية والإسلام[3] .

سلام عَلَى من اتبع الهُدَى ، أما بعد : فإنك تركت مُرُوءتَك لامرئ فاسقٍ مَهتوكٍ سِتْرُهُ ، يَشِين الكريم بمجلسه ، ويُسَفِّه الحليمَ بخِلْطته ، فصار قلبك لقلبه تَبَعًا ، كما قيل : « وَافَقَ شَنٌّ طَبَقَةَ[4] » ، فسلَبَك دينَك وأمانتك ، ودنياك وآخرتَك ،

---

(١) كان عمرو يطلب ملك مصر ، وقد عاقد معاوية على نصرته على أن يجعل له مصر طعمة كما قدمنا ، ولم يكن على لينيله مأربه ، فمعنى أدركت ما طلبت أى فى الآخرة فإن ثواب الله فيها خير من عرض زائل بائد . (٢) أى وإن تعجزانى أو تبقيا بعدى فما أمامكما من عقاب الله شر لكما من جزائى.

(٣) الشانئ : المبغض ، ويسهل ، وذلك أن العاص بن وائل سمى النبى صلى الله عليه سلم أبتر عند موت ابنه القاسم فنزل فيه « إِنَّ شَانِئَكَ هُوَ الْأَبْتَرُ » أى المنقطع عن كل خير الذى لا يفوز بالذكر الحسن بعد موته ، وأما أنت يامحمد فسيبقى حسن ذكرك وآثار فضلك إلى يوم القيامة ، فهو الأبتر لا أنت

(٤) هو مثل ، وذلك أنه كان رجل من دهاة العرب وعقلائهم يقال له شن ، فقال : والله لأطوفن حتى أجد امرأة مثلى أتزوجها ، فبينما هو فى بعض مسيره إذ وافقه رجل فى الطريق ، فسأله شن : أين تريد ، فقال : موضع كذا ، يريد القرية التى يقصدها شن فرافقه حتى أخذا فى مسيرهما ، قال له شن : أتحملنى أم أحملك ؟ فقال له الرجل : ياجاهل ، أنا راكب وأنت راكب فكيف أحملك أو تحملنى ، فسكت عنه شن ، وسارا حتى إذا قربا من القرية وإذا بزرع قد استحصد (أى آن له أن يحصد) ، فقال شن : أترى هذا الزرع أكل أم لا ؟ فقال له الرجل : ياجاهل ، ترى نبتا مستحصدا فتقول : أكل أم لا ؟ فسكت عنه شن ، حتى إذا دخلا القرية لقيتهما جنازة ، فقال شن: أترى صاحب هذا النعش حيا أو ميتا ؟ =

وكان عِلْم الله بالغًا فيك ، فصرتَ كالذئب يتبع الضِّرْغام إذا ما الليل دَجا(١) أو أتى الصبح ، يلتمس فاضِلَ سُؤْرِه ، وحَوَايَا فريسَته ، ولكن لا نجاةَ من القدر ، ولو بالحق أخذتَ لأدركتَ ما رجوْتَ ، وقد رشِد مَن كان الحق قائده ، فإن يُمْكن الله منك ومن ابن آكلة الأكباد(٢) ألحقتكما بمَن قتَلَه الله مِن ظَلَمَة قريش على عهد رسول الله صلى الله عليه وآله ، وإن تُعْجِزا وتَبْقَيا بعدى ، فالله حَسْبُكما ، وكفى بانتقامِه انتقاما ، وبعقابه عِقابًا ، والسلام » . (شرح ابن أبي الحديد م ٤ : ص ٦١)

٤٥٥ — كتاب الصلح بين علىّ ومعاوية

وتوافَق الفريقان على أن يُقيما حَكَمين بينهما ، ويعملا بما يتفقان عليه ، فأقام معاوية عمرو بن العاص حكما عنه ، وأقام علىّ أباموسى الأشعَرِىّ حكما عنه ، — على كُرْه منه أيضًا — فاتفق الحكمان على أن يُكتب بينهما كتاب بعقد الصلح ، واجتمعا عند علىّ رضى الله عنه ، وكتب كتاب القضية بينهما بحَضْرته ، فكتب فيه بعد البسملة : « هذا ما تقاضى عليه علىّ أمير المؤمنين » . فقال عمرو : اكتب اسمه واسم أبيه ،

= فقال له الرجل : مارأيت أجهل منك،ترى جنازة تسأل عنها أميت صاحبها أم حى ! فسكت عنه شن ، فأراد مفارقته فأبى الرجل أن يتركه حتى يصير به إلى منزله ، فمضى معه ، وكان للرجل بنت يقال لها طبقة ، فلما دخل عليها أبوها سألته عن ضيفه ، فأخبرها بمرافقته إياه وشكا إليها جهله وحدثها بحديثه ، فقالت، يا أبت ماهذا بجاهل : أما قوله أتحملنى أم أحملك ، فأراد أتحدثنى أم أحدثك حتى نقطع طريقنا ؟ وأماقوله: أترى هذا الزرع أكل أم لا ، فأراد : أباعه أهله فأكلوا ثمنه أم لا ؟ وأما قوله فى الجنازة ، فأراد أترك عقبا يحيا بهم ذكره أم لا ؟ فخرج الرجل فقعد مع شن فحادثه ساعة ، ثم قال أتحب أن أفسر لك ماسألتنى عنه ؟ قال : نعم ، ففسره ، قال شن : ماهذا من كلامك ، فأخبرنى من صاحبه ؟ قال : ابنة لى ، فخطبها إليه فزوجه إياها وحملها إلى أهله ، فلما رأوها قالوا : وافق شن طبقة ، فذهبت مثلا يضرب للمتوافقين.

(١) دجا الليل : أظلم ، والسؤر : البقية والفضلة ، والحوايا : جمع حوية كقضية ، وهى ما تحوى أى استدار من الأمعاء .

(٢) آكلة الأكباد : هى هند بنت عتبة أم معاوية، وذلك أنها بعد انتهاء غزوة أحد — وكان قد قتل فيها حمزة عم النبي صلى الله عليه وسلم كما قدمنا — بقرت بطنه وأخذت كبده لتأكلها ، تشفيا منه وانتقاما لقتلى بدر — فلاكتها فلم تستطع أن تسيغها فلفظتها .

هو أميركم ، فأمّا أميرنا فلا ، فقال له الأحنف : لا تمحُ آسم إمارة المؤمنين ، فإنى أتخوف إن محوتَها أن لا ترجع إليك أبداً ، لا تمحُها وإن قتل الناس بعضهم بعضاً ، فأبى ذلك علىّ مَليّاً من النهار ، ثم إن الأشعث بن قيس قال : اُمحُ هذا الِاسم ، فأجاب علىّ ومحاه ، ثم قال علىّ : الله أكبرُ ! سُنّة بسُنّة ، ومَثَل بمَثَل ، وآللهِ إنى لكاتب بين يدى رسول الله صلى الله عليه وسلم يوم الحُدَيْبِية ، فكتبت محمد رسول الله فقالوا : لستَ برسول الله ولا نشهد لك به ، ولكن اُكتب اُسمك واُسم أبيك ، فأمرنى رسول الله صلى الله عليه وسلم بمحوه ، فقلت : لا أستطيع أفعل ! فقال : إذن أرنيه ، فأريته فمحاه بيده وقال : إنك ستُدْعَى إلى مثلها فتجيب ، ثم كتب الكتاب .

* * *

« بسم الله الرحمن الرحيم ، هذا ما تقاضَى عليه علىٌّ بن أبى طالب ومعاوية ابن أبى سفيان ، قاضَى علىٌّ عَلَى أهل العراق ومن كان معه من شيعته من المؤمنين والمسلمين ، وقاضَى معاوية عَلَى أهل الشأم ومن كان معه من شيعته من المؤمنين والمسلمين ، إنا ننزل عند حُكمْ الله عزّ وجل وكتابه ، ولا يجمع بيننا غَيْرُهُ ، وإن كتاب الله عزّ وجل بيننا من فاتحته إلى خاتمته ، نُحْيِي ما أحيا ، ونُميت ما أمات ، فما وَجَد الحَكَمان فى كتاب الله عز وجل — وهما أبو موسى الأشعرىّ عبد الله بن قَيْس ، وعمرو بن العاص القرشىُّ — عَمِلا به ، وما لم يجدا فى كتاب الله عز وجل ، فالسُّنّة العادِلَةُ الجامِعةُ غيرُ المُفَرِّقة ، وأخذَ الحَكَمان من علىّ ومعاوية ، ومن الجُنْدين من العهود والميثاق والثِّقة من الناس أنهما آمنان عَلَى أنفسهما وأهلهما ، والأمةُ لهما أنصارٌ على الذى يتقاضيان عليه .

وعلى المؤمنين والمسلمين من الطائفتين كلتيهما عَهْدُ الله وميثاقه ، أنا على ما فى هذه الصحيفة ، وأنْ قد وجَبَتْ قضيَّتهما على المؤمنين ، فإن الأمن والاستقامة ، ووَضْعَ السلاح بينهم أينما ساروا على أنفسهم وأهليهم وأموالهم وشاهدهم وغائبهم .

وعلى عبد الله بن قيس ، وعمرو بن العاص عَهْدُ الله وميثاقُه أن يحكما بين هذه الأمة بالحق لا بالهوَى ، ولا يَرُدَّاها فى حرب ولا فُرْقة حتى يَقضيا ، وأُجِّل القضاء إلى رمضان ، وإن أحبَّا أن يؤخرا ذلك أخَّراه على تراضٍ منهما ، وإن تُوُفِّىَ أحد الحكَمين فلأمير شيعته أن يختار مكانه ، ولا يألو من أهل المَعْدَلة[1] والقِسْط ، وإن مكان قضيَّتهما الذى يقضيان فيه مكانٌ عَدْلٌ بين أهل الكوفة وأهل الشأم ، وإن رَضِيا وأحبا فلا يَحْضُرها فيه إلا من أراد ، ويأخذ الحكمان من أرادا من الشهود ، ثم يكتبان شهادتهما على ما فى هذه الصحيفة ، وهم أنصار على من تَرَكَ ما فى هذه الصحيفة ، وأراد فيه إلحادا وظلماً ، اللهم إنا نستنصرك على مَنْ تَرَكَ ما فى هذه الصحيفة » .

شَهِد من أصحاب علىّ : الأشعث بن قَيْس الكندى ، وعبد الله بن عباس وسعيد بن قيس الهَمْدانى ، ووَرْقاء بن سُمَىّ البَجَلِىّ ، وعبد الله بن مُحِل العِجْلىّ وحُجْر بن عَدِىّ الكِنْدى ، وعبد الله بن الطُّفَيل العامرىّ ، وعُقْبة بن زياد الحضرمىّ ، ويزيد بن حُجَيّة التَّيمِىّ ، ومالك بن كعب الهَمْدَانىّ .

ومن أصحاب معاوية : أبو الأعور السُّلَمِىّ عمرو بن سفيان ، وحَبيب بن مَسْلَمة الفِهْرِىّ ، والمُخَارِق بن الحارث الزُّبيدى ، وزِمْل بن عمرو العُذْرى وحمزة بن مالك الهَمْدانى ، وعبد الرحمن بن خالد المخزومى ، وسُبَيع بن يزيد الأنصارى ، وعَلْقَمة ابن يزيد الأنصارى ، وعُتْبة بن أبى سفيان ، ويزيد بن الحُرّ العَبْسِىّ » .

وكتب كتاب القضية فيما قيل يوم الأربعاء الثلاث عشرة خلت من صفر سنة ٣٧ من الهجرة .

(تاريخ الطبرى ٦ : ٢٩ ، والكامل لابن الأثير ٣ : ١٢٧ ، والإمامة والسياسة ١ : ٩٨ وشرح ابن أبى الحديد م ١ : ص ١٩١)

---

(١) المعدلة : العدل وكذا القسط .

صـــورة أخرى

وفى رواية أخرى أن نسخة كتاب القضية بين علىّ ومعاوية كانت هكذا .

« هذا ما تقاضَى عليه على بن أبى طالب ومعاوية بن أبى سفيان وشيعتهما ، فيما تراضيَا به من الحُكم بكتاب الله وسُنَّة نبيه محمد صلى الله عليه وسلم ، قضيةٌ علىٍّ عَلَى أهل العراقِ ومن كان من شِيعته من شاهِدٍ أو غائب ، وقضيةٌ معاوية عَلَى أهل الشأم ومن كان من شيعته مِن شاهِدٍ أو غائب ، إننا رَضِينا أن نَنزِلَ عند حكم كتاب الله فيما حَكَم ، وأن نقِفَ عند أمْرِه فيما أمر ، فإنه لايجمع بيننا إلا ذلك ، وإنا جعَلْنا كتاب الله سبحانه حَكَماً بيننا فيما اختلفنا فيه ، من فاتحته إلى خاتمته ، نُحيى ما أحيا ، ونُميت ما أمات ، على ذلك تقاضَيْنا ، وبه تراضَيْنا ، وإن عليّا وشِيعتَه رَضُوا أن يبعثوا عبد الله بن قيس ناظِرا ومُحاكِما ، ورضِىَ معاوية وشِيعتُه أن يبعثوا عمرو بن العاص ناظراً ومُحاكِما ، على أنهم أخَذوا عليهما عَهْدَ الله وميثاقَه وأعظَمَ ما أخَذ اللهُ عَلَى أحد من خلقه ، ليَتَّخِذانِّ الكتاب إمامًا فيما بُعِثَا له ، لايَعْدُوانه إلى غيره فى الحُكم بما وَجَدا فيه مسطوراً ، وما لم يجداه مُسَمًّى فى الكتاب ردَّاه إلى سنة رسول الله الجامعة ، لايتعمّدان لها خِلافًا ولا يتَّبعان فى ذلك لهما هوًى ، ولا يدخلان فى شُبْهة .

وقد أخذ عبد الله بن قيس وعمرو بن العاص عَلَى علىّ ومعاوية عَهْدَ الله وميثاقَه بالرِّضا بما حَكَما به من كتاب الله وسنة نبيه ، ليس لهما أن يَنقُضا ذلك ولا يُخالفا إلى غيره ، وأنهما آمِنان فى حكومتهما عَلَى دمائهما وأموالهما وأهليهما ، ما لم يَعْدُوَا الحق ، رضى بذلك راضٍ ، أو أنكرَ مُنكر ، وأن الأمة أنصار لهما عَلَى ما قَضَيَا به من العدل .

فإن تُوُفِّى أحدُ الحكَمين قبل انقضاء الحكومة ، فأميرُ شِيعته وأصحابُه يختارون

مكانه رجلا ، لا يألون عن أهل المَعدِلة والإقساط[1] ، عَلَى ما كان عليه صاحِبُه من العهد والميثاق ، والحكم بكتاب الله وسنةِ رسوله . وله مثلُ شرط صاحبه .

وإن مات واحد من الأميرين قبل القضاء ، فلِشيعته أن يُوَلُّوا مكانه رجلا يرضَون عدله .

وقد وقعت هذه القضيَّةُ بيننا ومعها الأمنُ والتفاوُضُ ، ووَضْع السِّلاح والسلام والموادعة ، وعلى الحكمين عَهْدُ الله وميثاقه ، لَيَحْكُمان بكتاب الله وسنة نبيه ، لايَدْخُلان فى شبهة ، ولا يألوان اجتهاداً ، ولا يتعمَّدَان جَوْراً ، ولا يتَّبعان هوًى ، ولا يَعْدُوَان مافى كتاب الله تعالى ، وسُنَّة رسوله ، فإن لم يفعلا بَرِئت الأمة من حُكْمهما ، ولا عَهْدَ لهما ولا ذمَّة ، وقد وَجَبتِ القضيَّة على ما سمَّيْنا فى هذا الكتاب من مَوقِع الشَّرْط على الأميرين والحكَمين والفريقين ، واللهُ أقربُ شهيداً ، وأدنى حَفِيظًا ، وَالناسُ آمِنون على أنفسهم وأهليهم وأموالهم إلى انقضاء مدة الأجل ، والسلاحُ موضوع ، وَالسبيل مُخَلًّى ، والشاهدُ والغائب من الفريقين سواء فى الأمر وللحكَمين أن ينزلا منزِلا عَدْلا بين أهل العراق وأهل الشأم ، ولا يَحْضُرهما فيه إلا مَن أحَبَّا عن مَلَاٍ[2] منهما وتراضٍ ، وأجَّلَ القاضِيَيْن المسلمون إلى رمضان ، فإن رأى الحكمان تعجيلَ الحكومة فيما وُجِّها له عَجَّلاها ، وإن أرادا تأخيرها بعد رمضان إلى انقضاء الموسم ، فإن ذلك إليهما .

فإن هما لم يحكما بكتاب الله وسنة نبيه إلى انقضاء الموسم ، فالمسلمون عَلَى أمرهم الأول فى الحرب ، ولا شَرْطَ بين الفريقين ، وعَلَى الأمة عهد الله وَميثاقُه عَلَى الوفاء والتَّمام[3] عَلَى ما فى هذا الكتاب ، وهم يَدٌ على من أراد فى هذا الكتاب إلحاداً أو ظلمًا أو أراد له نَقْضًا .

---

(١) الإقساط : العدل . (٢) أى عن تشاور .

(٣) يقال : تم على الأمر وتمم عليه بإظهار الإدغام أى استمر عليه .

شهد عَلَى ما فى هذا الكتاب من أصحاب علىّ: الأشعث بن قيس، وعبد الله بن عباس، والأشتر بن الحارث، وسعيد بن قيس الهَمْدَانى، والحُصَيْنُ والطُّفَيْلُ ابنا الحارث بن المطَّلب، وأبو أَسِيد بن رَبيعة الأنصارى، وخَبّاب بن الأَرَتّ وسَهْل بن حُنَيف الأنصارى وأبو اليَسَر ابن عمرو الأنصارى، ورفاعة بن رافع بن مالك الأنصارى، وعَوْف بن الحارث بن المطلب القرشى، وبُرَيْدَة الأسلَمِىُّ، وعُقْبة بن عامر الجُهَنِىّ، ورافع بن خَدِيج الأنصارى، وعَمْرو بن الحِمِق الخُزَاعىّ والحسن والحسين ابنا على، وعبد الله بن جعفر الهاشمى والْيَعْمَر بن عَجْلان الأنصارى، وحُجْر بن عَدِىّ الكِنْدى، ووَرقاء بن سُمَىّ البَجَلىّ، وعبدالله بن الطُّفَيل الأنصارى، ويزيد بن حُجَيَّة، ومالك بن كعب الهَمْدانى، وربيعة بن شُرَحبيل، وأبو صُفْرة، والحارث بن مالك، وحُجْر بن يزيد، وعُقْبة بن حُجَيَّة

ومن أصحاب معاوية: حبيب بن مَسْلَمَة الفِهْرِىّ، وأبو الأعور السُّلَمِىّ وبُسْر ابن أرْطاة القُرشى، ومعاوية بن حُدَيْج الكِندى، والمُخارِق بن الحارث الحِمْيرى، وزمل بن عمرو السَّكْسَكِىُّ، وعبد الرحمن بن خالد بن الوليد المخزومى، وحمزة ابن مالك الهَمْدانى، وسبع بن زيد الحميرى، وعبد الله بن عمرو بن العاص، وعلْقَمة ابن مَرْثَد الكلبى، وخالد بن الحصَيْن السَّكْسَكِىُّ، وعلقمة بن يزيد الحضْرَمىّ، ويزيد بن الحرّ العَبْسى، ومسروق بن حملة العَكّىّ، ونُمَيْر بن يزيد الحِمْيَرى. وعبد الله بن عامر القرشى، ومروان بن الحكم، والوليد بن عُقْبة القرشى، وعُتْبة ابن أبى سفيان، ومحمد بن أبى سفيان، ومحمد بن عمرو بن العاص، ويزيد بن عمرو الجُذَامىّ، وعَمّار بن الأحوص الكلبى، ومَسْعَدَة بن عمر القَيْنى، وعاصم بن المستنير الجُذَامى، وعبد الرحمن بن ذى كَلاَع الحِمْيَرى، والصباح بن جُلْهُمة الحِمْيَرى، وثُمامَة ابن حَوْشَب، وعَلْقَمة بن حكيم.

وإن بيننا على ما فى هذه الصحيفة عهد الله وميثاقه، وكتب عُمَيْر يوم الأربعاء لثلاث عشرة ليلةً بقيت من صفر سنة سبع وثلاثين».

(صبح الأعشى ١٤ : ٨٠، وشرح ابن أبى الحديد م ١، ص ١٩١)

٤٥٦ — كتاب بين عمرو بن العاص وأبى موسى

ولما انقضى الأَجَل، اجتمع الحكمان فى دُومة الجَنْدَل، وخدع عمرو بن العاص أبا موسى الأشعرىّ، ففشِل التحكيم، واشتدّت الفرقة بين المسلمين.

وروى المسعودى فى مروج الذهب قال:

فلما التقى أبو موسى وعمرو، قال عمرو لأبى موسى تكلَّمْ وقل خيراً، فقال أبو موسى: بل تكلم أنت يا عمرو، فقال عمرو: ما كنتُ لِأَفعلَ وأقدِّم نفسى قبلك، ولك حقوق كلها واجبة، لِسِنِّك وصُحْبتك رسول الله صلى الله عليه وسلم، وأنت ضيف، فحمِد اللهَ أبو موسى وأثنى عليه، وذكر الحَدَث الذى حَلّ بالإسلام، والخلاف الواقع بأهله، ثم قال: يا عمرو هَلُمَّ إلى أمر يجمع الله فيه الأُلْفَة، ويَلُمّ الشَّعَث، ويُصْلح ذات البَيْن، فجزاه عمرو خيراً، وقال: إن للكلام أولا وآخراً، ومتى تنازَعنا الكلامَ خُطَباً، لم نبلغ آخِرَه حتى نَنْسَى أوّلَه، فاجعل ما كان من كلام نتصادر عليه فى كتاب يصير إليه أمرُنا، قال: فاكتب، فدعا عمرو بصحيفة وكاتب، وكان الكاتب غلاما لعمرو، فتقدم إليه ليَبْدَأ به أوّلا دون أبى موسى، لِما أراد من المكر به ثم قال له بحَضْرة الجماعة، اكتب، فإنك شاهد علينا، ولا تكتب شيئاً يأمرك به أحدنا، حتى تستأمِر الآخر فيه، فإذا أمَرَك فاكتب، وإذا نهاك فانتهِ حتى يجتمع رأيُنا، اكتب:

« بسم الله الرحمن الرحيم، هذا ما تقاضى عليه فلان وفلان » فكتب وبدأ بعمرو، فقال له عمرو: لا أمَّ لك، أتقدِّمنى قبله؟ كأنك جاهل بحقه! فبدأ باسم عبد الله ابن قيس، وكتب: تقاضيا على أنهما يشهدان أن لا إله إلا الله وَحْدَه لا شريك له، وأن محمداً عبده ورسوله، أرسله بالهدى ودينِ الحقِّ لِيُظْهِرَه عَلَى الدِّين كلِّه ولو كره المشركون، ثم قال عمرو: « نشهد أن أبا بكر خليفة رسول الله صلى الله عليه وسلم،

عَمِل بكتاب الله وسنة رسوله ، حتى قَبَضه الله إليه ، وقد أدَّى الحق الذى عليه » قال أبو موسى : اكتب ، ثم قال فى عمر مثل ذلك ، ثم قال عمرو اكتب : « وأن عثمان وَلِيَ هذا الأمر بعد عمر على إجماع من المسلمين ، وشُورَى من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم ورِضاً منهم ، وأنه كان مؤمناً » فقال أبو موسى : ليس هذا مما قعدنا له ، قال عمرو : واللهِ لابد من أن يكون مؤمناً أو كافراً ، قال أبو موسى : اكتب ، قال عمرو : فظالما قُتِل عثمان أو مظلوما ؟ قال أبو موسى : بل قتل مظلومًا ، قال عمرو : أفليس قد جعل الله لوَلىّ المظلوم سلطاناً يطلب بدمه ؟ قال أبو موسى : نعم ، قال عمرو : فهل تعلم لعثمان وليًّا أولى من معاوية ؟ قال أبو موسى : لا ، قال عمرو : أفليس لمعاوية أن يطلب قاتله حيثما كان حتى يقتله أو يعجزَ ؟ قال أبو موسى : بَلَى . قال عمرو للكاتب : اكتب ، وأمره أبو موسى فكتب ، قال عمرو : فإنا نقيم البيِّنة أن عليًّا قتل عثمان ، قال أبو موسى : هذا أمر قد حَدَث فى الإسلام ، وإنما اجتمعنا لله ، فهلمّ إلى أمر يُصْلح الله به أمة محمد ، قال عمرو : وما هو ؟ قال أبو موسى : قد علمت أن أهل العراق لايحبُّون معاوية أبداً ، وأن أهل الشأم لايحبون عليًّا أبداً ، فهل نخلعهما جميعاً ، ونستخلفُ عبد الله بن عمر ؟ قال عمرو : أيفعل ذلك عبد الله بن عمر ؟ قال أبو موسى : نعم ، إذا حَمَله الناس على ذلك فعل ، فعَمَد عمرو إلى كل ما مال إليه أبو موسى فصوّبه ، وقال له : هل لك فى سعد بن أبى وقاص ؟ قال له أبو موسى : لا ، فعدّد له عمرو جماعة ، وأبو موسى يأبى ذلك إلا ابن عمر ، فأخذ عمرو الصحيفة وطواها وجعلها تحت قدمه ، بعد أن ختماها جميعاً ، وقال عمرو : أرأيتَ إن رَضِى أهل العراق بعبد الله بن عمر ، وأبى أهلُ الشأم ، أيقاتل أهلَ الشأم ؟ قال أبو موسى : لا ، قال عمرو : فإن رضى أهل الشأم وأبى أهل العراق ، أيقاتل أهل العراق ؟ قال أبو موسى : لا ، قال عمرو : أمَا إذا رأيت الصلاح فى هذا الأمر والخير للمسلمين ، فقم فاخطب الناس ، واخلع صاحبَيْنا ، وتكلم باسم هذا الرجل الذى تستخلِف ، فقال أبو موسى :

بل أنت قم فاخطب ، فأنت أحق بذلك ، قال عمرو : ما أحب أن أتقدَّمك ، وَما قولى وقولك للناس إلا قول واحد ، فقم راشِداً .

فقام أبو موسى فحمِد الله وأثنى عليه ، وصلى على نبيـه صلى الله عليه وسلم ثم قال : « أيها الناس ، إنا قد نظرنا فى أمرنا فرأَيْنا أقربَ ما يَحْضُرنا من الأمن والصلاح ولمّ الشَّعَث ، وحَقْنِ الدماء ، وجمع الألفة ، خَلْعُنَا عليًّا ومعاوية ، وقد خلعت عليًّا كما خلعت عمامتى هذه ــ وأهوَى إلى عمامته فخلعها ــ واستخلفْنا رجلا قد صحب رسول الله صلى الله عليه وسلم بنفسه ، وصحِبَ أبوه النبي صلى الله عليه وسلم ، فبرَّز فى سابقته ، وهو عبد الله ابن عمر[1] » وأطراه ورغَّب الناس فيه ونزل .

فقام عمرو ، فحمِد الله وأثنى عليه ، وصلى على رسوله صلى الله عليه وسلم ، ثم قال : « أيها الناس ، إن أبا موسى عبد الله بن قيس خلع عليًّا وأخرجه من هذا الأمر الذى يطلب ، وهو أعلم به ، ألاَ وإنى خلعتُ عليا معه ، وأثبتُّ معاوية علىّ وعليكم ، وإن أبا موسى قد كتب فى الصحيفة أن عثمان قد قتل مظلوما شهيداً ، وأن لوليِّه أن يطلُب بدمه حيث كان ، وقد صحب معاوية رسول الله صلى الله عليه وسلم بنفسه ، وصحب أبوه النبي صلى الله عليه وسلم » وأطراه ورغّب الناس فيه ، وقال : هو الخليفة علينا ، وله طاعتنا وبيعتنا على الطلب بدم عثمان .

---

(١) وفى غير هذه الرواية أنه لما التقى الحكمان جعل عمرو يحبب إلى أبى موسى أن يولى معاوية ، ويعدد له محاسنه ، ثم عرض له بالسلطان فقال : إن ولى معاوية أكرمك كرامة لم يكرمكها خليفة ، فأبى عليه أبو موسى ، وكان فيما قال له : فو الله لو خرج لى من سلطانه كله ماوليته ، وما كنت لأرتشى فى حكم الله عز وجل ، ولكنك إن شئت أحيينا اسم عمر بن الخطاب رضى الله عنه ، وأراده أبو موسى على عبد الله بن عمر فأبى عليه ، وقال له : إن كنت تحب بيعة ابن عمر فما يمنعك من ابنى وأنت تعرف فضله وصلاحه ؟ فقال : إن ابنك رجل صدق ولكنك قد غمسته فى هذه الفتنة ، فقال له عمرو : خبرنى ما رأيك؟ قال : رأيى أن نخلع هذين الرجلين ، ونجعل الأمر شورى بين المسلمين فيختارون لأنفسهم من أحبوا ، فقال له عمرو : فإن الرأى ما رأيت ، فقدم عمرو أبا موسى ، فقال أبو موسى إنى قد خلعت عليا ومعاوية «فاستقبلوا أمركم وولوا عليكم من رأيتموه لهذا الأمر أهلا ، ثم تنحى ، وقام عمرو فقال : إن هذا قد قال ما سمعتم وخلع صاحبه ، وأنا أخلع صاحبه كما خلعه ، وأثبت صاحبى معاوية ــ انظر تاريخ الطبرى ج : ٦ ص ٣٨ ــ ٤٠ ، ومروج الذهب ج ٢ ، ص ٣٣ .

فقال أبو موسى : كَذَب عمرو ، لم نستَخلف معاوية ، ولكنا خلعنا معاوية وعليًا معًا ، فقال عمرو : بل كذب عبد الله بن قيس ، قد خلع عليًّا ولم يخلع معاوية .

(مروج الذهب ٢ : ٣١)

٤٥٧ — كتاب ابن عمر إلى أبي موسى

ولما بلغ عبدَ الله بن عمر ما كان من رأى أبي موسى كتب إليه :

« أما بعد يا أبا موسى ، فإنك تقرّبْتَ إلىَّ بأمر لم تعلم هوَاىَ فيه ، أ كنتَ تظن أنِّي أبسُطُ يداً إلى أمرٍ نهانى عنه عمر ؟ أو كنتَ ترانى أتقدّم على علىٍّ وهو خير منى ؟ لقد خِبْتُ إذَنْ وخَسرتُ وما أنا من المهتدين ، فأغضبتَ بقولك وفعلك علىَّ عليًّا ومعاوية ، ثم أعظَمُ من ذلك خديعةُ عمرو إياك ، وأنت حامِلُ القرآن ، ووافِدُ أهل اليمن إلى نبىّ الله ، وصاحبُ مَقَاسِمِ أبي بكر وعمر ، فقدَّمك عمرو للقول مُخادِعاً ، حتى خلعتَ عليًّا قبل أن تخلَعَ معاويةَ ، ولعمرِى ما يجوزُ لك على علىّ ما جاز لعمرو على معاوية ، ولا ما جاز لنا عليه[1] » .

(الإمامة والسياسة ١ : ١٠٢)

٤٥٨ — رد أبي موسى على ابن عمر

فلما أتى أبا موسى كتابُ ابن عمر كتب إليه :

« أما بعدُ : فإنى واللهِ ما أردت بتوليتى إياك وَبَيْعتى لك القُرْبةَ إليك ، ما أردت بذلك إلا اللهَ عز وجل ، وأما تقلُّدى أمرَ هذه الأمة غيرَ مُسْتَكرَهٍ فإنهم كانوا على مِثل حَدِّ السيف ، فقلتُ : إلى سُنَّة نَحْيَا ومماتٍ ، إن يصطلِحُوا ، فهو الذى أردتُ ، وإلاَّ لم يرجعوا إلى أعظَمَ مما كانوا عليهِ ، وأما إغضابِى عليك عليًّا ومعاوية فقد غَضِبا

---

(١) جاء فى الأصل بعد ذلك : « ولا كرهنا مارضيت ، وأردت أن الحاكم عا يحكم الله بين الناس ، ولم تبلغ من خطيئتك عنده ما غير أمرك فى خلاف هواه » .

وقد راجعت ثلاث طبعات مختلفة من الإمامة والسياسة ، فوجدت ثلاثتها متفقة فى إيرادها بتلك الصورة ، وهى عبارة مضطربة معتلة كما ترى ولا بد أن يكون فيها سقط أخل بمعناها

عليك قبل ذلك ، وأما خديعة عمرو إياى فوالله ماضرَّ بخديعته عليًّا ، ولا نفعَ معاويةَ ، وقد كان الشرطُ ما اجتمَعْنَا فيه ، لا ما اختلفنا فيه ، وأمّا نهيي إليك فوالله لو تم الأمرُ لأ كْرِهْتَ عليه » . (الإمامة والسياسة ١ : ١٠٣)

٤٥٩ — كتاب معاوية إلى أبي موسى

ولما فشِل التحكيم خرج أبو موسى الأشعرى من فوره إلى مكة مستعيذاً بها من علىّ ، وأقام بها حينا حتى كتب إليه معاوية :

« سلام عليك ، أما بعد : فلو كانت النِّيَّة تَدْفَع الخطأ ، لَنَجا المجتهدُ ، وأعْذَر الطالبُ ، والحقُّ لمن نَصَب له فأصابه ، وليس لمن عَرَض له فأخْطَأه ، وقد كان الحكَمان إذ حَكَما عَلَى علىّ لم يكن له الخيَارُ عليهما ، وقد اختاره القوم عليك ، فا كْرَه منهم ما كَرِهوا منك ، وأَقْبِلْ إلى الشأم ، فإنى خير لك من علىّ ، ولا قُوَّة إلا بالله » .

(العقد الفريد ٢ : ٢٣٩ ، والإمامة والسياسة ١ : ١٠٣)

٤٦٠ — رد أبي موسى على معاوية

فكتب إليه أبو موسى :

« سلام عليكَ ، أما بعد فإنى لم يكن منى فى علىّ إلا ما كان من عمرو فيك ، غير أنى أردتُ بما صنعتُ ما عند الله ، وأراد عمرو بما صنع ما عندك ، وقد كان بينى وبينه شروطه وشُورى عن تراضٍ ، فلما رجع عمرو رجعتُ ، وأما قولك : إن الحكمين إذا حكما على رجل لم يكن له الخيارُ عليهما ، فإنما ذلك فى الشاة والبعير والدينار والدرهم ، فأما أمر هذه الأمة فليس لأحد فيما تكره حُكْم[1] ، ولن يُذْهِب الحقَّ عَجْزُ عاجز ، ولا كيد كائد ، ولا خُدْعة فاجر ، وأما دعاؤك إياى إلى الشأم ، فليس لى رغبة عن حَرَم إبراهيم[2] » . (العقد الفريد ٢ : ٢٣٩ ، والإمامة والسياسة : ١ : ١٠٣)

---

(١) وفى الإمامة والسياسة « فلست تساق إلى ما تكره » .

(٢) وفيه أيضا : « فليس لى بدل ولا إيثار عن قبر ابن ابراهيم أبى الأنبياء » .

٤٦١ — كتاب عليّ إلى أبي موسى

فبلغ عليًّا كتابُ معاوية إلى أبي موسى الأشعرى ، فكتب إليه :

« سلام عليك ، أما بعد ، فإنك آمرؤ ضلّلك الهوى ، واستدرجَك الغُرورُ ، فإنه من استقال أَقالَهُ اللهُ ، حقَّق بك حسن الظن لزومَك بيتَ الله الحرام غيرَ حاجٍّ ولا قاطِنٍ ، فاستقِلِ اللهَ يُقِلْك عثرتَك ، إن الله يغفر ولا يغفُلُ ، وأحَبُّ عباده إليه التوابون » .

وكتبه سِماكُ بن حرب .

(العقد الفريد ٢ : ٢٣٩ ، والإمامة والسياسة ١ : ١٠٣)

٤٦٢ — رد أبي موسى على عليّ

فكتب إليه أبو موسى :

« سلام عليك ، أما بعد فوالله لولا أنى خشيتُ أن يَئُول مَنْع الجواب إلى أعظمَ مما فى نفسك ، لم أجِبْك ، لأنه ليس لى عندك عذرٌ ينفعنى ، ولا قوة تمنعنى ، وأما لزومى بيتَ الله الحرام غير حاجٍّ ولا قاطِن ، فإنى أسلمت أهل الشأم ، واُنقطعت عن أهل العراق ، وأصبتُ أقوامًا صَغَّروا من ذنبى ما عظَّمتم ، وعظَّموا من حقى ما صغرتم ، فأقمت بين أظهُرِهم إذ لم يكن لى منكم وَلِيٌّ ولا نصير » .

(العقد الفريد ٢ : ٢٣٩، والإمامة والسياسة ١ : ١٠٣)

٤٦٣ — كتاب أبي موسى إلى عامر بن عبد القيس

وكتب أبو موسى الأشعرى إلى عامر بن عبد القيس :

« أما بعدُ ، فإنى عاهدتك على أمر ، وبلغنى أنك تغيرتَ ، فإن كنتَ على ما عاهدتك فاتَّقِ الله ودُمْ ، وإن كنت على ما بلغنى فاتق الله وعُدْ » .

(العقد الفريد ١ : ٣٠٠)

٤٦٤ ـ كتاب عبد الله بن وهب الراسبي إلى خوارج البصرة

ولقيت الخوارجُ بعضُها بعضاً ، فاجتمعوا فى منزل عبد الله بن وَهْب الراسِبيّ ، وأجمعوا على الخروج ، وولَّوا أمرهم عبدَ الله بن وهب ، فبايعوه لعشر خَلَون من شوال ، وأدارُوا رأيهم بينهم ، فاتفقوا أن ينزلوا جِسر النَّهْروان(١) ، ويكاتبوا إخوانهم من أهل البصرة فيَقْدَموا عليهم ؛ فكتب ابن وهب إلى من بالبصرة منهم :

« أما بعد : فإن أهل دَعْوتنا حكَّموا الرجال فى أمر الله ، ورَضُوا بحكم القاسِطين(٢) على عباده ، فخالفناهم ونابذْناهم ، نريد بذلك الوسيلةَ إلى الله ، وقد قَعَدنا بجسر النهروان وأحبَبْنا إعلامَكم ، لتأخذوا بنصيبكم من الأجر ، والسلام » .

(الإمامة والسياسة ١ : ١٠٥)

٤٦٥ ـ ردّ خوارج البصرة

فكتبوا إليهم :

« أما بعدُ : فقد بلَغَنا كتابكم ، وفهِمْنا ما ذكرتم ، وقد وهبنا لكم الرأىَ الذى جمعكم الله عليه من الطاعة وإخلاص الحكم لله ، وإعمالكم أنفسَكم فيما يجمع الله به كلمتكم ، وقد أجمعْنا على المسير إليكم عاجلاً » .

(الإمامة والسياسة ١ : ١٠٥)

---

(١) النهروان : كورة واسعة بين بغداد وواسط من الجانب الشرقى .

(٢) أى الجائرين ، قسط كجلس قسوطا : جار وعدل عن الحق .

٤٦٦ — كتاب عليّ إلى الخوارج بالنهر

وبلغ عليًا عليه السلام خروجُ الخوارج إلى النهر ، فكتب إليهم :

« بسم الله الرحمن الرحيم : من عبد الله عليّ أمير المؤمنين إلى زيد بن حُصَين ، وعبد الله بن وهب ، ومن معهما من الناس :

« أما بعد : فإن هذين الرجلين الخاطئين الحاكمين اللذين ارتضيتم حَكَمين قد خالفا كتاب الله ، واتَّبعا أهواءهما بغير هدى من الله ، فلم يعملا بالسنة ، ولم يُنَفِّذا للقرآن حُكْما ، فبَرِئَ اللهُ ورسولُه منهما وصالحُ المؤمنين ، فإذا بلغكم كتابى هذا فأَقْبِلوا إلينا ، فإنا سائرون إلى عدونا وعدوكم ، ونحن على الأمر الأول الذى كنا عليه والسلام » .

(تاريخ الطبرى ٦ : ٤٤ ، والإمامة والسياسة ١ : ١٠٥)

٤٦٧ — ردّ الخوارج عليه

فكتبوا إليه :

« أما بعد : فإنك لم تَغْضَب لربك ، إنما غضبت لنفسك ، فإن شَهِدتَ على نفسك بالكفر ، واستقبلتَ التوبة ، نظرنا فيما بيننا وبينك ، وإلاَّ فقد نابَذْناك على سَوَاء ، إن الله لا يُحِبُّ الخائنين » .

فلما قرأ كتابهم أَيِس منهم ، فرأى أن يَدَعَهُمْ ، ويمضى بالناس إلى أهل الشأم حتى يلقاهم فيناجِزهم .

(تاريخ الطبرى ٦ : ٤٤ ، والإمامة والسياسة ١ : ١٠٦)

٤٦٨ — كتاب عليّ إلى ابن عباس

ونزل عليّ عليه السلام النُّخَيلة ، ودعا الناس أن يتهيئوا للمسير إلى الشأم ، وكتب إلى ابن عباس — وكان قد ردّه إلى البصرة — :

« أمَّا بعد : فإنا قد خرجنا إلى مُعَسْـكرنا بالنخيلة ، وقد أجمَعْنا على المسير إلى عدونا من أهل الشأم ، فاُشخَصْ بالناس حتى يأتيَك رسولى ، وأقِمْ حتى يأتِيَـك أمرى ، والسلام » .

(تاريخ الطبرى ٦ : ٤٤ ، والإمامة والسياسة ١ : ١٠٦)

٤٦٩ — كتاب علىّ إلى معاوية

وبينما علىٌّ يتأهب للقاء معاوية ، إذ بلغه ما أتاه الخوارج بالنهروان من الأحداث المنـكَرَة[١] ، فسار إليهم ، وجعل يَبْذُل لهم النصح ، وصَمُّوا عنه آذانهم ، فحمل عليهم حملةً مَزَّقهم فيها كل مُمَزَّق ، ولم يُفلت منهم إلا عشرة .

وكتب علىّ عليه السلام إلى معاوية جواباً عن كتاب وصل من معاوية إليه بعد قتله الخوارج :

« أما بعدُ : فقد آنَ[٢] لك أن تنتفِـعَ باللَّمْحِ الباصِرِ من عِيَانِ الأمور ، فلقد سلَـكْتَ مَدارِجَ أسلافك بادِّعائك الأباطيل ، واقتحامِك غُرورَ المَيْنِ والأكاذيب ،

(١) من ذلك أنهم لقوا عبد الله بن خباب بن الأرت ، ومعـه امرأته حبلى متم ، فسألوه : ما تقول فى أبى بكر وعمر ؟ فأثنى عليهما خيرا قالوا : ما تقول فى عثمان فى أول خلافته وفى آخرها ؟ قال : إنه كان محقا فى أولها وفى آخرها قالوا . فما تقول فى على قبل التحكيم وبعده ؟ قال إنه أعلم بالله منـكم ، وأشـد توقيا على دينه ، وأنفذ بصيرة ، فقالوا : إنك تتبع الهوى ، وتوالى الرجال على أسمائها لا على أفعالها ، ثم قربوه إلى شاطئ النهر فذبحوه وسال دمه فى المـاء ، وبقروا بطن امرأته ، وقتلوا ثلاث نسوة من طيء ، وقتلوا أم سنان الصيداوية ، وأرسل إليهم على رسولا ينظر فيما بلغه عنهم فقتلوه ، وأصابوا مسلما ونصرانيا ، فقتلوا المسلم وأوصـوا بالنصرانى فقالوا : احفظوا ذمة نبيـكم ، وساموا رجلا نصرانيا بنخلة له ، فقال : هى لـكم ، فقالوا : ما كنا لنأخذها إلا بثمن ، قال : ما أعجب هذا ! أتقتلون مثل عبد الله بن خباب ، ولا تقبلون منى جنى نخلة ؟ — انظر تاريخ الطبرى ٦ : ٤٦ والـكامل للمبرد ٢ : ١٤٣ — .

(٢) آن يئين ، وأنى يأنى كرمى يرمى : أى حان وقرب ، ومما يجرى مجرى المثل قولهم لمن يرونه شيئا يبصره شديدا ولا يشك فيه : قد رأيته لمحا باصرا ، أى نظرا بتحديق شديد ، ومعنى باصر ذو بصر فهو مخرج مخرج لابن وتامر ، والعيان : المعاينة ، والمدرج : المذهب والمسلك وزنا ومعنى ، وكـذا المدرجة ، والأباطيل جمع أبطولة بالضم ، أو إبطالة بالـكسر ، أو هو جمع باطل على غير قياس ، والمين : الـكذب .

من أُنتحالِك ما قد عَلَا عنك[١] ، وابتزازِك لما قد اُخْتُزِن دونَك ، فِراراً من الحقّ[٢] ، وجُحُوداً لِمَا هو ألزَمُ لك من لَحمك ودَمِك ، مما قد وَعاه سَمْعُك ومُلِئ به صدرُك ، فماذا بعد الحق إلا الضلال المبين ، وبعد البيان إلا اللَّبسُ ، فاحْذَر الشُّبْهة واشتمالَهَا على لُبْستها[٣] ، فإن الفتنة طالما أغْدَفَتْ جلابيبَها ، وأغْشَتِ الأبصارَ ظُلْمَتَها[٤] .

وقد أتانى كتاب منك ذو أفانينَ[٥] من القول ضَعُفت قُواها عن السِّلم ، وأساطيرَ لم يَحُكْها منك عِلم ولا حِلم ، أصبحتَ منها كالخائض فى الدَّهَاسِ[٦] ، والخابِط فى الدِّيمَاس ، وترقَّيت إلى مَرْقَبَةٍ[٧] بعيــــدة المَرام ، نازِحَة الأعلام ، تَقْصُر دونها الأَنُوقُ[٨] ، ويُحاذَى بها العَيُّوقُ .

وحاشَ لِلهِ أن تَلِيَ المسلمين بعدى صَدَراً أو وِرْداً ، أو أُجْرِىَ لك على أحد منهم عَقْداً أو عَهْداً ، فمن الآنَ فتدارَكْ نَفسَك ، وانظر لها ، فإنك إن فرَّطْتَ حتى يَنْهَدَ[٩] إليك عبادُ الله ، أُرْتِجَتْ عليك الأمورُ ، ومُنِعْتَ أمراً هو منك اليومَ مقبولٌ ، والسلام » . (نهج البلاغة ٢ : ٩٠)

---

(١) يعنى الخلافة ، والابتزاز : الاستلاب . (٢) أى من التمسك به .

(٣) اللبسة : الاشتباه والإشكال، وأغدفت المرأة قناعها : أرسلته على وجهها ، وأغـدف الليل : أرخى سدوله . (٤) أى وجعلت ظلمتها غشاء للأبصار ، ويروى « وأعشت » فظلمتها فاعل .

(٥) أى أساليب وطرائق ، وحاكه : نسجه ، ونسج الـكلام : تأليفه ، والأساطير : الأباطيل ، جمع أسطورة بالضم أو إسطارة بالـكسر .

(٦) الدهاس بالفتح : المـكان السهل اللين لايبلغ أن يكون رملا وليس بتراب ولاطين ، والديماس بالفتح والـكسر : السرب المظلم ، وأصله من دمس الليل فهو دامس : أى اشتدت ظلمته ، وكان الحجاج سجن يسمى الديماس لظلمته .

(٧) المرقبة : الموضع المشرف يرتفع عليه الرقيب ، ونازحة ، بعيدة ، والأعلام : جمع علم بالتحريك: هو ما ينصب فى الطريق ليهتدى به .

(٨) الأنوق : الرخمة ، وفى المثل « أعز من بيض الأنوق » لأنها تحرزه ولا يكاد أحـد يظفر به ، لأن أوكارها فى رءوس الجبال والأماكن الصعبة البعيدة ، والعيوق : نجم أحمر مضىء يتلو الثريا .

(٩) ينهد : ينهض ، وأرتجت : أى أغلقت .

خروج الخريت بن راشد الناجي

وكان من الخوارج الذين خرجوا على عليّ عليه السلام بعد وَقعة النَّهروان الخِرِّيت ابن راشد الناجيّ ، فارقه فى جماعة من بنى ناجِيَة ، وظَعَنوا عن الكوفة (سنة ٣٨ هـ) فبعث عليّ فى إثْرهم زِياد بن خَصَفَة ، وقال له : أُخرج رَحِمَك الله حتى تنزل دَيْرَ أبى موسى ، ثم لا تتوجَّهْ حتى يأتيَك أمرى ، فخرج زياد فيمن معه إلى دير أبى موسى ، فنزله وأقام فيه ينتظر أمر أمير المؤمنين .

٤٧٠ — كتاب عليّ إلى عماله

وكتب عليٌّ إلى عُمَّاله فيهم نسخةً واحدة :

« أما بعدُ : فإن رجالا خرجوا هُرَّابا ، ونظنهم توجَّهوا نحو بلاد البصرة ، فسَلْ عنهم أهل بلادك ، واجعل عليهم العُيُون فى كل ناحية من أرضك ، واكتب إلىّ بما ينتهى إليك عنهم ، والسلام » .

(تاريخ الطبرى ٦ : ٦٧ ، وشرح ابن أبى الحديد م ١ : ص ٢٦٥)

٤٧١ — كتاب قرظة بن كعب إلى عليّ

فوَرَدَ عليه كتاب من قِبَل قَرَظَة بن كعب الأنصارى أحد عماله ، وفيه :

« بسم الله الرحمن الرحيم . لعبد الله عليّ أمير المؤمنين من قَرَظَة بن كعب ، سلام عليك فإنى أحمد إليك الله الذى لا إلهَ إلا هو ، أما بعدُ : فإنى أُخْبِر أمير المؤمنين أن خَيْلا مَرَّت بنا من قِبَل الكوفة ، متوجهةً نحو « نِفَّرٍ[1] » وأن رجلا من دَهَاقِين

(١) نفر : بلد أو قرية على نهر النرس من نواحى بابل من أعمال الكوفة ، والدهاقين : جمع دهقان بالكسر والضم وهو : زعيم فلاحى العجم ورئيس الإقليم ، معرب .

أسْفَل الفُرات قد صَلَّى[1] ، يقال له « زَاذَان فَرُّوخ » أقبلَ من قِبَل أخواله بناحية نِفَّر، فعَرَضُوا له ، فقالوا : أمُسْلِم أنت أم كافر ؟ فقال: بل أنا مسلم ، قالوا : فما قولُك في عليّ ؟ قال : أقول فيه خيراً : أقول إنه أمير المؤمنين ، وسيد البَشَر ، ووصيّ رسول الله ، فقالوا له : كفرتَ يا عدوَّ الله ، ثم حَمَلت عليه عِصابة منهم فقطَّعوه بأسيافهم ، ووجدوا معه رجلا من أهل الذِّمة يهوديًّا ، فقالوا : ما أنت ؟ قال : رجل من أهل الذمَّة ، قالوا : أمّا هذا فلا سبيلَ لكم عليه، فأقبل إلينا ذلك الذمى فأخبرناهذا الخبر ، وقد سألت عنهم فلم يُخبرني أحدعنهم بشيء ، فليكتب إلىّ أمير المؤمنين برأيه فيهم أنتَهِ إليه ، والسلام » .

(تاريخ الطبرى ٦ : ٦٧ ، وشرح ابن أبي الحديد م ١ : ص ٢٦٦)

٤٧٢ — رد علىّ على قرظة بن كعب

فكتب إليه علىّ :

« أما بعدُ : فقد فهمتُ ما ذكرتَ من أمر العصابة التى مرَّت بك ، فقتَلَت البَرَّ المسلمَ ، وأَمِن عندهم المخالفُ الكافر ، وإن أولئك قوم استَهْواهم[2] الشيطان فضَلُّوا ، وكانوا كالذين حَسِبوا أنْ لاَ تكونَ فِتْنَةٌ فَعَمُوا وَصَمُّوا ، فأَسْمِعْ بهم وأبصِرْ يوم تُخْبَرُ أعمالهم ، فالزَم عملَك ، وأقْبِل على خَراجك ، فإنك كما ذكرتَ في طاعتك ونصيحتك ، والسلام » .

(تاريخ الطبرى ٦ : ٦٨ ، وشرح ابن أبي الحديد م : ١ ص ٢٦٦)

٤٧٣ — كتاب علىّ إلى زياد بن خصفة

وكتب على عليه السلام إلى زياد بن خَصَفَة :

« أما بعد : فإنى كنت أمرتك أن تنزل دَيْرَ أبى موسى حتى يأتيك أمرى ، وذلك لأنى لم أكن علمتُ إلى أيِّ وجه توجَّه القوم ، وقد بلغنى أنهم أخذوا نحو قرية

---

(١) أى أسلم ، وفى ابن أبى الحديد « قد أسلم وصلى » . (٢) استهواه : استماله .

يقال لها « رِنفَّر » فاتبَع آثارهم وسَلْ عنهم ، فإنهم قد قتلوا رجلا من أهل السَّواد مُصَلِّيا ، فإذا أنت لِحَقتهم فارددهم إلىّ ، فإن أبَوا فناجزِهم ، واستعِنْ بالله عليهم ، فإنهم قد فارقوا الحقَّ ، وسَفَكوا الدم الحرام ، وأخافوا السبيلَ ، والسلام » .

(تاريخ الطبرى ٦ : ٦٨ ، وشرح ابن أبى الحديد م١ : ص ٢٦٦)

٤٧٤ – كتاب زياد بن خصفة إلى علىّ

فخرج زياد فتبِعَهم حتى لِحقهم بالمَذار[1] ، ودعا الخِرِّيت إلى الدخول فيما خرج منه فأَبَى ، وسأله أن يدفع إليه قَتَلة الدِّهقان ، فقال ما إلى ذلك سبيل ، فناجَزَه واقتتلا قتالا شديدا ، وقتل من أصحاب زياد رجلان ، وصُرع من أصحاب الخِرِّيت خمسة ، وحَجَز الليل بين الفريقين، فهرب الخريت بمن معه فأتَوا الأهواز، وسار زياد إلى البصرة لمداواة الجرحى ، وكتب إلى على :

« أما بعدُ : فإنا لقينا عدوَّ الله الناجيَّ وأصحابه بالمَذَار ، فدعوناهم إلى الهدى والحق وإلى كلمة السَّواء ، فلم ينزلوا على الحق ، وأخذتهم العِزَّة بالإثم ، وزَيَّن لهم الشيطانُ أعمالَهم فصدَّهم عن السبيل ، فقَصَدوا لنا ، وصَمَدْنا صَمْدَهم[2] ، فاقتتلْنا قتالا شديداً ما بين قائِم الظهيرة إلى دُلُوك[3] الشمس ، فاستُشْهِد منا رجلان صالحان ، وأصيبَ منهم خمسة نَفَر ، وخلَّوا لنا المعركة ، وقد فشَتْ فينا وفيهم الجراح .

ثم إن القوم لما لَبِسهم الليل خرجوا من تحته متنكِّبين[4] إلى أرض الأهواز ، فبَلَغنا أنهم نزلوا منها جانباً ، ونحن بالبصرة نُداوى جِراحنا ، وننتظر أمرك ، رحمك الله ، والسلام عليك » .

(تاريخ الطبرى ٦ : ٧٠ ، وشرح ابن أبى الحديد م ١ : ص ٢٦٧)

---

(١) فى ميسان ، بين واسط والبصرة .

(٢) صمد ، صمد الأمر : قصده واعتمده .

(٣) أى غروبها . (٤) تنكب عن الطريق : عدل ، وفى ابن أبى الحديد « متنكرين » .

٤٧٥ — كتاب عليّ إلى ابن عباس

وسيّر عليّ عليه السلام إلى الخِرِّيت مَعْقِلَ بن قيس ، ونَدَبَ معه ألفين من أهل الكوفة ، وكتب إلى ابن عباس ـ أمير البصرة ـ :

« أما بعدُ : فابعث رجلًا من قِبَلك صَلِيباً شُجاعا معروفاً بالصَّلاح فى ألفى رجل ، فلْيَتْبَع مَعْقِلا ، فإذا مرَّ ببلاد البصرة فهو أمير أصحابه حتى يَلْقَى مَعْقِلا ، فإذا لقِيَ معقلا فمَعقِلٌ أمير الفريقين ، ولْيَسْمَع من معقل ولْيُطِعه ولا يخالفه ، ومُرْ زياد بن خَصَفة فلْيُقْبِل إلينا ، فنعم المرء زِيادٌ ، ونعم القَبيلُ قبيله ، والسلام » .

(تاريخ الطبرى ٦ : ٧٠ ، وشرح ابن أبى الحديد م ١ : ص ٢٦٧)

٤٧٦ — ردّ عليّ على زياد بن خصفة

وكتب عليّ إلى زياد بن خصفة :

« أما بعدُ : فقد بَلَغنى كتابك ، وفَهِمْتُ ما ذكرتَ من أمر الناجىِّ وإخوانه ، الذين طَبَع الله على قلوبهم ، وزَيَّن لهم الشيطان فهم يَعْمَهون[١] ، ويحسَبُون أنهم يُحْسِنُون صُنْعاً ، ووصفت ما بلغ بك وبهم الأمر ، فأما أنت وأصحابك فلله سعيكم ، وعلى الله تعالى جزاؤكم ، وأيْسرُ ثواب الله للمؤمنين خير له من الدنيا[٢] التى يقتُلُ الجهَّالُ أنفسَهم عليها ، فإن ما عندكم يَنْفَدُ ، وَمَا عِنْدَ اللهِ بَاقٍ ، وَلَنَجْزِيَنَّ الَّذِينَ صَبَرُوا أَجْرَهُمْ بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ » .

وأما عدوكم الذين لقيتموهم فحَسْبُهم خروجُهم من الهُدى إلى الضلال ، وارتكاسُهم[٣] فيه ، وردُّهم الحقَّ ، وجِمَاحُهم فى الفتنة[٤] ، فذَرْهُم وما يَفْتَرُون ،

---

(١) العمه بالتحريك : التردد فى الضلال .

(٢) وفى الطبرى « فأبشر بثواب الله خير من الدنيا التى . . » أى فثوابه خير .

(٣) أركسه : نكسه ، وارتكس : انتكس .

(٤) وفى ابن أبى الحديد : « وجماحهم فى التيه » والتيه » بالكسر : الضلال .

ودَعْهم فى طغيانهم يعْمَهُونَ ، فأسْمِع بهم وأبْصِرْ فَكأنَّك بهم عن قليل ، بين أسير وقتيل .

أقبِلْ إلينا أنت وأصحابك مأجُورِين، فقد أطعتم وسمِعْتم وأحسَنتم البَلاء ، والسلام » .

(تاريخ الطبرى ٦ : ٧٠ ، وشرح ابن أبى الحديد م ١ : ص ٢٦٧)

٤٧٧ — كتاب ابن عباس إلى معقل بن قيس

ونزل الخِرِّيتُ جانبًا من الأهواز ، واجتمع إليه عُلُوجٌ[١] من أهلها كثير ، أرادوا كَسْرَ الخراج ، ولصوص كثيرة ، وطائفة أخرى من العرب ترى رأْيَه .

وخرج مَعْقِلُ بن قيس حتى نزل الأهواز ، وأقام ينتظر أهل البصرة ، فلما أبطئوا عليه أخذ فى المسير إلى الخريت ، فما لبث أن أدركه رسول ابن عباس بكتاب فيه :

« أما بعدُ ، فإن أدركك رسولى بالمكان الذى كنتَ فيه مقيما ، أو أدركك وقد شَخَصْتَ منه ، فلا تَبْرَحِ المكان الذى ينتهى فيه إليك رسولى ، واثبتْ فيه حتى يَقْدَم عليك بَعْثُنا الذى وجَّهناه إليك ، فإنى قد بعثتُ إليك خالد بن مَعْدَان الطائىَّ ، وهو من أهل الدين والصلاح والبأس والنجدة ، فاسمع منه ، واعرف ذلك له ، والسلام » .

فقرأ معقل الكتاب على الناس ، وحَمِدَ الله — وقد كان ذلك الوجه هالَهم — فأقام حتى قَدِم عليه الطائى ، واجتمعا جميعًا فى عسكر واحد .

(تاريخ الطبرى ٦ : ٧١ ، وشرح ابن أبى الحديد م ١ : ص ٢٦٨)

---

(١) علوج : جمع علج بالكسر : وهو الرجل من كفار العجم .

٤٧٨ — كتاب معقل بن قيس إلى علي

وسار مَعْقِل إليهم ، فأخذوا يرتفعون نحو جبال رَامَهُرْمُز ، يريدون قلعةً بها حَصِينة ، فلحِقهم وقد دنَوْا من الجبل ، وقاتلهم فما صَبَرُوا له ساعةً حتى ولَّوْا ، وشُدِخ منهم سبعون عربيًّا من بنى ناجية ، وقتل نحو من ثلثمائة من العُلُوج والأكراد ، وخرج الخريت منهزمًا ، حتى لِحَق بسِيف[1] من أسيافِ البحر ، وبها جماعة من قومه كثير ، فما زال بهم يدعوهم إلى خلاف علي حتى اتبعه منهم ناس كثير .

وأقام مَعْقِل بأرض الأهواز ، وكتب إلى علي بالفتح :

« بسم الله الرحمن الرحيم : لعبد الله علي أمير المؤمنين من معقل بن قيس : سلام عليك فإني أحمَدُ إليك اللهَ الذى لا إله إلا هو ، أما بعد ، فإنا لَقِينا المارقين وقد استظهروا علينا بالمشركين ، فقتلناهم قتلَ عادٍ وإرَم[2] ، مع أنا لم نَعْدُ فيهم سِيرتك ، ولم نقتل من المارقين مُدْبِراً ولا أسيراً ، ولم نُذَفِّف[3] منهم على جريح ، وقد نصرك الله والمسلمين ، والحمد لله رب العالمين » .

(تاريخ الطبرى ٦ : ٧٢ ، وشرح ابن أبى الحديد م ١ : ص ٢٦٨)

٤٧٩ — كتاب علي إلى معقل بن قيس

فقرأ علي عليه السلام كتاب مَعْقِل على أصحابه ، واستشارهم فاجتمع رأى عامّتهم على قول واحد ، قالوا : نرى أن تكتب إلى معقل فيتبع أثر الفاسق ، فلا يزالُ فى طلبه ، حتى يقتلَه أو يَنْفِيَه ، فإنا لا نأمَنُ أن يُفسِد عليك الناس ، فكتب إليه :

---

(١) السيف بالكسر : ساحل البحر .

(٢) أى أبدناهم كما أبيد هؤلاء . وإرم : والدعاد الأولى أو الأخيرة ، وقيل : اسم بلدتهم ، وقيل : اسم أمهم .

(٣) ذفف على الجريح : أجهز عليه .

« أما بعدُ : فالحمد لله على تأييد أوليائه ، وخِذْلان أعدائه ، جزاك الله والمسلمين خيراً ، فقد أحسنتم البلاءَ ، وقضَيْتم ما عليكم ، وسَلْ عن أخي بني ناجية ، فإن بلغَك أنه قد استقر ببلد من البُلْدان ، فسِرْ إليه حتى تقتلَه أو تنفِيَه ، فإنه لن يزال للمسلمين عدُوّا ، وللقاسِطين[1] وَليًّا ، ما بَقِى ، والسلام عليك » .

فسأل معقل عن مستقرّه ، فنُبّئَ بمكانه بالأسياف ، وأنه قد ردّ قومه عن طاعة عليّ ، وأفسد مَن قِبلَه من عبد القيس ومن والاهم من سائر العرب ، وكان قومُه قد منعوا الصدقة عام صِفّين (سنة ٣٧ هـ) ومنعوها فى ذلك العام أيضًا ، فسار إليهم معقل ، فلما سمع الخريت بسيره إليه ، احتال فاستمال إليه الناس[2] كما استمال إليه قوما من النصارى كانوا أسلموا ، ثم ارتدوا إلى النّصرانية ، وتبعه خلق كثير :

(تاريخ الطبرى ٦ : ٧٢ ، وشرح ابن أبى الحديد م ١ : ص ٢٦٨)

٤٨٠ — كتاب عليّ إلى أشياع الخريت

ولما انتهى إليهم معقل بن قيس بالأسياف قرأ عليهم كتابا من عليّ ، فيه :

« بسم الله الرحمن الرحيم ، من عبد الله على أمير المؤمنين ، إلى من يُقرأ عليه كتابي هذا من المؤمنين والمسلمين والمارقِين والنصارى والمرتدين :

---

(١) أى الجائرين .

(٢) وذلك أنه أقبل على من كان معه من أصحابه ممن يرى رأى الخوارج ، فأسر لهم أنى أرى رأيكم ، فإن عليا لن ينبغى له أن يحكم الرجال فى أمر الله . وقال للآخرين منددا لهم : إن عليا حكم حكما ورضى به ، فخلعه حكمه الذى ارتضاه لنفسه ، فقد رضيت أنا من قضائه وحكمه ما ارتضاه لنفسه — وهذا كان الرأى الذى خرج عليه من الكوفة — وقال سرا لمن يرى رأى عثمان : أنا والله على رأيكم ، قد والله قتل عثمان مظلوما ، فأرضى كل صنف منهم ، وأراهم أنه معهم ، وقال لمن منع الصدقة : شدوا أيديكم على صدقاتكم ، وصلوا بها أرحامكم ، وعودوا بها إن شئتم على فقرائكم ، وقد كان فيهم نصارى كثير قد أسلموا ، فلما اختلف الناس بينهم ، قالوا . والله لديننا الذى خرجنا منه خير وأهدى من دين هؤلاء الذى هم عليه ، ماينهاهم دينهم عن سفك الدماء ، وإخافة السبيل ، وأخذ الأموال ، فرجعوا إلى دينهم ، فلقى الخريت أولئك فقال لهم : ويحكم ! أتدرون حكم على فيمن أسلم من النصارى ، ثم رجع إلى نصرانيته ؟ لا والله مايسمع لهم قولا ، ولا يرى لهم عذرا ، ولا يقبل منهم توبة ، وإن حكمه فيهم لضرب العنق ساعة يستمكن منهم ، فما زال حتى جمعهم وخدعهم ، وجاء من كان من بنى ناجية ومن كان فى تلك الناحية من غيرهم ، واجتمع إليهم ناس كثير .

سلام على من اتبع الهدى ، وآمن بالله ورسوله وكتابه والبعث بعد الموت ، وأوْفَى بعهد الله ، ولم يكن من الخائنين .

أما بعد : فإنى أدعوكم إلى كتاب الله ، وسُنّة نبيه ، والعمل بالحق ، وبما أمر الله فى كتابه ، فمن رَجَع إلى أهله منكم ، وكفَّ يده ، واعتزَلَ هذا المارق الهالك الحارِبَ[1] الذى جاء يحارب الله ورسوله والمسلمين ، وسعى فى الأرض فساداً ، فله الأمان على ماله ودمه ، ومن تابَعَه على حربنا ، والخروج من طاعتنا ، استعنا بالله عليه ، وجَعَلْنا الله بيننا وبينه ، وكفى بالله نصيراً » .

وأخرج معقل راية أمان فنَصَبها وقال : من أتاها من الناس فهو آمن ، إلا الخِرِّيتَ وأصحابه الذين حاربونا وبدءونا أول مرة ، فتفرّق عن الخريت جُلّ من كان معه من غير قومه » .

(تاريخ الطبرى ٦ : ٧٣ ، وشرح ابن أبى الحديد م ١ : ص ٢٦٩)

٤٨١ — كتاب معقل بن قيس إلى على

وعبّأ مَعْقِل بن قيس أصحابه ، ثم زحف بهم نحو الخِرِّيت ، وقد حضر معه قومه مسلموهم ونصاراهم ومانِعَةُ الصَّدَقة منهم ، واقتتلوا قتالًا شديداً ، وقتل الخريت وقتل معه فى المعركة سبعون ومائة ، وذهب الباقون يميناً وشِمالًا .

وسَبَى معقل رجالًا كثيراً ونساء وصبياناً ، ثم نظر فيهم : فأما من كان مسلماً فخلّاه وأخذ بيعته وترك له عياله ، وأما من كان ارتدّ فعرض عليهم الإسلام فرجعوا وخلَّى سبيلهم ، إلا شيخاً منهم نصرانيًّا أبَى فقدّمه فضرب عنقه ، وأخذ من المسلمين عِقَالَيْن[2] ، وعَمَد إلى النصارى وعيالهم فاحتملهم مُقْبِلًا بهم ، وكتب إلى علىّ :

---

(١) أى السالب الناهب ، حربه يحربه حربا كطلبه يطلبه طلبا : إذا أخذ ماله وتركه بلا شىء ، وفى ابن أبى الحديد « المحارب » . (٢) العقال : زكاة عام من الإبل والغنم .

« أما بعدُ : فإنى أُخبِر أمير المؤمنين عن جنده وعن عدوه : إنا دفَعْنا إلى عدوِّنا بالأسياف ، فوجدنا بها قبائل ذات عِدّة وحِدَّة وجِدّ ، وقد جمعَتْ لنا ، وتحزَّبَتْ علينا ، فدعوناهم إلى الطّاعة والجماعة ، وإلى حكم الكتاب والسنة ، وقرأنا عليهم كتاب أمير المؤمنين ، ورفَعْنا لهم راية أمان ، فمالت إلينا منهم طائفة ، وبقيت طائفة أخرى مُنابِذة ، فقبِلْنا من التى أقبلت ، وصَمَدْنا[1] صَمْدًا التى أدبَرَتْ ، فضرب الله وجوههم ونَصرنا عليهم » .

فأما من كان مسلمًا فإنا مَنَناً عليه ، وأخذنا بَيْعَته لأمير المؤمنين ، وأخذنا منهم الصَّدَقة التى كانت عليهم ، وأما من ارتدَّ فإنا عرضْنا عليه الرجوع إلى الإسلام وإلاّ قتلناه ، فرجَعوا غيرَ رجل واحد فقتلناه ؛ وأما النصارى فإنا سبَيْناهم ، وقد أقبلنا بهم ، ليكونوا نكَالا لمن بعدهم من أهل الذِّمة ، لكيلا يمنعوا الجزية ، ولكيلا يجترئوا على قتال أهل القِبْلة ، وهم أهل الصَّغَار والذل ، رحِمَك الله يا أمير المؤمنين ، وأوجب لك جَنَّات النعيم ، والسلام عليك » .

(تاريخ الطبرى ٦ : ٧٥ ، وشرح ابن أبى الحديد م ١ : ص ٢٧٠)

٤٨٢ — كتاب علىّ إلى مصقلة بن هبيرة

ثم أقبل بالأسارى حتى مر على مَصْقلة بن هُبَيرة الشَّيْبانى — وهو عامل علىّ على أرْدَشِير[2] خُرَّة ، وهم خمسمائة إنسان — فبكى إليه النساء والصبيان ، وتصايَحَ الرجال : يا أبا الفضل ، يا حامِىَ الرجال ، وفكَّاكَ العُناة[3] ، امنُن علينا فاشْتَرِنا وأعتِقْنا ، فقال مصقلة : أُقسِم بالله لأَتَصَدَّقن عليهم ، إن الله يَجْزِى المتصدقين ، وبعث إلى معقل فقال له : بِعنى نَصارى بنى ناجية ، فقال : نعم أبيعُكَهُمْ بألف ألف درهم ، فأبَى عليه ، فلم يزل يراوده حتى باعه إياهم بخمسمائة ألف درهم ، ودفَعَهم إليه ، وقال له : عَجِّل بالمال إلى

---

(١) صمده وصمد إليه : قصد .
(٢) كورة من كور فارس .
(٣) العناة جمع العانى ، وهو الأسير .

أمير المؤمنين ، فقال : أنا باعثٌ الآن بصَدْرٍ[١] منه ، ثم أبعث بصَدْرٍ آخر كذلك ، حتى لا يبقى منه شيء ، إن شاء الله تعالى .

وأقبل معقل إلى أمير المؤمنين عليّ ، وأخبره بما كان منه فى ذلك ، وانتظر عليّ مصقلة أن يبعث إليه بالمال فأبطأ به ، وبلغ عليًّا أن مصقلة خلَّى سبيل الأسارى ولم يسألهم أن يُعينوه فى فِكاك أنفسهم بشيء ، فقال : ما أرى مصقلة إلا قد تحمل حَمَالَة[٢] ، ولا أراكم إلا سترَوْنه عن قريب مُبَلْدِحا[٣] ، ثم إنه كتب إليه :

« أما بعدُ : فإن من أعظم الخيانة خيانةَ الأمة ، وأعظم الغش على أهل المصر غش الإمام ، وعندك من حق المسلمين خمسمائة ألف درهم ، فابعث بها إليّ ساعةَ يأتيك رسولى ، وإلاَّ فأقبل إليّ حين تنظر فى كتابى ، فإنى قد تقدَّمت إلى رسولى إليك ألاَّ يَدَعك أن تقيم ساعةً واحدة بعد قدومه عليك إلاَّ أن تَبْعَثَ بالمال ، والسلامُ عليك » .

فلما قرأ كتابه أقبل حتى نزل البصرة فمكث بها أياما ، ثم إن ابن عباس سأله المال - وكان عمال البصرة يحملون المال من كُوَر البصرة إلى ابن عباس ، ويكون ابن عباس هو الذى يبعث به إلى عليّ - فقال له : أَنْظِرنى[٤] أياما ، ثم أقبل حتى أتى عليًّا بالكوفة فأقرَّه أياما ، ثم سأله المال ، فأدَّى إليه مائتى ألف درهم ، ثم إنه عجز عن الباقى فلم يقدر عليه ، وما لبث أن لحق بمعاوية .

وبلغ ذلك عليا فقال : ماله - ترَّحه الله[٥] - فَعَلَ فِعْلَ السيد ، وفَرَّ فِرَارَ العبد ، وخان خيانة الفاجر ! أمَا والله لو أنه أقام فعجز ما زِدْنا على حبسه ، فإن وجدنا له شيئًا أخذناه ، وإن لم نجد له مالاً تركناه » .

(تاريخ الطبرى ٦ : ٧٥ ، وشرح ابن أبى الحديد م ١ ص ٢٧٠)

---

(١) الصدر : الطائفة من الشيء .

(٢) الحمالة : الدية يحملها قوم عن قوم . (٣) بلدح : وعد ولم ينجز العدة ، وأعيا وبلد .

(٤) أى أمهلنى . (٥) ترحه : أى أحزنه ، من الترح بالتحريك ضد الفرح .

٤٨٣ — كتاب مصقلة إلى أخيه نعيم

وكان أخوه نُعَيم بن هُبَيْرة شيعيًّا، ولعلىّ مُناصِحاً، فكتب إليه مصقلة من الشأم مع رجل من النصارى، من بنى تغلب يقال له حُلوان:

«أما بعدُ: فإنى كلمت معاوية فيك، فوعَدك الإمارة، ومَنّاك الكرامةَ، فأقبل إلىّ ساعة يلقاك رسولى إن شاء الله والسلام».

فأخذه مالك بن كعب الأرحَبِىّ، فسرّح به إلى علىّ، فقطع يد النصرانى فمات.

(تاريخ الطبرى ٦ : ٧٦، وشرح ابن أبى الحديد م ١ : ص ٢٧٠)

٤٨٤ — رد نعيم على مصقلة

وكتب نعيم إلى أخيه مصقلة:

لا ترْمِيَنِّى (هَدَاكَ اللهُ) مُعْتَرِضًا ... بالظَّنِّ منك، فما بالى وحُلْوانا؟

ذاك الحريصُ على ما نال من طَمَعٍ ... وهو البعيد فلا يَحْزُنْك إذ خانا[1]

ماذا أردتَ إلى إرسالِهِ سَفَهاً ... ترجو سِقَاطَ امْرِئٍ لم يُلفَ وَسْنانا[2]

عرّضْتَه لِعَلِىٍّ، إنه أَسَدٌ ... يمشى العِرَضْنَةَ من آسادِ خَفَّانا[3]

قد كنتَ فى خير مُصْطافٍ ومُرْتَبَعٍ ... تَحمِى العراق وتُدْعى خيرَ شَيْبانا[4]

حتّى تقحّمْتَ أمراً كنتَ تكرَهُه ... للراكبين له سِرًّا وإعلانا

لو كنتَ أدّيتَ مالَ الله مُصْطَبِرًا ... للحقِّ، أحيَيْتَ أحيَانا ومَوْتانا

---

(١) وفى ابن أبى الحديد «فلا يورثك أحزانا».

(٢) السقاط: الخطأ فى القول والحساب والكتاب، والوسنان: النائم.

(٣) من قولهم: فلان يمشى العرضنة والعرضنى بالقصر: أى فى مشيته بغى من نشاطه. وخفان: مأسدة قرب الكوفة.

(٤) ارتبعنا بموضع كذا: أقمنا به فى الربيع، واسم المكان مرتبع واصطفنا به: أقمنا به فى الصيف والموضع مصطاف، وفى الطبرى: «قد كنت فى منظر عن ذا ومستمع».

لكن لحقتَ بأهل الشأم ملتمِسًا فضلَ ابن هندٍ، وذاك الرأيُ أشجانا[1]

فاليومَ تقرَعُ سِنَّ الغُرْمِ من نَدَمٍ ماذا تقول، وقد كان الذى كانا؟[2]

أصبحتَ تُبغِضك الأحياء قاطِبَةً لم يَرْفعِ اللهُ بالعِصْيانِ إنسانا[3]

فلما وقع الكتاب إليه علم أن رسوله قد هلك، فوَدَاه[4]

(تاريخ الطبرى ٦ : ٧٦، و شرح ابن أبى الحديد م ١ : ص ٢٧١)

٤٨٥ — كتاب قوم مصقلة إليه

وذكروا أنه قام إلى علىّ وُجوهُ بكر بن وائل، فقالوا: يا أمير المؤمنين: إن نُعَيماً أخا مَصْقَلة يستحيِى منك، لِمَا صَنَع مصقلةُ، وقد أتانا اليقين أنه لا يمنع مصقلةَ من الرجوع إليك إلا الحياء، ولم يَبْسُط منذ فارَقَنا لسانه ولا يده، فلو كتبنا إليه كتابًا، وبعثْنا من قبلِنا رسولاً! فإنا نستحى أن يكون فارقَنا مثلُ مصقلةَ من أهل العراق إلى معاوية، فقال علىّ: اكتبوا، فكتبوا:

«أما بعدُ: فقد علِمنا أنك لم تَلْحَق بمعاوية رِضاً بدينه، ولا رغبةً فى دنياه، ولم يَعطِفْك عن علىّ طعنٌ فيه، ولا رغبة عنه، ولكن توسَّطتَ أمراً فقوَّيت فيه الظنّ، وأضعفتَ فيه الرجاء، فكان أوْلاهما عندك أن قلتَ: أفوز بالمال، وألحَقُ بمعاوية، ولعمرُنا ما استبدلت الشأمَ بالعراق، ولا السَّكاسِكَ[5] بربيعة، ولا معاويةَ بعلىّ، ولا أصبْتَ دُنيا تَهنَأُ بها، ولا حَظّاً تُحسَد عليه، وإن أقْرَبَ ما تكون مع الله أبعَدَ ما تكون مع معاوية، فارجع إلى مصرك، فقد اغتفر أمير المؤمنين الذنبَ، واحتمل الثِّقَل[6]».

---

(١) أشجانا: أحزننا. (٢) وفى ابن أبى الحديد «سن العجز».
(٣) قاطبة: جميعا، وفى الطبرى «لم يرفع الله بالبغضاء». (٤) أى دفع ديته.
(٥) حى من اليمن. (٦) الثقل: الحمل الثقيل.

واعلم أن رَجْعَتك اليوم خير منها غدا ، وكانت أمس خيراً منها اليومَ ، وإن كان عليك حياء من أبى الحسن ، فما أنت فيه أعظمُ، فقبّح الله أمراً ليس فيه دنيا ولا آخرة».

(الإمامة والسياسة ١ : ٦٧)

٤٨٦ — رد مصقلة على قومه

فكتب مصقلة إلى قومه :

«أما بعدُ : فقد جاءنى كتابكم ، وإنى أخبركم أنه من لم ينفعه القليلُ لم ينفعه الكثير». وقد علمتم الأمر الذى قطعنى من على وأضافنى إلى معاوية ، وقد علمتُ أنى لو رجعتُ إلى علىّ وإليكم لكان ذنبى مغفوراً ، ولكنى أذنبتُ إلى علىّ وَصَحِبتُ مُعاويةَ ، فلو رجعت إلى علىّ أحدثتُ عيباً ، وأحْيَيْتُ عاراً ، وكنتُ بين لائمَيْن : أولهما خيانة وآخرها غدر ، ولكنى أقيم بالشأم ، فإن غلب معاوية فدارى العراقُ ، وإن غَلَب علىٌّ فدارى أرضُ الروم ، فأما الهوَى فإليكم طائر ، وكانت فُرْقتى عليًّا ـ على بعض العذر ـ أحبَّ إلىّ من فرقتى معاوية ، ولا عذر لى » .

فرجع الرسول بالكتاب فأقرأه عليا ، فقال : كُفُّوا عن صاحبكم فليس براجع حتى يموت ، فقال حصين : أمَا والله ما به إلا الحياء !

(الإمامة والسياسة ١ : ٦٧)

٤٨٧ — كتاب علىّ إلى أهل مصر

وولى الإمام علىّ كرم الله وجهه بَدْء خلافته قيسَ بن سعد بن عُبادة الأنصارى على مصر ؛ فلما دخلها صَعِد المنبر فجلس عليه ، وأمر بكتاب معه من أمير المؤمنين فقرئ على أهلها ، وفيه :

« بسم الله الرحمن الرحيم : من عبد الله على بن أبى طالب أمير المؤمنين إلى مَن بلغه كتابى هذا من المؤمنين والمسلمين .

سلام عليكم فإنى أحمدُ إليكم الله الذى لا إله إلا هو ، وأصلى على رسوله صلى الله عليه وسلم ، أما بعدُ : فإن الله عزّ وجل بحسن صُنْعه وتقديره وتدبيره اختار الإسلام ديناً لنفسه وملائكته ورسله ، وبعث به الرُّسُلَ عليهم السلام إلى عباده ، وخَصَّ به مَن انتخَبَ من خلقه ، فكان مما أكرم اللهُ عز وجل به هذه الأمة ، وخَصَّهم به من الفضيلة ، أَنْ بَعَثَ إليهم محمداً صلى الله عليه وسلم، فعلَّمهم الكتابَ والحِكْمة والفرائض والسُّنَّة لكيما يهتدوا ، وجَمَعهم لكيما لا يتفرقوا ، وزكَّاهم لكيما يتطهَّروا ، ورَفَّهم[(١)] لكيما لا يَجُورُوا ، فلما قَضَى من ذلك ما عليه ، قَبَضَه الله عز وجل ، صلواتُ الله عليه ورحمته وبركاته .

ثم إن المسلمين من بعده استخلفوا به أميرين صالحين ، عَمِلا بالكتاب والسنة ، وأحسَنَا السيرةَ ، ولم يَعْدُوا السُّنَّةَ ، ثم توفَّاهما الله عز وجل رضى الله عنهما ، ثم وَلِى بعدهما والٍ ، فأَحْدَثَ أحداثاً ، فوَجدت الأمة عليه مقالا فقالوا ، ثم نَقِموا عليه فغيَّروا ، ثم جاءونى فبايعونى ، فأَسْتَهْدِى اللهَ عز وجل بالهدى : وأستعينُهُ عَلَى التقوى .

أَلاَ وإنَّ لكم علينا العملَ بكتاب الله وسنة رسوله صلى الله عليه وسلم ، والقيامَ عليكم بحقه ، والتنفيذ لسُنَّته ، والنُّصح لكم بالغَيْبِ ، والله المستعانُ ، وحَسْبُنا الله ، ونعم الوكيل .

وقد بعثتُ إليكم قيس بن سعد بن عبادة أميراً ، فوَازِرُوهُ[(٢)] وكانِفُوه وأعِينُوه على الحق ، وقد أمرته بالإحسان إلى مُحْسِنِكم ، والشدةِ عَلَى مُرِيبكم ، والرِّفق بعَوامِّكم وخواصِّكم ، وهو ممن أرضى هَدْيَه ، وأرجو صلاحه ونصيحته ، أسأل الله عز وجل لنا ولكم عملا زاكِيا[(٣)] ، وثوابًا جزيلاً ، ورحمةً واسعة ، والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته » .

---

(١) رفه : أحسن إليه . (٢) وازره وكانفه : عاونه .
(٣) زاكيا : أى صالحا، وفى النجوم الزاهرة «عملا صالحا» .

وكتب عُبَيْد بن أبى رافع[1] فى صفر سنة ٣٦ هـ .

ثم قام قيس بن سعد خطيبًا وأمر الناس بالبيعة فبايعوا ، واستقامت له مصر ، وبعث عليها عماله إلا قريةً منها يقال لها خَرْبِتا[2] فيها أناس قد أعظموا قتل عثمان ، فبعثوا إليه : إنا لا نقاتلك فابعث عمالك فالأرض أرضك ، ولكن أقِرّنا على حالنا حتى ننظر إلامَ يصير أمر الناس[3] ، فبعث إليهم : إنى لا أُكرِهكم على البَيْعة ، وأنا أدَعُكم وأكُفُّ عنكم ، فهادَنَهم وَجَبَى الخَراج ليس أحد من الناس ينازعه .

(تاريخ الطبرى ٥ : ٢٢٧ ، وشرح ابن أبى الحديد م ٢ : ص ٢٣ ، والنجوم الزاهرة ١ : ٩٧)

٤٨٨ — كتاب معاوية إلى قيس بن سعد

وخرج أمير المؤمنين علىّ إلى أهل الجمل ، وقيسٌ على مصر ، ورجع إلى الكوفة من البصرة وهو بمكانه ، فكان أثقلَ خَلْقِ الله عَلَى معاوية ، لقربه من الشأم ، مخافةَ أن يُقْبِل إليه علىّ فى أهل العراق ، ويُقْبِل إليه قيس بن سعد فى أهل مصر ، فيقع بينهما ، فكتب معاوية إلى قيس — وعلىّ يومئذ بالكوفة قبل أن يسير إلى صِفِّين — :

« من معاوية بن أبى سفيان إلى قيس بن سعد :

سلام عليك ، فإنى أحمَد إليك الله الذى لا إله إلا هو ، أما بعدُ : فإنكم إن كنتم نقِمتم على عثمان بن عفان رضى الله عنه فى أثَرَةٍ[4] رأيتموها ، أو ضَرْبَةِ سَوْطٍ ضَرَبَهَا ،

---

(١) وفى النجوم الزاهرة « وكتبه عبيد الله بن أبى طالب » وفى ابن أبى الحديد « وكتبه عبد الله ابن أبى رافع » . (٢) قرية بمديرية البحيرة مركز كوم حماده .

(٣) ووثب مسلمة بن مخلد الأنصارى من رهط قيس بن سعد ، فنعى عثمان ودعا إلى الطلب بدمه ، فأرسل إليه قيس : ويحك ! على تثب ؟ فوالله ما أحب أن لى ملك الشأم إلى مصر ، وأنى قتلتك ، فبعث إليه مسلمة إنى كاف عنك مادمت أنت والى مصر .

(٤) وفى النجوم الزاهرة « فى أمور » .

أو شَتِيمةرجل ، أو فى تسييره آخَر أو فى استعمالِه الفُتَىَّ من أهله[1] ، فإنكم قد علمتم — إن كنتم تعلمون — أنَّ دمَه لم يكن يَحِلّ لكم بذلك ، فقد رَكِبتم عظيماً من الأمر ، وجئتم شيئًا إدًّا[2] ، فتُبْ إلى الله عزّ وجل يا قيسُ بنَ سعد ، فإنك كنت فى المُجْلِبين[3] على عثمان بن عفان رضى الله عنه ، إن كانت التوبةُ مِن قَتْل المؤمن تُغنِى شيئًا .

فأمَّا صاحِبُك فإنا استَيْقَنّا أنه الذى أغْرَى به الناس ، وحَمَلَهم على قتله حتى قتلوه ، وأنه لم يَسْلَم من دمه عُظْم قومك ، فإن استطعتَ يا قيسُ أن تكون ممن يطلُب بدم عثمان فافعل ، تابِعْنا عَلَى أمرنا ، ولك سلطان العِراقَيْن إذا ظهرتُ ما بقيتُ ، ولِمَن

---

(١) الفتى جمع فتى ، وفى النجوم الزاهرة « أو شتمة شتمها ، أو فى سير سيره ، أو فى استعماله الفىء ، علمتم . . . الخ » وذكروا أنه اجتمع ناس من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم فكتبوا كتابا ذكروا فيه ما خالف فيه عثمان من سنة رسول الله وسنة صاحبيه ، وكان مما ضمنوه كتابهم هبته خمس أفريقية لمروان وفيه حق الله ورسوله وذوى القربى واليتامى والمساكين ، وما كان من إفشائه العمل والولايات فى أهله وبنى عمه من بنى أمية وهم أحداث لا صحبة لهم من الرسول ولا تجربة لهم بالأمور ، وتركه المهاجرين والأنصار لا يستعملهم على شىء ولا يستشيرهم ، ثم تعاهد القوم ليدفعن الكتاب فى يد عثمان،وكان ممن حضر الكتاب عمار بن ياسر والمقداد بن الأسود وكانوا عشرة فلما خرجوا به ليدفعوه إلى عثمان والكتاب فى يد عمار ، جعلوا يتسللون عنه حتى بقى وحده ، فمضى حتى جاء دارعثمان فاستأذن عليه فأذن له فدخل عليهوعنده مروان بن الحكم وأهله من بنى أمية فدفع إليه الكتاب فقرأه فقال : أنت كتبتهذا الكتاب؟ فقال : نعم ، قال: ومن كان معك؟ قالمعى نفر تفرقوا فرقا منك،قال : ومن هم ؟ قال : لاأخبرك بهم ، قال : فلم اجترأت على من بينهم ؟ فقال مروان ، إن هذا العبد الأسود (يعنى عمارا) قد جرأ الناس عليك ، وإنك إن قتلته نكلت به من وراءه فقال عثمان : اضربوه ، فضربوه وضربهعثمان معهم حتى فتقوا بطنه، فغشى عليه، فجروه حتى طرحوه على باب الدار فأمرت بهأم سلمة زوج النبي عليه الصلاةوالسلام فأدخل منزلها ـ انظر الإمامةوالسياسة ١ : ٢٦ ـ ومما طعنوا به على عثمان تسييره أباذر الغفارى إلى الربذة ـ وقدمنا لك خبره فى ص ٢٦٣ وقد فصل ابن أبىالحديد فىشرحه لنهج البلاغة الكلام فى المطاعن التى طعن بها على عثمان ، انظر م ١ : ص ٢٢٦ إلى ٢٤٥ ، وانظر أيضا العقد الفريد ج ٢ : ص ٢١٤ وتاريخ الطبرى ج ٥ : ١٠١ ومروج الذهب ج ١ : ص ٤٣٧ وغيره .

(٢) الإد : : الأمر الفظيع المنكر .

(٣) الجلبة بالتحريك : اختلاط الأصوات، وقد جلبوا كضرب ونصر وأجلبوا وجلبوا،وفى النجوم الزاهرة « فإنك ممن أعان على قتل عثمان » .

أحببت من أهل بيتك سلطانُ الحجاز ما دام لى سلطانٌ ، وسَلْنى غيرَ هذا مما تحبّ ، فإنك لاتسألنى شيئاً إلاأُوتيتَه ، واكتبْ إلىّ برأيك فيما كتبتُ به إليك ، والسلام ».

(تاريخ الطبرى ٥ : ٢٢٨ ، وشرح ابن أبى الحديد م ٢ : ص ٢٣ ، والنجوم الزاهرة ١ : ٩٩)

٤٨٩ — رد قيس بن سعد على معاوية

فلما جاءه كتاب معاوية أحبّ أن يُدافعه ولا يُبْدِىَ له أمره ، ولا يتعجَّل حربَه، فكتب إليه :

« أما بعدُ : فقد بلغنى كتابك ، وفهمْتُ ما ذكرتَ فيه من قتل عثمان رضى الله عنه ، وذلك أمرٌ لم أُقارِفْه ولم أُطِفْ به[1] ، وذكرت أن صاحبى هو الذى أغرَى الناس بعثمان ، ودَسَّهم إليه حتى قتلوه ، وهذا مالم أطَّلِعْ عليه ، وذكرتَ أن عُظْم عشيرتى لم تَسْلَمْ من دم عثمان ، فلعمرى إن أول الناس كان فيه قِياماً عشيرتى ، ولهم أُسْوَة[2] غيرهم ، وأما ما سألتنى من متابعتك على الطلب بدمه ، وما عرَضْتَ علىّ من الجزاء به فقد فهِمْتُه ، وهذا أمر لى فيه نظر وفكرة ، وليس هذا مما يُسْرَع إليه ، وأنا كافٌّ عنك ، ولن يأتيك مِن قِبَلى شىء تكرهُه حتى ترَى ، ونرَى إن شاء الله ، والمستخارُ الله عز وجل والسلام عليك ورحمة الله وبركاته » .

(تاريخ الطبرى ٥ : ٢٢٩ ، وشرح ابن أبى الحديد م ٢ : ص ٢٤ ، والنجوم الزاهرة ١ : ٩٩)

٤٩٠ — رد معاوية على قيس

فلما قرأ معاوية كتابه لم يَرَه إلا مُقَارِبا مُباعِدا ، ولم يأمن أن يكون له فى ذلك مُخادعا مُكايِدا ، فكتب إليه :

« أما بعدُ : فقد قرأتُ كتابك ، فلم أرك تدنو فأعُدَّك سِلْمًا ، ولم أرك تُباعِد

---

(١) قارف الذنب واقترفه : أتاه وفعله ، وأطاف به : ألم به وقاربه ، وفى النجوم الزاهرة « فأما ما ذكرت من أمر عثمان فذلك أمر لم أقاربه ولم أتنظف به » — وتنظف بالأمر : تلطخ به واتهم —

(٢) الأسوة بالكسر والضم : القدوة .

فأَعُدَّك حَرْبا ، أنت فيما هاهنا كحبل الجَرُور[1] وليس مثلى يصانَع بالخداع ، ولا يخدع بالمكايد ، ومعه عَدَدُ الرجال ، وبيده أعِنَّة الخيل[2] ، فإن قبلتَ الذى عرَضْتُ عليك فلك ماأعطيتك ، وإن أنت لم تفعل ملأْتُ مصر عليك خيلا ورَجلا ، والسلام عليك».

(تاريخ الطبرى ٥ : ٢٢٩ ، وشرح ابن أبى الحديد م ٢ ص ٢٤ ، والنجوم الزاهرة ١ : ١٠٠)

٤٩١ — رد قيس على معاوية

فلما قرأ قيس بن سعد كتاب معاوية ، ورأى أنه لايقبل منه المدافعة والمطاولة ، أظهر له ذاتَ نفسه ، فكتب إليه :

« بسم الله الرحمن الرحيم ، من قيس بن سعد إلى معاوية بن أبى سفيان :

أما بعد : فإن العَجَب من اغترارك بى ، وطَمَعِك فىّ ، واستسقاطِك[3] رأيى ، أتَسُومنى الخروج عن طاعة أولَى الناس بالإمْرة ، وأقربهم للخلافة ، وأقولِهم للحق ، وأهداهم سبيلا ، وأقربهم من رسول الله صلى الله عليه وسلم وسيلةً ، وأوفرهم فضيلة ، وتأمرنى بالدخول فى طاعتك طاعةِ أبْعَدِ الناس من هذا الأمر ، وأقولهم للزُّور ، وأضلِّهم سبيلا ، وأبعدهم من الله عز وجل ورسوله صلى الله عليه وسلم وسيلةً ، وَلَدِ ضالِّين مُضِلِّين ، طاغوتٍ[4] من طواغيتِ إبليس .

وأما قولك[5] إنك تملأ علىّ مصرَ خَيْلا ورَجْلا ، فوالله إن لم أشْغَلْك بنفسك ، حتى تكون نفسُك أهَمَّ إليك ، إنك لذو جَدٍّ[6] ، والسلام » .

فلما بلغ معاوية كتابُ قيس أيِسَ منه ، وثَقُل عليه مكانُه .

(تاريخ الطبرى ٥ : ٢٢٩ ، وشرح ابن أبى الحديد ٢ : ص ٢٤ ، والنجوم الزاهرة ١ : ١٠٠)

---

(١) الجرور البئر البعيدة القعر : يعنى بذلك بعد غوره ، وفى الطبرى « كحنك الجزور » وهو تحريف .

(٢) وفى النجوم الزاهرة « وليس مثلى من يخدع وبيده أعنة الخيل ومعه أعداد الرجال » وفى الطبرى « وليس مثلى يصانع المخادع ولا ينتزع للمكايد » .

(٣) استسقطه وتسقطه : عالجه على أن يسقط فيخطئ أو يكذب أو يبوح بما عنده .

(٤) الطاغوت : الشيطان ، وكل رأس ضلال ، وفى ابن أبى الحديد : « ولديك قوم ضالون مضلون طواغيت من طواغيت إبليس » . (٥) وفى النجوم الزاهرة « وأما قولك : معك أعنة الخيل وأعداد الرجال ، لتشتغلن بنفسك حتى العدم » . (٦) الجد : الحظ .

٤٩٢ — كتاب معاوية إلى قيس بن سعد

وكتب معاوية إلى قيس حين يئس منه :

« أما بعد ، فإنما أنت يهودى ابن يهودى[١] ، تُشْقِى نفسَك وتقتلها فيما ليس لك ، إن ظفر أحب الفريقين إليك عزَلك واستبدَلَ بك[٢] ، وإن ظفِرَ أبغَضُهما إليك قتَلك ونكَّل بك[٣] ، وقد كان أبوك وتّر قوسَه[٤] ، ورَمَى غَرَضه ، فأكثر الحَزَّ وأخطأ المَفْصِل[٥] ، حتى خذله قومه ، وأدركه يومُه ، ثم مات طَرِيداً غريبا بحَوْرَان[٦] ، والسلام » .

٤٩٣ — رد قيس بن سعد على معاوية

فكتب إليه قيس بن سعد :

« أما بعد ، فإنما أنت وثَنِىّ ابن وثنى[٧] دخلت فى الإسلام كُرْها ، وأقمت فيه فَرَقا ، وخرجت منه طَوعا ، ولم يجعل الله لك فيه نصيبًا ، لم يقدُم إيمانُك ، ولم يَحْدُث

---

(١) عنى معاوية بذلك أن يشبه قيسا وأباه باليهود ، وقد كانت اليهود تساكن الأنصار بالمدينة — انظر كتاب رسول الله صلى الله عليه وسلم بين المهاجرين والأنصار واليهود وقد قدمناه فى ص ٣١

(٢) وفى رواية ابن أبى الحديد « نبذك وغدرك » . (٣) وفى رواية الكامل «ومثل بك»

(٤) أوتر القوس : جعل لها وترا ، ووترها توتيرا : شد وترها ، ووترها يترها : علق عليها وترها ، وفى رواية الكامل « فوق سهمه » وفوق السهم جعل له فوقا بالضم وهو موضع الوتر من السهم .

(٥) عكس هذا فى المدح قولهم للرجل إذا أصاب الحجة : إنه يطبق المفصل ، وقولهم للبليغ من الرجال: قد طبق المفصل ، من طبق السيف بالتشديد إذا أصاب المفصل فأبان العضو .

(٦) حوران بالفتح : كورة واسعة من أعمال دمشق وذلك أنه لما توفى النبى صلى الله عليه وسلم طمع سعد بن عبادة فى الخلافة وجلس فى سقيفة بنى ساعدة ليبايع لنفسه ، وتمت البيعة لأبى بكر فبايعه الناس وعدلوا عن سعد ، فلم يبايع سعد أبا بكر ولا عمر ، وسار إلى الشام فأقام به بحوران إلى أن مات سنة ١٥ وقيل سنة ١٤ وقيل ١١ — انظر أسد الغابة ٢: ٢٨٣ — .

(٧) وثنى: أى عابد وثن وهو الصنم ، وهذا باعتبار ما كان ، وإنما أراد قيس أن يرد به على قوله معاوية له : إنما أنت يهودى ابن يهودى .

نفاقك ، ولم تزل حَرْبًا لله ولرسوله ، وحِزْبًا من أحزاب المشركين ، وعدوا لله ولنبيه وللمؤمنين من عباده ، وقد كان أبى وَتَّرَ قوسَه ، ورَمَى غَرَضَه ، فشغَب عليه[1] من لم يبلغ كَعْبَه ، ولم يَشُقَّ غُباره ، ونحن أنصار الدين الذى منه خرجت ، وأعداء الدين الذى فيه دخلت ، والسلام » .

فلما قرأ معاوية كتابه غاظه وأراد إجابته ، فقال له عمرو : مَهْلًا ، فإنك إن كاتبته أجابك بأشد من هذا ، وإن تركته دخل فيما دخل فيه الناس ، فأمسك عنه .

(مروج الذهب ٢ : ٦٢ ، والبيان والتبيين ٢ : ٤٣ ، والعقد الفريد ٢ : ٢٣٥ ، وعيون الأخبار م ٢ : ص ٢١٢ ، والكامل للمبرد ١ : ٢٥١ ، وشرح ابن أبى الحديد م ٤ : ص ١٥)

٤٩٤ — كتاب اختلقه معاوية على قيس بن سعد

ولما أيِس معاوية من قيس أن يتابعه على أمره ، شَقَّ عليه ذلك ، لما يعرف من حزمه وبأسه ، وأظهر للناس قِبَله إن قيس بن سعد قد تابعكم فادعوا الله له ، وقرأ عليهم كتابه الذى لان له فيه وقاربَه .

واختلق معاوية كتابا من قيس بن سعد ، فقرأه على أهل الشأم ، وهو :

« بسم الله الرحمن الرحيم : للأمير معاوية بن أبى سفيان من قيس بن سعد : سلام عليك ، فإنى أحمَدُ إليكم الله الذى لا إله إلا هو ، أما بعد : فَإِنَّ قَتْلَ عُثْمَانَ كَانَ حَدَثًا فِى الْإِسْلَامِ عَظِيماً ، وَقَدْ نَظَرْتُ لِنَفْسِى وَدِينِى فَلَمْ أَرَ يَسَعُنِى مظاهرَةُ[2] قَوْمٍ قتلوا إمامَهم مُسْلِماً مُحْرِماً[3] بَرًّا تقيًا ، فنستغفر الله عز وجل لذنوبنا ، ونسأله العِصْمة لدِيننا ، أَلَا وإنى قد ألقيتُ إليكم بالسَّلَمِ[4] ، وإنى أجبتك إلى قتال قَتَلة عثمان

---

(١) شغبهم وبهم وعليهم كمنع وفرح : هيج الشر عليهم ، ويقولون : طلب فلانا فما شق غباره أى لم يدركه ، وفى رواية الكامل « وقد كان أبى فوق سهمه ، ورمى غرضه ، فسعيت (والظاهر أنه فشغبت) عليه أنت وأبوك ونظراؤك ، فلم تشقوا غباره ، ولم تدركوا شأوه » .

(٢) ظاهره : عاونه . (٣) المحرم الذى له حرمة ، والذى يحرم علينا قتاله .

(٤) السلم : الاستسلام .

رضى الله عنه ، إمام الهدى المظلوم ، فعوِّلْ عَلَيَّ فيما أحببتَ من الأموال والرجال أُعَجِّلْهُ إليك إن شاء الله ، والسلام على الأمير ورحمة الله وبركاته » .

فشاع فى أهل الشأم أن قيس بن سعد قد بايع معاوية ، وسَرَّحَت عيون علىّ إليه بذلك ، فأعظمه وأكبره وتعجَّب له ، ودعا بنيه ودعا عبد الله بن جعفر ، فقال : ما رأيكم ؟ فقال عبد الله بن جعفر : يا أمير المؤمنين ، دع ما يَرِيبك إلى مالا يَريبك ، اعزل قيسًا عن مصر ، قال لهم علىّ : إنى والله ما أصدِّق بهذا على قيس » !

(تاريخ الطبرى ٥ : ٢٣٠ ، وشرح ابن أبى الحديد م ٢ : ص ٢٤ ، والنجوم الزاهرة ١ : ١٠١)

٤٩٥ — كتاب قيس بن سعد إلى علىّ

فإنهم لكذلك إذ جاء كتاب من قيس بن سعد ، فيه :

« بسم الله الرحمن الرحيم ، أما بعد : فإنى أُخْبِر أمير المؤمنين أكرَمَه الله أن قِبَلى رجالا معتزلين قد سألونى أن أكُفَّ عنهم ، وأنْ أدَعَهم على حالهم حتى يستقيم أمر الناس فنَرى ويَرَوا رأيَهم ، فقد رأيتُ أن أكفَّ عَنْهُمْ وألاَّ أتعجَّلَ حَرْبهم ، وأن أتألَّفهم فيما بين ذلك ، لعل الله عز وجل أن يُقبِلَ بقلوبهم ، ويُفرِّقهم عن ضلالتهم ، إن شاء الله ، والسلام » .

فقال عبد الله بن جعفر : يا أمير المؤمنين ، ما أخوَفَنى أن يكون هذا مُمالأةً لهم منه ، فمُرْه يا أمير المؤمنين بقتالهم .

(تاريخ الطبرى ٥ : ٢٣٠ ، وشرح ابن أبى الحديد م ٢ : ص ٢٤)

٤٩٦ — رد علىّ على قيس بن سعد

فكتب إليه علىّ :

« بسم الله الرحمن الرحيم : أما بعدُ : فسِرْ إلى القوم الذين ذكرتَ ، فإن دخلوا فيما دخل فيه المسلمون ، وإلَّا فناجِزْهُمْ إن شاء الله والسلام » .

(تاريخ الطبرى ٥ : ٢٣٠ ، وشرح ابن أبى الحديد م ٢ : ص ٢٤)

٤٩٧ — رد قيس بن سعد على عليّ

فلما أتى قيس بن سعد الكتاب ، لم يتمالكْ أن كتب إلى عليّ :

« أما بعدُ يا أمير المؤمنين : فقد عجِبتُ لأمرك ! أتأمرني بقتال قوم كافّين عنك ، مُفَرِّغيك لقتال عدوك ، لم يَمُدُّوا يداً للفتنة ، ولا أرْصَدُوا لها ؟ وإنك متى حاربتهم ساعدوا عليك عدوَّك ، فأطِعْنى يا أمير المؤمنين وا كْفُفْ عنهم ، فإن الرأى ترْ كُهم ، والسلام » .

فلما أتاه هذا الكتاب ، قال له عبد الله بن جعفر : يا أمير المؤمنين ابعث محمد ابن أبى بكر على مصر يَكفِك أمرها ، واعزِل قيساً ، فبعث عليّ محمد بن أبى بكر(١) على مصر ، وعَزَل عنها قيساً .

(تاريخ الطبرى ٥ : ٢٣١ ، وشرح ابن أبى الحديد م ٢ : ص٢٤)

٤٩٨ — عهد على إلى محمد بن أبى بكر

فلما قَدِم محمد بن أبى بكر مصرَ ، قرأ على أهلها عهدَه ، وفيه :

« بسم الله الرحمن الرحيم ، هذا ما عَهِدَ عبدُ الله عليّ أمير المؤمنين إلى محمد ابن أبى بكر ، حين وَلّاه مصرَ :

أمرَه بتَقْوَى الله والطاعةِ فى السِّرِّ والعَلانية ، وخوفِ الله عزّ وجل فى الْغيب والْمَشْهَد ، وباللِّين على المسلم ، وبالغِلْظة على الفاجر ، وبالعَدْل على أهل الذِّمَّة ، وبالإنصافِ للمظلوم ، وبالشدّة على الظالم ، وبالعفو عن الناس ، وبالإحسان ما استطاعَ

(١) أمه أسماء بنت عميس الخثعمية ، وهى أخت ميمونة زوج النبى صلى الله عليه وسلم ، وكانت من المهاجرات إلى أرض الحبشة وهى إذ ذاك تحت جعفر بن أبى طالب ، ثم هاجرت معه إلى المدينة ، فلما قتل جعفر يوم مؤتة تزوجها أبو بكر فولدت له محمد بن أبى بكر هذا عام حجة الوداع سنة ١٠ هـ ثم مات عنها فتزوجها على عليه السلام ، ونشأ محمد فى حجره وكان على يثنى عليه ويقرظه ويفضله ، وكان لمحمد رحمه الله عبادة واجتهاد — انظر شرح ابن أبى الحديد م ٤ : ص ٥٣ .

والله يَجْزِى المحسنين ، ويُعذِّب المجرمين ، وأمره أن يدعُوَ مَن قِبَلَه إلى الطاعة والجماعة فإن لهم فى ذلك من العاقبة وعظيم المثوبة مالا يَقْدُرُونَ قَدْرَه ، ولا يعرِفون كُنْهَهُ ، وَأَمَرَه أن يَجْبِيَ خَراجَ الأرض على ما كانت تُجْبَى عليه من قبلُ ، لا يَنتقِص منه ولا يَبتَدِع فيه ، ثم يَقسِمه بين أهله على ما كانوا يقسمون عليه من قبل ، وأن يُلِينَ لهم جَنَاحَه ، وأن يُوَاسِيَ بينهم فى مَجْلِسه وَوَجْهه ، وليكن القريبُ والبعيد عنده فى الحق سَواء ، وأَمَره أن يحكم بين الناس بالحقِّ ، وأن يقوم بالقِسْط ، ولا يتَّبِعِ الهَوَى . ولا يَخَفْ فى الله عزّ وجل لَوْمَةَ لائِمٍ ، فإن الله جَلَّ ثناؤه مع من اتّقاه وآثَرَ طاعتَه وأَمْرَه على ما سواه » .

وكتب عبد الله بن أبى رافع مَوْلَى رسول الله صلى الله عليه وسلم لغُرّة شهر رمضان سنة ٣٦ هـ » .

(تاريخ الطبرى ٥ : ٢٣١ ، وشرح ابن أبى الحديد م ٢: ص ٢٥)

صورة أخرى

وروى الشريف الرّضِىُّ فى نهج البلاغة قال :

ومن عهده عليه السلام إلى محمد بن أبى بكر حين قلّده مصرَ :

« فاخْفِضْ لهم جَناحَك ، وأَلِنْ لهم جانبَك، وابسُطْ لهم وَجْهَك ، وآسِ بينهم[1] فى اللَّحْظة والنَّظْرة ، حتى لا يطمَعَ العُظَماء فى حَيْفِك لهم[2] ، ولا ييأسَ الضُّعَفاء مِن عَدْلك عليهم ، فإن الله تعالى يُسائلكم مَعْشَرَ عباده عن الصغيرة من أعمالكم والكبيرة والظاهرةِ والمستورة ، فإن يُعذِّبْ فأنتم أظْلَمُ[3] ، وإن يَعْفُ فهو أكرمُ .

واعلموا عبادَ الله أنّ المتقين ذَهَبوا بعاجِلِ الدنيا وآجِلِ الآخرة ، فشارَكُوا أهلَ الدنيا فى دنياهم ، ولم يشارِكْهم أهلُ الدنيا فى آخرتهم ، سَكَنوا الدنيا بأفضلِ

---

(١) آس بينهم : أى سو بينهم ، وتقديره : اجعل بعضهم أسوة بعض .
(٢) أى فى جورك لأجلهم . (٣) أفعل هنا بمعنى الصفة ، أى فأنتم الظالمون .

ما سُكِنَت ، وأكلُوها بأفضلِ ما أُكِلَتْ ، فَحَظُوا من الدنيا بما حَظِىَ بهِ المُتْرَفُون ، وأخذوا منها ما أخَذَ الجَبَابِرةُ المتكبِّرون ، ثم انقلبوا عنها بالزاد المُبَلِّغ ، والمتجَر الرَّابح ، أصابوا لذة زُهْد الدنيا فى دنياهم ، وتيقّنوا أنهم جِيرانُ الله غدًا فى آخرتهم ، لاتُرَدُّ لهم دَعوة ، ولا ينقصُ لهم نصيبٌ من لذّة ، فاحذَروا عبادَ الله الموتَ وقُرْبه ، وأعِدُّوا له عُدّتَه ، فإنه يأتى بأمر عظيم ، وخَطْبٍ جليل : بخير لا يكون معه شَرٌّ أبداً ، أو شرٍّ لا يكون معه خيرٌ أبداً ، فَمَن أقربُ إلى الجنة مِن عاملِها[1] ؟ ومَن أقرَبُ إلى النار من عاملها ؟ وأنتم طُرَداء[2] الموت ، إن أقمتُم له أخذكم ، وإن فَرَرْتم منه أدركَكم ، وهو ألزَمُ لكم من ظِلِّكم ، الموتُ معقودٌ بنَواصِيكم ، والدنيا تُطْوَى مِن خلفكم ، فاحذَروا ناراً قَعْرُها بعيد ، وحَرُّها شديد ، وعذابُها جديد ، دار ليس فيها رحمة ، ولا تُسْمَع فيها دَعْوة ، ولا تُفَرَّج فيها كُرْبة ، وإن استطعتم أن يشتدَّ خوفُكم من الله ، وأن يَحْسُن ظنكم به ، فاجمعوا بينهما ، فإن العبد إنما يكون حُسْنُ ظنه بربِّه ، على قَدْر خوفه من ربه، وإنّ أحسنَ الناس ظنا بالله أشدُّهُمْ خوْفا لله .

واعلم يا محمدُ بنَ أبى بكر أنّى قد وليّتك أعظمَ أجنادى فى نفسى : أهلَ مصر ، فأنت مَحْقُوقٌ أن تخالِفَ على نفسك ، وأن تُنافِحَ[3] عن دينك ، ولو لم يكن لك إلا ساعةٌ من الدهر ، ولا تُسْخِطِ الله برِضا أحدٍ من خلقه ، فإن فى الله خَلَفًا من غيره ، وليس من الله خَلَفٌ فى غيره .

صَلِّ الصلاة لوقتها المُوَقَّتِ لها ، ولا تعجِّل وقتَها لِفَراغٍ ، ولا تؤخِّرْها عن وقتها لاشتغال ، واعلم أن كل شىء من عَمَلك تَبَعٌ لصلاتك .

ومنه : فإنه لاسَواء إمامُ الهُدَى ، وإمام الرَّدَى[4] ، ووليُّ النبى ، وعدوُّ النبى ،

---

(١) أى من العامل لها. (٢) طرداء: جمع طريد، أى يطردكم عن أوطانكم ويخرجكم منها .

(٣) أى حقيق وجدير وخليق ، ونافحه : كافحه ودافعه .

(٤) يعنى بإمام الهدى نفسه ، وبإمام الردى معاوية كما سيرد عليك بعد .

ولقد قال لى رسول الله صلى الله عليه وآله : «إنى لا أخاف على أمتى مؤمناً ولا مُشْركاً، أما المؤمن فيَمْنَعُه الله بإيمانه ، وأما المُشْرِكُ فَيَقْمَعُه الله بِشركه[1] ، ولكنى أخاف عليكم كلَّ منافِقِ الجَنَان ، عالِمِ اللسان ، يقول ما تعرِفون ، ويفعل ما تُنْكِرون » .

(نهج البلاغة ٢ : ١٩)

٤٩٩ — كتاب علىّ إلى محمد بن أبى بكر وأهل مصر[2]

وروى ابن أبى الحديد قال :

كتب على إلى محمد بن أبى بكر وأهل مصر :

« أما بعدُ ، فإنى أوصيكم بتقْوَى الله والْعَمَلِ بما أنتم عنه مسئولون ، فأنتم به رُهُنٌ ، وإليه صائرون ، فإن الله عزّ وجل قال : « كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ رَهِينَةٌ » وقال : «وَيُحَذِّرُكُمُ اللهُ نَفْسَهُ وَإِلَى اللهِ المَصِيرُ » وقال « فَوَرَبِّكَ لَنَسْأَلَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ عَمَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ » فاعلموا عبادَ الله أن الله سائِلُكُمْ عن الصغير من أعمالكم والكبير ، فإن يُعَذِّبْ فنحن الظالمون ، وإن يَغْفِرْ وَيَرْحَمْ فهو أرحم الراحمين ، واعلموا أن أقربَ ما يكون العبدُ إلى الرحمة والمغفرة حينما يعمل بطاعة الله ومناصحته فى التوبة ، فعليكم بتقوى الله عزّ وجلّ فإنها تَجْمَعُ من الخير مالا يَجْمَعُ غَيْرُهَا ، وَيُدْرَكُ بها من الخير مالا يُدْرَكُ بغيرها: خيرُ الدنيا وخيرُ الآخرة ، يقول الله سبحانه : « وَقِيلَ لِلَّذِينَ اتَّقَوْا مَاذَا أَنْزَلَ رَبُّكُمْ قَالُوا خَيْرًا ، لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا فى هٰذِهِ الدُّنْيَا حَسَنَةٌ ، وَلَدَارُ الآخِرَةِ خَيْرٌ وَلَنِعْمَ دَارُ المُتَّقِينَ » واعلموا عبادَ الله أن المؤمنين المتّقين قد ذهبوا بعاجِلِ الخير وآجِلِه ، شَرِكوا أهلَ الدنيا فى دنياهم ، ولم يشاركهم أهل الدنيا فى آخرتهم

---

(١) أى أن مظهر الشرك يخذله الله ويصرف قلوب الناس عن اتباعه لإظهاره كلمة الكفر ، فلا تطمئن قلوبهم إليه .

(٢) أرجح أن هذا الكتاب أصل الكتاب السابق له ، لاحتوائه على جل عباراته وزيادته عليه ، وقد آثرت أن أورد الكتابين جميعا كما رويا .

يقول الله عزّ وجل : « قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ اللهِ الَّتِي أَخْرَجَ لِعِبَادِهِ وَالطَّيِّبَاتِ مِنَ الرِّزْقِ قُلْ هِيَ لِلَّذِينَ آمَنُوا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا خَالِصَةً يَوْمَ الْقِيَامَةِ » سَكَنُوا الدنيا بأفضلِ ماسُكِنَتْ ، وأكلوها بأفضلِ ما أُكِلَتْ ، شاركوا أهل الدنيا فى دنياهم فأكلوا من أفضل ما يأكلون ، وشَربوا من أفضل ما يشربون ، ولبسوا من أفضل ما يَلْبَسُون ، وسكنوا من أفضل ما يسكنون ، أصابوا لذة أهل الدنيا مع أنهم غداً من جيران الله عزَّ وجل ، يتمنَّون عليه لا يَرُدُّ لهم دَعْوَةً ، ولا يَنْقُص لهم لَذَّة ، أمَا فى هذا ما يشتاقُ إليه مَن كان له عقلٌ ؟

واعلموا عبادَ الله أنكم إذا اتقيتم ربكم ، وحفِظتم نبيَّكم فى أهل بيته ، فقد عبدتموه بأفضلِ ما عُبِدَ ، وذكرتموه بأفضلِ ما ذُكِرَ ،وشكرتموه بأفضل ماشُكِر ، وأخذتم بأفضَلِ الصبر ، وجاهدتم بأفضل الجهاد، وإن كان غيركم أطولَ صلاةً منكم ، وأكثركم صياما ، إذ كنتم أتقى لله، وأنصحَ لأولياء الله من آل محمد صلى الله عليه وآله وأخشعَ ، واحذروا عبادَ الله الموتَ ونزولَه ، وخذوا له عُدَّتَه ، فإنه يدخل بأمر عظيم : خيرٍ لا يكون معه شرٌّ أبداً ، أو شر لا يكون معه خير أبداً ، وليس أحد من الناس يُفارِق رُوحُه جَسَدَه حتى يعلمَ إلى أىّ المنزلتين يصير : إلى الجنة أم إلى النار ؟ أعدوٌّ هو لله أم وَلِيٌّ له ؟ فإن كان وَليًّا فُتِحت له أبوابُ الجنة ، وشُرِع له طريقُها ، ونَظَر إلى ما أعَدَّ الله عز وجل لأوليائه فيها ، وفُرِّغ من كل شُغل ، ووُضِع عنه كل ثِقل[1] ، وإن كان عدوا لله فُتِحَت له أبوابُ النار ، وسُهِّل له طريقها ، ونَظَر إلى ما أعدَّ الله فيها لأهلها ، واستقبل كل مكروه ، وفارق كل سرور ، قال الله تعالى : « الَّذِينَ تَتَوَفَّاهُمُ الْمَلَائِكَةُ ظَالِمِي أَنْفُسِهِمْ فَأَلْقَوُا السَّلَمَ مَا كُنَّا نَعْمَلُ مِنْ سُوءٍ بَلَى إِنَّ اللهَ عَلِيمٌ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ فَادْخُلُوا أَبْوَابَ جَهَنَّمَ خَالِدِينَ فِيهَا فَلَبِئْسَ مَثْوَى الْمُتَكَبِّرِينَ ».

---

(١) الثقل : الحمل الثقيل .

واعلموا عبادَ الله أن الموت ليس منه فَوْتٌ ، فاحذروه وأعِدُّوا له عُدَّته ، فإنكم طُرَداء الموت ، إن أقمتم أخذَكم ، وإن هرَبتم أدرككم ، وهو أَلْزَمُ لكم من ظِلِّكم ، مَعقودٌ بنَوَاصيكم ، والدنيا تُطْوَى من خَلْفِكم، فأكْثِرُوا ذِكْرَ الموت عند ما تُنازِعُكم إليه أنفسُكم من الشَّهَوات ، فإنه كَفَى بالموت واعِظًا ، قال رسول الله صلى الله عليه وآله : « أَكْثِروا ذِكْرَ الموت فإنه هادِمُ اللّذات » ، واعلموا عبادَ الله أن ما بعد الموت أشَدُّ من الموت لمن لم يغفر الله له ويرْحمه ، واحذروا القبرَ وضَمَّتَه ، وضِيقَه وظُلْمَته ، فإنه الذى يتكلم كل يوم يقول : « أنا بيت التراب ، وأنا بيت الغُرْبة ، وأنا بيت الدُّودِ » والقبر رَوْضة من رِياض الجنة ، أو حُفْرة من حُفَر النّارِ ، وأن المسلم إذا مات قالت له الأرض : مرْحبا وأهلاً ، قد كنتَ ممن أُحِبُّ أن تمشِيَ على ظهرى ، فإذا ولِيتُك فستعلمُ كيف صُنْعى بك ، فتتّسِع له مَدَّ بَصَرِه[(١)] ، وإذا دُفن الكافر . قالت له الأرض : لا مَرْحبًا ولا أهلاً ، قد كنتَ ممن أُبْغِضُ أن تمشىَ على ظهرى ، فإذا وَلِيتُك فستعلم كيف صُنْعى بك ، فتنضمُّ عليه حتى تلتقِيَ أضلاعُه ، واعلموا أن المعيشة الضَّنْكَ التى قال سبحانه : « فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنْكًا[(٢)] » هى عذاب القبر ، وأنه يُسَلَّط على الكافر فى قبره حَيَّاتٌ عظام تَنْهَشُ لحمه حتى يُبْعَث ، لو أن تِنِّينًا[(٣)] منها نفخَ الأرضَ ما أنبَتَ الزرعُ أبداً .

واعلموا عبادَ الله أن أنفسكم وأجسادكم الرقيقة الناعمة التى يكفيها اليسيرُ من العقاب ضعيفةٌ عن هذا ، فإن استطعتم أن ترْحموا أنفسكم وأجسادكم مما لا طاقةَ لكم به ، ولا صَبْرَ لكم عليه ، فتعملوا بما أحَبَّ الله سبحانه ، وتتركوا ما كَرِهَ فافعلوا ، ولا حَوْلَ ولا قوّةَ إلا بالله .

واعلموا عبادَ الله أن ما بعد القبر أشَدُّ من القبر ، يوم يَشيب فيه الصغير ، ويَسْكَرُ

---

(١) أى قدر مد بصره . (٢) الضنك : الضيق فى كل شىء ، المذكر والأنثى .
(٣) أى حية عظيمة .

فيه الكبير ، وتَذْهَلُ كُلُّ مُرْضِعَةٍ عَمَّا أَرْضعَتْ ، واحذروا يوماً عَبُوساً قَمْطَرِيرا[١]، كان شَرُّه مُسْتَطِيرا[٢] ، أمَا إن شرَّ ذلك اليوم وفَزَعَه استطار حتى فَزِعَتْ منه الملائكة الذين ليست لهم ذنوب ، والسَّبْعُ الشِّداد ، والجبالُ الأوتادُ ، والأَرَضُون المِهادُ[٣]، وانْشَقَّتِ السَّمَاءُ فَهِيَ يَوْمَئِذٍ وَاهِيَةٌ ، وتغيَّرت ، فكانت وردَةً كالدِّهان[٤] وكانت الجبال سَرَاباً بعد ما كانت صُمًّا صِلاَباً ، يقول اللهُ سبحانه : « وَنُفِخَ فِي الصُّورِ فَصَعِقَ مَنْ فِي السَّمٰوَاتِ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ إِلاَّ مَنْ شَاءَ اللهُ » فكيف بمن يَعْصِيه بالسَّمع والبَصَر واللسان ، واليد ، والرجل ، والفَرْج ، والبطن ، إن لم يَغفِرِ الله ويَرْحَمْ؟

واعلموا عِبَادَ الله أنَّ ما بعد ذلك اليوم أشَدُّ وأَدْهَى : نارٌ قَعْرُها بعيد ، وحَرُّها شديد ، وعذابُها جَديد ، ومَقَامِعُها[٥] حديد ، وشَرابُها صَديد ، لايفتُرُ عذابُها ، ولا يموت ساكِنُها ، دار ليست لله سبحانه فيها رحمةٌ ، ولا يَسْمَع فيها دَعوةً ، ومع هذا رحمةُ الله التي وَسِعَتْ كُلَّ شيء لا تعجز عن العباد ، وجَنَّةٌ عَرْضُهَا كَعَرْض السماء والأرض خير لا يكون معه شرٌّ أبداً ، وشهوة لا تنفَدُ أبدا ، ولذّة لا تَفْنَى أبدا ، ومَجْمَعٌ لا يتفرّق أبدا ، قوم قد جاوروا الرحمن ، وقام بين أيديهم الغِلْمان ، بصِحَافٍ مِن ذَهَب فيها الفاكهةُ والرَّيْحان ، وأن أهل الجنة يَزورون الجَبَّارَ سبحانَه في كل جُمُعة فيكون أقْرَبُهم منه على منابِرَ من نور ، والذين يلُونهم على مَنَابِرَ مِنْ ياقوت ، والذين يلونهم على منابِرَ من مِسْك ، فبَيْناهم كذلك ينظرون نور الله جَلَّ جَلالُهُ ، وينظر اللهُ في وجوههم ، إذ أقبلَتْ سحابة تَغْشَاهم فتُمطِر عليهم من النِّعْمة واللَّذَّة والسرور والبهجة مالا يَعلَمُه إلا الله سبحانَه ، ومع هذا ماهو أفضلُ منه : رِضوانُ الله الأكبر ، أمَا إنّا لو لم نُخَوَّف

---

(١) أى شديد العبوس . (٢) أى منتشراً

(٣) يشير الى قوله تعالى « أَلَمْ نَجْعَلِ الْأَرْضَ مِهَاداً وَالْجِبَالَ أَوْتَاداً » وإلى قوله « وَبَنَيْنَا فَوْقَكُمْ سَبْعاً شِدَاداً » .

(٤) أى حمراء كالوردة مذابة كالدهن ، وهو اسم لما يدهن به وجمعه أدهان ودهان ، والدهان أيضا : الأديم الأحمر . (٥) المقامع : جمع مقمعة كمكنسة ، وهى عمود من حديد .

إلا ببعض ما خَوَّفنا به لـكنا مَحْقُوقين أن يشتدّ خوفُنا مما لا طاقَة لنا به ، ولا صَبْر لقُوَّتنا عليه ، وأن يشتدّ شوقنا إلى ما لا غِنى لنا عنه ، ولا بُدَّ لنا منه ، فإن استطعتم عباد الله أن يشتدّ خوفكم من ربكم فافعلوا ، فإن العبد إنما تـكون طاعته على قدر خوفه ، وإنّ أحْسَنَ الناس لله طاعةً أشدُّهم له خوفا .

وانظر يا محمدُ : صَلاتك كيف تصلِّيها ، فإنما أنت إمام ينبغى لك أن تُتِمَّها ، وأن تخففها بالأركان ، وأن تصلِّيها لوقتها ، فإنه ليس من إمام يُصَلِّى بقوم فيـكون فى صلاته وصَلاَتِهم نَقْصٌ ، إلا كان إثْمُ ذلك عليه ، ولا يَنْقُص من صلاتهم شىء .

واعلم أن كل شىء من عملك يَتْبَع صلاتك ، فمن ضيَّع الصلاة فهو لغيرها أشـــدُّ تضييعاً ، وَوُضُوءُك من تمام الصلاة فَأْتِ به على وجهه ، فالوضوء نصف الإيمان ، أسْأَلُ الله الذى يَرَى ولا يُرَى ، وهو بالمنظر الأعلى ، أن يجعلَنا وإياك ممن يحبُّـه ويرضاه ، حتى يَبْعَثنا على شـكره وذِكْره وحُسْنِ عبادته وأداء حقه ، وعلى كل شىء اختاره لنا فى دُنيانا ودِيننا ، وأُولانا وأُخرانا ، وأن يجعلَنا من المتقين الذين لا خَوْفٌ عليهم وَلاَ هُمْ يَحْزَنُونَ .

فإن استطعتم يـأهْلَ مصر أن تَصْدُقَ أقوالـكم وأفعالـكم ، وأن يتوافق سِرُّكم وعَلاَنِيتـكم ، ولا تخالف ألسنتكمُ قلوبكم فافعلوا ، رَحِمَـكم الله وعَصَمَنا وإياكم ، وسَلَك بنا وبكم المَحَجَّةَ[1] البيضاء ، وإياكم ودعوةَ الـكَذَّاب ابن هند ، وتأمَّلوا واعلموا أنه لا سواء، إمامُ الهُدَى وإمام الرَّدَى ، ووَصِيُّ النبى ، وعدوُّ النبى ، جَعَلَنا الله وإياكم ممن يُحِبّ ويرضى ، ولقد سمعت رسول الله صلى الله عليه وآله يقول : « إنى لا أخاف على أمتى مؤمناً ولا مشركًا ، أمَّا المؤمن فَيَمْنَعُهُ الله بإيمانه ، وأما المشرك فيُخْزيه اللهُ بشركه ، ولـكنى أخاف عليكم كل منافق اللسان يقولُ ما تَعرِفون ، ويفعل ما تنـكرون » .

---

(١) المحجة : جادة الطريق .

واعلم يا محمدُ أن أفضل الفِقْهِ الوَرَعُ فى دين الله ، والعمل بطاعته ، فعليك بتقوى الله فى سِرِّ أمرك وعلانيتك ، وأُوصيك بسبع هُنَّ جوامِعُ الإسلام : اخْشَ الله ولا تَخْشَ الناس فى الله ، وخَيْرُ القول ما صَدَّقه العملُ ، ولا تقْضِ فى أمر واحد بقضاءيْن مختلفين فيتناقضَ أمرُك ، وتَزيغَ عن الحق ، وأحِبَّ لعامّة رعيتك ما تُحبُّه لنفسك ، واكْرَهْ لهم ما تَكرَه لنفسك ، وأَصْلِح أحوال رعيتك ، وخُضِ الغَمَرَاتِ إلى الحق ، ولا تخفْ لَوْمَةَ لائم ، وانْصَحْ لمن استشارك ، واجعل نفسك أُسْوَةَ لقريب المسلمين وبعيدهم ، جعل الله خُلَّتنا[1] ووُدَّنا خُلَّةَ المتقين وَوُدَّ المُخْلِصين ، وَجَمعَ بيننا وبينكم فى دار الرِّضوان إخوَانا على سُرُرٍ متقابلين ، إن شاء الله » .

(شرح ابن أبى الحديد م ٢ : ص ٢٦)

٥٠٠ — كتاب علىّ إلى أهل مصر

وروى ابن أبى الحديد قال :

كتب علىّ عليه السلام إلى أهل مصر لما بعث محمد بن أبى بكر إليهم كتابا يخاطبهم فيه ويخاطب محمداً أيضاً فيه :

« أما بعدُ : فإنى أُوصيكم بتقْوَى الله فى سِرِّ أمركم وعَلاَنيتِه ، وعلى أى حال كنتم عليها ، ولْيَعْلَمِ المرء منكم أن الدنيا دارُ بَلاء وفَناء ، والآخرة دار جَزَاء وبَقاء ، فمن استطاع أن يُؤْثِر ما يَبْقَى على ما يَفْنَى فلْيَفْعَل ، فإن الآخرة تَبْقَى والدنيا تَفْنَى ، رَزَقَنا اللهُ وإياكم بَصَرًا لِمَا بَصَّرَنا وفَهما لما فَهَّمنا ، حتى لا نُقَصِّر عما أمرَنا ، ولا نتعدّى إلى ما نهانا

واعلم يا محمدُ : أنك وإن كنت محتاجاً إلى نصيبك من الدنيا ، إلا أنك إلى نصيبك من الآخرة أحْوَجُ ، فإنْ عَرَضَ لك أمران : أحدهما للآخرة ، والآخرُ للدنيا ، فابْدَأْ

(١) الخلة : الصداقة المختصة لاخلل فيها .

بأمر الآخرة ، ولتَعْظُمْ رغبتك فى الخير ، ولتَحْسُنْ فيه نِيَّتُك ، فإن الله عزّ وجل يُعْطِى العبدَ عَلَى قدر نيته ، وإذا أحبَّ الخيرَ وأهلَه ولم يعمَلْه كان إن شـــاء اللهُ كمن عَمِلَه ، فإن رسول الله صلى الله عليه وآله قال حين رَجَع من تَبُوك : « إن بالمدينة لأقواما : ما سِرْتم من مَسِير ، ولا هَبَطْتُم من وادٍ إلا كانوا معكم ، ما حَبَسَهم إلا المرضُ ، يقول : كانت لهم نيةٌ » .

ثم اعلم يا محمدُ أنِّى قد ولَّيتُك أعظمَ أجنادى : أهلَ مصر ، ووليَّتك ما ولّيتُكَ من أمر الناس ، فأنت محقوقٌ أن تخاف فيه على نفسك ، وتَحْذَرَ فيـــه على دينك ، ولو كان ساعةً من نهار ، فإن استطعتَ أن لاَ تُسْخِطَ ربَّك لِرِضا أحد من خَلْقه فافعل ، فإن فى اللهِ خَلَفًا من غيره ، وليس فى شيء خَلَفٌ منه ، فَاشْتَدَّ على الظالم ، ولِنْ لأهل الخير ، وقرِّبْهم إليك ، واجعلهم بِطانَتَك وإخوانك ، والسلام » .

(شرح ابن أبى الحديد م ٢ : ص ٢٦)

٥٠١ — كتاب محمد بن أبى بكر إلى معاوية

وروى أن محمد بن أبى بكر لما وصل إلى مصر كتب إلى معاوية كتابا فيه :

« من محمد بن أبى بكر إلى الغاوِى(١) معاوية بن صَخْر : سلام على أهل طاعة الله ممن هو سِلْم لأهل ولاية الله ، أما بعد ، فإن الله بجلاله وعَظَمته وسُلطانه وقدرته ، خَلَق خَلْقَه بلا عَبَث منه . ولا ضعف فى قوته ، ولا حاجَةَ به إلى خَلْقهم ، لكنه خَلَقهم عَبيداً وجعل منهم غَوِيًّا ورشيداً ، وشَقِيًّا وسعيداً ، ثم اختار على عِلْمٍ فاصطفى وانتخب منهم محمداً صلى الله عليه وسلم ، فاختصه برسالته ، واختاره لوَحْيه ، وأْتَمنه على أمْره ، وبعثه رسولا ومُبَشِّرًا ونذيراً مصدِّقًا لما بين يَدَيْه من الكتب ، ودليلا على الشرائع ، فدعا إلى سبيل أمره بالحكمة والموعظة الحسنة فكان أوَّلَ من أجاب وأنابَ وآمَنَ وصدَّق

---

(١) أى الضال ، وصف من الغواية بالفتح .

وأسلم وسلّم ، أخوه وابن عمه علي بن أبي طالب صدَّقه بالغيب المكتوم ، وآثره على كل حميم ، ووقاه بنفسه كلَّ هول ، وواساه بنفسه في كل خوف ، وحارب حربه ، وسالمَ سِلمَه ، فلم يبرح مُبتَذِلاً لنفسه في ساعات الأَزْل(١) ومقامات الرَّوع ، حتى برَّز سابقاً لا نظيرَ له في جهاده ، ولا مُقارِبَ له في فعله .

وقد رأيتُك تُساميه ، وأنت أنت ، وهو هو السابق المبرِّز في كل خير ، أول الناس إسلاما ، وأصدقُ الناس نيةً ، وأفضل الناس ذُرِّيَّة ، وخير الناس زوجةً ، وأفضل الناس ابنَ عم ، أخوه الشاري(٢) لنفسه يوم مُؤْتة ، وعمُّه سيِّد الشُّهداء يوم أُحُد ، وأبوه الذابُّ عن رسول الله صلى الله عليه وسلم وعن حَوْزته ، وأنت اللعين ابن اللعين(٣) ، لم تزَلْ أنت وأبوك تبغيان لدين الله الغوائلَ(٤) ، وتجهَدان في إطفاء نور الله ، تجمَعان على ذلك الجموعَ ، وتبذُلان فيه المال ، وتؤلِّبان عليه القبائل ، على هذا مات أبوك وعلى ذلك خَلَفتَه ، والشاهد عليك بذلك من تُدْنِي ويلجأ إليك من بقية الأحزاب ورؤساء النفاق والشقاق لرسول الله صلى الله عليه وسلم ، والشاهد لعلي مع فضله المُبين وسابقته القديمة أنصارُه الذين معه ، الذين ذكرهم الله تعالى في القرآن ففضلهم وأثنى عليهم من المهاجرين والأنصار ، فهم معه كتائب وعَصائب يجالدون حوله بأسيافهم ، ويُهَرِيقون دماءهم دونه ، يَرَون الحق في اتباعه ، والشقاء(٥) في خِلافه ،

---

(١) الأزل : الضيق والشدة ، والروع : الفزع . وفي مروج الذهب « في ساعات الليل والنهار والخوف والجوع والخضوع ، حتى برز سابقاً لانظير له فيمن اتبعه » وبرز : فاق على أصحابه .

(٢) شراه يشريه : اشتراه وباعه ضد . والمراد هنا الثاني ، قال تعالى : « وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَشْرِي نَفْسَهُ ابْتِغَاءَ مَرْضَاةِ اللهِ » أي يبيعها ، وقال : « وَشَرَوْهُ بِثَمَنٍ بَخْسٍ » أي باعوه ، وأخوه : هو جعفر بن أبي طالب ، قاتل يوم مؤتة حتى استشهد ـ انظر ص ٣٩٥ .

(٣) جاء في مقال خاطب به الحسن بن علي عليه السلام معاوية . « وأنشدك الله يامعاوية: أتذكر يوماجاء أبوك على جمل أحمر ، وأنت تسوقه ، وأخوك عتبةهذا يقوده ، فرآكم رسول الله صلى الله عليه وآله فقال اللهم العن الراكب والقائد والسائق ؟ » انظر شرح ابن أبي الحديد م ٢ : ص ١٠٢ .

(٤) الغوائل : الدواهي ، وفي ابن أبي الحديد « وتخالفان في ذلك القبائل » .

(٥) وفيه « يرون الفضل في اتباعه ، والشقاق والعصيان في خلافه » .

فكيف يالكَ الوَيلُ تعدِلُ[1] نفسَك بعليّ وهو وارث رسول الله صلى الله عليه وسلم وآله ووَصِيُّه وأبو ولده ، وأول الناس له اتّباعا ، وأقربهم به عهداً ، يُخبره بسرِّه ، ويُطْلِعه[2] على أمره ، وأنت عدوه وابن عدوه .

فتمتَّعْ فى دنياك ما استعطتَ بباطلك ، وَلْيُمْدِدْك بن العاص فى غَوايتك ، فكأنّ أجَلَك قد انقضى ، وكيْدَك قد وهَى ، وسوف يتبيَّن لك لمن تكون العاقبةُ العليا ! واعلم أنك إنما تكايد رَبَّك الذى قد أمِنْتَ كيده ، وأيِسْتَ من رَوْحِهِ ، وهو لك بالمِرْصاد ، وأنت منه فى غرور ، والسلام على من اتبع الهدى .

(مروج الذهب ٢ : ٥٩ ، وشرح ابن أبى الحديد م ١ : ص ٢٨٣)

٥٠٢ — رد معاوية على محمد بن أبى بكر

فكتب إليه معاوية :

« من معاوية بن صَخْر إلى الزّارى[3] على أبيه محمد بن أبى بكر : سلام على أهل طاعة الله .

أما بعد : فقد أتانى كتابك تذكُرُ فيه ما الله أهْلُه فى عَظَمته وقدرته وسلطانه ، وما أصْفَى[4] به رسولَ الله صلى الله عليه وسلم وعلى آلِهِ مع كلام كثير ألّفْتَه ووضعتَه ، لِرَأْيك فيه تضعيفٌ ، ولأبيك فيه تعنيفٌ ، ذكرت فيه فضل ابن أبى طالب وقديمَ سوابقه وقرابته من رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ونصرته له ، ومُواساته إياه فى كل هَوْل وخوف ، فكان احتجاجُك علىّ وفخرُك بفضل غيرك لا بفضلك ، فأَحْمَدُ ربًّا صَرَفَ هذا الفضلَ عنكَ وجعله لغيرك ، فقد كنا وأبوك معنا فى حياة نبيّنا نعرف حَقّ ابن أبى طالب لازمًا لنا ، وفضله مبرِّزاً علينا ، فلما اختار الله لنبيه عليه

(١) أى تسوى . (٢) وفى ابن أبى الحديد « ويشركه فى أمره » .
(٣) زرى عليه : عابه . (٤) أصفاه بكذا : آثره .

الصلاة والسلام ما عِنْده ، وأَتَمَّ له ما وَعَده ، وأظهر دعوته ، وأفلج[١] حُجَّته ، وقبضَه الله إليه صلوات الله عليه ، كان أبوك وفارُوقُه أولَ من ابتزّه حقّه[٢] ، وخالفه على أمره ، على ذلك اتّفقا واتّسَقا ، ثم إنهما دعوَاه إلى بيعتهما فأبطأ عنهما وتلكّأ عليهما ، فهمّا به الهمُومَ ، وأرادا به العظيمَ ، ثم إنه بايعهما وسَلَّم لهما ، وأقاما لايُشْرِكانه فى أمرهما[٣] ، ولا يُطْلِعانه على سِرهما ، حتى قبضَهما الله ، وانقضى أمرهما ، ثم قام ثالثهما عثمان فهدى بهديهما ، وسار بسيرتهما ، فعِبْته أنت وصاحبك حتى طَمِع فيه الأقاصِى ، من أهل المعاصِى ، فطلبتما له الغوائلَ ، حتى بلغتما فيه مُنا كما .

فخذ حِذْرَك يابن أبى بكر ، فسترى وَبَالَ أمرك ، وقِسْ شِبْرك بفترك تَقْصُر عن أن تُوازِىَ أو تُساوِىَ مَن يَزِنُ الجبال حِلْمُه ، ولا تَلِين عَلَى قَسْرٍ[٤] قناته ، ولا يُدْرِك ذو مَدًى[٥] أناته ، أبوك مهّد له مهاده ، وبنى مُلكه وشادَه ، فإن يك مانحن فيه صَوابا فأبوك أوّله ، وإن يكن جَوْرًا فأبوك أُسُّه[٦] ، ونحن شركاؤه ، فبهديه أخذنا وبفعله اقتدينا ، ولولا ما فعل أبوك من قبلُ ما خالَفْنا ابن أبى طالب ، ولَسَلَّمْنا إليه ، ولكنا رأينا أباك فعل ذلك به من قبلنا ، فاحْتذينا مِثاله ، واقتدينا بفعاله ، فعِبْ أباك بما بدا لك أو دَعْ ، والسلام على من أناب ، ورجع من غَوايته وتاب » .

(مروج الذهب ٢ : ٦٠ ، وشرح ابن أبى الحديد ١ : ص ٢٨٤)

---

(١) أى نصرها . (٢) أى سلبه إياه .

(٣) أقول: وكيف يتفق هذا مع ماعرف من أن عمر رضى الله عنه كان يستشيره فى مهام أموره، فيشير عليه بالرأى السديد والفكر الناضج ، من ذلك استشارته إياه حين أزمع أن يتوجه لغزو الفرس بنفسه وأشار عليه الإمام برأى حكيم حصيف — انظر نهج البلاغة ١ : ١٥٥ — .

(٤) القسر : القهر والإكراه . (٥) وفى مروج الذهب « ذو مقال » .

(٦) وفيه : « فإن يك مانحن فيه صوابا فأبوك استبد به ونحن شركاؤه » .

٥٠٣ — كتاب عليّ إلى الأشتر

وفَسَدت مصر على محمد بن أبي بكر، وبلغ عليًا وثوبُ أهلها عليه(١)، وكان عليّ حين انصرف من صفين رد مالك بن الحارث الأَشْتَر على عمله بالجزيرة، فلما انقضى أمر الحكومة كتب عليّ إلى الأشتر — وهو يومئذ بنَصِيبِين(٢):

« السلام عليك يا مالك، أما بعد: فإنك ممن أَسْتَظْهِر به على إقامة الدين، وأَقْمَعُ به نَخْوة(٣) الأثيم، وأسُدُّ به الثَّغْر المَخُوف، وكنت قد وليت محمد بن أبي بكر مصرَ، فخرجت عليه بها خوارجُ، وهو غلام حَدَثُ السِّن غِرّ ليس بذى تَجْرِبة الحرب، ولا بمجرِّب للأشياء، فاقْدَم عليّ لِننظرَ فيما ينبغى، واستخلِفْ عَلَى عملك أهلَ الثِّقة والنصيحة من أصحابك، والسلام ».

فأقبل إليه، فقال له: ليس لها غيرك، وولاه إياه، فخرج الأشتر إلى مصر، ولكنه مات بالعريش مسموما(٤).

(تاريخ الطبرى ٦ : ٥٤، شرح ابن أبي الحديد م ٢ : ص ٢٩، والنجوم الزاهرة ١ : ١٠٣)

---

(١) وذلك أن محمد بن أبي بكر لم يلبث بعد توليه مصر شهراً كاملا، حتى بعث إلى أولئك القوم المعتزلين بخربتا — الذين كان قيس وادعهم — فقال: ياهؤلاء، إما أن تدخلوا فى طاعتنا، وإما أن تخرجوا من بلادنا، فبعثوا إليه: إنا لانفعل، دعنا حتى ننظر إلام تصير إليه أمورنا؟ ولا تعجل بحربنا، فأبى عليهم فامتنعوا منه وأخذوا حذرهم، فكانت وقعة صفين، وهم لمحمد هائبون، فلما أتاهم خبر معاوية وأهل الشأم العلى، وأن عليا وأهل العراق قد رجعوا عن معاوية وأهل الشأم، وصار أمرهم إلى الحكومة، اجترءوا على محمد بن أبي بكر، وأظهروا له المبارزة، فبعث إليهم الحارث بن جهان الجعفى فقاتلهم فقتلوه، ثم بعث إليهم رجلا من كلب يدعى ابن مضاهم فقتلوه، ثم خرج معاوية بن حديج الكندى فدعا إلى الطلب بدم عثمان، فأجابه ناس آخرون، وفسدت مصر على ابن أبي بكر — انظر تاريخ الطبرى ٥ : ٢٣٢ و ٦ : ٥٤ — .

(٢) مدينة من بلاد الجزيرة.

(٣) النخوة: الكبر والعظمة، وقمعه كمنعه: قهره وذلله والثغر: موضع المخافة من فروج البلدان.

(٤) وذلك أن الأشتر لما تهيأ للخروج إلى مصر، أتت معاوية عيونه، فأخبروه الخبر، فعظم ذلك عليه، وكان قد طمع فى مصر، وعلم أن الأشتر إن قدمها كان أشد عليه من محمد بن أبي بكر، وسار الأشتر بجيش إلى مصر، فبعث معاوية إلى دهقان بالعريش، فقال له: إن الأشتر قد ولى مصر، فإن أنت كفيتنيه لم آخذ منك خراجا ما بقيت، فاحتل له بما قدرت عليه، فلما نزل الأشتر العريش، سأل الدهقان:

٥٠٤ — كتاب على إلى أهل مصر

عن مَوْلًى للأشتر قال : لما هلك الأشتر وجدنا فى ثَقَلِه[1] رسالة علىّ إلى أهل مصر :

« بسم الله الرحمن الرحيم ، من عبد الله علىّ أمير المؤمنين إلى أمة المسلمين الذين غَضِبوا لله حين عُصِىَ فى أرضه[2] وذُهِبَ بحقّه ، فضرب الجَوْرُ سُرادِقَه على البَرِّ والفاجر ، والمُقيم والظاعِن ، فلا معروف يُسْتَرَاح إليه ، ولا مُنْكَرَ يُتَنَاهَى عنه .

سلام عليكم فإنى أحمَد إليكم الله الذى لا إله إلا هو ، أما بعد : فقد بعثت إليكم عبداً من عباد الله ، لا ينام أيام الخوف ، ولا يَنْكُلُ عن الأعداء ساعات الرَّوْع حِذارِ الدَّوائر[3] ، أشدّ على الفُجّار ، من حريق النار ، وأبعد الناس من دَنَس أو عار ، وهو مالك بن الحارث أخو مَذْحِج ، فاسمعوا له وأطيعوا أمره فيما طَابَقَ الحقَّ ، فإنه سيف من سيوف الله ، لا كَلِيل الظُّبَة[4] ولا نابِى الضَّريبة ، حَكِيمٌ فى السِّلم ، رَزِينٌ فى الحرْبِ ، ذُو رَأْيٍ أصِيلٍ ، وَصبرٍ جَمِيلٍ ، فإنْ أمَرَكم أن تَنفِرُوا فانفِرُوا ، وإن أمَرَكم أن تُقيموا فأقيموا ، فإنه لا يُقْدِم ، ولا يُحْجِم ، ولا يُؤَخِّر ، ولا يُقَدِّم إلا عن أمرى ،

= أى الطعام والشراب أحب إليه ؟ فقيل : العسل ، فاستقبله ، وقال : أنا رجل من أهل الخراج ، وأتاه بعلف وطعام ، حتى إذا طعم أتاه بشربة من عسل قد جعل فيها سما ، فسقاه إياها ، فلما استقرت فى جوفه حتى تلف ، وبلغ ذلك معاوية فقال : إن لله جنوداً منها العسل . انظر تاريخ الطبرى ٦ : ٥٤ ومروج الذهب ٢ : ٢٩ — . (١) الثقل : متاع المسافر .

(٢) قال ابن أبى الحديد فى شرحه : هذا الفصل يشكل على تأويله ، لأن أهل مصر هم الذين قتلوا عثمان ، وإذا شهد أمير المؤمنين عليه السلام أنهم غضبوا لله حين عصى فى الأرض فهذه شهادة قاطعة على عثمان بالعصيان وإتيان المنكر ، ويمكن أن يقال — وإن كان متعسفاً — إن الله تعالى عصى فى الأرض لا من عثمان ، بل من ولاته وأمرائه وأهله ، وذهب بينهم بحق الله ، وضرب الجور سرادقه بولايتهم وأمرهم على البر والفاجر والمقيم والظاعن ، فشاع المنكر وفقد المعروف الخ » .

(٣) نكل عنه كضرب ونصر وعلم نكولا : نكص وجبن ، والروع : الفزع ، والدوائر : جمع دائرة وهى الهزيمة . (٤) الظبة : حد السيف ، والضريبة : ما يضرب بالسيف ، ونبا السيف عن الضريبة : كل ولم يقطع ، والمعنى ولا ناب عن الضريبة .

وقد آثرتكم به على نفسى لنصيحته لكم ، وشدة شكيمته[1] على عدوكم ، عصمكم الله بالهدى ، وثبتكم على اليقين ، والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته » .

(تاريخ الطبرى ٦ : ٥٥ ،ونهج البلاغة ٢ : ٤٥ ، وشرح ابن أبى الحديد م ٢ : ص ٢٩ وص ٣٠)

٥٠٥ — كتاب آخر إلى أهل مصر

وروى الشريف الرضىّ فى نهج البلاغة أيضاً أن علياً عليه السلام كتب إلى أهل مصر مع مالك الأشتر لما ولاه إمارتها :

« أما بعد ، فإن الله سبحانه بَعَثَ محمداً صلى الله عليه وآله نذيراً للعالمين ، ومُهَيْمِناً[2] على المرسلين ، فلما مضى عليه السلام تنازَعَ المسلمون الأمر من بعده ، فوالله ما كان يُلْقَى فى رُوعِى[3] ، ولا يَخْطُر ببالى أن العرب تُزْعِج هذا الأمر من بعده صلى الله عليه وآله عن أهل بيته ، ولا أنهم مُنَحُّوه[4] عنى من بعده ، فما راعنى إلا انْثِيالُ الناس على فلان[5] يبايعونه فأمسكتُ يَدِى ، حتى رأيت راجِعةَ الناس[6] قد رَجَعَتْ عن الإسلام ، يدعون إلى مَحْقِ دين محمد صلى الله عليه وآله ، فَخَشِيتُ إن لم أَنصُرِ الإسلام وأهله أنْ أرى فيه ثَلْماً أو هَدْماً ، تكون المصيبةُ به علىَّ أعظمَ من فَوْتِ ولايتكم التى إنما هى مَتاعُ أيام قلائل ، يزول منها ما كان كما يزولُ السرابُ ، أو كما يتقشَّع[7] السحاب ، فنهضتُ فى تلك الأحداث ، حتى زَاحَ[8] الباطل وزَهَق ، واطمأنَّ الدِّينُ وتنَهْنَهَ[9] » . ومنه :

---

(١) الشكيمة فى الأصل : حديدة اللجام المعترضة فى فم الفرس ، وفلان شديد الشكيمة : أنف أبى لاينقاد .

(٢) المهيمن : الشاهد ، والنبى عليه الصلاة والسلام شاهد برسالة المرسلين قبله ، قال تعالى « إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ شَاهِدًا وَمُبَشِّرًا وَنَذِيرًا »أى تشهد بصحة نبوة الأنبياء قبلك .

(٣) الروع: القلب . (٤) أى مبعدوه. (٥) أى انصبابهم على أبى بكر من كل وجه .

(٦) يعنى أهل الردة . (٧) أى يتكشف . (٨) زاح يزيح: بعد وذهب كانزاح.

(٩) تنهنه : سكن ؛ وأصله الكف ، تقول نهنهت السبع فتنهنه : أى كف عن حركته ، فكأن الدين كان متحركا مضطربا فسكن وكف عن ذلك الاضطراب .

«إنى وَاللهِ لو لَقِيتهم واحداً، وهم طِلاعُ[1] الأرض كلها، ماباليتُ ولا استوحَشْتُ، وإنى من ضَلالهم الذى هم فيه، والهُدَى الذى أنا عليه، لَعَلَى بصيرة من نفسى، ويقينٍ من ربى، وإنى إلى لقاء الله لمشتاق، ولُحسنِ ثوابه لَمُنتَظِرٌ راجٍ، ولكنى آسَى[2] أن يَلِيَ أمرَ هذه الأمة سُفَهاؤها وفُجّارها، فيتخذوا مالَ الله دُوَلاً[3] وعباده خَوَلاً، والصالحين حَرْباً، والفاسقين حِزْباً، فإن منهم الذى قد شرب فيكم الحرامَ، وجُلِد حَدّاً فى الإسلام[4]، وإن منهم من لم يُسْلِم حتى رُضِخَتْ له على الإسلام الرَّضائخ[5]، فلولا ذلك ما أكثرتُ تأليبكم[6] وتأنيبكم، وجَمْعكم وتحريضكم، ولتركتكم إذ أبَيْتم وَوَنَيْتم.

(١) طلاع الشيء: ملؤه. (٢) أسى يأسى كفرح: حزن.

(٣) دولا: جمع دولة بالضم، يقال: صار الفيء دولة بينهم: أى يتداولونه، يكون مرة لهؤلاء، ومرة لهؤلاء، والخول: العبيد والإماء وغيرهم من الحاشية، وحربا أى أعداء.

(٤) يعنى الوليد بن عقبة بن أبى معيط — انظر ما قدمناه فى ص ٢٦٠ —

(٥) رضخ له من ماله كمنع: أعطاه، والرضيخة: العطية المقاربة، والجمع رضائخ، وقوله «من لم يسلم» يصح أن يكون على حقيقته أو أن يكون معناه من لم يثبت على إسلامه، يعنى أن من أنصار معاوية وأشياعه قوما من المؤلفة قلوبهم الذين استمالهم رسول الله صلى الله عليه وسلم ورغبهم فى الإسلام بما أعطاهم من غنائم حنين (وكانت غزوة حنين سنة ثمان بعد فتح مكة) وكان معاوية وأبوه أبو سفيان من المؤلفة قلوبهم الذين نالوا عطاء الرسول. روى الطبرى قال: «أعطى رسول الله صلى الله عليه وسلم المؤلفة قلوبهم، وكانوا أشرافا من أشراف الناس، يتألفهم ويتألف بهم قومهم، فأعطى أبا سفيان بن حرب مائة بعير، وأعطى ابنه معاوية مائة بعير... إلى آخر الخبر — انظر تاريخ الطبرى ج ٣: ص١٣٦، وانظر أيضاً سيرة ابن هشام ج ٢: ص ٣٢٠، وقال ابن أبى الحديد: «فأما الذى رضخت له على الإسلام الرضائخ فمعاوية....».

وقال أيضاً: «وقال الراوندى: عنى بقوله رضخت لهم الرضائخ عمرو بن العاص، وليس بصحيح، لأن عمرا لم يسلم بعد الفتح، وأصحاب الرضائخ كلهم بعد الفتح صونعوا على الإسلام بغنائم حنين، ولعمرى إن إسلام عمرو كان مدخولا أيضاً، إلا أنه لم يكن عن رضيخة ... وقال الأستاذ الشيخ محمد عبده فى تفسيره: «قالوا إن عمرو بن العاص لم يسلم حتى طلب عطاء من النبى فلما أعطاه أسلم» وقد عرفت ما فيه وتعقب ابن أبى الحديد الراوندى أيضاً فقال: «فأما الذى شرب الحرام فقد قال الراوندى هو المغيرة بن شعبة، وأخطأ فيما قال، لأن المغيرة إنما اتهم بالزنا ولم يحد، ولم يجر للمغيرة ذكر فى شرب الخمر، وأيضاً فإن المغيرة لم يشهد صفين مع معاوية ولا مع على عليه السلام، وما للراوندى ولهذا؟ إنما يعرف هذا الفن أربابه اهـ» وقد ذكر فى مقدمة شرحه أن الراوندى (وقد شرح نهج البلاغة قبل ابن أبى الحديد) كان من فقهاء الإمامية، وأنه اقتصر مدة عمره على الاشتغال بعلم الفقه وحده.

(٦) التأليب: التحريض والإغراء.

ألا تَرَوْن إلى أطرافكم قد انتُقِصَت ، وإلى أمصاركم قد افْتُتِحت ، وإلى ممالككم تُزْوى[1] وإلى بلادكم تغزَى ؟ انفِروا رَحِمَكم الله إلى قتال عدوكم ، ولا تثاقلوا إلى الأرض ، فتَقَرّوا[2] بالخسفِ ، وتبوءوا بالذل ، ويكونَ نصيبكم الأَخَسَّ ، وإنَّ أخا الحرب الأَرِقُ ، ومن نام لم يُنَمْ عنه ، والسلام » . (نهج البلاغة ٢ : ٨٦)

٥٠٦ — كتاب على إلى محمد بن أبي بكر

ولما بلغ محمد بن أبى بكر أن عليًّا قد بعث الأشتر شَقّ عليه ، فكتب علىّ إليه حين بَلَغَه مَوْجِدَته لقدوم الأشتر عليه :

« بسم الله الرحمن الرحيم : من عبد الله علىّ أمير المؤمنين إلى محمد بن أبى بكر .

سلام عليك ، أما بعدُ : فقد بلغنى مَوْجِدَتُك[3] من تسريحى الأشتَرَ إلى عملك ، وإنى لم أفعل ذلك استبطاء لك فى الجهاد ، ولا استزادة لك منى فى الجِدّ ، ولو نَزَعْتُ ما تحت يدك من سلطانك ، لوَلَّيتُك ما هو أيْسَرُ عليك مَئُونةً ، وأعجبُ إليك منه ولايةً .

ألَا إن الرجل الذى كنت وَلَّيته أمرَ مصر ، كان لنا رجلًا مناصحاً ، وعلى عدونا شديداً ناقما ، فرَحِمه الله ، فلقد استكمَلَ أيّامَهُ ، ولاقَى حِمَامَهُ[4] ونحن عنه راضون ، أولاه الله رضوانَه ، وضاعف له الثوابَ ، وأحْسَنَ له المآبَ ، فأصْحِر[5] لعدوك ، وامض على بصيرتك ، وشَمِّر لحرب من حاربك ، وادْعُ إلى سبيل ربك بالحكمة

---

(١) أى تقبض .

(٢) يصح أن يكون « فتقروا » بفتح التاء والقاف أى تقيموا ، وأن يكون بضم التاء وكسر القاف أى تعترفوا ، والخسف : الذل ، والأرق: الساهر هذا وقد أورد الشريف الرضى فى نهج البلاغة (ج ٢ : ص ٥٩ — ٨٠) عهداً مطولا كتبه على عليه السلام للأشتر النخعى لما ولاه على مصر وأعمالها ، وقد كتبت كلمة عن هذا العهد فى كتابى « ترجمة على بن أبى طالب » ص ١٢٨ فارجع إليه .

(٣) أى من غضبك ، والتسريح : الإرسال . (٤) الحمام: الموت.

(٥) أى كن من أمره على أمر واضح منكشف، من أصحر الرجل: إذا خرج إلى الصحراء ، وفى رواية الطبرى « اصبر لعدوك » .

والمَوْعِظة الحَسَنَة ، وأكْثِرْ ذِكرَ الله ، والاستعانةَ به ، والخوفَ منه ، يَكفِك ما أهَمَّك ، ويُعِنْك على ما ولَّاك ، أعاننا الله وإياك على ما لا يُنال إلا برحمته ، والسلام عليك » .

(نهج البلاغة ٢ : ٤٢ وتاريخ الطبرى ٦ : ٥٥ ، وشرح ابن أبى الحديد م ٢ : ص ٣٠)

٥٠٧ — رد محمد بن أبى بكر على علىّ

فكتب إليه محمد بن أبى بكر جواب كتابه :

« بسم الله الرحمن الرحيم ، لعبد الله علىّ أمير المؤمنين من محمد بن أبى بكر ، سلام عليك ، فإنى أحمَدُ إليك اللهَ الذى لا إله غيرُه ، أما بعد : فإنى قد انتهى إلىّ كتابُ أمير المؤمنين : وفهمتُه وعرَفْتُ ما فيه ، وليس أحد من الناس بأرْضَى منى برأْيِ أمير المؤمنين ، ولا أجْهَدَ على عدوه ، ولا أرأفَ بوليِّه منى .

وقد خرجتُ فعسكرتُ ، وآمنتُ الناس ، إلا من نَصَبَ لنا حربًا ، وأظهر لنا خِلافاً ، وأنا متَّبعٌ أمرَ أمير المؤمنين ، وحافِظُه ، وملتجئٌ إليه ، وقائم به ، والله المستعان على كل حال ، والسلام عليك » .

(تاريخ الطبرى ٦ : ٥٥ ، وشرح ابن أبى الحديد م ٢ : ص ٣٠)

٥٠٨ — كتاب معاوية إلى مسلمة بن مخلد ومعاوية بن حديج

وكتب معاوية إلى مَسْلَمَة بن مُخَلَّد الأنصارى ، وإلى معاوية بن حُدَيْج الكِندى وكانا بمصر قد خالفا عليًّا كما قدمنا :

« بسم الله الرحمن الرحيم ، أما بعد : فإن الله عز وجل قد ابتَعَثَكما(١) لأمر عظيم ، أعظَمَ به أجْرَكما ، ورَفَعَ به ذِكركما ، وزَيَّنكما به فى المسلمين(٢) ، طَلَبْتما بدم الخليفة

---

(١) أى بعثكما . (٢) وفى ابن أبى الحديد « ورفع درجتكما ومرتبتكما فى المسلمين » .

المظلوم ، وغضِبْتما لله إذ ترِك حُـكمُ الـكتاب ، وجاهدتما أهلَ البغى والعدوان ، فأبْشِرُوا برضوان الله ، وعاجِلِ نُصرة أولياء الله ، والمُواساةِ لـكما فى الدنيا وسلطاننا ، حتى يَنتَهِيَ ذلك إلى مايُرضيكما ، ونؤدِّيَ به حقـكما ، فالْزَما أمركما ، وجاهِدا عَدُوكما ، وادعُوا المُدْبِرَ إلى هداكما ، فـكأنَّ الجيش قد أطَلّ عليكما ، فانقشَعَ كل ما تَـكرَهان ، وكان كل ما تَهوَيان ، والسلام عليكما ، ورحمة الله » .

(تاريخ الطبرى ٦ : ٧٥ ، وشرح ابن أبى الحديد م ٢ : ص ٣١)

٥٠٩ — رد مسلمة بن مخلد ومعاوية بن حديج على معاوية

فـكتب مسلمة عن نفسه ، وعن معاوية بن حُدَيج :

« أما بعد : فإن هذا الأمر الذى بَذَلْنا[1] له أنفسنا ، واتَّبَعْنا أمر الله فيه ، أمْرٌ نرجو به ثوابَ ربِّنا ، والنصر على من خالَفنا ، وتعجيل النِّقمة لمن سَعَى على إمامنا ، وطأطأ[2] الرَّكضَ فى مهادنا ، ونحن بهذا الحيِّز من الأرض قد نَفَيْنا مَن كان به من أهل البغى ، وأنْهَضنا من كان به من أهل القِسْط والعدل .

وقد ذكرتَ المواساةَ فى سلطانك ودنياك ، وتالله إن ذلك لَأَمْرٌ ماله نَهَضْنا ، ولا إياه أرَدْنا ، فإن يجمع الله لنا ما نطلب ، ويُؤْتِنا ما تمَنَّيْنا ، فإن الدنيا والآخرة لله رب العالمين ، وقد يُؤْتيهما الله جميعاً عَالَمًا من خَلْقه ، كما قال فى كتابه — ولا خُلْفَ لموعوده — : « فَآتَاهُمُ اللهُ ثَوَابَ الدُّنيَا وَحُسْنَ ثَوَابِ الآخِرَةِ وَاللهُ يُحِبُّ المُحْسِنِينَ » .

عَجِّلْ علينا خَيْلَك ورَجْلَك ، فإن عدونا قد كان علينا حَرْبًا ، وكنا فيهم قليلا ، فقد أصبحوا لنا هائبين ، وأصبَحْنا لهم مُقْرِنين[3] ، فإن يأتِنا الله بمَدَد من قِبَلك ، يفتح الله عليكم ، ولا حَوْلَ ولا قوة إلا بالله ، وحَسْبُنا الله ونِعْم الوكيل ، والسلام عليك » .

(تاريخ الطبرى ٦ : ٥٧ ، والنجوم الزاهرة ١ : ١٠٨ ، وشرح ابن أبى الحديد م ٢ : ص ٣١)

---

(١) وفيه « فإن هذا الأمر الذى قد ندبناله أنفسنا ، وابتغينا الله به على عدونا » .

(٢) طأطأ فرسه : نحزه بفخذيه وحركه للعدو ، وركض الدابة كنصر : ضرب جنبيها برجله واستحثها للعدو . وفى الطبرى « فى جهادنا » .

(٣) أقرن للأمر : أطاقه وقوى عليه ، وفى ابن أبى الحديد « منابذين » .

٥١٠ — كتاب عمرو بن العاص إلى محمد بن أبي بكر

فبعث معاوية عمرو بن العاص إلى مصر فى ستة آلاف، (سنة ٣٨ هـ) وسار عمرو حتى نزل أدانِىَ أرض مصر، فاجتمعت العثمانيّة إليه، فأقام بهم، وكتب إلى محمد بن أبى بكر :

« أما بعدُ : فَتَنَحَّ عنّى بدَمِك يابن أبى بكر ، فإنى لا أُحِبُّ أن يُصيبَك منى ظُفُرٌ[١] ، إن الناس بهذه البلاد قد اجتمعوا على خِلافك ورَفْض أمرك ، ونَدِموا على اتّباعك ، فهم مُسْلِمُوك[٢] لو قد الْتَقَتْ حَلْقَتا البِطانِ[٣] ، فاخْرُجْ منها فإنى لك من النَّاصِحين ، والسلام » .

(تاريخ الطبرى ٦ : ٥٨ ، وتاريخ الكامل لابن الأثير ٣ : ١٤٢ ، والنجوم الزاهرة ١ : ١٠٩ ، وشرح ابن أبى الحديد م ٢ : ص ٣٢)

٥١١ — كتاب معاوية إلى محمد بن أبي بكر

وبعث إليه عمرو أيضاً بكتاب معاوية إليه ، وهو :

« أما بعدُ : فإنّ غِبَّ[٤] البغى والظلم عظيمُ الوَبَال ، وإن سَفْك الدم الحرام لا يَسْلَمُ صاحبُه من النِّقْمة فى الدنيا ، ومن التَّبِعَةِ المُوبِقَةِ[٥] فى الآخرة ، وإنا لا نَعْلَمُ أحداً كان أعظمَ على عثمانَ بَغياً ، ولا أسْوَأَ له عَيْباً ، ولا أشَدَّ عليه خِلافاً منك ، سَعَيتَ عليه فى الساعِين ، وساعدتَ عليه مع المساعدين ، وسَفَكتَ دمه مع السافكين ، ثم أنت تظن أنى عنك نائم ، أو ناسٍ لك ، حتى تأتِىَ فتأمَّرَ على بلاد أنتَ فيها جارى ، وجُلُّ أهلها أنصارى ، يَرَوْن رأيى ، ويَرْقُبُون قولى[٦] ، ويَسْتَصْرِخونى[٧]

---

(١) وفى النجوم الزاهرة « قلامة ظفر » وقلم الظفر : قطع ما طال منه ، والقلامة بالضم : ما سقط منه . (٢) أسلمه : خذله . (٣) البطان : حزام القتب ، ومن أمثال العرب: « التقت حلقتا البطان » وهو مثل يضرب للأمر إذا اشتد، كقولهم: بلغ السيل الزبى، وجاوز الحزام الطبيين. (٤) أى عاقبة ، (٥) أى المهلكة . (٦) وفى ابن أبى الحديد « ويرفضون قولك» (٧) استصرخه : استغاثه .

عليك ، وقد بعثتُ إليك قوما حِناقًا عليك ، يَسْتَسْقُونَ(١) دمك ، ويتقربون إلى الله بجهادك ، وقد أعطَوُا اللهَ عَهْدا لَيُمَثِّلُنَّ بك ، ولو لم يكن منهم(٢) إليك ما عدا قَتْلَك ، ما حذّرتُك ولا أنذرتُك ، ولأَحْبَبْتُ أن يقتلوك بظلمك وقطيعتك وعَدْوِك على عثمان ، يوم يُطْعَن بمَشَاقِصِك(٣) بين خُشَشَائه وأَوْداجه ، ولكن أَكرَهُ أن أُمَثِّلَ بقرشيّ ، ولن يُسَلِّمك اللهُ من القِصاص أبدا أينما كنت ، والسلام » :

(تاريخ الطبرى ٦ : ٥٨ ، والنجوم الزاهرة ١ : ١٠٩ ، وشرح ابن أبى الحديد م٢ : ص٣٢)

٥١٢ — كتاب محمد بن أبى بكر إلى علىّ

فطوى محمد بن أبى بكر كتابيهما ، وبعث بهما إلى علىّ ، وكتب معهما :

« أما بعد يا أمير المؤمنين : فإن ابن العاص نزل أدانِيَ أرض مصر ، واجتمع إليه من أهل البلد من كان يرى رأيهم ، وقد جاء فى جيش لَجِبٍ(٤) جَرّارٍ(٥) ، وقد رأيتُ ممن قِبَلى بعض الفَشَل ، فإن كان لك فى أرض مصر حاجةٌ ، فأمِدَّنى بالرجال والأموال ، والسلام عليك ورحمة الله وبركاته » .

(تاريخ الطبرى ٦ : ٥٨ ، وشرح ابن أبى الحديد م ٢ : ص ٣٢)

---

(١) وفى ابن أبى الحديد « يسفكون » .

(٢) وفى ابن أبى الحديد : « ولو لم يكن منهم إليك ما نالوا لقتلك الله بأيديهم أو بأيدى غيرهم من أوليائه ، وأنا أحذرك وأنذرك فإن الله مقيد منك ومقتص لوليه وخليفته ، بظلمك له وبغيك عليه ، ووقيعتك فيه ، وعدوانك يوم الدار عليه ، تطعن بمشاقصك فيما بين أحشائه وأوداجه ، ومع هذا فإنى أكره قتلك ، ولا أحب أن أتولى ذلك منك ، ولن يسلمك الله من النقمة أين كنت أبدا ، فتنح وانج بنفسك والسلام » .

(٣) المشاقص : جمع مشقص كمنبر : وهو نصل عريض أو سهم فيه ذلك ، والخششاء : العظم الدقيق العارى من الشعر الناتئ خلف الأذن ، والأوداج : جمع ودج بالتحريك : وهو عرق فى العنق .

(٤) جيش لجب : ذو لجب ، واللجب بالتحريك : الجلبة والصياح .

(٥) وفى الطبرى « خراب » بضم الخاء وتشديد الراء ، وهو تحريف ، والخراب : جمع خارب : وهو اللص .

٥١٣ — رد علىّ على محمد بن أبى بكر

فكتب إليه علىّ :

« أما بعد : فقد جاءنى كتابك تذكر أن ابن العاص قد نزل أدانى أرض مصر فى لجب من جيشه جرّار ، وأن من كان بها على مثل رأيه قد خرج إليه ، وخروجُ من يرى رأيه إليه خير لك من إقامتهم عندك ، وذكرتَ أنك قد رأيت فى بعض من قِبَلك فشلا ، فلا تفشَل وإن فشلوا ، حصِّنْ قريتك ، واضمُم إليك شيعتك ، وأَذْكِ[1] الحرَسَ فى عسكرك ، واندُبْ إلى القوم كِنَانة بن بِشر المعروف بالنصيحة والنَّجدة[2] والبأس ، فإنى نادبٌ إليك الناس على الصَّعب والذَّلول ، فاصْبِر لعدوك ، وامْضِ على بصيرتك ، وقاتلهم على نيَّتك ، وجاهِدهم صابرًا محتَسِبًا ، وإن كانت فِئَتُك أقلّ الفئتين ، فإن الله قد يُعِز القليل ، ويَخْذُل الكثير .

وقد قرأتُ كتاب الفاجر ابن الفاجر معاوية ، والفاجر ابن الكافر عمرو ، المتحابَّيْن فى عمل المعصية ، والمتوافِقَين المرتَشِيَيْنِ فى الحكومة ، المُنكرَيْن فى الدنيا[3] ، قد استمتَعُوا بخلَاقِهم[4] كما استَمْتَعَ الذين من قبلهم بخلَاقِهم ، فلا يَهُلْكَ إرعادُهما وإبراقُهما ، وأجِبْهما إن كنت لم تُجِبْهما بما هما أهْلُه ، فإنك تجد مقالاً ما شئتَ والسلام » .

(تاريخ الطبرى ٦ : ٥٨ ، وشرح ابن أبى الحديد م ٢ : ص ٣٢)

٥١٤ — رد محمد بن أبى بكر على معاوية

فكتب محمد بن أبى بكر إلى معاوية جواب كتابه :

« أما بعد : فقد أتانى كتابك تَذَكِّرنى من أمر عثمان أمراً لا أعتذر إليك منه ، وتأمُرنى بالتَّنحِّى عنك ، كأنك لى ناصح ، وتخوِّفنى المُثْلَة ، كأنك علىّ شفيق ، وأنا

---

(١) أى بث وأرسل . (٢) وفى ابن أبى الحديد « والتجربة » .

(٣) وفى ابن أبى الحديد « والمتكبرين على أهل الدين » . (٤) أى تمتعوا بنصيبهم من الدنيا .

أرجو أن تكون لى الدائرةُ عليكم، فأجْتَاحَكم(١) فى الوَقْعة ، وإن تُؤْتُوا النصرَ ويكن لكم الأمر فى الدنيا ، فكم لَعَمْرِى من ظالم قد نصرتم ، وكم من مؤمن قد قتلتم ومثّلتم به ، وإلى الله مَصيركم ومصيرهم ، وإلى الله مَرَدُّ الأمور وهو أرحم الراحمين ، والله المستعانُ على ما تَصِفُونَ ، والسلام » .

(تاريخ الطبرى ٦ : ٥٨ ، وشرح ابن أبى الحديد م ٢ : ص ٣٢)

٥١٥ — رد محمد بن أبى بكر على عمرو بن العاص

وكتب محمد إلى عمرو بن العاص جواب كتابه :

« أما بعد : فقد فهمتُ ما ذكرتَ فى كتابك يابن العاص ، زعمتَ أنك تكره أن يُصيبنى منك ظُفُرٌ ، فأشهد بالله إنك لمن المُبْطلين ، وتزعم أنك لى نصيح ، وأُقسِم إنك عندى ظَنِين(٢) ، وتزعم أن أهل البلد قد رَفَضُوا رأيى وأمرى وندموا على اتباعى ، فأولئك لك وللشيطان الرجيم أولياء ، فَحَسْبُنا الله رب العالمين ، وتَوَكَّلْنا على الله العزيز الرحيم ، رب العرش العظيم ، والسلام » .

ثم نَشِبَ القتال بين الفريقين ، ودارت الدائرة على جيش محمد بن أبى بكر ، وأسلمه أصحابه وتفرقوا عنه حين بلغهم قتلُ كِنانة بن بشر ، حتى بقى محمد وما معه أحد منهم ، فلما رأى ذلك خرج يمشى فى الطريق ، حتى انتهى إلى خَرِبة فأَوَى إليها ، وخرج معاوية ابن حُدَيْج فى طلبه حتى اهتدى إليه فاستخرجه وقتله ، ثم ألقاه فى جِيفة حمار ، ثم أحرقه بالنـار .

(تاريخ الطبرى ٦ : ٥٩ ، وشرح ابن أبى الحديد م : ٢ ص ٣٢)

---

(١) اجتاحه : أهلكه واستأصله ، وفى ابن أبى الحديد : « وأن يهلككم الله فى الوقعة ، وأن ينزل بكم الذل ، وأن تولوا الدبر » .

(٢) أى متهم .

٥١٦ — كتاب عمرو بن العاص إلى معاوية

وكتب عمرو بن العاص إلى معاوية :

« أما بعدُ : فإنا لَقِينا محمد بن أبى بكر ، وكِنانة بن بشر فى جموع جَمّة من أهل مصر ، فدعوناهم إلى الهدى والسنة وحكم الكتاب ، فرفضوا الحق ، وتورّكوا[١] فى الضلال ، فجاهَدْناهم ، واستنصرنا الله عليهم ، فضرَب الله وجوههم وأدبارهم ، ومَنَحُونا أكتافهم ، فقتل الله محمد بن أبى بكر وكنانة بن بشر وأماثِل القوم ، والحمد لله رب العالمين ، والسلام عليك » .

(تاريخ الطبرى ٦ : ٦٠ ، وشرح ابن أبى الحديد م ٢ ص ٣٤)

٥١٧ — كتاب علىّ إلى ابن عباس

وكتب علىّ عليه السلام : إلى عبد الله بن عباس — وهو بالبصرة — بعد مقتل محمد بن أبى بكر بمصر :

« بسم الله الرحمن الرحيم ، من عبد الله علىّ أمير المؤمنين إلى عبد الله بن عباس ، سلام عليك ، فإنى أحمَد إليك الله الذى لا إله إلا هو ، أما بعد : فإن مصر قد افتُتِحت ، ومحمد بن أبى بكر رحمه الله قد استُشْهِد ، فعند الله نَحْتَسِبه وندّخره وَلَدًا[٢] ناصحا ، وعامِلاً كادِحًا وسيفاً قاطِعاً ، ورُكنا دافِعاً ، وقد كنتُ حَثَثْتُ الناس على لَحَاقه ، وأمرتهم بِغِياثه قبل الوَقْعة ، ودعوتهم سِرًّا وجَهْرًا ، وعَوْداً وبَدْءا ، فمنهم الآتى كارها ومنهم المعتَلُّ كاذبا ، ومنهم القاعِد خاذِلاً ، أسأل الله أن يجعل لى منهم فَرَجا ومَخْرَجا

(١) تورك : اعتمد على وركه ، وتورك على الدابة : ثنى رجله ووضع إحدى وركيه فى السرج ليستريح ، والمعنى تمادوا فى الضلال واسترسلوا فيه .

(٢) احتسب فلان ابنا : إذا مات كبيرا ، فإن مات صغيراً قيل : افترطه ، وسماه ولداً لأنه كان ربيبه — انظر ما قدمناه فى ص ٤٦٦ ، وكدح كمنع : سعى وكد .

وأن يُريحني منهم عاجلاً ، فوالله لولا طمعي عند لقائي عدوّي في الشهادة ، وتوطيني نفسي على المنيّة ، لأحببتُ أن لا أبقى مع هؤلاء يومًا واحداً ، ولا ألتقِيَ بهم أبداً ، عزَمَ الله لنا ولك على الرُّشد ، وعلى تقواه وهداه ، إنه على كل شيء قدير ، والسلام » .

(نهج البلاغة ٢ : ٤٣ ، وتاريخ الطبرى ٦ : ٦٣ ، وشرح ابن أبي الحديد م ٢ : ص ٣٥)

٥١٨ — رد ابن عباس على عليّ

فكتب إليه ابن عباس :

« بسم الله الرحمن الرحيم ، لعبد الله على بن أبي طالب أمير المؤمنين من عبد الله ابن عباس ، سلام عليك يا أمير المؤمنين ورحمة الله وبركاته ، أما بعدُ : فقد بلغني كتابك تذكر فيه افتتاحَ مصرَ ، وهلاكَ محمد بن أبي بكر ، فالله المستعانُ على كل حال ، ورَحِم الله محمدَ بن أبي بكر ، وأَجَرك يا أمير المؤمنين ، وقد سألتَ الله أن يجعل لك من رعيّتك التي ابتُليتَ بها فَرَجا ومَخْرجا ، وأنا أسأل الله أن يُعلِيَ كلمتك ، وأن يُعِزّك بالملائكة عاجلا بالنُّصرة ، واعلم أن الله صانعٌ لك ، ومُعِزُّك ، ومجيبٌ دعوتك ، وكابِتٌ[1] عدوك .

وأخبرك يا أمير المؤمنين أن الناس ربما تثاقَلوا ثم يَنْشَطون ، فارفُقْ بهم يا أمير المؤمنين ، وداجِنْهم[2] ومَنِّهم ، واستعِنْ بالله عليهم ، كفاك الله الهَمَّ[3] ، والسلام » .

(تاريخ الطبرى ٦ : ٦٣ ، وشرح ابن أبي الحديد م ٢ ، ص ٣٥)

---

(١) كبته كضربه : صرعه وأخزاه وكسره وأذله . (٢) داجنه : داهنه ، وفى ابن أبي الحديد « ودارهم » . (٣) وفيه « كفاك الله الهم » .

٥١٩ — كتاب عليّ إلى أهل العراق

ودخل على عليّ عليه السلام بعض أهل العراق ، فسألوه عن أبي بكر وعُمَرَ ، وقالُوا : بيِّن لنا قولك فيهما ، وفى عثمان ، فقال لهم : أَوَ قد تفرغتم لهذا ، وهذه مصر قد افتُتِحَت ، وشِيعتى فيها قد قتلت ؟ إنى مخرج إليكم كتابا أُنبئكم فيه ما سألتمونى عنه ، فاقرءوه على شيعتى ، فأخرجَ إليهم كتابا فيه[1] :

« أما بعدُ : فإن الله بعث محمداً صلى الله عليه وسلم نَذِيرا للعالمين ، وأمينا على التنزيل ، وشَهِيداً على هذه الأمة ، وأنتم معاشِرَ العرب يومئذ على شرِّ دِين ، وفى شَرِّ دارٍ ، مُنِيخُون على حجارة خَشِنة صُمٍّ[2] ، وشَوْكٍ مَبثوث فى البلاد ، تشربون الماء الخبيث ، وتأكلون الطعام الخبيث ، تَسْفِكون دماءكم ، وتقتُلون أولادكم ، وتقطَعُون أرحامكم ، وتأكلون أموالكم بينكم بالباطل : سُبُلُكم خائِفَةٌ ، والأصنامُ فيكم منصوبة ، ولا يُؤمِن أكثرُهم بالله إلا وهم مُشرِكون ، فمَنَّ الله عز وجلّ عليكم بمحمد فبعثه إليكم رسولا من أنفسكم تَعرِفون وجْهَه ونَسَبه ، فعلّمكم الكتابَ ، والحكمة ، والفرائض ، والسُّنن ، وأمَرَكم بِصلة أرحامكم ، وحقْن دمائكم ، وإصلاح ذاتِ بينكم ، وأن تُؤَدّوا الأماناتِ إلى أهلها ، وأن تُوفُوا بالعهد ، ولا تنقُضوا الأيْمانَ بعد توكيدها وأن تَعاطَفُوا ، وتَبارُّوا ، وتَباذَلوا ، وتَراحَمُوا ، ونهاكم عن التناهُب والتظالُمُ ، والتحاسُد ، والتباغِى ، والتقاذُف ، وعن شرب الخمر ، وعن بَخْس المِكْيال ، ونَقْص الميزان ، وتقدَّمَ إليكم فيما أُنزِلَ عليكم أن لا تَزْنُوا ، ولا تُرْبُوا ، ولا تأكُلُوا أموالَ

---

(١) هكذا روى ابن قتيبة فى الإمامة والسياسة ، ومنه ترى أنه كتاب ، وروى ابن أبى الحديد قال : « خطب على عليه السلام بعد فتح مصر وقتل محمد بن أبى بكر فقال . . . . » ومنه ترى أنه خطبة — هذا ولتتنبه إلى أنه يحتوى على جل الكتاب الذى أورده الشريف الرضى فى نهج البلاغة ، وذكر أن علياً كتبه إلى أهل مصر مع الأشتر ، وقد قدمناه فى ص ٥٦٧ .

(٢) فى الأصل (ابن أبى الحديد) « وحياق صم » والكلمة الأولى محرفة ولعلها « جبال » أو « صخور » وصم جمع أصم وصماء ، حجر أصم : أى صلب مصمت ، وصخرة صماء .

اليتامى ظُلمًا ، ولا تَعثَوا فى الأرض مُفسدين ، ولا تعتدُوا إن الله لا يُحبُّ المُعتَدِين ، فكلُّ خير يُدنى إلى الجنةِ ويُباعِدُ عن النارِ أمرَكم به ، وكلُّ شرٍّ يُدْنِى إلَى النار ويباعِدُ عن الجنة نَهاكم عنه .

فلمَّا استكمَلَ رسولُ الله صلى الله عليه وسلم مُدَّتَه من الدنيا ، توفَّاه الله ، وهو مشكورٌ سَعْيُه ، مَرْضِيٌّ عملُه ، مغفورٌ له ذَنبُه ، شريفٌ عند الله نُزُلُه ، فيا لَها مصيبةً خَصَّت الأقربين ، وعَمَّت المسلمين ، ما أُصيبوا قبلها بمثلها ، ولن يعاينوا بعدها أختَها ، فلما مضى لسبيله تنازَعَ المسلمون الأمر بعده ، فوالله ما كان يُلقَى فى رُوعِى ، ولا يَخطُرُ على بالى أن العرب تَعدِل هذا الأمر بعد محمد عن أهل بيته ، ولا أنهم مُنَحُّوه عنى من بعده ، فما رَاعَنى إلا انْثِيالُ الناسِ على أبى بكر ، وإجْفَالُهم[(١)] إليه ليبايعوه ، فأمسكتُ يدى ، ورأيت أنى أحقُّ بمَقام محمد فى الناس ممن تولَّى الأمرَ من بعده ، فلبِثتُ بذلك ما شاء اللهُ حتى رأيتُ راجعةً من الناس رَجَعَتْ عن الإسلام يدعُون إلى مَحْقِ دين الله ، وملة محمد صلى الله عليه وسلم ، فخشِيتُ إنْ لم أنصر الإسلامَ وأهلَه أن أرَى فيه ثَلمًا وهدما ، يكون المصابُ بهما علىَّ أعظمَ من فَواتِ ولاية أموركم ، التى إنما هى مَتاعُ أيام قلائل ، ثم يزول ما كان منها كما يزول السَّرابُ ، وكما يتقشَّعُ السحابُ ، فمشيْتُ عند ذلك إلى أبى بكر فبايعته ، ونهضتُ معه فى تلك الأحداث حتى زَاغَ الباطلُ وزَهَق ، وكانت كلمة الله هى العُلْيا ، ولو كَرِه الكافرون .

فتولَّى أبو بكر رضى الله عنه تلك الأمور ، فيَسَّر ، وسَدَّدَ ، وقارَبَ ، واقتَصَدَ ، وصحِبْتُه مناصِحا ، وأطَعتُه فيما أطاع اللهَ فيه جاهِداً ، وما طمِعتُ أنْ لو حَدَثَ به حادث ، وأنا حَىٌّ ، أن يَرُدَّ إلىَّ الأمرَ الذى نازعتُه فيه طَمَعَ مُسْتَيْقِن ، ولا يئستُ منه يأسَ مَن لا يرجوه ، ولولا خاصّةُ ما كان بينه وبين عمر لظننت أنه لا يدفعها عنى .

---

(١) الانثيال : الانصباب ، والإجفال : الإسراع .

فلما اُحْتُضِر بعث إلى عمر، فولاَّه، فسمِعْنا وأطعْنا، وبايَعْنا، وناصَحْنا، وتولّى عمر الأمر، فكان مَرْضِيَّ السِّيرة، مَيْمُونَ النَّقِيبة[1] أيامَ حياته، حتى إذا اُحْتُضِرَ قلت فى نفسى: لن يَعْدِلَهَا عنى، ليس يُدافعنى عنها، فجعلها عمر شُورَى، وجعلنى سادسَ سِتَّةٍ، فما كانوا لولاية أحدٍ منهم أشدَّ كراهةً لولايتى عليهم، لأنهم كانوا يسمعونني عند وفاة رسول ٱلله صلى ٱلله عليه وسلم وأنا أُحاجُّ أبا بكر فأقول: يا معشر قريش، إنا أهلَ البيتِ أحقُّ بهذا الأمر منكم، ما كان فينا مَن يقرأ القرآن، ويعرِف السُّنَّةَ، ويَدِين بدين الحق، فخشِيَ القوم إنْ أنا وَلِيتُ عليهم أن لا يكون لهم فى هذا الأمر نَصِيبٌ ما بَقُوا، فأجمعوا إجماعًا واحداً، فصَرَفوا الوِلايةَ عنى إلى عثمان، وأَخرجونى منها، رجاءَ أن يتالوها ويتداولوها، إذ يئسوا أن ينالوها من قبلى، ثم قالوا لى: هَلُمَّ فبايعْ عثمان وإلاَّ جاهَدْناك، فبايعت مُسْتَكْرِها[2]، وصَبَرْت مُحْتَسِبا، فقال قائلهم: إنك يابن أبى طالب على هذا الأمر لَحَرِيص، فقلت لهم: أنتم أحرص منى وأبعد، أينا أحْرَصُ، أنا الذى طلبت ميراث ابن أبى وحق الذى جعلنى الله ورسولُه أَوْلَى به، أم أنتم إذ تضرِبون وَجْهى دونه، وتحُولُون بينى وبينه؟ فَبُهِتُوا، واللهُ لا يَهْدِى القوم الظالمين، اللهم إنى أَسْتَعْدِيك[3] على قريش، فإنهم قطعوا رَحِمى، وأضاعونى، وصغَّروا عظيمَ منزلتى وفضلى، واجتمعوا على منازعتى حقًّا كنت أَوْلَى به منهم فسلبُونيه، ثم قالوا: ألاَ إن فى الحق أن تأخذه، وفى الحق أن تُمْنَعه، فاصبِر كَمِدًا، أو مت أسِفًا حَنِيقا[4]، فنظرت فإذا ليس معى رافِدٌ[5]، ولا ذابٌّ، ولا ناصر، ولا مساعد إلا أهل بيتى، فضَنِنْتُ بهم عن المنيّة، فأغضَيْتُ عينى على

---

(١) النقيبة: النفس والطبيعة.

(٢) يقال: امرأة مستكرهة بكسر الراء: أى غصبت نفسها (بالبناء للمجهول) فأكرهت على ذلك

(٣) استعداه: استعانه واستنصره.

(٤) الحنق بالتحريك: شدة الاغتياظ، حنق عليه كفرح فهو حنق كفرح وحنيق، وفى ابن أبى الحديد «حميقا» وهو تحريف.

(٥) الرافد: الواصل، من الرفد بالكسر وهو الصلة، والذاب: الدافع.

القَذَى[1] ، وتجرّعْتُ رِيقى على الشَّجى ، وصبرت من كَظْم الغيظ عَلَى أمَرّ من العَلْقَم طَعْمًا ، وآلَمَ القلب من حَزّ الشِّفَارِ[2] ، حتى إذا نقِمتم عَلَى عثمان أتيتموه فقتلتموه ، ثم جئتمونى تبايعونى فأبَيْتُ عليكم وأبيتم علىّ ، وأمسكت يدى فنازعتمونى ودافعتمونى وبَسَطتم يدى فكففتها ، ومددتموها فقبضتها ، وازدحمتم عَلَىّ حتى ظننت أن بعضكم قاتلُ بعض ، أو أنكم قاتِلِىّ ، فقلتم : بايِعْنا ، لا نجد غيرك ولا نَرْضَى إلا بك ، بايِعْنا لانفترِقْ ولا تختلِفْ كلمتنا ، فبايعتكم ، ودعوتم الناس إلى بيعتى ، فمن بايع طَوْعًا قبِلْته ، ومن أبى لم أُكْرِهه وتركته ، فأول من بايعنى طَلْحة والزبير ، ولو أَبَيَا ما أكرهتهما كما لم أُكْرِه غيرهما ، فما لبثا إلا يسيرًا حتى بلغنى أنهما قد خرجا من مكة متوجِّهَين إلى البصرة ، فى جيش ما منهم رجل إلا وقد أعطانى الطاعة ، وسَمَح لى بالبيعة ، فقَدِما على عامِلى وخُزَّان بيت مالى ، وعلى أهل مصرى الذين كلهم على بيعتى وفى طاعتى ، فشتَّتوا كلمتهم ، وأفسدوا علىّ جماعتهم ، ثم وثبوا على شِيعتى ، فقتلوا طائفة منهم غَدْرًا ، وطائفة صَبْرًا[3] ، ومنهم طائفة غضِبوا لله ولِى ، فشَهَروا سيوفهم وضربوا بها ، حتى لَقُوا اللهَ عز وجل صابرين محتسبين ، فواللهِ لو لم يُصيبوا منهم إلا رجلا واحداً متعمِّدين لِقتله ، لَحَلّ لى بذلك قتلُ الجيش بأَسْرِه ، فدَعْ ما أنهم قد قتلوا من المسلمين أكثرَ من العِدّة التى دخلوا بها عليهم ، وقد أدَالَ[4] اللهُ منهم ، فبُعْداً للقوم الظالمين .

ثم إنى نظرت فى أمر أهل الشأم ، فإذا هم أعراب وأحزاب ، وأهل طمع جُفَاة طُغَاة[5] ، تجمعوا من كل أَوْب ، ممن ينبغى أن يؤدَّب ، وأن يُوَلَّى عليه ، ويؤخذ على

---

(١) القذى : ما يقع فى العين وفى الشراب ، والشجى : ما اعترض فى الحلق من عظم ونحوه :

(٢) الشفار : جمع شفرة بالفتح ، وهى السكين العظيم .

(٣) صبر الإنسان على القتل : أن يحبس ويرمى حتى يموت . (٤) أى نصرنا عليهم .

(٥) وفى الإمامة والسياسة : « طغام » والطغام كسحاب : أوغاد الناس ، والأوب : الطريق والجهة .

يديه ، ليسوا من الأنصار ، ولا المهاجرين ، ولا التابعين بإحسان ، فسِرْتَ إليهم فدعوتَهم إلى الطاعة والجماعة ، فأبَوْا إلا شقاقاً ونفاقاً ، ونهضوا فى وجوه المهاجرين والأنصار ، يَنْضَحونهم[1] بالنَّبْل ، ويَشْجُرُونهم بالرماح ، فهنالك نَهَدْتَ[2] إليهم فقاتلتَهم ، فلما عَضَّهم السلاحُ ، ووجدوا ألم الجِراح ، رفعوا المصاحف يدعونكم إلى ما فيها ، فنبأتكم أنهم ليسوا بأهل دين ولا قرآن ، وإنما رفعوها مَكيدةً وخديعةً ، ووَهْناً وضعفا ، فامضُوا على حقكم وقتالكم ، فأبَيْتم علىّ واتهمتمونى ، وقلتم : اقبل منهم ، فإنهم إن أجابوا إلى ما فى الكتاب جامعونا على ما نحن عليه من الحق ، وإن أبَوا كان أعظم لِحُجَّتنا عليهم ، فقبلتُ منهم ، وكففتُ عنهم إذ وَنَيْتم وأبيتم ، فكان الصلح بينكم وبينهم على رجلين حَكَمَين يُحييان ما أحيا القرآن ، ويُميتان ما أمات القرآن ، فاختلف رأيهما ، وتفرّق حكمهما ، ونَبَذا حكم القرآن ، وخالفا ما فى الكتاب ، واتّبعا هواهما بغير هدى من الله فجنّبهما الله السَّدادَ ، وأهوى بهما فى غَمرة الضلال[3] ، وكانا أهل ذلك ، فانخذلَتْ عنا فرقة منا ، فتركناهم ما تركونا ، حتى إذا عاثُوا فى الأرض مفسدين ، وقتلوا المؤمنين ، أتيناهم فقلنا لهم : ادفعوا إلينا قَتَلة إخواننا ، ثم كتاب الله بيننا وبينكم ، فقالوا : كلنا قَتَلَهم ، وكلنا استحلّلنا دماءهم ودماءكم ، وشدَّت علينا خيلهم ورجالهم ، فصَرَعهم الله مَصارِعَ القوم الظالمين .

فلما كان ذلك من شأنهم ، أمرتكم أن تَمْضُوا من فَوْركم ذلك إلى عدوكم ، فإنه أفزَعُ لقلوبهم ، وأنهَكُ لقواهم ، وأهتك لكيدهم ، فقلتم : كَلَّت أذرعنا وسيوفنا ، ونَفِدَت نِبالنا ، ونَصَلَت[4] أسِنّة رماحنا ، وعاد أكثرها قَصِدا ، فأْذَن لنا فلنرجع

---

(١) نضحه بالنبل كنفع : رماه ورشقه ، وشجره بالرمح كقتل : طعنه به .

(٢) نهد إلى العدو كنفع وقتل : نهض .

(٣) وفى ابن أبى الحديد « ودلاهما فى الضلالة »، وفيه : «حتى إذا عثوا فى الأرض يقتلون ويفسدون» وعاث وعثا : أفسد .

(٤) نصل السهم : فهو ناصل خرج منه النصل (والنصل : حديدة السهم والرمح) ورمح قصد ككتف وقصيد وأقصاد : متكسر .

إلى مِصْرنا حتى تستعدَّ بأحسن عُدَّتنا ، وإذا رجَعْت زِدْتَ فى مُقَاتِلتنا عِدَّةَ مَنْ هَلَكَ منا ومَن قد فارَقَنا . فإن ذلك أقوى لنا على عدونا ، فأقبلتُ بكم حتى إذا أطلَلْتم على الكوفة ، أمرتكم أن تنزلوا بالنُّخَيْلَة ، وأن تلزَموا مُعَسْكركم ، وأن تضُمُّوا قواصِيَكم ، وأن توطِّنوا على الجهاد أنفسكم ، ولا تُكثروا زيارة أبنائكم ونسائكم : فإن ذلك يُرِقّ قلوبكم ويَلْويكم ، وإن أهل الحرب الصابِروها ، وأهل التشمير فيها الذين لايتوجّدون[1] سهرَ ليلهم ، ولا يتوجَّعون ، ولا يسأمون من ظَمَإِ نهارهم ، ولا من خَمَصِ[2] بطونهم ، ولا من نَصَبِ أبدانهم ، حتى يُدْركوا ثأرهم ، وينالوا بُغْيتهم ومطلَبهم ، فنزلت طائفة منكم معى مُعْذِرَةً ، ودخلت طائفة منكم المصرَ عاصيةً ، فلا مَن نَزَل معى صَبَرَ فَثَبَت ، ولا من دخل المصر عاد إلىَّ ورجع .

ولقد نظرت إلى عسكرى ، وما فيه معى منكم إلا خمسون رجلا ، فلما رأيت ما أتيتم دخلتُ إليكم فما قَدَرتم أن تخرجوا معى إلى يومكم هذا لِلّهِ آباؤكم ! فما تنتظرون ؟ أمَا تَرَون إلى أطرافكم قد انتُقِصَت ، وإلى مصركم قد افتُتِحت[3] وإلى شيعتى بها قد قتلت ، وإلى مَسَالِحكم[4] تُعْرَى ، وإلى بلادكم تُغْزَى ، وأنتم ذوُو عدد كثير ، وشوكة ، وبأس شديد ، فما بالُكم ؟ لِلّه أنتم ! من أين تُؤْتَوْن ؟ وما لكم تُؤْفَكون[5] وأنَّى تُسْحَرون ، ولو أنكم عزمتم وأجمعتم لم تُرامُوا ، ألَا إن القوم قد اجتمعوا ، وجَدُّوا وتناصحوا ، وإنكم قد وَنَيْتم وتفرقتم ، واختلفتم ، وتغاشَشْتم ، فأنتم إن اجتمعتم تَسْعَدون .

---

(١) توجد سهر ليله: شكا مامسه من مشقته. (٢) الخمص بالسكون وبالتحريك والخمصة: الجوع.
(٣) المصر : كل كورة يقسم فيها الفئ والصدقات ، وهذه يجوز فيها التذكير فتصرف . والتأنيث فتمنع ، وروى فى الإمامة والسياسة « قد افتتح » بالتذكير ، وفى ابن أبى الحديد بالتأنيث .
(٤) المسالح جمع مسلحة بالفتح : وهى الثغر .
(٥) أفكه كضربه : صرفه عن الشىء وقلب رأيه .

فأيقظوا رحمكم الله نائمكم، وأجمعوا على حقكم، وتجرّدوا لحرب عدوكم، قد أبدت الرّغوة عن الصّريح[1]، وبان الصّبح لذي عينين، إنما تقاتلون الطُّلقاء، وأبناء الطلقاء، وأولي الجفاء، ومن أسلم كرها، وكان لرسول الله صلى الله عليه وسلم أنفَ[2] الإسلام كلّه حربا، أعداء الله والسنة والقرآن، وأهل الأحزاب، والبدع، والأحداث، ومن كانت بوائقه[3] تتّقى، وكان على الإسلام مخوفاً[4]، أكلة الرّشا وعبدة الدنيا، لقد أُنهِيَ[5] إليّ أن ابن النابغة لم يبايع معاوية حتى أعطاه، وشرط عليه أن يعطيه إتاوةً هي أعظم مما في يديه من سلطانه، ألا صفِرت[6] يدُ هذا البائع دينَه بالدنيا، وتربت يدُ هذا المشترى نُصْرةَ غادر فاسق بأموال المسلمين، وإن منهم لمن قد شرب فيكم الخمر، وجُلِد حدًّا في الإسلام، يُعرَف بالفساد في الدين والفعل السيئ، وإن فيهم من لم يُسْلم حتى رُضِخ له على الإسلام رَضيخة[7]، فهؤلاء قادة القوم،

---

(١) رغوة اللبن مثلثة: زبده (بالتحريك)، والصريح: اللبن الخالص الذى ذهبت رغوته، وأبداه: أظهره، وهو هنا بمعنى كشف عنه: أى كشفت الرغوة عن الصريح وأظهرته. وهو مثل يضرب عند انكشاف الأمر وظهوره، وقد رواه الميدانى فى مجمع الأمثال «أبدى الصريح عن الرغوة» وقال فى شرحه: «أبدى لازم ومتعد، يقال: أبديت فى منطقك أى جرت، فعلى هذا يكون المعنى بدا الصريح عن الرغوة، وإن جعلته متعديا فالمفعول محذوف أى أبدى الصريح نفسه. وأقول نعم قد ورد أبدى لازما بمعنى جار كما ذكر، لكن ذلك المعنى ليس مما نحن فيه، ثم قال: «وهذا المثل لعبيد الله بن زياد قاله لهانىء بن عروة المرادى، وكان مسلم بن عقيل بن أبى طالب رحمه الله قد استخفى عنده أيام بعثه الحسين ابن على رضوان الله عليهما، فلما عرف مكانه عبيد الله أرسل إلى هانىء فسأله فكتمه فتوعده وخوفه، فقال هانىء: هو عندى، فعندها قال عبيد الله: «أبدى الصريح عن الرغوة» أى وضح الأمر وبان، ومن كتاب الإمام الذى نحن بصدد شرحه تعرف أن عبيد الله قد تمثل بهذا المثل وليس بصاحبه، ومن أمثالهم فى هذا المعنى أيضاً «صرح المحض عن الزبد» بضم الزاى أى انكشف الأمر وتبين.

(٢) أنف كل شىء: أوله.

(٣) البوائق جمع بائقة: وهى الداهية، والرشا بالضم والكسر جمع رشوة مثلثة وهى الجعل بالضم

(٤) وفى الإمامة والسياسة «وكان عن الدين منحرفا».

(٥) أنهى الشىء: أبلغه، وفى الإمامة والسياسة «لقد نمى إلى» أى أبلغت أيضاً، وابن النابغة هو عمرو بن العاص وقد تقدم. (٦) صفر كفرح: خلا، ويقال: تربت يداه، أى لا أصاب خيراً، وفى ابن أبى الحديد «وخزيت أمانة هذا المشترى...».

(٧) انظر ص ٤٨٢.

ومن تركتُ ذِكر مساوئه مِن قادتهم مثل مَن ذكرتُ منهم ، بل هو شرّ وأضرّ ، وهؤلاء الذين ذكرت لو وَلُوا عليكم لأظهروا فيكم الكبر ، والفخر ، والفجور ، والتسلط بِجَبْرِية[1] ، والتطاول بالغضب ، والفساد فى الأرض ، ولا تبعوا الهَوَى وما حكموا بالرشاد ، ولأنتم على ما فيكم من تخاذُل وتَوا كُل خير منهم وأهْدَى سبيلًا ، فيكم الحكماء ، والعلماء والفقهاء والنجباء ، وحملة القرآن ، والمتهجِّدون بالأسحار ، والعُبّاد ، والزُّهّاد فى الدنيا ، وعُمّار المساجد بِتلاوة القرآن ، أفَلا تَسْخَطون وتَنْقِمُون[2] أن يُنازِعكم الولايةَ عليكم سفهاؤكم والأشرار الأراذل منكم ؟

فاسمعوا قولى إذا قلت ، وأطيعوا أمرى إذا أمرت ، واعرِفوا نصيحتى إذا نصحت ، واعتقدوا حزمى إذا حَزَمت ، والتزموا عزمى إذا عَزَمت ، وانهضوا لنهوضى ، وقارِعوا من قارعتُ ، فوالله لئن أطعتمونى لاتَغْوُون : ولئن عصيتمونى لاتَرْشُدُون ، ولا تجتمعون خُذُوا للحرب أُهْبَتَها ، وأعِدُّوا لها عُدَّتها ، فإنها قد شُبَّت نارُها ، وعَلا سَناها[3] وتجرَّد لكم فيها الفاسقون ، كى يعذِّبوا عباد الله ، ويُطفئوا نور الله .

عبادَ الله : ألَا إنه ليس أولياء الشيطان من أهل الطمع والمكر والجفاء ، بأَوْلَى فى الجِدِّ فى غَيِّهم وضلالهم وباطلهم ، من أهل النزاهة والبر ، والحق والإخبات[4] ، بالجِدِّ فى حقهم ، وطاعةِ ربهم ، ومُناصحة إمامهم .

إنى والله لو لَقِيتهم وحيداً منفرداً ، وهم مِلْء الأرض ما باليتُ بهم ولا استوحشت منهم ، وإنى من ضلالهم الذى هم فيه ، والهدى الذى نحن عليه ، لَعَلَى ثِقة وبيِّنَة ، ويقين وبصيرة من ربى ، وإنى إلى لِقاء ربى لَمشتاق ، ولَحسن ثوابه لمنتظر راج ، ولكن أسَفاً يعترينى ، وحزنا يُخامرنى ، أن يَلِىَ أمرَ هذه الأمة سُفَهاؤها وفجارُها ، فيتخذوا مال الله دُوَلا ، وعِبادَ الله خَوَلا ، والصالحين حَرْبا ، والقاسِطين حِزْبا .

---

(١) وفى الإمامة والسياسة «بالجبروت» وهما واحد . (٢) وفى ابن أبى الحديد «وتهتمون»
(٣) السنا : الضوء الساطع . (٤) أخبت : خشع وتواضع .

وآيمُ الله لولا ذلك لَمّا أكثرْت تأنيبكم وتأليبكم ، وتحريضكم ، ولتركتكم إذ وَنَيْتُمْ وأبَيْتُم ، حتى ألقاهم بنفسى متى حُمَّ[1] لى لقاؤهم ، فوالله إنى لعلى الحق ، وإنى للشهادة لمحِبّ ، أنا نافرٌ بكم إن شاء الله ، فانفِرُوا خِفَافًا وَثِقَالًا وَجَاهِدُوا بِأَمْوَالِكُمْ وَأَنفُسِكُمْ فِى سَبِيلِ اللَّهِ ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ، ولا تثاقلوا إلى الأرض ، فتقَرّوا بالخسف ، وتبوءوا بالذل ، ويكن نصيبكم الخسْر ، إن أخا الحرب اليَقْظان ، ومن ضَعُف أَوْدَى[2] ، ومن ترك الجهاد كان كالمغبون المَهين ، اللهم اجمعنا وإياهم على الهُدَى ، وزهّدنا وإياهم فى الدنيا ، واجعل الآخرة خيرا لنا ولهم من الأولَى » .

(شرح ابن أبى الحديد م ٢ : ص ٣٥ ، والإمامة والسياسة ١ : ١١٣)

---

(١) أى قدر .　　(٢) هلك .

فتنـــة البصرة

٥٢٠ — كتاب معاوية إلى عمرو بن العاص

ولما ظهر معاوية على مصر، ولّى عليها عمرو بن العاص، ثم بدا له أن يحتاز البصرة، فكتب إلى عمرو يستطلع رأيه فى ذلك .

« من عبد الله معاوية أمير المؤمنين إلى عمرو بن العاص :

سلام عليك : أما بعدُ ، فإنى قد رأيتُ رأيا هَمَمْتُ بإمضائه ، ولم يَخْذُلنى عنه إلا استطلاعُ رأيك ، فإن توافِقْنى أَحمَدِ الله وأُمْضِه ، وإن تخالفنى فإنى أَسْتَخِير اللهَ وأَسْتَهْدِيه .

إنى نظرت فى أَمْرِ أهل البصرة فوجدتُ معظم أهلها لنا وَلِيًّا ، ولعلىٍّ وشيعته عدوًّا ، وقد أوقع بهم علىٌّ الوَقْعَة التى علِمْتَ ، فأحقادُ تلك الدماء ثابتة فى صدورهم لا تَبْرَح ولا تَرِيم[1] ، وقد علمتَ أنّ قتلَنا ابن أبى بكر ، ووَقْعَتنا بأهل مصر قد أطفأت نيران أصحاب علىٍّ فى الآفاق ، ورفعَتْ رءوس أشياعنا أينما كانوا من البلاد ، وقد بلغ مَن كان بالبصرة على مثل رَأْينا من ذلك ما بلغ الناسَ ، وليس أحد ممن يرَى رأْيَنا أكثر عَدَداً ، ولا أضرّ خلافا على علىّ من أولئك .

فقد رأيتُ أنْ أبعَثَ إليهم عبد الله بن عامر الحَضْرَمىّ ، فينزلَ فى مُضَر، ويتودَّد الأزْدَ ، ويَحْذَر ربيعة ، ويبتغى دم ابن عفان ، ويذكرهم وقعة علىّ بهم التى أهلَكَتْ

---

(١) لاتريم : أى لاتبرح، يقال : مارمت المكان ومنه : أى مابرحت .

صالحى إخوانهم وآبائهم وأبنائهم ، فقد رجوت عند ذلك أن يُفسد على علىّ وشيعته ذلك الفَرَجَ من الأرض ، ومتى يُؤْتَوْا من خلفهم وأمامهم يَضِلَّ سعيُهم ، ويبطُلْ كيدهم ، فهذا رأيى ، فما رأيك ؟

فلا تحبِسْ رسولى إلا قدرَ مُضِىِّ الساعة التى ينتظر فيها جوابَ كتابى هذا ، أرشَدَنا الله وإياك ، والسلامُ عليك ، ورحمة الله وبركاته » .

(شرح ابن أبى الحديد م ١ : ص ٣٤٩)

٥٢١ — رد عمرو على معاوية

فكتب عمرو بن العاص إلى معاوية :

« أما بعد : فقد بلغنى رسولك وكتابك ، فقرأته وفهمتُ رأيك الذى رأيتَه ، فعجبتُ له ، وقلتُ : إن الذى ألقاه فى رُوعِك ، وجعله فى نفسك هو الثائرُ بابن عفان والطالب بدمه ، وإنه لم يك منك ولا منا منذ نَهَضْنا فى هذه الحروب ، ونادَيْنا أهلها ، ولا رَأى الناس رَأْياً أضَرَّ على عدوك ، ولا أسَرَّ لوليِّك من هذا الأمر الذى أُلْهِمْتَه ، فأَمْضِ رأيك مُسَدَّداً ، فقد وجهتَ الصَّلِيبَ الأَرِيبَ(١) ، الناصحَ غير الظَّنِين ، والسلام » . (شرح ابن أبى الحديد م ١ : ص ٣٤٢)

٥٢٢ — كتاب معاوية إلى أهل البصرة

فلما جاء معاوية كتابُ عمرو ، دعا عبد الله بن عامر الحَضْرَمِىّ ، وقال له : سر على بَرَكة الله إلى أهل البصرة ، فانزِل فى مُضر ، واحْذَر ربيعةَ ، وتودَّد الأَزْدَ ، وانْعَ ابن عَفّان ، وذَكِّرْهم الوَقْعة التى أهلكتهم ، ومَنِّ مَن سَمع وأطاع دنيا لا تَفْنَى ، وأَثَرةً لا يَفقِدها حتى يَفْقِدَنا أو نَفْقِدَه ، ودفع إليه كتاباً ، وأمره إذا قَدِم أن يقرأه على الناس .

---

(١) الصليب : الشديد ، صلب ككرم وسمع صلابة فهو صلب كقفل وصلب كسكر وصليب كأمير . والأريب : العاقل ، أرب إربا كصغر صغرا وأرابة ككرامة: عقل فهو أريب .

فسار ابن الحضرمى حتى نزل البصرة فى بنى تميم ، وسمع بقدومه أهلُها ، فاجتمع إليه رءوسهم ، فخطبَهم بما أمره به معاوية ، وقام بعضهم فسفَّه رأيه ، وتبُودلت الخطب فى هذا المقام ، ففضَّ ابن الحضرمى كتاب معاوية وقرأه عليهم ، فإذا فيه :

« من عبد الله معاوية أمير المؤمنين ، إلى من قُرِئَ كتابى هذا عليه من المؤمنين والمسلمين من أهل البصرة :

سلام عليكم ، أما بعدُ : فإن سَفْكَ الدماء بغير حِلِّها ، وقَتْلَ النفوس التى حرَّم الله قتلَها ، هلاكٌ مُوبق[1] ، وخُسران مُبين ، لا يَقْبَل الله ممن سَفَكها صَرْفاً ولا عَدْلا[2] ، وقد رأيتم رَحِمكم الله آثار ابن عفان، وسِيرته، وحُبَّه العافية ومَعْدِلته، وسَدَّه الثُّغور ، وإعطاءه فى الحقوق ، وإنصافه للمظلوم ، وحُبَّه الضعيف ، حتى توثَّب عليه المتوثِّبون ، وتظاهَرَ[3] عليه الظّالمون ، فقتلوه مُسْلِما مُحْرِما[4] ، ظمآنَ صائماً ، لم يَسفِك فيهم دما ، ولم يقتل منهم أحداً ، ولا يطلبونه بضربة سيف ولا سَوْطٍ ، وإنما ندعوكم أيها المسلمون إلى الطلب بدمه ، وإلى قتالِ مَن قَتَله ، فإنا وَإياكم على أمرِ هُدًى واضح ، وسبيل مستقيم ، إنكم إن جامَعْتُمونا طَفِئَتِ النَّائرة[5] ، واجتمعتِ الكلمة ، واستقام أمرُ هذه الأمة، وأقرَّ الظالمون المتوثبون الذين قتلوا إمامهم بغير حق، فأُخِذوا بجَرائرهم[6] ، وما قدَّمت أيديهم .

إن لكم أن أعمَلَ فيكم بالكتاب ، وأن أُعطِيَكم فى السَّنة عطاءين ، ولا أحتمل فَضْلا من فَيْئكم عنكم أبدا ، فسارِعوا إلى ماتُدْعَون إليه ــ رحمكم الله ــ .

---

(١) أوبقه : أهلكه . (٢) انظر ص ٣٣ . (٣) أى تعاونوا عليه .

(٤) المحرم : الذى له حرمة ، والذى يحرم علينا قتاله .

(٥) النائرة : العداوة والشحناء ، وطفئت النار : انطفأت .

(٦) الجرائر جمع جريرة : وهى الجريمة .

وقد بعثت إليكم رجلا من الصالحين ، كان من أمناء خليفتكم المظلوم ابن عفان وعُماله وأعوانه على الهدى والحق ، جعلنا الله وإياكم ممن يُجيب إلى الحق ويعرفه ، ويُنكر الباطل ويَجحَده ، والسلام عليكم ورحمة الله » .

فلما قرئ عليهم الكتاب ، قال معظمهم : سمعنا وأطعنا .

(شرح ابن أبي الحديد م ١ : ص ٣٥٠)

٥٢٣ — كتاب عباس بن صحار العبدى إلى معاوية

وكان الذى سدَّد لمعاوية رأيه فى تسريح ابن الحضرمىّ كتاب كتبه إليه عباس ابن صُحَار(١) العَبْدى ، وممن كان يرى رَأْيَ عثمان ، ويخالف قومه فى حبهم عليّاً عليه السلام ونصرتهم إياه ، وكان الكتاب :

أما بعدُ ، فقد بلغنا وقْعتُك بأهل مصر الذين بَغَوا على إمامهم ، وقتلوا خليفتهم طمعاً وبَغياً ، فقرَّتْ بذلك العيون ، وشُفِيت بذلك النفوس ، وبَرَدت أفئدة أقوام كانوا لقتل عثمان كارهين ، ولعدوِّه مفارقين ، ولكم مُوالين ، وبك راضين ، فإن رأيت أن تبعَث إلينا أميراً طيباً ذَكيًّا ذا عفاف ودين للطلب بدم عثمان فعلت ، فإنى لا إخال الناس إلا مُجمِعين عليك ، وإن ابن عباس غائب عن المصر والسلام » .

وكان الأمير بالبصرة يومئذ زياد بن عُبَيد قد استخلفه عبد الله بن عباس وقدم الكوفة على علىّ عليه السلام يعزيه عن محمد بن أبى بكر .

(شرح ابن أبي الحديد م ١ : ص ٣٥٠)

٥٢٤ — رد معاوية على عباس بن صحار

فلما قرأ معاوية كتابه ، قال : لا عزمتُ رأيا سوى ما كتب به إلىَّ هذا ، وكتب إليه جوابه:

---

(١) فى الأصل « سخار » بالخاء المعجمة وهو تصحيف .

« أما بعد : فقد قرأت كتابك ، فعرَفْتُ نصيحتك ، وقبلت مَشورتك ، رَحمك الله وسَدَّدك ، اُثبت هدَاك اللهُ على رأيك الرشيد ، فكأنك بالرجل الذى سألتَ قد أتاك ، وكأنك بالجيش قد أطلَّ عليك ، فسُررتَ وحييتَ ، والسلام » .

(شرح ابن أبى الحديد م ١ : ص ٣٥٠)

٥٢٥ — كتاب زياد إلى ابن عباس

وأقبل الناس إلى ابن الحضرمى ، وكثر تَبَعه ، ففزِعَ لذلك زياد وهالَه ، وبعث إلى صَبرة بن شَيمان الأزدىّ ، فقال : يابن شيمان ، أنت سيد قومك ، وأحد عظماء هذا المصر ، أفلا تُجيرنى وتمنعنى وتمنع بيت مال المسلمين ، فإنما أنا أمين عليه ؟ فقال : بَلَى ، إن تحمَّلت حتى تنزل فى دارى منعتك ، فقال : إنى فاعل ، فارتحل ليلاً حتى نزل دار صَبِرة ، وكتب إلى عبد الله بن عباس :

« للأمير عبد الله بن عباس من زياد بن عبيد :

سلام عليك ، أما بعد : فإن عبد الله بن عامر الحضرمى أقبل من قِبَل معاوية حتى نزل فى بنى تميم ، ونَعَى ابن عفان ، ودعا إلى الحرب ، فبايعه تميم وجُلّ أهل البصرة ، ولم يبق معى من أمتنع به ، فلما رأيت ذلك استجرْتُ بالأزد بصَبِرة بن شيمان وقومه لنفسى ولبيت مال المسلمين ، وَرَحَلت من قصر الإمارة فنزلت فيهم ، وإن الأزد معى ، وشيعة أمير المؤمنين من فُرسان القبائل تختلف إلىّ ، وشيعة عثمان تختلف إلى ابن الحضرمى والقصرُ خالٍ منا ومنهم ، فارفع ذلك إلى أمير المؤمنين ، ليَرَى فيه رأيه ، واعجَلْ إلىّ بالذى ترى أن يكون منه فيه ، والسلام عليك ورحمة الله وبركاته » .

فرفع ذلك ابن عباس إلى علىّ عليه السلام .

وغلب ابن الحضرمى على ما يليه من البصرة وجَبَاها ، وأجمعت الأزدُ على زياد ، وأعدُّوا له مِنبرا وسَرِيرا وشُرَطا .

(شرح ابن أبى الحديد م ١ : ص ٣٥١ ، وتاريخ الطبرى ٦ : ٦٤)

٥٢٦ — كتاب عليّ إلى زياد

وبعث عليّ عليه السلام أَعْيَنَ بن ضُبَيْعة المُجَاشِعيّ إلى البصرة وكتب إلى زياد :

من عبد الله عليّ أمير المؤمنين إلى زياد بن عبيد :

سلام عليك ، أما بعد ، فإني قد بعثت أَعْيَنَ بن ضُبَيعة ليفرّق قومه عن ابن الحضرمى ، فارقُبْ ما يكون منه ، فإن فعل وبلغ من ذلك ما يُظَنّ به ، وكان فى ذلك تفريقُ تلك الأوباش فهو ما نحبّ ، وإن ترامَت الأمور بالقوم إلى الشقاق والتمادى فى العصيان ، فانبِذْ من أطاعك إلى من عصاك ، فجاهدهم ، فإن ظهرتَ فهو ما ظننت ، وإن رأيت ممن قِبَلك تثاقلا ، وخِفْت ألاّ تبلغَ ما تُريد ، فَطاوِلْهم وماطلهم ، ثم تسمّعْ وأبصر ، فكأن كتائب المسلمين قد أطلّت عليك ، فقتل الله المفسدين الظالمين ، ونصر المؤمنين المُحِقّين ، والسلام » .

(شرح ابن أبى الحديد ١ : ص ٣٥٢ ، وتاريخ الطبرى ٦ : ٦٤)

٥٢٧ — كتاب زياد إلى عليّ

وقدم أعْيَن بن ضُبَيْعة البصرة ، فجمع إليه رجالا من قومه ، وحثهم على الطاعة ، ولزوم الجماعة ، وحذرهم الخلاف والفرقة ، فسمعوا له وأطاعوا ، فنهض بهم إلى جماعة ابن الحضرمى ، فوافقهم عامّةَ يومه يناشِدهم الله ألاّ ينكُثوا بيعتهم ولا يخالفوا إمامهم ، فكفوا عنه ، فانصرف عنهم ، فلما أوَى إلى رحله تبِعه عشرة نَفَر ، يظن الناس أنهم خوارج فقتلوه ، فكتب زياد إلى عليّ عليه السلام :

« أما بعدُ يا أمير المؤمنين : فإن أعْيَن بن ضُبَيْعة قدِم علينا من قِبَلك بجِدّ ومناصحة، وصدق ويقين ، فجمع إليه من أطاعه من عشيرته ، فحثهم على الطاعة والجماعة ، وحذّرهم الخلاف والفرقة ، ثم نهض بمن أقبل معه إلى من أدبر عنه ، فوافَقَهم عامّةَ النهار ، فهال

أهلَ الخلاف تقدُّمُه ، وتصدَّع عن ابن الحضرمى كثير ممن كان يريد نصرته ، فكان كذلك حتى أمسَى ، فأتى فى رحله ، فبيَّته نفرٌ من هذه الخارجة المارقة ، فأصيب رحمه الله تعالى ، فأردت أن أناهض ابن الحضرمى عند ذلك ، فحدَثَ أمر قد أمرتُ صاحب كتابى هذا أن يذكره لأمير المؤمنين(١) ، وقد رأيت — إن رأى أمير المؤمنين ما رأيت — أن يبعث إليهم جارية بن قُدَامَة ، فإنه نافذُ البصيرة مُطاعٌ فى العشيرة ، شديد على عدوّ أمير المؤمنين ، فإن يَقْدَم يُفرِّق بينهم بإذن الله ، والسلام على أمير المؤمنين ورحمة الله وبركاته » .

(شرح ابن أبى الحديد م ١ ص ٣٥٣ ، وتاريخ الطبرى ٦ : ٦٤)

٥٢٨ — كتاب علىّ إلى أهل البصرة

فبعث إليهم علىّ عليه السلام جارِيَة بن قُدامة ، وكتب معه كتابا إلى أهل البصرة ، وفيه :

« من عبد الله علىّ أمير المؤمنين إلى من قُرِئَ عليه كتابى هذا من ساكنى البصرة من المؤمنين والمسلمين :

سلام عليكم ، أما بعدُ : فإن الله حليم ذو أَنَاةٍ لا يَعْجَل بالعقوبة قبل البيِّنة ، ولا يأخذُ المذنبَ عند أول وَهْلَة ، ولكنه يقبل التوبة ، ويستديم الأناة ، ويَرضى بالإنابة ، ليكون أعظمَ للحُجَّة ، وأبلَغ فى المَعذِرة .

وقد كان من انتشار حبلكم وشقاقكم مالم تَغْبَوْا(٢) عنه ، فعفوتُ عن مجرمكم ، ورفعت السيف عن مُدْبِركم ، وقبلت من مُقْبِلكم ، وأخذت بيعتكم فإن تفُوا ببيعتى ، وتقبلوا نصيحتى ، وتستقيموا على طاعتى ، أعمَلْ فيكم بالكتاب والسنة ، وقَصْد الحق ،

---

(١) أراد زياد أن يناهض ابن الحضرمى — حين قتل أعين — بجماعة من معه من الأزد وغيرهم من شيعة على عليه السلام . فأرسل بنو تميم إلى الأزد : والله ما عرضنا لجاركم إذ أجرتموه ، ولا لمال هو له ، ولا لأحد ليس على رأينا ، فما تريدون إلى حربنا وإلى جارنا؟ فكان الأزد عند ذلك كرهت قتالهم . .

(٢) غبى عن الشىء وغبيه كفرح : إذا لم يفطن له .

وَأقيم فيكم على سبيل الهدى ، فوالله ما أعلم أن والياً بعد محمد صلى الله عليه وآله أعلم بذلك منى ، ولا أعمل بقولى ، أقول قولى هذا صادقاً غير ذامٍّ لمن مضى ، ولا منتقصٍ لأعمالهم .

وإن خَطَت بكم الأهواء المُرْدية ، وسَفَهُ الآراء الجائرة إلى مُنابذتى تريدون خلافى ، فهأنَذَا قد قرّبتُ جيادى ، ورَحَلْتُ رِكابى ، وآيمُ الله لئن ألجأتمونى إلى المسير إليكم ، لأُوقِعَنّ بكم وَقْعَةً ، لا يكون يومُ الجَمَل إليها إلا كلَعْقَة لاعق ، مع أنى عارف لذِى الطاعة منكم فضلَه ، ولذى النصيحة حقَّه ، غير متجاوزٍ مُتَّهما إلى برىء ، ولا ناكثاً إلى وَفِىّ .

وإنى لظانٌّ أن لا تجعلوا إن شاء الله على أنفسكم سبيلا ، وقد قدَّمت هذا الكتاب إليكم حُجَّة عليكم ، ولن أكتب إليكم من بعده كتاباً ، إن أنتم استغشَشْتم نصيحتى ، ونابذتم رسولى ، حتى أكونَ أنا الشاخص نحوكم إن شاء الله تعالى والسلام».

(شرح ابن أبى الحديد م ١ : ص ٣٥٣ ، ونهج البلاغة ٢ : ٢٥)

٥٢٩ — كتاب زياد إلى علىّ

وشَخَص جارية بن قُدامة إلى البصرة ، وكلَّم قومه فلم يُجيبوه ، وخرج إليه منهم أوباشٌ فناوشوه بعد أن شتموه ، فأرسل إلى زياد والأزد يستصرخهم فسارت الأزد بزياد ، وخرج إليهم ابن الحضرمى ، فاقتتلوا ساعة ، فما لبّثوا بنى تميم أن هزموهم ، وحصروا ابن الحضرمى فى إحدى دور البصرة ، فى عِدّة من أصحابه ، وحرق جارية الدار عليهم ، فهلك ابن الحضرمى فى سبعين رجلا .

وسارت الأزد بزياد حتى أوطنوه قصر الإمارة ومعه بيت المال ، وقالوا له : هل بقى علينا من جوارك شىء ؟ قال : لا ، فانصرفوا عنه .

وكتب زياد إلى علىّ عليه السلام :

« أما بعد : فإن جارية بن قدامة العبد الصالح قَدِمَ من عندك ، فناهض جمع ابن الحضرمى ، بمن نصره وأعانه من الأزد ، ففضّه واضطرّه إلى دار من دور البصرة فى عدد كثير من أصحابه ، فلم يخرج حتى حكم الله تعالى بينهما ، فقُتل ابن الحضرمى وأصحابه ، منهم من أُحْرِق بالنار ، ومنهم من ألقى عليه جدار ، ومنهم من هُدِم عليه البيت من أعلاه ، ومنهم من قُتل بالسيف ، وسلم منهم نَفَر أنابوا وتابوا ، فصفح عنهم ، وبُعْدًا لمن عَصَى وغوَى ، والسلام على أمير المؤمنين ، ورحمة الله وبركاته .

(شرح ابن أبى الحديد م ١ : ص ٣٥٤)

٥٣٠ — كتاب علىّ إلى زياد

وكان علىّ عليه السلام أخرج إلى زياد سعداً مولاه يَحُثه على حمل مال البصرة إلى الكوفة ، وكان بين سعد وزياد مُلاحاة(١) ومنازعة ، وعاد سعد فشكاه إلى علىّ وعابه ، فكتب علىّ إليه :

« أما بعدُ : فإن سعداً ذكر أنك شتمته ظلما ، وهدّدته وجَبَهته(٢) تجبُّرًا وتكبُّرا ، فما دعاك إلى التكبر ؟ وقد قال رسول الله صلى الله عليه وآله : « الكِبر رِداء الله ، فمن نازَعَ اللهَ رِداءه قَصَمه » وقد أخبرنى أنك تُكثر من الألوان المختلفة فى الطعام فى اليوم الواحد ، وتَدَّهِن كل يوم ، فما عليك لو صُمْتَ لله أياماً ، وتصدّقت ببعض ماعندك محتسِبًا ، وأكلْتَ طعامك مِرَارًا قَفارًا(٣) ؟ فإن ذلك شِعارُ الصالحين ، أفتطمَعُ وأنت متمرِّغٌ فى النعيم تستأثرُ به على الجار ، والمسكين ، والضعيف ، والفقير ، والأرْمَلة ، واليتيم أن يُحسَب لك أجرُ المتصدقين ؟ وأخْبَرَنى أنك تتكلم بكلام الأبرار وتعمل عمل الخاطئين ، فإن كنت تفعل ذلك فنفسَك ظلمتَ ، وعملَك أحْبَطتَ(٤) ، فتُب إلى ربك ، يُصْلح لك عملَك ، واقتصد فى أمرك ، وقدِّم إلى ربك الفضلَ ليوم

---

(١) لاحاه : نازعه . (٢) جبهه كمنعه : لقيه بما يكره .
(٣) أى غير مأدوم . (٤) أى أفسدت .

حاجتك ، وآدَّهِن غِبّا[1] ، فإني سمعت رسول الله صلى الله عليه وآله يقول : « أُدَّهِنوا غِبًّا وَلا تَدَّهِنُوا رَقْمًا[2] » . (شرح ابن أبي الحديد م ٤ : ص ٧٣)

٥٣١ — رد زياد عليه

فكتب إليه زياد :

« أما بعدُ يا أمير المؤمنين : فإن سَعْدا قَدِم عليَّ فأساء القولَ والعملَ ، فانتَهَرْتُه وزجرتُه ، وكان أهلا لأكثر من ذلك ، وأما ما ذكر من الإسراف واتخاذ الألوان من الطعام والنعم ، فإن كان صادقًا فأثابه ٱلله ثواب الصالحين ، وإن كان كاذبا فوَقَاه ٱلله أشدَّ عقوبة الكاذبين ، وأما قوله : إني أصِف العدل وأخالفه إلى غيره ، فإني إذَنْ من الأَخْسَرِين ، فخذ يا أمير المؤمنين بمقالٍ قُلْتَه في مَقَامٍ قُمْتُه : « ٱلدَّعْوَى بلا بيِّنة كالسَّهْم بلا نَصْل » فإن أتاك بشاهِدَى عَدْل ، وإلاَّ تبيَّن لك كَذِبه وظُلْمه » .

(شرح ابن أبي الحديد م ٤ : ص ٧٣)

٥٣٢ — كتاب معاوية إلى زياد بن أبيه

وروى ٱبن أبي الحديد عن المدائني قال :

لما كان زمنُ عليّ عليه السلام — وَلَّى زيادا فارسَ[3] — أو بعض أعمال فارس — فضبَطَها ضبطًا صالحًا ، وجَبَى خراجَها وحَمَاها ، وعرَف ذلك معاوية فكتب إليه :

---

(١) أي ادهانا متقطعاً لامتتاليا .

(٢) الرقم : النقش والوشي — والأصل فيه الكتابة — والمعنى : ولاتدهنوا لأجل التزين .

(٣) روى الطبري . قال : قال الشعبي : « لما قتل علي عليه السلام أهل النهروان خالفه قوم كثير، وانتقضت عليه أطرافه ، وخالفه بنوناجية ، وقدم ابن الحضرمي البصرة ، وانتقض أهل الأهواز ، وطمع أهل الخراج في كسره ، ثم أخرجوا سهل بن حنيف من فارس — وكان عامل على عليها — فقال ابن عباس لعلي : أكفيك فارس بزياد ، فأمره على أن يوجهه إليها ، فقدم ابن عباس البصرة ، ووجهه إلى فارس سنة ٣٩ في جمع كثير ، فوطىء بهم أهل فارس فأدوا الخراج » — انظر تاريخ الطبري ٦ : ٧١ — .

وروى أيضاً أنه لما قتل ابن الحضرمي ، واختلف الناس على علي ، طمع أهل فارس وأهل كرمان =

« أما بعد : فإنه غرَّتك قلاعٌ تأوى إليها ليلا ، كما تأوى الطير إلى وَكرها ، وأيمُ الله لولا انتظارى بك ما الله أعلمُ به ، لكان لك منى ما قاله العبد الصالح(١) :
« فَلَنَأْتِيَنَّهُمْ بِجُنُودٍ لَا قِبَلَ لَهُمْ بِهَا وَلَنُخْرِجَنَّهُمْ مِنْهَا أَذِلَّةً وَهُمْ صَاغِرُونَ »
وكتب فى أسفل الكتاب شعراً من جملته :

تنسَى أباك وقد شالت نَعامَتُه إذ يَخطُبُ الناس والوالى لهم عُمَرُ(٢)

(شرح ابن أبى الحديد م : ٤ ص ٦٧)

= فى كسر الخراج، فغلب أهل كل ناحية على ما يليهم وأخرجوا عمالهم ، فاستشار على الناس فى رجل يوليه فارس ، فقال له جارية بن قدامة : ألا أدلك يا أمير المؤمنين على رجل صليب الرأى عالم بالسياسة كاف لما ولى ؟ قال : من هو ؟ قال : زياد ، قال : هولها ، فولاه فارس وكرمان ، ووجهه فى أربعة آلاف ، فدوخ تلك البلاد حتى استقاموا . وذكروا أنه لما قدم فارس بعث إلى رؤسائها ، فوعدمن نصره ومناه ، وخوف قوما وتوعدهم ، وضرب بعضهم ببعض ، ودل بعضهم على عورة بعض ، وهربت طائفة ، وأقامت طائفة ، فقتل بعضهم بعضاً . وصفت له فارس ، فلم يلق فيها جمعاً ولا حربا ، وفعل مثل ذلك بكرمان ، ثم رجع إلى فارس فسار فى كورها ومناهم ، فسكن الناس إلى ذلك فاستقامت له البلاد ، وأتى إصطخر فنزلها وحصن قلعة بهامابين بيضاء وإصطخر فكانت تسمى قلعة زياد وحدث رجل من أهل إصطخر قال: أدركت زياداً وهو أمير على فارس وهى تضرم ناراً، فلم يزل بالمداراة حتى عادوا إلى ما كانوا عليه من الطاعة والاستقامة ، لم يقف موقفاً للحرب ، وكان أهل فارس يقولون: مارأينا سيرة أشبه بسيرة كسرى أنوشروان من سيرة هذا العربى فى اللين والمداراة والعلم بما يأتى — انظر تاريخ الطبرى ٦ : ٧٩ — .

(١) يعنى سليمان عليه السلام ، قال ذلك لرسول بلقيس ملكة سبأ باليمن وقد بعثت إليه بهدية .

(٢) روى الطبرى أنه لما فتحت جلولاء — من بلاد الفرس سنة ١٦ هـ — بعث سعد بن أبى وقاص بأخماس الغنائم مع قضاعى بن عمرو الدؤلى ، وبعث بالسبى مع أبى مفرز الأسود ، وبعث الحساب مع زياد — وكان زياد الذى يكتب للناس ويدونهم — فلما قدموا على عمر كلم زياد عمر فيما جاء له ووصفه له ، فقال عمر : هل تستطيع أن تقوم فى الناس بمثل الذى كلمتنى به ؟ فقال : والله ما على الأرض شخص أهيب فى صدرى منك ، فكيف لا أقوى على هذا من غيرك ؟ فقام فى الناس بما أصابوا وبما صنعوا وبما يستأذنون فيه من الانسياح فى البلاد ، فقال عمر : هذا الخطيب المصقع ! فقال : إن جندنا أطلقوا بالفعال لساننا — انظر تاريخ الطبرى ٤ : ١٨٢ .

وفى رواية ابن أبى الحديد أن عمر بعث زياداً فى إصلاح فساد واقع باليمن ، فلما رجع من وجهه خطب — وهو حدث — عند عمر خطبة لم يسمع مثلها ، وأبو سفيان حاضر وعلى عليه السلام وعمرو بن العاص ، فقال عمرو: لله أبو هذا الغلام، لو كان قرشياً لساق العرب بعصاه ، فقال أبو سفيان : أما والله إنه لقرشى، ولو عرفت أباه لعرفت أنه من خير أهلك، فقال: ومن أبوه؟ قال: أنا والله وضعته فى رحم أمه ، فقال على: فما يمنعك من استلحاقه ؟ قال أخاف هذا العير الجالس أن يخرق على إهابى — انظر شرح ابن أبى الحديد م ٤ : ص ٦٧ و م ١ : ص ٥٨ ، والعقد الفريد ٣ : ٣ — وشالت نعامتهم : إذا ماتوا وتفرقوا .

٥٣٣ — كتاب علىّ إلى زياد

فكتب زياد إلى علىّ عليه السلام ، وبعث بكتاب معاوية فى كتابه ، فكتب إليه علىّ :

« أما بعدُ : فإنى قد ولَّيتك ما وليتك ، وأنا أراك لذلك أهلا ، وإنه قد كانت من أبى سفيان فَلْتة فى أيام عمر من أمانِىِّ التِّيه[1] ، وكَذِب النفس ، لم تستوجب بها مِيراثاً ، ولم تستحِقَّ بها نسباً ، وإن معاوية كالشيطان الرّجيم ، يأتى المرء من بين يديه ومِن خَلْفه ، وعن يمينه وعن شِماله ، فاحْذَره ، ثم احذره ، ثم احذره ، والسلام » .

(شرح ابن أبى الحديد م ٤ : ص ٦٨)

* * *

وروى الشريف الرضى رحمه الله فى نهج البلاغة قال :

« من كتاب لعلىّ عليه السلام إلى زياد بن أبيه ، وقد بلغه أن معاوية كتب إليه يريد خديعته باستلحاقه :

وقد عرَفْتُ أن معاويةَ كتب إليك يَسْتزِلّ[2] لُبَّك ، ويَستفِلُّ غَرْبَك ، فاحْذَره فإنما هو الشيطانُ يأتى المرء من بين يديه ومن خلفه ، وعن يمينه ، وعن شِماله[3] ، لِيقتحِم غَفْلَتَه ، ويستلِبَ غِرَّته[4] ، وقد كان من أبى سفيان فى زمن عمر بن الخطاب فَلْتة من حديث النفس ، ونَزْغَة من نَزَغات الشيطان ، لا يثبُتُ بها نَسَب[5] ،

---

(١) التيه : الصلف والكبر .

(٢) أى يطلب زلله وخطأه : أى يحاول أن تزل ، واللب : العقل ، والغرب : الحد، ويستفله: أى يحاول أن يفله . (٣) مأخوذ من قوله تعالى : « ثُمَّ لَآتِيَنَّهُمْ مِنْ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ وَمِنْ خَلْفِهِمْ وَعَنْ أَيْمَانِهِمْ وَعَنْ شَمَائِلِهِمْ وَلَا تَجِدُ أَكْثَرَهُمْ شَاكِرِينَ »

(٤) الغرة : الغفلة . (٥) لقوله صلى الله عليه وسلم: «الولد للفراش وللعاهر الحجر» والعاهر الزانى ، أى لاحق له فى النسب ولا حظ له فى الولد ، وإنما هو لصاحب الفراش ، أى لصاحب أم الولد وهو زوجها أو مولاها ، وهو كقوله الآخر : لهالتراب » أى لاشىء له .

ولا يُستحقُّ بها إرْث ، والمتعلق بها كالواغِلِ[1] المُدَفَّع ، وَالنَّوْط المُذَبْذَب » .

فلما قرأ زياد الكتاب ، قال : شَهِد بها وَربِّ الكعبة ، ولم تزل فى نفسه حتى ادّعاه معاوية . (نهج البلاغة ٢ : ٤٩)

٥٣٤ — كتاب علىّ إلى ابن عباس

وكتب علىّ إلى ابن عباس :

« أما بعد : فإن المرء قد يَسُرُّه دَرْكُ مالم يكن ليَفُوتَه[2] ، ويسوءه فَوْتُ مالم يكن لِيُدْرِكَه ، فما نالك من دنياك فلا تُكْثِر به فَرَحا ، وما فاتك منها فلا تَأْسَ عليه جَزَعا[3] ، وليكن سرورك بما نِلْت من آخِرتك ، وليكن أسَفُك على ما فاتك منها[4] ، وليكن همُّك فيما بعد الموت » .

(نهج البلاغة ٢ : ١٤ ، والأمالى ٢ : ٩٦ ، وإعجاز القرآن ص ١٢١)

* * *

وقد روى هذا الكتاب فى نهج البلاغة أيضاً بصورة أخرى ، وهى :

« أما بعدُ : فإن المرء لَيَفرحُ بالشىء الذى لم يكن ليفوته ، ويحزَن على الشىء الذى لم يكن ليُصيبَه ، فلا يكن أفضلَ ما نِلت فى نفسك من دنياك بُلُوغُ لذة ، أو شفاء غيظ ، ولكن إطفاء باطلٍ أو إحياء حق ، وليكن سرورك بما قدمت ، وأسفك على ما خلّفت ، وهمك فيما بعد الموت » . (نهج البلاغة ٢ : ٩٢)

---

(١) الواغل : هو الذى يدخل على القوم فى طعامهم وشرابهم من غير أن يدعوه إليه أو ينفق معهم مثل ما أنفقوا فلا يزال مدفعاً محاجزاً ، والنوط المذبذب : هو ما يناط أى يعلق برحل الراكب من قعب أو قدح أو ما أشبه ذلك ، فهو أبداً يتقلقل إذا حث ظهره واستعجل سيره .

(٢) وفى إعجاز القرآن « يسر بدرك مالم يكن ليحرمه » . (٣) وفى الأمالى « فلا تتبعه أسفاً » وفى إعجاز القرآن « وانظر ما فاتك من الدنيا فلا تكثر عليه جزعاً، ومانلته فلا تنعم به فرحا » .

(٤) فى الأمالى « فليكن سرورك بما قدمت ، وأسفك على ما خلفت » وفى إعجاز القرآن « فليكن سرورك بما قدمت من أجر أو منطق ، وليكن أسفك فيما فرطت فيه من ذلك » .

وكان ابن عباس يقول : ما انتفعت بكلام بعد كلام رسول الله صلى الله عليه وسلم كانتفاعى بهذا الكلام .

٥٢٥ — كتاب أبي الأسود الدؤلي إلى علي

وروى أن عبد الله بن عباس كان من أحب الناس إلى عمر بن الخطاب وكان يقدّمه على الأكابر من أصحاب محمد صلى الله عليه وسلم، ولم يستعمله قط، فقال له يومًا: كدت أستعملك، ولكن أخشى أن تستحلّ الفَيْء على التأويل، فلما سار الأمر إلى علي، استعمله على البصرة ـ بعد وقعة الجمل كما قدّمنا ـ فاستحلّ الفَيْء على تأويل قول الله تعالى: « وَاعْلَمُوا أَنَّمَا غَنِمْتُمْ مِنْ شَيْءٍ فَأَنَّ لِلَّهِ خُمُسَهُ وَلِلرَّسُولِ وَلِذِي الْقُرْبَى ... » واستحلّه لقرابته من رسول الله صلى الله عليه وسلم.

وَمَرّ ابن عباس يومًا على أبي الأسود الدؤلي، فقال له: لو كُنتَ مِنَ البهائم لكنت جملا، ولو كنت راعيًا ما بلغت المرعَى، ولا أحسنت مهنتَه في المشى، فكتب أبو الأسود إلى عليّ:

« أما بعدُ: فإن الله جل وعلا جعلك واليًا مؤتمنًا، وراعيًا مسئولًا، وقد بَلَوْناك[1] رَحِمك الله، فوجدناك عظيمَ الأمانة، ناصحًا للأمة، توفِّر لهم فيئَهم وتَظْلِف[2] نفسَك عن دنياهم، فلا تأكُلُ أموالهم، ولا ترتشِي بشيء في أحكامهم.

وإن ابن عمك قد أكل ما تحت يديه بغير علمك، فلم يَسَعْنِي كتمانك ذلك، فانظر رَحِمك الله فيما هنالك، واكتب إليّ برأيك، فما أحبَبْتَ أتّبِعه إن شاء الله، والسلام ».

(العقد الفريد ٢ : ٢٤٢، وتاريخ الطبرى ٦ : ٨١)

٥٢٦ — رد عليّ على أبي الأسود

فكتب إليه علي:

« أما بعدُ: فمِثْلُك نَصَح الإمام والأمة، وأدَّى الأمانة، ووَالَى على الحق وفارق الجَوْر، وقد كتبتُ إلى صاحبك بما كتبتَ إليّ فيه من أمره، ولم أُعلِمه بكتابك إليّ

---

(١) أي اختبرناك.

(٢) ظلف نفسه عنه كضرب، منعها من أن تفعله وكفها عنه، وفي العقد الفريد « وتكف ».

فلا تَدَعْ إعلامي بما يكون بحَضْرَتك ، مما النظرُ فيه للأمة صَلاحٌ ، فإنك بذلك جَدير ، وهو حق واجبٌ لِلّهِ عليك ، والسلام » .

(العقد الفريد ٢ : ٢٤٢ ، وتاريخ الطبرى ٦ : ٨١)

٥٣٧ — كتاب على إلى ابن عباس

وكتب علىّ إلى ابن عباس :

« أما بعد : فإنه قد بلغنى عنك أمر ، إن كنت فعلتَه فقد أسخَطْتَ ربك ، وعَصَيْتَ إمامك ، وأخزَيْتَ أمانتك ، وخُنْتَ المسلمين .

يلغنى أنك جَرَدْتَ[1] الأرض ، فأخذت ما تحت قدمَيْك ، وأكلت ما تحت يديك ، فارفَعْ إلىّ حسابَك ، واعلم أن حساب الله أعظم من حساب الناس ، والسلام » .

(العقد الفريد ٢ : ٢٤٢ ، ونهج البلاغة ٢ : ٤٦)

٥٣٨ — رد ابن عباس على علىّ

فكتب إليه ابن عباس :

« أما بعد : فإن كل الذى بَلَغَك باطل ، وإنى لما تحت يدىَّ ضابِط قائم له ، وعليه حافِظٌ ، فلا تصدِّقْ علىَّ الضَّنِينَ[2] ، والسلام » .

(العقد الفريد ٢ : ٢٤٢ ، وتاريخ الطبرى ٦ : ٨٢)

---

(١) أى قشرتها ، والمعنى : أخربتها .
(٢) وفى الطبرى « فلا تصدق الظنون » والضنين : البخيل . وكان أبو الأسود معروفا بالبخل . ومن طريف ما يروى عنه أن رجلا قال له : « أنت والله ظرف لفظ ، وظرف علم ، ووعاء حلم ، غير أنك بخيل » فقال : « وما خير ظرف لا يمسك ما فيه ؟ » وسلم عليه أعرابى يوما ، فقال أبو الأسود : كلمة مقولة ، فقال له : أتأذن فى الدخول ؟ قال : وراءك أوسع لك ، قال : فهل عندك شىء ؟ قال : نعم ، قال : أطعمنى ، قال : عيالى أحق منك ، قال : مارأيت ألأم منك ؟ قال : نسيت نفسك . « أمالى المرتضى ١ : ٢١٤ » وسمع أبو الأسود رجلا يقول : من يعشى الجائع ؟ فعشاه ، ثم قام الرجل ليخرج ، فقال . هيهات ! تخرج فتؤذى الناس كما آذيتنى ! ووضع رجله فى الأدهم حتى أصبح . « المحاسن والأضداد ١ ص ٦٩ » .

٥٣٩ — رد علىّ على ابن عباس

فكتب إليه علىّ :

« أما بعدُ : فإنه لايَسَعُنى تَركُك حتى تُعلِمَنى ما أخذتَ من الجزية ، من أينَ أخذتَه ؟ وما وضعتَ منها ، فيمَ وضعْته ؟ فاتَّقِ الله فيما ائتمنتُك عليه واسترعَيْتُك إياه فإن المتاعَ بما أنت رازِمُه[1] قليل ، وتِباعَتَه وَبيلَةٌ لاتَبِيدُ ، والسلام » .

(العقد الفريد ٢ : ٢٤٢ ، وتاريخ الطبرى ٦ : ٨٢)

٥٤٠ — رد ابن عباس على علىّ

فلما رأى أن عليًّا غير مُقلِـع عنه ، كتب إليه :

« أما بعد : فقد فهمت تعظيمَك علىّ مَرْزِئَةَ[2] مال، بَلَغَكَ أنى رَزَأْتُه أهلَ هذه البلاد ، وايمُ اللهِ لَأَنْ أَلْقَى الله بما فى بطن هذه الأرض من عِقْيانِها[3] ومُخَبَّئِها ، وبما على ظهرها من طِلَاعِها ذَهَبًا ، أحبُّ إلىَّ من أن أَلْقَى الله ، وقد سفكتُ دِماء هذه الأمة لأنالَ بذلك المُلْكَ والإمْرَة .

ابعث إلى عملك مَن أحْبَبْتَ ، فإنى ظاعنٌ عنه ، والسلام » .

ورحل ابن عباس عن البصرة ، وقد حمل ما كان فى بيت مالها ، حتى قَدِم الحجاز ، فنزل مكة ، واشترى من عطاء بن جُبَيْر ثلاثَ مُوَلَّدات حِجَازِيات بثلاثة آلاف دينار .

(العقد الفريد ٢ : ٢٤٢ ، تاريخ الطبرى ٦ : ٨٢ ، وشرح ابن أبى الحديد م ٤ : ص ٦٤)

---

(١) رزم الشيء كضرب ونصر جمعه فى ثوب ، والتباعة . التبعة .

(٢) رزأه ماله كفتح وفرح : أصاب من ماله شيئا ويقال . ما رزأته ماله وما رزئته ماله أى ما نقصته .

(٣) العقيان : الذهب ، وطلاع الشيء : ملؤه ، وفى ابن أبى الحديد « أما بعد : فإنك قد أكثرت على ، ووالله لأن ألقى الله قد احتويت على كنوز الأرض كلها وذهبها وعقيانها ولجينها، أحب إلى من أن ألقاه بدم امرئ مسلم » — واللجين بالضم : الفضة .

٥٤١ — كتاب عليّ إلى ابن عباس

ثم كتب عليّ إلى ابن عباس :

« أما بعد : فإنى كنت أشركتُك فى أمانتى ، وجعلتك شِعارى[١] وبِطَانتى ولم يكن من أهل بيتى رجلٌ أوثق منك فى نفسى ، لمُوَاساتى ومُوَازَرتى ، وأداء الأمانة إلىَّ ، فلما رأيتَ الزمان على ابن عمك قد كَلِبَ[٢] ، والعدوّ قد حَرِبَ ، وأمانةَ الناس قد خَزِيَت[٣] ، وهذه الأمة قد فَتَكَت[٤] وشَغَرَتْ ، قَلَبْتَ لابن عمك ظَهْرَ المِجَنّ[٥] ، ففارقته مع المفارقين ، وخَذَلْته أسوأ خِذْلان ، وخُنْته مع من خان[٦] ، فلا ابنَ عمّك آسَيْتَ[٧] ، ولا الأمانةَ إليه أدَّيْت ، وكأنك لم تكن الله تُريد بجهادك ، وكأنك لم تكن على بيِّنةٍ من ربك ، وكأنك إنما كنت تكيد هذه الأمة عن دنياهم ، وتَنْوِى غِرَّتهم[٨] عن فَيْئهم ، فلمَّا أمكَنَتْك الشِّدّة[٩] فى خيانة الأمة ، أسْرَعْتَ الكَرَّةَ ، وعاجَلْتَ الوَثْبة ، فاختطفْتَ ما قدَرت عليه من أموالهم المَصُونة

---

(١) الشعار : الثوب يلى شعر الجسد . (٢) كلب الزمان : اشتد ، وحرب العدو . استأسد واشتد غضبه ، وفى العقد الفريد « قد حرد » وحرد كسمع وضرب : غضب .

(٣) أى زلت وهانت . (٤) فتك فى الأمر كنصر : لج فيه ، وفنك : كذب ، وفنك فى الكذب : مضى ولج فيه ، وفنكت الجارية : مجنت ، وكل هذه المعانى صالحة هنا ، وفى العقد الفريد « قد فتنت » وشغرت (كمنع) أى خلت من الخير ، من شغرت الأرض : إذا لم يبق بها أحد يحميها ويضبطها فهى شاغرة .

(٥) المجن : الترس ، وهذا مثل يضرب لمن كان لصاحبه على مودة ورعاية ثم حال عن العهد ، قال ابن أبى الحديد : « وأصل ذلك أن الجيش إذا لقوا العدو كانت ظهور مجانهم إلى وجه العدو ، وبطونها إلى وجه عسكرهم ، فإذا فارقوا رئيسهم وصاروا مع العدو كان وضع مجانهم بدلا من الوضع الذى كانت من قبل ، وذلك أن ظهور الترسة لا يمكن أن تكون إلا فى وجوه الأعداء لأنها مرمى سهامهم اه » .

(٦) وفى نهج البلاغة « وخذلته مع الخاذلين ، وختنه مع الخائنين » .

(٧) آساه : شاركه وأصابه بخير ، وفى الحديث : « ما أحد عندى أعظم يدا من أبى بكر ، آسانى بنفسه ، وماله » . (٨) الغرة : الغفلة .

(٩) الحلة ، وفى العقد « فلما أمكنتك الفرصة فى خيانة الأمة أسرعت الغدرة » .

لأَرَامِلِهِم وأيتامهم ، اختطاف الذئب الأَزَلِّ[1] دامِيةَ المِعْزَى الـكَسِيرةِ ، فحملتَه إلى الحجاز ، رَحِيبَ الصَّدرِ بحَمْله ، غير متأثِّم من أخذه ، كأنك ـ لا أبَا لِغَيرك[2] ـ حَدَرْتَ إلى أهلك تُراثَك من أبيك وأمِّك ، فسبحان اللهِ ! أَمَا تؤْمِن بالمَعاد ؟ أَوَ ما تخافُ نِقاشَ الحِساب ؟

أيها المعدودُ ـ كان عندنا من أولِى الألباب ، كيف تُسِيغُ[3] شَرابًا وطعاما ؟ وأنت تعلمُ أنك تأكلُ حرامًا ، وتشرب حرامًا ، وتبتاع الإماء ، وتنكِحُ النِّسَاء ، من مال اليتامى ، والمساكين ، والمؤمنين والمجاهدين الذين أفاءَ الله عليهم هذه الأموالَ ، وأَحْرَزَ بهم هذه البلادَ .

فاتَّقِ الله وارْدُدْ إلى هؤلاء القوم أموالهم ، فإنك إن لم تفعل ، ثم أمكَنَنى الله منك ، لَأُعْذِرَنَّ[4] إلى الله فيك ، ولَأَضْرِبنَّك بسيفِى الذى ما ضربتُ به أحداً إلا دخل النار ، ووالله لو أن الحسَنَ والحسين فعلا مثل الذى فعلت ، ما كانت لهما عندى هَوَادَةٌ ، ولا ظفِرا منى بإرادة ، حتى آخُذَ الحقَّ منهما ، وأُزِيلَ الباطل عن مَظْلَمَتهما ، وإنى أُقْسِمُ بالله ربى وربك ربِّ العزة ما يَسُرُّنى أن ما أخذت من أموالهم حلال لى أَدَعُه ميراثًا لعَقِبِى ، فما بالُ اغتباطِك به تأكله حرامًا ؟

فَضَحِّ رُوَيْدًا[5] ، فكأنك قد بلغتَ المَدَى ، ودُفِنتَ تحت الثَّرَى ، وعُرِضَت عليك أعمالك بالمحلِّ الذى ينادى فيه المغترُّ بالحسْرَة ، ويتمنى المضيِّعُ التوبةَ ، والظالمُ الرَّجْعة ، « ولاتَ حِينَ مَنَاصٍ » ، والسلام .

(نهج البلاغة ٢ : ٤٦ ، والعقد الفريد ٢ : ٢٤٣ ، ومجمع الأمثال الميدانى ٢ : ٣٢)

---

(١) الذئب الأزل : الخفيف الوركين ، وذلك أشد لعدوه وأسرع لوثبته ، والدامية : المجروحة ، والـكسيرة : المـكسورة ، والرحيب : الواسع .

(٢) كلمة تقال للتوبيخ مع تحامى الدعاء عليه ، وحدره : حطه من علو إلى سفل ، والمعنى : جلبت ، والنقاش مصدر ناقش كالمناقشة .

(٣) ساغ الشراب يسوغ : سهل مدخله فى الحلق ، وأساغه هو ، وساغه يسوغه وساغه يسيغه سوغا وسيغاً ، ومن الرباعى قوله تعالى « يَتَجَرَّعُهُ وَلاَ يَكَادُ يُسِيغُهُ »

(٤) أعذر : ثبت له عذر . (٥) انظر ص ٤٠١ .

٥٤٢ — رد ابن عباس على علىّ

فكتب إليه ابن عباس :

« أما بعد : فقد أتانى كتابك تعظّم علىّ أمانةَ المال الذى أصبتُ من بيت مال البصرة ، ولعَمْرِى إن حقى فى بيت مال الله أكثر من الذى أخذتُ والسلام » .

(العقد الفريد ٢ : ٢٤٣ ، وشرح ابن أبى الحديد م ٤ : ص ٦٤)

٥٤٣ — رد علىّ على ابن عباس

فكتب إليه علىّ :

« أما بعد : فإن العَجَب كل العَجَب منك أن تُزَيِّن لك نفسُك أن لك فى بيت الله من الحق أكثر مِمَّا لرجل من المسلمين ، قد أفلحتَ إن كان تَمَنِّيك الباطلَ وادِّعاؤك مالا يكون ، يُنْجيك من الإثم ، ويُحِلّ لك ما حرَّم الله عليك ، عَمْرَكَ اللهَ[١] ! إنك لأنت البعيد البعيد[٢] ، وقد بلغنى أنك اتخذتَ مكة وَطنًا ، وضَرَبْتَ بها عَطَنًا[٣] ، تَشترى المُوَلَّدَاتِ من مكة والمدينة والطائف ، وتختارهُنّ على عَيْنِك . وتُعْطِى فيهن مال غيرك[٤] ، فارجِعْ هَدَاكَ الله إلى رُشْدك ، وتُبْ إلى الله ربِّك ، واخرج إلى المسلمين من أموالهم ، فعَمَّا قليلٍ تفارق من أَلِفْتَ ، وتترك ما جَمَعتَ ، وتُغَيَّب فى صَدْعٍ[٥] من الأرض ، غيرَ مُوَسَّد ولا مُمَهَّدٍ ، قد فارقتَ

---

(١) عمرك الله عمر اسم يعنى التعمير ، نصب على معنى عمرتك الله : أى سألت الله تعميرك أى أن يطيل عمرك ، فعمرك مفعول ثان لفعل محذوف ولفظ الجلالة مفعول أول ، أو هو من الأسماء الموضوعة موضع المصادر المنصوبة على إضمار الفعل ، وأصله من عمرتك الله تعميراً فحذفت زيادته ، فعمرك مصدر نائب عن فعله والله مفعوله ، أو هو على معنى بتعميرك الله أى بإقرارك له بالبقاء ، فعمرك منصوب بنزع الباء القسمية مضاف إلى فاعله والله مفعوله .

(٢) وفى شرح ابن أبى الحديد « إنك لأنت المهتدى السعيد إذن » .

(٣) العطن: مبرك الإبل.

(٤) روى صاحب العقد عقب ذلك : « وإنى أقسم بالله ربى وربك ورب العزة . . . الخ » وقد تقدم .

(٥) فى شق : أى فى قبر .

الأحباب ، وسكنت التراب ، وواجهْتَ الحِسابَ ، غنِيا عما خَلَّفْتَ ، فقيراً إلى ما قدّمت ، والسلام » . (العقد الفريد ٢ : ٢٤٣ ، وشرح ابن أبي الحديد ٤ : ص ٦٤)

٥٤٤ — رد ابن عباس على علىّ

فكتب إليه ابن عباس :

« والله لئن لم تدَعْنى من أساطيرك لأَحْمِلَنَّه إلى معاوية يقاتِلك به »

فكفَّ عنه على . (العقد الفريد ٢ : ٢٤٤)

٥٤٥ — كتاب عقيل بن أبي طالب إلى علىّ

وكتب عقيل بن أبي طالب إلى أخيه الإمام على عليه السلام :

« بسم الله الرحمن الرحيم ، لعبد الله علىّ أمير المؤمنين من عقيل بن أبي طالب .

سلام عليك ، فإنى أحمَدُ إليك الله الذى لا إله إلا هو ، أما بعدُ : فإن الله حارسُكَ من كل سوء[١] ، وعاصِمُك من كل مكروه ، وعلى كل حال ، إنى قد خرجت إلى مكّة مُعْتَمِراً[٢] ، فلقيت عبد الله بن سعد بن أبي سَرْح فى نحو من أربعين شابّا من أبناء الطُّلقاء ، فقلتُ لهم — وعرَفْتُ المنْكَرَ فى وجوههم — إلى أين يا أبناء الشّانِئين[٣] ؟ أبمعاوية تَلْحَقون ؟ العداوةُ والله لنا منكم ظاهرة غيرُ مستنكَرة قديمًا ، تُريدون بها إطفاءَ نور الله ، وتغييرَ أمرِه ، فأسْمَعَنى القومُ وأسمعتهم .

---

(١) فى الأغانى « فإن الله جارك من كل سوء » وفى الإمامة والسياسة « أما بعد يا أخى ، كلأك الله ، والله جارك من كل سوء . . . الخ » .

(٢) فى الإمامة والسياسة أيضا « إنى خرجت معتمرا فلقيت عائشة معها طلحة والزبير وذووهما وهم متوجهون إلى البصرة قد أظهروا الخلاف ، ونكثوا البيعة ، وركبوا عليك قتل عثمان ، وتبعهم على ذلك كثير من الناس من طغاتهم وأوباشهم ، ثم مر عبد الله بن أبي سرح . . . الخ » وإنى أستبعد جدا أن يكتب إليه فى الكتاب شيئا بشأن خروج عائشة ومتابعيها إلى البصرة ، إذ قد ذكر بعد أنه قدم مكة فسمع بغارة الضحاك على الحيرة ، وكان خروج عائشة بدء خلافة الإمام فى أوائل سنة ٣٦ كما قدمنا ، أما غارة الضحاك فكانت سنة ٣٩ كما سيأتى ، فكيف يتفق هذا وذاك .

(٣) الشانىء المبغض .

ثم قدِمْتُ مكة فسمِعْتُ أهلها يتحدثون أن الضَّحَّاك بن قيس أغار على الحِيرة[1] فاحتَمَلَ من أموال أهلها ما شاء، ثم انكَفأ راجعاً سالماً، فأُفٍّ لحياة فى دهرٍ جرَّأ عليك الضحّاك! وما الضحّاكُ؟ وهل هو إلا قَقْعٌ بِقَرْقَرةٍ[2] وقد وُطِئَتْ؟

وبلغنى أن أنصارك قد خذلوك، فاكتب إلىَّ يابن أُمِّ برأيك، فإن كنتَ الموتَ تُرِيد، تحمَّلْتُ إليك بنى أخيك وولد أبيك، فعِشْنا معك ما عشتَ، ومُتْنا معك إذا مُتَّ، فوالله ما أحبّ أن أبْقى فى الدنيا بعدك فُواقاً[3]، وأُقْسِمُ بالله الأعزّ الأجل، إن عيشاً أعيشُه فى هذه الدنيا بعدك لعيش غير هَنِيء ولا مَرِيء ولا نَجيع[4]، والسلام عليك ورحمة الله وبركاته».

(شرح ابن أبى الحديد م ١ : ص ١٥٥، والأغانى ١٥ : ٤٤، والإمامة والسياسة ١ : ٤٣)

٥٤٦ — ردّ علىّ على عقيل

فكتب إليه علىّ عليه السلام:

«من عبد الله علىّ أمير المؤمنين إلى عَقيل بن أبى طالب:

سلامُ الله عليك، فإنى أحمَد إليك اللهَ الذى لا إله إلا هو، أما بعد: كَلَأَنا[5] الله وإياك كِلاءَةَ مَن يخشاه بالغيب إنه حَمِيد مَجِيد، فقد قَدِمَ علىّ عبد الرحمن بن عُبَيْد

---

(١) وكان ذلك سنة ٣٩ هـ؛ دعاه معاوية فقال له: سر حتى تمر بناحية الكوفة وترتفع عنها ما استطعت، فمن وجدته من الأعراب فى طاعة على فأغر عليه، وإن وجدت له مسلحة أو خيلا فأغر عليها، فسرحه فيما بين ثلاثة آلاف إلى أربعة آلاف، فأقبل الضحاك فنهب الأموال، وقتل من لقى من الأعراب، ومر بالثعلبية، فأغار على مسالح على وأخذ أمتعتهم، ومضى حتى انتهى إلى القطقطانة، فأتى عمرو ابن عميس بن مسعود — وهو ابن أخى عبد الله بن مسعود — وكان فى خيل لعلى وأمامه أهله، وهو يريد الحج، فقتله وقتل ناسا من أصحابه، فلما بلغ ذلك عليا سرح حجر بن عدى الكندى فى أربعة آلاف، فلم يزل مغذا فى أثر الضحاك، حتى لقيه بناحية تدمر، فواقعه فاقتتلوا ساعة، فقتل من أصحاب الضحاك تسعة عشر رجلا، وقتل من أصحاب حجر رجلان، وحجز الليل بينهم، فهرب الضحاك وأصحابه، فلما أصبحوا لم يجدوا لهم أثرا — انظر شرح ابن أبى الحديد م ١ : ص ١٥٤ وتاريخ الطبرى ٦ : ٧٨ —.

(٢) انظر ص ٤٠٩.

(٣) الفواق: بالضم ويفتح: مابين الحلبتين من الوقت، يقال: ما أقام عنده إلا فواقا.

(٤) نجع الطعام كمنع نجوعا: هنأ آكله. (٥) كلأه كمنعه: حرسه.

الأَزْدىّ بكتابك تذكر فيه أنك لَقِيتَ عبد اللهِ بن سَعْد ابن أبى سَرْح مُقبلا من قُدَيْد[١] فى نحوٍ من أربعين شابًّا من أبناء الطُّلَقاء ، متوجِّهين إلى جهة المغرب ، وإنك تنبىءُ عن ابن أبى سَرْح ! طالما كاد اللهَ ورسولَه وكتابَه ، وصَدَّ عن سبيله ، وبغاها عِوَجا[٢] ، فدَعْ ابن أبى سَرْح عنك ، ودع قريشاً وخَلِّهم وتَرْكاضهم فى الضلال ، وتَجْوَالَهم فى الشِّقاق ، وجِماحَهم فى التِّيه ، فإن قريشاً قد أجمعت على حرب أخيك اليومَ إجماعَها على حرب رسول الله صلى الله عليه وسلم قبل اليوم ، فأصبحوا قد جهلوا حقَّه ، وجَحَدوا فضلَه ، وكادوه بالعداوة ، ونصبوا له الحرب، وجَهَدوا عليه كل الجَهْدِ ، وجَرُّوا إليه جيش الأحزاب ، وجَدُّوا فى إطفاء نور الله ، اللهم فاجْزِ عنى قريشاً الجَوَازِيَ[٣] ، فقد قطعَتْ رَحِمى، وتظاهَرَت[٤] علىّ، ودفعتنى عن حقى، وسَلَبَتْنى سلطانَ ابن أمى[٥] ، وسلَّمت ذلك إلى من ليس مثلى فى قرابتى من الرسول ، وسَابِقتى فى الإسلام ، إلاّ أن يَدَّعِىَ مُدَّعٍ مَالاَ أعرِفه ، ولا أظن اللهَ يَعْرِفُه ، والحمد لله على كل حال .

---

(١) قديد : اسم موضع قرب مكة .

(٢) من خبره أن رسول الله صلى الله عليه وسلم كان فى غزوة الفتح قد عهد إلى أمرائه من المسلمين حين أمرهم أن يدخلوا مكة ، أن لايقتلوا أحدا إلا من قاتلهم ، إلا أنه قد عهد فى نفر سماهم ، أمر بقتلهم وإن وجدوا تحت أستار الكعبة، منهم عبد الله بن سعد بن أبى سرح أخو بنى عامر بن لؤى وإنما أمر رسول الله بقتله ، لأنه قد كان أسلم، وكان يكتب لرسول الله الوحى ، فارتد مشركا راجعا إلى قريش ـ ففر إلى عثمان وكان أخاه من الرضاع ، فغيبه حتى أتى به رسول الله بعد أن اطمأن أهل مكة ، فاستأمنه له ، فصمت رسول الله طويلا ثم قال : نعم، فلما انصرف به عثمان، قال رسول الله لمن حوله من أصحابه: أما والله لقد صمت ليقوم إليه بعضكم فيضرب عنقه ، فقال رجل من الأنصار فهلا أومأت إلى يارسول الله ! قال : إن النبي لا يقتل بالإشارة ـ انظر تاريخ الطبرى ٣ : ١١٩ وسيرة ابن هشام ٢: ٢٧١ .

(٣) الجوازى جمع جازية : والجازية، الجزاء مصدر على فاعلة كالعافية ، ويجوز أن يكون لجوازى جمع جزاء لمشابهة اسم الفاعل المصدر، فكما جمع سيل على سوائل كذلك يجوز أن يكون الجوازى جمع جزاء، والمعنى : اللهم اجز قريشا عنى ماتستحقه من الجزاء لما صنعت بى .

(٤) أى تعاونت .

(٥) يعنى رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وأم على هى فاطمة بنت أسد بن هاشم بن عبد مناف ، وقد أسلمت بعد عشر من المسلمين فكانت الحادى عشر ، وكان رسول الله يكرمها ويعظمها ويدعوها «أمى» وقد قال: لم يكن أحد بعد أبى طالب أبر بى منها ـ انظر شرح ابن أبى الحديد م ١ : ص ٥ وقال ابن أبى الحديد فى تعليل التعبير «بابن أمى» لأنهما ابنا فاطمة بنت عمرو عمران بن عائذ بن مخزوم أم عبد الله وأبى طالب، ولم يقل سلطان ابن أبى، لأن غير أبى طالب من الأعمام يشركه فى النسب إلى عبد المطلب» =

وأما ما ذكرتَ من غارة الضَّحاك بن قيس على أهل الحِيرة ، فهو أقلُّ وأذلُّ من أن يُلِمَّ[1] بها أو يدنوَ منها ، فضلا عن الغارة ، ولكنه قد كان أقبل فى جريدة خيل ، فأخذ على السَّماوة ، حتى مرَّ بوَاقِصَةَ وشَراف ، والقُطْقُطانة وما وَالَى ذلك الصُّقْعَ ، فسرَّحْتُ إليه جيشاً كثيفاً من المسلمين ، فلما بلغه ذلك شمَّر هاربا ونكَصَ نادمًا ، فاتَّبعوه فلحِقوه ببعض الطريق ، وقد أمعَنَ فى السير ، وقد طَفَّلَتِ[2] الشمسُ للإياب ، فاقتتلوا شيئًا كلاَ ولاَ[3] ، فما كان إلا كمَوْقِف ساعة ، حتى ولى هاربا ولم يصبِرْ لوَقْعِ المَشْرَفِيّة[4] ، وقُتِل من أصحابه بِضْعَةَ عَشَرَ رجلا ، ونجا جَرِيضًا[5] بعد ما أُخِذَ منه بالمُخَنَّق[6] ، ولم يبقَ منه غيرُ الرَّمَق ، فَلأْيًا بَلأْيٍ[7] ما نجا .

= وأرى أن الوجه الذى ذهبت أنا إليه فى ذلك أقرب وأرجح. ومن طريف ما تعقب به ابن أبى الحديد الراوندى هنا ما يأتى : قال الراوندى : « قوله سلطان ابن أمى يعنى نفسه أى سلطانه لأنه ابن أم نفسه ، وهذا من أحسن الكلام » قال ابن أبى الحديد : « ولا شبهة أنه على تفسير الراوندى لو قال « وسلبونى سلطان ابن أخت خالتى أو ابن أخت عمتى » لكان أحسن وأحسن ، وهذا الرجل قد كان يجب أن يحجر عليه ولا يمكن من تفسير هذا الكتاب ، ويؤخذ عليه أيمان البيعة أن لا يتعرض له » .

(١) أى يقرب ، والجريدة : خيل لارجالة فيها . (٢) طفلت الشمس : مالت للغروب .

(٣) وفى ابن أبى الحديد « فتناوشوا القتال قليلا كلاولا » ، والعرب إذا أرادوا تقليل مدة فعل أو ظهور شىء خفى ، قالوا : كان فعله كلا . وربما كرروا فقالوا : كلاولا ، قال الشاعر :

* يكون نزول القوم فيها كلاولا *

(٤) المشرفية : السيوف ، نسبة إلى مشارف الشام : وهى قرى من أرض العرب تدنو من الريف :

(٥) جريضا : أى مجهودا يكاد يقضى ، من جرض بريقه كفرح (لا ككسر) إذا ابتلع ريقه على هم وحزن بالجهد (والجريض أيضا : الغصة) وفى المثل : « حال الجريض دون القريض » أى دون الشعر ، يضرب لأمر يعوق دونه عائق ، قاله جوشن الكلابى حين منعه أبوه من الشعر فمرض حزنا ، فرق له وقد أشرف ، فقال : انطق بما أحببت ، فقاله ، والحريض بالحاء : الساقط لايقدر على النهوض .

(٦) يقال أخذه بخناقه بالكسر والضم وبخنقه أى بحلقه :محل مايوضع الخناق بالكسر وهو الحبل يخنق به، ومن أمثالهم «بلغ منه المخنق» وهومثل يضرب لمن يحمل عليه حتى يبلغ منتهاه، والرمق: بقية الروح.

(٧) اللأى : المشقة والشدة والجهد ، وأصله البطء والاحتباس وفعله كسعى ، يقولون لأيا عرفت وبعد لأى فعلت : أى بعد جهد ومشقة . قال زهير فى معلقته :

وقفت بها من بعد عشرين حجة فلأيا عرفت الدار بعد توهم

وفى حديث أم أيمن « فبلأى مااستغفر لهم رسول الله » أى بعد مشقة وجهد وإبطاء، وقال الشاعر : « فلأيا بلأى ماحملنا غلامنا » أى جهدا بعد جهد قدرنا على حمله على الفرس فهو منصوب على المصدر القائم مقام الحال كطلع بغتة وجاء ركضا وقتلته صبرا ولقيته التقاطا ورأيته عيانا والعامل فى المصدر محذوف أى نجا مبطئا مجهودا والباء فى الثانى بمعنى البعدية ، وما زائدة أو مصدرية، وفى الإمامة والسياسة « فلولا الليل ما نجا » .

فأمّا ما سألتَنى أن أكتب إليك برأيى فيما أنا فيه ، فإنّ رأْيى قتالُ المُحِلِّين[1] حتى أَلْقَى الله ، لا يَزيدنى كثرةُ الناس حَوْلى عِزّةً ، ولا تفرُّقهم عنى وَحْشةً ، لأنى مُحِقّ ، واللهُ مع المُحِقِّ ، ووالله ما أَكْرَه الموت على الحق ، وما الخيرُ كلّه إلا بعد الموت لمن كان مُحِقًّا .

وأمّا ما عرَضْتَه علىّ من مَسيرك إلىّ ببنيك وبنى أبيك ، فلا حاجَةَ لى فى ذلك ، فأقِمْ راشداً محموداً ، فوالله ما أُحِبُّ أن تَهلِكوا معى إن هَلَكتُ ، ولا تحسَبَنَّ ابن أبيك ولو أسْلَمَه[2] الزمانُ والناسُ متضرِّعا مُتَخَشِّعًا ، ولا مُقِرًّا للضَّيْم واهِنًا ، ولا سَلِسَ الزِّمام للقائد ، ولا وَطِىءَ الظَّهر للراكب المُقْتَعِدِ ، ولكنه كما قال أخو بنى سُلَيْم :

فإن تسأليني كيف أنتَ ، فإنني صَبُورٌ على رَيْبِ الزمان صَلِيبُ[3]
يَعِزّ علىَّ أنْ تُرَى بِى كآبَةٌ فيَشْمَتَ عادٍ أو يُساءَ حبيبُ

والسلام » . (الأغانى ١٥ : ٤٤ ، وشرح ابن أبى الحديد م ١ : ص ١٥٥ ، ونهج البلاغة ٢ : ٤٣ ، والإمامة والسياسة ١ : ٤٤)

٥٤٧ — كتاب صعصعة بن صوحان إلى عقيل بن أبى طالب

ثم غاضَبَ عَقيل أخاه ففارقه ولَحِق بمعاوية[4] ، وقد قال له معاوية يوما : مَيِّزْ لى

---

(١) انظر ص ٤٠٣ .

(٢) أسلمه : خذله ، واهنا : ضعيفا ، وسلس : أى لين سهل الانقياد ، وطىء الظهر : أى لينه

(٣) الصليب : الشديد ، والشعر ينسب إلى العباس بن مرداس السلمى .

(٤) روى أن عقيلا لزمه دين فقدم على على الكوفة ، فأنزله وأمر ابنه الحسن فكساه ، فلما أمسى دعا بعشائه فإذا خبز وملح وبقل ، فقال عقيل : ما هو إلا ما أرى ؟ قال : لا ، قال : فتقضى دينى ؟ قال : وكم دينك ؟ قال : أربعون ألفا ، قال : ما هى عندى ، ولكن اصبر حتى يخرج عطائى فإنه أربعة آلاف ، فأدفعه إليك ، فقال : بيوت المال بيدك ، وأنت تسوفنى بعطائك ؟ قال : أتأمرنى أن أدفع إليك أموال المسلمين وقد ائتمنونى عليها ؟ قال : فإنى آت معاوية ، فأذن له ، فأتى معاوية فأكرمه وقربه وقضى حوائجه وأدى عنه دينه ، وكان معاوية زوج خالته فاطمة بنت عتبة بن ربيعة — انظر أسد الغابة ج ٣ : ص ٤٢٣ والفخرى لابن طباطبا ص ٧٦ والعقد الفريد ٢ : ١٠٩

أصحاب علىّ ، وابدأ بآل صُوحان ، فإنهم مَخاريق[1] الـكلام ، فوصفهم له وصفاً

وسأل معاوية عقيلا يوما عن قصة الحديدة المحماة ، فبكى وقال : أنا أحدثك يامعاوية عنه ، ثم أحدثك عما سألت :

« نزل بالحسين ابنه ضيف فاستسلف درهما اشترى به خبزا،واحتاج إلى الإدام فطلب من قنبر خادمهم أن يفتح له زقا من زقاق عسل جاءتهم من اليمن ، فأخذ منه رطلا ، فلما طلبها عليه السلام ليقسمها قال : ياقنبر أظن أنه حدث بهـذا الزق حدث ، فأخبره ، فغضب وقال : على بحسين فرفع عليه الدرة ، فقال : بحق عمى جعفر — وكان إذا سئل بحق جعفر سكن — فقال له: ماحملك أن أخذت منه قبل القسمة ؟ قال إن لنا فيه حقا ، فاذا أعطيناه رددناه — قال:فداك أبوك ، إن كان لك فيه حق فليس لك أن تنتفع بحقك قبل أن ينتفع المسلمون بحقوقهم . أما لولا أنى رأيت رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم يقبل ثنيتك لأوجعتك ضربا ، ثم دفع إلى قنبر درهما كان مصرورا فى ردائه ، وقال : اشتر به خير عسل تقدر عليه ، قال عقيل . والله لـكأنى أنظر إلى يد على وهى على فم الزق ، وقنبر يقلب العسل فيه ، ثم شده وجعل يبكى ويقول : اللهم اغفر لحسين فإنه لم يعلم . فقال معاوية : ذكرت من لاينكر فضله ، رحم الله أباحسن ، فلقد سبق من كان قبله ، وأعجز من يأتى بعده، هلمحديث الحديدة، قال نعم، أقويت وأصابتنى مخمصةشديدة ، فسألته فلم تند صفاته، جمعت صبيانى وجئته بهم والبؤس والضر ظاهران عليهم، فقال: ائتنى عشية لأدفع إليك شيئا ، فجئته يقودنى أحد ولدى — وكان عقيل قد كف بصره — فأمره بالتنحى ، ثم قال : ألا فدونك ، فأهويت حريصا قد غلبنى الجشم ، أظنها صرة فوضعت يدى على حديدة تلتهب نارا ، فلما قبضتها نبذتها وخرت كما يخور الثور تحت يد جازره ، فقال لى : ثكلتك أمك ، هذا من حديدة أوقدت لها نار الدنيا ، فكيف بك وبى غدا إن سلكنا فى سلاسل جهنم ؟ ثم قرأ : « إِذِ الْأَغْلَالُ فِي أَعْنَاقِهِمْ وَالسَّلَاسِلُ يُسْحَبُونَ » ثمقال: ليس لك عندى فوقحقك الذىفرضه الله لك إلا ماترى، فانصرف إلى أهلك ، فجعل معاوية يتعجب ويقول هيهات هيهات ! عقمت النساء أن يلدن مثله — انظر شرح ابن أبى الحديد م ٣ ص ٨٢ .

وقد أورد الشريف الرضى كلمة الإمام رضىالله عنه فىهذا الصدد. «واللهلأن أبيت علىحسك السعدان مسهدا ، أو أجر فى الأغلال مصفدا ، أحب إلى من أن ألقى الله ورسوله يوم القيامة ظالمـا لبعض العباد وغاصبا لشىء من الحطام ، وكيف أظلم أحدا لنفس يسرع إلى البلى قفولها ، ويطول فى الثرى حلولها ؟ والله لقد رأيت عقيلا وقد أملق حتى استماحنى من بركم صاعا ، ورأيت صبيانه شعث الشعور غبر الألوان من فقرهم ، كأنما سودت وجوههم بالعظلم (العظلم بالـكسر : سواد يصبغ به) وعاودنى مؤكدا، وكرر على القول مرددا ، فأصغيت إليه سمعى ، فظن أنى أبيعه دينى ، وأتبع قياده ، مفارقا طريقتى ، فأحميت له حديدة ثم أدنيتها من جسمه ليعتبر بها ، فضج ضجيج ذى دنف من ألمها ، وكاد أن يحترق من ميسمها ، فقلت له ثـكلتك الثواكل ياعقيل،أتئن من حديدة أحماها إنسانها للعبه وتجرنى إلىنار سجرها (أى أضرمها) جبارها لغضبه ؟ أتئن من الأذى ولا أئن من لظى ؟ انظر نهج البلاغة ج ١ : ص ٢٨٣ .

(١) مخاريق : جمع مخراق بالـكسر ، وهو السيف ، والسيد ، والمتصرف فى الأمور الذى لايقع فى أمر إلا خرج منه (والثور البرى يسمى مخراقا لأن الـكلاب تطلبه فيفلت منها) وفلان مخراق حرب : أى صاحب حروب يخف فيها .

امتدحهم فيه بما هم أهله[1] ، فاتصل كلام عقيل بصَعْصَعَة بن صُوحان ، فكتب إليه :

« بسم الله الرحمن الرحيم ، ذِكْرُ الله أكبرُ ، وبه يَسْتَفتِح المستفتِحون ، وأنتم مفاتيح الدنيا والآخرة :

أما بعد: فقد بلغ مَوْلاك[2] كلامُك لِعَدُوِّ الله وعدوه، فحمِدْتُ الله على ذلك وسألته أن يَفِيء[3] بك إلى الدرجة العُلْيا ، والقَضِيب الأحمر ، والعمود الأسود ، فإنه عمودٌ مَنْ فارقَه فارَقَ الدِّينَ الأَزْهَرَ ، ولئن نَزَعَت[4] بك نفسُك إلى معاوية طالبًا لماله ، إنك لذو عِلم بجميع خصاله ، فاحْذَرْ أن تَعْلَقَ بك نارُه ، فيُضِلَّك عن المحجّة[5] ، فإن الله قد رفع عنكم أهلَ البيت ما وَضَعَه في غيركم ، فما كان من فضل أو إحسان فيكم وَصَلَ إلينا ، فأجَلَّ اللهُ أقداركم ، وحَمَى أخطاركم[6] ، وكتب آثاركم ، فإنّ أقداركم مَرْضِيَّة ، وأخطاركم مَحْمِيَّة ، وآثاركم بَدْرِيَّة ، وأنتم سُلّم الله إلى خَلْقه ، ووسيلة إلى طُرُقه ، أيْدٍ عَلِيَّة ، ووُجوهٌ جَلِيّة : وأنتم كما قال الشاعر[7] :

فما كان من خير أتوْهُ فإنما ... توارَثَه آباءُ آبائهم قبلُ
وهل يُنْبِتُ الخَطِّيَّ إلا وَشِيجُه ... وتُغْرَسُ إلاّ في مَنَابِتِها النخلُ ؟

(مروج الذهب ٢ : ٧٦)

---

(١) قال فيهم : « أما صعصعة فعظيم الشأن ، عضب اللسان ، قائد فرسان ، قاتل أقران ، يرتق ما فتق ، ويفتق ما رتق ، قليل النظير ، وأما زيد وعبد الله فإنهما نهران جاريان ، يصب فيهما الخلجان ويغاث بهما البلدان ، رجلا جد لا لعب معه ، وأما بنو صوحان فكما قال الشاعر :

إذا نزل العدو فإن عندي ... أسودا تخالس الأسد النفوسا

(٢) مولاك هنا ، معناه عبدك : يعني نفسه . (٣) فاء يفيء : رجع .

(٤) نزعت : مالت واشتاقت . (٥) المحجة : جادة الطريق .

(٦) أي أقداركم : جمع خطر بالتحريك .

(٧) هو زهير بن أبي سلمى، والبيتان من أبيات قالها في مدح هرم بن سنان ، والخطي : الرمح نسبة إلى الخط : وهو مرفأ السفن بالبحرين،نسبت إليه الرماح لأنها كانت تباع به لا أنه منبتها ، والوشيج شجر الرماح .

٥٤٨ — كتاب عليّ إلى كعب بن مالك

وكتب عليّ بن أبى طالب رضى الله عنه إلى كعب بن مالك أحد عماله :

« أما بعد : فاستَخْلِفْ على عملك ، واخرُج فى طائفة من أصحابك حتى تمرَّ بأرض السَّواد كُورةً كُورةً، فتسألهم عن عُمَّالهم، وتنظرَ فى سِيرتهم، حتى تمرَّ بمن كان منهم فيما بين دِجْلة والفُرات ، ثم ارجع إلى البِهْقُباذات[1] فتولَّ معونتها، واعمَلْ بطاعة الله فيما ولاَّك منها، واعلم أن الدنيا فانية، وأن الآخرةَ آتية، وأن عمَل ابن آدم محفوظ عليه، وأنك مَجْزِيٌّ بما أسلفْتَ ، وقادِمٌ على ما قدَّمتَ من خير، فاصنع خيراً تجدْ خيراً » .

(كتاب الخراج ص ١٤١)

٥٤٩ — كتاب عليّ إلى بعض عماله

وروى الشريف الرضى رحمه الله فى نهج البلاغة قال :

وكتب عليّ عليه السلام إلى بعض عماله :

« أما بعدُ : فإنك[2] ممن أستَظْهِر به على إقامة الدين ، وأَقْمَع به نَخْوةَ الأثيم وأَسُدُّ به لَهَاةَ[3] الثغرِ المَخُوف ، فاستعِنْ بالله على ما أهمَّك ، واخلِطِ الشدة بضِغْثٍ[4] من اللين ، وارفُق ما كان الرفقُ أرفَقَ ، واعتزم بالشدة حين لا يُغْنِى عنك إلا الشدة ، واخفِض للرعية جَناحَك ، وألِنْ لهم جانبَك ، وآسِ بينهم فى اللَّحظة والنَّظْرة والإشارة والتحيَّة ، حتى لا يطمعَ العُظماء فى حَيْفِك ، ولا ييأس الضُّعفاء من عدلك ، والسلام» .

(نهج البلاغة ٢ : ٥٤)

---

(١) اسم الثلاث كور ببغداد من أعمال سقى الفرات منسوبة إلى قباذ بن فيروز .

(٢) الفقر الثلاث الأولى رواها الطبرى فى صدر الكتاب الذى كتبه على إلى الأشتر (انظر ص٤٧٩) والفقر الأربع التى بعدها رواها الطبرى من وصية وصى بها على الأشتر أيضا حين ولاه مصر إذ قال له : ليس لها غيرك ، اخرج رحمك الله فإنى إن لم أوصك اكتفيت برأيك ، واستعن بالله على ما أهمك . . » (انظر تاريخ الطبرى ٦ : ٥٤) وبقية الكتاب واردة فى عهد على لمحمد بن أبى بكر (انظر ص ٤٦٧)

(٣) اللهاة : اللحمة المشرفة على الحلق .

(٤) الضغث : قبضة حشيش مختلطة الرطب باليابس .

٥٥٠ — كتاب علىّ إلى سهل بن حنيف

وكتب علىّ عليه السلام إلى سهل بن حُنَيف الأنصارى عامله على المدينة ، وقد لِحَق قوم من أهلها بمعاوية :

« أما بعد ، فقد بلغنى أن رجالاً ممن قِبَلك يتسلّلون(١) إلى معاوية ، فلا تأسف على ما يفوتك من عَدَدهم ، ويذهبُ عنك من مَدَدهم ، فكفى لهم غَيًّا ولك منهم شافيًا فرارُهم من الهُدَى والحق ، وإيضاعُهم(٢) إلى العَمَى والجهل ، وإنما هم أهل دنيا مُقْبِلون عليها ، ومُهْطِعون(٣) إليها ، وقد عرَفوا العدل ورأَوْه ، وسَمِعُوه وَوَعَوْه ، وعلِموا أن الناس عندنا فى الحق أُسْوَة ، فهرَبوا إلى الأَثَرَة(٤) ، فبُعْدًا لهم وسُحْقًا ، إنهم والله لم يَنْفِرُوا(٥) من جَوْر ، ولم يَلْحَقوا بعدل ، وإنا لنَطْمع فى هذا الأمر أن يُذَلِّل الله لنا صَعْبَه ، ويسهِّل لنا حَزْنَه ، إن شاء الله ، والسلام » . (نهج البلاغة ٢ : ٩٥)

٥٥١ — كتاب علىّ إلى المنذر بن الجارود العبدى

وكتب علىّ عليه السلام إلى المنذر بن الجارود العَبْدِىّ ، وقد كان استعمله على بعض النواحى فخان الأمانة :

« أما بعد : فإن صَلاحَ أبيك(٦) غرّنى منك ، وظننت أنك تتّبع هَدْيَه ، وتسلُكُ

---

(١) أى يخرجون فى خفية واستتار (٢) وضع البعير وأوضع: أسرع فى سيره، والعمى: الضلال.

(٣) أهطع : أسرع ، ووعاه : حفظه .

(٤) استأثر على أصحابه استئثارا: اختار لنفسه أشياء حسنة، والاسم منه الأثرة بالتحريك والأثرة بالضم وبالكسر وكالحسنى ، والسحق : البعد .

(٥) وفى رواية « لم يفروا » والحزن : ماغلظ من الأرض، ضد السهل .

(٦) هو الجارود بشر بن خنيس بن المعلى، وبيتهم بيت الشرف فى عبد القيس، كان نصرانيا فأسلم وحسن إسلامه ، وكان قد وفد مع المنذر بن ساوى فى جماعة من عبد القيس ، وكان يقال : أطوع الناس فى قومه الجارود ، لما قبض رسول الله صلى الله عليه وسلم فارتدت العرب خطب قومه فقال : «أيها الناس، إن كان محمد قد مات فإن الله حى لا يموت ، فاستمسكوا بدينكم، ومن ذهب له فى هذه الفتنة دينار أو درهم أو بقرة أو شاة فعلى مثلاه » فما خالفه من عبد القيس أحد .

سبيله ، فإذا أنت فيما رُقِّيَ(١) إليّ عنك لا تَدَعُ لهواك انقياداً ، ولا تُبْقِي لآخرتك عَتَاداً(٢) ، تَعْمُرُ دنياك بخراب آخرتك ، وتَصِل عشيرتك بقطيعة دينك(٣) ، ولئن كان ما بَلَغني عنك حقّا ، لَجَمَلُ(٤) أهلك ، وشِسْعُ نعْلك ، خيرٌ منك ، ومن كان بصِفَتك فليس بأهل أن يُسَدَّ به ثَغْرٌ ، أو يُنْفَذَ به أمر ، أو يُعْلَى له قدر ، أو يُشْرَك فى أمانة ، أو يُؤْمَن على جِبَايةٍ ، فأَقْبِلْ إليّ حين يصلُ إليك كتابى هذا إن شاء الله» .

(نهج البلاغة ٢ : ٩٦)

٥٥٢ — كتاب وقف الإمام على كرم الله وجهه

ووَقَفَ الإمام عليّ كرم الله وجهه لسنتين من خلافته : « عَيْن أبى نَيْزَرَ والبُغَيْبِغَة(٥) » وكتب بذلك كتابا نصه :

« بسم الله الرحمن الرحيم ، هذا ما تَصَدَّقَ به عبد الله على أمير المؤمنين ، تصدّق بالضَّيْعَتين المعروفتين بعَين أبِى نَيْزَرَ ، والبُغَيْبِغة ، على فقراء أهل المدينة وابن السبيل ، لِيَقِيَ اللهُ بهما وَجْهَه حَرَّ النار يوم القيامة ، لا تُباعا ولا تُوهَبا حتى يَرِثَهُما اللهُ وهو خير الوارثين ، إلا أنْ يحتاج إليهما الحَسَنُ أو الحُسَيْن ، فهما طِلْقٌ(٦) لهما ، وليس لأحد غيرهما » .

(الكامل للمبرد ٢ : ١٤١ ، ومعجم البلدان ٦ : ٢٥٢)

---

(١) أى فيما رفع إلى . (٢) العتاد : العدة .

(٣) كان فيما رقى إليه عنه أنه يقتطع المال ، ويفيضه على رهطه وقومه ، ويخرج بعضه فى لذاته ومآربه . (٤) العرب تضرب بالجمل المثل فى الذلة والهوان ، قال العباس بن مرداس :

لقد عظم البعير بغير لب ... فلم يستغن بالعظم البعير
يصرفه الصبي بكل وجه ... ويحبسه على الخسف الجرير
وتضربه الوليدة بالهراوى ... فلا غير لديه ولا نكير

(انظر ديوان الحماسة ٢ : ١٦) وكذلك ضربوا المثل فى الذلة بشسع النعل، (وهو سير تشد به) قالوا : «لا أذل من الشسع » كما قالوا: «أذل من النعل» وكان الحارث بن عباد البكرى حين نشبت حرب البسوس بين بكر وتغلب قد اعتزل القوم ، فلما استحر القتل فى بكر بعث ابنه بجيرا إلى مهلهل بن ربيعة فى طلب الصلح ، فقتله مهلهل وقال له : « بؤ بشسع نعل كليب » .

(٥) ضيعتان بالمدينة . (٦) أى حلال .

توقيعات الخلفاء الراشدين

كتب خالد بن الوليد إلى أبى بكر الصّديق رضى الله عنهما من دُومَة الجَنْدَل يستأمِره فى أمر العدو، فوقّع إليه:

« أُدْنُ من الموت تُوهَبْ لك الحياة[1] »

* * *

وكتب سعد بن أبى وقّاص إلى عمر بن الخطاب رضى الله عنهما من الكوفة يستأذنه فى بناء دار الإمارة فوقّع إليه:

« اْبْنِ ما يَسْتُر من الشمس، ويُكِنّ[2] من المَطَر »

وفى رواية: « اْبْنِ ما يكنّك من الهَوَاجر[3] وأذى المطر »

* * *

ووقّع عمر إلى عمرو بن العاص:

« كن لرعيّتك كما تحبّ أن يكون لَكَ أميرك ».

* * *

ووقّع عثمان فى قِصّة قوم تظلّموا من مَرْوان بن الحَكَم، وذكروا أنه أمَرَ بوَجْءِ[4] أعناقهم:

« فَإِنْ عَصَوْكَ فَقُلْ إِنِّى بَرِىءٌ مِمَّا تَعْمَلُونَ »

* * *

(١) وجاء فى مجمع الأمثال للميدانى ج ٢ : ص ٢٧٦ وفى نهاية الأرب ج ٣ : ص ٤ « ومن كلام أبى بكر الصديق رضى الله عنه: « احرص على الموت توهب لك الحياة » قاله لخالد بن الوليد حين بعثه إلى أهل الردة. (٢) كنه كرده وأكنه: ستره وصانه.

(٣) الهواجر: جمع هاجرة: وهى شدة الحر.

(٤) وجأه بالسكين كوضعه ضربه، وجاء فى خاص الخاص: « وكتب إلى عمر نفر من أهل مصر يشكون مروان بن الحكم، فوقع فى كتابهم: فإن عصوك . . . الخ ».

ووقع عثمان فى قصة رجل شكا عَيْلَةً[1] :

« قد أَمَرْنا لك بما يُقيمك ، وليس فى مال اللهِ فَضْلٌ للمُسْرِفِ »

* * *

ووقع علىّ كرم الله وجهه إلى طلحة بن عُبَيد الله :

« فى بيته يُؤْتَى الحَكَمُ »

وكتب الحسين بن علىّ إلى أبيه رضى الله عنهما فى شىء من أمر عثمان رضى الله عنه ، فوقع إليه :

« رأْىُ الشَّيخ خيرٌ من مَشْهَد الغُلام »

* * *

ووقع فى كتاب سَلْمان الفارسى ـ وسأله كيف يحاسَب الناسُ يوم القيامة ـ ؟ :

« يحاسَبُون كما يُرْزَقون »

* * *

وكتب إليه الحُضَيْن بن المُنْذِر بصِفِّين : « يا أمير المؤمنين ، قد أسرع السيف فى « رَبيعة » وخاصّةً فى أَسْرَى منهم » فوقع إليه :

« بَقِيَّةُ السيفِ أَنْمَى[2] عَدَداً »

* * *

ووقع فى كتاب جاءه من الأشتر النَّخَعىّ ، فيه بعض ما يَكْرَه :

« مَنْ لك بأخيك كلِّهِ ؟ »

* * *

ووقع فى كتاب صَعْصَعة بن صُوحان يسأله فى شىء :

« قيمةُ كل امرئٍ ما يُحْسِن »

(العقد الفريد ٢ : ١٨٥ وخاص الخاص ص ٦٧)

---

(١) العيلة : الفقر. (٢) أى أكثر ، من نما ينمو ونمى ينمى : إذا زاد وكثر ، وفى العقد وخاص الخاص « أنهى » وهو تحريف ، وفيهما أيضا « الحصين » بالصاد المهملة وهو تصحيف .

تم الجزء الأول بحمد الله وتوفيقه

ويليـــــه

الجزء الثانى

وأوله

الرسائل فى العصر الأموى

فهـــرس
الجزء الأول
من جمهرة رسائل العرب
الباب الأول
الرسائل فى العصر الجاهلى

رقم الصفحة	رقم الرسالة	الرســـــالة
٢		مقدمة الطبعة الأولى
٦		فهرس مآخذ الرسائل فى هذا الجزء
١٠	١	كتاب المنذر الأكبر إلى أنوشروان
١٢	٢	« عمرو بن هند إلى عامله بالبحرين «صحيفة المتلمس»
١٤	٣	« عبد العزى بن امرئ القيس الكلبى إلى قومه
١٦	٤	« عدىّ بن زيد العبادىّ إلى أخيه أبىّ
١٨	٥	ردّ أخيه أبىّ عليه
١٩	٦	كتاب النعمان بن المنذر إلى كسرى
٢٠	٧	« « « « « «
٢١	٨	كتاب عبد المطلب بن هاشم إلى أخواله بيثرب
٢٢	٩	« « « « « « «
٢٤	١٠	« التحالف بين عبد المطلب بن هاشم وبين خزاعة
٢٥	١١	« أكثم بن صيفى إلى طيئ
٢٧	١٢	« « « « « النعمان بن خميصة البارقى

الباب الثانى

الرسائل فى عصر صدر الإسلام

كتب سيدنا ومولانا محمد رسول الله صلى الله عليه وسلم ومايتصل بها

رقم الصفحة	رقم الرسالة	الرسالة
٣١	١	كتاب رسول الله صلى الله عليه وسلم بين المهاجرين والأنصار واليهود بالمدينة .
٣٥	٢	كتاب الصلح بينه صلى الله عليه وسلم وبين قريش عام الحديبية
٣٧	٣	كتابه صلى الله عليه وسلم إلى هرقل ملك الروم
٤٠	٤	» » » » » إلى كسرى ملك الفرس
٤٠	٥	» » » » » إلى النجاشى ملك الحبشة
٤١	٦	ردّ النجاشى على كتابه صلى الله عليه وسلم
٤٢	٧	كتابه صلى الله عليه وسلم إلى المقوقس عظيم القبط
٤٣	٨	ردّ المقوقس على كتابه صلى الله عليه وسلم
٤٤	٩	كتابه صلى الله عليه وسلم إلى الحرث بن أبى شمر الغسانى صاحب دمشق
٤٥	١٠	» » » » » إلى المنذر بن ساوى ملك البحرين
٤٦	١١	ردّ المنذر على كتابه صلى الله عليه وسلم
٤٦	١٢	ردّه صلى الله عليه وسلم على كتاب المنذر
٤٦	١٣	عهد العلاء بن الحضرمى لأهل البحرين
٤٧	١٤	كتابه صلى الله عليه وسلم إلى أهل البحرين
٤٧	١٥	» » » » » إلى أهل هجر
٤٨	١٦	» » » » » إلى هوذة بن علىّ صاحب اليمامة
٤٨	١٧	ردّ هوذة بن علىّ على كتابه صلى الله عليه وسلم
٤٩	١٨	كتابه صلى الله عليه وسلم لرفاعة بن زيد الخزاعى
٤٩	١٩	» » » » » إلى جيفر وعبد ابنى الجلندى ملكى عمان
٥١	٢٠	عهده » » » » لأهل أيلة بالأمان
٥٢	٢١	كتابه » » » » لأهل أذرح وجرباء بالأمان

رقم الصفحة	رقم الرسالة	الرســـــالة
٥٢	٢٢	كتابه صلى الله عليه وسلم لأكيدر دومة
٥٣	٢٣	» » » » » لبنى كلب
٥٤	٢٤	» » » » » لثقيف
٥٥	٢٥	» » » » » إلى ملوك حمير
٥٨	٢٦	» » » » » إلى همدان
٥٩	٢٧	» » » » » إلى بنى نهد
٦٠	٢٨	» » » » » إلى وائل بن حجر وأهل حضرموت
٦٢	٢٩	» » » » » إلى فروة بن عمرو الجذامى
٦٢	٣٠	كتاب خالد بن الوليد إليه صلى الله عليه وسلم
٦٣	٣١	ردّه صلى الله عليه وسلم على خالد
٦٤	٣٢	عهده صلى الله عليه وسلم لعمرو بن حزم الأنصارى حين ولاه اليمن
٦٦	٣٣	كتابه » » » إلى معاذ بن جبل
٦٦	٣٤	» » » » » » » » »
٦٧	٣٥	» » » » » لمجاعة بن مرارة
٦٧	٣٦	كتاب مسيلمة بن حبيب إليه صلى الله عليه وسلم
٦٨	٣٧	رده صلى الله عليه وسلم على مسيلمة
٦٨	٣٨	كتابه » » » لبنى زهير بن أقيش
٦٩	٣٩	كتابه صلى الله عليه وسلم إلى أكثم بن صيفى
٧٠	٤٠	» » » » » لأبى ضميرة
٧٠	٤١	» » » » » لبنى ضمرة بالموادعة
٧١	٤٢	» » » » » للداريين وهو بمكة
٧٢	٤٣	» » » » » » » بالمدينة
٧٣	٤٤	كتاب أبى بكر رضى الله عنه لهم
		رواية أخرى
٧٣	٤٥	كتابه صلى الله عليه وسلم للداريين
٧٤	٤٦	كتاب أبى بكر رضى الله عنه لهم
		رواية ثالثة
٧٤	٤٧	كتابه صلى الله عليه وسلم لهم

رقم الصفحة	رقم الرسالة	الرسالة
٧٥	٤٨	كتابه صلى الله عليه وسلم إلى نصارى نجران
٧٥	٤٩	عهده » » » » » لأهل نجران
٧٩	٥٠	عهد أبي بكر رضى الله عنه لهم
٨٠	٥١	عهد عمر رضى الله عنه لهم
٨١	٥٢	عهد عثمان رضى الله عنه لهم
٨٢	٥٣	عهد علىّ رضى الله عنه لهم
٨٣	٥٤	كتابه صلى الله عليه وسلم فى الصدقات
٨٦	٥٥	كتاب آخر له صلى الله عليه وسلم فى الصدقات
٨٧	٥٦	كتابه صلى الله عليه وسلم إلى أهل اليمن

خلافة أبي بكر الصديق رضى الله عنه

رقم الصفحة	رقم الرسالة	الرسالة
٨٩	٥٧	رسالة مفتعلة على أبي بكر
١٠٩	٤٨	كتاب أبي بكر إلى أهل الردّة
١١١	٤٩	» » » لأمراء جيوش الرّدّة
١١٢	٦٠	كتاب خالد بن الوليد إلى أبي بكر
١١٣	٦١	ردّ أبي بكر على كتاب خالد
١١٤	٦٢	كتاب أبي بكر إلى عكرمة بن أبي جهل
١١٤	٦٣	عهد خالد بن الوليد لبنى حنيفة
١١٥	٦٤	كتاب أبي بكر إلى خالد بن الوليد
١١٥	٦٥	كتاب العلاء بن الحضرمى إلى أبي بكر
١١٦	٦٦	» » » » » » »
١١٦	٦٧	كتاب أبي بكر إلى العلاء
١١٧	٦٨	كتاب أبي بكر إلى الطاهر بن أبي هالة
١١٧	٦٩	كتاب أبي بكر إلى وجوه اليمن
١١٨	٧٠	كتاب أبي بكر إلى المهاجر بن أبي أمية
١١٨	٧١	كتاب أبي بكر إلى عمال الرّدّة

رقم الصفحة	رقم الرسالة	الرســـــالة
١١٨	٧٢	كتاب أبي بكر إلى المهاجر بن أبي أمية
١١٨	٧٣	» » » » » » » »
١١٨	٧٤	» » » إلى خالد بن الوليد ومن معه
١٢٠	٧٥	» » » إلى المثنى بن حارثة
١٢١	٧٦	كتاب مذعور بن عدىّ إلى أبي بكر
١٢١	٧٧	كتاب المثنى بن حارثة إلى أبي بكر
١٢٢	٧٨	كتاب أبي بكر إلى مذعور بن عدىّ
١٢٢	٧٩	» » » إلى المثنى بن حارثة
١٢٢	٨٠	» » » إلى خالد بن الوليد
١٢٣	٨١	كتاب أبي بكر إلى عياض بن غنم
١٢٣	٨٢	» » » إلى خالد وعياض
١٢٤	٨٣	» خالد بن الوليد إلى هرمز
١٢٤	٨٤	عهد خالد بن الوليد لأهل الحيرة
١٢٧	٨٥	عهد خالد بن الوليد لصاحب بانقيا
١٢٨	٨٦	» » » » لصاحب قسّ الناطف
١٢٩	٨٧	» » » » لدهاقين العراق
١٣٠	٨٨	كتاب البراءة لأهل الخراج
١٣٠	٨٩	كتاب خالد بن الوليد إلى ملوك فارس
١٣٠	٩٠	» » » » إلى مرازبة فارس
١٣٢	٩١	» » » » » » »
١٣٢	٩٢	» أبي بكر إلى خالد بن الوليد
١٣٣	٩٣	» » » إلى أهل اليمن
١٣٤	٩٤	» » » إلى عمرو بن العاص
١٣٤	٩٥	ردّ عمرو على كتاب أبي بكر
١٣٥	٩٦	كتاب أبي بكر إلى خالد بن سعيد بن العاص
١٣٥	٩٧	كتاب أبي عبيدة بن الجراح إلى أبي بكر
١٣٦	٩٨	ردّ أبي بكر علي أبي عبيدة

رقم الصفحة	رقم الرسالة	الرسالة
١٣٧	٩٩	كتاب يزيد بن أبي سفيان إلى أبي بكر
١٣٧	١٠٠	ردّ أبي بكر على يزيد بن أبي سفيان
١٣٨	١٠١	كتاب هرقل إلى أهل الشأم
١٣٩	١٠٢	» أبي عبيدة إلى أبي بكر
١٣٩	١٠٣	ردّ أبي بكر على أبي عبيدة
١٤٠	١٠٤	كتاب أبي عبيدة إلى أبي بكر
١٤٠	١٠٥	» أبي بكر إلى خالد بن الوليد
١٤١	١٠٦	» خالد بن الوليد إلى المسلمين بالشام
١٤١	١٠٧	» » » » إلى أبي عبيدة
١٤٢	١٠٨	» أبي بكر إلى أبي عبيدة
١٤٢	١٠٩	» خالد إلى الأمراء
١٤٣	١١٠	» » إلى أبي بكر
١٤٤	١١١	عهد أبي بكر عند موته لعمر بن الخطاب

خلافة عمر بن الخطاب رضى الله عنه

رقم الصفحة	رقم الرسالة	الرسالة
١٤٥	١١٢	كتابه إلى أبي عبيدة بن الجرّاح
١٤٦	١١٣	كتاب عمر إلى الأمصار
١٤٦	١١٤	» » إلى أبي عبيدة
١٤٧	١١٥	» أبي عبيدة بن الجراح ومعاذ بن جبل إلى عمر بن الخطاب
١٤٨	١١٦	ردّ عمر على أبي عبيدة ومعاذ
١٥٠	١١٧	كتاب عمر إلى أبي عبيدة
١٥٠	١١٨	عهد خالد بن الوليد لأهل دمشق
١٥١	١١٩	» أبي عبيد لأهل دمشق
١٥٣	١٢٠	كتاب عمرو بن العاص إلى أبي عبيدة
١٥٣	١٢١	» أبي عبيدة إلى عمر بن الخطاب
١٥٤	١٢٢	ردّ عمر على أبي عبيدة

رقم الصفحة	رقم الرسالة	الرسالة
١٥٥	١٢٣	كتاب أبي عبيدة إلى عمر
١٥٦	١٢٤	» » » » »
١٥٧	١٢٥	ردّ عمر على أبي عبيدة
١٦٠	١٢٦	عهد أبي عبيدة لأهل بعلبك
١٦٠	١٢٧	كتاب أبي عبيدة إلى عمر
١٦١	١٢٨	ردّ عمر على أبي عبيدة
١٦١	١٢٩	كتاب أبي عبيدة إلى ميسرة بن مسروق
١٦٢	١٣٠	كتاب أبي عبيدة إلى عمر
١٦٢	١٣١	ردّ عمر على أبي عبيدة
١٦٣	١٣٢	كتاب عمرو بن العاص إلى أبي عبيدة
١٦٤	١٣٣	ردّ أبي عبيدة على عمرو
١٦٥	١٣٤	كتاب عمرو بن العاص إلى بطارقة إيلياء
١٦٦	١٣٥	» أهل إيلياء إلى عمرو بن العاص
١٦٦	١٣٦	» أبي عبيدة إلى عمر
١٦٧	١٣٧	ردّ عمر على أبي عبيدة
١٧٠	١٣٨	كتاب باهان إلى قيصر
١٧٠	١٣٩	» أبي عبيدة إلى ميسرة بن مسروق
١٧٠	١٤٠	» » » » أهل إيلياء
١٧١	١٤١	» » » » عمر
١٧٢	١٤٢	ردّ عمر على أبي عبيدة
١٧٢	١٤٣	كتاب سعيد بن زيد إلى أبي عبيدة
١٧٣	١٤٤	» أبي عبيدة إلى عمر
١٧٤	١٤٥	» عمر إلى معاوية
١٧٤	١٤٦	» أرطبون الرومى إلى عمرو بن العاص
١٧٥	١٤٧	ردّ عمرو على كتاب أرطبون
١٧٥	١٤٨	عهد عمر بن الخطاب لأهل إيلياء
١٧٧	١٤٩	كتاب عمر إلى عمار بن ياسر

رقم الصفحة	رقم الرسالة	الرسالة
١٧٧	١٥٠	كتب بين عمر وبين خالد
١٧٨	١٥١	كتاب عمر إلى أبي عبيدة
١٧٩	١٥٢	كتب بين أبي عبيدة وبين عمر
١٨١	١٥٣	كتاب عمر إلى أبي عبيدة
١٨١	١٥٤	ردّ أبي عبيدة على عمر
١٨٢	١٥٥	كتب بين أبي عبيدة وبين عمر
١٨٣	١٥٦	كتاب معاذ بن جبل إلى عمر
١٨٤	١٥٧	» عمرو بن العاص إلى عمر
١٨٤	١٥٨	» عمر إلى يزيد بن أبي سفيان
١٨٤	١٥٩	» » » أمراء الأجناد
١٨٥	١٦٠	» يزيد بن أبي سفيان إلى أمراء الأجناد
١٨٥	١٦١	» عمر إلى معاوية
١٨٦	١٦٢	» » » عمرو بن العاص
١٨٧	١٦٣	» » » » » »
١٨٧	١٦٤	عهد عمرو بن العاص لأهل مصر
١٨٨	١٦٥	كتاب عمر إلى عمرو بن العاص
١٨٩	١٦٦	» » » » » »
١٩٠	١٦٧	» » » » » »
١٩٠	١٦٨	» عمرو بن العاص إلى عمر
١٩٢	١٦٩	» معاوية إلى عمر
١٩٣	١٧٠	» عمرو بن العاص إلى عمر
١٩٣	١٧١	كتاب عمر إلى عمرو بن العاص
١٩٤	١٧٢	» » » »
١٩٤	١٧٣	ردّ عمرو على عمر
١٩٥	١٧٤	كتاب عمر إلى عمرو
١٩٥	١٧٥	» عمرو إلى عمر وردّه عليه
١٩٦	١٧٦	» عمر » عمرو

رقم الصفحة	رقم الرسالة	الرســـــالة
١٩٧	١٧٧	كتاب عمر إلى عمرو
١٩٩	١٧٨	ردّ عمرو على عمر
٢٠٠	١٧٩	» عمر على عمرو
٢٠٠	١٨٠	» عمرو على عمر
٢٠١	١٨١	كتاب عمر إلى عمرو
٢٠١	١٨٢	ردّ عمرو على عمر
٢٠٢	١٨٣	ردّ عمر على عمرو
٢٠٥	١٨٣م	كتاب أبي عبيد بن مسعود الثقفي إلى عمر
٢٠٦	١٨٤	» عمر إلى المثنى بن حارثة الشيباني
٢٠٧	١٨٥	» عمر إلى عماله
٢٠٧	١٨٦	» سعد بن أبي وقاص إلى عمر
٢٠٨	١٨٧	» عمر إلى سعد بن أبي وقاص
٢٠٨	١٨٨	» » » » » » »
٢٠٨	١٨٩	» » » » » » »
٢١٠	١٩٠	» » » » » » »
٢١١	١٩١	» » » » » » »
٢١٢	١٩٢	ردّ سعد على كتاب عمر
٢١٣	١٩٣	ردّ عمر على سعد
٢١٣	١٩٤	كتاب عمر إلى سعد
٢١٣	١٩٥	» سعد إلى عمر
٢١٤	١٩٦	» عمر إلى سعد
٢١٤	١٩٧	» سعد إلى عمر
٢١٤	١٩٨	» عمر إلى سعد
٢١٥	١٩٩	» سعد » عمر
٢١٦	٢٠٠	» » » »
٢١٦	٢٠١	» » » »
٢١٦	٢٠٢	» عمر » سعد

رقم الصفحة	رقم الرسالة	الرسالة
٢١٧	٢٠٣	كتاب عمر إلى سعد
٢١٧	٢٠٤	» » » »
٢١٨	٢٠٥	» » إلى قطبة بن قتادة
٢١٨	٢٠٦	» » » عتبة بن غزوان
٢٢٠	٢٠٧	» » » » » »
٢٢١	٢٠٨	» » » » » »
٢٢١	٢٠٩	» » » المغيرة بن شعبة
٢٢٢	٢١٠	» » » أهل البصرة
٢٢٢	٢١١	» » » أبي موسى الأشعري
٢٢٣	٢١٢	» » » » » »
٢٢٤	٢١٣	» » » » » »
٢٢٥	٢١٤	» » » » » »
٢٢٦	٢١٥	» سعد بن أبي وقاص إلى عمر
٢٢٧	٢١٦	ردّ عمر على كتاب سعد
٢٢٧	٢١٧	كتاب عمر إلى سعد
٢٢٧	٢١٨	» » » »
٢٢٨	٢١٩	» » » »
٢٢٨	٢٢٠	» » » »
٢٢٩	٢٢١	» » » »
٢٢٩	٢٢٢	» » » »
٢٢٩	٢٢٣	» » » »
٢٣٠	٢٢٤	» » » »
٢٣٠	٢٢٥	كتب بين سعد وبين عمر
٢٣١	٢٢٦	كتاب عمر إلى سعد
٢٣١	٢٢٧	» » » »
٢٣٢	٢٢٨	» » » أبي عبيدة

رقم الصفحة	رقم الرسالة	الرسالة
٢٣٢	٢٢٩	كتاب عمر إلى سعد
٢٣٣	٢٣٠	عهد عياض بن غنم لأهل البصرة
٢٣٣	٢٣١	كتاب عياض إلى أسقف الرها
٢٣٣	٢٣٢	عهد عياض لأهل الرها
٢٣٤	٢٣٣	كتاب عمر إلى ملك الروم
٢٣٤	٢٣٤	» » » حرقوص بن زهير
٢٣٥	٢٣٥	» » » سعد
٢٣٥	٢٣٦	» » » أبي موسى
٢٣٦	٢٣٧	» » » أبي سبرة
٢٣٦	٢٣٨	» النعمان بن مقرن إلى عمر
٢٣٧	٢٣٩	كتاب عمر إلى سعد
٢٣٧	٢٤٠	كتاب عبد الله بن عبد الله بن عتبان إلى عمر
٢٣٧	٢٤١	» عمر إلى النعمان بن مقرن
٢٣٨	٢٤٢	» » » » » »
٢٣٨	٢٤٣	» » » عبد الله بن عبد الله بن عتبان
٢٣٨	٢٤٤	» » » القوّاد بفارس
٢٣٩	٢٤٥	عهد النعمان بن مقرن لأهل ماء بهرذان
٢٣٩	٢٤٦	كتاب عمر إلى النعمان بن مقرن
٢٤٠	٢٤٧	» » » »
٢٤٠	٢٤٨	» » » نعيم بن مقرن
٢٤٠	٢٤٩	» » » عبد الله بن عبد الله بن عتبان
٢٤١	٢٥٠	» » » أهل الكوفة
٢٤١	٢٥١	عهد عبد الله بن عبد الله للفاذوسفان ، وأهل أصبهان
٢٤٢	٢٥٢	كتاب عمر إلى عبد الله بن عبد الله
٢٤٢	٢٥٣	كتب بين عمر وبين حذيفة بن اليمان
٢٤٢	٢٥٤	» » » » عثمان بن حنيف

رقم الصفحة	رقم الرسالة	الرسالة
٢٤٣	٢٥٥	كتاب عمر إلى نعيم بن مقرن
٢٤٣	٢٥٦	عهد نعيم بن مقرن لأهل الرىّ
٢٤٤	٢٥٧	عهد سويد بن مقرن لأهل دنباوند
٢٤٥	٢٥٨	كتاب عمر إلى نعيم بن مقرن
٢٤٥	٢٥٩	عهد سويد بن مقرن لأهل قومس
٢٤٥	٢٦٠	» » » » » جرجان
٢٤٦	٢٦١	» » » » » طبرستان
٢٤٧	٢٦٢	عهد عتبة بن فرقد لأهل أذربيجان
٢٤٧	٢٦٣	عهد سراقة بن عمرو لأهل أرمينية
٢٤٨	٢٦٤	عهد بكير بن عبد الله لأهل موقان
٢٤٩	٢٦٥	كتاب عمر إلى الأحنف بن قيس
٢٤٩	٢٦٦	» » » ابنه عبد الله
٢٥٠	٢٦٧	» شريح
٢٥٠	٢٦٨	» عمر إلى النعمان بن عدىّ
٢٥١	٢٦٩	» نضر بن حجاج إلى عمر
٢٥٢	٢٧٠	» عمر لأنس بن مالك
٢٥٢	٢٧١	» أبي موسى الأشعرى إلى عمر
٢٥٣	٢٧٢	ردّ عمر عليه
٢٥٣	٢٧٣	كتاب عمر إلى عماله
٢٥٤	٢٧٤	» أمير الطائف على عمر
٢٥٤	٢٧٥	ردّ عمر عليه
٢٥٤	٢٧٦	كتاب عمر إلى يعلى بن أمية
٢٥٥	٢٧٧	كتاب غلام لعبد الله بن عمر إليه
٢٥٥	٢٧٨	ردّ عبد الله بن عمر على غلامه
٢٥٥	٢٧٩	كتاب عمر إلى الحصين بن الحرّ
٢٥٥	٢٨٠	» » » المغيرة بن شعبة
٢٥٦	٢٨١	» المغيرة بن شعبة إلى عمر

رقم الصفحة	رقم الرسالة	الرسالة
		خلافة عثمان بن عفان رضى الله عنه
٢٥٧	٢٨٢	كتابه إلى عماله
٢٥٧	٢٨٣	« « أمراء الأجناد
٢٥٨	٢٨٤	كتابه إلى عمال الخراج
٢٥٨	٢٨٥	« « العامة
٢٥٨	٢٨٦	« « عماله
٢٥٩	٢٨٧	« « «
٢٥٩	٢٨٨	« « الوليد بن عقبة
٢٦٠	٢٨٩	« « عماله
٢٦٠	٢٩٠	« « أهل الأمصار
٢٦٠	٢٩١	كتاب عثمان إلى أهل الكوفة
٢٦١	٢٩٢	« سعيد بن العاص إلى عثمان
٢٦١	٢٩٣	ردّ عثمان على كتاب سعيد
٢٦١	٢٩٤	كتب بين عثمان وبين سعيد بن العاص
٢٦٢	٢٩٥	كتاب معاوية إلى عثمان
٢٦٣	٢٩٦	« عثمان إلى معاوية
٢٦٣	٢٩٧	« « « عبد الرحمن بن ربيعة
٢٦٤	٢٩٨	« مرزبان مرو إلى الأحنف بن قيس
٢٦٥	٢٩٩	ردّ الأحنف على كتابه
٢٦٦	٣٠٠	عهد حبيب بن مسلمة لأهل دبيل
٢٦٦	٣٠١	كتاب حبيب بن مسلمة إلى أهل جرزان
٢٦٧	٣٠٢	عهد حبيب لأهل جرزان
٢٦٨	٣٠٣	كتاب سعيد بن العاص إلى عثمان
٢٦٨	٣٠٤	« عثمان إلى معاوية
٢٦٩	٣٠٥	« معاوية إلى عثمان
٢٧٠	٣٠٦	« عثمان إلى الأشتر وأصحابه
٢٧٠	٣٠٧	كتاب عثمان إلى أهل الكوفة

رقم الصفحة	رقم الرسالة	الرسالة
٢٧١	٣٠٨	كتاب عثمان إلى أهل الأمصار
٢٧١	٣٠٩	» أهل المدينة إلى من بالآفاق
٢٧٢	٣١	» » » » أهل مصر
٢٧٢	٣١١	» مفتعل على عثمان
٢٧٤	٣١٢	» عثمان إلى أهل الأمصار
٢٧٥	٣١٣	» أهل مصر إلى عثمان
٢٧٥	٣١٤	» عثمان إلى الإمام علىّ
٢٧٧	٣١٥	» » » معاوية وأهل الشأم والبصرة
٢٧٨	٣١٦	» » » » » »
٢٠٨	٣١٧	» » » أهل الموسم
٢٨٤	٣١٨	» آخر » » »
٢٨٥	٣١٩	» أبي الدرداء إلى معاوية
٢٨٥	٣٢٠	» » » » سلمان الفارسي
٢٨٦	٣٢١	ردّ سلمان الفارسي على أبي الدرداء
٢٨٦	٣٢٢	كتاب سلمان الفارسي إلى أبي الدرداء
٢٨٦	٣٢٣	ردّ أبي الدرداء على سلمان
٢٨٧	٣٢٤	كتاب نائلة بنت الفرافصة إلى معاوية

خلافة الإمام علي بن أبي طالب كرم الله وجهه

رقم الصفحة	رقم الرسالة	الرسالة
٢٩٠	٣٢٥	كتاب الإمام علىّ إلى عثمان بن حنيف
٢٩٤	٣٢٦	كتاب معاوية إلى الزبير بن العوّام
٢٩٦	٣٢٧	كتاب مروان بن الحكم إلى معاوية وإلى يعلى بن منية
٢٩٧	٣٢٨	كتاب مروان بن الحكم إلى معاوية
٢٩٩	٣٢٩	» معاوية إلى طلحة بن عبيد الله
٣٠٠	٣٣٠	» » » الزبير بن العوّام
٣٠١	٣٣١	» » » مروان
٣٠٢	٣٣٢	» » » سعيد بن العاص

رقم الصفحة	رقم الرسالة	الرسالة
٣٠٣	٣٣٣	كتاب معاوية إلى عبد الله بن عامر
٣٠٤	٣٣٤	» » » الوليد بن عقبة
٣٠٥	٣٣٥	» » » يعلى بن أمية
٣٠٦	٣٣٦	» مروان إلى معاوية
٣٠٧	٣٣٧	» عبد الله بن عامر إلى معاوية
٣٠٨	٣٣٨	» الوليد بن عقبة إلى معاوية
٣١٠	٣٣٩	» يعلى بن أمية إلى معاوية
٣١١	٣٤٠	» سعيد بن العاص إلى معاوية
٣١٢	٣٤١	كتاب السيدة أم سلمة إلى السيدة عائشة
٣١٥	٣٤٢	ردّ السيدة عائشة على السيدة أم سلمة
٣١٥	٣٤٣	كتاب السيدة أم سلمة إلى عليّ
٣١٦	٣٤٤	» الأشتر إلى السيدة عائشة
٣١٦	٣٤٥	ردّ السيدة عائشة على الأشتر
٣١٧	٣٤٦	كتاب طلحة والزبير إلى كعب بن سور
٣١٧	٣٤٧	» » » » » الأحنف بن قيس
٣١٨	٣٤٨	» » » » » المنذر بن ربيعة
٣١٨	٣٤٩	ردّ كعب بن سور على طلحة والزبير
٣١٨	٣٥٠	» الأحنف على طلحة والزبير
٣١٩	٣٥١	ردّ المنذر على طلحة والزبير
٣١٩	٣٥٢	كتاب السيدة عائشة إلى زيد بن صوحان
٣٢٠	٣٥٣	ردّ زيد بن صوحان على السيدة عائشة
٣٢١	٣٥٤	كتاب الصلح بين أصحاب الجمل وبين عثمان بن حنيف
٣٢٢	٣٥٥	» عليّ إلى عثمان بن حنيف
٣٢٣	٣٥٦	» طلحة والزبير إلى أهل الأمصار
٣٢٤	٣٥٧	كتاب السيدة عائشة إلى أهل الكوفة
٣٢٦	٣٥٨	» عليّ إلى أهل الكوفة
٣٢٦	٣٥٩	» » » » »

رقم الصفحة	رقم الرسالة	الرسالة
٣٢٨	٣٦٠	كتاب على إلى أبى موسى الأشعرى
٣٢٨	٣٦١	« هاشم بن عتبة إلى علىّ
٣٢٩	٣٦٢	« علىّ إلى أبى موسى
٣٣٠	٣٦٣	« « « « «
٣٣٠	٣٦٤	« « « أهل الكوفة
٣٣٢	٣٦٥	« السيدة عائشة إلى السيدة حفصة بنت عمر
٣٣٢	٣٦٦	« علىّ إلى طلحة والزبير
٣٣٣	٣٦٧	« « « السيدة عائشة
٣٣٤	٣٦٨	ردّ طلحة والزبير على علىّ
٣٣٤	٣٦٩	« السيدة عائشة على علىّ
٣٣٤	٣٧٠	كتاب علىّ إلى عامله بالكوفة
٣٣٥	٣٧١	« الأحنف بن قيس إلى قومه
٣٣٦	٣٧٢	« علىّ إلى جرير بن عبد الله البجلى
٣٣٧	٣٧٣	« « « الأشعث بن قيس
٣٣٨	٣٧٤	كتاب جرير إلى الأشعث
٣٣٨	٣٧٥	« علىّ إلى معاوية
٣٣٩	٣٧٦	ردّ معاوية على علىّ
٣٣٩	٣٧٧	كتاب علىّ إلى معاوية
٣٤٠	٣٧٨	ردّ معاوية على علىّ
٣٤٠	٣٧٩	كتاب علىّ إلى معاوية
٣٤١	٣٨٠	« معاوية إلى عمرو بن العاص
٣٤٤	٣٨١	« علىّ إلى جرير بن عبد الله
٣٤٤	٣٨٢	« الوليد بن عقبة إلى معاوية
٣٤٥	٣٨٣	« « « « « «
٣٤٦	٣٨٤	« « « « « «
٣٤٧	٣٨٥	ردّ معاوية على الوليد بن عقبة
٣٤٧	٣٨٦	كتاب علىّ إلى جرير

رقم الصفحة	رقم الرسالة	الرسالة
٣٤٨	٣٨٧	كتاب عياض الثمالى إلى شرحبيل بن السمط
٣٥٠	٣٨٨	« آخر إلى شرحبيل بن السمط
٣٥١	٣٨٩	ردّ معاوية على علىّ
٥٣	٣٩٠	« علىّ على معاوية
٣٥٤	٣٩١	كتاب معاوية إلى علىّ
٣٥٤	٣٩٢	« « « أهل مكة والمدينة
٣٥٥	٣٩٣	ردّ المسور بن مخرمة على معاوية
٣٥٦	٣٩٤	كتاب رجل من الأنصار إلى معاوية وعمرو
٣٥٧	٣٩٥	« معاوية إلى ابن عمر
٣٥٧	٣٩٦	ردّ ابن عمر على معاوية
٣٥٨	٣٩٧	كتاب معاوية إلى سعد بن أبى وقاص
٣٥٨	٣٩٨	ردّ سعد على معاوية
٣٥٩	٣٩٩	كتاب معاوية إلى محمد بن مسلمة الأنصارى
٣٥٩	٤٠٠	ردّ ابن مسلمة على معاوية
٣٦٠	٤٠١	كتاب معاوية إلى أبى أيوب الأنصارى
٣٦١	٤٠٢	ردّ أبى أيوب على معاوية
٣٦٢	٤٠٣	كتاب شرحبيل بن السمط إلى معاوية
٣٦٤	٤٠٤	« معاوية إلى علىّ
٣٦٥	٤٠٥	ردّ علىّ على معاوية
٣٦٦	٤٠٦	كتاب معاوية إلى علىّ
٣٦٨	٤٠٧	ردّ علىّ على معاوية
٣٧١	٤٠٨	كتاب علىّ إلى معاوية
٣٧٢	٤٠٩	ردّ معاوية على علىّ
٣٧٢	٤١٠	ردّ علىّ على معاوية
٣٧٢	٤١١	« معاوية على علىّ
٣٧٣	٤١٢	« علىّ على معاوية
٣٧٣	٤١٣	« معاوية على علىّ

رقم الصفحة	رقم الرسالة	الرسالة
٣٧٤	٤١٤	ردّ عليّ على معاوية
٣٧٦	٤١٥	« معاوية على عليّ
٣٧٧	٤١٦	« عليّ على معاوية
٣٧٧	٤١٧	كتاب معاوية إلى عليّ
٣٧٨	٤١٨	ردّ عليّ على معاوية
٣٧٨	٤١٩	كتاب عليّ إلى معاوية
٣٨١	٤٢٠	ردّ معاوية على عليّ
٣٨٢	٤٢١	كتاب عليّ إلى معاوية
٣٨٣	٤٢٢	« « « «
٣٨٤	٤٢٣	« معاوية إلى عليّ
٣٨٥	٤٢٤	ردّ عليّ على معاوية
٣٩٠	٤٢٥	كتاب معاوية إلى عليّ
٣٩٣	٤٢٦	ردّ عليّ على معاوية
٤٠٢	٤٢٧	كتاب عليّ إلى مخنف بن سليم
٤٠٣	٤٢٨	« « « عبد الله بن عباس
٤٠٤	٤٢٩	« « « « « « «
٤٠٤	٤٣٠	« زياد بن النضر إلى علي
٤٠٥	٤٣١	« شريح بن هانئ إلى علي
٤٠٥	٤٣٢	« عليّ إلى زياد وشريح
٤٠٧	٤٣٣	« « « أمراء الأجناد
٤٠٧	٤٣٤	« « « الأجناد
٤٠٨	٤٣٥	« « « معاوية ومن قبله من قريش
٤٠٩	٤٣٦	ردّ معاوية على عليّ
٤٠٩	٤٣٧	كتاب عمرو بن العاص إلى ابن عباس
٤١١	٤٣٨	ردّ ابن عباس على ابن العاص
٤١٣	٤٣٩	كتاب معاوية إلى ابن عباس
٤١٤	٤٤٠	ردّ ابن عباس على معاوية

رقم الصفحة	رقم الرسالة	الرســـــالة
٤١٤	٤٤١	كتاب علىّ إلى معاوية
٤١٦	٤٤٢	« معاوية إلى ملك الروم
٤١٦	٤٤٣	« معاوية إلى علىّ
٤١٧	٤٤٤	ردّ علىّ على معاوية
٤١٩	٤٤٥	كتاب معاوية إلى علىّ
٤٢١	٤٤٦	ردّ علىّ على معاوية
٤٢٣	٤٤٧	كتاب معاوية إلى علىّ
٤٢٤	٤٤٨	ردّ علىّ على معاوية
٤٢٥	٤٤٩	ردّ معاوية على علىّ
٤٢٦	٤٥٠	كتاب علىّ إلى عمرو بن العاص
٤٢٦	٤٥١	ردّ عمرو على علىّ
٤٢٧	٤٥٢	« علىّ على عمرو
٤٢٧	٤٥٣	« عمرو على علىّ
٤٢٧	٤٥٤	« علىّ على عمرو
٤٢٩	٤٥٥	كتاب الصلح بين علىّ ومعاوية
٤٣٥	٤٥٦	« بين عمرو بن العاص وأبى موسى الأشعرى
٤٣٨	٤٥٧	« ابن عمر إلى أبى موسى
٤٣٨	٤٥٨	ردّ أبى موسى على ابن عمر
٤٣٩	٤٥٩	كتاب معاوية إلى أبى موسى
٤٣٩	٤٦٠	ردّ أبى موسى على معاوية
٤٤٠	٤٦١	كتاب علىّ إلى أبى موسى
٤٤٠	٤٦٢	ردّ أبى موسى على علىّ
٤٤٠	٤٦٣	كتاب أبى موسى إلى عامر بن عبد القيس
٤٤١	٤٦٤	« عبد الله بن وهب الراسبى إلى خوارج البصرة
٤٤١	٤٦٥	ردّ خوارج البصرة
٤٤٢	٤٦٦	كتاب علىّ إلى الخوارج بالنهر
٤٤٢	٤٦٧	ردّ الخوارج عليه

رقم الصفحة	رقم الرسالة	الرسالة
٤٤٢	٤٦٨	كتاب علىّ إلى ابن عباس
٤٤٣	٤٦٩	كتاب علىّ إلى معاوية
٤٤٥		خروج الخريت بن راشد الناجى
٤٤٥	٤٧٠	كتاب علىّ إلى عماله
٤٤٥	٤٧١	« قرظة بن كعب إلى علىّ
٤٤٦	٤٧٢	ردّ على على قرظة بن كعب
٤٤٦	٤٧٣	كتاب علىّ إلى زياد بن خصفة
٤٤٧	٤٧٤	« زياد بن خصفة إلى علىّ
٤٤٨	٤٧٥	« علىّ إلى ابن عباس
٤٤٨	٤٧٦	ردّ علىّ على زياد بن خصفة
٤٤٩	٤٧٧	كتاب ابن عباس إلى معقل بن قيس
٤٥٠	٤٧٨	كتاب معقل بن قيس إلى علىّ
٤٥٠	٤٧٩	« علىّ إلى معقل بن قيس
٤٥١	٤٨٠	« « « أشياع الخريت
٤٥٢	٤٨١	« معقل بن قيس إلى علىّ
٤٥٣	٤٨٢	« علىّ إلى مصقلة بن هبيرة
٤٥٥	٤٨٣	« مصقلة إلى أخيه نعيم
٤٥٥	٤٨٤	ردّ نعيم على مصقلة
٤٥٦	٤٨٥	كتاب قوم مصقلة إليه
٤٥٧	٤٨٦	ردّ مصقلة على قومه
٤٥٧	٤٨٧	كتاب علىّ إلى أهل مصر
٤٥٩	٤٨٨	كتاب معاوية إلى قيس بن سعد
٤٦١	٤٨٩	ردّ قيس بن سعد على معاوية
٤٦١	٤٩٠	ردّ معاوية على قيس
٤٦٢	٤٩١	« قيس على معاوية
٤٦٣	٤٩٢	كتاب معاوية إلى قيس
٤٦٣	٤٩٣	ردّ قيس على معاوية

الرقم صفحة	رقم الرسالة	الرسالة
٤٦٤	٤٩٤	كتاب اختلقه معاوية على قيس بن سعد
٤٦٥	٤٩٥	» قيس بن سعد إلى علىّ
٤٦٥	٤٩٦	ردّ علىّ على قيس بن سعد
٤٦٦	٤٩٧	» قيس بن سعد على علىّ
٤٦٦	٤٩٨	عهد على إلى محمد بن أبى بكر
٤٦٩	٤٩٩	كتاب علىّ إلى محمد بن أبى بكر وأهل مصر
٤٧٤	٥٠٠	» علىّ إلى أهل مصر
٤٧٥	٥٠١	» محمد بن أبى بكر إلى معاوية
٤٧٧	٥٠٢	ردّ معاوية على محمد بن أبى بكر
٤٧٩	٥٠٣	كتاب على إلى الأشتر
٤٨٠	٥٠٤	» » » » أهل مصر
٤٨١	٥٠٥	» . آخر إلى أهل مصر
٤٨٣	٥٠٦	كتاب علىّ إلى محمد بن أبى بكر
٤٨٤	٥٠٧	ردّ محمد بن أبى بكر على علىّ
٤٨٤	٥٠٨	كتاب معاوية إلى مسلمة بن مخلد ومعاوية بن حديج
٤٨٥	٥٠٩	ردّ مسلمة بن مخلد ومعاوية بن حديج على معاوية
٤٨٦	٥١٠	كتاب عمرو بن العاص إلى محمد بن أبى بكر
٤٨٦	٥١١	كتاب معاوية إلى محمد بن أبى بكر
٤٨٧	٥١٢	» محمد بن أبى بكر إلى على
٤٨٨	٥١٣	ردّ علىّ على محمد بن أبى بكر
٤٨٨	٥١٤	» محمد بن أبى بكر على معاوية
٤٨٩	٥١٥	» محمد بن أبى بكر على عمرو بن العاص
٤٩٠	٥١٦	كتاب عمرو بن العاص إلى معاوية
٤٩٠	٥١٧	» علىّ إلى ابن عباس
٤٩١	٥١٨	ردّ ابن عباس على علىّ
٤٩٢	٥١٩	كتاب على إلى أهل العراق

رقم الصفحة	رقم الرسالة	الرسالة
		فتنة البصرة
٥٠١	٥٢٠	كتاب معاوية إلى عمرو بن العاص
٥٠٢	٥٢١	ردّ عمرو على معاوية
٥٠٢	٥٢٢	كتاب معاوية إلى أهل البصرة
٥٠٤	٥٢٣	» عباس بن صحار العبدى إلى معاوية
٥٠٤	٥٢٤	ردّ معاوية على عباس بن صحار
٥٠٥	٥٢٥	كتاب زياد إلى ابن عباس
٥٠٦	٥٢٦	» على إلى زياد
٥٠٦	٥٢٧	» زياد إلى علىّ
٥٠٧	٥٢٨	» علىّ إلى أهل البصرة
٥٠٨	٥٢٩	» زياد إلى على
٥٠٩	٥٣٠	» علىّ إلى زياد
٥١٠	٥٣١	رد زياد عليه
٥١٠	٥٣٢	كتاب معاوية إلى زياد ابن أبيه
٥١٢	٥٣٣	» علىّ إلى زياد
٥١٣	٥٣٤	» علىّ إلى ابن عباس
٥١٤	٥٣٥	» أبى الأسود الدؤلى إلى علىّ
٥١٤	٥٣٦	ردّ علىّ على أبى الأسود
٥١٥	٥٣٧	كتاب على إلى ابن عباس
٥١٥	٥٣٨	ردّ ابن عباس على علىّ
٥١٦	٥٣٩	» علىّ على ابن عباس
٥١٦	٥٤٠	» ابن عباس على علىّ
٥١٧	٥٤١	كتاب علىّ إلى ابن عباس
٥١٩	٥٤٢	ردّ ابن عباس على علىّ
٥١٩	٥٤٣	» علىّ على ابن عباس
٥٢٠	٥٤٤	» ابن عباس على علىّ

رقم الصفحة	رقم الرسالة	الرسالة
٥٢٠	٥٤٥	كتاب عقيل بن أبى طالب إلى على
٥٢١	٥٤٦	رد علىّ على عقيل
٥٢٤	٥٤٧	كتاب صعصعة بن صوحان إلى عقيل
٥٢٧	٥٤٨	« علىّ إلى كعب بن مالك
٥٢٧	٥٤٩	« علىّ إلى بعض عماله
٥٢٨	٥٥٠	« علىّ إلى سهل بن حنيف
٥٢٨	٥٥١	« علىّ إلى المنذر بن الجارود العبدى
٥٢٨	٥٥٢	« وقف لعلىّ كرم الله وجهه
٥٢٨		توقيعات الخلفاء الراشدين

فهرس أعلام الكتاب

مرتب بترتيب الحروف الهجائية

مع إتباع كل كاتب بأرقام الصفحات التي وردت فيها رسائله

ا

أبو الأسود الدؤلى ٥٨٧
أبو أيوب الأنصارى ٤١٠
أبو بكر رضى الله عنه ٧٣ ، ٧٤ ، ٧٩ ، ٨٩ ، ١٠٩ ، ١١١ ، ١١٣ ، ١١٤ ، ١١٥ ، ١١٦ ، ١١٧ ، ١١٨ ، ١١٩ ، ١٢٠ ، ١٢٢ ، ١٢٣ ، ١٣٢ ، ١٣٤ ، ١٣٥ ، ١٣٦ ، ١٣٦ ، ١٣٧ ، ١٣٧ ، ١٣٩ ، ١٤٠ ، ١٤٢ ، ١٤٤ ، ١٤٤
أبو الدرداء ٢٨٥ ، ٢٨٦
أبو عبيد بن مسعود الثقفى ٢٠٥
أبو عبيدة بن الجراح ١٣٥ ، ١٣٩ ، ١٤٠ ، ١٤٧ ، ١٥١ ، ١٥٣ ، ١٥٥ ، ١٥٦ ، ١٦٠ ، ١٦٠ ، ١٦١ ، ١٦٢ ، ١٦٤ ، ١٦٦ ، ١٧٠ ، ١٧١ ، ١٧٣ ، ١٧٩ ، ١٨١ ، ١٨٢
أبو موسى الأشعرى ١٩٢ ، ٤٣٥ ، ٤٣٩ ، ٤٤٠ ، ٤٤٠
أبى بن زيد العبادى ١٨
الأحنف بن قيس ٢٦٥ ، ٣١٨ ، ٣٣٥ ،
أرطبون الرومى ١٧٤
الأشتر النخعى ٣١٦
أكثم بن صيفى ٢٥ ، ٢٧
أم سلمة ٣١٥

ب

باهان ١٦٩
بكير بن عبد الله ٢٤٨

ج

جرير بن عبد الله البجلى ٣٣٨

ح

حبيب بن مسلمة ٢٦٦ ، ٢٦٦ ، ٢٦٧ ،
حذيفة بن اليمان ٢٤٢

خ

خالد بن الوليد ٦٢ ، ١١٢ ، ١١٤ ، ١٢٤ ، ١٢٧ ، ١٢٨ ، ١٢٩ ، ١٣٠ ، ١٣٠ ، ١٣٢ ، ١٤١ ، ١٤٢ ، ١٤٣ ، ١٥٠ ، ١٧٧

ز

الزبير بن العوام ٣١٧ ، ٣١٨، ٣٢٣، ٣٣٤

زياد ابن أبيه ٥٠٥ ، ٥٠٦ ، ٥٠٨ ، ٥٠٩ ، ٥١٠ ، ٥١٢

زياد بن خصفة ٤٤٦

زياد بن النضر ٤٠٤

زيد بن صوحان ٣٢٠

س

سراقة بن عمرو ٢٤٧

سعد بن أبي وقاص ٢٠٧ ، ٢١٢ ، ٢١٣ ، ٢١٤ ، ٢١٥ ، ٢١٦ ، ٢٢٦ ، ٢٣٠ ، ٣٥٨

سعيد بن العاص ٢٦٠ ، ٢٦١ ، ٢٦٨ ، ٣١١

سلمان الفارسي ٢٨٥

سويد بن مقرن ٢٤٥ ، ٢٤٦

ش

شرحبيل بن السمط ٣٦٣

شريح بن هانئ ٤٠٥

ص

صعصعة بن صوحان ٥٢٤

ط

طلحة بن عبيد الله ٣١٧ ، ٣١٨ ، ٣٢٣ ، ٣٣٤

ع

السيدة عائشة ٣١٦ ، ٣١٩ ، ٣٢٤، ٣٣٢، ٣٣٣

عباس بن صحار العبدى ٥٠٤

عبد العزى بن امرئ القيس الكلبي ١٤

عبد الله بن عامر ٣٠٧

عبد الله بن عباس ٤١١ ، ٤١٤ ، ٤٤٩ ، ٥١٥ ، ٥١٦ ، ٥١٦ ، ٥١٧ ، ٥١٩

عبد الله بن عمر ٣٥٧ ، ٣٥٧ ، ٤٣٨

عبد الله بن وهب ٤٤١

عبد الله بن عتبان ٢٣٧ ، ٢٤٠

عبد المطلب بن هاشم ٢١ ، ٢٢ ، ٢٤

عتبة بن فرقد ٢٤٧

عثمان بن حنيف ٢٤٢ ، ٣٢١

عثمان رضى الله عنه ٨١ ، ٢٥٧ ، ٢٥٨ ، ٢٥٩ ، ٢٦٠ ، ٢٦١ ، ٢٦٢ ، ٢٦٣ ، ٢٦٤ ، ٢٦٥ ، ٢٦٨ ، ٢٧٠ ، ٢٧١ ، ٢٧١ ، ٢٧٥ ، ٢٧٧ ، ٢٧٨ ، ٢٨٤ ، ٦٠٧

عدى بن زيد العبادى ١٦

عقيل بن أبي طالب ٥٢٠

العلاء بن الحضرمى ٤٦ ، ١١٥

على بن أبي طالب رضى الله عنه ٨٢ ، ٢٩٠ ، ٣٢٢ ، ٣٢٦ ، ٢٤٠ ، ٣٢٨ ، ٣٢٩ ، ٣٣٠ ، ٣٣١ ، ٣٣٢ ، ٣٣٣ ، ٣٣٤ ، ٣٣٦ ، ٣٣٧ ، ٣٣٨ ، ٣٣٩ ، ٣٤٠ ، ٣٤٤ ، ٣٤٧ ، ٣٥٣ ، ٣٦٥ ، ٣٦٨ ، ٣٧١ ، ٣٧٢ ، ٣٧٣ ، ٣٧٦ ، ٣٧٨ ، ٣٨١ ، ٣٨٣ ، ٣٨٥ ، ٣٩٣ ، ٤٠٢ ، ٤٠٣ ، ٤٠٤ ، ٤٠٥ ، ٤٠٧ ، ٤١٤ ، ٤١٧ ، ٤٢١ ، ٤٢٤ ، ٤٢٦ ، ٤٢٧ ، ٤٢٩ ، ٤٤٠ ، ٤٤٢ ، ٤٤٢ ،

٤٤٣ ، ٤٤٥ ، ٤٤٦ ، ٤٤٦ ، ٤٤٨ ،
٤٤٨ ، ٤٥٠ ، ٤٥١ ، ٤٥٣ ، ٤٥٧ ،
٤٦٥ ، ٤٦٦ ، ٤٦٩ ، ٤٧٤ ، ٤٧٩ ،
٤٨٠ ، ٤٨١ ، ٤٨٣ ، ٤٨٨ ، ٥٩٠ ،
٥٩٢ ، ٥٠٦ ، ٥٠٧ ، ٥٠٩ ، ٥١٢ ،
٥١٣ ، ٥١٤ ، ٥١٥ ، ٥١٧ ، ٥١٩ ،
٥٢١ ، ٥٢٧ ، ٥٢٨ ٥٢٨ ، ٥٢٩ ،
٥٣١ ، ٥٣١

عمر بن الخطاب رضي الله عنه ٨٠، ١٤٩،
١٤٦ ، ١٤٨ ، ١٥٠ ، ١٥٤ ، ١٥٧ ،
١٦١ ، ١٦٢ ، ١٦٧ ، ١٧٢ ، ١٧٤ ،
١٧٥ ، ١٧٧ ، ١٧٧ ، ١٧٩ ، ١٨١ ،
١٨٢ ، ١٨٤ ، ١٨٥ ، ١٨٦ ، ١٨٧ ،
١٨٨ ، ١٨٩ ، ١٩٠ ، ١٩٣ ، ١٩٤ ،
١٩٥ ، ١٩٦ ، ١٩٧ ، ٢٠٠ ، ٢٠١ ،
٢٠٢ ، ٢٠٦ ، ٢٠٧ ، ٢٠٨ ، ٢٠٨ ،
٢١٠ ، ٢١١ ، ٢١٣ ، ٢١٣ ، ٢١٤ ،
٢١٤ ، ٢١٦ ، ٢١٧ ، ٢١٨ ، ٢٢٠ ،
٢٢١ ، ٢٢٢ ، ٢٢٣ ، ٢٢٤ ، ٢٢٥ ،
٢٢٦ ، ٢٢٧ ، ٢٢٧ ، ٢٢٨ ، ٢٢٩ ،
٢٣٠ ، ٢٣١ ، ٢٣١ ، ٢٣٢ ، ٢٣٤ ،
٢٣٥ ، ٢٣٦ ، ٢٣٧ ، ٢٣٧ ، ٢٣٨ ،
٢٣٩ ، ٢٤٠ ، ٢٤١ ، ٢٤٢ ، ٢٤٣ ،
٢٤٥ ، ٢٤٨ ، ٢٤٩ ، ٢٥٠ ، ٢٥٢ ،
٢٥٢ ، ٢٥٤ ، ٢٥٤ ، ٢٥٥ ، ٥٣٠ .

عمرو بن العاص ١٣٤ ، ١٥٣ ، ١٦٣ ،
١٧٥ ، ١٨٤ ، ٢٨٧ ، ١٩٠ ، ١٩٣ ،
١٩٤ ، ١٩٥ ، ١٩٩ ، ٢٠٠ ، ٢٠١ ،
٤٠٩ ، ٤٢٦ ، ٤٢٧ ، ٤٣٥ ، ٤٨٦ ،
٤٩٠ ، ٥٠١ ، ٥٠٢

عمرو بن هند ١٢

عياض بن غنم ٢٣٣ ، ٢٣٣

عياض الثمالي ٣٤٨

ق

قرظة بن كعب ٤٤٥

قيس بن سعد بن عبادة ٤٦١ ، ٤٦٢ ،
٤٦٣ ، ٣٦٥ ، ٤٦٥ ، ٤٦٦

ك

كعب بن سور ٣١٨

م

المثنى بن حارثة ١٢١

محمد بن أبي بكر ٤٧٥ ، ٤٨٤ ، ٤٨٨ ،
٤٨٩

محمد صلى الله عليه وسلم ٣١، ٣٥ ، ٣٧،
٤٠ ، ٤٠ ، ٤٢ ، ٤٤ ، ٤٥ ، ٤٦ ،
٤٧ ، ٤٨ ، ٤٩ ، ٤٩ ، ٥١ ، ٥٢ ،
٥٣ ، ٥٤ ، ٥٥ ، ٥٨ ، ٥٩ ، ٦٠ ،
٦٢ ، ٦٣ ، ٦٤ ، ٦٦ ، ٦٧ ، ٦٧ ،
٦٨ ، ٦٨ ، ٦٩ ، ٧٠ ، ٧٠ ، ٧١ ،
٧٢ ، ٧٣ ، ٧٤ ، ٧٥ ، ٧٥ ، ٨٣ ،
٨٦ ، ٨٧

محمد بن مسلمة ٣٥٩

مذعور بن عدي ١٢١

مروان بن الحكم ٢٩٦ ، ٢٩٧ ، ٣٠٦

مسلمة بن مخلد ٤٨٥

المسور بن مخرمة ٣٥٥
مسيلمة ٢٦٧
مصقلة بن هبيرة ٤٥٥ ، ٤٥٧
معاذ بن جبل ١٤٧ ، ١٨٣
معاوية ١٩٢ ، ٢٦٢ ، ٢٦٩ ، ٢٩٤ ، ٢٩٩ ، ٣٠٠ ، ٣٠١ ، ٣٠٢ ، ٣٠٣ ، ٣٠٤ ، ٣٠٥ ، ٣٣٩ ، ٣٤٠ ، ٣٤١ ، ٣٤٦ ، ٣٤٧ ، ٣٥١ ، ٣٥٤ ، ٣٥٤ ، ٣٥٥ ، ٣٥٦ ، ٣٥٧ ، ٣٥٨ ، ٣٥٩ ، ٣٦٠ ، ٣٦٤ ، ٣٦٦ ، ٣٧٢ ، ٣٧٢ ، ٣٧٣ ، ٢٧٣ ، ٣٧٤ ، ٣٧٧ ، ٣٧٧ ، ٣٨١ ، ٣٨٢ ، ٣٨٤ ، ٣٩٠ ، ٤٠٩ ، ٤١٣ ، ٤١٦ ، ٤١٩ ، ٤٢٣ ، ٤٢٥ ، ٤٣٩ ، ٤٥٩ ، ٤٦١ ، ٤٦٣ ، ٤٦٤ ، ٤٧٧ ، ٤٨٤ ، ٤٨٥ ، ٤٨٦ ، ٥٠١ ، ٥٠٢ ، ٥٠٤ ، ٥١٠
معقل بن قيس ٤٥٠ ، ٤٥٢
المغيرة بن شعبة ٢٥٦
المقوقس ٤٣
المنذر الأكبر ١٠
المنذر بن ربيعة ٣١٩
المنذر بن ساوى ٤٦

ن

نائلة بنت الفرافصة ٢٨٧
النجاشى ٤١
نصر بن حجاج ٢٥١
النعمان بن مقرن ٢٣٦ ، ٢٣٩
النعمان بن المنذر ١٩ ، ٢٠
نعيم بن مقرن ٢٤٣ ، ٢٤٤
نعيم بن هبيرة ٤٥٥

هـ

هاشم بن عتبة ٣٢٨
هرقل ١٣٨
هوذة بن على ٤٨

و

الوليد بن عقبة ٣٠٨، ٣٤٤، ٣٤٥، ٣٤٦

ى

يزيد بن أبي سفيان ١٢٧ ، ١٨٥
يعلى بن أمية ٣٠٨

فهـــرس

بعض ماورد فى الهامش من الفوائد التى قد يحتاج القارئ إلى مراجعتها

رقم الصفحة	
١٣	باسمك اللهم
١٥	أبيت اللعن
٢٣	فلان يمشى العرضنة
٢٤	عم صباحا
٣١	تركناهم على رباعتهم
٣٣	لايؤخذ منه صرف ولا عدل
٣٦	بسم الله الرحمن الرحيم
٣٨	الأريسيون
٣٩	أعطوا الجزية عن يد
٤١	أحمد إليك الله
٥٧	ثوب معافرىّ
٦٩	إسلام أكثم بن صيفى
٧٠	حديث «لايفرق بين الوالدة وولدها»
٧٢	تميم بن أوس الدارىّ
٧٥	صهيون
٧٦	مباهلته صلى الله عليه وسلم لنصارى نجران
٧٨	أفعل ذلك من ذى قبل

رقم الصفحة	
٨٠	حديث «أخرجوا اليهود من الحجاز ؛ وأخرجوا أهل نجران من جزيرة العرب»
٨٠	حديث «لايبقين دينان فى أرض العرب»
٨٦	حديث «ليس فيما دون خمس أواق من الورق صدقة»
٩١	النسبة بزيادة الألف والنون فى آخر الكلمة
٩٢	لم سمى أبوعبيدة أمين هذه الأمة
٩٤	نافج حضنيه
٩٨	مالى فيه حوجاء ولا لوجاء
١٠٠	هنيهة
١٠٥	اطو الثوب على غره
١٠٨	استأصل شأفته
١١٧	الأبناء
١٢٣	أنجد وأعرق وكوّف وبصر
١٣١	فض الله خدمتهم

رقم الصفحة

١٤٠ الضعف
١٨١ «لن يغلب عسر يسرين»
١٩٧ حديث «إذا افتتحتم مصر فاستوصوا بالقبط خيراً»
١٩٧ هاجر أم إسماعيل
١٩٨ معاريض الكلام
٢٠٠ بنيات الطرق
٢٠٣ سؤت به ظنا
٢٠٣ أطلعه طلعه
٢٠٥ الترسيان
٢١٢ هم عليه ألب واحد
٢١٩ لالعاله — لاشوى لها
٢٢١ رمى المغيرة بن شعة بالزنا
٢٢٣ جاءوا الجماء الغفير
٢٢٤ لايحنق على جرة
٢٢٦ حديث «ادرءوا الحدود بالشبهات»
٢٢٦ حديث «ملعون ملعون من انتمى إلى غير أبيه ، أوادعى إلى غير مواليه»
٢٢٨ الصوافى
٢٣١ الأفناء
٢٣٤ هو من أمره على رجل
٢٤٤ وزن الدراهم فى عهد سيدنا عمر
٢٥٢ المتمنية
٢٥٣ السراويل
٢٥٣ تمعددوا — المعدية

رقم الصفحة

٢٥٣ حديث النهى عن لبس الحرير
٢٧٢ ملك عضوض
٢٨٨ الأنباط
٢٨٨ نعثل
٢٩١ فدك
٢٩٦ البريد
٢٩٩ حديث «عشرة فى الجنة . . .»
٣٠٣ ذهبوا شعاليل وشعارير
٣١٢ سكن عقيراك
٣١٤ وجهت سدافته وتركت عهيداه
٣٢١ مضى لطيته
٣٢٢ الزط والسبابجة
٣٣٠ هنات وهنات
٣٤١ الطلقاء
٣٤١ حديث «الحرب خدعة»
٣٤٣ ابن النابغة
٣٤٦ تدب عقاربه
٣٤٧ حرب زبون
٣٥٦ لله دره
٣٦١ بات بليلة شيباء
٣٦٩ إسلام أبى سفيان
٣٧٢ استمر أدراجه
٣٧٦ ذو الفقار
٣٧٦ اربع على ظلعك
٣٧٨ سحيم

رقم الصفحة	
٣٧٩	حديث « إن الشيطان ليجرى من ابن آدم مجرى الدم » .
٣٨٧	أحلسونا الخوف
٣٨٨	دعيت نزال
٣٩١	ضرب بجرانه
٣٩١	على وقتل عبيد الله بن عمر
٣٩٥	ذو الجناحين
٣٩٦	أسد الأحلاف
٣٩٧	حلف المطيبين
٣٩٧	حلف الفضول
٣٩٨	حديث « الحسن والحسين سيدا شباب أهل الجنة »
٣٩٨	حديث « خير نساء العالمين أربع . . »
٣٩٩	حمالة الحطب
٤٠٣	المحلون
٤٠٧	حديث « أرسلت إلى الأسود والأحمر »
٤١١	زمزم والسقاية
٤١١	النسب إلى شأم ويمن

رقم الصفحة	
٤١٧	بلنسه
٤١٩	ليلة الهرير
٤٢٢	منافرة هاشم وأمية
٤٢٢	منافرة حرب وعبد المطلب
٤٢٥	حديث « من تألى على الله أكذبه الله »
٤٢٩	آكلة الأكباد
٤٦٠	من المطاعن التى طعن بها على عثمان
٥١٠	كلمة عن زياد
٥١٢	حديث « الولد للفراش وللعاهر الحجر »
٥١٥	بخل أبي الأسود الدؤلى
٥١٧	حديث « ما أحد عندى أعظم يداً من أبي بكر آسانى بنفسه وماله »
٥١٩	عمرك الله
٥٢٢	الجوازى
٥٢٣	كلا ولا
٥٢٣	لأيا بلأى
٥٢٤	مغاضبة عقيل لعلى
٥٢٧	البهقباذات

فهـــــرس

الأمثال التي ورد شرحها في الهامش (عدا أمثال أكثم بن صيفي الواردة

في رسالتيه من ص ٢٥ إلى ص ٣٠)

رقم الصفحة	
١٤	خذه ولو بقرطي مارية
١٤	جزاء سنمار
٢٤	لا أفعل كذا مابل بحر صوفة
٣٦	إن بينهم عيبة مكفوفة
٧٢	أخذه برمته
٩٥	يدب له الضراء ويمشي له الخمر
٩٥	مايقعقع له بالشنان
٩٦	ماله سبد ولا لبد
٩٦	ما أصاب عنده هلة ولا بلة
١٠١	لبست له جلد النمر
١٠١	أسرى من أنقد بات بليلة أنقد
١٠١	إن العوان لا تعلم الخمرة
١٠٣	لاناقتي في هذا ولا جملي
١٠٤	إحدى لياليك فهيسي هيسي
١٣٧	جاء بالشوك والشجر
١٦٣	جاءوا بقضهم وقضيضهم
٢٥٢	الحق أبلج والباطل لجلج

رقم الصفحة	
٢٧٦	بلغ السيل الزبى
٢٧٦	جاوز الحزام الطبيين
٣٣١	مايدري أيخثر أم يذيب
٣٣٢	كالأشقر، إن تقدم نحر، وإن تأخر عقر
٣٤٧	كدابغة وقد حلم الأديم
٣٤٨	كانت عليهم كراغية البكر
٣٥٠	استنوق الجمل
٣٥٢	دونه خرط القتاد
٣٥٦	حذو النعل بالنعل
٣٦١	أذل من فقع بقرقرة
٣٦٢	أذل من بيضة البلد
٣٨٩	ضرب وجه الأمر وعينه
٣٩٣	كمستبضع التمر إلى هجر
٣٩٤	حن قدح ليس منها
٤٠٠	رب ملوم لا ذنب له
٤٠١	لبث قليلا يلحق الهيجا حمل — ضحح رويدا

رقم الصفحة		رقم الصفحة	
٤١٦	شق عصاهم	٤٩٨	صرح المحض عن الزبد
٤٢٨	وافق شن طبقة	٥١٧	قلب له ظهر المجن
٤٤٤	أعزّ من بيض الأنوق	٥٢٣	حال الجريض دون القريض
٤٧٩	إن لله جنوداً منها العسل	٥٢٣	بلغ منه المخنق
٤٨٦	التقت حلقتا البطان	٥٢٩	أذل من النعل
٤٩٨	أبدت الرغوة عن الصريح	٥٢٩	لا أذل من الشسع

جمهرة رسائل العرب

في

عصور العربية الزاهرة

العصر الأموي

تأليف

أحمد زكي صفوت

المكتبة العلمية
بيروت - لبنان

جمهرة رسائل العرب

في

عصور العربية الزاهرة

الجزء الثاني

العصر الأموي

تأليف

أحمد زكي صفوت

وكيل كلية دار العلوم بجامعة القاهرة سابقا

المكتبة العلمية

بيروت - لبنان

مقدمة

بسم الله الرحمن الرحيم

باسمك ربى أبتدئ ، وبحولك أستعين ، وبتوفيقك أُسَدِّد ، وعلى صفيِّك المختار سيدنا ومولانا محمد ، وعلى آله ، وصحبه الأبرار ، أُصَلِّى أفضلَ صلاة ، وأسلِّمُ أزكى سلام .

وبعد : فهأنذا أقدّم بين يدى القراء الجزء الثانى من « جمهرة رسائل العرب » . حاويا ما استوعبه جُهدى من الرسائل فى العصر الأموى ، وسيَرَونه حافلا مُمْتِعا كما رأوا سابقه . وكذلك سيَرَون تالِيَيْه إن شاء الله .

وكان من بين المآخذ التى نقلت عنها رسائل هذا العصر ، كتاب : « اختيار المنظوم والمنثور ، لأبى الفضل أحمد بن أبى طاهر طيفور ، المتوفى سنة ٢٨٠ هـ » . وقد ذكره ابن النديم فى الفهرست فى أثناء ترجمة صاحبه ـ ص ٢٠٩ ـ قال : « وله من الكتب المصنفة ، كتاب المنظوم والمنثور ، أربعة عشر جزءا ، والذى بيد الناس ثلاثة عشر جزءا » .

وقد أَكَلَتْ ضِباعُ الضَّياع جُلَّ هذا الكتاب ، ولم يصل إلينا منه إلا أجزاء ثلاثة : الحادى عشر ، والثانى عشر ، والثالث عشر ، ومن تلك الأجزاء نسختان خطيتان محفوظتان فى دار الكتب المصرية ، إحداهما رقم ٥٨١ أدب ، والأخرى رقم ١٨٦٠ أدب .

وفى الجزأين الأخيرين قليل من رسائل الأمويين ، وبحر زاخر من رسائل العباسيين ـ وسترد فى الجزء الثالث إن شاء الله ـ وينفرد ذلك الكتاب بأن معظم ما ورد فيه لم يرد فيما بين أيدينا فى عصرنا هذا من كتب الأدب والتاريخ .

وأودّ أن أنبه هنا إلى أن أرقام الصفحات التى ذيَّلْتُ بها الرسائل المنقولة عنه ، فى هذا الجزء وما بعده ، هى صفحات النسخة الثانية ، إذ نسختُ منها ـ بيدى ـ ابتداء ، لكبر خطها وانفراج سطورها ، ثم عارضتُ ما نسخته بالنسخة الأولى .

ومن الكتب الأدبية النفيسة التى اطلعت عليها فى دار الكتب المصرية أيضا ، كتاب : « نثر الدرر للوزير زين الكفاة أبى سعد منصور بن الحسين الآبى[1] المتوفى سنة ٤٢٢ هـ » . وهو فى سبعة أجزاء ، تقع فى ٨٣٢ صفحة ، ومنه نسخة بالدار مصورة بالتصوير الشمسى رقم ٤٤٢٨ أدب[2] ويخيّل إلىّ أن أبا إسحق الحُصْرى القَيْروانى المتوفى سنة ٤٥٣ هـ قد وضع كتابه : « زهر الآداب » . على غِرار هذا الكتاب .

وفيه رسائل قليلة للأمويين والعباسيين ، وقد أشرت إلى نبذة يسيرة وردت فيه ، فى أواخر رسالة مروان بن محمد إلى بعض الخوارج ، وكان بودِّى أن أنقل ما حواه من الرسائل ، بَيْدَ أنه حال بينى وبين ذلك حائلان : رداءة الخط ، وسوء التصوير ، فقد غُشِّى أكثر صفحاته بظِلّ أسود كثيف من أثَر التصوير ، مما حَسَرَ معه بَصَرِى عن تبيُّن الحروف بجلاء ووضوح ، ولما كان دَيْدَنى أن أباشر عملى بنفسى ، دون أن أرْكَنَ فيه إلى أحد سواى ، لم يسَعْنى أن أعهَدَ إلى النسّاخ بنسخها منه ، إذ كانت عاقبة الاستنساخ أن أعتهِد ما نسخ ، وأراجعه ثانيةً فى دقّة واستثبات ، وأرجو أن

---

(١) الآبى نسبة إلى آبة قرية من قرى ساوة بفارس ، قال ياقوت فى معجم البلدان ١ : ٥٣ « ولى أعمالا جليلة ، وصحب الصاحب بن عباد ، ثم وزر لمجد الدولة رستم بن فخر الدولة بن ركن الدولة بن بويه »

(٢) ومنه بالدار أيضا بعض نسخ خطية غير أنها ليست تامة الأجزاء .

تتاح لبعض أدبائنا الأماثل فرصةٌ موفَّقة ، فينشر للناس هذا السِّفر الجليل ، مُمِيطا عنه اللثامَ ، معبِّداً إليه السبيلَ .

والله أسأل أن يمنحنا شرفَ الدُّءوب على خدمة لغة قرآنه ونبيِّه ، وأن يَزْوِيَ عنا ما قد يعتورُنا من الملال والكلال ، في إحياء كنوزها الدفينة ، واجتلاء جواهرها المستجِنَّة ، وأن يرزقنا ثوابَ الدنيا وحُسْنَ ثواب الآخرة ، عليه توكَّلْنا ، وإليه أنَبْنا ، وإليه المصير ؟

أحمد زكى صفوت

وحرر بالقاهرة فى { رجب ١٣٥٦ هـ
سبتمبر ١٩٣٧ م

فهـــرس

مآخذ الرسائل فى هذا الجزء

الأغانى : لأبى الفرج الأصبهانى	: الجزء الثانى ـ الخامس ـ السادس ـ الثامن ـ الحادى عشر ـ السادس عشر ـ الثامن عشر
تاريخ الأمم والملوك: لأبى جعفر بن جرير الطبرى	: الجزء الرابع ـ السادس ـ السابع ـ الثامن : التاسع
تاريخ الكامل : لعز الدين بن الأثير	: الجزء الثالث ـ الرابع
صبح الأعشى : لأبى العباس القلقشندى	: الجزء الأول ـ السادس ـ التاسع ـ العاشر
الكامل : للمبرد	: الجزء الأول ـ الثانى
العقد الفريد : لابن عبد ربه	: « الأول ـ الثانى الثالث
زهر الآداب : لأبى إسحٰق الحُصْرى	: « الأول ـ الثالث
البيان والتبيين : للجاحظ	: « الأول ـ الثانى ـ الثالث
وفيات الأعيان لابن خلكان	: « الأول ـ الثانى
شرح نهج البلاغة : لابن أبى الحديد	: المجلد الأول ـ الثالث ـ الرابع
صحيح الإمام البخارى	: الجزء الأول
مروج الذهب : للمسعودى	: « الثانى
معجم البلدان : لياقوت الحموى	: « الثانى ـ السادس
الإمامة والسياسة : لابن قتيبة	: « الأول ـ الثانى
نهاية الأرب : لشهاب الدين النويرى	: الجزء السابع
الأمالى لأبى على القالى	: الجزء الثانى ـ ذيل الأمالى
مجمع الأمثال : لأبى الفضل الميدانى	: « الثانى
جمهرة الأمثال : لأبى هلال العسكرى	: « «

عيون الأخبار : لابن قتيبة : الجزء الخامس

تهذيب تاريخ ابن عساكر : » الأول

المواعظ والاعتبار بذكر الخطط والآثار :
للمقريزى » »

اختيار المنظوم والمنثور لابن طيفور : » الثانى عشر ـ الثالث عشر

نثر الدرر : لمنصور بن الحسين الآبى : » الثالث

غرر الخصائص الواضحة وعرر النقائص :
الفاضحة للوطواط

المنية والأمل : لأحمد بن يحيى المرتضى :

ثمرات الأوراق : لابن حجة الحموى :

كتاب الخراج : لأبى يوسف :

سرح العيون ، شرح رسالة ابن زيدون :
لابن نباتة المصرى

أدب الكتاب : لأبى بكر محمد بن يحيى الصولى :

سيرة عمر بن عبد العزيز : لابن الجوزى :

الحسن البصرى : » » :

فتوح البلدان : للبلاذرى :

الفخرى : لابن طباطبا .

كتاب الوزراء والكتاب :
لابن عبدوس الجهشيارى :

مقدمة ابن خلدون :

خاص الخاص : للثعالبى :

مفتاح الأفكار : للشيخ أحمد مفتاح :

رسائل البلغاء : لمحمد كرد على بك :

الباب الثالث

الرسائل في العصر الأموي

خلافة الحسن ومعاوية

١ — كتاب عبد الله بن عباس إلى الحسن بن على رضى الله عنهما

كتب عبد الله بن عباس إلى الحسن بن على رضى الله عنهما إذ ولّاه الناس أمرهم بعد الإمام على كرم الله وجهه فى رمضان سنة ٤٠ هـ .

« أما بعد ، فإن المسلمين وَلَّوْكَ أمرَهم بعد عَلِيٍّ عليه السلام ، فشَمِّرِ الحرب[١] ، وجاهِدْ عدوَّك ، وقارِبْ أصحابَك ، واشْتَرِ من الظنين ذَنْبَه بما لا يَثْلِمُ دينك[٢] ، وَوَلِّ[٣] أهلَ البُيوتات والشرف ، تستصلحْ بهم عشائرهم ، حتى يكون الناس جماعةً ،

(١) وفى رواية : « إن الناس قد ولوك أمرهم بعد على فاشدد عن يمينك ... » .

(٢) الظنين : المتهم، من ظننته إذا اتهمته فهو فعيل بمعنى مفعول ، ويثلم : يعيب وينقص ، وأصله من ثلم الإناء إذا كسر حرفه وبابه ضرب وفرح ، ويروى « واشتر من الضنين دينه بما لا يثلم دينك » والضنين البخيل

(٣) وفى رواية « واستعمل » وفى أخرى « ووال » .

فإن بعض ما يكرَه الناسُ ـ مالم يتعدَّ الحقَّ ، وكانت عواقبُه تؤدى إلى ظهور العدل ؛ وعزِّ الدين ـ خيرٌ من كثير مما يحبه الناس ، إذا كانت عواقبه تدعو إلى ظهور الجوْر ، وذُلِّ المؤمنين ، وعزِّ الفاجرين ، واقتد بما جاء عن أئمة العدل ، فقد جاء عنهم : « إنه لا يَصلُح الكذبُ إلا فى حرب أو إصلاح بين الناس ، فإن الحرب خُدْعة[1] » ولك فى ذلك سِعَة ، إذا كنت محاربا ، مالم تُبْطِل حقًّا .

واعلم أن عليّا أباك إنما رغَّب الناسَ عنه إلى معاوية أنه آسَى[2] بينهم فى الفَيْء ، وسَوَّى بينهم فى العطاء ، فثقُل عليهم . واعلم أنك تحارب من حاربَ اللهَ ورسوله فى ابتداء الإسلام ، حتى ظهر أمر الله ، فلما وُحِّد الربُّ ، ومُحِقَ الشِّركُ ، وعَزَّ الدين ، أظهروا الإيمان ، وقرءوا القرآن مستهزئين بآياته ، وقاموا إلى الصلاة وهم كُسَالَى ، وأدَّوا الفرائِضَ وهم لها كارهون ، فلما رأوا أنه لا يعزُّ فى الدين إلا الأتقياء الأبرار ، توسَّموا بسيمى الصالحين ، ليظن المسلمون بهم خيراً ، فما زالوا بذلك حتى شَرِكوهم فى أماناتهم ، وقالوا حسابُهم على الله ، فإن كانوا صادقين فإخوانُنا فى الدين ، وإن كانوا كاذبين كانوا بما اقترفوا هم الأخسرين ، وقد مُنِيت بأولئك وبأبنائهم وأشباههم ، ولله ما زادهم طولُ العمر إلا غيًّا ، ولا زادهم ذلك لأهل الدين إلا مَقْتاً ، فجاهِدْهم ولا تَرْضَ دَنِيَّةً ، ولا تَقْبَلْ خَسْفاً[3] ، فإن عليًّا لم يُجِب إلى الحكومة حتى غُلب على أمره فأجاب ، وإنهم يعلمون أنه أولى بالأمر إن حكموا بالعدل ، فلما حكموا بالهوَى رجع إلى ما كان عليه حتى أتَى عليه أجَلُه ، ولا تخرجَنَّ من حقّ أنت أولى به ، حتى يَحُول الموت دون ذلك ، والسلام » .

(شرح ابن أبى الحديد م٤ ص : ٨ ، والعقد الفريد ١ : ٩ ، ٢ : ٢٤٤)

---

(١) الحرب خدعة مثلثة الخاء ، وبضمها مع فتح الدال أى تنقضى بخدعة .

(٢) آسى بينهم : أى سوى .   (٣) ذلا .

٢ — كتاب الحسن إلى معاوية

ودَسَّ معاوية رجلا من حِمْير إلى الكوفة، ورجلا من بنى القَيْن إلى البصرة: يكتبان إليه بالأخبار فدُلَّ على الحميرىّ وعلى القَيْنىِّ فأُخِذا وقتلا، وكتب الحسن عليه السلام إلى معاوية:

«أما بعد: فإنك دَسَسْتَ إلىَّ الرجالَ، كأنك تحبّ اللّقاء، لا أشك فى ذلك، فتوقَّعْهُ إن شاء الله، وبَلَغَنِى أنك شَمِتَّ بما لم يَشْمَتْ به ذوو الحِجَى[١]، وإنما مَثَلُكَ فى ذلك كما قال الأول:

فإنّا ومَنْ قد مات مِنَّا لَكالَّذِى ... يَرُوحُ فيُمْسِى فى المَبِيتِ لِيَغْتَدِى
فقل للذى يَبْغِى خِلافَ الذى مضى ... تَجَهَّزْ لأُخْرَى مثلِها فكأَنْ قَدِ

(شرح ابن أبى الحديد م ٤ : ص ١١)

٣ — رد معاوية على الحسن

فأجابه معاوية:

أما بعد: فقد وصل كتابك، وفهمت ما ذكرتَ فيه، ولقد علمتُ بما حدث فلم أفرح ولم أحزَن، ولم أشمت ولم آسَ[٢]، وإن عليًّا أباك لكما قال أعشى بنى قيس بن ثعلبة:

فأنت الجواد وأنت الذى ... إذا ما القلوبُ مَلَأْنَ الصدورا
جَـــدِيرٌ بطَعْنَةِ يوم اللّقا ... يُضَرِّبُ منها النساء النُّحُورا
وما مُزْبِدٌ من خليج البِحَا ... رِ يَعْلُو الإكامَ ويعلو الجُسُورَا[٣]
بأَجْوَدَ منـــه بما عِندَه ... فيُعْطِى الأُلوفَ ويعطى البُدُورا[٤]

(شرح ابن أبى الحديد م ٤ : ص ١١)

---

(١) أى شمت بموت أبى، والعاقل لايشمت بالموت (٢) أى ولم أحزن وفعله كفرح.
(٣) أزبد البحر إزباداً فهو مزبد أى مائج يقذف بالزبد (بالتحريك) وهو كالرغوة. والإكام جمع أكمة كقصبة: وهى التل (٤) البدرة كوردة: كيس فيه ألف أو عشرة آلاف درهم أو سبعة آلاف دينار وجمعه بدر كعنب وبدور كجنود.

٤ ـ كتاب ابن عباس إلى معاوية

وكتب عبد الله بن عباس من البصرة إلى معاوية :

« أما بعد : فإنك ودسَّك أخا بنى القَيْن إلى البصرة تلتمس من غَفَلات قريش مثل ما ظفِرْتَ به من يَمَانِيَتك لكما قال أُمَيَّة بن الأسكر(١) :

لَعَمْرُك إنِّى والخُزَاعِىَّ طارقًا ... كنَعْجة غادَتْ حَتْفَها تَتحفَّر(٢)

أثارتْ عليها شَفْرةً بِكُراعِها ... فظلَّتْ بها من آخِرِ الليل تُنْحَرُ(٣)

شَمِتَّ بقوم هم صَدِيقُك أهلكوا ... أصابهمُ يومٌ من الدهر أعسَرُ

(الأغانى ١٨ : ١٦٢ ، وشرح ابن أبى الحديد م ٤ : ص ١٢)

٥ ـ رد معاوية على ابن عباس

فأجابه معاوية :

« أما بعد : فإن الحسن بن علىّ قد كتب إلىّ بنحو مما كتبتَ به ، وأنَّبنى بما لم يحقِّق سوء ظن ورأيٍ فىّ ، وإنك لم تُصِبْ مَثَلِي ومثلكم ، وإنما مَثَلُنَا كما قال طارِق الخُزاعى يُجيب أميَّة عن هذا الشعر :

---

(١) فى شرح ابن أبى الحديد « أمية بن أبى الصلت » وهو خطأ ، روى صاحب الأغانى قال : أصيب قوم من بنى جندع (كبرقع) بن ليث بن بكر بن هوازن رهط أمية بن الأسكر يقال لهم بنو زبينة (كصحيفة) ابن جنـدع ، أصابهم أصحاب النبى صلى الله عليه وسلم يوم المريسيع فى غزوته بنى المصطلق وكانوا جيرانه يومئذ ومعهم ناس من بنى لحيان (بالكسر) من هذيل ، ومع بنى جندع رجل من خزاعة يقال له طارق ، فاتهمه بنو ليث بهم وأنه دل عليهم ، وكانت خزاعة مسلمها ومشركها يميلون إلى النبى صلى الله عليه وسلم على قريش ، فقال أمية بن الأسكر : لعمرك إنى والخزاعى . . . . فى أبيات ، فأجابه طارق الخزاعى : لعمرك ما أدرى . . . . ».

(٢) غادت : باكرت ، والحتف : الموت ، ومنع نعجة من الصرف للضرورة .

(٣) الشفرة : السكين العظيم ، والكراع من الغنم والبقر : مستدق الساق وهو بمنزلة الوظيف من الفرس ، وجاء فى المثل : « كالباحث عن المدية » ويروى « عن الشفرة » وفى آخر : « كباحثة عن حتفها بظلفها » وأصله أن رجلا كان جائعاً بالفلاة القفر ، فوجد شاة و لم يكن معه ما يذبحها به فبحثت الشاة الأرض بأظلافها ، فسقطت على شفرة فذبحها بها ، يضرب لكل من أعان على نفسه بسوء تدبيره .

فوالله ما أدرى (وإنى لصادقٌ) إلى أىِّ مَنْ يَظَّنُّنى أتعذَّرُ[١]
أُعنِّفُ أنْ كانتْ زَبينةُ أهلكتْ ونالَ بنى لِحيانَ شرٌّ فأنفرُوا[٢]

(الأغانى ١٨ : ١٦٢ ، وشرح ابن أبى الحديد م ٤ : ص ١٢)

٦ — كتاب الحسن إلى معاوية

وكتب الحسن عليه السلام إلى معاوية :

« من عبد الله الحسن أمير المؤمنين إلى معاوية بن أبى سُفيان ، أما بعد : فإن الله بعث محمداً صلى الله عليه وآله رحمةً للعالمين ، فأظهر به الحقَّ ، وقمَعَ به الشِّركَ ، وأعزَّ به العرب عامّة ، وشرَّف به قريشاً خاصَّة ، فقال : « وَإنَّهُ لَذِكْرٌ لَكَ وَلِقَوْمِكَ » فلما توفاه الله تنازعت العرب فى الأمر بعده ، فقالت قريش : نحن عَشيرته وأولياؤه ، فلا تُنازِعونا سلطانَه ، فعرَفت العربُ لقريش ذلك ، وجاحَدَتْنا قريش ما عرفَتْ لها العربُ ، فهيهات ! ما أنصَفَتْنا قريش ، وقد كانوا ذوى فضيلة فى الدين ، وسابقةٍ فى الإسلام ، ولا غرْوَ[٣] إلا منازَعَتُكَ إيانا الأمرَ بغير حق فى الدنيا معروف ، ولا أثرٍ فى الإسلام محمود ، فاللهُ المَوْعِدُ ، نسأل الله معروفَه أن لا يُؤتيَنا فى هذه الدنيا شيئًا يَنْقُصُنا عنده فى الآخرة .

إن عليًّا لـا توفاه الله وَلَّانى المسلمون الأمر بعده ، فاتق الله يا معاوية ، وانظر لأمة محمد صلى الله عليه وآله ما تَحْقِنُ به دماءها ، وتُصْلِح به أمرها ، والسلام .

وبعث بالكتاب مع الحارث بن سُوَيد التَّيْمىّ (تيم الرَّباب) وجُنْدُب الأزدى ، فقَدِما على معاوية ، فدعَواه إلى بَيْعة الحسن عليه السلام ، فلم يجبهما . وكتب جوابه :

(شرح ابن أبى الحديد م ٤ : ص ٩)

---

(١) أظنه وأطنه : بالظاء والطاء مشددتين : اتهمه ، وهو افتعل من الظنة بالكسر أى التهمة ، فأصله أظتن ، ثم أبدل وأدغم .

(٢) أنفروا : شردوا . (٣) لا غرو ولاغروى : أى لاعجب .

٧ — رد معاوية على الحسن

« أما بعد : فقد فهمتُ ما ذكرتَ به رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وهو أحق الأولين والآخرين بالفضل كله ، وذكرتَ تنازُعَ المسلمين الأمْرَ بعده ، فصرَّحتَ بتُهَمَة أبى بكر الصديق وعُمَر وأبى عُبيدة الأمين وصُلَحاء المهاجرين ، فكرهتُ لك ذلك . إن الأمة لمَّا تنازعت الأمرَ بينها ، رأت قريشاً أخْلَقَها به ، فرأت قريش والأنصار وذوو الفضل والدين من المسلمين أن يُوَلّوا من قريش أعلَمَها بالله، وأخشاها له ، وأقواها على الأمر ، فاختاروا أبا بكر ولم يَأْلُوا[1] ، ولو علموا مكان رجل غير أبى بكر يقوم مَقامه ويَذُبُّ عن حُرَم الإسلام ذَبَّه ، ما عَدَلوا بالأمر إلى أبى بكر ، والحالُ اليومَ بينى وبينك على ما كانوا عليه ، فلو علمتُ أنك أضبطُ لأمر الرعية ، وأحْوَطُ على هذه الأمة ، وأحسنُ سياسةً ، وأكْيَدَ للعدو ، وأقوى على جمع الفَيْء ، لسلَّمتُ لك الأمر بعد أبيك ، فإن أباك سَعَى على عثمان حتى قُتِل مظلوماً ، فطالب اللهُ بدمه ، ومن يطلبُه اللهُ فلن يفوته ، ثم ابتزّ الأمةَ أمرَها ، وفرّق جماعتها ، فخالفه نُظَرَاؤه من أهل السابقة والجهاد والقِدَم فى الإسلام ، وادعى أنهم نكثوا بيعته ، فقاتلهم ، فسُفِكت الدماء ، واستُحلّت الحُرَم ، ثم أقبل إلينا لا يدّعى علينا بيعة ، ولكنه يريد أن يَمْلِكنا اغتراراً ، فحاربناه وحاربنا ، ثم صارت الحرب إلى أن اختار رجلا واخترنا رجلا ليحكما بما تَصْلُح عليه الأمة ، وتعود به الجماعةُ والألفة ، وأخذنا بذلك عليهما ميثاقا ، وعليه مثله ، على الرِّضا بما حَكَمَا ، فأمضى الحَكَمَان عليه الحُكْم بما علمت وخلعاه ، فوالله ما رضى بالحكم ، ولا صَبَرَ لأمر الله ، فكيف تدعونى إلى أمر إنما تطالبه بحق أبيك وقد خرج منه ، فانظر لنفسك ولدينك ، والسلام » .

ثم قال للحارث وجُنْدُب : ارجعا فليس بينى وبينكم إلا السيف .

(شرح ابن أبى الحديد م ٤ : ص ٩)

---

(١) ألا يألو : قصر وأبطأ .

صورة أخرى لكتاب الحسن إلى معاوية

وروى كتاب الحسن السابق إلى معاوية بصورة أخرى وهى :

كتب الحسن عليه السلام إلى معاوية مع جُندُب بن عبد الله الأَزْدِىّ :

« من الحسن بن على أمير المؤمنين إلى معاوية بن أبى سفيان ، سلام عليك فإنى أحْمَد إليك الله الذى لا إله إلا هو ، أما بعد : فإن الله جل جلاله بعث محمداً رحمةً للعالمين ومنَّةً للمؤمنين ، وكافة الناس أجمعين « لِيُنْذِرَ مَنْ كانَ حَيًّا وَيَحِقَّ الْقَوْلُ عَلَى الْكَافِرِينَ » فبلَّغ رسالات الله ، وقام بأمر الله ؛ حتى توفاه الله غير مُقَصِّر ولا وانٍ ، بعد أن أظهر الله به الحقّ ومَحَق به الشِّركَ ، وخَصَّ به قريشاً خاصة ، فقال له : « وَإِنَّهُ لَذِكْرٌ لَكَ وَلِقَوْمِكَ » فلما تُوُفِّىَ تنازعت سلطانَه العربُ ، فقالت قريش : نحن قبيلته وأسرته وأولياؤه ، ولا يحل لكم أن تنازعونا سلطانَ محمد وحقَّه ، فرأت العرب أن القول ما قالت قريش ، وأن الحجة فى ذلك لهم على مَنْ نازَعهم أمرَ محمد ، فأَنْعَمَت[1] لهم وسلَّمت إليهم ، ثم حاجَجْنا نحن قريشاً بمثل ما حاججت به العرب ، فلم تُنْصِفنا قريش إنصافَ العرب لها ، إنهم أخذوا هذا الأمر دون العرب بالإنصاف والاحتجاج ، فلما صرنا أهلَ بيت محمد وأولياءه إلى مُحاجَّتهم وطلب النَّصَف[2] منهم ، باعدونا واستولوا بالاجتماع على ظلمنا ومُراغَمَتنا[3] ، والعَنَت منهم لنا ، فالموعد الله ، وهو الولى النصير .

ولقد كنا تَعَجَّبْنا لتوثُّب المتوثبين علينا فى حقنا وسلطان بيتنا ، وإن كانوا ذوى فضيلة وسابقة فى الإسلام ، وأمسكنا عن منازعتهم مخافةً على الدين أن يجد المنافقون والأحزاب[4] فى ذلك مَغْمَزًا يَثْلِمونه به ، أو يكون لهم بذلك سبب إلى

---

(١) أنعم له : قال له نعم .　　(٢) النصف : الإنصاف .

(٣) راغمهم: نابذهم وعاداهم، والعنت: المشقة .　　(٤) هى الأحزاب التى تحزبت وتظاهرت على قتال رسول الله صلى الله عليه وسلم من قريش وغطفان وبنى مرة وبنى أشجع وبنى سليم بنى أسد (فى غزوة الأحزاب ، وهى غزوة الخندق سنة ٥ هـ) وكان قائدهم العام أبا سفيان .

ما أرادوا من إفساده ، فاليوم فليتعجب المتعجِّب من توثُّبك يا معاوية على أمر لست من أهله ، لا بفضل فى الدين معروف ، ولا أثر فى الإسلام محمود ، وأنت ابن حزب من الأحزاب ، وابن أعدى قريش لرسول الله صلى الله عليه وآله ولكتابه ، والله حَسِيبك ، فستُرَدّ وتعلم لِمَنْ عُقْبى الدار ، وبالله لتلقيَنّ عن قليل ربَّك ، ثم ليَجْزِينَّك بما قدّمَتْ يداك ، وما الله بظلام للعبيد .

إن عليًّا لما مضى لسبيله ـ رحمة الله عليه يوم قُبض ، ويوم مَنّ الله عليه بالإسلام ، ويوم يُبْعث حيا ـ ولاّنى المسلمون الأمر بعده ، فأسألُ اللهَ أن لا يُؤتينا فى الدنيا الزائلة شيئًا يَنْقُصُنا به فى الآخرة مما عنده من كرامة ، وإنما حملنى على الكتابِ إليك الإعذارُ فيما بينى وبين الله عزّ وجل فى أمرك ولك فى ذلك إن فعلتَه الحَظُّ الجسيم ، والصلاح للمسلمين ، فدع التمادىَ فى الباطل ، وادخل فيما دخل فيه الناس من بيعتى ، فإنك تعلم أنى أحق بهذا الأمر منك عند الله وعند كل أوّاب[1] حفيظ ومَن له قلب مُنيب ، واتق الله ودع البغى واحقن دماء المسلمين ، فوالله مالك خير فى أن تلقى الله من دمائهم بأكثر مما أنت لاقيه به ، وادخل فى السِّلْم والطاعة ، ولاتُنازِع الأمرَ أهلَه ، ومَن هو أحق به منك ، ليطفئَ الله النائرةَ[2] بذلك ، ويجمع الكلمةَ ، ويصلح ذاتَ البين ، وإن أنت أبيت إلا التمادِى فى غيك ، سرتُ إليك بالمسلمين ، فحاكَمْتُك حتى يحكم الله بيننا وهو خير الحاكمين » . (شرح ابن أبى الحديد ٤ : ص ١٢)

صورة أخرى لرد معاوية على الحسن

وروى أيضًا : رد معاوية على الحسن بصورة أخرى وهى :

فكتب معاوية إليه :

من عبد الله معاوية أمير المؤمنين إلى الحسن بن على : سلام عليك فإنى أحْمَد إليك اللهَ الذى لا إله إلا هو ، أما بعد : فقد بلغنى كتابك ، وفهمت ما ذكرتَ به

(١) آب إلى الله تعالى: رجع عن ذنبه وتاب، فهو أواب، مبالغة. (٢) النائرة: العداوة والشحناء.

محمداً رسول الله من الفضل ، وهو أحق الأولين والآخرين بالفضل كلّه ، قديمه وحديثه ، وصغيره وكبيره ، وقد والله بلّغ وأدّى ، ونَصَح وهَدَى ، حتى أنقذ الله به من الهَلَكة ، وأنار به من العَمَى ، وهَدَى به من الجهالة والضَّلالة ، فجزاه الله أفضَل ما جَزَى نبيًّا عن أمته ، وصلوات الله عليه يوم وُلِد ، ويوم بُعِث ، ويوم قُبِض ، ويوم يُبْعث حيا ، وذكرتَ وفاة النبي صلى الله عليه وسلم ، وتنازُعَ المسلمين الأمرَ بعده ، وتغلُّبَهم على أبيك ، فصرَّحتَ بتُهَمَة أبى بكر الصديق ، وعمر الفاروق ، وأبى عُبَيدة الأمين ، وحَوَارِيِّ[1] رسول الله صلى الله عليه وسلم وصلحاء المهاجرين والأنصار ، فكَرِهت ذلك لك ، إنك امرؤ عندنا وعند الناس غير الظَّنين ولا المسيء ولا اللئيم ، وأنا أحب لك القول السديد ، والذكر الجميل .

إن هذه الأمة لما اختلفت بينها ، لم تَجْهَل فضلكم ولا سابقتكم ولا قَرابتكم من نبيكم ، ولا مكانكم فى الإسلام وأهله ، فرأت الأمة أن تَخرُجَ من هذا الأمر لقريش لمكانها من نبيها ، ورأى صلحاء الناس من قريش والأنصار وغيرهم من سائر الناس وعوامّهم أن يُولُّوا هذا الأمر من قريش أقدمَها إسلامًا ، وأعلمَها بالله ، وأحبّها له ، وأقواها على أمر الله ، فاختاروا أبا بكر ، وكان ذلك رأى ذوى الدين والفضل والناظرين للأمة ، فأوقع ذلك فى صدوركم لهم التُّهَمَة ، ولم يكونوا متَّهَمين ، ولا فيما أتَوا بالمخطئين ، ولو رأى المسلمون أن فيكم من يُغْنِى غناءه[2] ، ويقوم مقامه ، ويَذُبّ عن حريم الإسلام ذَبَّه ، ما عدلوا بالأمر إلى غيره رغبةً عنه ، ولكنهم عملوا فى ذلك بما رأوه صلاحاً للإسلام وأهله ، والله يَجْزِيهم عن الإسلام وأهله خيراً .

وقد فهمتُ الذى دعوتنى إليه من الصلح ، والحال فيما بينى وبينك اليوم مثل الحال التى كنتم عليها أنتم وأبو بكر بعد وفاة النبى صلى الله عليه وسلم ، فلو علمت أنك أضبط منى للرعية ، وأحْوَط على هذه الأمة ، وأحسن سياسة ، وأقوى على جمع الأموال ،

---

(١) هو الزبير بن العوام ، والحوارى : الناصر أو ناصر الأنبياء .

(٢) الغناء : النفع ، وأغنى غناءه : أجزأ عنه وقام مقامه .

وأكيد للعدو، لأجبتك إلى ما دعوتني إليه، ورأيتك لذلك أهلاً، ولكن قد علمتَ أني أطول منك ولاية، وأقدم منك بهذه الأمة تجربة، وأكبر منك سنا، فأنت أحقُّ أن تُجيبني إلى هذه المنزلة التي سألتني، فادخُل في طاعتي ولك الأمر من بعدي، ولك ما في بيت مال العراق من مالٍ، بالغًا ما يبلغ تحمِله إلى حيثُ أحببت، ولك خَراج أيّ كُوَرِ العراق شئت، معونةً لك على نفقتك، يَجْبيها أمينك، ويحملها إليك في كل سنة، ولك ألا يُستولَى عليك بالإساءة، ولا تُقضَى دونك الأمور، ولا تُعصَى في أمر أردت به طاعة الله، أعاننا الله وإياك على طاعته، إنه سميع مجيب الدعاء، والسلام». (شرح ابن أبي الحديد م ٤ : ص ١٣)

٨ — كتاب معاوية إلى الحسن

وكتب معاوية إلى الحسن رضي الله عنه :

«أما بعد : فإن الله يفعل في عباده ما يشاء لا مُعَقِّبَ لِحُكْمِهِ وَهُوَ سَرِيعُ الْحِسَابِ، فاحذر أن تكون منيّتك على أيدي رَعَاعٍ من الناس، وأْيَسْ من أن تجد فينا غَمِيزَةً، وإن أنت أعرضتَ عما أنت فيه وبايعتني، وفَيْتُ لك بما وعدتُ، وأجرَيْتُ لك ما شَرَطْتُ، وأكون في ذلك كما قال أعشى بني قيس ابن ثَعْلَبة :

وإنْ أحدٌ أسْدَى إليك أمانةً فَأَوْفِ بِها، تُدْعَى إذا مِتَّ وافيا
ولا تحسُدِ المَوْلَى إذا كان ذا غِنًى ولا تَجْفُه إن كان في المال فانيا[1]

ثم الخلافة لك من بعدي، فأنت أَوْلَى الناس بها، والسلام».

(شرح ابن أبي الحديد م ٤ : ص ١٣)

---

(١) المولى : الصاحب والقريب كابن العم ونحوه.

٩ — رد الحسن على معاوية

فأجابه الحسن :

« أما بعد : فقد وصل إلىّ كتابُك تذكر فيه ما ذكرتَ ، وتركتُ جوابَك خَشيَةَ البغى عليك ، وبالله أعوذ من ذلك ، فاتَّبِع الحق تعلم أنى مِن أهله ، وعلىّ إثْمٌ أنْ أقولَ فأكْذِبَ ، والسلام » . (شرح ابن أبى الحديد م ٤ : ص ١٣)

١٠ — كتاب معاوية إلى عماله

فلما وصل كتاب الحسن إلى معاوية قرأه ، ثم كتب إلى عماله على النواحى بنسخة واحدة :

« من عبد الله معاوية أمير المؤمنين إلى فلان بن فلان ، ومَن قِبَله من المسلمين ، سلام عليكم ، فإنى أحمَدُ إليكم اللهَ الذى لا إله إلا هو ، أما بعد : فالحمد لله الذى كفاكم مُؤْنة(١) عدوكم ، وقَتَلَةَ خليفتكم ، إن الله بلطفه وحُسْن صنعه أتاح لعلىّ بن أبى طالب رجلا من عباده فاغتاله فقتله ، فترك أصحابَه متفرقين مختلفين ، وقد جاءتنا كتب أشرافهم وقادتهم يلتمسون الأمان لأنفسهم وعشائرهم ، فأقْبِلوا إلىّ حين يأتيكم كتابى هذا بجُهْدكم وجندكم ، وحسن عُدّتكم ، فقد أصبتم بحمد الله الثأرَ ، وبلغتم الأملَ ، وأهلكَ الله أهلَ البغى والعُدوان ، والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته » .

وأقبل معاوية بجيشه قاصداً إلى العراق . (شرح ابن أبى الحديد م ٤ : ص ١٣)

---

(١) المؤنة : الثقل ، وفيها لغات إحداها . مثونة على وزن فعولة بفتح الفاء وبهمزة مضمومة ، والثانية : مئونة بهمزة ساكنة كغرفة ، والثالثة : مونة كسورة .

١١ — الصلح بين الحسن ومعاوية

وتجهز الحسن عليه السلام للقاء معاوية ، وخرج بأصحابه إلى المدائن ، ولكنهم رأوا منه أنه يجنح إلى موادعة معاوية ومصالحته ، فثاروا به وأساءوا إليه[1] ، فازداد لهم بغضا ، وازداد منهم ذعرا ، ورأى الأمر قد تفرق عنه ، فبعث إلى معاوية يطلب الصلح ، وبعث معاوية إليه رسولين قَدِما عليه المدائن ، فأعطياه ما أراد ، وصالحاه على أن يأخذ من بيت مال الكوفة خمسة آلاف ألف فى أشياء اشترطها .

قال الطبرى : « كاتب الحسن معاوية وأرسل إليه بشروط ، قال : إن أعطيتنى هذا فأنا سامع مطيع ، وعليك أن تَفِيَ لى به ، ووقعت صحيفة الحسن فى يد معاوية ، وقد أرسل معاوية قبل هذا إلى الحسن بصحيفة بيضاء مختوم على أسفلها ، وكتب إليه : أن اشترطْ فى هذه الصحيفة التى ختمتُ أسفلَها ما شئتَ فهو لك ، فلما أتت الحسنَ اشترط أضعاف الشروط التى سأل معاويةَ قبل ذلك وأمسكها عنده ، وأمسك معاوية صحيفةَ الحسن عليه السلام ، التى كتب إليه يسأله ما فيها .

---

(١) وذلك أن الحسن عليه السلام لما أتى ساباط ، أقام بها أياما ، فلما أراد أن يرحل إلى المدائن ، قام فخطب الناس. فقال : « أيها الناس إنكم بايعتمونى على أن تسالموا من سالمت ، وتحاربوا من حاربت ، وإنى والله ما أصبحت محتملا على أحد من هذه الأمة ضغينة فى شرق ولا غرب ، ولما تكرهون فى الجماعة والألفة والأمن وصلاح ذات البين ، خير مما تحبون فى الفرقة والخوف والتباغض والعداوة ، وإن عليا أبى كان يقول : لا تكرهوا إمارة معاوية ، فإنكم لو فارقتموه لرأيتم الرءوس تندر عن كواهلها كالحنظل » ثم نزل فنظر الناس بعضهم إلى بعض ، وقالوا : ما قال هذا القول إلا وهو خالع نفسه ومسلم الأمر لمعاوية ، كفر والله الرجل ؛ ثم شدوا على فسطاطه فانتهبوا متاعه حتى أخذوا مصلاه من تحته ، وانتزعوا مطرفه عن عاتقه ، وأخذوا جارية كانت معه فدعا بفرسه فركبه ، وأحدق به طوائف من خاصته وشيعته ، ومنعوا منه من أراده ، ولاموه وضعفوه لما تكلم به ، فلما مر فى مظلم ساباط ، قام إليه رجل يقال له جراح بن سنان وبيده معول ، فأخذ بلجام فرسه وقال : الله أكبر ياحسن ! أشرك أبوك ثم أشركت أنت ! وطعنه بالمعول فوقعت فى فخذه فشقتها حتى بلغت أربيته (أصل الفخذ) وسقط الحسن إلى الأرض بعد أن ضرب الذى طعنه بسيف كان بيده ، واعتنقه فخرا جميعاً إلى الأرض ، وابتدر أصحاب الحسن جراح ابن سنان فقتلوه وحمل الحسن على سرير إلى المدائن وبها سعد بن مسعود الثقفى (عم المختار ابن أبى عبيدة) والياً عليها من قبله فأقام عنده حتى برئ من جرحه (شرح ابن أبى الحديد م ٤ : ص ١٠ — ١٥) .

فلما التقى معاوية والحسن عليه السلام ، سأله الحسن أن يعطيه الشروط التى شرط فى السِّجِلّ الذى ختم معاوية فى أسفله، فأبى معاوية أن يعطيَه ذلك ، فقال : لك ما كنت كتبت إلىّ أوّلا تسألنى أن أعطِيكه ، فإنى قد أعطيتك حين جاءنى كتابك ، قال الحسن عليه السلام : وأنا قد اشترطت حين جاءنى كتابك ، وأعطيتنى العهد على الوفاء بما فيه ، فاختلفا فى ذلك فلم ينفِّذ للحسن عليه السلام من الشروط شيئاً » .

وسلم الحسن عليه السلام الأمر إلى معاوية ، ودخل معاوية الكوفة وبايعه أهلها بالخلافة لخمس بقين من ربيع الأول ، ويقال من جمادى الأولى سنة ٤١ هـ .

(تاريخ الطبرى ج : ٦ ص ٩٢ـ ٩٣)

١٢ — كتاب الحسن إلى معاوية بعد الصلح

ولما سلم الحسن بن علىّ رضى الله عنه الأمر إلى معاوية ، سار يريد المدينة ، فكتب إليه معاوية يدعوه إلى قتال الخوارج ، فكتب إليه :

« لو آثَرْتُ أن أقاتلَ أحداً من أهل القِبْلة لَبدأتُ بقتالك ، فإنى تركتك لصلاح الأمة ، وحَقْنِ دمائها » . (الكامل لابن الأثير ٣ : ١٦٣)

* * *

وروى أبو العباس المبرِّد قال :

دخل معاوية الكوفة مع الحسن بن علىّ صلوات الله عليه بعد أنْ بايعه الحسن والحسين عليهما السلام ، وقيس بن سعد بن عُبَادة ، ثم خرج الحسن يريد المدينة ، فوجَّه إليه معاوية ، وقد تجاوز فى طريقه ، يسأله أن يكون المتولِّى لمحاربة الخوارج(١) ، فقال الحسن : « والله لقد كففتُ عنك لحقن دماء المسلمين ، وما أحسبُ ذلك يَسَعنى ، أفأقاتِل عنك قوماً أنت واللهِ أوْلَى بالقتال منهم » . (الكامل للمبرد ٢ : ١٥٦)

---

(١) وكان أول من خرج منهم بعد قتل على عليه السلام حوثرة الأسدى، فإنه كان متنحيا بالبندنيجين فكتب إلى حابس الطائى يسأله أن يتولى أمر الخوارج حتى يسير إليه بجمعه ، فيتعاضدا على مجاهدة معاوية ، فأجابه فرجعا إلى موضع أصحاب النخيلة ، فلما رجع جواب الحسن إلى معاوية وجه إليهم جيشاً أكثرهم من أهل الكوفة فهزموهم .

١٣ — كتاب معاوية إلى ابن عباس

وكتب معاوية إلى ابن عباس رضي الله عنه، عند صلح الحسن عليه السلام له كتابا يدعوه فيه إلى بيعته، ويقول له فيه:

« ولَعَمْرِي لو قتلتُك بعثمان رجوتُ أن يكون ذلك لِلّه رِضًا، وأن يكون رأيًا صوابًا، فإنك من السّاعين عليه، والخاذلين له، والسّافكين دَمَهُ، وما جَرَى بيني وبينك صُلْح فيمنعَك مني، ولا بِيَدِكَ أمان ».

(شرح ابن أبي الحديد م ٤ : ص ٥٨)

١٤ — رد ابن عباس على معاوية

فكتب إليه ابن عباس جوابًا طويلًا يقول فيه:

« وأمّا قولك: إنّي من الساعين على عثمان، والخاذلين له، والسافكين دَمَه، وما جرى بيني وبينك صلح فيمنعَك مني، فأُقسِم بالله لَأنت المتربِّصُ بقتله، والمحبُّ لهلاكه، والحابِسُ الناسَ قِبَلك عنه على بصيرة من أمره، ولقد أتاك كتابه وصَرِيخُهُ[1] يستغيث بك ويستصرخ، فما حَفَلْتَ به[2]، حتى بعثتَ إليه مُعَذِّراً بأَخَرَة[3]، أنت تعلم أنهم لن يتركوه حتى يُقتلَ، فقُتل كما كنت أردت، ثم علمت عند ذلك أن الناس لن يَعْدِلوا[4] بيننا وبينك، فطفِقْتَ تَنْعَى عثمان وتُلزِمنا دَمَه، وتقول: قُتل مظلومًا، فإن يك قُتل مظلومًا فأنت أظلم الظالمين، ثم لم تزل مُصَوِّبا ومُصَعِّداً[5]،

---

(١) الصريخ: المستغيث (والمغيث أيضاً، ضـد) واستصرخ: استغاث، تقول، استصرخه فاصرخه. (٢) انظر ص ٢٧٧ من الجزء الأول.

(٣) المعذر: المقصر يتعذر بغير عذر، يوهم أن له عذراً ولا عـذر له، وجاء أخرة وبأخرة محركتين وقد يضم أولهما: أي آخر كل شيء، وفي الأصل (بأجرة) وهو تحريف.

(٤) أي لن يسووا. (٥) التصويب: خلاف التصعيد، يقال صوب رأسه: إذا خفضه.

وجَاثِمًا ورابِضًا[1] ، تستغوى الْجُهَّال ، وتنازعنا حقَّنا بالسفهاء ، حتى أدركت ما طلبتَ ، وَإِنْ أَدْرِى لَعَلَّهُ فِتْنَةٌ لَكُمْ وَمَتَاعٌ إِلَى حِينٍ » . (شرح ابن أبى الحديد م ٤ : ص ٥٨)

١٥ — كتاب معاوية إلى الحسين بن علىّ

قال صاحب زهر الآداب :

وكان لمعاوية بن أبى سفيان عَيْنٌ بالمدينة يكتب إليه بما يكون من أمور الناس وقريش ، فكتب إليه أن الحسين بن علىّ رضى الله عنه أعتق جارية له وتزوجها ، فكتب معاوية إلى الحسين :

« من أمير المؤمنين معاوية إلى الحسين بن على :

أما بعدُ ، فإنه بلغنى أنك تزوجتَ جارِيَتَك ، وتركتَ أكفاءك من قريش ، ممن تستحسنه للولد ، وتَمْجُدُ به فى الصِّهر ، فلا لنفسك نظرتَ ، ولا لولدك انتقيت » .

١٦ — رد الحسين على معاوية

فكتب إليه الحسين بن علىّ رضى الله عنه :

أما بعد ، فقد بلغنى كتابُك وتَعييرُك إياى بأنى تزوجتُ مَوْلاتى ، وتركتُ أكفائى من قريش ، فليس فوقَ رسول الله صلى الله عليه وسلم مُنْتَهًى فى شَرَفٍ ، ولا غايةٌ فى نَسَبٍ[2] ، وإنما كانت مِلْكَ يمينى ، خَرَجَتْ عن يدى بأمرٍ الْتَمَستُ فيه ثوابَ الله تعالى ، ثم ارتجعتها على سنة نبيه صلى الله عليه وسلم ، وقد رفع الله بالإسلام الْخسيسةَ ، ووضع عنّا به النقيصةَ فلا لومَ على امرئٍ مُسْلِم إلا فى أمر مَأْثَم ، وإنما اللومُ لَوْمُ الجاهلية » .

---

(١) جثم الطائر والإنسان كضرب ونصر جثما وجثوما: تلبد بالأرض، وربضت الشاة كضرب ربضا وربوضاً ، وهو مثل جثوم الطير وبروك الإبل .

(٢) وذلك أن رسول الله صلى الله عليه وسلم غزا يهود خيبر (سنة ٧ هـ) وهزمهم وسباهم ،وكان فى السبى صفية بنت حيى بن أخطب سيد بنى النضير، فتزوجها عليه الصلاة والسلام وأصدقها عتقها، وقد أسلمت.

فلما قرأ معاوية كتابه نبذه إلى يزيد فقرأه وقال : لَشَدَّ ما فَخَر عليك الحسينُ ! قال : لا ، ولكنها أَلسِنَةُ بنى هاشم الحِداد ، التى تَفْلِقُ الصَّخر ، وتغرف من البحر .

(زهر الآداب ١ : ٧٢)

* * *

وروى صاحب العقد هذا الخبر قال :

تزوج علىّ (زين العابدين) بن الحسين جارية له وأعتقها ، فبلغ ذلك عبد الملك ابن مروان ، فكتب إليه يؤنّبه ، فكتب إليه علىّ :

« إن الله رَفَعَ بالإسلام الخَسيسةَ ، وأَتمَّ به النقيصة ، وأَكرمَ به من اللؤم ، فلا عارَ على مسلم ، وهذا رسولُ اللهِ صلى الله عليه وسلم قد تزوج أَمَتَه[1] ، وامرأةَ عَبْدِه[2] » .

---

(١) هى صفية اليهودية كما قدمنا .

(٢) يشير إلى زواجه صلى الله عليه وسلم من زينب بنت جحش ــ وأمها أميمة عمته ــ بعد أن طلقها مولاه زيد بن حارثة ، وذلك أن رسول الله كان خطبها له ، فتأفف أهلها من ذلك لشرفها ورفعة حسبها ــ وكان العرب يأبون أن يزوجوا بناتهم من الموالى ــ وزيد وإن كان قد تبناه الرسول ــ لا يلحقه ذلك بالأشراف ، فلما نزل قوله تعالى « وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلَا مُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَى اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَمْرًا أَنْ يَكُونَ لَهُمُ الْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ وَمَنْ يَعْصِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَالًا مُبِينًا » لم يروا بدا من القبول فلما دخل بها زيد أوته من كبريائها ودالتها ما لم يحتمله، فشكاها للرسول الله فأمره باحتمالها والصبر عليها ، إلى أن ضاق بها ذرعا ، فأخبره بعزمه على طلاقها وكرر ذلك، فأمر الله نبيه أن يتزوج زينب بعد طلاقها ، حسما لهذا الشقاق من جهة ، وحفظا لشرفها أن يضيم بعد زواجها بمولى من جهة أخرى ، ولكن رسول الله خشى لوم اليهود والعرب عليه فى زواجه بزوج ابنه . فقال لزيد أمسك عليك زوجك واتق الله، وأخفى فى نفسه ما أبداه الله فبت الله حكمه بإبطال هذه القاعدة وهى تحريم زوج المتبنى بقوله تعالى : « وَإِذْ تَقُولُ لِلَّذِي أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِ وَأَنْعَمْتَ عَلَيْهِ أَمْسِكْ عَلَيْكَ زَوْجَكَ وَاتَّقِ اللَّهَ وَتُخْفِي فِي نَفْسِكَ مَا اللَّهُ مُبْدِيهِ وَتَخْشَى النَّاسَ وَاللَّهُ أَحَقُّ أَنْ تَخْشَاهُ فَلَمَّا قَضَى زَيْدٌ مِنْهَا وَطَرًا زَوَّجْنَاكَهَا لِكَيْلَا يَكُونَ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ حَرَجٌ فِي أَزْوَاجِ أَدْعِيَائِهِمْ إِذَا قَضَوْا مِنْهُنَّ وَطَرًا وَكَانَ أَمْرُ اللَّهِ مَفْعُولًا » .

فقال عبد الملك : إن عليّ بن الحسين يَشْرُف من حيث يتّضِعُ الناس .
(العقد الفريد ٣ : ٢٤٣)

١٧ ـ كتاب الحسين بن على إلى معاوية

وروى ابن أبى الحديد عن المدائنى قال :

قال معاوية يوما لعَقيل بن أبى طالب : هل من حاجة فأقضيَها لك ؟ قال : نعم ، جارية عُرِضت علىّ وأبَى أصحابها أن يبيعوها إلا بأربعين ألفاً ، فأحبّ معاوية أن يمازحه فقال : وما تصنع بجارية قيمتُها أربعون ألفاً ، وأنت أعمى تجتزئ بجارية قيمتها خمسون درهما ؟ قال : أرجو أن أطَأَها فتَلِدُ لى غلاما إذا أغضبتَه يضرب عنقك بالسيف ، فضحك معاوية وقال : مازَحْناك يا أبا يزيد ، وأمر فابتيعت له الجارية التى أولدها ابنه « مُسْلِماً » ، فلما أتت على مُسْلِم ثمانى عشرة سنة ، وقد مات عقيل أبوه ، قال لمعاوية : يا أمير المؤمنين إن لى أرضاً بمكان كذا من المدينة ، وإنى أُعْطِيتُ بها مائة ألف ، وقد أحببت أن أبيعك إياها ، فادفع إلىّ ثمنها ، فأمر معاوية بقبض الأرض ودفع الثمن إليه ، فبلغ ذلك الحسين عليه السلام ، فكتب إلى معاوية :

« أما بعدُ : فإنك غَرَرْتَ غلاما من بنى هاشم ، فابتعت منه أرضاً لايملكها ، فاقبِض من الغلام ما دَفَعْتَه إليه ، واردد إلينا أرضنا » .

١٨ ـ رد معاوية على الحسين

فبعث معاوية إلى مسلم فأخبره ذلك وأقرأه كتاب الحسين عليه السلام ، وقال : اردد علينا مالنا وخذ أرضك ، فإنك بعت مالا تَملِكُ ، فقال مسلم : أمّا دُونَ أن أضرِبَ رأسك بالسيف فلا ، فاستلقى معاوية ضاحكاً يضرب برجليه ، وقال : يابنى هذا والله كلام قاله لى أبوك حين ابتعتُ له أمّك ، ثم كتب إلى الحسين :

« إنى قد رَدَدْتُ عليكم الأرض ، وسوّغت[1] مسفًا ما أخذ » فقال الحسين عليه السلام : « أَبَيْتم يا آلَ أبى سفيانَ إلا كَرَمًا » .

(شرح ابن أبى الحديد م ٣ : ص ٨٢)

١٩ — كتاب الحسين بن على إلى معاوية

وكان مال حُمِل من اليمن إلى معاوية ، فلما مَرّ بالمدينة وثب عليه الحسين بن على عليه السلام ، فأخذه وقسمه فى أهل بيته ومَواليه ، وكتب إلى معاوية :

« من الحسين بن علىّ إلى معاوية بن أبى سفيان :

أما بعد : فإن عِيراً[2] مَرّتْ بنا من اليمن تحمل مالاً وحُلَلا ، وعَنْبَراً وطِيبًا إليك ، لِتُودِعَها خزائن دِمَشق ، وتُعِلَّ بها بعد النَّهَلِ[3] بنى أبيك ، وإنى احتجت إليها فأخذتها ، والسلام » .

(شرح ابن أبى الحديد م ٤ : ص٣٢٧)

٢٠ — رد معاوية على الحسين

فكتب إليه معاوية :

« من عبد الله معاوية أمير المؤمنين إلى الحسين بن علىّ :

سلام عليك ، أما بعدُ : فإن كتابك ورد علىّ ، تذكُر أن عِيرا مرت بك من اليمن ، تحمل مالًا وحُلَلا ، وعَنبراً وطِيبًا إلىّ ، لِأُودِعَها خزائن دمشق ، وأُعِلّ بها بعد النَّهَل بنى أبى ، وأنك احتجت إليها فأخذتها ، ولم تكن جديراً بأخذها ، إذ نسبْتَها إلىّ ، لأن الوالى أحقّ بالمال ، ثم عليه المَخْرَجُ منه ، وايْمُ الله لو تركْتَ ذلك حتى صار إلىّ ، لم أبْخَسْك حظَّك منه ، ولكنى قد ظننت يابن أخى أن فى رأسك نَزْوَةً[4] ،

---

(١) سوغه ما أصاب : تركه له خالصا .

(٢) العير : الإبل تحمل الميرة ، بلا واحد من لفظها ، أو كل ما امتير عليه إبلا كانت أو حميرا أو بغالا

(٣) العل والعلل محركة : الشربة الثانية أو الشرب بعد الشرب تباعا ، علّ كضرب ونصر ، وعله كضرب ونصر أيضا وأعله ، والنهل محركة ، أول الشرب . نهلت الإبل كفرح ، وقد أنهلها .

(٤) النزوة : الوثبة ، من نزا نزوا ونزوانا إذا وثب ، يريد أنه يتوثب لطلب الخلافة .

وبودِّى أن يكون ذلك فى زمانى ، فأعرفَ لك قَدْرَك ، وأتجاوزَ عن ذلك ، ولكنى وَاللهِ أتخوفُ أن تُبتَلَى بمن لا يُنظِرُك فُوَاقَ[1] ناقة ، وكتب فى أسفل كتابه :

يا حسينُ بنَ علىٍّ : ليس ما   جئتَ بالسائغِ يوما فى العِلَلْ[2]
أخْذُك المالَ ولم تُؤْمَرْ به   إنَّ هذا من حُسَينٍ لَعَجَلْ
قد أجَزْناها ولم نَغْضَبْ لها   واحتملْنا من حسينٍ ما فعلْ
يَا حُسينُ بن علىٍّ ذَا الأمَلْ   لكَ بَعْدِى وَثْبةٌ لا تُحْتَمَل
وبودِّى أننى شاهدُها   فَأُلِيها منك بالخُلْق الأجَلْ[3]
إننى أرْهَبُ أنْ تَصْلَى بمن   عِندَه قد سَبَقَ السيفُ العَذَلْ[4]

(شرح ابن أبى الحديد م ٤ : ص ٣٢٧)

٢١ — كتاب محمد بن الحنفية إلى الحسين بن على

وجرى بين الحسين بن علىّ وبين أخيه محمد[5] بن الحنفيَّة رضى الله عنهما كلام ، وافترقا متغاضبَين ، فلما وصل محمد إلى منزله كتب إلى الحسين بعد البسملة :

---

(١) أنظره : أمهله ، والفواق كغراب ويفتح : ما بين الحلبتين من الوقت،أو مابين فتح يدك وقبضها على الضرع . (٢) السائغ : الجائز . (٣) أليها : أى أتولاها وأعالجها .

(٤) سبق السيف العذل : مثل معناه قد فرط من الفعل مالا سبيل إلى رده (والعذل : اللوم) وأول من قال هذا المثل ضبة بن أد بن طابخة بن إلياس بن مضر،وكان له ابنان يقال لأحدهما سعد وللآخر سعيد ، فنفرت إبل لضبة تحت الليل ، فوجه ابنيه فى طلبها ، فوجدها سعد فردها، ومضى سعيد فى طلبها فلقيه الحارث بن كعب ، وكان على الغلام بردان ، فسأله الحارث إياهما ، فأبى عليه ، فقتله وأخذ برديه ، فكان ضبة إذا أمسى فرأى تحت الليل سوادا قال:أسعد أم سعيد (فذهبت مثلا يضرب فى النجاح والخيبة) فمكث ضبة بذلك ما شاء الله أن يمكث ، ثم إنه حج فوافى عكاظ ، فلقى بها الحارث بن كعب ورأى عليه بردى ابنه سعيد ، فعرفهما فقال له : هل أنت مخبرى ما هذان البردان اللذان عليك ؟ قال : بلى ، لقيت غلاما وهما عليه ، فسألته إياهما فأبى على فقتلته وأخذت برديه هذين ، فقال ضبة : بسيفك هذا ؟ قال : نعم ، فقال . فأعطنيه أنظر إليه فإنى أظنه صارما ، فأعطاه الحارث سيفه، فلما أخذه من يده هزه وقال: الحديث ذوشجون (أى ذو طرق جمع شجن كشمس) ثم ضربه به حتى قتله ، فقيل له ياضبة ، أفى الشهر الحرام ؟ فقال : سبق السيف العذل .

(٥) هو محمد بن على بن أبى طالب ، والحنفية أمه ، وهى من بنى حنيفة بن لجيم ، واسمها خولة بنت جعفر ، وتوفى محمد سنة ٨١ — انظر ترجمته فى وفيات الأعيان ١ : ٤٤٧ .

« من محمد بن علىّ إلى أخيه الحسين بن علىّ ، أما بعد ، فإن لك شَرَفا لا أبْلُغُهُ ، وفضلا لا أدرِكه ، فإن أمّى امرأة من بنى حَنِيفة ، وأمّك فاطمة بنت رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ولو كان مِلْء الأرض نساء مثل أمى ما وَفَيْنَ بأمِّك ، فإذا قرأتَ رُقْعتى هذه فالبَسْ رداءك ونعليك ، وسِرْ إلىّ لتُرضِيَنى ، وإياك أن أَسْبِقَك إلى هذا الفضل الذى أنت أوْلَى به منى ، والسلام » .

فلبس الحسين رداءه ونعليه وجاء إليه وترضّاه[1] .

(غرر الخصائص الواضحة : ص ٣٨٣)

٢٢ — كتاب الحسن بن علىّ إلى أهل البصرة

وكتب الحسن بن على عليهما السلام إلى أهل البصرة كتابا قال فيه :

« من لم يُؤْمن بالله وقضائه وقَدَره فقد كفر ، ومن حَمَل ذنْبه على ربه فقد فَجَر ، إن الله لا يُطَاعُ استكراها ، ولا يُعْصَى لِغَلَبَة ، لأنه المَلِيك لما ملَّكهم ، والقادر على ما أقدرهم عليه ، فإن عَمِلوا بالطاعة لم يَحُل بينهم وبين ما فعلوا ، وإن عَمِلوا بالمعصية فلو شاء حال بينهم وبين مافعلوا ، فإذا لم يفعلوا فليس هو الذى أجبرهم على ذلك ، فلو أجبر الله الخلقَ على الطاعة لأسْقَطَ عنهم الثوابَ، ولو أجبرهم على المعاصى لأسقط عنهم العقابَ، ولو أهملهم لكان عَجْزاً فى القدرة ، ولكن له فيهم المَشِيئة التى غيَّبها عنهم ، فإن عملوا بالطاعات كانت له المِنَّةُ عليهم ، وإن عملوا بالمعصية كانت له الحُجَّة عليهم » .

(المنية والأمل ص ١٠)

---

(١) وفى رواية زهر الآداب (١ : ٧١) :

وقع بين الحسن بن على ومحمد بن الحنفية رضى الله عنهما لحاء (أى منازعة) ومشى الناس بينهما بالنمائم ، فكتب إليه محمد بن الحنفية :

« أما بعد ، فإن أبى وأباك على بن أبى طالب » لا تفضلنى فيه ولا أفضلك ، وأمى امرأة من بنى‌حنيفة، وأمك فاطمة الزهراء بنت رسول الله صلى الله عليه وسلم، فلو ملئت الأرض بمثل أمى ، لكانت أمك خيرا منها ، فإذا قرأت كتابى هذا ، فاقدم حتى ترضانى، فإنك أحق بالفضل منى » .

٢٣ — كتاب ابن عباس إلى مجبرة الشام

وكتب عبد الله بن عباس إلى مُجْبِرة[١] الشأم :

« أما بعد ، أتأمرون الناس بالتقوى وبكم ضَلَّ المتقون ، وتَنْهَوْن الناس عن المعاصى وبكم ظهر العاصُون ؟ يا أبناء سَلَفِ المقاتلين ، وأعوان الظالمين ، وخُزّان مساجد الفاسقين ، وعُمَّار سلف الشياطين ، هل منكم إلا مُفْتَرٍ على الله يحمِلُ أجْرَامه[٢] عليه ، وينسبُها عَلَانِيةً إليه ، وهل منكم إلا مَن السيفُ قِلادتُه ، والزور على الله شهادته ؟ أعَلَى هذا تواليتم ، أم عليه تَمَالَيتم[٣] ؟ حَظُّكم منه الأوفر ، ونصيبكم منه الأكبر ، عَمَدتم إلى مُوالاةِ مَن لم يَدَعْ لله مالًا إلا أخذه ، ولا مَنَاراً إلا هدَمه ، ولا مالًا ليتيم إلا سَرَقه أو خانه ، فأوجبتم لِأخبث خلقِ الله أعظمَ حقِّ الله ، وتخاذلتم أهل الحق حتى ذَلُّوا وقلّوا ، وأعَنْتم أهلَ الباطل حتى عَزُّوا وكثُروا ، فأَنيبوا إلى الله وتوبوا ، تاب الله على من تاب ، وقبل من أناب » . (المنية والأمل ص ٩)

٢٤ — كتاب معاوية إلى عمرو بن العاص

وكتب معاوية إلى عمرو بن العاص — وبلغه عنه أمر — :

« وفَّقك الله لِرُشْدك ، بلغنى كلامك فإذا أولُه بَطَر وآخره خَوَرٌ ، ومن أبطره الغنى أذلَّه الفقرُ ، وهما ضِدّان مُخادعان للمرء عن عقله ، وأولَى الناس بمعرفة الدواء من يَبِينُ له الداء ، والسلام » .

---

(١) المجبرة أو الجبرية : فرقة تقول بأن الإنسان لا يقدر على شيء ولا يوصف بالاستطاعة ، وإنما هو مجبور فى أفعاله لا قدرة له ولا إرادة ولا اختيار ، وإنه كالريشة فى مهب الرياح ليس له كسب فيما يأتيه

(٢) الأجرام : جمع جرم بالضم وهو الجريمة . (٣) مخفف من تمالأتم أى اجتمعتم .

٢٥ — رد عمرو على معاوية

فأجابه عمرو :

« طاولَتْك النِّعم ، وطاولَتْ بك ، علوُّ إنصافك يُؤْمِن سطوةَ جَوْرك ، ذكرتَ أنى نطقتُ بما تكره ، وأنا مخدوع ، وقد علمت أنى مِلْت إلى محبتك ولم أُخْدع ، ومثلك شَكَرَ مَسْعَى معتذِر ، وعفا زَلَّة مُعْتَرِف » .

(العقد الفريد ٢ : ٢٠١)

٢٦ — كتب بين معاوية وبسر بن أبي أرطاة وبين زياد ابن أبيه

روى الطبرى قال :

« صالحَ الحسن عليه السلام معاوية ، وشَخَص إلى المدينة ، فبعث معاوية بُسْرَ ابن أبي أَرْطاة إلى البصرة فى رجب سنة ٤١ هـ ، وزيادٌ متحصِّنٌ بفارس[1] ، فكتب معاوية إلى زياد : « إنَّ فى يديك مالاً من مال الله ، وقد وَلِيتَ ولايةً ، فأدِّ ما عندك من المال » :

فكتب إليه زياد :

« إنه لم يَبْقَ عندى شيء من المال ، وقد صَرفتُ ما كان عندى فى وَجْهِه ، واستودعتُ بعضَه قوماً ، لِنازلةٍ إن نَزَلَتْ ، وحَمَلْتُ ما فَضَلَ إلى أمير المؤمنين[2] رحمةُ الله عليه » .

فكتب إليه معاوية « أنْ أقبلْ إلىّ نَنظُرْ فيما وَلِيتَ وجَرَى على يديك ، فإن أستقام بيننا أمر فهو ذاك ، وإلا رجَعْتَ إلى مَأْمَنِك » .

(١) وكان واليا عليها من قبل الإمام على كرم الله وجهه كما قدمنا فى الجزء الأول .

(٢) يعنى الإمام عليا رضى الله عنه .

فلم يأته زياد ، فأخذ بُسْرٌ بنى زياد الأكابرَ منهم فحبسهم (عبد الرحمن وعُبيد الله وعبَّادا) وكتب إلى زياد :

« لتَقْدَمَنَّ على أمير المؤمنين أو لأقتُلَنَّ بنيك » فكتب إليه زياد :

« لستُ بارِحاً من مكانى الذى أنا بِهِ حتى يَحكُمَ اللهُ بينى وبين صاحبك ، فإن قتلتَ مَن فى يديك من ولدى، فالمصيرُ إلى اللهِ سبحانه ، ومِنْ ورائنا وورائكم الحسابُ ، وسَيَعْلَمُ الَّذِينَ ظَلَمُوا أَيَّ مُنْقَلَبٍ يَنْقَلِبُونَ » .

فهمَّ بقتلهم ، فأتاه أبو بَكْرة[1] فقال : أخذتَ ولدى وولدَ أخى غِلمانا بلا ذنب ، وقد صالح الحسن معاوية على أمان أصحاب علىّ حيث كانوا ، فليس لك على هؤلاء ولا على أبيهم سبيل ، فقال : إنَّ على أخيك أموالاً قد أخذها ، فامتنع من أدائها ، قال: ما عليه شيء ، فا كفُف عن بنى أخى حتى آتيَك بكتاب من معاوية بتخليتهم ، فأجَّلَه أياما ، قال له : إن أتيتنى بكتاب معاوية بتخليتهم ، وإلا قتلتهم ، أو يُقبِلَ زياد إلى أمير المؤمنين ، فأتى أبو بكرة معاوية فكلمه فى زياد وبنيه ، وكتب معاويةُ إلى بُسْر بالكف عنهم وتخلية سبيلهم فخلاهم .

وفى رواية أخرى للطبرى أيضاً قال :

كتب بُسْر إلى زياد : « لَئِن لم تَقْدَم لَأُصْلُبَنَّ بنيك » فكتب إليه : « إن تفعل فأهلُ ذاك أنت ، إنما بعثَ بك ابنُ آكلةِ الأكباد[2] » فركب أبو بكرة إلى معاوية فقال : يا معاوية إن الناس لم يعطوك بَيْعتهم على قتل الأطفال ، قال : وما ذاك

---

(١) هو أخو زياد لأمه ، وأبوه الحارث بن كلدة .

(٢) هى هند أم معاوية وذلك أن حمزة بن عبدالمطلب عم رسول الله صلى الله عليه وسلم كان يوم بدر قد قتل عمها شيبة بن ربيعة بن عبد شمس ، واشترك هو والإمام على وعبيدة بن الحارث بن المطلب فى قتل أبيها عتبة بن ربيعة ، واشترك هو والإمام على وزيد بن حارثة فى قتل ابن زوجها حنظلة بن أبى سفيان، فلما كانت غزوة أحد قتل حمزة رضى الله عنه (قتله وحشى مولى جبير بن مطعم،دعاه سيده وقال له اخرج مع الناس فإن أنت قتلت حمزة بعمى طعيمة فأنت حر) ومثل المشركون بقتلى المسلمين ، وبقرت هند بطن حمزة وأخذت كبده لتا كلها انتقاما منه فلا كتها ثم أرسلتها .

يا أبا بكرة ؟ قال : بُسْرٌ يريد قتل أولاد زياد ، فكتب معاوية إلى بسر أن خَلّ من بيدك من ولد زياد ، وكان معاوية قد كتب إلى زياد بعد قتل علىّ عليه السلام يتوعده .

(تاريخ الطبرى ٦ : ٩٦)

٢٧ — كتاب معاوية إلى زياد

وروى ابن أبى الحديد قال :

كان علىّ عليه السلام قد ولّى زياداً قطعة من أعمال فارس ، واصطنعه لنفسه ، فلما قتل علىّ عليه السلام بقى زياد فى عمله ، وخاف معاوية جانبَه ، وعلم صعوبة ناحيته ، وأشفق من مُمَالأته الحسنَ بن علىّ عليه السلام ، فكتب إليه :

« من أمير المؤمنين معاوية بن أبى سفيان إلى زياد بن عُبَيْد[1] ، أما بعد : فإنك عَبْد قد كفَرْتَ النعمةَ ، واستدعيتَ النِّقمةَ ، ولقد كان الشكرُ أوْلَى بك من الكفر ، وإن الشجرة لَتَضْرِبُ بعِرْقها ، وتتفرّع من أصلها ، إنّك — لا أمَّ لك[2] بل لا أبَ لك — قد هلكتَ وأهلكتَ[3] ، وظننت أنك تخرج من قَبْضَتى ،

(١) ذكروا أن سمية أم زياد كانت قد وهبها أبو الخير بن عمرو الكندى للحارث بن كلدة — وكان طبيبا يعالجه — فولدت له على فراشه نافعا ، ثم ولدت أبا بكرة فأنكر لونه ، وقيل له : إن جاريتك بغى ، فانتفى من أبى بكرة ومن نافع ، وزوجها عبيدا — وكان عبدا لابنته — فولدت على فراشه زيادا (العقد الفريد ٣ : ٢) .

(٢) يقول الرجل للرجل « لا أم لك » وهو شتم وسب ، ومعناه : ليس لك أم حرة . وذلك أن بنى الإماء عند العرب مذمومون ليسوا بمرضيين ولا لاحقين ببنى الحرائر ، وقيل معناه: أنت لقيط لا تعرف لك أم ، ولا يقول الرجل لصاحبه « لا أم لك » إلا فى غضبه عليه مقصرا به شاتما له (وربما وضع موضع المدح بمعنى التعجب منه) .

وأما إذا قال « لا أبا لك » — ويقال أيضا لا أب لك ولا أباك ولا أبك بغير لام — فلم يترك له من الشتيمة شيئاً ، وإذا أراد كرامة قال « لا أبا لشانيك » « ولا أب لشانيك » .

وجاء فى كتب اللغة أيضا وأكثر ما يذكر « لا أبا لك » فى المدح ، أى لا كافى لك غير نفسك وقد يذكر فى معرض الذم كما يقال لا أم لك ، وقد يذكر فى معرض التعجب ودفعا للعين كقولهم لله درك ، وقد يذكر بمعنى جد فى أمرك وشمر ، لأن من له أب اتكل عليه فى بعض شأنه » .

وجاء فيها « لا أبا لك : دعاء ، فى المعنى لا محالة وفى اللفظ خبر ، يقال لمن له أب ولمن لا أب له ، وقيل لا أبالك : كلمة تفصل بها العرب كلامها » .

(٣) أى وأهلكت أسرتك لأن خروجك على معرضها لبطشى بها .

ولا ينالك سلطانى ! هيهاتَ ! ما كُلُّ ذى لُبٍّ يصيبُ رأيُه ، ولا كلُّ ذى رأى يَنصَح فى مَشُورته، أمسِ عبدٌ ، واليومَ أميرٌ ! خُطّةٌ ما ارتقاها مثلُك يابن سُمَيَّة !

وإذا أتاك كتابى هذا فخذ الناس بالطاعة والبَيْعة ، وأسرِع الإجابة ، فإنك إن تفعل فدَمَك حقَنتَ ، ونفسَك تداركتَ ، وإلا اختطفتُك بأضعف رِيش[١] ، ونِلتُك بأهون سعى ، وأقسِم قَسَماً مَبْرُورا أنْ لا أُوتَى بك إلا فى زَمَّارة[٢] ، تمشى حافيًا من أرض فارس إلى الشأم ، حتى أُقيمَك فى السوق ، وأبيعَك عبداً ، وأردَّك إلى حيثُ كنتَ فيه ، وخرجتَ منه ، والسلام » . (شرح ابن أبى الحديد م : ٤ ص ٦٨)

٢٨ — رد زياد على معاوية

فلما ورد الكتاب على زياد غَضِب غضبًا شديداً ، وكتب إلى معاوية :

« أما بعد : فقد وصل إلىَّ كتابك يامعاوية ، وفهمتُ مافيه ، فوجدتك كالغَريق يُغطِّيه الموجُ فيتشبَّث بالطُّحْلُب[٣] ، ويتعلق بأرجل الضفادع ، طَمَعًا فى الحياة ، إنما يكفُرُ النِّعَمَ ، ويستدعى النِّقَمَ مَن حادَّ[٤] الله ورسولَه وسعى فى الأرض فساداً .

فأمّا سبُّك لى فلولا حِلْمٌ ينهانى عنك ، وخَوفِى أنْ أُدْعَى سفيهاً ، لأَثَرْتُ[٥] لك مَخازىَ لايغسِلها الماء ، وأمّا تعييرُك لى بسُمَيَّة ، فإن كنتُ ابنَ سمية فأنت ابن حمامة[٦] وأمّا زَعْمُك أنك تختطفنى بأضعف ريش ، وتتناولُنى بأهون سعى ، فهل رأيتَ بازِيًا

---

(١) يريد بأضعف قوة ، وكانوا يلزقون الريش على السهم ليقووه ويسددوه ، ومنه قالوا: راش السهم يريشه إذا ركب عليه الريش، فهو مريش .

(٢) أى فى جماعة زمارة تزمر حولك بالمزامير لتشهيرك والتشنيع عليك .

(٣) الطحلب بضم اللام وفتحها:خضرة تعلو الماء المزمن.

(٤) أى غاضبه وخالفه وعاداه .

(٥) لأبرزت وأظهرت.

(٦) روى ابن أبى الحديد فى شرحه (م ١ : ص ١٥٧) أن حمامة جدة معاوية أم أبيه أبى سفيان وأنها كانت بغيا فى الجاهلية صاحبة راية .

يُفزِعه صفيرُ القَنَابِر[١] ؟ أم هل سمعتَ بذئب أكله خروف ؟ فامضِ الآن لِطِيَّتِك[٢] ، واجْهَد جَهْدك[٣] ، فلستُ أنزِل إلا بحيثُ تَكرَه ، ولا أجتهد إلا فيما يَسوءك ، وستعلم أيُّنا الخاضع لصاحبه ، الطالِعُ إليه ، والسلام » .

(شرح ابن أبي الحديد م ٤ : ص ٦٨)

٢٩ — رد معاوية على زياد

فلما ورد كتاب زياد على معاوية غمّه وأحزنه[٤] ، ثم كتب إليه مع المُغيرة ابن شُعْبة :

---

(١) البازى: واحد البزاة التي تصيد، ضرب من الصقور، القبر كسكر: ضرب من العصافير واحدته قبرة والقنبراء بضم الباء وفتحها لغة فيها والجمع القنابر ، والعامة تقول القنبرة بالضم ، وقد جاء ذلك في الرجز * جاء الشتاء واجثأل القنبر * (اجثأل الطائر : نفش ريشه) .

(٢) الطية : الناحية ، والحاجة والوطر ، فهي تكون منزلا وتكون منتوى، ومضى لطيته أي لوجهه وقصده الذي يريده ولنيته التي انتواها .

(٣) الجهد بالفتح ويضم : الطاقة ، واجهد جهدك : ابلغ غايتك .

(٤) روى ابن أبي الحديد قال : « وبعث إلى المغيرة بن شعبة فخلابه وقال : يامغيرة ، إني أريد مشاورتك في أمر أهمني ، فانصحني فيه وأشر على برأى المجتهد ، وكن لى أكن لك ، فقد خصصتك بسرى وآثرتك على ولدى ، قال المغيرة : فما ذاك ؟ والله لتجدني في طاعتك أمضى من الماء في الحدور ، ومن ذى الرونق في كف البطل الشجاع ، قال : يامغيرة إن زيادا قد أقام بفارس يكش لنا كشيش الأفاعى (كشيش الأفعى : صوتها من جلدها لامن فيها ، وفعله كضرب) وهو رجل ثاقب الرأى ماضي العزيمة جوال الفكر مصيب إذا رمى ، وقد خفت منه الآن ما كنت آمنه إذ كان صاحبه حيا ، وأخشى ممالأته حسنا فكيف السبيل إليه، وما الحيلة في إصلاح رأيه ؟ قال المغيرة : أنا له إن لم أمت، إن زيادا رجل يحب الشرف والذكر وصعود المنابر ، فلو لا طفته المسألة وألنت له الكتاب ، لكان لك أميل وبك أوثق ، فاكتب إليه وأنا الرسول ، ورحل المغيرة بالكتاب حتى قدم فارس ، فلما رآه زياد قربه وأدناه ولطف به فدفع إليه الكتاب فجعل يتأمله ويضحك ، وكان مما قاله له المغيرة: دع عنك اللجاج يرحمك الله وارجع إلى قومك وصل أخاك وانظر لنفسك ولاتقطع رحمك، قال زياد: إنى رجل صاحب أناة، ولى في أمرى روية، فلا تعجل على ولا تبدأنى بشيء حتى أبدأك» وقال صاحب العقد : (٣ : ٣) وكان المغيرة لزياد صديقا ، وذلك أن زيادا كان أحد الشهود الأربعة الذين شهدوا على المغيرة (أي بالزنا) وهو الذى تلجلج في شهادته عند عمر بن الخطاب رضي الله عنه ، فنجا المغيرة وجلد الثلاثة من الشهود وفيهم أبو بكرة أخو زياد . . . « قال زياد للمغيرة : أشر على وارم الغرض الأقصى ، فإن المستشار مؤتمن ، قال أرى أن تصل حبلك بحبله وتسير إليه وتعير الناس أذنا صماء وعينا عمياء . . . وقد عمل بمشورة المغيرة وسار إلى معاوية .

« من أمير المؤمنين معاوية بن أبى سفيان إلى زياد بن أبى سفيان[(١)] ، أما بعدُ : فإن المرء ربّما طَرَحَه الهوَى فى مَطارح العَطَب ، وإنك لَلمرء المضروبُ به المثلُ : قاطِعُ الرَّحِم ، وواصِلُ العدوّ ، حَمَلَك سوء ظنِّك بى ، وبُغضك لى على أن عَقَقْتَ قرابتى ، وقطعْتَ رَحِمِى ، وبَتَتَّ[(٢)] نَسَبِى وحُرْمتى ، حتى كأنك لست أخى ، وليس صَخْر ابن حَرْب أباك وأبى ! وشتان ما بينى وبينك ، أطلب بدم ابن أبى العاص[(٣)] وأنت تقاتلنى ، ولكن أدركك عِرقُ الرَّخاوة من قِبَل النساء ، فكنتَ كتاركةٍ بيضها بالعَرَاء[(٤)] ، ومُلْحِفَةٍ بيض أخرى جَناحَها ، وقد رأيتُ أن أعطِفَ عليك ، ولا أؤاخذَك بسوء سعيك ، وأن أصِلَ رَحِمَك ، وأبتغِيَ الثواب فى أمرك ، فاعلم أبا المُغيرة أنك لو خُضْتَ البحر فى طاعة القوم فتضرب بالسيف حتى ينقطع مَتْنُه ، لَمَا ازددتَ منهم إلا بُعْدًا ، فإن بنى عبد شمس أبغضُ إلى بنى هاشمٍ من الشَّفْرَة إلى الثور الصَّرِيع وقد أوثِقَ للذبح ، فارجِعْ رحمك الله إلى أصلك ، واتَّصل بِقومك ، ولا تكن

---

(١) ذكروا أن البغايا فى الجاهلية كانت لهن رايات يعرفن بها وينتحيها الفتيان ، فيقال إن أباسفيان خرج يوما وهو ثمل إلى تلك الرايات ، فقال لصاحبة الراية هل عنـدك من بغى ؟ فقالت : ماعندى إلا سمية ، قال : هاتها على نتن إبطيها ، فوقع بها ، فولدت له زيادا على فراش عبيد (العقد الفريـد ٣ : ٢) وقد شهد أبو مريم السلولى حين استلحق معاوية زيادا قال : أشهد أن أبا سفيان قدم علينا بالطائف ، وأنا خمار فى الجاهلية ، فاشتريت له لحمـا وخمرا وطعاما ، فلما أكل قال : يا أبا مريم ابغنى بغيا ، فخرجت فأتيت سمية ، فقلت لها : إن أبا سفيان من قد عرفت شرفه وجوده ، وقد أمرنى أن أصيب له بغيا ، فهل لك ؟ فقالت : نعم يجىء الآن عبيد بغنمه ـ وكان راعيا ـ فإذا تعشى ووضع رأسه أتيته ، فرجعت إلى أبى سفيان فقلت : لم أجد إلا جارية الحارث بن كلدة : سمية ، فقال : ائتنى بها على ذفرها وقذرها ، وأخذبكم درعها ، وأغلقت الباب عليهما ، فلم ألبث أن خرج على يمسح جبينه ، فقلت : مه يا أبا سفيان ، فقال : ما أصبت مثلها يا أبا مريم ، لولا استرخاء من ثدييها وذفر فى إبطيها (شرح ابن أبى الحديد م ٤ :ص ٧٠ ومروج الذهب ٢ : ص ٥٦) (الدفر بالتحريك ويسكن : النتن ، والذفر بالتحريك : كل ريح ذكية من طيب أو نتن ، أو يخص برائحة الإبط المذئنة) .

وكان يقال له : زياد بن عبيد ، وزياد بن أبيه ، وزياد بن سمية ، وزياد بن أمه ، ولمـا استلحق (سنة ٤٤ هـ) قيل له زياد بن أبى سفيان .

(٢) قطعت. (٣) أى عثمان وهو عثمان بن عفان بن أبى العاص بن أمية.

(٤) العراء : الفضاء لا يستتر فيه بشىء .

كالموصول يطير بريشِ غيره ، فقد أصبحتَ ضالَّ النسب ، ولَعَمْرِى ما فعل بك ذلك إلا اللّجاجُ ، فدَعْه عنك فقد أصبحتَ على بيِّنةٍ من أمرك ، ووضوحٍ من حُجَّتك ، فإن أحببتَ جانبى ووثِقْتَ بى فإمْرَةٌ بإمرة ، وإن كرِهْتَ جانبى ولم تثق بقولى ، ففِعْلٌ جميل ، لا علىَّ ولا لى ، والسلام » . (شرح ابن أبى الحديد م ٤ : ص ٦٩)

٣٠ — رد زياد على معاوية

فكتب إليه زياد جواب كتابه :

« أما بعدُ : فقد وصل كتابك يا معاوية مع المُغيرة بن شُعْبَة وفهمتُ ما فيه ، فالحمد لله الذى عرَّفك الحقَّ وردَّك إلى الصِّلة ، ولست ممن يجهل معروفاً ، ولا يُغْفِل حسباً ، ولو أردتُ الآن أن أجيبك بما أوجَبَته الحجَّةُ ، واحتمله الجوابُ ، لطال الكتابُ ، وكثر الخطابُ ، ولكنك إن كنتَ كتبتَ كتابك هذا عن عَقْدٍ صحيح ونية حسنة ، وأردت بذلك بِرّاً ، فستزرع فى قلبى مَودة وقَبولا ، وإن كنتَ إنما أردتَ مَكِيدة ومكراً وفساد نِيَّة ، فإن النفس تأبَى ما فيه العَطَبُ ، ولقد قمتُ يوم قرأت كتابك مَقاماً يَعيا به الخطيبُ المِدْرَه[1] ، فتركتُ مَنْ حَضَرَ لا أهلَ وِرْد ولا صَدَر[2] ، كالمتحيِّرين بمَهْمَهٍ[3] ضل بهم الدليلُ ، وأنا على أمثال ذلك قدير » .

---

(١) وذلك أنه لما ورد عليه المغيرة بكتاب معاوية ، جمع الناس بعد يومين أو ثلاثة فخطبهم فقال أيها الناس: ادفعوا البلاء ما اندفع عنكم، وارغبوا إلى الله فى دوام العافية لكم، فقد نظرت فى أمور الناس منذ قتل عثمان ، وفكرت فيهم فوجدتهم كالأضاحى فى كل عيد يذبحون ، ولقد أفنى هذا اليومان يوم الجمل وصفين ما ينيف على مائة ألف كلهم يزعم أنه طالب حق وتابع إمام وعلى بصيرة من أمره ، فإن كان الأمر هكذا فالقاتل والمقتول فى الجنة ، كلا ليس كذلك ، ولكن أشكل الأمر ، والتبس على القوم ، وإنى لخائف أن يرجع الأمر كما بدا ، فكيف لامرىء بسلامة دينه ، وقد نظرت فى أمر الناس فوجدت أحمد العاقبتين العافية ، وسأعمل فى أموركم ما تحمدون عاقبته ومغبته ، فقد حمدت طاعتكم إن شاء الله » . والمدره : المقدم فى اللسان عند الخصومة ، فهو لسان القوم والمتكلم عنهم الذى يرجعون إلى رأيه .

(٢) الورد : الإشراف على الماء وغيره دخله أو لم يدخله ، والصدر : الرجوع .

(٣) المهمه : المفازة البعيدة والبلد المقفر .

وكتب فى أسفل الكتاب :

« إذا مَعْشَرِى لم يُنْصِفونى وَجَدتَنى أدافِعُ عنى الضَّيْمَ ما دمت باقيا
وكم معشرٍ أعْيَتْ قَنَاتِى عليهمُ فلاموا وألْفَونى لدى العزم ماضيا
وهَمٍّ به ضاقت صدورٌ فَرَجْتُه وكنت بطِبِّى للرجالِ مُداويا
أدافِعُ بالحلم الجَهُولَ مَكِيدَةً وأخفِى له تحت الضلوع الدَّواهيا[1]
فإن تدنُ منى أدنُ منك ، وإن تَبِنْ تجِدْنى إذا لم تدْنُ منِّىَ نائيا »[2]

فأعطاه معاوية جميع ماسأله، وكتب إليه بخط يده ماوَثِقَ به فدخل إليه الشأم، فقربه وأدناه وأقره على ولايته، ثم استعمله على العراق . (شرح ابن أبى الحديد م ٤ : ص ٦٩)

٣١ — كتاب الحسن بن على إلى زياد ابن أبيه

وكان سعيد بن أبى سَرْح مَوْلَى حَبيب بن عبد شَمس شِيعةً لعلىّ بن أبى طالب عليه السلام ، فلما قَدِم زياد الكوفة[3] طلبه وأخافه ، فأتى الحسنَ بن علىّ عليه السلام مستجيراً به ، فوَثَب زياد على أخيه وولده وامرأته فحبسهم ، وأخذ ماله ونَقَض داره ، فكتب الحسن بن علىّ عليه السلام إلى زياد :

من الحسن بن على إلى زياد :

« أما بعدُ ، فإنك عَمَدْتَ إلى رجل من المسلمين ، له مالهم ، وعليه ما عليهم ، فهَدَمْتَ دارَه ، وأخذت ماله ، وحَبَسْت أهله وعِيالَه[4] ، فإن أتاك كتابى هذا فابْنِ له دارَه ، وارْدُد عليه عِيالَه وماله ، وشفِّعْنى فيه فقد أجَرْتُه ، والسلام[5] » .

---

(١) فى الأصل « تحت العصاة » وأرى أنه تحريف والأقرب إلى المعنى « تحت الضلوع » كما أثبته .
(٢) وإن تبن : أى وإن تفارق وتبعد .
(٣) ولاه معاوية البصرة سنة ٤٥ هـ ، ثم ضم إليه الكوفة بعد موت أميرها المغيرة بن شعبة سنة ٥٠ هـ
(٤) العيال جمع عيل (كجياد جمع جيد) وهو من يلزم الانفاق عليه ، ويكون اسما للواحد .
(٥) وفى رواية أخرى أن نص الكتاب :
« أما بعد فقد علمت ما كنا أخذنا من الأمان لأصحابنا ، وقد ذكر لى فلان أنك تعرضت له فأحب أن لاتعرض له إلا بخير والسلام » .

٣٢ — رد زياد على الحسن

فغضب زياد إذ قدَّم نفسه عليه ولم ينسبه إلى أبى سفيان ، وكتب إليه :

« من زياد بن أبى سفيان إلى الحسن بن فاطمة ، أما بعد : فقد أتانى كتابُك تَبْدَأُ فيه بنفسك قَبْلى وأنت طالبُ حاجة ، وأنا سلطان وأنت سُوقة[١] ، وتأمرنى فيه بأمر المُطاع المُسَلَّط على رعيته ، كتبتَ إلىَّ فى فاسقٍ آوَيْتَه إقامةً منك على سوء الرأى ، ورِضًا منك بذلك ، وايْمُ الله لا تَسْبِقنى به ولو كان بين جِلدك ولحمك ، وإن نِلْتُ بعضَك غيرَ رفيقٍ بك ، ولا مُرْعٍ عليك ، فإنَّ أحبَّ لحم علىَّ أنْ آكُلَهُ لَلَحْمُ الذى أنت منه ، فسلِّمْه بجَرِيرته[٢] إلى من هو أولى به منك ، فإن عفوتُ عنه لم أكن شفَّعْتُك ، وإن قتلتُه لم أقتله إلا لحبِّه أباك الفاسِق ، والسلام[٣] » .

٣٣ — رد الحسن على زياد

فلما ورد الكتاب على الحسن عليه السلام قرأه وتبسم ، وكتب بذلك إلى معاوية ، وجعل كتاب زياد عِطْفَه[٤] ، وبعث به إلى الشأم ، وكتب جواب كتابه كلمتين لا ثالثة لهما :

« من الحسن بن فاطمة إلى زياد بن سُمَيَّة ، أما بعدُ : فإن رَسول الله صلى الله عليه وسلم قال : « الولد للفِراش ، وللعاهِرِ الحَجَرُ »[٥] ، والسلام » .

---

(١) السوقة : الرعية ، للواحد والجمع والمذكر والمؤنث ، وربما جمع على سوق بفتح الواو .

(٢) الجريرة : الذنب.

(٣) وفى رواية أخرى . « أما بعد فإنك كتبت إلى فى فاسق لا يؤويه إلا الفساق من شيعتك وشيعة أبيك ، وايم الله لأطلبنه ولو بين جلدك ولحمك فإنى أحب أن آكل لحما أنت منه » .

(٤) أى جانبه ، وعطفا كل شىء: جانباه .

(٥) العاهر : الزانى . والمعنى أن الزانى لاحق له فى النسب ولا حظ له فى الولد ، وإنما هو لصاحب الفراش أى لصاحب أم الولد وهو زوجها أو مولاها ، وهو كقوله الآخر : له التراب أى لاشىء له ، أراد الحسن عليه السلام بذلك أن يبين لزياد أن استلحاق معاوية إياه مخالف لما تقضى به الشريعة ، وأنه يجب أن يدعى لعبيد لا لأبى سفيان .

٣٤ — كتاب معاوية إلى زياد

فلما قرأ معاوية كتاب زياد إلى الحسن ضاقت به الشام ، وكتب إلى زياد :

« أما بعدُ ، فإن الحسن بن عليّ بعث إليّ بكتابك إليه ، جواباً عن كتاب كتبه إليك فى ابن أبى سَرْح ، فأ كثرتُ العَجَبَ منك ، وعلمت أنّ لك رأيين ، أحدهما من أبى سفيان ، والآخر من سُمَيَّة ، فأما الّذى من أبى سفيان فحِلْم وحَزْمٌ ، وأما الذى من سمية فما يكون من رأى مِثلِها ، من ذلك كتابك إلى الحسن تَشْتُمُ أباه وتَعْرِض له بالفسق ، ولعمرى إنك لَأَوْلى بالفِسق من أبيه ، فأمّا أن الحسن بدأ بنفسه ارتفاعاً عليك ، فإن ذلك لا يَضَعُك لو عَقَلتَ ، وأما تسلُّطه عليك بالأمر فحُقّ لِمثْلِ الحسن أن يتسلَّط ، وأمّا تركُكَ تشفيعَه فيما شَفَع فيه إليك ، فحظٌّ دَفَعتَه عن نفسك إلى من هو أَوْلَى به منك ، فإذا ورد عليك كتابى فَخَلٍّ ما فى يديك لسعيد بن أبى سرح ، وابنِ له داره ، وأردُد عليه ماله ، ولا تَعَرَّضْ له ، فقد كتبتُ إلى الحسن « عليه السلام » أن يُخيِّره : إن شاء أقام عنده ، وإن شاء رجع إلى بلده ، ولا سلطانَ لك عليه لا بيدٍ ولا لسان ، وأما كتابك إلى الحسن « عليه السلام » باسمه واسم أمه ، ولا تنسُبه إلى أبيه ، فإن الحسن وَيْحك مَنْ لا يُرْمَى به الرَّجَوانِ[(١)] ، وإلى أىّ أم وَكَلْتَه لا أمَّ لك ؟

= وقد حدث أنه لما شهد الشهود بحضرة معاوية أن زيادا ينتسب إلى أبى سفيان ، قام يونس بن عبيد الثقفى فقال : يامعاوية قضى رسول الله صلى الله عليه وسلم أن الولد للفراش وللعاهر الحجر ، وقضيت أنت أن الولد للعاهر ، وأن الحجر للفراش ، مخالفة لكتاب الله تعالى وانصرافا عن سنة رسول الله صلى الله عليه وسلم ، بشهادة أبى مريم على زنا أبى سفيان ، فقال معاوية : والله يايونس لتنتهين أو لأطيرن بك طيرة بطيئا وقوعها ، فقال يونس : هل إلا إلى الله ثم أقع ؟ قال : نعم وأستغفر الله ، فقال عبد الرحمن بن أم الحكم فى ذلك — ويقال إنه ليزيد بن مفرغ الحميرى :

ألا أبلغ معاوية بن حرب ... مغلغلة عن الرجل اليمانى
أتغضب أن يقال أبوك عفّ ... وترضى أن يقال أبوك زانى !

(مروج الذهب ٢ : ٥٧).

(١) الرجوان : مثنى رجا كعصى : وهو ناحية البئر من أعلاها إلى أسفلها ، ورمى به الرجوان : استهين به واستهزئ كأنه رمى به رجوا بئر ، أرادوا أنه طرح فى المهالك .

أما علمت أنها فاطمة بنت رسول الله صلى الله عليه وسلم ؟ فذاك أفخر له لو كنت تعه، وتعقله[1] ! » وكتب فى أسفل الكتاب شعراً من جملته :

أَمَّا حَسَنٌ فابنُ الذى كان قبلَه ... إذا سار سار الموتُ حيث يسير
وهل يَلِدُ الرِّيبالُ إلا نظيرَه ... وذا حَسَنٌ شِبْهٌ له ونظير[2]
ولكنه لو يُوزَن الحِلم والحِجا ... بأمرٍ لقالوا يَذْبُلٌ وثَبِيرُ[3]

(شرح ابن أبى الحديد م ٤ : ص ٧٢ ، و ص ٧ ، والعقد الفريد ٣ : ٥)

٣٥ — كتاب زياد إلى معاوية

وقال زياد : ما غَلَبنى أمير المؤمنين معاويةُ فى شىء من السياسة إلا مرة واحدة : استعملتُ رجلا فكَسَر خَرَاجَه فخشى أن أعاقِبَه ، ففرَّ إليه واستجار به فأمَّنه ، فكتبتُ إليه : « إن هذا فساد لعملى إذا طلبتُ أحدا لجأ إليك فتحرَّم بك[4] » .

٣٦ — رد معاوية عليه

فكتب إلىّ : « إنه لا ينبغى لنا أن نسوس الناس بسياسة واحدة ، فيكون مَقامُنا مَقامَ رَجل واحد ، لا نَلِنْ جميعاً فيَمْرَحَ الناسُ فى المعصية ، ولا نشتدّ جميعاً فنَحمِلَ الناس على المَهَالك ، ولكن تكون أنت للشدة والغلظة ، وأكون أنا للرأفة والرحمة فيستريح الناس فيما بيننا » . (العقد الفريد ١ : ١٥ ، و ٣ : ٥)

---

(١) وفى رواية أخرى : « أما بعد فإن لك رأيين أحدهما من أبى سفيان والآخر من سمية ، فأما الذى من أبى سفيان فحزم وعزم ، وأما الذى من سمية فكما يكون رأى مثلها ، وإن الحسن بن على كتب إلى بذكر أنك عرضت لرجل من أصحابه ، وقد حجزناه عنك ونظراءه ، فليس لك على واحد منهم سبيل ولا عليه حكم ، وعجبت منك حين كتبت إلى الحسن لا تنسبه إلى أبيه ، أفإلى أمه وكلته لا أم لك ، فهو ابن فاطمة الزهراء ابنة رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فالآن حين اخترت له » .

(٢) الرئبال : الأسد وقد لا يهمز . (٣) يذبل : جبل ببلاد نجد . وثبير : جبل بمكة .

(٤) وفى رواية أخرى : « إن هذا أدب سوء لمن قبلى » .

٣٧ — كتاب معاوية إلى زياد

وكتب معاوية إلى زياد : « أما بعد فاعْزل حُرَيْثَ بن جابر عن العمل ، فإنى لا أذكر مَقاماتِه بِصِفِّينَ إلا كانت حَزَازةً فى صدرى » .

٣٨ — رد زياد عليه

فكتب إليه زياد : « أما بعدُ : فخفِّض عليك : يا أمير المؤمنين ، فإن حريثا قد سَبَق شرفا ، لا يَرْفعه معه عمل ، ولا يَضَعه معه عَزْل » .

(شرح ابن أبى الحديد م ٤ : ص ٧٤)

٣٩ — كتاب زياد إلى الحكم بن عمرو الغفارى

ولما ولى زياد البصرة استعمل الحكم بن عمرو الغِفَارى على خُراسان (سنة ٤٥ هـ) ثم كتب إليه (سنة ٥٠ هـ) « إن أهل جبل الأَشَلّ[1] سلاحُهم اللُّبود[2] ، وآنِيَتهم الذهب » فغزاهم وغَنِم منهم غنيمة عظيمة ، وورد على زياد الخبرُ بما غنم ، فكتب إليه :

« إن أمير المؤمنين كتب إلىّ أن أصْطفِىَ له كلّ صفراء وبيضاء وَالرَّوَائع[3] ، فلا تحركَنّ شيئا حتى تُخْرِج ذلك »[4] .

٤٠ — رد الحكم عليه

فكتب إليه الحكم : « أما بعدُ فإن كتابك ورد ، تذكر أن أمير المؤمنين كتب إلىّ أن أصطفى له كل صفراء وبيضاء والروائع ، ولا تحركنّ شيئا ، وإنى وجدت كتاب

---

(١) جبل فى ثغور خراسان .

(٢) هكذا فى الأصل ولعله «لباسهم اللبود» واللبود جمع لبد كحمل وهو الصوف يتلبد بعضه على بعض.

(٣) الصفراء : الذهب . والبيضاء: الفضة، والروائع: النفائس التى تروع الناظرين بجمالها وحسنها

(٤) وفى رواية العقد « فلا تقسم بين الناس ذهباً ولا فضة » .

الله عزّ وجل قبل كتاب أمير المؤمنين[1] ، وإنه والله لو كانت السمواتُ والأرض رَتْقًا[2] على عبد اتقى الله عزّ وجل جعل الله سبحانه وتعالى له منها مَخْرَجًا » .

وقال للناس اغْدُوا على غنائمكم ، فغدا الناس ـ وقد عزل الخُمُس ـ فقسم بينهم تلك الغنائم .

٤١ — رد زياد عليه

فكتب إليه زياد : « والله لئنْ بقيتُ لك لأقْطَعَنَّ منك طابِقًا[3] سَحْتًا » فقال الحكم : اللهم إن كان لي عندك خير فاقبضني ، فمات بخراسان بمَرْوَ سنة ٥٠ هـ[4] .

(تاريخ الطبرى ٦ : ١٤١ ، والعقد الفريد ١ : ١٩)

٤٢ — كتاب المغيرة بن شعبة إلى معاوية

وكتب المُغيرة بن شُعْبة إلى معاوية حين كبِر وخاف أن يستبدلَ به ـ وكان عامله على الكوفة ـ :

« أما بعدُ : فقد كبرت سِنِّي[3] ، ورَقَّ عظمي ، واقترب أجلي ، وسَفَّهني سُفَهاء قريش ، فرَأْيُ أمير المؤمنين في عَمَله مُوَفَّقًا » .

(العقد الفريد ١ : ٢٠٦ ، وصبح الأعشى ٦ : ٤٧٨)

---

(١) يشير إلى قوله تعالى : « وَاعْلَمُوا أَنَّمَا غَنِمْتُمْ مِنْ شَيْءٍ فَأَنَّ لِلَّهِ خُمُسَهُ وَلِلرَّسُولِ » .

(٢) الرتق ضد الفتق ، رتقت الفتق : سددته .

(٣) الطابق بفتح الباء وكسرها : العضو . والسحت : العذاب والاستئصال ، سحت الشحم عن اللحم : قشره عنه ، وسحتهم : بلغ مجهودهم في المشقة عليهم ، وأسحتهم لغة ، وسحته وأسحته : استأصله ، وقرئ قوله تعالى « فَيُسْحِتَكُمْ بِعَذَابٍ » بضم الياء من الإسحات وهو لغة نجد وتميم ، وبفتح الياء والحاء من السحت ، وهو لغة الحجاز : أي يهلككم ويستأصلكم .

(٤) عاش سبعين سنة ، وتوفى سنة خمسين هجرية . وقيل ٥١ ، وقيل سنة ٤٩ .

٤٣ — رد معاوية عليه

فكتب إليه معاوية :

« أمّا ما ذكرتَ من كِبَرِ سنّك فأنت أكلتَ شبابَك ، وأما ما ذكرت من اقتراب أجلِك ، فإني لو أستطيع دَفْعَ المَنِيَّة لدَفَعْتُها عن آل أبي سُفيان ، وأما ما ذكرت من سُفهاء قريش نحكماؤها أحلُّوكَ ذلك المَحَلّ ، وأما ما ذكرت من العمل : فضَحٍّ رُوَيْدًا يدرك الهَيْجَا حَمَل »(١) . (العقد الفريد ١ : ٢٦)

٤٤ — بين معاوية والمغيرة بن شعبة

وكتب معاوية إلى المغيرة بن شعبة أن « اكتب إليّ بشيء سمعته من رسول الله صلى الله عليه وسلم » :

فكتب إليه : « سمعت النبي صلى الله عليه وسلم يقول : إن الله كَرِهَ لكم ثلاثاً : قِيل وقال ، وإضاعةَ المال ، وكثرة السؤال » . (صحيح البخارى ١ : ١٧٢)

---

(١) هو مثل ، معناه لاتعجل فى الأمر وتأن وارفق ، ضحى الإبل : غذاها فى الضحى ، فتضحت هى : أى أكلت فى الضحى . وأصله أن العرب كانوا يسيرون فى البادية يوم ظعنهم ، فإذا مروا ببقعة من الأرض فيها كلأ وعشب، قال قائلهم: ألا ضحوا رويدا : أى ارفقوا بالإبل حتى تتضحى: أى تنال من هذا المرعى ، ثم وضعت التضحية مكان الرفق ، لتصل الإبل إلى المنزل ، وقد شبعت . والهيجا بالقصر والمد : الحرب ، وحمل : هو حمل بن سعدانة الصحابى ، وقد قدمنا فى الجزء الأول ص ٤٠١ كلمة مطولة فى هذا المثل ، فارجع إليها .

قال صاحب العقد : فلما انتهى الكتاب إلى المغيرة كتب إليه يستأذنه فى القدوم عليه فأذن له ، فلما دخل عليه قال له : يامغيرة ، كبرت سنك ، ورق عظمك ولم يبق منك شىء ، وما أراني إلا مستبدلا بك ، قال المحدث عنه : فانصرف إلينا ، ونحن نرى الكآبة فى وجهه ، فأخبرنا بما كان من أمره ، قلنا له فما تريد أن تصنع ؟ قال : ستعلمون ذلك ، فأتى معاوية فقال له : يا أمير المؤمنين إن الأنفس ليغدى عليها ويراح ، ولست فى زمن أبي بكر وعمر، فلو نصبت لنا علما من بعدك نصير إليه فإنى قد دعوت أهل العراق إلى بيعة يزيد ، فقال : يا أبا محمد ، انصرف إلى عملك ورم هذا الأمر لابن أخيك ، فأقبلنا نركض على النجب ، فالتفت فقال : والله لقد وضعت رجله فى ركاب طويل ألغى عليه أمة محمد صلى الله عليه وسلم .

٤٥ – كتاب المستورد بن علفة الخارجي إلى سماك بن عبيد

واجتمعت الخوارج بالكوفة – إبّانَ وِلاية المُغيرة بن شُعْبة عليها – وولّوا عليهم المُسْتَوْرِد بن عُلَّفَة التَّيْمِى وبايعوه ، واتّعدوا أن يخرجوا هلال شعبان سنة ٤٣ هـ ، ونَمَى إلى المغيرة أنهم خارجون عليه ، فحذّر أهل الكوفة إيواءهم ونُصرتهم ، فخرجوا منها ، فوجّه فى أثرهم مَعْقِل بن قيس الرِّياحى :

وسارت الخوارج حتى بلغوا المدائن ، وكان سِماك بن عُبَيْد العَبْسِيّ عاملًا للمغيرة عليها ، فكتب إليه المستورد :

« من عبد الله المستورد أمير المؤمنين إلى سِماك بن عُبَيْد :

أما بعدُ : فقد نَقَمنا على قومنا الجَوْرَ فى الأحكام ، وتعطيلَ الحدود ، والاستئثارَ بالفَىْء ، وإنا ندعوك إلى كتاب الله عز وجل ، وسنة نبيه صلى الله عليه وسلم ، وولايةِ أبى بكر وعمر رضوان الله عليهم ، والبراءة من عثمان وعلىّ ، لأحداثهما فى الدين ، وتركهم حكمَ الكتاب ، فإن تقبَلْ فقد أدركت رُشْدَك ، وإلا تقبلْ فقد أبلَغْنا فى الإعذار إليك ، وقد آذَنّاك بحَرْب فنَبَذْنا إليك على سَوَاء[1] ، إن الله لا يحب الخائنين » .

وتبعهم معقل حتى لحِقَهم بالمَذَار[2] ، ودارت بينهما رحى الحرب بشدة ، ودعا المستورد مَعْقِلا للمبارزة ، وطعنه المستورد حتى خرج سنان الرمح من ظهره ، وضربه معقل بالسيف حتى خالط سيفه أمّ الدماغ ، فوقع ميتاً وقتل معقل ، وشدّ أصحابه على الخوارج ، فما لبّثوهم أن قتلوهم . (تاريخ الطبرى ٦ : ١٠٩)

---

(١) اقتباس من قوله تعالى « فَانْبِذْ إِلَيْهِمْ عَلَى سَوَاءٍ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْخَائِنِينَ » ومعناه إذا هادنت قوما فعلمت منهم النقض للعهد ، فلا توقع بهم سابقا إلى النقض حتى تعلمهم أنك نقضت العهد ، فتكونوا فى علم النقض مستوين ثم أوقع بهم .

(٢) بلد فى ميسان بين واسط والبصرة .

٤٦ — كتاب حبيب بن مسلمة إلى أهل تفليس

روى الطبرى قال :

« وَكفَرَ أهل إِرْمِينِيَةَ زمانَ معاوية[١] ، وقد أمَّر حَبِيب بن مَسْلَمَةَ على الباب وحبيب يومئذ بِجُرْزَان[٢] ، وكاتب أهل تَفلِيس وتلك الجبال، ثم ناجزهم حتى استجابوا ، واعتقدوا من حبيب ، وكتب بينه وبينهم كتاباً بعد ما كاتبهم .

وكان كتابه إليهم :

« بسم الله الرحمن الرحيم ، من حبيب بن مَسْلَمَة إلى أهل تِفْلِيس من جُرْزان أرض الهُرْمز ، سِلْم أنتم ، فإنى أحمَد إليكم اللهَ الذى لا إله إلا هو ، فإنه قد قَدِم علينا رسولكم « تفلى » فبلَّغ عنكم وأدّى الذى بعثتم ، وذكر « تفلى » عنكم أنا لم تكن أمة فيما تحسبون ، وكذلك كُنّا حتى هدانا الله عز وجل بمحمد صلى الله عليه وسلم ، وأعزّنا بالإسلام بعد قِلة وذِلة وجاهلية[٣] ، وذكر « تفلى » أنكم أحببتم سِلْمنا ، فما كرِهتُ والذين آمنوا معى ، وقد بعثتُ إليكم عبد الرحمن بن جَزْء السُّلَمىّ ، وهو من أعلَمِنا، من أهل العلم بالله، وأهل القرآن ، وبعثتُ معه بكتابى بأمانكم ، فإن رضيتم دفعه إليكم ، وإن كَرِهتم آذَنكم بحرب على سَواء إن الله لا يحب الخائنين » . (تاريخ الطبرى ٤ : ٢٦)

٤٧ — عهد حبيب بن مسلمة لأهل تفليس

« بسم الله الرحمن الرحيم ، هذا كتاب من حبيب بن مسلمة لأهل تِفْلِيس من جُرْزان أرض الهُرْمز بالأمان على أنفسكم وأموالكم وصَوامِعِكم وبِيَعكم[٤] وصلواتكم ،

---

(١) أى نقضوا الأمان الذى كان كتبه لهم سراقة بن عمرو فى خلافة عمر بن الخطاب (انظر جمهرة رسائل العرب ج ١ : ص ٢٤٧) .

(٢) اسم لناحية بأرمينية ، وكانت قصبتها تفليس .

(٣) الجاهلية: هى الحال التى كانت عليها العرب قبل الإسلام من الجهل بالله سبحانه ورسوله وشرائع الدين والمفاخرة بالأنساب والكبر والتجبر ، وغير ذلك .

(٤) الصومعة : متعبد النصارى ، وكذا البيعة بالكسر ، والصفار : الذل .

على الإقرار بصَغار الجِزْية ، على كل أهل بيت دينارٌ وافٍ ، ولنا نُصْحُكم ونصرُكم على عدو الله وعدونا ، وقِرَى[1] المجتاز ليلةً من حَلالِ طعام أهل الكتاب ، وحلال شرابهم ، وهدايةُ الطريق فى غير ما يُضَرُّ فيه بأحد منكم ، فإن أسلمتم ، وأقمتم الصلاة ، وآتيتم الزكاة ، فإخواننا فى الدين ومَوالينا[2] ، ومن تولَّى عن الله ورسله وكتبه وحِزبه فقد آذَنَّاكم بحَرْب على سَوَاء ، إن الله لا يحب الخائنين » .

شهد عبد الرحمن بن خالد والحجاج وعِياض ، وكتب رَبَاح ، وأشهد الله وملائكته والذين آمنوا ، وكَفَى بالله شهيداً[3] » . (تاريخ الطبرى ٤ : ٢٦٠)

٤٨ — كتاب زياد إلى معاوية فى شأن حجر بن عدى

ولما مات المغيرة بن شُعبة والى الكوفة سنة ٥٠ هـ وكان زياد على البصرة ، ضم معاوية الكوفة إلى زياد ، وكان من كبراء الشيعة بها حُجْر بن عَدِىٍّ الكِنْدى ، فبلغ زياداً أن حجراً يجتمع إليه الشيعة ويظهرون لعن معاوية والبراءة منه ، فكتب إلى معاوية فى أمره وكثر عليه . فكتب إليه معاوية أنْ شُدَّه فى الحديد ثم احمله إلىّ ، فشده فى الحديد وحمله هو ورءوس أصحابه إلى معاوية ، وكانوا أربعة عشر رجلا ، وكتب إليه كتابا فيه :

« بسم الله الرحمن الرحيم : لعبد الله معاوية أمير المؤمنين من زياد بن أبى سفيان : أما بعدُ : فإن الله قد أحسن عند أمير المؤمنين البَلاء[4] ، فكاد له عدوَّه ، وكفاه مُؤْنة مَن بَغَى عليه ، إن طَوَاغِيتَ[5] من هذه التُّرابية السَّبَئيّة ، رَأْسُهم حُجْر

---

(١) القرى : ما يقدم للضيف

(٢) أى أصحابنا وخلفاؤنا . (٣) انظر ما قدمناه فى الجزء الأول من هامش ص ١٨٥ .

(٤) البلاء : الإنعام (والبلاء يكون منحة ويكون محنة) .

(٥) طواغيت : جمع طاغوت ، وهو الشيطان ، وكل رأس ضلال ، والترابية : الشيعة ، نسبة إلى أبى تراب كنية الإمام على كرم الله وجهه ، كناه بها رسول الله صلى الله عليه وسلم . حدث عمار بن ياسر قال: كنت أنا وعلى رفيقين مع رسول الله صلى الله عليه وسلم فى غزوة العشيرة (بجهينة ، وهى من ناحية ينبع =

. . . .

بين مكة والمدينة وكانت الغزوة سنة ٢ هـ) فنزلنا منزلا فرأينا رجالا من بنى مدلج يعملون فى نخل لهم ، فانطلقنا فنظرنا إليهم ساعة ، ثم غشينا النعاس ، فعمدنا إلى صور من النخل(الصور بالفتح:النخل المجتمع) فنمنا تحته فى دقعاء من التراب ، فما أيقظنا إلا رسول الله صلى الله عليه وسلم ، أتانا وقد تتربنا فى ذلك التراب فجلس عند رأس على وأيقظه وجعل يمسح التراب عن ظهره ويقول : قم يا أبا تراب فكانت من أحب كناه إليه ، وكان يفرح إذا دعى بها ،ودعت بنو أمية خطباءها أن يسبوه بها على المنابر وجعلوها نقيصة له ووصمة عليه (انظر تاريخ الطبرى ٢ : ٢٦١ وسيرة ابن هشام ١ : ٣٦٥ وشرح ابن أبى الحديد م ١ . ص ٤) والسبئية : فرقة من غلاه الشيعة نسبة إلى عبد الله بن سبأ وهو يهودى من أهل صنعاء أمه سوداء ، أسلم زمن عثمان — على دخل — ثم جعل يتنقل فى بلدان المسلمين يحاول ضلالتهم ، وهو رأس الغلاة من الشيعة ،ومنه انشعبت أصنافها وهو الذى وضع للمسلمين مبدأ الرجعة فكان يقول : لعجب ممن يزعم أن عيسى يرجع ، ويكذب بأن محمدا يرجع،وقد قال الله عز وجل : « إِنَّ ٱلَّذِى فَرَضَ عَلَيْكَ ٱلْقُرْآنَ لَرَادُّكَ إِلَىٰ مَعَادٍ » فمحمد أحق بالرجوع من عيسى، ثم قال لهم بعد ذلك إنه كان ألف نبى، ولكل نبى وصى ، وكان على وصى محمد، ثم قال محمد خاتم الأنبياء وعلى خاتم الأوصياء ، ثم قال: من أظلم ممن لم يجز وصية رسول الله صلى الله عليه وسلم ووثب على وصى رسول الله وتناول أمر الأمة، ثم قال لهم: إن عثمان أخذها بغير حق ، وهذا وصى رسول الله فانهضوا فى هذا الأمر فحركوه . . . . . .

وقد غلا فى على فزعم أنه نبى، ثم غلا فيه حتى زعم أنه إله، ودعا إلى ذلك قوما من غواة الكوفة ، وقد أتى قوم منهم إلى على ، فقالوا له مشافهة : أنت هو ، فقال لهم ومن هو ؟ قالوا : أنت الله أنت خالقنا ورازقنا ، فاستتابهم وتوعدهم ، فأقاموا على قولهم، فاستعظم الأمر وأمر بنار فأججت فى حفرتين ودخن عليهم فيها طمعا فى رجوعهم فأبوا فحرقهم بالنار حتى قال بعض الشعراء فى ذلك :

لترم بى الحوادث حيث شاءت   إذا لم ترم بى فى الحفرتين

فجعلوا يقولون وهم يرمون فى النار : الآن صح عندنا أنه الله ، لأنه لا يعذب بالنار إلا الله ، وفى ذلك يقول رضى الله عنه :

لما رأيت الأمر أمرا منكرا   أججت نارا ودعوت قنبرا

« يريد قنبرا مولاه ، وهو الذى تولى طرحهم فى النار » .

ثم إن عليا خاف من إحراق الباقين منهم شماتة أهل الشأم وخاف اختلاف أصحابه عليه، وشفع جماعة من أصحابه منهم عبد الله بن عباس فى عبد الله بن سبأ خاصة ، وكان على قد هم بقتله ، وقالوا : يا أمير المؤمنين إنه قد تاب فاعف عنه فأطلقه بعد أن اشترط عليه أن لا يقيم بالكوفة ونفاه إلى المدائن ، فلما قتل على عليه السلام وبلغ ابن سبأ قتله ، قال : لو أتيتمونا بدماغه سبعين مرة ماصدقنا موته ، وزعم أن المقتول لم يكن عليا ، وإنما كان شيطانا تصور للناس فى صورة على ، وأن عليا صعد إلى السماء كما صعد إليها عيسى بن مريم ، وزعموا أنه حى فى السحاب ، فإذا أظلتهم سحابة قالوا : السلام عليك يا أبا الحسن وزعموا أن الرعد صوته والبرق سوطه ، وأنه سينزل بعد ذلك إلى الأرض فيملؤها عدلا كما ملئت جورا . (انظر تاريخ الطبرى ٥ : ٩٨ والفرق بين الفرق ص٢٢٣ والملل والنحل الشهرستانى ٢ : ١٢ والفصل لابن حزم ٤ : ١٣٨ و ١٤٢ وشرح ابن أبى الحديد م ١ : ص ٤٢٥) .

وقد أراد زياد من وصف الشيعة بالسبئية أن يتنقصهم ويزرى بهم، لما عرف عن السبئية من المعتقدات الفاسدة والمبادئ الباطلة .

ابن عَدِىّ خالفوا أمير المؤمنين . وفارقوا جماعة المسلمين ، ونَصَبوا لنا الحرب ، فأظهرَنا الله عليهم وأمكننَا منهم ، وقد دعوتُ خيارَ أهل المِصْر وأشرافهم وذوى السِّنّ والدين منهم ، فشَهِدوا عليهم بما رأوا وعلموا ، وقد بعثت بهم إلى أمير المؤمنين ، وكتبت شهادة صُلَحاء أهل المصر وخيارهم فى أسفل كتابى هذا » .

وكانت الشهادة عليهم :

« بسم الله الرحمن الرحيم : هذا ما شَهِد عليه أبو بُرْدَة بن أبى موسى الأشعرى لله رب العالمين : شهد أن حُجْر بن عدى خَلَع الطاعة ، وفارق الجماعة ، ولَعَن الخليفة ودعا إلى الحرب والفتنة، وجمع إليه الجموع يدعوهم إلى نَكْث البيعة، وخلع أمير المؤمنين معاوية ، وكفر بالله عزّ وجل كفرة صَلْعاء[1] » .

وشهد رءوس الأرباع[2] ووجوه من أهل الكوفة على مثل شهادة أبى بردة ، وأمر معاوية بالقوم فحبسوا . (تاريخ الطبرى ٦ : ص ١٥٠ و ص ١٥٢)

٤٩ — كتاب شريح بن هانئ إلى معاوية

وكان زياد قد كتب فى الشهود شُرَيح بن هانئ الحارثى ، فكتب شريح إلى معاوية كتابا فيه :

« بسم الله الرحمن الرحيم ، لعبد الله معاوية أمير المؤمنين من شريح بن هانئ ، أما بعدُ : فإنه بلغنى أن زياداً كتب إليك بشهادتى على حُجْر بن عدى ، وإن شهادتى

---

(١) أى مكشوفة بارزة، أخذا من الأرض الصلعاء : وهى التى لا نبات فيها . والرأس الأصلع: الذى انحسر شعر مقدمه . والصلعاء أيضا الداهية والأمر الشديد ، ومن كلامهم « ركبت الصليعاء » والصليعاء كحميراء : السوءة الشنيعة البارزة المكشوفة ، أو الداهية الشديدة .

(٢) وكانت الكوفة يومئذ مقسمة أرباعا، ورءوس الأرباع عمرو بن حريث على ربع أهل المدينة، وخالد بن عرفطة على ربع تميم وهمدان ، وقيس بن الوليد بن عبد شمس بن المغيرة على ربع ربيعة وكندة، وأبو بردة بن أبى موسى على مذحج وأسد .

على حجر أنه ممن يُقيم الصلاة ، ويؤتي الزكاة ، ويُديم الحج والعُمْرة ، ويأمر بالمعروف وينهى عن المنكر ، حَرَامُ الدَّمِ والمال ، فإن شئتَ فاقتله ، وإن شئت فَدَعْه » .

(تاريخ الطبرى ٦: ١٥٢، والأغانى ١٦ : ٨)

٥٠ — كتاب معاوية إلى زياد

فكتب معاوية إلى زياد :

« أما بعد ، فقد فهمت ما اقتصصت به فى أمر حجر وأصحابه ، وشهادة من قِبَلك عليهم ، فنظرت فى ذلك : فأحيانا أرَى قتلَهم أفضل من تركهم ، وأحيانا أرى العفو عنهم أفضل من قتلهم ، والسلام » . (تاريخ الطبرى ٦ : ١٥٣)

٥١ — رد زياد على معاوية

فكتب إليه زياد :

« أما بعد : فقد قرأت كتابك وفهمت رأيك فى حجر وأصحابه ، فَعَجِبتُ لاشتباه الأمر عليك فيهم ، وقد شَهِد عليهم بما قد سمعتَ مَن هو أعلم بهم ، فإن كانت لك حاجةٌ فى هذا المصر فلا تَرُدَّنَّ حجراً وأصحابه إلىّ » .

وشُفع فى ستة من أصحاب حجر فخلى معاوية سبيلهم ، وأوفد إلى حجر وسائر أصحابه رسولًا ، فقال لهم الرسول: إنا قد أُمرنا أن نَعْرِض عليكم البراءة من علىّ واللعن له، فإن فعلتم تركنا كم ، وإن أبيتم قتلنا كم، فابرءوا من هذا الرجل نُخَلِّ سبيلكم، فأبَوا وقالوا : بل نتولاه، ونتبرأ ممن تبرأ منه، فأقبل أصحاب معاوية يقتلونهم واحدا واحدا حتى قتلوا ستة (منهم حجر) . (تاريخ الطبرى ٦ : ١٥٣)

٥٢ — كتاب معاوية إلى زياد

وبقى من أصحاب حُجْر اثنان : هما عبد الرحمن بن حَسَّان العَنَزِىّ وكَرِيم بن عَفِيف الخَثْعَمِىّ ، فقالا : ابعثوا بنا إلى أمير المؤمنين فنحن نقول فى هذا الرجل مثل مقالته : فلما دخلا على معاوية قال الخثعمى : ما تقول فى علىّ ؟ قال : أقول فيه قولك ، قال :

أتبرأ من دين علىّ الذى كان يَدِينُ الله به ؟ فسكت وكره معاوية أن يجيبه وشفع فيه فخلى سبيله .

ثم أقبل على عبد الرحمن العَنَزِىّ ، فسأله فلم يَرُقه جوابه[1] ، فبعث به إلى زياد ، وكتب إليه :

أما بعد : فإن هذا العَنَزِىَّ شرُّ مَن بعثتَ ، فعاقِبه عُقُوبته التى هو أهلها ، واقتله شرَّ قِتْلَةٍ » .

فبعث به زياد إلى قُسِّ الناطف[2] ، فدفن به حيا ، وكان ذلك سنة ٥١ هـ

(تاريخ الطبرى ٦ :١٥٥ ، والأغانى ١٦ : ١٠)

٥٣ — كتاب معاوية إلى زياد

وأوفد زيادٌ ابنه عُبيدَ الله إلى معاوية ، فكتب إليه معاوية :

« إن ابنك كما وصفتَ ، ولكن قوِّمْ من لسانه[3] » .

(البيان والتبيين ٢ :١٠٩)

---

(١) قال له معاوية : إيه ياأخا ربيعة ، ما قولك فى على ؟ قال : دعنى ولا تسألنى فإنه خير لك ، قال والله لا أدعك حتى تخبرنى عنه ، قال : أشهد أنه كان من الذاكرين الله كثيرا ، ومن الآمرين بالحق والقائمين بالقسط ، والعافين عن الناس ، قال : فما قولك فى عثمان ؟ قال : هو أول من فتح باب الظلم وأرتج أبواب الحق ، قال : قتلت نفسك ، قال : بل إياك قتلت ، ولا ربيعة بالوادى (يريد أنه ليس له أحد من قومه يكلمه فيه كما شفع فى الخثعمى) .

(٢) موضع قريب من الكوفة على شاطىء الفرات الشرقى .

(٣) قال الجاحظ : وكانت فى عبيد الله لكنة ، لأنه نشأ بالأساورة مع أمه مرجانة (والأساورة قوم من العجم نزلوا بالبصرة كالأحامرة بالكوفة) وكان زياد تزوجها من شيرويه الأسوارى ، وكان قال مرة : « افتحوا سيوفكم » يريد « سلوا سيوفكم » فقال يزيد بن مفرغ :

ويوم فتحت سيفك من بعيد   أضعت وكل أمرك للضياع

وقال لسويد بن منجوف : « اجلس على إست الأرض » فقال سويد : « ما كنت أحسب أن للأرض إستا » .

وقال المبرد : وكان عبيد الله ألكن يرتضخ لغة فارسية ، وقال لرجل مرة واتهمه برأى الخوارج : أهرورى منذ اليوم ! (يريد أحرورى . وكانت الخوارج تسمى الحرورية) — الكامل للمبرد ٢ : ١٦٥ —

٥٤ — كتاب زياد إلى معاوية

وكتب زياد إلى معاوية :

« إنى قد ضَبَطْتُ لك العراق بيمينى ، وبقِيت شِمالى[1] فارغة » يُعرِّض له بالحجاز .

فبلغ ذلك عبد الله بن عمر بن الخطاب ، فرفع يده إلى السماء وقال : اللهم اكفِنا شِمال زياد ، فخرجت فى شماله قَرْحَة فقتلته ، وكانت وفاته سنة ٥٣ هـ

(العقد الفريد ١ : ٢٦ ، ٣ : ٥ ، وتاريخ الطبرى : ٦ : ١٦٢ ، ومروج الذهب ٢ : ٦٨)

٥٥ — كتاب السيدة عائشة إلى معاوية

وكتبت السيدة عائشة رضى الله عنها إلى معاوية :

« أما بعد : فإنه من يعمل بِمَساخِطِ الله يصيِّرْ حامِدَه من الناس ذامًّا له والسلام » .

(العقد الفريد ١ : ٢٠)

وفى رواية البيان والتبيين :

كتب معاوية إلى عائشة أن اكتبي إلىّ بشىء سمعته من أبى القاسم صلى الله تعالى عليه وسلم ، فكتبت إليه : « سمعت أبا القاسم صلى الله تعالى عليه وسلم يقول : « من عمل بما يُسْخِط الله عاد حامِدُه من الناس له ذامًّا » .

(البيان والتبيين ٢ : ١٦١)

٥٦ — كتاب عبد الله بن الزبير إلى معاوية

وكان لعبد الله بن الزبير أرض قريبة لأرضٍ لمعاوية ، فيها عَبِيد له من الزُّنوج يَعْمُرونها ، فدخلوا فى أرض عبد الله ، فكتب إلى معاوية :

---

(١) ورواية الطبرى « قد ضبطت لك العراق بشمالى ويمينى فارغة تاشغلها بالحجاز » .

« أمّا بعد : فإنه يا معاوية إن لم تمنع عبيدك من الدخول فى أرضى ، وإلاَّ كان لى ولك شأن » .

٥٧ — رد معاوية على ابن الزبير

فلما وقف معاوية على الكتاب دفعه إلى ابنه يزيد ، فلما قرأه قال له : ما ترى ؟ قال : أرى أن تُنفِذ إليه جيشاً أوَّله عنده وآخِرُه عندك يأتونك برأسه ، فقال : يا بنى ، عندى خير من ذلك ، علىّ بدواة وقِرْطاس ، وكتب :

« وقفتُ على كتابك يابْنَ حَوَارِىِّ رسولِ اُلله صلى الله عليه وسلم ، وساءنى والله ما ساءك ، والدنيا هيِّنة عندى فى جَنب رضاك ، وقد كتبت على نفسى رَقْماً[1] بالأرض والعَبيد ، وأشهدتُ علىّ فيه ، ولْتُضَفِ الأرض إلى أرضك ، والعبيد إلى عبيدك ، والسلام » .

٥٨ — رد ابن الزبير على معاوية

فلما وقف عبد الله على كتاب معاوية كتب إليه :

« وقفت على كتاب أمير المؤمنين — أطال الله بقاءه — فلا عَدِمَ الرأىَ الذى أحَلَّه من قريش هذا المحلّ والسلام » .

فلما وقف معاوية على كتاب عبد الله ، رماه إلى ابنه يزيد ، فلما قرأه أسْفَر وجْهُه ، فقال : يا بنىّ ، إذا رُميتَ بهذا الداء ، فداوِه بهذا الدواء .

(ثمرات الأوراق ص ١١٧)

---

(١) الرقم: الكتابة والختم ، وهو هنا فعل بمعنى مفعول أى كتبت مرقوما أى مكتوبا ، وربما كان الأصل « رقيما » والرقيم : الكتاب : وهو فعيل بمعنى مفعول أيضا .

٥٩ — كتاب سعيد بن العاص إلى معاوية

وذكروا أن معاوية كان يُغْرى بين مَرْوان بن الحَكَم وسَعيد بن العاص ، وكان قد عزل مروان بن الحكم عن المدينة وولى عليها سعيد بن العاص (سنة ٤٩ هـ) .

وكتب إليه يأمره بِقَبض أموال مروان كلِّها فيجعلها صافيةً ، ويقبض فَدَك[1] منه — وكان وهبها له — فراجَعَه سعيد فى ذلك وقال : قَرَابته قريبة[2] ، فكتب إليه ثانية آمِرَه باصطفاء أموال مروان فأبى ، وأخذ سعيد الكتابين فوضعهما عند جارية ، ثم عزل عن المدينة سنة ٥٤ هـ ، ووليَها مَرْوانُ بن الحكم ، فكتب إليه معاوية يأمره بقبض أموال سعيد بالحجاز ، وأرسل مروان إليه بالكتاب مع ابنه عبد الملك ، تخبِّره أنه لو كان شيئًا غير كتاب أمير المؤمنين لتجافيتُ ، فدعا سعيد بالكتابين اللذين كتب بهما معاوية إليه فى أموال مروان يأمره فيهما بقبض أمواله ، فذهب بهما إلى مروان ، فقال : هو كان أَوْصَلَ لنا مِنَّا له ، وكفَّ عن قبض أموال سعيد ، وكتب سعيد إلى معاوية :

« العجبُ مِمَّا صَنَع أمير المؤمنين بنا فى قَرَابتنا أن يُضْغِن بعضَنا على بعض ، فأمير المؤمنين فى حلمه ، وصبره على ما يكره من الأَخْبَثِين ، وعفوه ، وإدخالِه القطيعةَ بيننا والشَّحناء ، وتَوَارُثُ الأولاد ذلك[3] ، فوالله لو لم نكن بنى أب واحد إلا لِمَا جَمَعنا الله عليه من نصر الخليفة المظلوم وباجتماع كلمتنا ، لكان حقا علينا أن نَرْعَى ذلك ، والذى أدركنا به خير » .

---

(١) فدك : قرية بالحجاز بينها وبين المدينة يومان ، أفاءها الله على رسوله صلى الله عليه وسلم فى غزوة خيبر سنة ٧ هـ وسيأتى فصل مطول عنها بعد (فى شرح كتاب عمر بن عبد العزيز إلى ابن حزم)

(٢) ثلاثتهم يجتمعون فى جدهم أمية ، فهم : معاوية بن أبى سفيان بن حرب بن أمية ، ومروان بن الحكم بن أبى العاص بن أمية ، وسعيد بن العاص بن سعيد بن العاص بن أمية .

(٣) خبر قوله « فأمير المؤمنين » محذوف ، أى غير محق فيما يفعله بنا من ذلك .

فكتب إليه يتنصَّل من ذلك وأنه عائد له إلى أحسن ما يعهده .

(تاريخ الطبرى ٦ : ١٦٥)

٦٠ — كتاب معاوية إلى مروان بن الحكم

وكتب معاوية إلى مَرْوان بن الحَكَم وهو والى المدينة :

« أما بعدُ : فإن أمير المؤمنين أَحَبَّ أن يَرُدَّ الألفة ، ويَسُلَّ السَّخِيمة[(١)] ، ويَصِلَ الرَّحِمَ ، فإذا وصل إليك كتابى فاخطُبْ إلى عبد الله بن جعفر ابنتَه أمَّ كُلثوم على يزيد ابن أمير المؤمنين ، وارغَبْ له فى الصَّداق[(٢)] » .

(الكامل للمبرد ٢ : ١٤١ ، ومعجم البلدان ٢ : ٢٤٨)

٦١ — كتاب سعيد بن العاص إلى معاوية

وذكروا أن معاوية كتب إلى سعيد بن العاص وهو على المدينة يأمره أن يدعو أهل المدينة إلى البيعة ليزيد ، ويكتب إليه بمن سارَع ممن لم يسارع ، فلما أتى سعيدَ بن العاص الكتابُ ، دعا الناس إلى البيعة ليزيد ، وأظهر الغِلْظة وأخذهم بالعزم والشدة ، وسطا بكل من أبطأ عن ذلك ، فأبطأ الناس عنها إلا اليسير ، لاسيما بنى هاشم ، فإنه

---

(١) السخيمة : الحقد والضغينة .

(٢) فوجه مروان إلى عبد الله بن جعفر فقرأ عليه كتاب معاوية وأعلمه بما فى رد الألفة من صلاح ذات البين واجتماع الدعوة ، فقال عبد الله : إن خالها الحسين بينبع ، وليس ممن يفتات عليه بأمر ، فأنظرنى إلى أن يقدم ، وكانت أمها زينب بنت على بن أبى طالب صلوات الله عليه ، فلما قدم الحسين ذكر ذلك له عبد الله بن جعفر ، فقام من عنده ، فدخل إلى الجارية فقال : يابنية إن ابن عمك القاسم ابن محمد بن جعفر ابن أبى طالب أحق بك ، ولعلك ترغبين فى كثرة الصداق ، وقد نحلتك البغيبغات (انظر ص ٥٢٩ من الجزء الأول) فلما حضر القوم للإملاك تكلم مروان بن الحكم فذكر معاوية وما قصده من صلة الرحم وجمع الكلمة ، ، فتكلم ، الحسين فزوجها من القاسم ، فقال له مروان : أغدرا ياحسين ؟ فقال : أنت بدأت ، خطب أبو محمد الحسن بن على عليه السلام عائشة بنت عثمان بن عفان ، واجتمعنا لذلك ، فتكلمت أنت فزوجتها من عبد الله بن الزبير ، فقال مروان ما كان ذلك ، فالتفت الحسين إلى محمد بن حاطب فقال : أنشدك الله أكان ذاك ؟ قال : اللهم نعم .

لم يُجبْهُ منهم أحد ، وكان ابن الزبير من أشد الناس إنكاراً لذلك وردًّا له ، فكتب سعيد بن العاص إلى معاوية :

« أما بعدُ : فإنك أمرتني أنْ أدعوَ الناسَ لبَيْعة يزيد ابن أمير المؤمنين ، وأن أكتب إليك بمن سارع ممن أبطأ ، وإنى أُخْبرك أن الناس عن ذلك بِطَاء[1] ، لاسيما أهل البيت من بنى هاشم ، فإنه لم يُجِبْنى منهم أحد ، وبَلَغنى عنهم ما أكْرَه ، وأما الذى جاهر بعداوته وإبائه لهذا الأمر فعبد الله بن الزبير ، ولستُ أقْوَى عليهم إلا بالخيل والرجال ، أو تَقْدَمَ بنفسك فتَرَى رأْيك فى هذا ، والسلام » .

(الإمامة والسياسة ١ : ١٢٩)

٦٢ — رد معاوية على سعيد

فكتب معاوية إلى عبد الله بن عباس ، وإلى عبد الله بن الزبير ، وإلى عبد الله بن جعفر ، وإلى الحسين بن على رضى الله عنهم كُتُبا ، وأمر سعيد بن العاص أن يوصِّلَها إليهم ، ويَبْعث بجواباتها ، وكتب إلى سعيد بن العاص :

« أما بعد : فقد أتانى كتابك ، وفهِمتُ ما ذكرتَ فيه من إبطاء الناس عن البيعة ، ولا سيما بنى هاشم ، وما ذكر ابنُ الزبير ، وقد كتبتُ إلى رؤسائهم كتباً ، فسلِّمها إليهم ، وتَنَجَّزْ جواباتِها ، وابعث بها إلىَّ حتى أرى فى ذلك رأيى ، ولتشتدَّ عزيمتك ، ولتَصْلُبْ شكيمتُك[2] ، وتحسن نيّتك ، وعليك بالرفق ، وإياك والخُرْقَ[3] ، فإن الرِّفق رَشَد ، والخرق نَكَد ، وانظر حُسَيْناً خاصّةً فلا يناله منك مكروه ، فإن له قرابةً وحقًّا عظيماً لا يُنكِره مسلم ولا مسلمة ، وهو لَيْثُ عَرِين ، ولستُ آمنك

---

(١) بطاء : جمع بطىء ، كطوال وقصار جمع طويل وقصير.

(٢) الشكيمة : الأنفة ، وأصلها فى اللجام الحديدة المعترضة فى فم الفرس ، وهو شديد الشكيمة : أى أنف أبى لا ينقاد .

(٣) الخرق : ضد الرفق ، وأن لا يحسن الرجل العمل والتصرف فى الأمور . والحق : وهو بفتحتين مصدر ، وبالضم اسم .

إن شاددْته[١] أن لا تقوَى عليه ، فأمّا مَن يَرِد مع السباع إذا وَرَدَتْ ، ويَكْنِس إذا كَنَسَتْ[٢] ، فذلك عبد الله بن الزبير ، فاحْذَره أشَدَّ الحَذَر ، ولا قوة إلا بالله ، وأنا قادم عليك إن شاء الله ، والسلام » . (الإمامة والسياسة ١ : ١٢٩)

٦٣ — كتاب معاوية إلى ابن عباس

وكتب إلى ابن عباس :

« أما بعد : فقد بلغني إبطاؤك عن البيعة ليزيد ابن أمير المؤمنين ، وإني لو قتلتك بعثمان لكان ذلك إليّ ، لأنك مِمَّن ألَّبَ[٣] عليه وأجْلَب ، وما معك مني أمان فتطمئن به ولا عهدٌ تَسْكُنَ إليه ، فإذا أتاك كتابي هذا فاخرج إلى المسجد ، والعَن قتلة عثمان ، وبايِعْ عاملي ، فقد أعْذَرَ من أنْذَرَ[٤] ، وأنت بنفسك أبصرُ ، والسلام » .

(الإمامة والسياسة ١ : ١٣٠)

٦٤ — كتاب معاوية إلى عبد الله بن جعفر

وكتب إلى عبد الله بن جعفر :

« أما بعدُ : فقد عرَفْتَ أثَرَتي[٥] إياك على مَن سِواك ، وحُسْنَ رأيي فيك وفي أهل بيتك ، وقد أتاني عنك ما أكْرَه ، فإن بايعتَ تُشْكَر ، وإن تأبَ تُجْبَر ، والسلام » . (الإمامة والسياسة ١ : ١٣٠)

---

(١) في الأصل « شاورته » وهو تحريف .

(٢) أي يستتر ويختبئ ، من كنس الظبي كضرب : دخل في كناسه (والكناس ككتاب : مستتره في الشجر) . (٣) ألب : حرض ، وأجلب وجلب (كضرب ونصر) وجلب : أحدث جلبة ، وهي اختلاط الأصوات ، والمعنى ثار عليه . (٤) أعذر : صار ذا عذر .

(٥) آثره إيثاراً : فضله ، والأثرة اسم منه .

٦٥ — كتاب معاوية إلى الحسين

وكتب إلى الحسين :

« أما بعدُ : فقد انتهت إليَّ عنك أمورٌ لم أكن أظنُّك بها ، رغبةً بك عنها ، وإن أحَقَّ الناس بالوفاء لَمَن أعطى بيعتَهُ مَن كان مِثْلَك فى خَطَرِك[1] وشرفك ومنزلتك التى أنزلك الله بها ، فلا تُنازِعْ إلى قطيعتك ، واتق الله ولا تَرُدَّنَّ هذه الأمة فى فتنة، وانظر لنفسك ودينك وأمة محمد «وَلاَ يَسْتَخِفَنَّكَ الَّذِينَ لاَ يُوقِنُونَ » .

(الإمامة والسياسة ١ : ١٣٠)

٦٦ — كتاب معاوية إلى ابن الزبير

وكتب إلى عبد الله بن الزبير :

« رأيتُ كِرامَ النَّاسِ إن كُفَّ عنهُم ... بحِلمٍ ، رأوْا فَضْلاً لمن قد تَحَلَّما
ولا سيَّما إن كان عَفْوا بِقُدْرَةٍ ... فذلك أحْرَى أن يُجَلَّ ويُعظَما
ولستَ بذى لؤمٍ فتعذَرَ بالذى ... أتاه من الأخلاق من كان ألأَمَا[2]
ولكنَّ غِشًّا لستَ تَعرِفُ غيرَه ... وقد غشَّ قبل اليوم إبليسُ آدَمَا
فما غشَّ إلا نفسَــــه فى فِعاله ... فأصبح ملعونًا وقد كان مُكَرَّما
وإنى لأخشى أن أنالك بالذى ... أردت ، فيُخزِى اللهُ من كان أظلَمَا »

(الإمامة والسياسة ١ : ١٣٠)

---

(١) الخطر : القدر .

(٢) فى الأصل ، « أتيته من أخلاق من كان ألوما » وهو تحريف ، وقد صححته كما ترى .

٦٧ — رد ابن عباس على معاوية

فكان أول من أجابه عبد الله بن عباس ، فكتب إليه :

« أما بعد : فقد جاءني كتابك ، وفهمتُ ما ذكرتَ ، وأنْ ليس معي منك أمانٌ ، وإنه والله ما منك يُطْلَبُ الأمان يا معاوية ، وإنما يُطْلَبُ الأمانُ من الله رب العالمين ، وأما قولك في قتلي : فوالله لو فعلتَ لَلَقيتَ اللهَ ، ومحمدٌ صلى الله عليه وسلم خَصْمُك ، فما إخاله أفلَحَ ولا أنْجَحَ[1] مَن كان رسول الله خَصْمه ، وأما ما ذكرتَ من أني ممن ألَّبَ على عثمان وأجْلَبَ ، فذلك أمرٌ غِبْتَ عنه ، ولو حَضَرتَه ما نسَبْتَ إلىّ شيئاً من التأليب عليه ، وايْمُ الله ما أرى أحداً غَضِبَ لعثمان غضَبِي ، ولا أعظَمَ أحدٌ قتلَه إعظامي ، ولو شَهِدتُه لنصرْتُه أو أموتَ دونه ، ولقد قلتُ وتمنَّيتُ يوم قُتِل عثمان : ليت الذي قَتَل عثمان لَقِيَني فقتلني معه ولا أبْقَى بعده ، وأما قولك لي : العن قتلة عثمان ، فلعثمانَ ولْدٌ خاصة وقرابةٌ هم أحق بلعنهم مني ، فإن شاءوا أن يَلْعَنُوا فليَلْعَنوا ، وإن شاءوا أن يُمْسِكوا فليمسكوا ، والسلام » .

(الإمامة والسياسة ١ : ١٣٠)

٦٨ — رد عبد الله بن جعفر على معاوية

وكتب إليه عبد الله بن جعفر :

« أما بعد : فقد جاءني كتابك ، وفهمت ما ذكرتَ فيه من أثَرَتك إياي على من سواي ، فإن تفعل فبحظك أصبتَ ، وإن تَأْبَ فبنفسك قصَّرتَ ، وأما ما ذكرت من جَبْرك إياي على البيعة ليزيد ، فلعمري لئن أجبرتني عليها لقد أجبرناك وأباك على الإسلام حتى أدخلنا كما كارِهَيْنِ غير طائعين ، والسلام » .

(الإمامة والسياسة ١ : ١٣١)

---

(١) أنجح : صار ذا نجح .

٦٩ — رد عبد الله بن الزبير على معاوية

وكتب إليه عبد الله بن الزبير :

« ألاَ سمِـــعَ اللهُ الذى أنا عَبْدُه ... فأخزَى إلهُ الناس مَنْ كان أظْلَمَا
وأجْرَا على الله العظــيم بحِلْمه ... وأسرَعَهم فى المُوبِقات تقَحُّما[(١)]
أغرَّك أنْ قالوا حلــــيمٌ بِعِزّة ... وليس بذى حِلمٍ ولــكن تحَــلُّما
ولو رُمْتَ ما إنْ قد عزَمتَ وجدتَنى ... هِزَبْرَ عَرِينٍ يترك القِرْنَ أكْتَما[(٢)]
وأُقسِم لولا بَيْعةٌ لك لم أكن ... لِأَنقُضَها ، لم تَنجُ منّى مُسَــــلَّما »

(الإمامة والسياسة ١ : ١٣١)

٧٠ — رد الحسين على معاوية

وكتب إليه الحسين رضى الله عنه :

« أما بعد : فقد جاءنى كتابك تذكر فيه أنه انتهتْ إليك عنى أمور لم تكن تظنُّنى بها رغبةً بى عنها ، وإن الحسناتِ لايَهْدِى لها ولا يُسَدِّد إليها إلا اللهُ تعالى ، وأما ما ذكرتَ أنه رُقِّىَ[(٣)] إليك عنى ، فإنما رَقَّاه المَلّاقون[(٤)] ، المشّاءون بالنَّميمة المفرِّقون بين الجمع ، وكَذَب الغاوُون المارقون ، ما أردتُ حَرْباً ولا خلافاً ، وإنى

---

(١) « أجرا » مسهل عن « أجرأ » وهو معطوف على « أظلما» اقتحم الإنسان الأمر وتقحمه: رمى بنفسه فيه بغير روية .

(٢) الهزبر : الأسد ، والعرين : بيته ، والقرن : كفؤك فى الشجاعة أوعام ، والأكتم والأكثم العظيم البطن . والمعنى : يتركه صريعا منتفخا بطنه .

(٣) رقى عليه كلاما ترقية : رفعه ، وليتنبه إلى أن هذه العبارة لم ترد فى كتاب معاوية إلى الحسين ، ولعلها سقطت من الأصل .

(٤) تملقه وتملق له تملقا وتملاقا (بكسر التاء والميم فى هذه) وملقه وملق له كفرح ملقا : تودد إليه وتلطف له ، فهو متملق وملق (كفرح) وملاق .

لأخشى اللهَ فى تركِ ذلك منك ومن حِزبك القاسِطِين[1] ، المُحِلِّين[2] ، حزب الظالم ، وأعوان الشيطان الرجيم ، ألستَ قاتِلَ حُجْرٍ وأصحابه العابدين المُخْبِتين[3] ، الذين كانوا يستفظعون البِدَعَ ، ويأمرون بالمعروف وينهَوْن عن المنكر ، فقتلتَهم ظُلْماً

---

(١) قسط كضرب قسطا بالفتح وقسوطا ، فهو قاسط : جار وعدل عن الحق قال تعالى : « وَأَمَّا الْقَاسِطُونَ فَكَانُوا لِجَهَنَّمَ حَطَبًا » وقسط كضرب ونصر قسطا بالكسر فهو قاسط ، وأقسط إقساطا فهو مقسط : عدل ، قال تعالى : « وَأَقْسِطُوا إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ » وقال « وَنَضَعُ الْمَوَازِينَ الْقِسْطَ » أى ذوات القسط ـ والقسط من المصادر الموصوف بها كالعدل يستوى فيه الواحد والجمع ـ وقد تبين مما تقدم أن العدل فيه لغتان قسط وأقسط ، وأن الجور فيه لغة واحدة ، قسط بغير ألف .

(٢) قال صاحب القاموس « ورجل محل : منتهك الحرام » أو لا يرى الشهر الحرام حرمة ،وجاء فى اللسان « ويقال : المحل الذى يحل لنا قتاله ، والمحرم : الذى يحرم علينا قتاله ، ويقال : المحل : الذى لا عهد له ولاحرمة ، والمحرم الذى له حرمة » وقد قدمنا فى الجزء الأول ص ٤٠٣ أن الإمام عليا كرم الله وجهه كتب كتابا إلى مخنف بن سليم جاء فيه « لعلك تلق معنا هذا العدو المحل » وكتابا إلى أخيه عقيل جاء فيه «فإن رأيى قتال المحلين » وأن ابن أبى الحديد فسره (م٤: ص ٥٧) قال : «أى الخارجين من الميثاق والبيعة يعنى البغاة ومخالفى الإمام ، ويقال لكل من خرج من إسلام ، أو حارب فى الحرم ، أو فى الأشهر الحرم ، محل ، وعلى هذا فسر قول زهير :
«وكم بالقنان من محل ومحرم» أى من لاذمة له ومن له ذمة،وكذلك قول خالد بن يزيد بن معاوية فى زوجته رملة بنت الزبير بن العوام :

ألا من لقلب معنى غزل ... يحب المحلة أخت المحل

أى ناقضة العهد أخت المحارب فى الحرم ، أو أخت ناقض بيعة بنى أمية » وقال المبرد فى الكامل أيضا (ج ٢ : ص ١٦٨) « وكان عبد الله بن الزبير يدعى المحل لإحلاله القتال فى الحرم، وفى ذلك يقول رجل فى رملة بنت الزبير . . . الخ » وكذا فى العقد الفريد (ج٢ : ص ٢٦٨) .
وكان العلويون والخوارج يصفون الأمويين « بالمحلين » كما ترى فى كتاب الحسين عليه السلام،وكما ورد فى كلام سليمان بن صرد لأصحابه: « وإن تستشهدوا فإنما قاتلتم المحلين،وماعند الله خير للأبرار والصديقين» انظر تاريخ الطبرى ٧ : ٦٨ ـ وقال الصلت بن مرة شاعر الخوارج . لما كثر بينهم الخلاف وخلعوا قطرى بن الفجاءة وولوا عبد ربه الصغير :

قل للمحلين قد قرت عيونكم ... بفرقة القوم والبغضاء والهرب
كنا أناسا على دين ففيرنا ... طول الجدال وخلط الجد باللعب

(انظر الكامل للمبرد ٢ : ٢٢٧)

(٣) أخبت : خشع وتواضع .

وعدَوانا من بعد ما أعطيتهم المواثيق الغليظة ، والعهود المؤكَّدة[1] ، جراءةً على الله واستخفافاً بعهده ، أوَلستَ بقاتل عمرو بن الحَمِق[2] الذى أخلقَتْ وأبلَتْ وجهَه العبادةُ ، فقتلتَه من بعد ما أعطيته من العهود مالو فهمتْه العُصْم[3] نزلتْ من شُعَف[4] الجبال ؟ أو لستَ المدَّعى زياداً فى الإسلام ، فزعمت أنه ابن أبى سُفيان ، وقد قضى رسول الله صلى الله عليه وسلم أن الولد للفِراش وللعاهِرِ الحجَر ، ثم سلَّطته على أهل

---

(١) يشير إلى ما كان أخذه الحسن عليه السلام من معاوية من كتاب الأمان لشيعته .

(٢) هو عمرو بن الحمق الخزاعى : صحابى هاجر بعد الحديبية ، وكان ممن دخل الدار على عثمان ، ثم صار من شيعة على ، وشهد معه وقعة الجمل وصفين والنهروان ، ولما طلب زياد رؤساء أصحاب حجر ابن عدى ، خرج عمرو بن الحمق ورفاعة بن شداد حتى نزلا المدائن ، ثم ارتحلا حتى أتيا أرض الموصل فأتيا جبلا فكمنا فيه ، وبلغ عامل ذلك الرستاق (الرستاق : يستعمل فى الناحية التى هى طرف الإقليم ، فارسى معرب) أن رجلين قد كمنا فى جانب الجبل ، فاستنكر شأنهما — وهو رجل من همدان يقال له : عبد الله بن أبى بلتعة — فسار إليهما فى الخيل نحو الجبل ومعه أهل البلد ، فلما انتهى إليهما خرجا ، فأما عمرو بن الحمق فكان مريضاً ، وكان بطنه قد سقى (السقى كشمس وحمل : ماء أصفر يقع فى البطن،وقد سقى بطنه كرمى) فلم يكن عنده امتناع . وأما رفاعة بن شداد — وكان شابا قويا — فوثب على فرس له جواد ، فقال له : أقاتل عنك ،قال: ومايتفعنى أن تقاتل ، أنج بنفسك إن استطعت فحمل عليهم فأفرجوا له ، فخرج تنفر به فرسه ، وخرجت الخيل فى طلبه وكان راميا ، فأخذ لا يلحقه فارس إلا رماه فجرحه أو عقره ، فانصرفوا عنه .

وأخذ عمرو بن الحمق ، فسألوه من أنت ؟ فقال: من إن تركتموه كان أسلم لكم ،وإن قتلتموه كان أضر لكم، فسألوه فأبى أن يخبرهم، فبعث به ابن أبى بلتعة إلى عامل الموصل — وهو عبد الرحمن بن عبدالله ابن عثمان الثقفى — فلما رأى عمرو بن الحمق ، عرفه وكتب إلى معاوية بخبره ، فكتب إليه معاوية : « أنه زعم أنه طعن عثمان بن عفان تسع طعنات بمشاقص كانت معه (المشاقص جمع مشقص كمنبر وهو النصل الطويل أو سهم فيه ذلك يرمى به الوحش) وإنا لا نريد أن نعتدى عليه ، فاطعنه تسع طعنات كما طعن عثمان ، فأخرج فطعن تسع طعنات فمات فى الأولى منهن أو الثانية (سنة ٥١ هـ) وبعث عبد الرحمن الثقفى برأسه إلى معاوية ، وهو أول رأس أهدى فى الإسلام . وقيل إنه لما هرب بالموصل دخل غارا فنهشته حية فمات فأخذ عامل الموصل رأسه فأرسله إلى زياد فبعث به زياد إلى معاوية ، وقيل إنه عاش إلى أن قتل فى وقعة الحرة سنة ٦٣ هـ (انظر تاريخ الطبرى ٦ : ١٤٨ وخلاصة تهذيب الكمال فى أسماء الرجال ص ٢٤٤ وأسد الغابة فى معرفة الصحابة ٤ : ١٠٠ والإصابة فى تمييز الصحابة ٤ : ٢٩٤). وقد جاء فى تاريخ الطبرى أيضا (٥ : ١٣٢) أن عمرو بن الحمق كان مع محمد بن أبى بكر حين تسور على عثمان الدار ، فلما قتله كنانة بن بشر بن عتاب التجيبى ، وثب عمرو بن الحمق على عثمان فجلس على صدره وبه رمق ، فطعنه تسع طعنات ، قال عمرو : فأما ثلاث منهن فإنى طعنتهن إياه لله ، وأما ست فإنى طعنتهن إياه لما كان فى صدرى عليه » .

(٣) العصم : جمع أعصم ، وهو الوعل فى ذراعيه أو فى إحداهما بياض وسائره أسود أو أحمر .

(٤) لعله « من شم الجبال » جمع أشم . والجبل الأشم : المرتفع .

الإسلام : يقتلهم، ويقطّع أيديَهم وأرجلَهم من خِلاف، ويصلّبهم على جُذُوع النخل[١]، سبحانَ اللهِ يا معاوية ! لكأنك لست من هذه الأمة ، وليسوا منك ، أو لست قاتِلَ

---

(١) جاء في شرح ابن أبي الحديد (م ٣ : ص ١٥) .
روى أن أبا جعفر محمد على الباقر عليه السلام قال لبعض أصحابه — في كلام له — :
« ثم لم نزل أهل البيت نستذل ونستضام ونقصى ونمتهن ونحرم ونقتل ونخاف ، ولا نأمن على دمائنا ودماء أوليائنا ، ووجد الكاذبون الجاحدون لكذبهم وجحودهم موضعا يتقربون به إلى أوليائهم وقضاة السوء وعمال السوء في كل بلدة ، فحدثوهم بالأحاديث الموضوعة المكذوبة ، ورووا عنا مالم نقله ومالم نفعله ليبغضونا إلى الناس ، وكان عظم ذلك وكبره زمن معاوية بعد موت الحسن عليه السلام ، فقتلت شيعتنا بكل بلدة وقطعت الأيدى والأرجل على الظنة ، وكان من يذكر بحبنا والانقطاع إلينا سجن أو نهب ماله أو هدمت داره ، ثم لم يزل البلاء يشتد ويزداد إلى زمان عبيد الله بن زياد قاتل الحسين عليه السلام ، ثم جاء الحجاج فقتلهم كل قتلة وأخذهم بكل ظنة وتهمة ، حتى إن الرجل ليقال له زنديق أو كافر أحب إليه من أن يقال من شيعة على » .

وروى المدائني في كتاب الأحداث قال : « كتب معاوية نسخة واحدة إلى عماله بعد عام الجماعة أن برئت الذمة ممن روى شيئا من فضل أبي تراب وأهل بيته » فقامت الخطباء في كل كورة ، وعلى كل منبر يلعنون عليا ويبرءون منه ويقعون فيه وفي أهل بيته، وكان أشد الناس بلاء حينئذ أهل الكوفة، لكثرة من بها من شيعة على عليه السلام، فاستعمل عليهم زياد بن سمية، فكان يتتبع الشيعة وهو بهم عارف لأنه كان منهم أيام على عليه السلام ، فقتلهم تحت كل حجر ومدر وأخافهم ، وقطع الأيدى والأرجل، وسمل العيون ، وصلبهم على جذوع النخل ، وطردهم وشردهم عن العراق فلم يبق بها معروف منهم ، وكتب معاوية إلى عماله في جميع الآفاق « ألا يجيزوا لأحد من شيعة على وأهل بيته شهادة » وكتب إليهم « أن انظروا من قبلكم من شيعة عثمان ومحبيه ، وأهل ولايته والذين يروون فضائله ومناقبه ، فأدنوا مجالسهم وقربوهم وأكرموهم واكتبوا لى بكل مايروى كل رجل منهم واسمه واسم أبيه وعشيرته » ففعلوا ذلك حتى أكثروا في فضائل عثمان ومناقبه ، لما كان يبعثه إليهم معاوية من الصلات والكساء والحباء والقطائع ، ويفيضه في العرب منهم والموالى ، فكثر ذلك في كل مصر ، وتنافسوا في المنازل والدنيا، فليس يجىء أحد مردود من الناس عاملا من عمال معاوية ، فيروى في عثمان فضيلة أو منقبة إلا كتب اسمه وقربه وشفعه ، فلبثوا بذلك حينا ، ثم كتب إلى عماله : « إن الحديث في عثمان قد كثر وفشا في كل مصر ، وفي كل وجه وناحية ، فإذا جاءكم كتابي هذا فادعوا الناس إلى الرواية في فضائل الصحابة والخلفاء الأولين ، ولا تتركوا خبرا يرويه أحد من المسلمين في أبي تراب إلا أتوني بمناقض له في الصحابة مفتعلة ، فان هذا أحب إلى وأقر لعيني ، وأدحض لحجة أبي تراب وشيعته ، وأشد عليهم من مناقب عثمان وفضله » فقرئت كتبه على الناس ، فرويت أخبار كثيرة في مناقب الصحابة مفتعلة لا حقيقة لها، وجد الناس في رواية مايجرى هذا المجرى حتى أشادوا بذكر ذلك على المنابر ، وألقى إلى معلمى الكتاتيب فعلموا صبيانهم وغلمانهم من ذلك الكثير الواسع ، وحتى رووه وتعلموه كما يتعلمون القرآن ، وحتى علموه بناتهم ونساءهم وخدمهم وحشمهم ، فلبثوا بذلك ماشاء الله .

ثم كتب إلى عماله نسخة واحدة إلى جميع البلدان : « انظروا إلى من قامت عليه البينة أنه يحب عليا وأهل بيته فامحوه من الديوان وأسقطوا عطاءه ورزقه » وشفع ذلك بنسخة أخرى : من اتهمتموه بموالاة =

الحضرمى (١) الذى كتب إليك فيه زياد أنه على دين علىّ كرم الله وجهه ، ودين علىّ هو دينُ ابن عمه صلى الله عليه وسلم الذى أجلسك مجلسَك الذى أنت فيه ، ولولا ذلك كان أفضلَ شرفِكَ وشرفِ آبائك تجشُّمُ الرحلتين : رحلةِ الشتاء والصيف (٢) ، فوضعها اللهُ عنكم بنا ، مِنَّةً عليكم ، وقلتَ فيما قلت : لاتَرُدَّنَّ هذه الأمةَ فى فتنة ، وإنى لا أعلم لها فتنةً أعظمَ من إمارتك عليها ، وقلتَ فيما قلت : انظر لنفسك ولدينك ولأمة محمد ، وإنى واللهِ ما أعرفُ أفضلَ من جهادك ، فإنْ أفعل فإنه قُرْبةٌ إلى ربى ، وإن لم أفعله فأستغفرُ الله لدينى ، وأسأله التوفيق لِمَا يحبُّ ويرضى ، وقلت فيما قلت :

= هؤلاء القوم فنكلوا به واهدموا داره» فلم يكن البلاء أشد ولا أكثر منه بالعراق ، ولا سيما بالكوفة حتى إن الرجل من شيعة على عليه السلام ليأتيه من يثق به ، فيدخل بيته فيلقى إليه سره ويخاف من خادمه ومملوكه ، ولايحدثه حتى يأخذ عليه الأيمان الغليظة ليكتمن عليه ، فظهر حديث كثير موضوع وبهتان منتشر ، ومضى على ذلك الفقهاء والقضاة والولاة ، وكان أعظم الناس فى ذلك بلية القراء المراءون والمستضعفون الذين يظهرون الخشوع والنسك ، فيفتعلون الأحاديث ليحظوا بذلك عند ولاتهم ، ويقربوا مجالسهم ، ويصيبوا به الأموال والضياع والمنازل . حتى انتقلت تلك الأخبار والأحاديث إلى أيدى الديانين الذين لا يستحلون الكذب والبهتان ، فقبلوها ورووها وهم يظنون أنها حق ، ولو علموا أنها باطلة لما رووها ولا تدينوا بها .

فلم يزل الأمر كذلك حتى مات الحسن بن على عليه السلام (سنة ٥٠) فازداد البلاء والفتنة ، فلم يبق أحد من هذا القبيل إلا وهو خائف على دمه ، أو طريد فى الأرض ، ثم تفاقم الأمر بعد قتل الحسين عليه السلام ، وولى عبد الملك بن مروان ، فاشتد على الشيعة وولى عليهم الحجاج بن يوسف ، فتقرب إليه أهل النسك والصلاح والدين ببغض على وموالاه أعدائه وموالاة من يدعى قوم من الناس أنهم أيضا أعداؤه ، فأكثروا فى الرواية فى فضلهم وسوابقهم ومناقبهم ، وأكثروا من الغض من على عليه السلام وعيبه والطعن فيه والشنآن له ، حتى إن إنسانا وقف للحجاج ، ويقال إنه جد الأصمعى عبد الملك بن قريب ، فصاح به أيها الأمير إن أهلى عقونى فسمونى عليا ، وإنى فقير بائس ، وأنا إلى صلة الأمير محتاج ، فتضاحك له الحجاج ، وقال : للطف ماتوسلت به ، قد وليتك موضع كذا » اه . ولاتنس أن الشيعة وضعوا أحاديث مختلفة فى صاحبهم ، حملهم على وضعها عداوة خصومهم — انظر ابن أبى الحديد م ٣ ص ١٧ .

(١) يعنى شريك بن شداد الحضرمى ، وكان من أصحاب حجر بن عدى الذين بعث بهم زياد إلى معاوية وقتل مع حجر .

(٢) كان للقرشيين فى الجاهلية رحلتان كل عام : رحلة فى الشتاء إلى اليمن ، ورحلة فى الصيف إلى الشام ، فيمتارون ويتجرون ، وكانوا يخرجون بتجارتهم قوافل عظيمة وقد ذكر الطبرى أن إحدى هذه القوافل بلغت خمسمائة وألف بعير ، وكانوا فى رحلتهم آمنين لأنهم أهل حرم الله وولاة بيته ، ذلك إلى ماأخذه لهم بنو عبد مناف من الإيلاف أى العهد بتأمين التجارة ، وكان هاشم بن عبد مناف قد خرج إلى الشام =

متى تَسكُدْنى أكِدْكَ[١] ، فكِدْنى يا معاوية ما بَدَا لَكَ ، فلعمرى لَقَدِيما يُكاد الصالحون ، وإنى لأرجو أن لاتضرَّ إلا نفسَك ، ولا تَمْحَقَ إلا عملَك ، فكِدْنى ما بدا لك ، واتق الله يا معاوية . واعلم أن لله كتاباً لا يُغادر صغيرةً ولا كَبيرةً إلا أحصاها ، واعلم أن الله ليس بناسٍ لك قَتْلَكَ بالظِّنَّةِ ، وأخْذَكَ بالتُّهَمَة ، وإمارتَكَ صَبِيًّا يَشْرَبُ الشراب ، ويلعب بالكِلاب[٢] ، ما أراك إلا قـــد

= وأخذ إيلافا منها لمن تجر إليها من قريش ، وخرج المطلب بن عبد مناف فأخذ إيلافا من اليمن ، وأخذ عبد شمس بن عبد مناف إيلافا من الحبشة ، وأخذ نوفل بن عبـد مناف إيلافا من فارس (انظر ذيل الأمالى ص ٢٠٤) ، فكان تجار قريش يختلفون إلى هذه الأقطار آمنين فى اجتيازهم وانتقالهم شتاء وصيفا لا يتعرض لهم ، على حين أن الناس كانوا يتخطفون من حولهم ويغار عليهم ، وكان أبو سفيان يرأس العير التى تتردد بين مكة والشام ، ولا يغيبن عنك ماروى فى كتب السيرة فى غزوة بدر من : « أن رسول الله صلى الله عليه وسلم سمع بأبى سفيان بن حرب مقبلا من الشام فى عيرلقريش عظيمةفيها أموال لقريش وتجارة من تجاراتهم » . (١) وهذه العبارة أيضا لم ترد فى كتاب معاوية إليه .

(٢) روى المسعودى فى مروج الذهب (ج ٢ : ص ٩٤) قال :

« وكان يزيد صاحب طرب وجوارح وكلاب وقرود وفهود ومنادمة على الشراب ، وجلس ذات يوم على شرابه ، وعن يمينه ابن زياد — بعد قتل الحسين — فأقبل على ساقيه فقال :

اسقنى شربةً تروى مشاشى ... ثم صل فاسق مثلها ابن زياد
صاحب السر والأمانة عندى ... ولتسديد مغنمى وجهادى

« والمشاش كغراب : النفس والطبيعة » ثم أمر المغنين فغنوا ، وغلب على أصحاب يزيد وعماله ما كان يفعله من الفسوق ، وفى أيامه ظهر الغناء بمكة والمدينة واستعملت الملاهى ، وأظهر الناس شرب الشراب وكان له قرد يكنى بأبى قيس ، يحضره مجلس منادمته ، ويطرح له متكأ ، وكان قردا خبيثا ، وكان يحمله على أتان وحشية ، قد ريضت وذللت لذلك بسرج ولجام ، ويسابق بها الخيل يوم الحلبة ، فجاء فى بعض الأيام سابقا ، فتناول القصبة ودخل الحجرة قبل الخيل ، وعلى أبى قيس قباء من الحرير الأحمر والأصفر مشمر (مخطط) وعلى رأسه قلنسوة من الحرير ذات ألوان بشقائق (أى مصبغة بمثل الشقائق) وعلى الأتان سرج من الحرير الأحمر منقوش ملمع بأنواع من الألوان ، فقال فى ذلك بعض شعراء الشام فى ذلك اليوم :

تمسك أبا قيس بفضل عنانها ... فليس عليها إن سقطت ضمان
ألا من رأى القرد الذى سبقت به ... جياد أمير المؤمنين أتان

وروى ابن طباطبا فى الفخرى ص ٤٩ : قال :

« كان يزيد بن معاوية أشد الناس كلفا بالصيد لا يزال لاهيابه ، وكان يلبس كلاب الصيد الأساور من الذهب ، والجلال المنسوجة منه » الجلال بالكسر جمع جـل بالضم والفتح: ما تلبسه الدابة لتصان به ويهب لكل كلب عبدا يخدمه،قيل إن عبيد الله بن زياد أخذ من بعض أهل الكوفة أربعمائة ألف دينار جناية ، وجعلها فى خزائن بيت المال ، فرحل ذلك الرجل من الكوفة وقصد دمشق ليشكو حاله إلى يزيد وكانت دمشق فى تلك الأيام فيها سرير الملك — فلما وصل إلى ظاهر دمشق ، سأل عن يزيد فعرفوه أنه =

أوْبَقتَ(١) نفسَك، وأهلكتَ دينك، وأضَعْتَ الرعيَّةَ، والسلام ».

(الإمامة والسياسة ١ : ١٣١)

٧١ — بين معاوية وسعيد بن العاص

فلما جاوب القومُ معاوية بما جاوبوه من الخلاف لأمره والكَرَاهِيَة لبيعته ليزيد، كتب إلى سعيدِ بن العاص يأمره أن يأخذ أهل المدينة بالبيعة ليزيد أخذا بغلظة وشدة، ولا يدع أحداً من المهاجرين والأنصار وأبنائهم حتى يبايعوا، وأمره أن لا يحرِّك هؤلاء النفَرَ ولا يَهيجهم، فلما قَدِم كتاب معاوية، أخَذَهم بالبيعة أعنفَ ما يكون من الأخذ وأغلَظَه، فلم يبايعه أحد منهم، فكتب إلى معاوية:

« إنه لم يبايعنى أحد، وإنما الناس تَبَع لهؤلاء النفر، فلو بايعوك بايعك الناس جميعاً، ولم يتخلف عنك أحد ».

فكتب إليه معاوية يأمره أن لا يحرِّكهم إلى أن يَقْدَم، ثم قَدِم معاوية

= فى الصيد، فكره أن يدخل دمشق، وليس يزيد حاضرا فيها، فضرب مخيمه ظاهر المدينة، وأقام به ينتظر عود يزيد من الصيد، فبينا هو فى بعض الأيام جالس فى خيمته لم يشعر، إلا بكلبة قد دخلت عليه، وفى قوائمها الأساور من الذهب، وعليها جل يساوى مبلغا من المال كبيرا، وقد بلغ منها العطش والتعب، وكادت تموت، فعلم أنها ليزيد وأنها قد شذت منه، فقام إليها وقدم لها ماء، وتعهدها بنفسه، فما شعر إلا بشاب حسن الصورة على فرس جميل، وعليه زى الملوك، وقد علته غبرة، فقام إليه وسلم عليه، فقال له أرأيت كلبة عابرة بهذا الموضع؟ فقال: نعم يا مولانا، هاهى فى الخيمة، قد شربت ماء واستراحت، وقد كانت على غاية من العطش والتعب، فلما سمع يزيد كلامه نزل ودخل الخيمة ونظر إلى الكلبة وقد استراحت فجذب بحبلها ليخرج، فشكا الرجل إليه حاله وعرفه ما أخذ منه ابن زياد، فطلب دواة وكتب إليه برد ماله وخلعة سنية، وأخذ الكلبة وخرج، فرد الرجل من ساعته إلى الكوفة ولم يدخل دمشق ».

وقال الحسن البصرى: « أربع خصال كن فى معاوية، لو لم يكن فيه منهن إلا واحدة لكانت موبقة: انتزاؤه على هذه الأمة بالسفهاء حتى ابتزها أمرها بغير مشورة منهم وفيهم بقايا الصحابة وذوو الفضيلة، واستخلافه ابنه بعده سكيرا خميرا، يلبس الحرير، ويضرب بالطنابير، وادعاؤه زيادا وقد قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « الولد للفراش وللعاهر الحجر »، وقتله حجرا، ويلا له من حجر وأصحاب حجر مرتين » — انظر تاريخ الطبرى ٦ : ١٥٧ والمنية والأمل ص ١٥.

(١) أوبقت: أهلكت.

المدينة حاجا ، وكان من أمره معهم ما كان[1] (الإمامة والسياسة ١ : ١٣٢)

---

(١) وذلك أنه لما دنا منها استقبله أهلها ، فيهم : عبد الله بن عمر، وعبد الله بن الزبير ، والحسين ابن علي ، وعبد الرحمن بن أبي بكر ، فأقبل على ابن أبي بكر ، فسبه وقال : لامرحبا بك ولاأهلا ، فلما دخل الحسين عليه قال : لا مرحبا بك ولا أهلا ، بدنة يترقرق دمها والله مهريقه « والبدنة بالتحريك من الإبل والبقر كالأضحية من الغنم تهدى إلى مكة ، للذكر والأنثى » فلما دخل عليه ابن الزبير ، قال : لامرحبا بك ولا أهلا ، ضب تلعة ، فدخل رأسه تحت ذنبه « والتلعة كوردة: ما ارتفع من الأرض وما انهبط منها » فلما دخل عبد الله بن عمر ، قال : لامرحبا بك ولا أهلا ، وسبه ، فقال : إني لست بأهل هذه المقالة ، قال : بلى ، ولما هو شر منها، فدخل معاوية المدينة وأقام بها ، وخرج هؤلاء الرهط معتمرين ، فلما كان وقت الحج خرج معاوية حاجا ، فأقبل بعضهم على بعض ، فقالوا « لعله قد ندم فأقبلوا يستقبلونه ، فلما دخل ابن عمر ، قال : مرحبا بصاحب رسول الله صلى الله عليه وسلم وابن الفاروق ، هاتوا لأبي عبد الرحمن دابة ، وقال لابن أبي بكر : مرحبا بشيخ قريش وسيدها وابن الصديق ، هاتوا له دابة، وقال لابن الزبير : مرحبا بابن حواري رسول الله صلى الله عليه وسلم وابن عمته ، هاتوا له دابة ، وقال للحسين : مرحبا بابن رسول الله صلى الله عليه وسلم وسيد شباب المسلمين قربوا لأبي عبد الله دابة ، وجعلت ألطافه « جمع لطف بالتحريك وهو الهدية » تدخل عليهم ظاهرة يراها الناس ، ويحسن إذنهم وشفاعتهم ، وحملهم على الدواب . وخرج حتى أتى مكة فقضى حجه، ولما أراد الشخوص أمر بأثقاله فقدمت وأمر بالمنبر فقرب من الكعبة ، ثم أرسل إليهم ، فاجتمعوا وقالوا: من يكلمه ؟ فأقبلوا على الحسين فأبى ، فقالوا لابن الزبير : هات فأنت صاحبنا ، فدخلوا عليه ، فرحب بهم وقال : قد علمتم نظرى لكم ، وتعطفى عليكم ، وصلتى أرحامكم ، ويزيد أخوكم وابن عمكم ، وإنما أردت أن أقدمه باسم الخلافة ، وتكونوا أنتم تأمرون وتنهون ، فسكتوا ، فقال : أجيبوني ، فسكتوا ، فقال : أجيبوني ، فسكتوا ، فقال لابن الزبير: هات فأنت صاحبهم ، قال : نخيرك بين إحدى ثلاث ، أيها أخذت فهى لك رغبة ،وفيها خيار : إن شئت فاصنع فينا ما صنعه رسول الله صلى الله عليه وسلم ، قبضه الله ولم يستخلف أحداً، فرأى المسلمون أن يستخلفوا أبا بكر ، فدع هذا الأمر ، حتى يختار الناس لأنفسهم ، وإن شئت فما صنع أبو بكر ، عهد إلى رجل من قاصية قريش ، وترك من ولده ومن رهطه الأدنين من كان لها أهلا ، وإن شئت فما صنع عمر ، جعلها شورى في ستة نفر من قريش يختارون رجلا منهم ، وترك ولده وأهل بيته ، وفيهم من لو وليها لكان لها أهلا ، فقال معاوية : هل غير هذا؟ قال لا، ثم قال للآخرين : ماعندكم ؟ قالوا: نحن على ما قال ابن الزبير، فقال معاوية إني أتقدم إليكم وقد أعذر من أنذر ، إني قائم فقائل مقالة فإياكم أن تعترضوا على حتى أتمها ، فإن صدقت فعلى صدقى ، وإن كذبت فعلى كذبى ،وأقسم بالله لئن رد على رجل منكم كلمة في مقامى هذا لا ترجع إليه كلمته حتى يضرب رأسه ، فلا ينظر امرؤ منكم إلا إلى نفسه ، ولا يبق إلا عليها ، وأمر أن يقوم على رأس كل رجل منهم رجلان بسيفيهما ، فإن تكلم بكلمة يرد بها عليه قوله قتلاه ، وخرج وأخرجهم معه ، حتى رقى المنبر ، وحف به أهل الشأم ، واجتمع الناس ، فقام خطيباً . فقال بعد حمد الله والثناء عليه : إنا وجدنا أحاديث الناس ذات عوار « العوار مثلثة : العيب» قالوا إن حسينا وابن أبي بكر وابن عمر وابن الزبير لم يبايعوا ليزيد ، وهؤلاء الرهط سادة المسلمين وخيارهم ، لا نبرم أمراً دونهم ، ولا نقضى أمراً إلا عن مشورتهم ، وإنى دعوتهم فوجدتهم سامعين مطيعين ، فبايعوا وسلموا وأطاعوا . =

٧٢ — كتاب معاوية إلى ابنه يزيد

وكتب معاوية إلى ابنه يزيد — وقد بلغه مُقارَفَتُهُ اللَّذاتِ، وانهماكُه في الشهوات —:

«من معاوية بن أبي سفيان أمير المؤمنين إلى يزيد بن معاوية:

أما بعدُ: فقد أدَّتْ ألسِنةُ التَّصْريحِ إلى أُذُن العناية بك[١] ما فَجَعَ الأمَلَ فيك، وباعَدَ الرَّجاء منك، إذْ[٢] ملأْتَ العيونَ بَهْجةً، والقلوبَ هَيْبةً، وترامَتْ إليك آمالُ الراغبين، وهِمَمُ المتنافسين، وشَحَّتْ بك فِتْيانُ قريش وكُهول أهلك، فما يَسُوغُ لهم ذِكرُكَ إلا على الجِرَّةِ المُهَوَّعةِ[٣]، والكَظِّ: الجشْء[٤].

اُقتحمْتَ البوائقَ[٥]، وانْتَهَدْتَ للمَعَايِرِ[٦]، واعتضتَها من سُمُوِّ الفضل، ورفيعِ القدر، فليتك (يزيدُ) إذ كنتَ لم تكن، سَرَرْتَ يافعا[٧] ناشئاً، وأثكلتَ

= فقال أهل الشأم: وما يعظم من أمر هؤلاء؟ إيذن لنا فنضرب أعناقهم، لانرضى حتى يبايعوا علانية، فقال معاوية: سبحان الله! ما أسرع الناس إلى قريش بالشر، وأحلى دماءهم عندهم، أنصتوا فلا أسمع هذه المقالة من أحد، ودعا الناس إلى البيعة فبايعوا، ثم قربت رواحله فركب ومضى. فقال الناس للحسين وأصحابه: قلتم لانبايع، فلما دعيتم وأرضيتم بايعتم. قالوا: لم نفعل، قالوا بلى قد فعلتم وبايعتم، أفلا أنكرتم؟ قالوا: خفنا القتل، وكادكم بنا وكادنا بكم — انظر ذيل الأمالى ١٧٧ والعقد الفريد ٢: ٢٤٨ والإمامة والسياسة ١: ١٣٨.

(١) أى إلى أذن ذى العناية بك — يريد به معاوية نفسه — والمعنى: لقد أفضت بأنبائك ألسنة الرقباء عليك إلى مسامع أبيك ذى العناية الشديدة بشأنك، وصرحت له بما تقارفه من المنكرات والمثالب.

(٢) إذ هنا ظرفية. (٣) الجرة: مايفيض به البعير فيأكله ثانية، وهوعه ما أكل: قيأه إياه، والمراد أنهم يستثقلون ذكره. (٤) كظه الطعام كظا: ملأه حتى لايطيق النفس، والجشء كشمس: الكثير.

(٥) البوائق: الدواهى جمع بائقة، والمعنى اقترفت الآثام والمعاصى.

(٦) المعاير: المعايب؛ قالت ليلى الأخيلية:

لعمرك ما بالموت عار على امرىء ... إذا لم تصبه فى الحياة المعاير

(٧) أيفع الغلام ويفع كفتح يفوعا: شب، فهو يافع ولم يستعمل اسم الفاعل من الرباعى، وثكلت المرأة ولدها (كتعب): فقدته، وأثكلها الله ولدها: أفقدها إياه، والمعنى: وأفقدتنا الأمل فيك وأحزنتنا، والكهل: من جاوز الثلاثين، أو أربعا وثلاثين إلى إحدى وخمسين، والضالع: المائل، ضلع عنه كفتح ضلعا بالتسكين. مال، أى مائلا إلى الهوى منحرفا عن طريق الرشاد.

كَهْلاً ضَالِعا ، فَوَاحَزَنَاهُ[1] عليك (يزيدُ) ! ويَاحَرَّ صَدْرِ المُشَكِّل بك ، ما أَشْمَتَ فتيانَ بنى هاشم ! وأذلَّ فِتيانَ بنى عبد شمس[2] عند تفاوُض المَفَاخِرِ ودراسة المَنَاقِب ! فَمَنْ لِإصلاحِ ما أفسدتَ ، ورَتْق ما فَتَقْتَ ؟ هيهاتَ ! خَشَتِ[3] الدُّرْبَةُ وجهَ التصبُّر بك ، وأبَتِ الجِنايةُ إلا تحدُّرًا على الألسن ، وحلاوةً على المناطِق ، ما أربَحَ فائدةً نالوها ، وفُرْصَةً انتهزوها !

انتبهْ (يزيدُ) لِلَّفظة[4] ، وشاوِرِ الفِكرة ، ولا تكن إلى سَمْعِك أسرعَ من معناها إلى عقلك واعلم أن الذى وطَّأك[5] وسوْسَةَ الشيطان ، وزَخرفةَ السُّلطان ، مما حَسُن عندك قُبحُه ، واحْلَوْلَى عندك مُرُّه ، أمرٌ شَرِكَك فيه السَّوادُ[6] ، ونافَسَكَهُ الأَعْبُدُ ، لا لِأَثَرَة تدّعيها أوجَبَتْها لك الإمْرَة ، وأضعتَ بها من قدرك ، فأمكَنْتَ بها من نفسك ، فكأنك شانِئ[7] نفسك ، فمن لهذا كلِّه ؟

---

(١) جاء فى شرح التبيان للعكبرى على ديوان المتنبى ج ٢ ص ٢٥٥ عند الكلام على قوله :

واحر قلبـاه ممن قلبـه شبم ومن بجسمى وحالى عنده سقم

واستجلب هاء السكت (فى واحر قلباه) وثبتها فى الوصل كما تثبت فى الوقف ، والعرب تفعل ذلك كقراءة ابن ذكوان « فبهداهم اقتدهى » بكسر الهاء وإثبات الياء وصلا ، وكقراءة هشام بكسر الهاء . وحرك الهاء أبوالطيب لسكونها وسكون الألف قبلها ، وللعرب فى ذلك أمران : منهم من حركها بالضم تشبيها بهاء الضمير ، وأنشدوا : « يامرحباه بحمار أعفرا » ومنهم من يحرك بالكسر على مايوجد كثيرا فى الكلام عند التقاء الساكنين ، وأنشدوا :

يارب ياربـاه إياك أسل عفراء ياربـاه من أقبل الأجل

فى كلام كثير رجع إليه هنالك ، وانظر أيضاً خزانة الأدب للبغدادى ج ٤ : ص ٥٩٢ ولسان العرب ج ٢ : ص ٣٧٠ ، ومما أورده صاحب اللسان فى ذلك قول قيس العامرى فى ليلى :

فناديت ياربـاه أول سألتى لنفسى ليلى ثم أنت حسيبها

قال وهو كثير فى الشعر ، وليس شىء منه بحجة عند أهل البصرة .

(٢) يعنى قومه ، فهو معاوية بن أبى سفيان بن حرب بن أمية بن عبد شمس ، والتفاوض الاشتراك فى كل شىء ، والمجاراة فى الأمر . والمناقب : المفاخر جمع منقبة بفتح الميم والقاف .

(٣) خشت : خدشت ، والدربة : العادة والجرأة على الأمر ، والمعنى دربتك على اجتراح المعاصى والسيئات . (٤) هكذا فى الأصل ، وربما كانت « للعظة » .

(٥) أى لينك وسهل عليك الانغماس فى الشهوات . (٦) السواد من الناس : عامتهم .

(٧) شانئ : مبغض .

اعلم يا يزيد أنك طَرِيدُ الموتِ وأسير الحياة ، بلغنى أنك اتخذتَ المَصَانع[1] والمجالس للملاهى والمزامير ، كما قال الله تعالى : « أَتَبْنُونَ بِكُلِّ رِيعٍ[2] آيَةً تَعْبَثُونَ وَتَتَّخِذُونَ مَصَانِعَ لَعَلَّكُمْ تَخْلُدُونَ » وأجهرتَ[3] الفاحِشَةَ حتى اتخذتَ سَرِيرتَها عندك جَهْرًا .

اعلم (يا يزيد) أن أول ما سَلَبَكه الشُّكرُ معرفةُ مواطنِ الشكر لله على نِعَمه المتظاهرة[4] ، وآلائِه المتواتِرَة ، وهى الجُرْحَة العُظْمى ، والفَجْعة الكبرى : تركُ الصلواتِ المفروضاتِ فى أوقاتها ، وهو من أعظم ما يَحْدُث من آفاتها ، ثم استحسان العيوبِ ، وركوبُ الذنوب ، وإظهارُ العورة ، وإباحة السر ، فلا تأمَنْ نفسك على سِرِّك ، ولا تَعْتَقِد على فعلك ، فما خَيرُ لذَّة تُعْقِبُ الندمَ ، وتعفِّى[5] الكرمَ .

وقد توقف أمير المؤمنين بين شَطْرين من أمرك ، لما يتوقعه من غَلَبة الآفة ، واستهلاكِ الشهوة ، فكن الحاكمَ على نفسك ، واجعل المحكومَ عليه ذهنَك ، تَرْشَد إن شاء الله تعالى .

ولْيَبْلُغْ أمير المؤمنين ما يَرُدُّ شارِداً من نومه ، فقد أصبح نُصْبَ الاعتزال من كل مُؤانِس ، ودَرِيئةَ[6] الألسن الشامتة ، وفقك الله فأحسن » .

(صبح الأعشى ٦ : ٣٨٧)

---

(١) المصانع : المبانى من القصور — والحصون .

(٢) الريع : المرتفع من الأرض، آية: أى أبنية وقصوراً يفتخرون بها ، ويعبثون بالفقراء ويتطاولون عليهم من أجلها ، والمصانع فى الآية قيل : الأبنية ، وقيل : هى أحباس تتخذ للماء واحدها مصنعة ومصنع ، وهذه الآية نزلت فى عاد قوم هود .

(٣) جهر بالكلام وأجهر به ، ويعديان بغير حرف فيقال جهر الكلام وأجهره : أعلنه وأظهره

(٤) المتظاهرة المتوالية المترادفة ، وأصله من ظاهر بين الثوبين: إذا لبس أحدهما على الآخر ، والآلاء : النعم ، جمع إلى كحمل وألو وألى كشمس وألى كعصا وإلى كرضا .

(٥) تمحو وتزيل ، وأصله من عفت الريح المنزل : إذا درسته .

(٦) الدريئة : الحلقة يتعلم عليها الطعن والرمى ، وفى الأصل «ودرأة» وهو تحريف .

خلافة يزيد بن معاوية

٧٣ — كتاب يزيد إلى الوليد بن عتبة

وبويع ليزيد بن معاوية بالخلافة بعد وفاة أبيه فى رجب سنة ٦٠ هـ ، وأمير المدينة الوليدُ بن عُتْبة بن أبى سُفيان ، ولم يكن ليزيد همٌّ حين وَلِى إلا بيعة النفر الذين أبَوْا الإجابة إلى بَيعته حين دعاهم إليها أبوه ، فكتب إلى الوليد :

« بسم الله الرحمن الرحيم ، من يزيد أمير المؤمنين إلى الوليد بن عُتْبة :

أما بعد : فإن معاوية كان عبداً من عباد الله ، أكرَمه الله واستخلَفَه وخوَّله(١) ومكَّن له ، فعاش بقَدَر ، ومات بأجَل ، فرحِمه الله ، فقد عاش محموداً ، ومات برًّا تقيًّا والسلام » .

* * *

وكتب إليه فى صحيفة كأنها أذن فأرة :

« أما بعد : فخذ حُسَيْنا ، وعبد الله بن عمر ، وعبد الله بن الزبير بالبَيعة أخذاً شديداً ليست فيه رُخْصَةٌ(٢) حتى يبايعوا ، والسلام » .

وأبى الحسين عليه السلام أن يبايع ليزيد وخرج إلى مكة .

(تاريخ الطبرى ٦ : ١٨٨)

---

(١) خوله الله تعالى المال : أعطاه إياه متفضلا .   (٢) الرخصة : التسهيل .

صورة أخرى

وروى ابن قتيبة فى الإمامة والسياسة ، قال :

مات معاوية وكان يزيد غائباً ، فلما قدم دمَشْقَ بعد موت أبيه كتب إلى عامل المدينة[1] :

« أما بعد : فإن معاوية بن أبى سفيان كان عبداً استخلفه الله على العباد ، ومكّن له فى البلاد ، وكان من حادثِ قضاءِ الله « جَلَّ ثَناؤه ، وتقدَّسَتْ أسماؤه » فيه ماسَبَق فى الأوّلين والآخرين ، لم يَدْفع عنه مَلَكٌ مُقرّب ، ولا نبى مُرْسَل ، فعاش حميداً ، ومات سعيداً ، وقد قلّدَنا اللهُ عزّ وجل ما كان إليه ، فيالها مصيبةً ما أجلّها ! ونعمةً ما أعظمَها ! نَقْلُ الخلافة ، وفَقْد الخليفة ، فنَستَوْزِعه[2] الشكرَ ، ونَسْتَلهِمُه الحمدَ ، ونسأله الخِيَرة[3] فى الدّارَيْن معا ، ومحمودَ العُقْبَى فى الآخرة والأولَى ، إنه ولِيُّ ذلك ، وكلُّ شيء بيده لاشريك له .

وإن أهلَ المدينة قومنا ورجالنا ومَن لم نزل على حُسْنِ الرأى فيهم ، والاستعداد بهم ، واتباع أثَرِ الخليفة فيهم ، والاحتذاء على مثاله لديهم ، من الإقبال عليهم ، والتقبُّل من مُحْسنهم ، والتجاوز عن مسيئهم ، فبايع لنا قَوْمَنا ومَن قِبَلَك من رجالنا

---

(١) نص عبارته « كتب إلى خالد بن الحكم وهـــو عامل المدينة » وهو خطأ ، إذا لايعرف من ولاة المدينة فى هذا العهد وال بذلك الاسم ، ولعل الأصل « إلى مروان بن الحكم » وهذا خطأ أيضاً ، أجل إن مروان ولى المدينة فى خلافة معاوية ، ولكن وليها حين وفاته هو الوليد بن عتبة بن أبى سفيان كما تقدم لك فى الكتاب السابق — عن تاريخ الطبرى — وجاء أيضاً فى صبح الأعشى ج ٤ : ص ٢٩٥ « ولى معاوية على المدينة سنة ٤٢ هـ مروان بن الحكم ، ثم عزله سنة ٤٩هـ وولى مكانه سعيد بن العاص ، ثم عزله سنة ٥٤ هـ ورد إليها مروان بن الحكم ، ثم عزله سنة ٥٩ هـ وولى مكانه الوليد بن عتبة بن أبى سفيان ثم عزله يزيد عن المدينة والحجاز ، وولى مكانه عمرو بن سعيد الأشدق ، ثم عزله سنة ٦١ هـ وعاد الوليد بن عتبة » .

(٢) أستوزع الله تعالى شكره : استلهمه .

(٣) تخير الشىء : اختاره ، والاسم الخيرة بسكون الياء وبفتحها والأخيرة أعرف وهى الاسم من قولك اختاره الله تعالى .

بَيْعه منشرحة بها صدورُكم ، طَيِّبَةً عليها أنفُسُكم ، وليكن أوّل مَن يبايعك من قومنا وأهلنا الحسين ، وعبد الله بن عمر ، وعبد الله بن عباس ، وعبد الله بن الزبير ، وعبد الله بن جعفر ، ويَحلفون على ذلك بجميع الأيمان اللازمة ، ويحلفون بصَدَقَةِ أموالهم غيرِ عُشْرِها ، وحُرِّيَة[1] رَقيقهم ، وطَلَاق نسائهم ، بالثَّبات على الوفاء بمـا يُعطون من بَيْعتهم ، ولا قُوَّةَ إلا بالله والسلام » .

(الإمامة والسياسة ١ : ١٤٩)

٧٤ – كتاب أهل الكوفة إلى الحسين بن على

واجتمعت الشِّيعة بالكوفة فى منزل سليمان بن صُرَد ، فذكروا هلاك معاوية ، فحمدوا الله عليه ، فقال سليمان : إن معاوية قد هلك ، وإن حسينا قد تقَبَّضَ على القوم ببيعته ، وقد خرج إلى مكة ، وأنتم شيعته وشيعة أبيه ، فإن كنتم تعلمون أنكم ناصروه ومجاهِدُو عدوه فاكتبوا إليه ، وإن خفتم الوَهَل[2] والفشَل فلا تغُرّوا الرجل من نفسه » قالوا : لا ، بل نقاتل عدوه ، ونقتل أنفسنا دونه ، قال : فاكتبوا إليه ، فكتبوا إليه :

« بسم الله الرحمن الرحيم ، لحسين بن علىّ من سليمان بن صُرَد ، والمسَيَّب ابن نَجَبَة ، ورِفاعة بن شَدّاد ، وحَبِيب بن مُظاهِر ، وشيعته من المؤمنين والمسلمين من أهل الكوفة .

سلام عليك ، فإنا نَحمَد إليك اللهَ الذى لا إله إلا هو ، أما بعد : فالحمد لله الذى قَصَم عدوَّك الجبَّارَ العَنِيدَ الذى انْتَزَى[3] على هذه الأمة ، فابتزَّها أمرَها ، وغَصَبَها فَيْئَها ، وتأمَّر عليها بغير رِضًى منها ، ثم قتل خِيارَها ، واستبقَى شِرارَها ، وجعل مال الله

---

(١) فى الأصل « وجزية » وهو تصحيف . (٢) الوهل : الضعف والفزع والفشل .

(٣) انتزى : وثب ، وابتزها : سلبها .

دُولةً[١] بين جَبَابِرتها وأغنيائها ؛ فبُعْداً له كما بَعِدت[٢] ثمود .

إنه ليس علينا إمام فاقدَم علينا لعلّ ألله أن يجمَعنا بك على الهدى ، والنعمانُ بن بَشِير فى قصر الإمارة ، لسنا نجتمع معه فى جُمعة ، ولا نخرج معه إلى عيد ، ولو قد بلغَنا أنك قد أقبلتَ إلينا أخرجناه من الكوفة حتى نلحقه بالشأم ، والسلام ورحمة الله عليك » .

ثم سرّحوا بالكتاب مع عبد الله بن سبع الهَمْدانى ، وعبد الله بن وَال ، وأمروهما بالنَّجاء[٣] ، فخرج الرجلان مسرِعَيْن حتى قَدِما على حسين لعشرٍ مَضَين من رمضان بمكة ، ثم سَرّحُوا إليه قيس بن مُسْهِرٍ الصَّيداوى ، وعبد الرحمن بن عبد الله الأَرْحَبِىّ ، وعُمَارة بن عُبَيد السَّلُولىّ ، فحملوا معهم نحوا من ثلاث وخمسين صحيفة ، من الرجل والاثنين والأربعة .

(تاريخ الطبرى ٦ : ١٩٧ ، والإمامة والسياسة ٢ : ٣ ، وتاريخ الكامل لابن الأثير ٤ : ٨)

٧٥ — كتاب ثان

ثم سرّحوا إليه هانئ بن هانئ السَّبِيعى ، وسعيد بن عبد الله الحَنَفى ، وكتبوا معهما :

« بسم الله الرحمن الرحيم ، لحسين بن علىّ من شيعته من المؤمنين والمسلمين :

أما بعد : فحَىَّ هَلاَ[٤] ، فإن الناس ينتظرونك ، ولا رأىَ لهم فى غيرك ، فالعجلَ العجلَ ، والسلام عليك » . (تاريخ الطبرى ٦ : ١٩٧)

---

(١) الدولة بالضم فى المال ، يقال : صار الفىء دولة بينهم : يتداولونه يكون مرة لهذا ومرة لهذا . والدولة بالفتح فى الحرب : أن تدال إحدى الفئتين على الأخرى ، يقال : كانت لنا عليهم الدولة ، وقيل هما سواء فيهما يضمان ويفتحان ، قال الفراء فى قوله تعالى « كَىْ لاَ يَكُونَ دُولَةً بَيْنَ الْأَغْنِيَاءِ مِنْكُمْ » قرأها الناس برفع الدال إلا السلمى فيما أعلم فإنه قرأها بنصب الدال .

(٢) البعد بالضم والبعد محركة : النأى والهلاك ، وفعلهما ككرم وكفرح .

(٣) النجاء الإسراع .

(٤) حى هلا (بدون تنوين وبه) على كذا وإلى كذا : أى أقبل وأسرع .

٧٦ — كتاب ثالث

وكتب شَبَث بن رِبعِيّ، وحَجّار بن أبجَر ، ويزيد بن الحارث ، ويزيد بن رُوَيم، وعَزْرَة بن قيس ، وعمرو بن الحجّاج الزُّبيدِيّ، ومحمد بن عُمَير التميمىّ :

« أما بعد : فقد اخضرّ الجَنَابُ ، وأينعَت الثِّمار ، وطَمَت الجِمَامُ[1] ، فإذا شئتَ فاقدَمْ على جُندٍ لك مُجَنَّد ، والسلام عليك » . (تاريخ الطبرى ٦ : ١٩٧)

٧٧ — رد الحسين على أهل الكوفة

وتلاقت الرُّسُل كلها عنده ، فقرأ الكتب ، وسأل الرسل عن أمر الناس ، ثم كتب مع هانئ بن هانئ السَّبِيعى ، وسعيد بن عبد الله الحنفى — وكانا آخر الرسل — :

« بسم الله الرحمن الرحيم ، من حسين بن على إلى المَلَأ من المؤمنين والمسلمين ، أما بعدُ : فإن هانِئاً وسَعِيداً قَدِما علىّ بكتبكم ، وكانا آخرَ مَن قَدِم علىّ من رُسُلكم ، وقد فهمتُ كل الذى اقتصَصْتم وذكرتمُ ومقالةَ جُلِّكم : « إنه ليس علينا إمامٌ فأَقْبِلْ لعل الله أن يجمعنا بك على الهدى والحق » وقد بعثت إليكم أخى وابنَ عمى[2] ، وثِقَتى من أهل بيتى ، وأمرته أن يكتب إلىّ بحالكم وأمرِكم ورأيكم ، فإن كتب إلىّ أنه قد أجمع رأىُ مَلَئِكم ، وذوى الفضل والحِجا منكم على مثلِ ما قَدِمَتْ علىّ به رُسُلكم ، وقرأتُ فى كتبكم ، أَقْدَمْ عليكم وَشِيكاً[3] إن شاء الله ، فلعمرِى ما الإمامُ إلا العامِلُ بالكتاب ، والآخذ بالقِسط ، والدائن بالحق ، والحابسُ نفسَه على ذاتِ الله ، والسلام » .

(تاريخ الطبرى ٦ : ١٩٧ ، وتاريخ الكامل لابن الأثير ٤ : ٨)

---

(١) الجمام : جمع جم بالفتح ، وهو معظم الماء . وطمى الماء : علا . وطم : غمر .

(٢) يعنى إليهم ابن عمه مسلم بن عقيل . (٣) سريعاً .

٧٨ - كتاب مسلم بن عقيل إلى الحسين

وبعث الحسين عليه السلام إلى ابن عمه مُسْلِم بن عَقيل بن أبى طالب ، فقال له . سر إلى الكوفة فانظر ما كتبوا به إلىّ ، فإن كان حقًّا خرجنا إليهم ، فخرج مسلم حتى أتى المدينةَ ، واستأجر دَليلين من قيس ، فأقبلا به فضَلاَّ الطريقَ وجارا ، وأصابهم عطش شديد ، فكتب مسلم مع قيس بن مُسْهِر الصَّيداوى إلى الحسين :

« أما بعد : فإنى أقبلتُ من المدينة ، معى دَليلان لى ، فجارا عن الطريق وضَلاّ ، واشتد علينا العطشُ، فلم يلبثا أن ماتا، وأقبلْنا حتى انتهيا إلى الماء، فلم نَنْجُ إلا بحُشَاشة[1] أنفسنا، وذلك الماء بمكان يُدْعَى المَضِيقَ من بطن الخُبَيْتِ، وقد تطيّرت من وجهى هذا، فإن رأيتَ أعفيْتنى منه وبعثتَ غيرى ، والسلام » . (تاريخ الطبرى ٦ : ١٩٨)

٧٩ - رد الحسين على مسلم

فكتب إليه الحسين :

« أما بعد : فقد خشِيتُ ألا يكون حَمَلَك على الكتاب إلىّ فى الاستعفاء من الوجه الذى وجّهْتُك له إلا الجبنُ ، فامضِ لوجهك الذى وجهتك له ، والسلام عليك » .

(تاريخ الطبرى ٦ : ١٩٨)

٨٠ - كتاب عبد الله بن مسلم الحضرمى إلى يزيد

ثم أقبل مسلم حتى دخل الكوفة ، فنزل دار المختار بن أبى عُبَيْدٍ ، وأقبلت الشيعة تختلف إليه ، فبلغ ذلك النعمان بن بشير والى الكوفة فخطب الناس وحثّهم ألا يسارعوا إلى الفتنة والفرقة ، فقام إليه عبد الله بن مُسْلِم الحضرمى حليف بنى أُمَيّة وضعّفه[2] ، وخرج عبد الله وكتب إلى يزيد بن معاوية :

---

(١) الحشاشة : بقية الروح فى المريض والجريح .

(٢) نسبه إلى الضعف .

« أما بعد : فإن مسلم بن عقيل قد قَدِمَ الكوفة ، فبايعته الشيعة للحسين بن على ، فإن كان لك بالكوفة حاجة فابعث إليها رجلاً قويًّا ، ينفّذ أمرك ، ويعمل مثل عملك فى عدوك ، فإن النعمان بن بشير رجل ضعيف ، أو هو يتضعّف » :

فكان أولَ من كتب إليه ، ثم كتب إليه عُمارة بن عُقْبة بنحوٍ من كتابه ، ثم كتب إليه عمر بن سعد بن أبى وقّاص بمثل ذلك » . (تاريخ الطبرى ٦ : ١٩٩)

٨١ — كتاب يزيد إلى عبيد الله بن زياد

فلما اجتمعت الكتب عند يزيد ، بعث إلى عُبَيد الله بن زياد بعهده على الكوفة ، وكان عاملا له على البصرة ، فضم إليه المِصْرين ، وكتب إليه :

« أما بعد : فإنه كتب إلىّ شِيعَتى من أهل الكوفة ، يخبروننى أن ابن عَقِيل بالكوفة يجمع الجموع لشَقِّ عَصَا[1] المسلمين ، فسِرْ حين تقرأ كتابى هذا ، حتى تأتى أهل الكوفة ، فتطلبَ ابن عقيل كطلب الخَرَزَة حتى تَثْقَفَه[2] فتُوثِقَه ، أو تقتله ، أو تَنفِيَه ، والسلام » .

فاستخلف عبيد الله أخاه عثمان بن زياد على البصرة وأقبل إلى الكوفة » .

(تاريخ الطبرى ٦ : ٢٠٠)

٨٢ — كتاب الحسين إلى أهل البصرة

وقد كان الحسين كتب مع مَوْلًى لهم يقال له سليمان كتاباً إلى أهل البصرة ، إلى رءوس الأخماس ، وإلى الأشراف ، فكتب إلى مالك بن مِسْمَع البكرى ، وإلى الأحنف بن قيس ، وإلى المُنْذِر بن الجارُود ، وإلى مسعود بن عمرو ، وإلى قيس بن

---

(١) شق فلان العصا : مثل يضرب لمفارقة الجماعة ومخالفتهم ، والأصل فى العصا الاجتماع والائتلاف وذلك أنها لا تدعى عصا حتى تكون جميعا ، فإن انشقت لم تدع عصا ، قالوا وأصل هذا أن الحاديين يكونان فى رفقة ، فإذا فرقهم الطريق شقت العصا التى معهما فأخذ هذا نصفها وهذا نصفها .

(٢) ثقفه كسمعه صادفه أو أخذه أو ظفر به أو أدركه .

الهَيْثم ، وإلى عُمَر بن عُبَيد الله بن مَعْمَرٍ ، فجاءت منه نسخة واحدة إلى جميع أشرافها ، وهى :

« أما بعد : فإن الله اصطفى محمداً صلى الله عليه وسلم على خَلْقه ، وأكرمه بنُبُوَّته ، واختاره لرسالته ، ثم قَبَضه الله إليه ، وقد نَصَح لعباده ، وبلَّغ ما أُرْسِل به صلى الله عليه وسلم ، وكنا أهلَه وأولياءه وأوصياءه وورَثَته ، وأحقَّ الناس بمَقَامه فى الناس ، فاستأثَر علينا قومُنا بذلك ، فرضِينا ، وكَرِهْنا الفُرْقَةَ ، وأحبَبْنا العافية ونحن نعلم أنّا أحق بذلك الحق المستحَق علينا مِمَّن تولاه ، وقد أحسنوا وأصلحوا وتحرَّوا الحقَّ فرحِمَهم الله ، وغفر لنا ولهم .

وقد بعثتُ رسولى إليكم بهذا الكتاب ، وأنا أدعوكم إلى كتاب الله ، وسنة نبيه صلى الله عليه وسلم ، فإنّ السُّنَّةَ قد أُمِيتَت ، وإنّ البدعة قد أُحْيِيت ، وإن تسمعوا قولى وتطيعوا أمرى أَهْدِكم سبيلَ الرشاد ، والسلام عليكم ورحمة الله » :

فكل من قرأ ذلك الكتاب من أشراف الناس كتَمه غير المنذر بن الجارود ، فإنه خشِىَ بِزَعْمه أن يكون دَسِيساً من قِبَل عبيد الله ، فجاءه بالرسول من العَشِيَّة التى يريد صبيحتَها أن يسبق إلى الكوفة ، وأقرأه كتابه ، فقدم الرسول فضرب عنقه .

(تاريخ الطبرى ٦ : ٢٠٠)

٨٣ — كتاب مسلم بن عقيل إلى الحسين

ودخل عُبَيد الله بن زياد الكوفة ، فتهدَّد الناس وتوعدهم ، وأخذهم أخذاً شديداً ، وبلغ ذلك مسلم بن عقيل فخرج من دار المختار ، ولاذ بدار هانِئ بن عُرْوة المُرادىّ ، وقد كتب مسلم حيث تحول إلى دار هانئ كتابا إلى الحسين مع عابس ابن أبى شَبِيب الشاكرىّ :

« أما بعد : فإن الرَّائد[1] لا يَكْذِبُ أهلَه ، وقد بايعنى من أهل الكوفة ثمانيةَ عشَرَ ألفًا ، فعجِّل الإقبالَ حين يأتيك كتابى ، فإن الناس كلَّهم معك ، ليس لهم فى آل معاوية رأىٌ ولا هوًى والسلام » :

وجدَّ ابنُ زياد فى طلب مسلم بن عقيل حتى ظفِر به فضرب عنقه ، وعنق هانئ .

(تاريخ الطبرى ٦ : ٢١١)

٨٤ — كتاب عبيد الله بن زياد إلى يزيد

ولما قتل ابن زياد مُسلِمًا وهانئًا بعث برءوسهما مع هانئ بن أبى حَيَّة الوادعىّ ، والزُّبير بن الأَرْوَح التميمىّ إلى يزيد بن معاوية ، وأمر كاتبه عمرو بن نافع أن يكتب إلى يزيد بما كان من مسلم وهانئ ، فكتب إليه كتابا أطال فيه — وكان أول من أطال فى الكتب — فلما نظر فيه عبيد الله بن زياد كرِهه وقال : ما هذا التطويل ، وهذه الفُضُول[2] ؟ ! كتب :

« أما بعد : فالحمد لله الذى أخذ لأمير المؤمنين بحقِّه ، وكفاه مُؤْنَةَ عدوه ، أُخبِرُ أمير المؤمنين — أكرمه الله — أن مسلم بن عقيل لجأ إلى دار هانئ بن عُرْوة المُرادىّ ، وأنى جعلت عليهما العيون ، ودَسَسْتُ إليهما الرجال[3] ، وكِدْتهما حتى استخرجتهما ،

---

(١) الرائد : المرسل فى طلب الكلأ .

(٢) جمع فضل ، وهو الزيادة .

(٣) دعا ابن زياد مولى له يقال له معقل ، فقال : خذ ثلاثة آلاف درهم ، ثم اطلب ابن عقيل وأصحابه وأعطهم إياها فقل لهم : استعينوا بها على حرب عدوكم ، وأعلمهم أنك منهم ، فإنك ، لو قد أعطيتها إياهم اطمأنوا إليك ووثقوا بك ، ولم يكتموك شيئاً من أخبارهم ، ثم اغد عليهم ورح ، ففعل معقل ما أمره به ، وتلطف حتى دخل على ابن عقيل ، فبايعه وأعطاه المال ، وجعل يختلف إليهم ، فهو أول داخل وآخر خارج ، يسمع أخبارهم ، ويعلم أسرارهم ، ثم ينطلق بها حتى يقرها فى أذن ابن زياد .

وكان هانئ يغدو ويروح إلى عبيد الله ، فلما نزل به مسلم انقطع من الاختلاف وتمارض فجعل لا يخرج ، فقال عبيد الله لجلسائه : مالى لا أرى هانئا ؟ فقالوا : هو شاك ، فقال : لو علمت بمرضه لعدته ، وجاءه بعض أصحابه فقالوا : ما يمنعك من لقاء الأمير ، فإنه قد ذكرك ؟ وأقسموا عليه لما ركب معهم ، فأجابهم ، فلما دخل على ابن زياد قال له : إيه يا هانئ ، ما هذه الأمور التى تربص فى دارك لأمير المؤمنين وعامة المسلمين ؟ جئت =

وأمكن اللهُ منهما ، فقدّمتهما فضربتُ أعناقهما ، وقد بعثتُ إليك برءوسهما مع هانئ ابن أبي حية الهَمْداني والزبير بن الأروح التميمي ، وهما من أهل السمع والطاعة والنصيحة ، فلْيَسْألهما أمير المؤمنين عما أحبَّ من أمر ، فإنَّ عندهما علماً وصدقا ، وفهماً ووَرَعًا ، والسلام » . (تاريخ الطبري ٦ : ٢١٤)

٨٥ — رد يزيد على ابن زياد

فكتب إلى ابن زياد :

« أما بعد : فإنك لم تَعْدُ أن كنتَ كما أحبُّ ، عمِلْتَ عملَ الحازم ، وصُلْتَ صَوْلةَ الشجاع الرابطِ الجَأْشِ(١) ، فقد أغنيتَ وكفيتَ ، وصدَّقت ظني بك ، ورأيي فيك ، وقد دعوتُ رسوليك فسألتهما وناجيتهما فوجدتهما في رأيهما وفضلهما كما ذكرتَ ، فاستوْصِ بهما خيراً .

وإنه قد بلغني أن الحسين بن عليّ قد توجّه نحو العراق ، فضَعِ المَنَاظِرَ(٢) والمَسَالِحَ ، واحترِسْ على الظن ، وخذ على التُّهَمَةِ ، غير أنْ لا تقتل إلا من قاتَلَك ، واكتب إليّ في كل ما يحدُثُ من الخَبَر ، والسلام عليك ورحمة الله » . (تاريخ الطبري ٦ : ٢١٣)

٨٦ — كتاب عبد الله بن جعفر إلى الحسين

ولما جاء الحسينَ عليه السلام كتابُ مسلم بن عَقِيل ، يدعوه فيه إلى تعجيل الإقبال ، خرج من مكة قاصِداً إلى الكوفة :

= مسلم بن عقيل فأدخلته دارك ، وجمعت له السلاح والرجال في الدور حولك ، وظننت أن ذلك يخفى علي لك؟ قال : ما فعلت وما مسلم عندي ، قال : بل قد فعلت ، قال : ما فعلت ، قال بلى ، فلما كثر ذلك بينهما ، وأبى هانىء إلا مجاحدته ومناكرته ، دعا ابن زياد معقلا ، فجاء حتى وقف بين يديه ، فقال : أتعرف هذا ؟ قال : نعم ، وعلم هانىء عند ذلك أنه كان عينا عليهم وأنه قد أتاه بأخبارهم .

(١) الجأش : النفس أو القلب ، وربط جأشه رباطة (ككتابة) : اشتد قلبه ، وهو رابط الجأش وربيطه : شجاع ، يربط نفسه عن الفرار يكفها لجرأته وشجاعته ، وقيل يربط نفسه عن الفرار لشناعته

(٢) المناظر جمع منظرة وهي المرقبة : موضع في رأس جبل فيه رقيب ينظر العدو ، والمسالح جمع مسلحة وهي الرقبة أيضاً والقوم ذوو سلاح .

وقد كتب إليه حين خرج من مكة عبد الله بن جعفر بن أبى طالب مع ابنيه عَوْن ومحمد :

« أما بعدُ : فإنى أسألك بالله لَمّا انصرفتَ حين تنظرُ فى كتابى ؛ فإنى مُشْفِق عليك من الوجه الذى تَوَجّهْ له أن يكون فيه هلاكُك واستئصالُ أهل بيتك ، إنْ هلكتَ اليوم طَفِئ[1] نورُ الأرض ، فإنك عَلَمُ المهتدين ، ورجاء المؤمنين . فلا تعجَلْ بالسير فإنى فى إثْرِ الكتاب والسلام » .

(تاريخ الطبرى ٦ : ٢١٩ ، وتاريخ الكامل لابن الأثير ٤ : ٧)

٨٧ — كتاب من عمرو بن سعيد بن العاص إلى الحسين

وقام عبد الله بن جعفر إلى عمرو بن سعيد بن العاص — وكان عامل يزيد على مكة — فقال له : اكتب إلى الحسين كتاباً : تجعل له فيه الأمانَ ، وتمنّيه فيه البرَّ والصلةَ ، وتوثّق له فى كتابك ، وتسأله الرجوع ، لعله يطمئن إلى ذلك فيرجع ، فقال له عمرو : اكتب ما شئت وأتنى به أختِمه ، فكتب عبد الله بن جعفر الكتاب ، ثم أتى به عمرو ابن سعيد ، فقال له : اختِمه وابعث به مع أخيك يحيى بن سعيد ، فإنه أحْرَى أن تطمئنّ نفسه إليه ، ويعلم أنه الجِدُّ منك ففعل ، وكان كتابه إليه :

« بسم الله الرحمن الرحيم ، من عمرو بن سعيد إلى الحسين بن علىّ .

أما بعدُ : فإنى أسألُ اللهَ أن يَصْرِفك عما يُوبِقُك[2] ، وأن يَهْدِيَك لما يُرْشِدك ، بلغَنى أنك قد توجّهت إلى العراق ، وإنى أُعيذك بالله من الشِّقاق ، فإنى أخاف عليك فيه الهلاكَ ، وقد بعثت إليك عبد الله بن جعفر ، ويحيى بن سعيد ، فأقبِلْ إلىّ معهما ، فإن لك عندى الأمانَ والصلةَ والبر ، وحُسْنَ الجِوار ، لك الله علىّ بذلك شهيد وكفيل ومُراعٍ ووكيل ، والسلام عليك » .

---

(١) طفئت النار كسمع انطفأت . (٢) أوبقه : أهلكه .

ولحقه يحيى بن سعيد ، وعبد الله بن جعفر ، ودفعا إليه الكتاب ، وجَهَدا به أن يرجع ، فأبى عليهما . (تاريخ الطبرى ٦ : ٢١٩)

٨٨ — رد الحسين بن علىّ على عمرو بن سعيد

وكتب إلى عمرو بن سعيد :

« أما بعدُ : فإنه لم يشاقِقِ اللهَ ورسولَه من دعا إلى الله عزّ وجل : وَعَمِلَ صَالِحاً وَقَالَ إِنَّنِي مِنَ الْمُسْلِمِينَ ، وقد دعوتَ إلى الأمان والبر والصلة ، فخيرُ الأمان أمانُ الله ولن يُؤْمِنَ اللهُ يومَ القيامة مَن لم يُخِفْه فى الدنيا ، فنسأل اللهَ مخافةً فى الدنيا تُوجِبُ لنا أمانة يوم القيامة ، فإن كنتَ نويتَ بالكتاب صِلَتى وبرى فجُزيتَ خيراً فى الدنيا والآخرة والسلام » . (تاريخ الطبرى ٦ : ٢١٩)

٨٩ — كتاب الحسين إلى أهل الكوفة

وأقبل الحسين عليه السلام حتى إذا بلغ « الحاجِرَ » بعث قيس بن مُسْهِر الصَّيداوى إلى أهل الكوفة ، وكتب معه إليهم :

« بسم الله الرحمن الرحيم ، من الحسين بن علىّ إلى إخوانه من المؤمنين والمسلمين ، سلام عليكم ، فإنى أحمَد إليكم الله الذى لا إله إلا هو .

أما بعد : فإن كتاب مسلم بن عقيل جاءنى يُخبرنى فيه بحُسْن رأيكم ، واجتماع مَلَئِكم على نصرنا ، والطلب بحقنا ، فسألتُ اللهَ أن يُحسِن لنا الصُّنْعَ ، وأن يُثيبَكم على ذلك أعظمَ الأجر ، وقد شخَصْتُ إليكم من مكةَ يوم الثلاثاء لِثمانٍ مَضَيْن من ذى الحِجَّة يوم التَّرْوية[1] ، فإذا قَدِم عليكم رسولى فاكْمُشُوا[2] فى أمركم وجِدُّوا ، فإنى قادمٌ

---

(١) هو ثامن ذى الحجة ، سمى بذلك لأن الماء كان قليلا بمنى فكانوا يرتوون فيه من الماء لما بعد .
(٢) كمش فى أمره كفرح وكرم : جد .

عليكم فى أيامى هذه إن شاء الله ، والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته[١] » .

(تاريخ الطبرى ٦ : ٢٢٣)

٩٠ — كتاب ابن زياد إلى الحر بن يزيد

ولما بلغ ابنَ زياد إقبالُ الحسين ، بعث الُحصَيْن بن نُمَيْر التميمى ، فأمره أن ينزل القادِسيَّة ، وأن يضع المَسَالِحَ ، وقدَّم الُحرَّ بن يزيد التميمى بين يديه فى ألف فارس من القادسية ، فيستقبل حسيناً ، وكان الحسين قد سبقه إلى ذى حُسُم ونزل به ، فسار إليه الُحرُّ حتى وقف مقابِلَه ، وكثر بينهما الكلام ، ثم سار الحسين فى أصحابه ، والُحرُّ يسايره ، فلم يزالوا يتسايرون حتى انتهوا إلى نِينَوَى ، فإذا رسولٌ مُقْبل من الكوفة ، فلما انتهى إليهم دفع إلى الُحرِّ كتابا من عبيد الله بن زياد ، فإذا فيه :

« أما بعدُ : فَجَعْجِعِ[٢] بالحسين حين يَبْلُغك كتابى ، ويَقْدَمُ عليك رسولى ، فلا تُنْزِله إلا بالعَرَاء[٣] فى غير حِصْن ، وعلى غير ماء ، وقد أمرتُ رسولى أن يَلْزَمك ولا يفارقَك حتى يأتيَنى بإنفاذك أَمْرِى ، والسلام » .

ونزل الحسين قرية تسمَّى العَقْر ، وذلك فى الثانى من المحرم سنة ٦١ هـ .

(تاريخ الطبرى ٦ : ٢٣٢)

٩١ — كتاب عمر بن سعد إلى ابن زياد

فلما كان من الغَدِ قدِم عليهم عمر بن سعد بن أبى وَقَّاص من الكوفة فى أربعة آلاف ، فبعث إلى الحسين عليه السلام رسولا ، فقال : ائته فَسَلْه ما الذى جاء به ، وماذا يريد ؟

(١) وأقبل قيس بن مسهر إلى الكوفة بكتاب الحسين ، حتى إذا انتهى إلى القادسية ، أخذه الحصين بن نمير ، فبعث به إلى ابن زياد ، فقال له : اصعد القصر فسب الكذاب ابن الكذاب ، فصعد ثم قال : أيها الناس : إن هذا الحسين بن على خير خلق الله ، ابن فاطمة بنت رسول الله ، وأنا رسوله إليكم ، وقد فارقته بالحاجر فأجيبوه ، ثم لعن عبيد الله بن زياد وأباه ، واستغفر لعلى بن أبى طالب ، فأمر به ابن زياد أن يرمى به من فوق القصر فرمى به فتقطع فمات .

(٢) أى احبسه وضيق عليه ، والجعجعة : الحبس والتضييق ، وقيل معناه : أزعجه وأخرجه ، وجعجع به أيضاً : أناخ به وألزمه الجعجاع «مكان جعجع وجعجاع : ضيق خشن غليظ» .

(٣) العراء : الفضاء لا يستتر فيه بشىء .

فأبلغه الرسول رسالة عمر إليه ، فقال له الحسين : كتب إلىّ أهل مِصْركم هذا أن أقدَم، فأمّا إذ كَرِهونى فأنا أنصرف عنهم ، فكتب عمر إلى ابن زياد :

«بسم الله الرحمن الرحيم، أما بعد فإنى حيث نزلت بالحسين بعثتُ إليه رسولى فسألته عما أقدمه وماذا يطلب ويسأل، فقال: كتب إلىّ أهلُ هذه البلاد، وأتتنى رسلهم فسألونى القدوم، ففعلت، فأمّا إذ كرهونى، فبدا لهم غيرُ ما أتتنى به رسلهم، فأنا منصرف عنهم».

فلما قرئ الكتاب على ابن زياد قال :

الآنَ إذ عَلِقَتْ مخالبُنــــا به يَرْجُو النجاةَ ولاتَ حِينَ مَناصِ [1]

(تاريخ الطبرى ٦ : ٢٣٤)

٩٢ — رد ابن زياد على عمر بن سعد

وكتب إلى عمر بن سعد :

« بسم الله الرحمن الرحيم ، أما بعدُ : فقد بلغنى كتابُك ، وفهمت ما ذكرت ، فاعْرِض على الحسين أن يبايع ليزيد بن معاوية هو وجميع أصحابه ، فإذا فعل ذلك رَأَيْنا رَأْيَنَا والسلام » . (تاريخ الطبرى ٦ : ٢٣٤)

٩٣ — كتاب آخر من ابن زياد إلى عمر

وجاء من عبيد الله بن زياد كتاب إلى عمر بن سعد :

« أما بعدُ : فحُلْ بين الحسين وأصحابه وبين الماء ، ولا يذوقوا منه قَطرة ، كما صُنِع بالتَّقِيّ الزَّكِيّ [2] المظلوم أمير المؤمنين عثمان بن عفان » .

فبعث عمر بن سعد عمرو بن الحجاج على خمسمائة فارس، فنزلوا على الشريعة [3]، وحالوا بين حسين وأصحابه ، وبين الماء أن يُسْقَوا منه قطرةً ، وذلك قبل قتل الحسين بثلاث .

(تاريخ الطبرى ٦ : ٢٣٤)

---

(١) أى فرار ، ناص نوصا ومناصا .   (٢) أى الصالح من زكا يزكو زكاء : إذا صلح .
(٣) الشريعة والشرعة (بالكسر) والمشرعة : مورد الشاربة .

٩٤ — كتاب عمر بن سعد إلى ابن زياد

والتقى الحسين عليه السلام ، وعمر بن سعد مرارا ثلاثا أو أربعاً ، ثم كتب عمر إلى ابن زياد :

«أما بعدُ : فإن الله قد أطفأ النائرة[1] ، وجَمع الكلمة ، وأصلح أمر الأمة ، هذا حُسَيْنٌ قد أعطانى أن يرجع إلى المكان الذى منه أتى ، أو أن نُسَيِّرَه إلى أى ثَغْر من ثغور المسلمين شِئْنا ، فيكونَ رجلا من المسلمين له ما لهم وعليه ما عليهم ، أو أن يأتى يزيدَ أمير المؤمنين ، فيضعَ يده فى يده ، فيرى فيما بينه وبينه رأيَه ، وفى هذا لكم رضاً ، وللأمة صلاحٌ » .

فلما قرأ عبيد الله الكتابَ قال : هذا كتاب رجل ناصحٍ لأميره ، مُشفقٍ على قومه ، نعم قد قبلْتُ ، فقام إليه شِمر بن ذى الجَوْشَن فثناه عن القبول[2] ، فدعاه عبيد الله فقال له : اخرج بهذا الكتاب إلى عمر بن سعد فلْيعرِض على الحسين وأصحابه النزولَ على حكمى ، فإن فعلوا فليبعث بهم إلىّ سِلما ، وإن هم أبَوا فليقاتلهم ، فإن فعل فاسمع له وأطع ، وإن هو أبى فقاتلهم فأنت أمير الناس ، وثِب عليه فاضرب عنقه ، وابعث إلىّ برأسه .

(تاريخ الطبرى ٦ : ٢٣٥)

٩٥ — كتاب ابن زياد إلى عمر بن سعد

وكان كتاب عبيد الله بن زياد إلى عمر بن سعد :

« أما بعدُ : فإنى لم أبْعَثْك إلى حسين لتَكُفَّ عنه ، ولا لِتُطاوِلَه ، ولا لتُمَنِّيَه السلامة والبقاء ، ولا لتقعُدَ له عندى شافعاً ، انظر فإن نزل حسين وأصحابه على الحُكم

(١) النائرة : العداوة والشحناء .

(٢) إذ قال له : أتقبل هذا منه وقد نزل بأرضك إلى جنبك ؟ والله لئن رحل من بلدك ولم يضع يده فى يدك ، ليكونن أولى بالقوة والعز ، ولتكونن أولى بالضعف والعجز ، فلا تعطه هذه المنزلة فإنها من الوهن ، ولكن لينزل على حكمك هو وأصحابه ، فإن عاقبت فأنت ولى العقوبة ، وإن غفرت كان ذلك لك ، فقال له ابن زياد : نعم ما رأيت . الرأى رأيك .

وَاستسلموا، فابعث بهم إلىّ سِلما ، وإن أبَوْا فازْحَف إليهم حتى تقتلَهم وتُمثِّلَ بهم ، فإنهم لذلك مستحقون، فإن قُتِل حسين فأَوْطِ الخيلَ صدرَه وظهره، فإنه عاقٌّ مُشَاقٌّ قاطع ظَلوم، وليس دَهْرِى(١) فى هذا أنْ يُضرَّ بعد الموت شيئًا، ولكنْ علىَّ قولٌ(٢) لو قد قتلتُه فعلتُ هذا به ، إن أنت مضيتَ لأمرنا فيه جزَيناك جزاءَ السامع المطيع ، وإن أبيتَ فاعتزِلْ عملَنا وجُنْدنا، وخَلِّ بين شَمِر بن ذى الجَوْشن وبين العسكر، فإنا قد أمرناه بأمرنا ، والسلام » .

فأقبل شمر بن ذى الجوشن بكتاب ابن زياد إلى عمر بن سعد فقرأه عليه وقال له : أخبرنى ما أنت صانع ؟ أتمضى لأمر أميرك وتقتل عدوه ؟ وإلَّا فخلِّ بينى وبين الجند قال : لا ، ولا كرامةَ لك وأنا أتولى ذلك ، قال فدونك فنهض إليه عشية الخميس لتسع مضَين من المحرم وزحف عليه، وعبَّأ الحسين أصحابه، ونَشِب القتال بين الفريقين ، واستماتت أصحاب الحسين فى القتال حتى فَنُوا، وقتل الحسين عليه السلام قتله سنان بن أنس لعنه الله — وكان قتله بالطَّفِّ(٣) يوم عاشوراء سنة ٦١ هـ ، وأمر ابن سعد أصحابه أن يُوطِئوا خيلهم الحسينَ ، فوَطِئوه بخيلهم ، ثم حُمل النساء ، ورأسُه إلى يزيد بن معاوية بدمشق .

(تاريخ الطبرى ٦ : ٢٣٦)

٩٦ — كتاب عبد الله بن عمر إلى يزيد

وكان عُبَيد الله بن زياد قد أمر بالمختار بن أبى عُبَيد الثَّقفى أن يُسْجَن ، لما كان من مناصرته لمُسْلِم بن عَقيل ، فلم يزل فى السجن حتى قتل الحسين رضى الله عنه ، ثم إن

---

(١) يقال : مادهرى بكذا ومادهرى كذا : أى ماهمى وغايتى.

(٢) معناه : ولكن لى رأى واعتقاد ، قال فى اللسان « ويتجوزون فى تسميتهم الاعتقادات والآراء قولا ، لأن الاعتقاد يخفى فلا يعرف إلا بالقول ، أو بما يقوم مقام القول من شاهد الحال، فلما كانت لاتظهر إلا بالقول سميت قولا إذ كانت سببا له ، وكان القول دليلا عليها كما يسمى الشىء باسم غيره إذا كان ملابسا له » وقال فى اللسان أيضا : قال ابن الأثير : « العرب تجعل القول عبارة عن جميع الأفعال ، وتطلقه على غير الكلام واللسان ، فتقول : قال بيده أى أخذ ، وقال برجله أى مشى ، وقال الشاعر :

* وقالت له العينان سمعا وطاعة * أى أومأت ، وقال بالماء على يده : أى قلب ، وقال بثوب : أى رفعه ، وكل ذلك على المجاز والاتساع » .

(٣) أرض من ضاحية الكوفة فى طريق البرية .

المختار بعث إلى عبد الله بن عمر بن الخطاب بالمدينة ، يسأله أن يكتب له إلى يزيد ابن معاوية ، فيكتب إلى ابن زياد بتخلية سبيله ، وعلمت صَفِيَّة أخت المختار بحبس أخيها ، وهى تحت عبد الله بن عمر ، فبكت وجزِعت ، فلما رأى ذلك ابن عمر كتب إلى يزيد :

« أما بعد : فإن عُبَيد الله بن زياد حبس المختار وهو صِهرى ، وأنا أُحِبُّ أن يُعافَى ويُصْلَحَ من حاله ، فإن رأيتَ « رَحِمَنا الله وإياك » أن تكتب إلى ابن زياد فتأمره بتخليته فعلتَ ، والسلام عليك » . (تاريخ الطبرى ٧ : ٥٩)

٩٧ — كتاب يزيد إلى ابن زياد

فلما قرأ يزيد كتاب ابن عمر ضحك ثم قال: يشفَّع أبو عبد الرحمن، وأهلُ ذلك هو، وكتب إلى ابن زياد :

« أما بعدُ : فخَلِّ سبيل المختار بن أبى عبيد حين تنظر فى كتابى والسلام عليك » .

فدعا ابن زياد بالمختار فأخرجه ، ثم قال له قد أجّلتك ثلاثًا ، فإن أدركتك بالكوفة بعدها ، فقد بَرِئت منك الذِّمة ، فخرج إلى الحجاز .

(تاريخ الطبرى ٧ : ٥٩)

٩٨ — كتاب عبد الله بن الزبير إلى يزيد

وعزل يزيد بن معاوية عمرو بن سعيد بن العاص عن الحجاز[١] ، وولَّى الوليدَ ابن عُتْبة (سنة ٦١ هـ) فكتب عبد الله بن الزبير إلى يزيد :

---

(١) وذلك أنه لما قتل الحسين عليه السلام ، قام عبد الله بن الزبير فى أهل مكة وعظم مقتله ، فثار إليه أصحابه ، فقالوا له : أظهر بيعتك ، فإنه لم يبق أحد ، إذ هلك حسين ، ينازعك هذا الأمر — وقد كان يبايع الناس سرا ، ويظهر أنه عائذ بالبيت — فقال لهم : لا تعجلوا ، وعمرو بن سعيد بن العاص يومئذ عامل مكة ، وقد كان أشد شىء عليه وعلى أصحابه ، وكان مع شدته عليهم يدارى ويرفق ، ثم إن الوليد بن عقبة وناسا معه من بنى أمية قالوا ليزيد : لو شاء عمرو بن سعيد لأخذ ابن الزبير وبعث به إليك ، فسرح الوليد بن عقبة على الحجاز أميرا وعزل عمرو بن سعيد.

« إنك بعثتَ إلينا رجلا أخْرَقَ لا يتّجِه لِأَمْر رُشْد ، ولا يَرْعَوى لعِظَة الحكيم ، ولو بعثت إلينا رجلا سَهْلَ الخلق ، ليِّن الكَنَفِ[1] ، رجوتُ أن يسهل من الأمور ما آستوعَرَ[2] منها ، وأن يجتمع ماتفرّق ، فانظر فى ذلك فإن فيه صَلاحَ خواصِّنا وعوامِّنا ، إن شاء الله ، والسلام » .

فعزل يزيدُ الوليدَ بن عُتبة ، وبعث عثمان بن محمد بن أبى سفيان .

(تاريخ الطبرى ٧ : ٣)

٩٩ — كتاب يزيد إلى أهل المدينة

وكَرِه أهل المدينة خلافةَ يزيد ، وأجمعوا على الخِلاف عليه[3] ، فكتب إليه عثمان ابن محمد بن أبى سفيان بذلك ، فكتب يزيد إليهم :

«أما بعدُ فَإِنَّ اللهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّى يُغَيِّرُوا مَا بِأَنْفُسِهِمْ وَإِذَا أَرَادَ اللهُ بِقَوْمٍ سُوءًا فَلَا مَرَدَّ لَهُ وَمَا لَهُمْ مِنْ دُونِهِ مِنْ وَالٍ » وإنى والله قد لَبِستكم فأخْلَقْتكم[4] ، ورفعتكم على رأسى ، ثم على عينى ، ثم على فَمِى ، ثم على بَطْنى ، وَايْمُ اللهِ لَئِن وضعتكم تحت قَدَمى لَأَطَأَنَّكُمْ وَطْأَةً أُقِلّ بها عَدَدَكم ، وأترُككم بها أحاديثَ ، تُنْتَسخُ أخبارُكم مع أخبار عاد وثمود » . (صبح الأعشى ٦ : ٣٩٠ ، والعقد الفريد ٢ : ٢٥٦)

---

(١) الكنف : الجانب . (٢) ماصعب .

(٣) وذلك أن عثمان بن محمد أمير المدينة بعث إلى يزيد وفدا من أهل المدينة فيهم عبد الله بن حنظلة الأنصارى ، فقدموا على يزيد ، فأكرمهم وأحسن إليهم وأعظم جوائزهم ، فلما قدم الوفد المدينة ، قاموا فيهم فأظهروا شتم يزيد وعيبه ، وقالوا : قد قدمنا من عند رجل ليس له دين ، يشرب الخمر ، ويعزف بالطنابير ، ويضرب عنده بالقيان ، ويلعب بالكلاب ، ويسامر الخراب (أى ذوى الخرب بالتحريك وبالضم وهو الفساد فى الدين) والفتيان ، وإنا نشهدكم أنا قد خلعناه ، فتابعهم الناس فخلعوه وأتوا عبدالله ابن حنظلة فبايعوه وولوه عليهم .

وذكروا أن عبد الله بن حنظلة لما وفد على يزيد كان معه ثمانية بنين له ؛ فأعطاه يزيدمائة ألف درهم ، وأعطى بنيه كل واحد منهم عشرة آلاف سوى كسوتهم وحملانهم ، فلما قدم المدينة أتاه الناس فقالوا : ما وراءك؟ قال: جئتكم من عند رجل والله لولم أجد إلا بنى هؤلاء لجاهدته بهم، قالوا: قد بلغنا أنه أجداك وأعطاك وأكرمك ، قال : قد فعل ، وما قبلت ذلك منه إلا لأتقوى به عليه ، وحضض الناس فبايعوه .

(٤) أى أبليتكم ، خلق الثوب كنصر وكرم وسمع: بلى ، فهو خلق كسبب ، وأخلق بالألف لغة وأخلقه أبلاه ، والمراد زهدت فيكم .

١٠٠ — كتاب بنى أمية بالمدينة إلى يزيد

وخلع أهل المدينة يزيد ، وبايعوا عبد الله بن حَنْظَلة الأنصارى ، ووثبوا على من كان بالمدينة من بنى أمية وحصروهم وأخافوهم ، فكتب هؤلاء إلى يزيد :

« بسم الله الرحمن الرحيم ، أما بعدُ : فإنا قد حُصِرنا فى دار مَرْوان بن الحكَم ، ومُنِعْنا العِذَابَ[١] ، ورُمينا بالجَبُوب[٢] ، فياغَوْثاه ، ياغوثاه » .

(تاريخ الطبرى ٧ : ٥)

١٠١ — كتاب مسلم بن عقبة إلى يزيد

فوَجَّه يزيد مُسْلِمَ بن عُقْبةَ المُرِّى إلى المدينة ، فقمع فتنتها ، وأخمد ثورتها ، ثم كتب إلى يزيد :

« بسم الله الرحمن الرحيم ، لعبد الله يزيد بن معاوية أمير المؤمنين من مُسْلِم بن عُقْبَة ، سلام عليك يا أمير المؤمنين ورحمة الله ، فإنى أحمد إليك اللهَ الذى لا إله إلا هو ، أما بعدُ : تولَّى اللهُ حِفظَ أمير المؤمنين والكِفايةَ له ، فإنى أُخْبِر أمير المؤمنين — أبقاه الله — أنِّى خرجت من دمَشق ، ونحن على التَّعبئة التى رأى أميرُ المؤمنين يومَ فِراقنا بِوَادى القُرَى[٣] ، فرجع معنا مَرْوانُ بن الحكم[٤] ، وكان لنا عَوْنا على عدونا ، وأنَّا انتهينا إلى المدينة ، فإذا أهلُها قد خَنْدَقُوا عليها بالخنادق ، وأقاموا على

---

(١) العذب من الشراب والطعام : كل مستساغ والجمع عذاب وعذوب .

(٢) الجبوب : الأرض والتراب ، وفى الأصل « بالحبوب » بالحاء وهو تصحيف .

(٣) وادى القرى : واد بين الشأم والمدينة ، كثير القرى .

(٤) وذلك أن أهل المدينة حين بلغهم إقبال مسلم بن عقبة بالجيش ، قالوا لمن معهم من بنى أمية — وكانوا قد حصروهم فى دار مروان — : والله لا نكف عنكم حتى نستنزلكم ونضرب أعناقكم ، أو تعطونا عهد الله وميثاقه لاتبغونا غائلة ، ولا تدلوا لنا على عورة ، ولا تظاهروا علينا عدوا ، فنكف عنكم ونخرجكم عنا ، فأعطوهم عهد الله وميثاقه لانبغيكم غائلة ، ولا ندل لكم على عورة ، فأخرجوهم من المدينة ، فخرجت بنو أمية بأثقالهم حتى لقوا مسلم بن عقبة بوادى القرى فرجع مروان معه.

أنقابها[١] الرجالَ بالسلاح، وأدخلوا ماشيتهم ، وما يحتاجون لحصارهم سَنَةً فيما يقولون، وأنَّا أعذَرْنا إليهم وأخبرناهم بعهد أمير المؤمنين، وما بَذل لهم فأبَوْا ، ففرّقتُ أصحابى على أفواه الخنادق ، فولّيت الحُصَيْنَ بن نُمَيْر ناحيةَ ذِناب ، وما والاها عليها الوالى ، ووجّهت حُبَيْش بن دَلَجَة إلى ناحية بنى سَلَمة ، ووجهتُ عبد الله بن مَسْعَدة إلى ناحية بَقيع الغَرْقَد ، وكنتُ ومن معى من قوّاد أمير المؤمنين ورجاله فى وجوه بنى حارثة ، فأدخلنا الخيلَ عليهم حين ارتفع النهار من ناحية عبد الأشهل ، بطريق فَتَحه لنا رجلٌ منهم[٢] ، بما دعاه إليه مَرْوَانُ بن الحكم إلى صَنيعِ أمير المؤمنين ، وقد تضمَّن[٣] له عنه من قُرْبِ المكانِ ، وجَزِيل العطاء، وإيجاب الحقّ ، وقضاءِ الذِّمامِ[٤]، وقد بعث به أميرُ المؤمنين ، وأرجو من الله عزّ وجل أن يُلْهِمَ خليفته وعبدَه عِرْفانَ ما أولَى من الصُّنْع ، وأسْدَى من الفضل ، وكان ـ أكرم الله أمير المؤمنين ـ من محمود مَقَامِ مَرْوانَ بن الحكم ، وجميل مَشْهَدِه ، وشديد بأسه ، وعظيم نِكايتِه لعدو أمير المؤمنين ، مالا إخَالُ ذلك ضائعاً عند إمام المسلمين ، وخليفة رب العالمين ، إن شاء الله .

وسلَّم اللهُ رجال أمير المؤمنين ، فلم يُصَب أحد منهم بمكروه ، ولم يُقِم لهم عدوهم ساعةً من ساعات نهارهم، فما صلّيتُ الظهر ـ أصلح الله أمير المؤمنين ـ إلا فى مسجدهم بعد القتل الذريع[٥] ، والانتهاب العظيم ، وأوقعنا بهم السيوفَ ، وقتَلْنا من أشْرَفَ لنا منهم ، واتّبَعْنا مُدْبِرَهم ، وأجْهَزْنا على جريحهم ، وانتهبناها ثلاثاً كما قال

---

(١) جمع نقب : وهو الثقب والثغر .

(٢) وذلك أن مروان جاء بنى حارثة فكلم رجلا منهم ورغبه فى الصنيعة ، وقال افتح لنا طريقا فأنا أكتب بذلك إلى أمير المؤمنين ومتضمن لك عنه شطرما كان بذل لأهل المدينة من العطاء وتضعيفه، ففتح له طريقا ورغب فيما بذل له فاقتحمت الخيل .

(٣) أى التزمه وضمنه . (٤) العهد . (٥) السريع .

أمير المؤمنين[١] — أعز الله نصره — وجعلتُ دُورَ بني الشهيد المظلوم عثمان بن عفان في حِرْز وأمان ، فالحمد لله الذى شفَى صدرى من قتل أهل الخلاف القديم ، والنِّفاق العظيم ، فطالما عَتَوا ، وقديمًا مَا طَغَوا ، وكتبتُ إلى أمير المؤمنين ، وأنا فى منزل سعيد ابن العاص مُدْنَفا مريضًا ، ما أرانى إلا لما بى ، فما كنت أبالى متى مُتُّ بعد يومى هذا » .

وكتب لهلال المحرم سنة أربع وستين[٢] هـ . (الإمامة والسياسة ١ : ١٥٠)

---

(١) وكان يزيد حين ودعه قال له : ادع القوم ثلاثا ، فإن هم أجابوك وإلا فقاتلهم ، فاذا ظهرت عليهم فأبحها ثلاثا فما فيها من مال أو رقة أو سلاح أو طعام فهو للجند ، فاذا مضت الثلاث فاكفف عن الناس ، ولما دخل مسلم المدينة دعا أهلها إلى البيعة على أنهم خول ليزيد يحكم فى دمائهم وأموالهم وأهليهم ماشاء ، وكانت هذه الوقعة تسمى وقعة الحرة بالفتح لأن مسلما حاصر المدينة من جهة الحرة « موضع بظاهر المدينة » ووقعت فى ذى الحجة من سنة ٦٣ هـ ، قيل وكان الرجل من أهل المدينة بعد ذلك إذ زوج ابنته لا يضمن بكارتها ويقول لعلها افتضت فى وقعة الحرة .

(٢) فى الأصل سنة ثلاث وستين وهو خطأ ، لأن وقعة الحرة كانت فى ذى الحجة من سنة ٦٣ هـ لليلتين بقيتا منه .

بعد موت يزيد

الخوارج وابن الزبير

١٠٢ – كتاب نجدة بن عامر إلى نافع بن الأزرق

وسار الخوارج بعد أن نصروا ابن الزبير بمكة إلى الأهواز[١]، وقد أمّروا عليهم نافع ابن الأزرق الحنفي، ثم شجر بينهم الخلاف، فنفر عنه جماعة منهم بزعامة نجدة بن عامر[٢].

---

(١) كور بين البصرة وفارس.

(٢) لما فرغ مسلم بن عقبة من قتال أهل المدينة، شخص إلى مكة لحرب عبد الله بن الزبير – وكان قد امتنع على يزيد، ودعا إلى نفسه، وبايعه أهل مكة والحجاز – وعاجلت المنية مسلما في الطريق، وكان قد استخلف على الجيش قبل موته حصين بن نمير السكوني، وقدم حصين مكة فحاصرها وقذف البيت بالمجانيق «جمع منجنيق بفتح الميم وتكسر: آلة ترمى بها الحجارة» وحرقه بالنار، وبينا هو يقاتل ابن الزبير إذ أتى نعي يزيد، فقفل بالجند إلى الشام.

وكان الخوارج حين علموا بمسير جيش الشام إلى مكة، خرجوا إليها ليمنعوا الحرم منهم، فسر ابن الزبير بقدمهم ونبأهم أنه على رأيهم، فقاتلوا معه أهل الشأم حتى انصرفوا عن مكة، ثم ناظروه فلم يرقهم قوله، فتفرقوا عنه وصاروا إلى البصرة، ونظروا في أمورهم فأمروا عليهم نافع بن الأزرق الحنفي، وأجمع القوم على الخروج فمضى بهم نافع إلى الأهواز سنة ٦٤ هـ وطردوا عمال السلطان عنها وجبوا الفيء.

ولم يزالوا على رأي واحد، حتى جاء مولى لبني هاشم إلى نافع، فقال له إن أطفال المشركين في النار، وإن من خالفنا مشرك، فدماء هؤلاء الأطفال لنا حلال، فقال له نافع: كفرت، قال له: إن لم آتك بهذا من كتاب الله فاقتلني، قال نوح: «رَبِّ لَا تَذَرْ عَلَى الْأَرْضِ مِنَ الْكَافِرِينَ دَيَّارًا إِنَّكَ إِنْ تَذَرْهُمْ يُضِلُّوا عِبَادَكَ وَلَا يَلِدُوا إِلَّا فَاجِرًا كَفَّارًا» فهذا أمر الكافرين وأمر أطفالهم، فشهد نافع أنهم جميعا في النار ورأى قتلهم، وقال: الدار دار كفر إلا من أظهر إيمانه، ولا يحل أكل ذبائحهم ولا تناكحهم ولا توارثهم، ومتى جاء منهم جاء فعلينا أن نمتحنه، وهم ككفار العرب لانقبل منهم إلا الإسلام أو السيف، والقاعد بمنزلتهم، والتقية لا تحل «والتقية: هي المحافظة على النفس أو العرض أو المال من شر الأعداء، إذا كانت العداوة بسبب الدين» فإن الله تعالى يقول: «إِذَا فَرِيقٌ مِنْهُمْ يَخْشَوْنَ النَّاسَ كَخَشْيَةِ اللَّهِ أَوْ أَشَدَّ خَشْيَةً» وقال عز وجل فيمن كان =

ومضَوا إلى اليمامة[١] ، وكتب نجدة وهو باليمامة إلى نافع :

« بسم الله الرحمن الرحيم ، أما بعد : فإنَّ عَهْدِى بك وأنت لليتيم كالأب الرَّحيم ، وللضعيف كالأخِ البَرِّ ، لا تأخُذُك فى الله لَوْمَةُ لائمٍ ، ولا ترَى مَعُونةَ ظالم ، كذلك كنت أنت وأصحابُك ، أمَا تذْكُرُ قولك : « لولا أنِّى أعلم أنَّ للإمام العادلِ مِثْلَ أجْرِ جميع رَعِيَّتِه ، ماتولَّيْتُ أمرَ رجلين من المسلمين » ، فلما شَرَيْتَ[٢] نفسك فى طاعة ربك ابتغاء رِضْوانه ، وأصَبْتَ من الحق فَصَّه[٣] ، وركِبتَ مُرَّه ، تجرَّد لك الشيطانُ ، ولم يكن أحدٌ أثقلَ عليه وَطْأَةً منك ومن أصحابك ، فاستمالك واستهواك ، واستغواك وأغواك ، فغَوَيْتَ[٤] فأكفرتَ الذين عَذَرهم اللهُ فى كتابه من

= على خلافهم « يُجَاهِدُونَ فِى سَبِيلِ اللهِ وَلَا يَخَافُونَ لَوْمَةَ لَائِمٍ » فنفر جماعة من الخوارج عنه منهم نجدة بن عامر واحتج عليه بقول الله عز وجل: « إِلَّا أَنْ تَتَّقُوا مِنْهُمْ تُقَاةً » وبقوله عزوجل « وَقَالَ رَجُلٌ مُؤْمِنٌ مِنْ آلِ فِرْعَوْنَ يَكْتُمُ إِيمَانَهُ » فالقعد منا ، والجهاد إذا أمكن أفضل ، لقوله عز وجل : « وَفَضَّلَ اللهُ الْمُجَاهِدِينَ عَلَى الْقَاعِدِينَ أَجْراً عَظِيماً » ثم مضى نجدة بأصحابه إلى اليمامة .

(١) من بلاد نجد .

(٢) أى بعت ، ويسمى الخوارج أنفسهم « الشراة » جمع شار كقاص وقضاة من شرى يشرى كرمى : بمعنى باع ، لقولهم شرينا أنفسنا فى طاعة الله : أى بعناها ووهبناها ، أخذا من قوله تعالى : « وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَشْرِى نَفْسَهُ ابْتِغَاءَ مَرْضَاةِ اللهِ » أو من شرى بمعنى اشترى لقولهم : شرينا الآخرة بالدنيا أى اشتريناها . قال عمران بن حطان :

إنى أدين بما دان الشراة به ... يوم النخيلة عند الجوسق الخرب

« والجوسق كجعفر : القصر » يشير إلى قيام المستورد الخارجى بالنخيلة بعد وقعة النهروان . وقال الطرماح بن حكيم :

لله در الشراة إنهم ... إذا الكرى مال بالطلا أرقوا

« والطلا : الأعناق أو أصولها جمع طلية أو طلاة ، وكلها بالضم » وقال أيضا :

والنار لم ينج من روعاتها أحد ... إلا المنيب بقلب المخلص الشارى

وقال معاذ بن جوين :

ألا أيها الشارون قد حان لامرئ ... شرى نفسه لله أن يترحلا

(٣) فص الأمر : مفصله . (٤) غوى بالفتح غيا وغوى بالكسر غواية .

قَعدِ[1] المسلمين وضَعفَتِهم، فقال جل ثناؤه، وقَوْلُه الحق، ووَعْدُه الصِّدق: « لَيْسَ عَلَى الضُّعَفَاءِ وَلَا عَلَى الْمَرْضَى وَلَا عَلَى الَّذِينَ لَا يَجِدُونَ مَا يُنْفِقُونَ حَرَجٌ إِذَا نَصَحُوا لِلَّهِ وَرَسُولِهِ » ثم تمَّم أحسنَ الأسماء، فقال: « مَا عَلَى الْمُحْسِنِينَ مِنْ سَبِيلٍ[2] ».

ثم استحلَلْتَ قتلَ الأطفال، وقد نهى رسول الله صلى الله عليه وسلم عن قَتْلهم، وقال الله عزَّ ذِكْرُه: « وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَى »[3] وقال سبحانه فى القَعَدِ خيراً، وفضَّل الله من جاهد عليهم، ولا تَدْفَع منزلةُ أكثر الناس عملًا منزلةَ مَن هو دونه[4]، أَوَما سَمِعتَ قوله عز وجل: « لَا يَسْتَوِي الْقَاعِدُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ غَيْرُ أُولِي الضَّرَرِ[5] » فجعلهم الله من المؤمنين، وفضل عليهم المجاهدين بأعمالهم.

ورأيتَ ألّا تؤدِّىَ الأمانة إلى من خالَفَك، والله يأمر أن تؤدَّى الأماناتُ إلى أهلها[6]، فاتَّق الله وانظر لنفسك، وَاتَّقِ يَوْمًا لَا يَجْزِي وَالِدٌ عَنْ وَلَدِهِ، وَلَا مَوْلُودٌ هُوَ جَازٍ عَنْ وَالِدِهِ شَيْئًا فإن الله عز ذكره بالمِرْصاد، وحُكْمُه العَدل، وقَوْلُه الفَصْلُ، والسلام ».

(الكامل للمبرد ٢ : ١٧٧، وشرح ابن أبى الحديد م ١ ص ٣٨٢، والعقد الفريد ١ : ٢١٤)

---

(١) القعد: اسم جمع قاعد كخدم وخادم، ويروى القعدة وهو جمع قاعد ككتبة وكاتب، ورجل ضعيف وضعوف وضعفان والجمع ضعاف وضعفاء وضعفة (بالتحريك) وضعفى (كقتلى) وضعا فى بالفتح.

(٢) أى ليس عليهم جناح ولا إلى معاتبتهم سبيل، وإنما وضع المحسنين موضع الضمير الدلالة على أنهم منخرطون فى سلك المحسنين غير معاتبين لذلك.

(٣) وزر يزر كوعد: أثم، والوزر: الإثم، أى ولا تحمل نفس آثمة إثم نفس أخرى.

(٤) وفى رواية ابن أبى الحديد: « فتفضيله المجاهدين على القاعدين لا يرفع منزلة من هو دون المجاهدين » والعقد الفريد: « ولا يرفع أكثر الناس عملا منزلة عمن هو دونه إلا إذا اشتر كا فى أصل ».

(٥) أى من عمى أو زمانة أو غيرها، وتمام الآية: « وَالْمُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ، فَضَّلَ اللَّهُ الْمُجَاهِدِينَ بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ عَلَى الْقَاعِدِينَ (أى الضرر) دَرَجَةً، وَكُلًّا وَعَدَ اللَّهُ الْحُسْنَى، وَفَضَّلَ اللَّهُ الْمُجَاهِدِينَ عَلَى الْقَاعِدِينَ (أى لغير ضرر) أَجْرًا عَظِيمًا ».

(٦) قال تعالى: « إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَنْ تُؤَدُّوا الْأَمَانَاتِ إِلَى أَهْلِهَا ».

١٠٣ – رد نافع على نجدة

فكتب إليه نافع :

« بسم الله الرحمن الرحيم ، أما بعدُ : فقد أتانى كتابُك تَعِظُنى فيه وتُذكِّرنى ، وَتَنصَح لى وَتَزْجُرنى ، وتَصِف ما كنتُ عليه من الحق ، وما كنتُ أُوثِرُه من الصواب ، وأنا أسألُ الله جَلَّ وعَزَّ أن يجعلنى من « الَّذِينَ يَسْتَمِعُونَ الْقَوْلَ فَيَتَّبِعُونَ أَحْسَنَهُ » وَعِبْتَ علىَّ مادِنْتُ به من إكْفارِ القَعَدِ وَقَتْلِ الأطفالِ واستحلالِ الأمانة ، فسأفسِّر لك لِمَ ذلك إن شاء الله :

أما هؤلاء القَعَد : فليسوا كما ذكرتَ مِمَّن كان بعهد رسول الله صلى الله عليه وسلم لأنهم كانوا بمكة مَقْهورين محصورين ، لا يجدون إلى الهَرَب سبيلا ، ولا إلى الاتصال بالمسلمين طريقًا ، وهؤلاء قد فَقِهُوا فى الدين ، وَقَرءوا القرآن ، والطريق لهم نَهْجٌ واضح ، وقد عرَفت ما قال الله عز وجل فيمن كان مِثْلَهُم ، إذ « قَالُوا كُنَّا مُسْتَضْعَفِينَ فِى الْأَرْضِ » فقيل لهم « أَلَمْ تَكُنْ أَرْضُ اللهِ وَاسِعَةً فَتُهَاجِرُوا فِيهَا » وقال « فَرِحَ الْمُخَلَّفُونَ بِمَقْعَدِهِمْ خِلَافَ رَسُولِ اللهِ[(١)] » وقال « وَجَاءَ الْمُعَذِّرُونَ مِنَ الْأَعْرَابِ لِيُؤْذَنَ لَهُمْ[(٢)] » فخبَّر بتعذيرهم وأنهم كَذَّبُوا اللهَ وَرَسُولَهُ ، وقال : « سَيُصِيبُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ » فانظر إلى أسمائهم وسِماتِهِم[(٣)] » .

---

(١) أى فرحوا بقعودهم عن الغزو بعد رسول الله — وذلك فى غزوة تبوك وتمام الآية الكريمة : « وَكَرِهُوا أَنْ يُجَاهِدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ فِى سَبِيلِ اللهِ ، وَقَالُوا لَا تَنْفِرُوا فِى الْحَرِّ قُلْ نَارُ جَهَنَّمَ أَشَدُّ حَرًّا لَوْ كَانُوا يَفْقَهُونَ » .

(٢) يعنى أسدا وغطفان ، استأذنوا فى التخلف معتذرين بالجهد وكثرة العيال ، وقيل هم رهط عامر بن الطفيل ، قالوا : إن غزونا معك أغارت طيئ على أهالينا ومواشينا . والمعذر : إما من عذر فى الأمر إذا قصر فيه موهما أن له عذرا ولا عذر له ، فالمعنى : المقصرون الذين لاعذر لهم — وهذا مايعنيه نافع فى كتابه — وإما من اعتذر فأصله المعتذرون ، ألقيت فتحة التاء على العين وأبدل منها ذال وأدغمت فى الذال التى بعدها ، ومعناه : الذين يعتذرون ، كان لهم عذر أو لم يكن ، وقرأ ابن عباس المعذرون بسكون العين — وهم الذين لهم العذر — وكان يقول : والله لكذا أنزلت ، وقال : لعن الله المعذرين (بالتشديد) .

(٣) جمع سمة ، وهى العلامة .

وأمّا أمرُ الأطفال . فإن نبي الله نوحًا عليه السلام كان أعلَمَ بالله يا نجدةُ منى ومنك فقال . « رَبِّ لَا تَذَرْ عَلَى الْأَرْضِ مِنَ الْكَافِرِينَ دَيَّارًا[1] » ، إِنَّكَ إِنْ تَذَرْهُمْ يُضِلُّوا عِبَادَكَ وَلَا يَلِدُوا إِلَّا فَاجِرًا كَفَّارًا » فسماهم بالكفر وهم أطفال وقبل أن يُولدوا ، فكيف كان ذلك فى قوم نوح ، ولا نكون نقولهُ فى قومنا ؟ والله يقول : « أَكُفَّارُكُمْ خَيْرٌ مِنْ أُولَئِكُمْ أَمْ لَكُمْ بَرَاءَةٌ فِي الزُّبُرِ[2] » ، وهؤلاء كمشركى العرب لاتُقْبَل منهم جِزية ، وليس بيننا وبينهم إلا السيف أو الإسلام .

وأما استحلال أمانات من خالفنا ، فإن الله عز وجل أَحَلَّ لنا أموالهم كما أحل لنا دماءهم ، فدماؤهم حَلَالٌ طِلْق[3] ، وأموالهم فَىْء للمسلمين ، فاتق الله وراجع نفسك ، فإنه لا عُذْرَ لك إلا بالتوبة ، ولن يَسَعَك خِذلانُنا ، والقعودُ عنا ، وترْكُ ما نَهَجناه لك من طريقتنا ومقالتنا ، والسلام على من أقَرَّ بالحق وعَمِل به » .

(الكامل ٢ : ١٧٨ ، وشرح ابن أبى الحديد م ١ : ص ٣٨٢ ، والعقد الفريد ١ : ٢١٤)

١٠٤ — كتاب ابن عباس إلى نجدة بن عامر

وكتب نجدة بن عامر إلى ابن عباس يسأله عن سَهْم ذوى القربى : لمن هو ؟ فكتب إليه ابن عباس :

« كتبت إلىَّ تسألنى عن سهم ذوى القربى لمن هو ، وهو لنا ، وإن عمر بن الخطاب رضى الله عنه دعانا إلى أن نُنكح منه أَيِّمنا[4] ، ونَقْضِىَ منه مَغْرَمنا ، ونُخدم منه عائلتنا ، فأبينا إلا أن يسلّمه لنا : وأبى ذلك علينا » . (كتاب الخراج لأبى يوسف ص ٢٤)

---

(١) أحدا . (٢) الزبر جمع زبور كصبور : وهو الكتاب — فعول بمعنى مفعول : أى أم نزل لكم فى الكتب السماوية أن من كفر منكم فهو فى أمان من عذاب الله ؟

(٣) طلق : حلال ، فهو تأكيد على حد قولهم : قفل راجعا .

(٤) الأيم : العزب رجلا كان أو امرأة سواء تزوج من قبل أو لم يتزوج .

١٠٥ — كتاب نافع إلى خوارج البصرة

وكتب نافع إلى مَن بالبصرة من المُحَكِّمَة(١) :

« بسم الله الرحمن الرحيم ، أما بعد : « فَإِنَّ اللَّهَ اصْطَفَى لَكُمُ الدِّينَ فَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنْتُمْ مُسْلِمُونَ » ، والله إنكم لتعلمون أنّ الشريعة واحدة ، والدين واحد ، ففيم المُقَامُ بين أظهُرِ الكفار ، ترَوْنَ الظُّلْم ليلاً ونهاراً ؟ وقد ندَبكم الله إلى الجهاد ، فقال : « وَقَاتِلُوا الْمُشْرِكِينَ كَافَّةً » ولم يجعل لكم في التخلُّف عذراً في حال مَن الأحوال فقال : « انفِرُوا(٢) خِفَافًا وَثِقَالًا » وإنما عَذَر الضُّعَفاء والمَرْضى والذين لا يجدُون ما ينفقون(٣) ، ومن كانت إقامته لِعلّة ، ثم فضَّل عليهم مع ذلك المُجَاهِدِينَ فقال :

(١) يسمى الخوارج « المحكمة » لأنهم أنكروا أمر الحكمين ، وقالوا : لاحكم إلا الله ، ولا حكم إلا لله وكأن هذه التسمية على السلب ، لأنهم ينفون الحكم وينكرون التحكيم ، ونظير ذلك تسمية جماعة القدرية (بالتحريك) بهذا الاسم ، مع أن الأساس الذى قام عليه مذهبهم هو «لاقدر» فهم ينكرون قدر الله ، ويغالون فى إثبات القدرة للإنسان ، وأنه حر الإرادة فى أعماله . وكان الأولى أن تسمى جماعة المجبرة بالقدرية لإسنادهم جميع أفعال العبد إلى القدر .

وذكروا أن أول من حكم ولفظ بالحكومة رجل يقال له الحجاج بن عبد الله ويعرف بالبرك — وهو أحد الخوارج الثلاثة الذين اتفقوا على قتل على ومعاوية وعمرو بن العاص — فإنه لما سمع بذكر الحكمين قال : أيحكم فى دين الله ؟ لا حكم إلا لله ، فسمعه سامع فقال : طعن والله فأنفذ ، وقيل إن أول من حكم عروة بن أدية ، وأول سيف سل من سيوف الخوارج سيفه . وذلك أنه لما كتبت صحيفة التحكيم بين على ومعاوية خرج الأشعث بن قيس الكندى بها يقرؤها على الناس ، حتى مر على طائفة من بنى تميم فيهم عروة ، فقرأها عليهم ، فقال عروة تحكمون فى أمر الله عز وجل الرجال ؟ لا حكم إلا لله ، ماهذه الدنية بالأشعث وما هذا التحكيم ؟ ثم شهر عليه السيف والأشعث مول فضرب به عجز البغلة فشبت البغلة، فنفرت اليمانية وكانوا جل أصحاب على ، فلما رأى ذلك الأحنف بن قيس قصد هو وأصحابه إلى الأشعث فسألوه الصفح فقبل وصفح .

(٢) انفروا : اخرجوا ، وتمام الآية الكريمة : « وَجَاهِدُوا بِأَمْوَالِكُمْ وَأَنْفُسِكُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ ، ذَلِكُمْ خَيْرٌ لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ » .

(٣) يشير إلى قوله تعالى « لَيْسَ عَلَى الضُّعَفَاءِ ، وَلَا عَلَى الْمَرْضَى وَلَا عَلَى الَّذِينَ لَا يَجِدُونَ مَا يُنْفِقُونَ حَرَجٌ إِذَا نَصَحُوا لِلَّهِ وَرَسُولِهِ » .

« لاَ يَسْتَوِى الْقَاعِدُونَ مِنَ الْمُؤمِنِينَ غَيْرُ أُولِى الضَّرَرِ وَالْمُجَاهِدُونَ فى سَبِيلِ اللهِ » فلا تغترُّوا ، ولا تطمئنوا إلى الدنيا ، فإنها غرَّارة مَكَّارة ، لَذَّتُها نافِدَة[1] ، ونعمتها بائدة ، حُفَّت بالشهوات اغترارا ، وأظهرت حَبْرة[2] ، وأضمرت عَبْرةً ، فليس آكل منها أكْلَة[3] تسرُّه ، ولا شاربٌ شَرْبة تؤنِقه[4] ، إلاَّ دنا بها درجةً إلى أجله ، وتباعَدَ بها مسافةً من أمَله ، وإنما جعلها الله داراً لمن تَزَوَّد منها إلى النعيم المقيم ، والعيش السليم ، فلن يرضى بها حازمٌ داراً ، ولا حَليم[5] بها قرارًا ، فاتقوا الله « وَتَزَوَّدُوا فَإِنَّ خَيْرَ الزَّادِ التَّقْوَى » والسلام على من اتبع الهدى » .

(الكامل للمبرد ٢ : ١٧٩ ، وشرح ابن أبى الحديد م ١ ، ص ٣٨٢)

١٠٦ — كتاب نافع إلى عبد الله بن الزبير

وكتب نافع إلى عبد الله بن الزبير يدعوه إلى أمره :

« أما بعدُ : فإنى أحذِّرك من الله « يَوْمَ تَجِدُ كُلُّ نَفْسٍ مَا عَمِلَتْ مِنْ خَيْرٍ مُحْضَرًا ، وَمَا عَمِلَتْ مِنْ سُوءٍ تَوَدُّ لَوْ أَنَّ بَيْنَهَا وَبَيْنَهُ أَمَداً بَعِيداً ، وَيُحَذِّرُكُمُ اللهُ نَفْسَهُ » فاتَّقِ اللهَ ربَّك وَلاَ تتولَّ الظالمين ، فإن الله يقول : « وَمَنْ يَتَوَلَّهُمْ مِنْكُمْ فَإِنَّهُ مِنْهُمْ » وقال « لاَ يَتَّخِذِ الْمُؤْمِنُونَ الْكَافِرِينَ أَوْلِيَاءَ مِنْ دُونِ الْمُؤْمِنِينَ وَمَنْ يَفْعَلْ ذٰلِكَ فَلَيْسَ مِنَ اللهِ فى شَىْءٍ » وقد حضرتَ عثمانَ يوم قُتِلَ ، فلعمرى لئن كان قُتِلَ مظلومًا لقد كفر قاتِلُوه وخاذِلوه ولئن كان قاتلوه مُهتدين ــ وإنهم لَمُهتدون ــ لقد كفرَ من يتولاه وينصُره ويَعضُده ، ولقد علمْتَ أن أباك وطلْحة وعليًّا كانوا أشد الناس عليه ، وكانوا فى أمره من بين قاتلٍ وخاذلٍ ، وأنت تتولَّى أباك وطلحة

---

(١) نافدة : ذاهبة فانية (٢) الحبرة : السرور كالحبور ، وفى الأصل « حيرة » وهو تصحيف .
(٣) الأكلة بالفتح : المرة ، وبالضم : اللقمة والطعمة . والشربة بالفتح : المرة ، وبالضم : مقدار الرى من الماء كالحسوة .
(٤) آنقه الشىء إيناقا : أعجبه ، وفى رواية « توافقه » .
(٥) حليم : عاقل ، من الحلم بالكسر وهو العقل ، وفى رواية « حكيم » .

وعثمان ، وكيف ولايةُ قاتلٍ مُتَعَمِّدٍ ومقتولٍ فى دين واحد ؟ ولقدمَلَكَ عَلِيٌّ بَعْدَه ، فنَفَى الشُّبُهَاتِ ، وأقام الحدودَ ، وأجرى الأحكامَ مَجَارِيَهَا ، وأعطى الأمور حقائقَها فيما عليه وله ، فبايعه أبوك وطلحةُ ، ثم خَلَعَاه ظَالِمَيْنِ له ، وإن القول فيك وفيهما لَكَما قال ابن عباس : « إن يكن عليٌّ فى وقت معصيتِكم ومُحاربتكم له كان مؤمناً ، أمّا لقد كَفَرتم بقتال المؤمنين وأئمة العَدْل ، ولئن كان كافراً كما زعمتم ، وفى الحكم جائراً ، لقد بُؤْتُم بغضب من الله لفِراركم من الزَّحْفِ » ولقد كنتَ له عَدُوّا ، ولسيرته عائباً ، فكيف تولَّيْته بعد موته ؟ » . (الكامل للمبرد ٢ : ١٧٩ ، والعقد الفريد ١ : ٢١٤)

١٠٧ — كتاب من عبد الله بن الزبير إلى المهلب بن أبى صفرة

واشتدت شوكة الخوارج الأزارقة بالأهواز ، وخشِيَ أهل البصرة أن يجتاحوا مِصْرَهم ، فهبُّوا لمدافعتهم ، ونَشِبت بين الفريقين عِدَّةُ وَقَعات(١) .

---

(١) لما غلب نافع على بلاد الأهواز أقام بها يعترض الناس ويقتل الأطفال ، فإذا أُجيب إلى المقالة جبى الخراج ، وفشا عماله فى السواد ، فارتاع لذلك أهل البصرة ، فاجتمعوا إلى الأحنف بن قيس فشكوا ذلك إليه ، وقالوا : ليس بيننا وبين العدو إلا ليلتان ، وسيرتهم ما ترى ، قال الأحنف : إن فعلهم فى مصركم إن ظفروا به كفعلهم فى سوادكم ، فجدوا فى جهاد عدوكم ، فاجتمع إليه عشرة آلاف فأتى عبد الله بن الحرث بن نوفل ابن الحرث بن عبد المطلب (وهو ببة) أمير البصرة من قبل ابن الزبير فسأله أن يؤمر عليهم ، فاختار لهم مسلم بن عنيس فأمره عليهم ، والتقى بنافع فى «دولاب» فاقتتلوا قتالا شديدا ، وقتل فى المعركة ابن عنيس ونافع . ثم عزل ابن الزبير عبد الله بن الحرث عن البصرة وولاها عمر ابن عبيد الله بن معمر ، وولى عمر أخاه عثمان بن عبيد الله محاربة الأزارقة . فلما عبروا إليهم دجيلا نهض إليهم الخوارج — وذلك قبيل الظهر — فقال عثمان لحارثة بن بدر : أما الخوارج إلا ما أرى ؟ فقال له حارثة : حسبك بهؤلاء ، فقال : لاجرم ، والله لا أتغدى حتى أناجزهم ، فقال له حارثة : إن هؤلاء لا يقاتلون بالتعسف فأبق على نفسك وجندك ، فقال : أبيتم أهل العراق إلا جبنا . وحاربهم عثمان يومه إلى أن غابت الشمس ، فأجلت الحرب عنه قتيلا ، وانهزم الناس .

وعزل ابن الزبير عمر بن عبيد الله وولى الحارث بن عبدالله بن أبى ربيعة — وهو أخو عمر بن عبد الله ابن أبى ربيعة المخزومى الشاعر — وأقام حارثة بن بدر يدافع الخوارج فهزموه ، فهرب يركض حتى أتى دجيلا ، فجلس فى سفينة واتبعه جماعة من أصحابه ، وأتاه رجل من بنى تميم وعليه سلاحه ، والخوارج وراءه ، فصاح به : ياحارث ليس مثلى ضيع ، فقال للملاح : قرب ، فقرب إلى جرف ، فطفر بسلاحه فى السفينة ، فساخت بالقوم جميعا ، وماتوا غرقا ، وتوجه الخوارج نحو البصرة ، فضج الناس إلى الأحنف ، فأتى الحارث بن عبد الله فقال : أصلح الله الأمير ، إن هذا العدو قد غلبنا على سوادنا وفيئنا ، فلم يبق إلا أن يحصرنا فى بلدنا حتى نموت هزلا ، قال فسموا رجلا ، فقال الأحنف : ما أرى لها إلا المهلب بن أبى صفرة ، فولاه قتالهم .

ثم أجمع رأى القوم على أنه ليس لهذا الأمر إلا المُهَلَّبُ بن أبى صُفْرة فكلموه أن يتولى قتال الخوارج ـ وكان ابن الزبير قد كتب له عهداً على خُراسان ـ فقال لهم : لا أفعل ، هذا عهد أمير المؤمنين معى على خراسان ، فلم أكن لِأَدَعَ عهده وأمره ، فدعاه أمير البصرة الحارث بن عبد الله بن أبى ربيعة المعروف بالقُبَاع ، فكلمه فى ذلك، فقال له مثل ذلك ، فاتفق رأى الأمير ورأى أهل البصرة على أن كتبوا على لسان ابن الزبير :

« بسم الله الرحمن الرحيم ، من عبد الله بن الزبير إلى المهلب بن أبى صفرة ، سلام عليك ، فإنى أحمد إليك الله الذى لا إله إلا هو ، أما بعد : فإن الحارث بن عبد الله كتب إلىّ أن الأزارقة المارقة أصابوا جُنداً للمسلمين كان عددهم كثيراً ، وأشرافهم كثيراً ، وذكر أنهم قد أقبلوا نحو البصرة ، وقد كنت وجَّهْتُك إلى خراسان ، وكتبت لك عليها عَهْدًا ، وقد رأيت حيثُ ذُكِر أمرُ هذه الخوارج أن تكون أنت تَلِي قتالَهم ، فقد رجوت أن يكون ميموناً طائرُك ، مُبارَكا على أهل مصرك ، والأجر فى ذلك أفضلُ من المسير إلى خُراسان ، فسِرْ إليهم راشداً ، فقاتل عدو الله وعدوك ، ودافع عن حقك وحقوق أهل مصرك ، فإنه لن يفوتك من سلطاننا خراسان ولا غير خراسان إن شاء الله ، والسلام عليك ورحمة الله » . (تاريخ الطبرى ٧ : ٨٦)

١٠٨ — كتاب المهلب إلى الحارث بن عبد الله

ونهض المهلب لقتال الخوارج ، ومضى يُؤُمُّ سُوق الأهواز[١] فدخلها ، وكتب بذلك إلى الحارث بن عبد الله بن أبى ربيعة أمير البصرة كتابا يقول فيه :

« بسم الله الرحمن الرحيم ، أما بعد : فإنا منذ خرجنا نَؤُمُّ هذا العدو ، فى نِعَم من الله متصلةٍ علينا ، ونعمةٍ من الله متتابعةٍ عليهم ، نُقْدِم ويُحْجِمون ، ونَحُلّ ويرتحلون ،

---

(١) مدينة بالأهواز .

إلى أن حَلَلْنا سُوق الأهواز ، والحمد لله رب العالمين ، الذى من عنده النصر وهو العزيز الحكيم » .

١٠٩ — رد الحارث بن عبد الله عليه

فكتب إليه الحارث :

« هنيئاً لك « أخا الأَزْدِ[١]» الشَّرفُ فى الدنيا ، والذُّخْرُ فى الآخرة إن شاءالله».

(الكامل للمبرد ٢ : ١٨٩)

١١٠ — كتاب المهلب إلى الحارث بن عبد الله

وكانت وقعة سِلَّى وسِلَّبْرَى[٢] من أشد الوَقَعات بين المهلب والخوارج ، دارت عليهم فيها الدائرة ، وقُتل أميرهم عُبَيد الله بن بشير بن الماحوز .

وكتب المُهَلَّب بن أبى صُفرة إلى الحارث بن عبد الله بعد الوقعة :

« بسم الله الرحمن الرحيم ، أما بعدُ : فإنا لَقِينا الأزارِقَةَ المَارِقَةَ بحَدٍّ وجِدٍّ ، فكانت فى الناس جَوْلَةٌ ، ثم ثابَ[٣] أهلُ الحِفَاظ والصَّبْر بِنِيَّاتٍ صادقة ، وأبْدان شِدادٍ ، وسُيوف حِدَادٍ[٤] ، فأعقبَ اللهُ خيرَ عاقِبَةٍ ، وجاوَزَ بالنِّعمة مِقدارَ الأَمَل ، فصاروا دَرِيئَةً[٥] رماحنا ، وضَرائِبَ[٦] سيوفنا ، وقتل الله أميرَهم ابنَ الماحوز ، وأرجو أن يكون آخِرُ هذه النعمة كأوّلها ، والسلام » .

(الكامل للمبرد ٢ : ١٩٥)

---

(١) وقد استجفاه المهلب لمخاطبته إياه بقوله : « أخا الأزد » فقال لأصحابه : ما أجفى أهل الحجاز ! أما ترونه يعرف اسمى واسم أبى وكنيتى ؟

(٢) مجموع اللفظين موضع واحد بالأهواز قرب جنديسابور . (٣) رجع .

(٤) وكان الخوارج قد نادى مناديهم فى أثناء المعركة ألا إن المهلب قد قتل ، فأقبل المهلب يركض بين الصفين وهو يصيح : أنا المهلب ، فسكن الناس بعد أن كانوا قد ارتاعوا وظنوا أن أميرهم قد قتل

(٥) الدريئة : الحلقة يتعلم الطعن والرمى عليها .

(٦) ضرائب : جمع ضريبة ، وهى ما يضرب بالسيف .

١١١ — رد الحارث بن عبد الله على المهلب

فكتب إليه الحارث :

« قد قرأت كتابك يا أخا الأَزْد ، فرأيتُك قد وهب الله لك شَرَفَ الدنيا وعِزَّها ، وذَخَر لك ثواب الآخرة إن شاء الله وأَجْرَها ، ورأيتُك أوثَقَ حُصُونِ المسلمين ، وهَادَّ أركانِ المشرِكين ، وأخَا السِّياسة ، وذَا الرِّياسة ، فاستدِمِ الله بِشُكْرِه ، يُتْمِمْ عليك نِعمَه والسلام[1] » . (الكامل للمبرد ٢ : ١٩٦)

صورة أخرى لكتاب المهلب إلى الحارث

وروى الطبرى كتاب المهلب السابق إلى الحارث بن عبد الله بصورة أخرى قال :

ولما ظهر المهلَّبُ على الأزارقة « فى وقعة سِلَّى وَسِلِّبْرَى » كتب إلى الحارث بن عبد الله :

« بسم الله الرحمن الرحيم ، للأمير الحارث بن عبد الله من المهَلَّب بن أبى صُفرة ، سلام عليك : فإنى أحمد إليك الله الذى لا إله إلا هو ، أما بعد : فالحمد لله الذى نَصر أمير المؤمنين ، وهزَم الفاسقين ، وأنزل بهم نِقْمته ، وقتَلَهم كُلَّ قِتْلةٍ ، وشرَّدهم كل مُشرَّد .

أخبرُ الأميرَ « أصلحه الله » أنّا لقِينا الأَزَارقةَ بأرض من أرض الأهواز يقال لها « سِلَّى وسِلِّبْرَى » فزحَفْنا إليهم ، ثم ناهضناهم ، فاقتتلْنا كأشدِّ القتال مَلِيًّا[2] من النهار ، ثم إن كتائبَ الأزارقة اجتمع بعضُها إلى بعض ، ثم حَملوا على طائفةٍ من

---

(١) وكتب إليه أهل البصرة يهنئونه ولم يكتب إليه الأحنف ولكن قال : اقرءوا عليه السلام وقولوا له : أنالك على ما فارقتك عليه ، فلم يزل يقرأ الكتب ويلتمس فى أضعافها كتاب الأحنف ، فلما لم يره قال لأصحابه : أما كتب إلينا ؟ فقال له الرسول : حملنى إليك رسالة وأبلغه ، فقال : هذه أحب إلينا من هذه الكتب .

(٢) طويلا .

المسلمين فهزموهم ، وكانت فى المسلمين جَوْلَةٌ قد كنتُ أشفقتُ أن تكون هى إلاَّ صِرِّى[١] منهم ، فلما رأيت ذلك عَمَدْتُ إلى مكانٍ يَفَاعٍ[٢] فعلوتُه ، ثم دعوتُ إلىَّ عَشِيرتى خاصةً والمسلمين عامة ، فثاب إلىَّ أقوام شَرَوا أنفسَهم ابتغاء مَرْضاةِ الله ، من أهل الدين والصبر والصدق والوفاء ، فقصَدْتُ بهم إلى عَسْكر القوم ، وفيه جماعتُهم وحَدُّهم ، وأميرُهم قد أطاف به أولو فَضْلِهم فِيهِمْ وذوو النِّيات[٣] منهم ، فاقتتلْنا ساعةً ، رمياً بالنَّبل وطَعْناً بالرماح ، ثم خَلَص الفريقان إلى السيوف ، فكان الجِلادُ بها ساعةً من النهار مُبَالطةً[٤] ومُبالدةً ، ثم إن الله عز وجل أنزل نصره على المؤمنين ، وضَرَب وجوه الكافرين ، ونزل طاغِيَتُهم فى رجال كثير من حُمَاتهم وذوى نِيَّاتهم ، فقتلهم الله فى المعركة ، ثم أتبعتُ الخيلَ شُرَّادَهم ، فقُتِلُوا فى الطريق والإخَاذِ[٥] والقَرِيِّ ، والحمد لله رب العالمين ، والسلام عليك ورحمة الله » .

فلما أتى هذا الكتاب الحارث بن عبد الله بعث به إلى ابن الزبير فقرئ على الناس بمكة.

(تاريخ الطبرى ٧ : ٨٩)

صورة أخرى لرد الحارث على المهلب

وروى الطبرى أيضاً رد الحارث بن عبد الله على كتاب المهلب بصورة أخرى، وهى:

وكتب الحارث بن أبى ربيعة إلى المهلب :

« أما بعد : فقد بلغنى كتابُك تذكر فيه نَصْرَ الله إياك وظَفَرَ المسلمين ، فهنيئاً لك يا أخا الأزد بشرف الدنيا وعِزِّها ، وثواب الآخرة ، وفضلها ، والسلام عليك ورحمة الله » .

(تاريخ الطبرى ٧ : ٨٩)

---

(١) أصر على الأمر : عزم ، وهو منى صرى ، أى عزيمة قاطعة وجد .

(٢) اليفاع واليفع بالتحريك : التل .

(٣) أى وذوو النيات الصادقة منهم ، وربما كان الأصل « وذوو الثبات منهم » .

(٤) المبالطة والتبالط : التجالد بالسيوف ، وكذا المبالدة : المبالطة بالسيوف والعصى .

(٥) الإخاذ : الغدران جمع إخاذة ، والقرى : مسيل الماء من التلاع .

١١٢ — كتاب مصعب بن الزبير إلى المغيرة بن المهلب

ولم يزل المهلب يقاتل الخوارج فى ولاية الحارث بن عبد الله حتى عزل الحارث ووَلِيَ مُصْعَب بن الزبير، فكتب إليه: أنِ اقْدَم علىَّ واستخلِفْ ابنك المُغيرة، ففعل ثم مضى إلى مُصْعَب فولاَّه المَوْصِلَ.

وكتب مصعب إلى المغيرة بن المهلب بولايته: كتب إليه:

« إنك إن لم تكن كأبيك فإنك كافٍ لما وَلَّيْتُك، فشمِّر واتَّزِر[1]، وجِدَّ واجتهد ». (الكامل للمبرد ٢ : ١٩٨)

١١٣ — كتاب عمر بن عبيد الله إلى مصعب بن الزبير

وولَّى مُصْعَبُ بن الزبير عُمَرَ بن عُبَيد الله بن مَعْمرٍ قتال الخوارج بعد المهلب، فزحف إليهم فقاتلهم قتالا شديداً قُتِل فيه ابنه عُبَيد الله، فحمل عليهم حَمْلة هزمهم فيها، واتّبعهم، ثم كتب إلى مصعب:

« أما بعد: فإنى قد لَقِيت الأزارقة، فرزَقَ اللهُ عُبَيد الله بن عمر الشهادة، ووهب له السعادةَ، ورزقَنا عليهم الظَّفَر، فتفرَّقوا شَذَرَ مَذَرَ[2]، وبلغتنى عنهم عودةٌ فيمَّمْتُهم[3]، وبالله أستعين، وعليه أتوكل ». (الكامل للمبرد ٢ : ١٩٩)

---

(١) يقال: اتّزر بالإزار وتأزر به: أى لبسه، واتزر أيضا وأصله ائتزر. أدغمت الهمزة فى التاء والمعنى استعد.

(٢) تفرقوا شذر مذر بفتح الشين والميم وكسرهما: ذهبوا فى كل وجه.

(٣) أى قصدت إليهم.

طلب التوابين بدم الحسين

رضى الله عنه

وفى سنة ٦٥ هـ تحركت الشيعة بالكوفة ، واتعدوا الاجتماعَ بالنُّخيلة للمسير إلى أهل الشأم ، للطلب بدم الحسين بن على رضى الله عنهما ، وذلك أنهم بعد مَقْتله تلاقوا بالتلاوُم والتندُّم ، ورأوا أنهم قد أخطأوا خطأً كبيراً بدعائهم إياه إلى النُّصرة وتركهم إجابته ، ومقتلِه إلى جانبهم لم ينصروه ، ورأوا أنه لا يُغْسَل عارهم والإثم عنهم فى مقتله إلا بقتل من قتله أو القتل فيه ، وتابوا مما فَرَط منهم فى ذلك ـ فسُمُّوا التَّوَّابين ، وولَّوْا أمرهم سليمانَ بن صُرَد الخُزاعِيّ .

١١٤ ـ كتاب سليمان بن صرد إلى سعد بن حذيفة بن اليمان

وكتب سليمان إلى سعد بن حُذَيْفَة بن اليمَان بالمدائن كتابا يقول فيه :

« بسم الله الرحمن الرحيم ، من سليمان بن صُرَد إلى سعد بن حُذَيفة ومَن قِبَله من المؤمنين ، سلام عليكم ، أما بعدُ : فإن الدنيا دارٌ قد أدْبَرَ منها ما كان معروفا ، وأقبلَ منها ما كان مُنكَرا ، وأصبحتْ قد تَشَنَّأَتْ[1] إلى ذوى الألباب ، وأزْمَعَ[2] التَّرْحالَ منها عبادُ الله الأخيار ، وباعوا قليلًا من الدنيا لا يبْقَى ، بجَزيلِ مَثُوبةٍ عند الله لا يَفْنَى ، إن أولياء الله من إخوانكم وشيعة آل نبيكم ، نظروا لأنفسهم فيما ابتُلُوا به من أمر ابن بنت نبيِّهم الذى دُعِيَ فأجاب ، ودعا فلم يُجَب ، وأراد الرَّجْعَةَ فحُبس ، وسألَ

---

(١) يريد أنها قد صارت مشنوءة : أى مكروهة مبغضة ، من شنئه كسمع ومنع إذا كرهه .
(٢) أزمعت الأمر وعليه : أجمعت أو ثبت عليه .

الأمانَ فَمَنِع ، وترك الناس فلم يتركوه ، وعدَوا عليه فقتلوه ، ثم سلبوه وجرّدوه ظلما وعُدوانا ، وغِرّة بالله وجهلا ، وبعَين الله ما يعملون ، وإلى الله ما يَرْجعون ، « وَسَيَعْلَمُ الَّذِينَ ظَلَمُوا أَيَّ مُنْقَلَبٍ يَنْقَلِبُونَ » فلما نظر إخوانكم ، وتدبَّرُوا عواقبَ ما استقبلوا ، رأوا أنْ قد خَطِئوا بخِذْلان الزَّكىّ الطيِّب ، وإسلامه[1] ، وترك مواساته ، والنصر له خَطَأً كبيراً ، ليس لهم منه مَخرج ولا تَوبةٌ دون قَتْل قاتليه أو قتلهم ، حتى تفنى على ذلك أرواحُهم ، فقد جد إخوانكم ، فجِدوا وأعِدُّوا واستعدوا ، وقد ضرَبنا لإخواننا أجَلًا يوافوننا إليه ومَوْطِنًا يلقَوْننا فيه ، فأما الأجَل فغُرَّة[2] شهر ربيع الآخر سنة ٦٥ ، وأما الموطن الذى يلقوننا فيه فالنُّخَيْلة ، أنتم الذين لم تزالوا لنا شِيعةً وإخوانًا وإِلاًّ[3] ، وقد رأينا أن ندْعُوَكم إلى هذا الأمر الذى أراد اللهَ به إخوانُكم فيما يزعمون ويُظهرون لنا أنهم يتوبون ، وإنكم جُدَراء[4] بتَطلاب الفضل والتماس الأجر ، والتوبة إلى ربكم من الذنب ، ولو كان فى ذلك حَزُّ الرقاب ، وقتل الأولاد ، واستيفاء الأموال ، وهلاكُ العشائر ، ما ضَرَّ أهلَ عَذْراء[5] الذين قُتِلوا ألاَّ يكونوا اليومَ أحياء وهم عند ربهم يُرْزقون ، شُهداء قد لقُوا الله صابرين محتسبين ، فأثابهم ثواب الصابرين ـ يعنى حُجْراً وأصحابه ـ وما ضرّ إخوانكم المقتَّلين صبرا[6] ، والمصَلَّبين ظلما ، والمَمْثُولَ بهم ، المعتدَى عليهم ، ألاَّ يكونوا أحياء مُبْتَلَين بخطاياكم ، قد خِيرَ[7] لهم فلقُوا ربَّهم ووفّاهم اللهُ « إن شاء الله » أجرَهم ، فاصبِروا « رَحِمَكم الله » على البَأْساءِ والضَّرَّاءِ وحين البَأْسِ ، وتوبوا إلى الله عن قريب ، فوالله إنكم لأَحْرِياء[8] أن لا يكونَ أحدٌ من إخوانكم ، صَبَرَ على شىء من البلاء إرادةَ ثوابه ،

---

(١) أسلمه : خذله .
(٢) الغرة من الشهر وغيره : أوله .
(٣) الإل : القرابة .
(٤) جمع جدير : أى حقيق .
(٥) عذراء : قرية بغوطة دمشق قتل بها معاوية حجر بن عدى وأصحابه .
(٦) القتل صبرا : هو أن يحبس ويرمى حتى يموت .
(٧) خار الله له فى الأمر : جعل له فيه الخير .
(٨) جمع حرى : أى جدير وحقيق .

إلا صَبَرتم التماسَ الأجر فيه على مِثْلِه ، ولا يَطلبَ رضاء الله طالبٌ بشيء من الأشياء — ولو أنه القتلُ — إلا طَلَبتم رضاء الله به ، إن التقوى أفضلُ الزاد فى الدنيا ، وما سوى ذلك يَبُور[١] ويَفْنَى ، فَتَعزف[٢] عنها أنفسكم ، ولتكن رغبَتُكم فى دار عافيتكم ، وجهادِ عدوِّ الله وعدوِّكم ، وعدوِّ أهل بيت نبيكم ، حتى تَقْدَموا على الله تائبين راغبين ، أحيانا الله وإياكم حَياةً طَيِّبة ، وأجارنا وإياكم من النار ، وجعل مَنَايانا قَتْلًا فى سبيله على يَدَىْ أبغض خَلْقه إليه ، وأشدِّهم عداوةً له ، إنه القدير على ما يشاء ، والصانع لأوليائه فى الأشياء ، والسلام عليكم » .

فقرأ سعد بن حُذَيفةَ كتب سليمان بن صُرَد على الشِّيعة بالمدائن ، وقال لهم : إن إخوانكم قد بعثوا إليكم يستنجدونكم ويستمدونكم ، فماذا تَرَون ؟ وماذا تقولون ؟ فقال القوم بأجمعهم : نجيبهم ونقاتل معهم ، ورأْيُنا فى ذلك مثل رأيهم . (تاريخ الطبرى ٧ : ٤٩)

١١٥ — رد سعد بن حذيفة على ابن صرد

فكتب سعد بن حذيفة إلى سليمان بن صرد :

« بسم الله الرحمن الرحيم ، إلى سليمان بن صرد من سعد بن حذيفة ومن قبله من المؤمنين ، سلام عليكم ، أما بعد : فقد قرأنا كتابك ، وفهمنا الذى دعوتنا إليه ، من الأمر الذى عليه رأى المَلإِ من إخوانك ، فقد هُدِيتَ لحظِّك ، ويُسِّرْت لرُشْدك ، ونحن جَادُّونَ مُجِدُّون[٣] ، مُعِدُّون مُسْرِجون مُلْجِمُون ، ننتظر الأمر ونستَمِع الداعى فإذا جاء الصَّرِيخُ[٤] أقبلنا ولم نُعَرِّج إن شاء الله والسلام » .

فلما قرأ كتابه سليمان بن صرد قرأه على أصحابه فسُرُّوا بذلك .

(تاريخ الطبرى ٧ : ٥١)

---

(١) يهلك . (٢) عزفت نفسه عنه كضرب عزوفا : زهدت فيه وانصرفت عنه .
(٣) يقال جد الأمر يجد بكسر الجيم وضمها ، وأجد : أى اجتهد ، وأسرج الدابة : شد عليها السرج ، وألجمها : ألبسها اللجام .
(٤) الصريخ : المستغيث (والمغيث أيضا : ضد) .

١١٦ — كتاب المثنى بن مُخَرِّبة إلى ابن صرد

وكتب ابن صرد إلى المُثَنَّى بن مُخَرِّبة العَبْدى نسخة الكتاب الذى كتب به إلى سعد بن حذيفة، فكتب إليه المثنى:

« أما بعد: فقد قرأت كتابك، وأقرأتُه إخوانك، فحمِدوا رأيك، واستجابوا لك، فنحن مُوافُوك « إن شاء الله » للأجل الذى ضربْتَ، وفى الموطنِ الذى ذكرتَ والسلام عليك » .

وكتب فى أسفل كتابه:

تَبصَّرْ كأنّى قد أتيتُك مُعْلَمًا … على أتلعِ الهادِى أجَشَّ هَزِيمِ (١)

طَوِيلِ القَرَا نَهْدِ السَّوَاءِ مُقَلِّصٍ … مُلِحٍّ على فأْسِ اللِّجامِ أزُومِ (٢)

بكل فَتًى لا يَمْلأُ الرَّوْعُ نَحْرَهُ … مُحِسٍّ لعَضِّ الحرب غيرِ سَئُومِ (٣)

أخِى ثِقَةٍ يَنوِى الإله بسَعْيِه … ضَروبٍ بنَصْلِ السيفِ غيرِ أثِيمِ

(تاريخ الطبرى ٧ : ٥١)

---

(١) أعلم نفسه فهو معلم: وسمها بسيمى الحرب، وأعلم فرسه: علق عليه صوفا ملونا فى الحرب، على أتلع الهادى: أى على فرس أتلع الهادى، والهادى: العنق، وأتلع وتليع: طويل العنق، وصف من التلع بالتحريك وهو طول العنق، وفعله كفرح وكرم، والأجش: الغليظ الصوت من الخيل (ومن الإنسان ومن الرعد وغيره) والهزيم: الفرس الشديد الصيت (أى القوى الصوت).

(٢) القرا: الظهر. والنهد: الفرس الحسن الجميل الجسيم اللحيم المشرف. وسواء الجبل: ذروته، فمعنى نهد السواء: مشرف الذروة، وفى الأصل « الشواء » بالشين وهو تصحيف، وإنما الوارد فى كتب اللغة « الشوى » مقصورا، وشوى الفرس قوائمه، وفرس مقلص: مشرف طويل القوائم منضم البطن، الفأس من اللجام: الحديدة القائمة فى الحنك، وأزم الفرس على فأس اللجام كضرب أزما وأزوما فهو آزم وأزوم: عض عليه وقبض.

(٣) الروع: الفزع، محس لعض الحرب: معناه أنه مدرب عليها قد اعتاد أن يخوض غمارها، وأن يعضه نابها، والسئوم: الكثير السآمة.

١١٧ - كتاب عبد الله بن يزيد إلى ابن صرد

فما استهلّ هلال ربيع الآخِر سنة ٦٥ هـ خرج سليمان بن صرد فى أصحابه إلى النُّخَيلة، وبلغ ذلك عبدَ الله بن يزيد الأنصارى أمير الكوفة من قبل ابن الزبير - وكان ابن الزبير ولاّه أميراً عليها على حربها وثغرها، وولى إبراهيم بن محمد بن طلحة بن عبيد الله أميراً على خراجها - فخرجا إليه، وحاولا أن يَثْنِياه عن رأيه فأبى، وأجمع القوم على الشُّخوص واستقبال عبيد الله بن زياد.

ثم أدْلَجَ[١] ابن صُرَد عَشِيَّةَ الجمعة لخمس مضين من ربيع الآخر، وقد كتب إليه عبد الله بن يزيد:

«بسم الله الرحمن الرحيم، من عبد الله بن يزيد إلى سليمان بن صرد ومن معه من المسلمين، سلام عليكم، أما بعدُ: فإن كتابى هذا إليكم كتابُ ناصِحٍ ذى إرْعَاء[٢]، وكم من ناصح مُسْتَغَشّ، وكم من غاشّ مستنصَح مُحَبّ، إنه بلغنى أنكم تريدون المسير بالعَدَدِ اليَسير إلى الجَمْعِ الكثير، وإنه مَن يُرِد أن ينقُل الجبالَ عن مَرَاتِبها[٣] تَكِلّ مَعَاوِله، ويُنزَع وهو مذموم العقل والفعل، يا قومنا لاتُطْمِعوا عدوَّكم فى أهل بلادكم، فإنكم خِيَارٌ كلكم، ومتى ما يُصِبْكم عدوُّكم يعلموا أنكم أعلامُ[٤] مِصْرِكم فيُطمِعهم ذلك فيمن وراءكم، يا قومنا «إِنَّهُمْ إِنْ يَظْهَرُوا[٥] عَلَيْكُمْ يَرْجُمُوكُمْ أَوْ يُعِيدُوكُمْ فِي مِلَّتِهِمْ وَلَنْ تُفْلِحُوا إِذَنْ أَبَدًا» يا قومنا إن أيدينا وأيديَكم اليومَ واحدة، وإن عدوّنا وعدوكم واحد، ومتى تجتمعْ كلمتُنا نَظْهَرْ على

---

(١) أدلج: سار من أول الليل، فإن سار من آخره فادلج بالتشديد.

(٢) أرعى على أخيه: أبقى عليه.

(٣) المراتب: جمع مرتبة، وهى المنزلة، من رتب رتوبا إذا ثبت واستقر ولم يتحرك: أى من أماكنها التى رتبت بها، وربما كان الأصل «من مراسيها».

(٤) جمع علم بالتحريك، وهو سيد القوم. (٥) ظهر عليه: غلبه.

عدونا ، ومتى تختلف تَهُن[١] شوكتنا على من خالفنا ، يا قومنا لا تَستغشُّوا نُصحى ، ولا تخالفوا أمرى ، وأقبِلوا حين يُقرأ عليكم كتابى ، أقبل الله بكم إلى طاعته ، وأدبَرَ بكم عن معصيته ، والسلام » . (تاريخ الطبرى ٧ : ٧١)

١١٨ — رد ابن صرد عليه

فكتب إليه ابن صرد :

« بسم الله الرحمن الرحيم ، للأمير عبد الله بن يزيد من سليمان بن صُرَد ومن معه من المؤمنين ، سلام عليك ، أما بعدُ : فقد قرأنا كتابك ، وفهمنا ما نوَيْتَ ، فنِعْمَ والله الوالى ، ونعم الأمير ، ونعم أخو العَشيرة ، أنت والله من نأمَنه بالغيْب ، ونستَنصِحه فى المَشُورة ، ونحمَده على كل حال ، إنا سَمِعنا الله عزَّ وجل يقول فى كتابه : « إنَّ اللهَ اشْتَرَى مِنَ الْمُؤْمِنِينَ أَنْفُسَهُمْ وَأَمْوَالَهُمْ بِأَنَّ لَهُمُ الْجَنَّةَ يُقَاتِلُونَ فِى سَبِيلِ اللهِ فَيَقْتُلُونَ وَيُقْتَلُونَ وَعْداً عَلَيْهِ حَقًّا فِى التَّوْرَاةِ وَالْإِنْجِيلِ وَالْقُرْآنِ وَمَنْ أَوْفَى بِعَهْدِهِ مِنَ اللهِ فَاسْتَبْشِرُوا بِبَيْعِكُمُ الَّذِى بَايَعْتُمْ بِهِ وَذَٰلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ ، التَّائِبُونَ الْعَابِدُونَ الْحَامِدُونَ السَّائِحُونَ[٢] الرَّاكِعُونَ السَّاجِدُونَ الْآمِرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَالنَّاهُونَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَالْحَافِظُونَ لِحُدُودِ اللهِ وَبَشِّرِ الْمُؤْمِنِينَ » :

إن القوم قد استَبْشروا ببَيْعتهم التى بايعوا ، إنهم قد تابوا من عظيم جُرْمهم ، وقد توجَّهوا إلى الله ، وتوكَّلوا عليه ، ورَضُوا بما قضى اللهُ ، « رَبَّنَا عَلَيْكَ تَوَكَّلْنَا وَإِلَيْكَ أَنَبْنَا وَإِلَيْكَ الْمَصِيرُ » والسلام عليك » .

---

(١) تهن : تضعف ، والشوكة : شدة البأس .

(٢) السائح : الصائم اللازم للمساجد .

وسار ابن صرد بأصحابه حتى انتهى إلى عَيْن الوَرْدة[١] فنزل فى غربيِّها ، وأقبل عبيد الله بن زياد بجيشه ، ودارت رحى الحرب بين الفريقين ، واسْتُشْهِد[٢] فى المعركة سليمان بن صرد بعد أن قتل من القوم مقتلة عظيمة ، وقتل أيضاً كثير من رءوس أصحابه ، فلما رأى من بقِى من التَّوابين أن لا طاقةَ لهم بمن بإزائهم من أهل الشأم انحازوا عنهم وارتحلوا وعليهم رِفاعة بن شدَّاد البَجَلىّ ، وكان ذلك فى ربيع الآخر سنة ٦٥ هـ .

(تاريخ الطبرى ٧ : ٧٢)

(١) هى رأس العين : بلد فى وسط الجزيرة .
(٢) استشهد : قتل فى سبيل الله .

طلب المختار بن أبي عبيد الثقفى

بدم الحسين رضى الله عنه

١١٩ — كتاب المختار إلى عبد الله بن عمر

وقدِم المختار بن أبى عُبَيد الثَّقفى[١] الكوفةَ فى رمضان سنة ٦٤ هـ ، فأتاه بعض الشيعة ليلا ، فسألهم عن أمر الناس ، وعن حال الشيعة ، فقالوا له : إن الشيعة قد اجتمعت لسليمان بن صُرَد الُخزاعىّ ، وإنه لن يلبث يسيراً حتى يخرج ، فجعل يزعم لهم أن محمد بن الحنفِيَّة قد بعثه إليهم أميناً ووزيراً ، وأنه أمره بقتال المُلْحِدين والطلب بدماء أهل بيته ، وما زال حتى استمال طائفة من الشيعة ، ومُعْظَمهم يومئذ مع ابن صُرَد :

---

(١) هو المختار بن أبى عبيد بن مسعود الثقفى ، وقد كان لأبيه أبى عبيد شأن عظيم فى فتح فارس ، فإن عمر بن الخطاب رضى الله عنه حين ولى الخلافة ، كان أول ماعمل به أن ندب الناس مع المثنى بن حارثة الشيبانى لقتال أهل فارس ، وجعل يندبهم ثلاثة أيام فلا ينتدب أحد إلى فارس — وكان وجه فارس من أكره الوجوه إليهم وأثقلها عليهم فلما كان اليوم الرابع عاد فندب الناس، فكان أول منتدب أبو عبيد والد المختار، وقد أبلى أبو عبيد فى فتح فارس بلاء حسنا حتى مات فى وقعة الجسر وولد ابنه المختار فى السنة الأولى من الهجرة، ولم يكن المختار فى تشيعه لآل على بالمخلص، وكانت الشيعة تنقم عليه ما كان منه فى أمر الحسن بن على رضى الله عنه يوم طعن فى مظلم ساباط وحمل إلى المدائن — وكان عم المختار وهو سعد بن مسعود عاملا له على المدائن — فقال المختار لعمه :هل لك فى الغنى والشرف ؟ قال : وماذاك ؟ قال :توثق الحسن وتستأمن به إلى معاوية ، فقال له سعد : عليك لعنة الله ، أثب على ابن بنت رسول الله صلى الله عليه وسلم فأوثقه! بئس الرجل أنت ! ولما قدم مسلم بن عقيل الكوفة من قبل الحسين رضى الله عنه ، نزل دار المختار ، فبايعه المختار فيمن بايعه من أهل الكوفة وناصحه ودعا إليه، ثم ظفر ابن زياد بمسلم وقتله ، وأمر بالمختار فسجن ، فبعث المختار إلى عبد الله بن عمر بالمدينة ، يسأله أن يشفع له عند يزيد بن معاوية : — وكانت صفية أخت المختار تحت عبد الله بن عمر — فكتب ابن عمر إلى يزيد يشفع فيه فشفعه ، وخلى ابن زياد سبيله ، وأخرجه من الكوفة ، فقدم الحجاز وبايع عبد الله بن الزبير ، وقاتل معه حين حاصر مكة جيش يزيد تحت إمرة الحصين بن نمير ، وأقام مع ابن الزبير بعد مهلك يزيد ،حتى قدم الكوفة فى منتصف رمضان سنة ٦٤ هـ .

فلما خرج ابن صرد نحو الجزيرة ـ خاف عبد الله بن يزيد الأنصارى وإبراهيم ابن محمد بن طَلْحة أميرا الكوفة أن يَثِب عليهما المختار ، فزجَّاه(١) فى السجن ، فكتب المختار إلى صِهْرِه عبد الله بن عمر بن الخطاب .

« أما بعد : فإنى قد حُبستُ مظلوماً ، وظن بى الوُلاة ظنوناً كاذبة ، فاكتب فىّ « يرحمك الله » إلى هذين الظالِمَين كتابا لطيفاً ، عسى اللهُ أن يخلِّصنى من أيديهما ، بلطفك وبَرَكتك ويُمنك ، والسلام عليك » . (تاريخ الطبرى ٧ : ٩٣)

١٢٠ — كتاب ابن عمر إلى عبد الله بن يزيد وإبراهيم بن طلحة

فكتب عبد الله بن عمر إلى عبد الله بن يزيد ، وإبراهيم بن محمد بن طلحة :

« أما بعد : فقد علِمْتما الذى بينى وبين المختار بن أبى عبيد من الصِّهر ، والذى بينى وبينكما من الودِّ ، فأقسمتُ عليكما بحقٍّ ما بينى وبينكما لَمَا خلَّيتما سبيلَه حين تنظران فى كتابى هذا ، والسلام عليكما ورحمة الله » .

فلما أتاهما كتابُ ابن عمر ، دَعَوا المختار بكُفَلاء يَضْمَنونه بنفسه ، فأتاه أناس من أصحابه كثير فضَمِنوه ، فدعوَا به فحلَّفاه بالله الذى لا إله إلا هو عالم الغَيْب والشَّهادة الرحمن الرحيم : لا يَبْغيهما غائلةً ، ولا يخرج عليهما ما كان لهما سلطان ، فإن هو فعل فعليه ألف بَدَنة يَنْحرها لدى رِتاج(٢) الكعبة ، ومماليكُه كلُّهم ذَكَرُهم وأنثاهم أحرار ، فحلف لهما بذلك(٣) ، فأطلقاه من السجن » . (تاريخ الطبرى ٧ : ٩٣)

---

(١) زجه : رماه . (٢) الرتاج : الباب العظيم .

(٣) وكان المختار بعد ذلك يقول : « قاتلهم الله ما أحمقهم حين يرون أنى أفى لهم بأيمانهم هذه ؟ أما حلفى لهم بالله فإنه ينبغى لى إذا حلفت على يمين فرأيت ماهو خير منها أن أدع ماحلفت عليه وآتى الذى هو خير وأكفر يمينى ، وخروجى عليهم خير من كفى عنهم وأكفر يمينى ، وأما هدى ألف بدنة ، فهو أهون على من بصقة ، وما ثمن ألف بدنة فيهولنى ؟ وأما عتق مماليكى فوالله لوددت أنه قد استتب لى أمرى ، ثم لم أملك مملوكا أبداً » .

١٢١ — كتاب المختار إلى أصحاب ابن صرد

وكتب المختار وهو فى سجنه إلى أصحاب سليمان بن صُرَد حين قَدِموا من قتال عبيد الله بن زياد :

« أما بعدُ ، فإنّ الله أعظمَ لكم الأجْرَ ، وحطّ عنكم الوِزْرَ ، بمُفارقة القاسطين ، وجِهادِ المُحِلِّين ، إنكم لم تُنْفقوا نفقةً ، ولم تَقْطعوا عَقَبَةً[1] ، ولم تَخْطُوا خُطوة ، إلا رفع الله لكم بها درجةً ، وكتبَ لكم بها حسنةً ، إلى مالا يُحْصيه إلا الله من التضعيف ، فأبشِروا ، فإنى لو قد خرجتُ إليكم قد جَرَّدْتُ فيما بين المشرق والمغرب فى عدوكم السيف بإذن الله ، فجعلتهم بإذن الله رُكامًا[2] ، وقتلتُهم فَذًّا وتَوْءما[3] ، فرحَّب الله بمن قاربَ منكم واهتدى ، ولا يُبْعِد الله إلا من عصى وأبَى ، والسلام ياأهل الهدى » .

فبعثوا إليه رسولًا منهم فقالوا : قل له قد قرأنا الكتاب ، ونحن بحيثُ يَسُرّك ، فإن شئتَ أن نأتيك حتى نُخرجك فعلنا ، فأتاه فدخل عليه السجن فأخبره بما أرسل به إليه ، فسرّ باجتماع الشيعة له ، وقال لهم : لاتريدوا هذا ، فإنى أخرج فى أيامى هذه .

(تاريخ الطبرى ٧ : ٩٣)

١٢٢ — كتاب إلى إبراهيم بن مالك الأشتر
افتعله على محمد بن الحنفية

واختلفت الشيعة إلى المختار بعد خروجه من السجن ، واجتمعت عليه ، واتفق رأيها على الرضا به ، ولم يزل أصحابه يكثرون ، وأمره يَقْوَى ويشتد حتى عزل ابن الزبير عبد الله بن يزيد وإبراهيم بن طلحة عن الكوفة ، وبعث على عملهما عبد الله بن مُطيع العَدَوى ، لخمس بقين من رمضان سنة ٦٥ هـ .

---

(١) العقبة : المرقى الصعب فى الجبل .

(٢) متراكبين بعضهم ملقى فوق بعض . (٣) أى فردا وزوجا .

وساورت الشيعةَ ريبة فيما ادعاه المختار من أن ابن الحنفية بعث به إليهم ، فأوفدوا وفداً منهم إلى ابن الحنفية يستثبت منه ، فقالوا له : إن المختار قد قدِم علينا وهو يزعم أنه جاءنا من تلقائكم ، وقد دعانا إلى الطلب بدماء أهل البيت ، فبايعناه على ذلك ، فإن أمرتنا باتباعه اتبعناه ، وإن نهيتنا عنه اجتنبناه ، فقال لهم : أما ما ذكرتم من دعاء مَن دعاكم إلى الطلب بدمائنا ، فوالله لَوَدِدْتُ أن الله انتصر لنا من عدونا بمن شاء من خلقه ، فخرجوا من عنده وهم يقولون ، قد أذن لنا ، قد قال : لوددت أن الله انتصر لنا . . . . . . ولو كَرِه لقال : لاتفعلوا ، وجاءوا المختار فقالوا : قد أمرنا بنصرتك ، فكبَّر واستبشر ، واستجمعت له الشيعة وحَدِبَت[1] عليه :

ودعا أصحاب المختار إبراهيم بن الأشتر أن يَنضم إلى زُمْرتهم ، فقال لهم : إنى قد أجبتكم إلى ما دعوتمونى إليه من الطلب بدم الحسين وأهل بيته ، على أن تولونى الأمر ، فقالوا : هذا المختار قد جاءنا من قبل المهدىّ ، وهو الرسول ، والمأمور بالقتال ، وقد أمرنا بطاعته فلم يجبهم ابن الأشتر ، فانصرفوا إلى المختار ، فأخبروه بما ردّ عليهم ، فسار المختار إلى ابن الأشتر فقال له : هذا كتاب إليك من المهدى محمد ابن أمير المؤمنين الوصىّ يسألكِ أن تنصرنا وتؤازرنا ، فإن فعلت آغتبطت ، وإن لم تفعل فهذا الكتاب حجة عليك ، ودفع إليه الكتاب ، ففض خاتمه وقرأه فإذا فيه :

« بسم الله الرحمن الرحيم ، من محمد المهدىّ إلى إبراهيم بن مالك الأشتر ، سلام عليك ، فإنى أحمَد إليك اللهَ الذى لا إله إلا هو . أما بعــد : فإنى قد بعثتُ إليكم بوَزيرى ، وأمينى ونجيبى[2] الذى ارتضيتُه لنفسى ، وقد أمرتُه بقتال عدوى ، والطَّلبِ بدماء أهل بيتى ، فانهَضْ معه بنفسك وعشيرتك ومن أطاعك ، فإنك لو نصرتَنى ، وأجبتَ دعوتى ، وساعدتَ وزيرى ، كانت لك عندى بذلك فضيلَةٌ ، ولك بذلك أعِنَّةُ

---

(١) عطفت .

(٢) النجيب : المنتجب أى المختار ، انتجب فلان فلانا إذا استخلصه واصطفاه اختيارا على غيره .

الخيل[١] وكل جيش غازٍ، وكل مِصْرٍ، ومِنْبَر، وثغرٍ ظَهَرْتَ عليه فيما بين الكوفة وأقصى بلاد أهل الشأم، عليّ الوفاء بذلك، عليّ عهدُ الله، فإن فعلتَ ذلك نِلتَ به عند الله أفضل الكرامة، وإن أبيت هلكت هلاكاً لا تَسْتَقِيله أبداً، والسلام عليك».

فلما قضى إبراهيم قراءة الكتاب قال: قد كتب إليّ ابن الحنفية، وقد كتبت إليه قبل اليوم، فما كان يكتب إليّ إلا باسمه واسم أبيه، قال له المختار: إن ذلك زمان وهذا زمان، قال إبراهيم: فمن يعلم أن هذا كتاب ابن الحنفية إليّ؟ فقال أصحاب المختار: نشهد أن هذا كتاب محمد بن عليّ إليك، فقال إبراهيم للمختار: ابسط يدك أبايعك، فبسط المختار يده، فبايعه إبراهيم.

وجعل المختار وأصحابه يدبِّرون أمورهم حتى اجتمع رأيهم على أن يخرجوا ليلة الخميس لأربع عشرة من ربيع الأول سنة ٦٦ هـ، فثاروا بالكوفة وقاتلوا جند ابن مطيع فهزموهم، وحصروا ابن مطيع حتى اشتد عليه الحصار فهرب إلى البصرة، وخَلَص الأمر للمختار فبايعه الناس، وغلب على الكوفة[٢].

(تاريخ الطبرى ٧ : ٩٩، وتاريخ الكامل لابن الأثير ٤ : ٨٤.)

١٢٣ — كتاب عبد الرحمن بن سعيد بن قيس إلى المختار

وكان مروان بن الحكم قد بويع بالخلافة بالشام «لثلاث خَلَوْنَ من ذى القَعدة سنة ٦٤ هـ» فلما استوثقت له الشام بالطاعة، بعث جيشاً إلى العراق عليه عبيد الله بن زياد، وجعل له إذ وجَّهه إلى العراق ما غلب عليه، وأمره أن يُنْهِبَ[٣] الكوفة إذا هو

(١) أى وليت القيادة.

(٢) قال المسعودى فى مروج الذهب (ج ٢ : ص ٩٨) «وأخرج المختار بن مطيع وغلب على الكوفة، وابتنى لنفسه داراً، واتخذ بستانا أنفق عليه أموالا عظيمة أخرجها من بيت المال، وفرق الأموال على الناس بها تفرقة واسعة، وكتب إلى الزبير يعلمه أنه إنما أخرج ابن مطيع عن الكوفة لعجزه عن القيام بها، ويسوم ابن الزبير أن يحتسب له بما أنفقه من بيت المال، فأبى ابن الزبير ذلك عليه، فخلع المختار طاعته وجحد بيعته». (٣) أى يجعلها نهباً يغار عليه.

ظفِر بأهلها ثلاثًا ، وكان من أمره وأمر التوابين بعَين الوَردة ما قدمنا ، ثم إنه أقبل إلى المَوْصِل ، فكتب عبد الرحمن بن سعيد بن قيس عامل المختار على الموصل إلى المختار :

« أما بعدُ : فإنى أخبرك أيها الأمير أن عبيد الله بن زياد قد دخل أرض الموصِل ، وقد وجَّه قِبلى خيلَه ورجالَه ، وإنى انحَزْتُ إلى « تَكرِيت » حتى يأتينى رأيك وأمرك ، والسلام عليك » . (تاريخ الطبرى ٧ : ١١٣)

١٢٤ — رد المختار على عبد الرحمن بن سعيد

فكتب إليه المختار :

« أما بعدُ : فقد بلغنى كتابك ، وفهمتُ كل ما ذكرت فيه ، فقد أصبتَ بانحيازك إلى « تَكريت » فلا تبرحَنَّ مكانك الذى أنت به حتى يأتيك أمرى إن شاء آلله ، والسلام عليك » . (تاريخ الطبرى ٧ : ١١٣)

١٢٥ — كتاب المختار إلى عبد الرحمن بن سعيد

ودعا المختار يزيد بن أنس ، فوجَّهه إلى الموصل ، وكتب إلى عبد الرحمن بن قيس ابن سعيد :

« أما بعدُ : فَخلِّ بين يزيد وبين البلاد إن شاء الله ، والسلام عليك » .

وفَصَلَ يزيدُ بن أنس من الكوفة على رأس جيش انتخبه ، وسار إلى الموصل ، فقاتل جيش ابن زياد وهزمه .

ثم سيّر المختار إلى ابن زياد جيشًا عليه إبراهيم بن الأشتر ، فالتقى به على شاطئ نهر خازِر من أرض الموصل ، ودارت الدائرة على ابن زياد ، وقتله ابن الأشتر ، وكان ذلك سنة ٦٧ هـ .

١٢٦ - كتاب المختار بالأمان لعمر بن سعد بن أبي وقاص

ووثب المختار سنة ٦٦ هـ بمن كان بالكوفة من قَتَلَة الحسين رضى الله عنه والمشايعين على قتله ، فقتل مَن قَدَر عليه منهم ، وهَرَب من الكوفة بعضهم فلم يقدر عليه .

وكان عبد الله بن جَعْدة بن هُبَيْرة أكرمَ خلق الله على المختار لقرابته بعلي[1] ، فكلم عمرُ بن سعد بن أبي وقّاص عبدَ الله بن جَعْدة ، وقال له : إني لا آمَن هذا الرجل - يعني المختار - فخذ لي منه أمانا ففعل ، وكتب له :

« بسم الله الرحمن الرحيم ، هذا أمانٌ من المختار بن أبي عبيد لعُمَر بن سعد بن أبي وقّاص ، إنك آمِنٌ بأمان الله على نفسِك ومَالِك ، وأهلك وأهل بيتك وولدك ، لا تؤاخَذُ بحَدَثٍ كان منك قديمًا، ما سَمِعتَ وأطعت، ولزِمتَ رَحلَك وأهلَك، ومِصْرَك، فمن لقِيَ عمر بن سعد من شُرْطة[2] الله وشيعةِ آل محمد ، ومن غيرهم من الناس ، فلا يَعْرِض له إلا بخير » .

شَهِدَ السَّائِبُ بن مالك ، وأحمر بن شُمَيْط ، وعبد الله بن شدَّاد ، وعبد الله ابن كامل ، وجعل المختار على نفسه عَهْدَ الله وميثاقَه لَيَفِيَنّ لعمر بن سعد بما أعطاه من الأمان ، إلاّ أن يُحْدِث حَدَثًا[3] ، وأشهدَ اللهَ على نفسه ، وكفى بالله شهيدًا » . (تاريخ الطبري ٧ : ١٢٦)

---

(١) كانت أم جعدة أم هانئ بنت أبي طالب أخت علي بن أبي طالب عليه السلام : (تاريخ الطبري ج ٧ : ص ١٤١) .

(٢) شرط السلطان : نخبة أصحابه الذين يقدمهم على غيرهم من جنده ، والمعنى هنا : من أولياء الله وأنصار دينه الذين يقدمهم على غيرهم من عباده .

(٣) وكان أبو جعفر محمد بن علي يقول : « أما أمان المختار لعمر بن سعد إلا أن يحدث حدثا، فإنه كان يريد به إذا دخل الخلاء فأحدث » .

١٢٧ — كتاب المختار إلى محمد بن الحنفية

ولم يَرْعَ المختار هذا العهد ، فقتل عمر بن سعد وابنه حَفْص بن عمر ، وبعث برأسيهما إلى محمد بن الحنفية وكتب إليه :

« بسم الله الرحمن الرحيم ، للمهدىّ محمد بن على من المختار بن أبى عبيد ، سلام عليك يأَيُّها المهدى ، فإنى أحمَد إليكَ اللهَ الذى لا إله إلا هو ، أما بعد : فإن الله بعثنى نِقمةً على أعدائكم ، فهم بين قتيل وأسِير وطَريد وشريد ، فالحمد لله الذى قتل قاتِليكم ، ونَصَر مُؤازِرِيكم[1] ، وقد بعثت إليك برأس عمر بن سعد وابنه ، وقد قتلنا من شَرِك فى دم الحسين وأهل بيته « رحمة الله عليهم » كلَّ من قَدَرْنا عليه ، ولن يُعْجِزَ اللهَ من بقى ، ولست بمُنْجِمٍ[2] عنهم حتى لا يبلُغَنى أنَّ على أدِيم الأرض منهم إرَمِيًّا[3] ، فاكتب إلىّ أيها المهدى برأيك أتَّبِعْه وأكون عليه ، والسلام عليك أيها المهدى ورحمة الله وبركاته » . (تاريخ الطبرى ٧ : ١٢٧)

١٢٨ — كتاب المختار إلى مالك بن مسمع وزياد بن عمرو

وكان المُثَنَّى بن مُخَرِّبة العَبْدِىّ ممن بايع المختار ، فقال له المختار : الْحَق ببلدك بالبصرة ، فادْعُ الناس ، وأسِرَّ أمرك ، فقَدِم البصرة فدعا ، فأجابه رجال من قومه وغيرهم ، فوجَّه إليهم أمير البصرة الحارثُ بن عبد الله عبَّادَ بن حُصَين ، فهزَمهم وحوى ما كان فى مُعَسْكرهم ، ولاذ المثنى وأصحابه بعبد القيس فمنعوهم وأبَوْا أن يسلِّموهم ، فأرسل الأميرُ الأحنَف بنَ قيس ليُصْلح أمر الناس ، فأتى عبْدَ القيس فقال لهم : ألستم

(١) المؤازر : المساعد والمعين . (٢) أنجم : أقلع .
(٣) أى أحداً ، يقال ما بالدار أرِم بالتحريك ، وأرِيم : كأمير . وإرَمِىّ كعنبى ، ويحرك ، أو يرمى ، وبكسر أوله : أى أحد .

على بَيعة ابن الزبير ؟ قالوا : بَلَى ، ولكنا لا نسلِّم إخواننا ، قال : فمُروهم فليَخْرجوا إلى أى بلاد أحبُّوا ، ولا يُفْسِدوا هذا المِصْر على أهله ، وهم آمِنون فليخرجوا حيث شاءوا ، فمشى مالك بن مِسْمَع ، وزياد بن عمرو ، ووجوه أصحابهم إلى المثنى ، فأشاروا عليه أن يَلْحَق بصاحبه المختار ، فقبِل قولهما ، وشخَص إلى المختار بالكوفة ، وأخبره حين قَدِم عليه بما كان من أمر مالك بن مِسْمَع ، وزياد بن عمرو ، ومَسيرهما إليه وذبِّهما عنه حين شَخَص عن البصرة ، فطمِع المختار فيهما ، فكتب إليهما :

« أما بعدُ : فاسْمَعا وأطِيعَا أُوتِكُما من الدنيا مَا شِئْتُما ، وأَضْمَن لكما الجنّة » .

فقال مالك لزياد : يا أبا المُغيرةِ ، قد أكثر لنا أبو إسحاق[1] إعطاءنا الدنيا والآخرة ، فقال زياد مازحا لمالك : يا أبا غسَّان ، أمّا أنا فلا أقاتِلُ نَسِيئةً[2] ، مَن أعطانا الدراهم قاتلنا معه . (تاريخ الطبرى ٧ : ١٠١)

١٢٩ — كتاب المختار إلى الأحنف بن قيس

وكتب المختار إلى الأحنف بن قيس :

« بسم الله الرحمن الرحيم ، من المختار بن أبى عبيد إلى الأحنف بن قيس ، ومَن قِبَله ، فسِلْم أنتم ، أما بعد : فوَيْلُ أمِّ[3] ربيعة من مُضَر ، فإن الأحنف مُورِدٌ قومَه

---

(١) كنية المختار .

(٢) النسيئة: التأخير ، يقال : بعته بنسيئة : أى بأخرة ، ونسأته البيع وأنسأته : أخرته .

(٣) يقال فى المستجاد : « ويلمه » . تعجبا منه ، وأصله ويل لأمه حذفت اللام لكثرته فى الكلام وحذفت الهمزة من أمه تخفيفا وألقيت حركتها على اللام ، ثم ركبوه وجعلوه كالشىء الواحد وهو مدح خرج بلفظ الذم ، كما يقولون : أخزاه الله ما أشعره ، ولعنه الله ما أسمعه ، وفى الحديث قوله لأبى بصير : « ويلمه مسعر حرب » . تعجباً من شجاعته وجرأته وإقدامه — ومسعر حرب كمنبر أى موقد نارها ، من سعر النار والحرب كمنع : أوقدها — وقول المختار : «ويل أم ربيعة». يقصد به مدح عبد القيس ، وهم من ربيعة — فهم بنو عبد القيس بن جديلة بن أسد بن ربيعة — لما كان منهم من إيواء داعية المثنى بن مخربة العبدى والذب عنه ، وقوله « من مضر » يعنى أنه يمدح ربيعة ، ويفضلها على مضر ، يقصد الأحنف بن قيس ، وهو من تميم وتميم من مضر : — فهم بنو تميم بن طابخة بن إلياس بن مضر — . لما كان من الأحنف فى أمر المثنى .

سَقَر[١] ، حيث لا يستطيع لهم الصَّدَر[٢] ، وإنى لا أملك ما خُطَّ فى القَدَر ، وقد بلغنى أنكم تسمونى كذّابا ، وإن كُذِّبتُ فقد كُذِّبَتْ رُسُل من قبلى ، ولست بخير من كثير منهم[٣] » . (تاريخ الطبرى ٧ : ١٣١ — ١٣٢ ، والعقد الفريد ٢ : ٢٦٥)

---

(١) سقر : جهنم . (٢) الصدر : الرجوع .

(٣) قال ابن عبد ربه فى العقد الفريد ج ٢ : ص ٢٦٥ : « وجعل المختار يتتبع قتلة الحسين بن على ومن خذله ، فقتلهم أجمعين ، فلما أفناهم دانت له العراق ، ولم يكن صادق النية ولا صحيح المذهب ، وإنما أراد أن يستأصل الناس ، فلما أدرك بغيته أظهر الناس قبح نيته » فادعى أن جبريل ينزل عليه ، ويأتيه بالوحى من الله وكتب إلى أهل البصرة : « بلغنى أنكم تكذبونى وتكذبون رسلى ، وقد كذبت الأنبياء من قبلى ، ولست بخير من كثير منهم » . وقال : « ج ٢ : ص ٢٧٠ » . لما قتل الحجاج ابن الزبير ومنع أمه أسماء أن تدفنه . قالت : أما إنى سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : « يخرج من ثقيف رجلان : الكذاب والمبير » . (أى المهلك) فأما الكذاب فالمختار ، وأما المبير فأنت ، فقال الحجاج : اللهم مبير لا كذاب . وقال المبرد فى الكامل : « ج ٢ ص ١٦٧ » . وكان المختار لا يوقف له على مذهب ، كان خارجيا ، ثم صار زبيريا ، ثم صار رافضيا فى ظاهره ، وكان يدعى أنه يلهم ضربا من السجاعة لأمور تكون ، ثم يحتال فيوقعها ، فيقول الناس : هذا من عند الله عز وجل ، فمن ذلك قوله ذات يوم « لتنزلن من السماء نار دهماء ، فلتحرقن دار أسماء » فذكر ذلك لأسماء بن خارجة ، فقال : أو قد سجع بى أبو إسحاق ! هو والله محرق دارى ، فتركه والدار وهرب من الكوفة ، وقال فى بعض سجعه : أما والذى شرع الأديان ، وجنب الأوثان ، وكره العصيان لأقتلن أزد عمان ، وجل قيس عيلان ، وتميا أولياء الشيطان ، حاشا النجيب ظبيان» . فكان ظبيان النجيب يقول: لم أزل فى عمر المختار أتقلب آمنا .

وخرج يشيع إبراهيم بن الأشتر حين شخص لقتال عبيد الله بن زياد ، فقال الناس : « إن استقمتم فبنصر الله ، وإن حصتم حيصة ، فإنى أجد فى محكم الكتاب ، وفى اليقين والصواب ، أن الله مؤيدكم بملائكة غضاب ، تأتى صور الحمام دوين السحاب » أى قريبا منه ، وكان قد دفع إلى قوم من خاصته حماما بيضا ضخاما ، وقال لهم : «إن رأيتم الأمر لنا فدعوها ، وإن رأيتم الأمر علينا فأرسلوها » . فلما التقوا كانت على أصحاب إبراهيم الدائرة فى أول النهار ، فأرسل أصحاب المختار الطير فتصايح الناس : الملائكة ! فتراجعوا واقتتل الناس حتى اختلط الظلام ، وأسرع القتل فى أصحاب ابن زياد ثم انكشفوا ، ووضع السيف فيهم حتى أفنوا : « الكامل للمبرد ج ٢ : ص ١٦٩ » .

وقال الشهرستانى فى الملل والنحل : « ١ : ١٥٣ » . ومن مذهب المختار أنه يجوز البداء على الله تعالى ، والبداء له معان : البداء فى العلم ، وهو أن يظهر له خلاف ما علم ، والبداء فى الإرادة ، وهو أن يظهر له صواب على خلاف ما أراد وحكم ، والبداء فى الأمر ، وهو أن يأمر بشىء ، ثم يأمر بعده بخلاف ذلك ، وإنما صار المختار إلى اختيار القول بالبداء ، لأنه كان يدعى علم مايحدث من الأحوال ، إما بوحى يوحى إليه ، وإما برسالة من قبل الإمام (ابن الحنفية) فكان إذا وعد أصحابه بكون شىء وحدوث حادثة ، فإن وافق كونه قوله جعله دليلا على صدق دعواه ، وإن لم يوافق قال قد بدا لربكم ، وقد تبرأ ابن الحنفية منه حين وصل إليه أنه قد لبس على الناس بأنه من دعاته ورجاله ، وتبرأ من الضلالات التى ابتدعها من التأويلات الفاسدة والمخاريق المموهة ، فمن مخاريقه أنه كان عنده كرسى قديم قد غشاه بالديباج وزينه بأنواع الزينة =

١٣٠ — كتاب المختار إلى ابن الزبير

ولما استَجْمَعَ الأمرُ للمختار بالكوفة ـ وهو عند الشّيعة إنما يدعو إلى ابن الحنفية والطلب بدماء أهل البيت ـ أخذ يخادع ابن الزبير ، فكتب إليه :

« أمّا بعدُ : فقد عرَفْتَ مُناصحتى إياك ، وجَهدِى على أهل عداوتك ، وما كنتَ أعطيتنى ـ إذا أنا فعلت ذلك ـ من نفسك ، فلما وَفَيْتُ لك وقضيتُ الذى كان لك علىّ ، خِسْتَ[1] بى ولم تَفِ بما عاهدتَنى عليه[2] ، ورأيتَ منى ما قد رأيت ، فإن تُرِد مُراجَعتى أُراجِعْك ، وإن تُرِدْ مناصحتى أَنْصَحْ لك » :

= وقال : هذا من ذخائر أمير المؤمنين على عليه السلام ، وهو عندنا بمنزلة التابوت لبنى إسرائيل ، فكان إذا حارب خصومه يضعه فى براح الصف ، ويقول : « قاتلوا ولكم الظفر والنصرة ، وهذا الكرسى محله فيكم محل التابوت فى بنى إسرائيل ، وفيه السكينة والبقية ، والملائكة من فوقكم ينزلون مددا لكم » . ـ أخذ من قوله تعالى : « وَقَالَ لَهُمْ نَبِيُّهُمْ إِنَّ آيَةَ مُلْكِهِ أَنْ يَأْتِيَكُمُ التَّابُوتُ فِيهِ سَكِينَةٌ مِنْ رَبِّكُمْ ، وَبَقِيَّةٌ مِمَّا تَرَكَ آلُ مُوسَى وَآلُ هَرُونَ تَحْمِلُهُ الْمَلَائِكَةُ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ » . ويقال إنه اشتراه من نجار بدرهمين ـ انظر قصته فى تاريخ الطبرى : (٧ : ١٤٠) . والكامل للمبرد : (٢ : ١٧٠) .

(١) خاس بالعهد يخيس : غدر ونكث .

(٢) وذلك أن المختار لما أطلقه ابن زياد سجنه خرج إلى الحجاز ، فلقى ابن الزبير ، فقال له : إنى قد جئتك لأبايعك ، على أن لا تقضى الأمور دونى ، وعلى أن أكون فى أول من تأذن له ، وإذا ظهرت استعنت بى على أفضل عملك ، فقال له ابن الزبير : أبايعك على كتاب الله وسنة نبيه صلى الله عليه وسلم فقال : وشر غلمانى أنت مبايعة على كتاب الله وسنة نبيه صلى الله عليه وسلم ! لا والله لا أبايعك أبداً إلا على هذه الخصال ، قال عباس بن سهل : فالتقمت أذن الزبير ، فقلت له : اشتر منه دينه حتى ترى من رأيك ، فقال له ابن الزبير : فإن لك ما سألته ، فبسط يده فبايعه وقاتل معه جند حصين بن نمير حين حاصر مكة ، فكان أحسن الناس بلاء ، وأعظمهم غناء . (تاريخ الطبرى ج ٧ : ص ٦١) .

وأقام المختار مع ابن الزبير حتى هلك يزيد وانقضى الحصار ، ورجع جند حصين إلى الشأم ، واصطلح أهل الكوفة على عامر بن مسعود بعد ما هلك يزيد يصلى بهم حتى يجتمع الناس على إمام يرضونه ، فلم يلبث عامر إلا شهراً حتى بعث ببيعته وبيعة أهل الكوفة إلى ابن الزبير ، فبعث عبد الله بن يزيد الأنصارى وإبراهيم بن محمد بن طلحة أميرين على الكوفة ، ثم عبد الله بن مطيع ، وكذلك ولى على البصرة ولاة كما شاء ، ولم يول المختار كما كان ينتظر.

وهو يريد بذلك كَفَّه عنه حتى يستجمع له الأمر ، وهو لا يُطْلع الشيعة على شيء من هذا الأمر ، وإذا بلغهم شيء منه أراهم أنه أبعد الناس عن ذلك » .

(تاريخ الطبرى ٧ : ١٣٣)

١٣١ — كتاب المختار إلى ابن الزبير

وقال أبو العباس المبرِّد فى الكامل :

« ويروى أن المختار بن أبى عبيد حيثُ كان والياً لابن الزبير على الكوفة[١] ، اتَّهمه ابن الزبير ، فولَّى رجلاً من قريشٍ الكوفةَ ، فلما أطَلَّ قال لجماعة من أهلها : اخرجوا إلى هذا المغرور فردوه ، فخرجوا إليه فقالوا : أين تريد ؟ والله لئن دخلت الكوفة ليقتلنَّك المختار ، فرجع ، وكتب المختار إلى ابن الزبير :

« إن صاحبك جاءنا ، فلما قارَبَنا رجع ، فما أدرِى ما الذى ردَّه ؟ » .

فغضِب ابن الزبير على القرشى وعجَّزه وردَّه إلى الكوفة ، فلما شارَفَها قال المختار : اخرجوا إلى هذا المغرور فردوه ، فخرجوا إليه ، فقالوا : إنه والله قاتِلُك ، فرجع ، وكتب المختار إلى ابن الزبير بمثل كتابه الأول ، فلام القرشىَّ ، فلما كان فى الثالثة فَطِن[٢] ابن الزبير ، وعلم بذلك المختار[٣] .

---

(١) هكذا يروى أبو العباس ، ولكن المختار لم يكن واليا لابن الزبير على الكوفة ، وإنما غلب عليها وأخرج منها عبد الله بن مطيع عامل ابن الزبير كما قدمنا .

(٢) فطن به وإليه وله كفرح ونصر وكرم .

(٣) وروى الطبرى فى هذا الصدد قال :

وأراد ابن الزبير أن يعلم أسلم هو أم حرب ؟ (أى المختار) : فدعا عمر بن عبد الرحمن بن الحارث ابن هشام المخزومى ، فقال له : تجهز إلى الكوفة فقد وليناكها ، فقال : كيف وبها المختار ؟ قال : إنه يزعم أنه سامع مطيع ، فتجهز بما بين الثلاثين ألف درهم إلى الأربعين ألفا ، ثم خرج مقبلا إلى الكوفة ، وجاء عين المختار من مكة فأخبره الخبر ، فقال له : بكم تجهز ؟ قال بما بين الثلاثين ألفا إلى الأربعين ألفا ، فدعا المختار زائدة بن قدامة ، وقال له : احمل معك سبعين ألف درهم ، ضعف ما أنفق هذا فى مسيره إلينا ، وتلقه فى المفاوز ، وأخرج معك مسافر بن سعيد الناعطى فى خمسمائة فارس دارع ورامح عليهم البيض ، ثم قل له : خذ هذه النفقة فإنها ضعف نفقتك ، فإنه قد بلغنا أنك تجهزت وتكلفت قدر ذلك ، فكره منا =

فلما رأى المختار أن ابن الزبير قد فطن لما أراد ، كتب إليه .

من المختار بن أبى عبيد الثقفى خليفة الوصىّ محمد بن على أمير المؤمنين ، إلى عبد الله بن أسماء .

ثم ملأ الكتاب بسبه وسب أبيه . (الكامل للمبرد ٢ : ١٦٧)

١٣٢ — كتاب المختار إلى ابن الزبير

وأُخْبِر المختار أن أهل الشأم قد أقبلوا نحو العراق ، فخشى أن يأتيه أهل الشأم من قِبَل المغرب ، ويأتيه مُصْعَب بن الزبير من قبل البصرة ، فوادع ابن الزبير ، وداراه وكايده .

وكان عبد الملك بن مروان — وقد بويع بالخلافة فى غُرّة رمضان سنة ٦٥ هـ — بعث عبد الملك بن الحارث بن الحكَم بن أبى العاص إلى وادى القُرَى ، والمختارُ لابن الزبير مكايِدٌ مُوادِع ، فكتب المختار إلى ابن الزبير :

« أما بعدُ : فقد بلغنى أن عبد الملك بن مَرْوان قد بعث إليك جيشاً ، فإن أحببت أن أُمِدَّك بمَدَد أمْدَدْتك » .

١٣٣ — رد ابن الزبير على المختار

فكتب إليه ابن الزبير :

« أما بعدُ : فإن كنتَ على طاعتى فلستُ أكْرَه أن تبعثَ الجيش إلى بلادى ، وتبايعَ لى الناسَ قِبَلك ، فإذا أتتنى بيعتك صَدَّقْتُ مقالتك ، وكففتُ جُنودى عن

= أن تغرم نفذها وانصرف، فإن فعل، وإلا فأره الخيل، وقل له : إن وراء هؤلاء مثلهم مائة كتيبة، فأخذ زائدة المال ، وأخرج معه الخيل وتلقاه بالمفاوز ، وعرض عليه المال وأمره بالانصراف ، فقال له : إن أمير المؤمنين قد ولانى الكوفة ، ولا بد من إنفاذ أمره ، فدعا زائدة الخيل ، وقد أكمنها فى جانب ، فلما رآها قد أقبلت . قال : هذا الآن أعذر لى ، وأجل بى ، هات المال ، فقال له زائدة ، أما إنه لم يبعث به إليك إلا لما بينك وبينه ، فدفعه إليه فأخذه ، ثم مضى راجعاً نحو البصرة — تاريخ الطبرى ٧ : ١٣٣ .

بلادك ، وعجِّل عليّ بتسريح الجيش الذى أنت باعثه ، ومُرْهم فليسيروا إلى مَن بوادى القُرَى من جند ابن مَرْوان ، فليقاتلوهم ، والسلام » .

فسرَّح المختار شُرَحْبيل بن وَرْس فى جيش ، وقال له : سر حتى تدخل المدينة ، فإذا دخلتها فا كتب إلىّ بذلك حتى يأتيك أمرى ـ وهو يريد إذا دخلوا المدينة أن يبعث عليهم أميرا من قِبَله ، ويأمر ابن ورس أن يمضى إلى مكة حتى يحاصر ابن الزبير ويقاتله ـ وخشِيَ ابن الزبير أن يكون المختار إنما يكيده ، فبعث من مكة إلى المدينة عباسَ بن سَهل بن سَعد فى جيش ، وقال له : إن رأيت القوم فى طاعتى فاقبل منهم ، وإلاَّ فكايِدْهم حتى تهلكهم ، فأقبل ابن سهل حتى لقى ابن ورس بالرَّقَم[(١)] ، فدعاه أن يسير معه لقتال جند ابن مروان بوادى القرى ، فأبى وقال : إنما أُمرتُ أن أسير حتى آتى المدينة ، فإذا نزلتها رأيت رأيى ، فكايَدَه ابن سهل حتى أخذه على غِرّة وقتله ، وأثخن أصحابَه وأوسَعهم قتلا[(٢)] .

(تاريخ الطبرى ٧ : ١٣٤)

---

(١) موضع بالمدينة .

(٢) وذلك أن عباس بن سهل لما وافى الرقم ، وجد ابن ورس على الماء قد عبى أصحابه تعبية القتال، فدنا منهم فسلم عليهم ، ثم قال : اخل معى هاهنا لخلايه ، فقال له : رحمك الله ، ألست فى طاعة ابن الزبير؟ فقال له ابن ورس : بلى ، قال : فسر بنا إلى عدوه هذا الذى بوادى القرى ، فإن ابن الزبير حدثنى أنه إنما أشخصكم صاحبكم إليهم ، قال ابن ورس : ماأمرت بطاعتك ، إنما أمرت أن أسير إلى المدينة ، فإذا نزلتها رأيت رأيى ، قال له ابن سهل : فإن كنت فى طاعة ابن الزبير فقد أمرنى أن أسير بك وبأصحابك إلى عدونا الذين بوادى القرى ، فقال له ابن ورس : ما أمرت بطاعتك وما أنا بتبعك دون أن أدخل المدينة، ثم أكتب إلى صاحبي فيأمرنى بأمره ، فلما رأى عباس بن سهل لجاجته عرف خلافه، فكره أن يعلمه أنه قد فطن له ، فقال : فرأيك أفضل ، اعمل بما بدالك ، فأما أنا فسائر إلى وادى القرى ، ثم جاء ابن سهل فنزل بالماء ، وبعث إلى ابن ورس بجزائر كانت معه (جمع جزور) فأهداها له ، وبعث إليه بدقيق وغنم مسلخة، وكان ابن ورس وأصحابه قد هلكوا جوعا، فبعث عباس بن سهل إلى كل عشرة منهم شاة. فذبحوها واشتغلوا بها واختلطوا على الماء ، وترك القوم تعبيتهم ،وأمن بعضهم بعضاً ، فلما رأى ابن سهل ماهم فيه من الشغل جمع من أصحابه نحواً من ألف رجل من ذوى البأس والنجدة، ثم أقبل نحو فسطاط ابن ورس، فلما رآهم ابن ورس مقبلين إليه نادى فى أصحابه. فلم يتواف إليه مائة رجل ،فاقتتلوا إلا شيئاً ليس بشىء حتى قتل ابن ورس وكثير من أصحابه .

١٣٤ — كتاب المختار إلى ابن الحنفية

فلما بلغ المختار أمرهم كتب إلى ابن الحنفية :

« بسم الله الرحمن الرحيم ، أما بعدُ : فإنى كنت بعثتُ إليك جنداً ، ليُذِلُّوا لك الأعداء ، وليَحُوزوا لك البلادَ ، فساروا إليك حتى إذا أطَلُّوا على طَيْبة[1] ، لقيَهم جندُ المُلْحِد[2] ، تخدعوهم بالله ، وغرُّوهم بعهد الله ، فلما اطمأنوا إليهم ، ووَثِقوا بذلك منهم ، وثَبوا عليهم فقتلوهم ، فإن رأيتَ أن أبعثَ إلى أهل المدينة مِن قِبَلى جيشاً كَثيفاً ، وتبعثَ إليهم من قبلك رُسُلا ، حتى يعلمَ أهلُ المدينة أنى فى طاعتك ، وإنما بعثتُ الجند إليهم عن أمرك ، فافعَلْ ، فإنك ستجد عُظمهم بحقكم أعرَفَ ، وبكم - أهلَ البيت - أرْأفَ منهم بآل الزبير الظَّلَمَة المُلْحِدِين ، والسلام عليك » .

(تاريخ الطبرى ٧ : ١٣٥)

١٣٥ — رد ابن الحنفية على المختار

فكتب إليه ابن الحنفية :

« أما بعدُ : فإن كتابك لمّا بلغنى قرأْتُه ، وفهمت تعظيمَك لحقى ، وما تنوى به من سرورى ، وإن أحبَّ الأمور كلِّها إلىّ ما أُطيعَ اللهُ فيه ، فأطِعِ اللهَ ما استطعتَ فيما أعْلَنْتَ وأسْرَرْتَ ، واعلم أنى لو أردت القتال لوجدتُ الناس إلىّ سِراعًا ، والأعوانَ لى كثيرًا ، ولكنى أعتزِلهم ، وأَصْبِرُ حتى يحكمَ اللهُ لى وهو خير الحاكمين[3] » .

(تاريخ الطبرى ٧ : ١٣٥)

---

(١) المدينة المنورة . (٢) يريد ابن الزبير .

(٣) وكان محمد بن الحنفية قد أبى أن يبايع ابن الزبير، إذ كره البيعة لمن لم تجتمع عليه الأمة ، وكان ابن الزبير يبغضه ويحسده على أيده وقوته، فحبسه مع بضعة عشر رجلا من بنى هاشم منهم عبد الله بن عباس والحسن بن الحسن بن على بن أبى طالب فى سجن عارم، وقال: لتبايعن أو لأحرقنكم، وأعطى الله عهدا إن لم يبايعوا أن ينفذ فيهم ما توعدهم به ، وضرب لهم فى ذلك أجلا ، فكتب ابن الحنفية إلى المختار وأهل الكوفة =

١٣٦ — كتاب ابن الحنفية إلى الشيعة بالكوفة

وأُخْبِر ابن الحنفية بخبر نفر من غُلاة الشيعة بالكوفة ، فكتب إلى الشيعة يحذِّرهم هؤلاء الغلاة :

« من محمد بن على إلى مَن بالكوفة من شِيعتنا ، أما بعدُ : فاخرجوا إلى المجالس والمساجد ، فاذكروا الله عَلَانية وسِرًّا ، ولا تتخذوا من دون المؤمنين بطانة ، فإن خشِيتم على أنفسكم فاحْذَروا على دينكم الكذّابين ، وأكثِرُوا الصلاةَ والصيام والدعاء ، فإنه ليس أحدٌ من الخلق يَمْلِك لأحد ضَرًّا ولا نفعاً إلا ما شاء الله ، وكلُّ نفسٍ بما كَسَبَتْ رَهِينَةٌ ، وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَى ، والله قائم على كل نفس بما كَسَبَتْ ، فاعمَلوا صالحا وقدِّموا لأنفسكم حسناً ، ولا تكونوا من الغافلين ، والسلام عليكم » .

* * *

ثم إن ابن الزبير عزل الحارث بن عبد الله عن البصرة ، وولَّاها أخاه مصعب ابن الزبير (سنة ٦٧) وقَدِم على مصعب أشرافُ الكوفة ، فسألوه أن يسير معهم إلى المختار ، فسار إليه وقاتله ، وانهزم أصحاب المختار ، وقتل (فى رمضان سنة ٦٧ هـ) .
(تاريخ الطبرى ٧ : ١٥٣)

= يعلمهم حاله وحال من معه ، وما توعدهم به ابن الزبير من القتل والتحريق بالنار ، ويسألهم ألا يخذلوه كما خذلوا الحسين وأهل بيته ، فوجه إليه جماعة من أصحابه عليهم أبو عبدالله الجدلى ، وكانوا يسيرون الليل ويكمنون النهار ، حتى انتهوا إلى مكة ، وقد أعد ابن الزبير الحطب ليحرقهم ، وكان قد بقى من الأجل يومان ، فكسروا سجن عارم واستخرجوا منه ابن الحنفية ومن معه ، وقالوا له : خل بيننا وبين عدو الله ابن الزبير ، فقال لهم : إنى لا أستحل القتال فى حرم الله ، وخرج هو وأصحابه إلى شعب على .

ـ انظر تاريخ الطبرى ٧ : ١٣٦ والكامل للمبرد ٢ : ١٦٨ والعقد الفريد ٢ : ٢٦٨ وشرح ابن أبى الحديد م ٤ : ص ٤٨٧ ومروج الذهب ٢ : ١٠٠ — .

١٣٧ - كتاب عبد الله بن الزبير إلى عبد الله بن عباس

وروى المدائني قال :

لما أخرج عبدُ الله بن الزبير عبدَ الله بن عباس من مكة إلى الطائف ، تلقّاه أهلها ، فقالوا : مَرْحَباً يابن عم رسول الله صلى الله عليه وآله ، أنت والله أحبُّ إلينا وأكرم علينا مِمَّن أخرجك ، هذه منازلنا تخيَّرْها ، فانزِلْ منها حيث أحببتَ ، فنزل مَنْزِلا ، فكان يجلس إليه أهلُ الطائف بعد الفجر وبعد العصر ، فيتكلم بينهم ، كان يَحْمد اللهَ ، ويذكر النبيَّ صلى الله عليه وآله والخلفاء بعده ، ويقول : ذهبوا فلم يَدَعوا أمثالهم ، ولا أشباهَهم ، ولا مَن يُدانيهم ، ولكن بقيَ أقوام يطلبون الدنيا بعمل الآخرة ، ويَلْبَسون جُلود الضأن تحتها قلوبُ الذئاب والنمور ، ليظن الناسُ أنهم من الزاهدين في الدنيا ، يُراءون الناس بأعمالهم ، ويُسْخطون اللهَ بسرائرهم ، فادْعُوا اللهَ أن يَقْضِيَ لهذه الأمة بالخير والإحسان ، فيولِّيَ أمرَها خيارَها وأبرارها ، ويُهْلِك فُجَّارها وأشرارها ، ارفعوا أيديكم إلى ربكم وسَلُوه ذلك ، فيفعلون ، وبلغ ذلك ابنَ الزبير ، فكتب إليه :

« أما بعدُ : فقد بلغني أنك تجلس بالطائف العَصْرَيْن[1] ، فتُفْتِيهم بالجهل ، تَعيب أهلَ العقل والعلمِ ، وإن حِلْمي عليك ، واستدامتي فَيْئَتَك ، جَرَّآك عليَّ ، فاكْفُفْ - لا أبا لِغيرك - مِن غَرْبك[2] ، وارْبَعْ على ظَلْعِك[3] ، واعقِلْ إن كان

---

(١) العصران : الغداة والعشى ، ومنه حديث على رضى الله عنه « ذكرهم بأيام الله واجلس لهم العصرين » أى بكرة وعشيا ، وفى الحديث : « حافظ على العصرين » يريد صلاة الفجر وصلاة عصر سماها العصرين لأنهما يقعان فى طرفى العصرين وهما الليل والنهار ، والأشبه أنه غلب أحد الاسمين على الآخر ، كالعمرين لأبى بكر وعمر ، والقمرين الشمس والقمر .

(٢) الغرب : الحدة .

(٣) ربع كمنع : وقف وانتظر وتحبس ، وظلع البعير كمنع ظلعا : غمز فى مشيه ، ويقال : أربع على ظلعك : أى إنك ضعيف فانته عما لا تطيقه .

لك مَعقول[١] ، وأكرِمْ نفسك ، فإنك إن تُهِنها تجدْها على الناس أعظمَ هوَانا ، ألم تسمعْ قول الشاعر :

فنفسَك أكرِمْها فإنك إن تَهُنْ ... عليك فلن تَلْقَى لها الدهرَ مُكْرِما

وإنى أقسم بالله لئن لم تنتهِ عما بلغنى عنك ، لتجدَنَّ جانبى خَشِنا ، ولتجدنّنى إلى مايَرْدَعُك عنى عَجِلا فإن أشقَ[٢] بك شَقاؤك على الرَّدَى ، فلا تلُمْ إلا نفسك » .

(شرح ابن أبى الحديد م ٤ : ص ٤٨٧)

١٣٨ — رد ابن عباس عليه

فكتب إليه ابن عباس :

« أما بعدُ فقد بلغنى كتابك ، قلتَ : إنى أُفتِى الناسَ بالجهل ، وإنما يفتى بالجهل مَن لم يعرِفْ من العلم شيئاً ، وقد آتانى اللهُ من العلم مالم يُؤْتِكَ ، وذكرتَ أن حِلمك عنى واستدامتك فَيْئى جَرَّآنى عليك ، ثم قلت : اكففْ من غَرْبك ، وارْبَعْ على ظَلْعِك ، وضربت لى الأمثال « أحاديث الضَّبُع[٣] » متى رأيتَنى لعرَامِك[٤] هائباً ، ومِنْ حَدِّك نَاكِلا[٥] ؟ وقلتَ : لئن لم تكفُف لتجدنّ جانبى خَشِنا ، فلا أبقَى اللهُ عليك إن أبقيتَ ، ولا أرْعَى عليك إن أرعيتُ[٦] ، فوالله لا أنتهى عن قول الحق ، وصفة أهل العدل والفضل ، وذمِّ الْأَخْسَرِينَ أَعْمَالًا الَّذِينَ ضَلَّ سَعْيُهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَهُمْ يَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ يُحْسِنُونَ صُنْعًا ، والسلام » .

(شرح ابن أبى الحديد م ٤ : ص٤٨٨)

---

(١) معقول : عقل . (٢) أشقى : أشرف .

(٣) فى الأمثال « أحاديث الضبع استها » يزعمون أن الضبع تتمرغ فى التراب ، ثم تقعى . « أقعى الكلب : جلس على استه » فتتغنى بما لا يفهمه أحد ، فتلك أحاديث استها ، وهو مثل يضرب للمخلط فى حديثه .

(٤) عرام الجيش : حدتهم وشدتهم وكثرتهم .

(٥) نكل عنه كضرب ونصر وعلم نكولا : نكص وجبن .

(٦) أرعى عليه : أبقى .

خلافة عبد الملك بن مروان

(سنة ٦٥ — ٨٦ هـ)

١٣٩ — كتاب عبد الملك إلى عمرو بن سعيد بن العاص

ولما خرج عبدالملك بن مَرْوان سنة ٦٩ هـ لقتال زُفَر بن الحارث الـكِلَابى[١] بقَرْقِيسِياء[٢]، غلب عمرو بن سعيد بن العاص[٣] على دِمَشق، ودعا الناس إلى بيعته[٤]، وكتب عبد الملك إليه حين خرج عليه :

---

(١) وذلك أنه لما مات معاوية الثانى بايع أهل دمشق الضحاك بن قيس الفهرى على أن يصلى بهم ، ويقيم لهم أمرهم ، حتى يجتمع أمر الأمة ، وكان يهوى هوى ابن الزبير ويعمل لنصرته سرا إذ كان بنو أمية بحضرته ، وكذلك كان النعمان بن بشير الأنصارى وهو على حمص ، وزفر بن الحرث الكلابى وهو على قنسرين ، وناتل بن قيس وهو على فلسطين يدعون إلى بيعة ابن الزبير ، ثم نشبت الحرب بين جيش الضحاك وجيش مروان ابن الحكم فى مرج راهط (سنة ٦٤ هـ) ودارت الدائرة على جيش الضحاك وقتل هو وعامة أصحابه وانهزم بقيتهم فتفرقوا وفر زفر بن الحرث هاربا إلى قرقيسيا فاجتمعت إليه قيس فرأسوه عليهم .

(٢) قرقيسياء بياءين ويقال بياء واحدة (قرقيساء) : بلد على الفرات .

(٣) هو عمرو بن سعيد بن العاص بن أمية بن عبد شمس بن عبد مناف الملقب بالأشدق لفصاحته ، ولاه معاوية مكة ، وولاه يزيد مكة والمدينة .

(٤) وذلك أنه لما كانت الفتنة بعد موت معاوية الثانى ، وانحاز الضحاك بن قيس عن مروان بن الحكم واستمال الناس ودعا إلى ابن الزبير ، التقى مروان وعمرو بن سعيد بن العاص ، فقال عمرو لمروان هل لك فيما أقوله لك ؟ فهو خير لى ولك ، فقال مروان : وما هو ؟ قال : أدعو الناس إليك وآخذها لك على أن تكون لى من بعدك ، فقال مروان : لا ، بل بعد خالد بن يزيد بن معاوية . فرضى عمرو بذلك ، ودعا الناس إلى بيعة مروان فأجابوا ، وبايع مروان بعده لخالد بن يزيد ، ولعمرو بن سعيد بعد خالد ، ثم مات مروان وخلفه عبد الملك . ولما اعتزم عبد الملك أن يخرج إلى العراق لقتال زفر بن الحارث سنة ٦٩ هـ وقيل لقتال مصعب بن الزبير سنة ٧٠ هـ — قال له عمرو : إنك تخرج إلى العراق وقد كان أبوك وعدنى هذا الأمر من بعده ، وعلى ذلك جاهدت معه ، وقد كان من بلائى مالم يخف عليك ، فاجعل لى هذا الأمر من بعدك ، فلم يجبه عبد الملك إلى شىء ، فلما خرج عبد الملك أغلق عمرو بن سعيد دمشق وخالف عليه ، — قيل : كان عبد الملك قد استخلفه عليها ، وقيل : إنه خرج مع عبد الملك ثم عاد إلى دمشق ليلا فغلب عليها — فكر عبد الملك راجعا إلى دمشق وحاصرها حتى صالح عمرا على أنه الخليفة بعده ففتح له دمشق ، ثم إن عبد الملك احتال له حتى قتله .

« أما بعد : فإن رحمتى لك ، تَصْرِفنى عن الغضب عليك ، لِتمكُّن الخَدْع منك ، وخِذْلان التوفيقِ إياك، نَهَضْتَ بأسبابٍ وَهَمَتْك أطماعُك أن تَستفيدَ بها عزّا ، وكنتَ جديرا ـ لو اعتدلتَ ـ أنْ تدفعَ[1] بها ذُلاًّ ، ومَن رَحَلَ عنه حُسْنُ النظر ، واستوطَنَته الأمانى ، مَلَكَ الحَيْنُ[2] تصريفَه ، واستترت عنه عواقِبُ أمرِه ، وعن قليل يقبيَّن مَن سَلَكَ سبيلَك ، ونَهض بمثل أسبابك ، أنه أسير غَفْلة ، وصريعُ خَدْع ، ومَغِيضُ ندم ، والرَّحِمُ[3] تَحمِلُ على الصفح عنك ، مالم تَحلُلْ بك عواقبُ جهلك ، وتَزْجُر عن الإيقاع بك ، وأنت إن ارتدعتَ كنت فى كَنَفٍ وسترٍ ، والسلام » .

وقال المسعودى : وكان فيما كتب إليه عبد الملك :

« إنك لَتُطمِع نفسَك بالخلافة ، ولستَ لها بأهل » :

١٤٠ — رد عمرو بن سعيد على عبد الملك

فكتب إليه عمرو :

« استدراجُ النِّعم إياك أفادَكَ البَغْىَ ، ورائحةُ القُدْرة أوْرَثتك الغَفْلَة ، زَجَرْتَ عما وافقتَ عليه ، وَنَدَبتَ إلى ما تركتَ سبيله ، ولو كان ضَعْفُ الأسباب يُؤْيِس الطُّلّاب ، ما انتقَل سلطانٌ ولا ذَلَّ عزيزٌ ، وعن قريب تتبيَّن : مَن أسِير الغَفْلة ، وصَريع الخَدع ، والرَّحِم تعطِف على الإبقاء عليك مع دفعك عما غيرُك أقوَمُ به منك ، والسلام » .

(البيان والتبيين ٣ : ٢٢٩ ، ومروج الذهب ٢ : ١١٦)

---

(١) فى الأصل « أن لاتدفع » وهو خطأ .

(٢) الحين: الهلاك .   (٣) الرحم: القرابة.

حروب الخوارج الأزارقة

١٤١ – كتاب خالد بن عبد الله بن أسيد إلى عبد الملك بن مروان

ولما دانت العراق لعبد الملك بن مروان بعد مقتل مصعب بن الزبير سنة ٧١ هـ ، ولَّى على الكوفة أخاه بِشر بن مَرْوان ، وولَّى على البصرة خالد بن عبد الله بن خالد ابن أسيد(١) ، وخرج خالد إلى الأهواز ، وندب الناس رجلا يقاتل الأزارقة ، فجعلوا يطلبون المهلَّب ، فقال خالد : ذهب المهلب بحظ هذا المصر ، إنى قد وليت أخى قتال الأزارقة ، فولَّى أخاه عبد العزيز بن عبد الله ، وجعل المهلَّبَ على خراج الأهواز ، ومضى عبد العزيز فى ثلاثين ألفاً ، فجعل يقول فى طريقه : يزعم أهل البصرة أن هذا الأمر لا يتم إلا بالمهلب ! فسيعلمون ، ثم ناهض الأزارقة فكايدوه(٢) وهزموه ، واتبعوا جنده يقتلونهم كيف شاءوا ، وسَبَوا امرأته ، ثم قتلوها(٣) ، وبلغ خالداً خبر الهزيمة فكتب إلى عبد الملك بن مروان :

---

(١) هو خالد بن عبد الله بن خالد بن أسيد بن أبى العاص بن أمية بن عبد شمس بن عبد مناف ، ولاه عبد الملك البصرة سنة ٧١هـ وعزله عنها سنة ٧٤ هـ .

(٢) وذلك أنهم واقفوه ساعة ثم انهزموا عنه مكيدة ، فاتبعهم ، فقال له الناس : لا تتبعهم فإنا على غير تعبية فأبى ، فلم يزل فى آثارهم حتى اقتحموا عقبة فاقتحمها وراءهم ، والناس ينهونه ويأبى ، وكان لهم فى بطن العقبة كمين ، فلما صاروا وراءهم خرج عليهم الكمين ، وانحاز عبد العزيز واتبعهم الخوارج يقتلونهم كيف شاءوا .

(٣) وكان عبد العزيز قد خرج بامرأته أم حفص بنت المنذر بن الجارود ، فسبى الخوارج النساء يومئذ ، وكانت أم حفص ممن سبين ، فأقاموها فى السوق حاسرة بادية المحاسن ، فاعترضوها وقلبوها ، وكانت من أكمل الناس كمالا وحسنا ، فتزايدت فيها العرب والموالى ، وغولى بها حتى بلغوها تسعين ألفا =

« أما بعد ، فإنى أخبر أمير المؤمنين ـ أكرمه الله ـ أنى بعثتُ عبد العزيز ابن عبد الله فى طلب الخوارج ، وأنهم لَقُوه بفارس ، فاقتتلوا قتالا شديداً ، فانهزم عبد العزيز لمّا انهزم عنه الناس ، وقُتل مُقَاتِل بن مِسْمَع[1] ، وقَدِم الفَلُّ[2] إلى الأهوازِ ، فأحببتُ أنْ أُعْلِمَ أميرَ المؤمنين ذلك ، ليأتيني رَأْيُهُ وأمْرُه أنزِل عنده إن شاء الله ، والسلام عليك ورحمة الله » . (تاريخ الطبرى ٧ : ١٩٣)

١٤٢ — رد عبد الملك عليه

فكتب إليه عبد الملك بن مروان :

« أما بعدُ ، فقد قَدِم رسولك فى كتابك[3] ، تُعلِمنى فيه بَعْثَك أخاك على قتال الخوارج ، وهزيمة من هُزِم ، وقَتْل من قُتِل ، وسألتُ رسولك عن مكان المهلب ، فحدّثنى أنه عامل لك على الأهواز ، فقبح الله رأيك ! حين تبعث أخاك أعرابيا من أهل مكة على القتال ، وتدع المهلب إلى جنبك يَجْبى الخراج ، وهو الميمون النَّقيبة[4] ، الحسنُ السياسة ، البصيرُ بالحرب ، المقاسى لها ، ابنها وابن أبنائها ، انظر أن تنهض بالناس ، حتى تستقبلهم بالأهواز ومِنْ وراء الأهواز ، وقد بعثتُ إلى بِشْر أن يُمِدَّك بجيش من أهل الكوفة ، فإذا أنتَ لقيتَ عدوّك فلا تَعْمَل فيهم برأى ، حتى تُحْضِره المهلبَ وتستشيره فيه إن شاء الله ، والسلام عليك ورحمة الله » .

= فقال رجل من قومها « عبد القيس » وكان من رءوس الخوارج يقال له أبو الحديد العبدى ، فقال : تنحوا هكذا ، ما أرى هذه المشركة إلا قد فتنتكم ، فضرب عنقها ، فأخذوه إلى أميرهم قطرى بن الفجاءة فقالوا : يا أمير المؤمنين ، إن هذا استهلك تسعين ألفا من بيت المال ، وقتل أمة من إماء المؤمنين ، فقال: يا أمير المؤمنين إنى رأيت هؤلاء تنازعوا عليها حتى ارتفعت الأصوات، واحمرت الحدق ، فلم يبق إلا الخبط بالسيوف ، فرأيت أن تسعين ألفا فى جنب ماخشيت من الفتنة بين المسلمين هينة ، فقال قطرى : قد أصبت وأحسنت ، خلوا عنه ، عين من عيون الله أصابتها .

(١) وكان خالد بن عبد الله بعثه على جيش وألحقه بناحية عبد العزيز . (٢) أى المنهزمون .

(٣) فى هنا للمصاحبة كما فى قوله تعالى « قالَ ادْخُلُوا فى أُمَمٍ » .

(٤) النقيبة : النفس والمشورة .

فشَقّ عليه أن فَيَّل(١) رأيَه فى بعثة أخيه وَتَرْكِ المهلب ، وفى أنه لم يرض رأيه خالصا حتى قال: أحضِره المهلبَ ، واستشره فيه . (تاريخ الطبرى ٧ : ١٩٣)

١٤٣ — كتاب عبد الملك بن مروان إلى أخيه بشر

وكتب عبد الملك إلى أخيه بشر بن مروان :

« أما بعدُ فإنى قد كتبت إلى خالد بن عبد الله آمُرُه بالنهوض إلى الخوارج ، فسَرِّح إليه خمسةَ آلافِ رجل ، وابعث عليهم رجلا من قِبَلك ترضاه ، فإذا قضَوا غَزَاتهم(٢) تلك ، صرفتَهم إلى « الرّىّ »(٣) فقاتلوا عدوهم ، وكانوا فى مَسَالحهم(٤) وجَبَوا فَيْئَهُمْ ، حتى تأتِىَ أيامُ عَقِبهم ، فتُعفِيَهم وتبعثَ آخرين مكانهم » .

فقطع على أهل الكوفة خمسة آلاف، وبعث عليهم عبد الرحمن بن محمد بن الأشعث، وقال : إذا قضيت غَزاتك هذه فانصرف إلى « الرّىّ » وكتب له عليها عهداً .

(تاريخ الطبرى ٧ : ١٩٣)

١٤٤ — كتاب خالد بن عبد الله بن أسيد إلى عبد الملك

وخرج خالد بأهل البصرة حتى قدم الأهواز ، وجاء عبد الرحمن بن الأشعث ينبعث(٥) أهل الكوفة حتى وافاهم بالأهواز ، وجاءت الأزارقة حتى دنَوا من مدينة الأهواز ومن معسكر القوم ، فزحف إليهم خالد فرأوا أمرا هالهم من عَدَد الناس وعُدَّتهم ، فانهزموا مولِّين ، وأَتْبعهم خالد داودَ بن قَحْذَم فى جيش من أهل البصرة ، وانصرف هو إلى البصرة ، وكتب إلى عبد الملك بن مروان :

« أما بعدُ ، فإنى أخبر أمير المؤمنين ـ أصلحه الله ـ أنى خرجتُ إلى الأزارقة الذين مَرَقوا من الدين ، وخرجوا من ولاية المسلمين ، فالتقينا بمدينة الأهواز ،

---

(١) فيل رأيه : قبحه وخطأه . (٢) الغزاة : اسم من غزا العدو غزوا .
(٣) مدينة كبيرة فى فارس وكانت قصبة بلاد الجبال . (٤) جمع مسلحة بالفتح ، وهى الثغر.
(٥) البعث ويحرك : الجيش .

فتناهضنا فاقتتلنا كأشدّ قتال كان فى الناس ، ثم إن الله أنزل نصره على المؤمنين والمسلمين، وضرب اللهُ وجوهَ أعدائه، فاتّبعهم المسلمون يقتلونهم ولا يُمنعون ولا يمتنعون، وأفاء اللهُ ما فى عسكرهم على المسلمين ، ثم أتبعتُهم داودَ بن قَحْذَم، واللهُ ـ إن شاء الله ـ مُهْلِكهم ومستأصِلهم ، والسلام عليك » .   (تاريخ الطبرى: ٧ : ١٩٤)

١٤٥ — كتاب عبد الملك إلى أخيه بشر

فلما قَدِم هذا الكتاب على عبد الملك كتب إلى أخيه بشر :

« أما بعدُ ، فابعث من قِبَلك رجلا شجاعا بصيرًا بالحرب فى أربعة آلاف فارس ، فليسيروا إلى « فارس » فى طلب المارقة ، فإن خالداً كتب إلىّ يخبرنى أنه قد بعث فى طلبهم داودَ بن قَحْذَم ، فمُر صاحبك الذى تبعثُ أن لا يخالف داودَ بن قحذم إذا ما التقيا ، فإن اختلاف القوم بينهم عوْنٌ لعدوهم عليهم، والسلام عليك » .

فبعث بشر عَتّاب بن وَرْقاء فى أربعة آلاف فارس من أهل الكوفة ، فخرجوا حتى التَقَوا هم وداود بن قحذم بأرض فارس ، ثم اتبعوا القوم يطلبونهم حتى نَفَقَت[1] خيول عامَّتهم ، وأصابهم الجَهد والجوع ، ورجع عامّة ذينك الجيشين مُشاةً إلى الأهواز .
(تاريخ الطبرى ٧ : ١٩٤)

هذه رواية الطبرى فى هذا الصَّدَد ، وروى أبو العباس المبرد فى الكامل كتابَ عبد الملك الذى ردَّ به على خالد بن عبد الله بن أسيد بصورة أخرى قال :

صورة أخرى لرد عبد الملك على خالد

وكتب خالد إلى عبد الملك يُعْذِر عبد العزيز ، وقال للمهلّب : ما ترى عبدَ الملك صانعًا بى ؟ قال : يَعزِلك ، قال : أتُراه قاطِعًا رَحِمى ؟ قال : نعم ، أتته هزيمة أُمَيّة أخيك

---

(١) ماتت .

من البَحْرين[١]، وتأتيه هزيمة أخيك عبد العزيز من فارس! فكتب عبد الملك إلى خالد:

« أما بعدُ ، فإنى كنت حَدَدْتُ لك حَدًّا فى أمر المهلب ، فلما ملكتَ أمرك نَبَذْتَ طاعتى واستبددت برأيك ، فولَّيتَ المهلَّبَ الجباية ، ووليتَ أخاك حرب الأزارقة ، فقَبح اللهُ هذا رأيا ! أتبعَثُ غلاما غِرًّا لم يجرِّب الحروب ، وتترك سيدا شجاعا مدبِّرا حازما قد مارس الحروب فَفَلَج[٢] ، تشغَلُه بالجباية ؟ أمَا لو كافأْتُك على قدر ذنبك لَأَتاك من نَكِيرى مَالاَ بَقِيَّةَ لك معه ، ولكن تذكرتُ رَحِمَك[٣] فلفَتَتْنِى عنك ، وقد جعلتُ عقوبتَك عزلَك ، والسلام » .

(الكامل للمبرد : ٢١٠ ، وشرح ابن أبى الحديد م ١ : ص ٣٩٥)

١٤٦ — كتاب عبد الملك إلى أخيه بشر

قال أبو العباس : وولى بشرَ بن مروان وهو بالكوفة ، وكتب إليه :

« أما بعدُ ، فإنك أخو أمير المؤمنين يجمَعك وإياه مَرْوان بن الحكَم ، وإن خالدًا لا يُجْتَمَع له مع أمير المؤمنين دون أُمَيَّة[٤] ، فانظر المهلب فَوَلِّه حَرْبَ الأزارقة ، فإنه سيِّد بَطَل مُجَرَّبٌ ، فأَمْدِدْه من أهل الكوفة بثمانية آلاف رجل ، والسلام » .

(الكامل للمبرد ٢ : ٢١١ وشرح ابن أبى الحديد م١ : ص٣٩٥)

---

(١) وذلك أن أبا فديك الخارجى وهو من بنى قيس بن ثعلبة غلب على البحرين سنة ٧٢هـ وقتل نجدة بن عامر الحنفى (زعيم فرقة النجدات العاذرية من الخوارج)فاجتمع على خالد بن عبد الله نزول قطرى ابن الفجاءة (زعيم الأزارقة) الأهواز وأمر أبى فديك، فبعث أخاه أمية بن عبد الله على جند كثيف إلى أبى فديك فهزمه أبوفديك ، وأخذ جارية له فاتخذها لنفسه ، وسار أمية على فرس له حتى دخل البصرة فى ثلاثة أيام فكتب خالد إلى عبد الملك بحاله وحال الأزارقة . (انظر تاريخ الطبرى ٧ : ١٩٥) .

(٢) فاز وظفر .

(٣) الرحم : القرابة ، ولفتتنى أى صرفتنى وردتنى ، وفى رواية ابن أبى الحديد « فكفتنى عنك »

(٤) لعلمنا أن خالدا هو ابن عبد الله بن خالدا بن أسيد بن أبى العاص بن أمية بن عبد شمس بن عبد مناف، وعبد الملك هو ابن مروان بن الحكم بن أبى العاص بن أمية الخ

١٤٧ — كتاب عبد الملك إلى أخيه بشر

ونَنْعُد إلى رواية الطبرىّ ، قال :

« وفى سنة ٧٤ هـ عزل عبد الملك خالد بن عبد الله عن البصرة وولاها أخاه بِشْرَ ابن مروان ، فصارت ولايتها وولاية الكوفة إليه ، فَشَخَص بشر إلى البصرة ، واستخلف على الكوفة عمرو بن حُرَيْث .

فلما صار بشر بالبصرة كتب عبد الملك إليه :

« أما بعدُ ، فابعث المهلبَ فى أهل مصره إلى الأزارقة ، ولْيَنْتَخب من أهل مصره وجوهَهم وفُرسانَهم وأُولِى الفضل والتجربة منهم ، فإنه أعرَفُ بهم ، وخلِّه ورأيَه فى الحرب ، فإنى أوثَقُ شىء بتجربته ونصيحته للمسلمين ، وابعث من أهل الكوفة بَعْثاً كثيفاً ، وابعث عليهم رجلا معروفاً شريفاً حَسِيبًا صَلِيبًا يُعْرَف بالبأس والنجدة والتجربة للحرب ، ثم أنْهِضْ إليهم أهل المصرَيْن فليتبعوهم أىَّ وجهٍ ما توجَّهوا ، حتى يُبيدَهُمُ اللهُ ويستأصلهم ، والسلام عليك » .

فدعا بشر المهلب فأقرأه الكتاب وأمره أن ينتخب من شاء ، وشَقَّ على بشر أن إمْرَةَ المهلب جاءت من قِبَل عبد الملك ، فلا يستطيع أن يبعث غيره ، فأوغرتْ صدرَه عليه حتى كأنه كان له إليه ذنب ، ودعا بشر عبد الرحمن بن مِخْنف ، فبعثه على أهل الكوفة ، وأمره أن ينتخب فرسان الناس ووجوههم ، وأولى الفضل منهم والنجدة .

(تاريخ الطبرى ٧ : ٢٠٢)

١٤٨ — كتاب خالد بن عبد الله بن أسيد إلى المرفضّين من الجند

وخرج المهلب بأهل البصرة حتى نزل رامَهُرْمُز فلقى بها الخوارج ، وأقبل عبد الرحمن بن مخنف بأهل الكوفة ، فلم يلبث الناس إلا عشراً[1] حتى أتاهم نَعْى بشر ابن مروان ، وتُوفِّى بالبصرة ، وكان قد استخلف خالد بن عبد الله بن خالد بن أسيد ، فارفَضَّ[2] ناس كثير من أهل البصرة وأهل الكوفة ، فبلغ ذلك خالداً ، فكتب إلى الناس كتابا ، وبعث رسولاً يضرب وجوهَ الناس ويردّهمْ ، فقدِمَ بكتابه مَوْلًى له ، فقرأه على الناس وقد جُمعوا له ، وفيه :

« بسم الله الرحمن الرحيم ، من خالد بن عبد الله إلى من يلغه كتابى هذا من المؤمنين والمسلمين ، سلام عليكم ، فإنى أحْمَد إليكم اللهَ الذى لا إله إلا هو ، أما بعدُ : فإن اللهَ كتب على عباده الجهادَ ، وفَرَض طاعةَ وُلاةِ الأمر ، فمن جاهد فإنما يجاهد لنفسه ، ومن ترك الجهادَ فى الله كان اللهُ عنه أغْنَى ، ومن عَصَى وُلاةَ الأمر والقُوَّامَ بالحق أسخط اللهَ عليه ، وكان قد استحق العقوبة فى بَشَرِه[3] ، وعرّض نفسه لِاستفاءة[4] مالِهِ ، وإلقاء عطائه ، والتسييرِ إلى أبعد الأرض وشر البُلدان .

أيها المسلمون : اعلموا على مَن اجترأتم ، ومَن عصَيتم ؟ إنه عبدالملك بن مروان أمير المؤمنين الذى ليست فيه غَمِيزة[5] ، ولا لأهل المعصية عنده رُخصة[6] ، سَوْطُهُ على

---

(١) وفى رواية الكامل « إلا شهرا » .

(٢) تفرق ، قال المبرد : « فجعل الجند من أهل الكوفة يتسللون حتى اجتمعوا بسوق الأهواز ، وأراد أهل البصرة الانسلال من المهلب فخطبهم فقال : إنكم لستم كأهل الكوفة ، إنما تذبون عن مصركم وأموالكم وحرمكم ، فأقام منهم قوم ، وتسلل منهم ناس كثير » .

(٣) البشر : ظاهر الجلد جمع بشرة أى استحق الجلد والضرب .

(٤) أى للاستيلاء عليه ، يقال : فاء الغنيمة واستفاءها .

(٥) يقال : فيه مغمز وغميزة : أى مطعن أو مطمع . (٦) الرخصة : التسهيل .

من عَصَى ، وعلى من خالف سيفُهُ ، فلا تجعلوا على أنفسكم سبيلا ، فإنى لم آلُكُمْ نصيحةً[١] .

عبادَ الله : ارجِعوا إلى مكَتِّبكُمُ[٢] ، وطاعةِ خليفتكم ، ولا ترجِعوا عاصِين مخالفين فيأتيَكم ما تكرهون ، أُقسم بالله لا أثقَفُ[٣] عاصياً بعد كتابى هذا إلا قتلته ، إن شاء الله ، والسلام عليكم ورحمة الله » .

فلما فرغ من قراءته لم يلتفت الناس إلى ما في كتابه . (تاريخ الطبرى ٧ : ٢٠٨)

١٤٩ — كتاب المرفضين إلى عمرو بن حريث

وأقبل فريق منهم حتى نزلوا قرية لآل الأشعث إلى جانب الكوفة ، وكتبوا إلى عمرو بن حريث :

« أما بعدُ : فإن الناس لَمَّا بلغهم وفاةُ الأمير ـ رحمةُ الله عليه ـ تفرقوا ، فلم يَبْقَ معنا أحد ، فأقبلْنا إلى الأمير وإلى مِصْرنا ، وأحبَبْنا ألا ندخل الكوفة إلا بإذن الأمير وعلمه » . (تاريخ الطبرى ٧ : ٢٠٨)

١٥٠ — رد عمرو بن حريث عليهم

فكتب إليهم :

« أما بعدُ : فإنكم تركتم مكتبكم وأقبلتم عاصين مخالفين ، فليس لكم عندنا إذْنٌ ولا أمان » .

فانتظروا حتى إذا كان الليل دخلوها بغير إذن ، فلم يزل للمهلب فى عدد قليل حتى ولى الحجاج بن يوسف العراق (سنة ٧٥ هـ) . (تاريخ الطبرى ٧ : ٢٠٨)

---

(١) الا يألو : قصر ، أى لم أقصر فى نصيحتكم .

(٢) ضبط فى الأصل كمقعد ، وأرى أنه إما اسم فاعل من كتب بالتشديد ، كتب الكتيبة : هيأها ، والكتيبة : القطعة من الجيش مجتمعة ، أى ارجعوا إلى قائدكم ، وإما مصدر ميمى أو اسم مكان بمعنى اجتماعكم أو مكان اجتماعكم ، كتبهم فتكتبوا : أى جمعهم فتجمعوا .

(٣) ثقفه كسمعه : صادفه أو أخذه أو ظفر به أو أدركه .

١٥١ — كتاب عبد الملك بن مروان إلى أخيه عبد العزيز

وروى ابن قُتَيبة فى الإمامة والسياسة أن بشر بن مَرْوان وَلِىَ البصرة أوّلا ، ثم ضمت إليه الكوفة ، قال :

لما أراد عبد الملك بن مروان أن يولّى أخاه بشر بن مروان على العراق، كتب إلى أخيه عبد العزيز بن مروان وهو بمصر، وبشر معه يقود الجنود ، وكان يومئذ حديث السّن :

« إنى قد ولّيتُ أخاك بشرا البصرةَ فأَشْخِص معه موسى بن نصير وزيرًا ومشيرًا، وقد بعثتُ إليك بديوان العراق فادفعه إلى موسى وأعلِمْه أنه المأخوذ بكل خَلَل وتقصير » .

فشَخَص بشر من مصر إلى العراق ، ومعه موسى بن نصير حتى نزل البصرة ، فلما نزلها دفع إلى موسى بن نصير خاتمه ، وتخلّى عن جميع العمل ، حتى أتته ولاية الكوفة ، وقد ضُمّت إليه مع البصرة . (الإمامة والسياسة ٢ : ٤٢)

١٥٢ — كتاب عبد الله بن عمر إلى عبد الملك بن مروان

وكان عبد الملك قد وجّه الحجاج إلى الحجاز لقتال عبد الله بن الزبير فحاصره بمكة ، وما زال ابن الزبير يقاتل حتى قتل سنة ٧٣ هـ ، وبعث عبد الملك إلى الحجاج عهده بولاية الحجاز ، واليمن ، واليمامة ، وكتب عبد الله بن عمر إلى عبد الملك ببيعته لما قتل ابن الزبير ، وكان كتابه إليه يقول :

« لعبد الملك بن مَرْوان من عبد الله بن عمر ، سلام عليك ، فإنى أقررت لك بالسمع والطاعة على سنة الله وسنة رسوله صلى الله عليه وسلم ، وبيعة نافع مولاى على مثل ما بايعتك عليه » . (العقد الفريد ٢ : ٢٦٦)

* * *

وروى صاحب صبح الأعشى هذا الكتاب قال :

كتب عبد الله بن عمر رضى الله عنهما إلى عبد الملك بن مَرْوان فى خلافته :

« أما بعدُ : لعبد الله عبد الملك أمير المؤمنين من عبد الله بن عمر ، سلام عليك ، فإنى أحْمَد إليك الله الذى لا إله إلا هو ، وأمرى السمع والطاعة على كتاب الله ، وسنة نبيه فيما استطعت » . (صبح الأعشى ٦ : ٤٨٠)

١٥٣ — كتاب محمد بن الحنفية إلى عبد الملك بن مروان

وكتب محمد بن الحنفية ببيعته لما قتل ابن الزبير ، وكان فى كتابه :

« إنى اعتزلتُ الأمة ، عند اختلافها ، فقعدتُ فى البلد الحرام الذى مَنْ دَخَله كان آمِنًا ، لأُحْرِزَ دينى ، وأمنَعَ دمى ، وتركتُ الناس ، « قُلْ كُلٌّ يَعْمَلُ عَلَى شاَكِلَتِهِ(١) فَرَبُّكُمْ أَعْلَمُ بِمَنْ هُوَ أَهْدَى سَبِيلاً » وقد رأيتُ الناس قد اجتمعوا عليك ، ونحن عِصابة من أمّتنا لا تُفارق الجماعة ، وقد بعثت إليك منا رسولاً ليأخذ لنا منك مِيثاقًا ، ونحن أحق بذلك منك ، فإن أبَيْتَ فأرضُ الله واسِعةٌ ، والعاقبة للمتقين » . (العقد الفريد ٢ : ٢٦٢)

١٥٤ — رد عبد الملك على ابن الحنفية

فكتب إليه عبد الملك :

« قد بلغنى كتابك بما سألته من الميثاق لك وللعِصابة التى معك ، فلك عهدُ الله وميثاقُه أنْ لا تُهاجَ فى سلطاننا : غائبًا ولا شاهدًا ، ولا أحدٌ من أصحابك ، ما وَفَوا ببيعتهم ، فإن أحبَبْتَ المُقامَ بالحجاز فأقِمْ ، فلن نَدعَ صِلتَك وبرَّك ، وإن أحببتَ المُقامَ عندنا فاشخَصْ إلينا فلن ندعَ مواساتك ، ولَعَمْرِى لئن ألجأناك إلى الذهاب

(١) الشاكلة : الطريقة والمذهب ، والنية .

فى الأرض خائفاً لقد ظلمناك وقطعْنا رَحِمَك ، فاخرج إلى الحجاج فبايِــعْ ، فإنك أنت المحمودُ عندنا دِيناً ورأياً ، وخيرٌ من ابن الزبير ، وأرْضَى وأتقَى » .

(العقد الفريد ٢ : ٢٦٢)

١٥٥ — كتاب عبد الملك إلى الحجاج

وكتب إلى الحجاج بن يوسف :

« لاتَعرِض لمحمدٍ ولا لأحدٍ مِنْ أصحابِهِ » وكان فى كتابه :

« جَنِّبْنِى دماء بنى عبد المطلب ، فليس فيها شفاء من الحَرَب[1] ، وإنى رأيت بنى حَرْب[2] سُلِبوا مُلكَهم لمّا قتلوا الحسينَ بن على » .

فلم يتعرض الحجاج لأحد من الطالبيين فى أيامه[3] .

(العقد الفريد ٢ : ٢٦٣ ، ٣٠٥)

١٥٦ — كتاب الحجاج إلى عبد الملك

وكتب الحجاج إلى عبد الملك يقول :

« إنى حُزت الحِجاز بشمالى ، وبقيت يمينى فارغة[4] — يعرِّض بالعراق — » فبعث إليه بعهده على العراق ، فوليه بعد بشر بن مروان .

(سرح العيون ص١١٤)

١٥٧ — كتاب خالد بن أبان إلى موسى بن نصير

وكان عبد الملك قد أراد موسى بن نصير لأمر عَتَب عليه منه، فكتب خالد بن أبان من الشأم إلى موسى بن نصير :

---

(١) الحرب : شدة الغضب .

(٢) يعنى معاوية وعقبة « وهو معاوية بن أبى سفيان بن حرب بن أمية » .

(٣) وفى رواية المسعودى فى مروج الذهب ج ٢ : ص١٠٩ :

« وكتب عبد الملك إلى الحجاج : « جنبنى دماء آل أبى طالب ، فإنى رأيت الملك استوحش من آل حرب حين سفكوا دماءهم » فكان الحجاج يتجنبها خوفا من زوال الملك عنهم ، لا خوفا من الخالق عز وجل» .

(٤) أخذ ذلك من زياد — انظر ص٥٠ — .

« إنك معزول ، وقد وُجِّه إليك الحجاجُ بن يوسف ، وقد أُمِر فيك بأغْلَظِ أمر ، فالنجاةَ النجاةَ ، والوَحَى الوَحَى[(١)] ، فإما أن تَلْحَق بالفُرْس فتأمنَ ، وإما أن تَلْحَق بعبد العزيز بن مَرْوان مستجيراً به ، ولا تمكِّن ملعونَ ثَقِيفٍ من نفسك فيحكُمَ فيك » .

فلما أتاه الكتاب ركب النجائبَ ولَحَق بالشأم وبها يومئذ عبد العزيز بن مروان قد وَفَد بأموال مصر » . (الإمامة والسياسة ٢ : ٤٣)

١٥٨ — كتاب الحجاج إلى عبد الملك

وكتب الحجاج من العراق :

« يا أمير المؤمنين ، إنه لاقَدْرَ لما اقتطعه موسى بن نصير من أموال العراق ، وليس بالعراق فابعث به إلىّ » .

وكانت لموسى يدٌ عظيمة عند عبد العزيز بن مروان فأدخله عبدالعزيز على عبد الملك، فقرَّره عبدالملك بأنه اقتطع الفَيْء، وتنصَّل موسى من تلك التُّهمة، فأقسم عبد الملك ليُغرِمَنَّه، فأعانه عبد العزيز بخمسين ألفاً ، وأدّى خمسين ألفاً فى ثلاثة أشهر نجَّمَها[(٢)] عليه » .

(الإمامة والسياسة ٢ : ٤٣)

١٥٩ — كتاب موسى بن نصير إلى عبد العزيز بن مروان

ورجع عبد العزيز بن مروان إلى مصر وسار موسى معه فكان من أشرف الناس عنده ، فأقام بها ما أقام حتى قَدِم حَسَّانُ بن النُّعمان من إفريقية يريد الشام إلى عبد الملك وقد فتح له بها فتحاً ، فأجازه عبد الملك وزاده « بَرْقَةَ » وردَّه إلى إفريقية والياً ،

---

(١) الوحى : العجلة والإسراع ، ويمد .

(٢) نجم الدين : أداه نجوما جمع نجم كشمس ، وكانت العرب توقت بطلوع النجوم لأنهم ما كانوا يعرفون الحساب ، وإنما يحفظون أوقات السنة بالأنواء ، وكانوا يسمون الوقت الذى يحل فيه الأداء نجما تجوزا ، لأن الأداء لا يعرف إلا بالنجم ، ثم توسعوا حتى سموا الوظيفة نجما ، لوقوعها فى الأصل فى الوقت الذى يطلع فيه النجم ، واشتقوا منه فقالوا نجمت الدين إذا جعلته نجوما .

فأقبل حتى نزل مصر ، وبلغ عبد العزيز أن عبد الملك وَلاَّه برقة ، فبعث إليه وأراده على أن ينزل عنها فأبى فقال له : اقعد فى بيتك وسيُولَّى هذا الأمر من هو خير منك ، وأولى به منك فى تجربته ومعرفته وسياسته ، ويُغْنِى اللهُ أمير المؤمنين عنك ، وأخذ عهده ومزّقه ، ودعا بموسى بن نصـير فعَقَدَ له على إفريقية سنة ٧٩ هـ فقدِمها والياً عليها .

وكان بزَغْوان[1] قوم من البربر عليهم عظيم من عظمائهم ، فـكانوا يُغيرون على سَرْح[2] المسلمين ويرصُدون غِرّتهم — والذى بين زاغون وبين القَيْرَوان يوم إلى الليل — فوجَّه إليهم موسى خمسمائة فارس فقاتلوهم وهزمهم الله وقتل صاحبهم ، وفتحها الله على موسى ، فبلغ سَبْيُهم يومئذ عشرة آلاف رأس — وكان أول سبى دخل القيروان فى ولاية موسى — ثم وجه ابنه عبد الرحمن إلى بعض نواحيها فأتاه بمائة ألف رأس ، ثم وجه ابنه مروان فأتاه بمثلها ، فـكان الخُمْس يومئذ ستين ألف رأس .

وكتب موسى بن نصير إلى عبد العزيز بن مروان بمصر « يخبره بالذى فتح الله عليه ، وأمكَنَ له ؛ ويُعلِمه أن الخمس بلغ ثلاثين ألفاً » وكان ذلك وهما من الـكاتب .

١٦٠ — رد عبد العزيز على موسى

فلما قرأ عبد العزيز الـكتاب دعا الـكاتب فقال له : وَيْحَك ، اقرأ هذا الـكتاب ! فلما قرأه قال : هذا وهم من الـكاتب فراجِعْه ، فـكتب إليه عبد العزيز :

« إنه بلغنى كتابك تذكُر فيه أنه قد بلغ خُمْسُ ما أفاء الله عليك ثلاثين ألف رأس ، فاستـكثرتُ ذلك ، وظننتُ أن ذلك وهم من الـكاتب ، فاكتب إلىّ بعد ذلك على حقيقةٍ وَاحذَرِ الوَهْمَ » .

---

(١) زغوان : جبل بإفريقية بالقرب من تونس .

(٢) السرح : المـال السائم .

١٦١ — رد موسى على عبد العزيز

فلما قَدِمَ الكتاب على موسى كتب إليه :

« بلغنى أن الأمير ـ أبقاه الله ـ يذكر أنه استكثر ما جاءه من العِدَّة التى أفاء الله علىّ ، وأنه ظن أن ذلك وهم من الكاتب ، فقد كان ذلك وهماً على ما ظنَّه الأميرُ ، والخُمس أيها الأمير ستون ألفاً ، حقًّا ثابتًا بلا وهم » .

فلما أتى الكتاب إلى عبد العزيز وقرأه ، ملأه سروراً .

(الإمامة والسياسة ٢ : ٤-٦)

١٦٢ — كتاب عبد الملك إلى عبد العزيز

وذكروا أن عبد العزيز بن مَرْوان لما عزل حَسَّان بن النعمان ، وولى موسى ابن نصير ، وفَتَح اللهُ لموسى ، بلغ ذلك عبد الملك بن مَرْوان ، فكره ذلك وأنكره ، ثم كره رَدَّ رأىِ عبد العزيز ، ثم هَمَّ بعزل موسى لسوء رأيه فيه ، ثم رأى أن لا يردَّ ماصنع عبد العزيز ، فكتب عبد الملك إلى عبد العزيز :

«أما بعدُ : فقد بلغ أميرَ المؤمنين ما كان من رأيك فى عَزْل حسان وتوليتك موسى مكانه ، وعَلِمِ الأمر الذى له عزَلْتَه ، وقد كنتُ أنتظِرُ منك مثلها فى موسى ، وقد أمضى لك أمير المؤمنين من رأيك ما أمضيتَ وولايتك من وَلَّيْتَ ، فاستوص بحَسَّان خيراً فإنه ميمونُ الطائر ، والسلام » .

(الإمامة والسياسة ٢ : ٤٦)

١٦٣ — رد عبد العزيز على عبد الملك

فلما قدم الكتاب على عبد العزيز كتب إلى أخيه عبد الملك :

« أما بعدُ : فقد بلغنى كتابُ أمير المؤمنين فى عزل حسان ، وتوليتى موسى ابن نصير ، وقد كان لِمِثْلِها منى منتظراً فى موسى ، ويُعلِمنى أنه قد أمْضَى لى من رأيى

ما أمضيتُ : وولايتي مَن ولَّيتُ ، وقد علمتُ أن أمير المؤمنين يتفاءل بحسان ِالَّذِى فتَحَ اللهُ على يديه ، ولم أعْدُ مع نظرى لأمير المؤمنين بأن عزَلْتُ حسانَ وولَّيت موسى فى يُمْن طائره وحُسْن أثَره ، فأمَّا قولُ أمير المؤمنين « قد كنت أنتظِرها منك فى موسى » فلعَمْرِى لقد كنتُ لها فيه مُرْصِدا ، ولأمير المؤمنين أن يسبِق بها إليه منتظِرا ، حتى حَضَر أمرٌ جَهَدتُ فيه نفسى لأمير المؤمنين ولنفسى الرأى والنصيحة ، والسلام » . (الإمامة والسياسة ٢:٤٦)

١٦٤ — كتاب عبد العزيز إلى عبد الملك

وكتب عبد العزيز إلى عبد الملك :

« أما بعدُ : فإنى كنت وأنت يا أمير المؤمنين فى موسى وحسان ، كالمتراهِنَيْن أرسَلا فَرَسَيْهما إلى غايتهما ، فأتَيَا معا ، وقد مُدَّت الغايةُ لأحدهما ، ولك عنده مَزِيدٌ إن شاء الله ، وقد جاءنى يا أمير المؤمنين كتاب من موسى ، وقد وجَّهْتُه إليك لِتقرأه ، وتحمَدَ اللهَ عليه ، والسلام » . (الإمامة والسياسة ٢ : ٤٧)

١٦٥ — رد عبد الملك على عبد العزيز

فكتب إليه عبد الملك :

« أما بعدُ : فقد بلغ أمير المؤمنين كتابُك ، وفَهِم المَثَل الذى مثَّلْتَه فى حَسَّان وموسى ، ويقول لك : عند أحدهما مزيدٌ ، وكُلٌّ قد عَرَفَ اللهُ على يده خيرا ونصرا ، وقد أجريْتَ وحدَك ، وكلٌّ مُجْرٍ بالخلاء مسرور[1] ، والسلام » .

(الإمامة والسياسة ٢: ٤٧)

---

(١) هو مثل ، ورواه الميدانى فى مجمع الأمثال « كل مجر فى الخلاء يسر » قال ويروى : « كل مجر بخلاء مجيد » قال : ويقال أيضا : « كل مجر بخلاء سابق » وقال صاحب اللسان فى مادة «سرر» وقد سررته أسره ، أى فرحته ، والمثل الذى جاء « كل مجر بالخلاء مسر » إنما جاء على توهم أسر.

١٦٦ — كتاب الحجاج إلى المهلب

ولما وَلِي الحجاج العراق، قَدِم الكوفةَ فخطَب أهلَها خطبته المشهورة ، واستنفرهم لقتال الخوارج مع المهلَّب ، وتوعَّد من تخلَّف، ثم خرج إلى البصرة ، فقام فيها بخطبة مثل التي قام بها فى أهل الكوفة ، وتوعدهم مثل وعيده إياهم، فتدفَّق الناس على المهلب فقال: جاء الناس رجل ذَكَرٌ[1]، وكتب الحجاج إلى المهلب ، وإلى عبد الرحمن بن مِخْنَف

« أما بعدُ : إذا أتاكم كتابى هذا فناهِضوا الخوارجَ ، والسلام » .

(تاريخ الطبرى ٧: ٢١٥)

١٦٧ — كتاب الحجاج إلى المهلب

وكتب الحجاج إلى المهلب :

« أما بعدُ : فإن بِشْرًا — رحمه الله — اسْتَكْرَهَ[2] نفسَه عليك ، وأراك غِناه عنك، وأنا أُريك حاجتى إليك ، فأرِنى الجدَّ فى قتال عدوك ، ومَن خِفْتَه على المعصية ممن قِبَلك فاقتُله ، فإنى قاتلٌ مَنْ قِبَلِي ، ومن كان عندى مِنْ وَلِيِّ مَنْ هَرَبَ عنك فأعْلِمْنِي مكانَه ، فإنى أرى أنْ آخُذَ الوَلِيَّ بالوَلِيِّ[3] ، والسَّمِيَّ بالسَّمِيِّ »

١٦٨ — رد المهلب على الحجاج

فكتب إليه المهلب :

« ليس قِبَلِي إلا مُطيعٌ ، وإن الناس إذا خافوا العقوبةَ كبَّرُوا الذنب ، وإذا أَمِنوا العقوبةَ صَغَّروا الذنب، وإذا يئسوا من العفو أكفَرَهم ذلك، فهَبْ لِى هؤلاء الذين سمَّيتهم عُصاةً ، فإنما هم فُرْسان أبطال ، أرجو أن يقتل الله بهم العدوَّ ، ونادِمٌ[4] على ذَنْبه ».

---

(١) أى قوى شجاع أبى . (٢) أى حمل نفسه على كراهيتك .

(٣) ومن قبله زياد يقول فى خطبته البتراء : « وإنى أقسم بالله لآخذن الولى بالمولى » وسميك: من اسمه اسمك ونظيرك . (٤) معطوف على فرسان أبطال ، بمعنى الجمع : أى نادمون .

فلما رأى المهلب كثرة الناس عليه قال : اليومَ قوتل هذا العدو .

(الكامل للمبرد ٢ : ٢١٤ ، وشرح ابن أبي الحديد م ١ : ص ٣٩٧)

١٦٩ — كتاب الحجاج إلى المهلب

وخرج المهلب فى آثار الخوارج ، ونشِب بينه وبينهم القتال ، فانكشفوا ، وقد كثر فيهم القتل والجِراح ، وكتب الحجاج إلى المهلب من قبل الوَقعة :

« أما بعدُ : فإنه بلغنى أنك أقبلتَ على جِباية الخَراج ، وتركْتَ قِتال العدو ، وإنى ولَّيتك وأنا أرى مكان عبد الله بن حَكِيم المُجَاشِعِىّ ، وعبَّادِ بن حُصَيْن الحَبَطِىّ ، واخترتك وأنت من أهل عُمَان ، ثم رجل من الأَزْد ، فالقَهُم يومَ كذا فى مكان كذا ، وإلاَّ أشْرَعْتُ[1] إليك صَدْرَ الرمح » :

فشاور بنيه فقالوا : إنه أمير ، فلا تَغْلُظْ عليه فى الجواب :

١٧٠ — رد المهلب على الحجاج

فكتب إليه المهلب :

« وَرَدَ علىَّ كتابُك تزْعُم أنى أقبلتُ على جباية الخَراج ، وتركتُ قتال العدوّ ، ومن عجَز عن جباية الخراج فهو عن قتال العدو أعْجَزُ ، وزعمتَ أنك ولَّيتنى وأنت ترى مكان عبد الله بن حَكِيم المُجَاشِعِىّ ، وعبّاد بن حُصَيْن الحَبَطِىّ ، ولو وَلَّيتَهما لكانا مستحقَّين لذلك ، فى فضلهما وغَنائهما[2] وبَطْشهما ، واخترتَنى وأنا رجل من الأَزْد ، ولعَمْرى إن شرا من الأزد لقبيلةٌ تنَازَعَها ثلاثُ قبائلَ لم تستقرّ فى واحدةٍ منهن[3] ،

---

(١) أى سددت . (٢) كفايتهما .

(٣) يعنى قبيلة ثقيف قبيلة الحجاج فهى متنازعة بين هوازن وإياد وثمود ، وهاك كلمة عن نسبها : اختلف النسابون فى نسب ثقيف على ثلاثة أقوال :

فقال قوم إنهم من هوازن ، وهو القول الذى يزعمه الثقفيون ، قالوا إن جدهم ثقيفا هو ثقيف (واسمه قسى) بن منبه بن بكر بن هوازن بن منصور بن عكرمة بن خصفة بن قيس بن غيلان بن مضر بن نزار =

. . . .

= ابن معد بن عدنان، وعلى هذا القول جمهور الناس. ويزعم آخرون أن ثقيفا من إياد بن نزار بن معد ابن عدنان ، ويقولون هو قسى بن منبه بن النبيت بن منصور بن يقدم بن أفصى بن دعمى بن إياد، وإن النخع أخوه لأبيه وأمه ، ثم افترقا ، فصار أحدهما فى عداد هوازن، والآخر فى عداد مذحج بن مالك بن زيد بن عريب بن زيد بن كهلان بن سبأ بن يشجب بن يعرب بن قحطان ، قالت أخت الأشتر وهو مالك بن الحرث النخعى تبكيه :

ابعد الأشتر النخعى نرجو مكاثرة ونقطع بطن وادى
ونصحب مذحجا بإخاء صدق وإن ننسب فنحن ذرا إياد
ثقيف عمنـــا وأبو أبينا وإخوتنا نزار أولو السداد

وروى أن المغيرة بن شعبة وهو والى الكوفة سار إلى دير هند بنت النعمان بن المنذر فى الحيرة ، وهى فيه عمياء مترهبة ، فاستأذن عليها ، فقيل لها أمير هذه المدرة بالباب (والمدرة بالتحريك : المدينة) فقالت : قولوا له : أمن ولد جبلة بن الأيهم أنت ؟ قال : لا ، قالت أفمن ولد المنذر بن ماء السماء ؟ قال لا ، قالت : فمن أنت ؟ قال : المغيرة بن شعبة الثقفى ، قالت ، فما حاجتك ؟ قال : جئتك خاطبا ، قالت: لو كنت جئتنى لجمال أو لمال لأطلبتك ، (أى أعطيتك ما طلبت) ولكنك أردت أن تتشرف بى فى المحافل فتقول : نكحت ابنة النعمان بن المنذر ، وإلا فأى خير فى اجتماع أعور وعمياء ؟ (وكانت عينه قد ذهبت فى وقعة اليرموك ــ انظر ترجمته فى أسد الغابة) فبعث إليها : كيف كان أمركم ؟ فقالت: سأختصر لك الجواب : أمسينا وليس فى الأرض عربى إلا وهو يرغب إلينا ويرهبنا ، ثم أصبحنا وليس فى الأرض عربى إلا ونحن نرغب إليه ونرهبه، قال : فما كان أبوك يقول فى ثقيف ؟ قالت : اختصم إليه رجلان منهم أحدهما ينميها إلى إياد والآخر إلى بكر بن هوازن فقضى بها للإيادى ، وقال :

إن ثقيفا لم يكن هوازنا ولم يناسب عامرا ومازنا

(يريد عامر بن صعصعة بن معاوية بن بكر بن هوازن بن منصور ومازن بن منصور) فقال المغيرة : أما نحن فمن بكر بن هوازن . فليقل أبوك ما شاء ثم انصرف .

وقال قوم آخرون إن ثقيفا من بقايا ثمود من العرب القديمة التى بادت وانقرضت قيل : كان عبدا لأبى رغال (ككتاب) وكان أصله من قوم نجوا من ثمود فانتمى بعد ذلك إلى قيس بن عيلان ، روى عن على بن أبى طالب كرم الله وجهه أنه مر بثقيف فتغامزوا به فرجع إليهم فقال لهم : يا عبيد أبى رغال إنما كان أبوكم عبدا له فهرب منه فثقفه (كسمع : أى ظفر به) بعد ذلك ، ثم انتمى إلى قيس ، وروى أيضا أن عليا قال على المنبر بالكوفة ــ وذكر ثقيفا ــ « لقد هممت أن أضع على ثقيف الجزية ، لأن ثقيفا كان عبدا لصالح نبى الله عليه السلام ، وأنه سرحه إلى عامل له على الصدقة فبعث العامل معه بها ، فهرب واستوطن الحرم ، وإن أولى الناس بصالح محمد صلى الله عليهما وسلم » وسيرد عليك قريبا أن عبد الملك ابن مروان كتب فى إحدى رسائله إلى الحجاج يقول : « لقد جالت البصيرة فى ثقيف بصالح النبى صلى الله عليه وسلم، إذ ائتمنته على الصدقات ، وكان عبده، فهرب بها عنه» وقال شبيب بن يزيد الشيبانى الخارجى حين دخل الكوفة فى عهد الحجاج سنة ٧٦ هـ :

عبد دعى من ثمود أصله لا بل يقال أبو أبيهم يقدم =

وزعمتَ أنى لم أقْتَهم فى يوم كذا فى مكان كذا، أشرعتَ إلىَّ صدرَ الرمح، فلو فعلتَ لقلَبْتُ إليك ظَهرَ الْمِجَن[1] ، والسلام » .

(الكامل للمبرد ٢ : ٢١٥ ، وشرح ابن أبى الحديد م ١ : ص ٣٩٧ ونهاية الأرب ٧ : ٢٤٦)

١٧١ — كتاب الحجاج إلى المهلب

ووجَّه الحجاج البَرَاء بن قَبِيصَةَ إلى المهلب يستحثه فى مناجزة القوم وكتب إليه :

« إنك لتحبُّ بقاءهم لتأكل بهم » .

فقال المهلب لأصحابه: حرِّكوهم[2] ، فشهِد البَرَاء من جَلَدهم وثباتهم ماأدهشه،فرجع إلى الحجاج ، فقال له : مَهْيَم؟[3] ، قال : «رأيت أيها الأمير قومًا لا يعين عليهم إلا الله» .

١٧٢ — رد المهلب على الحجاج

وكتب المهلب جواب الحجاج :

« إنى منتظرٌ بهم إحدى ثلاثٍ : موت ذَرِيعٍ[4] ، أو جوع مُضِرّ ، أو اختلاف من أهوائهم[5] » . (الكامل للمبرد ٢ : ٢١٧ ، وشرح ابن أبى الحديد م ١ : ص ٣٩٨)

= (ويقدم كينصر من أبناء إياد وجد ثقيف ــ على رأى كما قدمنا) وقد قال الحجاج على المنبر: يزعمون أنا من بقايا ثمود فقد كذبهم الله بقوله : « وَثَمُودَ فَمَا أَبْقَى » وقال مرة أخرى : ولئن كنا من بقايا ثمود لما نجا مع صالح إلا خيارهم .

انظر شرح ابن أبى الحديد م ٢ : ص ٣٩٢ والكامل للمبرد ١ : ٢٢٤ ومروج الذهب ٢ : ٦٨ والأغانى ٤ : ٧٤ وتاريخ الطبرى ٧ : ٢٣٣ والعقدالفريد ٣ : ٨ .

(١) المجن : الترس ، وقلب له ظهر المجن : كلمة تضرب مثلا لمن كان لصاحبه على مودة أو رعاية ثم حال عن ذلك ، أى أسقط الحياء وفعل ماشاء .

(٢) قال أبو العباس : « فخرج فرسان من أصحابه إليهم فخرج إليهم من الخوارج جمع ،فاقتتلوا إلى الليل ، فقال لهم الخوارج ، ويلكم ، أماتملون ؟ فقالوا : لا ، حتى تملوا . قالوا : فمن أنتم ؟ قالوا : تميم ، قالت الخوارج : ونحن بنو تميم ، فلما أمسوا افترقوا ، فلما كان الغد خرج عشرة من أصحاب المهلب ، وخرج إليهم عشرة من الخوارج ، فاحتفر كل واحد منهم حفيرة وأثبت قدمه فيها ، فكلما قتل رجل جاء رجل من أصحابه فاجتره ووقف مكانه حتى أعتموا، فقال لهم الخوارج : ارجعوا . فقالوا : بل ارجعوا أنتم ، فقالوا : ويلكم ، من أنتم ؟ فقالوا : تميم ، قالوا : ونحن تميم .

(٣) كلمة يمانية . استفهام معناه : ما الخبر وما الأمر . (٤) الموت الذريع : الفاشى .

(٥) وقد بذر المهلب بينهم بذور الشقاق والاختلاف حتى اضطرب أمرهم وانتكث فتلهم كاسنبينه بعد.

صورة أخرى لكتاب الحجاج إلى المهلب

وقال الطبرى فى هذا الصدد :

وبعث الحجاج إلى المهلّب البَرَاء بن قَبيصة وكتب إلى المهلب :

« أما بعدُ ، فإنك واللهِ لو شئتَ فيما أرَى لقد اصْطَلمت[١] هذه الخارجةَ المارقةَ ، ولكنك تُحِبُّ طولَ بقائهم لتأ كلَ الأرض حوْلَك ، وقد بعثتُ إليك البراء بنَ قبيصةَ لِيُنْهضَك إليهمْ فَانْهضْ إليهم إذا قَدِم عليك بجميع المسلمين ، ثم جاهِدْهم أشدَّ الجهاد ، وإياك والعِلَلَ والأباطيلَ[٢] والأمور التى ليست لك عندى بسائِغةٍ ولا جائِزة ، والسلام[٣] » .

صورة أخرى لرد المهلب على الحجاج

فكتب المهلب إلى الحجاج :

« أما بعد : فقد أتانى كتابُ الأمير — أصلحه الله — واتِّهامُه إياى فى هذه الخارجة المارقة ، وأمَرنى الأمير بالنهوض إليهم ، وإشهادِ رسولِه ذلك ، وقد فعلت ، فليسأله عما رأى ، فأمَّا أنا فواللهِ لو كنت أقدرُ على استئصالهم ، أو إزالتهم عن مكانهم ثم أمسكت عن ذلك ، لقد غَشَشْتُ المسلمين ، وما وَفَيْتُ لأمير المؤمنين ، ولا نصحتُ

(١) اصطلمه : استأصله .

(٢) الأباطيل : جمع أبطولة بضم الهمزة ، أو جمع إبطالة بالكسر ، أو جمع باطل على غير قياس .

(٣) قال: فأخرج المهلب بنيه ، كل ابن له فى كتيبة ، وأخرج الناس على راياتهم ومصافهم وأخماسهم ، وجاء البراء بن قبيصة فوقفه على تل قريب منهم حيث يراهم ، فأخذت الكتائب تحمل على الكتائب والرجال على الرجال ، فيقتتلون أشد قتال رآه الناس من صلاة الغداة إلى انتصاف النهار ثم انصرفوا ، فجاء البراء إلى المهلب فقال له لا والله مارأيت كبنيك فرسانا قط ، ولا كفرسانك من العرب فرسانا قط ، ولا رأيت مثل قوم يقاتلونك قط أصبر ولا أبأس ، أنت والله المعذور ، فرجع بالناس المهلب حتى إذا كان عند العصر خرج إليهم بالناس وبنيه فى كتائبهم فقاتلوه كقتالهم فى أول مرة ، حتى حجز الليل بينهم فانصرفوا عند المساء ، قال المهلب للبراء . كيف رأيت ؟ قال : رأيت قوما والله مايعينك عليهم إلا الله ، فأحسن إلى البراء وأجازه وحمله وكساه وأمر له بعشرة آلاف درهم ، ثم انصرف إلى الحجاج فأتاه بعذرَ المهلب وأخبره بما رأى .

للأمير ـ أصلحه اللهُ ـ فمعاذَ اللهِ أن يكون هذا من رأيي ، ولا مما أُدِينُ اللهَ به ، والسلام » . (تاريخ الطبرى ٧ : ٢٦٩)

١٧٣ — كتاب الحجاج إلى المهلب

ووجَّه الحجاج الجرَّاحَ بنَ عبد الله إلى المهلب يستبطئه فى مناجزة القوم ، وكتب إليه :

« أما بعدُ : فإنك جَبَيْتَ الخَراج بالعِلَل ، وتحصَّنْتَ بالخَنادق ، وطاوَلْتَ القومَ ، وأنت أعزُّ ناصرا ، وأكثرُ عَدَداً ، وما أظنُّ بك مع هذا مَعْصِيَةً ولا جُبْناً ولكنك اتخذتهم أُكُلاً[1] ، وكان بقاؤهم أيسرَ عليك من قتالهم ، فناجِزْهم وإلا أنكرتَنى ، والسلام[2] » .

١٧٤ — رد المهلب على الحجاج

فكتب المهلب إلى الحجاج .

« أتانى كتابُك تستبطِئُنى فى لقاء القوم ، على أنك لا تظنُّ بى معصية ولا جُبنا ، وقد عاتبتَنى معاتبةَ الجبان ، وأوعدتنى وَعيدَ العاصى ، فاسأل الجرَّاحَ ، والسلام[3] » .

(الكامل للمبرد ٢ : ٢١٨ ، وشرح ابن أبى الحديد م ١ : ص ٣٩٩ ، ونهاية الأرب ٧ : ٢٤٧)

---

(١) الأكل كقفل وعنق : ما يؤكل والرزق والحظ من الدنيا .

(٢) فقال المهلب للجراح : يا أبا عقبة والله ما تركت حيلة إلا احتلتها ، ولا مكيدة إلا أعملتها ، وما العجب من إبطاء النصر وتراخى الظفر ، ولكن العجب أن يكون الرأى لمن يملكه دون من يبصره ، ثم ناهض الخوارج ثلاثة أيام يغاديهم القتال ، ولا يزالون كذلك إلى العصر ، وينصرف أصحابه وبهم قرح ، وبالخوارج قرح وقتل ، فقال له : قد أعذرت .

(٣) فلما قدم الجراح على الحجاج ، قال له : كيف رأيت أخاك ؟ قال : والله ما رأيت أيها الأمير مثله قط ، ولا ظننت أن أحدا يبقى على مثل ما هو عليه ، ولقد شهدت أصحابه أياما ثلاثة يغدون إلى الحرب ثم ينصرفون عنها ، وهم بها يتطاعنون بالرماح ، ويتجالدون بالسيوف ، ويتخابطون بالعمد ، ثم يروحون كأن لم يصنعوا شيئا ، رواح قوم تلك عادتهم وتجارتهم ، فقال الحجاج : لشد ما مدحته أبا عقبة ! قال : الحق أولى .

١٧٥ — كتاب الحجاج إلى عتاب بن ورقاء

وكتب الحجّاج إلى عَتّاب بن وَرْقاء الرِّياحىّ من بنى رِياح بن يَرْبوع ابن حَنظلة ، وهو والى أَصْبَهان « يأمره بالمسير إلى المهلب ، وأن يضم إليه جند عبد الرحمن ابن مِخْنف ، فكل بلد تدخلانه من فتوح أهل البصرة ، فالمهلب أمير الجماعة فيه ، وأنت على أهل الكوفة ، فإذا دخلتم بلدا فتحه لأهل الكوفة فأنت أمير الجماعة ، والمهلب على أهل البصرة »

فقدم عتاب فى إحدى جُمادَيين من سنة ٧٦ على المهلب .

(الكامل للمبرد ٢ : ٢١٩ ، وشرح ابن أبى الحديد م ١ : ص ٤٠٠)

١٧٦ — كتاب المهلب إلى الحجاج

قال ابن نُباتة فى سَرْح العيون :

« وكتب الحجاج إلى المهلب يستبطئه فى مناجزة الأزارقة ويستعجزه ، فحبس المهلب رسولَ الحجاج أياما حتى رأى صنع الخوارج وجَلَدهم وثباتهم ، وكتب إلى الحجاج يقول :

« إن الشاهد يَرَى مالايراه الغائب ، فإن كنت نَصَبْتَنى لحرب هؤلاء القوم ، على أن أُدَبِّرها كما أرى ، فإن أمْكَنَتْنى فُرصةٌ انتهزتُها ، وإن لم تُمكنّى توقفتُ ، فأنا أدبر ذلك بما يُصلحه ، وإن أردتَ منى أن أعمل وأنا حاضرٌ ، برأيك وأنت غائب ، فإن كان صوابا فلَكَ ، وإن كان خَطَأً فعلىّ ، فابعث مَن رأيتَ مكانى ، والسلام [(١)] » .

(سرح العيون ص ١٣٤)

---

(١) ورواية أبى الفرج الأصبهانى : « كتب الحجاج إلى المهلب يأمره بمناجزة الأزارقة ويستبطئه ويضعفه ويعجزه فى تأخيره أمرهم ومطاولته لهم ، فقال المهلب لرسوله : قل له إنما البلاء أن الأمر إلى من يملكه لا إلى من يعرفه ، فإن كنت نصبتنى لحرب هؤلاء القوم . . الخ » — الأغانى ١٣ : ٥٧ —

١٧٧ — كتاب عبد الملك إلى الحجاج

وكتب المهلب من فوره إلى عبد الملك ، فكتب إليه عبد الملك :

« لا تعارض المهلَّبَ فيما يراه ، ولا تُعْجِلْه ، ودَعْه يدبر أمره » .

(الأغانى ١٣ : ٥٨ ، وشرح ابن أبى الحديد م ١ : ص ٤٠٧)

١٧٨ — كتاب عبد الملك إلى الحجاج

وكتب الحجاج إلى عبد الملك بن مَرْوان يُغلِّظ له أمرَ الخوارج مع قَطَرِى ، فكتب إليه عبد الملك :

« أمّا بعدُ ، فإنى أحمَدُ إليك السيفَ ، وأُوصِيك بما أوصى به البَكْرىُّ زيدًا » .

فلم يفهم الحجاج ما عنَاه عبد الملك . وقال لحاجبه : نادِ فى الناس : من أخبر الأمير بما أوصى به البكرى زيدا فله عشرة آلاف دِرْهم ، فورَد رجل من الحجاز يتظلم من بعض عماله ، فقال الحاجب : أنا أخبره ، فأدخله عليه فقال له : ماقال البكرىُّ لزيد ؟ قال : قال لابن عمه زيد : والشعر لموسى ابن جابر الحنفى :

أقول لزيدٍ لا تُتَرْتِرْ فإنهم ... يرَون المنايا دون قتلك أو قتلى(١)

فإن وضعوا حَرْبا فضَعْها ، وإن أبَوا ... فَشُبَّ وَقُودَ الحرب بالحطَب الجَزْلِ(٢)

فإن عَضَّتِ الحربُ الضَّرُوسُ بنابِها ... فعُرْضَةُ نار الحرب مثلُك أو مثلى(٣)

فقال الحجاج:صدق أمير المؤمنين،عُرْضة نار الحرب مثلى أو مثله،وصدق البكرى .

(مروج الذهب ٢ : ١٠٩ ، وذيل الأمالى ص ٧٣)

---

(١) الترترة بالتاء وبالثاء : إكثار الكلام وترديده ، والبربرة بالباء أيضا : كثرة الكلام والجلبة والصياح .

(٢) الجزل : الحطب اليابس ، أو الغليظ العظيم منه .

(٣) حرب ضروس : أكولة عضوض ، وأصله من الناقة الضروس ، وهى السيئة الخلق العضوض لحالبها .

١٧٩ — كتاب الحجاج إلى المهلب

وكتب إلى المهلب :

« إن أمير المؤمنين أوصانى بما أوصى به البكرىُّ زيداً ، وأنا أوصيك به وبما أوصى به الحارثُ بن كعب(١) بنيه .

فأتى المهلب بوصيته ، فإذا فيها :

« يا بَنِىَّ كونوا جميعاً ولا تكونوا شتَّى(٢) فتفرَّقوا ، وبُزُّوا(٣) قبل أن تُبَزُّوا ، فموتٌ فى قوة وعز خيرٌ من حياة فى ذل وعجز » .

فقال المهلب : صدق البكرى ، والحارث بن كعب .

(مروج الذهب ٢ : ١٥٩)

١٨٠ — كتاب أبى خالد القنانى إلى قطرى بن الفجاءة

وقال أبو العباس المبرِّد : من طريف أخبار الخوارج قول قَطَرِى بن الفُجاءة المازنىّ لأبى خالد القَنَانِىّ(٤) — وكان من قَعَد الخوارج — :

أبا خالدٍ يا انْفِرْ فلست بخالدٍ وما جعل الرحمن عُذْرًا لقاعِدِ(٥)
أتزعُمُ أن الخارجىَّ على الهُدَى وأنت مُقيمٌ بين لصٍّ وجاحِدِ ؟

فكتب إليه أبو خالد :

« لقد زاد الحياةَ إلىَّ حُبًّا بناتِى إنهن من الضِّعافِ
أحاذِرُ أن يَرَيْنَ الفقر بعدى وأن يشربْن رَنْقًا بعد صافى(٦)

---

(١) هو أحد الجاهليين المعمرين .
(٢) أى متفرقين ، جمع شتيت .
(٣) بزه : سلبه وفى المثل : « من عز بز » أى من غلب سلب .
(٤) نسبة إلى قنان كسحاب : وهو جبل لأسد .
(٥) بالتنبيه ، ونفر للقتال كضرب : ذهب . (٦) الرنق : الكدر .

وأن يَعْرَيْنَ إن كَسِيَ الجوارى ... فتنبُو العَينُ عن كَرَمٍ عِجافِ(١)

ولولا ذاك قد سَوَّمت مُهْرِى ... وفى الرحمن للضُّعَفاء كافى(٢)

أبانَا ، مَنْ لنا إن غِبْتَ عنا ... وصار الحَىُّ بعدك فى اختلاف؟ »

(الكامل للمبرد ٢ : ١٢١)

١٨١ — كتاب قطرى إلى سبرة بن الجعد

وروى المسعودى فى مروج الذهب أيضا قال :

واتخذ الحجاجُ سَبْرَةَ بن الجَعْد الشيْبانىَّ سميرا ، فلم يك يطلب شيئا من الحديث إلا وجد عنده منه عِلْما ، وكان يَرَى رَأْى الخوارج من أصحاب قَطَرِىّ بن الفُجاءة التميمى (والفُجاءة أمه ، وكانت من بنى شَيْبان ، وإنما هو رجل من تميم) وكان قطرى يومئذ يحارب المهلَّبَ ، فبلغ قطريّا مكانُ سَبْرَةَ من الحَجاج ، فكتب إليه بأبيات منها :

لَشَتَّانَ ما بين ابنِ جَعْدٍ وبينَنا ... إذا نحن رُحْنا فى الحديد المُظاهَر(٣)

نُجاهِدُ فُرْســـانَ المهلَّب ، كلُّنا ... صَبورٌ على وَقْع السيوف البواتِرِ

وراح يَجُرُّ الخَزَّ عنـــد أميره ... أميرٌ بتقْوَى ربِّه غـــيرُ آمِرِ

أبا الجَعْد ، أين العِلْمُ والحِلْمُ والنُّهَى ... وميراثُ آباءٍ كِرامِ العناصِرِ(٥)

ألم تَرَ أن الموت لاشـــكَّ نازلٌ ... ولا بدَّ من حشرٍ الأُلَى فى المقابر

حُفاةً عُراةً والترابُ لديهـــمُ ... فمن بين ذى ربح وآخرَ خاسِرِ

فإن الذى قد نِلْتَ يَفْنَى ، وإنما ... حَياتُك فى الدنيا كوَقْعةِ طائرِ

---

(١) يقال: رجل كرم : أى كريم ، وكذا المؤنث والجمع لأنه مصدره ، وعجاف جمع عجفاء ، وهى المهزولة . (٢) سومت : أرسلت .

(٣) عنى بالحديد الدروع ، وظاهر الدرع : لأم بعضها على بعض ، وظاهر بين درعين : طابق وجمع ولبس إحداهما فوق الأخرى ، ومثله قول ورقاء بن زهير :

فشلت يمينى يوم أضرب خالدا ... ويمنعه منى الحديد المظاهر

(٤) النهى : العقل ، وهو يكون جمع نهية (كغرفة) أيضا ، وهى العقل .

فراجِعْ أبا جَعْدٍ ، ولا تكُ مُغْضِبًا ... على ظُلْمَةٍ أَعْشَتْ جميعَ النواظِرِ
وتُبْ تَوبةً تُهْدِى إليك شهادةً ... فإنك ذو ذنبٍ ولستَ بِكافرِ
وسِرْ نحوَنا تلقَ الجهادَ غنيمةً ... تُفِدْكَ ابتياعًا رابحًا غيرَ خاسِرِ
هى الغايةُ القُصْوَى الرَّغيبُ ثوابُها ... إذا نال فى الدنيا الغِنَى كلُّ تاجرِ(١)

فلما قرأ كتابه بكى ، وركب فرسه ، وأخذ سلاحه ، ولَحِق بقطرى ، وطلبه الحجاج فلم يقدر عليه .

١٨٢ — كتاب سبرة بن الجعد إلى الحجاج

ولم يَرُعِ الحجاجَ إلا كتاب قد بَدَر منه فيه شعر قطرى الذى كان كتب به إليه ، وفى أسفل الكتاب إلى الحجاج أبيات منها :

فَمَن مُبْلِغُ الحجَّاجِ أنَّ سَمِيرَه ... قَلَى كلَّ دينٍ غيرَ دينِ الخوارجِ(٢) ؟
رأى الناسَ (إلا مَنْ رأى مثلَ رأيه) ... مَلاعِينَ تَرَّاكِينَ قَصْدَ المَخارجِ(٣)
فأقبلتُ نحــوَ اللهِ باللهِ واثقًا ... وما كُرْبتى غــيرُ الإلٰه بِفارجِ
إلى عُصْبَــةٍ أمَّا النهارَ فإنهم ... هم الأُسْدُ أسْدُ الغِيلِ عند التهايُجِ(٤)
وأمَّا إذا ما الليلُ جَنَّ فإنهمْ ... قِيامٌ بأنواحِ النســاءِ النواشِجِ(٥)
ينــادُون التحكيمِ ، تاللهِ إنهم ... رأوا حُكْمَ عَمْرٍو كالرياحِ الهَوائجِ(٦)
وحُكْمَ ابنِ قيسٍ مثلَ ذاك فأعْصِموا ... بحبلٍ شديدِ المَتْنِ ليس بناهِجِ(٧)

---

(١) الرغيب ثوابها : أى المرغوب فى ثوابها .
(٢) قلاه كرماه ورضيه : أبغضه وكرهه غاية الكراهة فتركه .
(٣) القصد : استقامة الطريق . (٤) الغيل بالكسر : الشجر الكثير الملتف ، ويفتح .
(٥) جن الليل : أقبل . والنواشج : جمع ناشجة ، نشج الباكى كضرب نشيجا : غص بالبكاء فى حلقه من غير انتحاب .
(٦) ينادون التحكيم : كان شعار الخوارج : « لا حكم إلا لله » ولذا سموا « المحكمة » ، وعمرو : وهو عمرو بن العاص .
(٧) ابن قيس هو أبو موسى الأشعرى واسمه عبد الله بن قيس ، وأعصمه : هيأ له شيئا يعتصم به . ونهج الثوب والحبل مثلثة الهاء : بلى .

فطرح الحجاج هذا الكتاب إلى عَنْبَسَة بن سعيد ، فقال : هذا من سميرنا الشيبانى وهو من الخوارج ولا نعلم به !. (مروج الذهب ٢ : ١٣٨)

١٨٣ — كتاب الحجاج إلى قطرى بن الفجاءة

وروى أبو العباس المبرِّد فى الكامل قال :

قال الحجاج يوما لعَمائر[1] العرب ، وهم فى مجلسه : ما أحسب هذا المَزُونىّ[2] يناصِحُنا فى حربنا — يعنى المهلَّبَ — والرأىُ مشترك ، فقالوا : الرأى للأمير — أصلحه الله — أن يكتب إلى ابن الفُجاءة بإطعامه بعض الأَرَضِينَ ، فإذا هو بَخَعَ[3] بطاعته ، وأظهر الدعوة له ، سَهُلت الحيلةُ فيه ، فقال : وفقكم الله ، وكتب إلى ابن الفجاءة ، وأنفذه على يد الغَضْبان بن القَبَعْثَرَى الشَّيْبانى ، ونسخة الكتاب :

« بسم الله الرحمن الرحيم ، من الحجاج بن يوسف إلى قطرى بن الفجاءة ، سلام عليك ، المُوَحَّدُ اللهُ ، والمصلَّى عليه محمد عليه السلام ، أما بعد ، فإنك كنت أعرابيا بَدَويًّا ، تستطعِم الكِسْرَةَ ، وتَخِفُّ إلى التمرة ، ثم خرجت تحاول ما ليس لك بحق ، واعترضت على كتاب الله ، ومرَقْتَ من سنة رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فارجع عما أنت عليه بما زُيِّن لك ، وادْعُني فقد آن لك » .

---

(١) العمائر : جمع عمارة بالفتح ويكسر ، وهى أصغر من القبيلة ، وطبقات النسب ست، أعلاها : الشعب بالفتح ، وهو يجمع القبائل ، ثم القبيلة وتجمع العمائر ، ثم العمارة وتجمع البطون ، ثم البطن ويجمع الأفخاذ ، ثم الفخذ ، وتجمع الفصائل، ثم الفصيلة ، فخزيمة مثلا شعب ، وكنانة قبيلة ، و قريش عمارة ، وقصى بطن ، وهاشم فخذ ، والعباس فصيلة .

(٢) نسبة إلى مزون كصبور، وهى قرية من قرى عمان (كغراب) باليمن، كان يسكنها اليهود والملاحون ليس بها غيرهم ، وكان الفرس يسمون عمان المزون ، وكان أزدعمان — وهم رهط المهلب — يكرهون أن يسموا المزون .

(٣) بخع له بحقه كمنع : أقر (وبخع بالحق أيضا : أقربه وخضع له) .

فلما أوصل الغضبان الكتاب إلى قَطَرِىّ: قال: يا غلام، أزْبُرْ[١] هذه الصحيفة، فتلا عليه ما فيها ، فتنهَّد قطرى الصُّعَداء[٢] ، فقال : يا غضبان ألفيتَنى محزونا، وأنشأ يقول:

فيا كَبِدًا من غير جوع ولا ظَمًا   ووا كبدًا من وَجْدِ أم حَكِيمِ
فلو شَهِدَتْنِي يوم دُولابَ أبصرتْ   طِعانَ فتًى فى الحرب غير لئيمِ[٣]
غَدَاةَ طَفَتْ عَلْماء بكرُ بن وائلٍ   وعُجْنا صدورَ الخيل نحو تميمِ[٤]
وكان بعبد القيس أوَّلُ حَدِّنا   وآبَ عَمِيدُ الأزد غيرَ ذميمِ

يعنى المهلب - وأم حكيم هذه : امرأة من الخوارج قُتِلَتْ بين يديه[٥] - ثم قال : يا غلام ! اكتب :

١٨٤ - رد قطرى بن الفجاءة على الحجاج

« بسم الله الرحمن الرحيم ، من قَطَرِىّ بن الفُجاءة إلى الحجاج بن يوسف ، سلام على من اتَّبع الهدى ، ذكرتَ فى كتابك أنى كنت بدويا أستطعِمُ الكِسْرَة ، وأبدُرُ[٦] إلى التمرة ، وبالله لقد قلتَ زُورا ، بل الله بصَّرَنِى من دينه ما أعماك عنه ،

---

(١) زبر الكتاب (وزبره أيضا) قرأه . (٢) الصعداء : تنفس طويل .

(٣) دولاب: قرية بينها وبين الأهواز أربعة فراسخ ، وقعت فيها وقعة بين أهل البصرة بقيادة مسلم ابن عنيس وبين الأزارقة بقيادة نافع بن الأزرق ، وقتل ابن عنيس وابن الأزرق فى المعركة (سنة ٦٥ هـ) انظر هامش ص ٩٧ .

(٤) علماء : أى على الماء ، قال المبرد « إن العرب إذا التقت فى مثل هذا الموضع لامان استجازوا حذف إحداهما استثقالا للتضعيف ، لأن مابقى دليل على ماحذف ، وكذلك كل اسم من أسماء القبائل تظهر فيه لام المعرفة ، فإنهم يجيزون معه حذف النون التى فى قولك بنو لقرب مخرج النون من اللام وذلك قولك فلان من بلحارث وبلعنبر وبلهجيم » - الكامل ٢ : ١٨٣ - وعجنا : عطفنا .

(٥) روى أبو الفرج الأصبهانى عن ميمون بن هرون قال : « حدثت أن امرأة من الخوارج كانت مع قطرى بن الفجاءة يقال لها أم حكيم ، وكانت من أشجع الناس وأجملهم وجها، وأحسنهم بدينهم تمسكا ، وخطبها جماعة منهم فردتهم ولم تجب إلى ذلك ، فأخبرنى من شهدها أنها كانت تحمل على الناس وترتجز:

أحمل رأسا قد سئمت حمله   وقد مللت دهنه وغسله
ألا فتى يحمل عنى ثقله ؟

قال : وهم يفدونها بالآباء والأمهات ، فما رأيت قبلها ولا بعدها مثلها - الأغانى ٦ : ٦ .

(٦) بدر إليه : عجل إليه واستبق .

إذ أنت سائح فى الضَّلالة ، غَرِق فى غَمَرات الـكفر ، وذكرتَ أن الضرورة طالت بى فهلا برز لى من حزبك مَن نال الشِّبَع ، واتـكأ فاتَّدَع⁽¹⁾ ؟ أَمَا واللهِ لئن أبرز اللهُ صَفْحَتك ، وأظهر لى صُلْعَتك⁽²⁾ لَتُنْكِرَنَّ شِبَعك ، ولَتَعْلَمَنَّ أن مُقارعة الأبطال ليس كقسطير الأمثال » . (الـكامل للمبرد ١ : ١٨٠)

وروى الجاحظ فى البيان والتبيين هذين الـكتابين بصورة أخرى قال :

صورة أخرى لـكتاب الحجاج إلى قطرى

كتب الحجاج بن يوسف إلى قطرى بن الفجاءة :

« سلام عليك ، أما بعدُ ، فإنك مَرَقْت من الدين مُرُوقَ السهم من الرَّمِيَّة⁽³⁾ ، قد علمتَ ـ حيثُ تجرثمتَ⁽⁴⁾ ذلك ـ أنَّك عاصٍ لله ولُولاة أمره ، غير أنك أعرابى جِلْف⁽⁵⁾ أُمِّىّ ، تستطعِم الـكِسْرَة ، وَتشتفى بالتَّمرة ، والأمورُ عليك حسرة ، خرجت لتناول شَبْعة ، فلَحِق بك طَغَامٌ⁽⁶⁾ صَلُوا بمثل ما صَلِيتَ به من العيش ، يَهُزُّون الرماح ، ويستنشِئون⁽⁷⁾ الرياح ، على خوف وجَهْد من أمورهم ، وما أصبحوا ينتظرون أعظمُ مما جَهِلوا معرفته ، ثم أهلـكهم اللهُ بنزْحَتَين والسلام » .

---

(١) اتدع وودع : سكن واستقر .

(٢) الصلعة بالضم والصلعة بالتحريك : موضع الصلع من الرأس .

(٣) الرمية مايرى .

(٤) تجرثم الشىء : أخذ معظمه .

(٥) الجلف : الجافى . (٦) الطغام: أوغاد الناس ، وصلى النار وبها : قاسى حرها . والمعنى أنهم قاسوا من شظف العيش ماقاسيت .

(٧) أى يتشممونها ، والذئب يستنشىء الريح أى يتشممها ، ونشيت الريح غير مهموز أى شممتها ، والاستنشاء يهمز ولا يهمز ، ومنه فلان يستنشىء الأخبار : أى يبحث عنها ويتتبعها .

صورة أخرى لرد قطرى عليه

فأجابه قَطَرِىُّ بن الفجاءة :

« من قطرى بن الفجاءة إلى الحجاج بن يوسف ، سلام على الهُدَاة من الوُلاة الذى يَرْعَوْن حَرِيمَ اَللهِ ، ويَرهَبون نِقَمه ، فالحمد لله على ما أظهر من دينه ، وأظلع[1] به أهلَ السَّفالة ، وهَدَى به من الضلالة ، ونصر به عند استخفافك بحقه .

كتبتَ إلىّ تذكر أنى أعرابى جِلْف أمى ، أستطعم الكِسْرَة ، وأشتفى بالتمرة ، ولعمرى يا ابْنَ أمِّ الحجاج إنك لمتِّيت فى جِبِلّتك ، مُطْلَخِمّ[2] فى طريقتك ، وَاهٍ فى وثيقتك ، لا تعرف اَللهَ ولا تجزع فى خطيئتك ، يئستَ واستيأستَ من ربك ، فالشيطان قرينُك لا تجاذبه وِثاقَك[3] ، ولا تُنازعه خِناقَك[4] ، فالحمد لله الذى لو شاء أبرز لى صَفْحتك ، وأوضح لى طَلْعتك[5] ، فوالذى نفس قطرى بيده لعرفتَ أن مُقارعة الأبطال ليس كتصدير المقال ، مع أنى أرجو أن يُدْحِضَ اَللهُ حجتَك ، وأن يُمْتِعَنِى بمهجتك[6] .

(البيان والتبيين ٢ : ١٦٠)

١٨٥ — كتاب عبد الملك إلى الحجاج

قال الطبرى :

ولما صارت فارس كلها فى يَدَى المهلب ، بعث الحجاج عليها عماله[7] وأخذها من المهلب ، فبلغ ذلك عبد الملك ، فكتب إلى الحجاج :

---

(١) من طلع البعير كمنع : غمز فى مشيه .
(٢) اطلخم الرجل : تكبر ، واطلخم الليل : أظلم .
(٣) الوثاق بالفتح ويكسر : مايشد به .
(٤) الخناق بالكسر : الحبل يخنق به .
(٥) الظاهر أنها « صلعتك » كما تقدم .
(٦) فى الأصل « مهجتك » ولكن الذى فى كتب اللغة أن الفعل يتعدى إلى الثانى بالباء ، يقال : أمتعه بالشىء ومتعه : ملاه إياه .
(٧) وقال المبرد : « وولى الحجاج كردما فارس ، فكتب المهلب إلى الحجاج يسأل أن يتجافى له عن إصطخر ودرا بجرد لأرزاق الجند ففعل ، وكان قطرى هدم مدينة إصطخر لأن أهلها كانوا يكاتبون المهلب بأخباره وأراد مثل ذلك بمدينة فسا فاشتراها منه آزاذ مرد بن الهربذ بمائة ألف درهم فلم يهدمها » — الكامل للمبرد ٢ : ٢٢٥ — .

« أما بعدُ فَدَعْ بيد المهلب خراج جبال فارس، فإنه لابد للجيش من قوة، ولصاحب الجيش من معونة ، ودع له كُورة فَسَا وَدَرَا بَجِرْد(١) ، وكورة إصْطَخْرَ »

فتركهما للمهلب ، فبعث المهلب عليهما عماله ، فكانت له قوة على عدوه ومايصلحه.

(تاريخ الطبرى ٧ : ٢٦٩)

١٨٦ — كتاب المهلب إلى الحجاج

ولما وقع الاختلاف بين الأزارقة وخلعوا قَطَرِيَّ بن الفُجاءة ، وَوَلَّوا عبد ربِّه الكبير(٢) ، كتب المهلب إلى الحجاج :

« أما بعدُ فإن الله قد ألقى بأسَ الخوارج بينهم ، فخلَع عُظْمُهم(٣) قطَرِيًّا وبايعوا عبد ربه الكبير، وبقيَتْ عِصابةٌ منهم مع قطرى، فهم يقاتل بعضُهم بعضاً غُدُوًّا وعَشِيًّا(٤) ، وقد رجوتُ أن يكون ذلك من أمرهم سببَ هلاكهم إن شاء الله ، والسلام » .

١٨٧ — رد الحجاج على المهلب

فكتب إليه الحجاج :

« أما بعدُ ، فقد بلغنى كتابك تذكُرُ فيه اختلافَ الخوارج بينها ، فإذا أتاك كتابى هذا فناهِضهم على حال اختلافهم وافتراقهم قبل أن يجتمعوا، فتكون مُؤْنتهم(٥) عليك أشدّ والسلام »

---

(١) درا بجرد : كورة بفارس ؛ وفسا : أكبر مدن تلك الكورة .

(٢) هكذا فى تاريخ الطبرى ، وفى الكامل للمبرد أنهم ولوا عبد ربه الصغير — ج ٢ : ص٢٢٦— قال ابن أبى الحديد : « وكان عبدربه الصغير معلم كتاب ، وكان عبدربه الكبير بائع رمان، وكلاهما من موالى قيس بن ثعلبة » م ١ : ص ٤٠٣.

ولما وهى أمر قطرى توجه إلى طبرستان ، فوجه الحجاج إليه سفيان بن الأبرد فى جيش من أهل الشأم، فسار فى طلبه حتى لحقوه فى شعب من شعاب طبرستان ، فقاتلوه فتفرق عنه أصحابه ، ووقع عن دابته فى أسفل الشعب ، فتدهدى حتى خر إلى أسفله ، واتاه حيث تدهدى علج من أهل البلد ، فدر عليه حجرا عظيما من فوقه ، فأصاب إحدى وركيه ، وصاح بالناس فجاءوا إليه فقتلوه سنة ٧٧ هـ .

(٣) عظم الأمر بالضم والفتح : معظمه .   (٤) أى أول النهار وآخره .

(٥) المؤنة : الثقل وفيها لغات : مئونة بفتح الميم كركوبة ، ومؤنة كغرفة ، ومونة كسورة .

١٨٨ — رد المهلب على الحجاج

فكتب إليه المهلب :

« أما بعد ، فقد بلغني كتابُ الأمير ، وكلّ ما فيه قد فهمتُ ، ولستُ أرى أن أقاتلهم ما داموا يَقْتُل بعضُهم بعضا وينقُصُ بعضُهم عدَدَ بعض ، فإن تَمُّوا(١) على ذلك فهو الذى تريد ، وفيه هلا كُهم ، وإن اجتمعوا لم يجتمعوا إلا وقد رقَّق(٢) بعضُهم بعضا ، فأُناهِضُهم على تَفِئَة(٣) ذلك ، وهم أهونُ ما كانوا ، وأضعفُه شوكةً إن شاء الله والسلام »(٤) فكف عنه الحجاج .

(تاريخ الطبرى ٧ : ٢٧)

---

(١) يقال : تم على الأمر وتمم عليه بإظهار الإدغام : أى استمر عليه .

(٢) رققه : جعله رقيقا . والمعنى أضعف بعضهم بعضا .

(٣) على تفئة ذلك : أى على إثره ، وحكى فيه الهمز والبدل .

(٤) وهاك كلمة عما شجر بين الأزارقة من الخلاف والشقاق ، وكان بعض ذلك من كيد المهلب وعظيم دهائه . قال أبو العباس : « وكان سبب اختلافهم أن رجلا حدادا من الأزارقة كان يعمل نصالا مسمومة ، فيرمى بها أصحاب المهلب ، فرفع ذلك إلى المهلب ، فقال أنا أكفيكوه إن شاء الله فوجه رجلا من أصحابه بكتاب وألف درهم إلى عسكر قطرى ، فقال: ألق هذا الكتاب فى عسكر قطرى واحذر على نفسك ، وكان الحداد يقال له (أبزى) فمضى الرسول ، وكان فى الكتاب: « أما بعد ، فإن نصالك قد وصلت إلى ، وقد وجهت إليك بألف درهم ، فاقبضها، وزدنا من هذه النصال » فوقع الكتاب والدراهم إلى قطرى ، فدعا بأبزى ، فقال ما هذا الكتاب ؟ قال : لا أدرى ، قال : فهذه الدراهم ؟ قال : ما أعلم علمها ، فأمر به فقتل ، فجاءه عبد ربه الصغير مولى بنى قيس بن ثعلبة فقال له : أقتلت رجلا على غير ثقة ولا تبين ! فقال له : ما حال هذه الدراهم ؟ قال : يجوز أن يكون أمرها كذبا ، ويجوز أن يكون حقا ، فقال له قطرى : قتل رجل فى صلاح الناس غير منكر ، وللإمام أن يحكم بما رآه صلاحا . وليس للرعية أن تعترض عليه ، فتنكر له عبد ربه فى جماعة ولم يفارقوه ، فبلغ ذلك المهلب فدس إليه رجلا نصرانيا فقال له : إذا رأيت قطريا فاسجد له، فإذا نهاك فقل إنما سجدت لك ، ففعل النصرانى ، فقال له قطرى: إنما السجود لله ، فقال ما سجدت إلا لك ، فقال له رجل من الخوارج : قد عبدك من دون الله وتلا : « إِنَّكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللهِ حَصَبُ جَهَنَّمَ أَنْتُمْ لَهَا وَارِدُونَ » فقال قطرى: إن هؤلاء النصارى قد عبدوا عيسى بن مريم فما ضر ذلك عيسى شيئا ، فقام رجل من الخوارج إلى النصرانى فقتله ، فأنكر ذلك عليه وقال : أقتلت ذميا ، (وكانوا يوصون بالنصرانى خيرا ويقولون : احفظوا ذمة نبيكم) فاختلفت الكلمة . فبلغ ذلك المهلب، فوجه إليهم رجلا يسألهم عن شىء تقدم به إليه فأتاهم الرجل فقال أرأيتم رجلين =

. . . .

خرجا مهاجرين إليكم ، فمات أحدهما فى الطريق ، وبلغكم الآخر فامتحنتموه فلم يجز المحنة ما تقولون فيهما ؟ فقال بعضهم : أما الميت فؤمن من أهل الجنة ، وأما الآخر الذى لم يجز المحنة فكافر حتى يجيزها ، وقال قوم آخرون : بل هما كافران حتى يجيزا المحنة ، فكثر الاختلاف ، فخرج قطرى إلى حدود إصطخر فأقام شهرا والقوم فى اختلافهم ، ثم أقبل ، فقال لهم صالح بن مخراق : ياقوم إنكم قد أقررتم أعين عدوكم ، وأطمعتموهم فيكم ، لما ظهر من اختلافكم، فعودوا إلى سلامة القلوب واجتماع الكلمة ، وخرج عمرو القنا فنادى : يأيها المحلون ، هل لكم فى الطراد فقد طال العهد به ؟ فتهايج القوم وأسرع بعضهم إلى بعض »

الكامل للمبرد ٢ : ٢٢١ — وقال أيضا :

« فحاربهم المهلب حتى نفاهم إلى جيرفت (وهى مدينة كبيرة من أعيان مدن كرمان ، وكرمان إقليم بين فارس وسجستان) واتبعهم فنزل قريبا منهم واختلفت كلمتهم وكان سبب ذلك أن عبيدة بن هلال اليشكرى اتهم بامرأة رجل حداد ، رأوه مرارا يدخل منزله بغير إذن . فأتوا قطريا فذكروا ذلك له ، فقال لهم : إن عبيدة من الدين بحيث علمتم، ومن الجهاد بحيث رأيتم،فقالوا: إنا لانقاره على الفاحشة ، فقال :انصرفوا ، ثم بعث إلى عبيدة فأخبره وقال ، إنا لا نقار على الفاحشة ، فقال : بهتونى يا أمير المؤمنين (أى ادعوا على) مالم أفعل) فما ترى ؟ قال : إنى جامع بينك وبينهم، فلا تخضع خضوع المذنب،ولاتتطاول تطاول البرىء، فجمع بينهم فتكلموا ، فقام عبيدة فقال : « بسم الله الرحمن الرحيم ، « إِنَّ الَّذِينَ جَاءُوا بِالْإِفْكِ عُصْبَةٌ مِنْكُمْ لَا تَحْسَبُوهُ شَرًّا لَكُمْ بَلْ هُوَ خَيْرٌ لَكُمْ ، لِكُلِّ امْرِئٍ مِنْهُمْ مَا اكْتَسَبَ مِنَ الْإِثْمِ ، وَالَّذِي تَوَلَّى كِبْرَهُ مِنْهُمْ لَهُ عَذَابٌ عَظِيمٌ . . . الآيات » فبكوا وقاموا إليه فاعتنقوه، وقالوا: استغفرلنا، ففعل،فقال لهم عبد ربه الصغير: والله لقد خدعكم،فبايع عبدربه منهم ناس كثير لم يظهروا ولم يجدوا على عبيدة فى إقامة الحد ثبتا .

وكان قطرى قد استعمل رجلا من الدهاقين (جمع دهقان بكسر الدال وضمها وهو رئيس الإقليم وزعيم فلاحى العجم) فظهرت له أموال كثيرة فأتوا قطريا فقالوا : إن عمر بن الخطاب لم يكن يقار عماله على مثل هذا ، فقال قطرى . إنى استعملته وله ضياع وتجارات،فأوغر ذلك صدورهم ، وبلغ ذلك المهلب فقال : إن اختلافهم أشد عليهم منى .

وقالوا لقطرى : ألا تخرج بنا إلى عدونا ؟ فقال : لا ، ثم خرج ، فقالوا : قد كذب وارتد (وكانت الخوارج فى جميع أصنافها تبرأ من الكاذب، ويرى بعضهم أن الكذبة الخفيفة على سبيل المزاح شرك بالله) فاتبعوه يوما ، فأحس بالشر ، فدخل دارا مع جماعة من أصحابه ، فصاحوا به : يادابة اخرج إلينا ، فخرج إليهم فقال : رجعتم بعدى كفارا ، فقالوا : أو لست دابة ! قال الله عز وجل : « وَمَا مِنْ دَابَّةٍ فِي الْأَرْضِ إِلَّا عَلَى اللَّهِ رِزْقُهَا » ولكنك قد كفرت بقولك: إنا قد رجعنا كفارا ، فتب إلى الله عز وجل ، فشاور عبيدة فقال : إن تبت لم يقبلوا منك ، ولكن قل : إنما استفهمت فقلت : أرجعتم بعدى كفارا ؟ فقال ذلك لهم ، فقبلوه منه فرجع إلى منزله .

وعزم أن يبايع المقعطر العبدى ، فكرهه القوم وأبوه فقال له صالح بن مخراق عنه وعن القوم : ابغ لنا غير المقعطر ، فقال قطرى : أرى طول العهد قد غيركم ، وأنتم بصدد عدوكم ، فاتقوا الله وأقبلوا على شأنكم واستعدوا للقاء القوم ، فقال له صالح بن مخراق : إن الناس قبلنا ساموا عثمان بن عفان أن يعزله عنهم سعيد بن العاص (انظر الجزء الأول ص ٢٧٠) ففعل، ويجب على الإمام أن يعفى الرعية مما كرهت =

١٨٩ — كتاب الحجاج إلى المهلب

وكتب الحجاج إلى المهلب يستحثه مع عُبَيْدِ بن مَوْهَب ، وفي الكتاب :

« أما بعدُ ، فإنك تتراخَى عن الحرب ، حتى يأتيَك رُسُلِي ، فيرجعون بعُذرك ، وذلك أنك تُمسِك حتى تَبْرَأ الجراح ، وَتُنْسَى القَتْلَى ، ويَجُمَّ(١) الناس ، ثم تلقاهم ، فتحتمل منهم مِثْلَ مايحتملون منك من وَحْشَة القَتْل وَأَلَم الجراح ، ولو كنت تلقاهم بذلك الجِدِّ لكان الداء قد حُسِم ، والقَرْنُ(٢) قد قُصِم ، ولعمرى ما أنت والقومُ سَواء ، لأن من ورائك رجالا ، وأمامَك أموالا ، وليس للقوم إلا مامعهم ، ولا يُدْرَك الوَجِيفُ بالدَّبِيب(٣) ، ولا الظفَرَ بالتَّعْذِير(٤) » .

= فأبى قطرى أن يعزله، فقال له القوم: إنا خلعناك وولينا عبد ربه الصغير ، فانفصل إلى عبدربه أكثر من الشطر وجلهم الموالى والعجم » الكامل ٢ : ٢٢٥ .

وقال الطبرى :

« وخرج رجل منهم كان عاملا لقطرى على ناحية من كرمان فى سرية لهم يدعى المقعطر من بنى ضبة فقتل رجلا قد كان ذا بأس من الخوارج ودخل منهم فى ولاية . فقتله المقعطر ، فوثبت الخوارج إلى قطرى فذكروا له ذلك ، وقالوا : أمكنا من الضبى فنقتله بصاحبنا ، فقال لهم : ما أرى أن أفعل ، رجل تأول فأخطأ فى التأويل ، ما أرى أن تقتلوه ، وهو من ذوى الفضل منكم والسابقة فيكم ، قالوا : بلى قال لهم: لا ، فوقع الاختلاف بينهم ، فولوا عبد ربه الكبير وخلعوا قطريا وبايع قطرياً منهم عصابة نحو من ربعهم أو خمسهم ، فقاتلهم نحوا من شهر غدوة وعشية » — تاريخ الطبرى ٧ : ٢٧ — .

(١) أى يسترجعوا من تعبهم ويعود إليهم نشاطهم، من جم الماء يجم بالضم والكسر جموما : أى كثر واجتمع ، والبئر : تراجع ماؤها ، والفرس جماما بالفتح : ترك الضراب فتجمع ماؤه ، وجما وجماما : ترك فلم يركب فعفا من تعبه .

(٢) يصح أن يكون « القرن » بالفتح ، وهو الجانب الأعلى من الرأس : أى قصمت قرن الأعداء كما يقال كسر شوكتهم ، وأن يكون بالكسر وهو الكفء فى الشجاعة أو عام وهو الأظهر لما يشير إليه كلام المهلب الآتى .

(٣) الوجيف : ضرب من سير الخيل والإبل .

(٤) التعذير : التقصير فى الأمر .

فلما جاء المهلب هذا الكتاب قال لأصحابه : إن الله عز وجل قد أراحكم من أقران أربعة : قطرى ابن الفجاءة وصالح بن مخراق وعبيدة بن هلال وسعد الطلائع، وإنما بين أيديكم عبد ربه فى خشار من خشار الشيطان تقتلونهم إن شاء الله (والخشار والخشارة بضم الخاء : الردىء من كل شىء، وسفلة الناس) فكانوا يتغادون القتال ويتراوحون ، فتصيبهم الجراح ، ثم يتحاجزون ، كأنما انصرفوا من مجلس كانوا يتحدثون فيه ، فيضحك بعضهم إلى بعض ، فقال عبيد بن موهب للمهلب : قد بان عذرك وأنا مخبر الأمير -

١٩٠ - رد المهلب على الحجاج

فكتب المهلب إليه :

« أما بعدُ ، فإنى لم أُعْطِ رُسُلَكَ على قول الحق أجراً ، ولم أحتَجْ منهم مع المشاهدة إلى تَلْقِين ، ذكرتَ أنى أُجِمُّ[١] القومَ ، ولا بدّ من راحة يستريح فيها الغالب ، ويحتال فيها المغلوبُ ، وذكرتَ أن فى ذلك الجِمامِ ما يُنسِى القَتْلَى وَتبْرَأُ منه الجراح ، وهيهاتَ أن يُنْسَى مابيننا وبينهم، تأبَى ذلك قَتْلَى لم تُجَنّ[٢] ، وقُرُوحٌ لم تتقَرَّف، ونحن والقوم على حالة وهم يرقُبون منا حالات ، إن طمِعوا حاربوا، وإن مَلُّوا وقفوا، وإن يئسوا انصرفوا ، وعلينا أن نقاتلهم إذا قاتلوا ، ونتحرَّز إذا وقفوا ، ونطلبَ إذا هَرَبوا ، فإن تركتَنى والرأىَ، كان القرن مَقْصوما، والداء بإذن الله محسوما، وإن أعْجَلْتَنِى لم أُطِعْك ولم أَعْصِ ، وجعلتُ وجهى إلى بابك ، وأنا أعوذ بالله من سخط الله ومقت الناس » .

(الكامل للمبرد ٢ : ٢٢٧ ، وشرح ابن أبى الحديد م ١ ، ص ٤٠٣ ونهاية الأرب ٧ : ٢٤٨ ، وصبح الأعشى ٦ : ٥٠٩)

١٩١ - كتاب المهلب إلى الحجاج

ولما تمت الغَلَبة للمهلب على الأزارقة، وقُتِل آخر زعمائهم عبدُرَبه الصغير سنة ٧٨ هـ أوفد المهلب إلى الحجاج كَعْبَ بن مَعْدانَ الأَشْقَرِىّ ومُرَّة بن تليد الأَزْدِىّ ليخبراه بالفتح ، وكتب إليه :

« بسم الله الرحمن الرحيم : الحمد لله الكافِى بالإسلام فَقْدَ ما سواه ، المعجِّل النِّقمة لمن بغاه، الذى حَكَمَ بأن لاينقطعَ المزيدُ منه حتى ينقطع الشكرُ من عِباده[٣]، أما بعدُ :

---

(١) من أجم الماء : أى تركه يجتمع .

(٢) أجنه : كفنه ، أى قتلى دفنت دون أن تكفن،وفى رواية « قتل من لم يجن » ، وتقرفت القرحة تقشرت ، وذلك إذا يبست : أى وقروح لم تبرأ ، وفى صبح الأعشى « لم تعرق » وهو تحريف .

(٣) وفى أدب الكتاب : « الذى يزيد من شكره ، ويرزق من كفره » .

فقد كان من أمرنا ما قد بلغك[١] ، وكنا نحن وعدونا على حالين مختلفين . يسرُّنا منهم أكثرُ مما يسوءنا ، ويسوءهم منا أكثرُ مما يسرهم ، على اشتداد شوكتهم واجتماع كلمتهم ، وانزعاج القلوب لمخافتهم ، فقد كان علَنَ[٢] أمرُهم ، حتى ارتاعت له الفتاةُ ، ونُوِّم بذكرهم الرَّضيعُ ، وصَمَّ لخوفهم السَّميع ، فانتهزتُ منهم الفرصةَ في وقت إمكانها ، وأدنيتُ السَّوادَ[٣] من السواد حتى تعارفت الوجوهُ ، فلم نزل كذلك حتى بَلَغ الكِتابُ[٤] أجله « فَقُطِعَ دَابِرُ الْقَوْمِ الَّذِينَ ظَلَمُوا وَالْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ » .

(الكامل للمبرد ٢ : ٢٣٢ وشرح ابن أبي الحديد م ١ : ص ٤٠٧
وسرح العيون ص ١٣٥ وأدب الكتاب ص ٢٣٥)

١٩٢ — رد الحجاج على المهلب

فكتب إليه الحجاج :

« أما بعدُ فإن الله عز وجل قد فعَلَ بالمسلمين خيرا ، وأراحهم من حَدِّ الجهاد ، وكنتَ أعلَمَ بما قِبَلك ، والحمد لله رب العالمين ، فإذا ورد عليك كتابي هذا ، فاقسم في المجاهدين فَيْئَهم ، ونَفِّل[٥] النَّاسَ على قدر بَلائهم ، وفَضِّل من رأيتَ تفضيلَه ، وإن كانت بَقِيَتْ من القوم بقيَّة فخلِّف خيلا تقوم بإزائهم ، واستعمل على كِرْمَان[٦] من رأيتَ ، ووَلِّ الخيلَ شهما من ولدك ، ولا ترخِّصْ لأحدٍ في اللِّحاق بمنزله دون أن تَقْدَم بهم عليَّ ، وعَجِّل القدومَ إن شاء الله » .

---

(١) وفيه : « فقد كان من أمرنا ماأغنت جملته عن تفصيله ، وكنا نحن وعدونا في مدة هذا التنازع على حالتين . . . » .

(٢) علن الأمر كنصر وضرب وكرم وفرح علنا بالتحريك وعلانية واعتلن : ظهر .

(٣) السواد : العدد الكثير ، ومن الناس عامتهم .

(٤) وفي أدب الكتاب : « فانتهزت منهم الفرصة عند إمكانها ، بعد أن تنظرت وقت إبانها ، واستدعى النهل علله ، وبلغ الكتاب أجله ، فقطع . . . » .

(٥) النفل بالتحريك: الغنيمة ، ونفله النفل ونفله بالتشديد وأنفله : أعطاه إياه .

(٦) إقليم بين فارس وسجستان .

فولى المهلب ابنه يزيد كرمان ، وقَدِم على الحجاج فأجلسه إلى جانبه وأظهر إكرامه وبرّه ، وقال : يا أهل العراق أنتم عبيد للمهلب .

وكان أُمَيَّة بن عبد الله بن خالد بن أَسِيد عاملا على خُراسان وسِجِسْتَان ، فعزله عبد الملك سنة ٧٨ هـ وجمع سلطانه للحجاج ، فبعث المهلَّبَ على خراسان ، وعُبيد الله ابن أبى بَكْرَةَ على سِجِسْتَان .

(الكامل للمبرد ٢ : ٢٣٢ ، وشرح ابن أبى الحديد م١ : ص ٤٠٧ ، وسرح العيون ص ١٣٥)

حروب الخوارج الشبيبية

١٩٣ - كتاب شبيب بن يزيد إلى صالح بن مسرح

وفى سنة ٧٦ هـ تحرك صالح بن مُسَرِّح[(١)] زعيم فرقة الصالحية - إحدى فرق الخوارج الصُّفْرية[(٢)] - وكان بِدَارَا[(٣)] وأرضِ المَوْصِل والجزيرة ، له أصحاب يُقرِئهم القرآن ، ويفقِّههم ، ويقصّ عليهم ، فحرَّضهم على الخروج محتجًّا بأن الجَوْر قد فشَا ، وأن العدل قد عَفَا ، وأن الوُلاة لا يزدادون إلا غُلُوًّا وعُتُوًّا ، وتباعُداً عن الحق وجُرْأةً على الرب ودعاهم أن يستعدوا ويبعثوا إلى إخوانهم ليأتوهم وينظروا فيما هم صانعون ، فتراسَلَ أصحابه وتلاقَوْا ، فبيناهم فى ذلك إذْ قَدِم عليهم رسول بكتاب من شَبيب بن يزيد الشَّيْبانى إلى صالح بن مُسَرِّح ، وفيه :

« أما بعدُ ، فقد علمتُ أنك كنتَ أردتَ الشُّخُوصَ ، وقد كنتَ دعوْتَنى إلى ذلك فاستجبْتُ لك ، فإن كان ذلك اليومَ من شأنك فأنت شيخ المسلمين ، ولن نَعْدِلَ بك منا أحداً ، وإن أردتَ تأخير ذلك اليومَ أعلِمْتَنى ، فإن الآجال غادية ورائحة، ولا آمَن أن تخترِمَنى[(٤)] المنيّةُ ولَمَّا أجاهدِ الظالمين ، فيالَه غَبْنا ، ويالَه فضلا متروكا ! جعلَنا الله وإياك ممن يريد بعمله اللهَ ورِضوانَه والنظرَ إلى وجهه ومرافقةَ الصالحين فى دار السلام ، والسلام عليك » .

---

(١) هو أحد بنى امرئ القيس .

(٢) الصفرية : فرقة من الفرق الرئيسية للخوارج ، وهم أصحاب زياد بن الأصفر ، وقيل نسبوا إلى عبد الله بن صفار، وقيل لأنهم نهكتهم العبادة فاصفرت وجوههم فنسبوا إلى صفرة ألوانهم، وقال الأصمعى: الصواب الصفرية بالكسر ، قال : وخاصم رجل منهم صاحبه فى السجن فقال له : أنت والله صفر من الدين، فسموا الصفرية .

(٣) دارا : بلد بين نصيبين وماردين من أرض الجزيرة . (٤) اخترمته المنية : أخذته .

١٩٤ — رد صالح بن مسرح على شبيب

فكتب إليه صالح :

« أما بعدُ ، فقد كان كتابك وخَبَرُك أبطأ عنى حتى أهمَّنى(١) ذلك ، ثم إن آمْرَأً من المسلمين نبَّأنى بنبأ مَخْرَجك ومَقْدَمك ، فنحمد الله على قضاء ربنا ، وقد قَدِمَ علىَّ رسولُك بكتابك ، فكلَّ ما فيه قد فهمتُه ، ونحن فى جَهَازٍ واستعداد للخروج ، ولم يمنعنى من الخروج إلا انتظارُك ، فأقبلْ إلينا ثُمَّ اخرُجْ بنا متى أحببتَ ، فإنك ممن لا يُسْتَغْنَى عن رأيه ، ولا تُقْضَى دونه الأمورُ ، والسلام عليك » .

وبلغ مَخْرَجُهم محمدَ بن مَرْوان وهو يومئذ أمير الجزيرة فبعث إليهم جيشاً بقيادة عَدِىّ بن عَدِىّ بن عُمَيْرة ، فهزمه صالح ونزل عسكره وحَوَى مافيه ، فبعث إليهم محمد بن مروان جيشا آخر فقاتلهم فخرجوا من أرض الجزيرة إلى الموصِل ، وبلغ ذلك الحجاجَ فسرَّح إليهم جيشاً يقوده الحٰرثُ بن عُمَيْرة بن ذى المِشْعار ، فحاربهم وقُتِل صالح فى المعركة ، فبايع أصحابه شبيبَ بن يزيد (فسُمُّوا الشبيبيَّة) فحمل على جيش الحرث فهزمه ، وضارب الحرث حتى صُرِع واحتمله أصحابه وانهزموا وخلَّوا لهم العسكر وما فيه ومضَوا حتى نزلوا المدائن » .

(تاريخ الطبرى ٧ : ٢١٩ ، وشرح ابن أبى الحديد م ١ ص ٤٠٩)

١٩٥ — كتاب الحجاج إلى سفيان بن أبى العالية

وتجهَّز شَبيب للخروج ، ومضى فى أدانِى أرض المَوْصِل ثم ارتفع نحو أَذْرَبِيجان ، فكتب الحجاج إلى سُفْيان بن أبى العالية الخَثْعَمِىّ — وكان أقبل فى خيل أُمِرَ أن يدخل بها طَبَرِسْتَان :

---

(١) أقلقنى .

« أما بعدُ ، فسِرْ حتى تنزلَ الدَّسْكَرَةَ(١) فيمن معك ، ثم أقِمْ حتى يأتيَك جيشُ الحارث بن عُمَيرة الهَمْدَانىّ بن ذى المِشْعار وخيلُ المَناظِر(٢) ، ثم سِرْ إلى شبيب حتى تناجِزَه » . (تاريخ الطبرى ٧ : ٢٢٤ ، وشرح ابن أبى الحديد ١ : ٤١١)

١٩٦ — كتاب سفيان بن أبى العالية إلى الحجاج

فأقبل سفيان حتى نزل الدَّسْكرةَ ، ووافاه بها جيشُ الحارث بن عُمَيرة ، وكان على خيل المناظر سَوْرةُ بن أبْجَر التميمىّ ، فسار إليه وبعث إليه أنْ لا تَبْرَحَ العسكرَ حتى آتيَك ، فعَجِلَ سفيانُ فارتحل فى طلب شبيب فلَحِقه بخانِقين(٣) فى سفح جبل ، وكاده شبيبٌ(٤) فأوقع بجيشه الهزيمة، وقاتله سُفيان حتى خَرَّ بين القتلى وحُمِل مُرْتَثًّا(٥) ، وأُتِىَ به بابل مَهْرُوذ(٦) فنزل بها ، وكتب إلى الحجاج :

« أما بعدُ ، فإنى أُخْبِرُ الأميرَ — أصلحه الله — أنى اتَّبعْتُ هذه المارقةَ حتى لَحِقْتُهم بخانِقين ، فقاتلتهم فضرب اللهُ وجوههم ونَصَرَنا عليهم ، فبينا نحن كذلك إذ أتاهم قوم كانوا غُيَّباً عنهم ، فحَملوا على الناس فهزموهم ، فنزلتُ فى رجال من أهل الدين والصبر فقاتلْتُهُمْ حتى خَرَرْتُ بين القَتلَى فحُمِلتُ مُرْتَثًّا ، فأُتِىَ بى بابل مَهْرُوذَ ، فهأنا بها ، والجندُ الذين وجَّههم إلىّ الأميرُ وافَوا، إلا سَوْرةَ بن أبْجَر ، فإنه لم يأتنى ولم يَشْهَدْ معى ، حتى إذا مانزلتُ بابل مَهروُذَ أتانى يقول ما لا أعرف ويعتذر بغير العذر ، والسلام » .

فلما قرأ الحجاج الكتاب قال: من صنع كما صنع هذا ، وأَبْلَى كما أبلى ، فقد أحسن.

(تاريخ الطبرى ٧ : ٢٢٥)

---

(١) قرية كبيرة غربى بغداد .

(٢) المناظر جمع منظرة بالفتح : وهى المرقبة (موضع فى رأس جبل فيه رقيب ينظر العدو)

(٣) بلد بسواد بغداد .

(٤) وذلك أن شبيبا أصحر لهم ثم ارتفع عنهم حتى كأنه يكره لقاءه ، وقد أكمن له أخاه مصاد بن يزيد فى كمين معه ، فلما رأوه جمع أصحابه ثم مضى فى سفح الجبل مشرقا ، قالوا : هرب عدو الله فاتبعوه ، فلما رأى شبيب أنهم قد جازوا الكمين عطف عليهم ، ولما رأى الكمين أن قد جازوهم خرجوا إليهم . فحمل عليهم شبيب من أمامهم ، وصاح بهم الكمين من ورائهم ، وكانت الهزيمة .

(٥) ارتث : حمل من المعركة رثيثا أى جريحا وبه رمق. (٦) بلد بسواد بغداد .

١٩٧ — رد الحجاج على ابن أبى العالية

ثم كتب إليه :

« أما بعدُ ، فقد أحسنتَ البَلاء ، وقضيتَ الذى عليك ، فإذا خَفَّ عنك الوجعُ فأقبِلْ مأجورا إلى أهلك والسلام » . (تاريخ الطبرى ٧ : ٢٢٥)

١٩٨ — كتاب الحجاج إلى سورة بن أبجر

وكتب إلى سَوْرة بن أبجر :

« أما بعدُ ، فيابنَ أمِّ سَوْرة ما كنتَ خليقا أن تجترئَ على ترك عَهْدى ، وخِذْلان جندى ، فإذا أتاك كتابى فابعث رجلا ممن معك صَلِيبا ، إلى الخيل التى بالمدائن ، فلينتخِبْ منهم خَمْسَمائة رجل ، ثم لْيَقْدَم بهم عليك ، ثم سِر بهم حتى تلقى هذه المارقةَ ، واحزِم فى أمرك ، وكِدْ عدوَّك ، فإن أفضل أمر الحرب حُسْن المكيدة ، والسلام » .

ففعل سورة ما أمر به ولَقِىَ شبيباً ، فحمل عليه شبيب ودَحَرَه .

(تاريخ الطبرى ٧ : ٢٢٥ وشرح ابن أبى الحديد م١ : ص ٤١١)

١٩٩ — كتاب الحجاج إلى الجزل بن سعيد

وقَدِم الفَلُّ على الحجاج فسَرَّح إليهم الجَزْلَ بن سعيد[١] ، فجعل يَتْبَعهم فلا يسير إلا على تَعْبِيَة ، ولا ينزل إلا على خَنْدق ، وكان شبيب يَدَعُه ويَضْرِب فى أرض جُوخَى[٢] وغيرها يكْسِرُ الخراج ، وطال ذلك على الحجاج ، فكتب إليه :

---

(١) وكان من كلماته الحكيمة أن قال له حين دعاه : « تيسر الخروج إلى هذه المارقة ، فإذا لقيتهم فلا تعجل عجلة الخرق ، ولا تحجم إحجام الوانى الفرق » .

(٢) جوخى بالضم والقصر وقد يفتح : كورة واسعة فى سواد بغداد .

« أما بعدُ ، فإنى بعثتك فى فُرسان أهلِ المِصْر ووجوهِ الناس[١] ، وأمرتُك باتباع هذه المارقة الضّالة المُضِلّة حتى تلقاها ، فلا تُقْلِعَ عنها حتى تقتلَها وتُفْنيَها ، فوجدتَ التّعْريسَ[٢] فى القُرَى ، والتّخييمَ فى الخنادق ، أهونَ عليك من المُضىِّ لِمَا أمرتُك به من مناهضتِهم ومناجزتِهم والسلام » .

فشَقَّ ذلك على الجَزْل ، وأمر الناس بالسير ، فخرجوا فى طلب الخوارج جادّين .

وبعث الحجاج سعيد بن مُجالد على ذلك الجيش وعَهِد إليه :

« إنْ لقيتَ المارقة فازحفْ إليهم ولا تُناظِرْهم ولا تُطاولْهم وواقِفْهم واستعن بالله عليهم ، ولا تصنعْ صَنِيعَ الجَزْلِ ، واطلبهم طَلَبَ السبع ، وحِدْ عنهم حَيَدانَ الضَّبُع » .

(تاريخ الطبرى ٧ : ٢٢٨ ، وشرح ابن أبى الحديد م ١ ص ٤١٣)

٢٠٠ — كتاب الجزل بن سعيد إلى الحجاج

وجاء سعيد بن مجالد ، فأخرج الناس معه وجمع إليه خيول أهل العسكر ليقاتل شبيبا ، فنصح له الجزلُ ألّا يقاتله إلاّ فى جماعة الناس عامّة ، فأبَى ، فقال له : ليس لى فيما صنعتَ رأى ، أنا برىء من رأيك هذا ، سَمِعَ اللهُ ومَن حضر من المسلمين ، فقال هو رأيى ، إن أصبتُ فالله وفّقنى له ، وإن يكن غير صواب فأنتم منه بَراء ، وخرج لقاء شبيب ، فحمل عليهم شبيب فهزمهم وشدّ على سعيد فضربه فخرّ ميتا ، وانهزم ذلك الجيش وقُتلوا كل قِتْلة حتى انتهوا إلى الجَزْل ، فقاتل الجَزْل قتالا شديداً حتى حُمِل من بين القتلى ، ونقل إلى المدائن مُرْتَثًّا ، وقَدِم فَلُّ أهل ذلك العسكر الكوفة .

---

(١) وذلك أن الجزل حين دعى للخروج قال للحجاج : أصلح الله الأمير ، لاتبعثن معى أحدا من أهل هذا الجند المفلول المهزوم ، فإن الرعب قد دخل قلوبهم ، وقد خشيت أن لاينفعك والمسلمين منهم أحد ، فقال له : فإن ذلك لك ولا أراك إلا قد أحسنت الرأى ووفقت ، وأمر فاختير له بعث آخر.

(٢) عرس القوم وأعرسوا : نزلوا فى آخر الليل للاستراحة .

وكتب الجزل إلى الحجاج :

« أما بعدُ : فإنى أُخْبِر الأمير ـ أصلحه الله ـ أنى خرجتُ فيمن قِبَلى من الجند الذى وجَّهنى فيه إلى عدوه ، وقد كنت حفِظتُ عهدَ الأمير إلىَّ فيهم ورأيَه ، فكنت أحرج إليهم إذا رأيتُ الفرصةَ ، وأحبِسُ الناس عنهم إذا خشِيتُ الوَرْطَة ، فلم أزل كذلك أُدبِّر الأمر وأرفُق فى التدبير ، ولقد أرادنى العدوُّ بكل مكيدة ، فلم يُصِبْ منى غِرَّة ، حتى قَدِم علىَّ سعيد بن مجالد ـ رحمة الله عليه ـ ولقد أمرتُه بالتُّؤدة ونهيته عن العَجَلة ، وأمرته ألا يقاتلهم إلا فى جماعة الناس عامَّة ، فعصانى وتعجَّل إليهم فى الخيل ، فأشهدتُ عليه أهلَ المِصْرين أنى برىء من رأيه الذى رأى ، وأنى لا أهْوَى ما صنع ، فمضى فأُصيبَ ، تجاوز الله عنه ، ودَفع(١) الناسُ إلىَّ فنزلتُ ودعوتهم إلىَّ ، ورفعتُ لهم رايتى ، وقاتلت حتى صُرِعْتُ ، فحمَلنى أصحابى من بين القتلى ، فما أفَقْتُ إلا وأنا على أيديهم على رأس ميل من المعركة ، فأنا اليوم بالمدائن فى جِراحة قد يموت الرجل من دونها وَيُعَافَى من مثلها ، فليسألِ الأميرُ ـ أصلحه الله ـ عن نصيحتى له ولجنده ، وعن مكايدتى عدوَّه ، وعن موقفى يوم البأس ، فإنه يستبين له عند ذلك أنى قد صَدَقْته ونصحت له ؛ والسلام » .

(تاريخ الطبرى ٧ : ٢٣١ ، وشرح ابن أبى الحديد م ١ ص ٤١٣)

٢٠١ — رد الحجاج على الجزل بن سعيد

فكتب إليه الحجاج :

« أما بعدُ ، فقد أتانى كتابك وقرأتُه وفَهِمتُ كلَّ ما ذكرت فيه ، وقد صدَّقتك فى كل ما وصفتَ به نفسَك ، من نصيحتك لأميرك ، وحِيطتك على أهل مصرك ، وشِدَّتك على عدوك ، وقد فهمتُ ما ذكرتَ من أمر سعيد وعَجَلته إلى

---

(١) أى انتهوا الى .

عدوه ، فقد رضيتُ عَجَلَته وتُؤَدَتَك ، فأمّا عجلته فإنها أفضَتْ به إلى الجنة،وأما تؤدتُك فإنها لم تدع الفرصة إذا أمْكَنَت ، وتَرْكُ الفرصة إذا لم تُمْكِن حَزْمٌ ، وقد أصبتَ وأحسنت البلاء وأُجِرْتَ(١) ، وأنت عندى من أهل السمع والطاعة والنصيحة ، وقد أشخَصْتُ إليك حَيّان ابْنَ أبجر ليُدَاوِيَك ويعالج جِراحتك ، وبعثتُ إليك بألفَىْ درهم فأنفِقْها فى حاجتك وما ينوبُك ، والسلام » .

(تاريخ الطبرى ٧ : ٢٣١ ، وشرح ابن أبى الحديد م ١ : ص ٤١٤)

٢٠٢ — كتاب ماذر واسب إلى عروة بن المغيرة بن شعبة

وخرج الحجاج إلى البصرة واستخلف على الكوفة عُرْوة بن المُغيرة بن شُعبة ، فما شَعَر الناس بشىء حتى جاء كتاب من « ماذر واسب » دِهقان « بابل مَهْرُوذ » وعظيمها إلى عروة بن المغيرة :

« إن تاجرا من تجار الأنبار من أهل بلادى أتانى فذكر أن شبيباً يريد أن يدخل الكوفة فى أول هذا الشهر المستقبل ، فأحببتُ إعلامك ذلك لترى رأيك » .

(تاريخ الطبرى ٧ : ٢٣٢ ، وشرح ابن أبى الحديد م ١ : ص ٤١٤)

٢٠٣ — كتاب عروة بن المغيرة بن شعبة إلى الحجاج

فكتب عروة إلى الحجاج :

« إن شبيبا قد أقبل مسرعا يريد الكوفة ، فالعَجَلَ العَجَلَ » .

فطَوَى الحجاج المنازلَ ، واستبق هو وشبيب إلى الكوفة ، فنزلها الحجاج صلاةَ الظهر ، ونزل شبيب السَّبَخَة صلاة المغرب ، ثم دخَلَ الكوفة حتى انتهى إلى السوق ،

---

(١) أى نلت الأجر ، أجره وآجره : جزاه .

وشد حتى ضرب باب القصر بعموده ، واقتحموا المسجد الأعظم . وقتلوا جماعة ممن صادفوهم ثم خرجوا منها[(١)] .

(تاريخ الطبرى ٧ : ٢٣٢)

٢٠٤ — كتاب الحجاج إلى جند عبد الرحمن بن الأشعث

ودعا الحجاج عبد الرحمن بن محمد بن الأشعث بن قيس الكندى فقال له : انتخب الناس واخرج فى طلب هذا العدو،فانتخب فُرسان الناس ووجوههم ، فلما أراد الحجاج إشخاصهم كتب إليهم :

« أما بعدُ ، فقد اعتدتم عادةَ الأذِلّاء ، ووليتمُ الدُّبُرَ يوم الزَّحْف ، وذلك دَأْبُ الكافرين ، وإنى قد صَفَحتُ عنكم مَرَّةً بعد مرة ، ومرة بعد مرة، وإنى أُقْسِم لكم بالله قَسَماً صادقا : لئن عُدتم لذلك لأُوقِعَنَّ بكم إيقاعا يكون أشَدَّ عليكم من هذا العدوّ الذى تهرُبُون منه فى بطون الأودية والشِّعاب[(٢)] ، وتستترون منه بأَثْناء[(٣)] الأنهار وَأَلْوَاذِ الجبال، فخاف مَن له مَعقول[(٤)] على نفسه ، ولم يجعل عليها سبيلا ، وقد أعذَرَ من أَنْذَر[(٥)] .

وقد أسمعتَ لو ناديت حيًّا ولكن لا حَيَاةَ لِمَن تُنَادِى

والسلام عليكم » .

فخرج ابن الأشعث فى الناس نحو شبيب،فلما دنا منه ارتفع عنه شبيب،فسار ابن الأشعث فى طلبه، حتى إذا كان على التُّخُوم أقام وقال: إنما هو فى أرض الموصل فليُقَاتلوا عن بلادهم أو ليَدَعُوهُ .

(تاريخ الطبرى ٧ : ٢٣٨ ، وشرح ابن أبى الحديد م ١ : ص ٤١٦)

---

(١) ووجه الحجاج زحر بن قيس فى جيش، وأمره أن يتبع شبيبا حتى يواقعه حيثما أدركه . وبلغ شبيبا مسيره إليه فأقبل نحوه فالتقيا، فقاتل زحر حتى صرع وانهزم أصحابه وعبأ الحجاج جيشا فيه سبعة أمراء، كل أمير على أصحابه وأمير الجميع زائدة بن قدامة ، ودارت رحى الحرب بينه وبين جيش شبيب ، وانجلت عن هزيمة جيش زائدة وقتله .

(٢) جمع شعب بالكسر :وهو الطريق فى الجبل، ومسيل الماء فى بطن أرض، أوما انفرج بين الجبلين

(٣) جمع ثنى بالكسر . وثنى النهر والوادى : منعطفه. والألواذ : جمع لوذ بالفتح وهو جانب الجبل ومنعطف الوادى .

(٤) معقول : عقل . (٥) أعذر : ثبت له عذر .

٢٠٥ — كتاب الحجاج إلى ابن الأشعث

فكتب إليه الحجاج :

« أما بعدُ : فاطلب شَبيباً واسلُكْ فى أثَره أين سَلَك حتى تدركَه فتقتُلَه أو تنفيَه ، فإنما السلطان سلطان أمير المؤمنين ، والجندُ جندهُ ، والسلام » .

فخرج فى طلب شبيب ، وكان شبيب لا يصيب له غِرَّةً ولا يصل إليه الشدة حذره منه[1] .
(تاريخ الطبرى ٧ : ٢٣٨ ، وشرح ابن أبى الحديد م ١ : ص ٤١٧)

٢٠٦ — كتاب عثمان بن قطن إلى الحجاج

وأرسل شبيب إلى عبد الرحمن يسأله المُوادعةَ حتى تمضىَ أيام العيد (عيد الأضحى سنة ٧٦ هـ) فأجابه ، ولم يكن شىء أحبَّ إلى عبد الرحمن من المطاولة والموادعة ، فكتب عثمان بن قَطَن عامل المدائن إلى الحجاج :

« أما بعدُ فإنى أخبر الأمير — أصلحه الله — أن عبد الرحمن بن محمد قد حَفَر جُوخَى كلَّها خندقا واحدا ، وخَلَّى شبيبا وكَسَرَ خراجِها ، وهو يأكل أهلها والسلام » .
(تاريخ الطبرى ٧ : ٢٣٩)

٢٠٧ — رد الحجاج على ابن قطن

فكتب إليه الحجاج :

« أما بعدُ : فقد فهمتُ ماذكرتَ لى عن عبد الرحمن ، وقد لَعَمْرى فعل ماذكرتَه فسر إلى الناس فأنت أميرهم ، وعاجِل المارقةَ حتى تلقاهم فإن الله — إن شاء الله — ناصرك عليهم ، والسلام » .

---

(١) كان شبيب يدعه حتى إذا دنا منه بيته فيجده قد خندق على نفسه وحذر ، فيمضى ويدعه ، فيتبعه عبد الرحمن فإذا بلغه أنه قد تحمل وأنه يسير أقبل فى الخيل ، فإذا انتهى إليه وجده قد صف الخيل والرجال وأدنى الرامية ، فلا يصيب له غرة ولا له علة ، فيمضى ويدعه .

وبعث الحجاج إلى المدائن مُطَرِّف بن المُغيرة بن شُعبة ، وقَدِم عثمان بن قَطَن على ابن الأشعث ومن معه ، فخرج بهم لقاء شبيب ، فقتله شبيب وهزم جنده .

(تاريخ الطبرى ٧ — ٢٣٩ ، وشرح ابن أبى الحديد م ١ — ص ٤١٧)

٢٠٨ — كتاب مطرف بن المغيرة بن شعبة إلى الحجاج

وأقبل شبيب نحو المدائن ، فكتب مُطَرِّفٌ إلى الحجاج :

« أما بعدُ فإنى أخبر الأمير — أكرمه الله — أن شبيبا قد أقبل نحونا ، فإن رأى الأمير أن يُمِدَّنى برجال أضبط بهم المدائن فعلَ ، فإن المدائن باب الكوفة وحِصْنها » .

وفى رواية أخرى للطبرى أيضا أنه كتب إليه : « إن شبيباً قد أطل علىّ ، فابعث إلى المدائن بمثاً » فأمده الحجاج بما طلب . (تاريخ الطبرى ٧ : ٢٤٩ — ٢٥٩)

٢٠٩ — كتاب ماذرواسب إلى الحجاج

وجاء شبيب حتى نزل قناطر حُذَيفة بن اليمانِ ، فكتب ماذر واسب عظيم بابل مَهْرُوذ إلى الحجاج :

«أما بعدُ ، فإنى أخبر الأمير — أصلحه الله — أن شبيبا قد أقبل حتى نزل قناطر حُذَيْفة ، ولا أدرى أين يريد » .

فقام الحجاج فى الناس فقال : « أيها الناس ، واللهِ لتُقَاتُنُّ عن بلادكم وعن فَيْئكم ، أو لَأَبْعَثَنَّ إلى قوم هم أطوعُ وأسمع وأصبَر على اللَّأْواءِ(١) والغيظِ منكم ، فيقاتلون عدوَّكم ويأكلون فيئكم » .

فتماموا إليه من كل جانب فقالوا : نحن نقاتلهم ، ونُعتِب(٢) الأمير ، فلَيَنْدُبْنا إليهم فإنا حيث سَرّه . (تاريخ الطبرى ٧ : ٢٤٣)

---

(١) الشدة . (٢) نرضى .

٢١٠ — كتاب الحجاج إلى عبد الملك بن مروان

وكتب الحجاج إلى عبد الملك بن مروان :

« أما بعدُ فإنى أخبر أمير المؤمنين ـ أكرمه الله ـ أن شبيبا قد شارفَ المدائن ، وإنما يريد الكوفة ، وقد عجَز أهل الكوفة عن قتاله فى مواطِنَ كثيرة ، فى كلِّها يَقتُل أمراءهم ويَفُلُّ جنودَهم ، فإنْ رأى أمير المؤمنين أن يبعَث إلىَّ أهل الشأم ، فيقاتلوا عدوَّهم ، ويأكلوا بلادهم فليفعل ، والسلام » .

فبعث إليه عبد الملك سُفْيان بن الأبرد الكلبى فى أربعة آلاف ، وحبيب بن عبد الرحمن الحكَمى فى ألفين .

(تاريخ الطبرى ٧ : ١٤٣ ، وشرح ابن أبى الحديد م ١ : ص ، ٤١٩)

٢١١ — كتاب الحجاج إلى جند الشام

وخاف الحجاج غارة شبيب على من أقبل إليه من أهل الشام ، فبعث إليهم رسولا بكتاب فيه :

« أما بعدُ ، فإذا حاذيتم هِيتَ[1] فدعُوا طريقَ الفُرات والأنبار ، وخذوا على عين التمر[2] حتى تَقْدَموا الكوفةَ إن شاء الله ، وخذوا حِذْرَكم ، وعجِّلوا السير ، والسلام » .

وجهز الحجاج جيشا عظيما من أهل الكوفة ، واستقدم عَتَّابَ بن وَرْقاء الرِّياحى — وكان مع المهلَّب بنَ أبى صُفرة على قتال الأزارقة — فبعثه على ذلك الجيش ، فسار عتاب لقتال شبيب ، وحمل عليه شبيب فتفرَّق عنه كثير من أصحابه وخذلوه ، وثبت فى عِصابة قليلة صَبَرت معه وقاتل حتى قتل .

ثم قَدِم جيش الشام فَشدُّوا للحجاج ظهره ، فاستغنى بهم عن أهل الكوفة .

---

(١) بلدة على الفرات فوق الأنبار . (٢) بلدة قريبة من الأنبار .

وجدّ شبيب حتى دخل الكوفة دَخْلته الثانية ، ومعه زوجته غَزَالَة[1] — وقد كانت نذرت أن تصلى فى مسجد الكوفة ركعتين تقرأ فيهما البقرة وآل عِمران ففعلت — وتحصن الحجاج فى دار الإمارة ، ثم هبّ لمدافعة شبيب ، وخرج إليه بنفسه ، فانهزم شبيب وقتلت زوجته وانصرف عن الكوفة .

(تاريخ الطبرى ٧ : ٢٤٤ ، وشرح ابن أبى الحديد م ١ : ٤١٩)

٢١٢ — كتاب الحجاج إلى الحكم بن أيوب

وأتبعه الحجاج جيشا يقوده سُفيان بن الأبرد ، وكتب إلى الحكم بن أيوب بن الحكم بن أبى عَقِيل — وهو زوج ابنة الحجاج ، وعامله على البصرة — :

« أما بعدُ فابعث رجلا شجاعا شريفًا من أهل البصرة فى أربعة آلاف إلى شبيب ، ومُرْه فلْيَلْحَق بسفيان بن الأبرد ، ولْيَسْمَع له ولْيُطِع » .

فبعث إليه زياد بن عمرو العَتَكىّ فى أربعة آلاف ، فلم ينته إلى سفيان حتى التقى سفيان وشبيب على جسر دُجَيل[2] ، وحَمِى بينهما وَطِيس[3] القتال حتى جَنّ الليل، فقال شبيب لأصحابه : اعبُروا معاشِرَ المسلمين ، فإذا أصبحنا باكرْناهم، فعبروا أمامه ، وزَلّ حافر فرسه عن حرف السفينة فسقط فى الماء ، فقال : لِيَقْضِيَ ٱللّٰهُ أَمْرًا كَانَ مَفْعُولاً ، فارتمس[4] فى الماء ، ثم ارتفع فقال : ذٰلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ ، وكان هلاكه سنة ٧٧ هـ . (تاريخ الطبرى ٧ : ٢٥٦)

---

(١) هكذا ذكر الطبرى وكذا المسعودى فى مروج الذهب ٢ : ١٤٠ فقالا : إن غزالة زوجته ، وذكر عبد القاهر البغدادى فى الفرق بين الفرق ص ٩٠ أن غزالة أمه وأن امرأته جهيزة ، وقال الفيروزابادى فى القاموس : وجهيزة امرأة حمقاء أم شبيب الخارجى ، وكان أبوه اشتراها من السبي فواقعها فحملت فتحرك الولد فقالت : فى بطنى شيء ينقر ، فقالوا : أحمق من جهيزة ، وكذلك ذكر صاحب اللسان والميدانى فى مجمع الأمثال .

(٢) نهر بالأهواز . (٣) الوطيس : التنور . (٤) انغمس .

٢١٢ — كتاب عمران بن حطان إلى الحجاج

وروى صاحب الأغانى قال :

« لما دخلت غَزَالةُ الحَرُورِيّةُ[(١)] على الحجاج هى وشبيب الكوفةَ ، تحصّن منها وأغلق عليه قصْرَه ، فكتب إليه عِمْرَان بن حِطّان[(٢)] — وقد كان الحجاج لج فى طلبه — قال :

أسَدٌ علىَّ وفى الحروب نَعامةٌ رَبْدَاء تجفِلُ من صَفِير الصَّافِرِ[(٣)]
هَلاَّ بَرَزْتَ إلى غزالةَ فى الوغَى بل كان قلبُك فى جناحَىْ طائرِ
صَدَعَتْ غَزَالةُ قلبه بفوارس تركَتْ كتائبه كأمسِ الدَّابِرِ[(٤)]

ثم لَحِق بالشام فنزل على رَوْح بن زِنْباع ». (الأغانى ج ١٦ : ص ١٥٠)

---

(١) يسمى الخوارج بالحرورية نسبة إلى حروراء ، وهى قرية بظاهر الكوفة ، سماهم بذلك الإمام على كرم الله وجهه ، وذلك أنه لما رجع من صفين إلى الكوفة اعتزله جماعة ممن رأوا التحكيم ضلالا ونزلوا حروراء ، فسار إليهم وناظرهم فأفحمهم ، فرجع معه بعضهم ، فقال لهم على : ما نسميكم ؟ ثم قال أنتم الحرورية لاجتماعكم بحروراء ــ الكامل ٢ : ١٢٩ ــ .

(٢) أحد رءوس الخوارج الصفرية .

(٣) الربدة كجمرة : لون إلى الغبرة ، وهو أربد ، وهى ربداء وجفلت النعامة : كضرب وقعد وأجفلت : أسرعت وذهبت فى الأرض .

(٤) فى الأغانى « تركت مدابره » وقد وردت هذه الأبيات فى العقد الفريد ج ٣ : ص ١٧ » وروايته للبيت الثالث :

صدعت غزالة جمعه بعساكر تركت كتائبه كأمس الدابر

فتنة مطرف بن المغيرة بن شعبة

٢١٤ ـ كتاب مطرف إلى أخيه حمزة

وفى سنة ٧٧ هـ خرج مَطَرِّف بن المغيرة بن شعبة على الحجاج ، وخلع عبد الملك ابن مَرْوان ، ومضى فيمن بايعه من أصحابه حتى دَنَوا من هَمَذَان ، وكان أخوه حمزة بن المغيرة على همذان ـ فكَرِه أن يدخلها فَيُتَّهَمَ أخوه عند الحجاج ، فتركها وأخذ ذات اليسار إلى ماه دينار ، وكتب إلى أخيه حمزة :

« أما بعدُ ، فإن النفقة قد كَثُرت ، والمُؤْنة قد اشتَدَّت ، فأَمْدِدْ أخاك بما قَدَرت عليه من مال وسلاح » فسرّح إليه بمال وسلاح » . (تاريخ الطبرى ٧ : ٢٦٣)

٢١٥ ـ كتاب مطرف إلى سويد بن سرحان الثقفى وبكير بن هرون البجلى

وكتب مطرف بن المغيرة إلى سُويد بن سِرْحان الثقفى ، وإلى بُكَيْر بن هرون البَجَلِىِّ بالرىّ :

« أما بعدُ فإنا ندعوكم إلى كتاب الله وسُنّة نبيه ، وإلى جهاد من عَنَدَ[1] عن الحق ، واستأثَرَ بالفَيْء ، وترَك حُكم الكتاب ، فإذا ظَهَر الحقُّ ودُمِغ[2] الباطلُ ، وكانت كلمة الله هى العليا ، جَعَلْنا هذا الأمر شُورَى بين الأمة يرتضى المسلمون لأنفسهم

---

(١) عند عن الطريق كنصر وسمع وكرم : مال .

(٢) أصله من دمغه ، إذا كسر عظم دماغه، فالشجة دامغة : وهى التى تخسف الدماغ ولا حياة معها وفعله كمنع ونصر .

الرِّضَا ، فَمَنْ قَبِلَ هذا منا كان أخانا فى ديننا ، وَوَلِيَّنَا[١] فى مَحْيَانا ومَمَاتنا ، ومَنْ رَدَّ علينا جاهَدْناه واستنصَرْنا اللهَ عليه ، فكفَى بنا عليه حُجَّةً ، وكفَى بتركه الجهادَ فى سبيل الله غَبْنًا ، وبمداهنة الظالمين فى أمر الله وَهْنًا[٢] ، إن الله كَتَبَ القتال على المسلمين وَسَمَّاهُ كُرْهًا[٣] ، ولن يُنالَ رضوانُ اللهِ إلا بالصبر على أمرِ الله ، وجهادِ أعداء الله فأجيبوا ـ رَحِمَكم الله ـ إلى الحق، وادْعُوا إليه مَنْ تَرْجُون إجابته ، وعرِّفوه مالا يَعْرِفُه ، وَلْيُقْبِلْ إلىَّ كلُّ من رَأَى رَأْينا ، وأجابَ دَعْوتنا ، ورأى عَدُوَّه عدوَّنا، أرشَدَنا الله وإياكم ، وتاب علينا وعليكم ، إنه هو التواب الرحيم ، والسلام » .

فلما قدم الكتاب على ذينك الرجلين دَبَّا فى رجال من أهل الرىّ ،ودعَوا من تابعهما، ثم خرجوا سرا لا يُفطَن بهم حتى وافَوا مُطَرِّفا . (تاريخ الطبرى ٧ : ٢٤٦)

٢١٦ — كتاب البراء بن قبيصة إلى الحجاج

وكتب البَرَاء بن قَبيصَة ، وهو عامل الحجاج على أصْبَهان إليه :

« أما بعدُ، فإن كان للأمير ـ أصلحه الله ـ حاجةٌ فى أصبهان، وغير أصبهان، فلْيَبْعَثْ إلى مُطَرِّف جيشا كثيفا يستأصِله ومن معه، فإنه لاتزال عصابة قد انتَفَجَت[٤] له من بلدة من البُلدان، حتى توافيَه بمكانه الذى هو به، فإنه قد استَكْثَفَ وكَثُرَ تَبَعُهُ، والسلام » .

(تاريخ الطبرى ٧ : ٢٦٤)

٢١٧ — رد الحجاج على البراء

فكتب إليه الحجاج :

« أما بعدُ ، إذا أتاك رسولى فعسْكِرْ بمن معك ، فإذا مَرَّ بك عَدِىُّ بن وَتَّاد فاخرج معه فى أصحابك واسْمَع له وأطِعْ والسلام » . (تاريخ الطبرى ٧ : ٢٦٤)

---

(١) الولى : المحب والصديق والنصير . (٢) الوهن : الضعف .

(٣) يشير إلى قوله تعالى : « كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِتَالُ وَهُوَ كُرْهٌ لَكُمْ » .

(٤) أى ثارت ووثبت . وفى الأصل « انتفخت » وهو تصحيف .

٢١٨ — كتاب الحجاج إلى قيس بن سعد العجلى

وبلغ الحجاج ما أتاه حمزة بن المغيرة من إمداده أخاه بالمال والسلاح ، وكان قيس بن سعد العِجْلى يومئذ على شُرْطة حمزة ، ولبنى عِجْل وربيعة عَدَد بِهَمَذَانَ ، فبعث الحجاج إلى قيس بعهده على هَمَذان ، وكتب إليه أنْ :

« أوثِقْ حمزة بن المغيرة فى الحديد ، واحبِسْه قِبَلَك حتى يأتيك أمرى » فأقرأه قيسٌ كتاب الحجاج إليه وأراه عَهْده ، فقال حمزة : سمعا وطاعة ، فأوثقه وحبسه فى السجن ، وتولى أمر هَمَذَانَ وبعث عماله عليها . (تاريخ الطبرى ٧ : ٢٦٥)

٢١٩ — كتاب قيس بن سعد إلى الحجاج

وكتب إلى الحجاج :

« أما بعد ، فإنى أخبر الأمير ـ أصلحه الله ـ أنى قد شَدَدْتُ حمزة بن المغيرة فى الحديد ، وحَبَسْتُه فى السجن ، وبعثْتُ عُمَّالى على الخراج ، ووضعت يدى فى الجباية فإنْ رَأَى الأمير ـ أبقاه الله ـ أن يأذن لى فى المسير إلى مُطرِّف أذن لى ، حتى أجاهِدَهُ فى قومى ومَنْ أطاعنى من أهل بلادى ، فإنى أرجو أن يكون الجهادُ أعظم أجْراً من جباية الخراج ، والسلام » : (تاريخ الطبرى ٧ : ٢٦٥)

٢٢٠ — كتاب الحجاج إلى عدى بن وتاد

وكتب الحجاج إلى عَدِىّ بن وَتّاد الإيادى وهو على الرَّىّ :

« أما بعدُ ، فإذا قرأت كتابى هذا ، فانْهَضْ بثلاثة أرباع من معك من أهل الرَّىّ ثم أقْبِلْ حتى تَمُرَّ بالبَرَاءِ بن قَبيصة بجَىّ ، ثم سيرا جميعا ، فإذا التقيتما فأنت أمير الناس حتى يقتلَ اللهُ مُطرِّفا ، فإذا كفى الله المؤمنين مُؤْنته، فانصرف إلى عملك فى كَنَفٍ(١) من الله وكِلاءته(٢) وستره » .

---

(١) أى فى حرزه وستره . (٢) أى حراسته .

وفعل عدى ما أمر به وسارا حتى انتهى إلى جَيّ، ووافاه بها قَبيصة وسارا إلى مطرف، ثم نشب القتال بين الفريقين، ودارت الدائرة على جيش مطرف فما زال يقاتل حتى قتل.

(تاريخ الطبرى ٧ : ٢٦٧)

٢٢١ - كتاب الحجاج إلى عدى بن وتاد

وكان على ميمنة جيش مُطَرِّف الحجاجُ بن جارية، فكتب الحجاج بن يوسف إلى عَدِيّ بن وتاد:

« أما بعدُ، فإنْ كان الله قتَل الحجاج بن جارية فبُعْداً له، فذلك ما أهْوَى وأحِبُّ، وإن كان حيًّا فاطلبه قِبَلَك حتى تُوثِقَه، ثم سرِّحْ به إلىَّ إن شاء الله، والسلام » .

فلم يزل الحجاج بن جارية خائفا حتى عُزل عدى بن وتاد، وقَدِم خالد بن عَتَّاب ابن وَرْقاء، فكُلِّم فيه فآمنه .

(تاريخ الطبرى ٧ : ٢٦٨)

٢٢٢ - كتاب الحجاج إلى خالد بن عتاب

وروى أبو الفرج الأصبهانى فى الأغانى قال:

وكان الحجاج قد استعمل على الرَّيِّ خالد بن عَتَّاب الرِّيَاحى، وكانت أمه أمَّ وَلَدٍ، فكتب إليه الحجاج يُلَخِّن[1] أمه، ويقول: « يابن اللَّخْناء، أنت الذى هربتَ عن أبيك[2] حتى قتل » .

(تاريخ الطبرى ٧ : ٢٦٧)

٢٢٣ - رد خالد على الحجاج

وقد كان حلف أن لا يسُبَّ أحد أمه إلا أجابه كائنا من كان، فكتب إليه خالد:

« كتبتَ إلىَّ تلخِّننى، وتزعُم أنى فَرَرْتُ عن أبى حتى قتل، ولعمرى لقد فررتُ عنه، ولكن بعد أن قُتِل، وحين لم أجد مقاتلا، ولكن أخبِرْنى عنك يابن اللخناء

---

(١) أى يسبها ويصفها باللخن بالتحريك « وهو قبح ريح الفرج » وأمه لخناء، ومن شتم العرب: يابن اللخناء، كأنهم يقولون يادنىء الأصل، أو يالئيم الأم .

(٢) هو عتاب بن ورقاء الرياحى وقد قتل وهو على حرب الخوارج الشبيبية - انظر ص ٢٠٢ .

المُسْتَفْرِمة[١] بِعَجَم زَبيب الطائف ، حين فررتَ أنت وأبوك يوم « الحَرَّة »[٢] على جَمَل ثِقالٍ[٣] ، أيُّكما كان أمام صاحبه ؟ » .

فقرأ الحجاج الكتاب ، وقال : صدق :

أنا الذى فَرَرْتُ يوم الحَرَّهْ ثم ثَنَيتُ كرّةً بفَرَّهْ

* والشيخُ لا يفِرُّ إلا مَرَّهْ[٤] *

ثم طلبه ، وهرب خالد إلى الشام وسَلَّمَ بيت المال ، ولم يأخذ منه شيئاً ، وكتب الحجاج إلى عبد الملك بما كان منه ، واستجار خالد بزُفَر بن الحرث الكلابى فأجاره ، فراجعه عبد الملك فى أمره ، ثم أجاره .

(الأغانى ١٦ : ٤١)

(١) المفرم كشمس والفرمة كوردة والفرام ككتاب: دواء تضيق به المرأة ،فهى فرماء ومستفرمة، والعجم كسبب وغراب : نوى كل شىء .

(٢) انظر هامش ص ٩٧ . (٣) أى بطىء .

(٤) جاء فى العقد الفريد (ج ٢ : ص ٢٥٧) أن الأنصار فى وقعة الحرة قدموا عبد الله بن حنظلة على أنفسهم ، وقدمت قريش عبد الله بن مطيع ، فلما هزمهم مسلم بن عقبة ودخل المدينة ، هرب عبد الله ابن مطيع حتى لحق بمكة ، فكان بها حتى قتل مع عبد الله بن الزبير فى أيام عبد الملك بن مروان ، وجعل يقاتل أهل الشأم وهو يقول :

أنا الذى فررت يوم الحره والشيخ لا يفر إلا مره

فاليوم أجزى كرة بفره لا بأس بالكرة بعد الفره

فتنة ابن الأشعث

٢٢٤ ـ كتاب الحجاج إلى عبيد الله بن أبى بكرة

قدّمنا أن الحجاج وَلَّى عُبَيد الله بن أبى بَكْرة سِجِسْتانَ سنة ٧٨ هـ ، وكان رُتبيلُ ملك الترك مصالحا العرب يدفع لهم خَراجا، وربما امتنع فلم يفعل، فبعث الحجاج إلى عبيد الله ابن أبى بكرة أن :

« ناجِزْه بمن معك من المسلمين ، فلا تَرجِعْ حتى تستبيحَ أرْضَه ، وتَهدِمَ قِلاعَه ، وتقتل مُقَاتِلَتَه ، وتَسْبِىَ ذُرِّيته » .

فخرج بمن معه من المسلمين من أهل الكوفة وأهل البصرة، وكان على أهل الكوفة شُرَيح بن هانئ الحارثى ، وعلى أهل البصرة عبيد الله، وهو أمير الجماعة ،فمضى حتى وغَل فى بلاد رُتبيل، فأصاب من البقر والغنم والأموال ما شاء، وهَدَم قِلاعا وحصونا، وغلب على أرض من أرضهم كثيرة، والترك يخلُّون لهم عن أرض بعد أرض حتى أمعنوا فى بلادهم، فأخذوا عليهم العِقَابَ والشِّعابَ[(١)]، فَسُقِط فى أيدى المسلمين[(٢)]، وظنوا أنْ قد هلكوا .

(تاريخ الطبرى ٧ : ٢٨٢)

٢٢٥ ـ كتاب الحجاج إلى عبد الملك

فبعث ابن أبى بَكْرة إلى شُرَيح بن هانئ : إنى مُصالح القوم على أن أعطيَهم مالا ويُخَلُّوا بينى وبين الخروج، فأرسل إليهم فصالحهم على سبعمائة ألف درهم، فقال له : إنك لاتصالحُ على شىء إلا حَسَبَه السلطان عليكم فى أعْطِيَاتكم ، فقال : لو مَنَعَنا العطاء

---

(١) العقاب جمع عقبة كرقبة ، وهى مرقى صعب من الجبال ، والشعاب جمع شعب بالكسر وهو الطريق فى الجبل وما انفرج بين الجبلين .

(٢) سقط فى يده وأسقط : ندم وتحير .

ما حَيِينا ، كان أهونَ علينا من هلاكنا ، فخالفه شريح ، ونادى : يا أهل الإسلام من أرادَ منكم الشهادة فإليّ ، فاتبعه فُرسان الناس ، وأهل الحفاظِ ، فقاتلوا حتى أصيبوا إلا قليلا ، وقاتل حتى قتل فى ناس من أصحابه ، ونجا من نجا ، فخرجوا من بلاد رتبيل ، وبلغ ذلك الحجاجَ فكتب إلى عبد الملك :

« أما بعدُ ، فإن جندَ أمير المؤمنين الذين بسِجِسْتانَ أصيبوا فلم ينج منهم إلا القليلُ وقد اجترأ العدوُّ بالذى أصابه على أهل الإسلام ، فدخلوا بلادهم ، وغلَبوا على كل حصونهم وقصورهم ، وقد أردتُ أن أُوَجِّهَ إليهم جُنداً كثيفا من أهل المِصْرَيْنِ ، فأحببتُ أن أستَطْلِعَ رأى أمير المؤمنين فى ذلك ، فإن رأى لى بعثة ذلك الجند أمضَيتُه ، وإن لم يَرَ ذلك فإن أمير المؤمنين أوْلَى بجنده مع أنى أتخوّفُ إن لم يأت رتبيلَ ومن معه من المشركين جندٌ كثيفٌ عاجلا ، أن يستولُوا على ذلك الفَرْجِ (١) كلِّه » . (تاريخ الطبرى ٧ : ٢٨٢)

٢٢٦ — رد عبد الملك على الحجاج

فكتب إليه عبدالملك :

« أما بعدُ ، فقد أتانى كتابك تذْكُرُ فيه مُصابَ المسلمين بسجستانَ ، وأولئك قومٌ كتَبَ الله عليهم القتلَ فبَرَزُوا إلى مضاجعهم ، وعلَى الله ثوابُهم ، وأما ما أردتَ أن يأتيكَ فيه رأيى من توجيه الجنودِ وإمضائها إلى ذلك الفَرْج الذى أصيبَ فيه المسلمون أوْ كَفِّها ، فإن رأيى فى ذلك أن تمضِيَ رأيَك راشِدا موفَّقا » .

فجهّز الحجاج عشرين ألفَ رجل من أهل الكوفة، ومثلَهم من أهل البصرة، وجَدَّ فى ذلك وشمر ، وبعث عليهم عبد الرحمن بن محمد بن الأشعث ، فخرج بهم حتى قَدِم سجستان سنة ٨٠ هـ . فجمع أهلها وخطَبَهم ، فقال : إن الأمير الحجاج ولّانى ثغرَكم ،

(١) الفرج : الثغر وموضع المخافة .

وأمرني بجهاد عدوكم الذى استباح بلادكم ، وأباد خِياركم ، فإياكم أن يتخلفَ منكم رجل فيُحلَّ بنفسه العقوبةَ ، اخرجوا إلى مُعَسْكركم فعسْكِروا به مع الناس » .

فعَسْكَرَ الناس كلهم فى معسكرهم .

فبلغ ذلك رتبيل ، فكتب إلى عبد الرحمن : يعتذر إليه من مُصاب المسلمين ، ويخبره أنه كان لذلك كارها ، وأنهم ألجئوه إلى قتالهم ، ويسأله الصلح ، ويَعْرِض عليه أن يقبل منه الخراج ، فلم يُجبه ، ولم يقبل منه .

ولم ينشَبْ عبد الرحمن أن سار فى الجنود إليه حتى دخل أول بلاده ، وأخذ رتبيل يضم إليه جنده ، ويدع له الأرض رُسْتاقا رُسْتاقا[1] ، وحِصْنا حصنا ، وطفِقَ ابن الأشعث كلما حوى بلداً بعث إليه عاملا ، وبعث معه أعوانا ، ووضع البُرُدَ[2] فيما بين كل بلد وبلد ، وجعل الأرصاد عَلَى العِقاب والشِّعاب ، ووضع المَسَالِحَ[3] بكل مكان مَخُوف ، حتى إذا حاز من أرضه أرضاً عظيمة ، وملأ يديه من البقر والغنم والغنائم العظيمة ، حبس الناس عن الوُغُول فى أرض رتبيل ، وقال : نكتفى بما أصبناه العام من بلادهم حتى نَجبِيَها ونعرِفها ، ويجترئَ المسلمون عَلَى طرقها ، ثم نتعاطى فى العام المقبل ما وراءها ، ثم لم نزل ننتقِصهم فى كل عام طائفة من أرضهم حتى نقاتِلَهم آخرَ ذلك عَلَى كنوزهم وذراريّهم ، وفى أقصى بلادهم ومُمتنع حصونهم ، ثم لانزايلُ بلادهم حتى يهلكهم الله ، ثم كتب إلى الحجاج بما فتح الله عليه من بلاد العدو ، وبما صنع الله للمسلمين ، وبهذا الرأى الذى رآه لهم .

(تاريخ الطبرى ٨ : ٣)

---

(١) الرستاق : الناحية التى هى طرف الإقليم ، معرب .

(٢) جمع بريد .

(٣) جمع مسلحة ، وهى القوم ذوو سلاح .

٢٢٧ — كتاب الحجاج إلى ابن الأشعث

فكتب إليه الحجاج جواب كتابه :

« أما بعدُ ، فإن كتابك أتانى ، وفهمتُ ما ذكرتَ فيه ، وكتابُكَ كتابُ امرئٍ يحب الهُدْنة ، ويستريح إلى الموادعة ، قد صانَع عدوا قليلا ذليلا ، قد أصابوا من المسلمين جُنداً كان بلاؤهم حَسَنا ، وغَناؤهم[1] فى الإسلام عظيما .

لَعَمْرُك يابنَ أمِّ عبد الرحمن ، إنك حيثُ تكُفُّ عن ذلك العدوّ بجندى وحَدِّى ، لَسَخِيُّ النفس عمن أُصيبَ من المسلمين ! ! إنى لم أَعْدُد رأيَك الذى زعمتَ أنك رأيته رأىَ مَكِيدة ، ولكنى رأيتُ أنه لم يحمِلك عليه إلا ضَعْفُك والْتياثُ[2] رأيك ، فامض لِمَا أمرتك به من الوغول فى أرضهم ، والهدمِ لحصونهم ، وقتل مُقاتِلتهم ، وسَبْى ذراريِّهم » . (تاريخ الطبرى ٨ : ٨)

٢٢٨ — كتاب آخر من الحجاج إلى ابن الأشعث

ثم أردفه كتابا فيه :

« أما بعدُ ، فمُرْ مَن قِبَلك من المسلمين فَلْيَحْرُثوا وليقيموا ، فإنها دارهم حتى يفتحها اللهُ عليهم » . (تاريخ الطبرى ٨ : ٨)

٢٢٩ — كتاب ثالث من الحجاج إليه

ثم أردفه كتابا آخر فيه :

« أما بعدُ ، فامضِ لِمَا أمرتك به من الوغول فى أرضهم ، وإلَّا فإن إسحق بن محمد أخاك أميرُ الناس فخلِّه وما وليته » .

---

(١) كفايتهم . (٢) الالتياث : الاختلاط والالتفاف.

فدعا عبد الرحمن الناس إليه ، فقال لهم: قد كان من رأيي فيما بينكم وبين عدوّكم رأيٌ استشرتُ فيه ذوى أحلامِكم وأولى التجرِبة للحرب منكم ، فرضُوه لكم رأيا ، ورأوْه لكم فى العاجل والآجل صلاحا ، وقد كتبتُ إلى أميركم الحجاج ، فجاءنى منه كتابٌ يعجِّزنى ، ويضعِّفنى ، ويأمرنى بتعجيل الوُغُول بكم فى أرض العدو ، وهى البلاد التى هلك إخوانكم فيها بالأمس ، وإنما أنا رجل منكم أمضى إذا مَضَيتم ، وآبَى إذا أَبَيْتم » . فثار إليه الناس ، فقالوا : لا ، بل نأبَى على عدو الله ، ولا نسمع له ، ولا نطيع ، وقام خطباؤهم فسفَّهوا رأى الحجاج ، ونادَوا بخلعه ، ومبايعة عبد الرحمن ، فأجابهم الناس ، ووثبوا إلى عبد الرحمن فبايعوه على النُّصْرَةِ له ، والجهاد معه حتى ينفى الحجاج من أرض العراق ، وبعث عبد الرحمن إلى رتبيل فصالحه على أن ابن الأشعث إن ظهر فلا خَرَاجَ عليه أبداً ما بقِىَ ، وإن هزم فأراده ألجأه عنده ، وخرج من سجستان مقبلا إلى العراق ، فلما دخل الناس فارس اجتمع بعضهم إلى بعض ، فقالوا : إنا إذا خلعنا الحجاج عامل عبد الملك فقد خلعنا عبد الملك ، فخلعوه إلا قليلا منهم ، ووثبوا إلى عبد الرحمن فبايعوه على كتاب الله وسنة نبيه ، وخلع أئمة الضلالة ، وجهاد المُحِلِّين . (تاريخ الطبرى ٨ : ٨)

٢٣٠ — كتب بين ابن الأشعث والحجاج وصاحب اليمن وعبد الملك

قال الطبرى :

فلما بلغ الحجاجَ خلعُه ، كتب إلى عبد الملك يُخبره خَبَرَ عبد الرحمن ويسأله أن يُعَجِّل بعثة الجنود إليه ، وبعث كتابه (أى كتاب عبد الرحمن) إلى عبد الملك يتمثَّل فى آخره بهذه الأبيات — وهى للحارث بن وَعْلَة (الجَرْمِيّ) — :

سائلْ مُجاوِرَ جَرْمٍ هل جَنَيْتُ لهم　　حَرْبًا تُفرِّق بين الجِيرةِ الخُلُطِ(١)
وهل سَمَوْتُ بجَرَّار له لَجَبٌ　　جَمِّ الصَّواهِلِ بين الجَمِّ والفُرُطِ(٢)
وهل تَركتُ نساءَ الحيِّ ضاحيَةً　　فى ساحةِ الدار يَسْتَوْقِدْنَ بالغُبُطِ(٣)

وقال أبو العباس المبرِّد فى الكامل :

وكتب صاحبُ اليمن إلى عبد الملك بن مَرْوان فى وقت محاربته ابن الأشعث :
« إنى قد وَجَّهتُ إلى أمير المؤمنين بجارية اشتريتها بمال عظيم ، ولم يُرَ مِثلُها قطُّ » .

فلما دُخِلَ بها عليه رأى وجها جميلا ، وخَلْقًا نبيلا ، فألقى إليها قَضيبا كان فى يده فنَكَسَت لتأخذه ، فرأى منها جسما بَهَرَه ، فلما هَمَّ بها أَعلَمَه الآذِنُ أن رسول الحجاج بالباب فأذِنَ له ، ونَحّى الجارية ، فأعطاه كتابا من عبد الرحمن فيه سطور أربعة يقول فيها :

سَائلْ مُجاوِرَ جَرْمٍ هَلْ جَنَيْتُ لها　　حَرْبًا تُزَيِّلُ بين الجِيرة الخُلُطِ(٤)
وهل سموتُ بجَرَّار له لَجَبٌ　　جَمِّ الصواهِلِ بين الجَمِّ والفُرُط
وهل تركتُ نِساءَ الحيِّ ضاحِيَةً　　فى ساحةِ الدار يستوقِدْنَ بالغُبُطِ

وتحتها (بيت آخر على غير الرويّ من الأبيات الأول ، وهو :)

قَتَلَ الْمُلوكَ ، وصار تحت لوائه　　شَجَرُ الْعُرَا وَعَرَاعِرُ الأقوامِ(٥)

(١) جرم : بطنان ، بطن فى قضاعة، والآخر فى طيء . والخلط جمع خليط ، وهو الشريك والقوم الذين أمرهم واحد ، والمخالط .

(٢) بجرار : أى بجيش جرار : واللجب : الجلبة والصياح ، جم الصواهل: أى جم الخيول الصواهل أى كثيرها . الجم والفرط : موضعان .

(٣) ضاحيةً : بارزة الشمس ، وربما كان « ضاحبة » والغبط جمع غبيط : والغبيط : الرحل وهو للنساء يشد عليه الهودج وقوله : فى ساحة الدار يستوقدن بالغبط ، قال المبرد : يقال فيه قولان متقاربان : أحدهما أنهن قد يئسن من الرحيل فجعلن مراكبهن حطبا . هذا قول الأصمعى ، وقال غيره : بل قد منعهن الخوف من الاحتطاب .

(٤) تزيل : تفرق .

(٥) العرا بضم العين مقصورا : نبت ، والعراء بفتح العين ممدودا : وجه الأرض ، وعراعر الأقوام: رءوسهم ، جمع عرعرة بضم العينين ، وعرعرة كل شيء أعلاه ، والبيت لمهلهل .

فكتب إليه عبد الملك كتابا ، وجعل فى طيِّه جوابا لابن الأشعث :

ما بالُ مَنْ أسعَى لأَجْبُرَ عَظْمَهُ   حِفاظا وينوِى من سفاهته كَسْرِى(١)

أظُنُّ خطوبَ الدهر بينى وبينهم   ستحمِلُهم منى على مَرْكَبٍ وَعْرِ

وإنى وإياهم كمن نَبَّـــــه القَطَا   ولو لم تُنَبَّهْ باتتِ الطَّيْرُ لا تَسْرِى

أناةً وحِلْمًا وانتظـــــاراً بهم غداً   فما أنا بالوَانِى ولا الضَّرِعِ الغُمْرِ(٢)

ثم بات يقلِّب كف الجارية ، ويقول : ما أفَدْتُ فائدة أحبَّ إلىَّ منك ، فتقول : فما لَكَ يا أمير المؤمنين ، وما يمنعك ؟ فقال : يمنعنى ما قاله الأخطل ، لأنى إن خرجت منه كنت ألأمَ العرب :

قومٌ إذا حاربوا شَدُّوا مآزِرَهم   دُونَ النساء ولو باتت بأطْهارِ

فما إليكِ سبيل ، أو يَحْكُمَ اللهُ بينى وبين عدوِّى عبد الرحمن بن الأشعث ، فلم يقربها حتى قُتِل عبد الرحمن » .

(تاريخ الطبرى ٨ : ١٠ ، والكامل للمبرد ١ : ١٣٠)

٢٣١ — كتاب من ابن الأشعث إلى الحجاج

(كتبه ابن القِرِّية)

وروى ابن قتيبة فى الإمامة والسياسة قال :

فلما أجمعَ عبد الرحمن على إظهار خلع الحجاج ، كتب إلى أيوب ابن القِرِّية التميمى ، وهو مع الحجاج فى عسكره خاصّ المنزلة منه ، يسأله أن يُصْدِر إليه رسالة إلى الحجاج ، يخلع فيها طاعة الحجاج ، فكتب له ابن القرِّية رسالة فيها :

(١) دخل الخرم هـذا البيت — على رواية صاحب الكامل — وسيرد عليك فى باب التوقيعات « فما بال. . . » .

(٢) ضرع إليه ويثلث : خضع وذل واستكان فهو ضارع ، وضرع ككتف وضروع كصبور وضرعة محركة ، وككرم : ضعف فهوضرع محركة، والغمر : كشمس وقفل وسبب وكتف ومعظم : من لم يجرب الأمور .

« بسم الله الرحمن الرحيم ، من عبد الرحمن بن محمد بن الأشعث إلى الحجاج بن يوسف ، سلام على أهل طاعة الله وأوليائه الذين يَحْكُمُون بعَدله ، ويُوفُون بعَهْده ، ويجاهدون فى سبيله ، ويتورَّعون لِذِكْره ، ولا يَسْفِكون دَمًا حراما ، ولا يعطِّلون لِلرَّبِّ أحكاما ، ولا يَدْرُسون(١) له أعلاما ولا يتنكَّبُون النَّهْجَ(٢) ، ولا يُبْرِمُون السَّيِّئَ ، ولا يسارعون فى الغَيِّ ، ولا يُدَلِّلُون الفَجَرةَ ، ولا يتراضَوْن الجَوَرَةَ ، بل يتمكَّنون عند الاشتباه ، ويتراجعون عند الإساءة .

أما بعد ، فإنى أَحْمَد اللهَ حَمْدا بالغا فى رضاه ، منتهيا إلى الحق فى الأمور الحقيقة لله علينا ، وبعدُ فإن الله أَنْهَضنى لِمُصَاوَلتك ، وبعثنى لمناضلتك ، حين تحيَّرتْ أمورك ، وتهتَّكَتْ سُتُورك ، فأصبحتَ عُرْيَانَ حَيْرَانَ مَهِينًا لا تُوافِق وَفْقا ، ولا تُرافِقُ رِفقا ، ولا تلازِم صِدْقا ، أُؤَمِّل من الله الذى أَلْهَمَنى ذلك أن يُصيِّرك فى حِبالِك ، وأن يجىء بك فى القَرَن(٣) ، ويَسْحَبَك المذَّقن ، ويُنْصِفَ منك مَن لم تُنْصِفْه من نفسك ، ويكون هلاكُك بِيَدَىْ مَن اتَّهمتَه وعاديتَه ، فلعمرى لقد طالما تطاولتَ وتمكَّنْتَ وأخطأتَ ، وخِلْتَ أن لن تَبُور(٤) ، وأنت فى فَلَكِ المُلْك تَدورُ ، وأظن مِصْداقَ ما أقولُ سَتَخْبُره عن قريب ، فسِرْ لأمرك ، ولاقِ عِصابةً خَلَعتك من حِبالِها(٥) خَلْعها نِعالَها ، وَتَدَرَّعَت حَلاَلَهَا ، تدرُّعَها مِطَالَهَا(٦) ، لا يَحْذَرون منك جَهْدا ، ولا يَرْهَبون منك وعيدا ، يتأملون خَزَايَتَك ، ويتجرَّعون إمارتك ، عِطاشاً إلى دمك ، يستطعمون الله لَحْمَك(٧)

(١) درس الرسم كدخل : عفا ، ودرسته الريح ، لازم ومتعد .

(٢) النهج : الطريق الواضح ، وتنكبه : عدل عنه وتجنبه .

(٣) القرن : الحبل يقرن به البعيران .   (٤) تهلك .

(٥) الحبال، جمع حبل : وهو العهد والذمة والتواصل، والمعنى : خلعتك من الحكم الذى عهد به إليك وهذه العبارة فى الأصل « ولاق عصابة خلفك من حبالها خلفها نعالها » وأراها محرفة .

(٦) المطل: مد الحديد وسبكه وطبعه وصوغه بيضة، والمطيلة اسم الحديدة التى تمطل من البيضة ومن الزندة وجمعها مطال .   (٧) أى يسألونه أن يطعمهم لحمك .

وايمُ اللهِ ليُناقِفَنَّك[١] منهم الأبطالُ الذين بَيَّتهم[٢] فيما يحاولونك به على طاعة الله، شَرَوا[٣] أنفسهم تقربًا إلى الله، فأغضِ[٤] عن ذلك يابْنَ أم الحجاج، فستَحْمِل عليك إن شاء الله، ولا حَوْلَ ولا قُوَّةَ إلا بالله، والسلام على أهل طاعة الله ».

(الإمامة والسياسة ٢ : ٢٦)

٢٣٢ — رد الحجاج على ابن الأشعث

فلما قدم الكتاب على الحجاج قال: اكتب يا نافع، وكان نافع مولاه وكاتبا بين يديه:

« بسم الله الرحمن الرحيم، من الحجاج بن يوسف إلى عبد الرحمن بن الأشعث، سلام على أهل النزوع عن الزَّيْغ وأسباب الرَّدَى[٥]، لا إلى معادن التَّسيِّئ، والتقحُّم[٦] فى الغيِّ، فإنى أَحْمَد اللهَ الذى خَلاَّك فى حَيْرتك، إذ بَهتَك[٧] فى السيرة، ووَهَّلَك للضرورة، حتى أقْحَمَك أمورًا أخرجَك بها عن طاعته، وجانَبْتَ وِلاَيته، وعَسْكَرْتَ بها فى الكفر، وذَهِلْتَ بها عن الشكر، فلا تشكُرُ فى السَّرَّاء، ولا تَصْبِر فى الضَّرَّاء أقبلتَ مُسْتَنًّا[٨] بحَرِيم الحُرَّة، تستوقِد الفتنةَ لِتَصْلَى بحَرِّها، وجلَبْتَ لغيرك ضرها

---

(١) المناقفة والنقاف: المضاربة بالسيوف على الرءوس، وفى الأصل « لينافقنك » وهو تصحيف

(٢) يريد بيت لهم: أى دبرت وكدت، يقال بيت الأمر: دبره ليلا، وبيت العدو: أوقع بهم ليلا

(٣) أى باعوا. (٤) أغضى عنه طرفه: سده أو صده.

(٥) نزع عن الأمر: كف وانتهى عنه، وهذه العبارة فى الأصل « من النزيع وأسباب الرداء » وأرى أنها محرفة وصوابها ما ذكرت.

(٦) تقحم الأمر وفيه: رمى بنفسه فيه من غير روية.

(٧) بهته: حيره، قال تعالى « بَلْ تَأْتِيهِمْ بَغْتَةً فَتَبْهَتُهُمْ ». أى تحيرهم حين تفجؤهم بغتة، وقال أيضا « فَبُهِتَ الَّذِى كَفَرَ ». أى: انقطع وسكت متحيرا، وبهته أيضا: أخذه بغتة، ووهل كفرح فزع وجبن، ووهله: أفزعه.

(٨) استن سنته: سار سيرته، والحريم: الحرم، أى إنك قد اتبعت سنة أهل الحرة فخرجت على ولى الأمر ونقضت عهد طاعته كما شقوا عصا الطاعة ليزيد (انظر ص ٨٠).

وقلت : وَثاقُ[١] الاحتجاج ، ومبارزة الحجاج ، ألاَ بل لأُمِّك الهَبَلُ[٢] ، وعزةِ ربِّك لَتُسكَبَنَّ لِنَحرِك ، ولَتُقلَبَنَّ لظهرك ، ولتتخَبَّطَنَّ فريصتُك[٣] ، ولتُدْحَضَنَّ حُجَّتُك ، وليُذمَّنَّ مقامك ، ولتُشَانَنَّ[٤] بسهامك ، كأنى بك تصيرُ إلى غيرِ مقبولٍ منك إلا السيفَ ، هَوْجا هوجا عند كَشْف الحربِ عن سَاقِها ، ومبارَزَةِ أبطالها ، والسلام على من أنَابَ إلى الله ، وَسَمِع وأجاب » . (الإمامة والسياسة ٢ : ٢٨)

٢٣٣ — كتاب المهلب إلى عبد الرحمن بن الأشعث

وقد كان بلغ المهلَّبَ (وكان على خُراسان) شِقاقُ عبد الرحمن ، وهو بسجستان فكتب إليه :

« أما بعد ، فإنك وضعتَ رجلَك بابن محمد فى غَرْزٍ[٥] طويلِ الغَىِّ على أمة محمد صلى الله عليه وسلم ، اللهَ اللهَ فانظر لنفسك لاتُهلِكْها ، ودماء المسلمين فلا تَسفِكْها ، والجماعة فلا تُفرِّقْها ، والبَيْعة فلا تَنكُثْها ، فإن قُلتَ : أخَافُ الناس على نفسى ، فاللهُ أحقُّ أن تخافه عليها من الناس ، فلا تعرِّضها لله فى سَفْك دمٍ ، ولا استحلال مُحرَّم ، والسلام عليك » . (تاريخ الطبرى ٨ : ١٠)

٢٣٤ — كتاب المهلب إلى الحجاج

قال الطبرى : وكتب المهلَّب إلى الحجاج :

« أما بعدُ : فإنّ أهلَ العراق قد أقبلوا إليك ، وهم مثلُ السَّيْل المُنْحَدر من عَلُ ، ليس شىء يردُّه حتى ينتهىَ إلى قَرارِه ، وإن لأهل العراق شِرَّةً[٦] فى أوّل مَخرَجهم ،

---

(١) الوثاق : ما يشد به ويكسر ، والمعنى : شدة الاحتجاج .

(٢) هبلته أمه كفرح : ثكلته وفقدته . (٣) الفريصة : اللحمة بين الجنب والكتف .

(٤) فى الأصل « ولتشغلن » وأراه محرفا .

(٥) الغرز : ركاب من جلد .

(٦) أى نشاطا وحدة .

وَصَبَابةٌ إلى أبنائهم ونسائهم ، فليس شيء يردهم حتى يسقطوا إلى أهليهم، ويَشَمُّوا أولادهم، ثم وافِقْهم عندها ، فإن الله ناصِرُكَ عليهم إن شاء الله » .

فلما قرأ كتابه ، قال : فعل الله به وفعل ، لا والله ، مالِي نَظَرٌ ، ولكن لابن عمه[1] نَصَحَ . (تاريخ الطبرى ٨ : ١٠)

وروى ابن نُباتة هذا الكتاب فى سَرْح العيون بصورة أطول ، قال :

وحُكِيَ أن عبد الرحمن بن الأشعث لما خرج على الحجاج بالجيش الذى كان بعثه معه إلى قتال رتبيل ، كاتب المهلَّبَ ، وهو بخراسان يدعوه إلى خلع الحجاج ، فقال المهلب : لا غَدْرَ بعد سبعين سنة ، ثم كتب إلى الحجاج :

« أما بعدُ ، فإن أهل العراق مع ابن الأشعث قد أقبلوا إليك ، وهم مثلُ السيل المنحطِّ من أعلى إلى أسفل ، ليس يرده شيء حتى ينتهى إلى قراره ، ولأهل العراق شِدَّة فى أول حربهم ، وبهم صَبابةٌ إلى نسائهم وأبنائهم ، فلا شيء يردهم دون أهليهم ، فلا تَسْتَقْبِلهم وخَلِّ لهم السبيل حتى يأتوا البصرة ، فيُضاجعوا نساءهم ، ويتشمَّموا أبناءهم ، فترقَّ قلوبهم ، ويُخلدوا إلى المُقام فى منازلهم ، ويتفرقوا عن ابن الأشعث ، فأوقِعْ بمن حاربك منهم ، فإن الله ناصرك عليهم » .

فلما قرأ الحجاج كتابه قال : وَيْلِى على ابن المَزُونِيّ ، واللهِ مالِي نظرٌ ، وإنما نظر إلى ابن عمه ، ولم يقبل منه ذلك . (سرح العيون ١٣٧)

٢٣٥ — كتاب الحجاج إلى عبد الملك

وتجهز الحجاج لِلِقاء ابن الأشعث ، وتتابعت إليه جنودُ الشأم ، فسار بهم حتى نزل « تُسْتَرَ »[2] ، وحَمَلَ ابن الأشعث عليهم فهزمهم ، فارتحل الحجاج إلى البصرة

---

(١) وذلك أن المهلب أزدى، وعبد الرحمن كندى، والأزد وكندة قبيلتان من كهلان بن سبأ من القحطانيين .

(٢) مدينة بالأهواز .

ونزل « الزّاوية »[١] وخلّى البصرة لأهل العراق فنزلوها ، وبايع ابنَ الأشعث على حرب الحجاج وخَلْعِ عبد الملك ، جميعُ أهلها ، ودارت رَحَى الحرب ، فانهزم أهل الشام فصَبَروا وصدَقوا القتال حتى انتصروا ، وانهزم جيش ابن الأشعث ، فأقبل نحو الكوفة حتى دخلها فبايعه أهلها ، وأقبل الحجاج بجيوشه نحوها فنزل دَيْر قُرَّة ، فخرج ابن الأشعث إلى دَيْر الجَمَاجِم[٢] ، واجتمع أهل العراق جميعا على حرب الحجاج ، جَمَعَهم عليه بُغضهم وكراهيتهم له ، واشتد القتال بين الفريقين ، وأراد عبد الملك أن يترضّى أهل العراق ، فبعث يَعْرِض عليهم عَزْل الحجاج عنهم ، وأن ينزل ابن الأشعث أيّ بلد من العراق شاء ، يكون عليه واليا ما دام حيا ، وكان عبد الملك واليا ، فلم يأت الحجاجَ أمر قطُّ كان أشدَّ عليه ، ولا أغيظَ له ، ولا أوجعَ لقلبه منه ، مخافةَ أن يقبلوا فيُعْزَل عنهم ، فكتب إلى عبد الملك :

« يا أميرَ المؤمنين ، والله لئن أعطَيْتَ أهلَ العراق نَزْعِي ، لا يلبثون إلا قليلا حتى يخالفوك ويسيروا إليك ، ولا يزيدُهم ذلك إلا جُرْأَةً عليك ، ألَمْ تَرَ وتسمعْ بوثوب أهل العراق مع الأشتر على ابن عفّان ؟ فلما سألهم : ما يريدون ؟ قالوا : نزعَ سعيدِ ابن العاصِ[٣] فلما نزَعه لم تتمَّ لهم السَّنةُ حتى ساروا إليه فقتلوه ، إن الحديد بالحديد يُفْلَحُ[٤] ، خارَ[٥] الله لك فيما ارتأيت ، والسلام عليك » .

فأبى عبد الملك إلا عَرْضَ ذلك على أهل العراق إرادةَ العافية من الحرب ، فجمعهم عبد الرحمن ، وحثّهم أن ينتهزوا تلك الفرصة ، ويقبلوا ما عُرِضَ عليهم ، فأبَوا ورَكِبوا رءوسهم ، وقالوا : لا واللهِ لا نقبل ، وأعادوا خلع عبد الملك ثانية ، وبَرَزوا للقتال ، فوقعت بينهم وبين الحجاج بدير الجماجم مواقع هائلة استمرت مائة يوم ، وانتهت بهزيمة ابن الأشعث وجنده (في ١٤ من جمادى الآخرة سنة ٨٣) .

(تاريخ الطبري ٨ : ١٦)

---

(١) موضع قرب البصرة . (٢) بظاهر الكوفة ، ودير قرة بإزائه .

(٣) انظر ص ٢٧١ من الجزء الأول .

(٤) أي يشق ويقطع . (٥) أي جعل لك فيه الخير .

٢٣٦ — كتاب الحجاج إلى قتيبة بن مسلم

ولما انهزم الناس يوم دير الجماجم، قال الحجاج: اتركوهم فليَتَبَدَّدوا ولا تتبعوهم، ونادى مناديه: مَن رَجَع فهو آمن، ومن لَحِق بقُتَيْبَة بن مُسْلِم بالرَّيِّ فهو أمانُه، فلَحِق ناس كثير بقتيبة، وكان فيمن لَحِق به عامِرٌ الشَّعْبي[1]، فذكَرَ الحجَّاج الشَّعبيَّ يوما، فقال: أين هو؟ وما فعل؟ فقيل له: إنه لحِق بقتيبة بالرَّيِّ، فكتب الحجاج إلى قتيبة:

« أما بعدُ، فابعث إلىَّ بالشَّعبيِّ حين تنظر فى كتابى هذا، والسلام عليك »

فسُرِّح إليه، فلما دخل عليه اعتذر إليه، فقبِل منه الحجاج وعفا عنه:

(تاريخ الطبرى ٨ : ٣١)

٢٣٧ — كتاب عبد الملك إلى الحجاج

ودخل الحجاج الكوفة بعد وقعة دير الجماجم، وأقبل الناس يبايعونه، وكان عبد الملك كتب إليه فى أسرى دير الجماجم: « أن يَعرِضهم على السيف، فمن أقرَّ منهم بالكفر بخروجه علينا فخلِّ سبيله، ومن زعم أنه مؤمن فاضرِبْ عنقه » فكان الحجاج لا يبايعه أحد إلا قال له: أتشهد أنك قد كفرت؟ فإذا قال « نعم » بايعه وإلا قتله[2].

(العقد الفريد ١ : ١٥١ و ٣ : ٢٠ ، وتاريخ الطبرى ٨ : ٢٥)

---

(١) هو أبو عمرو عامر بن شراحيل (بفتح الشين) الشعبي — نسبة إلى شعب وهو بطن من همدان — وهو كوفى تابعى جليل القدر وافر العلم توفى سنة ١٠٥ هـ. وكانت أمه من سبى جلولاء.

(٢) وأتى بسعيد بن جبير (أحد كبار التابعين) فقال له: أنت سعيد بن جبير؟ قال: نعم، قال: لا، بل شقى بن كسير، قال: أبى أعلم باسمى منك، قال: شقيت وشقيت أمك، قال: الشقاء لأهل النار، قال: أكافر أنت أم مؤمن؟ قال: ما كفرت بالله منذ آمنت به، قال: اضربوا عنقه.

وجاء إليه رجل من خثعم كان معتزلا الناس جميعا من وراء الفرات، فسأله عن حاله، فقال: مازلت معتزلا منتظرا أمر الناس حتى ظهرت (أى غلبت) فأتيتك لأبايعك مع الناس، فقال: أمتربص؟ أتشهد =

٢٣٨ — كتاب عبد الملك إلى الحجاج

ولما أسرف الحجاجُ فى قتل أسارى دير الجماجم وأعطى الأموال، بلغ ذلك عبد الملك، فكتب إليه:

«أما بعدُ، فقد بلغَ أميرَ المؤمنين سَرَفُك فى سَفْك الدماء، وتبذيرُك فى الأموال، فى الباطل، ومنعُك الحقّ، ولا يحتمِلُ أميرُ المؤمنين هاتين الخَصْلتين لأحد من الناس، وقد حَكَمَ عليك أمير المؤمنين: فى الدماء، فى الخَطَإِ الدِّية، وفى العَمْد القَوَدِ[1]، وفى الأموال رَدّها إلى مواضعها، ثم العَمَل فيها برأيه، فإنما أمير المؤمنين أمين الله، وسِيَّانَ عنده مَنْعُ حق وإعطاء باطلٍ، فإن كنت أردتَ الناس له فما أغناهم عنك، وإن كنت أردتَهم لنفسك فما أغناك عنهم، وسيأتيك من أمير المؤمنين أمران: لِينٌ وشِدّةٌ، فلا يُؤْنِسَنّك إلا الطاعةُ، ولا يُوحشنّك إلا المعصية، وظُنَّ بأمير المؤمنين كلَّ شيء إلا احتمالَك على الخَطإِ، وإذا أعطاك الظَّفَر على قوم فلا تقتلنَّ جانحا ولا أسيرا» وكتب فى أسفل كتابه:

إذا أنت لم تَطْلُبْ أمورا كَرِهْتَها ... وتطلب رضائى بالذى أنت طالبُهْ
وتخشَى الذى يخشاه مِثْلِيَ هاربًا ... إلى اللهِ منه، ضَيَّع الدَّرَّ حَالِبُه[2]
فإن تَرَ منى غَفْلَةً قُرَشِيَّةً ... فيارُبَّما قد غَصَّ بالماء شاربه
وَإنْ تَرَ منّى وثْبَةً أموِيَّةً ... فهذا وهذا كلُّهُ ذا أنا صاحِبُه

= أنك كافر؟ قال: بئس الرجل أنا إن كنت عبدت الله ثمانين سنة ثم أشهد على نفسى بالكفر، قال: إذن أقتلك، وضرب عنقه.

وأتى بشيخ وشاب فقال الشاب: أمؤمن أنت أم كافر؟ قال: بل كافر، قال: لكن الشيخ لا يرضى بالكفر، فقال له الشيخ: أعن نفسى تخادعنى ياحجاج؟ والله لو كان شيء أعظم من الكفر لرضيت به، فضحك الحجاج وخلى سبيلهما وفى رواية أخرى أنه أتى برجل فقال الحجاج: إنى أرى رجلا ما أظنه يشهد على نفسه بالكفر، فقال: أتخادعنى عن نفسى! أنا أكفر أهل الأرض وأكفر من فرعون ذى الأوتاد، فضحك الحجاج وخلى سبيله.

(١) القود: القصاص.

(٢) الدر: اللبن.

فلا تَلْحَيْنِي والحوادثُ جَمَّةٌ ... فإنك مَجْزِيٌّ بما أنت كاسِبُه[١]

ولا تعدُ ما يأتيك مني ، وإن تَعُدْ ... يقومُ بها يوما عليك نوادِبُه

ولا تَدْفَعَنْ الناس حَقا عَلِمْتَه ... ولا تعطِيَنْ ما ليس لله جانبُه

(مروج الذهب ٢ . ١٣٦ ، وأدب الكتاب ص ٢٣٦)

٢٣٩ – رد الحجاج على عبد الملك

فلما قرأ الحجاج كتابه كتب إليه :

« أما بعدُ ، فقد أتاني كتابُ أمير المؤمنين يذكُر فيه سَرَفي في الدماء ، وتبذيري في الأموال ، ولعَمْري ما بلغتُ في عقوبة أهل المعصية ما هم أهلُه وما قضيتُ حقَّ أهل الطاعة بما استحقُّوهُ ، فإن كان قَتْلي أولئك العُصَاةَ سَرَفا ، وإعطائي أولئك المطيعين تبذيراً ، فليُسَوِّغني[٢] أميرِ المؤمنين ما سَلَف ، وليَحُدَّ لي فيه حدا أنتهي إليه إن شاء الله تعالى ، ولا قوة إلا بالله ، ووالله ما عليَّ من عَقلٍ[٣] ولا قَوَد ، ما أصبتُ القومَ خطأً فأفدِيَهم ، ولا أعطيتُهم إلا لك ، ولا قتلتُ إلا فيك ، وأما ما أنا مُنتظِرُه من أمرَيك ، فألْيَنُهُما عِدَةٌ ، وأعظمُهما مِحْنَةٌ ، فقد عبَّأت للعدةِ الجِلاد ، وللمِحْنة الصبرَ .

وكتب في أسفل كتابه :

إذا أنا لم أتبَعْ رِضاك وأتَّقي ... أذاكَ ، فيومي لا تزُول كواكِبُهْ

وما لامرئٍ بعد الخليفةِ جُنَّةٌ ... تَقِيه من الأمر الذي هو كاسِبُه[٤]

أُسَالِمُ مَنْ سالمتَ من ذي قَرابةٍ ... ومَنْ لم تُسالِمْه فإني محارِبُه

---

(١) في الأصل « فلا تلمني » ولكنه يخل بوزن البيت ، وأرى أنه محرف من « فلا تلحيني » وهو بمعناه (٢) يقال : سوغه ما أصاب أي تركه له خالصا ، والمعنى : فليقرني على ما قد فعلته، وفي أدب الكتاب : « فإن رأى أميرالمؤمنين أن يمضي لي سالني ، ويأمرني بما أحب في مستأنفي،فعل إن شاء الله »
(٣) العقل : الدية . (٤) الجنة : الوقاية .

إذا قارفَ الحجاجُ منك خَطيئةً فقامَتْ عليه فى الصباح نَوادِبُه[1]
إذا أنا لم أُدْنِ الشفيق لنُصْحِهِ وأُقْصِى الذى تَسْرِى إلىَّ عقارِبه
فمن ذا الذى يرجو نَوالى، ويتَّقِى مُصاوَلَتى ؟ والدهرُ جَمٌّ نوائبُه
فقِفْ بى على حَدِّ الرضا لا أُجوزُه مَدَى الدهر حتى يَرْجِعَ الدَّرَّ حالِبُه[2]
وإلاَّ فدَعْنِى والأمورَ، فإننى شفيقٌ رَفيق أحْكَمَتْنى تجارِبُه

فلما انتهى كتابه إلى عبد الملك قال: خاف أبو محمد صَوْلتى، ولن أعُودَ لشىء يكرهه

(مروج الذهب ٢ : ١٣٧، وأدب الكتاب ص ٢٣٦)

٢٤٠ — كتب الحجاج إلى رتبيل

وما زال ابن الأشعث ينهزم من بلد إلى بلد حتى دخل بلاد رتبيل، فأنزله عنده وأكرمه وعظّمه، فكتب الحجاج إلى رتبيل :

« أما بعدُ : فإنى قد بعثتُ إليك عُمارةَ بن تميم[3] فى ثلاثين ألفًا من أهل الشأم، لم يخالفوا طاعةً، ولم يخلعوا خليفة، ولم يتَّبعوا إمام ضَلالة، يَجْرِى على كل رجل منهم فى كل شهر مائةُ درهم، يستطعِمُون الحرب استطعاما، يطلبون ابن الأشعث » .

فأبَى رتبيل أن يسلمه، وتتابعَتْ كُتُبُ الحجاج إليه فى ابن الأشعث أن :

« ابْعثْ به إلىّ، وإلاَّ فوالذى لا إله إلا هو لأُوطِئَنَّ أرضك ألفَ ألفِ مقاتل » .

ثم عاهده الحجاج ليَكُفَّنَّ الخراج عن أرضه سبع سنين على أن يدفع إليه ابن الأشعث فوجَّه به إليه، فألقى ابن الأشعث نفسه من فوق قصر فمات، فاحتزّ رتبيل رأسه،

---

(١) قارف الذنب : اقترفه، وجملة قامت دعائية .

(٢) يرجع : يرد، والدر : اللبن، أى حتى يرد الحالب الدر فى الضرع وهو مستحيل، والمعنى : لا أجوزه أبدا، وفى الأمثال « حتى يرجع الدر فى الضرع » يضرب لما يستحيل كونه .

(٣) كان على سجستان .

وبعث به إلى الحجاج ، وكتب إليه : « أنه أخذ ثمانية عشر رجلا من أهل بيت عبد الرحمن » ، فكتب إليه :

« أن اضرب رقابهم وابعث إلىّ برءوسهم » .

وكره أن يؤتى بهم إليه أحياء فيطلب فيهم إلى عبد الملك ، فيترك منهم أحداً ، وكان ذلك سنة ٨٥ هـ . (تاريخ الطبرى ٨ : ٤٠)

٢٤١ — كتاب عبد الملك إلى الحجاج

وروي أنه لما هزَم الحجّاج ابنَ الأشعث ، كتب إليه عبد الملك :

« أما بعدُ : فما لَكَ عندى مثل إلا قِدْحُ ابنِ مُقْبِل[1] »

٢٤٢ — كتاب الحجاج إلى قتيبة بن مسلم

فلم يدرِ الحجاج ما أراد ، فكتب إلى قُتَيْبة بن مُسْلِم الباهلىّ - وكان عالمًا برواية الشعر - :

« إن ابن مُقْبِل من أهلِكَ ، وقد كتب إلىّ أمير المؤمنين بكذا ، فعرِّفنى قِدْحَه » .

٢٤٣ — رد قتيبة على الحجاج

فكتب إليه قتيبة :

« إن هذا القِدْح فاز تسعين مرةً[2] ، لم يَخِبْ فيها مرةً واحدة ، حتى ضُرب به المَثَل[3] ، فقال ابن مقبل يَنْعته » :

---

(١) هو تميم بن مقبل ، شاعر مخضرم ، والقدح : السهم الذى يستقسم به ، على عادة العرب فى الميسر

(٢) وفى سرح العيون « سبعين مرة » .

(٣) فقيل : « قدح ابن مقبل » .

خَرُوجٌ من الغُمّى إذا صُكَّ صَكَّةً ... بَدَا والعُيونُ المستكِفّةُ تَلْمَحُ[١]

مُفَدًّى ، مُؤَدًّى باليَدَيْنِ ، مُنَعَّمٌ ... خَلِيعُ قِدَاحٍ فائزٌ مُتَمَنِّحُ[٢]

غدَا وهو مَجْدولٌ فراحَ كأنه ... من المَسِّ والتَّقليبِ بالكفِّ أفطحُ[٣]

إذا امْتَنَحَتْهُ من مَعَدٍّ قَبِيلةٌ ... غدَا ربُّه قبلَ المُفِيضِين يَقْدَحُ[٤]

(جمهرة الأمثال ٢ : ١٩ ، وسرح العيون ص ١٢٨)

٢٤٤ ـــ كتاب الحجاج إلى المهلب

وولَّى الحجاجُ المهلَّبَ خُراسانَ سنة ٧٨ هـ كما قدمنا ، فلما كانت سنة ٨٠ هـ قطع المهلبُ نهر بَلْخ فنزل على « كَشّ » وأقام بها سنتين ، ثم صالح أهلها على فِدْية ، واتّهم وهو بكشّ قومًا من مُضَر فحبسهم بها ، فلما قَفَل وصار صُلْح خلّاهم ، فكتب إليه الحجاج :

« إن كنتَ أصبتَ بحَبْسِهم فقد أخطأتَ فى تخليتهم ، وإن كنت أصبت بتخليتهم فقد ظلمتهم إذ حبستهم » .

فقال المهلَّب : « خفتهم فحبستهم ، فلما أَمِنْتُ خلَّيتهم » .

(تاريخ الطبرى ٨ : ٣)

---

(١) الغمى : الشديدة من شدائد الدهر لا يتجه لها ، ويقال : إنهم لفى غمى من أمرهم : إذا كانوا فى أمر ملتبس ، وفى الأصل « جمهرة الأمثال » العمى بالعين المهملة وهو تصحيف ، وصكه : ضربه . واستكففته استوضحته بأن تضع يدك على حاجبك كمن يستظل من الشمس ، واستكفوا حوله : أحاطوا به واجتمعوا حوله ينظرون إليه .

(٢) مؤدى باليدين : أى يحمل باليدين كلتيهما لا بيد واحدة ، اعتزازا به وتقديرا لفوزه ، والخليع القدح الفائز أولا (وهو أيضا لقدح لا يفوز) وتمنحت المال : أطعمته غيرى ، وفى حديث أم زرع « وآكل فأتمنح » أى أطعم غيرى ، وهو تفعل من المنح : أى العطية ، فالمعنى أنه يمنح ويعطى من يستعيره تيمنا به .

(٣) الأفطح : العريض .

(٤) امتنحته : طلبت أن تمنحه أى استعارته ، وفى جمهرة الأمثال وسرح العيون « امتحنته » وهو تحريف ، والتصحيح عن لسان العرب ، جاء فيه « والمنيح (ككريم) : قدح من قداح الميسر يؤثر بفوزه فيستعار بتيمن بفوزه ، وقيل : المنيح منها : الذى لا نصيب له ، وقد ذكر ابن مقبل القدح المستعار : الذى يتبرك بفوزه إذا امتنحته . . . . البيت » وأفاض القداح وبها ضرب بها ، والمعنى : أنهم إذا استعاروا هذا القدح غدا صاحبه يقدح النار لعمل اللحم قبل خروجه لثقته بفوزه .

٢٤٥ — كتاب المهلب إلى حريث بن قطبة

وقَفَل المهلبُ من « كَشّ » وخلّف حُرَيثَ بن قُطْبَةَ وقال له : إذا استوفيتَ الفِدية فردَّ عليهم الرُّهُن، وقطع النهرَ فلما صارَ ببلخ أقام بها وكتب إلى حريث :

« إنى لست آمَنُ إن رَدَدْتَ عليهم الرُّهُنَ أن يُغيروا عليك، فإذا قبضْتَ الفِديةَ فلا تُخلِّ الرُّهُنَ حتى تقدَم أرضَ بلخ » . (تاريخ الطبرى ٨ : ١٨)

٢٤٦ — كتاب يزيد بن المهلب إلى الحجاج

وتوفى المهلب سنة ٨٢ هـ فولى الحجاج خراسان ابنَه يزيد، وفى سنة ٨٤ هـ غزا يزيدُ « بَاذَاغِيس[1] » فصالحه ملكها « نيزك » على أن يدفع إليه ما فى قلعته من الخزائن، ويرتحل عنها بعياله[2]، وكتب يزيد إلى الحجاج بالفتح ـ وكانت كتب يزيد إلى الحجاج يكتبها يحيى بن يَعْمَر العَدْوانى ـ فكتب :

« إنّا لَقِينا العدوَّ، فمنحَنا اللهُ أكتافَهم، فقَتَلْنا طائفةً، وأسَرْنا طائفةً، ولحَقَتْ طائفةٌ برءوس الجبال، وعَراعِرِ[3] الأودية، وأهْضَام الغِيطَانِ، وأثْنَاء الأنهار » .

وقال أبو العباس المبرِّد فى الكامل عقب شرحه : « وعراعر الأقوام » الواردة فى كتاب ابن الأشعث السابق :

ومن ذلك كتاب يزيد بن المهلَّب إلى الحجاج بن يوسف :

« وإن العدوَّ نزل بعُرْعُرة الجبل، ونزلْنا بالحضِيض[4] » .

---

(١) ناحية تشتمل على قرى من أعمال هراة .

(٢) وفى ذلك يقول كعب بن معدان الأشقرى من قصيدة :

نفى نيزكا عن باذ غيس، ونيزك ... بمنزلة أعيا الملوك اغتصابها

(٣) عراعر : جمع عرعرة بضم العينين، وعرعرة كل شىء : أعلاه، وأهضام : جمع هضم بالفتح ويكسر وهو المطمئن من الأرض، وبطن الوادى وأسفله، والغيطان جمع غائط : وهو المطمئن الواسع من الأرض، وأثناء جمع ثنى بالكسر، وثنى النهر : منعطفه .

(٤) الحضيض : القرار من الأرض عند منقطع الجبل .

ورواية الجاحظ فى البيان والتبيين :

« إنا لقِينا العدو . فقتلْنا طائفةً ، وأَسَرْنا طائفة ، ولحقت طائفة بعَرائر[1] الأودية ، وأهضام الغيطان ، وبتنا بعُرعُرة الجبل ، وبات العدو بحضيضه » .

فقال الحجاج : ما يزيدُ بأبى عُذْرة هذا الكلام[2] ، فمَن هناك؟ قيل : يحيى بن يَعْمَر ، فكتب إلى يزيد أن يُشْخِصه إليه[3] .

(تاريخ الطبرى ٨ : ٣٩ ، والكامل للمبرد ١ : ١٣٣ ، والبيان والتبيين ١ : ٢٠١)

٢٤٧ — كتب بين الحجاج وعبد الملك ويزيد والمفضل ابنى المهلب

وظهرت مَناقب يزيد وعَظُمت آثاره ، فحسده الحجاج وعمل على عزله ، ولم يكن يتخوف بعد ابن الأشعث غيرَه ، واتفق أن وفد الحجاج إلى عبد الملك ، ثم عاد إلى العراق فمرّ فى مُنْصَرَفه بدَير فنزله ، فقيل له : إن فى هذا الدير شيخا من أهل الكُتُب عالما ، فدعا به وسأله : أتعلَمُ ما إلىّ ؟ قال : نعم ، قال : فمن يَلِيه بعدى ؟ قال : رجل يقال له يزيد ، فوقع فى نفسه أنه يزيد بن المهلَّب ، وارتحل وهو وَجِل من قول الشيخ ،

(١) فسره الجاحظ فقال: « عرائر الأودية : أسافلها » ولم أجده فى كتاب اللغة ، والذى فى لسان العرب : « وعرا الوادى شاطئاه » مثنى « عر » كقفل ، ويلاحظ أنه لا يجمع قياسا على عرائر .

(٢) العذرة: البكارة ، وافتضاض الجارية ، يقال: فلان أبو عذر فلانة وأبو عذرتها: إذا كان افترعها وافتضها ، وما أنت بأبى عذرة هذا الكلام : أى لست بأول من افتضه .

(٣) فحمله يزيد على البريد فقدم عليه أفصح الناس ، فقال له : أين ولدت ؟ قال : بالأهواز ، قال فأنى لك هذه الفصاحة ؟ قال : حفظت كلام أبى وكان فصيحا ، قال : من هناك ؟ فأخبرنى : هل يلحن عنبسة بن سعيد ؟ قال : نعم كثيرا ، قال : ففلان ، قال : نعم ، قال : أتسمعنى ألحن ؟ قال : الأمير أفصح من ذلك ، فأعاد عليه القول وأقسم عليه ، فقال يحيى: نعم تلحن لحنا خفيا تزيد حرفا وتنقص حرفا ، وتجعل أن فى موضع إن ، وإن فى موضع أن ، قال: قد أجلتك ثلاثا ، فإن أجدك بعد ثلاث بأرض العراق قتلتك، فرجع إلى خراسان .

ومما يتصل بذلك ما أورده ابن خلكان فى ترجمة الشعبى فى وفيات الأعيان ١ : ٢٤٤ قال» ويقال إن الحجاج قال له يوما : كم عطاءك فى السنة ؟ قال : ألفين ، قال : ويحك ! كم عطاؤك ؟ فقال : ألفان قال : كيف لحنت أولا ؟ قال : لحن الأمير فلحنت،فلما أعرب أعربت،وما أمكن أن يلحن الأمير وأعرب أنا ، فاستحسن ذلك منه وأجازه » .

وقَدِم فكتب إلى عبد الملك يستعفيه من العراق ، فكتب إليه :

« يابنَ أمّ الحجاج قد علِمْتُ الذى تَغزُو[1] ، وإنك تريد أن تعلم رأيى فيك ، ولعَمْرى إنى لأرَى مَكانَ نافع بن علْقَمة ، فالْهُ عن هذا حتى يأتى اللهُ بما هو آتٍ » .

وأَجْمَعَ الحجاج على عزل يزيد ، فلم يجد له شيئاً ، حتى قَدِمَ الخيار بن سَبْرَة — وكان من فُرسانِ المهلب ، وكان مع يزيد — فقال له الحجاج : أخبِرْنى عن يزيد ، قال : حَسَنُ الطاعة ، ليِّن السيرة ، قال : كَذَبت ، اُصدُقْنِى عنه ، قال : اللهُ أجلُّ وأعظم ، قد أسْرَج ولم يُلْجِمْ ، قال : صدقت ، ثم كتب إلى عبد الملك : يشير عليه بعزل يزيد بن المهلّب ، ويخبره بطاعة آل المهلّب لابن الزبير ، وأنه لا وفاء لهم .

فكتب إليه عبد الملك :

« إنى لا أرى نَقْصًا بآل المهلّب طاعَتَهم لآل الزُّبَيْرِ ، بل أراه وفاء منهم لهم ، وإن وفاءهم لهم يدعوهم إلى الوفاء لى » .

فكتب إليه الحجاج يخوّفه غدرَهم لما أخبره به الشيخ .

فكتب إليه عبد الملك : « قد أكثرت فى يزيد وآلِ المهلّب ، فسَمّ لى رجلا يصلُحُ لخراسان » .

فسمّى له مُجّاعة بن سِعر[2] السَّعْدى — ولم يكن يصلح ، وإنما جعل ذلك دهاء منه حتى لا يعرف ميله إلى قتيبة بن مسلم — .

فكتب إليه عبد الملك : « إنّ رأيك الذى دعاك إلى استفساد آل المهلّب ، هو الذى دعاك إلى مُجّاعة بن سِعر ، فانظر لى رجلا صارما ماضيا لأمرك » .

---

(١) غزاه غزوا: أراده وطلبه وقصده ، ومنه ، مغزى الكلام : أى مقصده .
(٢) وفى سرح العيون « مسعر » .

تسمَّى له قتَيْبة بن مُسْلِم ، فـكتب إليه « ولِّه » .

وبلغ يزيد أن الحجاج عزله ، فقال لأهل بيته : مَنْ تَرَوْن الحجاجَ يُوَلِّى خراسانَ؟ قالوا : رجلا من ثقيف ، قال كلا ، ولـكنه يكتب إلى رجل منـكم بعهده ، فإذا قَدِمْتُ عليه عَزَلَه وولَّى رجلا من قيس ، وأخلِقْ بقُتَيْبة .

فلما أذِن عبد الملك للحجاج فى عزل يزيد كره أن يكتب إليه بعزله، فـكتب إليه: « أن استخلِف المفضَّل وأقبِلْ » .

فاستشار يزيد حُضينَ بن المنذر ، فقال له : أَقِمْ واعتَلَّ ، فإن أمير المؤمنين حسَن الرأى فيك ، وإنما أُوتيتَ من الحجاج ، فإن أقمت ولم تعجَلْ رجوت أن يكتب إليه أن يُقِرَّ يزيد ، قال : إنا أهل بيت بُورك لنا فى الطاعة ، وأنا أكره المعصية والخلاف ، فأخذ فى الجهاز ، وأبطأ ذلك على الحجاج ، فـكتب إلى المفضَّل « إنى قد وليتك خراسان » .

فجعل المفضَّل يستحثّ يزيد ، فقال له يزيد : إن الحجاج لا يُقِرُّك بعدى ، وإنما دعاه إلى ماصنع مخافةَ أن أمتنع عليه ، قال: بل حَسَدتنى ،قال يزيد: يابن بَهْلَةَ(١) أنا أحسُدُك ! ستعلَمَ ، وخرج يزيد فى ربيع الآخر سنة ٨٥ ، فعزل الحجاج المفضل ، وولَّى قُتَيْبة بن مُسْلِم .

وفى رواية أخرى أن الحجاج كتب إلى يزيد « أن اغزُ خُوارَزْم » .

فـكتب إليه : « أيها الأمير إنها قليلة السَّلَب(٢) ، شديدة الـكَلَب » .

فـكتب إليه الحجاج : « استخلِفْ واقْدَمْ » .

فـكتب إليه : « إنى أريد أن أغزوَ خُوارَزم » .

---

(١) هى أم المفضل وأخيه عبد الملك وهى هندية ، — انظر تاريخ الطبرى ٨ : ٧٢ — وأما يزيد فأمه « رحة » — انظر البيان والتبيين ٢ : ٦٧ والعقد الفريد ٢ : ١٥٥ .

(٢) السلب : ما يسلب ، والـكلب فى الأصل : سعار وداء شبه الجنون يصيب الـكلاب ، ويقال : دفعت عنه كلب فلان : أى شره وأذاه ، ومعناه هنا ما ينتاب المحاربين من المتاعب والشدائد .

فكتب إليه : « لاتغزُها فإنها كما وصفت »

فغزا ولم يطعه ، فصالحه أهل خوارزم وأصاب سَبْياً مما صالحوه ، وقفل فى الشتاء فاشتد عليهم البرد ، فأخذ الناس ثياب الأسرى فلَبِسوها ، فمات ذلك السبى من البرد ، فكتب إليه الحجاج أن « اقدَم » فقدِمَ .

(تاريخ الطبرى ٨ : ٤٢ ، وسرح العيون ص١٢٤)

٢٤٨ — كتاب الحجاج إلى أعراب قطعوا الطريق

وبلغ الحجاجَ أن قوماً من الأعراب من عمرو بن تميم وحَنْظلة يفسدون الطريق ، فكتب إليهم :

« من الحجاج بن يوسف ، أما بعد فإنكم قد استخلصتم[1] الفتنةَ فلا عن حَقٍ تُقاتِلون ، ولا عن مُنكَرٍ تنهَوْنَ ، وايمُ الله إنى لأَهُمُّ أن يكون أوّلَ ما يَرِدُ عليكم من قِبَلى ، خَيْلٌ تنسِفُ الطَّارِفَ والتالد[2] ، وتَدَعُ النِّساء أيَامَى[3] ، والأبناء يَتامَى ، والديارَ خَرَاباً ، والسوادَ بياضاً ، فأيُّما رُفقةٍ[4] مَرَّت بأهل ماء ، فأهلُ ذلك الماءِ ضامِنون لماحق تَصِيرَ إلى الماء الذى يَلِيه ، تَقْدِمة منى إليكم ، والسعيد من وُعِظ بغيره ، والسلام » .

فلما بلغهم كتابُه كَفُّوا عن الطريق .

(البيان والتبيين ١ : ٢١٢ ، والعقد الفريد ١ : ١٠٧)

---

(١) استخلصه لنفسه: استخصه ، وفى رواية العقد الفريد « قد استخففتم الفتنة » .

(٢) الطارف : المال المستحدث ، والتالد : المال القديم الأصلى الذى ولد عندك .

(٣) الأيامى : من لا أزواج لهم من الرجال والنساء ، الواحد منهما أيم كطيب ، سواء كان تزوج من قبل أو لم يتزوج ، وامرأة أيم بكرا كانت أو ثيبا .

(٤) الرفقة مثلثة : الجماعة ترافقهم فى سفرك ، والجمع رفاق .

٢٤٩ — كتاب الحجاج إلى عبد الملك

وكتب الحجاج إلى عبد الملك بن مَرْوان :

« وبلغني أن أمير المؤمنين عَطَسَ عَطْسَةً ، فشمَّتَه(١) قوم ، فقال : « يغفر الله لنا ولكم » ، فـ « يا لَيْتَنِي كُنْتُ مَعَهُمْ فَأَفُوزَ فَوْزًا عَظِيماً » .

(الكامل للمبرد ١ : ٢٤٨ ، والعقد الفريد ٣ : ٢٠٠)

٢٥٠ — كتاب الحجاج إلى عبد الملك

وكتب الحجاج إلى عبد الملك بن مروان :

« أما بعدُ : فإنّا نُخبر أمير المؤمنين أنه لم يُصِبْ أرضَنا وَابِلٌ(٢) منذُ كتبتُ أُخبرُه عن سُقْيا الله إيانا ، إلا ما بَلَّ وَجْهَ الأرض من الطَّشِّ(٣) والرَّشِّ والرَّذَاذِ ، حتى دَقِعَت(٤) الأرض واقشعرّت واغبرّت ، وثارَتْ في نواحيها أعاصيرُ(٥) تَذْرُو دُقاقَ الأرض من ترابها ، وأمسكَ الفلاّحون بأيديهم ، من شدة الأرض واعْتِزازها(٦) وامتناعها ، وأرضُنا أرضٌ سريعٌ تغيُّرها ، وشِيكٌ(٧) تنكُّرُها ، سيِّئٌ ظنُّ أهلها عند قُحُوط المطر ، حتى أرسل الله بالقَبُول(٨) يوم الجمعة ، فأثارَتْ زِبْرِجا متقطِّعًا متمصِّرًا ،

---

(١) التشميت والتسميت : الدعاء للعاطس .

(٢) الوابل والوبل : المطر الشديد الضخم القطر .

(٣) الطش والطشيش : المطر الضعيف ، وهو فوق الرذاذ .

(٤) الدقعاء كحمراء : الأرض لا نبات بها ، والتراب ، ويقال : دقع الرجل كفرح وأدقع إذا لصق بالدقعاء فقرا ، والمعنى : قد صارت الأرض دقعاء جرداء خالية من الزرع . واقشعرت الأرض : تقبضت وتجمعت من المحل والجدب

(٥) الأعاصير : جمع إعصار بالكسر ، وهو الريح التي تهب من الأرض كالعمود نحو السماء ، وذرت الريح التراب تذروه : أطارته وأذهبته ، والدقاق ، بالضم ، فتات كل شيء .

(٦) أي شدتها وصلابتها ، والذي في كتب اللغة عزز الشيء واستعزز : اشتد وصلب وغلظ ، وتعزز عليه واستعزز ، استصعب . (٧) أي سريع :

(٨) القبول : ريح الصبا . والزبرج : السحاب الرقيق فيه حمرة . ومتمصرا : أي قليلا متفرقا ، والشمال : الريح تهب من ناحية القطب .

ثم أعقبته الشمالُ يومَ السبت ، فطَخْطَحَت[1] عنه جَهامَه ، وألّفَتْ متقطِّعه ، وجمَّعَتْ متمصِّرَه ، حتى انتضد[2] فاستوَى ، وطَمَى وطَحَى ، وكان جَوْنا مُرْثعِنًّا قريباً رَوَاعِدُه ، واعتدَّت عوائدُه بوابلٍ منهملٍ مُنْسَجِلٍ ، يَرْدَفُ[3] بعضُه بعضًا ، كلما أَرْدَفَ شُؤْبُوبٌ ارتَدَفَتْه شآبيبُ ، لشدة وَقْعه فى العِرَض .

وكتبتُ إلى أمير المؤمنين ، وهى تَرْمى بمثل قِطَع القُطْن ، قد ملأ اليِبَابَ[4] ، وسَدَّ الشِّعابَ ، وسقى منها كلَّ ساقٍ ، ‹الحمد لله الذى أنزل غيثَه ، ونشر رَحْمَته من بعد ما قَنَطوا ، وهو الولىُّ الحميدُ ، والسلام » .

(البيان والتبيين ٣ : ٢٣٥)

٢٥١ — كتاب الحجاج إلى عبد الملك

وكتب الحجاج إلى عبد الملك يُشير عليه أن يستكتب محمد بن يزيد الأنصارى ، وكتب إليه :

« إن أردتَ رجلا مأمونًا ، فاضلاً ، عاقلاً وَديعًا ، مُسْلِمًا ، كَتُوما تتخذه لنفسك ، وتضع عنده سِرَّك ، وما لا تحبُّ أن يظهرَ ، فاتخذ محمد بن يزيد » .

فكتب إليه عبد الملك « احمِلْه إلىّ » فحمَلَه فاتخذه عبد الملك كاتبًا .

قال محمد : لم يكن يأتيه كتاب إلا دفعه إلىّ ، ولا يستر شيئًا إلا أخبرنى به وكَتَمه الناسَ ، ولا يكتب إلى عامل من عماله إلا أعلَمَنيه » .

(تاريخ الطبرى ٨ : ٥٥)

---

(١) طخطح : فرق وبدد ، والجهام : السحاب الذى لا ماء فيه ، أو الذى قد هراق ماءه .

(٢) من نضد المتاع : إذا جعل بعضه فوق بعض ، وأنضاد السحاب : ما تراكم وتراكب منه ، وطمى البحر كرمى وعلا : امتلأ ، وطمى كسعى : انبسط ، والجون : الأسود (والأبيض أيضا) وارثعن المطر : ثبت وجاد ، وعوائده : رواجعه ، وسجل الماء : فانسجل : صبه فانصب .

(٣) ردفه كسمعه ونصره : تبعه كأردفه ، والشؤبوب : الدفعة من المطر ، وارتدفه : ردفه ، والعرض بالكسر : الوادى ، وفى الأصل « فى العراض » جمعا ، ولكن صاحب اللسان قال : « جمعه أعراض ، لا يجاوز » .

(٤) اليباب : الخراب ، والشعاب : جمع شعب بالكسر ، وهو الطريق فى الجبل ، ومسيل الماء فى بطن أرض ، أو ما انفرج بين الجبلين .

٢٥٢ - كتاب عمر بن عبد العزيز إلى عبد الملك

وكتب عمر بن عبد العزيز إلى عبد الملك :

«أما بعدُ ، فإنك راعٍ ، وكل راعٍ مسئول عن رعيته ، حدَّثني أنسُ بن مالك أنه سمع رسول الله صلى الله عليه وسلم يقولُ : « كُلُّ راعٍ مسئولٌ عن رعيته ، « اللهُ لَا إِلٰهَ إِلَّا هُوَ لَيَجْمَعَنَّكُمْ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ لَا رَيْبَ فِيهِ وَمَنْ أَصْدَقُ مِنَ اللَّهِ حَدِيثًا » .

فغضب عبد الملك حين بدأ باسمه ، فقيل له : إنه كان يفعل ذلك مع من قبلك ، فسكن غضبُ عبد الملك .

(سيرة عمر بن عبد العزيز لابن الجوزى ص: ٣٦)

٢٥٣ - كتاب عبد الملك إلى ابنه مسلمة

واستبطأ عبد الملك بن مروان ابنَه مَسْلَمَة فى مَسِيره إلى الروم ، فكتب إليه :

لِمَن الظُّعائنُ سَيْرُهن تَزَحُّفُ   سَيْرَ السَّفِين إذا تقاعسُ تُجْدَفُ[(١)]

٢٥٤ - رد مسلمة عليه

فلما قرأ مسلمة الكتاب كتب إليه :

ومستعجِبٍ مما يَرَى من أَنَاتِنا   ولو زَبَنَتْهُ الحرب لم يَتَرَمْرَمِ[(٢)]

(البيان والتبيين ٣ : ٩٦)

---

(١) تزحف : أى مشى فيه بطء وثقل حركة . والسفين ، جمع سفينة . تقاعس : تأخر . تجدف تسير بالمجداف .

(٢) زبنت الناقة حالبها كضرب : ضربته برجلها ودفعته فهى زبون بالفتح ، وزبنت الحرب الناس صدمتهم ودفعتهم على التشبيه بالناقة فهى زبون أيضا . وترمرم : تحرك للكلام ولم يتكلم. وقد روى أن معاوية كتب هذا البيت جوابا لكتاب جاءه من الوليد بن عقبة يستبطئه فى الطلب بدم عثمان ويحرضه على قتال على ، والبيت لأوس بن حجر - انظر الجزء الأول ص ٣٤٧ .

٢٥٥ — كتاب عبد الملك بن مروان إلى بعض ولده

وكتب عبد الملك بن مروان إلى بعض ولده ـ وقد خالفه فى شىء ـ :

« أما بعدُ ، فإنى أمرتك بأمرٍ فأتيتَ غيرَه ، ووصَّيتك بوصية فأبيتَ إلا عصيانها[1] ، وخِفتُ أنك بمنزلة الصبى الذى إذا أُمِرَ بشىء أباه ، وإذا نُهِىَ عن شىء أتاه ، فيُحْتال له فيما ينفعه بأن يُنْهَى عنه ، وفيما يضرُّه بأن يُؤْمَر به ، ويا سَوْءتى لمن هذه حاله ! والسلام » . (أدب الكتاب ص٢٣٦)

٢٥٦ — كتاب الحجاج إلى عبد الملك

وكان عُرْوة بن الزُّبَيْر عاملا على اليمن لعبد الملك بن مَرْوانَ ، فاتَّصَلَ به أن الحجاج مُجْمِعٌ على مطالبته بالأموال التى بيده وعَزْله عن عمله ، ففرَّ إلى عبد الملك ، وعاذَ به تخوفًا من الحجاج ، واستِدْفاعًا لِضَرَره وشَرِّه ، فلما بلغ ذلك الحجاجَ كتب إلى عبد الملك بن مَرْوان :

« أما بعدُ : فإن لواذَ[2] المُعْتَرِضين بك ، وحُلُولَ الجانحين إلى المُكْثِ بساحتك ، واستِلانتَهم دَمَثَ[3] أخلاقك ، وسَعَةَ عَفْوِك ، كالعَارِض[4] المُبْرِق لأعدائه لا يَعْدَم له شائمًا[5] ، رَجاءَ استمالةِ عفوِك ، وإذا أُدْنِىَ الناس بالصفح عن الجرائم ، كان ذلك تمرينًا لهم على إضاعة الحقوق مع كل ضَالّ ، والناسُ عَبِيدُ العصَا ، هم على الشدة أشدّ استِباقًا منهم على اللين ، ولنا قِبَلَ عُرْوَة بن الزُّبير مالٌ من مال الله ، وفى استخراجه منه

---

(١) فى الأصل « إلا عصيته » وهو تحريف .

(٢) لاذبه لوذا ولواذا ولياذا ، لجأ إليه وعاذبه ، وفى الأصل « لوذان » ولم أجده فى كتب اللغة مصدرا ، وإنما الذى فيها ، « ويقال هو بلوذان كذا بفتح اللام وسكون الواو أى بناحية كذا » ومعناه هنا غير مناسب ولذا جعلته (لواذا) .

(٣) دمث دمثا كفرح فهو دمث : لان وسهل . والدماثة ، سهولة الخلق .

(٤) العارض : السحاب المعترض فى الأفق .

(٥) شام البرق : نظر إليه أين يقصد وأين يمطر ؟ .

قَطْعٌ لِطَمَعِ غيره ، فلْيَبْعَثْ به أميرُ أمير المؤمنين إن رَأى ذلك ، والسلام » .

فلما قرأ الكتاب ، بَعَثَ إلى عُرْوَةَ ، ثم قال له : إن كتاب الحجاج قد وَرَد فيك ، وقد أَبَى إلا إشْخَاصَكَ(١) إليه ، ثم قال لرسول الحجاج : شأْنَك به ، فالتفت إليه عُروةُ مُقبِلًا عليه ، وقال : أمَا واللهِ ما ذَلَّ وخَزِى مَن مات ، ولكن ذَلَّ وخَزِى مَنْ مَلَكْتموه ! واللهِ لئن كان المُلْكُ بجوازِ الأمر ونفاذِ النَّهْى ، إن الحجاج لَسُلْطَانٌ عليك ، يُنفِذُ أمورَه دون أمورك ، إنك لَتُرِيد الأمرَ يَزِينُك عاجِلُه ، وَيَبْقَى لك أُكرومةً(٢) آجِلُه ، فيَجْذِبُك عنه ، ويلقاه دونك ، ليتولَّى من ذلك الحكمَ فيه ، فيَحْظَى بشرفِ عفوٍ إن كان ، أو بجُرْمِ عقوبةٍ إن كانت ، وما حارَبَك مَنْ حاربك إلا على أمرٍ هذا بَعْضُه .

فنظر فى كتاب الحجاج مرةً ، ورفع بَصَرَه إلى عُرْوة تارةً ، ثم دعا بدَوَاة وقِرْطاس ، فكتب إليه :

٢٥٧ — رد عبد الملك على الحجاج

« أما بعدُ : فإن أمير المؤمنين رآك — مع ثِقَته بنصيحتك — خابِطًا فى السِّياسة خَبْطَ عَشْواء(٣) الليل ، فإن رَأْيك الذى يُسَوِّل لك أن الناس عَبيدُ العصا ، هو الذى أخرج رِجالاتِ العرب إلى الوثوب عليك ، وإذا أَخْرَجْتَ العامة بِعُنْفِ السياسة ، كانوا أوشكَ(٤) وُثُوبًا عليك عند الفُرْصة ، ثم لا يلتفتون إلى ضلال الداعِى ولا هُداه ، إذا رجَوْا بذلك إدراكَ الثَّأْر منك ، وقد وَلِيَتِ العراقَ قبلَك ساسَةٌ ، وهم يومئذ أَحْمَى أنوفا ، وأقربُ من عَمْياءِ الجاهلية ، وكانوا عليهم أصلحَ منك عليهم ، وللشِّدَّة واللِّين أهْلُون ، والإفراطُ فى العفو أفضل من الإفراط فى العقوبة ، والسلام » .

(العقد الفريد ٣ : ١٧)

---

(١) إرسالك . (٢) الأكرومة : فعل الكرم ، أفعولة من الكرم كأعجوبة من العجب .
(٣) العشواء : الناقة التى لا تبصر أمامها ، فهى تخبط بيديها كل شىء . (٤) أسرع .

٢٥٨ — كتاب عبد الملك إلى الحجاج

وروى صاحب العقد الفريد قال :

حَدَّث سَعِيد بن جُوَيْرِيَة قال : خرجَتْ خارجةٌ على الحجَّاج بن يوسف ، فأرسلَ إلى أنَسِ بن مالكٍ أن يخرج معه فأبى ، فكتب إليه يشتِمُه ، فكتب أنس بن مالك إلى عبد الملك بن مَرْوَانَ يشكوه ، وأدرج كتاب الحجاج فى جَوْفِ كتابه .

قال إسماعيل بن عبد الله بن أبى المهاجر : بعث إلىّ عبد الملك بن مَرْوان فى ساعةٍ لم يكن يَبْعَث إلىّ فى مِثْلِها ، فدخلتُ عليه ، وهو أشدُّ ما كان حَنَقا وغيظا ، فقال : يا إسمعيل ، ما أشدَّ علىَّ أن تقول الرعيةُ : ضَعُف أميرُ المؤمنين ، وضاق ذَرْعُه فى رجل من أصحاب النبى صلى الله عليه وسلم ، لا يقْبَلُ له حَسَنة ، ولا يتجاوَزُ له عن سيِّئة .

فقلت : وما ذاكَ يا أمير المؤمنين ؟ قال : أَنَس بن مالك خادم رسول الله كتب إلىَّ يَذْكُر أن الحجاج قد أضَرَّ به ، وأساء جواره ، وقد كتبت فى ذلك كتابين : كتابا إلى أنس بن مالك والآخر إلى الحجاج ، فاقبِضْهما ثم اخرج على البَرِيد ، فإذا وَرَدْتَ العراق فابدأْ بأنس بن مالك، فادفع له كتابى، وقل له : اشتدَّ على أمير المؤمنين ما كان من الحجاج إليك ، ولن يأتىَ إليك أمرٌ تكرَهه إنْ شاء الله ، ثم آتِ الحجاجَ فادفع إليه كتابَه وقل له : قد اغتَرَرْتَ بأمير المؤمنين غِرّةً لا أظنه يُخْطِئُك شَرُّها ، ثم افهم ما يتكلم به ، وما يكون منه ، حتى تُفْهِمَنِى إياه إذا قَدِمْتَ علىّ إن شاء الله .

قال إسماعيل : فقبضت على الكتابين وخرجت على البريد ، حتى قَدِمْتُ العراقَ فبدأْتُ بأنس بن مالك فى منزله ، فدفعتُ إليه كتاب أمير المؤمنين ، وأبلغتُه رسالتَه ، فدعا له وجَزَاه خيرًا ، فلما فرغ من قراءة الكتاب ، قلت له : أبا حمزة ، إن الحجاج عامِلٌ ، ولو وُضِع لك فى جامِعَةٍ[1] لقَدَر أن يَضُرّك وينفعك . فأنا أريد أن تصالحه

(١) الجامعة : القيد .

قال : ذٰلِكَ إليكَ . لا أخرُجِ عن رأيك ، ثم أتيتُ الحجاج ، فلما رآنى رَحَّب بى وقال : واللهِ لقد كُنْتُ أحِبّ أن أراك فى بلدى هذا ، قلت : وأنا واللهِ قد كنت أحبُّ أن أراك ، وأقْدَمَ عليك بغير الذى أرسِلْتُ به إليك ، قال : وما ذاك ؟ قلتُ : فارقْتُ الخليفةَ وهو أغضبُ الناس عليك ، قال : ولِمَ ؟ قال : فدفعتُ إليه الكتاب ، فجعل يقرؤه وجَبِينُهُ يَعْرَق ، فيمسحه بيمينه ، ثم قال : اركب بنا إلى أنس بن مالك ، قلت له : لا تفعلْ ، فإنى سأتلطَّف به حتى يكونَ هوالذى يأتيك ـ وذلك لِلَّذى أشرتُ عليه من مصالحته ـ قال : فألقى كتاب أمير المؤمنين ، فإذا فيه :

* * *

« بسم الله الرحمن الرحيم ، من عبد الله عبد الملك بن مرْوان إلى الحجاج بن يوسف ، أما بعدُ : فإنك عبدٌ طَمَتْ[1] بِكَ الأمورُ فطغيْتَ ، وعَلَوْتَ فيها حتى جُزْتَ قَدْرَكَ ، وعدَوْتَ طَوْرَكَ[2] ، وايمُ الله ياابنَ المُسْتَفْرِمَةِ[3] بِعَجَمِ زَبيب الطائف ، لَأَغْمِزَنَّكَ كبعض غَمَزَاتِ اللُّيُوثِ الثَّعالِبَ ، وَلَأَرْكُضَنَّكَ رَكْضَةً تَدْخُل منها فى وَجارِكَ[4] ، اذكر مكاسِبَ آبائك بالطائف ، إذ كانوا يَنْقُلون الحجـارة على أكتافهم ، وَيحْفِرُون الآبار والمناهِلَ[5] بأيديهم ، فقد نَسِيتَ ما كنتَ عليه أنت وآباؤك من الدناءة واللؤم والضَّرَاعة[6] ، وقد بلغ أمير المؤمنين استطالةٌ منك على أنس ابن مالك خادمِ رسول الله صلى الله عليه وسلم ، جُرْأَةً منك على أمير المؤمنين ، وغِرَّةً

---

(١) ورواية صبح الأعشى « علت » وهى معناها ، من طمى الماء إذا علا ، والنبت إذا طال: أى ارتقى منصبك فى الدولة فطغيت ، وفى غرر الخصائص « طفت » أى علت أيضاً .

(٢) أى وجاوزت حدك . (٣) انظر هامش ص ١٨٣ .

(٤) الوجار فى الأصل : جحر الضبع وغيرها ، وفى صبح الأعشى « فى وجعاء أمك » والوجعاء كحمراء : الدبر .

(٥) المناهل : جمع منهل كمقعد وهو المشرب ، وفى صبح الأعشى « والمناهر » جمع منهر كمقعد أيضا وهو موضع النهر .

(٦) الذل .

بمعرفة غِيَره ونِقْماته وسَطَواته على من خالفَ سبيلَه ، وعَمَد إلى غير مَحَجَّته[١] ، ونَزَل عند سَخَطاته .

وأظنُّك أردتَ أن تَرُوزَه[٢] بها ؛ لتعلم ما عنده من التغيير والنكير فيها ، فإن سُوِّغْتَها[٣] مضيتَ قُدُمًا ، وإن غَصِصْتَ بِهَا ولَّيْتَ دُبُرًا ، فعليك لعنةُ اللهِ من عَبْدٍ أخفَشٍ[٤] العينين ، أصَكِّ الرِّجْلين ، ممسُوح الجَاعِرَتين، وايمُ اللهِ لو أن أمير المؤمنين علم أنك اجْتَرَمْتَ منه جُرْمًا ، وانتهكتَ له عِرْضًا فيما كتب به إلى أمير المؤمنين ، لبعث إليك من يَسْحَبُك ظَهْرًا لبطنٍ ، حتى ينتهى بك إلى أنسِ بن مالك ، فيَحْكُمَ فيك بما أحبَّ ، ولن يَخْفَى على أمير المؤمنين نَبَؤُك[٥] ، ولِكُلِّ نَبَإٍ مُسْتَقَرٌّ وَسَوْفَ تَعْلَمُونَ » .

قال إسماعيل : فانطلقتُ إلى أنسٍ فلم أزَلْ به حتى انطلق معى إلى الحجاج ، فلما دخلْنا عليه قال: يَغفِر اللهُ لك أبا حَمْزَةَ ، عَجِلْتَ باللائمة، وأغضبْتَ علينا أميرَ المؤمنين! ثم أخذ بيده ، فأجلسه معه على السرير ، فقال أنس : إنك كنت تزعم أنّا الأشرار ! واللهُ سَمّانا الأنصار ، وقلت : إنّا من أبخَل الناس ! واللهُ يقولُ فينا : « وَيُؤْثِرُونَ عَلَى أَنْفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ[٦] » وزعَمْتَ أنّا أهل نِفاق ! والله تعالى يقول فينا : « وَالَّذِينَ تَبَوَّءُوا الدَّارَ وَالْإِيمَانَ مِنْ قَبْلِهِمْ يُحِبُّونَ مَنْ هَاجَرَ إِلَيْهِمْ ، وَلَا يَجِدُونَ فِى صُدُورِهِمْ حَاجَةً مِمَّا أُوتُوا » . فكانَ المَخرَجُ والمشتكَى فى ذلك

---

(١) المحجة : جادة الطريق ، وفى العقد الفريد « محبته » .

(٢) رازه روزا : جربه ، وفى غرر الخصائص : « وركبت داهية دهاء أردت أن تروزنى بها ، فإن سوغتكها مضيت قدما ، وإن لم أفعل رجعت القهقرى » .

(٣) يقال : سوغه ما أصاب : أى تركه له خالصا ، والمعنى : فإن أقرك على ما قد فعلت .

(٤) وصف من الخفش بالتحريك: وهو ضيق فى العين وضعف فى البصر خلقة ، والأصك : وصف من الصكك بالتحريك : وهو أن تضرب إحدى الركبتين الأخرى عند العدو فتؤثر فيها أثرا ، ومصك أيضا كمقص ، والجاعرتان : لحمتان تكتنفان أصل الذنب ، وهما من الإنسان فى موضع رقمتى الحمار (ويقال للنكتتين السوداوين على عجز الحمار : الرقمتان) .

(٥) وفى غرر الخصائص : فإذا أتاك كتابى هذا فكن لأنس أطوع من عبد لسيده ، وإلا أصابك منى سهم مشكل ، ولكل نبأ ... الخ » . (٦) الخصاصة : الحاجة والفقر .

إلى الله وإلى أمير المؤمنين ، فتولَّى من ذلك ما وَلَّاه الله ، وعَرَفَ من حقنا ما جهلت، وحفِظَ منا ما ضَيَّعْتَ ، وسيحكم فى ذلك ربٌّ هو أرْضَى للمُرْضِى ، وأسخَط للمُسْخِط ، وأقدَر على الغِيَرِ فى يوم لا يشُوبُ الحقَّ عنده الباطلُ ، ولا النورَ الظلْمَةُ ، ولا الهُدَى الضلالةُ ، وَاللهِ لو أن اليهود أو النصارى رأت مَنْ خَدَمَ موسى بن عِمْرانَ أو عيسى ابن مريم يوما واحدا ، لرأتْ له مالم تَرَوْا لِي فى خدمة رسول الله صلى الله عليه وسلم عَشْرَ سنين .

قال : فاعتذر إليه الحجاج وتَرَضَّاه حتى قَبِلَ عُذْرَه ، ورضى عنه ، وكتب بِرضاه وقبولِه عُذْرَه ، ولم يزل الحجاج له معظِّما هائبا له ، حتى هَلَكَ رضى الله عنه .

٢٥٩ — رد الحجاج على عبد الملك

وكتب الحجاج إلى أمير المؤمنين عبد الملك بن مروان :

« بسم الله الرحمن الرحيم ، لعبد الله عبد الملك بن مروان :

« أما بعد : أصلح الله أمير المؤمنين وأبقاه ، وسَهَّل حَظَّه وحاطَه[1] ولا أعدَمَناه ، فإن إسمعيل بن أبى المهاجر رسول أمير المؤمنين — أعزَّ الله نصرَه — قَدِم علىَّ بكتاب أمير المؤمنين — أطال الله بقاءه — وجعلنى من كل مكروهٍ فداءهُ — يَذْكُر شَتْمى وتوبيخى بآبائى ، وتعييرى بما كان قبلَ نُزُول النعمة بِى من عند أمير المؤمنين — أتمّ الله نعمتَه عليه ، وإحسانَه إليه — ويذكر أمير المؤمنين — جعلنى الله فِداءه — استطالةً منى على أنس بن مالك خادم رسول الله صلى الله عليه وسلم ، جُرْأة على أمير المؤمنين ، وغِرَّةً بمعرفة غِيَرِه ونِقْماته وسَطَواته على من خالف سبيله ، وعَمَد إلى غير مَحَجَّته ، ونزل عند سَخْطته ، وأمير المؤمنين — أصلحه الله — فى قرابته من محمد رسول الله — صلى الله عليه وسلم — إمامِ الهدى وخاتَمِ الأنبياء ، أحقُّ من أقال عَثْرَتى ، وعفا

(١) صانه وحفظه .

عن ذنبي ، وأمهلني ولم يعجلني عند هفوتي ، للذي جبل عليه من كريم طبائعه ، وما قلده الله من أمور عباده ، فرأى أمير المؤمنين ـ أصلحه الله ـ في تسكين روعتي ، وإفراج كربتي ، فقد مُلئتُ رُعبًا وفَرَقًا[1] من سطوته ، وفجاءة نقمته[2] ، وأميرُ المؤمنين ـ أقاله الله العثرات ، وتجاوز له عن السيئات ، وضاعف له الحسنات ، وأعلى له الدرجات ـ أحقُّ من صفح وعفا ، وتغمَّد[3] وأبقى ، ولم يُشمِت بي عدوًّا مُكِبًّا[4] ، ولا حسودًا مُضِبًّا[5] ، ولم يجرِّعني غُصَصًا ، والذي وصفَ أميرُ المؤمنين من صنيعته إليَّ ، وتنويهه[6] بي ، بما أسند إليَّ من عمله ، وأوطأني من رقاب رعيَّته ، فصادقٌ فيه ، مَجْزِيٌّ بالشكر عليه ، والتوسُّل مني إليه بالولاية ، والتقرُّب له بالكفاية .

وقد عاين إسماعيل بن أبي المهاجر رسولُ أمير المؤمنين وحاملُ كتابه ، مِنْ نزولي عند مَسَرَّة أنس بن مالك ، وخضوعي عند كتاب أمير المؤمنين ، وإقلاقه إياي ، ودخوله بالمصيبة عليَّ ، ما سيُعلِمه أميرَ المؤمنين ويشهد إليه ، فإن رأى أمير المؤمنين ـ طوّقني الله بشكره ، وأعانني على تأدية حقه ، وبلّغني إلى ما فيه موافقةُ مرضاته ، ومدَّ لي في أجله ، أن يأمر لي بكتاب مِنْ رضاه وسلامةِ صدره ، يُؤَمِّنني به من سَفْك دمي ، ويردّ ما شَرَدَ من نومي ، ويطمئنُّ به قلبي ، فعلَ ، فقد وَرَد عليَّ أمرٌ جليلٌ خَطْبُه ، عظيمٌ أمره ، شديدٌ عليَّ كَرْبُه ، أسأل الله أن لا يُسْخِطَ أمير المؤمنين عليَّ ، وأن يُبْلِيه في حزمه ، وعزمه ، وسياسته ، وفراسته ، ومواليه ، وحشمه ، وعُمَّاله ، وصنائعه ، ما يحمَدُ به حُسْنَ رأيه ، وبُعد همته ، إنه وليُّ أمير المؤمنين ، والذابُّ عن سلطانه ، والصانع له في أمره ، والسلام » .

---

(١) خوفا . (٢) وفي صبح الأعشى « وقحمات نقماته » جمع قحمة بالضم وهي المهلكة .
(٣) تغمد فلانا وغمده بالتشديد : ستر ما كان منه .
(٤) مكبا : أي على التنقيب عن سيئاتي وارتقاب ما ينوبني من الخطوب ، من أكب عليه إذا أقبل ولزم .
(٥) الضب بالفتح ويكسر : الغيظ والحقد ، وأضب : حمل الضب .
(٦) نوه فلان بفلان : إذا رفعه وطير به وقواه ، ومنه قوله :

ونوهت لي ذكرى وما كان خاملا ولكن بعض الذكر أنبه من بعض

فحدّث إسماعيل أنه لما قرأ أمير المؤمنين الكتابَ ، قال : يا كاتبُ أفرِخْ رُوعَ[1] أبي محمد ، فكتب إليه بالرضا عنه .

(العقد الفريد ٣ : ١٤ ، وصبح الأعشى ٦ : ٣٨٩ و ٤٧٨ ، وغرر الخصائص الواضحة ص ٧٣)

رواية أخرى لكتاب عبدالملك

وروى أن الحجاج قال لِأنَس بن مالك حين دخل عليه فى شأن ابنه عبد الله ـ وكان خرج مع ابن الأشعث ـ : لا مَرْحَباً بك ولا أهلا ، لَعَنَةُ اللهُ عليك من شيخ جوّالٍ فى الفتنة ـ مرّةً مع أبى تُراب[2] ، ومرةً مع ابن الأشعث ، واللهِ لأقْلَعَنَّكَ قَلْعَ الصَّمْغَة[3] ، وَلأجْزُرَنَّكَ جَزْرَ الهُرْب[4] ، وَلأُعْصِبَنَّكَ عَصْبَ السَّلَمَة[5] ، وَلأجَرِّدَنَّكَ تجريدَ الضَّبِّ[6] » . قال أنس : مَن يَعْنِي الأميرُ ، أبماهُ اللهُ ؟ قال : إياك أعنى ، أصَمَّ اللهُ صَدَاكَ[7] .

قال : فكتب أنس بذلك إلى عبد الملك ، فكتب عبد الملك إلى الحجاج :

« بسم الله الرحمن الرحيم ، يابن المُسْتَفْرِمَة بِعَجَمِ الزَّبِيب ، واللهِ لقد هَمَمْتُ أن أرْكُلَكَ[8] برجلى رَكْلَةً تَهْوِى بها فى نار جهنم ، وأضْغَمكَ[9] ضَغْمَةً كبعض ضَغَمات

---

(١) الروع : القلب أو موضع الفزع منه ، وأفرخ روعه : أى هدأ قلبه وسكنه وأمنه .

(٢) كنية الإمام على كرم الله وجهه .

(٣) قال الجاحظ فى موضع آخر (ج ١ : ص ٢٠٠) : لأن الصمغة اليابسة إذا فرقت عن الشجرة اقتلعت اقتلاع الجلبة » (والجلبة بالضم : القشرة تعلو الجرح عند البرء) .

(٤) الهرب بالضم : ثرب البطن بالفتح ، وهو شحم رقيق يغشى الكرش والأمعاء .

(٥) السلمة : واحدة السلم ، وهو شجر كثير الشوك قال الجاحظ أيضا (ج ٣ :ص ٢١) : «وذلك لأن الأشجار تعصب أغصانها ثم تخبط بالعصى لسقوط الورق وهشيم العيدان » .

(٦) قال صاحب اللسان فى مادة جرد: « أى لأسلخنك سلخ الضب،لأنه إذا شوى جرد من جلده، ويروى : لأجردنك بتخفيف الراء وضمها » .

(٧) أصم الله صداه : أى أهلكه ، الصدى : الصوت الذى يسمعه المصوت عقيب صياحه يرده عليه الجبل أو المكان المرتفع العالى ، ثم استعير للهلاك ، لأنه إنما يجاوب الحى ، فإذا هلك الرجل صم صداه كأنه لا يسمع شيئا فيجيب عنه .

(٨) ركله : ضربه برجله . (٩) ضغمه كنم عضه .

الليوثِ الثعالبَ ، وأخبِطَك خَبْطَةً تَودّ أنك زاحمتَ مخرَجك من بطن أمك ، قاتَلَكَ اللهُ،[1] أُخَيْفِشَ[2] العينين ، أصكَّ الرجلين ، أسْوَدَ الجَاعِرَتين ، والسلام » .

(البيان والتبيين ١ : ٢٠٥ ، ومجمع الأمثال ٢ : ٨٩)

٢٦٠ — كتاب عبد الملك بن مروان إلى الحجاج

وروى صاحب العقد قال :

قال أبو عثمان عمرو بن بَحْر الجاحظ : كان عبد الملك بن مروان سِنَانَ قريش وسيْفَها رأيا وحَزْما ، وعابِدَها قبل أن يُسْتَخْلَفَ وَرَعا وزُهْدًا ، فجلس يومًا فى خاصَّته فقبَضَ على لحيته فشمَّها مَلِيًّا ، ثم اجترَّ نفَسَه ، ونَفَخ نَفخةً أطالها ، ثم نظر فى وجوه القوم فقال : « ما أقولُ يوم ذِى المسألة عن أمر الحجاج، وأُدْحِضَ المحتجّ عَلَى العليم[3] بما طوَته الحُجُبُ ؟ أمَا إنّ تمليكى له قرَنَ بى لَوْعةً يَحُثُّها التّذكار ! كيف وقد علِمْتُ فتعامَيْتُ ، وسَمِعْتُ فتصامَمْتُ ، وحمَله الكرام الكاتبون ! والله لكأنى آلَفُ ذَا الطَّعْنَ على نفسى ، بعد أن نمتِ الأيامُ بتصرُّفها أنفُسًا حقّ لها الوعيدُ بتصرُّم الزوال، وما أبقَت الشُّبْهَةُ الباقى مُتعلّقا ، وما هو إلا الغِلُّ الكامن ، والغِشُّ المندمِلُ من ذى النفس بحَوْبها[4] ، اللهم أنت لى أوسعُ ، غيرَ منتصِرٍ ولا مُعتذِرٍ » يا كاتبُ ، هات الدَّواةَ والقِرْطاس ، فقعد كاتبه بين يديه وأملى عليه :

« بسم الله الرحمن الرحيم ، من عبد الله عبد الملك بن مَرْوان إلى الحجاج بن يوسف ، أما بعدُ ، فقد أصبحتُ بأمرك بَرِمًا[5] ، يُقْعِدنى الإشفاقُ ، ويُقِيمنى الرجاء ، عَجَزتُ فى دار السَّعة ، وتوسُّطِ الملك ، وحينَ المَهَل ، واجتماع الفِكَر ، ألتمِس العذرَ فى أمرك ،

---

(١) قاتله الله : قتله ، وقيل لعنه . وقيل عاداه . (٢) تصغير أخفش ، وقد تقدم معناه .

(٣) أدحضت حجته : أبطلتها . على العليم أى على الله العليم .

(٤) الحوباء روع القلب بضم الراء أى سواده ، قال الشاعر : « ونفس تجود بحوبائها » . والحوبا أيضا : النفس . (٥) برم به كفرح : ضجر .

فَأَنا لَعَمْرُ اللهِ فى دار الجزاء ، وعدمِ السلطان واشتغالِ النفس ، والركونِ إلى الذلة من نفسى ، والتوقع لما طُوِيَتْ عليه الصُّحُفُ ، أَعْجَزُ ، وقد كنت أشركتك فيما طوّقنى اللهُ حَمْلَه ، ولاَثَ بحقْوِى[1] من أمانة الله فى هذا الخلق المَرْعىّ ، فدُلْتَ منه على الحزم والجِدِّ فى إماتة بِدعةٍ ، وإنعاشِ سُنَّـة ، فقعَدتَ عن تلك ، ونهضْتَ بما عانَدها[2] ، حتى صِرْتَ حُجَّةَ الغائب ، وعذرَ اللاعنِ والشاهد القائم .

فلَعَن اللهُ أبا عَقِيلٍ[3] وما نَجَلَ ، فألأَمُ والِدٍ ، وأخْبَثُ نَسْلٍ ، فلعمرى ما ظلمَكم الزمانُ ، ولا قَعدتْ بكم المَراتبُ ، لقد ألبَسْتكم مَلْبَسَكم ، وأقعدتكم على رَوَابى خِطَطِكم[4] ، وأحلَلْتكم على مَنَعتكم ، فمن حافرٍ وناقلٍ وماتِحٍ[5] للفلَواتِ القفرة المُتَفَيْهِقةِ[6] ، ما تَقَدَّم فيكم الإسلامُ ، ولقد تأخرتم[7] ، وما الطائفُ منا ببعيدٍ يُجْهَل أهلُه ، ثم قمتَ بنفسك ، وطمَحتَ بهمَّتك ، وسرَّك انتضاؤه[8] سيفك ،

---

(١) الحقو بالفتح ويكسر : الكشح ومعقد الإزار ، ولاث بحقوى : أى لف وعصب ، لاث الشيء لوثا : أداره مرتين كما تدار العمامة والإزار ، قال النابغة :

تلوث بعد افتضال البرد مئزرها لوثا على مثل دعص الوملة الهارى

(٢) خالفها وجانبها ، (٣) هو جد الحجاج، ذكر ابن خلكان فى وفيات الأعيان ـ ج١ : ص ١٢٣ ـ فى نسبه أنه الحجاج بن يوسف بن الحكم بن عقيل بن مسعود بن عامر . . . ـ انظر أيضاً سرح العيون ص ١١٢ ـ . ونجله : ولده .

(٤) الخطط جمع خطة بالكسر : وهى الأرض التى تنزلها ولم ينزلها نازل قبلك .

(٥) متح الماء : نزعه .

(٦) هكذا فى الأصل، يريد المتسعة،وتفيهق فى الكلام : توسع فيه،مأخوذ من الفهق وهو الامتلاء، كأنه ملأ به فمه ، وأرى أن صوابه « المنفهقة » من انفهق الشيء إذا اتسع ، ويقال أيضاً مفازة فيهق أى واسعة ، والفيهق : الواسع من كل شيء .

(٧) كانت ثقيف من القبائل التى تأخرت فى إجابة دعوة الإسلام،وكانت ممن آذى النبى عليه الصلاة والسلام أبلغ الإيذاء . وذلك أنه لما مات أبو طالب نالت قريش من رسول الله ما لم تكنها تنله فى حياته،فخرج عليه الصلاة والسلام إلى ثقيف بالطائف يرجو منهم أن يسلموا وينا صروه على قومه ، لأنهم أقرب الناس إلى مكة وله فيهم خؤولة، وكلم رؤساءهم وساداتهم فيما جاءهم به،فردوا عليه ردا قبيحا ولم ير منهم خيرا،فطلب إليهم ألا يشيعوا ذلك عنه لئلا تعلم قريش فيشتد أذاهم له ، فلم يفعلوا بل أرسلوا سفهاءهم وغلمانهم وراءه يرمونه بالحجارة حتى أدموا عقبه ، وكان مولاه زيد بن حارثة درأ عنه ، ومازالوا على جاهليتهم حتى فتح رسول الله مكة سنة ٨هـ ودخل العرب فى دين الله أفواجا ، فوفدت عليه ثقيف فى رمضان سنة ٩ هـ وأسلمت مع من أسلم . (٨) انتضى السيف : سله .

فاستخرَجك أميرُ المؤمنين من أعوان رَوْح بن زِنْباع وشُرَطه[١] ، وأنت على معاونته يومئذٍ محسودٌ ، فهَفا أمير المؤمنين — واللهُ يُصْلِحُ بالتوبة والغُفْران زَلَّتَه — وكان ما لو لم يكن لكان خيرًا مما كان ، كلُّ ذلك من تجاسُرِكَ وتحامُلِك على المخالفة لرأْى أمير المؤمنين ، فصَدعْتَ صَفَاتنا[٢] ، وهَتَكْتَ حُجُبنا ، وبَسَطْتَ يديك تَحفِنُ بهما

---

(١) الشرط: أعوان الولاة واحدها شرطة كغرف وغرفة ، وكان أول ما ظهر من أمر الحجاج أنه اتصل بروح بن زنباع الجذامى ، فكان فى عديد شرطته (وكان روح وزير عبد الملك ، وبمنزلة نائبه) ثم إن عبد الملك ، توجه إلى الجزيرة لقتال زفر بن الحارث الكلابى عند ما عصى عليه بقرقيسياء كاقدمنا، فشكا ما رآى من انحلال العسكر وأن الناس لا يرحلون برحيله ولا ينزلون بنزوله ، فقال له روح بن زنباع : يا أمير المؤمنين ، إن فى شرطتى رجلا لو قلده أمير المؤمنين أمر عسكره لأرحلهم برحيله،وأنزلهم بنزوله ، يقال له الحجاج بن يوسف،قال : فإنا قد قلدناه ذلك ، فكان لايقدر أحد أن يتخلف عن الرحيل والنزول إلا أعوان روح بن زنباع ، فمر يوما بعد رحيل العسكر بجماعة من خواص غلمان روح فى خيمة يأكلون ، فقال لهم : ما منعكم أن ترحلوا برحيل أمير المؤمنين ؟ فسخروا منه إدلالا بمحلهم ومحل سيدهم. وقالوا له : انزل يابن اللخناء فكل معنا (واللخن بالتحريك : قبح ريح الفرج ، وامرأة لخناء ، ويقال اللخناء : التى لم تختن ، وهى من شتم العرب ، كأنهم يقولون : يادنىء الأصل ، أو يالئيم الأم) . فقال: هيهات ! ذهب ما هنالك ، وضرب بسيفه أطناب الخيمة فسقطت عليهم ، وأطلق فيها نارا فأحرقت أثاثهم عليهم ، وأمر بهم فجلدوا بالسياط وطوفهم فى العسكر ، فدخل روح بن زنباع على عبد الملك باكيا ، فقال له : مالك ؟ فقال:يا أمير المؤمنين ، الحجاج بن يوسف الذى كان فى عديد شرطتى ضرب عبيدى ، وأحرق فساطيطى ، قال : علىّ به . فلما دخل عليه ، قال : ماحملك على ما فعلت ؟ قال: ماأنا فعلته ياأمير المؤمنين قال : ومن فعله ؟ قال : أنت والله فعلت ، إنما يدى يدك ، وسوطى سوطك ،أنت ياأمير المؤمنين أمرتنا بالاجتهاد فيما وليتنا ففعلنا ما أمرت ، وبهذه الفعلة يرتدع من بقى من أهل العسكر ، وماعلى أمير المؤمنين أن يخلف على روح بن زنباع الفسطاط فسطاطين والغلام غلامين ، ولا يكسرنى فيما قدمنى له ؟ فأعجب عبد الملك وقال : إن شرطيكم لجلد ، ثم أقره على ما هو عليه ، وتقدم الحجاج فى منزلته ، وكان ذلك أول ما عرف من كفايته .

ولما طال القتال والحصار بينه وبين زفر بن الحارث ، أرسل عبدالملك رجاء بن حيوة وجماعة منهم الحجاج إلى زفر بكتاب يدعوه إلى الصلح ، فأتوه بالكتاب وقد حضرت الصلاة ، فقام رجاء فصلى مع زفر ، وصلى الحجاج وحده ، فسئل عن ذلك ، فقال : لا أصلى مع منافق خارج على أمير المؤمنين وعن طاعته ، فسمع عبد الملك بذلك فزاد عجبا بالحجاج ورفع قدره ، وولاه بلدة تسمى « تبالة » — كسحابة، بلد باليمن — وهى أول ماولى ، فخرج إليها فلما قرب سأل عنها ، فقيل : إنها وراء هذه الأكمة ، فقال : أف لبلدة تسترها أكمة فرجع عنها ، فقيل فى المثل : أهون من تبالة على الحجاج — انظر العقد الفريد ٣ :٦، وسرح العيون ص ١١٣ — .

(٢) الصفاة : الحجر الصلد الضخم .

من كرائم[١] ذوى الحقوق اللازمة ، والأرحام الواشِجَة فى أوعية ثقيف ، فاستغفر الله الذنبِ ماله عُذْرٌ ، فإن استقال[٢] أمير المؤمنين فيك الرأىَ ، لقد جالت البصيرةُ فى ثقيف بصالحِ النبى صلى الله عليه وسلم ، إذ ائتمنه على الصَّدَقاتِ وكان عَبْدَه ، فهرَب بها عنه[٣] ، وما هو إلا اختيارُ الثِّقة ، والمَطْلَبُ لمواضع الكِفاية ، فقعد فيه الرجاء ، كما قعد بأمير المؤمنين فيما نَصَبَك له ، فكأنَّ هذا ألْبَسَ أمير المؤمنين ثوبَ العَزَاء ، ونهضَ بعُذره إلى استنشاق نَسِيم الرَّوْح[٤] ، فاعتزِلْ عَمَلَ أمير المؤمنين ، واظْعَنْ[٥] عنه باللعنة اللازِمة ، والعقوبة النّاهِكة[٦] إن شاء الله ، إذ استحكم لأمير المؤمنين ما يحاولُ من رأيه ، والسلام » .

ودعا عبد الملك مولى له يقال له : نُباتة ، له لِسَانٌ وفَضْلُ[٧] رأى ، فناوله الكتابَ ، ثم قال له يا نباتة : العَجَلَ ثم العجل حتى تأتىَ العراقَ ، فضع هذا الكتاب فى يد الحجاج ، وترقّبْ ما يكون منه ، فإذا جبُن عند قراءته واستيعابِ ما فيه فاقْلَعْه عن عمله وانقلِع معه حتى تأتى به ، وهدِّئ الناسَ حتى يأتيهم أمرى ، بما تَصِفُنى به فى حين انقلاعك ، من حُبِّى لهم والسلامة ، وَإنْ هَشَّ الجواب ولم تكشِفْه أرْنَبَةُ[٨] الحَيْرَة ، فخُذْ منه ما يُجيب به ، وأقرِره على عمله ، ثم اعْجَلْ علىَّ بجوابه .

قال نباتة : فخرجتُ قاصداً إلى العراق ، فضمَّتنى الصحارَى والفَيافِى[٩] ، واحتوانى

---

(١) كرائم الأموال : خيارها التى تكرم عليك ، والواشجة : الرحم المشتبكة ، وقد وشجت بك قرابته تشج كوعد .

(٢) أقال عثرته : رفعه من سقوطه ؛ واستقاله : طلب إليه أن يقيله ، والمعنى فإن طلب أمير المؤمنين إلى رأيه أن يقيلك من سقطتك ، أى أحسن بك الظن والتمس لك العذر فيما فعلت .

(٣) انظر هامش ص ١٤٧ .

(٤) الروح : الراحة . (٥) أى ارحل .

(٦) نهكه السلطان كسمعه : بالغ فى عقوبته . ويقال أنهكه عقوبة : أى أبلغ فى عقوبته .

(٧) الفضل : الزيادة .

(٨) الأرنبة : طرف الأنف ، وإضافتها إلى الحيرة : لأنها تختلج وتهتز وقت الحيرة والدهش ، أو لأن من عادة بعض الناس عند الحيرة أن يطرق برأسه ويمر أصابعه على أرنبته ، وربما كان الأصل «أزبة» بفتح فسكون : أى شدة ، أو « أربة » بضم فسكون ، والأربة : العقدة التى لا تنحل حتى تحل حلا .

(٩) الفيافى جمع فيفاة بفتح الفاء : وهى المفازة .

القرّ(١) ، وأخذ مني السّفرُ ، حتى وصلتُ ، فلما وَرَدْته ، أُدخلْتُ عليه في يوم ما يُحْظَر(٢) فيه الخلقُ ، وعليّ شُحوبُ مُضنًى ، وقد توسّطَ خَدَمَه من نواحيه ، وتَدَثّر بمُطْرَف(٣) خزّ أَدْكَنَ ، ولاثَ(٤) به الناسُ من بين قائم وقاعد ، فلما نظر إليّ ـ وكان لي عارفاً ـ تَعمّدني تبسّم تبسُّمَ الوَجِل ، ثم قال:أهلاً بك يا نباتةُ ، أهلا بمَوْلَى أميرالمؤمنين، لقد أثّر فيك سفرك ، وأعرفُ أميرَ المؤمنين بك ضَنِينا ، فليت شعري ما دهِمَك أو دَهَمَني عنده ؟ قال : فسلّمتُ وقعدتُ ، فسأل : ما حالُ أمير المؤمنين وخَوَلِه(٥) ؟ ، فلما هدأ أخرجتُ له الـكتابَ فناولته إياه ، فأخذه مني مسرعا ، ويده تُرْعَد ، ثم نظر في وجوه الناس فما شَعَرْتُ إلا وأنا معه ، ليس معنا ثالث ، وصار كل من يُطيف به من خدمه يلقاه خالياً ، لايسمعون منا إلا الصوتَ ، ففكّ الـكتاب فقرَأه ، وجعل يتثاءب ويردِّد تثاؤبَه ، ويَسيل العرق على جبينه وصُدْغيه ـ على شدة البَرْد ـ من تحت قَلَنْسُوَته من شدة العَرَق ، وعلى رأسه عمامة خَزّ خضراء ، وجعل يشخَص إليّ ببصره ساعة كالمتوهِّم ، ثم يعود إلى قراءة الـكتاب ، ويلاحظُني النظرَ كالمتفهِّم إلا أنه وَاجِم(٦) ، ثم يعاود الـكتابَ ، وإني لأقول : ما أراه يُثبت حروفَه من شدة اضطراب يده ، حتى استقصى قراءتَه ، ثم مالت يده حتى وقع الـكتاب على الفِراش ، ورجع إليه ذهنه ، فمسح العرق عن جبينه ، ثم قال متمثلا :

وَإِذَا المَنِيَّةُ أَنْشَبَتْ أَظْفَارَهَا ... أَلْفَيْتَ كُلَّ تَمِيمَةٍ لاتَنْفَعُ(٧)

قَبُحَ واللهِ منا الحسَنُ يا نباتة ! وتَوَاكَلَتْنا عند أمير المؤمنين الألسُنُ ، وما هذا

---

(١) القر مثلث القاف : البرد .

(٢) أي ما يمنع ، وفي الأصل « يخطر » وأراه مصحفا .

(٣) تدثر بالثوب : اشتمل به ، والمطرف : رداء من خز مربع ذو أعلام . وأدكن : وصف من الدكنة كحمرة : وهي لون إلى السواد .

(٤) أي التفوا واستداروا

(٥) الخول : الخدم والحشم

(٦) الواجم : العبوس المطرق لشدة الحزن ، وجم كوعد وجما ووجوما : سكت على غيظ .

(٧) التميمة : العوذة تعلق على الإنسان .

إلا سانحُ فِكرة نَمّقها مُرْصِد[1] يَكْلَبُ بِفضّتِنا ، مع حُسْنِ رأى أمير المؤمنين فينا ، يا غلامُ ، فتبادرَ الغلمانُ الصَّيْحَةَ فَلِيَ علينا منهم المجلسُ ، حتى دفّأتني منهم الأنفاسُ ، فقال : الدواةَ والقرطاسَ ، فأُتى بدواة وقرطاس ، فكتب بيده ، وما رفع القلمَ إلا مستمِدًّا حتى سَطَّر مثلَ خَدِّ الفرس ، فلما فرغَ قال لى : يا نباتة، هل علمتَ ماجئتَ به، فنُسْمِعَك ما كتبْنا ؟ قلت : لا ، قال : إذن حَسْبُك منا مِثلُه ، ثم ناولنى الجواب ، وأمر لى بجائزة فأجْزَلَ ، وجرّد لى كِساء ، ودعا لى بطعام فأكلتُ ، ثم قال : تَكِلُك إلى ما أُمِرْت به من عَجَلة أو توانٍ ، وإنى لأحبُّ مقارَنَتَك والأُنْسَ برؤيتك ، فقلت : كان معى قُفْلٌ مِفتاحُه عندك ، ومفتاح قُفلك عندى ، فأَجَدْتُ لك الوافيةَ بالأَمْرَيْن، فأقفلتُ المكروهَ وفتحتُ العافيةَ ، وما ساءنى ذلك، وما أُحِبُّ أن أزيدَك بيانا ، وحَسْبك منى استعجالُ القيام ، ثم نهضتُ وقام مُودِّعًا لى ، فالتزمَنى وقال : بأبى أنت وأمى ، رُبَّ لفظةٍ مسموعة[2] ، ومحتقَرٍ نافع ، فكن كما أظنّ ، فخرجت مستقبلاً وجهى ، حتى وردتُ أميرَ المؤمنين ، فوجدته منصرفا من صلاة العصر ، فلما رآنى ، قال : مااحتواك المضجعُ يا نباتة ! فقلت : مَنْ خاف مِن وَجْه الصباح أدْلَجَ[3] فسلَّمْتُ وانتبذتُ[4] عنه ، فتركنى حتى سَكَن جَأْشِى ، ثم قال : مَهْيَم[5] ، فدفعت إليه الكتابَ ، فقرأه متبسما ، فلما مضى فيه ضحِك حتى بَدَتْ له سِنٌّ سوداء ، ثم استقصاه فانصرف إلىَّ ، فقال : كيف رأيتَ إشفاقَه ؟ قال : فقصَصْتُ عليه ما رأيتُ منه ، فقال: صلوات الله على الصادق الأمين « إن من البيان لسِحْراً » ثم قذف الكتاب إلىّ فقال : اقرأ ، فقرأتُه فإذا فيه :

---

(١) يقال أرصده إذاقعدله على طريقه يرقبه ، وأرصد له بالخير والشر : كافأه ، وأرصد له الأمر: أعده ، وكلب كفرح : سفه فأشبه الكلب الكلب .

(٢) فى الأصل « مسمومة » وأرى أنها محرفة ، والصواب « مسموعة » كما يدل عليه مابعده وهو قوله « فكن كما أظن » يطلب إليه أن يذكره عند عبد الملك بكلمة طيبة رجاء أن يستمع لها .

(٣) أدلج : سار من أول الليل . (٤) أى تنحيت .

(٥) أى ما الأمر وما الخبر ؟ .

٣٦١ — رد الحجاج على عبد الملك

« بسم الله الرحمن الرحيم ، لعبد الله أمير المؤمنين ، وخليفة ربّ العالمين ، المؤيَّد بالولاية ، المعصوم من خَطَل[١] القول ، وزَلَل الفعل ، بكَفَالة الله الواجبة لمنوى أمره ، من عبدٍ اكتنفتْه الزَّلّة ، ومدّ به الصَّغار[٢] إلى وَخِيم المَرتع ، ووَبِيلِ المَكْرَع[٣] من جائل قادح ، ومعتزّ فادح[٤] ، والسلام عليك ورحمة الله التى اتسعت فوَسِعَت ، وكان بها التقوى إلى أهلها قائداً ، فإنى أَحْمَد إليك اللهَ الذى لا إله إلا هو راجياً لعطفك بعطفه[٥] .

أما بعد ، كان الله لك بالدَّعَةِ[٦] فى دار الزَّوال ، والأمنِ فى دار الزَّلزال ، فإنه من عَنَّت[٧] به فِكرتُك يا أمير المؤمنين مخصوصاً ، فما هو إلا سعيدٌ يُؤْثَر ، أو شقىّ يُوتَر[٨] ، وقد حَجَبنى عن نواظر السَّعْد لسانٌ مُرْصِد ، ونافِسٌ[٩] حَقِد ، انتهز[١٠] به الشيطانُ حين الفكرة ، فافتتح به أبوابَ الوِسْواس بما تحتويه الصدور ، فواغوثاه ! باستعاذة أمير المؤمنين من رجيم ، « إِنَّمَا سُلْطَانُهُ عَلَى الَّذِينَ يَتَوَلَّوْنَهُ » ، واعتصاما بالتوكل على من خَصَّه بما أجزل له من قِسمِ[١١] الإيمان وصادق السُّنّة ، فقد أراد اللَّعينُ أن يَفْتُق

---

(١) الخطل : المنطق الفاسد المضطرب ، وقد خطل فى كلامه كفرح .

(٢) الصغار : الذل . (٣) المكرع اسم مكان من كرع فى الماء كمنع : إذا تناوله بفيه من موضعه من غير أن يشرب بكفيه ولا بإناء كما تفعل البهائم لأنها تدخل أكارعها فيه ، كنى بهذا وبما قبله عن سوء العاقبة

(٤) من جائل ، أى من عدو يجول ويدور بعذمتى ، قادح : أى طاعن ذام ، ومعتز أى بجاهه ومنزلته لدى أمير المؤمنين . فادح : من فدحه إذا أثقله ، أى يثقلنى بما يفتريه على من الأباطيل .

(٥) فى الأصل « فإنى أحمد الله إليك — راجيا لعطفك بعطفه — الذى لا إله إلا هو » وقد أصلحته كما ترى وهو الأظهر عندى .

(٦) الدعة : الخفض والسعة فى العيش ، ودار الزوال : الدنيا ، ودار الزلزال : الآخرة .

(٧) عن : عرض ، والمراد : عن بفكرتك ، فقلب .

(٨) آثر إيثارا : فضله وقدمه . ووتره : أفزعه وأدركه بمكروه (٩) نفس عليه بخير كفرح حسد ، ونفس عليه الشيء نفاسة : لم يره أهلا له .

(١٠) المراد : اختلى به ، والوسواس مصدر وسوس كالوسوسة .

(١١) القسم : العطاء .

لأوليائه فتقا، نبَا عنه كيدُه، وكثُر عليه تعثُّره، ببلية قَرَعَ بها فِكْرَ أمير المؤمنين مُلَبِّسا[(١)] وكادِحًا ومُؤَرِّشا، ليفُلَّ من غَرْبه[(٢)] الذى تصبنى، ويُصيبَ ثأراً لم يزل به مُؤْتَزًا[(٣)]، وأذكره مامَتَّ[(٤)] به الأوائلُ قديما حتى لحقت بمثله منهم، مِمَّا كُنْتُ أبلُوه[(٥)] من خِسَّة أقدار، ومزاولة أعمال، إلى أن وصلْتُ ذلك بالتشرُّط لرَوْح ابن زِنْباع، وقد عَلِم أمير المؤمنين ـ بفضل ما اختار اللهُ له تبارك وتعالى من العِلْم المأثور الماضى ـ بأن الذى عيَّر به القومَ مَصانِعَهم[(٦)]، من أشدِّ ما كان يزاوله أهلُ القُدْمَة[(٧)] الذين اجتبى اللهُ منهم، وقد اعتصموا وامْتَعَضوا[(٨)] من ذكر ما كان، وارتفعوا بما يكون، وما جَهِلَ أمير المؤمنين ـ ولِلْبيانِ مَوْقِعُه غيْرَ محتجٍّ ولا مُتَعدٍّ[(٩)] ـ أنَّ متابعةَ رَوْح بن زِنباع طريقٌ إلى الوسيلة لِمَنْ أراد مَنْ فوقه، وأن رَوْحا لم يُلْبِسنى العزمَ الذى به رفعنى أميرُ المؤمنين عن خَوَله، وقد ألصَقَتْنى برَوْح بن زنباع همَّةٌ لم تزَلْ نواظِرُها ترمى بى البعيدَ، وتُطالِعُ الأعلامَ، وقد أخذتُ أمير المؤمنين نصيبا اقتسمه

---

(١) التلبيس: التخليط والتدليس، وفى الأصل «مباسا» وأراه محرفا إذ المبلس هو المتحير واليائس والساكت عند انقطاع حجته، والساكت من الحزن أو الخوف، وذلك غير مناسب هنا. كادحا: جاد ساعياً، والتأريش: التحريش والإفساد، أرش بين القوم: أفسد بينهم وحمل بعضهم على بعض.

(٢) الغرب: الحد.

(٣) من ائتزت القدر: إذا اشتد غليانها، وفى الأصل «موترا» وأراه محرفا.

(٤) أى ماتوسل. وفى الأصل «وأذكره قديما مامت به الأوائل» وقد أصلحته كما ترى.

(٥) أى أزاوله وأمارسه، وفى الأصل «حتى لحقت بمثله منهم وممن كنت أبلوه» وهو تحريف.

(٦) المصانع: جمع مصنعة: مايصنعه الناس من الآبار والأبنية وغيرها، وقد تقدم فى كتاب عبدالملك إليه: «فمن حافر وناقل وماتح ...» وفى كتاب سابق: «اذكر مكاسب آبائك بالطائف، إذ كانوا ينقلون الحجارة على أكتافهم، ويحفرون الآبار والمناهل بأيديهم».

(٧) القدمة: السابقة فى الأمر كالقدم بالتحريك، يقال: لفلان قدم صدق، أى سابق خير وأثر حسن، ومنه قوله تعالى «وَبَشِّرِ الَّذِينَ آمَنُوا أَنَّ لَهُمْ قَدَمَ صِدْقٍ عِنْدَ رَبِّهِمْ» وكذلك القدمة. واجتبى: اصطفى واختار. (٨) أى غضبوا وشق عليهم.

(٩) غير محتج حال من البيان، وفى إسناده إلى البيان مجاز عقلى أى غير محتج صاحبه أو هو حال من المتكلم والجملة احتراس تأدبا فى مخاطبة عبد الملك، يعنى أنه يدلى ببيانه هذا فى غير احتجاج على أمير المؤمنين ولا تعد لحدود ما يجب عليه له من التوقير والتعظيم، وفى الأصل «ولا متعدد» وهو تحريف.

الإشفاقُ من سخطه ، والمواظبةُ على موافقته ، فما بَقِيَ لنا بعد إلا صُبابةٌ[1] وإرْثٌ به تجولُ النفسُ ، وتَطْرِف[2] النواظرُ ، ولقد سِرْتُ بعين[3] أمير المؤمنين سَيْرَ المثبِّط لمن يتلوه، المتطاولِ لمن يَقْدُمُه ، غيرَ مُبِتٍّ مُوجِفٍ[4] ، ولا متثاقلٍ مُجْحِف ، ففَتَّ الطالبَ ، ولحِقْتُ الهاربَ ، حتى ثارت السُّنَّةُ[5] ، وبادت البدعة ، وخَسِئَ الشيطانُ ، وحُمِلت الأديانُ إلى الجادَّة العظمى ، والطريقة المُثْلَى ، فهأنذا يا أمير المؤمنين نُصْبُ المسألة لمن رامني، وقد عَقَدْتُ الحُبْوَةَ[6] ، وقرَنْتُ الوَظِيفَيْن لقائلٍ محتجّ ، أوْ لائمٍ ملتَجّ[7] وأميرُ المؤمنين وَلِيُّ المظلوم، ومَعْقِلُ الخائف ، وسَتُظْهِر له المِحْنَةُ[8] نبأَ أمرى، ولكل نبأ مستقَرٌّ ، ومَا حَفَنْتُ يا أمير المؤمنين فى أوعية ثقيف حتى رَوِى الظمآنُ ، وبَطِنَ الغَرْثانُ[9] ، وغَصَّتِ الأوعيةُ، وانقَدَّتِ الأوكِيَةُ[10] فى آل مَرْوانَ ، فأخذَتْ ثقيف فَضْلاً[11] صار لها، لولاهم لقطعَتْهُ السائلةُ ،ولقد كان ما أنكره أمير المؤمنين مِنْ تحاملى وكان ما لو لم يكُن لعَظُم الخطبُ فوق ما كان ، وإن أمير المؤمنين لرابع أربعة :

---

(١) الصبابة : البقية اليسيرة تبقى فى الإناء من الشراب ، وفى الأصل « صابة » وهو تحريف والإرث : البقية من كل شىء . (٢) طرف البصر كضرب : تحرك .

(٣) أى بحيث يرانى ويعلم أمرى، المثبط : ثبطه عن الأمر: عوقه وبطأ به عنه، وفى الأصل «المتثبط» وهو تحريف ، وقدمه من باب نصر : تقدمه .

(٤) مبت ، من أبت بعيره : إذا أجهده وأتعبه فى السير حتى قطعه وصاحبه منبت أى منقطع عن أصحابه ، لأنه جد فى سيره حتى انبت أخيرا ، ومنه الحديث الشريف « إن المنبت لا أرضا قطع ولا ظهرا أبقى » وفى الأصل « غير متثبت » وهو تحريف . موجف ، وجف الفرس والبعير وجيفا : عدا ، وأوجفته : أعديته وهو العنق فى السير . وأجحف بالأمر : قارب الإخلال به .

(٥) ثارت : نهضت وهبت وعادت إلى ما كانت عليه . وخسئ : بعد وطرد .

(٦) احتبى : جمع بين ظهره وساقيه بثوب أو غيره، والاسم الحبوة بالكسر ويضم، والوظيف: مقدم الساق ، والمعنى : قد تهيأت واستعددت لمن رام مساءلتى ونقاشى .

(٧) المراد به : لاج ، أى متماد فى الخصومة يأبى أن ينصرف عنها .

(٨) محنه : اختبره كامتحنه ، والاسم المحنة بالكسر .

(٩) الغرثان : الجائع ، غرث كفرح : جاع ، والبطنة بالكسر : امتلاء البطن من الطعام ، بطن كفرح بطنا وبطنة ، وبطن ككرم : عظم بطنه .

(١٠) انقدت: انقطعت، والأوكية : جمع وكاء ككتاب وهو رباط القربة وغيرها ، كنى بذلك عن امتلاء الأوعية واكتظاظها . (١١) أى ما زاد وفضل .

أحدهم ابنةُ(١) شُعَيب النبي صلى الله عليه وسلم، إذ رَمَتْ بالظن غَرَضَ اليقين، تفرُّساً في النجيِّ(٢) المصطفى بالرسالة، فحقَّ لها فيه الرجاء، وزالت شبهةُ الشك بالاختبار، وقَبْلَها العزيزُ(٣) في يوسف، ثم الصِّدِّيقُ(٤) في الفاروق رحمة الله عليهما، وأمير المؤمنين في الحجاج، وما حَسَدَ الشيطانُ يا أمير المؤمنين خاملا، ولا شَرُفَ بغير سِجَافِكم(٥)، غِبطةٌ(٦) يا أمير المؤمنين الرَّجيمُ أَدْبَرَ منها، وله غُواةٌ ومِرْساةٌ(٧)، وقد قلَّتْ

---

(١) هي صفوراء بنت شعيب زوج موسى عليهما السلام، يعني أنها أشارت على أبيها أن يستأجر موسى قال تعالى في شأن موسى معها: «وَلَمَّا وَرَدَ مَاءَ مَدْيَنَ وَجَدَ عَلَيْهِ أُمَّةً مِنَ النَّاسِ يَسْقُونَ، وَوَجَدَ مِنْ دُونِهِمُ امْرَأَتَيْنِ تَذُودَانِ، قَالَ مَا خَطْبُكُمَا، قَالَتَا لَا نَسْقِي حَتَّى يُصْدِرَ الرِّعَاءُ وَأَبُونَا شَيْخٌ كَبِيرٌ، فَسَقَى لَهُمَا ثُمَّ تَوَلَّى إِلَى الظِّلِّ، فَقَالَ: رَبِّ إِنِّي لِمَا أَنْزَلْتَ إِلَيَّ مِنْ خَيْرٍ فَقِيرٌ، فَجَاءَتْهُ إِحْدَاهُمَا تَمْشِي عَلَى اسْتِحْيَاءٍ، قَالَتْ: إِنَّ أَبِي يَدْعُوكَ لِيَجْزِيَكَ أَجْرَ مَا سَقَيْتَ لَنَا، فَلَمَّا جَاءَهُ وَقَصَّ عَلَيْهِ الْقَصَصَ قَالَ لَا تَخَفْ نَجَوْتَ مِنَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ، قَالَتْ إِحْدَاهُمَا: يَا أَبَتِ اسْتَأْجِرْهُ إِنَّ خَيْرَ مَنِ اسْتَأْجَرْتَ الْقَوِيُّ الْأَمِينُ، قَالَ: إِنِّي أُرِيدُ أَنْ أُنْكِحَكَ إِحْدَى ابْنَتَيَّ هَاتَيْنِ عَلَى أَنْ تَأْجُرَنِي ثَمَانِيَ حِجَجٍ، فَإِنْ أَتْمَمْتَ عَشْرًا فَمِنْ عِنْدِكَ وَمَا أُرِيدُ أَنْ أَشُقَّ عَلَيْكَ، سَتَجِدُنِي إِنْ شَاءَ اللَّهُ مِنَ الصَّالِحِينَ» .

(٢) أي في موسى الذي ناجاه الله .

(٣) هو قطفير العزيز الذي كان على خزائن مصر يشير إلى ما كان من امرأته زليخا إذ راودت يوسف عن نفسه فأبى . فاتهمته بأنه أراد بها سوءا ، فسجن ثم حصحص الحق وظهرت براءته ، فجعله الملك على خزائن أرضه ، والقصة مشهورة، ويقال إن قدوم يوسف عليه السلام مصر كان في عهد الأسرة السادسة عشرة مدة حكم الملوك الرعاة . ويقول المفسرون إن ملك مصر يومئذ كان الريان بن الوليد العماليق .

(٤) يشير إلى اختيار أبي بكر لعمر رضي الله عنهما لتولي الخلافة قبل موته .

(٥) السجاف بالكسر والسجف بالفتح والكسر : الستر ، والمعنى ولا شرف الخامل دون أن يكون في كنفكم ويستظل بظلكم . (٦) الغبطة : حسن الحال والمسرة .

(٧) المرساة : أنجر السفينة الذي ترسى به ، وهو أنجر ضخم (خشبات يفرغ بينها الرصاص المذاب فتصير كصخرة) يشد بالحبال ويرسل في الماء فيمسك السفينة ويرسيها حتى لا تسير ، كنى بذلك عن شدة تمكن الشيطان من أوليائه أولئك الذين يدسون له عند الخليفة ويكيدون له .

حِيلته ، وَوَهَنَ[١] كيده يوم كَيتَ وكَيتَ ، ولا أظن أذْكَرَ لها من أمير المؤمنين ، ولقد سَمِعتُ لأمير المؤمنين فى صالح صلوات الله عليه ، وفى ثقيف مقالا هَجَم بى الرَّجاء المَدْلهِ عليه ، بالحجَّةِ فى ردِّه بمحْكَمَ التنزيل على لسان ابن عمه خاتَم النبيين وسيد المرسلين ، صلى الله عليه وسلم ، فقد أخبر عن الله عزّ وجل وحكاية غُرِّ المَلأ[٢] من قريش عند الاختيار والافتخار ، وقد نفخَ الشيطان فى مَنَاخِرِهم ، فلم يَدْعُوا خَلْفَ ما قصدوا إليه مُوامًى[٣] ، « وَقَالُوا لَوْلَا نُزِّلَ هٰذَا الْقُرْآنُ عَلَىٰ رَجُلٍ مِنَ الْقَرْيَتَيْنِ[٤] عَظِيمٍ » فوقع اختيارُهم ـ عند المباهاةِ بنفخة الكِبْر وكِبْر الجاهلية ـ على الوَلِيد ابن المُغِيرة المَخزُومى وأبى مسعود[٥] الثقفى ، فصارا فى الافتخار بهما صِنْوَين[٦] ، ما أنكر اجتماعَهما من الأمة مُنكِرٌ ، فى مَدِّ صوت القرآن ، ومبلِّغ الوَحْى ، وإنْ كان ليقالُ للوليد فى الأمة يومئذ « رَيْحَانة قريش » ، وما ردَّ ذلك العزيز تعالى إلا بالرحمة الشاملة فى القَسم السابق ؛ فقال عز وجل : « أَهُمْ يَقْسِمُونَ رَحْمَةَ رَبِّكَ ، نَحْنُ قَسَمْنَا بَيْنَهُمْ مَعِيشَتَهُمْ فِى الْحَيَاةِ الدُّنْيَا » ، وما قدَّمَتْنى يا أمير المؤمنين ثقيف فى الاحتجاج لها ، وَإنَّ لها مقالا رَحْبا ، ومعاندةً قديمةً ، إلا أن هذا من أيْسَر مايحتجُّ

---

(١) وهن : ضعف، وفعله كوعد وورث وكرم،وكيت وكيت ويكسر آخرهما: أى كذا وكذا.

(٢) الملأ: الجماعة . والغر : المشهورون ، جمع أغر .

(٣) المواساة : المشاركة ،والتسوية ، وأصلها الهمزة فقلبت واوا تخفيفا ،ويقال مايؤاسى فلان فلانا: أى مايشاركه ، وآسيته بنفسى : سويته (وآسيته بمالى: أنلته منه وجعلته فيه أسوة بكسر الهمزة وضمها أى قدوة) ،وفى الحديث : « ما أحد عندى أعظم يداً من أبى بكر ، آسانى بنفسه وماله » وقد تقدم فى الجزء الأول فى كتاب عمر إلى أبى موسى : « آس بين الناس فى وجهك ومجلسك وعدلك » أى سوبينهم واجعل كل واحد منهم أسوة خصمه . وفى كتاب على عليه السلام « آس بينهم فى اللحظة والنظرة » فمعنى الجملة :أنهم حين اختيارهم لم يدعوا وراء ماقصدوا إليه محلا للتسوية بين من اختاروهم وبين غيرهم، فاختاروا رجلين لايسوى بهما غيرهما ولايشار كهما أحد فى السودد ورفعة القدر،وفى الأصل « موسى » وهو تحريف وصوابه « مواسى كما رأيت» .

(٤) مكة والطائف . (٥) هو عروة بن مسعود الثقفى .

(٦) إذا خرجت نخلتان أو ثلاث من أصل واحد ، فكل واحدة منهن صنو ، والاثنان صنوان، والجمع صنوان برفع النون .

به العبدُ المشفِقُ على سيده المغْضَب ، والأمرُ إلى أمير المؤمنين : عَزَلَ أم أقرّ[1] ، وكلاهما عَدْلٌ متَّبَعٌ ، وصوابٌ مُعْتَدِلٌ ، والسلام عليك يا أمير المؤمنين ورحمة الله » .

قال نباتة : « فأتيت على الكتاب بمَحْضَر أمير المؤمنين عبد الملك ، فلما استوعبتُه سارَقْتُه النظرَ من الهيبة منه ، فصادَفَ لحظى لحظَه ، فقال : اقطَعْه ولا تُعْلِمَن بما كان أحداً ، فلما مات عبد الملك فشا عنى الخبر بعد موته .

(العقد الفريد ١ : ٧٢)

٢٦٢ — كتاب الشعبي إلى الحجاج

وكتب الشَّعْبي إلى الحجاج يسأله حاجة فاعتلّ عليه ، فكتب إليه الشعبي : « والله لاعَذَرْتُك وأنت والى العراق ، وابن عظيم[2] القَرْيَتَيْن » فقضى حاجَتَهُ .

(العقد الفريد ٣ : ٨)

٢٦٣ — كتاب امرأة إلى زوجها

(وكان مع الحجاج يحضر طعامه وهى فى سوء حال)

روى أبو على القالى فى أماليه قال :

كان رجل من أهل الشام مع الحجاج يَحْضُر طعامه[3] ، فكتب إلى امرأته يُعلمها بذلك ، فكتبت إليه :

---

(١) فى الأصل « قر » وهو تحريف .

(٢) هو عروة بن مسعود الثقفى — انظر ص ٢٢٩ — وكان عروة جد الحجاج لأمه ، روى ابن خلكان فى ترجمته نقلا عن المسعودى أن أم الحجاج هى الفارعة بنت همام بن عروة بن مسعود الثقفى — انظر ج ١ : ص ١٢٣ — .

(٣) حدث ابن نباتة فى سرح العيون (ص ١١٨) عن كرم الحجاج قال :

« فأما كرمه ، فحكى أنه لما دخل المدينة فرق فى أهلها عشرة آلاف دينار ، ثم قال : أتينا كم وقد غاض المال لكثرة النوائب فاعذرونا ، فقال رجل : لاعذر الله من يعذرك ، وأنت أمير المصرين وابن عظيم القريتين ، فقال : صدقت ، واقترض أموالا من هناك من التجار فكان شيئا عظيما ، ولما ولى العراق كان يطعم فى كل يوم على ألف مائدة ، يجتمع على كل مائدة عشرة أنفس ، ويطاف به فى محفة (والمحفة كمخدة:

أيُهْدَى لِىَ القِرطاسُ ، والُخبزُ حاجتى وأنت على باب الأمير بَطين[1]
إذا غِبْتَ لم تذكُر صديقًا ولم تُقِمْ فأنت على ما فى يديك ضَنين[2]
فأنت كَكَلب السوء جَوَّع أهلَه فيُهْزَلُ أهل البيت وهوَ سمين
(الأمالى ٢ : ١٣٨)

٢٦٤ – كتاب البخترى بن أبى صفرة إلى أخيه المهلب

وروى أيضاً قال :

كان البَخْتَرِىُّ بن أبى صُفْرة من أكمل فِتْيان العرب جمالًا وبيانا ونجدة وشعراً ، وكان بنو المهلب يَحْسُدونه لفضله ، فدسَّتْ إليه أمُّ ولدِ عُمارة بن قيس اليَحْمَدِى فراوَدَته عن نفسه فأبى ، فحملت عليه عُمارة حتى شكاه إلى المهلب ، وأكثر فى ذلك بنوه القولَ ، فعرَف ذلك فى وجه المهلَّب فكتب إليه :

جَفَوت امرأً لم يَذْبُ عما تُرِيدُه وكان إلى ما تشتهيه يُسارِعُ
تمُوت حِفاظًا دونَ ضَيمِك نَفْسُهُ وأنت إلى ما ساءه متطالِعُ
كأنى أخو ذنبٍ ، وما كنتُ مُذْنِبًا ولكن دهَتْنِى السَّارياتُ الشَّبادِعُ[3]

مركب كالهودج إلا أنها لا تقبب) على أيدى الرجال ، يشرف على القوم ، ويقول: يا أهل الشأم، اهشموا الخبز لئلا يعاد عليكم،وقيل كان فعله هذا خاصاً بأهل الشأم وكان يرسل الرسل إلى الناس لحضور الطعام، فكثر عليه ذلك فقال : أيها الناس رسلى إليكم الشمس،إذا طلعت فاحضروا الغداء،وإذا غربت فاحضروا العشاء ، فكانوا يفعلون ذلك واستقل الناس يوما فقال : ما بال الناس قد قلوا ؟ فقام رجل وقال : ياأيها الأمير ، أنت أغنيت الناس فى بيوتهم عن الحضور إلى مائدتك ، فأعجبه ذلك وقال:اجلس بارك الله عليك »

وقال أبوالعباس المبرد فى الكامل (١ : ١٤٥) :

«وكان يطعم فى كل يوم على ألف مائدة ، على كل مائدة ثريد وجنب من شواء وسمكة طرية،ويطاف به فى محفة على تلك الموائد ليتفقد أمور الناس ، وعلى كل مائدة عشرة ، ثم يقول : ياأهل الشأم،اكسروا الخبز لئلا يعاد عليكم ، وكان له ساقيان أحدهما يسقى الماء والعسل ، والآخر يسقى اللبن » .

(١) بطن ككرم فهو بطين : عظم بطنه ، أى وأنت ممتلئ البطن من كثرة الطعام.

(٢) أى بخيل .

(٣) الشبادع : الدواهى والعقارب والنمائم ، جمع شبدعة وشبدع بكسر الشين والدال .

دَبَبْنَ (وقد نام الغَفُولُ) بِمَيْنِنا إليك إماءً مُومِساتٌ جَوَالِعُ[1]
فأوقدْنَ نيرانَ العداوةِ بيننا جِهاراً ، ولم تُسْدَدْ علىّ المَطالِعُ
بَغَيْنَ أموراً لستُ ممّن أشاؤها ولو جُعِلَت فى ساعدَىّ الجوامِعُ[2]
أأصبُو بعِرْسِ الجار أَنْ كان غائبا وتلك التى تستكُّ منها المسامع[3]
فلستُ وربِّ البيت أصبُو بمثلها وربِّىَ راءٍ ما صنعْتُ وسامع
فإن تك عِرسُ اليَحْمَدِىِّ وأختُه تَسرَّيْنَ فلا قاهِنٍ أَلْيَسَ خالِع[4]
يَبيت يُراعِى المومساتِ إذا دَجَا الظــلامُ ،وجارُ البيتِ وَسْنانُ هاجِع[5]
فما أنا ممن تَطَّبِيه خــريدةٌ ولو أنها بَدْرٌ من الأفق طالِع[6]
وإنى لتَنْهَانِى خَلائقُ أربعٌ عن الفُحْش فيها للكريم رَوَادِعُ
حَيــاءٌ وإسلامٌ وشَيْبٌ وعِفّةٌ وما المرءُ إلا ماحَبَتْـــه الطبائعُ[7]
وقد كنتُ فى عصر الشباب مُجانِباً صِباىَ ، فأنَّى الآنَ والشيبُ شائع !
فلا تَقْطَعَنْ منى وشائجَ سُهْمَةٍ فلا يصلِ الأبناءُ ما أنت قاطع[8]
وكافِحْ بأجرانى الهِياجَ إذا التظَى شِهابٌ من الموت المُحَرِّق لامِعُ
تُنَبِّهْ (وعَهدِ اللهِ) مــنى مُشَيَّعا صبوراً على اللّأْواء والموتُ كانِعُ[9]
(الأمالى ٢ : ١٣٨)

---

(١) امرأة مومس وموسة : فاجرة أو مجاهرة بالفجور « من الومس كوعد : وهو احتكاك الشىء بالشىء حتى ينجرد ، وأومست : أمكنت من الومس » . والجوالع : جمع جالعة ، وهى التى قد ألقت عنها الحياء . جلعت: كفرح فهى جلعة وجالعة . (٢) الجوامع : جمع جامعة وهى الغل .

(٣) استكت المسامع : صمت وضاقت ، وعرس الرجل : امرأته .

(٤) الأليس : الجرىء من كل شىء ، وصف من الليس بالتحريك وهو الشجاعة، وخالع : أى قد خلع الحياء . (٥) دجا الليل : أظلم ، وسنان : نائم ، وصف من الوسن بالتحريك . والهجوع :النوم ليلا . (٦) أطباه : استماله ، والخريدة والخريد والخرود: البكر لم تمسس ، والخفرة:الطويلة السكوت الخافضة الصوت المتسترة . (٧) حباه : منحه وأعطاه .

(٧) الوشائج : الأرحام المشتبكة المتصلة،جمع وشيجة، وهى مأخوذة من وشائج الرماح وهىعروقها والسهمة : القرابة .

(٩) اللأواء: الشدة، والموت. كانع: أى مستجمع للوثوب، من كنعت العقاب كنع:ضمنت جناحيها للانقضاض .

٢٦٥ — رسالة الحسن البصرى إلى الحجاج

وقال أحمد بن يحيى المرتضى فى كتابه « المُنية والأمل » :

كتب الحجاج إلى الحسن البصرى : « بلغَنا عنك فى القَدَر شىء فا كتب إلينا »
فكتب إليه رسالة طويلة نحن نذكر منها أطرافا :

منها قوله : « سلام عليك أما بعدُ : فإن الأمير أصبح فى قليلٍ مِن كثير مَضَوا ،
والقليلُ من أهل الخير مَغفولٌ عنهم ، وقد أدركْنا السَّلَفَ الذين قاموا لأمر الله ،
واستَنُّوا بسنة رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ، فلم يُبْطِلوا حقّا ، ولا أَلْحَقوا بالربِّ
تعالى إلا ما أَلْحَقَ بنفسه . ولا يحتجّون إلا بما يحتجّ اللهُ تعالى به على خلقه ، وقوله الحق
« وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنْسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ » ولم يخلقهم لأمر ثم حال بينهم وبينه ، لأنه
تعالى ليس بظلّام للعبيد ، ولم يكن أحد فى السَّلَف يذكر ذلك ولا يجادل فيه ، لأنهم
كانوا على أمر واحد ، وإنما أحدثْنا الكلامَ فيه لمَّا أحدثَ الناسُ النَّكِرَةَ له ، فلمَّا
أحدث المُحْدِثون فى دينهم ما أحدثوه ، أحدث الله للمتمسكين بكتابه ما يُبطِلون به
المُحْدَثاتِ ، ويحذِّرون به من المهلِكات .

ومنها قوله : فافهم أيها الأمير ما أقوله ، فإن ما ينهَى الله عنه فليس منه ، لأنه
لا يَرْضَى ما يُسْخِطه من العباد ، لأنه تعالى يقول : « وَلَا يَرْضَى لِعِبَادِهِ الْكُفْرَ »
فلو كان الكفرُ من قضائه وقدره لرضِيَ عمن عَمِلَه .

ومنها قوله : ولو كان الأمر كما قال المخطئون لما كان لمتقدِّمٍ حَمْدٌ لما عَمِل ،
ولا على متأخرٍ لوم ، ولقال تعالى : « جزاء بما عملَت أيديهم » ولم يقل : « جَزَاءً بِمَا
كَانُوا يَعْمَلُونَ » .

ومنها قوله : « إن أهل الجهل قالوا : إن الله يُضِل من يشاء ويَهدى من يشاء ،
ولو نظروا إلى ما قبل الآية وما بعدها ، لتبيّن لهم أن الله تعالى لا يُضِل إلاّ بتقدُّم الفسق

والكفر لقوله تعالى : « وَيُضِلُّ اللهُ الظَّالِمِينَ » أى يحكم بضلالهم ، وقال : « فَلَمَّا زَاغُوا أَزَاغَ اللهُ قُلُوبَهُمْ » . « وَمَا يُضِلُّ بِهِ إِلاَّ الْفَاسِقِينَ » .

ومنها قوله : واعلم أيها الأمير أن المخالفين لكتاب الله وعدله يقولون فى أمر دينهم بزَعْمهم على القضاء والقدر، ثم لا يَرْضَوْن فى أمر دنياهم إلاّ بالاجتهاد والبحث والطلب والأخذ بالجزم فيه ، ولا يعملون فى أكثر دنياهم على القضاء والقدر .

ومنها قوله محتجا بقوله تعالى: « قَدْ أَفْلَحَ مَنْ زَكَّاهَا وَقَدْ خَابَ مَنْ دَسَّاهَا[1] » فلو كان هو الذى دَسَّاها لما خيَّب نفسه ، تعالى اللهُ عما يقول الظالمون عُلُوًّا كبيراً .

(المنية والأمل ص ١٢)

٢٦٦ — كتاب بشر بن مروان إلى أخيه عبد العزيز

وكتب بشر بن مَرْوان إلى أخيه عبد العزيز بن مروان يعتذر عن كتاب :

« بسم الله الرحمن الرحيم ، لولا الهفوةُ لم أحتجْ إلى العذر ، ولم يكن لك فى قبوله منى الفَضل ، ولو احتمَل الكتابُ أكثرَ مما ضَمَّنته لزِدْتُ فيه ، وبَقِيَّةُ[2] الأكابر على الأصاغر من شِيَمِ الأكارم ، ولقد أحسنَ مِسْكين الدارِمِىُّ حيث يقول:

أخاك أخاك إن من لا أخا له ... كساعٍ إلى الهَيْجا بغير سلاحِ[3]
وإنّ ابن عمِّ المرء (فاعْلَمْ) جَناحُه ... وهل يَنْهضُ البازى بغير جَناحِ ؟

(مفتاح الأفكار ص١٧٧)

٢٦٧ — كتب بين عبد الملك وأخيه عبد العزيز

وروى الطبرى قال :

كتب الحجاج إلى عبد الملك يُزَيِّن له بَيْعةَ الوليد ، وأوفد وَفْدًا فى ذلك عليهم

---

(١) زكاها : أى زكى النفس وطهرها من الذنوب، وأنماها بالعلم والعمل، دساها : نقصها وأخفاها بالجهالة والفسوق . (٢) أى إبقاء .
(٣) الهيجاء : الحرب .

عِمْرانُ بن عِصَام العَنَزِىّ ، فقام عِمْرانُ خطيباً فتكلم وتكلم الوفد ، وحثّوا عبد الملك وسألوه ذلك .

ولما أراد عبد الملك أن يخلع أخاه عبد العزيز ويبايع لابنه الوليد ، كتب إلى أخيه :

« إنْ رأيتَ أنْ تصيِّرَ هذا الأمر لابن أخيك »

فأبَى ، فكتب إليه :

« فاجعلْها له من بَعدِك ، فإنه أعزُّ الخَلْقِ على أمير المؤمنين »

فكتب إليه عبد العزيز :

« إنى أرَى فى أبى بكر بن عبد العزيز ما ترَى فى الوَليد »

فقال عبد الملك : اللهم إن عبد العزيز قطعنى فاقطَعْه ، فكتب إليه عبد الملك :

« احمِل خَراجَ مصر » .

فكتب إليه عبد العزيز :

« يا أمير المؤمنين ، إنى وَإياك قد بلغنا سِناً لم يَبْلُغْها أحد من أهل بيتك إلا كان بقاؤه قليلا ، وَ إنى لا أدرى ولا تدرى : أيُّنا يأتيه الموتُ أوّلاً ؟ فإن رأيتَ أن لا تغثِّثَ[1] علىّ بقيَّةَ عمرى فافعل » .

فَرَقّ له عبد الملك وقال : لعمرى لا أُغثِّث عليه بقية عمره ، ثم إن عبد العزيز وافَته منيّته (سنة ٨٥ هـ) فبايع عبدُ الملك لابنه الوليد ، ثم لسليمان من بعده ، وكتب ببيعته لهما إلى البُلدان . (تاريخ الطبرى ٨ : ٥٤)

---

(١) أى أن لا تفسد .

٢٦٨ — بين عبد الملك وهشام بن إسماعيل

« وكان عَامل عبد الملك على المدينة هِشام بن إسماعيل المخزوميُّ ، فكتب إليه عبد الملك أن يدعو الناس لبَيعة الوليد وسليمان ، فدعا الناس إلى البيعة فبايعوا ودعا سعيد ابن المُسَيَّب [١] أن يبايع لهما ، فأبى ، وقال : لا ، حتى أنظر ، فضربه هشام ستين سوطا وطاف به فى تُبَّان [٢] شعَرٍ وحبسه ، وكتب إلى عبد الملك يخبره بخلافه ، وما كان من أمره :

فكتب إليه عبد الملك يلومه فيما صنع ، ويقول : « سعيدٌ وَاللهِ كان أحوجَ أن تَصِلَ رَحِمَه [٣] من أن تضربه ، وإنا لَنعلمُ : ما عندَهُ من شقاقٍ ولا خلاف » .

هذا ما رواه الطبرى ، وروى ابن خِلِّكان فى وَفَيَات الأعيان . قال : قال يحيى ابن سعيد : كتب هشام بن إسمعيل والى المدينة إلى عبد الملك بن مَرْوَان :

« إن أهل المدينة قد أطْبَقوا [٤] على البيعة للوليد وسليمان إلا سعيد بن المسيب » .

فكتب إليه أن :

« اعرِضه على السيف ، فإن مَضَى [٥] فاجْلِده خمسين جلدةً ، وطُفْ به أسواق المدينة » .

(تاريخ الطبرى ٨ : ٦٠ ، ووفيات الأعيان ١ : ٢٠٢)

---

(١) قال ابن خلكان فى ترجمته : « هو أبو محمد سعيد بن المسيب بن حزن بن أبى وهب بن عمرو ابن عائذ بن عمران بن مخزوم القرشى المدنى أحد الفقهاء السبعة بالمدينة ، وكان سيد التابعين من الطراز الأول ، جمع بين الحديث والفقه والزهد والعبادة والورع ، وكانت ولادته لسنتين مضتا من خلافة عمر رضى الله عنه ، وتوفى بالمدينة سنة إحدى وقيل اثنتين وقيل ثلاث وقيل أربع وقيل خمس وتسعين وقيل خمس ومائة للهجرة ، والمسيب بفتح الياء المشددة . وروى عنه أنه كان يقول بكسر الياء ويقول : سيب الله من يسيب أبى — ج ١ : ص ٢٠٦ — وروى ياقوت فى معجم البلدان قال . « لما مات العبادلة — عبد الله ابن عباس وعبد الله بن الزبير وعبد الله بن عمرو بن العاص — صار الفقه فى جميع البلدان إلى الموالى . فصار فقيه أهل مكة عطاء بن أبى رباح ، وفقيه أهل اليمن طاوس ، وفقيه أهل اليمامة يحيى بن أبى كثير ، وفقيه أهل البصرة الحسن البصرى ، وفقيه أهل الكوفة إبراهيم النخعى ، وفقيه أهل الشأم مكحول ، وفقيه أهل خراسان عطاء الخراسانى ، إلا المدينة فإن الله تعالى خصها بقرشى ، فكان فقيه أهل المدينة غير مدافع سعيد بن المسيب » — انظر ج ٣ : ص ٤١٢ — .

(٢) التبان كرمان : سراويل صغير مقدار شبر يستر العورة المغلظة فقط يكون للملاحين .

(٣) لأنه مخزومى مثله كما رأيت فى نسبه . (٤) أى أجمعوا .

(٥) أى صمم وتشبث برأيه .

خلافة الوليد بن عبد الملك سنة ٨٦ — ٩٦

٢٦٩ — كتاب الحجاج إلى الوليد

لما وَلِيَ الوليدُ بن عبد الملك الخلافة كتب إليه الحجاج :

« أما بعدُ ، فإن اللهَ تعالى استقبلَكَ يا أمير المؤمنين فى حَداثة سِنِّك بما لا أعلَمه استقبلَ به خليفةً قبلك ، من التمكين فى البلاد ، والملك للعباد ، والنصر على الأعداء ، فمايلك بالإسلام فقوِّمْ أوَدَه[1] وشرائِعَه وحُدودَه ، ودَعْ عنك محبةَ الناس وبغضهم وسُخْطهم ، فإنهم قلَّما يُؤتى الناسُ من خير وشر إلا أفشَوه فى ثلاثة أيام والسلام » .

(الإمامة والسياسة ٢ : ٤٢)

٢٧٠ — كتاب الحجاج إلى الوليد

وكتب الوليد بن عبد الملك إلى الحجاج أنْ صِفْ لى سيرتك فكتب إليه :

« إنى أيقَظْتُ رأيي وأنَمْتُ هواى ، فأدْنيْتُ السَّيِّد المُطَاع فى قومه ، ووليْتُ الحرْبَ الحازمَ[2] فى أمره ، وقلَّدتُ الخَرَاجَ الموفِّرَ لأمانته ، وقَسَمْتُ لكل خَصْم من نفسى قسما أُعطيه حظا من لطيف عنايتى ونَظَرى ، وَصَرَفْتُ السيفَ إلى النَّطِف[3] المُسِيء ، والثَّوابَ إلى المُحْسِن البرىء ، فخاف المُرِيبُ صَوْلة العِقاب ، وتمسَّك المحسن بحظِّه من الثواب » .

(العقد الفريد ١ : ٨ و ٣ : ١٣)

---

(١) الأود : الاعوجاج ، وفعله كفرح .

(٢) وفى الجزء الأول من العقد «ووليت المجرب» .

(٣) النطف : الرجل المريب ، وإنه لنطف بهذا الأمر : أى متهم ، وفى الأصل : فى الجزء الأول «النصف» وفى الثالث «النطق» وكلتاهما محرفة .

٢٧١ — كتاب شريح إلى صديق له

ووقع بالكوفة وباء، فخرج الناس وتفرقوا فى النَّجَف، فكتب شُرَيْح[1] إلى صديق له خرج بخروج الناس:

« أما بعدُ، فإنك بالمكان الذى أنت فيه بِعَيْنِ مَنْ لا يُعْجِزُه هربٌ، ولا يفوته طَلَب، وإن المكان الذى خلَّفتَ لا يُعجِّل لأحدٍ حِمَامَه، ولا يَظْلِمُه أيامَه، وإنا وإياك لَعَلَى بِساط واحد، وإن النجف من ذى قدرة لقريب ».

(زهر الآداب ٣ : ٣٣٧)

٢٧٢ — كتاب الحجاج إلى قتيبة بن مسلم

وولى الحجاج قُتَيْبَةَ بن مُسْلِم الباهلى خُرَاسان، فَقَدِمَهَا سنة ٨٦ هـ — وغزا أَخْرون وشُومان — وهما من طُخَارُستان[2] — وصالحه أهلها على فِدية أدَّوها إليه فقبلها، ثم قَفَل[3] إلى مَرْو، وخلَّف الجندَ، واستخلف عليهم أخاه صالح بن مسلم، فأخذوا طريق بَلْخ إلى مرو، وبلغ الحجاج، فكتب إليه يلومه ويعجِّز رأيه فى تخليفه الجندَ وكتب إليه:

« إذا غزوتَ فكن فى مقدَّم الناس، وإذا قَفَلْتَ فكن فى أُخْرَيَاتهم وسَاقَتِهم[4] »

(تاريخ الطبرى ٨ : ٦٠)

٢٧٣ — بين الحجاج وقتيبة

قال الطبرى :

وغزا قُتَيْبة وَرْدانَ خُذَاه ملك بُخارَى سنة ٨٩هـ، فلم يُطِقْهُ، ولم يظفر من البلد

---

(١) هو شريح بن الحارث قاضى الكوفة، توفى سنة ٨٧، اقرأ ص ٢٥٠، من الجزء الأول.
(٢) ناحية كبيرة شرقى خراسان على نهر جيحون. وقد ضبطها ابن خلكان هكذا — انظر وفيات الأعيان ١ : ٩٠ ترجمة بشار بن برد، وضبطها ياقوت فى معجم البلدان بفتح الطاء.
(٣) رجع. (٤) ساقة الجيش : مؤخره.

بشيء ، فرجع إلى مَرْو وكتب إلى الحجاج بذلك ، فكتب إليه الحجاج : أن صَوِّرْها لى ، فبعث إليه بصورتها ، فكتب إليه الحجاج أن : « ارجِع إلى مَراغتك[١] ، فتُب إلى الله مما كان منك ، وأتِها من مكان كذا وكذا » .

وقيل : كتب إليه الحجاج أن : « كِسْ بكِسٍّ[٢] ، وانسِفْ نَسَفَ[٣] ، ورِدْ وَرْدَانَ ، وإياك والتَّحويطَ[٤] ، ودَعْني من بُنَيَّاتِ[٥] الطريق » .

فخرج إلى بخارى سنة ٩٠ غازيا ، ففتحها وهزم جنود وردان خذاه ، ومن استنصرهم من السُّغْد والترك ومن حولهم .

ورجع قتيبة إلى مرو ، وكتب إلى الحجاج :

« إنى بعثت عبد الرحمن بن مُسْلِم ، ففتح الله على يديه » .

وكان قد شَهِدَ الفتح مولى للحجاج ، فقَدِم فأخبره الخبر ، فغضب الحجاج على قتيبة ، فاغتمّ لذلك ، فقال له الناس : ابعث وفدا من بنى تميم وأعطهم وأرْضِهم يُخْبِروا الأمير أن الأمر على ما كتبتَ ، ففعل ، فلما قَدِمُوا على الحجاج صاح بهم وعابهم ، ودعا بالحجَّام بيده مِقْراض[٦] ، فقال : لأقطعن ألسنتكم أو لتَصْدُقُنَّنى ، قالوا : الأمير قتيبة ، وبعث عليهم عبد الرحمن ، فالفتح للأمير ، والرأس الذى يكون على الناس ، فسكن الحجاج .

(تاريخ الطبرى ٨ : ٦٧ ، ٦٩)

---

(١) المراغة : متمرغ الدابة ، أراد بها بخارى : أى أن يفتحها ويتخذها معقلا يتقلب فيه كما تتقلب الدابة فى مراغتها ، والمراغة أيضاً : الأتان التى لا تمتنع من الفحول ، كأنه يقول له إنها لا تستعصى عليك فى فتحها . (٢) الكيس : العقل والخفة والتوقد ، وفعله كضرب ، وكاسه يكيسه غلبه بالكياسة ، وكس : مدينة تقارب سمر قند .

(٣) نسف : مدينة كبيرة بين جيحون وسمرقند .

(٤) يقال : حوط حول الأمر : أى دار ، وأصله من حوط كرمه تحويطا : أى بنى حوله حائطا ، يعنى : إياك والدوران فى القول وكثرة المراجعة فيه (ويقال أيضاً : حاوطت فلانا محاوطة : إذا داورته فى أمر تريده منه وهو يأباه كأنك تحوطه ويحوطك) .

(٥) بنيات الطريق : الطرق الصغار تتشعب من الجادة ، أى اسلك الطريق العام المستقيم ولا تعرج فى المنحنيات والمنعطفات .

(٦) المقراض : المقص .

٢٧٤ — بين الوليد وعمر بن عبد العزيز

وفى سنة ٨٨ هـ بعث الوليد إلى عمر بن عبد العزيز — وكان عامله على المدينة — بكتاب يأمره بإدخال حُجَر أزواج رسول الله صلى الله عليه وسلم فى مسجد رسول الله ، وأن يشترى مافى مؤخره ونواحيه حتى يكون مائتى ذراع فى مائتى ذراع ، ويقول له : « قدِّم القِبْلة إن قَدَرْتَ — وأنت تقدر — لِمكان أخوالك ، فإنهم لايخالفونك ، فمن أبَى منهم فَمُرْ أهل المِصْر فليقوِّموا له قِيمة عَدْل ، ثم اهْدِم عليهم وادفع إليهم الأثمان ، فإن لك فى ذلك سَلَف صدقٍ عمرَ وعثمانَ » .

فأقرأهم كتابَ الوليد، فأجاب القوم إلى الثمن فأعطاهم إياه، وأخذ فى هدم بيوت أزواج النبي صلى الله عليه وسلم وبناء المسجد، فلم يمكث إلا يسيرا حتى قدِم الفَعَلة، بعث بهم الوليد .

وفى هذه السنة أيضاً كتب الوليد إلى عمر فى تسهيل الثَّنايا[1] وحَفْرِ الآبار بالمدينة ، وخرجت كتبه إلى البلدان بذلك ، وكتب الوليد إلى خالد بن عبد الله القَسرى بذلك — وكان على مكة — .

وكتب الوليد أيضا إلى عمر أن يعمل الْفَوَّارة التى كانت عند دار يزيد بن عبد الملك ، فعمِلها عمر وأجرى ماءها ، فلما حج الوليد وقف عليها ، فنظر إلى بيت الماء والفوارة فأعجبته ، وأمر لها بقُوَّام يقومون عليها، وأن يسقى أهل المسجد منها ففعل ذلك.

(تاريخ الطبرى ٨ : ٦٥ ، ٦٦)

٢٧٥ — كتب بين الحجاج والوليد وسليمان ابنى عبد الملك

ولم يَجْتَزِئْ الحجاج بعزل يزيد بن المهلَّب عن خُراسان كما قدمنا ، بل حبسه هو وإخوته ، وأغرمهم ستة آلاف ألف وعذَّبهم[2] ، فأعملوا الحيلة فى الفِرار من سجنه

---

(١) جمع ثنية ، وهى الطريق فى الجبل .

(٢) وكان يزيد يصبر على عذابه صبراً حسناً ، وكان الحجاج يغيظه ذلك ، فقيل له : إنه رمى بنشابة

(سنة ٩٠ هـ) ففزِعَ الحجاج وذهبَ وَهْمُه أنهم ذهبوا قِبَلَ خراسان ، وكان يقول : إنى لأظنه يحدِّث نفسه بمثل الذى صنع ابنُ الأشعث ، وكتب إلى الوليد : يخبره بهَرَبهم وأنه لايراهم أرادوا إلا خراسان ، وبعث البَرِيد إلى قُتَيبة بن مسلم يحذِّره قدومهم ، ويأمره أن يستعدَّ لهم ، وبعث إلى أمراء الثغور والكُوَر أن يرصُدوهم ويستعدوا لهم .

ومضى يزيد وإخوته حتى قَدِموا الشام ، فلاذوا بسليمان بن عبد الملك متعوِّذين به فأجارهم ، فكتب الحجاج إلى الوليد :

« إن آل المهلَّب خانوا مال الله ، وهرَبوا منى ، ولحَقوا بسليمان بن عبد الملك أخى أمير المؤمنين ، وولىِّ عَهْد المسلمين ، وإن أمير المؤمنين أعلى رأيا » .

فلما بلغ الوَليد مكانُه عند سليمان ، هوَّن عليه بعض ما كان فى نفسه ، وطار غضبا للمال الذى ذهب به ، وكتب إلى أخيه سليمان بذلك .

فكتب سليمان إلى الوليد :

«إن يزيد بن المهلَّب عندى ، وقد آمَنْتُه ، وإنما عليه ثلاثة آلاف ألفٍ ، كان الحجاج أغرمَهم ستة آلافِ ألف ، فأدَّوا ثلاثة آلاف ألف ، وبقى ثلاثةُ آلاف ألف ، فهى علىَّ » .

أو كتب إليه :

« ياأمير المؤمنين : إنى ما أجَرْتُ يزيد بن المهلَّب إلا لأنه هو وأبوه وإخوته من صنائعنا قديما وحديثا ، ولم أُجِرْ عدوا لأمير المؤمنين ، وقد كان الحجاج قصده وعذَّبه وغرَّمه أربعة آلاف ألف درهم ظلماً ، ثم طالبه بثلاثة آلاف ألف درهم ، وقد سار إلىَّ واستجار بى فأجرته ، وأنا أغرَم عنه هذه ثلاثة آلاف ألف الدرهم ، فإن رأى أمير المؤمنين

نشبت نصلها فى ساقه فهو لايمسها شىء إلا صاح ، فإن حركت أدنى شىء سمعت صوته ، فأمر أن يعذب ويدهق ساقه (أى تغمز شديدا) فلما فعل ذلك به صاح ، وأخته هند بنت المهلب عند الحجاج ، فلما سمعت صياح يزيد صاحت وناحت فطلقها .

ألاّ يُخزِيَنِى فى ضيفى فليفعل ، فإنه أهل الفضل والكرم » .

فكتب إليه الوليد :

« لا واللّه ، لا أومنه حتى تبعث به إلىّ فى وَثاق[1] » .

فكتب إليه سليمان :

« ولَئن أنا بعثت به إليك لأجيئنّ معه ، فأنشُدُك اللّهَ[2] أن لا تفضَحَنى ولا تُخفِرَنى[3] » .

فكتب إليه الوليد : واللّه لئن جئتنى لا أومنه » .

فقال يزيد : ابعثنى إليه ، فو الله ما أحب أن أُوقع بينك وبينه عداوة وحربا ، ابعث إليه بى وأرسل معى ابنك ، واكتب إليه بألطفِ ما قدَرت عليه .

فأحضر سليمان ابنه أيوب فقيّده ودعا يزيد بن المهلّب فقيّده ، ثم شد قيد هذا إلى قيد هذا بسلسلة وغَلّهما جميعا بِغُلّين ، وأرسلهما إلى أخيه الوليد ، فدخلا عليه ، فلما رأى الوليد ابن أخيه فى سلسلة أطرق استحياء ، وقال: لقد أسأنا إلى أبى أيوب إذ بَلَغْنا به هذا المَبْلَغ ، ودفع الغلام كتاب أبيه إلى عمه ، وقال : يا أمير المؤمنين ، نفسى فِداؤك ، لا تُخْفِرِ ذمة أبى وأنت أحقُّ من منعها ، ولا تقطع منا رجاء مَنْ رجا السلامةَ فى جوارنا لِمكاننا منك ، ولا تُذِلّ من رجا العز فى الانقطاع إلينا لِعزّنا بك » . وكان فى الكتاب :

« لعبد اللّه الوليد أمير المؤمنين من سليمان بن عبد الملك ، أما بعد: يا أمير المؤمنين ، فو اللّه إنْ كنتُ لأظنُّ — لو استجار بى عدو قد نابَذَك[4] وجاهَدك فأنزلته وأجَرْته — أنك لا تُذِلّ جارى ولا تُخْفِر جوارى ، بل لم أُجِرْ إلا سامعا مطيعا حَسَنَ البَلاء والأثر فى الإسلام هو وأبوه وأهل بيته ، وقد بعثت به إليك ، فإن كنتَ إنما

(١) الوثاق بالفتح ويكسر: مايشد به . (٢) أى أسألك بالله .

(٣) أخفره وخفر به كضرب : نقض عهده .

(٤) نابذه : خالفه وعصاه ، ونابذه الحرب كاشفه إياها وجاهره بها .

تَغزو[1] قطيعتى ، والإخفارَ لذمتى ، والإبلاغَ فى مساءتى ، فقد قَدَرت إن أنت فعلت ، وأنا أُعيذك بالله من احتراد[2] قطيعتى ، وانتهاكِ حُرمتى ، وترك برّى وصِلتى ، فوالله يا أمير المؤمنين ما تدرى ما بقائى وبقاؤك ، ولا متى يُفرّق الموت بينى وبينك ، فإن استطاع أمير المؤمنين — أدام الله سروره — أن لا يأتىَ علينا أجلُ الوفاة إلا وهو لى واصلٌ ، ولِحقّى مؤدٍّ ، وعن مَساءتى نازع[3] ، فليفعلْ ، والله يا أمير المؤمنين ما أصبحت بشىء من أمر الدنيا - بعد تقوى الله فيها - بأَسَرَّ منى برضاك وسرورك ، وإن رضاك مما ألتمسُ به رضوانَ الله ، فإن كنت يا أمير المؤمنين تريد يوما من الدهر مسرّتى وصِلَتى وكرامتى وإعظام حقى ، فتجاوَزْ لى عن يزيد ، وكلُّ ما طلبته به فهو علىّ » .

أو كتب إليه . « أما بعد ، يا أمير المؤمنين فقد وجّهتُ إليك يزيدَ وابن أخيك أيوب بن سليمان ، ولقد هَمَمْتُ أن أكون ثالثهما ، فإن هممتَ يا أمير المؤمنين بقتل يزيد فبالله عليك ابْدَأْ بأيوبَ مِن قبله ، ثم اجعل يزيدَ ثانيا واجعلنى إذا شئت ثالثا ، والسلام » .

فلما قرأ كتابه قال : لقد شَقَقنا[4] على سليمان ، ثم دعا ابن أخيه فأدناه منه ، وتكلم يزيد ، فقال : يا أمير المؤمنين ، إن بلاءكم عندنا أحسن البلاء ، فمن يَنْسَ ذلك فلسنا ناسيه ، ومن يكفُر فلسنا كافريه ، وقد كان من بلائنا أهلَ البيت فى طاعتكم ، والطعن فى أعين أعدائكم ، فى المواطن العِظام فى المشارق والمغارب، ما إنّ المِنّة علينا فيها عظيمة » . فقال له : اجلس فجلس ، فآمنه وكف عنه ، ورجع إلى سليمان، وسعى إخوته فى المال الذى عليه .

---

(١) تقصد .
(٢) الاحتراد افتعال من الحرد (بالفتح) وهو القصد ، حرد كضرب : قصد — ولم تذكر كتب اللغة المزيد — وفى وفيات الأعيان « اختيار » .   (٣) أى كاف .
(٤) شق عليه : أوقعه فى المشقة ، وفى قوله تعالى : ﴿وَمَا أُرِيدُ أَنْ أَشُقَّ عَلَيْكَ﴾.

وكتب الوليد إلى الحجاج :

« إنى لم أصلْ إلى يزيد وأهل بيته مع سليمان ، فا كففْ عنهم واللهُ عن الكتاب إلىّ فيهم » فلما رأى ذلك الحجاج كف عنهم .

(تاريخ الطبرى ٨ : ٧٣ ، وثمرات الأوراق ص ٢٠٨ ، ووفيات الأعيان ٢ : ٢٧٠)

٢٧٦ — كتاب الحجاج إلى قتيبة

وكتب الحجاج إلى قتيبة :

« إنى قد نظرتُ فى سِنِّى ، فإذا أنا قد بلغت خمسين سنةً ، وأنت نحوٌ منى فى السّنّ[1] ، وإنّ امرأً قد سار نحو خمسين حِجّةً[2] إلى مَوْرِد، لقَمِنٌ[3] أن يُورَدَه » .

(الأغانى ١٨ : ١١٩ ، وسرح العيون ص١٢٢)

٢٧٧ — كتاب الحجاج إلى قتيبة

وكتب الحجاج إلى قتيبة :

« إنى قد طلقتُ بنت قَطَن الهلالية عن غير رِيبة ، فتزَوَّجْها » .

---

(١) وفى رواية الأغانى : « فاذا أنا ابن ثلاث وخمسين سنة ، وأنا وأنت لدة عام . . . » .

(٢) الحجة : السنة .

(٣) القمين كأمير ، والقمن ككتف وجبل : الخليق الجدير (والأخيرة لاتثنى ولا تجمع) قال أبو الفرج : نسمع هذا أبو التيمى فقال :

إذا ذهب القرن الذى أنت فيهم وخلفت فى قرن فأنت غريب
وإن امرأ قد سار خمسين حجة إلى منهل ، من ورده لقريب

وقال صاحب زهر الآداب (ج ٣ : ص ١١٧) « والبيت لأبى محمد التيمى ، أنشده دعبل ، قال : وتزعم الرواة أنه لأعرابى من بنى أســـد ، قال خلاد الأرقط : كنا على باب أبى عمرو بن العلاء ومعنا التيمى فذكرنا كتاب الحجاج بن يوسف إلى قتيبة بن مسلم : « إنى وإياك لدتان، وإن امرأ قد سار خمسين حجة . . . » فانتشله التيمى فاجتلبه فى شعره » .

٢٧٨ ـ رد قتيبة على الحجاج

فكتب إليه قتيبة :

« ليس كلُّ مَطالِع الأمير أُحبُّ أن أطلُعَ » .

فقال الحجاج . وَيل أمِّ[1] قتيبة ! إعجاباً بقوله . (سرح العيون ص ١٢٨)

٢٧٩ ـ كتاب الحجاج إلى قتيبة

وكتب الحجاج إلى قتيبة أن :

« ابعَث إلىَّ بالآدَمِ[2] الجَعْدِيِّ الذى يُفهِمنى ويَفهَم عنى » .

فبعث إليه عُرَام[3] بن شُتَير ، فقال الحجاج : « لِلّه دَرُّه[4] ، ما كتبتُ إليه فى أمرٍ قطُّ إلا فهم عنى وعرَف ما أُريد » . (البيان والتبيين ١ : ٢٠٦)

٢٨٠ ـ كتاب الحجاج إلى قتيبة

وكتب الحجاج إلى قتيبة :

« أما بعد ، فإن وَكِيعَ بن حَسّان كان بالبصرة ، ثم صار لصّا بِسجِستان ، ثم صار

(١) انظر هامش ص ١١٩ .

(٢) الآدم : وصف من الأدمة بالضم وهى السمرة ، والجعدى : نسبة إلى جعد ، ووجه جعد : مستدير قليل اللحم ، وهو نسبة إلى الوصف ، يؤيد هذا ماقبله وهو « الآدم » فهو يبغى أن يبين له صفاته الخلقية ، وليس بمنسوب إلى بنى جعدة ـ وهم حى من العرب منهم النابغة الجعدى ـ لأن الذى عناه الحجاج وهو عرام بن شتير ، من بنى ضبة بن طابخة بن إلياس بن مضر ، أما بنو جعدة فهم من قيس عيلان بن مضر .

(٣) فى البيان والتبيين « غدام » وهو تحريف ، وإنما هو عرام ، قال صاحب القاموس : « وسموا عارما وكغراب وحام » وقد ورد هذا الاسم فى تاريخ الطبرى « عرام بن شتير الضبى » ج ٨ : ص ٦٩ .

(٤) لله دره : كلمة تقال لمن يتعجب منه ، والدر : اللبن والمراد هنا اللبن الذى ارتضعه من ثدى أمه ، وأضيف إلى الله تعالى تشريفا ، أى أن اللبن الذى تغذى به يستحق أن ينسب إلى الله تعالى لشرفه وعظمه ، وقيل معناه : لله الثدى الذى أرضعه ، وهو قريب من سابقه ، والدر أيضا : العمل والنفس أى أن عمله عظيم جليل جدير به أن يضاف إلى الله تعالى ، أو أن نفسه شريفة كريمة كذلك .

إلى خُراسان، فإذا أتاك كتابي هذا فاهدِم بناءه، واحلُلْ فِناءه[١] .

وكان على شُرْطة قتيبة فعزله . (العقد الفريد ١ : ١٧)

٢٨١ – كتاب قتيبة إلى الحجاج ورده عليه

وكتب قتيبة إلى الحجاج : يشكو قِلّة مَرْزِئته[٢] من الطعام، وقلّة غِشْيانه النساءَ وحَصَرَه على المِنْبَر، فكتب إليه :

« استكثِرْ من الألوان لتُصيبَ من كل صَحْفةٍ شيئاً، واستكثِرْ من الطَّرُوقةِ[٣] تجد بذلك قوةً على ما تُريد، وأنزِلِ الناس بمنزلة رجلٍ واحد من أهل بيتك وخاصّتك وارْمِ ببصرك أمامَك تبلُغ حاجتك» . (عيون الأخبار ٥ : ١٧٤)

٢٨٢ – كتاب الحجاج إلى الوليد

وتوفِّيَ محمد بن يوسف أخو الحجاج (سنة ٩١ هـ) وهو والي اليمن، فكتب الوليد إلى الحجاج يعزيه، فكتب الحجاج جوابه :

« يا أمير المؤمنين، ما التقيتُ أنا ومحمد منذُ كذا وكذا سنةً إلا عاما واحداً، وما غاب عني غَيبةً أنا لِقُرْبِ اللقاء فيها أرْجَى من غَيْبته هذه في دارٍ لا يتفرّق فيها مؤمنان » . (وفيات الأعيان ١ : ١٢٦)

٢٨٣ – كتاب الحجاج إلى الوليد

وكتب الحجاج إلى الوليد بعد وفاة أخيه محمد بن يوسف :

« أخبِرُ أمير المؤمنين – أكرمه الله – أنّه أُصيبَ لمحمد بن يوسف خمسون

---

(١) فناء الدار : مااتسع من أمامها، ويقال : حل المكان وحل به .

(٢) رزأه مرزئة : أصاب منه .

(٣) الطروقة : الزوجة وأنثى الفحل، يقال : ناقة طروقة الفحل، التي بلغت أن يضربها الفحل، وكذلك المرأة، ويقال للمتزوج : كيف وجدت طروقتك .

ومائةُ ألفِ دينارٍ ، فإن يكن أصابَها من حِلِّها فرَحِمَه اللهُ ، وإن تكن من خيانة فلا رَحِمه الله » .

٢٨٤ — رد الوليد على الحجاج

فكتب إليه الوليد :

« أما بعدُ : فقد قرأ أميرُ المؤمنين كتابك فيما خلَّف محمدُ بن يوسف ، وإنما أصاب ذلك المالَ من تجارة أحللْناها له ، فترَحَّمْ عليه ، رَحِمه الله » .

(الكامل للمبرد ١ : ٢٤٨)

٢٨٥ — كتاب مسلمة بن عبد الملك إلى الوليد

وكتب مَسْلَمة بن عبد الملك وهو غازٍ بقُسطنطينية إلى أخيه الوليد :

أرِقتُ وصحراءُ الطُّوانَةِ بيننا ... لِبَرْقٍ تلألَا نحو غَمْرَةَ يَلمَحُ[1]
أزاوِلُ أمراً لم يكن لِيُطيقَه ... من القوم إلا اللَّوْذَعِيُّ الصَّمَحْمَحُ[2]

(معجم البلدان ٦ : ٦٦)

٢٨٦ — كتاب سليمان بن عبد الملك إلى الحجاج

وروى صاحب العقد الفريد قال :

كان سليمان بن عبد الملك يكتب إلى الحجاج فى أيام أخيه الوليد بن عبد الملك كُتُبا فلا ينظر له فيها ، فكتب إليه :

« بسم الله الرحمن الرحيم ، من سليمان بن عبد الملك إلى الحجاج بن يوسف ، سلامٌ على أهل الطاعة من عباد الله ، أما بعدُ : فإنك امرؤٌ مَهْتوكٌ عنه حِجابُ الحقِّ ، مُولَعٌ

(١) طوانة : بلد بثغور المصيصة (وهى من ثغور الشام بين أنطاكية وبلاد الروم) .
(٢) اللوذعى : الخفيف الذكى الحديد الفؤاد ، والصمحمح : الرجل الشديد .

بما عليك لا الك ، مُنْصَرِفٌ عن منافعك ، تاركٌ لحظِّك ، مُستخِفٌّ بحق الله وحقِّ أوليائه ، لا ما سَلَفَ إليك من خيرٍ يَعطِفك ، ولا ما عليك لا الك تَصْرِفه فى مُهِمَّةٍ من أمرك ، مَعْمُوهٌ[١] مُعْصَوصِرٌ[٢] عن الحق اعصِيصاراً ، لاتسكُتُ عن قبيح ، ولا ترعوِى عن إساءة ، ولا ترجُو لله وَقارًا ، حتى دُعِيتَ فاحشا سَبَّابا ، فقِسْ شِبرَكَ بِفِتْرك ، واخرُزْ زمامَ نَعْلٍ بِحَذْو[٣] مثله قائم ، وايمُ اللهِ لئن أمكننى اللهُ منك لأدوسَنَّك دَوْسةً تَلِينُ منها فَرائصُك ، ولأجعلنَّك شريداً فى الجبال ، تلوذُ بأطراف الشِّمال ، ولأعلِّقَنَّ الرُّوميَّة الحمْراء[٤] بِثَدْيَيْها ، عَلِمَ اللهُ ذلك منى[٥] وقَضَى لى به علىَّ ، فقِدْمًا[٦] غرَّتْك العافيةُ ، وانتحيْتَ[٧] أعراضَ الرجال ، فإنك قَدَرْتَ فَبذِخْتَ[٩] ، وظفِرْتَ فتعدَّيْتَ ، فرُوَيدكَ حتى تنظر كيف يكون مَصيرُك إن كانت بى وبك مُدةٌ أتعلَّق بها ، وإن تكن الأخرى ، فأرجو أن تئُولَ إلى مَذَلَّة ذليلة ، وخَزْيَة[٨] طويلة ، ويجعل مَصيرك فى الآخرة شرَّ مصير ، والسلام » .

(العقد الفريد ٣ : ١٦)

---

(١) عمه كفرح : تردد فى الضلالة وتحير لايهتدى لطريقه ومذهبه ، وفى كتب اللغة أن الوصف منه عمه كفرح وعامه ، ولم يرد فيها معموه ، إلا أن يقال هو مفعول بمعنى فاعل ، كما فى « حِجَابًا مَسْتُورًا » أى ساترا .

(٢) قال فى اللسان : « كل شىء منعته وحبسته فقد عصرته واعتصرته ، » فمعنى معصوصر عن الحق ممنوع محبوس عنه ، وهو اسم فاعل من اعصوصر ، وصيغة افوعل من أبنية المبالغة كاعذوذب من عذب، واحلولى من حلا — ولم تورد كتب اللغة هذه الكلمة — .

(٣) يقال حذا النعل بالنعل : أى قطعها وقدرها على مثالها .

(٤) يعنى بها زينب بنت يوسف أخت الحجاج كما يدل عن ذلك رد الحجاج الآتى ، يريد أنها تشبه الروم فى لونها ، قال فى اللسان : « والحمراء : العجم لبياضهم ، ولأن الشقرة أغلب الألوان عليهم ، وكانت العرب تقول للعجم الذين يكون البياض غالبا على ألوانهم مثل الروم والفرس ومن صاقبهم (أى قاربهم) إنهم الحمراء ، والعرب إذا قالوا فلان أبيض وفلانة بيضاء فمعناه الكرم فى الأخلاق لا لون الخلقة : أى طاهر نقى من العيوب ، وإذا قالوا فلان أحمر وفلانة حمراء عنت بياض اللون ، والعرب تسمى الموالى الحمراء » وقال أيضا : « والعرب تقول امرأة حمراء أى بيضاء » وفى الحديث « خذوا شطر دينكم من الحميراء » يعنى عائشة ، كان يقول لها أحيانا ياحميراء تصغير الحمراء يريد البيضاء » . (٥) هذه الجملة فى قوة أقسم بعلم الله أو بالله العليم .

(٦) أى قديما . (٧) أى قصدتها بالتمزيق والانتهاك .

(٨) بذخ كفرح بذخا بالتحريك : تكبر وعلا .

(٩) الخزية بفتح الخاء وكسرها : البلية يوقع فيها .

٢٨٧ - رد الحجاج على سليمان

فكتب إليه الحجاج :

« بسم الله الرحمن الرحيم ، من الحجاج بن يوسف إلى سليمان بن عبد الملك ، سلامٌ على من اتبع الهُدى ، أما بعدُ ، فإنك كتبتَ إليَّ تذكُرُ أنى امرؤ مهتوكٌ عنى حجابُ الحق ، مولَعٌ بما علىَّ لا لى ، منصرفٌ عن منافعى ، تاركٌ لحظى ، مستخِفٌّ بحق الله وحقِّ وَلِيِّ الحق ، وتذكر أنك ذو مُصاوَلة[1] ، وَلَعَمْرى إنك لَصَبى حديثُ السِّن ، تُعْذَرُ بِقلة عقلِك ، وحَداثةِ سنك ، ويرقُبُ فيك غيرُك .

فأمّا كتابُك إلىّ ، فلعَمرى لقد ضَعُف فيه عقلُك ، واستخفّ به حِلْمُكَ ، فلِلّهِ أبوك ! أفلاَ انتصرتَ بقضاء الله دون قضائك ، ورجاء الله دون رجائك ، وأمَتَّ غيظَكَ ، وأمِنْتَ عدوَّك ، وسَتَرْتَ عنه تدبيرك ، ولم تُنَبِّهْهُ فيلتمسَ مِنْ مُكايدتك ماتلتمسُ مِنْ مكايدته ! ولكنك لم تَشِفَّ[2] بالأمور علما ، ولم تُرْزَق من أمرك حَزْما ، جَمَعْتَ أموراً دَلَّاك فيها الشيطانُ على أسوإ أمرك ، فكان الجفاءُ من خَليقتك ، والحمق من طبيعتك ، وأقبل بك الشيطان وَأَدْبَرَ ، وحَدّثك أنك لن تكون كاملا حتى تتعاطى ما يَعيبك ، فتحذلقتَ[3] حَنْجرتك لقوله ، واتسع جوانبُها لكذبه .

وأما قولك : لو ملّكك اللهُ الملْقتَ زينبَ ابنة يوسف بثدييها ، فأرجو أن يُكرمها الله بهَوانك ، وأن لا يوفِّق ذلك لك إن كان ذلك من رأيك ، مع أنى أعرفُ أنك كتبتَ إلىّ والشيطانُ بين كتفيك ، فشرٌّ تُملِي عليك على شر كاتبٍ راضٍ بالخسف[4] ، فأحْرِ بالحق أن لا يدلّك على هدى ، ولا يردك إلاَّ إلى رَدَى ، وتحلّب[5]

---

(١) صاوله مصاولة وصيالا : واثبه .

(٢) شف : زاد (ونقص أيضا) .

(٣) تحذلق : أظهر الحذق وادعى أكثر مما عنده ، والمراد تابعت الشيطان وأطعته .

(٤) الخسف : الذل والضيم ، يريد أنه أذل نفسه لأنه خضع لسلطان الشيطان . (٥) أى سال .

فُوكَ الخلافَةَ ، فأنت شامخ البَصَر طامح النظر ، تظن أنك حين تَمْلِكها ، لا تنقطع عنك مُدَّتُها ، إنها لَلُقْطَةٌ(١) الله ، أسألُ الله أن يُلهِمَك فيها الشكرَ ، مع أنى أرجو أن ترغَبَ فيها رَغِبَ فيه أبوك وأخوك ، فأكونَ لك مِثلى لهما ، وإن نفَخَ الشيطان فى مَنْخِرَيك(٢) فهو أمر أراده الله نَزْعَه عنك ، وإخراجَه إلى من هوأكملُ بهمنك ، ولعمرى إنها النصيحة ، فإن تَقبَلْهَا فِمثلُها قُبِل ، وإن تردَّها علىَّ اقتطعتُها دونك ، وأنا الحجاج » .   (العقد الفريد ٣ : ١٦)

٢٨٨ — كتاب الحجاج إلى سليمان

وروى الجاحظ فى البيان والتبيين قال :

قَدِمت وفود العراق على سليمان بن عبد الملك بعد ما استُخْلِفَ ، فأمرهم بشتم الحجاج فقاموا يشتِمُونه ، فقال بعضهم : « إنَّ عدوَّ الله الحجاج كان عبداً زَبَّاباً(٣) ، قنوَّر

(١) اللقطة : اسم الشيء الذى تجده ملقى فتأخذه ، يعنى أنها تصير إلى الله .
(٢) بفتح الميم والخاء وبكسرهما وضمهما وكمجلس .
(٣) بائع زبيب ، قيل إنه كان يبيع الزبيب بالطائف ، وذكروا أنه كان أول أمره يعلم الصبيان مع أبيه بالطائف — ويسمى كليبا — وفيه يقول الشاعر :

أينسى كليب زمان الهزال … وتعليمه سورة الكوثر
رغيف له فلك دائر … وآخر كالقمر الأزهر

يشير إلى خبز المعلمين ، فإنه يختلف فى الصغر والكبر على قدر بيوت الصبيان ، ويقول آخر :

فلولا بنو مروان كان ابن يوسف … كما كان عبدا من عبيد إياد
زمان هو العبد المقر بذله … يروح صبيان القرى ويغادى

« راحهم وروحهم :ذهب إليهم رواحا » ثم صار دباغا ، كما يدل على ذلك هجاء كعب الأشقرى له. وذلك أن المهلب بن أبى صفرة لما أطال قتال الأزارقة ، كتب إليه الحجاج يستبطئه ويضعفه ويعجزه فقال المهلب لرسوله : قل له إن الشاهد يرى مالا يرى الغائب . . الخ (انظر ص ١٥١) وقام كعب الأشقرى، وكان من جند المهلب ، فأنشد بحضرة رسول الحجاج أبياتا منها :

إن ابن يوسف غره من غزوكم … خفض المقام بجانب الأمصار
لو شاهد الصفين حين تلاقيا … ضاقت عليه رحيبة الأقطار
ورأى معاودة الدباغ غنيمة … أيام كان مخالف الإقتار

فبلغت أبياته الحجاج ، فكتب إلى المهلب يأمره بإشخاص كعب الأشقرى إليه، فأعلم المهلب كعبا بذلك =

ابن قنوّر[٢] ، لا نسبَ له فى العرب ، قال سليمان : أىّ شتم هذا ؟ إن عدوّ الله الحجاج كتب إلىّ :

« إنما أنت نُقطة من مِداد ، فإن رأيتَ فىّ ما رأى أبوك وأخوك كنتُ لك كما كنتُ لهما ، وإلاّ فأنا الحجاج وأنت النقطة ، فإن شئتُ محوتُك ، وإن شئتُ أثبتُّك » .

فالعنوه لعنه الله ، فأقبل الناس يلعنونه ، فقام ابن أبى بُرْدة بن أبى موسى الأشعرىّ فقال : « يا أمير المؤمنين إنا نُخبرك عن عدوّ الله بِعِلْمٍ » . قال : هاتِ : قال : « كان عدوّ الله يتزيّن تَزَيُّنَ المُومِسَة[١] ، ويصعَد المِنبر فيتكلم بكلام الأخيار ، فإذا نزل عَمِل عَمَلَ الفَرَاعنة ، وأكذَبُ فى حديثه من الدَّجّال » . فقال سليمان لرجاء بن حَيْوَة : « هذا وأبيك الشتمُ ، لا ما تأتى به السِّفْلة[٢] » . (البيان والتبيين ١ : ٢١١)

٢٨٩ — بين عمر بن عبد العزيز والوليد والحجاج

وقال الطبرى :

وفى سنة ٩٣ هـ عُزِل عمر بن عبد العزيز عن المدينة ، وكان سبب ذلك أن عمر كتب إلى الوليد يخبره بعَسْف[٣] الحجاج أهلَ عمله بالعِراق واعتدائه عليهم وظلمه لهم بغير حق ولا جناية ، وبلغ ذلك الحجاجَ فاضطغَنَه على عمر ، وكتب إلى الوليد : « إن

— وأوفده من ليلته إلى عبد الملك ، وكتب إليه يستوهبه منه ، فقدم كعب على عبد الملك ، فاستنشده فأعجبه ما سمع منه . فأوفده إلى الحجاج ، وكتب إليه يقسم عليه أن يعفو عنه ، فلما دخل كعب على الحجاج قال : إيه يا كعب ! « ورأى معاودة الدباغ غنيمة » ! فقال : أيها الأمير ، والله لقد وددت فى بعض ما شاهدته فى تلك الحروب وأزماتها وما يوردناه المهلب من خطرها ، أن أنجو منها وأكون حجاما أو حائكا ، فقال له الحجاج : أولى لك ، لولا قسم أمير المؤمنين لما نفعك ما أسمع ، فالحق بصاحبك . وبعض الرواة ينكر هذا القول ويقول هذه من أكاذيب الشعراء — انظر الأغانى ج ١٣ ص ٥٧ ، وسرح العيون ص ١١٢ ، والعقد الفريد ٣ : ٦ — . (٢) القنور : الشرس الصعب من كل شىء ، وكسنور : العبد .

(١) امرأة موس وموسة : فاجرة مجاهرة بالفجور .

(٢) سفلة الناس بكسر فسكون أو بفتح فكسر : أسافلهم وغوغاؤهم .

(٣) العسف : الظلم .

مَن قِبَلِي من مُرّاق[١] أهل العراق، وأهل الشقاق، قد جَلَوا عن العراق، ولجئوا إلى المدينة ومكة، وإن ذلك وَهْنٌ[٢] ».

فكتب الوليد إلى الحجاج: أن أشِرْ عليّ برجلين، فكتب إليه يشير عليه بعثمان ابن حيّان وخالد بن عبد الله، فولى خالداً مكة، وعثمانَ المدينة، وعزل عمر بن عبد العزيز.

(تاريخ الطبري ٨ : ٩٠)

٢٩٠ — كتاب الحجاج إلى الوليد

وروى أبو علي القالي في الأمالي قال:

لما حضرتِ الحجاجَ الوفاةُ وأيقن بالموت، قال: أَسْنِدُونِي، وأْذِنِ للناس فدخلوا عليه، فذكر الموتَ وكَرْبه، واللّحدَ ووَحْشته، والدنيا وزوالها، والآخرةَ وأهوالَها، وكثرةَ ذنوبه، وأنشأ يقول:

إن ذنبي وَزْنُ السموات والأر ض، وظنّي بخالِقِي أن يُحابِي
فلئن مَنَّ بالرضا فهو ظنّي ولئن مرّ بالكتاب عذابي
لم يكن ذاك منه ظلما، وهل يَظْلِمُ رَبٌّ يُرْجَى لحُسْنِ المآب؟

ثم بكى وبكى جلساؤه ثم أمر الكاتب أن يكتب إلى الوليد بن عبد الملك ابن مروان:

« أما بعدُ: فقد كنتُ أرعَى غنمَك، أحُوطها[٣] حياطة الناصح الشفيق برعيّة مولاه، فجاء الأسد فبطش بالراعي، ومزّق المَرْعِيَّ كُلَّ مُمزَّق، وقد نزل بمولاك ما نزل بأيُّوبَ الصابر، وأرجو أن يكون الجبّار أراد بعبده غُفراناً لخطاياه، وتكفيرة لما حَمَل من ذنوبه، ثم كتب في آخر الكتاب:

(١) المراق: جمع مارق، وهم الخارجون عن الطاعة.
(٢) الوهن ويحرك: الضعف.
(٣) أصونها وأحفظها.

إذا مَا لَقِيتُ اللهَ عَنِّىَ راضياً ... فإنّ شفاءَ النفس فيما هنالكِ
فحسبي بقاء الله مِنْ كل ميت ... وحسبي حَياةُ الله من كل هالكِ
لقد ذاق هذا الموتَ مَن كان قبلنا ... ونحن نذوق الموتَ من بعد ذلكِ
فإنْ مُتُّ فاذكُرْنى بذكرٍ محبَّبٍ ... فقد كان جَمًّا فى رضاكَ مَسالِكى
وإلا ففى دُبْرِ الصلاة بدعوة ... يُلَقَّى بها المسجونُ فى نار مالك
عليك سلامُ الله حيا وميتا ... ومن بعد ما تُحيا عتيقاً لمالكِ

وكانت وفاته سنة ٩٥ هـ . (ذيل الأمالى ص ١٧٤)

٢٩١ — كتاب الوليد إلى قتيبة بن مسلم

وكان الحجاج قد بعث جيشا من العراق فَقَدِموا على قتيبة سنة ٩٥ هـ ، فغزا ، فلما كان بالشّاش(١) أتاه موت الحجاج فى شوال ، فغمّه ذلك وقَفَلَ راجعاً إلى مَرْو ، وفرق الناس فخلّف فى بخارى قوما ، ووجه قوما إلى كِسّ ونَسَف ، ثم أتى مرو فأقام بها ، وأتاه كتاب الوليد :

« قد عرَف أميرُ المؤمنين بَلاءَكَ وجِدَّك فى جهاد أعداء المسلمين ، وأمير المؤمنين رافِعُكَ وصانعٌ بك كالذى يجب لك ، فأتْمِمْ(٢) مَغَازِيَكَ ، وانتظر ثواب ربك ، ولا تغيَّبْ عن أمير المؤمنين كتبك ، حتى كأنى أنظر إلى بلادك والثَّغْرِ الذى أنت به » .

(تاريخ الطبرى ٨ : ٩٦)

٢٩٢ — كتاب عروة بن الزبير إلى الوليد

وقال كعب العَبسىُّ لعُرْوة بن الزبير ، قد أذنبتُ ذنبا إلى الوليد بن عبد الملك ، وليس يُزِيل غضبه شىء ، فا كتب لى إليه ، فكتب إليه :

(١) كورة وراء نهر سيحون متاخمة لبلاد الترك . (٢) أى أجمم .

بسم الله الرحمن الرحيم ، لو لم يكن لكعب من قديم حرْمته ، ما يغفر له عظيم جَرِيرته[1] ، لوجبَ أن لا تحرِمَه التَّفَيُّؤ[2] بظلّ عفوكَ الذى تأمله القلوبُ ، ولا تَعْلَق به الذنوبُ ، وقد استشفع بى إليك فوَثِقْتُ له منك بعفو لا يخالطه سُخْط ، فحقِّقْ أمله فىَّ ، وصدِّق ثقتى فيك ، تجد الشكر وافيا بالنعمة » . (مفتاح الأفكار س ١٩٤)

٢٩٣ – رد الوليد على عروة

فكتب إليه الوليد :

« قد شكرتُ رغبتَه إليك ، وعفوتُ عنه لِمَوَّله عليك ، وله عندى ما يُحبُّ . فلا تقطعْ كتبك عنى فى أمثاله ، وفى سائر أمورك » .

٢٩٤ – كتاب ملك الروم إلى الوليد ورد الفرزدق عليه

ولما هدم الوليد كنيسة دمشق كتب إليه ملك الروم :

« إنك هدمت الكنيسة التى رأى أبوك تركها ، فإن كان حقا ، فقد خالفت أباك ، وإن كان باطلا فقد أخطأ أبوك » .

فلم يدر ما يجيبه به ، فكتب إلى الكوفة والبصرة وسائر البلدان أن يجيبوه فلم يجبه أحد . فوثب الفرزدق ، فقال أنا أبو فِراس – أصلح الله الأمير – قد رأيت رأيا فإن يك حقا تخذه ، وإن يك خطأ فمنى ، قال الله عز وجل : « وَدَاوُدَ وَسُلَيْمَانَ إِذْ يَحْكُمَانِ فِى الْحَرْثِ[3] إِذْ نَفَشَتْ[4] فِيهِ غَنَمُ الْقَوْمِ وَكُنَّا لِحُكْمِهِمْ شَاهِدِينَ[5] ، فَفَهَّمْنَاهَا سُلَيْمَانَ » فاستحسنه الوليد ، وكتب به إلى ملك الروم فلم يجبه .

(تهذيب تاريخ ابن عساكر ١ : ٢٠٢)

---

(١) الجريرة : الجريمة . (٢) الفىء : ما كان شمسا فينسخه الظل ، وتفيأ فيه : تظلل.

(٣) أى فى الزرع ، وقيل فى كرم تدلت عناقيده .

(٤) أى انفلتت إليه ليلا فرعته بلا راع .

(٥) حكم داود لصاحب الحرث برقاب الغنم ، فقال سليمان : غير هذا أرفق بهما ، فأمر بدفع الغنم إلى أهل الحرث فينتفعون بألبانها وصوفها ونسلها والحرث إلى أرباب الغنم يقومون عليه حتى يعود كما كان يترادان .

٢٩٥ — كتاب الوليد إلى أخيه سليمان

وروى أن الوليد بن عبد الملك اشتكى ، وَبَلَغَه قَوَارِصُ وتَقْرِيضٌ[١] من أخيه سليمان بن عبد الملك ، وتَمَنٍّ لموته لما له من العهد بعده ، فكتب إليه يَعْتِب عليه ، وفى آخر كتابه :

تَمَنَّى رجالٌ أنْ أموتَ ، وإنْ أمُتْ ... فتلك طريقٌ لستُ فيها بأوْحَدِ

وقد عَلِموا (لو ينفعُ العِلْمُ عندهم) ... لَئِنْ مُتّ ما الداعى علىّ بِمُخْلَدِ

مَنِيَّتُه تجرِى لوَقْتٍ وحَتفُهُ ... سَيَلْحَقُهُ يَوْمًا على غَيْرِ مَوْعِدِ

فقل للذى يَبْغِى خِلافَ الذى مَضَى ... تَهَيَّأْ لِأُخرى مِثْلِها فكأنْ قَدِ[٢]

٢٩٦ — رد سليمان على الوليد

فكتب إليه سليمان :

« قد فَهِمت ما كَتَبَ به أميرُ المؤمنين ، فوالله لئن كنتُ تمنيتُ ذلك تأميلاً لما يَخْطُرُ فى النفس ، إنى لَأَوَّلُ لاحقٍ به ، وأولُ مَنْعِىّ إلى أهله ، فعلام أتمنّى مالا يَلْبَث مَن تمنّاه إلا رَيْثما يَحُلّ السَّفْر[٣] بمنزل ، ثم يَظْعَنون عنه ، وقد بلغ أميرَ المؤمنين مالم يظاهر على لسانى ، ولم يُرَ فى وجهى ، ومتى سمع أمير المؤمنين من أهل

---

(١) القوارص من الكلام : التى تنغصك وتؤلمك ، والتقريض : الذم (وللمدح أيضا ، ضد) .

(٢) ورواية مروج الذهب : وكتب فى كتابه هذه الأبيات :

تمنى رجال أن أموت ، وإن أمت ... فتلك سبيل لست فيها بأوحد

لعل الذى يرجو فنائى ويدعى ... به قبل موتى أن يكون هو الردى

فاموت من قد مات قبلى بضائرى ... ولا عيش من قد عاش بعدى بمخلدى

فقل الذى يرجو خلاف الذى مضى ... تزود لأخرى غيرها فكأن قد

منيته تجرى لوقت ، وحتفه ... سيلحقه يوما على غير موعد

(٣) السفر : جماعة المسافرين . ويظعنون : يرتحلون .

النميمة ، ومن لا رَوِيّةَ له ، أسرع ذاك فى فساد النيّات ، والقطعِ بين ذوى الأرحام والقرابات ، وكتب فى آخر كتابه :

وَمَنْ لا يغمِّضْ عينَه عن صديقه ... وعن بعض ما فيه يَمُتْ وهو عاتِبُ
ومن يتَتَبعْ جاهِداً كُلَّ عَثْرةٍ ... يَجِدْها ، ولا يسْلَمْ له الدهرَ صاحِبُ

٢٩٧ — رد الوليد على سليمان

فكتب إليه الوليد :

« قد فهم أمير المؤمنين كتابك ، فما أحسنَ ما اعتذرتَ به ، وحَذَوْتَ عليه ، وأنت الصادق فى المقال ، الكامل فى الفعال ، وما شىء أشبهَ بك من اعتذارك ، وما شىء أبعدَ منك من الذى قيل فيك ، والسلام » .

« وقد روى أن هذا العَتْبَ كان بين يزيد بن عبد الملك ، وبين أخيه هشام كما سيجىء بعد » .

(ذيل الأمالى ص ٢٢٥ ، ومروج الذهب ٢ : ١٥٦)

خلافة سليمان بن عبد الملك

من سنة ٩٦ إلى سنة ٩٩

٢٩٨ – كتاب سليمان بن عبد الملك إلى عامله بالأردن

لما ولى سليمان بن عبد الملك كتب إلى عامله بالأُرْدُنّ[١] :

« اجمع يَدَى عَدِىّ بن الرِّقَاع[٢] إلى عُنُقه ، وابعث به إلىّ على قَتَب[٣] بلا وِطَاء ، ووكِّلْ به مَنْ يَنْخُس به » .

ففعل ذلك ، فلما انتهى إلى سليمان بن عبد الملك أُلْقِى بين يديه إلتاء لا رُوحَ فيه ، فتركه حتى ارتدّ إليه روحه ، ثم قال له : أنت أهل لما نزل بك ، ألست القائل فى الوليد :

مَعاذَ رَبِّىَ أَنْ نَبْقَى ونَفْقِدَه ... وأن نكون لراعٍ بعده تَبَعا

قال : لا والله يا أمير المؤمنين ، ما هكذا قلت ، وإنما قلت :

معاذ ربىَ أن نبقى ونَفْقِدهم ... وأن نكون لراعٍ بعدهم تَبَعا

فنظر إليه سليمان واستضحك ، وأمر له بصلة وخلَّى سبيله .

(العقد الفريد ١ : ١٥٢)

---

(١) كورة بالشأم . (٢) هو عدى بن زيد بن مالك بن عدى بن الرقاع (ونسبه الناس إلى الرقاع وهو جد جده لشهرته) وكان شاعرا مقدما عند بنى أمية مداحا لهم خاصا بالوليد بن عبد الملك – انظر ترجمته فى الأغانى ج ٨ : ص ١٧٢ ، والشعر والشعراء ص ١٤٥ – .

(٣) القتب : الإكاف الصغير على قدر سنام البعير . والوطاء ككتاب وسحاب : خلاف الغطاء .

٢٩٩ - كتب من قتيبة بن مسلم إلى سليمان بن عبد الملك

روى الطبرى قال :

كان الوليد بن عبد الملك أراد أن يجعل ابنه عبد العزيز بن الوليد وليّ عهده ، ودَسّ فى ذلك إلى القُوّاد والشعراء، فبايعه على خَلْع سليمان الحجاجُ وقتيبةُ[(١)]، ثم هلك الوليد وقام سليمان ، فخافه قتيبة وأشفق منه ، لأنه كان يسعى فى بَيْعة عبد العزيز بن الوليد مع الحجاج، وخاف أن يُوَلِّيَ سليمانُ يَزيدَ بن المهلب خراسانَ .

فكتب إلى سليمان كتاباً : يهنئه بالخلافة ويعزّيه على الوليد ، ويُعلِمه بَلاءه وطاعته لعبد الملك والوليد ، وأنه له على مِثْل ما كان لهما عليه من الطاعة والنصيحة إن لم يَعْزِله عن خراسان :

وكتب إليه كتاباً آخر : يُعلمه فيه فُتُوحَه ونِكايتَه وعظَمَ قدره عند ملوك العجم ، وهَيْبَته فى صدورهم ، وعظم صوته فيهم ، ويذم المهلَّبَ وآل المهلب ، ويحلف بالله لئن استعمل يزيد على خراسان ليَخلعَنّه .

وكتب كتاباً ثالثاً فيه خلعه

وبعث بالكتب الثلاثة مع رجل من باهلة ، وقال له : ادفع إليه هذا الكتاب ، فإن كان يزيد بن المهلب حاضراً فقرأه ثم ألقاه إليه ، فادفع إليه هذا الكتاب ، فإن قرأه وألقاه إلى يزيد ، فادفع إليه هذا الكتاب ، فإن قرأ الأول ولم يدفعه إلى يزيد فاحتَبِس الكتابين الآخرين .

فقدِم رسول قتيبة فدخل على سليمان وعنده يزيدُ بن المهلب ، فدفع إليه الكتاب ،

---

(١) وروى الطبرى فى موضع آخر قال : كان الوليد وسليمان ولي عهد عبد الملك فلما أفضى الأمر إلى الوليد أراد أن يبايع لابنه عبدالعزيز ويخلع سليمان، فأبى سليمان، فأراده على أن يجعله له من بعده فأبى، فعرض عليه أموالا كثيرة فأبى ، فكتب إلى عماله أن يبايعوا لعبد العزيز ، ودعا الناس إلى ذلك فلم يجبه أحد إلا الحجاج وقتيبة وخواص من الناس (ج ٨ : ص ٩٩) .

فقرأه ثم ألقاه إلى يزيد ، فدفع إليه كتابًا آخر فقرأه ثم رمى به إلى يزيد،فأعطاه الكتاب الثالث فقرأه فتمعَّر[1] لونُه ثم دعا بِطِين فختمه ثم أمسكه بيده .

وروى رواية أخرى قال :

كان فى الكتاب الأول وَقِيعةٌ فى يزيد بن المهلَّب وذكر عذره وكفره وقلة شكره ، وكان فى الثانى ثناء على يزيد ، وفى الثالث : « لئن لم تقرّنى على ما كنتُ عليه وتُؤَمِّنِّى لأخلعَنَّك خلعَ النَّعْل ، ولأملأنَّها عليك خيلا ورجالاً » :

وأضاف سليمان رسول قتيبة ثم دعا به فأعطاه صُرّة فيها دنانير فقال : هذه جائزتك، وهذا عهد صاحبك على خراسان فسِرْ ، وهذا رسولى معك بعهده ، وبعث معه رجلاً من عبد القيس ، فلما كان بحُلوان تلقَّاهم الناسُ بخلع قتيبة لسليمان ، فرجع العَبدىّ ودفع العهد إلى رسول قتيبة وقد خَلَع واضطرب الأمر فدفع إليه عهده ، فاستشار إخوته فقالوا : لا يثق بك سليمان بعد هذا ، فخلع سليمانَ ودعا الناس إلى خلعه وكانت فتنة قتل فيها قتيبة (سنة ٩٦) . (تاريخ الطبرى ٨ : ١٠٣)

رواية أخرى

ويروى أنه لما بلغ قتيبة بن مسلم أن سليمان بن عبد الملك يريد عزله عن خراسان ، كتب إليه ثلاث صحائف ، وقال للرسول : ادفع إليه هذه ، فإن دفعها إلى يزيد بن المهلب فادفع إليه هذه ، فإن شتمنى فادفع إليه الثالثة ، فلما سار الرسول إليه دفع له الكتاب الأول وإذا فيه :

« يا أمير المؤمنين إن من بلائى فى طاعة أبيك وأخيك كَيْتَ وكيت ... » فدفعه إلى يزيد ، فدفع إليه الرسول الكتاب الثانى ، وفيه يقول :

---

(١) تمعر وجهه: تغير غيظا .

« عجباً كيف تأمَنُ ابنَ دَحْمَة على أسرارك ، ولم يكن أبوه يأمنه على أمَّهات أولاده!
— يعنى يزيد بن المهلب — » .

فشتم قتيبة ، وناول الكتاب ليزيد ، فدفع إليه الثالث ، وفيه :

« من قتيبة بن مسلم إلى سليمان بن عبد الملك ، سلام على من اتبع الهدى ، أما بعد
فوالله لأوثقَنَّ لك آخِيَّةً[1] لا يَنْزِعها المُهْرُ الأَرِنُ[2] » .

فقال سليمان: «عجِلنا على قتيبة ، جدِّدوا له عهداً على عمله ، ثم فسدت على قتيبة
بطانتُه فقتلوه فى خلافة سليمان » . (العقد الفريد ٢ : ٢٧٥ ، وسرح العيون س ١٢٨)

٣٠٠ — كتاب يزيد بن المهلب إلى سليمان بن عبد الملك

واستعمل سليمانُ بن عبد الملك يزيدَ بن المهلب على العراق ، ثم ولّاه سنة ٩٧ هـ خُراسان :
وفى سنة ٩٨ فتح يزيد جُرْجانَ وطَبَرِسْتان ، وكتب بالفتح إلى سليمان
ابن عبد الملك :

« أما بعدُ ، فإن الله قد فَتَحَ لأمير المؤمنين فتحاً عظيماً ، وصَنَع للمسلمين أحسن
الصُّنع ، فلربنا الحمدُ على نِعَمه وإحسانه ، أظهرَ فى خلافة أمير المؤمنين على جُرْجان
وطَبَرِسْتان ، وقد أعيا ذلك سابورَ ذا الأكتاف وكِسْرَى بن قُباذ وكسرى بن هُرْمُز ،
وأعيا الفاروقَ عمرَ بن الخطاب وعثمانَ بن عفان ومن بعدهما من خلفاء الله، حتى فتح اللهُ
ذلك لأمير المؤمنين ، كرامةً من الله له ، وزيادةً فى نعمه عليه ، وقد صار عندى من
خُمس ما أفاء الله على المسلمين بعد أن صار إلى كلِّ ذى حقٍّ حقُّه من الفَيْء والغنيمة
ستةُ آلاف ألفٍ ، وأنا حامل ذلك إلى أمير المؤمنين إن شاء الله[3] » .

(تاريخ الطبرى ٨ : ١٢٥)

---

(١) الآخية كآنية وتشدد: عروة تربط إلى وتد وتشد فيها الدابة.

(٢) أرن كفرح : نشط ، فهو أرن وأرون .

(٣) وقد قال له كاتبه المغيرة بن أبى قرة مولى بنى سدوس : « لا تكتب بتسمية مال ، فإنك من
ذلك بين أمرين: إما استكثره فأمرك بحمله : وإما سخت نفسه لك به فسوغكه ، فتكلفت الهدية ، =

٣٠١ — ما قاضى عليه سليمان بن عبد الملك موسى بن نصير

ولما فرغ موسى بن نُصير هو ومَوْلاه طارق بن زياد من فتح بلاد الأندلس ، قَدِم موسى إلى دِمَشقَ يحمل إلى الوليد ما أحرزه من الغنائم والأسلاب النفيسة ، وكان ذلك قُبيل وفاة الوَليد ، فوَجَد عليه سليمانُ بن عبد الملك ، وأفضَتْ إليه الخلافة فبعث إلى موسى وعذّبه ، ثم قاضاه على مال يفتدى به نفسه وخلَّى سبيله[1] ، وكانت نسخة القضية :

« هذا ما قاضَى عليه عبدُ الله سليمانُ أميرُ المؤمنين موسى بن نصير ، قاضاه على

= فلا يأتيه من الملك شيء إلا استقله، فكأنى بك قد استغرقت ما سميت ولم يقع منه موقعا، ويبقى المال الذى سميت مخلدا عندهم عليك فى دواوينهم ، فإن ولى وال بعده أخذك به ، وإن ولى من يتحامل عليك لم يرض منك بأضعافه ، فلا تمض كتابك ،ولكن اكتب بالفتح وسله القدوم،فتشافهه بما أحببت مشافهة وتقصر، فإنك إن تقصر عما أحببت أحرى من أن تكثر » فأبى يزيد وأمضى الكتاب .

وقد صدق حدس المغيرة ، فإن عمر بن عبد العزيز لما ولى الخلافة — وكان يبغض يزيد وأهل بيته ويقول : هؤلاء جبابرة ولا أحب مثلهم — دعا يزيد وسأله عن تلك الأمول التى كتب بها إلى سليمان ابن عبد الملك فقال : كنت من سليمان بالمكان الذى رأيت ، وإنما كتبت إلى سليمان لأسمع الناس به (والتسميع : إزالة الخمول بنشر الذكر) وقد علمت أن سليمان لم يكن ليأخذنى بشيء سمعت به ولا بأمر أكرهه ، فقال له : ما أجد فى أمرك إلا حبسك ، فاتق الله وأد ماقبلك، فإنها حقوق المسلمين ولا يسعنى تركها ، وأمر به فحبس .

(١) وذلك أن موسى بن نصير قدم على الوليد وهو فى آخر شكايته التى توفى منها ،وكان سليمان بن عبد الملك بعث إلى موسى من لقيه فى الطريق قبل قدومه على الوليد يأمره بالتثبط فى مسيره وألا يعجل ، فإن الوليد بآخر رمقه ، فلما أتى موسى بالكتاب من سليمان وقرأه قال : حييت والله ما غدرت ، والله لا تربصت ولا تأخرت ولا تعجلت ، ولكنى أسير بمسيرى فإن أوافه حيا لم أتخلف عنه . وإن عجلت منيته فأمره إلى الله ، فرجع الرسول إلى سليمان فأعلمه ، فقال : لئن ظفرت بموسى لأصلبنه أو لآتين على نفسه . وكان الوليد لما بلغه قدوم موسى واقترابه منه ، وجه إليه كتابا يأمره بالعجلة فى مسيره ، خوف أن تعجل به منيته قبل قدوم موسى عليه ، وإرادة أن يحرم سليمان ماجاء به ، وأقبل موسى حتى دخل على الوليد ، وقدم إليه الطرائف التى اجتلبها معه ، ولم يلبث الوليد أن مات وصارت الخلافة إلى سليمان ،فبعث إلى موسى فشتمه وتوعده وأقامه فى الشمس فى يوم صائف شديد الحر وكان كبير السن بادنا ، وكانت به نسمة (والنسمة محركة : الربو) فلما أصابه حر الشمس وأتعبه الوقوف هاجت به ، فارتفع نفسه وعظم بهره (والبهر بالضم : انقطاع النفس من الإعياء) وتصبب عرقه ، فما زال كذلك حتى سقط مغشيا عليه، فكلمه عمر بن عبد العزيز فيه ، وضمه إليه يزيد بن المهلب ، وقاضاه سليمان على مال يدفعه إليه وخلى سبيله .

أربعة آلاف ألفٍ دينار وثلاثين ألف دينار وخمسين ديناراً ، ذهبا طيِّبةً يُؤدِّيها إلى أمير المؤمنين ، وقد قبَضَ منها أميرُ المؤمنين مائة ألف ، وَبَقِى على موسى سائِرُ ذلك ، أجَّلَه أميرُ المؤمنين إلى سَيْر رَسول أمير المؤمنين إلى ابن موسى الذى بالأندلس ، يمكُثُ شهراً بالأندلس — وليس له أن يمكُثَ وراء ذلك يوما واحداً — حتى يُقبِلَ راجعا بالمال ، إلا ما كان من إفريقيَّة وما دونها ، وليْس لوسى أن يتكثَّرَ بشىء ، مما كان عليه من العمل ، منذ استخلفَ الله أميرَ المؤمنين من ذِمَّة أو فىء أو أمانة ، فهو لأمير المؤمنين يأخذه ويقتضيه ، ولا يحسُبُهُ موسى من غرَامته ، فإن أدَّى موسى الذى سَمَّى أمير المؤمنين فى كتابه هذا من المال ، إلى ماقد سَمَّى أمير المؤمنين من الأَجَل ، فقد بَرِئَ موسى وبنوه وأهله ومواليه ، وليست عليهم تَبِعةٌ ولا طِلْبة[1] فى المال ولا فى العمل ، يَقرُّون حيث شاءوا ، وما كان قبَضَ موسى أو بنوه من عمال موسى ، إلى قدوم رسول أمير المؤمنين إفريقيةَ ، فهو من الذى على موسى من المال ، يُحْسَب له من الذى عليه ، مالم يُقْبَض قبل وصول رسول أمير المؤمنين ، فليس منه فى شىء ، وقد خلَّى أميرُ المؤمنين بين موسى وبين أهله ومواليه ، ليس له ظلْمُ أحدٍ منهم ، غير أن أمير المؤمنين لا يدفع إليه طارقا مولاه ، ولا شيئا من الذى قد أباه عليه أول يوم » .

شَهِد أيوب ابن أمير المؤمنين وداود ابن أمير المؤمنين وعمر بن عبد العزيز ، وعبد العزيز بن الوليد ، وسعيد بن خالد ، ويعيش بن سلامة ، وخالد بن الرَّيَّان ، وعمر ابن عبد الله ، ويحيى بن سعيد ، وعبد الله بن سعيد .

وكتبه جعفر بن عثمان فى جمادى سنة تسع وتسعين .

(الإمامة والسياسة ٢ : ٦٦)

(١) أى مطالبة .

٣٠٢ - كتاب سليمان بن عبد الملك إلى نفر بإفريقية

وأقام موسى بن نصير مع سليمان بن عبد الملك يطلب رضاه حتى رضى عنه، وابنُهُ عبدُ الله بن موسى على إفريقيَّة وَطَنْجَة والسُّوس، وابنُهُ عبد العزيز على الأندلس، فلما بلغ عبدَ العزيز الذى فعل سليمان بأبيه موسى، تكلَّمَ بكلام خفيف، حَمَلَتْه عليه حَمِيَّةٌ لِمَا صُنِع بأبيه، على حُسْن بَلائه، فنُمِيت (١) إلى سليمان، فخاف سليمانُ أن يخلع.

فكتب إلى حبيب بن عبيد وابن وَعْلة التميمى وسعد بن عثمان بن ياسر وعمرو ابن زياد اليَحْصِبِىّ وعمرو بن كثير وعمرو بن شُرَحْبِيل، كتب إلى كل رجل منهم كتابا: يُعْلمه بالذى بلغه عن عبد العزيز بن موسى وما همَّ به من الخلع، وأنه قد كتب إلى عبد الله بن موسى يأمره بإشخاصهم إلى عبد العزيز، وأعلَمَهُ أنه إنما دعاه إلى ذلك الذى أحَبَّ من مكانفتهم (٢) له، لأنه بإزاء العدو، وأعطاهم العهودَ أنَّ من قَتَلَه منهم فهو أميرٌ مكانه.

وكتب إليهم: «إنى قد بعثتُ لكم بكتاب إلى أهل الأندلس بالسمع والطاعة لكم وَالعُذْر فى قتله، فإذا وَلَّاكم أطرافه فأقرُّوا عهدى على مَنْ قِبَلكم من المسلمين، ثم ارجعوا إليه حتى تقتلوه».

٣٠٣ - كتاب سليمان إلى عبد الله بن موسى بن نصير

وكتب إلى عبد الله بن موسى:

«إنى نظرتُ، فإذا عبدُ العزيز بإزاء عدوّ يحتاج فيه إلى الغَنَاء (٣) وَالبَلاء، فسألَ أمير المؤمنين، فأُخبِرَ أن معك رجالا منهم فلان وفلان، فأشْخِصهم إلى عبد العزيز ابن موسى.

---

(١) نمى الحديث ونماه: رفعه. (٢) المكانفة: المؤازرة والمعاونة.
(٣) الغناء: الكفاية.

٣٠٤ — كتاب سليمان إلى عبد العزيز بن موسى بن نصير

وكتب إلى عبد العزيز بن موسى :

« أما بعد فإن أمير المؤمنين عَلِم ما أنت بسبيله من العدو ، وحاجَتَك إلى الرجال أهل النِّكاية وَالْغَناء ، فَذُكِرَ له أنّ بإفريقية رجالا منهم ، فكتب أمير المؤمنين إلى عبد الله بن موسى يأمره بإشخاصهم إليك ، فولِّهم أطرافك وثغورك ، واجعلهم أهل خاصتك » .

وأنفذ هؤلاء النفر ما أمرهم به سليمان ، فقتلوا عبد العزيز بن موسى وجاءوا إليه برأسه[1] . (الإمامة والسياسة ٢ : ٦٨)

٣٠٥ — كتاب عمر بن عبد العزيز الوراق إلى أبي بكر بن حزم

روى القالى فى الأمالى عن العُتْبِيّ قال : كتب عمر بن عبد العزيز الورّاق رحمه الله

(١) لما قدم كتاب سليمان على عبد الله بن موسى بإفريقية أشخص القوم ، فخرجوا حتى قدموا على عبد العزيز بالأندلس بكتاب سليمان فى إلطافهم وإكرامهم ، فقربهم عبد العزيز وأكرمهم وحباهم ، وقال لهم : اختاروا أى نواحى وثغورى شئتم ، فضربوا الرأى فقالوا : إنكم إن فعلتم ما أنتم فاعلون ثم رجعتم إليه من أطرافه ، لم تأمنوا أن يميل معه عظم الناس ، ولكن أعملوا رأيكم فى الفتك به ، فأتوا عبد الله ابن عبد الرحمن الغافقى وكان سيد أهل الأندلس صلاحا وفضلا ، فأعلموه ثم أقرءوه كتاب سليمان ، فقال لهم : لقد علمتم يد موسى عند جميعكم صغيركم وكبيركم ، وإنما بلغ أمير المؤمنين أمر كذب عليه فيه ، والرجل لم ينزع يدا من الطاعة ولم يخالف فيستوجب القتل ، وأنتم ترون وأمير المؤمنين لا يرى ، فأطيعونى ودعواهذا الأمر ، فأبوا ومضوا على رأيهم . فأجمعوا على قتله وقتلوه وهو يصلى صلاة الصبح ، وأصبح الناس فأعظموا ذلك ، فأخرجوا كتاب سليمان بذلك ، فلم يقبله أهل الأندلس وولوا عليهم عبد الله بن عبد الرحمن الغافقى .

ولما ظن سليمان أن القوم قد دخلوا الأندلس وفعلوا ما كتب به إليهم ، عزل عبد الله بن موسى عن إفريقية وطنجة والسوس فى آخر سنة ٩٨ ، وأقبل هؤلاء حتى قدموا على سليمان برأس عبد العزيز ، ثم إن سليمان كشف عن أمر عبد العزيز ، فألفى ذلك باطلا ، وأن عبد العزيز لم يزل صحيح الطاعة مستقيم الطريقة ، فلما تحقق عنده باطل ما رفع إليه عنه ندم ، وأمر بالوفد فأخرجوا ، ولم ينظر فى شىء من حوائجهم ، وأهدر عن موسى بقية القضية التى كان قاضاه عليها .

إلى أبي بكر بن حَزْم[1] : « إن الطالِبين الذين أنجحُوا[2] ، والتُّجّارَ الذين ربحوا ، هم الذين اشترَوا الباقى الذى يدوم ، بالفانى المذموم : فاغتَبَطوا ببَيْعِهم ، وأحْمَدوا عاقبةَ أمرهم ، فاللهَ اللهَ وبدنُكَ صحيح ، وقلبُكَ مُرِيح[3] ، قبل أن تنقضىَ أيامُك ، وينزلَ بك حِمَامُك فإن العيش الذى أنت فيه يتقلّصُ ظِلُّه ، ويفارقهُ أهله ، فالسعيدُ الموفَّقُ من أكل فى عاجله قَصْداً ، وقدّم ليوم فقره ذُخْراً ، وخرج من الدنيا محموداً ، قد انقطع عنه عِلاجُ أمورها ، وصار إلى الجنة وسرورها » . (الأمالى ٢ : ١٨٧)

٣٠٦ — عهد سليمان بن عبد الملك لعمر بن عبد العزيز بالخلافة

وعَهِد سليمان بن عبد الملك بالخلافة من بعده إلى عمر بن عبد العزيز ، ثم إلى يزيد ابن عبد الملك ، وكتب بذلك كتابا بيده ، وهذا نصه :

« بسم الله الرحمن الرحيم ، هذا كتاب من عبد الله سليمان أمير المؤمنين لعمر ابن عبد العزيز ، إنى قد وليته الخلافة من بعدى ، ومن بعده يزيد بن عبد الملك ، فاسمعوا له وأطيعوا ، واتقوا الله ولا تختلفوا فَيُطْمَعَ فيكم » .

(سيرة عمر بن عبد العزيز لابن الجوزى ص ٤٨ ، وتاريخ الطبرى ٨ : ١٢٩)

صورة أخرى

وروى ابن قتيبة هذا العهد بصورة أخرى ، وهى :

« بسم الله الرحمن الرحيم ، هذا ما عَهِدَ به عبدُ الله سليمانُ بن عبد الملك أميرُ المؤمنين وخليفةُ المسلمين ، عَهِد أنه يَشْهد لله عز وجَلّ بالرُّبُوبيَّة والوَحْدَانية ، وأن محمدا عبده ورسوله صلى الله عليه وسلم ، بعثه إلى مُحْسِنى عباده بَشيرا ، وإلى مُذْنبيهم

---

(١) هو أبو بكر بن محمد بن عمرو بن حزم الأنصارى ، ولى المدينة من سنة ٩٦ إلى سنة ١٠٠ فى خلافة سليمان بن عبد الملك وعمر بن عبد العزيز — انظر تاريخ الطبرى الجزء الثامن ، حوادث السنين من ٩٦ إلى ١٠٠ ، وصبح الأعشى ج ٤ : ص ٢٩٦ — .

(٢) أنجح الرجل : صار ذا نجح بالضم . (٣) أى ذو راحة .

نَذِيرا ، وأن الجنة والنار مخلوقتان حقًّا ، خَلَقَ الجنةَ رحمة لمن أطاعه ، والنارَ عذاباً لمن عصاه ، وأوجَبَ العفو جُوداً وكَرَماً لمن عفا عنه ، وَأَنَّ سليمان مُقِرٌّ على نفسه بما يَعْلَمُ اللهُ من ذنوبه ، وبما تعلَّمه نفسهُ من معصية ربه ، مُوجِباً على نفسه استحقاق ما خَلَق من النقمة ، راجيا لنفسه ما خلق من الرحمة ، وَوَعد من العفو والمَغْفِرَة ، وأن المقاديرَ كُلَّها خيرها وشرَّها من الله[1] . وأنه هو الهادى ، لم يستطع أحد لمن خَلَقَ اللهُ لرحمته غَوايةً ، ولا لمن خَلَقَ لعَذابه هِدَايةً ، وأن الفتنة فى القبور بالسؤال عن دينه ونبيه الذى أُرسِلَ إلى أمَّته ، لا مَنْجَى لمن خرج من الدنيا إلى الآخرة من هذه المسألة إلا لمن استثناه عز وجل فى علمه . وسليمانُ يسأل الله الكريم بواسع فضله ، وعظيم مَنِّه ، الثبات على الحق عند تلك المسألة ، والنجاةَ من هول تلك الفِتنة[2] ، وَأَنَّ الميزان حق يَقين ، يضع المَوَازِينَ القِسْطَ[3] ليوم القيامة ، فَمَن ثَقُلَتْ مَوازِينُه فأولئك هم المُفلِحون ، ومن خَفَّتْ موازينُه فأولئك هم الخاسرون ، وأنَّ حوض محمد صلى الله عليه وسلم يوم المحشَر والموقِف للعَرْض حق ، وأن عدد آنيته[4] كنجوم السماء ، من شَرِب منه لم يظمأْ أبداً ، وسليمان يسأل الله بواسع رحمتِه أنْ لا يَرُدَّه عن حوض نبيه عطشانَ ، وأن أبا بكر وعُمَرَ خير هذه الأمة بعد نبينا صلى الله عليه وسلم ، والله يَعلم بعدهما حيثُ الخيرُ وفيمن الخير من هذه الأمة ، وأن هذه الشهادة كلَّها المذكورةَ فى عهده هذا ، يعلَمُها الله من سِرِّه وإعلانه وعَقْدِ ضميره ، وأنه بها عبَدَ رَبَّه فى سالف أيامه وماضى عُمره ، وعليها أتاه يقينُ ربه ، وتوفَّاه أجلُه ، وعليها يُبْعَثُ بعد الموت إن شاء الله ، وأن سليمان كانت له بين هذه الشهادة

---

(١) وفى صبح الأعشى : « وأن المقادير كلها خيرها وشرها مقدورة بإرادته ، مكونة بتكوينه ، وأنه الهادى ، فلا مغوى ولا مضل لمن هداه وخلقه لرحمته ، وأنه يفتن الميت فى قبره . . . » .

(٢) وفى صبح الأعشى : « الثبات على ما أسر وأعلن من معرفة حقه وحق نبيه عند مسألة رسله والنجاة من هول فتنة فتانيه ، ويشهد أن الميزان يوم القيامة حق يقين ، يزن سيئات المسيئين ، وحسنات المحسنين ، ليرى عبادة من عظيم قدرته ما أراده من الخير لعباده بما لم يكونوا يحتسبون ، وأن من ثقلت موازينه . . . » .

(٣) القسط : العدل ، مصدر وصف به للمبالغة .

(٤) الآنية والأوانى : جمع إناء .

بلايا وسيئات لم يكن له عنها مَحِيص"(١) ولا دونها مُقَصِّر بالقَدَر السابق ، والعلم النافذ في مُحْكَمَ الوحي ، فإن يعفُ ويصفَح فذلك ما عُرِف منه قديما ، ونسب إليه حديثاً ، وتلك صفته التي وصفَ بها نفسه في كتابه الصادق ، وكلامه الناطق ، وإن يعاقِبْ وينتقم ، فبما قدَّمت يداه ، وما اللهُ بِظَلَّامٍ للعبيد ، وأني أحرِّجُ(٢) على من قرأ عهدى هذا وسَمِع مافيه من حكمة أن ينتهى إليه في أمره ونهيه ، بالله العظيم ، وبمحمد رسوله الكريم ، صلى الله عليه وسلم، وأن يَدَع الإحَن المُضْغِنة(٣) ويأخذ بالمكارم المُدْجِنَة(٤) ويرفع يديه إلى السماء بالابتهال الصحيح، والدعاء الصَّريح(٥) ، يسأله العفو عنى والمغفرة لى والنجاة من فزعى والمسألة فى قبرى ، لعلّ الوَدُودَ أن يجعل منكم مُجَابَ الدعوة بما عَلَيّ من صَفْحه يعود ، إن شاء الله .

وأن وليَّ عهدى فيكم وصاحبَ أمرى بعد موتى فى جندِى ورعيتى وخاصّتى وعامّتى وكلِّ مَنْ استخلفنى الله عليهِ واسترعانى النظرَ فيهِ الرجلُ الصالحُ عمر بن عبدالعزيز ابن عمى لِمَا بلوتُ مِنْ باطن أمره وظاهره ، ورجوتُ الله بذلك ، وأردتُ رضاه ورحمته إنْ شاء الله، ثم ليزيد بن عبد الملك مِنْ بعده، فإنى ما رأيتُ منه إلا خيراً، ولا اطّلعتُ له على مكروه ، وصِغارُ ولدى وكبارهم إلى عمر، إذ رجوتُ ألّا يألُوَهم رشداً وصلاحا، والله خليفتى عليهم وعلى جماعة المؤمنين والمسلمين ، وهو أرحم الراحمين ، وأقرأ عليكم السلام ورحمة الله ، ومن أَبَى عَهْدِى هذا وخالف أمرى فالسيف ، ورجوت أن لا يخالفه أحد ، ومن خالفه فهو ضالٌّ مُضِلٌّ يُسْتَعْتَب(٦) ، فإن أعتبَ وإلّا فالسيف، والله المستعان ولا حول ولا قوة إلا بالله القديم الإحسان » .

(الإمامة والسياسة ٢ : ٨٠ ، وصبح الأعشى ٩ : ٣٦٠)

---

(١) فى صبح الأعشى : « لم يكن له عنها محيد ولابد ، جرى بها المقدور من الرب ، النافذ إلى إنعـام ماجد ، فإن يعف . . . » . (٢) التحريج : التضييق .

(٣) الإحن : جمع إحنة ، وهى الحقد والمضغنة : المدينة الضغينة .

(٤) المدجنة : أى الثابتة الملازمة ، من أدجن إذا أقام فى بيته ولزمه .

(٥) وفى صبح الأعشى : « ويرفع يديه إلى الله بالضمير النصوح ، والدعاء الصحيح . والصفح الصريح . . . » .

(٦) أى تطلب إليه العتبى (كبشرى) وهى الرجوع عن الذنب والإساءة ، وأعتبنى فلان : ترك ما كنت أجد عليه من أجله ، ورجع إلى ما أرضانى عنه بعد إسخاطه إياى عليه .

خلافة عمر بن عبد العزيز

(سنة ٩٩ — ١٠١)

٣٠٧ — كتاب عدى بن أرطاة والى البصرة إلى عمر بن عبد العزيز

كتب عَدِىّ بن أرْطاة والى البصرة إلى عمر بن عبد العزيز :

«من عَدِى بن أرطاة ، أما بعدُ ـ أصلح اللهُ أمير المؤمنين ـ فإن قِبَلى أناساً من العمال قد اقتطعوا من مال الله عز وجل مالًا عظيما ، لستُ أرجو استخراجَه من أيديهم إلّا أن أمَسَّهم بشىء من العذاب ، فإن رَأَى أمير المؤمنين ـ أصلحه الله ـ أن يأذن لى فى ذلك أفعل[1] » .

٣٠٨ — رد عمر على كتابه

فأجابه عمر :

« أما بعدُ : فالعجبُ كل العجب من استئذانك إياى فى عذابِ بَشَر ، كأنِّى لك جُنَّةٌ من عذاب الله ، وكأن رضاى عنك يُنجيك من سخط الله عز وجل[2] ، فانظر من قامت عليه بيِّنَةٌ عُدول فخُذه بما قامت عليه به البيِّنة ، ومن أقرَّ لك بشىء فخذه

(١) وفى كتاب الخراج : « أما بعد ، فإن أناسا قبلنا لا يؤدون ما عليهم من الخراج حتى يمسهم شىء من العذاب » .

(٢) وفى كتاب الخراج بعد ذلك : « إذا أتاك كتابى هذا فمن أعطاك ما قبله عفوا وإلا فأحلفه ، فو الله لأن يلقوا الله . . . الخ » .

بما أقرّ به ، ومن أنكر فاستحلفه بالله العظيم وخلّ سبيله ، وآيمُ اللهِ لأن يلقَوُا الله عز وجل بخياناتهم أحبُّ إليَّ من أن ألقى الله بدمائهم والسلام » .

(سيرة عمر بن عبد العزيز لابن الجوزى ص ٨٣ ، وكتاب الخراج لأبى يوسف ص١٤٣)

٣٠٩ – كتاب عدى بن أرطاة إليه

وكتب إليه عدى بن أرطاة :

يا أمير المؤمنين : إنى بأرض قد كَثُرت فيها النِّعَم ، حتى لقد أشفَقْتُ على مَنْ قِبلى من المسلمين قلّةَ الشكر والضعف عنه » .

٣١٠ – رد عمر على كتابه

فكتب إليه عمر .

« إنى قد كنتُ أراك أعلَمَ بالله ، إن الله لم يُنْعِم على عبد نعمةً فحمِدَ اللهَ عليها إلا كان حَمْدُه أفضلَ من نِعَمه ، لو كنتَ لاتعرفُ ذلك إلا فى كتاب الله المنزل ، قال الله تعالى : « وَلَقَدْ آتَيْنَا دَاوُدَ وَسُلَيْمَانَ عِلْماً وَقَالَا الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِى فَضَّلَنَا عَلَى كَثِيرٍ مِنْ عِبَادِهِ الْمُؤْمِنِينَ » . وقال الله تعالى : « وَسِيقَ الَّذِينَ اتَّقَوْا رَبَّهُمْ إِلَى الْجَنَّةِ زُمَراً حَتَّى إِذَا جَاءُوهَا وَفُتِحَتْ أَبْوَابُهَا وَقَالَ لَهُمْ خَزَنَتُهَا سَلَامٌ عَلَيْكُمْ طِبْتُمْ فَادْخُلُوهَا خَالِدِينَ . وَقَالُوا الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِى صَدَقَنَا وَعْدَهُ وَأَوْرَثَنَا الْأَرْضَ نَتَبَوَّأُ مِنَ الْجَنَّةِ حَيْثُ نَشَاءُ فَنِعْمَ أَجْرُ الْعَامِلِينَ » .

وأىُّ نعمة أفضل من دخول الجنة ؟ .

وفى رواية العقد :

فكتب إليه عمر رضى الله عنه :

« إن الله تعالى لم يُنْعم على قوم نعمةً فحمِدوه عليها إلا كان ما أعطَوه أكثر

مما أخذوه منه ، واعتبِرْ ذلك بقول الله تعالى : ولقد آتينا داود . . . . الآية » فأيُّ نعمة أفضل مما أوتى داود وسليمان ؟ » .

(سيرة عمر لابن الجوزى ص : ٢٣٧ ، والعقدالفريد ١ : ٨٥)

٣١١ — كتاب عدى بن أرطاة إليه

وكتب إليه عَدِىّ بن أرْطاة :

« أما بعدُ : فإن الناس قد كثُروا فى الإسلام ، وخِفْتُ أن يقلّ الخراج » .

٣١٢ — رد عمر على كتابه

فكتب إليه عمر :

« فهِمتُ كتابك ، واللهِ لَوَدِدْتُ أن الناس كلهم أسلموا حتى نكونَ أنا وأنت حَرّاثَيْن نأكُل من كَسْب أيدينا » . (سيرة عمر لابن الجوزى ص ٩٩)

٣١٣ — كتابه إلى عدى بن أرطاة

وكتب عمر بن عبد العزيز إلى عدى بن أرطاة :

« أما بعد : فاسأل الحسن بن أبى الحسن(١) : مامَنَعَ مَنْ قَبلنا من الأئمة أن يَحُولوا بين المَجُوس وبين ما يجمعون من النساء اللاتى لم يَجْمَعْهُنّ أحد من أهل المِلَل غيرهم » .

فسأل عدىٌّ الحسن ، فأخبره أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قد قَبِل من مَجُوس أهل البحرين الجِزيةَ ، وأقرّهم على مجوسيتهم ، وعاملُ رسول الله صلى الله عليه وسلم العلاء بن الحَضْرَمى ، ثم أقرّهم أبو بكر ، ثم أقرّهم عمر بعد أبى بكر ، وأقرهم عثمان بعد عمر . (كتاب الخراج ص ١٠٦)

---

(١) هو الحسن البصرى .

٣١٤ ـ كتابه إلى عدى بن أرطاة

وكتب عمر بن عبد العزيز إلى عدى بن أرطاة .

« أما بعدُ : فإنه بلغنى أن قوما إذا توضّئوا رُفِعَتْ طِسَاسٌ[(١)] من بين أيديهم قبل أن تمتلئ ، وذلك من زِيٍّ[(٢)] الأعاجم أخذوه ، فإذا أتاك كتابى هذا ، فلا ترفعوا طَسْتًا حتى يمتلئ أو يُفْرَغ من آخر القوم » .

(سيرة عمر بن عبدالعزيز لابن الجوزى ص ٨٧)

٣١٥ ـ كتابه إلى عدى بن أرطاة

وكتب إلى عدى بن أرطاة :

«أما بعدُ ، فإنى كتبتُ إليك بكتب كثيرة أرجو بذلك الخيرَ من الله تعالى والثوابَ عليه ، وأنهاك فيها عن أمور الحجاج بن يوسف ، وأرغب عنها ، وعن اقتدائك بها ، فإن الحجاج كان بَلاَءً وافَق خطيئةَ قومٍ بأعمالهم ، فبلغ الله عز وجل فى مدته ما أحَبَّ من ذلك ، ثم انقطع ذلك وأقبلَتْ عافيةُ الله عزّ وجل ، فلو لم يكن ذلك إلا يوما واحداً أو جُمعةً واحدة ، كان ذلك عطاء من الله عز وجل ، ونهيْتُك عن فعله فى الصلاة ، فإنه كان يؤخرها تأخيرًا لا يَحِلُّ له ، ونهيتُك عن فعله فى الزكاة ، فإنه كان يأخذها من غير حَقِّها ، ثم يسيء مَواقعها ، فاجتنِبْ ذلك منه ، وَاحذر العمل به فإن الله عزّ وجل قد أراح منه ، وطهّر العباد والبلاد من شره ، والسلام » .

(سيرة عمر بن عبد العزيز لابن الجوزى ص ٨٨)

---

(١) يقال : طست وطس وطسة ، والأخير بفتح الطاء وكسرها والجمع طسوس وطساس وطسيس وطسات . (٢) الزى : الهيئة .

٣١٦ — كتابه إلى عدى بن أرطاة

وكتب إليه :

« بلغني أنك تستنُّ بسُنَن الحجاج ، فلا تستَنّ بسُنَنِه . فإنه كان يصلّي الصلاة لغير وقتها ، ويأخذ الزكاة بغير حقها ، وكان لِمَا سوى ذلك أضيع » .

(سيرة عمر بن عبد العزيز لابن الجوزى ص ٨٨)

٣١٧ — كتابه إلى عدى بن أرطاة

وكتب إليه :

« أما بعد : فإني كُنتُ كتبتُ إلى عمرو بن عبد الله أن يقسِّم ما وَجَد بعُمانَ من عُشُور التمر والحَبِّ في فقراء أهلها ، ومَن سَقَط إليها من أهل البادية ، ومن أضافَتْهُ إليها الحاجةُ والمَسْكَنَةُ وانقطاعُ السبيل ، فكتَبَ إليَّ أنه سأل عامِلَك قَبلَه عن ذلك الطعام والتمر ، فذكر أنه قد باعه وحَمَل إليك ثمنه ، فارْدُدْ إلى عمرو ما كان حَمَل إليك عامِلُك على عُمانَ من ثمن التمر والحب ليضعه في المواضع التي أمرتُه بها ، ويصرِفه فيها إن شاء الله ، والسلام » . (فتوح البلدان للبلاذرى ص ٨٥)

٣١٨ — كتابه إلى عدى بن أرطاة

وكتب إليه :

« أما بعدُ : فإذا أتاك كتابي هذا فاستَتِب القَدَرية[1] مما دخلوا فيه ، فإن تابوا فخَلِّ سبيلهم ، وإلاَّ فانفِهم من ديار المسلمين » . (سيرة عمر بن عبد العزيز لابن الجوزى ص٦٨)

---

(١) القدرية : فرقة تنكر القدر ، وتغالى في إثبات القدرة للإنسان ، وأول زعمائها معبد بن خالد الجهنى ، وكان ممن يجالس الحسن البصرى ، فسمع من يتعللون في المعصية بالقدر ، فقام بالرد عليهم ، نافياً أن يكون القدر سالباً للاختيار في أفعال العباد ، وتطرف في الدفاع حتى قال عبارته المعروفة : « لا قدر والأمر أنف » بضمتين : أي يستأنف استئنافا من غير سابقة قضاء وقدر فسميت جماعته بالقدرية ، ولما بلغ ابن عمر تبرأ منه ومن أصحابه ، وقد قتله الحجاج لخروجه مع ابن الأشعث ، وقيل قتله لزندقته .

٣١٩ — كتابه إلى عدى بن أرطاة

وكتب إليه :

« واعلم أن أحداً لا يستطيع إنفاذ قضايا ما بين الناس حتى لا يَبْقَى منها شىء ، لابُدَّ أن تستأخِرَ قضايا ليوم الحساب » .

(سيرة عمر بن عبد العزيز لابن الجوزى ص ٩٤)

٣٢٠ — كتابه إلى عدى بن أرطاة

وكتب إليه :

« أما بعدُ ، فإنى أذكِّرك ليلةً تَمَخَّضُ بالساعة ، فصباحُها القيامةُ ، يالها من ليلةٍ ! وَيَا لَهَ من صباحٍ كان على الكافرين عسيراً ! » .

(سيرة عمر لابن الجوزى ص ١٠٢)

٣٢١ — كتابه إلى عدى بن أرطاة

وجاء فى سيرة عمر بن عبد العزيز لابن الجوزى :

وكتب عمر بن عبد العزيز إلى بعض عماله :

«أما بعدُ ، فإذا دَعَتْك قدرتُك على الناس إلى ظلمهم ، فاذكُرْ قدرةَ الله عليك فى نَفَادِ ما تأتى إليهم ، وبقاءِ ما يُؤْتى إليك » .

(سيرة عمر لابن الجوزى ص ١٠١)

وفى خبر آخر :

« أما بعدُ ، فإذا أمكنَتْكَ القدرةُ من ظلم العباد ، فاذكر قدرة الله عليك ، وذهاب ما تأتى إليهم ، واعلم أنك ما تأتى إليهم أمراً إلا كان زائلا عنهم باقياً عليك ، وأن الله تعالى يأخذ للمظلوم من الظالم ، فمهما ظلمْتَ من أحد فلا تظلِمَنَّ مَن لا ينتصر عليك إلا بالله عزَّ وجلّ » .

(سيرة عمر لابن الجوزى ص ١٠٣ ، ومروج الذهب ٢ : ١٧٦)

وفى صبح الأعشى ، والعقد الفريد كتب عمر بن عبد العزيز إلى عدى ابن أرطاة :

« أما بعدُ ، فإذا أمكنَتْك القدرةُ على المخلوق فاذكر قدرة الخالق عليك ، واعلم أن مالك عند الله مثلُ ما لِلرَّعيَّة عندك » .

(صبح الأعشى ٦ : ٣٩١ ، والعقد الفريد ١ : ١٤)

وفى رواية أخرى للعقد :

« إذا أمكنتك القدرة على المخلوق فاذكر قدرة الخالق القادر عليك ، واعلم أن مالَك عند الله أكثر مما لك عند الناس » . (العقد الفريد ٢ : ٢٧٩)

٣٢٢ — كتابه إلى عدى بن أرطاة

وكتب إليه :

« أما بعدُ ، فإن الدنيا عَدوّة أولياء الله ، أما أولياء الله فَغَمَّتْهُمْ ، وأما أعداء الله فغرَّتهم » . (سيرة عمر لابن الجوزى ص ٢٢٢)

٣٢٣ — كتابه إلى عدى بن أرطاة

وكتب إليه :

« أما بعدُ : فإنك غرَّرتنى بعمامتك السوداء ، ومجالستِك القُرَّاء ، وإرسالك العمامةَ من ورائك ، وإنك أظهرتَ لى الخيرَ فأحسنتُ بك الظنَّ ، وقد أظهر الله ما كنتم تكتمون ، والسلام » . (سيرة عمر لابن الجوزى ص ١٠١)

٣٢٤ — كتابه إلى عدى بن أرطاة

وكتب إليه :

« أما بعدُ : فإنك لن تزالَ تُعَنِّى[1] إلىَّ رجلا من المسلمين فى الحر والبرد يسألنى عن السُّنَّة ، كأنك إنما تُعَظِّمنى بذلك ، وايْمُ اللهِ لَحَسْبُك بالحَسَن[2] ، فإذا أتاك كتابى هذا فسَلِ الحَسَن لى ولك وللمسلمين ، فرَحِم الله الحسن فإنه من الإسلام بمنزلٍ ومكان ولا تُقْرِئَنَّه كتابى هذا » . (سيرة عمر لابن الجوزى ص ١٠١)

٣٢٥ — كتابه إلى عبد الحميد بن عبد الرحمن والى الكوفة

ويروى أن بِلال بن أبى بُرْدة[3] وَفَد على عمر بن عبد العزيز بخُناصِرَةَ ، فسَدِكَ[4] بسارِيَةٍ من المسجد ، فجعل يصلِّى إليها ويُدِيم الصلاة ، فقال عمر بن عبد العزيز للعَلاء ابن المُغِيرة بن البُنْدارِ : إن يكن سِرُّه هذا كعَلاَنِيَتِه ، فهو رجلُ أهلِ العراق غيرَ مُدافَعٍ ، فقال العَلاء : أنا آتيكَ بخَبَره ، فأتاه وهو يصلى بين المغرب والعِشاء ، فقال : اشفَع[5] صلاتَك ، فإن لى إليك حاجةً ففعلَ ، فقال له العلاء : قد عرَفتَ حالى من أمير المؤمنين ، فإن أنا أشَرْتُ بك على ولاية العراق فما تجعَلُ لى ؟ قال : لك عُمالَتِى[6] سَنَةً — وكان مبلغها عشرين ألفَ ألفِ درهم — قال : فاكتب لى بذلك ، فارقَدَّ[7] بلالٌ إلى منزله ، فأتى بدَواة وصحيفة ، فكتب له بذلك ، فأتى العلاء عُمَرَ بالكتاب ، فلما رآه كتب إلى عبد الحميد بن عبد الرَّحمن بن زيد بن الخطاب — وكان والى الكوفة — :

---

(١) عناه : أتعبه . (٢) يعنى الحسن البصرى .
(٣) هو بلال بن أبى بردة عامر بن أبى موسى الأشعرى .
(٤) سدك به : لزمه ، والسارية . الأسطوانة من حجارة أو آجر وجمعها السوارى .
(٥) أى اجعلها شفعاً : أى ركعتين لا أربعاً والمراد خفف صلاتك وعجل .
(٦) العمالة مثلثة العين : أجر العامل . (٧) ارقد : أسرع .

« أما بعدُ : فإن بِلاَلاً غرَّنا بالله ، فَكِدْنا نغترّ ، فسبكْناه فوجدناه خَبَثاً[1] كُلَّه ، والسلام » .

ويروى أنه كتب إلى عبد الحميد : « إذا ورد عليك كتابى هذا فلا تستعِنْ على عملك بأحدٍ من آلِ أبى موسى » . (الكامل للمبرد ١ : ٢١٧)

٣٢٦ — كتابه إلى عبد الحميد بن عبد الرحمن

وكتب عمر بن عبد العزيز إلى عبد الحميد بن عبد الرحمن :

« كتبتَ إلىّ تسألنى عن أناس من أهل الحِيرة ، يُسْلِمون من اليهود والنصارى والمجوس ، وعليهم جزية عظيمة ، وتستأذننى فى أخذ الجزية منهم ، وإن الله جَلّ ثناؤه بعث محمداً صلى الله عليه وسلم داعياً إلى الإسلام ، ولم يبعثه جابياً ، فمن أسلم من أهل تلك المِلَل فعليه فى ماله الصَّدَقة ، ولا جزية عليه ، وميراثُه لذوى رَحِمه إذا كان منهم ، يتوارثون كما يتوارث أهل الإسلام ، وإن لم يكن له وارث فميراثه فى بيت مال المسلمين الذى يُقْسَم بين المسلمين ، وما أحدث من حدث ففى مال الله الذى يقسم بين المسلمين يُعْقَل[2] عنه منه ، والسلام » . (كتاب الخراج ص ١٥٧)

٣٢٧ — كتابه إلى عبد الحميد بن عبد الرحمن

وكتب عمر بن عبد العزيز إلى عبد الحميد بن عبد الرحمن :

« من عبد الله عمر أمير المؤمنين إلى عبد الحميد :

سلام عليك ، أما بعدُ : فإن أهل الكوفة قد أصابهم بلاء وشِدّة وجَوْرٌ فى أحكام الله وسننٌ خبيثة استنّها عليهم عُمّال السوء ، وإنّ قِوام الدين العدل والإحسان ، فلا يكونن شىء أهم إليك من نفسك أن توطّنها لطاعة الله ، فإنه لا قليلَ من الإثم ،

(١) خبث الحديد وغيره : ما نفاه الكير .

(٢) عقل عنه : أدى جنايته ، وعقل القتيل : وداه ، أى دفع ديته .

ولا تحمل خراباً على عامر، ولا عامراً على خراب، وانظر الخراب فإن أطاق شيئاً فخذ منه ما أطاق، وأصلحه حتى يعمر(١)، ولا يؤخذ من العامر إلا وظيفة الخراج، في رفق وتسكين لأهل الأرض، ولا تأخذن في الخراج إلا وزن سبعة(٢) ليس فيها تبر(٣) ولا أجور الضرابين، ولا إذابة الفضة، ولا هدية النيروز والمهرجان(٤)، ولا ثمن الصحف، ولا أجور الفيوج(٥)، ولا أجور البيوت، ولا دراهم النكاح، ولا خراج على من أسلم من أهل الأرض، فاتبع في ذلك أمري، فإني قد وليتك من ذلك ما ولاني الله، ولا تعجل دوني بقطع ولا صلب حتى تراجعني فيه، وانظر من أراد من الذرية أن يحج فعجل له مائة يحج بها والسلام.

(تاريخ الطبري ٨ : ١٣٩، وسيرة عمر بن عبد العزيز لابن الجوزي ص ٩٤، وكتاب الخراج ص١٠٢)

---

(١) عمر المكان كنصر وكرم وسمع.

(٢) وذلك أن الدراهم في عهد أمير المؤمنين عمر بن الخطاب رضي الله عنه كانت مختلفة، فمنها ما كان وزن عشرة دراهم منه على وزن عشرة مثاقيل، ومنها ماوزن العشرة منه على وزن ستة مثاقيل، ومنها ما وزن العشرة منه على وزن خمسة مثاقيل، فاختلف أصحاب الأموال وعمال بيت المال، فأراد الأولون أن يؤدوها من النوع الثالث، وأبى الآخرون أن يأخذوها إلا من النوع الأول، فجمع عمر رضي الله عنه الأنواع الثلاثة وأخذ ثلثها فكان سبعة، فصار المعتبر من ذلك الوقت أن وزن عشرة دراهم سبعة مثاقيل في كل المقدرات الشرعية، حتى في الزكاة ونصاب السرقة والمهر وتقدير الديات، منعا للخصومة في المعاملة- انظر حاشية ابن عابدين على الدرج ٢: ص ٢٨ وشرح العناية على الهداية، وشرح فتح القدير ج١: ص٥٢١ وفتوح البلدان للبلاذري ص ٤٧١.

(٣) في الطبري «ليس لها آيين» وهو تحريف، والصواب «تبر» كما في كتاب الخراج لأبي يوسف وذلك لأن التبر أخف وزنا، وأما الآيين فهو العادة. جاء في شفاء الغليل ص ١٦ : الآيين، العادة، وأصل معناه السياسة المسيرة بين فرقة عظيمة، أعجمي عربه المولدون. قال مهيار:

يجمع الخريت حولا أمره   وهو لم يأخذ لها آيينها

(راجع ديوان مهيار الديلمي ج ٤ : ص ١٣٢، والخريت كسكير: الدليل الحاذق، والضمير في لها يعود على «وفلاة» في بيت سابق)وفي الكشاف في قصة سليمان في سورة النمل: أنه أشير على الإسكندر بالبيات فقال: ليس من آيين الملوك استراق الظفر - انظر ج ٢ : ص ١٤٧.

(٤) النيروز : اسم أول يوم من السنة، وهو عند الفرس عند نزول الشمس أول الحمل، وعند القبط أول توت، معرب نوروز أي اليوم الجديد، والمهرجان : عيد للفرس عند نزول الشمس أول الميزان وهي مركبة من كلمتين : مهر، وجان. ومعناها محبة الروح.

(٥) الفيوج جمع فيج بالفتح، وهو رسول السلطان الذي يسعى بالكتب.

٣٢٨ — كتاب عبد الحميد بن عبد الرحمن إليه

وكتب عبد الحميد بن عبد الرحمن إلى عمر :

« إن رجلاً شتمك فأردتُ أن أقتله »

٣٢٩ — رد عمر عليه

فكتب إليه :

« لو قتلته لأَقَدْتُكَ[1] به ، فإنه لا يُقتل أحد بشتم أحداً إلا رجل شتم نبيًّا » .

(العقد الفريد ٢ : ٢٧٩)

٣٣٠ — كتابه إلى عبد الحميد بن عبد الرحمن

وروى صاحب العقد أيضاً قال :

وكان عمر بن عبد العزيز يكتب إلى عبد الحميد بن عبد الرحمن عامله على المدينة فى المظالم فيرادُّه فيها ، فكتب إليه :

« إنه يخيل لى أنى لو كتبتُ لك أن تُعطى رجلا شاةً[2] لكتبتَ إلىّ : أذكر أم أنثى ؟ ولو كتبت إليك بأحدهما ، لكتبت إلىّ : أصغيرة أم كبيرة ؟ ولو كتبت بأحدهما ، لكتبت : أضائنة أم مِعزى؟ فإذا كتبتُ إليك فنفِّذ ولا تردَّ علىّ ، والسلام »

(العقد الفريد ٢ : ٢٧٩)

٣٣١ - كتابه إلى صالح بن عبد الرحمن وصاحبه

وكتب صالح بن عبد الرحمن[3] وصاحبٌ له — وكانا قد ولَّاهما عمر شيئاً من أمر العراق — يَعرِضان له أن الناس لا يُصْلِحُهُمْ إلا السيفُ ، فكتب إليهما :

---

(١) أقاد القاتل بالقتيل : قتله به . (٢) الشاة الواحدة من الغنم للذكر والأنثى ، أو يكون من الضأن والمعز والظباء والبقر والنعام وحمر الوحش ، والمرأة أيضاً .

(٣) هو مولى بنى تميم ، وكان على خراج العراق فى خلافة سليمان بن عبد الملك.

« خَبيثَين من الخَبَثِ[1] ، رديئين من الرَّدِيء ، تَعرّضان لى بدماء المسلمين ! ما أحدٌ من الناس إلا ودماؤكما أهونُ عَلَيّ من دمه » .

(سيرة عمر بن عبد العزيز لابن الجوزى ص ١٠٩)

٣٣٢ — كتابه إلى ابن أبى الفرات

وقال مبشّر أو يزيد بن أبى الفُرَاتِ : كنت عاملا لعمر بن عبد العزيز ، فكنت أختِم على بَيَادِرِ[2] أهل الذّمة ، فجاءنى كتاب عمر بن عبد العزيز أن : « لا تفعل ، فإنه يلغنى أنها كانت من صنائع الحجاج ، وأنا أكرَه أن أتأسّى[3] به » .

(سيرة عمر لابن الجوزى ص ١٠٨)

٣٣٣ — كتابه إلى ميمون بن مهران عامله بالجزيرة

واستعمل عمر بن عبد العزيز ميمون بن مِهْرَان على الجزيرة — على قضائها وعلى خَرَاجها — فكتب إليه ميمون يستعفيه وقال : كَلَّفْتَنى مالا أُطيق ، أَقْضِى بين الناس وأنا شيخ كبير ضعيف رقيق ! فكتب إليه :

« اجْبِ الخراجَ الطيّب ، واقضِ بما استبانَ لك من الحق ، فإذا التبس عليك أمر فارفَعْهُ إلىّ ، فإن الناس لو كانوا إذا ثَقُل عليهم أمرٌ تركوه ، ما قام لهم دين ولا دنيا » .

(سيرة عمر لابن الجوزى ص ٩٩ ، وكتاب الخراج ص ١٣٧)

وفى خبر آخر أن ميمون بن مهران كتب إليه يستعفيه من الخراج فكتب إليه عمر :

« يابن مِهران ، إنى لم أُكلّفك بَغيا فى حكمك ولا فى جبايتك ، فاجْبِه ما جَبَيْتَ من الحلال ، ولا تجمع للمسلمين إلا الحلال الطيّب » .

(سيرة عمر لابن الجوزى ص ٩٥)

---

(١) خبث الحديد وغيره : ما نفاه الكير .

(٢) بيادر جمع بيدر كصيرف ، وهو الموضع الذى تداس فيه الحبوب . (٣) أى أقتدى .

٣٣٤ — كتابه إلى أمير الجزيرة

وكتب إلى أمير الجزيرة ، فكان فيما كتب إليه :

« وكن لما ولاّك الله أمرَه ناصحا فيما تَرِيب عليهم من أمورهم ، ساتِراً لما استطعت من عَوْراتهم ، إلا شيئاً أبداه الله لا يصلح سَتْرُه ، وتُمْسِك نفسَك عنهم إذا غضبت وإذا رضيت ، حتى يكون ذلك فيما بينك وبينهم مستويا حسنًا جميلا ، لا تبتغينّ لِحقّ أدَّيتَه إليهم ولا لخير سَدَّدتهم له ، منهم حظا ولا مِدْحة ، وليكن ذلك لمن لا يُعطِى الخيرَ إلا هو ، ولا يصرفُ السوء إلا هو ، واغتنِمْ كل يوم وليلة مَضَتْ عليك وأنت سالم » . (سيرة عمر لابن الجوزى ص ٩٨)

٣٣٥ — كتابه إلى أمير الجزيرة

وكتب عمر بن عبد العزيز إلى أمير الجزيرة :

« أما بعدُ ، فإن ناسا من الناس قد التمسوا بعملِ الآخرة الدنيا ، وإنما مَصيرهم ومَرْجِعهم إلى الله بعد الموت ، وقد بلغنى أن ناسا من القُصَّاصِ قد أحدثوا الصلاة على أمرائهم عَدْلَ[1] ما يصلُّون على النبى صلى الله عليه وسلم ، فإذا جاءك كتابى هذا فَمُر القُصَّاصَ فَلْيَجْعلوا صلاتهم على النبى صلى الله عليه وسلم خاصَّةً ، وليكن دعاؤهم للمؤمنين والمسلمين عامّة ، ولْيَدَعُوا ما سِوَى ذلك ، والسلام » .

(سيرة عمر لابن الجوزى ص ٢٣٦)

٣٣٦ — كتابه إلى يحيى بن يحيى عامله بالموصل

عن يحيى بن يحيى الغَسّانى قال :

لما ولاّنى عمر بن عبد العزيز المَوْصِلَ ، قَدِمْتُها فوجدتها من أكثر البلاد سَرَقًا ونَقْبًا ، فكتبتُ إلى عمر أُعْلِمه حال البلد ، وأسأله آخُذُ الناس بالظِّنَّة وأضربهم على

---

(١) العدل : المثل والنظير .

التُّهمَة ، أو آخُذُهم بالبيِّنة وما جرت عليه السُّنة ؟ فكتب إلىَّ أن : « خذ الناس بالبينة وما جرَت عليه السُّنَّة ، فإن لم يُصْلِحهُم الحقُّ فلا أصْلَحَهم اللهُ » .

قال يحيى . ففعلت ذلك فما خرجتُ من الموصل حتى كانت من أصلح البلاد وأقلها سَرَقا ونَقْبا . (سيرة عمر لابن الجوزى ص ٩٧)

٣٣٧ — كتابه إلى جماعة من الحرورية[1]

وقال يحيى بن يحيى الغَسَّانى أيضاً : بلغنى أن ناسا من الحَرُوريَّة جمعوا بناحية من المَوْصِل فكتبتُ إلى عمر بن عبد العزيز أُعْلِمه بذلك ، فكتب إلىَّ يأمرنى أنْ أرْسِلَ إلىَّ منهم رجالا من أهل الجدَل ، وأعطِهم رَهْناً وخذ منهم رهنا ، واحْمِلهم على مراكب البريد إلىَّ ، ففعلتُ ذلك ، فقدِموا عليه فلم يدع لهم حُجَّة إلا كسَرَها ، فقالوا : لسنا نُجِيبُك حتى تكفِّر أهل بيتك وتلعنَهم وتتبرأ منهم ، فقال عمر : إن الله لم يجعلنى لَعَّانا ، ولكن إن أبقَ أنا وأنتم فسوف أحملكم وإياهم على المحَجَّة البيضاء ، فأبَوا أن يقبلوا ذلك منه ، فقال لهم عمر : إنه لايَسَعُكم فى دينكم إلا الصدق ، مُنْذُ كم دِنْتُمْ الله بهذا الدين ؟ قالوا : منذ كذا وكذا سنةً ، قال : فهل لَعَنتم فِرعَوْنَ وتبرأتم منه ؟ قالوا : لا ، قال : فكيف وَسِعكم تَرْكُه ؟ ألا يَسَعُنى تركُ أهل بيتى ، وقد كان فيهم المحسنُ والمسىء ، والمصيب والمخطىء ؟ قالوا : قد بلغْنا ما هاهنا ، فكتب إلىَّ عمر أنْ خُذ مَنْ فى أيديهم من رهنك ـ يعنى ودع من فى يدك من رهنهم ـ وإن كان رأىُ القوم أن يَسِيحوا فى البلاد على غير فساد على أهل الذِّمة ، ولا تناوُلِ أحدٍ من الأمة ، فليذهبُوا حيث شاءوا ، وإن هم تناولوا أحداً من المسلمين وأهل الذمة فحاكِمْهم إلى الله ، وكتب إليهم :

---

(١) الحرورية من أسماء الخوارج ، سماهم بذلك الإمام على كرم الله وجهه ، نسبة إلى حروراء ـ قرية بظاهر الكوفة ـ وكانوا قد نزلوها حين اعتزلوه بعد رجوعه من صفين .

« بسم الله الرحمن الرحيم : من عبد الله عمر بن عبد العزيز أمير المؤمنين إلى العِصابة الذين خرجوا ، أما بعدُ ، فإنى أحمَد إليكم الله الذى لا إله إلا هو أما بعدُ ، فإن الله يقول : أُدْعُ إِلَى سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحِكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ وَجَادِلْهُمْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَنْ ضَلَّ عَنْ سَبِيلِهِ ، وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ » وإنى أذكِّركم الله أن تفعلوا كفعل كُبَرائكم « الَّذِينَ خَرَجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ بَطَرًا وَرِئَاءَ[1] النَّاسِ وَيَصُدُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللهِ وَاللهُ بِمَا يَعْمَلُونَ مُحِيطٌ » أفبذنبى تخرجون من دينكم ، وتَسفِكون الدماء ، وتنتهكون المحارمَ ؟ ولو كانت ذنوبُ أبى بكر وعمر مُخرِجَةً رعيتَهما من دينهم كانت لهما ذنوب ، فقد كانت آباؤكم فى جماعتهم ، فلم يَنزِعُوا ، فما يَنزِعكم من المسلمين وأنتم بضعة وأربعون رجلا ؟ وإنى أقسم لكم بالله لو كنتم أبكارى من ولدى فولَّيتم عما أدعوكم إليه من الحقّ ، لدَفقتُ دماءكم ، ألتمس بذلك وَجهَ الله والدارَ الآخرة ، فهذا النُّصحُ ، فإن استغششتمونى فقديماً ما استُغِشَّ الناصحون » .

(سيرة عمر بن عبد العزيز لابن الجوزى ص ٧٧)

٣٣٨ — كتابه إلى يحيى بن يحيى

فأبوا إلا القتال ، وحلَقوا رءوسهم ، وساروا إلى يحيى بن يحيى ، فأتاهم كتاب عُمَرَ ، ويحيى بن يحيى مُواقفهم القتال .

« من عبد الله عُمَرَ أمير المؤمنين إلى يحيى بن يحيى :

أما بعدُ : فإنى ذكرتُ آية فى كتاب الله . « وَلَا تَعْتَدُوا إِنَّ اللهَ لَا يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ » . وإن من العُدوان قتلَ النساء والصبيان ، فلا تَقْتُلَنَّ امرأة ولا صبيا ، ولا تقتلن أسيراً ، ولا تطلُبن هاربا ، ولا تُجْهِزَنَّ على جريح إن شاء الله » .

(سيرة عمر بن عبد العزيز لابن الجوزى ص ٧٨)

---

(١) راءاه مراءاة ورئاءً : أراه خلاف ما هو عليه .

٣٣٩ - كتابه إلى أبي بكر بن حزم عامله بالمدينة

وكتب إلى أبى بكر بن محمد بن عمرو بن حَزْم ، عامله على المدينة :

« أمَّا بعدُ : فإنك كتبتَ إلى سليمان كُتبًا لم ينظُر فيها حتى قُبِض رَحِمَه الله ، وقد بُلِيتُ بجوابك فاسمعْ : كتبتَ إلى سليمان تذْكُر أنَّه يُقطَع لعُمَّال المدينة من بيت مال المسلمين لِثَمَن شَمَعٍ (١) كانوا يستضيئون به حين يَخرجُون إلى صلاة العِشاء وصلاة الفجر ، وتذكُر أنه قد نَفِدَ الذى كان يُستضاءُ به ، وتسأل أن يُقْطَع لك من ثمنه بمثل ما كان للعُمَّال ، وقد عَهِدْتُك وأنت تخرجُ من بيتك فى الليلة الْمُظْلِمة الْمَاطرة الوَحِلة بغير سِرَاج ، ولَعَمْرى لأنت يومَئذٍ خيرٌ منك اليومَ والسلام » .

وفى رواية أخرى أنه كتب إليه :

« أما بعدُ فقد قرأتُ كتابك الذى كتبتَ به إلى سليمان بن عبد الملك ، وكنتُ المبتلَى بالنظر فيه دُونَه ، كتبتَ تسأله أن يقطعَ لك من الشَّمَع مِثلَ الذى كان يقطع لَمن قَبْلك وتذكر أن الشمع الذى قبلَك قد نفِدَ ، ولعمرى قد طالما رأيتُك تخرج من منزلك إلى مسجد رسول الله صلى الله عليه وسلم فى الليلة المظلمة الوَحِلة بغير ضِياء ، ولعمرى لأنت يَوْمَئذ خيرٌ منك اليوم ، والسلام عليك ، وكتبتَ تسأله أن يقطع لك شيئًا من القراطيس مثل الذى كان يقطع لمن قبلك ، فأدِقَّ قلمك ، وقَارِبْ بين سُطورك ، واجمع حوائجَك ، فإنى أكْرَهُ أن أُخْرِجَ من أموال المسلمين مالا ينتفعون به ، والسلام » . (سيرة عمر بن عبد العزيز لابن الجوزى ص ٨١)

٣٤٠ - كتاب ابن حزم إليه

وكتب أبو بكر بن محمد بن عمرو بن حَزْم إلى عمر بن عبد العزيز :

« سلام عليك ، أما بعدُ : فإن أشياخًا من الأنصار قد بلغوا أسْنانا ، ولم يبلغوا

---

(١) الشمع محركة وتسكين الميم مولد .

الشَّرَفَ من العَطاء ، فإنْ رَأى أميرُ المؤمنين أن يَبْلُغَ بهم الشرفَ من العطاء فليفعل » .

٣٤١ — كتاب ابن حزم إليه

وكتب إليه فى صحيفة أخرى :

« سلام عليك : أما بعدُ ، فإنَّ مَن كان قَبلى من أمراء المدينة يَجْرِى عليهم رزق من شَمَعه ، فإنْ رَأى أمير المؤمنين أن يأمر لى برزقٍ من شَمَعه فليفعل » .

٣٤٢ — كتاب ابن حزم إليه

وكتب إليه فى صحيفة أخرى :

« سلام عليك : أما بعدُ ، فإن بَنى عَدِىّ بن النَّجار أخوال رسول الله صلى الله عليه وسلم انهدم مسجدهم ، فإنْ رَأى أمير المؤمنين أن يأمر لهم ببنائه فليفعل » .

(سيرة عمر بن عبد العزيز لابن الجوزى ص٨٢)

٣٤٣ — رد عمر على كتب بن حزم

فأجابه عن هؤلاء الصحائف الثلاث بجواب واحد فى صحيفة واحدة :

« سلام عليك : أما بعدُ ، جاءنى كتابك تذكُر أن أشياخا من الأنصار قد بلغوا أسنانا ، ولم يبلغوا الشرف من العطاء ، وإنما الشرفُ شرفُ الآخرة فلا أعرِفنّ ما كتبتَ به إلىّ فى نحو هذا .

وجاءنى كتابك تذكُر أن من كان قَبلَك من أمراء المدينة كان يَجْرِى عليهم رزق من شَمَعه ، ولعمرى يابن أُمِّ حَزْم لطالما مشيتَ إلى مسجد رسول الله صلى الله عليه وسلم فى الظُّلْمة ، لا يُمشَى بين يديك بالشَّمَع ، ولا يُوجِف[1] خلفَك أبناءُ المهاجرين والأنصار ، فارضَ لنفسك اليومَ ما كنت تَرضَى به قبل اليوم .

---

(١) وجف الفرس والبعير : عدا ، وأوجفته : أعديته .

وجاءني كتابك تذكر أن بني عدي بن النجار أخوال رسول الله صلى الله عليه وسلم انهدم مسجدهم ، وقد كنت أحبُّ أنْ أخْرُجَ من الدنيا لم أضع حَجَراً على حجر ولا لَبِنة على لبنة ، فإذا أتاك كتابي هذا فابنِه لهم بلَبِنٍ بناء قَصْداً[1] والسلام عليك » .

(سيرة عمر بن عبد العزيز لابن الجوزي ص ٨٣)

٣٤٤ — كتابه إلى ابن حزم

وكتب إلى أبي بكر بن حَزْم كتابا يقول فيه :

« إني نظرتُ في أمر « فَدَك[2] » فإذا هو لا يَصْلُح ، فرأيتُ أن أردّها إلى

(١) القصد : ضد الإفراط كالاقتصاد .

(٢) فدك : قرية بخيبر فيها عين ونخل كثير ، بينها وبين المدينة يومان ، أفاءها الله على رسوله صلى الله عليه وسلم سنة سبع صلحاً ، فكانت خالصة له ينفق ما يأتيه منها في أبناء السبيل ، فلما قبض عليه الصلاة والسلام جاءت فاطمة رضي الله عنها أبا بكر رضي الله عنه تطلب ميراثها من أبيها ، وهو أرضه من فدك وسهمه من خيبر ، فقال لها أبو بكر : أما إني سمعت رسول الله يقول : نحن معاشر الأنبياء لا نورث ، ما تركنا فهو صدقة ، إنما يأكل آل محمد من هذا المال ، وإني والله لا أدع أمرا رأيت رسول الله يصنعه إلا صنعته ، فهجرته فاطمة فلم تكلمه في ذلك حتى ماتت ، وروى أنه قال لها سمعت رسول الله يقول: إنما هي طعمة أطعمنيها الله تعالى حياتي ، فإذا مت فهي بين المسلمين ، وروى أيضاً أنها قالت له : إن رسول الله جعل لي فدك فأعطني إياها . وشهد لها علي بن أبي طالب رضي الله عنه ، فسألها شاهدا آخر ، فشهدت لها أم أيمن مولاة رسول الله ، فقال : قد علمت يا بنت رسول الله أنه لا يجوز إلا شهادة رجلين أو رجل وامرأتين فانصرفت ، كما روى أيضاً أن فاطمة سألت أباها أن يهبها لها فأبى وقال: ما كان لك أن تسأليني وما كان لي أن أعطيك .

ثم أدى اجتهاد عمر بن الخطاب لما ولى الخلافة وفتحت الفتوح واتسعت على المسلمين أن يردها إلى ورثة رسول الله ، فكان علي بن أبي طالب والعباس بن عبد المطلب يتنازعان فيها ، فكان علي يقول: إن رسول الله صلى الله عليه وسلم جعلها في حياته لفاطمة ، وكان العباس يأبى ذلك ويقول : هي ملك رسول الله وأنا وارثه ، فكانا يتخاصمان إلى عمر ، فيأبى أن يحكم بينهما ويقول : أنتما أعرف بشأنكما ، أما أنا فقد سلمتها إليكما ، وقيل إنه لما قبض عليه السلام فعل أبو بكر وعمر وعثمان وعلي في فدك مثل فعله من وضع ما يأتي منها في أبناء السبيل .

فلما ولى معاوية ولى مروان بن الحكم المدينة ، فكتب إلى معاوية يطلب فدك ، فأقطعه إياها ، فكانت بيد مروان يبيع ثمرها كل سنة بعشرة آلاف درهم ، ثم نزع مروان فنزعها من يده ، فكانت بيد وكيله بالمدينة ، فلما ولى مروان المدينة المرة الأخيرة ، ردها عليه ، فأعطى ابنه عبد الملك نصفها وابنه عبد العزيز نصفها ، ثم صارت إلى الوليد وسليمان ابني عبد الملك وإلى عمر بن عبد العزيز ، وطلب عمر إلى الوليد حصته فوهبها له ، وسأل سليمان حصته فوهبها له أيضاً . فاستجمعها عمر ، وولى الخلافة وما يقوم به وبعياله إلا هي =

ما كانت عليه فى عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم وأبى بكر وعمر وعثمان، فاقبضها ووَلِّها رجلا يقوم فيها بالحق، وسلام عليك».

(سيرة عمر لابن الجوزى ص ١١٠)

٣٤٥ — كتابه إلى أمير مكة

وكتب إلى أمير مكة:

«لاتَدَعْ أهل مكة يأخذوا على بيوت مكة أجرا، فإنه لايحلُّ لهم».

(سيرة عمر لابن الجوزى ص ٩٤)

٣٤٦ — كتابه إلى عروة بن محمد عامله باليمن

وكتب إلى عُرْوة بن محمد عامله على اليمن:

«أما بعد، فإنى أكتب إليك آمُرك أن تردَّ على المسلمين مَظَالِمَهم، وتراجعنى، وأنت تعرِفُ بُعْد مسافةِ مابينى وبينك، ولا تعرِفُ أَحْدَاثِ الموتِ حتى لو كتبتُ

= تغل كل سنة عشرة آلاف أو أقل أو أكثر، وما كان له مال أحب إليه منها، فسأل عنها فأخبر بما كان من أمرها، فخطب الناس وقص قصة فدك ثم قال: وإنى أشهدكم أنى قد رددتها إلى ما كانت عليه على عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم وأبى بكر وعمر وعثمان وعلى، وكتب إلى أبى بكر بن حزم الكتاب المذكور، فكان يأخذ مالها فيخرجه فى أبناء السبيل.

وروى أن عمر بن عبد العزيز لما ولى الخلافة كتب إلى عامله بالمدينة يأمره برد فدك إلى ولد فاطمة رضى الله عنها، فكانت فى أيديهم فى أيامه، فلما ولى يزيد بن عبد الملك قبضها فلم تزل فى أيدى بنى أمية حتى ولى أبو العباس السفاح الخلافة، فدفعها إلى الحسن بن الحسن بن على بن أبى طالب، فكان هو القيم عليها يفرقها فى بنى على بن أبى طالب، فلما ولى المنصور وخرج عليه بنو الحسن قبضها عنهم، فلما ولى المهدى الخلافة أعادها عليهم، ثم قبضها منهم موسى الهادى ومن بعده إلى أيام المأمون، فجاءه رسول بنى على بن أبى طالب فطالب بها فأمر أن يسجل لهم بها، فكتب السجل وقرئ على المأمون فقام دعبل الشاعر فأنشد:

أصبح وجه الزمان قد ضحكا ... برد مأمون هاشم فدكا

فلما استخلف المتوكل ردها إلى ما كانت عليه فى عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم» انظر معجم البلدان لياقوت الحموى ج ٦: ص ٣٤٢ وتاريخ الطبرى ج ٣: ص ٢٠٢، وسيرة عمر بن عبد العزيز لابن الجوزى ص ١١٠ والعقد الفريد ج ٢: ص ٢٧٩ وفتوح البلدان للبلاذرى ص ٣٦، وفصلا طويلا فى شرح ابن أبى الحديد م ٤ من ص ٨٧ إلى ص ١٠٦.

إليك : « اردُدْ على مسلم مَظْلِمَةً » لكتبتَ إليّ : أَرُدُّها عَفْرَاء[1] أو سوداء ؟
« انظر أن تَردَّ على المسلمين مظالمهم ولا تراجعني » .

(سيرة عمر لابن الجوزى ص ٩٧)

٣٤٧— كتابه إلى عامله باليمن

وبعث عمر بن عبد العزيز بآل أبى عَقيل ـ أهل بيت الحجَّاج ـ إلى صاحب اليمن وكتب إليه :

« أما بعدُ ، فإنى قد بعثتُ إليكم بآل أبى عَقيل ، وهم شَرُّ بيت فى العرب ، ففرِّقهم فى عملك على قَدْر هوانهم على الله ، وعاينا وعليك السلام » .

(سيرة عمر لابن الجوزى ص٩٠)

٣٤٨— كتاب وهب بن منبه إلى عمر

وكان وَهْب بن مُنَبِّه على بيت مال اليمن ، فكتب إلى عمر بن عبد العزيز .
« إنى فَقَدْتُ من بيت مال المسلمين ديناراً » .

٣٤٩— رد عمر على كتابه

فكتب إليه :

« إنى لا أتَّهم دينك ولا أمانتك ، ولكن أتَّهم تضييعك وتفريطك ، وأنا حَجِيجُ[2] المسلمين فى أموالهم ، ولِأَخْصِمهم عليك أن تَحْلِفَ والسلام » .

(سيرة عمر لابن الجوزى ص٨٥)

---

(١) وصف من العفرة بالضم ، وهى بياض يعلوه حمرة .
(٢) أى القائم بحجتهم ، يقال : حاججته فأنا محاج وحجيج .

٣٥٠ — كتابه إلى والى حمص

وكتب إلى والى حِمْص :

« انظر إلى القوم الذين نَصَبوا أنفسهم للفِقْه ، وحبسوها فى المسجد عن طلب الدنيا ، فأعْطِ كلَّ رجل منهم مائة دينار ، يستعينون بها على ماهم عليه، من بيت مال المسلمين ، حين يأتيك كتابى هذا ، وإن خَيْرَ الخير أعْجَلُه ، والسلام عليك » .

وفى خبر آخر أنه كتب إليه أن : « مُرْ لأهل الصلاح من بيت المال بما يُغْنيهم ، لئلا يَشْغَلَهم شىء عن تلاوة القرآن وما حملوا من الأحاديث » .

(سيرة عمر لابن الجوزى ص ١٠٣)

٣٥١ — كتابه إلى عامله بافريقية

وكتب إليه عامل إفريقية يشكو إليه الهَوامَّ والعقارب ، فكتب إليه :

« وما عَلَى أحدكم إذا أمسى وأصبح أن يقول ؟ : « وَمَا لَنَا أَنْ لَا نَتَوَكَّلَ عَلَى اللَّهِ وَقَدْ هَدَانَا سُبُلَنَا وَلَنَصْبِرَنَّ عَلَى مَا آذَيْتُمُونَا وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُتَوَكِّلُونَ » .

(سيرة عمر لابن الجوزى ص ٩٥)

٣٥٢ — كتابه إلى يزيد بن المهلب عامل خراسان

وكتب عمر بن عبد العزيز حين ولى الخلافة إلى يزيد بن المهلب :

« أما بعدُ ، فإن سليمان كان عبداً من عبيد الله ، أنعم الله عليه ، ثم قبضه واستخلفنى ، ويزيد بن عبد الملك من بعدى إن كان ، وإن الذى ولّانى الله من ذلك وقدّر لى ليس علىّ بهين ، ولو كانت رغبتى فى اتخاذ أزواج واعتقاد[1] أموال ، كان فى الذى أعطانى من ذلك ما قد بلغ بى أفضل ما بلغ بأحد من خلقه ، وأنا أخاف فيما

---

(١) اعتقاد : اقتناء .

ابتليت به حساباً شديداً ومسألة غليظة ، إلا ما عافى الله ورحم ، وقد بايع من قبلنا فبايع من قبلك » .

فلما قدم الكتاب على يزيد بن المهلب ألقاه إلى أبي عيينة ، فلما قرأه قال : لستُ من عماله ، قال : ولِمَ ؟ قال ليس هذا كلام من مضى من أهل بيته ، وليس يريد أن يسلك مسلكهم ، فدعا الناس إلى البيعة فبايعوا ثم كتب عمر إلى يزيد : « استخلف على خراسان وأقبل » فاستخلف ابنه مخلداً » .

(تاريخ الطبرى ٨ : ١٣٨)

٣٥٣ — كتاب الجراح بن عبد الله عامل خراسان إلى عمر بن عبد العزيز

وولّى عمر بن عبد العزيز الجرّاحَ بن عبدالله خُراسان كلَّها — حربَها وصلاتَها وما لَها — فلما قَدِمها كتب إلى عمر :

إنى قَدمتُ خُراسانَ فوجدتُ قوماً قد أبطرَتهم الفِتنةُ ، فهم يَنزُون[1] فيها نَزْوا ، أحبُّ الأمور إليهم أن تعود ، ليمنعوا حقَّ الله عليهم ، فليس يكفُّهم إلا السَّيفُ والسَّوط ، وكَرِهت الإقدامَ على ذلك إلا بإذنك .

(تاريخ الطبرى ٨ : ١٣٤)

٣٥٤ — رد عمر عليه

فكتب إليه عمر :

« يابن أم الجراح : أنت أحْرَصُ على الفتنة منهم ، لاتضربَنَّ مؤمناً ولا معاهَدًا سوطًا إلا فى حقّ ، واحذَر القصاصَ ، فإنك صائرٌ إلى من يعلم خائِنَةَ الْأَعْيُنِ وَمَا تُخْفِي الصُّدُورُ ، وتقرأ كتابًا لا يُغادِرُ صَغِيرَةً ولا كَبِيرَةً إلاّ أحصاها » .

(تاريخ الطبرى ٨ : ١٣٤)

---

(١) نزا : وثب .

٣٥٥ - كتاب عمر بن عبد العزيز إلى الجراح بن عبد الله

وكتب عمر بن عبد العزيز إلى الجراح بن عبد الله :

إنه بلغنى أن رسول الله صلى الله عليه وسلم كان إذا بعث جيشًا أو سَرِيَّةً[١] ، قال : اغزُوا باسم الله ، وفى سبيل الله ، تقاتِلون مَن كَفَرَ بالله ، لاتَغُلُّوا[٢] ولا تَغدِرُوا ولا تُمَثِّلُوا ولا تَقْتُلُوا امرأة ولا وَليداً » فإذا بَعَثْتَ جَيْشاً أو سَرِيَّةً فَمُرْهم بذلك .

(العقد الفريد ١ : ٤٠)

٣٥٦ - كتابه إلى الجراح

وكتب إلى الجَرَّاح بن عبد الله :

« أما بعدُ ، فإنه بلغنى أنك كنت لِمَخْلَد بن يزيد بن المهلَّب ولآل المهلَّبِ أمًّا فَرَشَتْ فأنامَت[٣] » .

٣٥٧ - رد الجراح على كتابه

فكتب إليه الجراح :

« أما بعدُ ، يا أمير المؤمنين فإنك كتبت إلىَّ فى عهدك أنْ لا أُوثِقَ أحداً من خلق الله وِثَاقًا يمنعُ صلاة ، ولا أبسُطَ على أحد من خلق الله عذابًا ، فأنت يا أمير المؤمنين الأمُّ التى فَرَشَتْ فأنامت ، لمخلد بن يزيد ولآل المهلب ولجميع رعيتك » .

فدعا مخلدا ، فقال : إن شئت أن تُقيم عندنا على حالك التى أنت عليها ، وإن شئت أن أُلحِقَك بأمير المؤمنين ، وَلا أَرَاه إلا خيرا لك ، قال : فألحِقْنى بأمير المؤمنين فدفعه إليه فأطلقه عمر بن عبد العزيز .

(سيرة عمر لابن الجوزى ص ٩٦)

---

(١) السرية : من خمسة إلى ثلثمائة أو أربعمائة . (٢) غل كنصر وأغل : خان .

(٣) من أمثال العرب « أم فرشت فأنامت » وهو مثل يضرب فى بر الرجل بصاحبه .

٣٥٨ — كتابه إلى الجراح

وكتب عمر بن عبد العزيز إلى الجراح :

« إنه بلغنى أنك قد استعملتَ عبد الله بن الأهتم ، وإن الله عزّ وجل لم يبارك لعبد الله ولا لأهل بيته فى العَمَل ، فإذا أتاك كتابى هذا فاعزِله ، وإنه مع ذلك لَذُو قرابة لأمير المؤمنين ، وبلغنى أنك استعملت عُمَارة الطويل ، ولا حاجة لى بعُمارة ، ولا بضرب عمارة ، ولا برجل غَمَسَ يده فى دماء المسلمين ، فإذا أتاك كتابى هذا فاعزِله ، وبلغنى أنك استعملت السَّيَال بن المُنْذِر ، وإنى لا أدرى ما سَيَالك هذا ؟ »

(سيرة عمر لابن الجوزى ص ٨٦ و ص ٩٦)

٣٥٩ — رد الجراح على كتابه

فكتب إليه الجراح :

« إنه جاءنى كتابك فى عبد الله ، وإنى استعملته يا أمير المؤمنين فأجْزَأ[(١)] ثَغْرَه ، وهابَه عدوُّه ، وحمِده أهلُ عَمَله ، ولم يكن جزاؤه العزل ، وكتبتَ إلىّ فى عُمارة ، وإنه رجل قد شامَّ[(٢)] الحرورِيةَ ، ثم رجع عن ذلك أحسنَ رجوع ، وتاب منه أحسن توبة » .

واعتذر إليه فى السَّيَال بعذر آخر فقبله . (سيرة عمر لابن الجوزى ص ٩٦)

٣٦٠ — كتابه إلى الجراح

وكتب عمر إلى الجراح :

« انظر من صَلَّى قِبلَك إلى القِبْلة فضع عنه الجِزْية » .

فسارع الناس إلى الإسلام ، فقيل للجراح : إن الناس قد سارعوا إلى الإسلام ،

---

(١) أغناه وكفاه . (٢) أى قاربها ودنا منها .

وإنما فعلوا ذلك نفورا من الجزية ، فامتحِنهم بالختان ، فكتب الجراح بذلك إلى عمر .

٣٦١ — كتابه إلى الجراح

فكتب إليه عمر :

« إن الله بعث محمداً صلى الله عليه وسلم داعيا ، ولم يبعثه خاتنا » .

وقال عمر : ابغُونى رجلا صَدُوقا أسأله عن خُراسان ، فقيل له : قد وجدتَه ، عليك بأبى مِجْلَز لاحق بن حُمَيد ، فكتب إلى الجراح أن : « أقبل واحمل أبا مجلز وخَلِّف على حرب خراسان عبد الرحمن بن نُعَيم الغامدىّ ، وعلى جزيتها عبد الله بن حبيب » .
(تاريخ الطبرى ٨ : ١٣٤)

٣٦٢ — كتابه إلى أهل خراسان

فلما قَدِم الجراح عليه عزله عن خراسان ، وولّى عبد الرحمن بن نُعَيم الصلاة والحرب ، وولى عبد الرحمن القُشَيْرى الخراج ، وكتب إلى أهل خراسان :

« إنى استعملت عبد الرحمن بن نعيم على حربكم ، وعبد الرحمن بن عبد الله على خراجكم ، على غير معرفة منى بهما ولا اختيار ، إلا ما أُخبرت عنهما ، فإن كانا على ما تحبون فاحمدوا الله ، وإن كانا على غير ذلك فاستعينوا بالله ، ولا حول ولا قوة إلا بالله » . (تاريخ الطبرى ٨ : ١٣٥)

٣٦٣ — كتابه إلى عبد الرحمن بن نعيم عامله بخراسان

وكتب إلى عبد الرحمن بن نعيم :

« أما بعدُ ، فكن عبداً ناصحاً لله فى عباده ، ولا تأخُذْك فى الله لَوْمَةُ لائم ، فإن الله أولى بك من الناس ، وحقُّه عليك أعظم ، فلا تُوَلِّيَنَّ شيئاً من أمر المسلمين

إلا المعروفَ بالنصيحة لهم ، والتوفير عليهم ، وأداء الأمانة فيما استُرعِيَ ، وإياك أن يكون ميلُك ميلا إلى غير الحق ، فإن الله لا يخفى عليه خافية ، ولا تذهبَنّ عن الله مَذْهبًا ، فإنه لا ملْجَأَ من الله إلّا إليه » . (تاريخ الطبرى ٨ : ١٣٥)

٣٦٤ — كتابه إلى عبد الرحمن بن نعيم

وكتب عمر إلى عبد الرحمن بن نعيم يأمره بإقفال مَن وراء النهر من المسلمين بذراريّهم ، فأبَوا وقالوا : لا تَسعنا « مرو » فكتب إلى عمر بذلك ، فكتب إليه عمر :

« اللهم إنى قد قضيتُ الذى علىّ ، فلا تَغْزُ بالمسلمين ، فحَسْبُهم الذى قد فتح الله عليهم » .
(تاريخ الطبرى ٨ : ١٣٩)

٣٦٥ — كتابه إلى عبد الرحمن بن نعيم

وكتب عمر إلى عبد الرحمن بن نعيم :

« إن العمل والعلم قريبان ، فكن عالما بالله عاملا له ، فإن أقوامًا عَلِموا ولم يعملوا ، فكان عِلْمهم عليهم وَبالا » . (تاريخ الطبرى ٨ : ١٣٨)

٣٦٦ — كتابه إلى عبد الرحمن بن نعيم

وكتب إليه :

« أما بعدُ : فاعمَل عَمَلَ رجل يعلم أن الله لا يُصْلح عمل المفسدين » .
(تاريخ الطبرى ٨ : ١٣٨)

٣٦٧ — كتابه إلى عقبة بن زرعة

وكتب إلى عُقْبة بن زُرعة الطائى — وكان قد ولّاه خراج خراسان بعد القُشَيرى — :

« إن السلطان أركانا لا يثبُتُ إلا بها ، فالوالى ركن ، والقاضى ركن ، وصاحب

بيت المال ركن ، والركن الرابع أنا ، وليس من ثغور المسلمين ثغر أهم إلىّ ولا أعظم عندى من ثغر خراسان ، فاستوعِب الخراجَ وأَحْرِزْه فى غير ظلم ، فإن يَكُ كَفافا لأعطياتهم فسبيلُ ذلك ، وإلّا فا كتب إلىّ حتى أَحمِلَ إليك الأموال فتوفِّر لهم أعطياتِهم » .

فقَدِم عقبةُ فوجَد خراجَهم يَفضُل عن أعطياتهم ، فكتب إلى عمر فأعلَمه ، فكتب إليه عمر أن اقسِم الفَضل فى أهل الحاجة . (تاريخ الطبرى ٨ : ١٣٩)

٣٦٨ — كتابه إلى سليمان بن أبى السَّرِىّ والى سمرقند

وكتب عمر إلى سليمان بن أبى السَّرِىّ عامله على سَمَرْقَنْد أن : « اعْمَلْ خاناتٍ فى بلادك ، فمن مَرَّ بك من المسلمين فاقرُوهم[1] يوما وليلة ، وتعهَّدوا دوابّهم ، فمن كانت به عِلّة فاقرُوه يومين وليلتين ، فإن كان منقطِعًا به فقَوُّوه بما يصل به إلى بلده » .

فلما أتاه كتاب عمر قال أهل سَمَرْقَنْدَ لسليمان : إن قُتَيْبة غدَر بنا وظلمنا وأخذ بلادنا، وقد أظهر الله العدلَ والإنصاف فأْذَنْ لنا فليفِدْ منا وفد إلى أمير المؤمنين يشكون ظُلاَمَتنا ، فإن كان لنا حق أُعْطِيناه ، فإن بنا إلى ذلك حاجة ، فَأَذِنَ لهم فوجَّهوا منهم قوما فقَدِموا على عمر .

٣٦٩ — كتابه إلى ابن أبى السرى

فكتب لهم عمر إلى سليمان بن أبى السرى :

« إن أهل سمرقند قد شكَوا إلىّ ظُلما أصابهم ، وتحامُلاً من قُتَيْبة عليهم ، حتى

---

(١) أى أضيفوهم .

أخرجهم من أرضهم ، فإذا أتاك كتابى فأجلس لهم القاضىَ ، فلْينظر فى أمرهم ، فإن قضَى لهم فأخرِجْهم إلى مُعَسْكرهم كما كانوا وكنتم قبل أن ظَهَرَ عليهم قتيبة[1] » .

(تاريخ الطبرى ٨ : ١٣٨)

٣٧٠ - كتابه إلى حيان بن شريح

وكتب عمر بن عبد العزيز إلى حيّان بن شُرَيْح : أن : ضع الجزية عمن أسلم من أهل الذّمّة ، فإن الله تبارك وتعالى قال : « فَإِنْ تَابُوا وَأَقَامُوا الصَّلاَةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ فَخَلُّوا سَبِيلَهُمْ إِنَّ اللهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ » وقال : « قَاتِلُوا الَّذِينَ لاَ يُؤْمِنُونَ بِاللهِ وَلاَ بِالْيَوْمِ الآخِرِ وَلاَ يُحَرِّمُونَ مَا حَرَّمَ اللهُ وَرَسُولُهُ وَلاَ يَدِينُونَ دِينَ الْحَقِّ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ حَتَّى يُعْطُوا الْجِزْيَةَ عَنْ يَدٍ وَهُمْ صَاغِرُونَ » .

٣٧١ - كتاب حيان بن شريح إليه

وكتب حيان بن شريح إلى عمر بن عبد العزيز :

« أما بعدُ ، فإن الإسلام قد أضرّ بالجزية حتى تسلّفْتُ من الحارث بن ثابتة عشرين ألف دينار أتممتُ بها عَطاء أهل الديوان ، فإن رأى أمير المؤمنين أن يأمر بقضائها فعل » .

٣٧٢ - رده على حيان بن شريح

فكتب إليه عمر :

« أما بعدُ : فقد بلغنى كتابك ، وقد ولّيتُك جندَ مصر وأنا عارف بضعفك ،

---

(١) فأجلس لهم سليمان جميع بن حاضر القاضى ، فقضى أن يخرج عرب سمرقند إلى معسكرهم وينابذوهم على سواء فيكون صلحاً جديداً أو ظفرا عنوة ، فقال أهل السغد : بل نرضى بما كان ولا نجدد حربا وتراضوا بذلك ، فقال أهل الرأى : قد خالطنا هؤلاء القوم وأقمنا معهم وأمنونا وأمناهم ، فإن حكم لنا عدنا إلى الحرب ولا ندرى لمن يكون الظفر ، وإن لم يكن لنا كنا قد اجتلبنا عداوة فى المنازعة . فتركوا الأمر على ما كان ورضوا ولم ينازعوا . (تاريخ الطبرى ٨ : ١٣٨)

وقد أمرتُ رسولي بضربك على رأسك عشرين سوطا ، فضع الجزية عمن أسلم ، قبّح الله رأيك ، فإن الله إنما بعث محمداً صلى الله عليه وسلم هاديا ، ولم يبعثه جابيا ، ولعَمْري لَعُمَرُ أشقى من أن يَدْخُلَ النّاسُ كلهم الإسلام على يديه » .

(المواعظ والاعتبار بذكر الخطط والآثار للمقريزى ١ : ٧٨)

٣٧٣ — كتابه إلى عماله

وكتب إلى عماله :

« إياكم أن تستعملوا على شيء من أعمالنا إلا أهلَ القرآن » فكتبوا إليه :

٣٧٤ — ردهم عليه

« يا أمير المؤمنين ، إنا استعْملنا أهل القرآن فوجدناهم خَوَنَةً » .

فكتب إليهم :

٣٧٥ — رده عليهم

« إياكم أن يبلغني عنكم أنكم استعملتم على شيء من أعْمالنا إلا أهلَ القرآن ، فإنه إن لم يكن عند أهل القرآن خير ، فغيرهم أحْرَى بأن لا يكون عندهم خير » .

٣٧٦ — كتابه إلى بعض عماله

وشُكِي عامل لعمر بن عبد العزيز إليه ، فكتب إليه عمر :

« يا أخى : أذكّرك طولَ سَهَرِ أهل النار فى النار مع خلود الأبَد ، وإياك أن يُنْصَرَف بك من عند الله ، فيكون آخر العَهْدِ وانقطاع الرجاء » .

فلما قرأ الكتاب طوَى البلاد حتى قَدِم على عمر ، فقال له : ما أقْدَمك ؟ قال : خلعْتَ قلبي بكتابك ، لا أعود إلى ولاية أبدا حتى ألْقَى الله تعالى .

٣٧٧ — كتابه إلى بعض عماله

وكتب إلى بعض عُمَّاله :

« أما بعدُ : فاتَّقِ آللهَ فيمن وَليتَ أمره ، ولا تأمَنْ مَكْرَه فى تأخير عُقوبته ، فإنه إنما يَعْجَلُ بالعقوبة مَنْ يخاف الفوتَ ، والسلام عليك ورحمة الله وبركاته .

(سيرة عمر لابن الجوزى ص ١٠٠)

٣٧٨ — كتابه إلى أحد عماله

وكتب إلى عامل له :

« اتق آلله ، فإن التقوى هى التى لا يُقْبَلُ غيرها ، ولا يُرْحَم إلا أهلُها ، ولا يُثَاب إلا عليها ، وإن الواعظين بها كثير ، والعاملين بها قليل » .

(سيرة عمر لابن الجوزى ص ٨٧ و ٢١٥)

٣٧٩ — كتابه إلى عماله

وكتب إلى عُمَّاله :

« اجتنبوا الأشغالَ عند حُضور الصَّلَوات ، فمن أضاعَها فهو لما سِواها من شرائع الإسلام أشدُّ تضييعا » . (سيرة عمر لابن الجوزى ص ١٠٢)

٣٨٠ — كتابه إلى بعض عماله

وكتب إلى بعض عُماله :

« اعمل للدنيا على قدر مُقَامك فيها ، واعمل للآخرة على قدر مُقَامك فيها » .

(سيرة عمر لابن الجوزى ص ١٠٢)

٣٨١ - كتابه إلى عماله

وكتب إلى عماله : « أن عاقبوا الناس على قدر ذنوبهم ، وإن بلغ ذلك سَوْطا واحداً ، وإياكم أن تبلغوا بأحد حَدًّا من حدود الله » .

(سيرة عمر لابن الجوزى ص ٩٧)

٣٨٢ - كتابه إلى زريق بن حيان

وعن زُرَيق بن حيَّان - وكان على مَكْسِ مصر - أن عمر بن عبد العزيز كتب إليه أن :

« انظر مَن مرَّ عليك من المسلمين ، فخذ مما ظهر من أموالهم العَيْنَ ، ومما ظهر من التجارات من كل أربعين ديناراً ديناراً ، وما نقَصَ فبحساب ذلك حتى يبلغ عشرين ديناراً ، فإن نَقَصَتْ تلك الدنانير فدَعْها ولا تأخذ منها شيئاً ، وإذا مرّ عليك أهل الذمة فخذ مما يُديرون من تجاراتهم من كل عشرين ديناراً ديناراً فما نقَص فبحساب ذلك حتى تبلغ عشرة دنانير ، ثم دَعْها فلا تأخذ منها شيئًا ، واكتب لهم كتابا بما تأخذ منهم إلى مثلها من الحَوْلِ » . (كتاب الخراج ص ١٦٣)

٣٨٣ - كتابه إلى جعفر بن برقان

وعن جعفر بن بُرْقان قال : كتب إلينا عمر بن عبد العزيز :

« لا تدَعُنّ فى سجونكم أحداً من المسلمين فى وَثاق[1] لا يستطيع أن يصلِّيَ قائما ، ولا تُبيِّتُنّ فى قيد إلا رجلا مطلوبا بدَمٍ ، وأجْرُوا عليهم من الصَّدَقة ما يُصْلِحهم فى طعامهم وأُدْمهِم ، والسلام » . (كتاب الخراج ص ١٧٩)

---

(١) الوثاق : ما يشد به .

٣٨٤ — كتابه إلى ثابت بن ثوبان

وحدث عبد الرحمن بن ثابت بن ثُوبان عن أبيه قال : كنت عاملا لعمر بن عبد العزيز ، فكتبتُ إليه أن رجلا كان يهوديا فأسلم ، ثم تهوّد ورجع عن الإسلام ، فكتب إليّ عمر أن :

« ادعُه إلى الإسلام ، فإن أسْلَمَ فخلِّ سبيله ، وإن أبى فادعُ بالخَشَبة فأضْجِعه عليها ، ثم ادعه ، فإن أبى فأَوْثِقه ، وضَع الحَرْبة على قلبه ، ثم ادعهُ ، فإن رجع فخلِّ سبيله ، وإن أبى فاقتله » .

ففعل ذلك به حتى وضع الحربة على قلبه ، فأسلم ، فخلَّى سبيله .

(كتاب الخراج ص ٢١٧)

٣٨٥ — كتابه إلى بعض عماله

وكتب إلى بعض عماله :

« أما بعد ، فكأنَّ العبادَ قد عادوا إلى الله ، ثم ﴿يُنَبِّئُهُمْ بِمَا عَمِلُوا ، لِيَجْزِيَ الَّذِينَ أَسَاءُوا بِمَا عَمِلُوا وَيَجْزِيَ الَّذِينَ أَحْسَنُوا بِالْحُسْنَى﴾ ، فإنه لا مُعَقِّبَ لِحُكْمِهِ ولا مُنازِعَ لأمرِهِ ، وإنى أوصيك بتقوى الله وأحُثُّك على الشكر فيما اصطنَع عندك من نِعَمه ، وآتاك من كرامته ، فإن نعمه يَمُدُّها شكرُه ، ويَقطعُها كُفرُه ، وأكثِرْ ذِكرَ الموت الذى لاتدرى متى يغشاك ، فلاَ مَناصَ ولا فَوْتَ ، وأكثِر ذِكرَ يوم القيامة وشِدَّته ، فإن ذلك يدعوك إلى الزَّهادة فيما رَغِبْتَ فيه ، والرغبةِ فيما زهِدْتَ فيه ، ثم كن مما أوتيتَ من الدنيا على وَجَل ، فإن من لايَحْذَرُ ذلك ولا يتخوَّفه تُوشِك الصَّرْعةُ أن تُدْرِكه فى الغَفْلة ، وأكثِر النظرَ فى عملك فى دنياك بالذى أُمِرْتَ به ، ثم اقتصِرْ عليه فإن فيه لَعَمرِى شُغْلا عن دنياك ، ولن تُدرِكَ العلمَ حتى تُؤْثِرَه على الجهل ، ولا الحقَّ حتى تَذَرَ الباطلَ ، نسأل اللهَ لنا ولك حُسْنَ معونته ، وأن يدفع عنا وعنك بأحسن دفاعه ، برحمته » .

(سيرة عمر لابن الجوزى ص ٢١٨)

٣٨٦ – كتابه إلى بعض عماله

وكتب إلى بعض عماله :

« أوصيك بتقوى الله ، والاقتصادِ فى أمره ، واتّباعِ سُنّة رسوله ، وتركِ ما أحْدَثَ المُحْدِثون بعده مما قد جرَتْ به سُنّته وكُفوا مَئُونته . واعلم أنه لم يبتدع إنسان قطُّ بِدعةً إلا قد مضى قبلها ما هو دليل عليها ، وعِبْرَة فيها ، فعليك بلزوم السُّنة ، فإنها لك ـ بإذن الله ـ عِصمة . واعلم أن من سن سُنّة قد علِمَ ما فى خلافها من الخطأ والزَّلَل والتعمق والحمق ، فإن السابقين الماضين على علم توقّفوا ، وببَصر ناقدٍ كَفُّوا » .

وزاد بعض الرواة :

« وإنهم كانوا على كشف الأمور أقوى ، وما أحدث إلا من اتّبَع غيرَ سبيلهم ورَغِب بنفسه عنهم ، لقد قصّر دونَهم أقوام فَجَفَوا[1] ، وطَمَحَ عنهم آخرون فَغَلَوْا[2] » .

(سيرة عمر بن عبد العزيز لابن الجوزى ص ٨٧)

٣٨٧ – كتابه إلى بعض عماله

وكتب إلى بعض عماله :

« أما بعدُ ، فالزَم الحقّ ، يُنزِلْك الحقُّ منازلَ أهلِ الحق ، يوم لا يُقضى بين الناس إلا بالحق وهم لا يُظلَمون » .

---

(١) جفا : تجافى ، أى تجافوا عن طريق الحق والرشاد .

(٢) فى الأصل « فعلوا » وهو تصحيف وصوابه « غلوا » يؤيده قوله قبل « وطمح عنهم » .

٣٨٨ — كتابه إلى بعض عماله

وكتب إلى عامل له :

« أما بعدُ : فلتجِفَّ يداك من دماء المسلمين ، وبطنُك من أموالهم ، ولسانُك من أعراضهم ، فإذا فعلتَ ذلك فليس عليك سبيل ، « إنَّمَا السَّبِيلُ عَلَى الَّذِينَ يَظْلِمُونَ النَّاسَ وَيَبْغُونَ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ ، أُولَٰئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ » .

(سيرة عمر لابن الجوزى ص ٩٤)

٣٨٩ — كتاب بعض عماله إليه

وكتب بعض عمال عمر بن عبد العزيز إليه :

« أما بعدُ ، فإن مدينتنا قد خَرِبت ، فإن يَرَ أميرُ المؤمنين أن يقطعَ لنا مالا نَرُمُّها[1] به فعَلَ » .

٣٩٠ — رد عمر على كتابه

فكتب إليه عمر :

« أما بعدُ ، فقد فَهِمت كتابَك ، وما ذكرتَ من أن مدينتكم قد خَرِبَت ، فإذا قرأتَ كتابى هذا ، فَحَصِّنْها بالعدل ، وَنَقِّ طُرُقَهامن الظلم ، فإنه مَرَمَّتها والسلام » .

(سيرة عمر بن عبد العزيز لابن الجوزى ص ٩٠)

٣٩١ — كتاب بعض ولاته إليه

وَلَما وَلِىَ عمر بن عبد العزيز الخلافة ، كتب إليه بعضُ وُلاته :

« إن الناس لَمَّا سَمِعوا بولايتك ، تسارعوا إلى أداء الزكاةِ زكاةِ الفِطْر ، فقد اجتمع من ذلك شيءٌ كثير ، ولم أُحِبَّ أن أُحْدِث فيها شيئا حتى تكتب إلىَّ برأيك » .

---

(١) رمه كضرب ونصر رما ومرمة : أصلحه .

٣٩٢ - رد عمر على كتابه

فكتب إليه عمر :

« لعمري ما وجدوني وَإياك على ما ظنُّوا ، وما حَبْسُك إياها إلى اليوم ؟ فأَخرِجْها حين تَنْظُرُ فى كتابي » .　　　　(سيرة عمر بن عبد العزيز لابن الجوزى ص ٨٥)

٣٩٣ - كتابه إلى بعض عماله

وكتب إلى بعض عماله :

« الموالى ثلاثة : مَوْلَى رَحِم ، ومولى عَتَاقة ، ومولى عَقْد ، فمولى الرحم يرث ويُورَث ، ومَوْلى العَتاقة يورث ولا يرث ، ومولى العَقْد لا يرث ولا يورث ، وميراثه لعَصَبته » .

٣٩٤ - كتابه إلى عماله

وكتب إلى عماله :

« مُرُوا من كان على غير الإسلام أن يضعوا العمائم ويلبَسُوا الأكسية ، ولا يتشبَّهوا بشيء من الإسلام ، ولا تتركوا أحدا من الكُفَّار يستخدم أحداً من المسلمين » .

٣٩٥ - كتابه إلى عماله

وكتب إلى عماله :

مُرُوا من كان قِبَلكم فلا يَبْقَى أحد من أحرارهم ولا مماليكهم ، صغيراً ولا كبيراً ، ذكراً ولا أنثى ، إلاّ أخرجَ عنه صدقةَ فِطْرِ رمضانَ : مُدَّيْن[1] من قمح ،

---

(١) المد : ملء كفي الإنسان المعتدل إذا ملأهما ومدهما . والصاع : أربع حفنات بكفي الرجل المعتدل : أي أربعة أمداد .

أو صاعاً من تمر ، أو قيمة ذلك نصف درهم ، فأمّا أهلُ العطاء فيؤخذ ذلك من أعطياتهم عن أنفسهم وعِيالاتهم ، واستعمِلوا على ذلك رجلين من أهل الأمانة ، يَقْبِضَان ما اجتمع من ذلك ، ثم يَقْسِمانه فى مَسْكنة أهل الحاضِرة ، ولا يُقْدَم على أهل البادية » .

(العقد الفريد ٢ : ٢٧٩)

٣٩٦ — كتاب أحد عماله إليه

وكتب رجل من عمال عمر إلى عمر :

« إنا أُتِينا بساحرةٍ ، فألقيناها فى الماء ، فطفَت على الماء ، فما تَرَى فيها ؟ » .

٣٩٧ — رد عمر عليه

فكتب إليه :

« لسنا من الماء فى شىء ، إن قامَتْ عليها بيِّنةٌ وإلّا فَخَلِّ(١) سبيلها » .

(العقد الفريد ٢ : ٢٩٢)

٣٩٨ — كتابه إلى بعض عماله

وكتب عمر بن عبد العزيز إلى عامل له :

« أما بعدُ : فلا تدعَنّ صَليبا ظاهراً إلا كُسِر ومُحِق ، ولا يركَبَنّ يهودى ولا نصرانى على سَرْج ، وليركَبْ على إكاف(٢) ولا تَرْكبَنّ امرأةٌ من نسائهم على رِحَالة(٣) ، وليكن ركوبها على إكاف ، وتقدّم فى ذلك تقدُّما بليغا ، وامنع مَنْ قِبلك فلا يلبس نصرانى قَبَاء ولا ثوبَ خزٍّ ولا عصْب(٤) » .

---

(١) فى الأصل « وإلا خل » بإسقاط الفاء ولعله سهو من الناسخ أو الطابع .

(٢) إكاف الحمار ككتاب وغراب ووكافه : برذعته .

(٣) الرحالة : سرج من جلد لا خشب فيه كانوا يتخذونه للركض الشديد .

(٤) العصب : برود يمنية مخططة .

وقد ذُكر لى أن كثيرًا ممن قِبَلك من النصارى قد راجعوا لُبْسَ العمائم، وتركوا المناطق[1] على أوساطهم، واتخذوا الجِمَامَ وَالْوَفْرَ[2] وتركوا التقصيص، ولعمرى لئن كان يُصنع ذلك فيما قِبَلك، إن ذلك بك لَضَعْف وعجز ومصانعة، وإنهم حين يراجعون ذلك ليعلموا ما أنت، فانظر كل شىء نهيتَ عنه فاحْسِم[3] عنه مَن فعله، والسلام » . (كتاب الخراج ص ١٥٢)

٣٩٩ - كتابه إلى عماله

وكتب إلى عماله :

« مَنْ بَلَغَ خَمْسَ عشرة سنةً فافرِضوا له فى المُقَاتِلة، ومن كان دون ذلك فافرضوا له فى الذرية » . (كتاب الخراج ص ٢٠٨)

٤٠٠ - كتاب لعمر

وكتب عمر بن عبد العزيز إلى رجل :

« أما بعدُ، فإنى أوصيك بتقوى الله وتقديم ما استطعتَ من مالك وما رَزَقَك اللهُ إلى دار قَرَارِك، فإنك واللهِ لكأنك قد ذُقْتَ الموت، وعايَنْتَ ما بعده بتصرُّفِ الليل والنهار، فإنهما سريعان فى طىِّ الأجل ونقصِ العمر، مستعِدَّانِ لمن بقِىَ بمثل الذى قد أصابا به مَن مَضَى، فنستغفر الله السيِّئَ أعمالنا، ونعوذ بالله من مقته إيانا على ما نَعِظُ به مما نقصِّر عنه » . (سيرة عمر لابن الجوزى ص ٢٠١، ٢١٥)

---

(١) المناطق جمع منطقة كمكنسة : وهى ما يشد به الوسط .

(٢) الجمام : جمع جمة بالضم، وهى ماسقط على المنكبين من شعر الرأس . والوفر : جمع وفرة بالفتح: وهى ماسال على الأذنين من الشعر، فالجمة أكثر من الوفرة . (٣) أى اقطع .

٤٠١ — كتابه إلى أخ له

وكتب عمر بن عبد العزيز إلى أخ له :

« يا أخى ، إنك قد قطعتَ عُظْمَ السفر وبقى أقلُّه ، فاذكر يا أخى المَصَادِر والمَوَارِدَ ، فقد أُوحِىَ إلى نبيك صلى الله عليه وسلم فى القرآن أنَّك من أهل الورود ، ولم يخبر أنك من أهل الصدور والخروج ، وإياك أن تغرُّكَ الدنيا ، فإن الدنيا دارُ مَن لا دار له ، ومالُ مَن لا مالَ له ، يا أخى إنَّ أجَلَكَ قد دنا ، فكن وَصِىَّ نفسك ، ولا تجعل الرجال أوصياءك » .

٤٠٢ — كتابه إلى بعض أهل بيته

وكتب إلى بعض أهل بيته :

« أما بعدُ ، فإنك إن استشعرتَ ذِكْرَ الموتِ فى ليلك ونهارك بُغِّضَ إليك كُلُّ فانٍ ، وحُبِّبَ إليك كل باق ، والسلام » .

(سيرة عمر لابن الجوزى ص ٢٠٨)

٤٠٣ — كتابه إلى عمر بن عبد الله بن عتبة يعزيه

وكتب عمر بن عبد العزيز إلى عمر بن عبد الله بن عُتْبة يعزِّيه فى أبيه :

« أما بعدُ : فإنا قوم من أهل الآخرة سَكَنَّا الدنيا ، أمواتٌ أبناء أموات ، فالعجبُ كُلُّ العجب لِمَيِّت يكتب إلى ميت يعزِّيه عن ميت ، والسلام » .

(سيرة عمر لابن الجوزى ص٢٠٤)

٤٠٤ — كتابه إلى رجاء بن حيوة

وكتب إلى رجاء بن حيوة :

« أما بعدُ ، فإنه من أكثر مِن ذكر الموت اكتفى باليسير ، ومن علم أن الكلام عَمَل قلّ كلامه إلا فيما ينفعه » .

(العقد الفريد ١ : ٣٠٠)

وروى الطبرى قال :

كتب عمر بن عبد العزيز إلى أهل الشأم :

« سلام عليكم ورحمة الله ، أما بعدُ : فإنه مِن أكثر ذكر الموت قلّ كلامه ، ومن عَلِم أن الموتَ حقٌّ رضِيَ اليسيرَ ، والسلام » .

(تاريخ الطبرى ٨ : ١٣٩)

٤٠٥ — كتابه لأهل العلم

« أما بعدُ ، فآمُرُ أهلَ العلم أن ينشُرُوا العلم فى مساجدهم ، فإن السُّنَّة كانت قد أُميِقَتْ » . (سيرة عمر لابن الجوزى ص ٩٤)

٤٠٦ — كتابه إلى جنده

وبلغه عن جند له شىء ، فكتب إليهم :

« اللهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ لَيَجْمَعَنَّكُمْ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ لَا رَيْبَ فِيهِ ، وَمَنْ أَصْدَقُ مِنَ اللهِ حَدِيثًا » . (سيرة عمر لابن الجوزى ص ٩٨)

٤٠٧ — كتابه إلى بعض الأجناد

وكتب عمر بن عبد العزيز إلى بعض الأجناد :

« أما بعدُ ، فإنى أوصيك بتقوى الله ولزوم طاعته ، والتمسُّكِ بأمره ، والمعاهدةِ على ما حَمَّلك اللهُ عزَّ وجلَّ من دينه ، واستحفَظَك من كتابه ، فإنَّ بتقوى الله عزَّ وجلَّ نجَاءَ أولياء الله عزَّ وجلَّ من سُخْطه ، وبها تَحِقُّ لهم ولايتهُ ، وبها رافقوا أنبياءه ، وبها نَضُرَتْ وجوهُهم ، ونظروا إلى خالقهم ، وهى عِصْمة فى الدنيا من الفِتَن ، وَالْمَخْرَجُ من كَرْب يوم القيامة ، ولن يَقْبَل مِمّن بَقِيَ إلا مثلَ ما رضِيَ به ممن مضى ، ولِمَن بَقِيَ عِبرةٌ فيمن مضى ، وسُنة الله عزَّ وجلَّ فيهم واحدة ، بادِرْ بنفسك قبل أن يُؤْخذ بكَظَمِك[1] ، ويُخْلَصَ إليك كما خُلِصَ إلى من كان قبلك ، فقد رأيتَ الناس كيف يموتون وكيف يتفرّقون ؟ ورأيتَ الموتَ كيف يُعْجِل التائبَ عن توبته ، وذا الأمل عن أمله ، وذا السلطان عن سُلْطانه ؟ وكفى بالموت موعظةً بالغةً ، وشاغلا عن الدنيا ، ومُرغِّبا فى الآخرة ، فنعوذ باللهِ عزَّ وجلَّ من شر الموت وما بعده ، ونسأل اللهَ تعالى خيرَهُ وخيرَ ما بعده .

لا تطلُبَنَّ شيئًا من عرَض الدنيا بقولٍ ولا فعلٍ تخافُ أن يَضُرَّ بآخرتك ، ويُزْرِيَ بدينك ، وَيَمْقُتَكَ عليه ربُّك ، واعلم أن القَدَر سَيَجْرِى إليك برزقك ، وَيُوافيك أُكُلُك[2] من دنياك ، غيرَ مَزِيدٍ فيه بِحَوْل منك ولا قوة ، ولا منقوص منه بضعفٍ ، إن ابتلاك الله بفقر فتعَفَّفْ فى فقرك ، وأخبِتْ لقضاء ربك[3] ، واعتبر بما قَسَم اللهُ لك من الإسلام ، وما زَوَى[4] عنك من نعمة دنياك ، فإنَّ فى الإسلام خَلَفًا من الذهب والفضّة والدنيا الفانية. واعلم أنه لن يَضُرَّ عبداً صار إلى رضوان الله عزَّ وجلَّ

---

(١) الكظم : الحلق ، أو الفم ، أو مخرج النفس .
(٢) الأكل كقفل وعنق : الرزق والحظ من الدنيا .
(٣) أخبت : خشع وتواضع . (٤) زواه : نحاه وأبعده .

وإلى الجنة ما أصابه فى الدنيا من فقر وَبلاء ، وأنه لن ينفعَ عبداً صار إلى سُخْط الله عزّ وجلّ وإلى النار ، ما أصاب فى الدنيا من نعمة وَرخاء ، مايجدُ أهلُ الجنة مَسّ مكروهٍ أصابهم فى الدنيا ، وما يجد أهلُ النار طعمَ لذة نَعِموا بها فى دنياهم ، كأن سائر ذلك لم يكن ، فمن كان راغبا فى الجنة وهاربا من النار ، فالآنَ فى هذه الأيام الخالية ، والتوبةُ مقبولةٌ ، والذنبُ مغفور ، قبل نَفادِ الأجل ، وانقضاء المدة ، وفَراغ من الله عز وجلّ للثَّقَلَين(١) ليَدِينَهم بأعمالهم فى مَوْطِنٍ لاتُقْبَل فيه الفِديةُ ، ولا تنفع فيه الحيلةُ ، تَبْرُز فيه الخفِيّاتُ ، وتَبْطُلُ فيه الشفاعات ، يَرِدُه الناسُ جميعًا بأعمالهم ، وينصرفون منه أشتاتا(٢) إلى منازلهم ، فَطُوبَى(٣) يومئذٍ لِمَن أطاع الله عزّ وجلّ ، وَوَيل يومئذٍ لِمَن عَصَى الله عزّ وجلّ ، فإن ابتلاك الله بالغنى ، فاقتصِدْ فى غناك ، وضع لله نفسك ، وأدِّ لله عزّ وجلّ فرائضَ حقهِ من مالك ، وقُلْ عند ذلك ما قال العبد الصالح : « هٰذَا مِنْ فَضْلِ رَبِّى لِيَبْلُوَنِى أَأَشْكُرُ أَمْ أَكْفُرُ ، وَمَنْ شَكَرَ فَإِنَّمَا يَشْكُرُ لِنَفْسِهِ وَمَنْ كَفَرَ فَإِنَّ رَبِّى غَنِىٌّ كَرِيمٌ » . وإياك أن تفخرَ بطَولك(٤) ، وأن تُعْجَب بنفسك ، أو يخيَّلَ إليكَ أن مارُزِقْتَه لكرامتك على ربك عزّ وجل ، وتفضيله إياك على غيرك ممن لم يُرْزَق مِثْلَ غناك ، فإذا أنت أخطأتَ بابَ الشكر ، ونزلتَ منازلَ أهل الفقر ، وكنت ممن أطغاه الغنى ، وتعجّل طيّباتهِ فى الدنيا ، فإنى أعِظُك بهذا وإنى لكثير الإسراف على نفسى ، غير مُحْكِم لكثير من أمرى . ولو أن المرء لايعظ أخاه حتى يحكم نفسه ، ويعملَ فى الذى خلق له من عبادة ربه عزّ وجل ، إذَنْ لَتوا كَلَ الناسُ الخيرَ ، وإذَنْ لَرُفِع الأمر بالمعروف والنهى عن المُنكَر ، وإذَنْ لاستُحِلّت المحارمُ ، وقَلّ الواعظون والساعون لله عزّ وجل بالنصيحة فى الأرض » .

(سيرة عمر بن عبد العزيز لابن الجوزى ص ٩١ و ص ٢٠٢ وص ٢١٢)

---

(١) الإنس والجن . ودانه : جزاه . (٢) متفرقين ، جمع شت بالفتح .
(٣) الخير ، والحسنى ، وشجرة فى الجنة . (٤) الطول : القدرة والغنى .

٤٠٨ – كتابه إلى نفر كذبوا بالقدر

وله كتاب إلى نفر كتبوا بالتكذيب بالقدر :

« أما بعدُ : فقد علِمتم أنّ أهل السُّنة كانوا يقولون : الاعتصام بالسُّنة نجاة ، وسَيُنْقَص العلم نقصاً سريعا ، ومنه قول عمر بن الخطاب وهو يعظ : إنه لاعُذْر لأحد عَبَدَ اللهَ بعد البيِّنة بضلالة رَكِبَهَا حَسِبَهَا هُدًى ، ولا فى هُدًى تَرَكه حَسِبَه ضلالةً ، فقد تبيَّنَتِ الأمورُ ، وثبَتَتِ الحُجَّةُ ، وانقطع العُذر ، فمن رغِب عن أنباء النُّبوَّة وما جاء به الكتاب ، تقطَّعت من يده أسبابُ الهُدَى ، ولم يجد له عِصْمةً ينجو بها من الرَّدى » .

وبلغكم أنى أقول : إن الله قد علم ما العبادُ عاملون ، فأنكرتم ذلك ، وقد قال تعالى : « إِنَّا كَاشِفُوا الْعَذَابِ قَلِيلاً إِنَّكُمْ عَائِدُونَ » وقال : « وَلَوْ رُدُّوا لَعَادُوا لِمَا نُهُوا عَنْهُ » وزعمتم فى قول الله : « فَمَنْ شَاءَ فَلْيُؤْمِنْ وَمَنْ شَاءَ فَلْيَكْفُرْ » أن المشيئة فى أى ذلك أحببتم : من ضلالٍ أو هدى ، والله يقول : « وَمَا تَشَاءُونَ إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ » فبمشيئته لهم شاءوا ، وقد حَرَصَت الرسل على هدى الناس جميعًا ، فما اهتدى إلا من هداه اللهُ وحَرِص إبليسُ على ضلالتهم جميعًا ، فما ضَلّ منهم إلا مَن كان فى علم الله ضالاً ، وأنكرتم أن يكون سَبَق لأحد من الله ضلالةٌ أو هدى ، وأنكم الذين هديتم أنفسكم من دون الله ، وحَجَرْتموها[1] عن المعصية بغير قوة من الله ، ومَن زَعَم ذلك منكم فقد غَلَا فى القول ، لأنه لو كان شىء لم يسبق فى علم الله وقدره ، لكان لله فى ملكه شريكٌ تَنفُذُ مشيئته فى الخلق دون الله ، والله يقول : « حَبَّبَ إِلَيْكُمُ الْإِيمَانَ وَزَيَّنَهُ فِي قُلُوبِكُمْ وَكَرَّهَ إِلَيْكُمُ الْكُفْرَ وَالْفُسُوقَ وَالْعِصْيَانَ » وسميتم نَفاذ الله فى الخلق حَيْفًا ، وقد جاء الخبر « إن الله عزّ وجلّ

---

(١) الحجر : المنع .

خلق آدم فنثر ذُرّيته بين يديه ، فكتب أهل الجنة وما هم عاملون ، وكتب أهل النار وما هم عاملون » .

(سيرة عمر بن عبد العزيز لابن الجوزى ص ٦٨)

٤٠٩ - كتابه إلى أهل الموسم

وكتب إلى أهل الموسم :

« أما بعدُ : فإنى أُشهِد اللهَ وَأَبرأُ إليه فى الشهر الحرام ، والبَلَد الحرام ، ويومَ الحجّ الأكبر ، أنّى برىء مِن ظُلمِ مَنْ ظلمكم ، وعُدْوانِ من اعتدى عليكم ، أن أكونَ أمرتُ بذلك أو رضيتُ أو تعمَّدته ، إلا أن يكون وَهْماً منى ، وأمراً خَفِيَ علىّ لم أتعمَّده ، وأرجو أن يكون ذلك موضوعا عنى ، مغفوراً لى ، إذا عُلِم منى الحرصُ والاجتهاد ، ألاَ وإنه لا إذنَ على مظلومٍ دونى ، وأنا مُعَوَّل كل مظلوم ، ألاَ وأىُّ عامل من عمالى رَغب عن الحق ولم يعمل بالكتاب والسنة ، فلا طاعةَ له عليكم ، وقد صيرتُ أمْرَهُ إليكم ، حتى يراجِعَ الحق وهو ذَميمٌ ، ألاَ وَإنه لا دُولةَ[1] بَينَ أغنيائكم ولا أثرَةَ على فقرائكم فى شىء من فَيْئكم ، ألاَ وَأَيُّما واردٍ ورد فى أمر يُصْلح اللهُ به خاصّةً أو عامّةً ، فله ما بين مائة دينار إلى ثلثمائة دينار ، على قدر ما نَوَى من الحِسْبة ، وتجشّم من المشقّة . فَرَحِم اللهُ امرأً لم يتعاظمه سفرٌ يُحْيِي اللهُ به حقا لمن وراءه ، ولولا أن أشغَلكم عن مَنَاسِكِكم لَرَسَمْتُ لكم أموراً من الحق أحياها اللهُ لكم ، وأموراً من الباطل أماتها الله عنكم ، فلا تحمَدوا غيرَه ، ولو وَكَلَنى إلى نفسى كنت كغيرى ، والسلام عليكم » .

(سيرة عمر بن عبد العزيز لابن الجوزى ص ٧٢)

---

(١) أى أن الفىء لا يتداوله الأغنياء ولا يدور بينهم كما كان فى الجاهلية ، بل يعطى منه كل ذى حق حقه . يشير إلى قوله تعالى : « مَا أَفَاءَ اللهُ عَلَى رَسُولِهِ مِنْ أَهْلِ الْقُرَى فَلِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ وَلِذِى الْقُرْبَى وَالْيَتَامَى وَالْمَسَاكِينِ وَابْنِ السَّبِيلِ كَىْ لاَ يَكُونَ دُولَةً بَيْنَ الْأَغْنِيَاءِ مِنْكُمْ » وفى الأصل « ببرأ غنيائكم » وهو تحريف .

٤١٠ - كتابه بشأن كسوة البيت الحرام

وكتبت الحجَبَة إليه أن يأمر البيت بِكُسْوة كما كان يفعل من كان قبله ، فكتب إليهم :

« إنى رأيتُ أن أجعل ذلك فى أكبادٍ جائعةٍ ، فإنه أولَى بذلك من البيت » .

(سيرة عمر بن عبد العزيز لابن الجوزى ص٧٦)

٤١١ - كتابه إلى الأسارى بقسطنطينية

وكتب عمر بن عبد العزيز إلى الأُسارَى بقُسْطَنْطِينية :

« أما بعد ، فإنكم تعُدُّون أنفسكم أسارى ، ولستم أسارى ، معاذَ اللهُ ، أنتم الحُبَساء(١) فى سبيل الله ، واُعلموا أنى لست أقسِم شيئاً بين رعيتى إلا خَصَصْتُ أهلكم بأوفر ذلك وأطيَبه، وقد بعثت إليكم خمسةَ دنانيرَ خمسة دنانير،ولولا أنى خشيتُ إن زدتُكمْ أن يحبِسَه عنكم طاغِيَةُ الروم لَزِدتكم، وقدبعثت إليكم فلان بن فلان يفادِى صغيركم وكبيركم ، ذكركم وأنثاكم ، حُرَّكم ومملوككم بما يسأل ، فأَبْشِرُوا ثمَّ أبْشِرُوا » .

(الأغانى ٨ : ١٥١)

٤١٢ - رسالة عمر بن عبد العزيز إلى أهل الأمصار فى الأنبذة

« أما بعدُ : فإن الناس كان منهم فى هذا الشَّراب المحرَّم أمْرٌ ساءت فيه رغبة كثير منهم ، حتى سَفَّه أحلامَهم ، وأذهب عقولَهم ، فاستُحِلّ به الدمُ الحرام ، والفَرْجُ الحرائر ، وإن رجالا منهم مِمَّن يُصِيب ذلك الشَّرَابَ يقولون : شَرِبنا طِلاء(٢)

---

(١) جمع حبيس : وهو المحبوس « والحبيس من الخيل أيضاً : الموقوف فى سبيل الله » .

(٢) الطلاء : ما طبخ من عصير العنب حتى ذهب ثلثاه،وبعض العرب يسمى الخمر الطلاء ، يريدبذلك تحسين اسمها لا أنها الطلاء بعينها . ولما كان عمر رضى الله عنه بالشأم قال له عمرو بن العاص يا أمير المؤمنين إن أهل هذه البلاد يأتوننا بعصير قد عصروه وطبخوه قبل أن يغلى فيأتون به حلوا كأنه الرب قد طبخوه =

فلا بأس علينا فى شُربه ، ولعمرى إنّ فيما قرأتُ مما حرّم اللهُ بأسا ، وإن فى الأشربة التى أحلّ اللهُ من العَسَل والسَّويق(١) والنَّبيذ من الزبيب والتمر لَمَنْدوحةً(٢) عن الأشربة الحرام ، غير أن كل ما كان من نبيذ العسل والتمر والزبيب فلا يُنْبذ إلا فى أسْقِية الأَدَم(٣) التى لازِفْتَ فيها ، ولا يُشْرَب منها ما يُسْكِر ، فإنه بلغنا أن رسول الله صلى الله عليه وسلم نهى عن شرب ما جُعِل فى الجِرار والدُّبَّاء(٤) والظروف المزَفَّتة ، وقال : « كل مسكر حرام » ، فاستغنُوا بما أُحِلّ لكم عما حُرِّم عليكم .

وقد أردتُ بالذى نهيتُ عنه من شرب الخمر ، وما ضارع الخمرَ من الطِّلاء ، وما جعل فى الدُّبَّاء والجِرار والظروف المزَفتة وكل مسكر ، اتخاذَ(٥) الحجةَ عليكم ، فمن يُطع منكم فهو خير له ، ومن يخالِف إلى مانُهِىَ عنه نُعاقِبْهُ على العَلانية ، ويكفينا اللهُ ما أَسَرّ ، فإنه على كل شىء رقيب ، وَمَنِ استخفى بذلك عنا ، فإن الله أشد بأسا وأشد تنكيلا » (العقد الفريد ٣ : ٣٣٧)

صورة أخرى

وجاء فى سيرة عمر بن عبد العزيز :

كتب عمر بن عبد العزيز إلى عَدِىّ بن أرطاة وأهل البصرة :

« أما بعدُ ، فإنه قد كان من الناس فى هذا الشراب أمرٌ ساءت فيه رغبتهم ،

= حتى ذهب ثلثاه ، وبقى الثلث ، فنظر إليه عمر وقال : لا أظن بهذا بأساً ، ذهب حرامه وبقى حلاله ثم قال : اشربه منه يا عمرو فلا بأس به ، وقال : كأن هذا طلاء الإبل تسمى يومئذ بالطلاء ، وكتب إلى عمار ابن ياسر كتابا يقول فيه «فمر من قبلك من المسلمين فليستعينوا به فى شرابهم» - انظر الجزء الأول ص ١٧٧ .

(١) شراب يعمل من الحنطة والشعير. (٢) المندوحة : السعة . (٣) الأدم: الجلد .

(٤) جاء فى لسان العرب فى مادة « دبى » .

« وفى الحديث عن النبى صلى الله عليه سلم : أنه نهى عن الدباء والحنتم (كجعفر) والنقير (بالفتح) وهى أوعيــة كانوا ينتبذون فيها فـكان النبيذ فيها يغلى سريعاً ويسكر ، فنهاهم عن الانتباذ فيها ، ثم رخص صلى الله عليه وسلم فى الانتباذ فيها ، بشرط أن يشربوا ما فيها وهو غير مسكر ، وتحريم الانتباذ فى هذه الظروف كان فى صدر الإسلام ، ثم نسخ وهو المذهب . وذهب مالك وأحمد إلى بقاء التحريم » .

(٥) فى الأصل محل هــذه الـكلمة « المار » وهو تحريف وصوابها « اتخاذ » كما ورد فى رواية ابن الجوزى التالية .

وغَشُوا فيه أموراً انتهكوها عند ذهاب عقولهم ، وَسَفَه أحلامهم بَلَغَتْ بهم الدمَ الحرام والفروجَ الحرام والمالَ الحرام . وقد أصبح جُلُّ من يُصيب من ذلك الشراب يقول : شَرِبْنا شراباً لابأس به ، ولعمرى إنّ ما حَمَلَ على هذه الأمور وضارعَ الحرامَ لَبأسٌ شديد ، وقد جعل الله عنه مَنْدُوحةً وسَعةً مِنْ أشربة كثيرة طيِّبة ليس فى الأنفُس منها جائحةٌ : الماء العذب الفُرات ، واللَّبن ، والعسل ، والسويق ، فمن انتبذ نبيذاً فلا ينبذه إلا فى أسقية الأَدَم التى لازفتَ فيها ، وقد بلغنا أن رسول الله صلى الله عليه وسلم نهى عن نبيذ الجِرار والدُّبَّاء والظروف المزَفَّتة ، وكان يقول « كل مُسْكِر حرام » فاستغْنُوا بما أحلّ الله عما حرَّم ، فإنا من وجدْناه يشرب شيئا من هذه بعد ما تقدّمْنا إليه ، أَوْجَعْنَاه عقوبةً شديدةً ، ومن استخفَى فالله أشَدُّ عقوبةً وأشَدُّ تنكيلاً ، وقد أردتُ بكتابى هذا اتّخاذ الحجّةِ عليكم اليومَ وفيما بعد اليوم ، أسأل اللهَ أن يزيدَ المهتدِىَ منا ومنكم هُدًى ، وأن يراجع بالمسىء منا ومنكم التوبةَ فى يُسْرٍ وعافية ، والسلام » . (سيرة عمر لابن الجوزى ص ١٠١)

٤١٣ - كتابه إلى ابنه عبد الملك

وكتب عمر بن عبد العزيز فى العام الذى استُخْلِف فيه إلى ابنه عبد الملك - وكان ابنه إذ ذاك بالمدينة - :

أما بعدُ ، فإنّ أحقّ من تعاهَدْتُ بالوصية والنصيحة بعد نفسى أنت ، وإنّ أحقَّ من وَعَى ذلك وحَفِظَه عنى أنت ، إن الله - له الحمدُ - قد أحسن إلينا إحساناً كثيراً بالغا فى لَطيف أمرنا وعامّته ، وعلى الله إتمامُ ما غبَر[1] من النعمة ، وإياه نسألُ العَوْنَ على شكرها ، فاذكُر فضلَ الله عليك وعلى أبيك ، ثم أعِنْ أباك على ما قَوِى عليه وعلى ماظننتَ أن عنده فيه عَجْزاً عن العمل ، فيما أنعمَ به عليه وعليك فى ذلك ، فراع نفسك

(١) أى ما بقى .

وشبابك وصحتك ، وإن استطعت أن تكثر تحريك لسانك بذكر الله تحميداً وتسبيحاً وتهليلا فافعل ، فإن أحسن ما وصلت به حديثاً حسناً حمد الله وشكره ، وإن أحسن ما قطعت به حديثاً سيئاً حمد الله وذكره ، فلا تفتتن بما أنعم الله به عليك فما عسيت أن تقرظ به أباك بما ليس فيه ، وإن أباك كان بين ظهري[1] إخوته ، يفضل عليه الكبير ، ويدنى دونه الصغير ، وإن كان الله — وله الحمد — رزقني من والدي حبا جميلا كنت به راضياً ، أرى ببره أفضل ولده عليه حقا ، حتى ولدت وولدت طائفة من إخوتك ، ولا أخرج بكم من المنزل الذي أنا فيه[2] » .

(سيرة عمر لابن الجوزي ص ٢٥٩)

٤١٤ — كتابه إلى ولى عهده يزيد بن عبد الملك

وكتب عمر بن عبد العزيز إلى ولي العهد من بعده :

« بسم الله الرحمن الرحيم ، من عبد الله عمر أمير المؤمنين إلى يزيد بن عبد الملك ، السلام عليك ، فإني أحمد إليك الله الذي لا إله إلا هو ، أما بعد ، فإني كتبت إليك وأنا دنف[3] من وجعي ، وقد علمت أني مسئول عما وليت ، يحاسبني عليه مليك الدنيا والآخرة ، ولست أستطيع أن أخفي عليه من عملي شيئاً ، يقول تعالى فيما يقول : « فَلَنَقُصَّنَّ عَلَيْهِمْ بِعِلْمٍ وَمَا كُنَّا غَائِبِينَ » فإن يرض عني الرحيم ، فقد أفلحت ونجوت من الهوان الطويل ، وإن سخط علي فيا ويح نفسي ! إلام أصير ؟ أسأل الله الذي لا إله إلا هو أن يجيرني من النار برحمته ، وأن يمن علي برضوانه والجنة ، وعليك بتقوى الله ، والرعية الرعية ، فإنك لن تبقى بعدي إلا قليلا حتى تلحق باللطيف الخبير والسلام » . (سيرة عمر لابن الجوزي ص ٢٧٧)

---

(١) يقال هو بين ظهريهم وظهرانيهم وأظهرهم : أي وسطهم .

(٢) ورد بعد ما تقدم من هذا الكتاب :

« فمن كان راغباً في الجنة وهاربا من النار فالآن والتوبة مقبولة ، والذنب مغفور ، قبل نفاذ الأجل وانقضاء العمل . . . الخ » وقد تقدم ذلك ، انظر كتابه إلى بعض الأجناد ص ٣٠٩ .

(٣) الدنف بالتحريك : المرض الملازم ، ودنف المريض كفرح : ثقل .

٤١٥ — كتابه إلى يزيد

وكتب إلى يزيد بن عبد الملك أيضاً :

« إياك أن تُدركك الصَّرْعَةُ عند الغِرَّة ، فلا تُقال العَثْرَةَ ، ولا تُمَكَّن من الرَّجْعة ، يحمَدك مَنْ خلَّفْتَ بما تركتَ ، ولا يَعْذِرك من تقدَم عليه بما اشتغلت به ، والسلام » .

٤١٦ — كتابه إلى يزيد

وكتب إليه :

« سلام الله وبركاته عليك ، فإنى أحمَد إليك الله الذى لا إله إلا هو ، أما بعدُ ، فإن سليمان بن عبد الملك كان عَبداً من عباد الله قبَضَهُ الله ، واستخلفنى وبايع لى من قِبَله ، وليزيد بن عبد الملك أن يكون من بعدى ، ولو كان الذى أنا فيه ، لاتخاذ أزواج أو اعتقاد[1] أموال ، كان الله قد بلغ بى أحسنَ ما بلغ بأحد من خلقه ، ولكنى أخاف حسابا شديداً ، ومَسْأَلَةً لطيفة[2] ، إلا ما أعان الله عليه ، والسلام عليك ورحمة الله وبركاته » . (سيرة عمر لابن الجوزى ص ٢٧٨)

٤١٧ — كتابه إلى مؤدب ولده

وكتب عمر بن عبد العزيز إلى مؤدِّب ولده :

« من عبد الله عمر أمير المؤمنين إلى سَهل مولاه :

أما بعد ، فإنى اخترتُك على عِلمٍ منى بك لتأديب وَلَدِى ، فصرفتُهم إليك عن غيرك من مَوَالِيَّ وذوى الخاصة بى ، نخذهم[3] بالجفاء فهو أمْكَنُ لإقدامهم ، وتركِ

(١) اعتقد مالا : اقتناه . (٢) أى دقيقة من لطف كـكرم إذا دق .

(٣) فى الأصل « لحدثهم » وأرى أن صوابه « نخذهم » .

الصُّحبة فإن عادَتَهَا تَكْسِبُ(١) الغفلةَ ، وَقِلَّةَ الضحك فإن كثرته تُميت القلب ، وليكن أولَ ما يعتقدون من أدَبك بغض الملاهى التى بَدْؤُها من الشيطان ، وعاقبتُها سُخْط الرحمن ، فإنه بلغنى عن الثقات من أهل العلم أن حضورَ المَعَازِف(٢) واستماعَ الأغانى واللَّهج(٣) بها يُنبِتُ النِّفاق فى القلب كما يُنبت العُشْبَ الماء ، ولعمرى لَتَوَقِّى ذلك بتركِ حضورِ تلك المواطن أيسرُ على ذى الذهن من الثبوت على النِّفاق فى قلبه ، وهو حين يفارقها(٤) لا يعتقد مما سمعت أذناه على شىء مما ينتفع به ، ولْيَفْتتح كلُّ غلامٍ منهم بجزء من القرآن يَتَثَبَّت فى قراءته ، فإذا فَرَغ تناول قَوْسَه و نَبْله ، وخرج إلى الغَرَض حافيًا فرمى سبعة أرشاق(٥) ، ثم انصرف إلى القائِلة(٦) ، فإن ابن مسعود رضى الله عنه كان يقول : « يا بَنِيَّ قِيلُوا ، فإن الشياطين لا تَقِيل » .

(سيرة عمر لابن الجوزى ص ٢٥٧)

٤١٨ — كتاب عمر بن الوليد بن عبد الملك إلى عمر بن عبد العزيز

ولما وَلِيَ عمر بن عبد العزيز جعل لا يَدَعُ شَيْئًا مما كان فى يده ويد أهل بيته من المظالم إلا رَدّها مَظْلِمَةً مَظْلِمَةً ، فبلغ ذلك عُمَرَ بن الوليد بن عبد الملك ، فكتب إليه :

« إنك أَزْرَيْتَ(٧) على من كان قبلك من الخلفاء ، وَعِبْتَ عليهم ، وسِرْتَ بغير سيرتهم ، بُغْضًا لهم وشَنَآنا(٨) لمن بعدهم من أولادهم ، وقطعْتَ ما أمَرَ اللهُ به أن

---

(١) يقال : كسبه مالا وأكسبه إياه فكسبه هو .
(٢) المعازف: الملاهى كالعود والطنبور جمع معزف كمنبر ومكنسة .
(٣) لهج بالأمر : أغرى به فثابر عليه .
(٤) وفى رواية أخرى « حين لا يفارقها » والمعنى على كلتاهما صحيح .
(٥) الإرشاق جمع رشق بالكسر : وهو الوجه من الرمى .
(٦) القائلة : نصف النهار ، وقال قيلا وقائلة وقيلولة ومقيلا ومقالا : نام فيه .
(٧) زرى عليه كرمى زراية : عابه كأزرى ، لكنه قليل .　(٨) الشنآن : البغض .

يُوصَلَ ، إذ عَمَدْتَ إلى أموال قريش ومواريثهم فأدخلتَها بيت المـال جَوْرا وعُدْوانًا ، يابن عبد العزيز ، اتق اللهَ وراقِبْه إن شَطَطْت ، لم تطمئِنَّ على مِنْبَرك حتى خَصَصْتَ أولَ قَرابتك بالظلم والجَوْر ، فوالذى خص محمداً صلى الله عليه وسلم بما خَصّه به ، لقد ازددتَ من الله بُعْدًا فى ولايتك هذه، إذ زعمتَ أنها عليك بَلاء ، فأَقْصِرْ بعض ميلك، واعلم بأنك بعَيْنِ جبَّار ، وفى قَبضته ، ولن تُتْرَكَ على هذا » .

٤١٩ — رد عمر على كتابه

فلما قرأ عمر بن عبد العزيز كتابه كتب إليه :

« بسم الله الرحمن الرحيم ، من عبد الله عمر أمير المؤمنين إلى عمـر بن الوليد : السلام على المرسلين ، والحمد لله رب العالمين ، أما بعدُ : فإنه بلغنى كتابك وسأجيبك بنحو منه :

أما أول شأنِك[١] يابن الوليد ، فإنَّ أمَّك بُنَانةَ أَمَةَ السَّـكُون[٢]، كانت تطوف فى أسواق حِمْص وتدخل فى حَوانيتها ، ثم الله أعلَمُ بها ، اشتراها ذُبْيان بن ذُبْيان من فىء المسلمين ، فأهداها لأبيك ، فحملَتْ بك ، فبئس الحامل وبئس المحمول ، ثم نشأتَ فـكنت جَبَّاراً عنيداً .

تزعم أنى من الظالمين ، لأنى حرمتُك وأهلَ بيتك فىء الله عزّ وجلّ الذى هو حقُّ القرابة والمساكين والأرامل ، وإن أظلم منى وأترَكَ لِعَهْدِ اللهِ من استعملك صبيًّا سفيهًا على جُند المسلمين تحكُمُ بينهم برأيك ، ولم تـكن له فى ذلك نيّة إلا حُبّ الوالد

---

(١) وفى البيان والتبيين « أما بعد فإنك كتبت تذكر أن عاملا أخذ مالك بالحمية ، وتزعم أنى من الظالمين . . . » .

(٢) اسم قبيلة من كندة كانت تسكن شمالى حضرموت ، وفى البيان والتبيين «فأنت عمر بن الوليد، وأمك صـناجة تدخل دور حمص وتطوف فى حوانيتها » وامرأة صناجة (بفتح الصاد وتشديد النون) : تضرب بالصنج (بالفتح) وهو شىء يتخذ من صفر يضرب أحدهما على الآخر، وآلة بأوتار يضرب بها ، والظاهر أنه يريد بصناجة الوصف لا العلم .

ولده ، فَوَيْلٌ لك وويل لأبيك ، ما أكثَرَ خُصَماءك يوم القيامة ! وكيف ينجو أبوك من خُصمائه ؟

وإن أظلم منى وأترَكَ لعهد الله من استعمل الحجاج بن يوسف على خمس[1] العرب ، يَسفِك الدم الحرام ، ويأخذ المال الحرام .

وإن أظلم منى وأترك لعهد الله من استعمل قُرّة بن شَرِيك أعرابيًّا جافيًّا على مصر ، وأذِن له فى المَعَازِف واللهو والشرب .

وإن أظلم منى وأترك لعهد الله من جعل لعالية البربرية سهمًا فى الخمس .

فرُوَيدا يابن بنانة ، فلو التقت حَلْقَتا البِطان[2] وَرُدَّ الفىء إلى أهله ، لتفرغتُ لك ولأهل بيتك ، فوضعتكم على المَحَجَّة البيضاء ، فطالما تركتم الحق ، وأخذتم فى بُنَيَّات الطريق[3] ، ومن وراء هذا من الفضل ما أرجو أن أكون رأيته : بَيْعُ رقبتك وقَسْم ثمنك بين اليتامى والمساكين والأرامل فإن لكل فيك حقًّا ، والسلام علينا ولا ينال سلامُ الله الظالمين » .

(سيرة عمر لابن الجوزى ، وشرح ابن أبى الحديد م ٤ : ١٤٧ ، والبيان والتبيين ٣ : ٢٣٠)

* * *

وفى خبر آخر أنه كتب إليه :

« إنَّ أظلم منى وأجوَر من وَلَّى عَبْدَ ثَقيف العراقَ ، يحكم فى دمائهم وأموالهم ، وإن أظلم منى وأجور وأترك لعهد الله مَن وَلَّى قُرّةَ مِصرَ جِلفًا جافيًا ، وإن أظلم منى وأجور وأترك لعهد الله من ولى عثمانَ بن حَيَّان الحجازَ فأنشد الأشعار على منبر رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وإنما أمك كانت تختلف إلى حوانيت حِمْص فاشتراها ذُبْيان

---

(١) وفى رواية ابن أبى الحديد « على خمسى العرب » .

(٢) البطان : حزام القتب ، وهو مثل يضرب عند بلوغ الشدة منتهاها .

(٣) بنيات الطريق : الطرق الصغار تتشعب من الجادة .

ابن ذبيان فبعث بها إلى أبيك ، فحملَتْ بك فبئس الجنين ، وبئس المولود ، ثم وضعتْك جباراً شقياً ، لقد همَمْتُ أن أبعث إليك من يَحْلِق جُمَّتك[1] ، فبئس الجُمَّة » .

(سيرة عمر لابن الجوزى ص١١٣)

* * *

وفى خبر آخر أنه كتب إليه كتابا فيه :

« وقسم لك أبوك الخمس كله ، وإنما سهم أبيك كسهم رجل من المسلمين ، وفيه حق الله وحق الرسول وذى القربى واليتامى والمساكين وابن السبيل ، فما أكثَرَ خُصماء أبيك يوم القيامة ، فكيف ينجو مَن كَثُر خصماؤه ؟ وإظهارك المعازفَ والمزاميرَ بدعة فى الإسلام ، لقد هممتُ أن أبعث إليك من يَجُزُّ جُمَّتك جُمَّة السوء » .

(سيرة عمر لابن الجوزى ص ١١٤)

٤٢٠ — كتابه حين توفى ابنه عبد الملك

« أما بعدُ ، فإن الله تبارك اسمُه ، وتعالى جَدُّه[2] ، كتَب على خَلْقه حين خلقَهم الموتَ ، وجَعَل مَصيرهم إليه ، فقال جل ثناؤه فيما أنزل فى كتابه الصادق ، الذى حَفِظه بعلمه ، وأشهدَ ملائكته على حقِّه : « إِنَّا نَحْنُ نَرِثُ الْأَرْضَ وَمَنْ عَلَيْهَا وَإِلَيْنَا يُرْجَعُونَ » وقال لنبيه صلى الله عليه وسلم : « وَمَا جَعَلْنَا لِبَشَرٍ مِنْ قَبْلِكَ الْخُلْدَ أَفَإِنْ مِتَّ فَهُمُ الْخَالِدُونَ » وقال تعالى : « كُلُّ نَفْسٍ ذَائِقَةُ الْمَوْتِ » وقال عزّ وجل : «مِنْهَا خَلَقْنَاكُمْ وَفِيهَا نُعِيدُكُمْ وَمِنْهَا نُخْرِجُكُمْ تَارَةً أُخْرَى » فالموت سبيلُ الناس فى الدنيا ، لم يكتب الله لِمُحْسن ولا لمسىء فيها خُلودًا ، ولم يرضَ ما أعجبَ أهلَها ثوابًا لأهل طاعته ، ولم يرض ببلائها عقوبةً لأهل معصيته ، فكل شىء منها أعجبَ أهلَها أو كَرِهوا منه شيئًا متروكٌ ، لذلك خُلِقت منذ خُلِقَتْ ، ولذلك سُكِنَتْ منذ سكنت

---

(١) الجمة: مجتمع شعر الرأس . (٢) الجد : العظمة .

لِيَبْلُوَ[1] الله فيها عبادَه أيُّهم أحْسَنُ عَمَلاً ؟ فمَنْ قَدِمَ عند خروجه من الدنيا إلى طاعة الله ورضوانه من أنبيائه وَأَئمة الهُدَى الذين أمَرَ الله نبيه أن يقتدى بهداهم ، خُلِّد فى دار الإقامة من فضله ، لا يَمَسُّهُمْ فِيهَا نَصَبٌ وَلاَ يَمَسُّهُمْ فِيهَا لُغُوبٌ[2] ومن كانت مفارقتُه الدنيا إلى غيرهم وإلى غير منازلهم ، فقد قابل الشَّرَّ الطويل ، وأقام على مالا قِبَل له به ، وأسأل الله برحمته أن يُبقينا ما أبقانا فى الدنيا مُطيعين أمره ، مُتَّبعين لكتابه ، وأن يُقْدِمنا إذا خرجنا من الدنيا إلى نبينا ومن أمَر أن يُقْتَدَى بهداهم من المصطفَيْن الأخيار ، وأسأله برحمته أن يَقِيناَ أعمالَ السوء فى الدنيا ، والسيئاتِ يوم القيامة .

ثم إن عبد الملك ابن أمير المؤمنين كان عبد الله أحسنَ اللهُ إليه ، وأحسن إلى أبيه فيه ، أعاشه ما أحبَّ أن يُعيشَه ، ثم قَبَضه حين أحبَّ أن يَقبِضه ، وهو ـ فيما علِمْتُ ـ بالموت مُغْتَبِطٌ[3] يرجو من الله فيه رجاء حسنًا ، وأعوذ بالله أن تكون لى محبةٌ فى شىء من الأمور تخالف محبةَ الله تعالى ، فإن ذلك لايَصْلُح لى فى بَلائه[4] عندى ، وإحسانه إلىّ ، ونعمته علىّ .

وقد قلت عند ما كان فى سبيله : أحْمَد الله على ما رجوتُ به ثوابَ الله الحسنَ ، وموعودَه الصادقَ من المغفرة ، إنا لله وإنا إليه راجعون ، ثم لم أجد فى نفسى ـ والحمد لله ـ إلا خيراً من رِضًا بقضاء الله تعالى واحتسابٍ لما كان من المصيبة ، فحمِدْتُ الله على ما مضى وعلى ما بقى ، وعلى كل حال من أمر الدنيا والآخرة ، أحببْتُ أن أُعلِمَكم بذلك وأكتب إليكم به فلا أعلَمُ بما نِيحَ عليه فى شىء مما قِبَلكم ، ولا يجتمعْ على ذلك أحدٌ من الناس ، ولا رَخَّصْتُ فيه لقريب من الناس ولا بعيد ، والسلام . (سيرة عمر لابن الجوزى ص ٢٦٨)

* * *

(١) يبلو : يختبر . (٢) اللغوب : التعب والإعياء .
(٣) مسرور . (٤) أى نعمته .

وفى رواية صاحب العقد :

لما مات عبد الملك بن عمر بن عبد العزيز كتب إلى عماله :

« إن عبد الملك كان عبداً من عبيد الله أحسن الله إليه وإلىّ فيه ، أعاشه ما شاء ، وقبَضه حين شاء ، وكان ما علمتُ من صالِحِى شَباب أهل بيته : قراءة القرآن ، وتحرّيا للخير ، وأعوذ بالله أن تكون له محبةٌ أخالف فيها محبةَ الله ، فإن ذلك لا يَحْسُن فى إحسانه إلىّ وتَتَابُعِ نِعَمِهِ عَلَىّ ، ولأَعْلَمَن ما بكت عليه باكيةٌ ، ولا ناحت عليه نائحة ، قد نهينا أهله الذين هم أحقُّ بالبكاء عليه » .

(العقد الفريد ٢ : ٣٥)

٤٢١ — كتابه إلى سالم بن عبد الله بن عمر بن الخطاب

وكتب عمر بن عبد العزيز إلى سالم بن عبد الله بن عمر بن الخطاب :

« من عبد الله عمر أمير المؤمنين إلى سالم بن عبد الله :

سلام عليك ، فإنى أَحْمَد إليك الله الذى لا إله إلا هو ، أما بعدُ ، فإن الله تبارك اسمه وتعالى جَدُّه ، ابتلانى بما ابتلانى به من أمركم ، من غير مَشُورة منى فيه ولا طَلَب ، إلا قضاء من الرحمن الرحيم ، فأسألُ الذى ابتلانى بما ابتلانى به من أمر عباده وبلاده أن يُحْسِن عَوْنى وعاقبتى وعاقبةَ من وَلّانى أمرهم ، وأن يرزقنى منهم السمعَ والطاعةَ وحُسْن المؤازَرة ، وأن يرزقهم منى الرأفة والمَعْدِلة ، وقد رأيت أنْ أسير فى الناس بسيرة عمر بن الخطاب[1] رضى الله عنه ، إن قَضَى اللهُ ذلك واستطعتُ إليه سبيلا ، فابعث إلىّ بكتب عمر وقضائه فى أهل القِبْلة[2] وأهل العَهْد[3] ، فإنى متبعٌ أثرَه وسائرٌ بسيرته إن شاء الله تعالى ، وأسألُ الله التوفيقَ لما يحبُّ ويرضى » .

(سيرة عمر لابن الجوزى ص ١٢٧)

---

(١) وأم عمر بن عبد العزيز هى أم عاصم بنت عاصم بن عمر بن الخطاب .
(٢) أى المسلمين .   (٣) أى الذميين .

٤٢٢ - رد سالم على كتاب عمر

فأجابه سالم :

« بسم الله الرحمن الرحيم ، من سالم بن عبد الله بن عمر إلى عبد الله عمر أمير المؤمنين :

« سلامٌ عليك ، فإنى أَحْمَد إليك اللهَ الذى لا إله إلا هو ، أما بعدُ : فإن الله عزّ وجلّ خَلَق الدنيا لِمَا أراد أن يخلقها له ، فجعل لها مدةً قصيرة ، كأنّ ما بين أولها وآخرها ساعةً من نهار ، ثم قَضَى عليها وعلى أهلها الفَناء ، فقال : « كُلُّ شَيْء هَالِكٌ إِلاَّ وَجْهَهُ لَهُ الْحُكْمُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ » لا يقدِرُ أهلها منها يا عمر على شىء حتى تفارِقَهم ويفارقوها ، بعث بذلك رسولَه ، وأنزل كتابَه ، ضرب فى ذلك الأمثالَ ، وضربَ فيه الوعيدَ ، جعل دينه فى الأولين والآخرين دينا واحدا فلم يختلف رُسُلُه ، ولم يُبَدَّلْ قولُه ، ثم إنك يا عمرُ لست تَعدو أن تكون رجلا من بنى آدمَ ، يكفيك ما يكفى رجلا منهم ، من الطعام والشّراب ، فاجعل فَضْلَ ذلك فيما بينك وبين الربّ الذى تُوجِّه إليه شُكرَ النعم ، فإنك قد وَليت أمراً عظيما ، ليس يَلِي عليك أحدٌ دونَ الله عزّ وجل ، إن استطعتَ أن لا تخسَرَ نفسَك وأهلَك يومَ القيامة فافعل ، فإنه قد كان قبلك رجال عَمِلوا ما عملوا وأحْيَوا ما أحْيَوا من الباطل ، وأماتوا ما أماتوا من الحق ، حتى وُلِد فى ذلك رجال ونَشئُوا فيه ، وظنوا أنها السُّنَّة ، فسَدُّوا على الناس أبواب الرَّخاء ، فلم يسُدّوا منها بابا إلا فتح الله عليهم بابَ بلاء ، فإن استطعتَ - ولا قوةَ إلا بالله - أن تفتح على الناس أبوابَ الرخاء فافعل ، فإنك لَنْ تفتح منها باباً إلا سَدَّ اللهُ الكريم عنك بابَ بلاء ، ولا يَمنعك مِن نَزْع عامل أن تقول لا أجدُ من يَكفينى عَمَلَه ، فإنك إذا كنت تنزِعُ لله ، وتستعمل لله ، أتاح الله لك أعوانا ، فأتاك بهم ، وإنما

قَدْرُ عَوْنِ الله إياك بِقَدْر نيتك ، فإن تمّت نيّتك تمّ عونُ الله الكريم إياك ، وإن قَصُرت نيتك قَصُرَ من الله العَوْنُ بحسب ذلك .

فإن استطعت أن تأتِيَ اللهَ يوم القيامة لا يَتْبَعك أحد بظلم ، ويجىء من كان قبلك وهم غابِطون لك بقلة أتباعك ، وأنت غير غابط لهم بكثرة أتباعهم ، فافعل ، ولا قوة إلا بالله ، فإنهم قد عاينوا هَوْلَ المطْلَع ، وعالجوا نَزْع الموت الذى كانوا منه يَفِرّون ، فانشقّتْ بطونُهم التى كانوا لايشبَعون بها ، وانفقأتْ أعينُهم التى كانت لا تنقطِع لذّتُها ، واندقّت رقابُهم فى التراب غيرَ مُوَسَّدين ، بعد ما تعلَم من تَظَاهُر[1] الفُرُش والمَرافِق والسُّرُر والخَدَم ، فصاروا جِيَفًا فى بطون الأراضى تحت مِهادِها ، والله لو كانوا إلى جانب مِسكين لتأذّى برِيحهم بعد إنفاق مالا يُحْصَى عليهم وعلى خواصّهم من الطِّيب ، كل ذلك إسرافًا ، فإنا لله وإنا إليه راجعون .

ما أعظمَ الذى ابتلِيتَ به ، وأفظعَ الذى سِيقَ إليك من أمر هذه الأمة ! أهل العراق : وأهل العراق يكونوا من صدرك بمنزلة من لا فقْرَ بك إليه ، ولا غنى بك عنه ، أهل العراق أبرهم منك منزلة من لافقر بك إليه ولا غنى بك عنه فمن بعثْتَ من عملك إلى العراق ، فانهَه نهيا شديداً شبيهاً بالعقوبة عن أخْذ الأموال وسَفْك الدماء إلا بحقّها ، المـال المالَ ياعمر ، الدمَ الدمَ ياعمر ، فإنه لا نجاة لك من هول جَهنّمَ من عامل بلغَك ظُلْمُهُ ثم لم تغيّره ، وانهَ مَن بعثْتَ من عمالك أن يعملوا بمعصية ، أو أن يحكموا بشُبْهة ، أو أن يحتكروا على المسلمين بَيْعًا ، فإنك إن اجترأتَ على ذلك أُتِى بك يوم القيامة ذليلا صغيراً ، وإن تجنبت عنه عَرَفتَ راحتَه فى سمعك وبصرك وقلبك. ثم إنك كتبت إلىّ تسألنى أن أبعثَ إليك بكُتُب عمر وبقضائه فى أهل القبلة وفى أهل العهد ، وإن عمر رضى الله عنه عَمِل فى غير زَمانك ، وعمل بغير رجالك ، وإنك إن عملت فى زمانك على النحو الذى عَمِل عمرُ بن الخطاب فى زمانه بعد الذى

---

(١) يقال : ظاهر بين ثوبين ، إذا طابق بينهما ولبس أحدهما على الآخر ، وكأنه من التظاهر وهو التعاون والتساعد .

رأيتَ وبَلوتَ ، رجوتُ أن تكون أفضلَ عند الله منزلة من عمر بن الخطاب ، فقُلْ كما قال العبد الصالح :

« وَمَا تَوْفِيقِي إِلاَّ بِاللهِ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ أُنِيبُ ، والسلام عليك » .

(سيرة عمر لابن الجوزى ص ١٢٧)

٤٢٣ — كتاب الحسن البصرى إلى عمر بن عبد العزيز
صفة الإمام العادل

ولما وَلِيَ عمر بن عبد العزيز الخلافة كتب إلى الحسن البصرى[1] أن يكتب إليه بصفة الإمام العادل ، فكتب إليه الحسن رحمه الله :

« اعلم يا أمير المؤمنين أن الله جعَلَ الإمامَ العادل قِوامَ كلِّ مائل ، وقَصْدَ[2] كلِّ جائر ، وصَلاحَ كل فاسد ، وقوّة كل ضعيف ، ونَصَفة[3] كل مظلوم ، ومَفزَعَ كل ملهوف . والإمام العدل يا أمير المؤمنين كالراعى الشفيق على إبله ، الرفيق الذى يرتادُ لها أطيبَ المرْعَى ، ويَذُودُها عن مراتع الهَلَكَة ، ويَحْميها من السباع ، ويَكْنُفها من أذى الحرّ والقرّ[4] ، والإمام العدل يا أمير المؤمنين كالأبِ الحانى على ولده ، يسعى لهم صِغاراً ويعلمهم كِباراً ، يكتسب لهم فى حياته ، ويدّخر لهم بعد مماته . والإمام العدل يا أمير المؤمنين كالأم الشفيقة البَرَّة الرّفيقة بولدها ، حَمَلَتْه كُرها ، ووضعته كُرها ، وربّته طفلًا ، تَسْهَر بسهره ، وتسكُن بسكونه ، تُرْضِعُه تارة ، وتَفْطِمه أخرى ، وتفرحُ بعافيته ، وتغتمّ بشكايته . والإمام العدل يا أمير المؤمنين وَصِيُّ اليتامى ، وخَازِنُ المَساكِين يُرَبِّى صغيرهم ،

---

(١) هو أبو سعيد الحسن بن أبى الحسن يسار البصرى ، وكان أبوه يسار من سبي ميسان ، (بلدة بأسفل البصرة) سباه المغيرة بن شعبة حين افتتحها فى عهد عمر بن الخطاب ، ثم صار يسار مولى لزيد ابن ثابت وعنه أخذ الحسن العلم وتفقه فى الدين ، وكانت أم الحسن وتسمى خيرة مولاة لأم سلمة زوج النبى صلى الله عليه وسلم وفى بيتها ولد الحسن سنة ٢١ وقيل سنة ٢٢ بالمدينة المنورة ، ونشأ الحسن بوادى القرى وتلقى الفصاحة عن أعرابه ، وكان من سادات التابعين وكبرائهم ، بارعا فى الفقه ، معروفا بالورع والزهد والعبادة ، وهو شيخ واصل بن عطاء رأس المعتزلة . وكانت وفاته بالبصرة سنة ١١٠ هـ فى خلافة هشام .

(٢) هداية ورشاد . (٣) اسم من الإنصاف . (٤) مثلث القاف : البرد .

ويَمُون كبيرهم . والإمام العدل يا أمير المؤمنين كالقلب بين الجوانح ، تَصْلُح الجوانحُ بصلاحه ، وتَفسُدُ بفساده . والإمام العدل يا أمير المؤمنين هو القائم بين الله وبين عباده يَسْمَع كلام الله ويُسْمِعهم ، وينظر إلى الله ويُرِيهم ، وينقادُ إلى الله ويقودهم ، فلا تكن يا أمير المؤمنين فيما ملَّكك اللهُ كعبد ائتمنه سيده ، واستحفَظه ماله وعيالَه ، فبدَّد المال ، وشَرَّد العيال ، فأفقرَ أهله ، وفرّقَ ماله . واعلم يا أمير المؤمنين أن الله أنزل الحدودَ ليَزْجُر بها عَنِ الخبائث والفواحش، فكيف إذا أتاها مَن يَلِيها؟ وأن الله أنزل القِصاصَ حَياةً لعباده ، فكيف إذا قتلهم مَن يقتصُّ لهم ؟ واذكر يا أمير المؤمنين الموت وما بعده ، وقلّة أشياعِك عنده ، وأنصارِك عليه ، فتزوَّدْ له ، ولِما بعدَه من الفزَع الأكبر. واعلم يا أميرالمؤمنين أن لك منزِلا غيرمنزلك الذىأنت فيه، يَطُول فيه ثَواؤك ، ويفارِقك أحِبَّاؤك ، ويُسْلِمونك فى قَعْره فَرِيدًا وحيداً ، فتزوّد له ما يَصْحَبُك يَوْمَ يَفِرُّ الْمَرْءُ مِنْ أَخِيهِ ، وَأُمِّهِ وَأَبِيه ، وَصَاحِبَتِهِ وَبَنِيهِ . واذكر يا أمير المؤمنين إذَا بُعْثِر مافى القبور ، وحُصِّلَ مافى الصدور ، فالأسرار ظاهرة ، والكتابُ لايُغادِرُ صَغيرةً ولا كبيرةً إلا أحصاها ، فالآنَ يا أمير المؤمنين وأنت فى مَهَل ، قبلَ حُلولِ الأجل وانقطاعِ الأمل ، لاتَحْكُمْ يا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ فى عِبادِ اللهِ بحُكم الجاهلين ، ولا تسلُكْ بهم سبيلَ الظالمين ، ولا تسلِّط المستكبرين على المستضعفين ، فإنهم لايَرْقُبون فى مُؤْمِنٍ إلاًّ[1] ولا ذِمَّةً ، فتبوء بأوزارك وأوزارٍ مع أوزارك ، وتحملَ أثقالَك وأثقالا مع أثقالك ، ولا يغرّنك الذين يتنعمون بما فيه بُؤْسُك ، ويأكلون الطيبات فى دنياهم بإذهاب طَيِّبَاتِكَ فى آخرتك . لاتنظر إلى قدرتك اليوم ، ولكن انظر إلى قدرتك غدا ، وأنت مأسورٌ فى حَبائل الموت ، وموقوفٌ بين يدى الله فى مَجْمَع من الملائكة والنبيين والمرسلين ، وقد عَنَتِ[2] الوجوهُ للحى القيوم . إنى يا أمير المؤمنين وإن لم أبلغ بِعظَتى ما بَلَغَهُ أُولو النُّهَى من قبلى فلَم آلُك[3] شفقةً

---

(١) عهدا . (٢) خضعت وذلت . (٣) لم أقصر .

ونصحا ، فأنزِلْ كتابى إليك كمُداوى حبيبه بسقيه الأدويةَ الكريهة ، لما يرجو له فى ذلك من العافية والصحة ، والسلام عليك يا أمير المؤمنين ورحمة الله وبركاته » .

(العقد الفريد ١ : ١٢ ، والحسن البصرى لابن الجوزى ص٥٦)

٤٢٤ — رسالة الحسن البصرى إلى عمر بن عبد العزيز

وكتب الحسن البصرى إلى عمر بن عبد العزيز رحمهما الله :

« أما بعدُ ، اعلم يا أمير المؤمنين أن الدنيا دار ظَعْن[1] ، وليست بدار إقامة ، وإنما أُهْبِط إليها آدمُ من الجنة عُقوبةً ، وقد يحسب مَن لايدرى ما ثوابُ اللهِ أنها ثواب ، ومن لم يَدْرِ ما عقابُ الله أنها عقاب ، ولها فى كل حين صَرْعة، وليست صَرْعةٌ كصرعة هى تُهِين مَن أكرمَها ، وتُذِل من أعزّها ، وتَصْرَع من آثرَها ، ولها فى كل حين قَتْلَى ، فهى كالسّم يأكله من لايَعْرِفه وفيه حَتْفُه ، فالزادُ فيها تَرْكُها ، والغِنى فيها فَقْرُها ، فكن فيها يا أمير المؤمنين كالمُداوى جُرْحَه : يصبِر على شدة الدواء ، مخافةَ طولِ البَلاء ويحتمى قليلا ، مخافةَ ما يكره طويلا ، فإن أهل الفضائل كانوا مَنطِقُهم فيها بالصواب ، ومَشْيُهم بالتواضُع ، ومَطْعَمهم الطيِّبُ من الرزق ، مُغمِضى أبصارهم عن المَحارم ، نخوفُهم فى البرّ كخوفهم فى البحر ، ودعاؤهم فى السَّرَّاء كدعائهم فى الضَّرَّاء ، لولا الآجالُ التى كُتِبَت لهم ، ماتقاوَتْ أرواحهم فى أجسادهم خوفا من العقاب ، وشوقا إلى الثواب ، عَظُم الخالق فى نفوسهم ، فصَغر المخلوقون فى أعينهم .

واعلم يا أمير المؤمنين أن التفكر يدعو إلى الخير والعمل به ، وأن الندم على الشر يدعو إلى تركه ، وليس ما يَفْنَى وإن كان كثيراً بأهْلٍ أن يُؤْثَرَ على ما يبقى وإن كان طلبه عزيزاً ، واحتمال المَئُونة المنقطعة التى تُعقِب الراحة الطويلة خيرٌ من تعجيل راحة منقطعة تُعقِب مئونةً باقية ، وندامة طويلة . فاحذر هذه الدنيا الصارعة الخاذلة

---

(١) ارتحال .

القاتلة التي قد تزيّنت بخُدَعها، وفتكت بغرورها، وخدعت بآمالها، فأصبحت كالعروس المَجْلُوّة؛ فالعيون إليها ناظرة، والقلوب عليها وَالهة[1]، والنفوس لها عاشقة، وهي لأزواجها كلهم قاتلة، فلا الباقي بالماضي مُعتبر، ولا الآخِرُ لِمَا رأى مِنْ أثرها على الأول مُزْدَجِر، ولا العارفُ بالله المصدق له حين أخبره عنها مُدَّكر، قد أبَتِ القلوبُ لَهَا إلا حُبّا، وأبت النفوس لها إلا عِشقا، ومن عَشِق شيئاً لم يُلْهَمْ غيرَه، ولم يَعْقِل سواه، مات في طلبه، وكان آثرَ الأشياء عنده فهما عاشقان طالبان مجتهدان؛ فعاشقٌ قد ظَفِرَ منها بحاجته فأغنته، وطغى ونسيَ ولَهَا، فغَفَل عن مبتدإِ خَلْقه، وضيّع ما إليه معادُه، فقلّ في الدنيا لُبثه حتى زالت عنه قَدَمُه، وجاءته منيّتُه على أسرّ ما كان منها حالا وأطول ما كان فيها أملا، فعظُم ندمه، وكثُرت حسرَته، مع مَا عالج من سَكْرته، فاجتمعت عليه سكرة الموت بِكرْبته، وَحَسْرَة الفَوت بغُصّته، فغيرُ موصوف مَا نزَلَ به. وآخر مَاتَ من قبل أن يظفرَ منها بحاجته، فمات بغمّه وكَمَده، ولم يدرك فيها مَا طَلَب، ولم يُرِح نفسه من التعب والنَّصَب، فخرجا جميعاً بغير زاد، وقَدِمَا على غير مِهاد. فاحذَرْها يا أمير المؤمنين الحذَرَ كلّه، فإنما مثلها كمثل الحيّة، لَيِّنٌ مَسُّها، تقتل بسمّها، فأعرِض عما يُعجبك فيها، لقلة ما يَصْحَبك منها، وضع عنك هُمومَها، لِمَا قد أيقنتَ من فراقها، واجعل شِدة مَا اشتَدّ منها رجاء مَا ترجو بعدها، وكن - عند أسرّ ما تكون فيها - أحذَر ما تكون لها؛ فإن صاحب الدنيا كلما اطمأنّ منها إلى سرورٍ، صَحِبَته من سرورها بما يسوءه، وكلما ظَفِرَ منها بما يحب انقلبت عليه بما يَكْرَه، فالسارُّ منها لأهلها غارٌّ، والنافع منها غدا ضارٌّ، وقد وُصل الرخاء فيها بالبَلاء، وجُعل البقاء فيها مُؤَدِّيا إلى الفناء، فسرورُها بالحزن مَشُوبٌ، والناعم فيها مسلوب.

---

(١) من الوله بالتحريك، وهو ذهاب العقل من شدة الوجد.

فانظر يا أمير المؤمنين إليها نَظَرَ الزاهد المفارق ، ولا تنظر نظر المبتلَى العاشق ، واعلم أنها تزيل الثَّاوِىَ[1] الساكن ، وتَفْجَع المُتْرَفَ فيها الآمِن ، ولا تَرْجِع ما تولّى وأدبَرَ ، ولا بدّ ما هو آتٍ منها يُنتظر ، ولا يقبع ما صفا منها إلا كدر ، فاحذرْها فإن أمانيَّها كاذبة ، وآمالَها باطلة ، وعيشها نكد ، وصَفْوها كدر ، وأنت منها على خَطَر ، إما نعمة زائلة ، وإما بلية نازلة ، وإما مصيبة فادحة[2] ، وإما منيّة قاضية ، فلقد كدَّرتِ المعيشةَ لمن عقل ، فهو من نعيمها على خَطَر ، ومن بليّتها على حَذَر ، ومن المنية على يقين .

فلو كان الخالق تبارك وتعالى لم يُخْبِر عنها بخبر ، ولم يضرب لها مَثَلا ، ولم يأمر فيها بزُهْد ، لكانت الدنيا قد أيقظت النائم ، ونبّهت الغافل ، فكيف وقد جاء عن الله عزّ وجل منها زاجر ، وفيها واعظ ، فما لها عنده قَدْر ولا وزْن من الصِّغَر ، فلَهِىَ عنده أصغر من حَصَاة فى الحصَى ، ومن مقدار نَواة فى النَّوَى ، ما خلق الله عزّ وجل فيما بلغنا أبغضَ إلى الله تعالى منها ، ما نظَر إليها منذ خلَقها ، ولقد عُرِضت على نبينا محمد صلى الله عليه وسلم بمفاتيحها وخزائنها ، لا يَنْقُصه ذلك عند الله جَناحَ بَعُوضة ، فأبى أن يقبلها ، وما منعه من القبول لها — مع ما لا يَنقُصه الله شيئا مما عنده كما وعدَه — إلا أنه عَلِمَ أن الله عزّ وجلّ أبغض شيئًا فأبغضه ، وصغّر شيئا فصغّره ، ولو قبلها كان الدليل على محبته قبوله إياها ، ولكنه كَرِه أن يخالِفَ أمْرَه ، أو يحب ما أبغض خالقه ، أو يرفع ما وضع مَليكه .

وكان فى آخر هذه الرسالة :

ولا تأمَنْ أن يكون هذا الكلام حُجَّة عليك ، نفعنى الله وإياك بالموعظة ، والسلام عليك ورحمة الله وبركاته .

(سيرة عمر لابن الجوزى ص ١٢١)

---

(١) الثاوى : المقيم . (٢) فدحه : أثقله .

٤٢٥ — كتاب الحسن إلى عمر بن عبد العزيز

وكتب عمر بن عبد العزيز إلى الحسن : « اكتب إليّ يا أبا سعيد بذَمّ الدنيا » فكتب إليه :

«أما بعدُ يا أمير المؤمنين، فإن الدنيا دار ظَعْن وانتقال، ولَيست بدار إقامة على حال، وإنما أُنزِل إليها آدمُ عقوبةً ، فاحْذَرها ، فإن الراغب فيها تارك ، والغنى فيها فقير ، والسعيد من أهلها من لم يتعرَّضْ لها ، إنها إذا اختبرها اللبيب الحاذق وجدها تُذِلُّ مَنْ أعزها ، وتفرِّق مَنْ جمعها ، فهى كالسَّمّ يأكله من لا يعرفه ، ويرغَبُ فيه من يجهله ، وفيه والله حَتفُه ، فكن فيها يا أمير المؤمنين كالمداوِى جِراحه ، يحتمى قليلا مخافةَ ما يَكرَه طويلا ، الصبرُ على لأوائها[1] أيسرُ من احتمال بلائها ، واللبيبُ مَنْ حَذِرَها ولم يغترَّ بزينتها ، فإنها غدَّارة ختَّالة[2] خدَّاعة ، قد تعرضَتْ بآمالها ، وتزيَّنَتْ لخُطَّابها ، فهىَ كالعروس ، العُيونُ إليها ناظِرة ، والقلوبُ عليها والِهة ، وهى — والذى بعثَ محمدًا بالحق — لأزواجها قاتِلة ، فاتق يا أمير المؤمنين صَرْعَتَها ، واحذَر عثْرَتها ، فالرَّخاء فيها موصولٌ بالشدة والبلاء، والبقاء مُؤدٍّ إلى الهَلَكة والفَناء .

واعلم يا أمير المؤمنين أن أمانيَّها كاذبة ، وآمالَها باطلة ، وصفوها كَدَر ، وعيشها نَكَد ، وتاركها موفَّق ، والمتمسِّك بها هالك غَرِق ، والفطِن اللبيب من خاف ماخوَّفه الله ، وحَذِر ماحذَّره ، وقدَّر من دار الفناء إلى دار البقاء ، فعند الموت يأتيه اليقين ، الدنيا — والله يا أمير المؤمنين — دارُ عقوبة ، لها يَجْمَع مَنْ لا عَقْلَ له ، وبها يغترُّ مَنْ لا عِلْمَ عنده ، والحازم اللبيبُ من كان فيها كالمُداوى جِراحه ، يصبِرُ على مرارة الدواء لِمَا يرجو من العافية ، ويخاف من سُوء عاقبة الدار ، والدُّنيا — وايمُ الله يا أمير المؤمنين —

---

(١) اللأْواء : الشدة .
(٢) خداعة .

حُلْم ، والآخرة يَقظَة ، والمتوسِّط بينهما الموت ، والعبادُ فى أضْغاثِ أحلام ، وإنى قائل لك ياأمير المؤمنين ما قال الحكيم :

فإن تَنْجُ منها تَنْجُ من ذى عظيمة وَإلاَّ فإنى لا إخالُكَ ناجيا »[(١)]

ولما وصل كتابه إلى عمر بن عبد العزيز بكى وانتحب حتى رَحِمَه مَنْ كان عنده وقال : يرحم الله الحسن، فإنه لا يزَال يُوقِظنا من الرَّقْدَة ، وينبهنا من الغفلة ، وَلِلهِ هو من مُشْفِق ما أنصحَه ! وواعظٍ ما أصدقَه وأفصحَه !

(الحسن البصرى لابن الجوزى ص ٥٤)

٤٣٦ — كتاب عمر بن عبد العزيز إلى الحسن

وكتب إليه عمر بن عبد العزيز :

« وَصلَتْ مواعظُك النَّافعة فاشتفيتُ بها ، ولقد وصفتَ الدنيا بصفتها ، والعاقلُ من كان فيها على وَجَل ، فكأنَّ كُلَّ من كُتِبَ عليه الموتُ من أهلها قد مات ، والسلامُ عليك ورحمة الله وبركاته » .

فلما وصل كتابه إلى الحسن ، قال : لله أمير المؤمنين مِنْ قائلٍ حقا ، وقابلٍ وعظا ، لقد أعظم الله — جل ثناؤه — بولايته المِنَّةَ ، ورحم بسلطانه الأمةَ ، وجعله بركة ورحمة .

(الحسن البصرى لابن الجوزى ص ٥٥)

٤٣٧ — كتاب الحسن البصرى إلى عمر بن عبد العزيز

وكتب إليه : « أما بعدُ ، فإن الهول الأعظم ، والأمر المطلوب أمامك ، ولا بُدَّ من مشاهدتك ذلك ، إما بنجاة أو بعَطَب » .

(الحسن البصرى لابن الجوزى ص ٥٦)

---

(١) فى هذه الرسالة بعض مافى سابقتها ، وقد أوردت كليهما كما وردت .

٤٢٨ — كتاب الحسن البصرى إلى عمر بن عبد العزيز

وكتب عمر بن عبد العزيز إلى الحسن : اكتب إلىّ يا أبا سعيد بموعظة فأوجز ، فكتب إليه :

« أما بعدُ يا أمير المؤمنين : فكأنّ الذى كان لم يكن ، وكأن الذى هو كائنٌ قد نَزَل ، واعلم يا أمير المؤمنين أن الصبر — وإنْ أذاقك تعجيل مرارته — فلنِعْم ما أعقَبَك من طيب حلاوته ، وحُسْنِ عاقبتِه ، وأن الهَوى — وإن أذاقك طَعْمَ حلاوته — فلبئس مَا أعقبك من مرارته وسوء عاقبته ، واعلم يا أمير المؤمنين أن الفائز مَن حَرَص على السلامة فى دار الإقامة ، وفاز بالرحمة فأُدخِلَ الجنةَ » .

(الحسن البصرى لابن الجوزى ص ٥٤)

٤٢٩ — كتاب الحسن إلى عمر

وكتب عمر بن عبد العزيز إلى الحسن البصرى « عِظْنى » فكتب إليه الحسن :

« أما بعدُ : يا أمير المؤمنين ، فكن للمِثْل من المسلمين أخا ، وللكبير ابناً ، وللصغير أبا ، وعاقِبْ كلَّ واحد منهم بذنبه على قدر جسمه ، ولا تضربَن لغضبك سَوطا واحداً فتدخُلَ النار[1] » . (سيرة عمر لابن الجوزى ص ١٢٤)

٤٣٠ — كتاب الحسن إلى عمر

وكتب الحسن البصرى إلى عمر بن عبد العزيز :

« واعلم أن الهول الأعظم ، ومُفْظِعات الأمور أمامك لم يقطع منها بعد ، وأنه لابُدَّ واللهِ لك من مشاهدة ذلك ومعاينَته ، إمّا بالسلامة والنجاة منه ، وإما بالعَطَب » .

(سيرة عمر لابن الجوزى ص ١٢٤)

---

(١) ورد هذا القول فى سيرة عمر لابن الجوزى ص ١١ منسوبا إلى محمد بن كعب القرظى .

٤٣١ — كتاب الحسن إلى عمر

وكتب عمر بن عبد العزيز إلى الحسن البصرى « عظنى وأَوْجِزْ فكتب إليه :

« أما بعدُ ، فإن رأس ما هو مُصْلِحك ، ومُصْلَحٌ به على يدك : الزهد فى الدنيا ، وإنما الزهد باليقين ، واليقين بالتفكر ، والتفكر بالاعتبار ، فإذا أنت تفكّرت فى الدنيا لم تجدها أهلا أن تبيع بها نفسَك ، ووجدت نفسَك أهلا أن تُكْرِمها بهوان الدنيا ، فإنما الدنيا دار بلاء ، ومنزل غَفْلة » .

(سيرة عمر لابن الجوزى ص ١٢٤)

٤٣٢ — كتاب الحسن إلى عمر

وكتب الحسن البصرى إلى عمر بن عبد العزيز :

« أما بعدُ ، فلو كان لك عُمْر نوح ، ومُلْك سليمان ، ويقين إبراهيم ، وحكمة لُقْمان ، فإن أمامك هول الموت ، ومن ورائه داران ، إن أخطأتْك هذه صرت إلى هذه » .

فبكى عمر بكاء شديداً .

وفى خبر آخر أن عمر كتب إلى فقهاء العراق أن يأتوه ، فاعتل الحسن بفَتْق فى بطنه ، وكتب إليه :

« يا أمير المؤمنين : إن استقمتَ استقاموا ، وإن مِلْتَ مالوا ، يا أمير المؤمنين ، لو أن لك عمرَ نوح ، وسلطان سليمان ، ويقين إبراهيم ، وحكمة لقمان ، ما كان لك بُدٌّ من أن تقتحم العَقَبة ، ومن وراء العقبة الجنة والنار ، من أخطأته هذه دَخَل هذه » .

(سيرة عمر لابن الجوزى ص ١٢٥)

٤٣٣ - كتاب الحسن إلى عمر

وكتب الحسن إلى عمر بن عبد العزيز :

« أما بعد : يا أمير المؤمنين ، فإن طول البقاء إلى فناء ، فخذ من فنائك الذى لا يَبْقىْ ، لبقائك الذى لا يَفْنَى ، والسلام » .

فلما قرأ عمر الكتاب بكى وقال : « نصح أبو سعيد وأوجَزَ » .

(سيرة عمر لابن الجوزى ص ١٢٦

٤٣٤ - كتاب الحسن إلى عمر

وكتب الحسن إلى عمر بن عبد العزيز :

« سلام عليك أما بعد : فكأنك بالدنيا لم تكن وبالآخرة لم تزل » .

(سيرة عمر لابن الجوزى ص ١٢٦)

٤٣٥ - كتاب الحسن إلى عمر

وكتب إليه يعزيه فى ابنه عبد الملك :

« وعُوِّضْتَ أجرا من فقِيدٍ ، فلا يكن فَقِيدُكَ لا يأتى ، وأجرُكَ يَذْهَبُ »

(العقد الفريد ٢ : ٣٣)

٤٣٦ - كتاب الحسن البصرى إلى عدى بن أرطاة

ولما وَلِى عدىُّ بن أرطاة البصرة عزم على أن يُوَلِّى الحسنَ القضاء ، فهرب الحسن واستتر ، وكتب إليه :

« أما بعدُ : أيها الأميرُ فإن الكارِه للأمر غيرُ جَدير بقَضاء الواجب فيه ، وإن العاملَ العمل بغير نيّة حَقِيقٌ أن لا يُعان عليه ، ولك فى المختارين للأمر الذى دعوتنى إليه

كفايةٌ وقناعةٌ ، وقَصْدُكَ إياهم وتعويلك عليهم أَوْنَى بك وأصون لعملك ، فإنه لا خيرَ في الاستعانة بمن لا يَرَى أن العمل الذى يُدْعَى إليه واجبٌ عليه ، وفرضٌ لازم له ، فعافِنِى أيها الأمير عافاك اللهُ ، وأَحْسِن إلىَّ بترك التعرُّض لى، فإن الله لا يُضيع أجر من أحسن عملا » .

فعافاه وأكرمه ، وقال : والله ما كنتُ لِأَبْتَلِيَهُ بما يكرهه .

(الحسن البصرى لابن الجوزى ص ٥٤)

٤٣٧ — كتاب الحسن البصرى إلى مكحول

وروى أن الحسن رضى الله عنه اتصل به أن مكحولا[١] تُوُفِّى ، فحزن عليه ، وترحَّم له ، ثم اتصل به بُطْلانُ ذلك ، فكتب إليه :

« أما بعدُ : ــ أبا عبد الله ، كان الله لنا ولك فى المَحْيا والممات ، وقضى لنا ولك بخير فى الدنيا والآخرة ، ويسَّر لنا ولك حُسْن المآل والمنقلَب ، فإنه أتانا عنك ما رَاعَنا ثم أتى بعده ما أكذَبَه ، فلَعَمْرُ الله لقد سُرِرْنا ، وإن كان السرورُ بما سُرِرْنا به وَشِيك[٢] الانقطاع ، ذاهباً عما قليل إلى الخَبَر الأول ، فهل أنت ــ عافاك الله ووفّقنا وإياك لصالح العمل ــ كرجل ذاق الموتَ ، وعاينَ ما بعده ، وسأل الرَّجْعة ، فأُجيب إليها ، وأُعْطِىَ ما سأل بعد أن عاين ما فاته ، فتأهَّبَ فى نقل جَهَازه إلى دار قَراره لا يَرَى أن له من ماله إلا ماقَدَّم أمامه ، ومِنْ عَمِله إلا ما كُتب له ثوابُه ، والسلام » .

(حسن البصرى لابن الجوزى ص ٦٥)

---

(١) هو مكحول بن عبد الله ، كان من سبي كابل ، وقع إلى سعيد بن العاص فوهبه لامرأة من هذيل فأعتقته ، قال الزهرى : « العلماء أربعة : سعيد بن المسيب بالمدينة ، والشعبي بالكوفة ، والحسن البصرى بالبصرة ، ومكحول بالشأم » ولم يكن فى زمنه أبصر منه بالفتيا ، وسمع أنس بن مالك وغيره ، وهو معلم الأوزاعى ، وكان مقامه بدمشق ، وتوفى سنة ١١٨ هـ ــ انظر ترجمته فى وفيات الأعيان ج ٢ : ص ١٢٢ ــ .

(٢) أى سريع .

٤٣٨ — كتاب طاوس بن كيسان إلى عمر بن عبد العزيز

ولما ولى عمر بن عبد العزيز الخلافة كتب إليه طاوس[1] بن كَيْسان :

« إن أردت أن يكون عملُك خيرا كلّه فاستعمِلْ أهل الخير » .

فقال عمر ، كفى بها موعظةً ! (وفيات الأعيان ١ : ٢٣٣)

٤٣٩ — كتاب طاوس إلى عمر بن عبد العزيز

وكتب عمر بن عبد العزيز إلى طاوس ، يسأله عن بعض ما هو فيه فأجابه :

« سلام عليك يا أمير المؤمنين ، فإن الله عز وجل أنزل كتابا ، وأحل فيه حلالا ، وحرّم فيه حراما ، وضَرَبَ فيه أمثالا ، وجعل بعضه مُحْكَمًا ، وبعضه متشابِها ، فأحِلَّ حلالَ الله ، وحرِّم حرام الله ، وتفكر فى أمثال الله ، واعمل بمُحْكَمه ، وآمِنْ بمتشابهه والسلام عليك » . (سيرة عمر لابن الجوزى ص ١٢٦)

٤٤٠ — كتاب غيلان إلى عمر بن عبد العزيز

وروى صاحب المُنْية والأمل قال :

كتب غَيلان[2] إلى عمر بن عبد العزيز كتابا قال فيه :

---

(١) هو أبو عبد الرحمن طاوس بن كيسان الخولانى الهمدانى — من أبناء الفرس — وهو أحد الأعلام التابعين ، وكان فقيها جليل القدر نبيه الذكر ، توفى سنة ١٠٦ هـ .

(٢) فى المنية والأمل : « هو غيلان بن مسلم الدمشقى ، قال أبو القاسم هو غيلان بن مروان » وفى الملل والنحل ١ : ١٤٧ كما قال أبو القاسم ؛ وفى سرح العيون ص ٢٠١ هو غيلان بن يونس القدرى الدمشقى ، كان أبوه مولى لعثمان بن عفان ، وغيلان أول من تكلم فى القدر ، وقيل أول من تكلم فى القدر رجل من أهل العراق كان نصرانيا فأسلم ثم تنصر ، وأخذ عنه معبد الجهنى وغيلان الدمشقى » وقتله هشام ابن عبد الملك فى خلافته لأنه كان فى خلافة عمر يطعن على بنى أمية ويرميهم بأنهم أئمة ظلمة ضلال ، فحقدها عليه هشام حتى ولى فطلبه فقتله ، وقيل إن هشاما أنكر عليه التكلم فى القدر ورأى منه اللجاج فى ذلك ، فبعث إلى الأوزاعى فحاجه فأخرسه ، فأمر به هشام فقتل ، ولعل السببين جميعا أفضيا إلى قتله .

« أبصرتَ يا عُمَر وما كِدتَ ، ونظرتَ وما كدتَ ، اعلم يا عمر أنك أدركت من الإسلام خَلَقا باليا ، ورَسْما عافِيًا ، فياميتُ بين الأموات لا ترى أثرا فتَقَّبع ، ولا تسمع صوتا فتنتفع ، طَفِئ(١) أمرُ السُّنَّة ، وظهرت البِدعة . أُخِيفَ العالِم فلا يتكلم ، ولا يُعطَى الجاهل فيسأل ، وربما نَجَتِ الأمة بالإمام ، وربما هلكت بالإمام ، فانظر : أيُّ الإمامين أنت ، فإنه تعالى يقول : « وَجَعَلْنَاهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا » فهذا إمام هُدًى ومن اتبعه شريكان ، وأما الآخر ، فقد قال تعالى : « وَجَعَلْنَاهُمْ أَئِمَّةً يَدْعُونَ إِلَى النَّارِ وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ لاَ يُنْصَرُونَ » ، ولن تجد داعيا يقول : تعالوا إلى النار ، إذن لايتبعه أحد ، لكن الدُّعاة إلى النار هم الدُّعاة إلى معاصى الله ، فهل وجدتَ يا عمر حكيما يَعيب ما يصنع ، أو يصنع ما يَعيب ، أو يعذِّب على ما قَضَى ، أو يقضى مايعذب عليه ؟ أم هل وجدت رشيداً يدعو إلى الهُدَى ثم يضل عنه ، أم هل وجدت رحيما يكلِّف العباد فوق الطاقة ، أو يعذِّبهم على الطاعة ! أم هل وجدت عَدْلا يحمل الناس على الظلم والتظالم ؟ ، وهل وجدت صادقا يحمل الناس على الكذب أو التكاذب بينهم ! كفى ببيان هذا بيانا ، وبالعمى عنه عمى » فى كلام كثير .

فدعا عمر غيلان وقال : أعِنّى على ما أنا فيه ، فقال غيلان : ولِّنى بيعَ الخزائن وردَّ المظالم ، فولاه فكان يبيعها وينادى عليها ويقول : تعالوا إلى متاع الخَوَنة ، تعالوا إلى متاع الظَّلَمة ، تعالوا إلى متاع مَن خَلَفَ الرسول فى أمّته بغير سُنّته وسيرته .

(المنية والأمل ص ١٦)

---

(١) طفئت النار : ذهب لهبها كانطفأت .

خلافة يزيد بن عبد الملك

(سنة ١٠١ — ١٠٥ هـ)

٤٤١ — كتابه إلى العمال

كتب يزيد بن عبد الملك إلى عمال عمر بن عبد العزيز :

« أما بعدُ ، فإن عُمَرَ كان مغروراً ، غررْتموه أنتم وأصحابكم ، وقد رأيتُ كتبكم إليه فى انكسار الخراج والضَّريبة ، فإذا أتاكم كتابى هذا فدَعُوا ما كنتم تعرفون من عهده ، وأعيدوا الناس إلى طَبَقتهم[1] الأولى : أخْصبوا أم أجدبوا ، أحَبُّوا أم كَرِهوا ، حَيُوا أم ماتوا ، والسلام » .

(العقد الفريد ٢ : ٢٨١)

٤٤٢ — كتابه إلى أخيه هشام

وروى أن يزيد بن عبد الملك بلغه أن أخاه هشاما يتَنَقَّصه — وكان الخليفة بعده — فكتب إليه :

« إن مَثَلى ومثَلك كما قال الأول :

تَمَنَّى رجالٌ أنْ أموتَ ، وإنْ أمُتْ ... فتلك سبيلٌ لستُ فيها بأوحَدِ

فما عيشُ مَن يرجو رَدَاىَ بضائرى ... وما عيشُ مَن يرجو رَدَاىَ بمُخْلِدِ

فقلْ للذى يبغِى خِلافَ الذى مضى ... تجهَّز لأخرى مثلِها فكأَنْ قَدِ »[2]

---

(١) الطبق والطبقة : الحال .

(٢) وفى رواية العقد الفريد :

تمنى رجال أن أموت وإن أمت ... فتلك سبيل لست فيها بأوحد

لعل الذى يبغى رداى ويرتجى ... به قبل موتى أن يكون هوالردى

٤٤٣ — رد هشام عليه

فكتب إليه هشام :

« إن مَثَلى ومَثَلَك كما قال الأول :

ومن لا يغمِّضْ عينَه عن صديقه — وعن بعضِ ما فيه يَمُتْ وهو عاتب
ومن يتتبَّعْ جاهِدًا كُلَّ عَثْرَةٍ — يجِدْها، ولا يَسْلَمْ له الدهرَ صاحِبُ

٤٤٤ — رد يزيد على هشام

فكتب إليه يزيد:

« نحن مغتفِرون ما كان منك ، ومكذِّبون ما بَلَغنا عنك ، مع حفظ وصيَّة أبينا عبد الملك ، وما حَضَّ عليه من صلاح ذات البَيْنِ ، وإنى لأعلم أنك كما قال معن ابن أوس :

لَعَمْرُكَ ما أدرى (وإنى لأوْجَل) — على أيِّنا تَعْدُو المَنيَّةُ أولُ !
وإنى عَلَى أشياء منك تَرِيبُنى — قديمًا لَذُو صَفح على ذاك مُجْمِلُ
إذا سُؤْتَنى يومًا صَفَحتُ إلى غدٍ — لِيُعْقِبَ يومًا منك آخرُ مُقْبِلُ
وإنى أخوك الدائمُ العهد ، لم أحُلْ — أنَ ابْزَاكَ خَصْمٌ أو نبابِك منزلُ[(١)]
أحاربُ مَن حاربتَ من ذى عداوة — وأحبِسُ مالى إن غَرِمتَ فأعْقِلُ[(٢)]
سَتَقطَعُ فى الدنيا إذا ما قطعْتنى — يمينَك ، فانظر أىَّ كَفٍّ تبدَّلُ !
وكنتُ إذا ما صاحبٌ رَامَ ظِنَّتى — وبدّل سُوءًا بالذى كنتُ أفعَلُ[(٣)]
قَلَبْتُ له ظَهرَ المِجَنِّ ، ولم أدُمْ — على ذاك إلا رَيْثَمَا أتحوَّلُ[(٤)]

---

(١) أبزاه : قهره وبطش به ، ووصلت همزته للشعر . ونبا به منزله : لم يوافقه.
(٢) عقل عن فلان : غرم عنه جنايته ، وذلك إذا لزمته دية فأداها عنه .
(٣) الظنة : التهمة .
(٤) المجن : الترس ، ويقال : قلب له ظهر المجن ، وهى كلمة تضرب مثلا لمن كان لصاحبه على مودة أو رعاية ثم حال عن ذلك .

وفى الناس إن رَثَّتْ حِبالُك واصِلٌ   وفى الأرض عن دَارِ القِلَى مُتحوَّلُ[1]
إذَا أنت لم تُنْصِفْ أخاكَ وَجَدْتَه   على طَرَف الهِجْران إن كان يَعقِلُ
ويركبُ حَدَّ السيفِ من أنْ تُضيمَه   إذالم يكن عن شفْرةِالسيفِ مَزْحَلُ[2]

فلما جاءه الكتاب رَحَل هشام إليه ، فلم يَزَل فى جِواره إلى أن مات يزيدُ وهو معه فى عسكره مخافَةَ أهل البغى » .

(ذيل الأمالى ص ٢٢٤ ، والعقد الفريد ٢ : ٢٨٢)

رواية أخرى

وروى المسعودى فى مروج الذهب، قال :

وذُكِر أن يزيد بن عبد الملك بلغه أن أخاه هشام بن عبدالملك يتنقَّصه ويتمنَّى موته ويَعيب عليه لَهْوَه بالقَيْنات[3] ، فكتب إليه يزيد :

« أما بعدُ : فقد بلغنى استثقالُك حياتى ، واستبطاؤك موتى ، ولَعَمْرى إنك بَعْدِى لَوَاهِى الجَناحِ ، أجْذَم الكَفِّ[4] ، وما استوجبتُ منك ما بلغنى عنك » .

فأجابه هشام :

« أما بعدُ : فإن أمير المؤمنين متى فَرَّغ سَمْعَه لقول أهل الشَّنآن[5] وأعداء النعم ، يُوشِك أن يَقْدَح ذلك فى فساد ذات البَيْنِ وتقطُّعِ الأرحام ، وأميرُ المؤمنين - بفضله

---

(١) رث الحبل : بلى وأخلق، والقلى : البغض .
(٢) مزحل اسم مكان ، من زحل عن مكانه كخضع إذا تنحى وتباعد ، وقد وردت هذه الأبيات فى ديوان الحماسة ، وفى خلالها :

كأنك تشفى منك داء مساءتى   وسخطى وما فى ريبتى ماتعجل

وفى آخرها :

إذا انصرفت نفسى عن الشىء لم تكد   إليـه بوجه آخر الدهر تقبـل

(٣) القينة : الجارية المغنية أو أعم .
(٤) الواهى : الضعيف ، والأجذم : المقطوع اليد أو الذاهب الأنامل .
(٥) الشنآن : البغض .

وما جَعَلَه اللهُ أهلا له ـ أوْلَى أن يتغَمَّد[1] ذنوبَ أهل الذنوب ، فأمّا أنا فمَاذَ اللهِ أنْ أستثقِلَ حياتك ، أو أستبطئ وفاتك » .

فكتب إليه :

« نحن مغتفِرون ما كان منك ، ومكذِّبون ما بلغَنا عنك، فاحفَظ وصيَّة عبد الملك إيانا ، وقوله لنا فى ترك التّباغِى والتخاذُلِ ، وما أمَرَ به ، وحَضَّ عليه من صلاح ذات البَيْن ، واجتماع الأهواء فهو خير لك وأمْلَك بك ، وإنى لأ كتب إليك ، وأعْلَمَ أنك كما قال الأول :

وإنى على أشياء منك تَريبنى . . . الخ » .

فلما أتى الكتاب هشاما ارتحل إليه ، فلم يزل فى جِواره مخافةَ أهل البغى والسِّعاية حتى مات يزيد . (مروج الذهب ٢ : ١٧٩)

---

(١) تغمده : ستر ما كان منه ، وفى الأصل « يتعمد » وهو تصحيف .

خلافة هشام بن عبد الملك

(سنة ١٠٥ — ١٢٥ هـ)

٤٤٥ — كتاب هشام إلى يوسف بن عمر الثقفى

قال حمّاد الراوية[1] :

كان انقطاعى إلى يزيد بن عبد الملك فى خلافته، فكان أخوه هشام يجفونى لذلك، فلما مات يزيدُ وأفضَتِ الخلافة إلى هشام، خِفتُه فمكثت فى بيتى سنةً لا أخرج إلا لمن أثِقُ به من إخوانى سرًّا، فلمّا لم أسمع أحدا يذكرنى سنةً، أَمِنْتُ فخرجت فصلَّيت الجمعة، ثم جلست عند باب الفيل، فإذا شُرْطيّان قد وقفا علىّ فقالا لى : يا حمادُ، أجِبِ الأمير يوسف بن عمر ـ وكان واليًا على العراق ـ فقلت فى نفسى : مِن هذا كنت أحْذَر! ثم قلت لهما : هل لكما أن تدعانى حتى آتى أهلى فأودِّعَهم وَداعَ من لا ينصرف إليهم أبدا ثم أسير معكما؟ فقالا : ما إلى ذلك من سبيل، فاستسلمتُ فى أيديهما وسرْتُ إلى يوسف بن عمر وهو فى الإيوان الأحمر، فسلّمتُ عليه فردّ علىّ السلام، ورمى إلىّ كتابا فيه :

« بسم الله الرحمن الرحيم، من عبد الله هشام أمير المؤمنين إلى يوسف بن عمر، أما بعد : فإذا قرأت كتابى هذا، فابعَثْ إلى حمّاد الراوية مَن يأتيك به غيرَ مُرَوَّع ولا مُتَعْتَع[2]، وادفع له خمسمائة دينار وجَمَلا مَهْرِيًّا[3] يسير عليه اثنتى عشرة ليلة

---

(١) هو حماد بن ميسرة، وكان من أعلم الناس بأيام العرب وأخبارها وأشعارها وأنسابها ولغاتها، وكانت ملوك بنى أمية تقدمه وتؤثره وتستزيره، فيفد عليهم وينادمهم، ويسألونه عن أيام العرب وعلومها ويجزلون صلته، وهو من الموالى، وتوفى سنة ١٥٥ هـ ـ انظر ترجمته فى الأغانى ووفيات الأعيان.

(٢) تعتعه : حركه بعنف، أو أكرهه فى الأمر حتى قلق.

(٣) إبل مهرية : منسوبة إلى مهرة بن حيدان، وهم حى عظيم.

إلى دمشق[1] » .

فأخذت الخمسمائة الدينار ، ونظرت فإذا جمل مَرْحُول[2] ، فوضعت رجلى فى الغَرْز[3] وسرت اثنتى عشرة ليلةً حتى وافيتُ باب هشام ، فاستأذنتُ فأذِن لى فدخلت عليه فسلمت ، فردّ علىّ ، واستدنانى فدنوت حتى قبّلْت رجله ، وإذا جاريتان لم أر قبلهما مثلهما ، فى أذُنَىْ كل واحدة منهما حَلَقتان من ذهب ، فيهما لؤلؤتان تتوقّدان ، فقال لى : كيف أنت يا حماد ، وكيف حالك ؟ فقلت : بخير يا أمير المؤمنين ، قال : أتدرى : فيم بعثتُ إليك ؟ قلت لا ، قال : بعثت إليك لبيت خَطَر ببالى لم أدر من قاله، قلت : وما هو يا أمير المؤمنين ؟ قال :

فَدَعَوا بالصَّبُوح يوما ، فجاءت قَيْنَةٌ فى يمينها إبريقُ[4]

قلت : هذا يقوله عَدِىُّ بن زيد فى قصيدة له ، قال : فأنشِدْنيها ، فأنشدته إياها ، فطرب ثم قال : أحسنتَ والله ياحماد ، سل حوائجك ، قلت : إحدى الجاريتين قال : هما جميعاً لك بما عليهما وما لهما .

فأقام عنده مدة ثم وصَلَه بمائة ألف درهم .

(الأغانى ٥ : ١٥٨ ، وثمرات الأوراق ص٣٤ ، ووفيات الاعيان ١ : ٦٤)

---

(١) هكذا وردت الرواية ومنها نرى أن تلك القصة وقعت فى عهد ولاية يوسف بن عمر الثقفى على العراق ، وأنها كانت بعد تولى هشام الخلافة بسنة أى سنة ١٠٦ هـ (لأنه ولى الخلافة سنة ١٠٥) ولكن المعروف فى التاريخ أن يوسف بن عمر ولى العراق سنة ١٢٠ هـ بعد عزل خالد بن عبد الله القسرى . قال الطبرى: « وفى سنة ١٠٥ عزل هشام بن عبد الملك عمر بن هبيرة عن العراق وما كان إليه من عمل المشرق (وكان على العراق وخراسان فى خلافة يزيد بن عبد الملك) وولى ذلك كله خالد بن عبد الله القسرى فى شوال » انظر ج ٨ : ص ١٨٠ – وقال : « وفى سنة ١٢٠ قدم يوسف بن عمر العراق واليا عليها» – انظر ج ٨: ص ٢٥٦ – ومن ذلك يتحقق أن ذلك الكتاب بعث به هشام إلى خالد بن عبدالله القسرى لا إلى يوسف بن عمر الثقفى .

(٢) رحل البعير كمنع : حط عليه الرحل .

(٣) ركاب من جلد .

(٤) الصبوح : شراب الصبح ، والقينة : الجارية .

٤٤٦ – كتاب حماد الراوية إلى بعض الرؤساء

وكتب حمّاد الراويةُ إلى بعض الأشراف الرؤساء، قال :

إنّ لى حاجةً ، فرأيك فيها لَكَ نَفْسِى فِدًا من الأَوْصابِ[(١)]
وَهْيَ ليست مما يُبَلِّغُهُ غيــــرى ، ولا يستطيعُها فى كتابِ
غيرَ أنى أقولُها حينَ ألقا ك رُوَيْدًا ، أُسِرُّها فى حجاب

٤٤٧ – رد كتاب حماد

فكتب إليه الرجل :

« اكتب إلىَّ بحاجتك ، ولا تُشَهِّرْنى[(٢)] بشعرك » .

٤٤٨ – رد حماد

فكتب إليه حماد :

إننى عاشقٌ لِجُبَّتِكَ الدُّكْـــناء[(٣)] عِشْقًا قد حال دون الشَّرابِ
فاكْسِنِيها (فَدَتْكَ نفسى وأهلى) أتَبَاهى بها على الأصحابِ
ولك اللهُ والأمانةُ أنْ أجــعلَها عُمْرَها أميرَ ثيابى

فبعث إليه بها .

وقد رُوِيت هذه القصة لِمُطِيع بن إياس .

(الأغانى ٥ : ١٦١)

---

(١) الأوصاب : جمع وصب بالتحريك وهو المرض .
(٢) الشهرة بالضم : ظهور الشيء فى شنعة ، وقد شهره كمنعه وشهره واشتهره .
(٣) وصف من الدكنة بالضم : وهى لون إلى السواد ، وفعله كفرح .

٤٤٩ — كتاب حماد إلى صديق له

وأهدى حماد إلى صديق له غلاما وكتب إليه :

« قد بعثتُ إليك غلاما تتعلم عليه كَظم الغيظ » .

(الأغانى ٥ : ١٦١)

٤٥٠ — كتاب أشرس بن عبد الله إلى ابن أبى العمرطة

وفى سنة ١١٠ هـ وجَّه أشْرَسُ بن عبد الله السُّلَمِىّ(١) عاملُ خُراسان أبا الصَّيْداء صالح بن طَرِيف إلى مَنْ وراء النهر ليدعوهم إلى الإسلام ، فشخَصَ إلى سَمَرْقَند ، وعليها الحسن بن أبى العَمَرَّطَة الكِندى ، فدعا أبو الصيداء أهلَ سمرقند ومن حولها إلى الإسلام على أن توضع عنهم الجزية ، فسارع الناس إلى الإسلام ، وانكسر الخراج ، فكتب أشرس إلى ابن أبى العمرّطة : « إن فى الخَراج قوةً للمسلمين ، وقد بلغَنى أن أهل السُّغْدِ وأشباهَهم لم يُسْلِموا رغبةً ، وإنما دخلوا فى الإسلام تعوُّذاً من الجزية ، فانظر مَن اخْتَتَن ، وأقامَ الفرائض ، وحَسُن إسلامهُ ، وقرأ سُورةً من القرآن ، فارفع عنه خراجَه » .   (تاريخ الطبرى ٨ : ١٩٦)

٤٥١ — كتاب عاصم بن عبد الله إلى هشام

وكتب عاصم بن عبد الله بن يزيد الهلالى(٢) عامل خُراسان إلى هشام ابن عبد الملك :

« أما بعدُ : يا أمير المؤمنين فإن الرّائد(٣) لا يَكْذِبُ أهلَه ، وقد كان من أمْر

---

(١) ولاه هشام بن عبد الملك خراسان سنة ١٠٩ بعد عزل أسد بن عبد الله القسرى أخى خالد القسرى .

(٢) عزل هشام أشرس بن عبد الله عن خراسان سنة ١١١ ، وولاها الجنيد بن عبدالرحمن المزنى وتوفى الجنيد سنة ١١٦ فخلفه عليها عاصم بن عبد الله، ثم عزل عنها سنة ١١٧ ووليها أسد بن عبدالله.

(٣) الرائد : المرسل فى طلب الكلأ .

أمير المؤمنين إلىّ ما يَحِقُّ به علىّ نصيحتُه. وإن خراسانَ لاتصلُح إلا أن تُضَمَّ إلى صاحب العراق، فتكونَ مَوادُّها ومنافعها ومَعُونتها فى الأحداث والنوائب من قريب، لِتَباعُدِ أمير المؤمنين عنها، وتباطُؤُ غِياثِه عنها».

فعزله هشام وضم خراسان إلى خالد بن عبد الله، فولّاها خالدٌ أخاه أسد بن عبد الله.

(تاريخ الطبرى ٨ : ٢٢٢)

٤٥٢ — رسالة هشام بن عبد الملك إلى خالد بن عبد الله القسرى

قال أبو العباس المبرِّد:

وكان سبب هذه الرسالة إفراط خالدٍ[١] فى الدَّالَّةِ[٢] على هشام، وأنه أخذ ابنَ حَسَّان النَّبَطِىّ[٣] فضربه بالسِّياط، وكان يقال له سُهَيْلٌ، فبعَثَ بقميصه إلى أبيه، وفيه آثار الدم، فأدخله أبوه إلى هشام، مع ما قد أوغَرَ صدرَ هشامٍ عليه من إفراط الدَّالَّةِ، واحتجان الأموال[٤]، وكُفْرِ ما أسداه إليه من تَوْلِيَتِه إياه العِراقَ.

فكتب هشام إلى خالد:

«بسم الله الرحمن الرحيم، أما بعدُ: فقد بلغ أميرَ المؤمنين عنك أمرٌ لم يحتمِلْه لك إلا لما أحَبَّ مِنْ رَبٍّ[٥] الصنيعة قِبَلَك، واستتمامِ معروفِه عندك، وكان أميرالمؤمنين أحقَّ مَنِ استصلحَ ما فسَد عليه منك، فإن تعُدْ لمثل مقالتك[٦]، وما بلغَ أميرَ المؤمنين

---

(١) هو خالد بن عبد الله بن يزيد بن أسد بن كرز بن عامر بن عبد الله بن عبد شمس بن غمغمة ابن جرير بن شق بن صعب الكاهن المشهور، ولاه الوليد بن عبد الملك مكة سنة ٨٩، وولاه هشام العراق سنة ١٠٥ ثم عزله عنها سنة ١٢٠، وولاها يوسف بن عمر الثقفى.

(٢) أدل عليه: وثق بمحبته فأفرط عليه، والاسم الدالة.

(٣) حسان النبطى: هو مولى هشام ووكيله فى ضياعه فى العراق كما سيرد فى الرسالة.

(٤) احتجن المال: ضمه واحتواه واختص به لنفسه.

(٥) رب الصنيعة كنصر، وربيها: نماها وزادها وأتمها وأصلحها.

(٦) أى قوله «والله مازادتنى ولاية العراق شرفا . . .» وسيرد فى الرسالة.

عنك ، رأى فى معاجَلَتِكَ بالعقوبةِ رَأيه . إن النِّعمَة إذا طالت بالعبد مُمتَدَّةً أبطَرَته ، فأساء حَمْل الكرامة ، واستقَلَّ العافيةَ ، ونسَب ما فى يديه إلى حِيلته وحَسَبه وبَيتِهِ وَرَهْطِهِ وعشيرته ، فإذا نزَلَتْ به الغِيَر(١) ، وانكشَطَتْ عنه عَمايةُ الغَيِّ والسُّلطان ، ذَلَّ مُنقاداً ، وندِم حَسِيرا ، وتمكَّن منه عدوُّه قادرا عليه ، قاهِراً له ، ولو أراد أمير المؤمنين إفسادَكَ ، لَجَمَعَ بينك وبين من شَهِد فَلَتاتِ خَطَلِك ، وعظيمَ زَلَلِكَ ، حيث تقول لِجُلَسائِكَ: «واللهِ ما زادتنى ولايةُ العراق شرَفا ، ولا وَلاَّنِى أميرُ المؤمنين شيئًا لم يكن مَنْ قبلى ممن هو دونى يَلِى مِثلَه » ولعَمْرى لو ابتُلِيتَ ببعض مَقاوِمِ(٢) الحجّاج فى أهل العراق فى تلك المَضايِق التى لقِيَ ، لَعَلِمْتَ أنك رجل من بَجِيلة(٣) ، قد خرج عليك أربعون رجلا فغَلَبُوكَ على بيت مالِكَ وخَزائِنك، حتى قلت: أطعِمُونى(٤) ماء ! دَهَشا وَبَعَلاً(٥) وجُبْنا ، فما استطعتهم إلا بأمانٍ ، ثم أخفَرْتَ(٦) ذِمّتكَ ؛ منهم رَزِين وأصحابه ، ولعمرى أنْ لو حاول أمير المؤمنين مكافأتَكَ بخَطَلِك فى مجلسِكَ ، وجُحُودِك فضلَه إليك ، وتصغير ما أنعم به عليكَ ، فحَلَّ العُقْدَة ، وَنقَضَ الصَّنِيعَةَ ، وردّك إلى منزلةٍ أنت أهلُها ، كنتَ لذلك مستحِقًّا .

---

(١) الغير : حوادث الدهر . وانكشطت : ذهبت وانكشفت .

(٢) مقاوم : جمع مقام بالفتح .

(٣) يلقب خالد بن عبد الله بالقسرى نسبة إلى قسر بن عبقر وهى بطن من بجيلة، وسيأتى أن هشاما كتب إليه من رسالة يقول : « كيف لا تكون إمرة العراق لك شرفا ، وأنت من بجيلة القليلة الذليلة ؟ ».

(٤) وذلك أنه خرج عليه المغيرة بن سعيد بالكوفة سنة ١١٩ فى عشرين أو أربعين رجلا : وعرف بذلك وهو على المنبر فدهش وتحير فقال : أطعمونى ماء .

(٥) بعل بالأمر كفرح : دهش وفرق وبرم فلم يدر مايصنع .

(٦) أى غدرت ونقضت عهدك ، وذلك أنه أمر بأطنان قصب ونفط فأحضرا (والأطنان جمع طن بالضم وهو الحزمة من القصب) ثم أمر المغيرة أن يتناول طنا فكع عنه (أى ضعف) وتأنى ، وصبت السياط على رأسه ؛ فتناول طنا فاحتضنه فشد عليه ، ثم صب عليه وعلى الطن نفط ، ثم ألهبت فيهما النار فاحترقا ، وكذا فعل بأصحابه — انظر تاريخ الطبرى ج ٨ : ص ٢٤١ .

فهذا جَدُّك يَزِيدُ بن أسَدٍ قد حشد[١] مع معاوية فى يوم صِفِّين . وعرَّض له دينه ودَمَه، فما اصطنَع[٢] إلا عنده ، ولا وَلاَه ما اصطنع إليك أميرُ المؤمنين ووَلاَّكَ ، وقِبَله من أهل اليمن وبيوتاتهم مَنْ قَبيله أكرمُ من قبيلتك : من كِنْدَةَ وغَسَّان وآل ذى يَزَنٍ وذى كَلاَعٍ وذى رُعَيْنٍ ، فى نُظَرائهم من بيوتات قومهم ، كلُّهم أكرمُ أوَّلِيَّةً ، وأشرفُ إسلاماً من آل عبد الله بن يزيد[٣] :

ثم آثَرَكَ أميرُ المؤمنين بولاية العراق ، بلا بيتٍ رفيعٍ ، ولا شرف قديم ، وهذه البيوتاتُ تَعلُوك وتَغمُرك وتُسكِنك[٤] وتتقدمك فى المحافل والمجامع عند بَدْأة الأمور وأبواب الخلفاء .

ولولا ما أحَب أمير المؤمنين من رَدِّ غَرْبك[٥] لَعَاجَلَك بالتى كنت أهلَها ، وإنها منك لَقَرِيبٌ مَاخَذُها ، سريعٌ مكروهُها ، فيها ـ إن أبقى اللهُ أمير المؤمنين ـ زوالُ نِعَمه عنك ، وحُلولُ نِقَمه بك ، فيما ضيَّعتَ وارتكبتَ بالعِراق ، من استعانتك بالمَجُوس والنصارى ، وتَوْلِيَتِهِم رقابَ المسلمين[٦] وجِبْوَةَ[٧] خَراجهم ، وتسلُّطهم

---

(١) حشد القوم : خفوا فى التعاون ، أودعوا فأجابوا مسرعين . أو اجتمعوا لأمر واحد ، وكان يزيد بن أسد من شيعة معاوية ، وقد قام فى أهل الشام يوم صفين فخطبهم خطبة ، يحرضهم فيها على القتال ـ انظر جمهرة خطب العرب ج ١ : ص٣٤٣ ـ وقد قدمنا فى الجزء الأول من جمهرة رسائل العرب أن عثمان حين حصر كتب إلى معاوية يستنجده، وأبطأ أمره عليه ، فكتب إلى يزيد بن أسد فسار إليه فى ناس، كثير من أهل الشام حتى إذا كانوا بوادى القرى بلغهم قتل عثمان فرجعوا .

(٢) اصطنع عنده صنيعة : اتخذها .

(٣) أى من أبيك .

(٤) أى تفقدك الحركة فلا تستطيع مساماتها .

(٥) الغرب : الحد .

(٦) كان خالد متهما فى دينه . روى صاحب الأغانى قال : « وكان زنديقا أمه نصرانية . فكان يولى النصارى والمجوس على المسلمين ، ويأمرهم بامتهانهم وضربهم » وكان أهل الذمة يشترون الجوارى المسلمات ويطئونهن ، فيطلق لهم ذلك ولا يغير عليهم » وقال : « وكانت أمه رومية نصرانية وهبها عبد الملك لأبيه ، فبنى لها كنيسة فى ظهر قبلة المسجد الجامع بالكوفة ، فكان إذا أراد المؤذن فى المسجد أن يؤذن ضرب لها بالناقوس ، وإذا قام الخطيب على المنبر رفع النصارى أصواتهم بقراءتهم » ـ انظر ١٩ : ص ٥٩ ـ .

(٧) جبى الخراج كسعى ورمى جبوة وجبا وجباوة وجباية بكسرهن ، وجبا بالفتح .

عليهم، نَزَعَ بك إلى ذلك عِرْقُ سوء فيهم مِن التى قامَتْ عنك[1] فبئس الجنينُ أنت يا عُدَىّ[2] نفسه .

وإن الله عزّ وجل لمّــا رأى إحسانَ أمير المؤمنين إليك ، وسوء قيامِك بشكره ، قَلَّبَ قلبَه فأسخطه عليك حتى قَبُحَت أمورُك عنده ، وآيَسه من شكرك ما ظهر من كُفرك النِّعمةَ عندك، فأصبحتَ تنتظر سقوطَ النِّعمة، وزوال الكرامة، وحُلولَ الخِزْى، فتأهّبْ لنوازل عقوبة الله بِك، فإن الله عليك أوْجَدُ[3]، ولِما عملتَ أكْرَهُ فقد أصبحْتَ وذنوبُك عند أمير المؤمنين أعظمَ من أن يُبَكِّتَك[4] إلا رَاتِبًا بين يديه ، وعنده مَنْ يُقَرِّرك[5] بها ذَنبًا ذَنبًا ، وَيُبَكِّتُك بما أتيتَ أمراً أمراً ، فقد نسيتَه وأحصاه الله عليك .

ولقد كان لأمير المؤمنين زاجرٌ عنك فيما عرّفك به من التسرّع إلى حَماقتِكَ ، فى غير واحدةٍ ، منها القرشيُّ الّذى تناولته بالحجاز ظالمـا ، فضربَك اللّهُ بالسَّوْطِ الذى ضربتَه[6] به ، مُفتَضِحا على رُءوس رعيَّتك ، ولعل أمير المؤمنين يَعُودُ لك بِمِثْلِ ذلك ، فإن يفعلْ فأهلُه أنت ، وإن يصفَحْ فأهله هو .

---

(١) كنى به عن أمه .

(٢) مصغر عدو ، والتصغير للتحقير .

(٣) أوجد : أغضب ، أفعل تفضيل من الموجدة ، وهى الغضب .

(٤) التبكيت : التقريع ، وراتبا : أى ماثلا قائما بين يديه ، من رتب كدخل إذا ثبت قائما .

(٥) تقول : أقر فلان بالحق أى اعترف به ، وقررته بالحق حتى أقر به .

(٦) روى صاحب الأغانى (١٩ : ٦٠) قال : « كان خالد بن عبدالله أميرا على مكة ، فأمر رأس الحجبة أن يفتح له الباب وهو ينظر ، فأبى فضربه مائة سوط ، فخرج الشيبى إلى سليمان بن عبـــد الملك يشكوه ، فصادف الفرزدق بالباب ، فاسترفده (أى استعانه) فلما أذن الناس ودخلا ، شكا الشيبى مالحقه من خالد ، ووثب الفرزدق فأنشأ يقول :

سلوا خالدا (لا أكرم الله خالدا) ... متى وليت قسر قريشا تدينها ؟
أقبل رسول الله أم ذاك بعـــده ؟ ... فتلك قريش قد أغث سمينها
رجونا هداه (لا هدى الله خالدا) ... فمـــا أمه بالأم يهدى جنينها

فحمى سليمان وأمر بقطع يد خالد ، وكان يزيد بن المهلب عنده ، فما زال يفديه ويقبل يده حتى أمر بضربه مائة سوط » وللفرزدق فيه أهاج منها قوله :

وكيف يؤم المسلمين ، وأمه ... تدين بأن الله ليس بواحد

ومن ذلك ذِكْرُكَ زَمْزَمَ ، وهى سُقْيا الله وكَرَامَتُه لِعَبْدِ المُطَّلِب[١] ، وهذا الحَىُّ من قُرَيْشٍ ، تُسَمِّيها أُمَّ جِعَارٍ[٢] فلا سَقاكَ اللهُ من حَوْضِ رسوله ، وجعل شَرَّ كما لِخَيرِ كما الفِداء[٣] ، ووالله أنْ لو لم يستَدْلِلْ أميرُ المؤمنين على ضعف نحائِزك[٤] ، وسُوء تدبيرك ، إلا بِفَسَالة دخائلك : وبطانتك وعُمَّالك .

والغالِيةُ عليك جاريتُك الرائِفَة[٥] بائعةُ الفهودِ ، ومستعمِلَةُ الرجال ، مع ما أتلفتَ من مال الله فى « المُبَارَك[٦] » فإنك ادعيتَ أنك أنفقتَ عليه اثنى عشر ألف ألفِ درهمٍ ، والله لو كنتَ من ولد عبد الملك بن مَرْوان ، ما احتمل لك أميرُ المؤمنين ما أفسدتَ من مال الله ، وضيَّعتَ من أمور المسلمين ، وسَلَّطْتَ من وُلاة السوء على جميع أهل كُوَرِ عملِك ، تَجْمَعُ إليك الدَّهَاقِينُ[٧] هَدَايَا النَّيْرُوزِ والمِهْرَجان ، حابِسًا لأكثره ، رافِعا لأقلّه ، مع مَخَايِثِ مَساوِيك التى قد أخَّر أميرُ المؤمنين تَقْرِيرك بها .

ومُناصَبَتُك أميرَ المؤمنين فى مَوْلاه حَسّان ، ووكيله فى ضِياعه وأحْوازِه

---

(١) يعنى عبد المطلب بن هاشم جد النبي صلى الله عليه وسلم وهو الذى حفر زمزم .

(٢) أم جعار : الضبع ، لكثرة جعرها (بالفتح) وهو نجوها ، قال فى الأغانى : « وكان يسمى زمزم أم الجعلان » بالكسر جمع جعل بضم ففتح وهو دويبة كالخنفساء ، يريد أنها نتنة خبيثة الرائحة ، وكان الوليد حفر بئرا بين ثنية ذى طوى (موضع قرب مكة) وثنية الحجون (بالفتح : جبل مشرف بمكة) فكان خالد ينقل ماءها فيوضع فى حوض الى جنب زمزم ليعرف فضله على زمزم ، وخطب يوما على منبر مكة فقال : « إن إبراهيم خليل الله استسقى ربه ، فسقاه ملحا أجاجا ، واستسقاه الخليفة فسقاه عذبا فراتا » — انظر تاريخ الطبرى ٨ : ٦٧ ، والأغانى ١٩ : ٦٠ — وفى شرح العيون ص ٢٠٥ إنه قال : « لقد جئتكم بماء العاذبة ، لا تشبه ماء أم الخنافس » يعنى زمزم .

(٣) أخذه من قول حسان بن ثابت يمدح النبي صلى الله عليه وسلم ويهجو أبا سفيان قبل إسلامه :

هجوت محمدا فأجبت عنه ... وعند الله فى ذاك الجزاء
أتهجوه ولست له بكفء ... فشركما لخيركما الفداء

(٤) النحائز : جمع نحيزة كطبيعة وزنا ومعنى ، وفسل ككرم وعلم وعنى فسالة وفسولة فهو فسل كضخم ، أى رذل لا مروءة له ، وجواب لو محذوف أى لكفاه ذلك .

(٥) راف البدوى يريف ، أتى الريف ، وهى أرض فيها زرع وخصب .

(٦) المبارك : نهر بالبصرة احتفره خالد لهشام ، ومما قاله فيه الفرزدق :

وأهلكت مال الله فى غير حقه ... على النهر المشئوم غير المبارك

(٧) الدهاقين : جمع دهقان بالكسر والضم ، زعيم فلاحى العجم ورئيس الإقليم ، معرب .

فى العراق ، وإقدامُك على ابنه بما أقدَمْتَ به ، وسيكونُ لأمير المؤمنين فى ذلك نَبأ إن لم يَعفُ عنك ، ولكنه يظن أن الله طالِبُك بأمور أتيتها ، غيرُ تاركٍ لتكشيفك عنها .

وحملُك الأموالَ ناقصةً عن وظائفِها[1] التى جباها عُمَر بن هُبَيْرَة .

وتوجيهُك أخاك أسداً إلى خُراسان مُظهِرًا العَصَبِيَّةَ بها ، مُتحامِلاً على هذا الحىِّ من مُضَر[2] ، قد أتَتْ أميرَ المؤمنين ـ بتصغيره بهم ، واحتقارِه لهم ، وركوبه إياهم ـ الثقاتُ ، ناسِيًا لحديث زَرْنَبَ وقِصَص الْهَجَرِيِّين ، كيف كانت فى أسد بن كُرْزٍ[3] ، فاذا خلَوْتَ أو توسطْتَ مَلأً فاعرِفْ نفسَك ، وخَفْ راجعَ البغىِ عليك ، وعاجلاتِ النِّقَم

---

(١) أى مقدراتها ، جمع وظيفة ، وهى مايقدر لك من رزق فى زمان معين ، وعمر بن هبيرة هو والى العراق قبل خالد .

(٢) قدمنا أن هشاما استعمل خالد بن عبد الله على العراق وخراسان ، فولى خالد أخاه أسدا على خراسان ، فتعصب أسد حتى أفسد الناس ، وضرب نصر بن سيار ونفرا معه من مضر بالسياط ، أخرج كتابا فقرأه على الناس ، فيه ذكر نصر بن سيار عبد الرحمن بن نعيم وسورة بن الحر وغيرهم فدعاهم فأنبهم ، فلم يتكلم منهم أحد ، فتكلم سورة فذكر حاله وطاعته ومناصحته ، وأنه ليس ينبغى له أن يقبل قول عدو مبطل ، وأن يجمع بينهم وبين من قرفهم بالباطل ، فلم يقبل قوله ، وأمر بهم فجردوا وضربوا ، وحلقهم بعد الضرب ووجههم إلى خالد وكتب إليه أنهم أرادوا ، الوثوب عليه ، فلما تعصب أسد وأفسد الناس بالعصبية كتب هشام إلى خالد : اعزل أخاك ، فعزله (سنة ١٠٩) ـ انظر تاريخ الطبرى ٨ : ١٩٢ .

(٣) روى صاحب الأغانى (ج ١٩ : ص ٥٧) قال : « كان كرز بن عامر جد خالد آبقا عن مواليه عبد القيس من هجر (بالتحريك : بلد باليمن) ويقال إن أصله من يهود تيماء ، وكان أبق ، فظفرت به عبد شمس فكان فيهم عند عمغمة بن شق الكاهن ، ثم وهبوه لقوم من طهية فكان عندهم حتى أدرك وهرب فأخذته بنو أسد بن خزيمة فسكان فيهم وتزوج مولاة لهم ، يقال لها زرنب ، ويقال : إنها كانت بغيا ، فأصابها فولدت له أسد بن كرز ، سماه باسم أسد بن خزيمة لرقة كانت فيهم ثم أعتقوه ، ثم إن قسرا من أهل هجر مروا به فعرفوه ، فلما رجعوا إلى هجر أخذوا فداءه وصاروا إلى مواليه ، فلم يزل فيهم حتى خرج معهم فى تجارة إلى الطائف ، فلما رأى دار بجيلة أعجبته فاشترى نفسه وابنه ، فجاء فنزل فيهم فأقام مدة ، ثم ادعى إليهم ، وعاونه على ذلك حى من أحمس يقال لهم بنو منبه ، فنفاهم أبو عامر ذو الرقعة وهو ابن عبد شمس بن جوين بن شق ، فنزل كرز فى بنى سحمة هاربا من ذى الرقعة ثم وثب على ابن عم للقتال ابن مالك السحمى فقتله وهرب إلى البحرين مع التجار فأقام مدة ثم مات ، ونشأ ابنه يزيد بن أسد يدعى بجيلة ولا تلحقه إلى أن مات » .

فيك[١] ، واعلم أن ما بعدَ كتاب أمير المؤمنين هذا أشدُّ عليك وأفسَدُ لك ، وَقِبَلَ أمير المؤمنين خَلَفٌ منك كثيرٌ فى أحسابهم وبيوتاتهم وأديانهم ، وفيهم عِوَضٌ منك ، واللهُ من وراء ذلك » .

وكتب عبد الله بن الله بن سالم سنة تسع عشرة ومائة .

(الكامل للمبرد ٢ : ٢٩٧)

٤٥٣ — كتاب هشام إلى خالد القسرى

وروى الطبرى قال :

وقيل إنما أغضب هشامًا على خالد أن رجلاً من قريش[٢] دخل على خالد فاستخفَّ به وعضه بلسانه ، فكتب إلى هشام يشكوه .

فكتب هشام إلى خالد :

أما بعدُ ، فإن أمير المؤمنين — وإن كان أطلقَ لك يَدَكَ ورَأْيك فيمن استرعاه أمْرَه ، واستحفَظَك عليه ، لِلّذى رَجا من كِفايتك ، ووَثِقَ به من حُسْن تدبيرك — لم يُفرِشْك[٣] غُرَّةَ أهلِ بيته ، لِتَطَأَهُ بقدَمك ، ولا تُحِدَّ إليه بَصَرَك ، فكيف بك وقد بَسَطْتَ على غُرَّتهم بالعراق لسانكَ بالتوبيخ ؟ تريد بذلك تصغيرَ خَطَرِه[٤] واحتقارَ قَدْرِه ، زعمتَ بالنَّصَفَة[٥] منه حتى أخرجك ذلك إلى الإغلاظ فى اللفظ عليه

---

(١) عن خالد بن صفوان قال : « لم تزل أفعال خالد به حتى عزله هشام وعذبه ، وقتل ابنه يزيد بن خالد ، فرأيت فى رجله شريطا قد شد به والصبيان يجرونه ، فدخلت إلى هشام يوما فحدثته وأطلت فتنفس ثم قال : يا خالد : رب خالد كان أحب إلىّ قربا وألذ عندى حديثا منك ، يعنى خالدا القسرى ، قال فانتهزتها ورجوت أن أشفع فتكون لى عند خالد يد ، فقلت : يا أمير المؤمنين ، فما يمنعك من استئناف الصنيعة ؟ فقد أدبته بما فرط منه ، فقال : هيهات ! إن خالدا أوجف فأعجف ، وأدل فأمل ، وأفرط فى الإساءة فأفرطنا فى المكافأة فحلم الأديم ، ونغل الجرح ، وبلغ السيل الزبى ، والحزام الطبيين فلم يبق فيه مستصلح ، ولا للصنيعة عنده موضع . عد إلى حديثك — الأغانى ٩ : ٦٣ — .

(٢) المفهوم مما سيرد بعد أنه ابن عمرو بن سعيد بن العاص .

(٣) يقال فرش فلانا بساطا وأفرشه وفرشه : إذا بسطه له ، والمعنى : لم يسلطك ويبسط نفوذك عليه ، وفى الأصل « لم يفترشك » وهو تحريف ، (وافترش البساط : وطئه) ، وفلان غرة قومه : أى سيدهم .

(٤) الخطر : القدر . (٥) النصفة : اسم من الإنصاف .

فى مَجلِس العامّة ، غير مُتَحَلْحِل[1] له حين رأيتَه مُقْبِلا ـ عن صدر مِهادك ، الذى مَهّد له اللهُ ، وفى قومك مَن يَعلوك بحَسَبه ، ويَغمُرك بأوّلِيّته ، فنِلْتَ مِهادَك بما رفع به آلُ عَمْرو من ضَعَتِك خاصّةً ، مُساوِين بك فروعَ غُرَر القبائل وقُرُومَها[2] قِبَلَ أمير المؤمنين ، حتى حَلّتَ هَضْبةً أصبحتَ تنحُو[3] بها عليهم مفتخِرًا ، هذا إن لم يُدَهْده[4] بك قلّةُ شكرك متحطِّمًا وَقيذًا ، فهلاَّ ـ يابن مُجَرِّشة[5] قومك ـ أعظمْتَ رَجُلَهُمْ عليك داخلاً ، ووسّعت مجلِسَه إذ رأيته إليك مقبلا ، وتجافَيْتَ له عن صَدْرِ فراشك مكرِّما ، ثم فاوَضْتَه مُقْبِلا عليه بيشرك إكرامًا لأمير المؤمنين ، فإذا اطمأن به مجلِسُه نازَعْتَه بحَـيِّ السِّرَار[6] ، مُعْظِما لقرابته ، عارفا لحقه ! فهو سِنُّ البَيْتَين ونابُهم[7] ، وابن شيخ آل أبى العاص وحَرْبٍ وغُرّتُهم ، وبالله يُقسِم أميرُ المؤمنين لك لولا ما تقدّمَ من حُرْمتك ، وما يَكْرَهُ من شَماتة عدوك بك ، لوَضَع منك ما رَفَع ، حتى يرُدّك إلى حال تَفْقِدُ بها أهلَ الحوائج بعراقك ، وتَزَاحُمَ المواكب ببابك ، وما أقرَبنى من أن أجعلك تابعًا لمن كان لك تَبَعًا ، فانهَضْ على أىّ حالٍ ألفاكَ رسولُ أمير المؤمنين وكتابُه ، من ليل أو نهار ، ماشيًا على قدمَيْك بمن معك

---

(١) أى غير متزحزح ، يقال : حلحله : إذا أزاله عن موضعه وحركه فتحلحل ، والمهاد: الفراش .

(٢) القروم: جمع قرم بالفتح : وهو السيد ، والفروع : جمع فرع ، وفرع كل شىء: أعلاه، ومن القوم : شريفهم .

(٣) معناه تطل وتشرف ، يقال نحا بصره إليه : أى صرفه ، ونحا : مال على أحد شقيه .

(٤) دهده الحجر فتدهده ، ودهداه فتدهدى : دحرجه فتدحرج ، والوقيذ : الصريع ، وقذه : صرعه وسكنه وغلبه وتركه عليلا .

(٥) المجرشة : الماشطة ، يقال جرش رأسه بالمشط وجرشه إذا حكه حتى تستبين هبريته ، وجرش الجلد : إذا دلكه ليملاس .

(٦) السرار: المسارة، مصدر سار، وحيى : ذو حياء، وحى السرار من إضافة الصفة إلى الموصوف أى السرار الحيى ، والمعنى : جادلته و ناقشته فى سرار مقرون بالحياء والاحتشام .

(٧) يقال : فلان ناب قومه ، أى سيدهم ، قال الشاعر :

كنت لهم فى الحدثان نابا   أنفى العدا وضيغما وثابا

انظر أساس البلاغة .

من خَوَلك(١) ، حتى تقف على باب ابن عمرو صاغراً مستأذِناً عليه متنصلا إليه، أذن لك أو مَنَعَك ، فإن حرَّكته عواطِفُ رحمةٍ احتملك ، وإن احتملته أنفَةٌ وحَمِيَّة من دخولك عليه ، تقِفْ ببابه حَوْلاً غير مُتَحَلْحِلٍ ولا زائل ، ثم أمْرُك بعدُ إليه ، عزَل أو ولَّى ، انتصر أو عَفا ، فلعَنَك اللهُ من متَّكَلٍ عليه بالثقة ، ما أكثَرَ هفواتِك ! وأقذَعَ(٢) لأهل الشرف ألفاظَك ، التي لا تزال تَبْلُغُ أميرَ المؤمنين ، مِنْ إقدامك بها على مَنْ هو أولَى بما أنت فيه من ولاية مِصْرَى العراق ، وأقدَمُ وأقوَمُ ، وقد كتب أميرُالمؤمنين إلى ابن عمِّه بما كتب به إليك من إنكاره عليك لِيَرَى في العفو عنك ، والسُّخْط عليك رأيَه ، مُفَوَّضا ذلك إليه ، مبسوطة فيه يدُه محموداً عند أمير المؤمنين ، على أيّهما آتَى إليك موفَّقا إن شاء الله تعالى » . (تاريخ الطبرى ٨ : ٢٥٠)

٤٥٤ — كتاب هشام إلى ابن عمرو

وكتابه إلى ابن عمرو :

« أما بعدُ : فقد بلغَ أميرَ المؤمنين كتابُك ، وفَهِم ما ذكرتَ من بَسْطِ خالدٍ عليك لسانَه في مجلس العامّة ، محتقراً لقَدْرك ، مُسْتَصْغِراً لقرابتك من أمير المؤمنين ، وعواطِفِ رَحِمِه عليك(٣) ، وإمساكِك عنه تعظيما لأمير المؤمنين وسلطانه ، وتمسُّكا بوثائق عِصَمِ(٤) طاعته ، مع مُؤْلِمِ ما تداخَلَك من قبائح ألفاظِه ، وشرارةِ مَنْطِقه ، وإكثابِه(٥) عليك ، عند إطْراقك عنه ، مُرَوِّيا فيما أطلَق أميرُ المؤمنين من لسانه ، وأطال من عِنانه ، ورَفَعَ من ضَعَته ، ونوّه من خُمُوله، وكذلك أتم آل سعيد في مثلها

(١) الخول : الحاشية ، وصاغراً : ذليلا .
(٢) القذع محركة : الخنا والفحش والقذر ، وقذعه كمنعه : رماه بالفحش وسوء القول كأقذعه :
(٣) أي ورحمه التي تعطفه عليك ، والرحم : القرابة ، « وإمساكك » معطوف على « بسط » .
(٤) عصم : جمع عصمة بالكسر ، وهي مايعتصم به من عقد وسبب ، أو هي عصم بضمتين جمع عصام بالكسر ، وهو الحبل تشد به القربة ، ورباط كل شيء .
(٥) الشرارة : مصدر كالشر . وكثب عليه : حمل وكر . وروى في الأمر : نظر وفكر .

عند هَذْر الذُّنابَى(١) وطائشَةِ أحْلامها ، صُمُتٌ من غير إفحام ، بل بأحلامٍ تُخِفُّ الجبالَ(٢) وزْنا .

وقد حَمِد أميرُ المؤمنين تعظيمَك إياه ، وتوقيرَك سُلطانَه ، وشَكَرَه ، وقد جعل أمرَ خالدٍ إليك ، فى عَزْلك إيّاه أو إقراره ، فإن عزلْتَه أمضى عَزْلَك إياه ، وإن أقررتَه فتلك مِنّة لك عليه ، لا يشركك أمير المؤمنين فيها ، وقد كتب إليه أمير المؤمنين بما يَطرُد عنه سِنَة(٣) الهاجِع عند وصوله إليه يأمره بإتيانك راجلا، على أيّةِ حالٍ صادفه كتابُ أمير المؤمنين ، وألفاه رسولُه الموجَّه إليه من ليله أو نهاره ، حتى يقفَ ببابك ، أَذِنتَ له أو حَجَبْتَه ، أقْرَرْته أو عزَلْته ، وتقدَّمَ أمير المؤمنين إلى رسوله فى ضَرْبه بين يديك على رأسه عشرين سوطا ، إلا أن تكْرَهَ أن ينالَه ذلك بسببك لِحُرْمة خدمته ، فأيّهما رأيتَ إمضاءهُ كان لأمير المؤمنين - فى برِّك وعُظْمِ حُرْمتك وقَرابتك ، وصِلَةِ رحمك - مُوافِقا ، وإليه حبيبا ، فيما ينوى من قضاء حق آل أبى العاص وسعيد ، فكاتِبْ أميرَ المؤمنين فيما بدا لك مبتدِئا ومُجيبا ، ومحادِثا وطالبًا ما عسى أن يُنزِل بك أهلُك من أهل بيت أمير المؤمنين ، من حوائجهم التى تَقْعُد بهم الحِشْمَةُ عن تناوُلها من قِبَله ، لِبُعْد دارهم عنه ، وقلّة إمكان الخروج لإنزالها به ، غيرَ محتشِمٍ من أمير المؤمنين ولا مستوحِشٍ من تكْرارها عليه ، على قدر قرابتهم وأديانهم وأنسابهم ، مستمنِحًا ومُستَرفِداً(٤) وطالبًا مستزيدًا ، تجدْ أمير المؤمنين إليك سريعًا بالبِرِّ ، لما يحاول من صِلَة قرابتهم ، وقضاء حقوقهم ، وبالله يستعين أمير المؤمنين على ماينوِى ، وإليه يرغب فى العون على قضاء حقِّ قرابته ، وعليه يتوكل، وبه يَثِق ، والله وليُّه ومولاه ، والسلام » .

(تاريخ الطبرى ٨ : ٢٥١)

---

(١) هذر فى كلامه : كضرب ونصر هذرا وتهذارا : هذى ، والهذر محركة : سقط الكلام . والذنابى : أذناب الناس وسفلتهم . والأحلام : : العقول جمع حلم بالكسر .

(٢) أى تخف وزن الجبال ، أى يخف وزن الجبال إذا وزنت بها . وفى الأصل « تخف بالجبال » وأراه محرفا .

(٣) السنة : النعاس . (٤) الاسترفاد : الاستعانة .

٤٥٥ — كتاب هشام إلى خالد

وذُكِر أنه كتب إلى هشام كتاباً غاظه، فكتب إليه هشام:

« يابن أمِّ خالد، قد بلغني أنك تقول: « ما ولاية العراق لي بشرف » فيابن اللَّخْناءِ[1]: كيف لاتكون إمْرَةُ العراق لك شرفا، وأنت من بَجِيلَةَ القليلة الذليلة؟ أمَا وَاللهِ إني لأظن أن أول من يأتيك صغير من قريش يشدُّ يديك إلى عنقك ».

(تاريخ الطبري ٨: ٢٥١)

٤٥٦ — كتاب هشام إلى خالد

وذُكر أن هشاماً كتب إليه:

« قد بلغني قولك: « إن خالد بن عبد الله بن يزيد بن أَسَد بن كُرْز، ما أنا[2] بأشرفِ الخمسة » أمَا واللهِ لأَرُدَّنَّك إلى بَغْلتِك وَطَيْلَسانك[3] الفَيْرُوزى ».

(تاريخ الطبري ٧: ٢٥٢)

---

(١) انظر هامش ص ٢٢١.

(٢) أي ما أنا مع عظم قدري ورفعة مكانتي.

(٣) الطيلسان: ضرب من الأكسية الفارسية، معرب.

وذكروا أنه بلغ هشاما أنه قال ماابني يزيد بن خالد بدون مسلمة بن هشام، فكان ذلك سبب عزله إياه عن العراق، وقيل: إن خالداً كان كثيرا ما يذكر هشاما فيقول: ابن الحمقاء، وكانت أم هشام تستحمق « وهي عائشة بنت هشام بن إسماعيل بن هشام بن الوليد بن المغيرة، أمرها أهلها ألا تكلم عبد الملك حتى تلد، وكانت تثني الوسائد وتركب الوسادة وتزجرها كأنها دابة، وتشتري الكندر (كبرقم: اللبان بالضم) فتمضغه وتعمل منه تماثيل، وتضع التماثيل على الوسائد وقد سمت كل تمثال باسم جارية، وتنادي: يافلانة، ويافلانة، فطلقها عبد الملك لحمقها، وسار عبد الملك إلى مصعب فقتله، فلما قتله بلغه مولد هشام، فسماه منصوراً، يتفاءل بذلك، وسمته أمه باسم أبيها هشام، فلم ينكر ذلك عبد الملك » وقيل إن هشاما قدم عليه رجل من أهل الشام. فقال: إني سمعت خالدا ذكر أمير المؤمنين بما لا تنطلق به الشفتان، قال: قال الأحول؟ قال: لا، بل قال أشد من ذلك، قال: فما هو؟ قال: لا أقوله أبدا، فلم يزل يبلغه عنه ما يكره حتى تغير له وعزله» انظر الأغاني ١٩: ٦٠، وتاريخ الطبري ٨: ١٨٠، ٨: ٢٥١.

٤٥٧ - كتاب هشام إلى خالد

وروى الطبرى قال :

وكان هشام إذا أراد أمراً أمر الأبْرَش فكتب به إلى خالد ، فكتب الأبرش :

« إنه بلغ أميرَ المؤمنين أن عبد الرحمن بن ثُوَيْبٍ الضِّنِّىَّ - ضِنَّةُ سعد إخوة عُذْرة بن سعد - قام إليك فقال : يا خالد ، إنى لأحبُّك لعشر خِصال : إن الله كريم وأنت كريم ، والله جوَّاد وأنت جوَّاد ، والله رحيم وأنت رحيم ، والله حليم وأنت حليم ، حتى عد عشراً ، وأميرُ المؤمنين يُقْسِم بالله : لئن تحقَّقَ عنده ذلك ليستحلَّنَّ دمك ، فاكتب إلىَّ بالأمر على وَجْهه ، لأخبرَ به أمير المؤمنين » .

٤٥٨ - رد خالد عليه

فكتب إليه خالد :

« إن ذلك المجلس كان أكثر أهلا من أن يجوز لأحد من أهل البغى والفجور أن يحرِّفَ ما كان فيه إلى غيره ، فأمَّ إلىَّ عبد الرحمن بن ثُويب ، فقال : « يا خالد : إنى لأحبك لعشر خصال : إن الله كريم يحب كل كريم ، والله يحبُّك ، وأنا أحبُّك لحبِّ الله إياك ، حتى عدد عشر خصال» ، ولكن أعظم من ذلك قيام ابن شقِىٍّ الحِمْيَرى إلى أمير المؤمنين ، وقوله يا أمير المؤمنين : خليفتُك فى أهلك أكرم عليك أم رسولك؟ فقال أمير المؤمنين بل خليفتى فى أهلى ، فقال ابن شقى : فأنت خليفة الله ومحمد رسوله - صلى الله عليه وسلم - ولعَمْرى لَضلالةُ رجل من بَجيلة إن ضلَّ أهونُ على العامَّة والخاصَّة من ضلال أمير المؤمنين » .

(تاريخ الطبرى ٩ : ١٩ ، ووفيات الأعيان ١ : ١٦٩)

٤٥٩ - كتاب عقال بن شبة إلى خالد بن عبد الله القسرى

وكتب عَقَّال بن شَبَّةَ إلى خالد بن عبد الله القَسْرى فى شفاعة :

« إن الله انتجبَك[1] من جوهَرة كَرَم ، ومَنْبِتِ شَرَف ، وقَسَم لك خَطَرا[2] شَهَرته العربُ ، وتحدَّثَتْ به الحاضِرةُ والباديةُ ، وأعان خطرَك بقُدْرةٍ مبسوطةٍ ، ومَنزلَةٍ ملحوظة ، فجميعُ أكفائك من جماهير العرب يعرفُ فضلَك ، ويسُرُّه ماخار[3] الله لك ، وليس كلُّهم أداله[4] الزمانُ ، ولا ساعدَه الحظُّ ، وأحقُّ مَن تعطَّفَ على أهل البيوتاتِ ، وعادَ لهم بما يَبْقَى له ذكرُه ، ويحسُنُ به نَشْرُه ، مثلُك ، وقد وجَّهتُ إليك فلانا ، وهو من دِنْية[5] قرابتى ، وذوى الهيئة من أسرتى ، وعرَفَ معروفَك ، وأحببتُ أن تُلبسه نعمتَك ، وتَصْرِفَه إلىّ وقد أودعتنى وإياه ماتجده باقياً على النَّشْر ، جميلا فى الغِبِّ[6] » . (اختيار المنظوم والمنثور ١٢ : ٢٦٠)

٤٦٠ - كتاب هشام إلى يوسف بن عمر الثقفى

وفى سنة ١٢٠ هـ كتب هشام إلى يوسف بن عُمَر الثَّقَفى[7] - وهو على اليمن - أن : « سر إلى العراق ، فقد ولَّيْتُكَ إياه ، وإياك أن يَعْلَمَ بذاك أحد ، وخذ ابن النَّصرانية[8] وعُمَّاله فاشْفِنى منهم » .

---

(١) انتجبه : اختاره . (٢) الخطر : القدر .

(٣) خار الله لك فى الأمر : جعل لك فيه الخير . (٤) أداله : نصره وأعانه .

(٥) يقال : هو ابن عمى دنية بكسر الدال ، ودنيا بكسرها وضمها : أى لحا .

(٦) الغب : العاقبة .

(٧) هو يوسف بن عمر بن محمد بن الحكم بن أبى عقيل بن مسعود الثقفى ، وهو ابن ابن عم الحجاج - يجتمعان فى الحكم بن أبى عقيل - ولاه هشام اليمن سنة ١٠٦ هـ ، فلم يزل والياً بها حتى كتب إليه سنة ١٢٠ هـ بولايته على العراق ، فلما ولى الخلافة الوليد بن يزيد بن عبد الملك أقره على ولاية العراق حتى قتل سنة ١٢٧ هـ . انظر ترجمته فى وفيات الأعيان ٢ : ٣٦٠ .

(٨) يعنى خالدا القسرى .

تقدَم يُوسف العراقَ ، فأخذ خالداً وعُمَّاله وحَبَسه وحاسبه وعذَّبه ، ثم قتله[1] في خلافة الوليد بن يزيد سنة ١٢٦ هـ .

(تاريخ الطبرى ٨ : ٢٥٣ ، ووفيات الأعيان ٢ : ٣٦٠)

٤٦١ — بين يوسف بن عمر وهشام

وروى الطبرى قال :

لما قَدِمَ يُوسف بن عمر العراق قال : أشيروا على برجل أُوَلِّيه خُراسانَ ، فسَمَّوا له جماعة ، فكتب بأسمائهم إلى هشام ، وأطرَى القَيْسِيَّة ، وجعل آخِرَ من كتب اسمه نصر بن سَيَّار الكِنانىّ ، فقال هشام : ما بالُ الكنانىِّ آخرهم ! وكان فى كتاب يُوسف إليه : « يا أمير المؤمنين : نصرٌ بخُراسان قليل العشيرة » فكتب إليه هشام :

« قد فهمتُ كتابك وإطراءك القَيْسِيَّة ، وذكرتَ نصراً وقلة عشيرته ، فكيف يقلُّ مَنْ أنا عشيرَتُه ؟ ولكنك تقيَّستَ علىَّ ، وأنا مُتَخَنْدِف[2] عليك ، ابعث

---

(١) حدث رجل شهد قتله قال : شهدت خالدا حين أتى به يوسف ، فدعا بعود فوضع على قدميه ، ثم قامت عليه الرجال حتى كسرت قدماه ، فوالله ما تكلم ولا عبس ثم على ساقيه حتى كسرتا ، ثم على فخذيه ، ثم على حقويه ، ثم على صدره ، حتى مات ، فوالله ما تكلم ولا عبس — انظر تاريخ الطبرى ٩ : ٢١ ، وانظر أيضاً وفيات الأعيان ١ : ١٧٠ .

(٢) جميع قبائل مضر بن نزار يجمعها قيس وخندف ، وذلك أن مضر ولد إلياس والناس (وهو عيلان) فولد عيلان : قيس بن عيلان ، وولد إلياس : عمرا (وهو مدركة) وعامرا (وهو طابخة) وعميرا (وهو قمعة بالتحريك) وأمهم خندف كزبرج وهى ليلى بنت حلوان بن عمران ، فجميع ولد إلياس بن مضر من خندف ، ولذلك يقال لهم خندف لأنها أمهم وإليها ينسبون ، ومن بطون خندف كنانة بن خزيمة بن مدركة بن إلياس بن مضر ، ومن بطون كنانة : قريش وهم بنو النضر بن كنانة ، (ولا يغيب عنك أن هشام بن عبد الملك من بنى أمية ، وأن بنى أمية من قريش) ومن بطون كنانة أيضاً : بنو جندع (كبرقع) ابن ليث بن بكر بن عبد مناة ، ومن بنى جندع نصر بن سيار — انظر العقد الفريد ج ٢ : ص ٤٧ — وقد صاغ هشام فى كتابه من قيس وخندف الكلمتين : « تقيست ومتخندف » والمعنى : أنك ملت إلى جانب القيسية وأطريتهم ، وأنا أؤيد الخندفية وأرجح كفتهم وأتخير الأمير منهم .

بعهد نصر ، فلم يقلْ مَن عَشِيرتُه أميرُ المؤمنين ، بَلْهَ[١] ما أن تميماً أكثر أهل خراسان » .

وأتى نصراً عهدُه فى رجب من سنة ١٢٠ هـ .

(تاريخ الطبرى ٨ : ٢٥٨)

٤٦٢ — بين يوسف بن عمر وهشام

وروى أيضاً قال :

« قدِمَ زيد بن على بن الحسين بن على بن أبى طالب ، ومحمد بن عمر بن على ابن أبى طالب ، وداود بن على بن عبد الله بن عباس ، على خالد بن عبد الله وهو على العراق ، فأجازهم ورجعوا إلى المدينة ، فلما وَلِيَ يوسف بن عمر كتب إلى هشام : « بأسمائهم وبما أجازهم به » وكتب يذكر : « أن خالداً ابتاع من زيد بن على أرضا بالمدينة بعشرة آلاف دينار ، ثم ردّ الأرضَ عليه » .

فكتب هشام إلى عامل المدينة — وهو خاله إبراهيم بن هشام — : « أن يُسرِّحهم إليه » ففعل ، فسألهم هشام ، فأقرّوا بالجائزة وأنكروا ما سوى ذلك ، فسأل زيداً عن الأرض فأنكرها ، وحلفوا لهشام فصدّقهم .

وفى رواية أخرى أن يزيد بن خالد القَسرى ادّعى مالًا قِبَل جماعة منهم مَنْ أسلَفْنا ذِكْرهم ، فكتب فيهم يوسف بن عمر إلى هشام ، فبعث هشام إليهم ، فذكر لهم ما كتب به يوسف بن عمر إليه مما ادّعى قِبَلَهم يزيدُ بن خالد فأنكروا ، فقال لهم هشام : فإنا باعثون بكم إليه يجمع بينكم وبينه ، ودعا كاتبه فكتب إلى يوسف :

---

(١) بله معناها على ، أى على أن تميما أكثر أهل خراسان ، أى وفوق ماذكرته فإن تميما . . . الخ وذكر النحويون أن بله تستعمل اسم فعل بمعنى اترك فينصب ما بعدها بالمفعولية ، ومصدرا بمعنى الترك فيجر ما بعدها بالإضافة ، واسم استفهام بمعنى كيف فتكون خبرا مقدما ويرفع ما بعدها على الابتداء . وتميم هم بنو تميم بن مر بن أد بن طابخة بن إلياس بن مضر : يعنى هشام أن نصر بن سيار الكنانى ليس بقليل العشيرة كما ذكر يوسف بن عمر ، إذ أن تميما — وهم من ولد إلياس جد كنانة — أكثر أهل خراسان .

« أما بعدُ ، فإذا قَدِم عليك فلان وفلان ، فاجمع بينهم وبين يزيد بن خالد القَسْرى فإن هم أقرُّوا بما ادَّعَى عليهم ، فسرِّحْ بهم إلىَّ ، وإن هم أنكروا فسَلْه بيِّنَةً ، فإن هو لم يُقِم البينة فاستحلِفهم بعد العَصْر بالله الذى لا إله إلا هو : ما استودَعَهم يزيدُ ابن خالد القسرى وديعةً ، ولا له قِبَلهم شىء ، ثم خلِّ سبيلهم » .

فقالوا : جزاكَ اللهُ والرَّحِمَ خيراً ، لقد حَكمتَ بالعدل ، وسرَّح بهم إلى يوسف ، فسألهم عن المال فأنكروا جميعاً ، فأخرج إليهم يزيدَ بن خالد فجَمَع بينه وبينهم ، وقال له : هذا زيد بن على ، وهذا محمد بن عمر بن على ، وهذا فلان وفلان الذين كنت ادّعيت عليهم ما ادَّعيتَ ، فقال : مالى قِبَلهم قليلٌ ولا كثير ، فقال يوسف : أفَبِى تهزَأ ، أم بأمير المؤمنين ؟ فعذَّبه يومئذ عذابا ظن أنه قد قتله ، ثم أخرجهم إلى المسجد بعد صلاة العصر فاستحلفهم فحلفوا له ، فلم يقتدِرْ عند القوم على شىء ، فكتب إلى هشام يُعلِمه الحال ، فكتب إليه هشام أنِ استَحْلِفهم وخلِّ سبيلهم ، فخلَّى عنهم فخرجوا فلَحِقوا بالمدينة ، وأقام زيد بن علىّ بالكوفة » . (تاريخ الطبرى ٨: ٢٦٠)

٤٦٣ — كتاب هشام إلى يوسف بن عمر

وكتب هشام إلى يوسف بن عمر أن : « أشخِصْ زيداً إلى بلده ، فإنه لا يُقِيم ببلد غيره فيدعو أهلَه إلا أجابوه » .

فأشخَصَه ، فلما كان بالثَّعْلَبية[1] أو القادسية ، لحَقه أهلُ الكوفة ، فرَّضوه عَلَى الخروج ، وأعطَوه المواثيقَ والأيمان المغلَّظة لَيَنْصُرُنّه ، وما زالوا به حتى ردوه إلى الكوفة[2] ، فرجع إليها فاستخفى، ثم خرج على يوسف بن عمر فقُتل وصلب بالكُناسة سنة ١٢١ هـ » . (تاريخ الطبرى ٨: ٢٦٥)

---

(١) الثعلبية : من منازل طريق مكة من الكوفة .

(٢) وقد قالوا له: أين تذهب عنا ومعك مائة ألف رجل من أهل الكوفة يضربون دونك بأسيافهم غدا وليس قبلك من أهل الشام إلا عدة قليلة، ولو أن قبيلة من قبائلنا نحوت لهم لكفتهم باذن الله تعالى، فننشدك الله لما رجعت، وكانوا يقولون: إنا لنرجو أن تكون المنصور وأن يكون هذا الزمان الذى يهلك فيه بنو أمية =

٤٦٤ — كتاب عبد الله بن الحسن إلى زيد بن على

وكتب عبد الله بن الحسن بن الحسن بن على بن أبى طالب إلى زيد بن على :

« يابن عمّ، إن أهل الكوفة نُفُخ[1] العَلانية، خُورُ السريرة، هُرُج[2] فى الرخاء، جُزُع فى اللقاء، تَقْدُمهم[3] ألسنتهم، ولا تشايعهم قلوبهم، لايَبيتون بعُدَّة فى الأحداث، ولا يَنُوءون[4] بدولة مَرْجُوّة، ولقد تواترَتْ إلىّ كتبهم بدَعْوتهم، فصَمِتُّ عن ندائهم، وألبسْتُ قلبى غِشاء[5] عن ذكرهم، يأساً منهم، واطِّراحا لهم، وما لهم مَثَلٌ إلا ما قال علىّ بن أبى طالب : « إن أهمِلتمُ خُضتم، وإن حُوربتم خُرْتم، وإن اجتمع الناس على إمام طَعَنتم، وإن أجبتم إلى مشاقّة[6] نَكَصْتُم » .

(تاريخ الطبرى ٨ : ٢٦٥)

= وروى أنه كان قد بايعه على إمامته خمسة عشر ألف رجل من أهل الكوفة، وخرج بهم على يوسف فلما استحر القتال، بينهما قالوا لزيد: إنا ننصرك على أعدائك ، بعد أن تخبرنا برأيك فى أبى بكر وعمر، اللذين ظلما جدك على بن أبى طالب ، فقال زيد : إنى لا أقول فيهما إلا خيرا ، وما سمعت أبى يقول فيهما إلا خيرا ، وإنما خرجت على بنى أمية الذين قاتلوا جدى الحسين ، وأغاروا على المدينة يوم الحرة، ثم رموا بيت الله بحجر المنجنيق والنار ، ففارقوه عند ذلك ، حتى قال لهم : رفضتمونى، ومن يومئذ سموا رافضة ، وثبت معه مائتا رجل ، وقاتلوا جند يوسف بن عمر حتى قتلوا عن آخرهم ، وقتل زيد ثم نبش من قبره وصلب بالكناسة (محلة بالكوفة) ثم أحرق ، وهرب ابنه يحيى بن زيد إلى خراسان وخرج بناحية الجوزجان كما سيأتى — انظر الفرق بين الفرق للبغدادى ص ٢٥ ، وتاريخ الطبرى ٨ : ٢٦٣ .

(١) شاب نفخ وجارية نفخ بضمتين : ملأتهما نفخة الشباب والخائر والخوار : الضعيف ، وسهم خوار وخئور : ضعيف ، قال فى اللسان ويجمع خوار على خور على غير قياس ، وشاهد الخور جمع خوار قول الطرماح :

أنا ابن حماة المجد من آل مالك ... إذا جعلت خور الرجال تهيع

(٢) هرج : جمع هروج مبالغة من هارج ، والهرج بالفتح : الفتنة والاختلاط وجزع: جمع جزوع.

(٣) تقدمهم كنصر : تتقدمهم .

(٤) ناء بالحمل : نهض مثقلا . (٥) الغشاء : الغطاء .

(٦) المشاقة والشقاق : الخلاف والعداوة. والمعنى وإن أجبتم إلى قتال ذوى مشاقة .

٤٦٥ – كتاب هشام إلى يوسف بن عمر

وكتب هشام إلى يوسف بن عمر فى أمر زيد بن على :

« أما بعدُ ، فقد علمتَ بحال أهل الكوفة ، فى حبِّهم أهلَ هذا البيت ، وَوَضْعِهم إياهم فى غير مواضعهم ، لأنهم افترضوا على أنفسهم طاعَتَهم ، ووظَّفوا[1] عليهم شرائِعَ دينهم ، ونَحَلُوهم[2] عِلْمَ ماهو كائن ،حتى حَمَلوهم من تفريق الجماعة على حال استخفُّوهم فيها إلى الخروج .

وقد قَدِم زيد بن علىّ على أمير المؤمنين فى خُصومة عمر بن الوليد ، فَفَصَل أمير المؤمنين بينهما ، ورأى رجلا جَدِلا لَسِنا خليقا بتمويه[3] الكلام وصوغِه ، واجترارِ الرجال بحلاوةِ لسانِه ، وبكثرة مخارجه فى حُجَجِه ، وما يُدْلِى به عند لَدَدِ[4] الخِصام من السَّطْوة على الخَصْم بالقوة الحادَّة لنيل الفَلْج[5] .

فعجِّلْ إشخاصه إلى الحِجاز ولا تُخلِّه والمُقامَ قِبلك ، فإنه إن أعاره القومُ أسماعَهم، فحَشاها من لين لفظه ، وحَلاوة مَنطقِه ، مع ما يُدْلِى به من القرابة برسول الله صلى الله عليه وسلم ، وَجَدهم مُيَّلًا إليه ، غيرَ مُتَّئِدةٍ قلوبهم ، ولا ساكنةٍ أحلامُهم ، ولا مَصُونةٍ عندهم أديانُهم ، وبعضُ التحامُلِ عليه – فيه أذًى له – وإخراجُه وتركُه – مع السلامة للجميع ، والحَقْنِ للدماء ، والأَمْنِ للفُرْقة – أحبُّ إلىّ من أمرٍ فيه سفكُ

---

(١) الوظيفة : مايقدر من عمل ورزق وطعام وغير ذلك ،ووظف عليه العمل توظيفاً: قدره،والمعنى قصروا عليهم شرائع الدين ومعرفة أحكامه. (٢) نحله الشىء كمنعه : نسبه إليه .

(٣) قول مموه أى مزخرف ، أو ممزوج من الحق والباطل ، وأصله من موه الشىء تمويها إذا طلاه بفضة أو ذهب وتحت ذلك نحاس أو حديد .

(٤) اللدد : شدة الخصومة .

(٥) الفلج : الفوز والظفر . وروى أن زيدا لما قدم على هشام ، قال له هشام : لقد بلغنى يازيد أنك تذكر الخلافة وتتمناها،ولست هناك لأنك ابن أمة،قال زيد:فقد كان إسماعيل بن إبراهيم ابن أمة، وأخوه إسحاق ابن صريحة مثلك ، فأخرج الله عز وجل من صلب إسماعيل خير ولد آدم محمدا صلى الله عليه وسلم ، وأخرج من صلب إسحاق القردة والخنازير وعبدة الطاغوت،فعندها قال له: قم،فقال :إذن لاترانى إلا حيث تكره – انظر البيان والتبيين ١ : ١٦٩ وتاريخ الطبرى ٨ : ٢٦٣ ، والعقد الفريد ٢ : ٣٠٠ .

دمائهم ، وانتشارُ[١] كلمتهم ، وقَطْعُ نسلهم ، والجماعةُ حَبْلُ الله المتين ، ودينُ الله القَوِيم ، وعُرْوته الْوُثْقَى ، فادعُ إليك أشراف أهلِ المِصر ، وأوْعِدْهم العقوبةَ فى الأبشار[٢] ، واستصفاء[٣] ، الأموال ، فإنَّ مَنْ له عَقْد أو عهد منهم سيُبطِئُ عنه ، ولا يخفُّ معه إلا الرَّعاع وأهل السَّواد ، ومن تُنْهضه الحاجةُ استلذاذا للفتنةِ ، وأولئك ممن يستعبد إبليسَ وهو يستعبدهم ، فبَادِهِم[٤] بالوعيد ، وأَعْضِضْهم[٥] بسَوطك ، وجَرِّد عليهم سيفَك ، وأَخِفِ الأشراف قبل الأوساط ، والأوساطَ قبل السِّفلة .

واعلم أنك قائم على باب أُلفة ، وداعٍ إلى طاعة ، وحاضٌّ على جماعة ، ومشمِّرٌ لدين الله ، فلا تستوحِش لـكثرتهم ، واجعل مَعْقِلك[٦] الذى تأْوِى إليه ، وصَغْوك[٧] الذى تخرج منه ، الثقةَ بربك ، والغضبَ لدينك ، والمحاماة عن الجماعة ، ومناصَبَةَ[٨] مَنْ أراد كَسْرَ هذا الباب الذى أمرهم الله بالدخول فيه والتَّشاحَّ[٩] عليه ، فإن أمير المؤمنين قد أعذر إليه[١٠] ، وقضَى من ذِمامه ، فليس له مَنْزَى[١١] إلى ادِّعاءِ حق هو له ظُلِمَهُ من نصيب نفسِه أو فَئ أو صِلَةٍ لذى قُرْبى ، إلا الذى خاف أميرُ المؤمنين من حمل بادرة السِّفلةِ على الذى عسى أن يكونوا به أشقَى وأضَلّ ، ولهم أمرٌ ، ولأمير المؤمنين أعزّ وأسهلَ إلى حِياطة الدين والذَّبِّ[١٢] عنه ، فإنه لايحبُّ أن يرى فى أمته حالا

---

(١) أى تفرق .

(٢) البشرة بالتحريك : ظاهر الجلد ، والجمع بشر ، وجمع الجمع أبشار .

(٣) استصفى المال : أخذ منه صفوه . (٤) أى جاهرهم .

(٥) فى كتب اللغة أنه متعد إلى الثانى بنفسه ، يقال: أعضضته الشيء : جعلته يعضه وأعضضته سيفى: ضربته به . (٦) المعقل : الملجأ .

(٧) يقال : صغوه معك بالفتح والكسر : أى ميله معك ، والمعنى اجعل شعارك .

(٨) ناصبه الحرب ، والعداوة : أظهرها له وأقامها .

(٩) أى والحرص ، يقال : تشاحا على الأمر : لايريدان أن يفوتهما ، وتشاح القوم فى الأمر : شح بعضهم على بعض حذرفوته .

(١٠) إليه أى إلى زيد بن على . وأعذر : صار ذا عذر ، والذمام : الحق والحرمة .

(١١) مفعل من نزا ينزو إذا وثب . (١٢) أى والدفع .

متفاوِتاً نَكالًا لهم[1] مُفْنيا ، فهو يستديم النَّظِرة[2] ، ويتأنّى[3] الرشاد ، ويجتذبهم على المخاوف ، ويستجرُّهم إلى المَراشِد ، ويَعْدِل بهم عن المهالك ، فِعْلَ الوالد الشفيق على ولده ، والراعى الحَدِب[4] على رعيته .

واعلم أن من حُجَّتك عليهم ، فى استحقاق نصر الله لك عند معاندتهم ، توفيتَك أطماعَهم ، وأعطيةَ ذُرِّيتهم ، ونَهْيَك جندك أن ينزلوا حَرِيمَهم ودُورهم ، فانتهز رضا الله فيما أنت بسبيله ، فإنه ليس ذنب أسرعَ تعجيلَ[5] عقوبةٍ مِن بغى ، وقد أوقعهم الشيطان ، وَدَلَّاهم[6] فيه ، ودلهم عليه ، والعصمةُ بتارك البغى أولَى ، فأميرُ المؤمنين يستعين الله عليهم وعلى غيرهم من رعيته ، ويسأل إلهه ومولاه ووليَّه أن يُصْلح منهم ما كان فاسداً ، وأن يُسْرع بهم إلى النجاة والفوز ، إنه سميع قريب » .

(تاريخ الطبرى ٨ : ٢٦٦)

٤٦٦ — كتاب سالم بن هشام إلى يوسف بن عمر

وكتب سالم بن هشام إلى يوسف بن عمر حين قتل زيد بن على رحمة الله عليه :

« قد بلغ أمير المؤمنين كتابُك بما أبْلَى[7] اللهُ فى مِدْرَهِ السّوء ، وأنه لمّا عضّتهم الحربُ ، وآلَمَهم الحديدُ ، عاذوا بالمسجد الجامع ، قد أكْذَبَ اللهُ ظنونَهم ، وخذَل مُخرِجَهم ، وقتل إمامَ ضلالتهم ، وحفِظَ لأمير المؤمنين ما ضيَّعوا من حقه ، وحاط[8] له ما أباحوا من الغَدْر فيه ، وقد رَأى أميرُ المؤمنين أن يجعل مِنْ شكْرِ الله على نعَمِه ،

---

(١) يقال : نكل به تنكيلا : أى صنع به صنيعاً يحذر غيره ، والاسم النكال .
(٢) النظرة : التأخير ، وأنظره : أخره .
(٣) تأتى الأمر : ترفق وأتاه من وجهه .
(٤) حدب عليه كفرح : عطف .   (٥) أى إلى تعجيل .
(٦) أى أوقعهم أيضاً .
(٧) الإبلاء : الإنعام والإحسان ، والمدره : المقدم فى اللسان واليد عند الخصومة والقتال ، والمراد به زيد بن على .
(٨) حاطه يحوطه : حرسه وصانه .

الصَّفْحَ عنهم ، و تَغَمُّدَ[1] جُرْمِهم ، وأن يَعُمَّهم مِنْ عَدْله بما يردُّ الجاهِلَ عن جهله ، والغوىّ عن غَوايته ، ويعلمون مكانه من الله ، واستجابته العِزَّه ونصره ، وأنه الخليفة المُتّقِى ، والإمام المتألِّف ، وأنه يقدِّم العفوَ فى الطاعة ، على الحُجَّة فى العقوبة ، والحِسْبةَ فى الاستصلاح ، عن القوة فى التأييد ، فأمْسِك عنهم بيدك، فإن أمير المؤمنين قد وهبَ ذلك كلَّه لله ، وَرَجا به ما ليس ضائعا عنده من ثوابه .

(اختيار المنظوم والمنثور ١٢ : ٢٦٠)

٤٦٧ — كتاب يوسف بن عمر إلى هشام

وحبس يوسف بن عمر حين قَدِم العراق خالد بن عبد الله القَسْرى كما قدمنا ، فأقام خالد فى مَحبِسه ثمانية عشر شهراً[2] ، ثم كتب إليه هشـــام يأمره بتخلية سبيله (فى شوال سنة ١٢١ هـ) .

فخرج خالد ومعه جماعة من أهله ، حتى أتى القرية ، وهى بإزاء باب الرُّصافة[3] ، فأقام بها إلى صفر سنة ١٢٢ هـ ، لا يأذن لهم هشام فى القدوم عليه ، وخرج زيد بن على على يوسف بن عمر فقُتِل ، فكتب يوسف إلى هشام :

---

(١) تغمده : ستره ، وفى الأصل « وتغمد حرمهم » وهو تصحيف .

(٢) وروى أن يوسف بن عمر استأذن هشاما فى إطلاق يده على خالد وتعذيبه، فلم يأذن له، حتى أكثر عليه ، واعتل عليه بانكسار الخراج وذهاب الأموال ، فأذن له مرة واحدة ، وبعث حرسيا يشهد ذلك، وحلف لئن أتى على خالد أجله وهو فى يده ليقتلنه ، فدعا به يوسف ، فجلس على دكان بالحيرة ، وحضر الناس وبسط عليه العذاب فلم يكلمه واحدة ، حتى شتمه يوسف ، فقال: يابن الكاهن يعنى شق بن صعب الكاهن ، فقال له خالد : إنك لأحمق ، تعيرنى بشرفى ! ولكنك يابن السباء ، إنما كان أبوك سباء خمر — يعنى يبيع الخمر — ثم رد إلى حبسه — تاريخ الطبرى ٩: ١٧ .

وقيل إن يوسف لما قدم العراق حبس خالدا وضربه ثلاثين سوطاً ، فكتب هشام إلى يوسف: أعطى الله عهدا لئن شاكت خالدا شوكة لأضربن عنقك ، فخلوا سبيله بثقله وعياله ، فأتى الشام — وفيات الأعيان ٢ : ٣٦٢ .

(٣) هى رصافة الشأم، رصافة هشام بن عبد الملك غربى الرقة ، بينهما أربعة فراسخ ، على طرف البرية ، بناها هشام لما وقع الطاعون بالشأم ، وكان يسكنها فى الصيف (وأما رصافة بغداد ففى الجانب الشرقى من بغداد بناها المهدى سنة ١٥٩) .

« إن أهل هذا البيت من بنى عمكم قد كانوا هلكوا جوعا ، حتى كانت هِمَّة أحدهم قُوت عياله ، فلما وَلِى خالد العراق أعطاهم الأموال ، فقَوُوا بها حتى تاقت أنفسهم إلى طلب الخلافة ، وما خرج زيد إلا عن رَأْى خالد ، والدليل على ذلك نزول خالد بالقرية على مَدْرَجَة العراق يَسْتَنْشِى[١] أخباره » .

وكان يوسف قد أمر الرسول بتصديق ما كتب به ففعل ، فقال له هشام : كذبت وكذب مَنْ أرسلك ، ومهما اتهمنا خالدًا فلسنا نتّهمه فى طاعة ، وأمر به فُوجِئَت[٢] عنقه وبلغ الخبر خالدًا فسار حتى نزل دمشق .

(تاريخ الطبرى ٩ : ١٨ ، ووفيات الأعيان ٢ : ٣٦٢)

٤٦٨ — كتاب يوسف بن عمر إلى هشام

ولما طالت ولاية نصر بن سيار ودانت له خراسان ، كتب يوسف بن عمر إلى هشام — حسدًا له — :

« إن خراسان دَبِرَةٌ دبرة[٣] ، فإن رأى أمير المؤمنين أن يضمها إلى العراق ، فأُسَرِّحَ إليها الحكَم بن الصَّلْت ، فإنه كان مع الجُنَيد[٤] وَوَلِىَ جَسيم أعمالهم ، فأُعَمِّرَ بلاد أمير المؤمنين بالحكم ، وأنا باعث بالحكم بن الصلت إلى أمير المؤمنين ، فإنه أَدِيبٌ أَرِيب[٥] ، ونصيحتُه لأمير المؤمنين مثل نصيحتنا ومودتنا أهلَ البيت » .

٤٦٩ — رد هشام على يوسف

وقَدِم الحكم على هشام بخَراج العراق ، فرأى له جمالا وبيانا ، فكتب إلى يوسف:

---

(١) المدرجة : المذهب والمسلك ، واستنشا الأخبار : تتبعها . (٢) أى ضربت .

(٣) الدبرة بالتحريك : قرحة الدابة ، ودبرت كفرح فهى دبرة كفرحة، يريد أنها موطن للقلاقل والفتن . (٤) هو الجنيد بن عبد الرحمن ، وقد تقدم أنه ولى خراسان سنة ١١١ هـ .

(٥) أى عاقل ، أرب إربا كصغر صغرا وأرابة ككرامة فهو أريب وأرب كفرح .

« إن الحكم قديم ، وهو على ما وصفتَ ، وفيما قِبَلك له سَعَةٌ ، وخلٌّ الكنانيَّ وعَمَله » وكان ذلك سنة ١٢٣ هـ . (تاريخ الطبرى ٨ : ٢٧٩)

وكتب يُوسف إلى هشام أيضاً يذكر كِبَر نصر وضعفه ، ويذكر له سَلْمَ بن قُتَيبة، فكتب إليه هشام : « أَلْهُ عن ذكر الكنانىّ » . (تاريخ الطبرى ٨ : ٢٧٩ - ٢٨٠)

٤٧٠ - كتاب أحد عمال يوسف بن عمر إليه

وقال سِماك بن حرب : بعث إلى يُوسف بن عمر ، وهو أمير العراق ، أن عاملا لى كتب إلىّ :

« إنى قد زرعت لك كل خَقّ ولَقّ » :

فما هما ؟ فقلت : إن الخَقّ ما اطمأن من الأرض ، واللَّقّ ما ارتفع منها[١] .

(وفيات الأعيان ٢ : ٢٦٣)

٤٧١ - كتاب رجل من حمص إلى هشام

وجاء فى العقد الفريد :

روى الهَيثم بن عَدِىّ قال : كان سعيد بن هشام بن عبدالملك عاملا لأبيه على حِمْص ، وكان يُرْمَى بالنساء والشراب ، فقَدِم حمصىٌّ لهشام ، فلقِيَه أبو جَعْد الطائى فى طريق، فقال له : هل ترى أن أُعطيَك هذه الفرس ، فإنى لا أعلم بمكان مِثْلِها ؟ على أن تبلِّغَ هذا الكتابَ أمير المؤمنين ، ليس فيه حاجة بمسألة دينار ولادرهم ، فأخذها وأخذ الكتاب ، فلما قَدِم على هشام سأله : ما قِصَّةُ هذا الفرس[٢] ؟ فأخبره فقال : هاتِ الكتاب فإذا فيه :

أبلِغْ إليك أميرَ المؤمنين ، فقد أمْدَدْتنا بأميرٍ ليس عِنِّينا
طَوْرًا يُخالِفُ عَمْرًا فى حَليلته وعند ساحته يُسْقَى الطِّلاَ دِينا[٣]

---

(١) وفى كتب اللغة : الحق : الشق فى الأرض ، والغدير اليابس إذا جف ، وشبه حفرة غامضة فى الأرض ، واللق : الصدع فى الأرض ، أو كل أرض ضيقة مستطيلة ، قال صاحب اللسان : ومنه كتاب عبد الملك إلى الحجاج « لاتدع خقا ولالقا إلازرعته» وضبطهما ابن خلكان بضم الخاء واللام ، ولكنهما فى كتب اللغة بالفتح .

(٢) الفرس . الذكر والأنثى ، أو هى فرسة . (٣) الطلاء: الخمر .

فلما قرأ الكتاب بعث إلى سعيد فأشخصه ، فلما قدِم عليه عَلاه بالخيزُرانة ، وقال : يابن الخبيثة ، تزنى وأنت أبن أمير المؤمنين ! وَيْلَك ! أعَجَزْتَ أن تفجُر فجور قريش ، أوَ تدرى ما فجورُ قريش لا أمّ لك ؟ قتل هذا وأخذ مال هذا ، والله لا تَلِي لى عملا حتى تموت ، فما وَلِيَ له عملا حتى مات . (العقد الفريد ٢ : ٢٨٤)

٤٧٢ — كتاب سليمان بن هشام إلى أبيه

وكتب سليمان بن هشام إلى أبيه هشام بن عبد الملك :

« أن بَغْلتى قد عجَزتْ عنّى ، فإن رَأى أمير المؤمنين أن يأمر لى بدابّةٍ فَعَلَ » .

٤٧٣ — رد هشام عليه

فكتب إليه :

« قد فهِم أميرُ المؤمنين كتابك ، وما ذكرتَ من ضعف دابّتك ، وقد ظنّ أمير المؤمنين أن ذلك من قلّة تعهُّدك لِعَلَفها ، وأن علَفَها يضيع ، فتعهّدْ دابتك فى القيام عليها بنفسك ، ويرَى أميرُ المؤمنين رأيَه فى حُملاَنك[1] » .

(تاريخ الطبرى ٨ : ٢٨٥)

٤٧٤ — كتاب بعض عمال هشام إليه

وكتب إليه بعض عُمّاله :

« إنى قد بعثتُ إلى أمير المؤمنين بسلّة دُرّاقِن[2] ، فليكتب إلىّ أمير المؤمنين بوصولها » .

---

(١) أى فى حملك ، حمله حملا (بالفتح) وحملانا .

(٢) الدراقن ، وقد تشدد الراء : المشمش والخوخ ، شامية .

٤٧٥ – رد هشام عليه

فكتب إليه :

« قد وَصَلَ إلى أمير المؤمنين الدراقنُ الذى بعثتَ به ، فأعْجَبَه ، فزِدْ أمير المؤمنين منه ، واسْتَوْثِقْ من الوِعَاء » . (تاريخ الطبرى ٨ : ٢٨٦)

٤٧٦ – كتابه إلى بعض عماله

وكتب إلى بعض عماله :

« قد وصَلَتِ الكَمْأَةُ التى بعثتَ بها إلى أمير المؤمنين ، وهى أربعون ، وقد تغيَّرَ بعضُها ، ولم تُؤْتَ فى ذلك إلاَّ من حَشْوِها ، فإذا بعثتَ إلى أمير المؤمنين منها شيئاً ، فَأَجِدْ حَشْوَها فى الظَّرف الذى تجعلها فيه بالرَّمْل ، حتى لا تضطرِبَ ، ولا يصيبَ بعضُها بعضا » . (تاريخ الطبرى ٨ : ٢٨٦)

٤٧٧ – كتاب سالم إلى بعض إخوانه

وكتب سالم(١) إلى بعض إخوانه :

« أما بعدُ ، فقد أصبحتُ عظيمَ الشكر لِمَا سَلَفَ إلَيَّ منك ، جسيمَ الرجاء فيما بَقِيَ لى عندك ، قد جعل الله مستقبلَ رجائى منك عَوْنا لى على شكرك ، وجعل ما سَلَفَ إلَيَّ منك عونا على مُؤْتَنَفِ الرجاءِ فيك » .

(اختيار المنظوم والمنثور ١٣ : ٣٧٩)

---

(١) ويكنى أبا العلاء ، كاتب هشام بن عبد الملك ، وكان خَتَن عبد الحميد بن يحيى الكاتب (والختن بالتحريك : الصهر ، وكل من كان من قبل المرأة كالأب والأخ) وكان أحد الفصحاء البلغاء ، وقد نقل من رسائل أرسطاليس إلى الإسكندر – انظر الفهرست لابن النديم ص ١٧١ .

٤٧٨ - كتابه فى الاعتذار

وكتب سالم فى الاعتذار :

« أمتَعَك اُلله وأمتَعَ بك ، لولا أنه إذا ضاق علىّ المَخْرَجُ الك ، وَسِعَك عُذرى ، بَسَطْتُ لسانَ لائمتى فى تركك لائمتى فيما خالف هواكَ » .

(اختيار المنظوم والمنثور ١٣ : ٣٨٩)

٤٧٩ - كتاب عبد الحميد بن يحيى عن هشام إلى يوسف بن عمر

وكتب عبد الحميد بن يحيى[1] عن هشام بن عبد الملك إلى يوسف بن عمر وهو باليمن ، فى السلامة :

« فإن أمير المؤمنين كتب إليك ، وهو فى نعمة الله عليه ، وبَلائه عنده : فى وَلَده ، وأهلِ لُحمته[2] ، والخاصِّ من أموره والعامِّ ، والجنودِ ، والقواصى ، والثغورِ ، والدَّهْماءِ[3] من المسلمين ، على مالم يزَلْ وَلِىَ النعم يتولاه من أمير المؤمنين ، حافظا له فيه ، مُكثِرا له بالحِياطة لِما ألهمه الله فيه من أمر رعيته على أعظمِ وأحسن وأكمل

(١) هو عبد الحميد بن يحيى بن سعيد، مولى بنى عامر بن لؤى بن غالب ، وهو من أهل الشأم ، وكان أول أمره معلم صبية يتنقل فى البلدان ، ثم اتصل بمروان بن محمد آخر خلفاء بنى أمية أيام ولايته أرمينية قبل استخلافه ، وصحبه وكتب له وانقطع إليه. فلما جاء الأمر بالخلافة سجد مروان وسجد أصحابه إلا عبد الحميد ، فقال له مروان : لم لم تسجد ؟ فقال : ولم أسجد ؟ على أن كنت معنا فطرت عنا ؟ يعنى الخلافة ، فقال : إذن تطير معى ، قال : الآن طاب السجود وسجد وكان كاتب مروان طول خلافته .
وكان شيخه فى الكتابة سالما أبا العلاء (مولى هشام بن عبد الملك وكاتبه) وبرع عبد الحميد فى الكتابة ، حتى ضرب به المثل فى البلاغة ، فقيل : « فتحت الرسائل بعبد الحميد ، وختمت بابن العميد » وهو الذى سهل سبيل البلاغة فى الترسل ، وأول من أطال الرسائل ، واستعمل التحميدات المطولة فى فصول الكتب ، وعنه أخذ المترسلون ، ولآثاره اقتفوا ، وقد استعمل فى بعض كتبه الإيجاز البليغ ، وفى بعضها الإسهاب المفرط ، على ما يقتضيه الحال (انظر رسالته عن مروان إلى ابنه عبد الله وستأتى) قال ابن النديم: ومجموع رسائله نحو ألف ورقة ، وتوفى سنة ١٣٢ هـ   (٢) اللحمة : القرابة .
(٣) الدهماء : جماعة الناس.

ما كان يَحُوطه فيه ، ويذُبُّ له عنه ، والله محمود مشكور إليه فيه مرغوب .

أحبَّ أمير المؤمنين — لعِلْمه بسرورك به — أن يكتب إليك بذلك ، لتحمَدَ الله عليه ، وتشكره به ، فإن الشكر من الله بأحسن المواضع ، وأعظم المنازل ، فازْدَد منه تَزْدَدْ به ، وحافظ عليه تُحْفَظ به ، وارغب فيه يُهْدِ إليك مزيدَ الخير ، وتفاُنس المواهب ، وبقاء النِّعم ، فاقرأ على من قِبَلَك كتابَ أمير المؤمنين إليك ، ليُسرَّ به جندُك ورعِيتك ، ومن خَوّله الله النعمَ بأمير المؤمنين ، ليَحْمَدوا ربهم على مارزق اللهُ عبادَه من سلامة أمير المؤمنين فى بدنه ، ورأفتِه بهم ، واعتنائه بأمورهم ، فإن زيادة الله تعلو شكر الشاكرين ، والسلام » . (اختيار المنظوم والمنثور ١٣ : ٣٦٦)

٤٨٠ — كتاب عبد الحميد عن مروان إلى هشام

وكتب عن مروان بن محمد إلى هشام بن عبد الملك يعزيه بامرأة من حَظَاياه :

« إن الله تعالى أمتَعَ أمير المؤمنين من أنيسته وقرينته متاعا مَدّهُ إلى أجل مُسَمَّى ، فلما تَمّتْ له مواهبُ الله وعارِيّته[1] ، قَبَض إليه العَارِيَّة ، ثم أعطى أميرَ المؤمنين من الشكر عند بقائها ، والصبرِ عند ذهابها ، أنفَسَ منها فى المنقَلَب ، وأرجَحَ فى الميزان ، وأسْنَى[2] فى العِوَض ، فالحمد لله رب العالمين ، وإنا لله وإنا إليه راجعون » . (سرح العيون ص ١٦٤)

٤٨١ — كتابه عن مروان إلى هشام

وكتب عبد الحميد أيضا عن مروان بن محمد إلى هشام بن عبد الملك يعزيه عن مولودين ، هلك أحدهما وبقِيَ الآخر :

« الشكرُ على النِّعمة ، والصبرُ على النكْبة ، وتأديةُ الحق فى ميسور الأمور

---

(١) العارية مشددة وقد تخفف . (٢) أرفع ، من السناء ، وهو الرفعة .

ومعسورها ، ومحبوبها ومكروهها ، مَن استعمله كان شُكْرُ الله أَوْلَى به مِنْ صبره ، فيُوجِبُ له بالشكر على النعمة المزيدَ ، وبالصبر على المصيبة الأجرَ ، بما أدّى من الحق فى نفسه ، واقتدى به أهلُ دهرِه » . (اختيار المنظوم والمنثور ١٣ : ٣٠٦)

٤٨٢ - رسالة عبد الحميد فى وصف الإخاء

ولعبد الحميد فى وصف الإخاء :

« فإن أَوْلَى ما اعتَزَم عليه ذوو الإخاء ، وتواصل عليه[١] أهلُ المَوَدّات ، ما دعا أسبابَه صدقُ التقوى ، وبُنِيَتْ دعائمُه على أساس البِرِّ ، ثم أَنهَدَ البناء حَرِيزُ التواصُل[٢] وشيَّده مستعذَبُ العِشرَة ، فادَّعَم قويًّا ، وصفا مُونِقا[٣] وَأَخْلَصَتْهُ المِقَةُ[٤] مُنْعَطِفَةً ، وسَكَنَتْ به القلوبُ أنيسةً ، وسَمَتْ من مُواصَلَته الهِمَمُ مستعليةً عن كل زائغ معتاق[٥] ومَخُوف عارِض يخترِمُ مُسْكَةَ الإخاء ، ويحتزّ مَرْبُوبَ[٦] المِقة ، ضِنًّا بما استعذبوا من محمود وثائقه ، وازدياداً فيما تمطَّقوا به من حلاوة جَناه[٧] فإذا استحكم لهم مَذْخُورُ الصَّفاء بِثَبات أواخِيه[٨] ، وظهورِ أعلامِه ، وَحُصول مُخْتَبَره ، وثقة مَوَدَّه ، كان سرورهم باعتلاقه[٩] ، وابتهاجُهم بوِجْدَانه[١٠] ، وإنماؤُهم[١١] صِلتَه ، وَبَذْلُهم رِعَايَتَه ، وحِياطتُهم محمودَهُ ، بحيث نالوا من معرفة حُظُوته ، واستولَوا عليه

(١) فى الأصل « وتوصل إليه » .

(٢) فى الأصل « ثم انهد البنامرين التواصل » وهو تحريف : ونهد كمنع : ارتفع ، وأنهده : رفعه ، والحريز : الحصين . (٣) أى معجبا .

(٤) المقة : المحبة ، ومقه كورثه : أحبه ، وفى الأصل « وبخاصه » وهو تحريف وقد أصلحته كما ترى .

(٥) الزائغ : المائل ، والمعتاق : المعوق ، عاقه وعوقه واعتاقه : ثبطه وصرفه .

(٦) المسكة بالضم : ما يتمسك به ، وربّ المعروف والصنيعة وربّبها : نماها وزادها وأتمها ، ويحتز : يقطع . وفى الأصل « ويختار » وأراه محرفا . والضن : البخل .

(٧) التمطق : التذوق ، والجنى : العسل .

(٨) الأواخى : جمع آخية بتخفيف الياء فيهما ، والأواخى جمع آخية بتشديدها فيهما : عروة تربط إلى وتد مدقوق وتشد فيها الدابة . (٩) أى بالتعلق به . (١٠) أى بوجوده .

(١١) فى الأصل « وإنما هم » وهو تحريف .

من مَزيّة كرمه ، وتعرّفوا من ذخيرة عائدته[١] ، ومأمونِ حِفاظه ، وكشفَ لهم عن نفسه ، مُظهِراً أعلامَه ، مُبْديا دفينَتَه ، طارِحا قِناعَ سِرِّه ، مُعْلِناً مكنونَ ضميره ، في نأى الدار ، وجدان[٢] المجتمع ، بإظهار ما استتر من المحاسن ، وبثّ في الحِقَب[٣] من المكارم ، قياما لهم بالنُّصْرة ، وحِياطاً المودّة ، وترغيبا في العِشرة ، فكان أكهفَ[٤] لجَأ ، وأحرزَ حِصْن ، وأحصف جُنّة[٥] وأعونَ ظهير ، وأبقَى ذخيرة ، وأعظم فائدة ، وأشرف كَنز ، وأفخر صنيعة ، وآنَق منظر ، وأينع زهرة ، أكثر الأشياء رَيْعا[٦] وأنماها وَصْلا ، وأمدّها سَبَبا ، وأقواها أيْدا ، وأحلاها ذوقا ، وأدْعَمها ثباتا ، وأرساها ركنا ، لايدخل مستحقّها سآمةُ مَلال ، ولا كَلال مِهنة[٧] ، ولا تثبيط وَنْية ، ولا ضَعف خَوَر ، لنزول بائقة ، أو طُروق طارقة ، من عوارض الأقدار ، وحوادث الزمان ، بل مُواسيا في إزَمها[٨] ، متورِّطا غمَرات قُحَمها ، متدرِّعا هائلَ بوائقِها ، مستلحِماً نَواظِرَ مَقاطِعِها[٩] ، حتى تَصيرَ به الأقدارُ إلى تناهيها ، ويَبْلُغَ به القضاء مقدارَه ، غير منّان بالنصرة ، ولا بَرِمٍ[١٠] بالتعب، يرى تَعَبَه غُنْما ،

---

(١) العائدة . المعروف والصلة والمنفعة .

(٢) كذا في الأصل ، والمعنى عليه غير ظاهر .

(٣) الحقب : جمع حقبة بالكسر ، وهى من الدهر مدة لاوقت لها ، والسنة .

(٤) الكهف والجأ بالتحريك والملجأ والموئل والوزر والملاذ والمعقل : واحد ، ومعنى أكهف : أمنع وأحصن .

(٥) الجنة : كل ماوق ، وحصف عقله ككرم فهو حصيف: أى محكم العقل جيد الرأى ، وأحصف الأمر . أحكمه ، والحبل : أحكم فتله ، وربما كان الأصل « وأحصن » . والظهير : المعين ، وأنق الشيء كفرح : راع حسنه وأعجب ، فهو أنيق أى حسن معجب .

(٦) راع يريع ريعاً : نما وزاد وزكا . والأيد : القوة .

(٧) المهنة بالكسر والفتح والتحريك وككلمة: الحذق بالخدمة والعمل ، ويقال: افعل ذلك بلا ونية: أى بلا توان ، والبائقة : الداهية ، والجمع بوائق .

(٨) الأزمة بالفتح ويحرك:الشدة،والجمع أزم بالفتح وإزم كعنب ، والورطة : الهلكة (بالتحريك) وكل أمر تعسر النجاة منه . وتورط فيه : وقع ، والغمرة بالفتح : الشدة ، والقحم جمع القحمة بالضم : وهى المهلكة . (٩) يقال : استلحم الطريق اذا تبعه ، ونواظر جمع ناظرة، والمعنى متتبعا مقاطعها التى تنظره وترقبه .

(١٠) برم بالأمر كفرح : ضجر وسئم،وفي الأصل«غير منان النصرة ولابرم التعب» وهو تحريف .

وَنَصَبَهُ دَعَةً ، وَكُلْفَهُ[١] فائدة ، وعَمَله مقصِّرا ، وسعيه مفرِّطا ، واجتهاده مضيعا ، عَدْل[٢] الولد في بِرّه ، والوالدِ في شفقته ، والأخ في نُصرته ، والجار في حفظه ، والذُّخر في مِلكه ، فأين المَعْدَلُ عن مثله ؟ أو كيف الإصابةُ لشبهه ؟ أو أنَّى عِوَضٌ مِنْ فَقْده ؟ جَمَعَنَا اللهُ وإياك على طاعته ، وألَّفنا بمَحَابِّهِ ، وجعل أُخُوَّتَنا في ذاته .

قد حَدَدْتُ لك أي أخِي الإخاء متشعِّبا ، ووصفتُه لك مُخْلَصا[٣] ، وانتهيتُ بك إلى غاية أهلِ العقل منه ، وما تَواصَلَ أهل الرأي عليه ، ودعا إليه الإخاء من نفسه ، مُنتَطِقا[٤] به ، ضامنا له ما فرط في ذلك تقصير من أهله ، وداخله تضييعٌ مِنْ حَمَلَتِه ، أو حاطه إحكام ، وكَنَفَه حِفاظ من رُعاته .

وافاني كتابُك بما سألتَ من ذلك ، وعَقْلي مَحْصورٌ ، ورأيي منقسِم ، وذِهني فيما يتأهّب به الأميرُ لقتال عدوِّ الله[٥] من خَزَر التُّرك ، واختلافِ رُسُله إلى جبال اللَّانِ والطَّبَرَانِ وما والاها ، بنوافذِ أمرِه ، ومَخَارِج رَأيه ، فأنا مُصِيخٌ[٦] السمع

---

(١) كلف لأمر كفرح كلفا وتكلفه : تجشمه على مشقة ، والكلفة بالضم : ما تكلفت من أمر

(٢) العدل بالفتح والكسر والعديل : المثل والنظير .

(٣) أي خالصاً من الدنس .

(٤) انتطق بالنطاق : شده في وسطه ، وكنفه : حفظه وصانه .

(٥) في الأصل « يتأهب به الأمير ... والله من خزر الترك ... الخ » وقد تممته بما ترى كما يقتضيه سياق الكلام ، والأمير المعنيّ هنا هو مروان بن محمد وكان هشام بن عبد الملك ولاه أرمينية وأذربيجان سنة ١١٤ هـ (انظر تاريخ الطبري ٨ : ٢١٧) واستمر واليا عليها إلى أن تقلد الخلافة ، وكان عبد الحميد متصلا بمروان قبل استخلافه منقطعاً إليه كما قدمنا في ترجمته ، والخزر : اسم جيل من الترك كانوا يسكنون على السواحل الشمالية والغربية من بحر الخزر (بحر طبرستان ، وهو بحر قزوين) ، واللان : بلاد واسعة في طرف أرمينية قرب باب الأبواب يجاورون الخزر (وباب الأبواب : مدينة على الشاطىء الغربي لبحر الخزر) والطبران : جنوبي بحر الخزر ، وكان هشام قد ولى أرمينية قبل مروان الجراح بن عبد الله الحكمي سنة ١١١ هـ ، وفي سنة ١١٢ سار الترك من اللان فلقيهم الجراح فيمن معه من أهل الشأم وأذربيجان ، فلم يتتام إليه جيشه ، فاستشهد الجراح ومن كان معه - انظر تاريخ الطبري ٨ : ٢٠٥ .

(٦) أصاخ له : استمع .

لِلَفْظه ، عَقِل[١] العقلِ عن سِوَى أمره ، مُحْتَضِر[٢] الذِّهن فى تدبيرهم ، ذَهِلُ[٣] القلب عن تَفنِين القول وتَشْغِيب الكلام فى تَصْنيف طبقاتِ الرجال ، ومن أينَ دَخَل عليهم نقصُ الإخاء ، وكيفَ خانَهم مُونِقُ[٤] الصّفاء ، وقد شَرَحْتُ لك عن رأى ذوى الصَّفاء ، وكشفتُ لك خِبَاءَ الإخاء ، وجَمَعْتُ لك إلْفَ[٥] مودّةِ أهل الحِجا ، فتَلَقَّ ما وصَفْتُ لك بقلب فَهِمٍ عَقُولٍ ذى مِيزة يَقْظَان ، وذهنٍ جامعٍ ذى ثَقافةٍ رَاعٍ[٦] ، أحضَرك الله عِصْمَةَ التوفيق ، وسَدَّدك الله لإصابة الرشد ، ومكَّن لك صِدْقَ العزيمة ، والسلام » . (اختيار المنظوم والمنثور ١٣ : ٣٩٨)

٤٨٣ — كتاب الوليد بن يزيد بن عبد الملك إلى هشام

وكان يزيدُ بن عبد الملك بن مَرْوان عَقَد الخلافة لابنه الوليد بعد أخيه هشام ابن عبد الملك[٧] ، ووَلِىَ هشامٌ وهو للوليد مُكَرِّمٌ مُعظِّمٌ مُقرِّب ، فلم يزل ذلك من أمرهما ، حتى ظهر من الوليد بن يزيد مُجُون ، وشَرِب الشرابَ ، وحَمَله على ذلك عبدُ الصَّمد بن عبد الأعلى الشَّيبانى ـ وكان مُؤَدِّب الوليد ، وكان فيما يقال زنديقا ـ وبدا للناس منه تهاوُن بالدين واستخفاف به ، وبلغ ذلك هشاما فطمِع فى خلعه والبيعة لابنه مَسْلَمَة بن هشام ، وأراده على ذلك فأبى ، فقال له : اجعلها له من بعدك فأبى ، فتنكّر له هشام وأضرّ به وعمِل سِرًّا فى البيعة لابنه فأجابه قوم .

---

(١) عقله كضربه : حبسه ، وعقل الشىء بمعنى تدبره وفهمه ، من ذاك ، لأنه يقيده ويحبسه ، وهو من باب ضرب أيضاً ، قال صاحب المصباح : « وعقلت الشىء من باب ضرب: تدبرته ، وعقل يعقل من باب تعب لغة » فقوله « عقل » صفة من عقل كتعب أى معقول العقل أى محبوسه ، وربما كان الأصل « عقيل » بمعنى معقول كجريح وأسير . (٢) حضر واحتضر: ضد غاب، أى حاضر الذهن .

(٣) ذهل عنه ، نسيه وغفل عنه، وبابه قطع ، وكفرح لغة .

(٤) أنقه الشىء : أعجبه.

(٥) ألفه كعلمه إلفا بالكسر والفتح . (٦) أى حافظ .

(٧) وذلك أن الوليد يوم عقد له أبوه يزيد الخلافة كان ابن إحدى عشرة سنة فلم يمت يزيد حتى بلغ الوليد خمس عشرة سنة ، فندم يزيد على استخلافه هشاما أخاه بعده، وكان إذا نظر إلى ابنه الوليد قال: الله بينى وبين من جعل هشاما بينى وبينك .

وتمادَى الوليد فى الشراب وطلب اللّذات فأفرط ، فقال له هشام : وَيْحَكَ ياوليد ! والله ما أدرى : أعَلَى الإسلام أنت أم لا ؟ ما تَدَع شيئاً من المنكر إلا أتيته غير متحاشٍ ولا مستَتِرٍ به ، فكتب إليه الوليد :

« يأيُّها السائلُ عن ديننا نحن على دين أبى شاكِرِ
نشربُها صِرْفاً وممزوجةً بالسُّخْن أحيانا وبالفاتِرِ »

فغضب هشام على ابنه مسلمة - وكان يُكْنَى أبا شاكر - وقال له : يعيِّرنى بك الوليد ، وأنا أرشِّحك للخلافة ! فالزم الأدبَ، واحضُر الجماعة، وولاه الموسم سنة ١١٩ هـ فأظهر النُّسْك والوَقَار واللِّين ، وقسَّمَ بمكة والمدينة أموالا .

(تاريخ الطبرى ٨ : ٢٨٩ ، والأغانى ٢ : ٧٦)

٤٨٤ - كتاب أبى شاكر مسلمة بن هشام إلى خالد القسرى

وقال خالد بن عبد الله القَسْرى : أنا برىء من خليفةٍ يُكْنَى أبا شاكر ، فغضب مسلمة بن هشام على خالد ، فلما مات أسد بن عبد الله أخو خالد سنة ١٢٠ كتب أبو شاكر إلى خالد بشعرٍ هجا به نَوْفَلٌ خالداً وأخاه أسداً حين مات :

« أراحَ من خالدٍ وأهلكَهُ ربٌّ أراحَ العبادَ من أسَدِ
أمّا أبوه فكان مُؤْتَشَباً عَبْداً لئيما لِأَعْبُدٍ قُفُدِ »[(١)]

وبعث الطُّومار[(٢)] مع رسول على البريد إلى خالد ، فظنّ أنه عزّاه عن أخيه ، ففضّ الخاتَم ، فلم يَرَ فى الطومار غيرَ الهجاء ، فقال : ما رأيت كاليوم تعزيةً !

(تاريخ الطبرى ٨ : ٢٨٩)

---

(١) هو مؤتشب بالفتح : أى غير صريح فى نسبه، وقفد : جمع أقفد ، والعبد الأقفد : الكز اليدين والرجلين القصير الأصابع (والكز : وصف من الكزازة بالفتح وهى اليبس والانقباض) والأقفد : المسترخى العنق أو الغليظة ، ومن يمشى على صدور قدميه من قبل الأصابع ، ولا تبلغ عقباه الأرض، ومن يرى مقدم رجليه من مؤخرها من خلف ، وفعله كفرح .

(٢) الطومار : الصحيفة .

٤٨٥ - كتاب هشام إلى الوليد

وكان هشام يَعيب الوليد وينتقّصه وكثُرَ عَبَثُه به وبأصحابه وتقصيرُه به ، فلما رأى ذلك الوليد خرج ، وخرج معه ناس من خاصّته ومَواليه ، فنزل بالأَزْرَق[1] ، وخلَّف كاتِبَه عِيَاضَ بن مُسْلِمٍ بالرُّصافة[2] ، فقال له : اكتب إلىّ ما يحدُث قِبلكم ، وأخرَج معه عبد الصمد بن عبد الأعلى ، فشربوا يوما ، فلما أخذ فيهم الشرابُ ، قال الوليد لعبد الصمد : يا أبا وَهْب قل أبياتا ، فقال أبياتا منها :

لَعَلّ الوليدَ دنا مُلْكُهُ ... فأَمْسَى إليه قد استَجْمَعا[3]
وكنا نُؤَمِّل فى مُلكه ... كتأميلِ ذى الجَدْب أن يُمْرِعا[4]
عَقَدْنا له مُحْكَمَاتِ الأمو ... رِ طَوْعا فكان لها مَوْضِعا

ورُوِى الشعر فبلغ هشاما ، فقطع عن الوليد ما كان يُجْرِى عليه ، وكتب إلى الوليد :

« بلغنى عنك أنك اتخذتَ عبدَ الصَّمَد خِدْنا[5] ومُحدِّثا ونَدِيما ، وقد حقَّق ذلك عندى ما بلغَنى عنك ، ولم أُبرِّئْك من سوء ، فأَخْرِج عبد الصمد مذموما مَدْحورا[6] » .

فأخرجه الوليد ، وكتب إلى هشام يُعْلِمه بإخراجه ، واعتذر إليه مما بلغه من منادمته ، وسأله أن يأذن لابن سُهَيْل فى الخروج إليه - وكان ابن سهيل من أهل اليمن ، وقد وَلِىَ دِمَشْقَ غيرَ مرّة ، وكان من خاصّة الوليد - فضرب هشام ابنَ سهيل وسيَّره ،

---

(١) الأزرق : ماء فى طريق حاج الشأم دون تيماء وتيماء بالفتح : بليد فى أطراف الشام بين الشام ووادى القرى ، على طريق حاج الشأم ودمشق .

(٢) انظر ص ٣٦٥ .

(٣) يقال : اجتمع وجامع وتجمع واستجمع .

(٤) أى أن يصيب مكانا مريعا ، والمريع كخصيب وزنا ومعنى .

(٥) الخدن والخدين : الصاحب . (٦) الدحر : الطرد والإبعاد .

وأخذ عياضَ بن مسلم كاتب الوليد — وبلغه أنه يكتب بالأخبار إلى الوليد — فضربه ضربا مُبَرِّحا وألبسه المُسُوح[1] (تاريخ الطبرى ٨ : ٢٩٠)

٤٨٦ — كتاب الوليد إلى هشام

وبلغ ذلك الوليد[2] فكتب إلى هشام :

« لقد بلَغنى الذى أحدَثَ أميرُ المؤمنين : مِنْ قَطْعِ ما قَطَعَ عنى ، ومَحْوِ ما مَحَا من أصحابى وحُرَمى[3] وأهلى ، ولم أكن أخافُ أن يبتلِيَ اللهُ أميرَ المؤمنين بذلك ، ولا أبالِي به منه ، فإن يكن ابن سُهَيْل كان منه ما كان ، فيَحْسَبُ العَيْرُ[4] أن يكون قدرَ الذِّئب ، ولم يَبْلُغ صَنِيعى[5] فى ابن سهيل واستصلاحه ، وكتابى إلى أميرالمؤمنين فيه كُنْهَ[6] ما بلغ أميرُ المؤمنين من قطيعتى ، فإن يكن ذلك لِشىء فى نفس أمير المؤمنين علىّ ، فقد سبَّب اللهُ لى من العهد ، وكتَبَ لى من العُمر ، وقَسَم لى من الرزق ، مالا يقدرُ أحد دون الله عَلَى قطع شىء منه دون مُدَّته ، ولا صرفِ شىء عن مَوَاقِعه ، فقَدَرُ اللهِ يَجْرِى بمقاديره ، فيما أَحَبَّ الناسُ أو كَرِهوا ، ولا تأخيرَ لعاجله ، ولا تعجيلَ لآجِله ، فالناسُ بين ذلك يقترفون الآثام على نفوسهم من الله ، أو يستوجبون الأجورَ عليه ، وأميرُ المؤمنين أحقُّ أمَّتِه بالبَصَر بذلك ، والحفظِ له ، واللهُ الموفِّق لأمير المؤمنين لحُسْنِ القضاء له فى الأمور » . (تاريخ الطبرى ٨ : ٢٩٠)

---

(١) المسوح : جمع مسح بالكسر ، وهو ثوب من الشعر غليظ .

(٢) وقد قال الوليد عند ذلك : « من يثق بالناس ، ومن يصطنع المعروف ؟ هذا الأحول المشئوم قدمه أبى على أهل بيته ، فصيره ولى عهده ، ثم يصنع بى ما ترون ، لا يعلم أن لى فى أحد هوى إلا عبث به ، كتب إلى أن أخرج عبد الصمد فأخرجته ، وكتبت إليه أن يأذن لابن سهيل فى الخروج إلى فضربه وسيره وقد علم رأيى فيه ، وقد علم انقطاع عياض بن مسلم إلى ، وتحرمه بى ، ومكانه منى ، وأنه كاتبى ، فضربه وحبسه . يضارنى بذلك ، اللهم أجرنى منه » .

(٣) الحرم جمع حرمة : وهى ما لايحل انتهاكه .

(٤) العير : الحمار وغلب على الوحشى .

(٥) فى الأصل «من صنيعى» ولا موضع لمن هنا .

(٦) كنه الشيء : جوهره وغايته وقدره .

٤٨٧ — رد هشام على الوليد

فكتب هشام إلى الوليد :

« قد فَهِمَ أمير المؤمنين ما كتبتَ به ، مِنْ قَطْعِ ما قُطِع عنك وغيرِ ذلك ، وأمير المؤمنين يستغفِرُ اللهَ من إجرائه ما كان يُجْرِي عليك ، وأميرُ المؤمنين أخوفُ على نفسه من اقتراف المآثم عليها فى الذى كان يُجْرِي عليك منه فى الذى أحْدَث من قَطْعِ ما قَطَع ومَحْوِ ما محا من صَحابتك ، لِأمْرين: أمّا أحدُهما فإيثارُ أمير المؤمنين إياك بما كان يُجْرِي عليك ، وهو يَعْلَمُ وَضْعَك له وإنفاقَكَهُ فى غير سبيله ، وأما الآخرُ فإثباتُ صَحَابتِك وإدْرارُ أرزاقهم عليهم ، لاينالُهم ما ينالُ المسلمين فى كل عام من مكروهٍ عند قطعِ البُعُوث ، وهم معك تَجُول بهم فى سَفَهك ، ولَأميرُ المؤمنين أحْرَى فى نفسه للتقصير فى القَتْرِ[1] عليك ، منه للاعتداء عليك فيها ، مع أن الله قد بصَّرَ[2] أميرَ المؤمنين فى قَطْعِ ما قَطَع عنك من ذلك ما يرجو به تكفيرَ ما يتخوَّف مما سَلَف فيه منه .

وأمّا ابنُ سهيل ، فلَعَمْرِى لئن كان نَزَل منك بما نَزَل ، وكان أهْلًا أنْ تُسَرَّ فيه أو تُساء ، ما جَعَله اللهُ كذلك ، وهل زاد ابنُ سهيل — لله أبُوك — على أن كان مُغَنِّيا زَفَّانا[3] قد بَلَغ فى السَّفَه غايتَه ؟ وليس ابنُ سهيل مع ذلك بِشَرٍّ ممن تستصحبُه فى الأمور التى يُكْرِم أميرُ المؤمنين نفسَه عن ذكرها ، مما كنتَ لَعمرُ اللهِ أهلا للتوبيخ به ، ولَئِن كان أميرُ المؤمنين على ظنِّك به فى الحِرْص على فسادك ،

---

(١) قتر عليه كنصر وضرب ، وقتر : ضيق فى النفقة ، والمعنى : ولأمير المؤمنين أحرى بأن تنسب التقصير بك والقتر عليك (لما تجول فيـــه من سفهك) من أن ينسب للاعتداء عليك ، وضمير « فيها » يعود على « نفسه » .

(٢) أى عرفه وجعله يبصر مايرجو به تكفير مايتخوف...الخ، وفى الأصل «نصر» وأراه مصحفا

(٣) الزفان : الرقاص ، من زفن كضرب : أى رقص .

إنك إذن بغير إلّ[١] ، عن هَوَى أمير المؤمنين من ذلك .

وأما ما ذكرتَ مما سبَّبَ اللهُ لك ، فإن الله قد ابتدأ أميرَ المؤمنين بذلك واصطفاه ، واللهُ بالغُ أمره ، لقد أصبح أمير المؤمنين ، وهوَ على اليقين من ربه ، أنَّهُ لا يَمْلِكُ لنفسه فيما أعطاه من كرامته ضَرًّا ولا نفعا ، وأن الله وَلِيُّ ذلك منه ، وأنه لابُد له من مُزَايَلَته ، والله أرأفُ بعباده وأرحمُ من أن يولِّيَ أمرَهم غيرَ الرَّضِيِّ له منهم ، وإن أمير المؤمنين من حسن ظنه بربه لَعَلَى أحْسَنِ الرجاء أن يولِّيه تسبيبَ ذلك لمن هو أهلُه في الرِّضا له به ولهم ، فإن بلاء[٢] الله عند أمير المؤمنين أعظمُ من أن يَبْلُغَهُ ذكرُه أو يُؤَدِّيَه شكرُهُ إلاَّ بعونٍ منه ، ولئن كان قُدِّر لأمير المؤمنين تعجيلُ وفاةٍ ، إن في الذى هو مُفْضٍ إليه إن شاء الله من كرامة الله لَخَلَفًا من الدنيا .

ولعمرى إن كتابك إلى أمير المؤمنين بما كتبتَ به لَغيرُ مستنكَرٍ من سَفَهك وحُمْقك ، فاربَعْ على نفسِك من غُلَوائها ، وارْقَأْ على ظَلْعِك[٣] ، فإن لله سَطَوَاتٍ وَغِيَرا ، يُصيبُ بذلك من يشاء ، وَيَأْذَنُ فيه لمن يشاء ، ممن شاء الله ، وأمير المؤمنين يسأل الله العِصمةَ والتوفيق لأحبِّ الأمور إليه وأرضاها له .

(تاريخ الطبرى ٨ : ٢٩١)

---

(١) الإل : العهد . أقول : وربما كان الأصل « لغير آل » أى مقصر ، من ألا يألو إذا قصر ، والمعنى : لئن كنت تظن أن أمير المؤمنين حريص على الإساءة إليك ، إن ظنك هذا لايخطئ مايهواه أمير المؤمنين من ذلك ، يريد بهذا أن يصارحه بأنه يهوى إساءته ويستريح إليها .

(٢) أى نعمته .

(٣) ربع كمنع : وقف وانتظر وتحبس ، ورقأ فى الدرجة كمنع وفرح ورقى : صعد ، وظلع كمنع : غمز فى مشيه ، ويقال : اربع عليك أو على نفسك و على ظلعك ، أى إنك ضعيف فانته عما لاتطيقه ، وارق على ظلعك ، وارقأ على ظلعك مهموزا : أى ارفق بنفسك ولا تحمل عليها أكثر مما تطيق — لأن الراقى فى سلم إذا كان ظالعا ترفق بنفسه — أو أصلح أمرك أولا وكف واسكت على مافيك من العيب وأبصر نقصك وعجزك .

٤٨٨ — رد الوليد على هشام

فكتب الوليد إلى هشام :

رأيتُك تَبْنِي جاهِدًا فى قَطيعتى فلو كُنتَ ذا إِرْبٍ لَهَدَّمْتَ ما تبنى[1]
تُثِيرُ على الباقين مَجْنَى ضَغِينةٍ فَوَيْلٌ لَهُمْ إن مُتُّ من شرِّ ما تَجْنِي[2]
كأنى بهم والليتُ أفضلُ قولِهِمْ ألَا لَيْتَنا ، والليتُ إذ ذاك لا يُغني[3]
كَفَرْتَ يداً من مُنْعِمٍ لو شكرتَها جزاك بها الرَّحْمنُ ذو الفضلِ والمَنِّ

فلم يزل الوليد مقيما فى تلك البرِّية حتى مات هشام .

(تاريخ الطبرى ٨ : ٢٩٢ ، والفخرى ص ١١٩)

---

(١) الإرب : العقل .

(٢) وفى رواية الفخرى :

أراك على الباقين تجنى ضغينة فياويحهم إن مت من شرما تجنى

(٣) ليت حرف تمن ، وقد استعملها هنا استعمال المصدر بمعنى التمنى فأدخل عليها أل ، وفى رواية الفخرى :

كأنى بهم يوما ، وأكثر قولهم : « ألا ليت أنا »حين« ياليت »لا يغنى

خلافة الوليد بن يزيد بن عبد الملك

(سنة ١٢٥ — ١٢٦ هـ)

٤٨٩ — كتاب مروان بن محمد إلى الوليد

ووَلِيَ الوليدُ الخلافة ، وجاءته بَيْعَتُه من الآفاق ، وكتب إليه العمال وجاءته الوفود .

وكتبَ إليه مَرْوان بن محمد[١] — وكان على أَرْمِينِيَة وأَذْرَبِيجَان — :

« بَارَكَ اللهُ لأمير المؤمنين فيما أصارَه إليه ، من ولاية عباده ، ووِراثة بلاده ، وكان مِن تَغَشِّي[٢] غَمْرَةِ سَكْرَةِ الولايةِ ما حَمَلَ هشاما على ما حاول من تصغير ما عظَّمَ اللهُ من حقِّ أمير المؤمنين ، ورامَ من الأمر المستَصْعَب عليه[٣] ، الذى أجابه إليه المَدْخولون[٤] فى آرائهم وأديانهم ، فوجدوا ما طَمِعَ فيه مستصعَبا ، وزاحمته

---

(١) هو مروان بن محمد بن مروان بن الحكم ويلقب الجعدى ، لأن الجعد بن درهم مولى بنى الحكم كان يعلمه فنسب إليه ، ويروى أن أم مروان كانت أمة وكان الجعد أخاها ، ويلقب أيضاً بالحمار قالوا لصبره فى الحرب ، وقد ولاه هشام بن عبد الملك أرمينية وأذربيجان ، ثم ولى الخلافة سنة ١٢٧ وهو آخر خلفاء بنى أمية .

(٢) غشيه الأمر غشيانا (بكسر غين المصدر) وتغشاه تغشيا ، والغمرة : الزحمة ، وغمرة كل شىء: منهمكه (أى الانهماك فيه) ويقال : هو فى غمرة من لهو وشبيبة وسكر ، وهو يضرب فى غمرة اللهو ؛ والمعنى أنه قد غمره اللهو وغطاه ، وأصل الغمرة : الماء الكثير .

(٣) قدمنا أن هشاما طمع فى خلع الوليد من الخلافة ، وعمل سرا فى البيعة لابنه مسلمة ، وقد أجابه قوم ، فكان ممن أجابه خالاه محمد وإبراهيم ابنا هشام بن إسماعيل المخزومى وبنو القعقاع بن خليد العبسى وغيرهم من خاصته .

(٤) المدخول : من فى عقله دخل بالتحريك : أى فساد .

الأقدارُ بأشدِّ مَناكبِها[1] ، وكان أمير المؤمنين بمكانٍ من الله حاطه[2] فيه ، حتى أزَّره بأكرم مَناطِقِ الخلافة ، فقام بما رآه الله له أهلا ، ونَهَضَ مستقِلاً[3] بما حمل منها ، مُثْبَتَةً ولايتهُ فى سابق الزُّبُر[4] بالأجَل المسمَّى ، خصَّه الله بها على خَلْقه ، وهو يَرَى حالاتِهم ، فقلَّده طَوْقَها ، ورَمَى إليه بأزِمَّة الخلافة وعِصَم[5] الأمور .

فالحمد لله الذى اختار أمير المؤمنين لخلافته ، ووثائق عُرَى دينه ، وذبَّ له عما كاده فيه الظالمون ، فرَفَعَه ووَضَعَهم ، فمن أقام على تلك الخَسِيسة من الأمور ، أوْبَقَ[6] نفسه ، وأسْخَط ربّه ، ومن عدَّلَته التوبةُ نازِعا[7] عن الباطل إلى الحق وجَدَ اللهَ توّابا رحيما .

أُخْبِرُ أمير المؤمنين ـ أكرمه الله ـ أنِّى عند ما انْتَهى إلىَّ من قيامه بولاية خلافة الله ، نهضتُ إلى مِنْبرى علىَّ سَيْفان ، مستعد بهما لأهل الغِشِّ ، حتى أعلمتُ مَن قِبَلِى ما امتنَّ الله به عليهم من ولاية أمير المؤمنين فاستَبْشَروا لذلك ، وقالوا : لم تأتِنا ولايةُ خليفةٍ كانت آمالُنا فيها أعظَم ، ولا هى لنا أسَرَّ ، من ولاية أمير المؤمنين ، وقد بسطتُ يدى لبَيْعتك لجدَّدْتُها ووَكَّدْتُها بوثائق العهود ، وتَرْدادِ المواثيق ، وبتغليظ الأيمان ، فكلُّهم حسُنَتْ إجابتُهم وطاعتهم ، فأَثِبْهم يا أمير المؤمنين بطاعتهم من مال الله الذى آتاك ، فإنك أجودهم جُودا ، وأبسَطُهم يداً ، وقد انتظروك راجين فضلَك قِبَلهم ، بالرُّحْم[8] الذى استرحموك ، وزِدْهم زيادةً تفْضُلُ بها مَنْ قَبْلَك ، حتى يظهر بذلك فضلُك عليهم على رعيتك .

---

(١) معناه أنها لم تنله مأربه ، والمناكب : جمع منكب كمجلس .

(٢) حاطه . حفظه وصانه ، أزره : ألبسه الإزار ، والمناطق : جمع منطقة كمكنسة ، وهى مايشد به الوسط ، والمعنى : قواه بالخلافة .

(٣) استقل الشىء : حمله ورفعه كقله وأقله .

(٤) الزبر : جمع زبور كصبور وهو الكتاب . (٥) انظر هامش ص ٣٥٣ .

(٦) أى أهلك . (٧) نزع عنه كضرب : كف عنه وانتهى .

(٨) الرحم كقفل وعنق ، والرحمة والمرحمة : الرقة والتعطف .

ولولا ما أحاول من سَدِّ الثَّغْرِ(١) الذى أنا به ، لخفتُ أن يحملنى الشوق إلى أمير المؤمنين أن أستخلفَ رجلا ، على غير أمره ، وأقدَمَ لمعاينة أمير المؤمنين ، فإنها لا يَعْدِلُها(٢) عندى عادِلُ نعمةٍ وإن عظُمَتْ ، فإن رَأَى أمير المؤمنين أن يأْذَنَ لى فى المسير إليه ، لِأُشافِهَه بأمورٍ كَرِهْتُ الكتابَ بها فَعَل » .

(تاريخ الطبرى ٨ : ٢٩٣)

٤٩٠ - كتاب الوليد إلى الأمصار بالبيعة لابنيه

وفى سنة ١٢٥ هـ عَقَد الوليد بن يزيد لابنيه: الحكَم وعثمان البيعةَ من بعده ، وجَعَلهما وليَّىْ عهده ، وجعل الحكم مقدما على عثمان ، وكتب بذلك إلى الأمصار ، وكانت نسخة الكتاب :

« أما بعدُ ، فإن الله تباركَتْ أسماؤه ، وجَلَّ ثناؤه ، وتعالَى ذِكْرُه ، اختار الإسلام دينا لنفسه ، وجَعَلَهُ خير خِيرته مِنْ خَلْقِهِ ، ثم اصْطَفَى من الملائكة رُسُلا ، ومن الناس ، فبعثَهم به وأمرهم به ، وكان بينهم وبين مَنْ مَضَى من الأمم ، وخَلَا(٣) من القرون قَرْنًا فَقَرْنًا ، يدعُون إلى التى هى أحسنُ ، ويَهْدُون إلى صراط مستقيم ، حتى انتهت كرامةُ الله فى نُبُوَّته إلى محمد صلوات الله عليه ، على حين دُرُوسٍ(٤) من العلم ، وعَمًى من الناس ، وتشتيتٍ من الهوى ، وتفرُّقٍ من السُّبُل ، وطُموس من أعلام الحق ، فأبان اللهُ به الهُدَى ، وكشف به العَمَى ، واستَنقذَ به من الضَّلالة والرَّدَى ، وأنهجَ(٥) به الدينَ ، وجعَله رحمةً للعالمين ، وخَتَم به وَحْيَه ، وجمعَ له ما أكرمَ به الأنبياء قبله ، وقفَّى به على آثارهم ، مصدِّقا لما نزل معهم ، ومُهَيْمِنًا(٦) عليه ، وداعيا

(١) الثغر : موضع المخافة من فروج البلدان .
(٢) أى لا يوازنها .
(٣) خلا : مضى .	(٤) درس الأثر : امحى .
(٥) أى أوضح ، وورد هذا الفعل لازما متعديا بمعنى وضح وأوضح ، وكذا نهج كمنع ، وفى الأصل « وأبهج » بالباء وهو تصحيف .	(٦) هيمن عليه : صار رقيبا عليه وحافظا .

إليه ، وآمِرًا به ، حتى كان مَنْ أجابه من أمته ، ودخل فى الدين الذى أكرمهم الله به ، مصدقين لما سَلَف من أنبياء الله ، فيما يكذّبهم فيه قومُهم ، منتصِحين لهم فيما يُنْهونه[1] ذَابِّين لحُرَمهم عما كانوا منتهكين ، معظِّمين منها لما كانوا مُصغِّرين ، فليس من أمة محمد صلى الله عليه وسلم أحدٌ كان يُسْمَع لِأحد من أنبياء الله فيما بعثه الله به مكذِّبا ، ولا عليه فى ذلك طاعنا ، ولا له مُؤذيا ، بِتَسْفيهٍ له أو ردٍّ عليه ، إذ جَحَدَ[2] لما أنزل الله عليه معه ، فلم يبق كافر إلا استحلّ بذلك دمَهُ ، وقَطَعَ الأسبابَ التى كانت بينه وبينه ، وإن كانوا آباءهم أو أبناءهم أو عشيرتهم ، ثم استخلف خلفاءه على مِنهاج نبوّته ، حين قَبَض نبيَّه صلى الله عليه وسلم ، وخَتَم به وحيهُ ، لإنفاذ حُكمه ، وإقامة سنَّته وحدوده ، والأخذ بفرائضه وحقوقه ، تأييداً بهم للإسلام ، وتشييداً بهم لعُراه ، وتقويةً بهم لقُوى حبله ، ودَفْعا بهم عن حَريمه ، وعدلا بهم بين عباده ، وإصلاحا بهم لبلاده ، فإنه تبارك وتعالى يقول : « وَلَوْلَا دَفْعُ اللهِ النَّاسَ بَعْضَهُمْ بِبَعْضٍ لَفَسَدَتِ الأَرْضُ ، وَلٰكِنَّ اللهَ ذُو فَضْلٍ عَلَى العَالَمِينَ » . فتتابعَ خلفاء الله على ما أورثهم الله عليه من أمر أنبيائه ، واستخلفهم عليه منه ، لا يتعرّض لحقهم أحد إلا صَرَعَه الله ، ولا يفارِقُ جماعتَهم أحدٌ إلا أهلكه اللهُ ، ولا يستخِفُّ بولايتهم ويتّهم قضاء الله فيهم أحد إلا أمكنهمُ اللهُ منه ، وسلَّطهم عليه ، وجعله نَكالا وموعظة لغيره ، وكذلك صُنْع الله بمن فارق الطاعةَ ، التى أمَرَ بلزومها ، والأخذِ بها ، والأثَرةِ لها[3] ، والتى قامت بها السمٰوات والأرض ، قال الله تبارك وتعالى : « ثُمَّ اسْتَوَى إِلَى السَّمَاءِ وَهِيَ دُخَانٌ فَقَالَ لَهَا وَلِلْأَرْضِ ائْتِيَا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا قَالَتَا أَتَيْنَا طَائِعِينَ » . وقال عز ذكره : « وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَائِكَةِ إِنِّى جَاعِلٌ فِى الأَرْضِ خَلِيفَةً ، قَالُوا : أَتَجْعَلُ فِيهَا مَنْ

---

(١) أنهى الشيء : أبلغه . (٢) المعنى : إذ أنه لو فعل ذلك لجحد ما أنزل الله عليه .

(٣) أى الإيثار والتفضيل لها .

يُفسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ الدِّمَاءَ وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ ، قَالَ إِنِّي أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ » .

فبالخلافة أبقى اللهُ مَنْ أبقَى فى الأرض من عباده ، وإليها صَيَّره ، وبطاعة مَن ولاَّه إياها سَعِد من أُلهِمَها ونَصرها ، فإن الله عز وجل عَلِمَ أنْ لا قِوامَ لشىء ولا صلاحَ له إلا بالطاعة التى يحفظ الله بها حقَّه ، ويُمضِى بها أمره ، ويُنكِّل[1] بها عن معاصيه ، ويُوقِف عن محارمه ، ويذُبُّ عن حُرُماته ، فمن أخذ بحظِّه منها كان لله وليًّا ، ولأمره مطيعا ، ولرُشْده مصيبا ، ولعاجل الخير وآجله مخصوصا ، ومن تركها ورغِبَ عنها ، وحادَّ[2] الله فيها أضاع نصيبَه ، وعَصَى ربَّه ، وخسِرَ دنياه وآخرته ، وكان مِمَّن غلبَتْ عليه الشِّقوة ، واستحوذت عليه الأمورُ الغاويةُ التى تُورِد أهلها أفظعَ المَشارِع[3] ، وتقودهم إلى شر المَصارِع ، فيما يُحِلُّ اللهُ بهم فى الدنيا من الذلة والنِّقمة ، ويُصَيِّرُهم فيما عندهم[4] من العذاب والحسرة .

والطاعةُ رأسُ هذا الأمر ، وذِرْوتُه وسَنامه ، وزِمامُه ومَلاكه ، وعِصْمته وقِوامه ، بعد كلمة الإخلاص[5] التى ميَّز اللهُ بها بين العباد ، وبالطاعة نال المفلحون من الله منازِلَهم ، واستوجبوا عليه ثوابَهم ، وفى المعصية ما يَحِلُّ بغيرهم من نِقْماته ، ويُصيبهم ويحِقُّ عليهم من سُخْطه وعذابه[6] ، وَيَنزِل بالطاعةِ والإضاعةِ لها والخروجِ منها والإدبارِ عنها والتبدُّل بها ، أهلَكَ اللهُ مَن ضَلَّ وَعتَا[7] ، وَعَمِى وغَلا ، وفارَقَ مناهِجَ البرِّ والتقوى ، فألزَموا طاعةَ الله فيما عَرا كم ونالكم وألَمَّ بكم من الأمور ، وناصِحوها ، واستوثِقُوا عليها ، وسارِعوا إليها ، وخالِصوها ، وابتغُوا القُرْبة إلى الله

---

(١) أنكله عن حاجته : دفعه عنها .   (٢) أى غاضبه وخالفه .

(٣) المشارع : جمع مشرعة بالفتح ، وهى مورد الشاربة .

(٤) هكذا فى الأصل ، والأظهر أن صوابه « فيما أعد لهم من العذاب والحسرة » أى فى الآخرة .

(٥) كلمة الإخلاص كلمة التوحيد .

(٦) فى الأصل : وفى المعصية مما يحل بغيرهم من نقماته ، وتصيبهم عليه ، ويحق من سخطه وعذابه الخ » وأرى أن هذه العبارة مضاربة وقد أصلحتها كما ترى .   (٧) عتا : استكبر وجاوز الحد .

بها ، فإنكم قد رأيتم مواقِعَ قضاء الله لأهلها فى إعلائه إياهم ، وإفلاجِه[1] حُجّتَهم ، ودَفْعِه باطِلَ من حادّهم وناوأهم[2] وساماهم ، وأراد إطفاء نورِ الله الذى معهم ، وخُبِّرتم مع ذلك ما يصير إليه أهلُ المعصية من التوبيخ لهم ، والتقصير بهم ، حتى يَئُولَ أمرُهم إلى تبارٍ[3] وصَغار ، وذِلّة وبوار ، وفى ذلك - لِمن كان رأىٌ وموعِظَةٌ - عِبرةٌ ينتفع بواضِحِها ، ويتمسّك بِحُظُوَتِها[4] ، ويعرف خِيرة قضاء الله لأهلها .

ثم إن الله - وله الحمدُ والمنُّ والفضلُ - هَدَى الأمةَ لِأفضل الأمور عاقبةً لها ، فى حَقْنِ دمائها ، والتِئام أُلفتِها ، واجتماعِ كلمتها ، واعتدالِ عَمُودها ، وإصلاح دَهْمائها[5] وَذَخَر النعمةَ عليها فى دنياها ، بعد خلافته التى جعلها لهم نِظاما ، ولِأمرهم قِواما ، وهو العهدُ الذى ألْهَمَ اللهُ خلفاءه توكيده ، والنظرَ للمسلمين فى جسيمِ أمرهم فيه ، ليكونَ لهم - عند مايَحْدُث بخلفائهم - ثِقَةً فى المَفْزَع ، ومُلْتَجَأً فى الأمر ، ولَمّا للشَّعَث[6] ، وصلاحا لذات البَيْن ، وتثبيتا لأرجاء الإسلام ، وقَطْعا لِنزَغاتِ الشيطان ، فيما يتطلّع إليه أولياؤه ، ويُوَثّبهم عليه مِنْ تَلَف هذا الدين ، وانصداعِ شَعْب[7] أهله ، واختلافهم فيما جَمَعهم الله عليه منه ، فلا يُرِيهم الله فى ذلك إلا ما ساءهم ، وأَكْذَبَ أمانيَّهم ، ويجدون الله قد أحكم - بما قضَى لأوليائه من ذلك - عَقْدَ أمورهم ، ونَفَى عنهم من أراد فيها إدغالا[8] ، أو بها إغلالا ، أو لِما شدّد اللهُ منها توهينا[9] ، أو فيما تولّى الله منها اعتِدادا ، فأكمل الله بها لخلفائه وحزبه البِرَّ ، الذين أودعَهُمْ طاعتَه ، أحسنَ الذى عوّدهُمْ ، وسبّب لَهُم مِن إعزازه وإكرامه ، وإعلائه وتمكينه ، فَأَمْرُ هذا العهد

---

(١) أفلج الله حجته : نصرها وأظهرها .

(٢) ناوأه : عاداه ، وساماه : باراه فى السمو .

(٣) التبار والبوار : الهلاك . والصغار : الذل .

(٤) الحظوة بالضم والكسر : المكانة .

(٥) الدهماء : جماعة الناس ، وذخره : أعده لوقت الحاجة إليه .

(٦) الشعث . الانتشار والتفرق .

(٧) انصداع : انشقاق ، والشعب : الجمع .

(٨) الدغل بالتحريك : دخل فى الأمر مفسد، وأدغل فى الأمر: أدخل مايفسده، والإغلال : الخيانة،

(٩) التوهين الإضعاف .

من تمام الإسلام، وكمال ما استوجبَ اللهُ على أهله من المِنَن العِظام، ومما جعل اللهُ فيه – لِمَن أجْرَاه على يديه، وقضى به على لسانه، ووفَّقه لمن وَلاَّه هذا الأمر – عنده أفضَلَ الذُّخر، وعند المسلمين أحسنَ الأثَر، فيما يُؤثر بهم من منفعته، ويتسع لهم من أمْنه، ويستندون إليه من عِزِّه، ويدخلون فيه من وَزَرِه[1]، الذى يجعل الله لهم به مَنَعَة، ويُحْرِزهُم به من كل مَهلكة، ويَجْمَعُهم به من كل فُرقة، ويَقمَع به أهلَ النفاق، ويَعصِمُهم به من كل اختلاف وشقاق.

فاحمَدوا اللهَ ربَّكم الرءوف بكم، الصانِعَ لكم فى أموركم، على الذى دَلَّكم عليه من هذا العهد، الذى جعله لكم سَكَنًا[2] ومُعَوَّلا، تطمئنُّون إليه وتستظلُّون فى أفنانه[3] ويَسْتَنهِجُ[4] لكم به مَثْنَى أعناقكم، وسَمْت وجوهكم، ومُلْتَقَى نَواصِيكم فى أمر دينكم ودنياكم، فإن لذلك خَطَرًا[5] عظيما من النعمة، وإن فيه من الله بَلاَءً حسنا فى سَعَة العافية، يعرِفُه ذوو الألباب والنِّيَّات، المُرَيِّثون[6] من أعمالهم فى العواقب، والعارفون مَنَار مَناهِج الرُّشد، فأنتم حقيقُون بشكر الله فيما حَفِظ به دينكم وأمرَ جماعتكم من ذلك، جَديرون بمعرفة كُنْه واجب حَقِّه فيه وحَمْدِه على الذى عَزَم لكم منه، فلتكن منزلةُ ذلك منكم، وفضيلتُه فى أنفسكم، على قدر حُسْن بَلاء الله عندكم فيه، إن شاء الله ولا قوة إلا بالله.

ثم إن أميرالمؤمنين لم يكن منذُ استخلفَه اللهُ، بشىء من الأمور أشَدَّ اهتماماً وعنايةً منه بهذا العَهد، لِعلْمه بمنزلته من أمر المسلمين، وما أراهم الله فيه من الأمور التى

---

(١) الوزر: الملجأ.

(٢) السكن: مايسكن إليه.

(٣) الأفنان: جمع فنن بالتحريك، وهو الغصن.

(٤) استنهج الطريق: سلك نهجا أى طريقا واضحا، ومعنى مثنى أعناقكم أى الجهة التى تثنون إليها أعناقكم، إن ذهبتم يمنة أو يسرة، والسمت: الطريق. والنواصى: جمع ناصية، وهى شعر مقدم الرأس، والمعنى: اجتماعكم للنظر فى أموركم.

(٥) الخطر: القدر. والبلاء: النعمة.

(٦) رثأ فى الأمر تريثة، وروأ فيه تروئة وترويئا: نظر فيه وتعقبه ولم يعجل بجواب.

يغبطون بها ، ويُكرِمهم فيما يَقضى لهم ، ويختار له ولهم فيه جُهْده ويَستقضى له ولهم فيه إلهَه ووليَّه الذى بيده الحُكم ، وعنده الغيبُ ، وهو على كل شىء قدير ، ويسأله أن يُعينه من ذلك على الذى هو أرشدُ له خاصّةً ، وللمسلمين عامّة ، فرأى أمير المؤمنين أن يَعهَد لكم عَهْداً بعد عهد ، تكونون فيه على مِثل الذى كان عليه مَنْ كان قبلكم، فى مُهْلَةٍ من انفساح الأمل ، وطُمأنينة النفس ، وصَلاح ذاتِ البَيْن ، وعِلم موضِع الأمرِ الذى جعله الله لأهله عِصْمة ونجاة ، وصلاحا وحياة ، ولكل منافق وفاسق يحبّ تَلَفَ هذا الدين وفسادَ أهله ، وَقْما[1] وخَسارًا وقَدْعًا ، فولَّى أميرُ المؤمنين ذلك الحكَمَ ابنَ أمير المؤمنين وعثمان ابنَ أمير المؤمنين من بعده ، وهما ممن يرجو أمير المؤمنين أن يكون الله خَلَقه لذلك ، وصاغه له ، وأكمَلَ فيه أحسنَ مناقبِ مَن كان يوليِّه إياه ، فى وَفاءِ الرأى ، وصِحّة الدين، وجَزالة المُروءة ، والمعرفة بصالح الأمور ، ولم يَألُكم[2] أميرُ المؤمنين ولا نفسَه فى ذلك اجتهاداً وخيراً .

فبايِعوا للحكَم ابن أمير المؤمنين باسم الله وبَرَكته ، ولأخيه من بعده على السمع والطاعة ، واحتَسِبوا فى ذلك أحسن ما كان الله يريكم ويُبْليكم[3] ويعوّدكم ويعرفكم فى أشباهه فيما مضى من اليُسْر الواسع ، والخير العام ، والفضل العظيم ، الذى أصبحتم فى رجائه وخَفْضه ، وأمنِه ونعمته وسلامته وعِصْمته ، فهو الأمر الذى استبطأتموه واستسرعتم[4] إليه ، وحَمِدتم الله على إمضائه إياه وقضائه لكم ، وأحدثتم فيه شكراً ، ورأيتموه لكم حَظّا تستبقونه ، وتُجْهدون أنفسَكم فى أداء حق الله عليكم ، فإنه قد سبق لكم فى ذلك من نِعَم الله وكرامته وحُسْن قَسْمه ما أنتم حقيقون أن تكونَ رغبتكم فيه وحَدَبُكم[5] عليه ، على قدر الذى أبلاكم الله وصَنَع لكم منه .

---

(١) وقمه كوعده وقما : قهره وأذله ، وقدعه كمنعه : كفه .
(٢) ألا كدعا : قصر ، يقال : فلان لا يألوك نصحا ، أى لا يقصر فى نصحك .
(٣) الإبلاء : الإنعام والإحسان .
(٤) أى وأسرعتم إليه ، ولم تورد كتب اللغة هذه الصيغة .
(٥) أى وعطفكم .

وأمير المؤمنين مع ذلك ، إن حَدَث بواحد من وليّىْ عهده حَدَث ، أولَى بأن يجعلَ مكانه ، وبالمنزل الذى كان به ، مَنْ أحبَّ أن يجعل من أمته أو ولده ، ويقدّمه بين يَدَى الباقى منهما إن شاء ، أو أن يؤخّره بعده ، فاعلموا ذلك وافهموه ، نسأل الله الذى لا إله إلا هو عالم الغيب والشهادة الرحمن الرحيم أن يبارك لأمير المؤمنين ولكم ، فى الذى قَضَى به على لسانه من ذلك وَقَدَّر منه ، وأن يجعل عاقبته عافيةً وسرورًا وغِبْطة ، فإن ذلك بيده ولا يملكه إلا هو ، ولا يُرْغَبُ فيه إلا إليه ، والسلام عليكم ورحمة الله » .

وكتب سَمّال يوم الثلاثاء لثمان بقين من رجب سنة خمس وعشرين ومائة .

(تاريخ الطبرى ٨ : ٢٩٤)

٤٩١ — كتاب يوسف بن عمر إلى نصر بن سيار

وكان ممن كتب إليه بذلك يوسف بن عمر ، وهو عامل الوليد يومئذ على العراق ، وكتب بذلك يوسف إلى نصر بن سيار عامل خراسان ، وكانت نسخة الكتاب إليه :

« بسم الله الرحمن الرحيم ، من يوسف بن عمر إلى نصر بن سَيّار :

أما بعد ، فإنى بعثتُ إليك نسخةَ كتاب أمير المؤمنين ، الذى كتب به إلى مَنْ قِبَلى ، الذى ولَّى الحَكَمَ ابن أمير المؤمنين ، وعثمان ابن أمير المؤمنين من العهد بعده ، مع عَقّال ابن شَبَّة التميمى وعبد الملك القَيْنى ، وَأمرتُهما بالكلام فى ذلك ، فإذا قَدِما عليك فاجمع لقراءة كتاب أمير المؤمنين الناسَ ، وَمُرْهم فليَحتَشِدوا[1] له ، وقم فيهم بالذى كتبَ أميرُ المؤمنين ، فإذا فرغتَ فَقُمْ بقراءة الكتاب ، وَأْذَنْ لمن أراد أن يقوم بخطبة ، ثم بايع الناسَ لهما على اسم الله وبرَكته ، وخذ عليهم بالمواثيق ، على الذى نسختُ لك فى آخر كتابى هذا ، الذى نسخَ لنا أمير المؤمنين فى كتابه : فافهمه وبايع عليه ، نسأل

---

(١) حشد القوم : اجتمعوا لأمر واحد كأحشدوا واحتشدوا وتحاشدوا .

اللهَ أن يبارك لأمير المؤمنين ورعيته فى الذى قَضَى لهم على لسان أمير المؤمنين، وأن يُصْلِحَ الحكَمَ وعثمان، ويبارك لنا فيهما، والسلام عليك».

وكتب النضر يوم الخميس للنصف من شعبان سنة خمس وعشرين ومائة.

ويلى ذلك صيغة البيعة وهى:

« بسم الله الرحمن الرحيم: تبايع لعبد الله الوليد أمير المؤمنين، والحكَم ابن أمير المؤمنين إن كان من بعده، وعثمانَ ابنِ أمير المؤمنين إن كان بعد الحَكَمِ، على السمع والطاعة، وَإنْ حَدَثَ بواحد منهما حَدَثٌ، فأمير المؤمنين أَمْلَكُ فى ولده ورعيته، يقدِّمُ من أحبّ، ويُؤَخِّرُ من أحبّ، عليك بذلك عهد الله وميثاقه».

(تاريخ الطبرى ٨ : ٢٩٤)

٤٩٢ – كتاب الوليد إلى يوسف بن عمر

وفى سنة ١٢٥ هـ خرج يحيى بن زيد بن علىّ بالجُوزَجان[١] يطلب الخلافة فقُتل، وبلغ خبره الوليد بن يزيد، فكتب إلى يوسف بن عمر:

« إذا أتاك كتابى هذا، فانظر عِجْلَ العراق فأَحْرِقه، ثم انسِفْهُ فى اليَمِّ نَسْفا».

فأمر يوسف خَرَاشَ بن حَوْشَب[٢] فأنزله من جِذعه وأحرقه بالنار، ثم رضّه فجعله فى قَوْصَرّة[٣]، ثم جعله فى سفينة، ثم ذرّاه فى الفُرات. (تاريخ الطبرى ٨ : ٣٠١)

---

(١) الجوز جان: اسم كورة واسعة من كور بلخ بخراسان.

(٢) هو خراش بن حوشب بن يزيد الشيبانى، كان على شرط يوسف بن عمر، وهو الذى نبش قبر زيد بن على وصلبه، وفيه يقول الشاعر:

ياخراش بن حوشب أنت أشقى الورى غدا

انظر تاريخ الطبرى ٨ : ٢٧٨ –

(٣) القوصرة بتخفيف الراء وتشديدها: وعاء للتمر من قصب.

٤٩٣ — كتاب الوليد إلى يوسف بن عمر

وكتب الوليد إلى يوسف بن عمر :

« إنك قد كنتَ كتبتَ إلى أمير المؤمنين تذْكُرُ تخريبَ ابن النَّصرانية[١] البلادَ ، وقد كنتَ — على ما ذكرتَ من ذلك — تحمِلُ إلى هشام ما تحمل ، وقد ينبغى أن تكون قد عَمَرْتَ البلادَ ، حتى رَدَدْتَها إلى ما كانت عليه ، فاشْخَصْ إلى أمير المؤمنين ، فصدِّقْ ظنَّه بك فيما تحمِلُ إليه لعِمارتك البلادَ ، ولِيَعْرِفَ أميرُ المؤمنين فضلَك على غيرك ، لِمَا جعل الله بينك وبين أمير المؤمنين من القَرابة ، فإنك خالُه[٢] وأحقُّ الناس بالتوفير عليه ، ولِمَا قد علمتَ مما أمر به أميرُ المؤمنين لأهل الشأم وغيرهم من الزيادة فى أعْطِياتهم[٣] ، وما وصَلَ به أهلَ بيته ، لِطُول جَفْوة هشام إياهم ، حتى أضَرَّ ذلك ببيوت الأموال » .

فخرج يوسف واستخلف ابن عمه يُوسف بن محمد ، وحمل من الأموال والأمتعة والآنية ما لم يُحْمَلْ من العراق مثلُه[٤] .

(تاريخ الطبرى ٩ : ٤ ، ووفيات الأعيان ٢ : ٣٦٤)

---

(١) يعنى خالد بن عبد الله القسرى .

(٢) وذلك أن أم الوليد هى أم الحجاج بنت محمد بن يوسف ، فهى بنت أخى الحجاج بن يوسف الثقفى ، وقد تقدم لك أن يوسف بن عمر ابن ابن عم الحجاج .

(٣) وذلك أن الوليد لما ولى الخلافة زاد الناس جميعا فى العطاء عشرة عشرة ثم زاد أهل الشام بعد زيادة العشرات عشرة عشرة لأهل الشأم خاصة ، وزاد من وفد إليه من أهل بيته فى جوائزهم الضعف انظر تاريخ الطبرى ٨ : ٢٩٣ — .

(٤) وكان الوليد أراد خالد بن عبد الله على البيعة لابنيه فأبى ، فقال له قوم من أهله : أرادك أمير المؤمنين على البيعة لابنيه فأبيت ! فقال : ويحكم كيف أبايع من لا أصلى خلفه ولا أقبل شهادته ؟ قالوا فالوليد تقبل شهادته مع مجونه وفسقه ، قال : أمر الوليد أمر غائب عنى ولا أعلمه يقينا ، إنما هى أخبار الناس ، فغضب الوليد على خالد ، وأراد الوليد الحج فخاف خالد أن يفتكوا به فى الطريق ، فأتاه فقال : يا أمير المؤمنين ، أخر الحج العام . فقال : ولم ؟ فلم يخبره فأمر بحبسه وأن يستأدى ما عليه من أموال العراق ، فلما قدم يوسف بن عمر على الوليد قرر يوسف مع أبان بن عبد الرحمن النميرى أن يشترى خالدا بأربعين ألف ألف درهم ، فقال الوليد ليوسف : ارجع إلى عملك ، فقال أبان له : ادفع إلى خالدا وأدفع إليك أربعين =

٤٩٤ — كتاب الوليد إلى يوسف بن عمر

وروى صاحب الأغانى قال :

كتب الوليد بن يزيد إلى يُوسف بن عمر :

« أما بعدُ ، فإذا قرأتَ كتابى هذا ، فَسَرِّحْ إلىَّ حَمَّاداً الراويةَ على ما أَحَبَّ من دوابِّ البريد ، وأعطِه عشرة آلاف درهم يتهيَّأ بها » .

ففعل يُوسف ما أُمِر به ، وخرج حَمّاد إلى الوليد ، فاستأذن عليه فأذن له ثم قال : أنشدنى :

أَمِنَ المَنُون ورَيبها تتوَجَّعُ ؟ والدهر ليس بمُعْتِبٍ مَنْ يجْزَعَ[1]

فأنشده إياها حتى أتى على آخرها . (الأغانى ٢ : ٦٣)

٤٩٥ — كتاب نصر بن سيار إلى الوليد

وروى أيضا قال :

لمَّا ظهرَتِ المسَوِّدَةُ[2] بخُراسان ، كتب نصر بن سَيّار إلى الوليد يستمده ، فتشاغَلَ عنه ، فكتب إليه كتابا ، وكتب فى أسفله يقول :

ألف ألف درهم ، قال الوليد : ومن يضمن عنك ؟ قال : يوسف ، قال : أتضمن عنه ؟ قال يوسف: بل ادفعه إلى فأنا أستأديه خمسين ألف ألف درهم ، فدفعه إليه ، فحمله فى محمل بغير وطاء ، وقدم به العراق فقتله كما تقدم .

(١) البيت مطلع قصيدة لأبى ذؤيب الهذلى يرثى بها أولاده ، وقد هلكوا بالطاعون فى عام واحد وكانوا عشرة ، وهو شاعر مخضرم أدرك الإسلام وأسلم ومات سنة ٢٦ هـ ، والمنون : المنية ، مؤنث وكأنها اسم فاعل من المن وهو القطع ، لأنها تقطع الأعمار ، المنون : الدهر ، والريب : صرف الدهر وأعتبه : أرضاه .

(٢) المسودة : هم أصحاب الدولة العباسية وكانوا يلبسون الثياب السود، وكان مما أنكره العباسيون ببغداد على المأمون فى خلافته أنه وهو فى خراسان أمر الناس بخلع لباس السواد ولبس الخضرة ، هذا إلى أنه عهد بالخلافة لعلى بن موسى الرضا ، فنقموا منه تغيير لباس آبائه وأجداده ونقله الخلافة من البيت العباسى إلى البيت العلوى ، وخلعوه وبايعوا عمه إبراهيم بن المهدى ، فلما سار المأمون إلى بغداد وهرب إبراهيم، دخل البلد فتلقاه العباسيون وكلموه فى ترك لباس الخضرة والعود إلى السواد. وخاطبته =

أَرَى خَلَلَ الرَّمَادِ وَمِيضَ جمرٍ   وَأَحْرِ بأن يكون له ضِرَامُ[١]
فإن النَّارَ بالعُودَين تُذْكَى   وَإنَّ الحربَ مَبْدَؤُها الـكلام[٢]
فقلتُ من التعجُّب : ليت شِعْرى   أَأَيقَاظٌ أُمَيَّـــةُ أم نيام ؟[٣]

٤٩٦ — رد الوليد على نصر

فـكتب إليه الوليد :

« قد أقطعتُك خراسانَ ، فاعمَلْ لنفسِك أَوْدَعْ ، فإنى مشغول عنك بابن سُرَيْجٍ ومَعْبَد والغَرِيض[٤] » .   (الأغانى ٦ : ١٢٤)

٤٩٧ — كتاب مروان بن محمد إلى سعيد ابن عبد الملك بن مروان

وبلغ مروانَ بن محمد بأَرمِينيَة أن يزيد بن الوليد بن عبد الملك يُؤَلِّب[٥] الناس ، ويدعو إلى خلع الوليد[٦] ، فـكتب إلى سعيد بن عبد الملك بن مروان يأمره أن ينهى

فى ذلك زينب بنت سليمان بن على بن عبد الله بن عباس — وكان بنو العباس يعظمونها — فأجابها المأمون وأمر الناس بالعود إلى لباس السواد » ويقابل المسودة : المبيضة بـكسر الياء وهم فرقة من الثنوية ، سموا بذلك لتبييضهم ثيابهم ، وهم أصحاب المقنع » الذى ظهر فى خلافة المهدى ، وادعى الألوهية ، وكان يقول بالتناسخ ، وأن الله خلق آدم فتحول فى صورته ، ثم فى صورة نوح ، وهكذا إلى أبى مسلم الخراسانى ، وسمى نفسه هاشماً ، وبايعه خلق من ضلال الناس ، وكانوا يسجدون إلى ناحيته أين كانوا من البلاد ، ويقولون فى الحرب : ياهاشم أعنا — انظر الفخرى (ص ١٦٢ و ١٩٨) ولسان العرب فى مادة « بيض » (٨ : ٢٩٧) .

(١) الخلل : الفرجة بين الشيئين ، والجمع خلال كجبل وجبال ، وومض البرق كوعد : لمع لمعا خفيا ، والضرام : اشتعال النار .   (٢) أذكى النار : أوقدها .

(٣) وسيرد عليك بعد أن هذا الـكتاب كتبه ابن سيار إلى مروان بن محمد .

(٤) كان ثلاثتهم من حذاق المغنين فى العصر الأموى .

(٥) أى يحرض .

(٦) وذلك أن الوليد قد ظهر منه قبل خلافته خلاعة ومجانة وتهاون بالدين واستخفاف به كما قدمنا لك ؛ فلما أفضت إليه الخلافة لم يزدد من الذى كان فيه من اللهو واللذة والركوب للصيد وشرب النبيذ ومنادمة الفساق إلا تماديا وجدا ، فثقل ذلك على رعيته وجنده فـكرهوا أمره ، وكان من أعظم ما جنى على نفسه =

الناس ويكفّهم — وكان سعيد يتألّه[1] — :

« إن الله جَعَل لكل أهل بيتٍ أركانا يعتمدون عليها ، ويتّقون بها المَخاوِفَ ، وأنت بحمد ربك رُكْنٌ من أركان أهل بيتك ، وقد بَلَغَنى أن قوماً من سفهاء أهل بيتك قدا استقنُّوا أمراً ، إن تَمَّت لهم رَوِيّتُهم فيه على ما أجمعوا عليه من نقضِ بَيْعتهم ، استفتحوا بابا لن يُغلِقَه الله عنهم ، حتى تُسْفَك دماءٌ كثيرة منهم ، وأنا مشتغِلٌ بأعظم ثغور المسلمين فَرْجا[2] ، ولو جَمَعَتْنى[3] وإياهم لرَمَمْتُ فسادَ أمرهم بيدى ولسانى ، ولخِفْتُ اللهَ فى تركِ ذلك ، لِعِلْمى ما فى عواقبِ الفُرقة من فسادِ الدين والدنيا ، وأنه لن ينتقل سلطانُ قومٍ قطُّ إلا فى تشتيتِ كلمتهم، وأن كلمتهم إذا تشوَّشَت[4] طمِعَ فيهم عدوُّهم ، وأنت أقربُ إليهم منى ، فاحْتَلْ لِعِلم ذلك بإظهار المتابعة لهم ، فإذا صِرتَ إلى علم ذلك ، فتهدَّدْهم بإظهار أسرارهم ، وخُذهم بلسانك ،

— حتى أورثه ذلك هلاكه — إفساده على نفسه بنى عميه : ولد هشام بن عبد الملك وولد الوليد بن عبد الملك، من ذلك أنه اشتد على بنى هشام ، فضرب سليمان بن هشام مائة سوط وحلق رأسه ولحيته ، وغربه إلى عمان فحبسه بها ، فلم يزل بها محبوساً حتى قتل الوليد، وأخذ جارية كانت لآل الوليد فكلمه عمر بن الوليد فيها ، فقال : لا أردها ، فقال : إذن تكثر الصواهل حول عسكرك ، ورماه بنو هشام وبنو الوليد بالكفر والزندقة وغشيان أمهات أولاد أبيه ، وكان أشدهم فيه قولا يزيد بن الوليد بن عبدالملك ، وكان الناس إلى قوله أميل ، لأنه كان يظهر النسك ويتواضع، ويقول ما يسعنا الرضا بالوليد ، حتى حمل الناس على الفتك به، هذا إلى إفساده على نفسه اليمانية وهم عظم جند أهل الشأم ،واضطغانهم عليه لما صنع بخالد بن عبدالله القسرى، فأتت اليمانية يزيد بن الوليد فأرادوه على البيعة ، وأتى يزيد أخاه العباس فأخبره وشاوره وعاب الوليد، فقال له العباس : مهلا يايزيد ، فإن فى نقض عهدالله فساد الدين والدنيا ، ودب يزيدفى الناس فبايعوه سرا، وعاود أخاه العباس فشاوره فى ذلك ، فزجره العباس وقال : إن عدت لمثل هذا لأشدنك وثاقا وأحملنك إلى أمير المؤمنين ، وجعل يزيد بعد العدة حتى وثب على الوليد فقتله .

(١) التألّه : التنسك والتعبد . (٢) الفرج : الثغر وموضع المخافة .

(٣) فاعل جمعتنى مفهوم من المقام ، أى فرصة أو بلدة مثلا .

(٤) قال الجوهرى فى الصحاح : التشويش : التخليط ، وقد تشوش عليه الأمر »وفى لسان العرب: « وأما التشويش فقال أبو منصور : إنه لا أصل له فى العربيّة ، وإنه من كلام المولدين ، وأصله التهويش وهو التخليط » وفى القاموس : والتشويش والمشوش والتشوش كلها لحن ، ووهم الجوهرى ، والصواب التهويش والمهوش والتهوش » . وأقول : ربما كانت هذه الكلمة فى الأصل » تشتتت « لقوله قبل: « إلا فى تشتيت كلمتهم » ثم حرفت فى النسخ أو الطبع .

وخوَّفهم العواقبَ لعلَّ اللهَ أن يردَّ إليهم ما قد عزَب عنهم من دينهم وعقولهم ، فإن فيما سَعَوْا فيه تغييرَ النِّعم ، وذهابَ الدولة .

فعاجلِ الأمرَ ، وَحَبْلُ الأُلْفة مشدود ، والناسُ سُكون[1] ، والثُّغور محفوظة ، فإن الجماعة دَوْلةٌ من الفُرقة ، وللسَّعة دافعا من الفقر ، وللعدد مُنْتَقصا ، ودولُ الليالى مختلفةٌ على أهل الدنيا ، والتقلبُ مع الزيادة والنقصان ، وقد امتدت بنا أهلَ البيت متتابِعاتٌ من النعم ، قد يُغْنَى بها جميعُ الأمم ، وأعداء النعم ، وأهلُ الحسد لأهلها ، وبحسَدِ إبليسَ خرجَ آدمُ من الجنة .

وقد أمَّل القوم فى الفتنة أمَلاً لعلَّ أنفسهم تهلِكُ دون ما أملوا ، ولكل أهل بيت مَشاَئِيمُ يغيِّر اللهُ النِّعمة بهم ، فأعاذك الله من ذلك ، واجعلنى من أمرهم على علم ، حَفِظ الله لك دينك ، وأخرجك مما أدخلك فيه ، وغلَّب لك نفسك على رشدك[2] » .

فأعظَمَ سعيدٌ ذلك ، وبعث بكتابه إلى العباس ، فدعا العباس يزيدَ فعَذله وتهدَّده ، فحذره يزيدُ وقال : يا أخى أخاف أن يكون بعضُ من حَسَدنا هذه النعمةَ مِنْ عدونا أراد أن يُغرِىَ بيننا ، وحَلَف له أنه لم يفعل ، فصدقه .

(تاريخ الطبرى ٩ : ٧)

(١) سكون : جمع ساكن ، كحضور وجلوس وقعود جمع حاضر وجالس وقاعد .

(٢) معناه : وجعل نفسك غالبة ومالكة لرشدك ، أى ملكك رشدك وجعله مواتيا لك وطوع أمرك ، وربما كان الأصل « وغلب لك رشدك على نفسك » أى على هواك ، وعكسه الناسخ أو الطابع .

خلافة يزيد بن الوليد بن عبد الملك

(ســـنة ١٢٦ هـ)

٤٩٨ — كتابه إلى مروان بن محمد

وكتب يزيد بن الوليد بن عبد الملك المعروف بالناقص[1] إلى مَرْوَانَ بن محمد بالجزيرة ، وقد بلغه عنه تلكُّؤٌ في بيعته :

« أما بعدُ : فإني أراكَ تُقَدِّمُ في البيعة رِجلًا وتؤخِّر أخرى ، فإذا أتاكَ كتابي هذا فاعتمِدْ على أيِّهما شئتَ ، والسلام » .

فأتته بيعته .

(صبح الأعشى ٦ : ٣٩١ ، والعقد الفريد ١ : ١٧ ، ٢ : ٢٩٢ ، والمنظوم والمنثور ١٣ : ٣٣٠)

٤٩٩ — كتاب منصور بن جمهور إلى سليمان بن سليم

وعَزَلَ يزيدُ بن الوليد يوسفَ بن عمر عن العراق ، وولَّاها منصورَ بن جُمْهور ، فسار إلى العراق ، حتى إذا كان بالجمع كتب إلى سليمان بن سليم بن كَيْسان كتاباً وهو :

« أما بعدُ ، فإنَّ اللهَ لَا يُغيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّى يُغيِّرُوا مَا بِأَنْفُسِهِمْ ، وَإِذَا أَرَادَ اللهُ

(١) اختلف في علة تلقيبه بذلك ، فقيل إنما قيل له الناقص لفرط كماله (العقد الفريد ١ : ١٧) فهو على هذا من باب التسمية بالأضداد ، وقيل : إنما قيل يزيد الناقص ، لنقصه الناس الزيادة التي زاد هموها الوليد بن يزيد في أعطياتهم — انظر هامش ص ٢٩٢ . فلما ولي يزيد نقص الناس تلك الزيادة ، ورد أعطياتهم إلى ما كانت عليه أيام هشام بن عبد الملك ، وقيل إن أول من سماه بهذا الاسم مروان بن محمد (تاريخ الطبري ج ٩ : ص ٢٢ ، ٤٦) وقيل : لأنه نقص من أعطيات أهل الحجاز ما كان قد زادهم الوليد (الفخرى ص ١٢٠) وقيل لأنه نقص بعض الجند من أرزاقهم (مروج الذهب ٢ : ١٩٠) والناقص على هذه الأقوال من نقص المتعدى ، وقيل : لنقصان كان في أصابع رجليه (حياة الحيوان للدميرى ١ : ١٠٦) وهو على هذا من نقص اللازم .

بِقَوْمٍ سُوءًا فَلَا مَرَدَّ لَهُ ، وإن الوليد بن يزيد بَدَّل نعمة الله كفراً ، فسفك الدماء : فسَفَك اللهُ دَمه ، وعجّله إلى النار ، وولّى خِلافته مَنْ هو خير منه ، وأحسنُ هَدْيا : يزيدَ بن الوليد ، وقد بايعه الناس ، وولّى على العراق الحارث بن العباس بن الوليد ، ووجّهني العباس لآخذ يوسف وعُمّاله ، وقد نزل الأبيض ورائي على مَرْحَلتين ، فخذ يُوسف وعماله ، لا يَفُوتنَّك منهم أحد ، فاحبسهم قِبلك ، وإياك أن تُخالِفَ فيحِلَّ بك وبأهل بيتك مالا قِبَل لك به ، فاختر لنفسك أو دَعْ » .

وقيل إنه لمّا كان بعَين التَّمْر كتب إلى من بالحيرة من قواد أهل الشأم يخبرهم بقتل الوليد ويأمرهم بأخذ يوسف وعماله ، وبعث بالكتب كلها إلى سليمان بن سليم ابن كيسان ، وأمره أن يفرّقها على القوّاد ، فأمسكها سُليمان ودَخل على يُوسف ، فأقرأه كتاب منصور إليه ، وسَهّلَ له طريق الْهَرَب فهَرب إلى الْبَلْقَاء ، ثم قبض عليه وقتل[1] سنة ٢٧ هـ (تاريخ الطبرى ٩ : ٢٨)

٥٠٠ — كتاب يزيد إلى أهل العراق

ولما وجّه يزيدُ بن الوليد منصور بن جُمْهور إلى العراق كتب إلى أهل العراق كتاباً فيه مَسَاوِى الوليد ، فكان مما كتب به :

(١) لما هرب يوسف بن عمر سلك طريق السماوة حتى أتى البلقاء (وهى كورة بين الشام ووادى القرى) فاستخفى بها وكان أهله مقيمين فيها ، ونمى خبره إلى يزيد بن الوليد ، فوجه إلى طلبه محمد بن سعيد الكلبى فى جماعة من الفرسان ، فأحاطوا بداره بالبلقاء ، ومازالوا يفتشون عنه فلا يجدونه ، وكان يوسف قد لبس لبسة النساء ، وجلس مع نسائه وبناته ، ففتشهن فظفر به مع النساء ، فجاء به فى وثاق ، فحبسه يزيد مع الغلامين : الحكم وعثمان ابنى الوليد بن يزيد — وكان يزيد قد حبسهما عند قتله أباهما — فأقام يوسف فى السجن حتى مات يزيد (فى ذى الحجة سنة ١٢٦ هـ) وولى الخلافة أخوه إبراهيم بن الوليد (وكانت ولايته أربعة أشهر ، وقيل سبعين يوما) ولبث يوسف فى السجن مدة ولاية إبراهيم ، فلما ظهر أمر مروان ابن محمد والتقى عسكره وعسكر إبراهيم ، هرب عسكر إبراهيم ، وقدم مروان الشأم وقرب من دمشق ، فخافت جماعة إبراهيم أن يدخل مروان دمشق فيخرج الحكم وعثمان ابنا الوليد من السجن ، ويجعل لهما الأمر ، فلا يستبقيا أحدا ممن أعان على قتل أبيهما ، فأجمع رأيهم على قتلهما ، وتولى ذلك يزيد بن خالد بن عبدالله القسرى فبعث أبا الأسد مولى أبيه فى عدة من أصحابه ، فدخلوا السجن ، وشدخوا الغلامين بالعمد ، وأخرجوا يوسف بن عمر فضربوا عنقه — انتقاما منه لخالد القسرى والد يزيد — ولما قتل أخذوا رأسه عن جسده ، وشدوا فى رجليه حبلا ، فجعل الصبيان يجرونه فى شوارع دمشق .

« إن الله اختار الإسلامَ ديناً ، وارتضاه وطهّره ، وافترض فيه حقوقاً أمَرَ بها ، ونَهَى عن أمورٍ حرَّمها ، ابتلاء[1] لعباده فى طاعتهم ومعصيتهم ، فأ كمَلَ فيه كلَّ مَنْقَبَةٍ[2] خير ، وجسيم فَضْل ، ثم تولاَّه فكان له حافظًا ، ولأهله المقيمين حُدُودَه وَلِيًّا ، يَحُوطهم ويعرِّفهم بفضل الإسلام ، فلم يكرم الله بالخلافة أحداً يأخذ بأمر الله وينتهى إليه ، فيُناويه أحدٌ بميثاق ، أو يحاول[3] صَرْف ماحَبَاه اللهُ به ، أو ينكث نا كثٌ إلا كان كيدُه الأوهنَ ، ومكرُه الأبورَ ، حتى يُتِمّ اللهُ ما أعطاه ، ويدّخر له أجْرَهُ ومَثُوبَته ، ويجعل عدوّه الأضلّ سبيلا ، الأخْسَرَ عملاً ، فتناسخَتْ[4] خلفاء الله وُلاةُ دينه ، قاضِينَ فيه بحُكمه ، متَّبعين فيه لكتابه ، فكانت لهم بذلك من ولايته ونُصْرته ما تمّت به النعم عليهم ، قد رضى الله بهم لها حتى تُوُفِّى هشام .

ثم أفضَى الأمرُ إلى عدوِّ الله الوليد ، المنتهِكِ لمَحارِمِ التى لا يأتى مِثْلَهَا مُسْلِم ، ولا يُقْدِم عليها كافر ، تكرُّمًا عن غِشْيَان مِثلها ، فلما استفاض ذلك منه واستَعْلَن ، واشتدَّ فيه البلاء ، وسُفِك فيه الدماء ، وأُخِذت الأموال بغير حقها مع أمورٍ فاحشة لم يكن اللهُ لِيُخَلِّيَ العاملين بها إلا قليلا ، سِرْتُ إليه مع انتظار مراجَعَته ، وإعذار إلى الله وإلى المسلمين ، مُنْكِراً لعمله وما اجترأ عليه من معاصى الله ، متوخِّيًا من الله إتمامَ الذى نَوَيْتُ ، من اعتدال عَمُود الدين والأخذ فى أهله بما هو رِضًا ، حتى أتيتُ جُندا وقد وَغِرَتْ[5] صدورُهم على عدو الله ، لمّا رَأَوا من عمله ، فإن عدوّ الله لم يكن يَرَى من شرائع الإسلام شيئًا إلا أراد تبديلَه ، والعَمَلَ فيه بغير ما أنزل اللهُ ، وكان ذلك منه شائعا شاملا ، عُرْيانَ لم يجعل الله فيه سِتراً ، ولا لأحد فيه شكاً ، فذكرتُ لهم الذى نَقِمْتُ وخِفت ، من فساد الدين والدنيا ، وحَضَضْتُهم على تلافى دينهم

---

(١) أى اختبارا . (٢) المنقبة المفخرة . (٣) فى الأصل « أو يحاول » وهو تحريف ، وحباه : أعطاه ومنحه . (٤) أى تعاقبوا وتداولوا ، تناسخت الأشياء : تداولت فكان بعضها مكان بعض .

(٥) وغر صدره : امتلأ غيظا .

والمحاماةِ عنه ، وهم فى ذلك مستريبون ، قد خافوا أن يكونوا قد أبقَوْا أنفسهم بما قاموا عليه إلى أن دعوتُهم إلى تغييره فأسرعوا الإجابة .

فابتعث الله منهم بعثًا يخبرهم من أُولِي الدين والرضا ، وبعثتُ عليهم عبد العزيز ابن الحجاج بن عبد الملك ، حتى لقِيَ عدوَّ الله إلى جانب قرية يقال لها البَخْراء ، فدعَوه إلى أن يكون الأمر شُورَى ينظر المسلمون لأنفسهم مَنْ يقلِّدونه ممن اتفقوا عليه ، فلم يُجِب عدوُّ الله إلى ذلك ، وأبَى إلا تتابعًا فى ضَلالته ، فَبَدَرهم الحَمْلَةَ جهالةً بالله ، فوجدَ اللهَ عزيزاً حكيما ، وَأَخْذَهُ أليما شديداً ، فقتله اللهُ على سُوء عمله وعُصْبته ممن صاحبوه من بطانته الخبيثة ، لايبلغون عشرة ، ودخلَ من كان معه سواهم فى الحق الذى دُعُوا إليه،فأطفأ الله جَمْرَته ، وأراح العبادَ منه ، فبُعْداًله ولمن كان على طريقته .

أحببتُ أن أعلِمَكم ذلك وأعجِّلَ به إليكم ، لِتَحمَدوا الله وتشكروه ، فإنكم قد أصبحتم اليوم على أمثل[1] حالِكم ، إذ وُلاتُكم خِيارُكم ، والعدلُ مبسوطٌ لكم ، لايُسَارُ فيكم بِخلافه ، فأكْثِرُوا على ذلك حَمْدَ ربكم، وَبايعوا منصورَ بن جُمهور فقد ارتضيتُه لكم ، على أن عليكم عهد الله وميثاقَه ، وأعظم ما عُهِد وعُقِد على أحد من خلقه لَتَسْمعُنَّ وتطيعنَّ لى ولمن استخلفتُه من بعدى ، ممن اتفقَتْ عليه الأمة ، ولكم علىَّ مثلُ ذلك : لَأَعْمَلَنَّ فيكم بأمر الله وسنةِ نبيه صلى الله عليه وسلم ، وأتبعَ سبيلَ مَنْ سَلَفَ من خياركم ، نسأل الله رَبّنَا ووليَّنا أحسنَ توفيقِه وخيرَ قضائه » .

(تاريخ الطبرى ٩ : ٣١)

٥٠١ — كتاب مروان بن محمد إلى الغمر بن يزيد

وكتب مَرْوان بن محمد إلى الغَمْر بن يزيد يأمره أن يطلب بدم أخيه الوليد ابن يزيد .

---

(١) أمثل : أفضل ، والمثالة كنباهة : الفضل وفعله ككرم .

« أما بعدُ : فإن هذه الخلافةَ مِنَ الله على مناهجِ نُبوَّة رُسُله ، وإقامة شرائع دينه ، أكرمهم اللهُ بما قَلَّدهم ، يُعِزُّهم ويُعزُّ من يُعزهم ، والحَيْنُ[(١)] على من ناوأهم فابتغى غيرَ سبيلهم ، فلم يزالوا أهلَ رعايةٍ لِمَا استودَعَهم اللهُ منها ، يقوم بحقِّها ناهضٌ بعدناهض ، بأنصارٍ لها من المسلمين ، وكان أهلُ الشأم أحسنَ خَلْقِه فيه طاعةً ، وأذَبَّه عن حُرَمه ، وأوفاه بعهده ، وأشدَّه نكايةً فى مارقٍ مخالفٍ ناكثٍ ناكبٍ[(٢)] عن الحق ، فاستدرَّت نِعمةُ الله عليهم ، قد عُمِّرَ بهم الإسلامُ ، وكُبِتَ[(٣)] بهم الشِّركُ وأهلُه ، وقد نكثوا أمرَ الله، وحاولوا نكثَ العهود، وقام بذلك مَنْ أشعَلَ ضِرامَها، وإن كانت القلوبُ عنهُ نافرةً ، والمطلوبون بدم الخليفة وِلايةٌ[(٤)] من بنى أمية ، فإنَّ دَمهُ غير ضائع ، وإن سكنَتْ بهم الفتنةُ ، وَالْتَأَمَتِ الأمورُ ، فأمرٌ أرادَه اللهُ لامَرَدَّ له .

قد كتبتَ بحالك فيما أبرموا وما ترَى ، فإنى مُطرِقٌ إلى أن أرَى غِيَرًا[(٥)] فأسْطُوَ بانتقام ، وأنتقِمَ لدين الله المَبْتُول[(٦)] ، وفرائِضه المتروكةِ مَجَانَةً ، ومعى قومٌ أسكنَ الله طاعتى قلوبهم ، أهلُ إقدام إلى ماقَدِمْتُ بهم عليه، ولهم نُظَرَاء ، صدورهُم مُتْرَعَةٌ[(٧)] ممتلئة ، لو يجدون مَنزِعا[(٨)] ، ولِلنِّقمة دولةٌ تأتى من الله ، ووقت مُوَكَّل ،

---

(١) الحين : الهلاك والمحنة .

(٢) نكب عنه كنصر وفرح : عدل كنكب وتنكب .

(٣) كبته : صرعه وأخزاه وكسره وأذله ورده بغيظه .

(٤) الولاية : الإمارة والسلطان ، والمعنى ذوو ولاية أى أمراء من بنى أمية ، وقد تقدم أن البعث الذى وجهه يزيد لقتل الوليد كان عليه عبد العزيز بن الحجاج بن عبد الملك .

(٥) غير الدهر : حوادثه المغيرة .   (٦) أى المقطوع غير الموصول ، من بتله كنصر وضرب إذا قطعه .   (٧) أى ممتلئة .

(٨) المنزع : الموضع الذى يصعد فيه الدلو إذا نزع من البئر فذلك الهواء هو المنزع — انظر لسان العرب ١٦ : ٢١١ فى مادة بين — والمعنى : لو يجدون مجالا وفرصة للانتقام .

ولم أشبه محمداً ولا مَرْوانَ[1] ـ غَيْرَ إنْ رأيتُ غِيَرا ـ إن لم أَشْمِّرْ للقَدَرية[2] إزَارى ، وأضرِبْهُم بسيفى جارحا وطاعنا ، يَرْمى قضاء الله فى ذلك حيث أخذ ، أو يرمى فى عقوبة الله حيث يلغ منهم فيها رضاه ، وما إطراق إلّا لما أنتظِرُ مِمّا يأتينى عنك ، فلا تهِنْ عن ثأرك بأخيك ، فإن الله جَارُك وكافيك ، وكَفَى بالله طالباً ونصيراً » .

(تاريخ الطبرى ٩ : ٣٤)

٥٠٢ ــ كتاب يزيد بالأمان للحارث بن سريج

وعزل يزيد بن الوليد منصور بن جمهور عن العراق ، وولّاها عبد آلله بن عمر ابن عبد العزيز (فى شوال سنة ١٢٦ هـ) فلما قدم عبد الله العراق كتب إلى نصر ابن سيار بعهده على خراسان .

وخرج خالد بن زياد من أهل التِّرْمِذ[3] وخالد بن عمرو مولى بنى عامر إلى يزيد ابن الوليد ، فسألاه أمانا للحارث بن سُرَيْج (وكان قد خرج على بنى أمية ، ونشِبت الحربُ بينهُ وبين عاصم بن عبد الله الهلالى والى خراسان[4] سنة ١١٦ هـ ، ثم أقام هو وأصحابه ببلاد الترك) فكتب يزيد له :

---

(١) يقول : لست لأبى « محمد » ولا لجدى « مروان » إن لم أشمر للقدرية إزارى إلا إن حالت دون ذلك الغير .

(٢) قدمنا لك (فى ص ٣٩٠) كلمة عن مذهب القدرية ، وقيل إن يزيد بن الوليد كان قدريا ـ انظر تاريخ الطبرى ٩ : ٤٦ والفخرى ص ١٢٠ ـ وروى الطبرى أيضاً قال : « كان منصور بن جمهور أعرابيا جافيا غيلانيا ولم يكن من أهل الدين ، وإنما صار مع يزيد لرأيه فى الغيلانية وحمية لقتل خالد ... الخ » ـ تاريخ الطبرى ٩ : ٢٨ ـ وقد تقدمت لك كلمة عن غيلان فى ص ٣٣٥ ، وكانت المعتزلة يسمون القدرية ،لأنهم وافقوا القدرية فى مذهبهم،وترى صاحب«الفرق بين الفرق» يسميهم فيقول :«القدرية المعتزلة عن الحق » ـ انظر ص ٩٣ فيه ـ وقال المسعودى فى مروج الذهب ٢ : ١٩٠ : « وكان يزيد بن الوليد يذهب إلى قول المعتزلة وما يذهبون إليه . . . الخ ، ويقول أيضا ـ ٢ : ١٩٣ » « وكان خروج يزيد بن الوليد بدمشق مع سابقة من المعتزلة وغيرهم على الوليد بن يزيد . . . » .

(٣) مدينة مشهورة على نهر جيحون . (٤) انظر تاريخ الطبرى ٨ : ٢١٩ ــ ٢٢٨ .

« أما بعدُ ، فإنا غضبْنا لله إذ عُطِّلَت حدودُهُ ، وبُلِّغ بعباده كل مَبْلغ ، وسُفِكت الدماء بغير حِلِّهَا ، وأُخِذت الأموالُ بغَير حقها ، فأردْنا أن نعمل فى هذه الأمة بكتاب الله جل وعز وسنة نبيه صلى الله عليه وسلم ، ولا قوةَ إلا بالله ، فقد أوضَحْنا لك عن ذات أنفُسِنا ، فأقبِلْ آمِنا أنت ومن معك ، فإنكم إخواننا وأعواننا ، وقد كتبتُ إلى عبد الله بن عمر بن عبد العزيز بردِّ ما كان اصطُفِىَ من أموالكم وذراريِّكم » .

فقَدِما الكوفةَ على ابن عمر ، ثم مضيا إلى مَرْو فدفعا كتاب يزيد إلى نصر بن سيار ، فردَّ ما كان أُخِذَ لهم مما قُدِر عليه ، ثم نَفَذا إلى الحارث فأقبل يريد مَرْو .

٥٠٣ — كتاب منصور بن عمر إلى ابن سيار

وقدم الحارث سَمَرْقَنْد ، وعليها منصور بن عمر ، فلم يتلَقَّه وقال : أَحْسَن بلائه ! وكتب إلى نصر يستأذنه فى الحارث أن يَثِب به ، فأيُّهما قَتَل صاحبه فإلى الجنة أو إلى النار ، وكتب إليه :

« لئن قَدِم الحارثُ على الأمير ، وقد ضَرَّ ببنى أمية فى سلطانهم ، وهو وَالِغٌ(١) فى دمٍ بعد دمٍ ؛ قد طوَى كَشْحًا(٢) عن الدنيا ، بعد أن كان فى سلطانهم أقْرَامهم(٣) الضيفِ ، وأشَدَّهم بأساً ، وأنفذهم ، غارةً فى الترك ، لَيُفَرِّقَن عليك بنى تميم » .

(تاريخ الطبرى ٩ : ٤٣)

(١) من ولغ الكلب فى الإناء : إذا شرب مافيه بأطراف لسانه ، أو أدخل لسانه فيه فحركه .
(٢) الكشح : مابين الخاصرة إلى الضلع الخلف ، وطوى كشحه عنه : قطعه . (٣) أكرمهم .

خلافة مروان بن محمد

(سنة ١٢٧ — ١٣٢ هـ)

٥٠٤ — كتابه إلى بعض الخوارج

وكتب مَرْوان بن محمد رسالة إلى بعض الخوارج يتهدَّد ويتوعد فيها :

« أما بعدُ ، فإنك كتبتَ إلىّ كتاب امرئٍ جائر عن الحق ، متورِّط العقل ، متعرِّض الحَيْن والرَّدَى[(١)] ، متسكِّع فى الجهالة ، مُتَسكِّمه[(٢)] فى الضلالة ، مارق من الدين ، مفارقٍ جماعةَ المسلمين ، قد بَطِرَ العافيةَ والإحسان ، واستحكمتْ عليه رِبَقُ[(٣)] الشيطان ، تَمنَّى ما تمنَّى أشياعُه من الطُّغْيان ، فقبِلَ من الشيطان أمنيَّتَه ، وأمكنَه من رُمَّته ، وأسلم إليه مَقاليدَه ، فحمَلَه على مَرْكَب صَعْب ، فركَّبَ عليه الرِّباقَ ، وشدَّ منه الخِناقَ[(٤)] ، فهو يسوقه أشدَّ السِّياق ، وعلاه ظَهْرا ، وملأه غَدرا ، وأسلمه [إلى الخوف من بعد][(٥)] أمنه ، وكذلك يفعلُ الله بالظالمين ، ويستدرِجُهم من حيثُ لا يعلمون .

فانظر — لا نظر الله لك[(٦)] — إلى موقع تلك الصفة منك ، فإنك لا طاقةَ لك بحدِّ نا

---

(١) الحين : الهلاك ، وكذا الردى .

(٢) تسكع : تمادى فى الباطل ، ومشى متعسفا ، وتسكع فى أمره : لم يهتد لوجهته ، وفى الأصل « متسع » وأراه محرفا . والمتسكه والسكامه : من يركب رأسه لا يدرى أين يتوجه .

(٣) الربق بالكسر : حبل فيه عدة عرا تشد به البهم ، كل عروة ربقة والجمع ربق كعنب ورباق كجبال وأرباق ، والرمة بالضم ويكسر : قطعة من حبل ، والمعنى : وأمكنه من انقياده : والمقاليد جمع مقلاد وهو المفتاح كالمقلد . (٤) الخناق بالكسر والضم : الحلق ، وبالكسر : الحبل يخنق به .

(٥) ما بين القوسين بياض بالأصل وقد تممته كما ترى . (٦) فى الأصل « ولا نظر بك » وأراه محرفا .

حين يَحمِلُ عليك الفُرْسَانُ[١] ، وتتعاوَرُكَ القَنَا والطِّعَان ، فتنفذُكَ الأسِنَّةُ ، وتُجلِبُ عليك الأعنَّة ، وتُحيط بك الكتائبُ ، ويأتيك المَوتُ من كل جانب .

وأمّا قولك إليّ في كتابك : « سَيرِدُ عليك الجُرْدُ ، عليها المُرْدُ[٢] » فَسَيرِدُ عليك من أولياء الله المقرَّبين ، وحِزْبه الغالبين ، الكُهولُ ، على الخيل الفُحُول ، كأنها الوُعُول ، طِوال السِّبَال[٣] ، كأنهم أُشْرِبَتْ وُجُوهُهم الجِرْبالَ ، رجالهم هم الرجال ، ليس منهم إلا سَابِق نَاشِبٌ[٤] ، وكالِب محارب ، قد أحكَمَتْه التجارِبُ ، وقام على سَاق ، وشرِب كلَّ مُرَّة المَذَاق ، لا يُوَلُّون الأدبارَ ، ولا يكرُّون على الفِرار ، قد ضَرُوا[٥] بضَرْب الهَامِ ، وغادَوُا الكَرَّ والإقدام ، ليسوا بذوي فَرٍّ ولا إحجام ، ينفُذُون في الزُّحُوف ، وَيجترُون على الحُتُوف ، ويباشرون السيوفَ ، ويضربون ضربَ الأُسُود ، ويثِبُون وَثْبَ الفُهود ، وليس منهم إلا بازِلٌ[٦] يتخَطَّلُ ، قد بَرَكَ على كَلْكله ، كأنما أُشْرِبَتْ وجوهُهم نقيعَ الحَنْظَلِ ، قد رامُوا الحروبَ وعاودوها ، ومضَغَتْهم ومضغوها ، فليس منهم إلا إليها طَرِبٌ ، وعلى لقائها حَرِبٌ[٧] ، لا يَرُوعهم ما يَرُوع الفتيان ، ولا يصدُّهم الموت عن لقاء الأقران ، ولا يروعهم ما يروع الغُمْرَ[٨] الجبان ، حين يَكْشَفُ الكُماةُ[٩] ، ويُكْرَه النزالُ ، فعند ذلك يُسْلِمك الجُرْدُ ،

(١) في الأصل « فإنك لاطاقة لك بأحد أن من يحتمل عليك الفرسان » وهو تحريف وقد أصلحته كما ترى ، والحد : البأس ، وتتعاورك : تتداولك ، والقنا : الرماح . (٢) فرس أجرد : قصير الشعر رقيقه ، وجمعه جرد ، وشاب أمرد : طر شاربه ولم تنبت لحيته ، وجمعه مرد ، وفي الأصل « سيرد عليك الحرة عليها المراة » وهو تحريف . (٣) السبال جمع سبلة بالتحريك : وهي ماعلى الشفة العليا من الشعر يجمع الشاربين وما بينهما ، والجربال : صبغ أحمر ، والخمر .

(٤) ناشب ، من نشب فيه كفرح : إذا علق به ، وكالب ، من كلب كفرح أيضا إذا اشتد .

(٥) ضرى به كرضي : تعوده ولهج به ، والهـام : الرءوس ، والزحوف جمع زحف بالفتح: وهو الجيش يزحفون إلى العدو ، وغاداه : باكره .

(٦) البازل : الجمل في تاسع سنيه ، والرجل الكامل في تجربته ، وتخطل في مشيته : تبختر ، والكلكل : الصدر . (٧) حرب كفرح : كلب واشتد غضبه .

(٨) الغمر بالفتح والضم والتحريك وككتف : من لم يجرب الأمور .

(٩) كشف الرجل كفرح : انهزم ، والأكشف : الذي ينهزم في الحرب ولا يثبت ، والكماة جمع كمي كغني : وهو الشجاع المتغطي بسلاحه .

ويكشف عنك المُرْدُ ، فإن شئتَ فسِرْ ، وإن شئت فقرّ ، ولا أرَى الإقامة لك إلا رَيْثَ أن يأتيك ما أوعِدُك [فإنى وإياك كالزجاجة والحَجَر : إن وقع عليها رَضَّها ، وإن وقعَتْ عليه فَضَّها[1]] فَا تَمِرْ أمرك ، فإنك غيرُ مُكَذَّب ، ولا نَا كص[2] ، والسلام » .

(اختيار المنظوم والمنثور ١٣ : ٤٢٠ ، ونثر الدرر ٣ : ٢٠٦)

٥٠٥ — رسالة عبد الحميد بن يحيى الكاتب عن مروان إلى ابنه عبد الله بن مروان

وكتب عبد الحميد بن يحيى الكاتب عن مَرْوان بن محمد إلى ابنه عبد الله بن مَرْوان ، حين وجّهه لمحاربة الضحّاك بن قيس الشَّيْبانى الخارجى[3] :

« أما بعدُ ، فإن أمير المؤمنين — عند ما أعتزم عليه ، من توجيهك إلى عدوِّ الله الجلف الجافِى الأعرابى المتسكّع[4] فى حَيْرَة الجهالة ، وظُلَمِ الفتنة ، ومَهاوِى الهَلَكة ، وَرَعَاعِهِ الذين عاثُوا[5] فى أرض الله فسادا ، وانتهكوا حُرْمَةَ الإسلام استخفافا ، وبدّلوا نِعَمَ الله كفراً ، واستحلُّوا دماء أهل سِلْمه جَهْلا — أحَبَّ أن يَعْهَدَ إليك فى لطائف[6] أمورك ، وعوامّ شئونك ، ودخائِل أحوالك ، ومُضْطَرَف[7] تنقُّلك ، عَهْداً يحَمِّلك فيه أدَبَه ، ويَشْرَع لك به عِظته ، وإن كنتَ — والحمدُ لله — من دين الله وخلافته

---

(١) لم يرد فى نثر الدرر من هذه الرسالة إلا مابين القوسين .

(٢) نكص عن الأمر : أحجم ورجع .

(٣) خرج الضحاك سنة ١٢٧ هـ وغلب على الكوفة ، ثم استولى على الموصل وكورها سنة ١٢٨ هـ ، وبلغ مروان خبره وهو محاصر حمص مشتغل بقتال أهلها ، فكتب إلى ابنه عبد الله وهو خليفته بالجزيرة ، يأمره أن يسير فيمن معه إلى نصيبين ليشغل الضحاك عن توسط الجزيرة ، فشخص عبد الله إلى نصيبين وهو فى نحو من سبعة آلاف أو ثمانية ، وسار إليه الضحاك من الموصل فقاتله ، فلم يكن لعبدالله قوة لكثرة من مع الضحاك ، إذ قيل إنه كان فى عشرين ومائة ألف ، ثم إن مروان سار إليه فالتقيا بأرض كفرتوثا من أعمال ماردين فقاتله ، وأحدقت بهم خيول مروان فألحوا عليهم حتى قتلوهم ، وبعث مروان برأس الضحاك إلى مدائن الجزيرة فطيف به فيها — انظر تاريخ الطبرى ٩ : ٧٦ .

(٤) تسكع : مشى مشياً متعسفا ، وتمادى فى الباطل . (٥) أفسدوا .

(٦) جمع لطيف وهو الدقيق ، لطف كـكرم صغر ودق .

(٧) اصطرف ، تصرف فى طلب الكسب . وفى المنظوم والمنثور « ومضطرب » من اضطرب : أى تحرك وهو افتعل من ضرب فى الأرض : إذا خرج تاجرا أو غازيا ، أو سار فيها فى ابتغاء الرزق .

بحيث اصطنعَك[1] اللهُ لولاية العهد ، مختصًا لك بذلك دون لُحمتك[2] وبنى أبيك .

ولولا ما أمَرَ الله تعالى به دالاً عليه ، وتقدَّمت فيه الحكماء آمرين به : من تقديم العِظَة ، والتذكير لأهل المعرفة ، وإن كانوا أولى سابقةٍ فى الفضل ، وخِصِّيصاء فى العلم[3] لاعتمد أميرُ المؤمنين منك على اصْطناعِ الله إياك ، وتفضيله لك بما رآك أهلَه فى محلِّك من أمير المؤمنين ، وسَبْقِك إلى رغائب أخلاقه ، وانتزاعِك محمودَ شِيَمه ، واستيلائك على مَشابهِ تدبيره .

ولو كان المُؤدِّبون أخذوا العلمَ من عند أنفسهم ، ولُقِّنوه إلهامًا من تِلقائهم ، ولم يتعلَّموا شيئًا من عند غيرهم ، لنَحَلْنَاهُم[4] عِلْمَ الغيب ، ووضعناهم بمنزلَة خالقهم[5] المستأثِرِ بعلم الغيب عنهم بوَحْدانيته وفَرْدانيته فى إلْهيَّته ، احتجـــابًا منهم لِتَعَقُّبِ فى حُـكْمِهِ ، وتثبُّتٍ فى سلطانه ، وتنفيذِ إرادته على سابق مشيئته ، ولـكنَّ العالِمَ الموفَّق للخير ، المخصوصَ بالفضلِ ، المحبُوَّ بمزية العلم وصَفوته ، أدركَهُ مُعانًا عليه بلُطْفِ بحثه، وإذلالِ كَنَفِه ، وصحّة فهمه ، وهَجْرِ سآمَتِه .

وقد تقدَّم أمير المؤمنين إليك ، آخِذاً بالحجَّة عليك ، مُؤَدّيا حقَّ الله الواجبَ عليه فى إرشادك وقضاءِ حقك ، وما ينظُر به الوالدُ المَعْنِيُّ الشفيقُ لِوَلَدِه ، وأمير المؤمنين يرجو أن يُنزِّهك اللهُ عن كل قبيح يَهَشُّ[6] له طَمعٌ ، وأن يعصِمَك من كل مكروهٍ حاقَ بأحد ، وأن يحصِّنك من كل آفةٍ استولت على امرئٍ فى دين أو خُلُق ، وأن يبلِّغه

---

(١) أى اختارك . (٢) اللحمة : القرابة .

(٣) فى المنظوم والمنثور (بعد إصلاح ما فيه) : « ولولا ما أمر الله به دالا عليه بتقدمة المعرفة لمن كانوا أولى سابقة فى الدين وخصيصى فى العلم » وخصه بالشىء خصا (بالفتح) وخصوصاً وخصوصية (بالفتح والضم) وخصيصى (بالكسر والقصر ويمد) وخصية (بالفتح والتشديد) وتخصة : فضله .

(٤) أى لنسبنا إليهم . (٥) فى صبح الأعشى : « ووضعناهم بمنزلة قصر بها عنهم خالقهم المستأثر بعلم الغيب عنهم بوحدانيته فى فردانيته وسابق لا هوتيته » .

(٦) هش (من بابى تعب وضرب) هشاشة وهشاشا : إذا خف إليه وارتاح له ونشط ، وهو به هش بش ، والطمع : الطامع .

فيك أحسنَ مالم يزل يُعوِّدُه ويُرِيه من آثار نعمةِ الله عليك ، ساميةً بك إلى ذُروه الشرف ، مُتَبَحْبِحَةً[١] بك بَسْطَةَ الكرم ، لائحةً بك فى أزهرِ مَعالِى الأدب ، مُورِثَةً لك أنفَسَ ذخائرِ العزِّ ، واللهَ يَسْتَخلِفُ عليك أمير المؤمنين ، ويسألُ حِياطَتَك ، وأن يعصِمَك من زَيْغ الهوى ، ويُحْضِرَك داعِىَ التوفيق ، مُعانا على الإرشاد فيه ، فإنه لا يُعين على الخير ، ولا يوفِّق له إلا هو .

اعلم أنَّ للحكمة مَسالِكَ تُفضِى مَضايقُ أوائلِها ـ بمَنْ أمَّها سالِكا ، وركِبَ أخطارَها[٢] قاصِداً إلى سَعَة عاقبتها ، وأَمْنِ سَرْحِها[٣] ، وشَرَف عزها ، وأنها لا تُعارُ بِسُخْف الخفَّة ، ولا تُنْشَأُ بتفريط الغَفلة ، ولا يُتعدَّى فيها بامرئ حَدُّه[٤] ، وربما أظهرت بَسْطَةَ الغَنى مستورَ العيب ، وقد تلقَّتْك أخلاقُ الحكمة من كل جهة بفضلها ، من غير تَعَبِ البحث فى طلبها ، ولا تَطاوُلِ لِمَنالِ ذروتها[٥] ، بل تأثَّلْتَ[٦] منها أكرمَ نَبعاتها ، واستَخلَصْتَ منها أعتَقَ[٧] جواهرها ، ثم سَمَوْتَ[٨] إلى لُبابِ مُصَاصِها ، وأحرَزْتَ مُنْفِسَ[٩] ذخائرها ، فاقتَعِدْ[١٠] ما أحرزْتَ ، ونافِسْ فيما أصَبْتَ.

---

(١) تبحبح : تمكن فى المقام والحلول ، وتبحبح الدار : توسطها . وفى المنظوم والمنثور « ومنجحة لك بسطة الكرم » .

(٢) فى المنظوم والمنثور : « وركب أخبارها » .

(٣) السرح : فناء الدار . (٤) وفى المنظوم والمنثور : « وأنها لا تعاف سخف الخفة ، ولا تسى بتفريط الغفلة ، ولا يتعدى فيها بأمن حد وهو تحريف » .

(٥) فى المنظوم والمنثور « ولا متطاول المنال لذروتها » وفى صبح الأعشى « ولا متطاول لمناولة ذروتها » وقد ضبط « متطاول » بكسر الواو بصيغة اسم الفاعل ، والأنسب أن يكون بفتح الواو على أنه مصدر ميمى ، لعطفه على مصدر وهو « تعب » وربما كان الأصل « ولا تطاول » بصيغة المصدر كما أوردته . (٦) تأثل المال : اكتسبه . والنبع : شجر تتخذ منه القسى ، وتتخذ من أغصانه السهام ، الواحدة نبعة . وفى المنظوم والمنثور « أكرم معانيها » .

(٧) من العتق بالكسر ، وهو الكرم والجمال .

(٨) فى المنظوم والمنثور « ثم شمرت » ، ولباب كل شىء ولبه بالضم : خالصه ، والمصاص : خالص كل شىء أيضا . (٩) نفس الشىء بالضم فهو نفيس ونافس : رفع وصار مرغوبا فيه ، وأنفس فهو منفس : صار نفيسا ، وأمر منفوس فيه : أى مرغوب فيه .

(١٠) اقتعد الدابة : ركبها ، والمعنى تمسك به واحرص عليه .

واعلم أن احتواءك على ذلك ، وَسَبْقَك إليه بإخلاصِ تقوَى الله فى جميع أمورك مُؤْثِرًا بها ، وإضمارِ طاعته مُنطويا عليها[١] ، وإعظامِ ما أنعم اللهُ به عليك شاكرا له ، مُرتبِطا فيه للمزيد ، بحُسْن الحياطة له ، والذَّبِّ عنه من أن تدخلك منه سآمةُ مَلاَلٍ، أو غَفلةُ ضياعٍ ، أو سِنَةُ تهاوُن ، أو جَهالةُ معرفة ، فإن ذلك أحقُّ ما بُدِئَ به ونُظِر فيه ، معتمِدًا عليه بالقوّة والآلة والعُدّة ، والانفراد به من الأصحاب والحامّة[٢] ، فتمسَّكْ به لاجئًا إليه ، واعتمِدْ عليه مُؤْثِرًا له ، والتجئْ إلى كَنَفِهِ متحيِّزًا إليه[٣] ، فإنه أبلغُ ما طُلِبَ به رضا الله ، وأنجَحُه مسألةَ ، وأجزلهُ ثوابا ، وأعْوَدُه نفعًا[٤] ، وأعمّه صلاحا ؛ أرشدك اللهُ لحظّك ، وفهّمك سَدادَه ، وأخذ بقلبك إلى محموده .

ثم اجعل لله فى كل صباحٍ يُنْعِم عليك ببلوغه ، وَيَظْهر منك السلامةُ فى إشراقه، من نفسك نصيبًا تجعله لله ، شكرا عَلَى إبلاغه إياك يومَك ذلك بصحة جَوارحَ ، وعافية بدنٍ ، وَسُبُوغِ[٥] نعم ، وظُهور كَرامةٍ ، وأن تقرأ فيه من كتاب الله عز وجل جزءًا تُرَدِّد رأيك فى آيه[٦] ، وتُزيِّن[٧] لفظك بقراءته ، وتُحْضِره عقلَك ناظرًا فى مُحْكَمه ، وَتَتفهّمه متفكرًا فى متشابِهه ، فإن فى القرآن شفاء القلوب من أمراضها ، وجِلاءَ وَساوِسِ الشيطان وسَفاسِفه[٨] ، وضياءَ مَعالِمِ النور - تِبْيانًا لِكُلِّ شَىْء وَهُدًى وَرَحْمَةً لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ .

ثم تعهَّدْ نفسك بمجاهدة هواك ، فإنه مِغْلاقُ الحسَنات ، ومِفتاحُ السيئات ، وخَصْمُ العقل .

---

(١) وفى المنظوم والمنثور « واصطبار طاعته » .
(٢) الحامة : خاصة الرجل من أهله وولده .
(٣) وفى المنظوم والمنثور « والتجئْ إلى كنفه متحرزا به » .
(٤) وفيه « وأعوده سعيا » ويقال هذا أعود : أى أنفع ، والعائدة : المنفعة .
(٥) أى اتساعها .
(٦) آى جمع آية ، وفى المنظوم والمنثور « فى أدبه » .
(٧) وفى صبح الأعشى « وترتل » والأولى أنسب .
(٨) السفساف بالفتح : الردىء من كل شىء ، وفى صبح الأعشى «وصعاصعه» ، وفى هامشه : «جمع صعصع» بالفتح ، وهو طائر يصيد الجنادب ، شبه وسوسة الشيطان به ، والرواية الأولى أظهر .

واعلم أن كلَّ أهوائِك[1] لك عدوٌّ يحاولُ هلَكَتك، ويَعترض غفْلَتك، لأنها خدَع إبليس، وحَبائِل[2] مَكرِه، ومَصايدُ مَكيدته، فاحذَرْها مُجانبًا لها، وتَوَقَّها مُحترسًا منها، واستعِذْ بالله عز وجل من شرها، وجاهِدْها إذا تناصَرتْ عليك، بعزمٍ صادق لا وَنْيَةَ[3] فيه، وحزمٍ نافذٍ لا مَثْنَوِيّةَ[4] لرأيك بعد إصداره عليك، وَصدق غالبٍ لا مَطمعَ في تكذيبه، ومَضاءةٍ صارمة لا أناةَ[5] معها، ونيةٍ صحيحةٍ لا خَلَجَةَ شكٍّ فيها، فإن ذلك ظِهْرِيٌّ[6] صِدقٍ لك على ردعها عنك، وقَمْعها دون ما تتطلَّع إليه منك، وهي واقية لك سَخْطةَ ربك، داعية إليك رضا العامة عنك، سائِرة عليك عيبَ من دونك، فازْدَنْ بها متحليًا[7]، وأَصِبْ بأخلاقك مواضعَها الحميدةَ منها، وتَوَقَّ عليها الآفةَ التي تقتطعك عن بلوغها، وتقصِّرُ بك دون شأوها[8]، فإن المَثُونة[9] إنما اشتدَّتْ مستصْعِبةً[10] وفَدَحتْ باهظةً أهلَ الطَّلَب لأخلاق أهل الكَرَم، المنتحِلين سُمُوَّ القَدْر، بجَهالة مواضِع ذَميم الأخلاق ومحمودِها، حتى فرَّط أهْلُ التقصير في بعض أمورهم، فدخلَتْ عليهم الآفاتُ من جهاتٍ أَمِنُوها، فنُسِبُوا إلى التفريط، ورَضُوا بذلّ المنزل، فأقاموا به جاهلين بموضع الفضل، عَمِهين[11] عن دَرَج الشرف، ساقطين دُون منزلَةِ أهل الحِجَا، فحاولْ بلوغَ غاياتها مُحْرِزاً لها بسَبْق الطلب

(١) في المنظوم والمنثور «كل أعدائك» وهو تحريف .
(٢) في صبح الأعشى «وخواتل مكره» أي وخوادع، من الختل وهو الخداع .
(٣) يقال : افعل ذلك بلاونية : أي بلاتوان .
(٤) يقال : حلف فلان يمينا ليس فيها مثنوية ولا ثنيا «بالضم» ولا ثنوى «بالفتح» ولا ثنية «كبقية» أي استثناء . (٥) أي لاتؤدة فيها، تأنى في الأمر، تمكث ولم يعجل، والاسم منه أناة، وخلجة: اسم من تخالج فى صدرى منه شىء أى شككت فيه، وأصل الاختلاج الحركة والاضطراب
(٦) أصل ذلك البعير الظهرى: وهو العدة للحاجة إن احتيج إليه، نسب إلى الظهر على غير قياس .
(٧) وفى المنظوم والمنثور «ملتحفا» .
(٨) الشأو : الغاية، وفى المنظوم والمنثور «ساميها» .
(٩) من قوله «فإن المثونة . . .» إلى قوله «أهل الحجا» ساقط من المنظوم والمنثور .
(١٠) استصعب الأمر : صار صعبا، وفدحه الأمر : أثقله، وكذا بهظه .
(١١) من العمه بالتحريك، وهو التحير والتردد .

إلى إصابة الموضع ، مُحَصِّناً أعمالك من العُجْب ، فإنه رأسُ الهَوَى ، وأول الغَوَاية ، ومَقَاد الهَلَكَةِ ، حارساً أخلاقك من الآفات المتصلة بمَسَاوِى العادات وذميم إيثارها[(١)]، من حيثُ أتت الغَفلةُ ، وانتشر الضِّياعُ ، ودَخَلَ الوَهَنُ ، فتوَقَّ غُلُوبَ[(٢)] الآفاتِ على عقلك ، فإنّ شواهدَ الحقِّ ستُظْهِرُ بأماراتها تصديقَ رأيك عند ذوى النُّهَى ، وحالَ الرأى وفَحْص النظر ، فاجتنِبْ لنفسك محمودَ الذِّكر ، وباقِىَ لِسانِ الصدق ، بالحَذَر لما تقدَّم إليك فيه أميرُ المؤمنين ، متحرِّزاً من دُخول الآفات عليك ، من حيثُ أَمْنُك وقلةُ ثِقَتك بمُحكَمها .

من ذلك أن تملِكَ أمورَك بالقَصْد ، وتُدَارِىَ جُندك بالإحسان ، وتصون سِرّك بالكِتمان ، وتُدَاوِىَ حِقْدك بالإنصاف ، وتذَلِّلَ نفسَك بالعدل ، وتحصِّن عيوبَك بتقويم أَوَدِك[(٣)] ، وتمنع عقلك من دُخولِ الآفاتِ عليه بالعُجْب المُرْدِى ، وأَناتَك فوَقِّها المَلالَ وفَوتَ العمل ، ومَضَاءَتَك[(٤)] فدرِّعْها رَوِيّةَ النظر واكْنُفْها بأناةِ الحِلم ، وخَلَوَاتِك فاحرُسها من الغَفلة واعتمادِ الراحة ، وصَمْتَك فانفِ عنه عِىَّ اللفظ ، وخَفْ فيه سُوءَ القالَة[(٥)] واستماعَك فأَرْعِه حُسْنَ التفهُّم ، وقوِّه بإشهادِ الفِكْر ، وعطاءَك فامْهَد له[(٦)] بُيُوتاتِ الشرف وذوى الحَسَب ، وتحرَّزْ فيه من السَّرَف واستطالةِ البَذَخ[(٧)] وامتنانِ الصَّنِيعة ، وحَياءك فامْنَعه من الخَجَلِ وبَلادةِ الحَصَر[(٨)] ، وحِلمَك فَزَعْه[(٩)] عن التهاون ، وأَحْضِرْه قوةَ الشَّكِيمة ، وعقوبتك فقصِّر بها عن الإفراط ، وتعمَّدْ بها أهلَ الاستحقاق ، وعَفْوَكَ فلا تُدْخِلْه تعطيلَ الحُقُوق ، وخذ به واجبَ

---

(١) وفى صبح الأعشى : المتصلة« بمساوى الألقاب وذميم تنابزها » والتنابز . والتعاير والتداعى بالأنباز ، وهى الألقاب جمع نبز بالتحريك وهو اللقب .

(٢) لم يرد هذا المصدر فى كتب اللغة ، (٣) الأود : الاعوجاج .

(٤) فى المنثور والمنظوم «ومصابك» وهو تحريف .

(٥) القول فى الخير ، والقال والقيل والقالة فى الشر .

(٦) من مهد المهد للصبى إذا هيأه وبسطه ، والمعنى : فضعه فى بيوتات الشرف .

(٧) الكبر . (٨) العى . (٩) وزعه : كوضعه : كفه ، والشكيمة : الأنفة .

المفترض ، وأقِمْ به أَوَدَ الْدين ، واستِئناسَك فامنع منه البَذاء وسُوء المُثافنة[1] ، وتمهَّدْ أمورَكَ فَحُدَّه أوقاتا ، وقدِّره ساعاتٍ لا تستفرِغُ قوّتَك ، ولا تستدعِى سَآمَتَك ، وعزَماتِك فانْفِ عنها عَجَلَةَ الرأى ولَجَاجة الإقدام ، وفرَحاتِك فاشكُمْها[2] عن البَطَر ، وقيِّدها عن الزَّهْو ، ورَوْعاتِك فَحُطْها من دَهَشِ الرأى واستسلام الخضُوع ، وحَذَراتِك فاصرفها عن الجُبْن ، واعمِدْ بها للحزم ، ورَجاءك فقيِّده بخَوفِ الفائت ، وامنعه من أمْنِ الطَّلَب .

هذه جَوامِع خِلالٍ ، دَخَّالُ النقصِ منها واصِلٌ إلى العقل بلطائفِ أبَنِه ، وتصاريفِ حَوِيله[3] ، فأحكِمْها عارفا بها ، وتقدَّمْ فى الحفظ لها ، معتزِماً على الأخذ بمَراشِدِها ، والانتهاء منها إلى حيثُ بلغَتْ بك عِظَةُ أمير المؤمنين وأدبُه إن شاء الله .

ثم لتَكن بطانتُك وجُلساؤك فى خَلَواتك ، ودُخَلاؤك فى سِرِّك ، أهلَ الفقه والوَرَع من خاصَّة أهل بيتك ، وعامّة قُوّادك مِمَّن قد حنَّكته السِّنُّ بتصاريف الأمور وخَبَطَتْه فِصَالُها بين فَراسِنِ[4] البُزَّلِ منها ، وقلَّبته الأمورُ فى فنونها ، ورَكِبَ أطوارَها ، عارِفًا بمَحاسِنِ الأمور ، ومَواضِعِ الرأيِ ، وعَيْنِ المَشورة ، مأمونَ النصيحة ، مَطوِىَّ الضمير على الطاعة .

---

(١) بذؤ الرجل ويثلث بذاء وبذاءة : سفه وأفحش فى منطقه ، وثافنه : جالسه ، وفى صبح الأعشى « وسوء المناقشة » نقث فلانا بالكلام : آذاه .

(٢) شكم الفرس كنصر : وضع الشكيمة فى فيه ، والشكيمة من اللجام : الحديدة المعترضة فى فم الفرس ، والمعنى فامنعها .

(٣) الأبن جمع أبنة بالضم : وهى العيب ، والحويل والحول كشمس وعنب : الحيلة والاحتيال ، وفى المنظوم والمنثور : « هذه جوامع دخال النقص .... » .

(٤) فراسن جمع فرسن كزبرج ، والفرسن للبعير كالحافر للدابة ، والبازل : الجمل فى تاسع سنيه (وليس بعده سن تسمى) وجمعه بزل ككتب وركع وبوازل ، والبازل أيضا : الرجل الكامل فى تجربة ، والفصال جمع فصيل : وهو ولد الناقة إذا فصل عن أمه .

ثم أحْضِرهم من نفسك وَقاراً يَسْتدعى لك منهم الهَيْبةَ ، واستئناسا يَعْطِف إليك منهم المودَّةَ ، وإنصاتا[1] يفُلُّ إفَاضَتَهم عندك بما تَكْرَه أن يُنْشَرَ عنك من سَخافة الرأى ، وضياع الحَزْمِ ، ولا يغلِبَنَّ عليك هواك فيَصْرِفَك عن الرأى ، ويقتطعك دون الفكر .

وتعلَّمْ أنك وإنْ خَلَوْتَ بسرٍّ ، فألقيْتَ دونَه سُتُورَك ، وأغلَقْتَ عليه أبوابك ، فذلك لا مَحَالَةَ مكشوفٌ لِلعامّة ، ظاهِرٌ عنك ـ وإن استترت بِرُبَّمَا ولَعَلَّ ، وما أرَى إذاعة ذلك وأعْلَمُ[2] ـ بما يَرَوْن من حالات مَنْ ينقطع به فى تلك المواطن ، فتقدَّمْ فى إحكام ذلك مِنْ نفسِك وسَدَّ خَلَلِهِ عنك ، فإنه ليس أحدٌ أسْرَع إليه سُوء القالة ، ولَغَطُ العامَّة بخير أو شر ، ممن كان فى مثل حالك ومكانك الذى أصبحتَ به من دين الله ، والأملِ المرجوِّ المنتظر فيك ، وإياك أن يُغْمِز[3] فيك أحد من حامّتك وبطانة خدمك بضَعْفة يجد بها مَسَاغاً إلى النطق عندك بما لا يَعْتَزِلُكَ عيبُهُ ، ولا تخلُو من لائمته ، ولا تأمَنُ سُوء الأُحْدُوثة فيه ، ولا يرخُصُ سوء القالة به إن نجم ظاهراً وعَلَنَ باديا[4] ، ولن يجترِئوا على تلك عندك إلَّا أنْ يَرَوا منك إصغاء إليها ، وقَبولا لها ، وترخيصا لهم فى الإفاضة بها .

ثم إيَّاك أن يُفاضَ عندك بشىء من الفُكاهاتِ والحكاياتِ والمُزاحِ والمَضاحِك التى يَسْتَخِفُّ بها أهلُ البِطالة ، ويتسرَّع نحوها ذَوُو الجهالة ، ويجدُ فيها أهلُ الحسَد مقالا لعَيْبٍ يُذيعُونه[5] ، ولطَعْنٍ فى حق يجْحَدونه ، مع ما فى ذلك من نَقْصِ الرأى ، ودَرَنِ العِرْضِ ، وهدْمِ الشرف ، وتأثيل[6] الغفلة ، وقوّةِ طباعِ السُّوء الكامنة

---

(١) وفى المنظوم والمنثور « وإنصاتا يفل أقاصيهم له عنك بما تكره أن ينتشر عنك .. الخ ».

(٢) أرى بالضم أى أظن ، وأعلم معطوف عليه أى وما أعلم . والمعنى وإن استترت وراء هذه الألفاظ .

(٣) أغمز فى فلان : عابه وصغره ، واغتمزه طعن عليه أيضا .

(٤) نجم كنصر : ظهر ، وعلن كنصر وضرب وكرم وفرح : ظهر أيضا .

(٥) وفى المنظوم والمنثور « يدفعونه » .

(٦) أى تأصيل وتمكين ، والمجر الصلد : أى الصلب الأملس .

فى بنى آدمَ كُمُونَ النّارِ فى الحجر الصَّلْدِ ، فإذا قُدِحَ لَاحَ شَرَرُه ، وتلَهَّبَ وَمِيضُه ووَقَد تضَرُّمُه ، وليست فى أحد ، أقوى سَطوةً ، وأظهرَ توقُّدًا ، وأعلى كُمُونا ، وأسرعَ إليه بالعَيْبِ ، وتطَرّقِ الشَّيْن ، منها لمن كان فى مِثْل سِنّك من أغفالِ[1] الرجال وذوى العُنفُوان فى الحداثة ، الذين لم تقع عليهم سِمَاتُ الأمور ، ناطقًا عليهم لأنحُها ، ظاهراً عليهم وَسْمُهَا ، ولم تمحَضهم[2] شهامَتها ، مُظهِرةً العامة فضلَهم ، مُذيعةً حُسْنَ الذِّكر عنهم ، ولم يبلُغ بهم الصِّيتُ فى الحُنكة مستَمَعًا[3] يدْفعُونَ به عن أنفسهم تواطِقَ ألْسُنِ أهل البغى ، وموادَّ أبصارِ أهل الحسد .

ثم تعهَّدْ من نفسك لطيفَ عيبٍ لازمٍ لكثير من أهل السلطان والقُدرة من إبطَارِ الذَّرْع[4] ونخوة الشرف والتِّيه وعَيْب الصَّلَفِ ، فإنها تُسرع بهم إلى فساد رأيهم ، وتهجينِ[5] عقولهم فى مواطنَ جَمَّة ، وأنحاء مصْطَرِفة ، منها قِلةُ اقتدارهم على ضبط أنفسهم فى مواكبهم ومسايرتهم العامَّةَ ، فمن مُقَلْقِلٍ شخصَه بكثرة الالتفات عن يمينه وشماله ، تزْدَهِيه الخِفَّةُ ، ويُبْطِره إجلابُ[6] الرجال حَوْلَه ، ومن مُقْبِلٍ فى موكبه على مُدَاعَبَة مُسايره بالمُفَاكَهة[7] له والتضاحُك إليه ، والإيجاف[8] فى السير مَرِحا ، وتحريكِ الجوارح متسرِّعا ، يَخال أن ذلك أمرعُ له وأحَثُّ[9] لطيَّته ،

(١) أغفال جمع غفل كقفل وهو من لم يجرب الأمور ، وعنفوان الشباب : أوله .
(٢) من محضه الود وأمحضه : أى أخلصه .
(٣) فى المنظوم والمنثور « ولم يبلغ بهم الصمت فى الحركة مستمعان » وهو تحريف ، والصلف : مجاوزة قدر الظرف والادعاء فوق ذلك تكبرا ،
(٤) فى المنظوم والمنثور « من أقطار الدرع » وفى صبح الأعشى « من أبطال الذرع » وفى مفتاح الأفكار « من أبطال البدع » وأرى أن ذلك تحريف ، والصواب « من إبطار الذرع » ومعناه من الذرع : أى القوة المبطرة : أى الداعية إلى البطر ، كما يدل عليه سياق الكلام.
(٥) التهجين : التقبيح .
(٦) الجلب والجلبة بالتحريك : اختلاط الأصوات ، وقد جلبوا كنصر وضرب وأجلبوا وجلبوا .
(٧) فى المنظوم والمنثور « بالمصاحبة له » والأولى أنسب وأولى .
(٨) وجف الفرس : عدا ، وأوجفه : أعداه ، والمرح بالتحريك : شدة الفرح والنشاط ، وفى المنظوم والمنثور « مهرجا » .
(٩) وفيه « وأخف » .

فلتحسن فى ذلك هيئتك ، ولتجمل فيه دعتك[1] ، وليقل على مسايرك[2] إقبالك ، إلا وأنت مطرق النظر ، غير ملتفت إلى محدث ، ولا مقبل عليه بوجهك فى موكبك لمحادثته ، ولا موجف[3] فى السير ، متلقل لجوارحك بالتحريك والاستنهاض ، فإن حسن مسايرة الوالى واتداعه[4] فى تلك الحالة دليل على كثير من غيوب أمره ومستتر أحواله .

واعلم أن أقواما سيسرعون إليك بالسعاية ، ويأتونك من قبل النصيحة[5] ، ويستميلونك بإظهار الشفقة ، ويستدعونك بالإغراء والشبهة ، ويوطئونك عشوة[6] الحيرة ، ليجعلوك لهم ذريعة إلى استئكال العامة ، بموضعهم منك فى القبول منهم ، والتصديق لهم على من قرفوه[7] بتهمة ، أو أسرعوا بك فى أمره إلى الظنة ، فلا يصلن إلى مشافهتك ساع بشبهة ، ولا معروف بتهمة ، ولا منسوب إلى بدعة ، فيعرضك لإيتاغ[8] دينك ، ويحملك على رعيتك بما لا حقيقة له عندك ، ويلحمك[9] أعراض قوم لا علم لك بدخلهم ، إلا بما أقدم به عليهم ساعيا ، وأظهر لك منهم متنصحا .

وليكن صاحب شرطتك ، ومن أحببت أن يتولى ذلك من قوادك ، إليه إنهاء[10] ذلك ، وهو المنصوب لأولئك ، والمستمع لأقاويلهم ، والفاحص عن نصائحهم ، ثم لينه ذلك إليك على مايرفع إليه منه ، لتأمره بأمرك فيه ، وتقفه على

---

(١) وفيه « ولتحمل فيه رعيتك » وهو تحريف . (٢) وفيه « على مسائلك » .
(٣) وفيه « ولا مخفف » . (٤) الاتداع : السكون والاستقرار . وفى المنظوم والمنثور « وابتداعه » وهو تحريف . (٥) وفى صبح الأعشى « ويأتونك على وجه النصيحة » .
(٦) العشوة مثلث العين: ركوب الأمر على غير بيان ، وهو يستأكل الضعفاء: أى يأخذ أموالهم .
(٧) قرفه كضربه : اتهمه ، والظنة : التهمة . (٨) أوتغ دينه بالإثم إيتاغا : أفسده ، وفى المنظوم والمنثور « فيعرضك لإيباغ دينك » .
(٩) ألحمه : أطعمه اللحم . ودخل الرجل بالكسر والفتح : نيته ومذهبه ، والدخل بالفتح ويحرك : العيب والريبة .
(١٠) وفى صبح الأعشى : « وليكن صاحب شرطتك المتولى لإنهاء ذلك المنصوب لأولئك ... »

رأيك ، من غير أن يَظهَر ذلك العامَّة ؛ فإن كان صوَابا نالتك حُظوَته[1] ، وإن كان خطأً أقدم به عليك جاهل ، أو فَرْطة سعَى بها كاذب ، فنالت الساعِيَ[2] منهما أو المظلوم عقوبة ، وبَدَر[3] مِن واليك إليه نَكال ، لم يُعْصَبْ ذلك الخطأ بك ، ولم تُنْسَب إلى تفريط ، وخَلَوْتَ من مَوْضع الذم فيه[4] ، مُحْضِرًا إليه ذهنك وصَوَابَ رأيك .

وتَقَدَّمْ إلى من تَوَلَّى ذلك الأمرَ وتعتمِد عليه فيه ، أن لا يُقدِمَ على شيء ناظراً فيه ، ولا يحاولَ أخذَ أحد طارقا له ، ولا يعاقبَ أحداً مُنكِّلا به ، ولا يخلِّيَ سبيل أحد صافحا عنه ، لإصحار[5] براءته ، وصِحَّة طريقته ، حتى يرفَعَ إليك أمرَه ، ويُنهى إليك قضيته ، على جهة الصدق ، ومَنْحَى الحق ، ويقين الخبر ، فإن رأيْتَ عليه سبيلا لَمحبَس[6] ؛ أو مجازا لعقُوبة ، أمَرْتَه بتَوَلِّي ذلك من غير إدخاله عليك ، ولا مشافهتِك منه ، فكان المتولِّيَ لذلك ، ولم يجْرِ على يديك مكروه رأى ، ولا غِلْظَةُ عقوبة ، وإن وجدتَ إلى العفو عنه سبيلا ، أو كان مما قُرِفَ به خَلِيًّا ، كنتَ أنت المتولِّي للإنعام عليه بتخْلِية سَبيله ، والصفح عنه بإطلاق أسره ، فتوليتَ أجرَ ذلك واستحققتَ ذُخْره ، وأنطقتَ لسانه بشكرك ، وطَوَّقْتَ قومَه حَمْدَك ؛ وأوجبتَ عليهم حَقَّك ؛ فقَرنت بين خَصْلتين ، وأحرزْتَ حِظْوَتين : ثوابَ الله فى الآخرة[7] ، ومحمود الذكر فى العاجلة .

---

(١) وفيه « نالتك خيرته » . (٢) وفى المنظوم والمنثور « فنالت الباغى منها » .

(٣) بدر أى سبق ، ولم يعصب : أى لم يقرن ولم يلصق .

(٤) بعد هذا فى المنظوم والمنثور « فافهم ذلك وتقدم الى من تولى فلا يقدم على شىء ... الخ » .

(٥) أى لوضوح براءته ، من أصحر الرجل إذا برز الى الصحراء ، وفى حديث على « فأصحر لعدوك وامض على بصيرتك » أى كن من أمره على أمر واضح منكشف .

(٦) أى لحبس وهو مصدر ميمى .

(٧) وفى المنظوم والمنثور « فتوليت أجر ذلك وذخره ونطق لسانه بشكرك فقرنت خصلتين : ثواب الله ـــ الخ » .

ثم إياك وأنْ يصلَ إليك أحد من جُندك وجُلَسائك وخاصَّتكَ وبِطانتك بمسألة يَكْشِفها لك ، أو حاجةٍ يَبْدَهُك[١] بطلبها ، حتى يَرْفَعَها قبل ذلك إلى كاتبك الّذى أَهْدَفْتَه[٢] لذلك ، ونصبتَه له ، فَيَعْرِضَها عليك ، مُنْهِيا لما على جهة الصدق منها ، وتكُونَ على معرفةٍ من قَدْرِها ، فإن أردتَ إسعافَه بها ، ونجاحَ ما سَأَلَ منها ، أذِنتَ له فى طَلَبها ، باسِطًا له كَنَفَك ، مُقْبِلاً عليه بوجهك ، مع ظهُور سرورك بما سألك ، وفُسْحةِ رأى ، وبَسْطَةِ ذَرْعٍ ، وطِيبِ نفس ، وإن كرِهتَ قضاء حاجته ، وأحببتَ رَدَّه عن طَلِبته[٣] ، وثقُل عليكَ إجابتُه إليها وإسعافُه بها ، أمرتَ كاتبَكَ فصَفَحه[٤] عنها ، ومَنَعه من مُواجَهتك بها ، تخِفَّتْ عليكَ فى ذلك المَئُونةُ ، وحسُن لك الذِّكرُ ، ولم يُنشر عنك تجهُّمُ[٥] الردِّ ، ويَنَلْك سوء القالةِ فى المنع ، وحُمِل على كاتبك فى ذلك لائمةٌ[٦] أنت منها بَرِىء السّاحة .

وكذلك فليكُن رأيُك وأمرُك فيمَن طرَأَ عليك من الوُفُود ، وأتاك من الرُّسل ، فلا يصلَنَّ أحدٌ منهم إلا بعد وُصُول علمه إليك ، وعِلْمِ ما قَدِمَ له عليك ، وجهةِ ما هو مكلِّمُك به ، وقَدْرِ ما هو سائِلُك إياه إذا هو وَصَل إليك ، فأصدرتَ رأْيك فى حوائجه[٧] وأَجَلْتَ فِكرك فى أمره ، واخترتَ مُعْتَزِمًا على إرادتك فى جوابه[٨] ، وأنفذتَ مَصْدورَ رَوِيَّتك فى مرجوع مسألته ، قبل دخوله عليك ، وعِلمه بوصول حاله إليك ، فرفَعْتَ عنك مَئُونة البديهة ، وأرخيتَ عن نفسك خِناقَ[٩] الرويَّة ، وأقدَمْتَ على ردِّ جوابه بعد النظر وإجالةِ الفكر فيه ، فإنْ دخَلَ إليك أحد

---

(١) بدهه بالأمر كنعه : استقبله به مفاجأة . (٢) أراد : نصبته كالهدف .

(٣) الطلبة : ما طلبته . (٤) صفح السائل وأصفحه : رده .

(٥) تجهمه وتجهم له : استقبله بوجه كريه ، وهذه الجملة وما بعدها ساقطة من المنظوم والمنثور.

(٦) اللائمة : اللوم .

(٧) فى المنظوم والمنثور « فى جوابه » . (٨) هذه الجملة ساقطة من المنظوم والمنثور .

(٩) الخناق : الحبل يخنق به .

منهم فكلّمك بخلاف ما أنهى إلى كاتبك ، وطوى عنه حاجته قِبلك ، دفعته عنك دفعاً جميلاً ، ومنعته جوابك منعاً ودِيعاً[1] ، ثم أمرتَ حاجبكَ بإظهار الجفوة له والغلظة عليه ، ومنعِه من الوصول إليك ، فإنّ ضبطك لذلك مما يُحْكِم لك تلك الأسباب ، صارفاً عنك مئونتها ، ومسهّلا عليك مستصعبَها[2] ، إن شاء الله .

احذرْ تضييعَ رأيك ، وإهمالك أدبك فى مسالكِ الرضا والغضب ، واعتوارهما[3] إياك ، فلا يزدَهِينَّك إفراطُ عُجْبٍ تستخفُّك روائعه[4] ، ويستهويك منظره ، ولا يبدُرَنَّ منك ذلك خطأً وتزَق خِفَّةٍ لمكروهٍ إن حلّ بك أو حادثٍ إن طرأ عليك ، وليكُن لك من نفسك ظِهْريٌّ ملجأً تتحرّز به من آفات الرّدَى ، وتستعهده[5] فى مهمٍّ نازل ، وتتعقّبُ به أمورك فى التدبير ، فإن احتجتَ إلى مادّة من عقلك ، وروية من فكرك ، أو انبساطٍ من منطقك ، كان انحيازك إلى ظِهريِّك مُزدادا مما أحببت الامتياحَ منه[6] والامتيار ، وإن استدْبَرَتْ[7] من أمورك بوادرُ جهل ، أو مضى زَلَل ، أو معاندةُ حق ، أو خطلُ تدبير ، كان ما احتجنْتَ[8] من رأيك عذرا لك عند نفسك ، وظهريا قويًّا على ردّ ما كرهتَ ، وتخفيفا لمؤنة الباغين عليك فى القالة وانتشار الذكر ، وحِصنا من غُلُوب الآفات عليكَ ، واستعلائها على أخلاقِك .

وامنع أهلَ بِطانتِكَ وخاصّةَ خدمك وعامّةَ رعيّتك من استِلحام[9] أعراضِ

---

(١) فى المنظوم والمنثور « منعا ودفعا » .

(٢) هذه الجملة ساقطة من المنظوم والمنثور . (٣) أى تداولهما .

(٤) جمع رائع ، من راعه الشىء إذا أعجبه ، واستهواه ، استماله .

(٥) استعهد فلانا من نفسه : ضمنه حوادث نفسه ، وفى صبح الأعشى « وتستعضده » وفى كتب اللغة : اعتضد به : استعان به ، أقول والاستعضاد كالاستعانة : أى تتخذه عضدا لك .

(٦) امتاح : استقى ، وامتار لأهله : جلب لهم الميرة بالكسر أى الطعام .

(٧) هكذا فى الأصول التى نقلت منها ، ولعل صوابه « أدبرت » بمعنى وقعت ولا يستطاع تلافيها ، ويستأنس لذلك بقوله بعد « أو مضى زلل » أو صوابه ابتدرت أى ابتدرتك بوادر جهل ، وابتدره الأمر عاجله ، والبادرة : مايبدر من حدتك فى الغضب من قول أوفعل .

(٨) من احتجن المال : أى ضمه واحتواه . (٩) معناه أكل لحومهم بالغيبة ، وفى كتب اللغة استلحم الطريدة : تبعها ، واستلحم الطريق : ركب أوسعه واتبعه .

الناس عندك بالغِيبة ، والتقرب إليك بالسِّعاية ، والإغراء من بعض ببعض ، والنَّميمة إليك بشيء من أحوالهم المستتِرَة عنك ، أو التحميل لك على أحد منهم بوجه النصيحة ومذهَب الشفقة ، فإن ذلك أبلغُ بك سُمُوًّا إلى مَنال الشرف ، وأعونُ لك على محمود الذِّكر ، وأطلقُ لعِنان الفضل ، فى جَزالَة الرأى ، وشرفِ الهمَّة ، وقوة التدبير .

وأملِك نفسك عن الانبساطِ فى الضحك والانفِهاق[(١)] ، وعن القُطوب بإظهار الغَضَب وتنحُّلِه ، فإن ذلك ضَعْفٌ عن مِلك سَوْرة[(٢)] الجهل ، وخروج من انتحال اسم الفضل ، وليكن ضحكك تبسُّما أو كَشْرًا[(٣)] فى أحايينِ ذلك وأوقاته ، وعند كل رائعٍ مستخِفٍّ مُطْرِب[(٤)] ، وقُطُوبُك إطراقا فى مواضع ذلك وأحواله ، بلا عَجَلة إلى السَّطْوة ، ولا إسراعٍ إلى الطِّيَرة ، دون أن يكنُفَها رويَّةُ الحلم ، وتَملِكَ عليها بادرةُ الجهل .

إذا كنت فى مجلس مَلَئك وحيثُ حضورُ العامة مجلسَك ، فإياك والرَّمىَ ببصرك إلى خاصٍّ من قُوّادك ، أو ذى أُثْرة[(٥)] عندك من حَشَمك ، وليكن نظرك مقسوما فى الجميع ، وإعارتُك[(٦)] سمْعَك ذا الحديث بِدَعَةٍ هادئة ووقارٍ حَسَن ، وحضور فَهمٍ مستجمِع ، وقلة تضجُّر بالمحدِّثِ ، ثم لا يَبْرَحُ وجهُك إلى بعض قُوّادك وحرَسك متوجِّها بنظر ركين ، وتفقُّدٍ مَحضٍ ، فإن وَجَّه إليك أحد منهم نظره مُحدِّقا[(٧)] ، أو رماكَ ببصره مُلِحًّا ، فاخفِضْ عنه إطراقًا جميلا باتِّداع[(٨)] وسكون ، وإياك والتسرعَ فى الإطراق ، والخفَّةَ فى تصريف النظر ، والإلحاحَ عَلَى من قصد إليك فى مخاطبته إياكَ رامقًا بنظره .

---

(١) انفهق الشىء : اتسع ، وقطب كضرب قطبا وقطوبا . زوى ما بين عينيه وكلح كقطب ، وانتحل قول غيره وتنحل : ادعاه لنفسه . (٢) ملك مثلث الميم مصدر ملك ، وسورة الجهل : حدته . (٣) كشر عن أسنانه كضرب كشرا : أبدى ، يكون فى الضحك وغيره ، وفى المنظوم والمنثور « أو كبرا » وهو تحريف .

(٤) وفيه « وعند كل رأى ملين ومستخف مطرب » وهو تحريف .

(٥) ذى أثرة بالضم والكسر وأثرة بالتحريك : أى من اختصصته بفضلك وقدمته .

(٦) أعاره سمعه : أصغى إليه ، وفى صبح الأعشى ومفتاح الأفكار « وإراعتك » وهو تحريف .

(٧) حدق إليه بالنظر : شدد النظر إليه ، وفى المنظوم والمنثور « محدثا » .

(٨) وفيه « بإبداع » وهو تحريف .

واعلم أن تصفحك وجوهَ جُلَسائكَ ، وتفقُّدك مجالِسَ قُوَّادِكَ[١] ، من قوّة التدبير، وشهامة القلب ، وذكاء الفِطنةِ ، وانتباه السِّنَة ، فتفقَّدْ ذلك عارفًا بمن حَضَرَكَ وغاب عنك ، عالِمًا بمواضعهم من مجلسك ، ثم اغدُ بهم عن ذلك ، سائلًا لهم عن أشغالهم التي مَنعَتهم من حضور مجلسك ، وعاقَتْهم بالتخلُّفِ عنك إن شاء الله .

إن كان أحد من حَشَمك وأعوانك تَثِقُ منه بغَيبِ ضمير ، وتعرِفُ منه لِين طاعةٍ ، وتُشْرِف منه على صِحّة رأى ، وتأمَنه عَلَى مَشُورتك ، فإياك والإقبالَ عليه في كل حادث يَرِد عليك ، والتوجُّهَ نحوَه بنظرك عند طَوارِق ذلك ، وأن تُرِيَه أو أحداً من أهل مجلسك أنَّ بِكَ إليه حاجةً مُوحِشة، وأنْ ليس بك عَنْهُ غِنًى في التدبير ، أو أنك لا تَقضى دونَه رأيا ، إشراكا منك له في رويّتك ، وإدخالا منك له في مَشورتك واضطراراً منك إلى رأيه في الأمر يَعْرُوكَ[٢] ، فإن ذلك من دخائل العيوب التي ينتشر بها سوء القالَة عن نُظرائك ، فانفِها عن نفسك خائفا لاعْتِلاقِها[٣] ذِكْرَك ، واحجُبْها عن رَوِيّتك، قاطِعاً أطماعَ أوليائك عن مثلها عندك ، أو غُلُوِّهم عليها منك

واعلم أن للمشورة موضعَ الخَلوة وانفرادَ النظر ، ولكل[٤] أمر غاية تحيط بحدوده وتجمعُ مَعالِمَهُ ، فابغِها مُحْرِزا لها ، ورُمْها طالبا لنَيلها[٥] ، وإياك والقصورَ عن غايتها ، أو العجزَ عن دَرْكها ، أو التفريطَ في طلبها إن شاء الله تعالى .

إياك والإغرامَ[٦] بكثرة السؤال عن حديثٍ مّا أعْجَبَك ، أو أمرٍ مّا أزدهاكَ ، أو القطعَ لحديثِ مَنْ أرادك بحديثه حتى تنقُضَه عليه، بالخَوضِ في غيره ، أو المسألة عما ليس منه ، فإن ذلك عند العامة منسوبٌ إلى سُوءِ الفهم ، وقِصَر الأدب عن تناول

---

(١) وفى المنظوم والمنثور « واعلم أن تصفحك وجوه قوادك ، من قوة التدبير ، وشهامة القلب ، تتفقد ذلك ... » . (٢) أى يعتريك وينزل بك ، وفى المنظوم والمنثور « واضطرارا إلى رأيه » .

(٣) اعتلقه : تعلق به ، وفى المنظوم والمنثور « لاعتقالها ذكرك » .

(٤) هذه الجملة ساقطة من المنظوم والمنثور . (٥) فيه « طالباً لسانها، وإياك والقصور عن غايتها والإفراط فى طلبها » . (٦) أغرم بالشىء : أولع به .

محاسن الأمور والمعرفة بمساوئها، ولكن أنصِتْ لمحدِّثك، وأرْعِهِ سمعَك، حتى يعلمَ أنك قد فَهِمتَ حديثه، وأحطتَ معرفةً بقوله، فإن أردت إجابته فمن معرفةٍ بحاجته وبعد علم بطَلِبته، وإلاّ كنتَ عند انقضاء كلامه كالمتعلِّل[1] من حديثه بالتبسُّم والإغضاء، فأجْزى[2] عليك الجواب، وقطَع عنك ألسُنَ العَتْب.

إياك وأن يَظهرَ منك تبرُّم بطُول مجلسك، وتضجُّرٌ ممَّنْ حضَرك، وعليك بالتثبُّت عند سوْرة الغضب، وحَمِيّة الأنف، وملاَل الصبر في الأمر تستعجل به، والعملِ تأمُرُ بإنفاذه، فإن ذلك سُخْفُ شأنٍ[3]، وَخِفّةٌ مُرْدية، وجَهالة بادية، وعليك بثُبوتِ المنطقِ، ووَقارِ المجْلس، وسُكون الريح، والرفْضِ لحَشْوِ الكلام، والترك لفضوله، والإغرامِ[4] بالزيادات في منطقك، والترديد للفظك من نحو: اسمع، وافهم عني، ويا هَنَاه[5]، وألا ترى. أو ما يُلهَج به من هذه الفضول المقصِّرة بأهل العقل، الشائنة لذوى الحجا في المنطق[6]، المنسوبة إليهم بالعِيِّ، المُردية لهم في الذِّكر.

وخِصالٌ من مَعايب الملوك، والسُّوقةُ عنها غَبيَّـةُ النظر[7] إلاّ مَنْ عرَفها من أهل الأدب، وقلَّما حامِلٌ لها، مُضطلِع[8] بها، صابر على ثِقْلها، آخذٌ لنفسه

---

(١) في صبح الأعشى «كالمتعجب».
(٢) مسهل عن أجزأ: أى أغنى.
(٣) في المنظوم والمنثور «سخف سائر».
(٤) معطوف على فضوله: أى وعليك بالترك للإغرام بالزيادات الخ».
(٥) هن: كلمة يكنى بها عن اسم الإنسان، فإذا ناديت مذكرا بغير التصريح باسمه قلت: ياهن أقبل، ولك أن تدخل فيه الهاء فتقول ياهنه (بفتح النون وسكون الهـاء) كما تقول له وماليه، ولك أن تشبع الحركة فتتولد الألف فتقول ياهناه أقبل (وتزاد الألف والهاء في آخره في النداء خاصة) وهذه الهاء تصيرتاء في الوصل، وتضم على تقدير أنها آخر الإسم وتكسر لاجتماع الساكنين، ولك أن تقول ياهناه أقبل بهاء مضمومة، وفي المنظوم والمنثور «من نحو اسمع أو اعجل أو ألا ترى».
(٦) هذه الجملة ساقطة من المنظوم والمنثور.
(٧) فيه «والسوقة عيبها عند النظر» وهو تحريف.
(٨) أى قوى على احتمالها، والثقل: الحمل الثقيل.

بجَوَامِعِها ، فانفها عن نفسك بالتحفظ منها ، واملكْ عليها اعتيادك[١] إياها معتفيا بها، منها كثرةُ التنخم والتبصُّق والتنخُّع والتثَّؤباء والتمطِّى والجُشاء وتحريك القَدَم وتنقيض الأصابع والعبث بالوجه واللحية والشاربِ والمِخْصَرة وذُؤابة السيف ، والإيماضُ بالنظر والإشارةُ بالطَّرْف إلى أحد من خدمك بأمر إن أردتَه ، والسِّرارُ فى مجلسك ، والاستعجالُ فى طَعْمك وشُرْبك ، وليكن طَعْمُكَ مُتَّدِعا[٢] ،وشربُك أنفاسا،وجَرْعُك مَصًّا ، وإياكَ والتسرعَ إلى الأيمانِ فيما صغُر أو كبُرَ من الأمور ، والشقيمة بقول : يا هَنَاهُ[٣] ، أو الغميزة[٤] لأحد من خدمك وخاصّتك ، بتسويغهم مُقَارفَةَ الفسوق بحيثُ تحضُرُكَ أو دارُكَ وفِناؤُكَ ، فإن ذلك كله مما يقبُح ذكره ، ويسوء موقعُ القول فيه ، وتُحْمَلُ عليك مَعايبُه ، وينالك شَيْنُه ، ويُنْشَرُ عنك سوء نَبَثه ، فاعرِف ذلك متوقِّيا له، واحذرْهُ مُجانبا لسوء عاقبته .

استكثِرْ من فوائد الخير ، فإنها تَنْشُر المَحْمَدة ، وتُقِيل العَثْرة ، واصطَبِر على كَظْم الغيظِ ، فإنه يُورِث الراحة[٥] ، ويُؤَمِّن الساحَةَ ، وتعهَّد العامَّةَ بمعرفة دَخْلهم ، وتَبَطُّن[٦] أحوالهم ، واستِثارة دفائنهم ، حتى تكون منها على مَرْأى العَيْن ، ويقين الخِبْرة ، فتُنعشَ عديمَهم ، وتَجبُرَ كَسِيرهم ، وتُقِيمَ أَوَدَهم ، وتعلِّم جاهلهم ، وتستصلِح

---

(١) فى المنظوم والمنثور « واملك عنها اعتقادك معيبا بها بكثرة التنخم والتبزق والتنحنح والتثاؤب والجشاء والتمطى وتنقيض الأصابع وتحريكها والعبث باللحية والشارب... الخ» وتنخم : دفع بشىء من صدره أو أنفه، وبصق وبسق وبزق واحد ،والبصاق والبساق والبزاق كذلك ، وتنخع: رمى نخامته ـ والنخامة والنخاعة بالضم : مايخرج من الصدر أو من الخيشوم ، والثؤباء : التثاؤب ، قال مصحح القاموس : ونقل صاحب المبرز عن ابن مسحل « أنه يقال ثوباء بالضم فالسكون» نقله الفهرى وغيره ، وهو غريب » والجشاء : اسم من التجشؤ وهو تنفس المعدة ، وفى كتب اللغة: أنقض أصابعه : ضرب بها لتصوت،أقول: ونقض المضعف كأنقض المهموز ، والمخصرة : عصا صغيرة يشير بها الملك إذا خاطب ، وذؤابة السيف : علاقة قائمة ، وأومض : سارق النظر وأشار إشارة خفية، والسرار: المسارة،وطعمه كسمعه طعما وطعاما.

(٢) وفى المنظوم والمنثور « مبتدعا » وهو تحريف .

(٣) فى صبح الأعشى « يقول : يابن الهناة » وفى المنظوم والمنثور « يابن الهيبة » .

(٤) معناها هنا الإطماع ، يقال فى هذا الأمر غميزة ومغمز : أى مطمع (أو مطعن أيضا) .

(٥) فى المنظوم والمنثور « يورث العز » . (٦) فيه « وينظر أحوالهم » .

فاسدهم ، فإن ذلك من فعلك بهم يُورِثك العِزَّةَ ، ويقدِّمك فى الفضل ، ويُبقى لك لِسانَ صِدْقٍ فى العاقبة[1] ، ويُحْرِز لك ثوابَ الآخرة ، ويردُّ عليك عواطِفَهم المستنفِرة منك ، وقلوبَهم المتنحيَّة[2] عنك .

قِسْ[3] بين منازل أهل الفضل فى الدين والحِجاَ والرأى والعقل والتدبير والصِّيتِ فى العامة ، وبين منازل أهل النَّقص فى طبَقات الفضل وأحواله ، والخمولِ عند مُباَهاةِ النسب[4]، وانظر بصُحبة أيِّهم تنالُ من مودَّته الجميلَ ، وتستجْمع لك أقاويل العامّة على التفضيل ، وتبلُغُ درجة الشرف فى أحوالك المتصرِّفة بك ، فاعتَمد عليهم مُدْخِلا لهم فى أمرك ، وآثِرْهم بمجالستك لهم مستمعا منهم ، وإياك وتضييعَهم مُفرِّطا ، وإهمالَهم مضيِّعا .

هذه جوامعُ خِصال قد لخَّصَها لك أميرُ المؤمنين مفسِّرا ، وجمع لك شوَاذَّها[5] مُؤلِّفا ، وأهداها إليك مُرْشِدا ، فقِفْ عند أوامرها ، وتَناَهَ عنْ زواجرها ، وتثبَّتْ فى مجامعها ، وخذ بِوَثائقِ عُراها ، تَسْلَمْ من مَعاَطِب الرَّدَى ، وتَنَلْ أنفَسَ الحظوظ ، ورغيبَ[6] الشرف ، وأعلى دَرَج الذِّكر ، وتُؤَثِّلْ سَطْوَةَ العز[7] ، واللهَ يسأل لك أميرُ المؤمنين حُسْنَ الإرشاد ، وتتابُعَ المَزِيد ، وبلوغ الأمل ، وأن يجعل عاقبَةَ ذلك بِكَ إلى غِبْطةٍ يسوِّغُك إياها، وعافيةٍ يُحِلُّكَ أكنافها ، ونعمةٍ يُلْهِمك شكرها ، فإنه الموفِّق للخير ، والمُعين على الإرشاد ، منه تمامُ الصالحات ، وهو مُؤْتِى الحسنات ، عنده مفاتيحُ الخَيرِ وبيده الملك ، وهو على كل شيء قدير .

---

(١) فيه « فى العامة » . (٢) فيه « المستجنة » . (٣) فيه « فبين » .

(٤) فيه « والجمود عند سناها بأهل الحسب ونظر اصيحة أمهم تنال مودة الجميع » والعبارة محرفة .

(٥) فيه « شواهدها » والأولى أصح وأنسب لقوله « مؤلفاً » .

(٦) فيه « ومزية الشرف » والرغيب : المرغوب فيه .

(٧) وردت هذه الجملة فى صبح الأعشى ، هكذا « وتأثل سطر العز » مع علامة توقف ، وقد صلحتها كما ترى ، وأثله : أصله وقواه .

فإذا أفضيتَ نحوَ عدوِّكَ ، واعتزمتَ على لقائهم ، وأخذتَ أهْبَةَ قتالِهم ، فاجعل دِعَامَتَكَ التى تلجأ إليها ، وثِقَتكَ التى تأمُلُ النجاةَ بها ، ورُكْنَكَ الذى ترتجِى به مَنالة الظفرِ ، وتَكتَهِف[1] به لمَالقِ الحذَرِ ، تقوَى الله عز وجل ، مستَشْعِراً لها بمراقبته ، والاعتصام بطاعته ، متبِعا لأمره ، مجتنباً لسُخطه ، محتذيا سُنَّته ، والتوقِّيَ لمعاصيه فى تعطيل حدوده ، وتعدِّى شرائعه ، متوكِّلا عليه فيما صَمَدْتَ[2] له ، واثقاً بنصره فيما توجَّهتَ نحوه ، متبرِّئاً من الحوْل والقوة فيما نالك من ظفر ، وتلقَّاكَ من عز ، راغبا فيما أهاب[3] بك أميرُ المؤمنين إليه من فضل الجهاد ، ورَمَى بكَ إليه ، محمودَ الصبر فيه عند الله عز وجل من قتال عدوِّ الله للمسلمين ، أكْلَبه[4] عليهم ، وأظهره عداوةً لهم ، وأفدَحِه ثِقْلاً لعامَّتهم ، وآخَذِه بِرِبْقِهم[5] ، وأعلاه عليهم بغيا ، وأظهَرِه فيهم فسقا وجَوْرًا ، وأشدِّه على فيئهم الذى أصاره الله لهم[6] وفتحه عليهم مئونة وكَلاًّ[7] والله المستعان عليهم ، والمستنصر على جماعتهم ، عليه يتوكل أميرُ المؤمنين ، وإياه يستصرخُ عليهم ، وإليه يفوِّض أمرَه ، وكفى بالله وليًّا وناصراً ومعينا ، وهو القوى العزيز .

ثم خُذْ مَنْ معك من تُبَّاعك[8] وجُنْدِك بكفِّ مَعرَّتِهم ، وردِّ مُشْتَعِلِ جَورهم[9] ، وإحكامِ خَلَلهم ، وضمِّ منتشِر قَوَاصِيهم ، ولَمِّ شَعَثِ أطرافهم ،

---

(١) معناه : وتتحصن به ، واشتقاقه من الكهف وهو الوزر والملجأ ، يقال : فلان كهف أهله أى ملجأ لهم . (٢) صمده وصمد إليه قصده ، ومنه الصمد بالتحريك : أى السيد الذى يصمد إليه فى الحوائج .

(٣) أهاب به : دعاه ، من أهاب بالإبل ، إذا دعاها بقوله : هاب هاب.

(٤) أى أشدهم عليه وآذاهم له يقال: كلب الدهر كفرح كلبا بالتحريك: إذا ألح عليهم ، واشتد، وكلب الشتاء : اشتد أيضاً ، ودفعت عنك كلب فلان : أى شره وأذاه .

(٥) الرق بالكسر : حبل فيه عدة عرى تشد به البهم ، كل عروة ربقة بالكسر والفتح .

(٦) فى المنظوم والمنثور « أصاده الله لهم مئونة » وما بعد ذلك ساقط .

(٧) الكل : الثقل .

(٨) تباع جمع تابع ، وفى المنظوم والمنثور « من تبعك » .

(٩) فى صبح الأعشى « ورد مشتعل جهلهم ، وإحكام ضياع عملهم » .

وخُذْهم[١] بمن مَرُّوا به من أهل ذمتك وملّتك بحُسن السِّيرة ، وعفّة الطُّعْمة ، وَدَعَةِ الوقار ، وهَدْى الدَّعَة ، وجَمامِ[٢] النفس ، مُحْكِمًا ذلك منهم ، متفقِّداً لهم فيه تفقُّدَك إياه من نفسك .

ثم اصْمِدْ[٣] لعدوِّك المتسمّى بالإسلام خارجاً من جماعة أهله ، المنتحل ولاية الدين مستحِلاً لدماء أوليائه ، طاعِناً عليهم ، راغباً عن سُنَّتهم ، مفارقا لشرائعهم ، يَبْغيهم الغَوائلَ ، وينصِبُ[٤] لهم المكايدَ ، أضْرَمُ حِقْدًا عليهم ، وَأَرْصَدُ عداوة لهم ، وأطْلَبُ لِغِرّات فُرَصِهم من التُّرك[٥] وأمم الشِّرك وطُواغِي الملَل ، يدعُو إلى المعصية والفُرقة والمُرُوق من دين الله إلى الفتنة ، مخترعاً بهواه الأديان المنتحَلَة ، والبِدَع المتفرِّقة ، خَساراً وتخسيراً ، وضلالا وإضلالا ، بغير هُدًى من الله ولا بيان ، ساء ما كَسَبَتْ يداه ، وما الله بظَلّامٍ للعَبيد ، وساء ماسَوَّلَتْ له نفسُه الأمَّارَةُ بالسوء ، والله من ورائه بالمِرْصاد ، وَسَيَعْلَمُ الَّذِينَ ظَلَمُوا أيَّ مُنْقَلَبٍ يَنْقَلِبُونَ .

حَصِّنْ[٦] جندك ، واشكُمْ نفسَك بطاعة الله فى مجاهدة أعدائه ، وارْجُ نصره ، وتنجَّزْ موعودَه ، متقدِّما فى طَلَب ثوابه على جهادهم ، معتزِما فى ابتغاء الوسيلة إليه على لقائهم ، فإنَّ طاعتَك إياه فيهم ، ومُراقبتَك له ، ورجاءك نَصْره ، مسهِّلٌ لك وُعُورَه[٧] ، وعاصِمُك من كل سَيِّئة[٨] ، ومنجيك من كل هُوَّة ، وناعِشُك[٩] من كل صَرْعة ، ومُقِيلُك من كل كَبْوة ، ودارِئٌ[١٠] عنك كلَّ شُبْهة ، ومُذْهِبٌ عنك لَطْخَة

---

(١) فيه « وتقييدهم عمن مروا به » . (٢) فيه « وجمام المستجم » والجمام : الراحة ، وجم ماؤه واستجم : كثر واجتمع . (٣) ورد هذا الفعل فى لسان العرب من باب ضرب ، وفى مختار الصحاح من باب نصر .

(٤) وهذا الفعل أيضاً ورد فى اللسان ومختار الصحاح والمصباح من باب ضرب وفى القاموس « ونصبه المرض ينصبه بالكسر : أوجعه ، والشيء وضعه ورفعه » وعلى هامشه « أى ونصب الشيء من باب كتب فليس من باب ماقبله » قاله الشيخ نصر ، فتأمل .

(٥) وفى المنظوم والمنثور « وأرصد عداوة لهم من الترك . الخ » .

(٦) فى المنظوم والمنثور « حض جندك » . (٧) وفيه « وعوده » وهو تحريف .

(٨) وفيه «سيئة» . (٩) يقال : نعشه الله كمنعه وأنعشه ونعشه : أى رفعه . (١٠) أى دافع .

كلَّ شك ، ومُقَوِّيك بكل أيدٍ(١) ومَكيدة ، ومُعِزُّك فى كل مُعْتَرَك(٢) قتالٍ ، ومؤيِّدك فى كل مَجْمَع لقاء ، وَكالِئُك عند كلَّ فتنةٍ مُغْشِيَة(٣) ، وحافظك(٤) من كل شبهة مُرْدِية ، والله وليُّك وَولىُّ أمير المؤمنين فيك ، والمستخلَف على جندك ومن معك(٥) .

اعلم أن الظَّفَر ظَفَرَان : أحدهما ـ وهو أعمُّ منفعةً ، وأبلغُ فى حُسْنِ الذكر قالةً ، وأحوَطُه سلامةً وأتمّه عافيةً ، وأعودُه(٦) عاقبةً ، وأحسن فى الأمور مَوْرِدا ، وأعلاه فى الفضل(٧) شرفا ، وأصحُّه فى الروية(٨) حَزْما ، وَأَسْلَمُه عند العامّة مَصْدراً ـ ما نِيلَ بسلامة الجنود ، وَحُسْنِ الحيلة ، ولُطْفِ المَكيدة ، وَيُمْنِ النَّقِيبة(٩) ، واستنزال طاعة ذوى الصُّدوف(١٠) ، بغير إخطار(١١) الجيوش فى وَقْدَة جَمْرة الحرب ، ومنازلة(١٢) الفُرْسان فى مُعْتَرَك الموت ، وإن ساعدك الحظُّ ، ونالك مزيّة السعادة فى الشرف ، ففى مُخاطرة التَّلَف مكروهُ المصائب ، ومضاضُ السيوف ، وألَمُ الجراح ، وقِصَاصُ الحروب وسِجَالها(١٣) بمُغَاورة أبطالها ، على أنك لا تدرى لأىِّ الفريقين

---

(١) الأيد : القوة ، آديئيد : اشتد وقوى .
(٢) هذه الجملة ساقطة من المنظوم والمنثور .
(٣) وهذه أيضاً ، وكلأه كنعه كلأً بالفتح وكلاءة وكلاء بالكسر: حرسه وحفظه ، ومغشية أى مغطية للأبصار، يقال غشى الله على بصره وأغشى ، ومنه قوله تعالى: (فَأَغْشَيْنَاهُمْ فَهُمْ لَا يُبْصِرُونَ) أو هى (مغسية) بالسين من أغسى الليل إذا أظلم : أى فتنة مدلهمة سوداء، أو هى « معشية » بالعين أى تعشى البصر فلا يهتدى إلى طريق الخلاص منها .
(٤) وفى صبح الأعشى « وحائطك » أى سندك .
(٥) هذه الجملة ساقطة من المنظوم والمنثور . (٦) هذه ساقطة من صبح الأعشى .
(٧) ساقطة من المنظوم والمنثور . (٨) فى المنظوم والمنثور «فى الرواية» « وأسهله» وهو تحريف . (٩) النقيبة : النفس . (١٠) ساقطة فى المنظوم والمنثور ، وصدف عنه: أعرض.
(١١) معناه إيقاعهم فى الخطر .
(١٢) فى صبح الأعشى « ومبارزة » وفيه « وإن ساعدتك طلوق الظفر » والظاهر أنه « وإن ساعدك » بدون تاء التأنيث ، والطلوق معناه الانطلاق ، يقال : أطلقت الناقة فطلقت أى حل عقالها ، وأطلقت الإبل إلى الماء حتى طلقت (كنصر) طلقا وطلوقا أى توجهت إلى الماء .
(١٣) يقال : الحرب بينهم سجال : أى نصرتها متداولة بينهم، وأصلها من السجل بالفتح وهو الدلو العظيمة مملوءة : أى سجل منها على هؤلاء وآخر على هؤلاء ، والمغاورة مفاعلة من الإغارة ، وفى حديث قيس بن عاصم « كنت أغاورهم فى الجاهلية » أى أغير عليهم ويغيرون علىّ ، وتغاور القوم : أغار بعضهم على بعض .

يكون الظفرُ فى البَديهة ، ومَنِ المغلوبُ بالدّولة[١] ؟ ولعلك أن تكون المطلوبَ بالتمحيص ، فحاوِل إصابةَ أبلغهما فى سلامة جُندك ورعيّتك ، وأشْهَرِها صيتا فى بدوّ تدبيرك ورأيك[٢] ، وأجْمَعِهما لِألفة وَلِيِّك وعدوّك ، وأعونِهما على صلاح رعيّتك وأهْلِ ملتك ، وأقواها شكيمةً فى حزمك ، وأبعدِها من وصْم عزمك ، وَأعْلَقهما بزمام النجاة فى آخرتك[٣] ، وأجزَلِها ثوابا عند ربك ، وابدأ بالإعذار إلى عدوك ، والدُّعاءِ لَهُم إلى مراجعة الطاعة ، وأمر الجماعة ، وعِز[٤] الألفة ، آخذا بالحجة عليهم ، متقدما بالإنذار لهم ، باسطاً أمانَك لمن لجأ إليك منهم ، داعياً لَهُم بألْيَن لفظك[٥] ، وألطف حِيَلك ، متعطفاً برأفتك عليهم ، مترفقاً بهم فى دعائك ، ومُشْفِقا عليهم من غَلَبة الغَواية لَهُم ، وإحاطةِ الهَلَكة بهم ، مُنفِذاً رسلَك إليهم بعد الإنذار ، تَعِدُهم إعطاء كل رغبةٍ يَهَشُّ إليها طَمَعُهم فى موافقة الحق ، وبَسْطَ كلِّ أمانٍ سألوه لأنفسهم ومَنْ معهم ومن تَبِعهم ، موطِّناً نفسك فيما تبسُطُ لَهُم من ذلك على الوفاء بوعدكَ ، والصبرِ على ما أعطيتَهم من وَثائقِ عهدك ، قابلاً توبةَ نازِعهم[٦] عن الضلالَة ، ومراجعةَ مسيئهم إلى الطاعة ، مُرْصِداً للمُنْحَاز إلى فِئة المسلمين وَجماعتِهم إجابةً إلى ما دعوته إليه ، وَبصَّرته إياه من حقِّك وطاعتك ، بفضل المنزلَة ، وإكرام المَثْوَى ، وتشريف الجاه[٧] وَلْيَظْهَرْ من أثرك عليه وإحسانك إليه ما يرغَبُ فى مثله الصّادِفُ عنك ، المُصِرُّ على خلافك ومعصيتك ، ويدعُو إلى الاعْتِلاق بحَبْل النجاة ، وما هو أمْلَكُ به فى الاعتصام عاجلاً ، وأنْجَى له من العقاب آجِلاً ، وأحوطُ على دينه ومُهْجَته بَدْءا وعاقبةً ، فإن ذلك مما تَسْتَدعِي به من الله عزّ وجل نَصْرَهُ عليهم ، وتعتضِدُ[٨] به فى تَقْدِمة الحُجّة إليهم ، مُعْذِراً ومُنْذِراً إن شاء الله .

---

(١) الدولة فى الحرب أن تدال إحدى الفئتين على الأخرى ، يقال : كانت لنا عليهم الدولة : أى الغلبة والنصرة . (٢) وفى المنظوم والمنثور « فى بدى رأيك » . (٣) ساقطة من المنظوم والمنثور. (٤) فيه « وعرى الألفة » . (٥) فيه « لطفك ». (٦) نزع عن الأمر : كف . (٧) وفيه « الحال » . (٨) فيه « وتعتصم » .

ثم أذْكِ(١) عيونك على عدوّك ، مُتَطلّعًا لِعِلْمِ أحوالهم التي يتقلّبون فيها، ومنازلهم التي هم بها ، ومطامِعِهم التي قد مَدُّوا أعناقهم نحوها، وأيُّ الأمور أدْعَى لهم إلى الصلح، وأقوَدُها لهم إلى العافية ، وأسهَلُها لاستنزال طاعتهم(٢) ، ومن أيّ الوُجوه مَأتاهم. أمِنْ قِبل الشدة والمنافرة والمكيدة والمُباعدة والإرهاب والإيعاد، أو الترغيب والإطماع؟ متثبّتًا(٣) في أمرك ، متخيِّرًا في رَوِيّتك، مستَمْسِكًا من رأيك،مستَشيرا لذوى النصيحة، الذين قد حنَّكتهم السِّنُّ ، وخَبَطتهم التجرِبة(٤) ، ونجَّذتهم(٥) الحروبُ ، مُتَشَزِّنا(٦) في حربك ، آخِذا بالحزم في سُوء الظن ، مُعِدًّا للحذَر ، محترسًا من الغِرّة ، كأنك في مَسيرِكَ كلِّه ونزُولِك أجْمَعَ(٧) — مُواقِفٌ لعدوك رَأْيَ عَيْن ، تنتَظِرُ حَمَلاتِهم ، وتتخوَّف كَرّاتِهم(٨) ، مُعِدًّا أقوى مكايدك ، وأوهَبَ عَتَادِك(٩) ، وَأَنْكَأَ جِدّك ، وأجَدَّ تشميرِك ، معظِّمًا أمر عدوك لأعظَمَ مما بَلَغَك ، حَذَرًا يكاد يُفرِط ، لِتُعِدَّ له من الاحتراس عظيما ، ومن المكيدة قويا ، من غير أن يَفْتَأَك(١٠) ذلك عن إحكام أمورك ، وتدبير رأيك ، وإصدار رويتك ، والتأهب لما يحزُبُك(١١) ، مصغِّرًا له بعد استشعار الحذر ، واضطِمار(١٢) الحزم، وإعمال الروية ، وإعداد الأُهْبة ، فإن ألفَيْتَ عدوّك كليلَ

---

(١) أذكى عليه العيون أرسل عليه الطلائع .

(٢) هذه ساقطة من المنظوم والمنثور . (٣) فيه « مستثنا » وهو تحريف .

(٤) فيه « الذين قد حنكتهم التجربة » . وحنكته السن : أحكمته التجارب .

(٥) رجل منجذ : جرّب الأمور وعرفها وأحكمها .

(٦) تشزن للرمى والأمر : استعد له ، وتشزن له : انتصب له في الخصومة وغيرها.

(٧) في المنظوم والمنثور « كأنك منزل كله ومنازلك جمع » وهو تحريف .

(٨) فيه « غاراتهم » .

(٩) العتاد : العدة ، ونكأ العدو ونكاه ونكى فيه نكاية: قتل وجرح، وفي المنظوم والمنثور « معدا أقوى مكيدتك ، وأجد تشميرك ، وأرهب عتادك ، معظما لأمر عدوك لأ كثرهما . . . يفرط تبعة له من الاحتراس عظيما من المكيدة قويا من غير ... الخ » وهو تحريف .

(١٠) فتأه : سكنه وكسره ، وفتأ القدر : سكن غليانها .

(١١) حزبه الأمر: اشتد عليه ، وفي المنظوم والمنثور « والتأهب لحربك مصغ له » وهو تحريف

(١٢) افتعال من الإضمار ، وفي المنظوم والمنثور « واطمان الحزم » .

الحدُّ ، وقْم الحزم[١] ، نَضِيض[٢] الوَفْر ، لم يضرُّك ما اعتَدَدْتَ له من قوة، وأخذت له من حزم ، ولم يزِدْكَ ذلك إلا جُرأةً عليه ، وتسرُّعا إلى لقائه ، وإن ألفيتَه متوقِّد الجَمْرِ[٣] مستكْثِفَ الجَمْعِ ، قويَّ التبَع ، مُستعلِيَ سَوْرة الجهل ، معَه من أعوان الفتنة وتَبَع إبليسَ من يُوقِد لَهبَ الفتنة مسعِّرًا ، ويتقدم إلى لقاء أبطالها متسرِّعا ، كنتَ لِأَخْذِك بالحزم ، واستعدادِك بالقوة ، غيرَ مُهِين الجند ، ولا مفرِّط فى الرأى ، ولا متلهِّفٍ على إضاعة تدبير، ولا محتاج إلى الإعداد ، وعجَلةِ التأهُّب مبادرةً تُدْهِشك، وخوفا يُقلِقُك ، ومتى تغترَّ بترقيق المرقِّقين[٤] ، وتأخذ بالهُوَيْنَى فى أمر عدوك لتصغير المصغِّرين ، ينتَشِر عليك رأيك ، ويكون فيه انتقاضُ[٥] أمرِك ، ووهَنُ تدبيرك ، وإهمالُ الحزم فى جندك، وتضييعٌ له ، وَهوَ ممكن الإصحار، رَحْبُ المَطْلَب ، قوى العِصْمة، فسيح المُضْطرَب ، مع مايدخُلُ رعيَّتك من الاغترار والغفلة عن إحكام أحراسهم[٦] ، وضَبْط مراكزهم ، لما يَرَوْن فيه من استِنامتِك[٧] إلى الغِرّة ، ورُكُونك إلى الأمن، وتهاوُنك بالتدبير ، فيعُود ذلك عليك فى انتشار الأطراف، وضياع الأحكام، ودُخول الوهن ، بما لا يُستقالُ محذورُه ، ولا يُدْفَع مَخُوفُه .

احفَظ من عُيونك وَجَواسِيسك ما يأتونك به من أخبار عدوِّك ، وإياك ومعاقبةَ أحدٍ منهم على خبَر إن أتاك به اتَّهَمته فيه ، أو سُؤْتَ به ظنا ، وأتاك غيرُهُ بخلافه ، أو أن تكَذِّبَه فيه فتَرُدَّه عليه ، ولعله أن يكون قد مَحَضَك النصيحةَ وصَدَقك الخبر ،

---

(١) وقم مصدر بمعنى المفعول أى موقوم الحزم أى مقهوره، من وقم الدابة إذا جذب عنانها لتكف، ووقمه : قهره وكسره وأذله ، وفى المنظوم والمنثور « وكم النجوم » وهو تحريف .

(٢) نضيض : قليل ، يقال : رجل نضيض اللحم أى قليله ، ونض الماء كضرب : سال قليلا قليلا أو خرج رشحا ، والنضيض : الماء القليل ، والوفر من المال والمتاع : الكثير الواسع ، أى قليل العدة .

(٣) فى صبح الأعشى « متوقد الحرب » .

(٤) رققه وأرقه : ضد غلظه أى جعله رقيقا ضئيلا ، وفى المنظوم والمنثور « ومتى نعزم على ترقيق التوقير » وهو تحريف .

(٥) الانتقاض : الانتكاث . (٦) فيه « عن إحكام أسرارهم » .

(٧) استنام إليه : سكن واطمأن .

وكذبك الأولُ ، أو خرج جاسُوسُك الأولُ متقدما قبل وصُول هذا من عند عدوك .
وقد أبرمُوا الك أمراً ، وحاولوا الك مَكيدةً ، وأرادوا[١] منك غِرّة ، فازدَلَفُوا[٢]
إليك فى الأُهْبة ، ثم انتقض بهم رأيُهُم ، واختلف عنهم جماعتهم ، فأوردوا[٣] رأيا ،
وأحدثوا مكيدة ، وأظهروا قُوة ، وضربوا مَوْعِدا ، وأمّوا مَسْلَكا لِدَدٍ[٤] أتاهم ،
أو قوةٍ حدثتْ لَهُم ، أو بصيرة فى ضَلالة شغلتهم ، فالأحوال بهم متنقّلة فى الساعات ،
وطَوَارق الحادثاتِ ، ولكن الْبَسهم[٥] جميعا على الانتصاح ، وارضَخْ لهُم المطامِعَ[٦]
فإنك لن تستعبدَهم بمثلها ، وعِدْهم جَزالةَ المثاوبِ[٧] فى غير ما استنامةٍ منك إلى ترقيقهم
أمرَ عدوك ، والاغترار إلى ما يأتونك[٨] به ، دون أن تُعْمِل رويَّتك فى الأخذ بالحزم ،
والاستكثار من العُدَّة ، واجعلهم أوثقَ مَنْ تقدر عليه ، وآمَنَ مَنْ تَسْكُنُ إلى
ناحيته ، ليكُون ما يُبْرِم عدوُّك فى كل يوم وليلة عندك ، إن استطعت ذلك ،
فتنقُضَ عليهم برأيك وتدبيرك ما أبرمُوا[٩] ، وتأتيهم من حيث أمِنُوا[١٠] وتأخذ لَهُم
أهْبة ما عليه أقدمُوا[١١] ، وتستعد لهُم بمثل ما حَذِروا .

واعلم أن جواسيسك وعيونك رُبّما صَدَقوك ، وربما غشوك ، وربما كانوا الك
وعليك ، فنَصَحوا الك وغشوا عدوك ، وغشوك ونصحوا عدوك ، وكثيراً ما يَصْدُقونك
ويَصْدُقونه ، فلا تَبدُرَنّ منك فَرْطةُ عقوبةٍ إلى أحد منهم ، وَلا تَعْجَلْ بسوء الظن

---

(١) فيه « وازدادوا » وهو تحريف .
(٢) أى اقتربوا وتقدموا ، ومحل هذه الجملة فى المنظوم والمنثور « وإن دفعوا إليك فى الأمر » وصوابه « واندفعوا » . (٣) فى صبح الأعشى « فأرادوا » .
(٤) فى المنظوم والمنثور « لمدد » .
(٥) أى خالطهم وعاملهم والضمير الجواسيس . لابسه : خالطه .
(٦) رضخ له من ماله : أعطاه ، والرضيخة : العطية ، وقيل : العطية المقاربة . وقيل القليلة ، وفى المنظوم والمنثور « وأن صح لهم المطامع » وهو تحريف .
(٧) جمع مثوبة بالفتح وهى الثواب .
(٨) وفيه « والاغترار بما يأتوك به » .
(٩) وفيه « مالم يرموا » ورم الشىء كنصر وضرب : أصلحه .
(١٠) فيه « من حيث أقدموا » . (١١) ساقطة من المنظوم والمنثور .

إلى من اتَّهمته على ذلك ، واستنزِل نصائحهم بالمِياحَة والمَنالة[١] ، وابسُط من آمالهم فيك ، من غير أن تُرِىَ أحداً منهم أنك أخذتَ من قوله أخذَ العامل به والمتّبع له ، أو عمِلتَ على رأيه عمَلَ الصادِرِ عنه ، أو رَدَدْته عليه ردَّ المكذِّب به ، المتّهم له ، المستخِفّ بما أتاك منه فتُفْسِدَ بذلك نصيحته ، وتستدعِيَ غشَّه ، وتجترّ عداوتَه ، واحذَر أن يُعرّفوا فى عسكرك ، أو يشار إليهم بالأصابع . وليكن منزِلُهم على كاتب رسائلك . وأمين سِرّك . ويكون هو الموجِّه لهم . وَالمُدْخِلُ عليك مَن أردتَ مُشافهَته منهم .

واعلم أن لِعدُوِّك فى عسكرك عيوناً راصدة ، وجواسيسَ كامنة[٢] . وأنه لن يقع رأيُه عن مكيدتك بمثل ما تكايده[٣] به ، ويحتال لك كاحتيالك له . ويُعِدُّ لك كإعْدَادِك له فيما تُزاوله منه . ويحاوِلُك كمحاولتك إياه فيما تقارِعُه عنه[٤] . فاحْذَر أَنْ يشْهَر رجل من جواسيسك فى عسكرك . فيَبْلُغ ذلك عدوَّك . ويعرف موضعه. فيُعِدّ له المَراصِدَ . ويحْتال له بالمكايد ، فإن ظفِر به فأظهر عقوبته . كسَرَ ذلك ثِقاتِ عيونك وخَذَلَهم[٥] عن تطلُّب الأخبار من معادِنها . واستقصائها من عيونها واستعذاب اجتنائها من ينابيعها[٦] . حتى يصيروا إلى أخْذِها مما عرَض[٧] من غير الثِّقة ولا المعاينة لَقَطْاً لها[٨] بالأخبار الكاذبة . وَالأحاديث المُرْجَفة .

واحذر أن يَعرِفَ بعضُ عيونِك بعضا، فإنك لا تأمَنُ تواطُؤَهم عليك، ومالأتَهم[٩]

---

(١) المياحة والميح : الإعطاء ، وفعله كضرب ، وهذه الجملة ساقطة من المنظوم والمنثور.

(٢) وفى صبح الأعشى « متجسسة » .

(٣) وفى المنظوم والمنثور « وأن رأيه فى مكيدتك مثل ماتكايده به » .

(٤) المقارعة . المضاربة ، ومن قوله « فيما تزاوله منه ... » إلى قوله « تقارعه عنه » ساقط فى المنظوم والمنثور .

(٥) وفيه « وحوله » وصوابه «وحولهم » .

(٦) وهذه الجملة ساقطة منه . (٧) فيه « عن عرض » .

(٨) فيه « ولا معاينة لنطا لها » وهو تحريف .

(٩) مالأه : شايعه وساعده .

عدوّكَ ، واجتماعَهم على غشِك ، وتطابُقَهم على كذبك ، وإصْفَاقَهم[1] على خيانتك ، وأن يُورِّط بعضُهم بعضا عند عدوك ، فأحْكِم أمْرَهم فإنهم رأسُ مكيدتك ، وقِوامُ تدبيرك ، وعليهم مَدارُ حربك ، وهو أول ظفَرِك ، فاعْمَلْ على حَسب ذلك ، وحيثُ رجاؤُك[2] به، تَنَلْ أمَلَكَ من عدوك ، وقُوتَك على قتاله ، واحتيالَك لإصابة غِرّاته[3] وانتهازِ فُرَصه إن شاء الله .

فإذا أحكَمْتَ ذلك وتقدّمْتَ فى إتقانه، واستظهرتَ بالله وعوْنه ، فولّ شُرْطَتَك وأمرَ عسكرك أوثقَ قُوّادك عندك ، وأظهرهم[4] نصيحةً ، وأنفذَهم بصيرةً فى طاعتك، وأقوامَهم شكيمةً فى أمرك ، وأمضاهم صَرِيمةً[5] ، وَأصْدَقَهُمْ عفافا ، وأجْزَأهم غنَاءً[6] ، وأكفاهم أمانةً ، وأصحَّهم ضميراً ، وأرضاهم فى العامة دينا ، وأحْمَدَهم عند الجماعة[7] خُلقا، وَأعْطَفَهُمْ على كافّتهم رأفةً ، وأحسنَهم لهم نظراً ، وأشدَّهم فى دين الله وحقّه صلابةً ، ثم فوِّضْ إليه مقوِّيا له ، وابسُط من أمَله ، مُظهرًا عنه الرضا ، حامدًا منه الابتلاء ، وليكن عالما بمراكز الجنود ، بَصيرا بتقدُّمِ المنازل ، مجرّبا ، ذا رأْى وتَجْرِبة وحزم فى المكيدة، له نَباهةٌ فى الذِّكر ، وصِيتٌ فى الولاية ، معروفَ البيت، مشهورَ الحسَب، وتقدّمْ إليه فى ضَبط مُعسكَره ، وإذكاء أحراسه فى آناء ليله ونهاره ، ثمَّ حَذِّره أن يكون منه إذْنٌ لجنوده فى الانتشار والاضطراب والتقدم لطلائعك[8] ، فتُصَاب لَهم غِرَّة يجترئُ بها عدوُّك عليك ، وَيُسْرِع إقداما إليك ، ويكسِر من إيَادِ[9] جندك ،

---

(١) أصفقوا عليه : أطبقوا واجتمعوا .

(٢) فى المنظوم والمنثور « وجنب رجاءك به نيل أملك » وهو تحريف .

(٣) هذه ساقطة منه . (٤) فيه « وآمنهم نصيحة ، وأقدمهم بصيرة » . (٥) الصريمة العزيمة.

(٦) يقال : أجزأت عنك مجزأ فلان ومجزأته بفتح الميم وتضم فيهما ، وأغنيت عنك غناءه بفتح الغين ومغناه ومغنانه بفتح الميم وتضم فيهما : أى كفيت كفايته .

(٧) وفيه « وأرضاهم صبرا . وأحمدهم خلقا ، وأعطفهم على جماعتهم رأفة » .

(٨) فيه « لطائم » وهو تحريف .

(٩) وفيه « من أفئدة جنودك » والإياد ككتاب : ما أيد به من شىء أى قوى ، والمعقل والكنف الجبل الحصين .

ويُوهِنُ من قوتهم ، فإن إصابة[1] عدوِّك الرجلَ الواحد من جندك وعبيدك مُطْمِــع لهم فيك، مقوٍّ لهم على شَحْذِ أتباعِهم عليك ، وتصغيرِم أمْرَك ، وتوهينِهم تدبيرَك ، فحَذَّره ذلك وتقدَّم إليه فيه ، ولا يكونن منه إفراطٌ في التضييق عليهم ، والحصْرِ لهم ، فيَعُمَّهم أزْلُه[2] ، ويشمَلَهم ضَنْــكه ، ويسوء عليه حالُهم[3] ، وتشتد به المؤنة عليهم ، وتخبث له ظنونهم ، وليكن موضعُ إنزاله إياهم ضامًّا لجماعتهم ، مستديرا بهم جامعا لهم[4] ، ولا يكون منبسطا منتشرا متبدِّدا ، فيشقُّ ذلك على أصحاب الأحراس ، وتــكون فيهِ النُّهْزة[5] للعدو ، والبُعدُ من المــادَّة ، إن طَرَق طارقٌ في فَجَآت الليل وَبَغتاَته، وَأوْعِزْ إليه في أحراسه ، وتقدَّم[6] إليه فيهم كأشدِّ التقدُّم ، وأبلَغِ الإيعاز ، وَمُرْه فلْيُوَلِّ عليهم رجلا ركينا مجرِّبا جَرِئَ الإقدامِ ذا كَىَّ[7] الصَّرامة ، جَلْدَ الجوارح ، بصيراً بمواضع أحراسه . غيرَ مصانعَ ولا مشفعٍ الناس في التنحى إلى الرفاهية والسَّعة. وتقدُّمِ العسكر أو التأخر عنه . فإن ذلك مما يُضْعف الوالىَ ويُوهِنه . لاستنامته إلى مَنْ ولَّاه ذلك . وأمِنَه به على جيشه .

واعلم أنَّ مواضع الأحراس من معسكرك . ومكانَها من جندك . بحيثُ الغَناء والردُّ عليهم ، والحفظُ لهم . والــكِلاءةُ لمن بغتهم طارقا.أو أرادهم مُخاتِلا. ومَرَاصِدُها المُنْسَلِّ منها . والآبقِ[8] من أرِقَّائهم وَأَعْبُدهم . وحِفْظُها من العيون والجواسيس من عدوهم . واحذر أن تَضرِبَ على يديه أو تشــكُمَه عن الصَّرامة . بمؤامرتك[9] في كل

(١) في صبح الأعشى « فإن الصوت في إصابة عدوك الرجل ... الخ » .
(٢) الأزل : الضيق والشدة . (٣) وفي صبح الأعشى « وتسوء عليهم حاله » .
(٤) في المنظوم والمنثور « مستديرا ضاما جامعاً ، ولا يكون منتشرا ممتدا » .
(٥) النهزة : الفرصة .
(٦) من هنا إلى قوله « وأبلغ الإيعاز » ساقط من المنظوم والمنثور .
(٧) أي مشتعل . من ذكت النار إذا اشتــد لهبها ، وفي المنظوم والمنثور « زكى الصرامة » وهو تحريف . (٨) الآبق : الهارب .
(٩) المؤامرة : المشاورة . وفي المنظوم والمنثور « على الصرامة لمواصرتك » وهو تحريف .

أمرٍ حادثٍ وطارئٍ . إلا فى المُهِمِّ النازل والحَدَث العام ، فإنك إذا فعلت ذلك به ، دعوته إلى نصحك . واستوليت على مَحْضِ[1] ضميره فى طاعتك . وأجهد نفسه فى تزيينك[2] . وَأَعْمَلَ رأيَه فى بلوغ موافقتك وإعانتك[3] . وكان ثقتك ورِدْأك[4] وقوتك وعِمَادَك . وتفرغتَ أنت لمكايدة عدوك . مُرِيحا نفسك من هَمِّ ذلك والعناية به . مُلقيًا عنك مُؤْنةً باهظةً . وكُلفة[5] فادحة . إن شاء الله .

ثم اعلم أن القضاء من الله بمكانٍ ليس به شيء من الأحكام . ولا يمثل[6] محلَّه أحد من الوُلاة . لما يَجْرى على يديه من مَغَاليظ الأحكام ومَجَارى الحدود . فليكن مَنْ تُوَلِّيه القضاء فى عسكرك مِنْ ذوى الخَيْرِ فى القَناعة والعَفاف والنَّزاهة والفَهم والوقار والعِصْمة والوَرَع . والبَصرِ بوُجوه القضايا ومَوَاقِعِها . قد حنَّكته السن . وأيَّدَته[7] التجربةُ . وأحكمته الأمُور . ممن لا يتصنّع للولاية . ويستَعدُّ النُّهْزَة ويجترئُ على المحاباة فى الحكم . والمداهنة فى القضاء . عَدْلَ الأمانة . عفيفَ الطُّعْمة[8] . حسن الإنصات[9] فَهِمَ القلب . وَرِعَ الضمير . متخشِّعَ السَّمْت[10] . بادِيَ[11] الوقار . مُحتسِبا[12] للخير . ثم أجْرِ عليه ما يكفيه ويَسَعه ويُصْلِحُهُ ، وفرِّغه لما حَمَّلته وأعِنْه على ما ولَّيتَهُ ، فإنك قد عرَّضْتَه لِهَلَكَةِ الدنيا وبَوَار[13] الآخرة ، أو شرفِ العاجلة وحُظْوَة الآجلة ، إن حَسُنَت نِيَّتُه ، وصَدَقَتْ رويته ، وصحَّت سريرتُه ، وسلَّطَ حُكمَ الله على رعيته ، مُطْلِقًا عِنَانَه[14] ، منفِّذاً قضاء الله فى خلقه ؛ عاملا بسنَّته فى شرائعه ، آخِذاً بحُدُوده

---

(١) فى صبح الأعشى « على محصول ضميره » .

(٢) فى الأصل : « ترتيبك » . (٣) هذه الجملة ساقطة من المنظوم والمنثور .

(٤) الرده : العون ، وفيه « وزينك » .

(٥) فيه « وسلفة » وهو تحريف . (٦) فيه « بمثله » . (٧) أى قوته

(٨) الطعمة : المأكلة . (٩) وفى صبح الأعشى « الإنصاف » .

(١٠) السمت : هيئة أهل الخير . (١١) فى المنظوم والمنثور « هادى الوقار » .

(١٢) احتسب به أجرا عند الله : اعتده ينوى به وجه الله .

(١٣) فى المنظوم والمنثور « وثواب الآخرة » وهو تحريف .

(١٤) ساقطة من المنظوم والمنثور .

وفرائضه ، واعلم أنه من جُندكَ ومُعَسكركَ بحيثُ ولايتُك وفى الموضعِ الجاريةِ أحكامُه[1] عليهم ، النافذةِ أقضيتُه بينهم ، فاعرف مَن تُوليه ذلك وتُسنِدُه إليه إن شاء الله .

ثم تقدّم فى طلائعك ، فإنها أولُ مكيدتك ، ورأسُ حربِكَ ، ودِعامة أمرك ، فانتخِبْ لها من كل قادَة وصَحابة : رِجالًا ذوى نَجْدَة وبأس ، وصَرَامة وخِبرة ، حُماةً كُفاةً ، قد صَلُوا[2] بالحرب، وتذاوقوا سِجالَها، وشَرِبوا مرارَ كُئوسها ، وتجرّعوا غُصَصَ دِرّتها[3] وزَبَنَتْهم[4] بتكرار عواطفها ، وحَمَلتهم على أصعَب مَرَاكِبها ، وذلّلتهم بِثقافِ أَوَدِها[5] ، ثم انتقِهم[6] على عَيْنك ، واعرِضْ كُراعهم[7] بنفسك ، وتوخَّ فى انتقائك ظُهورَ الجلد ، وشهامة الخُلُق ، وكَمالَ الآلة[8] ، وإياك أن تَقبَلَ من دوابهم إلا إناث الخيول مَهْلوبَةً[9] ، فإنها أسرع طلبًا وأنجى مَهْرَبًا ، وألين مَعْطَفًا[10] ، وأبعد فى اللُّحوق غايةً ، وَأصْبَرُ فى معترَكِ الأبطال إقداما ، وخُذهم[11] من السلاح بأبْدَان الدُّروع ، ماذِيّةِ الحديد، شاكّة[12] النَّسْج ، مقاربة الحَلَق ، متلاحِمة المسامير وأسْوُقَ الحديد ، مُمَوَّهة الرُّكَب ، مُحْكَمَة الطَّبْع[13] ، خفيفة الصَّوغ ،

---

(١) فى صبح الأعشى « بحيث ولايتك ، الجارية أحكامه الخ » .

(٢) صلى النار وبها : قاسى حرها . (٣) الدرة : اللبن .

(٤) أى دفعتهم ، وفى المنظوم والمنثور « وزنبتهم بتكرارها » .

(٥) هذه الجملة ساقطة منه ، والثقاف : ماتسوى به الرماح .

(٦) فيه « ثم اتبعتهم » وهو تحريف . (٧) الكراع : اسم يجمع الخيل .

(٨) فيه « وسماحة الخلق » وفيه أيضا « وجمال الآلة » .

(٩) الأهلب : الذنب المنقطع ، والذى لاشعر عليه (والكثير الشعر ، ضد) .

(١٠) ساقطة من المنظوم والمنثور .

(١١) فى المنظوم والمنثور « ونجذهم » وهو تحريف ، والأبدان جمع بدن بالتحريك : وهو الدرع من الزرد ، قيل هى الدرع القصيرة على قدر الجسد ، وقيل هى الدرع عامة ، والإضافة فيه على حد « حق اليقين ، وحب الحصيد » من إضافة الشيء إلى مايمعناه لاختلاف اللفظين ، والماذى والماذية : الدرع اللينة السهلة .

(١٢) الشك: الاتصال واللصوق، والمعنى محكمة النسج، والحلق بكسر الحاء وفتحها: جمع حلقة بالفتح وتسكين اللام ، وأسوق جمع ساق . (١٣) من طبع السيف والدرهم : أى عملهما .

وسَوَاعِدَ طَبْعُها هِندِىٌّ ، وصَوْغُها فارسِىٌّ ، رِقاقُ المَعاطِفِ ، بأكُفٍّ وافيةٍ (١) ، وعمل مُحْكَمٍ ، وَيَلَقُ (٢) البِيضِ مُذْهَبةٌ و مُجَرَّدة ، فارسيَّة الصَّوغ ، خالصةُ الجوهر ، سابغة (٣) الملبس ، واقية الجُنَن (٤) ، مستديرة الطَّبْعِ ، مُبْهَمَة السَّرْد (٥) ، وافية الوزن ، كَتَرِيكِ (٦) النعام في الصَّنْعة ، واستدارةِ التَّقبيب ، واستواءِ الصَّوغ (٧) مُعْلَمَة بأصناف الحرير وألوان الصِّبغ ، فإنها أهيَبُ لعدوهم ، وأفَتُّ (٨) لِأَعضاد مَنْ لَقِيَهم ، والمُعْلِمُ (٩) مخشِيٌّ محذور له بديهةٌ رادعة (١٠) ، وهَيْبة هائلة (١١) ، معهم السيوفُ الهندية ، وذُكورُ (١٢) البيض اليمانية ، رقاقُ الشَّفَرات ، مسمُومة الشحذ غير كَليلة الحَدِّ (١٣) ، مُشَطَّبَة الضرائب (١٤) ، معتدلة الجواهر ، صافية الصفائح ، لم يَدْخلها وَهْنُ الطَّبْع ، ولا عابَها أَمْتُ (١٥) الصَّوغ ،

---

(١) فى صبح الأعشى « واقية » .

(٢) اليلق : الأبيض من كل شىء والبيضة من السلاح سميت بذلك لأنها على شكل بيضة النعام ، وفى صبح الأعشى « ويلمق البيض » واليلمق كجعفر : القباء ، والأولى أنسب .

(٣) درع سابغة : تامة طويلة .

(٤) الجنن : جمع جنة بالضم ، وهى ما استترت به من سلاح ، وفى المنظوم والمنثور « وافية اللين »

(٥) سرد الدرع : نسجها ، وهو تداخل الحلق بعضها فى بعض . والمبهم : المصمت .

(٦) التريك والترائك : جمع تريكة كسفينة ، وهى البيضة بعد أن يخرج منها الفرخ ، أو يخص بالنعام

(٧) قوله « واستدارة التقبيب ، واستواء الصوغ » ساقط من المنظوم والمنثور .

(٨) فت فى ساعده وفى عضده : أضعفه .

(٩) أعلم الفرس : علق عليها صوفا ملونا فى الحرب ، وأعلم نفسه . وسمها بسيمى الحرب كعلمها

(١٠) فى المنظوم والمنثور « وادعه » وهو تحريف .

(١١) هذه ساقطة منه .

(١٢) الذكر بالتحريك : أيبس الحديد وأجوده . والشفرة : حد السيف .

(١٣) فى المنظوم والمنثور « مسنونة الشحذ ، غير كليلة الحد » وفى صبح الأعشى ومفتاح الأفكار « مسنونة الشحذ » فقط ، وأراه محرفا ، وصوابه كما أوردته وستتكرر الأولى فى أواخر الرسالة وشحذ السكين : أحدَّها .

(١٤) سيف مشطب ومشطوب : فيه شطب ، وشطب السيف بضم الشين والطاء وفتحها وشطوبه : طرائقه التى فى متنه ، جمع شطبة كاقمة وهمزة ورفعة ، والضرائب جمع ضريبة : وهى ما ضربته بالسيف وربما سمى السيف نفسه ضريبة وهو المراد هنا .

(١٥) الأمت : الضعف والوهن والعوج والاختلاف فى الشىء .

ولا شانها خِفّه الوزنُ ، ولا فَدَح حامِلَها بُهُورُ(١) الثِّقَل ، قد أشْرَعُوا لُدْنَ القَنا(٢) ، طِوَال الهَوادِى ؛ مُقوَّمات الأَوَد(٣) ، زُرْق الأسنّة ، مستوية الثَّعالِب(٤) ، وَمِيضُها متوقِّد ، وسِنْخُها(٥) متلهب ، مَعَاقِصُ عُقَدها منحُوتة(٦) ، وَوُصُومُ(٧) أَوَدِها مقوَّمة ، وأحبامُها مختلفة ، وكُعُوبُها جَعْدة(٨) ، وعُقَدُها حُبُكة(٩) ، شَطْبَة الأسنان(١٠) ، مُحْكَمَة الجِلاء(١١) ، مُمَوَّهة الأطرافَ ، مستَحدة الجَنَبات ، دِقاقُ الأطراف ، ليس فيها التِواء أَوَد ، ولا أَمْتُ وَصْم ؛ ولا بها مَسقط عَيْب ، ولا عنها وُقُوع أُمْنِيَّة ، مُسْتَحْقِى(١٢) كنائنِ النَّبل وقِسِيِّ الشَّوْحط والنَّبع ، أعرابيَّة التَّعقيب(١٣) ، رُوميَّة النُّصُول ، مسمومة

---

(١) فدحه : أثقله ، والبهور والبهر بالفتح : التكليف فوق الطاقة .

(٢) شرع الرمح وأشرعه : سدده ، والقنا : الرماح ، جمع قناة ، ولدن بالضم جمع لدن بالفتح : وهو اللين من كل شيء ، والهادية من كل شيء أوله وما تقدم منه ، والهادية والهــادى : العنق لأنها تتقدم على البدن ، والجمع هواد . (٣) ساقطة من المنظوم والمنثور .

(٤) جمع ثعلب : وهو طرف الرمح الداخل فى جبة السنان .

(٥) سنخ النصل : الحديدة التى تدخل فى رأس السهم ، وفى المنظوم والمنثور ومفتاح الأفــكار « وشحذها متلهب » .

(٦) معاقص ، جمع معقص كمنزل ، اسم مكان من العقص ، وأصله : لى الشعر وإدخال أطرافه فى أصوله ، والمعنى أن عقدها مستوية محكمة البرى ، بدليل قوله بعد « ووصوم أودها مقومة » (وأما تفسيرها بأنها جمع معقص كمنبر : وهو السهم المعوج ، وما ينكسر نصله فيبقى سنخه فى السهم فيخرج ويضرب حتى يطول ، فلا يستقيم به المعنى) .

(٧) وصوم : جمع وصم بالفتح ، وهو العقدة فى العود والعيب .

(٨) كعوب : جمع كعب بالفتح ، وهو من القصب ، والقنا : الأنبوبة بين العقدتين ، وقيل هو عقدة ما بين الأنبوبين ، وجعدة : أى قوية متينة ، يقال ناقة جعدة : أى مجتمعة الخلق شــديدة ورجل جعد : أى مجتمع شديد .

(٩) الحبكة : الحبل يشد به على الوسط ، والمعنى على التشبيه أى وعقدها محكمة قوية ، أو هى حبيكة من الحبك وهو الشد والإحكام وتحسين أثر الصنعة فى الثوب ، حبكه كنصر وضرب فهو حبيك ومحبوك .

(١٠) أى طويلة . الشطب من الرجال والخيل : الطويل الحسن الخلق ، وفى مفتاح الأفــكار « سبطة » أى طويلة أيضا . (١١) هذه ساقطة من صبح الأعشى .

(١٢) استحقبه واحتقبه : احتمله ، والكنائن : جمع كنانة بالكسر ، وهى جعبة السهام بفتح الجيم ، والشوحط : شجر تتخذ منه القسى ، أو ضرب من النبع ، والنبع : شجر تتخذ منه القسى أيضا ، وتتخذ من أغصانه السهام .

(١٣) العقب بالتحريك : العصب الذى تعمل منه الأوتار ، وعقب السهم والقوس عقبا بالفتح : لوى شيئا من العقب عليه .

الصَّوْغ ، ولتكن سهامُها على خَمْسٍ قَبَضَات سوى النَّصول(١) ، فإنها أبلغ فى الغاية ، وأنفَذُ فى الدروع، وأشكُّ(٢) فى الحديد،سامِطِين حقائبَهم على مُتون خيولهم، مستخِفِّين من الآلة والأمتعة والزاد ، إلّا ما لا غَنَاء بهم عنه .

واحذر أن تَكِلَ مباشرة عَرْضهم وانتخابهم إلى أحد من أعوانك أو كُتَّابك فإنك إن وَكَلْته إليهم أضَعتَ مَواضِعَ الحزم ، وفرَّطت حيثُ الرأىُ ، ووقَفْتَ دون عَزم الروية(٣) ، ودخل عملَكَ ضياعُ الوَهْن ، وخَلَصَ إليك عيبُ المحاباة ، وناله فسادُ للداهَنة ، وغلَبَ عليه من لا يصلُح أن يكون طَلِيعةً للسلمين ، ولا عُدَّة ولا حِصْنا يدَّرِئُون به، ويَكْتَهِفُون بموضعه(٤) . واعلم أن الطلائع حصونُ المسلمين وعيونهم ، وهم أول مَكيدتك ، وعُروة أمرك ، وزمام حربك ، فليكن اعتناؤك بهم وانتقاؤك إياهم(٥) بحيثُ هم مِن مُهمِّ عملك ، ومكيدةِ حربك ، ثم انتخِبْ للولاية عليهم رجلا بعيد الصَّوْت(٦) ، مشهور الِاسم ، ظاهر الفضل(٧) ، نبيهَ الذِّكر ، له فى العدوِّ وَقَعات معروفات ، وأيامٌ طِوال وصَوْلات متقدِّمات ، قد عُرِفَت نِكايتُه ، وحُذِرتْ شوكتُه ، وَهِيبَ صوتُه ، وتُنُكِّبَ لِقاؤه ، أمينَ السَّريرة ، ناصحَ الجيب(٨) ، قد بلَوْتَ منه مايُسكِنك إلى ناحيته ، من لِين الطَّاعة(٩)، وخالصِ المودَّة ، ورِكاية(١٠) الصَّرامة ، وغُلوب الشَّهامة ، واستجماعِ القوة ، وحَصَافة التدبير ، ثم تقدَّمْ إليه فى حسن

---

(١) من قوله « مسمومة إلى سوى النصول » ساقط من المنظوم والمنثور » .

(٢) أى أدخلا ، وسمط الشيء كضرب ونصر : علقه .

(٣) فى المنظوم والمنثور « دون الحزم » . (٤) فيه « ويكتنفون » .

(٥) هذه ساقطة منه . (٦) الصوت والصيت والصات : الذكر الحسن .

(٧) فيه « مشهور الفضل » .

(٨) الجيب : طوق القميص ، وفلان ناصح الجيب يعنى بذلك قلبه وصدره : أى أمين ، وفيه « ناصح الغيب » . (٩) فيه « من لين طباعه » .

(١٠) فى صبح الأعشى « وركانة الصرامة » وركن إليه ركونا وركانة : سكن إليه ومال والمعنى يركن إليه فى الشدة .

سياستهم ، واستنزال طاعتهم ، واجتلاب مودّتهم ، واستعذاب[١] ضمائرهم ، وأجْرِ عليهم وعليه أرزاقاً تَسَعُهم ، وتمُدّ من أطماعهم ، سوى أرزاقهم فى العامة ، فإن ذلك من القوة لك عليهم ، والاستنامةِ إلى ما قِبَلهم .

واعلم أنهم فى أهمّ الأماكن لك ، وأعظمِها غَناء عنك وعمّن معك ، وأقمعِها كَبْتاً لحادّك ، وأشجاها غيظاً لِعدوك[٢] ، ومَنْ يكُن فى الثقة ، والجَلَد ، والبأس ، والطاعة ، والقوة ، والنصيحة ، والعُدَّة والنَّجدة ، حيثُ وَصَفَ لك أمير المؤمنين وأمَرَك[٣] بِهِ ، يَضعْ عنك مَئُونة الهَمّ ، ويُزْرِخ من خِناقك[٤] رَوْعَ الخوف ، وتلتجئ إلى أمْرٍ مَنيع[٥] ، وظهر قوى ، ورأى حازم ، تأمَنُ به فجآتِ عدوك ، وغِرّاتِ بَغَتاتهم ، وطوارقَ أحداثهم[٦] ، ويصير إليك عِلْمُ أحوالهم ومتقدمات خيولهم ، فانتخِبْهم رَأْىَ عَيْن ، وقوِّهم بما يُصلحهم من المَنالات والأطماع والأرزاق ، واجعلهم منك بالمنزل الذى هُم به من مَحَارِزِ علاقتك[٧] ، وحَصـــانة كُهُوفك ، وقوة سَيّارة عسكرك .

وإياك أن تُدْخل فيهم أحداً بشفاعة ، أو تحتَملَه على هوَادةٍ ، أو تقدّمه لأثْرة ، أو أن يكون مع أحد منهم بَغْلٌ نَفَل[٨] ، أو فَضْل مِنْ ظَهْر ، أو ثَقَل فادح ، فتشتد عليهم مُؤْنة أنفسهم ، وَيَدْخُلهم كَلاَلُ السَّآمة فيما يعالجون من أثقالهم ، وَيشتغلون به عن عدوهم ، إن دَهِمَهم منه رائع[٩] ، أو نَجَأهم منه طليعةٌ ، فتفقدْ ذلك مُحْكِماً له ،

---

(١) من استعذب القوم ماءهم: إذا استقوه عذبا ، والمعنى استمالة ضمائرهم واستهواؤها ، وفى المنظوم والمنثور « واستمداد » وهو تحريف .

(٢) فى المنظوم والمنثور « وأقمعها كتا ، وأشجى لعدوك » وفيها تحريف .

(٣) وفيه «ومتى يكون فى البأس والثقة والجلد والطاعة والقوة والنصيحة حيث وصفت لك وأمرتك به تضع عنك ... الخ » .   (٤) الخناق بالكسر والضم : الحلق .

(٥) فيه «إلى أمر متين» «وأمر حازم».   (٦) قوله« وغرات بغتاتهم، وطوارق فى أحداثهم» ساقط من المنظوم والمنثور .   (٧) وحرزه : حفظه ، أو هو إبدال والأصل حرسه .

(٨) النفل والنافلة : الزيادة ، كذلك ، والنقل : متاع المسافر .   (٩) أى أمر رائع .

وَتقدَّمْ فيه آخذاً بالحزم فى إمضائه ، أرشدك الله لإصابة الحظ ، وَوَفّقك ليُمْن التدبير ، وَقَصَد بك لأسهل الرأى وَأعْوَدِه نفعا فى العاجِل وَالآجِل ، وأَكْبَتِه لعدوك وَأشجاه لهم ، وَأَرْدَعِه لعَادِيتَهم[١] .

وَلِّ دَرّاجةَ[٢] عسكرك وَإخراجَ أهلِهِ إلى مَصافِّهم وَمراكِزِهم رجُلا من أهل بيوتات الشرف ، محمودَ الخُبْرة ، معروفَ النجدة . ذا سِنٍّ وَتجربة ، لِيِّن الطاعة ، قديم النصيحة ، مأمونَ السريرة ، له بصيرةٌ فى الحق نافذة تقدِّمه ، وَنيَّةٌ صادقة عن الإدهانِ[٣] تحجُزه ، وَاضْمُمْ إليه عِدَّةَ نفَر من ثِقَاتِ جندك وذوى أسنانهم يكونون شُرْطَةَ معه ، ثم تقدَّمْ إليه فى إخراج المصافِّ ، وَإقامة الأحراس ، وَإذكاءِ العيون ، وَحفظِ الأطراف ، وشدة الحذَر ، وَمُرْه فليضَع القُوادَ بأنفسهم مع أصحابهم فى مصَافِّهم ، كلّ قائد بإزاء موضعه ، وحيثُ مَنْزِلُه ، قد شدَّ[٤] ما بينه وبين صاحبه بالرِّماح[٥] شارِعةً ، والتِّراسِ مَوضُونة[٦] والرجالِ راصدةً ، ذا كِيَةَ الأحراس ، وَجِلَةَ الرَّوعِ ، خائفةً طَوَارِقَ العدو وبيَاتَه[٧] ، ثم مُرْه فليُخْرِج كلّ ليلة قائداً فى أصحابه أو عِدَّةً منهم إن كانوا كثيراً ، على غَلْوة[٨] أو غلوتين من عسكرك ، منتبذاً[٩] عنك ، مُحيطا بمنزلك ، ذا كيةَ أحراسُه ، قَلِقَةَ التَّردُّد ، مُفرِطةَ الحذَر ، مُعِدَّةَ الرَّوع ، متأهِّبةَ القتال ، آخذةَ على أطراف العسكر وَنواحيه ، متفرقين فى اختلافهم كُرْدُوسا كُرْدُوسا[١٠] ، يستقبلُ بعضُهم بعضا فى الاختلاف ، وَيَكْسَعُ تالٍ[١١] متقدِّماً فى التردد

---

(١) من قوله « وقصد بك ... إلى قوله وأردعه لعاديتهم » ساقط من المنظوم والمنثور .

(٢) دراجة عسكرك كقوله قبل « سيارة عسكرك » من درج كنصر : أى مشى ، والمصاف جمع مصف وهو موضع الصف . (٣) الإدهان : الغش وإظهار خلاف ما يضمر . (٤) فى المنظوم والمنثور « قد سد »

(٥) شرعت الرماح كقطع : تسددت ، فهى شارعة وشوارع ، وشرعها وأشرعها فهى مشروعة ومشرعة . (٦) وضن الشيء كوعد فهو موضون ووضين : ثنى بعضه على بعض وضاعفه ونضده .

(٧) بيت العدو : أوقع بهم ليلا . (٨) الغلوة : رمية سهم أبعد ما يقدر عليه ، قيل هى ثلثمائة ذراع إلى أربعمائة. (٩) قوله « منتبذا عنك » ساقط من المنظوم والمنثور وانتبذ عنه : تنحى .

(١٠) الكردوس : القطعة العظيمة من الخيل ، وكردس القائد خيله : جعلها كتيبة كتيبة .

(١١) كسعه كمنعه : ضرب دبره بيده أو بصدر قدمه .

وَاجعل ذلك بين قوادك وأهل عسكرك نُوَباً معروفة ، وَحِصَصا مفروضة ، لاتُمْرِ[1] منها مُزْدَلِفا منك بمودّة ، ولا تتحاملْ فيه على أحدٍ بمَوْجِدةٍ ، إن شاء الله تعالى .

فوِّض إلى أمراء أجنادك وقوّاد خيلك أمورَ أصحابهم ، والأَخذَ على قافية[2] أيديهم ، رِياضةً منك لهم على السمع والطاعة لأمرائهم ، والاتباعِ لأمرهم ، والوقوفِ عند نهيهم ، وَتقدّم إلى أمراء الأجناد فى النوائب التى ألزمْتَهم إياها ، والأعمال التى استَنْجَدْتَهم لها ، وَالأسلحةِ والكُرَاعِ التى كتَبْتَهَا عليهم ، واحْذَر اعتلالَ أحد من قوادكَ عليك بما يَحُول بينك وبين تأديب جندكَ ، وتقويمهم لطاعتك ، وَقمعهم عن الإخلال بمراكزهم لشىء مما وُكِّلوا به من أعمالهم ، فإن ذلك مَفسدة الجند ، مَفْنَأَةٌ للقوّاد عن الجِد والإيثار للمناصَحة[3] ، والتقدم فى الأحكام .

واعلم أن فى استخفافهم بقوّادهم ، وتضييعهم أمْرَ رؤسائهم ، دخولا للضَّياع عَلَى أعمالك ، واستخفافا بأمركَ الذى يأتمرون به ، ورأيك الذى ترتئى ، وأوعِزْ إلى القوّاد أن لايُقْدِم أحدٌ منهم عَلَى عقوبة أحَدٍ من أصحابه إلاَّ عُقُوبَةَ تأديب وَتقويمَ مَيْل ، وتثقيفَ أَوَد ، فأمّا عقوبةٌ تبلُغُ تلَفَ المُهَجِ وإقامة حَدٌّ فى قَطعٍ ، أو إفراطٌ فى ضرب ، أو أخْذَ مال ، أو عقوبة فى شَعَر[4] ، فلا يَلِيَنّ ذلك من جندكَ أحدٌ غيرُكَ ، أو صاحبُ شُرطتك ، بأمركَ ، وعن رأيك ، وإذنك ، ومتى لم تذلّل الجند لقوادهم ؟ وتُضرِعهم[5] لأمرائهم ، تُوجِب عليك لهم الحجّة بتضييع — إن كان منهم — لأمرك ، أو خَلَلٍ — إن تهاونوا به — من عملك ، أو عَجْز — إن فرّط منهم — فى شىء وكَّلتهم به أو أسندته إليهم ، ولا تجدُ إلى الإقدام عليهم باللوم وعَضّ العقوبة مجَازا

---

(١) أى لاتخل ، وفى المنظوم والمنثور « لايعد منه » وهو تحريف .

(٢) قافية الرأس : مؤخره ، وقيل وسطه ، وقافية كل شىء آخره ، ومنه قافية بيت الشعر .

(٣) مفنأة : مفعلة من فنأه إذا سكنه وكسره ، وفثأ القدر : سكن غليانها ، وفى المنظوم والمنثور « فإن ذلك مفسدة الجند ، معمى للقواد عن الجد والمناصحة » ومعمى : معجز .

(٤) أى جلد على شعر الجسد ، وفى المنظوم والمنثور « فى سفر » وهو تحريف .

(٥) أى تذلل.

تصل به إلى تعنيفهم ، بتفريطك فى تذليل أصحابهم له ، وإفسادِكَ إياهم عليك وعليهم، فانظر فى ذلك نظراً مُحكَماً ، وتقدَّم فيه برفقك تقدُّماً بليغا، وإياك أن يَدخُل حزمَك وهن ، أو يشوب عزمَك إيثار ، أو يخلِط رأيَك ضَياعٌ ، واللهَ يستودع أميرُ المؤمنين نفسَك ودِينَك(١) .

إذا كنتَ من عدوك عَلَى مسافة دانية ، وسَنَن(٢) لقاء مُختصر ، وكان من عسكرك مُقتربا ، قد شامَت(٣) طلائعُك مُقدَّماتِ ضَلالته ، وحُماةَ فِتْنته ، فتأهَّبْ أُهْبَةَ المناجز ، وأعِدَّ إعدادَ الحذِر ، وكتِّبْ خيولَك ، وعَبِّ جُنودك ، وإياك والمسيرَ إلا فى مقدِّمة ومَيْمَنة ومَيْسَرة وسَاقة(٤) ، قد شهَروا الأسلحةَ ، ونشَروا البُنُود(٥) والأعلام ، وعرِّف جندك مراكزَهم سائرين تحت ألويتهم ، قد أخذوا أُهْبة القتال ، واستعدوا للِّقاء ، مُلتجئين(٦) إلى مواقفهم ، عارفين بمواضعهم فى مسيرهم ومعسكرهم ، وليكن ترحُّلهم وتنزُّلهم على راياتِهم وأعلامِهم ومراكزِهم ، قد عرَّفَ كلُّ قائد منهم أصحابَه مواقفَهم ، من الميمنة والميسرة والقلب والسَّاقة والطَّليعة ، لازمينَ لها ، غيرَ مُخلِّينَ بما استنجدتَهم له ، ولا متهاونين بما أهَبْتَ بهم إليه ، حتى تكون عساكرك فى كل مَنهَل تصل إليه ، ومسافة تجتازها(٧) ، كأنها عسكر واحد فى اجتماعها على العدوّ وأخذِها بالحزم ، ومَسيرها على راياتها ، ونزولها على مراكزها ، ومعرفتها بمواضعها ، إن أضَلَّتْ دابة موضِعَها ، عَرَف أهلُ العسكر : مِنْ أى المراكز هى ؟ ومَنْ صاحِبُها ؟ وفى أى المحل حلولُه منها ؟ فرُدَّت إليه هدايةً معروفةً بِسَمْتِ صاحب قيادتها(٨) ، فإن

---

(١) فى المنظوم والمنثور « وإياك أن يدخل حزمك وهن أو عزمك أمارا من رأيك ضياع والله أستودع دينا فى نفسك » وهو تحريف . (٢) السنن : الطريق .
(٣) نظرت ، وأصله من شام البرق : إذا نظر إليه أين يقصد وأين يمطر .
(٤) الساقة : مؤخرة الجيش . (٥) البنود جمع بند بالفتح وهو العلم الكبير .
(٦) فى المنظوم والمنثور « ملحين » وهو تحريف .
(٧) فى صبح الأعشى والمنظوم والمنثور « تختارها » وهو تصحيف ، وفى مفتاح الأفكار «ومفازة تجتازها » . (٨) وفى المنظوم والمنثور « هداية ومعرفة ونسبة قيادة صاحبها » .

تمدُّمَك فى ذلك ، وإحكامَك له ، طارِحٌ عن جندك مَئُونةَ الطلب ، وعناية المعرفة ، وابتغاء الضَّالَّة .

ثم اجعل عَلَى ساقَتِك أوثقَ أهل عسكرك فى نفسك صَرامةً ونَفاذاً ، ورِضاً فى العامة ، وإنصافا من نفسه للرعية ، وأخْذا بالحق فى المَعْدَلة ، مستشعِرا تقوى الله وطاعتَه ، آخِذا بِهَدْيك وأدَبك ، واقفا عند أمرك ونهيك ، مُقتَزِما على مناصحتك وتزيينك ، نظيرا لك فى الحال ، وشبيها بك فى الشَّرَف ، وعَدِيلا فى الموضع ، ومقاربا فى الصِّيت[١] ، ثم أَكْثِفْ[٢] معه الجَمْعَ ، وأيِّدْه بالقوةِ ، وقوِّه بالظهر ، وأعِنْه بالأموال ، واعمِدْه[٣] بالسلاح ، ومُرْه بالعطف عَلَى ذوى الضعف من جندك ، ومن أزْحَفَتْ[٤] به دابته ، وأصابَتْه نَكْبة من مَرَضٍ أو رُجْلة[٥] أو آفة ، من غير أن يَأذن لأحد منهم فى التنحِّى عن عسكره ، أو التخلف بعد ترحُّله ، إلا لمجْهودٍ سُقما ، أو لطروقٍ بآفة جائحةٍ ، ثم تقدَّمْ إليه محذِّرا ، ومُرْه زاجرا ، وانْهَه مُغلِظا ، فى الشدةِ عَلَى من مَرَّ به مُنصرفا عن معسكرك من جندك بِغَيْرِ جَوازِكَ ، شادًّا لهم أسْرًا ، ومُوقِرَهم[٦] حديدا ، ومعاقِبَهم مُوجِعاً ، ومُوَجِّهَهم إليك فتَنْهَكَهم[٧] عقوبةً ، وتجعَلَهم لغيرهم من جندك عِظَةً .

واعلم أنه إن لم يكن بذلك الموضع مَنْ تَسْكُن إليه ، واثقا بنصيحته ، عارفا ببصيرته[٨] ، قد بلَوتَ منه أمانةً تُسْكِنك إليه ، وصرامةً تُؤْمِنك مَهانَتَه ، ونفاذاً فى أمرك يُرْخِي عنك خِناقَ الخوف فى إضاعته ، لم يأمن أمير المؤمنين تسلُّلَ الجند عنك

---

(١) فى صبح الأعشى « فى النسب » والأولى أنسب .

(٢) أى اجعله كثيفا ، وفى المنظوم والمنثور « اكشف » وهو تحريف .

(٣) عمده كضرب : أقامه بعماد : أى قوه بالسلاح ، وفى المنظوم والمنثور « واغمره » .

(٤) أزحف البعير : أعيا ، وفيه « ومن زحفت » وزحف المعيى كنصر وفرح وكرم : استرخى

(٥) رجل الرجل كفرح فهو راجل ورجلان : إذا لم يكن له ظهر يركبه .

(٦) أوقره : أثقله .

(٧) نهكه عقوبة كسمعه وأنهكه : بالغ فى عقوبته . (٨) هذه ساقطة من صبح الأعشى .

لِوَاذاً[١] ، وَرَفْضَهم مراكزَهُم ، وإخلالَهُم بمواضعهم، وتخلُّفهم عن أعمالهم ، آمنين تغييرَ ذلك عليهم ، والشدةَ عَلَى من اجْترمه[٢] منهُم ، فأوشكَ ذلك فى وَهْنك ، وخَذَل من قوتك ، وقلّل من كثرتك .

اجعل خلفَ ساقتك رجلاً من وجوه قُوَّادك ، جَلِيداً ماضياً ، عفيفاً صارماً ، شَهْمَ الرأى ، شديدَ الحذر ، شَكِيمَ القوة ، غير مُداهن فى عقوبة ، ولا مَهِين[٣] فى قوة ، فى خمسين فارساً من خيلك ، يَحْشُر إليك جندكَ ، ويُلْحِق بك من يتخلَّف عنك ، بعد الإبلاغ فى عقوبتهم ، والنَّهْك لهم ، والتنكيل بهم ، وليكن بِعَقْوتك[٤] فى المنزل الذى تَرتحل عنه ، والمَنْهل الذى تتقوّض منه ، مُفرِطاً فى النقض له ، والتتبع لمن تخلف عنك به ، مشتدا فى أهل المنزل وساكِنِيه بالتقدّم ، مُوعِزا إليهم فى إزعاج الجند عن منازلهم وإخراجهم من مكامِنهم ، بإيعادِ العقوبة المُوجِعة والنَّكالِ المُبْسِل[٥] فى الأشْعَارِ والأبْشَارِ ، واستصفاء الأموال ، وهدم العَقار ، لمن آوى منهُم أحدا ، أو سَتَر موضعَه ، وأخْفَى مَحلَّه ، وحذِّرْه عقوبتَك إياه فى الترخيص لأحد ، والمحاباة لذى قرابة والاختِصاص بذلك لذى أثَرة وهوادة ، وليَكُن فرسانه منتخبين فى القوة ، معروفين بالنجدة ، عليهم سوابغُ الدروع ، دونها شِعار الحشو وجُبَب الِاُسْتِجنان[٦] ، متقلدين سيوفَهُم ، سامِطين كنائنهم ، مستعدِّينَ لِهَيْجٍ أن يَبْدَههم ، أو كَمِين أن يظْهرَ لهم وَإياك أن تقبلَ فى دوابهم إلا فرسا قويا ، أو برْذَوْنا وَثِيجا[٧] ، فإن ذلك من أقوى القوة

---

(١) بأن يستتر بعضهم ببعض حتى يخرج ، أو يلوذ بأحد فينطلق معه كأنه تابعه ، وهو منصوب على الحال ، مصدر بمعنى اسم الفاعل .

(٢) فى المنظوم والمنثور « على من اخترمه منهم ما ... ذلك فى وهنك ، وأحدل من لوتك » .

(٣) المهين : الضعيف الحقير . (٤) العقوة : الساحة وماحول الدار والمحلة .

(٥) أبسله : أسلمه للتهلكة ، وفى المنظوم والمنثور « والنكال المبسل فى الأشعار واصفا الأموال » وهو تحريف ، واستصفى ماله : أخذ منه صفوه .

(٦) استجن : استتر ، وفى المنظوم والمنثور « وجبب الاستحبات » وهو تحريف .

(٧) البراذين من الخيل : ما كان من غير نتاج العرب ، والوثيج : المكتنز ، وقد وثج ككرم وثاجة .

لهم ، وأعون الظهير[1] على عدوهم ، إن شاء الله .

ليكن رحيلك إبّانا[2] واحدا ، ووقتا معلوما ، لتخِفّ المئونة بذلك على جندك، ويعلموا أوانَ رحيلهم ، فيقدِّموا فيما يريدون من معالجة أطعمتهم ، وأعلافِ دوابّهم ، وتسكُنَ أفئدتهم إلى الوقت الذى وقّفُوا عليه . ويطمئن ذوو الرأى[3] إلى إبان الرحيل ومتى يكن رحيلك مختلفا ، تعظُم المؤُنةُ عليك وعلى جُندكَ ، ويُخلُّوا بمرا كزهم[4] ، ولا يزال ذوو السَّفَه والنَّزَق يترحّلون بالإرْجاف[5] ، وينزلون بالتوهُّم ، حتى لا ينتفع ذو رأى بنوم ولا طُمَأنينة .

إياك أن تُظهر استقلالا ، أو تنادى[6] برحيل من منزل تكون فيه ، حتى تأمرَ صاحبَ تعبِئتك بالوقوف بأصحابه على معسكرك ، أخذا بفوّهة جنَبَتَيه[7] بأسلحتهم ، عُدّةً لأمر إن حضر ، أو مفاجأةٍ من طليعةٍ للعدو إن رأت منكم نُهْزَةً ، أو لَمَحت عندكم غِرَّة ، ثم مُر الناس بالرحيل ، وَخيلُك وَاقفةٌ ، وأُهْبَتُك مُعَدَّة ، وَجُنّتُك وَاقية ، حتى إذا استَقْلَلتم[8] من معسكركم ، وتوجّهتم من منزلكم ، سرتم على تعبيتكم ، بِسكُون ريح ، وَهُدُوِّ حَمْلة ، وَحُسْن دَعَة .

فإذا انتهيتَ إلى منهل أردتَ نزوله ، أو هممْت بالمعسكر به، فإياك ونزولَه إلا بعد العلم بأهله ، والمعرفة بمَرَافقه ، وَمُرْ صاحب طليعتك أن يعرف[9] لك أحوالَه ، وَيَستثير لك علم دفينه ، وَيستَبْطِنَ علم أموره ، ثم يُنهيها إليك على ما صارت إليه لِتعلَمَ : كيف احتمالُه لعسكرك ؟ وَكيف ماؤه وأعلافه[10] ، وكيف موضعُ عسكرك منه ؟ وهل لك

---

(١) فى صبح الأعشى « وأعون الظهرى » وقد تقدم معناه .

(٢) أى وقتا . (٣) فى المنظوم والمنثور « ذوا ... إبان الرحيل » .

(٤) هذه الجملة ساقطة من صبح الأعشى .

(٥) النزق : الطيش والخفة ، وأرجف القوم فى الشىء وبه إرجافا : أكثروا من الأخبار السيئة واختلاق الأقوال الكاذبة حتى يضطرب الناس منها (٦) فى المنظوم والمنثور « إياك أن تنادى » .

(٧) فى صبح الأعشى « آخذا بجنبتى فوهته » . (٨) استقل القوم : ذهبوا وارتحلوا .

(٩) فى المنظوم والمنثور « إلا بعد العلم أن يعرف لك أحواله أو يسبر علم دفينه » .

(١٠) فيه « وكيف مأواه وأعلامه» وهو تحريف .

ـ إنْ أردت مُقاما به ، أو مُطاولةَ عدوك وَمكايدته فيه ـ قوةُ تَحمُّلك ، ومدَدٌ يأتيه ، فإنك إن لم تفعل ذلك لم تأمن أن تَهجُم على منزل يُعْجزك وَيُزْعِجُكَ منه ضِيقُ مكانه، وقلة مياهه ، وَانقطاعُ موادِّه ، إن أردت بعدوك مكيدة ، أو احتجت من أمرِهِم إلى مطاولة ، فإن ارتحلتَ منه كنت غرَضا لعدوك ؛ ولم تجد إلى المحاربة والأخطار سبيلا ، وَإن أقمتَ به أقمتَ على مشقة وحَصْر ، وفى أزْل وضيق ، فاعرف ذلك وَتقدَّم فيه .

فإذا أردت نُزولا أمرتَ صاحب الخيل التى وكَّلْت بالناس[1] ، فوقفت خيله ، متنحِّية من معسكرك ، عُدَّةً لأمرٍ إن غالك[2] ، ومَفزَعا لبديهة إن راعتْك ، فقد أمِنْت بحمد الله وقوته[3] فَجْأَةَ عدوك ، وعرَفت موقعها من حِرْزك[4] ، حتى يأخذ الناس منازلَهم ، وتُوضَع الأثقال مواضِعَها ، ويأتيك خبر طلائعك ، وتُخْرِجُ دَبَّابَتَك[5] من معسكرك دَرَّاجَةً ودُبَّابا[6] مُحِيطَيْن بعسكرك ، وعُدَّةً لك إن احتجت إليهم ؛ وليكن دُبَّاب جندك أهلَ جَلَدٍ وقوة ، قائدا أو اثنين أو ثلاثة بأصحابهم ، فى كل ليلة ويوم ، نُوَبا بينهم ، فإذا غرَبَت الشمس ، ووَجَب[7] نورها ، أخرج إليهم صاحب تعبئتك أبْدالَهم ، عَسَسًا بالليل فى أقربَ مِن مواضع دَبَّابِى النهار ، يتعاوَرُ ذلك قوادُك جميعًا ، بلا محاباة لأحد منهم فيه ولا إدهان إن شاء الله .

إياك أن يكون منزلك إلا فى خندق وحِصنٍ تأمَن به بَياتَ عدوك ، وتستتِمُّ فيه إلى الحزم من مكيدتك ، إذا وُضِعتِ الأثقالُ ، وحُطَّت أبنيةُ أهل العسكر ، لم يُمْدَد طُنُب[8] ، وَلم يُرْفَع خِباء ، ولم يُنْصَب بناء ، حتى تَقْطَعَ لكل قائد ذَرْعًا معلوما من

---

(١) فى المنظوم والمنثور « التى رحلت الناس » .

(٢) فيه «إن راعك» . (٣) فيه قد أمنت بإذن الله وحوله . (٤) فيه « من حربك » .

(٥) المراد بالدبابة هنا . الجماعة التى تدب حول الجيش لحراسته ، من دب كضرب إذا مشى على هينته وقد تقدم فى هذه الرسالة نظيرها وهى سيارة من سار ، ودراجة من درج ، وليس المراد بها الآلة التى تتخذ الحروب تتدفع فى أصل الحصن فينقبون وهم فى جوفها ، كما تسرت بذلك .

(٦) دبابا : جمع داب كعذال جمع عادل . (٧) غاب .

(٨) وفيه « لم يعد خباء ولم تنصب بناء » والطنب : حبل طويل يشد به سرادق البيت .

الأرض بقدر أصحابه ، فيحتفروه عليهم خندقا ، يُطيفونه بعد ذلك بِخَنادق الحَسَك[1] ، طارحين لها دون اشتجار الرماح[2] ، ونَصْبِ التِّرَسَة ، لها بابان قد وكَّلتَ بحفظِ كل باب منهما رجلا من قوادك ، في مائة رجُل من أصحابه ، فإذا فُرِغ من الخندق كان ذانك القائدان بمن معهما من أصحابهما أهلَ ذلك المركز ، وموضعَ تلك الخيل ، وكانوا هُم البوابين والأحراسَ اللذَينك الموضعين[3] ، قد كفَوْها وضبطوها ، وأُغْنُوا من أعمال العسكر ومكروهِه غيرِهما .

واعلم أنك إذا كنت على خَندق أمِنتَ[4] بإذن الله وقوته طَوَارقَ عدوّك وبَغتاتِهم ، فإن رامُوا تلك منك ، كنتَ قد أحكمتَ ذلك وأخذتَ بالحزم فيه ، وتقدمتَ في الإعداد له ، ورتَقْتَ مَخُوفَ الفَتْقِ منه ، وإن تكن العافية[5] استحقَبْتَ حمدَ الله عليها ، وارتبطتَ شكرهُ بها ، ولم يَضرُرْكَ أخْذُك بالحزم ، لأن كل كُلْفةٍ ونَصَب ومَئونةِ إنفاقٍ ومشقَّةِ عملٍ ، مع السَّلامة ، غُنْم وغير خَطَر بالعاقبة ، إن شاء الله .

فإن ابتُليتَ ببَياتِ عدوك ، أو طَرَقك رائعا[6] في ليلك ، فَلْيُلْفِكَ حَذِرا مُعِدا مشمِّرا عنْ ساقك ، حاسِرا عن ذراعك ، مُتَشَزِّنا لحربك ، قد تقدَّمتْ دَرَّاجَتُك

---

(١) الحسك : نبات له شوك صلب ، ويعمل من الحديد أداة للحرب على مثال شوكه فيلقى حول العسكر ، ويسمى باسمه (وهذا هو المراد هنا) أى الأسلاك الشائكة .

(٢) اشتجار الرماح : تشابكها فى الطعان .

(٣) فى المنظوم والمنثور بعد ذلك « فدالى الرفاهة والدمة وتقدم العسكر أو التأخر عنه ، فإن ذلك مما يضعف الوالى ويوهنه لاستنامته إلى من ولاه ذلك ، وأمنه به على جيشه » وفى أول العبارة تحريف وقد تقدمت فى صفحة ٤٣٣ وموضعها هنالك ، وقوله « قد كفوها ... إلى غيرهما » ساقط منه .

(٤) فيه « واعلم أنك إذ ... أمنت بإذن الله طوارق ... » .

(٥) من قوله « وإن تكن العاقبة ... إلى بالعافية » ساقط من المنظوم والمنثور ، وفى مفتاح الأفكار « استحقبت » بالباء أى احتملت ، وفى صبح الأعشى « استحقيت » .

(٦) أى مفزعا لك ، من راعه إذا أفزعه ، وفى المنظوم والمنثور « أو طرقك رائعا فى ... حذرا معدا مشمرا عن ساقك مستترا لحربك » وفيها نقص وتحريف .

إلى مواضعها ، على ما وصفَ[١] لك أمير المؤمنين ودبابتُك فى أوقاتها التى قَدَّر لك ، وطلائعُك حيثُ أمَرَك ، وجُندُك على ما عبَّأ لك ، قد خطَرْتَ عليهم بنفسك ، وتقدَّمْتَ إلى جندك إن طَرَقَهم طارقٌ ، أو فاجأهم عدو ، ألَّا يتكلَّم أحد منهم رافعا صوتَه بالتكبير ، مُفْرِقا فى الإجلاب ، مُعْلِنا بالإرهاب لأهل[٢] الناحية التى يقع بها العدوُّ طارقا ، وليُشْرِعوا رِماحَهم مادِّين[٣] لها فى وجوههم ، ويَرْشُقُونهم بالنَّبل مُكتَنِّين[٤] بِتِرَسَتهم ، لازمين لمراكزهم ، غير مُزِيلى[٥] قَدَمٍ عن موضعها ، ولا متجاوزين[٦] إلى غير مركزهم ، وَلْيُكبِّرُوا ثلاث تكبيرات متواليات ، وسائرُ الجند هادُون ، لتَعرِفَ موضع[٧] عدوك من معسكرك ، فَتَمُدَّ أهل تلك الناحية بالرجال من أعوانك وشرطتك ، ومَن انتخبْتَ قبل ذٰلك عُدَّةً للشدائد بحضرتك ، وتدُسَّ إليهم النُّشَّابَ والرماح .

وإياك أن يَشْهَرُوا سيفا يتجالدون به ، وتقدَّم إليهم أنْ لا يكون قتالهم فى تلك المواضع لمن طرقهم إلا بالرماح ، مُسْنِدين لها إلى صدورهم ، والنُّشَّابِ راشقين به وجوهَهم ، قد ألبَدُوا[٨] بالتِّرَسَةِ ، واستجنُّوا بالبَيْضِ ، وألقَوا عليهمْ سوابغَ الدروع وجبابَ الحشْو ، فإنْ صَدَّ العدو عنهم حاملين على ناحية أخرى ، كبَّر أهلُ تلك الناحية التى يقع فيها كفعل الناحية الأولى[٩] ، وبقيَّة العسكر سُكُوتٌ ، والناحيةُ التى صدَّ عنها العدو لازمةٌ لمراكزها مُنتَطِقة الهدو ، ساكنة الريح[١٠] ، ثم عَمِلْتَ فى تقويتهم وإمدادهم بمثل صنيعك بإخوانهم .

---

(١) فيه « على ماوصفت لك ... التى قدرت لك » وفيها نقص .

(٢) فيه « مغرورا فى إجلاب ، معلنا للإهراب إلا أهل الناحية » وهو تحريف .

(٣) فى صبح الأعشى « ناشبين بها » .

(٤) فى المنظوم والمنثور « ملبدين » وفى صبح الأعشى مستكنين بأترستهم وفى « هامشه » قال ابن السكيت لا يقال أترسة وزان أرغفة ، وإنما جمع الترس ترسة وتروس وتراس وربما قيل أتراس .

(٥) قوله « غير مزيلى ... » ساقط من المنظوم والمنثور . (٦) فيه « ولا منحازين » .

(٧) قوله « لتعرف موضع ... » ساقط منه . (٨) أى لصقوا بها .

(٩) فيه « كبر أهل تلك الناحية الأولى » . (١٠) قوله « منتطقة ... إلى الريح » ساقط منه .

وإياك أن تُخمِد نارَ رِوُاقك[1] ، وإذا وقع العدو فى معسكرك ، فأجُجْها ساعِرا لها ، وأوْقِدْهَا حَطَبا جَزْلا ، يعرف بها أهل العسكر مكانَك وموضِعَ رواقك ، فيَسْكُن نافِرُ قلوبهم ، ويقْوَى واهِن قوتهم ، ويشتدَّ مُنْخَذِلُ ظهورِهِم ، ولا يَرْجُمون بك الظنون ، ويجيلون لك آراء السُّوء ، ويُرْجِفُونَ بك آناءَ الخوفِ[2] ، وذلك من فعلك رادٌّ عدوَّك بغيظه ، لم يستقْلِلْ منك ظُفرا[3] ، ولم يبلُغْ من نكايتك سرورا إن شاء الله .

فإن انصرف عنك عدوُّكَ ، وَنَكَلَ عن الإصابة من جندك ، وكانت بخيلك قوةٌ على طلبه ، أو كانت لك من فُرسانك خيلٌ مُعَدَّة ، وكتيبة منتخَبة ، وقدَرْتَ أن تَركَبَ بهم أكساءهم[4] ، وتحمِلَهم على سَنَنهم ، فأتبِعهم جريدةَ[5] خيلٍ عليها الثقاتُ من فُرسانك ، وأولو النجدة من حُماتك ، فإنك تُرْهِق[6] عدوك ، وقد أمِنَ بياتَك ، وشُغِل بكلاله عن التحرُّز منك ، والأخذِ بأبواب معسكره ، والضبط لمحَارسه عليك مُوهَنَةً حُماتُهم ، لَغِبةً[7] أبطالُهم . لما ألفَوْكم عليه من التشمير والجد قد عَقَرَ[8] اللهُ فيهمْ . وأصاب منهم ؛ وجرح من مُقاتِلَتِهِم ، وكسَرَ من أمانىِّ ضُلالهم ورَدَّ من مستعلى جِماحهمْ .

وتقدَّمْ إلى من توجِّهه فى طلبهم ، وتُتْبعه أكساءهم، أن يكونوا وهم فى سُكُونِ الريح ، وقلة الرَّفَثِ[9] ، وكثرة التسبيح والتهليل ، واستنصار الله عزَّ وجل بقلوبهم

(١) الرواق : بيت كالفسطاط .
(٢) فى المنظوم والمنثور « ولا يرجفون فيك بالظنون ، ويجيلون لك آراء السوء ، وذلك من فعلك . . . الخ » .
(٣) فيه « ولم يستقل منك بظفر » ويقال : استقل غربه : أى كسره .
(٤) الأكساء : الأدبار جمع كسء بالضم ، وكسء كل شىء : مؤخره .
(٥) الجريدة : خيل لارجالة فيها . (٦) أرهقه عسرا : كلفه إياه ، وحمله على مالا يطيقه .
(٧) وصف من اللغوب ، وهو التعب والإعياء .
(٨) عقر البعير : ضرب قوائمه بالسيف وهو قائم ، والمعنى قد اندحروا وهزموا .
(٩) الرفث : الفحش .

وألسنتهم سِرًّا وجَهْرًا ، بلا جَلَب ضَجّة ، ولا ارتفاع ضوضاء ، دون أن يَرِدوا على مطلَبهم ، وينتهزوا فُرصتهم ، ثُمَّ لْيَشْهَرُوا السِّلَاحَ ، وَيَنْتَضُوا السُّيُوفَ ، فإنَّ لَمَا هَيْبَةً رَائِعَةً ، وَبَدِيهَةً مَخُوفَةً ، لايقُوم لها فى بُهْمَة[١] الليل وحِنْدِسه إلا البطلُ المحارِبُ ، وذو البصيرةِ المحامى ، والمستميتُ المقاتل ، وقليلٌ ماهُم عند تلك الحمِيَّة ، وفى ذلك الموضع[٢] .

ليكن أولَ ما تتقدم بهِ فى التهيؤ لعدوك ، والاستعداد للقائه ، انتخابُك من فُرسان عسكرك ، وحُماة جندك ، ذوى البأس والحُنْـكة ، والجَلدِ[٣] ، والصَّرامة ممن قد اعتاد طِرادَ الكُماة[٤] ، وكَشَر[٥] عن ناجذِه فى الحرب ، وَقام على ساقٍ فى منازلة الأقران ، ثَقِفَ الفُرُوسية[٦] ، مستجمعَ القوة ، مُسْتَحْصِد المَرِيرة[٧] صَبورا على أهْوَال الليل ، عارفاً بمَناهِزِ الفُرص ، لم تُمْهِنه[٨] الحُنْكة ضعفا ، ولا بلغت به السن كَلالا[٩] ولا أسْكَرَته غِرَّة الحداثة جهلا ، ولا أبطرَته نَجدة الأغمار[١٠] صَلَفا ، جريئا على مخاطرة التلف ، مُقدما على ادِّراع الموتِ ، مكابرًا لمرهُوب[١١] الهَوْلِ ، متقحِّما مخشيَّ الحتوف ، خائضاً غَمَراتِ المهالك ، برأيٍ يؤيِّده الحزمُ ونيَّة لايخالجها الشكُّ ، وأهواء مجتمعة ، وقلوب مؤتلِفة[١٢] ، عارفين بفضل الطاعة وَعزِّها وشرفها ، وَحيثُ محلُّ أهلها من التأييد والظفرِ والتمكين ، ثم اعرِضهم رأىَ عَيْنٍ على كُراعهم وأسلحتِهم ، ولتكُن دوابُّهم إناثَ عِتاقِ الخيل ، وأسلحتُهم سوَابِغَ الدُّروع وَكمالَ آلة المحارِب ،

(١) البهمة : السواد ، والحندس : الظلمة والليل المظلم .
(٢) فى المنظوم والمنثور « عند تلك المواضع » .
(٣) فيه « والجد » . (٤) الكماة جمع كمى كغنى . وهو الشجاع : المتكمى فى سلاحه : أى المتغطى المتستر بالدرع والبيضة . (٥) الناجذ : أقصى الأضراس ، وكشر عن أسنانه : أبدى .
(٦) فيه « سقف الفراسة » وهو تحريف .
(٧) المريرة : العزيمة ، وأصلها الحبل الشديد الفتل ، واستحصد الحبل : استحكم .
(٨) أمهنه : أضعفه . (٩) فيه « دلالا » .
(١٠) الأغمار . جمع غمر كشمس وقفل وسبب وكتف ، وهو من لم يجرب الأمور ، ومغمر أيضا كمعظم . (١١) وفى صبح الأعشى « لمهيب » .
(١٢) وفى المنظوم والمنثور « موسعة » .

متقلّدين سيوفَهم المستخلَصَةَ من جيد الجوهر وَصافى الحديد ، المتخَيَّرَة من معادن الأجناس ، هِنْدِيَّة الحديد أو تُبَّتِيَّة(١) ، يَمانِيَة الطَّبع ، رِقاق المضارب ، مسمُومة(٢) الشَّحْذ ، مُشطَّبة الضريبة ، مُلْبِدِين بالتِّرَسة الفارسية . صِينِيَّة التعقيب ، مُغْلَقة ، للقابض بِحَلَق الحديد ، أنحاؤها مربَّعة ، وَمَخَارِزها بالتجليد مضاعَفة ، ومِحْملها(٣) مُسْتَخَف ، وكنائن النبل وجِعاب القِسِيّ قد استحقبُوها ، وقِسِيّ الشِّريان(٤) والنَّبْع ، أعرابية الصنعة، مُختلفة الأجناس ، مُحْكَمة العَمل ، مقوَّمة التثقيف(٥) ، ونُصول النبل مَسْمُومة، وعملها مَصِّيصى(٦) ، وَتَرْكِيبُها عِرَاقِيٌّ ، وَتَرْيِيشُها بَدَوِيٌّ ، مُختلفة الصوغ فى الطبع ، شتّى الأعمال فى التَّشطيب والتجنيح والاستدارة(٧) ، ولتكُن الفارسية مقلوبة المَقَابض، منبسِطة السِّيَة(٨) سهلة الانعطاف ، مقرّبة الانحناء ، ممكنة الرمى ، واسعة الأسهم ، فُرَضها(٩) سهلة الوُرود ، ومعاطفها غير مقتربة(١٠) المُواتاة .

ثم ولِّ على كل مائة رجل منهم رجلًا من أهل خاصَّتك وثقاتك ونُصحائك ، له صيت فى الرياسة ، وقدَم فى السابقة ، وأوّليّة فى المشابعة(١١) ، وتقدَّمْ إليه فى ضبطهم وكفّ مَعَرّتهم(١٢)، واستنزال نصائحهم ، واستمداد طاعتهم ، واستخلاص ضمائرهم ، وتعاهُدِ كُراعهم وأسلحتهم ، مُعْفِيًا لهم من النوائب التى تلزم أهلَ العسكر وعامة

---

(١) نسبة إلى التبت، وهى الجزء الجنوبى الغربى من الصين ، وهذه الكلمة ساقطة من صبح الأعشى، وفى المنظوم والمنثور « أو بتنية » وهو تحريف .
(٢) وفيه « مستوية » وهو تحريف . (٣) المحمل : علاقة السيف .
(٤) الشريان بالفتح ويكسر : شجر للقسى .
(٥) هذه ساقطة من المنظوم والمنثور . (٦) وهذه أيضا ساقطة منه ، والمصيصة : بلد بالشام.
(٧) وفيه « فى التشطيب والاستزادة » وفيها نقص وتحريف .
(٨) سية القوس : ماعطف من طرفيها ، وفيه « السنة » .
(٩) الفرض: جمع فرضة كفرصة ، والفرضة من النهر : ثلمة يستقى منها ، ومن البحر: محط السفن:
(١٠) فيه « معنوية » وهو تحريف .
(١١) من قوله « له صيت — إلى فى المشايعة » ساقط منه .
(١٢) وهذه الكلمة أيضا ساقطة منه .

جندك ، واجعلهم عُدَّة لأمرٍ إنْ حَزَبك[1] أو طارقٍ إن أتاك[2] . ومُرْهم أن يكونوا على أُهْبة مُعَدّة ، وحَذَرٍ نافٍ لسِنَةِ الغَفْلة عنهم[3] ، فإنك لاتدرى : أىّ الساعات من ليلك ونهارك تكون إليهم حاجتك؟ فليكونوا كرجل واحدٍ فى التّشمير والتّرادُف[4] وسُرعة الإجابة فإنك عسَيْتَ أن لاتجدَ عند جماعة جندك فى مثل تلك الرَّوْعة والمباغَتة — إن احتجتَ إلى ذلك منهم — مَعُونةً كافيةً . ولا أُهْبة مُعَدّة . بل ذلك كذلك . فليكن هؤلاء القومُ الذين تنتخِبُ عُدَّتَك . وقوّتك . بعُوثا قد وظَّفْتَها[5] على القواد الذين ولَّيتَهم أمورهم . فسمَّيْتَ أوّلا . وثانيا . وثالثاً . ورابعاً . وخامساً إلى عشرة : فإن اكتفَيتَ فيما يَبْدَهُك ويَطرُقك ببَعْث واحد . كان مُعَدّا لم تحتج إلى انتخابهم[6] فى ساعتك تلك . فقطَعْتَ البعثَ عليهم عند مايُرْهِقك . وإن احتجت إلى اثنين أو ثلاثة وجَّهْتَ منهم إرادتَك أو ماترَى قوتَك[7] . إن شاء الله .

وكِّلْ بخزائنك ودواوينك رجلًا ناصحاً أميناً[8] ذا وَرَع حاجز . ودين فاضل . وطاعة خالصة . وأمانة صادقة[9] . واجعل معه خيلًا يكون مَسيرُها ومنزلها وترحُّلها مع خزائنك وحولها . وتقدَّمْ إليه فى حفظها . والتوقِّى[10] عليها . واتِّهام كلِّ من تُسْنِدُ إليه شيئاً منها على إضاعته والتهاوُن به ، والشدةِ على من دنا منها فى مسير ، أو ضامَّها فى منزل ، أو خالَطَها فى مَنْهَل[11] ، وليكن عامّةُ الجند والجيش — إلا من استخلَصْتَ[12] المسيرمعها — متنحِّين عنها ، مُجانبين لها فى المسير والمنزل، فإنه ربما كانت

---

(١) فيه « إن فاجأك » وحزبه الأمر : اشتد عليه .

(٢) فيه « أو طارق بيتك » . (٣) فيه « وحذرهم ، فإنك لاتدرى ... » .

(٤) فيه «والتردف » وهو تحريف .

(٥) فيه محل قوله « فليكن ... إلى قد وظفتها » « فاذكرها ولى الدين تبحث عدتك وقوتك تقويا قد قطعتها على القواد » وهو تحريف .

(٦) فيه « امتحانهم فى ساعتهم » وهو تحريف .

(٧) هذه الجملة ساقطة منه . (٨) فيه « رجلا أمينا صالحا » .

(٩) قوله « وطاعة ... إلى صادقة » ساقطة منه .

(١٠) فيه « والتوقى عليها واتهام من يسند إليه شيئاً منها » .

(١١) هذه الجملة ساقطة منه . (١٢) فيه « استصلحت » .

الجولةُ ، وحَدَثتِ الفَزْعة ، فإن لم يكن الخزائن بِمَّن يُوَكَّل بها أهلُ حفظٍ لها وذَبٍّ عنها . وحِياطَة دونها . وقوّة على من أراد انتهابها[١] . أسرعَ الجندُ إليها . وتداعَوا نحوها . حتى يكاد يترامى ذلك بهم إلى انتهاب العسكر . واضطراب الفتنة ، فإن أهل الفتن وسُوء السيرة كثير ، وإنما همّتهم الشر ، فإياك وأن يكون لأحد فى خزائنك ودواوينك وبيوت أموالك مَطمَع . أو يجد سبيلا إلى اغتيالها ومَرْزَئَتِها[٢] ، إن شاء الله .

اعلم أن أحسن مكيدتك أثراً فى العامة . وأبعدها صيتاً فى حُسْن القالة . مانِلْتَ الظفر فيه بحزم الروية . وحسْن السيرة[٣] ، ولطف الحيلة ، فلتكن رويّتك فى ذلك وحرصك على إصابته بالحيل ، لا بالقتال وأخْطار التلف ، وادسُسْ إلى عدوك، وكاتبْ رءوسهم وقادتهم ، وعِدْهم المَنالاتِ ، ومَنِّهم الولاياتِ ، وسوّغهم التُّراث[٤] وضَعْ عنهم الإحَن[٥] ، واقطع أعناقهم بالمطامع ، واستدْعهم بالمَثاوِب[٦] واملأْ قلوبَهم بالترهيب ، إن أمكنتك منهم الدوائرُ ، وأصارتهم[٧] إليك الرَّواجعُ وادعُهم إلى الوثوب بصاحبهم أو اعتزاله إن لم يكن لهم بالوثوب عليه طاقة ، ولا عليك[٨] أن تطرَحَ إلى بعضهم كُتُبا كأنها جَوابات كُتُبٍ لهم إليك ، وتكتب على ألسنتهم كتباً إليك تدفعها إليهم ، وتَحْمِلُ بها صاحبَهُم عليهم ، وتُنْزِلُهُم عنده بمنزلة التُّهَمَة ومحل الظِّنّة[٩] فلعلّ مَكيدتك فى ذلك أن يكون فيها افتراقُ كلمتهم ، وتشتيتُ جماعتهم ، وَإِحَن[١٠] قلوبهم ، وسوء الظن من واليهم بهم ، فيُوحِشهم منه خوفُهُم

---

(١) من قوله « وحياطة ... إلى انتهابها » ساقط منه .

(٢) فيه « ومريتها » ورزأه ماله كجعل وعلم رزءا ومرزئة . أصاب منه شيئا .

(٣) فيه « بحسن الروية وحسن التدبير » .

(٤) فيه « التراب » وهو تصحيف .

(٥) الإحن: جمع إحنة بالكسر : وهى الحقد . (٦) هذه الجملة ساقطة منه .

(٧) فيه « وأصاربهم » وهو تصحيف .

(٨) أى ولا حرج عليك . (٩) قوله « ومحل الظنة » ساقط منه .

(١٠) فيه « واحش » وهو تحريف .

إياه على أنفسهم إذا أيقنوا باتهامه[1] إيام، فإن بَسَط يدَه بقتلِهم، وأولغ سيفه فى دمائهم، وأسرع الوثوبَ بهم، أشْعَرَهُم جميعا الخوفَ، وشمِلَهم الرعبُ ودعاهُم إليك الْهَرب، فتهافَتوا نحوك بالنصيحة، وأمّوك بالطلب[2] وإن كان متأنّيا محتملا، رجوتَ أن تستمِيلَ إليك بعضهم، وتستدعىَ بالطمع ذوى الشَّرَهِ[3] منهم، وتنال بذلك ما تحبُّ من أخبارهم إن شاء الله .

إذا تدانى الصَّفَّان، وتواقف الْجمْعَان، واحتضَرت الحرب، وعبَّأتَ أصحابك لقتال عدوهم، فأكثِر من قول: لا حَوْلَ ولا قوة إلا بالله، والتوكل على اللهُ عز وجل، والتفويض إليه، ومسألتِهِ توفيقَك وإرشادك، وأن يعزم لك على الرشد المنجِي[4]، والعصمَة الـكالِئة، والحِيَاطة الشاملة .

ومُرْ جندك بالصمت وقلة التلفُّت عند المُصَاولَة[5]، وكثرةِ التـكبير فى نفوسهم، والتسبيح بضمائرهم، وألّا يُظهروا تـكبيرا إلا فى الـكرّات والْحمَلَات، وعند كل زُلْفة يزدَلِفونها، فأمّا وهم وقوفٌ فإن ذلك من الفشل والجبن وليَذكروا اللهُ فى أنفسهم، ويسألوه نصرَهم وإعزازَهم[6] وليُـكثروا من قَوْل: لا حول ولا قوّة إلا باللهِ العلى العظيم، حَسْبُنا الله ونِعْمَ الوكيل، اللهم انصرنا على عدوك وعدونا الباغى، واكْفِنَا شوكته المستحِدَّة، وأيِّدنا بملائـكتك الغالبين، واعْصِمْنَا بعونك من الفَشَل والعجز، إنك أرحم الراحمين .

وليـكن فى عسكرك مكبِّرون بالليل والنهار قبل الْمُواقعة، وقوم موقوفون[7] يحُضُّونَهُم على القتال، ويحرِّضونَهم على عدوهِم، ويَصِفون لَهُم منازل الشهداء وثوابَهُم

(١) فيه «بأنها منايام» وهو تحريف.
(٢) هذه الجملة ساقطة منه . (٣) فيه «ذوى الشر» وهو تحريف .
(٤) هذه الـكلمة ساقطة منه، وفيه «والحيطة» وهو تحريف .
(٥) فيه «وقلة التلفت إلى المشار له» . (٦) قوله «وليذكروا... إلى وإعزازهم» ساقط منه .
(٧) فيه «قبل المواقعة يطوفون عليهم يحضونهم» .

ويذكرونهم الجنة ودرجاتها ، ونعيم أهلها[١] وسكانها ، ويقولون : اذكروا الله يَذْكُرْكم ، واستنصروه ينصُرْكم ، والتجئوا إليه يَمْنَعكم[٢] ، وإن استطعت أن تكون أنت المباشِرَ لتعبئة جندك ، وَوَضْعِهم مواضِعَهم من راياتك[٣] ، ومعك رجالٌ من ثِقاتِ فرسانك ذوو سنٍّ وتجربة ونَجدة على التعبئة التي أمير المؤمنين واصِفُها لك في آخر كتابه هذا فافعل إن شاء الله تعالى .

أيدك الله بالنصر ، وغلّبَ لك على القوة ، وأعانك على الرشد ، وعَصَمَك من الزّيغ ، وأوجب لمن استُشْهِدَ[٤] معك ثوابَ الشهداء ، ومنازِلَ الأصفياء ، والسلام عليك ورحمة الله وبركاته .

وكُتب سنة تسع وعشرين ومائة[٥] .

(اختيار المنظوم والمنثور ١٢ : ٢٠١ ، وصبح الأعشى ١٠ : ١٩٥ ، ومفتاح الأفكار ص ٢٣٠)

٥٠٦ — رسالة عبد الحميد إلى الكتاب

وكتب عبد الحميد رسالة إلى الكُتّاب يوصيهم فيها ، قال :

« أما بعدُ ، حَفِظكم الله يا أهْلَ صناعة الكتابة ، وحاطَكم ووفّقكم وأرشدكم ، فإن الله عز وجل جَعَلَ النّاسَ بعد الأنبياء والمرسلين، صلواتُ الله وسلامه عليهم أجمعين، ومن بعد الملوك المكرَّمين، أصنافاً، وإن كانوا في الحقيقة سَواء ، وصَرَّفهم في صُنُوف الصناعات وضُروب المحاوَلات ، إلى أسباب مَعايشهم[٦] ، وأبوابِ أرزاقهم ، فجعلكم معشَر الكُتّاب في أشرف الجهات ، أهلَ الأدب والمُروءة[٧] والعِلمِ والرواية[٨] ،

(١) فيه « ويذكرونهم الجنة ورخاء أهلها وسكانها » . (٢) هذه الجملة ساقطة منه .
(٣) في صبح الأعشى « من رأيك » وهو تحريف .
(٤) استشهد بالبناء للمجهول : قتل في سبيل الله .
(٥) قدمنا في أول هذه الرسالة أن قتال عبد الله بن مروان وأخيه مع الضحاك بن قيس كان سنة ١٢٨ هـ . وقال الطبري : وقيل إن الضحاك إنما قتل سنة ١٢٩ هـ — انظر تاريخ الطبري ٦ : ٧٧
(٦) في مقدمة ابن خلدون « معاشهم » . (٧) فيها « والمروءات » .
(٨) فيها « والرزانة » .

بكم تنتظِمُ للخلافة محاسِنُهَا ، وتستقيمُ أمورها ، وبنصائحكم يُصْلح اللهُ الخلق سلطانهم وتعمرُ بلادهم[(١)] ، لا يستغنى المَلِكُ عنكم ، ولا يُوجد كافٍ إلا منكم ، فموقِعُكم من الملوك مَوْقِعَ أسماعهم التى بها يَسْمَعُونَ ، وأبصارهم التى بها يُبْصِرون ، وألسنتهم التى بها ينطقون ، وأيديهم التى بها يَبْطِشون ، فأمتعكم الله بما خصّكم من فضل صناعتكم ، ولا نزع عنكم ما أضفاه[(٢)] من النعمة عليكم .

وليس أحدٌ من أهل الصناعات كلّها ، أحوجَ إلى اجتماع خِلال الخير المحمودة ، وخِصال الفضل المذكورةِ المعدودةِ ، منكم أيُّها الكتّاب إذا كنتم على ما يأتى فى هذا الكتاب من صِفتكم ، فإن الكاتب يحتاج من نفسه ، ويحتاج منه صاحبُه الذى يثق به فى مُهمات أموره . أن يكون حليما فى موضع الحِلم ، فهيماً فى موضع الحُكم ، مقدَاما فى موضع الإقدام ، مِحجاما فى موضع الإحجام ، مُؤْثِراً للعفاف ، والعدل والإنصاف ، كتُوما للأسرار ، وفيًّا عند الشدائد ، عالما بما يأتى من النوازل ، يضع الأمورَ مواضِعَها ، والطوارقَ أماكنَها ، قد نظر فى كل فنّ من فنون العلم فأحكمه فإن لم يحكمه أخذ منه بمقدار ما يكتفِى به ، يعرف بغريزةِ عقله ، وحُسْن أدبه ، وفضل تجربته ، ما يَرِدُ عليه قبلَ وُروده ، وعاقبةَ ما يَصْدُر عنه قبل صُدوره ، فيُعِدُّ لكل أمر عُدَّته وعَتَادَه[(٣)] ، ويُهَيِّئُ لكل وجهٍ هيئتَه وعادته .

فتنافَسُوا يا معشر الكتاب ، فى صنوف الآداب ، وتفقّهوا فى الدين ؛ وابدءوا بعلم كتاب الله عز وجل والفرائض ، ثم العربيّة ، فإنها ثِقَافُ[(٤)] ألسنتكم ، ثم أجيدوا الخط ؛ فإنه حِلْية كتبكم ، وارْوُوا الأشعار ، واعرِفوا غريبَها ومعانيَها ، وأيام العرب والعجم ، وأحاديثها وسِيَرَها ، فإن ذلك مُعِينٌ لكم على ماتسْمو إليه هِمَمُكم ، ولا تضيّعوا النظر فى الحساب ، فإنه قِوامُ كُتّاب الخراج ، وارغبوا بأنفسكم عن المطامع :

---

(١) فيها « بلدانهم » . (٢) أسبغه .
(٣) العتاد : العدة . (٤) الثقاف فى الأصل : ماتسوى به الرماح .

سَنِيّها[1] ودَنيّها ، وسَفْسَافِ[2] الأمور ومَحاقِرها ، فإنها مَذَلّة للرِّقاب ، مَفْسَدة للكُتّاب ، ونَزّهوا صناعتكم عن الدّناءات[3] ، وَارْبَئوا[4] بأنفسكم عن السِّعاية والنميمة ، وما فيه أهلُ الجهالات ، وإيا كم والكِبْرَ وَالصَّلَف[5] وَالْعَظَمَة ، فإنها عداوة مُجتلَبة من غير إحْنَة ، وتحابّوا فى الله عزّ وجَل فى صناعتكم ، وتواصَوا عليها بالذى هو أليقُ بأهل الفضل والعدل والنُّبل من سَلَفكم .

وإن نَبَا الزمان برجل منكم فاعطفوا عليه وواسُوه ، حتى يَرْجِع إليه حالُه ، ويثُوب[6] إليه أمره ، وإن أقعدَ أحدَكم الكِبَرُ عن مكسَبه ولقاء إخوانه . فزُوروه وعظّموه ، وشاوِروه ، واستظهِرُوا[7] بفضل تجرِبته ، وقِدَمِ[8] معرفته ، وليكن الرجل منكم على من اصطنعه واستظْهَرَ به ليوم حاجته إليه ، أحفَظَ[9] منه على ولده وأخيه ، فإن عَرَضَتْ فى الشغل مَحْمَدَة ، فلا يُضِيفها[10] إلا إلى صاحبه ، وإن عَرَضَتْ مَذَمّة فَلْيَحْمِلها هو من دونه ، وَلْيَحْذر السَّقْطة والزّلّة ، وَالمَلَلَ عند تغير الحال ، فإن العيبَ إليكم معشَرَ الكتاب . أسرعُ منه إلى القراء . وهو لكم أفسدُ منه لها .

فقد علمتم أن الرجل منكم إذا صَحِبَه الرجلُ[11] يَبْذُلُ له من نفسه ما يجب له عليه من حقّه . فواجبٌ عليه أن يعتقد له من وفائه وشكره. واحتماله وصبره[12]. ونصيحته وكتمان سره ، وتدبيرِ أمره، ماهو جَزاء لحقه ، ويصدّق ذلك بفعاله[13] عند الحاجة إليه، والاضطرار إلى مالديه .

فاستَشْعِروا ذلكم ـ وفّقكم الله ـ من أنفسكم فى حالة الرّخاء والشدة ، والحرمان والمُواساة والإحسان ، والسَّرّاء والضّرّاء ، فنِعْمت الشِّيمةُ هذه لمن وُسِمَ بها، من أهل

---

(١) أى رفيعها . (٢) الردىء من كل شىء .
(٣) فى المقدمة «الدناءة» . (٤) ربأ: علا وارتفع. (٥) فيها «والسخف» .
(٦) يرجع. (٧) تقووا. (٨) فيها « وقديم » . (٩) فيها « أحوط » .
(١٠) فيها « فلا يصرفها » . (١١) فيها « إذا صحبه من يبذل له » .
(١٢) فيها « وخيره » . (١٣) فيها «تبعاً له» وهو تحريف .

هذه الصناعة الشريفة ، فإذا وُلِّىَ الرجلُ منكم ، أو صُيِّر إليه من أمر خَلْق الله وعياله أمْرٌ ، فليراقبْ الله عز وجل ، وليُؤْثِرْ طاعته وليكن على الضعيف رفيقا ، وللمظلوم مُنصِفا ، فإن الخَلقَ عِيالُ الله ، وأحبُّهم إليه أرفقُهم بعياله ، ثم ليكن بالعَدْل حا كما ، وللأشراف مُكْرِما ، وللفَىْء مُوفِّرا ، وللبلاد عامراً وللرَّعية متألفا ، وعن إيذائهم متخلفاً ، وليكن فى مجلسه متواضعاً حليما ، وفى سِجِلّات خراجه واستقضاء حقوقه رفيقا ، وإذا صَحِب أحدُكم رجلا فليَختبر خلائقه ، فإذا عَرَف حَسَنَها وقبيحها ، أعانه على ما يوافقه من الحَسَن ، واحتال لصَرْفه عما يَهْواه من القبيح ، بألطف حيلة وأجمل وسيلة ، وقد علمتم أن سائس البهيمة إذا كان بصيراً بسياستها ، التَمَس معرفة أخلاقها ، فإن كانت رَمُوحا[1] لم يَهِجْها إذا رَكِبَها ، وإن كانت شَبُوبا[2] اتّقاها من قِبَل يديها ، وإن خاف منها شَرُودا توقاها من ناحية رأسها ، وإن كانت حَرُونا قَمَع برفق هواها فى طريقها ، فإن استمرت عَطَفَها يسيراً ، فيَسْلَس له قيادها ، وفى هذا الوصف من السياسة دلائل لمن ساس الناس وعامَلهم ، وجرّبهم[3] وداخلهم .

والكاتب بفضل أدبه ، وشريف صنعته ، ولطيف حيلته ومعاملته لمن يُحاوِرُه من الناس ويناظِره ، ويفهَم عنه أو يخاف سَطْوَته ، أولَى بالرِّفق بصاحبه ، ومداراته ، وتقويم أوَده ، من سائس البهيمة التى لا تُحير[4] جوابا ، ولا تَعرِف صوابا ، ولا تفهم خِطابا ، إلا بقدر ما يُصَيِّرها إليه صاحبُها الراكب عليها ، ألاَ فأَمْعِنوا[5] — رحمكم الله — فى النظر ، وأعمِلوا فيه ما أمكنكم من الرويّة والفكر ، تأمَنوا[6] بإذن الله ممن صَحِبْتموه النَّبْوَةَ ، والاستثقال وَالجفوة ، ويصير منكم إلى الموافقة ، وتصيروا منه إلى المؤاخاة والشفقة ، إن شاء الله تعالى .

---

(١) رمحه الفرس كمنع : رفسه . (٢) شب الفرس كضرب ونصر : رفع يديه ، وفى المقدمة « من بين يديها » . (٣) وفى صبح الأعشى « وخدمهم » . (٤) أى لا ترد .

(٥) فيها « فارفقوا » . (٦) تأمنوا : مجزوم فى جواب الأمر : أو بعبارة أخرى جواب لشرط محذوف مع فعل الشرط أى « إن تعملوا ... تأمنوا » ومن ثم يجوز فى « ويصير » ثلاثة أوجه : الجزم والنصب والرفع كما هو مشهور ، فقول بعضهم : « ولعل ثبوت الياء قبل الراء من زيادة الناسخ » مردود.

ولا يجاوزَنَّ الرجل منكم ـ في هيئة مجلسه ، ومَلْبَسه ومَرْكَبه ، ومَطْعمه ومشربه ، وبنائه[1] ، وخدمه ، وغير ذلك من فنون أمره ـ قدرَ حقه ، فإنكم ـ مع ما فضّلكم الله به من شرف صنعتكم ـ خَدَمَةٌ لا تُحمَلون في خدمتكم على التقصير، وحَفَظَةٌ لا تُحتمل منكم أفعالُ التضييع والتبذير ، واستعينوا على عفافكم بالقصْد في كل ماذكرتُه لكم ، وقصَصْتُه عليكم ، واحذروا متالفَ السَّرَفِ ، وسوء عاقبة التَّرَف ، فإنهما يُعقبان الفقر ، ويُذلان الرقاب ، ويفضَحان أهلهما ، ولا سيما الكُتّاب وأرباب الآداب ، وللأمور أشباهٌ ، وبعضها دليل على بعض ، فاستدِلّوا على مُؤْتَنَف[2] أعمالكم ، بما سَبَقَتْ إليه تجربتكم ، ثم اسلكوا من مسالك التدبير أوضحَها مَحَجَّةً ، وأصدقها حُجَّة ، وأحمدها عاقبة .

واعلموا أن للتدبير آفةً مُتْلِفة ، وهي الوصف الشاغل لصاحبه عن إنفاذ علمه ورؤيته[3] ، فَلْيَقْصِد الرجل منكم في مجلسه قَصْد الكافي من منطِقه ، وَليُوجِز في ابتدائه وجوابه ، وليأخذ بمجامع حُجَجه ، فإن ذلك مصلحة لفعله ، ومَدْفعة للتشاغل عن إكثاره ، وليَضْرَع إلى الله في صلة توفيقه ، وإمداده بتسديده ، مخافة وقوعه في الغلط المُضِرّ ببدنه وعقله وأدبه ، فإنه إن ظن منكم ظانٌّ ، أو قال قائل : إن الذي بَرَز من جميل صنعته ، وقوة حركته ، إنما هو بفضل حيلته ، وحُسْن تدبيره ، فقد تعرض بظنه[4] أو مقالته إلى أن يَكِلَه الله عز وجل إلى نفسه ، فيصيرَ منها إلى غير كافٍ ، وذلك على من تأمّله غيرُ خافٍ .

ولا يقلْ أحد منكم إنه أبصَرُ بالأمور ، وأحمَلُ لِعبْء التدبير ، من مُرَافِقِه في صناعته ، ومُصاحِبِه في خدمته ، فإن أعقلَ الرجلين عند ذوي الألباب ، مَن رَمَى

---

(١) قد يكون المراد به مسكنه الذي يبنيه ، وقد يكون المراد زفافه ، من بنى على أهله وبها بناء ، وابتنى : زفها .

(٢) مبتدأ . (٣) فيها « علمه ورويته » . (٤) فيها « بحسن ظنه » .

بالعُجْبِ وراء ظهره ، ورأى أن صاحبه أعقلُ منـه ، وأحْمَدُ[1] فى طريقته ، وعلى كل واحد من الفريقين أن يعرف فضلَ نعم الله جلّ ثناؤه ، من غير اغترارٍ برأيه ، ولا تَزْكِية لنفسه ، ولا تـكاثرٍ على أخيه أو نظيره ، وصاحبه وعَشِيره ، وحمدُ ٱللهِ واجب على الجميع ، وذلك بالتواضعِ لعظَمته ، والتذلّل لعزّته ، والتحدّث بنعمته .

وأنا أقول فى كتابى هذا ما سَبَقَ به المثل : « من يلزم النصيحة[2] يلزمه العمل» وهو جَوْهر هذا الـكتاب ، وغُرّة كلامه ، بعد الذى فيه من ذكر الله عزّ وجل ، فلذلك جعلته آخِرَه ، وتمّمْته به ، تولاّنا الله وإياكم يا معشر الطّلَبة والـكَتَبة ، بما يتولّى به من سَبَقَ علمُهُ بإسعاده وإرشاده ، فإن ذلك إليه وبيده ، والسلام عليـكم ورحمة الله وبركاته » .

(صبح الأعشى ١ : ٨٥ ، ومقدمة ابن خلدون ص ٢٧٥ ، وكتاب الوزراء والـكتاب ص ٧٠)

٥٠٧ — رسالة عبد الحميد فى الشطرنج

« أما بعدُ : فإن الله شرَعَ دينه بإنهاج[3] سُبُله ، وإيضاحِ مَعَالمه بإظهار فرائضه ، وبَعَثَ رسله إلى خَلْقه دلالةً لهم على رُبُوبيتّه ، واحتجاجاً عليهم برسالاته ، وتقدُّماً إليهم بإنذاره ووَعِيده ، لِيَهْلِكَ مَنْ هَلَكَ عَنْ بَيِّنَةٍ وَيَحْيَا مَنْ حَيَّ عَنْ بَيِّنَةٍ ، ثم ختم بنبيه صلى الله عليه وسلم وَحْيَه ، وقفَّى به رسله ، وابتعثه لإحياء دينه الدارس[4] ، مرتضياً له على حينَ ٱنطمسَتِ الأعلام مختفيةً ، وتشتَّتَتِ السُّبُلُ متفرقة ، وَعَفَتْ آثار الدين دارسةً ، وسطع رَهَجُ[5] الفتن ، واعتلى قَتَامُ الظُّلَم ، واستنهد[6]

(١) فيها « وأجل » . (٢) فى نسخة من صبح الأعشى «الصحة» وذكر الجاحظ فى البيان والتبيين (٢ : ٤٦) قال : ومن كلام الأحنف السائر فى أيدى الناس « الزم الصحة يلزمك العمل » .
(٣) أنهج : أوضح (ووضح أيضا) وكذا نهج كنمع تستعمل بالمعنيين .
(٤) درس الأثر كدخل : عفا وامحى . (٥) الرهج بالفتح وبالتحريك : الغبار ، وكذا القتام
(٦) فى كتب اللغة : نهد الرجل : نهض ، وليس فيها الصيغة المزيدة .

الشِّرْك ، وأسْدف[١] الكفر ، وظهر أولياء الشيطان ، وطمُوس الأعلام ، ونطق زعيم الباطل ؛ لِسَكْتَة الحق ، واستطرق[٢] الجَوْرُ ، واستنكح الصُّدوف عن الحق ، واقمَطَرّ سَلْهَبُ[٣] الفتنةِ ، واستضرم[٤] لِقَاحُهَا ، وطبَّقت الأرضَ ظُلمةُ كفر وغبابة فساد ، فصدَع[٥] بالحق مأمورا ، وبلَّغ الرسالة معصوما ، ونَصَح الإســلام وأهله ، دالاً لهم على المَرَاشِد ، وقائداً لهم إلى الهداية ، ومُنيرًا لهم أعلام الحق ، ضاحيةً[٦] ، مُرشداً لهم إلى استفتاح باب الرحمة ، وإعلان عُرْوة النجاة، موضِّحاً لهم سُبُل الغَواية[٧] ، زاجرًا لهم عن طريق الضلالة ، محذِّرا لهم الهَلَكة ، مُوعِزاً إليهم فى التَّقدِمة[٨] ، ضاربا لهم الحدود على ما يتقون من الأمور ويخشَون ، وما إليه يسارعون ويطلبون ، صابرًا نفسه على الأذى والتكذيب ، داعياً لهم بالترغيب والترهيب ، حريصا عليهم ، متحننًا على كافَّتهم، عزيزًا عليه عَنَتُهم[٩] ، رءوفا بهم رحيما، تقدِّمه شفقتُه عليهم وعنايتُه برشدهم ، إلى تجريد الطلب إلى ربه ، فيما فيه بقاء النعمةِ عليهم ، وسلامةُ أديانهم ، وتخفيفُ أواصِر[١٠] الأوزار عنهم ، حتى قَبَضَـــه الله إليه صلى الله عليه وسلم ناصحاً مُتنصِّحاً[١١] ، أميناً مأمونًا ، قد بلَّغ الرسالة ، وأدَّى النصيحة ، وقام بالحق ، وعدَّل عمود الدين . حتى اعتدل ميلُه ، وأذلَّ الشركَ وأهلَه ، وأنجز الله له وعدَه ، وأراه صِدْقَ أسبابه فى إكماله للمسلمين دينَه ، واستقامة سنَّته فيهم ، وظهورِ شرائعه عليهم ، قد أبان لهم مُوبِقات[١٢] الأعمال ، ومُفْظِعات الذنوب ، ومُهْبِطات الأوزار ، وظلَمَ

---

(١) أسدف الليل : أظلم. (٢) استطرقه فحلا : طلب منه أن يعيره إياه ليطرق إبله ، وطرق الفحل الناقة : قما عليها وضربها ، ومعنى استطرق هنا : استفاض وفشا ، واستنكح المرأة : نكحها . والصدوف : الإعراض . (٣) قطر : اشتد ، والسلهب : الطويل من الخيل والناس .

(٤) فى كتب اللغة : استضرم النار : أوقدها ، فاضطرمت وانضرمت ، وطبقه : غطاه .

(٥) صدع به : جهر . (٦) أى واضحة ظاهرة ، من ضحا إذا برز للشمس .

(٧) أى موضحا لهم ما فيها من الضرر والأذى ليتنكبوا عنها .

(٨) أى فى أن يقدموا العمل الصالح. (٩) العنت: الوقوع فى أمر شاق.

(١٠) الأواصر . جمع آصرة ، وهى حبل صغير يشد به أسفل الخباء .

(١١) التنصح: كثرة النصح ، ومنه قول أكثم بن صيفى« إياكم وكثرة التنصح فإنه يورث التهمة».

(١٢) أى مهلكات، من أوبقه أى أهلكه ، وفظع الأمر ككرم وأفظع : اشتدت شناعته وجاوز المقدار فى ذلك ، ومهبطات الأوزار : أى الأوزار التى تهبط صاحبها وتحط قدره .

الشُّبُهات ، وما يدعو إليه نُقصان الأديان ، وتستهويهم به الغَوايات ، وأوضح لهم أعلام الحق ، ومنازل المراشد ، وطرق الهدى ، وأبواب النجاة ، ومعاقِلَ العِصْمة ، غير مدَّخِر لهم نُصْحاً ، ولا مُبْتَغٍ فى إرشادهم غُنْماً .

فكان مما قدَّم إليهم فيه تَهْيَة ، وأعلمهم سوء عاقبته ، وحذَّرهم إصرَه(١) وأوعزَ إليهم ناهيا وواعظا وزاجرا ، الاعتكاف على هذه التماثيل من الشِّطْرَنج(٢) ، والمواصلة عليها ؛ لما فى ذلك من عظيم الإثم ، ومُوبِق الوِزْر ، مع مَشْغَلَتِها عن طلب المعاش ، وإضرارها بالعقول ، ومنعها من حضور الصَّلوات فى مواقيتها مع جميع المسلمين .

وقد بلغ أميرَ المؤمنين أن ناساً ممن قِبَلك من أهل الإسلام قد ألْهَجَهُم(٣) الشيطان بها ، وجَمعهم عليها ، وألَّف بينهم فيها ، فهم مُعْتَكِفون عليها من لَدُن صبحهم إلى مُمْساهم(٤) ، مُلْهِيةً لهم عن الصلوات ، شاغلة لهم عما أمروا به من القيام بِسُنَن دينهم، وافْتُرِض عليهم من شرائع أعمالهم ، مع مُدَاعَبَتِهم فيها ، وسُوء لفظهم عليها ، وإن ذلك من فعلهم ظاهِرٌ فى الأندية والمجالس ، غير مُنْكَر ولا معيب ، ولا مستفظع عند أهل الفقه ، وذوى الوَرَع والأديان والأسنان منهم ، فأكبرَ أمير المؤمنين ذلك وأعظمه ، وكَرِهه واستكبره ، وعلم أن الشيطان عند ما يئس من بلوغ إرادته فى معاصى

---

(١) الإصر : الذنب . (٢) جاء فى المصباح « الشطرنج معرب ،قيل بالفتح وقيل بالكسر وهو المختار قال ابن الجواليقى فى كتاب ما تلحن فيه العامة : « ومما يكسر والعامة تفتحه أو تضمه الشطرنج بكسر الشين ، قالوا وإنما كسر ليكون نظير الأوزان العربية مثل جردحل ، إذ ليس فى الأبنية العربية فعلل بالفتح حتى يحمل عليه »ـ والجردحل: الوادى ـ وجاء فى شفاء الغليل « قال الحريرى بفتح الشين والقياس كسرها لأنهم لم يقولوا فعلل بفتح الفاء ، وقيل إن ابن القطاع نقله عن سيبويه ومثل له بيرطح، وهو حزام الدابة، ويقال بالسين والشين والمعروف فيه الفتح ، وقال الواحدى : الكسر أحسن ليكون كجردحل ، وقيل هو عربى من المشاطرة لأن لكل شطرا ومنهم من جعله أشطرا، والصحيح أنه معرب صدرنك أى مائة حيلة ، والمقصود التكثير ، وقيل معرب شدرنج أى من اشتغل به ذهب عناؤه باطلا » أقول : والقول بعربيته إنما هو من تمحل بعض الفقهاء اللغويين ؛ وتحيلهم فى صبغ الكلمات الأعجمية بصبغ عربى .

(٣) أى أغراهم بها ، من لهج بالأمر كفرح ، أى أغرى به فثابر عليه .

(٤) الممسى : الإمساء .

الله عز وجل بمصر المسلمين وبمجمعهم صِراحا[1] وجهارا ، أقدم بهم على شُبهة مُهلكة ، وزين لهم وَرْطة مُوبقة ، وغرّهم بمكيدة حِيَله ، إرادةً لاستهوائهم بالخُدَع ، واُجتيالهم[2] بالشُّبَه والمراصد الخفيّة المُشكلة ، وكل مقيم على معصية الله صغُرت أو كبرت مستحلاً لها مُشيدًا[3] بها ، مُظهرًا لارتكابه إياها ، غيرَ حَذِر من عقاب الله عزّ وجل عليها ، ولا خائف مكروهاً فيها ، ولا رَعيب[4] من حُلول سَطوته عليها ، حتى تلحَقَه المنية ، فتختلجه وهو مُصِرٌّ عليها ، غير تائب إلى الله منها ، ولا مستغفر من ارتكابه إياها ، فكم قد أقام على موبقات الآثام وكبائر الذنوب حتى حَدّه مُخترِم[5] أيامه .

وقد أحب أمير المؤمنين أن يتقدم إليهم فيما بلَغه عنهم ، ويُوعزَ إليهم ويُعلِمهم ما في أعناقهم عليها ، وما لهم في قبول ذلك[6] من الحظ ، وعليهم في تَرْكه من الوِزْر ، فآذِنْ[7] بذلك فيهم ، وأشِدْه في أسواقهم . وجميع أنديتهم ، وأوعِزْ إليهم فيه ، وتقدَّمْ إلى عامل شُرْطتك : في إنهاك[8] العقوبة لمن رُفِع إليه من أهل الاعتكاف عليها ، والإظهارِ للّعب بها ، وإطالةِ حبسه في ضيق وضَنْك ، وطَرْح اسمه من ديوان أمير المؤمنين ، وأفطِمْهم عما لَهِجوا[9] به من ذلك ، والتَمِسْ بشدتك عليهم فيه وإنهاكِك بالعقوبة عليه ثوابَ الله وجَزاءه ، واتباعَ أمير المؤمنين ورأيه ، ولا يجدَنّ أحد عندك هَوادَةً في التقصير في حق الله عز وجل ، والتعدى لأحكامه ،

---

(١) الصراح بالضم والكسر : المصارحة .

(٢) اجتيالهم : حولهم عن قصدهم . (٣) أشاده وأشاد به : أشاعه ورفع ذكره .

(٤) أى مرعوب ، رعبه كمنعه خوفه فهو مرعوب ورعيب ، وفى الأصل « رعب » وهو تحريف

(٥) هو الموت ، اخترمته المنية : أخذته واقتطعته ، وفى الأصل « مخزم » ، وحدّه : دفعه ومنعه، وفى الأصل « مدبه » وأراه محرفا وصوابه « حده أو صده » .

(٦) أى ومالهم فى قبول ذلك النصح الذى تقدم به إليهم من الحظ ، وما عليهم فى تركه من الوزر .

(٧) آذنه الأمر وبه : أعلمه .

(٨) نهكه السلطان عقوبة كسمع وأنهكه : بالغ فى عقوبته .

(٩) فى الأصل « نهجوا به » وهو تحريف .

فتُحِلّ بنفسك ما يسوءك عاقبته ومَغَبَّته ، وتتعرض به لِغِيَرِ الله عز وجل ونَكاله ، واكتُبْ إلى أمير المؤمنين ما يكون منك إن شاء الله . والسلام » .

(اختيار المنظوم والمنثور ٢ : ٢٢٢)

٥٠٨ – رسالة عبد الحميد فى وصف الصيد

ومن رسائله رسالته التى وصف بها الصيد :

« أطال الله بقاء أمير المؤمنين مؤيَّدا بالعز ، مخصوصاً بالكرامة ، مُمَتَّعا بالنعمة ، إنه لم يُلَقَّ أحد من المقتنصين ، ولا مُنِيح متطرِّف من المتصيِّدين ، إلا دون ما لقَّانا الله به من اليُمْن والبركة ، ومنحَنا من الظفَر والسعادة فى مَسِيرنا ، من كثرة الصيد ، وحُسْن المقتنص ، وتمكين الجاسَة[1] وقُرْب الغاية ، وسُهولة المورِد ، وعُمُوم القُدورة[2] ، إلا ما كان من محاولة الطلب ، وشدة النَّصَب ، لنافِر الصيد ، وقائتة[3] الطَّريدة ، التى أمعنَّا فى الطلب لها ، وأعجَزَنَا البُهْرُ عن اللَّحاق بها ، لتفاوُتِ سبْقها ، ومنقطع هرَبِها ومتفرِّق سبُلها ، ثم آلَ بنا ذلك إلى حُسْن الظفر ، وتناوُل الأرَب ، ونهاية الطرب .

وإنى أخبر أمير المؤمنين أنا خرجنا إلى الصيد بأعدى الجوارح ، وأثْقَف الضَّوارى ، أكرمها أجناساً ، وأعظمها أجساما ، وأحسنها ألوانًا ، وأحدِّها أطرافا ، وأطولها أعضاء، قد ثُقِّفَت بحسن الأدب ، وعوِّدت شدة الطلب ، وسبَرَت[4] أعلام المواقف ، وخبَرَت المجاثِم ، مجبولة على ماعُوِّدت ، ومقصورة على ما أدِّبت ، ومعنا من

---

(١) الجاسة: جمع جاس (كقادة جمع قائد) من جاسوا خلال الغابات: أى تخللوها فطلبوا مافيها من الصيد ، وفى الأصل « الجساسة » من جس ، والمعنى عليها صحيح أيضا .

(٢) القدورة : القدرة ، وفى الأصل « المقدورة » وهو تحريف .

(٣) فى الأصل « وقائدة » وهو تحريف ، والبهر : انقطاع النفس من الإعياء .

(٤) السبر : امتحان غور الجرح وغيره، والمعنى وعرفت، والأعلام جمع علم بالتحريك: وهو ماينصب فى الطريق ليهتدى به .

فمأنس الخيل المخبورة الفَراهة(١) ، من الشِّهرية(٢) الموصوفة بالنَّجـــابة ، والجرى والصَّلابة ، فلم نَزَل بأخفضِ سَيْر ، وأثقفِ طَلَب ، وَقد أمطرتْنا السماء مطرًا متداركا فرَبَت منه الأرض ، وَزَهَرَ البقل ، وسكَن القَتامُ(٣) من مُثار السَّنابك ، ومتشعِّبات الأعاصير ، مُهْلةَ أن سِرْنَا غَلَواتٍ(٤) ، ثم برزت الشمس طالعةً ، وَانـكشفت من السحاب مسفرة ، فتلألأت الأشجار ، وضَحِكَ النُّوَّار(٥) ، وانجلت الأبصار ، فلم نر منظرًا أحسن حُسْنا ، ولا مَرْمُوقا أشبه شـكلا ، من ابتسام نورالشمس عن اخضرار زهرة الرياض ، والخيل تمرَحُ بنا نشاطا ، وتجتذبنا أعنّتها انبساطا ، ثم لم نلبث أن عَلَتْنَا ضَبابة تَقْصُر(٦) طَرْفَ الناظر ، وتُخْفِي(٧) سُبُل السلام ، تغشانا تارةً وتنكشف أخرى، ونحن بأرض دَمِثة(٨) التراب، أشِبَة الأطراف، مُغْدِقة(٩) الفِجاج، مملوءة صيدًا من الظباء والثعالب والأرانب ، فأدّانا المسير إلى غابةٍ دونها مَألَفُ الصيد ، ومجتمع الوحش ، وَنهاية الطالب ، قد جاوَزناها وَنحن على سبيل الطلب مُمعِنون ، وَبكل حرّةَ(١٠) جوْنة متفرقون ،فرجع بنا العَوْد عَلَى البَدْء ، وَقد انجلت الضبابة ، وَامتدّ البصر ، وَأمكن النظر ، فإذا نحن برَعْلَةٍ(١١) من ظباء ، وَخِلفة(١٢) آرامٍ يرتَعْنَ

---

(١) الفاره من الدواب : الجيد السير ، وقد فره ككرم فراهة .

(٢) الشهرية : نوع من البراذين (والبراذين من الخيل : ما كان من غير نتاج العراب) .

(٣) القتام : الغبار ، والسنابك جمع سنبك كقنفذ : وهو طرف الحافر .

(٤) جمع غلوة بالفتح : وهى قدر رمية سهم أبعد ما يقدر عليه ، ويقال : هى قدر ثلثمائة ذراع إلى أربعمائة . (٥) الزهر أو الأبيض منه .

(٦) أى تحبسه ، وفى الأصل « علقتنا صبابة يقتصر » وهو تحريف .

(٧) فى الأصل « ويحيى » وهو تحريف .

(٨) دمث المكان كفرح: سهل ولان ، وأشب الشجر كفرح أيضاً:التف ، وفى الأصل «أسنه».

(٩) غدقت الأرض كفرح وأغدقت : أخصبت ، وأرض غدقة كفرحة : فى غاية الرى ، وهى الندية المبتلة الربا الكثيرة الماء .

(١٠) الحرة : أرض ذات حجارة نخرة سود ، وفى الأصل « حر » والجونة : السوداء.

(١١) الرعلة: القطيع .

(١٢) أى بقية، يقال : بقى فى الحوض خلفة من ماء:أى بقية ، وكل شىء يجىء بعد شىء فهو خلفة. والآرام جمع رئم بالكسر : وهو الظبي الخالص البياض .

آنسات، قد أحالتهن الضبابةُ عن شخصنا ، وَأذهَلَهن أنيقُ الرياض عن السّماع حِسّنا ، فلم تُعج[1] إلا والضواري لاَئحة لمن من بُعْدِ الغاية ، ومنتهى نظرِ الشّاخص ، ثم مدّت الجوارحُ أجنحتَها ، واجتذبتِ الضواري مَقاوِدَها ، فأمرتُ بإرسالها على الثقة بمُحْضِرِها[2] ، وسرعة الجوارح فى طلبها ، فمرّتْ تَخِفّ خَفِيف الريح عند هبوبها ، تَسَفّ الأرض سَفًّا ، كاشفة عن آثارها ، طالبة لخيارها ، حارِشَـــةً[3] بأظفارها ، قد مزّقتها تمزيقَ الريحِ الجرادَ ، فمن صائحٍ بها وناعِرٍ ، وهاتِفٍ بها وناعق ، يدعو الكلب باسمه ، ويَفديه بأبيه وأمه ، وراكضٍ تحت مُفرِّه ، وخافق يطلبه الرمح ، وطامح يمنعه ، وسانِحٍ قد عارَضَه بارِحٌ[4] ، قد حيَّرتنا الكثرة ، وألهجتنا القدرة حتى امتلأتْ أيدينا من صنوف الصيد ، واللهُ المنعم الوهاب .

ثم مِلْنا يا أمير المؤمنين بهداية دليل قد أحكمَته التجارِبُ ، وخبَرَ أعلامَ المَذَانِبِ[5] ، إلى غدير أفْيَح[6] ، وروضة خَضِرة ، مستأجمة بتلاوين الشجر ، ملتفّة بصنوف الخَمَرَ[7] ، مملوءة من أنواع الطير . لم يَذْعَرهن صائد ، ولا اقتنصهن قانص ، فخُفِق لها بطبول ، وصُفِرٍ بنفير الحَتْف ، فثار منها ما ملأَ الأفق كثرتُها ، وراعَتِ الجوارحَ خَفَقَاتُ أجنحتِها ، ثم انبرَت البُزَاة لها صائدةً ، والصقور كاسرة ، والشواهين ضارية ، يرفعن الطلب لها ويخفِضْن الظفرَ بها ، حتى سئمنا من الذبح ، وامتلأنا من النَّضِيح[8] ، كأنا كتيبةٌ ظفِرتْ ببُغيتها ، وسريّة نُصِرَت على عدوها ، وألحقت ضعيفَها بقويها ، وغابت مُحْسِنَها بمسيئها لا نملك أنفسنا مَرَحا ، ولا نستفيق من أَجْذَل بها فرَحا، بقيّةَ يومنا، والله المنعم الوهّاب .

---

(١) أى فلم نعطف ونرجع ، وفى الأصل يفح » وهو تصحيف .

(٢) الإحضار :ارتفاع الفرس فى عدوه .   (٣) حرشه كضربه : صاده .

(٤) السانح من الصيد : مامر من مياسرك إلى ميامنك ، والبارح : مامر من ميامنك إلى مياسرك .

(٥) المذانب جمع مذنب كمنبر : وهو مسيل الماء إلى الأرض ، ومسيل فى الحضيض، والجدول يسيل عن الروضة بمائها إلى غيرها .   (٦) أى واسع .

(٧) الخمر : كل ماواراك من شجر وغيره .   (٨) النضيح : العرق .

ثم غدَوْنَا يا أمير المؤمنين إلى أرض وُصِف لنا صيدُها بالكثرة، ورياضها بالنزهة، فزلّ واصفها عن الطريقة، وأعتمد بنا على غير الحقيقة، فأتيناها فلم نرَ صيداً ولا عُشْباً، ولا نُزْهة ولا حسناً، فجعلنا نسلُك منها حُزُوناً[(١)] وَوُعورا، وجُدوباً وقَفْر، حتى قَصَّرَ بنا اليأس عن الطلب، وقَطَع بنا عن الطمع النَّصَبُ. فبينا نحن كذلك إذ بدا لنا جَأْبٌ[(٢)] قد أوفى بنا على حائل[(٣)] بهادِلٍ غابة، من ورائها حَمِيرُ وحشٍ كثيرة فأَمَّمْناها، فلما تطرَّفنا مشياً[(٤)] وتقريباً إلى عاناته، توالَى نهيقُه، وكثر شهيقه، فالتفتْن إليه، فرَمَقْن بأعينهن منّا ما استكثرن شخصه، واستهولن أمره، حتى إذا كنا بمرأى ومَسْمع انجذَبْن موليات، وهربْن مسيِّبات[(٥)]، فأجهدَنَا الركضُ فى طلبهن، نتبع آثارهنّ، ونستشِفّ[(٦)] بلاءً بين أحفارٍ ودَكادِكَ وخَناذيذ[(٧)]، حتى أشْفَى[(٨)] بنا الطلبُ لها على وادٍ هائلٍ سائلٍ بجنبتَيْه غابةٌ أَشِبَةٌ قد سَبَقْنَ إليها، واُستخفَيْن فيها، فنظمْناها بالخيل نَظْمَ الخَرَز، ثم أوغلت عِدة فرسان فى نَفْضها ومعرفة أحوالها، والطبول خافقة، والأصوات شاهقة، فكان وكان، والحمد لله على كل حال». (اختيار المنظوم والمنثور ١٢ : ٢٢٤)

---

(١) الحزون: جمع حزن بالفتح، وهو ماغلظ من الأرض.
(٢) الجأب: الغليظ من حمر الوحش.
(٣) أى ماء جار، حال الماء على الأرض يحول: انصب، وأحلت الماء فى الجدول: صببته، وهادل: أى متهدل، من هدل كفرح إذا استرخى.
(٤) فى الأصل «مسيسا» وهو تحريف، والتقريب: ضرب من العدو، والعانات جمع عانة: وهى القطيع من حمر الوحش. (٥) جاريات: مسرعات.
(٦) استشفه: نظر ماوراءه.
(٧) الأحفار جمع حفر بالتحريك ويسكن: وهو البئر الموسعة والتراب المخرج من المحفور، والدكادك والدكاديك جمع دكدك كجعفر ودكداك: وهو من الرمل ماتكبس واستوى، أوما التبد منه بالأرض، أو أرض فيها غلظ، والخناذيذ جمع خنذيذ بالكسر: وهو رأس الجبل المشرف.
(٨) أى أشرف.

٥٠٩ — كتابه إلى أخيه

وكتب عبد الحميد فى مولود ولد له ـ وهو أول مولود كان ـ إلى أخ له :

« أما بعد ، فإنى[١] ما أتعرّف من مواهب الله نعمةً خُصِصتُ بمزيتها ، وأُصْفِيت[٢] بخَصيصتها[٣] ، كانت أسرَّ لى من هِبَة الله لى ولداً سميته « فلانا » ، وأمّلْتُ ببقائه بعدى حياة ذكرى ، وحُسْنَ خلافة فى حُرْمَتى ، وإشراكَه إياى فى دعائه ، شافعاً لى إلى ربه[٤] عند خَلَوَاته فى صلاته وحجه ، وكل موطن من مواطنِ طاعته ، فإذا نظرتُ إلى شخصه تحرَّكَ به وَجْدى ، وظهر به سرورى ، وتعطَّفَتْ عليه منى أَنَسَةُ[٥] الولد ، وتولَّت عنى به وَحْشَةُ الوَحدة، فأنا به جَذِل[٦] فى مَغِيبى ومَشْهدى أحاوِلُ مَسَّ جَسَده بيدى فى الظُّلَم، وتارةً أعانِقُه وأرْشُفُه . ليس يَعْدِلُه عندى عظيماتُ الفوائد ولا مُنفِسات[٧] الرغائب ، سَرَّنى به واهِبُهُ لى على حين حاجتى . فشَدَّ به أزرى[٨] وحَمّلنى من شكره فيه ما قد آدنى[٩] بثِقَل حِمْل النِّعم السالفة إلىّ به ، المقرونة سَرَّاؤها فى العَجَب بتارات ما يُذْرِكنى به من رِقَّة الشفقة عليه ، مخافةَ مُجاذَبة المنايا إياه ، ووَجَلا من عواصف الأيام عليه .

---

(١) فى الأصل « فإن مما » وهو تحريف . (٢) أصفاه بكذا : آثره به .

(٣) لم ترد هذه الكلمة فى كتب اللغة ، وفيها : « خصه بالشىء خصا بالفتح وخصوصا وخصوصية بالفتح فيهما وبضمان وخصيصى بالكسر والقصر وعد ، وخصية بفتح الأول وكسر الثانى مشددا وتشديد الثالث ، وتخصة بفتح الأول وكسر الثانى وتشديد الثالث ، واختصه : أفرده به دون غيره ، والاسم الخصوصية بالفتح والضم والخصية بكسر أوله وثانيه مشددا ، والخاصة والخصيصى والخصيصاء بكسر أولهما ، وفعلت ذلك به خصية وخاصة وخصوصية » ولم ترد فيها كلمة خصيصة . أقول : وقد شاع فى عصرنا هذا استعمال كلمة « خصائص » ولأبى الفتح بن جنى (وهو من أحذق أهل العلم والأدب ، توفى سنة ٣٩٢هـ) كتاب جليل فى فقه اللغة سماه « الخصائص » وعندى أنها جمع خصيصة ، وأن هذه الكلمة مما فات مدونى اللغة تدوينها .

(٤) بقوله : « رَبِّ اغفرْ لِي وَلِوَالِدَيَّ » .

(٥) الأنسة بالتحريك والأنس بالضم وبالتحريك : ضد الوحشة . (٦) أى فرح .

(٧) المنفس : النفيس . (٨) الأزر : القوة والظهر . (٩) آده الأمر : بلغ منه المجهود .

فأسألُ اللهَ الذى امتن علينا بحسن صُنْعه فى الأرحام ، تأديبَه بالزكاء[1] ، وحَرْسَه بالعافية ، وأن يرزقنا شكرَ ما حمّلنا فيه وفى غيره ، وأن يجعل ما يَهَبُ لنا من سلامته، والمَدّة فى عُمْرِه ، موصولا بالزيادة ، مقرونا بالعافية ، محُوطا من المكروه ، فإنه المَنّان بالمواهب ، والواهِبُ للمُنَى ، لا شريك له ، حَمَلَنى على الكتاب إليك العلم ما سُررت به ، علمى بحالك فيه ، وشَرِكتُك إياى فى كل نعمة أسْداها إلىَّ ولىُّ النعم ، وأهلُ الشكر أوْلَى بالمزيد من الله جل ذكره ، والسلام عليك » .

(اختيار المنظوم والمنثور ١٣ : ٣٠٤)

٥١٠ — تحميد لعبد الحميد

وله تحميد فى أبى العلاء الحَرُورىّ :

« الحمد لله الناصرِ لدينه وأوليائه وخُلفائه ، المُظْهِرِ الحق وأهْلِه . والمُذِلِّ لأعدائه أهلِ البِدْعة والضلالة الذى لم يَجْمَع بين حق وباطل ، وأهلِ طاعةٍ ومعصية ، إلا جَعَل النُّصْرة والفَلْج[2] والعاقبةَ لأهل حقه وطاعته . وجَعَل الخِزىَ والذِّلة والصَّغار[3] على أهل الباطل والخلافِ والمعصية . حَمْداً يتقبَّله ويَرضاه ويُوجِب به لأمير المؤمنين وأهلِ طاعته الزيادَة التى وعَدَ مَنْ شكرَه[4] والحمد لله على مايتولّى من إعزاز أمير المؤمنين ونصرِه وإفلاجِهِ[5] وَإظْهارِ حقه . على ما وقع بأعدائه وأهل معصيته والخلافِ عليه ، من سَطَواته ونِقْماته وبأسه فيما وَلّى أميرَ المؤمنين من مُوالاة مَن وَالاه وَعداوَة من بَغى عليه وعاداه . لايَكِلُه فى شىء من الأمور إلى نفسه ، ولا إلى حَوْله وقُوَّته ومَكيدته . فإنه لاحول ولا قوة لأمير المؤمنين إلا به » .

(اختيار المنظوم والمنثور ١٣ : ٢٧٤)

---

(١) زكا يزكو زكاء : نما وصلح وتنعم .

(٢) الفلج : الفوز والظفر . (٣) الصغار : الذل .

(٤) قال تعالى : « لَئِنْ شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ »

(٥) أفلجه : نصره .

٥١١ — تحميد له فى فتح

وله تحميد فى فتح :

« الحمد لله العلىِّ مكانُه ، المُنير بُرهانُه ، العزيز سُلطانُه ، الثابتة كلماتُه ، الشافية آياتُه ، النافذ قضاؤه ، الصادق وعده ، الَّذى قَدَر على خلقه بِمِلْكه[(١)] وعزّ فى سمٰواته بعظَمته ، ودبر الأمور بعلمه ، وقدَّرها بحكمه ، على ما يشاء من عزمه ، مبتدعاً لها بإنشائه إياها ، وقدرته عليها ، واستصغاره عظيمها ، نافذاً إرادته فيها ، لاتجرى إلا على تقديره ، ولا تنتهى إلا إلى تأجيله ، ولا تقع إلا على سَبْقٍ من حَتْمِه ، كل ذلك بلطفه وقدرته وتصريف وَحْيه ، لامَعْدِل لها عنه ، ولا سبيل لها غيرُه ، ولا يعلم أحد بخفاياها ومعادها إلا هو ، فإنه يقول فى كتابه الصادق : (وَعِنْدَهُ مَفَاتِحُ الْغَيْبِ لَا يَعْلَمُهَا إِلَّا هُوَ وَيَعْلَمُ مَا فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ ، وَمَا تَسْقُطُ مِنْ وَرَقَةٍ إِلَّا يَعْلَمُهَا ، وَلَا حَبَّةٍ فِي ظُلُمَاتِ الْأَرْضِ وَلَا رَطْبٍ وَلَا يَابِسٍ إِلَّا فِي كِتَابٍ مُبِينٍ) .

(اختيار المنظوم والمنثور ١٣ : ٢٧٤)

٥١٢ — وله فى فتح

ولعبد الحميد فى فتح يعظِّم فيه أمةَ الإسلام بمحمد صلى الله عليه وسلم :

« أما بعد ، فالحمد لله الذى اصطفى الإسلام دينا ، ورَضى شرائعه ، وبيَّن أحكامه ، ونوَّر هداه ، ثم كَنَفه[(٢)] بالعزِّ المؤيَّد ، وأيَّده بالظَّفَر القاهر ، وآزَرَه بالسعادة المنتَجبَة[(٣)] ، وجعَلَ من قامَ به داعياً إليه ، مِنْ جُنْدِه الغالبين ، وأنصاره المسلَّطين ، كلما قهرَ بهم مُنَاوِئاً[(٤)] أورثهم رِباعَهم المأهولة ، وأموالهم الثَّرِيّة ، ودارهم الفسيحة ، ودَولتَهم المطوَّلة ، أمراً حَتَمه على نفسه ، ثم جعَلَ من عانَدَهم ، وابتغَى غير سبيلهم مُسْلَماً[(٥)]

---

(١) ملكه ملكا مثلث الميم .
(٢) كنفه : صانه وحفظه وحاطه . (٣) آزره : عاونه . وانتجبه : اختاره .
(٤) ناوأه : عاداه ، والرباع : جمع ربع بالفتح ، وهو الدار والمنزل . ثرا المال يثرو : كثر ، ومال ثرى : كثير . (٥) أسلمه : خذله .

قد استهوته ذِلّةُ الكفر بظُلَمها، وحَيْرَةُ الجهالة بِحوارها، وتيهُ الشقاء بمَتاويه، وكلما ازدادوا لدَعْوة الحق إباء، ازداد الحقُّ إليهم ازدِلافا، وعليهم عُكوفا، وفيهم إقامةً إلى أن يحُلَّ بهم عزُّ الغَلَبةِ، ونجاة المجتاز(١)، داعين فيما شوّقهم إليه، محافظين على ما ندَبهم له. قد بذلوا فى طاعة الله دِماءهم، وقبِلوا المعروضَ عليهم فى مبايعة ربهم لهم بأنفسهم الجنةَ، محمودٌ صَبْرُهم، مسهِّلٌ بهم عزمُهم إلى خير الدنيا والآخرة.

والحمد لله الذى أكرم محمداً صلى الله عليه وسلم بما حفِظ له من أمور أمته، أن اختار لِمَواريث نبوّته ما أصار إلى أمير المؤمنين من تطويقه ما حمَل، بحُسْن نهوضٍ به وشُحٍّ عليه، ومنافسةٍ فيه، أنْ فَعَل وفعَل.

الحمد لله الذى تمّم وعدَه لرسوله، وخليفتِه فى أمّةِ نبيه، مسدّداً له فيما اعتزم عليه والحمد لله المعزِّ لدينه، المتولِّى نصرَ أمة نبيه، المتخلّى عن عاداهم وناوأهم، حمْداً يَزيد به مِن رضا شُكره، وحمداً يَعْلو حَمْدَ الحامدين من أوليائه الذين تكاملت عليهم نِعَمُه فلا توصَف، وجلّت أياديه فلا تُحْصَى، الذى حمّلنا مالا قُوة بنا على شكره إلا بعَوْنه، وبالله يستعين أميرُ المؤمنين على ذلك، وإليه يَرْغَب، إنه على كل شىء قدير».

(اختيار المنظوم والمنثور ١٣ : ٢٧٥)

٥١٣ — تحميد له

وله أيضاً:

«أما بعد، فالحمد لله الذى اصطفى الإسلام لنفسه، وارتضاه ديناً لملائكته، وأهل طاعتِه من عباده، وجعله رحمةً وكرامةً ونجاةً وسعادةً لمن هَدَى به من خلقه وأكرمَهم وفضّلهم وجعلهم بما أنعم عليهم منه أولياءه المقرّبين، وحِزْبَه الغالبين،

---

(١) فى الأصل: «المتجاوز» وأرى أنه محرف عن «المجتاز» وهو سالك الطريق.

وجندَه المنصورين ، وتوكّل لهم بالظهور والفَلْج ، وقضى لهم بالعلوّ والتمكين ، وجَعَل من خالفه وعَزَب[1] عنه ، وابتغى سبيل غيره ، أعداءه الأقلِّين ، وأولياء الشيطان الأخسرين ، وأهل الضلالة الأسفلين مع ما عليهم فى دنياهم من الذلّ والصَّغار فأعجل لهم فيها من الخِذلان والانتقام ، إلى ما أعدّ لهم فى آخرتهم من الخِزْى والهوان المُقيم والعذاب الأليم ، إنه عزيز ذو انتقام » .

(اختيار المنظوم والمنثور ١٣: ٢٧٦)

٥١٤ — كتابه إلى مروان فى حاجة

وله إلى مروان فى حاجة :

« إن الله بنعمته علىّ ، لمّا رَزَقَنى المنزلةَ من أمير المؤمنين ، جَعَل معها شكرَها مقرونا بها ، فهى تَنْمِى[2] بالزيادة ، والشكر مُصاحِبٌ لها ، فليست تدخُلُنى وَحْشةٌ من إنباء[3] حاجتى ، وأنا أعلم أنه لو وَصَل إلى أمير المؤمنين علم حالى أغنانى عن استزادته ، ولكنى تكنَّفتْنى مُؤَنٌ اُسْتَنْفَضَتْ[4] ما فى يدى ، وكنت الخَلَفَ من الله منتظراً ، فإنى إنما أتقلّب فى نِعَمه ، وأتمرّغ فى فوائده ، وأعتصِم بسالف معروفه كان عندى » . (اختيار المنظوم والمنثور ١٣ : ٣٩٤)

٥١٥ — كتابه فى الوصاة بشخص

وكتب إلى بعض الرؤساء فى الوَصاة بشخص :

« حقُّ موصِّل كتابى إليك[5] كحقّه علىّ ، إذ جعلك مَوْضِعاً لأمله ، ورآنى أهلا لحاجته ، وقد أنجزتُ حاجته ، فَصَدِّق أمَلَهُ » .

(سرح العيون ص ١٦٤ ، ووفيات الأعيان ١ : ٣٠٧ ، ونهاية الأرب ٧ : ٢٦٠)

---

(١) عزب : بعد . (٢) نما ينمو وينمى : زاد .

(٣) أى من الإخبار بحاجتى ، أنبأه إياه وبه : أخبره .

(٤) من قولهم : استنفضنا حلائبنا استنفاضا ، وذلك إذا استقصوا عليها فى حلبها ، فلم يدعوا فى ضروعها شيئا من اللبن .

(٥) فى وفيات الأعيان « حق موصل كتابى إليك عليك » وفى نهاية الأرب « حق موصل هذا الكتاب عليك » وفيهما « إذ رآك » .

٥١٦ — كتابه فى فتنة بعض العمال

وكتب فى فتنة بعض العمال من رسالة :

« حتى اعترانى حَنَادِس(١) جَهالة ، ومهاوِى سُبُل ضَلالة ، ذَلَلاً لِسِياقه ، وسَلَّمانى قِيادَه إلى نُزُلٍ(٢) من حَمِيم ، وتَصْلِية جَحِيم ، سوى ما أنتجتِ الحفيظةُ(٣) فى نفسه من عَوائِد الحَسَك ، وقَدَحتِ الفتنةُ فى قلبه من نار الغضب ، مضادَّةً لله تعالى بالمُنَاصَبة(٤) ، ومُبَارَزَةً لأمير المؤمنين بالمحارَبة ، ومُجَاهدةً للمسلمين بالمخالَفة ، إلى أن أصبح بفَلاة قَفْرٍ ، وتِيهٍ صِفْرٍ(٥) ، بعيدة المَناط(٦) ، يُقْطع دونَها النِّياطُ(٧) ، وكذلك يفعل الله بالظالمين ، ويستدرجهم من حيث لا يعلمون » .

(سرح العيون ص ١٦٤)

٥١٧ — كتابه عن مروان إلى بعض عماله

وروى صاحب وَفَيات الأعيان قال :

وقال له مروان يوما — وقد أهدى إليه بعض العمال عبداً أسود فاستقلَّه — :

اكتب إلى هذا العامل كتابا مختصَرًا ، وذُمَّه على مافعل ، فكتب إليه :

« لو وجدت لوناً شرًّا من السَّواد ، وعَدَداً أقلَّ من الواحد ، لأهديته ، والسلام » .

---

(١) حنادس : جمع حندس بكسر الحاء والدال ، وهو الظلمة ، والليل المظلم .
(٢) النزل : المنزل ، وماهيئ للضيف أن ينزل عليه . والحميم : الماء الحار .
(٣) الحفيظة : الغضب ، والحسك : الحقد والعداوة ، وعوائد : رواجع .
(٤) ناصبه الحرب والعداوة : أظهرها له وأقامها . (٥) التيه : المفازة ، والصفر : الخالى .
(٦) ناط الشيء : علقه ، واسم موضع التعليق مناط بالفتح . وهو منى مناط الثريا ، أى بعيد ، معنى بعيدة المناط : بعيدة المسافة ، وجاء فى القاموس : النياط من المفازة : بعد طريقها كأنها نيطت بمفازة أخرى .
(٧) النيـــاط : عرق غليظ نيط به القلب الى الوتين ، (والوتين : عرق فى القلب إذا انقطع مات صاحبه) .

وروى صاحب العقد الفريد قال :

وبعث إلى مَرْوانَ بن محمد قائد من قواده بغُلام أسود ، فأمر عبد الحميد الكاتب أن يكتب إليه يَلْحاه[1] ويُعَنِّفه ، فكتب وأكثر ، فاستثقل ذلك مَرْوان ، وأخذ الكتاب فوقع في أسفله :

« أمَا إنك لو علمت عددا أقلّ من واحد ، ولونا شرًّا من السواد ، لبعثت به » .

وروى صاحب الأغاني قال :

واستهدى حَمَّاد الراويةُ من صديق له نبيذا ، فأهدى إليه دَسْتِيجَةَ[2] نبيذ ، فكتب إليه :

« لو عرَفْت في العدد أقل من واحد، وفي الألوان شرًّا من السواد، لأهديته إليّ ».

(وفيات الأعيان ١ : ٣٠٧ ، وسرح العيون ص ١٦٣ ، والعقد الفريد ٢ : ١٦٥ ، والأغاني ٥ : ١٦١)

---

(١) يلومه . (٢) الدستيج : آنية تحول باليد وتنقل ، فارسي معرب .

الدعوة العباسية

٥١٨ — بين محمد بن على بن عبد الله بن عباس وبين من استجاب لدعوته من أهل خراسان

بدأت الدعوة العباسية سنة ١٠٠ هـ ، فوجّه محمد بن على بن عبد الله بن عباس في هذه السنة من أرض الشَّراة[(١)] ، مَيْسَرَةَ إلى العراق ، ووجَّه جماعةً من شيعته إلى خُراسان ، وعليها يومئذ الجَرَّاح بن عبد الله الحَكَمى من قِبَل عمر بن عبد العزيز ، وأمرهم بالدعاء إليه وإلى أهل بيته ، فلَقُوا مَن لَقُوا ، ثم انصرفوا بكتب مَن استجاب لهم إلى محمد بن على ، فدفعوها إلى مَيْسرة ، فبعث بها مَيسرةُ إلى محمد بن على .

وفي سنة ١٠٣ أو سنة ١٠٤ هـ بعث محمد بن على رسولَه إلى خراسان ، فاستجاب له سبعون رجلاً ، اختار منهم اثنى عشر رجلاً نُقَباء ، منهم سليمانُ بن كُثَيِّر الخُزاعىّ وقَحْطَبة بن شَبِيب الطائىّ ، فكتب إليهم محمد بن على كتابا ، ليكون لهم مِثالا وسيرةً يسيرون بها ، ثم توفى سنة ١٢٦ هـ فدعا الدُّعاةُ إلى ابنه إبراهيم الإمام[(٢)] .

(تاريخ الطبرى ٨ : ١٣٥ و ٩ : ٩٨)

---

(١) الشراة : صقع بالشام فى طريق المدينة من دمشق بالقرب من الشوبك وهو من إقليم البلقاء ، وفى بعض نواحيه القرية المعروفة بالحميمة (كجهينة) ، وكان الوليد بن عبد الملك بن مروان أخرج على ابن عبد الله بن عباس من دمشق وأنزله الحميمة سنة ٩٠ هـ ولم يزل ولده بها إلى أن زالت دولة بنى أمية — انظر وفيات الأعيان ج ١ : ص ٣٢٤ فى ترجمة على بن عبد الله بن عباس .

(٢) روى الطبرى قال : « وفى سنة ١٢٦ هـ وجه إبراهيم بن محمد الإمام أبا هاشم بكير بن ماهان إلى خراسان ، وبعث معه بالسيرة والوصية ، فقدم مرو وجمع النقباء ومن بها من الدعاة ، فنعى لهم الإمام محمد بن على ، ودعاهم إلى إبراهيم ، ودفع إليهم كتاب إبراهيم فقبلوه ، ودفعوا إليه ما اجتمع عندهم من نفقات الشيعة ، فقدم بها بكير على إبراهيم بن محمد » — ج ٩ : ص ٤٣ — .

٥١٩ — كتاب إبراهيم بن محمد إلى شيعته بخراسان

وفى سنة ١٢٨ هـ وجّه إبراهيم بن محمد أبا مسلم عبد الرحمن بن مسلم الخراسانى(١) إلى خراسان، وكتب إلى أصحابه:

« إنى قد أمرتُه بأمرى، فاسمَعوا منه واقبَلوا قوله، فإنى قد أمَّرْته على خراسان وما غلَب عليه بعد ذلك ».

فأتاهم فلم يقبلوا قوله، وخرجوا من قابِلٍ، فالتقَوا بمكة عند إبراهيم، فأعلمه

---

(١) قال ابن أبى الحديد — م ٢ : ص ٢١٥ — « لم يكن أبو مسلم معلوم النسب، وقد اختلف فيه: أهو مولى أم عربى ؟ » وقال ابن خلكان فى ترجمته « وفيات الأعيان ١ : ٢٨٠ » أبو مسلم عبد الرحمن ابن مسلم، وقيل عثمان الخراسانى القائم بالدعوة العباسية، وقيل هو إبراهيم بن عثمان بن يسار بن سدوس ابن جودرن، من ولد بزرجمهر بن البختكان الفارسى، وقد اختلف الناس فى نسبه، فقيل إنه من العرب، وقيل إنه من العجم، وقيل من الأكراد، وفى ذلك يقول أبو دلامة: (حين قتله المنصور فى خلافته كما سيأتى فى الجزء الثالث إن شاء الله).

أبا مجرم ما غيّر الله نعمة على عبده حتى يغيرها العبد
أفى دولة المنصور حاولت غدرة ؟ ألا إن أهل الغدر آباؤك الكرد

وقال ابن طباطبا فى الفخرى ص ١٢٣ : « أما نسبه ففيه اختلاف كثير، فقيل هو حر من ولد بزرجمهر، وإنه ولد بأصفهان، ونشأ بالكوفة، فاتصل بإبراهيم الإمام بن محمد بن على بن عبد الله ابن عباس، فغير اسمه وكناه بأبى مسلم، وثقفه وفقهه، حتى كان منه ما كان.

وأما هو فإنه لما قويت شوكته ادعى أنه ابن سليط بن عبدالله بن عباس، وكان لعبد الله بن عباس جارية فوقع عليها مرة، ثم اعتزلها مدة فاستنكحها عبدا فوطئها، فولدت منه غلاما سمته سليطا، ثم ألصقته بعبد الله بن عباس، وأنكره عبد الله ولم يعترف به، ونشأ سليط وهو أكره الخلق إلى عبد الله بن عباس، فلما مات عبد الله نازع سليط ورثته فى ميراثه، وأعجب ذلك بنى أمية، ليغضوا من على بن عبد الله بن عباس، فأعانوه وأوصوا قاضى دمشق فى الباطن، فمال إليه فى الحكم وحكم له بالميراث، فادعى أبو مسلم حين قويت شوكته أنه من ولد سليط هذا ».

وقد قرعه المنصور بذنوبه لما أراد قتله؛ فكان فيما قال له: « ألست الكاتب إلىّ تبدأ بنفسك قبلى ؟ ألست الكاتب إلى تخطب أمينة بنت على (عمة المنصور) وتزعم أنك ابن سليط بن عبد الله بن العباس! لقد ارتقيت — لاأم لك — مرتقى صعبا! تقرعلى نفسك أنك دعى ثم ترغب فى بنات العباس! انظر اتاريخ الطبرى، ٩ : ١٦٧ ووفيات الأعيان ١ : ٢٨٣ وغرر الخصائص الواضحة ص ٢٥ وفى غرر الخصائص أيضاً « كان أبو مسلم عبدا لعيسى بن معقل، فباعه لأخيه إدريس — جد أبى دلف — ثم اشتراه منه بكر بن ماهان بأربعمائة درهم، وبعث به إلى إبراهيم الإمام، وما زال قدره ينبل حتى أرسله إبراهيم بالدعوة لبنى العباس سنة ١٢٨، وقدم إلى خراسان يدعو الناس إلى طاعتهم، فانطلق فتية من أهل مرو نساك فأتوه فى عسكره فسألوه عن نسبه، فقال: خبرى خير لكم من نسبى ».

أبو مسلم أنهم لم يُنفذوا كتابه وأمْرَه ، فقال إبراهيم : إنى قد عَرَضْتُ هذا الأمر على غير واحد ، فأبَوْه علىّ وأعلمهم أنه أجمع رأيه على أبى مسلم ، وأمرهم بالسمع والطاعة[1].

(تاريخ الطبرى ٩ : ٧٥)

٥٢٠ — كتاب إبراهيم بن محمد إلى أبى مسلم الخراسانى وكتابه إلى سليمان بن كثير

وفى سنة ١٢٩ هـ كتب إبراهيم بن محمد إلى أبى مسلم يأمره بالقدوم عليه ، ليسألَه عن أخبار الناس ، فخرج فى النصف من جمادى الآخرة مع سبعين من النقباء ، فلما بلغ قُومِسَ[2] أتاه كتاب من إبراهيم إليه ، وكتاب إلى سليمان بن كثيرٍ ، وكان فى كتاب أبى مسلم :

« إنى قد بعثت إليك براية النصر ، فارجِع من حيثُ ألفاكَ كتابى ، ووجِّه إلىَّ قَحْطَبَةَ بما معك يُوافِنِى به فى المَوْسِم » .

فوجَّه أبو مسلم قَحطبةَ إلى الإمام وانصرف إلى خراسان ، فقَدِم « مَرْوَ » فى أول يوم من رمضان سنة ١٢٩ هـ ، ودفع كتاب الإمام إلى سليمان بن كثير ، وكان فيه أن :

« أظْهِر دعْوَتَك ، ولا تَرَبَّصْ[3] ، فقد آنَ ذلك » :

---

(١) ثم قال لأبى مسلم « ياعبد الرحمن إنك رجل منا أهل البيت ، فاحفظ وصيتى ، وانظر هذا الحى من اليمن فأكرمهم وحل بين أظهرهم ، فإن الله لا يتم هذا الأمر إلا بهم ، وانظر هذا الحى من ربيعة فاتهمهم فى أمرهم ، وانظر هذا الحى من مضر فإنهم العدو القريب الدار ، فاقتل من شككت فى أمره ، ومن كان فى أمره شبهة . ومن وقع فى نفسك منه شىء ، وإن استطعت أن لاتدع بخراسان لسانا عربيا فافعل ، فأيما غلام بلغ خمسة أشبار تتهمه فاقتله ، ولاتخالف هذا الشيخ — يعنى سليمان بن كثير — ولاتعصه ، وإذا أشكل عليك أمر فاكتف به منى » .

(٢) ضبطه ياقوت فى معجمه بكسر الميم وكذا فى اللسان ، وضبطه الفيروزابادى فى القاموس بفتحها صقع كبير بين خراسان وبلاد الجبل .

(٣) أى ولا تنتظر . .

فبثّ أبو مسلم دُعاته في الناس ، وأعلن[1] بالدعوة (لخمس بقين من رمضان سنة ١٢٩ هـ) ولبِسُوا السّواد » .

(تاريخ الطبرى ٧ : ٨٢)

٥٢١ — كتاب أبي مسلم إلى نصر بن سيار

وكان أبو مسلم إذا كتب إلى نصر بن سيار والى خراسان من قِبَل مروان بن محمد الأموى ، يكتب : للأمير نصر ... فلما قَوِيَ بمن اجتمع إليه من الشيعة ، بدأ بنفسه ، وكتب إلى نصر ـ وهو أول كتاب صدر عن أبي مسلم إليه — :

أما بعد : فإن الله تباركت أسماؤه ، وتعالى ذكره ، عيَّرَ أقواما في القرآن[2] ، فقال : « وَأَقْسَمُوا بِاللهِ جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ لَئِنْ جَاءَهُمْ نَذِيرٌ لَيَكُونُنَّ أَهْدَى مِنْ إِحْدَى الْأُمَمِ ، فَلَمَّا جَاءَهُمْ نَذِيرٌ مَا زَادَهُمْ إِلَّا نُفُورًا . اسْتِكْبَارًا فِي الْأَرْضِ وَمَكْرَ السَّيِّئِ وَلَا يَحِيقُ الْمَكْرُ السَّيِّئُ إِلَّا بِأَهْلِهِ ، فَهَلْ يَنْظُرُونَ إِلَّا سُنَّةَ الْأَوَّلِينَ ، فَلَنْ تَجِدَ لِسُنَّةِ اللهِ تَبْدِيلًا ، وَلَنْ تَجِدَ لِسُنَّةِ اللهِ تَحْوِيلًا » .

فلما ورد الكتاب إلى نصر تعاظمه[3] أمره ، وأنه بدأ بنفسه ، وكسَرَ له إحدى عينيه ، وقال : هذا كتاب له جَوَابٌ ، وكتب إلى مَرْوَان بن محمد يستصرخه[4] ، وإلى يزيد بن عمر بن هُبيرة والى العراق يستنجده ، فقعَدا عنه حتى أفضى ذلك إلى خروج الأمر عن بني أمية .

(تاريخ الطبرى ٩ : ٨٤ » وشرح ابن أبي الحديد م ١ : ص ٣١٣)

---

(١) أعلن الأمر وبه : أظهره .
(٢) في ابن أبي الحديد « فإن الله جل ثناؤه ذكر أقواما فقال ... » .
(٣) تعاظمه الأمر : عظم عليه . (٤) يستغيثه .

٥٢٢ — كتاب نصر بن سيار إلى مروان بن محمد

ولما أظهر أبو مسلم الدعوة بمَرْوَ كتب نصر إلى مروان :

أرَى جَذَعا ، إنْ يُثْنِ لم يَقْوَ رَائِضٌ عليه ، فَبَادِر قبل أن يُثْنِيَ الجَذَعْ[1]

وكان مروان مشغولا عنه بحروب الخوارج بالجزيرة وغيرها ، فلم يُجِبْه عن كتابه ، وأبو مسلم يوم ذاك فى خمسين رجلا .

(وفيات الأعيان ١ : ٢٨٢)

٥٢٣ — كتاب نصر إلى مروان

واشتدت شوكة أبى مسلم ، واستمكن أمْرُه ، وفرّق رُسُلَه فى كُوَر خراسان ، يدعو الناس إلى آل الرسول ، فأجابوه ، وكان نصر بن سيار يكتب إلى مروان[2] بخبرهم ، وتمضى كتبه إلى ابن هبيرة لِيُنْفِذَها إلى أمير المؤمنين فكان يحبسها ولا يُنفِذها ، لِئَلاَّ يقوم لنصر بن سيار قائمةٌ عند الخليفة — وكان فى ابن هبيرة حَسَدٌ شديد — فلما طال بنصر ذلك ، ولم يأته جواب من مروان ، كتب كتابا وأمضاه إلى مروان على غير طريق ابن هبيرة ، يُعلِمه بحال أبى مسلم وخروجه ، وكثرة من معه ومن تَبِعه ، وأنه كشف عن أمره وبحث عن حاله ، فوجده يدعو إلى إبراهيم بن محمد بن على ابن عبد الله بن عباس (وهو أخو السّفّاح والمنصور) وضمّن كتابه أبياتا من الشعر وهى :

---

(١) الجذع بالتحريك: الصغير السن ، ويختلف فى أسنان الشاه والبقر والخيل والإبل، يقال : أجذع ولد الشاة : فى السنة الثانية ؛ وأجذع ولد البقرة وذوات الحافر : فى الثالثة ، وأجذع البعير : فى الخامسة، فهو جذع ، والثنى كغنى : بعد الجذع ، وأثنى : صار ثنيا ، وراض الدابة يروضها روضا ورياضة : ذللها أو علمها السير فهو رائض .

(٢) فى العقد الفريد « فكان يكتب لهشام » وهو خطا ، لأن ظهور أبى مسلم إنما كان فى عهد مروان لا فى عهد هشام — وإن كانت الدعوة العباسية قد بدأت منذ سنة ١٠٠ هـ كما ذكر الطبرى فى تاريخه ج ٨ : ص ١٣٥ — أضف إلى ذلك أن ولاية يزيد بن عمر بن هبيرة العراق كانت سنة ١٢٩ هـ فى عهد مروان أيضاً — تاريخ الطبرى ٩ : ٩٦ — وكان أبوه عمر بن هبيرة واليا عليها فى خلافة يزيد ابن عبد الملك ثم عزله عنها هشام أول ولايته سنة ١٠٥ هـ كما قدمنا .

أرَى خِلَلَ الرَّمادِ وَمِيضَ جَمْرٍ ... ويُوشِكُ أن يكون له ضِرامُ[1]
فإن النار بالعُودَيْنِ تُذْكَى ... وإن الحربَ أوَّلُها الكلامُ[2]
فإن لم تُطْفِئُوها تَجْنِ حرباً ... مشمَّرة يَشِيبُ لها الغُلامُ[3]
أقول من التعجُّب : ليت شعرى ... أأيقاظ أُمَيَّةُ أم نيام ؟[4]
فإن كانوا لِحَيْنِهِمُ نياماً ... فقُلْ : قوموا فقد حان القيامُ[5]
ففِرِّى عن رحالك ، ثم قولى : ... على الإسلام والعرب السلام ![6]

٥٢٤ — رد مروان عليه

فكتب إليه مروان :

« إن الشاهد يرى ما لا يرى الغائب ، فاحْسِمْ ذلك الثُّؤْلُول[7] الذى نَجَمَ عندكم » .

---

(١) فى وفيات الأعيان والإمامة والسياسة والفخرى « وميض نار » وفى تاريخ الطبرى والمسعودى والفخرى « بين الرماد »، وفى الطبرى أيضاً « فأحج بأن يكون .. » والخلل : الفرجة بين الشيئين والجمع خلال كجبل وجبال ؛ وومض البرق كوعد: لمع لمعا خفيا ، والضرام: اشتعال النار، وأحج به ،وماأحجاه : ما أخلقه ، وهو حجى به كغنى ، وحج كشج ، وحجى كفتى : جدير

(٢) أذكى النار : أوقدها ، وذكت تذكو ذكوا وذكا وذكاء : اشتد لهيبها، وفى العقد الفريد « تذكو » وفى وفيات الأعيان « بالزندين تورى » أى تشعل أيضاً ، وفى الطبرى « مبدؤها الكلام » .

(٣) مشمرة : أى مشمرا أصحابها وأبطالها ، وهذا البيت لم يرد فى رواية الطبرى ، ولا فى الإمامة والسياسة، وروى فى وفيات الأعيان والفخرى :

لئن لم يطفها عقلاء قوم ... يكون وقودها جثث وهام

وهام جمع هامة وهى الرأس .

(٤) فى الطبرى والعقد والفخرى « فقلت من التعجب » .

(٥) الحين : الهلاك ، وهذا البيت لم يرد فى الطبرى ولا فى الفخرى ، وروى فى مروج الذهب « فإن يك قومنا أضحوا نياما » .

(٦) وهذا البيت لم يرد فى الطبرى ولا فى الفخرى ولا فى وفيات الأعيان، وصرى مضعف صراه يصريه. إذا دفعه ومنعه وحفظه ووقاه، يقال : صرى الله عنك شر فلان أى دفعه، وفى الإمامة والسياسة ومروج الذهب « ففرى عن رحالك » .

(٧) الثؤلول : الحبة تظهر فى الجلد كالحمصة فما دونها ، وقد تثألل جسده بالثآليل ، ونجم : طلع وظهر ، وفى الطبرى « فاحسم الثؤلول قبلك » وفى الفخرى « إن الحاضر » وفيه « فاحسم أنت هذا الداء الذى قد ظهر عندك » .

فلما ورد الكتاب على نصر ، قال لخواصّ أصحابه : أمّا صاحِبُكم فقد أعلمَكم أنْ لا نَصْرَ عنده .

(العقد الفريد ٢ : ٢٩٧ ، ومروج الذهب ٢ : ٢٠٢ ، ووفيات الأعيان ٢ : ٢٨٢ ، وتاريخ الطبرى ٩ : ٩٢ ، والإمامة والسياسة ٢ : ٩٦ ، والفخرى ص ١٢٨)

٥٢٥ — كتاب نصر إلى يزيد بن عمر بن هبيرة

ولما يَئِس نصر بن سيّار من إنجاد مروان ، كتب إلى يزيد بن عمر بن هُبَيرة يستمِدّه ، ويسأله النُّصْرة على عدوه ، وضمَّن كتابه أبياتاً من الشعر وهى :

أَبْلِــغْ يَزِيدَ (وخَيْرُ القول أَصْدَقُه   وقد تَبَيَّنْتُ أنْ لاَ خَيْرَ فى الكذب)
بأنَّ أَرْضَ خُرَاسانَ رأيتُ بها   بَيْضاً لَوَ اُفْرِخَ قد حُدِّثتَ بالعَجَب
فِراخُ عامين ، إلا أنَّها كَبُرَتْ   لمَّا يَطِرْنَ وقد سُرْبِلْن بالزَّغَب[(١)]
فإن يَطِرْنَ ولم يُحْتَلْ لهنَّ بها   يُلْهِبْنَ نِيرَانَ حَرْب أيّما لَهَب

فلم يجبه يزيد ، وتشاغل بدفع فتن العراق .

(مروج الذهب ٢ : ٢٠٣ ، وتاريخ الطبرى ٩ : ٩٢)

٥٢٦ — كتب من أبى مسلم إلى قحطبة بن شبيب وكتب بين نصر بن سيار ومروان بن محمد وابن هبيرة

ومضى أبو مُسْلِم حتى نزل قصر الإمارة بمَرْو الذى كان ينزله عُمَّال خراسان ، (وذلك لتسعٍ خَلَوْن من جُمادى الأولى سنة ١٣٠ هـ) وهرب نصر بن سيار عن مرو .

ثم كتب أبو مسلم إلى قَحْطَبَة بن شَبِيب يأمره بقتال تميم بن نصر بن سيار ومن لجأ إليه من أهل خراسان ، فزحَف إليه ، واقتتلوا قتالاً شديداً ، فقتل تميم بن نصر فى المعركة ، وقتل معه منهم مَقْتلة عظيمة ، واستُبِيح عسكرهم .

---

(١) الزغب : صغار الريش ، وسربلن : ألبسن وكسين . السربال بالكسر : كل ما لبس ، وقد سربله .

وكتب أبو مسلم إلى قحطبة يأمره أن يَقبَع نصر بن سيّار — وكان قد نزل نَيْسابور — فلما بلغه ذلك ارتحل هاربا حتى نزل قُومِسَ ، وقدِم قحطبةُ نيسابورَ بجنوده . وكتب نصر وهو نازل فى قومس إلى ابن هُبَيرة يستمِدُّه وهو بواسط ، مع ناس من وجوه أهل خراسان يُعظِم الأمر عليه ، فحبس ابن هبيرة رسلَه ، فكتب نصر إلى مَرْوان :

« إنى وجّهتُ إلى ابن هبيرة قوماً من وجوه أهل خراسان ، لِيُعْلِموه أمرَ الناس من قِبَلنا ، وسألته المدَدَ ، فاحتبس رُسُلى ولم يُمِدَّنى بأحد ، وإنما أنا بمنزلةِ مَن أُخرج من بيته إلى حُجْرته ، ثم أُخرج من حجرته إلى داره ، ثم أُخرج من داره إلى فِناء داره ، فإن أدركه مَن يُعينه فعسى أن يعود إلى داره وتبقى له ، وإن أُخرج من داره إلى الطريق فلا دار له ولا فِناء » .

فكتب مروان إلى ابن هبيرة أن يُمِدّ نصرًا ، وكتب إلى نصر يُعْلمه ذلك ، وكتب إلى ابن هبيرة « يسأله أن يعجِّل إليه الجند ، فإنّ أهل خراسان قد كذَبتُهم حتى ما رَجُلٌ منهم يصدّق لى قولاً ، فأمِدَّنى بعشرة آلاف قبل أن تُمِدَّنى بمائة ألف ثم لا تُغنى شيئاً » .

وتفرق عن نصر أصحابه فسار من قومِسَ إلى نُباتة بن حَنْظلة عامل ابن هبيرة على جُرْجان ، وأقبل قحْطبة إلى جُرْجان ، فنزل بإزاء نباتة ، وأهل الشأم فى عِدَّة لم يرَ الناس مثلها ، فلما رآهم أهلُ خراسان هابوهم حتى تكلّموا بذلك وأظهروه ، وبلغ قحطبة ، فقام فيهم خطيباً وحَضَّهم على الثبات .

وورد إلى قحطبة كتاب أبى مسلم :

« من أبى مسلم إلى قحطبة ، بسم الله الرحمن الرحيم : أما بعد ، فناهِض عدوَّك ، فإن الله عزّ وجل ناصِرُك ، فإذا ظهرت عليهم فأثخِنْ فى القتل » .

فالتقَوْا فى مستهلِّ ذى الحِجَّة سنة ١٣٠ هـ ، وصَبَر بعضهم لبعض ، فقتل نُباتة ،

وانهزم أهل الشأم وقتل منهم عشرة آلاف ، وبعث قحطبة إلى أبي مسلم برأس نباتة وابنه حيَّة .

وسار نصر بن سيار حتى أتى الرَّىّ ، وخرج عنها ، فنزل « ساوَة » بين همذان والرَّىّ ، فمات بها كمدًا فى ربيع الأول سنة ١٣١ ﻫ .

(تاريخ الطبرى ٩ : ٩٨ ، ١١٢)

٥٢٧ — كتاب نصر إلى مروان

ولما خرج نصرُ بن سيَّار عن خراسان ، وصار بين خراسان والرَّىّ ، كتب كتابًا إلى مَرْوان يذكر فيه خروجه عن خراسان ، وأن هذا الأمر الذى أزعجَه سينمو حتى يملأ البلاد ، وضمَّن ذلك أبياتًا من الشعر وهى :

إنَّا وَما نَكتُمُ من أَمْرِنا ... كالثَّور إذ قُرِّب للنَّاخِعِ (١)
أو كالتى يَحْسَبُهَا أهلُهــا ... عَذْراء بِكرًا وهْىَ فى التاسِعِ
كنا نُرَفِّيها ، فقد مُزِّقَتْ ... واتَّســعَ الخَرْق على الراقِع (٢)
كالثَّوْب إذ أَنْهَجَ فيــه البِلَى ... أعْيا على ذى الحِيلة الصانِعِ (٣)

فلم يستتمَّ مَرْوانُ قراءة هذا الكتاب حتى مَثَل أصحابه بين يديه ممن كان قد وكِّل بالطريق ، وقد جاءوه برسول من خراسان معه كتاب من أبى مُسْلم إلى إبراهيم بن محمد الإمام يخبره فيه خَبَره وما آل إليه أمره ، فلما تأمَّل مروان كتاب أبى مسلم ، قال للرسول : لا تُرَعْ ، كم دفع لك صاحبك ؟ قال : كذا وكذا ، قال : فهذه عشرة آلاف درهم لك ، وإنما دفع إليك شيئًا يسيرا ، وامضِ بهذا الكتاب إلى إبراهيم ، ولا تُعلِمْهُ بشىء مما جرى ، وخذ جوابه فأتِنى به ، ففعل الرسول ذلك ، فتأمل مروان

---

(١) نخع الذبيحة : جاوز منتهى الذبح فأصاب نخاعها .
(٢) رفى مضعف رفا . ورفا الثوب ورفأه : لأم خرقه وضم بعضه إلى بعض .
(٣) أنهج : وضح (وأنهج الثوب ونهجه كنعه : أخلقه ، ونهج الثوب مثلثة الهاء وأنهج : بلى).

جواب إبراهيم إلى أبي مسلم بخطّه : يأمره فيه بالجِد والاجتهاد ، والحِيلة على عدوه ، وغير ذلك من أمره ونهيه ، وكان فيه أبيات من الرَّجَز منها :

دُونَكَ أمرًا قد بدت أشراطُه إن السبيل واضح صراطُه

* لم يَبْقَ إلا السيفُ واختراطُه[١] *

فاحتبس مَرْوانُ الرسول ، وكتب إلى الوليد بن معاوية بن عبد الملك ، وهو على دمشق : يأمره أن يكتب إلى عامل البَلْقاء[٢] فيَسير إلى الحُمَيْمة ، ليأخذ إبراهيم ابن محمد ، فيشدّه وَثاقا ، ويبعث به إليه في خيل كثيفة ، وحُمِل إبراهيم بن محمد إلى الوليد ، فحمله إلى مروان ، فقرّره بما كان من أمره مع أبي مسلم ، فأنكر ، فقال له مَرْوان : يامنافق : أليس هذا كتابك إلى أبي مسلم جوابا عن كتابه إليك ؟ وأخرج إليه الرسول ، وقال : أتعرف هذا ؟ فلما رأى ذلك إبراهيم أمسك وعَلِم أنه أُتِيَ من مَأْمَنه ، وأمر به مروان فحُبِس شهرين في حَرّان[٣] .

ثم دخل عليه السجن جماعة من مَوَالى مروان من العجم وغيرهم فقتلوه سنة ١٣٢ هـ[٤] . (مروج الذهب ٢ : ٢٠٤)

---

(١) الأشراط: جمع شرط بالتحريك وهو العلامة ، واخترط السيف : استله .

(٢) البلقاء : كورة من أعمال دمشق بين الشأم ووادى القرى ، وكانت قصبتها عمان. والحميمة: قرية من أعمال عمان فى أطراف الشأم ، انظر ص ٤٧٥ .

(٣) حران : مدينة عظيمة بالجزيرة على طريق الموصل والشأم والروم ، بينها وبين الرها يوم ، وبين الرقة يومان .

(٤) وقيل إنه لم يقتل ولكنه مات فى سجن مروان بالطاعون — انظر تاريخ الطبرى ٩ : ١٣٢ ومعجم البلدان ٣ : ٢٤٢ — وقيل إن مروان سمه فى الحبس فمات — انظر الفخرى ص ١٢٩ .
ولما حبس إبراهيم الإمام بحران خاف أخواه السفاح والمنصور وجماعة من أقاربهم وقصدوا إلى الكوفة ، وكان لهم بها شيعة منهم أبو سلمة الخلال ، وكان من كبار الشيعة بالكوفة — وقد استوزره السفاح حينما ولى الخلافة — فأخلى لهم أبو سلمة دارا بالكوفة، وتولى خدمتهم بنفسه ، وكتم أمرهم، واجتمعت الشيعة إليه ، وقويت شوكتهم ، ثم وصل أبو مسلم بالجنود من خراسان إلى الكوفة وسلم على السفاح بالخلافة ، وأظهر الدعوة ، وبويع السفاح بالخلافة سنة ١٣٢ هـ .

٥٢٨ — كتاب عبد الحميد عن مروان إلى أبي مسلم الخراساني

وذكروا أن عبد الحميد بن يحيي كتب عن مَرْوان بن محمد إلى أبي مسلم الُخراسانيّ كتابا حُمِلَ على جمل لِكِبَر حجمه — وقيل : إنه لم يكن في الطول إلى هذه الغاية ، وقد حمل على جمل تعظيما لأمره — وقد نَفَثَ فيه حَوَاشِيَ صدره ، وضمَّنه غَرَائِبَ عُجَرِه وبُجَرِه[1] ، وضمَّنه مالو قرئ لأوقع الاختلاف بين أصحاب أبي مسلم ، وقال لمروان : قد كتبت كتابا متى قرأه بَطَل تدبيره ، فإن يَجَع[2] فذاك ، وإلا فالهلاك ، ويقال : إن أول الكتاب كان : « لو أراد الله بالنملة صلاحا لما أنبت لها جَناحا » .

٥٢٩ — رد أبي مسلم عليه

فلما ورد الكتاب على أبي مسلم ، لم يقرأه ، وأمر بنار فأحرقه بها ، وكتب على جُذَاذَتِه[3] منه إلى مروان :

مَحَا السيفُ أسطارَ البلاغة وانتحَى ... عليك لُيُوثُ الغاب من كل جانب
فإن تقدموا نُعْمِلْ سيوفًا شَحِيذَةً ... يَهُون عليها العَتْبُ من كلِّ عاتب[4]

ورَدَّه، فأيِس الناس من معالجته .

(سرح العيون ص ١٦٣ ، وشرح ابن أبي الحديد م ١ : ص ٣١٣ ، ونهاية الأرب ٧ : ٢٥٤)

---

(١) قال في اللسان : أصل العجر : العروق المتعقدة في الجسد ، والبجر : العروق المتعقدة في البطن خاصة ، وهما جمع عجرة وبجرة كفرصة ، وقال أيضاً : العجرة : نفخة في الظهر ، فإذا كانت في السرة فهي بجرة ، وأفضيت إليه بعجري وبجري: أي أطلعته على أموري كلها ماظهر منها وما بطن ، أو أظهرته من ثقتي به على معايبي ومساوي ، وقول علي كرم الله وجهه : أشكو إلى الله عجري وبجري: أي همومي وأحزاني .

(٢) نجع الخطاب فيه : أثر .

(٣) قطعة .

(٤) في ابن أبي الحديد « وانتحت : إليك ليوث .... » وفي نهاية الأرب « وانتحى: ليوث الوغى يقدمن من كل جانب » .

٥٣٠ — من رسالة لعبد الحميد عن مروان

ولعبد الحميد من رسالة كتب بها عن مَرْوان لِفِرَق العرب، حين فاض العَجَم من خُراسان بشعار السواد قائمين بالدولة العباسية:

« فلا تمكّنوا ناصية الدولة العربية، من يد الفِئة العَجَمية، واثبُتوا رَيْثَما تنجلي هذه الغَمْرَةُ[1]، ونصحو من هذه السَّكْرة، فسَيَنْضُب[2] السَّيل، وتُمْحَى آية اللّيل، والله مع الصابرين، والعاقبةُ للمتقين ».

وجاء في سرح العيون:

وكتب يعرِّض بشعار بني العباس الأسود من رسالة:

« فرُوَيْداً حتى ينضب السيل، وتمحى آية الليل ».

(رسائل البلغاء ص ١٧٢، وسرح العيون ص ١٦٤)

٥٣١ — كتاب عبد الحميد إلى أهله

وكتب عبد الحميد من رسالة إلى أهله وهو منهزم مع مروان:

« أما بعد: فإن الله تعالى جعل الدنيا محفوفةً بالكُرْه والسرور، فمَن ساعَده الحظُّ فيها سَكَن إليها، ومن عضَّته بنابها ذَمَّها ساخِطاً عليها، وشكاها مُسْتَزِيداً[3] لها، وقد كانت إذاقَتْنا أفاوِيقَ[4] استحليْناها، ثم جمحَت[5] بنا نافِرةً، ورمَحَتْنا مُوَلِّيةً، فمَلُح عَذْبُها، وخشُن لَيِّنُها، فأبعدَتْنا عن الأوطان، وفرّقتنا عن الإخوان،

---

(١) الغمرة: الشدة تغمر الواقع فيها بشدتها، وفي المثل « غمرات ثم ينجلين ».
(٢) نضب الماء: غار، يعني أن قوة دعاة العباسية ستنهار.
(٣) جاء في لسان العرب « استزاد فلان فلانا: إذا عتب عليه في أمر لم يرضه ».
(٤) الفيقة بالكسر: اسم اللبن يجتمع في الضرع بين الحلبتين وجمعها فيق بالكسر وفيق كعنب وفيقات وأفواق، وجمع الجمع أفاويق.
(٥) جمح الفرس كمنع: غلب راكبه، ورمحه الفرس كمنع أيضا: رفسه.

فالدار نازحة(١)، والطير بارحة(٢)، وقد كتبتُ والأيام تزيدها منكم بُعداً، وإليكم وَجْداً، فإن تتم البليّة إلى أقصى مُدّتها، يكن آخر العهد بكم وبنا، وإن يَلحَقنا ظُفر جارح من أظفار مَن يليكم، نرجع إليكم بذُلّ الإسار(٣)، والذلُّ شرُّ جار، نسأل الله الذى يُعِزّ من يشاء، ويُذِلّ من يشاء، أن يهب لنا ولكم أُلفة جامعة، فى دار آمنة تجمع سلامة الأبدان والأديان، فإنه رب العالمين، وأرحم الراحمين(٤) ».

(سرح العيون ص ١٦٥)

٥٣٢ — كتاب عبد الله بن معاوية بن عبد الله بن جعفر إلى بعض إخوانه

كتب عبد الله بن معاوية بن عبد الله بن جعفر بن أبى طالب إلى بعض إخوانه :

« أما بعدُ، فقد عاقنى الشكُّ فى أمرك عن عَزيمة الرأى فيك، وذلك أنك

---

(١) بعيدة .

(٢) البارح من الطير والوحش : ما مرمن ميمنك إلى مياسرك ، والعرب تتطير به لأنه لايمكنك أن ترميه حتى تنحرف ، والسانح مامر من مياسرك إلى ميامنك ، والعرب تتيمن به لأنه أمكن الرمى والصيد .

(٣) أسره كضرب أسرا وإسارا ، والإسار أيضا : القيد الذى يشد به وجمعه أسر ككتب .

(٤) وقد حضر عبد الحميد مع مروان جميع وقائعه عند آخر أمره ، ولما اشتدعليه الطلب وتتابعت هزائمه ، وأيقن بزوال ملكه ، قال لعبد الحميد : قد احتجت أن تصير مع عدوى ، وتظهر الغدر بى، فإن إعجابهم بأدبك ، وحاجتهم إلى كتابتك ، تدعوهم إلى حسن الظن بك ، فإن استطعت أن تنفعنى فى حياتى ، وإلا لم تعجز عن حفظ حرمى بعد وفاتى ، فقال له عبد الحميد : إن الذى أشرت به على أنفع الأمرين لك ، وأقبحهما بى ، وما عندى إلا الصبر ، حتى يفتح الله عليك ، أو أقتل معك ، وأنشد :

أسر وفاء ثم أظهر غــدرة ؟ فمن لى بعذر يوسع الناس ظاهره ؟

فلما قتل مروان استخفى عبد الحميد بالجزيرة ، فنمر عليه ، فطلب ، وكان صــديقا لعبد الله بن المقفع ، ففاجأهما الطلب وهما فى بيت ، فقال الذين دخلوا عليهما : أيكما عبد الحميد ؟ فقال كل واحد منهما : أنا ، خوفا من أن ينال صاحبه مكروه ، وخاف عبد الحميد أن يسرعوا إلى ابن المقفع ، فقال : ترفقوا بنا ؛ فإن كلا منا له علامات ، فوكلوا بنا بعضكم ، ويمضى بعض آخر ويذكر تلك العلامات لمن وجهكم، ففعلوا، وأخذ عبد الحميد ، فسلمه السفاح إلى عبد الجبار بن عبد الرحمن صاحب شرطته ، فكان يحمى له طستا ويضعه على رأسه إلى أن مات سنة ١٣٢ هـ — انظر ترجمته فى سرح العيون ص ١٦٢ ووفيات الأعيان ١ : ٣٠٧ ومروج الذهب ٢ : ٢٠٧ ؛ والفهرست لابن النديم ص ١٧٠ ، وغرر الخصائص الواضحة ص ٢١ وكتاب الوزراء والكتاب للجهشيارى ص ٧٨ .

ابتدأتنى بلُطفٍ عن غير خِبْرة ، ثم أعقبتَنى جَفاء من غير جَرِيرة[1] ، فأطمَعَنى أوّلُك فى إخائك ، وآيَسَنى[2] آخِرُك من وفائك ، فلا أنا فى اليوم[3] مجمعٌ لك اطّراحا ، ولا أنا فى غَدٍ وانتظاره منك على ثقة ، فسُبْحانَ من لو شاء كشَفَ بإيضاح الرأى فى أمرك عن عزيمة الشك فيك[4] ، فاجتمعنا[5] على ائتلاف ، أو افترقنا على اختلاف، والسلام » .

(البيان والتبيين ٢ : ٤١ ، وزهر الآداب ١ : ٩٨ ، والعقد الفريد ٢ : ١٩٤ ، وغرر الخصائص الواضحة ٤٧٠)

٥٣٣ — كتابه إلى أبى مسلم الخراسانى

وكتب من الحبس إلى أبى مُسْلم صاحب الدعوة[6] .

« مِنَ الأسير فى يديه ، بلا ذَنْبٍ إليه ، ولا خِلاف عليه ، أمّا بعدُ ، فآتاك الله

---

(١) الجريرة : الجريمة والذنب ، وفى غرر الخصائص « من غير جريمة » وفى البيان والتبيين والعقد « من غير ذنب » .

(٢) فى زهر الآداب « وأيأسنى » وآيس مجرده أيس ، وأيأس مجرده يئس ، والأول مقلوب عن الثانى .

(٣) فى زهر الآداب « فلا أنا فى غير الرجاء مجمع لك اطراحا ، ولا أنا فى عدم انتظاره منك على ثقة » وأجمع الأمر وعليه ، وأزمع الأمر وعليه أيضا : عزم عليه وثبت .

(٤) فى غرر الخصائص « عن ظلمة الشك فيك » وفى زهر الآداب « كشف بإيضاح الشك فى أمرك عن عزيمة الرأى فيك » . (٥) فى البيان والتبيين والعقد وغرر الخصائص « فأقمنا » .

(٦) وذلك أنه كان قد دعا إلى نفسه بالكوفة سنة ١٢٧ هـ . حرضه على ذلك أهل الكوفة وقالوا له : ادع إلى نفسك ، فبنو هاشم أولى بالأمر من بنى مروان ، وقد حاربه بها عبد الله بن عمر ابن عبد العزيز ، فهزمه عبد الله بن عمر ، فخرج ابن معاوية إلى المدائن ، وفى سنة ١٢٩ خرج إلى الجبال فغلب عليها وعلى حلوان وقومس وهمذان وأصبهان والرى من بلاد فارس ، وبقى على ذلك مدة ، وكان أبومسلم الخراسانى قد قويت شوكته ، فسار إليه وقبض عليه وسجنه ثم قتله سنة ١٣٠ — انظر تاريخ الطبرى ٩ ، ٤٨ ، ٩٣ ومروج الذهب ٢ : ٢٠٣ والفخرى ص ١٢٢ والنجوم الزاهرة ١ : ٣٠٩ ، ٣١٠

وجاء فى « فصل ، فى الملل والأهواء والنحل » لابن حزم الظاهرى الأندلسى فى باب « شنع الشيعة » ج ٤ : ص ١٣٨ : « وقال بعض الكيسانية — وهى فرقة من فرق الشيعة ، أصحاب كيسان مولى على بن أبى طالب — إن عبد الله بن معاوية بن عبد الله بن جعفر بن أبى طالب حى بجبال أصبهان إلى اليوم ، ولا بد له من أن يظهر ، وعبد الله هذا هو القائم بفارس أيام مروان بن محمد ، وقتله أبومسلم بعد أن سجنه دهرا ، وكان عبد الله هذا ردىء الدين معطلا مستصحبا للدهرية» .

حِفظَ الوصيّة(١)، ومَنَحَكَ نصيحة الرّعيّة، وألْهَمك عَدْلَ القَضيَّة(٢)، فإنّكَ مُستَودَعُ الودائع، ومُولِي الصّنائع(٣)، فاحفَظْ ودائِعَك بحُسْن صنائعك؛ فالودائعُ عاريّةٌ، والصنائع مَرْعِيّة، وما النِّعَم عليك وعلينا فيك بمنْزُورٍ(٤) نَداها، ولا يبلوغ مَداها، فَنَبِّهْ للتفكير قلبَك، واتّقِ اللهَ ربَّك، وأعطِ مِن نفسك مَن هو تحتك ما تُحِبُّ أن يعطيَك مَن هو فوقَك، مِن العَدْل والرّأفة والأمْن من المخافة. فقد أنعم اللهُ عليك بأن فَوَّض أمرَنا إليك، فاعرِفْ لنا لِينَ شكرِ المَوَدّة، واغتفارَ مَسِّ الشّدّة، والرّضا بما رَضيت، والقناعةَ بما هويتَ، فإنّ علينا مِن سَمْكِ(٥) الحديد وثِقَلِه أذًى شديداً مع مُعالجة الأغلال، وقِلّةَ رَحْمَة العُمّال، الذين تَسهيلُهم الغِلْظَةُ، وتيسيرُهم الفَظاظة، وإيرادُهم علينا الغُمُوم، وتوجيهُهُمْ إلينا الهُمُوم، زِيارتُهم الحِراسةُ، وبِشارتهم الإياسة، فإليك بَعْدَ الله نَرفَع كُرْبَةَ الشّكوى، ونشكو شِدّةَ البَلْوَى، فمتى تَمِلْ إلينا طَرْفا، وتُولِنا منك عَطْفا، تَجِدْ عندنا نُصْحا صريحاً، ووُدًّا صحيحاً، لا يُضَيِّع مِثلُك مِثْلَه،

---

(١) يقول الشيعة إن النبي صلى الله عليه وسلم أوصى بالخلافة من بعده لعلى كرم الله وجهه، فلقبوا عليا بالوصى، وهو أوصى بها لمن بعده، وهكذا كل إمام وصى من قبله، قال الحميرى من أبيات:

إنى أدين بما دان الوصى به   يوم النخيلة من قتل المحلينا

انظر الكامل للمبرد ج ٢ : ص ١٥٥، وقد أورد ابن أبى الحديد فى شرح نهج البلاغة م ١ : ص ٤٧ — ٥٠ طائفة كبيرة من الأشعار التى وردت فيها كلمة الوصى، منها قول عبد الله بن أبى سفيان بن الحرث بن عبد المطلب:

ومنا على ذاك صاحب خيبر   وصاحب بدر يوم سالت كتائبه
وصى النبي المصطفى وابن عمه   فمن ذا يدانيه، ومن ذا يقاربه؟

وقول عبد الرحمن بن جعيل:

لعمرى لقد بايعتم ذا حفيظة   على الدين معروف العفاف موفقا
عليا وصى المصطفى وابن عمه   وأول من صلى أخا الدين والتقى

وقول أبى الهيثم بن التيهان من أبيات، وكان بدريا:

إن الوصى إمامنا وولينا   برح الخفاء وباحت الأسرار

(٢) يقال: قضى عليه قضيا وقضاء وقضية.

(٣) جمع صنيعة، وهى المعروف والإحسان.   (٤) النزر والنزير والمنزور: القليل.

(٥) يقال سمكه سمكا: أى رفعه، والمعنى: فإن علينا من الحديد الغليظ المضاعف.

وَلا يَبْنِي مِثْلُكَ أهْلَه ، فارْعَ حُرْمَةَ مَن أدْرَكْتَ بِحُرْمَته ، واعرِفْ حُجَّةَ مَنْ فَلَجْتَ[1] بحُجَّتِه فإن الناس مِنْ حَوْضِك رِوَاء[2]، ونحن منه ظِماء ، يمشون فى الأَبْراد ونحن نَحْجِل فى الأقياد[3] ، بعد الخير والسَّعَة ، والخَفْضِ والدَّعَة ، والله المُستعان ، وعليه التُّكْلان ، صَريخ[4] الأَخْيار ، مُنَجِّى الأبرار ، الناسُ من دَوْلتنا فى رَخاء ، ونحن منها فى بَلاء ، حين أَمِن الخائفون ، ورَجَع الهاربون ، رَزَقَنَا الله منك التَّحنُّن ، وظاهرَ علينا من التمنُّن، فإنك أَمينٌ مُسْتَوْدَع، ورائدٌ مُصْطَفًى[5]، والسلام ورحمة الله »

(البيان والتبيين ٢ : ٤٢ ، والأغانى ١١ : ٧١)

---

(١) أى غلبت وانتصرت .

(٢) رواء : جمع ريان ، وظماء : جمع ظمآن .

(٣) الأبراد والبرود: جمع برد كقفل ، وهو ثوب مخطط، وحجل المقيد كضرب ونصر: رفع رجلا وتربث فى مشيه على رجله ، والأقياد والقيود : جمع قيد .

(٤) الصريخ : المغيث (والمستغيث أيضا ، ضد) وفى الأصل « صريح الأخيار » وهو تصحيف .

(٥) أصل الرائد : المرسل فى طلب الكلأ ، ومصطفى : أى مختار ، وفى نسخة « مصطنع » وهى بمعناها .

التوقيعات

معاوية

كتب عبد الله بن عامر[1] إلى معاوية فى أمرٍ عاتَبَه فيه، فوقّع فى أسفل كتابه:

« بيتُ أُمَيَّةَ فى الجاهلية أشرفُ من بيت حَبِيبٍ فى الإسلام، وأنت تراه ».

ووقّع فى كتاب عبد الله بن عامر يسأله أن يُقْطِعَه مالًا بالطائف:

« عِشْ رَجَبًا تَرَ عَجَبًا[2] ».

وكتب زياد إلى معاوية يخبره بطعن عبد الله بن عباس فى خلافته[3]، فوقع فى كتابه:

« إن أبا سفيان وأبا الفضل[4] كانا فى الجاهلية فى مِسْلاخٍ[5] واحد، وذلك حِلْفٌ[6] لا يحُلُّه سوء رأيك ».

---

(١) هو عبد الله بن عامر بن كريز بن ربيعة بن حبيب بن عبد شمس بن عبد مناف، وهو ابن خال عثمان بن عفان، استعمله عثمان على البصرة بعد أبى موسى الأشعرى، وولاه أيضا بلاد فارس بعد عثمان ابن أبى العاص، ولم يزل واليا على البصرة إلى أن قتل عثمان، وولاه معاوية البصرة ثلاث سنين.

(٢) هو مثل، قال الميدانى فى مجمع الأمثال (١ : ٣١٢) قالوا من حديثه: إن الحارث بن عباد ابن قيس بن ثعلبة طلق بعض نسائه من بعد ما أسن وخرف، فخلف عليها بعده رجل، كانت تظهر له من الوجد مالم تكن تظهر للحارث، فلقى زوجها الحارث، فأخبره بمنزلته منها، فقال الحارث: « عش رجبا ترعجبا » فأرسلها مثلا، قال أبو الحسن الطوسى: يريد عش رجبا بعد رجب، فحذف، وقيل رجب كناية عن السنة، لأنه يحدث بحدوثها. ومن نظر فى سنة واحدة ورأى تغير فصولها، قاس الدهر كله عليها، فكأنه قال: عش دهرا تر عجائب، وعيش الإنسان ليس إليه؛ فيصح له الأمر به، ولكنه محمول على معنى الشرط، أى إن تعش تر، والأمر يتضمن هذا المعنى فى قولك زرنى أكرمك.

(٣) وفى العقد الفريد أيضا (٣ : ٥) « كتب زياد إلى معاوية: إن عبد الله بن عباس يفسد الناس على، فإن أذنت لى أن أتوعده فعلت، فكتب إليه .... ».

(٤) كنية العباس. (٥) المسلاخ: الإهاب (الجلد).

(٦) الحلف: العهد بين القوم والصداقة.

وكتب إليه رَبيعة بن عِسْل اليَرْبوعى يسأله أن يُعينه فى بناء داره بالبصرة باثنى عشر ألف جِذْع :

« أدارُك فى البصرة أم البصرة فى دارك ؟ » .

ووقّع معاوية : « نحن الزمانُ : مَن رفعناه ارتفع ، ومن وَضَعْناه اتّضع » .

وكتب إليه الحسن بن على رضى الله عنهما كتاباً أغلَظ له فيه القولَ ، فوقّع إليه :

« ليت طُولَ حِلْمنا عنك لايدعو جَهْلَ غيرِ نا إليْك » .

وكتب زياد إلى سعيد بن العاص يخطب إليه ، فوقع فى كتابه :

« كَلَّا إِنَّ الْإِنْسَانَ لَيَطْغَى أَنْ رَآهُ اسْتَغْنَى » .

يزيد بن معاوية

وكتب مُسْلِم بن عُقْبة المُرِّى إلى يزيد بالذى صَنَعَ بأهل الحرّة ، فوقّع فى أسفل كتابه :

« فَلَا تَأْسَ عَلَى الْقَوْمِ الْفَاسِقِينَ » .

وكتب عبد الله بن جعفر إلى يزيد يستوهبه جماعةً من أهل المدينة ، فوقع إليه :

« مَن عَرَفْتَ فهو آمِنٌ » .

وكتب إليه يسأله أن يقضِيَ عنه ذِمامَ نفر من بطانته وخاصّته ، فوقع فى كتابه : « احكم لهم بآمالهم إلى مُنْتَهَى آجالهم » ، فحكم لهم بتسعمائة ألف فأجازها .

ووقّع فى كتاب مُسْلِم بن زياد عامله على خُراسان ، وقد استبطأه فى الخراج .

« قليل العتاب يُحْكِم مَرَائر الأسباب ، وكثيره يَقْطَع أواخِيَ الانتساب[1] » .

---

(١) المرائر : جمع مريرة : وهى طاقة الحبل (والحبل الشديد الفتل أيضا) والأسباب جمع سبب: وهو الحبل وما يتوصل به إلى غيره ، والأواخى جمع آخية بتشديد الياء فيهما ، والأواخى : جمع آخية بتخفيفها فيهما ، والآخية: عروة تربط إلى وتدمدقوق وتشد فيها الدابة .

ووقع إلى عبد الرحمن بن زياد وهو عامله على خراسان :

« القرابة واشجة ، والأفعال متباينة ، فخذ لرحمك من فعلك[1] » .

وإلى عبيد الله بن زياد :

« أنت أحدُ أعضاء ابن عمك ، فاحرص أن تكون كلها » .

عبد الملك بن مروان

ووقع عبد الملك بن مروان فى كتاب أتاه من الحجاج يشكو إليه نفراً من بنى هاشم ويحرضه على قتلهم :

« جنّبنى دماء بنى عبد المطلب ، فليس فيها شفاء من الطّلب[2] » .

وكتب إليه الحجاج يخبره بسوء طاعة أهل العراق ، وما يقاسى منهم ، ويستأذنه فى قتل أشرافهم ، فوقع له :

« إن من يُمن السائس أن يأتلف به المختلفون ، ومن شؤمه أن يختلف به المؤتلفون » .

وكتب الحجاج إلى عبد الملك يشكو إليه أهلَ العراق ، فوقّع :

« أرفقْ بهم ، فإنه لا يكون مع الرفق ما تكره ، ومع الخُرق ما تحب » .

ووقع إليه فى أهل السّواد :

« أبقِ لهم لحوما ، يَعقِدوا بها شُحوما » .

ووقع فى كتاب مُتنصّح[3] :

« إن كنتَ صادقاً أثبناك ، وإن كنت كاذباً عاقبناك ، وإن شئت أقلناك » .

ووقع فى كتاب الحجاج يخبره بقوّة ابن الأشعث :

« بضعفك قوِىَ ، وبخوفك خلَعَ » .

---

(١) قرابة واشجة : مشتبكة ، وقد وشجت بك قرابته كوعد .　　(٢) انظر ص ١٤٠ .

(٣) تنصح : تشبه بالنصحاء .

ووقع فى كتاب ابن الأشعث :

« فما بالُ مَنْ أسْعَى لِأَجْبُرَ عَظْمَه حِفاظاً ، ويَنْوِى من سفاهته كَسْرِى »(١)

ووقع أيضاً فى كتاب :

« كيف يَرْجُون سِقَاطِى بعدما شَمِلَ الرأسَ مَشِيبٌ وصَلَعْ ؟ »(٢)

الوليد بن عبد الملك

وكتب الحجاج إلى الوليد بن عبد الملك لما بلغه أنه خَرِقٌ(٣) فيما خَلَّف له عبد الملك، يُنكر ذلك عليه ويعرّفه أنه غير صواب ، فوقع فى كتابه :

« لأَجمعنّ المالَ جَمْعَ مَن يعيش أبداً ، ولأُفرّقنّه تفريق من يموت غداً » .

ووقع إلى عمر بن عبد العزيز :

« قد رَأَبَ اللّٰهُ بك الداء ، وأَوْذَمَ بك السِّقاء(٤) » .

سليمان بن عبد الملك

وكتب قُتيبة بن مُسْلِم إلى سليمان بن عبد الملك يتهدّده بالخلع ، فوقع فى كتابه :

زَعَمَ الفرزدقُ أنْ سَيَقْتُلُ مِرْبَعاً أَبْشِرْ بطُول سلامة يا مِرْبَعُ(٥)

ووقّع فى كتابه أيضاً : « وَالْعَاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ » .

ووقّع إلى قتيبة أيضاً جواب وعيده :

« وَإِنْ تَصْبِرُوا وَتَتَّقُوا لَا يَضُرُّكُمْ كَيْدُهُمْ شَيْئاً » .

---

(١) انظر ص ١٩١ .

(٢) السقط بالتحريك والسقاط بالكسر : الخطأ فى الحساب والقول وفى الكتاب .

(٣) الخرق بالتحريك : ألا يحسن الرجل العمل والتصرف فى الأمور .

(٤) رأب الصدع كنم : أصلحه ، وأوذم : شد .

(٥) مربع كمنبر : لقب وعوعة بن سعيد رواية جرير .

وكتب مَسْلَمة بن عبد الملك إلى أخيه سليمان من الصَّائفة(١) بما كان منه من حُسْن الأثر فى بلاد الروم ، فوقع فى كتابه :

« ذلك بالله لا بِمَسْلَمَة » .

عمر بن عبد العزيز

وقال صاحب العقد :

كتب بعض العمال إلى عمر بن عبد العزيز يستأذنه فى مَرَمَّةِ مدينته فوقع أسفل كتابه :

« ابْنِها بالعدل ، ونَقِّ طُرُقَها من الظلم(٢) » .

ووقع إلى بعض عماله فى مثل ذلك :

« حَصِّنْها ونفسَك بتَقْوَى اللهِ » .

وقال الثعالبى فى خاصّ الخاص :

كتب عامل حِمْص إلى عمر بن عبد العزيز يخبره أنها احتاجت إلى حِصْن ، فوقّع :

« حَصِّنْها بالعدل والسلام » .

* * *

وإلى رجل وَلَّاه الصَّدقاتِ ، وكان دميما فعَدَل وأحسن :

« وَلَا أَقُولُ لِلَّذِينَ تَزْدَرِى أَعْيُنُكُمْ لَنْ يُؤْتِيَهُمُ اللهُ خَيْرًا » .

وكتب إليه صاحب العراق يخبره عن سوء طاعة أهلها ، فوقع له :

« ارْضَ لهم ما تَرْضَى لنفسك ، وخذ بجرائمهم بعد ذلك » .

---

(١) الصائفة : غزوة الروم ، لأنهم كانوا يغزون صيفا ، لمكان البرد والثلج .

(٢) انظر ص ٣٠١ .

وإلى عَدِىّ بن أرْطاة فى أمر عاتبه عليه :

إن آخر آية أنزلت : « وَاتَّقُوا يَوْماً تُرْجَعُونَ فِيهِ إِلَى اللَّهِ » .

وإلى عامله على الكوفة ، وكتب إليه أنه فَعَلَ فى أمر كما فعل عمرُ بن الخطاب :

« أُولَٰئِكَ الَّذِينَ هَدَى اللَّهُ فَبِهُدَاهُمُ اقْتَدِهْ » .

وإلى الوليد بن عبد الملك ـ وعمر عامله على المدينة ـ فوقَّع فى كتابه :

« اللهُ أعلَمُ ، إنك أول خليفة تموت » .

وأتاه كتاب عَدِىّ بن أرْطاةَ يخبره بسوء طاعة أهل الكوفة ، فوقع فى كتابه :

« لا تَطلُب طاعةَ مَن خَذَل عليًّا ، وكان إماماً مَرْضِيًّا » .

وإلى عامله بالمدينة ، وسأله أن يعطيه موضِعاً يَبْنيه ، فوقع :

« كن من الموت على حَذَر » .

وفى قصة متظلم : « العدلُ أمامَكَ » .

وفى رقعة محبوس : « تُبْ تُطلَقْ » .

وفى رقعة رجل قُتِل : « كتابُ الله بينى وبينك » .

وفى رقعة متنصِّح : « لو ذكرتَ الموتَ شَغَلَكَ عن نصيحتك » .

وفى رقعة رجل شكا بعض أهل بيته[1] : « أنتما فى الحق سِيَّان » .

وفى رقعة امرأة حُبِس زوجها . « الحقُّ حَبَسَه » .

وفى رقعة رجل تظلَّم من ابنه : « إن لم أُنصِفْك منه فأنا ظَلَمْتُك » .

---

(١) الضمير فيه لعمر بن عبد العزيز .

يزيد بن عبد الملك

ووقع يزيد بن عبد الملك إلى صاحب خراسان :

« لا تترك حَسَنَ رأى ، فإنما تُفْسِده عَثْرةٌ » .

وإلى صاحب المدينة : « عَثَرْتَ فَاسْتَقِلْ » .

وفى قصة متظلم : « وَسَيَعْلَمُ الَّذِينَ ظَلَمُوا أَىَّ مُنْقَلَبٍ يَنْقَلِبُونَ » .

وفى قصة متظلم شكا بعض أهل بيته :

« ما كان عليك لو صفَحْتَ عنه واُستوصَلْتَنى[1] ؟ » .

هشام بن عبد الملك

ووقع هشام بن عبد الملك فى قصة متظلم :

« أتاك الغَوث إن كنت صادقاً ، وحَلّ بك النَّكال إن كنت كاذبا ، فتقدَّمْ أوْ تأخَّرْ » .

وفى قصة قوم شكَوا أميرهم :

« إن صَحّ ما ادعيتم عليه عزلناه وعاقبناه » .

« وإلى صاحب خراسان حين أمره بمحاربة الترك :

« احذر ليالىَ البَياتِ[2] » .

وإلى صاحب المدينة ، وكتب يخبره بوثوب أبناء الأنصار :

« احفظ فيهم رسول الله صلى الله عليه وسلم وهَبْهم له » .

ووقع فى رقعة محبوس لَزِمه الحَدّ :

« نَزَلَ بِحَدِّك الكتاب » .

---

(١) أى وطلبت بذلك صلتى .

(٢) بيت العدو : أوقع بهم ليلا ، وفى العقد « البيان » وهو تحريف .

ووقع فى قصة رجل شكا إليه الحاجة وكثرة العِيال ، وذكر أنّ له حُرْمة :
« لِعيالك فى بيت مال المسلمين سَهْمٌ ، ولك بحُرْمتك منا مِثْلاه » .
وَإلى عامله على العِراق فى أمر الخوارج :
« ضَعْ سيفَك فى كلاب النار، وتقرّب إلى الله بقتل الكفار » .
« وإلى جماعة يشكون تعدّىَ عامِلِهم عليهم .
« لَنُفَوِّضَنّكم فى خَصمكم دونكم » .
وفى كتاب عامله يخبره فيه بقلة الأمطار فى بلده :
« مُرْهم بالاستغفار » .
وإلى سهل بن سيار : « خَفِ اللهَ وإمامَك ، فإنه يأخذك عند أول زلّة »

يزيد بن الوليد بن عبد الملك

ووقع يزيد بن الوليد بن عبد الملك إلى مروان بن محمد :
« أراك تقدِّم رِجْلا وتؤخرُ أخرى ، فإذا أتاك كتابى هذا فاعتمِدْ عَلَى أيِّهما شئتَ[(١)] » .
وإلى صاحب خراسان فى المسوَّدة :
« نَجَم أمرٌ أنت عنه نائم ، وما أراك منه أو منِّى بسالم » .

مروان بن محمد

وكتب مروان بن محمد إلى نصر بن سيار فى أمر أبى مسلم :
« نُجُومُ الظاهر يدلُّ عَلَى ضَعفِ الباطن ، والله المستعان » .
ووقع إلى ابن هُبيرة :

(١) انظر ص ٢٩٧ .

« الأمر مضطرب ، وأنت نائم ، وأنا ساهر » .

وإلى حَوْثَرَة بن سُهَيْل الباهلىّ حين وجَّهه إلى قَحْطبة بن شبيب الطائى[1] :

« كن من بيَاتِ المارِقة عَلَى حَذَر » .

وكتب ابن هُبيرة إلى مَرْوان أن قحطبةَ قد غرِق ، وأنه واقَع أصحابه فهزَم[2] ، فوقَّع .

« هذا والله الإدبارُ ، وإلاَّ فمَنْ سمع بميّت هَزَمَ حيا ؟ » .

وفى جواب أبيات نصر بن سيار إذ كتب إليه :

أَرَى خَلَلَ الرَّمادِ وَمِيضَ جَمرٍ ويُوشك أن يكون له ضِرَامُ

« الحاضِرُ يَرَى مالاَ يَرَى الغائب ، فاحسِم الثُّؤْلُولَ[3] » .

فكتب إليه نصر :

« الثُّؤْلُولُ قد آشتدت أعضاؤه ، وعَظُمَتْ نِسكايتُه » .

فوقع إليه : « يداكَ أَوْكَتا ، وَفُوكَ نَفَخ[4] » .

(١) فى العقد الفريد « الحويرة بن سهل » وهو تحريف ، وكان مروان بن محمد قد أمد ابن هبيرة به فى عشرين ألفا من أهل الشأم ، لقتال قحطبة بن شبيب قائد الجيوش الخراسانية حين أقبل إلى ابن هبيرة — انظر تاريخ الطبرى ج ٩ : ص ١١٨

(٢) وذلك أن قحطبة أقبل بجنوده حتى صار بحذاء ابن هبيرة وبينهما الفرات ، ثم عبر بفرسانه — ليلة الخميس لثمان خلون من المحرم سنة ١٣٢ — وحمل أصحابه على جيش ابن هبيرة فهزموهم ، وخلى ابن هبيرة عسكره ومافيه من الأموال والسلاح والزينة والآنية وغير ذلك ، وأصبح أصحاب قحطبة وقد فقدوه ، فلم يزالوا فى رجاء منه إلى نصف النهار ، ثم يئسوا منه وعلموا بغرقه ، فولوا أمرهم ابنه الحسن .
وفى العقد « ووقع حين أتاه غزو قحطبة » وهو تحريف وصوابه « غرق قحطبة » وفيه « وإلا فمن رأى ميتا هزم حيا » .

(٣) انظر ص ٤٨٠ .

(٤) الوكاء ككساء : رباط القربة وغيرها ، وقد وكاها وأوكاها وعليها : شدها بالوكاء ، وهذا مثل . وأصله أن رجلا كان فى جزيرة من جزائر البحر ، فأراد أن يعبر على زق قد نفخ فيه ، فلم يحسن إحكامه ، حتى إذا توسط البحر خرجت منه الريح فغرق ، فلما غشيه الموت استغاث برجل فقال له : يداك أوكتا وفوك نفخ . يضرب لمن يجنى على نفسه الحين — انظر مجمع الأمثال للميدانى ج ٢ : ص ٢٤٨ .

عبد الله بن على

ولما أيِسَ مروان من أمره ، كتب إلى عبد الله بن على بن عبد الله بن عباس يُوصيه بالحُرَم ، فوقع فى كتابه :

« الحقُّ لنا فى دَمِك ، وعلينا فى حُرَمك » .

زياد

ووقع زياد إلى بعض عماله :

« قد كنتَ على الدُّعَّار ، وإخالُك ذَاعِرًا[١] » .

وكتبت إليه السيدة عائشة فى وَصَاةٍ برجل ، فوقَّع فى كتابها :

« هُو بَيْن أبويه » .

وإلى صاحب خُراسان فى أمر خالفه فيه :

استر بعض دِينك[٢] ببعض ، وإلا ذَهَبَ كلُّه » .

وإلى عامله بالكوفة :

« أمِطِ[٣] الحُدودَ عن ذَوِى المُرُوءات » .

وفى قصة متظلم :

« أنا معك » .

وفى قصة قوم رفَعوا[٤] على عامل :

---

(١) ذعره كمنعه ذعرا بالفتح : خوفه ، كأذعره فهو ذاعر والجمع ذعار : أى قد كنت على الذين يفزعون الناس بسطواتهم ، فأرهبتهم وضربت على أيديهم . ويقينى أنك ستأخذ من وليتك أمرهم بالشدة والقسوة والرهبة ، وجاء فى الحديث : « لايزال الشيطان ذاعرا من المؤمن » أى ذا ذعر وخوف ، أوهو فاعل بمعنى مفعول : أى مذعور ، ويجوز أن يكون بهذا المعنى فى توقيع زياد: أى وأظنك ستخاف هؤلاء، وترهب بأسهم وقوتهم ، والمعنى : فلا تجنح إلى ذلك .

(٢) الدين : السلطان والملك والحكم والسيرة والتدبير .

(٣) ماطه وأماطه : نحاه وأبعده . (٤) رفع قصته : قدمها .

« من أماله الباطِلُ قوّمه الحقُّ » .

وفى قصة مُسْتَمْنِـح :

« لك المُواساة » .

وإلى عامله فى خوارجَ خرجوا بالبصرة :

« النساء تحاربهم دُونَك » .

وفى قصة سارق :

« القطعُ جَزاؤك » .

وفى قصة امرأة حُبس زوجها :

« حُكْمُهُ إلى الله » .

وفى قصة قوم نقبوا :

« تُنْقَبُ ظهورُهم » .

وفى قصة نَبَّاش[1] :

« يُدْفَن حيًّا فى قبره » .

وفى قصة متظلم :

« الحقُّ يَسَعُك » .

وفى قصة متنصح :

« مَهْلاً فقد أبلغتَ أسماعى[2] » .

وفى قصة متظلم :

« كُفِيتَ » .

وفى قصة رجل شكا إليه عقوقَ ابنه :

---

(١) هو الذى ينبش القبر ، وفعله كدخل .

(٢) هو عجز بيت لأبى قيس ، وصدره « قالت ولم تقصد لقيل الخنا » وأسماعى بالفتح جمع سمع وعبر به عن الشئ مبالغة ، وبالكسر مصدر أسمع ، بمعنى سمعى .

« ربما كان عقوق الولد من سوء تأديب الوالد » .

وفى قصة رجل شكا الحاجة :

« لك فى مال الله نصيبٌ أنت آخِذُه[١] » .

وفى قصة رجل جارح :

« والجُرُوحُ قِصاصٌ » .

وفى قصة محبوس :

« التائب من الذنب كمَن لا ذَنْبَ له » .

وفى قصة قوم شَكَوا غَرَق ضِياعهم .

« لا تعَرَّضَ فيما تفرَّدَ الله به » .

وفى قصة قوم اشتكَوا اجْتِياح الجرادِ لزُرُوعهم .

« لا حكم فيما استأثَرَ الله به » .

الحجاج بن يوسف

ووقع الحجاج فى كتاب أتاه من قُتَيبة بن مُسْلِم ، يشكو كثرة الجراد وذهابَ الغِلال ، وما حَلَّ بالناس من القَحْط :

« إذا أزِف[٢] خراجك فانظر لرعيتك فى مَصَالحها ، فبَيْتُ المال أشدُّ اطِّلاعا[٣]

---

(١) قال الله تعالى « وَاعْلَمُوا أَنَّمَا غَنِمْتُمْ مِنْ شَيْءٍ فَأَنَّ لِلَّهِ خُمُسَهُ وَلِلرَّسُولِ وَلِذِي الْقُرْبَى وَالْيَتَامَى وَالْمَسَاكِينِ وَابْنِ السَّبِيلِ » .

(٢) أزف الشيء : قل .

(٣) جاء فى اللسان يقال : فلان مضطلع بهذا الأمر : أى قوى عليه، وهو مفتعل من الضلاعة بالفتح وهى القوة ، قيل ولا يقال مطلع بالادغام . وقال أبو نصر أحمد بن حاتم : يقال هو مضطلع بهذا الأمر ، ومضطلع له ، فالاضطلاع من الضلاعة وهى القوة ، والاطلاع من العلو من قولهم : اطلعت الثنية أى علوتها، كذلك هو عال لذلك الأمر مالك له، وقال الليث: يقال إنى بهذا الأمر مضطلع ومطلع، الضاد تدغم فى التاء =

بذلك من الأرْمَلة واليتيم وذى العَيْلة[(١)] » .

وفى كتاب قتيبة إليه أنه على عبور النهر ومحاربة الترك :

« لا تخاطِرْ بالمسلمين حتى تعرفَ موضع قدمك ، ومَرْمَى سهامك » .

وإلى قتيبة :

« خذ أهل عسكرك بتلاوة القرآن ، فإنه أمْنع من حصونك » .

وفى كتاب صاحب الكوفة يخبره بسوء طاعتهم ، وما يقاسى من مداراتهم :

« ما ظنُّك بقوم قتلوا من كانوا يعبدونه ؟ » .

وفى قصة محبوس ذكروا أنه تاب :

« مَا عَلَى الْمُحْسِنِينَ مِنْ سَبِيلٍ » .

وفى كتابه إلى بعض عماله :

« إياكَ والملاَهِى حتى تَسْتَنْظِف[(٢)] خَرَاجَك » .

وفى كتاب إلى ابن أخيه :

« ما رَكِبَ يهودىّ قَبْلك مِنْبرا » .

وفى كتابه إلى يزيد بن أبى مُسْلِم[(٣)] :

« أنت أبو عبيدة هذا القَرْن » .

= أى تاء الافتعال التى قلبت طاء ـ فتصيران طاء مشددة، كما تقول ـ فى اظننى ـ اظنّنى: أى اتهمنى ـ واظلم إذا احتمل الظلم ، وروى أبو الهيثم قول أبى زبيد :

أخو المواطن عياف الخنا أنف للنائبات ولو أضلعن مطلم

(وأضلعن : أثقلن) ومطلم : هو القوى على الأمر المحتمل له ، أراد مضطلم، فأدغم ، هكذا رواه بخطه. قال ويروى «مضطلع» .

(١) العيلة : الفقر .

(٢) استنظف الوالى ما عليه من الخراج : استوفاه ، واستنظف الشىء : أخذه كله.

(٣) هو مولى الحجاج وكاتبه ، وروى صاحب العقد (٣ : ٢١) قال . « مات الحجاج فى آخر أيام الوليد بن عبد الملك ، فتفجع عليه وولى مكانه يزيد بن أبى مسلم كاتب الحجاج فاكتفى (وكنى الرجل واكتفى : كلاهما اضطلم) وجاوز ، فقال الوليد : « مات الحجاج ووليت مكانه يزيد بن أبى مسلم فكنت كمن سقط منه درهم وأصاب دينارا » .

أبو مسلم الخراسانى

وكتب قحطبة إلى أبى مسلم أن بعض قوّاده خرج إلى عسكر ابن ضُبارة[١] راغبا ، فوقع فى كتابه :

« أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ بَدَّلُوا نِعْمَةَ اللهِ كُفْرًا وَأَحَلُّوا قَوْمَهُمْ دَارَ الْبَوَارِ . جَهَنَّمَ يَصْلَوْنَهَا وَبِئْسَ الْقَرَارُ » .

ووقع إلى ابن قحطبة :

« وَلاَ تَرْكَنُوا إِلَى الَّذِينَ ظَلَمُوا فَتَمَسَّكُمُ النَّارُ » .

وإليه :

« وَلاَ تَنْسَ نَصِيبَكَ مِنَ الدُّنْيَا » .

وإليه :

« ادْعُ إِلَى سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحِكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ » .

(العقد الفريد ٢ : ١٨٥ ــ ١٩٠ ، ٣ : ٥ ، وزهر الآداب ١ : ٢٤٢ ، وخاص الخاص ص ٦٨)

تم الجزء الثانى بحمد الله وتوفيقه

ويليـــه الجزء الثالث وأوله :

الباب الرابع فى رسائل العصر العباسى الأول

(١) لما ورد على ابن هبيرة مقتل نباتة بن حنظلة بجرجان كما قدمنا ، كتب إلى عامر بن ضبارة وإلى ابنه داود بن يزيد بن عمر أن يسيرا إلى قحطبة، وكانا بكرمان ، ونشب القتال بين الفريقين ، فانهزم داود بن يزيد ، وقاتل ابن ضبارة حتى قتل سنة ١٣١ ــ انظر تاريخ الطبرى ٩ : ١٩٣ .

فهـــرس

الجزء الثانى

من جمهرة رسائل العرب

الباب الثالث

الرسائل فى العصر الأموى

رقم الصفحة	رقم الرسالة	الرســــالة
		خلافة الحسن ومعاوية
٨	١	كتاب عبد الله بن عباس إلى الحسن بن على رضى الله عنهم
١٠	٢	« الحسن إلى معاوية
١٠	٣	رد معاوية على الحسن
١١	٤	كتاب ابن عباس إلى معاوية
١١	٥	رد معاوية على ابن عباس
١٢	٦	كتاب الحسن إلى معاوية
١٣	٧	رد معاوية على الحسن
١٤		صورة أخرى لكتاب الحسن إلى معاوية
١٥		صورة أخرى لردمعاوية على الحسن
١٧	٨	كتاب معاوية إلى الحسن
١٨	٩	رد الحسن على معاوية
١٨	١٠	كتاب معاوية إلى عماله
١٩	١١	الصلح بين الحسن ومعاوية
٢٠	١٢	كتاب الحسن إلى معاوية بعد الصلح

رقم الصفحة	رقم الرسالة	الرســـــالة
٢١	١٣	كتاب معاوية إلى ابن عباس
٢١	١٤	رد ابن عباس على معاوية
٢٢	١٥	كتاب معاوية إلى الحسين بن علىّ
٢٢	١٦	رد الحسين على معاوية
٢٤	١٧	كتاب الحسين بن علىّ إلى معاوية
٢٤	١٨	رد معاوية على الحسين
٢٥	١٩	كتاب الحسين بن على إلى معاوية
٢٥	٢٠	رد معاوية على الحسين
٢٦	٢١	كتاب محمد بن الحنفية إلى الحسين
٢٧	٢٢	« الحسن بن علىّ إلى أهل البصرة
٢٨	٢٣	« ابن عباس إلى مجبرة الشام
٢٨	٢٤	« معاوية إلى عمرو بن العاص
٢٩	٢٥	رد عمرو على معاوية
٢٩	٢٦	كتب بين معاوية وبسر بن أبي أرطاة وبين زياد ابن أبيه
٣١	٢٧	كتاب معاوية إلى زياد
٣٢	٢٨	رد زياد على معاوية
٣٣	٢٩	رد معاوية على زياد
٣٥	٣٠	رد زياد على معاوية
٣٦	٣١	كتاب الحسن بن علىّ إلى زياد ابن أبيه
٣٧	٣٢	رد زياد على الحسن
٣٧	٣٣	رد الحسن على زياد
٣٨	٣٤	كتاب معاوية إلى زياد
٣٩	٣٥	كتاب زياد إلى معاوية
٣٩	٣٦	رد معاوية عليه
٤٠	٣٧	كتاب معاوية إلى زياد
٤٠	٣٨	رد زياد عليه
٤٠	٣٩	كتاب زياد إلى الحكم بن عمرو الغفارى

رقم الصفحة	رقم الرسالة	الرسالة
٤٠	٤٠	رد الحكم عليه
٤١	٤١	رد زياد عليه
٤١	٤٢	كتاب المغيرة بن شعبة إلى معاوية
٤٢	٤٣	رد معاوية عليه
٤٢	٤٤	بين معاوية والمغيرة بن شعبة
٤٣	٤٥	كتاب المستورد بن علفة الخارجى إلى سماك بن عبيد
٤٤	٤٦	كتاب حبيب بن مسلمة إلى أهل تفليس
٤٤	٤٧	عهد حبيب بن مسلمة لأهل تفليس
٤٥	٤٨	كتاب زياد إلى معاوية فى شأن حجر بن عدى
٤٧	٤٩	« شريح بن هانئ إلى معاوية
٤٨	٥٠	« معاوية إلى زياد
٤٨	٥١	رد زياد على معاوية
٤٨	٥٢	كتاب معاوية إلى زياد
٤٩	٥٣	« « « «
٥٠	٥٤	« زياد إلى معاوية
٥٠	٥٥	« السيدة عائشة إلى معاوية
٥٠	٥٦	« عبد الله بن الزبير إلى معاوية
٥١	٥٧	رد معاوية على ابن الزبير
٥١	٥٨	رد ابن الزبير على معاوية
٥٢	٥٩	كتاب سعيد بن العاص إلى معاوية
٥٣	٦٠	« معاوية إلى مروان بن الحكم
٥٣	٦١	« سعيد بن العاص إلى معاوية
٥٤	٦٢	ردّ معاوية على سعيد
٥٥	٦٣	كتاب معاوية إلى ابن عباس
٥٥	٦٤	« « « عبدالله بن جعفر
٥٦	٦٥	« « « الحسين
٥٦	٦٦	« « « ابن الزبير

رقم الصفحة	رقم الرسالة	الرسالة
٥٧	٦٧	رد ابن عباس على معاوية
٥٧	٦٨	رد عبد الله بن جعفر على معاوية
٥٨	٦٩	رد عبد الله بن الزبير على معاوية
٥٨	٧٠	رد الحسين على معاوية
٦٤	٧١	بين معاوية وسعيد بن العاص
٦٦	٧٢	كتاب معاوية إلى ابنه يزيد
		خلافة يزيد بن معاوية
٦٩	٧٣	كتاب يزيد إلى الوليد بن عتبة
٧٠		صورة أخرى
٧١	٧٤	كتاب أهل الكوفة إلى الحسين بن علي
٧٢	٧٥	« ثان
٧٣	٧٦	« ثالث
٧٣	٧٧	رد الحسين على أهل الكوفة
٧٤	٧٨	كتاب مسلم بن عقيل إلى الحسين
٧٤	٧٩	رد الحسين على مسلم
٧٤	٨٠	كتاب عبد الله بن مسلم الحضرمي إلى يزيد
٧٥	٨١	« يزيد إلى عبيد الله بن زياد
٧٥	٨٢	« الحسين إلى أهل البصرة
٧٦	٨٣	« مسلم بن عقيل إلى الحسين
٧٧	٨٤	« عبيد الله بن زياد إلى يزيد
٧٨	٨٥	رد يزيد على ابن زياد
٧٨	٨٦	كتاب عبد الله بن جعفر إلى الحسين
٧٩	٨٧	« من عمرو بن سعيد بن العاص إلى الحسين
٨٠	٨٨	رد الحسين على عمرو بن سعيد
٨٠	٨٩	كتاب الحسين إلى أهل الكوفة
٨١	٩٠	كتاب ابن زياد إلى الحر بن يزيد
٨١	٩١	« عمر بن سعد إلى ابن زياد

رقم الصفحة	رقم الرسالة	الرســـــالة
٨٢	٩٢	رد ابن زياد على عمر بن سعد
٨٢	٩٣	كتاب آخر من ابن زياد إلى عمر بن سعد
٨٣	٩٤	« عمر بن سعد إلى ابن زياد
٨٣	٩٥	« ابن زياد إلى عمر بن سعد
٨٤	٩٦	« عبد الله بن عمر إلى يزيد
٨٥	٩٧	« يزيد إلى ابن زياد
٨٥	٩٨	« عبد الله بن الزبير إلى يزيد
٨٦	٩٩	« يزيد إلى أهل المدينة
٨٧	١٠٠	« بنى أمية بالمدينة إلى يزيد
٨٧	١٠١	« مسلم بن عقبة إلى يزيد
		بعـد موت يزيد
		الخوارج وابن الزبير
٩٠	١٠٢	كتاب نجدة بن عامر إلى نافع بن الأزرق
٩٣	١٠٣	رد نافع على نجدة
٩٤	١٠٤	كتاب ابن عباس إلى نجدة بن عامر
٩٥	١٠٥	« نافع إلى خوارج البصرة
٩٦	١٠٦	« « « عبد الله بن الزبير
٩٧	١٠٧	« من عبد الله بن الزبير إلى المهلب بن أبى صفرة
٩٨	١٠٨	« المهلب إلى الحارث بن عبد الله
٩٩	١٠٩	رد الحارث بن عبد الله عليه
٩٩	١١٠	كتاب المهلب إلى الحارث بن عبد الله
١٠٠	١١١	رد الحارث بن عبد الله عليه
١٠٢	١١٢	كتاب مصعب بن الزبير إلى المغيرة بن المهلب
١٠٢	١١٣	« عمر بن عبيد الله إلى مصعب بن الزبير

رقم الصفحة	رقم الرسالة	الرسالة
		طلب التوابين بدم الحسين رضى الله عنه
١٠٣	١١٤	كتاب سليمان بن صرد إلى سعد بن حذيفة بن اليمان
١٠٥	١١٥	رد سعد بن حذيفة على ابن صرد
١٠٦	١١٦	كتاب المثنى بن مخرّبة إلى ابن صرد
١٠٧	١١٧	» عبد الله بن يزيد إلى ابن صرد
١٠٨	١١٨	رد ابن صرد عليه
		طلب المختار بن أبى عبيد الثقفى بدم الحسين رضى الله عنه
١١٠	١١٩	كتاب المختار إلى عبد الله بن عمر
١١١	١٢٠	» ابن عمر إلى عبد الله بن يزيد وإبراهيم بن طلحة
١١٢	١٢١	» المختار إلى أصحاب ابن صرد
١١٢	١٢٢	» إلى إبراهيم بن مالك الأشتر » افتعله المختار على محمد بن الحنفية
١١٤	١٢٣	» عبد الرحمن بن سعيد بن قيس إلى المختار
١١٥	١٢٤	رد المختار على عبد الرحمن بن سعيد
١١٥	١٢٥	كتاب المختار إلى عبد الرحمن بن سعيد
١١٦	١٢٦	» » » بالأمان لعمر بن سعد بن أبى وقاص
١١٧	١٢٧	» » » إلى محمد بن الحنفية
١١٧	١٢٨	» » » مالك بن مسمع وزياد بن عمرو
١١٨	١٢٩	» » » الأحنف بن قيس
١٢٠	١٣٠	» » » ابن الزبير
١٢١	١٣١	» » » » »
١٢٢	١٣٢	» » » » »
١٢٢	١٣٣	رد ابن الزبير على المختار
١٢٤	١٣٤	كتاب المختار إلى ابن الحنفية
١٢٤	١٣٥	رد ابن الحنفية على المختار
١٢٥	١٣٦	كتاب ابن الحنفية إلى الشيعة بالكوفة

رقم الصفحة	رقم الرسالة	الرســـــالة
١٢٦	١٣٧	كتاب عبد الله بن الزبير إلى عبد الله بن عبد الله بن عباس
١٢٧	١٣٨	رد ابن عباس عليه
		خلافة عبد الملك بن مروان
١٢٨	١٣٩	كتاب عبد الملك إلى عمرو بن سعيد بن العاص
١٢٩	١٤٠	رد عمرو بن سعيد على عبد الملك
		حروب الخوارج الأزارقة
١٣٠	١٤١	كتاب خالد بن عبد الله بن أسيد إلى عبد الملك بن مروان
١٣١	١٤٢	رد عبد الملك عليه
١٣٢	١٤٣	كتاب عبد الملك بن مروان إلى أخيه بشر
١٣٢	١٤٤	» خالد بن عبد الله بن أسيد إلى عبد الملك
١٣٣	١٤٥	» عبد الملك إلى أخيه بشر
١٣٤	١٤٦	» » » » » »
١٣٥	١٤٧	» » » » » »
١٣٦	١٤٨	» خالد بن عبد الله بن أسيد إلى المرفضّين من الجند
١٣٧	١٤٩	» المرفضين إلى عمرو بن حريث
١٣٧	١٥٠	رد عمرو بن حريث عليهم
١٣٨	١٥١	كتاب عبد الملك بن مروان إلى أخيه عبد العزيز
١٣٨	١٥٢	» عبد الله بن عمر إلى عبد الملك بن مروان
١٣٩	١٥٣	» محمد بن الحنفية إلى عبد الملك بن مروان
١٣٩	١٥٤	رد عبد الملك على ابن الحنفية
١٤٠	١٥٥	كتاب عبد الملك إلى الحجاج
١٤٠	١٥٦	» الحجاج إلى عبد الملك
١٤٠	١٥٧	» خالد بن أبان إلى موسى بن نصير
١٤٠	١٥٨	» الحجاج إلى عبد الملك
١٤١	١٥٩	» موسى بن نصير إلى عبد العزيز بن مروان
١٤٢	١٦٠	رد عبد العزيز على موسى

رقم الصفحة	رقم الرسالة	الرسالة
١٤٣	١٦١	رد موسى على عبد العزيز
١٤٣	١٦٢	كتاب عبد الملك إلى عبد العزيز
١٤٣	١٦٣	رد عبد العزيز على عبد الملك
١٤٤	١٦٤	كتاب عبد العزيز إلى عبد الملك
١٤٤	١٦٥	رد عبد الملك على عبد العزيز
١٤٥	١٦٦	كتاب الحجاج إلى المهلب
١٤٥	١٦٧	» » » »
١٤٥	١٦٨	رد المهلب على الحجاج
١٤٦	١٦٩	كتاب الحجاج إلى المهلب
١٤٦	١٧٠	رد المهلب على الحجاج
١٤٨	١٧١	كتاب الحجاج الى المهلب
١٤٨	١٧٢	رد المهلب على الحجاج
١٥٠	١٧٣	كتاب الحجاج إلى المهلب
١٥٠	١٧٤	رد المهلب على الحجاج
١٥١	١٧٥	كتاب الحجاج إلى عتاب بن ورقاء
١٥١	١٧٦	» المهلب إلى الحجاج
١٥٢	١٧٧	» عبد الملك إلى الحجاج
١٥٢	١٧٨	» عبد الملك إلى الحجاج
١٥٣	١٧٩	» الحجاج الى المهلب
١٥٣	١٨٠	» أبي خالد القناني إلى قطرى بن الفجاءة
١٥٤	١٨١	» قطرى إلى سبرة بن الجعد
١٥٥	١٨٢	» سبرة بن الجعد إلى الحجاج
١٥٦	١٨٣	» الحجاج إلى قطرى بن الفجاءة
١٥٧	١٨٤	رد قطرى بن الفجاءة على الحجاج
١٥٩	١٨٥	كتاب عبد الملك إلى الحجاج
١٦٠	١٨٦	» المهلب إلى الحجاج
١٦٠	١٨٧	رد الحجاج على المهلب

رقم الصفحة	رقم الرسالة	الرسالة
١٦١	١٨٨	رد المهلب على الحجاج
١٦٣	١٨٩	كتاب الحجاج إلى المهلب
١٦٤	١٩٠	رد المهلب على الحجاج
١٦٤	١٩١	كتاب المهلب إلى الحجاج
١٦٥	١٩٢	رد الحجاج على المهلب
		حروب الخوارج الشبيبية
١٦٧	١٩٣	كتاب شبيب بن يزيد إلى صالح بن مسرح
١٦٨	١٩٤	رد صالح بن مسرح على شبيب
١٦٨	١٩٥	كتاب الحجاج إلى سفيان بن أبي العالية
١٦٩	١٩٦	« سفيان بن أبي العالية إلى الحجاج
١٧٠	١٩٧	رد الحجاج على ابن أبي العالية
١٧٠	١٩٨	كتاب الحجاج إلى سورة بن أبجر
١٧٠	١٩٩	« الحجاج إلى الجزل بن سعيد
١٧١	٢٠٠	« الجزل بن سعيد إلى الحجاج
١٧٢	٢٠١	رد الحجاج على الجزل بن سعيد
١٧٣	٢٠٢	كتاب ماذرواسب إلى عروة بن المغيرة بن شعبة
١٧٣	٢٠٣	« عروة بن المغيرة بن شعبة إلى الحجاج
١٧٤	٢٠٤	« الحجاج إلى جند عبد الرحمن بن الأشعث
١٧٥	٢٠٥	« « « ابن الأشعث
١٧٥	٢٠٦	« عثمان بن قطن إلى الحجاج
١٧٥	٢٠٧	رد الحجاج على ابن القطن
١٧٦	٢٠٨	كتاب مطرف بن المغيرة بن شعبة إلى الحجاج
١٧٦	٢٠٩	« ماذرواسب إلى الحجاج
١٧٧	٢١٠	« الحجاج إلى عبد الملك بن مروان
١٧٧	٢١١	« « « جند الشام
١٧٨	٢١٢	« « « الحكم بن أيوب

رقم الصفحة	رقم الرسالة	الرسالة
١٧٩	٢١٣	كتاب عمران بن حطان إلى الحجاج
		فتنة مطرف بن المغيرة بن شعبة
١٨٠	٢١٤	كتاب مطرف إلى أخيه حمزة
١٨٠	٢١٥	« « « « سويد بن سرحان الثقفي وبكير بن هارون البجلي
١٨١	٢١٦	« البراء بن قبيصة إلى الحجاج
١٨١	٢١٧	رد الحجاج على البراء
١٨٢	٢١٨	كتاب الحجاج إلى قيس بن سعد العجلي
١٨٢	٢١٩	« قيس بن سعد إلى الحجاج
١٨٢	٢٢٠	« الحجاج إلى عدي بن وتاد
١٨٣	٢٢١	« « « « « «
١٨٣	٢٢٢	« « إلى خالد بن عتاب
١٨٣	٢٢٣	رد خالد على الحجاج
		فتنة ابن الأشعث
١٨٥	٢٢٤	كتاب الحجاج إلى عبيد الله بن أبي بكرة
١٨٥	٢٢٥	« « « عبد الملك
١٨٦	٢٢٦	رد عبد الملك على الحجاج
١٨٨	٢٢٧	كتاب الحجاج إلى ابن الأشعث
١٨٨	٢٢٨	« آخر من الحجاج إلى ابن الأشعث
١٨٨	٢٢٩	« ثالث من الحجاج إليه
١٨٩	٢٣٠	كتب بين ابن الأشعث والحجاج وصاحب اليمن وعبد الملك
١٩١	٢٣١	كتاب من ابن الأشعث إلى الحجاج — كتبه ابن القرية
١٩٣	٢٣٢	رد الحجاج على ابن الأشعث
١٩٤	٢٣٣	كتاب المهلب إلى ابن الأشعث
١٩٤	٢٣٤	« « « الحجاج
١٩٥	٢٣٥	« الحجاج إلى عبد الملك

رقم الصفحة	رقم الرسالة	الرسالة
١٩٧	٢٣٦	كتاب الحجاج إلى قتيبة بن مسلم
١٩٧	٢٣٧	« عبد الملك إلى الحجاج
١٩٨	٢٣٨	« « « « «
١٩٩	٢٣٩	رد الحجاج على عبد الملك
٢٠٠	٢٤٠	كتب الحجاج إلى رتبيل
٢٠١	٢٤١	كتاب عبد الملك إلى الحجاج
٢٠١	٢٤٢	« الحجاج إلى قتيبة بن مسلم
٢٠١	٢٤٣	رد قتيبة على الحجاج
٢٠٢	٢٤٤	كتاب الحجاج إلى المهلب
٢٠٣	٢٤٥	« المهلب إلى حريث بن قطبة
٢٠٣	٢٤٦	« يزيد بن المهلب إلى الحجاج
٢٠٤	٢٤٧	كتب بين الحجاج وعبد الملك ويزيد والمفضل ابني المهلب
٢٠٧	٢٤٨	كتاب الحجاج إلى أعراب قطعوا الطريق
٢٠٨	٢٤٩	« « « عبد الملك
٢٠٨	٢٥٠	« « « « «
٢٠٩	٢٥١	« « « « «
٢١٠	٢٥٢	« عمر بن عبد العزيز إلى عبد الملك
٢١٠	٢٥٣	« عبد الملك إلى ابنه مسلمة
٢١٠	٢٥٤	رد مسلمة عليه
٢١١	٢٥٥	كتاب عبد الملك إلى بعض ولده
٢١١	٢٥٦	« الحجاج إلى عبد الملك
٢١٢	٢٥٧	رد عبد الملك على الحجاج
٢١٣	٢٥٨	كتاب عبد الملك إلى الحجاج
٢١٦	٢٥٩	رد الحجاج على عبد الملك
٢١٨		رواية أخرى لكتاب عبد الملك
٢١٩	٢٦٠	كتاب عبد الملك إلى الحجاج
٢٢٥	٢٦١	رد الحجاج على عبد الملك

رقم الصفحة	رقم الرسالة	الرسالة
٢٣٠	٢٦٢	كتاب الشعبي إلى الحجاج
٢٣٠	٢٦٣	« امرأة إلى زوجها وكان مع الحجاج
٢٣١	٢٦٤	« البختري بن أبي صفرة إلى أخيه المهلب
٢٣٣	٢٦٥	رسالة الحسن البصري إلى الحجاج
٢٣٤	٢٦٦	كتاب بشر بن مروان إلى أخيه عبد العزيز
٢٣٤	٢٦٧	كتب بين عبد الملك وأخيه عبد العزيز
٢٣٦	٢٦٨	بين عبد الملك وهشام بن إسماعيل
		خلافة الوليد بن عبد الملك
٢٣٧	٢٦٩	كتاب الحجاج إلى الوليد
٢٣٧	٢٧٠	« « « «
٢٣٨	٢٧١	« شريح إلى صديق له
٢٣٨	٢٧٢	« الحجاج إلى قتيبة بن مسلم
٢٣٨	٢٧٣	بين الحجاج وقتيبة
٢٤٠	٢٧٤	« الوليد وعمر بن عبد العزيز
٢٤٠	٢٧٥	كتب بين الحجاج والوليد وسليمان ابني عبد الملك
٢٤٤	٢٧٦	كتاب الحجاج إلى قتيبة
٢٤٤	٢٧٧	« « « «
٢٤٥	٢٧٨	رد قتيبة على الحجاج
٢٤٥	٢٧٩	كتاب الحجاج إلى قتيبة
٢٤٥	٢٨٠	« « « «
٢٤٦	٢٨١	« قتيبة إلى الحجاج ورده عليه
٢٤٦	٢٨٢	« الحجاج إلى الوليد
٢٤٦	٢٨٣	« « « «
٢٤٧	٢٨٤	رد الوليد على الحجاج
٢٤٧	٢٨٥	كتاب مسلمة بن عبد الملك إلى الوليد
٢٤٧	٢٨٦	« سليمان بن عبد الملك إلى الحجاج

رقم الصفحة	رقم الرسالة	الرســـــالة
٢٤٩	٢٨٧	رد الحجاج على سليمان
٢٥٠	٢٨٨	كتاب الحجاج إلى سليمان
٢٥١	٢٨٩	بين عمر بن عبد العزيز والوليد والحجاج
٢٥٢	٢٩٠	كتاب الحجاج إلى الوليد
٢٥٣	٢٩١	» الوليد إلى قتيبة بن مسلم
٢٥٣	٢٩٢	» عروة بن الزبير إلى الوليد
٢٥٤	٢٩٣	رد الوليد على عروة
٢٥٤	٢٩٤	كتاب ملك الروم إلى الوليد ورد الفرزدق عليه
٢٥٥	٢٩٥	» الوليد إلى أخيه سليمان
٢٥٥	٢٩٦	رد سليمان على الوليد
٢٥٦	٢٩٧	رد الوليد على سليمان

خلافة سليمان بن عبد الملك

رقم الصفحة	رقم الرسالة	الرسالة
٢٥٧	٢٩٨	كتاب سليمان بن عبد الملك إلى عامله بالأردن
٢٥٨	٢٩٩	كتب من قتيبة بن مسلم إلى سليمان بن عبد الملك
٢٥٩	٢٩٩	رواية أخرى
٢٦٠	٣٠٠	كتاب يزيد بن المهلب إلى سليمان بن عبد الملك
٢٦١	٣٠١	ماقاضى عليه سليمان بن عبد الملك موسى بن نصير
٢٦٣	٣٠٢	كتاب سليمان بن عبد الملك إلى نفر بإفريقية
٢٦٣	٣٠٣	» سليمان إلى عبد الله بن موسى بن نصير
٢٦٤	٣٠٤	» » إلى عبد العزيز بن موسى بن نصير
٢٦٤	٣٠٥	» عمر بن عبد العزيز الوراق إلى أبي بكر بن حزم
٢٦٥	٣٠٦	عهد سليمان بن عبد الملك لعمر بن عبد العزيز بالخلافة
٢٦٥		صورة أخرى

رقم الصفحة	رقم الرسالة	الرســـــالة
		خلافة عمر بن عبد العزيز
٢٦٨	٣٠٧	كتاب عدى بن أرطاة والى البصرة إلى عمر بن عبد العزيز
٢٦٨	٣٠٨	رد عمر على كتابه
٢٦٩	٣٠٩	كتاب عدى بن أرطاة إليه
٢٦٩	٣١٠	رد عمر على كتابه
٢٧٠	٣١١	كتاب عدى بن أرطاة إليه
٢٧٠	٣١٢	رد عمر على كتابه
٢٧٠	٣١٣	كتابه إلى عدى بن أرطاة
٢٧١	٣١٤	» » » » »
٢٧١	٣١٥	» » » » »
٢٧٢	٣١٦	» » » » »
٢٧٢	٣١٧	» » » » »
٢٧٢	٣١٨	» » » » »
٢٧٣	٣١٩	» » » » »
٢٧٣	٣٢٠	» » » » »
٢٧٣	٣٢١	» » » » »
٢٧٤	٣٢٢	» » » » »
٢٧٤	٣٢٣	» » » » »
٢٧٥	٣٢٤	» » » » »
٢٧٥	٣٢٥	كتابه إلى عبد الحميد بن عبد الرحمن والى الكوفة
٢٧٦	٣٢٦	» » » » » » » » »
٢٧٦	٣٢٧	» » » » » » » » »
٢٧٨	٣٢٨	كتاب عبد الحميد بن عبد الرحمن إليه
٢٧٨	٣٢٩	رد عمر عليه
٢٧٨	٣٣٠	كتابه إلى عبد الحميد بن عبد الرحمن
٢٧٨	٣٣١	» » صالح بن عبد الرحمن وصاحبه

رقم الصفحة	رقم الرسالة	الرســــالة
٢٧٩	٣٣٢	كتابه إلى بن أبى الفرات
٢٧٩	٣٣٣	» » ميمون بن مهران عامله بالجزيرة
٢٨٠	٣٣٤	» » أمير الجزيرة
٢٨٠	٣٣٥	» » » »
٢٨٠	٣٣٦	» » يحيى بن يحيى عامله بالموصل
٢٨١	٣٣٧	» » جماعة من الحرورية
٢٨٢	٣٣٨	» » يحيى بن يحيى
٢٨٣	٣٣٩	» » أبى بكر بن حزم عامله بالمدينة
٢٨٣	٣٤٠	كتاب ابن حزم إليه
٢٨٤	٣٤١	» » » »
٢٨٤	٣٤٢	» » » »
٢٨٤	٣٤٣	رد عمر على كتب ابن حزم
٢٨٥	٣٤٤	كتابه إلى ابن حزم
٢٨٦	٣٤٥	» إلى أمير مكة
٢٨٦	٣٤٦	» إلى عروة بن محمد عامله باليمن
٢٨٧	٣٤٧	» إلى عامله باليمن
٢٨٧	٣٤٨	كتاب وهب بن منبه إلى عمر
٢٨٧	٣٤٩	رد عمر على كتابه
٢٨٨	٣٥٠	كتابه إلى والى حمص
٢٨٨	٣٥١	» إلى عامله بإفريقية
٢٨٨	٣٥٢	» إلى يزيد بن المهلب عامل خراسان
٢٨٩	٣٥٣	كتاب الجراح بن عبد الله عامل خراسان إلى عمر بن عبد العزيز
٢٨٩	٣٥٤	رد عمر عليه
٢٩٠	٣٥٥	كتاب عمر إلى الجراح بن عبد الله
٢٩٠	٣٥٦	كتابه لى الجراح
٢٩٠	٣٥٧	رد الجراح على كتابه
٢٩١	٣٥٨	كتابه إلى الجراح

رقم الصفحة	رقم الرسالة	الرسالة
٢٩١	٣٥٩	رد الجراح على كتابه
٢٩١	٣٦٠	كتابه إلى الجراح
٢٩٢	٣٦١	» » »
٢٩٢	٣٦٢	» » أهل خراسان
٢٩٢	٣٦٣	» » عبد الرحمن بن نعيم عامله بخراسان
٢٩٣	٣٦٤	» » » » » »
٢٩٣	٣٦٥	» » » » » »
٢٩٣	٣٦٦	» » » » » »
٢٩٣	٣٦٧	كتابه إلى عقبة بن زرعة
٢٩٤	٣٦٨	» » سليمان بن أبى السرى والى سمرقند
٢٩٤	٣٦٩	» » » » » » » »
٢٩٥	٣٧٠	» » حيان بن شريح
٢٩٤	٣٧١	كتاب حيان بن شريح إليه
٢٩٥	٣٧٢	رده على حيان بن شريح
٢٩٦	٣٧٣	كتابه إلى عماله
٢٩٦	٣٧٤	ردهم عليه
٢٩٦	٣٧٥	رده عليهم
٢٩٦	٣٧٦	كتابه إلى بعض عماله
٢٩٧	٣٧٧	» » » »
٢٩٧	٣٧٨	كتاب إلى أحد عماله
٢٩٧	٣٧٩	» » عماله
٢٩٧	٣٨٠	» » بعض عماله
٢٩٨	٣٨١	» » عماله
٢٩٨	٣٨٢	» » زريق بن حيان
٢٩٨	٣٨٣	» » جعفر بن برقان
٢٩٩	٣٨٤	» » ثابت بن ثوبان
٢٩٩	٣٨٥	» » بعض عماله

رقم الصفحة	رقم الرسالة	الرسالة
٣٠٠	٣٨٦	كتاب إلى بعض عماله
٣٠٠	٣٨٧	« « « «
٣٠١	٣٨٨	« « « «
٣٠١	٣٨٩	« بعض عماله إليه
٣٠١	٣٩٠	رد عمر على كتابه
٣٠١	٣٩١	كتاب بعض ولاته إليه
٣٠٢	٣٩٢	رد عمر على كتابه
٣٠٢	٣٩٣	كتابه إلى بعض عماله
٣٠٢	٣٩٤	« « عماله
٣٠٢	٣٩٥	« « «
٣٠٣	٣٩٦	كتاب أحد عماله إليه
٣٠٣	٣٩٧	رد عمر عليه
٣٠٣	٣٩٨	كتابه إلى بعض عماله
٣٠٤	٣٩٩	« إلى عماله
٣٠٤	٤٠٠	كتاب لعمر
٣٠٥	٤٠١	كتابه إلى أخ له
٣٠٥	٤٠٢	« « بعض أهل بيته
٣٠٥	٤٠٣	« « عمر بن عبدالله بن عتبة يعزيه
٣٠٦	٤٠٤	« « رجاء بن حيوة
٣٠٦	٤٠٥	« لأهل العلم
٣٠٦	٤٠٦	« إلى جنده
٣٠٧	٤٠٧	« « بعض الأجناد
٣٠٩	٤٠٨	« « نفر كذبوا بالقدر
٣١٠	٤٠٩	« « أهل الموسم
٣١١	٤١٠	« بشأن كسوة البيت الحرام
٣١١	٤١١	« إلى الأسارى بقسطنطينية
٣١١	٤١٢	رسالته إلى أهل الأمصار في الأنبذة

رقم الصفحة	رقم الرسالة	الرســـالة
٣١٢		صورة أخرى
٣١٣	٤١٣	كتابه إلى ابنه عبد الملك
٣١٤	٤١٤	« « ولى عهده يزيدبن عبد الملك
٣١٥	٤١٥	« « يزيد
٣١٥	٤١٦	« « «
٣١٥	٤١٧	« « مؤدب ولده
٣١٦	٤١٨	كتاب عمر بن الوليد بن عبد الملك إلى عمر بن عبد العزيز
٣١٧	٤١٩	ردعمر على كتابه
٣١٩	٤٢٠	كتابه حين توفى ابنه عبد الملك
٣٢١	٤٢١	« إلى سالم بن عبد الله بن عمر بن الخطاب
٣٢٢	٤٢٢	رد سالم على كتاب عمر
٣٢٤	٤٢٣	كتاب الحسن البصرى إلى عمر (صفة الإمام العادل)
٣٢٦	٤٢٤	رسالة الحسن البصرى إلى عمر
٣٢٩	٤٢٥	كتاب الحسن البصرى إلى عمر
٣٣٠	٤٢٦	« عمر إلى الحسن البصرى
٣٣٠	٤٢٧	« الحسن البصرى إلى عمر
٣٣١	٤٢٨	« « « « «
٣٣١	٤٢٩	« « « « «
٣٣١	٤٣٠	« « « « «
٣٣٢	٤٣١	« « « « «
٣٣٢	٤٣٢	« « « « «
٣٣٣	٤٣٣	« « « « «
٣٣٣	٤٣٤	« « « « «
٣٣٣	٤٣٥	« « « « «
٣٣٣	٤٣٦	« « « « عدى بن أرطاة
٣٣٤	٤٣٧	« « « « مكحول
٣٣٥	٤٣٨	« طاوس بن كيسان إلى عمر بن عبد العزيز

رقم الصفحة	رقم الرسالة	الرســـــالة
٣٣٥	٤٣٩	كتاب طاوس بن كيسان إلى عمر بن عبد العزيز
٣٣٥	٤٤٠	» غيلان إلى عمر بن عبد العزيز
		خلافة يزيد بن عبد الملك
٣٣٧	٤٤١	كتابه إلى العمال
٣٣٧	٤٤٢	» » أخيه هشام
٣٣٨	٤٤٣	رد هشام عليه
٣٣٨	٤٤٤	رد يزيد على هشام
٣٣٩		رواية أخرى
		خلافة هشام بن عبد الملك
٣٤١	٤٤٥	كتاب هشام إلى يوسف بن عمر
٣٤٣	٤٤٦	» حماد الراوية إلى بعض الرؤساء
٣٤٣	٤٤٧	رد كتاب حماد
٣٤٣	٤٤٨	رد حماد
٣٤٤	٤٤٩	كتاب حماد إلى صديق له
٣٤٤	٤٥٠	» أشرس بن عبد الله إلى ابن أبي العمرطة
٣٤٤	٤٥١	» عاصم بن عبد الله إلى هشام
٣٤٥	٤٥٢	رسالة هشام إلى خالد بن عبد الله القسرى
٣٥١	٤٥٣	كتاب هشام إلى خالد القسرى
٣٥٣	٤٥٤	» » » ابن عمرو
٣٥٥	٤٥٥	» » » خالد
٣٥٥	٤٥٦	» » » »
٣٥٦	٤٥٧	» » » »
٣٥٦	٤٥٨	رد خالد عليه
٣٥٧	٤٥٩	كتاب عقال بن شبة إلى خالد
٣٥٧	٤٦٠	» هشام إلى يوسف بن عمر الثقفى
٣٥٨	٤٦١	بين يوسف بن عمر وهشام

رقم الصفحة	رقم الرسالة	الرســـــالة
٣٥٩	٤٦٢	بين يوسف بن عمر وهشام
٣٦٠	٤٦٣	كتاب هشام إلى يوسف بن عمر
٣٦١	٤٦٤	« عبد الله بن الحسن إلى زيد بن على
٣٦٢	٤٦٥	« هشام إلى يوسف بن عمر
٣٦٤	٤٦٦	« سالم بن هشام إلى يوسف بن عمر
٣٦٥	٤٦٧	« يوسف بن عمر إلى هشام
٣٦٦	٤٦٨	« « « « « «
٣٦٦	٤٦٩	رد هشام على يوسف
٣٦٧	٤٧٠	كتاب أحد عمال يوسف بن عمر إليه
٣٦٧	٤٧١	« رجل من حمص إلى هشام
٣٦٨	٤٧٢	« سليمان بن هشام إلى أبيه
٣٦٨	٤٧٣	رد هشام عليه
٣٦٨	٤٧٤	كتاب بعض عمال هشام إليه
٣٦٩	٤٧٥	رد هشام عليه
٣٦٩	٤٧٦	كتابه إلى بعض عماله
٣٦٩	٤٧٧	كتاب سالم إلى بعض إخوانه
٣٧٠	٤٧٨	كتابه فى الاعتذار
٣٧٠	٤٧٩	كتاب عبد الحميد بن يحيى عن هشام إلى يوسف بن عمر
٣٧١	٤٨٠	« « « « « « « مروان إلى هشام
٣٧١	٤٨١	كتابه عن مروان إلى هشام
٣٧٤	٤٨٢	رسالة عبد الحميد فى وصف الإخاء
٣٧٥	٤٨٣	كتاب الوليد بن يزيد بن عبد الملك إلى هشام
٣٧٦	٤٨٤	« أبى شاكر مسلمة بن هشام إلى خالد القسرى
٣٧٧	٤٨٥	« هشام إلى الوليد
٣٧٨	٤٨٦	« الوليد إلى هشام
٣٧٩	٤٨٧	رد هشام على الوليد
٣٨١	٤٨٨	رد الوليد على هشام

رقم الصفحة	رقم الرسالة	الرسالة
		خلافة الوليد بن يزيد بن عبد الملك
٣٨٢	٤٨٩	كتاب مروان بن محمد إلى الوليد
٣٨٤	٤٩٠	« الوليد إلى الأمصار بالبيعة لابنيه
٣٩٠	٤٩١	« يوسف بن عمر إلى نصر بن سيار
٣٩١	٤٩٢	« الوليد إلى يوسف بن عمر
٣٩٢	٤٩٣	« « « « « «
٣٩٣	٤٩٤	« « « « « «
٣٩٣	٤٩٥	كتاب نصر بن سيار إلى الوليد
٣٩٤	٤٩٦	رد الوليد على نصر
٣٩٤	٤٩٧	كتاب مروان بن محمد إلى سعيد بن عبد الملك إلى مروان
		خلافة يزيد بن الوليد بن عبد الملك
٣٩٧	٤٩٨	كتابه إلى مروان بن محمد
٣٩٧	٤٩٩	كتاب منصور بن جمهور إلى سليمان بن سليم
٣٩٨	٥٠٠	« يزيد إلى أهل العراق
٤٠٠	٥٠١	« مروان بن محمد إلى الغمر بن يزيد
٤٠٢	٥٠٢	« يزيد بالأمان للحارث بن سريج
٤٠٣	٥٠٣	« منصور بن عمر إلى نصر بن يسار
		خلافة مروان بن محمد
٤٠٤	٥٠٤	كتابه إلى بعض الخوارج
٤٠٦	٥٠٥	رسالة عبد الحميد بن يحيى عن مروان إلى ابنه عبد الله بن مروان
٤٥٥	٥٠٦	« « « إلى الكتاب
٤٦٠	٥٠٧	« « « في الشطرنج
٤٦٤	٥٠٨	« « « في وصف الصيد
٤٦٨	٥٠٩	كتابه إلى أخيه
٤٦٩	٥١٠	تحميد لعبد الحميد

رقم الصفحة	رقم الرسالة	الرسالة
٤٧٠	٥١١	تحميد له فى فتح
	٥١٢	وله فى فتح
٤٧٠	٥١٣	تحميد له
٤٧٢	٥١٤	كتابه إلى مروان فى حاجة
٤٧٢	٥١٥	« فى الوصاة بشخص
٤٧٣	٥١٦	« فى فتنة بعض العمال
٤٧٣	٥١٧	« عن مروان إلى بعض عماله
		الدعوة العباسية
٤٧٥	٥١٨	بين محمد بن على بن عبد الله بن عباس وبين من استجاب لدعوته من أهل خراسان
٤٧٦	٥١٩	كتاب إبراهيم بن محمد إلى شيعته بخراسان
٤٧٧	٥٢٠	« إبراهيم بن محمد إلى أبى مسلم الخراسانى وكتابه إلى سليمان بن كثير
٤٧٨	٥٢١	كتاب أبى مسلم إلى نصر بن سيار
٤٧٩	٥٢٢	« نصر بن سيار إلى مروان بن محمد
٤٧٩	٥٢٣	» » » » » » » »
٤٨٠	٥٢٤	رد مروان عليه
٤٨١	٥٢٥	كتاب نصر إلى يزيد بن عمر بن هبيرة
٤٨١	٥٢٦	كتب من أبى مسلم إلى قحطبة بن شبيب ، وكتب بين نصر بن سيار . ومروان بن محمد وابن هبيرة
٤٨٣	٥٢٧	كتاب نصر إلى مروان
٤٨٥	٥٢٨	« عبد الحميد عن مروان إلى أبى مسلم الخراسانى
٤٨٥	٥٢٩	رد أبى مسلم عليه
٤٨٦	٥٣٠	من رسالة لعبد الحميد عن مروان
٤٨٦	٥٣١	كتاب عبد الحميد إلى أهله
٤٨٧	٥٣٢	« عبد الله بن معاوية بن عبد الله بن جعفر إلى بعض إخوانه
٤٨٨	٥٣٣	كتابه إلى أبى مسلم الخراسانى

رقم الصفحة	رقم الرسالة	الرسالة
		التوقيعات
٤٩١		توقيعات معاوية
٤٩٢		« يزيد بن معاوية
٤٩٣		« عبد الملك بن مروان
٤٩٤		« الوليد بن عبد الملك
٤٩٤		« سليمان بن عبد الملك
٤٩د		« عمر بن عبد العزيز
٤٩٧		« يزيد بن عبد الملك
٤٩٧		« هشام بن عبد الملك
٤٩٨		« يزيد بن الوليد بن عبد الملك
٤٩٨		« مروان بن محمد
٥٠٠		« عبد الله بن على
٥٠٠		« زياد
٥٠٢		« الحجاج بن يوسف
٥٠٤		« أبى مسلم الخراسانى

فهرس أعلام الكتاب

مرتب بترتيب الحروف الهجائية

مع إتباع اسم كل كاتب بأرقام الصفحات التى وردت فيها رسائله

ا

إبراهيم الإمام ٤٧٦ ، ٤٧٧
أبو بكر بن حزم ٢٨٣ ، ٢٨٤ ، ٢٨٥
أبو خالد القنانى ١٥٣ ، ١٥٤
أبو مسلم الخراسانى ٤٧٨ ، ٤٨١ ، ٤٨٥
أشرس بن عبد الله ٣٤٤
أيوب بن القرية ١٩١

ب

البختري بن أبي صفرة ٢٣١
البراء بن قبيصة ١٨١
بسر بن أبي أرطاة ٢٩
بشر بن مروان ٢٣٤

ج

الجراح بن عبد الله ٢٨٩ ، ٢٩٠ ، ٢٩١ ، ٢٩٢
الجزل بن سعيد ١٧١

ح

الحارث بن عبد الله ٩٩ ، ١٠٠
حبيب بن مسلمة ٤٤
الحجاج بن يوسف الثقفى ١٤٠ ، ١٤١ ، ١٤٥ ، ١٤٦ ، ١٤٨ ، ١٤٩ ، ١٥٠ ، ١٥١ ، ١٥٢ ، ١٥٣ ، ١٥٥ ، ١٥٦ ، ١٥٧ ، ١٥٨ ، ١٥٩ ، ١٦٠ ، ١٦١ ، ١٦٣ ، ١٦٤ ، ١٦٥ ، ١٦٨ ، ١٦٩ ، ١٧٠ ، ١٧١ ، ١٧٢ ، ١٧٣ ، ١٧٤ ، ١٧٥ ، ١٧٦ ، ١٧٧ ، ١٧٨ ، ١٧٩ ، ١٨١ ، ١٨٢ ، ١٨٣ ، ١٨٥ ، ١٨٦ ، ١٨٨ ، ١٨٩ ، ١٩١ ، ١٩٣ ، ١٩٤ ، ١٩٥ ، ١٩٦ ، ١٩٧ ، ١٩٨ ، ١٩٩ ، ٢٠٠ ، ٢٠١ ، ٢٠٢ ، ٢٠٣ ، ٢٠٤ ، ٢٠٧ ، ٢٠٨ ، ٢٠٩ ، ٢١١ ، ٢١٢ ، ٢١٣ ، ٢١٦ ، ٢١٨ ، ٢١٩ ، ٢٢٥ ، ٢٣٠
الحسن البصرى ٢٣٣ ، ٣٢٤ ، ٣٢٦ ، ٣٢٩ ، ٣٣٠ ، ٣٣١ ، ٣٣٢ ، ٣٣٣ ، ٣٣٤
الحسن بن على رضى الله عنه ١٠ ، ١٢ ، ١٨ ، ١٩ ، ٢٠ ، ٢٧ ، ٣٧
الحسين بن على رضى الله عنه ٢٢ ، ٢٤ ، ٢٥ ، ٧١ ، ٧٣ ، ٧٤ ، ٧٥ ، ٨٠ ، ٨٠
الحكم بن عمرو ٤٠

حماد الراوية ٣٤٣ ، ٣٤٤

حيان بن شريح ٢٩٥

خ

خالد بن أبان ١٤٠

خالد بن عبد الله بن أسيد ١٣٠ ، ١٣٢ ، ١٣٦

خالد بن عبد الله القسرى ٣٥١

خالد بن عتاب ١٨٣

ز

زياد بن أبيه ٢٩ ، ٣٢ ، ٣٥ ، ٣٧، ٣٩ ، ٤٠ ، ٤١ ، ٤٥ ، ٤٨ ، ٥٠

س

سالم أبو العلاء ٣٦٩ ، ٣٧٠

سالم بن عبد الله بن عمر ٣٢١

سالم بن هشام ٣٦٤

سبرة بن الجعد ١٥٥

سعد بن حذيفة ١٠٥

سعيد بن العاص ٥٢ ، ٥٣ : ٦٤

سفيان بن أبي العالية ١٦٩

سليمان بن صرد ١٠٣ ، ١٠٨

سليمان بن عبد الملك ٢٤٠، ٢٤٧ ، ٢٥٥، ٢٥٦ ، ٢٦١ : ٢٦٣ ، ٢٦٣ ، ٢٦٥ ، ٤٩٤

سليمان بن هشام بن عبد الملك ٣٦٨

ش

شبيب بن يزيد ١٦٧

شريح بن الحارث ٢٣٨

شريح بن هانئ ٤٧

الشعبى ٢٣٠

ص

صالح بن مسرح ١٦٨

ط

طاوس بن كيسان ٣٣٥

ع

السيدة عائشة ٥٥

عاصم بن عبد الله ٣٤٤

عبد الحميد بن عبد الرحمن ٢٧٨

عبد الحميد بن يحيى ٣٧٠، ٣٧١ ، ٣٧٢، ٤٠٦ ، ٤٥٥ ، ٤٦٠ ، ٤٦٤ ، ٤٦٨ ، ٤٦٩ ، ٤٧٠ ، ٤٧٠ ، ٤٧١ ، ٤٧٢ ، ٤٧٣ ، ٤٧٣ ، ٤٨٥ ، ٤٨٥ ، ٤٨٦

عبد الرحمن بن الأشعث ١٨٩ ، ١٩١

عبد الرحمن بن سعيد بن قيس ١١٤

عبد العزيز بن مروان ١٤٢، ١٤٣، ١٤٥ ٢٣٤

عبد الله بن جعفر ٥٧ ، ٧٨

« « « الحسن ٣٦١

« « « الزبير ٥٠ ، ٥٧، ٨٥، ٩٧، ١٢٢ ، ١٢٦

عبد الله بن عباس ٨ ، ١١ ، ٢١، ٢٨ ، ٥٧ ، ٩٤ ، ١٢٧

عبد الله بن على ٥٠٠

« « « عمر ٨٤ ، ١١١ ، ١٣٨ .

« « « معاوية بن عبد الله بن جعفر ٤٨٧ ، ٤٨٨

عبد الله بن مسلم الحضرمى ٧٤
» » » يزيد ١٠٧
عبيد الله بن زياد ٧٧ ، ٨١ ، ٨٢ ، ٨٣
عبد الملك بن مروان ١٢٨ ، ١٣١ ، ١٣٢ ، ١٣٣ ، ١٣٤ ، ١٣٥ ، ١٣٧ ، ١٣٩ ، ١٤٠ ، ١٤٣ ، ١٤٤ ، ١٥٢ ، ١٥٩ ، ١٨٦ ، ١٨٩ ، ١٩٧ ، ١٩٨ ، ٢٠١ ، ٢٠٩ ، ٢١٠ ، ٢١٠ ، ٢١٢ ، ٢١٣ ، ٢١٩ ، ٢٢٥ ، ٢٣٤ ، ٢٣٦ ، ٤٩٣
عثمان بن قطن ١٧٥
عدى بن أرطاة ٢٦٨ ، ٢٦٨ ، ٢٧٠
عروة بن الزبير ٢٥٣
عقال بن شبة ٣٠٧
عمر بن سعد ٨١ ، ٨٣
عمر بن عبيد الله ١٠٢
عمر بن عبد العزيز ٢٣٠ ، ٢٥١ ، ٢٦٨ ، ٢٧٠ ، ٢٧١ ، ٢٧٢ ، ٢٧٣ ، ٢٧٤ ، ٢٧٥ ، ٢٧٦ ، ٢٧٨ ، ٢٧٨ ، ٢٧٩ ، ٢٨٠ ، ٢٨١ ، ٢٨٢ ، ٢٨٣ ، ٢٨٤ ، ٢٨٥ ، ٢٨٦ ، ٢٨٧ ، ٢٨٨ ، ٢٨٩ ، ٢٩٠ ، ٢٩١ ، ٢٩١ ، ٢٩١ ، ٢٩٣ ، ٢٩٣ ، ٢٩٣ ، ٢٩٤ ، ٢٩٥ ، ٢٩٦ ، ٢٩٧ ، ٢٩٧ ، ٢٩٨ ، ٢٩٩ ، ٣٠١ ، ٣٠١ ، ٣٠٢ ، ٣٠٢ ، ٣٠٣ ، ٣٠٤ ، ٣٠٥ ، ٣٠٦ ، ٣٠٩ ، ٣١٠ ، ٣١١ ، ٣١١ ، ٣١٣ ، ٣١٤ ، ٣١٥ ، ٣١٥ ، ٣١٧ ، ٣١٩ ، ٣٢١ ، ٣٣٠ ، ٤٩٤
عمر بن عبد العزيز الوراق ٢٦٤
عمر بن الوليد بن عبد الملك ٣١٦

غ

غيلان ٣٣٥

ف

الفرزدق ٢٥٢
عمرو بن حريث ١٣٧
عمرو بن سعيد بن العاص ٧٩ ، ٢٩
عمرو بن العاص ٢٨
عمران بن حطان ٢٧٠

ق

قتيبة بن مسلم ٢٠١ ، ٢٤٤ ، ٢٤٥ ، ٢٥٨
قطرى بن الفجاءة ١٥٣ ، ١٥٧
قيس بن سعد ٢١٩

م

ماذر واسب ١٧٣ ، ١٧٦
المثنى بن مخربة ١٠٦
محمد بن الحنفية ٢٦ ، ١٢٤ ، ١٢٥ ، ١٣٩
المختار بن أبى عبيد الثقفى ١١٠ ، ١١٢ ، ١١٢ ، ١١٤ ، ١١٥ ، ١١٧ ، ١١٧ ، ١١٨ ، ١٢٠ ، ١٢١ ، ١٢٢ ، ١٢٤
مروان بن محمد ٣٨٢ ، ٣٩٤ ، ٤٠٠ ، ٤٠٤ ، ٤٨٠ ، ٤٨١ ، ٤٩٨
مسلمة بن عبد الملك ٢١٠ ، ٢٤٧
مسلمة بن هشام بن عبد الملك ٣٧٦
مصعب بن الزبير ١٠٢
مطرف بن المغيرة بن شعبة ١٧٦ ، ١٨٠
المغيرة بن شعبة ٤٠١ ، ٤٢٢

المفضل بن المهلب ٢٠٤
المستورد بن علفة ٤٣
مسلم بن عقبة ٨٧
مسلم بن عقيل ٧٧، ٧٨
معاوية ١٠ ، ١١ ، ١٣، ١٧، ١٨، ١٩، ٢١ ، ٢٢ ، ٢٤ ، ٢٥، ٢٨، ٢٩ ، ٣١ ، ٣٢ ، ٨ ، ٣٩ ، ٤٢ ، ٤٣ ، ٤٧ ، ٤٨ ، ٤٩ ، ٥٠ ، ٥٣ ، ٥٣ ، ٥٥ ، ٥٥ ، ٥٦ ، ٦٤ ، ٦٦ ، ٤٩١
منصور بن جمهور ٣٩٧
منصور بن عمر ٤٠٣
المهلب بن أبي صفرة ٩٨ ، ٩٩ ، ١٤٥، ١٤٦ ، ١٤٨ ، ١٥٠ ، ١٥١ ، ١٦٠ ، ١٦٠، ١٦٤ ، ١٦٤ ، ١٩٤، ١٩٤، ٢٠٣
موسى بن نصير ١٤١ ، ١٤٣

ن

نافع بن الأزرق ٩٣ ، ٩٥ ، ٩٦
نجدة بن عامر ٩٠
نصر بن سيار ٣٩٣ ، ٤٧٩ ، ٤٨٠ ، ٤٨١ ، ٤٨٣

هـ

هشام بن إسمعيل ٢٣٦
هشام بن عبد الملك ٣٣٧، ٣٤١، ٣٤٥، ٣٥١ ، ٣٥٣، ٣٥٥ ، ٣٥٦ ، ٣٥٧ ، ٣٥٩ ، ٣٦٠ ، ٣٦٢ ، ٣٦٦ ، ٣٦٨ ، ٣٦٩ ، ٣٧٧ ، ٣٧٩ ، ٤٩٧

و

الوليد بن عبدالملك ٢٤٠ ، ٢٤٠ ، ٢٤٧ ، ٢٥١ ، ٢٥٣ ، ٢٥٣ ، ٢٥٥ ، ٤٩٤
الوليد بن يزيد بن عبدالملك ٣٧٥ ، ٣٧٨ ، ٣٨١ ، ٣٨٤ ، ٣٩١ ، ٣٩٣ ، ٣٩٣ ، ٣٩٤
وهب بن منبه ٢٨٦

ى

يزيد بن عبد الملك ٣٣٧ ، ٣٣٧ ، ٣٣٨ ، ٣٩٣ ، ٤٩٧
يزيد بن معاوية ٦٩ ، ٧٥ ، ٧٨ ، ٨٥، ٨٦ ، ٤٩٢
يزيد بن المهلب ٢٠٣ ، ٢٠٤ ، ٢٦٠
يزيد بن الوليد بن عبد الملك ٩٧ ، ٣٩٨ ، ٤٠٢ ، ٤٩٨
يوسف بن عمر الثقفي ٣٥٧، ٣٥٩ ، ٣٦٥ ، ٣٦٦ ، ٤٧٣

تم فهرس الكتاب

فهرس

بعض ماورد فى الهامش من الفوائد التى قد يحتاج القارىء إلى مراجعتها

٣١ لاأُمَّ لك
٣١ لاأبا لك
٤٥ أبو تراب
٤٦ السَّبَئية
٤٧ ركبت الصُّلَيْعاء
٤٩ لُكنة عبيد الله بن زياد
٥٩ قَسَط وأقسط
٥٩ المُحِلّ
٦٠ عمرو بن الحمق
٦١ اضطهاد بنى أمية أهل البيت
٦٢ رحلتا قريش فى الجاهلية
٦٣ مجانة يزيد بن معاوية
٦٧ إثبات هاء السكت فى الوصل
٧٢ الدَّولة والدُّولة
٨١ جَعْجَع به
٨٤ مادهرى بكذا ، وما دهرى كذا
٨٤ علىَّ قول
٩١ الشُّرَاة
٩٣ المعذَّرون
٩٥ الدَّكَّة
١٠٢ تفرقوا شَذَرَ مَذَرَ
١١٨ وَيْلُمِّه
١١٩ سجع المختار - مذهبه
١٢٤ حبس ابن الزبير لابن الحنفية وسجن عارم
١٢٦ العصران
١٤١ تنجيم الدَّين
١٤٦ نسب ثقيف
١٤٨ متهيِّم
١٥٢ حرب فسَرُوس
١٥٦ طبقات النسب
١٥٦ مَزُون
١٥٧ عَلْماء - بَلْحارث - بَلْعنبر
١٥٧ أم حكيم
١٦١ الخلاف بين الأزارقة وكيد المهلب لهم
١٦٧ الخوارج الصُّفرية
١٧٨ غَزَالة الخارجيّة
١٧٩ الحَرُوريّة
١٩٧ سعيد بن جبير والحجاج
٢٠٤ الحجاج واللحن
٢٠٤ ماأنت بأبى عُذْرَته
٢١٨ أصمَّ الله صداه
٢٢١ أول ماظهر من أمر الحجاج
٢٢١ يابن اللَّخْناء
٢٣٠ الفارعة أم الحجاج
٢٣٠ كرم الحجاج

٢٣٦ سعيد بن المسيّب
٢٤٥ لله درّه
٢٤٨ الحمراء والبيضاء
٢٥٠ عمل الحجاج قبل أن ينبه شأنه
٢٦١ غضب سليمان بن عبد الملك على موسى
ابن نصير
٢٧٢ القدَريّة
٢٧٧ الدراهم فى عهد عمر بن الخطاب
٢٧٧ الآيين
٢٧٧ المِهرَجان
٢٨٥ فَدَك
٣١١ الطِّلاء
٣٢٤ الحسن البصرى
٣٣٤ مكحول بن عبد الله
٣٣٥ غيلان القدَرى
٣٤٦ أطعمونى ماء
٣٤٧ خالد القسرى واتهامه فى دينه
٣٤٨ خالد القسرى ورأس الحجبة
٣٤٩ نهر المبارك
٣٥٠ أصل خالد القسرى
٣٥٥ أم هشام بن عبد الملك وحمقها
٣٥٨ خِنْدِف وقيس ، تقيّس وتخندف
٣٥٩ بَلَّة
٣٦١ خذلان أهل الكوفة زيد بن على
٣٦٢ إفحام زيد بن على هشام بن عبد الملك
٣٦٥ الرُّصافة
٣٧٤ الخَزَر
٣٨٠ ارْبَع على نفسك
٣٨٠ ارقأ على ظَلْعِك
٣٩٣ المُسَوِّدة والمُبَيِّضة
٣٩٥ التشويش والتهويش
٣٩٧ يزيد الناقص
٤٠٢ كان يزيد الناقص قدريا
٤٢١ ياهنتاه
٤٣٢ أجزأ يجزأه وأغنى غناءه
٤٣٦ سيف مشطّب ومشطوب
٤٦٢ الشِّطْرَنج
٤٦٨ الخصائص
٤٧٥ الشُّراة
٤٧٦ أبو مسلم الخراسانى . أوليته ونسبه
٤٧٩ الجذَع ـ أجذع
٤٨٥ أشكو إلى الله عُجَرى وبُجَرى
٣٧٠ ، ٤٠٦ عبد الحميد بن يحيى الكاتب
٤٨٨ دعوة عبد الله بن معاوية بن عبد الله
ابن جعفر إلى نفسه
٤٨٩ الوصىّ
٥٠٢ مضطلع بالأمر ومطّلع

فهرس

الأمثال التي ورد شرحها في الهامش

١١ كباحثة عن حتفها بظلفها
٢٦ أسعدٌ أم سُعَيْد ؟
٢٦ الحديث ذو شُجون
٢٦ سبق السيف العَذْل
٧٥ شق فلان العصا
١٢٧ أحاديث الضبع استها
١٤٤ كل مُجْرٍ في الخلاء يُسَر
١٤٨ قلّب له ظهر المِجن
١٧٨ أحمق من جَهيزة
٢٠٠ حتى يرجع الدَّرُّ في الضَّرع
٢٠١ لِبدْح بن مُقْبِل
٢٩٠ أمٌّ فرَشت فأنامت
٣١٨ التقت حَلْقتا البِطان
٤٢٦ الحرب سجال
٤٩١ عش رجبا تر عجبا
٤٩٩ يداك أوكتا وفوك نفخ

جمهرة رسائل العرب

في

عصور العربية الزاهرة

الشطر الأول من رسائل

العصر العباسي الأول

تأليف

أحمد زكي صفوت

المكتبة العلمية

بيروت - لبنان

جمهرة رسائل العرب

في

عصور العربية الزاهرة

جمهرة رسائل العرب

في

عصور العربية الزاهرة

الجزء الثالث

الشطر الأول من رسائل

العصر العباسي الأول

وهو يحوى رسائل العباسيين من أول خلافة السفاح إلى آخر خلافة المأمون

تأليف

أحمد زكي صفوت

وكيل كلية دار العلوم جامعة القاهرة سابقا

المكتبة العلمية

بيروت - لبنان

مقدمة

بسم الله الرحمن الرحيم

المحمودُ اللهُ جلَّت قدرته ، وعمَّت آلاؤه ، والمصلَّى والمسلَّم عليه سيدنا ومولانا محمد، صلى الله وسلم عليه وعلى آله وصحبه البررة الطاهرين .

وبعد : فقد كنت مُزْمِعا أنْ أُصدِر الجزء الثالث من « جمهرة رسائل العرب » حاويا رسائلَ العصر العباسى الأول جميعها ، بَيْدَ أنى ـ بعد مباشرة الطبع ـ رأيتها من الكثرة والوفرة بحيث يضيق عنها جزء واحد ، فلم تكن لى مندوحة من أن أقسمها فى جزأين ، يحوى أولهما الشَّطر الأول منها ، وثانيهما الشطر الثانى ، وعلى الرغم من ذلك اضطُرِرت أن أقتطع من سلسلتها الطويلة أربع حَلَقات :

(١) رسالتى الأدب الكبير والأدب الصغير ، لابن المقفع .

(٢) طائفة من رسائل الجاحظ .

(٣) طائفة من الرسائل الشعرية ، لبعض الأدباء .

(٤) رسائل قليلة وردت فى كتابِ « اختيار المنظوم والمنثور » غيرَ معزوَّة إلى ذويها .

وإنما حدا بى إلى انتقاص تلك الحلقات ما رأيته من أن ضمها إلى كتابى يُفْضِى إلى إصدار جزء ثالث فى رسائل هذا العصر ، لا يقل فى ضخامته عن أخويه ، وفى ذلك ما فيه من انفهاق أمر الطبع على « الناشر » وإثقال كاهله بفادح النفقات ، على أن الاطلاع عليها ميسور لمن شاء .

فالحلقتان الأوليان مطبوعتان منشورتان ، طبع المرحوم أحمد زكى باشا « الأدب الصغير » سنة ١٣٢٩ هـ ـ ١٩١١ م ، و « الأدب الكبير » سنة ١٣٣٠ هـ ١٩١٢ م بمصر ، وأوردهما الأستاذ محمد كُرد على بك فى كتابه « رسائل البلغاء » وقد طبع طبعة أولى سنة ١٣٢٦ هـ ـ ١٩٠٨ م ، وثانية سنة ١٣٣١ هـ ـ ١٩١٣ م بمصر ، غير أنه ورد فيه الأدب الكبير معنونا بعنوان « الدرة اليتيمة » وهو خطأ ، لأن الدرة اليتيمة لا تزال مجهولة مفقودة .

وطبع المرحوم الحاج محمد الساسى التونسى « مجموعة رسائل للجاحظ » بمصر سنة ١٣٢٤ هـ ، وعدتها إحدى عشرة رسالة ، وقد طُرِّز هامش كتاب « الكامل » للمبرد طبع مصر سنة ١٣٢٣ هـ بكتاب « الفصول المختارة من كتب الجاحظ » اختيار الإمام عبيد الله بن حسان ، ويحوى ثمانى عشرة رسالة ـ منها تسع من المجموعة الآنفة الذكر ـ وطبع الأستاذ يُوشَع فِنْكَل « ثلاث رسائل للجاحظ » بمصر سنة ١٣٤٤ هـ ـ وقد ورد نحو نصف الرسالة الأولى منها فى كتاب الفصول المختارة .

وقد أوردت من الحلقة الثالثة ما اتسع له المقام ، وتقرأ سائرها فى كتب الأدب ، وبخاصّةٍ كتابُ « الأغانى » فقد ورد فيه طائفة منها فى خلال تراجم كاتبيها .

وأما الحلقة الرابعة ، فقد أغفلتها لِمَا تقدّمتُ ، ولأنه لا يُدْرَى : أأموية هى أم عباسية ؟ لعدم نسبتها إلى أصحابها ، وإن كنت أرجح كل الترجيح أنها عباسية ، ودونك كتابَ « اختيار المنظوم والمنثور » فاقرأها فيه .

وقد نوّهت فى مقدمة الجزء الثانى بهذا الكتاب ، وأعود هنا فأقول : إن ذلك الكتاب ـ على نفاسته وانفراده بما لم يحوه سواه من الرسائل ـ لقد عبِثت به يد التحريف ، فشوّهته كلَّ مشوّه ، حتى بدا كالغادة الحسناء فى خَلَق الرِّداء ، وقد أرهقنى تحقيق ما نقلت منه ، وأمضّنى ردّه إلى نصابه، وعانيتُ فى ذلك السبيل من العناء وكدّ الذهن واعتصاره ما يَبْهَظ به الجَلْد الصبور ، ونال منى الجهد كلَّ منال ، حتى

لقد خفت أن يعود على صحتى بالأثر السيئ ، إذ طالما تحبّستُ على تحقيقه ساعاتٍ متعالية ، مُكِبًّا على حلِّ معمّياته ، وفكّ طلاسمه ، حتى أ كاد أسقط إعياء وفتورا ، وكنت إذا ما حَزَبنى الأمر واشتدت بى الحَيْرةُ ، وضاق بى المَخْرجُ ، أنهض فأصلِّى لله عز وجل ركعتين ، مستلهِماً إياه الصوابَ ، مبتهلا إليه أن يَهديَنى سواء السبيل ، ثم أُجيل الفكر ثانيةً ، فلا أعتِّم أن ينفتح لى باب المُغْلَق ، وينجاب ظلام المُبْهَم ، وتَضِحَ لى الحقيقة سافرةً ناصعةً ، وتلك نعمة جُلَّى من المولى القدير علىّ ، أَعُدّها آيةً على رضاه عنى ، فله — تبارك وتعالى — أجلُّ الحمدِ وأسناه ، وأجزلُ الشكر وأوفاه .

ولست أدَّعى أنى فيما حققتُ من الرسائل قد بلغت ذروة الكمال — فالكمال لله وحده — ولكنى أستطيع أن أجهرَ بأنى قد وُفّقت فى صنيعى هذا — ولله الحمد والمنّة — إلى حدّ أغبِط عليه نفسى ، وأن ضميرى جِدُّ مستريح إلى ما بذلته من جهد فى تعبيد طُرُقها ، وتصفية رَنَقِها ، فإن يحمَد القراء صنيعى فذاك ما أصبو إليه ، وإن تكن الأخرى فقد أعذرتُ أمام نفسى ، وأدّيت واجبى غيرَ وانٍ ولا مُلُول .

أمدَّنا الله وإياكم برُوح منه ، وكَلَأَنا وكلأكم بعين رعايته وتوفيقه ، إنه العلىُّ المنّان ، ذُو الطَّولِ والإنعام ؟

وحرر بالقاهرة فى { المحرم سنة ١٣٥٧
مارس سنة ١٩٣٨ }

أحمد زكى صفوت

فهـــرس

مآخذ الرسائل فى العصر العباسى الأول

الأغانى : لأبى الفرج الأصبهانى	: الجزء التاسع ـ الحادى عشر ـ
	: السابع عشر ـ التاسع عشر ـ العشرون
تاريخ الأمم والملوك : لابن جرير الطبرى	: الجزء التاسع ـ العاشر ـ الحادى عشر ـ الثانى عشر
تاريخ الكامل : لعز الدين بن الأثير	: الجزء الخامس ـ السادس
صبح الأعشى : لأبى العباس القلقشندى	: الجزء الأول ـ الثانى ـ السادس ـ
	: السابع ـ التاسع ـ الرابع عشر
تاريخ بغداد : للخطيب البغدادى	: الجزء الثانى عشر
عيون الأخبار : لابن قتيبة	: المجلد الأول ـ الثالث
نهاية الأرب : لشهاب الدين النويرى	: الجزء السابع
الكامل : للمبرد	: الجزء الأول ـ الثانى
العقد الفريد : لابن عبد ربه	: الأول ـ الثانى ـ الثالث
زهر الآداب : لأبى إسحق الحصرى	: الجزء الأول ـ الثانى ـ الثالث
البيان والتبيين : للجاحظ	: الثانى ـ الثالث
شرح نهج البلاغة : لابن أبى الحديد	: المجلد الثانى ـ الثالث
اختيار المنظوم والمنثور : لابن طيفور	: الجزء الثانى عشر ـ الثالث عشر
كتاب بغداد : لابن طيفور	: الجزء السادس
معجم الأدباء : لياقوت الحموى	: الجزء الأول ـ الثالث ـ الرابع ـ الخامس ـ السادس

معجم البلدان : لياقوت الحموى : الجزء الثانى ـ الخامس

وفيات الأعيان : لابن خلكان : « الأول ـ الثانى

الأمالى : لأبى على القالى : « الأول ـ الثانى

الإمامة والسياسة لابن قتيبة : « الثانى

مروج الذهب : للمسعودى : « «

أمالى السيد المرتضى : « الأول

كتاب الأوراق : لأبى بكر الصولى : « الأول ـ الثانى

أدب الكتاب : « « « :

فتوح البلدان : للبلاذرى :

المثل السائر فى أدب الكاتب والشاعر : لضياء الدين بن الأثير

كتاب الوزراء والكتاب : لابن عبدوس الجهشيارى

سرح العيون ، شرح رسالة ابن زيدون : لابن نباتة المصرى

الفهرست : لابن النديم

غرر الخصائص الواضحة ، وعرر النقائص الفاضحة : للوطواط

الفخرى : لابن طباطبا

خاص الخاص : للثعالبى

رسالة للجاحظ فى بنى أمية [رسالة خطية محفوظة بدار الكتب المصرية رقم ١٨٥٥ أدب] .

مقدمة ابن خلدون :

مختصر أخبار الخلفاء لابن الساعى البغدادى :

الأدب الكبير : لابن المقفع :

كتاب الصناعتين : لأبى هلال العسكرى :

كتاب البخلاء : للجاحظ :

المواهب الفتحية : للشيخ حمزة فتح الله : الجزء الثانى

مفتاح الأفكار : للشيخ أحمد مفتاح :

رسائل البلغاء : لمحمد كرد على بك :

الباب الرابع

الرسائل
في
العصر العباسي الأول

١ — كتاب أبي العباس السفاح إلى الحسن بن قحطبة

دخل أبو مُسْلِم الخُراسانيُّ[1] زعيم الدَّعْوة العباسية مدينة مَرْو قاعدة خُراسان سنة ١٣٠ ، ثم وجَّه قَحْطَبة بن شَبِيب الطائيَّ أحد دُعاة بني العباس في جيش من الخراسانيين لقتال جيوش الأمويين ، فواتاه النصرُ عليهم[2] ، حتى بلغ العراق ، وكان يزيد بن عُمَر بن هُبَيْرَة والياً عليه من قبل مروان بن محمد الأموي ، بَيْدَ أن قحطبة

(١) قدمنا في الجزء الثاني ص ٤٧٦ كلمة في أبي مسلم فارجع إليها .

(٢) لما دخل أبو مسلم مرو سنة ١٣٠ هـ هرب منها نصر بن سيار أمير خراسان، وقدم في هذه السنة قحطبة بن شبيب على أبي مسلم خراسان منصرفا من عند إبراهيم الإمام ابن محمد بن علي بن عبد الله ابن عباس ومعه لواؤه الذي عقد له إبراهيم ، فوجهه أبو مسلم حين قدم عليه على مقدمته ، وضم إليه الجيوش ، وجعل له العزل والاستعمال ، وكتب إلى الجنود بالسمع والطاعة له ، وتعبأ قحطبة لقتال تميم ابن نصر بن سيار ، ثم زحف إليه فاقتتلوا قتالا شديدا ، وقتل تميم في المعركة ، وقتل معه مقتلة عظيمة واستبيح عسكره ، ثم سار قحطبة إلى نباتة بن حنظلة عامل جرجان من قبل ابن هبيرة أمير العراق ، فقتل نباتة ومزق جيشه ، وبعث برأسه ورأس ابنه حية إلى أبي مسلم — انظر تاريخ الطبري ٩ : ١٠٤ ، ١٠٦ .

غرق في الفرات ، وهو يخوضه إلى ابن هبيرة ، فولّى أصحابه عليهم ابنه الحسنَ ابن قحطبة ، وحملوا على ابن هبيرة وهزموا عسكره ، فَلَحِقَ بمدينة وَاسِط[١] ، وتحصّن بها .

فلما تمت البيعة لأبي العباس السفّاح سنة ١٣٢ هـ ، وجّه أخاه أبا جعفر المنصور إلى واسط لقتال ابن هبيرة ، وكتب إلى الحسن بن قحطبة :

« إن العسكر عسكرك ، والقوّاد قوادك ، ولكن أحببتُ أن يكون أخي حاضراً ، فاسمع له وأطِعْ ، وَأَحْسِن مُوَازَرَته ومُكَانَفَته[٢] » .

فكان الحسنُ المدبِّرَ لذلك العسكر بأمر المنصور .

(تاريخ الطبرى ٩ : ١٤٧ ، والإمامة والسياسة ٢ : ١٠٤)

٢ — كتاب المنصور إلى ابن هبيرة

وروى أن يزيد بن عمر بن هُبَيرة أرسل إلى المنصور وهو محصور بواسط والمنصور بإزائه : إنى خارج يوم كذا وكذا وداعيك إلى المبارزة فقد بلغنى تجبينُك إياى ، فكتب إليه :

« يابن هبيرة ، إنك امرؤ متعدَّ طَوْرَك ، جارٍ في عِنان غَيِّك ، يَعدُك اللهُ ما هو مصدِّقُه ، ويمنّيك الشيطانُ ما هو مكذِّبُه ، ويقرِّب ما الله مباعِدُه ، فرُوَيْدًا يُتِمّ الكتابُ أجَلَه ، وقد ضربتُ مَثَلي ومثلَك : بلغنى أن أسدا لِقيَ خنزيراً ، فقال له الخنزير : قاتِلْنى ، فقال الأسد : إنما أنت خنزير ، ولستَ لى بكفء ولا نظير ، ومتى فعلتُ الذى دعوتَنى إليه فقتلتك قيل لى : قتلتَ خنزيراً ، فلم أعتقِد[٣] بذلك فخراً ولا ذكرا ، وإن نالنى منك شيء كان سُبَّةً علىّ ؛ فقال : إن أنت لم تفعل رَجَعت

---

(١) مدينة بالعراق اختطها الحجاج سنة ٨٣ بين البصرة والكوفة .

(٢) كانفه : وازره وعاونه . (٣) من اعتقد ضيعة ومالا : أى اقتناها .

إلى السباع فأعلمتها أنك نكلت[1] عنى ، وَجَبُنتَ عن قتالى ، فقال الأسد : احتمالُ عارٍ كذلك أيسَرُ علىَّ من تلطخ شاربى بدمك » .

(تاريخ الطبرى ٩ : ٣٠٣ والكامل لابن الأثير ٦ : ١٢)

٣ـ كتاب أبى جعفر المنصور لابن هبيرة بالأمان

وحصر أبو جعفر المنصور ابن هُبيرة شُهوراً ، ثم جرت السُّفَرَاء بينهما بالصلح حتى جعل له أبو جعفر أمانا ، وكتب له به كتابا مكث ابن هبيرة يشاور فيه العلماء أربعين يوما حتى رَضِيه ، وأنفذه إلى أبى جَعفر ، فأنفذه أبو جعفر إلى أبى العباس ، فأمر بإمضائه[2] ، وهُوَ :

« بسم الله الرحمن الرحيم : هذا كتاب من عبد الله بن محمد بن على أبى جعفر وَلِىِّ أمر المسلمين ، لِيزيد بن هُبَيرة ومن معه من أهل الشام والعراق وغيرهم فى مدينة واسِط وأرضِها من المسلمين والمعاهَدين ، ومن معهم من وزرائهم .

إنى أمَّنتكم بأمانِ الله الذى لا إله إلا هو ، الذى يعلم سرائر العباد، وَيَعلَمَ ماتُخْفِى الصدورُ ، وإليه الأمرُ كلُّه ، أمَانًا صادقا لايَشُوبه غِشٌّ ، ولا يخالِطُه باطِلٌ ، على أنفسِكم وذَرَارِيِّكم وأموالكم ، وأعطيتُ يزيدَ بن عمر بن هبيرة ، ومَن أمَّنتهُ فى أعلى كتابى هذا ، الوفاء بما جعلتُ لهم من عهدِ الله وميثاقِه الذى وَاثَقَ به الأمم الماضيةَ مِنْ خَلقه ، وأخذ عليهم به أمره ، عهدا خالصا ، وذمَّةِ الله وذمة محمد ، ومن مضى من خلفائه الصالحين ، وأسلافه الطيِّبين ، التى لايَسَعُ العبادَ نَقْضُهَا ، ولا تعطيلُ شىء منها ، ولا الاحتقارُ لها ، وبها قامت السمٰواتُ والأرض والجبال فَأَبَيْنَ أَنْ يَحْمِلْنَهَا وَأَشْفَقْنَ منها ، تعظيما لها ، وبها حُقِنَت الدِّماء ، وذمَّةِ رُوحِ الله وَكَلِمَتِهِ عيسى بن مريم ، وذمةِ إبراهيم ، وإسماعيل ، وإسحاق ، ويعقوب ، والأسْبَاطِ ، وأعطيتك ما جعلت لك من هذه العهود والمواثيق ولمن معك من المسلمين ، وأهل الذمة ، بعد استئمارى فيما

---

(١) أى جبنت . (٢) انظر تاريخ الطبرى ٩ : ١٤٤ .

جعلتُ لك منه عبدَ ٱللهِ بنَ محمد(١) أمير المؤمنين ، أعزّ ٱلله نصره ، وَأَمَرَ بإنفاذ لـكم ، فاطمئنّ إلى ماجعلتُ لك من الأمان والعُهودِ والمواثيق ، وثِقْ بالله وبأمير المؤمنين فيما سَلَّم منه وَرَضِيَ به ، وجعلتُه لك ، ولمن معك على نفسى ، ولك علىّ الوفاء بهذه العهود والمواثيق والذِّمَم أشدَّ مَا أخذَ ٱللهُ وَحَرَّمهُ وما أنزل ٱلله تبارك وتعالى على نبيه محمد صلى الله عليه وسلم ، فإنه جعله كتابا مُبينا لا يأتيه الباطلُ من بين يديه ولا من خَلفه ، ونوراً وَحُجَّةً على العباد ، حتى ألقَى ٱللهَ وأنا عليه ، وأنا أُشهِدُ ٱللهَ وملائكتَه وَرُسُلَه ، وَمَنْ قُرِئَ عليه كتابى هذا من المسلمين والمعاهَدين بقَبول هذه العهود والمواثيق ، وإقرارى بها على نفسى ، وتوكيدى فيها ، وعلى تسليمى لك ماسألتَ ، لا يغادَر منها شىء ، ولا يُنْكَث عليك فيها ، وأدخلتُ فى أمانك هذا جميعَ مَنْ قِبَلِى من شِيعة أمير المؤمنين من أهل خُراسان ، ومَنْ لأمير المؤمنين عليه طاعةٌ من أهل الشام والحرب وأهل الذِّمة ، وجعلتُ لك أَنْ لاترَى منى انقباضا ولا مُجانَبة ولا ازْوِرَارًا(٢) ولا شيئاً تَكْرَهُه فى دخُولك علىَّ إلى مفارقتك إياى ، ولا ينالُ أحداً معك أمرٌ يكْرَهه ، وأَذِنتُ لك ولهم فى المَسِير والمُقَام ، وجعلتُ لهم أمانا صحيحا ، وعهدا وثيقا ، وأن عبد الله بن محمد(٣) إن نَقَض ما جعل لـكم فى أمانكم هذا ، فنكَثَ أو غَدَر بكم ، أو خالف إلى أمرٍ تكرَهه ، أو تابَعَ على خِلافه أحدا من المخلوقين فى سرّ أو عَلانية ، أو أضمر لك فى نفسه غيرَ ما أظهرَ لك ، أو أدخل عليك شيئاً فى أمانه ، وما ذكر لك من تسليم أمير المؤمنين ، التماسَ الخديعةِ والمكرِ بك ، وإدخالَ المكروه عليك ، أو نوى غير ماجَعَلَ لك من الوفاء لك به ، فلا قَبِلَ الله منه صَرْفا ولا عَدْلا(٤) ، وهو برىء من محمد بن على ، وهو يخلع أمير المؤمنين ، ويتبرأ من طاعته ، وعليه ثلاثون حِجَّةً(٥) يمشيها من موضعه الذى هو به من مدينة واسط

---

(١) يعنى أبا العباس السفاح . (٢) أى انحرافا . (٣) يعنى نفسه .

(٤) الصرف : التوبة ، والعدل : الفدية ، ـ انظره بتوسع فى الجزء الأول ص ٢٧ .

(٥) قال صاحب القاموس : والحجه (بالكسر) المرة الواحدة ، شاذ ، لأن القياس الفتح .

إلى بيت الله الحرام الذى بمكة حافياً راجلا ، وكلّ مملوك يملكه من اليوم إلى ثلاثين حِجّة(١) بشراء أو هِبة أحرارٌ لوجه الله ، وكل امرأةٍ له طالق ثلاثا ، وكل ما يملكه من ذَهَبٍ أو فِضّةٍ أو مَتَاعٍ أو دابة أو غير ذلك فهو صدقة على المساكين ، وهو يكفُرُ بالله وبكتابه المنزّل على نبيه ، والله عليه فيما وَكّدَ وجَعَلَ على نفسه فى هذه الأَيْمَان رَاعٍ وكفيلٌ ، وكفى بالله شهيدا » .

(الإمامة والسياسة ٢ : ١٠٥)

٤ — كتب بين أبى مسلم وأبى العباس و أبى جعفر

وكان رَأْىُ أبى جعفر الوفاء لابن هُبَيرة بما أعطاه ، وكان أبو العباس لا يَقْطَع أمرا دون أبى مسلم ، وكان أبو الجَهْم بن عطية عَيْناً لأبى مسلم على أبى العباس ، فكتب إليه بأخباره كلها ، فكتب أبو مسلم إلى أبى العباس :

« إنه قَلّ طريقٌ سَهْلٌ يُلْقَى فيه حجارة إلاّ ضَرّ ذلك بأهله(٢) ، لاَ والله لا يَصْلُح طريقٌ فيه ابن هبيرة » .

فكتب أبو العباس إلى أبى جعفر يأمره بقتل ابن هبيرة ، وألحّ عليه فى ذلك ، وأبو جعفر يراجعه حتى كتب إليه أبو العباس : « وَاللهِ لتَقْتُلَنّهُ أو لأبعثَنّ إليك من يخرجه من عندك ثم يتولى قتله » فقتله أبو جعفر ، وكان ذلك سنة ١٣٢ هـ .

(تاريخ الطبرى ٩ : ١٤٤ ، والإمامة والسياسة ٢ : ١٠٧)

وجاء فى ترجمة ابن هبيرة فى وَفَيات الأعيان : فيقال إنه كان يكاتب عبد الله بن الحسن بن الحسن ابن على بن أبى طالب رضى الله عنه ، ويدعو إليهم وإلى خلع السفاح ، وجاءه كتاب أبى مسلم الخراسانى يحثه على قتل ابن هبيرة ، فكتب السفاح إلى المنصور يأمره بقتله ، فقال : لا أفعلُ وله فى عُنُقِى بَيْعة وأيمان ، فلا أُضَيّعهما بقول

---

(١) الحجة : السنة .

(٢) وفى الطبرى « إن الطريق السهل إذا ألقيت فيه الحجارة فسد ... » .

أبى مسلم . فكتب إليه السفاح : « إنى لا أقتله بقول أبى مسلم ، بل بنكثه وغدره ودسيسته إلى آل أبى طالب ، وقد أبيح لنا دمه » فلم يجبه المنصور ، وقال : هذا فساد الملك ، فكتب إليه السفاح : « لستَ منى ولستُ منك إن لم تقتله » .

(وفيات الأعيان ٢: ٢٨٠)

٥ — كتاب صالح بن على إلى أبى العباس السفاح

وكان عبد الله بن على بن عبد الله بن عباس — عم السفاح — قد سار فى جمع عظيم لِلِقاء مروان بن محمد آخر خلفاء بنى أمية ، فالتقيا بالزَّاب[١] من أرض المَوْصِل ، فهُزِم مروان وفرّ هاربا حتى أتى الشأم ، وكتب أبو العباس إلى عبد الله بن على يأمره باتّباعه ، فلَحِق مروانُ بمصر ، فأَتْبَعَه عبد الله أخاه صالح بن على ومعه عامر بن إسمعيل الحارثىّ ، فأدركوه ببُوصِير[٢] وقتلوه وقتلوا كل من كان معه من أهله وبِطانته .

وبعث صالح بن على برأسه إلى أمير المؤمنين أبى العباس وكتب إليه :

« إنا اتّبعْنا عدوَّ الله الجَعْدىّ[٣] ، حتى ألجأناه إلى أرض عدوِّ الله شبيهه فِرْعَوْن ، فقتلته بأرضه » . (تاريخ الطبرى ٩: ١٣٦)

٦ — كتاب أبى العباس إلى عامر بن إسمعيل

ودخل عامر بن إسمعيل بعد أن قتل مروان ببوصير ، واحتوى على عسكره ، إلى الكنيسة التى كان فيها بناته ونساؤه ، فقعد على فراشه ، وأكل من طعامه ، فقالت له ابنة مَرْوان الكبرى — وتعرف بأمّ مروان — ياعامر ، إن دهراً أنزلَ مروان عن فُرُشه حتى أقعدك عليها تأكلُ من طعامه ، ليلةَ قَتْلِهِ ، محتويا على أمره حاكما فى مُلكه

(١) الزاب الأسفل والزاب الأعلى : نهران يصبان فى نهر دجلة من شاطئه الأيسر .
(٢) هى بوصير الأشمونين : قرية بصعيد مصر .
(٣) كان مروان بن محمد يلقب بالجعدى نسبة إلى مؤدبه الجعد بن درهم مولى بنى الحكم .

وحَرَمه وأهلِه ، لَقَادِرٌ أن يغيِّر ذلك ، فأنهى (١) هذا الكلام إلى أبى العباس السفّاح ، فاستهْجن ما فعله عامر ابن إسماعيل ، وكتب إليه :

« أمَا كان لك فى أدَب الله ما يزجُرُك أن تقعُدَ فى مثل تلك الساعة على مِهاد مَرْوان وتأكل من طعامه ! أمَا والله لولا أن أمير المؤمنين أنزلَ ما فعلته على غير اعتقادٍ منك ، ولا نَهَمٍ على طعام ، لَمسَّك من غضبه ، وأليم أدَبه ، ما يكون لك زاجرا ، ولغَيْرك واعظا ، فإذا أتاك كتاب أمير المؤمنين ، فتقرّبْ إلى الله بِصَدَقةٍ تُطفِئُ بها غَضَبه ، وصلاةٍ تُظهِر فيها الخشوعَ والاستكانة (٢) له ، وصُمْ ثلاثة أيام ، وتُبْ إلى الله من جميع ما يُسْخِطه ويُغْضِبه ، ومرْ جميع أصحابك أن يصوموا مثل صيامك (٣) » .

(شرح ابن أبى الحديد م ٢ : ص ٢٠٥)

٧ — كتاب سليمان بن على إلى أبى العباس

قال صاحب العقد الفريد :

وكان أشد الناس على بنى أُمَيَّة عبد الله بن على ، وأحنَّهم عليهم سليمان بن على ، وهو الذى كان يسميه أبو مسلم « كَنَفَ الأمان » وكان يُجير كل من استجار به ، وكتب إلى أبى العباس :

« يا أمير المؤمنين ، إنا لم نحارِبْ بنى أمية على أرحامهم ، وإنما حارَبْنَاهم على

---

(١) أنهى الشىء : أبلغه . (٢) الاستكانة : الخضوع .

(٣) وبمناسبة هذا الخبر أقول : روى المبرد فى الكامل — ج ٢ : ص ٢٤٠ — قال : « دخل شبل بن عبد الله مولى بنى هاشم على عبد الله بن على ، وقد أجلس ثمانين رجلا من بنى أمية على سمط الطعام فمثل بين يديه فقال :

أصبح الملك ثابت الأساس بالبهاليل من بنى العباس الأبيات ...

(يغريه ببنى أمية ويذكره بما كان منهم من قتل الحسين وزيد بن على وحمزة بن عبد المطلب وإبراهيم الإمام) فأمر بهم عبد الله فشدخوا بالعمد ، وبسطت عليهم البسط وجلس عليها ودعا بالطعام ، وإنه ليسمع أنين بعضهم حتى ماتوا جميعا » اهـ وروى ابن طباطبا هذا الحادث فى الفخرى ص ١٣٤ ، غير أنه ذكر أن ذلك كان فى مجلس أبى العباس السفاح ، وأن السفاح هذا الذى فعل بهم ماذكر ، فتأمل.

عُقُوقهم ، وقد دَنَتْ إلىَّ منهم دَافَّةٌ (١) لم يَشْهَروا سلاحاً ، ولم يُكْثِرُوا جَمْعا ، فأُحِبُّ أن تكتب لهم منشور أمان » .

فكتب لهم منشور أمان وأنفذه إليهم ، فمات سليمان بن على وعنده بِضْعٌ وثمانون حُرْمةً لبنى أمية » . (العقد الفريد ٢ : ٣٠٢)

٨ — كتاب يوسف بن القاسم عن عبد الله ابن على إلى أبى العباس

وكتب يوسف (٢) بن القاسم بن صُبَيْح عن عبد الله بن على إلى أبى العباس السفاح يعزيه عن ابن له تُوُفِّىَ .

« أما بعدُ ، فإن أحقَّ الناس بالرضا والتسليم لأمر الله جل وعزّ ، مَن كان إماما لِخلْق الله ، وخليفةً لرسول الله صلى الله عليه وسلم ، فتعَزَّ أميرَ المؤمنين بفهمك ، وارجع فى وعد الله جل وعز من الصابرين إلى علمك » .

(كتاب الأوراق للصولى ١ : ١٤٧)

٩ — كتاب يوسف بن القاسم إلى عبد الله بن على

وقال يوسف بن القاسم : كنت مع عبد الله بن على ، وكان يَبَرُّنى كثيرًا ، ويوجِّه بِرَّه مبتدِئًا فى رأس كل شهر ، فغفل عنى شهرين فكتبت إليه :

ما لِبِرِّ الأمــــيرِ قَصَّرَ عنى ... بعد أنْ لم أكن أرَى تقصيرا ؟

إن يكن ناسياً فعندىَ إذْ كَا ... نَ له دائمـاً عَتيدا كثيرا (٣)

---

(١) الدافة : الجماعة من الناس تقبل من بلد إلى بلد ، يقال : دفت علينا من بنى فلان دافة : أى أتوا .

(٢) هو والد أحمد بن يوسف الكاتب وزير المأمون ، وكان يوسف مع خاله بشر بن سليمان على ديوان الكوفة أيام بنى أمية ، ثم كتب لعبد الله بن على فى أول الدولة العباسية بعد أن كان أبوه القاسم يكتب له — انظر خبره فى كتاب الأوراق للصولى ١ : ١٤٦ .

(٣) العتيد : الحاضر المهيأ .

أو يَكُنْ عن إضاقة فلَه العُـــذْ رُ متى شاء أن يُرَى معذورا[1]
لِأُرَى خادما بإنفاقِ وَفرِى وأرَى ماله له موفورا
إنّ بِرّ الأمير عندى (وإن كا ن يراه لديه نَزْرًا يسيرا)
لَكثيرٌ عندى ، ولم يكُ عَهدِى أنْ أرَى الرزقَ عنده محظورا

١٠ — رد عبد الله بن على عليه

توقع فى رقعتى :

« لم يكن تأخير برّنا عنك لِبُخل وضَنٍّ ، ولا إهمال وتناسٍ ، لكنها غفلةٌ مِنْ مُوجِبٍ لحقك عارفٍ ، شغَلَه عنك ما يقسِّم قلبه ، مُتَّكِلا على معرفتك به ، وبَسْطِ عذرك له . على أنى ظننت أنَّ ما كنت عليه أوّلا قد زال فيما بيننا وبينك ، إذ كنا قد أحللناك على محَلِّ الشريك ، وخلَطْناك بأنفسنا خَلْطَ النسيب ، لتنفق من نفقتنا ، وتَقرِن أمرك بأمرنا ، وقد أمرت لك بألْفَىْ درهم ، رزقك لشهرين ، فاقبِضهما ، ولا تنتظرنَّ لى أمراً بعدهما فى مثلهما عند وجوبهما ، وأمرتُ لك بألفى درهم تُصْلِح بها حالك ، وقد أطلقتُ بعد هذا يدك فى المال ، لتأخذ منه كفايتك ، وفضلاً يكون عُدَّةً لك لِما لا يُؤْمَن من عثَرات الدهور ، وحوادث الأمور ، فإنك لم تصْحَبنا إلا بقلب وامِق ، ووُدٍّ صادق ، وإنا لنحبّ أن يبين عليك لنا أثر محمود تغتبط به وتُغْبَط عليه ، فاعْمَلْ على ذلك إن شاء الله » .

(كتاب الأوراق للصولى ١ : ١٤٧)

---

(١) أضاق : ذهب ماله .

١١ — كتب بين أبى مسلم وأبى العباس وأبى جعفر

ولم يَزَل أبو مُسْلم مقيما بخراسان ، حتى كتب إلى أبى العباس يستأذنه فى القدوم عليه للحج (سنة ١٣٦هـ) — وإنما أراد أن يصلِّيَ بالناس — فأذِن له ، وكتب إليه أن : « اقْدَمْ فى خَمْسِمائَةٍ مِنَ الْجُنْدِ » . فكتب إليه أبو مسلم : « إنِّى قد وَتَرْتُ الناسَ ، ولستُ آمَنُ على نفسى » . فكتب إليه أبُو العباس أنْ : « أَقْبِلْ فى ألف ، فإنما أنت فى سلطان أهلك ودولتك ، وطريقُ مكة لايحتمل العسكر » .

وكتَبَ أبو العباس إلى أبى جعفر — وهو على الجزيرة وأرمينية وَأذْرَبيجان — : « إن أبا مسلم كتَبَ إلىَّ يستأذن فى الحج ، وقد أَذِنْتُ له ، وقد ظننتُ أنه إذا قَدِمَ يُرِيد أن يسألنى أن أُوَلِّيَه إقامةَ الحج للناس ، فا كتُبْ إلىَّ تستأذنى فى الحج ، فإنك إذا كنت بمكة لم يطمع أن يتقدَّمك » . فكتب أبُو جعفر إلى أبى العباس يستأذنه فى الحج ، فأذِن له فوافَى الأَنْبَارَ .

وشَخَصَ أبومسلم فى ثمانية آلاف فرَّقهم فيما بين نَيْسَابور والرَّى ، وقدِم بالأموال والخزائن خلَّفها بالرَّيِّ ، وشَخَص منها فى ألف ، وأقبل إلى أبى العباس فأعْظَمَه وأكرمه ، ثم استأذن أبا العباس فى الحج فأَذِن له ، وقال : لولا أن أبا جعفر حاجٌّ لوليتُكَ الموسِمَ .

وقد قال أبو مسلم : أَمَا وجد أبو جعفر عاما يَحُجُّ فيه غير هذا ! واضطغنها عليه .

(تاريخ الطبرى ٩ : ١٥٣ ، ١٥٩)

١٢ — كتاب لعمارة بن حمزة عن أبي العباس في وفاة داود بن علي

ومن أبى العباس فى وفاة داود(١) بن علىّ عمّه ، لعُمارة(٢) بن حمزة :

« فإن داود بن علىّ كان فى قرابته بأمير المؤمنين بحيثُ قد علمتَ ، مع طاعته وسُنَّته(٣) وبِرّه بأهل بيته ، فقَبَضه الله فى طاعة أمير المؤمنين ومناصحته ، فلم يَكْرَه أميرُ المؤمنين — مع عِزَّة داود كانت عليه ، ومنزلته فى أهل بيته — الذى أظهر له من قضاءِ الله عز وجل فيه ، رضاً بقضاء الله عليه ، ورغبةً فى ثوابه ، فرَحِمَهُ الله وغفَر له ، فقد كان مكانُه مكانَ أُنْس ، فليكن الذى ظهر لأمير المؤمنين من محبة الله فى أقضيته عليه ، أحبَّ إلى أمير المؤمنين أن يُعظِّم له الأجرَ ، ويُحْسِن عليه الخلافةَ » .

(اختيار المنظوم والمنثور ١٣ : ٣٠٨)

---

(١) ولاه السفاح الكوفة وسوادها ، ثم عزله عنها وولاه المدينة ومكة واليمن واليمامة . ومات بالمدينة فى شهر ربيع الأول سنة ١٣٣ — انظر تاريخ الطبرى ٩ : ١٤٧ .

(٢) هو عمارة بن حمزة مولى السفاح ، ثم مولى أبى جعفر المنصور وكاتبه ، وكان فصيحاً بليغاً ، وكان أعور ذميما تائها معجبا ، وكان المنصور والمهدى بعـده يقدمانه ويحتملان أخلاقه ، لفضله وبلاغته وكفايته ووجوب حقه ، وولى لهما أعمالا كبارا ، (ومن ذلك أن ولاه المنصور سـنة ١٥٦ كور دجلة والأهواز وفارس ، وكان سـنة ١٥٨ على ديوان خراج البصرة وأرضها) وله رسائل من جملتها رسالة الخميس التى كانت تقرأ لبنى العباس (وسيأتى الكلام عنها فى شرح رسالة الخميس لأحمد ابن يوسف)— انظر أخباره فى الفهرست لابن النديم ص ١٧١ ومعجم الأدباء ٦ : ٣ (طبع مطبعة هندية) وكتاب الوزراء والكتاب للجهشيارى ص ٩٣ وتاريخ الطبرى ٩ : ٢٨٨ ، ٣٢٦ .

(٣) السنة : الطريقة المحمودة المستقيمة ، وفى الأصل « وسنه » .

١٣ — كتاب أبي مسلم إلى أبي جعفر

وروى أن أبا جعفر حرَّض أبا العباس على قتل أبي مسلم حين قَدِم عليه، وما زال به حتى وافقه على قتله ، ثم عَدَل عن إنفاذه[١] .

قال ابن قُتَيْبَة فى الإمامة والسياسة :

وذكروا أن أبا مسلم لما رجع من عند أبي العباس ، وقد قيل له بالعراق : إن القوم أرادوك[٢] لولا ما توقَّعوا ممن معك من أهل خراسان ، فلما كان فى بعض الطريق كتب إلى أبي جعفر :

« أما بعد : فإنى كنت قد اتخذتُ أخاك[٣] إماما ودليلا على ما افترض الله عَلَى خَلْقه ، وكان فى مَحَلِّه من العلم وقَرابتِه من رسول الله صلى الله عليه وسلم بحيثُ كان ، فَقَمَعَنِى بالفِتْنة ، واستجهَلَنى بالقرآن ، فحرَّفَه عن مواضعه طَمَعا فى قليل قد نعاه الله إلى خَلْقه ، فمثَّلَ الضَّلاَلة فى صورة الهدى ، فكان كالذى ضلَّ بغروره ، حتى وَتَرْتُ أهل الدين والدنيا فى دينهم ، واستحلَلْتُ بما كانَ من ذلك من اللهِ النِّقْمة ، وركِبْتُ

---

(١) قال أبو جعفر لأبى العباس : يا أمير المؤمنين ، أطعنى واقتل أبا مسلم ، فوالله إن فى رأسه لغدرة ، فقال يا أخى قد عرفت بلاءه وما كان منه ، فقال أبو جعفر : يا أمير المؤمنين ، إنما كان بدولتنا ، والله لو بعثت سنورا لقام مقامه وبلغ مابلغ فى هذه الدولة، فقال له أبو العباس : فكيف نقتله؟ قال : إذا دخل عليك وحادثته وأقبل عليك ، دخلت فتغفلته فضربته من خلفه ضربة أتيت بها على نفسه ، فقال أبو العباس : فكيف بأصحابه الذين يؤثرونه على دينهم ودنياهم ؟ قال : يئول ذلك كله إلى ماتريد ، ولو علموا أنه قد قتل تفرقوا وذلوا ، قال : عزمت عليك إلا كففت عن هذا ، قال : أخاف والله إن لم تتغده اليوم أن يتعشاك غدا ، قال : فدونكه فأنت أعلم ، فخرج أبو جعفر من عنده عازما على ذلك ، فلما دخل أبو مسلم على أبى العباس بعث أبو العباس خصياله فقال : اذهب فانظر مايصنع أبو جعفر ، فأتاه فوجده محتبيا بسيفه ، فقال للخصى : أجالس أمير المؤمنين ؟ فقال له : قد تهيأ للجلوس ، ورجع الخصى إلى أبى العباس فأخبره بما رأى منه فرده إلى أبى جعفر وقال له : قل له عزمت عليك أن لا تنفذ الأمر الذى عزمت عليه ، فكف أبو جعفر — انظر تاريخ الطبرى ٩ : ١٥٣ والإمامة والسياسة ٢ : ١٠٩ .

(٢) أى أرادوا قتلك . (٣) يعنى أخاه إبراهيم الإمام ابن محمد بن على بن عبد الله بن عباس، وقد قدمنا لك خبره فى الجزء الثانى ص ٤٧٥ .

المعصيةَ فى طاعتكم وتوطِئَةِ سلطانكم ، حتى عرّفكم من كانَ يجهلكم ، وأوطأْتُ غيركم العَشْوَاء(١) بالظلم والعُدْوَان ، حتّى بلغتُ فى مشيئةِ الله ما أحبَّ .

ثم إن الله بمَنِّه وكَرَمه أتاح لى الحسنةَ ، وتدارَكَنى بالرحمة ، واستنقذَنى بالتوبة(٢) ، فإن يغفِرْ فقديما عُرِف بذلك ، وإن يعاقِب فبما قدَّمَتْ يداى ، وما الله بظلاَّمٍ للعبيد » . (الإمامة والسياسة ٢ : ١١٠)

١٤ — رد أبى جعفر على ابى مسلم

فكتب إليه أبو جعفر :

« أرُوم ما رُمْتَ ، وأزول حيث زُلْتَ ، ليس لى دونك مَرْمى ولا عنك مَقصَر ، الرأىُ ما رأيتَ ، إن كنت أنكرتَ من سيرته شيئاً ، فأنت الموفَّق للصواب ، والعالِمُ بالرَّشاد ، أنا من لا يعرِف غير يديك ، ولم يتقَلَّب إلا فى فضلك ، فأنا غير كافِرٍ بنعمتك ، ولا مُنْكِر لإحسانك ، لا تَحْمِلْ عَلَيَّ إصْرَ(٣) غيرى ، ولا تُلْحِق ما جناه سِواى بى ، إنْ أمَرْتنى أن أشْخَصَ إليك وَأَلْحَقَ بخراسان ، فعلتُ ، الأمرُ أمرك ، والسلطانُ سلطانك ، والسلام » . (الإمامة والسياسة ٢ : ١١٠)

١٥ — كتاب من الخليفة إلى ولى العهد(٤) لعبد الله بن على

« فإنّ نعم الله على أمير المؤمنين باطنة وظاهرةً متكافئةٌ منزلتاهما ، وإن تفاضَلَتا فى أحوالها ، وقد شَرِكْتَ فى كل ذلك أميرَ المؤمنين ، وخُصِصْتَ بما تعتَدُّ به منه ، ووَجَب عليك الشكرُ لله به ، كوجوبه على أمير المؤمنين ، لجزَالة قَسْمك من نعمة الله

---

(١) العشواء : الظلمة . (٢) تهديد بأنه سيكف عن نصرتهم ويرجع عن معونتهم .
(٣) الإصر : الذنب .
(٤) يعنى أبا جعفر المنصور ، وكان أبوالعباس السفاح قد ولاه سنة ١٣٢ على الجزيرة وأذربيجان وأرمينية ، فظل أميرا على الجزيرة حتى مات السفاح سنة ١٣٦ — انظر تاريخ الطبرى ٩ : ١٤٧ ، ١٤٨ ، ١٥١ ، ١٥٢ ، ١٥٤ .

عنده ، وسرورِك به كسروره ، وسُكونِك إليه كسكونه ، وأحبَّ أميرُ المؤمنين لذلك أن يُتابعَ إليك كتبَه بما يعرِّفه الله من نعمه وآلائه ، وإدامتِه له السلامةَ فى بدنه وولده وأهل بيته وشيعته وأنصاره وسائر المسلمين قِبَلَه ، وفى أطرافه وأقاصيه[1] ، فكتب إليك أمير المؤمنين وهو فى سلامة بدنه وسُبُوغِ[2] نعم الله عليه فى نفسه وكُلّ من قِبَله ، وولايةِ الله إياه بأحسن ما رجَا منه ، وأمَّل من فضله ، وانتهت رعيته إليه وما يتناهى إليه ثغوره وأطرافه ، من سلامة أهلها ، واجتماع كلمتهم ، وحسن طاعتهم ، وصلاح ذات البَيْن ، على أفضل مالم يَزَلِ اللهُ يُوليه ويُبْليه[3] ، ويمتَنُّ به عليه فى ذلك كله ، وأميرُ المؤمنين يحمَدُ الله على قديم نعمه عنده وحديثها ، وباطِنِها وظاهِرِها ، ويسأله إعانته على التأدية لشكره بها » .

(اختيار المنظوم والمنثور ١٣ : ٣٧٣)

١٦ — كتاب صالح بن على فى السلامة

وكتب صالح[4] فى السلامة :

« أصلَحَ اللهُ أمير المؤمنين وحفِظَه وأمتَعَ به ، وأحسَن جزاءه ، وتولَّى له أمرَ آخرته ودنياه، فإن الله بحمده ونعمته لم يَزَل يُبْلِي أميرَ المؤمنين ويعرِّفه فى كل ما يقضى إليه، ويعزِمُ له عليه فى أموره : مِنْ حُسْنِ الصُّنع والوِلاية والحِفظ والكِفاية والحِيطة وإسْبَاغِ النعمة ، أفضلَ أملِه وأملِنا له ، وأعظمَ رجائِه ورجائنا فى حسن المدافعة عنه ، إلى أن وَصَلَ ذلك من نعمه عنده بما توحَّد به فى وَجْهه وسَفَره : من السلامة ، وسُبُوغ النعمة ، وعمومِ العافية فى نفسه وخاصَّته وعامته ، وأقْدَمَهُ منزِلَهُ وَمَحَلَّه مُعَافًى مُسَلَّما

---

(١) فى الأصل « وأوقافه » وهو تحريف . (٢) أى تمامها .

(٣) الإبلاء : الإنعام والإحسان . أبلاه الله : أنعم عليه .

(٤) يعنى صالح بن على بن عبد الله بن عباس عم السفاح ، وقد ولاه السفاح مصر سنة ١٣٢ ثم فلسطين ، ثم ولاه مصر ثانية سنة ١٣٦ ، حتى قدم الخبر بموت السفاح فى ذى الحجة سنة ١٣٦ فأقره المنصور على عمل مصر ، ثم خرج إلى فلسطين ، ومات وهو عامل حمص بقنسرين — انظر النجوم الزاهرة الجزء الأول .

محفوظا من الله ، إحساناً منه إليه ، وإفضالا وإنعاما عليه ، واختصاصاً له ، والله يمتِّع أميرَ المؤمنين ، ويتمّم له أحسن بلائه عنده وعندنا فيه بمَنّه ولطفه » .

(اختيار المنظوم والمنثور ١٣: ٣٧٢)

١٧ — كتاب عبد الله بن صالح فى السلامة

وكتب عبد الله بن صالح فى السلامة :

« فإنى من إعظامِ حقِّ أمير المؤمنين ، وشكرى بلاءه ، والاعتدادِ بما يجدِّد الله له من النعم عليه ، وعظيمِ الأمل فيه ، والرجاء له ، والاستشرافِ[(١)] إلى علم حاله فى خواصِّه وعوامِّه ، على أفضل ما عليه أحدٌ من أهل بيته وذوى قرابته ، لم يزل الله عز وجل يعرِّفنى من صِلته وعائدته ، ويُحْدث عندى من كريم فعاله ، الذى أصبحتُ — يعلمَ الله — محتملا له بأخلصِ الشكر وأحسنِ الذكر ، فإنْ رأى أمير المؤمنين أن يأمر لى بالكتاب إلىَّ من سلامته بما يبسُطُ به أملى ، وتَعْظُم به النعمةُ من الله لدىَّ ، ويجب به الشكرُ علىَّ ، فعلَ والسلام » .

(المنظوم والمنثور ١٣: ٣٧٢)

١٨ — بين أبى مسلم وأبى جعفر

وحج أبو جعفر سنة ١٣٦ هـ وحج معه أبو مسلم ، فلما انقضى المَوسِمُ أقبلا ، وأتى أبا جعفر وهو فى الطريق كتاب من عيسى بن موسى[(٢)] بموت أبى العباس ، وكان أبو جعفر قد تقدم أبا مسلم بمَرْحَلَة[(٣)] ، فكتب إلى أبى مسلم : « إنه قد حَدَث أمر فالعَجَلَ العَجَلَ » وأقبَلَ حتى لحِقَ أبا جعفر وأقبلا إلى الكوفة .

وقيل إن أبا مسلم كان هو الذى تقدم أبا جعفر فعرَفَ الخبر قبله ، فكتب إلى أبى جعفر :

---

(١) أى والتطلع .

(٢) هو عيسى بن موسى بن محمد بن على بن عبد الله بن عباس ، وهو ابن أخى المنصور والسفاح . وكان السفاح قد جعل له الخلافة من بعد أبى جعفر .

(٣) المرحلة : المسافة التى يقطعها المسافر فى نحو يوم .

« بسم الله الرحمن الرحيم : عافاك الله وأمتَعَ بك ، إنه أتانى أمر أفظعنى ، وَبَلَغ منى مَبْلَغا لم يبلُغْه شيء قطُّ ، لَقِيني محمد بن الُحصَين بكتاب من عيسى بن موسى إليك بوفاة أبى العباس أمير المؤمنين رَحِمَه الله ، فنسأل الله أن يُعْظِم أجرك ، ويُحْسِن الخلافة عليك ، ويبارك لك فيما أنت فيه ، إنه ليس من أهلك أحد أشد تعظيما لحقك ، وأصْفَى نصيحةً لك وحِرْصا على مايسرك منى » .

وأنفذ الكتاب إليه ، ثم مكث أبو مسلم يومَه ومن الغد ، ثم بعث إلى أبى جعفر بالبيعة ـ وإنما أراد ترهيب أبى جعفر بتأخيرها ـ .

(تاريخ الطبرى ٩ : ١٥٤ ، ١٥٥)

١٩ — كتاب أبى جعفر إلى عبد الله بن على

وَوَلِيَ أبو جَعفر الخلافة ، وكان عمُّه عبد الله بن علىّ بالشأم ، وكان السَّفَّاحُ قد وجَّهه لقتال مَرْوَان بن محمد الأموى ، فطمِع عبد الله فى الخلافة ، وخطب الناس فقال : إن السفاح نَدَب بنى العباس لقتال مروان فلم يَنْتَدِب(١) غيرى ، وقد قال لى : إنك ظَهَرْتَ عليه ، وكانت الغَلَبة لك ، فأنت ولىُّ العهد بعدى ، وشهِدَ له جماعة بذلك فبايَعه الناس(٢) .

فلما بلغ المنصور ذلك من فعل عبد الله كتب إليه :

« سأجعل نفسى منك حيثُ جَعَلْتَها ولِلدهر أيامٌ لهن عواقِبُ »

(مروج الذهب ٢ : ٢٣٤)

٢٠ — كتاب الأمان لعبد الله بن على (كتبه ابن المقفع)

ثم بعث المنصور أبا مسلم لقتاله فهزمه ، وهرب عبد الله إلى البصرة ، ونزل على أخويه سليمان وعيسى ابنى على ، فَشَفَعَا فيه إلى المنصور وطلبا له الأمان ، فقبِل شفاعتهما

(١) يقال : ندبه للأمر فانتدب له أى دعاه له فأجاب .

(٢) انظر الخبر فى الفخرى ص ١٥٠ وفى غيره .

واتفقوا أن يكتبوا له أمانا منه ، وكان عبد الله(١) بن المقفع كاتباً لعيسى بن على ، فكتب ابن المقفع الأمان وشدَّد فيه، حتى قال فى جملة فصوله: « ومتى غَدَر أمير المؤمنين بعمِّه عبد الله بن على فنساؤه طَوَالِقُ ودَوَابُّه حُبُس ، وعبيده أحرار ، والمسلمون فى حِلٍّ من بيعته » .

فلما جاء عبد الله إلى المنصور حبسه ومات فى حبسة ، فقيل إنه بنى له بيتا ، وجعل فى أساسه ملحا ، ثم أجرى الماء فيه، فسقط البيت عليه فمات(٢) ، وكان ذلك سنة ١٤٧ هـ .

(وفيات الأعيان ١ : ١٥٠ ، وأمالى السيد المرتضى ١ : ٩٤)

* * *

وجاء فى كتاب الوزراء والكتاب :

وكان ابن المقفَّع يكتب لعيسى بن على ، فأمره عيسى بعمل نسخة للأمان لعبد الله ، فعمِلها ووكَّدَها واحترس من كل تأويل يجوز أن يقع عليه فيها ، وتردَّدَت بين أبى جعفر وبينهم فى النسخة كتب ، إلى أن استقرت على ما أرادوا من الاحتياط . ولم يتهيأ لأبى جعفر إيقاع حيلة فيها ، لفَرْط احتياط ابن المقفع ، وكان الذى شقَّ على أبى جعفر أنْ قال فى النسخة :

يوقع بخطه فى أسفل الأمان :

وإن أنا نِلتُ عبدَ الله بن علىّ أو أحداً ممن أقْدَمه معه بصغيرٍ من المكروه

---

(١) هو أحد فحول الكتاب المعروفين ، فارسى الأصل ، نشأ بالبصرة فى أواخر الدولة الأموية ، وكان يكتب لداود بن عمر بن هبيرة، ولما قامت الدولة العباسية اتصل بعيسى بن على عم السفاح والمنصور أيام ولايته على كرمان ، وكتب له واختص به ، وأسلم على يديه — وكان قبل مجوسيا — وهو أحد النقلة من اللسان الفارسى إلى العربى ، وكان مضطلعا باللغتين فصيحا بهما ، وكان يتهم بالزندقة ، وقتل سنة ١٤٢ هـ — انظر ترجمته فى وفيات الأعيان ١ : ١٤٩ (فى خلال ترجمة الحسين بن منصور الحلاج) وفى الفهرست لابن النديم ص ١٧٢ وفى تاريخ الحكماء لابن القفطى ص ٢٢٠ طبع أوربة وغرر الخصائص الواضحة ص ٤٠٩ وكتاب الوزراء والكتاب للجهشيارى ص ١١٠ وأمالى السيد المرتضى ١ : ٩٤ والفصول المختارة من كتب الجاحظ (على هامش الكامل للمبرد) ١ : ٣٢ وطبقات الأطباء ١ : ٣٠٨ .

(٢) انظر تاريخ الطبرى ٢٦٥ والفخرى أيضا.

أو كبير ، أو أوصلتُ إلى أحد منهم ضررا : سِرًّا وعَلانيةً ، على الوجوه وَالأسباب كلِّها ، تصريحًا أو كنايةً ، أو بحيلة من الحيل ، فأنا نفيٌّ من محمد بن على بن عبد الله ، ومولود لِغير رِشْدَةٍ(١) ، وقد حلّ لجميع أمة محمد خَلْعِي وَحَرْبى والبراءةُ منى ، ولا بَيْعَةَ لى فى رقاب المسلمين ولا عَهْد ولا ذمّة ، وقد وجب عليهم الخروجُ من طاعتى ، وإغاثةُ مَنْ ناوَأنى من جميع الخلق ، ولا موالاةَ بينى وبين أحد من المسلمين .

وهو متبرِّئٌ من الحول والقوة ، ومُدَّعٍ إن كان أنه كافِر بجميع الأديان ، ولقِيَ ربَّه على غير دين ولا شريعة ، محرَّمُ المأكَلِ والمشرَب وَالمَنَاكِح ، وَالمَرْكَب وَالرِّق ، وَالمِلْك ، وَالمَلْبَس ، على الوجوه والأسباب كلها .

وكتبتُ بخطى ، ولا نِيَّةَ لى سواه ، ولا يقبَلُ الله منى إلا إياه ، والوفاء به » .

(كتاب الوزراء والكتاب ص ١١٠)

٢١ — كتاب أبى جعفر إلى أبى مسلم

ولما ظفِر أبو مسلم بعسكر عبد الله بن على ، بعث أبو جعفر مولاه أبا الخَصِيب إلى أبى مسلم ، ليكتب له ما أصاب من الأموال ، فهمّ أبو مسلم بقتله ، فَكُلِّمَ فيه ، وقيل له إنما هو رسول فخلِّ سبيله ، فلما رجع إلى أبى جعفر أخبره بما كان ، فخاف أن يَمضِيَ أبو مسلم إلى خراسان ، فكتب إليه كتابا مع يَقْطين بن موسى أن :

« قد وليّتك مصر والشأم ، فهى خير لك من خُراسان ، فوجِّهْ إلى مصر من أحببت ، وأقِم بالشأم فتكونَ بقُرْب أمير المؤمنين ، فإن أحبَّ لقاءك أتيته من قريب » .

---

(١) يقال : هذا ولد رشدة : إذا كان لنكاح صحيح ، كما يقال فى ضده : ولد زنية ، بالكسر فيهما والفتح .

فلما أتاه الكتاب غضِبَ وقال : هو يوليني الشأم ومصر ، وخراسانُ لي ! واعتزم أن يمضي إلى خراسان ، فكتب يقطين إلى أبي جعفر بذلك .

(تاريخ الطبري ٩ : ١٦١)

٢٢ – كتاب أبي مسلم إلى أبي جعفر

وروى أن المنصور بعث يقطين وأمره أن يُحْصِيَ ما في العسكر ، فقال أبو مسلم : يا يقطين ، أمين على الدماء خائن في الأموال ! وشَتَم أبا جعفر ، فأبلغه يقطينُ ذلك ، وأقبل أبو مسلم من الجزيرة مُجْمِعاً على الخِلاف ، وخرج من وجهه يريد خراسان ، وخرج أبو جعفر من الأنبار إلى المدائن ، وكتب إلى أبي مسلم في المصير إليه ، فكتب أبو مسلم وقد نزل الزَّابَ وهو على الرَّواح إلى طريق حُلْوان :

« إنه لم يَبْقَ لأمير المؤمنين ـ أكرمه الله ـ عدوٌّ إلا أمكنَه اللهُ منه ، وقد كنا نَرْوِي عن ملوك آل ساسان : إن أخوفَ ما يكون الوزراء ، إذا سَكَنَتِ الدَّهْماء(١) ، فنحن نافِرُون من قربك ، حريصون على الوفاء بعهدك ما وفيتَ ، حَرِيُّون بالسمع والطاعة ، غيرَ أنها من بعيد حيث تقارنها السلامة ، فإن أرضاك ذاك فأنا كأحسن عبيدك ، فإن أبيتَ إلا أن تُعْطِيَ نفسك إرادتَها نَقَضْتُ ما أبرمتُ من عهدك ضِنًّا بنفسي » . (تاريخ الطبري ٩ : ١٦١)

٢٣ – رد أبي جعفر على أبي مسلم

فلما وصل الكتاب إلى أبي جعفر كتب إليه :

« قد فهمتُ كتابك ، وليست صفتك صفةَ أولئك الوزراء الغَشَشَةِ ملوكَهم ، الذين يتمنَّوْن اضطراب حَبْل الدولة لكثرة جرائمهم ، فإنما راحتُهم في انتشار نِظامِ

---

(١) الدهماء : جماعة الناس .

الجماعة ، فلِمَ سوَّيتَ نفسك بهم ؟ فأنت فى طاعتك ومناصحتك واضطلاعك[1] بما حمّلتَ من أعباء هذا الأمر ، على ما أنت عليه ، وَليس مع الشَّريطة التى أوجبتَ منك سماعٌ ولا طاعة ، وحَمَّلَ إليك أميرُ المؤمنين عيسى بنَ موسى رسالةً لِتَسْكُنَ إليها إن أصغيتَ إليها ، وأسأل الله أن يَحُول بين الشيطان ونَزَغَاته وبينك ، فإنه لم يجد بابا يُفسِدُ به نيّتك أوكَدَ عنده وأقربَ من طِبِّه[2] ، من الباب الذى فَتَحَه عليك » .

(تاريخ الطبرى ٩ : ١٦١)

٢٤ — كتاب أبى مسلم إلى أبى جعفر

وروى الطبرى أن أبا مسلم كتب إلى أبى جعفر[3] :

« أما بعد ، فإنى اتخذت رَجُلا[4] إماما ودليلا على ما افترض الله على خَلْقه ، وكان فى مَحَلَّةِ العلم نازلا ، وفى قرابته من رسول الله صلى الله عليه وسلم قريباً ، فاستَجهَلَنى بالقرآن فحرَّفه عن مواضعه طَمَعا فى قليل قد نَعاه[5] الله إلى خَلْقِهِ ، فكان كالذى دُلِّيَ[6] بغرور ، وأمَرَنى أن أجرِّد السيف ، وأرْفَعَ الرَّحمة ولا أقبل المعذرة ، ولا أُقِيل العَثْرة ، ففعلتُ ، توطيداً لسلطانكم ، حتى عرَّفكم من كان جَهِلكم ، ثم استنقذَنى الله بالتوبة ، فإن يعفُ عنى ، فقِدْما عُرِف به[7] ونُسِبَ إليه ، وإن يعاقبنى فبما قدَّمت يداى ، وما الله بِظَلَّامٍ للعبيد » .

---

(١) اضطلع بالأمر : قوى على حمله .   (٢) الطب : السحر .

(٣) قدمنا فى ص ٢٠ أن ابن قتيبة روى أن هذا الكتاب كتبه أبو مسلم إلى أبى جعفر فى خلافة أبى العباس ، وقد أورده بصورة تخالف رواية الطبرى بعض المخالفة كما يتضح بمراجعة الروايتين ، ثم أورد رد أبى جعفر عليه .   (٤) يعنى أخاه إبراهيم الإمام كما تقدم .

(٥) فى الأصل « تعافاه » وهو تحريف .

(٦) أى أطمع ، انظر تفسيره فى الجزء الأول ص ٩٤ .

(٧) الضمير فيه يعود على العفو المفهوم من فعله السابق ، على حد قوله تعالى : « اعْدِلُوا هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَى »

وقدما : قديما .

وخرج أبو مسلم يريد خراسانَ مُراغِماً[١] مُشَاقًّا وأخذ طريقَ حُلوان ، وقال أبو جعفر لعيسى بن على وعيسى بن موسى ، ومن حَضَرَه من بنى هاشم : اكتبوا إلى أبى مسلم ، فكتبوا إليه : « يعظِّمون أمره ويشكرون ما كان منه ، ويسألونه أن يَتِمَّ[٢] على ما كان منه وعليه من الطاعة ، ويحذِّرونه عاقبة الغَدر ، ويأمرونه بالرجوع إلى أمير المؤمنين، وأن يلتمس رضاه » . وبعث إليه بالكتاب مع رسول له ، وتقدَّمَ إلى الرسول أن يُلاينه وَيَعِدَه ويُمَنِّيه ، فإن أبى أن يرجع تَهدَّده وتَوَعَّده[٣] ، فأنفذَ الرسول ما أُمِرَ به . (تاريخ الطبرى ٩ : ١٦٢)

٢٥ — كتاب أبى جعفر إلى أبى داود

وكان أبو جعفر قد كتب إلى أبى داود — وهو خليفة أبى مسلم بخراسان — حين اتَّهم أبا مسلم : « إن لك إمْرَةَ خراسان ما بقيت » .

(تاريخ الطبرى ٩ : ١٦٣)

---

(١) راغمهم : نابذهم وهجرهم وعاداهم . وشاقهم : خالفهم .

(٢) يقال : تم على الأمر وتمم عليه بالتحريك : أى استمر عليه .

(٣) بعث إليه أبا حميد المروروذى وقال له « كلم أبا مسلم بألين ماتكلم به أحدا ، ومنه ، وأعلمه أنى رافعه وصانع به ما لم يصنعه به أحد إن هو صلح وراجع ما أحب ، فإن أبى أن يرجع فقل له : يقول لك أمير المؤمنين : لست للعباس ، وأنا برىء من محمد — إن مضيت مشاقا ولم تأتنى — إن وكلت أمرك إلى أحد سواى ، وإن لم أل طلبك وقتالك بنفسى، ولو خضت البحر لخضته ، ولو اقتحمت النار لاقتحمتها حتى أقتلك أو أموت قبل ذلك ، ولا تقولن له هذا الكلام حتى تأيس من رجوعه ولا تطمع منه فى خير » فسار إليه أبو حميد ، حتى قدم عليه بحلوان ، ودفع إليه الكتاب ، وجعل يتلطف معه فى القول ، فكان جوابه: ارجع الى صاحبك فليس من رأيى أن آتيه » قال : قد عزمت على خلافه ؟ قال : نعم ، قال : لاتفعل ، قال : ما أريد أن ألقاه . فلما آيسه من الرجوع قال له ما أمره به أبو جعفر ، فوجم طويلا ، وكسره ذلك القول ورعبه ، ووافاه كتاب أبى داود (الآتى) على تلك الحال فزداه رعبا وهما ، وتضعضع رأيه ، وكتب إلى أبى جعفر يخبره أنه منصرف إليه .

٢٦ — كتاب أبي داود إلى أبي مسلم

فكتب أبو داود إلى أبي مسلم :

« إنا لم نخرُج لمعصية خلفاء الله ، وأهل بيت نبيه صلى الله عليه وسلم ، فلا تُخالِفَنّ إمامك ، ولا ترجِعنّ إلا بإذنه » .

فرجع إلى أبي جعفر ، فأمهله ثم قتله(١) . (وكان ذلك سنة ١٣٧ هـ) .

(تاريخ الطبرى ٩ : ١٦٣)

٢٧ — رسالة عبد الله بن المقفع في الصحابة « كتبها للمنصور »

« أما بعد — أصلح الله أميرَ المؤمنين ، وأتمّ عليه النعمةَ ، وألبسه المُعافاةَ والرحمةَ — فإن أمير المؤمنين — حفظه الله — يَجْمع مع علمه المسألةَ والاستماع ، كما كان

---

(١) سار أبو مسلم إلى أبى جعفر فلما دنا من المدائن أمر أمير المؤمنين الناس فتلقوه ، فلما دخل على أبى جعفر أدناه وأكرمه ، ثم قال له انصرف ياعبد الرحمن فأرح نفسك وادخل الحمام ثم اغد علىّ ، فلما أصبح أرسل إليه فأتاه ، وكان المنصور قد أحضر أربعة ممن يثق بهم من الحرس ، وقال لهم : كونوا خلف الرواق فإذا صفقت فاخرجوا فاقتلوه ، فلما دخل عليه أبو مسلم قال له : أخبرنى عن سيفين وجدتهما فى عسكر عبد الله بن على ، فقال أبو مسلم : هذا أحدهما . وكان فى يده سيف ، فأخذه أبو جعفر ووضعه تحت فراشه ، ثم أقبل عليه يعاتبه ويقرعه ، ويقول له : فعلت وفعلت ، وهو يعتذر إليه مما اتهمه به ، حتى قال له : فراغمتك وخروجك إلى خراسان ؟ قال . خفت أن يكون قد دخلك منى شىء ، فقلت آتى خراسان فأكتب إليك بعذرى ، ثم قال له : يا أمير المؤمنين ليس يقال هذا لى بعد بلائى وما كان منى ، فقال : يابن الخبيثة ، والله لو كانت مكانك أمة سوداء لفعلت ما فعلت ، إنما عملت ما عملت فى دولتنا وبريحنا ، ولو كان ذلك إليك ماقطعت فتيلا ، ثم ضرب بيديه فخرج أولئك النفر فخبطوه بالسيوف ، فصاح : ياأمير المؤمنين استبقنى لعدوك ، فقال المنصور : لا أبقانى الله إذن ، وأى عدو لى أعدى منك ! ثم أمر به فلف فى بساط .

ودخل عيسى بن موسى بعد قتله — وكان قد كفل بأمانه حين أمنه المنصور — فقال : ياأمير المؤمنين ، أين أبو مسلم . قال : قد كان هاهنا آنفا ، فقال عيسى : ياأمير المؤمنين قد عرفت طاعته ونصيحته ورأى الإمام إبراهيم كان فيه ، فقال : يا أنوك (أى يا أحمق) والله ما أعلم فى الأرض عدوا أعدى لك منه ، هاهو ذاك فى البساط ، فقال عيسى : إنا لله وإنا إليه راجعون ؛ فقال له المنصور : خلع الله قلبك ، وهل كان لكم ملك أو سلطان أو أمر أو نهى مع أبى مسلم ! — انظر تاريخ الطبرى (٩ : ١٦٧ والفخرى ص ١٥٣) .

وُلاة الشرّ يجمعون مع جهلهم العُجْبَ والأستغناء ، ويستوثق لنفسه بالحجّة ، ويتخذها على رعيته فيما يَلْطف له من الفحص عن أمورهم ، كما كان أولئك يكتفون بالدَّعة ، ويرضَوْن بدُحُوضِ(١) الحجة ، وانقطاع العُذْر فى الامتناع أن يجترئ عليهم أحدٌ برأيٍ أو خبرٍ ، مع تسليط الذِّئاب(٢) ، وقد عَصَمَ الله أمير المؤمنين — حين أهلك عدوَّه ، وشَفَى غليلَه ، ومكَّنَ له فى الأرض ، وآتاه مُلكها وخزائنَها — من أن يَشْغَلَ نفسه بالتمتُّع والتفيُّش(٣) ، والتأثُّل والأخلاء(٤) ، وأن يَرْضَى ممن آوى(٥) بالمَتَاع به ، وقضاءِ حاجةِ النفس منه ، وأكرم اللهُ أمير المؤمنين باستهانةِ ذلك واستصغارِه إياه ، وذلك من أبْيَنِ علاماتِ السعادة ، وأنجحِ الأعوان على الخير ، وقد قصَّ الله عز وجل علينا من نبأ يوسف بن يعقوب : أنه لمَّا تمّت نعمةُ الله عليه ، وآتاه المُلْكَ ، وعلَّمه من تأويل الأحاديث ، وجَمَع له شَمْله ، وأقرَّ عينَه بأبويه وإخْوته ، أثنَى على الله عزَّ وجل بنعمته ، ثم سَلاَ عما كان فيه ، وعرَف أن الموت وما بعده هو أَوْلَى ، فقال : « تَوَفَّنِي مُسْلِمًا وَأَلْحِقْنِي بِالصَّالِحِينَ » .

وفى الذى قد عرَفْنا من طريقة أمير المؤمنين ما يشجِّع ذا الرأى على تناوله بالخبَر فيما ظَنَّ أنه لم يبْلغه إياه غيرُه ، وبالتذكير بما قد انتهى إليه ، ولا يَزِيدُ صاحبُ الرأى على أن يكون مُخبرا أو مُذكِّرا ، وكلٌّ عند أمير المؤمنين مقبول إن شاء الله ، مع أن مما يَزيد ذوى الألباب نشاطًا إلى إعمال الرأى فيما يُصْلِح الله به الأمةَ فى يومها ، أو غابرِ دهرها ، الذى أصبحوا قد طمِعوا فيه ، ولعل ذلك أن يكون على يَدَىْ أمير

---

(١) دحضت الحجة كمنع دحوضا : بطلت .

(٢) فى الأصل « الذبان » وهو تحريف .

(٣) فى الأصل « التفتيش » وهو تحريف ، والتفيش : ادعاء الشىء والفخر به باطلا ، ويقال : فاش الرجل فيشا : أى افتخر وتكبر ولا شىء عنده ، وفلان فياش : إذا كان نفاخا بالباطل وليس عنده طائل ، وتأثل المال : جمعه .

(٤) فى الأصل والإخلاد وهو صحيح على تقدير : والإخلاد إلى الدعة والرفاهية : أى الميل إليها ، وأرى أنه « الأخلاء » ويقوى ذلك ما بعده . (٥) أى ممن آواه .

المؤمنين ، فإن مع الطمع الجدَّ ، ومع اليأس القعُود ، وقلما ضَعفَ الرّجاء إلاّ ذهب الرّخاء ، وطَلَبُ المُؤيَس عَجزٌ ، وطلبُ الطامع حَزْمٌ ، ولم نُدْرِك الناس نحن وآباؤنا إلاّ وهم يَرَوْن فيها خِلاَلاً تَقطع الرأىَ ، وتُمسِك بالأفواه : مِنْ حالِ وَالٍ لم يُهِمَّه الإصلاحُ ، أو أهَمَّه ذلك ، ولم يثِقْ فيه بفَضْل رأيٍ ، أو كان ذا رأيٍ ليس مع رأيه صَوْلٌ بصَرَامة أو حزم ، أو كان ذلك استِئثاراً منه على الناس بنَشَب[1] ، أو قلةَ تقدُّمٍ لِمَا يجمع أو يقسِم ، أو حال أعوان تُبتَلَى بهم الولاةُ ليسوا على الخير بأعوان ، وليس لهم إلى اقتلاعهم سبيلٌ ، لِمكانهم من الأمر ، ومخافَةِ الدُّوَل[2] والفساد إن هو هاجَهم أو انتقَصَ ما فى أيديهم ، أو حال رعيَّةٍ متَّزِرة[3] ، ليس لها من أمرها النَّصَفُ فى نفسها ، فإن أُخذت بالشدة حَمِيَتْ ، وإن أُخذت باللين طَغَتْ ، وكل هذه الخلائق قد طَهَّرَ الله منها أمير المؤمنين، فآتاه الله ما آتاه فى نيّته ومقدرته وعزمه، ثم لم يزل يَرَى ذلك منه الناسُ ، حتى عرَفه منه جُهَّالُهم ، فضلاً عن علمائهم ، وصَنَع الله لأمير المؤمنين ألطفَ الصُّنع فى اقتلاع مَن كان يَشْرَكه فى أمره على غير طريقته ورأيه ، حتى أراحه الله وآمَنَه منهم ، بما جعلوا من الحُجَّة والسبيل على أنفسهم[4] ، وما قوّى الله عليه أمير المؤمنين فى رأيه واتباعِه مَرْضاته ، وَأَذَلَّ الله لأمير المؤمنين رعيَّته ، بما جَمعَ له من اللين والعفو ، فإن لان لأحد منهم فى الإثخان[5] له شهيد على أن ذلك ليس بضعف ولا مُصانعةٍ ، وإن اشتدَّ على أحد منهم فى العفو شهيدٌ على أن ذلك ليس بعُنْفٍ ولا خُرْقٍ ، مَعَ أمورٍ سوى ذلك نَكُفُّ عن ذكرها كراهةَ أن نكون كأنَّا نُصِبْنا للمدح ، فما أخلقَ هذه الأشياء أن تكون عَتَاداً[6] لكل جسيم من الخير فى الدنيا والآخرة ، واليومِ والغدِ ، والخاصة والعامّةِ ، وما أرجانا لأَنْ يكون أمير المؤمنين

---

(١) النشب : المال الأصيل . (٢) جمع دولة : وهى انقلاب الزمان .
(٣) اتزر : ركب الوزر بالكسر أى الذنب والإثم ، والنصف : الإنصاف .
(٤) يعرض بأبى مسلم الخراسانى .
(٥) أثخنه : غلبه وأوهنه ، وفى الأصل « فى الإلحان » وأراه محرفا . (٦) العتاد : العدة .

ـ بما أصلح الله الأمةَ من بعده ـ أشدَّ اهتماما من بعض الولاة بما لا يُصْلح رعيتَه في سلطانه، وما أشدَّ ما قد استبان لنا أن أمير المؤمنين أطولُ بأمر الأمة عنايةً ، ولها نظراً وتقديراً ، مِنَ الرجل منا بخاصَّة أهله ، ففي دون هذا ما يثبِّت الأملَ ، وينشِّط للعمل ، ولا قوةَ إلا بالله ، ولله الحمد ، وعلى الله التمام .

فمن الأمور التي يُذَكَّرُ بها أمير المؤمنين ـ أمتَعَ اللهُ به ـ أمرُ هذا الجند من أهل خُراسان، فإنهم جندلم يُدْرَكْ مثلهم في الإسلام، وفيهم مَنَعة بها يَتمُّ فضلُهم إن شاء الله أمَّا هم فأهلُ بَصَرٍ بالطاعة ، وفضلٍ عند الناس ، وعَفافِ نفوسٍ وفروجٍ ، وكفٍّ عن الفساد ، وذُلٍّ للوُلاة ، فهذه حالٌ لا نعلَمها توجَد عند أحدٍ غيرهم . وأمَّا ما يحتاجون فيه إلى المَنفعة منْ ذلك ، فتقويمُ أيديهم ورأيهم وكلامهم ، فإن في ذلك اليوم أخلاطاً(١) : منْ رأسٍ مفرِطٍ غالٍ ، وتابعٍ متحيِّرٍ شاكٍّ ، ومن كان إنما يَصولُ عَلَى الناس بقومٍ لا يعرف منهم الموافَقَة في الرأي والقول والسِّيرة ، فهو كراكب الأسد الذي يَوْجَلُ(٢) من رآه ، والراكبُ أشدُّ وَجَلاً ؛ فلو أن أمير المؤمنين كتب لهم أماناً معروفا بليغاً وَجيزا ، مُحيطاً بكل شيء يجب أن يعملوا(٣) به أو يكفُّوا عنه ، بالغا في الُحجَّة ، قاصراً عن الغُلوِّ ، يحفظه رؤساؤهم حتى يقودوا به دَهماءَهم(٤) ، ويتعهَّدوا به منهم مَن دُونَهمْ من عُرْض الناس ، لكان ذلك إن شاء الله لرَأْيهم صلاحاً ، وعلى من سواهم حُجَّةً ، وعند الله عُذْرا ، فإن كثيراً من المتكلمين من قُوَّاد أمير المؤمنين اليوم إنمَا عامَّة كلامهم فيما يُؤَمَّر الأمرُ ، ويُزْعَم الزَّعْمُ أن أمير المؤمنين لو أمَرَ الجبال أن تسير سارت ، ولو أمر أن تُسْتَدْبَرَ القِبْلَةُ بالصلاة فعلَ ذلك ، وهذا كلام قلَّما يرتضيه مَن كَانَ مُخالِفاً ، وقلَّما يَرِدُ في سَمْع السامع إلا أحدَثَ في قلبه رِيبةً

---

(١) في الأصل «اختلاطا» وهو تحريف . (٢) أي يخاف .

(٣) في الأصل « أن يقول » وهو تحريف .

(٤) الدهماء : جماعة الناس ، وعرض الناس بالضم ويفتح : معظمهم .

وشَكًّا ، والذى يقول أهلُ القصد من المسلمين هو أقوى للأمر ، وأعزُّ للسلطان ، وأقمع للمخالف ، وأرضى للموافق ، وأثبتُ للعذر عند الله عز وجل .

فإنا قد سمِعْنا فريقاً من الناس يقولون : لا طاعةَ للمخلوق فى معصية الخالق ، بَنَوْا قولهَم هذا بناء مُعْوَجًّا فقالوا : إنْ أمَرَنا الإمامُ بمعصية الله فهو أهلٌ أنْ يُعْصَى ، وإن أمَرَنا الإمام بطاعة الله فهو أهل أن يُطاع ، فإذا كان الإمام يُعْصَى فى المعصية ، وكان غيرُ الإمام يطاع فى الطاعة ، فالإمام ومَن سِواه على حقٍّ الطاعة سَواء ، وهذا قول معلوم يجده الشيطان ذَريعةً إلى خلع الطاعة ، والذى فيه أُمْنِيَّتُه لِكَىْ يكونَ الناسُ نظائرَ ، ولا يقوم بأمرهم إمام ، ولا يكون على عدوّهم منهم ثِقْل .

سمِعْنا آخَرِين يقولون : بل نُطيع الأئمةَ فى كل أمورنا ، ولا نفتِّش عن طاعة الله ولا معصيته ، ولا يكون أحدٌ منا عليهم حَسِيباً ، هم وُلاةُ الأمر وأهلُ العِلم ، ونحن الأتْباعُ وعلينا الطاعةُ والتسليم ، وليس هذا القول بأقلَّ ضرراً فى تَوْهين[1] السلطان ، وتهجِين الطاعةِ ، من القول الذى قَبْله ، لأنه ينتهى إلى القطيع المتفاحِشِ من الأمر ، فى استحلال معصية الله جِهاراً صُراحا[2] .

وقال أهل الفضل والصواب : قد أصاب الذين قالوا : لا طاعة لمخلوق فى معصية الخالق ، ولم يُصيبوا فى تعطيلهم طاعةَ الأئمة ، وتسخيفهم إياها ، أصاب الذين أقرُّوا بطاعة الأئمة لِما حَقَّقوا منها ، ولم يُصِيبوا ما أبهموا من ذلك فى الأمور كلِّها .

فأمّا إقرارُنا بأنه لا يطاع الإمام فى معصية الله ، فإنما ذلك من عزائم الفرائض والحدودِ التى لم يجعل الله لأحد عليها سلطانا ، ولو أن الإمام نَهَى عن الصلاة والصيام والحج ، أو مَنَع الحدودَ وأباح ما حَرَّمَ الله ، لم يكن له فى ذلك أمر .

فأمَّا إثباتُنا للإمام الطاعةَ فيما لا يطاع فيه غيره ، فإن ذلك فى الرأى والتدبير والأمر

---

(١) التوهين : الإضعاف ، والتهجين : التقبيح .

(٢) يقال : شتمه مصارحة وصراحا بالضم والكسر : أى مواجهة .

الذى جعل الله أزمّتَه وعُراه بأيدى الأئمة ، ليس لأحد فيه أمرٌ ولا طاعة ، من الغَزْو والقفُول[1] ، والجَمْعِ والقَسْمِ ، والاستعمالِ والعَزلِ ، والحُكْمِ بالرأى فيما لم يكن فيه أثَر ، وإمضاءِ الحدودِ والأحكام على الكتاب والسُّنة ، ومحاربةِ العدو ومخادعته ، والأخذِ للمسلمين والإعطاءِ عليهم ، وهذه الأمور وأشباهها من طاعة الله عز وجل الواجبة ، وليس لأحد من الناس فيها حق إلا الإمام ، ومن عَصَى الإمامَ فيها أو خذَله فقد أوتَغَ[2] نفسَه ، وليس يفترق هذان الأمران إلا ببُرهانٍ من الله عز وجل عظيم ، وذلك أن الله جعل قِوام الناسِ وصَلاحَ معاشهم ومَعادِهم فى خَلَّتين : الدِّينِ والعقل ، ولم تكن عقولهم — وإن كانت نعمة الله عز وجل عظُمَتْ عليهم فيها — بالغة معرفةَ الهدى ، ولا مُبْلِغةً أهلَها رِضوانَ الله ، إلا بتمام كمل لهم من النعمة ، بالدِّين الذى شَرَع لهم ، وشرحَ به صدرَ مَن أراد هُداه منهم ، ثم لو أنّ الدِّين جاء من الله لم يغادِرْ حرْفًا من الأحكامِ والرأىِ والأمرِ وجميع ما هو وارد على الناس ، وجارٍ فيهم مُذْ بَعَثَ الله رسوله صلى الله عليه وسلم إلى يومِ يَلْقَوْنه إلا جاء فيه بعزيمة ، لكانوا قد كُلِّفوا غيرَ وُسْعهم ، فضُيِّق عليهم فى دينهم ، وأتاهم مالم تتَّسع[3] أسماعُهم لاستماعه ، ولا قلوبُهم لفهمه ، ولحَارَتْ عقولُهم وألبابُهم التى امتنَّ الله بها عليهم ، ولكانت لَغْوًا لا يحتاجون إليها فى شىء ، وَلا يُعمِلونها إلا فى أمرٍ قد أتاهم به تنزيلٌ ، ولكن الله مَنَّ عليهم بدينهم الذى لم يكن يسَعه رأيُهم ، كما قال عبادُ الله المتقون : « وَمَا كُنَّا لِنَهْتَدِىَ لَوْلاَ أَنْ هَدَانَا اللهُ » .

ثم جعل ما سِوَى ذلك من الأمر والتدبير إلى الرأى ، وجَعَلَ الرأىَ إلى وُلاة الأمر ، ليس للناس فى ذلك الأمر شىء إلا الإشارةُ عند المَشورة ، والإجابةُ عند الدَّعوة ، والنصيحةُ بظهْر الغَيْب ، ولا يستحقّ الوالى هذه الطاعةَ إلا بإقامة العزائم والسُّنَن مما هو فى مَعْنَى ذلك ، ثم ليس من وجوه القول وَجهٌ يُلْتَمَسُ فيه إثباتُ فضلِ

---

(١) القفول : الرجوع . (٢) أوتغ نفسه : أهلكها .
(٣) فى الأصل « تسم » وهو تحريف .

أهل بيت أمير المؤمنين على أهل كل بيتٍ ، وغير ذلك مما يحتاج الناس إلى ذكره ، إلاّ وهو موجود فيه من الكلام الفاضل المعروف ما هو أبلغُ مما يَغلو فيه الغالون ، فإن الحجَّة ثابتة ، والأمر واضح بحمد الله ونعمته .

ومما يُنظَر فيه لِصَلاح أهل الجند ألاّ يُوَلِّيَ أحداً منهم شيئاً من الخراج ، فإن ولاية الخراج مَفسَدةٌ للمُقاتِلة ، ولم يَزَلِ الناس يتحامَوْن ذلك منهم ، ويُنَحُّونه عنهم ، لأنهم أهلُ دالَّةٍ[1] ودَعْوَى بَلاء ، وإذا كان[2] جَلاّباً للدراهم والدنانير اجترأ عليهما ، وإذا وقع فى الخيانة صار كلُّ أمْرِه[3] مدخولا : نصيحتُه وطاعتُه ، فإن جُعل بينه وبين رفعه أمرٌ حَفِظته[4] الحَمِيَّة ، مع أن ولايةَ الخراج داعيةٌ إلى ذِلّة وعقوبةٍ وهوانٍ ، وإنما منزلة المقاتِل منزلةُ الكرامةِ واللُّطف .

ومما يُنظَرُ فيه من أمرهم أن منهم من المجهولين مَن هو أفضلُ من بعض قادَتِهم ، فلو التُمِسوا وصُنِعوا[5] كانوا عُدَّةً وقوةً ، وكان ذلك صلاحاً لمن فوقهم من القادةِ ، ومَنْ دونَهم من العامة .

ومن ذلك تعهُّدُ أدَبِهم فى تعلُّم الكتاب ، والتفقُّه فى السُّنَّة ، والأمانة والعصمة والمباينة لأهل الهوى ، وأن يظهر فيهم من القَصْد والتواضُع واجتنابِ زِيِّ المُترَفين وشَكْلِهم ، مِثلَ الذى يأخذ به أمير المؤمنين فى أمرِ نفسِه ، ولا يزال يَطَّلِع من أمير المؤمنين، ويَخرج منه القولُ بما يُعرِّف مَقتَه لِلإتراف والإسراف وأهلِهما ، ومَحبّتَه القصدَ والتواضعَ ومَن أخذَ بهما ، حتى يعلموا أن معروف أمير المؤمنين محظورٌ عمن يَكْنِزُه بُخلا ، أو[6] يُنفِقه سَرَفاً فى العطر واللِّباس والمُغالاة بالنساء والمراتب ، فإن أمير المؤمنين يُؤثِر بالمعروف مَن وِجْهتُه المعروفُ والمُواساةُ .

---

(١) فى الأصل « أهل ذاك » وهو تحريف.
(٢) الضمير فيه يعود على « أحدا » المتقدم .
(٣) فى الأصل « كل أمر » وهو تحريف (ونصيحته وطاعته بدل من كل أمره) .
(٤) فى الأصل « أمرضته » .
(٥) أى أحسن إليهم .
(٦) فى الأصل « أن » وهو تحريف .

ومن ذلك أمرُ أرزاقهم أن يوقِّتَ لهم أميرُ المؤمنين فيها وقتاً يعرفونه ، في كل ثلاثة أشهر ، أو أربعة ، أو ما بَدَا له ، وأن يَعْلَم عامَّتُهم العذرَ الذي في ذلك من إقامة ديوانهم ، وجَمْلِ[1] أسمائهم ، ويعلموا الوقتَ الذي يأخذون فيه ، فينقطعَ الاستبطاء والشكوى ، فإن الكلمة الواحدة تخرُجُ من أحدهم في ذلك ، أهلٌ أن تُسْتَعْظَمَ ، وإنَّ بابَ ذلك جَدِيرٌ أن يُحْسَمَ ، مع أن أمير المؤمنين قد عَلِم كثرةَ أرزاقهم ، وكثرةَ المال الذي يُخْرج لهم ، وأن هذا الخراج إن لم يكن رائجا لِغَلاء السِّعر ، فإنه لابُدّ من الكَسَاد والكَسْر ، وأن لكل شيء دِرَّةً وَغزارةَ ، وإنما دُرُورُ خراج العراق بارتفاع الأسعار ، وإنما يحتاج الجند اليومَ إلى مايحتاجون إليه من كثرة الرزق ، لغَلاء السعر ، فمن حُسْنِ التقدير إن شاء الله أن لايدخُلَ على الأرض ضررٌ ، ولا بيتِ المال نقصانٌ من قِبَل الرحمٰن ، إلا دخلَ ذلك عليهم في أرزاقهم مع أنه ليس عليهم في ذلك نقصانٌ ، لأنهم يشترُون بالقليل مِثلَ ما كانوا يشترون بالكثير ، فأقولُ : لو أن أمير المؤمنين خلَّى[2] شيئاً من الرزق ، فجعل بعضه طعاما ، وجعل بعضَه عَلَفا ، وأعْطوه بأعيانه ، فإنْ قُوِّمت لهم قيمة ، تخرج ماخرج على حِسابِه[3] قيمة الطعام والعَلَف ، لم يكن في أزاقهم لذلك نقصانٌ عاجِلٌ يستنكرونه ، وكان ذلك قوةً لهم في نزالهم عند الحمل على العدو[4] ، وإنصافَ بيت المال من أنفسهم فيما يستبطئون مع أنه إن زاد السعر أخذوا بحصَّتهم من فَضْل ذلك .

ومن جِمَاع الأمر وقِوامه بإذن الله أنْ لاَيَخْفَى على أمير المؤمنين شيء من أخبارهم وحالاتهم وباطِنِ أمرهم بخُراسانَ والعَسْكَرِ والأطرافِ ، وَأَنْ يحتقر في ذلك النَّفَقَةَ ،

---

(١) الجمل : الجمع .
(٢) في الأصل « ماخلا » والمعنى عليه غير مستقيم، وأرى أن صوابه « خلى » بمعنى انتقص واقتطع
(٣) الحسابة : الحساب ، مصدر حسبه كنصر : أي عده .
(٤) في الأصل « وكان ذلك .... نزالهم لحمل العدو » .

ولا يستعينَ فيه إلا بالثِّقاتِ النصَّاحِ ، فإنَّ تركَ ذلك وأشباهَهُ أحزمُ بتاركه من الاستعانة فيه بغير الثقة ، فتصير مغبّته للجهالة والكذب .

ومما يُذكرُ به أميرُ المؤمنين - أمتع الله به - أمرُ هذين المِصْرَين[1] ، فإنهم - بعد أهل خُراسان - أقربُ الناس إلى أن يكونوا شيعَتَه ومُعِينيه ، مع اختلاطهم بأهل خراسان - وإنهم منهم وهامَتهم[2] - ، وإنما ينظر أمير[3] المؤمنين منهم إلى صدق رابطتهم ، وما أراد مَعَزَّته[4] من أمورهم استعان أهلَ خراسانَ فى ذلك لهم ، مع الذى فى ذلك من جمال الأمر ، واختلاط الناسِ بالناس ، العربِ بالعجَم ، وأهلِ خُراسان بالمِصْرَين .

إن فى أهل العراق يا أمير المؤمنين من الفقه والعَفاف والألباب والألسِنة ، شيئاً لا يكاد يُشَكُّ أنه ليس فى جميع مَن سواهم من أهل القِبلة مِثلُهُ ولا مثلُ نصفه ، فلو أراد أمير المؤمنين أن يكتفِيَ بهم فى جميع ما يُلتَمَسُ له أهل هذه الطَّبَقةِ من الناس ، رَجَوْنا أن يكون ذلك فيهم موجوداً ، وقد أزْرَى بأهل العراق فى تلك الطَّبَقة أن وُلاةَ العراق فيما مضى كانوا أشرارَ الولاة ، وأن أعوانهم من أهل أمصارهم كذلك فحُمِل جميعُ أهل العراق على ما ظهر من أولئك الفُسُول[5] ، وتعَلَّق بذلك أعداؤهم من أهل الشام فنَعَوْه[6] عليهم ، ثم كانت هذه الدولةُ فلم يتعلَّق مَن دونَكم من الوزراء والعمال إلَّا بالأقرب فالأقرب مما دنا منهم ، أو وجدوه بسبيل شىء من الأمر ، فوَقَعَ رجالٌ مَوَاقِعَ شائنةً لجميع أهل العراق ، حيثُما وَقَعوا من صحابة خليفة ، أو ولايةِ

---

(١) يعنى البصرة والكوفة . (٢) هامة كل شىء : رأسه .

(٣) فى الأصل « وإنما ينظر أمير المؤمنين منهم .... صدق ولرابطتهم أو ما أراد من أمورهم معرفته استثقال أهل خراسان ذلك لهم من أمرهم » والعبارة مضطربة محرفة ، وقد أصلحتها كما ترى .

(٤) أى تقويته من عز كضرب: إذا قوى بعد ذلة، وأرى أن هذه الكلمة أنسب من كلمة «معرفته» الواردة فى الأصل ، وبها ينسجم المعنى ، وربما كان الأصل « تقويته » .

(٥) الفسول جمع فسل بالفتح؛ وهو الرذل الذى لا مروءة له .

(٦) نعى عليه ذنوبه ينعاها : أى أظهرها وشهرها .

عمل، أو موضع أمانة، أو مَوْطِنِ جهاد، وكان مِنْ رَأْى أهل الفضل أن يَقصِدوا حيث يُلْتَمسون، فأبطأ ذلك بهم أن يُعْرَفوا ويُنْتَفَع بهم، وإن كان صاحب السلطان ممن لم يعرف الناس قبل أن يَلِيَهم، ثم لم يزل يسألُ عنهم مَنْ يعرفهم، ولم يستثبت فى استقصائهم، زالت الأمورُ عن مراكزها، وَنَزَلَت الرجالُ عن منازِلها، لأن الناس لا يَلقَونه إلا متصنّعين بأحسن ما يقدرون عليه من الصمت والكلام، غير أن أهل النقص هم أَشَدُّ تصنعا، وأحلَى ألسِنَةً، وأرفقُ تلطُّفا للوزراء، وتمحُّلا لأن يُثنَى عليهم من وراء وراء، فإذا آثَرَ الوالى أن يستخلص رجلا واحدا ممن ليس لذلك أهلا، دعا إلى نفسه جميعَ ذلك الشَّرْج[1]، وطمِعوا فيه، واجترءوا عليه، وتواردُوه، وزَحَموا على ما عنده، وإذا رأى ذلك أهلُ الفضل كفُّوا عنه، وباعَدوا منه، وكرِهوا أن يُرَوْا فى غير موضعهم، أو يزاحِموا غيرَ نُظَرائهم.

ومما ينظُر أمير المؤمنين فيه من أمر هذين المِصْرين، وغيرِهما من الأمصار والنواحى، اختلافُ هذه الأحكام المتناقضة، التى قد بلغ اختلافُها أمراً عظيماً فى الدِّماء والفُرُوج والأموال، فيُستَحَلُّ الدمُ والفَرْجُ بالحِيرة، وهما يُحَرَّمان بالكوفة، ويكون مثل ذلك الاختلاف فى جَوْف الكوفة، فيُستَحَلّ فى ناحية منها ما يُحرَّم فى ناحية أخرى، غير أنه على كثرة ألوانه نافذٌ على المسلمين فى دمائهم وحرَمهم، يَقضِى به قُضَاةٌ جائزٌ أَمْرُهم وحكمُهم، مع أنه ليس ممّن ينظر فى ذلك من أهل العراق وأهل الحجاز فريقٌ إلاّ قد لجَّ بهم العَجَبُ بما فى أيديهم، والاستخفافُ بمن سواهم، فأقحَمَهم ذلك فى الأمور التى يَتَبيّغ[2] بها مَن سَمِعَها من ذوى الألباب، أمَّا مَنْ يدَّعِى لزومَ السُّنَّةِ منهم فيجعلُ ما ليس له سُنَّةً سُنَّةً حتى يبلغَ ذلك به إلى أن يسفِكَ الدمَ بغير بيِّنة ولا حُجَّة على الامرِ الذى يَزعم أنه سُنة، وإذا سئل عن ذلك لم يستطع أن يقول هُرِيق فيه دَمٌ على عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم، أو أئمةِ الهدى من بعده، وإذا قيل له: أَىُّ

(١) الشرج: النوع والمثل. (٢) تبيغ به الدم: هاج به.

دم سَفكَ على هذه السُّنَّة التى تزعُمون؟ قالوا : فَعَلَ ذلك عبد الملك بن مَرْوان، أو أميرٌ من بعض أولئك الأمراء ، وإنما يأخذ بالرأى ، فيبلغ به الاعتزامُ على رأيه ، أن يقولَ فى الأَمرِ الجسيم من أَمْرِ المسلمين قولًا لا يوافقه عليه أحد من المسلمين، ثم لا يستوحِشُ لانفراده بذلك ، وإمضائه الحكمَ عليه ، وهو مُقِرٌّ أنه رأىٌ منه ، لا يحتجُّ بكتاب ولا سُنة .

فلو رَأى أمير المؤمنين أن يأمر بهذه الأَقْضِيَة والسُّنن المختلفة فتُرفعَ إليه فى كتاب؛ ويُرفَع معها ما يحتجُّ به كل قوم من سُنَّة ، أو قياس ، ثم نظر أمير المؤمنين فى ذلك ، وأمضى فى كل قضية رأيَه الذى يُلْهِمه الله ، وَيَعْزِم له عليه ، ويَنْهَى عن القضاء بخلافه، وكتب بذلك كتابا جامعا عَزْما، لَرَجَوْنا أن يجعل الله هذه الأَحكامَ المختلِطَة الصوابِ بالخطأ، حُكْماً واحداً صَوَابا ، ورجونا أن يكون اجتماعُ السِّيَر قُرْبةً لإجماع الأمْرِ برأى أمير المؤمنين وعلى لسانه ، ثم يكون ذلك من إمامٍ آخَرَ آخِرَ الدهرِ إن شاء الله .

فأمَّا اختلاف الأحكام . فإمَّا شيء مأثور عن السَّلَف غير مُجْمَعٍ عليه ، يدبِّره قوم على وجه ، ويدبِّره آخَرون على وجه آخر ، فيُنْظَرَ فيه إلى أحقِّ الفريقين بالتصديق ، وأشبه الأمْرَين بالعَدْل . وإما رَأْىٌ أجراه أهلُه على القياس ، فاختلف وانتشر بغَلَطٍ فى أصلِ المقايسة ، وابتداءِ أمرٍ على غير مِثاله . وإما لطُول ملازمته القياسَ ، فإن من أراد أن يلزَمَ القياسَ ، ولا يفارقَه أبداً فى أمر الدين والحُكْم ، وقَع فى الوَرَطاتِ ومضى على الشُّبُهات ، وغَمَّض على القبيح الذى يَعرفه ويُبْصِره ، فأَبَى أن يتركه كراهةَ تَرْكِ القياس ، وإنما القياسُ دليلٌ يُسْتَدلُّ به على المحاسن ، فإذا كان مايقود إليه حَسَناً معروفا أُخِذَ به ، وإذا قاد إلى القبيح المستنكر تُرِكَ ، لأن المبتغِيَ ليس عَيْنَ[1] القياس يَبْغِى ، ولكنْ محاسِنَ الأمور ومعروفَها وما أَلْحَقَ الحقَّ بأهله ،

(١) فى الأصل « ليس غير القياس » ، وهو تحريف لأنه ضد المعنى المقصود .

ولو أن شيئاً مستقيما على الناس ، ومنقاداً حيثُ قيدَ، لكان الصدقُ هو ذلك، ولا يُعتَبر بالمقاييس، فإنه لو أراد أن يقوده الصدقُ لم ينقدْ له ، وذلك أن رجلا لو قال: أتأمرني أنْ أصْدُقَ فلا أكذِبَ كِذْبَةً أبدا ، لكان جوابه أن يقول : نعم ، ثم لو التَمسَ منه تَوْدَ[(١)] ذلك فقال : أأَصْدُقُ في كذا وكذا ، حتى يَبْلُغَ به أن يقول: أأصدُقُ في رجل هاربٍ ، استدلَّني عليه طالبٌ لِيظلمَه فيقتلَه ، لَكَسَرَ عليه قِيادَه، وكانَ الرأى له أن يتركَ ذلك ، وينصرفَ إلى المُجْتَمَع عليه المعروفِ المستحسَن .

ومما يُذكَّر به أمير المؤمنين أهلُ الشام ، فإنهم أشدُّ الناسِ مُؤنةً ، وأخوفُهم عداوةً وبائقةً ، وليس يؤاخذهم أمير المؤمنين بالعداوة، ولا يَطْمَعُ منهم في الاستجماع على المودَّةِ ، فمِن الرأيِ في أمرهم أن يختصَّ أميرُ المؤمنين منهم خاصّةً ، ممن يرجو عنده صلاحا ، أو يعرف منه نصيحةً أو وفاء ، فإن أولئك لا يَلْبَثُون أن ينفصِلوا عن أصحابهم في الرأى والهَوى ، ويدخلوا فيما حُمِلوا عليه مِنْ أمرهم ، فقد رأَيْنا أشباهَ أولئك من أهل العراق الذين استدخَلَهم أهلُ الشام ، ولكن أُخِذَ في أمر أهل الشام على القِصاصِ[(٢)] . حُرِموا كما كانوا يَحْرِمون الناسَ ، وجُعِل فَيْئُهُم إلى غيرهم كما كان فىء غيرهم إليهم ، ونُحُّوا عن المنابر والمجالس والأعمال كما كانوا يُنَحُّون عن ذلك مَن لا يجهلون فضلَه في السابقة والموضع ، ومُنِعَتْ منهم المرافقُ كما كانوا يمنعون الناسَ أن ينالوا معهم أَكْلَةً من الطعام الذى يصنعه أمراؤهم للعامَّة ، فإذا رَغِبَ أميرُ المؤمنين بنفسه عن هذه السِّيرة وما أشبهها، فلِمَ يعارِضُ[(٣)] ماعابَ ، ولِمَ يُمثِّل ما سَخِطَ ؟ كان العدلُ أن يقتصِرَ بهم على فَيئهم ، فيجعلَ ما خرج من كُوَر الشام فَضْلًا عن النفقات،

---

(١) الفود : ، والمعنى أن يتابع الصدق فى كل ما يقول .

(٢) فى الأصل « وليس أحد فى أمر أهل السلم على القصاص » وقد أصلحته كما ترى .

(٣) أى لم يأتى بمثله .

وما خرج من مصر فضلا عن حقوق أهل المدينة ومكة ، بأن يجعل أمير المؤمنين ديوان مُقاتِلتهم ديوانهم ، أو يزيدَ ، أو يَنقُص ، غيرَ أنه يأخذ أهل القوة والغَناء(١) وخِفَّةِ المُؤنة والخفة فى الطاعة ، ولا يفضِّل أحداً منهم على أحد ، إلا على خاصَّةٍ معلومة ، ويكون الديوان كالفرَض المستأنَف ، ويأمر لكل جند من أجناد أهل الشام بعِدَّة من العِيال يَقترِعون عليها ، ويُسَوِّى بينهم فيما لم يكونوا أسوةً فيه فيمن مات من عيالاتهم ، ولا يُضيعُ أحداً(٢) من المسلمين .

وأمَّا مايتخوف المتخوفون من نَزَواتهم ، فلعَمرى لئن أُخِذوا بالحق ـ ولم يؤخذوا به ـ إنهم لَخلقاء أن يكون لهم نَزَواتٌ ونَزَقاتٌ(٣) ، ولكنَّا على مِثل اليقين ـ بحمد الله ـ من أنهم لم يشركوا بذلك إلا أنفسهم ، وأن الدائرةَ لأمير المؤمنين عليهم آخِرَ الدهر إن شاء الله ، فإنه لم يخرُج المُلكُ من قوم إلَّا بقِيَتْ فيهم بقيةٌ يتوثبون بها ، ثم كان ذلك التوثّب هو سبب استئصالهم وتدويخهم .

ومما يُذكَّر به أمير المؤمنين أمرُ أصحابه ، فإن من أَولَى أمْرِ الوالى منه بالتثبُّت والتخيُّر ، أمْرَ أصحابه الذين هم بَهاء فِنائه(٤) ، وزينةُ مجلسه ، وألسِنَةُ رَعيته ، والأعوانُ على رأيه ، ومواضعُ كرامته ، والخاصَّةُ من عامّته ، فإن أمر هذه الصَّحابة قد عَمِلَ فيه مَن كان وَلِيَه من الوزراء(٥) والكُتَّاب قبل خلافة أمير المؤمنين عَملاً قبيحاً مُفْرِط القُبح ، مُفْسِداً للحَسَب والأدب والسياسة ، داعياً للأشرار ، طارداً للأخيار ، فصارت صحبة الخليط(٦) أمراً سخيفاً ، فطمِعَ فيه الأوغاد ، وتزهّد فيه من كان يرغَب فيما دونَهُ ، حتى إذا لقينا(٧) أبا العباس ـ رحمة الله عليه ـ وكنتُ فى ناس من صُلَحاء أهل البصرة

---

(١) الغناء : الكفاية . (٢) فى الأصل « ولا يصنع بأحد » وأراه محرفا .

(٣) نزوات جمع نزوة كوردة ، فعلة من النزو بالسكون وهو الوثوب ، ونزقات جمع نزقة كنزوة أيضاً ، فعلة من النزق بالسكون ، نزق الفرس كسمع ونصر وضرب نزقا ونزوقا : نزا أو تقدم خفة ووثب ، أو من النزق بالتحريك ، نزق كفرح : طاش وخف عند الغضب .

(٤) فناء الدار : ما اتسع من أمامها . (٥) فى الأصل « الوزارة » وهو تحريف .

(٦) الخليط : الشريك والمخالط . (٧) فى الأصل « التقينا » وهو تحريف .

ووجوههم ، فكنت فى عِصابة منهم أبَوْا أن يأتوه ، فمنهم من تغيَّب فلم يَقْدَم ، ومنهم من هرب بعد قُدومه ، اختياراً للمعصية على سوء الموضع؛ لايعتذرون فى ذلك إلا بضياع المكْتَب[١] والدعوة والمَدخَل ، يقولون : هذه منزِلةٌ كان من هو أشرفُ من أبنائنا يرغبون فيما هو دونها عند من هو أصغر أمراء وُلاتنا اليومَ ، ولكنها قد كانت مَكْرُمةً وحسباً ، إذ الناس يُنظَرُونَ ويُسْأل عنهم ، فأما اليوم ونحن نرى فلانا وفلانا يُنفَر[٢] بأسمائهم - على غير قديم سَلَفَ ، ولا بلاء حَدَثَ ، فمن يرغب فيما ها هنا يا أمير المؤمنين - أكرمكَ الله - ؟ أمّا يصير العدل كله إلى تقوى الله عزّ وجل ، وإنزالِ الأمورِ منَازِلَهَا ، فإن الأول قال :

لَا يَصْلُحُ الناسُ فَوْضَى لاسَرَاةَ لهم ... ولا سَرَاةَ إذا جُهَّالُهُمْ سادوا

وقال :

هُمُ سَوَّدوا نصراً ، وكلُّ قبيلةٍ ... يُبَيِّن عن أحلامها من يَسُودُها

وإن أمر هذه الصحابة قد كان فيه أعاجيبُ ، دخلَتْ فيه مظالِمُ ، أمّا العَجَبُ فقد سَمِعْنا من الناس من يقول : ما رأينا أعْجُوبةً قطُّ أعجبَ من هذه الصحابة ، ممن لاينتهى إلى أدب ذى نَباهةٍ ، ولا حَسَبٍ معروف ، ثم هو مسخوطُ الرأى ، مشهورٌ بالفجور فى أهل مصره[٣] ، قد غبَرَ عامّةَ دهره صانعاً يعمل بيده ، ولا يمتدُّ مع ذلك ببلاء ولا غَناء ، إلا أنه مكّنه من الأمر صاغٍ[٤] ، فاحتوى حيثُ أحبَّ ، فصار يُؤْذَنُ له على الخليفة قبل كثير من أبناء المهاجرين والأنصار ، وقبلَ قَرابة أمير المؤمنين وأهل بيوتات العرب ، ويُجْرَى عليه من الرِّزق الضِّعفُ مما يجرى على كثيرٍ من بنى هاشم ،

---

(١) يريد به منزلة الكتابة ومكانة الكاتب .

(٢) أى يذهب بها ، والمعنى ترفع منازلهم وتعلى مكانتهم .

(٣) فى الأصل « فى أهل مصر » وهو تحريف .

(٤) صغا إليه كسعى وقعد وفرح : مال ، أى شخص يميل إليه ويقربه .

وغيرهم من سَرَوات(١) قريش ، وَيُخْرِجُ له من المَؤُونة على نحو ذلك ، لم يضعه بهذا الموضع رِعايةُ رَحِمٍ ، ولا فِقهٌ في دين ، ولا بلاءٌ في مجاهدة عدوٍّ معروفةٍ ماضيةٍ متتابعةٍ قديمةٍ ، ولا غَناءُ حديثٌ ، ولا حاجة إليه في شيء من الأشياء ، ولا عُدَّة يستعِدّ بها ، وليس بفارسٍ ولا خطيب ولا عَلّامةٍ ، إلا أنه خَدَم كاتبا أو حاجبا ، فأخبر أن الدين لا يقوم إلا به ، حتى كتب كيف شاء ، ودخَل حيث شاء .

وأما المظلِمَة التي دَخَلت في ذلك فعظيمةٌ ، قد خصَّت قريشا وعمَّت كثيراً من الناس ، وَأَدْخَلت على الأحساب والمُروءات مِحْنة شديدة وضَياعا كثيراً ، فإن في إذْنِ الخليفةِ والمَدْخَلِ عليه والمَجْلِسِ عنده ، وَمَا يُجْرَى على صَحابته من الرزق والمَؤُونة ، وتفضيلِ بعضِهم على بعض في ذلك ، حُكْما عظيما على(٢) الناس في أنسابهم وأخطارهم وبَلاء أهل البلاء منهم ، وليس ذلك كخواصِّ المعروف ولطيف المنازل ، أو الأعمال التي يختص بها المَوْلَى مَن أحبَّ ، ولكنه باب من القضاء جسيم عامٌّ يُقضَى فيه للماضين من أهل السَّوابق والمآثرِ من أهل الباقين ، وأهل البلاء والغَناء بالعدل أو بما يُحال فيه عليهم ، فإن أحقَّ المظالم بتعجيل الرفع والتغيير ، ما كان ضرُّه عائبا ، وكان للسلطان شائناً ، ثم لم يكن في رفعه مُؤْنةٌ ، ولا شَغَبٌ ، ولا تَوغيرٌ لصدور(٣) ، عامَّةٍ ، ولا للقوة والإضرارِ(٤) سبب .

ولِصَحابة أمير المؤمنين ـ أكرمه الله ـ مَزِيَّةٌ وفضل ، وهي مَكْرُمة سنِيَّةٌ حَرِيَّةٌ أن تكون شرَفا لأهلها ، وحَسَباً لأعقابهم ، حقيقةٌ أن تَصان وتُحْظَر ، ولا يكون فيها إلا رجل بَدَر(٥) بِخَصْلةٍ من الخِصال ، أو(٦) رجلٌ له عند أمير المؤمنين خاصَّةٌ بقرابة أو بَلاء ، أو رجل يكون شرفُه ورأيه وعملُه أهلًا لمجلس أمير المؤمنين وحديثه

---

(١) سروات جمع سراة بالفتح ، وسراة: اسم جمع سرىّ كغنى ، وصف من السرو بالفتح: وهو المروءة في شرف .

(٢) في الأصل « على أن الناس » وكلمة « أن » لا لزوم لها في الجملة ، والظاهر أنها وقعت سهوا .

(٣) في الأصل « بصدور » وهو تحريف . (٤) وفيه « ولا إضرار » وهو تحريف .

(٥) بدر إليه : عجل وسبق . (٦) في الأصل « ومن رجل » وهو تحريف .

ومَشورته ، أو صاحبُ نَجْدة يُعرَف بها ويُستعدُّ لها ، يجمع نجدته حَسَبًا وعفافا ، فيُرْفَع من الجند إلى الصَّحابة أو رجل فقيه مُصْلِح يوضَع بين أظهُرِ الناس لينتفعوا بصلاحه وفقهه ، أو رجل شريف لا يُفسِد نفسَه أو غيرها ، فأمّا مَن يتوسَّل بالشَّفاعات فإنه يَكْتفِي أو يُكتفَى له بالمعروف والبر فيما لا يهجِّنُ رأيا ، ولا يُزيلُ أمرًا عن مَرْتبته، ثم تكون تلك الصحابة المُخْلِصة على مَنازِلها ، ومَداخِلِها ، لا يكون للكاتب فيها أمرٌ في رَفْع رِزق ولا وَضْعِه ، ولا للحاجب في تقديم إذن ولا تأخيره .

ومما يذكر به أمير المؤمنين ، أمرُ فِتيانِ أهل بيته وبنى أبيه وبنى علىّ وبنى العباس ، فإن فيهم رجالاً لو مُتِّعوا بجسام الأمور والأعمال سَدُّوا وجوهاً ، وكانوا عُدَّةً لأخرى .

ومما يذكَّر به أمير المؤمنين ، أمرُ الأرض والخراج ، فإن أجسَمَ ذلك وأعظَمَه خَطَرًا ، وأشدَّه مُؤْنةً وأقربه من الضَّياع ، ما بين سَهله وجَبَله ، ليس لها تفسير على الرساتيق[(١)] والقرى ، فليس للعُمَّال أمر ينتهون إليه ، ولا يحاسَبُون عليه ، ويَحُول بينهم وبين الحكم على أهل الأرض بعد ما يتأنَّقون لها في العمارة ، ويرجُون لها فضلَ ماتعمَلُ أيديهم ، فسِيرة العمال فيهم إحدى ثِنْتَين : إما رجلٌ أخذ بالخُرْق[(٢)] والعُنْف من حيث وجد ، وتتبَّع الرجال والرساتيق بالمغالاة بمن وجد ، وإما رجل صاحبُ مساحةٍ ، يَستخرِج ممن زرع ، ويترك من لم يزرع ، فيَعْمُر مَن عَمر[(٣)] ، ويَسْلَم من أخرب ، مع أن أصول الوظائف[(٤)] على الكُوَر لم يكن لها ثَبْتٌ[(٥)] ، ولا عِلْم ، وليس من كُورة إلا وقد غُيِّرت وظيفتُها مِرارًا ، فخَفِيَت وظائفُ بعضها ، وبقِيَتْ وظائفُ بعض ، فلو أن أمير المؤمنين أعمَلَ رأيَه في التوظيف على الرَّساتيق والقُرَى والأرَضِين

---

(١) الرساتيق : جمع رستاق بالضم ، ويستعمل في الناحية التي هي طرف الإقليم ، معرب .
(٢) الخرق بالضم وبالتحريك: ضد الرفق، وألا يحسن الرجل العمل والتصرف في الأمور. والحمق.
(٣) يعمر هنا معناه : يدفع ، أي يعمر خزانة الدولة من عمر الأرض .
(٤) أي المقدرات . (٥) شيء ثبت: ثابت، أي ليس لها قانون ثابت يجري فيها على مقتضاه .

وظائفَ معلومةً ، وتدوينِ الدواوين بذلك ، وإثبات الأصول ، حتى لا يؤخَذ رجل إلا بوظيفةٍ قد عرَفَها وضَمِنها، ولا يجتهد في عمارة إلا كان له فضلُها ونفعُها ، لَرَجَوْنا أن يكون في ذلك صلاحٌ للرعية ، وعِمارةٌ للأرض ، وحسْمٌ لأبواب الخيانةِ وغَشْمِ[1] العمال ، وهذا رأيٌ مُؤْنَتُه شديدة ، ورجالُه قليل ، ونَفْعُهُ متأخِّر ، وليس بعد هذا في أمر الخراج إلا رأيٌ قد رأينا أمير المؤمنين أخَذَ به ، ولم نَرَه من أحد قبله ، مِنْ تخيُّر العمال وتفقُّدهم والاستعتاب[2] لهم ، والاستبدالِ بهمْ .

ومما يذكَّر به أمير المؤمنين ، جزيرة العرب من الحجاز واليمن واليمامة وما سوى ذلك ، أن يكون مِنْ رأيِ أمير المؤمنين - إذا سَخَتْ نفسُه عن أموالها من الصَّدَقات وغيرها - أن يختار لولايتها الخِيارَ من أهل بيته وغيرهم ، لأن ذلك من تَمَام السِّيرة العادلة ، والكلمة الحَسَنة التي قد رَزَق الله أمير المؤمنين وأكرَمَه بها ، من الرأي الذي هو بإذن الله حِمًى وَنِظامٌ لهذه الأمور كلِّها في الأمصار والأجناد والثغور والكُوَر .

إنَّ بالناس من الاستجراح[3] والفساد ما قد عَلِم أميرُ المؤمنين ، وبهم من الحاجة إلى تقويم آدابهم وطرائقهم ما هو أشدُّ من حاجتهم إلى أقواتهم التي يعيشون بها ، وأهلُ كل مِصْرٍ وجُند وثغر فقراء إلى أن يكون لهم من أهل الفقه والسُّنَّة والسِّيَر والنصيحة مؤدِّبون مُقوِّمون يُذكِّرون ، ويبصِّرون[4] الخطأ ، ويَعِظون من الجهل ، ويمنعون عن البِدَع ، ويحذِّرون الفِتَن، ويتفقَّدون أمورَ عامَّةِ من هو بين أظهُرِهم ، حتى لا يَخْفَى عليهم منها مُهِمٌّ ، ثم يستصلِحُون ذلك ويعالجون ما استنكروا منه بالرأي والرِّفق والنُّصح ، ويرفعون ما أعياهم إلى ما يَرْجُونَ قُوَّتَه عليهم[5] ، مأمونين على سِير ذلك وَتَحْصِينِه ، بُصَرَاء بالرأي حين يبدو ، وأطِبَّاء باستئصاله قبل أن يتمكّن ، وفي كل

---

(١) الغشم : الظلم . (٢) استعتبه . استرضاه .

(٣) الاستجراح : الفساد والعيب ، وفي الأصل « الاستخراج » وهو تصحيف .

(٤) بصره الأمر : فهمه إياه . (٥) كذا في الأصل ، والأظهر أن يكون «قوتهم عليه» .

قَوْمٍ خواصُّ رجالٍ عندهم على هذا مَعُونةٌ ، إذا صُنِعوا لذلك ، وتُلُطِّفَ لهم ، وَأُعِينوا على رأيهم ، وقُوُّوا على معاشهم ببعض ما يُفَرِّغهم لذلك ويَبْسُطهم له ، وخطَرُ(1) هذا جسيم في أمرين : أحدهما رجوع أهل الفساد إلى الصلاح ، وأهلِ الفُرقةِ إلى الأُلفَة . والأمر الآخر أن لايتحرك متحرِّك في أمر من أمور العامَّة إلا وعين ناصِحَةٌ تَرْمُقه ، ولا يَهْمِسُ هامِسٌ إلا وأُذُنٌ شفيقةٌ تُصِيخ(2) نحوَه ، وإذا كان ذلك لم يقدر أهلُ الفساد على تربيض(3) الأمور وتلقيحها ، وإذا لم تُلَقَّح كان نِتاجها بإذن الله مأمونا .

وقد علِمْنا علماً لايخالطه شكٌّ أن عامّةً قط لم تصلُح من قِبَل أنفسها ، ولم يأتها الصّلاحُ إلا من قبل خاصّتها ، وأن خاصّةً قطّ لم تصلُح من قِبَل أنفسها ، وأنها لم يأتها الصلاح إلاّ من قبل إمامها ، وذلك لأن عدد النــــاس في ضَعَفَتهم(4) وجُهّالهم الذين لا يستغنُون برأى أنفسهم ، ولا يحمِلون العِلْمَ ، ولا يتقدمون في الأمور ، فإذا جعل الله فيهم خواصَّ من أهل الدين والعقول ، ينظُرُونَ إليهم ويسمعون منهُمْ ، واهتمَّت خواصُّهم بأمور عوامِّهم ، وأقبلوا عليها بجدٍّ ونُصْح ومثابرة وقوة ، جعل الله ذلك صلاحاً لجماعتهم ، وسَبَبا لأهل الصلاح من خواصّهم ، وزيادةً فيما أنعم الله به عليهم ، وبلاغا إلى الخيْرِ كلِّه ، وحاجةُ الخاصّة إلى الإمام الذى يُصْلِحهم الله به كحاجة العامة إلى خواصّهم وأعظم من ذلك ، فبالإمام يجمع الله أمرهم ، ويَكْبِتُ(5) أهلَ الطعن عليهم ، ويجمع رأيهم وكلمتهم ، ويبيّن لهم عند العامة منزلتهم ، ويجعل لهم الحُجَّــة والأَيْدَ(6) والمقال على من نَكَبَ(7) عن سبيل حقهم .

فلما رأينا هذه الأمور ينتظِم بعضها ببعض ، وعَرَفْنا من أمر أمير المؤمنين ما جمَعَ اللهُ خواصَّ المسلمين على الرغبة في حسن المعاونة والمؤازرة والسعى في صلاح عامّتهم :

---

(1) الخطر : القدر . (2) أصاخ له : استمع .

(3) من تربيض السقاء : وهو أن يجعل مافيه يغمر قعره .

(4) ضعفة : جمع ضعيف كضعاف. (5) كبته : أخزاه وأذله ورده بغيظه .

(6) الأيد : القوة . (7) أى مال وعدل.

طَمِعْنا لهم فى ذلك يا أمير المؤمنين ، وطَمِعْنا فيه لعامَّتِهم ، ورَجونا ألاَّ يعمل بهذا الأمر أحدٌ إلا رَزَقه الله المتابعة فيه ، والقوةَ عليه ، فإن الأمر إذا أعان على نفسه جعل للقائل مقالاً ، وهَيَّأ للساعى نجاحاً ، ولا حولَ ولا قوةَ إلا بالله وهو ربُّ الخَلْق ، ووليُّ الأمر يقضى فى أمورهم ، يدبِّر أمره بقدرة عزيزة ، وعِلْمٍ سابق ، فنسأله أن يعزِم لأمير المؤمنين على المَرَاشِد ، ويحصِّنه بالحفظ والثبات والسلام ، ولله الحمد والشكر » .

(اختيار المنظوم والمنثور ١٢ : ١٨٢)

٢٨ — الرسالة اليتيمة لابن المقفع

وقال ابن طيفور فى اختيار المنظوم والمنثور أيضاً :

ومن الرسائل المفردات اللَّواتى لانظيرَ لها ولا أشباهَ ، وهى أركان البلاغة ، ومنها استَقَى البُلغاء ، لأنها نهاية فى المختار من الكلام ، وحسن التأليف والنظام ، والرسالة التى لابن المقفع اليتيمة ، فإن الناس جميعاً مُجْمِعُون أنه لم يعبر أحد عن مثلها ، ولاتقدَّمها من الكلام شىء قبلها ، ولم نكتبها على تمامها لشهرتها وكثرتها فى أيدى الرُّواة لها ، فمن فصولها قوله فى صدرها :

« وقد أصبح الناس — إلا قليلا ممن عَصَمَ الله — مدخولين منقوصين ، فقائِلُهم باغٍ ، وسامعُهم عيَّابٌ ؛ سائِلُهم متعَنِّت ، ومُجيبُهم متكلِّف ، وواعِظُهم غيرُ مُحقِّقٍ لقوله بالفعل ، وموعوظُهم غير سليم من الهُزْء والاستخفاف ، ومستشيرهم غيرُ موطِّنٍ نفسه على إنفاذ ما يشار به عليه ، ومُصْطَبِرٍ للحق مما يَسمَع ، ومستشارُهم غيرُ مأمونٍ على الغشِّ والحَسَدِ ، وأن يكون مِهْتا كا للسِّتْر ، مُشيعاً للفاحشة ، مُؤْثِرا للهوى ، والأَمينُ منهم غيرُ متحفِّظ من ائتمان الخَوَنة ، والصَّدُوقُ غير محترِسٍ من حديث الكَذَبة ، وذو الدين غيرُ متورِّع عن تفريط الفَجَرة ، يتقارضون الثناء ، ويترقبون الدُّوَلَ ، ويَعيبون بالهَمْز ، يكاد أحزَمُهم رأياً يَلْفِتُهُ عن رأيه أدْنى الرضا وأدنى

وأدنى السُّخْط ، ويكاد أَمْثَلُهم عُوداً أن تَسْحره الكلمةُ ، وتُنْكِره(١) اللَّحْظة ، وقد ابتُليتُ أن أكون قائلا ، وابتليتم أن تكونوا سامعين ، ولا خيرَ في القول إلا ما انتُفِعَ به ، ولا يُنتفَع إلا بالصدق ، ولا صِدْقَ إلا مع الرأى ، ولا رأىَ إلا في موضعه وعند الحاجة إليه ، فإن خير القائلين من لم يكن الباطلُ غايتَه ، ثم لزِمَ القَصْدَ والصوابَ ، وخير السامعين من لم يكن ذلك منه سُمعةً ولا رياءً ، ولم يتخذ ما يسمع عَوْناً على دفع الهدى ، ولا بُلْغَةً إلى حاجةِ دنيا ، فإن اجتمع للقائل والسامع : أن يُرْزَق القائلُ من الناس مِقَةً وقبولا على ما يقوله ، ويُرْزَق السامعُ اتِّعاظا بما يسمع في أمر دنياه ، وقد صَلُحَتْ نيّاتهما في غير ذلك ، فعسى ذلك أن يكون من الخير الذى يُبَلِّغُه اللهُ عبادَه ، ويعجِّل لهم من حَسَنة الدنيا ما لا يحرمهم(٢) من حَسَنة الآخرة ، كما أن المُرِيدَ بكلامه أن يُعْجِبَ النَّاسَ ، قد يجتمع عليه : حرمانُ ما طلب مع سوء النية ، وَحَمْلُ الوِزْر ، وقد وافقتم منى مسارَعَةً فيما سألتمونى من غير معاودة فى أشباهه ، ولكن استطالَ الناسُ فى جسيم أمورهم وإنفـاذِ الطوالع(٣) ، ولم يَبْرَحْ يُطَّلَع منى فى ذلك احتسابُ الخير فيما بلغته القوةُ منى فى ذلك ، طمعا فى أن ينفع الله بذلك من يشاء ، فإنه ما يشاء يقع .

أمّا سؤالكم عن الزمان ، فإن الزمانَ الناسُ ، والناسُ رجلان : وَالٍ ومُوَلًّى عليه ، والأزمنة أربعة على اختلاف حالات الناس .

فخيارُ الأزمنة : ما اجتمع فيه صلاح الراعى والرعية ، فكان الإمام مؤدّيا إلى الرعية حقَّهم فى الردِّ عنهم ، والغيظِ على عدوهم ، والجهادِ من وراء بَيْضتهم ، والاختيار لحكّامهم ، وتوليةِ صُلَحائهم ، والتوسعة عليهم فى معايشهم ، وإفاضةِ الأَمْنِ

---

(١) فى الأصل « وتنكره » وأراه محرفا .

(٢) فى كتب اللغة أن حرم يتعدى إلى اثنين فيقال : حرمه الشىء .

(٣) الطوالع : جمع طالع ، وهو السهم الذى يجاوز الهدف ويقع وراءه ، والمعنى: تجاوزتهم الحدود وتعدّيهـا .

فيهم والمتابعة فى الحق[١] لهم ، والعدلِ فى القسمة بينهم ، والتقويم لِأَوَدِهم ، والأَخْذِ لهم بحقوق الله عز وجل عليهم ، وكانت الرعية مؤدِّية إلى الإمام حقَّه فى المودة والمناصحة والمخالطةِ ، وتَرْكِ المنازعة فى أمره ، والصبر عند مكروه طاعته ، والمعونة له على أنفسهم ، والشّدةِ على من أَخَلَّ بحقه وخالف أمره ، غير مُؤْثِرِين فى ذلك آباءهم ولا أبناءهم ، ولا لابِسين[٢] عليه أحدا ، فاذا اجتمع ذلك فى الإمام وَالرعية ، تَمَّ صلاح الزمان ، وبنعمة الله تتمّ الصالحاتُ .

ثم إن الزمان الذى يليه : أن يَصْلُح الإمام نفسُه ويَفْسُد الناس ، ولا قوةَ بالإمام مع خِذْلان الرَّعية ومخالفتهم وزُهْدهم فى صلاح أنفسهم ، على أن يَبْلُغ اذتَ نفســـه فى صلاحهم ، وذلك أعظمُ ما تكون نعمةُ الله على الوالى ، وحُجَّة الله على الرعية بواليهم ، فبالحَرَى أن يؤخذوا بأعمالهم ، وما أَخلَقَهم أن تُصيبهم فتنة أَو عذابٌ أليم!

والزمان الثالث صلاحُ الناس وفساد الوالى ، وهذا دون الذى قبله ، فإن لُولاة الناس يداً فى الخير والشر ، ومكانا ليس لأحد ، وقد عَرَّفنا فيما يُعتبَر به أَنَّ ألفَ رجل كلُّهم مُفسِدٌ وأميرهم مصلِحٌ ، أقلُّ فسادا من ألفِ رجل كلُّهم مُصْلِحٌ وأميرهم مفسِد ، والوالى إلى أن يصلح الله به الرعيةَ أَقْرَبُ من الرعية إلى أن يُصْلِحَ الله بهم الوالىَ ، وذلك لأنهم لا يستطيعون معاتبته وتقويمه ، مع استطالته بالسلطان ، والحَمِيَّة التى تعلوه .

وشر الزمان : ما اجتمع فيه فسادُ الوالى والرعية ، وتلك كارثةٌ[٣] لم يتقادَمْ عهدُ كَوْنِها ، ولم تَعْفُ عنكم آثارُها ، وكلُّ هذه الطِّبَاق من الشدة والرخاء فيما يبتلى اللهُ عز وجل به عبادَه ، بجَزَاء مُعَدٍّ ، وكلمةٍ سابقة ، قال الله عز وجل : «وَنَبْلُوكُمْ بِالشَّرِّ وَالْخَيْرِ فِتْنَةً وَإِلَيْنَا تُرْجَعُونَ» فقولى فى هذا الزمان : إنه إلاَّ يكن خير

---

(١) فى الأصل « فى الحاق » وهو تحريف .

(٢) يقال : لبست القوم : أى تمليت بهم دهرا ، قال الجعدى :

لبست أناســا فأفنيتهم وأفنيت بعد أناس أناسا

(٣) فى الأصل « كارهة » وهو تحريف ، وقد أصلحت فى هامشه « كازمة » أى كاسرة مجتاحة من كرمه يقدم فه كضرب : أى كسره واستخرج ما فيه لياً كله .

الأزمان ، فليس على واليكم ذنب ، وإلاَّ يكن شَرَّ الأزمان ، فليس لكم حَمْدُ ذلك ، غيرَ أنا بحمد الله قد أصبحنا نرجو لأنفسنا الصلاح بصلاح إمامنا ، ولانخاف عليه الفساد بفسادنا ، وقد رأينا حَظَّه من الله عز وجل فى التثبُّت والعِصْمة ، فلم يَبْرَحِ اللهُ يَزيده خيرا ، ويَزيد به رعيته مُذْ ولاَّه ، فعندنا من هذا وثائقُ من عِبَر وبَيِّنات ، ونحتسب من الله عز وجل أن لايزال إمامُنَا يسارع فى مرضاة ربه ، بالاستصلاح لرعيته ، والصبر على ما يستنكر منهم ، وقلةِ المؤاخذة لهم بذنوبهم ، حتى يقلب الله له بصلاحه قلوبَهم ويَفتح له أسماعَهم وأبصارهم ، فيجمع ألفتَهم ، ويقوِّم أَوَدَهم ، ويُلْزِمهم مَرَاشِدَ أمورهم ، وتتم نعمة الله على أمير المؤمنين، بأن يُصْلِح له وعلى يديه، فيكونوا رَعِيَّةَ خيرِ راعٍ ، ويكون راعِيَ خير رعية ، إن شاء الله وبه الثقة .

والذى أصبحْنا نَحْمَد من أمير المؤمنين كثير ، أنا ذاكرٌ ما تيسَّر منه ، وإلى هذا سِيقَ الحديثُ ، وهو [قيامُه على] رعاية العهد وجَحْدِ الجَحَدة ، وفيه استبطِيءَ المستبطَئُونَ ، ولِيمَ المُلِيمُونَ[1] ، فإن المستبطَئين فى التقصير لأكثر من المستبطَئين فى الإنكار ، فإنا قلَّما نَلْقَى من أهل العقل والمعاينة منكرًا لنعمة الله بأمير المؤمنين على المسلمين إذا ذُكِرَ ذلك ووُقِفَ عليه ، وقلَّما نَلْقَى إلا مقصِّرًا من ناطق أو صامت ، ولم تُصبحوا معاتَبين على ما جَهِلتم من حق أمير المؤمنين وفضله فى سير الأمور حين أقبلَت ، فإن الأمر فى مستقبله مما يَشْتَبِه على ذوى العقول ، وتشتد فيه حَيْرتهم ، لِمَا يشتبهُ عندهم ببعض ما يتذكرون مما مضى : من أمورٍ لم يكن لها تَمَامٌ ، وأخرى تَمَّتْ فلم تُحْمَد ، ولئن كانَ عِلْمٌ وصل إلى خاصَّة قومٍ ، ما عَلَى من قَصُر ذلك عنه لومٌ[2] ، وإن كان ممن وَصَلَ ذلك إليه ، فأَخَذَه بحقه ، فَضْله بذلك ، فإذا آلتِ الأمور إلى مراتبها ، وحُصِّل محصولها ، وصَرَّحَتْ عَنْ مَحْضِها ، لم يكن فى جَهالتها

---

(١) ألام فهو مليم : أتى مايلام عليه . (٢) فى الأصل « لو مرق » وهو تحريف .

عذر ، ولا فى تضييع حق ذى الحجة حجةٌ ، ومَنْ أشَدُّ جهلا ، وأفظَع عُذرا ، ممن لم يعرف النعمة ، ولم يقبل العافية ؟ نعوذ بالله أن نكون من الذين لا يعقلون .

فتفهَّموا ما أنا ذاكر لكم ، وتدبَّرُوه بالحق والعدل ، فإن المرء ناظر بإحدى عيون ثلاث ، وهما الغاشَّتان والصادقة ـ وهى التى لا تكاد توجد ـ : عين مودةٍ تُريه القبيحَ حَسَنا ، وعين شَنْآنٍ[1] تريه الحسن قبيحا ، وعين عدل تريه حسنها حسناً ، وقبيحها قبيحا .

فتفكَّروا فيما جمع الله لأمير المؤمنين فى مَعْدِنه وفى سيرته ، وفيما ظَاهَرَ عليكم من النعمة والحق والحجة بذلك فما عسى القائل أن يبتغى فيه المَغْمَزَ والمقال ، فلعمرى إن للشيطان من أهواء الناس وألسنتهم فى الأمر لنصيباً ، وإنه لمُسْتَراحاً بينهم ، يستوفيهم أمنيَّته ، ويُصدِّق عليهم ظنَّه ، ويُوحِى إليهم بمكايده ، فجعل الله كيده ضعيفاً ، وحزبه مغلوبا ، وجعله وإياهم نصيباً لجهنم من أجزائه المقسومة لأبوابها وحَطَبها ووَقودها وحَصَبها[2] ليعدِلَ لها .

فمن كان سائلاً عن حق أمير المؤمنين فى مَعْدِنه ، فإن أعظم حقوق الناس منزلةً ، وأكرمها نِسبةً ، وأولاها بالفضل ، حقُّ رسول الله صلى الله عليه وسلم نبى الرحمة ، وإمام الهدى ، ووارث الكتاب والنبوة ، والمهيْمِن[3] عليهما ، وخاتَم النبيين والصِّدِّيقين والشهداء والصالحين ، بعثه الله بشيراً ونذيراً ، ودَاعِياً إلى الله بإذْنِهِ وسِراجاً مُنيراً ، ثم هو باعثه يوم القيامة مَقاماً محموداً، شرع الله به دينه ، وأتمَّ به نورَه على عهده ، ومحق رءوس الضلالة ، وجبابرة الكفر ، وخوَّلَه الشفاعة ، وجعله فى الرَّفيق الأعلى ، صلى الله عليه وسلم » . (اختيار المنظوم والمنثور ١٢ : ١٦٠)

---

(١) الشنآن: البغض والكراهية .
(٢) الحصب : الحطب : وما يرمى به فى النار .
(٣) المهيمن : الأمين أو المؤتمن أو الشاهد .

٢٩ — تحميد لابن المقفع

« الحمد لله ذى العَظَمة القاهرة ، والآلاء[١] الظاهرة ، الذى لا يُعْجزه شىء ولا يَمتنع منه ، ولا يُدْفع قضاؤه ولا أَمْرُه « إِنَّمَا أَمْرُهُ إِذَا أَرَادَ شَيْئًا أَنْ يَقُولَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ » والحمد لله الذى خَلَقَ الخلق بعلمه ، وَدَبَّرَ الأمور بحُكْمه ، وأنفذَ فيما اختار واصطفى منها عَزْمَه ، بقدرةٍ منه عليها ، ومَلَكَةٍ[٢] منه لها ، لا مُعَقِّبَ لِحُكْمِهِ ، ولا شريك له فى شىء من الأمور ، يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ وَيَخْتَارُ ، ما كان للناس الخِيَرَةُ فى شىء من أمورهم ، سُبْحَانَ اللهِ وَتَعَالَى عَمَّا يُشْرِكُونَ .

والحمد لله الذى جعل صَفْوةَ ما اختار من الأمور دينَه الذى ارتضى لنفسه ، ولمن أراد كرامتَه من عباده ، فقام به ملائكتُه المقرَّبون ، يُعَظِّمون جلاله ، ويقدِّسون أسماءه ، ويذكُرون آلاءه ، لا يَسْتَحْسِرون[٣] عن عبادته ولا يستكبرون . يُسَبِّحُونَ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ لاَ يَفْتُرُونَ ، وقام به من اختار من أنبيائه وخلفائه وأوليائه فى أرضه ، يُطيعون أمره ، وَيَذُبُّونَ عن مَحارمه ، ويصدِّقون بوعده ، ويُوفون بعهده ويأخذون بحقه ، ويجاهدون عدوَّه ، وكان لهم عند ما وعدهم من تصديقه قولهم ، وإفلاجه[٤] حُجَّتَهم ، وإعزازِهِ دينَهم ، وإظهارِه حقَّهم ، وتمكينه لهم ، وكانَ لِعَدُوِّهِ وعدوِّهم عندما أوعدهم من خزيه ، وإحلالِهِ بأسهم ، وانتقامِه منهم ، وغضَبه عليهم ، مَضَى على ذلك أمرُه ، ونَفَذَ فيه قضاؤه فيما مضى ، وهو مُمْضِيهِ ومُنْفِذه على ذلك فيما بقى ، لِيُتِمَّ نُورَهُ وَلَوْ كَرِهَ الْكَافِرُونَ ، ولِيُحِقَّ الحق ويُبْطل الباطل ولو كره المجرمون .

والحمد لله الذى لا يَقْضِى فى الأمور ولا يدبِّرها غيرُه ، أبتدأها بعلمه ، وأمضاها بقدرته ، وهو وَلِيُّها ومنتهاها ، وولىّ الخِيَرَةِ فيها ، والإمضاء لما أحب أن يُمْضِيَ منها ، يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ وَيَخْتَارُ ، ما كَانَ لَهُمُ الخِيَرَةُ سُبْحَانَ اللهِ وَتَعَالَى عَمَّا يُشْرِكُونَ .

---

(١) الآلاء : النعم . (٢) الملكة : الملك .
(٣) أى لا يعيون ولا يملون . (٤) أى نصره .

والحمدُ لله الفتاح العليم ، العزيز الحكيم ، ذى المنّ والطَّوْلِ ، والقدرة وَالحوْلِ ، الذى لا مُمْسِكَ لِمَا فتح لأوليائه من رحمته ، ولا دافِعَ لما أنزل بأعدائه من نِقمته ، ولا رادَّ لأمره فى ذلك وقضائه ، يفعل ما يشاء ، ويحكم ما يريد .

والحمد لله ، المُثِيب بحمده ومنه ابتداؤه ، والمنعِم بشكره وعليه جزاؤه ، والمُثْنى بالإيمان وهو عطاؤه » . (اختيار المنظوم والمنثور : ١٣ : ٢٨٢)

٣٠ — كتاب ابن المقفع إلى بعض إخوانه

وكتب ابن المقفع إلى بعض إخوانه :

« أما بعد ، فتعلَّمِ العلْمَ ممن هو أعلمُ به منك ، وعلِّمه مَن أنت أعلَمُ به منه ، فإنَّك إذا فعلتَ ذلك علِمْتَ ما جهِلْتَ ، وحفِظتَ ما علِمتَ » .

(أمالى السيد المرتضى ١ : ٩٥)

٣١ — وله فى وصف أحد إخوانه

ومن قوله يصف أخا له(١) :

« إنى مُخْبِرك عن صاحب لى كان أعظم الناس فى عينى ، وكان رأسَ ما عظَّمه فى عينى صِغَرُ الدنيا فى عينه ، كان خارجاً من سلطان بَطنه ، فلا يتشهَّى ما لا يجد ، ولا يُكْثِر إذا وَجَد ، وكان خارجا من سلطان فَرْجه ، فلا يدعو إليه(٢) رِيبةً ، ولا

---

(١) وردت هذه القطعة فى آخر الأدب الكبير لابن المقفع ، وإنما ذكرتها هنا لوقوع الاختلاف فى نسبتها إليه ، فهى فى الأدب الكبير وزهر الآداب تعزى إليه ، ونسبه الشريف الرضى فى « نهج البلاغة ج ٢ :ص ١٤٧ » إلى الإمام على كرم الله وجهه ، ونسبها ابن قتيبة فى « عيون الأخبار م ٢ : ص ٣٥٥ » إلى الحسن بن على رضى الله عنه ، مع اختلاف فى الرواية .

(٢) وفى زهر الآداب « فلا تدعوه إليه مؤنة » وأرى أن صوابه « فلا يدعو إليه مؤنة » كما فى رسائل البلغاء .

يستخفّ له رأياً ولا بدناً ، وكان لا يأشَر(١) عند نعمة ، ولا يستكين عند مصيبة ، وكان خارجاً من سلطان لسانه ، فلا يتكلم بما لا يعلم ، ولا يُمارِى(٢) فيما علم ، وكان خارجاً من سلطان الجهالة ، فلا يتقدم أبداً إلا على ثقةٍ بمنفعة ، وكان أكثرَ دهره صامتاً ، فإذا نطق بَذَّ القائلين ، وكان يُرَى ضعيفاً مستضعفاً ، فإذا جَدَّ الجِدُّ فهو الليث عادياً ، وكان لا يدخل فى دَعْوَى ، ولا يشارك فى مِراء ، ولا يُدْلِى بحُجَّةٍ حتى يرى قاضياً فَهِماً وشهوداً عُدُولاً ، وكان لا يلوم أحداً على ما قد يكون العُذْرُ فى مثله حتى يعلم ما اعتذارُه ، وكان لا يشكو وَجَعَهُ إلا إلى من يرجو عنده البُرْء ، ولا يستشير صاحباً إلا من يرجون عنده النصيحةَ ، وكان لا يتبرَّم(٣) ولا يتسخط ، ولا يتشكى ولا يتشهَّى ، وكان لا ينقِمُ عَلَى الولىّ ، ولا يغفُل عن العدوّ(٤) وَلا يخصّ نفسه دون إخوانه بشىء من اهتمامه وحيلته وقوته .

فعليك بهذه الأخلاق إن أطقتَها ـ ولن تطيقَ ـ ولكن أخذ القليل خير من ترك الجميع » .   (الأدب الكبير ص ١٢٩ ، وزهر الآداب ١ : ٢٢٤)

٣٢ ـ كتاب ابن المقفع إلى صديق له يهنئه بمولودة

وكتب ابن المقفع إلى صديق له ، ولدت له جارية :

« بارك الله لكم فى الأبْنَة المستفادَة ، وجعلها لكم زَيْناً ، وأجرى لكم بها خيراً ، فلا تكرَهْها ، فإنهن الأُمّهات والأَخَوات والعَمّات والخالات ، ومنهن الباقياتُ الصالحات ، وَرُبَّ غُلامٍ ساء أهله بعدَ مسرّتهم ، وَرُبَّ جاريةٍ فرّحت أهلها بعد مساءتهم » .   (اختيار المنظوم والمنثور ١٣ : ٣٠٤)

---

(١) هذه الجملة وما بعدها واردتان فى زهر الآداب الكبير ، وأشر كبطر وزناً ومعنى ، وفى زهر الآداب « لا يتأثر » وهو تحريف .

(٢) لا يمارى : لا يجادل ، وفى الأدب الكبير « ولا ينازع » .

(٣) يتبرم : يضجر .   (٤) وفى زهر الآداب « ولا ينتقم من العدو ، ولا يغفل عن الولى » .

٣٣ — كتابه يعزى عن ولد

وكتب تعزية عن ولد :

« أعظم اللهُ على المصيبة أجْرَك ، وأحسَنَ على جليل الرُّزْءِ ثوابك ، وَعَجَّل لك الخَلَفَ فيه ، وذَخَرَ لك الثوابَ عليه » .

(اختيار المنظوم والمنثور ١٣ : ٣١٨)

٣٤ — كتابه يعزى عن ولد

وكتب يعزى عن ولد أيضاً :

« إنما يستوجب على الله وَعْدَه ، مَن صَبَرَ لله بحقه ، فلا تَجمعَنَّ إلى ما فُجِعْتَ به من ولدك ، الفجيعة بالأجر عليه والعِوَضِ منه ، فإنها أعظم المصيبتين عليك ، وأنكى المَرْزِئَتين[1] لك ، أخاف الله عليك بخير ، وذَخَر لك جزيلَ الثواب » .

(اختيار المنظوم والمنثور ١٣ : ٣١٨)

٣٥ — كتابه يعزى عن بنت

وكتب يعزى عن ابنة :

« لا يَنْقُصِ الله عَدَدَك ، ولا يَنزِعْ عنك نعمَته التى ألبَسك ، وأحسَنَ العِوَض لك ، وجعل الخَلَف لك خيراً مما رَزَأك به ، وما أعطاك خيراً مما قَبَضَ منك » .

(اختيار المنظوم والمنثور ١٣ : ٣١٨)

٣٦ — كتابه يعزى عن بنت

وكتب يعزى عن بنت أيضاً :

« جَدَّد الله لك من هِبَته ما يكون خَلَفا لَكَ بما رُزِئْتَه ، وعِوَضاً من المصيبة به »

(١) المرزئة والرزيئة والرزء : المصيبة .

ورزقك من الثواب عليه أضعاف ما رَزَأَك به منها ، فما أقلَّ كثيرَ الدنيا ، فى قليل الآخرة ، مع فَنَاءِ هذه ، ودوامِ تلك » . (اختيار المنظوم والمنثور ١٣ : ٣١٨)

٣٧ — كتاب تعزية له

وله تعزية أيضاً :

« أعظم الله أجرك فى كل مصيبة ، وأَوْزَعَك[1] الشكر على كل نعمة ، أعرِف لله حقَّه ، واعتصِمْ بما أمر به من الصَّبر ، تظفَرْ بما وعد من عظيم الأجر » .

(اختيار المنظوم والمنثور ١٣ : ٣١٨)

٣٨ — كتاب آخر

وله أيضا :

« أما بعد ، فإن أمرَ الآخرة والدنيا بيد الله ، هو يدبِّرهما ويقضى فيهما ما يشاء ، لارادَّ لقضائه ، ولامُعَقِّبَ لحكمه ، فإن الله خلق الخلق بقدرته ، ثم كتب عليهم الموت بعد الحياة ، لئلاَ يطمعَ أحد من خلقه فى خُلْدِ الدنيا ، ووقَّت لكل شىء ميقاتَ أَجَل ، لا يَسْتَأْخِرُونَ عنه ساعةً ولا يَسْتَقْدِمُونَ ، فليس أحد من خَلقه إلا وهو مستيقِنٌ بالموت ، لا يرجو أن يخلِّصه من ذلك أحد ، نسأل الله خيرَ المُنْقَلَب .

وبلغنى وفاةُ « فلان » فكانت وفاته من المصائب العِظام ، التى يُحْتَسَب ثوابُها من ربنا ، الذى إليه مُنْقَلَبُنا وَمَعَادُنا ، وعليه ثوابُنا .

فعليك بتقوى الله والصبر ، وحُسْنِ الظن بالله ، فإنه جعل لأهل الصبر صلواتٍ منه ورحمةً وجعلهم من المُهْتَدِين » . (اختيار المنظوم والمنثور ١٣ : ٣٢٥)

---

(١) أى ألهمك .

٣٩ – كتابه إلى صديق له يستقضيه حاجة

وكتب إلى بعض إخوانه يستقضيه حاجة :

« أما بعد ، فإن مَن قضى الحوائج لإخوانه ، واستوجَبَ بذلك الشكرَ عليهم ، فلِنَفْسِه عَمِل لا لهم ، والمعروفُ إذا وضع عند من لا يشكره فهو زَرْعٌ لابدَّ لزارعه من حَصاده ، أو لِعَقِبِه من بعده .

وكتبتُ إليك ، ولحالنا التى نحن بها فيما نذكر لك حاجةٌ ، أوّلُ ما فيها معروفٌ ، تستوجِبُ به الشكرَ علينا ، وتَدَّخِر به الأيادىَ قِبَلَنا » .

(اختيار المنظوم والمنثور ١٣ : ٣٩٢)

٤٠ – كتاب آخر

وكتب فى استقضاء حاجة أيضاً :

« إن الناس لم يَعْدَموا أن يطلبوا الحوائج إلى الخواصِّ من الإخوان ، وأن يتواصلوا بالحقوق ، ويَرغبوا إلى أهل المقامات ، ويتوسَّلوا إلى الأكفاء ، وأنت بحمد الله ونعمته من أهل الخير ، وممن أعان عليه ، وبَذَل لأهل ثقته المُصافِينَ ، وإنّ بَذْلَ النفوس فيه ، وإعطاء الرَّغيب ، ليس منك ببِكْرٍ ولا طَرِيف ، بل هو تَلِيدٌ ، أتْلَدَه أوّلُكم لآخركم ، وأورثه أكابرُكم أصاغِرَكم .

ومن حاجتى « كذا » ، وأنت أحقُّ من طلبْتُ إليه واستعنتُه على حوادث الدهر ، وأنزلتُ به أمرى ، لِقُرْب نسبك ، وكريم حَسَبِك ، ونباهتِك ، وعلوِّ منزلتك وجسيم طبائعك ، وعوامّ أياديك إلى عشيرتك وغيرها ، فليكن من رأيك ما حمَّلتُك من حاجتى ، على قدر نِعَمِ الله لك من فضله ، وما عوَّدك من مِنَنِه ، وَوَسِعَ غيرى من نَعمائك وإحسانِك » .

(اختيار المنظوم والمنثور ١٣ : ٣٩٢)

٤١ — كتاب له فى السلامة

وله فى السلامة :

« أما بعد ، فقد أتانى كتابك فيما أخبرتَنَا عنه ، من صلاحك وصلاح ما قِبَلك ، وَفى الذى ذكرت من ذلك نعمةٌ مُجَلَّلة عظيمة ، نحمَدُ عليها وَليَّها المُنْعِمَ المُفضِلَ المحمودَ ، ونسأله أن يُلهِمنا وَإياك من شكره وذكره ما به مَزيدُها ، وتأديةُ حقِّها .

وَسألتَ أن أكتب إليك بخبرنا ، وَنحن من عافية الله وَكِفَايته وَدفاعِه على حال لو أطنبتُ فى ذِكرها ، لم يكن فى ذلك إحصاء النعمة ، وَلا اعترافٌ لِـكُنْهِ الحق ، فنرغبُ إلى الذى تزداد نِعمُه علينا فى كل يوم وَليلة تظاهُرًا ، ألاَّ يجعلَ شكرنا منقوصا وَلا مدخولا ، وَأن يرزقنا مع كل نعمة كِفاءها من المعرفة بفضله فيها ، وَالعملَ فى أداء حقها ، إنه وَلىٌّ قديرٌ » . (اختيار المنظوم والمنثور ١٣ : ٣٦٨ و ٣٧٦)

٤٢ — كتاب آخر إلى ابن الثقفى

وله فى السلامة إلى ابن الثَّقَفى :

« أما بعد ، فإن مما نمّى الله به مَناقِبَك الـكريمة المحمودَة الفائِتةَ عن القول والوصف ، أنك موضعُ المُؤْنات[(١)] عن إخوانك ، حَمَّالٌ عنهم أثقال الأمور ، وَمما وَضعت عنه المؤنةَ ارتفاعُك عن الأمور التى يطأطأ إليها الـكلام على ألسنة الناس إذا أباحوه وبَهْرَجوه[(٢)] ، وضيّعوا القولَ ونَسُوا القَصْدَ فيه ، وأخذوا به فى كل فن ، وأصْفَوا[(٣)] بصَفْوَته غيرَ أهلها فيما لا ينبغى لهم من التشبيه والتوقير والتفضيل .

كان من خبرى بعدك أنى قدِمْتُ بلد كذا ، فتهيأ لى بعض ما شَخَصْتُ له ،

---

(١) المؤنة كغرفة وركوبة وسورة : الثقل .

(٢) البهرجة : أن يعدل بالشىء عن الجادة القاصدة إلى غيرها .

(٣) أصفاه بكذا : آثره .

والمحمودُ على ذلك اللهُ عز وجل ، وأنا على أن يأتيني خَبَرُك محتاجٌ ، فأمَّا جُمْلة خَبَرى فى فراقك فقلبى مكةُ : كلٌّ ما سواك حَرَامٌ فيها » .

(اختيار المنظوم والمنثور ١٣ : ٣٧٦)

٤٣ — كتاب آخر

وله جواب فى السلامة :

« أما بعدُ ، فقد أتانى كتاب الأمير ، رَجْعَةَ كتابى إليه ، فكان فيه تصديقُ الظن ، وتثبيت الرأى ، وَدَرْكُ البُغْية ، والله محمودٌ ، فأمْتَعَ اللهُ بالأمير ، وأمتعه بصالح ما آتاه ، وزاده من الخير مستعمِرًا له فيه ، مستعملا بطاعته التى بها يفوز الفائزون ، والذى رَزَق اللهُ من الأمير فهو عندى عظيم نفيس ، وكلٌّ الذى قِبَلى عن مكافأته مُقَصِّر ، إلا أنه ليس فى النية تقصيرٌ ، ولا بلوغَ لشىء من الأمور إلاَّ بتوفيق الله عز وجل ومَعُونته ، والسلام » . (اختيار المنظوم والمنثور ١٣ : ٣٧٦)

٤٤ — كتاب فى السلامة

وفى السلامة أيضاً[١] :

« كتبتُ إليك ، وأميرُ المؤمنين ، وما يأتيه من لِين الطاعة واتِّساق الكلمة ، عمَّت فى الدانى والقاصى من بُلدانه ، وحَواشِى سُلْطانه ، على ما يُحْمَدُ الله عليه ، فإن نعمة الله على أمير المؤمنين تَجْرِى على أذْلالها[٢] ، وتنقادُ فى أمهَلِ سبيلها » .

(اختيار المنظوم والمنثور ١٣ : ٣٧٧)

---

(١) هكذا ذكر ابن طيفور ، ولم ينص على أنه لابن المقفع .
(٢) يقال : أمور الله جارية أذلالها وعلى أذلالها : أى مجاريها جمع ذل بالكسر .

٤٥ — كتاب لابن الثقفي في السلامة

وكتب ابن الثَّقَفي في السلامة :

« أما بعد ، أصلحَنا الله وإياك صلاحاً دائماً يجمع لنا ولك به الفضيلةَ في العاجلة ، والكرامةَ في الآجلة ، فإني لا أعلم أمرًا أعظمَ عند أهل منفعةٍ من أمرٍ تُرِك ذِكرُه لفضله ، وَلا أعلمُ أمرًا أحقَّ أن يستغنيَ أهلُه بفضله عندهم ، عن ذكره فيما بينهم ، من أمر وَشَّجَ[١] اللهُ بيننا وبينك في الدنيا ، حتى نكون به إخوانا في الآخرة ، حين تصير الخُلَّةُ[٢] عداوةً بين أهلها ، إلا عداوة المتقين .

كتبتُ والأمير في دَخْلة أمره وجميع حاله ومَن قِبَلَه من الجند والرعية على « كذا » ، ونحن فيما يحبُّ امرؤ أن يكون عليه أحد من إخوانه ، فإني لا أرجو إلاَّ أن أكون مقصِّرًا عن أفضل غاية ذلك ، في تعظيم حقك ، ورِعاية وُدِّك وعهدك وحفظك ، إن شاء الله .

وأمَّا ما قِبَلَ فلان فليست بك إلينا فيه ولا إلى غيرنا حاجة ، أنت منه بمكانِ أخصِّ الخاصَّة في المودة والثقة ، وأرْضَى الرِّضا في الدين والمُروءة ، ونسأل الله أن يَزين كلَّ محسن بك ظنا ، وطالبٍ لك فضلاً ، بتصديق أحسن ما نظَر وتعرَّف » .

(اختيار المنظوم والمنثور ١٣ : ٣٧٦)

٤٦ — كتاب ابن المقفع إلى يحيى بن زياد الحارثي

ولعبد الله بن المقفع إلى يحيى[٣] بن زياد الحارثي ابتداء في المؤاخاة :

« أمّا بعد ، فإن أهلَ الفضلِ في اللُّب ، والوفاءِ في الودِّ ، والكرمِ في الخُلق ،

---

(١) أي ألف ووصل . (٢) الخلة : الصداقة .

(٣) من ولد الحارث بن كعب ، شاعر مترسل بليغ ــ انظر الفهرست ص ١٧١ ، وله أخبار متفرقة في الأغاني .

لهم من الثناء الحَسَن فى الناس لسانُ صِدْق يُشِيد بفضلهم ، ويُخْبِر عن صحة ودّهم ، وثِقَةِ مؤاخاتهم ، فيتخيَّر إليهم رغبةَ الإخوان ، ويصطفى لهم سلامةَ صدورهم ، وَيَجْتَبِي لهم ثمرةَ قلوبهم ، فلا مُثْنَى أفضلُ تقريظا ، ولا مُخبِرَ أصدقُ أحدوثةً منه ، وقد لزِمتَ[1] من الوفاء والكرم فيما بينك وبين الناس طَريقةً محمودةً ، نُسِبْتَ إلى مزيتها فى الفضل ، وَجَمُل بها ثناؤك فى الذِّكر ، وشَهِدَ لك بها لسانُ الصِّدق ، فعُرِفْتَ بِمَنَاقِبها ، ووُسِمْتَ بمحاسنها ، فأسرعَ إليك الإخوان برغبتهم مُستَبِقِين ، يَبتدرون[2] وُدَّك ، وَيَصِلُون حَبْلَك ، ابتدارَ أهلِ التنافُسِ فى حَظٍّ رغيبٍ ، وَنَصَبْتَ لهم غايةً يجرى إليها الطالبون ، ويفوزُ بها السابقون ، فمن أثبتَ اللهُ عندك بموضع الحِرْزِ والثقة ، وَملأ بك يَدَه من أخى وفاء وَوُصْلة ، واستنام منك إلى شِعْبٍ[3] مأمون ، وَعَهْدٍ محفوظ ، وصار مغمورًا بِفَضْلِكَ عليه فى الودّ يتعاطَى من مكافأتك ما لا يستطيع ، وَيطلُبُ مِنْ أثرك فى ذلك غايةً بلوغُها شديدٌ ، فلو كنتَ لا تُؤَاخِى من الإخوان إلاَّ من كافأ بودِّك ، وَبلغ من الغايات حَدَّك ، ما آخيتَ أحدا ، وَلَصِرْتَ مِنَ الإخوان صِفْرا ، وَلكن إخوانك يُقِرُّون لك بالفضل ، وَتَقْبَلُ أنت ميسورهم من الودّ ، ولا تجشِّمهم كُلَفَ مكافأتك ، وَلا بلوغَ فضلك فيما بينك وبينهم ، فإنما مَثَلُكَ فى ذلك وَمثلهم كما قال الأول :

وَمَن ينازِعْ سعيدَ الخير فى حَسَبٍ ... يَنزِعْ طَلِيحاً وَيُقْصِرْ قَيْدَه الصَّعَدُ[4]

وَلم أُرِدْ بهذا الثناءِ عليك تزكيتَك ، ليكون ذلك قُربةً عندك ، وَآخِيَّةً[5] لى لديك ، ولكن تحرَّيتُ فيما وصفتُ من ذلك الحقَّ وَالصدقَ ، وَتَنَكَّبْتُ[6] الإثم

---

(١) وجاء فى العقد الفريد (٢ : ١٩٦) : « فصل لمحمد بن الجهم : إنك لزمت من الوفاء طريقة محمودة ، عرفت بمناقبها ، وشهرت بمحاسنها ، فتنافس الإخوان فيك يبتدرون ودك ، ويتمسكون بحبلك ، فمن أثبت الله له عندك ودا ، فقد وضع خلته موضع حرزها » — والخلة بالضم : الصداقة — وفى الأصل « حلته » وهو تصحيف .

(٢) أى يتسابقون إليه . (٣) استنام إليه : سكن واطمأن ، والشعب : الطريق فى الجبل .

(٤) طلح البعير كمنع : إذا أعيا وكل وسقط من السفر ، فهو طليح ، والصعد : المشقة .

(٥) الآخية بالتشديد والتخفيف : مثل عروة تشد إليها الدابة ، ومعناها هنا وصلة وقربة .

(٦) تنكب : عدل وتجافى .

وَالباطلَ ، فإن القليلَ من الصدق البرىء من الكذب ، أفضلُ من كثير الصدق المَشُوبِ بالباطل ، ولقد وَصفتُ من مَنَاقِبك ، وَمحاسِنِ أمورك ، وَإنى لأخاف الفتنةَ عليك حين تسمع بتزكيةِ نفسك ، وذِكْرى ما ذكرتُ من فضلك ، لأن المدح مَفْسَدةٌ للقلب ، مَبْعَثَةٌ للعُجْب ، ثم رجوتُ لك المَنَعة وَالعِصْمة ، لأنى لم أذكُر إلا حَقًّا ، وَالحقُّ ينفِى عن اللبيب العُجْبَ ، وَخُيَلاءَ الكِبر ، وَيَحْمِلُه على الاقتصاد وَالتواضع ، وَقد رأيتُ - إذ كنتَ فى الفضل وَالوفاء على ما وصفتُ منك - أن آخُذ بنصيبى من وُدِّك ، وَأصِلَ وثيقةَ حَبْلِى بحَبلك ، فيَجْرِىَ بيننا من الإخاءِ أواصِرُ[(١)] الأسباب التى بها يستحكِمُ الودُّ ، ويدوم العهدُ ، وعلمتُ أن تركى ذلك غَبنٌ ، وإضاعتى إياه جَهلٌ ، لأن التارك لحَظٍّ داخِلٌ فى الغَبْن ، وَالعائد عن الرشد مُوجِفٌ[(٢)] إلى الغىِّ ، فارغبْ من وُدّى فيما رغِبت فيه من وُدِّك ، فإنى لم أدَعْ شيئاً أستَمْلِى به منك الرغبة ، وَأجْتَرُّ به منك المودةَ ، إلا وقد اقْتَدْتُ إليك ذريعتَه ، وأعملْتُ نحوَكَ مطِيَّتَه ، لِترَى حِرْصِى على مودتك ، وَرغبتى فى مؤاخاتك ، والسلام » .

(اختيار المنظوم والمنثور ١٣ : ٤٠١)

٤٧ - رد يحي بن زياد على ابن المقفع

فكتب إليه يحي بن زياد :

« أما بعد ، فإنا لمَّا رأينا موضعَ الإخاء ممن يحتمله فى تأنيسه من الوَحْشة ، وَتقريبِه لذى البُعْدة[(٣)] ، ومُشاركته بين ذوى الأرحام فى القُرْبة ، لم نَرْض بمعرفة عَيْنِه دون معرفة نِسْبته ، فنسبْنا الإخاء فوجدناه فى نِسبته لا يَستحقُّ اسمَ الإخاء إلا بالوفاء ، فلما انتقلْنا عنه إلى الوفاء فنَسبْناه ، انتسبَ لنا إلى الصبر ، فوجدناه مُحتوِيًا

(١) أواصر جمع آصرة : وهى حبل صغير يشد به أسفل الخباء . (٢) أى مسرع .

(٣) ذو البعدة : الذى يبعد فى المعاداة ، ويقال أيضا إنه لذو بعد وبعدة بالضم فيهما : أى لذو رأى وحزم ، يقال ذلك للرجل إذا كان نافذ الرأى ذا غور وذا بعد رأى .

على الكرم ، والنّجدة ، والصدق ، والحياء ، والنجابة ، والزّكانة(١) ، وسائر ما لا يأتى عليه العددُ من المحامدِ ، ثم انحدَرْنا فيما أصْعَدنا فيه من هذا النّسَب ، فعُدْنا إلى الإخاء فوجدناه لا يقُوم به إلا مَنْ هذه الخِصالُ كلُّها أخلاقُه ، ولمّا استوجب الإخاء مَسالكَ المَحْمَدة كلها ، رأَيْنَا أن نتخيّر له المواضع فى صواب التوزير ، وإحكام التقدير ، وعلمْنا أن الاحتباس به ، أحسنُ من الندم بعد بَذْلِه ، واستوجَبَ — إذ كان جِمَاعَ المحامدِ — أن نتخَيَّرَ له مَحَامِلَه التى كان يُحْمَلُ عليها ، فكان الناس فيما احتبَسْنا به عنهم من الإخاء ، على صِنفين : فصنفٌ عَذَرُونا بالتحبُّس للتخير ، إذ كان التخيُّر من شأنهم ، وصنف هم ذوو سُرْعة إلى الإخاء وسُرعة فى الاُنتهاء ، فقدَّموا اللائمةَ(٢) ، واستعجلوا بالمودَّة ، وتركوا باب التَّروِيَةِ ، واستَحْلَوا عاجِلَ المحبة ، ولَهَوْا عن آجِلِ الثقة ، فكانوا بذلك أهلَ لائمةٍ ، ولم يجد المُعْذِرون(٣) إلا الصبرَ على تلك ، والاستعمالَ للرأى ، والاستعدادَ بالعُذْر عند المُحاجَّة .

وقد فهمتُ كتابَك إلىّ بالمودة ، واستحثاثَك إياى فى الأخوة ، وما دنوتَ به من حُرْمة المحبة ، فنازعَتْ(٤) إليك نفسى بمثل الذى نازعَتْ به إلىّ نفسُك ، فواثبتْنى عادةُ الاستعمال للتروية فى الخبرة ، والتخيُّر المَغَبَّة ، فجُلْتُ عن كتابك جَوْلَةً غيرَ نافرَة ، ثم راجعتُ مقاربتَك ، فقلتُ : ألْقَى إلىّ أسبابَ المودة قبل كشف الغطاء بالخبرة فخشِيتُ أن تَعْذِر نفسك بالتقدم ، وتَحْدُث الزهادة للتعسُّف بالجَهالة عند الخبرة ، فجُلْتُ عن هذا جَوْلَةً كالجولة الأولى ، ثم عاودت إسعافَك ، وطاعةَ التشوق ، ومعصية التخيُّر ثم قلتُ ماحالُ مَنْ جَعَلَ الظنَّ دون اليقين ، والتقدمَ قبلَ الوَثيقة ؟ فلما كان الرأى لى خَصْمًا ، تنكَّبْتُ الوقوعَ فى خِلافه ، فلم أجِدْ إلا الإدبارَ عن إقبالك سبيلا ، ولا مع

---

(١) الزّكانة : الفطنة والحدس الصادق .
(٢) اللائمة : اللوم .
(٣) المعذر : من كان له عذر .
(٤) أى اشتاقت .

ذلك في طاعة الشوق حُجَّةً ، فتَبَيَّنْتُ[1] السبيلَ بين ذلك إلى إعطائك طَرَف حبلِ الإخاء ، في غير الخروج من سبيل التخيُّر ، وكَرِهْتُ أن تستعبدَني بالإخاء ، قبل أن أعرِفَك بحُسْن المَلَكَةِ ، وأن تستظهِرَ بي[2] على الأعداء ، قبل أن أعرِفك بعَدْلِ السِّيرة، وأن تستضيء بي في ظُلَمِ الجهل، قبل أن أعرِفك بعَقْدِ اللُّبِّ ، وأن تستمكِنَ بي في المَطَالب ، قبل أن أعرِفك بقَصد الهِمَّة ، فقدَّمْتُ إليك الترحيبَ والعِـدَةَ ، وأحسنتُ عنك المفاوضَةَ والثقة ، وتنظَّرت أن تُثْمِرَ لي فأذوقَ جَناك[3] ، فأعرِفَك بالمَذَاقة في الطَّعم ، إما لافظا ، وإما مُستبلِعاً[4] ، فإن كان اللَّفْظُ لم أكن من الرأى في قلبه ، وإن كان الاستبلاعُ ذوَّقتك ما تشوقتَ إليه مما ادّعيتَ مني به الخِبرةَ ، وأوَّلُ ما أنا معتبِرٌ به منك المواظبةُ على استنجاح ما سألتَ أو السآمةُ له ، فإن كانت المواظبة فأحَدُ الشهود المعدِّلين[5] ، وإن كانت السآمة ، فأنت عن حَمْلِ ما تُعطى أضعفُ منك عن حمل ما تطلب ، طالِعْني بكتبك ، فإنك قد حَلَلْتَ قِبَلي عَقْدا من التحفظ ، وعقَدت عَقْدا من التقرب ، والسلام » .

(اختيار المنظوم والمنثور ١٣ : ٢٠٢)

٤٨ — كتاب أبي نصر الرقاشي إلى يحيى بن زياد

وكتب أبو نصر[6] الرَّقاشي إلى يحيى بن زياد في الإخاء :

« أما بعدُ ، أصلحك الله ، وأمتعَ بك ، في سَتْرٍ منه وكرامة دائمة ، فإن خيرَ ما استفاد المرء لنفسه ، واستعان به على مُروءته ، واعتقد[7] لدنياه وآخرته، وإن كان الله قد أكمَلَ عقلَه ، وأحسَنَ إليه في جميع أموره ، الأدبُ الصالحُ الذي به يُكشَفُ

---

(١) في الأصل « فتغيبت » وهو تحريف . (٢) أي تستعين .
(٣) الجنى : مايجنى . (٤) في الأصل « مستبلغا » وهو تصحيف .
(٥) أي المزكين ، من عدله إذا زكاه .
(٦) هو يونس بن أبي ذروة ، كتب لعيسى بن موسى — انظر الفهرست ص ١٨١ —
(٧) أي امتلك . اعتقد مالا : اقتناه .

غطاء الجهل ، وتنجلي غِشاوة العَمَى ، ويستنبط به مَذْخور العلم ، ويستدل به على سبيل الرشاد ، وإنى وجدت الطريق إلى سبيل الخيرِ الأدبَ ، لأن ما سَلَف من عهد الله فى الماضين ، وبقِيَ فى الغابرين ، تأديبٌ لهم ، وحُجَّة عليهم ، ولم أرَ من درجات الخير درجةً ، ولا فى أعلى الشرف مَحَلَّةً ، إلا والأدب الصالح مفتاحُ بابها ، والسُّلَّم إلى إحراز نُبلها ، قَبِلَ ذلك مَن قَبِلَه فكان أسعَدَ به ، وَضيَّعه مَن ضَيَّعه فكان أشقى به .

وَقد ابتليتنى فى ذلك أحسن البلاء ، ووليتَنى فيه بأحمدِ الولاية ، فحملتَ منى المؤونة وقَبِلْتَنى بالأدب على الصغيرة ، ورضيتنى مُحْرِما[١] عَتيقاً ، لا تدَّخِرنى نُصْحاً ، ولا تألُونى رشداً ، فعلمتنى مالم أعلَمْ ، وبصَّرتنى ما كنتُ أجهَل ، حتى وسَمْتنى بعد الإغفال ، ونوَّهتْ بى بعد خُمُول ذكرى ، وَشَهَرْتنى بعد الأُفُول بَسطةٌ من طَوْلك ، وَيدٌ من فضلك ، كأنك تشكر لذلك نعمةً ، أو تجزْى[٢] مِنَّةً ، فكنتُ فى نعمتك إلى يومى هذا ، قد أعطيتنى منك النَّصَفَ ، مودةَ كريمٍ بنا وَحفظاً وإنعاماً ؛ وَليس المُنْعِم كمتحمِّل النعم ، إفضالاً بعد إفضال ، وَرِبابَة[٣] بحسن بلائك ، وتنبيها على كريم فعالك ، فِعلَ ذى الشرف بذى الشرف ، وَالوالدِ ذى النعمة ، فأصفَيْتَنى دونَ[٤] لُطْفِ بَنِى الأَخِ ، وَلَطُفْتَ بى دُونَ منزلةِ العموم ، أخاً بَرًّا ، لا بل أباً كريماً ، فَخَلَفْتَ لى من سواك ولستَ بمخلوف ، وكفيتنى الهَمَّ بإذن الله ، وسَدَدْتَ عنى ثُلْمَةَ البعيد ، ثم لم يأتِ علىّ يومٌ منذُ أنزلنى الله منك بحيثُ أنزلنى ، وأصفانى منك بما أصفانى به إلاَّ وأنا لك فيه أحمَدُ من الماضى قبلَه ، وكذلك أنت لى فى غدك إن شاء الله .

ثم رأيتك لا تزداد على الخِبْرة إلا طِيبا ، ولا على بُعد الغاية إلا قُربا ، ولا على طول الأيام إلا حُسْنا ، لم أتحلَّل من عقدك عُقدة ، ولم أزدَد من فضلك إلا وَفْرا ، ولم

---

(١) من أحرم : إذا دخل فى الحرم ، دخل فى حرمة لا تهتك .

(٢) فى الأصل « تجرى » وهو تحريف .

(٣) رب النعمة والصنيعة كنصر . ربابة : نماها وزادها وأتمها وأصلحها .

(٤) دون : نقيض فوق ، وتأتى بمعنى فوق ، وهو المراد هنا ، والمعنى : وآثرتنى بلطف فوقه لطف بنى الأخ .

يُقصِّر بي[1] عن أداء حقك والمحافظةِ عليه وَعلى ما يجب من المعرفة بفضلك ، تضييعُ الأمانة ، ولا نسيانُ النعمة ، ولا نُقصانُ الشكر .

وقد علمتُ أن لك في الشكر رأياً ، وفي استخراجك الشكر مني دليل على أني من أهله إن شاء الله، فإني وجدت الشكر شقيق الحسَب، والوفاء وجدته يَجْزِي[2] من النعم ما قبله ، ويستدعي تمامَها بعده ، فأيُّ امرئٍ أخبَثُ صنيعاً إلى نفسه فيما يسوءها[3] مني إذا كان شكرك عندي منقوصاً ، وَبلاؤك لديَّ مكفوراً ، وَفضلُك عليَّ مجهولا ، ولكنه لم يساعدني دهرٌ مُعِين ، فأجْزِي بالبُؤْسَى ، وَأُصْفِي بالنُّعْمَى ، وَإن أَبْلُغْ ذلك بعون الله ، فهو أملي وَما فيه النعمة ، وَإنْ تُقَصِّرْ بي دونَ ذلك مقصِّراتُ التقدير ، فنحن وَأنت راضون[4] بما أتانا به تقديرُ المُسَوِّي بعدله بين خلقه ، وَالسلام » . (اختيار المنظوم والمنثور ١٣ : ٤٠٦)

٤٩ — جواب يحيى بن زياد

« أما بعدُ ، دَفَعَ الله عنا وعنك ما نكرهه بالنعم السَّوابغ ، ووقانا وإياك الأمورَ المشتبهة بالكرامات الظاهرة ، والأيادي المترادفة ، حتى يزول القضاء بنا وبك إلى ما نُحِبُّ ونَرْضى ، فإنك كتبتَ إليَّ تذكُر منزلةَ الأدب من المتأدِّب ، ورأيتك ترغَب إلى الإكثار والترديد ، وقد يفزَع إلى ذلك بعضُ المجتهدين ، فإن اسم الاجتهاد إنما يقع على من بَلَغ جُهْدَه ، ولكني قد رأيت لك إخوانا ممن لم تعلَقْ بهم معرفتك يُعجِبهم من أنفسهم وإخوانهم أن يجدوا الكثير الكلامِ جوامعَ[5] يحيدون[6] بمعرفتها عن سَقْطة الهَذَر، ويأمَنون بها مع ذلك الخطأ، ولم تَعدِلْ عن حسن النية في الإرادة لذلك،

---

(١) في الأصل « ولم يقصدني » وهو تحريف .

(٢) في الأصل « يجري » وهو تصحيف . (٣) في الأصل « فمن سواها » .

(٤) في الأصل « راجونا » وهو تحريف .

(٥) الجوامع : جمع جامعة ، وهي القيد . (٦) في الأصل « يحدون » وهو تحريف .

كما[1] عرَفتُ من إعلام ِكتابك ، إلا أن المُريد بنيته غيرُ معذور ، دون أن يبلغ فيه بفعله[2] ، وقد يُنحّى عنى اسمَ العنف بك ، وَيُلزِمني اسمَ التأديب لك ، أن التأديب بيني وبينك غير مُنكَر عندى وعندك ، وَإِنْ حَمَلْنَاهُ عَلَى قَعُود[3] العُنفِ كان كافيا لك من جميع صفات تعظيم الأدب أن تقول : لولا الأدبُ سَقَطَ اسمُ المتأدبين ، وإذا سقط غَلَب اسمُ الجاهلين ، وإذا غلب اسم الجاهلين عُصِيَ الخالق ، وَفسَدَتِ الدنيا ومن فيها .

وفهمتُ قولك ، وما دَلَلْتَ به على نفسك من معرفة الشكر ، فليس شيء مما سبقَت به يدى إلى إخوانى ، مِنْ مشاركتهم إياى فى مِثل ما به نفسى ، بِسَارٍّ لى أن يقع منى موقعَ إذلال لهم ، أو عذاب عليهم ، فإنه من يتخذ أيادى الإخوان عذابا على نفسه ووِقْرا[4] على قوّته ، فقد تعرّض لمعاودة بعض الأدب ، للاستزادة من الأوقارِ المُغتَمِّ بها ، المَلُول[5] مِنْ حَمْلِها ، وبئست اليدُ يدٌ جَرِيرتُهَا[6] استثقالُ الكتبِ ، وضيقُ الذّراعِ من فوائد الأحبّة .

فأمّا ما عَظَّمْتَ من الشكر ، فإن الشكر مكافأة ، وإذا كان الشكر كَفِيءَ[7] المِنّة ، فإن الكَفِيءَ لا يكون دون كفيئه ، وإذا بلغتَ بالشكر منزلةَ المكافأة ، فقد علوتَ به أعلى المنازل ، وكان يجمع لك ذلك أن تقول : الشكرُ مكافأة ، والمكافأة كفيئةٌ ، والكفِيء مثل كفيئه .

فأمّا ما ظننتَ أنى أستدلُّ به على أنك من أهل الشكر ، بالكلمات التى وصفتَ ، فلئن تقدمتُ باليد على جَبالةٍ — فى أول يوم — منّى بموضعِ الشكرِ ، ما أنا[8] بمُبْصِرٍ موضعَ الأمرِ ببادرةٍ من الكلام هى[9] مع ذلك غيرُ حدودٍ جامعةٍ ، ولو جَمَعَتْ .

---

(١) فى الأصل « قما » وهو تحريف . (٢) فى الأصل « بعقله » وهو تحريف.
(٣) أى على محمل العنف ومركبه ، والقعود من الإبل : مايقتعده الراعى فى كل حاجة .
(٤) الوقر : الحمل . (٥) فى الأصل « الأموال » وهو تحريف.
(٦) أى ذنبها . (٧) أى مكافىء.
(٨) فى الأصل « وأنا » وهو تحريف . (٩) فى الأصل « ببادرة من الكلام مع ذلك » .

فأمّا ما ذكرتَ من إبطاء الدهر عنك بالتقوية على مساعدتى ، فكأنك عنَيْتَ بهذه الكلمة [أنَّ صداقتك لى من ذاتِ[١]] الأيدى ، فإن كنتَ عنيتَ ، فما أشنعَ ما ألزمْتَنى ونفسَك من قبيح الخُلُق ، وقد يرُدُّ عنى فَوْرَةَ الغضب أنك لم تقل ذلك قاصداً ، واستدلالتُ على أنك لم تقصِد له ، بأنك بنفسك بدأتَ بالإخاش ، وسأصَغِّرُ لك ما صغر الله من ذات الأيدى التى تَقَطَّعُ إليها أعناقُ السُّخَفاء ، وأُعظِّم لك منزلةَ المودة بتدبير العقل ، بما عظَّم الله منها ؛ ألا تَرَى رحمك الله أن العقلَ يكْسِبُ المالَ ، وأن المَالَ معجوزٌ به عن مكسَبة العقل ، حَسْبِى وَحَسْبُك ممن لم تكن له أخا أن تجعله أخا ، وَحَسْبُنَا ممن كان بعيداً أن نجعله قريبا ، وَحَسْبُنَا من المخالفين أن يكونوا موافقين . فأمَّا ما تملكُ الأيدى ، فإنى لا أدرى : أمَا خَدَعْتَ العدوَّ عنه أكثرُ ، أم ما تناولتَه بغير المؤامرة[٢] من مال الصديق ؟ فإن بلغْتَ حَدَّ المؤامرة ، فذلك وَصْمٌ[٣] فى صداقة المأخوذ منه ، أو عَجْزٌ من الآخذ من صديقه ؛ قد مضى لك إخوان لم تَلْحَقهم ، وآخرون كثيرٌ أنت بين أظهُرِهم لم تعرفهم ، كان الرجل منهم يكرَه أن يَعِدَ إخوانَه الوفاء ، فيضرَّ اختلاطُ المواعيد بصادق النية المكسوب عليها ، مع ما فى المواعيد من التغرير بالعجز عنها ، وما فى الزمان من الخيانة لأهله ، وما فى الاختلاط[٤] من الضعف .

أمَا إنى قد كنتُ أَرَى مكانَ الموافَقَةِ فى الجواب ، فأتعجَّل حاضِرَ سرورك بذلك ، وتجرى بيننا وبينك الخديعةُ والرياء ، فتركب (سبيل) السَّفلة الذين أغلبُ الأشياء عليهم المَلَقُ ، ولكن حرَّكتنى المودةُ بالتأديب لبعض تلك الحرَّكات فيما مضى حين عاودْتنى المكاتبة بالمناسَمَةِ[٥] ، وإنى قد علمت أنَّ كل ذى عقل ذو حاجة ، وأن

---

(١) ما بين القوسين بياض بالأصل ، وقد زدته لتستقيم العبارة .

(٢) المؤامرة : المشاورة . (٣) عيب وعار .

(٤) فى الأصل « وما .... لاختلاط » .

(٥) ناسمته : شاممته ، وجدت ريحه ووجد ريحى ، والمعنى بتنسم أخبارك .

الأعقلَ فالأعقلَ الأحْوَجُ فالأحوجُ، والاستفادة فيما مضى غيرُ مُضرَّة بما يستفيد فيما يَستقبلُ ، وأن بعض ذلك اتّــكالٌ على بعض ، غيرُ مضِرّ به ، ولا ناقضٍ له ، ولا مُسيء الثناء عليه ، فافهَمْ » . (اختيار المنظوم والمنثور ١٣ : ٤٠٧)

٥٠ — كتاب حماد عجرد إلى يحي بن زياد

وروى صاحب الأغانى قال :

كان حَمّادُ عَجْرَد(١) صديقا ليحيى بن زياد ، فأظهر تورُّعا وقراءة ونُزُوعا عما كان عليه ، وَهَجَرَ حماداً وأشباهه ، فــكان إذا ذُكِرَ عنده ثَلَبه(٢) ، وذكر تهتكه ومُجُونه ، فبلغ ذلك حَمّادا ، فــكتب إليه(٣) :

هــل تَذْكُرَنْ دَلَجِى إليــــك على المُضَمَّرة القِلاصِ(٤)
أيامَ تُعْطيــــنى وتأ خُذُ من أباريقِ الرَّصاصِ
إن كانــ نُسْكُكَ لايتــــمُّ بغير شَتْمِى وانتقاصِى

---

(١) هو حماد بن يحيى بن عمرو ، وعجرد لقب له ، وهو من مخضرمى الدولتين، وكان خليعا ماجنا متهما فى دينه ، وكان بالــكوفة ثلاثة نفر يقال لهم الحمادون : حماد عجرد ، وحماد الراوية ، وحماد الزبرقان ، يتنادمون على الشراب ويتناشدون الأشعار . وكانوا كأنهم نفس واحدة ، يرمون بالزندقة جميعا ، وأشهرهم بها حماد عجرد ،وقتله محمد بن سليمان بن على عامل البصرة بظاهر الــكوفة على الزندقة سنة ١٥٥ — انظر ترجمته فى الأغانى ١٣ : ٧٠ ووفيات الأعيان١ : ١٦٥ ، وكذلك كان يحيى بن زياد متهما بالزندقة ، قال على بن الجعد : « قدم علينا (يبغداد) فى أيام المهدى هؤلاءالقوم : حماد عجرد ومطيع ابن إياس ويحيى بن زياد ، فنزلوا بالقرب منا ، فكانوا لايطاقون خبثا ومجانة » .

(٢) ثلبه كضربه : عابه .

(٣) وفى رواية ابن خلــكان فى وفيات الأعيان « ويحــكى أنه كانت بين حماد عجرد وبين أحد الأئمة الــكبار — ومايليق التصريح بذكر اسمه — مودة ، ثم تقاطعا فبلغه عنه أنه يتنقصه ، فكتب إليه حماد... » وجاء فى رواية أخرى لصاحب الأغانى قال: « كان أبو حنيفة الفقيه صديقا لحماد عجرد ، فنسك أبو حنيفة وطلب الفقه فبلغ مابلغ، ورفض حمادا وبسط لسانه فيه، فجعل حماد يلاطفه حتى يكف عن ذكره، وأبوحنيفة يذكره ، فكتب إليه حماد بهذه الأبيات » والصحيح أن ذلك الــكتاب إلى يحيى بن زياد كما فى الرواية الأولى ، أما الرواية الأخرى فإنا نجزم أنها كذب على أبى حنيفة قطعا .

(٤) الدلج : السير من أول الليل ، والقلاص جمع قلوص كصبور : وهى الناقة الفتية .

أو كنت لستَ بغيرِ ذا ... لِكَ تنالُ منزِلةَ الخلاصِ
فعليك ، فاشـتُمْ آمنًا ... كلَّ الأمانِ من القِصاصِ
واقعــد وقُمْ بى مابَدَا ... لكَ فى الأَداني والأَقاصِي
فلَطالما زكَّيْتَـني ... وأنا الْمُقِيم على المعاصي
أيامَ أنت (إذا ذَكَرْ ... تَ) مُناضِلٌ عنى مُناصِي[1]
وأنا وأنت على ارتكا ... بِ المُوبقاتِ مِن الْحِراصِ
وبنا مَواطِنُ ماينُنا ... في البرِّ آهِلَةُ العِراصِ[2]

فاتصل هذا الشعر بيحيى بن زياد ، فنَسَبَ حمادا إلى الزَّندقة ، ورماه بالخروج عن الإسلام . فقال حماد فيه :

لامُؤمِنٌ يُعرَفُ إيمانُه ... وليس يحيى بالفتى الكافرِ
منافِقٌ ظاهِرُه ناسكٌ ... يُخالِفُ الباطنِ للظاهرِ

(الأغانى ١٣ : ٧٦ وفيات الأعيان ١ : ١٦٦)

٥١ — جواب سلامة لمحمد[3] بن زياد الحارثى إلى المنصور

أما بعدُ ، أصلح الله أمير المؤمنين صلاحًا دائمًا يستقبلُ به أنفسَ العمر فى أدْوَم السعادة ، ويستقبل بنا فيه أحسنَ المتاع ، مساعِدًا له القضاء على كل مايَرَى فى نفسه وأهل بيته ورعيته ، معدولاً عنه كلُّ محذورعليه ، حتى يبلِّغَه فى نفسه غاية الأمل ، وفى أهل بيته أحسنَ العِمارة ، وفى أمّته أكمَلَ الصلاح ، وفى أهل العداوة الدينه أبلَغ النقم .

---

(١) ناصيته : نصوته ونصانى . أى أخذت بناصيته وأخذ بناصيتى ، والمعنى : مناضل مدافع .
(٢) العراص : جمع عرصة كوردة: وهى البقعة الواسعة بين الدور ليس فيها بناء ، وفى الأصل «ماينا: فى .... » وهو تصحيف .
(٣) هو أخو يحيى بن زياد الحارثى ، شاعر مترسل بليغ — انظر الفهرست ص ١٧١ .

أتانى كتاب أمير المؤمنين بما أحبّ أن يسُرّنى به من سلامته ، فى نعمته وولده وخاصّته ، فأدام الله لأمير المؤمنين العافيةَ ، ووثّق له عَقْدَ الكرامة ، وأسبَغَ عليه فضائلَ النعمة ، وفواضلَ الأيادى ، فإنه أصبح محتجراً[1] بصلاح أمير المؤمنين فى نفسه وولده وجميع أمته، مقروناً بما كَرِهوا له أو عليه ، ما كَرِهوا لأنفسهم أو عليها، محقوقين ألاّ يَرَوا للنعمة تماماً ، ولا للعافية دواماً ، إلاّ بتمامها على أمير المؤمنين وبقائها له ، فإن الوالىَ إذا نزل من أمته ، فى إحياء العدل لها ، ودفع المكروه عنها ، وإثباتِ شرائع الحق فيها ، وإسباغ الأيادى بالفضل عليها ، بمِثْلِ مَنْزِلِ أمير المؤمنين الذى أنزله الله به من رعيته ، فى دينهم وحريمهم ومعاشهم ، لم يَرَوه بالنعمة عليه فى نفسه وولده وخاصته مخصُوصاً دون أنفسهم، لأن بقاءه وصلاحه مقرون موصول ببقائهم وصلاحهم ، فلا زال أمير المؤمنين مصنوعاً له ، مدفوعا عنه ، مجنَّبًا محْذورَ الليل والنهار ، مُوَقَّى ما تشتمل عليه الأ[يام من الأحداث[2]] ، ممنوعا يمنعه الله برحمته فى نفسه وولده ، محروساً بكِلاءة[3] الله وحفظه فى جميع ماأنعم به عليه ، نسأل الله لأمير المؤمنين تمامَ النعم ، ودوامَ الكرامات ، والسلام » .

(اختيار المنظوم والمنثور ١٣ : ٣٧٠)

٥٢ — كتاب له فى الشكر

« لولا مايجب علينا من قضاء حق الأمير بما تَبْلُغُه الطاقة فى تقريظ الألسن ، ونصائح القلوب ، والتمسُّكِ بحبل الشكر له ، والوفاء فى المَحْضَر والمَغِيب ، كان أَوْلَى الأمور بنا فى التحيُّر لأنفسنا والنظر لها ، الإمساكَ من ذلك عما لايَزِيدنا ذِكرُه إلا بعداً من غايته ، وعجزاً عن بلوغه ، ولكنا لما صرنا نعتمد فى القول على الاجتهاد فى معرفة الحق على

---

(١) احتجر به : التجأ واستعاذ ، والمعنى مقترنا به ومرتبطا .
(٢) فى الأصل « موق يشتمل عليه إلا ..... ممنوعا » .
(٣) كلأه كمنعه ، كلاءة : حرسه .

صدق النية ، والمكافأة على باطن الشكر ، وَسِعَنا أن نُظْهِر ماقَدَرْنا عليه من الأسرار ، لتعرِف أنْ قد اجتَهَدْنا فى قضاء حقه ، ليعذِرَنا فيما قصّرنا عنه القول بالاجتهاد ، ويحمل أمْرَنا فى الوفاء والشكر على مايثق به منا فى تَمحِيض المودة ، وصحة الضمير » .

(اختيار المنظوم والمنثور ١٣ : ٣٨٤) .

٥٣ — كتاب آخر

« مازال ظاهِرُ معروفِ الأمير يشهدُ على باطن سريرته ، وما بَرِحَت سريرة باطنه من جميل رأيه ونيَّته متصلةً بمعروفٍ ظاهر ، وما أنفكَّ قديمٌ من صلته يلحَقُ بحديث ، حتى مانجِدُ مستزاداً ، ولا لِأَمَلنا على ماأصبحنا فيه من بِرِّه متنفَّسا ، ولا من التقصير وإن جَهَدْنا فى تأدية الحق وشكر النعم مَخْرَجا » .

(اختيار المنظوم والمنثور ١٣ : ٣٨٤ أ)

٥٤ — كتاب آخر

«قد يجب على من يتقلَّب فى ظلِّ كرامتِك ، ويأوِى إلى كَنَف نعمتك ، أن يقول بما هو أولَى ، ويُخبر عما هو به مرتَهَن ، مِن شُكر بَلائِك ، وحقِّ نعمتك ، ونحن الذين سبقت نعمتُك عليهم ، وعظُمَت مِنَّتُك لديهم ، فيما أَبْلَيْتَ وأوليْتَ من جميل رأيك ، وحُسن أثرك ، بعطفك وتحننك ، واستخلاصك إياه ثِقَةً وأُنسا ، دون أصحابك من نظرائه فى أيادٍ من أياديك عظُمَتْ فلا تُجْحَد ، ونِعَمٍ من نعمك شُهِرَتْ فلا تنكرُ ولا يُحْصَى عددها ، وإن اجتَهدْنا فى حفظها ، ولا نبلغ فى شكرها وإن دَأَبْنا فى بلوغ تأديتها ، فقد اعتقدتَها مِنَّةً علينا ، ويداً عندنا ، فنحن لك صنيعة ما بَقينا ، وَبقِىَ الخلَفُ منا » .

(اختيار المنظوم والمنثور ١٣ : ٣٨٤)

٥٥ — كتابه إلى صالح بن على

وكتب إلى صالح بن على :

« فإن أحقَّ الناس أن يحِلَّ موضعُ رضاه وسُخطه مَن كان سُخطه حطَّةً ، ورضاه شرفا ، وقد جعل الله الأميرَ كذلك ، فرضاه عمن رضى عنه زَيْنٌ ، وسُخْطه عليه حُجَّة ، وإقبالُه إلى من أقبل إليه فائدة ، وإدبارُه عمن أدبَرَ عنه تأديب ، وليس فى شىء مما يميل إليه الأمير من دواعى السخط والرضا تحامُلٌ يحجزُه عن إنصاف ، ولا هوى يُزيله عن رأى ، ولا بادِرة تُعْجِله عن تثبُّت ، ولا غلَق[1] يُقْعِده عن حِلْم ، ولا سطوةٌ بيدٍ ولا لسان تحُولُ بينهُ وبين عفو ، بل يَحْلُمُ ولا يجهل ، ويَعْذِر ولا يعاقب ، ويصفح الصفحَ الجميل ، ويدفع السيئةَ بالتى هى أحسنُ ، والله محمودٌ .

وقد نالنى من جَفوة الأمير بعد ما كنت أعرف من برّه وإلطافه[2] ، أمرٌ أحلَّنى مع المُذْنب فى نفسى مع البراءة من الذنب ، وألزَمنى الإساءة مع التقصير ، وزاده عندى عِظَما أنى شَدّما[3] حاولتُ المَخرجَ منه بالاعتذار ، ولم أجد إلى الأمير ذنباً أعتذِر منه إليه ، ولا فيما ألزَمَنى من معتَبَتِه حُجَّةً أحاوِلُ دفْعَها والتخلص منها ، فأصبحتُ أعالج من ذلك ماقد خَفِى عنى دواؤه ، وأحاول صلاحَ مالم أجْنِ فسادَه ، فإن رأى الأميرُ أن يَصِلَ قديم معروفه بحديثه ، فإنى لم أجد إلى الأمير فى مطالبته بذلك أنجحَ من التوجُّه إليه بنفسه » .

(اختيار المنظوم والمنثور ١٣ : ٣٨٥) .

---

(١) الغلق : ضيق الصدر وقلة الصبر .

(٢) ألطفه بكذا : بره .

(٣) فى الأصل « وزاده عندى عظما وشد مما حاولت .... » والمعنى عليه غير مستقيم .

٥٦ — كتاب عبد الله بن الحسن إلى صديق له

وكتب عبد الله بن الحسن بن الحسن بن على بن أبى طالب إلى صديق له :

« أوصيك بتقوى الله تعالى ، فإن الله جعل لمن اتقاه المَخْرَج من حيثُ يَكرَه ، والرزقَ منْ حيث لايحتسِبُ » .

(زهرة الآداب ١ : ٩٣)

٥٧ — أبو جعفر المنصور وعبد الله بن الحسن

وروى صاحب العقد الفريد قال :

لما قام أبو جعفر بالأمر بعث بعطاء أهل المدينة، وكتب إلى عامله أن :

« أَعْطِ الناس فى أيديهم ، ولا تَبعَثْ إلى أحد بعطائه ، وتفقَّدْ بنى هاشم ، ومَنْ تخلَّف منهم ممن حضر ، وتحفَّظْ بمحمد وإبراهيم ابنى عبد الله ابن الحسن » .

ففعل وكتب : « إنه لم يتخلف أحد من العطاء إلا محمد وإبراهيم ابنا عبد الله ابن الحسن ، فإنهما لم يحضرا[١] » .

فكتب أبو جعفر إلى عبد الله بن الحسن ـ وذلك مبدأ سنة تسع وثلاثين ومائة ـ يسأله عنهما ، ويأمره بإظهارهما ، ويُخبره أنه غيرُ غادِره .

---

(١) كان بنو هاشم الطالبيون والعباسيون ـ قد اجتمعوا أخريات العصر الأموى بمكة، وتذاكروا حالهم وماهم عليه من الاضطهاد ، وما قد آل إليه أمر بنى مروان من الاضطراب ، واتفقوا على أن يدعوا الناس إليهم سرا ، ثم قالوا : لابد لنا من رئيس نبايعه ، فاتفقوا على مبايعة محمد بن عبد الله بن الحسن ـ وكان يلقب بالنفس الزكية ـ وكان من سادات بنى هاشم ورجالهم فضلا وشرفا وعلما ـ وكان المنصور ممن بايعه ـ وشاء القدر أن يظفر العباسيون بالخلافة ، فوليها السفاح ، ثم المنصور ، ولم يكن للمنصور هم منذ تبوأ عرشها سوى طلب النفس الزكية ليقتله أو يخلعه ، وأغراه بذلك أن الناس كانوا شديدى الميل إليه ، وكانوا يعتقدون فيه الفضل والشرف والرياسة ، فطلبه المنصور هو وأخاه إبراهيم من أبيهما عبد الله بن الحسن ، فقال : لاعلم لى بهما ـ وكانا قد تغيبا خوفا منه ـ فلما طول عليه القول ، قال : كم تطول ؟ والله لو كانا تحت قدمى لما رفعتهما عنهما ، سبحان الله ! آتيك بولدى لتقتلهما ! فقبض عليه وعلى أهله من بنى الحسن ، وحبسهم فى سجن الكوفة حتى ماتوا فيه ـ انظر الفخرى ص ١٤٦ وتاريخ الطبرى ٩ : ١٨٠ .

فكتب إليه عبد الله : « أنه لا يدرى أين هما ، ولا أين توجها ، وأن غَيْبَتهما غير معروفة » .

فلم يلبث أبو جعفر - وكان قد أذكى[1] العيونَ ، ووضع الأرصاد - حتى جاءه كتاب من بعض ثقاته يخبره أن رسولا لعبد الله ومحمد وإبراهيم خرج بكتب إلى رجال بخراسان يستدعيهم إليه ، فأمر أبو جعفر برسولهم فأتى به وبكتبهِ ، فردَّها إلى عبد الله بن الحسن بطوابعها لم يفتح منها كتابا ، وردَّ إليه رسوله وكتب إليه :

« إنى أتيتُ برسولك والكتب الذى معه ، فردَدْتُهَا إليك بطوابعها ، كراهيَةَ أن أطَّلِعَ منها على ما يُغيِّر لك قلبى ، فلا تدْعُ إلى التقاطع بعد التواصل ، ولا إلى الفُرقة بعد الاجتماع ، وأظهرْ لى ابنيك ، فإنهما سيصيران بحيث تُحِبُّ من الولاية والقرابة وتعظيم الشرف » .

فكتب إليه عبد الله بن الحسن : يعتذر إليه ، ويتنصَّل فى كتابه ، وَيُعْلِمَه أن ذلك من عدو أراد تشتيت ما بينهم بعد التئامه ، ثم جاءه كتاب ثقة من ثقاته يذكر أن الرسول بعينه خرج بالكتب بأعيانها على طريق البصرة ، وأنه نازل على فلان المُهَلَّبِىِّ ، فإن أراده أمير المؤمنين فليضع عليه رَصَده ، فوضع عليه أبو جعفر رصده ، فأتى به إليه ومعه الكتب ، فحبس الرسول وأمضى الكتب إلى خراسان مع رسول من عنده من أهل ثقاته ، فقدمت عليه الجوابات بما كَرِه ، واستبان له الأمر .

فكتب إلى عبد الله بن الحسن يقول :

« أُريد حيـــــاته ويُرِيد قتلى عَذِيرَكَ مِنْ خَلِيلِكَ مِنْ مُرَادِ[2]

أما بعد فقد قرأت كتبك وكتبَ ابنَيْك ، وأنفذتُها إلى خراسان ، وجاءتنى

---

(١) أذكى عليه العيون : إذا أرسل عليه الطلائع .

(٢) قاله على بن أبى طالب رضى الله عنه وهو ينظر إلى عبد الرحمن بن ملجم المرادى لعنه الله، ويقال: عذيرك من فلان بالنصب : أى هات من يعذرك ، فعيل بمعنى فاعل .

جواباتها بتصديقها ، وقد استقرَّ عندى أنك مُغيِّب لأبنيك تعرف مكانهما ، فأَظْهِرهما لى ، فإن لك علىَّ أن أُعْظِم صِلَتَهما وجوائزهما ، وأُضَيِّعهما بحيثُ وضَعْتَهما قرابتَهما ، فتداركِ الأمور قبل تفاقُمِها » .

فكتب إليه عبد الله بن الحسن :

وكيف أُريد ذاك وأنت منى وَزَنْدُك حين تَقْدَح من زِنادِى

وكيف أُريد ذاك وأنت منى بمنزلة النِّياط من الفؤاد ؟(١)

وكتب إليه : أنه لايدرى أين توجها من بلاد الله ، ولا يدرى أين صارا ، وأنه لا يعرف الكتب ، ولا يشكُّ أنها مفتَعَلة(٢) . (العقد الفريد ٣ : ٢٩)

٥٨ — كتاب أبى جعفر إلى النفس الزكية

ولما بلغ أبا جعفر المنصور خروجُ النَّفْس الزَّكيَّة بالمدينة(٣) — وهو محمد بن عبد الله بن الحسن بن الحسن بن على بن أبى طالب — كتب إليه :

---

(١) النياط : عرق متصل بالقلب من الوتين إذا قطع مات صاحبه .

(٢) فدس المنصور إليه سالم بن قتيبة الباهلى ، وبعث معه بمال وأمره بأمره ، فقدم سالم المدينة فجلس إلى عبد الله بن الحسن ، وأظهر له المحبة والميل إلى ناحيته ، فلما أنس به قال له : إن نفرا من أهل خراسان — وسمى له رجالا يعرفهم ممن كان يكاتب — قد بعثوا إليك معى مالا ، وكتبوا إليك كتابا ، فقبل الكتاب والمال . فلما ازداد به أنسا واستئمانا ، قال له : إنى قد بعثت بكتابين إلى أمير المؤمنين محمد، وإلى ولى عهده إبراهيم ، وأمرت ألا أوصل ذلك إلا فى أيديهما ، فإن أوصلتنى إليهما أوصلت إليهما الكتابين والمال ، ورحلت إلى القوم بما يثلج صدورهم ، فأنا عندهم بموضع الصدق والأمانة ، وإن سرهما مظلم ، وإن لم تكن تعرف مكانهما لم يخاطروا بدينهم وأموالهم ومهجهم ، فأوصله إليهما ، فدفع لهما الكتابين والمال ، وما زال سالم يحتال له ويغريه بأن يخلع أبا جعفر ويبايع ابنه محمدا حتى أجابه فخلع أبا جعفر وبايع محمدا وبايعه سالم من بعده ، وأخذ كتبه وكتب إبراهيم ومحمد فخرج فقدم على أبى جعفر فأخبره بحقيقة الأمر .

(٣) لم يزل النفس الزكية متغربا منذ أفضت الدولة إلى بنى العباس خوفا منهم على نفسه ، فلما علم بما جرى لأبيه ولقومه ظهر بالمدينة وأظهر أمره ، وتبعه أعيان المدينة ، ثم غلب عليها وعزل عنها أميرها ، ورتب عليها عاملا وقاضيا ، فوجه المنصور لقتاله جيشا بقيادة ابن أخيه عيسى بن موسى ، فكانت الغلبة لجيش المنصور ، وقتل النفس الزكية ، وحمل رأسه إلى المنصور سنة ١٤٥ هـ ، ثم خرج أخوه إبراهيم =

« بسم الله الرحمن الرحيم ، من عبد الله عبد الله أمير المؤمنين إلى محمد بن عبد الله »
أما بعد : فـ « إِنَّمَا جَزَاءُ الَّذِينَ يُحَارِبُونَ اللهَ وَرَسُولَهُ وَيَسْعَوْنَ فِى الْأَرْضِ فَسَادًا أَنْ يُقَتَّلُوا أَوْ يُصَلَّبُوا أَوْ تُقَطَّعَ أَيْدِيهِمْ وَأَرْجُلُهُمْ مِنْ خِلَافٍ أَوْ يُنْفَوْا مِنَ الْأَرْضِ ، ذَٰلِكَ لَهُمْ خِزْيٌ فِى الدُّنْيَا وَلَهُمْ فِى الْآخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٌ . إِلَّا الَّذِينَ تَابُوا مِنْ قَبْلِ أَنْ تَقْدِرُوا عَلَيْهِمْ فَاعْلَمُوا أَنَّ اللهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ » . ولك[1] علىَّ عهدُ الله وميثاقُهُ وذمته وذمَّةُ رسوله صلى الله عليه وسلم إن تُبتَ ورَجَعتَ من قبل أن أقدِرَ عليك أن أؤمِّنك وجميعَ ولدك وإخوتك ، وأهل بيتك ومن آتبعكم ، على دمائكم وأموالكم ، وأُسَوِّغَك ما أصبْتَ من دم أو مال ، وأُعطيَك ألفَ ألفِ درهم ، وما سألتَ من الحوائج ، وأُنْزِلَك من البلاد حيث شئتَ ، وأن أُطْلِقَ مَن فى حبسى من أهل بيتك ، وأن أؤمِّن كل من جاءك وبايعك واتّبعك ، أو دخل معك فى شىء من أمرك ، ثم لا أتبَعَ أحداً منه بشىء كان منه أبدا ، فإن أردتَ أن تتوثَّق لنفسك فوجِّه إلىَّ مَن أحببت أن يأخُذَ لك من الأمان والعهد والميثاق ما تثِقُ به » .

وكتب على العنوان ، من عبد الله عبد الله أمير المؤمنين إلى محمد بن عبد الله .

(تاريخ الطبرى ٩ : ٢١٠ ، وتاريخ الكامل لابن الأثير ٥ : ١٩٩ ، والكامل للمبرد ٢ : ٢٩٣ ، وصبح الأعشى ١ : ٢٣١)

= على المنصور بالبصرة ، فوجه إليه المنصور عيسى بن موسى — بعد رجوعه من قتال النفس الزكية — فقاتله ، وقتل إبراهيم فى المعركة سنة ١٤٥ هـ أيضا — انظر الفخرى ص ١٤٨ وتاريخ الطبرى ج ٩ ص ٢٠١ .

(١) فى رواية الكامل للمبرد وصبح الأعشى اختلاف يسير من هذه الرواية ، وهى : « ولك عهد الله وذمته وميثاقه وحق نبيه محمد صلى الله عليه وسلم إن تبت من قبل أن أقدر عليك أن أؤمنك على نفسك وولدك وإخوتك ومن بايعك وتابعك وجميع شيعتك ، وأن أعطيك ألف ألف درهم ، وأنزلك من البلاد حيث شئت ، وأقضى لك ماشئت من الحاجات ، وأن أطلق من فى سجنى من أهل بيتك وشيعتك وأنصارك ، ثم لا أتتبع أحدا منكم بمكروه ، فإن شئت أن تتوثق لنفسك فوجه إلى من يأخذ لك من الميثاق والعهد والأمان ما أحببت ، والسلام » .

٥٩ — رد النفس الزكية على أبى جعفر

فكتب إليه محمد بن عبد الله :

« بسم الله الرحمن الرحيم ، من عبد الله المهدى[١] محمد بن عبد الله أمير المؤمنين، إلى عبد الله بن محمد :

« أما بعد : « طسم . تِلْكَ آيَاتُ الْكِتَابِ الْمُبِينِ . نَتْلُو عَلَيْكَ مِنْ نَبَإِ مُوسَى وَفِرْعَوْنَ بِالْحَقِّ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ . إِنَّ فِرْعَوْنَ عَلاَ فِى الْأَرْضِ وَجَعَلَ أَهْلَهَا شِيَعاً يَسْتَضْعِفُ طَائِفَةً مِنْهُمْ يُذَبِّحُ أَبْنَاءَهُمْ وَيَسْتَحْيِي نِسَاءَهُمْ إِنَّهُ كَانَ مِنَ الْمُفْسِدِينَ . وَنُرِيدُ أَنْ نَمُنَّ عَلَى الَّذِينَ اسْتُضْعِفُوا فِى الْأَرْضِ وَنَجْعَلَهُمْ أَئِمَّةً وَنَجْعَلَهُمُ الْوَارِثِينَ . وَنُمَكِّنَ لَهُمْ فِى الْأَرْضِ وَنُرِىَ فِرْعَوْنَ وَهَامَانَ وَجُنُودَهُمَا مِنْهُمْ مَا كَانُوا يَحْذَرُونَ » وأنا أعْرِضُ عليك من الأمان مثل الذى عرَضْتَ عَلَىَّ ، فإن الحقّ حقُّنا ، وإنما ادَّعيتم هذا الأمرَ بنا، وخرجتم له بِشيعتنا وحَظِيتم بفضلنا ، وإن أبانا عليًّا كان الوَصِىَّ ، وكان الإمامَ ، وكيف ورثتم ولايته ووَلَدُه أحياء ؟ ثم قد علمتَ أنه لم يطلب هذا الأمر أحدٌ له مثلُ نَسَبنا وشَرَفنا وحالنا ، وشَرَف آبائنا ، لسنا من أبناء اللُّعَناءِ ولا الطُّرَدَاءِ ولا الطُّلَقَاءِ ، وليس يَمُتُّ[٢] أحد من بنى هاشم بمثل الذى نَمُتُّ به من القرابة والسابقةِ والفضل ، وإنا بنو أمِّ أبى رسول الله صلى الله عليه وسلم فاطمة بنت عمرو[٣] فى الجاهلية ، وبنو بنته فاطمة فى الإسلام دونكم ، إن الله اختارنا واختار لنا ، فوالِدُنا من النبيين محمد صلى الله عليه وسلم ، ومن السَّلَف أولهم إسلاما عَلِىّ ، ومن الأزواج أفضلهن خَديجة الطاهرة ، أول من آمَن بالله وصَلَّى إلى القِبْلَةِ ، ومن البنات خيرهن

---

(١) كان أبوه عبد الله يقول الناس عنه : هذا هو المهدى الذى يشربه ، فلقب بالمهدىّ .

(٢) أى يتوسل .

(٣) هى فاطمة بنت عمرو بن عائذ بن عمران بن مخزوم وهى أم أبى طالب وأم عبد الله والد رسول الله صلى الله عليه وسلم — انظر شرح ابن أبى الحديد م ١ : ص ٥ وتاريخ الطبرى ٢ : ١٧٢ وغيره .

فاطمة سيدة نساء أهل الجنة ، ومن المولودين فى الإسلام : حَسَن وحُسَيْن سيِّدا شَباب أهل الجنة ، وإن هاشماً وَلَدَ عَلِيًّا مرتين[١] ، وإن عبد المطَّلِب ولَدَ حَسَنا مرتين[٢] ، وإن رسول الله صلى الله عليه وسلم وَلَدنى مرتين من قِبَل حسن وحسين[٣] ، وإنى أوْسَطُ[٤] بنى هاشم نَسَباً ، وأصْرَحُهم أبا ، لم تُعْرِق فىَّ العَجَمُ ، ولم تَنَازَعْ فىَّ أمهاتُ الأولادِ[٥] ، فما زال الله يختار لى الآباء والأمهاتِ فى الجاهلية والإسلام ، حتى اختار لى فى النار ، فأنا ابنُ أرفعِ الناس درجةً فى الجنة ، وأهونِهم عذابا فى النار[٦] ، وأنا ابنُ خير الأخيار ، وَابنُ خير الأشرار ، وابن خير أهل الجنة ، وابن خير أهل النار .

ولك اللهُ علىَّ إن دخلتَ فى طاعتى ، وأجبْتَ دعوتى ، أن أُؤَمِّنك على نفسك وولدك ومالك وعلى كل أمر أحدثتَه إلا حَدًّا من حدود الله ، أو حَقًّا لِمُسْلِم أو مُعَاهَد ، فقد علمتَ ما يلزمك فى ذلك ، وأنا أوْلَى بالأمر منك ، وأوفَى بالعهد ، وأنت أحْرَى بقبول الأمان منى ، فأما أمانُك الذى عَرَضْتَ علىَّ فأىُّ الأمانات هو ؟ أأمانُ ابنِ هُبَيرة[٧] ؟ أم أمانُ عمك عبد الله بن على[٨] ؟ أم أمانُ أبى مُسْلِم[٩] ؟ والسلام »[١٠] .

(تاريخ الطبرى ٩ : ٢١٠ ، والكامل لابن الأثير ٥ : ١٩٩ والكامل المبرد ٢ : ٢٩٤ ، وصبح الأعشى ١ : ٢٣٢)

---

(١) يعنى على بن أبى طالب بن عبد المطلب بن هاشم ، وعليا زين العابدين بن الحسين بن على بن أبى طالب .

(٢) يعنى جده وأبا جده . فهو محمد بن عبدالله بن الحسن بن الحسن بن على بن أبى طالب ابن عبدالمطلب.

(٣) يعنى نفسه ، ويعنى محمدا الباقر بن على زين العابدين بن الحسين . (٤) أرفعهم وخيرهم .

(٥) يعرض بالمنصور ، وكانت أم المنصور أم ولد يقال لها سلامة ، بربرية — انظر مروج الذهب ٢ : ٢٢٨ والعقد الفريد ٣ : ٤٤ .

(٦) يعنى جده أبا طالب ، وأن الله سيخفف عنه العذاب لما كان منه من نصرة رسول الله وحمايته من أذى قريش . (٧) انظر ص ١٣ . (٨) انظر ص ٢٤ . (٩) انظر ص ٣٠.

(١٠) فى رواية الكامل للمبرد وصبح الأعشى اختلاف يسير أيضا ، جاء فيهما بعد الآية الكريمة: « وأنا أعرض عليك من الأمان مثل الذى أعطيتنى ، فقد تعلم أن الحق حقنا ، وأنكم إنما طلبتموه بنا ، ونهضتم فيه بشيعتنا ، وحظتموه بفضلنا ، وأن أبانا عليا عليه السلام كان الوصى والإمام ، فكيف ورثتموه دوننا ونحن أحياء ، وقد علمت أنه ليس أحد من بنى هاشم يمت بمثل فضلنا ، ولا يفخر بمثل قديمنا وحديثنا ونسبنا ، وسببنا ، وإنا بنوأم أبى رسول الله صلى الله عليه وسلم فاطمة بنت عمرو فى الجاهلية =

٦٠ — رد أبي جعفر على النفس الزكية

فكتب إليه أبو جعفر :

« بسم الله الرحمن الرحيم: من عبد الله: عبدالله أمير المؤمنين إلى محمد بن عبد الله. أما بعدُ: فقد أتانى كتابُك ، وبَلَغنى كلامُك ، فإذا جُلّ فخرِك بقَرابة النساء ، لِتُضِلّ به الجُفَاةَ وَالغَوْغاءَ ، ولم يجعل الله النساء كالعُمومة[1] والآباء ، ولا كالعَصَبةِ والأولياء ، لأن الله جعل العَمَّ أبا وبَدَأ به فى كتابه على الوالد الأدْنى ، فقال جل ثناؤه عن نبيه يوسف عليه السلام : « وَاتَّبَعْتُ مِلَّةَ آبَائِى إِبْرَاهِيمَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ[2] » ، ولقد علمتَ أن الله تبارك وتعالى بعث محمداً صلى الله عليه وسلم ، وعمومتُه أربعةٌ ، فأنزل الله عز وجل « وَأَنْذِرْ عَشِيرَتَكَ الْأَقْرَبِينَ » فأنذرهم ودعاهم ، فأجاب اثنان أحدهما أبى[3] ، وكَفَرَ اثنان أحدهما أبوك[4] ، فقطع الله ولايتهما منه ، ولم يجعل بينه وبينهما إلاًّ[5] ، ولا ذِمَّةً ، ولا ميراثاً .

= دونكم ، وبنو بنته فاطمة فى الإسلام من بينكم ، فأنا أوسط بنى هاشم نسبا ، وخيرهم أما وأبا ، لم تلدنى العجم ، ولم تعرق فى أمهات الأولاد ، وإن الله عز وجل لم يزل يختار لنا ، فولدنى من النبيين أفضلهم محمد صلى الله عليه وسلم ، ومن أصحابه أقدمهم إسلاما ، وأوسعهم علما ، وأكثرهم جهادا ، على بن أبى طالب ، ومن نسائه أفضلهن خديجة بنت خويلد ، أول من آمن بالله وصلى إلى القبلة ، ومن بناته أفضلهن وسيدة نساء أهل الجنة ، ومن المولودين فى الإسلام الحسن والحسين سيدا شباب أهل الجنة ، ثم قد علمت أن هاشما ولد عليا مرتين ، وأن عبد المطلب ولد الحسن مرتين ، وأن رسول الله صلى الله عليه وسلم ولدنى مرتين من قبل جدى الحسن والحسين ، فما زال الله يختار لى ... الخ » .

(١) لا يجهل أبو جعفر أن النفس الزكية فضلا عن قرابته برسول الله صلى الله صلى عليه وسلم من جهة النساء (إذ أن جده الحسن بن على هو ابن فاطمة بنت رسول الله) له به قرابة من جهة العمومة أيضا كأبى جعفر (إذ أن جده أبا طالب عم رسول الله ، كما أن العباس جد المنصور عم رسول الله) غير أن العباسيين كانوا يرون أنهم أحق بالخلافة من العلويين . لأن رسول الله مات وعمه العباس حى ، فهو أولى بوراثته بعصبية العمومة من ابن عمه على ، ومقدم عليه فى الميراث ، وسترى أبا جعفر يصرح فى أواخر هذه الرسالة بأن العباس هو وارث الرسول .

(٢) أقول : ولا تنهض الآية دليلا لأبى جعفر ، فإن المذكورين فيها ليسوا بأعمام ليوسف ، بل يعقوب أبوه ، وإسحاق جده ، وإبراهيم أبو جده ، على أن البدء فيها بإبراهيم لغرض ، فهو أبو الملة وأبناؤه تبع له فيها . (٣) يعنى جده العباس ، وثانيهما سيدنا حمزة .

(٤) يعنى جد النفس الزكية أبا طالب ، وثانيهما أبو لهب . (٥) أى عهدا .

فأما ما ذكرتَ من النساء وقراباتهن ، فلو أُعْطِين على قرب الأنساب وحقِّ الأحساب ، لكان الخير كلُّه لآمِنَةَ بنت وَهْب[١] ، ولكن الله يَختارُ لدينه من يشاء من خَلْقِه[٢] .

وأما ما ذكرت من فاطمة أم أبي طالب وولادتها ، فإن الله لم يرزق أحداً من ولدها الإسلامَ لا بنتاً ولا ولداً[٣] ، ولو أن أحداً رُزِق الإسلام بالقرابة رُزِقَه عبدُ الله أَوْلاهم بكل خير في الدنيا والآخرة ، ولكن الأمر لله يختار لدينه من يشاء[٤] ، قال الله عز وجل : « إِنَّكَ لَا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَٰكِنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ » .

وأما ما ذكرتَ من فاطمة بنت أَسَد[٥] أم علي بن أبي طالب ، وفاطمة أم الحسن ، وأن هاشماً وَلَدَ عليا مرتين ، وأن عبد المطلب ولد الحسن مرتين . وأن النبي صلى الله عليه وسلم وَلَدك مرتين ، فخيرُ الأَوَّلين والآخِرين محمد رسول الله صلى الله عليه وسلم لم يلِدْه هاشم إلا مرة واحدة ولم يلده عبد المطلب إلا مرة واحدة .

وَزعمتَ أنك أوسطُ بني هاشم نَسباً ، وَأَصرحُهم أُمًّا وَأَباً ، وأنه لم تَلِدْك العَجَمُ ولم تُعْرِق فيك أمهاتُ الأولاد ، فقد رأيتُك فخَرْتَ على بني هاشم طُرًّا ، فانظر وَيْحَكَ أين أنت من الله غداً ؟ فإنك قد تعدَّيت طَوْرَك ، وَفخَرْتَ على مَن هو خير

---

(١) هي آمنة بنت وهب بن عبد مناف بن زهرة بن كلاب ، أم رسول الله .

(٢) في رواية الطبري : « ولو كان اختيار الله لهن على قدر قرابتهن ، كانت آمنة أقربهن رحما ، وأعظمهن حقا ، وأول من يدخل الجنة غدا ، ولكن اختيار الله لخلقه على علمه لما مضى منهم ، واصطفائه لهم » .

(٣) روى الطبري (ج ٢ : ص ١٧٢) قال : « عبد الله أبو رسول الله ، وأبو طالب ، والزبير ، وعبد الكعبة ، وعاتكة ، وبرة ، وأميمة ، ولد عبد المطلب إخوة . أم جميعهم فاطمة بنت عمرو ... »

(٤) وفي رواية الكامل للمبرد « فأما ما ذكرت من فاطمة أم أبي طالب، فإن الله لم يهدأ أحدامن ولدها للإسلام ، ولو فعل لكان عبد الله بن عبد المطلب أولاهم بكل خير في الآخرة والأولى ، وأسعدهم بدخول الجنة غدا ، ولكن الله أبى ذلك فقال » .

(٥) هي فاطمة بنت أسد بن هاشم بن عبد مناف . (شرح ابن أبي الحديد م ١ : س ٤) وليتنبه إلى أنها لم يرد لها ذكر في كتاب النفس الزكية السالف .

منك نفساً وأباً ، وأولاً وآخراً ، فخرت على إبراهيم(١) ابن رسول الله صلى الله عليه وسلم وعلى والدِ وَلَدِهِ ، وما خِيارُ بنى أبيك خاصّةً ، وأهلُ الفضل منهم إلا بنو أمّهات أولاد ، وما وُلِد فيكم بعد وفاة رسول الله صلى الله عليه وسلم أفضلُ من عليّ بن الحسين(٢) ، وهو لأمّ وَلد ، وَلَهُو خير من جَدِّك حَسَن بن حسن ، وما كان فيكم بعده مثلُ ابنه محمد(٣) بن عليّ ، وجَدّتُه أمّ وَلد ، وَلَهُوَ خير من أبيك ، وَلا مثلُ ابنه جعفر(٤) ، وَجدّتُه أمّ وَلد ، وَلَهو خير منك .

وأما قولك : إنكم بنو رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فإن الله عز وجل قد أبَى ذلك . فقال : « مَا كَانَ مُحَمَّدٌ أَبَا أَحَدٍ مِنْ رِجَالِكُمْ وَلَكِنْ رَسُولَ اللهِ وَخَاتَمَ النَّبِيِّينَ » . وَلكنكم بنو ابنته ، وَإنها لَقَرَابةٌ قريبة ، غير أنها امرأة لا تحوزُ الميراثَ(٥) ، وَلا تَرِث الولاية ، ولا تجوز لها الإمامة ، فكيف تُورَثُ الإمامة من

---

(١) أمه مارية التي أهداها المقوقس عظيم القبط إلى رسول الله فتسرى بها ، وجاء منها به .

(٢) هو علي زين العابدين بن الحسين بن علي ؛ قال ابن خلكان في ترجمته : « وذكر أبو القاسم الزمخشري في كتاب ربيع الأبرار أن الصحابة رضي الله عنهم لما أتوا المدينة بسبي فارس في خلافة عمر ابن الخطاب رضي الله عنه ، كان فيهم ثلاث بنات ليزدجرد ، فباعوا السبايا ، وأمر عمر ببيع بنات يزدجرد أيضا ، فقال له علي بن أبي طالب رضي الله عنه : إن بنات الملوك لايعاملن معاملة غيرهن من بنات السوقة ، فقال : كيف الطريق إلى العمل معهن ؟ قال : يقومن ، ومهما بلغ ثمنهن قام به من يختارهن ، فقومن . فأخذهن علي بن أبي طالب ، فدفع واحدة لعبد الله بن عمر ، وأخرى لولده الحسين ، وأخرى لمحمد ابن أبي بكر الصديق ، فأولد عبد الله أمته ولده سالما ، وأولد الحسين زين العابدين ، وأولد محمد ولده القاسم ، فهؤلاء الثلاثة بنو خالة ، وأمهاتهم بنات يزدجرد » اه ثم قال : « وكان أهل المدينة يكرهون اتخاذ أمهات الأولاد ، حتى نشأ فيهم علي بن الحسين والقاسم بن محمد وسالم بن عبد الله ففاقوا أهل المدينة فقها وورعا ، فرغب الناس في السراري ـ وفيات الأعيان ١ : ٣٢٠ .

(٣) هو محمد الملقب بالباقر وأمه هي أم عبد الله بنت الحسن بن الحسن بن علي بن أبي طالب ـ انظر ترجمته في وفيات الأعيان ١ : ٤٥٠ ـ ولكن أخاه زيد بن علي كانت أمه أمة ، وقد قدمنا في الجزء الثاني ص ٣٦٢ مادار بينه وبين هشام بن عبد الملك من الحديث في هذا الصدد .

(٤) هو جعفر الملقب بالصادق ابن محمد الباقر ، وأمه أم فروة بنت القاسم بن محمد بن أبي بكر ـ انظر ترجمته في وفيات الأعيان ١ : ١٠٥ .

(٥) لأنها من أصحاب الفروض ، فتأخذ فرضها فقط (نعم إنها تأخذ التركة كلها فرضا وردا إن لم يكن هناك عاصب) .

قِبَلِها ؟ وَلقد ظلَمها أبوك من كل وجه ، فأخرجها مُخَاصِماً[1] ، وَمَرَّضَها سِراً ، وَدفَنَها ليلا ، فأبى الناسُ إلا تقديمَ الشيخين وتفضيلَهما ، ولقد جاءت السنة التى لا اختلافَ فيها بين المسلمين أن الجَدَّ أبا الأم وَالخالَ وَالخالةَ لا يَرِثون .

وأما قولك : إن الله اختار لك فى الكفر ، فجعل أباك أهونَ أهل النار عذابا ، فليس فى الشر خِيَار ، ولا من عذاب الله هيّن ، ولا ينبغى لمسلم يؤمن بالله واليوم الآخر أن يفخر بالنار ، وستَرِد فتعلم ، وَسَيَعْلَمُ الَّذِينَ ظَلَمُوا أَىَّ مُنْقَلَبٍ يَنْقَلِبُونَ[2] .

وأما ما فَخَرتَ به من عَلِىٍّ وسابقتِه ، فقد حضَرَتْ رسولَ الله صلى الله عليه وسلم الوفاةُ ، فأمر غيرَه[3] بالصلاة ، ثم أَخذَ الناس رجلا بعد رجل[4] فلم يأخذوه ثم كان فى أصحاب الشُّورَى[5] فتركوه كلُّهم دَفْعاً له عنها ، ولم يرَوا له حقا فيها ، أمَّا عبد الرحمن فقدَّمَ عليه عثمان ، وقُتل عثمان وهو له مُتَّهِم ، وقاتله طلحةُ والزُّبير ، وأبَى سعد بيعته[6] ، وأغلق دونه بابَهُ ، ثم بايع معاويةَ بعده .

ثُمَّ طَلَبَهَا بكل وجه ، وَقَاتَلَ عليها ، وتفرّق عنه أصحابُه ، وشكَّ فيه شيعتُه قبل الحكومة ، ثم حَكَّم حَكَمين ، وأعطاهما عهدَه وميثاقه على الرِّضا بما حَكَمَا به ، فاجتمَعا على خلعه .

وأفضَى أمرُ جَدِّك إلى أبيك الحسن ، فباعها من معاوية بخِرَقٍ ودراهم ، ولَحِقَ

---

(١) يريد خروج فاطمة إلى أبى بكر رضى الله عنهما تطلب ميراثها من رسول الله صلى الله عليه وسلم فى فدك — انظر الجزء الثانى ص ٢٨٥ — وقد هجرت فاطمة أبا بكر فلم تكلمه حتى ماتت — بعد ستة أشهر من وفاة أبيها — فدفنها على ليلا ، ولم يؤذن بها أبا بكر — تاريخ الطبرى ٣ : ٢٠٢ .

(٢) وفى رواية الطبرى : « وزعمت أنك ابن أخف أهل النار عذابا ؛ وابن خير الأشرار ، وليس فى الكفر بالله صغير ، ولا فى عذاب الله خفيف ولا يسير ، وليس فى الشر خيار ، ولا ينبغى . . . الخ »

(٣) لما مرض رسول الله المرض الذى مات فيه ، أذن بالصلاة ، فقال : مروا أبا بكر أن يصلى بالناس — تاريخ الطبرى ٣ : ١٩٥ وغيره .

(٤) أى لتولى الخلافة .

(٥) وهم : على وعثمان وطلحة والزبير وسعد بن أبى وقاص وعبد الرحمن بن عوف .

(٦) وكان سعد ممن تربص ولم يبايع عليا حين ولى الخلافة — تاريخ الطبرى ٥ : ١٥٤ .

بالحجاز ، وأسلمَ شيعته بيد معاوية ، ودفعَ الأمرَ إلى غير أهله ، وأخذ مالاً[١] من غير وَلائِه ولا حلِّه ، فإن كان لكم فيها شيء فقد بعتموه وأخذتم ثمنه .

ثم خرج عمك الحسين بن عليّ على ابن مَرْجانة[٢] ، فكان الناس الذين معه عليه حتى قتلوه وأتَوا برأسه إليه ، وقَتلوا رجالكم ، وأسَروا الصِّبية والنساء ، وحَملوهم بلا وِطَاء[٣] في المَحَامِل ، كالسَّبْيِ المجلوب ، إلى الشأم[٤] .

ثم خرج منكم غير واحد على بني أمية ، فقتّلوكم وصلّبوكم على جُذُوع النخل[٥] ، وأحرقوكم بالنيران ، ونَفوْكم من البُلدان ، حتى قُتِل يحيى[٦] بن زيد بخُراسان .

حتى خرجنا عليهم ، فأدركنا بثأركم إذ لم تُدْركوه ، ورفعْنا أقداركم ، وأورَثْناكم أرضَهم وديارهم ، بعد أن كانوا يلعنون أباك في أدبار الصلاة المكتوبة ، كما تُلْعَن الكَفَرَةُ ، فعنَّفْناهم وكفّرناهم ، وبيَّنا فضله ، وأشَدْنا بذكره ، فاتخذتَ ذلك علينا حجة وظننتَ أنا — لِمَا ذكرنا من فَضْلِ عليّ — قدَّمناه على حمزة والعباس وجعفر[٧] ، كلُّ أولئك مَضَوا سالمين مُسَلَّماً منهم ، وابتُلِي أبوك بالدماء[٨] .

---

(١) انظر الجزء الثاني ص ١٩ . (٢) هو عبيد الله بن زياد ، ومرجانة : أمه .

(٣) الوطاء بالكسر والفتح : المهاد الوطيء ، وجمعه أوطية ، والمحمل كمجلس : شقان على البعير يحمل فيهما العديلان وجمعه محامل . وفي الكامل للمبرد وصبح الأعشى « ثم أتوا بكم على الأقتاب من غير أوطية كالسبي المجلوب ... » والأقتاب جمع قتب بالتحريك وهو الإكاف (بالكسر) الصغير على قدر سنام البعير . (٤) انظر الجزء الثاني ص ٣٦٠ .

(٥) خرج زيد بن عليّ على هشام بن عبد الملك سنة ١٢١ هـ فقتل وصلب بالكناسة ثم أحرق — انظر ماقدمناه في الجزء الثاني ص ٤٢٠ .

(٦) هرب بعد مقتل أبيه إلى خراسان، وخرج في خلافة الوليد بن يزيد بن عبد الملك سنة ١٢٥هـ فقتل وصلب وأحرق وذرى في الفرات — انظر الجزء الثاني ص ٣٩٢ .

(٧) هو جعفر بن أبي طالب ، قتل في غزوة مؤتة سنة ٨ هـ — انظر الجزء الأول ص ٣٩٥ .

(٨) في رواية الطبري « حتى خرجنا عليهم ، فطلبنا بثأركم ، وأدركنا بدمائكم ، وأورثناكم أرضهم وديارهم ، وأسنينا سلفكم (أي رفعناه) وفضلناه ، فاتخذت ذلك علينا حجة ، وظننت أنا إنما ذكرنا أباك وفضلناه ، للتقدمة منا له على حمزة والعباس وجعفر ، وليس ذلك كما ظننت ، ولكن خرج هؤلاء من الدنيا سالمين مسلما منهم ، مجتمعا عليهم بالفضل، وابتلى أبوك بالقتال والحرب، وكانت بنو أمية تلعنه كما تلعن الكفرة في الصلاة المكتوبة ، فاحتججنا له ،وذكرناهم فضله، وعنفناهم وظلمناهم بما نالوا منه» .

ولقد علمتَ أن مَكْرُمَتنا فى الجاهلية سِقايةُ الحجيج الأعظم وولايةُ زَمْزَم ، وكانت للعباس دون إخوته[١] ، فنازَعنا فيها أبوك[٢] ، فقَضَى لنا عليه عمر ، فلم نَزَل نَليها فى الجاهلية والإسلام ، ولقد قَحِط أهل المدينة[٣] ، فلم يتوسَّل عمر إلى ربه ، ولم يتقرب إليه ، إلا بأبينا[٤] ، حتى نَعَشَهم الله ، وسقاهم الغيثَ ، وأبوك حاضر لم يتوسَّلْ به .

ولقد علمتَ أنه لم يبقَ أحدٌ من بنى عبد المطلب بعد النبى صلى الله عليه وسلم غيره فكان وارِثَه من عُمُومته[٥] ، ثم طلب هذا الأمرَ غيرُ واحد من بنى هاشم فلم ينَلْه إلا ولدُه ، فالسِّقايةُ سِقايتُه ، وميراثُ النبىّ له ، والخلافة فى ولده ، فلم يبق شرف ولا فضل ، فى جاهلية ولا إسلام ، فى دنيا ولا آخرة ، إلا والعباسُ وَارِثُه ومورِّثُه[٦] ، ولقد جاء الإسلام[٧] والعباس يَمُون أبا طالب وعِيالَه ، ويُنفق عليهم للأَزْمة التى

---

(١) انظر أسد الغابة ٣ : ١٠٩ .

(٢) جاء فى شرح ابن أبى الحديد م ٣ : ص ٤٦١ « وكانت السقاية فى الجاهلية بيد أبى طالب ثم سلمها إلى أخيه العباس » .

(٣) كان ذلك عام الرمادة سنة ١٨ هـ ، أصابت الناس فيه مجاعة شديدة بالمدينة وما حولها، فكانت تسفى إذا ريحت ترابا كالرماد فسمى ذلك العام عام الرمادة — انظر تاريخ الطبرى ٤ : ٢٢٣ .

(٤) خطب عمر عام الرمادة بالعباس ، فكان فيما قال : « اللهم إنا نتقرب إليك بعم نبيك وبقية آبائه وكبار رجاله ، فإنك تقول (وقولك الحق) : « وَأَمَّا الْجِدَارُ فَكَانَ لِغُلَامَيْنِ يَتِيمَيْنِ فِى الْمَدِينَةِ ، وَكَانَ تَحْتَهُ كَنْزٌ لَهُمَا ، وَكَانَ أَبُوهُمَا صَالِحًا » فحفظتهما لصلاح أبيهما ، فاحفظ اللهم نبيك فى عمه » فما برحوا حتى علقوا الحذاء ، وقلصوا المـآزر ، وطفق الناس بالعباس يقولون: «هنيئا لك ياساقى الحرمين » — انظر العقد الفريد ٢ : ١٣٢ .

(٥) فى الكامل للمبرد وصبح الأعشى « وتوفى رسول الله صلى الله عليه وسلم وليس من عمومته أحد حيا إلا العباس ، فكان وارثه دون بنى عبد المطلب » .

(٧) وفيهما . « فاجتمع للعباس أنه أبو رسول الله صلى الله عليه وسلم خاتم الأنبياء ، وبنوه القادة الخلفاء ، فقد ذهب بفضل القديم والحديث » .

(٦) فى الطبرى « وأما ما ذكرت من بدر فإن الإسلام جاء . . . » غير أنه لم يرد ذكر بدر فى كتاب النفس الزكية .

أصابته(١) ، ولولا أن العباس أخرج إلى بدر كُرْهاً لمات عمَّاك طالب وعَقيلٌ جوعا ، ولَلَحَسا جِفَانَ عُتْبة وشَيْبة(٢) ، ولكنه كان من المُطْعِمين ، فأذهب عنكم العارَ والشَّنار(٣) ، وكذا كم النفقة والمَئُونة ، ثم فَدَى عَقيلا يوم بَدْر(٤) .

فكيف تفخر علينا ؟ وقد مُنَّا كم(٥) في الكفر ، وفَدَيْنا كم من الأَسْر ، وحُزْنا عليكم مكارمَ الآباء ، ووَرِثنا دونكم خاتَمَ الأَنْبياء ، وطلبنا بثأركم فأدركْنا منه ما عَجَزتم عنه ، ووضعنا كم بحيث لم تضَعُوا أنفسَكم ، والسلام عليك ، ورحمة الله » .

(تاريخ الطبرى ٩ : ٢١١ ، وتاريخ الكامل لابن الأثير ٥ : ١٩٩ ، والكامل للمبرد ٢ : ٢٩٥ ، وصبح الأعشى ١ : ٢٣٣)

٦١ — كتاب أبي جعفر إلى الحسن بن زيد

وخاصم عيسى وسليمانُ وإدريسُ بنو عبد الله بن الحسن بن الحسن بن على بن أبى طالب ، بنى محمد النفس الزكية فى ميراث عبد الله ، وقالوا : قُتل أبوكم محمد فورِثه

---

(١) جاء فى شرح ابن أبى الحديد م ٢ : ص ٥ « ذكروا أن قريشا أصابتها أزمة وقحط ، فقال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم لعميه حمزة والعباس : ألا تحمل ثقل أبى طالب فى هذا المحل (والمحل كالقحط وزنا ومعنى) فجاءوا إليه وسألوه أن يدفع إليهم ولده ليكفوه أمرهم ، فقال : دعوا لى عقيلا وخذوا من شئتم ، وكان شديد الحب لعقيل ، فأخذ العباس طالبا ، وأخذ حمزة جعفرا . وأخذ محمد صلى الله عليه وآله وسلم عليا » .

(٢) الجفان : جمع جفنة بالفتح وهى القصعة ، وعتبة هو عتبة بن ربيعة بن عبد شمس أبو هند أم معاوية ، وكان من المطعمين من قريش — انظر سيرة ابن هشام ١ : ٤٠٦ ، وشيبة أخو عتبة .

(٣) الشنار : أقبح العيب . وفى الطبرى « السبة » والمعنى واحد .

(٤) كان العباس ممن خرج مع المشركين يوم بدر ثم أسر ، وكذا عقيل بن أبى طالب . وروى الطبرى (ج ٢ : ص ٢٩٠) عن ابن عباس أن رسول الله صلى عليه وسلم قال للعباس حين انتهى به إلى المدينة : ياعباس افد نفسك وابنى أخيك عقيل بن أبى طالب ونوفل بن الحارث وحليفك عتبة بن عمرو ابن جحدم ، فإنك ذو مال » فقال : يارسول الله إنى كنت مسلما ولكن القوم استكرهونى . فقال : الله أعلم بإسلامك ، إن يكن ما تذكر حقا فالله يجزيك به ، فأما ظاهر أمرك فقد كان علينا ، فافد نفسك . قال : فإنه ليس لى مال ، قال : فأين المال الذى وضعته بمكة حيث خرجت عند أم الفضل بنت الحارث ليس معكما أحد ، ثم قلت لها : إن أصبت فى سفرى هذا ، فللفضل كذا وكذا ، ولعبد الله كذا وكذا ، ولقثم كذا وكذا ، ولعبيد الله كذا وكذا . قال : والذى بعثك بالحق ماعلم هذا أحد غيرى وغيرها ، وإنى لأعلم أنك رسول الله ، ففدى العباس نفسه وابنى أخيه وحليفه .

(٥) فى الطبرى « وقد علنا كم » والمعنى واحد .

عبدُ الله ، فتنازَعوا إلى الحسن بن زيد ، فكتب بذلك إلى أبي جعفر ، فكتب إليه :

« أما بعد : فإذا بلغك كتابى هذا فورِّثهم من جَدهم ، فإنى قد رَدَدْتُ عليهم أموالهم[1] ، صِلَةً لأرحامهم ، وحفظًا لقرابتهم » .

(تاريخ الطبرى ٩ : ٢٣٢)

٦٢ — كتب بين أبى جعفر وسلم بن قتيبة

وكتب أبو جعفر إلى سَلْم بن قُتيبة الباهلى لما وَلاّه البصرة — بعد مقتل إبراهيم ابن عبد الله بن الحسن — :

أمّا بعدُ ، فاهدم دُورَ مَن خرج مع إبراهيم واعقِر نخلهم » .

فكتب إليه سلْم : « بأى ذلك أبدأ ، أبا الدور أم بالنخل » ؟

فكتب إليه أبو جعفر : « أما بعد : فقد كتبت إليك آمُرك بإفساد تمرهم ، فكتبت تستأذننى فى أيّه تبدأ به . أبالبَرْنِىِّ[2] أم بالشِّهْرِيز[3] ؟ » وعزله ، وكان ذلك سنة ١٤٦ هـ . (تاريخ الطبرى ٩ : ٢٦٤)

٦٣ — كتاب المنصور إلى عيسى بن موسى

وكان أبو العباس السَّفّاح ، عامَ وفاته (سنة ١٣٦ هـ) عَقَد لأخيه أبى جعفر الخلافة من بعده ، وَجعله ولىّ عهد المسلمين ، ومن بعده ابن أخيه عيسى بن موسى ، وكتب العهد بذلك وصَيَّره فى ثوب ، وختم عليه بخاتَمه وخواتيم أهل بيته ، ودَفَعه إلى عيسى ابن موسى[4] .

---

(١) كان عيسى بن موسى لما قتل محمدا النفس الزكية ، قبض أموال بنى الحسن كلها ، فأجاز ذلك أبو جعفر .

(٢) البرنى : تمر ، فارسى معرب .

(٣) تمر أيضا . جاء فى القاموس : « تمر شهريز بالضم والكسر ، وبالنعت وبالإضافة ، وبالشين : نوع معروف » .

(٤) انظر تاريخ الطبرى ٩ : ١٥٤ .

فلما وَلِىَ أبو جعفر الخلافة أقرَّ عيسى بن موسى على ما كان أبو العباس ولاَّه من ولاية الكوفة وَسَوادها ، وكان له مُكْرِماً مجلاًّ ، وَكان إذا دخل عليه أجلسه عن يمينه ، وَأجلس المهدى ابنه عن يساره ، ثم عزم على تقديم المهدى عليه فى الخلافة ، وَكلّمه فى ذلك برفيق من الكلام فأبَى ، فتغيَّر عليه وَباعدَه بعضَ المباعدة . وقصَد إليه بالأذى حتى أجابه إلى ما سأله[1] ، وكان ذلك سنة ١٤٧ هـ .

وروى الطبرى أن أبا جعفر كتب إليه فى ذلك :

« بسم الله الرحمن الرحيم ، من عبد الله : عبدِ الله المنصور أمير المؤمنين إلى عيسى ابن موسى ، سلام عليك ، فإنى أحمد إليك اللهَ الذى لا إلٰهَ إلا هو ، أما بعــدُ ، فالحمدُ لله ذِى المَنِّ القديم ، وَالفضلِ العظيم ، والبَلاء[2] الحَسَن الجميل ، الذى ابتدأ الخلق بعلمه ، وَأنفذَ القضاء بأمره ، فلا يبلُغُ مخلوق كُنْهَ حقِّه ، ولا ينال فى عظمته كُنْهَ ذِكره ، يدبِّر ما أَراد من الأمور بقُدْرته ، ويُصْدرها عن مشيئته ، لاقاضىَ فيها

---

(١) من ذلك ما قيل من أن أبا جعفر سقاه بعض مايتلفه ، فرض مدة ، وبلغت العلة منه كل مبلغ حتى تمعط شعره ثم أفاق من علته ، وقيل إنه وضــع الجند فصاروا يشتمونه إذا رأوه وينالون منه ، فشكا ذلك إلى المنصور فقال للجند : لا تؤذوا ابن أخى ، فإنه جلدة بين عينى ولو كنت تقدمت إليكم لضربت أعناقكم ، فكانوا يكفون ثم يعودون ، فمكث بذلك زمانا ، فلما كتب أبو جعفر إليه الكتاب الآتى ، وأتاه جوابه بالإباء . عاد الجند لأشد ما كانوا يصنعون ، فكانوا يأتون باب عيسى فيمنعون من يدخل إليه ، فإذا ركب مشوا خلفه ، وقالوا : أنت البقرة التى قال الله فيها « فَذَبَحُوهاَ وَماَ كادُوا يَفعَلُونَ » فعاد فشكاهم ، فقال له المنصور : يابن أخى أنا والله أخافهم عليك وعلى نفسى، قد أشربوا حب هذا الفتى (المهدى) فلو قدمته بين يديك فيكون بينى وبينك لكفوا ، فأجابه ، وقيل إن أباجعفر لما أعياه الأمر فى خلع عيسى بن موسى من ولاية العهد ، بعث إلى خالد بن برمك وقال له: هل عندك حيلة فيه ، فقد أعيتنا وجوه الحيل ، وضل عنا الرأى . فقال : نعم يا أمير المؤمنين ، وسار إليه فى ثلاثين رجلا من كبار شيعة أبى جعفر ، فأداره بكل وجه من وجوه الحذر والطمع ، فأبى عليه ، فخرج خالد فقال : نخبر أمير المؤمنين أنه قد أجاب، ونشهد عليه إن أنكره،وساروا إلى أبى جعفر ، فأعلموه أنه قدأجاب. فأخرج التوقيع بالبيعة للمهدى ، وكتب بذلك إلى الآفاق ، وبلغ الخبر عيسى فأتى أبا جعفر منكرا لما ادعى عليه ، فدعاهم أبو جعفر فسألهم ، فقالوا : نشهد عليه أنه قد أجاب ، وليس له أن يرجع ، فأمضى أبو جعفر الأمر وشكر لخالد ما كان منه ـ انظر تاريخ الطبرى ٩ : ٢٧٢ ، والفخرى ص ١٥٥ .

(٢) البلاء يكون منحة ، ويكون محنة .

غيرُه ، وَلا نَفاذَ لها إلا به ، يُجْرِيها على أذْلالها(١) ، لا يستأْمِرُ(٢) بها وزيراً ، ولا يُشاور فيها مُعيناً ، ولا يلتبس عليه شيء أرادَه ، يَمْضى قضاؤه فيما أحَبَّ العبادُ وكَرِهوا ، لايستطيعون منه امتناعا ، ولا عن أنفسهم دِفاعاً ، ربّ الأرض وَمن عليها ، له الخلقُ والأمرُ ، تَبَارَكَ اللهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ .

ثم إنك قد علمتَ الحالَ التى كُنّا عليها فى وِلاية الظَّلَمَة : كيف كانت قُوَّتنا وحِيلَتُنا ، لِمَا اجترأ عليه أهلُ بيتِ اللّعنة علينا، فيما أحبَبْنا وكرِهْنا ، فصَبَرنا أنفسَنا على مادَعَونا إليه ، من تسليم الأمور إلى من أسندُوها إليه ، واجتمَعَ رأيُهم عليه ، نُسامُ الخَسْفَ(٣) ، ونُوطَأ بالعَسْف، لاندْفَع ظُلماً، ولا نَمْنع ضَيْماً، ولا نُعْطَى حقا، ولا نُنكِر مُنْكَرًا ، ولا نستطيع لها ولا لأنفسِنا نفعاً، حتى إذا بَلَغَ الكتابُ أجَلَه، وانتهى الأمر إلى مُدَّته، وأذِنَ اللهُ فى هلاك عدوِّه ، وارتاح بالرحمة لأهل بيتِ نبيه صلى الله عليه وسلم، فابتعَثَ اللهُ لهم أنصاراً يطلبون بثأرهم ، ويجاهِدون عدوَّهم ، ويَدْعُون إلى حُبِّهم ، وينصرون دولتهم ، من أرَضِينَ متفرِّقة ، وأسباب مختلفة ، وأهواء مؤتلفة ، فجمَعَهم الله على طاعتنا، وألَّف بين قلوبهم بمودَّتنا على نصرتنا ، وأعزَّهم بنَصْرنا، لم نَلْق منهم رجلا، ولم نَشْهَر معهم سيفاً ، إلاّ ماقذَفَ اللهُ فى قلوبهم ، حتى ابتعثهم لنا من بلادهم ببصائرَ نافِذَة، وطاعةٍ خالصة، يَلْقَوْن الظفَر ، ويعودون بالنصر، ويُنصَرُون بالرُّعْب، لا يَلقَون أحداً إلا هَزَموه ، ولا وَاتِرا إلا قتَلوه ، حتى بَلَغَ الله بنا بذلك أقْصَى مَدانا ، وغايةَ مُنَانا ، ومنتهى آمالِنا ، وإظهارَ حقنا ، وإهلاكَ عدوّنا ، كرامةً من الله جلَّ وعزَّ لنا، وفضلا منه علينا بغير حَوْلٍ منا ولا قوّة .

ثم لم نَزَلْ من ذلك فى نعمةِ الله وفَضْلِه علينا ، حتى نَشَأ هذا الغُلام(٤) ، فقذَف الله

---

(١) يقال : أمور الله جارية أذلالها (بالنصب) وعلى أذلالها : أى مجاريها ، جمع ذل بالكسر، وذل الطريق : محجته . (٢) الاستئمار والمؤامرة : المشاورة .

(٣) سامه الخسف : أولاه الذل . والعسف : الظلم . (٤) يعنى ابنه محمدا المهدى .

له فى قلوب أنصار الدِّين الذين ابتعثهم لنا مِثْلَ ابتدائه لنا أوَّلَ أمرنا، وَأَشْرَبَ قلوبَهم مَوَدَّتَه، وقَسَم فى صدورهم محبّتَهُ، فصاروا لا يذكرون إلا فضلَهُ، ولا يُنوِّهون[1] إلا باسمه، ولا يعرفون إلا حَقَّه، فلما رأى أمير المؤمنين ماقذف اللهُ فى قلوبهم من مودته، وأجرَى على ألسنتهم من ذِكره، ومعرفتهم إياه بعلاماته واسمه، ودعا العامَّة إلى طاعته، أيقنَتْ نفسُ أمير المؤمنين أنَّ ذلك أمْرٌ تولاَّه الله وصَنَعه، لم يكن للعباد فيه أمرٌ ولا قدرة ولا مُؤَامَرَة ولا مُذَاكَرَة، للَّذى رأى أميرُ المؤمنين من اجتماع الكلمة، وتتابُع العامَّة، حتى ظن أمير المؤمنين أنه لولا معرفةُ المهدىِّ بحقِّ الأُبُوَّة لأفضَتِ الأمورُ إليه، وكان أمير المؤمنين لا يَمْنَعُ مما اجتمعت عليه العامَّة، ولا يجدُ مُنَاصا عن خلاصِ مادَعَوا إليه، وكان أشدَّ الناس على أمير المؤمنين فى ذلك الأقربُ فالأقربُ من خاصَّته وثِقاته من حَرَسه وشُرَطه، فلم يجد أميرُ المؤمنين بُدًّا من استصلاحهم ومتابعتهم، وكان أمير المؤمنين وأهلُ بيته أحقَّ مَنْ سارَعَ إلى ذلك، وَحَرِصَ عليه وَرَغِبَ فيه، وعَرَف فضلَه، ورَجا بَرَكَتَهُ، وصَدَّق الرِّوايةَ فيه، وحَمِدَ اللهَ إذ جعل فى ذُرِّيَّته مِثْلَ ماسألتِ الأنبياءُ قبله، إذ قال العبد الصالح[2]: « فَهَبْ لِى مِنْ لَدُنْكَ وَلِيًّا. يَرِثُنِى وَيَرِثُ مِنْ آلِ يَعْقُوبَ وَاجْعَلْهُ رَبِّ رَضِيًّا ». فوهَبَ اللهُ لأمير المؤمنين وليًّا، ثم جعله تقيًّا مباركا مَهْدِيًّا، وللنبى صلى الله عليه وسلم سَمِيًّا، وسَلَبَ مَن انتحلَ هذا الاسمَ[3]، ودعا إلى تلك الشُّبْهَةِ التى تحيَّر فيها أهلُ تلك النِّيَّة، وافتَتَنَ بها أهلُ تلك الشِّقْوَةِ، فانتَزَعَ ذلك منهم، وجعل دائرَةَ السَّوْءِ عليهم، وأقرَّ الحقَّ قَرَارَه، وأعلن للمهدىِّ مَنَارَه، وللدين أنصارَه.

---

(١) نوه بفلان: إذا رفعه وطير به.

(٢) هو زكريا عليه السلام.

(٣) يعنى النفس الزكية، وكان يلقب بالمهدى — انظر ص ٧٩.

فأحبّ أميرُ المؤمنين أن يُعلمك الذى اجتمع عليه رأىُ رعيته ، وكنتَ فى نفسه بمنزلة ولده ، يحبُّ مِنْ سَتْرك ورُشْدِك وَزَيْنِكَ ما يحبُّ لنفسه وولده ، وَيَرَى لك ـ إذا بلغك مِنْ حال ابن عمك ما ترى من اجتماع الناس عليه ـ أن يكون ابتداء ذلك مِنْ قِبَلك، ليعلمَ أنصارُنا من أهل خُراسان وغيرهم أنك أسرعُ إلى ماأحبّوا ، مما عليه رأيهم فى صلاحهم منهم إلى ذلك من أنفسهم ، وأن ما كان عليه مَن فضلٍ عرفوه للمهدىّ ، أو أمّلوه فيه ، كنتَ أحظَى الناس بذلك وأسَرَّهم به ، لمكانه وقرابته ، فاقبَلْ نُصْحَ أمير المؤمنين لك ، تَصْلُحْ وَتَرْشُدْ ، والسلام عليك ورحمة الله » .

(تاريخ الطبرى ٩ : ٢٦٩)

٦٤ — رد عيسى بن موسى على المنصور

فكتب إليه عيسى بن موسى :

« بسم الله الرحمن الرحيم : لعبد الله عبد الله أمير المؤمنين من عيسى بن موسى .

سلام عليك يا أمير المؤمنين ورحمة الله ، فإنى أحمَد إليك اللهَ الذى لا إلهَ إلا هو ،

أما بعدُ ، فقد بلغنى كتابك تذكُر فيه ماأجمعْتَ[(١)] عليه ، من خِلاف الحقّ ، وركوبِ الإثم فى قطيعةِ الرَّحِم ، ونقضِ ما أخذَ اللهُ عليه من الميثاق من العامّة ، بالوفاء للخلافة والعهدِ لى مِنْ بعدك ، لِتقطعَ بذلك ماوصَلَ اللهُ من حَبْله ، وَتُفرِّقَ بَيْنَ ما ألَّف اللهُ جمعَه ، وَتجمَعَ بَيْنَ ما فرّق الله أمرَه ، مكابرَةً لِلهِ فى سمائه ، وَحَوْلاً[(٢)] على الله فى قضائه ، ومتابعَةً للشيطان فى هواه ، ومَنْ كابَرَ الله صَرَعَه، ومن نازَعه قمَعه[(٣)] ، ومَن ما كَرَه عن شئ خَدَعَه ، ومن توكَّل على الله مَنَعه ، وَمَنْ تواضَعَ لله رَفَعَهُ .

إن الذى أُسِّسَ عليه البناء ، وخطَّ عليه الحذَاء[(٤)] ، من الخليفة الماضى ، عَهْدٌ لى

---

(١) أجمع الأمر وأجمع عليه : عزم ، وخلاف : مخالفة .

(٢) الحول : الاحتيال والتحيل . (٣) قمعه كمنعه : قهره وذلله .

(٤) أى القالب الذى قدر الحذاء وقطع على مثاله ، ومعنى هذا وما قبله : أن القاعدة التى أسس عليها بنيان الدولة ، والخطة التى رسمها أبو العباس وارتضاها ، عهد لى ... الخ.

من الله ، وَأَمْرٌ نحن فيه سواء ، ليس لأحد من المسلمين فيه رُخْصَة(١) دون أحد ، فإن وَجَبَ وفاء فيه فما الأولُ بأحقَّ به من الآخِر ، وإن حَلَّ من الآخِر شيء فما حُرِّم ذلك من الأول ، بل الأولُ الذى تلا خَبَرَه ، وعَرَفَ أثرَه ، وكشف عما ظَنَّ به وأمَّلَ فيه أسرعُ ، وكان الحقُّ أَوْلَى بالذى أراد أن يصنع أوَّلا ، فلا يَدْعُك إلى الأمن من البلاء اغترارٌ بالله ، وترخيصٌ للناس فى تركِ الوفاء ، فَإِنَّ مَنْ أَجَابَك إلى تَرْك شىء وَجَبَ لى ، واستَحلَّ ذلك منى ، لم يَحْرَج(٢) إذا أمْكنَتْهُ الفُرْصة ، وأفْتَنَتْه(٣) بالرُّخصة ، أن يكونَ إلى مِثل ذلك منك أسْرَعَ ، ويكون بالذى أسَّسْتَ من ذلك أنجَعَ ، فاقبَلِ العافِيَةَ(٤) ، وارضَ من الله بما صَنعَ ، وخُذ ما أُوتيتَ بِقُوَّة ، وكُنْ من الشاكرين ، فإن اللهَ جلَّ وعز زائدٌ مَنْ شَكرَه ، وَعْداً منه حَقًّا لا خُلْفَ فيه ، فمن راقَبَ اللهَ حفِظهُ ، ومن أَضْمَرَ خِلافَهُ خَذَلَهُ ، والله يَعْلَمُ خَائِنَةَ الْأَعْيُنِ وَمَا تُخْفِى الصُّدُورُ ، ولسنا مع ذلك نَأْمَنُ من حوادث الأمور ، وبَغَتَاتِ الموت ، قبل ما ابتدأتَ به من قطيعتى ، فإن يَعْجَلْ بى أمرٌ كنتَ قد كُفيتَ مَئُونَةَ ما اغتَمَمْتَ له ، وسَتَرْتَ قُبحَ ما أردتَ إظهارَه ، وإنْ بقيتُ بعدك لم تكن أوْغَرْتَ(٥) صدرى ، وقطعْتَ رَحِمى ، ولا أظهرتَ(٦) أعدائى فى اتِّباع أَثَرك ، وقبولِ أدَبك ، وعَملٍ بمثالك .

وذكرتَ أن الأمور كلَّها بِيَدِ الله هو مُدَبِّرها ومُقَدِّرها وَمُصْدِرها عن مشيئته ، فقد صدقتَ ، إنَّ الأمور بيد الله ، وقد حَقَّ على من عَرَف ذلك وَوَصَفه العملُ به ، والانتهاء إليه .

---

(١) الرخصة : ترخيص الله للعبد فيما يخففه عليه ، والتسهيل . والمعنى : ليس لأحد منهم أن يتحلل منه ، بل يجب عليهم جميعا الوفاء به .

(٢) حرج كفرح : أثم . (٣) فتنه كضربه وفتنه وأفتنه : أوقعه فى الفتنة .

(٤) فى الأصل « العاقبة » وهو تصحيف .

(٥) الوغر ويحرك : الحقد والضغن والعداوة والتوقد من الغيظ ، وفى الأصل « أوعرت » وهو تصحيف . (٦) ظهر عليه : غلبه وقوى عليه ، وأظهره عليه : أعانه عليه وأظفره به .

وأعلم أنا لَسْنَا جَرَرْنا إلى أنفسنا نفعاً ، ولا دَفَعْنا عنها ضَرًّا، ولا نِلنا الذى عرَفْتَهُ بحَوْلنا ولا قوتنا ، ولو وُكِلنَا فى ذلك إلى أنفسنا وأهوائنا ، لَضَعُفَتْ قوتنا ، وَعَجِزَت قدرتنا فى طلب ما بَلَغَ اللهُ بنا ، ولكن الله إذا أراد عَزْمًا لإنفاذِ أمره ، وإنجازِ وعده ، وإتمام عهده ، وتأكيد عَقْدِه ، أَحْكَمَ إبرامه ، وَأَبْرَمَ إحكامه ، ونَوَّرَ إعلانَه ، وثبَّتَ أركانه ، حين أَسَّس بُنيانَه ، فلا يستطيع العباد تأخيرَ ما عَجَّل ، ولا تعجيلَ ما أَخَّر ، غيرَ أن الشيطان عدوٌّ مضِلٌّ مُبين ، قد حذَّرَ اللهُ طاعتَه ، وبيَّنَ عداوتَه ، يَنزَغُ[1] بين وُلاةِ الحق وأهلِ طاعته ، لِيُفَرِّق جَمْعَهم ، وبشَتِّتَ شَمْلهم ، ويُوقِعَ العداوة والبغضاء بينهم ، ويتبرأ منهم عند حقائق الأمور ، ومَضايِق البَلايا ، وقد قال اللهُ عز وجل فى كتابه : « وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رَسُولٍ وَلاَ نَبِيٍّ إلاَّ إِذَا تَمَنَّى أَلْقَى الشَّيْطَانُ فِى أُمْنِيَّتِهِ ، فَيَنْسَخُ اللهُ مَا يُلْقِي الشَّيْطَانُ ثُمَّ يُحْكِمُ اللهُ آيَاتِهِ وَاللهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ » . ووَصَفَ الذين اتقَوا فقال : « إِذَا مَسَّهُمْ طَائِفٌ مِنَ الشَّيْطَانِ تَذَكَّرُوا فَإِذَا هُمْ مُبْصِرُونَ »

فأعيذُ أمير المؤمنين بالله من أن يكون نيتُه وضميرُ سريرتِهِ خِلافَ ما زَيَّنَ اللهُ به جلَّ وعزَّ من كان قَبْله ، فإنه قد سألَتهم أبناؤهم ، ونازَعَتْهُمْ أهواؤهم إلى مثل الذى هَمَّ به أميرُ المؤمنين ، فآثَرُوا الحق على ماسواه ، وعرَفوا أن اللهَ لاغالبَ لقضائه ، ولا مانعَ لعطائه ، ولم يأمَنوا مع ذلك تغيير النِّعَم ، وتعجيلَ النِّقَم ، فآثَرُوا الآجلَةَ ، وَقبِلوا العافيَة ، وكرِهُوا التغيير ، وخافوا التبديلَ ، فأظهروا الجميلَ ، فتمَّم اللهُ لهم أمورهم ، وكفاهم ما أَهَمَّهم ، ومَنَع سلطانَهم ، وَأعزَّ أنصارَهم ، وكرَّم أعوانهم ، وشرَّف بنيانهم ، فتمت النعمُ ، وتظاهرتِ[2] المننُ ، فاستوجبوا الشكر ، فتَمَّ أمرُ اللهِ وهم كارهون ، والسلام على أمير المؤمنين ورحمة الله » .

* * *

(١) نزغ بينهم كمنع : أفسد وأغرى ووسوس ، قال تعالى « مِنْ بَعْدِ أَنْ نَزَغَ الشَّيْطَانُ بَيْنِي وَبَيْنَ إِخْوَتِي » وفى الأصل « ينزع » وهو تصحيف .

(٢) معناه : تضاعفت ، يقال ظاهر بين ثوبين أى لبس أحدهما على الآخر وتظاهروا عليه : تعاونوا .

وروى أن المنصور لَمَّا رجع إليه من عند عيسى جواب كتابه وقَّع فى كتابه :
« اسْلُ عنها تنَلْ منها عِوَضا فى الدنيا ، وتأمَنْ تبِعَتَها فى الآخرة » .
(تاريخ الطبرى ٩ : ٢٧٠)

٦٥ — كتاب عيسى بن موسى إلى المنصور

وروى الصُّولى قال :

وكتب عيسى بن موسى إلى المنصور ، حين ألحّ عليه فى البيعة للمهدىّ ، كتابا غليظا لكتاب المنصور إليه :

« فهمتُ كتابَ أمير المؤمنين ، المُزيلَ عنه نعَمَ الله ، والمعرِّضَه لسُخْطه ، بما قرُب فيه من القطيعة ونقض الميثاق ، أوجَبَ ما كان الشكرُ لله عليه ، وألزَمَ ما كان الوفاء له ، فأعقَبَ سبُوغَ[(١)] النعم كفرا ، وأتبع الوفاء بالحق غَدْراً ، وأمِنَ اللهَ أن يجعلَ ما مدّ مِنْ بَسْطتِه إحسانا ، وتمكينَه إياه استدراجا ، وكفى اللهُ من الظالم منتصراً ، وللمظلوم ناصراً ، ولا قوةَ إلا بالله ، وهو حسْبِى وإليه المصير .

ولقد انتهت أمورٌ يا أمير المؤمنين لو قعدتُ عنك فيها — فضلا عن ترك معونتك عليها — لَقَامَ بك القاعِدُ ، ولطالَ عليك القصيرُ ، ولقد كنتُ واجِدًا فيها بُغيتى ، وآمِنًا معها نَكْثَ بيعتى ، فلزِمْتُ لك طريقةَ الوفاء ، إلى أن أوردْتُك شريعةَ[(٢)] الرخاء ، وما أنا بآيسٍ من انتقام الله ورَفْع حِلْمه » .

وكتب بعد ذلك :

« بَدَتْ لِى أماراتٌ من الغَدْرِ شِمْتُهَا ... أَظُنُّ وإياها سَتُمْطِركم دَمَا[(٣)]
وما يعلَمُ العالِى مَتَى هَبَطاتُه ... وإن سارَ فى ريح الغرور مُسَلَّما

(١) أى تمامها .
(٢) الشريعة : المورد .
(٣) فى الأصل « سمتها » وهو تصحيف .

أَتَهْضِـــمُنى حقا تراه مُؤَخرا ... لِحُكْمِ إلهى حين صرتُ مُقَدَّما ؟
سَنَنْتَ انتقاضَ العهدِ فاصبرْ لمثله ... ينقضْكَ من عهدى الذى كان أبرما

(الأوراق الصولى ٢ : ٣١٥)

٦٦ — كتاب آخر

وكتب عيسى بن موسى إلى المنصور حين ألحّ عليه فى الخلع ، وطرح عليه مِنْ أهل خراسان مَنْ هدَّده بالقتل .

« لو سامَنى غيرُك ما سُمْتَنى لاستنصرتُك عليه ، ولا ستشفعتُ بك إليه ، حتى تُقِرَّ الحُرَمُ(١) مَقرَّها ، وتُنْزِل الوفاءَ منزلَته ، ونحن أول دولة يُسْتَنُّ بعملنا فيها ، ويُنظَر إلى ما اخترناه منها ، وقد استعنتُ بك على قوم لا يعرفون الحقَّ معرفتَك ، ولا يلحظون العواقبَ لحظَك ، فكن لى عليهم نصيرًا ، ومنهم مُجيرًا ، يَجْزِك اللهُ خيرَ جزائك عن صلة الرَّحِم ، وَقَطْعِ الظُّلْم ، إن شاء الله » . (الأوراق الصولى ٢ : ٣١٦)

٦٧ — رد المنصور عليه

فأجابه المنصور :

« لولا أنك تُسَامُ النزولَ عن حقٍّ لك ، وواجبٍ فى يديك ، لزال الضَّرَعُ(٢) إليك ، والتحمُّلُ عليك ، ولولا أنى أخاف أن تسبق أيدى هذه العصبةِ من أهل الدولة إليك ، لَمَا كلَّفتُك شاقًّا ، ولا حمَّلتك مكروها ، ولكنى عندك — بالنصح لك ، والإشفاقِ عليك — فى جَنَبةِ(٣) مَنْ لا يرضَى منك إلا بإرادته ، ولا يستمهل أيامَك لسرعته ، وما الذى أسمو بك إليه بدون الذى يستنزلونك عنه ، والله يوفّقك ويُحْسِن الاختيارَ لك » . (الأوراق للصولى ٢ : ٣١٦)

---

(١) الحرم : جمع حرمة بالضم ، وهى مايجب القيام به ولا يحل انتهاكه .
(٢) الضرع والضراعة : الخضوع والاستكانة. (٣) الجنبة : الجانب .

٦٨ — كتاب المنصور إلى عيسى بن موسى

وكتب المنصور إلى عيسى بن موسى كتاباً يحثه فيه على خلع نفسه وتقديم المهدى عليه، فكتب إليه عيسى:

« بسم الله الرحمن الرحيم: وَالْمُوفُونَ بِعَهْدِهِمْ إِذَا عَاهَدُوا وَالصَّابِرِينَ(١) فِي الْبَأْسَاءِ وَالضَّرَّاءِ وَحِينَ الْبَأْسِ » . وقال عز وجل: « « وَأَوْفُوا بِالْعَهْدِ إِنَّ الْعَهْدَ كَانَ مَسْئُولاً » .

قرأتُ كتاب أمير المؤمنين وتفهّمته وأنعمتُ(٢) بالنظر إليه كما أمر، وَنَحَرْتُهُ(٣)، فوجدتُ أمير المؤمنين إنما يَزيدني لِيَنْتقصَنى، ويقرِّبنى لِيُبْعِدَنى، وما أجهلُ مالى فى رضاه من الحظ الجزيل، والأثر الخطير(٤)، ولكنه سامَنى ماتَشِحّ(٥) به الأنفسُ، وَتُبْذَلُ دونه، وما لا يسمح به والد لولده مادام له حظٌّ فيه.

وقد علم أمير المؤمنين أنه يريد هذا الأمر لابنه لا له، وهو صائر إلى ماسيصير إليه، أشغَلَ ما يكونُ، وَأَحْوَجَ إلى حسنةٍ قدَّمها، وسيئة اجتنبها، ولا صِلَةَ فى معصية الله، ولا قطيعةَ ما كانت فى ذات الله » .

(الأوراق للصولى ٢ : ٣١٩)

٦٩ — كتاب المنصور إلى عيسى بن موسى

وبلغ المنصورَ أن عيسى بن موسى قتل رجلا من ولد نَصْر بن سَيَّار(٦) كان مستخفيا بالكوفة، فَدُلَّ عليه فضرب عُنقه، فأنكر ذلك وأعظمه وَهَمَّ فى عيسى بأمر كان فيه هلاكه، ثم قطعَه عن ذلك جهلُ عيسى بما فعل، فكتب إليه:

---

(١) نصب على المدح. (٢) يقال: أنعم فى الأمر: بالغ.

(٣) معناه: وخبرته كل الخبرة وأصبت حقيقته، وأصله من نحر البعير إذا أصاب نحره، وفى الأصل « وتنحرته » وهو تحريف. (٤) أى العظيم.

(٥) أى ماتبخل به وهو الخلافة، وفعله كفرح ونصر وضرب.

(٦) كان واليا على خراسان فى خلافة مروان بن محمد الأموى.

« أما بعد : فإنه لولا نظرُ أمير المؤمنين واستبقاؤه، لم يؤخرك عقوبةَ قتل ابن نصر ابن سَيّار ، واستبدادِك به ، بما يقطع أطماعَ العُمّال في مثله ، فأمْسِك عمّنْ ولاك أمير المؤمنين أمرَه من عربيّ وأعجميّ ، وأحمرَ[1] وأسودَ ، وَلا تستبدنَّ على أمير المؤمنين بإمضاء عقوبةٍ فى أحد قِبَله تِباعَةٌ[2] ، فإنه لا يَرَى أن يأخذ أحداً بِظِنَّة[3] قد وضَعَها اللهُ عنه بالتوبة ، ولا بِحَدَثٍ كان منه فى حرب أعقبه اللهُ منها سِلْماً سَتَرَ به عن ذى غُلَّة[4] ، وحَجَزَ به عن مِحْنة ما فى الصدور ، وليس ييأسُ أمير المؤمنين لأحدٍ ولا لنفسه من الله مِنْ إقبال مُدْبِر ، كما أنه لا يأمَنُ إدبارَ مُقْبل إن شاء الله والسلام » .

(تاريخ الطبرى ٩ : ٢٩٤)

٧٠ — كتاب عبيد الله العمرى إلى أبى جعفر المنصور

وروَى ابن قُتَيبة فى الإمامة والسياسة أن أبا جعفر المنصور لما قَفَل من حَجّه سنة ثمان وأربعين ومائة ، سأل عن عُبيد الله بن عمر بن حَفْص بن عبد الله بن عمر بن الخطاب ، وهو الفقيه المعروف بالعُمَرى ، فقيل له : إنه لم يحجَّ العامَ يا أمير المؤمنين ، ولو حجّ لكان أول داخل عليك ، فلا تَقبَل عليه أحداً ، ولا يَقْدَح فيه عندك إلا باطلٌ أوَ كذّاب ، فإنه من علمتَ ، فقال أبو جعفر : والله ما تخلف عن الحج فى عامه هذا إلاّ عِلماً منه بأنى حاجّ فلذلك تخلّفَ ، ولا واللهِ مازاده ذلك عندى إلا شرفا ورفعة ، وإنى من التوقير والإجلال له بحال لا إخال أحدًا من الناس بذلك ، لشرفه فى قريش وعظم منزلته من هذا الأمر ، والموضع الذى جعله الله فيه ، والمكان الذى أنزله به ، فلما قَدِم أبو جعفر بغداد ورد عليه كتاب عبيد الله العمرى ، وفيه :

---

(١) الحمراء : العجم لبياضهم ولأن الشقرة أغلب الألوان عليهم ، وكانت العرب تقول للعجم الذين يكون البياض غالبا على ألوانهم مثل الروم والفرس ومن صاقبهم إنهم الحمراء ، وكانت تسمى الموالى الحمراء.

(٢) التباعة ككتابة ، والتبعة كفرحة ، واحد . (٣) الظنة : التهمة .

(٤) الغلة فى الأصل : شدة العطش وحرارة الجوف .

« بسم الله الرحمن الرحيم ، لعبد الله أبي جعفر أمير المؤمنين من عبيد الله بن عمر : سلام الله عليك ورحمة الله التي اتسعت فوَسِعَتْ من شاء، أما بعدُ : فإني عَهِدْتُكَ وأمرُ نفسك لك مُهِمٌّ ، وقد أصبحتَ وقد وليتَ أمر هذه الأمة أحمرِها[1] وأسودِها وأبيضها ، وشريفِها ووضيعها ، يجلس بين يديك العدوّ والصديق، والشريف والوضيع، ولكلٍّ حِصَّتُه من العدل ، ونصيبُه من الحق ، فانظر كيف أنت عند الله يا أبا جعفر ، وإني أحذِّرك يوما تَعْنُو[2] فيه الوجوهُ والقلوب ، وتنقطِعُ فيه الحُجَّةُ ، لِمَلِكٍ قد قهرهم بجَبَرُوته ، وأذلَّهم بسلطانه ، والخلقُ داخِرون[3] له ، يرجون رحمته ، ويخافون عذابه وعقابه ، وإنا كنا نتحدث أن أمر هذه الأمة سيرجع في آخر زمانها أن يكون إخوان العلانية أعداءَ السَّريرة ، وإني أعوذ بالله أن تَنزل كتابي سوءَ المنزِل، إنما كتبتُ به نصيحةً والسلام[4] » .

(الإمامة والسياسة ٢ : ١١٧)

٧١ — رد أبي جعفر على العمري

فأجابه أبو جعفر المنصور :

« من عبد الله بن محمد أمير المؤمنين إلى عبيد الله بن عمر بن حفص ، سلام عليك . أما بعدُ ، فإنك كتبتَ إليَّ تذكر أنك عهدتني وأمرُ نفسي لي مهمّ ، فأصبحتُ وقد وَلِيتُ أمر هذه الأمة بأسْرِها وكتبتَ تذكرُ أنه بلغك أن أمر هذه الأمة سيرجع في آخر زمانها أن يكون إخوان العلانية أعداء السريرة ، ولستُ إن شاء الله من أولئك، وليس هذا زمان ذلك ، إنما ذلك زمان تظهر فيه الرغبة ، والرغبة تكون رغبة بعض الناس إلى بعض ؛ صلاح دنياهم أحب إليهم من صلاح دينهم ، وكتبتَ تحذرني ما حُذِّرَت به الأمم من قبلي ، وقِدْمًا كان يقال : اختلافُ الليل والنهار يُقرِّبان كلَّ بعيد ويُبْلِيان

(١) انظر هامش ص ١٤٨ من الجزء الأول .

(٢) عنا كسما : ذل وخضع . (٣) دخر كمنع وفرح : ذل أيضا .

(٤) قدمنا في الجزء الأول ص ١٤٧ أن هذا الكتاب كتبه أبو عبيدة بن الجراح ومعاذ بن جبل إلى عمر بن الخطاب حين ولي الخلافة ، وأن الكتاب الذي يليه كتبه عمر إليهما ردا عليهما ، كما جاء في رواية صاحب فتوح الشام وإعجاز القرآن .

كل جديد ، ويأتيان بكل موعود ، حتى يصير الناس إلى منازلهم من الجنة والنار ، وكتبت تعوّذ بالله أن تُنزل كتابك سوء المنزل ، وأنك إنما كتبت به نصيحة ، فصدقْتَ وَبَرِرْتَ ، فلا تَدَعِ الكتبَ إليّ ، فإنه لاغنى بى عن ذلك ، والسلام » .

(الإمامة والسياسة ٢ : ١١٨)

٧٢ — كتاب أبى جعفر إلى محمد بن سليمان

وأُتِيَ محمد بن سليمان بن على بن عبد الله بن عباس فى عمله على الكوفة — وكان أبو جعفر ولاّه إياها سنة ١٥٠ هـ — بعبد الكريم بن أبى العَوْجاء ، فأمر بحبسه ، وكثُر شفعاؤه عند أبى جعفر ، وألحّوا عليه فيه ، فلم يتكلم فيه إلا ظَنين[1] ، فأمر بالكتاب إلى محمد بن سليمان بالكفّ عنه إلى أن يأتيه رأيه .

ثم إن محمداً دعا به وأمر بضرب عنقه ، فلما أيقن أنه مقتول قال : أَمَا وَٱللهِ لئن قتلتمونى لقد وضعتُ أربعة آلاف حديث ، أحرِّم فيها الحلال ، وأُحِلُّ فيها الحرام ، والله لقد فطّرتكم فى يوم صومكم ، وصوّمتكم فى يوم فِطركم ، فضُربت عنقه .

وورد على محمد رسول أبى جعفر بكتابه : « إياكَ أن تُحْدِث فى أمر ابن أبى العوجاء شيئاً ، فإنك إن فعلتَ فعلتُ بك وفعلتُ . . يتهدده » .

فقال محمد للرسول : هذا رأس ابن أبى العوجاء وهذا بدنه مصلوباً بالكُنَاسة[2] ، فأخبر أمير المؤمنين بما أعلمتك ، فتغيّظ عليه أبو جعفر وأمر بالكتاب بعزله ، وقال : والله لَهَمَمْتُ أن أُقِيدَه[3] به ، ثم أرسل إلى عيسى ابن على وقال له : هذا عملك ، أنت أشرتَ بتولية هذا الغلام ، فولّيتَه غلاما جاهلا لاعلْم له بما يأتى ، يُقدِم على رجل يقتله ولا ينتظر أمرى ! وقد كتبتُ بعزله ، وبالله لأفعلن به ولأفعلن... فسكت عنه عيسى حتى

---

(١) الظنين : المتهم . (٢) الكناسة : محلة بالكوفة .

(٣) أقاد القاتل بالقتيل : قتله به .

سكن غضبه ، ثم قال : يا أمير المؤمنين إن محمداً إنما قتل هـذا الرجل على الزندقة ، فإن كان قتلُه صواباً فهو لك ، وإن كان خطأ فهو على محمد ، فأمر أبو جعفر بالكتب فمُزقت وأُقِرَّ على عمله — وكان ذلك سنة ١٥٥ هـ . (تاريخ الطبرى ٩ : ٢٨٧)

٧٣ — رسالة غسان بن عبد الحميد فى العتاب

قال ابن طيفور :

ومن الرسائل المفردات رسالة غَسَّان[١] بن عبد الحميد المدائنى كاتب جعفر بن سليمان فى العتاب :

« أما بعد : فإن الله جعل العباد أطواراً فى أخلاقهم ، كما جعلهم أطواراً فى صُوَرهم ، وجعل بينهم أموراً يتآلفُون عليها ، ويُعْمِلُون أحْلامهم[٢] فيها من حُرَمٍ يتجاملون بها ، وحقوق يتنازعونها ، ومودَّةٍ يتعاطوْنها ، وأخُوَّةٍ يتداولونها ، تُرْعَى بوفاء ، وتؤدَّى بأمانة ، وتُضيَّع بتقصير ، وتُنتَقص بخيانة ، ليس مَن أُدِّيَتْ إليه فيما يحفظ منها بأسعَدَ من المؤدِّى لها فيما يأخذ به من الفضل لنفسه ، وليس مَن ضُيِّعَتْ منه بأشقَى ممن ضيَّعها فيما يُدْخِل من التقصير عليه ، فإنه من أخطأهُ الوفاء من أخيه ، فإنما يدْخل عليه تقصيرُ غيره ، ومن ضيَّع الوفاءَ لإخوانه فقد أدخلَ النقصَ فى خاصَّة نفسه ، والمرء يجدُ من أخيه إذا خانه بَدَلاً ، ولا يجد عن نفسه إذا قصَّرَت به متحوَّلا ، فليس نقصٌ يستبدِلُ به كنقصٍ لا يستطيع مزايلتَه ، وقد ألبس الله عباداً من عباده نِعَما ، وجعل لهم فى صلاح الأمور قَسْماً ، فكان ذلك عندهم ذريعةً يرعوْنها ، لِما أُلحق عليهم فيها مما يكون صلاحا وتماماً لها ، لئلا يعملوا بانتقاصٍ لأمرٍ بلَّغهم الله إياه ، ولا

---

(١) قال ابن النديم فى الفهرست (ص ١٨٣) : « كان يكتب لجعفر بن سليمان بن على ، وكان بليغا حلو الكلام لطيف المعانى » .

(٢) فى الأصل « أخلاقهم » وأراه محرفا .

بوضيعة الخُلُق رفعهم الله إليه حتى نُسِبَ إليهم ونُسِبوا إليه، فسمَّى لهم فِعْلاً وسُمّوا له فُعُلاً[١] وأَوْلى مَن أَلبَسْتَه[٢] نعمةً، وأجْرى لها على الألسُن صفةً، أن يكون عملُه موافقا لما صنَعَ الله به، ولا يكون لما أصلح منه مُفسِدا، ولا يكون[٣] له مخالفا.

ولم أزَلْ أتعرَّفُ مِن نِعَم الله عز وجل علىَّ، قديمًا وحديثًا، وبافِماً ومُسنًا، فيما أبلانى[٤] وأظهَرَ منى، وأثبتَ معرفتَه عند الناس، ما أصبحتُ أرَى استصلاحهُ والتوقّىَ لتغيُّره حقًّا عَلَىَّ واجبًا، فليس[٥] مَن كانت منه فجيعةٌ لأهل الإخاء والحُرْمة الذين ارتادوا ارتيادا، واختارَ واختارُوا، فوقعَ رأيُه عليهم، ووقع رأيُهم عليه، وارتضوْه لأنفسهم، وارتضاهم لنفسه، واقتصروا عليـــه بمودتهم، واقتصر عليهم بمودَّته، فحمَّلوه أُخُوَّتَهم، وحمَّلهم أُخوَّته، واسترعَوه الوفاءَ لهم، حتى ثبّتَ اللهُ بينهم وبينه ما كان داعيًا لكل رأى جميل، ناهيًا لكل صَنيعٍ مَعيبٍ، وأمرٍ مُريبٍ، فأىُّ نقصٍ أكثرُ، وأىُّ دناءةٍ أبْيَنُ، من أن يكون امرؤٌ بمنزلة ثقةٍ، قد حُفِظَتْ منه حُرمةٌ، واعتُقِدتْ بها عليه أمانةٌ، فوجبَتْ منه مُصافاةٌ، وانتُظِرَتْ منه صِلةٌ، ثم ينكشِفُ عن خيانة وغدْر وقطيعةٍ وفجعةٍ؟ ثم أحقُّ مَن كنتُ له على الجميل فيما بينى وبينه، أهلُ الفضل فى المنزلة، والثقة فى المكافأة، والأمانة فى الوفاء، والجمالِ فى الإخاء، الذين[٦] يُرْغَبُ فيهم إنْعامُه، ويُوثَقُ بحفظهم اليسيرَ من الحُرْمة، فما كنتُ لأقطعَ خاصّتى ممن يرغب فى عامتى، ولا لأضيِّعَ الكثيرَ ممن لا يضيع اليسيرَ، ولا ألقَى أخاً شاهداً، بغير ما أكون عليه غائبًا، فأكونَ قد لقيتُه بِدَلٍّ[٧]، وغِبْتُ

---

(١) جمع فعول كصبور. (٢) فى الأصل « السنة » وهو تحريف.

(٣) فى الأصل « ولم يكن ». (٤) أبلاه الله: أنعم عليه وأحسن إليه.

(٥) تنبه إلى أن خبر ليس لم يرد بعد فى الكلام، إلا أن يكون محذوفا لأنه مفهوم من السياق.

(٦) فى الأصل « لا الذين » والكلام على الإثبات لا على النفى، وإنعامه: زيادته.

(٧) الدل (والهدى بفتح فسكون والسمت أيضا): الحالة التى يكون عليها الإنسان، من السكينة والوقار فى الهيئة وحسن المنظر والشمائل والسيرة.

عنه يَقَذَرٍ [١] ، ويكون قد استودَعَنى شيئاً حفِظتُ ضِدَّه وسترتُ سواه ، بل أنا لأخى حين يَغيبُ عنى وأَرْعاه ، أحفظُ منّى حين يشاهِدُنى فيما بَنُ ما يكونُ منى ، ولم يكن لِيَمُتّ [٢] بالأسباب إلىّ أهلُ الفضل والأحساب، لايدعوننى إليهم إلا الرغبةُ فيهم، والتزيُّنُ بأحسابهم ، وَالاستعدادُ بعُدَدِهم ، حتى إذا استحكمتْ حُرْمَتُهم وتظاهرتْ ، ووجبَتْ وعظُمتْ وصرتُ إمّا محافظاً يَزِينهُ حِفاظُه ، وإما مضيِّعاً يَشِينه تضييعُه [٣] عمِلتُ فى ذلك بمايقطَع ما أردتُ صلتَه، ويَشِينُ ما أردتُ زَيْنَه، ويصيرُ علىَّ ولا يَصِير لى، ويزهِّد فىَّ نُظراءَهم ، إذا مددتُ بالأسباب إليهم ، فأكون عند من اعتقدتُ إخاءَهُ مَقْلِيًّا [٤] ، قد تغيَّرتْ عنده منزلتى ، ومن أردتُ استعارة مودَّته مكروها ، لايقبل ذلك منى ، إنى إذَنْ إلى نفسى لَمُسيء ، وبحظّى لمخطِئ ، وما كنتُ لأختار الإخوانَ على فضلهم ، ثم أسير فيما بينى وبينهم بما يخالف أخطارهم [٥] ومنازلهم ، لَبئس [٦] إذَنْ ما خالطتُ به الأكفاءَ ، وراقبتُ به الحُرَمَ ، وأسلمتُ [٧] به المودةَ التى قد أعطى الله فيها النعمَ ، وأَترك [٨] مخالطةَ الأكفاءِ قبل اعتقادها ، وإن كان الفضلُ فيما بيننا أحسنَ من إيجاب حقها ، ثم الاستخفافِ بها ، فإن المُجَانبَ المستورَ خيرٌ من المحافظِ المذمومِ ، ومَن لِيمَ على جميل لم يتناوله ، أحسنُ ممن ليم على قبيحٍ [٩] قد أتاه .

وإنه بَلَغَنِى أن غاشًّا ظالما أتاك بأمرٍ ، لم أكن له أهلاً ، ولم تكن بقبوله خليقاً، لأنى لم أكن لأشباههِ معروفا ، ولم أكن على استماع مِثله مَخُوفا ، فوجد فيك مَساغاً ، وعندك مستَقَرًّا ، وكنتُ أحسنَ منازل إخوانك عندك ، والثقة لهم منك فى حِصن

(١) فى الأصل « وعتب عند تمذر » وهو تحريف .

(٢) أى ليتوسل . (٣) فى الأصل هكذا « يشدنه نضيه » .

(٤) قلاه كرماه ورضيه : أبغضه وكرهه غاية الكراهة فتركه .

(٥) الأخطار : جمع خطر بالتحريك : وهو القدر .

(٦) فى الأصل « ليسير » . (٧) أى خذلت .

(٨) والمعنى : وإنه لجدير بى أن أترك مخالطتهم مادام حالى فى السير معهم على ما ذكر ، التقدير: وإنى إذن أترك ... الخ . (٩) سمج كشمس وكتف : قبيح .

حَصين ، ومحلٍّ مكين ، لا يناله أكاذيب الكاذبين ، ولا أقاويلُ المفسدين ؛ وذلك أن الكاذب كان بالتُّهَمة على منزلتى وحُرْمتى ، أحقَّ منى بالتُّهَمة على رأيى وخُلقى ، وأنا كنت عندك بالثقة فى وفائى ، أحقَّ منهُ بالتصديق فى عَضِيهتِه[١] إياى ، فإن الأخ المَخْبور[٢] ، أولى بالثقة من السَّاعى بالكذب والزُّور ، وإذا كان يُحْفِظ الإخوان ماهو مَثْلومٌ بأيدى السفهاء[٣] ، إذا شاءوا سَعَوا فقُبِل قولهُم ، فكيف تَبقى على ذلك أخوَّةٌ ، أو تُرْعى معه حُرمةٌ ، أو يَصْلُح عليه قلبٌ ، أو يسلَم صَدْرٌ ؟ وكنتَ إذ حَذَّرتَ أخاك من أهل الدناءة حقيقاً أن تحْذَرهُمْ فى إخوانك[٤] الذين وقع إحسانُك عليهم ، فلا تقبلُ سِعايتهم بهم ، وكيف تسخَط على أهل الدناءة لإخائك[٥] وتَرضَى قولهَم على إخوانك ؟ لقد عَرَفتَ أن على الأخ مِن ردِّ الكذب عن أخيه[٦] ما حَسَّنَ الغيب له ، فإذا لم تكن لذلك رادًّا مكذِّبا ، فهلاَّ كنت فيه واقفا متأمِّلا حتى تكشِفَهُ ويتبين لك حقُّه من باطله ! فإن وجدته حقا أتيتَ ما أتيتَ على بينة لك فيها حُجَّةٌ ، وإن وجدتَه باطلا كان أن تستخرجَ أخاك من تُهَمة ، خيراً من أن تُقيم له على سَخْطةٍ ولم يكن منه إساءةٌ ، فقد كان إخوانك يرجُون إن أساءوا أن يأتى على ذلك فضلُك ، ولا يخافون إن أحسنوا أنْ يضيعَ ذلك عندك ، لقد طالت عِشرتى ، وتردَّد خَبَرُك[٧] علىَّ فى حالات متصرِّفة ، ومنازلَ مختلفة ، لا يَصْرف حالى لك حالٌ انصرفَتْ ، ولا يَقْلِبُ رأيى منزلةٌ انقَلَبَتْ ، فكان ذلك منى فى غِياب سلطانك ، ثم كان فى مُؤاتى[٨] زَمانك ، والناس فى ذلك تنصرف عنك حالاتُهم ، ويختلف عليهم رأيُهم ، فلم تكن

---

(١) العضيهة : الكذب والبهتان ، عضهه كمنعه عضها وعضيهة: قال فيه مالم يكن .
(٢) أى المختبر المجرب ، وفى الأصل « المجبور » وهو تصحيف .
(٣) أحفظه : أغضبه، وفى الأصل « إذا كان يحافظ الإخوان إنما هو معلوم ... » وهو تحريف
(٤) فى الأصل « أن يحذرهم منهم إخوانك » وهو تحريف .
(٥) فى الأصل « لأجابك » وهو تحريف . (٦) فى الأصل « من » .
(٧) فى الأصل « وترددت حبرك على » .
(٨) آتاه على الأمر : طاوعه ووافقه — وفى لغة لأهل اليمن واتاه — والمعنى وقت أن كان الزمان لك مواتيا ومساعدا ، أى إبان سلطانك ، وفى الأصل « موان » وهو تحريف .

حاجةُ كثيرٍ من الصديق في السلطان إلا أن يأكلوك ويأكلوا بك ، ويتعجَّلوا يومَك من غدك ، ولا ينظرون لكَ ولا يبالون ما دخل — إذا أصابوا — في جَنْبك ، فكانت حاجتي الإبقاء عليك ، والادّخار لك ، والاستغفار لما يتعجَّل المتعجِّلون منك مع ما أؤمل فيك ، ولم تكن حاجتهم حين نَبَا بك الزمان إلا أن يخذُلوك ويدفنوا مودتك ويُميتوا ذكرَ إخائك ، ويتقرب أكثرهم بك ، ويسمو بعداوتك ، وإن كانوا قد أخلّوا بصداقتك[١] ، وكانت حاجتي حفظك وحياطتك ، أفما كان في هذا ما تردُّ به عني بَغْيَ باغٍ ، وسعاية ساعٍ ؟ ما كنتُ لأُعادِيَ مَن غَشَّك ، وأَعْتَبَ[٢] بالغشِّ لك ! ولا لأُوالي من ناصحَك وأقطع نصيحتي لك ! ولا لِأُعَرِّض نفسي فيك وأستخِفَّ بعد ذلك بحقك ! فأكونَ عوناً لمن عاديتُه فيك ، مفارقا لمن واليتُ فيما واليتُه عليه، معرِّضا في أمرٍ لأسَلِّم له ما قِبَلي ، لقد بحمد الله خَبَرَني الإخوانُ في طول هذا الزمان ، فبغير هذا عرَفوني ، وعلى[٣] غيره احتملوني ، فما[٤] كنتُ لأُعايشك بغير ما عايشتهم ، ولا لأعامِلَ[٥] في إخائك بغير ما عمِلْتُ في إخائهم ، وأنت أعظمهم منزلةً ، وأقدمهم مودةً ، وأكملهم ثقة ، وأزينهم أُخُوَّةً ، وأجملهم محافظةً ، فما أعظمَ عندي أن أُنْزَل منزلةَ استخفافٍ بحقك ، أو تُهَمَة عندك على براءةٍ فيما بيني وبينك ! فإنه إن تكن البراءة أخرجتني من التقصير عندك في الظن بك، فغفر الله لك، لقد جَرَى عَلَى لسانك ما لم يَجْرِ عَلَى لسان أخ قبلك ، واضطررْتني في إخائك إلى معاذيرَ لم يضطرَّني إليها أحدٌ سواك ، ولولم أكن بفضلك عارفا ، وعَلَى نصيبي منك شَحِيحًا ، لَشَحَحْتُ على ما سلف

---

(١) في الأصل « وإن كان قد دخلوا صداقتك » وهو تحريف ، وعندي أن هذه الجملة مقحمة في الكلام ، إذ الأولى حذفها .

(٢) اعتتب : رجع عن أمر كان فيه إلى غيره ، وفي الأصل هكذا « واعبد » .

(٣) في الأصل « ولعل » وهو تحريف .

(٤) في الأصل « فيا » وهو تحريف .

(٥) في الأصل « لأعمل » وهو تحريف .

منى فيما بينى وبينك أن يَذْهَب باطلا ، ويصيرَ ضائعاً ، ويتحول حَسَنُه قبيحاً ، ومعروفه مُنكرًا ، ولو كانت منك إساءة فيما بينى وبينك لرأيت أنْ قد وَجَبَ عَلَىَّ من حقك ما يُوجبُ احتمالَ ذلك ، فكيف أهتِك حُرمتَك عن غير إساءة منك ؟ ولو أنى قد هجوتُك لكنتُ لنفسى بهجائك ، أهْجَى منى لك ، لأنى بذلك لها مكذِّب فيما سلف منْ مِدْحتى إياك ، وثنائى عليك ، وقولى فيك ! فهل يهجو امرؤ غيرَه بأشدَّ من إكذابه نفسه ؟ مع قطع الأخوَّة ، وَهتْك الُحرمة ، ولو كنتُ شاعراً ألتمسُ بشعرى موضِعاً ، وأطلب له مَخْرَجا ، ما جعلت مَخْرَجى فى صديقى ، الذى هجاؤُه علىَّ أشدُّ منه عليه ، فإن ظهر افتضحتُ ، وَإن خفِىَ احتفظت ، وَلو وجدت من أهل الدناءة وَالسَّفاه مَن شَيْنُه بهم ألصقُ ، وَهم به أحقُّ ، ما أنا بالقول فيهم بِحَرِىٍّ[(١)] ، وآيمُ الله إنى لأَرى الشعرَ فى جميل الأمور ، وحُسْن الثناء على الصديق قبيحاً ، فكيفَ إذا كان فى الظلم العدوَانُ ، وَالفجعة للإخوان ؟ فاَجتمعَتْ نقيصة الشِّعر وَنقيصة الغدر ، وَلقد ثقُل علىَّ مَا كان من ذلك وهو بَاطل ، صوناً للنفس عنه ، فكيف أرْضَى أن يكون منى ما أستحِقُّه به ؟ وإنى لأرجو أن أكون ممن يصبر للوفاء على بليَّةٍ إن نزلتْ، فكيف أخرج مِنهُ بغير اضطرار إلى غيره ؟ ، ولو كنت على وقع عليه[(٢)] لكنت بالنقص على نفسى مُقِرًا ، وكيف أسخَطُ على من أساء القول إلىَّ ، إذا أسأتُ الفعلَ إلى نفسى ؟ وأسَرُّ بأن يُحْسِن لى القولَ وأنا مسىء إلى نفسى فى الفعل ؟ فهلاَّ رغبتَ بى أن أكون أتيتُ ذلك ، كما رغبتُ بك عن التصديق به فيما بينى وبينك ! ولكنك حَبَسْتَ كتبك عنا وقطعْتَ تعهُّدَك ، ونحن نُحْسِنُ الظن بك ، ونحالنا عندك ، لا نُنزِلُ ذلك إلا على العُذر لك ، والشعلِ منك ، ثم إخراجك ما أخرجت إخراجَ

---

(١) فى الأصل « ولو وجدت من أهل الدناءة والسفاه فاسدلهم بهم الصق وهم به أحق وأنا القول فيهم وهم فيه أحرى » وقد أصلحتها كما ترى .

(٢) أى على الاضطرار إلى غير الوفاء .

محقَّقٍ متيقن، لا لإخراجَ متأمِّلٍ ناظرٍ ، فراجِـعْ أحْسَنُ[(١)] ، واعلَمْ أنّا لم نَحُلْ عن حبس الرأى فى حفظ حقك ساعةً من ليل ولا نهار ، فى سرٍّ ولا علانية ، ولا غَيْبةٍ ولا شهادة، ولا نأتى أمرًا ينقُص من حُرمتنا ، والسلام » . (اختيار المنظوم والمنثور ١٢ : ١٩٨)

٧٤ — كتاب لغسان بن عبد الحميد فى تهنئة بتزويج

وكتب غسَّان بن عبد الحميد فى تهنئة تزويج :

« قد بلَغنى جَمْعُ الأمير أهلَه على الحال التى جَمَعهم عليها من نعمة الله عليه ، فالحمدُ لله على كل ما يَرَى الأميرُ فيما له فيه نعمةٌ ، فأسأل الله أن يجعل الطائر فى ذلك ميمونا ، والشَّمْلَ مجتمعا ، والبركةَ عظيمةً ، والأمورَ سليمةً ، وكذلك فقد عظَّم الله القَسْمَ منه لزَوْجه ، جعل الأمير[(٢)] سَكَنًا لها ، وأجرى المودة والرحمة بينهما ، فإنه يقول عز وجل : « خَلَقَ لَكُمْ مِنْ أَنْفُسِكُمْ أَزْوَاجًا لِتَسْكُنُوا إِلَيْهَا وَجَعَلَ بَيْنَكُمْ مَوَدَّةً وَرَحْمَةً » فلما كان الأمير هو المنظور إليه وهى المنظور إليها ، اختارَها الأمير لنفسه ، واختار نفسَه لها ، وأراد الله عز وجل أن يَزيدها مع فضلها فى نفسها ، فضلاً اختيار الأمير إياها ، وباختصاص الله لها بالأمير دونَ غيرها ، فكان ذلك فضلا من الله زَيَّنَه بفضل ، وكرامةً من الله وَصَلَ بعضَها ببعض ، فنرغب إلى الله عز وجل فى أن يَزيد الأميرَ فى كل سَعَةٍ مبسوطة ، ونعمةٍ مقسومةٍ ، ويُعطيَه فى ذلك شكراً يكون لرضاهُ مُوجباً ، كما أعطاه فضلا كان الشكر له به واجبا ، ثم يُمَلِّى[(٣)] الأميرَ ذلك بأحسنِ ما مَلَّى أحداً من خَلْقه ، كرامةً اصطنَعها عنده » .

(اختيار المنظوم والمنثور ١٣ : ٣٠٢)

---

(١) أى فالمراجعة أحسن ، وربما كان « فراجع وأحسن » .

(٢) السكن : مايسكن إليه .

(٣) ملاه الله حبيبه: متعه به وأعاشه معه طويلا.

٧٥ — تحميد له

وله تحميد فى المطر :

« الحمد لله الذى نشَرَ رحمتَه فى بلاده، وبسَطَ سَعَتَه على عباده ، الذى لا يزال العبادُ منه فى رِزْق يقتسمونه ، وفضلٍ ينتظرونه ، لا ينقُصُه ما قبله ، ولا ينقضِى ما بعده » .

(اختيار المنظوم والمنثور ١٣ : ٢٨٣)

٧٦ — تعزية له

« أما بعد ، فإن الله لم يَرْضَ لنفسه أن يُمْضِىَ قضاءه فيما وافق العبادَ أو خالفَهم ، وَلم يَرْضَ من العباد إلا بأن يسلِّموا لأمره فيما أحبُّوا أو كرِهوا مما أنزلَ بهم ، فقضاء الله غير مردود، وأمْرُه غيرُ مدفوعٍ، والساخِط لذلك غير مُعْتَب[1]، وللراضى به، أفضلُ العِوَض » .

(اختيار المنظوم والمنثور ١٣ : ٣٠٦)

٧٧ — تعزية له إلى خليفة

« أما بعد ، فإن الله جعل خلافته حفظا لدينه ، ورحمةً لعباده ، ثم جعلَ لهم أولياء خلفاء يتوارثونها، ويتداولون الكرامةَ من الله بها ، فتنقضى مدةُ ماضيهم[2] لخِيرة الله إياه، وتأتى خِلافةُ باقيهم لاصطناعِ الله له، فنحمَد اللهَ الذى جعل فيكم أهلَ تلك الخلافة الذين جعلهم لها وُرّاثا فكان منهم الماضى الذى كانت له، والباقى الذى صارت إليه، والحمد لله على ما كانت عليه حياةُ أمير المؤمنين ووفاتُه من كرامة الله إياه ، وعلى وضعه الخلافةَ عند أمير المؤمنين الباقى ، ونسأل الله أن يُعْظِم فى الماضى الأجرَ ، ويمنحك من الباقى أفضلَ الحظ ، ويُعينك فى المصيبة على أفضلِ الصبر ، وفى النعمة على أفضل الشكر » .

(اختيار المنظوم والمنثور ١٣ : ٣٠٦)

---

(١) أعتبه : أرضاه . (٢) فى الأصل « ما بينهم » وهو تحريف .

٧٨ — تعزية له

« أما بعد ، فإن الله تبارك وتعالى تولى القضاء فى خلقه ، وأوجب عليهم الرضا بمـا قضى به ، والموتُ لا بُدَّ منه ، وأمرُ الدنيا إلى فناء كلِّه ، فما أشبَهَ الباقىَ الذى يُنتَظر الفَناء له ، بالمـاضى الذى قد أتَى الفناء عليه ، وأحوجُ ما يكون ذو العقل إلى عقله ، وذو الفضل إلى فضله ، حين ينزلُ به من قضاء ربه ما يبتلِى فيه صَبْرَه ، ويختبِرُ به تسليمَه ، فإن فاته الصبر كان عنـده أكبر الرزِيَّة ، وإن أحرَزَه كان أعظم الغنيمة ، وقد أحسَنَ الله إليك فى رأيك ، وما قَسمَ لك ، وعرَّفك ما اتخذ به الحجةَ عليك ، وما ينبغى لك أن تعود بمنفعة على غيرك ، فكيف بك إن عجز ذلك عنك عند اختبار ربك إياك ، فإذا أخذ منك مَن قد سَبَقَتِ النعمةُ فيه المصيبةَ به ، مع إمْتاعه إياك بطول صحبته على الذى خَلَق لك منـه ، ومنه لك ، ثم قدَّمه الله قبلك فكان فَرَطا[1] لك ، وعوَّضَك اللهُ أَجْرَه ، وجعلك المستخلَف بعده ، فى الصلة له ، والترحُّم والصلاة عليه ، والخلافة فى رُكنه ، ولم ينزل بك من المصيبة بأخيك ، إلا ما رأيتـه نزل بالناس فى أحبائهم قبلك ، فلا أحسبك رأيت منهم صابراً إلا غبَطتَه[2] ، ولا جازعا إلا عجَّزته ، فخذ لنفسك بالذى تغبطُ به غيرك ، واحْذَر عليها الذى تعجِّز فيـه سواك ، وإذا ذكر الشيطانُ مصيبتك ، فاذكر ثوابَ ربك ، فهو خير لك من نصيبك من حياة أخيك ، فاطلُبْ بذلك صحبتَه لا يرْزَؤك ولا ترزؤه ، ولا تدخل فُرقةٌ بينك وبينه ، فلعمرى لئن كنتما اصطحبتما فى الدنيا بمـا اصطحبتما به من النعمة ، ثم أُعطيتَ صحبتَه فى دار المُقامَة والرَّحمة ، لقد سَعِد بك وسعِدْتَ به ، ونفع الله بكل واحد منكما صاحبَه ، فما أقدر اللهَ على أن يُعطيَك ذلك فيه باحتسابك إياه ، ويُعطيَه ذلك فيك بدعائك له ، فإنه قد تقدَّم

---

(١) الفرط: ماتقدمك من أجر وعمل .

(٢) غبطه : تمنى مثل نعمته على أن لاتتحول من صاحبها .

لك فيه من الأجر ، وتخلّفَ عليك له الدعاء ، فاستكمِلْ إحداهما بالأخرى ، أكملَ ٱلله لنا ولك الآخرةَ والأولى، ورحمةُ ٱلله على فلان ، وجعل ٱلله مايرجع إليه خيراً له مما كان فيه، وجعل أجره خيرًا لك من بقائه، وخلَفَه بأحسن خلافة ، وأعانك على حسن الخلافة له من بعده » .

(اختيار المنظوم والمنثور ١٣ : ٣٢٠)

٧٩ — تعزية له

« إن أعظم المصائب عندنا مصيبتك ، وأجلّ المَرَازِئ فى أنفسنا مَرْزِئتك ، ولو تركنا تعزيتك بمصيبتك لخاصّتنا بك ، ومشاركتنا فيها لك ، لسكنت بمنزله ذلك إن شاء ٱلله » .

(اختيار المنظوم والمنثور ١٣ : ٣٢١)

٨٠ — تعزية له

« أما بعد ، فإن ٱلله تبارك وتعالى خلق الدنيا هيِّنةً عليه ، زهيدةً عنده ، ثم أمر عباده أن يُنْزِلوها المنزِلَة التى أنزلَها ٱللهُ بها ، ثم أمتع بها البرَّ والفاجرَ ، والمُحسنَ والمسيء ، فلم تكن مَسرّاتُها علامةً لرضاه ، ولا بلواها دليلا على سُخطه ، نظرًا لهم . بأن يَبْلُوَهم فى أهونِ الدارَين عليه ، ويجزِيَهم فى أفضل الدارين عنده ، وأكرَمَ أهلَ طاعته بأن أعطاهم فيها الزَّهادةَ ، كما أكرمهم بأن زَوَى[1] عنهم فيها الفتنةَ ، ولو كانت عنده بمنزلة كرامةٍ ، جعَلَ أهلَ طاعته هم أهل الإكثار منها والمسارعة فيها ، فليست دارًا اختارها ٱلله لأهل ولايته ، قَبَضها عنهم ، وأمرهم بالإبعاد[2] عنها بأنفسهم ، وجعلها فتنةً وغُرورًا ، وأسماها لعباده لهوًا ولعبًا ، لئلا يُسَرَّ ذو عقل بما أُعطى[3] فيها ، ولا يأسَ[4] على ما فاته منها ، ولولا أن ٱلله عز وجَلّ جعلها بُلغةً للآخرة ، وامتحانًا

---

(١) أى نحاها وأبعدها .

(٢) فى الأصل « فنصها عنهم والإبعاض عنها ... » .

(٣) فى الأصل « بما أفضى » . (٤) أى يحزن .

لأعمال البرية ، لكانت هى أهون عليه من أن يخلقها ، أو أن يعمرها بمن عمرها ، أو يَبُثّ ما بَثّ لها .

ومن أمور الدنيا ما جعله الله على الأسوة[١] ، ومنه ما جعله على التفضيل ، فأحقّ أمورها أن يرضاه مَن أُعطيه ، ويصبِرَ له من نزل به ، ما كان أمرَ أسوةٍ فى محبةٍ أو مكروه ، وهذا الموتُ مما آسَى الله فيه بين الخلائق ، فقضى أن تذوقه كلُّ نفسٍ ويُمْنَى به كل حى ، فالمتقدِّم فيه على أسوةٍ ممن قبله وممن بعده ، وأنه سيلحَقه الباقى كما سبقه الماضى ، ومكارهُ الدنيا حالّةٌ[٢] على من عَمَر الدنيا ، فإن الله خلقها للبلاء حين خلقها ، وخلق أهلها على الابتلاء ، فجعل لهم منها أطباقا[٣] يركبونها ، وحالاتٍ ينتقلون فيها من مِحْنة إلى مكروه ، ونقص[٤] وعافية ، فكلُّ ذى سلامةٍ وإن طالت ، وذى عافية وإن تتابعت ، لا بُدَّ أن تنالَه المكارهُ ، وتتصرَّف به الحالاتُ ، ويُبْلَى بالخير والشر فتنةً ، على ذلك وضعت ، فيرجو عبدٌ أن يَعْمُرَها بما لم يعمرها أحد قبله ، ولا يعمرُها به أحد بعده ؟ إنه من نفسه فى قريب الدنيا وظاهرها — وينسَى عواقبها التى بقيَتْ وعِبَرَها التى مضت — كان جاهلا مغرورًا ، ومن جعل قلبه فى الفكر والتذكر كان مُعافًى معصوما ، وكلُّ كثيرِ الدنيا قليلٌ ، وكل حالاتها غرورٌ ، غيرَ أن الله برحمته جعل ما يتقرَّب به العباد إليه زاكيًا عظيما عنده ، فاصبِرْ لأمره ، وارضَ بقضائه ، وارجُ ما وعد أهل المعرفة بحقه من النعيم المقيم ، والخلود الدائم ، فيما لم تعلمه نفسٌ ، ولم ترَه عين ، ولم يخطُر على قلب ، ولم تبلغه أمنيَّةٌ ، فضلا مذْخُورًا لأهل طاعته حين يحُلُّون عنده ، ويتلذذون فيه بالشهوات ، ويتجددون فيه على طول البقاء ؛ قد فنِى الموتُ وبقُوا بعده كما كان يُفنيهم ويبقَى بعدهم ، وجميعُ العباد أسوة لأخيك فى الموت الذى أتى عليه ، ونظير ذلك فى أشباه المَرْزِئة التى دخلت عليك ، فاذكر ذلك عند

---

(١) أى القدوة . (٢) فى الأصل « حلة » وهو تحريف .
(٣) جمع طبق بالتحريك : وهو الحال . (٤) فى الأصل « وتقص » .

مصيبتك ، والعبادُ على مقادير ، فكلٌّ داخلٍ فيها مكتوبٌ الذى له وعليه ، وكلٌّ خارج منها محفوظٌ ما قدَّم وما تقدم إليـه فى الدنيا ، أعمال قُدِّرَت لآجال ، وآجالٌ قُدِّرت لأعمال ، وابتلاء قُدر لجزاء ، وجزاء أُخِّر لابتلاء ، وكذا ، والسلام .

(اختيار المنظوم والمنثور ١٣ : ٣٢١)

٨١ — رسالة عمارة بن حمزة فى على بن ماهان

قال ابن طيفور : ومن الرسائل المفردات رسالة عُمارة بن حمزة[١] فى على بن ماهان ، فإنه يقال إنه لا مثل لها فى معناها وهى :

«أما بعد، فقد بلغ أميرَالمؤمنين كتابُك فى ابن ماهان وخالد، ولم يُرِدْ أميرالمؤمنين بكتابه إليك مشقَّةً عليك فيما وَصَف لك من الأمور ، وصَرَّف لك من الموعظة ، ولكنه أَحبَّ أن ينبِّهك لرُشدك ، ويدُلَّك على حظِّك، فيشُدَّ بذلك عَقْدَ ما خشِيتَ وَهْيَه[٢] ، ويذلِّل لك صعوبةَ ما خِفْتَ نِفارَه — ولم يكن يقع ذلك ليصلَ إليك ، إلا ببعض الغِلظة التى فيها لَذْعٌ وتقبيض — وَيأخذَ بمَراشدِ الأمور ، ووثائِق الحزم ، ورغائبِ الحظ التى لا يصل إليها إلا بالـكُره دون الهُوَيْنَى ، وبما يَمرُّ على أهلِه ويغلُظ ، دون ما يَحلَوْلَى ويلين ، وأخلِقْ بما شَقَّ عليك من كتاب أمير المؤمنين أن يُعقِبَكَ منـه مسرَّةً ، فإن خيرَ الأمور خيرُها عواقبَ .

وقد أصبح أمير المؤمنين واثقا بتمام عصمة الله عز وجل فى حالك التى يرجو أنْ لا يُزيلك اللهُ عنها سَرَّاءَ لا ضَرَّاءَ ، مادمتَ بحقها قائما ، ولبُعْدها[٣] لازما ، مع أن أمير المؤمين ليس ذلك يَخافُ عليك ، ولا فيـه يتَعَهَّدُكَ ، ولـكنَّ أموراً من فَلَتات الخطأ ، وميل الهَوَى ، وخشية الزَّلل ، لا يأمَنها عليك ولا على نفسه ولا على الأقرب

---

(١) فى الأصل «إلى على بن ماهان» ولـكن سياق الرسالة يدل على أنها كتبت عن الخليفة إلى أحد عماله فى شأن على بن ماهان ، لا إليه ، كما سترى .

(٢) الوهى : الشق فى الشىء . (٣) البعد : المذهب ، يقال : لاله بعد : أى مذهب .

رُحماً[١] ونصيحةً له ، فإن الجهاد جهادُ المرءِ نفسَه ثم حامَّتَه[٢] ، لأن النفس أمَّارة بالسوء ، والناس متزيِّنون بالباطل ، والشيطان شديد العداوة ، لطيف[٣] الغِشِّ ، بصير بالعَوْرة ، مُعِدٌّ للفُرْصة ، قد التمس أن يصعِّب على نفسه ما ذلَّل اللهُ ، ويحمِل عليها مُؤْنةَ ما قدَّم الله فيه الصُّنْعَ والكفاية .

قد علم أمير المؤمنين أنه لم يبلُغ غاية التأديب ، فإنه لايبلغ ذلك دون انقطاع الأمور التى يُحتاج فيها إلى الأدب، وليس لها نهاية دونَ الفناء ، وَلم يُصْبح يتعهَّد أحداً من الناس بعد نفسه أحقَّ منك بتعهُّده ، لأنك الثقةُ له ، ولعدوه الثائر[٤] الأعظم ، وإن الناس بأوساط الأرض وأقطارها يُصيخون[٥] بأسماعهم إلى خبرٍ : يَوَدُّون أن تزِلَّ قَدَم بعد ثبوتها ، وتفسُدَ حال بعد صلاحها ، وتكِلَّ بصيرة بعد نفاذها ، متخذين ذلك ذريعةً إلى الإخلال بحق أمير المؤمنين ، ولم يكن بين طاعته ومعصيته إلاساعة من نهار .

وَأمير المؤمنين لايُنْكِر قُرْبَ الطاعَة من المعصية ، قُرْبَ بعض الأمور من بعض ، لسرعة تقلُّب القلوب ، واختلاف الحالات عند مَيْل الهوى ، ولا يُنكر جَرْىَ المقادير بغَيْبِ ذلك عن العباد ، واستئثار الله بعلم مالم يأتهم إلا بَغتةً ، بل قد علم أمير المؤمنين أن أقواما فى قلوبهم ضغائنُ دونها الغَدْرُ يُظهِر أسرارهم ، وَيخرج أضغانهم ، ثم يبلُغ بغضبه منهم مَالم يكن ذلك عنده عزيزا ، ولم يكن بهم امتناع ، غير أنه قد أنكر وأنعَمَ[٦] أن تَعْجَل إلى « ابن ماهان » — وَإن كان محلا بارزا — بأمرٍ دون مُؤامَرته[٧] ، ويَكْرَه لك العَجَلة فإنها موكَّلٌ بها الندمُ ، وَإنه كان يقال : « أصاب متأمِّل أو كاد » وقالت العرب « فإمَّا تَرَيَنَّ أمرا رشدا ، فتبيَّنْ ثم ارْعَوِ ، أو أقْدِمْ وأحْكِمْ » وَلَحَقٌّ ما أمر الله عز وَجل به من التبيُّن ، وما حذَّر أن يُصابَ قومٌ بجهالةٍ

(١) أى رحمة وعطفا . (٢) الحامة : الخاصة .
(٣) أى دقيق ، من لطف ككرم : إذا دق . (٤) أى الآخذ بالثأر .
(٥) أصاخ له : استمع . (٦) أنعم : زاد (أى فى إنكاره) .
(٧) المؤامرة : المشاورة (أى مؤامرة أميرالمؤمنين) .

وما خوّف على ذلك من الندامة[١] ، فليس يبْرَح المرء بخيرٍ ما فَرَغ لقول الله عز وجل واتعظ واستيقظ .

وأما ما ذكرتَ من كذا ، فليس يبعُدُ أن يدعو إلى « خالد » التُّهَمَة ، وإلى « ابن ماهان » المعذِرَةَ ، فإنما العجلة مُسْتَرَاحُ للُرِيب ، والبدارُ بالأمور أمْرُ مَن ليس على ثقةٍ من رأيه ، ومن لا يرجو أن يكون التثبُّت لقوله مُصدِّقا ، ولرأيه مُنَفِّذًا ، فمن أخذ بهذا الرأى ، وأنزل أحدا منزلَ تُهمَة وهو غيرُ ظنين[٢] فقد أعظم الجريرةَ .

وَأمّا ما سألتَ من البَعثة إليك فرأىُ أمير المؤمنين البيانُ الذى يُذهِب عنه ريب الشك ، ولَبْسَ الشبهة فيما تحمله من أمر عيسى ، وما دام على الثقة واليقين فليست منزلتك عند أمير المؤمنين بالمتلوّنة ، فيكون الناس مَجازا إلى انتقامك ، وقد صدَّق أمير المؤمنين قولَك ، وعَذَر خالدا باعتذارك ، وتجاوَزَ عما لا عُذْرَ فيه ، غيرَ أنه ليس يحبُّ لنفسه من العَجَلة وسرعةِ المبادَرة ، ما يَكْره لكم ، ولا يرضَى منها بمثلِ ما يَسخَط منكم ، ولا يريد المخالفةَ إلى ما ينْهَى عنه .

وأما الشر الذى كان يثيره لو كان نُفِّسَ[٣] عنه ، فما لم يكن ليدافعَه ولا ليستظهر عليه بمثلِ طاعة الله عز وجل وتقواه ، ولزوم الأمر ذى الْحجة والعذر ، ولو ميِّلَ[٤] أمير المؤمنين بين أن تقع كريهةٌ ذاتُ شوكة يُزاول[٥] خطَرها ، ويعالج مُؤْنتها ، وبين أن يأخذ بشُبُهات الأمور المبْهَمَة ، حذَرًا لما عسى أن يقع ، لاختار ذاتَ الشوكة بأن يحمل[٦] يليَّتها على التحفظ والإقدام على الشبهة بغير بيِّنة ، ليس ذلك إلا أن يكون

---

(١) قال تعالى : « يَاأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنْ جَاءَكُمْ فَاسِقٌ بِنَبَإٍ فَتَبَيَّنُوا أَنْ تُصِيبُوا قَوْمًا بِجَهَالَةٍ فَتُصْبِحُوا عَلَى مَا فَعَلْتُمْ نَادِمِينَ » .

(٢) الظنين : المتهم .   (٣) نفس عنه : فرج .

(٤) ميل بين أمرين : يقال : إنى لأميل بين ذينك الأمرين وأمايل بينهما ، أيهما آتى : أى أتردد وأرجح

(٥) فى الأصل « نزلت » وأرى أنه محرف وصوابه « يزاول » أو « يرد » أو « يزيل » .

(٦) فى الأصل « ينحل » وأراه محرفا ، وربما كان يحيل أو « ينحى » أى يوجه .

عهدُ أمير المؤمنين حديثاً بغَشْمِ (١) الحرب التي لم تكن تكفُّ أيدي شيعته عما بسطوها إليه ولكنه لا تستوى السيرةُ قبل الإنجاز وبعده ، بذلك مَضت سُنَن الله عز وجل ، حتى حرَّم الله على الأنبياء أن تكون لهم أسْرَى حتى يُثخِنوا فى الأرض ، وأمر بضربِ الرقاب فإذا أثخنوا فالمنُّ أو الفِداء (٢) وليس مَن سَعى فى طاعته فى البَسْط أمسَّ بأجمَّم بلاء ممن انتهى إلى أمره فى الكفِّ اليومَ ، فإنما الطاعةُ كلها بمنزلة قُربانٍ وتمحيصٍ يحُولُ بين الناس وبين أهوائهم ، لأن الحق لا يتبَع الهوى ، ولا يجرى على شهوات النفوس ، فمن أراد الله به الخيرَ محَّصَه فأخلص إيمانه ، وأنفذ بُغيته ، وألهمه عزائمَ الصبر عند ما يثقُل عليه من الحق ، ويخِفّ عليه من الباطل ، ومن يتّبع هواه فى كفٍّ أو بسطٍ محقَه الله عزّ وجلّ وخذَله .

قد علم أمير المؤمنين أن للشيطان من كل قوم قسما يجتبيهم (٣) ويصدِّق عليهم ظنَّه ، ولو كان ذلك مُخطِئَه من قوم أخطأه من أصحاب محمد صلى الله عليه وسلم ، وقد وَقع هذا الحق بمَرَاغِم الشيطان ومَكارِهه ، فليس تارِكَه جُهْداً ، وليس وبالُ ذلك كله كائناً إلاّ على أوليائه ومستجيبيه ، وأميرُ المؤمنين يرجو أن يكون الله قد بلغ بحقِّه

---

(١) الغشم : الظلم ، والمعنى بشدتها .

(٢) قال تعالى : « مَا كَانَ لِنَبِيٍّ أَنْ يَكُونَ لَهُ أَسْرَى حَتَّى يُثْخِنَ فِي الْأَرْضِ ، تُرِيدُونَ عَرَضَ الدُّنْيَا وَاللَّهُ يُرِيدُ الْآخِرَةَ وَاللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ » — يثخن : أى يبالغ فى قتل الكفار — وذلك « أن النبى صلى الله عليه وسلم أتى يوم بدر بسبعين أسيرا . فاستشار أصحابه فيهم ، فقال أبو بكر : يارسول الله هؤلاء أهلك وقومك قد أعطاك الله النصر عليهم ، استبقهم لعل الله يتوب عليهم ، وخذ منهم فدية تقوى بها أصحابك ، وقال عمر : اضرب أعناقهم فإنهم أئمة الكفر وقد كذبوك وقاتلوك وأخرجوك ، فرأى عليه الصلاة والسلام رأى أبى بكر ، وأخذ الفداء من الأسرى ، فنزلت الآية عتابا له فى قبول الفدية ، ثم نسخت بقوله تعالى : « فَشُدُّوا الْوَثَاقَ فَإِمَّا مَنًّا بَعْدُ وَإِمَّا فِدَاءً » أمره سبحانه بالإثخان فى الكفار الذين يصدون عن سبيل الله ، ومنعه عن قبول الفدية منهم — وذلك حين كانت الشوكة للمشركين — ثم خير بين المن والفداء لما تحولت الحال وصارت الغلبة للمؤمنين» .

(٣) اجتباه : اختاره .

مَبلغاً لا يَضِيره[1] معه عداوةُ عدو ، ولا خِذلانُ خاذل ، ولا يستجيش[2] من لم ينصره اليومَ لو لم يكن له نصير .

وقد رآكَ أميرُ المؤمنين خلطتَ اعترافا باعتذار ، وتنصُّلا بجاحدة ، فأمَّا الذنبُ فمغفورٌ متجاوَزٌ عنه ، وأما العذر والحجة فلم يعرفهما أمير المؤمنين ، ولم يثبتا لك ، ولو ثَبَتا لك لم يزد ذلك مِنْ رضاه عنك ، ورأيه فيك ، على ما رأيت مستحكماً لك عنده .

وأمَّا قُرب بعضِ أصحابك لبعض حتى يدعُوَهم ذلك إلى الشهادة بسَفْك دمائهم ، فإن ذلك قد عَمَّ الناس بكل أُفُق ، وهو راجع إليك جوابا يجب أن تفهمه وتَدَبَّرَه ، وهو يستعيذ بالله من زَلَل[3] الغيّ ، وخَطَل القول ، وشُبُهات العملِ ، وزينة الهوى ، وخَطَرَاتِ الشيطان .

اعلم أن هذا الجند الذين اُستُرْعِيتَهم ، وأُعِنْتَ بطاعتهم ونُصرتِهم ، مِن أفضلِ أهل الأرض عليك حقا ، وأن حقَّهم هو حقُّ الله عز وجل ، وحق أمير المؤمنين ، وحق همَّة نفسك على نفسك ، وأنه إن وصل إلى أقصاهم دارا ، أو أدناهم منزلا ، ضَياعٌ ، كان ذلك لك ماسًّا ولو لم تشعُر به ، وأنك لاتقدر لهم على شيء مما تَلْتَمِس به صلاحَ أمورهم ، مِن بذلِ مالٍ ، أو مواساةٍ بنَفْس ، هو أعمُّ لهم نفعا ، وأعزُّ عليهم غَناء ، مِن أدبٍ صالحٍ تأخذهم به ، وسيرةٍ صالحةٍ تحمِلُهم عليها ، مِن العفاف في الدين ، والحضور للصلوات ، والتعلُّم للقرآن ، والتكرُّم في الأخلاق ، والتزيُّن بالوقار والصدق والكفّ عن الشبهة ، مع أن عفو الوالي عما بدا له أن يعفو عنه ، ليس ذلك بإبطال شهادة مَن شُهِد عليه ، وإنما يكون ذلك لو كانت حقوقهم فيما بينهم ، فلا يستطيع الإمام أن يُبطلها ، وأما إذا كان الحق حقَّ الإمام يُمْضِي فيه ما أحبّ ، ويعفو عما أراد ، فمن ذا الذي يخاصِمُه في حقه ، وينهاه عن التثبُّت فيما اشتبه عليه ، والعفوِ فيما أحبّ العفو عنه ؟ أوَ ليس قد يكفُر الرجل بعد إيمانه ، ثم يَثبُت ذلك عليه ، إمَّا بإقراره ، وإما بِبَيِّنة

---

(١) ضاره يضيره : ضره . (٢) استجاشه : طلب منه جيشا ، أي استنصره .

(٣) في الأصل « من ذلك » وهو تحريف .

فيستتيبه الإمام ، ويحقِنُ دَمَه إن تاب ، ولا يشاركه الشهودُ فى أمره ، ولاَ يلُومونه ، ولا يقولون اتَّهَمْنا وَرُدّتْ شهادتنا ، مع أن تثبُّت الوالى فيما تثبَّت فيه من أمر أصحابه ، حتى يُبَرِّئَ البرىء ، ويُنطِّف[1] السقيم المُقِرَّ بذنبه ، هو أقوى فى الأمر ، وأبلغ فى الرأى ، وأقرب إلى أن يأمَن البرىء ، ويخاف السقيم ، وينطق الصدوق ، ويهاب الكذوب ، وإذا سَوَّى بين البرىء والسقيم فى العقوبة ، وبين الصَّدُوق والكَذوب فى إجازة القول ، لم يتبكَّل[2] ذو الحزم ، ولم يسلَمْ ذو الاستقامة ، ولم يَزِد الشرُّ إلا فُشُوًّا فى دين ورأى ونُصح[3] .

وأما ماسألتَ أمير المؤمنين من رضاه عنك ، وما عظَّمتَ من موقع كتابه منك ، فلم يكتب إليكَ كتاب ساخط ، ولكن كتابَ استعتاب ، وليس كلٌّ مستعتباً — وقد أعطاك الله عز وجل منه الرضا قبل أن تسأله ، وأنّى سألْتَه ، ورضى عن « خالد » بما رأى من إشراككَ إياه مع نفسك فى المعذرة والطِّلْبة ، وهو يسأل الله توفيقه وتسديده ، وأن يتحنن عليكم برأفته ، وَيُؤْوِيَكم فى كَنَف ألفته ، ويحجُزكم عن معاصيه ، ويجعلكم خير أعوان وَإخوانٍ ووزراء على إنفاذ عَدله فى مشارق الأرض ومغاربها ، إنه سميع قريب ، والسلام » . (اختيار المنظوم والمنثور ١٢ : ١٦٣)

٨٢ — كتاب له فى السلامة

« أما بعد ، فإنى كتبت إلى أمير المؤمنين حين حَلّتُ محلَّ الوالى من خُراسان من دار الإمارة بمَرْوَ ، متعرِّفا من حِفظِ الله أميرَ المؤمنين فيها ، أجمل ما يعرفه أحدٌ

(١) نطفه كنصر وضرب ونطفه : اتهمه ولطخه بعيب ، وفى الأصل « وينطق » .
(٢) أى لم يغنم ، قال أوس بن حجر :
على خير ما أبصرتها من بضاعة لملتمس بيعا لهـا أو تبـكلا
أى تغنما ، وفى الأصل « لم مسكل » وربما كان « لم يتـكلم » .
(٣) فى الأصل « إلا ومسوا من دين ورأى مصح » وهو تحريف .

توجَّهَ فى أموره ، وسار مَسِيرا فى طاعته ، وقرأتُ عهد أمير المؤمنين على مَن قَدِمْتُ عليه من رعيته وَجنده ، مؤدِّيا إليهم عنه الذى جعل الله لهم عنده من كذا ، وأعلمتُهم أن كل مُحْسِنٍ أَحمَدُوا له أثراً ، فبسيرته سار ، وبهُداه وعهدِه ائتَمَّ واهتَدَى ، وأَن مَن خالف بهم سُبُلَ العدلِ والإنصاف ، وسار فيهم بالجَوْر والاعتساف ، فبالتعَدِّى لأمره ، والخلافِ لعهده ، وأعلمتُهم أن القيام بكل ما قرأتُه فى عهده ، أو حَكيتُ لهم من رأيه وأمره ، رَهْنٌ غَلِقٌ[١] ، فأثبتُّ لى فيهم قَدَمَ ولاية [وتوطّد][٢] منى به سلطان ، فاستقام سرورُ ذلك فيهم ، ورجع بأهوائهم إلى الألفة ، وَنَفَى عن صدورهم حَسَكَاتِ[٣] الوَحْشة والسلام » . (اختيار المنظوم والمنثور ١٣ : ٢٦٨)

٨٣ — كتاب له

وكتب :

« بلغنى كتابك تصف (كذا) ، فإن رأيتَ ألاّ تعتمد على ما لَصِقْتَ به من عُذرك ، وأطمتَ فيه الهَوَى من قَبول عفوك ، وتجعلنى أحَد من يُسَرُّ بسرورك ، وتُشْرِكه فى مُهِمّات أمورك ، فإنى أحدهم وأوسطُهم عنايةً بما عَناك ، وتوسُّطاً لِما عَراك ، فعلتَ » . (اختيار المنظوم والمنثور ١٢ : ٢٦٤)

٨٤ — كتاب جبل بن يزيد إلى بعض إخوانه

وكتب جَبَلُ بن يزيد[٤] إلى بعض إخوانه :

---

(١) غلق الرهن كفرح فهو غلق : استحقه المرتهن ، وذلك إذا لم يفتك فى الوقت المشروط . وفى الأصل « منغلق » وهو تحريف .

(٢) مابين القوسين بياض بالأصل ، وقد زدته لتستقيم العبارة .

(٣) الحسك بالتحريك : نبات عند ورقه شوك صلب ذو ثلاث شعب ، واحدته حسكة .

(٤) قال ابن النديم فى ترجمته : « هو كاتب عمارة بن حمزة ، وكان مترجما من معدودى البلغاء والبرعاء » — انظر الفهرست ص ١٧١ .

« تمّم الله علينا وعليك النعمَ ، وأجزَلَ لنا ولك محاسِنَ صالح القِسَم ، إن الله تبارك وتعالى أجرى بيننا وبينك لطيفَ مَودّة ، وخاصَّ أُخُوّة ، غير أن المعرفة قد تُحمَدُ بعد الخِبْرة ، والثقة إنما تعرَفُ بعد التجربة ، وقد أحببتُ أن يعلم من قِبَلك الذى أحدَثَ اللهُ لك من حال دولتك ، وأن يعلم : هل أبقَتْ لنا منك النعمةُ سَعَةً ، أم تركَتْ لنا منك صَفْحَةً نَعرِف بها عهدَك ، ونأمُلُ بها وصْلَك ، فإن أصحاب السلطان بحالِ بَلْوَى فى التغيُّر والانتقال ، إلاَّ مَن نالته من الله تباركَ وتعالى عِصمةٌ ، فإن كنتَ على ما رجَوْنا من الوفاء ، وَحُسْنِ الحفظ للمودَّة والإخاء ، فمثلُك لم يرضَ لنفسه إلا بأجملِ الأخلاق ، وأوفقها للسَّداد ، وإن حَجَزَك عن ذلك ما تأتى به الأقدارُ فى مُتصرَّف الليل والنهار ، نَعذِرْك بما نعذرُ به أهل السلطان إذا غيَّرتهم الحالُ ، وتنكَّرتْ شمائِلُهم بين الإخوان » . (اختيار المنظوم والمنثور ١٢ : ٢٦٤)

٨٥ — كتابه إلى بعض إخوانه

وله إلى بعض إخوانه أيضاً :

« اعلم أنى إليك مَشُوق ، وأن صِلَةَ الإخوان كَرَم ، وخيرُ الصِّلات ما لم يكن لها وجْهٌ إلا الرجاء والحفظُ وتجديدُ المودَّة وتصحيحُ الإخاء ، فإن الذى يكاتِب إخوانَه على حال الرغبة ، يكفى القائلَ كتابُه حيث شاء إن أحبَّ مال به إلى الصحَّة ، وإن شاء وَضَعه للرغبةِ ، والرَّغبَةُ أملَكُهما به ، والذى يكاتب إخوانه على حال الضرورة ، فقد يستقْطِع الصِّلَةَ عند الحدَث مخافة المَلامة من الناس على القطيعة الشَّنْعاء المشهورة لإخوانه ، فإن الذى لا مودةَ له قد يصل ذلك فى تلك القطيعة بأهل البلاء .

والكتابُ على مثلِ حالنا وحالك اليومَ شاهدٌ على أن ذلك ليس إلا صحَّة الإخاء ، والشوقَ إلى المحادثة بالكتاب ، حين لا يلومك اللائمون لمنزلة البلاء تلك اللائمة على التقصير ، ولا يُوضع منك الرغبة فى الإطماع . إياك أن تعتلَّ بالأشغال إن كنتَ

فى خاصَّة نفسك ، فإن أداء الحق وَصِلَةَ الإخوان أعظم الخاصَّـةِ بك خاصة ، وإنما أمرُنا فى كل هذا كأمرك فى الذى تستغنى به من خاصَّتك تلك التى لنا ، فإن لنا مالك ، وهذه التى لنا لَكَ ، أليس ما سَرَّنَا سرَّكَ ، وما سَلَبناه حظا لك ، فهذه كذلك وذلك كهذى ، والله يوفِّقنا وإياك، وأنت أبا يوسف، هكذا حال ما بيننا وبينك ما وصفتُ لأبى سعيد ، غير أنه سألَنا أمرًا لم يسألْناه قطُّ ، فله فضلُ السَّبْق علينا فى المسألة ، ولنا فضلُ المنزلة عليك فى اللائمة ، ولن أدَعَك والفعلَ ، دونَ أن تشفَعَه بالعمل الذى هو صِلَة القول ، وسلام عليك ورحمة الله ، وقَضَى الله عز وجل بالحُسْنَى لنا ولك » .

(اختيار المنظوم والمنثور ١٢ : ٢٦٥)

٨٦ — كتابه إلى بعض إخوانه

وله إلى بعض إخوانه :

« أما بعد ، فإن أعظم الأمور فيما بين الناس حقا أمران : منهما الإخاء فى الدين ؛ فهو سبب وصيّة الله بين عباده بالألفة والمحبّة التى انقطعت بها قرائنُ القلوب من بعضهم إلى بعض ، فاتّصَلَتْ بحبائلهم مرائرُ[1] حَبْلها ، وتقطعَتْ فيما بينهم عاطفاتُ وَصْلها ، ومنهما مجاملةُ جميل الأعداء ، وحفظُ مايحِقّ لأهل حُسن البلاء ، ثم الصنائعُ بعد ذلك فى مواقعها فضائلُ ، بقَدْرِ ماجرَتْ به أسبابُها ، ولَطُفَتْ مَداخِلُها » .

(اختيار المنظوم والمنثور ١٢ : ٢٦٣)

٨٧ — كتاب له فى المطر

قد كنتُ كتبت إلى أمير المؤمنين أعْلِمه المَطْرة التى أصابتنا ، وما أنزل الله بها من رحمته ، ثم عادت لنا بعدها من الله عائِدةُ رحمة ، بوَلِىٍ[2] مطرٍ أنزله الله بأحسنِ

---

(١) المرائر : جمع مريرة ، وهى الحبل الشديد الفتل .
(٢) الولى : المطر يأتى بعد المطر .

ما رأينا من المطر ، وابلاً جَوْداً[١] لا يفتُر غزيرُه ، ولا يرعوى جَوْده ، إلا إلى دِيمَة[٢] عن دِيمةٍ ، يتراخى إليها يسيرا رَيْثما تعود ، فأقامت علينا سماؤه مستهلّةً[٣] بذلك وكذلك ، إلى غروب الشمس ، ثم انقطع مطرها بسكونٍ من الريح ، وفُتورٍ من القُرِّ[٤] ، وفضلٍ من الله عظيم ينشر به رحمتَه ، ويبسُط به رزقَه ، فأسبَغَ النعمة ، وأوسَعَ البركة ، وأوثق[٥] بحمد الله معارِفَ الخِصْب والحَيا ، والله محمود على آلائه[٦] ، ومشكور على بلائه ، وما أنزل الله من سُقياه ورحمته بعد الذى أقبلَتْ به السَّنة البَرِّيّة[٧] والقَحْطُ وعدم الإمطار ، وشدةُ ما بلغ الناسُ من القُنُوطِ وسوء الظنون » .

(اختيار المنظوم والمنثور ١٢ : ٢٦٣)

٨٨ — تعزية له

« مَن كان من نعمة الله ، وَالعلمِ بالله ، على مِثْل الذى حُبِيتَ به ، اقتصَرَ برأيه وَصِحة فهمه على ما يعود عليــه فى العاجل والآجل ، وبلَغَنى وفاة فلان ، فأعظِمْ لله بها فى المصائب مصيبةً ، وأَجلِلْ بها فى الأحداث نائبةً ، نَوَّر الله له فى قبره ، وعَزَم لك على الصبر ، وَبارك لنا وَلك فى الذى تَئُول إليه العواقبُ » .

(اختيار المنظوم والمنثور ١٣ : ٣٠٨)

٨٩ — تعزية له

« أما بعد ، فإن من صحِبَ الدنيا لم يَخْلُ من تصرُّف أحوالها ، وَكثرة مَعاريضِ فجائعها ، فى اخترام[٨] الأنفس فى خواصِّها ، ومواقع البلايا بين ذلك فيما يَهُدّها ، ويعرُو

---

(١) الوابل : المطر الشديد الضخم القطر ، والجود : المطر الغزير أو مالا مطر فوقه .
(٢) الديمة : مطر يدوم فى سكون بلا رعد وبرق .
(٣) استهل المطر : اشتد انصبابه . (٤) القر مثلثة : البرد .
(٥) فى الأصل « وأوبق » وأراه مصحفا ، والصواب « وأوثق » أى جعلها وثيقة ، وأرض وثيقة : كثيرة العشب موثوق بها . (٦) الآلاء : النعم ، والبلاء : النعمة أيضا .
(٧) البرية : الصحراء ، ونسب السنة إليها تشبيها بها فى الجدب والقحط .
(٨) اخترمته المنية : أخذته .

من الأَمَى عليها ، وكلُّ ذلك لا سبيلَ إلى دفعه ولا حيلةَ يستعان بها عند نزوله ، إلا الرضا عن الله عز وجل فيما قَضَى ، وَالتسليمُ لأمره فى كل ما أَتَى ، والسكونُ إلى الأُسْوة التى نَهَجَ اللهُ سبيلها ، وخفَّف بها مواقعَ المصائب على أهلها ، ثم الرجاء بعد ذلك لحسن ثواب الله ، الذى جعله لمن لَزِم أمره ، وأَجْشَم (١) نفسَه مكروهها فى مَواطِنِ الصبر على المصيبة والشكر فى حال العافية » .

(اختيار المنظوم والمنثور ١٣ : ٣٠٨ و ١٢ : ٢٦٣)

٩٠ — تعزية له إلى الخليفة

« فإن الله أنزل أميرَ المؤمنين من الإسلام وأهله منزلاً عظَّم فيه فضلَه ، وَاختصَّه منه بالذى هو أهلُه وأَوْلى به ، فأصبح بفضل نعمة الله عليه ، ولطيف إحسانه إليه ، عِماداً لجميع المسلمين ، عليه تجتمع أهواؤهم ، وإليه تسكُن أملاؤهم (٢) ، وبه يُصلح الله دينَهم ، ولا تصلُح إلا به دنياهم ، فما يُلبسه اللهُ من عافية ، ويُحْدِث له من كرامة ، تُجلِّلهم مع النعمة فى وصولها ، وأعباء الشكر فى وجوبها ، وما ينوبُهُ — والله ولى حِفظِه — من نائبةِ حدثٍ برزء مصيبة ، شَرِكوه فى ألم الحدَث ، وَتركوا شركته فى حسن الثواب .

وَقد كان من قضاء الله فى ابن أمير المؤمنين ، ما عَظُمت به المصيبةُ ، وعمَّت به الرزيةُ للمنزلةِ التى أنزله الله بها من دينه وقرابته من نبيه صلى الله عليه وسلم ، مع مكانه من خليفته ، وما كان فيه مع ذلك من الأمل العظيم ، والرجاء الجسيم ، الذى به سكَنتِ القلوب ، وأمّل الجليلات الخطوب ، وَكان عاريةً من عوارى نعم الله ، أنعم بها الله على أمير المُؤمنين ، فاستمتَعَ بما أعاره فيه من قُرّة العين والغِبطة والسرور ، إلى أن بلغَ منتهى مُدّةِ ما أُعير ، وقضى كل ارتجاع [أن] يرتجعها مُعيرُها فيبتلِى بها من

---

(١) أى كلفها كجشمها . (٢) جمع ملأ بالتحريك : وهو الجماعة .

أعيرها ، وكان يجرى من تقدير الله فى ذلك على حَتْمٍ من العمر ، وقَسْمٍ من الرزق ، ومدةٍ لها وقتٌ وتأجيل ، فلما استكمل الحَتْمَ من عمره ، واستتمّ القسمَ من رزقه ، قبضه الله إليه اختياراً لما عنده ، وابتلَى أمير المؤمنين ليجمَع له إن شاء الله حسنَ ثواب حِسْبته ، إلى ماضِى ما استمتعَ به فيه من نعمه ، محموداً فى ذلك بلاؤه ، منتصَحاً فيه قضاؤه ، مسلّما فيه لأمره الذى جرَت به سُنَّته ، واعتدلَتْ بالأُسوة فيه حالُ جميع خلقه ، فإنا لله وإنا إليه راجعون ، نسأل الله الذى ابتدأه بمنّه وفضله ، أن يجعله وخليفتَه وارثَ إرثِ نبوّته ، وصَفِيَّ الأصفياءِ من صَفْوته ، وفى معدنِ الفضل من أهل خِيرته ، وأن يُلْحِقه بالأخيار من سَلفه والمنتجَبين[1] الأبرار من فرَطِه ، ويُكرِم فيما لديه مآبَه ، ويُحْسِن فى المَعادِ ثوابَه ، ويُعْظِمَ هناك فضيلَته ، ويقرِّب إليه وسيلته ، ويرفع فى أعالى درجات الصالحين درجتَه ، إكراما بذلك لنبيّه ، وتوقيراً لخليفته ، وتطوُّلا عليه فيه بمَنّه وكرمه ، وأن يُعظم أجر أمير المؤمنين فى مصيبته ويُحسن فيها ثوابَه ، ويُجْزِل فيها عِوَضَه ، ويُكْرِم بها فى المَعاد ذِكرَه ، ويُرِيه من مَعارفِ عاجلِ حُسنِ الخلفِ فى الزيادة النامية فى عباده ، والمواهب المتتابعة فى ولده ، ما يَجبُر به مصيبتَه ، ويُقِرُّ به عينَه ، ويُتِمُّ به كرامته ، ويَبلغ به أفضلَ ما ينتهى إلى رضاه ، من سُبُوغ[2] العطية ، وتمامِ النعمة ، وإيتاءِ كل حسنة ، وصَرْفِ كل سيئة ، ولا يُرِيه وإيانا فى ولده مكروهاً أبدا ، فإنه وليه وولىُّ إتمام النعمة عليه ، وما اختصه به وظاهرَ عليه من المن والإحسان والسلام » .

(اختيار المنظوم والمنثور ١٣ : ٣٠٨)

٩١ ـ فصل له فى الذم

« إن فلانا حُمَة[3] من بقايا حُمَة الشيطان ، جمع الله إليه أولادَ المزامِّ وذوى الفَتك وأبناء النِّقَم ، ثم قدَّم باطلهم بين أعينهم ، فلفَقهم[4] على غير أسباب ، حتى إذا تضايقتْ

---

(١) انتجبه : اختاره . (٢) أى تمامها . (٣) الحمة : الإبرة تضرب بها الحية .

(٤) أى جمع بعضهم إلى بعض ، من لفق الثوب كضرب : ضم شقة إلى أخرى فخاطهما .

بهم المذاهبُ ، أخرجهم الله كالنَّبل لم يوصَل به ريشُه ، ولم يُشْدَد عليه نصلُه ، فطاش عن المرمَى ، وقصُر عن المَدى ، فنزَعُوا أيديهم ، وصاروا إلى ربِّهم بالْخَبَل[1] » .

(اختيار المنظوم والمنثور ١٣ : ٤١٩)

٩٢ — كتاب بشر البلوى إلى يزيد بن منصور

وكتب بِشْر[2] بن أبى كِبَارٍ البَلَوىُّ إلى يزيد بن منصور عامل أبى جعفر المنصور على اليمن ، وقَدِم إلى صَنْعاء أوَّلَ سنة ١٥٤ بعد الفُرَات بن سالم ، وقد طلب منه ما كان فرَضه الفُرَاتُ لنفسه على أهل اليمن :

« بسم الله الرحمن الرحيم : أما بعد ، فإنه قَدِم علىّ كتاب من الأمير ـ حفظه الله ـ مع رسوله نُعْمان الهَمْدانىّ ، يأمرنى أن أبعثَ إليه بفَرْض الفُرَات بن سالم ، وأنا أخبر الأمير ـ أكرمه الله ـ أنه كان قَدِم علينا قبل كتابه كتابُ الله تعالى مع رسوله محمد صلى الله عليه وسلم ، يأمرنا فيه أن نفرّق ماجَمَع الفُرَاتُ، وأن نَهدِمَ مابنَى، وأن نُوالىَ مَن عادى ، وأن نُعادِىَ مَن والى ، ونظرتُ فى الرسالتين ، وقِسْتُ بين الرسولين ، لغير تخيُّرِ عرَضٍ ، ولا لشُبهةٍ بمحمد ٱللهِ دخلَتْ ، فرأيتُ أَنْ لاأنقُضَ ماجاء به محمد بن عبد الله صلى الله عليه وسلم ، لِمَا قَدِم به النعمان ـ لعنه الله وغضب عليه ـ وعلمتُ أنَّهُ من يَزِغْ منا عن أمر الله يُذِقْه من عذاب السَّعِير[3] ، فليَقْضِ الأمير ـ حفظه الله ـ فىَّ ما كان قاضياً[4] ، ثم ليُعَجِّلْ ذلك ولا يُنْظِرْنى[5] ، فوَٱللهِ إنَّ العافية لَفِى عقابه ، وإن العقاب

---

(١) الخبل : الفساد .

(٢) جاء فى المواهب الفتحية ٢ : ١٤٠ « هو من فضلاء اليمن من أهل صنعاء ، من قبيلة بلِىّ كغنى ، وهو أبلغ الناس ، وكانت بلاغته تتهادى فى البلاد ، وكان له فيها مأخذ لم يسبقه إليه أحد ولم يلحقه فيه ، ويتعجب من بلاغته ونفاستها ، وأنه فيها أوحد ، وأنه لايشابه بلاغته البلغاء ، وأنه منفرد بحسن اختلاس القرآن الكريم ــ هكذا ذكر أبو محمد الهمدانى الشهير بابن الحائك المتوفى سنة ٣٣٤ » .

(٣) اقتبسه من قوله تعالى : « وَمَنْ يَزِغْ مِنْهُمْ عَنْ أَمْرِنَا نُذِقْهُ مِنْ عَذَابِ السَّعِيرِ »

(٤) اقتبسه من قوله تعالى : « فَاقْضِ مَاأَنْتَ قَاضٍ » (٥) أنظره : أخره .

لفي عافيته ، وإن الموت خيرٌ من الحياة معه ، إذا كان هذا الجدَّ منه ، والحقْ عنده والسلام » .

(مفتاح الأفكار ص ٢٧٢ ، والمواهب الفتحية ٢ : ١٤١)

٩٣ — كتاب أبي جعفر إلى عامله بحضرموت

وولَّى المنصور رجلا من العرب حَضْرَمَوْتَ ، فكتب إليه والى البريد « إنه يُكثر الخروج في طلب الصيد ببُزَاةٍ[١] وكلابٍ قد أعدَّها » فعزله ، وكتب إليه :

« ثكِلَتك أمُّك[٢] ، وعدِمَتك عشيرتُك ، ماهذه العُدَّةُ التي أعدَدْتَها النِّكاية في الوَحْش ؟ إنَّا إنما استكفيناك أمورَ المسلمين، ولم نستكفِك أمورَ الوحش ، سلِّم ما كنت تَلِي من عملنا إلى فلان بن فلان ، والحَقْ بأهلك مَلوما مَدْحُورا[٣] » .

(تاريخ الطبرى ٩ : ٢٩٧)

٩٤ — فصل من كتاب أبي جعفر إلى الآفاق بالبيعة المهدى

« والمهديُّ ـ معشرَ المسلمين ـ في عَفافه وصلاحه وَوَرَعه وطبائعه وشِيَمه وحِلمه ورأفته واستصلاحه واستبقائه ، وعفوه ومقدرته ، ورأيه وَمكيدته وشَوكتهِ على عدوّه ، وحسن تدبيره في ولايته وسياسته لجنوده ، ورِفقه وعدله ، وأدبه وفقهه ، وفهمه ونجابته ويُمْنِ نَقيبته[٤] وتَوْسِعةِ ذات يده ، واغتفاره وهَدْيه ، وحسن جزائه أهلَ الغَناء[٥] عنه والبلاء معه ، والطاعة له والسمع منه ، ولينه وحزمه وعزمه ، ووفائه وصدقه ، هو المصطنَع[٦] لولايتكم، والمتخيَّر لسياستكم واجتماع أُلفتكم ، وتمام نعمةِ الله عليكم، ولم يكن الله ليُعِدَّ لهذه الأمور إلا مصطنَعا في رأيه، كاملا في فضله وسياسته، قويا على طاعة الله ونَصر دينه والذبِّ عن حقه وملَّته .

---

(١) البزاة جمع البازى: وهو ضرب من الصقور . (٢) ثكله كفرح : فقده .
(٣) دحره كمنع : طرده وأبعده ودفعه . (٤) النقيبة : النفس والطبيعة .
(٥) الغناء . الكفاية . (٦) أى المختار .

وقد بايع أميرُ المؤمنين ومَن قِبلَه من أهل بيته وجنوده ورعيته للمهدى محمد ابن أمير المؤمنين ، ولعيسى بن موسى من بعد محمدٍ المهدىّ ، مستبشرين ببيعتهم ، راغبين فيما صَفَقَت[١] عليه أيمانهم من تخيُّرٍ للذى كان يُذْكَر فى الأمير من تمام نعمَة الله عليهم مؤمِّلين لما فى الأحاديث المأثورة من أهل الحق قبلهم مُوقنين بخيرة الله لهم ، فإن اسم المهدى محمد ابن أمير المؤمنين واسم أبيه ، والزمان الذى كان يُذْكَر ذلك فيه ، والأمور التى تُنْسَب إليه ، والفتوح التى كانت تُذكَر أنها تُفْتَح عليه فى أول أمره ، ومبتَدإ زمانه — وقد رأيناها وَعَرفناها يشهَدُ بعضها لبعض ، متصلةً على حالاتها ، متواليةً على ماذُكر فى الأحاديث منها يصدِّق الأولُ منها الآخِرَ على مراتبها ومنازلها ، والأحايين التى تكون فيها ، لا يُخْرَم[٢] شىء منها عن شىء متلاحقةً ملتئمةً إن شاء الله ولا قوة إلا بالله — واصِلٌ[٣] هذه الأطرافَ المفكَّرَةَ والأعلامَ المقدَّمة بأصولها الجسيمة العظيمة التى ملأت[٤] الأرض نورا وعدلا وعِزا لأهل الإسلام ، وظَفَرا وتأييداً لأهل الحق ، ونصراً وفضلا ونعمةً من الله عليهم ، ولم يحبَّ أميرُ المؤمنين أن يُخْرِج عيسى بن موسى من هذا الإلّ[٥] ، فعقد له من بعد محمد ابن أمير المؤمنين ، وَجَعَلَه ولىَّ عهده ، ونوى أميرُ المؤمنين الخيرَ فى ذلك ، واحتسَبَ الأجرَ من الله عليه ، ورجا صلاحَ الرعية .

فبايعوا باسم الله وعلى بَرَكته وتوفيقه وتسديده ، لمحمد ابن أمير المؤمنين بيعةَ رِضوانٍ من الله إن شاء الله ، بصحّةٍ من نيَّاتكم ، وسلامةٍ من صدوركم ، ووفاءٍ واستقامةٍ بخير صَفْقَةٍ صَفَقَتْ عليها أيمانكم ، وأعظمِها إن شاء الله وأتمّها نعمَةً ، وأحسنها عاقبَةً ، وأبلغها فى طاعَة الله منزلةً ، وأرفعها فى الخير درجَةً ، فأبْشِرُوا بنِعمٍ مخبَّآتٍ عاجلاتٍ وآجلاتٍ يُعزّ الله بها دينكم ، ويتمّ بها النعمةَ عليكم ، ويقمَعُ بها الشيطانَ وجنودَه وأبالستَه ،

---

(١) صفق يده بالبيعة والبيع كضرب وعلى يده : ضرب بيده على يده ، وذلك عند وجوب البيع

(٢) فى الأصل « لايحرم » وأراه مصحفا . (٣) خبر « فإن » .

(٤) فى الأصل « علا » .

(٥) الإل : العهد ، وفى الأصل « إلا » .

ويفلُّ بها حَدَّهم ، ويُوهِن بها قوتهم ، ويَصْرَعهم فى كل مَوْطِن ، ويقتلهم فى كل مشهد ، فإنكم - معشر المسلمين - قد أخذتم فى توفيق الله إياكم ، وتسديده لكم ، بطَرَف أمرٍ فيما ألهمكم الله من بيعتكم المهدى ابن أمير المؤمنين ، سيؤدّيكم إلى النّعم التى كانت توصَف ، والظهورِ الذى كان يُذْكَر » .

(اختيار المنظوم والمنثور ١٣ : ٣٣٩)

٩٥ — كتاب بعض الهاشميين إلى المهدى وهو ولى عهد

وكتب بعض الهاشميين إلى المهدى وهو ولى عهد يشكر له :

« إن الباسَ النِّعَم التى ألبسَ اللهُ الأميرَ كرامةٌ توحَّدَ له بها فى سابق علمه ، ونافذِ قضائه ، فأحَلَّه من التناسُل فى أذكَى النَّسْل ، وأطيبِ المحَلِّ ، طينةً عن طينةٍ ، وأباً عن أب ، وخَلَفاً عن سَلَف ، حتى انتهى به إلى المحلّ الذى منهُ بَرَزَ ، فكان خيرَ البريّة وابنَ خيرِها ، حقًّا له غيرَ مجحود ، وسابقةً له معروفة عند أهل الأدب والدين ، ثم خصَّنا اللهُ فى أنفسنا : بأن جَعَلنا من أهل المعرفة بذلك ، وفى الأمير : بأن جعل لنا فى نَسَبه شَرِكةً انشعبَتْ بها إلينا شُعْبةٌ فى شرفنا المذكور ، وزَيَّنِنا الأعظم ، واللهُ محمودٌ .

ثم كان من بلاء الأمير عندى ما كان فى الخاصَّة مشهورا ، وعن لسانى وشكرى وقولى منشورا ، ولست أدَّعِى حقا لى قِبَلَ الأمير فى القرابة والحُرْمة والموَدَّة إلا وَللأمير عندى الفضلُ والزيادة على القَدْر ، فأما ما علىَّ من واجب الحق للأمير فلا أرانى - وإن اجتهدتُ - بالغاً كُنْهَ حقِّ الأمير علىَّ ، غير أن المحصول منى أن دنياى التى أُصْلِح ، وآخرتى التى أطلُب ، إنما أستَنْجِحها بالأمير ، لأن الأمير فى الدنيا ذو قرابتى ، فالعائِدَةُ(١) علىَّ ، وفى دينى المهدىّ المرتضَى ، على ذلك بَيْعةُ يدى ، ورِضا نفسى ، قد أوضح الله

---

(١) العائدة : الفائدة والمعروف والصلة .

للناس من بَرَكة الأمير وَيُمْنه وعلامات صفته ، مالم يُصبح أحد يحتاج فيه إلى خبَرِ مُخْبِر ، ولا صِفة واصفٍ ، وَالله محمودٌ ، نسأل الله الذى بلَّغَ الأميرَ فى نفسه وعلى ألسُن الناس ما بلَّغ ، أن يتمِّمه له بأحسن ما تَمَّمه لأحدٍ قطُّ فى طول البقاء لأمير المؤمنين ، أطال الله بقاءه ، وأتمّ النعمَة عليه فيه » .

(اختيار المنظوم والمنثور ١٣ : ٣٨٣)

٩٦ — كتاب أبي جعفر عند موته يوصى بالمهدى

وروى الطبرىّ أنه لما مات أبو جعفر المنصور (سنة ١٥٨ هـ) خرج الربيع[1] ابن يونُس ، وفى يده قِرطاس ، فألقى أسفله على الأرض ، وتناول طرَفه ثم قرأ :

« بسم الله الرحمن الرحيم : من عبد الله المنصور أمير المؤمنين إلى مَن خَلَف بعده ، من بنى هاشم ، وشيعتِه من أهل خُراسان ، وعامة المسلمين » ثم ألقى القرطاس من يده وبكى وبكى الناس ، فأخذ القرطاسَ وقال: قد أمكنكم البكاء ، ولكن هذا عَهْدٌ عَهِده أمير المؤمنين ، لابدَّ من أن نقرأه عليكم ، فأنصِتوا ، رَحِمكم الله ، فسكت الناس ثم رجع إلى القراءة . « أما بعدُ : فإنى كتبت كتابى هذا ، وأنا حَىٌّ فى آخر يوم من الدنيا ، وأول يوم من الآخرة ، وأنا أقرأ عليكم السلام ، وأسألُ اللهَ ألاّ يَفْتِنكم بعدى ، ولا يَلْبِسَكم[2] شِيَعاً ، ولا يُذِيق بعضكم بأس بعض ، يابنى هاشم ويا أهل خراسان » .

---

(١) هو أبو الفضل الربيع بن يونس بن محمد بن عبد الله بن أبى فروة كيسان مولى الحارث الحفار مولى عثمان بن عفان ، وزر للمنصور ، وكان مهيبا نصيحا كافيا حازما فطنا ، ولم يزل وزيرا للمنصور إلى أن مات المنصور ، فقام بأخذ البيعة للمهدى ، ثم سعى به أعداؤه إلى الهادى ، فقتله سنة ١٧٠ هـ انظر ترجمته فى الفخرى ص ١٥٨ ووفيات الأعيان ١ : ١٨٠ .

(٢) أخذه من قوله تعالى « قُلْ هُوَ الْقَادِرُ عَلَى أَنْ يَبْعَثَ عَلَيْكُمْ عَذَابًا مِنْ فَوْقِكُمْ أَوْ مِنْ تَحْتِ أَرْجُلِكُمْ أَوْ يَلْبِسَكُمْ شِيَعًا وَيُذِيقَ بَعْضَكُمْ بَأْسَ بَعْضٍ » واللبس : الخلط ، يقال : لبست الأمر ألبسه كضرب: إذا خلطت بعضه ببعض ، أى يجعلكم فرقا مختلفة الأهواء .

ثم أخذ في وصيتهم بالمهديّ ، وإذ كارِهِم البيعةَ له ، وحضهم على القيام بدولته ، والوفاء بعهده . . . إلى آخر الكتاب .

قال النوفلي: قال أبي : وكان هذا شيئا وضعه الربيع .

ثم أخذ الربيع البيعة منهم لمحمد المهدي .

(تاريخ الطبري ٩ : ٣٢٤)

٩٧ — كتاب لجبل بن يزيد تعزية وتهنئة للمهدي

فإنَّه مَنْ أقرَّ لهُ بالقُدْرةِ ، واعترَف لهُ بالرُّبُوبيَّة ، لم يُنكِر مواقعَ أقداره ، وما مَضَتْ به سُنَّتُه على إحلالِها في الأوَّلين والآخرين . وإنَّ الخبَرَ أتانا بوافِدِ أمير المؤمنين المهديّ بأنها[١] كانت بيعةً سليمةً مباركةً ، لم يُطلِع أحداً منَ الناس فيها اعتراضٌ ولا خلافٌ بقول ولا فعل ، بل استفاضَ به الرِّضَا والغِبطةُ ، وَظَهَر السرورُ من العامَّة والخاصَّة ، واجتمَع في ذلك أمران : مصيبةٌ لاتَعْدِلُها المصائبُ ، ولا تُوَازِيها الفجائعُ ، وعائِدَةٌ[٢] من الله تَعظُمُ عن كل ماعسى وَاصِفٌ أن يصفه من أهلها ، أو يعظِّم من وُجُوهِ شكرِ الله فيها ، فإنا لِلهِ وإنا إليه راجعون ، إعظاماً للرزيَّة ، وإقرارا بالقضيَّة ، واعترافا لله بالقدرة .

والحمدُ لِلهِ على ما تَلاَفَى بِهِ عبادَه في بلاَئه ، من نعمته التي لَمَّ بها الشَّعَثَ[٣] ، وجَبَرَ بها المصيبةَ وَشدَّ بها أركانَ الإسلام وَأَهلِه ، وأعظِمْ بالمصيبة مصيبةً نَزَلَتْ ، وأعظِمْ بالنعمَة نعمَةً حَدَثَت . وإن أحقَّ من انتصحَ لله في قضائه ، واعترف بوجود حُسْن بلائه ، مَنْ عِلمَ أن الفجائع أمرٌ جرَتْ به سُنَنُ الله بين عباده تذكيرا وتحذيرا ، ومنْ به انقادت معرفتُها ، ووفَمتْ حُجَجُ الله على العباد فيها ، ولولا ذلك لم يكن لِمعزَّ

(١) الأصل « كأنها » وهو تحريف . (٢) العائدة : المنفعة .

(٣) الشعث : انتشار الأمر .

أن يَرُوم تعزية أمير المؤمنين ، ولا يُؤَسِّي(١) تأسيةً ، إعظاما له عن ذلك ، وتوفيرا لجلال منزلته ، وا كتفاء به فى ذلك بنفسه ، مع الذى يحقّ على جميع المسلمين من الوقوف على مساماة فضله ، والترقِّى فى رفيع درجته ، فعظَّم اللهُ على الحادث النازل أجْرَه ، وأحسنَ على الخلافة عوْنَه ، ثم لا وَكَلَه اللهُ فى شىء من الأمور إلى نفسه ، وألهمه العملَ بما يُرْضيه ، ويبلغ به تأديةَ حقِّه فيما استرعاه واستحفظه ، وجعَلَه أهلَه وأحقَّ به ، واللهُ فاعِلٌ ذلك إن شاء الله والسلام » .

(اختيار المنظوم والمنثور ١٣ : ٣١٠)

٩٨ — تعزية لغسان بن عبد الحميد عن خليفة(٢)

« أما بعدُ : فإن الله تبارك وتعالى جعل المقادير عِلماً ثابتاً عنده ، وكتابا سابقاً منهُ ، فجرَت عليه ومَضَتْ به الأمورُ فى قدرته ، والعبادُ فى قبْضَته ، وليس عبد من عبيده إلا وقد كان عُمْرُه فى الدنيا موظُوفا قبل خَلْقه ، وكان مايصيبه منها مكتوبا عليه قبل أن ينزل به ، ثم جعل أهلَ عبادته أهلَ حظوظٍ متكاملةٍ فى السعادة ، وأهلَ فضائلَ متظاهرةٍ فى الكرامة ، فاصطفى منهم أنبياءه ، وانتَجَبَ(٣) منهم خلفاءه ، وألزمهم على ذلك الموتَ الذى لا بُدَّ منه ، وجعله الحياةَ لهم فيما عنده ، فكانت وفاةُ مَن توَفَّى(٤) منهم له سعادةً فيما يُصيِّرهم إليه ، وحياةُ من أحْيَا منهم له كرامةً فيما يصطنِعُهم له ، فيَمْضى الأول منهم سعيدا ، ويَبْقَى الباقى منهم مُصْطنَعا ، فلا تنقطع الدنيا بماضيهم إلا إلى خير منها ، ولا يَبْقَى باقيهم إلا ليزداد خيرا فيها ؛ قد أخذوا من الله بأسبابٍ أصلح لهم بها مَعادَهم فى آخرتهم ، وحفِظَ لهم بها دنياهم فى مَحْياهم ، يعْرَفُ حقُّ الميت منهم بعد موته ، كما كان يُعْرَف حقُّه فى حياته ، ويُعَظَّم حقُّ الحىِّ منهم للمنزل الذى أنزله الله به .

---

(١) أساه تأسية : عزاه .

(٢) أرى أن هذه الرسالة تعزية من غسان للمهدى عن أبيه المنصور .

(٣) أى اختار (٤) عائد الموصول محذوف : أى من توفاه .

والحمدُ لله الذى جعل أمير المؤمنين « فلانا » من خلفائه الذين عُمِّروا فى كرامته وتمكينه ، ومَضَوْا على أحسن الرجاء فيما عنده ، ثم جَمَعَ له الأجرَ بما أدَّى من حق الله فى حياته ، فيما نظر به للرعيَّة ، من استخلاف أمير المؤمنين بعده ، وجَمَعَ لأمير المؤمنين الأجرَ فى محبته إياه بالبرِّ والمؤازرة له ، وفيما احتسَبَ به من مودَّته ، وقامَ به من الحق فيما استخلفه عليه ، فوالدُكَ يا أمير المؤمنين خيرُ الناس فَرَطا[1] ، وأنت أفضل الناس خَلَفًا ، لقد لقَّيْت واللهِ والدَك من الحياة ما يُرجَّى له فى الوفاة ، وأعقَبَك من مصيبتك به ، ما وطَّأ لك من الخلافة بعده ، وأعقَبَ الرعيةَ من فَقْده ، ما عمِلتَ به فيها من المعدِلة[2] ، والماضى مفقودٌ مستخلَفٌ منه ، والباقى محمودٌ مرضىٌّ به ، وأمرُ الرعية قائم معدولٌ فيه ، فَعَلَ اللهُ كذا والسلام » .

(اختيار المنظوم والمنثور ١٣ : ٣٢٣)

٩٩ — فصل من تعزية له

« ولم يَزَلْ أهلُ بيتِ أمير المؤمنين أعظمَ الناسِ مصيبةً بميِّت ، وأعظمَ الناس نعمةً بحَىٍّ ، لِفضلِ أمواتهم ، ونعمةِ الله على أحيائهم ، فإن الله جعلَ أمواتَهم للمسلمين سَلَفا ، وجعل أحياءهم لهم عِصَما ، فلُحُوق[3] المسلمين بسَلَفِهم من أمواتهم نجاةٌ لهم فى مَعادهم ، واعتصامُهم بطاعة أحيائهم صلاحٌ لأمورهم فى دنياهم ، وأحقُّ الأموات أن يسلُوَ عنه الأحياء ، مَن يُرْثَى له — لفضله — أن يكون اختار اللهُ له ماعنده ، فيذهب ما يوجَد عليه من الحزن ، لِمَا يقع له عند الله من حُسْن الأمل ، فإن الحِسْبة تَجبُر المصيبةَ ، والحزن لايَرُدُّ المَرْزِئَةَ » .

(اختيار المنظوم والمنثور ١٣ : ٣٢٤)

---

(١) الفرط : ماتقدمك من أجر وعمل .
(٢) فى الأصل «المعقلة» ولايستقيم بها المعنى ، وأرى أنها محرفة عن « المعدلة » أى العدل
(٣) فى الأصل « الحقوق » وهو تحريف .

١٠٠ – كتاب له فى المودة

« وقد أصبحتْ للوسائل إليك أسبابٌ، وللحقوق إليك دواعٍ، منها ما يَشْهَدك ممن خالَطَك وكثُر لِقاؤه لك، ومنها ما غاب عنك، من مُؤَدٍّ لحقك، وعارفٍ بفضلك، مناصِحٍ لك، مُدَّخِرٍ لموضع ذلك إذا هُومِتَ[1] به إليك، وليس من كان له نصيبٌ من مخالطتك، بأوجَبَ حقًّا ممن له فضلٌ فى أداء حقك، ولا أحسِب أحدا ممن طالت لك خِلْطتُه[2]، يبلغ من المعرفة بحقك، وما جعل الله فيك من الفضل، ما بلغ[3] أصحابَ النصيحة وإظهار المودة والسرور بما أحدث الله لك من الزيادة، وقد أحبَبْتُ – إذ كنتُ على ذلك لك، وأحرزتُ حظى من معرفة فضلك – أن أحْرِز حظى فى موقع ذلك لى عندك، وأن تجرىَ المكاتبة، وكذا.... » .

(اختيار المنظوم والمنثور ١٣ : ٤٠٩)

١٠١ – عهد من المهدى إلى أحد ولاته

« هذا ما عَهِد به عبد الله المهدىّ محمد أمير المؤمنين إلى فلان، حين ولاَّه ثغرَ أرمينيةَ والباب والأبواب[4]، حَرْبَها وخَرَاجَها وصدقاتِها وجميعَ أعمالها.

أمَرَه بتقوى الله فى سرائره وعَلانيته، والاعتصام بالله والعمل بطاعته، والإيثارِ لحقّه على ما سواه، والمراقبة له والخَشْية منه، والحفظ لدينه وأمانته، والانتهاء إلى ما يحِقّ عليه فيما وافَقَه وخالَفَه، فإن الله لا يُضيع لمحسِن أجرا، ولا يُصْلِح لمُفْسِدٍ عملا.

وأمَرَه أن يُشْعِر قلْبَه مخافَةَ الله وهَيبتَه، وأن يعلم أنه لا حَول ولا قوةَ فى شىء

---

(١) أى توسل. (٢) الخلطة بالكسر : العشرة (وبالضم : الشركة) .

(٣) فى الأصل « بل أبلغ من أصحاب ... » وهو تحريف .

(٤) قال ياقوت [فى معجم الأدباء ٢ : ٩ « باب الأبواب، ويقال له الباب غير مضاف، والباب والأبواب، ... مدينة على بحر طبرستان . وهو بحر الخزر » .

إلا بالله والعمل بطاعته ، فإن الله عز وجل إذا علم بذلك بصدق نيته ، وصحة من يقينه ، أحسنَ عونَه ، وخارَ[1] له فى قضائه ، وكفاه ما همَّه ، ولم يكِله فى شىء من أموره إلى نفسه إن شاء الله .

وأمَرَه أن يتعاهد نفسَه فى دينه وطاعته ونصيحته وحاله ، فى الصغير والكبير من أمره ، ويُكثِر ذكرَ علمه به وقدرته عليه ، وألاَّ يأتمر أمرا حتى يستخيرَ الله فيه ، ويستعينَه عليه ، ويستقضيَه فيه ، بالذى هو أحبُّ إليه ، وأرْضَى عنده ، فإن العاقبة التقْوَى ، وإن أفضل الأمور أصلحُها عاجلا ، وخيرُها عاقبةً ، وأعظمُها أجرا ، وأحسنها ذُخرا ، إن شاء الله .

وأمَره أن يعلم أن الثَّغْر الذى ولاَّه أمرَه ، من أعظم ثغوره عنده ، وأهمّ أعماله إليه ، لِقُربه من العدو ، وَإطْلاله عليهم ، وَموقعه من المسلمين ، وَأنه لم يُسْنِده إليه إلا لحاله عنده ، وَثِقته به ، وَمعرفته بطاعته وَنصيحته ، وَكِفايته وَضبطه وَمبالغته ، وَحسن سيرته ، وسياسته ومكيدته ، ونكايته فى أهل الشرك بالله ، وعن الإسلام ، وأهله وأنه ليس أحد من عماله إنِ اتَّقَى واعتصَم بأمره وأخذ بعهده ورأيه ، بأسرعَ منه بكل أمر زَاده الله به عنده منزلةً ومزيةً وفضلاً .

وأمرَه أن يصلِّىَ الصلواتِ لمواقيتها فى مسجد الجماعةِ ، ولا يتشاغل عنها بغيرها ، فإن الله جعلها عمود الدين ، فقال تبارك وتعالى : « فَإِذَا اطْمَأْنَنْتُمْ فَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ إِنَّ الصَّلَاةَ كَانَتْ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ كِتَابًا مَوْقُوتًا » .

وأمَره أن يفتح بابه لأهل عمله ، ويُقِلّ الاحتجاب عنهم ، ويُلِينَ كَنَفَه[2] لهم ، وينظر فى أمورهم ومظالمهم ، وَيُنْصف بعضهم من بعض ، ولا يُحابى شريفاً لشرفه ، ولا يتعدَّى على وضيع لِضَعَته ، وألاَّ يكون لأحد من الناس ، يخالف الحقّ عنده ،

---

(١) خار الله له فى الأمر : جعل له فيه الخير . (٢) الكنف : الجانب .

موادّةٌ ولا غَميزة[١] ، وأن يصبر نفسه على ما نابه وَوَرَدَ عليه من أمورهم ومظالمهم ، وينظر ويَجلسَ له ، حتى يؤدِّيَ إلى كل ذى حقٍّ حقَّه ، فإن فى ذلك صلاحَهم ومعونتَه على ماينوى من العدل عليهم ، وتأدية حق الله عليه فيهم إن شاء الله .

وأمرَه بحُسْنِ الولاية وَرِفقِ السياسة ، وإظهارِ العدل والعمل بالحق ، وَكفِّ الظلم ، وإبطالِ الجْوْر ، وإيثار أهل الطاعة والنصيحة والفضل والورع وصدق النية ، ويفضِّلهم على غيرهم ، ويستعين بآرائهم فيما هو مُصْدِرُه حتى يكون ما يُمْضى ويُنْفِذ منه بحسَب ما يجتمعون عليه ويرَوْنهُ موافقاً للعدل ، ومجانباً للظلم والجَوْر .

هذا عهدى إليك ، وَأمرى إياك فيما وَليتك ، وأسندتُ إليك وقلّدتك ، فامتثلْه ، واعمَلْ به ولا تجاوِزه ، واستعن بالله فيما غلبك ، يُعِنْك اللهُ ، واللهَ أسأل أن يصلى على محمد عبده ورسوله ، وأن يوفقك ويُحْسِن كفايتك » .

(المنظوم والمنثور ١٣ : ٥٠٣)

١٠٢ — كتاب المهدى إلى محمد بن سليمان

وكتب المهدىّ إلى محمد بن سليمان بن على بن عبد الله بن عباس ، وهو والى البصرة ، يأمره أن يردّ آل زيادٍ إلى نسبهم[٢] .

---

(١) أى مطعن أو مطمع .

(٢) كانت سمية أم زياد قد وهبها أبو الخير بن عمرو الكندى للحارث بن كلدة الثقفى ، وكان طبيبا يعالجه ، فولدت له على فراشه نافعا ، ثم ولدت أبا بكرة ، فأنكر لونه ، وقيل له : إن جاريتك بغى ، فانتفى من أبى بكرة ومن نافع ، وزوجها عبيدا وكان عبدا لابنته ، فولدت على فراشه زيادا ، (فى السنة الأولى من الهجرة كما جاء فى الطبرى ٢ : ٢٥٩) فلما كان يوم الطائف نادى منادى رسول الله صلى الله عليه وسلم : « أيما عبد نزل فهو حر ، وولاؤه لله ورسوله » فنزل أبو بكرة وأسلم ولحق برسول الله ، فقال الحارث بن كلدة لنافع : أنت ابنى فلا تفعل كما فعل هذا ، يريد أبا بكرة ، فلحق به (العقد الفريد ٣ : ٢).

وقد قدمنا لك أخبار زياد واستلحاق معاوية إياه — انظر الجزء الأول ص ٣٣٠ ، ص ٥١١ والجزء الثانى ص ٣٤ ، ومنذ استلحاقه (سنة ٤٤ هـ) أصبح هو وذريته يعدون فى سلالة أبى سفيان ويعتبرون من قريش ، وبعد قليل أصبحت سلالة أبى بكرة مولى رسول الله تعد فى ثقيف .

فلما كانت خلافة المهدى أمر برد آل أبى بكرة من نسبهم فى ثقيف إلى ولاء رسول الله صلى الله عليه وسلم =

« بسم الله الرحمن الرحيم ، أما بعدُ : فإن أحقَّ ما حَمَلَ عليه وُلاةُ المسلمين أنفسَهم وخواصَّهم وعوامَّهم في أمورهم وأحكامهم ، العملُ بينهم بما في كتاب الله ، والاتباعُ لسنة رسول الله صلى الله عليه وسلم ، والصبرُ على ذلك والمواظبةُ عليه ، والرضا به فيما وافقهم وخالفهم ، لِلَّذى فيه من إقامة حدود الله ، ومعرفةِ حقوقه ، واتباعِ مَرضاته ، وإحرازِ جَزائه وحُسن ثوابه ، ولِمَا في مخالفة ذلك والصُّدودِ عنه وغَلَبة الهوى لغيره ، من الضلال والخسارِ في الدنيا والآخرة .

وقد كان من رأْي معاوية بن أبي سُفيان في استلحاقِه زيادَ بن عُبَيدٍ ، عَبْدِ آلِ عِلاجٍ من ثقيف ، وادّعائه ما أباه بعدَ معاويةَ عامّةُ المسلمين ، وَكثيرٌ منهم في زمانه، لِعلمهم بزيادٍ وأبي زياد وأمِّه ، من أهل الرضا والفضل والفقه والورَع والعلم، ولم يَدْعُ معاويةَ إلى ذلك وَرَعٌ وَلا هدًى ، ولا اتباعُ سُنَّة هادية ، ولا قُدوة من أئمة الحق ماضيةٍ ، إلاَّ الرغبةُ في هلاك دينه وآخرته ، والتصميم على مخالفة الكتاب والسُّنَّة ، والعُجْب بزياد في جَلَده ونَفاذه ، وَما رَجا من معونته ومُوَازَرته إياه على باطلِ ما كان يَرْكَن إليه في سيرته وآثاره وأعماله الخبيثة ، وقد قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « الولدُ للفراش وللعاهرِ الحجَرُ »[(١)] وقال : « من ادَّعَى إلى غير أبيه ،

= وبرد آل زياد إلى نسبهم من عبيد . وكان سبب ذلك أن رجلا من آل أبي بكرة رفع ظلامة إلى المهدى ، وتقرب إليه فيها بولاء رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فقال المهدى : إن هذا نسب واعتزاء ماتقرون به إلا عند حاجة تعرض لكم ، وعند اضطراركم إلى التقرب به إلينا ! فقال : ياأمير المؤمنين ، من جحد ذلك فإنا سنقر ، أنا أسالك أن تردني ومعشر آل أبي بكرة إلى نسبنا من ولاء رسول الله ، وتأمر بآل زياد بن عبيد فيخرجوا من نسبهم الذى ألحقهم به معاوية ، فيردوا إلى نسبهم من عبيد في موالى ثقيف ، فأمر المهدى في آل أبي بكرة وآل زياد أن يرد كل فريق منهم إلى نسبه ، وكان مما قوى رأيه في آل زياد أنه قدم عليه وهو ينظر في المظالم رجل منهم ، فقال له : من أنت ؟ قال : أنا ابن عمك ، قال : أى ابن عمى أنت ؟ فانتسب إلى زياد ، فقال له المهدى : يابن سمية الزانية ، متى كنت ابن عمى ؟ وغضب وأمر به فوجىء في عنقه وأخرج ، وكتب المهدى فيهم إلى محمد بن سليمان الكتاب المذكور ، فأخرجوا من ديوان قريش . ثم إن آل زياد بعد ذاك رشوا الديوان حتى ردهم إلى ما كانوا عليه ـ انظر تاريخ الطبرى ٩ : ٣٣٤ والسخرى ص ١٦٢ .

(١) العاهر : الزانى ، أى لاحق له في النسب ولاحظ له في الولد ، وإنما هو لصاحب الفراش ، أى لصاحب أم الولد وهو زوجها أو مولاها ، وهو كقوله الآخر : له التراب ، أى لاشىء له .

أو انتمَى إلى غير مَوَاليه ، فعليه لعنةُ الله والملائكة والناس أجمعين ، لا يقبل الله منه صَرْفاً ولا عَدْلا[١] » .

ولعَمْرى ما وُلِدَ زيادٌ فى حِجْر أبى سفيان ، ولا على فِراشه ، ولا كان عُبيدٌ عبداً لأبى سفيان ، ولا سُمَيَّةُ أَمَةً له ، ولا كانا فى مِلكه ، ولا صارا إليه بسَبب من الأسباب ، ولقد قال معاوية فيما يعلمه أهلُ الحفظ للأحاديث عند كلام نصر بن الحجّاج ابن عِلاط السُّلَمىّ ومن كان معه من مَوالى بنى المُغيرة المخزوميِّين ، وإرادتِهم استلحاقَه وإثباتَ دعوته ، وقد أعَدَّ لهم معاوية حَجَرا تحت بعض فُرُشِه ، فألقاه إليهم ، فقالوا له: نسوِّغ لك ما فعلتَ فى زياد ، ولا تُسَوِّغ لنا مافعَلْنَا فى صاحبنا ! فقال : قضاء رسول الله صلى الله عليه وسلم خير لكم من قضاء معاوية ، فخالف معاويةُ بقضائه فى زياد واستلحاقه إياه ، وما صنع فيه وأقْدَم عليه ، أَمْرَ الله جلَّ وعزَّ ، وقضاءَ رسول الله صلى الله عليه وسلم ، واتّبع فى ذلك هواه رغبةً عن الحقّ ، ومجانبةً له ، وقد قال الله عز وجل : «وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّنِ اتَّبَعَ هَوَاهُ بِغَيْرِ هُدًى مِنَ اللهِ ، إِنَّ اللهَ لاَ يَهْدِى الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ » وقال لداود صلى الله عليه وسلم — وقد آتاه الحكم والنُّبُوَّة والمال والخلافة — : « يَا دَاوُدُ إِنَّا جَعَلْنَاكَ خَلِيفَةً فِى الْأَرْضِ ، فَاحْكُمْ بَيْنَ النَّاسِ بِالْحَقِّ وَلاَ تَتَّبِعِ الْهَوَى فَيُضِلَّكَ عَنْ سَبِيلِ اللهِ ، إِنَّ الَّذِينَ يَضِلُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللهِ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ بِمَا نَسُوا يَوْمَ الْحِسَابِ » .

فأمير المؤمنين يسأل الله أن يَعْصِم له نفسَه ودينَه ، وأن يُعيذه من غَلَبة الهوى ، ويُوفِّقَه فى جميع الأمور لما يحبّ ويرضى ، إنه سميع قريب ، وقد رأى أميرُ المؤمنين أن يردَّ زيادا ومن كان من ولده إلى أمّهم ونَسَبِهم المعروف ، ويُلْحِقَهم بأبيهم عُبيد وأمّهم سُمَيَّة ، ويتّبعَ فى ذلك قول رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وما أجمع عليه الصالحون وأئمةُ الهدى ، ولا يُجيز لمعاوية ما أقْدَم عليه ممن اجتراء على كتابَ الله وسنة رسوله صلى الله

(١) الصرف : التوبة . والعدل : الفدية — انظر الجزء الأول ص ٣٣ .

عليه وسلم ، وكان أمير المؤمنين أحقَّ مَن أخذ بذلك وعَمِل به ، لقرابته من رسول الله صلى الله عليه وسلم واتِّباعِه آثارَه ، وإحيائِه سُنَّتَه ، وإبطاله سُنَنَ غيره الزائغة الجائرة عن الحق والهدى ، وقد قال الله جل وعز : « فَمَاذَا بَعْدَ الْحَقِّ إِلاَّ الضَّلاَلُ فَأَنَّى تُصْرَفُونَ » .

فاعلَمْ أن ذلك مِن رَأْيِ أمير المؤمنين فى زياد وما كان من ولد زياد ، فألحِقهم بأبيهم زياد بن عبيد وأمِّهم سمية ، واحمِلهم عليه ، وأظهِرْه لمن قِبَلك من المسلمين ، حتى يعرِفوه ويستقيمَ فيهم ، فإن أمير المؤمنين قد كتَبَ إلى قاضى البصرة ، وصاحِب ديوانهم بذلك ، والسلام عليك ورحمة الله وبركاته » .

وكتب معاوية بن عبيد الله فى سنة ١٥٩ هـ . (تاريخ الطبرى ٩ : ٣٣٥)

١٠٣ — كتاب بشر البلوى إلى على بن سليمان

وكتَبَ بِشر البَلَوىّ إلى على بن سليمان وكان والياً للمهدى على اليمن يعاتبه(١) :

« بسم الله الرحمٰن الرحيم : أما بعدُ : فإنه مهما اختلَطَ عَلَىَّ من عقلى ، واشتبَهَ علىّ من رأيى ، وشككْتُ فيه من أمرى ، فلستُ أشُكُّ فى أن الله تبارك وتعالى إذا أراد أن يَقْدُرَ(٢) عَلَىَّ رزقى ، أو يبتلِيَ بالشِّدة عِيالى ، أطلَعَك على(٣) باب طمعى ، وَدلَّك على وجه طلبى ، وجعلك جليساً لأهل حاجتى ، ثم ابتلانى بطلبها إليك ، فإذا ذكرتُها لك أسْفَرتَ(٤) وأبشَرتَ ووعدت من نفسك وعداً حسنا ، ففرَّقتُ نفقتى لإسفارك ، ووسَّعتُ على عيالى لإبشارك ، وتسلَّفْتُ(٥) من إخوانى لموعدك ، فإذا أتيتك مُتَنَجِّزاً

---

(١) هكذا نقل صاحب مفتاح الأفكار، وفى المنظوم والمنثور أن هذا الكتاب لمطرف بن أبى مطرف.

(٢) قدر عليه رزقه كنصر وضرب، وقدره : ضيقه.

(٣) فى مفتاح الأفكار « على ذات طمعى » .

(٤) سفر الصبح كضرب وأسفر : أضاء وأشرق ، وأبشرت : أى بشرت .

(٥) أى اقترضت .

ذلك عَبَسْتَ وبَسَرْتَ ، ثم أدبرتَ واستكبرتَ(١) وقد تصرَّمَتِ النفقةُ ، وانقطع الرجاء ، ويئِسْتُ من الطمع ، كما يئِس الكفَّارُ مِنْ أَصْحَابِ الْقُبُورِ(٢) .

وأعظمُ من ذلك عندى كَرْباً ، وأشده جَهْداً(٣) أن غيرك يعرض عَلَيَّ الحاجةَ التى طلبتُها إليك ، فأكرَهُ أن تكون إلاَّ بسببك ، وأن تجرىَ إلاَّ على يدك ، ولَعَمْرِى ما كان ذلك إلا لسابقِ العلمِ فى شِقْوَتى(٤) بك . فأسألُ الله الذى جعل جاهتَك(٥) من بلائى ، وحُسْنَ منزلتك من مُصابى . وطولَ حياتك فتنةً لِعيالى ، أن ينقلَك إلى جَنَّته(٦) قَبْلَ أَنْ يَرْتَدَّ إِلَيْكَ طَرْفُكَ(٧) والسلام » .

(مفتاح الأفكار ص ٢٧٧ ، والمنظوم والمنثور ١٣ : ٤١٦)

١٠٤ — كتاب عيسى بن موسى بنزوله عن ولاية العهد لموسى الهادى

وفاوض المهدىُّ عيسى بنَ موسى فى أن ينزل عن ولاية العهد لابنه موسى الهادى ، وألحَّ عليه فى ذلك فأبَى ، ثم أجابه إلى سؤاله ، على مال عوَّضَه المهدىُّ إياه مِنْ حقه : عشرة آلافِ ألفِ درهم وَضِياعٍ بالزَّابِ الأعلى(٨) وكَسْكَرَ(٩) ، وكتب

---

(١) اقتبسه من قوله تعالى «ثُمَّ عَبَسَ وَبَسَرَ ثُمَّ أَدْبَرَ وَاسْتَكْبَرَ» وبسر كنصر: كلح وعبس .

(٢) أخذه من قوله تعالى : « قَدْ يَئِسُوا مِنَ الآخِرَةِ كَمَا يَئِسَ الْكُفَّارُ مِنْ أَصْحَابِ الْقُبُورِ » .

(٣) الجهد : المشقة . (٤) الشقوة : الشقاء .

(٥) الجاه والجاهة : المنزلة والقدر. وفى المنظوم والمنثور « جاهك » .

(٦) فى المنظوم والمنثور « أن يعجلك إلى نار جهنم » .

(٧) أخذه من قوله تعالى : « قَالَ الَّذِى عِنْدَهُ عِلْمٌ مِنَ الْكِتَابِ أَنَا آتِيكَ بِهِ قَبْلَ أَنْ يَرْتَدَّ إِلَيْكَ طَرْفُكَ » .

(٨) انظر ص ١٤ ج ٣

(٩) كسكر : كورة جنوبى العراق، كانت قصبتها مدينة واسط (التى بين الكوفة والبصرة) .

عليه بذلك كتاباً أشْهَدَ عليه فيه جماعةَ أهل بيته وصحابته وَجميع شيعته وكُتَّابه وجنده فى الدواوين ، ليكون حُجة على عيسى وَقَطعاً لقوله ودعواه فيما خرج منه ، وكان ذلك سنة ١٦٠ هـ .

وهذه نسخة الشرط الذى كتبهُ عيسى على نفسه :

« بسم الله الرحمٰن الرحيم : هذا كتابٌ لعبد الله المهدى محمدٍ أمير المؤمنين ، وَلِوَلِىِّ عهد المسلمين موسى بن المهدىّ ولأهل بيته وجميع قُوَّاده وجُنوده من أهل خُراسان ، وعامَّةِ المسلمين فى مَشَارِق الأرض ومَغارِبها ، وحيثُ كان كأنْ منهم ، كتبتهُ للمهدىّ محمدٍ أمير المؤمنين ، ووَلِىِّ عهد المسلمين موسى بن محمد بن عبد الله بن محمد بن على ، فيما جُعِل إليه من العَهد ، إذ كان إلىَّ ، حتى اجتَمَعَتْ كلمة المسلمين واتَّسَقَ أمرهم ، وَأْتَلَفَتْ أهواؤهم على الرضا بولاية موسى بن المهدىّ محمد أمير المؤمنين وعرفْت الحظَّ فى ذلك علىَّ ، والحظَّ فيه لى ، ودخلتُ فيما دخل فيه المسلمون من الرضا بموسى ابن أمير المؤمنين ، والبَيعةِ له ، والخروج مما كان لى فى رقابهم من البَيعة ، وجعلتكم فى حِلٍّ من ذلك ، وَسَعَةٍ من غير حَرَج يَدْخُل عليكم ، أو على أحد من جماعتكم وعامَّة المسلمين ، وليس فى شىء من ذلك قديمٍ وَلا حَديثٍ لى دَعْوَى ولا طِلْبَةٌ[(١)] ولا حُجة ولا مقالة ولا طاعة على أحد منكم ولا على عامة المسلمين ولا بَيعة ، فى حياة المهدى محمد أمير المؤمنين ، ولا بعده ، ولا بعد ولىّ عهد المسلمين موسى ، ولا ما كنتُ حيًّا حتى أموت ، وقد بايعتُ لمحمد المهدى أمير المؤمنين ، ولموسى ابن أمير المؤمنين مِنْ بعده ، وجعلتُ لهما ولعامَّة المسلمين من أهل خراسان وغيرهم الوفاء بما شرطتُ على نفسى فى هذا الأمر الذى خرجتُ منهُ ، والتَمامَ[(٢)] عليه ، علىَّ بذلك عهدُ الله وما اعتقَدَ أحدٌ من خَلْقه مِن عهدٍ أو ميثاق أو تغليظ أو تأكيد ،

(١) الطلبة بالكسر : الطلب ، والطلبة بفتح فكسر : ماطلبته .
(٢) تم على الأمر وتم عليه بالتحريك : أى استمر عليه .

على السَّمع والطاعة والنصيحة للمهدى محمد أمير المؤمنين ، وولىّ عهده موسى ابن أمير المؤمنين ، فى السرِّ والعَلانية ، والقول والفعل والنية ، والشِّدة والرخاء ، والسَّرَّاء والضَّرَّاء ، والموالاةِ لهما ولمن والاهما ، والمُعاداةِ لمن عاداهما ، كائنا من كان فى هذا الأمر الذى خرجتُ منه ، فإن أنا نَكَبْتُ(١) أو غيَّرتُ أو بَدَّلت أو دَغَلت(٢) أو نويتُ غيرَ ما أعطيتُ عليه هذه الأَيمانَ ، أو دعوتُ إلى خِلاف شىء مما حملتُ على نفسى فى هذا الكتاب ، للمهدى محمد أمير المؤمنين ، ولولىّ عهده موسى ابن أمير المؤمنين ولعامَّة المسلمين ، أولم أفِ بذلك ، فكلُّ زوجة عندى يومَ كتبتُ هذا الكتاب أو أتزوجها إلى ثلاثين سنةً طالقٌ ثلاثا ألْبَتَّةَ(٣) طلاقَ الحَرَج(٤) ، وكل مملوك عندى اليومَ أو أملكه إلى ثلاثين سنةً أحرارٌ لوجه الله ، وكل مال لى نَقْدٍ أو عَرْض(٥) أو قَرْض أو أرض ، أو قليل أو كثير ، تالِدٍ أو طارِف(٦) ، أو أستفيده فيما بعد اليوم إلى ثلاثين سنة ، صدقةٌ على المساكين يَضَع ذلك الوالى حيثُ يَرَى ، وعلىَّ من مدينة السلام(٧) المشىُ حافيا إلى بيت الله العَتيق الذى بمكةَ ،

(١) نكب عنه كنصر وفرح : عدل .

(٢) دغل فى الشىء كمنع : دخل فيه دخول المريب ، وأدغل فيه : أدخل فيه مايخالفه ويفسده ، والمعنى على كليهما مستقيم .

(٣) يقال : لا أفعله بتة بالنصب ، ولا أفعله ألبتة ، لكل أمر لارجعة فيه ونصبه على المصدر ، من البت : وهو القطع المستأصل ، وطلقها ثلاثا بتة وبتاتا وألبتة : أى قطعا لاعود فيها، قال شارح القاموس: « ألبتة ، بقطع الهمزة كما فى نسختنا ، وضبط فى الصحاح بوصلها » وفى شرح التصريح (١ : ٣٣٣ — باب المفعول المطلق) : « وفى اللباب : لم يسمع فى البتة إلا قطع الهمزة ، والقياس وصلها » .

(٤) أى طلاق التحريم ، يقال : حرجت الصلاة على المرأة (كفرح) حرجا بالتحريك : أى حرمت وهو من الضيق ، لأن الشىء إذا حرم فقد ضاق ، وحرج على ظلمك حرجا أى حرم ، ويقال : أحرج امرأته بطلقة أى حرمها .

(٥) العرض : المتاع ، وكل شىء عرض إلا الدراهم والدنانير فإنها عين .

(٦) التالد والتليد والتلاد (بالكسر) والمتلد (بضم فسكون ففتح) : المال القديم الأصلى الذى ولد عندك ، والطارف والطريف : المال المستحدث .

(٧) هى بغداد ، بناها المنصور وانتقل إليها من الهاشمية (وهى مدينة كان قد اختطها أخوه السفاح قرب الكوفة) وشرع فى عمارتها سنة ١٤٥ ونزلها سنة ١٤٩ فكانت قاعدة الدولة العباسية .

نَذْرا واجبا ثلاثين سنةً لا كفَّارة لى ولا مَخْرَج منه إلا الوفاء به ، والله على الوفاء بذلك راعٍ كفيلٌ شهيدٌ ، وكفى بالله شهيدا » .

وَشهِد على عيسى بن موسى بإقراره بما فى هذا الشرْط أربعمائة وثلاثون من بنى هاشم ، وَمن المَوالى وَالصحابة من قرَيش والوزراء والكتب والقضاة .

وكتب فى صفر سنة ١٦٠ هـ ، وختم عيسى بن موسى .

(تاريخ الطبرى ٩ : ٣٣٣)

١٠٥ — كتاب المهدى إلى روح بن حاتم

وفى سنة ١٦٧ هـ تُوُفِّى عيسى بن موسى بالكوفة ، ووالى الكوفة يومئذ رَوْحُ ابن حاتم، فحضر جنازته، فقيل له : تقدَّمْ فأنت الأمير ، فقال : ما كان الله ليَرَى رَوحا يصلى على عيسى بن موسى ، فليتقدَّمْ أكبرُ ولده ، فأبَوا عليه ، وأبى عليهم ، فتقدم العباس بن عيسى فصلَّى على أبيه .

وَبلغ ذلك المهدىّ فغضِب على روح وكتب إليه :

« قد بلغنى ما كان مِنْ نُكُوصِك(١) عن الصلاة على عيسى، أبِنَفْسِك ، أم بأبيك، أم بجَدِّك ، كنت تصلِّى عليه ؟ أوَليس إنما ذلك مَقامِى لو حضرتُ ؟ فإذْ غبتُ كنتَ أنت أولَى به ، لِمَوْضِعك من السلطان » .

فأمر بمحاسبته ، وكان يَلِى الخراج مع الصلاة والأحداث .

(تاريخ الطبرى ١٠ : ٩)

---

(١) نكص عن الأمر : أحجم .

١٠٦ — كتاب أبي عبيد الله إلى المهدى

وكتب إلى المهدىِّ وزيرُه أبو عُبَيد الله[١] وقد عزَله عن ديوان الرسائل سنة (١٦٧) ﻫ، وولاَّه الربيعَ :

« لم يُنْكِر أمير المؤمنين حالى فى قُرْب المُؤانسة، وخُصوص الخِلْطَة[٢]، من حالى عنده قبل ذلك فى قيامى بواجب خدمته التى أدْنَتْنى من نعمته، ووَطَّدَت[٣] لقَدَمى من كرامته، فلِمَ أبَدَّلُ — أعزَّ الله أميرَ المؤمنين — حالَ التبعيد؟ وأقرَّب فى محل الإقصاء، وما يعلم الله منى فيما قلتُ إلاَّ ما عَلِمه أمير المؤمنين، فإن رَأى — أكرمه الله — أن يعارض قولى بعِلْمه بَدْءاً وعاقبةً، فَعَلَ إن شاء الله » .

* * *

فلما قرأ كتابه شهد بتصديقه قلبُه، فقال : ظلَمْنا أبا عبيد الله فلْيُرَدَّ إلى حاله، ويعلم ما تجدَّد له من حسن رأيى فيه . (زهر الآداب ١ : ٣٤٣)

١٠٧ — تحميد لأبى عبيد الله

« الحمد لله الذى شَرَع — لإظهار حقِّه، وإنفاذِ سابِقِ قضائه فيمن ذَرَأَ وَبَرَأَ[٤] من عباده . بإدخال مَن أراد أن يُدْخِلَ فى رحمته، وإنجازِ ما حَقَّ له من العبادة على

---

(١) هو أبو عبيد الله معاوية بن يسار من موالى الأشعريين، كان كاتب المهدى ونائبه قبل الخلافة، ضمه المنصور إليه، وكان قد عزم على أن يستوزره، لكنه آثر به ابنه المهدى، فكان غالبا على أمور المهدى لا يعصى له قولا، وكان المنصور لا يزال يوصيه فيه ويأمره بامتثال مايشير به، فلما ولى المهدى الخلافة فوض إليه تدبير المملكة، وسلم إليه الدواوين، وكان كاتب الدنيا وأوحد الناس حذقاً وعلما وخبرة، ومات سنة ١٧٠ ﻫ » .

وكان الربيع بن يونس يحقد عليه، فجهد أن ينال منه، وسعى بابنه إلى المهدى، واتهمه بالزندقة فقتله المهدى — انظر أخباره فى تاريخ الطبرى ٩ : ٣٣٩ و ١٠ : ٩ والفخرى ص ١٦٣ .

(٢) الخلطة بالكسر : العشرة . (٣) وطد الشىء كوعد ووطده : ثبته .

(٤) ذرأ الله الخلق وبرأهم — كجعل فيهما — خلقهم .

خَلْقه ، بابتدائه خَلْقَهم ، ومُظاهَرتِه الآلاء[١] عليهم ، وَإحسانِه البَلاء عندهم ، وإبلاغِه فى الحجَج إلى عامَّتهم ـ دِيناً رَضِيَه لنفسه وَملائكتِه الذين أسْكَنَ سَمَواتِه ورسُلِه فأَتَمَّه على وجهٍ لم يَرْضَ إلاَّ به[٢] ، وَلم يقْبَلْ إلا إياه ، ثم كان ما أعَزَّ به نفسَه ، وَأظْهَرَ به نورَه ، وأراد أن يَبلُوَ[٣] به عبادَه ، تحقيقاً لِما سبَقَ به علمُه ، وإنفاذاً لِما جرَتْ به مقاديرُه ، أنْ بَعَثَ لِما شرَع من دينه ، واصطفى لتسبيحه وتقديسه من ملائكته المقرَّبين ، مَن ارتضَى واختار من أنبيائه ورُسُله المُجْتَبَيْن[٤] لتبليغ رسالته وإظهارِ حقه ، واستشلاءِ[٥] من أراد سعادتَه مِن خَلْقِه بالرحمة التى اطَّلَعَتْ عليهم وَعمَّتْهم ، لِيُعبَد مُخلَصاً له ، محمودا بما استَحْمَدَ به إلى خَلْقه ، مشهودا له بما أشْهَد به من كلمة الحق ، فكان منهم التبليغُ لِما أُرسِلوا به ، والنصيحة لمن أُرْسِلوا إليه ، غيرَ مختلفين فيما بُعِثوا له ، ولا متفرِّقين فيما استُعْمِلوا فيه ، يدعوهم آخِرٌ إلى ما دعاهم إليه أولٌ ، فيصدِّق بذلك بعضُهم بعضا ، ويهدون إلى الحق وإلى طريق مستقيم ، فمضَتْ رسلُ الله وأنبياؤه على ذلك ، سالكين مِنْهاج الحق وَسبيله ، والدّعاء إلى الله عز وجل وَإلى طاعته ، هادين مهديِّين ، غيرَ مَبْخُوسين شيئا مما كانوا أهلَه فى المنزلة عند الله ، والقُربة منه ، والوسيلةِ إليه ، هم ومن آمَن بهم وعزَّرَهم[٦] واتبع النور الذى أُنْزِل معهم ، حتى تقضَّتْ بهم الأعمارُ ، وتقطَّعَتْ بهم الآثار ، وتخرَّمتْهم[٧] الآجالُ » .

(اختيار المنظوم والمنثور ١٣ : ٢٧٧)

---

(١) الآلاء : النعم ، ومظاهرتها : مضاعفتها ، والبلاء : النعمة أيضا .
(٢) فى الأصل « فأتمن على وجه من لم يرض إلا به » وهو تحريف .
(٣) بلاه يبلوه : اختبره .
(٤) اجتباه : اختاره .
(٥) الاستشلاء : الاستنقاذ من الهلكة .
(٦) التعزير : التفخيم والتعظيم .
(٧) تخرمته المنية واخترمته : أخذته واقتطعته .

١٠٨ — تحميد لأبي عبيد الله

« الحمد لله الذى جعل الإسلام رحمةً قدَّمها لعباده قبل خَلْقِه إياهم ، وَاستيجابِهم إياها منه ، فاصطفاه لنفسه وشَرَعَه لهم دينا يَدِينون بِه ، ثم جعل تجديدَ وَحْيِه ومُتابَعة رسله رحمةً تَلافاهم بها بعد تقديمها ، ومِنةً ظاهرها عليهم قبل استيجابهم لها ، تطوُّلًا على العباد بالنَّعماء ، وإعذارا إليهم بالحجج ، وتقدِمَةً بالوعد ، وإنذاراً إليهم عواقبَ سُخْطه فى المَعاد .

والحمد لله الذى ابتعث محمداً صلى الله عليه وسلم بهُداه وشرائع حقه على فَترة من الرسل ، وطُمُوس من مَعالِم الحق ، ودُرُوسٍ[1] من سُبُل الهدى ، عند الوقت الذى بلغ فى سابق علمه ومقاديره أن يجتبِيَ لدينه الأصفياء ، ويختار له الأولياء ، الظاهِرين بحقه ، القاهرين لمن ابتغى سبيلا غير سبيله ، فعظَّم حُرْمَتَه، ووسَّع حَوْزَتَه ، وصَدَع[2] بأمره ، وجاهَدَ عن حقه فى حَوْماتِ الضلالة وظُلُمات الكفر ، بالحق المبين ، والسِّراج المنير ، ثم جعله مصدّقا لمن سَبَقَه من الرسل ، ومجدّدا لما بُعثوا له وهُدًى ورحمة، ثم جعل لدينه وظائفَ وظَّفها على أهله ، وشرائعَ شَرَعها لهم ، لا يكمُلُ دينهم إلا بها ، وجعل أداءها إليه ، واعتصامَهم بها ، إماما لدينه ، ونِظاما لنوره ، وقِواماً لحقه ، واستيجابا لما وَعَدَ عليه من ثوابه ، وأَمْناً لما أوعَدَ مَن خالَفَه من عقابه ، فليس يَسَعُ أهل الإيمان بالله الذين أكرمهم به ، وأجزَلَ لهم فضلَه وأجْره ، وجعل لهم عِزَّه وعُلوَّه ، واختار لهم الغَلَبة والعاقبة على مَن فارقهم فيه ، إلا معرفتُها وأداؤها بما يُستكمَل به حدودُها وممّا لها من كذا وكذا» .

(اختيار المنظوم والمنثور ١٣ : ٢٧٨)

---

(١) أى امحاء ، (٢) أى جهر .

١٠٩ – تحميد لأبي عبيد الله

« أما بعدُ ، فالحمد لله ذى الآلاء والقدرة ، والطَّوْل والعِزَّة ، الذى اصطفى الإسلام دينا لنفسه وملائكتِه وأنبيائه وَمَن كَرُم عليه من خلقه ، فبعث به محمداً صلى الله عليه وسلم اختصاصاً له فى ذلك بكَراماته ، واصطفاء له به على عباده ، فأعزَّه ومَنَعه ، وكفاه وَحَاطَه ، وتوكَّل لأهله بالعلم والتمكين ، والظهورِ والتأييد ، فلم يُلحِد فيه مُلْحِد ، ولم يَزِغْ عن قبول حقه زائغٌ ، بعد إعذار الله إليه ، وإعادة الحُجَّة لله عليه ، إلا أنزلَ به من الذُّل والصَّغار ، والاجتياح والاستئصال ، ما يجعل له فيه قَمْعاً[1] ، حَمْدًا كثيراً دائما مُرْضيا له ، مُؤَمِّنا من غِيَره[2] ، مُوجِبا لأفضل مَزيد ثوابه » .

(اختيار المنظوم والمنثور ١٣ : ٢٨٤)

١١٠ – تحميد لأبي عبيد الله

« والحمد لله الذى أكرم أمير المؤمنين بما أصارَ إليه من الخلافة ، وإرثِ النبوَّة وجعله القائمَ بأمر عباده وبلاده ، والمُحْيِيَ لسُنَنه ، والذابَّ عن دينه وحقه ، والمُناصِبَ لأهل الشِّرْكِ والجُحودِ به ، ثم نَصَره وأظهرَ فضلَ أيامه ودولته ، ومكَّن له فى بلاد عدوِّه ، وجعل كلمته العُليا ، وأنصارَه الغالبين ، ومَن ناوَأه[3] من أهل الخلافِ الأذلِّين المقهورين ، وعرَّفه من نعمته فى ذلك ومنّته وجميل صُنْعه وعاداته ، أحسنَ ما عوَّد أحداً من أوليائه الذابِّين عن الإسلام وأهلِه ، حَمْداً متتابِعا لا انقطاعَ له ولا انصرامَ دون بلوغ حقه ، وقد كان كذا وكذا » .

(اختيار المنظوم والمنثور ١٣ : ٢٨٩)

---

(١) الصغار : الذل . واجتاحه : أهلكه واستأصله : وقمه كنمه : قهره وذلله .
(٢) أى من نقمته . وغير الدهر : أحداثه المغيرة .   (٣) ناوأه : عاداه .

١١١ — تحميد لأبى عبيد الله فى آخر كتاب

« فالحمد لله على ما يُحْدث لأمير المؤمنين فى دولته وسلطانه ، ولِعَامَّة المسلمين من صُنْعه وكراماته ، فى جسيم الأمور ولطيفها ، وخاصِّها وعامِّها ، بما يجمله للنعمة تماما ؛ وعلى ما يُحِلُّ بعدوّه من بأسه وقوارعه[(١)] ، ويُوقع بهم من جوائحه واستئصاله ، ما يكون لموعوده إنجازا ، حمْدا يبلُغُ رضاه ، ويُستوجَب به مزيدُه » .

(اختيار المنظوم والمنثور ١٣ : ٢٩٥)

١١٢ — كتاب إبراهيم بن أبى يحيى الأسلمى إلى المهدى

« وكتب إبراهيم بن أبى يحيى الأسْلَمِيّ إلى المهدى يعزّيه على ابنته[(٢)] :

« أما بعدُ : فإن أحَقَّ مَن عرَف حقّ الله عليه فيما أخَذَ منه ، من عظَّم حقّ الله عليه فيما أبْقَى له . واعلم يا أمير المؤمنين أنّ الماضِيَ قَبْلك هو الباقى لك ، وأن الباقىَ بعدك هو المأجور فيك ، وأنَّ أجرَ الصابرين فيما يُصابُون به ، أعظمُ من النِّعْمة عليهم فيما يعافَوْنَ منه » .

(البيان والتبيين ٢ : ٣٦ والعقد الفريد ٢ : ٣٥ واختيار المنظوم والمنثور ١٣ : ٣٢٦)

١١٣ — جواب تعزية لشبيب بن شيبة[(٣)]

« قد نالتنى عِظَتُك بما عزَّيتَ به[(٤)] ، فجزاك الله أفضلَ الجزاء ، فمِثلُك أهْدَى النُّصْح ، وتوكَّلَ بالتذكر ، وقَضَى واجبَ الحق عليه فى الإرشاد » .

(اختيار المنظوم والمنثور ١٣ : ٣٢٣)

---

(١) القارعة : الداهية الفاجئة .

(٢) هى ابنته البانوقة ، وقد أظهر عليها المهـدى جزعا لم يسمع بمثله ، فجلس الناس يعزونه ، وأمر ألا يحجب عنه أحد ، فأكثر الناس فى التعازى ، واجتهدوا فى البلاغة — تاريخ الطبرى ١٠ : ٢١ .

(٣) هو شبيب بن شيبة بن عبد الله بن عمرو بن الأهتم المنقرى التميمى ، خطيب عباسى بليغ ، توفى سنة ١٧٠ هـ .

(٤) فى الأصل « قد نالتنى عظتك بما عزيت به أو تعزيتك » والعبارة غير مستقيمة .

١١٤ — كتاب فى البيعة لمحمد بن حجر(١)

« أما بعدُ ، فإن أمير المؤمنين بمنّ الله ونعمته عليه وحسن بدئه وبلائه(٢) عنده ، لم يزل مُذْ حمَّله رعاية هذه الأمة ، وقلّده حَرِيمَهم(٣) ، يفعل كذا .

وقد كان من حادث نعمة الله على هذه الأمة فى حينه هذا وزمانه ، أنْ أخرجَ لهم من ذرّية أمير المؤمنين ذريّةً مباركة طيّبةً ، حَذاهم على مِثاله ، وحَلاّهم بحِلْيته ، وجعل فيهم ولىَّ عهده ، فلمَّ بهم أمورهم ، وسَدَّ بهم ثغورهم ، ثم أحدثُ نعمه عليهم ما ألَّفَ بين قلوبهم ، وأفشى ذكرَه فى خاصّتهم وعامتهم ، وسَمَتْ نحوَه أبصارُهم ، من البيعة لهرون ابن أمير المؤمنين ، وما أمّلوا فى ذلك ورجَوْا من أُلْفتهم فى دينهم ، والبلوغ لأفضل أملهم ، ولم يكن الله ليختارَ للقيام بأمر هذه الأمة ، والذّبّ عن دينها إلا من بيت نبيّه صلى الله عليه وسلم وخيرته وصَفْوته مُضْطَلِعاً(٤) فى رأيه ، كاملا فى فضله ، سائساً قويًّا على طاعته ، ولو أن الرعية عدَلَتْ بأبصارها عنه ، أو تَصَدَّتْ بأهوائها دونه لحقّها اللهُ ، [إذ أفاض عليها ببركته ويُمْنه ، من الخير والصلاح(٥)] ما أصبحَتْ تتقلّبُ فيه من نعمته ، وتتسرْبَله من كرامته ، كما قد عرّفهم وأراهم من حسن ثوابه على صدق نياتهم فيه ، وعظيم رجائهم له ، وقد أتتنا بيعةُ هرون على حين ظَمَأ إليها ، وتطلّعٍ نحوها ، فتبادرَتْها أكُفُّنا ، وأسرعَ إليها شاهدُنا وغائبنا ، وبايَعْنا بيعة رِضوانٍ من الله ، بصِحّةٍ من نيّاتنا ، وسلامةٍ من صدورنا ، مستبشرين ببيعتنا ، راغبين فيما صَفَقَت(٦) عليه أيماننا ، عارفين بأنها مَفتَحُ نعْمة ، ومقدّمة فضيلة ، ودرجة

---

(١) هو محمد بن حجر بن سليمان ، كاتب العباس بن محمد أخى المنصور ، وهو كاتب بليغ مترسل — انظر الفهرست ص ١٧٢ ، ص ١٨١ — .

(٢) أى نعمته . (٣) الحريم : ماتحميه وتقاتل عنه . (٤) أى قويا .

(٥) فى الأصل « لحقها الله صلح ما أصبحت تتقلب . . . » والعبارة كما ترى مضطربة ، وقد زدت مابين القوسين ليستقيم المعنى .

(٦) صفق يده بالبيعة والبيع كضرب وعلى يده : ضرب بيده على يده ، وذلك عند وجوب البيع .

فى الخير رفيعة ، مقدِّمين السرور بها نُصْحَ الجيوب[١] ، باذلين الرجاء فيها ثمارَ القلوب ، فنسأل الله أن يفعل الذى . . . . [٢] »

(اختيار المنظوم والمنثور ١٣ : ٣٤٠)

١١٥ — رسالة ابن سيابة إلى يحيى بن خالد البرمكى

وكتب ابن سَيَابَة[٣] إلى يحيى[٤] بن خالد بن بَرْمَك :

« لِلأَصْيَدِ[٥] الجَوَادِ ، الوَارِى الزِّنادِ ، الماجدِ الأجداد ، الوزير الفاضل ، الأَشَمِّ[٦] الباذل ، اللُّبَابِ الحُلاحِلِ[٧] ، من المستكين المستجير ، البائس الضرير ،

---

(١) جيب القميص : طوقه ، وهو ناصح الجيب أى القلب والصدر . (٢) كذا فى الأصل .

(٣) هو إبراهيم بن سيابة مولى بنى هاشم ، وهو من مقاربى شعراء وقته ، وليست له نباهة ولا شعر شريف ، وإنما كان يتيل بجودته ومدحه إلى إبراهيم الموصلى وابنه إسحاق فغنيا فى شعره ورفعا منه — انظر ترجمته فى الأغانى ١١ : ٥ .

(٤) هو يحيى بن خالد بن برمك وزير الرشيد ، كان جده برمك من مجوس بلخ ، وكان يخدم « النوبهار » وهو معبد كان للمجوس بمدينة بلخ توقد فيه النيران ، وكان برمك عظيم المقدار عندهم ، فلما فتح المسلمون بلخ أسلم ابنه خالد فيمن أسلم من أهلها ، وساد وتقدم فى الدولة العباسية ، واستوزره السفاح بعد وزيره أبى سلمة الخلال ، ولما تولى المنصور الخلافة أقره على وزارته فبقى سنة وشهورا ، وولد له ابنه يحيى ، وكان من النبل والعقل وجميع الخلال على أكمل حال ، فضم إليه المهدى ولده الرشيد وجعله فى حجره ، ثم صار يحيى كاتب الرشيد ونائبه ووزيره قبل أن يتولى الخلافة ، وكان الهادى أراد أن يجعل الخلافة فى ابنه جعفر ، ويخلع أخاه الرشيد ، وسعى إلى الهادى بيحيى بن خالد ، وقيل له : إنه ليس عليك من الرشيد خلاف ، وإنما يفسده يحيى ، فأغضب ذلك الهادى على يحيى وأمر بحبسه ، فلما كانت الليلة التى توفى فيها الهادى (من سنة ١٧٠ هـ) قعد الرشيد للخلافة فدعا يحيى من محبسه — وكان الهادى قد عزم على قتله وقتل الرشيد فى تلك الليلة — وقال له : يا أبت أنت أجلستنى فى هذا المجلس ببركتك ويمنك وحسن تدبيرك وقد قلدتك الأمر ، ودفع له خاتمه ، فتولى الوزارة ونهض بأعباء الدولة أتم نهوض ، وكان كاتبا بليغا لبيبا سديد الآراء حسن التدبير ، ثم أقاله واستوزر ابنه الفضل ، ثم أقال الفضل واستوزر أخاه جعفرا ، إلى أن نكب البرامكة فغضب عليه وحبسه (سنة ١٨٧) وخلده فى الحبس حتى مات فيه (سنة ١٩٠) — انظر وفيات الأعيان ٣ : ٢٤٣ وتاريخ الطبرى ١٠ : ص ٣٤ ، ص ٤٨ : والفخرى ص ١٣٩ ، ١٧٩ ومروج الذهب ٢ : ٢٦٣ .

(٥) الأصيد : الذى يرفع رأسه كبرا ، ومنه قيل للملك أصيد لأنه لا يلتفت من زهوه يمينا ولا شمالا ، والزناد جمع زند بالفتح : وهو العود الذى يقدح به النار ، وورى الزند كوعى وولى : خرجت ناره ، وفلان وارى الزناد : كناية عن مضاء العزيمة . (٦) الأشم : السيد ذو الأنفة .

(٧) لباب كل شىء : خياره ، والحلاحل : السيد الشجاع ، أو الضخم الكثير المروءة ، أو الرزين فى ثخانة ، والمستكين : الخاضع .

فإنى أحمد اللهَ ذا العزة القدير ، إليك وإلى الصغير والكبير ، بالرحمة العامَّة ، والبركة التامة .

أما بعدُ ، فاغنَم واسْلَم ، واعلَمْ — إن كنت تعلَم — أنه من يَرْحَم يُرْحَم ، ومن يَحْرِم يُحْرَم ، ومن يُحسن يَغنَم ، ومن يصنع المعروف لا يَعْدَم[١] ، وقد سبقَ إلىَّ تفضُّلُك علىّ ، واطِّراحُك لى ، وغفلتك عنى ، بما لا أقوم له ولا أقعد ، ولا أنتبه ولا أرقُد ، فلستُ بحىٍّ صحيح ، ولا بميتٍ مستريح ، فَرَرْتُ بعد الله منك إليك ، وتحمَّلت بك عليك ، ولذلك قلت :

أسرَعَتْ بى حَثًّا إليك خِطائى ... فأناختْ بمَذْهَبٍ ذى رَجاءِ[٢]

راغبٌ راهبٌ إليك يُرَجِّى ... منك عَفوًا عنه وفَضْلَ عطاءِ

ولَعَمْرِى ما مَنْ أصَرَّ ومن تا ... ب مُقِرًّا من ذنبه بِسواءِ

فإن رأيتَ — أراك الله ما تحبُّ ، وأبقاك فى خير — أن لا تزهَدَ فيما ترى من تضرُّعى وتخشُّعى ، وتذلُّلِى وتضعُّفى ، فإن ذلك ليس منى بنَحِيزة[٣] ولا طبيعة ، ولا على وجه تصنُّع ولا تخدُّع ، ولـكنه تذلُّلٌ ، وتخشُّع ، وتضرُّع ، من غير ضارِع[٤] ولا مَهِين ولا خاشِع لمن لا يستحق ذلك ، إلّا لِمَن التضرُّعُ له عِزٌّ ورفعة وشرف » .

(البيان والتبيين ٣ : ١١٠)

١١٦ — بين ابن سيابة وصديق له

وكتب إبراهيم بن سَيَابَةَ إلى صديق له يساويه فى الأدب ، ويرتفع عليه فى الحال ، وكان كثيرَ المال ، كثير الصامت ، يستسلفُ منه بعض ما يرتفقُ به إلى أن يأتيه بعضُ ما يؤمِّل ، فكتب إليه صديقه هذا يعتذر ويقول : « إن المال مكذوب له وعليه ،

---

(١) أخذه من قول الحطيئة :

من يفعل الخير لم يعدم جوازيه ... لا يذهب العرف بين الله والناس

(٢) الخطوة بالفتح : المرة الواحدة من الخطو ، والجمع خطوات بالتحريك وخطاء بالكسر .

(٣) النحيزة : الطبيعة . (٤) الضارع : الذليل ، والمهين : الحقير .

والناس يُضيفون إلى الناس فى هذا الباب ما ليس عندهم ، وأنا اليوم مُضِيق[1] ، وليست الحال كما نحبّ ، وأحقُّ مَن عَذَرَ الصديقُ العاقلُ » فلما وَرد كتابه على ابن سيابة كتب إليه : إن كنتَ كاذبا فجعلك الله صادقا ، وإن كنت مَلُوما فجعلك الله معذورا » .

(البخلاء ص ١٧٩ ، والأغانى ١١ : ٦)

١١٧ — كتاب جعفر بن محمد بن الأشعث إلى يحيى بن خالد

وكتب جعفر بن محمد بن الأشعث إلى يحيى بن خالد يستعفيه من عمل :

« شُكْرِى لك على ما أسألك الخروجَ منه ، شكرُ مَن نال الدخولَ فيه ، فأمّا عُذرى فى تطويلِ الكتاب إليك فلم يذهب ، على أن وجوهَ الحوائج قد يكثُر الكلامُ فيها ، وتشتد قراءتُها ، وإن من الحق على الراغب الاكتفاء ببعض ما بلغ ، وَإن نفسى جاشتْ بعظيم حاجتها » .

(المنظوم والمنثور ١٣ : ٣٨١ ، وكتاب الصناعتين ص ٣٢٧)

١١٨ — كتاب آخر

وكتب جعفر إليه أيضاً :

« إنما حمّلت فلانا حاجتى ، لأنه ضَعُفَ عن حَمْل أياديك شكرى ، فجعلتُه شاهِداً على فضلك عندى ، وقيّما بشكرى لك وحدى » .

(المنظوم والمنثور ١٣ : ٣٨٤)

١١٩ — كتاب آخر

وكتب جعفر إلى رجل لم يكاتبه :

« لستُ بما صرفتَ إلىَّ من معروفك ، بأسَرَّ منى بما أهديتَ إلىَّ من قضاء الحق

---

(١) أضاق الرجل فهو مضيق : إذا ضاق عليه معاشه .

عنك ، وقلة ذوى الحزمة بك لأنك قد تصل من لايثق ولا يأنس إلا بمن يعتمد عليه »

(المنظوم والمنثور ١٢ : ٢٦٧)

١٢٠ — كتاب يوسف بن القاسم إلى يحيى بن خالد

وزوّج يوسفُ بن القاسم ابنه أحمدَ بابنةِ الحسن بن سليمان — ويعرف بالشّيمى — وكان من كتّاب البرامكة ، فكتب إلى يحيى بن خالد :

« عرَضَتْ حاجةٌ فكرِهْتُ أنْ أعدِل بها عن الوزير ، فأبْخَسَه[١] — مع معرفتى بمحبته لِرَبٍّ[٢] نعمتِه ، والزيادةِ فى صنيعته — حَظًّا ، ولزِمَنى حقٌّ لا يمكن دفعُه ولا تأخيرُه ، وهو تَقدُمةُ مَهْرٍ عن « أحمد » إلى ابنة الحسن بن سليمان ، فإن رأى الوزيرُ أن يوقِّع مع ما استحققْتُه من أرزاق بشهرين ، سَلَفًا لشهرين ، فَعَلَ ، فإنى أرجو أن أبلُغَ بذلك لعَبده « أحمدَ » محبّتَه ، وأنال بُغيَتَه إن شاء الله » .

١٢١ — رد يحيى عليه

فوقّع يحيى إليه :

« هذه فضيلةٌ فى أوليائنا ، وحقوق فى ضيافتنا ، فنحن بالقيام منها دونك حَرِيُّون ، وبِحَظٍّ نقلِها عن مالك جَديرون ، وقد أمرتُ لأحمدَ بما سألتَ من المال ، بمسألتك فيه ، وزيادة الضعف ، استظهاراً منى له ومؤكدا ، وأمرتُ باستحقاقك لشهرين من مال السلطان — أعزه اللهُ — ومثله صلةً من مالى ، وأنفذْتُ إليك بذلك كلِّه رِقاعاً بخطِّى إلى مَن تقْبِض ذلك منه ، فأما السّلَف من مال السلطان فلا سبيل إليه ، ولا أعرِفُ « جعفرا » يتارك « أحمدَ » إليك ولا إلينا ، كما لم يترك « الفضلُ » « قاسماً[٣] » إن شاء الله » :

---

(١) أى أنقصه . (٢) رب النعمة : تنميتها وزيادتها وإتمامها وإصلاحها .

(٣) يعنى القاسم بن يوسف أخا أحمد بن يوسف، وقد أمر له الفضل بن يحيى لما بلغه خبر أبيه يوسف وأخيه أحمد ، بثلاثين ألف درهم ، ولقيه معاوية بن صالح فقال له : فما عزمت أن تعمل فيها ؟ قال : أرفد بها أخى أحمد فى عرسه ، قال معاوية : وإن أخذها كلها ؟ قال : وإن أخذها كلها فلا بأس .

وفى أسفل الرقعة من شعر يحيى :

عِنْدِى لمثلك إحسانٌ وتـكرِمَة فثِقْ بذلك منى وابسُطِ الأمَلَا
اعمَلْ على ثقةٍ، إنى أنا رَجُلٌ لا أمنَعُ المرء موجوداً إذا سألا
وإن عندى لك الحُسْنَى ونافلةً(١) بنُصْحِ غَيْبِك إذ لم تبْغِ بى بَدَلا

١٢٢ – رد يوسف بن القاسم عليه

فـكتب إليه يوسف بن القاسم :

فهمتُ ما قلتَ فى بِرِّى ومنزلتى ونُصْحِ غيبى وبَسْطِى نحوكَ الأَمَلا
ولم أزَلْ منك من أمرى على ثقةٍ لا أبتغِى بك ممن قد تَرَى بَدَلَا
بصِدقٍ وعدِكَ إذ أسلفْتَ عارِفةً(٢) وحسنِ عفوك عمن زاغ أو جهِلاَ
فِبى وبابْنِيَ وَسْمٌ(٣) فى محبتِكمْ كما تَعَرَّفْتَ مِن نيرانها الإبِلاَ
فقد بَسَطتم لنا جاها بجاهكمُ وقد كفيتم ببذل العُرْفِ مَن بَخِلا
لولاكُمُ كان جُود الناس مشتَبِهاً لـكن بَرَعْتم فأضحى جُودكم مَثَلا

(كتاب الأوراق للصولى ١ : ١٥٦)

١٢٣ – كتاب يوسف بن القاسم إلى محمد بن زياد الحارثى

وكتب يوسف بن القاسم إلى محمد بن زياد الحارثى :

«أَحَفِظك الله وحاطَك، رأيتُك – أكرمك الله – فى خَرْجَتك هذه رغِبْتَ عن مواصلتنا بكُتُبِك، وإبلاغنا خَبرَك، وقطَعْتَنا قطعَ ذى السَّلْوَة، أو أخِى المَلَّة(٤)، حتى كأنك كنت إلى مفارقتنا مشتاقا، وإلى البُعد منا توّاقا، فوقَعَ بُعْدُك بحيثُ

(١) النافلة : العطية . (٢) العارفة : المعروف .

(٣) الوسم : العلامة – أثر الكى – وقوله «كما تعرفت . . .» أى كما تميز الإبل بسماتها وهى الآثار التى تحدث بكيها بالنار، وفى الأصل «كما تفرقت» وهو تحريف .

(٤) مللته ومنه بالكسر مللا وملة وملالة وملالا : سئمته .

تجبُ من جهتين : إحداهما حلاوةُ الولاية ، والأخرى لَذَّةُ الراحة منا ، فإن يكن ذلك كما رجَّيْناه ، قاطعناك مُجملين ، أو لَبِسْناك(١) على يقين ، وإن لم يكن إدلالًا بهدية أعددتها لنا من ناحية عملك ، فليس قدر الهدايا وإن كثُرت ، ولا الفوائد وإن جلَّت ، احتمال لَوْم الإخوان إذا كانت الهدايا تُراد لهم ، والفوائد إنما تنال بهم ، والمباهاة بأعراض الدنيا تراد لخِلْطتهم(٢) ، وما أدرى ما أقول فى اختيارك تركَ الكتب المحدِّثة عن العَتْب بالأسرار المفهومة ، حتى كأنها محادثةُ الحضور ، على تَنائى الدُّور ، والقلوبُ بها مشاهِدة ، وإن كانت الأبدان متباعِدة ، ولئن كذب فيك الرجاء ، لَقَديمًا عزَّ الوفاء ، وقد أصبتك من مرارة العتاب بما لا تُقيم بعده على قطيعة ولا جَفاء ، ولا تتوهَّمَنَّ أنى أدرت إعْناتك(٣) بإعتابى ، ولا أُزْرِى(٤) عليك بكتابى ، فإن وصلتَ فمشكور ، وإن قطعتَ فمعذور ، والسلام » .

(كتاب الأوراق للصولى ١ : ١٥٢)

١٢٤ — بين يوسف بن القاسم ومحمد بن زياد

واقتضى محمد بن زياد الحارثى يوسفَ بن القاسم حوائجَ له ، سأله عَرْضَه لها على الرشيد ، فقال له : إنى أنتظِرُ بها وقتا أرجو لك فيه رجوعَها بمَسَرَّتك دون مساءتك ، ثم كتب محمد بن زياد إليه فى ذلك ، وكان صديقا له مُدِلًّا عليه ، فكان فى كتابه :

« ولولا أنك وَسَمْتَ حاجتى بالتأخير ، لَجَرَت مَجْرَى غيرها ، إمَّا بنجاح ، وإما بسَراحٍ » .

* * *

(١) يقال : لبست قوما : أى تمليت بهم دهرا . (٢) الخلطة بالكسر : العشرة .
(٣) أعنته : أدخل المشقة عليه ، وأعتبه : طلب إليه العتبى (بالضم) أى الرضا .
(٤) زرى عليه كرمى : عابه وعاتبه كأزرى لكنه قليل ، وفى الأصل « ولا أرزأ » وهو تحريف.

فوقّع يوسف بن القاسم فى كتابه :

« صدقتَ وتعدَّيْتَ ، فأمَّا صِدْقُكَ ففى تأخيرى ، وأما تعدّيك ففى عَذْلى عليه ، وإنما طلبتُ وقتاً أُصادِفُ منهُ فيه طِيبَ نفس ، وطَلَاقَةَ وَجْه ، فيمكنني القول — قبلَ عَرْضِ الحاجة — فى تقريظك ، بما لعلّه أن يُميلَ إليك قلبَه ، وَظننتَ أنى أخَّرْتُها توانِياً فتعديتَ » .

وكتب بعدها :

إنى إذا ما صاحِبى تعدَّى   فى اللوم والعذل علىّ حَدَّا
لم أُولِه بالعذلِ عذْلًا قَصْدَا   ولم أُبَقِّ فى احتمالٍ جُهْدَا
فإن أبَى إلا التعدِّى عَمْدَا   أوسعتُه بالحِلْمِ منى صَدَّا
حتى يَرَى وجه اختيارى سدَّا   ويَرجِعَ الذم إلىَّ حَمْدَا

ثم قضى حوائجه ، وكتب إليه :

« قد حقّق الله رجاءنا فيما أملنا ، وأنجح طلبنا فيما ابتغَيْنا ، وخرج التوقيعُ بما أحبَبْنا ، والحمد لله على ذلك » .

وفى أسفل الرقعة :

الرِّفق يُمْنٌ وبعضُ الناس يحسِبهُ   عجزا ، وما العجزُ إلا الُخرْقُ والعَجلُ
وَالُخرْقُ يُورثُ رَيْثاً(١) لانجاحَ له   والرفقُ يحيــا به الآمِلِ الأمَلُ

(كتاب الأوراق للصولى ١ : ١٥٩)

١٢٥ — كتاب ليوسف بن القاسم عن الفضل بن يحيى

وكتب يوسف بن القاسم عن الفضل بن يحيى فى حاجة الرجل :

« فلان قد استغنى باصطناعك إياه عن تحريكى لك بأمْره ، لأن الصنيعة حرْمة

(١) الريث : البطء .

المصطنَع ، ووسيلتهُ إلى مصطنِعه ، سيَّما عند من يُحْسِن الصنيعة ويستتمُّها مستثبِتا الشكر عليها ، والثناء الجميل بها، بَسَطَ الله بالخير يديك ، وَوَصَلَ به أسبابك ، وأعانك عليه ، وجعلك من أهله » . (كتاب الأوراق للصولى ١ : ١٥٨)

١٢٦ — كتاب يحي بن خالد إلى ابنه الفضل

وقال الرشيد ليحيى بن خالد البرمكى : يا أبتِ[١] إنى أردت أن أجعل الخاتَم[٢] الذى فى يد الفضل إلى جعفر ، وقد احتشمتُ من مكاتبته فى ذلك، فاكْفِنيه ، فكتب إليه يحيى :

« قد أمَرَ أمير المؤمنين أعْلَى الله أمْرَهُ — أن يحوِّل الخاتَم من يمينك إلى شمالك » .

١٢٧ — رد الفضل عليه

فكتب إليه الفضل[٣] :

« قد سمعتُ مقالة أمير المؤمنين فى أخى ، وقد أطعتُ أمْرَه، وما انقَلَبَتْ عنى نعمةٌ صارت إليه ، ولا عَزَبَت[٤] عنى رُتْبةٌ طلَعَت عليه » .

فقال جعفر[٥] :

---

(١) كان الرشيد يعظم يحيَ بن خالد ، وكان يدعوه : ياأبت ، لتربيته إياه ويده عليه ، كما قدمنا، ولأن ابنه الفضل كان أخاه من الرضاع ؛ ولذا كان الرشيد يدعوه : يا أخى ، وذلك أن الرشيد ولد أول المحرم سنة ١٤٩ هـ ، وولد الفضل بن يحيي قبله بسبعة أيام ، فجعلت أم الفضل ظئرا للرشيد ، فأرضعت الرشيد بلبان الفضل، وأرضعت الخيزران أم الرشيد الفضل بلبان الرشيد ـ انظر تاريخ الطبرى ١٠ : ٤٨ ووفيات الأعيان ١ : ٤٠٨ .

(٢) يكنى بذلك عن الوزارة ، وكان جعفر أبلغ فى الرسائل والكتابة من الفضل .

(٣) وزر للرشيد كما قدمنا ، وتوفى فى سجنه سنة ١٩٣ هـ (فى السنة التى مات فيها الرشيد) انظر ترجمته فى وفيات الأعيان ١ : ٤٠٨ والفخرى ص ١٨٣ .

(٤) عزب كدخل وجلس : بعد وغاب ، وفى رواية « ولا غربت » وغرب كنصر : بعد أيضا.

(٥) قتله الرشيد سنة١٨٧ كما سيأتى ـ انظر ترجمته فى وفيات الأعيان١ : ١٠٥ والفخرى ص١٨٦ .

« لله أخى ما أنْفَسَ نَفْسَهُ ! وأبْيَنَ دلائِلَ الفضل عليه ، وأقوى مُنَّةَ (٢) العقل فيه ، وأوسعَ فى البلاغة ذَرْعَه (١) ، وأرْحَبَ بها جَنابَه ! يُوجِب على نفسه مايجب له ، ويحمِل بكَرَمِهِ فوق طاقته » .

(زهر الآداب ١ : ٣٣٣ ، ووفيات الأعيان ١ : ٤٠٩ ، والفخرى ص ١٨٦)

١٢٨ — كتاب يحيى بن خالد إلى ابنه الفضل

ثم إن الرشيد قلَّد الفضلَ بن يحيى خُراسان ، فتوجَّه إليها وأقام بها مُدَّةً ، وورد على الرشيد يوما كتابُ صاحب البريد بخراسان ـ ويحيى بن خالد بين يديه ـ يذكر فيه أن الفضل بن يحيى متشاغِل بالصيد وإدمان اللَّذات عن النظر فى أمور الرعية ، فلما قرأه الرشيد رمى به إلى يحيى وقال له : يا أبت اقرأ هذا الكتاب ، واكتب إليه بما يَرْدَعُه عن مثل هذا ، فمدَّ يدهُ إلى دواة الرشيد ، وكتب إلى الفضل على ظهر كتاب صاحب البريد :

« حَفِظك الله يا بُنَيَّ ، وأمْتَعَ بك ، قد انتهى إلى أمير المؤمنين مما أنت عليه ، من التشاغُل بالصيد ومداومة اللذات ، عن النظر فى أمور الرعية ما أنكرَه ، فعاوِدْ ما هو أزينُ بك ، فإنه من عاد إلى ما يَزِينه أو يَشِينه لم يعرِفْه أهلُ دهره إلاَّ به والسلام » :

وكتب فى أسفله هذه الأبيات :

انصَبْ نهاراً فى طِلاب العُلا ... واصبِر على فقدِ لقاء الحبيبِ
حتى إذا الليـــلُ أتى مُقْبِلاً ... واستترَتْ فيه وجوهُ العُيوبِ
فكابِدِ الليلَ بما تشتهِى ... فإنما الليلُ نهارُ الأريبِ (٣)
كم مِن فَتًى تحسِبه ناسِكا ... يستقبلُ الليـــل بأمرٍ عجيبِ

---

(١) المنة : القوة . (٢) أصل الذرع : بسط اليدين . (٣) الأريب : العاقل .

أرْخَى عليه الليلُ أستارَه   فبات فى لهوٍ وعيش خَصيبِ
ولذَّةُ الأحمقِ مكشوفةٌ   يَسْعَى بها كل عدوٍ رقيب

والرشيد ينظر إلى ما يكتب ، فلما فرغ قال : أبلغْتَ يا أبتِ ، فلما ورد الكتاب على الفضل لم يفارق المسجد نهاراً إلى أن انصرف من عمله .

(وفيات الأعيان ١ : ٤٠٩ ، ومروج الذهب ٢ : ٢٨٢)

١٢٩ — كتاب أبي العباس بن جرير إلى الفضل بن يحي

وكتب أبو العباس بن جَرير إلى الفضل بن يحيى :

« لا أعلم منزلةً تُوحِشُنى من الأمير ولا تُوحِشه منى ، لأننى فى المودَّة له كنفسى ، وفى الطاعة كيدِه ، وإنما أُلْطِفُه[1] مِن فَضله ، وقد بعثتُ بعضَ ما يحتاج إليه فى سفره وذَكَرَ ما بَعَثَ .

(زهر الآداب ٣ : ٣٤٣)

* * *

قال صاحب زهر الآداب :

وكتب غيره فى هذا المعنى :

« إذا كان اللَّطَفُ دَليلَ محبة ، ومِيسَمَ[2] قُربة ، كَفَى قليلُه عن كثيره ، وناب يسيرُه عن خطيره ، لاسيما إذا كان المقصود ذا هِمَّة ، لايستعظم نفيسا ، ولا يستصغر خَسيسا ، وقد حُزْتَ من هذه الصفة أجَلَّ فضائلها ، وأرفعَ منازلها » .

(زهر الآداب ٣ : ٣٤٤)

---

(١) ألطفه بكذا : أتحفه وبره به ، واللطف بالضم وبالتحريك : البر والتكرمة ، ويقال : جاءتنا لطفة من فلان بالتحريك أى هدية .

(٢) أى علامة — والميسم كما يكون اسما للآلة التى يوسم بها يكون اسما لأثر الوسم أيضا قال الشاعر :

ولو غير أخوالى أرادوا نقيصتى   جعلت لهم فوق العرانين ميسما

أى أثر وسم .

١٣٠ — كتاب للفضل بن يحيى

وكتب الفضل بن يحيى إلى رجل يشاوره فى أمر حَدَث :

« ليس كل امرئ — وإن كان ذا عزيمةٍ فى رأيه ، وأصالةٍ فى عقله — بمستغنٍ عن مكاشَفَة أهلِ الرأى ، لتوزيع الله عز وجل أقسامَ الفضلِ فى خلقه ، وإشراكه إياهم فى عطاياه فرأيك فى كذا » . (اختيار المنظوم والمنثور ١٣ : ٢٦٧)

١٣١ — كتاب عمر بن مهران إلى الرشيد

وولّى الرشيدُ جعفر بن يحيى مصرَ سنة ١٧٦ هـ ، فولاَّها عمرَ بن مِهْران ، وكان بها قوم قد اعتادوا المَطْلَ وكَسْر الخَراج ، فبدأ برجل منهم ، فَلَوَاه[١] ، فقال : والله لا تؤدى ما عليك من الخراج إلا فى بيت المال بمدينة السلام إن سلمتَ ، قال : فأنا أؤدّى ، فقال : قد حلفتُ ولا أحنَثُ ، فأشخصه مع رجلين من الجند ، وكتب إلى الرشيد :

« إنى دعوت بفلان بن فلان ، وطالبته بما عليه من الخراج فلوانى واستنظرنى[٢] فأنظرتُه ، ثم دعوتُه فدافع ومال إلى الإلطاط[٣] ، فآليتُ ألاَّ يُؤَدِّيَه إلا فى بيت المال بمدينة السلام ، وجملةُ ما عليه كذا وكذا ، وقد أنفذتُه مع فلان بن فلان وفلان بن فلان من قيادة فلان بن فلان ، فإنْ رأى أمير المؤمنين أن يكتب إلىَّ بوصوله فعل إن شاء الله » .

فلم يَلْوِه أحد بشىء من الخراج . (تاريخ الطبرى ١٠ : ٦١)

---

(١) لواه بدينه : مطله .

(٢) استنظره : طلب منه النظرة (بفتح فكسر) وهى التأخير ، وأنظره : أخره .

(٣) لطّ حقه وألط : جحده .

١٣٢ — كتاب ابي الربيع محمد بن الليث إلى جعفر بن يحيي

« وكتب جعفر بن يحيي إلى محمد[١] بن الليث يستوصفه الخطّ ، فكتب إليه » :

« أما بعدُ ، فليكن قلمك بَحْرِيا ، لا متينا ولا رقيقا ما بين الرِّقّة والغِلَظ ، ضيِّق النَّقْب[٢] ، فابْرِه بَرْيًا مستويًا كمنقار الحمامة ، اعطِفْ بطنَه ، ورقِّق شفَتَيْه ، وليكن مِدادك فارسيًّا ، خفيفا إذا وزنته ، فانقَعْه ليلةً ثم صفِّه فى الدَّواة ، وليكن قِرْطاسك رقيقا مستوىَ النَّسج ، تخرج السِّحاة[٣] مستويَةً من أحد الطَّرَفين إلى آخره ، فليست تستقيم السطورُ إلا فيما كان كذلك ، وليكن أكثر تمطيطك فى طَرَف القرطاس الذى فى يسارك ، وأقلّه فى الوَسَط ، ولا تمُطَّ فى الطرف الآخر ، ولا تمط كلمةً ثلاثة أحرف ولا أربعة ولا تترك الأخرى بغير مَطّ ، فإنك إذا قَرَنْتَ القليلَ كان قبيحا ، وإذا جمعتَ الكثير كان سَمِجا .

ثم ابتدئْ الألف برأس القلم كله واخطُطه بعَرْضه واختِمه بأسفله ، وا كتب الياء والتاء والسين والشين والمطّةَ العليا من الصاد والضاد والطاء والظاء والكاف والعين والغين ، ورأسَ كل مُرْسَل ، برأس القلم ، وا كتب الجيم والحاء والخاء والدال والذال والراء ، والمطّةَ السفلى من الصاد والضاد والطاء والظاء والكاف والعين والغين بالسِّنّ السفلى من القلم ، وامْطُطْ بعَرْض القلم ، والمطُّ نِصْفُ الخط ، ولا يقوَى عليه إلا العاقل ، ولا أحسَبُ العاقل يقوى عليه أيضا إلا بالنظر إلى اليد فى استعمالها الحركة والسلام » .

(العقد الفريد ٢ : ١٨١)

---

(١) هو أبو الربيع محمد بن الليث ، من موالى بنى أمية ، وكتب ليحيي بن خالد ، وكان بليغا مترسلا كاتبا فقيها متكلما بارعا واعظا فى رسائله — انظر ترجمته فى الفهرست لابن النديم ص ١٧٥ .

(٢) النقب : الثقب ، بالفتح فيهما .

(٣) سحاة القرطاس : ماأخذ منه : وسحا القرطاس وسحاه : أخذ منه سحاة .

١٣٣ — كتاب له فى السلامة

وكتب أبو الربيع محمد بن الليث فى السلامة :

« أما بعدُ : فإنى كتبت إليك ، وأميرُ المؤمنين — أطال الله بقاءه ، وزيَّن أمرَه بلباس التقوى — ووليُّ عهده — مَدَّ الله للمسلمين فى عمره - فى تظاهُرِ نعم الله عليهما ، وتوالِى إحسانه إليهما ، وَحوادثِ مزيده إياهما وَمَن قِبَلهما وَما يتناهى إليهما ، وَيُعَزَّز لديهما ، من عِز أطرافهما ، وَثغورِ رعيتهما وَجنودهما ، من الأمن وَالسلامة ، والهدوء والاستقامة ، على أحسنِ ما جرَت به العادةُ ، ومضَتْ به النعمة عليهما ، والله محمود مشكور ، وَالأميرُ أسعده الله بما آتاه ، وَمن جمعت النعمة فى ظِلٍّ كَنَفه ، على أحسنِ ما كان يُبليه ويُوليه ، وَيُجْرى النعمة فيه ، وَهو محمود ، وَنحن من تتابُع النعمِ ، وَتكامُلِ المزيد ، بحيثُ يَقْصُرُ الوصفُ عنا ، وَعن الحفظ له نظرُنا ، وَاللهَ نسأل العَوْنَ على شكره وَتأدية حقه » . (المنظوم والمنثور ١٣ : ٣٧٥)

١٣٤ — كتاب له فى الاعتذار

« كيف يَسَعُك أن تأخذنى بظنٍّ ، لو كنتَ فيه على حقيقة عِلْمٍ لما وَسِعَك أخْذى وَلا عقابى عليه ، ولو كانت العقوبةُ على الذنب الكامن فى سُوَيْداء القلب ، واسعةً لك فى حُكْمِ الرَّبِّ ، لكان فيما حَجَبَتِ الغيوبُ من العمل ، ما ينتقل فى القلوب التى لا تثبتُ على حالٍ ، إلاَّ رَيْثَما يتبَعُها انتقالُ ما يدعوك إلى أن تُمسك عنى ، وتقفَ حتى تعرِفَ أيُمضَى رأىٌ أم ينصرف ؟ » .

(المنظوم والمنثور ١٣ : ٣٨٨)

١٣٥ — كتاب منصور النمري إلى الرشيد

وكتب منصور[1] النَّمَرى[2] إلى الرشيد :

« والله يا أمير المؤمنين ما وَخَزَتنا شوكتُهم ، ولا مَضَّتْنا[3] نَرحتُهم ، وإنما نحن حُرْمة من حُرَمك ، وَطَرَف من أطرافك ، فَنَنْشُدك الله أن يَحُول غَضَبُك لنا غضباً علينا ، ونقمتُك فينا نقمةً منا ، فقد صرنا نشترى : ألاَّ تغضبَ لنا بألاَّ تغضبَ علينا ، وألاَّ تنتقمَ فينا بألاّ تنتقم منا » . (المنظوم والمنثور ١٣ : ٣٨٨)

١٣٦ — كتاب محمد بن عبد الله بن حرب

وكتب محمد[4] بن عبد الله بن حرب :

« أما بعد ، فإنى أحمَد الله الذى توحَّد بالحمد لنفسه ، وجعله غايةَ شكرِ عباده ، وَأَوَّلَ دَعْوَى أهلِ جَنَّته[5] إذ أذهب عنهم الحَزَنَ ، وأصارهم إلى مغفرته وحُلولِ دار المُقَامَة من فضله ، وأُتبِـعُ ذلك الصلاةَ على رسول الله صلى الله عليه وسلم كثيراً ، لمـا به من الضلالة هُدِينا ، ومن حَيْرات العَمَى نُجِّينا ، ثم أقول : جعلك الله لـكل خير

---

(١) هو منصور بن الزبرقان بن سلمة بن النمر بن قاسط ، شاعر من شعراء الدولة العباسية من أهل الجزيرة . وهوتلميذ كلثوم بن عمرو العتابى وراويته وعنه أخذ ومن بحره استقى ، ووصفه العتابى للفضل بن يحيى بن خالد وقرظه عنده حتى استقدمه من الجزيرة واستصحبه ثم وصله بالرشيد — انظر ترجمته فى الأغانى ١٢ : ١٦ .

(٢) فى الأصل « النميرى » وهو تحريف .

(٣) مضه الشىء وأمضه : بلغ من قلبه الحزن به .

(٤) كاتب الحسن بن قحطبة على أرمينية ، ثم كتب ليزيد بن أسيد ، ثم كتب الفضل بن يحيى — انظر الفهرست ص ١٨٣ .

(٥) يشير إلى قوله تعالى : « جَنَّاتُ عَدْنٍ يَدْخُلُونَهَا يُحَلَّوْنَ فِيهَا مِنْ أَسَاوِرَ مِنْ ذَهَبٍ وَلُؤْلُؤًا وَلِبَاسُهُمْ فِيهَا حَرِيرٌ. وَقَالُوا الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِى أَذْهَبَ عَنَّا الْحَزَنَ إِنَّ رَبَّنَا لَغَفُورٌ شَكُورٌ. الَّذِى أَحَلَّنَا دَارَ الْمُقَامَةِ مِنْ فَضْلِهِ لَا يَمَسُّنَا فِيهَا نَصَبٌ وَلَا يَمَسُّنَا فِيهَا لُغُوبٌ »

مُوفَّقًا ، ومن كل سوء معصوما ، قد كان أتانى منك كتابٌ حالَ عليه الحَولُ عندى ، ولم يمنعنى من إجابتك فيه فى البَدْء إلا أن رسولك الموصِّل له أخبرنى بإجماعٍ منك على بَعثِه خاصَّةً من أهلك لمطالعتى ، فكانت الإجابة منى مع خاصَّتك أوقعَ بموافقتى ، ثم رأيتك — والله يُصْلِح بالك — قَطعتَ رُسُلَك عنى ، فصار ذلك سبباً لإبطاء جوابى عنك ، غيرَ زاهدٍ فى إخائك ، ولا راغبٍ عن ودادك ، ولا مُنكِرٍ لجميل حالك ، والفاضلِ من أقسام الله لك فيما منحك وأعارك فى عقلك ومحمودِ صفاتك ووفائك ، فإنى وجدت حقائق الأُخوَّة لا تثبُتُ إلا بمَحْض المودَّة من صحة العقل والمجبول فى الطبيعة ، وأصبْتُ العقل قائداً إلى زين العاجلة وحُظُوتها ، ومحبوبِ ما يتعاطف به ذوو الحِجَى فيها ، ويتواصلون به فى دوام نعيمها وميسور أمورها ، ودَرْكا لمذخور أجر الآخرة وسعادتها وما ليس له عَدْلٌ ولا خَطَرٌ من جزائها وثوابها ، وقد ألزَم نفسى من تنافسها فى إخائك وضَنِّها وتمسكها بما أجرى الله بينى وبينك ، ما يجاوز مَدَى المتنافسين فى رغائب الأمور المحروص عليها من كنوز الذهب والفضة ، لأنى رأيت الأموال ، وإن كثرتْ عند مَن يجْمَعها ، حتى لا يُحْصَى عددها وتَعجَز المواضعُ عنده لما نال منها دانيةً لديه إلا رَيْثما تختلف أعصُرُ الدهر عليه فيها بالإتلاف لها ، بالنوائب المفرِّقة لما جَمَع منها ، وكَنْزَ الإخاء ممّن استحكمتْ منه قواه بخالص الصفاء ، أفضلَ ذخيرةً وأحمَدَ مَغَبَّةً ، وأمسَّ عند ملمّات الدهور منفعةً ، وأوصلَ إلى كل مرجوٍّ من خير فى عاجل أو عاقبة ، من كنوز الأموال المكتنَفة المتصرفة ، فعلى ذلك فليكن عندك من الحالة ، وبه فليكن فى غابر الأيام لى الثقة ، وإلى الله الحوْلُ والقوة ، فأمّا قِيلُك : إنا صِرْنا عندك — فيما أخلفْنا من ظنك ، وبعد الذى اختبرتَ من شاهدنا ، ووافقَك منا — كبَرْق الخُلَّب[١] الذى يُضىء قليلا ، ويضمحلُّ وشيكا[٢] ، فإنَّ برق الخلَّب لِمَن عايَنَه غيرُ متصل له

---

(١) البرق الخلب (بالوصف) وبرق الخلب (بالإضافة) : المطمع المخلف .

(٢) أى سريعا .

مايلتمس به النور أمامه ، ولا يبلغ له منتهى غايته فى دُجَى ظلمة الليل وأهواله ، وذلك غيرُ قياسِ مَن رسَخَتْ فى القلوب مودتُه ، واستكنَّت فى سريرتها مِقَتُه[١] ، وساعدتها منه محبَّتُه وثقتُه ، وتمسكتْ بها حبائله ، وانطوت عليها ضمائرُه ، وإن الدليل من ذلك على رأيى فيك ، لاحتفاظى بكتابك إلىَّ منذُ سنةٍ قد مضتْ له ، وهو عندى غير مضيَّع ، ولا مُغْفَل لدىّ ، وقد أتلفتُ ما يناهز المائةَ الألف من مالى فى معاريض توائبى وحاجاتى ، وأنا متمسك بكتابك ، متلوِّم[٢] بحوائجك ، وتأدية الواجب من حقك ، جعل الله الخُلَّة[٣] منا ومنك فيما يُديم به المسَرَّة ، ويوالى به النعمة ، وتكون عاقبته إلى السعادة فى دار الخلود والمُقامة من فضله والسلام » . (المنظوم والمنثور ١٣ : ٣٩٩)

١٣٧ — كتاب محمد بن على إلى محمد بن يحيى بن خالد

وكَتب محمد بن على إلى محمد بن يحيى بن خالد ، وكان والياً على أَرْمينية للرشيد :

« إن قوما صاروا إلى سبيل النُّصْح ، فذكروا ضياعا بأرمينية قد عَفَت وَدَرَسَت[٤] يرجع منها إلى السلطان مال عظيم ، وإنى وقفتُ عن المطالبة حتّى أعرِفَ رأيك » .

١٣٨ — رد محمد بن يحيى عليه

فكتب إليه :

« قرأتُ هذه الرُّقْعة المذمومة وفهمتها ، وسوقُ السِّعاية بحمد الله فى أيامنا كاسِدة ، وألسنةُ السُّعاة فى أيامنا كليلة خاسئة ، فإذا قرأت كتابى هذا فاحمل الناس على قانونك ، وخُذهم بما فى ديوانك ، فإنا لم نُولِّك الناحية لتَتَبُّع الرسوم العافية ، ولا لإحياء الأعلام الدَّاثِرة ، وجنِّبنى وتجنَّبْ بيت جرير يخاطب الفرزدق :

وكنتَ إذا حَلَلْتَ بدار قوم رَحَلْتَ بخِزْية وتركت عارا

---

(١) المقة : المحبة .
(٢) تلوم فى الأمر : تمكث وانتظر .
(٣) الخلة : الصداقة .
(٤) عفا الرسم ودرس ودثر : تمحى .

وأجْرِ أمورك على ما يكسِب الدعاء لنا لا علينا ، وَاعلم أنها مدة تنتهى ، وأيام تنقضى ، فإما ذكر جميل ، وإما خِزى طويل » . (زهر الآداب ١ : ٣٠٥)

١٣٩ — كتاب جعفر بن يحي إلى أحد عماله

وكَتب جعفر بن يحي فى العفو والمسامحة لأحد عماله :

« عندنا الاغتفارُ لِمَا اقترفتَ ، وتصديقُ كلِّ ما قلتَ واحتججتَ بذكره ، وَاعتذرتَ بوَصفه ، والإسقاطُ لِما جَحَدْتَه ، والإكذابُ للجَوْرِ الذى اقترفتَه ، والرجوعُ عما أنكرته ، والزِّيادةُ فيما اختَرته ، استدعاء لك وإن انصرفتَ ، وحِياطةً لما قدَّمْتَ وإن ذُمِمْتَ ، وإيثاراً للإغضاء والاحتمال ، فإنهما أبلغُ فى الإصلاح ، وأنجعُ فى الاستنجاح ، وأسرع فى التعليم ، وأكبر فى التقويم ، إن احتيج إليه فى مثلك ممن تؤمَن عليه قريحتُه ، وتَرُدُّه إلى الاُستقامة تجربته » .

* * *

وله فصل من رسالة :

« فإن العذر إذا جاء واضحا لم يكن لسوء الظن مجازٌ ، ولا لمن أراد التَّجنِّىَ مَخلَص ، وما أريد أن أزداد بك عِلْما إلى علمى » . (المنظوم والمنثور ١٣ : ٣٨٦)

١٤٠ — كتاب حميد بن مهران إلى عامل معزول

وكَتب [حُمَيد(١) بن مِهْرَان] إلى عامل عزل عن عمله :

« بلغنى - أعزك الله - انصرافُك عن عملك ، ورجوعُك إلى منزلك ، فسُرِرت بذلك ، ولم أستفظِعه وأجزَعْ له ، لعلمى بأن قدرك أجَلُّ وأعلى من أن يرفعك عملٌ

(١) فى الأصل « حمدون بن نهراق » ولم أجد فى كتب التراجم ترجمة بهذا الاسم ، وأرجح أن يكون محرفا وصوابه « حميد بن مهران » كما ذكرت ، قال ابن النديم فى الفهرست ص ١٧٩ « حميد ابن مهران الكاتب من أصفهان ، وكان يكتب للبرامكة مدة حياتهم ، وله كتاب رسائل » .

تتولاه ، أو يضَعَك عزلٌ عنه ، ووالله لو لم تختَرْ الانصرافَ ، وتَرِدْ الأعتزالَ ، لكان في لُطف تدبيرك ، وثُقُوب رويّتك ، وحسن تأتّيك[1] ، ما تُزيل به السببَ الداعىَ إلى عزلك ، والباعثَ على صَرْفك ، ونحن إلى تهنئتك بهذه الحال أولَى بنا من أن نعزّيك ، إذ أردت الانصراف فأوتيته ، وأحببتَ الأعتزال فأُعْطِيته ، فبارك الله لك في منقلَبك ، وهنّأَك النعم بدوامها ، ورزقك الشكر الموجبَ لها ، الزائد فيها » .

(زهر الآداب ١ : ٣٢٥)

١٤١ — تحميد لأنس بن أبى شيخ

« الحمد لله الذى بالقلوب معرِفَتُهُ ، وبالعقول حُجَّتُه ، الذى بعث محمداً صلى الله عليه وسلم أميناً فوفّى له ، ومُبَلِّغاً فأدّى عنه ، فحجَّ به المُنكِرَ وتألّفَ به المُدْبِرَ ، وثبّتَ به المستبْصِرَ ، إلى أن توفّاه على مِنْهاج طاعته ، وشريعةِ دينه ، ثم أورثكم عَهْدَه ، وخصّكم بكلمة التقوى ، وجعلكم الأمةَ الوُسْطَى[3] » .

(اختيار المنظوم والمنثور ١٣ : ٢٧٥)

---

(١) تأتى للأمر : ترفق له وأتاه من وجهه .

(٢) قال ابن النديم فى الفهرست ص : ١٨٢ « بلغاء الناس عشرة : عبد الله بن المقفع ، عمار ابن حمزة ، حجر بن محمد ، محمد بن حجر ، أنس بن أبى شيخ — وعليه اعتمد أحمد بن يوسف الكاتب — سالم ، مسعدة ، الهزبر ، عبد الجبار بن عدى ، أحمد بن يوسف » .

وكان جعفر بن يحيى معجبا ببلاغته : وقد اجتباه وجعله كاتبه الخاص ونديمه ، ولما نكب الرشيد البرامكة وقتل جعفرا ، أشركه الرشيد معه فى الإثم وقتله وصلبه على عود فى الرقة .

وفيه يروى ابن عبدوس الجهشيارى عن الجاحظ أنه قال : « كان أنس بن أبى شيخ يكتب لجعفر ابن يحيى ، وكان ذكيا فهما نقى الألفاظ جيد المعانى حسن البلاغة ، وقتل مع جعفر بن يحيى » — انظر كتاب الوزراء والكتاب ص ٢٩٩ .

(٣) الوسطى مؤنث الأوسط ، ويقال : فلان أوسط قومه : أى أشرفهم وأحسبهم .

١٤٢ — كتاب بشر البلوى إلى إبراهيم بن عبد الله الحجبى

وكتب بشر البَلَوىّ إلى إبراهيم بن عبد الله الحَجَبِىّ والى صَنْعاء لهرون الرشيد، لمّا قَدِمها سنة ١٨٢، وعزم على أن يولّى بشرا بعض نواحى اليمن، فعاقه عن ذلك هشام بن يوسف الأَبْناوى(١):

بسم الله الرحمن الرحيم: أما بعد، فإن رَأَى الأمير — أمتع الله به — أن لا يُعْلِم هشاما مايُريد من صِلَتى، فإنه لم يُرِدْنى وآلى قطُّ بخير، ولم يفتح لى بابَ صلةٍ، فتكون منهُ خالصةً لايريد بها إلا وجهَ اللهِ وَحْدَه، ولا يرجو بها إلا ثوابه، إلا عَرَضَ هشام من دونها، فثقّلَها وكرَّهها(٢) وأدارَ القياسَ فيها، وضرب لها الأمثالَ، وألقى الحيلةَ فيها إلى الكاتب والحاجب، «وَقَاسَمَهُمَا إِنِّى لَكُمَا لَمِنَ النَّاصِحِينَ(٣)» ومَدَحنى بما لايُسْمَع به من أخلاقى، وانتقصنى فيما لا يُطْمَع بغيره منى، ليكون ما أظهر من المِدْحة، مصدِّقا لِمَا أسَرَّمِنَ العيْبَة، ثم زخرف ذلك بالموعظة، وزيَّنه بالنصيحة، وقارَبه بالمودّة، وأغراه من ناحية الشفقة، وشهدَ عليه أربعَ شهاداتٍ بالله إنَّهُ لَمِنَ الصَّادِقِينَ، وَالْخَامِسَةُ أَنَّ لَعْنَةَ اللهِ عَلَيْهِ إِنْ كَانَ مِنَ الْكَاذِبِينَ(٤)،

---

(١) نسبة إلى الأبناء، وهم قوم من الفرس استوطنوا اليمن، وهم الذين أرسلهم كسرى مع سيف ابن ذى يزن لما جاء يستنجده على الحبشة، فنصروه وملكوا اليمن وتزوجوا فى العرب، فقيل لأولادهم الأبناء، وغلب عليهم هذا الاسم، لأن أمهاتهم من غير جنس آبائهم — كغلبة الأنصار —.

(٢) وفى مفتاح الأفكار «وكثرها».

(٣) أخذه من قوله تعالى فى قصة إبليس مع آدم وحواء، وقاسمهما: أى أقسم لهما.

(٤) اقتبسه من قوله تعالى: «وَالَّذِينَ يَرْمُونَ أَزْوَاجَهُمْ وَلَمْ يَكُنْ لَهُمْ شُهَدَاءُ إِلَّا أَنْفُسُهُمْ فَشَهَادَةُ أَحَدِهِمْ أَرْبَعُ شَهَادَاتٍ بِاللهِ إِنَّهُ لَمِنَ الصَّادِقِينَ. وَالْخَامِسَةُ أَنَّ لَعْنَةَ اللهِ عَلَيْهِ إِنْ كَانَ مِنَ الْكَاذِبِينَ».

فإذا الحاجب يُزْلِقُنِي ببصره(١)، وإذا الكاتب يَسْلِقُنِي بلسانه(٢)، وإذا الخادم يُعْرِض عني بجانبه(٣)، وإذا الوالي ينظرني نظرَ المَغْشِيِّ عَلَيْهِ مِنَ المَوْتِ(٤)، فصارت وجوه النفع مردودة، وأبوابُ الطمع مسدودة، وأصبح الخير الذي كنت أرجوه هشيماً تَذْرُوهُ الرِّيَاحُ(٥)، والصلة التي كنت أشرفت عليها صَعِيداً زَلَقاً، وَأَصْبَحَ ماؤُها غَوْراً فما أستطيع له طَلَباً(٦)، فأسأل الله الذي جعل لكل نبيٍّ عدوًّا من المجرمين(٧)

---

(١) اقتبسه من قوله تعالى: « وَإِنْ يَكَادُ الَّذِينَ كَفَرُوا لَيُزْلِقُونَكَ بِأَبْصَارِهِمْ لَمَّا سَمِعُوا الذِّكْرَ » أي أنهم لشدة عداوتهم ينظرون إليك نظرا شزرا يكاد يزل قدمك.

(٢) اقتبسه من قوله تعالى: « فَإِذَا ذَهَبَ الْخَوْفُ سَلَقُوكُمْ بِأَلْسِنَةٍ حِدَادٍ » وسلقه بالكلام: آذاه، قال صاحب الصحاح: وبابه ضرب.

(٣) اقتبسه من قوله تعالى: « وَإِذَا أَنْعَمْنَا عَلَى الْإِنْسَانِ أَعْرَضَ وَنَأَى بِجَانِبِهِ ».

(٤) اقتبسه من قوله تعالى: « فَإِذَا أُنْزِلَتْ سُورَةٌ مُحْكَمَةٌ وَذُكِرَ فِيهَا الْقِتَالُ رَأَيْتَ الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ يَنْظُرُونَ إِلَيْكَ نَظَرَ الْمَغْشِيِّ عَلَيْهِ مِنَ الْمَوْتِ ».

(٥) اقتبسه من قوله تعالى: « وَاضْرِبْ لَهُمْ مَثَلَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا كَمَاءٍ أَنْزَلْنَاهُ مِنَ السَّمَاءِ فَاخْتَلَطَ بِهِ نَبَاتُ الْأَرْضِ فَأَصْبَحَ هَشِيماً تَذْرُوهُ الرِّيَاحُ » والهشيم: النابت اليابس المتكسر، تذروه: تطيره وتذهبه.

(٦) اقتبسه من قوله تعالى: « فَعَسَى رَبِّي أَنْ يُؤْتِيَنِ خَيْراً مِنْ جَنَّتِكَ وَيُرْسِلَ عَلَيْهَا حُسْبَاناً مِنَ السَّمَاءِ فَتُصْبِحَ صَعِيداً زَلَقاً أَوْ يُصْبِحَ مَاؤُهَا غَوْراً فَلَنْ تَسْتَطِيعَ لَهُ طَلَباً » والحسبان: البلاء والشر والجراد والصواعق. والصعيد: التراب ووجه الأرض، زلقا أي ملساء لا يثبت عليها قدم، غورا، أي غائرا.

(٧) اقتبسه من قوله تعالى: « وَكَذَلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوًّا شَيَاطِينَ الْإِنْسِ وَالْجِنِّ يُوحِي بَعْضُهُمْ إِلَى بَعْضٍ زُخْرُفَ الْقَوْلِ غُرُوراً ».

أن يكفيَنى شره ، ويَصرِفَ عنى كيدَه ، فإنهُ يَرَانى هُوَ وَقَبِيلُهُ ، مِن حيثُ لا أراهم[١] ، والسلام » .

(مفتاح الأفكار ص ٢٧٣ ، والمواهب الفتحية ٢ : ١٤٠)

١٤٣ — كتاب بشر البلوى إلى إبراهيم بن عبد الله الحجبى

وكتب بِشر[٢] البَلَوِىّ إلى إبراهيم بن عبد الله الحَجَبِىّ أيضاً يستمنحه :

« بسم الله الرحمٰن الرحيم : أما بعدُ ، فإن الله - وله الحمد - قد كان عرضنى وجوها كثيرة ، وخيَّرنى فى مَكاسب حلال ، وكنت - بتوفيق الله عز وجلّ وإحسانه - قد اخترتُ منها ناحيةَ الأمير - حفظه الله تعالى - ورضيتُ به من كل مَطْلَب ، واقتصرت على رجائه من كل مكسَب ، فأثابه اللهُ عز وجل فَتْحًا قَرِيباً ومَغانِمَ كثيرةً عَجَّلَها ، وكانَ اللهُ عَزِيزاً حكيماً[٣] ، وقد عرَف الأمير - أبقاه الله تعالى - طُولَ مودَّتى له ، وَقديمَ حُرْمتى ، وهِجْرتى معه ، وَأنِّى مِمَّن أنفَقَ من قبل الفَتْح وَقاتَلَ[٤] ، ثم إنى

---

(١) اقتبسه من قوله تعالى : « يَا بَنِي آدَمَ لا يَفْتِنَنَّكُمُ الشَّيْطَانُ كَمَا أَخْرَجَ أَبَوَيْكُمْ مِنَ الْجَنَّةِ يَنْزِعُ عَنْهُمَا لِبَاسَهُمَا لِيُرِيَهُمَا سَوْءاتِهِمَا إِنَّهُ يَرَاكُمْ هُوَ وَقَبِيلُهُ مِنْ حَيْثُ لا تَرَوْنَهُمْ » .

(٢) كذا نقل صاحب مفتاح الأفكار ، وفى المنظوم والمنثور أن هذا الكتاب لمطرف بن أبى مطرف .

(٣) اقتبسه من قوله تعالى : « لَقَدْ رَضِيَ اللَّهُ عَنِ الْمُؤْمِنِينَ إِذْ يُبَايِعُونَكَ تَحْتَ الشَّجَرَةِ فَعَلِمَ مَا فِي قُلُوبِهِمْ فَأَنْزَلَ السَّكِينَةَ عَلَيْهِمْ وَأَثَابَهُمْ فَتْحاً قَرِيباً ، وَمَغَانِمَ كَثِيرَةً يَأْخُذُونَهَا وَكَانَ اللهُ عَزِيزاً حَكِيماً » .

(٤) اقتبسه من قوله تعالى : « لا يَسْتَوِي مِنْكُمْ مَنْ أَنْفَقَ مِنْ قَبْلِ الْفَتْحِ وَقَاتَلَ أُولٰئِكَ أَعْظَمُ دَرَجَةً مِنَ الَّذِينَ أَنْفَقُوا مِنْ بَعْدُ وَقَاتَلُوا ، وَكُلًّا وَعَدَ اللهُ الْحُسْنَى » والمراد بالفتح فى الآية فتح مكة .

لم أتحرّف(١) ـ بحمد الله ـ بعد الهجرة ، ولم أنافق بعد النُّصْرة ، ولم أكن كحاطب(٢) حين ألقى بالمَوَدَّة(٣) ، ولا كتميمٍ يومَ نادَوْا مِن وراء الحُجُرَاتِ(٤) ، بل أقمتُ على مكانتى ، واصطبرتُ على عُسْرتى ، لا أَرُدُّ الجَوْعةَ إلا بالبُلْغَةَ(٥) أحيانا ، ولا أُوَارِى العَوْرَةَ إلا بالغُنْيةِ(٦) زمانا ، حتى جاء الفتحُ مِنْ عند الله(٧) ، وَطَلَعَ الأمير ـ حفظه الله ـ

(١) فى الأصل «المنظوم والمنثور» «أتعرف» وهو تحريف، وتحرف وانحرف واحرورف : مال وعدل .

(٢) هو حاطب بن أبى بلتعة ، وكان من خبره أن رسول الله صلى الله عليه وسلم لما أجمع السير إلى مكة لفتحها (سنة ٨ هـ) دعا الله أن يعمى الأخبار على قريش ، فكتب إليهم حاطب كتابا يخبرهم بمسير رسول الله صلى الله عليه وسلم إليهم ، وبعثه مع امرأة وجعل لها جعلا ، فأعلم الله رسوله ذلك ، فبعث أثرها عليا والزبير والمقداد ، وقال انطلقوا حتى تأتوا روضة خاخ ، فإن بها ظعينة معها كتاب فخذوه منها ، فانطلقوا إلى الروضة فوجدوا بها المرأة ، فقالوا لها : أخرجى الكتاب ، قالت ، مامعى كتاب ، فقالوا : لتخرجن الكتاب أو لنلقين الثياب ، فأخرجته من عقاصها ، فأتوا به رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فقال : ماهذا يا حاطب ؟ قال : لا تعجل على يا رسول الله : إنى كنت امرأ ملصقا فى قريش ، وكان من معك من المهاجرين لهم قرابات يحمون بها أهليهم وأموالهم بمكة ، فأحببت إذ فاتنى ذلك أن أتخذ عندهم يدا يحمون بها قرابتى ، ولم أفعله ارتدادا عن دينى ، ولا رضا بالكفر بعد الإسلام ، فقال عليه الصلاة والسلام : أما إنه قد صدقكم ، فقال عمر : دعنى يا رسول الله أضرب عنق هذا المنافق ، فقال : إنه قد شهد بدرا ، وما يدريك يا عمر ! لعل الله قد اطلع على أصحاب بدر يوم بدر فقال : اعملوا ماشئتم فقد غفرت لكم ـ انظر كتب السيرة ـ .

(٣) اقتبسه من قوله تعالى : « يَاأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَاتَتَّخِذُوا عَدُوِّى وَعَدُوَّكُمْ أَوْلِيَاءَ تُلْقُونَ إِلَيْهِمْ بِالْمَوَدَّةِ وَقَدْ كَفَرُوا بِمَا جَاءَكُمْ مِنَ الْحَقِّ » وقد نزلت هذه الآية فى حاطب بن أبى بلتعة للسبب المتقدم ذكره ، وفى مفتاح الأفكار والمواهب الفتحية « حين ألقى بالمدة » وقال صاحب المواهب الفتحية فى تفسير تلك الرسالة : « والمدة بضم الميم : اسم ما استمددت به من المداد على القلم ، وهى المعروفة عند العوام بالملة ، أى حين ألقى بالمداد على تلك الصحيفة » .

وعندى أن ذلك التفسير متكلف ، وأن كلمة « بالمدة » محرفة عن « بالمودة » ويؤيد ذلك ما جرت به سنة بشر البلوى فى الكتابة من اقتباس آى القرآن كما عرفت .

(٤) يشير إلى قوله تعالى : « إِنَّ الَّذِينَ يُنَادُونَكَ مِنْ وَرَاءِ الْحُجُرَاتِ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ . وَلَوْ أَنَّهُمْ صَبَرُوا حَتَّى تَخْرُجَ إِلَيْهِمْ لَكَانَ خَيْرًا لَهُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ » وذلك أنه وفد عليه صلى الله عليه وسلم سنة تسع وفد بنى تميم ، فجلسوا ينتظرونه ، فلما أبطأ عليهم نادوا من وراء حجراته بصوت جاف : أن يا محمد اخرج إلينا ، فآذى ذلك رسول الله صلى الله عليه وسلم من صياحهم ، فنزلت فيهم الآية .

(٥) البلغة : مايتبلغ به من العيش .

(٦) الغنية بالضم والكسر : اسم من الاستغناء .

(٧) اقتبسه من قوله تعالى : « إِذَا جَاءَ نَصْرُ اللَّهِ وَالْفَتْحُ »

فلما ظهر وتمكَّن ، ورجَوْنا الغِنَى منه حين أيسَرَ وأثخَنَ(١) ، والعزَّ تماماً عَلَى الَّذِى أَحْسَنَ(٢) ، وأنْ يَشْفِيَ اللَّهُ بِهِ صُدُورَ قَوْمٍ مُؤْمِنِينَ(٣) ويُذْهِبَ غَيْظَ قُلُوبِهِمْ رَكَن إلى الظالمين ، وأصغى إلى المُداهنين ، واستمع من المنافقين ، وعفا عن المُرْجِفين(٤) ، وتجاوز عن المستهزئين ، وخفض جَناحه للمتكبِّرين ، وصعَّر(٥) خدَّه للمستضعَفين ، وعَبَس في وجوه المُقِلِّين ، وجفا عشيرَته الأقربين ، وأقصى شيعته الأوَّلين والآخرين ، وحرَم إخوانه الأقدَمين ، « فَمَا تَنْفَعُهُمْ شَفَاعَةُ الشَّافِعِينَ » ثم تأوَّل الكتاب ، فتعدَّى الصوابَ ، وقرَّب الأحزابَ ، وآوَى المتخلِّفين(٦) من الأعراب ، وآثرَ بالفَيْء مَن لم يُوجِفْ عليه بخَيْلٍ ولا ركاب(٧) ، فأصبحت أياديه عند المؤلَّفةِ قلوبُهم ، ومَن كان يُسِرُّ النفاقَ فيهم ، ويَلْمِزُه في الصَّدَقات منهم(٨) ، وصنائعُه عند المعذِّرين من

---

(١) أثخنه : غلبه ؛ أى حين غلب أعداءه وقهرهم .

(٢) أخذه من قوله تعالى: « ثُمَّ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ تَمَامًا عَلَى الَّذِى أَحْسَنَ وَتَفْصِيلًا لِكُلِّ شَيْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً لَعَلَّهُمْ بِلِقَاءِ رَبِّهِمْ يُؤْمِنُونَ » .

(٣) اقتبسه من قوله تعالى: « قَاتِلُوهُمْ يُعَذِّبْهُمُ اللَّهُ بِأَيْدِيكُمْ وَيُخْزِهِمْ وَيَنْصُرْكُمْ عَلَيْهِمْ وَيَشْفِ صُدُورَ قَوْمٍ مُؤْمِنِينَ وَيُذْهِبْ غَيْظَ قُلُوبِهِمْ » .

(٤) أرجف القوم : خاضوا فى أخبار الفتن ونحوها .

(٥) صعر خده : أماله كبرا .

(٦) فى مفتاح الأفكار « وأوفى المخالفين » .

(٧) اقتبسه من قوله تعالى : « وَمَا أَفَاءَ اللَّهُ عَلَى رَسُولِهِ مِنْهُمْ فَمَا أَوْجَفْتُمْ عَلَيْهِ مِنْ خَيْلٍ وَلَا رِكَابٍ » ووجف البعير والفرس وجفا : عدا ، وأوجفته : أعديته .

(٨) اقتبسه من قوله تعالى : « وَمِنْهُمْ مَنْ يَلْمِزُكَ فِى الصَّدَقَاتِ فَإِنْ أُعْطُوا مِنْهَا رَضُوا وَإِنْ لَمْ يُعْطَوْا مِنْهَا إِذَا هُمْ يَسْخَطُونَ » واللمز : العيب ، وأصله الإشارة بالعين ونحوها ، وفعله كضرب ونصر .

الأعراب(١) ، والذين جاءوا من بعدهم ، ظاهرةً فى الآفاق وفى أنفسهم(٢) ، وأصبح نُقَباء العَقَبةِ(٣) ، وفُقَراء الهجرة ، ومساكين الصُّفَّة(٤) تَفِيضُ أَعْيُنُهُمْ مِنَ الدَّمْعِ حَزَنًا أَلَّا يَجِدُوا مَا يُنْفِقُونَ(٥) ، وأصبح السابقون الأوَّلون منا ومن أهل النُّصرة(٦) مُرْجَيْنَ لِأَمْرِ الله(٧) ، والتائبون العابدون موقوفين لحكم الله ، وأصبح الفقراء المستضعفون محصورين فى سبيل الله ، فإنْ رأى الأمير ـ حفظه الله تعالى ـ أن يَميِّزنا

---

(١) اقتبسه من قوله تعالى : « وَجَاءَ الْمُعَذِّرُونَ مِنَ الْأَعْرَابِ لِيُؤْذَنَ لَهُمْ » والمعذر: إما من عذر فى الأمر: إذا قصر فيه موهما أن له عذرا ولا عذر له، فمعناه : المقصرون الذين لا عذر لهم ، وإما من اعتذر ، فأصله المعتذرون ، ألقيت فتحة التاء على العين وأبدل منها ذالا وأدغمت فى الذال التى بعدها ، ومعناه : الذين يعتذرون ، كان لهم عذر أو لم يكن ، وقرأ ابن عباس « المعذرون » بسكون العين ، وهم الذين لهم العذر ، وكان يقول : والله لكذا أنزلت ، وقال : لعن الله المعذرين «بالتشديد».

(٢) اقتبسه من قوله تعالى: « سَنُرِيهِمْ آيَاتِنَا فِى الْآفَاقِ وَفِى أَنْفُسِهِمْ حَتَّى يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ الْحَقُّ » .

(٣) العقبة : بين منى ومكة ، بينها وبين مكة نحو ميلين ، ومنها ترمى جمرة العقبة ، ونقباؤها : هم الذين بايعوا رسول الله صلى الله عليه وسلم عندها ، وذلك أنه كان فى بدء أمره يوافى الموسم ، ويتتبع القبائل فى رحالها يدعوهم إلى أن يمنعوه ليبلغ رسالة ربه ، فلا يجد من ينصره ، حتى كانت سنة إحدى عشرة من النبوة ، لقى ستة نفر من الأوس عند هذه العقبة فدعاهم إلى الإسلام وعرض عليهم أن يمنعوه فقالوا : هذا والله النبى الذى تعدنا به اليهود ، يجدونه مكتوبا عندهم فى التوراة ، فآمنوا به وصدقوه ، ثم انصرفوا إلى المدينة ، وذكروا أمر رسول الله صلى الله عليه وسلم فأجابهم ناس وفشا فيهم الإسلام ، ولما كانت سنة اثنتى عشرة من النبوة وافى الموسم منهم اثنا عشر رجلا ، هؤلاء الستة وستة أخر ، فآمنوا وأسلموا ، فلما كانت سنة ثلاث عشرة من النبوة أتى منهم سبعون رجلا وامرأتان .

(٤) أهل الصفة . هم فقراء المهاجرين ومن لم يكن له منهم منزل يسكنه ، فكانوا يأوون إلى صفة مسجده صلى الله عليه وسلم ، وهى موضع مظلل من المسجد يبيتون فيه .

(٥) اقتبسه من قوله تعالى: « تَوَلَّوْا وَأَعْيُنُهُمْ تَفِيضُ مِنَ الدَّمْعِ حَزَنًا أَلَّا يَجِدُوا مَا يُنْفِقُونَ » .

(٦) اقتبسه من قوله تعالى : « وَالسَّابِقُونَ الْأَوَّلُونَ مِنَ الْمُهَاجِرِينَ وَالْأَنْصَارِ وَالَّذِينَ اتَّبَعُوهُمْ بِإِحْسَانٍ » .

(٧) اقتبسه من قوله تعالى : « وَآخَرُونَ مُرْجَوْنَ لِأَمْرِ اللهِ إِمَّا يُعَذِّبُهُمْ وَإِمَّا يَتُوبُ عَلَيْهِمْ » .

فإنا قد سَغَبْنا[١] ، وأن يَعطفَ علينا من قبل أنْ يَزِيغَ قُلُوبُ فَرِيقٍ[٢] مِنَّا ، فَعَلَ ، فـ«إِنَّ الإِنْسَانَ خُلِقَ هَلُوعًا[٣] ، إِذَا مَسَّهُ الشَّرُّ جَزُوعاً ، وَإِذَا مَسَّهُ الْخَيْرُ مَنُوعًا » ولست أدرى ماذا أعتذرُ به اليومَ إلى الناس فى أمرى عن الأمير ! وهم يعلمون أنى قد رأيتُ فيه تُلُثَىْ أملى ، ولم أبلغ فى نفسى رُبعَ رجائى ، أم ماذا ينتظر الأمير ـ حفظه الله ـ فىَّ ؟ بعد أن آتاه الله المُلكَ ، وعلَّمه الحكمة[٤] ومكَّنه من خزائن الأرض[٥] ، وجعله فى الدنيا وجيهاً[٦] ، وفى الإسلام مكيناً . وعند الخليفة ـ أبقاه الله تعالى ـ مُطاعاً أميناً[٧] ، فمن يفِرُ[٨] الأميرَ بعد هذه النعمة ؟ أم من يَعْذِره مع هذه الكرامة ؟ ومَن يرضى منه بأقلَّ من جَبْره[٩] ، إلا مَن سَفِهَ[١٠] نفسَه ، ولست آمَنُ أن يتطاول علينا الجَزَع ،

---

(١) مارَ أهله كباع : أتاهم بالميرة بكسر الميم وهى الطعام ، وسغب كفرح ونصر : جاع ، وفى الأصل « المنظوم والمنثور » «فإنا قد استعنا » .

(٢) اقتبسه من قوله تعالى : « لَقَدْ تَابَ اللَّهُ عَلَى النَّبِيِّ وَالْمُهَاجِرِينَ وَالأَنْصَارِ الَّذِينَ اتَّبَعُوهُ فِى سَاعَةِ الْعُسْرَةِ مِنْ بَعْدِ مَا كَادَ يَزِيغُ قُلُوبُ فَرِيقٍ مِنْهُمْ ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ » .

(٣) الهلع : أشد الجزع .

(٤) اقتبسه من قوله تعالى : « رَبِّ قَدْ آتَيْتَنِى مِنَ الْمُلْكِ » ، وقوله تعالى : « وَآتَاهُ اللَّهُ الْمُلْكَ وَالْحِكْمَةَ وَعَلَّمَهُ مِمَّا يَشَاءُ » .

(٥) اقتبسه من قوله تعالى فى قصة يوسف : « قَالَ اجْعَلْنِى عَلَى خَزَائِنِ الأَرْضِ إِنِّى حَفِيظٌ عَلِيمٌ . وَكَذَلِكَ مَكَّنَّا لِيُوسُفَ فِى الأَرْضِ يَتَبَوَّأُ مِنْهَا حَيْثُ يَشَاءُ » .

(٦) اقتبسه من قوله تعالى : « يَامَرْيَمُ إِنَّ اللَّهَ يُبَشِّرُكِ بِكَلِمَةٍ مِنْهُ اسْمُهُ الْمَسِيحُ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ وَجِيهاً فِى الدُّنْيَا وَالآخِرَةِ وَمِنَ الْمُقَرَّبِينَ » .

(٧) اقتبسه من قوله تعالى : « مُطَاعٍ ثَمَّ أَمِينٍ » .

(٨) أى يحفظ عرضه من النقد .

(٩) فى الأصل « جبرانه » والذى فى كتب اللغة : « جبر العظم والفقير واليتيم كنصر جبرا بالفتح وجبورا بالضم ، وجبارة بالكسر » .

(١٠) أخذه من قوله تعالى : « وَمَنْ يَرْغَبُ عَنْ مِلَّةِ إِبْرَاهِيمَ إِلَّا مَنْ سَفِهَ نَفْسَهُ » .

ويتمادى به منا المَنْعُ ، أن يجتمع منا أئمةٌ صابرة ، وفرقة خاشعة، وَطائفة ممنوعة، وأخرى مدفوعة ، فيدعو رَبَّهم تَضَرُّعاً وَخُفْيَةً إنه لايحبُّ المعتدين[١] والسلام » .

(المنظوم والمنثور ١٣ : ٤١٤ ؛ ومفتاح الأفكار ص ٢٧٣ والمواهب الفتحية ٢ : ١٤٤)

١٤٤ — كتابه إلى الحجبي

وكتب إليه أيضاً — وكان نهى بشرا عن التعرّض للوزراء ولأهل العراق — :

« بسم الله الرحمن الرحيم : أما بعدُ ، فإنك كتبتَ إليَّ تنهانى عن السلطان وعن قُرْبه ، ولستُ أعتذرُ إليك فى ذلك ، إن دعانى السلطانُ سارعتُ ، وإن أبطأَ عنى تعرّضْتُ . فإن كان الله تبارك وتعالى أحلَّ لك خِدْمة أمير المؤمنين، ومنادمةَ الفضل، ومُسَامرةَ جعفر[٢] ، وأباح لك أن تأخذ من أموالهم القناطيرَ المُقَنْطَرَة من الذهب والفضة[٣] ، وحرَّم عليَّ مكاتبة الشُّرَط ، ومراسلة البُرُد[٤] ، والتخدُمَ الحُضَّان[٥] والتعرّضَ للدَّايات ، وَحَظَرَ عليَّ من أموالهم ما أسُدُّ به الفَوْرةَ[٦] ، وأُوَارِى به

---

(١) اقتبسه من قوله تعالى : « ادْعُوا رَبَّكُمْ تَضَرُّعاً وَخُفْيَةً إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ » .

(٢) يعني الفضل بن يحيى البرمكى ، وجعفرا أخاه .

(٣) اقتبسه من قوله تعالى : « زُيِّنَ لِلنَّاسِ حُبُّ الشَّهَوَاتِ مِنَ النِّسَاءِ وَالْبَنِينَ وَالْقَنَاطِيرِ الْمُقَنْطَرَةِ مِنَ الذَّهَبِ وَالْفِضَّةِ . . . الآية » .

(٤) البرد جمع بريد : وهو الرسول .

(٥) تخدم خادما : اتخذه ، والحضان جمع حاضن ، والحاضن والحاضنة : الموكلان بالصبي يحفظانه ويربيانه ، لأن المربي والكافل يضم الطفل إلى حضنه (بالكسر) ، وكما تسمى المرأة التى تربى الطفل « الحاضنة » تسمى فى العربية أيضا « الداية » — وحرفت فى لغتنا العامية فقيل « الدادة » — والداية عربية فصيحة ، قال الفرزدق :

ربيبة دايات ثلاث ربينها يلقمنها من كل سخن ومبرد

(ورب الصبي رباه حتى أدرك) ويرادفها أيضا « الظئر » بالكسر — العاطفة على ولد غيرها المرضعة له، فى الناس وغيرهم — وقد توسعوا فى كلمة الداية فاستعملت بمعنى القابلة .

(٦) فورة الحر : شدته ، يعنى بذلك فوران النفس وجيشانها من شدة الجوع ، أى ماأقضى به حاجتى

الموْرَة ، فأنا الهالك وأنت الناجى ، وَإن لم يكن الأمر على ذلك ، وكان لكلِّ امْرِئٍ مِنَّا ما اكتَسَبَ مِنَ الإِثْم ، فأنت الذى تَوَلَّى كِبْرَهُ مِنْهُم[1] ، وَضَرَبَ لَنَا مَثَلاً وَنَسِيَ خَلْقَهُ[2] والسلام » . (مفتاح الأفكار ص ٢٧٥)

١٤٥ — كتابه إلى يحيى بن خالد البرمكى

وكتب إلى يحيى بن خالد البرمكى :

« بسم الله الرحمن الرحيم : أما بعد ، فإنى كتبتُ إليك كتباً لم أرَ لشىء منها جوابا ، ولستُ — أمتع الله بك — أتكبَّر عن مُوَاتَرَة[3] الكتب إليك ، ولا أستنكفُ من[4] تَرْكِكَ الكتابَ إلىّ ، لأن مِثلك لا يكتب إلى ضعيفٍ مثلى إلا بعون الله وتأييده ، ولا يلقِّى الحكمةَ كتابَهَ إلا بتوفيق الله عز وجل وإحسانه ، ولعلك — أمتع الله بك — لم يوافق نزول ذلك من ربك ، فإنه تبارك وتعالى يقدِّر ما يشاء ، إنه بعباده خبير بصير[5] » . (مفتاح الأفكار ص ٢٧٥)

---

(١) اقتبسه من قوله تعالى : « إِنَّ الَّذِينَ جَاءُوا بِالْإِفْكِ عُصْبَةٌ مِنْكُمْ لَا تَحْسَبُوهُ شَرًّا لَكُمْ بَلْ هُوَ خَيْرٌ لَكُمْ لِكُلِّ امْرِئٍ مِنْهُمْ مَا اكْتَسَبَ مِنَ الْإِثْمِ وَالَّذِي تَوَلَّى كِبْرَهُ مِنْهُمْ لَهُ عَذَابٌ عَظِيمٌ » ـ كبره معظمه ـ

(٢) قال تعالى : « وَضَرَبَ لَنَا مَثَلًا وَنَسِيَ خَلْقَهُ قَالَ مَنْ يُحْيِي الْعِظَامَ وَهِيَ رَمِيمٌ » .

(٣) أى متابعة .

(٤) فى الأصل « ولا أستنكف على » والذى فى كتب اللغة تعديته بعن .

(٥) اقتبسه من قوله تعالى : « إِنَّ اللَّهَ بِعِبَادِهِ لَخَبِيرٌ بَصِيرٌ » .

١٤٦ - كتابه إلى يحيى بن خالد البرمكي

« وكتب بشر البلوى إلى يحيى بن خالد أيضاً يستمتع[١] بالحَجَبى المذكور :

« أما بعد : حفظَ الله أبا على ، وحفظ لك ما استحفَظَكَ[٢] من دينك وأمانتك ، وخَواتِيم عَمَلِك ، أمَّا ما تُحب أن ينتهىَ إليك علمُه من قدوم الحَجَبىّ علينا ، وما عمِلَ به فينا ، وعلى ما أصبح المسلمون معه قبلَنا ، فكلُّ ذلك بحمد الله تعالى ونِعَمِهِ على أفضل سرُورك ، وأعظم رجائك ، ومنتهى أمَلِك ، من سكون الدَّهْماء[٣] ، وأمانِ السُّبُل ، وحُسن الحال ، وتتابع الأمطار ، وقد أصبح الناس بحمدِ الله رُحماءَ[٤] بينهم ، لا يُسْمَع إلا سَلاماً سَلاماً[٥] ، وذلك أن الحجبىَّ لـمَّا قدِم علينا ، فزِعَ إلى خيار الناس وأهل الصلاح منهم ، فقرَّبهم وأدناهم ، وغلُظ على أهل الفجور والرِّيبة ، وأبعدهم وأقصاهم ، وبعث لحملة القرآن ، فلما اجتمعوا إليه من أطراف البلاد تخيَّر الفقهاء وذوى الرأى منهم ، فجعلهم بطانتَه ، وأهلَ مشاورته ، وبعث أكثرهم عُمَّالا على كثير من نواحى عمله ، وعَهِد إليهم ما عهد إليه أمير المؤمنين ، فى أَخْذ الصَّدَقات والزكاة على

---

(١) أى يطلب إبقاءه للانتفاع به ، يقال : متعه الله وأمتعه بفلان : أى أبقاه ليستمتع به فيما يحب من الانتفاع به والسرور بمكانه .

(٢) أى ماجعلك حافظا عليه من الدين والأمانة ، وخواتيم العمل ، أى العمل الصالح الذى هو آخر عمل عمله . وأصل ذلك أن رسول الله صلى الله عليه وسلم جاء رجل يودعه لسفر ، فقال له رسول الله : « أستودع الله دينك وأمانتك وخواتيم عملك » أى الصالح الذى جعلته آخر عملك فى الإقامة . فإن المسافر يسن له ختم إقامته بعمل صالح ، فيندب لكل من ودع أحدا من المسلمين أن يقول له ذلك وأن يكرره .

(٣) الدهماء : جماعة الناس .

(٤) اقتبسه من قوله تعالى : « مُحَمَّدٌ رَسُولُ اللهِ وَالَّذِينَ مَعَهُ أَشِدَّاءُ عَلَى الْكُفَّارِ رُحَمَاءُ بَيْنَهُمْ » .

(٥) اقتبسه من قوله تعالى « لَا يَسْمَعُونَ فِيهَا لَغْوًا وَلَا تَأْثِيمًا. إِلَّا قِيلًا سَلَامًا سَلَامًا » وسلاما سلاما فى قول بشر نائب فاعل على الحكاية ، ويجوز أن يكون الأصل « لا تسمع إلا سلاما سلاما »

وجوهها ، وقَسْم السَّهْمان[1] الخمسة مُوفَّرة بين أهلها ، وأعلَمَهم أن أمير المؤمنين لم يأمره ولا مَن قَبْلَه من وُلاة اليمن وغيرها إلا بالعدل والإحسان ، وأن أمير المؤمنين يبرأ إلى الله مِن ظلم كلِّ ظالم ، وجَوْرِ كلِّ جائر ، وأنه قد خلع مايتثقّل به عن رقبته ، وجعله فى دين الحَجَبىِّ وأمانته ، فلم يبق عند ذلك فِرقةٌ من فرق المسلمين ، ولا جماعةٌ من الصالحين ، ولا أحدٌ من الفقراء المساكين ، إلاّ دعا لأمير المؤمنين بطول البقاء ، ثم دَعَوا لك يا أبا على بأفضلِ الدعاء ، ونَشَروا عنك أحسنَ الثناء ، لِمَا ساقه الله إليهم بسببك ، وجعله بِيُمْنِ[2] مُوازَرتك وأجْراه لهم على لسانك ويدك ، ولِمَا أخَذَ الحجبىُّ فيهم من ورائك ، فإنا قد عرَفناه بالرِّفق الذى ليس معه ضعف ، وبالشدة التى ليس معها عُنْف ، وبالجِدِّ الذى لا يخالطه هَزْلٌ ، ثم هو مع ذلك قليلُ الغفلة ، شديد التُّهَمَة ، لا يتَّكل على كُتَّابه ، ولا يفوِّض أمره إلى أُمَنائه ، ولا يطمئنّ إلى جلسائه ، حتى يتفقَّد الأشياء بنفسه ، فيُورد ما حَضَر منها على عَيْنه ، ويُصْدر ما غاب عنه منها على علمه ، لا يمنعه من مُطالبة الصغير مُزاولةُ الكبير ، قد أحكم السياسة ، وَرَسَخ فى التدبير ، فأشدُّ الناس خوفا لِغَضَبه أرجاهم جميعاً لِمَثُوبته ، وأقلُّهم أمانا لعقوبته أطولهم لزُوما لمجالسته ، قد شَغَلَ كُلًّا بنفسه ، فأقبل كل على شأنه ، فليس أحَدٌ يُجاوز حَدَّه ، ولا يعدُو قدرَه ، ولا يتكلم إلا فيما يَعْنيه ، ولسنا نراه بحمد الله يزداد فى كل يوم إلا شِدَّةً ، ولا تزداد الأمور معه إلا إحكاما ، فليس لمغتاب إليه سبيلٌ ، ولا لمنتقِصٍ معه مطمعٌ ، والسلام » .   (مفتاح الأفكار ص ٢٧٥ ، والمواهب الفتحية ٢ : ١٤٧)

---

(١) السهمان : جمع سهم ، وهو النصيب ، والسهمان الخمسة ومصرفها مبين فى قوله تعالى : « وَاعْلَمُوا أَنَّمَا غَنِمْتُمْ مِنْ شَيْءٍ فَأَنَّ لِلَّهِ خُمُسَهُ وَلِلرَّسُولِ وَلِذِي الْقُرْبَى وَالْيَتَامَى وَالْمَسَاكِينِ وَابْنِ السَّبِيلِ » وذكر الله تعالى فى الآية للتعظيم ، والمراد قسم الخمس على الخمسة المعطوفين ، فكأنه قال : فأن لله خمسه يصرف إلى هؤلاء ، لكل منهم خمس الخمس ، والأخماس الأربعة الباقية للفاتحين .

(٢) اليمن : البركة ، والموازرة : المعاونة والمساعدة .

١٤٧ — كتابه إلى بشار بن رضابة

وكتب ينصح بَشّار بن رُضَابَة :

« بسم الله الرحمن الرحيم : أما بعدُ ، فإنى رأيتك فى أول زمانك تَغْدُو على العلماء وتَرُوحُ عنهم[(١)] ، وتحدِّث عن الله وعن ملائكته ورسله ، وقد أصبحتَ تحدِّث عن مَعْنٍ[(٢)] وعن عُمَّاله ، وعن أبى مُسْلِمٍ[(٣)] وعن أصحابه ، فبئسَ للظالمين بَدلاً[(٤)] ، فمَنْ خَلَّفْتَ على أهلك ، أم على من تتَّكِل فى هَوْل سَفَرك ، أم بمن تثقُ فى حال غُربتك ؟ أبالله أم عليه ؟ وكيف ؟ ولستُ أخشى عليك إلا من قِبَله ، لأنه قد أعذَرَ إليك وأنذرَ ، فعَصَيتَ أمره ، وأطعت أعداءه ، وخرجتَ مُغاضِباً تظنُّ أنْ لَنْ يقدِرَ عليك[(٥)] ، فاتَّقِ على نفسك الزَّلَلَ ، وانْزِلْ من دابَّتك فى كل جَبَل[(٦)] ،

(١) غدا يغدو غدوا . ذهب غدوة بالضم : وهى مابين صلاة الفجر وطلوع الشمس ، وراح يروح رواحا : سار بالعشى ، هذا هو الأصل فى الغدو والرواح ، وقد استعملتهما العرب فى الذهاب فى أى وقت كان من ليل أو نهار ، ومنه الحديث : « من راح إلى الجمة فى الساعة الأولى » أى مشى إليها وذهب إلى الصلاة .

(٢) هو معن بن زائدة الشيبانى ، وكان شجاعا جوادا جزيل العطاء كثير المعروف ، وكان فى أيام بنى أمية متنقلا فى الولايات ، منقطعا إلى ابن هبيرة أمير العراقين ، ثم ولى سجستان فى أواخر أمره فى عهد بنى العباس ، وتوفى سنة ١٥١ هـ — انظر ترجمته فى وفيات الأعيان ٢ : ١٠٨ — .

(٣) يعنى أبا مسلم الخراسانى ، وقد تقدم .

(٤) أخذه من قوله تعالى فى إبليس : « أَفَتَتَّخِذُونَهُ وَذُرِّيَّتَهُ أَوْلِيَاءَ مِنْ دُونِى وَهُمْ لَكُمْ عَدُوٌّ بِئْسَ لِلظَّالِمِينَ بَدَلاً » .

(٥) اقتبسه من قوله تعالى : « وَذَا النُّونِ إِذْ ذَهَبَ مُغَاضِباً فَظَنَّ أَنْ لَنْ نَقْدِرَ عَلَيْهِ » .

وذو النون : هو يونس ، والنون : الحوت .

(٦) وانزل من دابتك أى مطية غوايتك التى تقتحم بك المهالك ، كنى بها عن كل ما يكون وصلة الشر من المال أو الجاه أو الصحة أو الفراغ . فى كل جبل : أى عقبة من العقبات اللاتى تحول دون الخير . والمعنى : إذا جمحت بك تلك المطية فى عقبة من تلك العقبات فبادر بالنزول لئلا تتوغل بك فيها فتهلك .

فإذا استويْتَ أنْتَ وَمَنْ مَعَكَ عَلَى ظهورها[١] ، فلا تقل : سُبْحَانَ الَّذِى سخَّر لنا هذا ، لأن الله تبارك وتعالى قد كَرِه أن يُحْمَد على ما نهى عنه ، ولكن قُلْ : رَبَّنَا مَنْ قَدَّمَ لَنَا هٰذَا فَزِدْهُ عَذَاباً ضِعْفاً فى النّار[٢] » .

(مفتاح الأفكار ص ٢٧٨ ، والمواهب الفتحية ٢ : ١٤٢)

١٤٨ — كتاب مطرف بن أبى مطرف إلى أحد إخوانه

قال ابن طيفور :

وكتب إلى مُطَرِّف[٣] بن أبى مُطَرِّف الليثى رجل من إخوانه يسأله عن عبد الله ابن مُصْعَب الزبيرى ، فكتب إليه :

« أما بعد ، فإنك كتبتَ إلىَّ تسألنى عن عبد الله بن مُصْعب ، كأنك هممْتَ به أو تريد[٤] القدوم عليه ، فلا تفعلْ — أمتعَ الله بك[٥] — فإن حُسْنَ الظنّ به لا يقع فى الفَهْم إلا بخِذْلان الله ، وإن الطمع فيما عنده لا يخطرُ على القلب إلا من سوء التوكل على الله عز وجل ، وإن الرجاء لما فى يده لا ينبغى[٦] إلا بعد اليأس من رَوْح الله ، لأنه

---

(١) اقتبسه من قوله تعالى : « فَإِذَا اسْتَوَيْتَ أَنْتَ وَمَنْ مَعَكَ عَلَى الْفُلْكِ فَقُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِى نَجَّانَا مِنَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ » . وقوله تعالى : « وَجَعَلَ لَكُمْ مِنَ الْفُلْكِ وَالْأَنْعَامِ مَا تَرْكَبُونَ . لِتَسْتَوُوا عَلَى ظُهُورِهِ ثُمَّ تَذْكُرُوا نِعْمَةَ رَبِّكُمْ إِذَا اسْتَوَيْتُمْ عَلَيْهِ وَتَقُولُوا سُبْحَانَ الَّذِى سَخَّرَ لَنَا هٰذَا وَمَا كُنَّا لَهُ مُقْرِنِينَ » أى مطيقين .

(٢) اقتبسه من قوله تعالى : « قَالُوا رَبَّنَا مَنْ قَدَّمَ لَنَا هٰذَا فَزِدْهُ عَذَاباً ضِعْفاً فِى النَّارِ » .

(٣) ذكره ابن النديم فى الفهرست فى عداد البلغاء — انظر ص ١٨٢ ، وأورد صاحب مفتاح الأفكار هذا الكتاب ، معزوا إلى بشر البلوى ، فقال : « وكتب بشر البلوى إلى الشافعى يهجو عبد الله بن مصعب ... » .

(٤) فى مفتاح الأفكار « إذ سرك القدوم عليه » . (٥) فيه « يرحمك الله » .

(٦) فيه « لا يكون » والروح : الرحمة ، وأقتر : ضيق فى النفقة .

يَرَى أن الإقتارَ الذى نهى الله عز وجل عنه هو التبذير الذى يعاقِب الله فيه ، وأن الاقتصاد الذى أمر الله به هو الإسراف الذى يعذِّب الله عليه ، وأن بنى إسرائيل لم يستبدلوا العَدَسَ بالمَنِّ(١) ، والبصلَ بالسَّلْوَى ، إلا لفُضولِ أحلامهم ، وقديم علمٍ توارثوه عن آبائهم ، وأن الضيافة مرفوعة ، وأن الصلة موضوعة ، وأن الهِبَة مكروهة، وأن الصَّدَقة منسوخة ، وأن السَّلَف(٢) بدعة ، وأن التوسُّع ضلالة ، وأن الجُود فُسُوق وأن السخاء من هَمَزات الشياطين ، وأن مواساةَ الرجل أخاه من العظائم المُوبقة(٣) ، وأن فضاله عليه إحدى الـكبائر الموجبةِ الهَلَـكَةَ ، وأن الله لا يغفر أن يُؤْثِرَ المرء فى الخَصَاصَة على نفسه(٤) ، فقد ضلَّ عند أبى بكر ضلالا بعيداً ، كأنْ لم يسمع بالمعروف إلا فى الجاهلية الأُولَى الذين قطع الله دَابرهم ، ونهى المسلمين عن اتباع آثارهم ، وكأنْ لم تأخذ الرَّجفةُ آلَ مَدْينَ(٥) عنده إلا لسخاء كان فيهم ، ولم تُهْلِكِ الرِّيحُ العقيم

---

(١) المن : طل ينزل من السماء على الشجر ، يحلو وينعقد عسلا ويجف جفاف الصمغ ، وكان ينزل عليهم مثل الثلج من الفجر إلى طلوع الشمس ، والسلوى : السمانى ــ بضم السين وتخفيف الميم والقصر ــ وكانت ريح الجنوب تبعثه عليهم ، وفى ذلك يقول الله تعالى : « أَتَسْتَبْدِلُونَ ٱلَّذِى هُوَ أَدْنَى بِٱلَّذِى هُوَ خَيْرٌ » .

(٢) السلف : القرض الذى لا منفعة للمقرض فيه غير الأجر والشكر ، وعلى المقترض رده كما أخذه .

(٣) أى المهلكة .

(٤) اقتبسه من قوله تعالى : « إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَادُونَ ذَٰلِكَ لِمَنْ يَشَاءُ » . وقوله : « وَيُؤْثِرُونَ عَلَى أَنْفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ » . والخصاصة : الفقر .

(٥) مدين : بلد شعيب عليه السلام ، بلد بجزيرة العرب على بحر القلزم (كقنفذ: وهو البحر الأحمر) محاذ لتبوك على نحو من ست مراحل ، بناه مدين بن إبراهيم عليه السلام فسمى باسمه ، وعليه . قوله تعالى: « وَإِنْ يُكَذِّبُوكَ فَقَدْ كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ وَعَادٌ وَثَمُودُ وَقَوْمُ إِبْرَاهِيمَ وَقَوْمُ لُوطٍ وَأَصْحَابُ مَدْيَنَ » . ويطلق أيضاً على القبيلة ، وعليه قوله تعالى : « وَإِلَى مَدْيَنَ أَخَاهُمْ شُعَيْباً قَالَ يَا قَوْمِ ٱعْبُدُوا ٱللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُ » . والرجفة : الزلزلة =

عاداً(١) إلا لتوسّع ذُكِرَ عنهم، فهو يخشى العقاب على الإنفاق، ويرجو الثوابَ على الإقتار، ويَعِدُ نفسه الفقرَ، ويأمرها بالبخل، خيفةَ أن تنزل به قوارِعُ(٢) الظالمين، أو أن يصيبه ما أصاب القرونَ الأولين(٣)، فأقِمْ — يرحمك الله — على مكانتك، واصطبر على عُسْرتك، وتربَّصْ به الدوائرَ(٤) عسى اللهُ أنْ يُبْدِلنا خيْرًا مِنْهُ زكاةً وَأَقْرَبَ رُحْمًا(٥) ».

(المنظوم والمنثور ١٣ : ٤١٢ ، ومفتاح الأفكار ٢٧٨)

١٤٩ — كتاب آخر له

وكتب إلى ذلك الرجل الذى يصف له عبد الله بن مُصْعَب :

« أما بعد، فإنكَ كتبت إلىّ تسألنى عن عبد الله بن مصعب، فكان والله غَثًّا(٦) فى دينه، قَذِراً فى دنياه، رَثًّا فى مُرُوءته، سَمِجًا فى هيئته، مسكينا فى علمه، منقطعا إلى نفسه، راضيا عن عقله، بخيلا بما وسّع الله عليه من رزقه كتوماً لما آتاه الله من فضله

= الشديدة، قال تعالى فيهم: « وَإِلَى مَدْيَنَ أَخَاهُمْ شُعَيْباً فَقَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَارْجُوا الْيَوْمَ الْآخِرَ وَلَا تَعْثَوْا فِى الْأَرْضِ مُفْسِدِينَ، فَكَذَّبُوهُ فَأَخَذَتْهُمُ الرَّجْفَةُ فَأَصْبَحُوا فِى دَارِهِمْ جَاثِمِينَ » .

(١) عاد: هم قوم هود عليه السلام وكانوا يسكنون الأحقاف — رمل فيما بين عمان إلى حضرموت — قال تعالى فيهم: « وَفِى عَادٍ إِذْ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمُ الرِّيحَ الْعَقِيمَ، مَا تَذَرُ مِنْ شَىْءٍ أَتَتْ عَلَيْهِ إِلَّا جَعَلَتْهُ كَالرَّمِيمِ » . والريح العقيم: هى الدبور. وسماها عقيما لأنها أهلكتهم وقطعت دابرهم، أو لأنها لاخير فيها ولا منفعة، لأنها لاتحمل المطر ولا تلقح الشجر .

(٢) القوارع : جمع قارعة ، وهى الداهية الفاجئة .

(٣) وفى مفتاح الأفكار « ما أصاب القوم المجرمين » .

(٤) الدوائر : جمع دائرة ، وهى الهزيمة ، وتربص به : انتظر به شرا (أو خيرا) يحل به .

(٥) اقتبسه من قوله تعالى « فَأَرَدْنَا أَنْ يُبْدِلَهُمَا رَبُّهُمَا خَيْرًا مِنْهُ زَكَاةً وَأَقْرَبَ رُحْمًا » أى رحمة .

(٦) الغث : ضد السمين ، أى رقيق الدين مهزوله .

حلافًا لَجوجًا لا يُطْمَع فيما عنده حتى يحلف ألا يفعل ، ولا يُرَجَّى منه أحد ما يُعطى حتى يُقْسِم بالله ألاَّ يقبلَ ، فإذا ألحَّ في ذلك وأكثر حَنِثَ متعمِّدا ، وأنى الذى ذكره من ذلك متطوِّعا ، لو أنفقَ مافى الأرض جميعا لم يكن ذلك قدرَ حِنْثه فى هَزْله ، فكيف ظنُّك بكفَّارة حلفِهِ فى جدِّه ؟ ولو سكَن الفالِجُ[1] فى لسانه لم ينقُصْ ذلك حرفا واحدا من إيمانه، أشدُّ الناس إكراماً لأبْعدِهم من ذلك استحقاقا، وأقلُّ الناس إحسانا إلىّ أشدهم لذلك استيجابا ، كأن البخل والشؤم صارا جميعا فى سَهْمه ، وكانا قبل ذلك حَظًّا[2] فى قسْمِه ، فاستجْمَعَهما من الورَثة ، واستحقَّ ما استهلك منهما بالشُّفْعَة ، واستولاهما من كلٍّ بالقيمة ، وأشهدَ على حِيازتهما أهلَ الدين والأمانة ، حتى خَلَصا له من كل بائع ، وسَلِما من تَبِعة كل منازع ، فلا يُصيب إلا مخطئا ، ولا يُحْسِن إلا ناسيا ، ولا يُنفق إلا كارها ، ولا يُنْصِف إلا صاغرا ، ولا يَعْدِل إلا راهِبا[3] ولا يرفع نفسه عن[4] منزلة إلا ذَلَّ بعد تعَزُّزه فيها ، ولا يَكرَه خُطَّةَ سُوء إلاَّ أصابه ماهو شرٌّ منها ، لاتَرِدُ أعناقُ أموره إلا على تعسُّف وجَهالة ، ولا تَصْدُر أعقابُ رأيه إلاَّ عن خُرْقة وندامة ، برَأْى جَدِّه[5] خرجَتْ أُمُّنا[6] ، وبشُؤْمِ والده[7] هُدِمَتْ قِبلَتنا ، وعلى يديه ظهر الدجَّالُ فينا ، «من يَهْدِهِ الله يَوْمَئذٍ فهُو المُهْتَدِ ، ومَنْ يُضْلِلْ فَلَنْ تَجِدَ لَهُ وَلِيًّا مُرْشِداً[8] » . (المنظوم والمنثور ١٣ : ٤١٣)

---

(١) الفالج : مرض يحدث فى أحد شقى البدن طولا فيبطل إحساسه وحركته ، وربما كان فى الشقين (٢) فى الأصل « خطا » وهو تحريف .

(٣) أى خائفا ، وفى الأصل « راغبا » وهو تحريف .

(٤) الظاهر أن صوابه « إلى » .

(٥) يعنى الزبير بن العوام . (٦) يعنى أم المؤمنين السيدة عائشة .

(٧) يعنى عبد الله بن الزبير ، وقد عاذ بالكعبة وقاتله الحجاج ورمى الكعبة بالمنجنيق كما قدمنا فى الجزء الثانى .

(٨) الآية الكريمة : « مَنْ يَهْدِ اللهُ فَهُوَ المُهْتَدِ » .

١٥٠ — كتاب آخر

وكتب إليه :

« أما بعد ، فإنك كتبتَ إليّ تسألني عن عبد الله بن مُصْعَب ، فكان واللهِ قويّا على أهل الضعف والمَسْكَنة ، ذليلا عند أهل الجَلَد والقوة ، بليغا فيما استحَى الحكماء من ذكره ، وصّافا لما لا يُنتفَع به كَليلاً عما لا يُسْتَغْنَى عنه ، قد غلَبَتْ عليه الدَّعابة واستَهْوَته[1] ، فلا يُحسِن إلا تُرَّهاتِ[2] الأمور ، ولا يحفظ إلا سَفْسَاف[3] الأحاديث ولا يَرْوِى إلا خُرافاتِ الأباطيل ، فأمّا البصيرةُ النافعة ، والحكمة البالغةُ ، فقد أصبح منها أبو بكر[4] غُفْلاً ، وفي المعرفة بها طِفْلا ، ولو لبِث أربعين سنة لم يَفْهَم أولاها ، ولم يعرِف أخراها ، إلا نظَرَ المَغْشِيِّ عليه من الموت[5] » .

(المنظوم والمنثور ١٣ : ٤١٣)

١٥١ — كتاب آخر

وله أيضاً فيه[6] :

أما بَعدُ : فَإِنّ مِن النَّاس مَنْ تَحَمُّلُ حاجتِه أهْوَنُ مِن فُحش طَلَبه ، ومنهم من حِمْلُ عداوته أخفُّ من ثِقَل صداقته ، ومنهم من إفراط لأَمْتِه أحسنُ مِن قَدْر مِدْحته[7] وإن الله خلق أبا بكر ليَغُمّ به الدنيا ، ويقذِّر به أهلَها ، فهو على قَذَره فيها مِن حُجَج الله .

---

(١) أي استمالته . (٢) الترهات جمع ترهة : وهي الباطل .

(٣) السفساف : الرديء من كل شيء . (٤) كنية عبد الله بن مصعب .

(٥) أخذه من قوله تعالى : « يَنْظُرُونَ إِلَيْكَ نَظَرَ الْمَغْشِيِّ عَلَيْهِ مِنَ الْمَوْتِ » .

(٦) ورد هذا الكتاب في مفتاح الأفكار منسوبا إلى بشر البلوى أيضا .

(٧) القدر : التضييق ، وفي المنظوم والمنثور « ومنهم من فرط لأمته أخف من قدر صداقته » .

على أهلها ، فأسألُ الذى فتنَ الأرض بحياته ، وغَمَّ أهلها بطول بقائه ، أن يُديلَ بطنَها من ظهرها(١) ، والسلام » .

(المنظوم والمنثور ١٣ : ٤١٣ ومفتاح الأفكار ص ٢٨٠)

١٥٢ — كتاب آخر

وكتب إليه :

« أما بعد ، فإنى قد ظننتُ أنه لم يَدْعُك إلى خلاف أمير المؤمنين فى عهده ووصيه، وتَرْكِ ماأمرك به من القسم فى رعيته ، مع البغض لأهل بيته والفرية على قرابته، إلا أنك لم تَرَ أن تَمسَّك النارُ إلا أيَّامًا مَعْدُودَةً(٢) ، وأنك فكَّرتَ فى ذلك وقدَّرتَ(٣) ، فقلتَ : نصيحةٌ ظاهرةٌ ، وفِرْيةٌ غائبةٌ ، ومُتْعة عاجلة، ومواعيد آجلة ، وتهاونْتَ بعذاب الآخرة ، ولو قد لقيتَ أبا مُسْلِم وأتيتَ الحجّاج ، وجُمع بينك وبين أخوَيْك : مروان ابن الحكم ، و مُسْرِف(٤) بن عُقْبة ، لقد أعلمَك القومُ جميعاً أنهم وجدوا مثقال الذَّرّة مكتوبًا ، ووزنَ الحبَّة محسوبًا ، وأنهم قد أُخِذُوا بأيْسَرَ من ذنبك، وعُذِّبوا بأصغرَ من جُرْمك، وأن الأيام ليست كما عَدَدْتَ ،وأن المُدة على غير ما كنتَ حَسَبْتَ ،وأنك قد أوهمتَ(٥) حين فكَّرت ، وأسأتَ حين قدَّرت ، وأنهم كانوا ظنوا كما ظننتَ ، فَأَرْدَاكُمْ ظَنُّكم الَّذِى ظَنَنْتُمْ بربكم فأَصْبَحْتُمْ مِنَ الخاسرين . فإن تَصْبِرُوا فالنَّارُ مَثْوًى لكم وَإِنْ تَسْتَعْتِبُوا فما أنتُمْ مِنَ المُعْتَبِينَ(٦) » . (المنظوم والمنثور ١٣ : ٤١٤)

---

(١) أداله الله من عدوه : نصره عليه . والمعنى : أن ينصر الله بطن الأرض على ظهرها ، فيظفر منه بذلك المهجو ويضمه إليه : أى أن يميته الله ويهلكه .

(٢) اقتبسه من قوله تعالى : « وَقَالُوا لَنْ تَمَسَّنَا النَّارُ إِلاَّ أَيَّامًا مَعْدُودَةً » .

(٣) اقتبسه من قوله تعالى : « إِنَّهُ فَكَّرَ وَقَدَّرَ » .

(٤) هو مسلم بن عقبة المرى صاحب يوم الحرة — انظر الجزء الثانى ص ٨٧ — وقد سمى مسرفا . والمراد هنا أنهما أخواه فى الفعل .

(٥) وهم كوعد وورث وأوهم بمعنى .

(٦) اقتبسه من قوله تعالى : « وَلَكِنْ ظَنَنْتُمْ أَنَّ اللهَ لاَ يَعْلَمُ كَثِيراً مِمَّا

١٥٣ – كتاب آخر

وكتب إليه أيضاً :

« أما بعد ، فإن الله قد وعدك وَعْدا حَسَناً(١) ، فلستُ أدرى أطال عليك العهدُ فقسا قلبُك ، أم أردتَ أن يَحِلَّ عليك غضبٌ من ربك ، فأخلفتَ مَوْعِدَه الذى وعدْتَه ، ونقضتَ عهدَه الذى عاهدته ، وصحبْتَ أعداءه ، وهو يدعوك من أخراك فيدْفعك عن أولاك ، فلا دعاؤه نفعكَ ، ولا دفْعُه منعَك ، حتى نَفَرت على وَجْهك « كالَّذِى اسْتَهْوَتْهُ الشَّياطينُ فى الأرْضِ حَيْرَانَ » وقد ألقيتَ حَبْلَكَ من كتاب الله ، ونَزَعْتَ حَبْلَكَ من عُرْوَة الله ؛ فما أدْرى أيها الرجل : مَن استخلفْتَ على أهلك ، أم بمن تثقُ فى حال غربتك ، أم على مَن تتكل فى هَوْلِ سَفَرِك ؟ أبالله أم عليه(٢) ؟ فكيف ولست أخاف عليك أحداً غيره(٣) ؟ والسلام » .

(المنظوم والمنثور ١٣ : ٣١٥)

١٥٤ – كتاب آخر

وكتب أيضا :

« أما بعد فإن أبا نَهِيك خبَّرنى أنك اختضبْتَ بالوَسْمَة(٤) ، فعلمتُ أنك أردت

= تَعْمَلُونَ وَذٰلِكُمْ ظَنُّكُمُ الَّذِى ظَنَنْتُمْ بِرَبِّكُمْ أَرْدَاكُمْ فَأَصْبَحْتُمْ مِنَ الْخَاسِرِينَ. فَإِنْ يَصْبِرُوا فَالنَّارُ مَثْوًى لَهُمْ ، وَإِن يَسْتَعْتِبُوا فَمَا هُمْ مِنَ الْمُعْتَبِينَ » واستعتب : طلب العتبى بالضم أى الرضا ، وأعتبه : أرضاه .

(١) اقتبسه من قوله تعالى : « قالَ يا قَوْمِ أَلَمْ يَعِدْكُمْ رَبُّكُمْ وَعْدًا حَسَنًا أَفَطَالَ عَلَيْكُمُ الْعَهْدُ أَمْ أَرَدْتُمْ أَنْ يَحِلَّ عَلَيْكُمْ غَضَبٌ مِنْ رَبِّكُمْ فَأَخْلَفْتُمْ مَوْعِدِى » .

(٢) فى الأصل « عله » وهو تحريف .

(٣) انظر كتاب بشر البلوى إلى بشار بن رضابة ص ١٧٧ .

(٤) الوسمة : نبات يخضب بورقه .

بذلك ابتغاء الزينة عند أهل الدنيا ، لِمَا عرَفْتَ من قبح وَجهك عند أهل الآخرة ، لتركِك الصلوات ، ومَنْعِك الصَّدَقاتِ ، واستحلالِك الْحُرُماتِ . وكلما ازددتَ من ذلك إكثارا ، كنتَ عند نفسك من المقصِّرين ، وعند أهل السماء من الممقوتين ، وفى أهل الأرض من المعترَضين ، فالحمد لله الذى عافانى مما ابتلاك به ، فإنك من الذين قال الله عز وَجل فيهم فى كتابه : « وَلَوْ عَلِمَ اللهُ فِيهِمْ خَيْرًا لَأَسْمَعَهُمْ وَلَوْ أَسْمَعَهُمْ لَتَوَلَّوْا وَهُمْ مُعْرِضُونَ » . (المنظوم والمنثور ١٣ : ٤١٦)

١٥٥ — كتاب آخر

وكتب أيضاً :

أما بعد ، فإن الله حبَّبَ إلى كل مسلم شُعْبةً من دينه ، فمنهم من حَبَّب إليه الصلاة ، فهو قانتٌ آناء الليل ساجِدًا وَقَائِمًا يَحْذَرُ الْآخِرَةَ وَيَرْجُو رَحْمَةَ رَبِّهِ[(١)] ، ومنهم من حَبَّب إليه الزكاةَ ، فهو يُنْفِقُ ماله بالليل والنهار سِرًّا وعَلانيةً ، ابتغاء مَرْضاةِ الله وتَثْبِيتاً مِنْ أَنْفُسِهِمْ[(٢)] ، ومنهم من حبَّبَ إليه الجهاد ، فهو بين المسلمين وبين عدوهم ، يَذُبُّ عن حريمهم ، ويقاتل مِنْ دُونهم ، وفاءً بعهد الله ، وتسليما لبيعة الله . فأمّا الراسخون فى العلم ممن قد عرَف سيرتك ، وما أبْدَى لهم الله من سريرتك ، فقد اقتصروا على

---

(١) الآية الكريمة : « أَمَّنْ هُوَ قَانِتٌ . . . . » والقنوت : الدعاء ، والقيام فى الصلاة والطاعة.

(٢) اقتبسه من قوله تعالى « الَّذِينَ يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ بِاللَّيْلِ وَالنَّهَارِ سِرًّا وَعَلَانِيَةً فَلَهُمْ أَجْرُهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ » . وقوله : « وَمَثَلُ الَّذِينَ يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمُ ابْتِغَاءَ مَرْضَاةِ اللهِ وَتَثْبِيتًا مِنْ أَنْفُسِهِمْ كَمَثَلِ جَنَّةٍ بِرَبْوَةٍ أَصَابَهَا وَابِلٌ فَآتَتْ أُكُلَهَا ضِعْفَيْنِ ، فَإِنْ لَمْ يُصِبْهَا وَابِلٌ فَطَلٌّ ، وَاللهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ » .

بغضك ، ثقةً والله بعداوتك ، فهم لا يوتِرون[١] إلا بك وبأشباهك ، ولا يرَوْن القُنُوتَ اليوم واجبا إلاَّ من أجْلِكَ وأجل أضرابك[٢] ، ولا يعتمدون بالدعاء فيه إلا عليك وعلى أمثالك ، حِفظًا على صلواتهم ، ورعايةً لِمَا ائتُمِنُوا عليه من دينهم[٣] ، ووفاء بعهد الميثاق الذى أُخِذَ عليهم : أن يُصَلُّوا مع الله وملائكته على رسوله[٤] ، وأن يلعنوا مع الله مَنْ لَعَنَ من أعدائه وأهل معصيته[٥] ، فهم يعرِضونك على الله فى أدبار السجود وعند إدبار النجوم[٦] ، ويسألونه بآلائه[٧] مخلصين، وبأسمائه مُلْحِفِين[٨] ، أن يُصيبَكَ بعذابٍ من عنده أو بأيديهم[٩] ، لِمَا استحلَّتْ جنودك من سَفْك الدماء، وأباحت رُسُلُك من حُرَم النساء ، ولِظُلْمِكَ اليتامى ، وافترائك على ذى القربى ، وتعريضك إياهم

---

(١) أوتر : صلى الوتر، وأقنت : دعا على عدوه ، وجاء فى لسان العرب « وروى عن النبى صلى الله عليه وسلم أنه قنت شهرا فى صلاة الصبح بعد الركوع يدعو على رِعل (بكسر الراء) وذكوان (بفتح الذال) وجاء فى تاريخ الطبرى ٦ : ٤٠ « وكان على إذا صلى الغداة يقنت فيقول: اللهم العن معاوية وعمرا وأبا الأعور السلمى وحبيبا وعبد الرحمن بن خالد والضحاك بن قيس والوليد ، فبلغ ذلك معاوية فكان إذا قنت لعن عليا وابن عباس والأشتر وحسنا وحسينا » .

(٢) الأضراب جمع ضرب بالفتح : وهو المثل .

(٣) اقتبسه من قوله تعالى فى صفة المؤمنين : « وَٱلَّذِينَ هُمْ لِأَمَانَاتِهِمْ وَعَهْدِهِمْ رَاعُونَ . وَٱلَّذِينَ هُمْ عَلَى صَلَوَاتِهِمْ يُحَافِظُونَ » .

(٤) قال تعالى : « إِنَّ ٱللَّهَ وَمَلَائِكَتَهُ يُصَلُّونَ عَلَى ٱلنَّبِيِّ يَا أَيُّهَا ٱلَّذِينَ آمَنُوا صَلُّوا عَلَيْهِ وَسَلِّمُوا تَسْلِيماً » .

(٥) يشير إلى قوله تعالى : « أُولَئِكَ يَلْعَنُهُمُ ٱللَّهُ وَيَلْعَنُهُمُ اللَّاعِنُونَ » .

(٦) قال تعالى : « وَمِنَ ٱللَّيْلِ فَسَبِّحْهُ وَأَدْبَارَ السُّجُودِ » . وقال : « وَمِنَ ٱللَّيْلِ فَسَبِّحْهُ وَإِدْبَارَ النُّجُومِ » وأدبار جمع دبر كعنق ؛ وإدبار مصدر أدبر .

(٧) الآلاء : النعم .

(٨) فى الأصل « مختلفين » وهو تحريف .

(٩) اقتبسه من قوله تعالى : « وَنَحْنُ نَتَرَبَّصُ بِكُمْ أَنْ يُصِيبَكُمُ ٱللَّهُ بِعَذَابٍ مِنْ عِنْدِهِ أَوْ بِأَيْدِينَا » .

فى فتوحك العقاب والهلكة والخلاف والمعصية، فويلٌ لك ولكتابك مما كَتَبَتْ أيديكم وَوَيْلٌ لكُمْ مِمَّا تَكْسِبُونَ(١) ، وقد وردتْ كتبُك محمد الله من أمير المؤمنين — حفظه الله — على حِلْمٍ لا يُوهِنه الغضب ، وعلى عمل لا يغيِّره الكذب ، وعلى إيمان لا يستخفُّه الذين لا يُوقنون(٢) ، حفظ الله أمير المؤمنين حِفْظًا يكون له حِصْنًا من عذابه وحِرْزاً من غضبه ، وحاجزا من معصيته، ونورا يستضىء به يوم لِقائه فى خَلْقه ، ويهتدى به إلى جنته » . (المنظوم والمنثور ١٣ : ٤١٧)

١٥٦ — كتاب آخر

وكتب إليه(٣) :

« أما بعدُ ، فإنى رأيتك فى أمر دينك مُنْتَقَصا(٤) مخذولا ، وفى أمر دنياك فاجرا مثبورا(٥) ، وفيما بين ذلك مُبْغَضا ممقوتا ، وَتلك خِصال لا تجتمع فى مسلم إلا بِسُوء سَريرة ، أو إصرارٍ(٦) على كبيرة ، أو إضمارٍ لعظيمة يَعُمُّ بها عباد الله ، ويخُصُّ بها أولياء الله(٧) ، ومِن آية ذلك أنه تشمئزُّ قلوبُ أهلِ الحَرَمين إذا ذُكِرْتَ ، وتقشعرُّ جُلود أهلِ المِصْرَين إذا مُدِحْتَ، وأنهم لا يزدادون لك إلا بُغْضا ، ولا فى الشهادة عليك إلا قَطْعا ، لمعرفتك بهم قديما وحديثا ، وعِلمِهم بما لَدَيك صغيرًا وكبيرًا ، فلعمرى لئن

---

(١) اقتبسه من قوله تعالى : « فَوَيْلٌ لَهُمْ مِمَّا كَتَبَتْ أَيْدِيهِمْ وَوَيْلٌ لَهُمْ مِمَّا يَكْسِبُونَ » .

(٢) اقتبسه من قوله تعالى : « وَلَا يَسْتَخِفَّنَّكَ الَّذِينَ لَا يُوقِنُونَ » .

(٣) نقل صاحب مفتاح الأفكار هذا الكتاب والكتاب الذى يليه ، كتابا واحدا معزوا إلى بشر البلوى .

(٤) فى مفتاح الأفكار « متصنعا » . (٥) أى هالكا أو مصروفا عن الخير .

(٦) فى مفتاح الأفكار « أو مقارفة كبيرة » .

(٧) فيه « يعم بها أولياء الله ، ويخص بها ولد رسول الله » .

كنتَ إلى يومك هذا كما ذكروا ، إنك إذَنْ لمن المستهزئين، ولئن كنت قد نزَعْتَ[١] عما عَهِدُوا ، ما خلَصَتْ لله إذن نيتُك ، ولا صَدَقَتْ توبتُك ، وإن فى إيمانك الضعفاً ، وإن فى نفسك لوَهَنــــا ، وإن فى صدرك لكِبْرا ما أنت ببالِغِه[٢] ، وإن فى قلبك لَقَساوة[٣] ، وإن فى معيشتك لإسرافا[٤] ، فاسْتَعِذْ بالله إنَّه سَميعٌ عَليمٌ » .

(المنظوم والمنثور ١٣ : ٤١٦ ومفتاح الأفكار ٢٧٩)

١٥٧ — كتاب آخر

وكتب إليه :

« أما بعد ، فإنى نظرت فى قول الله عزَّ وجل فى كتابه : « يٰأَيُّهَا الرُّسُلُ كُلُوا مِنَ الطَّيِّبَاتِ وَاعْمَلُوا صالِحاً إِنِّى بِمَا تَعْمَلُونَ عليمٌ » فعلمتُ أنه يريد الطيِّباتِ من المكاسب ، وأنه لا يَعْنى بها الحلو والحامض ، ولا الحارَّ والبارد من الطعام ، وقد زعم أهلُ المعرفة بك أنه لم يقع فى يدك من زِينَةِ اللهِ الَّتِى أَخْرَجَ لِعِبَادِهِ[٥] ، وأرزاقه الطيبة التى بَسَطها على خلقه ، ما تردّ به جوعةً ولا توارى به عورةً ، وإن ذلك لم يصل إليك إلا ببَغْىِ المسلمين ، وبطانة المستهزئين ، وإفْكِ الْمُفْتَرِين ، ولا أحسبك ـ إذا كانت

---

(١) نزع عن الشىء كضرب : كف عنه .

(٢) اقتبسه من قوله تعالى : « إِنَّ الَّذِينَ يُجَادِلُونَ فى آيَاتِ اللهِ بِغَيْرِ سُلْطَانٍ أَتَاهُمْ إِنْ فى صُدُورِهِمْ إِلاَّ كِبْرٌ مَاهُمْ بِبَالِغِيهِ » .

(٣) اقتبسه من قوله تعالى : « ثُمَّ قَسَتْ قُلُوبُكُمْ مِنْ بَعْدِ ذَٰلِكَ فَهِىَ كَالْحِجَارَةِ أَوْ أَشَدُّ قَسْوَةً » .

(٤) ورد عقب ذلك فى مفتاح الأفكار : « وما أحسبه صح فى يدك من زينة الله التى أخرج لعباده وأرزاقه الطيبة التى بسطها على خلقه ، ماتبلغ به لذة ، ولا تقضى به ذمة ، لأن ذلك لم يصل إليك إلا ببغى المسلمين .... إلى آخر ماورد فى الكتاب التالى » .

(٥) اقتبسه من قوله تعالى : « قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ اللهِ الَّتى أَخْرَجَ لِعِبَادِهِ وَالطَّيِّبَاتِ مِنَ الرِّزْقِ » .

بهذا وأشباهه مكاسِبُك ـ تَبْرأ من كَسْبك من شيء من دَيْنك إلى أحد من غُرَمائك إلا صرتَ بها تَبْرَأ من ذلك إلى أهل الأرض ، رهينةً عند أهل السماء ، ولا تصل بشيء من جمك أحداً من ذوى قرابتك إلا كانت مسألة الله إياك عن قطيعتهم أهونَ عليك من محاسبته إياك بالذى وصل إليهم منك ، ولا تُنْفِق نفقةً صغيرةً ولا كبيرةً[١] إلا وُقِّمَتْ لك فى سِجِّين[٢] ، ولا تُرْفَع منزلةً إلا هبطَتْ بك أسفَلَ سافِلِينَ[٣] ، وما سَلِمَ — مع ما تعرف فى نفسك — قلبُك ، حتى عرَفْتَ به المشرِقَ والمغرِبَ إلا من ضَعفِ قلبك ، ولافتح عليك حتى رجَعْتَ إلى أهلك إلاَّ من قلة عقلك ، ولو نَفَرْتَ فى الأرض حَيْرَانَ على وَجْهك[٤] ، وَرَكِبْتَ الفُلْكَ أنفاً من حَدَثك ، أو سرت إلى الجبال هَرَباً مَن خطيئتك ، أو تَرَمَّمْتَ[٥] العظامَ مع الـكلاب ، أو ولَغتَ[٦] فضولَ الماء مع السباعِ ، لَمَا كان ذلك بقدر جُرمك خَفضا ودَعةً فى حياتك ، وبقدر عملك

---

(١) اقتبسه من قوله تعالى : « وَلَا يُنْفِقُونَ نَفَقَةً صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً وَلَا يَقْطَعُونَ وَادِياً إلاَّ كُتِبَ لَهُمْ » .

(٢) قال تعالى : « كَلاَّ إنَّ كِتَابَ الْفُجَّارِ لَفِى سِجِّينٍ . وَمَا أَدْرَاكَ مَا سِجِّينٌ . كِتَابٌ مَرْقُومٌ » .

(٣) قال تعالى : « لَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ فى أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ ، ثُمَّ رَدَدْنَاهُ أَسْفَلَ سَافِلِينَ » .

(٤) اقتبسه من قوله تعالى : « كَالَّذِى اسْتَهْوَتْهُ الشَّيَاطِينُ فى الأَرْضِ حَيْرَانَ لَهُ أَصْحَابٌ يَدْعُونَهُ إِلَى الْهُدَى ائْتِنَا » .

(٥) ترمم : تعرق ، وتعرق العظم : أكل ماعليه من اللحم .

(٦) ولغ الـكلب فى الإناء وفى الشراب ومنـه وبه يلغ كيهب : شرب مافيه بأطراف أسنانه ، أو أدخل لسانه فيه فحركه .

رَغَداً من معيشتك ، ولو ابيضَّتْ عيناك من الحُزْنِ[١] ، أو عَضَضْتَ على يديك[٢] فأبنتهما من الغَبْنِ ، أو تقطَّع قلبك من الهم ، أو ذهبَتْ نفسُك حَسَرَاتٍ[٣] ، لَمَا كان ذلك أرْشَ[٤] ما خرجْتَ به من دينك ، ولا نَذْرَ مالوَيْتَ[٥] به من أمانتك ، ولا قيمة ما فاتك من ربك ، فإذا بلغت من نفسك المسكينة ما بلغتَ ، ورضيتَ عنك نفسك الضعيفة بما صنَعْتَ ، فلا تَجْعَلْ مَعَ اللهِ إِلَٰهاً آخَرَ فَتَقْعُدَ مَذْمُوماً مَخْذُولاً » .

(المنظوم والمنثور ١٣ : ٤١٥ ومفتاح الأفكار ص ٢٧٩)

١٥٨ — كتاب يحيى بن خالد إلى ابنه جعفر

وذكروا أن جعفر بن يحيى كان يدخل في منادمة الرشيد حتى كان أبوه ينهاه عن منادمته ، ويأمره بترك الأنس به ، فيترك أمر أبيه ويدخل معه فيما يدعوه إليه .

وكتب يحيى إلى ابنه جعفر حين أعْيَتْه حيلتُه فيه :

« إني إنما أهملتك ليَعْثُرَ الزمان بك عثرة تعرفُ بها أمْرَك ، وإن كنتُ لأخشى أن تكون التي لا شَوَى[٦] لَهَا » . (تاريخ الطبرى ١٠ : ٨٣)

---

(١) اقتبسه من قوله تعالى : « وَابْيَضَّتْ عَيْنَاهُ مِنَ الْحُزْنِ فَهُوَ كَظِيمٌ » .

(٢) اقتبسه من قوله تعالى : « وَيَوْمَ يَعَضُّ الظَّالِمُ عَلَى يَدَيْهِ يَقُولُ يَالَيْتَنِي اتَّخَذْتُ مَعَ الرَّسُولِ سَبِيلاً » وأبانه قطعه .

(٣) اقتبسه من قوله تعالى : « فَلَا تَذْهَبْ نَفْسُكَ عَلَيْهِمْ حَسَرَاتٍ إِنَّ اللهَ عَلِيمٌ بِمَا يَصْنَعُونَ » .

(٤) الأرش : الدية .

(٥) لوى به : ذهب ، ولوى بحقه : جحده إياه .

(٦) لاشوى لها : أي لابره لها أو لا إبقاء لها ، أشوى من الشيء : أبقى ، والاسم الشوى ، قال الهذلي :

فإن من القول التي لاشوى لها إذا زل عن ظهر اللسان انفلاتها

١٥٩ — كتاب يحيي بن خالد إلى أيوب بن هرون بن سليمان

ثم تغيّر الرشيد على البرامكة ، فأوقع[1] بهم (سنة ١٨٧) وقتل جعفرا ، وحبس يحيي والفضلَ وسائر البرامكة فى سجن الزَّنادقة إلى أن ماتوا فيه ، واستصفى أموالهم وضياعهم .

ووافى أيوبَ بن هرون بن سليمان بن على خبرُ مَقْتَلِ جعفر وزوَال أمرهم ، فكتب إلى يحيي يعزّيه ، فكتب إليه :

« أنا بقضاء الله راضٍ ، وبالخيار منه عالِم ، ولا يؤاخِذُ الله العبادَ إلا بذنوبهم ، وما ربُّك بِظَلَّامٍ لِلْعَبِيد ، وما يعفو الله أكثرُ ، ولله الحمدُ » .

(تاريخ الطبرى ١٠ : ٨٧)

١٦٠ — كتاب يحيي بن خالد إلى الرشيد

وكتب يحيي بن خالد من الحبْس، إلى الرشيد :

« يا أمير المؤمنين إن كان الذنب خاصًّا فلا تعُمَّنَّ بالعقوبة ، فإن الله عز وجل يقول : « وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَى » . (اختيار المنظوم والمنثور ١٣ : ٣٨٦)

١٦١ — بين يحيي بن خالد والرشيد

وكتب يحيي بن خالد وهو فى الحبس إلى هرون الرشيد :

« لِأمير المؤمنين ، وخليفةِ المهديّين ، وَإمامِ المسلمين ، وخليفةِ رب العالمين ، مِن عبدٍ أسلمَته[2] ذنوبُه وَأوْبقَته عيوبُه ، وخذَله شقيقُه ، ورَفَضه صديقُه ، ومالَ به

---

(١) كان البرامكة قد استأثروا بشئون الدولة وأموالها ، وغلبوا الرشيد على سلطانه ، ولم يكن له معهم تصرف فى ملكه ، ولم يبق له من الخلافة إلا رسمها وصورتها — وحديثهم فى ذلك طويل ليس هاهنا موضعه — فعزم على نكبتهم ، حتى انتهز فرصة رجوعه معهم من الحج سنة ١٨٧ هـ ، فقتل جعفرا ليلا فى طريقه ، وقبض على سائر البرامكة وسجنهم .

(٢) أسلمته: خذلته،فأسقطته من عليامرتبته . أو أسلمته إلى السجن والعذاب، وأوبقته : أهلكته.

الزمان ، ونزل به الحدَثان[١] . فحلّ فى الضيق بعد السَّعة ، وعالَجَ البؤسَ بعد الدَّعة ، وافترَشَ السُّخْطَ بعد الرِّضا ، واكتحَلَ السُّهادَ بعد الهُجُود ، ساعتُه شهر ، وليلتُه دَهْر ، قد عايَنَ الموتَ ، وشارَفَ الفَوتَ ، جَزَعاً لمَوْجِدتك[٢] يا أمير المؤمنين ، وأسَفاً على مافات من قربك ، لا على شىء من المواهب ، لأن الأهل والمال إنما كانا لك وبك ، وكانا فى يدىَّ عاريّةً[٣] ، والعاريةُ مردودَة ، وأما ما أُصِبْتُ به من ولدى فبِذَنبه ، ولا أخشى عليك الخطأ فى أمره ، ولا أن تكون تجاوزتَ به فوق حدِّه ، فتذكَّر يا أمير المؤمنين كِبَرَ سِنِّى ، وَضعف قوّتى ، وارحَم شيبتى ، وهب لى رضاك ، بالعفو عن ذنب إن كان[٤] ، فمِنْ مثلى الزَّلَلُ ، ومن مثلك الإقالة ، وإنما أعتذر إليك بإقرار ما يجب به الإقرار حتى ترضَى عنى ، فإذا رضيتَ رجوتُ إن شاء الله أن يتبين لك من أمرى وبراءة ساحتى ما لا يتعاظمُك[٥] بعده ذنبٌ أنْ تغفِرَه ، مَدَّ الله لى فى عمرك ، وجعل يومى قبل يومك ، وكتب إليه بهذه الأبيات :

قل للخليفة ذى الصَّنِيـــعة والعطايا الفاشــــيَهْ
وابنِ الخلائف من قُرَيـــشٍ والمـــلوك العاليَهْ
إنَّ البرامكةَ الذيـــنَ رُمُوا لديك بداهيه

---

(١) حدثان الدهر بالتحريك : حوادثه ونوبه ؛ وربما أنثته العرب ، يذهبون به إلى الحوادث كما فى قوله :

ألا هلك الشهاب المستنير ومدرهنا الكمى إذا نغير
ووهاب المئين إذا ألمت بنا الحدثان والحامى النصور

وأما حدثان الأمر (بكسر فسكون) فهو أوله وابتداؤه ، يقال : أتيته فى حدثان شبابه ، ووقع هنا خطأ لصاحب القاموس نشأ من الاختصار قال . « وحدثان الأمر بالكسر : أوله وابتداؤه كحداثته ، ومن الدهر : نوبه كحوادثه وأحداثه » والصواب : والحدثان بفتحات من الدهر نوبه . . . الخ والدعة : الراحة وخفض العيش .

(٢) الموجدة : الغضب .

(٣) العارية مشددة وقد تخفف : مايستعار .

(٤) وفى العقد « ففكر فى أمرى ـ جعلنى الله فداك ـ وليمل هواك بالعفو عن ذنب ... » .

(٥) تعاظمه : عظم عليه .

صُفْرُ الوجوه عليهـــمُ ، خِلَعُ المذلة باديَه
فـكأنَّهـــم مما بهم أعجازُ نخلٍ خاويَه
عمّتْهمُ لك سَخْطَةٌ لم تُبْقِ منهم باقِيَة
بعد الإمارة والوزا ، رة والأمور الساميه
ومنازلٍ كانت لهم فوق المنازل عاليـه
أضْحَوا وجُلُّ مناهمُ منك الرضا والعافيه
يا من يودُّ لِيَ الرَّدَى يكفيك مـنى ما بِيَه
يكفيك ما أبصرتَ من ذُلِّى وذلِّ مكانِيَـه
وبكاء فاطمةَ الـكئيـ ـبة والمدامعُ جاريه[1]
ومقالُها بتوجُّـــعٍ يا سَوْءتى وشقائِيَـه !
مَن لِي وقد غضِبَ الزما ن على جميع رجالِيَه ؟
يا لَهْفَ نفسى لَهفَها ما لِلزمان ومالِيَه ؟
يا عَطْفَةَ الملك الرِّضا عُودِى علينا ثانيـــهْ

فلم يكن له جواب من الرشيد .

* * *

وَفى رواية أن الرشيد ردَّ عليه من كتاب :

إن أمير المؤمنين لم يأتِ على ولدك الأمين ، ومِنْ رأيه تَرْكُ الباقين ، ولم يأمر بحبسك ، وهو يريد بقاء نفسك ، إنما أخّرك وإياهم لتعالجَ البؤس بعد النعيم ثم تصير إلى العذاب الأليم ، فأبشر أيها المخادع الزِّنْديق ، والمخالف الفِسِّيق[2] ، بما أعدَّ لك أمير المؤمنين من تبديد شملك ، وخمول ذكرك ، وإطفاء أمرك ، فتوقَّعْه صباحا ومساء »

---

(١) هى زوجه فاطمة بنت محمد بن الحسن بن قحطبة بن شبيب .
(٢) رجل فاسق وفسيق كسكير ، وفسق كزحل : دائم الفسق .

ووقّع الرشيد عليه : « وَضَرَبَ اللهُ مَثَلاً قَرْيَةً كانَتْ آمِنَةً مُطْمَئِنَّةً يَأْتِيهَا رِزْقُهَا رَغَدًا مِنْ كُلِّ مَكانٍ فَكَفَرَتْ بِأَنْعُمِ اللهِ فَأَذَاقَهَا اللهُ لِبَاسَ الْجُوعِ وَالْخَوْفِ بِمَا كَانُوا يَصْنَعُونَ » .

واعتل يحيى فى الحبس ، فلما أشفى[1] دعا برقعة ، فكتب فى عنوانها : يُنفذ أمير المؤمنين أبقاه الله عهدَ مولاه يحيى بن خالد ، وفيها مكتوب :

« بسم الله الرحمن الرحيم: قد تقدّم الخصم إلى موقف الفصل، وأنت على الأثر ، والله حَكَمٌ عَدْل . وستَقْدَم فتعلَم » فلما ثَقِل[2] قال للسجّان : هذا عهدى تُوصله إلى أمير المؤمنين ، فإنه ولىّ نعمتى ، وأحقُّ من نفّذ وصيتى ، فلما مات يحيى أوصل السجان عهده إلى الرشيد .

قال سهل بن هرون : وأنا عند الرشيد إذ وصلت الرقعة إليه فلما قرأها جعل يكتب فى أسفلها ، ولا أدرى لِمَن الرقعة ، فقلت له : يا أمير المؤمنين ، ألَا أكفيك ؟ قال : كلا ، إنى أخاف عادة الراحة أن يتقوى سلطانُ العجز ، فيحكم بالغفلة ، ويقضى بالبلادة ، ووقّع فيها : « الحَكَمُ الذى رضيتَ به فى الآخرة لك ، هو أعدَى الخصوم عليك ، وهو من لا يُنقَض حكمه ، ولا يُرَدُّ قضاؤه » قال : ثم رمى الصكّ إلىّ ، فلما رأيته علمت أنه ليحيى ، وأن الرشيد أراد أن يُؤثِر الجواب عنه .

(العقد الفريد ٣ : ٢٥ وغرر الخصائص الواضحة ص ٤٠٦ والإمامة والسياسة٢ : ١٣٨)

١٦٢ — عهد الأمين على نفسه للرشيد

وحجّ الرشيد ومعه ابناه محمد الأمين[3] وعبد الله المأمون[4] وقوّاده ووزراؤه وقضاته سنة ١٨٦ هـ ، فلما قضى مَناسِكَه استكتب ولديْه الأمين والمأمونَ بخط يدهما

---

(١) أشفى على الموت : أى أشرف .
(٢) ثقل كفرح فهو ثقيل وثاقل : اشتد مرضه .
(٣) وأمه زبيدة أم جعفر بنت جعفر بن المنصور .
(٤) وأمه أم ولد يقال لها مراجل .

عهدين ، عَهِد فيهما بالخلافة من بعده للأمين ، ثم من بعد الأمين المأمون ، وأشهَدَ فيهما ، وأمر بتعليقهما فى داخل الكعبة ، وتقدَّم إلى حَجَبتها فى حفظهما ومَنْع من أرادَ إخراجهما والذهاب بهما .

ونسخة عهد الأمين — كما رواه الطبرى — :

« بسم الله الرحمٰن الرحيم : هذا كتابٌ لعبد الله هٰرون أمير المؤمنين ، كتبَه محمد بن هٰرون أميرِ المؤمنين فى صحَّة من عقله ، وجَوازٍ من أمره ، طائعاً غير مُكْرَه : إن أمير المؤمنين ولاَّنى العهدَ من بعده ، وصيَّر البَيعةَ لى فى رِقاب المسلمين جميعا ، وَوَلَّى عبد الله بن هٰرون أميرِ المؤمنين العهدَ والخلافةَ وجميعَ أمور المسلمين بعدى ، برِضاً منى وتسليم ، طائعا غيرَ مُكْرَه ، وولاَّه خراسان وثغورها وكُوَرَها وحَرْبها وَجُنْدها وخَراجها وَطِرازها[1] وَبَريدها وبيوتَ أموالها وَصدقاتِها وعُشْرها وعشورها وجميع أعمالها فى حياته وبعده .

وشَرَطْتُ لعبد الله هٰرون أمير المؤمنين ، برِضاً منى وطيبِ نفسى ، أنّ لأخى عبد الله بن هٰرون علىَّ الوفاء بما عَقَد له هٰرون أمير المؤمنين ، من العهد والولاية والخلافة وأمور المسلمين جميعا بعدى ، وتسليمَ ذلك له ، وما جعل له من ولاية خراسان وأعمالها كلِّها وما أقطعَه أمير المؤمنين من قَطيعة ، أو جَعَلَ له مِنْ عُقْدة[2] أو ضَيْعة من ضياعه ، أو ابتاعَ من الضِّياع والعُقَد ، وما أعطاه فى حياته وصحته ، من مال أو حُلِىّ أو جوهر أو مَتاع أو كِسوة أو منزل أو دوابّ أو قليل أو كثير ، فهو لعبد الله بن هٰرون أمير المؤمنين مُوَفَّرا مُسَلَّما إليه ، وقد عرَفت ذلك كله شيئا شيئا .

---

(١) الطراز : ماينسج من الثياب للسلطان ، والموضع الذى تنسج فيه الثياب الجياد ، فارسى معرب ، وقد جاء فى تاريخ الطبرى (١٠ : ١٣٩) أنه كان للطراز دور كدور ضرب النقود .

(٢) العقدة : الضيعة والعقار الذى اعتقده صاحبه ملكا (واعتقد الضيعة والمال : اقتناهما) .

فإن حَدَث بأمير المؤمنين حَدَثُ الموت ، وأفْضَتِ الخلافة إلى محمد بن أمير المؤمنين ، فَعَلَى محمدٍ إنفاذُ ماأمَرَه به هرون أمير المؤمنين فى تولية عبد الله بن هرون أمير المؤمنين خراسان وثغورَها ، وَمَن ضَمَّ إليه من أهل بيت أمير المؤمنين بقَرْماسِين[١] ، وأن يُمْضِىَ عبدَ الله بن أمير المؤمنين إلى خراسان والرَّىّ والكُوَر التى سماها أمير المؤمنين حيث كان عبدالله ابن أمير المؤمنين من معسكر أمير المؤمنين وغيره من سلطان أمير المؤمنين ، وجميع من ضم إليه أمير المؤمنين حيث أحبّ من لَدُن الرَّى إلى أقصى عمل خراسان ، ليس لمحمد ابن أمير المؤمنين أن يحوّل عنه قائداً ولا مَقُوداً ولا رجلا واحداً ممن ضُمَّ إليه من أصحابه الذين ضَمَّهم إليه أمير المؤمنين ، ولا يحوِّل عبدَ الله ابن أمير المؤمنين عن ولايته التى ولاه إياها هرون أمير المؤمنين من ثُغور خراسان وأعمالها كلِّها ، مابين عَمَل الرَّى مما يلى هَمَذان إلى أقصى خراسان وثغورها وبلادها وما هو منسوب إليها ، ولا يُشْخِصه[٢] إليه ، ولا يفرِّق أحداً من أصحابه وقوّاده عنه ، ولا يُوَلِّى عليه أحداً ، ولا يَبْعث عليه ولا على أحد من عمّاله ووُلاة أموره بُنْداراً[٣] ولا محاسِباً ولا عاملا ، ولا يُدْخِل عليه فى صغير من أمره ولا كبيرٍ ضرراً ولا يَحُول بينه وبين معمل فى ذلك كله برأيه وتدبيره ، ولا يَعرِض لأحد ممن ضَمَّ إليه أميرُ المؤمنين ، من أهل بيته وصَحابته وقُضاته وعمّاله وكتّابه وقوّاده وخَدَمه ومَواليه وجُنْده ، بما يلتمس إدخال الضرر والمكروه عليهم ، فى أنفسهم ولا قَراباتهم ولا مَواليهم ، ولا أحدٍ يَنْسَلُ[٤] منهم ، ولا فى دمائهم ولا فى أموالهم ، ولا فى ضِياعهم ودُورهم ورِباعهم[٥] وأمتعتهم ورقيقهم ودوابِّهم ، شيئاً من ذلك صغيراً ولا كبيراً ، ولا أحدٍ من الناس بأمْره ورأيه وهواه ، وبترخيص

---

(١) قرماسين : موضع ، قال ياقوت : أظنه فى طريق مكة .
(٢) أى ولا يقدمه إليه ، وفى الأصل « ولا شخصه إليه » وهو تحريف .
(٣) البندار : التاجر الذى يخزن البضائع للغلاء وجمعه بنادرة ، دخيل .
(٤) أى يولد ، نسل كنصر وأنسل : ولد ، وفى الأصل « يتنسل » وهو تحريف .
(٥) الرباع : جمع ربع بالفتح ، وهو المنزل .

له فى ذلك ، وإدهانٍ[1] منه فيه ، لأَحَد من ولد آدم ، ولا يَحْـكُمُ فى أمرهم ولا أحدٌ من قضاته ومن عماله وممن كان بسَبَبٍ منه ، بغير حُـكمِ عبد الله ابن أمير المؤمنين ورأيه ورأى قضاته .

وإن نَزَعَ[2] إليه أحد ممن ضَمَّ أمير المؤمنين إلى عبد الله ابن أمير المؤمنين ، من أهل بيت أمير المؤمنين وصحابته وقواده وعماله وكتّابه وخدمه ومواليه وجنده ، ورفض اسمَهَ ومَـكْتَبَه ومكانَه مع عبد الله ابن أمير المؤمنين ، عاصياً له أو مُخالِفاً عليه ، فعلى محمد ابن أمير المؤمنين ردُّه إلى عبد الله ابن أمير المؤمنين بصِغَرٍ[3] له وقَمَاء ، حتى يُنفِذ فيه رأيه وأمْرَه .

فإن أراد محمد ابن أمير المؤمنين خَلْعَ عبد الله ابن أمير المؤمنين عن ولاية العهد من بعده ، أو عَزْلَ عبد الله ابن أمير المؤمنين عن ولاية خراسان وثغورها وأعمالها ، والذى مِنْ حَدِّ عملها مما يلى هَمَذَانَ ، والـكُوَر التى سماها أمير المؤمنين فى كتابه هذا ، أو صَرْفِ أحدٍ من قُوّاده الذين ضمَّهم أمير المؤمنين إليه ممن قَدِم قَرْماسِين ، أو أن ينتقِصه قليلا أو كثيرا مما جعله أمير المؤمنين له ، بوجه من الوجوه ، أو بحيلة من الحيل ، صَغُرت أو كبُرت ، فلعبد الله بن هرون أمير المؤمنين الخلافةُ بعد أمير المؤمنين ، وهو المقدَّم على محمد ابن أمير المؤمنين ، وهو ولىُّ الأمر من بعد أمير المؤمنين، والطاعةُ من جميع قواد أمير المؤمنين هرون من أهل خراسان وأهل العطاء وجميع المسلمين فى جميع الأجناد والأمصار ، لعبد الله ابن أمير المؤمنين ، والقيامُ معه والمجاهدةُ لمن خالَفَه ، والنصرُ له والذَّبُّ عنه ، ما كانت الحياةُ فى أبدانهم ، وليس لأحد منهم جميعاً مَن كانوا أو حيث كانوا أن يخالفه ، ولا يَعْصِيَه ، ولا يخرج من طاعته ، ولا يُطيع محمد ابن أمير المؤمنين فى خَلْع عبد الله بن هرون أمير المؤمنين ، وصَرْف العهدِ عنه

---

(١) الإدهان . إظهار خلاف مايضمر والغش .

(٢) أى مال . (٣) الصغر : كعنب ، والصغار بالفتح : الذل . وكذا القماء والقماءة .

من بعده إلى غيره ، أو ينتقصه شيئا مما جعله له أمير المؤمنين هٰرون فى حياته وصحته ، واشتَرَط فى كتابه الذى كَتَبَهُ عليه فى البيت الحرام فى هذا الكتاب ، وعبدُ الله ابن أمير المؤمنين المصدَّقُ فى قوله ، وأنتم فى حِلٍّ من البَيْعة التى فى أعناقكم لمحمد ابن أمير المؤمنين هٰرون إن نَقَص شيئا مما جَعلَه له أمير المؤمنين هٰرون ، وعلى محمد ابن هٰرون أمير المؤمنين أن ينقاد لعبد الله ابن أمير المؤمنين هٰرون ، ويسلِّم له الخلافة وليس لمحمد ابن أمير المؤمنين هٰرون، ولا لعبد الله ابن أمير المؤمنين، أن يخلعا القاسم(١) ابن أمير المؤمنين هٰرون ولا يقدِّما عليه أحدا من أولادهما وقراباتهما ولا غيرهم من جميع البريَّة ، فإذا أفضتِ الخلافة إلى عبد الله ابن أمير المؤمنين ، فالأمرُ إليه فى إمضاء ما جَعلَه أمير المؤمنين من العهد للقاسم بعده ، أو صَرْفِ ذلك عنه إلى مَن رَأَى من ولده وإخوته ، وتقديمِ من أراد أن يقدِّم قَبْله ، وتصييرِ القاسم ابن أمير المؤمنين بعدَ مَن يقدم قبله ، يَحكمُ فى ذلك بما أحبَّ ورأى .

فعليكم معشرَ المسلمين إنفاذ ما كَتَبَ به أمير المؤمنين فى كتابه هذا ، وشَرَط عليهم ، وأَمَرَ به ، وعليكم السمع والطاعة لأمير المؤمنين فيما ألزَمكم وأوجَبَ عليكم لعبد الله ابن أمير المؤمنين، وعهد الله وذمته وذمة رسوله صلى الله عليه وسلم وذمم المسلمين والعهود والمواثيق التى أخَذَ الله على الملائكة المقرَّبين والنبيين والمرسلين ، ووكَّدها فى أعناق المؤمنين والمسلمين : لَتَكُننَّ لعبد الله أمير المؤمنين بما سمَّى، ولمحمد وعبد الله والقاسم بنى أمير المؤمنين بما سمَّى وكتب فى كتابه هذا واشترَط عليكم وأقررتم به على أنفسكم ، فإن أنتم بَدَّلتم من ذلك شيئا أو غيرتم أو نكَثْتم أو خالفتم ما أمَرَكم به أمير المؤمنين واشترط عليكم فى كتابه هذا ، فبرِئَت منكم ذمَّةُ الله وذمة رسوله محمد صلى الله عليه وسلم وذمم المؤمنين والمسلمين ، وكل مالٍ هو اليوم لكل راجل منكم

---

(١) وكان يلقب بالمؤتمن ، وأمه أم ولد يقال لها قصف (والمعتصم بن الرشيد أمه أم ولد أيضا يقال لها ماردة) .

أو يستفيده إلى خمسين سنةً فهو صَدقة على المساكين ، وعلى كل رجل منكم المشىُ إلى بيت الله الحرام الذى بمكة خمسين حِجَّةً نَذْرا واجبا لا يقبل الله منه إلا الوفاء بذلك، وكل مملوك لأحد منكم أو يملكه فيما يستقبل إلى خمسين سنةً حُرٌّ ، وكل امرأة له فهى طالق ثلاثا ألبتَّةَ طلاقَ الحرَجِ[1] لامَثْنَوِيَّةَ فيها ، والله عليكم بذلك كفيلٌ وراعٍ وكفى بالله حَسيبا » . (تاريخ الطبرى ١٠ : ٧٣)

١٦٣ — صورة أخرى

وروى صاحب صبح الأعشى عهد الأمين بصورة أخرى . وهى :

« بسم الله الرحمٰن الرحيم : هذا كتابٌ لعبد الله هٰرون أمير المؤمنين ، كتَبَه له محمد ابن أمير المؤمنين ، فى صحة من بدنه وعقله ، وجوازٍ من أمره ، طائعاً غيرَ مُكرَه .

إن أمير المؤمنين هٰرون ولاّنى العهدَ من بعده، وجعل لى البَيْعةَ فى رقاب المسلمين جميعاً ، وولَّى أخى عبد الله ابن أمير المؤمنين هٰرون العهدَ والخلافة وجميعَ أمور المسلمين من بعدى ، برضاً منى وتسليم ، طائعاً غيرَ مُكرَه ، وولّاه خُراسان بثغورها وكُوَرها وجنودها وخَراجها وطِرازِها وبَريدها وبيوت أموالها وصَدقاتها وعُشْرها وعُشورها ، وجميع أعمالها ، فى حياته وبعد وفاته ، فشرطْتُ لعبد الله ابن أمير المؤمنين علىَّ الوفاء بما جَعَله له أميرُ المؤمنين هٰرون ، من البيعة والعهد وولاية الخلافة وأمور المسلمين بعدى ، وتسليم ذلك له ، وما جَعَل له من ولاية خُراسان وأعمالها ، وما أَقْطَعَه أمير المؤمنين هٰرون من قَطيعة ، وجعل له من عُقْدة أو ضَيْعة من ضِياعه وعُقَده ، أو ابتاع له من الضِّياع والعُقَد ، وما أعطاه فى حياته وصحّته : من مال أو حُلِىٍّ أو جوهر أو متاع أو كُسْوة أو رقيق أو منزل أو دوابّ ، قليلا أو كثيراً ، فهو لعبد الله ابن أمير المؤمنين،

---

(١) انظر ص ١٤٠ ، ويقال : حلف يمينا لامثنوية فيها : أى لا استثناء فيها .

مُوفَّرا عليه مُسَلَّماً له ، وقد عرَفتُ ذلك كله شيئاً فشيئا باسمه وأصنافه ومواضعه ، أنا وعبد الله بن هرون أمير المؤمنين ، فإن اختلَفْنا فى شيء منه ، فالقولُ فيه قولُ عبد الله بن هرون أمير المؤمنين ، لا أُتْبِعَه بشيء من ذلك ، ولا آخُذه منه ، ولا أنتقصُه صغيراً ولا كبيراً من ماله ، ولا من ولاية خراسان ولا غيرها ، مما ولاَّه أميرُ المؤمنين من الأعمال ، ولا أعزِلُه عن شيء منها ، ولا أخلَعه ولا أستبدِل به غيرَه ، ولا أُقدِّم عليه فى العهد والخلافة أحداً من الناس جميعاً ، ولا أُدخِل عليه مكروهاً فى نفسه ولا دمه ولا شَعْره ولا بَشَره[1] ، ولا خاصٍّ ولا عامٍّ من أموره وولايته ، ولا أمواله ولا قطائعه ولا عُقَده ، ولا أُغيِّر عليه شيئاً لسبب من الأسباب ، ولا آخُذه ولا أحدًا من عُمّاله وكُتّابه ووُلاةِ أمره ممن صَحِبه وأقام معه بمحاسبة ، ولا أتَتَبَّع شيئاً جرَى على يديه وأيديهم فى ولاية خراسان وأعمالها وغيرها ، مما ولاّه أميرُ المؤمنين فى حياته وصحّته ، من الجِباية والأموال والطِّراز والبَريد والصَّدَقات والعُشْر والعُشور وغير ذلك ، ولا آمُر بذلك أحداً من الناس ولا أُرخِّص فيه لغيرى ، ولا أُحدِّث نفسى فيه بشيء أُمضيه عليه ، ولا ألتمِسُ قطيعةً له ، ولا أَنقض شيئاً مما جعله له هرون أمير المؤمنين وأعطاهُ فى حياتِه وخلافتِه وسلطانه ، من جميع ما سَمَّيتُ فى كتابى هذا ، وآخُذ له علىّ وعلى جميع الناس البيعةَ ، ولا أُرخِّص لأحد — من جميع الناس كلّهم فى جميع ما ولاّه — فى خَلعه ولا مخالفته ، ولا أسمع من أحد — من البريَّة فى ذلك قولاً ، ولا أرضَى بذلك فى سرٍّ ولا علانية ، ولا أُغمِض عليه ، ولا أَتغافل عنه ، ولا أَقبَلُ من برٍّ من العباد ولا فاجِرٍ ، ولا صادقٍ ولا كاذب ، ولا ناصحٍ ولا غاشٍّ ، وَلا قريب ولا بعيد ، وَلا أحدٍ من ولد آدم عليه السلام ، من ذَكَر ولا أُنثى ، مَشُورةً وَلا حِيلةً وَلا مكيدةً فى شيء من الأمور : سِرِّها وعلانيتها ، وحَقِّها وَباطِلها ، وظاهِرِها وباطِنها ، ولا سببٍ من

---

(١) البشر : ظاهر جلد الإنسان ، جمع بشرة .

الأسباب ، أُرِيدُ بذلك إفسادَ شيء مما أَعطيتُ عبد الله بن هرون أمير المؤمنين من نفسي ، وأَوجبتُ له عَلَيَّ ، وشرَطْتُ وسَمَّيتُ في كتابي هذا .

وإن أراد به أَحدٌ من الناس أجمعين سوءا أو مكروها ، أو أراد خَلْعَهُ أو محاربتَه أو الوصولَ إلى نفسه ودمه أو حُرَمه أو ماله أو سلطانه أو ولايته ، جميعا أو فُرَادَى مُسَرِّين أو مظهرين لهُ ، فإني أَنْصُره وأحُوطه(١) وأدفع عنه ، كما أدفع عن نفسي وَمُهْجَتي ودمي وشَعْري وبَشَري وَحُرَمي وَسلطاني ، وَأُجهِّز الجنودَ إليه ، وأُعِينه على كل من غشَّه وَخالَفَه ، وَلا أُسْلِمُهُ(٢) ولا أخذله ولا أتَخَلَّى عنه ، ويكون أمري وَأَمْرُه في ذلك وَاحدا أبدا ما كنت حَيًّا

إن حَدَث بأمير المؤمنين هرون حَدَثُ الموت ، وأنا وعبد الله ابن أمير المؤمنين بحَضْرة أمير المؤمنين ، أو أَحَدُنا ، أو كنا غائبَيْن عنه جميعا، مجتمعَيْن كنا أو متفرقَيْن، وليس عبد الله بن هرون أمير المؤمنين في ولايته بخراسان، فعليَّ لعبدالله ابن أمير المؤمنين أنْ أُمْضِيَه إلى خراسان ، وأن أُسَلِّم له ولايتها بأعمالها كلها وجنودها، ولا أُعَوِّقه عنها ، ولا أحبِسه قِبَلي، ولا في شيء من البُلدان دون خراسان، وأُعجِّل إشخاصَه إلى خراسان، وَالِيًا عليها مُفْرَداً بها ، مُفَوَّضاً إليه جميعُ أعمالها كلِّها ، وأُشْخِص معه مَن ضَمَّ إليه أمير المؤمنين من قوّاده وجنوده وأصحابه وكُتَّابه وعُمَّاله ومَواليه وخَدَمه ، وَمن تبعه من صنوف الناس بأهليهم وأموالهم ، وَلا أُحبِس عنه أحدا ، وَلا أُشْرِك معه في شيء منها أحدا ، ولا أرسل أَمينا وَلا كاتبا ولا بُنْدارا ، ولا أَضْرِب على يديه في قليل ولا كثير .

وَأعطيت هرونَ أمير المؤمنين وعبد الله بن هرون على ما شرطتُ لهما على نفسي ، من جميع ما سمَّيتُ وكتبت في كتابي هذا عَهْدَ الله وميثاقَه ، وذِمَّةَ أمير المؤمنين وذمَّتي وذمة آبائي وذِمَم المؤمنين ، وأشَدَّ ما أخَذَ اللهُ تعالى على النبيِّين والمرسلين

---

(١) حاطه : صانه وحفظه .   (٢) أسلمه : خذله .

وخَلْقه أجمعين ، من عهوده ومواثيقه ، والأيمانَ المؤكَّدة التي أمَرَ الله عز وجل الوفاء بها ، ونَهَى عن نَقْضِها وتبديلها .

فإن أنا نقضتُ شيئا مما شَرَطْتُ لهٰرون أمير المؤمنين ولعبدِ الله بن هٰرون أمير المؤمنين ، وسَمَّيت في كتابي هذا ، أو حَدَّثتُ نفسي أن أنقُضَ شيئا مما أنا عليه ، أو غيَّرتُ أو بدَّلت ، أو حُلْت أو غدَرْتُ ، أو قبِلتُ ذلك من أحد من الناس : صغيراً أو كبيرا ، برًّا أو فاجرا ، ذَكَرا أو أنثى ، وجماعةً أو فُرادَى ، فبرِئْتُ من الله عز وجل ومن ولايته ومن دينه ومن محمد صلى الله عليه ، ولَقِيت الله عزّ وجل يوم القيامة كافرا مشركا ، وكلُّ امرأة هي اليوم لي أو أتزوجها إلى ثلاثين سنةً طالقٌ ثلاثا ألبتةَ طلاقَ الحَرَج ، وعَلَيَّ المشيُ إلى بيت الله الحرام ثلاثين حِجَّة : نَذْراً واجبا لله تعالى في عُنقي ، حافيا راجِلا ، لايقبل الله مني إلا الوفاء بذلك ، وكلُّ مالٍ هو لي اليومَ ، أو أملِكه إلى ثلاثين سنةً هَدْيٌ(١) بالغُ الكعبة الحَرَام ، وكلُّ مملوك هو لي اليومَ أو أملِكه إلى ثلاثين سنةً أحرارٌ لوجه الله عز وجل .

وكلّ ماجعلت لأمير المؤمنين ولعبد الله بن هٰرون أمير المؤمنين وكتبتُه وشرطتُه لهما ، وحلفْتُ عليه ، وسَمَّيْتُ في كتابي هذا ، لازِمٌ لي الوفاء به ، لا أضمِر غيرَه ، ولا أنوِي إلاَّ إياه ، فإن أضمَرْتُ أو نويتُ غيره ، فهذه العقودُ والمواثيق والأيمان كلُّها لازِمة لي ، واجبةٌ عليَّ ، وقُوَّاد أمير المؤمنين وجنودُه وأهل الآفاق والأمصار ، في حِلٍّ من خَلْعي وإخراجي من ولايتي عليهم ، حتى أكون سُوقَةً من السُّوق ، وكَرجل من عُرْض(٢) المسلمين ، لاحقَّ لي عليهم ، ولا ولاَية ، ولاَ تَبِعَة لي قِبلَهم ، ولا بَيْعةَ لي في أعناقهم ، وهم في حلٍّ من الأيمان التي أعطَوْني ، براءٌ من تَبِعتها ووِزْرها في الدنيا والآخرة .

شهد سليمان ابن أمير المؤمنين المنصور ، وعيسى بن جعفر ، وجعفر بن جعفر ،

---

(١) الهدى : مايهدى الى الحرم . (٢) عرض الشيء بالضم : وسطه وناحيته .

وعبد الله بن المهدىّ ، وجعفر بن موسى أمير المؤمنين، وإسحٰق بن موسى أمير المؤمنين، وإسحٰق بن عيسى بن على ، وأحمد بن إسماعيل بن على ، وسليمان بن جعفر بن سليمان ، وعيسى بن صالح بن على ، وداود بن عيسى بن موسى ، وَيَحْيى بن عيسى بن موسى ، ودَاود بن سليمان بن جعفر ، وخُزَيمة بن خازم ، وَهَرْثَمة بن أعْيَن ، وَيحيى بن خالد ، والفضل بن يحيى ، وجعفر بن يحيى ، والفضل بن الربيع مَوْلَى أمير المؤمنين ، والقاسم ابن الرَّبيع مولى أمير المؤمنين ، ودمانة بن عبد العزيز العَبْسى ، وسليمان بن عبد الله الأصمّ ، والربيع بن عبد الله الحارثى ، وعبد الرحمٰن بن أبى الشمْر الغسَّانى ، ومحمد بن عبد الرحمٰن قاضِى مكَّة ، وعبد الكريم بن شُعَيب الْحَجَبىّ ، وإبراهيم بن عبد الله الحجبى ، وعبد الله بن شعيب الحجبى ، ومحمد بن عبد الله بن عثمان الحجبى ، وإبراهيم ابن عبد الرحمٰن بن نَبيه الحجبىّ ، وعبد الواحد بن عبد الله الحجبىّ ، وإسمٰعيل بن عبد الرحمٰن ابن نبيه الحجبى ، وَأَبَانٌ مَوْلَى أمير المؤمنين ، ومحمد بن منصور ، وإسمٰعيل بن صُبَيح ، والحارث مولى أمير المؤمنين ، وخالد مولى أمير المؤمنين .

وكتب فى ذى الحجة سنة ست وثمانين ومائة . (صبح الأعشى ١٤ : ٨٥)

١٦٤ — عهد المأمون على نفسه للرشيد

ونسخة عهد المأمون :

« هذا كتاب لعبد الله هٰرون أمير المؤمنين، كتَبَه له عبد الله بن هٰرون أمير المؤمنين فى صحّة من عقله ، وجَوازٍ من أمره ، وصِدْقِ نيَّة فيما كتب فى كتابه هذا ، ومعرفةٍ بما فيه من الفضل والصلاح له ولأهل بيته وجماعة المسلمين ، إن أمير المؤمنين هٰرون ولاَّنى العهد والخلافة وجميعَ أمور المسلمين فى سلطانه ، بعد أخى محمد بن هٰرون ، ووَلاَّنى فى حياته وبعده ثغورَ خراسان وكُوَرَها وجميع أعمالها : من الصَّدقات والعُشْر والبريد والطِّراز وغير ذلك ، وشَرَطَ لى على محمد بن هٰرون الوفاء بما عَقَدَ لى من الخلافة وولاية

أمور العباد والبلاد بعده وولاية خراسان وجميع أعمالها ، ولا يَعْرِض لى فى شىء مما أقطَعَنى أمير المؤمنين ، أو ابتاع لى من الضِّياع والعُقد والدور والرِّباع ، أو ابتَعْتُ منه لنفسى من ذلك ، وما أعطانى أميرُ المؤمنين من الأموال والجوهر والكُسا والمتاع والدوابِّ والرَّقيق وغير ذلك ، ولا يَعرِض لى ولا لأحد من عمالى وكتّابى بسبب محاسبة ، ولا يتتبَّع لى فى ذلك ولا لأحد منهم أثرًا ، ولا يُدْخِلُ علىَّ ولا عليهم ولا على من كان معى ، ومن استعنتُ به من جميع الناس ، مكروهاً فى نفس ولا دم ولا شعر ولا بَشَرٍ ولا مال ولا صغير من الأمور ولا كبير ، فأجابَه إلى ذلك وأقرَّ به ، وكتب له كتابا أكَّدَ فيه على نفسه ، ورَضِىَ به أمير المؤمنين هرون وقَبِلَه ، وعَرَف صِدْقَ نيّته فيه ، فشَرَطْتُ لأمير المؤمنين وجعلْتُ له على نفسى أن أسمع لمحمد وأطيعه ولا أعصيه ، وأنصَحه ولا أغُشَّه ، وأوفِّى ببيعته وولايته ، ولا أغدر ولا أنكُث ، وأنفِّذ كُتُبه وأموره ، وأحسِن مُوازَرَته ومكانَفَتَه[(١)] ، وأجاهد عدوَّه فى ناحيتى بأحسن جهاد ، ما وَفَى لى بما شَرَط لى ولأمير المؤمنين فى أمرى ، وسمَّى فى الكتاب الذى كتبه لأمير المؤمنين ، ورضِىَ به أمير المؤمنين ، ولم ينقص شيئاً من ذلك ، ولم ينقُض أمراً من الأمور التى شَرَطها أمير المؤمنين لى عليه .

فإن احتاج محمد ابن أمير المؤمنين إلى جُند ، وكتَبَ إلىَّ يأمرنى بإشخاصه إليه ، أو إلى ناحية من النواحى ، أو إلى عدو من أعدائه ، خالَفَه أو أراد نَقصَ شىء من سلطانه أو سلطانى ، الذى أسنده أمير المؤمنين إلينا وَوَلاَّنا إياه ، فعلىَّ أن أنفذ أمْرَه ولا أخالفه ولا أُقصِّر فى شىء كتب به إلىَّ .

وإن أراد محمد أن يولِّىَ رجلا من ولده العهدَ والخلافةَ من بعدى ، فذلك له ، ماوَفَّى لى بما جعله أميرُ المؤمنين إلىَّ ، واشترطه لى عليه ، وشَرَط على نفسه فى أمرى ، وعلىَّ إنفاذُ ذلك والوفاء له به ، ولا أنقُص من ذلك ولا أغَيِّره ولا أبدِّله ، ولا أقدِّم قبله

---

(١) المكانفة : الموازرة والمعاونة .

أحدا من ولدى ، ولا قريبا ولا بعيدا من الناس أجمعين ، إلاَّ أنْ يُوَلِّيَ أمير المؤمنين هٰرون أحدا من ولده العهدَ من بعدى ، فَيَلْزَمُنى ومحمداً الوفاء له .

وجعلت لأمير المؤمنين ومحمدٍ علىَّ الوفاء بما شَرَطْتُ وسَمَّيْتُ فى كتابى هذا ، ما وَفَّى لى محمد بجميع ما اشترط لى أمير المؤمنين عليه فى نفسى، وما أعطانى أمير المؤمنين من جميع الأشياء المسمّاة فى هذا الكتاب الذى كتبه لى ، وعلىَّ عهدُ الله وميثاقُه وذمّة أمير المؤمنين وذمتى وذِمَم آبائى وذمم المؤمنين ، وأشدّ ما أخَذَ الله على النبيين والمرسلين من خَلقه أجمعين ، من عهوده ومواثيقه والأيمان المُؤَكَّدة التى أمر الله بالوفاء بها ، ونهَى عن نقضها وتبديلها ، فإن أنا نَقَضْت شيئا مما شرَطْتُ وسَمَّيْتُ فى كتابى هذا ، أو غيَّرت أو بدّلت أو نكَثْتُ أو غَدَرْتُ، فبرِئْتُ من الله عز وَجل ومن ولايته ودينه ، ومحمد رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ولقِيتُ الله يوم القيامة كافِرا مشركا ، وكلُّ امرأة هى لى اليومَ أو أتزوجها إلى ثلاثين سنةً طالقٌ ثلاثا ألْبَتَّةَ طلاقَ الحَرَج، وكلُّ مملوك هو لى اليومَ أو أمْلكه إلى ثلاثين سنةٍ أحرارٌ لوجه الله ، وعلىَّ المشىُ إلى بيت الله الحرام الذى بمكة ثلاثين حِجَّة نَذْراً واجباً علىَّ فى عنقى ، حافيا راجلا ، لا يقبل الله منى إلا الوفاء بذلك ، وكل مالٍ هو لى اليومَ أو أملِكه إلى ثلاثين سنةً هَدْىٌ بالغُ الكعبة ، وكلّ ما جعلتُ لأمير المؤمنين وشرطْتُ فى كتابى هذا لازمٌ لى، لا أُضْمِر غيره ، ولا أنوِى سواه » .

وشهد سليمان ابن أمير المؤمنين ، وفلان ، وفلان

وكتب فى ذى الحجة سنة ست وثمانين ومائة(١)

(تاريخ الطبرى ١٠ : ٧٦ ، وصبح الأعشى ١٤ : ٨٩)

---

(١) ولم يزل هذان الشرطان معلقين فى جوف الكعبة حتى مات الرشيد ، فلما انقضت سنتان من خلافة الأمين كلم الفضل بن الربيع وزيره محمد بن عبد الله الحجبى فى إتيانه بهما فنزعهما من الكعبة وذهب بهما إلى بغداد ، فأخذهما الفضل فخرقهما وأحرقهما بالنار .

١٦٥ — كتاب الرشيد إلى عماله

وكتب الرشيد إلى عُمّاله فى هذا الشأن :

« بسم الله الرحمٰن الرحيم : أما بعدُ فإن الله وَلِىُّ أمير المؤمنين وَوَلِىُّ ما وَلّاه ، والحافظُ لما استرعاه وأكرمه به من خلافته وسلطانه ، والصانعُ له فيما قدَّم وأخَّر من أموره ، وَالمُنْعِم عليه بالنصر والتأييد فى مَشارق الأرض ومَغاربها ، وَالكالِئُ[1] والحافظ والكافى من جميع خَلْقه ، وَهو المحمود على جميع آلائه[2] ، المسئولُ تمامَ حُسْنِ ما أمْضَى من قضائه لأمير المؤمنين ، وعادتِه الجميلةِ عنده ، وَإلهامَ ما يَرْضَى به ، وَيُوجِبُ لَه عليه أحسنَ المَزِيد من فضله .

وقد كان مِن نعمة الله عز وجل عند أمير المؤمنين وعندك وعند عَوامِّ المسلمين ، ما تولَّى اللهُ من محمد وعبد الله ابنَىْ أمير المؤمنين ، مِن تبليغه بهما أحسنَ ما أمَّلَتِ الأمةُ ، ومَدَّت إليه أعناقَها ، وقَذَف اللهُ لهما فى قلوب العامَّة من المحبة والمودَّة والسكون إليهما والثقةِ بهما ، لِعِمادِ دينهم ، وقِوام أمورهم ، وجَمْعِ أُلْفتهم ، وصلاح دَهْمائِهم[3] ، ودَفْعِ المحذور والمكروه من الشَّتاتِ والفُرقةِ عنهم ، حتى أَلْقَوا إليهما أزِمَّتَهم ، وأعطَوهما بيعَتَهم ، وصَفَقاتِ أيمانهم بالعهود والمواثيق ووَكِيدِ الأَيْمان المغلَّظة عليهم ، أراد اللهُ فلم يكن له مَرَدّ ، وأمْضاه فلم يقدِر أحدٌ من العباد على نَقْضِه ولا إزالته ، ولا صَرْفٍ لَهُ عن محبته وَمشيئته ، وما سَبَقَ فى علمه منه ، وَأمير المؤمنين يَرْجُو تمامَ النعمة عليه وعليهما فى ذلك وعلى الأمة كافَّةً ، لا عاقِبَ لأمْر الله ، ولا رَادَّ لقضائه ، ولا مُعَقِّبَ لحكمه .

وَلم يزل أمير المؤمنين منذ اجتمعت الأمة على عَقد العَهد لمحمد ابن أمير المؤمنين من

---

(١) أى الحارس والحافظ .

(٢) الآلاء : النعم ، واحدها إلى كمعل ، وألو وألى كشمس وألى كفق وإلى كغنى .

(٣) الدهماء : جماعة الناس .

بعد أمير المؤمنين ، ولعبد الله ابن أمير المؤمنين من بعد محمد ابن أمير المؤمنين ، يُعْمِل فِكْرَه ورَأْيَه ونظره ورَويته فيما فيه الصلاحُ لهما ولجميع الرعية ، والجَمْعُ الكلمة ، واللَّمُّ للشَّعَثِ ، والدَّفعُ للشَّتات والفُرْقة ، والحَسْمُ لكيد أعدَاء النِّعِم ، منْ أهل الكفرِ وَالنفاقِ ، والغِلّ وَالشقاق ، وَالقَطْعُ لآمالهم من كل فُرْصة يرجون إدرا كها وانتهازها منهما بانتقاصِ حقهما ، ويستخير اللهَ أميرُ المؤمنين فى ذلك ، ويسأله العزيمةَ له على مافيه الخِيَرةُ لهما ولجميع الأمة، والقوةُ فى أمر الله وَحقِّه ، وائتلافُ أهوائهما ، وَصلاحُ ذاتِ بينهما ، وتحصينُهما من كيد أعداء النعم ، وَردُّ حَسَدهم ومكرهم وَبغيهم وسعيهم بالفساد بينهما فعزَم اللهُ لأمير المؤمنين على الشُّخوص بهما إلى بيت الله وَأخْذِ البيعة منهما لأمير المؤمنين بالسمع وَالطاعة وَالإنفاذ لأمره ، وا كتتابِ الشَّرْط على كل واحد منهما ، لأمير المؤمنين ولهما، بأشدّ المواثيق والعهود وأغلظِ الأيمان وَالتوكيد، والأخْذِ لكل واحد منهما على صاحبه ، بما التمس به أمير المؤمنين اجتماعَ أُلْفتهما وَمَودَّتهما وَتواصُلهما وَمُوازرَتهما ومكانَفَتهما على حُسن النظر لأنفسهما ولرعية أمير المؤمنين التى استرعاهما ، وَالجماعة لدين الله عز وجل وكتابه وسُنَن نبيه صلى الله عليه وسلم ، والجهاد لعدوّ المسلمين من كانوا وحيث كانوا ، وقَطْعِ طمع كل عدوّ مُظْهِرِ العداوة ومُسِرٍّ لها وَكل منافق مارقٍ وأهل الأهواء الضَّالَّة المُضلَّة من فرقة تَكيدُ بكَيْدٍ تُوقِعُه بينهما ، وبِدَحْس تَدْحَس[1] به لهما ، وما يلتمس أعداء الله وأعداء النعم وأعداء دينه ، من الضرب بين الأمة ، والسعى بالفساد فى الأرض ، والدعاء إلى البِدَع والضلالة ، نظراً من أمير المؤمنين لدينه ورعيته وأمة نبيه محمد صلى الله عليه وَسلم ، ومناصحةً لله ولجميع المسلمين ، وذَبًّا عن سلطان الله الذى قدَّره وتوحَّد فيه الذى حمَّله إياه ،والاجتهادَ فى كل مافيه قُرْبَةٌ إلى الله ،وما ينال به رِضوانهُ والوسيلةَ عنده .

فلمَّا قدم مكَّةَ أظهر لمحمد وعبد الله رأيه فى ذلك ، وما نَظَر فيه لهما ، فقَبِلا كل

(١) دحس بينهما : كمنع دَحسا : أفسد ، ودحس بالشر : دسه من حيث لا يعلم .

مادَعاهما إليه من التوكيد على أنفسهما بقبوله وَكتبالأمير المؤمنين فى بَطْن بيت الله الحرام بخُطوط أيديهما ، بِحَضَر ممن شهِد المَوْسِمَ من أهل بيت أمير المؤمنين وقوّاده وصحابته وقُضاته وحَجَبة الكعبة وَشهاداتهم عليهما كتابين ، استودَعهما أمير المؤمنين الْحَجَبةَ ، وأمرَ بتعليقهما فى داخل الكعبة .

فلما فَرَغ أمير المؤمنين من ذلك كله فى دَاخل بيت الله الحرام وبَطْن الكعبة أمر قُضاته الذين شَهدوا عليهما ، وحَضَروا كتابهما ، أن يُعْلِموا جميعَ مَن حَضر الموسمَ من الحاجّ والعُمَّارِ[١] ووفود الأمصار ماشهدوا عليه من شرطهما وكتابهما ، وقراءة ذلك عليهم ، ليفهموه وَيَعُوه[٢] ويعرفوه ويحفظوه ، وَيؤدُّوه إلى إخوانهم وأهلِ بلدانهم وأمصارهم ، ففعلوا ذلك ، وقُرِئَ عليهم الشرطان جميعا فى المسجد الحرام ، فانصرفوا وقد اشتهر ذلك عندهم وأثبتوا الشهادة عليه ،وعَرَفوا نظرَ أميرالمؤمنين وعِنايتَه بصلاحهم، وحَقْنِ دمائهم ، ولَمَّ شَعْثهم ، وإطفاء جَمْرة أعداء الله وأعداء دِينه وَكتابه وجماعة المسلمين عنهم، وأظهروا الدعاء لأمير المؤمنين والشكر لما كان منه فى ذلك .

وقد نَسَخ لك أمير المؤمنين ذَيْنك الشرطين اللَّذين كتبهما لأمير المؤمنين ابناه محمد وعبد الله فى بطن الكعبة فى أسفل كتابه هذا ، فاحمدِ الله عز وجل على ماصَنَع لمحمد وعبد الله وَلِيَّيْ عهدِ المسلمين حَمْداً كثيرا ، واشكره بِبلائه عند أمير المؤمنين وعند وليَّيْ عهد المسلمين وعندك وعند جماعة أمَّة محمد صلى الله عليه وسلم كثيرا ، واقرأْ كتاب أمير المؤمنين على مَن قِبلَك من المسلمين ، وأفهِمْهم إياه ، وقم به بينهم وأثبِته فى الديوان قِبَلك وقبَل قُوّاد أمير المؤمنين وَرعيته قِبلك ، واكتب إلى أمير المؤمنين بما يكون فى ذلك إن شاء الله ، وحَسبنا الله ونِعْمَ الوكيل ، وبه الحَوْل والقوة والطَّوْلُ» .

---

(١) العمار : المعتمرون ــ والفرق بين الحج والعمرة : أن العمرة تكون للإنسان فى السنة كلها ، والحج وقت واحد فى السنة .   (٢) وعاه يعيه : حفظه .

وكتب إسمعيل بن صبيح يوم السبت لسبع ليال بقين من المحرم سنة ست وثمانين ومائة . (تاريخ الطبرى ١٠ : ٧٢)

١٦٦ — رسالة يحي بن زياد الحارثى في تقريظ الرشيد

« أما بعدُ : فإنى أسألُ اللهَ لأمير المؤمنين فى غابرِ أموره ، أحسنَ ماعوَّده فى سالفِها ، من السلامةِ التى حرَسَه بها من المكارِه ، والعِزِّ الذى قهَر له به الأعداءَ ، والنصر الذى مكَّن له فى البلاد ، والهُدَى الذى وهب له به المحبةَ ، والرِّفْقِ الذى أدَرَّ له به الحَلَب[1] والاستصلاح الذى اتَّسَقَتْ له به الرعيةُ ، حتى يكون ـ بما أعطاه من ذلك ، وما هو مُستقبَلٌ به منه ـ أبعدَ خُلَفائه فى الخير ذكرا ، وأبقاهم فى العدل أثرًا وأطولَهم فى العمر مدةً ، وأحسَنهم فى المَعَاد مُنقَلَبًا .

ثم نحمَدُ اللهَ الذى جعل نِعمتَه على أمير المؤمنين شواهِدَ منه على منزلته منه ، ومكانِه عنده ، لايحتاجُ معها إلى شَهادات المُثْنِينَ ، ولاصفاتِ المقرِّظين ، ثم جعل ذكرَ نعمتِه على أمير المؤمنين ومُناصحتَها والمجاهدةَ لمن كادَها ، فريضةً أوجَبَها على العباد ، ومِحْنةً امتحنهم بها ، وفُرْقانا ميَّز به بينهم ، فمن أصبح مِن رعيته أكثَرُ شُغْله أن يستعمِلَ لسانَه فى صِفته ، وذِكْرِ محاسنه وفضائله ، ووجُوبِ حقه وطاعته ، فقد أصبح آثرًا أوْلَى الأمور وأحسَنَها مَغَبَّةً فى دنياه ودينه ، ومن بَدَّل ذلك عن قدرة عليه ، ودفَعَه بعد معرفة ، فلم يَدَعْه إلا عن خِذلان حاقَ به ، أو بِدْعةٍ استمالَتْه ، وكانت حُجَّةُ الله لأمير المؤمنين عليه هى الكافية لِمَئُونته ، وقد كان علماء الناس وجُهّالُهم يَسوُّون فى عامِّ المعرفةِ بفضل أمير المؤمنين، فأما الخاصُّ فلأهل الفضل فيه فضلُهم ، غيرَ أنه مهما كان من ذلك فقد أصبحوا وهم فيه على منازِلَ ثلاثٍ : حاسِدٌ حَجَبَ الحسدُ

(١) الحلب بالتحريك : اللبن المحلوب .

بصَرَه عن مَواقع الصواب أن يراه ، والنِّعْمةِ أنْ يشكرَها ، والحقِّ أن يؤدِّيه ، وكانت معرفتُه عليه وَبالاً ، وحَسَدُه إلى الغيْرِ به قائداً ، وذو هَوًى قادَه الهوَى إلى البدعة ، وأخرجَتْه الضلالةُ من الجماعة ، فهو عرْضةٌ لسُوء الأدَب أو سَيْفِ النَّكال ، لم يُوحِشِ الله أحداً بفَقْده[1] ، ولم يعزِّر[2] أحدا بموالاته ، ومُوَثَّق معصوم[3] استنقذه اللهُ بمُوالاة أمير المؤمنين من غِلِّ الحسَد ، وبِدَع الآراء ، وجَبَله على صحَّة الهوى ، فهو إن نَظَر فبعَينه ينظُر ، وإن قال فبلسانه يقول ، لا يأمَن حتى يعلَمَ أن أمير المؤمنين قد استوطأ مِهَادَ الخفْضِ ، ولا يزال له طليعةُ رأيٍ تُوفِي على خُطَّة حَزْمٍ ، وغامِض فِطْنَةٍ تَغَلْغَلُ إلى لطيف منفعة ، ومِسهم مَكيدة نحو عَورة[4] ، قد عَلِم أن يومَ أمير المؤمنين يومُه ، وأن غدَه غدُه ، فهو إن تعرَّض لأداء الحقِّ في نصيحته ، ينظر لنفسه نَظَرَ من لا يأمُلُ السلامةَ إلا بسلامته ، ولا البقاء إلا ببقائه ، وقد رجوتُ بالقرابة التي جعلها اللهُ لي به ، والواجبِ الذي عرَفته من حقه ، والعظيمِ الذي حمَلْتُه من معروفه ، ألاَّ يكون أحدٌ ينظر إليه بعين الإشفاق أقوَمَ ما جعله الله أهلَه مني ، فإن أبلُغِ الذي أردتُ فبتوفيق الله ، وإن أقصِّر فعَن مِثل ما حاولتُ قَصَّر المجتهد .

فأوّلُ ما أنا ذا كِرُه من فضله : أن الله قدَّم له الصُّنْعَ في سابقِ علمه ، فجعل مَحْتِده[5] خيرَ المَحاتِدِ عُنصرا ، ثم اختار له أباً فأباً ، لا ينقُلُه من أب إلى أب إلا نَقَل معه وَإليه فضيلةَ العُنْصُر الذي هو منهُ ، حتى صَيَّره بعد فضائل أبيه إلى أفضل بَدَنه[6] فكان خيْرَ خَلَفٍ مِن خيرِ سلَفٍ ، وأفضَلَ وَلدٍ من أفضلِ أبُوَّة ، وأرضى إمامٍ من أزكَى أعْقٍ ، ثم اختار لَهُ مكارم الأخلاق ، وألبسَه جمالَ الصورة ، فلا نعلم نحن ولا

---

(١) في الأصل « لمن يوحش الله أخذه بفقده » .
(٢) عزره : فخمه وعظمه — أو صوابه « ولم يعزز » أى لم يجعله عزيزا ، » والمعنى واحد .
(٣) في الأصل : « وموثق معصوم ثم استنقذه بموالاة ... » .
(٤) العورة : الخلل في الثغر ونحوه .
(٥) المحتد : الأصل . (٦) بدن الرجل : نسبه وحسبه .

آباؤنا خليفةً أبعدَ فى حِلمه من ذُلّ ، ولا فى هَيْبته من تجبُّر ، ولا فى شِدّته من عُنف ، ولا فى لينه من وَهْن ، ولا فى أَناتِه من غَفْلة ، ولا فى اقتصاده من بُخْـل ، ولا فى بَذْله من إضاعة ، ولا أَرَقَّ وجهاً عند لِقاء ، ولا أحسن بِشْرا عند تحيّة ، ولا أغزرَ دَمْعاً عند مَوْعظة ، ولا أَلينَ قِيادا عند تذكير بالله منه .

ثم أفضت إليه الخلافةُ ، وفى المال ما فيه من القِلّة ، وفى الناس ما فيهم من الاستجراح(١) ، فما دَفع عن مال يُعطيه عن قِلّة ، ولا قَطَع عادَةَ تَوْسِعةٍ على رعيته ، ثم استدرَّ الحلَبَ برِفْقه ، فكلما دَرَّ له منه شُخْبٌ(٢) فَوَّقَه طائفةً من جنده ، حتى سقاهم بعد التفويق رِيًّا ، وبعد النَّهَل عَلَلاً(٣) ، ثم ساسَ رعيته بأَلْيَن السياسة ، فعفا عن مُذْنبها ولو شاء لعاقَبَ ، وآمَنَ خائفَها ولو طلب لأدرك ، ودَفَع بالحسنة السيئةَ وَلو كافأ لَقَدَر ، فما بَرِح صُنْعُ الله له يَفُضّ جموعَ الضَّلالة بلا قتال ، ويُعزّ له النصرَ بلا مكاثرة ، حتى فَرَغ ـ بِشُغله ـ مَنْ كان لا يَفرُغُ من الوزراء ، ونام ـ بسَهَره ـ مَنْ كان لا ينام منَ العامّة ، واطمأنت ـ بمَفاءاته(٤) للأسفار ـ دارُ من كان لا ينال الخَفْضَ من الجنود حتى استوطَئوا مَرْكب الأمن ، فكلهم ضَنينٌ بمفارقته .

أمّا ذو النية فركَنَ إلى الخَفْض(٥) ، وأمّا مَن لا يَدَ له(٦) ففعَلَ ما كان يُؤْخَذ به من الاستكراه ، وأما الحَشْوُ من الجُند والرَّعاع فغلبَتْ عليهم عادَةُ الهُوَيْنى ، حتى لقد رأيناه يَحْزُبه(٧) الأمرُ ، فما يجد له الأمرُ غَناءً عنده إن وَكَلَه إلى قوّته ، ولا نشاطا ولا جِدًّا ، ولا قوّةً بماله(٨) ، فلما رأى ما رأى من تخاذُل العامّة ، وتواكُلِ

---

(١) الاستجراح : النقصان والعيب والفساد .

(٢) الشخب بالفتح والضم : ماخرج من الضرع من اللبن إذا احتلب ، وفوقه إياه : أعطاه إياه قليلا قليلا . (٣) النهل : الشرب الأول ، والعلل : الشرب الثانى .

(٤) جمع مفاءة ، من فاء : إذا رجع . (٥) الخفض : الدعة ، وفى الأصل « النفض » .

(٦) اليد : القوة ، وفى الأصل « لايبدله » .

(٧) حزبه الأمر كنصر : اشتد عليه ، وفى الأصل « حتى لو » وهو تحريف ، والغناء : الكفاية.

(٨) فى الأصل ، « وقواه عاله » يشير بذلك إلى ما كان من البرامكة من استئثارهم بأمور الدولة وتصريف أحوال السلطان واحتجان الأموال .

الجنود ، ونُزُور[1] الفَيْء ، وجُمود الحلَب ، واستكلابِ[2] العُمَّال على الخيانة ، وجرْأةِ الرعية على منع الحق ، ومالَ الفراغُ بكثير من الناس عن القَصْد[3] ، فتحركَت الأهواء واستعَرَتْ نيرانُ العصبيَّة ، وَجاشت صدورُ الحَسَدَةِ وأشياعِهم بالأمانى ، وظنوا أن لاشِدَّةَ معه ، وأن عفْوَه لا نَكِيرَ بعده ، وأميرُالمؤمنين يَرْمُقُهم بعين بصيرة ، وأذنٍ مُصيخة[4] ، وقلبٍ يقظان ، وقد وَفَّر الحِلمَ أن يخفَّ لأولِ بَوَادر السفهاء ، فهو ينتظر بالمُدْبِرِ أن يُقبِل ، وبالمائدِ[5] أن يعتدل ، وبالمغلوب على رأيه أن يتذكَّر فيُبْصر ، شمَّر فى إثْرهم تشميرَ مَن قَدَّم الرويةَ قبل العجَلة ، والعفوَ قبل العقوبة ، والتثبُّتَ قبل الإقدام ، فاتخذ رَوابطَ[6] انتَجَبها[7] على الجَلَدِ والنشاطِ ، ليست لهم سوابقُ تدعوهم إلى الإدلال ، وتسمو بهم إلى كثيرٍ لم ينالوه ، إنما همُّهم أن يتفاضلوا فى النَجدة ، ويستوجبوا بالغَناء ، ثم فرَّقهم على خواصٍّ خَدَمه ، فإذا أراد أن يتناول بهم فُرْصَةً مُمْكِنة ، أوعدواً غارًّا[8] ، أو رَتْقَ فتقٍ قبل اتِّساعه[9] ، يَغمِسُ يديه إلى أيِّهم أراده ، فينفذُ لأمره ، ولم يَشْرَكه فيه مُشيرٌ ، ولم يخرج به توقيع ، ولم يُخُصَّ فيه عامة ، ولم يُطَّلَعْ منه على مكيدة ، فلم نعلم أننا رأينا جنداً أسرع نهضةً إذا أُمِرُوا ، وأحسنَ إجابة إذا دُعُوا ، وأفضل غَناءً إذا استُكفُوا من جنده ، ثم قَصَد بنفسه حتى مَثَل بين النواحى إلى أهمِّها له فَساداً فى البَيْضة[10] ، وانتقاصا من الأطراف ، فأتى ناحية الشأم فوطِئها وَطأةً جمع الله بها منهم شَتاتَ الفُرْقة ، وأخْمَدَ بها بينهم نارَ الفتنة .

---

(١) النزور : القلة .

(٢) استكلب الكلب ، ضرى وتعود أكل الناس (واستكلب الرجل : نبح فى قفر لتسمعه الكلاب فتنبح فيستدل بها عليه) ويقال أيضا : تكالبوا عليه : أى تواثبوا وحرصوا عليه حتى كأنهم كلاب

(٣) القصد : الاستقامة . (٤) من أصاخ له : أى استمع .

(٥) من ماد يميد : أى تحرك واضطرب .

(٦) أى جنودا مرابطة . (٧) أى اختارها .

(٨) الغار : الغافل . (٩) فى الأصل « قبل الساعة » وهو تحريف .

(١٠) البيضة : الحوزة والساحة .

وَأما الجزيرة فإنه ألفاها وهى كالجُرح النَّغِل[1]، فاستأصَلَ الله به منها شأفةَ الداء، وأطفأ به عنها نوائر[2] السفهاء، وخُيِّر أميرُ المؤمنين من منزله الذى هو به مَنزِلا جمع مِن بَسْطةٍ فى الموضع، ورفاغيةٍ[3] فى المعاش، أنه حاملٌ للجنود، جامعٌ للمَرافق، فباشرَ أمْرَه أمرًا أمرًا، حتى إذا اسْتَدْبرَ[4] له منها مُبرَمٌ، استُقْبِلَ بعده جُسامٌ[5] مُنتَقِضٌ، وإذا أثخنَ[6] من ثغوره ثغرٌ لم يَرْضَ حتى يفتتحَ من حُصُون أعدائه حِصنا، وإذا قَضى الله عنه حُجَّةً، وَصَلَ خَطْوَه منها عزّا، ثم رأينا ما عزَم الله به عليه من تَرْكِ الصوائف[7]، مراقبًا للذى كان من غُمُوط[8] أهل الشام لما كانوا فيه من النعمة، فلم نشكُكْ فى أنه توفيق من الله له وافَقَ سُخْطًا عليهم، حتى استباحوا الحُرَم، وتسافكوا الدماء، ونقَضُوا ما بينهم من مُبرَمِ حَبْلِ الإسلام.

ومن ذلك أن أرْمِينيَةَ كانت فيها جنود تَخْرُجُ عليهم أطْماع[9]، وتُحْمَل إليهم ـ بعد اعترافهم خراجَهم ـ الأموالُ من كوَرِ الشام، فلما رأى ذلك فعل كذا وكذا، فلم يتوكَّلْ على الله فى أمره فوَكَلَه إلى نفسه، ولم يكتف به فى حِفْظ طَرَف أو قاصيةِ ثَغرٍ إلّا كفاه مَئُونَتَه، وعَلم أن ما يَدخل مُنَن[10] أضعافِ العافيةِ من عوَارِضِ العِلَل، إنما هو تقديرٌ من الله لا يَمتنعُ بعُذْر، ولا يُستطاعُ دَفْعُه بحيلة، يُصيبُ فيه أقوامًا بالبلايا والتَّمحيص، ويَقْسِم فيه لأقوام الأجرَ والجهادَ والسعادةَ، فرأى أنَّ فى عاجلِ

(١) من نغل الأديم كفرح: إذا فسد فى الدباغ، والشأفة: قرحة تخرج فى أسفل القدم فتكوى فتذهب، والأصل، واستأصل الله شأفته: أذهبه كما تذهب تلك القرحة، أو معناه: أزاله من أصله.

(٢) نوائر: جمع نائرة، وهى العداوة والشحناء، وفى الأصل «بوائر».

(٣) الرفاغية: الرفاهية، سعة العيش والخصب.

(٤) فى الأصل «استدمج». (٥) شىء جسيم وجسام: عظيم.

(٦) أثخنه: غلبه وأوهنه، وفى الأصل «وإذا أشحن من ثغوره ثغرا» وهو تحريف.

(٧) الصوائف: جمع صائفة، وهى غزوة الروم، لأنهم كانوا يغزون صيفا لمكان البرد والثلج.

(٨) غمط النعمة كضرب وسمع: بطرها وحقرها ولم يشكرها (غير أن الوارد فى كتب اللغة أن مصدره غمط كشمس لا غموط).

(٩) أطماع: جمع طمع بالتحريك، وهو رزق الجند.

(١٠) المنن: جمع منة بالضم، وهى: القوة.

ما يَرْفَع عن أهل أرمينيةَ من ضرر مَئونتهم وحَمْطهم[1]، نَفْعاً للرعية ، وإجْمالًا للفَيْء ، ورِفْقاً بالعامة ، مع اقتصاره[2] فى « الأبواب » على أكنافِ سَجِيَّتها ، وفى سائر أرمينيةَ على المُقَاتِلَة من أهلها ، ولم يَزَل منذُ أراه الله ذلك ، يَكفِيه مَئُونة ذاك الثَّغر ، ويكُفُّ عنه بوائقه[3] حتى كأنه ـ فى هُدُوء الأحداثِ عنه ، وسكونِ الأفئدة من رَوْعاته ـ مِصْرٌ من الأمصار ، واسِطُ المَحَلَّةِ ، مأمون النَّائرة ، فلما اغتنم خاقانُ[4] ما اغتَنَم ، انتهز الفرْصةَ مُبادِراً لِمَا قد أيقَن من مُعاجلة أمير المؤمنين إياه ، فكأنه حين بلغَه ذلك فى إعظامه إياه بسببه له ، وما أتعب فيه من بدنه ، وأسهرَ فيه من ليله ، وأنصَبَ[5] فيه من نهاره ـ لم يعلم الذى كان يكون من أشباهه[6] فى الأزمنة الماضية قبلَه ـ وإنه بذلك لجِدُّ عالِمٍ ـ غير أن حَمِيَّته للإسلام ، وشَفَقَته عليه ، وامتعاضه من أن يُتَناول شىء من أطرافه ، قد زاد ذلك عنده قَدْراً فى العِظَم ، وتفاقُماً[7] فى الخَطْب ، حتى أكمَلَ البَعْثَ بأكثر العدد وأكمَلِ العُدَّة ، واستقلّ[8] أهلَ الكُوَرِ والأمصار ، ونَدَب له من أهل بيته مَن لم يترك بعده نهايةً فى التخيُّر ، وكان قد صرَف ماله إلى هذين الثغرَيْن من الخزَر والروم ، وإلى هذين العدوَّين المحارِبَيْن له من المارِقَة المتعصِّبة .

فلما بلغ اللهُ فى إحكام أمرهما ما بَلَغَ ، لم يستغنِ عن إعادة النظر فى أمر غيرهما من نواحيه ، ليَستبرِئَ[9] به إرادته فى أقوام يدافِع ظنونَهم به فى أخرى ، وعلِم أن لما شمِلَ مَنْ بمدينة السلام من الأمن والفراغ نتيجةً مكروهة ، فشَخَصَ عنها عند تحقيق ذلك ، مُؤْثِرا لأبغضِ وَطَنَيه على أحبِّهما ، وأخشَنَ عَيْشَيه على ألْيَنهما ، فلما ظهرت له العَوْرَةُ

---

(١) حمطه كضربه : قشره ، وحمطه كضربه أيضا : شواه .

(٢) فى الأصل « مع اقتصاده » وهو تحريف، وباب الأبواب: مدينة على بحر الخزر (بحر القزوين) من غربيه ، والأكناف : النواحى ، والسجية : الطبيعة .

(٣) البوائق : جمع بائقة ، وهى : الداهية .

(٤) لقب ملك الترك . (٥) أى أتعب .

(٦) فى الأصل « من اشتباهه » . (٧) أى شدة .

(٨) أى حمل . (٩) استبرأه : استنقاه .

أقدَمَ إقدام ذى الحجّة ، فلم ير مثلها ناراً خَبَت[١] ، وسحابةً أقْشَعَت ، لم يسفِك بها دمَ امرئٍ مسلم صَبْرًا ، ولم ينتهك فيها حُرْمَةَ مُحَرَّمٍ إباحةً ، وذلك أنه بَسَط يده بَسْطَ مَنْ يُريد الاستصلاحَ لا من يريد الانتقامَ ، فلم يلبث الظالِعُ[٢] أنْ رَجَع عن ظَلْعه ، والناطقُ أنْ صَمَتَ عن بِدْعته ، والناكِثُ أنْ رَجَع إلى قَصْده ، وازداد البرىء على البراءة فَرَحا ، والسَّالم بالسلامة اغتباطا .

ولم تَرَ مثله فيما أفْضَى الله به إليه من خلافته ، وحمَّله من أمور عباده ، أمّا ليلُه بمُنَاجاة ربِّه فيها واستعانَتِه إياه عليها فَسَاهِرٌ ، وأمَّا نهارُه فى جَلْبِ فَيْئها وإحكام أمورها فتَعِبٌ ، وأما صَدَقاتُه على فقرائها وأهلِ الحاجة فجارِيَةٌ ، وأما مجلسُه من فقهائها وصُلَحائها فغَاصٌّ[٣] ، وأما غِلْظَتُه على ظالمها فعَتِيدة[٤] ، وأما إفضاله لِمَظلومها فمَبْسُوط ، ولئن كان الحق لزم أقواما استوجبوا فى أنفسهم وأموالهم ، إنّا لَنَعلم أنَّ ما ترك أكثر ، وأنه لولا ما خَفَّف من الوَطْأة على أقوام لحَمَّل الواحدَ منهم مثلَ الذى حَمَّله للجميع ، ولكنه رَضِيَ بالعفو ، وسَخَا نَفْساً عن الاستقصاء ، فأوجبَ أن يبْسُطَ يداً بِغِلْظة ، ويُتْبِعَها أخرى بِلِين ، فكان من ذلك نظرُه فى هذه البقايا التى هى فَىْءُ المسلمين ومالُ الله ، غير أن الله جعلَه قَيِّمَه فيه ، وفى أخذِه وصَرْفه فى وجوهه ، فلما رأى ضَرَاوَةَ[٥] العُمّال بها ، ومُصانَعَتهم دونَها ، وأنْ قد صارت كالسُّنَّة اللازمة ، لا يَدَعُها عفيفُهم تورُّعا ، ولا شريفهم تنزُّها ، أحَبَّ مع توفيره للمسلمين فَيْئَهم أن يُحْدِث لهم أدَبًا يَفْطِم به عنهم أهلَ الضَّراوة ، ويعرف به ذوو الاستخفاف بالأمانة والأمْنِ[٦] التَّبِعة ، أن لهم من تفقُّده وأدَبِه عَيْناً تَرْمُقُ ، ويَدًا تَقْبِضُ ، ولو أنه حين هَمَّ بأخذ تلك البقايا حَمَلَ على

---

(١) خبت : انطفأت ؛ وأقشع السحاب وانقشع وتقشع : انكشف .
(٢) من ظلع كمنع : إذا غمز فى مشيه ، والمراد المنحرف الزائغ .
(٣) منزل غاص بالقوم : أى ممتلئ . (٤) أى حاضرة مهيأة .
(٥) ضرى به كرضى ضراوة : لهج به وأغرى ، والمصانعة ، الرشوة والمداهنة .
(٦) فى الأصل « والأمر » وهو تحريف .

الموسر بقدر يساره ، وأخذ المُعْسِرَ بطاعته ، كان قد أنصفَ ، كَلا ! ولكنه أحب أن يستبقيَ قوةً ، ولا يبلغَ من المُكْثِرِ جَهْدًا ، واقتصر بهم على العُشر من ذلك ، كرَمًا في القدرة حين رأى موضعَ الرِّفق ، وتجافَى عن العِلّة حين عرَف مكان العُذْر ، فأيُّ نعمة أعظم ، وأيُّ بلاء أحسن من هذه البقايا ؟ كانت في أيديهم جُمَامًا[1] فلما اطَّلَع طِلْعَها[2] أخذ ما أخذ ، وترَكَ ما ترك ، محلِّلا مع ما جعل الله في ذلك من [كلمات[3]] المقصِّر من العُمَّال المؤذية التي لم تكن تعدُو أفواههم ، فليس منهم أحدٌ إلا كان منهُ لَهُ واعظ ألّا يكسِرَ شيئًا من الخراج تضييعا ، أو يأخذه غُلُولا[4] ، أو يُنفقه إسرافًا ، أو يتركه إرهابًا .

فلما فرَغ من علاج الداء المخُوف فاستأصَلَه ، وَمن الفَيْء المتفرق فجَمَعَه ، ومن الأمور المعطَّلة فأحكمها ، استخلَفَ على القيام بذلك من لايُجْزِئه[5] عقله عن حَذَر ، ولا إضاعةٌ عن حِفْظ ، ولا لينٌ عن تشدُّد ، ولا يستحل الأكف عن نقض ما أبرَم ، ولا مزاولة ما أحكم ، ولا فَتْح ما أغلق ، ولا إغلاق مافتح ، « فلان » : خِيرة أبوَيه ، ومُحُّ[6] بيْضته ، وجوهر أرُومَته ، الفائت سبقا ، البيِّن عَنَقًا[7] ، الراسخ عِرقًا ، المتفجر بحرًا ، المحمود أمْرا ، القائل فَصْلا ، الحاكم عَدْلا ، ثم انصرف بما أفاده الله من الأجر إلى جَناحه الذى كان مَدَّه على مَن خلَّف من الأهل والأموال والرعايا والجنود ، « فلان » : سليل صُلبه ، وثمرة قلبه ، المُحْتنِك[8] مَع فَتَاء سِنِّه عقلا ، والمأمون مَع شدة شكيمته

---

(١) الجمام بالضم والكسر ، أصله ما اجتمع من ماء الفرس .
(٢) يقال ، اطلع طلعه : إذا علم أمره .
(٣) محل هذه الكلمة بياض بالأصل ، وهى المناسبة للمقام .
(٤) الغلول بالضم ، الخيانة .
(٥) أى لا يغنيه ، وفى الأصل « يحويه » وأراه محرفا .
(٦) المح : صفرة البيض أو ما فى البيض كله .
(٧) العنق : ضرب من السير فسيح سريع .
(٨) المحتنك ، الذى أحكمته التجارب ، والفتاء : الشباب .

حَمْلا ، والمُحْصَد[1] مَع لينه وتعطُّفه أمرا ، الشبيه بأمير المؤمنين إن نطَقَ لفظا ، وَإن نظر لَحْظا ، وإن سُئِل جودا ، وإن اهتصر[2] عُودا ، وإن ساس رِفْقا ، وإن غَضِب حِلْما ، وإن وصف علما ، وإن كُلِّمَ فهما ، وإن قَدَر عَفْوا ، وإن لقِيَ بِشْرا ، وإنْ نازع فَلْجا[3] ، وإن قارَع ظَفَرًا ، فكان عند ظنِّه به ، رعايةً للحُرْمة ، وحَزْما في المكيدة ، وجَانِبا للفَيْء ، وحِياطةً للغائب ، ومباشرةً للشاهد .

هذا قليل من كثير ، مما جعلك الله أهلَه ، وإنما اقتصرتُ عليه لأني رأيت المتكلمين من الخطباء تركوه ، وأن ما سمعتُ من الكتب المقروءة لم تَنْتظمه ، فأحببْتُ أن يعلم أمير المؤمنين أن له في كل أمر عَمِل به في رعيته حُجةً واضحة ، وعُذْرا معروفا ، إن قام به متكلِّمٌ في خاصّةٍ حَسُن مَوْقِعُه ، وإن قرئَ به كتابٌ في عامّة قَوِيت به حُجَّتُه .

والحمد لله الذي جعله وذُرّيته أولياء هذه النعم ، والمخصوصين بهذه الفضائل ، ونسأله أن يُبقيَه وإياهم للدّين الذي سدَّ بهم عَوْرته ، والحقّ الذي أقرَّ بهم جادَّتَه ، والعدل الذي أوضح بهم أعلامه حتى يكونوا وَرَثة هذه الأمة وخلفاءها في غابر الدهر وباقيات الأيام ، مستقلِّين[4] بالعدل ، موفَّقين للسَّداد ، معصومين من الشُّبُهات ، مستوجبين مع فضائل الدنيا لأفضلِ كراماتِ المعاد ، والسلام » . (اختيار المنظوم والمنثور ١٢ : ١٩٢)

١٦٧ — رسالة أبي الربيع محمد بن الليث التي كتبها للرشيد إلى قسطنطين[5] ملك الروم

« من عبد الله هرون أمير المؤمنين إلى قُسْطَنْطِينَ عظيم الروم :

سلام على من اتبع الهدى ، فإني أحمَد اللهَ الذي لاشريك معه ، وَلا وَلَدَ له ، ولا

---

(١) المحصد : المحكم أيضا . (٢) اهتصره : كسره .
(٣) الفلج ، الفوز والظفر . (٤) أي ناهضين به رافعين له .
(٥) هو قسطنطين السادس ، ولي ملك الروم سنة ٧٨٠م (وقد ولي الرشيد الخلافة من سنة ٧٨٦ إلى سنة ٨٩٠ م = سنة ١٧٠ إلى سنة ١٩٣ هـ) .

إله غيرُه ، الذى تعالَى عن شَبَه المحدودين بعظمته ، واحتجبَ دون المخلوقين بعزَّته ، فليست الأبصار بمُدْرِكةٍ له ، ولا الأوْهام بواقعةٍ عليه ، انفراداً عن الأشياء أن يُشْبِهها ، وتعالِياً أن يُشْبِهه شيء منها ، وهو الواحد القهَّار ، الذى ارتفع عن مَبَالغ صفات القائلين ومذاهب لُغات العالَمين ، وذِكْرِ الملائكة المقرَّبين ، فليس كمثله شيء ، وله كل شيء ، وهو على كل شيء قدير .

أما بعدُ ، فإن الله جل ثناؤه ، وتباركت أسماؤه ، قال لنبيه صلى الله عليه وسلم فيما أنزل من آيات الوحى إليه : « ٱدْعُ إِلَى سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحِكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ وَجَادِلْهُمْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَنْ ضَلَّ عَنْ سَبِيلِهِ وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ » فرأى أميرُ المؤمنين من أحسنِ قوله ، وأفضل فعله ، أن يكون إلى سبيل ربه داعياً ، وبرسوله صلى الله عليه وسلم متأسِّياً ، ولقوله : « وَمَنْ أَحْسَنُ قَوْلاً مِمَّنْ دَعَا إِلَى ٱللَّهِ وَعَمِلَ صَالِحًا وَقَالَ إِنَّنِي مِنَ الْمُسْلِمِينَ » مُوافِقًا ، وكنتَ ـ من كُتُب ٱللهِ المنزَّلة ، وآياته المفسَّرة ، وخلقِه الكثير ـ بحيثُ رجا أميرُ المؤمنين استماعَك لموعظته ، وانتفاعَك بمجادلته انتفاعَ بَشَر كثير وخلقٍ عظيم ، قد بُؤْتَ بأوزارهم مع وِزْرك ، واحتملتَ من آثامهم إلى إثمك فأحَبَّ أن يدعُوَك ومَن رجا أن ينتفع بدعوته معك ، إلى كَلِمةٍ سَواء بيننا وبينكم ألاَّ نَعْبُدَ إلاَّ ٱللهَ ولا نُشْرِكَ به شيئاً ولا يَتَّخِذَ بعضُنا بعضًا أرْبابًا مِنْ دُونِ ٱللهِ ، فإن تولَّيتم عن ذلك رغبةً عنه ، أو تركتموه زَهادةً فيه ، فاشْهَدوا بأنّا مُسْلِمون ، واستمِعوا ما أمير المؤمنين واصِفٌ لكم ، ومحتجٌّ به إن شاء الله عليكم ، بقلوب شاهِدة ، وآذانٍ واعيةٍ ، ثم اتَّبعوا أحسن ما تستمعون ، ولا قوةَ إلا بالله .

فإن الله عزَّ وجل يقول فيما أنزل من كتابه ، واقتصَّ على عباده : « فَبَشِّرْ عِبَادِ الَّذِينَ يَسْتَمِعُونَ الْقَوْلَ فَيَتَّبِعُونَ أَحْسَنَهُ أُولَئِكَ الَّذِينَ هَدَاهُمُ ٱللهُ وَأُولَئِكَ هُمْ أُولُوا الْأَلْبَابِ » إن الله تبارك اسمُه ، وتعالَى جَدُّه ، وصف فيما أنزل من آياته ، وشرَحَ من بيِّناته ، الأممَ الماضية ، والقرونَ الخالية ، والمِلَلَ المتفرقة ، الذين يجعلون مع الله

آلهة أخرى لا برهانَ لَهُمْ بها ، ولا حُجةَ لهم فيها ، فقال : « يَاأَهْلَ الْكِتَابِ لاَ تَغْلُوا فِي دِينِكُمْ وَلَا تَقُولُوا عَلَى اللَّهِ إِلاَّ الْحَقَّ ، إِنَّمَا الْمَسِيحُ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ رَسُولُ اللَّهِ وَكَلِمَتُهُ أَلْقَاهَا إِلَى مَرْيَمَ وَرُوحٌ مِنْهُ ، فَآمِنُوا بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ وَلَا تَقُولُوا ثَلاَثَةٌ ، انتَهُوا خَيْرًا لَكُمْ ، إِنَّمَا اللَّهُ إِلَهٌ وَاحِدٌ ، سُبْحَانَهُ أَنْ يَكُونَ لَهُ وَلَدٌ ، لَهُ مَا فِي السَّمٰوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَكَفَى بِاللَّهِ وَكِيلاً . لَنْ يَسْتَنْكِفَ الْمَسِيحُ أَنْ يَكُونَ عَبْدًا لِلَّهِ وَلَا الْمَلاَئِكَةُ الْمُقَرَّبُونَ » .

قالت العرب الذين يعبدون الملائكة ، وأهل الكتاب الذين يقولون ثالثُ ثلاثةٍ : بأيَّتِما آيةٍ يا محمد تزعم أن الله إله واحد ! فأنزل الله عز وجل فى ذلك آية تَشْهدُ لها العقول ، وتؤمن بها القلوبُ ، وتعرفها الألباب ، فلا تستطيع لها رَدًّا ، ولا تُطيق لها جَحْدا ، ذَكَر فيها اتصال خَلْقِه ، واتِّفاق صُنعه ، ليوقِنَ الجاهلون من العرب ، والضالّون من أهل الكتاب ، أنَّ إلٰه السماء والأرض وما بينهما من الهواء والخلق واحدٌ لا شريك له ، خالق لا شيء معه ، فقال : « إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمٰوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلاَفِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَالْفُلْكِ الَّتِي تَجْرِي فِي الْبَحْرِ بِمَا يَنْفَعُ النَّاسَ وَمَا أَنْزَلَ اللَّهُ مِنَ السَّمَاءِ مِنْ مَاءٍ فَأَحْيَا بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا وَبَثَّ فِيهَا مِنْ كُلِّ دَابَّةٍ وَتَصْرِيفِ الرِّيَاحِ وَالسَّحَابِ الْمُسَخَّرِ بَيْنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ » فتفكَّرْ فى تفسير هذه الآية من كلام الرَّبِّ عز وجل ، وما أوضَحَ فيها من بيان الخلق ، فإنه ما من مُفكِّر ينظر فيما ذكر اللهُ فيها مما بين السماء والأرض ، إلاَّ رَأَى من اتصال بعض ذلك ببعض ، مِثلَ ما رأى فى تدبيره نفسه ، وعَرَفَ من اتصال خلْقه فيما بين ذَوائب(١) شُئُون رأسه ، إلى أطراف أَناملِ قَدَمه ، وفى ذلك أوضحُ آيةٍ ، وأبْيَنُ دلالةٍ ، على أن الذى خلقه وصَنعه إلٰه واحد لا إلٰه مَعه ، ولا من شيء ابتدعه ، ولا على مثالٍ صَنَعه ،

---

(١) الذوائب : جمع ذؤابة بالضم ، وذؤابة كل شيء ، أعلاه : والشئون ، مواصل قبائل الرأس (وهى القطع المشعوب بعضها الى بعض) .

قد تَرَون بعيونكم وتعلمون بعقولكم ، أن الله عز وجل خَلَق للأنام الأرضَ ، وجعلها موصولة بالخلق ، فليس يَدْحُوها[1] إلا لهم ، ولا يُديمها إلا معهم . وجعل ذلك الخلق متصلا بالنَّبْت ، لايقوم إلا به ، ولا يَصْلُحُ إلا عليه ، وجعل ذلك النبتَ الذى جعله متاعاً لكم ، ومعاشاً لأنعامكم ، متَّصِلا بالماء الذى ينزل من السماء بِقَدَرٍ معلوم لمعاش مقسوم ، فليس ينجُم[2] النبتُ إلا به ، ولا يحيا إلا عنه ، وجعل السحابَ الذى يبسُطُه كيف يشاء ، متصلا بالريح المسَخَّرة فى جوِّ السماء تُثيره من حيث لا تعلمون ، وتسوقه وأنتم تنظرون كما قال الله عز وجل: « وَاللهُ الَّذِى أَرْسَلَ الرِّيَاحَ فَتُثِيرُ سَحَاباً فَسُقْنَاهُ إِلَى بَلَدٍ مَيِّتٍ فَأَحْيَيْنَا بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا كَذٰلِكَ النُّشُورُ » ووصلَ الرياح التى يصرِّفها فى جوِّ السماء ، بما يؤثِّر فى خلق الهواء ، من الأزمنة التى لا تثبُت الهَواجر[3] ، إلا بثَباتها ، ولا يزول عنه بَرْدٌ إلا بزوالها ، ولولا ذلك لَظَلَّ را كداً بالحَرِّ المُميت ، أو مائلا[4] بالبَرْد القاتل ، ووصَلَ الأزمنة التى جعلها متصرِّفةً متلوِّنةً بَمسير الشمس والقمر الدائبَيْن لكم ، المختلِفَيْن بالليل والنهار عليكم ، وجعل مسيرهما الذى لا تعرفون عدد السنينَ إلا به ، ولا مواقعَ الحسابِ إلا مِن قِبَله ، متصلا بِدَوَران الفلَك الذى فيه يَسْبَحان ، وبه يأفُلان ، ووصَلَ مَسير الفلك بالسماء المناظرين سواء ، فهذا خلق الله عز وجل ، ما فيه تَبايُن ولا تَزايُلٌ ولا تفاوت ، كما قال سبحانه وتعالى : « مَا تَرَى فِى خَلْقِ الرَّحْمٰنِ مِنْ تَفَاوُتٍ » ولو كان لله شريك أو معه ظَهِير[5] عليه ، يُمسك منه ما يُرْسل ، ويرسل منه ما يُمسك ، أو يؤخِّر شيئاً من ذلك عن وَقت زمانه أو يعجِّله قبل مجىء إبّانه ، لَتفاوَتَ الخَلقُ ، ولَتَبايَنَ الصنع ، ولَفسدت السموٰات والأرض ، ولذهب كل إلٰه بما خلق كما قال عز وجل — وكذَّب المُبْطلين — بَلْ أَتَيناهُمْ

---

(١) دحاها يدحوها : بسطها . (٢) نجم كنصر : طلع وظهر .

(٣) الهواجر : جمع هاجرة ، وهى شدة الحر .

(٤) فى الأصل « مايلا » ، أو صوابه « مائلا » .

(٥) الظهير : المعين .

بالحقِّ وَإِنَّهُمْ لكاذِبون. ما اتخَذَ اللهُ مِنْ وَلَدٍ وَما كانَ مَعَهُ مِنْ إِلهٍ ، إذا لَذَهَبَ كُلُّ إِلهٍ بِما خَلَقَ وَلَعَلا بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ سُبْحانَ اللهِ عَمَّا يَصِفون ».

والعجبُ : كيف يصف مخلوق ربَّه ، أو يجعل معه إلهاً غيره ! وهو يرى فيما ذكر اللهُ من هذه الأشياء ، صنعةً ظاهرةً ، وحكمةً بالغةً ، وتأليفا متفقا ، وتدبيراً متصلا ، من السماء والأرض ، لا يقوم بعضُه إلا ببعض ، مُتجَلِّيا بين يديه ، ماثِلا نُصْبَ عينيه ، يناديه إلى صانعه ، ويدلُّه على خالقه ، ويشهد له على وحدانيته ، ويَهْديه إلى رُبُوبيَّته « فتعالَى اللهُ عمَّا يُشرِكُون . أيُشرِكُونَ ما لا يَخلُقُ شيئًا وَهُمْ يُخلَقُونَ » حقا ما كرّر هؤلاء الجاهلون بربهم ، الضالُّون عن أنفسهم ، في خلق الله النظرَ ، وَلا رَجَعوا ـ كما قال الله عز وجل ـ الفكرَ ، ولو أعملوا فكرهم ، وأجهدوا نظرهم ، فيما تسمع آذانُهم ، وترى أبصارُهم ، من حوادث حالات الخلق ، وعجائب طبقات الصُّنع ، لوجدوا في أقرب ما يرَون بأعينهم : من التأليف لتركيب خلقهم ، والأثرَ في التدبير بصُنعهم ، ما يدلُّهم على توحيد ربهم ، ويقف بهم على انفراده بخلقهم ، فإنهم يرَون في أنفسهم بأعينهم ، ويجدون بقلوبهم ، أنها مخلوقة صَنعةً بعد صنعةٍ ، ومحوَّلةٌ طبقةً عن طبقة ، ومنقولة حالا إلى حال : سُلالَةً من طين ، ثم نُطفةً من ماء مَهين(١) ، ثم عَلَقَةً ، ثم مُضغةً ، ثم عظاماً كساه الله عز وجل لحماً ونفخَ فيه رُوحاً فإذا هو خَلْقٌ آخرُ ، فتبارَكَ اللهُ أحسَنُ الخالِقين ، الذى خلق في قرارٍ مكين ، من ماء قليل ضعيف ذليل ، خلقا صوَّره بتخطيط ، وقدَّره بتركيب ، وألّفه بأجزاء متفقة ، وأعضاءٍ متصلة ، من قدَم إلى ساقٍ إلى فخذ إلى ما فوق ذلك ، من مَفاصلِ ما يُعلَن ، أو عجائب ما يُبْطِن ، ليعلم الجاهلون ، ويوقن الجاحدون ، أن الذى صنع ذلك وخلقه ، ودبَّره وقدَّره ، وهيَّأ ظاهره وباطنه ، إله واحد لا شريك معه ، فلا يذهَبَنَّ ذِكرُ هذا صَفحاً عنكم ، ولا تسقُط حِكمته جهلا به عليكم ، وفكّروا

---

(١) المهين : الحقير .

فى آيات الرسل وبيِّنات النُّذُر ، فإن فى ذلك فكرا للمُبصرين ، وبصرا للمعتبِرين ، وذِكرَى للعابدين ، والحمد لله رب العالمين .

وأميرُ المؤمنين واصفٌ لكم، ومقتصٌّ من ذلك إن شاء الله عليكم ، مافيه شهاداتٌ واضحات ، وعلامات بيِّنات ، ومبتدئ بذكر آيات نبينا صلى الله عليه وسلم فيما أنزل الله منها فى الوحىْ إليه ، فإنه ماأحدٌ يقرَعُ بآيات النبوَّة قلبَه ، ويحصِّن ببيِّنات الهدى عقلَه ، إلا قادَته حتى يؤمن بمحمد صلى الله عليه وسلم ، لايجد إلى إنكار ماجاء به من الحق سبيلا ، فأردتُ أن تكونوا على علم ومعرفة ويقين وثقة من أمر محمد صلى الله عليه وسلم وحقِّه وما أُنزل إليه من ربه عز وجل ، فأحضِرْ كتابَ أمير المؤمنين فهمَك ، وألقِ إلى ماهو وَاصف إن شاءَ الله سمعك .

إن الله عز وجل اصطفى الإسلام لنفسه ، واختار له رُسُلا من خلقه ، وابتعث كل رسول بلسان قومه ، ليبيِّن لهم مايقَّبعون ، ويعلِّمهم مايجهلون ، من توحيد الرب ، وشرائع الحق « لِئَلاَّ يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى اللهِ حُجَّةٌ بَعْدَ الرُّسُلِ ، وَكَانَ اللهُ عَزِيزاً حَكِيماً » فلم تزَل رسل الله قائمةً بأمره ، متواليةً على حقه ، فى مَواضى الدهور ، وخَوالى القرون ، وَطَبقات الزمان ، يصدِّق آخِرُهم بنبوَّة أوّلهم ، ويصدِّق أولهم قولَ آخرهم ، ومَفارِجُ دعوتهم واحدة لاتختلف ، ومَجامع مِلَّتهم ملتئمة لاتفترق ، حتى تناهَتِ الولايةُ والوراثة التى بنَى عيسى عليه السلام عليها وَبشَّر بها ، إلى النبى الأُمِّىّ الذى انتخبه الله لوحيه ، وَاختاره بعلمه، فلم يزل ينقله بالآباء الأخاير ، والأمَّهات الطواهر، أمةً فأمةً ، وقرْنا فقرنا ، حتى استخرجه الله فى خير أوَانٍ ، وأفضل زمان ، من أنْبَتِ محاتِدِ[١] أرُومات البريَّة أصْلا ، وَأعلى ذَوَائب نَبَعاتِ[٢] العرب فرْعا ، وأطيَب

(١) محاتد : جمع محتد كمجلس . وهو الأصل ، والأرومة بالفتح وتضم : الأصل أيضا .
(٢) نبعات : جمع نبعة كوردة ، والنبع شجر يتخذ منه القسى والسهام ، ومعناها هنا الأصول .

مَنابِتِ أعياصِ[1] قريش مَغرِسا ، وَأرفع ذُرَى مجدِ بنى هاشم سَمْكا[2] ، محمدٍ صلى الله عليه وسلم خيرِها عند الله وخلقه نَفْسا ، على حينَ أوحشتِ الأرض من أهل الإسلام والإيمان ، وَامتلأت الآفاق من عَبدة الأصنام والأوثان ، واشتملتِ البِدَعُ فى الدين ، وَأطبقَتِ الظلَمُ على الناس أجمعين ، وَصار الحق رَسْماً عافِياً[3] ، خَلَقا باليا ، ميّتاً وَسْط[4] أموات ، ما إن يُحِسّون للهدى صوتا يسمعونه ، ولا للدِّين أثراً يتّبعونه ، فلم يزل صلى الله عليه وسلم قائما بأمر الله الذى أنزل إليه ، يدعوهم إلى توحيد الرب عز وجل ، ويحذّرهم عقوباتِ الشِّرْك ، ويجادلهم بنور البرهان ، وآياتِ القرآن ، وعلاماتِ الإسلام ، صابراً على الأذى ، محتمِلاً للمكروه ، قد ألهمه الله عز وجل أنه مُظْهِر دِينه ، ومُعِزُّ تمكينه ، وعاصِمُه ومستخلِفُه فى الأرض ، فليس يَثْنيه رَيْب ، ولا يَلْوِيه هَيْب ، ولا يُعَنِّيه أذًى ، حتى إذا قَهَرت البينات ألبابَهم ، وبَهَرت الآياتُ أبصارهم ، وخصَم نور الحق حُجتهم ، فلم تمتنع القلوب من المعرفة بدون صدقه ، ولم تجد العقول سبيلا إلى دَفْع حقه ، وهم على ذلك مكذِّبون بأفواههم ، وجاحدون بأقوالهم ، كما قال الله عز وجل العليمُ بما يُسِرُّون ، الخابِرُ بما يُعْلِنُونَ : « فَإِنَّهُمْ لَا يُكَذِّبُونَكَ وَلَٰكِنَّ الظَّالِمِينَ بِآيَاتِ ٱللهِ يَجْحَدُونَ » بغياً وعداوةً ، وحسدا ولَجاجةً ، افترض الله عليه قتالهم ، وأمَرَه أن يجرِّد السيف لهم ، وهم فى عِصابة يسيرة ، وعِدّة قليلة ، مستضعَفين مستذَلّين ، يخافون أن يتخطفهم العرب ، وتَدَاعَى عليهم الأممُ ، وتَستَحْمِلَهُم[5] الحروبُ ، فآواهم فى كَنَفه ، وأيّدهم بنصره ، وأنذرهم بمَقْدَمة من

---

(١) الأعياص : جمع عيص بالكسر ، وهو الأصل ، ومنبت خيار الشجر .

(٢) سمكه سمكا : رفعه ، والسمك أيضا ، السقف .

(٣) أى ممحوا دارسا .

(٤) جاء فى كتب اللغة : « تقول جلست وسط القوم بالتسكين لأنه ظرف ، وجلست فى وسط الدار بالتحريك لأنه اسم ، وكل موضع يصلح فيه بين فهو وسط بالتسكين ، وإن لم يصلح فيه بين فهو وسط بالتحريك ، وربما سكن ، وليس بالوجه » .

(٥) استحمله نفسه : حمله حوائجه وأموره .

الرعب ، ومَشْغَلة من الحق ، وجنود من الملائكة ، حتى هزم كثيراً من المشركين بقلّتهم ، وغلب قوة الجنود بضعفهم ، إنجازاً لوعده ، وتصديقاً لقوله : « وَإِنَّ جُنْدَنَا لَهُمُ الْغَالِبُونَ » فأَحْسِنِ النظرَ وقلّب الفكر فى حالات النبى صلى الله عليه وسلم من الوحى قائما لله ، اتّخِذَ لمذاهب فكرك ، وتصاريفِ نظرك ، مضطرَباً واسعاً ، ومعتَمَداً نافعاً ، وشُعوباً جمة ، كلها خيرٌ يدعوك إلى نفسه ، وبيانٌ يكشف لك عن مَحْضه ، وأخبِر أميرَ المؤمنين ما كنتَ قائلا لو لم تكن البعثة للنبىِّ صلى الله عليه وسلم بلَغَتْك ، ولم تكن الأنباء بأموره تقرَّرتْ قِبَلك ، ثم قامت الحجة بالاجتماع عندك ، وقالت الجماعة المختلفة لك : إنه نَجَمَ بين ظَهْرَانَىْ[1] مثل هذه الضلالات المستأصِلة ، والجماعات المستأسِدة[2] ، التى ذَكَرَ أميرُ المؤمنين ، من قبائل العرب ، وجَمَاهير الأمم ، وصَنَادِيد الملوك ، ناجمٌ قد نَصَب لها ، وغَوِىَ[3] بها ، يجهِّل أحلامَها[4] ، ويكفِّر أسلافها ، ويفرِّق أُلَّافها ، ويلعن آباءها ، ويضلِّل أديانها ، وينادى بِشهاب[5] الحق بينها ، ويَجهر بكلمة الإخلاص إلى مَنْ تراخَى عنها ، حتى حَمِيتِ العرب ، وأنِفَت العَجَم ، وغضِبَت الملوك ، وهو على حال ندائه بالحق ودعائه إليه ، وحيداً فريداً لا يَحفِل بهم غضَباً ، ولا يرهَب عَنتا[6] ، يقول الله عزَّ وجل : « يَا أَيُّهَا الرَّسُولُ بَلِّغْ مَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ ، وَإِنْ لَمْ تَفْعَلْ فَمَا بَلَّغْتَ رِسَالَتَهُ ، وَاللهُ يَعْصِمُكَ مِنَ النَّاسِ » أكنتَ تقول فيما تجرى الأقاويل به ، وتقع الآراء عليه ، إلا أنه أحد رجلين : إما كاذب يجهَل ما يفعل ، ويعمَى عما يقول ، وقد دعا الحتفَ[7] إلى نفسه ،

---

(١) يقال : هو بين ظهريهم وظهرانيهم — ولا تكسر النون — وبين أظهرهم : أى وسطهم .

(٢) أى القوية .

(٣) يقال : غرى به كفرح وأغرى به وغرى مبنيين للمجهول : أى أولع .

(٤) الأحلام : جمع حلم بالكسر ، وهو العقل .

(٥) الشهاب : شعلة من نار ساطعة .

(٦) العنت : دخول المشقة على الإنسان .   (٧) الحتف : الهلاك .

وأذِن الله لقومه فى قتله ، فليست الأيام بمادَّةٍ له ، ولا الحالُ بثابتةٍ له ، إلّا رَيْثَمَا تستلْحِمه[1] أسبابُهم ، وينهض به حلماؤهم ، غضباً لربهم ، وأَنَفةً لدينهم ، وحَمِيّة لأصنامهم ، وحسداً من عند أنفسهم . وإما صادق بَصِير بموضع قَدَمه ، ومَرْمَى نَبْله ، قد تكفَّل الله عز وجل بحفظه ، وصَحِبَه بِعِزّه ، وجعله فى حِرْزه ، وعَصَمه من الخلق ، فليست الوحشة بواصلة ـ مع صُحْبة الله ـ إليه ، ولا الهَيْبَةُ بداخلة ـ مع عصمة الله ـ عليه ، ولا سيوف الأعداء بمأذونٍ لها فيه ، ثم ما رأيُكم[2] يا أهل الكتابِ لو قيل لكم : إن الرجل الذى يدعى العِصْمة ، وينتحِل المَنَعة ، قد نَجَحَت الأمورُ به على ما قال ، وسَلِمَت الحال له فيما ادّعى ، حتى نَصَب لِعِمَارات[3] العرب ، وجماعات الأمم يقاتل بمن طاوعه مَن خالفه ، وبمن تابعَه مَن عانده ، جادًّا مُشمِّرا ، محتسِبا واثقا بموعود الله ونَصْره ، لا تأخذه لَوْمَةُ لائم فى رَبِّه ، ولا يوجد لديه غَمِيزة[4] فى دينه ، ولا يَلفِته خِذْلانُ خاذلٍ عن حقه ، حتى أعزَّ الله دينَه ، وأظهر تمكينَه ، وانقادت الأهواء له ، واجتمعت الفِرَق عليه ، ألم يكن ذلك يزيد حقَّه يقينا عندكم ، ودعوتَه ثبوتا فيكم ، حتى تقول الجماعة من حُلَمائكم ، وأهلُ الحُنْكة من ذوى آرائكم : ما كان الرجل ـ إذ كان وحيدا فريدا قليلا ، ضعيفا ذليلا ، معروفا بالعقل ، منسوبا إلى الفضل ـ ليجترئَ أن يقول : إن الله عز وجل أوحى إليه فيما أنزل من الكتاب عليه أن يَعْصِمه من العرب جميعا ، ويمنعه من الأمم طُرًّا[5] ، حتى يبلِّغ رسالاتِ ربه ، ويُظهِرَه على الدين كُلّه ، ويَدْخُل الناس أفواجاً فى دينه ، إلا وهو على ثقةٍ من أمره ، وَيقين من حاله .

فسبحانَ الله يا أهل الكتاب ! ما أبيَنَ حقَّ النبى صلى الله عليه وسلم لمن طَلَبه ، وأسهلَه لمن قَصَد له ؛ واستعملوا فى طلبه ألبابَكم ، وارفعوا [إليه[6]] أبصاركم ،

---

(١) استلحم (مبنيا للمجهول) إذا نشب فى الحرب فلم يجد مخلصا .

(٢) فى الأصل « ثم إن آيتكم » وهو تحريف لا يستقيم عليه المعنى ، وقد أصلحته كما ترى .

(٣) العمارة بالفتح والكسر : الحى العظيم . (٤) يقال : فيه مغمز وغميزة : أى مطعن .

(٥) أى جميعا . (٦) فى الأصل بياض محل هذه الكلمة .

تنظروا بعون الله إليه ، وتقفوا إن شاء الله عليه ، فإن علاماتِ نبوّته ، وآياتِ رسالته ، ظاهرة لا تَخفَى على من طلبها ، جَمَّةٌ لا يُحْصَى عددها ، منها خواصٌ تعرفها العرب ، وعوامٌّ لاتَدْفَعها الأمم ، فأما الخواصُّ المعروفة لدينا ، المعلومة عندنا ، التى أخذتها الأبناء عن الآباء ، وقَبِلها الأتباعُ عن الأسلاف ، فأمور قد كثُرت البيِّناتُ فيها ، وتداوَلَت الشَّهادات عليها ، وثبتَتِ الحججُ بها ، وتراخَت الأيام ببعضها ، حتى رأيناه عِياناً ، وقبِلناه إيقاناً ، فهى أظهر فينا من الشمس ، وأبيَنُ لدينا من النهار ، ولكن غيَّبَت الأزمان عنكم أمرَها ، ولم ينقل الآباء إليكم عِلْمَها ، وما لايُدْرَك إلا بالسمع موضوعُ الحجةِ عن العقل ، فليس أمير المؤمنين بمُحَاجٍّ لكم ، ولا قاصدٍ إليكم من قِبَلها.

وأما الآيات العوامُّ والدّلالاتُ الظاهرة فى آفاق الأرَضين ، القاطعةُ لحُجَجِ المُبطلين ، التى لاتُنكِر عقولُ الأمم وجوبَ حقها ، وَلا تدفع ألبابُ الأعداء صحةَ أمرها ، فسيوُلجها أميرُ المؤمنين مسالكَ أسماعكم ، وَيُعيد بها حُجَّةَ الله فى أعناقكم ، من وجوه جَمَّة وأبواب كثيرة إن شاء الله ، منها : أنه لم تزل الشياطين فيما خلا من فَترَات الرسل ، وَنَدَرَات[١] النُّذُر ، تصعَد إلى سماء الدنيا ، وتنْصِت لِلمَلإِ الأعلى ، فتستَرِق السَّمع ، وتحتفظ العلمَ ، وتنزل به إلى كل أفَّاك[٢] أثيم ، يَبْنون أكاذيبهم على واضِح صدقه ، وَيُنفِّقون[٣] أباطيلهم بحسب حقه ، خلطا الباطل فيه ، وسوها[٤] للعباد عليه ، فلَما بعث الله محمدا صلى الله عليه وسلم ، وأنزل آياتِ القرآن إليه ، حُرِست السماء بالنجوم ، ورُميت الشياطين بالشُّهُب ، وانقطعت الأباطيلُ ، واضمحلتِ الأكاذيب ، وخَلَص الوحىُ فبطلَتِ الكهَّان ، وضَلَّت السُّحَّار ، وكَذَبت الأحلام ، وتحيَّرت الشياطين ، فكانت آيةً بيِّنة ، وعلامةً واضحة ، وَحجَّة بالغةً ، تَبهَر قرائحَ العقول ، وتخرق

---

(١) أى فترات أيضا ، يقال : لقيته ندرة وفى الندرة : أى بين الأيام .
(٢) الأفاك : الكذاب .
(٣) ينفقون : أى يروجون ، مضعف من نفق البيع : أى راج .
(٤) كذا فى الأصل .

حُجُب الغيوب ، فلا يقوم مع ضيائها ظُلمة ، ولا يثبت عند مُحْكَمِها شبهةٌ ، ولا يُقيم معها فى محمد صلى الله عليه وسلم شكٌّ ، لا من أصحابه خاصَّةً ، ولا ممَّن جاء بعده عامَّةً ، وإنما جعلها الله عز وجل آية باقيةً فى الغابرين ، وحِراسَةً ثابتةً من الشياطين ، لأن الله جلّ وَعلا جعل نبيَّنا صلى الله عليه وسلم آخِرَ النبيين ، فليس باعثا بعده نبيا يكذِّب أقاويلَ الكَهَنة ، ويقطع أخابير[1] الجِنَّة .

وستقول ـ فيما يذهبُ إليه الظنُّ ، ويقع عليه الرأىُ ـ أنت وَمَن عَقَل من أمتك وأهل ملتك : هذه آيةٌ حاسمة ، وحجة قاطعة بَيِّنَةٌ قائمة ، مستعلية لأمرها ، مستغنية بنفسها لا تحتاج إلى ما قَبلها ، ولا يُتَّكَل على ما بعدها ، إن أقرَّت العقول بما تقول ، أو قامت البينة على ما تدَّعى ، بَلَى ، ثم تقول : وأنَّى لك بالبَيِّنة ؟ ولسنا نُقِرُّ بكتابك ، ولا نؤمن برسولك ، ولا نقبل قولك فيما قد سبَقَنا وإياك زمانُه ، وحَجَبَتِ الغُيوبُ عنا وعنك عِلْمَه ، فأرجِعُ إليكم إن قلتم ذلك ، فإن وِجْدانَ القُضاة قبل طلب البَيِّنات .

وليس يجعل أميرُ المؤمنين فيما ينازعك ويُحاجُّك فيه حا كما غيرَ عقلك ، ولا قاضياً سوى نفسك ، ولكنه يذكِّرك اللهَ الذى إليه مَعادُك ، وعليه حِسابُك ، لَمّا[2] جعلتَ التفهُّم لمسألته من بالك ، وركِبْتَ حدودها فى جوابك ، عادلًا بالقِسْط ، قاضياً بالحق ، قائلا بالصدق ولو على نفسك ، ناظراً بالأَثَرة لدينك ، فلقد وفق الله لك آيةً ، وأهدَى إليك بيِّنةً ، لا تستطيع دَفْعَها لحجْبها عن عقلك ، ولا حِجابا لنورها دون بصرك ، فلا تدفَع الآية بقولك ، والبيِّنة بلسانك ، جَحْدًا يقطع وصول الحجج إليك ، ولا تُغْلِق[3] أبواب الفهم عنك ، فإن اللسان لك مُداوَلٌ حيثُ شئت ، ومنقادٌ تصرِّفه فيما هَوِيت ، ولكن أنصِبْ نفسك للفهم وأنت شهيد ، وأَرِدِ الحق وقبولَه فيما تريد ،

---

(١) أخابير : جمع الجمع الخبر .

(٢) أى إلا . (٣) فى الأصل « ويد تغلق » وهو تحريف .

فإذا تصوَّرْتَ البيِّنات مجسَّدةً في قلبك، وتبيَّنْتَ الحجج مُمَثَّلةً لنظرك، قد أضاء صوابُها لك، وقَرَع حقُّها قلبَك، فاجعل القول بها شِعارًا لِلِّسان به متصلا، وافهَم المسألةَ، فهَّمك اللهُ الحقَّ، وجنَّبك الجحْدَ، ما تقول أنت ومَن قِبَلك في رجل كان يتيما ضعيفاً أجيراً ساهياً لاهياً عائلا⁽¹⁾ خاملا، لم يَتْلُ كتابا، ولم يتعلم خطًّا، ولم يَكُ في مَحَلَّة علم، ولا إرْثِ ملك، ولا معدِنِ أدَب، ولا بيتِ نبوة، فتراقَتِ الأيام به، واتصلت الحال بأمره، حتى خرج إلى العرب عامَّةً، والقبائل كافَّةً، وحيداً طريداً شريداً، مخذولا مجهولا، مجفُوًا مَرْمِيًّا بالعقوق لآلهتهم، مقذوفا بالكذب على أصنامهم، منسوبا إلى الهَجْر لأديانهم، وهم مُجْمِعون على دَعْوة العَصَبيّة، وحَمِيَّة الجاهلية، مُتعادُون متباغُون، مختلفةٌ أهواؤهم، مُتفَرِّقةٌ أمْلاؤُهم⁽²⁾، يتسافكون الدماء، ويتناوحون⁽³⁾ النساء، ويستحِلُّونَ الحُرَم، لا تَمنَعُهم ألفةٌ، ولا تَعصِمهم دعوة، ولا يحجزهم بِرّ، فألَّف قلوبَها، وجمع شَتِيتَها، حتى تناصرتِ القلوب، وتواصلت النفوس، وترافَدَتِ⁽⁴⁾ الأيدى، ثم اجتمعت الكلمة، واتفقت الأفئدة، حتى صار غايةً لِمُلْقَى رِحالهم، ونهايةً لمُنْتَجَع أسفارهم، وصاروا له حِزباً متفقين، وجنداً مطيعين، بلا دُنيا بَسَطَها لهم، ولا أموالٍ أفاضها بينهم، ولا سلطان له عليهم، ولا مُلْكٍ سَلَفَ لآبائه فيهم، ولا نباهةٍ كانت له بين ظَهْرانَيْهم، أتقولُ: إنه ما قال ذلك كله إلا بوحى عظيم، وتنزيل كريم، وحكمة بالغة؟ فإن قلت ذلك فقد أقررتَ أن محمداً صلى الله عليه وسلم رسول، وتركت ما كنت تقول إنه لم يُدْرِكه ولم يَبْلُغه إلا بعقل سديد، ونَظَرٍ بعيد، ورفق لطيف، وَرأيٍ وَثيق، استَبَى به عقولَ الرجال، واستمال عليه أفئدةَ العوامّ، فإن قلتم ذلك، فأنا سائِلُكم بإلٰهكم الذى تعبدون،

---

(١) عائلا: فقيرا.

(٢) الأملاء: جمع ملأ كسبب، وهو الجماعة.

(٣) تناوح النساء: أن يقابل بعضهن بعضا إذا نحن، وكذا تناوح الرياح: إذا تقابلت في المهب لأن بعضها يناوح بعضا. (٤) ترافدت: تعاونت.

ودينكم الذى تنتحِلون ، لمَّا صدقتم أنفسكم ، وتجنَّبتم الهوَى عنكم : أتؤمِنُ قلوبكم ، وتقرُّ عقولكم ، ويحتمل نظركم أن محمداً صلى الله عليه وسلم الذى وصفتموه بكمال العقل ، وبيان الفضل ، ورِفقِ التدبير ، كان يقول لرِجالاتِ العرب ، وجماعات الأمم ، ودُهاةِ قريش : إن من آياتِ نبوَّتى ، ودلالاتِ رسالتى ، وعلامات زمانى ، أن الشياطين تُرْمَى بنجوم السماء ، ولم تَكُ تُرْمَى بها فيما خَلَا ، ثم يجعل ذلك كتابا يُقرَأُ ، وقرآنا يُتلَى ؛ وهو كاذب فيما تلا ، ومُبْطِل فيما ادّعى ، إبطالًا تُدْرِكه عيون الناظرين ، وكذباً يظهر لجميع العالمين ، فسبحان الله ! أرأيتم أن لو كان فيما قال من الكاذبين ، وعلى ما ادّعى من الآثمين ، ثم حاول إبعادَ القلوب ، وإنْغالَ(١) الصدور ، وإنفارَ النفوس ، وتفريق الجموع ، أكان يَزيد على ذلك ؟ .

فيا أهْلَ الكتاب ، لا يَحْمِلَنَّكُمُ الإلفُ لدينكم على اللَّعب بتوحيدكم ، فلَعَمْرُ الله لئن تداركتم أنفسكم ، وناصحتم نظركم ، لَتَعلَمُنَّ أن محمدا صلى الله عليه وسلم لو حاول الكذب ، أو رام الإفك ، لَما كان يترك جميع الأرض ، وما يَغيب عن بعض الخلق ويظهر لبعض ، ويقصِد للسماء المتصلة بالبَصر ، البارزة للنظر ، التى لا تَخْفَى على بَشَر ، ولا تَغيب عن أحد ، فيدَّعى فيها كَذِبا ظاهرا ، وإفكاً بارزا مكشوفا ، لا يبقَى صغير ولا كبير ، ولا ذكر ولا أنثى ، إلا عرَف أنه إفك وزُور ، وكذب وغُرور ، ولا سيَّما إذا كان يُلقى ذلك إلى أقوامٍ أكثرُهم أعرابٌ ، ليس بينهم وبين السماءِ حِجابٌ ، إنما يراعُون الكواكب ، ويتفقَّدون الغيوم ، فأبعَدُ عَهدِ آخِرِهم بها تفقُّدُه لها ، ونظرُه إليها ساعةً أو ساعتين ، أو ليلة أو ليلتين ، لَعَمْرُ الله لو عَثَرَتِ العرب من أمر النبى صلى الله عليه وسلم على كذب ، لكان أولَ من يُوَاثبه به ويجادله فيه ، أعداؤه من قريش عامَّةً ، وحُسَّادُه من جيرته خاصَّةً ، ونظراؤه من أهل

---

(١) الإنغال : الإفساد . وأصله من نغل الأديم كفرح : إذا فسد فى الدباغ . وأنغله: أفسده .

بيته دِنيةً[1] الذين كانوا يستغرُونه[2] بكل طريق ، ويقعدون له على كل سبيل ، ويتساءلون من أمره عن كل ذى حادث ، فيتعلَّقون بالحروف المُشْكِلة ، والآيات المُشْتَبِهة ، جَدَلاً وخصومة بها ، وطَعْنا وإلحادا ومنازعةً فيها ، حتى لقد وصفهم الله بفعلهم ، وأخبر عن ذلك من أمرهم ، فقال عز وجل : « بَلْ هُمْ قَوْمٌ خَصِمُونَ[3] » وما كان الله عز وجل ليقول ذلك ولا لأحدٍ أن يقوله على الله فى أمرهم ، إلا عن خصومة شديدة ، ومنازَعة بليغة ، ومجادلة معروفة، فأحسِن النظرَ لنفسك ، ولا تَهْلِكَنَّ شفقةً على ملكك ، فَأَيمُ الله لئن قلت : إن النجوم شيء كانت العرب تراه بعيونها ، وتعرِفه بقلوبها ، فما كان محمدٌ صلى الله عليه وسلم وهو عارف بها غيرُ جاهل لها ، ليقولَ فيها إلا حقًّا ، وينتحِلَ فيها إلا صِدقا ، لقد ثبَّتَّ فروعَ كلامك فيها على أُسِّه ، ووصلتَ آخِرَ قولك له بأوله ، ثبوتا على ما ذكرت من عَقْده ، ولزوما لما فرَّطتَ من نظره ، ولكنك لا تجد مع الإقرار بذلك بُدّا من التصديق برسالته ، ولا مَذْهَبا عن الإيمان بنبوَّته .

ولئن زعمت أنه ادَّعى أمر النجوم كَذِبا ، وانتحلها باطلا ، عارفا كان بها أم جاهلا ، لقد نسبتَه من الخطأ الذى لا يَعمى عن بصره إلى ما يخطئ فيه بشرٌ ، فأكذبْتَ نفسك ، وتركت قولك ، إنه لم يكن التأليف لقلوب العرب ، والجمعُ لشَتِيت القبائل ، إلا برأى سديد ، وعقل أصيل ، ورِفْق بالغ ، إلى أحد أمرين ، لا تجد لكلامك وَجْهاً تذهب إليه غيرهما ، ولا مَحْملا تضعه عليه سواهما : إما أن تقول : إنه ألَّف قلوبَ العرب ، وفرَّق جموع الأمم ، بتنزيل الوحى ، فتؤمِنَ أنه نبىّ ، وإما أن تقول : فَعَل ذلك بجهل ، وهذا قول لا يُقبل ، كيف يَصِفه أحد من الجاحدين به

---

(١) يقال : هو ابن عمى دنية بالكسر ودنيا بالكسر والضم : أى لحاً .

(٢) فى الأصل « يستعيرونه بكل طريق » وهو تحريف ، وقد أصلحته كما ترى ، واستغر فلانا : أتاه على غفلة ، والمراد : يتعرضون له بكل طريق ويؤذونه على غرة .

(٣) الخصم : المجادل .

المكذبين له بغباوة ، أو يرمونه بجهالة ، وهم يجوزون به حدودَ الأنبياء ، ويرفعونه فوق أمور العلماء ، ويتخطّون به مراتبَ الحكماء ومنازل الناس ، تكثيرا لعلمه ، وتسديداً لعقله ، وتثبيتاً لفضله ، فيما لا يقدرُ الخلق عليه ، ولا تهتدى الألسن إليه ، حتى لقد نحَلوه[1] فعلَ الرَّبِّ الذى لا يقدر عليه الخلق فى وجوه كثيرة ، وأنحاء جمة .

من ذلك أنه إذا قالت البقايا من أمتنا : كان محمد صلى الله عليه وسلم يُخبرنا بالغُيُوب قبل ظهورها ، ويصف الأمور قبل حلولها ، ويتجاوز ما يكون فى زمانه من ذلك إلى ما يكون فى زماننا ، غَيْباً أطلعه الله عزّ وجل عليه ، أضافوا ذلك علما إليه ، فقالوا : كان أعلمَ الناس بمواقعِ النجوم ، وأبصرَهم بمنازل البُرُوج ، وأنظرَهم فى دقائق الحساب ، كيف ولم يكن الحِجاز دار نجوم ، ولا محلَّ حساب ، ولا معدِنَ أدب ، بل كيف والمنجِّم يَقيسُ ويُخطئُ ، ويشُكّ فيما يدّعى ، وهو أخو صواب لا شكَّ فيه ، وفارسُ صدق لا قياسَ معه .

ومن ذلك أنه إذا قالت العلماء من المسلمين : كان نبينا صلى الله عليه وسلم عليما بباطن أخبار النبيين ، وخَفِيِّ قِصَصِ القُرون الأوّلين ، قالوا : كان أحْيَا الناس قلباً ، وأوسَعَهم سِرْباً[2] ، وأسرَعَهم أخذاً ، يتتبّع ذلك ويحبه ، وقد رواه وعلّمه ، سبحان الله ! أَوَلا يعلمون أن المتعلِّمَ معروفُ المعلِّم ، متفاوِتُ الحالاتِ ، متنقِّلُ الطّبَقات ؟ وأنه ما أحدٌ يؤدَّب صغيراً أو يطلب العلم كبيراً ، إلا وله درجاتٌ فى علمه ، وتاراتٌ فى أخذه ، ومنازلُ فى تعلُّمه ، تارةً تلميذ ، وتارة مقارِبٌ ، وأخرى حاذِق ، وبكل ذلك موصوف من أهله ، معروف عند قومه ، ظاهِرٌ لجيرَته ، مستفيضٌ فى عشيرته ، لا يُجْهَل أمره ، ولا يَخفَى ذكره ، ولا يُنسَى عند مواضع الحاجة إليه ، وتاراتِ الاحتجاج به عليه ، ولو كان ذلك معروفا فيهم ، أو موجودا لديهم ، أو ظاهرا عندهم ،

---

(١) نحلوه : أى نسبوا إليه . (٢) السرب : البال ، والقلب والنفس .

لَمَّا أمَرَه الله عزّ وجل أن يَحتَجَّ عليهم ، ويقول فى ذلك لهم : لقد لبِثْتُ فيكم عُمُرًا من قبله ، لا أتلو قرآنا ، ولا أدّعى وحيًا ، أفلا تعقلون !

وأيمُ اللهِ لو كانوا يعقلون أو ينظرون ، لَعَلِموا أن معلِّمَه على غير المِلَّة التى يعرفون لأنه لهم من المخالفين ، وعليهم من الطاعنين ، يذكُر فضائحَ قولهم ، ومعايبَ أمرهم ، ومخازىَ أسلافهم ، وعوائرَ[1] أديانهم ، وأنه لو كان معلِّمه نصرانيا لدعاه إلى النَّصرانية أو يهوديا لدعاه إلى اليهودية ، أو مَجُوسِيًّا لدعاه إلى المجوسية ، ولو لم يكن له معلِّمٌ لَمَا وقع على الحقيقة ، هدايةً من تلقاء نفسه ، ومعرفةً بقوة عقله ؛ ولو كان معلِّمه الشيطان لَمَا دعاه إلى عبادة الرحمن ، ولا أمَرَه بهَجْر الأوثان ، وكَسْر الأصنام ، وصِلَةِ الأرحام ، والإصلاح فى الأرض ، كيف وكان الشيطان يصُدُّ الناس عن سبيله ، ويزَهِّدهم فى دينه وينهاهم عن طاعته ، ويُخرجهم من عبادته ، ويُدخلهم فى مَسَاخِطه ، ويحملهم على مَعاصيه ؟ إنه إذنْ لرحيم بهم ، ناظر لهم ، شفيق عليهم ، كأنه هو المبعوث إليهم ، كلا ، ما كان لِيُنقذهم من حبائله ، ويخلِّصهم من مَصايده ، ويُخرجهم من ولايته وطاعته وسلطانه وخُدعَه وفتنته وحزبه ، إلى غير ذلك من أمره ، وما كان لِيَنْهَى العرب أن يقتلوا أنفسهم ، ويتناوحوا حُرَمهم ، ويُؤْذوا ذريتهم ، ولا ليقول لهم : لم تعبدُون نَحِيتَ الحجارة التى جعلها الله لكم عارًا ، وتذَرُون عبادة الربِّ الذى خلقكم أطْوارا ! هيهاتَ ! لقد ذهبتم بالشيطان الرجيم إلى صِراط العزيز الحكيم ، فقلتم قولا تُنكره العقول ، وتدفعه القلوب ، وتستوحِشُ منه النفوسُ ، ألا تسمعون إلى قول الله عزّ وجل : « فَهَلْ عَسَيْتُمْ إنْ تَوَلَّيْتُمْ أنْ تُفْسِدُوا فى الأرْضِ وتُقَطِّعُوا أرْحَامَكُمْ . أُولئكَ الَّذِينَ لَعَنَهُمُ اللهُ فَأَصَمَّهُمْ وَأَعْمَى أبْصَارَهم » فما كان الشيطان لِيَرْضَى للعرب باللَّعْنَةِ وَالبَكَمَ ، والعَمَى والصَّمَم ، فاتَّقِ الله ولا تكن من الجاحدين .

---

(١) أراد بها مثالبها ومخازيها ، وفى كتب اللغة : العوراء : الفعلة القبيحة (غير أن فعلاء لا يجمع على فواعل) وفيها : العوائر جمع عائر ، والعائر من السهام والحجارة : الذى لا يدرى من رماه . أصابه سهم عائر فقتله : أى لا يدرى من رماه .

ومنها : أنه إذا قالت الفقهاء والحكماء : أتانا محمد صلى الله عليه وسلم بكلام لم تسمع الآذان بمثله ، ولم تقع القلوبُ على لُغته ، له رَوْنَق كَحَبَاب[١] الماء ، وزِبْرِج[٢] يعلو ولا يُعْلَى ، وعجائبُ لا تَبلى ولا تَفنى ، وجِدّة لا تتغير ، قالوا : كان محمد صلى الله عليه وسلم أبلغهم قولا ، وأحسنهم وصفا ، فيا سبحان الله ! ألاَ يعلمون أن لو كان القرآن كلاما للعباد ، لَمَا أقرّت الأعداء من [العرب[٣]] بفضله ، ولا عَجَزت القبائل طُرًّا عن مثله ، وهو يناديهم فى الكتاب ، ويتحداهم فى الوحى ، بصوتٍ رفيع ، ونداء سميع ، فيقول : « هاتُوا بُرْهَانَكم إنْ كُنْتُمْ صادِقِينَ » وهم فُرسان الكلام ، وإخوان البلاغة ، وأبناء الخُطَب ، وأهلُ عداوة له وَبَغْيٍ عليه ، فَتَسْتَحْسِر[٤] الأبصارُ ، وتثقُل الأسماعُ ، وتنعقِد الألسُنُ ، وتَخْرَس الخطباء ، وتَعْجِزُ البلغاءُ ، وتحارُ الشعراء ، وتستسلِم الكُهَّان ، ثم لقد قايستِ البُصراء بالكلام والعلماء بالمنطق بين ما بأيدينا من كلام النبى صلى الله عليه وسلم وما جاءَ به من كلام الوحْى ، فإذا بينهما بَوْن[٥] بعيد ، وتفاوُتٌ شديد ، ليس يشبهه له ولا مُدانٍ ولا قريب ، وكذلك ينبغى الكلام الرب عز وجل أن يعلوَ كلام الخلق ، وألاَّ يُشْبِه قولَ العباد فى تأليفه وأحاديثه ومعانيه وجميع ما فيه ؛ لأن الله عز وجل لا يُشْبِهه شيء من ذلك ، إنه إذا قال المسلمون : كان محمد صلى الله عليه وسلم يُرِى ماضِيَ أسلافنا ، وصُلَّح آبائنا ، من العجائب العظام ، والآيات الكبار ، ما هو جديد عندنا ، بيِّن قِبَلنا ، فلم يَعفُ أثرُه ، ولم يَدْرُس خبره ، ولم يتقادَمْ عهدُه : من شجرة ناداها فأقبلَتْ ، ثم أمرَها فرجَعتْ ، ومن نحو بعير تظلَّم ، وذئب تكلَّم ، وأشباه لذلك كثيرة ، ونظائرَ له عجيبة ، قالوا : كان محمد صلى الله عليه وسلم كاهناً حاذقا ، وساحرًا ماهرًا ، يشبِّه بالخيال ، ويأخذ بالأبصار ،

---

(١) حباب الماء : فقاقيعه التى تطفو كأنها القوارير .

(٢) الزبرج : الزينة من وشى أو جوهر .

(٣) فى الأصل بياض محل هذه الكلمة .

(٤) استحسر : أعيا . (٥) البون : الفضل والمزية .

كيف والجوعُ الكثيرة تَصْدُر عن الأطعمة اليسيرة ، والمياه القليلة شِبَاعاً رِوَاءً أيكون ذلك والسحر سواءً ؟ والأخذ بالعيون لايجرى فى البطون ، ولو كانوا ينظرون لدينهم ويُنْصِفون من أنفسهم ، اعلموا أن أمر الساحر يدور على إفك وغرور ، وأن لمحمد صلى الله عليه وسلم آثارا قائمة ، ومنافع دائمة ، ثم لو كانت الكهانة والسحر يبلُغان مثل هذا من الأمر ، لبَطَلَتْ آيات الكتب ، وعلامات الرسل ، ولعَلَتِ الشُّبهةُ ، وسقَطت الحجةُ ، وكَذَبتِ النبوة ، ولَبطَل ما كان يفعله عيسى عليه السلام : من إبرائِهِ الأكْمَهَ(١) والأبْرَصَ وإحيائِهِ الموتى ، فلا يكونَنّ التقليدُ للرجال مبلغَ عِلمك ، ولا القبول لدعواهم بلا بينة .

ومن ذلك أنه إذا قالت البُصَراء من أمتنا والعلماء بملّتنا : كان النبي صلى الله عليه وسلم أمّيا لا يُحْسِن الكتاب ، وحافظا لاينسى القرآن ، وقلما يجتمع العقلُ السديد والحفظُ السريع والنسيانُ البطىء ، قالوا : كان أخطّ الناس يدا ، وأذكاهم حفظا ، كان يكتب بالنهار ، ويَدرُس بالليل .

ولعمر الله أن لو كانت الحال كما يقولون ، والأمر كما يصفون ، لما خَفيتِ الصُّحُف له ، ولا اكتُتِمت الدراسةُ عليه ، ولَمَا كان يُطيق سَتْرَها عن أهله ، ولا حجابَها دون قومه ، وكيف تؤمن القلوب ، وتقِرّ العقول ، أن رجلا كبيرا حَمَل عِلْما كثيرا ، وحِكَما جَمَّاء : من آياتٍ متشابهة ، وسُوَر متوالية ، وهو صاحب أسْفار مترامية(٢) ، وأخو حَرْب دائمة ، لا يُبْطِئ لفظه ، ولا يسقُط حفظه ؛ لولا(٣) أن الله عز وجل كفاه أن يُحَرِّك به لسانَه ، وضَمِن له جمْعَه وقرآنه ، فقال عز وجل : « سَنُقْرِئُكَ فَلَا تَنْسَى » فلم يكن يُسقط واوا ولا ألفا ، ولا ينسى كلمة ولا حرْفا ، ما أبْينَ هذا وأعجبه ! وأعجب منه المنكِرُ له !

---

(١) من ولد أعمى . (٢) فى الأصل « متراخية » .
(٣) فى الأصل « ولا يسقط حقه ، ولولا أن الله » .

وأما قولهم فى الخطّ وإكثارُهم فى الكتاب ، فإن الله عز وجل جعله أمِّيًّا ليُثْبِت حُجَّتَه ، ويصدّق مقالته ، ولِئلا يشُكَّ المُبْطلون فى أمره ، ويقولون : تعلّمه من غيره . فإنه قد قال ذلك بطائنُ من مُنافِقة العرب ، وطوائفُ من كَفَرة العجم ، فنطقتْ به الأعداء من جيرته ، والحَسَدة من عشيرته ، الذين بلغوا [ما بلغوا[١]] من مُجادلة حقه، ومخاصَمة ربه ، كُفاةً لمن قرُب ، ووكَلاء لمن بَعُد ، فيما لم تكن العرب واقعةً عليه ، ولا الأمم مهتديةً إليه ، لأنهم[٢] قد أحاطوا من عِلْم خَبَره وخفِيِّ أثره ، بما كان عن غيرهم محتجِبا ، ومن سواهم مكتَتَمًا ، وقالوا : لو كان محمد صلى الله عليه وسلم يتعلم من بشر ، أو يختلف إلى أحد ، لما خفِيَ عنا ، ولسَقَط علينا[٣] ، وحقا لو كان محمد صلى الله عليه وسلم يختلِف إلى أحد صغيرا ، أو يتعلم من بشر كبيرا ، لعرَف ذلك أترابُه المختلِفون معهُ ورفقاؤه والمقتدون ، ولما جهل ذلك مَن حوله مِن جيرته نُصرة ، ولا من معه من أهل بيته دِنيةً ، الذين عليهم يُورِدون ومِن قِبَلهم يُصْدِر ، ولكان شائعا عند حَشَم معلّمه وجيرةِ موضعه الذين كان يختلف إليهم ، ويتأدَّب بين ظهرَانَيْهم ، ولو كانوا بذلك عالمين ، أو فيه من أمره شاكِّين ، ثم بَلَغهم وتقرَّر قِبَلهم أنه يقول : إن الله عز وجل أوحى إليه فيما أنزل من الكتاب عليه : « وَمَا كُنْتَ تَتْلُو مِنْ قَبْلِهِ مِنْ كِتَابٍ وَلاَ تَخُطُّهُ بِيَمِينِكَ ، إذًا لاَرْتَابَ المُبْطِلُونَ » لخاصَمه منهم من كفر ، ولكَفَر به منهم من آمن ، ثم يَدّعِي ذلك قرآنا ، وينتحِله وحيا . أمَا كان يَرْهَبُ أن ينتشِر فى الأقربين ويخرج إلى الأبعدين ، فتبطُلَ حجتُه ، وتنتقِضَ دعوتُه ، وتسقط نبوتُه ، ويُنفِّرَ أصحابه الذين لم يصبروا[٤] معه فى المجاهدة أنفسَهم ، ويبذلوا عند الشدائد مُهَجَهم ، وينفِقوا فيه — على الحاجة — أموالهم ، مُناصِبين[٥] لأهل الشرق والغرب والعَجَم وكل الأمم ، وهم قليلون مستضعفون عائِلون جائعون ، لا طَلَباً لدنيا ، ولا طمعا فى مَنال ، إلا لِمَا

---

(١) زيادة يقتضيها السياق . (٢) فى الأصل « إلا أنهم » .
(٣) فى الأصل « ولا سقط » .
(٤) صبر نفسه : حبسها . (٥) أى معادين .

تَعَقَّبوا من قوله ، وعَرَفوا من صدقه ، ولولا أنه أخبرهم ووعدهم أن يُغلَب كسرى وقيصرُ لهم ، فصدَّقوا بقوله وآمنوا بوعده ، حتى قويت البصائر ، وصَرُمت[١] العزائم وقوِيَت النّيات ، فنَشِطت النفوس ، وشَجُعت القلوب ، وحُمِّلت الأبدان ، لَما وقع لهم طمع فيه ، ولا ذهب لهم وَهْل[٢] إليه ، فمكن من ذلك على يقين لا يخلِجُه[٣] شك ، ومعرفةٍ لا يخلِطها ريب إن شاء الله .

ومن ذلك : أنه إذا قال المسلمون : مامن فَعال محمود ، ولا مقال معروف ، ولا خُلُقٍ كريم ، ولا أدب فاضلٍ ، إلا وقد أدَّب الله عز وجل به محمدا صلى الله عليه وسلم وأنزله فى الكتاب إليه ، فكان يأمر بالمكارم ، ويحُضُّ على المحامد ، ويعمل بالمحاسن التى ليس فيها مَدْخَل لشُبهةِ طاعنٍ ، ولا مَعْلَق لحُجَّة قائل ، ولا مَغْمَز لبصيرة عائب ، ولا موضع لخُصُومة بشر ، فى وعد أو عهد ، أو حَلٍّ أو عقد ، أو مقال أو فِعال ، أو غير ذلك من الأمور ، قالوا : أمورٌ حَمَلَ عليها نفسَه ، ودعاه إليها عقلُه ، وصَبَر عليها ، لِما أمَّل ورجا فيها ، سبحانَ الله ! وما أمَّل بها وارتجى منها ؟ إن قالوا : الدنيا ، فلقد أكذبهم إدبارُه عنها ، حيث أمكنَتْه القدرةُ منها ، وأعثَرَتْه الحال عليها ، وإن قالوا : حبَّ الأَثَرة ، فقد جعل نفسه للمسلمين أُسْوةً : فى سِهامهم[٤] وقِصاصِهم[٥] ، وحدودهم وحقوقهم ، وغير ذلك من أمورهم ، وإن قالوا المُلك ، فلقد كان أشدَّ الناس لربه تواضعا ، وأعظَمَهم فى جنبه تصاغُرًا ، ما إنْ أكل متَّكِئًا قطُّ إلا مرَّةً ، ثم قعد كهيئة الفَزِع لها النادم عليها ، فقال : « اللَّهُمَّ إِنِّى عَبْدُكَ وَرَسُولُكَ » ، وإن قالوا : النعيم ، فمن كان أيبَسَ منه مَعاشًا ، وأخشنَ رِياشًا[٦] ، وأغلظَ مأكلاً ؟ وكيف

---

(١) عزيمة صارمة : أى ماضية .

(٢) وهل إلى الشىء يوهل بفتحهما ويهل بالكسر وهلا بالسكون : ذهب وهمه إليه .

(٣) خلجه كضربه : حركه وجذبه وانتزعه .

(٤) جمع سهم بالفتح : وهو الحظ والنصيب .

(٥) وفى الحديث « وأيم الله لو أن فاطمة بنت محمد سرقت لقطع محمد يدها » .

(٦) أى لباسا ، وأصل الرياش : اللباس الفاخر .

يذوقُ العيشَ ، أو يجد لذيذ النعيم ، مَن حَرَّم السُّكرَ والخمر ، ونهى عن الدِّيباج والقَزِّ وكان أ كثرَ دهرِه صائما ، وأطولَ ليلِه قائما ؟ فإن قالوا : طلب الصَّوْتَ[١] ورَغِب في الدين ، فذلك مالم يطلبه أحدٌ في حب الصوت ، والتماس الحمد ، لِمَا صَبَرَ على مَغاضِب قومه ، ومَلاوِم أهله ، وشتائم العرب ، وتوعُّد العَجَم ، واستهزاء قريش : يرمونه بالعُقوق ، ويقذفونه بالجنون ، ويَبْهَتونه[٢] بالسحر ، وليس يدرى مايَهْجُمُ[٣] به الأمرُ .

أم يقولون : طلَبَ تأثيلَ[٤] الملكِ لقومه ، وأراد توطئةَ الولاية لأقاربه ، فكيف يطلب لقومه ما قد زَهِد فيه لنفسه ؟ أم كَيف يطلب لهم عِزّ الملك ، وقد أوطأهم الذُّلَّ ثم القتلَ ؟ لعمرُ الله أنْ لو أراد المُلْكَ لأقاربه ، وأراد طلب السلطان لِذوى رَحِمه ، لَوَكَّد لهم عَقْدًا لايُحَلّ ، ولَأَبْرَمَ لهم أمرا لايُنْقَض ، ولَأَثَّل لهم في عُنْفوان[٥] أمره ملكا لايخرج من أيديهم ، ولا يَبرح[٦] أبداً فيهم ، امتثالا لصَنِيعكم ، واحتذاء على مِثالكم ، مع أقاويلَ جمة ، ونظائرَ كثيرة ، لايستقيم لهم معها أن يقولوا إن محمداً صلى الله عليه وسلم غلب العرب وقهَرَ العجم ، أو قال في أمر السلطان والنجوم بكَذب .

فإن قلتم : إن محمدا صلى الله عليه وسلم ، كان في قوة عقله ، وبيان فضله ، على ما قلنا وقلتم ، وصَدَّقنا به نحن وأنتم ، ولكن هَفَتِ العلماء ، وزلَّت الحكماء ، وأخطأت القلوب ، فقد يعلم أمير المؤمنين ـ وأنتم بذلك من العالمين ـ أنَّ خطأ قلوب العلماء كخطأ دائرة الرَّحَى : ليست العلماء بمُخْطئة إلا المرةَ والثنتين ، كما لا تُخطِئُ الرحى إلا الحَبَّةَ والحبتين ، ومِثلُ الذى نسبتم إلى النبي صلى الله عليه وسلم من الخطأ عندكم ،

---

(١) الصوت والصيت : الذكر الحسن .
(٢) بهته كمنعه : قال عليه مالم يفعل .
(٣) أى ماينجلى عنه الأمر ، من نجاح وفوز ، أو خذلان وفشل .
(٤) أى تأصيله وتعظيمه . (٥) أى في أوله وحداثته .
(٦) في الأصل « ولا ينوح » وهو تحريف .

والجهلِ فى أنفسكم ، كثيرٌ لا يُحْصِيه أحد ، ولا يَبْلُغه عددٌ ، وأمير المؤمنين واصِفٌ بعضه لكم ، ومُورِدٌ ما حَضَرَ كتابَه إن شاء الله لكم ، وايمُ الله على ذلك لو قالت العلماء من المسلمين : هَبُوا محمداً صلى الله عليه وسلم كان فى أمر النجوم من المخطئين ، فكيف أخطأَتِ العرب ، وهَفَتِ الأمم فى تَرْكِ مجادلته ، ورَفْضِ منازعته ؟ وكيف لم تقل العلماء من إفتاته[١] والحكماء من حكمائهم ، توبيخاً منهم له ، وتعييرا لمن آمن معه : هذا أمر من أوْضَحِ الأكاذيب ، وأبطَلِ الأباطيل ، فلا يثبُتُ مع قولهم إيمانٌ ، ولا يُقيم على شرحهم إنسان . فإن قلت : فلعل ذلك قد كان ، ولكنه دَرَجَ[٢] على طول الأزمان ، فكيف إذَنْ صدَّقت العرب بنبوّته ، ولم تكفُر القبائل رسالته ، وهم يسمعون كذبا لاينفع معه صدقٌ كان قبلَه ، وباطلا لا يُعْصَم معه حقٌّ حَدَثَ بعده ؟ وإن قلتم : أدخلهم بالقَهْر ، وضَبَطهم بالقتل ، وأكرههم بالسيف ، فما بالُ القليل من المسلمين الذين قهرهم الكثيرُ من المشركين ، ما بالُهم آمَنوا وَصدَّقوا ، وَصَبرُوا وصابروا وجَدُّوا وجاهدوا ، كيف لم تنكسِر عزائمهم ، وَتَهِنْ[٣] بصائرهم ، ويرجعوا إلى دينهم ، وَيَهْرُبوا عن توحيدهم ؟ كلا ، لو كان الأمر على ما تقول لأَرْفَضَّ[٤] القوم عن الرسول ، ولكان صلى الله عليه وسلم أولَ مقتول أو مخذول ، فأحْسِنِ النظر فيما تذهب الأهواء بِرأيك إليه من آيات النبى صلى الله عليه وسلم ، وإن جمَحَتِ الدَّعوى بكم ، فقائل — قد مالت به الأهواء فى الباطل — فقال : إنه إلَّا يكن الأنبياء ذكرت النجومَ فى صحُفها ، بيَّنت الحكماء منها ذكراً فى كتبها ، فجعلت المنقَضَّ من الكواكب بين الأعوام ، دليلا على أمر يَحْدُث تلك الأيامَ ، ولا ما هذا الاختلاق ، يَلِطُّ به الجاهلُ الفَسَّاق[٥] ، ما إن وَضَعَتِ الحكماء ذلك فى الكتب

---

(١) هكذا فى الأصل . (٢) أى انقرض وفنى .
(٣) أى تضعف . (٤) أى تفرقوا عنه وذهبوا .
(٥) هكذا فى الأصل ، ولط بالأمر كضرب : لزمه .

إلا لَيالِيَ مُلِئَتِ السماء من الشُّهُب ، وبالله لو ادّعيتم غير ذلك فـكان حقا ، وكانت القالةُ منـكم صِدقا لَما كانت الدعوى بناقِضَةٍ لآية النجوم حُجَّةً ، ولا مُدْخِلةٍ على أحد فيها شُبهةً ، لأن رَمْيا يقع فَرْط السنين من الـكواكب ، لايُبْطِلُ رَجما قد مَلَأ السماء من كل جانب ، ثم لو لم تـكن النجوم آية دامِغةً[1] ، وحجةً بالغة ، ودلالة قاهرة ، وعلامة باهرة ، وأمارة ظاهرة ، وشهادة قاطعة ، وبيِّنة عادلة ، وداعية قائمة ، تُبْطِل أظانينَ المشركين ، وتَرْدَع أقاويل المنافقين ، لـما كان النبي صلى الله عليه وسلم ، ليُعظّم أمرها ، ولا ليكرِّر فى آى القرآن ذكرُها ، رهبةً لمناهضة أحياء العرب ، ومعرفةً بمجادلة إخوان الـكتب ، الذين لو وجدوا فيما كُتب به إليك أمير المؤمنين من أمر النجوم ، واحتجَّ به عليك من ذكر الرُّجوم ، مَوْقِعاً لِظَنٍّ ، أو مَعْلَما يطعنٍ ، أو مَغْمَزا لقول ، لنَاصَبوه إذن بالمجادلة ، وكاشَفوه بالمنازَعة ، وجاهروه بالقول الذى لايستطيع له رَدّا ، ولا يُطيق له جَحْدا ، ولـكنها آيات ملأت الأقطار كثرةً ، وحسَرت الأبصار قوةً ، قد وجَّلتِ العقولَ ، وولهّتِ القلوب ، وملأت النفوس جزَعا ووجعا ، وفَزَعا شغَلهم عن الأولاد ، وأذهَلَهم عن البلاد ، حتى بلغ أميرَ المؤمنين ، وتقرَّر عند فقهاء المسلمين أن الله عز وجل لـما ملأ السماء حَرَسا ، وأحدث لها رَصَدا ، وخَلَق فيها شُهُبا ، ذكرت العقلاء من العرب وَقَعاتِ الله عز وجلَّ فى الـكتب بقوم نوح وَعاد وثمود وأشباههم من مؤلِّفى تلك الجنود ، الذين كانوا أشدَّ بطْشا ، وأكثر جَمْعا ، فانفرجت أيديهم عن كرائم أموالهم ، وأرسلت أنفسُهم مَتائنَ عُقَدهم ، وإن أهل الطائف لـمّا فعلوا ذلك بأموالهم ، وأجمعوا فيه الخروجَ إلى فقرائهم ، قام فيهم رجل منهم ذو سِنٍّ وعقل فقال : يامعشر العرب ، لاتُهلِكوا أنفسكم قبل أن تهلِكوا ، ولا تخرُجوا من أموالـكم قبل أن تُخرَجوا ، تفقّدوا مواقعَ نجوم السماء ، وكواكبَ بدورِ الدُّجى ، فإن كانت النجوم التى حدث الرمىُ بها ، والنجوم التى أخليتم الأموال

---

(١) فى الأصل « دافعه » والمعنى عليها صحيح ، ولـكن يظهر أنها « دامغة » .

لها ، هِىَ لِبُرُوجِ الشمس والقمر ، ومَسَالِ[١] الحيوان والشجر ، فهى جوائحُ الاستئصال ، المُتلِفة الأنفس والأموال ، وإن كانت النجوم التى حَدَثَ القذفُ بها إنما هى نجوم خُلِقَت اليومَ ، فليست المعرفةُ بواقعة على مُبتداها ، ولا الأبصار بلاحِقةٍ مُنْتَهاها ، فأمْسِكوا العُقَد[٢] عليكم وَالأموال ، فإنه أمر يَحدُث فى إحدى هذه الليال .

فإن قلت : كيف وقعت الأمور فى هذا الرجل كالعِيان ، وصارت المقالة منه كوَعْىِ الآذان ؟ أنبأك أميرُ المؤمنين أن أوعيةَ الفِقْه من المسلمين ، الذين حَمَلوا إلينا سُنَنَ الدين ، هم أدوا ذلك إلينا ، وأبقوه فخراً . . . .[٣] علينا ، فمَا إن يَنْفَكُّ منهم مفتخِر يقول : أبونا الذى حَبَس على العرب الأموالَ والعُقَدَ ، فمَا إن يدفع القولَ فى ذلك منا أحد ، هيهات ! ما كانت العرب لِتقِرّ عند الفَخار ، إلا بطَوْلٍ هو أبينُ فيها من ضوء النهار ، فافهمْ ما كتب به أمير المؤمنين فى هذا إليك ، ولا يكن التعلُّل فيها بالشُّبُهات أوثقَ ما لديك ، فإنه قلّ حجةٌ إلا وإلى جَنْبها شُبهةٌ تَخيَّلُ للعقول ، وتعرَّضُ للقلوب ، وتَجَلْجَلُ[٤] فى الصدور ، فلا يثبُتُ مع تخيُّلها ، ولا يُقيم لتعرُّضها بَشَرٌ ، إلا مَن وَزَنَ الحقَّ والباطل بميزان عادل ، لا يميل إلى تفريط ، وَلا ينحَطُّ فى تقصير ، وقد جعلَ الله عز وجلَّ العقولَ موازينَ لِلأمور ، فَزِنُوا ما سمعتم من حُجج كلام الرب عز وَجَلَّ بما تَنفُون به الشبهة عن الحق ، ولا تُميلوا اللسانَ ، فتخسروا الميزان .

وسيعلِّل أمير المؤمنين إن شاء الله ما جاء عن ذكر ما كتب به إليكم من أمر النجوم والرُّجوم والشُّهُب فى القرآن والرواية والكتب ، فألطِفُوا النظرَ فى صحة معانيه ، ونَحُّوا الهوَى عن شُبهةٍ[٥] ما وقعَتْ فيه ، قال الله عزّ وجل : « وَلَقَدْ زَيَّنَّا السَّمَاءَ الدُّنْيَا

---

(١) مصدر أريد به المكان . والمعنى : ومرعى الحيوان ومنبت الشجر .
(٢) العقد : جمع عقدة بالضم ، وهى الضيعة والعقار الذى اعتقده صاحبه ملكا .
(٣) بياض بالأصل بمقدار كلمة .
(٤) أى تحرك . (٥) فى الأصل «عن شبهة إنما» .

بِمَصَابِيحَ وَجَعَلْنَاهَا رُجُوماً لِلشَّيَاطِينِ » وقال : « وَلَقَدْ جَعَلْنَا فِي السَّمَاءِ بُرُوجاً وَزَيَّنَّاهَا لِلنَّاظِرِينَ . وَحَفِظْنَاهَا مِنْ كُلِّ شَيْطَانٍ رَجِيمٍ » وقال : « إِنَّا زَيَّنَّا السَّمَاءَ الدُّنْيَا بِزِينَةٍ الْكَوَاكِبِ. وَحِفْظاً مِنْ كُلِّ شَيْطَانٍ مَارِدٍ » وإن شَطَبَ[1] عن الحق شاطِبٌ ، أو ذهب إلى الباطل ذاهبٌ ، لا يعرف مذاهبَ كلام العرب ، ولا وجوهَ معانى الكتب ، ولا تفسيرَ آىِ القرآن ، فقال : إنما جُعلت الكواكبُ والمصابيحُ حِفظاً من الله عز وجل للسماء ، ورُجُوماً للشياطين من قبل أن يبعثَ الله محمداً صلى الله عليه وسلم بالدِّين ، فإن فى آيات القرآن ما فيه بيانٌ مما يُبطل دعواه التى لا بيِّنة عليها ، ويكذِّبُ مقالته التى لا شهودَ لها ، فقالت الجن ، فجعل الله تبارك وتعالى قولَها وَحياً ، وبه منها صِدْقاً : « وَأَنَّا لَمَسْنَا السَّمَاءَ فَوَجَدْنَاهَا مُلِئَتْ حَرَساً شَدِيداً وَشُهُباً » أَلَا تَرَوْن أنها كانت الجن لَمَسَت السماء فلم تجدها مُلِئت حرَساً شديداً وشُهُباً ، وقعدتِ الشياطينُ منها مَقَاعِدَ للسمع فلم تجد شُهُباً ولا رَصَداً ، أوَ لا تسمعون إلى ما يحقِّق ذلك ويسدِّده ويصدِّقه ويشهد له من قول الله تعالى : « هَلْ أُنَبِّئُكُمْ عَلَى مَنْ تَنَزَّلُ الشَّيَاطِينُ . تَنَزَّلُ عَلَى كُلِّ أَفَّاكٍ أَثِيمٍ . يُلْقُونَ السَّمْعَ وَأَكْثَرُهُمْ كَاذِبُونَ » مع قول الجن أيام حُرست السماء ، ورُميت الشياطينُ : « وَأَنَّا لَا نَدْرِي أَشَرٌّ أُرِيدَ بِمَنْ فِي الْأَرْضِ أَمْ أَرَادَ بِهِمْ رَبُّهُمْ رَشَداً » فإذا أعملتم فى ذلك فِكركم ، وقلّبتم فيه نظركم ، فكنتم على برهان يقين ، ونور مستبين من استطاعة الجنّ للاستماع ، وقدرة الشياطين على الاستراق ، وإمكانِ السماءِ القعود فى تلك الحال الأولى ، ففكّروا فى الحال الأُخرى حيث حُرست الآياتُ أن تعارض باطلا بحق ، ومُنعت الشياطينُ أن تنزل بصدق، وامتنعت السماء أن يصعد إليها شيطانٌ ، فقال الله عزّ وجل « وَمَا تَنَزَّلَتْ بِهِ الشَّيَاطِينُ . وَمَا يَنْبَغِي لَهُمْ وَمَا يَسْتَطِيعُونَ . إِنَّهُمْ عَنِ السَّمْعِ لَمَعْزُولُونَ » قالت الجن : « وَأَنَّا كُنَّا نَقْعُدُ مِنْهَا مَقَاعِدَ لِلسَّمْعِ فَمَنْ يَسْتَمِعِ الْآنَ يَجِدْ لَهُ شِهَاباً رَصَداً »

---

(١) شطب عن الشىء : عدل عنه وبعد .

إنَّ في قولهم الآن لأعظم نور وبيان ، وأبينُ من ذلك لكم ، وأصحُّ لمن عَقَل إن شاء الله منكم ، إخبارُ الله عزَّ وجل حين جُعلت الكواكب حِفظاً من كل شيطان مارد أنهم « لاَ يَسَّمَّعُونَ إِلَى الْمَلَإِ الْأَعْلَى وَيُقْذَفُونَ مِنْ كُلِّ جَانِبٍ. دُحُورًا(١) وَلَهُمْ عَذَابٌ وَاصِبٌ » مع إخباره في الحال الأولى أنهم يسمعون ويقعدون وينزلون ويستطيعون وَيَتْلُون عَلَى ملك سليمان ، فكن لهذا من الحافظين ، وفيه من المفكرين .

ومن آيات النبي صلى الله عليه وسلم أنه لما تفَرّقتِ القبائلُ من أعلام الشرك بجموعها ، وتَدَاعتِ القادةُ من صناديد الكفر بأتباعها ، حَذَرًا على عِير(٢) لها أقبلت من الشام ، بصنوف رَغائبِ أموالٍ عظام ، فكانت العِيرُ والنفير طائفتين : طائفة ذات عُدَّة كثيرة وشَوْكة شديدة ، وطائفة ذات أموال رَغيبة ورجال قليلة ، وفُرصةٌ مُمْكنة ، أخرج الله عز وجل نبيَّه صلى الله عليه وسلم وَوَعَدَه ومَن معه من المسلمين إحداهما ، فكرِه المؤمنون جموع المشركين ، وأراد الله عز وجل أن يقطع دابِرَ الكافرين ، ويُشيِّد بذلك أركانَ الدين ، فلما تَرَاءتِ الفئتان ، وتَنَاوَشَتِ الفُرْسان ، وتلاقى الناسُ ، وقَبْلَ ذلك ما قال الله عز وجل : « سَيُهْزَمُ الْجَمْعُ وَيُوَلُّونَ الدُّبُرَ » قبض النبي صلى الله عليه وسلم قَبْضَةً من تراب ، حثَاها في وجوههم ، فلم يتَنَاهَ دون مَنَاخِرِهِم وعيونهم ، فانصرفوا منهزمين بلا كثير قتالٍ من المسلمين ، يأهل الكتاب فأيَّتما آيةٍ أعظمُ حجةً ، وأوضحُ بينةً ، وأقهر غَلَبةً من هذه التي لو صَدَرت الأمورُ بلا تحقيق لها ، لانفضَّت الجموعُ من المسلمين كُفَّارًا بها ، أبِشارةُ اللهِ المسلمينَ بأمْدادِ الملائكة

---

(١) الدحور : الطرد والإبعاد والدفع - واصب : شديد .

(٢) العير القافلة ، أو الإبل تحمل الميرة ، بلا واحد من لفظها ، يشير إلى عير قريش التي أقبل بها أبو سفيان بن حرب من الشأم ، وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم (وهو بالمدينة) قد تحين رجوعها من الشأم إلى مكة ، فندب المسلمين الخروج معه بغية الظفر بها ، ولما علم أبو سفيان أن أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم معترضون ، لهساحل بالعير ، وبعث إلى قريش أن محمدا وأصحابه معترضون لكم فأجيروا تجارتكم ، فأدركتهم حيتهم ونفروا سراعا ، وكان من وراء ذلك غزوة بدر الكبرى كما هو مشهور ، والنفير : القوم يستنفرون للحرب ، وهم هنا مشركو قريش الذين خرجوا يستنقذون العير ، وكان رئيسهم عتبة بن ربيعة .

المقرَّبين ، وهزيمةِ نفير المشركين التى تجمت الأمورُ عليها ، وتناهَت الحال بهم إليها ، أم قَبضةٌ من تراب يسير ، ماملا المَنَاخِرَ من عدد كثير ؟

فلئن قلتم : إن هذه آيات بيِّنات ، وعلاماتٌ واضحات ، ولكننا لا نُقِرّ لكم بها ، ولا نؤمن بقولكم فيها ، أفتؤمنون أن محمداً صلى الله عليه وسلم ، مع ما تسبتموه من الفضل إليه ، كان يختلقها كذبا من تِلقاء نفسه ، ثم يدَّعيها وَحْياً مِن عندِ ربِّه ، وهو لايدرى لَعلَّ الأمور تقع بخلاف ما يقول ، فيظْهَرُ كذبُه ، وَيرْفَضُّ تَبَعُه .

ويزعم أن أصحابه كانوا كثيرًا أقوياء ، نِشَاطًا جُلَداء ، فكان على معرفة بقوّتهم ويقين من غَلَبتهم ، فقد قال الله عزّ وجل : « وَإِنَّ فَرِيقًا مِنَ الْمُؤْمِنِينَ لَكَارِهُونَ . يُجَادِلُونَكَ فِي الْحَقِّ بَعْدَ مَا تَبَيَّنَ كَأَنَّمَا يُسَاقُونَ إِلَى الْمَوْتِ وَهُمْ يَنْظُرُونَ » ولم يكن الرسول ولا غيره ليُخبرَ أصحابه من أمورهم بما يجهلون من أنفسهم ، ثم يدّعى ذلك تنزيلا من ربهم ! هذا لا تقبَلُه الآراء ، ولا تُقِرُّ به الحكماء ، ولا يَحُدُّه النظر .

أم تقولون : إنما أراد محمد صلى الله عليه وسلم ببشارته لهم ، وإخباره ما أخبرهم من هزيمة الله عدوَّهم ، أن يشجِّع جُبْنَهُمْ ، ويقوِّىَ ضعفَهم ، فكيف إذن لم يثق(١) لما كان يرى من كثرة المشركين وقوتهم ، وضعف المسلمين وقلّتهم — بظهور الأنباء على خلاف قوله ، وأن يحال(٢) الخبر على غير ظنه ، فيقع ظفر يُكَذِّب نبوّته ، ويقطعُ حُجَّته ، ويكون له ما بعده ؟ وكيف إذن لم ينسُب الأمرَ إلى نفسه ، ويُنَحِّى الخبر عن ربه ، ليكون الخطرَ أصغر ، والشأنُ أيسَرَ ، إن جرَتِ الأقدارُ بما يَحذَر ، أو وقعت الأمور على ما يكرَه ؟ ولكنه أثبته فى كتاب مسطور ، ورقٍّ(٣) منشور ، فِعْلُ أمرُ الله يدل على النبوة التى كان بها واثقا ، وَيَهْدِى إلى الوَحْى الذى كان إليه سا كنا .

---

(١) فى الأصل « يبق » وأراه مصحفا .

(٢) هكذا فى الأصل ولعله « يجىء » . (٣) الرق : جلد رقيق يكتب فيه .

وَإن عرض لنظرك ، أو وقع في خَلَدك ، أن الله عز وجل عوَّد محمداً صلى الله عليه وسلم الغَلَبة ، وأجراه على المَنَعة ، فكان يجرى على عادة قد عرفها ، ويسلك جادَّةً قد خَبَرها ، فلقد كانت الهزيمة في أول وقعةٍ أوقعها الله ، ثم لقد دالتِ الحرب فيما بعد سِجالاً(١) فيما بينه وبينهم ، تارةً عليه لهم ، وأخرى له عليهم ، فنامِحُوا الله عز وجل في نظركم ، وقلِّبوا فيما يقول أمير المؤمنين فكركم ، فَلَعَمْرُ الله ما كان النبي صلى الله عليه وسلم ليقول للملوك المشركين : إن الله هزمكم برَمْيَةٍ من تراب ، وهو يعلم أنه عنده من الكاذبين ، فأحضِرْ كتابى هذا فهمَك ، واصْبِر له ، وإن خَصَمَك ، فإن هذه آية عظيمة ، وحُجَّة بليغة ، وبيِّنة عجيبة ، في غَلبة العرب .

وأعجبُ من هذه وألطفُ ، وأكثر منها وأعظم ، الآية في غَلبة العجم ، واستمعْ : أمَرَ الله نبيه صلى الله عليه وسلم أن يقولَ للمؤمنين — وكانوا كما قال الله عز وجل قليلاً مُستضعَفين — : إن قبائل العرب ستتحزَّبُ عليكم ، وإن الله سيهزِمُهم لكم ، وَحْياً أنزله في الكتاب ، فقال : « جُنْدٌ مَا هُنَالِكَ مَهْزُومٌ مِنَ الْأَحْزَابِ » فكان أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم بعد ما نزل هذا القول عليه بدُهُورٍ طويلة ، وسنينَ كثيرة ، محبوسين محصورين في حَوْمة الموت ، وعسكر الخوفِ ، وخَنْدَق القهر ، وذلِّ الحَصْر ، سَوادُهم الأعَمُّ ، وجُلُّهم الأعظَم : حُفاة عُراة عالة(٢) ، إخوان دَبَرٍ(٣) ، وأصحاب وَبَر ، لاقوةَ بهم ، ولا مَنَعةَ لهم ، ولا أسلحةَ عندهم ، ولا عُدَّة معهم ، قد أحدقت العربُ بعسكرهم ، وأحاطت القبائل بخَنْدقهم ، وسالت الأحزابُ تصديقاً لِحَتْم الله عليهم ، تريد أن تُزَلْزِل أقدامهم ، وتُهَريق دماءهم ، فكان المؤمنون كما وصَفَ الله عز وجل من سوءِ الحال ، وضِيق المآل ، وشدة الكِظاظ(٤) ، فإن الله قد

---

(١) في الأصل « فيما بعد » وسجال جمع سجل بالفتح : وهو الدلو العظيمة مملوءة ، ويقال : الحرب بينهم سجال : أي سجل منها على هؤلاء وآخر على هؤلاء .

(٢) عالة جمع عائل : وهو الفقير .

(٣) الدبر : قرحة الدابة ، والمعنى أنهم مجهودون كالبعير الدبر .

(٤) الكظاظ : الشدة والتعب والممارسة الشديدة في الحرب .

وصف لهم حالهم ، وأذ كرهم فِعْلَهم ، ولم يكن النبي صلى الله عليه وسلم ليصف لهم عن الله مايجهلون ، ولا ليذ كِّرهم من أمره مالا يعرفون ، حِذاراً أن تنكسرَ عزائمهم ، وتتغيّر بصائرهم ، فتنهزِمَ أفئدتهم ، وتموتَ نجْدَتُهم ، وتختلف كلمتهم ، فقال الله عزّ وجل : « إِذْ جَاءُوكُمْ مِنْ فَوْقِكُمْ وَمِنْ أَسْفَلَ مِنْكُمْ وَإِذْ زَاغَتِ الْأَبْصَارُ وَبَلَغَتِ الْقُلُوبُ الْحَنَاجِرَ وَتَظُنُّونَ بِاللَّهِ الظُّنُونَا . هُنَالِكَ ابْتُلِيَ الْمُؤْمِنُونَ وَزُلْزِلُوا زِلْزَالاً شَدِيداً » حتى قالت طائفة منهم لأهل المدينة: « يَا أَهْلَ يَثْرِبَ لاَ مُقَامَ لَكُمْ فَارْجِعُوا » وقالت طائفةٌ أخرى : يا رسول الله ، إن بيوتنا عَوْرة[1] فأْذَنْ لنا ، يقول الله تعالى : « وَمَا هِيَ بِعَوْرَةٍ ، إِنْ يُرِيدُونَ إِلاَّ فِرَارًا » فبينما هم على تلك الحال قد أجمعتِ العربُ تفريقهم في الجبال ، وتقسيمَهم بالقِدَاح[2] ، وأخْذَهم بالأيدى ، إذ قال لهم الرسول صلى الله عليه وسلم فيما يُنبئهم به من عِلْمِ الغيوب ، ويبشّرهم به من أمر الفتوح ، « إن الله سينصركم على جمع الروم ، ويغلبُ لكم جموع فارس ، فيهزم لكم جنودهم ، ويُورثكم قصورَهم ، ويستخلفكم في الأرض من بعدهم ، ويبدلكم من بعد خوفكم أمْنا » وعْداً صدّقه الكتابُ ، وبشارةً نطقَ بها الْوَحْىُ ، فقال : « وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِي الْأَرْضِ كَمَا اسْتَخْلَفَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ ، وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ الَّذِي ارْتَضَى لَهُمْ وَلَيُبَدِّلَنَّهُمْ مِنْ بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْنًا ، يَعْبُدُونَنِي لاَ يُشْرِكُونَ بِي شَيْئًا » فقال أقوام وأناس ارتابوا حين تضايقت الحالُ ، وتزلزلت الأقدامُ ، وطارت القلوبُ ، ودارَتِ العيون ، وأشرف الموتُ : « مَا وَعَدَنَا اللَّهُ وَرَسُولُهُ إِلاَّ غُرُورًا » أيعِدُنا هزيمةَ جموع الأحزاب ، وفتْحَ قصور الشام ، وغَلَبة جنود كسرى ، وقد سالت القبائل علينا من كل جانب ، وأحدق الموت بنا من كل مكان ، فبقينا في مَسْغَبةٍ[3] من الجوع ، ومَجْهَدَة من الخوف ،

---

(١) أى يخشى عليها لأنها غير حصينة .

(٢) القداح : قداح الميسر ، والمعنى : يتقامرون (أو يتآمرون) على تشتيتهم وتمزيقهم .

(٣) المسغبة : المجاعة .

وضَنْك من الحال ، مقهورين مقموعين[1] ، وقالت الخاصة من المؤمنين حين عاينوا الجموعَ من المشركين ، وذَكَروا ما خبّرهم الله من تحزُّبهم عليهم ، ومَسيرهم إليهم : « هٰذَا مَا وَعَدَنَا اللهُ وَرَسُولُهُ وَصَدَقَ اللهُ وَرَسُولُهُ وَمَا زَادَهُمْ إلاَّ إيمَانًا وَتَسْلِيماً » فبينا أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم فى مَضايق تلك الحال ، وشدة ذلك الخصَال[2] ، وعموم تلك البلايا الباهظة ، والأمور الفادِحَة ، التى قد أخذ بأنفاسهم غمُّها ، وبلغَ مجهودَهم كَرْبُها ، رافعين إلى الله عز وجل أيديهم ، يقلِّبون فى السماء أعينَهم ، إذ أرسل الله على تلك الجنود الكثيفة ، والجموع العظيمة ، والأحزَابِ المقتدرة ، رِيحاً من الأرض ، وجنودا من السماء ، فقطعت الأبنية ، وطيَّرت الأمتعة ، وسَفَتِ الترابَ فى العيون ، وقذفت الرعب فى القلوب ، فولَّوا مُدْبِرِين ، وخرجوا منهزمين ، لا يَلْوِى[3] والد على ولد ، ولا مولود على أحد ، أمرٌ صدق اللهُ فيه قوله ، وأنجزَ به وعدَه ، وهزَم الأحزاب وحْدَه ، وذكَّر المؤمنين نعمته فيهم ، وعرَّفهم منّته بهم ، فقال : « اذْكُرُوا نِعْمَةَ اللهِ عَلَيْكُمْ إذْ جَاءَتْكُمْ جُنُودٌ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا وَجُنُودًا لَمْ تَرَوْهَا وَكَانَ اللهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرًا . إذْ جَاءوكُمْ مِنْ فَوْقِكُمْ وَمِنْ أَسْفَلَ مِنْكُمْ وَإذْ زَاغَتِ الْأَبْصَارُ وَبَلَغَتِ الْقُلُوبُ الْحَنَاجِرَ وَتَظُنُّونَ بِاللهِ الظُّنُونَا » وقال عز وجل : « وَرَدَّ اللهُ الَّذِينَ كَفَرُوا بِغَيْظِهِمْ لَمْ يَنَالُوا خَيْرًا وَكَفَى اللهُ الْمُؤْمِنِينَ الْقِتَالَ وَكَانَ اللهُ قَوِيًّا عَزِيزاً » ما كان الله عز وجل ليقتصّ على المسلمين فى أنفسهم إلا ما قد رأوه بأعينهم .

ولا أن هذا مالا يُنكره عقلُك ، ولا يَدْفعه نظرُك ، لَما جادلتُك بالكتاب ، ولا نازعتك بالتنزيل ، وإنى لأترك من آيات النبى صلى الله عليه وسلم وعلامات الوحْى ، ماهو أعظمُ من هذا وأبينُ ، وأجلُّ وأوضح ، ولكن ليس لى أن أحاجّك من آيات

---

(١) أى مقهورين مذلولين .

(٢) خصل القوم خصلا وخصالا : فضلهم . (٣) أى لا يقف ولا ينتظر .

القرآن، إلا بما عليه شاهدٌ من بُرهان، ومُخْبِر من بيان، لا يستطيع عقلُك رَدًّا له، ولا قلبك جَحْدا له، وكيف ينبسط لسانُك، أو يجترئُ قلبُك، أن يقول: إن محمدا صلى الله عليه وسلم أخبر أصحابه بالكذب وهم يعلمون، فاقتصّ عليهم من أمورهم مالا يعرفون! لا، مايَسُوغُ الك ولا يَجْمُل بك، ولا يُقْبَل منك أن محمدا صلى الله عليه وسلم يقوله من تلقاء نفسه، كيف! أمَا كان يَخاف أن يكذِّبه أصحابُه، وتتنقل أحوالُه، وتنتقِضَ أموره! لعمرُ اللهِ لو وصفتَ بهذا من لا يُعْرَف بفضل، ولا يُنْسَب إلى عقل لَما كان سائغا لك، ولا جائزا منك، فكيف تصفُ به مَن يُرْفَعُ عن الناس قدرُه، ويفضُلُ عليهم عَقْلُه، وتُقِرُّ أنك لم تر فى الدنيا أحدا صَنَع ماصنع، وبلَغَ ما بلغَ، فأيَّتُما آيةٍ فيما اقتصَّ عليك أمير المؤمنين أعظمُ، أو بينةٍ أعجبُ: أمَا كَان يُتْلَى على المؤمنين فى الكتاب من اجتماع قبائل الأحزاب بجنود عظيمة قبل اجتماعهم سنينَ كثيرة، أم ما كان[1] ينادِى به القرآنُ من الهزيمة لهم، وينطِق به الوحىُ من الفتح عليهم، أم قول النبي صلى الله عليه وسلم لأصحابه: «إن الله عز وجل يُؤمِّن خوفكم ويُعِزّ نصركم على الأمم» وهو على تلك الحال، ثم نَجَمت الأمور على ما قال، أم عسكران متطابقان، وجيشان متقابلان، باتت الريح تَحُوش[2] أحدهما حتى انهزموا، وبات الآخرون منها فى عافية وغَفْلة حتى أصبحوا، فأَحْسِنِ النظرَ فى أمرك، والتثبتَ فى دينك إن شاء الله.

واعلم أن من أعظم الآيات، وأبيَن الدّلالاتِ على نبوّة محمد صلى الله عليه وسلم وَحَقّه، وأنْ ليس يتقوّل شيئاً من تلقاء نفسه، أنه قال فى عُنْفُوان أمره: «إن الله عز وجل سيُظْهِر دينى على الدين كله» وجاء مع ذلك بأثَرة عن ربه، فى كتاب مخطوط، وتنزيل محفوظ، فأىَّ أمْرَيْهِ[3] لك أدلُّ، أو أيهما عندك أعجب؟ إذ كنت

---

(١) فى الأصل «أما كان».

(٢) حاش الصيد: جاءه من حواليه ليصرفه إلى الحبالة، وحاش الإبل: جمعها وساقها.

(٣) فى الأصل: «فأى أمر بذلك».

بنبوته مصدِّقا، ولرسالته محقِّقا: الخبرُ الذى أخبره، أم الفعلُ الذى صدَّقه، لئن نظرتَ بعقلك، وقلت فى نفسك: كيف تَرَقَّتْ إلى هذا نيَّتُه، وارتفعت نحوَه همَّتُه، أم كيف امتدت إليه فِطنتُه، وقَوِيت عليه رَوِيَّته؟ بل كيف دعَتْه إليه نفسُه، وشجَّعه عليه قلبُه، ودخل فيه طمعُه، وطاوعه فيه لسانُه، وهو يذكُر جنودَ كسرى، وجموعَ الروم، وملوكَ التُّرك، وملوكَ الشِّرك، وقُيُولَ[1] اليمن، وصناديدَ الأمم؟ إن هذا لعَجَب، ولا سيما إذا لم يكن فى إرْث مُلْك قاهر، ولا كَنَف عِزّ غالب، ولا مَعْدِن علم سالف.

ولئن أعدْتَ النظر وكرَّرت، فقلت: كيف وافق خبرُه أثرَه، وكيف صدَّق فعلُه قولَه، حتى غلَبَ الشرقَ والغربَ؟ إن هذا لعَجَب! وأعجب من هذا أمرٌ يدُلّك أمير المؤمنين عليه، ويَهْديك إن شاء الله إليه، لو قلتَ لأهل مملكتك ومَن قِبلَك من أمتك: هل بلغكم أو تقرَّر قِبَلكم، أنه كان فى الدهر الأول، والعصر الخالى، أحدٌ مثل محمد صلى الله عليه وسلم: بدأتِ الأمورُ به مثل حاله، من الوَحْدة والضعف والذِّلَّة والقِلَّة، وصَدَرَتِ الحال به كفعاله، فى الغَلَبة والمَنَعة والقهر والظهور، وغير ذلك؟ لقالوا: لا.

ثم أنت لا تؤمن بمقالته، ولا تُقِرّ برسالته، إلفًا لدينك، وضَنًّا بملكك، وطمعا فى قليل من الدنيا قد نمَاه الله إليك، ورغبةً فى صُبابة عيشٍ غير باقية فى يديك، فهذا عجبٌ، وأعجبُ من هذا أمر نَقِفُك أمير المؤمنين على نور حقه، ويُوضّح لك إن شاء الله بيانَ أمره: أصبحتِ العربُ طُرًّا والأمم جميعا فى محمد صلى الله عليه وسلم ثلاثة لا رابعَ لهم، ولا مخرَجَ للحق من بينهم: رَجُلٌ مصدِّقٌ به من المؤمنين، ورَجُلٌ مُكَذِّب به من الكافرين، ورجل شاكٌّ فيه من المنافقين.

فأما الشاكُّ فلمّا قيل له: أخرجتَ نفسَك من الحق، وأبرأْتَها من الصواب،

---

(١) القيول: جمع قيل بالفتح، وهو: الملك من ملوك حمير.

وأقررتَ عليها بالخطأ ، لقولك : لابدّ أن يكون الحق فى التصديق أو التكذيب ، ولستَ على واحدٍ منهما ، اعتزل عنها .

وأما المكذِّبُ فلمَّا قيل له : أنت منكِر ، والمنكِرُ ليس بمُدَّعٍ ، ومن لم يَدَّعِ لم يَلزَمه بينةٌ ، ولا يُسأل عن حُجة ، اتبع صاحبه وأيمُ الله على ذلك ، لو سئل هذا المدعى عن بينته ، وكَشْفِ حجته ، فقيل له : من أين عرَف قلبك ، وأيقنَتْ نفسُك إيمانًا لايُخالجه شكٌّ ، ومعرفة لايشوبها رَيْب ، ولا ينازِعها شبهةٌ ، أن محمداً صلى الله عليه وسلم ليس برسول؟ لَمَا درَى مايقول ، لأنه لايستطيع أن يتقوّل على الرسل ، ولا أن يتكذّب على الكتب ، فيقول : قد أخبر الله فيها أنه لايبعث نبيا ، ولا يُنزِل وحيًا فى كتاب مسطور بعد التوراة والإنجيل والزَّبور ، بل قد يجد أهل الكتاب فى أقاويل رسلهم ، وأخابير كتبهم ، أن الله تبارك وتعالى يُنزِلُ كتابا جديداً أو كلامًا حديثًا ، بعد خراب بيت المقدس فى آخر الزمان ، ولم يُنزِلْ بعد ذلك كتابا إلا القرآن .

وأما الرجلُ المصدِّق بمحمد صلى الله عليه وسلم فقيل له : أمّا أنت فقد ادَّعيتَ ، والمدَّعى يُسأَل عن الحجة ، وتُقبَل منه البينةُ ، فما بيِّنتُك ، ومن يشهد لك ؟ فقال : ألم تقولوا : إن الحق لايخرج من بيننا ، ولا بُدَّ أن يكون مع بعضنا ؟ قالوا : بلى ! قال : فأية بينةٍ أحقُّ وأعدلُ ، وأى شهود أزكى وأفضل من شهادتكم بسقوط صاحِبَىَّ ، وثبوتِ الحق مِن بعدها فى يدىَّ ؟ قالوا : إن الأمر لكَمَا تقول ، ولكن البينة أشفَى للصدور ، فأقام بيِّنةً من الكتاب ، وشهودا من الوحى ، وآياتٍ سوى ذلك عظامًا ، وبيِّناتٍ عوامَّ ، من كلام لايقدر عليه الخلقُ ، وصِدق لا يكون إلا مِن قِبَل الربِّ ، شبيها بما أورده أمير المؤمنين عليكم ، وكتب به فى صَدْر كتابه هذا إليكم ، مما قد تشهد له قلوبُ الأمم ، وزَكيه فِعالُ العرب .

فلما أقام بيِّنتَه ، وثبتَتْ حجته ، وَوَجب حقه ، وقُضِىَ به له ، قيل له : وكيف

توسَّمتِ الأمور عليك ، وضاقت المقالة ، لك أن تقول : إن الله لا يبعث نبياً بعد محمد صلى الله عليه وسلم ، ولا وَحياً ينزِل غير القرآن ، فأبطلتَ الكتب المحدَثة ، وأكذبتَ الوثيقةَ ، ولم تترك وحياً غير القرآن ، وَلَمْ يَجُز للنصارى أن تقول : لا نبيَّ بعد عيسى عليه السلام ، ولا كتابَ خَلْفَ الإنجيل ، وعن ذلك من أخبار الكتب ما قلنا : كل متنبيٍّ بعد نبيِّنا كذاب ، فشاعت وجازت الحجةُ ، ووضَح العُذْر . وأما النصارى فيجدون فى أواخر كتبهم ، وأقاويل رسلهم ، أن الله عز وجل يبعث نبيّا حديثاً ، ويُنزِلُ كتابا جديداً ، فليس لهم أن يكذِّبوا نبينا صلى الله عليه وسلم ، ولا أن يردُّوا كتابنا .

فهؤلاء الثلاثة : أما الشاكُّ فسقَطَ ، وأما المنكر فبَطَل ، وأما المصدِّق فثبت ثُبُوتاً ليس فيه مَدْخَل شُبهة ، ولا مَوْضعُ حُجّة ، ولا مَعْلَق لمنازعة ، وذلك أن المنكر لوجوب حقه ، والشاكّ فى ثبوت صدقه ، لا يجد بُدًّا من أن يُنَحِّى الصدق عن الخلق ، ويُخْلِيَ الدنيا من الحق ، وهذا قول المكذبين بربهم ، الشاكِّين فى بعثهم ، فأحسِنِ النَّظر فى معانيه ، ينكشفْ لك مما فيه إن شاء الله .

ومن أبين آياته وأدلّ علاماته صلى الله عليه وسلم ، ووسع له فيما صَدَر إليه ، أنه لما أخبرت النصارى واليهود أنهم لم يجدوا محمدا صلى الله عليه وسلم فى التوراة والإنجيل موصوفا مكتوبا ، تجمَّعت العلماء منهم ، وتدارسَتِ الكتبَ فيما بينهم ، فلما نظروا إلى اسمه ، وعاينوه بنعْته ، وكانوا يعرفونه كما يعرفون أبناءهم ، ويستفتِحون بذكره على من سواهم ، كفَرت طائفةٌ حَسَدًا من عند أنفسها ، وجَحَدا من بعد ما تبيَّن لها ، وآمنت طائفة ، تصديقا بكتابها ، وخوفا من ربها .

فلعمرُ الله لولا أن الذين آمنوا بحقه ، وصدَّقوا بأمره ، رأَوا صِفَته عِياناً ، وقبلوا نَعْته إيقانا ، لَما فارقوا أديانهم ، ولا جادلوا إخوانهم ، حتى وقفوهم على اسمه ونسبه ، وصفته وعلامته ، وهم علماء بنى إسرائيل ، وحَمَلَةُ الإنجيل : من أهل الكتاب الذين

احتج الله عز وجل بهم على العرب فقال عز وجل : « أَوَلَمْ يَكُنْ لَهُمْ آيَةً أَنْ يَعْلَمَهُ عُلَمَاءُ بَنِي إِسْرَائِيلَ » ولعمر الله إنها لآية عظيمة ، وحجة بليغة ، ذكرها الله فى كتابه وجعلها على العرب من بيّناته ، فقال لهم : « قُلْ آمِنُوا بِهِ أَوْ لَا تُؤْمِنُوا إِنَّ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ مِنْ قَبْلِهِ إِذَا يُتْلَى عَلَيْهِمْ يَخِرُّونَ لِلْأَذْقَانِ سُجَّدًا وَيَقُولُونَ سُبْحَانَ رَبِّنَا إِنْ كَانَ وَعْدُ رَبِّنَا لَمَفْعُولًا » يقولون : وَعَدَنا أن يُرْسل رسولا ، فقد أرسله ، وحقّق قوله ، وصدّق وعدَه ، واحتجَّ النبي صلى الله عليه وسلم بذلك وذكرَه ، ولم يكن النبي صلى الله عليه وسلم ليجادلَ ويحتجَّ فى أمرهم بكذب وباطل ، ولم يكن ليقول للنصارى واليهود ، فيما ذكر الله من صدق الموعود : إنه فى التوراة والإنجيل مكتوب موجود ، إلا وهو من ذلك على حق يقين ، ونور مستبين ، وكيف كان يستشهد من التوراة والإنجيل بكَذِب ، ويتقوّل عليهم الباطلَ ، مع حِرْصه على تصديق أهل الكتاب ، ليستدعِيَ به إيمانَ أحياء العرب ، أمَا كان يعلم أنه إذا قال لهم : إنه موجود فى مَثانِى كتبهم ، وسُمّى على أفواه رسلهم ، فلم يجدوا خبره يقينا ، ولا وَصْفَه مستبِينا ، أنهم سيُدْبِرون عنه إدبارا ، تزداد به العرب نِفارًا ، إلا أن يقولوا خَطَأ من علمه ، وهواءً من خَبَره ، فكيف لم يخطّ إذن فى كتبهم حرفا غيره ، ولم يخالف منها شيئا سواه ؟ سبحان الله ! لقد أكثر المؤمنون العجبَ من ذهاب الأساقِفة بكم ، فأنتم إن تُنْكِروا ما يقولون لكم ، مما ليس لِذى لُبٍّ أن يأذن له أن يؤمن به ، ولا أن ينفذَ[1] إليه سمعَه ، يقولون : إن أنبياء الله ورسله ، المبعوثين بالرحمة إلى خَلقه ، لطُفَت النبوة منهم ، ووقعت الأخبار المُنَزَّلة عليهم ، على صغائر الأمور ، وغوامض الخطوب ، فسار الناس عليها ، وأشاروا لهم إلى طلبها ، فهى مكرَّرة فى مَثانِى كتبهم ، وبُطُون صحفهم ، وأقاويل رسلهم ، وتركوا من كلام الله النبأَ العَظيمَ والأمرَ الكبير ، والذكر الحكيم الذى مَلَكَ آفاق الأرَضين ، واستفاض على جميع العالمين ، لم يذكروه

(١) أى يلقى .

بخير يأتمرون به ، ولا بِشَرٍّ ينتهون عنه ، كلا ! ما ترك الله على هذا خَلْقَه ، ولا بهذا وَصَف تبارَكَ وتعالى نفسَه ، إنه لأرحم الراحمين ، وأحكم الحاكمين .

ولئن رجعتَ إلى قلبك ، لتقولَنّ فى نفسك : لعمرُ اللهِ لو كان هذا الأمر الذى طلع طلوعَ الشمس ، وامتدَّ امتدادَ النهار ، فبَلَغ مَشارِقَ الأرضِ ومغاربَها ، وسُهولَ الآفاق وحُزونَها[1] ، حقا وصدقا وعدلًا ، لبشّرتِ الكتب به ، وتنبَّأتِ الرسلُ عليه ، ودَعَتِ النُّذُرُ إليه ، تزيينا له ، وترغيبا فيه ، وأمراً به ، ولو كان ضَلالة وجَهالة وعَماية ، لتقدَّموا فى التحذير منه ، والتزهيد فيه ، والتَّثْبيط عنهُ ، فيدعو ذلك إلى أن يَنظروا فى كتب الأنبياء ، وأقاويل الرسل ، فأيم الله لئن طلبتَ لَتَجِدَنّ ، ولئن اجتهدت لتُوَفَّقَنّ ، وما الصواب بممنوع ، ولا الخيرُ بمحظور ، ولقد كانت العلماء بالكتب والبُصَراء بالتأويل تجده ، ولكنها كانت تكتُمه بتحريف كلام الكتب عن مواضعه ، وصرفِ تأويل الحُكم إلى أشباهه ، حَسَدا من عند أنفسهم ، وبَغْيا بعد ما تبيَّنَ لهم ، ثم لقد اقتديتم بهم ، وجرَيتم معهم ، وأخذتم عنهم ، بلا حجة لكم ولا قوة معكم ، إلا الاقتداء بالآباء ، والاتِّباعَ للآثار ، فاتّقِ الله فى نفسك ، واتَّهِمِ الرجال على دينك ، ولا تَجعل النظرَ إلى غيرك من ذوى الشك فى القلوب ، والفسخ فى . . .[2] والتُّهَم فى التعطيل ، الذين لعلَّهم يَعرِض لآرائهم ، وَيقع فى أوهامهم أن يقولوا : فلعل ما يتلو عليكم أمير المؤمنين من آيات القرآن ، ويقرَع لكم من حُجَج الوحى ، شىء زِيد فى المصاحف بعد النبى صلى الله عليه وسلم ، وهذا مالا يحتمله عقلٌ صحيح ، ولا نظر قوىّ ، وذاك الشاكّ فى شهاداتِ الرجالِ ـ متفقةً من بُلدان وأمصار مختلفة ، وشعوبٍ وقبائلَ متفرِّقة ، ليس يدعوهم إلى ما شَهِدوا دِين ، ولا يَحمِلُهم على ما اتفقوا عليه دنيا ـ لايستقيم له أن يُؤْمِن[3] بما لم تُدْرِكْه جوارِحُه ، وتُحيط به

---

(١) الحزون : جمع حزن بالفتح ، وهو: ماغلظ من الأرض.

(٢) هكذا فى الأصل .

(٣) فى الأصل « أن يؤمن له » بزيادة له بعد يؤمن ، ولا حاجة إليها بل هى قلقة فى الجملة .

حواسّه ، لإسقاطه حُجَّةَ الإجماع ، وإبطالِه شهادةَ العوامّ ، واتفاقُ المختلفين دلالةٌ واضحة ، فهو سائِلُكم عن الحجة فى الإنجيل ، والبيّنةِ على التوارة ، شكًّا فى الرب ، وتكذيباً بالرسل ، فما كنتَ قائِلَه له ، أو مُجيبَه به فى كتابكم ، فأجِبْه بمِثله فى كتابنا ، وإن كانت الأحوال منها غيرَ معتدلة ولا مؤتَلفة ولا مُرْتَفِقة ولا واحدة تعتدِلُ حالاهما ، ويتّفق أمرهما من كتابكم ، ما لم تنزِل به الملائكة وَحْياً كالقرآن ، ولم يُشافِهِ المسيح به أصحابَه باللسان ، إنما كان فعلا أُثْبِت من بعده ، ولم يكن الفعال موضوعًا بعده ، وليس يكتب أمير المؤمنين بهذا إليكم شكاً فيه ، ولا يورده عليكم مِرْيَةً به .

ولقد علم أمير المؤمنين أن كُتُبَ الله عز وجل محفوظة ، وأن حُجَجه مخزونة ، لا يُزاد فيها على تقادُم عَهْدٍ ، ولا يُنتقَص منها على تقارُب دهر ، وأن ذلك ثَبَت فى الإنجيل من بعد عيسى عليه السلام ، وأنه قال لمن اجتمع إليه من الحواريّين : « بالوَحْيِ أ كلِّمكم ، والأمثالَ أضرِبُ لكم » فأمثالُه المضروبة كلام ، وكلامُه الرائع وَحْيٌ ، ولكن ما بالُ الشكِّ يُنْفَى عن كتابكم بحجة الاجتماع عليه عندكم ، وهو على ما وصَفَ أمير المؤمنين لكم ، وسِيّانِ فى تنزيل كتابنا ، وقد أدرك شهادة دينه ، إما ما قربا[1] من عهده ، ومعاينة وحيه ، واجتماع على حفظه ، هذا حكم مختلف .

فقل للذين يَشُكُّونَ فيه ويرتابون به : أوقِفوا أوهامكم على حالات الأوقات التى تعرِفون وقومها[2] بطبقات الرجال الذين يتهمون .

فإن قالوا : أمّا طبقاتُ الرجال التابعين ، وحالاتُ أزمان أمير المؤمنين ، فذلك مالا يسُوغُ الأقاويلُ فيه ، ولا تدخُل الشبهة عليه ، لانتشارِ القرآن وامتدادِ الزمان ، وكثرة الحَمَلَة لآياته فيهم ، والحفظَةِ لِلسانه منهم ، ولكن الدين الذى نزل به القرآن ،

(١) هكذا فى الأصل ، والعبارة كما ترى مضطربة .

(٢) هكذا فى الأصل .

وقبض النبي صلى الله عليه وسلم بين أظهُرِهم ، وكيف بوقوع تُهَمة ، أو دخول شُبهة ، على أقوام لَبِث النبي صلى الله عليه وسلم عشرين حِجَّةً فيهم ، يتلو كتاب الله عز وجل في كل عام عليهم ، حتى حَمَلوه في صدورهم ، وحَفِظوه في قلوبهم ، وكُرِّر في آذانهم مسموعا ، وأُمِرَّ على أبصارهم مكتوبا ، وجرى على ألسنتهم مَتْلُوّا ، وجمعه كثير منهم محفوظاً ، ثم توارثوه فيهم ، وتداولوه فيما بينهم ، حتى أدَّوْه إلينا ، وأوفَوا به عندنا ، من مواضعَ متفاوتة ، وأصناف وأجناس متباينة ، على كلمة واحدة .

فإن قالوا : اتفقت الرجال على الزيادة فيه ، وأمكنت الحالُ من الحَمْل عليه ، فليَعْلَموا أن المؤمنين المخلِصين ليسوا في الزيادة متَّهَمين ، وأن المنافقين المُلْحِدين ليسوا على ذلك بقادرين ، وكيف يَقدِر القليل من المنافقين على مخالفة الجَمْع من المؤمنين ، بعد ما حَفِظَتْه قلوبهم ؟ وَوعتْه أسماعهم ، ثم تُكْتَمَ القدرة لهم ، وتَسْتَتِر الزيادة منهم ؟ هذا مالا يقدر عليه منافق ، ولا يُطِيقه مشرك ولا فاسق ، وأيمُ الله أنْ لو قَدَرتِ اليهود على الزيادة في الإنجيل لأفسَدُوا كتابكم ، وغيَّروا دينكم ، ولو جعل الله المنافقين على الزيادة في كتابه قادرين ، لبَدَّلوا ديننا ، وغيَّروا حالنا ، ولو كانوا لذلك مُقْرِنين[1] وعلى ذلك مقتدرين ، لكان الذى كتب به أمير المؤمنين إليكم ، وأورده من حُجَج الله عليكم ، أوَّلَ ما تَلْقَوْن ، ورأسَ ما تقترفون ، فلا تُلْقِينّ إلى ما قاله المُضِلُّ سَمْعَك ، ولا تُنْصِتِ الدَّهرَ إليه ذهنك ؛ فإنه اتخذ الشَّكَّ في كتابنا ذَريعةً إلى الإخلال بكتابك وسُلَّما إلى الشك في دينك[2] ، وعِلَّةً في الطعن على مِلَّتك ، ولكن قل : يا وَلِيَّ الشيطان : أنَّى وقع لك إيمانٌ بأنك من ولد فلان ؟ أتقول شَهِدَت الجِيرةُ ، واجتمعت العشيرةُ ، واتفق المختلفون ، فذهب الشكُّ وزال الرَّيْب ، ووقع الإيقان من غير العِيان ؟ صدقتَ فما بالُ الشك فيما اجتمعت العامَّة على القول به ، واتفقت الجماعة في الشهادة عليه .

---

(١) أقرن للأمر : أطاقه وقوى عليه.

(٢) في الأصل « في دينه » .

من آيات الكتب وبيِّنات الرسل ! وإن ذهب بهذا عن أمره ، وباعده عن شبهه، فتؤمن أنه من نُطفة خُلِق ، ومن رَحِم خرَج ، فإن جحَد وأبَى ألاَّ يؤمن بما لا يرى فقل : أرَأيتَ لو كنت سميعا أعمى ، أكنتَ تؤمن بشيء مما فى الدنيا : من سماء أو هواء ، أو بحر أو سَبُع ، أو أرض أو جبل ، أو شبه ذلك ، مما لم يدركه العِيانُ ، ولم يقبله إلا من الناس ؟ فإن قال نعم، فقل فهل لك إلا بالاجتماع الكفرُ بالرب؟ وما لدائه دَواءٌ غير الصَّلب ؟ فاتق الله إذ كنت إماماً وقائداً لأهل مُلكك ، لا تقدُمْ إلى النار ، فتحملَ أوزارًا مع وِزْركَ . فإن من أبين آيات الوحى ، وأدلَّ علامات النبى صلى الله عليه وسلم أنه لا يبتدع فى الدين أمرا من تلقاء نفسه ، ولا يتقدم فى الأمور بين يدَىْ ربه ، والله أظهرَ فيما أنزل من الكتاب أمورا كان يحسبها صلى الله عليه وسلم مستورةً ، فقال تأديبا له ، وإخبارا لمن آمَنَ من بعده: «وَإِذْ تَقُولُ لِلَّذِى أَنْعَمَ اللهُ عَلَيْهِ وَأَنْعَمْتَ عَلَيْهِ أَمْسِكْ عَلَيْكَ زَوْجَكَ وَاتَّقِ اللهَ وَتُخْفِي فِى نَفْسِكَ مَا اللهُ مُبْدِيهِ وَتَخْشَى النَّاسَ وَاللهُ أَحَقُّ أَنْ تَخْشَاهُ » وقال : « عَبَسَ وَتَوَلَّى . أَنْ جَاءَهُ الْأَعْمَى . وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّهُ يَزَّكَّى . أَوْ يَذَّكَّرُ فَتَنْفَعَهُ الذِّكْرَى . أَمَّا مَنِ اسْتَغْنَى . فَأَنْتَ لَهُ تَصَدَّى . وَمَا عَلَيْكَ أَلاَّ يَزَّكَّى . وَأَمَّا مَنْ جَاءَكَ يَسْعَى . وَهُوَ يَخْشَى . فَأَنْتَ عَنْهُ تَلَهَّى . كَلاَّ إِنَّهَا تَذْكِرَةٌ » وقال تعالى : « وَلَوْلاَ أَنْ ثَبَّتْنَاكَ لَقَدْ كِدْتَ تَرْكَنُ إِلَيْهِمْ شَيْئاً قَلِيلاً . إِذَنْ لَأَذَقْنَاكَ ضِعْفَ الْحَيَاةِ وَضِعْفَ الْمَمَاتِ ثُمَّ لاَ تَجِدُ لَكَ عَلَيْنَا نَصِيرًا » وقال له حين صرفَ قلبَه عن بيت المقدس إلى البلد الحرام ، حين سكنت القلوب إليها ، وأنِسَت النفوس بها : « وَلَئِنِ اتَّبَعْتَ أَهْوَاءَهُمْ بَعْدَ الَّذِى جَاءَكَ مِنَ الْعِلْمِ مَالَكَ مِنَ اللهِ مِنْ وَلِيٍّ وَلاَ نَصِيرٍ » وكانت القِبلة التى صرفه الله إليها وأمرَه بها عظيمةً على المنافقين واقعة ، بخلاف الكافرين ، كبيرةً[1] إلاَّ عَلَى الَّذِينَ هَدَى اللهُ من المؤمنين ، فإنهم قالوا : إذا اختلفت القِبلتان ، وافترقت الجهتان ، كانت الطاعةُ

---

(١) فى الأصل « كثيرة » وهو تصحيف .

فيهما واحدة ، لا اختلافَ فيها ولا افتراقَ عليها ، وكيف تختلف الطاعةُ من رجل بَنى بأمر الله عز وجل ، ثم هدَمَ بوحى الله ؟ .

فإن قلت : إن الله حوَّله عن أفضل القِبلتين ، وأقوم الجِهتين ، فلا سواء فى الفضل البيِّن والخير السِّرِّ : قِبلة سلَّط الله عليها الكافرين ، ولم يمنعها من الظالمين ، وقِبلة مَنَعها بجنودٍ من عنده ، وعَصَمها بغير ما حَوْلٍ من خلقه ، ولا حُرْمة يدعيها أحد ممن فيها ، « فأرسل طيراً أبابيلَ[1] ترمى الأعداء بحجارة من سِجِّيلٍ . فجعلهُمْ كعصفٍ مأكولٍ » فإن تقل : هذا خبر نُنكِره ، وقول لا نعرفه ، فبأىِّ حديث بعد هذا تؤمِن به ، وتشهد لله عزّ وجل أنه من قِبَله ؟ وأنتم تعلمون أنه أنزل الله عزّ وجل سورة الفيل على قوم أدركه منهم بَشَر كثير .

فإن قلت : إن محمداً صلى الله عليه وسلم خبَّرهم بما عاينوه وأدركوا خلافه ، نقلْ : إنه أراد أن يفرِّقهم عنه ، ويُوحِشهم منه ، وأحب أن يرمُوه بالكذب ، ويقذِفوه بالحق ، ويَصِمُوه بالجنون ، ويظنُّوا به الظنونَ ، كلا ! ما كان نبىٌّ ولا غيرُ نبى ليجاهِرَ[2] أقواما بخلاف ما رأتْ أبصارُهم ، وشاهَدتْ آباؤهم ، فيُخْبِرَهم بخلاف ما شَهِدوا ، وتكذيبِ ما عاينوا ، فلا تكونَنَّ فى هذا من المُمْتَرين ، ولا بأمر الفيل من المكذِّبين .

فلعمرُ اللهِ لو كان من أمْر النبى صلى الله عليه وسلم ما تُلْحِد أنت وقومك إليه ، لَمَا قام معه رجلان ، ولا اختلف فيه سَيْفان ، وإن فيما صَنَعَ الله عزّ وجل بالفيل وأتباعِه ، دلالةً على قِبلة الله وأنبيائه ، فاتَّقِ الله ! فقد شرح أمير المؤمنين علاماتِ النبى صلى الله عليه وسلم ، وكَشَفَ الأغْطِيةَ لك من النور بآيات الوحى فإن مالت

---

(١) أبابيل : جماعات ، والسجيل : الطين المتحجر ، كعصف مأكول : أى كزروع أكل حبه وبقى تبنه . وقصة أصحاب الفيل مشهورة .

(٢) فى الأصل « ليجاهد » وهو تحريف .

الأهواء بك ، وغَلَبت الأساقفةُ عليك ، وحَضرك الرؤساء الذين يجعلون مع الله آلِهَةً أخرى بلا حُجَّةٍ عندهم، ولا سلطانٍ أتاهم ، فقل: أَنبِئونى عما اجتمعت عليه النصرانية، وذهبت إليه بهم المعانى ، من تشقيق[1] الكلام ، وتصريفِ الكتب : أَحُروفٌ تتعسَّفُونها ، أم لغة تعرِفونها ؟ فإن قالوا : إنهم بغير لغة يتكلمون ، فهم إذَنْ قوم يلعبون ، وإن قالوا : إنهم يتكلمون بلغةٍ معروفة ، ومعانٍ معلومة ، فقل : أخبِرُونى من قولكم : أب وابن ، أهما ما تعترِف العقولُ من المنطق ، ويقع فى القلوب من المعنى ، أم لا ؟ فإن قالوا : لا ، ليس ذلك بالذى تذهَب أوهامُ العباد إليه ، ولا بالذى تقعُ الحقائق فى الآباء والأبناء عليه ، إنما هو كقول الله عز وجل فى التوراة لإسرائيل . « بِكْرِى » لا يَعْنى ولادةَ الرَّحِم ، وكقول المسيح عليه السلام للحوارِيِّين : « أنتم إخوتى » لايعنى أُخُوَّةَ النَّسَب ، فذلك قول لايجدون معه بُدًّا من أن ينسُبوا عيسى عليه السلام عَبْدا ، وإن قالوا : بل هو ما تجرى به ألسُنُ العباد ، ويقع فى قلوب الخلق من الولادة المعروفة ، والأُبوَّة المعلومة ، فلْيُخْبِرونا متى كان الأبُ والدا ، والابن مولودا ، أقَبْل الولادة أم بعدها ؟ فإن قالوا : قَبْلَها ، رَجَعوا عن القول الأول بتثبيت الأُبوَّة ، إلا أن ذلك ليس بالشىء الذى تذهب إليه الأوهام ، ولا بالمعنى الذى يقع فى قلوب الأنام .

ولا بُدَّ إذا سقطت الولادةُ المعروفة ، وبَطَلت الأُبُوَّة الموجودة ، أن يقولوا : إن الأب والابن اسمان عُلِّقا على غير معنى ، ونسَبان أُضيفا إلى غير حق ، فيُقِرّون أن عيسى عليه السلام خُلِقَ مثلَهم ، وأنهم يتكلمون بغير لغة أحد منهم .

وإن قالوا : إنما كان الابن مولوداً والأب والداً بعد الولادة ، فقد أقرّوا بأن الابن حَدَثٌ مخلوق ، وعَبْد مَرْبُوب ، لقولهم : إنه لم يكن حتى وُلِدَ ، ولم يُولَد حتى خُلِقَ ، وقل لمن يقول الزُّور العظيم ، ويقذِف بالإفك المبين، أليس الأبُ أبًا على حِياله

(١) شقق الكلام : أخرجه أحسن مخرج .

ولم يَزَلْ ، والابنُ ابنًا نَجِلَ[1] ، ورُوح القُدُس كذلك ، فإن قالوا : نعم ، فقد أقرُّوا بأنهم ثلاثة متباينة ، وَقَعَت عليهم ثلاثةُ أسماء متفاوِتة ، وتَرَكُوا قولهم : إنهم ثلاثةٌ أصلُهم واحِدٌ .

وإن قالوا : الأب والابن ورُوحُ القُدُس واحد، ولكنَّ بعضَه أبٌ ، وبعضه ابن ، وبعضه روح القدس ، فقد دَخلوا فى التحديد الذى هو عَيبٌ عندهم ، وقالوا فى التبعيض بما هو كُفْر قِبَلَهم ، وَإن قالوا: ليس مُبَعَّضا ولا مُجَزَّأً ولا محدودا ،ولا ثلاثة متباينين، فإذَنْ هم قوم يلعبون : يقولون : الأب ابن، والابن أب، والوالد مولود، والمولُود والد ، والكبير صغير ، والصغير كبير ، والقليل كثير، والكثير قليل ! وهذا من أبْيَنِ المحال، وأخلَفِ المقال ، وليس من المنطق ما لا يوجد فى لغة عَرَب ولا عَجَم ، ولا لسانِ أمة من الأمم ، وإنما أرسل الله عز وجل كلَّ نبى بلسان قومه ليُبَيِّنَ لهم ، فيُضِلَّ الله الظالمين ، ولولا ذلك لَمَا فهمتِ الأمم مذاهِبَ أقاويل الرُّسُلِ ، ولا معانِىَ أحاديث الكتب ، فلا تُطِعِ الذين يلعبون بأنفسهم ، ويتكلمون بغير لغتهم ، ويقولون : الثلاثة واحد ، والواحد ثلاثة ، وهذا محال فى مَجَارِى المقال ، ومَعَانِى الفِعال .

لعمرُ الله لئن اتَّهمتَ عقولَ الأساقفة على دينك ، واهتممت بالنظر فى توحيدك ، لَتَعْلَمَنَّ أن الواحد لا يكون ثلاثة ، وأن الثلاثة لا تكون واحداً ، إلا على وجهٍ ماله ثانٍ تقولُ به ، ولا منه مَخْرَج تستريح إليه ، فألْقِ نحوَه سمْعك ، وأنصِتْ إليه فهمَك ، فإن أمير المؤمنين واصِفُه لك ، وليس واقعاً إلا على المخلوقين، ولا لازما غيرَ المحدودين، ولا داخلا على ربِّ العالمين : وهو أن يكون الشىء أصلُه واحدٌ وأجزاؤه كثيرة ، من نحو الإنسان ، وهو أصل يجمعه اسم ، وله أجزاء تَلْزَمُها أسماء ، فليس الجزء بالأصل ، ولا الأصل بالجزء، ولكن الجزء بعض الأصل ، فإذا أردت الجزء قلت : يد الإنسان ، وسمع الإنسان ، ولولا أنه محدود مخلوق مُجَزَّأ مُبَعَّض ، لَمَا جاز هذا القول فيه ، ولا

---

(١) نجل : أى ولد .

دَخَلَ هذا المثل عليه ، وكذلك الشمس : الأصل واحد ، وهى شمس ، والأجزاء كثيرة : وهى عين الشمس ، وضوء الشمس ، وشُعاع الشمس ، ودقيقها ، وغليظها ، وحَرورُها[1] ، وأعلاها ، وأسفلها ، وأشباه ذلك .

فلئن قلتَ : سمَّيت كل جزء من الأجزاء على حِياله إنسانا ، وَكلَّ جزء من الشمس دون أصله شمسا ، ونَسَبْتَ فِعلَ الأصل إلى بعض أجزائه ، وتركت أن تنسُب الأصل فاعلا ببعض الأجزاء كما تقول : بَسَط الإنسانُ بيده ، ومشى برجله ، ونظر بعينه ، ثم ضربت ذلك لله عز وجل مَثَلا ، وجعلتَ الله له قياسا ، فقلت : الأصل واحد ، وهو الله عز وجل ، والأجزاء كثيرة ، وهى أب وابن ورُوحُ القُدُس ، وكل جزء منها إله على حِياله ، وَرَبٌّ دون غيره ، لم تجد بُدّا أن تُلْحِق اليَدَ والعينَ والنفس بالأب والابن وروح القدس ، فتُكَثِّرَ آلهتك ، وتحدِّدَ ربك ، وتترك قولك : إن الله ليس محدودا ولا مُجَزّأ ولا مُبَعَّضا ، إلا أن يكون إنما تريد مذاهب الأسماء فتقول : المعنى واحد ، وهو الله عز وجل ، والأسماء أب وابن وروح القدس ، فإن كنت تقول هذا وكنت إنما تعبُد أسماء ، فما تجد بُدّا من أن تعبُدَ الأسماء كلَّها ، وتقول : إنها آلهة على حيالها ، حتى تقول باسمٍ : ارحَمْنى ، وبثانٍ : اغفِر لى ، فاتَّقوا الله يا أهل الكتاب ، فإن الله عزّ وجل ليس بأب ولا ابن ولا اسم ، ولكن له الأسماء الحُسْنَى فَادْعُوهُ بِهَا ، وَذَرُوا الَّذِينَ يُلْحِدُونَ فِى أَسْمَائِهِ سَيُجْزَوْنَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ .

فإن أشارت الأساقفة إلى بعض الإنسان باليد والرجل وأشباه ذلك ، وقالوا : ليس إنسانًا ، فقل : لا ، ولكنه للإنسان ، وقل : هو إنسان بكماله ، وكذلك إن أشاروا إلى بعض الشمس ، فقالوا : أليس هذا الشمس طالعاً ؟ فقل : لا ، ولكنه بعضها ، ولو كانت الأسماء التى تقع أبصارُكم عليها ، وتُشِير أيديكم إليها من الشمس والسماء والهواء شمساً وهواء وسماء ، لكانت الشمس والهواء والسماءُ أكثرَ مما يَبْلُغه الإحصاء ، ولو

(١) الحرور : الحر .

قصدتَ بالإجابة لِمَسَالِكِ هذه الأودية ، لبطلَتِ الحُجَج الدَّاحِضَة ، وانقطعت الأقاويل المتناقضة ، وسَلْ مَن قِبَلك من أساقِفِ أمتك ، وشَمَامِسَة أهل ملَّتك الذين يزعمون أن عيسى المسيح ، ويرفعونه أن يكون عَبْدا : على أى شيء وقع اسم المسيح من عيسى : عَلَى الرُّوح ، أم الجسد ، أم على كِلَيْهما ؟ فإن قالوا : وَقَعَ على الروح نفسِه ، لأن الرُّوح إله دون غيره ، فقد أقروا بأن إلٰهَهُم يأكل ويشرب ، وَيمشى وَيَرْكب ، لأنهم يجدون ذلك من فعل عيسى مبيَّنا قِبَلهم ، موصوفا عندهم ، فإن قالوا : وَقَع اسم المسيح على الجَسَد بعينه ، فكان الجسد هو المسيح إذن دون غيره ، والمسيح إذن مخلوق عندهم ، والإلٰه إنسان إذن مثلهم ، فلِمَ يعبدون المخلوق ، ويَدَّعون مَن خَلَقَه وَبَرَأَه ؟ وإن قالوا : وَقَعَ الاسم عَلَى الروح والجسد جميعا ، فلن يَجدوا مَخرجا ولا بُدًّا ولا مَحِيصا — إذا أوقعوا الاسم عليهما — من أن يُضيفوا الأعمالَ إليهما ، فيقولوا : إن الجسد المخلوق هو خَلقهم ، وإن الروح الخالقة قد ماتت قبلهم ، وذلك لِمَا يجدون من ذكر موتِ عيسى عليه السلام فى الكتب عندهم ، وفى الإنجيل الذى قِبَلهم ، وسَلْ مَن قِبَلك عن الأب والابن ، فقل : أيُّهما أعظم ، وأيهما أصغر ؟ فإن قالوا : الأبُ أعظمُ والابن أصغر ، فقد جعلوهما متباينَين ، وإن قالوا : هما واحد وكلاهما عظيم ، وليس الأبُ بأعظَمَ من الابن ، ولا الابنُ بأصغَرَ من الأب ، فقد نَقِض حينئذ جوابُهم ، وأكذَبَ المسيحُ عليه السلام كلامَهم ، حيث يقول : « لو كنتم تحبُّوننى لفرحتم حيث أذهبُ إلى إلٰهى ، فإن إلٰهى أعظم منى[1] » فلم يقل : « أعظم منى » إلا وهو مُقِرٌّ بأنه أصغر منه ، وسَلْهم عن قول المسيح : « أنا أذهب إلى إلٰهى وإلٰهكم[2] » فقل : مَن هذا الإلٰه الذى ذهب عيسى إليه صلى الله عليه وسلم : إلٰهٌ فى السماء ، متباينٌ منه ، منقطعٌ عنه ؟ فهما إذن اثنان

---

(١) ورد فى إنجيل يوحنا (الإصحاح ١٤ آية ٢٨) من الكتاب المقدس طبع بيروت سنة ١٩٠٩ « لو كنتم تحبوننى لكنتم تفرحون لأنى قلت أمضى إلى الأب ، لأن أبى أعظم منى » .

(٢) ورد فى إنجيل يوحنا (الإصحاح ٢٠ آية ١٧) من الكتاب المقدس : « إنى أصعد إلى أبى وأبيكم وإلٰهى وإلٰهكم » .

متباينان ، أم إلهٌ كان به متصلا ، وكانا جميعاً واحداً ؟ فكيف إذَنْ يجوز له أن يقول «أذهبُ إليه» ؟ إلا أن يقولوا : إنّ بعضَه ذَهبَ إلى بعض ! وهذا مما لايجوز عندهم في صفة الربِّ عزّ وجل .

وسَلْ مَنْ قِبَلَك : أخَرَجَ المسيحُ من بطن أمه مريمَ بكماله ، حتى كان البطنُ منه فارغا ، وكان هو منه بكماله خارجا ؟ فإن قالوا : نعم ، فقد انكسر قولهم : إن الله بكل مكان ، وإن قالوا : لم يخرج المسيح ، ولم يخلُ البطنُ ، فقد كَذَبوا إذن في قولهم : إنه قد خرج ، وأقرّوا أنه قد وُلِدَ ، فتعالَى اللهُ عما يَصفون ، وتنزّه عما يشركون . وسَلْهم : لِمَ هبط عيسى إلى بطن مريم ، وتجسَّد باللحم والدم ؟ فإن قالوا : لِيَمْحَقَ الخطايا من الأرض ، ويربِطُ الشيطانَ عن الخلق ، فقل : كيف إذن لم يربطهُ عن نفسه ؟ وكيف جلاباه[1] من اليهود بصَلْبه ؟ ولِمَ سُلِّط على أهل دينه يُتَبَّعُونَ في كل شِعْب[2] ، ويُقْتَلونَ بكل وادٍ ؟

وقل للذين يقولون : إن الخالقَ في كل مكان من السماء والأرض وغير ذلك : أيُّهما أعظم : المحيطُ المشتَمِلُ أم المحاط المُشتَمَلُ عليه كما يقولون ؟ تعالى الله عما يشركون؟ فإن قالوا : إنما التَحَمَ بعضُه دون بعض ، فقد حَدُّوا وبعَّضُوا ونَقَصوا ، وإمَّا قالوا ، فلن يجدوا بُدًّا من أن يقولوا : إن بعض المسيح الذى جعلوه رَبَّهم ، وهو إله عندهم ، ميت بعضه جيفة ، وإن بعضه حيّ طيب ، لأنهم زعموا أنه التحم بجسد حيٍّ فيه رُوحٌ ، فلا بُدَّ إذن أن يدخل عليه ما يَدْخُل على الأجسام الحيَّة من الخوف والفزَع والفرَح والعطش وأشباهِ ذلك ، وهو عندهم كفر عظيم ، وإفْكٌ مُبين ، فاتَّقِ عقوبة اللهِ ربِّك ولا تَمْشِ مُكِبًّا على وجهك ، ولكن اطلب والتمِسْ وابْحَثْ ، فقد قال عيسى عليه السلام في الإنجيل : «من سأل أُعْطِيَ ، ومن طَلَبَ وَجَدَ ، ومن استفتحَ فُتِحَ له»[3] .

---

(١) كذا بالأصل . (٢) الشعب : الطريق في الجبل .

(٣) ورد في إنجيل متى (الإصحاح ٥ آية ٤٢) من الكتاب المقدس : «من سألك فأعطه، ومن أراد أن يقترض منك فلا ترده» وورد في إنجيل لوقا (الإصحاح ١١ آية ١٠ من الكتاب المقدس) «من يسأل يأخذ ، ومن يطلب يجد ، ومن يقرع يفتح له» .

اجْمَع العلماء والبُصَراء الذين عندك، والأساقفةَ والرُّهبان الذين قِبَلك، فقل: لأى شيء نسبتم المسيح إلهاً، وجعلتموه رَبًّا؟ ونجد الله سَمَّاه فى الكتاب ابناً، وقد تجدونه قال: «إنى أذهَبُ إلى أبى وأبيكم، وإلهى وإلهكم أيضاً» وهذا كلام يحتمل وجهين: أحدهما أولى به، وقولٌ لا يحتملُ إلا وجهاً وهو الرُّبُوبية، أم كيف تنظرون إلى كلامه: «أذهب إلى أبى وأبيكم» فتفرِدونها فى نفسه وقد قالها فيه وفى غيره؟

فاتَّقِ الله وكن من القائمين بالحق، الموحِّدين للرب. إنَّ أمير المؤمنين قد ضرب لك أمثالا جَمَّةً، وصَرَفَ إليك مسائلَ كثيرة، وبيَّن لك من آيات النبى صلى الله عليه وسلم وعلاماتِ الوحى قليلاً من كثير، واضِحاً من تفسير، لا تمتنع العقولُ من التصديق به، ولا القلوبُ من الإقرار به.

وسيذكر لك أمير المؤمنين من علامات النبى صلى الله عليه وسلم فى التوراة والإنجيل ما يُكْتَفَى به، إن شاء الله، وباليسير منه، لأن كُتُب الله عز وجل محفوظة، وحُجَجه محروسة، لا يُزَاد فيها ولا يُنْقَص منها، وإذا وجدت فيها كلمة تدلك عَلَى حق وتَهْديك إلى رشد، فلستَ واجداً أخرى تصُدُّك عنه، وتُشَكِّكُك فيه، إذا تُلِى ذلك بالحق، ووُضِع على الصدق، ولكن ضَلَّتِ اليهود والنصارى بتحريفِ تأويل الكلام وتصريف تفسير الكُتُب، وأمير المؤمنين يسأل الله العِصْمة والتوفيق.

من ذلك ما قد شهِدَ به عيسى عليه السلام عندكم، وبيَّنَه فى الإنجيل لكم، إذ قال الحَوارِيِّين: «أنا أذهبُ وسيأتيكم البارقليط رُوحُ الحقِّ الذى لا يتكلم من قِبَل نفسِهِ، إنما يقُول كما يقال له، وَهو يشْهد علىَّ وأنتم تشهدون، لأنكم معى من قبل الناس بالخطيئة، وكل شيء أعَدَّ اللهُ لكم يخبركم به[1]» وترجمة البارقليط: أحمد،

(١) ورد فى إنجيل يوحنا (الإصحاح ١٤ آية ٢٦) من الكتاب المقدس: «وأما المعزى: الروح القدس الذى سيرسله الأب باسمى فهو يعلمكم كل شيء، ويذكركم بكل ماقلته لكم» وفيه أيضا (الإصحاح ٥ آية ٢٦): «ومتى جاء المعزى الذى سأرسله أنا إليكم من الأب روح الحق الذى =

هذا ما لاشَكَّ ولا مِرْيةَ فيه ، وهو الذى يخبر بما وعد الله المؤمنينَ وَصَالِحِى الحَوارِيِّين فى القرآن ، ولستم تَجِدون ذلك فى التوراة ولا فى الإنجيل .

ومن ذلك قول أشْعَيَا النبي عليه السلام : « قيل لى : أقم بطارا ماترى يخبرى[1]؟ قال : أرَى را كبَين مُقْبِلَين أحدهما يقول لصاحبه : سقطَتْ بابِل وأصنامها المنحوتة» ولسنا نعلم نبيًّا رَكِب بعد موسى صلى الله عليه وسلم بعيرا إلا محمدا صلى الله عليه وسلم كثيرا .

ومن ذلك قول داود عليه السلام : « اللهم ابعث جاعِل السُّنَّة كى يعلم الناس أنهم بَشَر[2] » يقول : كى يتبيَّن الناس أن عيسى عليه السلام إنسان ، ولسنا نعلم نبيًّا وضع سُنَّةً تُنسَب إليه إلا محمدا صلى الله عليه وسلم ، أما عيسى فإنه نَصَب سُنَّةَ موسى عليه السلام .

ومن ذلك قولُ حَبَقُّوق المتنبى فى زمان دانيال : « جاءَ الله من السماء ، والقدِّيس من جبال فاران ، وامتلأَت السَّماء من تحميد أحمدَ وتقديسه ، وَمَسَح الأرضَ بيمينه ، وملَك رقابَ الأمم[3] » وقال أيضا : « تُضيء لنوره الأرضُ ، وتُحمَل خَيْــــلُه

= من عند الأب ينبثق ، فهو يشهد لى ، وتشهدون أنتم أيضا لأنكم معى من الابتداء » وفيه (الإصحاح ١٦ آية ١٣) « وأما متى جاء ذاك روح الحق فهو يرشدكم إلى جميع الحق ، لأنه لا يتكلم من نفسه ، بل كل ما يسمع يتكلم به ويخبركم بأمور آتية » .

(١) كذا بالأصل وهو تحريف ، وورد فى نبوءة أشعيا (الإصحاح ٢١ آية ٦ ٩) من الكتاب المقدس : « لأنه هكذا قال لى السيد ، اذهب أقم الحارس ليخبر بما يرى ، فرأى ركابا ، أزواج فرسان ، ركاب حمير ، ركاب جمال ، فأصغى إصغاء شديدا ، ثم صرخ كأسد : أيها السيد : أنا قائم على المرصد دائما فى النهار ، وأنا واقف على المحرس كل الليالى ، وهو ذا ركاب من الرجال ، أزواج من الفرسان ، فأجاب وقال : سقطت بابل وجميع تماثيل آلهتها المنحوتة كسرها إلى الأرض . . . » .

(٢) ورد فى سفر المزامير (مزمور ٩ آية ٢٠) من الكتاب المقدس : « يارب اجعل عليهم رعبا، ليعلم الأمم أنهم بشر ، سلاه » .

(٣) ورد فى نبوءة حبقوق (الإصحاح ٣ آية ٣) من الكتاب المقدس : « الله جاء من تيمان والقدوس من جبل فاران ، سلاه » وجاء فى معجم ياقوت : « فاران : كلمة عبرانية معربة ، وهى من أسماء مكة ، ذكرها فى التوراة ، وقيل : هى اسم لجبال مكة . . . » .

وفى آية ٦ : « وقف وقاس الأرض ، نظر فرجفت الأمم ، ودكت الجبال الدهرية ، وخسفت آكام القدم ، مسالك الأزل له » .

فى البحر[١] » فإلى مَن ينحو هذا القولَ ، وإلى أين يُذهَب بهذا المعنى ؟ لئن ذُهِب به إلى غير الذى تُحمَل خَيلُه فى البحر ، وبدأ من جبال فاران أمرُه ، وغَلَبَ على الأرض ومَسَحها[٢] ، ومَلَكَ رقاب الأمم كلها ، لقد تركتم الحق وأنتم تعلمون .

ومن ذلك قول داود عليه السلام فى الزَّبور : « صدِّقوا وسبِّحوا الربَّ تسبيحا حديثا ، سبِّحوا الذى هلَّله[٣] الصالحون ، لِيفرَحْ إسرائيلُ بخالقه ، ويتوب صِهيَونُ من أجل أن الله اصطفى له أمته ، وأعطاه النصر ، وسدَّد الصالحين بالكرامة ، يسبّحونه على مضاجعهم ، ويكبِّرون الله بأصوات عالية ، بأيديهم سيوفٌ ذات شفرَتين ، لينتقمَ الله من الأمم الذين لا يعبُدونه ، ثم يقيِّد ملوكهم بالقيود ، وأشرافَهم بالأغلال[٤] » فأيَّتُمَا أمَّةٍ يكبِّرون الله بأصوات وأذانِ الصلوات الدائمة ، وعلى كلِّ شَرَف[٥] ، وعند كل حرب ، وأيتما أمةٍ كانت سيوفها ذات شَفْرَتين إلا أمة محمد صلى الله عليه وسلم ؟

ومن ذلك قول أَشْعَيَا : « سبِّحوا الرَّب تسبيحاً حديثا، وَيسبِّحه من آفاق الأرض فَوج[٦] يكون فى بنى فيار[٧] » وبنو فيار قريش،أهل فاران الذى نزل فيه القرآن ،وأيَّتمَا أمَّةٍ تُسبِّح من آفاق الأرض ، إلا أمة محمد صلى الله عليه وسلم ، عندى أكذى[٨]

---

(١) وجاء فى آية ١٥ من نبوءة حبقوق ، « سلكت البحر بخيلك كوم المياه الكثيرة » .

(٢) « فى الأصل » ومنحها. (٣) فى الأصل « هلكه » .

(٤) ورد فى سفر المزامير (مزمور ١٤٩ آية ١ – ٩) من الكتاب المقدس : « هللوا » غنوا للرب ترنيمة جديدة : تسبيحته فى جماعة الأتقياء ، ليفرح إسرائيل بخالقه ، ليبتهج بنو صهيون بملكهم ، ليسبحوا اسمه برقص ، بدف وعود ، ليرنموا له ، لأن الرب راض عن شعبه ، يجمل الودعاء بالخلاص ، ليبتهج الأتقياء بمجد ، ليرنموا على مضاجعهم ، تنويهات الله فى أفواههم ، وسيف ذو حدين فى يدهم، ليصنعوا نقمة فى الأمم ، وتأديبات فى الشعوب ، لأسر ملوكهم بقيود ،وشرفائهم بكبول من حديد ، ليجروا بهم الحكم المكتوب ، كرامة هذا لجميع أتقيائه ، هللويا » .

(٥) الشرف : المكان العالى .

(٦) فى الأصل « فرح » والظاهر أنه محرف عن « فوج » وهو الجماعة من الناس .

(٧) ورد فى نبوءة أشعيا (الإصحاح ٤٢ آية ١٠ – ١٢) من الكتاب المقدس: « غنوا للرب أغنية جديدة ، تسبيحه من أقصى الأرض ، أيها المنحدرون فى البحر وملئه والجزائر وسكانها ، لترفع البرية ومدنها صوتها الديار التى سكنها قيدار ، لتترنم سكان سالع من رءوس الجبال ، ليهتفوا ، ليعطوا الرب مجدا ويخبروا بتسبيحه فى الجزائر » . (٨) هكذا فى الأصل .

ومن ذلك قول أشَعْيَا « عبدى الذى وَجَب به حبي الذى بَشَّرْتُ به نفسى ، أُفيض عليه رُوحى ، يُوصى الأمم بالوصايا ، لايضحك ولا يُسْمَع صوتُه فى الأسواق ، ويفتح العيون العُور ، ويُسْمِع الآذان الصُّمَّ ، ويُحْيِي القلوبَ الغُلْفَ[1] ، وما أُعطيه لا أعطى غيرَه ، أحمد يحمَد الله حَمْدا حديثا ، تهليله يأتى من أقصى الأرض ، يجوز الماء بشدة أمواجه ، ويعرح وكورها[2] سكانها يَحمَدون الله على كل شَرَف ، وَيكَبِّرونه على كل رابية[3] » .

ومن ذلك قول داود عليه السلام فى المزمور الخامس والأربعين[4] ، يقول الله عز وجل لمحمد فى الزَّبور : « انصبَّتْ رحمتى على شَفَتَيك من أجل ذلك بارك كل الدهرَ تَقَلَّدِ السيف على الأمم أيها الجبار على الأمم بالقتل والأسر والسِّباء بهاك وحمدك أحمد يغلب البر منك كلمة الحق ، وذلت لك الأشياء سيفك يحسمه يمينك ونبالك مسمومة ويسقط عند الأمم[5] » فأىُّ نبى كان على الأمم جبارا ، ولهم بإذن الله قَتَّالا إلا نبينا صلى الله عليه وسلم ؟

ومن ذلك فى آخر التوراة : « جاء الله تبارك وتعالى من سِيناء ، وأشرَق من ساعير ، واستبان واستعلَنَ من جبال فاران ، وجاء عن يمينه رَبَوَاتُ القدِّيسين[6] »

---

(١) الغلف جمع أغلف ، وقلب أغلف : كأنما غشى غلافا فهو لا يعى .

(٢) هكذا فى الأصل .

(٣) ورد فى نبوءة أشعيا (الإصحاح ٤٢ آية ١ — ٤) من الكتاب المقدس : هو ذا عبدى الذى أعضده ، مختارى الذى سرت به نفسى ، وضعت روحى عليه ، فيخرج الحق للأمم ، لا يصيح ولا يرفع ولا يسمع فى الشارع صوته . قصبة مرضوضة لا يقصف ، وفتيلة خامدة لا يطفأ ، إلى الأمان يخرج الحق ، لا يكل ولا ينكسرّ حتى يضع الحق فى الأرض ، وتنتظر الجزائر شريعته » .

(٤) فى الأصل : « فى خمسة وأربعين مزمورا » .

(٥) هكذا وردت العبارة فى الأصل ، وهى مليئة بالتحريف ويتضح لك تصحيحها إذا رجعت إلى سفر المزامير ، جاء فى المزمور ٤٥ آية ٢ — ٥ من الكتاب المقدس : « انسكبت النعمة على شفتيك ، لذلك باركك الله إلى الأبد ، تقلد سيفك على فخذك ، أيها الجبار جلالك وبهاءك ، وبجلالك اقتحم اركب من أجل الحق والدعة والبر ، فتريك يمينك مخاوف ، نبلك المسنونة فى قلب أعداء الملك ، شعوب تحتك يسقطون » .

(٦) ورد فى سفر التثنية (الإصحاح ٣٣ آية ١) من الكتاب المقدس : « جاء الرب من سيناء وأشرق لهم من سعير ، وتلألأ من جبل فاران ، وأتى من ربوات القدس ، وعن يمينه نار شريعة لهم » .

وتفسير هذا أن الله عز وجل أنزَل التوراة على موسى فى طور سيناء ، وَأنزل الإنجيل على عيسى عليه السلام فى جبل ساعير ، وهو جبل بالشام، وأنزل القرآن على محمدصلى الله عليه وسلم فى جبال فاران ، وهى بلاد مكة ، وأنتم تجدون ذلك فى كتبكم مكَرَّراً ، وتعرِفونه جميعا بلغتكم .

ومن ذلك قول الله عز وجَل لموسى عليه السلام : « سأقيم لهم من إخوتهم مثلَك أجعَل كلامى على فمه ، ولا يتـكلم إلا بما آمُره به[(١)] » فمَن إخْوَةُ بنى إسرائيل إلا بنو إسمٰعيل ؟ أمَا تعلم أن لو كان الله عز وجل يَعنى أحدا منهم لقال لهم : أقيم لـكم نبيا منـكم !

فإن قلتم : إنما قال من إخوتـكم ،وهو يُريد من أنفسكم ، فهَبْ أمير المؤمنين قَبِلَ هذا الخُلْف منـكم ، وَوَسَّع فى هذا المجال لـكم ، فـكيف تصنعون بقول الله عز وجل فى التوراة : « مثل موسى فى بنى إسرائيل لا يقوم »فهل تجدون من هذا مَخْرَجا ، ومن الإيمان أنَّ المعنى وَقَع عَلَى محمد صلى الله عليه وسلم بُدًّا؟ ألا تسمع قول الله عز وجل؟ «أجعل كلامى على فَمِه كى يُعْنَى به ، أُمِّىٌّ لا يقرأ ولا يكتب » .

أو ليس قد أمر عيسى عليه السلام حَوارِيِّيه أن يقولوا فى صلواتهم : « ياأبانا الذى فى السمٰوَات تقدَّس اسمك[(٢)] » كيف صار عيسى دونهم ابنا، وصار دونه أبا وهم يقولون: « ياأبانا » ؟ أم كيف لم يجعل سليمان بن داود إلٰها ، وقد قال الله عز وجل لداود : « يولد لك غلام يُسَمَّى لى وأُسَمَّى له » ؟ ولم لا يجعلون إسرائيل إلٰها وقدقال الله عز وجَلَّ له: «أنت بِكْرِى» بل لِمَ لا يُسَمُّون المؤمنين عامةً والحَوارِيِّين خاصَّة آلهة، وقد قال المسيح للحواريِّين : « أنتم إخوتى » وقد قال فى الإنجيل : « أعطِ كل من آمن بى سلطانا

---

(١) ورد فى سفر التثنية (الإصحاح ١٨ آية ١٥) من الـكتاب المقدس : « يقيم لك الرب إلهك نبيا من وسطك من إخوتك مثلى له تسمعون » .

(٢) ورد فى إنجيل متى (الإصحاح ٦ آية ٩) من الـكتاب المقدس : « فصلوا أنتم هكذا : أبانا الذى فى السموات ، ليتقدس اسمك » .

يُدْعَى له » وإن كان هؤلاء كلهم للمسيح إخوة ، أفَلاَ تجعلونهم كلَّهم آلهةً ! وكيف يقولون : إن عيسى ابن الله وهو يقول فى مواضع جمة، وأماكن كثيرة، إنه ابن الإنسان؟ فكيف يكون ابنُ الإنسان ابنَ الله ؟ ومتى كان ذلك ؟ لئن قالوا : إن عيسى لم يزل ابن الإنسان ، لقد جعلوا مع الله إنساناً ، وجعلوا الله إنسانا حديثا، وجعلوا المسيح ابن الله لم يزَل ، وابن الإنسان فيما حَدَث ! وهذه أمور متناقضة ، وحجج دَاحِضة ، وأقاويل فاحشة .

فإن قالوا : إنما نعبد المسيح لأنه رُفع إلى السماء ، فليَعْبُدوا الملائكة، فإنهم فى السماء قبله ، وإدريسَ ، فقد رفعه الله وغيره ، وإن كانوا يعبدون المسيح لأنه لم يُخْلَقْ من ذَكَر . فآدمُ وحوَّاء لم يُخْلَقَا من ذكر ولا أنثى ، ولم يقعا من غَمّ[1] الرحم ، وضِيق البطن ، وحال الصِّبا ، فيما وقع فيه المسيح ، وإن قالوا : إنما نعبد عيسى لأنه أحيا الموتى فما أحيا حِزْقيل[2] أكثر ، وما كان من الْيَسَع تلميذ إلياس أعجَبُ ، لأنه أحيا الموتى بعد مِئِينَ من السِّنين ، وإن طلبتم ذلك فى سِيَرَ الملوك عند قصة اليسع أصبتموه إن شاء الله ، وإن كانوا إنما يعبدون المسيح من أجل الأسقَام التى أبرأ ، والعجائب التى أرَى ، فعجائب موسى أعجبُ ، وآياتهُ أعظمُ ، أين ما ذكرتُ لك من عجائب عيسى ، من عجائب موسى : من انقلاب البحر له ، وسلوكِ الجيش معه ؟ أم أين ذلك من حَجَر

---

(١) أى ستره . (٢) جاء فى كتب التفسير عند تفسير قوله تعالى فى القرآن الكريم :

« أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ خَرَجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ وَهُمْ أُلُوفٌ حَذَرَ الْمَوْتِ فَقَالَ لَهُمُ اللهُ مُوتُوا ثُمَّ أَحْيَاهُمْ إِنَّ اللهَ لَذُو فَضْلٍ عَلَى النَّاسِ وَلَـٰكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَشْكُرُونَ » .

قيل : هم قوم من بنى إسرائيل وهم أهل داوردان — قرية قبل واسط — وكان وقع فيها طاعون فخرجوا هاربين فأماتهم الله ثم أحياهم ، ليعتبروا ويتيقنوا أن لا مفر من قضاء الله تعالى وقدره، مر عليهم حزقيل عليه السلام — أحد أنبياء بنى إسرائيل — وقد عريت عظامهم ، وتفرقت أوصالهم ، فتعجب من ذلك ، فأوحى الله تعالى إليه : ناد فيهم أن قوموا بإذن الله تعالى ، فنادى ، فقاموا يقولون : سبحانك اللهم وبحمدك لا إله إلا أنت ، وقيل : هم قوم من بنى إسرائيل دعاهم ملكهم إلى الجهاد ، ففروا حذر الموت فأماتهم الله ثمانية أيام ثم أحياهم .

يَضْرِبه فيتفجَّر بعيُون الماء ، ويحمِلُه معه حيث شاء ؟ بل أين تلك وهذه وغير هذه من الآيات من حَبْس يُوشَعَ الشمس[1] ثلاثَ ساعات! وكل ماصنع موسى وعيسى وغيرهما بإذن الله وأمره وقَدَره وقضائه ، فاتق اللهَ وكن من القائلين بالحق ، الموحدين للرب ، ولا تقل على عيسى مالم يقل ، فإنكم لاتجدونه قال لكم فى شيء من كتبكم : اعبُدونى فإنى ربكم ، تعالى الله عما يقول الظالمونَ ، ويذهب إليه الجاحدون .

وإن أمير المؤمنين قد أحَبَّ أن يَنْصَح لك ، فى أوْلَى داريك بك ، وأهمِّ شأنيك لك ، فدعاك إلى الإسلام ، وأمرك بالإيمان الذى به تدخل الجنة وتنجو من النار ، فإن قبِلْتَ فحظَّك أصبْتَ ، ونفسَك أحرزتَ ، ولك ما للمسلمين وعليك ما عليهم ، وإن رددت نصيحة أمير المؤمنين فيما فيه الحظُّ فى آخرتك ، فإن أمير المؤمنين ينصَح لك فيما فيه الصلاحُ فى عاجلتك : من إعطاء الجِزْية التى يَحقِن الله بها دماءكم ، ويحرِّم بها سِباءكم ، ويَجعلها قِواما لِمَعاشكم ، وصلاحا لبلادكم ، وتوفيرا لأموالكم ، وأمْنا لجنابكم ، وسَعة لسربكم[2] ، وبَرَكة عَلَى فقرائكم ، وغِنًى لأهل الحاجة والفاقة والمَسْكَنة منكم .

ولن يذكُر أمير المؤمنين فى الجزية لكم : من حُلول الأمن فيكم ، وعُموم العافية إياكم ، واستقامةِ البَرَكة عليكم ، وكفِّ أيدى المسلمين عنكم وبَسْطِها على الأعداء منكم ، شيئاً إلّا وفى قليل ما كان من أشباهِ ذلك أيامَ تلك الفِدْية ، التى كان الله أجْرَى نعمتَها لكم على يده ، وفتَح بركتَها عليكم من قِبَله ، مايدلُّكم على صدق أمير المؤمنين فيما يذكر ، ويَشْهد له على حقه فيما يقول إن شاء الله ، فقد تعلمون أن الله قد أدخل على كل طَرَف من أطرافكم ، وصِنف من أصنافكم ، بتلك الفدية ، أموراً عظيمةَ البركة ، واسعةَ المنفعة ، فى أمورٍ غير واحدة :

---

(١) هو يوشع بن نون، فتى موسى عليهما السلام . روى أنه قاتل الجبارين يوم الجمعة ، فلما أدبرت الشمس للغروب خاف أن تغيب قبل فراغه ، ويدخل السبت فلا يحل له قتالهم فيه ، فدعا الله تعالى ، فرد له الشمس حتى فرغ من قتالهم .

(٢) السرب بالفتح : الطريق ، وبالكسر: النفس .

منها أن قادَةَ جنودكم وساسَةَ حربكم، كانوا بعد وقوع أمرها واستحكام عَقْدها، فِراغًا لمحاربة أعدائكم، ومناصَبة من نَاوَأَكم[١]، بين أن يستعجموهم[٢] فى بلادهم، ويَنْزِلوا عليهم فى ديارهم، ولا يرهبون تَعَقُّبَ بشرٍ إن ساروا فى أرضهم، ولا يتخوَّفون طِرادًا إن اجتمعوا لقتالهم، أن يُقيموا فى خَفْضٍ ودعَة، وأمْنٍ وسَعة، مع الأزواج والأولاد والعِيال والأوطان والرِّباع والمَحَالِّ، وهم اليوم يترقَّبون الجيوش من كل شِعْب، ويتخوَّفون الُحتوفَ فى كل وقت، لايهدأ لهم جَأْشٌ[٣]، ولا يَسْكُن لهم فَزَع، ولا ينام لهم ليل، ولا يأمن فيهم حال، قد قطعت الهموم دابِرَهم، وأضمَرَتِ المخاوفُ جُنُوبَهم، واستأصلتِ الجنودُ أموالهم.

ومنها: أن أهل الحِراثة وإخوانَ العِمارة فى بلادك وأطرافِ أرضك، كانوا سِراعًا إلى عِمارة أرضهم، وإصلاح ماتحت أيديهم، فيما لا قوامَ لهم ولا لمعاشهم إلا به، ولا بقاءَ لدينهم إلا معه، قد أمِنوا الجيوش ومَعَرَّتَها، والجنودَ وبادِرَتَها[٤]، وانتشروا للعمارة، وابتكروا فى الزراعة، فارقوا رءوسَ الجبال وأقحامَ الغِياض[٥]، وراحُوا فى أوساط أوطانهم، وظِلال مَحالِّهم، يشقِّقون الأنهار، ويغرِسُون الأشجار، ويفجِّرون العيون، حتى نَمَتِ الأموال، واخْضَرَّت المحال، وأخصَبَ الجَنابُ، وأصبحوا اليوم عن الزراعة مُمْسِكين، وللحِراثة تاركين، وبغيرها مشتغلين فى إصلاح آلات الهرَب، وإحراز العيال فى الُحصُون، ورمِّ القلاع الجَلاء، وتحريش الحصون للبلاء، قد انتقلوا عن منابِتِ البَرِّ، وكرائم الأرض، ومجارى المياه، إلى أوشال[٦] الجبال، وأشجارِ الغياض، وبُطون الأودية، فليس يبلغون من عمارة بلادهم، ولزوم أوطانهم، ومن

---

(١) ناوأه: عاداه. (٢) كذا فى الأصل.

(٣) الجأش: النفس، ورواع القلب إذا اضطرب عند الفزع، وفى الأصل «لاسكن لهم جأش»

(٤) البادرة: مايبدر من حدتك فى الغضب من قول أو فعل.

(٥) الغياض: جمع غيضة بالفتح، وهى الأجمة ومجتمع الشجر فى مغيض ماء.

(٦) الأوشال: جمع وشل بالتحريك، وهو الماء القليل يتحلب من جبل أو صخرة.

تناوُلِ ثمارهم وقِوام معاشهم ، مِثلَ ما كانوا يبلغون ، ولا ينالون من خَفض العيش وطِيب الأمن ، ولذَّة الدَّعة ، قريباً مما كانوا ينالون .

ومنها : أن إخوان التجارات وأصحابَ الأموال وأهل الظِّلْفِ والحافرِ[١] ، كانوا يتناولون ما شَارَفَهم من بلادنا ، وما قارَبَهم من أسواقنا ، فينفِّقون تجاراتهم ، ويُغْلُونَ بضائعهم ، فتعظمُ الأرباحُ وتضعَّفُ الأثمان ، وكانت الباعةُ من تجار المسلمين وغيرهم من الذمّيين يتناولونهم المبيع لهم ، ويتناولونهم الشراء منهم ، فعمَّت البركة ، وسَهُلت المنفعة ، حتى نالتِ الرِّعاء فى جبالها وافالها[٢] ، والنساء فى غزُولهنّ وعمل أيديهن فضلا عن غيرهن .

ومنها : أنك ومَنْ قِبَلَك من ذوى العبادة والزَّهادة والتألُّه والنُّسك والنِّيَّات ، كنتم على عافية من أيام الرضا بالحرب ، وسلامةٍ من أوزار الحضّ على قتال الخوف ، قد نجوتم من معصية المسيح فى الدنيا التى نهاكم عنها ، والأمور التى أمركم بها ، من نحو قوله : « مَنْ لَطَم خدَّك الأيمن فأمكِنْه من الأيسر ، ومن انتزع قميصَك فأعطِه كِساءك ، ومن لطمك فاغفِر له ، ومن شَتَمك فأعرِضْ عنه »[٣] .

ومنها : أن من بأقاصى بلادك ونواحى حَوْزَتك ، قد ذاقوا تلك الأيام من لذة الخَفض ، ودَعَة الحال ، وحلاوة الأمْن ، ورفاهِيَة العيش ، وسَعَة العافية ، من سِباء أزواجهم ، وهَيْض[٤] أولادهم ، وحَطْمِ معاشهم ، وأسْرِ رجالهم ، وغنيمة بَقَرِهم وغنمهم ، وإفساد شَجَرِهم وثمارهم ، وإجلاء عن مساكنهم وأوطانهم ، مالم يكن لهم رأىٌ يعرِفه ، ولا ظنٌّ يَبلُغُه ، ولا طمعٌ يقارِبُه ، ولا أمَلٌ يذهب إليه ، وما قد عرَفت

---

(١) الظلف البقرة والشاة : بمنزلة القدم لنا .

(٢) كذا بالأصل .

(٣) ورد فى إنجيل متى (الإصحاح ٥ آية ٣٩ — ٤١) من الكتاب المقدس : « وأما أنا فأقول لكم لاتقاوموا الشر ، بل من لطمك على خدك الأيمن فحول له الآخر أيضا ، ومن أراد أن يخاصمك ويأخذ ثوبك فاترك له الرداء أيضا ، ومن سخرك معه ميلا واحدا فاذهب معه اثنين » .

(٤) من هاض العظم يهيضه : إذا كسره بعد الجبور ، والحطم : الكسر .

الخاصّة من بطارقتكم ، والعامة من أهل ملتكم به : من رأفتكم بهم ، ورحمتكم لهم ، وشفقتكم عليهم ، وأثرتكم إياهم ، وبركة ولايتكم مُلكهم ، ومنفعة سياستكم أمرَهم ، ماقد ازدادوا لكم به محبّةً ، وفى بقائكم رغبةً ، ولأمركم طاعةً ، وعلى ملككم شفقةً ، وفيما نابكم نصيحةً ، مع ماقد ازددتم بذلك من الهَيْبة فى صدور الأعداء ، والشَّرَفِ فى قلوب النُّظَراء ، والعِظَم فى عيون الأمم ، حتى أقرُّوا لكم بقوّة عزائم العقول ، وفضل سياسةِ الأمور ، وصحّة تدبير المُلك ، وصدقِ النيّة ، ولُطف الحيلة التى جعلوا نسبة عملكم بها ، ومحلَّ رأيكم فيها ، على أنكم نظرتم لضعفائكم حتى قوُوا ، ولفقرائكم حتى استغنَوا ، ولقرّائكم حتى بينوا وحيو وفوا المسلمين[1] من أيام الحروب ، وأوزار القتال ، ومعصية المسيح عليه السلام ، ولأعدائكم الأبعدين ، وجيرتكم الأقربين ، حتى كفتم من فراغكم لهم ، واشتغالكم من أمركم بها ما أوطأتموه لحر سحر[2] القتل ، وذُلَّ الأسر ، وغَلَبة القهر ، والإذعان والاستسلام ، وإمّا كفيتموهم بالصلح ، واستوثقتم منهم بالرهن .

فإذا ذكرتَ ما كان من هذا وأشباهه وأمثاله فى الفِدية ، فاعلموا أن أمثاله وأضعافه مُقيم معكم فى الجِزْية ، فلا يكونَنَّ لك رأىٌ غيرها ، ولا أمير سواها ، فلقد أكثر أمير المؤمنين العَجَب من أمركم ، وأطال تقليبَ الفِكرة فى بعضكم ، فظن أن إخراجكم من جميع ما كنتم فيه إلى خلافه ، مما أصبحتم عليه من انتظار وَقَعات الحروب وصَوْلات الجنود ، وأكل الحدود ، وتوقُّع الجلاء والسِّباء والقتل ، والأسر والحَصْر ، شيئاً اختدعكم الله عز وجل فيه عن أنفسكم ، وكيداً استدرككم به لِمَا عَلِم من قلوبكم.

ألاَ إنّ أعجبَ عذركم وأفظَعَه كان عند أمير المؤمنين ، إذ بلغه جُرْأتكم على الله عز وجل فى نقضِ عهده ، واستخفافكم بحقّه فى خَفْر[3] ذمته ، وتَهاوُنكم بما كان

---

(١) كذا بالأصل . (٢) كذا بالأصل . (٣) أى نقض .

منكم ، وأنتم تعلمون أن مواثيق العهود ونُذُورَ الأيمان الذى وضعه الله عزّ وجل حرَمًا بين ظهرانَىْ خَلْقه ، وأمانا أفاضه فى عباده ، لِتَسْكُن إليه نفوسهم ، وتطمئن به قلوبهم ، وليتعاملوا به فيا بينهم ، وَيقيموا به من دنياهم ودينهم ، فما مِن مَلِك من الملوك ، ولا أمة من الأمم ، تُبيح حِمَى الله عز وجل ، تهاوُنا به وجُرْأةً عليه ، إلا أجرى الله عليهم دائرةً[1] من دُوَل الأعداء ، وأنزل عليهم عذاباً من السماء ، وقد رجا أمير المؤمنين أن يُجْرِىَ الله نقمته منكم بأيدى المسلمين ، بعد إذ كان اعتقد عَهْدَكم وأخذ ميثاقكم بالأيمان المغلّظة ، والعهود المؤكدة ، التى قد اعتقَدها فى رقابكم ، وحَملها على ظهوركم ، فأشْهَدْتم الله بها على أنفسكم ، وتسامَعَ بها مَن حَوْلكم ، وحَكَم بها بطارِقَتكُمُ وأساقفتكم ، فلا اللهَ اتقيتم ، ولا من الناس استحييتم ، نكْثًا للعهد ، وبُغْضًا للمسلمين ، وخَتْرا[2] بالأمانة ، وإباحة للحِمَى ، فتوقَّعوا العقوبةَ ، وانتظِرُوا الْغَيِبَ ، فلقد وثِقَ أمير المؤمنين أن من عذاب الله ما هو حالٌّ إن شاء الله بكم .

ومن أسباب ما يريدُ الله من الانتقام منكم ، ما قد أزمَع أمير المؤمنين وعَزَم عليه ، وقَذَف الله فى قلبه : من الإرادة والنية والرغبة فى إيطاء الجيوشِ بلادَكم ، واستباء المقاتِلَة أرضكم ، والتفرّغ لكم من كل شغل ، والإيثارِ لجهادكم على كل عمل ، حتى تؤمنوا بالله وأنتم طائعون أو كارهون ، وتؤدُّوا الجزية عن يدٍ[3] وأنتم صاغرون ، فكونوا على عُدّة من الجزية ، ويقين من الانتجاع الذى لا طاقةَ لكم إن شاء الله به ، ولا صَبْرَ لكم بإذن الله عليه ، فإن جنود أمير المؤمنين فارِغَة كثيرة ، وخزائنه عامرة وافرة ، ونفسه سخِيّة بالإنفاق ، ويده مُطْلَقَة بالبذل ، والمسلمون نشاطٌ إليكم ، منقلبون عليكم ، قد عوّدهم الله فى لقائكم عادةً يرجون انتظار مثلها ، وأبْلاهم فى قتالكم بلاء من أمثالها ، إن شاء الله .

---

(١) الدائرة : الهزيمة .
(٢) الختر : الغدر والخديعة ، أو أقبح الغدر .
(٣) انظر الجزء الأول ص ٣٩ .

وكتابُ أمير المؤمنين نَذيرُه بين يَدَىْ جنوده ، ومُقَدَّمه إن شاء الله من جيوشه، إلا أن تؤدُّوا الجِزية عن التى دعاك أمير المؤمنين إليها ، وحَدَاك[1] ومَن قِبَلك عليها ، رحمةً بالضعفاء الذين لا ترحمهم ، وتوجُّعا للمساكين مما لا تَوَجَّع منه لهم من الجلاء والسِّباء والقتل والأسر والقهر ، وقساوةً من قلوبكم ، وأثَرَةً لأنفسكم ، واعتصاماً بخواصِّكم ، وإجلاء لعوامِّكم الضعفاء الفقراء المساكين الذين لا تمنعونهم بقوة ، ولا تدفعون عنهم بحيلة ، ولا تراقبون فى الرحمة لهم والتعطف عليهم ، أدبَ المسيح إياكم ، وقولَه فى الكتاب لكم : « طُوبَى للذين يرحمون الناس ، فإن أولئك أصفياء الله ونور بنى آدم[2] » .

وأيمُ الله لو يعلم مَن قِبَلك من المساكين والزراعين والفقراء والضعفاء والعَمَلة بأيديهم ، ما لهم عند أمير المؤمنين ، اتَحَدَّروا عليه ، وأقبلوا إليه ، : من إيوائهم ، وإنزالهم الأرضَ الواسعةَ ، وإمكانهم من مَسَايِل المياه السائحة ، والعدل عليهم بما لا تبلُغه أنت ولا تقاربُه ، رِفقاً بهم ونظراً لهم ، وإحساناً إليهم ، مع تخْليته إياهم وأديانَهم ، لا يُكْرِههم على خلافها ، ولا يَجْبُرهم على غيرها ، لاختاروا قُرْبَ أمير المؤمنين على قربك ، وجوارَه على جوارك ، ولأنقَذُوا[3] أنفسهم وأموالهم وأولادهم وأزواجهم وعيالاتهم ، مما يحُلُّ بهم فى كل عام ، ويلقَوْن من كل غزَاةٍ ، فاتق الله واقبَلْ ما عُرِض عليك من الجزية ، ولا يمنعنَّك ما فيه[4] الحظُّ لك ولأهل مملكتك، ونحن على رجاء أن الله لا يؤخِّر ذلك منكم ويدفعه عنكم ، إلا ليجعله على يد أهل بيت النبوَّة والرحمة ، ولأهل الوراثة فيهم للكتاب والحكمة ، الذين لا يدخُل عليكم فى الإذعان

---

(١) من حدا الإبل وبها : إذا ساقها .

(٢) ورد فى إنجيل متى (الإصحاح ٥ آية ٧ — ٩)من الكتاب المقدس« طوبى للرحماء لأنهم يرحمون طوبى للأنقياء القلب لأنهم يعاينون الله ، طوبى لصانعى السلام لأنهم أبناء الله يدعون » .

(٣) فى الأصل « ولا ابتذلوا » .

(٤) فاعل يمنع غير موجود فى الجملة ، والظاهر أن الأصل « ولا يمنعك العناد أو الشيطان مثلا » .

لهم ، وأداء الجزية إليهم ، حَمِيَّةٌ ولا نقيصةٌ ولا عارٌ ، والذين يفون لكم بما يَعقِدُون له ويُبْتيعون فعلهم ما يقولون .

ثم أمير المؤمنين بخاصَّةٍ ، لما جعل الله عليه رأيَه ، وفيه نظرَه ، من البِرِّ والرحمة والإقساط والوفاء بالعقود والعهود والشروط ، نظرا لدينه ، وخوفا من ربه ، ولِمَا قَذَفَ الله فى قلبه وقلوب المسلمين من المحبة والطاعة والأَثَرَة ، ولِمَا جعلهم الله عليه من اجتماع الكلمة ، واتفاق الأفئدة ، والنصائحِ فى السر والعلانية ، وما عوَّده الله ممن نَصَبَ له بمجاذبة ، ورماه بمكايَدة ، وعرَاه بحِيلةٍ : من النصر العزيز ، والفتح القريب ، والظفر المبين ، فابذُلْ من الجزية ما شئت ، وسَمِّ منها ما هَوِيت . واعلم أن أمير المؤمنين ليس يَحْدُوك عليها لحاجةٍ به إليها ولا للمسلمين ، ولكن طاعةً لربه ، وأثَرةً لحقه ، ولِيَجْعَلَها سبباً لِمَا يُريد أن يجرى فيما بينه وبينكم ، وإنه إنما كان قبولُ المهدىِّ ـ رحمه الله ـ الفديةَ منكم ، بطِلْبة أمير المؤمنين كانت إليه ، والحاجة كانت فيها عليه[1] ، ولم يكن من رغبة فيها ، ولا حاجة إليها ، ولا استعظامٍ لها ، ولقد كان يُعْطِى فى المجلس الواحد مِراراً أمثالَها ، ولكن ذلك كان رأى أمير المؤمنين يومئذ فيكم ، فأما اليوم إذ استبان له غدرُكم ونقضكم ونَكْثُكم ، واستخفافكم بدينكم ، وجُرأتكم على ربكم ، فليس بين أمير المؤمنين وبينكم إلا الإسلامُ أو الحرب المُجْلِية إن شاء الله ، ولا حولَ بأمير المؤمنين ولا قوة إلا بالله ، عليه يتوكَّل ، وبه يثق ، وإياه يستعين ، والسلام على من اتبع الهدى » . (اختيار المنظوم والمنثور ١٢ : ٢٢٦)

١٦٨ — كتاب نقفور ملك الروم إلى الرشيد

وجرى الصلح بين الرشيد وبين إيرينى[2] ملكة الروم بعد حروب دارت بينهما ، فعادت الروم على إيرينى فخلعتها ، وملَّكت عليها نِقْفُور[3] ، فلما استوثقت له الرومُ بالطاعة كتب إلى الرشيد :

---

(١) كذا بالأصل . (٢) وليت ملك الروم سنة ٧٩٢ . (٣) ولى ملك الروم سنة ٨٠٢ م .

« من نقفور ملك الروم إلى هٰرون ملك العرب .

أما بعدُ ، فإن الملكةَ التى كانت قبلى أقامتك مَقامَ الرُّخّ[1] ، وأقامت نفسها مقام البَيْدق ، فحملَتْ إليك من أموالها ما كنتَ حقيقا بحمل أمثالها إليها ، لكن ذاك لضعف النساء وحُمْقِهن ، فإذا قرأت كتابى فارْدُدْ ما حصل قِبَلك من أموالها ، وافتَدِ نفسك بما تقع به المصادرة لك ، وَإلاَّ فالسيفُ بينى وبينك » .

١٦٩ — رد الرشيد عليه

فلما قرأ الرشيد الكتاب استفزَّه الغضب وكَتب إليه :

« بسم ٱلله الرحمٰن الرحيم : من هٰرون أمير المؤمنين إلى نقفور كلب الروم .

قد قرأتُ كتابك يابن الكافرة ، والجواب ما تَراه دون ما تسمعه ، والسلام » .

ثم شَخَص إليه من يومه ففتح وغنِم ، فطلب نقفور الموادعة على خَراجٍ يؤديه فى كل سنة، فأجابه إلى ذلك، وكان ذلك سنة ١٨٧ هـ . (تاريخ الطبرى ١٠ : ٩٢)

١٧٠ — رواية أخرى

وفى رواية صبح الأعشى أن نقفور كَتب إلى الرشيد :

« أما بعدُ ، فإن هذه المرأة وضعتك موضعَ الشاه ، ووضعت نفسها موضع الرُّخ ، وينبغى أن تعلم أنى أنا الشاه ، وأنت الرُّخ ، فأدِّ إلىّ ما كانت المرأة تؤدى إليك » .

فلما قرأ الكتاب ، قال لكتّابه : أجيبوا عنه ، فكتبوا مالم يَرتَضِه ، فكتب هو إليه :

« من عبد الله هٰرون أمير المؤمنين ، إلى نقفور كلب الروم ، أما بعد فقد فهمت كتابك ، والجواب ما تراه لا ما تسمعهُ ، والسلام على من اتبع الهدى » .

---

(١) الرخ والبيدق : من أدوات الشطرنج .

ويقال : إنه كتب : « الجواب ما تراه لا ما تسمعه ، وَسَيَعْلَمُ الْكَافِرُ لِمَنْ عُقْبَى الدَّار » .

(صبح الأعشى ١ : ١٩٢ ، ٦ : ٤٥٧)

* * *

وفى رواية الأغانى أن نقفور كتب إلى الرشيد :

« أما بعد ، فإن هذه المرأة كانت وضعتك وأباك وأخاك موضع الملوك ، ووضعت نفسها موضع السُّوَق(١) ، وإنى وَاضِعُك بغير ذلك الموضع ، وَعَامِلٌ على طَرْق بلادك ، والهجوم على أمصارك ، أو تؤدِّىَ إلىَّ ما كانت المرأة تؤدِّى إليك ، والسلام » .

(الأغانى ١٧ : ٤٤)

١٧١ — كتاب الرشيد إلى على بن عيسى بن ماهان

وَوَلَّى الرشيد على بن عيسى بن ماهانَ خراسانَ (سنة ١٨٣) فعاثَ فيها فساداً ، وظَلَمَ أهلها ، وَوَتَرَ أشرافها ، وأخَذَ أموالهم ، واستخفّ برجالهم ، فكتب رجال من وجوهها إلى الرشيد ، وكتبت جماعة من كُوَرها إلى قراباتها وأصحابها تشكو سوء سيرته ، وخُبْث طُعْمته ، ورداءة مذهبه ، وتسأل أمير المؤمنين أن يُبْدِلها منه مَن أحَبَّ من كُفاته وأنصاره ، فدعا الرشيد هَرْثَمة بن أعْيَن وقال له : لقد أنكر أهل خراسان أمْر علىّ بن عيسى ، إذ خالف عهدى ونَبَذَه وراء ظهره ، وقد كتب يستمِدُّ ويستجيش(٢) ، وأنا كاتب إليه أخبره أنى أُمِدُّه بك ، وأوجّه إليه معك من الأموال والسلاح والعُدَّة ما يطمئن إليه قلبه ، وتتطلّع إليه نفسُه ، وأكتب معك كتابا بخطّى فلا تَفُضَّنَّه ولا تطَّلِعنّ فيه حتى تصل إلى نيسابور ، فإذا نزلتَها فاعمل بما فيه وامتثِله ولا تجاوِزْه إن شاء الله ، وأنا مُوَجِّه معك « رَجَاء » الخادم بكتاب أكتبه إلى على

---

(١) السوقة بالضم : الرعية الواحد والجمع والمذكر والمؤنث ، وقد يجمع على سوق بضم ففتح .

(٢) وذلك لقتال رافع بن ليث بن نصر بن سيار ، وكان قد خرج على الرشيد بسمرقند كما سيجىء .

ابن عيسى بخطى ، فلا تُظهِرنه عليه ولا تعلمنّه ما عزمت عليه ، وتأهّبْ للسير ، وأظهِر لخاصّتك وعامّتك أنى أوجهك مَدَدا لعلى بن عيسى وعونا له .

ثم كتب إلى على بن عيسى كتابا بخطه ، نسخته :

« بسم الله الرحمن الرحيم ، يابن الزانية ، رفعتُ من قدرك ، ونوّهتُ باسمك ، وأوطأتُ سادةَ العرب عَقِبَك ، وجعلتُ أبناء ملوك العجم خَوَلَك[1] وأتباعك ، فكان جزائى أنْ خالفتَ عهدى ، ونبذتَ وراء ظهرك أمرى ، حتى عِثْتَ فى الأرض ، وظلمتَ الرعية ، وأسخطتَ الله وخليفتَه بسوء سيرتك ، ورداءة طُعْمتك[2] ، وظاهرِ خيانتك ، وقد ولّيتُ هَرْثمةَ بن أعْيَن مولاىَ ثغرَ خُراسان ، وأمرته أن يشُدَّ وَطْأته عليك وعلى ولدك وكُتّابك وعُمّالك ، ولا يتركَ وراء ظهوركم دِرهما ولا حقّا لِمسلم ولا مُعاهَدٍ إلّا أخَذَكم به ، حتى تردّه إلى أهله ، فإن أبَيْتَ ذلك وأباه ولدُك وعُمّالك ، فله أن يبسُط عليكم العذابَ ، ويصُبَّ عليكم السِّياطَ ، ويُحِلَّ بكم ما يَحِلُّ بمن نكَثَ وغيّر وبدّل وخالَف وظلَمَ وتعدَّى وغَشَم[3] ، انتقاماً لله عزّ وجل بادئاً ، ولخليفته ثانياً ، وللمسلمين والمعاهَدين ثالثاً ، فلا تعرِّضْ نفسك التى لاشَوَى[4] لها ، واُخرجْ مما يلزمُك طائعاً أو مكرَهاً » .

وكان ذلك سنة ١٩١ . (تاريخ الطبرى ١٠ : ١٠٢)

١٧٢ ـ عهد الرشيد لهرثمة بن أعين وقد ولاه خراسان

وكتب عَهْد هَرْثمة بخطه :

« هذا ما عَهِد هٰرون الرشيد أمير المؤمنين إلى هَرْثمة بن أعْيَن ، حين ولّاه ثغرَ[5]

---

(١) الخول : الحاشية والحشم . (٢) الطعمة : المأكلة ووجه المكسب .
(٣) غشمه كضربه : ظلمه .
(٤) أشوى من الشئ : أبقى منه بعضا ، والاسم الشوى ، ولا شوى لها : أى لا إبقاء لها ، أو لا برء لها . (٥) الثغر : موضع المخافة من فروج البلدان .

خراسان وأعمالَه وخراجَه : أمَرَه بتقوى الله وطاعته ، ورِعاية أمر الله ومراقبته ، وأن يجعل كتاب الله إماماً فى جميع ما هو بسبيله ، فيُحِلّ حلالَه ، ويُحرِّم حرامه ، ويقِفَ عند متشابهه ، ويسأل عنه أولى الفقه فى دين الله ، وأولى العلم بكتاب الله ، أو يردَّه إلى إمامه ، ليُرِيَه الله عز وجل فيه رأيَه ، ويعزِمَ له على رشده .

وأمَرَه أن يستوثق من الفاسق على بن عيسى وولده وعماله وكتابه ، وأن يشُدَّ عليهم وَطْأته ، ويُحِل بهم سَطْوتَه ، ويستخرج منهم كل مال يصحُّ عليهم ، من خَراج أمير المؤمنين ، وفَىْء المسلمين ، فإذا استنظَفَ[1] ما عندهم وقِبَلهم من ذلك ، نظر فى حقوق المسلمين ، والمعاهَدين ، وأخَذَهم بحقِّ كلِّ ذى حق حتى يردوه إليهم ، فإن ثبتَتْ قِبَلهم حقوق لأمير المؤمنين ، وحقوق للمسلمين ، فدافَعوا بها وجحدوها ، أن يَصُبَّ عليهم سَوْط عذاب الله ، وأليم نقمته ، حتى يبلغ بهم الحالَ التى إن تخطاها بأدنى أدَب[2] ، تلِفَتْ أنفسُهم وبَطَلت أرواحهم ، فإذا خرجوا من حق كل ذى حق أشخَصهم كما تُشْخَص العُصاة ـ من خشونة الوِطاء ، وخُشونة المطعم والمشرب ، وغِلَظ المَلْبَس ـ مع الثِّقات من أصحابه ، إلى باب أمير المؤمنين إن شاء الله .

فاعمَلْ يا أبا حاتم بما عَهِدت إليك ، فإنى آثرتُ الله ودينى على هواى وإرادتى ، فكذلك فليكن عملك ، وعليه فليكن أمرك ، ودبِّر فى عُمّال الكُوَر الذين تمر بهم فى صُعُودك مالا يستوحشون معه إلى أمر يَرِيبهم ، وظنٍّ يُرعبهم ، وابسُطْ من آمال أهل ذلك الثغر ومن أمانهم وعذرهم ، ثم اعمل بما يَرْضى الله منك وخليفته ومَن ولّاك الله أمره إن شاء الله .

هذا عهدى وكتابى بخطى ، وأنا أُشهِد الله وملائكته وحَمَلَة عرشه وسكان سمواته ، وكفى بالله شهيداً » .

وكتب أمير المؤمنين بخط يده لم يحضُره إلا اللهُ وملائكته .

(تاريخ الطبرى ١٠ : ١٠٢)

---

(١) استنظف الوالى ما عليه من الخراج : استوفاه . (٢) أى تأديب .

١٧٣ — كتاب هرثمة بن أعين إلى الرشيد

وسار هرثمة إلى خراسان، وأنفذ ما عَهِد به إليه الرشيد، فلما حمل عليَّ بن عيسى إلى الرشيد، كتب إليه كتابا يخبره ما صنع، ونسخته:

«بسم الله الرحمن الرحيم: أما بعد، فإن الله عزَّ وجل لم يزل يُبْلِي[١] أميرَ المؤمنين في كل ما قلَّده من خلافته، واسترعاه من أمور عباده وبلاده أجملَ البَلاء وأكمَلَهُ، ويعرِّفه في كل ماحَضَره ونأى عنه، من خاصِّ أموره وعامِّها، ولَطيفِها[٢] وجليلها، أتمَّ الكفاية، وأحسنَ الولاية، ويُعطيه في ذلك كلِّه أفضَلَ الأُمْنية، ويُبْلِغه فيه أقصَى غاية الهمة، امتنانًا منه عليه، وحِفظا لِمَا جَعَلَ إليه، مما تكفَّلَ بإعزازه وإعزاز أوليائه وأهل حقه وطاعته، فنَسْتَتِمُّ اللهَ أحسنَ ما عوَّده وعوَّدَنا، من الكفاية في كل ما يؤدِّينا إليه، ونسأله توفيقا لِمَا نقضي به المُفْتَرَضَ مِن حَقِّهِ في الوقوف عند أمره، والاقتصار على رأيه.

ولم أزَلْ ـ أعزَّ اللهُ أميرَ المؤمنين ـ مُذْ فَصَلْتُ[٣] عن معسكَرِ أمير المؤمنين، ممتثِلا ما أمَرنى به فيما أنْهَضَنِي له، لَا أُجاوِز ذلك ولا أتعدَّاه إلى غيره، ولا أتعرَّفُ اليُمْنَ والبَرَكةَ إلَّا في امتثاله، إلى أن حَلَلْتُ أوائلَ خُراسان، صائنا للأمر الذى أمَرَنى أميرُ المؤمنين بصيانتهِ وسَتْرِه، لا أُفضي ذلك إلى خاصّيّ ولا إلى عامّيّ، ودبَّرْتُ في مكاتبة أهل: «الشاش وفَرْغانة[٤]». وخَزْلِهما عن الخائن، وقَطْعِ طَمَعِه وطَمَعِ مَنْ قِبَله عنهما، ومكاتبةِ مَن «ببَلْخ» بما كنت كتبتُ به إلى أمير المؤمنين وفسَّرتُ له، فلما نزلتُ نيسابورَ عملتُ في أمر الكُوَرِ التى اجتَزْتُ عليها، بتولية

---

(١) الإبلاء: الإنعام والإحسان، يقال: أبلاه الله بلاء حسنا، وأبليته معروفا، قال زهير:
جزى الله بالإحسان مافعلا بكم ... وأبلاهما خير البلاء الذى يبلو
(٢) لطف الشيء لطفا ولطافة ككرم: صغر ودق فهو لطيف.
(٣) فصل من البلد فصولا: خرج منه.
(٤) الشاش وفرغانة: كورتان وراء نهر سيحون متاخمتان الصين، وخزله كضربه: قطعه.

مَن وَلَّيت عليها قبل مجاوزتى إياها ، كجُرْجان ونَيْسابور ونَسَا ومَرْخَس[١] ، ولم آلُ الاحتياطَ فى ذلك ، واختيارَ الكُفَاة وأهل الأمانة والصِّحَّة من ثِقات أصحابى ، وتقدمتُ إليهم فى سَتْر الأمر وكِتمانه ، وأخذتُ عليهم بذلك أيمانَ البَيْعة ، ودفعتُ إلى كل رجل منهم عَهْدَه بولايته ، وأمَرْتهم بالمسير إلى كُوَر أعمالهم ، على أخْفَى الحالات وأسْتَرِها ، والتشبُّه بالمجتازين فى وُرودهم الكُورَ ومُقَامِهم بها ، إلى الوقت الذى سمَّيتُ لهم ، وهو اليوم الذى قدَّرتُ فيه دخولى إلى « مَرْو » ، والْتِقَائى وعلىَّ ابن عيسى ، وعملتُ فى استكفائى إسمٰعيلَ بن حَفْص بن مُصْعَب أمرَ جُرْجان بما كنت كتبت به إلى أمير المؤمنين ، فنفَّذَ أولئك العمالُ لأمرى ، وقام كلُّ رجل منهم فى الوقت الذى وُقِّتَ له بضَبْط عمله ، وإحكام ناحيته ، وكفى اللهُ أمير المؤمنين المئُونةَ فى ذلك بلطيف صُنْعه .

ولما صِرتُ من مدينة « مَرْو » على مِنزلٍ ، اخترتُ عِدَّةً من ثِقات أصحابى ، وكتبتُ بتسمية ولد على بن عيسى وكُتَّابه وأهل بيته وغيرهم رِقاعا ، ودفعتُ إلى كل رجل منهم رُقْعةً باسم مَن وكَّلْتُه بحفظه فى دخولى ، ولم آمَنْ لو قصَّرتُ فى ذلك وأخَّرتُه ، أن يصيروا عند ظهور الخبر وانتشاره ، إلى التغيب والانتشار ، فعملوا بذلك ، ورَحَلْت عن موضعى نحو مدينة « مرو » ، فلما صرت منها على ميلين تلقَّانى علىُّ ابن عيسى فى ولده وأهل بيته وقوّاده ، فلَقيتُه بأحسنِ لقاء وآنَسْتُه ، وبلَغْتُ من توقيره وتعظيمه والتماسِ النزول إليه أوّلَ ما بَصُرْتُ به ، ما ازداد به أُنْساً وَثِقةً ، إلى ما كان رَكَنَ إليه قبل ذلك مما كان يأتيه من كُتُبى ، فإنها لم تنقطع عنه بالتعظيم والإجلال منى له والالتماس ، لِأُلْقِيَ سُوء الظن عنه ، لئلا يَسبِق إلى قلبه أمرٌ ينتقضُ به ما دَبَّرَ أميرُ المؤمنين فى أمره ، وأمَرَنى به فى ذلك ، وكان اللهُ تبارك وتعالى هو المنفرد بكِفاية أميرِ المؤمنين الأمرَ فيه ، إلى أن ضَمنى وإياه مجلسُه ، وصرت إلى الأكل معه ،

---

(١) هكذا ضبطه ياقوت فى معجم البلدان ، ثم قال : «ويقال سرخس بالتحريك ، والأول أكثر»

فلما فرَغنا من ذلك بَدأنى يسألنى المصيرَ إلى منزِل كان ارتاده لى ، فأعلمتُه ما معى من الأمور التى لاتحتمل تأخيرَ المُناظرة فيها ، ثم دَفَع إليه « رَجَاء » الخادمُ كتابَ أمير المؤمنين، وأبلغَه رسالته ، فعلم عند ذلك أنْ قد حَلَّ به الأمرُ الذى جناه على نفسه، وكَسَبَتْه يداه ، مِنْ سُخط أمير المؤمنين ، وتغيُّر رأيه ، بخلافِه أمْرَه ، وتعدِّيه سيرتَه .

ثم صرت إلى التوكيل به ، ومضيت إلى المسجد الجامع ، فبسطْتُ آمال الناس ممَّن حَضَر ، وافتتحتُ القول بما حَمَّلنى أمير المؤمنين إليهم ، وأعلمتهم إعظامَ أمير المؤمنين ما أتاه ووضَحَ عنده من سوء سيرة علىّ ، وما أمرنى به فيه وفى عُمَّاله وَأعوانه ، وأنى بالغٌ مِنْ ذلك ، ومن إنصاف العامة وَالخاصّة ، والأخذِ لهم بحقوقهم أقصى غايتهم ، وأمرتُ بقراءة عهدى عليهم، وأعلمتُهم أن ذلك مِثالى وإمامى ، وأنِّى به أقتَدِى ، وعليه أحْتذى ، فمتى زَلَتُ عن باب واحد من أبوابه فقد ظلمتُ نفسى ، وَأحْلَلْتُ بها ما يَحِلُّ بمن خالَفَ رَأْى أمير المؤمنين وأمْرَه ، فأظهروا السرورَ بذلك والاستبشارَ ، وعَلَتْ بالتكبير والتهليلِ أصواتُهم ، وكثُر دعاؤهم لأمير المؤمنين بالبقاء ، وحسن الجزاء .

ثم انكفأتُ إلى المجلس الذى كان علىُّ بن عيسى فيه ، فصرت إلى تقييده وتقييد ولده وأهل بيته وكتّابه وعمَّاله، والاستيثاق منهم جميعا، وأمرتُهم بالخروج إلىّ من الأموال التى احتجنُوها(١) من أموال أمير المؤمنين وَفَىْءِ المسلمين، وإعفائى بذلك من الإقدام عليهم بالمكروه والضرب ، ونادیت فى أصحاب ودائعهم بإخراج ما كان عندهم ، فحَمَلُوا إلىّ - إلى أن كتبتُ إلى أمير المؤمنين - صَدْراً صالحًا من الوَرِق والعَيْن(٢) ، وأرجو أن يُعين الله على استيفاء ماقِبلهم ، واستنظافِ ماوراء ظهورهم ، ويسهِّلَ الله من ذلك أفضلَ ما لم يَزَل يعوِّدُه أميرَ المؤمنين من الصُّنع فى مثله ، من الأمور التى يُعْنَى بها إن شاء الله تعالى .

---

(١) احتجن المال : ضمه واحتواه . (٢) الورق : الدراهم المضروبة ، والعين : الدينار .

ولم أَدَعْ عند قدومى « مَرْو » التقدمَ فى توجيه الرسل وإنفاذِ الكتب البالغة فى الإعذار والإنذار، والتبصير والإرشاد، إلى «رافِع[١]» ومَن قبَله من أهل سَمَرْقَنْد، وإلى مَن ببَلْخ[٢] ، على حُسْن ظنّى بهم فى الإجابة ولزوم الطاعة والاستقامة ، ومهما تنصرِفْ به رُسُلى إلىّ يا أمير المؤمنين من أخبار القوم فى إجابتهم وامتناعهم ، أَعْمَلْ على حسَبه مِن أمرِهم ، وأُكتب بذلك إلى أمير المؤمنين على حَقِّه وصِدْقِه، وأرجو أن يعرف ألله أمير المؤمنين فى ذلك من جميل صنعه ، ولطيف كفايته ، ما لم تَزَل عادتُه جاريةً به عنده بمَنّه وَطَوْله وقُوّته ، والسلام » . (تاريخ الطبرى ١٠ : ١٠٥)

---

(١) هو رافع بن ليث بن نصر بن سيار ، وكان من خبره أنه ظهر بسمرقند مخالفا للرشيد وخلعه ونزع يده من طاعته (سنة ١٩٠) وذلك أن يحيى بن الأشعث الطائى كان تزوج ابنة لعمه أبى النعمان، وكانت ذات يسار ولسان ، فأقام بمدينة السلام وتركها بسمرقند ، فلما طال مقامه بها وبلغها أنه قد اتخذ أمهات أولاد ، التمست سببا للتخلص منه ، فعيّ عليها ، وبلغ رافعا خبرها فطمع فيها وفى مالها، فدس إليها من قال لها : إنه لاسبيل لها إلى التخلص من صاحبها إلا أن تشرك بالله وتحضر لذلك قوما عدولا وتكشف شعرها بين أيديهم ، ثم تتوب فتحل للأزواج ، ففعلت ذلك وتزوجها رافع، وبلغ الخبر يحيى بن الأشعث، فرفع ذلك إلى الرشيد ، فكتب إلى على بن عيسى يأمره أن يفرق بينهما ، وأن يعاقب رافعا ويجلده الحد ويقيده ويطوف به فى مدينة سمرقند مقيدا على حمار حتى يكون عظة لغيره ، فدرأ سليمان بن حميد الأزدى — عامل على بن عيسى على سمرقند — عنه الحد ، وحمله على حمار مقيدا حتى طلقها ثم حبسه فى سجن سمرقند ، فهرب من الحبس ليلا فلحق بعلى بن عيسى ببلخ فطلب الأمان ، فلم يجبه على إليه ، وهم بضرب عنقه، فكلمه فيه ابنه عيسى بن على ، وجدد طلاق المرأة وأذن له فى الانصراف إلى سمرقند ، فانصرف إليها فوثب بسليمان بن حميد فقتله ، فوجه على بن عيسى إليه ابنه ، فمال الناس إلى سباع بن مسعدة فرأسوه عليهم فوثب على رافع فقيده فوثبوا على سباع فقيدوه ورأسوا رافعاً وبايعوه وطابقه من وراء النهر ، ووافاه عيسى بن على فلقيه رافع فهزمه ، ثم غلظ أمر رافع بسمرقند سنة ١٩١ ، وكتب أهل نسف إليه يعطونه الطاعة ويسألونه أن يوجه إليهم من يعينهم على قتل عيسى بن على ، فوجه صاحب الشاش فى أتراكه وقائدا من قواده فأتوا عيسى بن على فأحدقوا به وقتلوه ، فخرج على بن عيسى عن بلخ إلى مرو مخافة أن يسير إليها رافع فيستولى عليها .

(٢) كان عيسى بن على قبل قتله دفن فى بستان داره ببلخ أموالا عظيمة — قيل إنها كانت ثلاثين ألف ألف ، ولم يعلم بها أباه ولا أطلع على ذلك إلا جارية كانت له ، فلما شخص على بن عيسى عن بلخ أطلعت الجارية على ذلك بعض الخدم وتحدث به الناس ، فاجتمع قراء أهل بلخ ووجوهها فدخلوا البستان فانتهبوه وأباحوه للعامة .

١٧٤ — رد الرشيد عليه

فأجابه الرشيد :

« بسم الله الرحمٰن الرحيم : أما بعدُ ، فقد بلغ أمير المؤمنين كتابُك بقدومك « مَرْوَ » فى اليوم الذى سَمَّيْتَ ، وعلى الحال التى وصفتَ ، وما فسَّرتَ ، وما كنت قدَّمْتَ من الحِيَل قبل ورُودك إياها ، وعمِلْتَ به فى أمر الكُور التى سمَّيْتَ ، وتولية مَن ولَّيتَ عليها قبل نفوذك عنها ، ولطَّفتَ له من الأمر الذى استجمع لك به ما أردتَ من أمر الخائن على بن عيسى وولده وأهل بيته ، ومن صار فى يدك من عمَّاله ، وأصحاب عمَّاله ، واحتذائك فى ذلك كلِّه ما كان أميرُ المؤمنين مَثَّلَ لك وَوَقَفَك عليه ، وفهِم أميرُ المؤمنين كلَّ ما كتبتَ به ، وحَمِدَ اللهَ على ذلك كثيرا ، وعلى تسديده إياك ، وما أعانك به من توفيقه ، حتى بلغت إرادةَ أمير المؤمنين ، وأدركتَ طَلِبَتَه ، وأحسنتَ ما كان يُحِبُّ بك وعلى يديك إحكامَه ، مما كان اشتد به اعتناؤه ، ولجَّ به اهتمامُه ، وجزاك الخير على نصيحتك وكفايتك ، فلا أعدم اللهُ أميرَ المؤمنين أحسنَ ما عرَفه منك ، فى كل ما أهاب[1] بك إليه ، واعتمد بك عليه .

وأميرُ المؤمنين يأمرك أن تزداد جِدًّا واجتهادا فيما أمرك به ، من تتبُّع أموالِ الخائن على بن عيسى وولده وكتَّابه وعمَّاله ووكلائه وَجَهابذته[2] ، والنظرِ فيما اختانوا[3] به أمير المؤمنين فى أمواله ، وظلَموا به الرعيةَ فى أموالهم ، وتتبع ذلك واستخراجه من مَظَانِّه ومواضِعِه التى صارت إليه ، ومن أيدى أصحاب الودائع التى استودَعوها إياهم ، واستعمال اللين والشدة فى ذلك كله ، حتى تصير إلى استنظافِ ما وراء ظهورهم ، ولا تبقى من نفسك فى ذلك بقيَّة ، وفى إنصاف الناس منهم فى حقوقهم

---

(١) أهاب به : دعاه . (٢) الجهابذة جمع جهبذ بكسر الجيم والباء : وهو النقاد الخبير .

(٣) خانه واختانه : بمعنى .

ومظالمهم حتى لا تَبْـقَى لمتظلّمٍ منهم قِبَلهم ظُلامةٌ إلااستقضيتَ ذلك له ، وحملته وإياهم على الحق والعدل فيها ، فإذا بلغتَ أقصى غاية الإحكام والمبالغة فى ذلك ، فأَشْخِص الخائنَ وولدَه وأهل بيته وكتَّابه وعمَّاله إلى أمير المؤمنين فى وَثاق[١] ، وعلى الحال التى استحقُّوها من التغيير والتنكيل بما كَسَبَتْ أيديهم ، وما اللهُ بِظَلَّامٍ للعبيد .

ثم اعمَلْ بما أمَرَك به أمير المؤمنين ، من الشُّخوص إلى سَمَرقند ، ومحاولة ما قبل « خامِل[٢] » ومن كان على رأيه ، ممن أظهر خِلافا وامتناعا من أهل كُوَر ما وراء النهر وَطخارستان[٣] بالدُّعاء إلى الفِيئَة[٤] والمراجعة ، وبَسْطِ أمانات أمير المؤمنين التى حمَّلَكَها إليهم ، فإن قبِلوا وأنابوا وراجعوا ما هو أَمْلَكُ بهم ، وفرّقوا جموعهم ، فهو ما يحبُّ أمير المؤمنين أن يعاملهم به ، من العفو عنهم والإقالة لهم ، إذ كانوا رَعِيَّتَهُ ، وهو الواجب عَلَى أمير المؤمنين لهم إذا أجابهم إلى طِلبتهم ، وآمَنَ رَوْعَهُم ، وكفاهم ولايةَ مَن كرِهوا ولايتَه ، وأمرَ بإنصافهم فى حقوقهم وظُلاماتهم ، وإن خالفوا ماظنَّ أمير المؤمنين ، فحاكِمْهم إلى الله إذ طَغَوا وبَغَوا وكرِهوا العافيةَ وردُّوها ، فإن أمير المؤمنين قد قضَى ما عليه ، فغيِّر ونكِّل وعزل واستبدل وعفا عمن أحدث وصفَح عمن اجتَرَمَ[٥] ، وهو يُشْهِد الله عليهم بعد ذلك فى خِلاف إن آثَرُوه ، وعُنُودٍ[٦] إن أظهروه ، وكفى بالله شهيداً ، ولا حَوْلَ ولا قوة إلا بالله العلى العظيم ، عليه يتوكل وإليه يُنيب ، والسلام » .

وكتب إسماعيل بن صُبَيْح بين يدى أمير المؤمنين .

(تاريخ الطبرى ١٠ : ١٠٧)

---

(١) الوثاق بالفتح ويكسر : مايشد به .
(٢) يعنى رافع بن ليث ، وسماه بضد اسمه تحقيرا له وتهوينا لشأنه .
(٣) ضبطه ياقوت فى معجم البلدان بفتح الطاء ، وضبطه ابن خلكان فى وفيات الأعيان (فى ترجمة بشار بن برد ١ : ٩٠) فقال : بضم الطاء وضم الراء ، وهى ولاية واسعة كبيرة من نواحى خراسان وراء نهر بلخ على جيحون .
(٤) الفيئة بالفتح والكسر : الرجوع .
(٥) أجرم واجترم : بمعنى .
(٦) عند عن الطريق كنصر وسمع وكرم عنودا : مال .

١٧٥ — كتاب لهرثمة بن أعين

وكتب هرثمة بن أعين :

« ليس يكون منك شىء وإن حَسُنَ ، إلاّ وحُسْنُ ظنّى بك يبلغه ، فاستَتِمّ أحسنَ ما كان منك ، يتمَّ لك أحسنُ ما تُحِبُّ منى ، ولا يمنعنَّك الاكتفاء بحالك اليومَ ، مِن طَلَب الزيادة فى غد ، فإنه لَقلَّ شىءٌ لا يزيد إلا نقصَ ، والزمانُ يَمْحَق الكثيرَ ، كما يربو على الزيادة القليلُ » . (اختيار المنظوم والمنثور ١٢ : ٢٦٤)

١٧٦ — كتاب لقمامة بن زيد فى السلامة إلى الخليفة

وكتب قُمامة[١] بن زيد فى السلامة إلى الخليفة .

« كلُّ ما قِبلَنا وما يقناهى إلينا عن ثغور أمير المؤمنين وأطرافه وبلاده أقصاها وأدناها ، فى صلاح ذلك كلِّه واستقامته وهدوئه ، على أفضل ماعوَّد اللهُ أميرَ المؤمنين فيه العلوَّ والعافية ، وأنا أحتذى[٢] فيه من أمير المؤمنين أمرين : إمَّا تقدِمَةٌ عرَّفنى فيها رأيَه ، فأنا ألزَمُها ولا أعدِلُ عنها ، وإمَّا أثَرٌ قد نَهَجه أمير المؤمنين فأنا أرْكَبُه وأتّبعه ولا أفارقه ، فعلى هذا بحَول الله وقوته مُعتمَدى ، قد كفَى الله به فى الهداية ، وأعطى فيه الخيرَ والمنَّ والسعادة ، فلله الحمد والشكر » .

(اختيار المنظوم والمنثور ١٣ : ٣٦٨)

١٧٧ — كتاب آخر

« كتبت إليك وقد استقام كلُّ ما قِبَلى واعتدل ، وجمَعَ الله أيدى أهله وقلوبَهم على إمامهم ، وأراهم من تباشير الخير وأمارات البَرَكة ، ما أرجو أن يُديمَه الله ، ويتابع

---

(١) كتب عبد الملك بن صالح بن على بن عبد الله بن عباس ، وكان بليغا فصيحا — انظر الفهرست ص ١٧٣ ، س ١٨٢ (وقد ولى عبد الملك للرشيد بلاد الجزيرة والشام ثم وليهما من بعده لابنه الأمين)

(٢) فى الأصل « وإلاعتدى » وهو تحريف ، وقد أصلحته كما ترى .

المَزِيدَ فيه ، والحمد الله الذى قذَفَ فى قلوب رعيته من الإذعان بحقه ، والبُخُوع[١] بطاعته ، والخروج من ضِيق ما كانوا فيه إلى سَعَةٍ مما كانوا عليه ، والذى ولاَّك ذلك منا ومنهم بذاتِك[٢] وباسْمِك ، وجَعَلَك الحامِلَ له عنا ، والقائمَ به لنا ، واللسانَ فيه دونَنا ، وأحسن اللهُ جَزاءك على ماحُطْتَ من هذه الدولة ، وتلافيتَ ما كان قد رثَّ من حَبْلها ، وَوَهَى مِن قُوَّتها » . (المنظوم والمنثور ١٣ : ٣٧٤)

١٧٨ — كتاب إسحق بن الخطاب إلى الهزبر بن صبيح

ولإسحٰق[٣] بن الخطاب إلى الهِزَبْرِ[٤] بن صُبَيح يعزيه عن أبيه :

« فإنَّ أولَى مَن حسُن عَزاؤُه مَن كان بمعرفته مكتفيا ، وعن غيره فيما أنعم الله عليه معزَّيا ، وأنت لسانٌ منصوبٌ لذلك ، بفضل ما عندك فيما بلَغَه منطقُك ، وأَتَى عليه بيانُك ، وهذا أوانُ اختبار الله إياك بشكر ذلك ، وَإقرارك بالحجة عليه فيما كنت به محتجّا عَلَى غيرك ، ودليلا عليه مما ذَخَر الله لأهل الفضل ، وَوَعَدهم إياه عَلَى ما رضى من القول عند وقوع قضائه وقَدَره ، وما أخبَرَ به خلقَه وبلاهم بحَسَنه وسَيِّئه ، وحُلْوه ومُرِّه ، والموتَ قد رأيتَ ورأينا خَطَراتِه بين أظهُرنا ، يخترِمُ[٥] الأبعدَ فلا يَحفِل ، ويترك الأقربَ يجزَع له ، وتتقلبُ قلوبنا فى ذلك مع أهوائنا دون الرضا به ، أسأل الله توفيقك وتوفيقنا بحظٍّ العاجل ، وسعادة الآجل .

وقد كان أبو الهِزَبر مخلوقا لما صار إليه ، لايؤمَن منه الشفقةُ عليه ، حتى أتاه ما كان يُتوقَّع ، ونزَل به ما لم يُنكَر ، فأعاذك الله أن تكون لِمِحْنَة الله كارهاً ،

(١) بخع بالحق كنمع بخوعا : أقربه وخضع له .
(٢) فى الأصل « بدمك » وهو تحريف ، والظاهر أن هذا الكتاب كتبه قامة عن عبد الملك ابن صالح إلى الرشيد بعد نكبة البرامكة .
(٣) كاتب قامة بن زيد ـ انظر الفهرست ص ١٨٢ .
(٤) هكذا فى المنظوم والمنثور ، وفى الفهرست « الهرير بن الصريع » كاتب قامة بن زيد، وكان فصيحا مترسلا ـ انظر الفهرست ص ١٧٣ ، ص ١٨٢ .
(٥) اخترمته المنية : أخذته .

ولقدَره مُنْكِراً ، بطَرْفٍ أو وَجْدِ قلب أو بأدْنَى جَزَع ، وإن خَلَصَتْ فى التسليم لذلك نِيَّتُك دون تحقيقه بقولك ، وتصديقه بفعلك ، فإن الله لم يَرْضَ من طيِّب(١) خلقه ومَن أثْنَى عليه بصالح عمله ، إلا بباطنٍ مع ظاهر ، وظاهرٍ مع باطن ، ولم يَحْمِل كلاًّ إلا على قدر طاقته ، ومَبْلَغ عمله ، فيما قرَّب من طاعته ، وجانَبَ معصيته ، ولم يجعل لك عذراً فى تقصيرٍ عن شكر نعمه عليك ، وإحسانه فى كل الحالات إليك ، ورَحِم الله أبا الهزبر ، وجعل ما نَقَلَه إليه خيراً ثَوَاباً وأمَلاً ، وخيراً عُقباً ومَرَدًّا ، وأرجو أن يفعل الله ذلك به ، لِمَا كان عليه فى دينه ونفسه وكريم خُلُقِه ، وما متَّعه الله به من لسان الناس فيه ، وأصحَبَه إياه من حسن الثناء عليه ، وعوَّضك الله من فقده وما عَدِمْتَ من الأُنس به السعادةَ فى دنياك ودينك ، حتى تلقاه على أفضل حالات أمَلِك ، وأوفاها له فيما تُؤْثِر من طاعته ، وأبلَغِها فى شكر نعمته ، وما قدَّمك به على كثير من خلقه فيما تَراه ويرى بك من فضله ، جعلَنا الله وإياك من الموفَّقين بالعصمة ، والآمنين من عذاب يوم القيامة ، ولا أعدَمنا الأنسَ بك ، والمتاع بطول بقائك » .

(اختيار المنظوم والمنثور : ١٣ : ٣٢٣)

١٧٩ – كتاب إسحق بن الخطاب إلى زيد بن الفرج

وكتب إسحٰق بن الخطَّاب إلى زيد بن الفرج يعزِّيه عن أمه :

« أسأل الله أن يَعْصِمك بعِصْمة التقوى ، وَيوفِّقك من العمل لما يُحِبُّ وَيَرْضَى ، وَإنا وخلقَ الله كلَّهم إليه راجعون ، إن الإكثار من العِظَة لا يُغْنِى عن ذى الجهالة ، والاقتصار على الكفاية لا يُخِلُّ بذى المعرفة ، وعندك مما كنت تَعِظُ به غيرَك ما قد احتجنا إلى الانتفاع به فى نفسك ، وكَفَى بالله واعظا ، وبما وعَدَ من ثَوَابه معزِّيا ، ولست أصغِّر مصيبتَك بوالدتك ، ولا أهوِّن ما نزل بك فيها ، بل أُعظِّمها وأُجِلُّها

(١) فى الأصل « طبه » .

لِمَا كنت ترجو من الله على برِّك بها ، وتتقرَّب من زيادته إياك بدعائها ، غيرَ أنْ أملَكَ الأمرين بك فى حق الله عليك : التسليمُ لأمره ، والرضا بما وَقَع مِن قَدَره ، والأخذُ من نفسك بكل ما دعاك إليه بيتك من بُعْدِ صلاحه وحُسْنِ عمله[1] ، فإنك ومثلَك مِن حَمَلة النِّعَم ، وذوى التقلُّب من الله فى البلاء الحسَنِ ، لستم كمن يَدعُ ما يَلزَم ، ويجهَلُ ما ينبغى له أن يَعلَمهُ ، ولولا ما فى الكتاب من قضاء حق الله ، ومِن جَرّ[2] ثوابٍ وتذكُّرٍ ، لرَضِيتُ بمعرفتك . دون تعزيتك ، فأعظَمَ اللهُ أجْرَك ، ولا أفقَدك مايعودك ببقائها من نافلة[3] وزيادةٍ فى حَظّ ، وجعَلَك وإيانا من الشاكرين الراضين بمَجَارِى أقضِيَته ، وَوَلِىَ لك أمورَك وإخوانَك بتعميرك » .

(اختيار المنظوم والمنثور ١٣ : ٣٢٤)

١٨٠ — كتاب للهزبر فى التنصل

« قد فتحتَ علىَّ — منع الله نقدك — باب المعتِبَة ، وأحوجْتَنى إلى أن أغلِقَه عنى بالمعذِرة والُحجَّة ، وكلَّفتنى من ذلك ما لم يكن لى خُلقًا ولا عادة ، وَرأيتك عجِلْتَ فقبِلْتَ صناعة لسان كاذب ، واستعذبت رأىَ فاجر ، فاسْمَع وَأنْصِف ، ولا يذهبَنَّ بك هوًى مُسْرِفٌ ، ولا يغلِبَنَّ عليك شىء سَبَق إلى أُذُن أو قلب ، فليس لك أن تَغفُلَ ولا تَغافَلَ[4] ، ولا تجعل توهُّمًا كحَقٍّ ، ولا يقيناً كشَكّ » .

(اختيار المنظوم والمنثور ١٣ : ٣٩٠)

---

(١) وردت هذه العبارة فى الأصل هكذا : « والأخذ من نفسك بكل مادعتك إليه سبك من بعد صلحه وعمل حسنه » وقد أصلحتها كما ترى (ومع هذا فإنى لست بمستريح إلى هذا التخريج ، وأغلب الظن أنه قد سقط من الناسخ هنا كلام) .

(٢) فى الأصل « حر » .

(٣) النافلة : العطية .

(٤) فى الأصل « أن تغفل ولا تغافل » وهو تحريف .

١٨١ — كتاب محمد بن كثير إلى الرشيد

وكتب محمد بن كُثَيِّر إلى هرون الرشيد :

« يا أمير المؤمنين ، لولا حظُّ كرم الفعل فى مطالع السؤال ، لَأَلْهَى المَطْلُ قلوبَ الشاكرين ، ولَصَرَفَ عيونَ الناظرين إلى حسن المحبة ، فأى الحالين يبعد قولك من مَجَاز فعلك ؟ » .

فقال هرون الرشيد : هذا الكلام لا يحتمل الجواب ، إذا كان الإقرار به يمنع من الاحتجاج عليه » . (زهر الآداب ٣ : ٣٠٦)

١٨٢ — كتاب أبي هرون العبدى إلى زبيدة بنت جعفر

ولما مات قرد زُبَيدة[1] بنت جعفر ، ساءها ذلك وناها من الغم ما عرَفَهُ الصغير وَالكبير من خاصَّتها ، فكتب إليها أبو هرون العَبْدى :

« أيتها السيدة الخطيرة ، إن مَوْقِع الخطب بذهاب الصغير المُعْجِب ، كموقع السرور بنَيْل الكثير المُفْرِح ، ومَن جَهِل قدر التعزية عن التَّافِه الخفِيّ ، عَمِيَ عن التهنئة بالجليل السَّنِيّ[2] ، فلا نَقَصَكِ اللهُ الزَّائدَ فى سرورك ، ولا حَرَمَكِ أجرَ الذاهب مِن صغيرك » .

فأمرت له بجائزة (زهر الآداب ٣ : ٢٩٧)

١٨٣ — كتاب الأمين إلى أخيه المأمون

ووافتِ الرشيدَ منيته وهو بطُوسَ إحدى مدن خُراسان فى جمادى الآخرة

(١) هى زبيدة أم جعفر : بنت جعفر بن المنصور ، زوج الرشيد ، وأم الأمين ، توفيت ببغداد سنة ٢١٦ هـ — تاريخ الطبرى ١٩ : ١٢١ .

(٢) السنى : الرفيع .

سنة ١٩٣ ، وكان معه ابنه صالح[١] ، والمأمونُ يومئذ بمَرْو ، والأمين ببغداد ، فبويع له بالخلافة .

وكان الأمين لمَّا بلغه أن أباه قد اشتدت علَّته ، وأنَّه لِمَا بِه، بعث بكر بن المُعْتَمِر ، وكتب معه كتبا : منها كتاب إلى أخيه المأمون ، وكتاب إلى أخيه صالح ، وأمره بإخفائها حتى يموت أمير المؤمنين ، فإذا مات دفَعَ إلى كلٍّ كتابَه ، فلما قَضى الرشيدُ دفع ابن المعتمر إلى صالح كتابه ، وبعث إلى المأمون بكتابه .

وكانت نسخة كتاب الأمين إلى أخيه المأمون :

« إذا وَرَد عليك كتاب أخيك ـ أعاذَه الله من فَقْدِك ـ عند حُلول مالا مَرَدَّ له ولا مَدْفَعَ ، مما قد أخَفَّ[٢] وتناسَخَ الأُمَمَ الخاليةَ ، والقرونَ الماضية ، بما عزَّاك الله به ، واعلَمْ أن الله جلَّ ثناؤه ، قد اختار لأمير المؤمنين أفضلَ الدارَيْن ، وأجزَلَ الحظَّين ، فقبَضَهُ الله طاهراً زاكيا قد شَكَر سَعْيَه ، وغفر ذنبَه إن شاء الله ، فقُمْ فى أمرك قيامَ ذى الحزم والعزم ، والناظرِ لأخيه ونفسِه وسُلطانه وعامَّة المسلمين ، وإياك أن يغلِبَ عليك الجزَعُ ، فإنه يُحْبِطُ[٣] الأجْرَ ، ويُعقِبُ الوِزْرَ ، وصلواتُ الله على أمير المؤمنين حيًّا وميتا ، وإنا لله وإنا إليه راجعون .

وخذ البَيعة على من قِبَلَك مِن قُوَّادك وجندك وخاصَّتك وعامتك لأخيك ، ثم لنفسك ، ثم للقاسِم ابن أمير المؤمنين على الشَّريطة التى جعلها لك أمير المؤمنين من نَسْخِها[٤] له أو إثباتها ، فإنك مُقَلَّد من ذاك ما قَلَّدك الله وخليفته ، وأَعلِمْ مَن قِبَلك

---

(١) أمه أم ولد يقال لها رئم .

(٢) من خف القوم عن منزلهم خفوفا : أى ارتحلوا مسرعين ، وخف القوم خفوفا أيضا : قلوا .

(٣) أى يفسد .

(٤) أى من فسخها وإبطالها ، وقد تقدم لك فى عهد الأمين : « فإذا أفضت الخلافة إلى عبد الله ابن أمير المؤمنين ، فالأمر إليه فى إمضاء ماجعله أمير المؤمنين من العهد للقاسم بعده ، أو صرف ذلك عنه إلى من رأى من ولده وإخوته ... إلخ » .

رأيى فى صلاحهم وسَدُّ خَلَّتهم[1] والتوسِعَة عَلَيْهِمْ، فمن أنكرْتَه عند بيعته ، أو اتهمتَه على طاعته ، فابعث إلىَّ برأسه مع خبره ، وإياك وإقالتَه ، فإن النار أوْلَى به ، واكتب إلى عُمَّالِ ثغورك وأمراء أجنادك ، بما طَرَفك من المصيبة بأمير المؤمنين ، وأعلِمْهم أن الله لم يَرْضَ الدنيا له ثوابا حتى قَبَضه إلى رَوْحه[2] وراحته وجَنته مَغْبُوطاً محموداً ، قائداً لجميع خلفائه إلى الجنة إن شاء الله ، ومُرهم أن يأخذوا البيعة على أجنادهم وخَوَاصِّهم وعوامِّهم على مثل ما أمرتُك به مِنْ أخذها على مَن قِبَلك ، وأوعِزْ إليهم فى ضبط ثغورهم ، والقوة على عدوهم . إنى متفقِّدٌ حالاتهم ، ولامٌّ شَعَثَهم ، ومُوَسِّع عليهم ، ولا آنٍ[3] فى تقوية أجنادى وأنصارى ، ولتكن كُتُبُك إليهم كتباً عامَّة لِتُقْرأ عليهم ، فإن ذلك ما يسكِّنهم ويبسُطُ أملهم ، واعمل بما تأمر به لِمَن حَضَرك أو نأى عنك من أجنادك على حَسَب ما ترى وتشاهد ، فإن أخاك يعرف حُسْن اختيارك ، وصِحَّةَ رأيك ، وبُعْد نظرك ، وهو يستحفِظُ اللهَ لك ، ويسأله أن يشُدَّ بك عضُدَه ، ويجمَعَ بك أمْرَه ، إنه لطيف لما يشاء » .

وكتب بكر بن المعتمر بين يدىَّ وإملائى شوال سنة ١٩٢ .

(تاريخ الطبرى ١٠ : ١٢٥)

١٨٤ — كتاب الأمين إلى أخيه صالح

ونسخة كتابه إلى أخيه صالح :

« بسم الله الرحمٰن الرحيم : إذا وَرَد عليك كتابى هذا عند وقوع ما قد سَبَقَ فى عِلْمِ الله ، ونَفَذ مِن قضائه فى خُلَفائه وأوليائه ، وجَرَتْ به سُنَّتُه فى الأنبياء والمرسلين والملائكة المقرَّبين ـ فقال : « كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إلَّا وَجْهَهُ لَهُ الْحُكْمُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ » ـ فاحمَدوا الله على ما صار إليه أميرُ المؤمنين من عظيم ثوَابه ، ومُرَافقةِ

(١) الخلة : الحاجة والفقر . (٢) أى رحمته . (٣) أى ولا مبطىء ولا متأخر .

أنبيائه صلوات الله عليهم ، إنا إليه راجعون ، وإياه نسألُ أن يُحْسِن الخلافةَ على أمة نبيه محمد صلى الله عليه وسلم ، وقد كان لهم عِصْمةً و كَهْفاً[١] ، وبهم رءوفا رحيما .

فشَمِّر فى أمرك ، وإياك أن تُلْقِيَ بيديك ، فإن أخاك قد اختارك لما استنهضك له ، وهو متفقِّد مواقِعَ فِقْدانك[٢] ، فحقِّق ظنَّه ، ونسأل الله التوفيق .

وخذ البيعة على مَن قِبَلَك من ولد أمير المؤمنين وأهل بيته ومَواليه وخاصَّته وعامَّته ، لمحمد أمير المؤمنين، ثم لعبد الله ابن أمير المؤمنين، ثم للقاسم ابن أمير المؤمنين، على الشَّريطة التى جعلها أميرُ المؤمنين صلوات الله عليه مِن فَسْخها على القاسم أو إثباتها، فإن السعادة واليُمْن فى الأخذ بعَهْده والمُضِىِّ عَلَى مَناهِجه ، وأَعْلِم مَن قِبَلَك من الخاصَّة والعامَّة رأيي فى استصلاحهم ، وَرَدِّ مظالمهم ، وتفقُّد حالاتهم ، وأداءِ أرزاقهم وأَعْطِيَاتِهم[٣] عليهم ، فإن شَغَبَ[٤] شاغب ، أو نَعَرَ ناعِر ، فاسْطُ به سَطوةً تجعله نَكالًا لما بين يديها وما خَلْفها ومَوْعِظة للمتقين .

واضمُم إلى الميمون ابن الميمون الفضلِ[٥] بن الربيع وَلَد أمير المؤمنين وخَدَمه وأهْلَه ومُرْه بالمسير معهم فيمن معهُ وجنده ورابِطته[٦] ، وصيِّر إلى عبد الله بن مالك أمْرَ العسكر وأحداثه ، فإنه ثقةٌ على ما يَلِي ، مقبول عند العامّة ، واضمم إليه جميع جند الشُّرَط من الروابط وغيرهم إلى من معه من جنده ، ومره بالجِدِّ والتيقظ وتقديم الحزم فى أمره كله ليلَه ونهارَه ، فإن أهل العداوة والنفاق لهذا السلطان يغتنمون مثلَ حُلول هذه المصيبة .

---

(١) الكهف : الوزر والملجأ .

(٢) يريد بالفقدان الغياب ، والمعنى . أن أخاك يرقبك فى المواقف التى استنهضك لها ، ولا يحب أن يراك غائبا فى موقف منها . (٣) أعطيات : جمع أعطية ، وأعطية : جمع عطاء .

(٤) شغبهم وبهم وعليهم كمنع وفرح : هيج الشر عليهم ، ونعر كمنع وضرب نعيرا ونعارا : صاح، والمهيِّج ثار ودعا إلى الفتنة .

(٥) هو الفضل بن الربيع بن يونس ، استوزره الرشيد بعد أن نكب البرامكة ، ثم ابنه الأمين من بعده ، وهو الذى زين للأمين خلع المأمون من البيعة كما سيأتى ، وتوفى سنة ٢٠٨ . انظر ترجمته فى وفيات الأعيان ٢ : ٤١٢ والفخرى ص ١٩٢ وتاريخ بغداد للخطيب البغدادى ١٢ : ٣٤٣ .

(٦) الرباط (بالكسر) والمرابطة : ملازمة ثغر العدو ، فالرابطة هى الجند المرابطون .

وأَقِرَّ حاتم بن هرْثمة على ماهو عليه، ومُره بحِراسة مايحفظ به قُصُورَ أمير المؤمنين، فإنه ممن لا يُعرَف إلا بالطاعة ، ولا يَدين إلا بها ، يعَاقِدَ من الله ، بما قدّم له من حال أبيه[1] المحمود عند الخلفاء .

ومُر الخدم بإحضار رَوَابطهم مَن يُسَدّ بهم وبأجنادهم مواضعُ الخَلَل من عسكرك، فإنهم حدٌّ من حدودك .

وصيِّر مقدِّمتك إلى أسَد بن يزيد بن مَزْيد ، وساقتَك[2] إلى يَحيى بن مُعاذ فيمن معه من الجنود ، ومُرهما بمُناوَبتك فى كل ليلة ، والزَم الطريقَ الأعظم ، ولا تَعدُوَنَّ المَراحِلَ ، فإن ذلك أرفَقُ بك ، ومُر أسد بن يزيد أن يتخيّر رجلا من أهل بيته أو قواده فيصير إلى مقدِّمته ، ثم يصير أمامه لتهيئة المنازل أو بعض الطريق ، فإن لم يَحْضُرْك فى عسكرك بعضُ من سَمَّيتُ فاختَرْ لمواضعهم مَن تثِق بطاعته ونصيحته وهيبته عند العوامّ ، فإن ذلك لن يُعْوِزَك من قُوادك وأنصارك إن شاء الله .

وإياكَ أن تُنفِذَ رأياً أو تُبْرِم أمراً إلّا برأى شيخك وبقيّة آبائك الفضلِ ابن الربيع ، وأقرِرْ جميع الخدم على ما فى أيديهم من الأموال والسلاح والخزائن وغير ذلك ، ولا تُخرجَنّ أحداً منهم مِن ضِمْن ما يلى إلى أنْ تَقْدَم عَلَىّ .

وقد أوصيتُ بكر بن المعتمر بما سَيُبْلِغُكَهُ ، واعمَل فى ذلك بقدر ما تشاهد وترى ، وإن أمرتَ لأهل العسكر بعطاء أو رزق ، فليكن الفضل بن الربيع المتولِّىَ لإعطائهم على دوَاوينَ[3] يتخذها لنفسه ، بمَحْضَر من أصحاب الدواوين ، فإن الفضل ابن الربيع لم يزل مثل ذلك لمُهِمّات الأمور .

---

(١) يعنى هرثمة بن أعين ، وقد تقدم ذكره .

(٢) الساقة : مؤخرة الجيش .

(٣) الديوان : الكتاب الذى يكتب فيه أسماء الجيش وأهل العطاء ، وهو فارسى معرب . قال القلقشندى فى صبح الأعشى ١ : ٩٠ « وقد حكى الماوردى فى الأحكام السلطانية » فى سبب تسميته بذلك وجهين : أحدهما : أن كسرى ذات يوم اطلع على كتاب ديوانه فى مكان لهم ، وهم يحسبون مع أنفسهم ، فقال « ديوانه » أى مجانين، فسمى موضعهم بهذا الاسم ولزمه من حينئذ ، ثم حذفت الهاء =

وأنفذْ إليّ عند وصول كتابى هذا إليك إسماعيل بن صبيح وبكر بن المعتمر على مَرْ كَبَيْهِماَ من البَريد[1]، ولا يكون لك عُرْجة[2] ولا مُهْلة بموضعك الذى أنت فيه حتى توجِّه إلىّ بعسكرك بما فيه من الأموال والخزائن إن شاء الله . أخوك يستدفع الله عنك، ويسأله لك حُسْنَ التأييد برحمته ».

وكتب بكر بن المعتمر بين يدىّ وإملائى فى شوال سنة ١٩٢ .

(تاريخ الطبرى ١٠ : ١٢٦)

١٨٥ — كتاب عيسى بن واضح إلى الفضل بن الربيع

وكتب عيسى بن واضح إلى الفضل بن الربيع :

« قد أكَّد الله من حُرْمتى بك، ووصل من الشُّعَب بينى وبينك، ماجعله ذَخيرةً ليوم الحاجة، وعُدَّةً عند مُلِمّ النازلة » . (اختيار المنظوم والمنثور ١٢ : ٢٦٣)

١٨٦ — كتاب موسى بن عيسى إلى الأمين

وكتب موسى بن عيسى فى سلامة المَوْسِم إلى الأمين :

« أما بعدُ، فإن الله بحَمْدِه ومَنّه هو ولىُّ أمير المؤمنين وولىُّ النعمة عليه فيما حمَّله

= من آخره لكثرة الاستعمال تخفيفا فقيل ديوان . والثانى : أن الديوان بالفارسية اسم الشياطين، وسمى الكتاب بذلك لحذقهم بالأمور، ووقوفهم على الجلى منها والخفى » اه ومنه ترى أن الديوان كان يطلق فى الفارسية على موضع الكتاب الحاسبين، وعلى جماعة الكتاب، وقد أطلق فى العربية على جريدة الحساب، ثم أطلق على الحساب، ثم على موضع الحساب، ثم على طائفة الكتاب، وكان عمر بن الخطاب رضى الله عنه أول من دون الدواوين فى العرب سنة ٢٣ هـ أى رتب الجرائد للعمال ورجال الجيش، فيها أسماؤهم ومراتبهم فى النسب وأرزاقهم — انظر تاريخ الطبرى ٥ : ٢٣ .

(١) البريد : البغلة المرتبة فى الرباط، كلمة فارسية: تعريب بريده دم : أى محذوف الذنب، لأن بغال البريد كانت محذوفة الأذناب كالعلامة لها، فأعربت وخففت، ثم سمى به الرسول المحمول عليها، وفى قول بعض العرب « الحمى بريد الموت » أى أنها رسوله المنذر به، ثم سميت به المسافة التى يقطعها .

(٢) عرج تعريجا : ميل وأقام وحبس المطية على النزل، والعرجة مثلثة العين والعرجة بالتحريك : التعريج .

الله واستحفظه ، وجمله القائم به ، والمحافظ عليه ، من ولاية دينه ، ورعاية أهله ، والمرجو لإتمام[1] ذلك بمنه ورحمته .

وإنى كتبت إلى أمير المؤمنين يوم النفر[2] الأول ، وقد قضى الله مناسكنا ، وتمم حجنا ، وأرانا فى مواقفنا وإفاضتنا ومن حضر الموسم معنا من رعية أمير المؤمنين أفضل مالم يزل يبلى[3] الله أمير المؤمنين ويعوده ، ويبلى الرعية فى خلافته ، من السلامة والعافية ، والتوفيق والكفاية ، والله محمود .

ولم أر موسما كان أعم عافية وسلامة ، وأحسن هديا ودعة ، وأكثر داعيا لأمير المؤمنين وولى عهده بطول البقاء ، من موسم الناس فى عامهم هذا ، بنعمة الله وفضله .

أحببت الكتاب إلى أمير المؤمنين ، لمعرفتى بعنايته وتطلعه إلى عمله ، ليسر به ، «ويحمد الله عليه ويشكره ، فإنه شاكر يحب الشاكرين » .

(اختيار المنظوم والمنثور ١٣ : ٣٧١)

١٨٧ — كتاب المأمون إلى الأمين

واستوزر الأمين الفضل بن الربيع ، فما لبث أن سعى فى إغرائه بأخيه المأمون ، وحثه على خلعه ، وصرف ولاية العهد من بعده إلى ابنه موسى ، ولم يزل به يزين له خلعه حتى جنح إلى رأيه[4] .

---

(١) فى الأصل « لإنعام » وأرى أنه « لإتمام » .

(٢) نفر الحاج من منى كضرب نفرا ونفورا ، ويوم النفر الأول : هو الثانى من أيام التشريق (وأيام التشريق ثلاثة ، وهى بعد يوم النحر ، قيل سميت بذلك لأن لحوم الأضاحى تشرق فيها : أى تقدد فى الشرقة بالفتح وهى الشمس) .

(٣) أبلاه : أنعم عليه وأحسن إليه .

(٤) وذلك أن الفضل بن الربيع كان مع الرشيد بطوس ، فلما مات الرشيد أمر الفضل الناس بالرحيل ففعلوا ذلك محبة منهم للحاق بأهلهم ومنازلهم ببغداد ، وتركوا العهود التى كانت أخذت عليهم للمأمون ، وجمع الفضل جميع ما كان فى عسكر الرشيد وحمله إلى الأمين ، وكان الرشيد قد أشهد به للمأمون ، =

وكتب الأمين إلى المأمون يسأله أن يتجافى له عن كُوَرٍ من كُوَر خراسان سمّاها وأن يوجّه العمال إليها من قِبَل الأمين، وأن يحتمل توجيه رجل من قبَله يولّيه البريدَ عليه ليكتب إليه بخبره، فكَبُر ذلك على المأمون واشتد، وأحضر خاصّته من الرؤساء والأعلام، وقرأ عليهم الكتاب، واستشارهم فى الأمر، فأشار عليه كلٌّ بما يرى، فقال المأمون لوزيره الفضل[1] بن سَهْل ذى الرياستين: اكتب يا فضلُ إليه، فكتب:

« وقد بلغنى كتابُ أمير المؤمنين، يسأل التّجافِىَ عن مَواضعَ سمَّاها، مما أثبتَه الرشيد فى العَقْدِ، وجَعَلَ أمرَه إلىَّ، وما أمْرٌ رآه أمير المؤمنين أحدٌ يجاوزُ أكثَرَه، غير أن الذى[2] جعل إلىَّ الطَّرْف الذى أنا به لا ظَنينٌ فى النظر لعامَّته، ولا جاهِلٌ بما أسْنَدَ إلىَّ من أمره، ولو لم يكن ذلك مُثْبَتًا بالعهود والمَواثيق المأخوذة، ثم كنتُ على الحال التى أنا عليها: مِنْ إشراف عدوٍّ مَخُوف الشَّوكة، وعامَّةٍ لا تتألَّفُ عن هَضْمِها[3]،

= ثم فكر الفضل بعد مقدمه العراق، وعلم أن الخلافة إن أفضت إلى المأمون وهو حى لم يبق عليه، فزين للأمين خلع المأمون والبيعة لابنه موسى - ولم يكن ذلك من رأى الأمين ولا عزمه - واتفق مع الفضل جماعة على ذلك، فال الأمين إلى أقوالهم، ثم استشار عقلاء أصحابه فنهوه عن ذلك وحذروه عاقبة البغى ونكث العهود والمواثيق، وقالوا له: لا تجرئ القواد على النكث للأيمان وعلى الخلع فيخلعوك، فلم يلتفت إليهم، ومال إلى رأى الفضل بن الربيع.

(١) هو الفضل بن سهل بن عبد الله السرخسى وزير المأمون، ويلقب بذى الرياستين لأنه تقلد الوزارة والسيف، وقد جاء فى رسالة الشكر - وسنرد عليك بعد -: « فأية نعمة أجل قدرا وأسنى أمرا معشر الشيعة، من نعمة أمير المؤمنين أيده الله عند الأمير ذى الرياستين، ومراتبه التى رتبه بها، فإنه أعطاه رياسة الحرب ورياسة التدبير ... إلخ » وكذلك ذكر الجهشيارى فى كتابه « الوزراء والكتاب ص ٣٨٧ » قال: « ولقب المأمون الفضل بن سهل ذا الرياستين، ومعنى ذلك رياسة الحرب ورياسة التدبير ». وهو من أبناء الفرس، وكان بنو سهل صنائع البرامكة. وكان أبوه سهل مجوسيا فأسلم على يد المهدى، وأسلم الفضل على يد المأمون سنة ١٩٠، وقتله المأمون سنة ٢٠٢ كما سيأتى، انظر ترجمته فى وفيات الأعيان ١: ٤١٣ والفخرى ص ٢٠٢ وتاريخ بغداد للخطيب البغدادى ٢: ٣٣٩.

(٢) هو الرشيد، والطرف: منتهى كل شىء، وهو هنا خراسان لأنها منتهى الدولة. والظنين: المتهم.

(٣) أى عن طريق ظلمها ونقص حقوقها.

وأجنادٍ لا تُسْتَتْبَع طاعتُها إلا بالأموال وطَرَفٍ[1] من الإفضال ، لكان فى نظر أمير المؤمنين لعامَّته ، وما يُحِبُّ من لَمِّ أطرافه ، ما يوجب عليه أن يَقسم له كثيراً من عنايته ، وأن يستصلِحَه ببَذْلِ كثيرٍ من ماله ، فكيف بمسألةٍ ما أوجَبَه الحقُّ ، ووكَّدَتهُ مأخوذةُ العهد ؟ وإنى لأعْلَمُ أن أمير المؤمنين لو عَلِم من الحال ما علمتُ ، لم يُطلِع ما كتَبَ بمسألته إلىَّ ، ثم أنا على ثقة من القبول بعد البيان إن شاء الله » .

(تاريخ الطبرى ١٠ : ١٣٠)

١٨٨ — رد الأمين على المأمون

فكتب إليه الأمين :

« أما بعد : فإن أمير المؤمنين الرشيد ، وإن كان أفْرَدَك بالطَّرْف ، وَضَمَّ ماضَمَّ إليك من كُوَر الجَبَل ، تأييداً لأمرك ، وتحصيناً لطَرْفك ، فإن ذلك لا يُوجِب لك فَضْلة المال عن كفايتك ، وقد كان هذا الطرفُ وخَراجُه كافياً لِحَدَثه ، ثم تتجاوز بعد الكفاية إلى ما يَفْضُل مِن رَدِّه ، وقد ضمَّ لك إلى الطرف كُوَراً من أمَّهات كُوَر الأموال لا حاجَةَ لك فيها ، فالحقُّ فيها أن تكون مردودة فى أهلها ومواضع حقها .

فكتبتُ إليك أسألك رَدَّ تلك الكور إلى ما كانت عليه من حالها ، ليكون فُضولُ رَدِّها مصروفةً إلى مواضعها ، وأنْ تأذَن لقائمٍ بالخبَرِ يكون بحَضْرَتك يؤدِّى إلينا عِلْمَ ما نُعْنَى به من خَبَر طَرْفك ، فكتبتَ تَلِطُّ[2] دون ذلك بما إنْ تَمَّ أمْرُك عليه صيَّرنا الحقُّ إلى مطالبتك ، فاثْنِ عن همِّك، أثْنِ عن مطالبتك إن شاء الله » .

(تاريخ الطبرى ١٠ : ١٣٣)

---

(١) الطرف بالتحريك : الطائفة من الشىء .
(٢) لط حقه وعنه كضرب ، وألط : جحده .

١٨٩ — رد المأمون على الأمين

فلما قرأ المأمون الكتاب كتب مجيبا له :

« أما بعدُ : فقد بلغنى كِتاب أمير المؤمنين ، ولِمَ يكتب فيما جَهِل فأكشف له عن وجهه ؟ ولِمَ يسأل مَا لايُوجبه حَق فيُلزمَنى الُحجَّة بترك إجابته ؟ وإنما يتجاوز المناظِران مَنزلةَ النَّصَفة[1] مَا ضاقت النَّصَفةُ عن أهلها ، فمتى تجاوَز متجاوِزٌ — وهى موجودةٌ — ولم يكن تجاوُزُها إلا عن نَقضها واحتمالِ مَا فى تركها ؟ فلا تبعثنِي يابن أبى على مخالفتك وأنا مُذْعِنٌ بطاعتك ، ولا على قطيعَتِك وأنا على إيثارٍ[2] ما تحبُّ من صِلتك ، وارضَ بما حَكَمَ به الحقُّ فى أمرك ، أكُنْ بالمكان الذى أنزَلَنى به الحقُّ فيما بينى وبينك والسلام » . (تاريخ الطبرى ١٠ : ١٣٤)

١٩٠ — رد الأمين على المأمون

فلما وصل كتاب المأمون إلى الأمين غضب وتغيظ وأمر بالإمساك عن الدعاء له على المنابر ، وكتب إليه :

« أما بعد : فقد بلغنى كتابك غامِطًا[3] لنعمة الله عليك فيما مكَّن لك من ظِلِّها[4] متعرِّضاً لِحرَاقِ نارٍ[5] لا قِبَل لك بها ، ولَحَطُّك عن الطاعة[6] كان أوْدَع ، وإن كان قد تقدَّم منى متقدِّمٌ[7] فليس بخارج من مواضِع نَفعك ، إذ كان راجعا على العامة من رعيَّتك ، وأكثرُ من ذلك مايمكِّنُ لك من منزلة السلامة ، ويُثبت لك من حال الهُدْنَة[8] ، فأعلِمْنى رأيك أعمَلْ عليه إن شاء الله » . (تاريخ الطبرى ١٠ : ١٣٤)

---

(١) النصفة : الإنصاف والعدل . (٢) أى تقديم وتفضيل .
(٣) غمط نعمة الله وغمطها كضرب وسمع فيهما : بطرها وكفرها ولم يشكرها .
(٤) الظل : معروف . والعز والمنعة . (٥) نار حراق : لاتبقى شيئا .
(٦) أى ولنزولك على إرادتى مطيعا لأمرى . . . .
(٧) أى طلب متقدم ، وهو سؤاله إياه أن يتجافى له عن بعض كور خراسان .
(٨) الهدنة : المصالحة والدعة والسكون .

١٩١ — كتاب المأمون إلى الأمين

وقال المأمون لذى الرياستين : إن ولدى وأهلى ومالى الذى أفرَدَه الرشيد لى بحضرة الأمين ، وهو مائة ألف ألف ، وأنا إليها محتاج ، وهى قِبَله ، فما ترى فى ذلك؟ فكتب عنه إلى الأمين :

« أما بعد : فإن نظَرَ أمير المؤمنين للعامَّة نَظَرُ من لا يقتصر عنه على إعطاء النَّصَفَة من نفسه حتى يتجاوَزَها إليهم ببرِّه وصِلَته ، وإذ كان ذلك رأيَه فى عامَّته فأَحْرِ[1] بأن يكون على مجاوزة ذلك بِصِنْوِه[2] وقَسِيم نَسَبه ، فقد تعلَم يا أمير المؤمنين حالاً أنا عليها : مِنْ ثغورٍ حَلَلْتُ بين لَهَواتها[3] ، وأجنادٍ لا تزال مُوقِنَةً بنشر غَيِّها ، وبنَكْثِ آرائها ، وقلة الخَرْج[4] قِبَلى ، والأهلُ والولدُ والمالُ قِبَل أمير المؤمنين ، وما لِلأهل — وإن كانوا فى كِفاية من برِّ أمير المؤمنين ، فكان لهم والداً — بُدٌّ من الإشراف ، والنُّزوع[5] إلى كَنَفِى وما لى بالمال من القوة والظَّهِير[6] على لَمِّ الشَّعَث بحَضْرتى ، وقد وجَّهْتُ لحمل العِيال وحمل ذلك المال ، فرأىُ أمير المؤمنين فى إجازة فلان إلى « الرَّقَّة[7] » فى حمل ذلك المال ، والأمر بمعونته عليه ، غيرَ مُحَرِّج[8] له فيه إلى ضَيقة تقع بمخالفته ، أو حاملٍ له على رأيٍ يكون على غير موافقته والسلام » .

(تاريخ الطبرى ١٠ : ١٣٤)

---

(١) أى فأجدر وأخلق .

(٢) إذا خرج نخلتان أو ثلاث من أصل واحد ، فكل واحدة منهن صنو ، والاثنان صنوان ، والجمع صنوان برفع النون ، والمراد بالصنو هنا أخوه المأمون .

(٣) اللهوات جمع لهاة بالفتح ، وهى فى الأصل : اللحمة المشرفة على الحلق .

(٤) الخرج والخراج واحد .

(٥) نزع إلى أهله كضرب : اشتاق .

(٦) الظهير: المعين . (٧) الرقة : بلدعلى الفرات .

(٨) حرج عليه : ضيق عليه .

١٩٢ — رد أحد أعيان أهل العسكر

فوافَقَ قدومَ الرسولِ بغدادَ ما أمَرَ به الأمينُ من الكَفِّ عن الدعاء للمأمون في الخُطبة يوم الجمعة ، فدفع الكتب إلى كلِّ مَن كُتِبَ إليه معه ، فمنهم من أمسك عن الجواب وأعرَبَ للرسول عما في نفسه ، ومنهم من أجاب عن كتابه ، وكتب أحدهم :

« أما بعدُ ، فقد بلغني كتابُك ، ولِلحَقِّ بُرْهانٌ يَدُلُّ على نفسه تَثبُت به الحُجَّة على كل مَن صار إلى مُفارقته ، فكفى غَبْناً بإضاعة حظٍّ مِن حظ العاقبة ، لِمَأْمُولٍ مِن حَظٍّ عاجلةٍ ، وأبْيَنُ في الغَبن إضاعةُ حَظ عاقبةٍ في التعرُّض للنَّكبة والوقائع ولى من العلم بمواضع خَطَرٍ ما أرجو أن يَحْسُنَ معه النظرُ مِنى لنفسى ، ويَضَع عنى مُؤْنةَ استزادتى إن شاء الله » . (تاريخ الطبرى ١٠ : ١٣٦)

١٩٣ — كتاب رسول المأمون إليه

وكتب الرسول الموجَّه إلى بغداد ، إلى المأمون :

« أما بعدُ : فإنى وافيتُ البلدَة وقد أعلَنَ خَليطُك[1] بتنكُّره ، وقدَّم عَلَما من اعتراضه ومفارقته بحَضْرته ، ودفعتُ كُتبك فوجدت أكثر الناس وُلاةَ السَّريرة ، ونُفاةَ العلانيَة ، ووجدتُ المستمالين بالرغبة لا يَحُوطُونَ إلا عنها ، ولا ينالون ما احتملوا فيها ، والمنازِعُ مختلج[2] الرأى لا يجد دافعاً منه عن همِّه ، ولا راغباً فى عامَّه ، والمُحِلّون بأنفسهم يُجِلُّون تمامَ الحَدَث ، ليسلموا من مُنهزِم حَدَثهم ، والقومُ على جِدٍّ ، فلا تميلوا للتوانى[3] إن شاء الله والسلام » . (تاريخ الطبرى ١٠ : ١٣٦)

---

(١) الخليط : المشارك فى حقوق الملك ، يعنى الأمين .
(٢) أى مضطرب به .
(٣) فى الأصل « ولا تجعلوا التوادى » وأراه محرفا .

١٩٤ — رد الأمين على المأمون

فكتب إليه الأمين :

« أما بعد : فقد بلغنى كتابك بما ذكرتَ : مما عليه رأىُ أمير المؤمنين فى عامَّته ، فضلا عما يجب مِن حَقّ الذى حُرمته وخليط(١) نفسه ، ومَحَلِّك بين لَهَوات ثغورٍ ، وحاجتِك لِمَحَلِّكَ بينها إلى فَضْلة من المال لتأييد أمرك ، والمالِ الذى سُمِّىَ لك من مال الله ، وتوجيهك مَنْ وجَّهْتَ فى حمله وحَمْلِ أهلك من قبَل أمير المؤمنين .

ولَعَمْرى ما يُنْكِر أمير المؤمنين رأيا هو عليه مما ذكرتَ لعامّته ، وما يوجب عليه من لُحُوق أقربيه وعامَّته ، وبه إلى ذلك المال الذى ذكرتَ حاجةٌ فى تحصين أمور المسلمين ، فكان أولَى به إجراؤهُ منه على فرائضه ، وردُّه على مواضع حقه ، وليس بخارج مِنْ نَفْعك ما عاد بِنَفْع العامة من رعيتك ، وأمّا ما ذكرتَ من حَمْل أهلك ، فإنَّ رأىَ أمير المؤمنين تَوَلِّى أمرهم ، وإن كنت بالمكان الذى أنت به من حق القرابة ، ولم أرَ من حملهم على سفرهم مثل الذى رأيت من تعريضهم بالسفر التشتُّت ، وإنْ رَأَى ذلك مَنْ قِبَلى أُوَجِّهْهم إليك مع الثِّقة من رُسُلى إن شاء الله والسلام »

(تاريخ الطبرى ١٠ : ١٣٥)

١٩٥ — كتاب المأمون إلى أعيان أهل العسكر ببغداد

ورَأى المأمون أن يختار ثِقَةً من أصحابه ، يكتب معه كتباً إلى أعيان أهل العسكر من بغداد ، فإنْ أحدَثَ الأمينُ خَلْعاً للمأمون صار إلى ذويها ، وتلطَّفَ لعلم حالات أهلها ، وإلاّ أمسَكَ عن إيصالها ، وكان كتابه مع الرسول الذى وجَّهه لعلم الخبر :

---

(١) الخليط : الشريك .

« أما بعدُ : فإن أمرَ(١) المؤمنين كأعضاء البَدَن : تَحْدُثُ العِلَّة فى بعضها فيكون كُرْهُ ذلك مؤلِمًا لجميعها ، وكذلك الحدَثُ فى المسلمين ، يكون فى بعضهم فَيَصِلُ كُرْهُ ذلك إلى سائرهم ، لِلَّذى يَجْمَعهم من شريعة دينهم ، ويَلْزَمُهم من حُرْمة آخرتهم ، ثم ذلك من الأئمة أعظمُ ، لِلمكان الذى به الأئمةُ من سائر أممهم ، وقد كان من الخبَر مالَا أحسِبُه إلا سَيَعُود عن مجيئه ، ويَسْفِر(٢) عما سُتِر ، وما اختلف مختلفان فكان أحدهما أزمَعَ(٣) على الغدر إلّا كان أولَ مَعُونة المسلمين ومُوالاتهم فى ذات الله ، وأنت — يَرْحَمُك الله — من الأمر بمَرْأى ومَسْمَع ، وبحيثُ إن قلتَ آذَنَ(٤) لقولك ، وإن لم تجد للقول مَسَاغا فأَمْسَكتَ عن مَخُوف ، أُقْتَدِ فيه بك ، ولن يضيعَ على(٥) الله ثوَابُ الإحسان ، مع ما يجب علينا بالإحسان مِن حقِّك ، ولَحَظٌّ حاز لك النصيبَيْن أو أحدَهما أمثَلُ من الإشراف لأحَد الحظَّيْن مع التعرُّض لِعدَمهما(٦) ، فا كتب إلىَّ برأيك ، وأعلِمْ ذلك لرسولى ، لِيُؤَدِّيَه إلىَّ عنك إن شاء الله » .

(تاريخ الطبرى ١٠ : ١٣٥)

١٩٦ — كتاب المأمون إلى على بن عيسى بن ماهان

وكان علىّ بن عيسى بن ماهانَ ممن مَالَأَ على خلع المأمون من البيعة ، فكتب إليه المأمون لما بلغهُ ما عزم عليه :

---

(١) فى الأصل « أمير المؤمنين » وهو تحريف .
(٢) من سفرت المرأة كضرب : كشفت عن وجهها .
(٣) أزمع الأمر وعليه : أجمع وثبت عليه .
(٤) أذن إليه وله كفرح : استمع . (٥) أى عند الله .
(٦) معنى ذلك أن من نهض لنصرتنا حظى بالنصيبين : ثواب الله ومكافأتنا له ، أو بالنصيب الأول على الأقل إن لم يقدر لنا النجاح والظفر لأنه يدفع عن الحق ويعين فى ذات الله ، وذلك أفضل له وأولى به من الميل مع الأمين ، فإنه حينئذ يستشرف مكافأة الأمين له فحسب — ويفوته ثواب الله — وقد تكون الدبرة على الأمين ، فيفقد ناصره الحظين جميعا (ذلك إلى أنه يفقد مكافأة المأمون أيضا لا نحرافه عنه لعوده عن نصرته ، بل ويتعرض لعقوبته ونكاله) .

« أما بعدُ : فإنك فى ظِلِّ دَعْوةٍ لم تزَلْ أنت وسَلَفُك بمكانِ ذَبٍّ[1] عن حَرِيمها، وعلى عِناية بحفظها، ورِعَايةٍ لحقِّها ، تُوجِبُون ذلك لأئمتكم، وتعتصِمُون بحَبْل جماعتكم، وتُعْطُون بالطاعة من أنفسكم ، وتكونون يَدًا على أهل مخالفتكم ، وحِزبا وإخوانا لأهل موافقتكم ، تُؤْثِرُونهم على الآباء والأبناء ، وتتصرَّفون فيما تصرَّفوا فيه من منزلة شديدة ورَخاء ، لا تَرَوْن شيئا أبلغَ فى صلاحكم من الأمر الجامع لألْفَتِكم ، ولا أجْرَى لِبَوَارِكم[2] مما دعَا بشَتّاتِ كلمتكم ، تَرَوْن مَن رغِب عن ذلك جائرا عن القَصْد[3] ، وعن أمِّه على مِنْهاج الحق ، ثم كنتم عَلَى منهاج الحق ، ثم كنتم على أولئك سيوفًا من سيوف نِقَمِ الله ، فكم من أولئك قد صاروا ودِيعةَ مَسْبَعةٍ[4] ، وَجَزَرًا جامدة ، قد سَفَتِ الرِّياحُ فى وجهه ، وتَداعتِ السِّباعُ إلى مَصْرَعه ، غير مُمَهَّد ولا مُوَسَّد ، قد صار إلى أمّة . . . . . .[5] وغير عاجلِ حظّه ممن كانت الأئمة تُنْزِلكم لذلك بحيثُ أنزلتم أنفسكم ، من الثِّقة بكم فى أمورها ، والتقْدِمة فى آثارها ، وأنت مُستشعَر[6] دون كثير من ثقاتها وخاصَّتها ، حتى بلغ اللهُ بِكَ فى نفسك أنْ كنت قَرِيعَ[7] أهلِ دعوتك ، والعَلَمَ القائم بمُعظم أمْرِ أمَّتك ، إن قلتَ ادْنُوا دَنَوْا ، وإن أشَرتَ أقبِلوا أقْبَلوا ، وإنْ أمسكتَ وقَفُوا وقَرُّوا ، وِئَاما[8] لك واستنصاحًا ، وتزداد نِعمةً مع الزيادة فى نفسك ، ويزدادون نعمةً مع الزيادة لك بطاعتك ، حتى حَلَلْتَ المَحَلَّ الذى قَرُبْتَ به من يومك ، وانقرَضَ فيما دونه أكثرُ مدتك ، لا تنتظر بعدها إلَّا ما يكون خِتامَ عملِك : من خيرٍ فيُرْضَى ما تَقَدَّم من صالحِ فِعلك ، أو خلافٍ فيضِلُّ له متقدِّمُ

---

(١) الذب : الدفع . والحريم : ما تحميه وتقاتل عنه . (٢) البوار : الهلاك .
(٣) القصد : استقامة الطريق . وأمه : قصده . والمنهاج : الطريق الواضح .
(٤) أرض مسبعة : كثيرة السباع . وتركوهم جزرا للسباع : أى قطعا . وجامدة : أى ليس بها حركة ولا حياة . (٥) بياض بالأصل ، ولعله « إلى أمة الكفر » :
(٦) استشعر الشعار : لبسه (والشعار ككتاب : الثوب الذى يلى شعر الجسد) والمعنى : وأنت مقرب مؤثر لدى الأئمة .
(٧) القريع : السيد . (٨) الوئام والمواءمة : الموافقة .

سَعْيك ، وقد ترَى يا أبا يحيى حالًا عليها جَلَوْتَ[1] أهلَ نعمتك والوُلاةَ القائمةَ بحق إمامتك ، مِنْ طَعْنٍ فى عُقْدَةٍ كنتَ القائمَ بشدِّها ، وبعهودٍ توليتَ مَعاقِدَ أخْذِها ، يُبْدَأُ فيها بالأخَصّيْن ، حتى أفضى الأمرُ إلى العامَّة من المسلمين ، بالأيْمان المُحَرِّجة[2] ، والمواثيق المؤكَّدة ، وما طَلَعَ مما يدعو إلى نَشْرِ كلمةٍ ، وتفريق أمّةٍ ، وشتِّ جماعةٍ ، وتتعرَّض به لتبديل نعمة ، وزوالِ ما وطَّأتِ الأسلافُ من الأئمة ، ومتى زالت نعمةٌ مِن وُلاة أمْركم وَصَلَ زوالُها إليكم فى خواصّ أنفسكم،ولن يغيّر اللهُ ما بقومٍ حتى يغيِّروا ما بأنفسهم ، وليس الساعِى فى نَشْرِها بساعٍ فيها على نفسه ، دون السعى على حَمَلتها القائمين بحُرْمتها ، قد عرّضوهم أنْ يكونوا جَزَرًا لأعدائهم ، وطُعْمَةَ قوم تتَظفّرُ مخالبُهم فى دمائهم ، ومكانُك المكانُ الذى إن قلتَ رُجِع إلى قولك ، وإن أشرتَ لم تُتَّهم فى نصيحتك ، ولك مع إيثار الحقِّ الحظْوةُ عند أهل الحقِّ ، ولا سواء مَن حَظِىَ بعاجِلٍ مع فِراق الحق فأوْبَقَ[3] نفسه فى عاقبته ، ومن أعان الحقَّ فأدرَكَ به صلاحَ العاقبةِ مع وفور الحظ فى عاجلته .

وليس لك ما تُسْتَدْعَى ، ولا عليه ما تُستعطَفُ ، ولكنه حق من حقِّ أحسابك ، يجب ثوابُه على ربك ، ثم على من قمتَ بالحق فيه من أهل إمامتك ، فإن أعْجَزَك قولٌ أو فِعْلٌ فصِرْ إلى الدار التى تأمن فيها على نفسك ، وتحكُم فيها برأيك ، وتجاوَزْ إلى مَن يُحْسِن تقبُّلا لصالح فِعلك ، ويكون مَرْجِعك إلى عُقَدك وأموالك ، ولك بذلك اللهُ ، وكفى بالله وكيلا ، وإن تعذَّرَ ذلك بَقِيةً على نفسك ، فإمْسا كاً بيدك وقولا بحقٍّ ما لم تخَفْ وقوعَه بكُرْهك ، فلعلّ مُقتديا بك ومغْتَبِطاً بنهيك ، ثم أعْلِمْنى رأيك أعرفْه إن شاء الله » . (تاريخ الطبرى ١٠ : ١٤٣)

فأتى علىّ بالكتاب إلى الأمين .

---

(١) أى كشف .

(٢) من التحريج وهو التضييق : أى التى لا يجد فيها من أخذت عليه سبيلا إلى النكث .

(٣) أى أهلك .

١٩٧ — كتاب المأمون إلى الأمين

ولما بعث الأمين إلى المأمون فى البيعة لابنه موسى ، وَوَجَّه الرسل إليه فى ذلك ، كتب المأمون جواب كتابه :

« أما بعدُ ، فقد انتهى إلىَّ كتابُ أمير المؤمنين مُنْكِرًا لإبائى مَنْزِلَةً تَهَضَّمَنى[(١)] بها ، وأرَادنى على خِلاف ما يَعْلَمَ من الحق فيها ، ولَعَمْرِى إن أَوْرَدَ أمير المؤمنين مَوَارِدَ النَّصَفَة ، فلم يطالِبْ إلا بها ، ولم يوجِبْ نَكِرَةَ تركها ، لانْبَسَطَتْ بالُحجَّة مَطالعُ مقالته ، ولكنتُ مَحْجُوجا بمفارقةِ ما يُوجِب من طاعته ، فأمّا وأنا مُذْعِنٌ بها ، وهو على ترك إعمالها ، فأَوْلَى به أن يُدِير الحقَّ فى أمره ، ثم يأخذ به ويُعْطِى من نفسه ، فإن صرتُ إلى الحق فرَّغتُ عن قلبه ، وإن أبيتُ الحقَّ قام بمَعْذِرته ، وأمَّا ما وعَدَ من بِرِّ طاعته ، وأَوْعَد من الوَطْأَة بمخالفته ، فهل أحدٌ فارَقَ الحقَّ فى فِعله فأَبْقَى للمتبيِّن موضِعَ ثِقةٍ بقوله ؟ والسلام » (تاريخ الطبرى ١٠ : ١٤٣)

١٩٨ — كتاب الأمين إلى المأمون

ولما عزم الأمين على خلع المأمون ، أشار عليه إسمٰعيلُ بن صُبَيْح الكاتب أن يكتب إليه يُعْلِمه حاجَتَه إليه وما يُحبُّ من قُرْبه ، والاستعانة برأيه ، ويسأله القدومَ إليه ، فقال الفضل بن الربيع : القولُ ما قال يا أمير المؤمنين ، قال ، فليكتب بما رأى ، فكتب إليه :

« من عند الأمين محمد أمير المؤمنين إلى عبد الله بن هٰرون أمير المؤمنين .

« أما بعد ، فإن أمير المؤمنين رَوَّى[(٢)] فى أمرك ، والموضِع الذى أنت فيه من

---

(١) هضمه واهتضمه وتهضمه : ظلمه وغصبه .
(٢) روى فى الأمر : نظر وفكر .

ثغرك ، وما يُؤمَّل في قُرْبك من المُعاونة والمكانفة على ما حمَّله اللهُ وقلّده من أمور عباده وبلاده ، وفكِّر فيما كان أمير المؤمنين الرشيد أوجبَ لك من الولاية ، وأمرَ به من إفرادك على ماتصيَّر إليك منها ، فرَجا أميرُ المؤمنين أن لايدخل عليه وَكَفٌ⁽¹⁾ في دينه ، ولا نَكْثٌ في يمينه ، إذ كان إشخاصُه إياك فيما يعود على المسلمين نَفْعُه ، ويصلُ إلى عامَّتهم صلاحُه وفضلُه ، وعَلِم أمير المؤمنين أن مكانك بالقرب منه أسَدُّ للثغور ، وأصْلَح للجنود ، وآكَدُ للفَيْء ، وأرَدُّ على العامّة ، من مُقامك ببلاد خُراسان ، منقطِعاً عن أهل بيتك ، متغيِّباً عن أمير المؤمنين ، وما يحبُّ الاستمتاع به من رأيك وتدبيرك .

وقد رأى أمير المؤمنين أن يولِّيَ موسى ابن أمير المؤمنين فيما يقلِّده من خلافتك ما يحدث إليه من أمرك ونهيك ، فأقْدَم على أمير المؤمنين على بركة الله وعَوْنه ، بأبْسَطِ أمَل ، وأفْسَحِ رَجاء ، وأحْمَدِ عاقبةٍ ، وأنفَذِ بصيرة ، فإنك أوْلَى من استعان به أميرِ المؤمنين على أموره ، واحتمل عنه النَّصَب فيما فيه صلاحُ أهل بيته وذمّته ، والسلام » . (تاريخ الطبرى ١٠ : ١٤٦)

١٩٩ — رد المأمون على الأمين

فكتب إليه المأمون :

« لعبد الله محمد أمير المؤمنين من عبد الله بن هرون :

أما بعدُ : فقد وصل إليَّ كتابُ أمير المؤمنين ، وإنما أنا عاملٌ من عُمَّاله ، وعَوْنٌ من أعوانه ، أمَرَ الرشيدُ صلوات الله عليه بلزوم هذا الثَّغر ومُكايَدَة مَن كايَدَ أهلَه من عدوِّ أمير المؤمنين ، ولعَمْرى إن مُقامى به أرَدُّ على أميرِ المؤمنين ، وأعظَمُ غَناء⁽²⁾ على المسلمين ، من الشُّخوص إلى أمير المؤمنين ، وإن كنتُ مُغْتَبِطاً

(١) الوكف : العيب والإثم والفساد والضعف . (٢) الغناء : الكفاية والمنفعة .

بِقُربه ، مسروراً بمشاهدة نعمة الله عنده ، فإن رأى أن يُقِرَّنى على عملى ، ويُعفِينى من الشخوص إليه فعل إن شاء الله ، والسلام » . (تاريخ الطبرى ١٠ : ١٤٩)

٢٠٠ — كتاب طاهر بن الحسين إلى المأمون

ونَمَى الشرُّ بين الأخوين واستطار شَرَرُه ، وبعث الأمين جيشا كثيفا بقيادة على بن عيسى بن ماهان لحرب المأمون ، وأعد المأمون للقائه جيشا بقيادة طاهر ابن الحسين ، ونشِبَ القتال بين الفريقين ، ودارت الدائرة على جيش الأمين وقُتِل ابن ماهان (سنة ١٩٥) .

وكتب طاهر(١) إلى المأمون :

« أطال الله بقاءك ، وكَبَت(٢) أعداءك ، وجعل مَن يَشْنَؤُك(٣) فداءك ، كتابى إليك ورأسُ على بن عيسى بين يدىَّ ، وخاتَمُه فى إصبعى ، وجُندُه مُصَرَّف تحت أمرى ، والحمد لله رب العالمين » .

(تاريخ الطبرى ١٠ : ١٤٢، ١٥٥ ومروج الذهب ٢ : ٣٠٠ والفخرى ص ١٩٥ والمثل السائر ص ٣٣٩)

٢٠١ — كتاب الأمين إلى طاهر بن الحسين

وحدث بعد ذلك حروب ووقائع وشَغَب كثير ، حتى سار طاهر ومعه هرثمة بن أعيَن إلى بغداد وحاصراها — وقد نزل طاهر بالجانب الغربى ، وهرثمة بالجانب الشرقى — وكتب الأمين إلى طاهر بخطه :

« بسم الله الرحمن الرحيم : اعلم أنه ما قام لنا مُذ قمنا قائمٌ بحقِّنا ، وكان جزاؤه إلا السيف ، فانظر لنفسك أو دَعْ » . (مروج الذهب ٢ : ٣٠٣)

---

(١) توفى سنة ٢٠٧ هـ — انظر ترجمته فى وفيات الأعيان ١ : ٢٣٥ ، وله أخبار فى كتاب بغداد لابن طيفور ٦ : ١٠٧ وفى الطبرى .

(٢) كبته كضربه : صرعه وأخزاه وكسره ورده بغيظه وأذله .

(٣) شنأه كمنعه وسمعه : أبغضه .

٢٠٢ - كتاب طاهر بن الحسين إلى المأمون

وكان الغَلَبة لطاهر بن الحسين ، وقتل الأمين وحُمِلَ رأسُه إلى المأمون بخراسان (سنة ١٩٨) وكتب طاهر إلى المأمون بالفتح :

« أما بعدُ فالحمدُ لله المتعالِي ذى العِزَّة والجلال والمُلْك والسلطان ، الذى إذا أراد أمراً فإنما يقولُ له كُنْ فيكون ، لا إلهَ إلا هو الرحمن الرحيم .

كان فيما قَدَّر اللهُ فأحْكَمَ ، ودبَّرَ فأبْرَمَ ، انتكاثُ المخلوع ببيْعته ، وانتقاضُه بعَهْده ، وارتكاسُه[1] فى فتْنته ، وقضاؤه عليه القتلَ بما كسَبَت يداه ، وما اللهُ بظَلَّام للعبيد ، وقد كتبتُ إلى أمير المؤمنين - أطال الله بقاءه - فى إحاطة جُنْدِ الله بالمدينة والخُلْدِ[2] ، وأخْذِهم بأفواهها وطُرُقها ومَسالِكها فى دِجْلةَ ، نَواحِى أزقَّة مدينة السَّلام ، وانتظامِ المَسَالِح[3] حَوالَيْها ، وحَدْرِى السُّفُنَ والزَّوَاريقَ بالعَرَّادَات[4] والمُقَاتِلَةِ إلى ما وَاجَهَ الخُلْدَ وباب خراسَان ، تحفُّظًا بالمخلوع ، وتخوُّفا من أن يرُوغَ[5] مَرَاغاً ، ويَسْلُكَ مَسْلَكا يجد به السبيلَ إلى إثارة فتنة ، وإحياء نائرة[6] ، أو يُهايج قتالا ، بعد أن حَصَرَه الله عزّ وجل وخَذَله ، ومتابعةِ الرُّسُل بما يَعرض عليه هَرْثَمَة ابن أعيَن مَوْلى أمير المؤمنين ويسألنى من تخليةِ الطريق له فى الخروج إليه ، واجتماعى وهرثمةَ بن أعيَن لِنتناظَرَ فى ذلك[7] ، وكراهتى ما أحدَثَ ورَاءه من أمره بعد

(١) ارتكس : انتكس ووقع .

(٢) المدينة : أى بغداد ، وتسمى أيضا مدينة السلام . والخلد : قصر بناه المنصور بها (ثم بنيت حواليه منازل فصارت محلة كبيرة عرفت بالخلد ، والأصل فيها القصر المذكور) وقد هرب الأمين من قصر الخلد مما كان يصل إليه من حجارة المنجنيق - وهو آلة ترمى بها الحجارة - وصار إلى مدينة السلام .

(٣) المسالح جمع مسلحة بالفتح : وهى القوم ذوو سلاح .

(٤) العرادة : أصغر من المنجنيق .   (٥) راغ : مال وحاد .

(٦) النائرة : العداوة والشحناء .

(٧) وذلك أنه لما اشتد الحصار على الأمين ، شاور خواصه فى النجاة بنفسه ، فكل أدلى برأى وأشار بوجه . وكان الأمين يستوحش من طاهر ، ويأمن بهرثمة ويثق بناحيته ، فراسله فى ذلك ، فأجابه هرثمة إلى ما أراد ووعده بكل ما أحب وأنه عنعه ممن يريد قتله ، وبلغ ذلك طاهرا فاشتد عليه وزاد غيظه =

إرهاق[١] الله إياه ، وقَطْعِه رجاءه من كل حيلة ومُتَعَلَّق ، وانقطاعِ المنافِع عنه ، وحيلَ بينه وبين الماء فضلا عن غيره ، حتى هَمَّ به خَدَمُه وأشياعُه من أهل المدينة ومن نجا مَعه إليها ، وتحزَّبوا على الوثوب به للدَّفْع عن أنفسهم والنجاةِ بها ، وغير ذلك مما فسَّرتُ لأمير المؤمنين ـ أطال الله بقاءه ـ مما أرجو أن يكون قد أتاه .

وإنى أخبِر أمير المؤمنين أنى روَّيتُ فيما دبَّر هرثمةُ بن أعين مَوْلى أمير المؤمنين فى المخلوع ، وما عرَض عليه وأجابه إليه ، فوجدتُ الفتنةَ ، فى تخلُّصه من موضعه الذى قد أنزلَه الله فيه بالذِّلة والصَّغار ، وصيّره فيه إلى الضِّيق والحِصار تزداد ، ولا يزيد أهلُ التربُّص فى الأطراف إلا طَمَعا وانتشاراً . وأعلمتُ ذلك هرثمةَ بن أعين وَكراهتى ما أطمَعَه فيه وأجابه إليه ، فذكَر أنه لايرَى الرجوعَ عما أعطاه فصادَرْتُه ـ بعد يأسٍ من انصرافه عن رأيه ـ على أن يقدِّمَ المخلوعُ رداءَ رسول الله صلى الله عليه وسلم وسيفَه وقضيبَه قبل خروجه ، ثم أُخْلِى له طريقَ الخروج إليه ، كراهةَ أن يكون بينى وبينه اختلافٌ نَصيرُ منه إلى أمرٍ يُطمِع الأعداءَ فينا ، أو فِراقُ القلوب بخلاف ما نحن عليه من الائتلاف والاتفاق على ذلك ، وعلى أن نجتمع لميعادنا عَشِيَّةَ السبت .

وحنقه وأبى أن يرفه عنه ويدعه يخرج ، وقال : هو فى حيزى والجانب الذى أنا فيه ، وأنا أحرجته بالحصار والحرب حتى صار إلى طلب الأمان ، ولا أرضى أن يخرج إلى هرثمة دونى فيكون الفتح له ، ولما رأى هرثمة والقواد ذلك اجتمعوا وصار إليهم طاهر وخاصة قواده ، وأداروا الرأى بينهم وأخبروا طاهرا أنه لايخرج إليه أبدا ، وقالوا له : يخرج ببدنه إلى هرثمة ، ويدفع إليك الخاتم والقضيب والبردة ـ وذلك الخلافة ـ ولا تفسد هذا الأمر واغتنمه إذ يسره الله ، فأجاب إلى ذلك ورضى به ، ولما علم بعض ذوى الأهواء بالخبر أراد التقرب إلى طاهر فخبره أن الذى جرى بينهم وبينه مكر ، وأن الخاتم والبردة والقضيب تحمل مع الأمين إلى هرثمة ، فاغتاظ وأكمن له كمناء بالسلاح ، ووعد هرثمة الأمين أن يأتيه فى حراقة إلى مشرعة باب خراسان فيصير به إلى عسكره ، فلما صار إلى الحراقة خرج طاهر وأصحابه فرموها بالسهام والحجارة فانكفأت ، فغرق الأمين وهرثمة ومن كان فيها ، فلم يكن لهرثمه شاغل إلا نفسه فتعلق بزورق ومضى الى عسكره بالجانب الشرق ، وسبح الأمين حتى عبر دجلة فقبض عليه أصحاب طاهر وقتلوه .

(١) أرهقه : حمله على ما لايطيقه .

فتوجَّهتُ فى خاصَّة ثِقاتى الذين اعتمدتُ عليهم ، وأثِق بهم برَبْطِ الجأْش[١] ، وصدق البأس ، وصحة المناصحة ، حتى طالعتُ جميعَ أمرِ كلٍّ من كنتُ وكَّلتُ بالمدينة والخُلْد برًّا وبحرا ، والتقدمة إليهم فى التحفظ والتيقُّظ ، والحِراسة والحَذَر ، ثم انكفأتُ إلى باب خُراسان ، وكنتُ أعدَدْتُ حرَّاقات[٢] وسُفُنا سوى العُدّة التى كانت لأركبَها بنفسى لوقتِ ميعادى بينى وبين هَرْثمة ، فنزلتُها فى عِدّة ممن كان ركِبَ معى مِن خاصَّة ثِقاتى وشاكِريَّتى[٣] ، وصيَّرت عِدّةً منهم فُرْسانا ورَجَّالةً بين باب خراسان والمَشْرَعَة[٤] وعلى الشَّطّ .

وأقبَلَ هرثمةُ بن أعْيَن حتى صار بقُرب باب خراسان مُعِدا مُسْتعِدًّا ، وقد خاتَلنى[٥] بالرسالة إلى المخلوع إلى أن يخرُج إليه إذا وافى المَشْرَعةَ لِيَحْمِلَه قبل أن أعلَمَ ، أو يبعث إلىّ بالرِّداء والسيف والقضيب ، على ما كان فارقَنِى عليه من ذلك . فلما وافى خروجُ المخلوع على مَن وكَّلتُ بباب خُراسان ، نهضوا عند طلوعه عليهم ، ليعرفوا الطابَع لأمْرى كان أتاهم ، وتقدُّمى إليهم ألاَّ يَدَعوا أحدا يجوزُهم إلا بأمرى ، فبادرَهم نحوَ المشرعة ، وقرَّبَ هرثمةُ إليه الحرَّاقَةَ ، فسبَقَ الناكِثُ أصحابى إليها ، وتأخَّر « كَوْثَر[٦] » فظفِرَ به « قُرَيْشٌ » مولاىَ ، ومعه الرِّداء والقضيبُ والسيف ، فأخَذَه وما معه ، فَنَفَرَ أصحابُ المخلوع عند ما رأَوا من إرادة أصحابى مَنْعَ مخلوعهم من الخروج ، فبادرَ بعضُهم حرَّاقَةَ هرثمة ، فتكفَّأَتْ بهم حتى أُغرِقت فى الماء ورَسَبَتْ ، فانصرف بعضُهم إلى المدينة ، ورَمى المخلوعُ عند ذلك بنفسه من الحرَّاقة فى دجلة متخلِّصا إلى الشَّطّ ، نادماً على ما كان من خروجه ، ناقضاً للعهد ، داعيا بشِعاره[٧] ، فابتَدَره[٨] عِدَّةٌ من

---

(١) الجأش : النفس ، وربط جأشه : اشتد قلبه .

(٢) الحراقات : سفن فيها مرامى نيران يرمى بها العدو .

(٣) الشاكرى : الأجير والمستخدم ، معرب جاكر .

(٤) المشرعة : مورد الشاربة . (٥) خاتله : خادعه .

(٦) كان خادما خصيا للأمين وكان يحبه .

(٧) لما أخذت السيوف الأمين جعل يصيح : ويحكم ! إنى ابن عم رسول الله صلى الله عليه وسلم ، أنا ابن هرون ، أنا أخو المأمون ، الله الله فى دمى . (٨) ابتدره : عاجله .

أوليائى الذين كنت وكّلتهم بما بين مَشْرَعة باب خراسان ورُكْن الصَّراة ، فأخذوه عَنْوَةً (١) قهرا بلا عَهْد ولا عَقْد ، فدعا بشِعاره وعاد فى نَكْثه ، فعَرَضَ عليهم مائة حَبَّة : ذَكَرَ أن قيمة كل حبة مائة ألف دِرهم ، فأبَوا إلا الوفاء لخليفتهم أبقاه الله ، وصيانةً لدينهم ، وإيثارًا للحق الواجب عليهم ، فتعلَّقوا به ، قد أسلَمَهُ (٢) الله وأفرَدَه ، كلٌّ يرْغَبه ويريد أن يفوزَ بالحُظوة عندى دون صاحبه ، حتى اضطربوا فيما بينهم ، وتناولُوه بأسيافهم ، مُنازَعةً فيه ، وتَشاحًّا (٣) عليه ، إلى أن أُتيحَ له مَغيظٌ لله ودينه ورسوله وخليفته ، فأتى عليه ، وأتانى الخبرُ بذلك ، فأمرتُ بِحَمْل رأسه إلىَّ ، فلما أُتيتُ به تقدَّمتُ إلى مَن كنتُ وكَّلْتُ بالمدينة والخُلْد وما حَوالَيها وسائرِ مَن فى المَسالِح ، فى لُزُوم مواضعهم والاحتفاظِ بما يَليهم إلى أن يأتيَهم أمرى ، ثم انصرفتُ ، فأعظَمَ اللهُ لأمير المؤمنين الصُّنعَ والفتحَ عليه ، وعلى الإسلام به وفيه .

فلمَّا أصبحتُ هاجَ الناس واختلفوا فى المخلوع : فمُصَدِّق بقتله ومكذِّبٌ ، وشاكٌّ ومُوقِن ، فرأيتُ أن أطرَحَ عنهم الشُّبْهَةَ فى أمره ، فمضيتُ برأسه لينظرُوا إليه ، فيَصِحَّ بعَينهم ، وينقطعَ بذلك بَعَلُ (٤) قلوبهم ، ودَخَلُ (٥) التياثِ المُسْتَشْرِفين للفساد ، والمُسْتَوفِزِين للفتنةِ ، وغدَوْتُ نحوَ المدينة فاستَسْلَمَ من فيها ، وأعطَى أهلُها الطاعة ، واستقامَ لأمير المؤمنين شرقيُّ ما يلِي مدينة السلام وغربيُّه وأرباعُه (٦) وأرْباضُه ونواحيه ، وقد وضَعتِ الحربُ أوزارَها ، وتلاقى بالسلام والإسلام أهله ، وبعَّد اللهُ

---

(١) أى قهرا . (٢) أى خذله .

(٣) تشاحا على الأمر : لايريدان أن يفوتهما .

(٤) بعل بأمره كفرح : دهش وفرق وبرم فلم يدر مايصنع .

(٥) الدخل : ماداخل المرء من فساد فى عقل أو جسم ، والالتياث : الاختلاط والالتفاف ، واستشرف الشيء : رفع بصره إليه وبسط كفه فوق حاجبه كالمستظل من الشمس ، واستوفز تحفز وتهيأ للوثوب .

(٦) كانت المدينة قديما تقسم أرباعا (ولا يزال ذلك التقسيم إلى اليوم فى بعض بلاد القطر المصرى ، وقد كانت مدينة القاهرة قبل اليوم مقسمة ثمانية أقسام ، كل قسم ثمن وحرفته العامة فقالوا تمن) والأرباض جمع ربض بالتحريك ، وربض المدينة : ماحولها ، والأوزار : الأثقال ، جمع وزر بالكسر .

الدَّغَلَ[١] عنهم وأصارَهم بِبَركةِ أمير المؤمنين إلى الأمْنِ والسكون والدَّعَة والاستقامة والاغتباط والصُّنع من الله جل وعز والخِيَرة والحمدُ لله على ذلك .

فكتبتُ إلى أمير المؤمنين ـ حفظه الله ـ وليس قِبَلى داعٍ إلى فتنة ، ولا متحركٌ ولا ساعٍ فى فساد ، ولا أحَدَ إلا سامعٌ مطيع باخع[٢] حاضِر ، قد أذاقه الله حلاوةَ أمير المؤمنين ، ودَعَةَ ولايته ، فهو يتقلَّب فى ظلِّها ، يغدو فى مَتْجَره ويَرُوح فى مَعايشه ، والله وليُّ ما صنَع من ذلك ، والمتمِّم له ، والمانُّ بالزيادة فيه برحمته .

وأنا أسأل الله أن يَهْنِئَ[٣] أمير المؤمنين نعمتَه ، ويتابِعَ له فيها مَزيده ، ويُوزِعَه[٤] عليها شكرَه ، وأن يجعل مَنَّه لديه متواليا دائما متواصلا ، حتى يَجْمَعَ الله له خيرَ الدنيا والآخرة ولأوليائه وأنصارِ حقه ولجماعة المسلمين ، ببركته وبركة ولايته ويُمْنِ خلافته ، إنه ولىُّ ذلك منهم وفيُّه ، إنه سميع لطيف لما يشاء » .

وكتب يوم الأحد لأربع بقين من المحرم سنة ١٩٨ هـ

(تاريخ الطبرى ١٠ : ٢٠٣)

٢٠٣ — كتاب طاهر بن الحسين إلى أبى عيسى بن الرشيد

وروى الصُّولى فى أدب الكتاب قال :

وقال طاهر بن الحسين ـ وهو يحارب الأمين ، وكان أبو عيسى بن الرشيد معه ـ لكتابه : « اكتبوا إلى أبى عيسى كتابا تتقربون به إليه وتتباعدون ، ولا تُطْمِعوه ولا تؤيسوه ، فقالوا : إنْ رأى الأمير أن يُعْلِمنا كيف ذلك ويَحُدَّه لنا ، فقال اكتبوا :

« بسم الله الرحمن الرحيم : حَفظك الله وأبقاك وأمتَعَ بك ، وعزيزٌ علىَّ أن

---

(١) الدغل : الفساد .

(٢) بخع بالحق كمنع : أقربه وخضع له ، كبخع بالكسر .

(٣) يقال هنأنا الله الطعام : أى جعله هنيئا . (٤) أوزعه الله : ألهمه .

أ كتبَ إلى صغير منكم أو كبير ، بغير التأمير ، وقد بلغني عنك مُمالأةٌ[1] للمخلوع ، فإن كان ذلك منك مَيْلا على أمير المؤمنين ، فقليلُ ما أُ كاتبك به كثيرٌ ، وإن كنت كما قال الله : « إِلَّا مَنْ أُكْرِهَ وَقَلْبُهُ مُطْمَئِنٌّ بِالْإِيمَانِ » فالسلامُ عليك أيها الأميرُ ورحمة الله وبركاته » . (أدب الكتاب ص ١٥١)

* * *

وروى ابن عبد ربه في العقد الفريد قال :

وكتب طاهر بن الحسين حين أخذ بغداد إلى إبراهيم بن المهدى :

« أما بعد ، فإنه عزيزٌ عليَّ أن أكتب إلى أحد من بيت الخلافة بغير كلام الإمرة وسلامِها ، غير أنه بلغني عنك أنك مائلُ الهوَى والرأى للناكث المخلوع ، فإن كان كما بلغني فقليلٌ ما كتبتُ به كثير لك ، وإن يكن غير ذلك فالسلام عليك أيها الأمير ورحمة الله وبركاته ، وقد كتبتُ في أسفل كتابي أبياتا فتدَبَّرْها :

رُكوبُك الهَوْلَ مالم تَلْقَ فُرْصَتَه ... جَهْلٌ رَمَى بك بالإقحامِ تَغرِيرُ

أهوِنْ بدنيا يُصيبُ المخطئون بها ... حظَّ المُصيبين ، والمغرورُ مغرورُ

فازرَعْ صوابا وخذ بالحزم حَيطتَه ... فلن يُذَمَّ لِأهل الحزمِ تدبيرُ

فإن ظفِرتَ مُصيباً أو هلكتَ به ... فأنت عند ذوى الألباب معذورُ

وإن ظفِرتَ على جهلٍ ففُزتَ به ... قالوا جَهُولٌ أعانته المقاديرُ

(العقد الفريد ٣ : ١٩٨)

٢٠٤ — كتاب السيدة زبيدة إلى المأمون

ولما قُتِل الأمين كتبت أمّه السيده زُبَيْدة[2] :

لِخير إمامٍ قامَ من خير عُنْصُرٍ ... وأفضلِ راقٍ فوقَ أعوادِ مِنْبَرِ

(١) مالأه : ساعده على الأمر وشايعه .

(٢) جاء في تاريخ الطبرى : وقال خزيمة بن الحسن يرثيه على لسان أم جعفر : ثم أورد الأبيات .

ووارثِ عِـــلمِ الأوّلين وفَخْرِهم ... ولِلْمَلِكِ المأمونِ من أمّ جعفرِ
كتبتُ ، وعيني تَسْتهِلُّ دموعُها ... إليكَ ابنَ عمى من جُفونى و مَحْجِرى (١)
وقد مسَّنى ضُرٌّ وذُلٌّ كآبةٍ ... وأرّقَ عيني يابنَ عمى تفكُّرِى
أُصِبْتُ بأدْنَى الناس منك قرابةً ... ومَن زالَ عن كَبْدى فَقلَّ تصبُّرى
وَهِمْتُ لِمَا لاقيتُ بعد مُصابه ... فأمْرِى عظيمٌ مُنكَرٌ جِدُّ منكرِ
سأشكو الذى لاقيتُه بعد فَقْدِه ... إليك شَكاةَ المُستهامِ المقهَّرِ (٢)
وأرجو لِمَا قَدْ مرَّ بى مُذْ فقَدْتُه ... فأنت لِبَثِّى خيرُ رَبٍّ مُغَيِّرِ (٣)
أتى طاهرٌ (لا طهَّرَ اللّهُ طاهراً) ... فما طاهرٌ فيما أتى بمُطَهَّرِ
فأبْرَزَنى مكشوفةَ الوجه حاسراً ... وأنْهَبَ أموالى وأخْرَبَ (٤) آدُرِى
يَعِزُّ على هٰرونَ ما قد لقيتُه ... وما نالنى من ناقصِ الخلْق أعوَرِ
فإن كان ما أسْدَى بأمرٍ أمَرْتَهُ ... صَبَرْتُ لأمرٍ من قديرٍ مُقَدَّرِ
تَذكَّرْ أميرَ المؤمنين قرابتى ... فَدَيْتُكَ من ذى حُرْمةٍ متذكِّرِ

فلما قرأ المأمون شعرها بكى ثم قال : اللهم إنى أقولُ كما قال أمير المؤمنين علىّ ابن أبى طالب كرم الله وجهَه لمّا بلغه قتل عثمانَ « واللهِ ما أمرتُ ولا رضيتُ » اللهم جَلِّلْ قلب طاهر حزنا .

(تاريخ الطبرى ١٠ : ٢١٣ ومروج الذهب ٢ : ٣١٦)

٢٠٥ ــ كتاب السيدة زبيدة إلى المأمون

وكتبت إلى المأمون أيضاً تستعطفه :

« كلُّ ذنب يا أمير المؤمنين ــ وإن عَظُمَ ــ صغيرٌ فى جَنْب عفوك ، وكل زَلَل

---

(١) استهل المطر : اشتد انصبابه ، ومحجر العين كمجلس ومنبر : مادار بها .
(٢) الشكاة : الشكوى ، والمستهام : الهائم . (٣) البث : أشد الحزن .
(٤) امرأة حاسر : حسرت عنها درعها وكشفته، وكل مكشوفة الرأس والذراعين حاسر، وأنهب ماله : جعله نهبا يغار عليه ، ومن جموع دار : آدر وأدؤر ، وقد روى بالوجهين .

ـ وإن جَلَّ ـ حقير عند صَفْحِك ، وذلك الذى عوَّدَك الله ، فأطال مُدَّتك ، وتمَّم نعمتك ، وأدام بك الخيرَ ، ورفعَ بك الشرَّ .

هذه رُقْعة الوالِهِ[1] التى ترجوكَ فى الحياة لنوائب الدهر ، وفى الممات لجميل الذِّكر ، فإن رأيتَ أن ترحَم ضعفى واستكانتى[2] ، وقِلَّةَ حيلتى ، وأن تصِلَ رَحِمى ، وتحتسِبَ[3] فيما جعلك الله طالبا ، وفيه راغباً ، فافعَلْ ، وتذكَّرْ[4] من لو كان حَيًّا لكان شفيعى إليك » .

٢٠٦ ـــ رد المأمون عليها

فكتب إليها المأمون :

« وصَلَتْ رُقعتك يا أمَّاه ، حاطكِ[5] الله وتَوَلاَّكِ بالرِّعاية ، ووقفتُ عليها وساءنى ـــ شَهِد الله ـــ جميعُ ما أوضَحْتِ فيها ، لكنَّ الأقدارَ نافِذة ، والأحكامَ جارية ، والأمور متصرِّفة ، والمخلوقون فى قَبْضتها لا يقدِرون على دِفاعها ، والدنيا كلُّها إلى شَتات[6] وكل حىّ إلى ممات ، والغَدرُ والبَغىُ حَتْفُ الإنسان ، والمكر راجع إلى صاحبه[7] ، وقد أمرتُ بردِّ جميع ما أُخِذ لك ، ولَنْ تَفْقِدى ممَّن مَضَى إلى رحمة الله إلا وجهَه ، وأنا بعد ذلك على أكثرَ مما تختارين ، والسلام » .

---

(١) الوله بالتحريك : الحزن أو ذهاب العقل حزنا ، وهو ولهان وواله وآله ، وهى ولهى وواهلة وواله وميلاه (بكسر الميم) : شديدة الحزن والجزع على ولدها .

(٢) الاستكانة : الخضوع والذل .

(٣) احتسب بكذا أجرا عند الله : اعتده ينوى به وجه الله .

(٤) تعنى أباه الرشيد .

(٥) حاطه : حفظه وصانه . (٦) الشتات : التفرق . (٧) يعرض بالأمين .

٢٠٧ — كتاب أحمد بن يوسف فى قتل الأمين

وكان أول ماارتفع به أحمد(١) بن يوسف الكاتب ، أنه لما قُتل الأمين أمر طاهر بن الحسين الكُتَّابَ أن يكتبوا إلى المأمون فأطالوا ، فقال طاهر : أريد أخصرَ من هذا ، فوُصِف له أحمد بن يوسف وموضِعُه من البلاغة فأحضَرَه لذلك(٢) فكتب :

« أما بعد . فإن المخلوع وَإن كان قَسِيمَ أمير المؤمنين فى النَّسب واللُّحْمَة(٣) ، فقد فرّق حكم الكتاب والسنة بينه وبينه فى الولاية والحُرْمة ، بمُفارَقته عِصْمَة الدين ، وخروجه عن الأمر الجامع للمسلمين ، يقول الله عز وجل فيما اقتصَّ علينا من نبإ نوح

---

(١) هو أحمد بن يوسف بن القاسم بن صبيح مولى بنى عجل بن لجيم بالكوفة ، استوزره المأمون بعد أحمد بن أبى خالد الأحول وتوفى سنة ٢١٣ — انظر ترجمته فى الفخرى ص ٢٠٦ والأغانى ج ٢٠ : ص ٥٦ وتاريخ بغداد للخطيب البغدادى ٥ : ٢١٦ وغرر الخصائص الواضحة ص ١٠٩ ومعجم الأدباء ٥ : ١٦١ وكتاب الأوراق لأبى بكر الصولى ١ : ١٤٣ وكتاب بغداد لابن طيفور ٦ : ٢٣٤.

(٢) هذه رواية زهر الآداب ، ومنها ترى أن هذا الكتاب كتب فى بغداد ، وروى أنه كتب بمرو . روى الطبرى قال : « لما بعث طاهر برأس محمد إلى المأمون ، بكى ذو الرياستين وقال : سل علينا سيوف الناس وألسنتهم ، أمرناه أن يبعث به أسيرا ، فبعث به عقيرا ، فقال له المأمون : قد مضى مامضى فاحتل فى الاعتذار منه ، فكتب الناس فأطالوا ، وجاء أحمد بن يوسف بشبر من قرطاس فيه « أما بعد . . » وكذلك روى الجهشيارى فى كتاب الوزراء والكتاب قال : « ولما قتل طاهر محمدا المخلوع أنفذ رأسه إلى المأمون ، فقال الفضل بن سهل : ما فعل بنا طاهر؟ سل علينا سيوف الناس . . . الخ ثم قال : وأمر المأمون الفضل أن ينشئ كتابا عن طاهر يخبره ليقرأ على الناس ، فكتبت عدة كتب لم يرضها واستطالها ، فكتب أحمد بن يوسف . . .

وروى ياقوت فى معجم الأدباء الخبرين ، وقال بعد أن أورد الأول : فرضى طاهر ذلك وأنفذه ، ووصل أحمد بن يوسف وقدمه ، ثم أورد الثانى فقال : « وقيل إن المأمون لما حمل رأس المخلوع إليه وهو بمرو ، أمر بانشاء كتاب عن طاهر بن الحسين ، ليقرأ على الناس ، فكتبت عدة كتب لم يرضها المأمون ولا الفضل بن سهل ، فكتب أحمد بن يوسف هذا الكتاب ، فلما عرضت النسخة على ذى الرياستين رجع نظره فيها ثم قال لأحمد بن يوسف : ما أنصفناك ، ودعا بقهرمانه وأخذ القلم والقرطاس وأقبل يكتب بما يفرغ له من المنازل ، ويعد له فيها من الفرش والآلات والكسوة والكراع وغير ذلك ، ثم طرح الرقعة إلى أحمد بن يوسف وقال له : إذا كان فى غد فاقعد فى الديوان وليقعد جميع الكتاب بين يديك ، واكتب إلى الآفاق » .

(٣) اللحمة : القرابة .

وابنه « يانوحُ إنَّهُ لَيْسَ مِنْ أَهْلِكَ إنهُ عَمَلٌ غَيْرُ صَالِحٍ » ولا صلةَ لأحدٍ في معصية الله ولا قطيعة ما كانت القطيعة في ذات الله .

وكتبتُ إلى أمير المؤمنين ، وقد قَتَل الله المخلوعَ ورَدَّاه رِداءَ نَكْثِه[١] ، وَأَحْصَدَ[٢] لأمير المؤمنين أمرَه ، وأَنْجَزَ له ما كان ينتظر من سابق وعده ، فالأرضُ بأكنافها[٣] أوطأُ مِهادٍ لطاعَتِه ، وأتبعُ شيء لمشيئتهِ ، وقد وجَّهْتُ إلى أمير المؤمنين بالدنيا وهو رأسُ المخلوع ، وبالآخرة وهي البُرْدَة والقَضِيب .

وَالحمد للهِ الراجِعِ إلى أمير المؤمنين معلومَ حقه[٤] والكائدِ له مَنْ خَتَرَ[٥] عهدَه ، ونَقَض عَقْدَه ، حتى رَدَّ به الأُلفةَ بعد فُرْقتها ، وجمعَ به الأمة بعد شَتاتها ، وأحيا به أعلامَ الدين بعد دُرُوسِها[٦] ، والسلام على أمير المؤمنين ورحمة الله وبركاته » .

(زهر الآداب ٢ : ٣٨ وتاريخ الطبري ١٠ : ٢١٤ ومعجم الأدباء ٥ : ١٦٧ وكتاب الوزراء والكتاب ص ٣٨٥)

٢٠٨ — رسالة الخميس لأحمد بن يوسف

ومن رسائل أحمد بن يوسف رسالة الخميس[٧] التي كتبها للمأمون وكانت تقرأ بخُراسان على شيعة بني العباس ، وهي :

---

(١) نكث العهد : نقضه . (٢) من أحصد الحبل : إذا أحكم فتله .

(٣) الأكناف : جمع كنف بالتحريك ، وهو الناحية .

(٤) الراجع هنا من رجع المتعدي ومفعوله « معلوم » .

(٥) الختر : الغدر والخديعة أو أقبح الغدر ، وفعله كضرب ونصر ، وفي المنظوم والمنثور « والحمد لله الآخذ لأمير المؤمنين بحقه ، والكائد له من خان عهده ونكث عقده ... » .

(٦) أي امحائها ، ، وفي زهر الآداب تكرير الحمد في آخر الكتاب ، قال « والحمد لله الآخذ لأمير المؤمنين حقه ، الراجع إليه تراث آبائه الراشدين » .

(٧) رسالة الخميس : هي رسالة كان يكتبها أبلغ كاتب في الدولة ، في عهد كل خليفة من أوائل الخلفاء العباسيين ، في تأييد الدعوة العباسية عامة ، وأن أولى الناس بولاية خلافة رسول الله صلى الله عليه وسلم بنو العباس عمه ووارثه من بعده ، وفي تأييد الخليفة الحاضر خاصة ، والإشادة بذكره ، وتعداد مناقبه ومآثره وأنه أولى أهل بيته بالخلافة ، وكانوا يبعثون بهذه الرسالة إلى خراسان فتتلى على أهلها ، ويحشدونهم لسماعها ، تفخيما لشأن الخليفة لديهم ، وتجديدا لولائهم لبني العباس واستدامتهم على التشيع لهم ،=

« من عبد الله الإمام[1] المأمونِ أمير المؤمنين إلى المبايعين على الحق ، والناصرين للدين ، من أهل خراسان وغيرهم من أهل الإسلام .

سلامٌ عليكم ، فإن أمير المؤمنين يحمَدُ إليكم اللهَ الذى لا إله إلا هو ، وَيسأله أن يصلِّيَ على محمد عبدِه وَرسولِه ، أما بعدُ : فالحمد لله القادر القاهر ، الباعثِ الوَارث ، ذى العزّ والسلطان ، والنور والبُرْهان ، فاطِرِ[2] السموَات وَالأرضِ وما بينهما ، والمتقدِّم بالمَنِّ والطَّوْل على أهلهما ، قبل استحقاقهم لمَثُوبَته بالمحافظة على شرَائع طاعته، الذى جعل ماأودَعَ عبادَه من نعمته ، دليلا هاديا لهم إلى معرفته ، بما أفادهم من الألباب التى يفهمون بها فَصْلَ الخطاب، حتى أُقيموا على موارد الاختبار ، وتعقَّبُوا مصادرَ الاعتبار ، وحَكَموا على مابَطَنَ بما ظهر ، وعلى ماغاب بما حَضَر ، واستدلُّوا بما أراهم من بالغ حكمته ، ومُتْقَن صَنعته ، وحاجةِ مُتَزايلِ[3] خَلْقِه ومُتَواصِله إلى القَوْم[4] بما يَلُمُّه ويُصْلِحه ، على أن له بارئًا هو أنشأه وابتدأه ويَسَّرَ بعضَه لبعض، فكان أقرب وجودهم

وقد ذكر ابن النديم فى الفهرست ص ١٧١ « أن لعمارة بن حمزة كاتب المنصور ومولاه رسائل مجموعة من جملتها رسالة الخميس التى تقرأ لبنى العباس » والظاهر أن رسالة عمارة هى أولى رسائل الخميس، حتى كانت الفتنة بين الأمين والمأمون ، وكان أحمد بن يوسف فى خراسان فى ديوان الفضل بن سهل ، فعمل رسالة الخميس للدعاية للدولة العباسية وللمأمون ، وللاحتجاج له عن قتل أخيه ، وقد جاء فى الفهرست لابن النديم ص ١٨٣ : « الكتب المجمع على جودتها . عهد أردشير ، كليلة ودمنة ، رسالة عمارة بن حمزة الماهانية ، اليتيمة لابن المقفع ، رسالة الخميس لأحمد بن يوسف » ولما ثار العباسيون ببغداد على المأمون ، ونصبوا عمه إبراهيم بن المهدى خليفة مكانه — كما سيأتى — عمل ابرهيم لنفسه رسالة خميس — و كان غزير الأدب وافر الفضل، لم ير فى أولاد الخلفاء قبله أفصح منه لسانا ولا أحسن منه شعرا — إلى أن كانت خلافة المتوكل فعمل له إبرهيم بن العباس رسالة الخميس ، وقد ذكر ابن طيفور فى المنظوم والمنثورصدر رسائل إبرهيم بن المهدى وإبرهيم بن العباس ، وسيردان عليك بعد ، ولم يحدثنا التاريخ أنه عملت رسائل الخميس بعد ذلك ، وسبب انقطاعها ما كان من غلبة الترك على الخلفاء ، ثم استيلاء الديلم على بغداد ، وانهيار بنيان وحدة الدولة وتشعبها إلى دول مستقلة فى المشرق والمغرب .

(١) كان الأمين قد نهى عن الدعاء على المنابر فى عمله كله للمأمون ، وأمر بالدعاء له عليها ، ثم من بعده لابنه موسى، وهو يومئذ طفل صغير وسماه الناطق بالحق، وذلك سنة ١٩٥ ، فبلغ ذلك المأمون فتسمى بإمام الهدى وكوتب بذلك — انظر تاريخ الطبرى ١٠ : ١٣٩ .

(٢) فاطر : خالق . (٣) المتزايل : المتفرق .

(٤) القوم : القيام .

ما يُباشِرُون مِن أنفسهم فى تصرُّف أحوالهم ، وفُنون انتقالهم ، وما تَظْهرون عليه من العَجْز عن التأتِّى(١) لِمَا تكامَلَت به قُواهم ، وتمَّتْ به أدواتُهم ، مع أثَر تدبير الله عز وجلّ وتقديره فيهم ، حتى صاروا إلى الخِلقة المحْكَمَة ، والصورة المُعْجِبة ، ليس لهم فى شىء منها تلطُّفٌ يتيمَّمونه ، ولا مقصِدٌ يعتمدونه من أنفسهم ، فإنه قال تعالى ذِكْره « يٰأيُّها الْإنْسَانُ مَاغَرَّكَ بِرَبِّكَ الْكَرِيمِ . الَّذِى خَلَقَكَ فَسَوَّاكَ فَعَدَلَكَ فِى أيِّ صُورَةٍ مَاشَاءَ رَكَّبَكَ » ثم ما يتفكَّرون فيه مِن خَلْق السموات ، وما يجرى فيها من الشمس والقمر والنجوم مسخَّراتٍ ، على مَسيرٍ [لَا يثبُتُ العالَمُ إلا به] : من تصاريف الأزمنة التى بها صلاحُ الحَرْث والنَّسل ، وإحياء الأرض ، ولِقاحُ النبات والأشجار ، وتعاوُرُ(٢) الليل والنهار ، ومَرُّ الأيام والشهور والسنين التى تُحْصَى بها الأوقاتُ ، ثم ما يوجد من دلائل التركيب فى طَبقَات السَّقْف المرفوع ، والمِهادِ الموضوع ، [باختلاف] أجزائه والتئامها ، وخَرْقِ الأنهار ، وإرْساء الجبال ، ومن البيان الشاهِدِ على ما أخبر اللهُ عزّ وجل به من إنشائه الخلقَ ، وحدوثه بعد أن لم يكن ، مترَقّيا فى النمَّاء ، وثباته إلى أجَله فى البقاء ، ثم مَحَارِه(٣) مُنقضياً إلى غاية الفناء ، ولو لم يكن له مُفتتَحُ عَدَد ، ولا مُنقطع أمَد ، ماازداد بنُشُوء ، ولا تَحيَفه(٤) [نُقْصَانٌ] ولا تفاوُتٌ على الأزمان ، ثم ما يوجد عليه منفعتُه من ثبات بعضِه لبعض ، وقِوَامِ كل شىء منه بما يُسِّرَ له ، فى بدء استمداده ، إلى منتهى نَفاده ، كما احتج الله عز وجل على خلقه فقال : « أوَلَا يَذْكُرُ الإِنْسَانُ أنَّا خَلَقْنَاهُ مِنْ قَبْلُ وَلَمْ يَكُ شَيْئاً » وقال عزّ وجلّ : « كُلُّ مَنْ عَلَيْهَا فَانٍ . وَيَبْقَى وَجْهُ رَبِّكَ ذُو الْجَلَالِ وَالْإِكْرَامِ » وكلُّ ما تقدَّم من الأخبار عن آيات الله عز وجل ودلالاته فى سَمَواته التى بَنَى ، وأطباقِ الأرض التى دَحَا(٥) ، وآثار صُنعه

---

(١) تأتى للأمر : ترفق وأتاه من وجهه .

(٢) التعاور : التداول . (٣) المحار : الرجوع وفى الأصل « بحاره » .

(٤) تحيفه : تنقصه من حيفه ، والحيف ، كعنب جمع حيفة بالكسر : وهى الناحية .

(٥) دحا الله الأرض يدحوها ويدحاها دحوا : بسطها

فيما بَرَأَ وذَرأ[1] ثابتٌ فى فِطَر العقول ، حتى يَسْتَجِرَّ أُولِى الزَّيغ ما يدْخِلُون على أنفسهم من الشُّبْهة فيما يجعلون له من الأضداد والأنداد ، جَلَّ عما يُشْرِكون ، ولولا توحُّدُه بالتدبير عن كل مُعِين وظَهِير[2] ، لكان الشركاءُ جُدَرَاء أن تختلِف بهم إرادتُهم [فيما يخلقون] ولم يكن التخالُف فيه من إثباته وإزالته ليخلُوَ من أحد وجهيه ، وأيهما كان فيه فالعجزُ والنقصُ مما أتاهُ وَبَرَأه ، جَلَّ البديعُ خالقُ الخلق ومالكُ الأمر عن ذلك ، وتعالَى عُلُوًّا كبيرا ، كما قال سبحانه : « مَا اتَّخَذَ اللهُ مِنْ وَلَدٍ وَمَا كَانَ مَعَهُ مِنْ إِلٰهٍ إِذًا لَذَهَبَ كُلُّ إِلٰهٍ بِمَا خَلَقَ وَلَعَلَا بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ سُبْحَانَ اللهِ عَمَّا يَصِفُونَ » ثم من عظيم نعمة الله عزّ وجل على خلقه افتقادُه[3] إياهم ، ثم يسدِّدهم وَيدُلُّهم على منافعهم ، ويجنِّبُهم مضارَّهم ، وَيَهديهم لما فيه صلاحهم ، ويرغِّبهم فى المحافظة على التمسُّك بدين الله عزّ وجل الذى جعله عِصْمَةً لهم ، وحاجِزاً بينهم .

ولولا ماتقدَّم به من تلَافِيهم[4] واستدراكهم بفضل رحمته لأجْتاحهم[5] التَّلفُ لِقُصُور معرفتهم عن التأتِّى لأقواتهم ومَعايشهم ، ولم يكونوا ليقتصروا على حظوظهم وأقسامهم عما بُنُوا عليه من الجَمْع والرغبة ، ولَتَهالكُوا ببَغْىِ بعضهم على بعض ، وعُدْوان قويِّهم على ضعيفهم ، ولكنه بعد تعريفه إياهم مُلْكَ قدرته ، وجلالةَ عِزَّته ، بعث إليهم أنبياءه ورسُلَه مبشِّرين ومنذرين بالآيات التى لاتنالها أيدى المخلوقين ، فرَضُوا بما قَسَطَ بينهم ، وارتدعوا عن التباغِى والتظالُم ، لِمَا وُعِدوا من الثواب الجسيم ، وخُوِّفوا من العقاب الأليم ، ولم يكونوا لِيُطيعوا أمراً لآمِرٍ ، ولا نَهْياً لِناهٍ ، إلاّ بحُجَّة يتبيَّن بها [الحقُّ] لمَن خالَفه من المُبْطلين ، وتخويفٍ يتَّقُون به مُقارَفةَ[6] ماحُرِّ [م عليهم] ، ورجاء يتجشمون له مَئُونةَ ماتَعَبَّدُوا به ، فافتتح الله عزّ وجل بأبيهم آدمَ عليه السلام ،

---

(١) برأ الله الخلق وذرأهم (كجعل فيهما) : خلقهم . (٢) الظهير : المعين .
(٣) أى تفقده ، وفى الأصل « سماوه » . (٤) فى الأصل « تلافهم » .
(٥) أى أهلكهم واستأصلهم . (٦) قارف الذنب : اقترفه وأتاه .

فعلّمه الأسماء كلَّها ، وأمر الملائكة بالسجود له كما اقتص فى وَحْيه المنزَل — وكرَّم ولده وفضَّلهم ، فقال جلَّ وعزّ : « وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِى آدَمَ وحَمَلْنَاهُمْ فِى الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَرَزَقْنَاهُمْ مِنَ الطَّيِّبَاتِ وَفَضَّلْنَاهُمْ عَلَى كَثِيرٍ مِمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلاً » وجعل مافَطَرهم عليه من العطف على ذَرَارِيِّهم وأبنائهم سبباً لما أراد من بقائهم وتناسُلِهم ، وما اختصَّهم به من العلم والفهم حُجَّةً عليهم ، ليمتحن طاعتهم ، وَيَبْلُوَهم[(١)] أيُّهم أحْسَنُ عَمَلاً .

ولم تَزَلْ رسُل الله عز وجل إلى خلقه تَتْرَى[(٢)] بالنور الساطع ، والْبرهان القاطع ، لايجدون لما يُوردون عليهم من الحق القاهر مَرَدًّا ولا مَدْفعا ، لقول الله عزّ وجل : « وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ رُسُلاً إِلَى قَوْمِهِمْ فَجَاءُوهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ فَانْتَقَمْنَا مِنَ الَّذِينَ أَجْرَمُوا وَكَانَ حَقًّا عَلَيْنَا نَصْرُ الْمُؤْمِنِينَ » فلم يجد المكذِّبون مَسَاغاً[(٣)] إلى دفع ما أقيم عليهم من لازِمِ الحجة إلاالمعاندةَ والمجاحَدَةَ ، وكان أنبياء الله صلوات الله عليهم يُبعثون فى أعصارِ الحُقَب[(٤)] نُذُرًا للأممِ ، حتّى خَتَمَهُمُ الله عز وجل بالنبىّ الأُمِّىّ محمد صلى الله عليه وسلم ، فبعثه فَرْدًا وحيدًا لا عاضِدَ له ولا رافِدَ[(٥)] ، إلى قوم يعبدون أصناماً بُكْمًا ، وحِجَارةً صُمًّا ، فكذَّب به القومُ الذين بُعِث فيهم أولَ ما دعاهم ، ورامَهُ ملوكُ أقطار البلاد بتوجيه الأجناد ، ومُرافَدة القوة والعَتَاد[(٦)] ، وبُغِىَ الغوائلَ ، ونُصبت له الحبائلُ ، وهو يدعو إلى سبيل ربه بما أمره به إذ يقول تعالى : « أُدْعُ إِلَى سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحِكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ وَجَادِلْهُمْ بِالَّتِى هِىَ أَحْسَنُ » ثم جاهَدَ بمن أطاعه مَن عصاه ، وبمن اتَّبعه مَن خالَفه ، حتى أعزّ الله كلمته ، وأظهر دعوتَهُ ، وأكمَلَ لعباده دينَهم الذى ارتضى لهم ، فلما اختار الله له ما لديه ، واختصَّه بما عنده ، من النعيم

(١) أى يختبرهم . (٢) يقال : جاءوا تترى وينون ، وأصله وترى : أى متواترين متتابعين .
(٣) أى مدخلا وطريقا .
(٤) الحقب جمع حقبة بالكسر ، والحقبة من الدهر : مدة لاوقت لها .
(٥) الرافد : المعين الواصل . (٦) العتاد : العدة .

المقيم ، والجزاء الكريم ، بعد استقامة الدين ودخول الناس فيه أفواجا[1] ، خَلَفَه - إذ خَتَم به الأنبياء - بالبَرَرَة النجباء من أدانيه ولحمته[2] ، لإقامة الشرائع المفترَضَة ، وإنفاذ حُكم الله المنزَّل ، واقتفاء السُّنَّة المأثورة ، وحفظا له في قرابته ، ومُجيبي دعوته وإتماما لما أوجب له من الفضيلة ، وقريب الوسيلة ، وإنجازاً لما وعده من إظهار ما بَعَثه به ، من دينه الذى اصطفاه وارتضاه .

وكان اختيارُ أولى الفضل من لحمته وعَصَبَته لإرْث خلافته ، من عظيم الزُّلَف[3] التى رَغِب إلى الله فيها أنبياؤه ، فيما اقتصَّ فى مُنزَل وَحْيه[4] ، واختصَّ تبارك وتعالى نبيَّه صلى الله عليه وسلم بما أمَرَه به من مسألة أمَّته تصييرَ مَوَدَّته فى القُرْبى ، جزاءه ممَّن تبعهُ على الرسالة ، وهَداه من الضلالة ، فكانت فضيلتهم عزيمة من الله عز وجل ، دون طلب رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ألزمَه تأديتَه إلى خلقه . وألزمهم أداءهُ ، فقال عز وجل : « قُلْ لَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا إِلَّا الْمَوَدَّةَ فِي الْقُرْبَى » ودلَّ بما أخبَرَ به وأظهَرَه من تطهيره إياهم ، وإذهابه الرِّجْسَ[5] عنهم ، على اصطفائه لهم ، فقال تعالى : « إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنْكُمُ الرِّجْسَ أَهْلَ الْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيرًا » وكان مما أوجب لهم به حقَّ الوراثة فى مُحْكَم تنزيله قوله تعالى « وَأُولُوا الْأَرْحَامِ بَعْضُهُمْ أَوْلَى بِبَعْضٍ فِي كِتَابِ اللَّهِ » ثم قَرَن طاعتهم بطاعته فقال : « أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَأُولِي الْأَمْرِ مِنْكُمْ » وأحَلَّهُمْ من النَّباهة والصِّيت ، بالمحلِّ الذى أعْلَى به أمْرَهم ، ورَفَعَ به ذِكْرَهم ، لِمَا أحبَّ من التبيين فى الدلالة عليهم ، والهداية إليهم ، فإنه يقول عزّ وجل : « يُرِيدُ اللَّهُ بِكُمُ الْيُسْرَ وَلَا يُرِيدُ بِكُمُ الْعُسْرَ » ،

---

(١) الأفواج جمع فوج بالفتح : وهو الجماعة . (٢) اللحمة : القرابة .

(٣) الزلف جمع زلفة بالضم : وهى القربة ، وفى الأصل « ومن عظم الزلف » وفيه أيضا « وبما اقتص » وهو تحريف .

(٤) يشير إلى قول زكريا عليه السلام « فَهَبْ لِي مِنْ لَدُنْكَ وَلِيًّا . يَرِثُنِي وَيَرِثُ مِنْ آلِ يَعْقُوبَ » .

(٥) الرجس : القذر ، والمأثم .

ولو كان الأئمة المقلَّدون أمرَ عبادِه خاملةً أنسابُهم، متقطعةً أسبابُهم، غيرَ مخصوصين بفضيلةٍ يَرَونهم بها دُون غيرِهمْ لم تَعدُ طَلِبَتُهم وعَقْدُ الخلافةِ لهم، أن تكون من مفترَضاته على كافَّة الأمة، أو على بعض دون بعض، فإن كان لأهل الشرق والغرب من ذوى النقص والكمال أن يختاروا لأنفسهم، فايس فى اجتماع آرائهم مع تفرُّقهم واختلافِهم طمعٌ آخِرَ أيامِ الدهر، وَإن كان إلى خاصَّة دون عامَّة، فستحتاجُ العامَّةُ مِنْ طَلَب معرفةِ تلك الحال، إلى مِثلِ مَا احتاجوا إليه فى أئمتهم إذ لم يكن أهلُ الارتياب والطلب من أعلام الآفاق، لِيتواطئُوا على اتفاق، لِنَفادِ آجالهم قبل بلوغهم غايةَ الاجتهاد فى الفَحْص والتكشيف، وحاجَتهم إلى اختيار البُلْدان، وتمحيصِ أُولى الفضائل بالامتحان، وَمَا [هو] خافٍ عليهم من الشُّبَه فى اختيارهم، والاختلافِ فيمن عَسَوا أن يجتَبُوه[1] ويقدِّموه، حتى تتهالَكَ الرعيةُ، بتَظالُمها بينها، وَبطارقِ مَن يَليها من الأمم إياها إذ لا ذائدَ عنها ولا مُحامِيَ، فإذا ألزمَتِ الأمةَ الحاجةُ إلى نَصْبِ الحُكَّام لإقامة الدين، وتقسيطِ الحقوقِ بين المسلمين، وَمجاهدةِ عدوِّهم من المشركين، لم يكن لهم فى الإمامة عليهم مجازٌ إلى التخلص إليهم، ولا ريبَ عند المعرفة برأفة الله ورحمته، ولُطفه وحكمه، فى دَفعِه عن عباده ما لم يجعل فى حيلتهم له وُسْعا، ولا فى حِيلتهم له دَرْكا، وكِفايته إياهم ما يُعْجِزُهم منَ البحثِ والتنقيب عن ولاة أمرهم، بنَصْبِه إياهم، وما رَفعهم إليه من الدرجة التى أعلاها وأسناها[2]، إذ وَصَل نسَبَهُم برسول الله صلى الله عليه وسلم، وافترَضَ مودَّتهم على خَلْقه، ولم يَشِنْهُم[3] جهاُهم للغرض الذى ألزمَهم له، ولم يجب عليهم فرضٌ فى مَعرِفة مَن سواهم، ولم يزلْ سِياقُ أئمةِ الهدى مُطَّردا، ونظامُهم متَّصلا، يتلقاه كابرٌ عن كابر، ويؤدِّيه أوَّلٌ إلى آخرٍ، حتى تناهَى إلى أمير المؤمنين، وهو حالٌّ دارَ دَعْوته، وبين أنصاره مِن أهل

---

(١) اجتباه: اختاره. (٢) أى رفعها وأعلاها.

(٣) فى الأصل «يسفهم» وربما كان «يسفههم».

خُراسان ، فنظرتْ به خيرَهم ، وعرَفوا ما تصرَّفَتْ به أحوالهم ، وظهر لهم مِن بيان حُجَّته على مَن نازَعهُ فى الأمر ، وشاهَدوا من إبلاغه فى العُذْر ، واستظهاره بالتأنّى والصبر ، ما أزاحَ عنهم الشُّبْهَةَ ، وكَشَطَ[1] الحَيْرَةَ ، حتى استراثوا[2] نهوضَه بحقه ، وخافوا الزَّيغَ على أدياِنهم فيما أعطوه من صَفْقَةِ أيمانهم ، وهو ماضٍ على عادته مستديمٌ الموادَعة ، متلوِّم[3] على المراجَعَة ، بالغٌ غايةَ ما وَسِعَه من الرُّخصة فى دفع الولاية التى نَهْنَهَ[4] بها الرعيةَ ، حتى ضاق عليه فى دينه تركُ القيامِ بما أنهضه اللهُ به من ثِقْلِها ، وقلَّدَه مِن حِمْلِها ، وخان المخلوعُ فابتغاه بالشَّرَّةِ والعِزَّة ، فتناول أولياءَ الحق باغياً طاغياً ، لِما أراد الله من تأييدهم[5] عليه بالبيان والحُجَّة التى وجب[6] لها قلبُه ، وفُتَّ بها فى عَضُده[7] ، وقِبَل الله ما أيدكم به[8] من النصر والغَلَبة فيه التى جعلها الله للمتقين ، فاجتمعَ لكم معشرَ أهلِ خراسان فى دولة أمير المؤمنين ثلاثُ خِلال اختصّكم الله بفضيلتها ، وسَنِيِّ[9] مراتبها ، دون ثلاثٍ شَمَلَتْكم وغيرَكم : أمَّا الأولى من اللواتى خصّكم الله بهن . فما تقدَّم لأسلافكم من نصرة أهل بيت [النبى] وخاتم ميراثه من آباء أمير المؤمنين . وأمَّا الثانيةُ فما آثرَكم الله به من نُصْرَته فى دعوته الثانية . وأما الثالثة فما تقدَّمتم به من صحة ضمائركم ، ومَحْضِ[10] مناصحتكم . وأما الثلاث اللواتى هن لكم ولغيركم :

فمنهن : ما أكَّد الله لأمير المؤمنين فى أعناق المسلمين ، من العهد الذى أخذ إصْرَه[11] ، وألهمهم الوفاءَ به ، والتمسُّكَ بوثائق عِصْمته ، عند محاولة المخلوع ما حاول

---

(١) أى كشف ، وبابه ضرب.

(٢) استراثه : استبطأه ، وفى الأصل « استرادوا » وهو تحريف .

(٣) تلوم فى الأمر : تمكث وانتظر . (٤) نهنهه : كفه وزجره .

(٥) فى الأصل « بادبهم » . (٦) أى اضطرب وخفق .

(٧) فت فى عضده : أضعفه .

(٨) فى الأصل « وقبل ماأر ... كم به من النصر » وقد أصلحته كما ترى .

(٩) أى رفيع . (١٠) أى خالص ، (١١) الإصر : العهد .

من الإعلان بالرِّدَّة ، والتمسَ من تبديل مَعَالِمِ الدين وتعفيةِ آثاره ، فلم يُلْفِ الرَّعية سُدًى مهملين ، لا جامعَ لأمرهم ، ولا ضامَّ لنشرهم .

ومنهن : ما أفادكم الله وإياهم من العِبر ، عند حلول الغِيَر[1] ، بمن غَدَر وخَتَر[2] ، تذكرةً لأولي النُّهى ، وحجّةً بالغةً على مَن أدبَرَ وتولّى ، ليهتدى متحيّرٌ ، ويتّعظ مُزدجِر « وَلِيُمَحِّصَ اللهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَيَمْحَقَ الْكَافِرِينَ » .

ومنهن : اجتماعُ أهل الفضل من المسلمين ممّن لم يكن له نصرٌ ولا أزر[3] في الدعوة الأولى ، على المشايعة في الدعوة الثانية ، فأصبح دُعاةُ أمير المؤمنين ـ من أهل الحرَمين والمِصْرَين[4] ومدينة السلام والمشرقِ والمَغرب ، ممّن غَار وأنجَدَ[5] من المتمسّكين بذممهم ، الموفين بنذورهم ، من إخوانكم ، وإن كانَ الله قد قدّمكم في الأمرَين جميعا بتفوّق حالكم على غيركم ـ يعتدّون من مُعاضدَتكم ومكانفتكم[6] بما جعله الله عز وجل ألفةً لكم ، ومودّةً بينكم ، يُبيدُ بها ما كان الشيطان ينزَغ[7] به بين أهل التباعُد في الأنساب ، والتنائى في الأوطان ، من إيقاع العَداوة والبَغضاء ، والانطواء عَلَى الأحقاد والدِّمَن[8] ، وطَلب تقديم الإحَن[9] ، وصار أهل السموّ إلى الدرجة العليا ، والاعتصام بالعروة الوثقى ، من أولياء أمير المؤمنين ، وشيعته ، مُنشرحةً صدورهم بمكانفته ، مُنبسِطة أيديهم بمعاونته على حقه ، منفسِحةً آمالُهم في إذكاء[10] ناره على

---

(١) غير الدهر : أحداثه المغيرة .

(٢) الختر : الغدر والخديعة ، أو أقبح الغدر ، وفعله كضرب ونصر .

(٣) الأزر : التقوية .

(٤) الحرمان : مكة والمدينة ، والمصران : الكوفة والبصرة .

(٥) غار : أتى الغور بالفتح ، وهو المنخفض من الأرض ، وأنجد : أتى النجد ، وهو المرتفع منها .

(٦) المكانفة : المعاونة والمؤازرة .

(٧) نزغ الشيطان بينهم كمنع : أفسد وأغرى ووسوس .

(٨) الدمن جمع دمنة بالكسر : وهى الحقد القديم .

(٩) الإحن : جمع إحنة بالكسر ، وهى الحقد أيضا .

(١٠) أذكى النار : أشعلها ، وأثخن في العدو : بالغ الجراحة فيهم .

عدوه والإثخانِ في بلاده وافتتاح مُمتنِع حُصُونه ، بما جَمَعَهُم الله عليه من الألفة ، ورَفَع عنهُم من الحَمِيَّة[(١)] والعَصبيَّة ، راجين عودتَهُم إلى أحسنِ مَامَضى عليه سَلَفُهم في عهد نبيه صلى الله عليه وسلم ، من سَلاَمَة الصدور ، وصلاَحِ ذات البَيْن ، واجتماع القُوى على مجاهدة من شاقَّهُم[(٢)] ، قد أفرخ الله عنهم نَفَرَ[(٣)] التجارُب والتجاذُب ، وجعل ما كان يسعَى به بعضُهم من الإعداد لبعض ، زيادةً في رِيحِهم[(٤)] ، وحَدًّا في شوكتهم ، لائتلافهم في دولة أميرالمؤمنين المجدودة[(٥)] المؤيَّدة بصدقالضمائر ، ونفاذ البصائر ، وإلى الله يرْغَبُ أمير المؤمنين في إعانته على صَالِح نيتـه ، وتبليغه مُنتهَى سُؤْله ، وغايةَ همته ، في إعزاز دينه ، وإذلالِ من صَدَّ عن سبيله ، إنه سميع قريب .

وَمن أقوى الأسباب إلى استدعاء الشكر على النعمة تذكُّرُ ما كانت عليه الحالُ قبلَها ، فاستديموا الإفاضةَ فيما رَفَعَ اللهُ من خَساستكم ، وأعلَى من أقداركم ، بنُصْرَة أهل بيت نبيكم صلى الله عليه وسلم ، وما أبلاَكم اللهُ في الدعوة الأولى ، مما لا يؤدَّى حقُّه إلاّ بعَوْن الله وتوفيقه ، فإنه ارتاح لهم[(٦)] بلطفه وتوْفيقه ، فأنالَهم رَغائِبَ الأقسام ، وَسَنِيَّ الحُظوَات ، ورَفَعَ دَرَجَهم وَدَرَجَ خُلُوفِهم وأعقابِهِم من بعدهم ، بعد إذ هم مُستَضعَفون يخافون أن يتخطَّفهم الناس ، مُذْعِنُون بقَهْرِ عدوهم واستِئثاره عليهم ، ثم لم يلبَثوا أنْ صاروا إلى الحال التي يرَوْنهم بها من الغِبْطَة والبَهْجة ، إلا أنهم أخذوها بحقِّها ، وكانت في أيدى الظَّلَمَة من أهل بيت اللّعْنةِ وأتباعهم ، بخُلْسة الباطل ، ومِحْنةِ الابتلاء « وَلِيَعْلَمَ اللهُ مَنْ يَنْصُرُهُ وَرُسُلَهُ بِالْغَيْبِ إنَّ اللهَ قَوِيٌّ عَزِيزٌ » .

وليس أحدٌ منكم بخارج من المِحْنة بما أُلْبِس من النعمة ، وإن كنتم أهلَها

(١) الحمية : الأنفة .   (٢) شاقه : خالفه وعاداه .

(٣) أفرخ : أى سكن وهدأ ، ونفر عليه كفرح وضرب ومنع نفرا ونفرانا بحركتين : غلى جوفه من الغضب والغيظ ، وهو من نفرت القدر . إذا غلت وفارت ، وفى الأصل الأول « قد أفرد الله عنهم نفرة التجارب » والمعنى عليه صحيح .

(٤) الريح : القوة .   (٥) المجدود : العظيم الجد بالفتح ، وهو الحظ .

(٦) أى لأهل بيت نبيه ، وارتاح الله له برحمته : أنقذه من البلية .

الآخذين لها بحقها ، بل الذى يلزمكم استدامتها والقيام بحفظها ، على حسب ما أولاكم الله منها ، فربما كان الذى يعقب أهلها من الغفلة والاغترار ، ويلهيهم بها من حبورها[١] وسرورها ، أعظم إثما وحوبا[٢] مما يخاف على أهل البطالة والضر ، من ضعف العزم ، وقلة الصبر ، لما يستولى عليهم من استكانة الذلة ، والاغترار بالتقصير ، والفزع إلى ربهم فى تنفيس كربهم ، فإنه تبارك وتعالى قد وصف أهل الطبقتين فقال : «وَإِذَا أَنْعَمْنَا عَلَى الْإِنْسَانِ أَعْرَضَ وَنَأَى بِجَانِبِهِ وَإِذَا مَسَّهُ الشَّرُّ فَذُو دُعَاءٍ عَرِيضٍ» فحاجتكم - إذ أنجح الله سعيكم ، وأظفركم بطلبتكم - إلى حياطة ما أودعكم الله من منه ، وحراسة ما آتاكم الله من فضله بالشكر المُمْتَرِى[٣] للمزيد .

فتعهدوا - معشر شيعة أمير المؤمنين - أنفسكم بتذكر ما سهل الله لكم من الحزونة[٤] ، وذلل لكم من الصعوبة ، وحكم لكم به من النصر ، على مراق[٥] الملة ، ومخالفى أهل القبلة ، وأباحكم من ديارهم وأموالهم ، فأصبحتم - بمن الله عليكم - حماة الدين ، وأنصار الأئمة الراشدين ، وحصون كافة المسلمين ، بعد ما اجتث[٦] الله بكم قرون النفاق ، وأبار بكم صناديد الضلالة ، وشرد بمن لم تستحمله سيوفكم ، وأضرع[٧] إليكم من أذعن واستسلم ، وقد استشرفكم[٨] - معشر شيعة أمير المؤمنين - أهل الشنآن ، ولاحظوكم بأعين الحسد والمنافسة ، فبين ذلك مجهر معالن[٩] ، ومستتسر مداهن ، وداخل فى عدادكم ، ووالج فى سوادكم[١٠] ، يرى أمنه بين ظهوركم ، فطعنه عليكم

---

(١) الحبور : السرور . (٢) الحوب : الإثم .

(٣) أى المستوجب . يقال : امترى الشيء : أى استخرجه ، والريح تمترى السحاب : أى تستخرجه وتستدره . (٤) حزن المكان ككرم حزونة : غلظ ، فهو حزن كصخم .

(٥) مراق الملة : الخارجون عنها ، جمع مارق .

(٦) اجتثه : قطعه . (٧) أضرع : أذل .

(٨) استشرفه : رفع بصره إليه ، والشنآن : البغض والكراهية .

(٩) جهر الكلام كمنع ، وبه ، وأجهر : أعلن به ، وأعلن الأمر ، وبه : أظهره ، وعالنه : أعلن إليه الأمر ، واستسر : استتر .

(١٠) الوالج : الداخل ، وسواد الأمة : عامتها .

فى دولتكم بريبة التمويه ، وخُدَع التشبيه ، أيسرُ عليه كُلْفَةً ، وأعظمُ فيكم جَرْحاً ونِكاية ، فتوقَّوْا هذه الطبقةَ أشدَّ التوقِّى ، فإن أكثرَ مَن يلجأ إلى استباحة الحيلة ، مَن عجزَ عن المُباداة[1] والإصْحار ، وعند ظهور الحازم وغلبته يحترز من لطيف الخُدَع ، وخَفِىِّ الاُستدراج .

واحذروا ـ معشرَ شيعة أمير المؤمنين ـ من استمهال الطَّاءة[2] ، والركون إلى رَاحة الدَّعة ، ما قد رأيتم وبَالَه عادَ على أهله ، وأورَثتْهُم عواقبُه طولَ النـدم والحسْرة ، فإنكم قد كنتم فى حال المراقبة لعدوِّكم ، والخوف لبائقته[3] ، متيقِّظين مُتَحَفِّظين لما كان يرومُكم به من خَتْلِه[4] وخِيله ، ثم أفضيتم إلى الحجِّ ، وقد جَهَدَكم السعىُ ، ومسَّكم النَّصَبُ ، وسيُلقِى الشيطانُ فى أمانيِّكم أنْ قد اكتفيتم بسالف ما قاسيتم ، ويَجِد من ضعف العزائم مُعيناً داعياً إلى اغتنام الخَفْض ، والإخلادِ إلى الأرض ، مالم تعتصموا بما عاينتم من الاُعتبار ، وتمتثلوا مواضِىَ الآثار فيمن سَلَف من القُرون الخالية ، وما أفضَتْ به إليه الغِرَّةُ من زوال النعم ، ووقوع الغِيَر ، فإن جميع ما خوَّلكم اللهُ وأفادكم مُرتَهنٌ بما ألزمكم من حِياطته واستدامته ، فقد وجَبَتْ عليكم الحُجَّةُ بما حضَّكم الله عليه ، وعظُمت عليكم المِنَّةُ بما هداكم إليه ، وأراكم من آياته ومَثُلاته[5] فيمن خَلاَ قبلكم ، ما فيه أبلغُ الإعذار والإنذار لكم ، ومن اجتمع له اقتداء صواب مَن تقدَّمه ، إلى ما ينبعثُ من نفسه ، فكأنَّه قد اختبرَ بالتجربة ، مع استمداده بما يستفيد ويستزيد ما يفتح لُبَّه ورَأْيَه . وأيْقِنُوا أنكم لن تصلوا إلى مَن

---

(١) بادى بالعداوة : جاهر بها ، وأصحر : برز وانكشف ـ وأصله : خرج الى الصحراء .

(٢) الطاءه : الإبعاد فى المرعى .

(٣) البائقة : الداهية . (٤) الختل : الخداع .

(٥) العرب تقول للعقوبة مثلة بفتح فضم ، ومثلة بضم فسكون ، فمن قال الأولى جمعها على مثلات بفتح فضم أيضا ، ومن قال الثانية جمعها على مثلات بضم الأول وضم الثانى وفتحه وسكونه ، قال تعالى :

« وَقَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِمُ الْمَثُلاتُ »

سِوا كم ، ممن هو أعسَرُ طاعةً عليكم ، وأعذرُ بمعصيتكم ، حتى تبدءوا باستصلاح أنفسِكم ، وأنه لن يُرْجَى لـكم القوةُ على مجاهدة عدوكم ، حتى تقوَوْا على مجاهدة أهوائـكم ، فإن على كل امرئ ريبةً من أمره ، وغِطاء من غَيْبه ، لا يَـكشِفُه إلا صحة المعرفة . والإذعانُ بالنَّصَفَة[1] ، فهناك يُؤْمَن عليه الجهلُ والمعانَدَةُ ، وإذا أُمِنَت هاتان الخلَّتَان انْسَدَّت بإذن الله ثُلَمُ الآفاتِ ، وفُتُوقُ المـكارهِ ، فإنه لا يُخاف الضلال على مَن اهتدى . ولا اعتمادُ الجَوْرِ على مَن انتصف مِن هَوًى .

وليكن أولَ ما تتعهدُّون به أنفسكم ، وتُثابرون عليه من صالح أدبكم ، تناصُفُ الحقِّ بينـكم ، بتقديم أهلِ الفضائل والآثار المحمودة منـكم ، وتفخيم أمرهم ، فقد علِمْتم أن منـكم المبرِّز[2] الفائتَ الذى لا يُدْرَك شَأْوُه ، ولا يُوازَى بلاؤُه ، حين كَشَفَ الإبلاءُ ضمائرَ القلوب ، وجَلَا مُشْتَبِهاتِ الظنون ، فصَرَّح بالمحاربة بعد التقدُّم فى الحجة ، ووَفاءٍ بمُؤَكَّد العهد ، وركوباً منه لهائل الخطَر ، غيرَ هائبٍ مع صحبة الحق ، ما بَرَقَ لديه النا كثُ الخلوعُ وَرَعَدَ ، ولا مُسْتَوْحِشٍ فيما تفرَّد به إلى مَن تولَّى وأدبَر ، حتى أتى الغايَةَ التى أُجْرِىَ إليها فى الله عزَّ وجل ، ولخليفته ، ثم لرؤسائـكم من أهل المشايَعة والمـكانفَة والنُّصْرة والحظِّ الجزيل والأَثَر المُبين ، ثوابُهم واجبٌ ، وحقُّهم لازِمٌ ، ثم منـكم مَن يُحْفَظ لِسَلَفِه وأوَّلِه من الآباء الذين يحفظون ولا يتهم ، فإن الله عز وجل يقول فى ذكر اليتيمين : « وَأَمَّا الْجِدَارُ فَـكَانَ لِغُلَامَيْنِ يَتِيمَيْنِ فِى الْمَدِينَةِ وَكَانَ تَحْتَهُ كَنْزٌ لَهُمَا ، وَكَانَ أَبُوهُمَا صَالِحًا فَأَرَادَ رَبُّكَ أَنْ يَبْلُغَا أَشُدَّهُمَا وَيَسْتَخْرِجَا كَنْزَهُمَا رَحْمَةً مِنْ رَبِّكَ وَمَا فَعَلْتُهُ عَنْ أَمْرِى ذٰلِكَ تَأْوِيلُ مَا لَمْ تَسْطِعْ عَلَيْهِ صَبْرًا » وقال على لسان يعقوب لابنه يوسف « وَكَذٰلِكَ يَجْتَبِيكَ رَبُّكَ وَيُعَلِّمُكَ مِنْ تَأْوِيلِ الْأَحَادِيثِ وَيُتِمُّ نِعْمَتَهُ عَلَيْكَ وَعَلَى آلِ يَعْقُوبَ كَمَا أَتَمَّهَا عَلَى أَبَوَيْكَ مِنْ قَبْلُ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْحٰقَ إِنَّ رَبَّكَ عَلِيمٌ حَكِيمٌ » .

---

(١) النصفة : الإنصاف .　　(٢) برّز : فاق أصحابه ، والشأو : الغاية .

وأميرُ المؤمنين يرى توريثَ الحِكمة والذِّمام[1] سُنَّةً عليه فى أخلاقه التى يرْعاها ويحافظ عليها ، كما أنه يرى وِراثةَ التَّرِكَة فريضةً واجبة ، فَيَخْلُفُ السَّلَفَ الصالِحَ عنده فى المزيَّة والفضل مَن يُتْلَوْن به من أهلِ الغَناء[2] بأنفسهم ، ثم يتلوهم مَنِ اقْتَدَى بهم واهتدى بهديهم ، والسابقُ المتقدِّمُ مَن اعتدَّ ببلاء نفسه إلى بلاء سَلَفِهِ ، ثم يَتْبَعه بعدُ المُبْلِى بنفسه ، ثم يتلوهما المتوسِّلُ بآبائِه، ثم الصاعِدُ به هواه ورأيُه ، طبقةً فطبقةً ، فلْيُقْصَرْ كلُّ امرئٍ منكم على المرتبة التى أحَلَّه بها سعيُه ، ولْيَسْلُك إلى الازدياد فيها بالزيادة من نفسه ، فإن من الفُتُوق العظيمة عَلَى أهل الدول ما يَنْزَغُ به الشيطانُ بينهم ويكثُر عندهم ما يكون منه ، فيوافقُ من الحَيف للأنفس ما يجد به مَسَاغا إلى ما يرُوم من إيقاع الشَّحناء بينهم ، وتثبيتِ الإِحَنِ فى صدورهم ، بعد التآزُر والتناصُرِ . ومتى يَجمع المرء لمزيَّةِ مَن فوقَه واغتباطِ من دُونَه ، كُفِىَ ما تَرَكَ ، ولن تخلُصَ نيَّاتكم ، وتسلَمَ ضمائركم حتى تَمْحَضُوا[3] شكرَ ما أُولِيه إخوانُكم ، وتعتدُّوا ما نالهم شاملا لكم، وتُجانِبوا طَريقةَ مَن اقتصر بأمْنيّته عَلَى خاصَّته، وتعتَّبَ فيما أُوثِرَ به أهلُ الفضل دُونه ، وكَفَى عِظَةً فيما نَهاكم الله عنه من ذلك ، يقول الله عز وجل : « وَلَا تَتَمَنَّوْا مَا فَضَّلَ اللَّهُ بِهِ بَعْضَكُمْ عَلَى بَعْضٍ لِلرِّجَالِ نَصِيبٌ مِمَّا اكْتَسَبُوا وَلِلنِّسَاءِ نَصِيبٌ مِمَّا اكْتَسَبْنَ ، وَاسْأَلُوا اللَّهَ مِنْ فَضْلِهِ إِنَّ اللَّهَ كَانَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمًا » ولا يلتمسَنَّ أحدٌ مودَّتَه عَنْ سُوءِ نيَّة بحُسْن مُدَاراةٍ فى ظاهِرٍ ، فإنَّ الله مقلِّدٌ كلَّ امرئٍ رِبْقَةَ[4] عمله ، وَمُطوِّقُه طوقَ سريرته ، ولا يغدِرَنَّ فيما يَلْزمه لإمامه، فإنه إنما يَغدِرُ فى حَظِّه ، وَيَبْخَسُ قَسْمَه ، وَيَنْحَسُ[5] نفسَه ، ثم لا يقتصرَنَّ عَلَى استصلاحها حتى يتناولَ مَن

---

(١) الذمام : الحق والحرمة . (٢) الغناء : الكفاية ، وفى الأصل « فيخلف السلف الصالح عنده من المزية والفضل مايتلون به أهل الغناء بأنفسهم » وأراه محرفا .

(٣) محضه كمنع وأمحضه : أخلصه .

(٤) الربق بالكسر : حبل فيه عدة عرى يشد به البهم ، كل عروة ربقة .

(٥) نحسها (كمنع) : عناها وأشقاها .

كانت مِنّتُه عليه من أقرَبيه وحَشْويّه[(١)] ، فإنّ يَسيرَ ما هو مُعانٍ من تأديتهم ، لا ينشَبُ أن يتجاوز أدْنى المراتب إلى أقاصيها ، وقريبَها إلى مُنتاهيها ، حتى يستفيضَ شامِلاً عامّاً ، بعد أن بدا محلَّلاً[(٢)] خاصّاً .

واعلموا أن أمير المؤمنين متفقِّدٌ من تثقيفكم وتقويمكم على صالح الأدب ، ومحمود السِّيرة ، مالا يتفقَّد به من سِواكم ، فإنه إن كان يوجِبُ على نفسه استصلاحَ الرعية ، وحَمْلَهم على ما فيه رُشْدُهم وقِوامُهم ، لِما يلزَمُه من فضل العناية بالأخصِّ والأوْلَى فالأوْلى ، فإن فى إخلالكم من التقديم فى التأديب والتعهُّد وُجوها من الضرر ، منها : أنكم أوْلى بحسن الطاعة وسرعة الإجابة ، لِلُطْف محلِّكُم ، وقُرْبِ مكانكُم عند أمير المؤمنين . ومنها : أنكم يأنَسُ بكم المُؤتَمُّون ، ويقتدى بكم التابعون ، فمتى قصَّرتم وأخْلَلْتم ، اقتفى أثرَكم مَن نُصِبْتُمْ له أعلاما ، ثم لم يكن لكم أن تَزْرُوا[(٣)] عليه ، ولا أن تأخذوا فوق يده ، بل كان قَمِيناً[(٤)] أن يكون يسومكم الرِّضا بمثل ما سُمْتُمُوه ، ثم تجرى هذه العادة فى الطَّبَقات ، حتى يطَّرِدَ السِّيَاقُ ، إلى أن يستفيض الفسادُ فى حَشْو الناس وعامّتهم ، فلا تُغْنِى قوةٌ ولا حزمٌ ولا شِدَّةٌ إلا العجزَ والإضاعة ، ثُم يجد الأعداء مَساغا إلى الطعن والعيوب ، فلا يملكون أن يُرْهِقوكم[(٥)] ، ويستولى عليكم الفشلُ ، فإن الأيدى إنما تَبْسَط بنَفاذ العزائم ، والعزائم إنما تَنفَذ بثبات الحجَّة ، والحجة إنما تثبت إذا كانت عن الحق ، وإذا أُضيع أوَّلُ هذه الرسوم التى رَسَم لكُم أمير المؤمنين

---

(١) نسبه إلى حشو ، ومعناها الحاشية والأتباع ، وقد تقدم فى رسالة يحيى بن زياد الحارثى ص٢٠٩ « وأما الحشو من الجند والرعاع .. » وجاء أيضا فى رسالة الجاحظ فى مدح التجارة وذم عمل السلطان فى كتاب الفصول المختارة من كتب الجاحظ (هامش الكامل للمبرد ٢ : ٢٤٧) : « وهذا الكلام لايزال ينجم من حشوة أتباع السلطان ، فأما عليتهم ومصاصهم وذوو البصائر والتمييز منهم... »

(٢) أى ذا محل محدود خاص .

(٣) زرى عليه كرمى : عابه ، كأزرى ، لكنه قليل .

(٤) أى جديرا وخليقا ، وسامه الأمر : كلفه إياه ، وفى الأصل « بمثل ماسمتموه » وهو تحريف .

(٥) أرهقه : حمله على ما لايطيق .

تبِعَتْه تَوَالِيه ، وشفَعَتْه لَوَاحِقه ، ووجَد العدوُّ الملاحِظُ مكانَ العَوْرَةِ ، مَطْمَعًا فى إهمال ما كان يُعِدُّ له من الغِرّة ، ويتوفّق به من مُناهَزَة الفُرْصة .

وليكن ماتُفِيضون فيه وتَعُدُّونه ظهيرًا على طاعنٍ إن طعَنَ فى دولتكم ، ماأَلْهَمَ اللهُ أمير المؤمنين من شمولِ رعيّته بالعدل ، وفَرْشِ[1] الأمرِ فى مُضْمَراتها ومُنقلبها ، ورَفْع به عنهم من سَيْر الجود[2] ، وبسطَ به يده من إثابة أهل البلاء ، وتَغَمُّد[3] الجرائم لأولِى الزَّلَل ، والإبلاغ فى دعاء من عاندَ وشاقَّ إلى التوبة والإنابة ، وإقالةِ العَثْرَة بعد القدرة ، والحقْن لمُباحِ الدماء ، فلم تعلَموه صَبَرَ مُحِلاً[4] ولاهتَك لأحدٍ ممن أظهره الله به سَتْرًا ، ولا وَقَفَه على عَوْرة . ثم تولَّى اللهُ أميرَ المؤمنين فى حروبه شرقا وغربا ، التى أغناه الله عن الإطناب فى وصف صُنع الله لكم فيها ، لاستفاضةِ أخبارِها فى دَهْمائكم[5] ، مع ماأَحَبَّ من مطالعته إياكم ببالغ أدَبه ، وشافى عَظِه ، أن يتنكب[6] عن الإسهاب ، فى غير ماصَمَد[7] له ، ورأى من تفريغ أسماعكم وأذهانكم ، لوَعْىِ ماالتمس أن تَعُوه ، من تبصيركم حظّكم ، وتنبيهكم على رشدكم ، وحَسْبُ أمير المؤمنين فى نفسه وفيكم اللهُ ، وكفى به مُبينا .

وإن أمير المؤمنين — مع ماتقدَّم به إليكم — لَعَلَى ثقةٍ من حِياطة الله خلافته التى جعَلها عِزًّا لدينه ، وقِوامًا لخلقه ، وأنه ليس بها ممن أدبَرَ عن حقها اختلالٌ ، بل مَن خلَعَ رِبْقتَها وأضاعَ حظَّه منها ، جَلَبَ الخَلَّة[8] والحاجة وخسرانَ الدنيا والآخرة ، وإنما أُتِىَ المقصّرون فى إعظام حقها ، من ضعف الروية عن بلوغ ماتُفضِى بهم إليه مصادرُ

---

(١) فرشه أمرا : أو سعه إياه .

(٢) أى من الجود السائر الشامل .　　(٣) تغمده : ستره .

(٤) صبر الإنسان على القتل : أن يحبس ويرمى حتى يموت ، وقد قتله صبرا وصبره عليه ، والمحل الخارج من الميثاق والبيعة . انظر شرحه بتوسع فى الجزء الأول ص ٤٠٣ — وفى الأصل «محلا» وهو تحريف .

(٥) الدهماء : جماعة الناس .　　(٦) تنكب عنه : عدل .

(٧) صمد كنصر : قصد .

(٨) الخلة : الفاقة والحاجة .

العواقب ، وتؤدِّيهم إليه رواجِعُ ماقدَّموا ، فلا يكونون بعملهم مُتجاوزين لهممهم — وفيهم الذى هم فيه — إلى مايمنعهم[1] .

واستديموا مَعشَر المسلمينَ سابغَ النعمة ، بحَمْدِ مُوليها والمتطوِّلِ بها ، وقد تَرَون ما كنتم فيه قبلها، وما آلَتْ إليه حالُ مَن سُلِبَهَا ، ثم بعُقْبِ الندامةَ حين لا مُسْتَعْتَبَ[2] ولا نَظِرَة يُمكن فيها استقالةُ الفارِط بتقصيرٍ ولا هفوة زالل ، وثقوا من رعاية أمير المؤمنين محمود آثاركم ، وما مضى مِنْ بلاء كلِّ امرىء منكم ، بما تطمئنون إليه ، وتتوقعون عادته ، بأسْنَى ماترتفع إليه آمالكُمْ ، وتسمُو إليه هِمَمُكم ، إلى مايدَّخِر الله لمن تمسَّك بهداه ، واعتصَم بتقواه ، وجاهَد عن حقه ، وافيا بأمر عهده ، مِن جزِيلِ ثوابه ، وكريم مآبه ، إلى الدار التى هى أكبرُ دَرَجاتٍ وَأكبَرُ تفضيلاً .

أحَبَّ أمير المؤمنين أن يتعهَّدكم بعظة تنبِّهكم على حظِّكم ، وتُثبِّتُ من بصائركم وتقطع من طمع الشيطان وحزبِه فيكم ، لِما يجب عليه إرشادكم ، ويرجو من تأدية حق مِنَّ الله عز وجل فيكم ، ولِما يَرَى من اتصالكم بِحَبْله ، وما يشمَله من الصنيع فيما ولاَّكم الله به ، وتولاه لكم .

وأميرُ المؤمنين يسأل اللهَ الذى دَلَّ على الدعاء تَطَوُّلا ، وتكفَّلَ بالإجابة حتماً ، فقال عز وجل : « ادْعُونِى أَسْتَجِبْ لَكُمْ » أن يجمع على رضاه أُلْفَتَكم ، وأن يصلَ على الطاعة حبلَكم ، وأن يمتِّعكم بأحْسَن ماأودَعَكم مِنْ مننه ، وَيُوزِعَكم[3] عليها من شكره ، مايواصل لكم مزيدَه ، وأن يكفيَكم كيدَ الكافرين ، وحَسَدَ الباغين ، ويحفظ أمير المؤمنين فيكم بأفضل ماحُفظ به « إمامُ هدًى » فى أوليائه وشيعته ، ويحمل عنه ثِقْلَ ماحُمِّلَه منكم . وبالله يستعين أمير المؤمنين على ماينوى من جزائكم بالحُسْنى ،

---

(١) فى الأصل « فلا يكون عملهم غير متجاوزين بهممهم وفيهم الذى هم فيه إلى مايمنعه » والعبارة كما ترى مضطربة .

(٢) أى استعتاب ، واستعتبه : طلب إليه العتبى ، وهى الصفح والرضا . والنظرة : التأخير .

(٣) أى يلهمكم .

وحملكم على الطريقة المُثلى، وبه يرضى ناصرا ووَليًّا، وكفى بالله وليًّا، وكفى بالله نصيرا »
والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته » .

(المنظوم والمنثور ١٢ : ١٧٣)

٢٠٩ - تحميد لأحمد بن يوسف إلى الولاة عن الخليفة

« أما بعد، فالحمدُ لله ذى المنن الظاهرة والحُجج القاهرة، الذى قَطَعَ بينه وبين عباده المَعْذِرَة، وَرادَف عليهم البيِّنة، وَمُهْلَةَ النَّظِرة(١)، وجعل ما آتاهم من حظوظ الدنيا بالقَسْم والمكتوب، وما ذَخَرَ لهم من ثواب الآخرة بالنُّجح المطلوب، فهم فى العاجلة شُركاء فى النعمة، وفى الآجلة شَتَّى فى الرحمة يختص بها أهلَها المنتفعين بما ضَرَبَ لهم من الأمثال، وتصريفِ الحالِ بعد الحال، المبادرين بأعمالهم إلى انقضاء مُدَد آجالهم، قبل حلول ما يُتَوَقَّع، وفَوْتِ ما لا يُرْتَجَعُ » .

(اختيار المنظوم والمنثور ١٣ : ٢٦٩)

٢١٠ - تحميد لأحمد بن يوسف

ولأحمد بن يوسف عن ذى الرياستين إلى إبراهيم بن اسمعيل بن داود صَدْرَ فتح .

« أما بعدُ، فالحمد لله الذى حفظ من دينه ما ضَيَّع المُلحدُون، وَرَأَبَ(٢) منه ما [ثَلَمَتْه] الصَّدَعَةُ، وأعاد من حَبْلِه(٣) ما حاولوا نَقْضَه، حتى أعاد لعباده أحْسَنَ أُلْفَتِهم، وَرَدَّ إليهم أَجْمَلَ عَوْدِهم، من الاستِشْلاء(٤) بعد التردِّى فى قُحَم المَعاطِب، والاستنقاذِ بعد التوريط فى المَهالِك، وبلَّغ خليفتَه القائمَ بحقّه، المُؤْتَمَّ بكتابه، الذائدَ(٥) عن حَريم

---

(١) النظرة : التأخير .

(٢) رأبه : أصلحه، وما بين القوسين بياض بالأصل ولعله ثلمته كما أثبتناه، والصدعة جمع صادع، من صدعه : إذا شقه . (٣) المراد به الدين .

(٤) استشلاه : استنقذه من الهلكة، والقحم جمع قحمة بالضم : وهى الاقتحام فى الشىء والمهلكة

(٥) أى الدافع .

الدين ، وميراثِ النبيين ، أجزَلَ ما بلّغ الخلفاءَ الراشدين المَهديِّين ، من إعلاء الكَلِمة ، وغَلَبة الأعداء ، والفوز بالعاقبة التى وَعَدَها المتقين ، وفرّغه لما أشْعَر قلبَه ، وشَرَح له صدرَه ، من إمضاء حُكم الفرائض الموجَبة ، وَاقتفاء السُّنَن الهادية ، حيث سلَك به من المناهج ، حَمْدا يُوَازى نعمَه ، ويَبلغ أداءَ شكره ، وَيُوجِبُ مزيدَه .

والحمد لله على ما خصَّنا به من إعلاء الدرجة ، وإسناء[(١)] الرُّتبة ، فى مشايعة أمير المؤمنين — أيّده الله — والمجاهدةِ عن حقه ، والوفاء لله بما عقدَهُ له ، لا نُريد بما كان منا إلاّ وجهَه ، وَلا نسعَى فيه إلا لرضاه ، حمداً لا يُحْصَى عددُه ، ولا يَنْقطِع أَمَدُه » .

(اختيار المنظوم والمنثور ١٣ : ٢٨٤)

٢١١ — تحميد لأحمد بن يوسف فى فتح السند

« الحمد لله ولىّ الحمد ، وأهلِ الثناء والمجد ، خالقِ الخلق ومُدَبِّرِ الأمر ، المُسْبِغ[(٢)] على عباده ، والموجب عليهم حُجّتَه ، فليسوا يرجُون إلاّ سَعةَ فضلِه ، ولا يحذَرون إلا ما اجترَحُوا[(٣)] من معصيته ، لِمَا سَبَق من جزيل إحسانه ، وتَظاهَر[(٤)] من امتنانه ، وتقدَّم به الإعذارُ والإنذارُ اللذان لا يستخِفُّ بما عظُمَ منهما إلاَّ مَن استَحْوَذَ[(٥)] عليه الشيطانُ ، واستولى عليه الخِذْلانُ ، وقاده الحَيْنُ[(٦)] إلى مَوَارِدِ الهَلَكَة » .

(اختيار المنظوم والمنثور ١٣ : ٢٨٣)

٢١٢ — تحميد لكاتب خزيمة بن خازم فى فتح الصنارية[(٧)]

« أما بعد ، فالحمد لله ذى المَلَكُوتِ والقدرة ، والجَبَرُوتِ والعِزّة ، والسلطان

---

(١) أسناه : أعلاه ورفعه .

(٢) أى المسبغ عليهم نعمه ، وأسبغ الله النعمة : أتمها . (٣) أى اكتسبوا واقترفوا .

(٤) أى تضاعف . (٥) أى استولى . (٦) الحين : المحنة والهلاك .

(٧) خزيمة بن خازم : هو أحد قواد الدولة العباسية ، وقد جاء فى تاريخ الطبرى (١٠ : ١٩٢) أنه لما حاصر طاهر بن الحسين بغداد استأمن إليه خزيمة وفارق الأمين وخلعه ودعا إلى المأمون سنة ١٩٨ ، وقد توفى سنة ٢٠٣ — انظر ترجمته فى تاريخ بغداد للخطيب البغدادى ٨ : ٣٤١ ، ولم يذكر ياقوت « الصنارية » فى معجمه .

والقوة ، أهل المحامد كلها ، ومدبر الأمور ووليها ، وخالق الخلائق وبارئها ، ومميتها ومحييها ، وباعثها ووارثها ، الذى أوجب على نفسه بما نفذ من مشيئته ، وسبق من علمه ، وثبت فى اللوح المحفوظ عنده إعزاز دينه ، وإظهار حقه ، وإعلاء كلمته ، وإبلاج[(١)] حجته ، وإزهاق باطل أعدائه ، الصادفين[(٢)] عن طاعته ، والجاحدين لربوبيته ، المكذبين بكتبه ورسله ، بلغ بذلك أمره ، ونطق به كتابه ، فإنه يقول تبارك اسمه فى المنزل من فرقانه : « بَلْ نَقْذِفُ بِالْحَقِّ عَلَى الْبَاطِلِ فَيَدْمَغُهُ فَإِذَا هُوَ زَاهِقٌ وَلَكُمُ الْوَيْلُ مِمَّا تَصِفُونَ » . (اختيار المنظوم والمنثور ١٣ : ٢٦٩)

٢١٣ — كتاب الفضل بن سهل

ووجه الفضل بن سهل إلى رجل بجائزة ، وكتب إليه :

« قد وجهت إليك بجائزة ، لا أعظمها تكثرا ، ولا أقللها تجبرا ، ولا أقطع لك بعدها رجاء ، ولا أستثيبك عليها ثناء ، والسلام » .

(تاريخ بغداد للخطيب البغدادى ١٢ : ٣٤٢)

٢١٤ — كتاب إبراهيم بن إسماعيل بن داود إلى ذى الرياستين

وكتب إبراهيم[(٣)] بن إسماعيل بن داود إلى ذى الرياستين :

« وصل إلى كتابك بخط يدك المباركة ، فلم أر قليلا أجمع ، ولا إيجازا أكفأ من إطناب ، ولا اختصارا أبلغ فى معرفة وفهم منه ، وما رأيت كتابا على وجازته أحاط بما أحاط ، وضربت ظنى فى فلان فعظم ذلك سرورى ، وقد يستعطف الظالم ،

---

(١) أبلجه : أوضحه . (٢) صدف عنه كضرب : أعرض .

(٣) ذكره ابن النديم فى الفهرست ص١٧٩ قال « إبراهيم بن إسمعيل بن داود الكاتب ، وله تقدم فى البراعة والبلاغة » .

ويُستعتَبُ المتجَنِّى [١] ، وفى رِفقك وعِلمك بالأمور ما يُصْلح الفاسدَ ، ويُذَلّلُ الصعْبَ ، ويُقْبِلُ المُدْبِرَ ، ولا يمنعنَّك جَوْرُ مَن جار عليك، من الاعتقاد فى الُحجَّة عليه، والأخذِ بالثِّقة فى أمره ، فإن الله عز وجل لم يجعل عليك فى ذلك مَنقَصَةً ولا غضاضة ، بل فيه الإعذارُ والإنذارُ والاستبصارُ وقضاء حاجة النفس ، مع التأدية إلى السلامة ، والأمنِ من الندامة » . (اختيار المنظوم والمنثور ١٢ : ٢٦٢)

٢١٥ — كتاب إبراهيم بن إسماعيل إلى على بن الهيثم

وكتب إبراهيم بن إسمعيل إلى على بن الهيثم :

« بلغنى ما أظهرتَ من الوعيد والحِمْيَّة ، فحملتُ ذلك منك على شَرَف الحسَب ، وكرم النسب ، فإن لأشرافِ العرب سَطَواتٍ لا يملكونها ، وَكلُّ ما أتيتَ فشبيهٌ بك وبموضعك ، وقد قيل : « احذَرْ صولةَ اللئيم إذا شَبِع » وأنت أبا حسن — مدَّ الله فى عمرك — منهم ، ولك فى معاداة الرجال لذَّةٌ أرجو أن يجعلها الله سبيلا لهلاكك ، وقد ينبغى أن تعلم أن الذى أنت فيه لم يُحْدِث لك نَفْسًا غيرَ نفسك ، ولا أبًا غيرَ أبيك ، وقد تَجْرِى المقاديرُ الكثير من السِّفْلة بوجوهٍ من الحظ ، يجعلها الله عليهم وَبالًا ، ولهم فى الدنيا والآخرة نَكالا، يَهتِك بها أستارهم، ويُخرج بها أضغانهم ، إذا ضَمَّتهم مضامن النعم ، وهم مع ذلك يَرَون أنه لا يُلْحِقهم بأهل الفضل غيرُ التجبُّر والفخر ، ووالله ما دعانى إلى هذا أنى أرَى الانتقامَ منك حظًّا ، ولكنى أحببتُ أن أعرِّفك من نفسك ما أصبحتَ به جاهلا ، وأصبحَ للناس باديا ، ولئن أنكرتَ نصيحتى [٢] لقد وضعتُها فى غير موضعها ، وبالله نستعين على ابتلائه الدنيا ، وتدنيسه النعمةَ ، وحَطِّه المراتبَ والأقدارَ بك ، أعاذنا مما ابتلاك به » .

(المنظوم والمنثور ١٣ : ٤٢٢)

---

(١) استعتبه : طلب إليه العتبى (بالضم) وهى الرضا والصفح ، وتجنى عليه : ادعى ذنبا لم يفعله .
(٢) فى الأصل « نضيحتى » وهو تحريف .

٢١٦ — رد ابن الهيثم عليه

فأجابه على بن الهيثم :

« قرأتُ كتابك الذى تتظرّف ، وبجوابك عنه تتشرّف ، ولولا ما نسبْتَنى إليه من الكِبْر ما كان له مَعْنى ، إن الله جعانى فى أصلٍ حرَمكَ نيلَه ، ولم يُلبِسْك فضلَه ، فلزِمْتُ الموضعَ الذى وضعنى الله به ، جَهِلَه مَن جَهِلَه وَعَلِمَهُ مَنْ عَلِمَه ، إذ أنت تنتقل من نسب إلى نسب ، ومن أب إلى أب ، بلا أصل ثابت ، وما مَثَلُك إلا مثل إبليس لمّا أذَلَّه الله لآدم عليه السلام ، فأسجده وأبان فضلَه عليه ، أحْقَدَه فخسِرَ دنياه وآخرته ، إذ كاده وكاد ولده ، فلم يَبْلُغ له من كيادته[1] أكثرَ من قيادته ، والكَسْبِ اللُّومِ ، والفعلِ المأثومِ ، وما تغْنِى أساطيرُك وأقاويلُك ، فلو كنت بأصول أبيك وأمك تَلفِظ ، أو عنها تنطِق ، لطال عليك أن تتكلم أو تعْلَمَ ، فاشكر اللهَ واشكرِ اللسانَ الذى انتحلتَه ، ونَبَتَّ به ولستَ من أهله ، أمّا أنا فلم أعْدُ ما كان عليه أبى من قوله فى نفسه ، وشرفِه فى رُتَبه ، وأنا بموضع من الكتابة وفى الشرف من العِمالة ، وبمكان من أولاد الخلافة ، أحْلُو فى قلوبهم ، وأعذُبُ فى ألسنتهم ، وَأتولّى الدواوين ، وأخالط السلاطين ، وأحْكُمُ فى أمرِ الدنيا والدين ، وأنت لاتصلُح لمعاشٍ ، ولا تُرْجَى فى مَعادٍ ، دنّس فِعْلَك لئيمُ أصلِك ، تهجو العرب بلسانهم ، وتفتخر عليهم بكلامهم فإذا أخَذَك عقابُ الله بأيديهم ، ووجب عليك حقُّه فيهم ، [اتخذت الإيمان ، وابتذاله دينه[2]] فحسْبُك ما أحببتَ من ذهاب آخرتك ، ولؤمِ طبعك ، ولو أردتُ قتلَك لم أقتلك ، أو أصل إلى قتلك ، بأكرمَ من لؤم فعلك وأصلِك ؛ فافخَرْ بهذا جواباً ، على أنى لا أُريك له أسبابا ، والسلام على كل عاقل كريم سليم الأصل ، ولرسول الله صلى الله عليه ، والإسلامِ وأهلِه » . (اختيار المنظوم والمنثور ١٣ : ٤٢٢)

---

(١) الذى فى كتب اللغة أن مصدر كاد كيدا لا كيادة .

(٢) هكذا فى الأصل ، والمعنى غير متسق ، وأغلب الظن أنه قد سقط من الناسخ هنا كلام .

٢١٧ — كتاب الحسن بن سهل إلى أخيه الفضل

وكتب الحسن بن سهل إلى أخيه ذى الرياستين فى تهنئة بمولود :

« إنه ليس من نعم الله وفوائد قِسَمه - وَإنْ خُصَّ مَوقِعُها، وَوَجَب شكرُها - نعمةٌ تَعْدِل النعمةَ فى الولد لِنَمَائها فى العدد، وَزيادتها فى قوة العَضُد، وَما يُتَعَجَّل به من عظيم بهجتها، ويُرْجَى من باقى ذِكرها فى الخُلُوفِ والأعقاب، ولاحِقِ بركتها فى الدعاء والاستغفار، وإنّ الله قد أفادك وأنالك غلاماً سَرِيًّا سمَّيته فلانا، فكان ميلادُه عند فَتْح الله على أمير المؤمنين، فرجوتُ أن تكون موافاته بالنصر الذى أظهرَنا اللهُ به على عدوِّ الدين والمسلمين، من دلائل بَرَكته وَيُمْنه، وشواهِدِ سعادته والسعادة به، فبارَكَ الله لأمير المؤمنين فى طارِف نعمته وتالِدِها، وشَفَع له قَديمَ مِنَنِه بحادِثها، ورزَقه ذكورا طيِّبين مهذَّبين يأنس بهم رَبْعُه[(١)]، وَيتصل بهم نجاحُه، وَيجعلهم ذُرِّية زاكية، وبقيةً صالحة » .

(اختيار المنظوم والمنثور ١٣ : ٣٠٣)

٢١٨ — كتاب الفضل بن سهل إلى أخيه الحسن

وكتب الفضل بن سهل إلى أخيه الحسن بن سَهل فقال :

« إن الله قد جعل جَدَّك عاليا، وجعلك فى كل خير مُقَدَّما، وَإلى غاية كل فضل سابِقا، وصَيَّرك - وَإن نأتْ بك الدارُ - من أمير المؤمنين وكَرامته قريبا، وقد جَدَّد لك من البِرِّ كَيْتَ وكيتَ، وكذا يحوزُ الله لك من الدين والدنيا والعز والشرف، أكثرَه وأشرَفَه، إن شاء الله » . (عيون الأخبار ١ : ٩٤)

---

(١) الربع : المنزل .

٢١٩ — عهد المأمون لعلى بن موسى الرضى

وفى سنة ٢٠١ هـ جعل المأمونُ ـ وهو بخُراسان ـ علىَّ بن موسى بن جعفر بن محمد ابن على بن الحسين بن على بن أبى طالب رضى الله عنه ولىَّ عهد المسلمين والخليفةَ من بعده وسمَّاه الرِّضِىَّ من آل محمد صلى الله عليه وسلم ، وكتب له كتابا بخطه ، وذلك أنه نظر فى بنى العباس وبنى علىّ ، فلم يجد أحدا هو أفضل ولا أوْرَع ولا أعلم منه ، وأَمَر الناس بطَرْح السَّواد وَلُبْس ثياب الخضرة ، وَكتب بذلك إلى الآفاق .

وَهذه نسخة عهده لعلى بن موسى :

« هذا كتابٌ كتَبَه عبد الله بن هٰرون الرشيد أمير المؤمنين بيده لِعلىٍّ بن موسى ابن جعفر وَلىِّ عهده .

أما بعدُ : فإن الله عزَّ وجلّ اصطفى الإسلام دينا ، واصطفى له من عباده رُسُلا دَالِّينَ عليه ، وهادِينَ إليه ، يُبشِّر أولهُم بآخِرهم ، ويُصدِّق تالِيهم ماضِيَهم ، حتى انتهت نُبُوَّةُ الله إلى محمد صلى الله عليه وسلم ، على فَتْرَة من الرُّسُل ، ودُرُوسٍ[1] من العلم ، وانقطاعٍ من الوَحْى ، واقترابٍ من الساعة ، ختَمَ الله به النبيين ، وجعله شاهِداً لهم ومُهَيْمِناً[2] عليهم ، وأنزلَ عليه كتابَه العزيزَ الذى « لا يَأْتِيهِ الْبَاطِلُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِ تَنْزِيلٌ مِنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ » فأَحَلَّ وَحَرَّمَ ، ووَعَدَ وَأَوْعَدَ ، وحَذَّر وَأَنذَر ، وأمَرَ وَنهَى ، لتكونَ له الُحجَّةُ البالغة على خَلْقه ، و « لِيَهْلِكَ مَنْ هَلَكَ عَنْ بَيِّنَةٍ ، وَيَحْيَا مَنْ حَيَّ عَنْ بَيِّنَةٍ ، وَإِنَّ اللهَ لَسَمِيعٌ عَلِيمٌ » فبلَّغَ عن الله رسالتَه ، ودعا إلى سبيله بما أمَرَه به من الحِكْمة والمَوْعِظة الحسنة ، والمجادَلَة بالتى هى أحسنُ ، ثم بالجهاد والغِلْظة حتى قبَضَه اللهُ إليه ، واختار له ما عنده صلى الله عليه .

---

(١) أى امحاء   (٢) أى شاهدا .

فلما انقضتِ النبوّة وختمَ الله بمحمد صلى الله عليه وسلم الوحيَ والرسالة ، جعل قِوَامَ الدين ، ونِظامَ أمر المسلمين ، بالخلافةِ وإتمامها وعزّها والقيامِ بحق الله فيها ، بالطاعةِ التي تُقامُ بها فرائضُ الله وحُدودُه ، وشرائعُ الإسلام وسُنَنُه ، ويُجاهَد بها عدوُّه ، فعلى خُلَفاءِ اللهِ طاعَتُه فيما استحفَظهم واسترعاهم من دينه وعباده ، وعلى المسلمين طاعةُ خُلفائهم ومعاونَتُهم على إقامة حَقِّ الله وعَدْله ، وَأَمْنِ السُّبُل ، وحَقْنِ الدّماء ، وصَلاحِ ذاتِ البَيْنِ وجَمْعِ الأُلفة ، وفي إخلال ذلك اضطرابُ حَبْلِ المسلمين واختلالُهم ، واختلافُ مِلّتهم ، وَقَهْرُ دينهم ، واستعلاء عدوّهم ، وتفرُّق الكَلِمَة ، وخُسْران الدنيا والآخرة . فَحَقٌّ على مَن استخلفَه اللهُ في أرضه ، وأْتمنَه على خلْقه ، أن يُؤْثِر ما فيه رضا الله وطاعتَه ، ويَعْدِلَ فيما اللهُ واقفُه عليه ، وسائِله عنه ، ويحكُمَ بالحق ويعمل بالعدل فيما حمَّله اللهُ وقلَّده ، فإن الله عز وَجل يقول لنبيه داود عليه السلام : « يَا دَاوُدُ إِنَّا جَعَلْنَاكَ خَلِيفَةً فِي ٱلْأَرْضِ فَاحْكُمْ بَيْنَ النَّاسِ بِالْحَقِّ وَلَا تَتَّبِعِ الْهَوَى فَيُضِلَّكَ عَنْ سَبِيلِ ٱللهِ إِنَّ الَّذِينَ يَضِلُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللهِ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ بِمَا نَسُوا يَوْمَ الْحِسَابِ » وقال عز وجل : « فَوَرَبِّكَ لَنَسْأَلَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ عَمَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ » وبلَغنا أن عمر بن الخطاب قال : « لو ضاعت سَخْلَة[1] بجانب الفُراتِ لتخوّفتُ أنْ يسألني اللهُ عنها » وايْمُ اللهِ إن المسئول عن خاصَّةِ نفسه ، الموقوفَ على عمله ، فيما بين الله وبينه ، لَمُتَعرِّض لأمر كبير ، وعلى خَطَر عظيم ، فكيف بالمسئول عن رعاية الأمة ؟ وبالله الثقةُ ، وإليه المَفْزَعُ والرغبة في التوفيق مع العِصْمة ، والتسديد والهداية إلى ما فيه ثبوتُ الحُجَّة ، والفوزُ من الله بالرضوان والرحمة .

وأَنْظَرُ[2] الأئمة لنفسه ، وأَنصحُهم في دينه وعباده وخلافته في أرضه ، مَن عَمِلَ بطاعة الله وكتابه وسُنَّة نبيه عليه السلام في مُدَّةِ أيامه ، واجتهد وأَجْهَدَ رَأْيَه ونَظَرَه فيمن يولّيه عَهْدَه ، ويختاره لإمامة المسلمين ورعايتهم بعدَه ، ويَنْصِبه عَلَماً لهم ،

---

(١) السخلة : ولد الشاة ما كان . (٢) أي أحسنهم نظرا .

ومَفْزَعا فى جَمْع أُلفتهم ، ولَمِّ شَعَثهم ، وحَقْن دمائهم ، والأمنِ بإذن الله من فُرقتهم ، وفساد ذات بينهم واختلافهم ، ورَفع نَزْغ[1] الشيطان وكَيدِه عنهم ، فإن الله عز وجل جعل العهدَ بالخلافة من تمام أمر الإسلام وكماله وعِزّه وصلاح أهله ، وَأَلْهَمَ خلفاءه من توسيده لمن يختارونه له من بعدهم ، ما عظُمَت به النِّعمةُ ، وشمِلَتْ منه العافيةُ ، ونقَضَ اللهُ بذلك مَرَّ[2] أهل الشقاق والعداوة ، والسعْيِ فى الفُرقة والرَّفْض[3] للفتنةُ .

ولم يزَل[4] أمير المؤمنين منذُ أفضَتْ إليه الخلافة فاختبر بَشاعَةَ مَذاقتها ، وثِقَلَ مَحمِلِها[5] ، وشدة مَئُونتها ، وما يجب على مَن تقلَّدها من ارتباط طاعة الله ومراقبته فيما حَمَّله منها ، فأَنْصَبَ بدَنَه ، وأَسهرَ عينَه ، وأَطال فكره فيما فيه عِزُّ الدين ، وقَمْعُ المشركين ، وصَلاحُ الأمة ونَشْرُ العدل ، وإقامةُ الكتاب والسنة ، ومنَعه ذلك من الخَفْضِ والدَّعة بِهَنِيِّ العيش : عِلما بما اللهُ سائِلُهُ عنه ، وَمَحبَّةً أن يلْقَى اللهَ مُناصِحَهُ فى دينه وعباده ، ومختاراً لولاية عهده ، ورعاية الأمة من بعده أفْضَلَ مَن يقدِرُ عليه فى دينه وَوَرَعِه وعلمِه ،وأرجاهم للقيام بأمر الله وحقه ، مُناجياً لله بالاستخارة فى ذلك ، ويسأله إلهامَه ما فيه رضاه وطاعتَهُ فى ليله ونهاره ، ومُعْمِلاً فى طَلَبه والتماسه من أهل بيتهِ من ولد عبد الله بن العباس وعلى بن أبى طالب فكْرَه ونَظَرَه ، ومقتصرًا فيمن عَلِم حاله ومَذْهَبه منهم على علمه ، وبالغاً فى المسألة عمَّن خَفِيَ عليه أمْرُه جُهْدَهُ وطاقَتَه ، حتى استقصَى أمورهم بمعرفته ، وابتَلى[6] أخبارَهم مشاهدةً ، وكَشَفَ ما عندهم مُساءلَةً فكانت خِيرَتُه بعد استخارته لله وإجهادِه نفسَه فى قضاء حقه وبلادِه ، من البيتين

(١) نزغ الشيطان بينهم كمنع : أفسد وأغرى ووسوس . (٢) المر : الحبل .

(٣) رفض الرجل غنمه وإبله كضرب ونصر رفضا : تركها تبدد فى مراعيها ترعى حيث شاءت ولا يثنيها عن وجه تريده. والمعنى هنا : وترك الفتنة تسير فى الناس فى كل وجه .

(٤) لم يرد الخبر فى الكلام ، ولعله محذوف لأنه مفهوم من السياق .

(٥) المحمل كمجلس: شقان على البعير يحمل فيهما العديلان ، والمعنى: وثقل عبئها وحملها، والمئونة : الثقل والحمل .

(٦) أى اختبر .

جميعا : عليَّ بن موسَى بن جعفر بن محمد بن على بن الحسين بن على بن أبى طالب لما رأى من فضلِه البارع ، وعلمه الناصِع[(١)] ووَرَعِه الظاهر ، وزُهْده الخالص ، وتَخَلِّيه من الدنيا ، وتَسَلُّمِهِ من الناس ، وقد استبان له مالم تَزَل الأخبارُ عليه متواطِئةً ، والألسُنُ عليه متفِقَةً ، والكلمة فيه جامِعةً ، ولِمَا لم يزل يَعْرِفه به من الفضل يافِعاً[(٢)] وناشئاً وحَدَثا ومُكْتَهِلا ، فعقَد له بالعَقْد والخلافة إيثاراً لله والدين ، ونظراً للمسلمين ، وطَلَبا للسلامة وثبات الحُجّة والنجاة فى اليوم الذى يقوم الناسُ فيه لربِّ العالمين .

ودعا أميرُ المؤمنين وَلَدَه وأهلَ بيته وخاصَّته وقُوّادَه وخَدَمه ، فبايَعوه مُسْرِعين مسرورين ، عالمين بإيثار أمير المؤمنين طاعةَ الله على الهوَى فى ولده وغيرهم ، مِمَّنْ هو أشْبَكُ به رَحِماً ، وأقربُ قرابةً ، وسمَّاه « الرِّضِيَّ » إذ كان رَضِيًّا عند أمير المؤمنين .

فبايِعُوا مَعْشَرَ بيت أمير المؤمنين ومَن بالمدينة المحروسة من قُوّاده وجنده وعامَّة المسلمين « الرِّضِيَّ » من بعده ، على اسمِ الله وبَرَكته وحُسْن قضائه لدينه وعباده ، بَيْعةً مبسوطةً إليها أيديكم ، منشرِحةً لها صدورُكم ، عالمين بما أراد أمير المؤمنين بها ، وآثَرَ طاعةَ الله والنظرَ لنفسه ولكم فيها ، شاكرين لله على ماألْهمَ أميرَ المؤمنين من نَصاحته فى رعايتكم ، وحِرصه على رُشْدكم وصلاحكم ، راجين عائِدَهُ فى ذلك فى جَمْع أُلفتكم ، وحَقْنِ دمائكم ، ولَمِّ شَعَثكم ، وسَدِّ ثغوركم ، وقُوَّة دينكم ، ورَغْم عدوكم ، واستقامة أموركم ، وسارعوا إلى طاعة الله وطاعة أمير المؤمنين ، فإنه الأمرُ إن سارعتم إليه ، وحَمِدْتم الله عليه ، عرَفتم الحظَّ فيه إن شاء الله تعالى » .

(صبح الأعشى ٩ : ٣٦٢)

---

(١) الناصع : الخالص من كل شيء .
(٢) يفع الغلام ييفع كمنع وأيفع فهو يافع: شب . واكتهل : صار كهلا، وهو من جاوز الثلاثين أو أربعا وثلاثين إلى إحدى وخمسين .

٢٢٠ — صدر رسالة لإبراهيم بن المهدى فى الخميس

فلما علم العباسيون ببغداد بما فعل المأمون ، من نَقْلِ الخلافة من البيت الْعَبَّاسِيِّ إلَى الْبَيْتِ العلوىِّ ، وتغيير لباس آبائه وأجداده بلباس الْخُضْرة ، أنكروا عليه ذلك ، وخلعوه من الخلافة ، وبايعوا عمه إبراهيم[1] بن المهدى ، وقد أنشأ إبراهيم لنفسه رسالة الخميس ، صَدْرُها :

« الحمد لله الذى اختار الإسلام دينا لنفسه ، ورَضِىَ أن يعبده مَن فى سمواته من الملائكة المقرَّبين ، ومَن فى أرضه من النبيين والمرسلين ، ومن آمن بالنور الذى هداهم له من الثَّقَلَيْنِ[2] ، واختار لرسالته فى سابق علمه ، والذِّكْر الْحَكِيم عنده ، محمداً صلى الله عليه وسلم وأنزل عليه كتابه ، وجَعَلَ طاعَتَه وطاعَةَ نَبِيِّهِ صلى الله عليه وسلم مَوْصُولةً (بكذا) فقال : « أَطِيعُوا اللهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَأُولِى الْأَمْرِ مِنْكُمْ » .

(اختيار المنظوم والمنثور ١٣ : ٢٧٩)

---

(١) توفى سنة ٢٢٤ هـ فى خلافة المعتصم — انظر ترجمته فى وفيات الأعيان ١ : ٨ .

(٢) الإنس والجن .

٢٢١ — رسالة الشكر لأحمد بن يوسف

ولما قتِل الفضل[١] بن سَهل (سنة ٢٠٢)، استوزر المأمون بعده أخاه الحسنَ[٢] ابن سهل جَبْرًا لُصابه بقتل أخيه، فأمر الحسنُ أحمدَ بن يوسف فكتب عن لسانه رسالةً يشكر فيها المأمون صُنْعَه، وهى:

« أماُ بعد، فالحمد لله القاهر القادر الخالقِ الرازق، فاطرِ السموٰات والأرض، الذى أحاط بكل شىء عِلْمًا، ونطَقَ به خُبْرا، وأتقَنه حِكمةً وعلمًا، وألَّف بين مُختلفِه ومتَّفقِه، لِيدُلَّ بِقوام بعضه على بعض على اتِّصَال تدبيرِ مشيئته ومبتَدَعِه، وأنه أحَدٌ صَمَدٌ[٣]، لا ضِدَّ له ولا نِدَّ، إذ قدَّر له حاجَته، ثم شدَّها ببلاَغِها إلى الغاية التى جعلها، فقال الله

---

(١) وذلك أنه لما ثارت الفتنة ببغداد كما قدمنا، كتم الفضل بن سهل عن المأمون أخبارها مدة، وكان متى علم أن أحدا قد دخل عليه أو أعلمه بخبر سعى فى مكروهه وعاقبه، فامتنع الناس من كلام المأمون، وانطوت عنه الأخبار، فدخل عليه على بن موسى الرضى وقال له: يا أمير المؤمنين، إن الناس ببغداد قد أنكروا عليك مبايعتى بولاية العهد وتغيير لباس السواد، وقد خلعوك وبايعوا عمك إبراهيم ابن المهدى، وأحضر إليه جماعة من القواد ليخبروه بذلك، فلما سألهم المأمون أمسكوا، وقالوا: نخاف من الفضل، فإن أمنتنا شره أخبرناك، فأمنهم وكتب لهم خطه، فأخبروه بحقيقة الحال وعرفوه خيانة الفضل وتعميته الأمور عليه، وستره الأخبار عنه وقالوا له الرأى أن تسير بنفسك إلى بغداد، وتستدرك أمرك، وإلا خرجت الخلافة من يدك، فشخص من مرو إلى العراق، فلما كان بسرخس دس على الفضل جماعة فقتلوه فى الحمام، ثم أخذهم وقدمهم ليضرب أعناقهم، فقالوا له: أنت أمرتنا بذلك ثم تقتلنا! فقال لهم: أنا أقتلكم بإقراركم، وأما ما ادعيتموه على فدعوى ليس لها بينة، ثم ضرب أعناقهم وحمل رءوسهم إلى أخيه الحسن بن سهل بواسط وكتب يعزيه ويوليه مكانه. وتزوج ابنته بوران بنت الحسن، ودس إلى على بن موسى سما فى عنب — وكان يحب العنب — فأكل منه واستكثر فمات من ساعته، وكتب إلى بنى العباس ببغداد يقول لهم: إن الذى أنكرتموه من أمر على بن موسى قد زال، وإن الرجل قد مات، فأجابوه أغلظ جواب، وجد المأمون فى المسير إلى بغداد فبلغها، وقد هرب إبراهيم بن المهدى والفضل ابن الربيع، فلما دخل المدينة (سنة ٢٠٤) تلقاه العباسيون وكلموه فى ترك لباس الخضرة والعود إلى السواد، فأجاب إلى ذلك وأمر الناس بالعود إلى لباس السواد، ثم إنه عفا عن عمه إبراهيم وأحسن إليه وكذلك فعل مع الفضل بن الربيع.

(٢) توفى الحسن سنة ٢٣٦ — انظر ترجمته فى وفيات الأعيان ١ : ١٤١ والفخرى ص٢٠٣ وتاريخ بغداد الخطيب البغدادى ٧ : ٣١٩.

(٣) الصمد: السيد الذى يقصد فى قضاء الحوائج.

عز وجل « وَإِنْ مِنْ شَيْءٍ إِلاَّ عِنْدَنَا خَزَائِنُهُ وَمَا نُنَزِّلُهُ إِلاَّ بِقَدَرٍ مَعْلُومٍ » وحكى عن نجيِّه موسى عليه السلام : « قالَ رَبُّنَا الَّذِى أَعْطَى كُلَّ شَيْءٍ خَلْقَهُ ثُمَّ هَدَى » وقال الله تعالى : « وَكُلَّ شَيْءٍ فَصَّلْنَاهُ تَفْصِيلاً » ثم لم يكلِّف العِباد مِن شكره كِفاء نِعمته ، بل رضِيَ منهم باليسير ، وقبِلَ منهم العفوَ ، وجعل طاعتَهم إياه عائدةً عليهم بجزيل الحظّ فى دينهم ودُنياهم لِغناه عن عبادتهم ، واتِّساع قدرته بالتطوّل عليهم ، مفتتِحًا وخاتِما ، وبادئا وعائدا .

والحمد لله الذى اصطفى محمداً صلى الله عليه وسلم ، نبيًّا لرسالته ، وأْتَمَنه على وَحيه ، وأنزل عليه كتابه العزيز ، الذى لاَ يَأْتِيهِ البَاطِلُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلاَ مِنْ خَلْفِهِ تَنْزِيلٌ مِنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ . فأدَّى إلى خَلْقه الرسالةَ ، واستنقذَهم من الضلالة ، وصَدَع بأمر ربّه ، وجاهَدَ فى سبيله ، ونَصَح لأمته ، حتى أتاه اليقين من ربّه ، بعد استنارة الحقّ ، وظهور الحُجّة ، فصلّى الله عليه بشيرًا وَنَذِيرًا ، وَدَاعِياً إِلَى اللهِ بِإِذْنِهِ وَسِرَاجاً مُنِيرًا ، قَدْ تَلاَفَى مِنَ الهَاسكة ، وَجَمَعَ الأُلفة بعد الفُرقة ، وأوضح الهُدَى بعد الدُّروس[(١)] ، ومَعالِمَ الرُّشْدِ بعد الطُّمُوس ، وكانَ بِالْمُؤْمِنِينَ رَحِيماً .

والحمدُ لله الذى قفَّى على آثار المرسلين ، والأئمةِ الراشدين ، الهَادِىَ التقىَّ ، الطاهرَ الزّكىّ ، الإمامَ المأمونَ أمير المؤمنين — أعزّ الله نصْرَه — فسَدَّ ثُلْمَتهم ، وَرَأَبَ صَدْعَهم[(٢)] ، وقلَّدَه خِلافتهم ، وجعله لكافّة المسلمين غِيَاثا ورحمةً ، وجعل ما أَلْهَمه من العدل والإحسان إليهم ، مِنّةً عليه ورحمةً ذَخَرها له دون الخلفاء قبله ، فيما أظهر من فَضْل زمانه على الأزمنة ، وسياسةِ مَن تقدَّمه ، ومَنَح الرعية من عطفه ونظره مالا يَحْمِل عنهم أَوْبَه[(٣)] ، ولا يؤدِّى عنهم شكرَه ، إلا هو لاَ شريك له ، وأحسن الله جزاء أمير المؤمنين ومثُوبتَه ، على صِلة رَحِم رسول الله صلى الله عليه وسلم التى هى

(١) الدروس : الامحاء .
(٢) الصدع : الشق ، ورأبه كنمه : أصلحه .   (٣) أى ترجيعه وترديده .

رَحِمَه وقرابتَه ، واختيارِه لولاية عهدِه الأميرَ الرضيّ عليّ بن موسى — حفظه الله — حينَ أحمَدَ سيرَتَه[1] ، ورضِيَ محبَّته، وعرَف استقلاله[2] بما قلَّده فى هَدْيه ودينه، ووفاءه بما أكَّد الله به عليه من عهد أمير المؤمنين — أيَّده الله — فى اعتيامه[3] من آزَرَه وآساه عما شَفَع رأيه ، وأنفَذَ تدبيره حين همَّ لاستصلاح ما استرعاه الله من أمور عِباده، لَمّا انتَضى[4] القائمَ بدعوته ، ورئيسَ شريعته ، الأميرَ ذا الرياستين — رحمه الله — فاتّخذه مكانِفا ظهيراً ، ووزيرا دون مَنْ سواه ، فاتَّبَع مِنْهاجَ أمير المؤمنين — أيده الله — وسار بسيرته شرقا وغربا ، وغوْرا ونَجْدا ، مُوفيا بعهده ، قائما بدعوته ، مقتفيا لأثره وسُنَّته ، فحسَمَ الله به الأدواء ، وقمَع به الأعداء : من عُتَاةِ الأُمَمِ ، وطَواغيتِ[5] الشِّرك ، وأبار[6] على يده أهلَ الشقاق والنفاق ، فى كل أُفُق وطَرَف ، بجَدِّ أمير المؤمنين — أعزَّه الله — وبَرَكةِ سياسته ودولته ، ونُجْح سَعْيِ مَن قامَ بنُصرة من قام بحقه وأنار برهانه ، حتى توفَّاه الله عز وجل ، حين بلغ هِمَّته وغايته ، وحُمَّ[7] أجَلُه وانقطعت مُدَّته ، سعيدا حميدا ، شهيدا فقيدا ، عند إمامه — أكرمه الله — وعند الخاصَّة والعامة .

وكان من إجلال أمير المؤمنين الحادثُ الذى نزلَ به ، فأحيا آثارَه ، بوصف محاسنه فى مَشاهِدِهِ ومجامِعه ، وترحُّمِه عليه عند ذكره ، وحِفْظِهِ فى لُحمته[8] وأهل حُرْمته ، وفيمن كان يحمَد الله على طاعته ونصيحته ، ما أتمَّ به نعمتَه عندنا وعندكم معشرَ الشيعة ، فقد أصبح أمْرُه بكم متَّصلا ، ومَوْقِعُه مِن جماعتكم [متمكِّنا] ، يَقبِضكم ما قَبَضه ، ويبسُطكم ما بَسَطه من لَوْعة المصيبة ، وحُسْن العُقبى ، وقد علمتم —

---

(١) أحمد أمره : صار عنده محمودا .   (٢) أى نهوضه .
(٣) اعتام الشىء : اختاره .
(٤) من انتضى السيف : إذا استله ، وربما كان « انتقى » .
(٥) الطواغيت جمع طاغوت : وهو كل رأس ضلال .   (٦) أباره : أهلكه .
(٧) حم : قدر .   (٨) اللحمة : القرابة .

معشَرَ أهل الحِجا والنُّهى والطاعة لله عز وَجل وخليفته ، وذوى الغَناء[1] والبَـــلاء فى دعوته ، من أهل خُراسان وغيرهم ممن حضَر ، ممن امتحن الله قلبه بوفاء العَهْد ، والاستبصار فى حق أمير المؤمنين أبقاه الله ، والمجاهدةِ دونه ، والصبر على مَواطن الصدق واللَّأواء[2] ، والذبِّ عن البَيْضَة والحريم ، والمتحمّلين للنَّصَب والمصائب التى انجَلَتْ حتى كأنْ لم تكن ، وبقِىَ أجْرُها على الله عز وجل ، ومحمودُ ذكرها شائعا فى الناس — أنَّ نِعَم الله قد جَلَّت ولَطُفَت ، وخصَّت وعمَّت ، وعَلَت وسَمَقَت[3] ، وتمَّتْ ودامت ، حتى قصَّرْنا عن موازينها ، والإحاطة بأدائها ، فإذا لم يكن لنا معشَرَ إخواننا سببٌ إلى مكافأة بلائه بالعمل ، فنحن جُدَرَاء أن نجتهد فى القول ، ونُطْنِبَ فى الوصف إن شاء الله جل وعز ، فقد جعل ذِكرَ النِّعَم من أسباب الشكر .

وقد جدَّد لنا أمير المؤمنين ـ أيَّده الله ـ من الحِباء[4] والكرامة وجزيل الحِيطة وسَنِيِّ الرُّتبة التى قُرِئَ بها عليكم كتابُه ، ما يستغرقُ جُهدَنا ، ويستفرِغُ وُسعَنا ، فنرغب إلى الله عزَّ وجل وَلِيِّ الرغبة ، ومُؤْتِى السُّؤْل والطَّلِبة ، فى إعانتنا على تأدية ما وَجَبَ له ، فيما منَحَنا من فوائده ونِحَلِه[5] ، ثم نَسْتَرفِدُكم[6] ونستعينكم على شكره ، وإمدادنا بما بلَغَتْه طاقتكم فى السعى له ، فقد آدَنا[7] ثِقْلُ مَا حَمَّلَنا ، وثِقلُ مَا طوَّقنا ، وعظُمَت فاقَتُنا إلى استعمال القوىِّ من الأنفُس والحامَّة[8] ، والخاصَّة والعامَّة ، فى جزاء ما جَلَّل[9] أميرُ المؤمنين فينا من سُنَنه ، وشمِلَنا من تالِدِ أياديه وطَارِفها[10] ، وقديمها

---

(١) الغناء : الكفاية . (٢) اللأواء : الشدة .

(٣) سمق كنصر سموقا : علا وطال .

(٤) العطاء بلا من ، أو عام .

(٥) النحل جمع نحلة بالكسر . وهى العطية . (٦) استرفده استعانه .

(٧) آده الأمر يئوده : بلغ منه المجهود .

(٨) الحامة : خاصة الرجل من أهله وولده .

(٩) جلله : غطاه . (١٠) أى من قديمها وحديثها .

وحديثها ، وكيف يوجد إلى مُوازاة أمير المؤمنين سبيلٌ ببَذْل جهدٍ ، أو بلوغ حَشْد ، فإنما نقتدى بهُداه ، ونَعْشُو[(١)] بنوره فى ديننا ، وليس عجزُنا عن أن نجزىَ حقَّه[(٢)] ، بواضعٍ عنا مُؤنَة الدُءوب فى التحرِّى لتأديته ، فإن الله عز وجل قد أخبر بفضائل الشكر ومناقبه ، وجعله من أسمائه « وَمَنْ تَطَوَّعَ خَيْرًا فَإِنَّ اللَّهَ شَاكِرٌ عَلِيمٌ » وقد قال تعالى « مَا يَفْعَلُ اللَّهُ بِعَذَابِكُمْ إِنْ شَكَرْتُمْ وَآمَنْتُمْ وَكَانَ اللَّهُ شَاكِرًا عَلِيمًا » وقال تعالى : « إِنْ تُقْرِضُوا اللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا يُضَاعِفْهُ لَكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ وَاللَّهُ شَكُورٌ حَلِيمٌ » ولولا أنَّ الله عزّ وجل رضِيَه لنفسه لأجللناه عن التسمية ، إذ كان أكثرَ ما نستعمله ونعرفه فى مكافأةِ مَنْ مَنَّ وتطوَّل ، ثم ثنَّى بذكر فضله فى العباد ، فإن الله تبارك وتعالى افتتح أولَ ما علَّم خلقَه بالحمد ، وجعله بدءَ كتابه وخاتمة دعوةِ أهل جنته ، فقال عزّ وجل : « وَآخِرُ دَعْوَاهُمْ أَنِ الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ » وخلق الله السموات والأرض ومن بَرأ وذَرأ فى الحياة لِيَبْلوَ عبادَه بشكره ، وأعدَّ الجنة فى الآخرة لمن شكَرَه ، والنارَ لمن كفَرَه ، وقال الله تعالى: « وَإِذْ تَأَذَّنَ رَبُّكُمْ لَئِنْ شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ وَلَئِنْ كَفَرْتُمْ إِنَّ عَذَابِي لَشَدِيدٌ » ، وقال الله تعالى « وَلَقَدْ نَصَرَكُمُ اللَّهُ بِبَدْرٍ وَأَنْتُمْ أَذِلَّةٌ فَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ » ، فجعَلَ التقوى واقمةً[(٣)] ، والشكرَ مَرْجُوًّا ، ليدلَّ على ارتفاع رتبته ، وعلوّ درجته عنده ، وقال لنجيِّه موسى عليه السلام : « إِنِّي اصْطَفَيْتُكَ عَلَى النَّاسِ بِرِسَالَاتِي وَبِكَلَامِي فَخُذْ مَا آتَيْتُكَ وَكُنْ مِنَ الشَّاكِرِينَ » فلم يكلِّفه إلا أخْذَ ما أعطاه ، والشكرَ على ما آتاه ، وأخبَرَ بعِزَّته فى العباد فقال تعالى : « وَقَلِيلٌ مِنْ عِبَادِيَ الشَّكُورُ » .

---

(١) عشا النار وإليها : رآها ليلا من بعيد فقصدها مستضيئا ، كاعتشاها ، وبها .

(٢) فى الأصل « وليس علينا بأنا لن نجزى حقه » .

(٣) أى واجبة .

فأيةُ نعمةٍ أجلُّ قدرا ، وأسْنَى أمْرا - معشر الشيعة - من نعمة أمير المؤمنين - أيّده الله - عند الأمير ذى الرياستين ، ومراتبِه التى رتَّبهُ بها ، فإنه أعطاه رياسَةَ الحرب وَرياسَة التدبير ، وعقَدَ له على رأسِهما عَلَمًا فى راية دعوته ، وقلَّده سَيفهما ، وختَّمه بخاتم الخلافة وخاتم الدولة ، وجعل صلاته بين صاحب حرَسه وصاحب شُرْطته ، ومسيرَه بين أمير المؤمنين وبينهما أمامه وخَلْفَه - وصيَّر له الجلوسَ على الكرسىِّ بحَضرته فى صدر كل مجلسٍ جلَسَهُ - إلا أن يُؤْثِر به مَن أحبَّ مِن أبناء الخلفاء - وقدَّمه فى دخول داره[1] راكبًا إلى أقصى مكانٍ ينتهى إليه أحدٌ من بنى هاشم ، لأنه منهم ، وأعظمُهم غَناءً عنهم ، فسمَّاه صاحبَ دعوته ، وسيفَه على عدوه ، وبابه الذى يُدْخَل إليه منه ، وولَّاه خيُولَه فى أقطار الأرض ، ومقدِّمَتَه بحضرته ، وقلَّده من الثغور ما قد علمتم ، بما أفرَدَه فى عهده ، إلى ما أنْفذَه من أمره ، فى جميع سلطانه ومُلكه ، من مَشارِقِ الأرض ومَغارِبها ، وأين يأتى الوصفُ على ما فضَّله به وقدَّمه وشرَّفه على الناس كافَّة ؟ ولكنا نُخطِر بذِكره ثم نَكِلُ السامعين إلى ما يرجعون إليه من المعرفة التى لا تبلُغُها الصِّفَةُ .

ثم لم يكن ما أكرمه به فى حياته ، بأعلَى مما أكرَمَه به فى وفاته : تَوَلَّى غسْلَه وتكفينه وَمباشرتَه لجِهازه إلى حُفْرته بيده ، وقاسَى من الغُصَص ، وبُرَحاءِ[2] الحزن ، وإذراءِ[3] العَبْرة ، وإراقةِ الدَّمْعة ، ما حال بينه وبين الكلام ، وكاد يمنعهُ من القول ، والدعاء فى صلاته عليه ، مِن الحكم وحِفظِ أهلِ الحُرْمة به ، رعايةً له فيهم ، ووفاء بعهده من بعده ، وأقرَّ خاصَّتَه وقوادَه وعُمَّاله وكُتَّابه على مراتبهم ، وحَمِد بحَمْدِه ، وذَمَّ بذمِّه ، وجَدَّد لجنده وشاكِريته[4] نظَرا وعَطفًا ، فلم يبقَ عليه فى إحياء ذكره ، وبلوغ كل ما يحبّه فى حياته ، [غاية] إلا أتَى مِن ورائها ، وأمرَ بقراءة فُتُوحه ، كما

(١) فى الأصل « دار الأمير » . (٢) برحاء الحمى وغيرها : شدة الأذى .

(٣) أذرت العين الدمع : صبته .

(٤) فى الأصل « وشل كريته » وهو تحريف ، وأرى أن صوابه « وشاكريته » والشاكرية جمع شاكرى : وهو الأجير والمستخدم معرب جاكر - انظر القاموس المحيط - والمعنى : وأتباعه ورجاله .

كانت تُقْرَأ على عهده ، وأضاف كل ما حَدَث من بعده ، إلى ما تقدَّم من سَعْيه ، وأخبَرَ أنه كان سببَه ، والمفتَتَح به ، وولَّى محمدَ بن الحسن خلافتَه ، ونَصَبَه مَنْصِبَه ، وأقامَه مُقامَه إلى أن جدَّد العهدَ لى ، فاستخلفتُه على ما وَلِيَ بحَضرته ، ثم تتابعَتْ كتبُ أمير المؤمنين ـ أكرمه الله ـ بعد مُصاب الأمير ذى الرِّياستين ، بما[(١)] لا يُقارَبُ من التفضيل والإطلاق والتفويض الذى كنتم سمعتم به وبَلَغكم ، فلم يكن يُرَى وراءه مجازاةً[(٢)] ، ولا فوقه مَصْعَدا ، حتى جدَّد لنا من كرامته ، ما قد قُرِئَ عليكم فى كتابه ، فبلغَ بنا ما لم تكن الهِمَم لِتَبْلُغَه ، والأمانِيُّ لِتُحِيطَ به ، لولا ما مَنَحَنا الله عزّ وجل من الترقِّى فى الفضل إلى ما تنحسِر[(٣)] من دونه الأبصارُ ، وتنقطع دونه الآمالُ ، وإنما اقتصصنا وذكرنا ما أبلانا واصطنَعَ عندنا من بلائه ، بدعائنا إلى الله عزّ وجل ، وإلى طاعته بالعدل والإحسان إلى رعيته والنظر بالصفح ، والأخذ بالفضل ، والأمر بالمعروف ، وصِلَة المُروءة بالوفاء بالعهد ، والشكر للمِنَن ، ورعاية الأخلاق المحمودة ، وإحْظاء[(٤)] أهلها ، وإقامةِ سُوقها ، حتى تنافَسُوها وتشاحُّوا[(٥)] فيها ، وصارت هى الذرائع إليه ، والوسائل عنده ، فلو تأمَّلَ متأمِّلٌ أهلَ الزُّلْفَةِ والأُثْرةِ لديه ، لَوَجَد الأخصَّ فالأخصَّ ، والأعْلَى قدرا عنده ، الأفضلَ ديناً ومُروءةً ، فلو لم يكن فى الحُظْوة عنده إلا إيجابُها لصاحبها صِحَّةَ المحبة ، والنزاهةَ عن كل ظِنَّة[(٦)] ، لكان فيها أعظمُ الغبطة ، وأعدلُ الشهادة والدلالة .

وسنقُصُّ عليكم بما خبَّرناكم عنه ما لا سبيلَ إلى جَحْده وإنكاره ، لوضوح معالِمِه ومَنَارِه ، أو ليسَ المجاهدَ عن دين الله ، والمُحامىَ عن بَيْضةِ المسلمين ،

---

(١) فى الأصل « كما» وهو تحريف . (٢) فى الأصل « مجاراة » وهو تصحيف .
(٣) أى تكل وتنقطع . (٤) فى الأصل « وإخطاء » وهو تصحيف .
(٥) فى الأصل « وشاحوا » (٦) الظنة : التهمة .

والمُؤاتِى[1] لأغلَظِ عدوِّهم شَوكةً، وأخوفِهم عداوةً والمُبَحْبِح[2] من بلادهم فيما كان لا يُرام ولا يحاوَلُ، لاستصعابِه وشدةِ مُقاساتِه، حتى أذعن «جيفوية» بالعُبُوديّة له، ثم أباح حريمَه حين تمرّد عليه، حتى بلغ السَّبْيُ إلى ولده وحابوناته[3]، وتوغّلت خيولُه حتى توصلت إلى قُبّتة ومنتهى عِزِّه؟ أوَلَيْسَ مُسَكِّنَ الهَيْج بالمشرق، حتى خَبَتِ[4] النيرانُ فيه، وأذعنَ رؤساؤها وقادتُها أوَليس غازِيَ بلاد بابِل حين طغَى [ملِكها] وبدَّل ونكَثَ ونقَض، حتى اجتثَّ أرُومَتَه[5]، وأباحَ حريمَه، وأراح المسلمين من مَعَرَّته؟ أوَليس سادَّ الثغورِ، ومُحَصِّنَ عوْراتها، والمُباشِرَ لتدبيرها، والمُسْعَدَ المكايَدةِ المُنْجَح فيمن أرادها، وفَاكَّ العُناةِ[6] من رِقِّ الإسار، وناشِرَ الرحمةِ على فقراء المسلمين وضعفائِهم وأهلِ المَسْكَنة والخَلَّة منهم، وقاسِمَ الصَّدَقات فى أهلها، وعامِرَ المَوْسِمِ ومُحَصِّنه من الآفات، حِياطةً للمسلمين فى حجِّهم وما يتقربون به إلى ربهم؟

وهل اقترنَ لأحد من الأئمة ما اقترَن له فى الملك والدين والعز والتواضع والسَّعَة والبَذْل والقدرة والعفو والغِلْظة واللِّيانِ فى مواضعها، والنُّسْكِ مع الهِمَّة، والسَّطوة مع الإقالة؟ وهل ترك معشرَ الأولياءِ والإخوان فى الدين غايةً لم يَسْمُ بنا إلى شرفها، وعلىِّ مَراتبها، ومُستَزادِ الحظِّ فى عاجلٍ وآجِلٍ لم يُبْلِغْناه؟ احتاز لنا خاصَّ مَكرُمته، ومُدَّخرَ عاقبته، أرشدَنا إلى الدين، وسلَكَ بنا سُبُلَ الجنة، حازَ لنا المُلْكَ، فلم يبق وراء ما مَلَكْنا غايةٌ، ووَرَدَ بنا الحروبَ وساسَها لنا، فلم يَدَعْ غايةً

---

(١) آتى فلانا: جازاه.

(٢) فى الأصل هكذا «والمنحح» وتبحبح الدار، وفى الدار، وبحبح: إذا توسطها وتمكن من الحلول والمقام فيها، وربما كان «والمجتاح» من اجتاحه: إذا أهلكه واستأصله.

(٣) كذا فى الأصل، وقد يكون «وجواريه».

(٤) خبت النار تخبو: سكنت وطفئت.

(٥) فى الأصل «ادومته» وهو تحريف. الأرومة بالفتح وتضم: الأصل.

(٦) العناة: جمع عان، وهو الأسير.

فى التعلم والدراية ، والتقلُّد والفقه ، إلا سلّطنا عليها بسُلطان الله[1] الذى آتاه ، علّمنا الفضائل ، ثم فضّلنا بها ! غلَبَ لنا الأمم ، ثم خوّلَنَاها[2] ، علّمنا طرائقَ الشرف ، ثم شرّفنا بها ، أخبرَنا عن الأنبياء فكفانا مُؤْنةَ التماسها ، وأغنانا بما عنده فيها ، أخذَ على أيدينا الخيرَ للرعية فوهب لنا شُكرَها ، وَصدَّق مقالَتَنا عند الشُّبْهة ، وَأنفذَ أمرَنا فى التدبير .

فيأيُّها الإمامُ المنصورُ المهدىُّ الرشيدُ : حُزْتَ فضائلَ الآباء ، واهتديتَ بهُدَى الأنبياء ، أنشكُرُك عن الإسلام ؟ فأنت القائمُ به ، الداعى له ، والناصرُ لحقه ، أم نشكرك عن الأمصار ؟ فأنت المفتَتِح لمتَنِعها عَنْوَةً[3] ، والمتطوِّلُ على أهلها بالرحمة ، والمنعطِفُ عليهم بحسن الفائدة ، بعد ما هيَّجَت منك سَوْرةَ[4] الغضب ، فأطفأْتَ نارَها ، وأخمدْتَ لهَبَها ، وعُدْتَ على مَن سَفِه وأضاع حظَّه ، أم نشكرك على المساجد ؟ فأنت الذى أسَّسْتَها على التقوى ، وعَمَرتَها بتلاوة القرآن ، وطهَّرْتَ المنابرَ وركبتَها ، تعلوها صائمًا ، وتنطق عليها صادقا ، وَتدعو إلى الرُّشد عليها ناصحا ، وتختم القرآن قبل أن تبدَأها مُحْسنا ، وتتلو مِن قَوَارعه[5] ماتُصيخُ لهُ الأسماعُ ، وَتَلين به القلوبُ ، أم نشكرك على البيت العَتيق ، والرُّكْن والمَقام والحجَر وزَمْزَم ، وَمشاعِر الحج[6] ؟ وَأنت ذَبَبْتَ عنها ، وأعدتَ إليها عهدها فى مَبْعَث نبيها صلى الله عليه وسلم ، فأمَّنْتَ النازِع[7] إليها من كل فَجٍّ عميق ، والحالِّين بها من الركع السُّجود ،

(١) فى الأصل « فلم يدع غاية التعليم والدراية سلطانا بسلطان الله الذى آتاه فلم يدع غاية فى التقلد والفقه ، علمنا الفضائل ... » .

(٢) خوله الله المال : أعطاه إياه متفضلا .

(٣) العنوة : القهر . (٤) أى حدته .

(٥) أى من آياته الشديدة القرع ، وأصاخ له : استمع .

(٦) مشاعر الحج : معالمه التى ندب الله إليها وأمر بالقيام بها ، جمع مشعر كمذهب .

(٧) نزع إليه كضرب : اشتاق ، والفج : الطريق الواسع .

أم نشكرك عن رسول الله صلى الله عليه وسلم، فيما حفظتَ فيه من عِترته[١]؟ بعفوك عن مُجرمهم، ومضاعفتِك ثوابَ مُحسنهم، وإحيائك مِن أمرهم، مَا كان قد اندرَسَ وانطمس، مُعِدًّا للقاء نبى الله صلى الله عليه وسلم، وقد رعيتَ منه فى قرابته وقرابتك وذوى رَحِمِه وَرَحمك ماضيَّع الناسُ، ووصلتَ منهم ما كان وَصَلَه. إذ كان الله عز وَجل قد فرَضَ صِلَةَ الأرحام، فكان أطوع خلقِ الله عز وجل فيما فرَضَ عليه، أم نشكرك عن العوامّ؟ فقد ألبستَ المسلمين ثوبَ الأمْن، وَأذقتَهم طعم السَّعة والرَّفَاغةِ[٢]، وَعَدَلْتَ بينهم بالإنصاف، وتولَّيْتَ دونهم النَّصَبَ، وَآثرتَهم بالرَّاحة، أم نشكرك عن الملوك وَالقواد والأجناد؟ فأنت الذى رفعتَ منازلهم، ووفَّرتَ عددهم، فلم يكونوا فى دهرِ أحدٍ من الخلفاء أسعدَ ولا أحظى منهم فى سلطانك، بما بذلتَ لهم من المَعاوِن، وَولّيتَهم من الثغور وَالأمصار، وَأَدْرَرْتَ عليهم من الأرزاق وَالخواصّ، أم نشكرك عن الأحكام والسنَن؟ فأنت الذى أنهجتَ[٣] سبيلها، فأوجبتَ فَرْضها، ونافستَ فى أهلها، أم نشكرك عن الأعداء؟ فأنت الذى بدأتَهم بالحجَّة، وَدعوتَهم إلى الفَيئة[٤] والإنابة، ثم ثنَّيْتَ مُعَقِّبا بالعفو، وَنَعشتَهم بعد البؤس، وَآنَسْتَهم من الوحشة، أم نشكرك على مكارم الأخلاق؟ فأنت الذى ثبَّتَّ وِطاءها[٥]، ونفَيتَ عنها أضدادَها، ولو نطقتْ بالفضل لنطقَتْ بشكرك فى إزالتك إياها عن اللئام، وإخطائك مَن اعتزَى[٦] (منهم) إليها، أم نشكرك عن الثغور؟ فأنت الذى تمَّمتَها وحصَّنْتَ عوراتِها[٧]، أم نشكرك عن السَّلَف؟ فأنت الذى أشدْتَ بفعالهم، وحَفِظتَهم فى أبنائهم، أم نشكرك عن بُرْد رسول الله صلى الله عليه وَسلم وعن القضيب الذى (كَانَ) يَتخصَّر[٨]، حتى جعلتَهما زينتك، وسَموْتَ بهما فى أعيادك

---

(١) العترة: نسل الرجل ورهطه وعشيرته الأدنون. (٢) الرفاغة: الرفاهية.
(٣) أى أوضحت. (٤) الفيئة: الرجوع.
(٥) فى الأصل «وطأتها». (٦) أى انتسب.
(٧) فى الأصل «عذراتها». (٨) أى يمسكه بيده.

عند حَشْدك على الطُّهر والزكاة والنُّسك والتقوى ؟ أم تشكرك عن المسلمين ؟ فى رعايتك إياهم ، وما تُرْعيهم من جَنابك ، وتَنفى عنهم من الآفات ، وتفلّ[1] عنهم من جَبابرة الكفر ، وتَفُضّ من جيوش الشرك والنـكْث ، وتفتح من الحصون المستصعَبة ، وتسهّل من الطرق الوَعْرة ؟ أم تشكرك عن تواضعك لله عز وجل وإصالح المسلمين طلباً للرِّفعة عند الله ؟ أم تشكرك عن الدين؟ وقد جعلتَ السلطان عَبْدًا وقائدا ومنفِّذا ، وكان مأمورا فجعلته آمِراً ، وآلةً للقوة فجعلت القوةَ له آلةً .

فيامَن اتصلَ شكرُه بشكر الله عز وجل ، ونعمتُه بنعمة الله تعالى ، وطاعتُه بطاعة الله ، فوهَبَ الله لك شَرَفَ المنازل ، ورقّاك دَرَج الفضائل ، وجزاك الله عنا وعن غيرنا ، بما شكرَ من ناطقٍ أو صامتٍ ، جزيل الثواب ، ورَفيعَ الدرجات ، وأمْتَعك ما آتاك ، وأمتع الأمةَ ما آتاهم منك ، والحمد لله ذى الرَّغبات ، ومتمِّم الصالحات ، شكراً لربِّ العالمين ، فإنه مَبْلغُ طاقتنا ، ومنتَهى جَهْدِنا ، وبه نستعين على تأدية فرائضه إنه لا يُعين على ذلك إلا هو .

أحببتُ أن أشكرَ إليكم أمير المؤمنين — أيّده الله — إذ ورد علىَّ من إنعامه وإفضاله ما لا أبلُغه بالفعل ، وأن يكون ما اقتصَصْنا عليكم داعيا لكم إلى أن تشكروه عنا وعن أنفسكم وعن الإسلام والمسلمين ، وَرجوتُ بمَا وَفَّقنا الله له فيما شرَحْنا وأوضحْنا من الدلالة والبيان ، أن يكون مجتمِعاً ينتفع به مَن حَضَرَنا ، ومَن عسى أن يُؤدَّى إليه الخبرُ عنا ، أو حُدث بعدنا ، وَضَنِنْتُ بهذه المكرُمَةِ الرائعة والمأثُرَة البارعة التى ادّخرها اللهُ لأمير المؤمنين — أعز الله نصره — وأفردَه بها دون الأئمة والخلفاء ، أن تَمُرَّ بالأسماع صَفْحا ، وتجتازَ على القلوب سَهْوا ، حتى تُؤكَّد بالشواهد والبرهان ، ليبقَى ذِكرُها ونفعُها فى الخُلوف والأعقاب .

---

(١) فلّ القوم كنصر : هزمهم .

ونحن نسأل الله عز وجل الذى جمع بأمير المؤمنين — مَدَّ الله فى عمره — أُلفتَنا ، وعلى طاعته أهواءنا وضمائرنا ، وأنالنا من الغِبْطة فى دولته وسلطانه مالم تَحْوِه شيعةُ إمام ولا أنصار خليفة ، أن يُتِمَّ نورَ أمير المؤمنين ، وَيُعلِىَ كعْبَه ، ويمتِّعنا ببقائه حتى يبلغه سُؤله وهمَّتَه فى الاستكثار من البرّ ، وادّخار الأجر ، واستيجاب الحمد والشكر وأن يَلُمَّ به الشَّعَثَ ، ويرْأَبَ به الصَّدْع ، ويُصْلح على يديه الفساد ، ويرتُق به فُتوق هذه الأمة ، وَيُثْخِن(١) بسياسته ونكايته فى عدوها ، ويتابعَ الفتوحَ فى بلدانهم حتى يَؤتيَهُ من نُجح السَّعْى ، ورَغائب الحظّ فى الدنيا ما يُجْزِل عليه ثوابه فى الآخرة ، وأرشدَ نُجَباءه وأصفياءه الذين يقول لهم : « فَآتَاهُمُ اللهُ ثَوَابَ الدُّنْيَا وَحُسْنَ ثَوَابِ الآخِرَةِ وَاللهُ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ » . (اختيار المنظوم والمنثور ١٢ : ١٦٦)

٢٢٢ — كتاب المأمون إلى الحسن بن سهل يعزيه بأخيه

فصل من كتاب المأمون إلى الحسن بن سهل يعزيه بذى الرياستين :

«وقد أبقَى اللهُ لأميرالمؤمنين خَلَفا مِن خير سَلَف ، افتقاداً منك لأثَر ذى الرياستين — نضَّرَ اللهُ وجهَه ورَحِمَه — وسلوكا منك لمذهبه وكفايته لأمير المؤمنين ، وعائدته(٢) عنه ، واجتهادِه فى طاعته ، ومعاونته على نيّته ، وابتذالك نفسَك فى إعزاز دولته ، وجهادِ عدوه ، والمحاماةِ عن سلطانه ، وحلولاً من قلب أمير المؤمنين محلَّه فى علوه وارتفاعِ مكانه، إذ كنت شقيقَه وشبيهَه ، والجارىَ عند أمير المؤمنين فى الأُنس والثِّقة والتقديم مَجْرَاه » . (اختيار المنظوم والمنثور ١٣ : ٣٢٥)

---

(١) أثخن فى العدو : بالغ الجراحة فيهم .
(٢) العائدة : المنفعة .

٢٢٣ - كتاب المأمون إليه يعزيه بأبيه

وفصل من كتاب المأمون إليه بالتعزية بأبيه سهل :

« وقد جرَى من قضاء الله عزَّ وجل على أبى الفضل رَحِمه الله ، بِعَقِب المصيبة بذى الرياستين رَحِمه الله ، ما عظُمَ مَبْلَغُه من أمير المؤمنين ، ووصل إليه من مَضَضِ وألمٍ هَدَّه ، لأُنسِه كان بمكانه ، ومَحلّه كان من قلبه ، ولمعرفته بمَوْقِع ذلك عندك ، وما تجدَّد لك من الوَحْشة والوَجد واللَّوْعة لوفاته ، لأن المصائب لو تأخرتْ عن أمير المؤمنين وعنك بعد المصيبة بذى الرياستين رضى الله عنه عِدَّةَ سنين ، لَمَا عَفَا أثرُها ، ولا اندمَلَ كَلْمُها[1] ، ولا سَكَن رَوْعُها ولاموقِعُها مِن فِكره ، فأعظَمَ الله لأمير المؤمنين الأجْرَ فيه على عظم الرزية ، وأحسَنَ عُقباه وعُقْباك منه ، وَرَبَطَ[2] على قلبه وقلبك ، وعزَم لك من الصبر على ما يُرضيه عنك ، وسَدَّ الله كل ثُلْمة انثلَمَتْ عليك ، ورَحِم الله أبا الفضل رحمةً تأتى من وراء زَلَله ، وتُعفِّى عَلَى فَرَطات لسانه ويده ، آنَسَ الله أمير المؤمنين ببقائك ، ودفع الأسواءَ والمكارِهَ عنك بقدرته » .

(اختيار المنظوم والمنثور ١٣ : ٣٢٥)

٢٢٤ - كتاب المأمون إليه

من كتاب المأمون إلى الحسن بن سهل بالإحماد له على كفايته :

« أما بعد ، فإن أمير المؤمنين إذا فكَّر فى نعمة الله عليه منذُ استخلَفَهُ فى أرضه ، واستحفظَه دِينَه[3] وعبادَه ، وألهمه من طاعته ، وجعل عليه رأيه وهمته ونيّته فى إقامة حقه ، وبَسْط عدله ، والعمل بفرائضه وأحكامه ، وعَضَدَه به منك ، وجعل عندك من

---

(١) الكلم : الجرح .

(٢) ربط الله على قلبه : ألهمه الصبر وقواه . (٣) فى الأصل « منه » .

النية فى مساعدته ومعاونته على ما فيه القُرْبة إلى الله عزّ وجل ، وَدَرْكُ رضوانه والقيام بما استكفاه من أمور ، ونُجْح السعى فى إعزاز الدين وتأييده . ووَقْمِ [1] الشركِ وتدويخه ، وتابَعَ له من الفتوح على يدك فى صنوف أعدائه ، من شرق الأرض وغربها ، وسَهْلها وجبلها ، وسَهّل له البُلدانَ المستصعَبَة على غيره ، حتى دَانَ له عظماؤها ، وانقادت له رؤساؤها ، وقِيدَت إليه أشرافُها ، وحُمِلت إليه أربابُها ، رأى أنه قد عَضَده منك بما لا تبلغُ الأوهامُ وَصْفَه ، ولا العقولُ كُنْهَه ، فالحمد لله رب العالمين على ذلك حمداً كثيرًا ، وشكرو دائمًا » . (اختيار المنظوم والمنثور ١٣ : ٣٦٢)

٢٢٥ — كتاب الحسن بن سهل إلى المأمون

وتزوج المأمون بُوران بنت الحسن بن سهل ، فكتب إليه الحسن بعد أن زُفَّتْ إليه بوران ، وتوَهَّمَ القُوّادُ أن هذا التزويج قد أنْسَى الحسنَ حاله قبل ذلك .

« قد تولَّى أميرُ المؤمنين مِن تعظيم عَبْدِه ، فى قبول أَمَتِه ، شيئا لا يتّسع له الشكرُ عنهُ إلا بمعونة المِحَن [2] لأمير المؤمنين — أدام الله عزه — فى إخراج توقيعهِ بتزيين حالى فى العامّة والخاصّة بما يراه فيه صوابا إن شاء الله » .

فخرج التوقيع :

« الحسنُ بن سَهل زمامٌ على ما جَمَعَ أمورَ الخاصّة ، وكنَفَ [3] أسبابَ العامّة ، وأحاط بالنفقات ، ونفَّذَ بالوُلاة ، وإليه الخَراجُ والبَريد واختيار القضاة ، جزاء بمعْرفته بالحال التى قرّبَتْهُ منا ، وإثابةً لشكره إيانا على ما أولينا » .

(زهر الآداب ٢ : ٣٠)

---

(١) وقمه : قهره وأذله .
(٢) محنه كمنعه : اختبره ، والاسم المحنة بالكسر والجمع محن .
(٣) كنفه كنصره : صانه وحفظه وحاطه .

٢٢٦ - كتاب الحسن بن سهل إلى محمد بن سماعة القاضى

وكتب الحسن بن سَهْل إلى محمد[١] بن سماعة القاضى :

« أما بعدُ : فإنى احتجتُ لبعض أمورى إلى رجل جامعٍ لخصال الخير ، ذى عِفّةٍ وَنزاهة طُعْمةٍ[٢] ، قد هذَّبته الآداب ، وأحكمته التجاربُ ، ليس بظَنين[٣] فى رأيه ، ولا بمطعونٍ فى حَسَبِهِ ، إن اؤتُمِن على الأسرار قام بها ، وإن قُلِّد مُهِمًّا من الأمور أجْزَأَ فيه[٤] ، له سِنٌّ مع أدبٍ ولسانٍ ، تُقْعِده الرَّزانةُ ، ويسكِّنُه الحِلْمُ ، قد فُرَّ عن ذكاء وفِطنة ، وعَضَّ على قارِحِه[٥] من الكمال ، تكفيه اللَّحْظَةُ ، وتُرْشِده السَّكْتة قد أبصر خِدْمة الملوك وأحكَمَها ، وقام فى أمورهم فحُمِد فيها ، له أناةُ الوزراء ، وصَولة الأمراء ، وتواضُعُ العلماء ، وَفَهْم الفقهاء ، وجوابُ الحكماء ، لا يبيع نصيبَ يومه بحِرْمان غده ، يكاد يسترقُ قلوبَ الرجال بحلاوة لسانه ، وحُسْن بيانه ، دَلائلُ الفضل عليه لائحةٌ ، وأماراتُ العلم له شاهدة ، مُضْطلِعا[٦] بما استُنْهِض ، مستقِلا بما حُمِّلَ ، وقد آثَرْتُك بطلبه ، وَحَبوْتُك[٧] بارتيادِه ، ثِقَةً بفضل اختيارك ، ومعرفةً بحسن تأتِّيك[٨] » .

---

(١) هو أبو عبد الله محمد بن سماعة التميمى ، كان فقيها ، وولى القضاء ببغداد بالجانب الغربى ، وتوفى سنة ٢٣٣ - انظر الفهرست ص ٢٨٩ .

(٢) الطعمة : وجه المكسب . (٣) الظنين : المتهم . (٤) أجزأ : أغنى وكفى .

(٥) فر : أى فتش وجرب . وأصله من فر الدابة : إذا فتح حنكها وكشف أسنانها لينظر سنها ، وقرح الفرس قروحا : إذا ألقى أقصى أسنانه ، وله أربع أسنان يتحول من بعضها إلى بعض ، يكون جذعا (بالتحريك) وذلك إذا كان فى السنة الثانية ، ثم ثنيا (بفتح فكسر مع تشديد الياء) فى السنة الثالثة ، ثم رباعيا (بفتح أوله وثانيه وتخفيف الياء) إذا سقطت رباعيته ونبت مكانها سن ، وذلك إذا استتم الرابعة ، ثم قارحا إذا سقطت السن التى تلى رباعيته ونبت مكانها نابه ، وهو القارحه الذى صار به قارحا ، وليس بعد القروح سقوط سن ولا نبات سن ، وذلك إذا استتم الخامسة ودخل فى السادسة ، والمعنى هنا : تام التجربة .

(٦) اضطلع به . قوى على حمله ، واستقله : حمله ورفعه .

(٧) حباه : أعطاه ، والمعنى هنا : وخصصتك ، والارتياد : الطلب .

(٨) تأتى للأمر : ترفق وأتاه من وجهه .

٢٢٧ – رد ابن سماعة عليه

فكتب إليه :

« إنى عازِمٌ أن أرْغَبَ إلى الله جل وعز حَوْلا كاملا فى ارتياد مِثْلِ هذه الصفة وأفرِّق الرُّسُلَ الثِّقاتِ فى الآفاق لالتماسه ، وأرجو أن يَمُنَّ الله بالإجابة ، فأفوزَ لديك بقضاء حاجتك والسلام » .   (الأمالى ١ : ٢٠٣)

٢٢٨ – كتاب الحسن بن سهل إلى الحسن بن وهب

وكتب الحسن بن سهل إلى الحسن بن وَهْب[(١)] وقد اصطَبَح[(٢)] فى يوم دَجْنٍ لم يُمْطِر :

« أمَا ترَى تكافُؤَ هذا الطمع واليأس فى يومنا هذا بِقُرْب المطر وبُعْده كأنه قول كُثَيِّر[(٣)] :

وإنى وتَهْيامى بعَزَّةَ بعدما ... تخلَّيتُ مما بيننا وتخلَّتِ[(٤)]

لَكالْمُرْتَجِى ظِلَّ الغَمامةِ ، كلما ... تبوَّأَ منها لِلمَقِيل اضمَحلَّتِ[(٥)]

---

(١) هو الحسن بن وهب بن سعيد . كان يكتب لمحمد بن عبد الملك الزيات (وزير المعتصم والواثق والمتوكل ، وسيأتى) وقد ولى ديوان الرسائل ، وكان شاعرا بليغا مترسلا فصيحا ، وأحد ظرفاء الكتاب ، وكان هو وأخوه سليمان بن وهب (الذى وزر للمهتدى بالله ، والمعتمد على الله ، وتوفى سنة ٢٧٢) من أعيان عصرهم وكان جده سعيد فى خدمة آل برمك ، وتحول ولده وهب بن سعيد إلى جعفر بن يحيى ، ثم صار بعده فى جملة ذى الرياستين الفضل بن سهل ، وآل وهب من قرية من أعمال واسط وكانوا نصارى ثم أسلموا ، وخدموا فى الدواوين حتى آلت بهم الحال إلى ما آلت ، وكانوا من رؤساء الناس وحذاقهم وفضلائهم وكرمائهم » انظر الفهرست لابن النديم ص ١٧٧ ووفيات الأعيان ١ : ٢١٦ (فى ترجمة سليمان بن وهب) و فخرى ص ٢٢٣ وص ٢٢٦ .

(٢) اصطبح : شرب الصبوح ، والصبوح بالفتح : شرب الغداة (أول النهار) – والغبوق بالفتح أيضا : شرب العشى – والدجن إلباس الغيم الأرض وأقطار السماء .

(٣) هو كثير بن عبد الرحمن ، شاعر أموى مشهور ، والبيتان من تائيته المعروفة التى مطلعها :

خليلى هــذا ربع عزة فاعقلا ... قلوصيكما ثم انظرا حيث حلت

(٤) الهيام بالضم : كالجنون ، من العشق . والتهيام : بناء موضوع للتكثير .

(٥) قال يقيل مقيلا : نام فى القائلة (نصف النهار) .

وما أصبحَتْ أُمْنِيَّتى إلا فى لقائك ، فليت حِجابَ النأى هُتِكَ بينى وبينك ، ورُقعتى هذه وقد دارت زجاجاتٌ أوقعَتْ بعقلى ولم تتحيَّفْه(١) ، وَبعثَتْ نشاط حركتى الكِتاب(٢) ، فرأيك فى إمطارى سروراً بسارٍّ خَبَرِك ، إذ حُرِمْتُ السرُورَ بمطر هذا اليوم موفَّقا إن شاء الله » .   (زهر الآداب ٢ : ٥٨)

٢٢٩ — رد الحسن بن وهب عليه

فكتب الحسن بن وهب :

« وصل كتابُ الأمير — أيَّده الله — وَفَمِى طاعِمٌ ، وَيدى عامِلة ، ولذلك تأخَّر الجواب قليلا ، وقد رأيتُ تكافُؤَ إحسانِ هذا اليوم وَإساءتِه ، وما استوجَبَ ذنبا استحقّ به ذما ، لأنه إذا أشمَسَ حَكَى حُسْنَك وضِياءك ، وإن أمطر حَكَى جُودَك وسخاءك ، وَإن غامَ أشبَه ظِلَّك وفِناءك ، وسؤالُ الأمير عنى نعمةٌ من نعم الله عز وَجل علىّ ، أعَفِّى(٣) بها آثارَ الزمَان السيِّئ عندى ، وأنا كما يُحِبّ الأمير ، صَرَفَ الله الحوادِثَ عنه وعن حظِّى منه » .

(زهر الآداب ٢ : ٥٩)

٢٣٠ — كتاب المطلب بن عبد الله بن مالك إلى الحسن بن سهل

وكتب المطلب بن عبد الله بن مالك إلى الحسن بن سهل فى رجل توسَّلَ به :

« طلبُ العافينَ(٤) الوسائلَ إلى الأمير — أعزّه الله — يُنْبِئُ عن شُرُوع(٥) مواردِ إحسانه ، ويدعو إلى معْرفة فضله ، وما أنْصَفَه — أعزَّه الله تعالى — مَن

---

(١) تحيفه : تنقصه من حيفه أى نواحيه . والحيف كعنب ، جمع حيفة بالكسر ، وهى الناحية .
(٢) مصدر كتب كالكتابة .
(٣) أى أزيل وأمحو .   (٤) العافى : كل طالب فضل أو رزق .
(٥) شرعت الدواب فى الماء كمنع شرعا وشروعا : دخلت .

توسَّلَ إلى معروفه بغَيْره ، ورَأْىُ الأميرِ فى التطوُّل(١) على مَن قَصُرَتْ معرِفتُه من ذلك مايريد الله تعالى فيه مُوفَّقًا »

٢٣١ — رد الحسن بن سهل عليه

فكتب إليه الحسن :

« وصَلَكَ اللهُ فيما وصلْتَنى فى صاحبك من الأجْرِ والشكر ، وأراك الإحسانَ فى قَصْدِك إلىَّ بامتثاله برضاً يُفيدك شُكْرُه ، ويُعقِبُك أجْره ، ورأيُكَ فى إتمام ما ابتدأت به ، وإعلاى ذلك مشكورًا » . (زهر الآداب ٣ : ٣٨٧)

٢٣٢ — ومن فصول الحسن بن سهل

فصل له :

« فلان قد استغنى باصطناعِك إيّاه عن تحريكى إياك فى أمره ، فإن الصنيعة حُرْمةٌ المصنوع إليه ، ووسيلة إلى مُصْطَنِعه ، فبَسطَ اللهُ يدَك بالخيرات ، وجَعَلَك من أهلها ، ووصَلَ بك أسبابَها » . (العقد الفريد ٢ : ١٩٣)

* * *

وفصل له :

« موصِّل كتابى إليك أنا ، فكن له أنا ، وتأمَّله بعين مشاهدتى وخُلَّتى(٢) ، فبلسانِه أشكرُ ما أتيتَ إليه ، وأذُمُّ ما قصَّرتَ فيه » .

* * *

وكتب يصف عقل المأمون :

« وقد أصبح أمير المؤمنين محمودَ السِّيرة ، عفيفَ الطُّعْمَة(٣) ، كريم الشِّيمة ،

---

(١) التطول : التفضل . (٢) الخلة : الصداقة المختصة لاخلل فيها .
(٣) الطعمة : وجه المكسب ، والمأكل .

مُبارَكَ الضَّرِيبة[١] ، محمود النَّقيبة[٢] ، مُوفياً بما أخذ اللهُ عليه ، مطَّلِعاً[٣] بما حَمَّلَه منه ، مؤدِّياً إلى الله حقَّه ، مُقِرّاً له بنعمته ، شاكراً لآلائه[٤] ، لا يأمر إلا عَدْلاً ، ولا ينطق إلا فَضْلا ، عَيْبَاً لدينه وأمانته ، كافَّاً ليده ولسانه » . (العقد الفريد ٢ : ١٩٨)

٢٣٣ — كتاب الفضل بن الربيع إلى المأمون

وروى صاحب زهر الآداب قال :

ولما أمر المأمون أن يُحْجَب عنه الفضلُ بن الربيع لسببٍ تألَّم قلبه منه كتب إليه :

« يا أمير المؤمنين ، لم يُدْنِنِي التقريبُ حالي أيامَ التبعيد ، ولا أَغْفَلَتْني المؤانسةُ عن شكر الابتداء ، فعلى أيِّ الحالين أُبْعَدُ من أمير المؤمنين ، ويَلْحَقني ذمُّ التقصير في واجب خدمته ؟ وأميرُ المؤمنين أعدلُ شهودى على الصدق فيما وصفتُ ، فإنْ رَأى أمير المؤمنين أن لا يكتُمَ شهادتى فَعَلَ إن شاء الله » . (زهر الآداب ١ : ٣٤٣)

٢٣٤ — كتاب أحمد بن يوسف إلى المأمون

وكتب أحمد بن يوسف إلى المأمون حين كثُر الطُّلَّاب للصِّلات ببابه :

« إنَّ داعِيَ نَدَاك ، ومُنادِيَ جَدَاك[٥] ، جَمَعَا ببابك الوُفودَ ، يرجُون نائِلَكَ العَتيدَ[٦] . فمنهم مَن يمُتُّ[٧] بحُرْمة ، ومنهم من يُدْلِي بسالِفِ خِدْمة ، وقد أَجْحَفَ

---

(١) الضريبة : الطبيعة .
(٢) النقيبة : النفس ؛ والظاهر أنه « ميمون النقيبة » لتقدم كلمة محمود .
(٣) يقال : هو بهذا الأمر مضطلع ومطلع ، فالاضطلاع من الضلاعة وهى القوة ، والاطلاع من العلو من قولهم : اطلعت الثنية ، أى علوتها ، أى هو عال لذلك الأمر مالك له .
(٤) الآلاء : النعم .
(٥) وفى رواية نهاية الأرب « جدواك » . والجدا والجدو : العطية .
(٦) النائل : العطاء . والعتيد : الحاضر المهيأ ، وفى رواية معجم الأدباء « المعهود » .
(٧) يمت : يتوسل ، وأدلى برحمه : مت بها وأدلى بحجته : احتج بها .

بهم المُقامُ ، وطالت عليهم الأيامُ ، فإنْ رَأى أمير المؤمنين أن يُنْعِشهُم بسَيْبه(١) ، ويحقّق(٢) حسن ظنهم بطَوْله ، فَعلَ ، إن شاء الله تعالى » .

فوقع المأمون فى كتابه :

الخير مُتَّبَعٌ ، وأبوَابُ الملوك مَغانٍ(٣) لطالِبي الحاجات ، ومواطِنُ لهم ، ولذلك قال الشاعر :

يَسقُطُ الطيرُ حيثُ يلتقِطُ الحَبَّـ ... ـبَ وتُغشَى منازِلُ الكُرماء

فا كتب أسماء من ببابنا منهم ، وَاحْكِ مراتبَهم ليصيرَ إلى كل امرئٍ منهم قَدْرُ استحقاقِه ، ولا تـكدِّرنْ معروفنا عندهم بطول الحِجاب ، وتأخير الثَّوَاب(٤) ، فقد قال الشاعر :

فإنك لَن تَرَى طَرْدًا لِحُرٍّ ... كإلْصاقٍ به طَرَفَ الهوانِ

ولم تَجْلِبْ مودةَ ذى وفاءٍ ... بِمِثلِ الودِّ أو بَذْلِ اللسان

(زهر الآداب ٢ : ٣٩ ، ومعجم الأدباء ٥ : ١٦٩ ، ونهاية الأرب ٧ : ٢٦٠)

٢٣٥ — كتابه إلى المأمون

وأهدى أحمد بن يوسف إلى المأمون فى يومِ نَوْرُوز(٥) طَبَقَ جَزْعٍ(٦) ، عليه مِيلٌ من ذهب ، فيه اسمه منقوشا ، وَكتب إليه :

---

(١) السيب : العطاء ، ونعشه كنعه وأنعشه ونعشه : جبره بعد فقر .

(٢) وفى نهاية الأرب « ويحتوش » واحتوش القوم فلانا . جعلوه وسطهم . والمعنى : ويحرز حسن ظنهم . والطول : الفضل.

(٣) المغانى : جمع مغنى كرمى ، وهو المنزل ، وفى نهاية الأرب « وأبواب الملوك مواطن لذوى الحاجات » وفى زهر الآداب « وأموال الملوك مظان لطلاب الحاجات » .

(٤) وفى زهر الآداب ونهاية الأرب « بالمطل والحجاب » .

(٥) النيروز والنوروز . أول يوم من السنة ، فارسى معرب، وهو عند القبط أول توت .

(٦) الجزع بالفتح ويكسر : الخرز اليمانى فيه سواد وبياض ، تشبه به الأعين . والميل بالكسر (والملمول كعصفور) : المكحال الذى تـكحل به العين ــ ويقال أيضا الحديدة التى يكتب بها فى ألواح الدفتر ملمول .

« هذا يومٌ جَرَتْ فيه العادةُ ، بإلطَافِ[1] العبيدِ السَّادَةَ ، وقَدْ بعثتُ إلى أمير المؤمنين طَبَقَ جَزْعٍ فيه مِيلٌ » .

فلما قرأ المأمون الرُّقعة قال : جاءت هدية أحمد بن يوسف ؟ قالوا : نعم ، قال : هي فى دارى ، أم دارى فيها ؟ فلما رفع المِنديل استظرف الهديةَ ، واسترجَعَ مُهدِيها .

(زهر الآداب ٢ : ٤٠)

* * *

وفى رواية أخرى :

وأهدى أحمد بن يوسف إلى المأمون فى يوم نوروز سَفَطَ ذهب فيه قطعةُ عُودٍ هندى فى طُوله وعَرْضه[2] ، وكتب معهُ :

« هذا يوم جَرَتْ فيه العادةُ ، بإتحاف العبيد السادةَ ، وقد قلتُ :

على العبدِ حقٌّ فهوَ لا شكَّ فاعِلُهْ وَإنْ عَظُمَ المولَى وجَلَّتْ فواضِلُهْ[3]
ألم ترَنا نُهْدِى إلى اللهِ مَالَهُ وإن كان عنه ذا غِنًى فهو قابِلُهْ
فلو كان يُهْدَى للجليل بِقَدْرِه لقصَّرَ عنهُ البحرُ يوما وساحِلُهْ
ولكننا نُهْدِى إلى مَنْ نُجِلُّه وإن لم يكن فى وُسْعِنا ما يشا كِلُهْ

(صبح الأعشى ٢ : ٤٢٠ ، ومعجم الأدباء ٥ : ١٧٢ ، والفخرى ص ٢٠٦ ، والأوراق لأبى بكر الصولى ١ : ٢١٢)

* * *

وفى رواية أخرى للصولى :

وأهدى أحمد بن يوسف هدية إلى المأمون فى عيد وكتب إليه :

« هذا يوم جرت فيه العادة ، بإهداء العبيد للسادة ، وقد أهديتُ لأمير المؤمنين قليلًا من كثيره عندى ، وقلتُ :

---

(١) ألطفه : أتحفه ، واللطفة بالتحريك . الهدية .

(٢) وفى الفخرى والأوراق . « هدية قيمتها ألف ألف درهم » .

(٣) وفى الفخرى « فهو لابد » والفواضل : الأيادى الجسيمة أو الجميلة .

أهدَى إلى سيِّده العبدُ ما ناله الإمكانُ وَالجُهْدُ(١)
وإنما أهدَى له مالَه يَبْدَأُ هذا ، ولذَا رَدُّ

فقال المأمون : عاقل أهدَى حَسَنًا . (الأوراق لأبى بكر الصولى ١ : ٢١٦)

٢٣٦ — كتابه إلى إبراهيم بن المهدى

وأهدى أحمد بن يوسف إلى إبراهيم بن المهدى مِلْحا مُطيَّبًا وكتب إليه :

« الثقةُ بك قد سهلَت السبيلَ إليك ، فأهديتُ هدية مَن لايحتشمُ ، إلى من لايغتنِمُ » . (زهر الآداب ٢ : ٤٠ ، والعقد الفريد ٣ : ٣٠٨)

* * *

وقال ابن طيفور :

كتب أحمد بن يوسف إلى إبراهيم بن المهدى فى هدية استقلّها :

« بلغنى استقلالُك لما ألطفتُك ، والذى نحن عليه من الأُنس سَهّل علينا قلةَ الحْشْدِ لك فى البرّ ، فأهدينا هديةَ مَن لايحتشم إلى مَن لا يغتنِم » .
(اختيار المنظوم والمنثور ١٢ : ٢٦٠)

٢٣٧ — كتاب له عن المامون

وقال أحمد بن يوسف :

أمرنى المأمون أن أكتب إلى النواحِى فى الاستكثار من القناديل فى المساجد فى شهر رمضان ، فأعيا علىّ ولم أجد مثالا أحتذِى عليه ، فبتُّ مغموما(٢) ، فأتانى آتٍ فى منامى فقال : اكتب :

---

(١) الجهد بالفتح وبضم : الطاقة .

(٢) فى الأوراق « فبت لا أدرى كيف أفتتح الكلام ولا كيف أحتذيه » وفى الصناعتين « فبت لا أدرى كيف أحتذى » .

« فإن فى ذلك عمارةَ المساجد ، وإضاءةَ المتهجّدين(١) وأُنسَ السَّابلة(٢) ، ونفياً لِمَكامِنِ(٣) الرِّيب ، وتنزيها لبيوت الله جل وعز من وَحْشَة الظُّلَمِ » :

فانتبهت وقد انفتح لى ما أريد فابتدأت بهذا وأتممت عليه(٤) .

(كتاب بغداد ٦ : ٢٣٧ ، وزهر الآداب ٢ : ٤٠ ، وكتاب الصناعتين ٢٢ ، والأوراق للصولى ١ : ٢٣١)

٢٣٨ — كتابه إلى بعض إخوانه يهنئه بمولود له

وكتب أحمد بن يوسف إلى بعض إخوانه يهنئه بمولود له :

« بَارَكَ اللهُ فى مولودك الذى أتاك ، وهَنَأَك نِعْمَتَه بعطيَّته ، ومَلَّاك(٥) كرامَتَه بفائدته ، وأدام سرورك بزيادته ، وجعله بارًّا تقيًّا ، مَيمونًا مبارَكًا زَكِيًّا ، مَمْدُوداً له فى البقاء ، مُبَلَّغاً غايةَ الأمل ، مشدودًا به عضُدُك ، مُكَثَّرا به ولدُك ، مُداماً به سُرورُك ، مدفوعا به الآفاتُ عنك ، مشفوعا بأكثر العَدَد ، من طيِّب الولد » .

(اختيار المنظوم والمنثور ١٣ : ٣٠٣)

٢٣٩ — كتاب آخر

وكتب إلى بعض إخوانه يهنئه بمولود أيضاً :

« أمَّا بعدُ فقد بلغنى مِن مُتَجَدِّدِ نِعَمِ اللهِ عزَّ وجلَّ عليكَ ، وإحسانِه إليك ، فيما رزقك من الهِبَة ، ما اشتد جَذَلِى(٦) به ، وسألتُ اللهَ أن يَشْفَعه بأمثاله ، ولذلك أقول :

---

(١) المتهجد : المصلى بالليل .

(٢) السابلة : الجماعة المختلفة فى الطرقات فى حوائجهم .

(٣) وفى كتاب بغداد « لمظان » .

(٤) وفى زهر الآداب « فأخبرت بذلك المأمون فاستظرفه وأمر أن تمضى الكتب عليه » .

(٥) ملاه الله حبيبه : متعه به وأعاشه معه طويلا .

(٦) الجذل : الفرح والسرور .

قد شُـــفِع الواحدُ بالوافِدِ   وأُرْغِمَ الأنفُ من الحاسِدِ
أبا حُســـينٍ : قرّ عَيْناً بمـا   أُعْطِيتَه من هِبَـة المـاجِدِ[1]
وأَكْثِرِ الشكرَ [جَزيلاً] فقد   نِلْتَ حِباَ الرِّفدِ من الرافِدِ[2]
قد قلتُ لَمَّـا بشّرونى به   بُورِكَ فى المولود للوالِد
إنّا لَنَرْجو وافِداً مثـلَه   والطائرُ الميمونُ للوافِدِ »

(اختيار المنظوم والمنثور ١٣ : ٣٠٤)

٢٤٠ — كتاب آخر

وكتب إلى بعض إخوانه يهنئه بمولود :

« أما بعد ، فإنه ليس من أمرٍ يجعل الله لك فيه سروراً إلا كنتُ به بَهِجًا ، أعتدُّ فيه بالنعمة من الله الذى أوجَبَ علىّ من حقك ، وعرّفنى من جميل رأيك ، فزادك الله خيراً ، وأدام إحسانه إليك .

وقد بلغنى أن الله وهب لك غلاما سَرِيا[3] ، أجمَلَ لك صورته ، وأتمّ خَلْقه ، وأحسن البَلاءَ[4] فيه عندك ، فاشتدّ سرورى بذلك ، وأكثرتُ حَمْدَ الله عليه ، فبارك الله فيه ، وجعله بارًّا تقيًّا ، يشد عَضُدَك ، ويُكْثِرُ عددك ، ويُقِرُّ عينك » .

(اختيار المنظور والمنثور ١٣ : ٣٠٤)

٢٤١ — كتاب آخر

« هَنَأَكَ اللهُ هذه الفائدةَ التى أفادَكَها ، وبارك الله فى الهبة التى رَزَقَكها ، وشَفَعها بإخوة متواترين ، يَسُرُّونك فى حياتك ، ويخلُفونك فى عَقبك » .

(اختيار المنظوم والمنثور ١٣ : ٣٠٣)

---

(١) قرت عينه : رأت ما كانت متشوفة إليه .
(٢) حبا : مقصور حباء ، والحباء : العطاء بلامن (أو عام) والرفد : العطاء ، وما بين القوسين مفقود فى الأصل ، وقد زدته ليستقيم وزن البيت .
(٣) أى سيدا شريفا ، وصف من السرو : وهو المروءة فى شرف .
(٤) أى النعمة .

٢٤٢ — كتابه فى تهنئة بإفراق من مرض

وكتب فى تهنئة بإفراق[1] من مرض .

« قد أذهب الله وَصَبَ[2] العِلّة ونَصَبها ، ووفَّر أجْرَها وثوابَها ، وجعل فيها من إرغام العدو بعقباها ، أضعافَ ما كان عنده من السرور بفتح أولاها » .

(العقد الفريد ٢ : ١٩٨)

٢٤٣ — كتاب له

وكتب :

« قد بذلْتَ لَنَا مِنْ نَفْسِكَ أعزَّ مبذول وأنفَسَه ، والمودةَ التى كل ما يُحْمَد من صاحبها فهو لها نافع ، وثِقتُنا بك واستنامتُنا[3] إلى ناحيتك على أحسن ما أكّد الله بيننا وبينك ، وإن كان مَدَى الالتقاء بيننا لم يطُلْ ، فأثلُ مِنْهُ[4] ما يَرْعاه أهلُ الوفاء والمخالصة ، ويقصِّر فى المحافظة عليه وعلى أكثر منه مَن دَخَلَتْ نيّتُه، وضَعُفَتْ خُلّته[5] » .

(اختيار المنظوم والمنثور ١٢ : ٢٦٠)

٢٤٤ — كتابه إلى بعض أخلائه

وكتب إلى بعض الأخِلاّء وقد اعتلَّ :

« ورد كتابُ صاحبِى علىّ ، بذكر شكوَى قِبَلَك ، فكرَّهَ إلىَّ الاستبداد عليك بالصِّحة ، وقبّح عندى تركَ مشاركتِك فى العِلّة ، ولم يكن لى حَوْلٌ بتغيير ماقدَّر الله فى جسمى، ولا بنقل ماألمَّ بجسمك إلىَّ ، فاستقلّ[6] بألم قلبى، وأسكنتُه همّى وكآبتى،

---

(١) أفرق من مرضه : برىء . (٢) الوصب : الوجع .
(٣) استنام إليه : اطمأن وسكن .
(٤) أثله : أصله . (٥) الخلة : الصداقة .
(٦) فى الأصل « فاستدل » وقد أصلحته « فاستقل » أى استبد واستأثر .

لأكون كأسْوة المنقطعين إليك ، المنتظمين فى خيطك ، وجعلت ذلك شِعاره فى عاتك ، حتى يأتينى المرجوُّ مِنْ سَلامتِك ، وأخَّرتُ الكِتاب بالْعِيَادَة ، وَإرسَالَ مَنْ يقُومَ مَقَامِى فِيهَا لديك ، لأنى إذا استقصيت فى الكتاب وَصْفَ مايُدَاخِلنى طال ، فعَقَفْتُ به من قصدتُ بِرَّه ، والرسُول فلا يحملُ ما يتضمنه صدرى ، فينْثِل[1] كُنْهَ ماعندى ، ولا يلقاك بسَحْنَةِ[2] مُرْسِله ، التى تترجم عن نيته ، فإنى لكذلك أُمَيِّلُ[3] بين التقرير فى إتيانك قبل استئذانك ، أو تقدمةِ استطلاع رأيك ، إذ جاءنى البشير بإفراقك[4] وإقبالِ العافية إليك ، وظهور تباشيرها عليك ، فانحَسَرَ[5] كل هم ، وزال كل غمّ ، ورحُبَ[6] من الأرض ما كان متضايقا علىّ ، واستقبلتُ أملا سرَّتنى جِدَّته ، وسُرِّى[7] عنى ما كنتُ أجده ، فالحمد لله الذى أشجَى[8] عدوّك ، ولم يصدِّق طمعَه ، وأزال غُصَّة وَليِّك ، ولم يحقِّق حَذَرَه ، وأنا أسأل الله الذى وهب لنا إقالته[9] ، وساقَ إليك عافيتَه ، أن يَهَبَ لك عمراً زائدًا على أمنيَّتك ، متجاوِزًا حدّ إحسانك ، مُوفِيا[10] على مَبلَغ ظنك ، ويصل العز لك فى أَمَدِه ، بكريم المنقلبِ من بعده ، ويجعل حُسن بلائه عندك ، كمَدًا فى صدر حاسدك ، وجمالا فى عين مؤمِّلك ، وسرورا للمتصلين بك إن شاء الله » . (الأوراق للصولى ١ : ٢٣٤)

٢٤٥ — كتاب له

وكتب :

« من قَصُر فى الشغل عمرُه ، قلّ فى العُطْلة[11] صبرُه ، وما من وِجْهةٍ أُؤمِّل فيها

---

(١) من نثل الكنانة كضرب : إذا استخرج نبلها فنثرها . والمعنى فيبلغ ويؤدى وربما كان الأصل « فينقل » . (٢) السحنة : الهيئة .

(٣) ميل بين أمرين : تردد بينهما أيهما يأتى ، وفى الأصل « أمثل » وهو تصحيف .

(٤) أفرق من مرضه : برىء . (٥) أى انكشف .

(٦) رحب : اتسع . (٧) أى ذهب وانكشف .

(٨) أى أحزن .

(٩) أقال الله عثرته : إذا رفعه من سقوطه ، والمعنى هنا : وهب لنا شفاءه من علته .

(١٠) أى زائدا . (١١) تعطل الرجل : بقى لا عمل له ، والاسم العطلة .

سَدَّ اختلالى ، إلا دَهِمَتنى فيها خَيبةٌ تَكسِفُ بالى ، وأنت مَن لا يتخطاه الأملُ فى أوان عُطْلته ، ولا يجاوز رجاءه الحِرمانُ فى حين ولايته ، وليس لذمّ عليك طريق ، ولا إلى مدحك سبيل ، لأنى إذا قلتُ فيك مالا تُعْرَفُ به ، عُورِضْتُ بالتكذيب ، وإن أتيتُ بما لَمْ تُولِنى ، طالبَتْ حالى بالتحقيق ، فلا يَرَى الناس فيها أثرَ تصديق ، وقد صفِرَتْ يدى من فائدتك ، بعد أن كنتُ ملأتُها من عائدتك[1] ، فإن رأيت أن تُجيرَنى من الحَدَثان[2] ، وتقيلَنى من قَيْد الزمان ، فعلتَ إن شاء الله » .

(الأوراق للصولى ١ : ٢٣٥)

٢٤٦ — ومن كلامه

« لك جَدٌّ[3] تُنْجِده همّتك ، وإنعامٌ تَفُوه به نِعمتُك ، فهى تَحسِرُ[4] الناظرَ إليها ، وتُحيِّر الواقفَ عليها ، حتى كأنها تناجيه بِحُسْن العُقبَى ، وتوحِى إليه بِبُعْدِ المَدَى ، ولله دَرُّ نابغةِ بنى ذُبْيان فى قوله :

مَجَلَّتُهم ذاتُ الإلٰه ، ودينُهـــم ... قويمٌ ، فما يَرْجُون غيرَ العواقبِ[5]

(الأوراق للصولى ١ : ٢٣٢)

---

(١) العائدة : المعروف والصلة .

(٢) حدثان الدهر بالتحريك : حوادثه ونوبه .

(٣) الجد : الحظ والحظوة والعظمة .

(٤) أى تقطع بصره وتكله .

(٥) هذا البيت من قصيدة النابغة الذبيانى يمدح عمرو بن الحارث الأصغر الغسانى ، ومطلعها :

كلينى لهم يا أميمة ناصب ... وليل أقاسيه بطىء الكواكب

وجـــاء فى لسان العرب : « والمجلة : الصحيفة فيها الحكمة ، كذلك روى بيت النابغة بالجيم ، « مجلتهم ذات الإله . . . » يريد الصحيفة ، لأنهم كانوا نصارى ، فعنى الإنجيل ، ومن روى « محلتهم » أراد الأرض المقدسة وناحية الشأم والبيت المقدس ، وهناك كان بنو جفنة ، وقال الجوهرى : معناه أنهم يحجون فيحلون مواضع مقدسة » .

٢٤٧ - ومن كلامه

« من اتَّسَعَ فى الإفضال ، اتَّسَعَتْ به الأقوالُ ، بين شاكرٍ مُثْنٍ ، ومادحٍ مُطْرٍ ، ولسنا نَصِفك بما يَعِنُّ لنا ، ويَدِلُّ على ألسُنِنا ، مما يتقرّب به ذو الرغبة ، ويَضْرَعُ إليه ذو الرَّهبة ، لاستنزالِ مرغوب ، أو استنجاز مطلوب ، ولكننا ننطق عن سيرتك بإفصاح ، ونُبِين عنها بإيضاح ، فنكُفُّ شَغَبَ الكائد ، ونُطِيل نَفَسَ الحاسد » .

(الأوراق للصولى ١ : ٢٣٣)

٢٤٨ — ومن كلامه

« كفَى عارًا على راغب أن يَعْدِل برغبته عن الأمير ، إذ كانت عائدتُه تُشير إليها ، وتقفُ راجيةً إليها ، فالقصدُ بها حيثُ يُومِى لها ، من مَنْبِتٍ رافع ، ومَسْرَح واسع ، أولَى براجِى نجاحِها ، وتصديقِ الأمل فيها ، من إيقافها على حَيْرَة ، وإقحامِها فى شُبهة لم يضِحْ نَهجُ السبيل إليها ، ولا نُصِبَتْ أعلامُ جُودٍ عليها ، فأقلُّ ما فى الأمير من كرمِ الخِلالِ ، يُرْبِى[(١)] على كثيرٍ من فنون المقال ، فجَهْدُ المادح له أن يبلغَ أدنى فضلِه ، كما أن غاية الشاكر[(٢)] أن يَجْزِىَ أيسرَ نعمِهِ ، فأطال الله مدته ، وأدام له دولته ، وتمّم عليه نعمته » .

(الأوراق للصولى ١ : ٢٣٣)

٢٤٩ — كتاب له فى الاعتذار

ومن كلامه يعتذر إلى بعض الأخلاَّء :

« لى ذنوبٌ إن عددْتُها جَلَّتْ ، وإن ضممْتها إلى فضلك دَقَّتْ ، وقد راجعتُ إنابتى ، وسلكتُ طريق استقامتى ، وعلمتُ أن توبتى فى حُجَّتى وإقرارى أبلغُ فى معذِرتى ، فهذا مقامُ التائب من جُرْمه ، المتضمِّن حسنَ الفَيئة[(٣)] على نفسه ، فقد كان

---

(١) أى يزيد . (٢) فى الأصل « الشكر » . (٣) الفيئة : الرجوع .

عقابك بالحلم عنى ، أبلغ مِن أمرك بالانتصاف منى ، فإن رأيتَ أن تهَبَ لى ما استحققته من العقوبة ، لِمَا ترجوه من المَثُوبة ، فعلتَ إن شاء الله » .

(الأوراق للصولى ١ : ٢٣٣)

٢٥٠ — ومن كلامه

« قد كان كتابى نَفَذَ إليك بما كان غيرُه أولَى بى ، وألزَمَ لى فى حقِّ الحرية والكرم ، اللَّذَيْنِ جُعِلا لك إرْثا ، والشرفِ والفضلِ اللذين قُسِما لك حَظّا ، ولكننى دُفِعتُ من اتصال الزَّلَل ، والإخلال بالعمل ، إلى ما اضطرَّنى إلى محادثتك ، ودعانى إلى مخالفتك ، لأُجَلِّيَ عنى هَبْوَة(١) الاتّهام ، وأصرفَ عنك عارِضَ المَلاَم ، وقد جرَى لك المقدارُ بالسُّؤْدُد الذى خصَّك الله بمزيته ، وأفردَك بفضيلته ، فليس يحاول أحدٌ استقصاءً عليك ، إلا عَرَض دونه حاجزٌ من واجبك ، يضطرُّه إلى ذِلَّة التنصُّل إليك، ويحور ذلك عن التعمُّد » .

(الأوراق للصولى ١ : ٢٣٤)

٢٥١ — كتابه إلى بنى سعيد بن مسلم

وكتب إلى بنى سعيد بن مسلم :

« لولا أن الله عز وَجل خَتَمَ نبوَّته بمحمد صلى الله عليه وسلم ، وكُتُبَه بالقرآن ، لَبعث لكم نبىَّ نِقْمة ، وأنزل فيكم قرآن غَدْر ، وما عَسَيْتُ أن أقول فى قوم : محاسِنُهم مَساوِى السِّفْلة ، ومَسَاويهم فضائحُ الأمم ، وألسنتُهم معقولةٌ بالعِىِّ ، وأيديهم معقودةٌ بالبخل ، وأعراضُهم أغراض الذمّ ، وهم كما قال الشاعر :

لا يكثُرون وإن طالت حياتُهُمُ   ولا تَبيدُ مخازيهم وإن بادوا

(زهر الآداب ٢ : ٤٠ ، واختيار المنظوم والمنثور ١٣ : ٤٢٠)

---

(١) الهبوة : الغبرة .

٢٥٢ — كتاب له

وروى الصُّولى قال : ومن كلامه :

« لقد أحَلَّك الله من الشرف أعلى ذِرْوته، وبلَّغك من الفضل أبعدَ غايته ، فالآمالُ إليكَ مصرُوفةٌ ، والأعناقُ إليك معطوفةٌ ، عندك تنتهى الهِمَمُ السامية ، وعليك تقِفُ الظنونُ الحسَنة ، وبك تُثْنَى الخناصِرُ[١] ،وتُسْتَفْتَح أغلاقُ[٢] المَطالِب ،ولا يَستَرِيثُ[٣] النُّجْحَ مَن رجاك ، ولا تَعرُوه النوائبُ فى ذَرَاك[٤] » .

(كتاب الأوراق للصولى ١ : ٢٣٢)

* * *

وفى رواية أخرى للصولى أيضاً قال :

قالوا للقاسم بن يوسف ـ أخِى أحمد بن يوسف ـ أقبلتَ على الشعر وتركت البلاغة، فقال : امتحنونى ، فقيل له : فا كتب إلى محمد بن منصور فى الرضا عن هذا الرجل ، فقد كان فى ناحيته ثم عَتَب عليه ، فكتب إليه :

« قد أحَلَّك الله من الشرف فى أعلى ذِرْوَته ، وبلَّغك من الفضل أبعدَ غايته ، فالآمالُ إليك عائلة[٥] ،والأعناق نحوَكَ مائلة ، وإليك تنتهى الهمم السامية ، وعليك تقِفُ الظنون الراجية ، لايستريثُ نُجْحا مَن رَجَاك ، ولا تعرُوه النوائبُ فى ذَرَاك .

وفلان ممن قدُمَتْ بك حُرْمَتُه ، وطالت لك خِدمته ، ووجَبتْ لك حقوقٌ عليه ، وهِى أوكدُ وسيلة ، وأقصَدُ ذريعة ، وقد فَرَطَ[٦] جُرْمٌ ما تعمَّدَه ، وخطأٌ جَرَى القضاء به ، وفى عَتْبك ما قوَّمه ، وفى عفوك ما تَلافَى زَلَّتَه ، إن شاء الله » .

(كتاب الأوراق للصولى ١:١٩٧)

---

(١) كناية عن أنه المعول عليه فى قضاء الحاجات والمآرب ، كما يقال : هو مطمح أنظار الآملين ومعقد رجائهم ومحط آمالهم .

(٢) الأغلاق : جمع غلق بالتحريك ، وهو القفل . (٣) استراثه : استبطأه .

(٤) أى فى ظلك وكنفك .

(٥) أى عائلة . يقال : عالت الفريضة فى الحساب : أى زادت وارتفعت ، والمعنى: قد اتجهت إليك لآمال وتكاثرت حتى جازت الحد . (٦) أى سبق .

٢٥٣ — كتاب لأحمد بن يوسف فى العدل والإنصاف

« لو لم يكن العدلُ من شيمتك ، والإنصافُ من خليقتك ، لـكان يجب عليك فى قَدر نعمة الله عندك ، وما رَفَعَ إليه من الفضل غايتك ، أن تتَّخذهما عَتادا(١) ليومك ، وذُخراً لِغَدِك ، فـكيف وقد جعلهما الله شعاراً باطِناً ، ولِباساً ظاهراً ؟ » .

(اختيار المنظوم والمنثور ١٣ : ٣٠٩)

٢٥٤ — كتابه فى إنصاف قوم تظلموا

« أما بعد ، فإن الله جَلَّ ثناؤه جَعَلَ عِزَّ السلطان فى أرضه مَعاذا يلجأ إليه مَن اضطُهِد بقوة ، أو عُدِىَ عليه بمَظلَمَة ، وحجابا بين الساعين بالفساد وبين ما يتشوَّفون إليه ، ويتنازعون نحوه ، من ركوب الكبائر ، وانتهاك المَحَارم(٢) ، ومَوْئلا لمن استُرِقُّوا(٣) من أهل الضعف ، بالعُدْوان والعَسْف ، والولاةُ مسئولون عما خُوِّلوا ، مُرْتَهَنون بمـا حُمِّلوا ، حتى يكفَّهم عدلٌ ، أو يوبِقهم(٤) جَورٌ ، وقليلُ ما يتقحَّم(٥) العُمَّالُ من سوء السِّيرة ، أو يرغبون فيه لأتباعهم من الغَميزة(٦) ، أشدُّ للقلوب [إفسادًا](٧) ، ولـكافّة الرعية إجحاما(٨) ، مما يتساورون(٩) به بينهم ، المحلُّ الذى نُصِبَتْ له الرُّعاةُ من إصراخ(١٠) الملهوفين ، والأخذِ فوق أيدى المُعْتَدين ، وما يسكِّن فائرةَ مَن انتصر بهم ، فلم يدفعوا عن حَوْزته من القُنُوط والإياس .

(١) العتاد : العدة . (٢) فى الأصل « المهارم » وهو تحريف .

(٣) فى الأصل هكذا « ويورل من اشتركوا من أهل الضعف بالعدا والعسف » وهو تحريف ، وقد أصلحته كما ترى . والموئل : الملجأ .

(٤) أوبقه : أهلكه . (٥) اقتحم الأمر العظيم وتقحمه : رمى بنفسه فيه من غير روية .

(٦) الغميزة : المطعن أو المطمع . (٧) مابين القوسين بياض بالأصل .

(٨) أجحمه . دنا أن يهلكه .

(٩) أى يتواثبون ، ساوره : واثبه ، وكذا ثاوره ، وفى الأصل « يتشاورون » وهو تحريف .

(١٠) أى إغاثة .

(١١) فى الأصل « إفادة » وأراه محرفا عن « ثائرة » أى ثائرة ، يقال : فار فائرة : أى ثار ثائرة.

وقد انتهى إلى أمير المؤمنين كذا وكذا ، فأنكر ذلك إنكارًا لم يرِدْ عليه مِثلُه ، وكان أحقُّ مَن غُلِظ عليه فى التنكيل ، وضوعِفَ له التأديبُ ، مَن كان مِنْ أعوانِ السُّلطانِ ، الذين التمسَ بهم إحياءَ العدلِ وإماتةَ الجور ، فانظر نظراً تقضِى به حقَّ الله وحقَّ الناس ، غيرَ متجانِفٍ(١) يصغُو إلى أحد ممن مال عن القَصْد ، ثم أنفِذْ بينهم ما ألزَمَهم الحكمُ ، غيرَ متجاوزٍ للحقِّ ، ولا معطِّلٍ للحكم ، فإن الله تبارك وتعالى يقول : « وَمَنْ لَمْ يَحْكُمْ بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ » وقال : « وَمَنْ يَتَعَدَّ حُدُودَ اللَّهِ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ » .

(اختيار المنظوم والمنثور ١٣ : ٣٥٩)

٢٥٥ — كتاب له فى السلامة

« أما بعدُ ، فإن بلاء الله عند أمير المؤمنين ، مع ما يَحُوط له ما استحفظَه واسترعاه وتولاه من حسن الخلافة فيما قرُبَ منه ونأى ، وتعقُّبه من الصُّنْع على من شاقَّه(٢) وناوَأه ، البلاء الذى حَقَّ علينا وعلى عامة رعيته القولُ فيه وإذاعتُه والحديثُ عن النعمة الشاملة والكرامةِ المجلِّلةِ فيه ، واللهَ نسأل كذا .

(اختيار المنظوم والمنثور ١٣ : ٣٦٨و ٣٧٨)

٢٥٦ — وله صدر فى السلامة

« إن من أعظم النظم عند الخاصَّة والعامَّة موقِعاً ، وأوجبِها عليهم شكراً ، سلامةَ أمير المؤمنين التى جعلها الله عمادَ الدين ، وقِواما للمسلمين ، وجعل بها فواتحَ اليُمْن والبَرَكة ، وفوائد السرور والغبطة لكافَّة المؤمنين » .

(اختيار المنظوم والمنثور ١٣ : ٣٦٨و ٣٧٤ و٣٧٨)

---

(١) تجانف : مال ، من الجنف بالتحريك ، وهو الميل ، والجور . والصغو : الميل ، يقال : صغوه بالفتح والكسر وصغاه معك : أى ميله . والقصد : الاستقامة .

(٢) شاقه : خالفه . وناوأه : عاداه أيضا .

٢٥٧ — فصل له فى السلامة

« وقد أفادنى الله بما ورد علىّ من كتاب أمير المؤمنين سروراً وابتهاجا أيام أظلّ ما أظلّ من بركات اقترابه ، وشارَفَ من اليُمْن والسعادة فى رؤيته ، وامتدت بذلك فيمن قبلى ، فكلٌّ سُرَّ واستبشر ، ودعا وتشكَّر » .

(اختيار المنظوم والمنثور ١٣ : ٣٧٤)

٢٥٨ — فصل له فى الشكر

« لم يخطئنى من النعم ما أصابك ، ولا عدانى منها ماحَلَّ بك ، ولا خلوتُ من واجب حقها وما نفلَك(١) الله منها إذ قُلِّدتها ، اعتداداً منى بما طُوِّقْتَ من المنَنِ ، وإيجابا على نفسى لما حملتُ من الشكر » (اختيار المنظوم والمنثور ١٣ : ٣٨٠)

٢٥٩ — فصل له فى الشكر

« ذَكَر أمير المؤمنين كذا ، وليس ماتقدَّم من رأيه فى الاستنامة(٢) إلىّ ، والسكونِ إلى تولى ، حالا يَفِى بها الشكرُ ، وإن خُطِر عليها ، وأُفرِد بتأديتها ، فيكون فيه اتساع لما اتَّصَل بها ، وتظاهَر بعدها » .

(اختيار المنظوم والمنثور ١٣ : ٣٨٢)

٢٦٠ — كتاب له فى الشكر

« وقد قدِمَ علىّ فلانٌ بما حمَّله أميرُ المؤمنين من كتابه وكرامته ، فكفى صنيعةً من أمير المؤمنين وسعادةً إخلاصُ أمير المؤمنين الدعاءَ له فى كتبه ، وتطلُّعه إلى عِلم خَبَره ، وتوجيهُه ذا الثقة والنصيحة مِن خدمه ليصْدُر إليه بسلامته ، فوفَّاك اللهُ يا أمير المؤمنين

---

(١) أى أعطاك . (٢) استنام إليه : سكن واطمأن .

جَزاءَ هذه الكرامات الَّتي تُظاهِرُ بينها ، وتَرُبُّ[1] نِعَمَكَ فيها ، وتَتَمِّم ماقدَّمتَ بما استأنفتَ منها ، وشكر اللهُ لك ماأصبحتَ مشكورا به من الوفاء على ألسُن البشر ، طيِّبا عليك النَّشْرُ فى جميع الأمم .

وقد كان كذا ، وحَضرنى فى يوم جلوسى لإظهار[2] كرامته مَن قِبَلِى من قواده ، فكان مِن دعائهم لأمير المؤمنين ، وَتَحَمُّل كل امرئ منهم بقِسْطه من شكره ، ماأسأل الله أن يتقبَّل رَغَباتهم إليه ، ويقضىَ عنهم الحقَّ بما عملوا له »

(اختيار المنظوم والمنثور ١٣ : ٣٨٣)

٢٦١ — كتاب له فى الاعتذار

« أما بعد ، فإن لكل ذنب عفوا أو عقوبة ، وذنوب الخاصَّة عندك مستورة مغفورة ، فأما مِثلى من العامَّة فذنبهُ لا يُغفَر ، وكسْرُه لا يُجبر ، فعاقِبنى بإعراض لا يؤدّى إلى مَقتٍ » . (اختيار المنظوم والمنثور ١٣ : ٣٨٥)

٢٦٢ — كتاب آخر

« أتيتُك وَافِدًا بذنوبى على عفوك ، واثقًا لعقوقى ببرِّك ، لامستظهِرا عليك بشفيع قدَّمتُه ، خلا تطوُّلك بالعفو عن الإخوان ، وتفضُّلك عليهم بالإحسان ، فإن تعاقِب فقد حكَمتَ بالعدلِة بعقوبتك على نفسى ، وإن تجافَ عن ذلك فإن الله يعلم أن قلبى لم يُصِرَّ لك على قطيعة ، وكلُّ ذنب كان أصله الاستبطاء ، لدالَّة الحُرْمة ، والاستعطاف بماتَّةِ الخِدمة ، فهو مما يُعدُّ فى الحسنات لا السيئات » . (اختيار المنظوم والمنثور ١٣ : ٣٩٠)

---

(١) رب النعمة : نماها وزادها وأتمها وأصلحها .

(٢) فى الأصل « طهار » وهو تحريف ، وصوابه « لإظهار » .

٢٦٣ — كتاب آخر

« قد ارتهنتُ لك الشكرَ من نفسى ، معرفةً بالتقصير عن حقك ، واعتقدتُ لك الميثاقَ ، على على بجهد الوفاء فى أمرك ، فأنا وكيلك على ما أصلَحَ الله لك قلبى ، وأمينك فى المناصحة لحجَّتك على نفسى ، والله على ذلك شهيد » .

(اختيار المنظوم والمنثور ١٣ : ٣٩٠)

٢٦٤ — كتاب آخر

« قد يَسَع العُذرُ مَن ضاقت عليه الحُجَّةُ ، وحيثُ قَبُحَت الاستكانةُ فهى هاهنا حَسَنة ، ولعلَّ الله أن يَهَبَ لنا نَفَسًا(١) فى المُدَّة نتلافى به سالفَ التفريطِ والإضاعة» .

(اختيار المنظوم والمنثور ١٣ : ٣٩٠)

٢٦٥ — كتاب له فى حاجة

« قد كان لك فلان على ما بلغك فى الفضل وجميل الأخلاق ، وقد حواهم(٢) الله لك وصيَّرهم فى ظِلِّك وتحت جَناحك ، فإن رأيتَ أن ترْعَى ما تقدَّم لهم عندك من المعروف ، فإن عليك أن ترُبَّه(٣) كما عليهم أن يشكروه ، . . . . .(٤) مَن انقبضْتُ عنه فى حوائجى ، فإنى أنبسِطُ إليك وآنَسُ بك فيها ، ومن ادّخرتهُ ذات نفسى فإنى أَبُثُّك إياها لخِلال كثيرةٍ ، خارَ الله لك فضلَها ، وقدّمك على غيرك عندى بها : قبلَ اللقاء على حسن الأُحدوثة ، وبعدَه على محمود الخِبرة ، والله أشكُرُ على السبب الذى وصله بيننا شكرا أستثيبهُ به إتمامَ ما وصَلَ منه ، وإعاذتَه من تخوُّن(٥) الحوادث إياه .

---

(١) النفس : السعة والفسحة فى الأمر .

(٢) تنبه إلى أنه لم يتقدم لهذا الضمير مرجع .

(٣) ربّ المعروف كنصر : نماه وزاده وأتمه وأصلحه .

(٤) بياض بالأصل . (٥) تخونه : نقصه .

وكان إتيانى إياك — أعزك الله — فى حوائجى ، بعد أن طال بغيرك تشاغلى . وبعد أن استهلكتْ إضاعتُه الواجبَ فى أمرى ، واتكالُه على لين مطالبتى ، سُلَّما كنتُ أعتمد عليه ، وأتَرَوَّح إليه ، فأتيتُك حين أنفدَ الصبرُ مدتَه ، وبلغ المكروهُ غايتَه ، ولم يبق من السِّتر إلا ما كاد أن يَشِفَّ عما دونه ، ألْزِمُك عِمارةَ حالٍ أبْدى سواها خَلَلَها ، وأُعْجِلُك فى تداركِ أمورٍ تَسلَّف التفريطُ من غيرك مَهَلَها ، فتلقَّيتَ بالقبول وسائلى ، وبالإنجاز حاجتى ، وأعجلتَنى عن الشكوى بالعلم بالداء ، وتضمُّن الدواء ، ثم لم تجعل جاهَك ، مع كثرته وانبساطه ، مندوحةً[١] عن مالك مع قلة مادته ، وضعفه عما تُحمِّله ، بذلا قبل المسألة ، وتطوُّعا بعد الفريضة ، ولا والذى جميلُ رأيك مِنْ عظيم نعمه عندى ، ما أصبحتْ لى هناك عَرجةٌ إلا عليك ، طالت أم قصُرَتْ ، ولا أنتظر بها فُسْحةً إلا مِن قِبَلك ، تقدَّمَت أو تأخرتْ ، ولا أتشبَّثُ فى مقامى إلا بعُلْقة[٢] متراخيةٍ عن الوثيقة ، لا فضلَ فيها للأناة والنظر ، ولا تبلُغُ أن تكون بُلغةً ، فرأيك فى الأمر الذى رغِبْتُ إليك فيه ، وهو حَسنٌ موقِعه ، محتَلٌ إليك موضِعُه ، مستكثَرٌ قليلُه ، مقبولٌ عفوهُ » (اختيار المنظوم والمنثور ١٣ : ٣٩١)

٢٦٦ — كتاب له فى الشوق

وكتب إلى صديق له يشكو شوقه إليه :

« شوقى إليك شديد، يستوى فى العجز عن صفته الخطيبُ البليغ وَالعَيُّ المُفْحَم[٣] ، فدعانى ذلك إلى الخفض على نفسى ، وتقديم جملة من ذكره إذا عارضْتَ بها ما فى قلبك كانت له موافِقةً ، بل كانت عليه مُفْضِلةً[٤] » .

(اختيار المنظوم والمنثور ١٣ : ٣٩٦)

(١) المندوحة . السعة .
(٢) العلقة : كل ما يتبلغ به من العيش .
(٣) المفحم : العيي . (٤) أفضل عليه : زاد .

٢٦٧ — فصل له فى الإخاء

« وليس ينبغِى لك أن تؤاخِىَ إلا الكريمَ الأُخُوَّة ، الكاملَ المُرُوَّة ، الذى إذا غبْتَ خَلَفَك ، وإذا حضرت كَنَفك ، إن لقِىَ صديقك استزاد لك فى مودّته ، وإن لقِىَ عدوك كَفَّ عنك من عاديته ، إن رأيته ابتهجتَ ، وإن أتيتهُ استرحتَ » .

(اختيار المنظوم والمنثور ١٣ : ٤٠٨)

٢٦٨ — كتاب له فى العتاب

وكتب أحمد بن يوسف :

لولا حُسْنُ الظن بك ـ أعزَّك الله ـ لكان فى إغضائك عنى ما يَقْبِضُنى عن الطِّلْبة(١) إليك ، ولكن أمسَكَ برَمَقِ من الرجاء عِلْمى برأيك فى رعاية الحق ، وبسْط يدك إلى الذى لو قبضْتَها عنه لم يكن له إلَّا كرمُك مُذَكِّرًا ، وسُودَدُك شافِعاً » .

(العقد الفريد ٢ : ١٩٣)

* * *

وكتب أيضاً :

« لا تجوز قطيعةٌ ، لأنها لا تخلو من أحد وجهين ، إما ضعف فى نفس الاختيار ، وإما مَلَل ، وكلاهما حُجّة فيه » . (العقد الفريد ٢ : ١٩٣)

٢٦٩ — كتاب له فى الذم

وكتب يذم :

« أما بعد ، فإنى لا أعرف المعروف طريقاً أوعَرَ من طريقه إليك ، فالمعروفُ

---

(١) الطلبة : الطلب .

لديك ضائع ، والشكرُ عندك مهجور ، وإنما غايتُك فى المعروف أن تَحقِره ، وفى وليِّه أن تَكْفُرَه » . (العقد الفريد ٢ : ١٩٦)

٢٧٠ — كتاب له فى الذم

وله فى الذم إلى والٍ :

« أمَا واللهِ إن كنتَ لَمسيئاً إلى جندك ، مُخطِئاً لخلاَّك ، غيرَ نبيل فى عملك ، ولا مُصيب عزَّك عن عمل فى حكمك ، تحيف فى القضاء ، وتتَّبع الهَوَى وتقبَل الرِّشا ، لستَ الثابتَ الرزينَ ، ولا الحليمَ الركينَ[١] » .

(اختيار المنظوم والمنثور ١٣ : ٤٢٠)

٢٧١ — كتاب إلى أحمد بن يوسف من صديق له

وكتب إلى أحمد بن يوسف صديق له فى يوم دَجْن[٢] :

« يَوْمُنا ظريفُ النواحِى ، رقيقُ الحواشى ، قد رَعَدَت سماؤه وبَرَقَت ، وحَنَّت وارجَحَنَّت[٣] ، وأنت قُطْب السرور ، ونِظام[٤] الأمور ، فلا تُفرِدْنا منك ، فنقِلَّ ، ولا تنفرِدْ عنا فَنذِلَّ ، فإن المرء بأخيه كثير ، وبمساعدته جدير » .

(معجم الأدباء ٥ : ١٧٠)

٢٧٢ — كتاب القاسم بن يوسف إلى صديق له

وجازى القاسم بن يوسف صديقا له على مكروه أتاه ، فكتب إليه يعذُله فى ذلك ، وكتب القاسم :

---

(١) الركين : الرزين وفعله ككرم .
(٢) الدجن : إلباس الغيم الأرض وأقطار السماء . (٣) ارجحن السحاب : مال من ثقله .
(٤) النظام . الخيط ينظم به لؤلؤ ونحوه ، وملاك الأمر .

« ظلمتَ - أعزّكَ الله - وما أنصفتَ ، وأسأتَ وما أحسنتَ ، تأتى ذلك اختيارا، ولا تُتْبِعه اعتذارا ، حتى إذا لُذِعْتَ بلَظَى المكافأة(١) ، وسُلِك بك طريقُ المجازاةِ ، جعلت ذلك لنا ذنبا ، وألزمْتَنا له عَتْبا ، ومن لم يعرف قبيحَ مايُبْلِى ، لم يعرف حَسَن مايُولِى ، ولله در القائل :

إذا ماامرؤٌ لم يحمل الحِقْدَ لم يكن لديه لِذِى نُعمَى جزاءٌ ولا شكرُ »

(كتاب الأوراق الصولى ١ : ٢٠٦)

٢٧٣ - كتاب أحد غلمان الديوان إلى آخر منهم

قال أحمد بن يوسف :

كتب غلام من ولد أنو شِرْوانَ ممن كان أحدَ غِلْمان الدِّيوان إلى آخَرَ منهم ، وكان قد عَلِقَ به وكان شديد الكَلَف(٢) به والمحبة له :

« ليس من قَدْرِى - أدام الله سعادتك - أن أقول لِمِثْلك : جُعِلْتُ فِداك ، لأنى أراك فوق كُلِّ قيمة نضيرة ، وثَمَنٍ مُعْجِز ، ولأن نفسى لاتساوى نفسك ، فتقْبلَ فى فِدْيتك على كل حال ، فجعلنى اللهُ فِدَاء ساعةٍ من أيامك .

أعلم أيها السيد العَلِىُّ المنزلةِ ، أنه لو كان لعَبْدِك من شدة الخطْبِ أمرٌ يقف على حَدِّه النعتُ ، لاجْتَهَد أن يصف من ذلك ماعسى أن يَعْطِفَ به زمام قلبك ، ويَحْنُو على الرِّقة والتحفِّى(٣) أثناء جَوانحك ، ولكن الذى أمسيتُ وأصبحتُ مُمْتَحَنًا به فيك ، مُنِعَ عن كل بيان ، ونَزَح(٤) عن كل لسان .

والحبُّ أيها الملك لم يَشُبْه قَذَى(٥) ريبةٍ ، ولم يختلط به قلبُ مَعابٍ ، فلا ينبغى

---

(١) المكافأة : المجازاة .

(٢) كلف به كفرح : أولع .

(٣) حناه يحنوه عطفه، وتحفى به واحتفى : بالغ فى إكرامه وأظهر السرور والفرح وأكثر السؤال عن حاله .

(٤) غاب وبعد .

(٥) القذى : ما يقع فى العين والشراب . والمعاب : العيب .

لمن كَرُمت أخلاقه أن يعافَ[(١)] مقاربةَ صاحبِه المُدِلّ بجَزْم نيَّته ، والذى أعناه أيها المولى اللطيف مجلِسٌ أقِف فيه أمامك ، ثم أبوحُ بما أضْنَى جَسَدى، وفتَّتَ كبدى ، فإن خفَّ ذلك عليك ، ورأيتَ نشاطا من نفسك إليه، كنتَ كمن فكَّ أسيراً، وأبرأ عليلا، ومن الخيرِ سَلَك سبيلاً يتوعّرُ سُلوكُها على من كان قبله ويكون بعده ، ثم أضاف إلى ذلك مِنَّةً لايُطيقها جَبَلٌ راسٍ ، ولا فلَكٌ دائرٌ .

فرَأْيك أيها السيد المعتمَد فى الإسعاف قبل أن يَبْدُرَ[(٢)] فىّ الموتُ ، فيحُولَ بينى وبين ما نَزَعَت[(٣)] إليه النفسُ مواصِلا بِرًّا إن شاء الله تعالى » .

(زهر الآداب ٣ : ١٤)

٢٧٤ — رده عليه

فأجابه :

« تولَّى الله تعالى ما جَرى به لسانُك بالمَزيد ، ولا أوْحَشَ ما بيننا بطائرِ فُرْقَةٍ ، ولا حافِرٍ[(٤)] تشتُّت ، وضَمَّنا وإياك فى أوثقِ حِبال الأُنسِ ، وأوكَدِ أسباب الأُلفة وقفتُ على ماخَصَّته من العجز عن بلوغ ما خامرَ قلبَك ، وانطَوى فى ضميرك ، من الشَّغَف المُقَلْقِل ، والهوَى المُضْرِع[(٥)]، ولعمرى لو كُشف لك عن مِعْشار[(٦)] ما اشتمل عليه مُضْمَرُ صدرى ، لأيقنتَ أن الذى عندك إذا نسبته إلى ماعندى كالمتلاشِى الزائل ولـكنك بفضل الإنعام سبقتَنا إلى كشفِ مافى الضمير . وأما طاعتى لك وذِمامى[(٧)] إليك ، فطاعةُ العَبْد المقتنَى الطائع لما يَحْكُمُ له وعليه مَوْلاه ومَالِكه ، وأنا سائر إليك وقت كذا ، فتأهَّبْ لذلك بأجْهَد عافيةٍ ، وأتم عاقبةٍ ، وأسْعَد نجْم ، حَرىٌّ بالأُلفةِ إن شاء الله تعالى » .

(زهر الآداب ٣ : ١٥)

---

(١) يكره. (٢) يسرع ويعجل إلى . (٣) اشتاق .

(٤) حافر الدابة معروف، والمراد به الدابة : أى ولا كان سبب الوحشة بيننا مطية تقلك إلى مكان ناء عنا . (٥) أضرعه : أذله .

(٦) المشعار والعشير والعشر : جزء من عشرة . (٧) الذمام . الحق والحرمة .

٢٧٥ — رسالة سهل بن هرون فى البخل

وهذه رسالة سهل[١] بن هرون بن راهبُون إلى بنى عمه من آل راهبون ، حين ذمُّوا مذهبه فى البخل ، وتتبَّعوا كلامه فى الكتب :

« بسم الله الرحمن الرحيم : أَصْلَح الله أمرَكم ، وجَمع شَمْلكم ، وعلَّمكم الخيرَ ، وجعلكم من أهلِه ، قال الأَحْنَفُ بن قيس : « يا معشر بنى تميم لا تُسْرِعوا إلى الفِتنة ، فإن أسرعَ الناس إلى القتال أقلُّهم حَياءً من الفرار » وقد كانوا يقولون : « إذا أردتَ أن ترَى العيوبَ جَمَّةً فتأمَّلْ عيَّابًا ، فإنه إنما يَعيبُ الناسَ بِفضْلِ ما فيه من العَيب » ، وأوَّلُ العَيب[٢] أن تَعيبَ ما ليس بِعَيْبٍ ، وقبيحٌ أن تَنْهَى مُرشدًا ، وأن تُغْرِى بمُشْفِق ، وما أردْنا بما قلنا إلا هدايتَكمُ وتقويمَكم ، وإلاَّ إصلاحَ فسادكم وإبقاءَ النعمةِ

(١) هو سهل بن هرون بن « راهبون » كما جاء فى كتاب البخلاء وسرح العيون ، وفى حياة الحيوان للدميرى « راهويه » وفى الفهرست لابن النديم « رامنوى الدستميسانى » فارسى الأصل من أهل نيسابور ثم انتقل إلى البصرة ، وكان شعوبيا — والشعوبية بضم الشين : فرقة تبغض العرب وتحتقرها وتتعصب للفرس عليها ، اقرأ البيان والتبيين ٣ : ٥ والعقد الفريد ٢ : ٧٠ — وكان أول أمره خاصا بالفضل ابن سهل ، فقدمه إلى المأمون ، فأعجب ببلاغته وعقله ، وجعله صاحب بيت الحكمة . وكان حكيما شاعرا فصيحا ، إلا أنه كان نهاية فى البخل ، وله فيه حكايات عجيبة . من ذلك ماحكاه دعبل الخزاعى ، قال : كنا عنده يوما فأطلنا القعود حتى كاد يموت جوعا ، ثم قال : ويحك ياغلام غدّنا ، فأتاه بصحفة فيها مرق تحته ديك هرم لا تحز فيه السكين ولا يؤثر فيه الضرس ، فتأمله ثم قال : أين الرأس ياغلام ؟ قال : رميت به ، قال : ولم ؟ قال : لم أظنك تأكله ولا تسأل عنه ، قال : ولم ظننت ذلك ؟ إنى والله لأمقت من يرمى برجله ، فكيف من يرمى برأسه ! ولو لم يكن فيما فعلت إلا الطيرة والفأل لكرهته ، أما علمت أن الرأس رئيس الأعضاء ، وفيه الحواس الخمس ، ومنه يصيح الديك ، ولولا صوته ما أريد ، وفيه عرفه الذى يتبرك به وعينه التى يضرب بها المثل فى الصفاء ، فيقال : شراب كعين الديك ، ودماغه عجيب لوجع الكليتين ، ولم ير قط عظم أهش تحت الأسنان منه . وهب أنك ظننت أنى لا آكله ، أو ليس العيال كانوا يأكلونه؟ فإن كان قد بلغ من جهلك أن لا تأكله فعندنا من يأكله ، أما علمت أنه خير من طرف الجناح ، ومن رأس العنق ؟ انظر إلى أين هو ؟ فقال والله ما أدرى أين هو ، ولا أين رميت به ، فقال : لكنى والله أدرى ، إنك رميته فى بطنك قاتلك الله ، — انظر أخباره فى سرح العيون ص ١٦٥ والفهرست لابن النديم ص ١٧٤ وص ١٨٢ والعقد الفريد ٣ : ٢٦٥ وزهر الآداب ٢ : ٢٠١ وحياة الحيوان للدميرى ١ : ٥١٣ .

(٢) وفى العقد الفريد « ومن أعيب العيب » .

عليكم ، ولئن أخطأنا سبيلَ إرشادكم فما أخطأنا سبيلَ حُسْنِ النيّة فيما بيننا وبينكم ، ثم قد تعلمون أنّا ما أوصيناكم إلا بما قد اخترناه لأنفسنا قبلكم[(١)] ، وشُهِرْنا به فى الآفاق دونكم ، ثم نقول فى ذلك ما قال العبد الصالح لقومه : « وَمَا أُرِيدُ أَنْ أُخَالِفَكُمْ إِلَى مَا أَنْهَاكُمْ عَنْهُ إِنْ أُرِيدُ إِلاَّ الإِصْلاَحَ مَا اسْتَطَعْتُ ، وَمَا تَوْفِيقِى إِلاَّ بِاللهِ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ أُنِيبُ » ، فما كان أحقَّكم فى تقديم حُرْمَتنا بكم[(٢)] ، أن ترْعوا حقَّ قصْدِنا بذلك إليكم ، وتنبيهنا على ما أغفَلْنا من واجب حقكم ، فلا العذرَ المبسوطَ بلَغتم ، ولا بواجب الحُرْمة قمتم ، ولو كان ذِكْرُ العيوب بِرًّا وفضلا[(٣)] لرأينا أن فى أنفسنا عن ذلك شُغلا .

وإن من أعظم الشِّقوة ، وأبعدَ من السعادة ، ألاَّ يزال يتذكر زَلَلَ المعلِّمين ، ويتناسى سوء استماع المتعلمين ، ويستعظِم غِلَظَ العاذلين ، ولا يَحفِل بتعمُّد المعذُولين .

عِبْتمونى بقولى لخادمى[(٤)] أجيدى عَجْنه خَميرًا كما أجَدْتِهِ فَطيرًا[(٥)] ، ليكون أطيبَ لطَعْمه ، وأزيدَ فى رَيْعه . وقد قال عمر بن الخطاب رضى الله عنه ورَحِمَه لأهله : « امْلِكوا العجينَ فإنه أريَعُ الطَّحِينَين[(٦)] » .

وعِبتم علىَّ قَوْلى : من لم يعرف مواقعَ السَّرَف فى الموجود الرخيص ، لم يعرف مواقعَ الاقتصاد فى المتمنِع الغَالِى ، فلقد أُوتيتُ من ماء الوضوء بِمَكِيلة[(٧)] يدل حجمها

---

(١) وفيه « إلا بما اخترناه لكم ولأنفسنا قبلكم » .

(٢) وفيه « فما كان أحقنا منكم فى حرمتنا بكم أن ترعوا حق قصدنا بذلك إليكم على ما رعيناه من واجب حقكم » .

(٣) وفيه « ولو كان ذكر العيوب يراد به فخر » .

(٤) هو خادم وهى خادم وخادمة .

(٥) الفطير : ضد الخمير ، وهو العجين الذى لم يختمر ، وفى العقد « أجيدى العجين فهو أطيب لطعمه وأزيد فى ريعه . والريع : النماء والزيادة .

(٦) ملك العجين كضرب وأملكه وملكه : أنعم عجنه ، وفى العقد « املكوا العجين فإنه أحد الريعين » .

(٧) المكيلة ما كيل به ، وفى الأصل « بكيلة » وهو تحريف ، والكيلة بالكسر : اسم من الكيل .

على مَبْلَغ الكِفاية ، وأشدّ من الكفاية ، فلما صِرْتُ إلى تفريق أجزائه على الأعضاء ، وإلى التوفير عليها من وَظيفة[1] الماء ، وجدتُ في الأعضاء فضلا على الماء ، فعلمتُ أنْ لو كنتُ سلكتُ الاقتصادَ في أوائله ، ورَغِبْتُ عن التهاوُن به في ابتدائه ، لخرج آخِرُه على كفاية أوّله ، ولكان نصيبُ العُضْوِ الأوّل كنصيب الآخِرِ ، فعِبْتُموني بذلك ، وشنّعتموه بجُهْدِكم وقبّحتموه ، وقد قال الحسن[2] عند ذكر السَّرف « أمَا إنّه ليكون في الماعُونَيْن[3] : الماءِ والكَلَأ » فلم يرضَ بذكر الماء حتى أرْدَفَه بالكَلَأ .

وعبتموني حين ختمتُ على سَدّ[4] عظيم ، وفيه شيء ثمين من فاكهة نفيسة ، ومن رُطَبَة[5] غريبة ، على عبدٍ نَهِم ، وصبيّ جَشِع ، وأَمَة لَكْعاء ، وزوجة خَرْقاء[6] ، وليس من أصل الأدب ولا في ترتيب الحكم ، ولا في عادات[7] القادة ، ولا في تدبير السّادة ، أن يستوىَ في نفيس المأكول ، وغريب المشروب ، وثمين الملبوس ، وخَطير[8] المركوبِ ، والناعمِ من كل فن ، والألبابِ[9] من كل شكل ، التابعُ والمتبوع ، والسيّدُ والمَسُود ، كما لا تستوى مواضِعُهم في المجالس ، ومواقِع أسمائهم في العُنْوانات وما يستقبلون به من التحيّات ، وكيف وهم لا يَفقِدون من ذلك ما يفقد القادر ، ولا يكترثون له اكتراثَ العارف ؟ ومن شاء أطعمَ كلبَه الدجاج المسمّن ، وعَلَف

(١) الوظيفة : ما يقدر لك من طعام أو رزق ونحوه ، ومعناها هنا : المقدر من الماء ، وفي العقد « وضيعة » وهو تحريف .
(٢) أي الحسن البصري . (٣) الماعون : كل ما انتفعت به .
(٤) السد : سلة من قضبان ، والجمع سداد ككتاب وسدد كعنق .
(٥) أي تمر مرطب ، ويصح أن يكون « ومن رطبة » بفتح فسكون : أي ومن فاكهة رطبة طرية وفي العقد « من فاكهة رطابة نقية ، ومن رطبة غريبة » .
(٦) نهم : شره ، وجشع : شديد الحرص شرة أيضا ، ولكعاء : لئيمة ، وخرقاء : حمقاء ، وفي العقد « وزوجة مضيعة » .
(٧) وفي العقد « عدالة » . (٨) أي عظيم .
(٩) لب كل شيء ولبابه : خالصه وخياره .

حِمارَه السَّمْسَمَ المقشَّر ، فعبتمونى بالخَتْم ، وقد ختم بعض الأئمة على مِزْوَد[١] سَوِيق ، وَخَتَمَ على كيسٍ فارغ ، وقال : « طِينةٌ[٢] خير من ظِنَّةٍ » فأمسكتم عمن خَتَمَ على لا شىء ، وعبتم من ختم على شىء » .

وعبتمونى حين قلت للغلام إذا زِدْتَ فى المَرَق فَزِدْ فى الإنضاج ، ليجتمع مع التأدُّم باللحم طِيبُ المَرَق ، وقد قال النبى صلى الله عليه وسلم: « إذا طبختم لحما فزيدوا فى الماء ، فإن لم يُصِبْ أحدكم لحما أصاب مَرَقا » .

وعبتمونى بخَصْفِ[٣] النِّعال ، وبتصدير القميص ، وحين زعمتُ أنَّ المخصوفة من النعل أبقى وأوطأ وأقوى وأنفَى للكِبْر ، وَأشبَه بالنُّسْك ، وأن الترقيع من الحَزْم ، وأن الاجتماع مع الحفظ ، وأن التفرق مع التضييع[٤] ، وقد كان النبى صلى الله عليه وسلم يَخْصِفُ نَعْلَه ، وَيَرْقَع ثوبه ، وَيلعَق أصابعه ، ويقول: « لو أُتيتُ بذراع لأكلتُ[٥] ، ولو دُعِيتُ إلى كُرَاعٍ[٦] لأَجبْتُ » ولقد أَفَقَتْ[٧] سُعْدَى بنت عوف إزارَ طلحة[٨]

---

(١) المزود : وعاء الزاد ، والسويق : طعام يعمل من الحنطة والشعير .

(٢) طانه : ختمه بالطين .

(٣) خصف النعل كرقع الثوب ، ويقال : صدر كتابه إذا جعل له صدرا ، وهو مصدر : أى قوى الصدر ، والمراد بتصدير القميص : تقوية صدره برقعة أو بطانة ، وأوطأ : ألين .

(٤) وفى العقد « والتفريط من التضييع » .

(٥) وفيه « لو أهدى إلى ذراع لقبلت » .

(٦) الكراع من البقر والغنم : بمنزلة الوظيف من الفرس ، وهو مستدق الساق .

(٧) افق الثوب كضرب : ضم شقة إلى أخرى فخاطهما .

(٨) هو طلحة بن عبيد الله التيمى القرشى ابن عم أبى بكر الصديق ، خرج مع الزبير وعائشة إلى البصرة للطلب بدم عثمان وقتل يوم الجمل سنة ٣٦ ، وقد قدمنا لك خبره فى الجزء الأول ، وكان من أجواد العرب ، وعنه أنه قال سمانى النبى صلى الله عليه وسلم يوم أحد : طلحة الخير ، ويوم غزوة ذات العشيرة : طلحة الفياض ، ويوم حنين طلحة الجود ، وقال فيه عمرو بن العاص حين بلغه مقتل عثمان : من يلى هذا الأمر من بعده ؟ إن يله طلحة فهو فتى العرب سيبا (أى عطاء) وحكى عنه أنه فرق فى يوم واحد مائة ألف درهم وقال قبيصة بن جابر : صحبت طلحة بن عبيد الله فما رأيت أعطى لجزيل من غير مسألة منه .

واستتماما للفائدة نقول : هو أحد مشهورى الطلحات الذين يضرب بهم المثل فى الجود ، وكانوا ستة ويسمى هذا طلحة الفياض ، وطلحة بن عمر بن عبيد الله بن معمر التيمى أيضا ، ويسمى طلحة الجود ، وطلحة بن عبد الله بن عوف أخى عبد الرحمن بن عوف الزهرى ، ويسمى طلحة الندى ، وطلحة بن الحسن ابن على بن أبى طالب رضى الله عنه ، ويسمى طلحة الخير ، وطلحة بن عبدالله بن عبد الرحمن بن أبى بكر =

وهو جَوَادُ قريش ، وهو طلحة الفَيَّاض ، وكان فى ثوب عُمَر رِقاعُ أَدَم ، وقال[1] : « من لم يستحيِ من الحلال خفَّت مُؤْنته وقلَّ كِبْرُه. وقالت الحكماء : لا جديدَ لمن لا يلبَس الخَلَق » وبعث زياد رجلا يرتاد له[2] محدِّثا ، واشترط على الرائد أن يكون عاقلا مُسَدَّدا ، فأتاه به موافقا ، فقال : أكنتَ ذا معرفة به ؟ قال : لا ولا رأيته قبل ساعته ، قال : أفناقلتَه[3] الكلامَ ، وفاتحتَه الأمورَ قبل أن توصله إلىَّ ؟ قال : لا ، قال : فلِمَ اخترته على جميع مَن رأيته ؟ قال : يومنا يومٌ قائظ[4] ، ولم أزل أتعرَّف عقول الناس بطعامهم ولباسهم فى مثل هذا اليوم ، ورأيتُ ثياب الناس جُدُدا ، وثيابه لُبُسا[5] ، فظننتُ به الحزمَ[6] . وقد علمنا أن الجديد فى موضعه دون الخَلَق[7] ، وقد جعل الله عز وجل لكل شيء قَدْراً ، وبوَّأ له موضعاً ، كما جعل لكل دهر رجالا ، ولكل مَقامٍ مقالا ، وقد أحيا الله بالسُّم ، وأمات بالغِذاء ، وأغَصَّ بالماء ، وقَتَلَ بالدواء ، فترقيعُ الثوب يجمع مع الإصلاح التواضعَ ، وخلافُ ذلك يجمع مع الإسراف التكبُّرَ ، وقد زَعموا أن الإصلاح أحد الكَسْبَين ، كما زعموا أن قلَّة العيال أَحَدُ اليَسَارَيْن ،

═ الصديق ، ويسمى طلحة الدراهم ، وطلحة بن عبدالله بن خلف الخزاعى البصرى ، ويسمى طلحة الطلحات ، سمى بذلك لأنه كان أجودهم ، وقيل : لأنه وهب فى عام واحد ألف جارية ، فكانت كل جارية منهن إذا ولدت غلاما تسميه طلحة على اسم سيدها ، وقيل سمى بذلك بسبب أمه ، وهى صفية بنت الحرث بن طلحة بن أبى طلحة ، وأخوها أيضا طلحة بن الحرث ، فقد تكنفه هؤلاء الطلحات كما ترى ، وقد شهد الجمل مع عائشة ، ومات بسجستان سنة ٦٣ ، وفيه يقول عبد الله بن قيس الرقيات :

نضر الله أعظما دفنوها بسجستان طلحة الطلحات

انظر أسد الغابة ٣ : ٥٩ وخلاصة تذهيب الكمال فى أسماء الرجال ص ١٥٢ وتاريخ الطبرى ٥ : ٢٣٤ ، وغرر الخصائص الواضحة ص ٢٤٥ ، وخزانة الأدب البغدادى ٣ : ٣٩٤ ، ولسان العرب ٣ : ٣٦٣ ، ومعجم البلدان ٥ : ٣٩ ، والعقد الفريد ١ : ٨٩ .

(١) وفى العقد « وقال عليه الصلاة والسلام . « من لم يشبم من الحلال ... » .

(٢) يرتاد : يطلب . (٣) المناقلة فى المنطق أن تحدثه ويحدثك .

(٤) قاظ يومنا : اشتد حره .

(٥) جمع لبيس : وهو الثوب قد أكثر لبسه فأخلق .

(٦) وفى العقد « فقال له : أكنت به ذا معرفة ؟ قال : لا ولكنى رأيته فى يوم قائظ يلبس خلقا ويلبس الناس جديدا ، فتفرست فيه العقل والأدب » .

(٧) وفيه « وقد علمت أن الخلق فى موضعه مثل الجديد فى موضعه » .

وقد جَبَر الأحنفُ يدَ عَنْزٍ وأمَرَ بذلك النعمان[١]، وقال عمر : « من أكل بيضة فقد أكل دجاجة »، ولَبِس سالم[٢] بن عبد الله جِلد أُضْحِيَة، وقال رجل لبعض السادة : أريد أن أهديَ إليك دَجاجة، فقال : إن كان لابدَّ فاجعلها بَيُوضاً، وعدَّ أبو الدَّرداء العُرَاقَ[٣] جَزَرَ البهيمة.

وعبتموني حين قلت : لايغترَّنَّ أحدكم بطول عمره، وتقوُّسِ ظهره، ورِقَّةِ عظمه، وهَن قوَّته، وأن يرى نحوَه أكثر ذُرِيته فيدعوه ذلك إلى إخراج ماله من يديه، وتحويله إلى مِلْك غيره، وإلى تحكيم السَّرَف فيه، وتسليطِ الشهوات عليه، فلعلَّه أن يكون مُعمَّرًا وهو لايدرى، وممدودًا له فى السِّنِّ وهو لايشعُر، ولعلَّه أن يُرْزَق الولَدَ على اليأس، أو يَحْدُثَ عليه بعضُ مخبَّآت الدهور، مما لا يَخطُر على البال ولا تُدْرِكُه العقول، فيستردَّه ممن لا يرُدُّه، ويُظهِر الشكوى إلى من لايرحمه، أضعفَ ما كان عن الطلب، وأقبحَ ما يكون به الكَسْب[٤]، فعبتموني بذلك، وقد قال عمرو بن العاص : « اعمَلْ لدنياك عمَلَ من يعيشُ أبداً، واعمَلْ لآخرتك عمل من يموت غداً ».

وعبتموني حين زعمتُ أن السرف والتبذير : إلى مال القِمار، ومالِ الميراث، وإلى مالِ الالتقاط، وحِباءِ[٥] الملوك، أسرعُ، وأن الحفظ إلى المال المكتسَب، والغِنى المجتلَب، وإلى ما لا يُعرِّض فيه لذهاب الدين، واهتضامِ العِرْض، ونَصَبِ البَدَن واهتمامِ القلب، أسْرعُ، وإن من لم يَحسُبْ ذَهابَ نفقته لم يحسُبْ دَخْلَه، ومن لم

---

(١) أى أبو حنيفة النعمان بن ثابت، وفى العقد « وأمر مالك بن أنس بفرك النمل ».
(٢) هو سالم بن عبد الله بن عمر بن الخطاب.
(٣) قدمنا كلمة عن أبى الدرداء فى الجزء الأول، والعراق كغراب : العظام إذا جردت من اللحم، والجزر بالتحريك : الشياه السمينة، الواحدة جزرة.
(٤) وفى العقد « أصعب ما كان عليه الطلب، وأقبح ما كان به أن يطلب ».
(٥) الحباء : العطاء.

يحسُب الدَّخلَ فقد أضاع الأصلَ ، وإن من لم يعرف للغِنَى قدرَه ، فقد أُوذِن بالفقر ، وطاب نفساً بالذُّل .

وعبتمونى بأن قلت : إن كَسْبَ الحلال يضمن الإنفاقَ فى الحلال . وإن الخبيث ينزِعُ إلى الخبيث ، وَإن الطيِّب يدعو إلى الطيب ، وَإن الإنفاق فى الهَوى حِجابٌ دون الحقوق ، وإن الإنفاق فى الحقوق حجابٌ دون الهوى[١] ، فعبتم علىَّ هذا القول ، وقد قال معاوية : « لم أرَ تبذيرا قطُّ إلا وَإلى جانبه حقٌّ مُضيَّع » وقد قال الحسن : « إذا أردتم أن تَعرِفوا مِن أينَ أصاب الرجل ماله ، فانظروا فى أى شىء يُنفِقه ؟ فإن الخبيث إنما يُنفَق فى السَّرَف » .

وقلت لكم : بالشفقة منى عليكم ، وَبحُسْنِ النظر منى لكم ، وَبحفظكم لآبائكم ، وَلما يجب فى جِوارِكم ، وَفى مُمَالَحتكم[٢] ، وَملابَستكم ، وأنتم فى دار الآفات ، والجوائحُ[٣] غيرُ مأمونات ، فإن أحاطت بمال أحدكم آفةٌ لم يرجع إلى بقيَّة ، فأحْرِزوا[٤] النعمة باختلاف الأمكنة ، فإن البليَّة لاتجرى فى الجميع إلا بموت الجميع ، وقد قال عمر رضى الله عنه فى العبد والأمَة والشاة والبعير ، وفى الشىء الحقير اليسير : « فرِّقوا بين المنايا ، واجعلوا الرأسَ رأسين[٥] » وقال ابن سِيرِين[٦] لبعض البَحْريين : كيف تصنعون بأموالكم ؟ قالوا : نُفرِّقها فى السفن ، فإنْ عَطِبَ بعضٌ سَلِمَ بعضٌ ،

---

(١) وفى العقد « وإن الإنفاق فى الهوى حجاب دون الهوى » وعليه فكلمة الهوى الثانية محرفة وصوابها « الهدى » .

(٢) الممالحة : المواكلة .

(٣) الجوائح جمع جائحة ، وهى الشدة المهلكة .   (٤) أى حصنوها .

(٥) أى فرقوا غنمكم فى أماكن مختلفة حتى إذا اخترمت المنية بعضها لسبب ما كان الباقى بمعزل ومنجاة ، أو معناه اعملوا على تنميتها حتى يتضاعف عددها .

(٦) هو محمد بن سيرين أحد فقهاء أهل البصرة ، وكان معروفا بالورع ، وهو صاحب الحسن البصرى ، وتوفى سنة ١١٠ هـ .

ولولا أن السلامة أكثرُ لَمَا حَمَلْنا خزائننا فى البحر ، قال ابن سيرين : تحسَبُها خَرْقاء وهى صَناع[(١)] .

وعبتمونى بأن قلت لكم عند إشفاق عليكم : إن للغِنَى لَسُكْرًا ، وإن للمال لَنَزْوَة[(٢)] ، فمن لم يحفظ الغِنَى من سُكْر الغِنَى فقد أضاعه ، ومن لم يرتبط المالَ بخوف الفقر فقد أهمَلَه ، فعبتمونى بذلك ، وقد قال زيد بن جَبَلَة : ليس أحد أقصرَ عقلا من غنىٍّ أَمِنَ الفقرَ ، وسُكْرُ الغنى أشدّ من سكر الخمر ، وَقلتم: قد لزِمَ الحثَّ على الحقوق، والتزهيدَ فى الفضُول ، حتى صار يستعمل ذلك فى أشعاره بعد رسائله ، وفى خُطبه بعد سائر كلامه ، وقد قال الشاعر فى يحيى بن خالد بن بَرْمَك :

عدوٌّ تلادِ المـال فيما يَنوبُه   مَنُوعٌ إذا ما مَنْعُه كان أحزَمَا[(٣)]

وقال فى محمد بن زياد :

وخَليقتانِ : تُقًى وفضلُ تحرُّمٍ   وإهانَةٌ فى حقِّـــه المال

وعبتمونى حين زعمت أنى أقدِّم المال عَلَى العلم ، لأن المال به يُفادُ العلم[(٤)] ، وبه تَقُومُ النفوسُ قبل أن تعرِفَ فضْلَ العلم ، فهو أصل ، والأصلُ أحقُّ بالتفضيل من الفرع ، وأنى قلت: إن كنا نستبينُ الأمورَ بالنفوس ، فإنا بالكفاية نستبين ، وَبالخَلَّة نعْمَى[(٥)] ، وقلتم كيف تقول هذا ؟ وقد قيل لرئيس الحكماء ، ومُقدَّم الأدباء : العلماء أفضلُ أم الأغنياء ؟ قال : بل العلماء ، قيل : فما بال العلماء يأتون بابَ الأغنياء أكثَرَ مما يأتى الأغنياء أبوابَ العلماء ؟ قال : لِمعرفة العلماء بفَضْل الغنى ، ولجهل

---

(١) خرقاء : وصف من الخرق بالتحريك ، وهو أن لا يحسن المرء العمل والتصرف فى الأمور ، وامرأة صناع حاذقة بالعمل ماهرة ويقال أيضا امرأة صناع اليدين : أى حاذقة ماهرة بعمل اليدين ، وهو مثل يضرب لمن تظن به الغفلة وهو فطن يقظ .

(٢) النزوة : الوثبة والثورة .

(٣) وفى العقد « وهوب تلاد المال ... » والتلاد : المال القديم الذى ولد عندك .

(٤) وفى البخلاء « به يغاث العالم » .   (٥) الخلة : الفقر ، ونعمى : نضل .

الأغنياء بفضل العلم ، فقلتُ : حالُهما هي القاضِيَةُ بينهما ، وكيف يستوى شيء تُرَى حَاجةُ الجميع إليه ، وشيء يُغنِي بعضهم فيه عن بعض ؟

وعبتموني حين قلت : إن فضل الغِنَى على القُوتِ إنما هو كفضل الآلة تكون في الدار : إن احتيجَ إليها استُعْمِلَت ، وإن استُغْنِيَ عنها كانت عدَّةً ، وقد قال الحُضَين[١] بن المنذر : وَدِدْتُ أنّ لي مِثلَ أُحُدٍ[٢] ذَهَباً لا أنتفع منه بشيء ، قيل : فما ينفعُك من ذلك ؟ قال : لكثرة من كان يخدُمُني عليه ، لأن المال مخدوم ، وقد قال بعض الحكماء : « عليك بطلب الغنَى فلو لم يكن لك فيه إلا أنه عِزٌّ في قلبك ، وذلٌّ في قلب عدوّك ، لكان الحَظُّ فيه جسيما ، والنفع فيه عظيما » ولسنا نَدَعُ سيرة الأنبياء ، وتعليمَ الخلفاء ، وتأديبَ الحكماء ، لأصحاب الأهْواء[٣] . كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يأمر الأغنياء باتخاذ الغَنَم ، والفقراء باتخاذ الدَّجاج ، وقال « دِرْهمك لِمعاشِك ، ودينُك لِمَعادك » فقسَّموا الأمورَ كلها على الدين والدنيا ، ثم جعلوا أحد قِسْمَيِ الجميع الدرهمَ .

وقال أبو بكر الصديق رضي الله عنه : « إني لأُبغِض أهل بيت ينفقون نفقة الأيام في اليوم الواحد » وكانوا يُبْغِضون أهل البيت اللَّحِمِين[٤] ، وكان هِشام[٥] يقول : « ضَعِ الدرهم على الدِّرهم يكون مالا » ونهى أبو الأسود الدُّؤَلي[٦] وكان حكيما أديبا ، وداهيا أرِيبا[٧] عن جود كم هذا المُولَّد ، وعن كرمكم هذا المستحدَث ، فقال لابنه : « إذا بسَط الله لك في الرزق فابسُطْ ، وإذا قبَض فاقبِض ، ولا تُجاوِدِ[٨] اللهَ فإن الله

---

(١) بالضاد المعجمة ، وهو صاحب راية الإمام على كرم الله وجهه بصفين ، وفيه يقول الإمام :

لمن راية حمراء يخفق ظلها إذا قلت قدمها حضين تقدما

فيوردها في الصف حتى يزيرها حياض المنايا تقطر الموت والدما

انظر العمدة لابن رشيق ١ : ١٤ ، ولسان العرب ١٦ : ٢٨٠ .

(٢) أحد : جبل بالمدينة .

(٣) وفي العقد « لأصحاب اللهو » .

(٤) اللحم ككتف : الأكول اللحم القرم إليه .

(٥) هو هشام بن عبد الملك ، وكان معروفا بالبخل . (٦) وكان معروفا بالبخل أيضا .

(٧) أي عاقلا . (٨) أي لا تغالبه ولا تباره في الجود .

أجود منك » وقال : « درهم من حِلٍّ يخرج فى حق ، خير من عشرة آلافٍ قَبضاً » وتلقَّط عُرُنْدًا من بَرِيم(١) فقال : تُضَيِّعون مثلَ هذا وهو قوتُ امرئٍ مُسْلِمٍ يَوْماً إلى الليل ! وتلقَّط أبو الدَّرْدَاء حَبَّاتِ حِنْطة ، فنهاه بعض المُسرفين ، فقال : « لِيَهْنِ ابن العَبْسِية أن مَرْفَقَة المرء رِفْقُه فى معيشته » فلستم علىَّ تَرُدُّون ، ولا رأيى تُفَنِّدُون(٢) فقدِّموا النظر قبل العزم وتذكَّروا ماعليكم قبل أن تذكروا مالكم(٣) ، والسلام عليكم » .

(كتاب البخلاء ص ٨ ، والعقد الفريد ٣ : ٢٧٤)

٢٧٦ – كتاب سهل بن هرون إلى صديق له

وكتب سهل بن هرون إلى صديق له أبَلَّ(٤) من ضعف :

« بلغنى خبرُ الفَتْرة(٥) فى إلمامها وانحسارها ، والشَّكاةِ فى حُلولها ، وارتحالها ، فكاد يَشْغَلَ القَلَقُ بأوَّله عن السكون لآخِره ، وتُذْهِلُ الحَيْرةُ فى ابتدائه ، عن المسرَّة فى انتهائه ، وكان تغيُّرى فى الحالين بقَدْرِهما ، ارتياعاً(٦) للأُولى ، وارتياحاً للأُخرى » .

(سرح العيون ص ١٦٨)

---

(١) العرند : الصلب . والبريم : الكبد والسنام ، يقدان طولا ويلفان بخيط أو غيره .
(٢) فند رأيه : خطأه .
(٣) وفى العقد « وأدركوا مالكم قبل أن تدركوا ما ليس لكم » .
(٤) أبل من مرضه : حسنت حاله بعد الهزال .
(٥) الفترة : الضعف ، يقال : أجد فى نفسى فترة ، وهى كالضعفة بالفتح ، ويقال للشيخ : قد علته كبرة وعرته فترة ، بفتح الكاف والفاء ، والفتر بالتحريك : الضعف أيضا ، فتر جسمه فتورا : لانت مفاصله وضعف .
(٦) ألم به نزل ، وانحسر : انكشف ، والشكاة : الشكوى ، والارتياع : الفزع .

٢٧٧ - كتابه إلى صديق له

وكتب لآخر :

« أما بعدُ ، فالسلامُ على عهدك ، وَداعَ ذى وُدٍّ ضنين بك ، فى غير مَقْلِيَة[١] لك ، ولا سَلْوَةٍ عنك ، بل استسلامٍ للبَلْوَى فى أمرك ، وإقرارٍ بالعجز عن استعطافك إلى أوانِ فَيْئَتك[٢] ، أو يجعل الله لنا دولة من رَمْقِك[٣] » . (سرح العيون ص ١٦٨)

٢٧٨ - ومن رسالة له يفضل الزجاج على الذهب

وقال يفضل الزجاج على الذهب فى رسالة :

« الزجاج مَجْلُوٌّ نُورِىّ ، والذهب متاع ساتر ، والشَّرابُ فى الزجاج أحسنُ منه فى كل مَعْدِن ، ولا يُفقَدُ معه وجهُ النديم ، ولا يُثْقِلُ اليدَ ، ولا يرتفع فى السَّوْم[٤] ، واسمُ الذهب يُتطيَّر منه ، ومن لؤمه سرعتُه إلى اللئام؛ وهو فاتِنٌ فاتك[٥] لِمَن صانه ، وهو أيضاً من مصايد إبليس ، ولذلك قالوا : أهلكَ الرجالَ الأحمران[٦] ، والزجاج لا يحمل الوَضَرَ[٧] ، ولا يُدَاخِله الغَمَر ، ومتى غسِل بالماء وحْدَه عاد جديداً ، وهو

---

(١) قلاه كرماه ورضيه قلى بالكسر وقلاء بالفتح ومقلية : أبغضه وكرهه غاية الكراهة فتركه.
(٢) الفيئة بالفتح والكسر : الرجوع .
(٣) رمقه كنصر : نظر إليه ولحظه .
(٤) السوم فى المبايعة : المساومة . (٥) أى غالب ، من الفتك ، وهو الغلبة .
(٦) جاء فى اللسان « أهلك النساء الأحمران : يعنون الذهب والزعفران : أى أهلكن حب الحلى والطيب ، وأهلك الرجال الأحمران : اللحم والخمر » . وأقول : والمناسب للمقام هنا أن يكون المراد بالأحمرين : الذهب والخمر ، أو الذهب والفضة على أن التثنية من باب التغليب .
(٧) الوضر : وسخ الدسم واللبن ، أو غسالة السقاء والقصعة ونحوها ، والمراد الوسخ مطلقا ، والغمر : زنخ اللحم وما يتعلق باليد من دسمه .

أشبه شيء بالماء ، وصفته عجيبة ، وصناعته أعجب . . » من رسالة طويلة[1] .

(سرح العيون ص ١٦٨)

٢٧٩ - كتاب الحسن بن سهل إلى سهل بن هرون

وقال ابن النديم في الفهرست :

وعمِل سهل بن هٰرون للحسن بن سهل رسالة يمدح فيها البخل ويرغّبه فيه ، ويستميحه[2] في خِلال ذلك ، فأجابه الحسن على ظهر رسالته :

« وصلَتْ رسالتك ، ووقَفْنا على نصيحتك ، وقد جعَلْنا المكافأةَ عنها القبولَ منك والتصديق لك ، والسلام » .

ولم يصله عنها بشيء .

وجاء في زهر الآداب وسرح العيون :

وصنَّف سهل بن هٰرون كتابا يمدح فيه البخل ويذم الجود ، ليظهر قدرته على البلاغة ، ثم أهداه للحسن بن سهل في وزارته للمأمون واستماحه ، فكتب إليه الحسن :

---

(١) قال ابن نباتة : « وكان سبب قوله لها أن شداداً الحارثي كان قد وصف الذهب فأطنب ، وكان النظام قد ذم الزجاج » .

وروى أنه ألف كتاباً سماه « عَفْراء وثُعْلة » على مِثال كتاب كَليلة ودِمْنة لابن المقفّع ، ومن قوله فيه :

« اجعلوا أداء ما يجب عليكم من الحقوق مقدّما قبل الذى تجودون به من تفضّلكم ، فإن تقديم النافِلَة مع الإبطاء في أداء الفريضة ، شاهِدٌ على وهَن العقيدة ، وتقصير الرويّة ، ومُضِرٌ بالتدبير ، ومُخِلٌّ بالاختيار ، وليس في نفعٍ تُحْمَد به ، عِوَضٌ من فساد المُرُوءة ، ولزوم النَّقيصة » .

(سرح العيون ص ١٦٩ ، وزهر الآداب ٢ : ٢٠٢)

(٢) استماحه : سأله العطاء .

« لقد مدحْتَ ما ذمَّه اللهُ ، وحسَّنتَ ما قبَّحه الله ، وما يقومُ صلاحُ لفظك بطَلاَح معناك ، وقد جعلْنا ثوابَ مدحك قبولَ قولك فيه ، فما نُعطيك شيئاً » .

(الفهرست لابن النديم ص ١٧٤ ، وزهر الآداب ٣ : ١٥٠ ، وسرح العيون ص ١٦٦)

٢٨٠ - كتاب العتابى إلى بعض إخوانه

وكتب كُلثوم بن عمرو العتابى(١) إلى بعض إخوانه :

« لو اعتصم شوقى إليك بمثل سُلُوِّك عنى ، لم أبْذُل وجْدَ الرَّغبة إليك ، ولم أتجشَّم مرارةَ تماديك ، ولكن استخفَّتْنا صَبابَتُنا ، فاحتملْنا قَسْوَتَك ، لِعَظيم قدر مودَّتك ، وأنت أحقُّ مَن اقتصَّ لصِلَتنا من جَفائه ، ولِشَوْقنا من إبطائه » . (زهر الآداب ٣ : ٣٢٦)

٢٨١ - كتاب آخر له

وله :

« دُعيتُ إليك ونفسى رهينة بشكرك ، ولسانى عَلِق بالثناء عليك ، والغالبُ على ضميرى لائمةٌ لنفسى فى الإبطاء عنك ، واستقلالٌ لجهدى فى مكافأتك ، وأنت - أعزَّك الله - فى عِز الغِنى عَنِّى ، وأنا تحت ذُل الفاقة إلى عَطفك ، وليس من متشابه أخلاقك أن تُولِىَ جانبَ النَّبْوة(٢) منك ، مَن هو عانٍ فى الضَّراعَة إليك » .

(زهر الآداب ٣ : ٣٢٦ ، والمنظوم والمنثور ١٣ : ٣٨٩)

---

(١) هو كلثوم بن عمرو بن أيوب العتابى من أهل قنسرين ، كان شاعرا مقدما من شعراء الدولة العباسية ، وكاتبا حسن الترسل ، وكان منقطعا إلى البرامكة ، فوصلوه بالرشيد فبلغ عنده كل مبلغ ، ثم كتب المأمون فى إشخاصه إليه ووصله بصلات سنية ، وبلغ به من التقديم والإكرام أعلى محل - انظر ترجمته فى الأغانى ١٢ : ٢ ، ووفيات الأعيان ١ : ٥١٩ فى ترجمة العتابى النحوى ، والفهرست لابن النديم ص ١٧٥ ، والشعر والشعراء ص ٣٦٠ ، وتاريخ بغداد ١٢ : ٤٨٨ .

(٢) النبوة : التجافى والتباعد ، والعانى : الأسير ، والضراعة : الذل .

٢٨٢ — كتاب آخر له

وكتب العتابى :

« أما بعد ، فإنَّ أحداً ليس بمستخلِصٍ شيئا من غَضَارَة[١] عيشٍ إلا من بين خِلال مكارِهَ ، فمن[٢] انتظر بعاجل الدَّرْك آجلَ الاستقضاء ، سلبَتْه الأيامُ فُرْصتَه ، لأن من صناعتها السَّلْب ، ومن شرط الزمن الإفاتة » .

(زهر الآداب ٣ : ٣٨٦ ، واختيار المنظوم والمنثور ١٢ : ٢٥٩)

٢٨٣ — كتابه إلى بعض أهل السلطان

وكتب العتّابى إلى بعض أهل السلطان :

« أما بعدُ ، فإن سحاب وعدك قد أَرْتَقَتْ ، فليكن وَبْلُها[٣] سالما من عِلَلِ المَطْلِ ، والسلام » . (العقد الفريد ١ : ٧٥)

٢٨٤ — كتابه إلى صديق له

وكتب إلى صديق له :

أما بعدُ ، أطال الله بقاءك ، وجعله يمتدُّ بك إلى رِضوانه والجنَّة ، فإنك كنتَ عندنا روْضةً من رياض الكرم ، تبتهجُ النفوسُ بها ، وتستريح القلوبُ إليها ، وكنا نُعفيها من النُّجْعة[٤] استتماما لزهرتها ، وشفقةً على خُضْرتها ، وادِّخارا لثمرتها ،

---

(١) الغضارة : النعمة والسعة والخصب .

(٢) فى زهر الآداب « ومن انتصر بعاجلة الدول ومؤاجلة الاستقصاء ، فسكينة الأيام ترمقه » وهو تحريف .

(٣) الوبل : المطر الشديد .

(٤) النجعة : طلب الكلأ فى موضعه .

حتى أصابتْنا سَنة كانت عندى قطعةً من سِنِي يوسف ، واشتد علينا كَلَبُها[١] ، وغابت قِطّتُها[٢] ، وكَذَبتْنا غيومُها ، وأخلفَتْنا بُروقُها ، وفقَدْنا صالحَ الإخوان فيها ، فانتجعْتُك[٣] وأنا بانتجاعى إياك شديدُ الشفقة عليك، مع علمى بأنك موضع الرائد[٤]، وأنك تُغطّى عينَ الحاسد ، واللهُ يعلم أنى ما أعدُّك إلا فى حَوْمة الأهل . واعلم أن الكريم إذا استحيا من إعطاء القليل ، ولم يُمْكنه الكثير ، لم يُعْرَف جُودُه ، ولم تَظْهر همّته ، وأنا أقول فى ذلك[٥] :

ظِلُّ اليَسار على العبّاس ممدودُ   وقلبُه أبدًا بالبخل معقودُ

إن الكريم ليُخْفِي عنك عُسْرَتَه   حتى تَراه غنيا وهو مجهودُ

وللبخيـــل على أمواله عِلَلٌ   زُرْقُ العيونِ عليها أوجُهٌ سُودُ[٦]

إذا تكرَّمْتَ عن بذل القليل ولم   تقدِرْ على سَعةٍ لم يَظهر الجُود[٧]

بُثَّ النوالَ ولا تمنَعْك قِلّتُه   فكلُّ ما سدَّ فقرًا فهو محمودُ

فشاطرَه ماله حتى أعطاه إحدى نعليه ونِصْفَ قيمة خاتَمه .

(الأمالى ٢ : ١٣٧)

---

(١) كلب الزمان كفرح كلبا : اشتد وألح على أهله بما يسوءهم .

(٢) أى لأنها لا تجد ماتأكله ، كناية عن الجدب والقحط . قال فى اللسان « القط : السنور ، والأنثى قطة ، وقال كراع : لايقال قطة ، قال ابن دريد : « لا أحسبها عربية » .

(٣) انتجعه : أتاه طالبا معروفه .   (٤) الرائد : المرسل فى طلب الكلأ .

(٥) الأبيات لبشار بن برد يهجو العباس بن محمد بن على بن عبدالله بن عباس، وكان بشار قد استمنحه فلم يمنحه — انظر الأغانى ٣ : ٤٦ .

(٦) جرى فى التعبير بزرق العيون على طبيعة العرب . فقد كانوا يكرهون الروم — وقد نشبت الحرب بينهم وبين العرب دهورا كثيرة — والروم كما تعلم زرق العيون ، فكانت الزرقة أبغض شىء من ألوان العيون إلى العرب ، ولذا قالوا فى صفة العدو : أزرق العين ، وأضاف إليها بشار أنها فى أوجه سود تعظما لنكارتها وبشاعتها . أى أن علل البخيل ومعاذيره فى المنع قبيحة منكرة كهذه الهيئة .

(٧) وفى رواية الأغانى « إذا تكرهت أن تعطى القليل ... » .

٢٨٥ — تعزية له

« إن أشدَّ من المصيبة حِرمان الأجر فيها والحِسْبة ، وقد ذهب منك ما رُزِئت . فلا يذهبْ منك ما عُوِّضْتَ ، قال الشاعر :

وعُوِّضتَ أجراً مِن فقيد فلا يكن   فقيدُك لا يأتى وأجْرُك يَذْهَبُ[1]

(المنظوم والمنثور ١٣ : ٣١١)

٢٨٦ — كتاب له

« إن أقلَّ من بلائك عندى يستغرقُ ثنائى ، وأقلَّ من تأميلى إياك يُعَفِّى على ما كان منى ، وليس لك — مع فضلك ورجائى تجاوُزَك سبيلٌ إلى قطيعتى » .

(المنظوم والمنثور ١٣ : ٣٨٩)

٢٨٧ — فصول للعتابى

فصل له :

« أنت أيها الأمير وارثُ سَلَفِك ، وبقيَّةُ أعلام أهل بيتك ، المسدودُ به ثُلَمُهم ، المجدَّدُ به قديمُ شرفهم ؛ المُحْيَا به أيامُ سعيهم ، وإنه لم يَخْمُلْ مَن كنتَ وارِثَه ، ولا دَرَسَتْ آثارُ من كنت سالكَ سبيله ، ولا أمَّحتْ أعلامُ مَن خلَفْتَه فى رتبته » .

وفصل له :

« تأنَّيْنا[2] إفاقتَك من سَكْرتك ، وترقَّبْنا انتباهَك من رَقْدتك ، وصَبَرْنا على تجرُّع الغيظ فيك ، حتى بان لنا اليأسُ مِن خَيْرك ، وكشَفَ لنا الصبرُ عن وجه

---

(١) انظر الجزء الثانى ص ٤٢٣ (كتاب الحسن إلى عمر بن عبد العزيز) .

(٢) أى انتظرنا .

الغَلَط فيك ، فهأنا قد عرَفتك حقّ معرفتك ، فى تعدّيك لطَوْرِك ، واطّراحك حقّ مَن غلِطَ فى اختيارك » .

وفصل له :

« أما بعد ، فإن قريبَك مَن قرُب منك خيرُه ، وابن عمك من عَمَّك نفعُه ، وعشيرك مَن أحسنَ عِشْرتَك ، وأهْدَى الناسِ إلى مودتك مَن أهدَى برّه إليك » .

وكتب فى وصاة :

« حامِلُ كتابى إليك أنا ، فكُنْ له أنا ، والسلام » .

(العقد الفريد ٢ : ١٩٣ ، ١٩٦ ، ١٩٧)

٢٨٨ — كتاب لابن الكلبى

وكتب ابن الكلبى[١] :

« كان خبرُ ما أبلاك الله[٢] فى فلان بعد إيتائه[٣] ما عَزمت عليه من الأمان ، خَبَرًا عظُم مكانُه من أمير المؤمنين ، وحسُن موقِعُه من الدين ، ثم رَدِفَ[٤] خبرُك بإذعانه ، عند ما عضّه من بأسك ، ومسّه من مُؤْلِم إيقاعك ، للاستسلامِ وطلبِ عَقْدِ الأمان ، وأنك بذلتَ له ما طلب لا لرهبةٍ بقيَتْ فى ناحيتك ، إلّا الاحتذاءَ على مثال أمير المؤمنين وأدبه ، فكان إباؤه ما عرَضْتَ عليه فى أول أمره ذخيرةَ حظّ فيما كشفَتْ عنه البَلْوَى من محمود أثَرِك ، واجتمع لك فى ذلك حظّان : الظفرُ آخِرا ، والدَّرْكُ لما حاولتَه أوّلا ، فلا زلتَ على نصيبك من الحظ ، مؤيَّدًا بالنصر

(١) هو هشام بن محمد بن السائب بن بشر الكلبى الراوية النسابة المشهور المتوفى سنة ٢٠٤ — انظر ترجمته فى وفيات الأعيان ٢ : ١٩٥ والفهرست لابن النديم ص ١٤٠ ، وترجمة أبيه محمد الكلبى المتوفى سنة ١٤٦ فى وفيات الأعيان ١ : ٤٩٣ والفهرست ص ١٣٩ .

(٢) الإبلاء : الإنعام والإحسان . (٣) فى الأصل « بعد أمانه » وأراه محرفا .

(٤) ردفه كسمعه ونصره : تبعه .

والمعُونة ، والحمدُ لله ما حَقَّق من الظن ، [وآتى][1] من هذه النعمة على يديك وبِسَعْيك » . (اختيار المنظوم والمنثور ١٢: ٢٦٨)

٢٨٩ - كتاب آخر

« أنت مَن أطُولُ بمكانه ، وأثِقُ بجميل رأيه ، وأعتمِد على رِفده[2] ، وأرجو دَرْك كل فضيلة به ، ومما أحبُّ علمَه مَقَرُّ نِعَم الله عز وجل لديك » .

(اختيار المنظوم والمنثور ١٢ : ٢٦٤)

٢٩٠ - كتاب علي بن عبيدة إلى ابن الكلبي

وكتب علي[3] بن عبيدة إلى ابن الكلبي :

« وَصَلَ الله أيام عمرى باتِّباع مُوافَقَتك ، ولولا مَوعِدٌ أُخِذ عليَّ لأَطعْتُك فيما أمرتَ بهِ مُتّبِعا مع إجابتك سرورَ نفسى برؤيتك فى السلامة .

أما بعــد ، فإنى أصبحتُ وقد استفرغَ الأميرُ منى كلَّ مودة ونصيحة ، ومبلغ جُهْدٍ وطاقةٍ فيما عَرَفتُ له فيه موافقةً » .

(اختيار المنظوم والمنثور ١٢ : ٢٦٤).

٢٩١ - كتاب عنبسة بن إسحق إلى المأمون

وكتب عَنْبَسة بن إسحٰق إلى المأمون ، وهو عامِلُه على الرَّقَّة[4] يصف خروج الأعراب بناحية سِنجار وَعَيْثهم[5] بها .

---

(١) بياض بالأصل . (٢) الرفد : العطاء والصلة .

(٣) قال ابن النديم فى ترجمته : « هو على بن عبيدة الريحانى ، أحد البلغاء والفصحاء ، له اختصاص بالمأمون ، وكان يسلك فى تصنيفاته وتأليفاته طريقة الحكمة ، وكان يرمى بالزندقة ، وكان كاتبا بارعا ، وله مع المأمون أخبار ... » - انظر الفهرست ص ١٧٣ .

(٤) الرقة : بلد على الفرات ، وسنجار : مدينة بالجزيرة . (٥) العيث : الإفساد .

« يا أمير المؤمنين : قد قطع سُبُلَ المجتازين ، من المسلمين والمعاهَدين ، نَفَرٌ من شُذّاذ[١] الأعراب ، الذين لا يَرْقُبون فى مؤمن إلًّا[٢] ولا ذمةً ولا يخافون فى الله حدًّا ولا عقوبةً ، ولولا ثقتى بسيف أمير المؤمنين ، وحَصْدِه هذه الطائفة ، وَبلوغه فى أعداء الله ما يَدُعّ[٣] قاصيَهم ودانِيَهم ، لأَذِنْتُ بالاستنجاد عليهم ، وَلَأَسْمَيْتُ الخيلَ إليهم ، وأمير المؤمنين مُعانٌ فى أموره بالتأييد والنصر » .

٢٩٢ — رد المأمون عليه

فكتب إليه المأمون :

« أَسْمَعْتَ غيرَ كَهَامِ السَّمعِ والبَصرِ   لا يقطعُ السيفُ إلا فى يد الحذِرِ[٤]
سَيُصبِحُ القومُ مِن سيفى وضارِبِه   مثلَ الهَشيمِ ذَرَتْه الرِّيحُ بالمَطرِ[٥]

فوجَّه عنبسةُ بالبيتين إلى الأعراب ، فما بقِى منهم اثنان .

(زهر الآداب ٣ : ٣٨٧)

٢٩٣ — كتاب طاهر بن الحسين إلى يحى بن حماد

وروى ابن طيفور فى كتاب بغداد قال :

وهذا توقيع لِذِى اليمينَيْن طاهر بن الحسين[٦] إلى يحيى بن حماد الكاتب النَّيْسابورى :

---

(١) الشذاذ : الذين لم يكونوا فى حيهم ومنازلهم .

(٢) الإل : العهد . (٣) الدع : الدفع العنيف .

(٤) يقال سيف ، ولسان ، وفرس ، ورجل كهام : أى كليل ، وعى ، وبطىء ، ومسن لاغناء عنده

(٥) الهشيم : نبت يابس متكسر ، وذرته الريح : أطارته وأذهبته .

(٦) وقد روى ابن طيفور نفسه أيضا فى « اختيار المنظوم والمنثور » الشطر الأول من هذا الكتاب « إلى آخر البيت الثالث » وذكر أنه من محمد بن عبد الملك الزيات إلى إبراهيم بن العباس الصولى ، وقال ابن خلكان فى ترجمة طاهر بن الحسين فى وفيات الأعيان : « واختلفوا فى تلقيبه بذى اليمينين ، لأى معنى كان ؟ فقيل : لأنه ضرب شخصا فى وقعته مع على بن ماهان فقدة نصفين وكانت الضربة بيساره ، فقال

« قلة نظرك لنفسك حرَمَتْك سَنِيَّ[1] المنزلة ، وغَفلتُك عن حظّك حطّتك عن أعلى الدرجة ، وجَهلك بموضع النعمة أحَلّ بك الغِيَر[2] والنِّقمة ، وعَماك عن سبيل الدَّعَة أسلَكَكَ فى طريق المشقّة ، حتى صرتَ من قوة الأمل ، مُعتاضاً شدّةَ الوَجَل ، ومن رجاءِ الغَدِ ، مُعقَبا يأسَ الأبد ، وحتى رَكِبْتَ مطيّةَ المخافة ، بعد مجلس الأمْنِ والكرامة ، وصرتَ موضعا للرحمة ، بعد أن تكنَّفَتْك الغِبْطةُ[3] ، على أنى أرى أمْثَل أمْريك أدْعاهما المكروه إليك ، وأنفعَ حالتيك أضيقهما متنفّسا عليك بقول القائل :

إذا ما بدأتَ امْرأً جاهِلاً ... ببِرٍّ فقصّر عن حَمْـلِهِ
ولم تُلْفِه قابلا للجميل ... ولا عَرَف العِزَّ مِن ذُلّهِ
فسُمْه الهوَان فإن الهَوانَ ... دوَاءٌ لِذِى الجهل مِن جَهلهِ[4]

وَقد قرأتُ كتابك ، بإغراقك وإطنابك ، فوجدتُ أرْجاهُ عندك ، آنَسَه لك ، وأرَقّه فى نفسك ، أقساه لقلبى عليك ، وَمن صادَفه[5] ما أذهبتَ ، وخامَرَه ما ذكرت خَرِس عن تشقيق[6] الكلام ، وتزويق الكذب والآثام ، ولعمرى لولا تعلُّقك منى بحُرْمة المعاينة ، واتّصالك منى بسبب المفاوضَة ، وإنحائى بهما لمن نالهما بَسْطَ المنفعة ، وقبضَ الأذى والمَعرَّة ، مع استدامتى النعمةَ بالعفو عن ذى الجريمة ، واستدعائى الزيادة بالتجاوز عن ذى الهفوة ، واستقالتى العثرةَ بإقالة الزَّلة ، لَنالَكَ من عقوبتى ما يؤذيك ،

= فيه بعض الشعراء : « كلتا يديك يمين حين تضربه » فلقبه المأمون ذا اليمينين ، وقيل غير ذلك » وذكر الطبرى فى تاريخه ١٠ : ١٥٥ أنه سمى بذلك فى سنة ١٩٥ ، وذلك أنه لما هزم جيش على بن عيسى ابن ماهان وقتله وكتب إلى الفضل بن سهل بذلك نهض الفضل فسلم على المأمون بأمير المؤمنين ، فأمد المأمون طاهرا بالرجال والقواد وسماه ذا اليمينين وصاحب حبل الدين الخ.

(١) السنى : الرفيع ، وفى المنظوم والمنثور « سناء المنزلة » .

(٢) وفيه « البأس » . (٣) الغبطة : حسن الحال والمسرة .

(٤) سامه الأمر : أولاه إياه .

(٥) أى لقيه ، وفى الأصل « صافه » وأراه محرفا ، وأذهبه : طلاه بالذهب ، والمعنى ماموهت ، أو ما أذهبت : أى ما ضيعت من النعمة التى كنت فيها .

(٦) شقق الكلام : أخرجه أحسن مخرج .

وَمسَّكَ من سَطْوَتى ما يَنْهَكُكَ(١) ، وبحَسْبك ما اجْتَرمْته لنفسك من العجز ذلا وجهلا ، وما أخلَدْتَ إليه من الخمول وَضعا ، وما حُرِمْتَهُ من الفضل عقوبةً ونقصا ، وفى كفاية الله غِنًى عنك ، وفى عادته الجميلة عِوَضٌ منك ، وحَسْبُنا اللهُ ونِعْمَ الوكيل ، أقوَى مُعِين وأهدى دليل » .

(كتاب بغداد لابن طيفور ٦ : ١٢٣ ، واختيار المنظوم والمنثور ١٠ : ٣٦٣)

٢٩٤ — كتاب يحيى بن حماد إلى طاهر

وقال ابن طيفور :

وهذه نسخةُ كتاب يحيى بن حَمَّاد الذى هـذا التوقيعُ جوابٌ عنه لما حَبَسَه لترْكه ما أراد أن يقلِّده من كتابته :

« بسم الله الرحمن الرحيم : تمَّم الله للأمير السلامةَ ، وأدام له الكرامة ، ووَصلَ نِعَمه عليه بالزيادة ، وقوَّى إحسانه إليه بالسعادَة ، ضعُفَ صبرى — أعز الله الأمير — عما أقاسى ، من ثِقَل الحديد ، ومكابَدةِ الهموم ، ومُصاحَبة الوَحشة فى دار الغُربة ، من انقِطاع الأهل ، وتعقُّب الوَجَل ، واستخلافِ البلاء من وثيق الرجاء ، وتذكُّرى ما أفاتنى القضاء الماضى مِن رأْيِ الأمير — أعزه الله — فىَّ ، ومَوْجِدته(٢) علىَّ .

لقد تخوَّفتُ أن يُسْرع لزومُ الفِكرة إياى فى فسادى ، ويصيرَ بى تمكُّن الهَمِّ إلى تغيُّر حالى ، ولولا أنَّ سُخْط الأمير — أيَّده الله — لا يُصْبَر عليه ، ووَجْده لا يقام له ، لرأيتُ الإمساك عن ذكر أمرى ، وشكوَى مابى ، إلى أن يستوى غيرُ ما أنا فيه لسرور ما كنت صرتُ إليـه من إكرام الأمير — أيَّده الله — وبرِّه وتشريفه وتقريبه ، ولعمري إن شديد ما أُقاسى ، — ولو دام حينا من دهرى — ليَصْغُر عنـد

---

(١) نهكه السلطان عقوبة كسمع : بالغ فى عقوبته .

(٢) الموجدة : الغضب ، وكذا الوجد .

لحظة لحظها إلىّ ببرِّه ، فضلا عن رأيه الذى جَلَّ عن قدرى ، وعَجَزَ عن احتماله شكرى .

وقد تبيَّنَ للأمير — أعزه الله — أمرى ، وتحقيقُ شأنى ، فإن كان ما أنا فيه للهفوة التى كانت منى ، والجناية التى جنيتُها على نفسى بالجهل بصباى ، فقد وضع الله عن الصبىّ فرائضَه عِلما بحاله ، وكانت حالى فى الصِّبا قريبةً من حاله ، والأمير — أعزه الله — أَوْلَى مَن عَطَفَ فى ذات الله عن زَلَّتى ، واحتسَبَ الأجرَ فى إقالة عثرتى وهفوتى ، فإن رأى الأمير أبقاه الله أن يأمر بالدعاء بى ، والاستماع منى ، فَعَلَ مُنْعِما ، إن شاء الله » . (كتاب بغداد ٦ : ١٢٥)

٢٩٥ — عهد طاهر بن الحسين لابنه عبد الله

وكتب طاهر بن الحسين إلى ابنه عبد الله(١) لما ولاّه المأمون الرَّقَّة ومصر وما بينهما (سنة ٢٠٦ هـ) .

« بسم الله الرحمن الرحيم ، أما بعد فعليك بتقوى الله وحده لا شريك له ، وخشيته ومراقبته ومزايلةِ سُخْطه وحفظِ رعيتك ، والْزَم ما ألبسك الله من العافية بالذكر لمَعادِك ، وما أنت صائر إليه ، وموقوف عليه ، ومسئول عنه ، والعمل فى ذلك كله بما يعصمك الله ، وينجيك يوم القيامة من عذابه ، وأليم عقابه ، فإن الله قد أحسن إليك ، وأوجب عليك الرأفة بمن استرعاك أمْرَهم من عباده ، وألزمك العدلَ عليهم ، والقيامَ بحقه وحدوده فيهم ، والذبَّ عنهم(٢) ، والدفع عن حريمهم وبَيْضَتهم(٣) والحقنَ لدمائهم ، والأمن لسبيلهم(٤) ، وإدخال الراحة عليهم فى معايشهم ، ومؤاخذك بما فَرَض عليك من ذلك ، وموقِّفك عليه ، ومُسائلك عنه ، ومثيبك عليه بما قدمت

---

(١) توفى سنة ٢٣٠ هـ — انظر ترجمته فى وفيات الأعيان ١ : ٢٦ .
(٢) الدفع . (٣) البيضة : حوزة كل شىء .
(٤) وفى مقدمة ابن خلدون : لسربهم ، والسرب : النفس .

وأخرت ، ففرّغ لذلك فكرك وعقلك وبصرك ورؤيتك ، ولا يَذْهَلكَ[1] عنه ذاهل ، ولا يَشْغلك[2] عنه شاغل ، فإنه رأس أمرك ، وملاك شأنك ، وأول ما يوفقك الله به لرشدك .

وليكن أول ما تُلزِم به نفسك ، وتنسب إليه فعالك ، المواظبة على ما افترض الله عليك من الصلوات الخمس والجماعة عليها بالناس قِبلك فى مَواقيتها على سننها فى إسباغ[3] الوضوء لها، وافتتاح ذكر الله فيها، وترتَّلْ[4] فى قراءتك، وتمكَّن فى ركوعك وسجودك وتشهدك ، ولْتصدُق فيها لربك نيتُك ، واحضُض عليها جماعة من معك وتحت يدك . وادأبْ عليها فإنها كما قال الله تأمر بالمعروف ، وتنهى عن الفحشاء والمنكر ، ثم أتبع ذلك الأخذَ بسنن رسول الله صلى الله عليه وسلم والمثابرةَ على خلائقه ، واقتفاء آثار السلف الصالح من بعده ، وإذا ورد عليك أمر فاستعن عليه باستخارة[5] الله وتقواه، ولزوم ما أنزل الله فى كتابه من أمره ونهيه ، وحلاله وحرامه ، وائتمام ما جاءت به الآثار عن النبى صلى الله عليه وسلم ، ثم قم فيه بما يحق لله عليك ، ولا تَمِل عن العدل فيما أحببتَ أو كرِهت ، لِقَريب من الناس أو بعيد ، وآثِرِ الفقه وأهله ، والدين وحَمَلته ، وكتاب الله والعاملين به ، فإن أفضل ما تَزيَّنَ به المرء الفقه فى دين الله والطلب له والحث عليه ، والمعرفة بما يتقرب به إلى الله ، فإنه الدليل على الخير كله ، والقائد له ، والآمر به ، والناهى عن المعاصى والمُوبقات كلها ، وبها مع توفيق الله تزداد العباد معرفةً بالله عزّ وجل ، وإجلالاً له ، ودَرْكا للدرجات العُلاَ فى المَعَاد ، مع ما فى ظهوره للناس من التوقير لأمرك ، والهيبة لسلطانك ، والأَنَسَة بك ، والثقة بعدلك .

---

(١) ذهلت عن الشىء (كفتح) : غفلت ، وقد يتعدى بنفسه فيقال ذهلته ، والأكثر أن يتعدى بالهمزة فيقال أذهلنى فلان عن الشىء .

(٢) شغله من باب فتح ، وأشغله لغة جيدة أو قليلة أو رديئة .

(٣) أسبغ الوضوء : وفى كل عضو حقه .

(٤) تمهل ولا تعجل . (٥) استخار الله : طلب منه الخيرة .

وعليك بالاقتصاد فى الأمور كلها ، فليس شىء أبين نفعاً ، ولا أحضر أمناً ، ولا أجمع فضلا من القصد ، والقصد داعية إلى الرشد ، والرشد دليل على التوفيق ، والتوفيق قائد إلى السعادة وقوام الدين ، والسنن الهادية بالاقتصاد ، فآثره فى دنياك كلها ولا تقصّر فى طلب الآخرة والأجر والأعمال الصالحة ، والسنن المعروفة ، ومعالم الرشد ، فلا غاية للاستكثار من البرّ والسعى له ، إذا كان يُطلب به وجه الله ومرْضاته ومرافقة أوليائه فى دار كرامته . واعلم أن القَصْد فى شأن الدنيا يُورِث العِز ، ويحصّن من الذنوب ، وإنك لن تَحُوط(١) نفسك ومن يليك ، ولا تستصلح أمورك بأفضل منه ، فأْتِه واهتدِ به تتمّ أمورك ، وتزدْ مقدرتك ، وتصلح خاصتك وعامتك ، وأحسن الظن بالله عز وجل تستقمْ لك رعيتك ، والتمس الوسيلة إليه فى الأمور كلها تستدِمْ به النعمةَ عليك .

ولا تتهمن أحداً من الناس فيما توليه من عملك قبل أن تكشِفَ أمره فإن إيقاع التهم بالبُرآء والظنون السيئة بهم مَأثم ، واجعل من شأنك حُسْنَ الظن بأصحابك ، واطرد عنك سوء الظن بهم وارفضه فيهم ، يُعنك ذلك على اصطناعهم(٢) ورياضتهم ، ولا يجدن عدو الله الشيطانُ فى أمرك مَغْمَزًا ، فإنه إنما يكتفى بالقليل من وَهَنك(٣) ، فيدخل عليك من الغم فى سوء الظن ما ينغِّصك لَذاذةَ عيشك . واعلم أنك تجد بحُسْنِ الظن قوةً وراحة ، وتُكْفَى به ما أحببتَ كفايته من أمورك ، وتدعو به الناس إلى محبتك ، والاستقامةِ فى الأمور كلها ، ولا يمنعْك حسنُ الظن بأصحابك ، والرأفة برعيتك ، أن تستعمل المسألةَ ، والبحث عن أمورك ، والمباشرة لأمور الأولياء ، والحِياطةَ للرعية ، والنظر فيما يُقيمها ويُصْلِحها ، بل لتكن المباشرةُ لأمور الأولياء والحِياطةُ للرعية ، والنظر فى حوائجهم وحَمْلُ مَئوناتهم ، آثرَ عندك مما سوى ذلك ،

---

(١) تصون . (٢) اصطنعتك لنفسى : اخترتك لخاصة أمر أستكفيك إياه .

(٣) الوهن بسكون الهاء وفتحها : الضعف .

فإنه أقومُ للدِّين ، وأحيا للسنة . وأخلِصْ نيّتك فى جميع هذا ، وتفرَّد بتقويم نفسك تفرُّدَ من يعلم أنه مسئول عما صنع ، ومجزِيٌّ بما أحسن ، ومأخوذ بما أساء ، فإن الله جعل الدين حِرْزًا وعِزًّا ، ورفع من اتبعه وعزّزه ، فاسلك بمن تسوسه وترعاه نَهْجَ الدين وطريقة الهدى . وأقِمْ حدود الله فى أصحاب الجرائم على قدر منازلهم وما استحقوه، ولا تعطِّل ذلك ولا تَهاوَنْ به ، ولا تؤخر عقوبة أهل العقوبة ، فإن فى تفريطك فى ذلك لَمَا يُفْسِد عليك حسنَ ظنك ، واعزم على أمرك فى ذلك بالسنن المعروفة ، وجانب الشُّبَه والبدعات يَسْلَمْ لك دينك ، وتقم لك مروءتك ، وإذا عاهدت عهدا ففِ به ، وإذا وعدت الخير فأنجزه ، واقبل الحسنة وادفع بها ، وَأَغْمِضْ عن عيب كل ذى عيب من رعيتك ، واشدد لسانك عن قول الكذب والزور ، وأبغِض أهله ، وأقصِ أهلَ النميمة ، فإن أوّل فساد أمرك فى عاجل الأمور وآجلها تقريب الكذوب والجُرأة على الكذب ، لأن الكذب رأس المآثم ، والزور والنميمة خاتمتها ؛ لأن النميمة لا يسلم صاحبها ، وقائلها لا يسلم له صاحب ، ولا يستقيم لطيعها أمر . وأحِبَّ أهل الصدق والصلاح ، وأعِزَّ الأشراف بالحق ، وواصل الضعفاء ، وصل الرحم ، وابتغ بذلك وجه الله وعِزةَ أمره ، والتمس فيه ثوابه والدار الآخرة ، واجتنب سوء الأهواء والجَوْر واصرف عنهما رأيك ، وأظهر براءتك من ذلك لرعيتك ، وأنعم بالعدل فى سياستهم ، وقم بالحق فيهم ، والمعرفة التى تنتهى بك إلى سبيل الهدى ، وأملك نفسك عند الغضب وآثِر الوقار والحِلْم ، وإياك والحدةَ والطيش والغرور فيما أنت بسبيله ، وإياك أن تقول: إنى مُسَلَّط أفعل ما أشاء ، فإن ذلك سريع بك إلى نقص الرأى ، وقلة اليقين بالله وحده لا شريك له ، وأخلِص لله النية فيه واليقين به . واعلم أن المُلْك لله ، يُعطيه من يشاء ، وينزعه ممن يشاء . ولن تجد تغيُّر النعمة وحُلولَ النقمة إلى حد أسرع منه إلى حَمَلة النعمة من أصحاب السلطان ، والمبسوطِ لهم فى الدولة ، إذ كفروا بنعم الله وإحسانه ، واستطالوا بما آتاهم الله من فضله ، ودع عنك شَرَهَ نفسك ، ولتكن ذخائرك وكنوزك

التى تدّخر وتكنز البرّ والتقوى والمعدلة واستصلاح الرعية وعمارة بلادهم ، والتفقّد لأمورهم ، والحفظ لدهمائهم[1] والإغاثة للهوفهم . واعلم أن الأموال إذا كثرت وذُخرت فى الخزائن لا تُثْمِر ، وإذا كانت فى إصلاح الرعية وإعطاء حقوقهم وكف المئونة عنهم ، نمت وربَت وصلحت به العامة ، وتزينت به الولاة ، وطاب به الزمان ، واعتقد فيه العز والمنعة ، فليكن كنز خزائنك تفريق الأموال فى عمارة الإسلام وأهله ووفِّر منه على أولياء أمير المؤمنين قبلَك حقوقهم ، وأوف رعيتك من ذلك حِصَصَهم وتعهَّد مايُصلح أمورهم ومعايشهم ،فإنك إذا فعلت ذلك قرّت النعمة عليك واستوجبت المزيدَ من الله ، وكنت بذلك على جباية خراجك ، وجمع أموال رعيتك وعملك أقدر ، وكان الجمع لما شَمِلهم من عدلك وإحسانك أسلسَ لطاعتهم ، وأطيب نفسا لكل ما أردت فاجهَد نفسك فيما حددت لك فى هذا الباب ، وَلتعظُم حِسْبتك فيه ، فإنما يبقى من المال ما أُنفق فى سبيل حقه ، واعرف للشاكرين شكرهم ، وأثبْهم عليه . وإياك أن تُنسيك الدنيا وغرورها هولَ الآخرة ، فتتهاونَ بما يَحِق عليك ، فإن التهاون يوجب التفريط ، والتفريط يورث البَوار ، وليكن عملك لله وفيه تبارك وتعالى ، وارجُ الثواب ، فإن الله قد أسبغ عليك نعمته فى الدنيا ، وأظهرَ لديك فضلَه ، فاعتصم بالشكر ، وعليه فاعتمد ، يَزِدْك الله خيرا وإحسانا ، فإن الله يُثيب بقدر شكر الشاكرين ، وسيرة المحسنين ، وقضى الحقّ فيما حَمَّل من النعم ، وألبس من العافية والكرامة ، ولا تحقِرن ذنبا ، ولا تمالئن حاسدا ، ولا ترحمن فاجرا ، ولاتَصلنّ كفورا ، ولا تداهِنَنّ عدوا ، ولاتصدِّقن نمَّاما ، ولا تأمنن غدّارا ، وَلا توالينّ فاسقا ، ولا تتبعن غاويا ، ولا تحمَدن مُرائيا ، ولا تحقِرن إنسانا ، ولا تردّن سائلا فقيرا ، ولا تجيبنّ[2] باطلا ، ولاتلاحظن مضحكا ، ولا تُخلفن وَعدا ، ولا تزهُوَنَّ فخرا ، ولا تُظهِرَن غضبا ، ولا تأتين بَذَخا[3] ، ولا

---

(١) الدهماء : جماعة الناس « وفى المقدمة : والحفظ لدمائهم » .

(٢) وفى المقدمة « ولا تحسنن باطلا » . (٣) البذخ : الكبر .

تمشين مَرَحا ، ولا تركبن سَفَها(١) ، ولا تفرِّطن فى طلب الآخرة ، ولا ترفع للنمَّام عينا ولا تُغْمِضنَّ عن الظالم رهبة منه أو مخافة ، ولا تطلبن ثواب الآخرة بالدنيا ، وَأَكثر مشاوَرة الفقهاء ، واستعمل نفسك بالحلم ، وخذ عن أهل التجارب ، وَذوى العقل وَالرأى والحكمة ، ولا تُدخِلَن فى مشورتك أهل الدقة(٢) والبخل ولا تسمعن لهم قولا ، فإن ضررهم أكثر من منفعتهم ، وليس شىء أسرع فسادا لما استقبلت فى أمر رعيتك من الشح . واعلم أنك إذا كنت حريصا كنت كثير الأخذ قليل العطية ، وإذا كنت كذلك لم يستقم لك أمرك إلا قليلا ، فإن رعيتك إنما تعتقد على محبتك ، بالكفِّ عن أموالهم ، وترك الجور عنهم . ويدوم صفاء أوليائك لك ، بالإفضال عليهم وحسن العطية لهم ، فاجتنب الشح ، واعلم أنه أوَّل ما عصى به الإنسان ربه ، وأن المعاصى بمنزلة خزى ، وهو قول الله عز وَجل : « وَمَنْ يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِ فَأُولَـٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ » فسهِّل طريق الجود بالحق ، وَاجعل للمسلمين كلهم من نيتك حظا ونصيبا ، وَأيقِنْ أن الجود من أفضل أعمال العباد ، فأعدِدْه لنفسك خُلقا ، وارضَ به عملا ومذهبا .

وتفقد أمور الجند فى دَواوينهم وَمكاتبهم ، وأَدْرِر عليهم أرزاقهم ، وَوَسِّع عليهم فى معايشهم ، ليُذهب بذلك الله فاقتهم ، ويقوِّم لك أمرهم ، ويزيد به قلوبهم فى طاعتك وأمرك خلوصا وانشراحا ، وحسبُ ذى سلطان من السعادة أن يكون على جنده ورعيته رحمةً فى عدله وحِيطته(٣) وإنصافه وعنايته وشفقته وبرِّه وتوسعته ، فزايل مكروهَ أحد البابين باستشعار تكملة الباب الآخر ولزومِ العمل به ، تلقَ إن شاء الله نجاحاً وصلاحاً وفلاحا .

واعلم أن القضاء من الله بالمكان الذى ليس به شىء من الأمور ، لأنه ميزان الله الذى يعتدل عليه الأحوال فى الأرض ، وبإقامة العدل فى القضاء والعمل تصلح الرعية ، وتأمن السبل ،

---

(١) وفى المقدمة « ولا تركبن سفيها » . (٢) وفى المقدمة « أهل الرفه » .
(٣) فى المقدمة « وعطيته » .

وينتصف المظلوم ، ويأخذ الناس حقوقهم ، وتحسُن المعيشة ، ويؤدى حق الطاعة ، ويرزق الله العافية والسلامة ، وَيقوم الدين ، وتجرى السنن والشرائع ، وعلى مجاريها يتنجَّز الحق والعدل فى القضاء ، واشتد فى أمر الله ، وتورع عن النَّطَف[١] ، وَامض لإقامة الحدود ، وأَقلل العجلة ، وأبعد من الضجر والقلق ، واقنع بالقَسْم ، ولتسكُن ريحُك ، وَيقَرّ حَدك ، وانتفع بتجربتك ، وانتبه فى صمتك ، واسْدِد[٢] فى منطقك ، وأَنصِف الخصم ، وقف عند الشُّبهة ، وأبلغ فى الحجة ، ولا يأخذك فى أحد من رعيتك محاباةٌ ولا محاماة[٣] ولا لوم لائم ، وتثبت وتأنَّ وراقبْ ، وانظر وتدبر ، وتفكر واعتبر ، وتواضع لربك ، وآرأَف[٤] بجميع الرعية ، وسلِّط الحق على نفسك ، ولا تُسرعنّ إلى سفك دم — فإن الدماء من الله بمكان عظيم — انتهاكاً لها بغير حقها .

وَانظر هذا الخرَاج الذى قد استقامت عليه الرعية ، وجعله الله للإسلام عزّاً ورفعة ، ولأهله سَعة ومَنَعة ، ولعدوّه وعدوهم كَبْتاً[٥] وغيظاً ، ولأهل الكفر من معاديهم ذلّا وصغاراً ، فوزِّعه بين أصحابه بالحق والعدل والتسوية والعموم فيه ، ولا ترفعَن منه شيئاً عن شريف لشرفه ، ولا عن غنىّ لغناه ، ولا عن كاتب لك ولا أحد من خاصتك ، ولا تأخذن منه فوق الاحتمال له ، ولا تَكلفَّن أمراً فيه شَطَط ، واحمل الناس كلهم على مُرّ الحق ، فإن ذلك أجمع لألفتهم ، وألزم لرضا العامة . واعلم أنك جُعلتَ بولايتك خازنا وحافظاً وراعياً ، وَإنما سُمِّى أهل عملك رعيتَك لأنك راعيهم وقيِّمهم ، تأخذ منهم ما أعطَوْك من عفوهم ومقدرتهم ، وتنفقه فى قِوام أمرهم وَصلاحهم وتقويم أَوَدهم ، فاستعمل عليهم فى كُوَر عملك ذوى الرأى والتدبير والتجربة والخِبْرَة بالعمل ، والعلم بالسياسة والعفاف ، وَوَسِّع عليهم فى الرزق ، فإن ذلك من الحقوق اللازمة لك فيما تقلدت

---

(١) النطف : العيب والشر والفساد .

(٢) سد يسد كضرب : صار سديدا . (٣) فى المقدمة « ولا مجاملة » .

(٤) من باب كرم وقطع وطرب .

(٥) كبه . صرعه وأخزاه ورد العدو بغيظه وأذله .

وأسنِد إليك ، وَلا يَشْغَلَنَّك عنهُ شاغل ، وَلا يَصرفنك عنهُ صارف ، فإنك متى آثرْته وَقمت فيه بالواجب ، استدعيتَ به زيادةَ النعمة من ربك وَحسن الأُحدوثة فى عملك ، وَاحترزت النَصَحة من رعيتك ، وَأُعِنْت على الصلاح ، فدَرّت الخيراتُ ببلدك ، وفشت العمارة بناحيتك ، وَظهر الخِصب فى كُوَرك ، فكثُر خَراجك ، وَتوفرت أموالك ، وَقويت بذلك على ارتباط جندك وإرضاء العامة بإفاضة العطاء فيهم عن نفسك، وَكنت محمود السياسَة ، مَرْضِىَّ العدل فى ذلك عند عدوك ، وكنت فى أمورك كلها ذا عدل وقوة وآلة وعُدة ، فنافِس فى هذا ولا تقدّم عليه شيئا ، تُحمَدْ مغبَّة أمرك إن شاء الله.

واجعل فى كل كُورة من عملك أمينا يُخبرك أخبار عُمالك ، ويكتب إليك بسيرتهم وأعمالهم ، حتى كأَنك مع كل عامل فى عمله ، مُعاين لأمره كُله ، وإن أردت أن تأمره بأمر ، فانظر فى عواقب ما أردت من ذلك ، فإن رأيت السلامة فيه والعافية ، ورجوت فيه حسن الدفاع والنصح والصُنع ، فأَمْضِه ، وإلَّا فتوقفْ عنهُ ، وراجعْ أهل البَصَر والعلم ، ثم خذ فيه عُدته ، فإنه ربما نظر الرجل فى أمر من أمره قد واتاه على مايهوى ، فقوّاه[1] ذلك وأعجبه ، وإن لم ينظر فى عواقبه أهلكه ونقض عليه أمره ، فاستَعمِل الحزم فى كل ما أردت ، وباشِره بعد عون الله بالقوة ، وأَكثِر استخارةَ ربك فى جميع أمورك ، وافرُغ من عمل يومك ، ولا تؤخره لغدك ، وأكثر مباشرته بنفسك ، فإن لغدٍ أمورا وحوادثَ تُلهيك عن عمل يومك الذى أخرت. واعلم أن اليوم إذا مضى ذهب بما فيه ، فإذا أخرتَ عمله اجتمع عليك أمر يومين ، فشَغَلك ذلك حتى تُعرِض عنه . فإذا أمضيت لكل يوم عملَه أرحتَ نفسك وبدنك ، وأحكمت أمور سلطانك .

وانظر أحرار الناس وذوى الشرف منهم ، ثم استيقن صفاء طَوِيّتهم ، وتهذيب مودّتهم لك ، ومظاهرتهم بالنصح والمخالصة على أمرك ، فاستخلصهم وأحسن إليهم ،

---

(١) فى المقدمة « وقد أتاه على ما يهوى فأغواه ذلك » .

وتعاهَدْ أهل البيوتات ممن قد دخلتْ عليهم الحاجة، فاحتمِل مؤنتهم، وأصلح حالهم، حتى لايجدوا لخلَّتهم[1] مسًّا، وأفرد نفسك بالنظر فى أمور الفقراء والمساكين، ومن لايقدر على رفع مَظْلَمته إليك، والمحتقَر الذى لاعلم له بطلب حقه فاسأل عنه أخفَى مسألة، ووكِّل بأمثاله أهل الصلاح من رعيتك، ومُرهم برفع حوائجهم وحالاتهم إليك، لتنظر فيها بما يُصلح اللهُ به أمرَهم، وتعاهد ذوى البأساء ويتاماهم وأراملهم، واجعل لهم أرزاقا من بيت المال، اقتداء بأمير المؤمنين - أعزه الله - فى العطف عليهم والصلة لهم، ليُصْلح الله بذلك عيشهم، وَيرزقك به بركةً وزيادة، وأجْرِ للأضِرّاء من بيت المال، وقدِّم حملة القرآن منهم والحافظين لأكثره فى الجراية[2] على غيرهم، وانصِب لمَرْضى المسلمين دُورًا تؤويهم وقُوَّاما يرفقُون بهم، وأطباء يعالجون أسقامهم، وأسْعِفهم بشهواتهم، مالم يؤدِّ ذلك إلى سَرَف فى بيت المال. واعلم أن الناس إذا أُعطُوا حقوقهم وأفضلَ أمانيّهم، لم يُرْضهم ذلك، ولم تَطِب أنفسهم دون رفع حوائجهم إلى وُلاتهم، طمعاً فى نيل الزيادة وفضلِ الرفق منهم، وربُما بَرِم[3] المتصفح لأمور الناس، لكثرَة ما يَرِد عليه، وَيشْغَل فكره وَذهنه منها ما يناله به مؤُنةٌ ومشقة. وليس من يرغب فى العدل وَيعرف محاسن أموره فى العاجل، وَفضلَ ثواب الآجل، كالذى يستقبل ما يقرِّبه إلى الله، ويلتمس رحمته به، وأكثِر الإذن للناس عليك، وأبرز لهم وجهك، وَسكِّن لهم أحراسك، واخفِض لهم جناحك، وأظهِر لهم بِشْرك، ولِنْ لهم فى المسألة والمنطق، واعطِف عليهم بجودك وفضلك، وإذا أعطيت فأعط بسماحةٍ وطيب نفس، والتمس الصنيعة والأجر غير مكدِّر ولا منَّان، فإن العطية على ذلك تجارة مربحة إن شاءَ الله، واعتبر بما ترى من أمور الدنيا ومَن مضى مِن قبلك من أهل السلطان والرياسة فى القرون الخالية والأمم البائدة، ثم اعتصم فى أحوالك كلها

---

(١) الخلة: الحاجة. (٢) فى المقدمة «فى الجرائد».

(٣) ضجر ومل.

بأمر الله ، والوقوف عند محبته ، والعمل بشريعته وسنته ، وإقامة دينه وكتابه ، واجتنب مافارق ذلك وخالفه ودعا إلى سخط الله، واعرف ماتجمع عُمّالُك من الأموال وما ينفقون منها ، ولا تجمع حراما ، ولا تُنْفق إسرافا ، وَأكثر مجالسة العلماء ومشاورتهم ومخالطتهم . وليكن هواك اتباع السنن وَإقامتها ، وإيثار مكارم الأمور ومعاليها . وليكن أكرم دُخلائك وخاصتك عليك ، من إذا رأى عيبا فيك لم تمنعه هيبتك من إنهاء ذلك إليك فى سر ، وإعلامك مافيه من النقص ، فإن أولئك أنصح أوليائك ومُظاهريك لك ، وانظر عُمّالك الذين بحَضرتك وكُتّابك ، فوقّت لكل رجل منهم فى كل يوم وقتا يدخل عليك فيه ، بكتبه ومؤامرته وما عنده من حوائج عُمّالك ، وأمر كورك وَرعيتك ، ثم فرّغ لما يورده عليك من ذلك سمعُك وبصرك وفهمك وعقلك ، وكرّر النظر إليه والتدبُّر له ، فما كان موافقاً للحزم والحق فأمْضِه ، واستخر الله فيه ، وما كان مخالفاً لذلك فاصرِفه إلى التثبت فيه والمسألة عنه ، ولا تمنُن على رعيتك ولا عَلَى غيرهم بمعروف تأتيه إليهم ، ولا تقبل من أحد منهم إلا الوفاء والاستقامة والعون فى أمور أمير المؤمنين ، ولا تضعَن المعروف إلا على ذلك ، وتفهَّم كتابى إليك وأكثِر النظر فيه والعمل به ، واستعن بالله على جميع أمورك واستخِره ، فإن الله مع الصلاح وأهله ، وليكن أعظم سيرتك وأفضل رغبتك ، ما كان لله رضاً ، ولدينه نِظاماً ، ولأهله عزا وتمكيناً ، وللذمة والملة عدلًا وصلاحا . وأنا أسأل الله أن يُصلح عونك وتوفيقك ورُشْدك وكلاءتك ، وأن يُنْزِل عليك فضله ورحمته بتمام فضله عليك وكرامته لك ، حتى يجعلك أفضل أمثالك نصيباً ، وأوفرهم حظّا ، وأسناهم ذكراً وأمراً ، وأن يُهْلك عدوك ومن ناوأك وبغَى عليك ، ويرزقك من رعيتك العافية ، ويحجُز الشيطان عنك ووساوِسَه ، حتى يستعلى أمرك بالعزّ والقوة والتوفيق ، إنه قريب مجيب » .

وذكروا أن طاهراً لما عهد إلى ابنه عبد الله هذا العهد ، تنازعه الناس وكتبوه

وتدارسوه ، وشاع أمره حتى بلغ المأمون ، فدعا به وقرئ عليه ، فقال : ما بقّى أبو الطيب يعنى (طاهراً) شيئاً من أمر الدين والدنيا والتدبير والرأى والسياسة وإصلاح الملك والرعية وحفظ البَيْضة وطاعة الخلفاء ، وتقويم الخلافة إلا وقد أحكمه وأوصى به وتقدم ، وأمر أن يكتب بذلك إلى جميع العمال فى نواحى الأعمال .

(تاريخ الطبرى ١٠ : ٢٥٨ ، وتاريخ الكامل لابن الأثير ٦ : ١٢٤ ، ومقدمة ابن خلدون ص ٣٣٩ ومختصر أخبار الخلفاء لابن الساعى ص ٤٣ ، وكتاب بغداد لابن طيفور ٦ : ٣٦)

٢٩٦ — كتاب إلى طاهر بن الحسين من بعض عماله

وكتب بعض عمال طاهر بن الحسين إليه كتابا ، وفيه :

« وقد وجّهت إلى الأمير ثوبَ دِيباجٍ أحمر أحمر أحمر » .

٢٩٧ — رد طاهر عليه

فكتب طاهر إليه :

« قد قرأت كتابك، فعلمتُ أنك أحمق أحمق أحمق، فاقْدَم اقْدَم اقدَم ، والسلام» .

(غرر الخصائص الواضحة ص ١٧٥)

٢٩٨ — كتاب إبراهيم بن المهدى إلى طاهر

وكتب إبراهيم بن المهدى إلى طاهر كتابا ، منه :

« زادك اللهُ للحقّ قضاء ، وللشكر أداء ، أبلغنى رسولى عنك ما لم أزَلْ أعرِفُه منك ، واللهُ يمتعنى بك ، ويُحْسِن فى ذلك عنى جزاءك ، ومع ذلك فإنى أظن أنى علّمتك الشوقَ ، لأنى ذكرته لك ، فهيّجته منك ، والسلام » .

(الأوراق للصولى ٢ : ٣٠)

٢٩٩ — كتاب أحمد بن يوسف إلى عبد الله بن طاهر يعزيه بأبيه

وكتب أحمد بن يوسف إلى عبد الله بن طاهر يعزيه بأبيه :

« أما بعدُ : فإنه قد حدَث من الرُّزء العظيم - بوفاة ذى اليمينين - ما إلى الله جَلَّ وعزَّ فيه المَفْزَعُ والمرْجِعُ ، وفيه عليه المستعانُ ، فإنا لله وإنا إليه راجعون ، اتّباعا لأمر الله ، واعتصاما بطاعته ، وتسليما لنازل قضائه ، ورجاء لِمَا وَعَدَ الصابرين : من صلواته ورَحْمته وهداه ، وعند الله نحتَسِب مصيبتنا به ، فقد كان سبق إلى القلوب عند بَدَاهة الخبر ، من اللَّوعة واطِّلاع[1] الفجيعة ، ما كنا نخاف إحباطَه من الأجر ، لولا ما تدارَكَنا الله به من الذِّكر لِمَا وَعَدَ أهلَ الصبر ، فنسأل الله أن يَرْأَبَ[2] هذه الثُّلْمَة ، ويسُدَّ هذه الخَلَّة بأمير المؤمنين أوَّلا ، وبك ثانيا ، وأن يعَظِّم مَثوبتك ، ويُحْسِن عُقباك ، ويخلُف بك ذا اليمينين ويَعْمُر بك مكانَه من أمير المؤمنين ومن كافة المسلمين .

فأما ما تحتاج إليه من التسلية والتعزية ، فإنك فى فضل رأيك ، واتساع لُبّك فى حال العِزَّة والنَّماء ، لم تكن تخلو من عوارض الذكر ، وخواطر الفكر ، فيما تعرُو به الأيام من نوائبها ، وتبعَث به من حوادثها ، وفى هذا لمن وُفّق له إعدادٌ للنوازل ، وتوطينٌ للأنفس على المكاره ، فلا يكون معه هَلَعٌ ولا إفراطُ جَزَع بإذن الله ، مع أن مَرَدَّ كلِّ ذى جَزَع إلى سلوة لا ثبات عليها ، فأَوْلَى بالراغب

(١) أى وإشرافها على القلوب وإحراقها إياها ، أخذه من قوله تعالى : « نَارُ اللهِ المُوقَدَةُ الَّتِى تَطَّلِعُ عَلَى الأَفْئِدَةِ » أى يبلغ ألمها الأفئدة ، توفى عليها فتحرقها ، من اطلع : إذا أشرف .

(٢) رأب الصدع كمنع : أصلحه ، والخلة : الثقبة الصغيرة أو عام .

فى ذَاتِ الله أن يَهتَبِل[1] مَثُوبَتَه فى أوانها ، من مَضَض الأسى ، وفجأة النكبة ، وأوْلَى بِذِ اللُّبِّ إذَا علم ما هو لابدَّ صائرٌ إليه ألَّا يُبْعِد منهُ إبعاداً يلزمهُ التفاوت عند التأمل واختلاف الحالين فى بعد الأمد بينهما .

وقد كنتُ أحبُّ ألَّا أقنَع فى تعزيتك برسول ولا كتاب ، دون الشخوص إليك بنفسى ، لو أمكننى المسيرُ ، إجلالًا المصيبة ، وتأنُّسا بقربك ، بعد الذى دخلنى من الوَحْشَة ، فقد عرَفتَ ماخصَّنى من المرْزِئة بذى اليمينين ، لِمَا كنتُ أتعرَّف من جميل رأيه ، وعظيم بِرِّه حَاضِرًا ، وما كان يَذْكُرُنى به غائبا ، ذ كَرَه الله فى الرفيق الأعلى ، وأنت وارِثُ حقِّه علىَّ ، إلى ما كنتُ لك عليه ، من صدق المودّة وخالص النصيحة ، وإلى الله أرغب فى تأدية شكرك ، والقيام بِما أوجبه لك ، فإن رأَيتَ أن تأمر بالكتاب إلىَّ بما أبْلاك[2] فى نفسك ، وألهمَك من العَزاء والصبر ، مع ما أحببتَ وَبَدَا لك إن شاء الله » .

(كتاب بغداد لابن طيفور ٦ : ١٣٤ ، والمنظوم والمنثور ١٣ : ٣٢٦)

٣٠٠ — كتاب عبد الله بن طاهر إلى نصر بن شبث

ولَّى المأمونُ عبدَ الله بن طاهر الرَّقَّةَ كما قدمنا ، وعَهد إليه فى محاربة نصر ابن شَبَث — وكان خرج على المأمون بالجزيرة — فلما جادَّه عبد الله بن طاهر القتالَ وحَصَره وبَلَغ منهُ ، طلَب الأمانَ فأعطاه وتحوّل من مُعَسْكَرِه إلى الرَّقة ، وصار إلى عبد الله بن طاهر .

---

(١) أى يغتنم .

(٢) أى أنعم عليك .

وكان المأمون قد كتب إليه قبل ذلك كتابا (كتبه عمرو بن مَسْعَدة[1]) يدعوه إلى طاعته، ومفارقة معصيته، فلم يقبل، فكتب عبد الله إليه:

« أما بعدُ: فإنك يا نصرُ بنَ شَبث قد عرَفْتَ الطاعة وعِزَّها وَبَرْدَ ظِلِّها، وطِيب مَرْتَعِها، وَما فى خِلافها من النَّدَم والخسار، وَإن طالت مدَّةُ الله بك، فإنه إنما يُمْلِى[2] لمن يلتمس مُظاهَرَةَ الحجَّة عليه لِتَقَع غِيَرُهُ بأَهْلِها على قَدْر إصرارهم واستحقاقهم، وقد رأيتُ إنكارَكَ وتبصيرَكَ لِما رجوتُ أن يكون لِما أكتُبُ به إليك مَوْقِعٌ منك، فإن الصِّدق صِدْقٌ، والباطلَ باطِلٌ، وإنما القول بمَخارِجه، وَبأهله الذين يُعْنَوْن به، ولم يعامِلْك من عُمَّال أمير المؤمنين أَحَدٌ أنفعُ لك فى مالِك ودينك ونفسك، ولا أحرَص على استنقاذك، والانتياشِ[3] لك من خَطَائك منى.

فبأىِّ أَوَّلٍ أو آخِرٍ أوسِطَةٍ[4] أو إمْرَةٍ إقدامُك يانصر على أمير المؤمنين، تأخذ أمواله وتتولَّى دونه ماولَّاه الله، وتُريد أن تَبيتَ آمِنًا أومطمئنا أو وَادِعًا أوساكنا أو هادئا، فوَعالِمِ السِّرِّ والجهْرِ: لئن لم تكن للطاعة مُراجِعًا، وبها خانِعا[5]، لَتَسْتَوْبِلَنَّ[6] وَخيم العاقبة، ثم لَأَبْدَأَنَّ بك قبل كل عمل، فإنَّ قُرُون الشيطان إذا لم تُقْطَع كانت فى الأرض فِتنةً وفسادا كبيرا، وَلَأَطَأَنَّ بمن مِعِى من أنصار الدولةِ

---

(١) هو عمرو بن مسعدة بن سعيد بن صول، أحد وزراء المأمون، وكان كاتبا بليغاجزل العبارة وجيزها. سديد المقاصد والمعانى، توفى سنة ٢١٧ هـ انظر ترجمته فى وفيات الأعيان ١ : ٣٩٠ والفهرست لابن النديم ص ١٧٨، وتاريخ بغداد للخطيب البغدادى ١٢ : ٢٠٣، ومعجم الأدباء ٦ : ٨٨ (طبع مطبعة هندية).

(٢) يملى: يمهل، ومظاهرة الحجة: أى مضاعفتها.

(٣) انتاشه. أخرجه. والخطأ والخطاء واحد.

(٤) يقال وسطت القوم أسطهم وسطا وسطة، كوعد: أى توسطتهم.

(٥) الخنوع: الخضوع والذل.

(٦) المرعى الوبيل: الوخيم الثقيل، واستوبله: وجده وبيلا غير موافق.

كواهِلَ رَعاعِ أصحابك ، وَمَن تأشَّبَ(١) إليك من أدانى البُلدان وأقاصيها وَطَغَامها وأوباشها ، وَمَن انضَوى(٢) إلى حَوْزتك من خُرَّاب(٣) الناس ، وَمَن لَفَظه بلدُه ، وَنَفَتْه عشيرتُه لسُوء موضِعه فيهم ، وقد أعذَرَ مَن أنذرَ ، والسلام » .

(كتاب بغداد لابن طيفور ٦ : ١٣٧ ، وتاريخ الطبرى ١٠ : ٢٦٧)

٣٠١ — كتاب عبد الله بن طاهر إلى نصر بن شبث

وَرَوَى صاحب زهر الآداب قال :

وكتب عبد الله بن طاهر إلى نصر بن شَبَث وَقد نزل به ليحاربه فى جنده فوجده محَصَّنا منهُ فكتب إليه :

« اعتصامُك بالقِلال(٤) ، قَيَّدَ عَزمَك عن القتال ، والتجاؤك إلى الحصون ، ليس يُنْجِيك من المَنُون(٥) ، ولَستَ بمُفْلِتٍ من أمير المؤمنين ، فإمّا فارسٌ مُطاعِنٌ ، أو راجِلٌ مستأمِنٌ » :

فلما قرأه حَصَره الرعب عن الجواب ، فلم يلبث أن خرج مستأمِنا .

(زهر الآداب ٣ : ٣٣١)

٣٠٢ — أمان عبد الله بن طاهر لنصر بن شبث

وكان مقام عبد الله بن طاهر على نصر بن شَبَث محاربا له فيما ذكر خمس سنين حتى طلب الأمان ، فكتب عبد الله إلى المأمون يُعْلمه أنه حَصَره وضيَّق عليه وقتل رؤساء من معه ، وأنه قد عاذ بالأمان وطَلَبه ، فأمره أن يكتب له كتاب أمان ، فكتب إليه أمانا نسخته :

---

(١) تأشبوا : اجتمعوا ، والطغام : أوغاد الناس . (٢) انضوى إليه : انضم ومال .
(٣) الخراب : جمع خارب ، وهو اللص ، ولفظه : طرحه ورماه .
(٤) القلال : جمع قلة بالضم : وهى أعلى الجبل . (٥) المنون : الموت .

« أما بعدُ : فإن الإعذارَ بالحق حُجَّةُ اللهِ المقرونُ بها النصرُ ، والاحتجاجَ بالعدل دعوةُ الله الموصولُ بها العِزُّ ، ولا يزال المُعْذِرُ بالحق ، المحتجُّ بالعدل فى استفتاح أبواب التأييد ، واستدعاءِ أسباب التمكين ، حتى يفتحَ اللهَ وهو خير الفاتحين ، ويُمكِّن وهو خير الممكِّنين ، ولستَ تعْدُو أن تكون فيما لَهِجْتَ[1] به أحَدَ ثلاثةٍ : طالبَ دِين ، أو ملتمِسَ دنيا ، أو متهوِّرًا يطلب الغَلَبةَ ظُلْمًا ، فإن كنتَ للدِّين تسعَى بما تصنع ، فأوضِحْ ذلك لأمير المؤمنين يغتنم قبوله إن كان حقا ، فلَعَمْرِى ما هِمَّتُه الكبرى ، ولا غايتُه القُصْوَى ، إلا الميلُ مع الحق حيث مال ، والزوالُ مع العَدْل حيث زال ، وإن كنتَ للدنيا تقصِدُ فأعْلِمْ أمير المؤمنين غايتَك فيها ، والأمرَ الذى تستحقها به ، فإن استحقَقْتها وأمْكَنَه ذلك فَعَلَه بك ، فلعمرى ما يستجيز مَنْعَ خلقٍ مَا يستحقُّه وإن عَظُم ، وإن كنتَ متهوِّرًا فسيكفِى اللهُ أميرَ المؤمنين مُؤْنتَك ، ويعجِّل ذلك كما عجَّل كِفايتَه مُؤَنَ قومٍ سَلَكوا مِثْلَ طريقك ، كانوا أقوى يَدًا ، وأكثَفَ جنداً ، وأكثر جَمْعاً وعَدَدا ونصرًا منك ، فيما أصارهم إليه من مَصَارِع الخاسرين ، وأنزَلَ بهم من حوائج[2] الظالمين .

وأميرُ المؤمنين يختم كتابَه بشهادة أنْ لا إلٰهَ إلا اللهُ وحدَه لا شريك له ، وأن محمداً عبده ورسوله صلى الله عليه وسلم ، وضمانه لك فى دينه وذمَّته الصَّفْحَ عن سوالِف جرائمك ، ومتقدِّمات جرائرك[3] ، وإنزالَك ما تستأهِلُ من منازل العز والرفعة ، إن أنَبْتَ وراجعتَ إن شاء الله ، والسلام » .

وخرج نصر إلى عبد الله بن طاهر بالأمان ، فوجَّه به إلى بغداد ، فأنزله المأمون مدينة أبى جعفر ، ووكَّلَ به من يحفظه (سنة ٢١٠ هـ) .

(تاريخ الطبرى ١٠ : ٢٦٨)

---

(١) لهج بالأمر كفرح : أغرى به فثابر عليه .
(٢) الجوائح : جمع جائحة ، وهى الآفة المهلكة .
(٣) الجرائر : جمع جريرة ، وهى الجريمة .

٣٠٣ — كتاب عبد الله بن طاهر إلى عبد الله بن السرى

ولما فَرَغَ عبد الله بن طاهر من نصر بن شَبَث ، كتب إليه المأمون يأمره بالمسير إلى مصر — وكان قد خرج بها عُبَيْدُ الله بن السَّرِيِّ بن الحَكَم — فسار إليه ، فلم تكن من عبد الله إلا حَمْلة واحدة ، حتى انهزم ابن السرىّ وأصحابه وطلب منه الأمان ، وخرج إليه :

وروى أن ابن السرى بعث إلى ابن طاهر لما وَرَد مصرَ وصانَعَه من دخولها ، بألف وصيف ووصيفة ، ومع كل وصيف ألفُ دينار فى كيس حرير ، وبعث بهم إليه ليلاً ، فرد ذلك عليه ابن طاهر وكتب إليه :

« لو قبلتُ هديتك ليلا لقبلتها نهارًا[1] » ، « بَلْ أَنْتُمْ بِهَدِيَّتِكُمْ تَفْرَحُونَ ، ارْجِعْ إِلَيْهِمْ فَلَنَأْتِيَنَّهُمْ بِجُنُودٍ لَا قِبَلَ لَهُمْ بِهَا وَلَنُخْرِجَنَّهُمْ مِنْهَا أَذِلَّةً وَهُمْ صَاغِرُونَ ».

(كتاب بغداد لابن طيفور ٦ : ١٤٩ ، وتاريخ الطبرى ١٠ : ٢٧٤)

٣٠٤ — كتاب المأمون إلى عبد الله بن طاهر

وكتب المأمون إلى عبد الله بن طاهر وهو بمصر حين فتحها ، فى أسفل كتاب له :

أَخِى أنت ومــــولاىَ ومن أشـكرُ نُعْماهُ[2]
فما أحبَبْتَ مِن أمرٍ فإنى الدهرَ أهــــواهُ
وَمَا تَـكْرَهُ من شىء فإنى لست أرضاهُ
لك اللهُ على ذاكَ لك اللهُ لك اللهُ

(كتاب بغداد لابن طيفور ٦ : ١٤٩ ؛ وتاريخ الطبرى ١٠ : ٢٧٦)

---

(١) وفى الطبرى « لو قبلت هديتك نهارا لقبلتها ليلا » .
(٢) المولى هنا : النصير والصديق .

٣٠٥ — كتاب أحمد بن يوسف إلى عبد الله بن طاهر

وكتب أحمد بن يوسف إلى عبد الله بن طاهر عند خروج عُبيد الله ابن السَّرِىّ إليه يهنئه بذلك الفتح :

« بَلَغنى — أعزَّ اللهُ الأميرَ — مافتَح اللهُ عليك ، وخروجُ ابن السَّريّ إليك ، فالحمدُ للهِ الناصرِ لدينه ، المُعزِّ لدولة خليفته على عباده ، المُذِلِّ لمن عَنَدَ[١] عنهُ وعن حقِّه ، وَرَغِبَ عن طاعته ، ونسأل الله أن يُظاهِرَ له النِّعَمَ ، ويفتح له بُلْدَانَ الشِّرك ، والحمدلله على ماوَلِيك به مُذْ ظَعَنْتَ[٢] لِوَجْهك ، فإنَّا وَمَن قِبَلَنا نتذاكَر سِيرَتك فى حَرْبك وسِلْمِك ، ونُكْثِر التعجُّبَ لِما وُفِّقتَ له من الشدة واللِّيان فى مواضعهما ، ولا نَعلم سائِسَ جندٍ ورعيةٍ عَدَلَ بينهم عَدْلَك ، ولا عَفَا بعد القدرة عمن آسَفَهُ[٣] وأضْغَنَه عَفْوَك ، ولقلَّما رأَيْنا ابنَ شَرَفٍ لم يُلْقِ بيده متَّكِلاً على ماقدَّمَتْ له أُبُوَّتُه ، ومن أُوتِىَ حَظًّا وكِفاية وسلطانا وولاية ، لم يُخْلِد إلى ماعفا[٤] له حتى يُخِلَّ بمُساماةِ ماأَمَامَه ، ثم لانعلَم سائِسًا استحقَّ النُّجحَ لِحُسْنِ السيرة ، وكفِّ مَعَرَّةِ الأتْباعِ ، استحاقَك ، ومَا يستجيزُ أحدٌ ممن قِبَلَنا أن يقدِّم عليك أحدا يَهْوِى عند الحاقَّة[٥] ، والنازلة المُعْضِلَة ، فلْيَهْنِيكَ[٦] مِنَّةُ الله ومَزِيدُه ، ويُسَوِّغْك اللهُ هذه النعمةَ التى حواها لك ، بالمحافظة على مابه تمَّتْ لك ، من التمسُّك بحَبْلِ إمامك ومولاك ومولى جميعِ المسلمين ، ومَلَّاكَ[٧] وإيانا العيشَ ببقائه ، وَأنت تعلم أنَّك لم تَزَل عندنا وعند مَن

(١) عند عن الطريق كنصر وسمع وكرم عنودا : مال . (٢) ظعن كمنع : سار .
(٣) آسفه : أغضبه . (٤) عفا الشىء : إذا كثر وزاد .
(٥) الحاقة : النازلة .
(٦) فى الأصل « فليهنك » وجاء فى لسان العرب والمصباح « تقول العرب فى الدعاء : ليهنئك الولد، وليهنئك الفارس ، بجزم الهمزة ، وبإبدالها ياء ساكنة ، ولا يجوز ليهنك بحذف الياء كما تقول العامة» . أقول : والوجه فى إبقاء الياء مرعاة أصلها وهو الهمزة ، وأن ذلك الإبدال عارض للتخفيف لا يعتد به وإلا فالحق حذف الياء لوجب الجزم .
(٧) ملاك الله حبيبك تملية : متعك به وأعاشك معه طويلا .

قبلنا مكرّما مقدّما معظّما ، وقد زادك الله فى أعين الخاصّة والعامّة جلالةً وتجلّة(١) ، فأصبحوا يرجونك لأنفسهم ، ويعدّونك لأحداثهم ونوائبهم ، وأرجو أن يوفّقك الله لمحابّه كما وفّق لك صنعه وتوفيقه ، فقد أحسنت جوار النعمة فلم تطغك ، ولم تزدد إلا تذلّلا وتواضعا ، فالحمد لله على ما أنالك وأبلاك(٢) وأودع فيك ، والسلام » .

(كتاب بغداد لابن طيفور ٦ : ١٥٠ ، وتاريخ الطبرى ١٠ : ٢٧٨)

٣٠٦ — كتاب الهزبر بن صبيح إلى عبد الله بن طاهر

وكتب إلى عبد الله بن طاهر الهزبر بن صبيح يستمنحه لشاعر مدحه : « جعلت فداك أيها الأمير ، ومدّ الله لك فى العمر ممتّعا بالنعم ، مكفيّا نوائب الدهر ، أنت — أيها الأمير — سماء ممطر ، وبحر لا يكدّر ، وغيث ممرع(٣) بحبائه المجدب ، ومنتهى أبصار(٤) قوم ، ومثنى أعناقهم ، أصبحت لهم كالوالد تكرم زائرهم ، وتصفد(٥) مادحهم ، وتصدر واردهم وقد انفرجت عنه الضيقة ، وانزاحت عنه الكربة ، وكذلك كان آباؤك للمتعلّقين بهم ، والموجّهين رغبتهم نحوهم ، وإن كنت تمهّلت وسبقت سبقا بيّنا ، وذهبت بحيث لا يشقّ أحد غبارك ، ولا يجرى إلى غايتك ، وفتحت يدا مخضلّة(٦) متدفقة بالنّوال والإفضال ، على الحالّين بساحتك ، والمنتجعين خصب جنابك .

وأنا أقدّم عليك أيها الأمير فى أشياء تشبه قدرك ، وأحبّ أن يكون أكثر زادك مما أفادك الله صنيعة تصنعها ، ونعمة تشكرها ، وتحوز أجرها ، وتصدّق الظنّ فيها .

---

(١) بجله تبجيلا : عظمه ، وقد بجل ككرم بجالة وبجولا .
(٢) الإبلاء : الإنعام والإحسان ، يقال : أبلاه الله بلاء حسنا .
(٣) أمرع الوادى : أخصب ، والحباء : العطاء ، وفى الأصل « بحبائه » .
(٤) فى الأصل « أنصار » .
(٥) أصفده اصفادا : أعطاه ووصله ، والاسم الصفد بالتحريك . (٦) مخضلة : ندية .

وَفلان في الصحبة من ذوى البيوتات التي يُرغب في الصنائع عندها ، والتوسط من الأداة[1] التي توجب احتمال من حَمَلها ، وقد أهدى إلى الأمير شعرا يتوصَّل به إليه ، ويستهدى من فضله وكرمه ما أعلمُ أنه يُعينه في مثله ، وسألني أن أكون سبب ذلك وفاتحه ، وأولى الناس بالاعتداد بما ذكر والتطاوُل والابتهاج به ، رَهْطُ الأمير الأدنَوْن وأسرته الأقربون ، الذين جعله الله سهْمَهم الذى به يقارِعون ، وَعِزّهم الذى به يعتزّون ، وسَندهم الذى به يلْجئون ، ومَعْقِلَهم الذى به يَئُولُون ، فرأْىُ أمير المؤمنين في هديته ، واستماعِها منهُ ، ووضعِه بحيثُ وضعَه أملُه ورجاؤه .

فدعا عبد الله بن طاهر بالشاعر الذى وجَّهه إليه واستمع منهُ ، وأحسن جائزته ، وصَرفهُ إليه .
(كتاب بغداد لابن طيفور ٦ : ١٥٦)

٣٠٧ — كتاب عبد الله بن طاهر إلى الحسن بن عمرو

وكتب عبد الله بن طاهر إلى الحسن بن عمرو التَّغْلَبىّ :

« أما بعدُ فقد بلغني مِنْ قَطْعِ الفَسَقَة الطريقَ ما بَلَغَ ، فلا الطريقَ تَحْمِى ، ولا اللصوصَ تَكْفِى ، ولا الرعيَّةَ تُرْضِى ، وتطمَعُ بعد هذا في الزيادة ! إنك لمُنْفَسِحُ الأمل ! وايمُ الله لَتَكْفِيَنَّ مَنْ قِبَلَك ، أوْ لَأُوَجِّهَنَّ إليك رجالاً ، لا تَعْرِف مُرَّة مِن جَهْم ، ولا عَدِىّ من رُهْم[2] ، ولا حولَ ولا قوةَ إلا بالله » .
(العقد الفريد ١ : ١٧)

---

(١) في الأصل « الأداد » وأرى أن صوابها « الأداة » وهى الوسيلة .
(٢) كلها أسماء قبائل .

٣٠٨ - كتاب عبد الله بن طاهر إلى المأمون

وأهدى عبد الله بن طاهر إلى المأمون فرساً، وكتب إليه:

« قد بعثتُ إلى أمير المؤمنين بفرس، يَلْحَقُ الأرانب في الصَّعْداء[1]، ويجاوز الظِّباء في الاُستواء، ويسبق في الحُدُور[2] جَرْيَ الماء، فهو كما قال تأبَّطَ شَرًّا:

ويسبِقُ وفْدَ الرِّيحِ من حيث تَنْتَحِي بمُنْخَرِقٍ من شَدِّه المتدارِكِ[3]

(زهر الآداب ١ : ٣٠٧)

٣٠٩ - كتاب المأمون إلى قثم بن جعفر

ولما كانت سنة ٢١٠ هـ أمر المأمون بدَفع « فَدَكَ[4] » إلى وَلَد السيدة فاطمة رضي الله عنها، وكتب بذلك إلى قُثَم بن جعفر عامله على المدينة:

« أما بعدُ، فإن أمير المؤمنين بمكانِه من دين الله، وخلافةِ رسوله صلى الله عليه وسلم والقرابةِ به، أوْلَى مَن استَنَّ بِسُنَّته. ونفَّذ أمْرَه، وسلم - لِمَنْ مَنَحه مِنْحَة وتصدَّق عليه بصدقةٍ - مِنحتَه وصَدَقتَه، وبالله توفيقُ أمير المؤمنين وعِصْمتُه، وإليه - في العمل بما يقرِّبه إليه - رَغْبَتُه، وقد كان رسول الله صلى الله عليه وسلم أعطى فاطمة بنت رسول الله فَدَكَ، وتصدَّق بها عليها، وكان ذلك أمراً ظاهراً معروفا لا اختلاف فيه بين آلِ رسول الله صلى الله عليه وسلم، ولم تَزَلْ تدَّعِي منه ماهي أولَى مَن صُدِّق عليه، فرأى أمير المؤمنين أن يردَّها إلى وَرَثتها، ويسلِّمها إليهم، تقرُّبا

---

(١) الصعداء: المشقة. (٢) الحدور: الإسراع.

(٣) الشد: العدو، واختراق الرياح وانخراقها: مرورها وهبوبها (ومنخرقها بفتح الراء: مهبها) قال رؤبة: * بكل وفد الريح من حيث انخرق *

(٤) فدك: قرية بخيبر بينها وبين المدينة يومان، وقد قدمنا عنها كلمة مطولة في الجزء الثاني ص ٢٨٥ فارجع إليها.

إلى الله تعالى ، بإقامة حقّه وعدله ، وإلى رسول الله صلى الله عليه وسلم ، بتنفيذ أمْرِه وصَدَقته ، فأمر بإثبات ذلك فى دواوينه ، والكتاب إلى عماله ، فلئنْ كان يُنادَى فى كل مَوْسِم بعد أن قبض اللهُ نبيَّه صلى الله عليه وسلم ، أن يذْكُرَ كلٌّ من كانت له صدقةٌ أو هبَة أو عِدَةٌ ذلك ، فيُقبلَ قوله ، وتُنفَّذَ عِدَتُه ، إن فاطمة رضى الله عنها لأَولى بأن يصدَّق قولها فيما جعل رسول الله صلى الله عليه وسلم لها .

وقد كتب أمير المؤمنين إلى المبارَك الطَّبَرى مولى أمير المؤمنين يأمره بردِّ فَدَكَ على ورثة فاطمة بنت رسول الله صلى الله عليه وسلم بحُدُودها وجميع حقوقها المنسوبة إليها ، وما فيها من الرَّقيق والغَلاَّت وغير ذلك ، وتسليمِها إلى محمد بن يحيى بن الحسين ابن زيد بن على بن الحسين بن على بن أبى طالب ، ومحمد بن عبد الله بن الحسين بن على ابن الحسين بن على بن أبى طالب، لِتولية أمير المؤمنين إياهما القيامَ بها لأهلهما .

فاعلَمْ ذلك من رأى أمير المؤمنين ، وما أَلْهَمَه الله من طاعته ، ووفَّقه له من التقرُّب إليه وإلى رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وأعلِمْه مَن قِبَلك ، وعامِلْ محمد بن يحيى ومحمد بن عبد الله بما كنت تعامِلُ به المبارك الطبرى ، وأعِنْهما على مافيه عِمارتُها ومصلحتُها ووُفُور غَلاَّتِها إن شاء الله ، والسلام » .

وكُتب يوم الأربعاء لليلتين خَلَتا من ذِى القَعدة سنة ٢١٠ ﻫ .

(فتوح البلدان للبلاذرى ص ٤٠ ، ومعجم البلدان ٦ : ٣٤٥)

٣١٠ — كتاب أبى العتاهية إلى الفضل بن معن بن زائدة

وكتب أبو العتاهية إلى الفضل بن معْن بن زائدة :

« أما بعد : فإنى توسَّلْتُ إليك فى طلب نائِلك[1] بأسباب الأمل ، وذَرائع الحمد ، فِراراً من الفقر ، ورجاء للغِنى ، فازددتُ بهما بُعداً مما فيه تقرَّبْتُ وقُرْباً مما فيه تبعَّدْتُ ، وقد قسمتُ اللائمةَ[2] بينى وبينك ، لأنى أخطأْتُ فى سؤالك ، وأخطأْتَ فى منعى :

(١) النائل : العطاء كالنوال والنال . (٢) اللائمة : اللوم .

أُمِرْتُ باليأس من أهل البخل فسألتُهم ، ونُهِيتَ عن منع أهل الرغبة فمنَعْتَهُمْ ، وفى ذلك أقول :

فَرَرْتُ من الفقر الذى هو مُدْرِكى إلى بُخلِ محظورِ النَّوَالِ مَنُوعِ
فأعْقَبَنى الحِرْمانَ غِبَّ مطامِعى كذلك مَن يلقاه غيرَ قَنُوعِ
وغيرُ بديعٍ منعُ ذِى البخل مالَه كما بذلُ أهلِ الفضل غيرُ بديع[1]
إذا أنت كشَّفتَ الرجالَ وجدتَهم لأعراضهم من حافظٍ ومُذيع

(العقد الفريد ٢ : ١٩٦)

٣١١ — كتاب عمرو بن مسعدة إلى المأمون

وكتب عمرو بن مسعدة إلى المأمون فى رجل من بنى ضَبَّة يستشفع له بالزيادة فى منزلته ، وجَعَل كتابه تعريضاً :

« أما بعدُ ، فقد استشفعَ بى فلانٌ يا أمير المؤمنين ـ لِتَطَوُّلِك[2] علىَّ ـ فى إلحاقهِ بِنُظَرائه من الخاصة فيما يرتزقون به ، وأعلمتُه أن أمير المؤمنين لم يجعلنى فى مَرَاتِبِ المستشفِعِين ، وفى ابتدائه بذلك تَعَدِّى طاعَتِه ، والسلام » .

٣١٢ — رد المأمون عليه

فكتب إليه المأمون :

« قد عرَفْنا توطئتك له ، وتعريضَك لنفسك ، وأجَبْناك إليهما، ووافقناك عليهما» .

(المثل السائر ص ٣٩١)

(١) أى غير مبتدع .
(٢) التطول : التفضل .

٣١٣ — كتاب عمرو بن مسعدة إلى الحسن بن سهل

وكتب عمرو بن مسعدة إلى الحسن بن سهل :

« أما بعدُ : فإنك ممن إذا غَرَس سَقَى ، وإذا أَسَّسَ بَنَى ، لِيَسْتَتِمَّ تشييد أُسِّه ، ويجتنِيَ ثِمار غَرْسِه ، وبِناؤك[(١)] عندى قد شارَفَ الدُّرُوسَ[(٢)] ، وغرسُك مُشْفٍ[(٣)] على اليُبُوس ، فتدارَكْ بناء ما أسَّسْتَ ، وسَقْيَ ما غَرَسْتَ ، إن شاء الله »[(٤)] .

(معجم الأدباء ٦ : ٩٠) (طبع هندية)

٣١٤ — كتابه إلى الحسن بن سهل

وكتب إلى الحسن بن سهل عن لسان المأمون يهنئه بمولود :

« أما بعدُ : فإن هِبَة الله لك هِبَةٌ لأمير المؤمنين ، وزيادته إياك فى عَدَدك زيادةٌ له فى عدده ، لِمَحَلِّك عنده ، ومكانك من دولته ، وقد بلغ أميرَ المؤمنين أن الله وهب لك غُلاما سَرِيًّا[(٥)] ، فبارَكَ الله لك فيه ، وجعله بارًّا تقيًّا ، مبارَكًا سعيداً زَكِيًّا » .

(اختيار المنظوم والمنثور ١٣ : ٣٠٣)

---

(١) فى الأصل « وثناؤك » وهو تصحيف .

(٢) الدروس : الامحاء والزوال .   (٣) أشفى عليه : أشرف .

(٤) وروى ابن خلكان فى وفيات الأعيان (٢ : ٥٥) قال : وحكى أبو عبد الله البيمارستانى أن أبا حفص الكرمانى كاتب عمرو بن مسعدة كتب الى محمد بن عبدالملك الزيات : « أما بعد فإنك ممن إذا غرس سقى غرسه ، وإذا أسس بنى أسه . . . ويجتنى ثمرة غرسه ، وبناؤك فى ودى قد وهى وشارف الدروس ، وغرسك عندى قد عطش وأشفى على اليبوس ، فتدارك بناء ما أسست ، وسقى ما غرست » وسيرد عليك هذا الكتاب بعد بصورة أطول صادرا من الكرمانى الى بختيشوع .

(٥) سريا : سيدا شريفا ، وصف من السرو : وهو المروءة فى شرف .

٣١٥ — كتابه إلى المأمون

« وقَدِم على المأمون رجل من أبناء الدّهاقين(١) وعظمائهم من أهل الشام ، على عِدَة سَلَفَت له من المأمون ، من توليته بلده ، وأن يَضمَّ إليه مملكته ، فطال على الرجل انتظارُ خروج أمْرِ أمير المؤمنين ، فقصد عمرو بن مَسْعَدة ، وسأله إيصالَ رُقعة إلى المأمون من ناحيته ، فقال : اكتب بما شئت فإنى مُوصِله ، قال : فتولَّ ذلك عنى حتى تكون لك نعمتان ، فكتب عمرو :

« إنْ رأى أميرُ المؤمنين أن يَفُكَّ أسْرَ عِدَته من رِبقة(٢) المَطْلِ ، بقضاء حاجةِ عبده ، والإذن له بالانصراف إلى بلده ، فَعَلَ مُوفَّقا » .

فلما قرأ المأمون الرقعة دعا عمرا وجعل يَعْجَب من حسن لفظها ، وإيجاز المراد فيها ، فقال له عمرو : فما نتيجتُها يا أمير المؤمنين ؟ قال : الكتابةُ له فى هذا الوقت بما سأل ، لئلا يتأخر فضلُ استحساننا كلامَه ، وبجائزةٍ تَنفى دناءةَ المَطْلِ .

(زهر الآداب ٣ : ٣٥٧)

٣١٦ — كتابه فى وصاة

وأمره المأمون أن يكتب لشخص كتابا إلى بعض العمَّال بالوصية عليه والاعتناء بأمره فى سطر واحد ، فكتب إليه :

« كتابى إليك كتابُ وَاثقٍ بمن كُتِبَ إليه ، مَعْنِيٍّ بمن كُتِب له ، ولن يضيع بين الثِّقة والعناية حامِلُه ، والسلام » .

قال ابن خلكان : وقيل إن هذا من كلام الحسن بن وهب ، والأول أصح وأشهر

(وفيات الأعيان ١ : ٣٩٠ ؛ ونهاية الأرب ٧ : ٢٦٠)

---

(١) الدهاقين : جمع دهقان بالكسر والضم ، وهو رئيس الإقليم ، وزعيم فلاحى العجم ، معرب .

(٢) الربق بالكسر : حبل فيه عدة عرى يشد به البهم ، كل عروة ربقة .

٣١٧ — كتابه إلى بعض أصحابه

وكتب عمرو إلى بعض أصحابه فى حق شخص يعِزُّ عليه .

« أما بعدُ . فَمُوصِّل كتابى إليك سَالِم ، والسلام » .

أراد قول الشاعر :

يُدِيرُوننى عن سالِمٍ وأُدِيرُهم وجِلْدَةُ بين العين والأنف سالِمُ

أى يَحُلُّ منى هذا المحلَّ . (وفيات الأعيان ١ : ٣٩٠)

٣١٨ — كتابه إلى المأمون

وقال أحمد بن يوسف : دخلت على المأمون وفى يده كتاب ، وهو يعاود قراءته مرّةً بعد مرةً ، ويصعِّد فيه بصره ويصوِّبه ، فالتفت إلىّ وقد لَحَظنى فى أثناء قراءته للكتاب ، فقال : يأحمد أراك متفكرا فيما تراه منى! قلت: نعم ، وَقَى الله أمير المؤمنين من المكاره، وأعاذه من المخاوف ، قال : لا مكروه إن شاء الله ، ولكنى قرأت كتابا وجدته نظير ما سمعت الرشيد يقوله فى البلاغة ، فإنى سمعته يقول : « البلاغة التباعد من الإطالة ، والتقرب من البُغْية ، والدلالة بالقليل من اللفظ على الكثير من المعنى » وما كنت أتوهم أن أحداً يقدر على هذه البلاغة ، حتى قرأت هذا الكتاب من عمرو ابن مسعدة إلينا ، ورمى به إلىّ فقرأته فإذا فيه :

« كتابى إلى أمير المؤمنين ، ومَن قِبَلى من قُوّاده وسائر أجناده فى الانقياد والطاعة ، على أحسنِ ما تكون عليه طاعةُ جندٍ تأخرَتْ أرزاقهم ، وانقيادُ كُفاةٍ تراخَتْ أعْطِياتُهم ، واختلّتْ لذلك أحوالُهُم ، والْتاثَت(١) معه أمورُهم » .

---

(١) الالتياث : الاختلاط .

فلما قرأته ، قال : إن استحسانى إياه يعثنى أن أمرتُ للجند قِبَله بعطائهم لسبعة أشهر[١] ، وأنا على مجازاة الكاتب بما يستحقه ، مَن حَلَّ محله فى صناعته .

(وفيات الأعيان ١ : ٣٩١ ؛ وزهر الآداب ٣ : ١٥٥ ، ونهاية الأرب ٧ : ٢٦٠)

٣١٩ - كتابه إلى بعض الرؤساء

وكان بعض الرؤساء قد تزوجت أمه فساءه ذلك ، فكتب إليه عمرو بن مسعدة رسالة بديعة ، فلما قرأها ذلك الرئيس تسلى بها وذهب عنه ما كان يجده ، وهى :

الحمدُ لله الذى كَشَفَ عنا سِتْرَ الحَيْرَة ، وهدانا لِسَتْر العَوْرة ، وجَدَع بما شَرَع من الحَلالِ أنفَ الغَيْرة[٢] ، ومَنَع من عَضْلِ الأُمَّهات[٣] ، كما مَنَع من وَأْدِ البنات ، استنزالاً للنفوس الأبيَّة عن الحَمِيَّة حَمِيَّة الجاهليَّة ، ثم عَرَّض لجزيلِ الأجرِ مَن استسلَمَ لوَاقع قضائه ، وعَوَّض جليلَ الذُّخْر مَن صَبَر على نازِل بلائه ، وهَنَأَك الذى شَرَح للتقوى صَدْرَك ، ووسَّعَ فى البلوَى صَبْرَك ، وألهَمَك مِن التسليم لمشيئته ، والرِّضا بقضيته ، ما وفَّقك له من قضاء الواجب فى أَحَدِ أَبويك ومَن عظَّمَ حَقَّه عليك ، وجعل الله - تعالى جَدُّه - ما تجرَّعْتَه مِن أَنَف ، وكظَمْتَه من أسَف ، ممدوداً فيما يُعْظِم به أجرَك ، ويُجْزِل عليه ذُخْرَك ، وقَرَن بالحاضِر من امتعاضك بفعلها ، المنتَظَرَ من ارتماضِك[٤] بدَفْنها ، فتستوْفِى بها المصيبة ، وتستكمِل عنها المَثُوبة ، فوَصَل اللهُ لَـيدى ما استَشْعَرَه من الصبر على عُرْسها ، بما يستكسِبُهُ من الصَّبر على نفسها[٥] ، وعوَّضه من أَسِرَّة فَرْشها ، أعوادَ

---

(١) وفى زهر الآداب « ألا ترى يا أحمد إلى إدماجه فى الأجناد، وإعفائه سلطانه من الإكثار، ثم أمر لهم برزق ثمانية أشهر » .

(٢) أخذه من قوله صلى الله عليه وسلم ليلة زفت فاطمة إلى على رضى الله عنهما « جدع الحلال أنف الغيرة » وجدع أنفه كمنع : قطعه .

(٣) عضل المرأة : منعها الزوج ظلما ، ووأد بنته : دفنها حية ، والحمية : الأنفة .

(٤) امتعض من الأمر : شق عليه ، وارتمض منه : اشتد عليه وأقلقه أيضا .

(٥) أى حين موتها .

نَعشها ، وجعلَ — تعالى جَدُّه — ما يُنْعِم به عليه بعدها من نِعْمة ، مُعَزًّى من نِقْمة ، وما يُولِيه بعد قبضها من مِنْحة ، مُبَرًّأ من مِحْنة ، فأحكامُ الله — تعالى جدُّه ، وتقدسَتْ أسماؤه — جاريةٌ على غير مُرَاد المخلوقين ، لكنه تعالى يختار لعباده المؤمنين ما هو خير لهم فى العاجِلة ، وأبقَى لهم فى الآجِلة ، اخْتار الله لك فى قَبْضها إليه ، وقدومها عليه ، ما هو أنفعُ لها وأولَى بها ، وجَعل القَبْرَ كُفْؤًا لها ، والسلام ».

وقيل إن هذه الرسالة لأبى الفضل بن العميد[١] .

(وفيات الأعيان ١ : ٣٩٠)

٣٢٠ — كتاب له

وكتب عمرو بن مسعدة :

وصل إلىَّ كتابُك ، على ظَمَإٍ منى إليه ، وتَطَلُّع شديد ، وبُعْدَ عهدٍ بعيد ، ولَوْمٍ منى على ما مَسَّتْنِى به من جَفائك ، على كَثْرة ما تابعتُ من الكُتب ، وعدِمْتُ من الجواب ، فكان أولَ ما سَبق إلىَّ من كتابك السرورُ بالنظر إليه ، أنسًا بما تجدَّد لى من رأيك ، فى المواصلة بالمكاتبة ، ثم تضاعُف المَسَرَّة بخبر السَّلامة ، وعلِم الحال فى الهيئة ، ورأيتك بما تظاهَرْتَ من الاحتجاج فى تَرْك الكتاب ، سالكا سبيل التخلُّص مما أنا مخلِّصُك منه ، بالإغضاء عن إلزامك الْحُجَّةَ فى ترك الابتداء والإجابة ، وذكرتَ شُغْلك بوجوه من الأشغال كثيرةٍ متظاهرة مُمِلَّة[٢] لا أُجَشِّمُك متابعةَ الكتب ، ولا أُحِلُ عليك المشاكلة بالجواب ، ويُقْنِعنى منك فى كل شهر

---

(١) وأنت إذا تأملت هذه الرسالة وجدتها بنسج ابن العميد أشبه ، إذ تتجلى فيها الصنعة البديعية من الطباق والجناس الناقص والسجع مما كان عماد طريقته ، ولم يكن فاشيا فى كتابة ابن مسعدة ولا كتاب عصره .

(٢) فى الأصل « ممكنة » وهو تحريف .

كتاب ، ولن (تَلْزِم[١]) من نفسك فى البرِّ قليلا إلاَّ ألزمتُ نفسى منه كثيرا ، وإن كنتُ لا أستكثرُ شيئا منك ، أدام الله مودَّتك ، وثبَّت إخاءك ، واستماحَ[٢] لى منك ، فرأيك فى متابعة الكُتب ومحادَثتى فيها بخبرك ، مُوفَّقا إن شاء الله » .

(اختيار المنظوم والمنثور ١٢ : ٢٦٢)

٣٢١ — كتابه إلى أبى الرازى

وخرج المأمون يوما من باب البستان ببغداد ، فصاح به رجل بَصْرِىٌّ : يا أمير المؤمنين ، إنى تزوجت بامرأة من آل زِياد ، وإن أبا الرازى[٣] فرّق بيننا ، وقال : هى امرأة من قريش ، فأمر المأمون عمرو بن مسعدة فكتب إلى أبى الرازى :

« إنه قد بلغ أمير المؤمنين ما كان من الزِّيادية وخَلْعِك إياها إذ كانت من قريش ، فمتى تحاكَمتْ إليك العربُ — لا أمَّ لك[٤] — فى أنسابها ؟ ومتى وَكَّلتْك قريش يابن اللَّخْناء[٥] بأن تُلْصِقَ بها من ليس منها ؟ فَخلِّ بين الرجل وامرأته ، فلئن كان زيادٌ من قريش إنه لَابْنُ سُمَيَّةَ ، بَغِيٍّ عاهِرة ، لا يُفْتَخَر بقرابتها ، ولا يُتَطاوَل بولادتها ، ولئن كان ابنَ عُبَيْد لقد باء بأمر عظيم ، إذ ادَّعى إلى غير أبيه لِحَظِّ تَعجَّلَه ، ومُلْكٍ قَهرَه » .

(١) فى هذه الكلمة بياض بالأصل ، والسياق يقتضيها .
(٢) استماحه : سأله أن يشفع له .
(٣) هو محمد بن عبد الحميد المعروف بأبى الرازى ، ولاه المأمون اليمن سنة ٢١٢ هـ — تاريخ الطبرى ١٠ : ٢٧٩ .
(٤) انظر الجزء الثانى ص ٣٠ .
(٥) اللخن بالتحريك : قبح ريح الفرج ، وامرأة لخناء ، ويقال اللخناء : التى لم تختن ، وهى من شتم العرب ، كأنهم يقولون : يادنىء الأصل ، أو يالئيم الأم .

٣٢٢ - كتاب إبراهيم بن العباس إلى عمرو بن مسعدة

وكان بين عمرو بن مسعدة وبين إبراهيم بن العباس الصُّولى (ابن عمه) مودة ، فحصل لإبراهيم ضائقةٌ بسبب البَطالة فى بعض الأوقات ، فبعث له عمرو مالاً ، فكتب إليه إبراهيم :

« سأشكر عَمْرًا ما تراخَتْ مَنِيَّتى   أيادِىَ لم تُمْنَنْ وَإن هِى جَلَّتِ
فتًى غير محجوب الغِنَى عن صديقه   ولامُظْهِرِ الشَّكْوَى إذا النَّعْلُ زلَّت
رأى خَلتى من حيثُ يَخْفَى مكانُها   فكانت قَذَى عينيه حتى تجلَّتِ »

(وفيات الأعيان ١ : ٣٩١)

٣٢٣ - كتاب أبى جعفر الكرمانى إلى المأمون

ورفع أبو جعفر الكَرْمانى إلى المأمون رقعةً يقول فيها :

« ثِقَتى من أمير المؤمنين باعتنائه ، تمنعنى من استبطائه ، ومعرفتى بأشغاله تدعونى إلى إذْ كاره ، ولا آمَنُ بين منع الثقة ودعاء المعرفة ، اخترامَ(١) قُرْبِ الأَجَلِ بُعْدَ أملى ، إذ كانت الآجال آفاتِ الآمالِ ، نفَّسَ الله لأمير المؤمنين فى أجله ، وبلَّغه منتهى أمله » .

(اختيار المنظوم والمنثور ١٣ : ٣٦٣)

---

(١) اخترمته المنية : أخذته .

٣٢٤ – كتابه إلى بختيشوع

وله إلى بَخْتَيْشُوع[(١)] :

« فإنك ممن إذا أسَّسَ بَنَى ، وإذا غرَس سَقى ، لاستتمام بناء أُسِّه ، واجتناء ثمار غَرْسه ، وأسُّك قد بَلِيَ[(٢)] وقارب الدُّروسَ ، وغَرْسُك في حفظي قد عَطِش وشارَفَ اليُبُوسَ ، فتدارك بالبناء ما أسَّسْتَ ، وبالسَّقي ما غَرَسْتَ .

قد جعلك الله ممن يحتمل الدَّالةَ الكبيرة ، لِذي الحُرْمَة اليسيرة ، ورفعك عن أن تتلقَّى استزادةَ المستزيد بعُنْفِ الحَمِيَّة والإعراضِ والنَّبْوَة ، لأن هذا من أخلاق مَن حَدَثَتْ نعمتُه ، وصَغُرَتْ همتُه ، فأمَّا من انقادت النعمُ له في أوَّله وآخِره ، وكان له في تشييد المكارم ورَبِّ[(٣)] الصنائع ، مِثلُ سهمك . فإنه يُنْصِف من نفسه ، ويَقِضي عن حقه ، ويحتمل دالَّة المتحرِّم[(٤)] ، ويجاوز بالمستزيد غايةَ استحقاقه[(٥)] » .

(اختيار المنظوم والمنثور ١٣ : ٣٦٣)

---

(١) هو بختيشوع بن جبرئيل بن بختيشوع الطبيب المشهور ، وقد رفع المأمون منزلته ، وأكرمه غاية الإكرام ، وأخرجه معه إلى بلاد الروم حين خرج إليها سنة ٢١٣ هـ ، وكان كذلك عظيم المنزلة عند المتوكل ، وتوفي سنة ٢٥٦ هـ انظر أخباره في طبقات الأطباء لابن أبي أصيبعة ١ : ١٣٥ ، وأخبار الحكماء لابن القفطي ص ١٠٢ (طبع أوربة) .

(٢) في الأصل « ثرى » وأراه محرفا ، وإن صح فهو من ثريت الأرض كفرح : إذا نديت وابتلت ومعناه : قد ندى ورطب فتأكل ، — وهو مع ذلك تخريج متكلف — أو هو محرف عن (ثرم) من ثرمت السن كفرح : إذا انكسرت من أصلها .

(٣) رب الصنيعة كنصر : نماها وزادها وأتمها وأصلحها .

(٤) تحرم منه بحرمة : تمنع وتحمى بذمة .

(٥) قدمنا لك في ص ٤٢٩ أن الشطر الأول من هذا الكتاب رواه ياقوت في معجم الأدباء صادرا من عمرو بن مسعدة إلى الحسن بن سهل .

٣٢٥ - كتاب العباس بن الحسن إلى جرير بن يزيد

وكتب العباس بن الحسن بن عُبيد الله بن العباس بن على بن أبى طالب عليه السلام، إلى جرير بن يزيد يعزّيه فى العباس ابنه:

« أما بعد، فإنك لا تُخْبَر عن الله عزّ وجل فيما وَعَد على المصائب، ولا توعَظ فيما حدَثَ من بَغتَات الدهور، ومُلِمَّات الأمور، بأشْفَى من علمك به وأوْعَظ له، بما لم تزَلْ له مُعايِنا من مُلِمَّات قدره وفضله، وفى الله تبارك وتعالى لِمن اعتصَمَ به كافٍ، وفى ثوابه لِمَن رَغِب عن الأحبّة مُعَزٍّ، وليس من أحداث الدهر حادثٌ يُمْنَى به امرؤ فى حَمِيم، وإن لَطف من القلوب موقعُه، وجَلَّ فى المُصاب رُزْؤه، إلاّ والمرء مرتَهَن فى نفسه بأعظمَ منه، إمّا بفناء يكون به حظاًّ لِحَميمه فى المعَادِ إنْ قصَّر به فى نفسه أملٌ، وإما بقاء يكون به عرَضا لمختلف الأيام والليالى، حتى يموتَ منه مالا ينتفع بعده بالبقاء إن عُمِّرَ، ثم يكون الموت من ورائه لا مَحالةَ، فأينَ المَذْهبُ لمن عرَف هذا عن ثواب الله الذى منه الخَلَفُ والعِوض، فى الدار التى لا تَفْنَى ولا يَفْنَى مافيها؟

وكفى نظراً من الله لك، وإنعاماً عليك، أنْ جعل ابنك لك ولداً، فشرّفك بشرفه على الأبناء، وزيَّنك بخصاله الفائتة للوصف فى الفضائل والكمال، وبلَغَ به الغايةَ التى بَلَغ فى السِّنّ والثروة، ثم جعله لك مقدِّمةً إليه، وذخيرةً عنده، وأىُّ الأمرين تَراه يا أبا العباس أمْلأ ليدك: أَبقاؤه لو بقِىَ حتى تكونَ له؟ أم فناؤه إذ فَنِيَ حتى كان لك؟ وما كنتَ تأمُلُ له أكثَر مما أعطاه الله وأعطاك فيه؟ فخيرُ ما أخذتَه تقوى الله فى حُسْن العَزاء، واستيجابِ العِوَض والاستعدادِ فيما هو نازلٌ بك فى نفسك، وإن كان غيرَ ذى أمثالٍ عندنا إن تأَخَّر فى أجَلك، ونسأل الله أن يُنْسِئَ فيه.

فأما أنا فإنه لمّا بَدَهَني ما بَدَهَني من مُصابه، وتخوّفتُ أن يستوليَ الأسَى على الصبر، والجزعُ على السُّلوّ، ذكرتُ ما وعدَ اللهُ الصابرين، فأشفقتُ، أن يكون حظّي من الأخ الحبيب القريب الفاجع فَقْدَ المرجوّ ثوابُه، وإعطاء النفسِ حاجَتَها من الجزَع والهلَع، فلما رُضْتُها على الصبر، لم أجد عندها مع شدة اللوعة أكثرَ من ظاهر التعزّى، وكتبتُ إليك وأكثرُ ما عندى التجمُّلُ، واللهُ المستعانُ، وليس لك ولا لنا وإن عظُم الرُّزْء عما أمرَ اللهُ به مَذْهَبٌ، ولا على غيره مُعَوَّل، فإنا لله وإنا إليه راجعون، وعند الله نحتسبُه لك ولأنفسنا، ونسأله الثوابَ عليه، والعفو عنه، والمُقْبَى منه، والتجاوُزَ والمغفِرةَ لذنوبه، ولا تَدَعِ الكتابَ إلىّ، فإنه قد زادنى تعزّياً، علمى بك فى حُسْن ظنى بالله لك » .

(اختيار المنظوم والمنثور ١٣ : ٣١١)

٣٢٦ — كتاب العباس بن الحسن إلى المأمون

وكتب العباس بن الحسن الطالبيّ إلى المأمون يهنئه بمولود له :

« قد كان أجْذَلَنى[١] ما أحْدَثَ اللهُ لأمير المؤمنين من المَوْهَبة التى ليس — وإن كان أولَى بها من غيره — بأعظَمَ فيها حَظًّا من رعيته، فعَمَرَ اللهُ لك يا أمير المؤمنين قلوبَهم[٢] بنور الحكمة وأبصارَهم، حتى يَشُدَّ بهم عَضُدك ويسُدَّ بهم ثُلْمَتَك، ويبلِّغهم الغايةَ المأمول لهم بلوغُها بعدك، غيرَ مُقْعَد بك مَهَلٌ، ولا مُحَلّ بك أجل، ولا مُكْذِبك أمَلٌ، ولا منقطعة أيامُك، حتى تَخْتَرِمَ[٣] أنفسُنا قبلك، وتأتى على تقصيرنا وزَلَلِنا بركاتُك » .

(اختيار المنظوم والمنثور ١٣ : ٣٠٣)

---

(١) أى سرّنى . (٢) أى قلوب أبنائك . (٣) اخترمته المنية . أخذته .

٣٢٧ — كتاب لجرير بن زيد البجلي

وكتب جرير[١] بن يزيد البَجَليّ :

« أما بعد : فإنه لولا (مالَه)[٢] الناسُ مِن تقلُّب قلوبهم ، وتصرُّف حالاتهم وتبايُنهم ، واختلافهم وائتلافهم ، لَما تشعَّبوا من أصلهم ، ولا ائتلف منهم اثنان بعد تشعُّبهم ، فلا بدّ فيما يحدُث بين الناس من عِلَل الوَحشة ، وَأسباب العداوة والفُرقة ، ويجرِي بينهم من المودة وداعِي الصلة مِن سابق ومسبوق ، وداعٍ ومجيبٍ ، فسابقٌ إلى قطيعة يجتنِي بها من صاحبه الوحشةَ ، ومبتدِئٌ بصلةٍ اجتلب بها من صاحبه الثقةَ ، وزرع بها فى قلبه المِقَةَ له .

وقد بلغنى عنك فى وفائك وفضلك ما حرَّكنى لودِّك ، ورغَّبنى فى خُلَّتك[٣] ، ودعانى إلى طَلَب وَصْلِك ، فأجبتُ دعاءك إلى الصلة والملاطفة بما أحسَسْتُ لك من الثقة ، وَحَدَث لى فيك من الرغبة ، فاقبَلْ ما بَذَلْنا من وُدِّنا وَأحسِنِ الإجابةَ إلى ما دعوناك إليه من إخائنا ، واتّبِعْنا بإحسان إذ كان الابتداء منا ، فإن المجيبَ إلى الجميل شريكُ الراغبِ فيه ، وَإن المكافِئَ به شَكْلٌ[٤] لِمُبْدِيه ، وَلا تكرَهَنَّ أن تكون لنا إذ دعَوناك مجيبا ، وإذ سبقناك بالفضيلة تابعا ، فإنا قد أحسَنّا إجابةَ فضلك ، وَسَلِسْنا فى اتّباع ما قادنا إليك من محاسنك ، وَاعلم أنك لو كنت سبَقْتَنا إلى الصِّلَة ، وتقدمْتَنا بالرغبة ، وَطلبْتَ فضلَنا عليك بالمودَّة ، كنتَ لذلك فى الفضل أهلا ، وبه جديراً ، لأن مثلك فى فضلك عطَف على نفسه ، ومِثْلنا رَغِبَ فى صلته ، فقد أهدَينا

---

(١) هو جرير بن يزيد بن خالد بن عبد الله القسرى البجلى ، وهو أحد الخطباء المعدودين — انظر الفهرست ص ١٨١ .

(٢) كذا فى الأصل ، فاللام فى « له » بمعنى لأجل ، أى لولا ما خلق لأجله الناس .

(٣) الخلة : الصداقة . (٤) الشكل : الشبه والمثل .

إليك صفوَ وُدنا ، وَكفيناك ما كنتَ به جديرا مِن طلبنا ودعائنا ، فأحْسِنْ قَبولَ هديتنا ، وَبَذْلَ الحقِّ فى مكافأتنا، ولا يفوتَنَّك السبقُ وَحسنُ الأتباع معا، والسلام».

(المنظوم والمنثور ١٣ : ٤٠٩)

٣٢٨ — كتاب آخر

« إن القبيح لو كان فَضْلا قلَّ حظُّك منه ، وَكنا أوْلَى به منك ، فأما إذ كان نقصا فأنت أحقُّ به منا ، وَأنت وليُّه دوننا ، وَقد وَلَّيناك منه ما تولَّيْتَ ، وكرِهْنا منهُ ما ارتضيتَ ، فاجْرِ ما بدا لك فيه ، غيرَ محسود عليه ، والسلام » .

(المنظوم والمنثور ١٣ : ٤٢٣)

٣٢٩ — كتاب آخر

وَله أيضا :

« فإن أحقَّ مَن زُهِد فى الصنيعة عنده ، مَن بُلِيَ الكفرُ منه ، وَأولَى مَن يُهَوَّنُ مَن لم ينفع فيه الإكرامُ له ، وَقد بلَوْناك بإتيان المعروف ، فلم تؤدِّ حفيظةً فى الشكر عليه ، وَبلَوْناك بالإكرام لك فلم ينفع ذلك فيك ، فبأَيِّ الأمور تستزيدنا فى الصلة ، وتستبطِئُنا فى التكرِمة ، وتقَحَّمُ علينا « أن حرَمْناك » باللائمة ؟ فلُمْ نفسَك فى قلة شكرك واحتمالك ، فإنك بذلك أجْدَرُ ، وَمنهُ أعْذَر ، والسلام » .

(المنظوم والمنثور ١٣ : ٤٢٣)

٢٣٠ – كتاب محمد بن سعيد فى السلامة

وكتب محمد[1] بن سعيد فى السلامة يوم عيد :

« إن الله وَهب العِلْمَ لعباده ، هدايةً إلى معرفة نعمه ، وَأداء شكرهم ، ثم أمَرهم بالحديث عن نعمه ، وتواصُفِ آلائِه ، وَإن مِن حقِّ النعمة فيما أكمَلَ اللهُ من هذا العيد الجليل قدرُه ، الشامِلِ نفعُه ، أن يجتمع العوامُّ بالقصد لشكره ، والثناء به عَلَى الله تبارك وتعالى وَعلى خليقته ، فإن لم يجمعها صعيدٌ واحدتفرَّدَ أهلُ الفقه والعلم وَذوو الدين والفضل القيام عن أنفسهم وَعمن وراءهم بشكر النعمة فيه ، فإنه أعظم عِيدٍ على المسلمين بَرَكةً وعائِدةً[2] بعد العيد الذى جمعهم فيه نظرُه للإسلام ، إذ عَصَم الله به الدينَ ولأَمَ به الشَّعَث ، وَأطفأَ النائرَةَ[3] ، حَوارِىُّ[4] الأمةوَإمامُهم ، والقائم بحق الله فيهم على مِنبرهم ، يَعِظهم وَيُسدِّدهم ، ويقوم بهم على إخلاص العبادة ، وَفضيلة الطُّهر وَالزكاة .

فالحمد لله على هذه النعمة التى جعلها تذكِرةً لما سبقَ من وَعده ، فى تمكين أوليائه ، وَتصييره العاقبةَ للمتقين من عباده ، وَأسأل الله أن يتقبل منه فَريضةَ العمل ، وَنافلةَ القُربة ، فيما قضى عنه من شَهْره ، وَأدَّى من الحق فيه عليه ، وَيجعله أعظمَ شهرٍ وَسَنَةٍ وَعيدٍ ، وَتجمَعَ يُمْنٍ وَبَرَكةٍ ، مستقبَلا وعائِدةً ، إنه سميع قريب » .

(المنظوم والمنثور ١٣ : ٣٧٤)

---

(١) ذكره ابن النديم فى الفهرست فى عدادالبلغاء فقال : « محمد بن سعيد زمن المأمون » انظر ص ١٨٢ .

(٢) العائدة : الفائدة .

(٣) النائرة : العداوة والشحناء .

(٤) فى الأصل « سوارى الأمة إمامهم » وهو تحريف ، وقد أصلحته كما ترى ، والحوارى : الناصر ، أو ناصر الأنبياء .

٣٣١ – كتاب إلى المأمون من عامل

« قَلَّ مَن يسارِعُ فى بَذْلِ الحق مِن نفسه ، إذا كان الحق مُضِرًّا به ، وقَلَّ من يَدعُ الاستعانة بالباطل ، إذا كان فيه صلاحُ مَعاشِه ، وسببُ مُكتَسَبِه ، وإذا تفرّق الحق فى أيدى جماعةٍ فطُولِبَتْ به ، تشابَهَتْ فى الكُرْه لِبَذْله ، وتعاوَنت على دَفْعه ومَنْعه ، بالحِيَل وبالشُّبَه ، قولًا وفعلا ، واحتاجَ المبتلَى باستخراج ذلك الحق من أيديها ، إلى استعمال مجاهدتها ، ومصابَرَتِها على الحيلة فى مدافعتها » .

(اختيار المنظوم والمنثور ١٢: ٢٦١)

٣٣٢ – كتاب رجل إلى المأمون

وكتب رجل كان فى حبس المأمون إليه لما طال حبسه :

« أغفلتَ يا أمير المؤمنين أمرى ، وتناسيتَ ذِكْرى ، ولم تتأمّلْ حُجَّتى وعُذْرى ، وقد ملّ من صبرى الصبر ، ومسَّنى من حبسك الضُّرّ » .

٣٣٣ – رد المأمون عليه

فأجابه المأمون :

« ركوبُك مطيّةَ الجهل ، صيّرك أهلا للقتل ، وبغيُك علىّ وعلى نفسك ، نقلك عن سَعةِ الدنيا إلى قبر من قبور الأحياء ، ومَن جَهِل الشكر على المِنَنِ ، قلّ صبرُه على المِحَن ، فاصبِر على عواقب هفواتك ، ومُوبِقات زَلّاتك ، على قدر صبرك على كثير جناياتك ، فإن حصل فى نفسك كفٌّ عن معصيتى ، وعزمٌ على طاعتى ، وندمٌ على مخالفتى ، فلن تعدَم مع ذلك جميلا من نيّتى » .

(غرر الخصائص الواضحة ص ٤٠٩) .

٣٣٤ – كتاب إحدى جوارى المأمون إليه

وأهدتْ جارية من جوارى المأمون تفاحةً له، وكتبتْ إليه:

« إنى يا أمير المؤمنين لما رأيتُ تنافُس الرّعية فى الهدايا إليك، وتواتُرَ أَلْطَافِهم[1] عليك، فكَّرتُ فى هدية تخِفُّ مُؤْنتها، وتهون كُلْفَتها، ويعظُم خَطَرُها[2]، ويجِلُّ موقعُها، فلم أجد ما يجتمع فيه هذا النَّعتُ، ويكمُل فيه هذا الوصفُ، إلا التفاح، فأهديتُ إليك منها واحدةً فى العَدَد، كثيرةً فى التقرُّب، وأحببتُ يا أمير المؤمنين أن أُعْرِب لك عن فضلها، وأكشِفَ لك عن محاسنها، وأشرَحَ لك لطيف معانيها، وما قالت الأطبّاء فيها، وتفنَّنَ الشعراء فى أوصافها، حتى تَرْمُقَها[3] بعين الجلالة، وتَلْحَظها بمُقْلة الصِّيانة، فقد قال أبوك الرشيد رضى الله عنه: « أحسنُ الفاكهة التفاح، اجتمع فيه الصُّفرة الدُّرِّيّة، والحمرةُ الخَمْرية، والشُّقْرة الذَّهبية، وبياضُ الفضة ولون التِّبْر، يَلَذُّ بها من الحواسِّ: العينُ ببهجتها، والأنفُ بريحها، والفم بطعمها » وقال أرسطاطاليس الفيلسوف عند حضوره الوفاة، واجتمع إليه تلاميذه: « التَمِسوا لى تفاحةً أعتصِم بريحها، وأقضى وَطَرِى[4] من النظر إليها ». وقال إبراهيم بن هانئ: « ما عَلَّل المريضُ المبتلَى، ولا سُكِّنت حرارةُ الثَّكْلَى[5]، ولا رُدَّت شهوة الحُبْلَى، ولا جُمِعت فِكْرة الحَيْران، ولا سكنتْ حَنْقةُ الغضبان، ولا تحبَّبَ[6] الفِتْيانُ فى بيوت القِيانِ، بمثل التفاح » والتفاحة يا أمير المؤمنين إن

---

(١) التواتر: التتابع. واللطفة بالتحريك: الهدية.
(٢) أى قدرها.
(٣) أى تلحظها. (٤) الوطر: الحاجة.
(٥) التى فقدت ولدها.
(٦) فى الأصل «ولا تحنت» وأراه مصحفا، والقيان: جمع قينة بالفتح، وهى الجارية المغنية أو أعم.

حملتَها لم تُؤْذِك ، وإن رُميتَ بها لم تُؤْلمك ، وقد اجتمع فيها ألوانُ قوس قُزَح ، من الُخضْرة والُحمْرة والصفرة ، وقال فيها الشاعر :

حُمْرَةُ التفاحِ مَعْ خُضْرَته أقربُ الأشياء من قَوْسِ قُزَحْ
فَعَلَى التفاحِ فاشرَبْ قَهْوَةً واسقِنيها بنشاطٍ وفَرَح[1]
ثم غَنِّـــنى لـكى تُطْرِبَنى طَرْفُكَ الفتّانُ قلبى قد جَرَح[2]

فإذا وَصلَتْ إليك يا أمير المؤمنين فتناوَلْها بيمينك ، واصْرِفْ إليها بُغْيَتَك ، وتأمَّلْ حُسْنَها بطَرْفِك ، ولا تخدِشْها بظُفْرِك ، وَلا تُبْعِدها عن عينك ، ولا تبذُلْها لخدَمك ، فإذا طال لُبْثُها عندك ، ومُقامُها بين يديك ، وخِفتَ أن يرميها الدهر بسَهْمه ، ويَقصِدَها بصرْفه[3] ، فتذهبَ بهجتها ، وتَحيلَ[4] نَضْرتُها ، فـكُلْها .

« هَنيئاً مَريئاً غيرَ داءٍ مُخامِرِ[5] » والسلام عليك يا أمير المؤمنين ورحمة الله وبركاته » . (العقد الفريد ٣ : ٣٩٠)

٣٣٥ – الرقعة التى علقت على رأس علي بن هشام بعد قتله

وكان المأمون قد ولَّى عليَّ بن هشام كُور الجبال وأذْرَبيجان ، وكُور أَرْمِينية ، ثم غضب عليه للذى بَلَغَه من سوء سيرته فى أهل عمله ، وقتْـلِه الرجالَ ، وأخْذِه الأموالَ ، فوجَّه إليه عُجَيْفَ بن عَنْبَسة ، فأراد أن يفتِك به ، فظفر به عُجَيْفٌ ،

(١) القهوة : الخمر .
(٢) البيت من بحر الرمل ، وقد دخل الـكف فى التفعيلة الأولى منه ، وفى الأصل « ثم غنيني » ويلاحظ أنه أمر معتل فيبنى على حذف الياء ، ولا يضير حذفها وزن الشعر .
(٣) صرف الدهر : نوائبه . (٤) حال يحيل حيولا : تغير .
(٥) هو صدر بيت لـكثير عزة من تائيته المشهورة ، وعجزه : لعزة من أعراضنا ما استحلت » وخامره الداء : خالطه .

فقدِمَ به على المأمون ، فأمر بضرب عنقه (سنة ٢١٧) ثم بعث رأسه فطِيفَ به فى الأقطار ، ثم أُلقِي بعد ذلك فى البحر .

ولما قتله المأمون أمر أن تكتب رُقْعة وتعلّق على رأسه ليقرأها الناس ، وفيها .

« أما بعدُ : فإن أمير المؤمنين كان دعا علىَّ بن هشام فيمن دعا من أهل خراسان أيامَ المخلوعِ إلى معاوَنته والقيامِ بحقه ، وكان فيمن أجابَ وأسْرَعَ الإجابة ، وعاوَنَ فأحْسَنَ المُعاوَنَة ، فرَعَى أميرُ المؤمنين له ذلك ، واصطنَعه[1] وهو يظنُّ به تقْوَى الله وطَاعته ، والانتهاءَ إلى أمْر أمير المؤمنين فى عمل إنْ أُسْنِدَ إليه فى حسن السِّيرة ، وعَفافِ الطُّعْمَةِ[2] ، وبَدأه أمير المؤمنين بالإفضال عليهِ ، فولّاه الأعمالَ السَّنِيَّة ، ووَصَلَه بالصِّلَات الجزيلة ، التى أَمرَ أمير المؤمنين بالنظر فى قدرها ، فوجَدَها أكثرَ من خمسين ألفَ ألفِ درهم ، فمدَّ يده إلى الخيانة ، والتضييع لما استرعاه من الأمانة فباعدَه عنه وأقصاه ، ثم استقال أميرَ المؤمنين عَثْرتَه ، فأقاله إياها ، وولّاه الجبَلَ وأذْرَبيجان وكُورَ أرْمِينية ، ومحاربةَ أعداء الله الخُرَّمِيَّة[3] على أن لا يعود لما كان

(١) اصطنعه : اختاره لخاصة أمره . (٢) الطعمة : المأكلة ووجه المكسب .

(٣) الخرمية . فرقة إباحية وهم أتباع بابك الخرمى ، الذى ظهر فى جبل البذ (بفتح الباء وتشديد الذال : كورة بين أذربيجان وأران) وكثر بها أتباعه ، واستباحوا المحرمات ، وكان البابكية فى جبلهم ليلة عيد يجتمعون فيها على الخمر والزمر ، وتختلط فيها رجالهم ونساؤهم ، فإذا أطفئت سرجهم ونيرانهم فجر فيها الرجال بالنساء ، وقد قتلوا كثيرا من المسلمين .

وكان بابك خادما لجاويذان صاحب البذ ، وكانت امرأة جاويذان تتعشقه وكان يفجر بها ، فلما مات جاويذان أذاعت امرأته على أصحابه أنه عهد إليها قبل موته فقال : « إنى أموت فى ليلتى هذه ، وإن روحى تخرج من جسدى وتدخل بدن هذا الغلام خادمى ، وقد رأيت أن أملكه على أصحابى ، فإذا مت فأعلميهم ذلك ، وأنه لا دين لمن خالفنى فيه » فقبلوا عهده فيه ، وولوه عليهم وتزوج امرأة جاويذان .

وتحرك بابك فى الجاويذانية (سنة ٢٠١) وأخذ فى العيث والفساد ، وفى سنة ٢٠٤ واقعه يحيى ابن معاذ والى الجزيرة فلم يظفر واحد منهما بصاحبه ، وفى سنة ٢٠٥ ولى المأمون عيسى بن محمد ابن أبى خالد أرمينية وأذربيجان ومحاربة بابك ، ونكب به بابك سنة ٢٠٦ ثم ولى صدقة بن على سنة ٢٠٩ وانتدب القيام بأمر بابك أحمد بن الجنيد ، وزحف ابن الجنيد إلى بغداد ثم رجع إلى الخرمية فأسره =

منهُ ، فعاودَ أكثرَ ما كان ، بتقديمه الدينارَ والدرهمَ على العمل لله ودينه وأساء السيرةَ ، وعَسَفَ(١) الرعيةَ ، وسَفَكَ الدماء المحرَّمة ، فوجَّه أمير المؤمنين عُجَيْفَ ابن عَنْبَسَة مباشِراً لأمره ، وداعيا إلى تَلافِي ما كان منه ، فوثَب بعُجيف ، يريد قَتْلَه ، فقوَّى الله عجيفا ، بنيَّته الصادقة فى طاعة أمير المؤمنين ، حتى دَفَعه عن نفسه ، ولو تَمَّ ما أراد بعجيف ، لكان فى ذلك مالا يُسْتَدْرَك ولا يستقال ، ولكن الله إذا أراد أمرا كان مفعولا ، فلما أمضَى أميرُ المؤمنين حُكْمَ الله فى على بن هشام ، رَأَى أن لا يؤاخِذَ مَن خَلَفَه بذنْبِهِ ، فأمرَ أن يُجْرَى لولده ولعياله ، ولمن اتصل بهم ، ومن كان يجرى عليهم ، مثلُ الذى كان جاريا لهم فى حياته ، ولولا أن على بن هشام أراد العُظْمى بعجيف ، لكان فى عِداد مَن كان فى عسكره ممن خالَفَ وَخان ، كعيسى بن منصور ونظرائه والسلام » . (تاريخ الطبرى ١٠ : ٢٨٢)

٣٣٦ — كتاب توفيل ملك الروم إلى المأمون

وفى سنة ٢١٥ هـ شَخَصَ المأمون من مدينة السلام لغزو الروم ، واستخلف عليها إسحٰق بن إبراهيم بن مُصْعَب ، ففتَح وقَتَلَ وسَبَى .

= بابك ، ثم وجه إليه سنة ٢١٢ محمد بن حميد الطوسى لمحاربته وقد قتله بابك سنة ٢١٤ وفض عسكره ، وقتل جمعا كثيرا ممن كان معه ، ورثاه أبو تمام برائيته المشهورة ، كذا فليجل الخطب . . . — إلى أن أظفر الله المسلمين بالبابكية فأسر بابك وصلب بسر من رأى سنة ٢٢٣ ، وسيرد عليك بقية خبره فى خلافة المعتصم فى الجزء الرابع إن شاء الله .

والخرمية نسبة إلى خرم ، جاء فى معجم البلدان : « خرم : وتفسيره بالفارسية السرور ، وهو رستاق (ناحية) بأردبيل (من أشهر مدن أذربيجان) قال نصر : وأظن الخرمية الذين كان منهم بابك الخرمى نسبوا إليه ، وقيل : الخرمية فارسى معناه الذين يتبعون الشهوات ويستبيحونها ، ثم قال وخرمة : ناحية من نواحى فارس قرب إصطخر » اهـ . وجاء فى القاموس المحيط : « وخرمة كسكرة : بلدة بفارس منها بابك الخرمى » — انظر أخبار بابك والخرميـــة فى الفرق بين الفرق للبغدادى ص ٢٥١ ، ٢٥٢ و ٢٦٨ ، وفى الفهرست لابن النديم ص ٤٨٠ — ٤٨٢ وتاريخ الطبرى ١٠ : ص ٢٤٤ و ٢٥٥ و ٢٥٧ و ٢٥٨ و ٢٦٨ و ٢٧٩ و ٢٨٠ و ٣٠٧ و ٣٠٩ و ٣٩٤ و ٣١٧ و ٣١٨ و ٣٣٢ ، ومعجم البلدان ٢ : ٩٣ و ٣ : ٤٢٤ .

(١) أى ظلمها .

وفى سنة ٢١٧ ﻫ ، كتب توفيل[١] بن ميخائيل ملك الروم إلى المأمون يسأله الصلح :

« أما بعد : فإن اجتماع المختلفَيْن عَلَى حظِّهما أوْلَى بهما فى الرأى مما عاد بالضرر عليهما ، ولستَ حَرِيًّا أن تَدَعَ حَظًّا يَصلُ إلى غيرك ـ حَظًّا تَحُوزه إلى نفسك ، وفى عِلْمك كافٍ عن إخبارك ، وقد كنتُ كتبتُ إليك داعيا إلى المسالَمَة ، راغبا فى فضيلة المُهادَنَة[٢] ، لتضعَ أَوْزَارَ الحرب عنا ، ونكونَ : كلٌّ واحدٍ لِكُلِّ وَاحِدٍ وَلِيًّا وحِزْبًا ، مع اتِّصال المَرَافِقِ[٣] ، والفُسح فى المتاجر ، وفكِّ المستأسِر ، وَأَمْنِ الطُّرُق والبَيْضة ، فإنْ أَبَيْتَ فَلاَ أَدِبُّ لك فى الخَمَرِ[٤] ولا أُزخرفُ لك فى القول ، فإنى لَخَائِضٌ إليكَ غِمارَها ، آخِذٌ عليك أَسْدادَها[٥] ، شانٌّ خيلَها ورجالَها ، وإن أفعلْ فبعد أن قدَّمتُ المعذِرةَ ، وأقمتُ بينى وبينك عَلَمَ الحُجَّة ، والسلام » .

(كتاب بغداد لابن طيفور ٦ : ٢٨٤ وتاريخ الطبرى ١٠ : ٢٨٣)

---

(١) ولى ملك الروم سنة ٨٢٩ م .

(٢) المهادنة : المصالحة ، والأوزار جمع وزر بالكسر وهو الحمل والثقل .

(٣) المرافق : جمع مرفق ، والمرفق من الأمر : ما ارتفقت به وانتفعت ، فمن قرأ : « وَيُهَيِّئْ لَكُمْ مِنْ أَمْرِكُمْ مِرْفَقًا » جعله مثل مقطع بكسر الميم ، ومن قرأ : « مِرْفَقًا » جعله مثل مسجد ، والفسح جمع فسحة بالضم وهى السعة ، والبيضة : حوزة كل شىء ، وساحة القوم .

(٤) الخمر ، بالتحريك . كل ما وارك من شجر أو بناء أو غيره ، وخمر كفرح : توارى ، ومن أمثال العرب « يدب له الضراء ويمشى له الخمر » ـ والضراء كسحاب : الشجر الملتف فى الوادى ، يقال توارى الصيد منه فى ضراء ، وفلان يمشى الضراء : إذا مشى مستخفيا فيما يوارى من الشجر ـ وهو مثل يضرب للرجل يختل صاحبه .

(٥) الأسداد : جمع سد ، وهو الحاجز ، وشنّ الغارة عليهم : صبها من كل وجه .

٣٣٧ — رد المأمون عليه

فكتب إليه المأمون :

« أما بعدُ ، فقد بلغنى كتابك فيما سألتَ من الهُدْنة ، ودعوتَ إليه من المُوادَعة ، وخَلَطتَ فيه من اللِّين والشدة ، مما استعطفتَ به من سَراح[1] المَتاجر ، واتّصال المرافق ، وفكِّ الأسارى ، ورَفْع القتل والقتال ، فلولا ما رجعتُ إليه من إعمال التُّؤدَة ، والأخذ بالحظِّ فى تقليب الفِكْرة ، وألاّ أعتقِدَ الرأىَ فى مستقبَلِه إلاّ فى استصلاح ما أُوثِره فى مُعْتَقَبه ، لجعلتُ جوابَ كتابك خَيْلاً تحمِلُ رجالا من أهل البأس والنَّجْدة والبصيرة ، ينازعونكم عن ثُكْلكم[2] ، ويتقرّبون إلى الله بدمائكم ، ويستقِلُّون فى ذات الله ما نالهم من أَلَم شَوْكتكم ، ثم أُوصِل إليهم من الأمداد ، وأُبْلِغ لهم كافياً من العُدَّةِ والعَتادِ[3] ، هم أظمأُ إلى موارد المنايا ، منكم إلى السلامة ، من مَخُوفِ مَعَرَّتهم عليكم ، مَوْعِدُهم إحْدى الحُسْنَيَيْن : عاجِلِ غَلَبَةٍ ، أو كريمِ مُنْقَلَب ، غير أنى رأيت أن أتقدّم إليك بالموعِظة التى يُثْبِت الله بها عليك الحُجَّةَ ، من الدعاء لك ، ولمن معك إلى الوَحْدانية ، والشريعة الحَنيفيَّة[4] ، فإن أبَيْتَ ففِدْيةٌ تُوجِب ذِمَّةً ، وتُثْبِت نَظِرةً[5] ، وإن تركتَ ذلك ففى يقين المعاينة لنُعُوتنا ما يُغْنى عن الإبلاغ فى القول ، والإغراق فى الصفة ، والسلام على من اتبع الهدى » . (كتاب بغداد لابن طيفور ٦ : ٢٨٥ وتاريخ الطبرى ١٠ : ٢٨٣)

---

(١) فى الأصل « شرح » وأراه محرفا والصواب « سراح » وهو التسهيل ، اسم من التسريح .

(٢) الثكل : الموت والهلاك . (٣) العتاد : العدة .

(٤) الحنيفية : ملة الإسلام ، وفى الحديث . « أحب الأديان إلى الله الحنيفية السمحة » ويوصف به فيقال : ملة حنيفية ، والدين الحنيف : الإسلام ، والحنيف : الصحيح الميل إلى الإسلام ، الثابت عليه ، مشتق من الحنف بالتحريك وهو : الاستقامة ، والميل ، فمعناه على الأول : المستقيم الدين ، وعلى الثانى المائل إلى الدين المستقيم . (٥) النظرة : التأخير .

٣٣٨ — كتاب عبد الله بن طاهر إلى إسحاق بن إبراهيم

وكتب عبد الله[1] بن طاهر إلى إسحٰق بن إبراهيم من خُراسان إلى بَغداد، يسأله أن يوجِّه إليه بأقلام قصبيَّة:

«أما بعد، فإنَّا على طُول الممارَسَةِ لهذه الصناعةِ، التى غَلَبَتْ على الاسم، ولازَمَتْ لُزومَ الوَسْم[2] فحلَّتْ مَحَلَّ الأنساب، وجَرَتْ مَجْرَى الألقاب، وَجدْنا الأقلامَ القصبية[3] أسرعَ[4] فى الكواغِدِ[5]، وأمَرَّ فى الجلود، كما أن البحْرية منها أسْلَسُ فى القراطيس، وألْيَنُ فى المعاطفِ، [وأ كَلُّ عن تمزيقها، والتعلُّقِ بما يَنْبُو من شظاياها][6] ونحن فى بلاد قليلة القصب، ردىء ما يوجد بها منه.

وقد أحببتُ أن تتقدَّم[7] فى اختيار أقلام قصبية، وتتأنَّق[8] فى انتقائِها قِبَلك،

---

(١) قال الطبرى (١٠ : ٢٨٠) «وفى سنة ٢١٤ خرج عبد الله بن طاهر إلى الدينور، فبعث المأمون إليه إسحق بن إبراهم ويحيى بن أكثم يخيرانه بين خراسان والجبال وأرمينية وأذربيجان، ومحاربة بابك، فاختار خراسان وشخص إليها» وإسحق بن إبراهيم هو الذى استخلفه المأمون على بغداد كما قدمنا، وهو ابن عم عبد الله بن طاهر، فعبد الله: هو ابن طاهر بن الحسين بن مصعب بن رزيق بن ماهان، وإسحاق: هو ابن إبرهيم بن مصعب . . . الخ، وما ذكرنا من أن هذا الكتاب من عبد الله بن طاهر إلى إسحق بن إبرهيم، وهو ما رواه الصولى فى أدب الكتاب، وجاء فى زهر الآداب أنه من عبيد الله بن طاهر، وهو تحريف، فقد توفى إسحق بن إبرهيم سنة ٢٣٥ وتوفى عبد الله بن طاهر بمرو سنة ٢٣٠، أما ابنه عبيدالله فقد ولد سنة ٢٢٣ وتوفى ببغداد سنة ٣٠٠ انظر ترجمته فى وفيات الأعيان ١ : ٢٧٣.

وفى العقد الفريد وصبح الأعشى ونهاية الأرب أنه من على بن الأزهر إلى صديق له، ولم يرد فيها رده.

(٢) الوسم: العلامة. وفى زهر الآداب «الرسم» وفى أدب الكتاب «الوشى» وهو النقش.

(٣) وفى العقد والصبح «الصخرية» وفى نهاية الأرب «الصحرية» بالضم، نسبة إلى الصحرة وهى جوبة تنجاب وسط الحرة، وتكون أرضا لينة تطيف بها حجارة.

(٤) وفى الصبح ونهاية الأرب «أجرى».

(٥) الكواغد: جمع كاغد بفتح الغين: وهو القرطاس، فارسى معرب.

(٦) محل ما بين القوسين فى الصبح والعقد «وأشد لتصريف الخط فيها».

(٧) تقدم إليه فى كذا: أمره وأوصاه به.

(٨) وفى الصبح ونهاية الأرب وأدب الكتاب «وتتنوق» وهما بمعنى تأنق فيه وتنوق: عمله بالإتقان والحكمة، وفى الصبح «فى اقتنائها».

وتطلبها فى مظانّها ومَنابتها[١] ، من شُطوط الأنهار ، وأرجاء[٢] الكروم ، وأن تقيمَّ[٣] باختيارك منها : الشديدةَ المَجَسِّ ، الصُّلْبةَ المَعَضِّ[٤] ، النقيَّةَ الخدود[٥] ، القليلة الشحوم[٦] ، الكثيرة اللحوم ، المكتنزة[٧] الجوانب ، الضيقة الأجواف ، الرَّزينة الوزن[٨] ، فإنها أبقَى على الكتابة ، وأبعدُ من الحفى[٩] ، وأن تقصِدَ بانتقائك منها : الرِّقاقَ القُضْبان ، اللِّطافَ المنظَر ، المقوّماتِ الأَوَد[١٠] ، المُلْسَ العُقَد ، فلا يكون فيها التواء عِوَج ولا أمْت[١١] ، وضُمّ الصافيةَ القشور ، الخفيَّـة الإبَرِ ، الحَسَنَة الاستدارةِ ، الطويلةَ الأنابيب ، البَعيدة ما بين الكُعوب الكريمةَ الجواهر ، المعتدلةَ القَوَام ، تكاد أسافلها تهتز من أعلاها ، لاستواء أصولها برءوسها ، المستحْكِمةَ يُبْسا ، القائمةَ عَلَى سُوقها ، قد تشرَّب الماء فى لِحائها[١٢] ، وانتهت فى النُّضْج منتهاها ، لم تُعْجَل عن تمام مصلحتها ، وإبَّان يَنْعِها ، ولم تؤخَّر إلى الأوقات المَخُوفةِ عاهاتُها[١٣] ، من خَصَر[١٤] الشتاء وعَفَن الأنداء ، فإذا استجمعت عندك ، أمرتَ بقطعها ذراعا ذراعا ، قَطْعاً رَفِيقا[١٥] تتحرَّز معه من أن تتشعَّث[١٦] رءوسُها ، وتنشَقَّ أطرافُها ، ثم عبَّأت منها حُزَماً فيما يصونها من الأوعية ، وعليها الخيوط الوثيقة ، ووَجَّهْتَهَا مع من يؤدى الأمانة[١٧] ، فى حِراستها وحفظها وإيصالها ،

---

(١) وفى أدب الكتاب « وطلبها من مظانها ومرامها » .
(٢) الأرجاء : جمع رجا كعصا ، وهو الناحية .
(٣) تقيم : تتوخى ، وفى الصبح ونهاية الأرب « تتيمن » وهو تحريف .
(٤) وفى الصبح « الشديدة الصلبة » . (٥) وفى الصبح وأدب الكتاب « النقية الجلود » .
(٦) وفى زهر الآداب وأدب الكتاب « الغليظة الشحوم » وفى العقد « القليلة الشحوم المكتنزة اللحوم » .
(٧) اكتنز : اجتمع وامتلأ . (٨) وفى الصبح والعقد ونهاية الأرب « الرزينة المحمل » .
(٩) أصل الحفى : رقة القدم والحافر ، وفعله كفرح .
(١٠) الأود . الاعوجاج ، وفى الصبح والعقد « المقومات المتون ، الملس المعاقد » .
(١١) الأمت : العوج والعيب . (١٢) اللحاء : القشر .
(١٣) وفى الصبح والعقد « المخوفة عليها » .
(١٤) الخصر : البرد .
(١٥) وفى زهر الآداب والعقد ونهاية الأرب « رقيقا » وفى أدب الكتاب « دقيقا » .
(١٦) تتشعث : تتفرق . (١٧) وفى أدب الكتاب « ممن يحتاط » .

إذ كان مثلها يتوانى فيها لقلة خَطَرِها[1] عند من لا يعرف فضل جَوهرها ، وا كتب معهُ بِعِدّتها وأصنافها ، وأجناسها وصفاتها ، على الاستقصاء ، من غير تأخير ولا توان ولا إبطاء إن شاء الله تعالى » .

(زهر الآداب ٢ : ٢٤٨ ، والعقد الفريد ٢ : ١٨٢ ، وصبح الأعشى ٢ : ٤٥١ ، ونهاية الأرب ٧ : ٢١ ، وأدب الكتاب ٦٩)

٣٣٩ - رد إسحق بن إبراهيم عليه

فأجابه ووجّه إليه الأنابيب :

« أتاني كتاب الأمير — أعزه الله تعالى — بما أمرني به ولَخَّصَهُ ، من البعث إليه بما شا كَلَ نَعْتَه ، وضاهى صِفَته من أجناس الأقلام ، فتيمَّمْتُ بُغيتَه قاصدا لها ، وانتهجتُ مما لِمَ سؤاله آخذا بها ، فأنفذتُ إليه منها حُزَما : أُنْشِئت بلطيف السُّقيا ، وحسن التعهد والبُقْيا ، لم تُعجَلْ بإخراجها ، ولا بُودِرَت قبل إدرا كها ، فهي مستوية الأنابيب معتدلتها ، مثقَّفة[2] الكعوب مقوّمتها ، لا يُرَى فيها أَمْتُ زَوَرٍ[3] ، ولا وَصْمُ صَعَرٍ ، وقد رجوت أن يجدها الأمير عنـــد إرادته وحَسَبَ بُغْيته ، إن شاء الله » .

(زهر الآداب ٢ : ١٤٨ ، وأدب الكتاب ص ٧١)

---

(١) أي قدرها .

(٢) أي مسواة معتدلة .

(٣) الزور : الميل ، والوصم : العيب ، والصعر : الميل.

٣٤٠ - كتاب ابن الحرون إلى أحد إخوانه

وأهدى ابن الحَرُون[1] إلى رجل من إخوانه من الكتاب أقلاما ، وكتب إليه :

« إنه لما كانت الكتابةُ - أبقاك الله - أعظم الأمور ، وقِوامَ الخلافة ، وعمودَ المملكة ، خصَصْتُك من آلتها بما يخِفُّ مَحْمَلُه ، وتَثْقُل قيمتُه ، ويعظُم نفعُه ، ويجِلُّ خَطَرُه[2] ، وهى أقلام من القصب النابتِ فى الصَّخْر ، الذى نشِفَ[3] بحَرِّ الهَجير فى قشره ماؤه ، وستَرَهُ من تلويحه[4] غِشاؤه ، فهى كاللآلئ المكنونة فى الصَّدَف ، والأنوار المحجوبة فى السَّدَف[5] ، تِبْرِيَّةَ القُشُور ، دُرِّيَّة الظهور ، فِضِّيَّة الكسور ، قد كستْهَا الطبيعةُ جواهرَ كالوَشْى المحبَّر[6] ، وفِرِنْدَ الدِّيباج المنَيَّر »[7] .

(العقد الفريد ٢ : ١٨٣ ، وصبح الأعشى ٢ : ٤٥٢ ، ونهاية الأرب ٧ : ٢٢)

* * *

وفى رواية أدب الكتاب وزهر الآداب :

أهدى بعض الكتاب إلى أخ له أقلاما ، وكتب إليه :

« إنه - أطال الله بقاءك - لما كانت الكتابة قِوامَ الخلافة ، وزينَةَ الرياسة ،

---

(١) قال ابن النديم فى الفهرست (ص ٢١٢) : « هو محمد بن أحمد بن الحسن بن الأصبغ بن الحرون ، حسن التأليف والتصنيف ، مليح الأدب ، من أهل بغداد من أولاد الكتاب » وفى العقد الفريد ابن الحرورى » وهو تحريف .

(٢) أى قدره .

(٣) يقال : نشف الماء فى الأرض : أى ذهب ، ونشف الثوب العرق : أى شربه ، والفعل كسمع ونصر ، والهجير : شدة الحر ، وفى العقد « الذى نشف فى حر الهجير ماؤه » .

(٤) لوحته الشمس : غيرته .

(٥) السدف محركة والسدفة بالفتح والضم : الظلمة والضوء ، ضد ، والمراد هنا الأول .

(٦) الوشى : نقش الثوب ، والتحبير : التحسين والتزيين .

(٧) فرند السيف : وشيه ، وثوب منير : منسوج على نيرين ، وفى الصبح « ورونقا كالديباج المنير » .

وعمودَ المملكة ، وأعظم الأمور الجليلة قدراً ، وأعلاها خَطَرا ، أحببتُ أن أتحفَك من آلتها بما يخف عليك مَحْمَلُه ، وتثقُل[1] مع ذلك قيمتُه ، ويكثر نفعُه ، ويجلّ خَطَره ، فبعثت إليك أقلاما من القصب النابت في الأَعْذاء[2] ، المغذُوّ بماء السماء ، كاللآلئ المكنونة في الصَّدف ، والأحجار المحجوبة بالسَّدَف ، تنبُو عن تأثير الأسنان ، ولا يَثْنيها غمزُ البَنان ، قد كستْها طبائعُها جوهرًا كالوشْي الخطير ، وفِرِنْد الديباج المنير[3] ، فهي كما قال الكُمَيت :

وبيض رِقاقٍ صِفاح المُتُونِ ... تَسَمَّعُ للبيض فيها صريرًا[4]

مهنَّدة من عَتادِ الملوكِ ... يكاد سَناهُنَّ يُعْشِي البصيرا

وكقِداح النَّبْل في ثِقَلِ أوزانها ، وقُضُب الخيْزُران في اعتدالها ، ووَشِيجِ الخطّيِّ[5] في اطِّرادها ، كأنما خُرِطت في شهر[6] لاستدارتها ، تمُرّ في القرطاس كالبَرْق اللائح ، وتجرى في الصُّحُفِ كالماء السائح ، أحسن من العِقْيان[7] ، في نُحُور القِيان» .

(أدب الكتاب ص ٧١ وزهر الآداب ٢ : ٢٤٨)

---

(١) في الأصل « وتقل » وفيه أيضا « ويصغر خطره » ولعله سهو من الناسخ .

(٢) الأعذاء، جمع عذى بالكسر : وهو النخل والزرع الذى لايسقى إلا من ماء المطر لبعده من المياه.

(٣) وفي زهر الآداب « والفرقد المنير » .

(٤) صفاح المتون . عراضها ، وفي زهر الآداب « صحاح المتون » .

(٥) الخطى : الرمح ، نسبة إلى الخط ،وهو مرفأ السفن بالبحرين ، وإليه نسبت الرماح،لأنها كانت تباع به ، والوشيج : شجر الرماح .

(٦) كذا في الأصل ، وربما كان الصواب « في شهرستان » بفتح فسكون ، وهى بفارس .

(٧) العقيان : الذهب ، والقيان جمع قينة بالفتح : وهى الجارية .

٣٤١ — كتاب المأمون إلى إسحق بن إبراهيم

وفى سنة ٢١٢ هـ أظهر المأمون القول بخلق القرآن(١) ، وبقى يقدِّم رجلا ويؤخر أخرى فى دعوة الناس إلى مذهبه ، حتى قَوِىَ عزمه فى السنة التى مات فيها (سنة ٢١٨ هـ) فحَمَلهم على القول بخلقه ، وعاقب كلَّ من لم يقل به أشدَّ عقوبة .

وكتب فى هذه السنة وهو بالرَّقَّة إلى إسحق بن إبرهيم نائبه ببغداد فى امتحان القضاة والمحدِّثين فى ذلك ، وأمر بإشخاص جماعة منهم إليه بالرَّقة ، وكان ذلك أول كتاب كَتَبَ فى ذلك ، ونسخةُ كتابه إليه :

« أما بعدُ ، فإنّ حقَّ الله على أئمة المسلمين وخلفائهم ، الاجتهادُ فى إقامة دين الله الذى استحفَظَهم ، ومواريثِ النبوَّةِ التى أوْرَثهم ، وأثَرِ العلم الذى استودَعَهم ، والعملُ بالحق فى رعيّتهم ، والتشميرُ لطاعة الله فيهم ، والله يسألُ أمير المؤمنين أن

---

(١) كانت المعتزلة تقول بنفى صفات المعانى عن الله تعالى — ومنها الكلام — لأن إثباتها يؤدى إلى التشبيه وإلى تعدد القدم ، وذلك ينافى التوحيد ، وكان من النتائج اللازمة لذلك أن قالوا بأن القرآن كلام الله مخلوق ، قال صاحب المواقف (ج ٨ : ص ٩٢) « قالت المعتزلة : كلامه تعالى أصوات وحروف لكنها ليست قائمة بذاته ، بل يخلقها الله فى غيره كاللوح المحفوظ أو جبريل أو النبى ، وهو حادث » .

وليست المعتزلة أول من قال بخلق القرآن — كما أنهم ليسوا أول من أنكر الصفات — بل إن أول من عرف بالقول بخلقه الجعد بن درهم بدمشق ، (وهو مؤدب مروان بن محمد آخر خلفاء بنى أمية) وأخذ عنه ذلك القول جهم بن صفوان الترمذى زعيم فرقة الجهمية الجبرية فقال بخلقه ، إذ أن الجهمية تنكر الصفات . وذكروا أن بشر بن غياث المريسى — وهو زعيم المريسية من فرق المرجئة — قال أيضا بخلق القرآن فى عصر الرشيد ، ونهاه أبو يوسف عن ذلك فلم ينته ، فهجره وطرده من مجلسه ، وقال : لاتنتهى أو تفسد خشبة (يريد الصلب) ولما بلغ ذلك الرشيد قال : على إن أظفرنى الله به أن أقتله ، وظل بشر مختفيا طول خلافة الرشيد ولم يظفر به مع شدة طلبه له . وذكروا أيضا أن حفصا الفرد — وهو من أكابر المجبرة — قال بذلك القول . وأن الشافعى ناظره وكفره ، وكان الناس فى تلك المسألة فى عصر الرشيد بين أخذ وترك ، حتى ولى المأمون فقال بخلقه وكان من أشد نصراء الاعتزال — انظر سرح العيون ص ٢٠٣ ، ووفيات الأعيان ١ : ٩١ والفرق بين الفرق ص ١٩٢ وتبيين كذب المفترى ص ٣٣٩ و ٣٤٥ و ٣٤٦ وحياة الحيوان الكبرى للدميرى ١ : ١١٤ و ١١٥ وتاريخ الطبرى ١٠ : ٢٧٩ .

يوفقه لعزيمة الرُّشد وصَرِيمَتِهِ[١] ، والإقساطِ فيما ولاه اللهُ من رعيته برحمته ومِنّته . وقد عَرَفَ أميرُ المؤمنين أن الجُمْهور الأعظم ، والسَّواد[٢] الأكبر ، من حَشْو الرَّعية، وسِفْلة العامَّة ، ممن لا نظرَ له ولا رويّةَ ،ولا استدلالَ له بدلالة الله وهدايته ، ولا استضاءة بنور العلم وبُرهانه فى جميع الأقطار والآفاق ، أهلُ جَهالة بالله ، وعَمًى عنه ، وضلالة عن حقيقة دينه وتوحيده والإيمان به ، ونُكُوبٍ[٣] عن واضحاتِ أعلامه ، وواجب سبيله ، وقُصُورٍ أنْ يَقْدُروا اللهَ حَقَّ قَدْره ، ويعرِفوه كُنْهَ معرِفته ، ويفرِّقوا بينه وبين خَلْقِه ، لضعفِ آرائهم ، ونقصِ عقولهم ، وجَفائهم عن التفكُّر والتذكُّر ، وذلك أنهم ساوَوا بين الله تباركَ وتعالى وبين ما أُنْزِل من القرآن ، فأَطْبَقوا[٤] مجتمعين ، واتفقوا غيرَ متعاجمين ، على أنه قديمٌ أوّلُ ، لم يخلُقه الله ويُحدِثه ويخترعه ، وقد قال الله عزّ وجل فى مُحْكَمِ كتابه الذى جعله لما فى الصدور شفاءً ، وللمؤمنين رحمةً وهدى : « إنَّا جَعَلْنَاهُ قُرْآناً عَرَبِيًّا » فكلُّ ما جعله اللهُ فقد خلقه ، وقال : « الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِى خَلَقَ السَّمٰوَاتِ وَالْأَرْضَ ، وَجَعَلَ الظُّلُمَاتِ وَالنُّورَ » ، وقال عز وجل : « كَذٰلِكَ نَقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنْبَاءِ مَا قَدْ سَبَقَ » ، فأخبَرَ أنه قَصَصُ لأمور أحْدَثَه بعدها ، وتَلاَ به متقدِّمَها ، وقال : « الر كِتَابٌ أُحْكِمَتْ آيَاتُهُ ، ثُمَّ فُصِّلَتْ مِنْ لَدُنْ حَكِيمٍ خَبِيرٍ » وكل مُحْكَم مُفَصَّل فَلَهُ مُحْكِمٌ مُفَصِّلٌ ، واللهُ مُحْكِم كتابه ومُفَصِّله ، فهو خالقُه ومبتدعه .

ثم هم الذين جادَلوا بالباطل ، فدَعَوا إلى قولهم ، ونسبوا أنفسهم إلى السُّنَّة ، وفى كل فَصْلٍ من كتاب الله قَصَصٌ من تلاوته ، مُبْطِلٌ قولَهُمْ ، ومُكَذِّبٌ دعواهم ، يَرُدُّ عليهم قولَهم وَنِحْلَتَهم[٥] ، ثم أظهروا مع ذلك أنهم أهل الحقِّ والدين والجماعة ،

---

(١) الصريمة : العزيمة وقطع الأمر . والإقساط : العدل .
(٢) السواد : العدد الكثير وعامة الناس .
(٣) أى عدول . (٤) أطبق القوم على الأمر : أجمعوا .
(٥) النحلة : الدعوى .

وأن من سوائهم أهلُ الباطل والكفر والفُرقة ، فاستطالوا بذلك على الناس ، وغرُّوا به الجُهّال ، حتى مال قوم من أهل السَّمْتِ[1] الكاذبِ ، والتخشّع لغير الله ، والتقشّف لغير الدين ، إلى موافقتهم عليه ، ومُواطأتهم على سيّئ آرائهم ، تزيُّناً بذلك عندهم ، وتصنّعاً للرّياسة والعَدالة فيهم ، فتركوا الحقّ إلى باطلهم ، واتخذوا دُونَ الله وَليجةً[2] إلى ضلالتهم ، فقُبِلَتْ بتزكيتهم لهم شهادتُهم ، ونفذَتْ أحكامُ الكتاب بهم على دَغَلِ[3] دينهم ، ونَغَلِ أديمهم ، وفساد نيّاتهم ويقينهم ، وكان ذلك غايتَهم التي إليها أجْرَوا ، وإياها طلبوا فى متابعتهم ، والكذب على مولاهم ، وقد أُخِذ عليهم ميثاقُ الكتاب ـ أَلَّا يَقُولُوا عَلَى اللهِ إِلَّا الْحَقَّ وَدَرَسُوا مَا فِيهِ ، أُولَئِكَ الَّذِينَ أَصَمَّهُمُ اللهُ وَأَعْمَى أَبْصَارَهُمْ ، أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ الْقُرْآنَ أَمْ عَلَى قُلُوبٍ أَقْفَالُهَا .

فرأى أمير المؤمنين أن أولئك شَرُّ الأمة ، وَرُءوسُ الضّلالة ، المنقوصون من التوحيد حظًّا ، والمخْسُوسُون[4] من الإيمان نصيبا ، وأَوْعِيَةُ الجهالة ، وأعلامُ الكذب ، ولسانُ إبليس الناطق فى أوليائه ، والهائل على أعدائه من أهل دين الله ، وأحقُّ مَن يُتَّهَم فى صدقه ، وتُطْرَحُ شهادتُه ، وَلا يُوثَق بقوله وَلا عمله ، فإنه لا عمَلَ إلا بعد يقين ، ولا يقينَ إلا بعد استكمال حقيقة الإسلام ، وَإخلاصِ التوحيد ، وَمَن عَمِيَ عن رشده وَحَظّه من الإيمان بالله وَبتوحيده ، كان عما سِوَى ذلك من عمله وَالقَصْدِ فى شهادته أَعْمَى وأضلّ سبيلا ، وَلَعَمْرُ أمير المؤمنين إن أَحْجَى[5] الناسِ بالكذب فى قوله ، وَتَخرُّصِ الباطلِ فى شهادته ، مَنْ كَذَبَ على الله وَوَحْيه ، وَلم يعرف الله

---

(١) السمت : هيئة أهل الخير .

(٢) الوليجة : خاصتك ، أو من تتخذه معتمدا عليه من غير أهلك .

(٣) الدغل : الفساد ، ونغل الأديم كفرح : فسد فى الدباغ .

(٤) خس نصيبه : جعله خسيسا دنيئا حقيرا .

(٥) أى أجدرهم ، يقال : هو حجى به كغنى ، وحج ككتف ، وحجى كفتى أى جدير ، وتخرص عليه : افترى .

حقيقةَ معرفته ، وَإن أولاهم برَدّ شهادته فى حكم الله ودينه ، مَن رَدَّ شهادةَ الله على كتابه ، وبَهَتَ[1] حَقّ الله بباطله .

فاُجْمَعْ مَنْ بِحَضْرَتك من القُضاة ، واقرأ عليهم كتاب أمير المؤمنين هذا إليك ، فاُبْدَأْ بامتحانهم فيما يقولون ، وتكشيفهم عما يعتقدون فى خلق الله القرآنَ وإحداثه ، وأَعْلِمهم أن أمير المؤمنين غير مستعين فى عمله ، ولا واثقْ فيما قلّده الله واستحفَظَه من أمور رعيته ، بمن لا يُوثق بدينه ، وخلوصِ توحيده ويقينه ، فإذا أقرُّوا بذلك ووافقوا أمير المؤمنين فيه ، وكانوا على سبيل الهُدَى والنجاة ، فمُرْهم بنَصّ[2] مَن يَحْضُرُهم من الشهود على الناس ، ومسألتهم عن علمهم فى القرآن ؛ وترك إثبات شهادة من لم يُقِرَّ أنه مخلوق مُحْدَث ولم يَرَه ، والامتناع من توقيعها عنده ، واكتب إلى أمير المؤمنين بما يأتيك عن قضاة أهل عملك فى مسألتهم ، والأمر لهم بمثل ذلك ، ثم أشْرِف عليهم وتفقَّدْ آثارهم ، حتى لاتنفُذَ أحكامُ الله إلا بشهادة أهل البصائر فى الدين ، والإخلاصِ للتوحيد ، واكتب إلى أمير المؤمنين بما يكون فى ذلك إن شاء الله » .

وكُتب فى شهر ربيع الأول سنة ٢١٨ هـ .

* * *

وكتب المأمون إلى إسحٰق بن إبراهيم فى إشخاص سبعة نَفَر ، فأشْخِصوا إليه ، فامتحنهم وسألهم عن خلق القرآن ، فأجابوا جميعا : أن القرآن مخلوق ، فأشخَصَهم إلى مدينة السلام ، وأحضرهم إسحٰقُ بن إبراهيم دارَه ، فشهَّر أمرَهم وقولَهم ، بحضرة الفقهاء والمشايخ من أهل الحديث ، فأقرّوا بمثل ما أجابوا به المأمون ، فخَلَّى سبيلهم ، وكان ما فعل من ذلك إسحٰق بن إبراهيم بأمر المأمون .

(كتاب بغداد لابن طيفور ٦ : ٣٣٨ ؛ وتاريخ الطبرى ١٠ : ٢٨٤)

---

(١) بهته كنفع : قذفه بالباطل وافترى عليه الكذب .

(٢) نصه : استقصى مسألته عن الشىء .

٣٤٢ — كتاب المأمون إلى إسحق بن إبراهيم

وكتب المأمون بعد ذلك إلى إسحٰق بن إبراهيم :

« أما بعد : فإن مِن حَقِّ الله على خلفائِه فى أرضه ، وأُمَنائِه على عباده ، الذين ارتضاهم لإقامة دينه ، وَحَمَّلَهُمْ رِعَايةَ خَلْقِه ، وإمضاء حُكْمِه وَسُنَنه ، والائتمامَ بعدله فى بريّته ، أن يُجْهِدُوا لله أنفسهم ، وَيَنْصَحوا له فيما استحفظهم وَقَلَّدهم ، وَيَدُلُّوا عليه تبارك اسمُه وتعالى ، بفَضْلِ العِلْمِ الذى أَوْدَعَهم ، والمعرفة التى جَعَلَها فيهم ، وَيَهْدُوا إليه مَن زَاغَ عنهُ ، وَيرُدّوا مَن أدْبَرَ عن أمره ، وَيَنْهَجوا لرعاياهم سَمْتَ[١] نجاتهم ، وَيَقِفُوهم على حدود إيمانهم ، وَسبيل فوزهم وعِصْمتهم ، ويكْشِفوا لهم عن مُغَطَّياتِ أمورهم وَمشتبِهاتها عليهم ، بما يدفعون الرَّيْبَ عنهم ، ويعود بالضياء وَالبيِّنة على كافّتهم ، وَأن يُؤْثِروا ذلك من إرشادهم وتبصيرهم ، إذا كان جامعا لِفُنُون مَصَالِحهم ، ومنتظماً لحظوظ عاجِلتهم وآجِلتهم ، ويتذكَّروا ما اللهُ مُرْصِدٌ[٢] مِن مُساءلتهم عما حُمِّلوه ، ومجازاتِهم بِمَا أسلفوه وقدَّموا عنده ، وما توفيقُ أمير المؤمنين إلا بالله وحدَه وحَسْبُهُ اللهُ وكفى به .

وما بيّنَه أميرُ المؤمنين برَوِيّته ، وطالَعَه بفِكره ، فتَبيّن عظيمَ خَطَرِه وجليلَ مايرجِع فى الدين مِن وَكَفِه[٣] وضَرره ، ما ينال المسلمون بينهم من القول فى القرآن الذى جعله الله إماماً لهم ، وأثرا من رسول الله وصفيِّه محمد صلى الله عليه وسلم باقياً لهم ، واشتباهِه على كثير منهم ، حتى حَسُن عندهم وتزَيَّنَ فى عقولهم ، ألاّ يكون مخلوقا ، فتعرّضوا بذلك لدفع خلق الله ، الذى بان به عن خَلْقه ، وتفرَّد بجلالته من

---

(١) السمت : الطريق .
(٢) أرصد له : أعد ، وكافأه بالخير أو بالشر .
(٣) الوكف : العيب والإثم .

ابتداع الأشياء كلِّها بحكمته، وإنشائها بقدرته، والتقدُّم عليها بأوَّليَّته التي لا يُبْلَغ أولاها، ولا يُدْرَك مَداها، وكان كلُّ شيء دونه خَلْقًا من خلقه، وحَدَثًا هو المُحْدِث له، وإن كان القرآنُ ناطِقًا به، ودالًّا عليه، وقاطعا للاختلاف فيه، وضاهَوْا به قولَ النصارى فى ادِّعائهم فى عيسى بن مريم أنه ليس بمخلوق، إذ كان كَلِمةَ الله، والله عز وجل يقول: « إِنَّا جَعَلْنَاهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا » وتأويل ذلك « إنا خلقناه » كما قال جل جلاله « وَجَعَلَ مِنْهَا زَوْجَهَا لِيَسْكُنَ إِلَيْهَا » وقالَ: « وَجَعَلْنَا اللَّيْلَ لِبَاسًا وَجَعَلْنَا النَّهَارَ مَعَاشًا » « وَجَعَلْنَا مِنَ الْمَاءِ كُلَّ شَيْءٍ حَيٍّ ». فسوَّى عزَّ وَجلَّ بين القرآن وبين هذه الخلائق، التي ذَكَرها فى شِيَةِ[1] الصَّنْعة، وأخبَرَ أنه جاعلُه، وَحدَه فقال: « إِنَّهُ لَقُرْآنٌ مَجِيدٌ فِي لَوْحٍ مَحْفُوظٍ » فقال ذلك على إحاطة اللوح بالقرآن، ولا يُحاط إلا بمخلوق، وقال لنبيه صلى الله عليه وسلم « لَا تُحَرِّكْ بِهِ لِسَانَكَ لِتَعْجَلَ بِهِ » وقال: « مَا يَأْتِيهِمْ مِنْ ذِكْرٍ مِنْ رَبِّهِمْ مُحْدَثٍ » وقال: « وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ كَذِبًا أَوْ كَذَّبَ بِآيَاتِهِ » وَأخبَرَ عن قوم ذمَّهم بكذبهم أنهم قالوا: « مَا أَنْزَلَ اللَّهُ عَلَى بَشَرٍ مِنْ شَيْءٍ » ثم أكْذَبَهم على لسان رسوله فقال لرسوله: « قُلْ مَنْ أَنْزَلَ الْكِتَابَ الَّذِي جَاءَ بِهِ مُوسَى » فسمى الله تعالى القرآن قرآنا وذِكرًا وإيمانا وَنُورا وهُدًى ومباركا وعَرَبيًّا وقَصَصا، فقال: « نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ أَحْسَنَ الْقَصَصِ بِمَا أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ هَذَا الْقُرْآنَ » وقال: « قُلْ لَئِنِ اجْتَمَعَتِ الْإِنْسُ وَالْجِنُّ عَلَى أَنْ يَأْتُوا بِمِثْلِ هَذَا الْقُرْآنِ لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِ » وقال: « قُلْ فَأْتُوا بِعَشْرِ سُوَرٍ مِثْلِهِ مُفْتَرَيَاتٍ » وقال: « لَا يَأْتِيهِ الْبَاطِلُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِ » فجعل له أوّلا وآخِرا، ودل عليه أنه محدود مخلوق.

---

(١) أى فى حسنها، من وشى الثوب كوعد وشيا وشية: أى نقشه وحسنه.

وقد عظَّم هؤلاء الجَهَلَةُ بقولهم فى القرآن ، الثَّلْمَ(١) فى دينهم ، والجَرْحَ فى أمانتهم ، وسَهَّلوا السبيل لعدو الإسلام ، واعترفوا بالتبديل والإلحاد على قلوبهم حتى عرَّفوا ووصفوا خَلْقَ الله وفِعْلَه بالصفة التى هى لله وَحْدَه ، وشبَّهوه به ، والأَشْباهُ أَوْلَى بخَلْقِه ، وليس يَرَى أميرُ المؤمنين لمن قال بهذه المقالة حَظًّا فى الدين ، ولا نصيباً من الإيمان واليقين ، ولا يَرى أن يُحلَّ أحدا منهم مَحَلَّ الثقة فى أمانة ولا عَدالة ولا شَهادة ، ولا صِدْق فى قول ولا حكاية ، ولا تولِيةٍ لشىء من أمر الرعية ، وإن ظَهَرَ قَصْدُ(٢) بعضهم ، وعُرِف بالسَّدَاد مُسَدَّدٌ فيهم ، فإن الفروعَ مردودة إلى أصولها ، ومحمولة فى الحمد والذم عليها ، ومَن كان جاهلا بأمر دينه الذى أَمرَه الله به مِن وحْدَانيته فهو بما سواه أعظمُ جهلا ، وعن الرُّشْد فى غيره أعمى وأضل سبيلا ، فاقرأْ على جعفر بن عيسى وعبد الرحمن بن إسحٰق القاضى كتابَ أمير المؤمنين بما كَتَبَ به إليك ، وانصُصْهما عن علمهما فى القرآن ، وأَعلِمْهما أن أمير المؤمنين لا يستعين على شىء من أمور المسلمين إلا بمن وثق بإخلاصه وتوحيده ، وأنه لا توحيدَ لمن لم يُقِرَّ بأن القرآن مخلوق ، فإن قالا بقولِ أمير المؤمنين فى ذلك ، فتقدَّمْ إليهما فى امتحان مَن يَحْضُر مجالسهما بالشهادات على الحقوق ، ونَصِّهم عن قولهم فى القرآن ، فمن لم يقل منهم إنه مخلوق أَبْطَلاَ شهادته ، ولم يقطعا حُكْما بقوله ، وإن ثَبَتَ عَفافُه بالقَصْدِ والسَّدَاد فى أمره ، وافْعَلْ ذلك بمن فى سائر عَمَلك من القُضاة ، وأَشْرِف عليهم إشرافا يَزيد اللهُ به ذا البصيرة فى بصيرته ، ويمنع المرتَابَ من إغفال دينه ، وا كتب إلى أمير المؤمنين بما يكون منك فى ذلك إن شاء الله » .

(كتاب بغداد ٦ : ٣٤٤ ، وتاريخ الطبرى ١٠ : ٢٨٦)

---

(١) أى النقص ، من ثلم الإناء إذا كسر حرفه .
(٢) القصد : الاستقامة .

٣٤٣ - كتاب المأمون إلى إسحق بن إبراهيم

فأحضر إسحق بن إبرهيم جماعةً من الفقهاء والحكام والمحدّثين ، وقرأ عليهم كتاب المأمون مرتين ، ثم امتحنهم رجلا رجلا ، فتوقفوا عن الإقرار بخلق القرآن ، وكلُّهم يقول : « القرآن كلام الله » ، إلا نفراً منهم ، وكتب مقالاتِهم ووجَّه بها إلى المأمون ، فمكث القوم تسعة أيام ، ثم دعا بهم وقد ورد كتاب المأمون فى أمرهم ، ونسخته :

« بسم الله الرحمن الرحيم : أما بعد ، فقد بلغَ أميرَ المؤمنين كتابُكَ — جوابُ كتابِه كان إليك — فيما ذهب إليه مُتَصنِّعةُ أهلِ القبلة وملتمسُو الرِّياسة فيما ليسوا له بأهل من أهل المِلَّة ، من القول فى القرآن ، وأمَرَكَ به أمير المؤمنين من امتحانهم ، وتكشيفِ أحوالهم ، وإحلالهم مَحالَّهُم ، تذكُرُ إحضارَكَ جعفرَ بن عيسى وعبدَ الرحمن بن إسحق عند ورود كتاب أمير المؤمنين ، مع مَن أحضَرْتَ ممن كان يُنسَبُ إلى الفقه ، ويُعْرَفُ بالجلوس للحديث ، ويَنْصِبُ نفسَه لِلْفُتيا بمدينة السلام ، وقراءتَكَ عليهم جميعاً كتابَ أمير المؤمنين ، ومسألتَكَ إياهم عن اعتقادهم فى القرآن ، والدَّلالة لهم على حظِّهم وإطباقهم على نفى التشبيه ، واختلافهم فى القرآن ، وأمْرَكَ من لم يقل منهم إنه مخلوق بالإمساك عن الحديث والفَتْوى فى السِّر والعلانية ، وتقدُّمَكَ إلى السِّنْدِىِّ وعباس مَوْلى أمير المؤمنين بما تقدَّمت به فيهم إلى القاضِيَيْنِ[1] بمثل ما مَثَّل لك أميرُ المؤمنين مِن امتحان مَن يَحْضُر مجالسَهما من الشهود ، وبَثِّ الكتب إلى القُضاة فى النواحي من عملك بالقدوم عليك ، لِتَحْمِلَهم وتمتحنهم على ما حَدَّه أمير المؤمنين ، وتثبيتك فى آخر الكتاب أسماءَ مَن حَضَرَ ومقالاتِهم ، وفَهِم أميرُ المؤمنين ما اقتصَصْتَ .

---

(١) يعنى جعفر بن عيسى وعبد الرحمن بن إسحق .

وأمير المؤمنين يحمَدُ الله كثيراً كما هو أَهْلُه ، ويسأله أن يصلِّيَ على عبده ورسوله محمد صلى الله عليه وسلم ، ويَرْغَب إلى الله فى التوفيق لطاعته ، وحُسْن المَعُونة على صالح نيته برحمته ، وقد تدبَّر أمير المؤمنين ما كتبتَ به من أسماء مَن سألْتَ عن القرآن ، وما رجَعَ إليك فيه كلُّ امرئٍ منهم ، وما شرحتَ من مقالتهم .

فأما ما قال المغرورُ بِشْرُ بن الوليد فى نفى التشبيه ، وما أمسَكَ عنه من أن القرآن مخلوق ، وادَّعى من تركه الـكلامَ فى ذلك واستعهادِه أميرَ المؤمنين(١) ، فقد كَذَبَ بشرٌ فى ذلك وكَفَر ، وقال الزُّورَ والمنـكَر ، ولم يكن جرَى بين أمير المؤمنين وبينه فى ذلك ولا فى غيرِه عَهْدٌ ولا نَظَرٌ أكْثَر من إخباره أمير المؤمنين من اعتقادِه كلمة الإخلاص ، والقول بأن القرآن مخلوق ، فادْعُ به إليك ، وأَعْلِمه ما أَعْلَمَك به أمير المؤمنين من ذلك ، وانصُصْه عن قوله فى القرآن ، واستَتِبْهُ منه ، فإن أمير المؤمنين يرى أن تَسْتَتِيبَ مَن قاله بمقالته ، إذ كانت تلك المقالة الـكُفْرَ الصُّرَاحَ ، والشِّرْكَ المَحْض عند أمير المؤمنين ، فإن تاب منها فأَشْهِرْ أمرَه وأَمْسِكْ عنه ، وإن أصَرَّ على شِركه ، ودَفع أن يكون القرآن مخلوقا بكفره وإلحاده ، فاضرِبْ عُنُقه وابعث إلى أمير المؤمنين برأسه إن شاء الله .

وكذلك إبراهيم بن المهدى فامتَحِنْه بمثل ما تمتحن به بشراً ، فإنه كان يقول بقوله ، وقد بلغَتْ أميرَ المؤمنين عنه بَوالِغُ ، فإن قال إن القرآن مخلوق ، فأَشْهِرْ أمره واكشِفه ، وإلاَّ فاضرب عنقه ، وابعث إلى أمير المؤمنين برأسه إن شاء الله .

---

(١) وذلك أنه لما امتحنه إسحق بن إبراهيم قال : ما تقول فى القرآن ؟ فقال : قدعرفت مقالتى لأمير المؤمنين غير مرة ، قال : فقد تجدد من كتاب أمير المؤمنين ما قد ترى ، فقال : أقول القرآن كلام الله ، قال : لم أسألك عن هذا ، أمخلوق هو ؟ قال: الله خالق كل شيء ، قال : ما القرآن شيء ؟ قال : هو شيء ، قال : فمخلوق ؟ قال : ليس بخالق : قال . ليس أسألك عن هذا ، أمخلوق هو ؟ قال : ما أحسن غير ماقلت لك ، وقد استعهدت أمير المؤمنين أن لا أتـكلم فيه ، وليس عندى غيرماقلت لك ، فأخذ إسحق بن إبراهيم رقعة كانت بين يديه فقرأها عليه ، ووقفه عليها فقال : « أشهد أن لا إله إلاالله أحدا فردا ، لم يـكن قبله شيء ولا بعده شيء ولا يشبهه شي من خلقه فى معنى من المعانى ولا وجه من الوجوه » قال : نعم وقد كنت أضرب الناس على دون هذا ، فقال للـكاتب : اكتب ما قال .

وأما علىّ بن أبى مُقَاتِل ، فقل له : أَلَسْتَ القائلَ لأمير المؤمنين إنك تحلِّل وتحرِّم ؟والمكلِّمَ له بمثل ما كلّمته به . مما لم يذهب عنه ذِكْرُه !

وأما الذَّيَّال بن الهَيْثَم ، فأَعْلِمْه أنه كان فى الطعام الذى كان يسرِقه فى الأنبار ، وفيما يستولى عليه من أمر مدينة[1] أمير المؤمنين أبى العباس ما يَشْغَله ، وأنه لو كانَ مُقْتَفِياً آثارَ سَلَفه ، وسالِكاً مناهِجَهم ، ومحتذِياً سبيلَهم ، لَمَا خرجَ إلى الشِّرك بعد إيمانه .

وأما أحمد بن يزيد المعروف بأبى العَوَّام وقولُه إنه لا يُحْسِن الجوابَ فى القرآن ، فأَعْلِمْه أنه صبىٌّ فى عقله لا فى سِنِّه ، جاهل ، وأنه إن كان لا يُحْسِن الجوابَ فى القرآن فسيُحْسِنُه إذا أخذَه التأديبُ ، ثم إنْ لم يفعل كان السيف من وراء ذلك إن شاء الله .

وأما أحمدُ بن حَنْبَل وما تَكتُب عنه ، فأَعلِمْه أن أمير المؤمنين قد عَرَف فَحْوى[2] تلك المقالة وسَبيلَه فيها ، واستدلَّ عَلَى جَهْله وآفَتِه بها .

وأما الفضلُ بن غانم ، فأَعْلِمْه أنه لم يَخْفَ على أمير المؤمنين ما كان منه بمصر ، وما اكتسب من الأموال فى أقلّ من سَنَة ، وما شَجَرَ[3] بينه وبين المطَّلِب بن عبد الله فى ذلك ، فإنه من كان شأنُه شأنَه ، وكانت رغبتُه فى الدينار والدرهم رغبتَه ، فليس بمستنكَرٍ أن يبيع إيمانه طَمَعاً فيهما ، وإيثاراً لعاجِلِ نفعهما ، وأنه مع ذلك القائلُ لعلىّ بن هشام ما قال ، والمخالِف له فيما خالفه فيه ، فما الذى حال به عن ذلك ، ونَقَله إلى غيره ؟

---

(١) هى مدينة الهاشمية ، بناها السفاح بالكوفة .

(٢) فحوى الكلام : معناه .

(٣) شجر الأمر بينهم كنصر : اضطرب وتنازعوا فيه .

وأما الزِّيادىّ[١] فأعلمه أنه كان منتحِلا أوّلاً أوّلَ دَعِىّ كان فى الإسلام خُولِفَ فيه حُكْمُ رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وكان جديراً أن يسلُك مَسْلَكه ، فأنكر أبو حسّان أن يكون مَولًى لزياد ، أو يكون مولًى لأحد من الناس (وذكر أنه إنما نُسِب إلى زياد لأمر من الأمور) .

وأما المعروف بأبى نصر التَّمّار ، فإن أمير المؤمنين شَبَّه خَساسَةَ عقله بخساسة مَتْجَره .

وأما الفضل بن الفَرُّخان ، فأَعْلِمه أنه حاول بالقول الذى قاله فى القرآن أَخْذَ الودائع التى أودَعَها إياه عبدُ الرحمن بن إسحق وغيره ترَبُّصًا[٢] بمن استودَعَه وطمعاً فى الاستكثار لِمَا صار فى يده ، ولاسبيلَ عليه عن تقادُم عهده ، وتطاوُلِ الأيام به ، فَقُلْ لعبد الرحمن بن إسحق لا جَزاك الله خيراً عن تقويتك مِثل هذا وإيمانك ، إياه ، وهو معتقِدٌ للشِّرك ، مُنْسَلِخ من التوحيد .

وأما محمد بن حاتم وابن نوح والمعروف بأبى مَعْمَر ، فأَعْلِمهم أنهم مشاغيلُ بأكل الربا عن الوقوف على التوحيد ، وأن أمير المؤمنين لو لم يستحلّ محاربتَهم فى الله ومجاهَدتَهم إلا لإربائهم وما نزل به كتابُ الله فى أمثالهم ، لاستحَلّ ذلك ، فكيف بهم وقد جمَعوا مع الإرباء شِركا ، وصاروا للنصارى مِثْلاً .

وأما أحمدُ بن شُجاع ، فَأَعْلِمْهُ أنك صاحِبُه بالأمس ، والمستخرِجُ منه ما استخرجْته من المال الذى كان استحلّه من مال علىّ بن هشام ، وأنه ممّن الدينارُ والدرهمُ دِينُه .

وأما سَعْدَوَيْهِ الواسِطىّ ، فقل له : قبَّح اللهُ رجلا بلغ به التصنُّع للحديث ، والتزيُّن به ، والحِرْص على طلب الرِّياسة فيه ، أن يتمَنَّى وقتَ المِحْنة . فيقول بالتقرب بها متى يُمْتَحَن فيجلس للحديث .

(١) هو أبو حسان الزيادى . وانتحله : ادعاه لنفسه وهو لغيره . والدعى : المتهم فى نسبه المنسوب إلى غير أبيه ، والمراد : زياد ابن أبيه . (٢) أى انتظارا .

وأما المعروف بسَجّادة وإنكارُه أن يكون سمع ممن كان يجالس من أهل الحديث وأهل الفقه القولَ بأن القرآن مخلوق، فأَعْلِمه أنه في شُغُله بإعدادِ النَّوَى وحَكِّه لإصلاح سجادته، وبالودائع التي دَفَعَهَا إليه عليّ بن يحيى وغيرُه ما أذْهله عن التوحيد وألهاه، ثم سَلْهُ عما كان يوسف بن أبي يوسف ومحمد بن الحسن يقولانه إن كان شاهَدَهما وجالَسهما.

وأما القواريريُّ، ففيما تَكشَّفَ من أحواله وقَبُولِهِ الرُّشا والمُصانَعَاتِ، ما أبان عن مذهبه وسُوءِ طريقته، وسَخافة عقله ودينه، وقد انتهى إلى أمير المؤمنين أنه يتولَّى لجعفر بن عيسى الحَسَنيِّ مسائِلَه، فتقدَّمْ إلى جعفر بن عيسى في رَفْضِهِ وتَرْكِ الثقة به والاستنامةِ[1] إليْهِ.

وأما يحيى بن عبد الرحمن العُمَرى، فإن كان من ولد عُمَر بن الخطاب فجوابه معروف.

وأما محمد بن الحسن بن عليّ بن عاصم، فإنه لو كان مقتدياً بمن مضى مِن سَلَفه، لم ينتحِل النِّحْلَة التي حَكَيْتَ عنه، وإنه بعدُ صبيٌّ يحتاج إلى تعلّم.

وقد كانَ أمير المؤمنين وجّه إليك المعروفَ بأبي مُسْهِر بعد أن نَصَّهُ أمير المؤمنين عن مِحْنته في القرآن، فجَمْجَم[2] عنها ولَجْلَج فيها، حتى دعا له أميرُ المؤمنين بالسيف، فأقرَّ ذميماً، فانصُصْهُ عن إقراره، فإن كان مقيماً عليه فأشْهِرْ ذلك وأظْهِرْه إن شاء الله.

ومن لم يرجعْ عن شِرْكه — ممن سَمَّيْتَ لأمير المؤمنين في كتابك، وَذَكَرَه أمير المؤمنين لك، أو أمسَكَ عن ذكره في كتابه هذا — ولم يقل إن القرآن مخلوق،

---

(١) استنام إليه: سكن واطمأن.
(٢) الجمجمة: أن لا يبين كلامه، كالتجمجم.

بعد بشر بن الوليد ، وإبراهيم بن المهدى ، فاحملهم أجمعين مُوثَقِينَ إلى عسكر أمير المؤمنين ، مع من يقوم بحفظهم وحراستهم فى طريقهم ، حتى يؤدِّيَهم إلى عسكر أمير المؤمنين ويسلِّمَهم إلى من يُؤْمَن بتسليمهم إليه ، لِيَنُصَّهم أميرُ المؤمنين ، فإن لم يرجِعوا ويتوبوا ، حَمَلَهم جميعا على السيف إن شاء الله ، ولا قوة إلا بالله .

وقد أنفَذ أميرُ المؤمنين كتابه هذا فى خَرِيطة بُنْدارِيّة[1] ، ولم يُنْظِر به اجتماعَ الكتبِ الخرائطِيّة ، مُعَجِّلاً به ، تقرُّباً إلى الله عزّ وجلّ بما أصدر من الحكم ، ورجاءَ ما اعتمَدَ ، وإدراكَ ما أمّل من جَزِيلِ ثوابِ الله عليه ، فأَنفِذْ لما أتاك من أمير المؤمنين وعجل إجابة أمير المؤمنين بما يكون منك فى خريطة بُنْدارية مُفْرَدة عن سائر الخرائط ، لتعرِّفَ أمير المؤمنين ما يعملونه إن شاء الله[2] » .

وكتب سنة ٢١٨ هـ .   (تاريخ الطبرى ١٠ : ٢٨٩)

---

(١) الخريطة . وعاء من أدم وغيره يشد على مافيه ، وبندارية نسبة إلى بندار ، وقد تقدم أنه التاجر الذى يخزن البضائع للغلاء — فهو كثير المال — والظاهر أن الخريطة البندارية كانت تمتاز عن سائر الخرائط ، بمتانة صنعها وإحكامها واتساعها لقدار من النقود كبير ، وأنظره : أخره .

(٢) فأجاب القوم كلهم حين أعاد القول عليهم إلى أن القرآن مخلوق إلا أربعة نفر ، وهم : أحمد ابن حنبل وسجادة والقواريرى ومحمد بن نوح ، فأمر بهم إسحق بن إبراهيم فشدوا فى الحديد ، فلما كان من الغد دعا بهم جميعا يساقون فى الحديد ، فأعاد عليهم المحنة فأجابه سجادة إلى أن القرآن مخلوق ، فأمر بإطلاق قيده وخلى سبيله ، وأصر الآخرون على قولهم ، فلما كان من بعد الغد عاودهم أيضا فأعاد عليهم القول ، فأجاب القواريرى إلى أن القرآن مخلوق ، فأمر بإطلاق قيده وخلى سبيله ، وأصر أحمد بن حنبل ومحمد بن نوح على قولهما ولم يرجعا ، فشدا جميعا فى الحديد ، ووجها إلى طرسوس « بفتح الطاء والراء : مدينة ببلاد الروم (الأناضول) بينها وبين أذنة (أطنة) ستة فراسخ » ، وكان المأمون قد خرج إليها غازيا فأدركته منيته بها ، وفيها قبره » ومات ابن نوح فى طريقه إليها .

واتفق أن مات المـأمون قبل وصول ابن حنبل إليه (سنة ٢١٨ هـ) وعهد إلى أخيه المعتصم بالخلافة وأوصاه أن يحمل الناس على القول بخلق القرآن ، واستمر الإمام أحمد محبوسا إلى أن امتحنه المعتصم .

واستتماما للفائدة نسوق إليك بقية الخبر فى هذه المسألة فنقول : أحضر المعتصم الإمام أحمد ، وعقد له مجلسا للمناظرة ، وفيه عبد الرحمن بن إسحق والقاضى أحمد بن أبى دواد وغيرهما ، فناظروه ثلاثة أيام ولم يزل معهم فى جدال إلى اليوم الرابع ، فأمر المعتصم بضربه بالسياط ، ولم يحل عن رأيه إلى أن أغمى عليه ، ونخسه عجيف بن عنبسة بالسيف ، ورمى عليه بارية (وهى الحصـير المنسوج) وديس عليه ثم حمل إلى منزله بعد أن ضرب ثمانية وثلاثين سوطا ، وكانت مدة مكثه فى السجن ثمانية وعشرين شهرا .

. . . .

ذكروا أنه لما نوظر فى الأيام الثلاثة كان المعتصم يخلو به ويقول له : ويحك يأحمد ! أنا والله عليك شفيق ، وإنى لأشفق عليك مثل شفقتى على ابنى هرون « يعنى الواثق » فأجبنى ، فوالله لئن أجبتنى لأطلقن غلك بيدى ،و لأطأن عقبتك ، ولأركبن إليك بجندى ، فيقول : ياأمير المؤمنين أعطونى شيئا من كتاب الله تعالى أو سنة رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فإذا طال به المجلس ضجر وقام ، ورد أحمد إلى الموضع الذى كان فيه ، وتتردد إليه رسل المعتصم يقولون : يأحمد أمير المؤمنين يقول لك : ماتقول فى القرآن ؟ فيرد عليهم كما رد أولا . فلما كان فى اليوم الثالث طلب المناظرة فأدخل على المعتصم وعنده وزيره محمد بن عبد الملك الزيات والقاضى أحمد بن أبى دؤاد ، فقال المعتصم : كلموه وناظروه ، فلم يزالوا معه فى جدال إلى أن قالوا : يا أمير المؤمنين اقتله ودمه فى أعناقنا . فرفع المعتصم يده ولطم بها وجه الإمام أحمد فخر مغشيا عليه ، فتمعرت وجوه قواد خراسان — وكان عم أحمد فيهم — فخاف الخليفة منهم على نفسه فدعا بماء ورش على وجهه ، فلما أفاق من غشيته رفع رأسه إلى عمه . وقال ياعم لعل هذا الماء الذى رش على وجهى غصب عليه صاحبه ، فقال المعتصم: ويحكم أما ترون ما يتهجم به على هذا وقرابتى من رسول الله صلى الله عليه وسلم! لارفعت السوط عنه حتى يقول القرآن مخلوق، ثم التفت إلى أحمد وأعاد عليه القول، فرد أحمد كالأول ، فلم يزل كذلك حتى ضجر وطال المجلس ، فعند ذلك قال : عليك لعنة الله ، لقد كنت طمعت فيك قبل هذا ، خذوه ، اخلعوه ، اسحبوه فأخذ وسحب ثم خلع ، ثم قال المعتصم : السياط . قال الإمام أحمد : وكان عندى شعرات من شعر النبى صلى الله عليه وسلم قد صررتها فى كم قيصى ، فجاء بعض القوم إلى قيصى ليحرقه ، فقال المعتصم : لا تحرقوه وانزعوه عنه وإنما درىء عن القميص الحرق ببركة شعر النبى صلى الله عليه وسلم ، وشدوا يديه فتخلعتا — ولم يزل أحمد يتوجع منهما حتى مات — ثم قال المعتصم للجلادين : تقدموا ، ونظر إلى السياط فقال : ايتوا بغيرها ، ثم قال لأحدهم : أذمه (أى أسل دمه . من ذم أنفه وذن إذا سال) وأوجع ، قطع الله يدك ، فتقدم وضربه سوطين ثم تنحى ، ثم قال لآخر : أذمه وشد ، قطع الله يدك ، فتقدم وضربه سوطين ثم تنحى ، ولم يزل يدعو رجلا رجلا فيضربه كل واحد سوطين ويتنحى ، ثم قام المعتصم وجاءه وهم محدقون به ، وقال : يأحمد تقتل نفسك ! أجبنى حتى أطلق غلك بيدى ، وجعل بعضهم يقول له : يأحمد ، إمامك على رأسك قائم فأجبه ، وعجيف ينخسه بالسيف ويقول : أتريد أن تغلب هؤلاء كلهم ؟ وبعضهم يقول : يأمير المؤمنين اجعل دمه فى عنقى ، فرجع المعتصم إلى الكرسى ، ثم قال للجلاد : أذمه ، قطع الله يدك ، ثم جاء المعتصم إليه ثانيا وقال : يأحمد أجبنى ، فقال كالأول . فرجع المعتصم وجلس على الكرسى ، ثم قال للجلاد : شد عليه ، قطع الله يدك ، قال أحمد : فذهب عقلى ، فما عقلت إلا وأنا فى حجرة مطلق عنى ، كل ذلك وهو صائم لم يفطر ، وكان ذلك فى العشر الأخيرة من رمضان سنة ٢٢٠ هـ ، ثم وجه المعتصم رجلا ينظر الضرب والجراحات ويعالجه ، فنظر إليه وقال : والله لقد رأيت من ضرب ألف سوط ، فما رأيت أشد ضربا من هذا ثم عالجه ، وبقى أثر الضرب بينا فى ظهره إلى أن مات (سنة ٢٤١ هـ) — انظر تاريخ الطبرى ١٠ : ٢٩٢ وتبيين كذب المفترى ص ٣٤٩ ، وحياة الحيوان الكبرى للدميرى ١ : ١١٥ — ١١٧ ، ووفيات الأعيان ١ : ١٧ ، ومروج الذهب ٢ : ٣٤٨ .

ولم يزل ابن حنبل بعد ضربه يحضر الجمعة والجماعات ويفتى ويحدث إلى أن مات المعتصم (سنة ٢٢٧ هـ) ، وولى الواثق فأظهر ما أظهره المأمون والمعتصم من المحنة ، وقال للإمام أحمد : لاتجمعن إليك أحدا ، ولا تساكنى فى بلد أنا فيه ، فأقام الإمام أحمد مختفيا لايخرج إلى صلاة ولاغيرها =

. . . .

حتى مات الواثق (سنة ٢٣٢ هـ) وولى المتوكل ، فكتب إلى الآفاق برفع المحنة ، ومنع الناس من المناظرات فى الآراء والمذاهب ، وقرب منه أهل السنة ، وأمر بإحضار الإمام أحمد وإكرامه وإعزازه ، وأطلق له مالا كثيرا فلم يقبله ، وفرقه على الفقراء والمساكين ، وأجرى على أهله وولده فى كل شهر أربعة آلاف درهم فلم يرض بذلك ، ولم يحفل المتوكل بالمعتزلة فخمدت نارهم ، وتضاءل أمرهم — انظر حياة الحيوان الكبرى للدميرى ١ : ١١٥ ، ١٢٢ ، ومروج الذهب ٢ : ٣٦٩ .

وممن عضته هذه المحنة بأنيابها فى عهد الواثق أبو يعقوب يوسف بن يحيي البويطى المصرى صاحب الإمام الشافعى ، دعى إلى القول بخلق القرآن ، فامتنع منه ، فحمل من مصر إلى العراق مقيدا حتى مات فى أقياده محبوسا صابرا على ما أصابه من الأذى ، وكان مقيدا إلى أنصاف ساقيه ؛ مغلولة يداه إلى عنقه ، قال الربيع بن سليمان : رأيت البويطى على بغل فى عنقه غل وفى رجليه قيد ، وبين الغل والقيد سلسلة من حديد فيها طوبة وزنها أربعون رطلا ، وهو يقول : إنما خلق الله سبحانه وتعالى الخلق « بكن » فإذا كانت « كن » مخلوقة فكأن مخلوقا خلق مخلوقا ، فوالله لأموتن فى حديدى حتى يأتى من بعدى قوم يعلمون أنه مات فى هذا الشأن قوم فى حديدهم ، ولئن أدخلت عليه لأصدقنه — يعنى الواثق — وقال الربيع أيضا : كتب إلى أبو يعقوب من السجن : إنه ليأتى على أوقات لا أحس بالحديد إنه على بدنى حتى تمسه يدى ، وتوفى سنة ٢٣١ هـ فى القيد والسجن ببغداد — انظر تبيين كذب المفترى ص ٣٤٨ ، ووفيات الأعيان ٢ : ٣٤٧ .

ومنهم نعيم بن حماد ، وقد مات فى سجن الواثق مقيدا أيضا — انظر تاريخ بغداد للخطيب البغدادى ج ٥ : ص ١٧٧ .

ومنهم أحمد بن نصر الخزاعى قتله الواثق وصلبه سنة ٢٣١ هـ ذكروا أن ثمامة بن أشرس سعى به إلى الواثق ، وذكر له أنه يكفر من يقول بخلق القرآن ، ومن ينكر رؤية الله تعالى يوم القيامة فأحضره الواثق وقال له : ماتقول فى القرآن ؟ قال : كلام الله ، قال : أفمخلوق هو ؟ قال : هو كلام الله ، قال: أفترى ربك يوم القيامة ؟ قال : كذا جاءت الرواية ، فقال : ويحك ؟ يرى كما يرى المحدود المتجسم ، يحويه مكان ، ويحصره الناظر ؟ أنا أكفر برب هذه صفته ، ماتقولون فيه ؟ فقال عبد الرحمن ابن إسحق — وكان قاضيا على الجانب الغربى ببغداد فعزل — هو حلال الدم ، وقال جماعة من الفقهاء كما قال ، فأظهر ابن أبى دؤاد أنه كاره لقتله . فقال الواثق : يا أمير المؤمنين ، شيخ مختل ، لعل به عاهة أو تغير عقل ، يؤخر أمره ، فقال الواثق : ما أراه إلا مؤديا لكفره ، ودعا الواثق بالصمصامة ، وقال : إذا قمت إليه فلا يقومن أحد معى ، فإنى أحتسب خطاى إلى هذا الكافر الذى يعبد ربا لا نعبده ، ولا نعرفه بالصفة التى وصفه بها ، ثم أمر بالنطع فأجلس عليه وهو مقيد ، وأمر بشد رأسه بحبل ، وأمرهم أن يمدوه ، ومشى إليه حتى ضرب عنقه ، وأمر بحمل رأسه إلى بغداد ، فنصب فى الجانب الشرقى أياما ، وفى الجانب الغربى أياما ، وتتبع رؤساء أصحابه فوضعوا فى الحبوس ، ولم يزل رأسه منصوبا ببغداد ، وجسده بسمر من رأى ست سنين إلى أن حط وجمع بين رأسه وبدنه — انظر الفرق بين الفرق ص ١٥٩ ، وتاريخ بغداد ج٥ ص ١٧٣ — ١٨٠ ، وحياة الحيوان الكبرى للدميرى ١ : ١١٩ ، ومروج الذهب ٢ : ٣٦٣ .

٣٤٤ — كتاب منصور بن محمد إلى المريسى

وكتب المَرِيسى[(١)] إلى أبى يحيى منصور بن محمد ، اكتُبْ : القرآنُ خالق أو مخلوق ؟ فكتب إليه :

« عافانا اللهُ وإياك من كل فِتْنَةٍ ، وجَعَلَنا وإياك من أهل السُّنَّة ، وممن لا يَرْغَبُ بنفسه عن الجماعة ، فإنه إن يفعل فأَعظِمْ بها مِنَّةً ، وإن لا يفعل فهى الهَلَكةُ ، ونحن نقول :

إن الكلام فى القرآن بِدْعَة ، يتكلف المُجِيبُ ما ليس عليه ، ويتعاطَى السائلُ ما ليس له ، وما نعلَم خالقاً إلا الله ، وما سوى الله فمخلوقٌ ، والقرآن كلامُ الله ، فانتَهِ بنفسك إلى أسمائه التى سَمَّاهُ الله بها ، فتكونَ من المهتدين ، ولا تَسِمِ القرآن باسْمٍ من عندك ، فتكونَ من الضالِّين ، جعَلَنا الله وإياك من الذين يخشَوْنَ ربَّهم بالغَيْبِ ، وهم من السَّاعَةِ مُشْفِقُون » .

(العقد الفريد ١ : ٢٦٧)

٣٤٥ — كتاب راشد الكاتب إلى محمد بن عبد الملك الزيات

وحَجَّ محمد بن عبد الملك الزيات[(٢)] فى آخر أيام المأمون ، فلما قَدِم كتب إليه راشد الكاتب :

« لا تَنْسَ عهدى ولا مودَّتِيَهْ ... وأشْتَقْ إلى طَلْعَتِى ورُؤْيَتِيهْ

فإن تجاوزْتَ ما أقولُ إلى الـ ... ـعَصْبِ فذاك المأمولُ منكَ لِيَهْ[(٣)] »

(الأغانى ٢٠ : ٥١)

---

(١) هو بشر بن غياث المريسى ، وقد تقدم لك ذكره ، وتوفى سنة ٢١٨ هـ — انظر ترجمته فى وفيات الأعيان ١ : ٩١ .

(٢) وزر للمعتصم والواثق والمتوكل ، وتوفى سنة ٢٣٣ هـ — انظر ترجمته فى الأغانى ٢٠ : ٤٦ ووفيات الأعيان ٢ : ٥٤ ، وتاريخ بغداد للخطيب البغدادى ٢ : ٣٤٢ ، والفخرى ص ٢١٣ ، والفهرست لابن النديم ص ١٧٧ ، وتاريخ الطبرى ١١ : ٢٧ ، وغرر الخصائص الواضحة ١٤٣ و ص ٤١١ .

(٣) العصب : ضرب من برود اليمن .

٣٤٦ — رد ابن الزيات عليه

فأجابه محمد بن عبد الملك :

إنكَ مِنّي بحيثُ يطَّرِدُ النـــاظِرُ من تحت ماءِ دَمْعَتِيَهْ
ولا ، وَمَنْ زادنى تودُّدُهُ على صِحابى بِفَضْــلِ غَيْبَتِيَهْ[١]
ما أحْسَنَ التَّرْكَ والخِلافَ لِمَا تُرِيدُ منى وما تقولُ لِيَهْ
يا بِأبى أنت ، ما نَسِيتُك فى يومِ دُعائى ولا هدِيَّتِيَهْ
ناجيتُ بالذِّكرِ والدعاءِ ، لك اللـــهَ لكَ اللهُ رافعاً يديَهْ
حتى إذا ما ظننتُ بالمَلِكِ الـــقادرِ أنْ قد أجاب دعوَتِيه
قمتُ إلى موضِـعِ النِّعالِ ، وقد أقمتُ عشرين صاحباً مَعِيَهْ
وقلت : لى صاحِبٌ أريدُ له نَعْلا ، ولو من جُلودِ راحَتِيَهْ
فانقطع القولُ عنــد واحدةٍ قال الذى اختارها : بِشارتِيَهْ
فقلت : عندى لك البشارةُ والشــكرُ وقُلًّا فى جَنْبِ حاجتِيَهْ[٢]
ثم تخيَّرتُ بعــد ذاك من الــعَصْبِ اليمانِى بفضْلِ خِيرَتِيَهْ
مَوْشِــيَّةً ، لم أزَل بِبائعِها أرْغِبُ حتى زها علىَّ بِيَهْ[٣]
يرفَعُ فى سَــوْمِه وأرْغِبُه حتى اتَّقَى زَهْوُه ورغبتِيــه[٤]
وقد أتاكَ الذى أمَرْتَ به فاعذِرْ بكُثْرِ الإنعام قُنْيَتِيَهْ[٥]

(الأغانى ٢٠ : ٥١)

(١) الواو فى « ومن » للقسم .
(٢) القل : القليل .
(٣) وشى الثوب كوعى : نمنمه ونقشه وحسنه ، والزهو : الكبر والتيه .

٣٤٧ - كتاب المأمون إلى عماله

وفى سنة ٢١٨ هـ نَفَذَت كتب المأمون إلى عُمّاله فى البلدان :

« من عبد الله عبد الله الإمام المأمون أمير المؤمنين ، وأخيه الخليفة من بعده أبى إسحٰق[1] ابن أمير المؤمنين الرشيد » .

فورد كتاب إلى إسحٰق بن يحيى بن مُعاذ عامله على جُند دمشق عنوانه :

« من عبد الله عبد الله الإمام المأمون أمير المؤمنين ، والخليفة من بعد أمير المؤمنين أبى إسحٰق ابن أمير المؤمنين الرشيد .

أما بعدُ فإن أمير المؤمنين أمَر بالكتاب إليك فى التقدُّم إلى عُمّالك : فى حُسْن السِّيرة ، وتخفيف المُؤْنة ، وكفِّ الأذى عن أهل عَمَلك ، فتقدَّمْ إلى عمالك فى ذلك أشَدَّ التقدِمَة ، واكتب إلى عُمَّال الخَراج بمثل ذلك » .

وكتب إلى جميع عماله فى أجناد الشأم، جند حِمْص والأُرْدُنّ وفِلَسْطين بمثل ذلك .

(تاريخ الطبرى ١٠ : ٢٩٣)

---

(١) هو الملقب بالمعتصم .

تم الجزء الثالث بحمد الله وتوفيقه

ويليـــه

الجزء الرابع

وأوله الشطر الثانى

من رسائل العصر العباسى الأول

فهـــرس

الجزء الثالث

من جمهرة رسائل العرب

الباب الرابع

الرسائل فى العصر العباسى الأول

رقم الصفحة	رقم الرسالة	الرسالة
٩	١	كتاب أبى العباس السفاح إلى الحسن بن قحطبة
١٠	٢	كتاب المنصور إلى ابن هبيرة
١١	٣	« أبى جعفر المنصور لابن هبيرة بالأمان
١٣	٤	كتب بين أبى مسلم وأبى العباس وأبى جعفر
١٤	٥	كتاب صالح بن علىّ إلى أبى العباس السفاح
١٤	٦	« أبى العباس إلى عامر بن إسماعيل
١٥	٧	« سليمان بن علىّ إلى أبى العباس
١٦	٨	« يوسف بن القاسم عن عبد الله بن علىّ إلى أبى العباس
١٦	٩	كتاب يوسف بن القاسم إلى عبد الله بن علىّ
١٧	١٠	رد عبد الله بن علىّ عليه
١٨	١١	كتب بين أبى مسلم وأبى العباس وأبى جعفر
١٩	١٢	كتاب لعمارة بن حمزة عن أبى العباس فى وفاة داود بن علىّ
٢٠	١٣	« أبى مسلم إلى أبى جعفر
٢١	١٤	رد أبى جعفر على أبى مسلم
٢١	١٥	كتاب من الخليفة إلى ولى العهد لعبد الله بن علىّ

رقم الصفحة	رقم الرسالة	الرســـــالة
٢٢	١٦	كتاب صالح بن علىّ فى السلامة
٢٣	١٧	كتاب عبد الله بن صالح فى السلامة
٢٣	١٨	بين أبى مسلم وأبى جعفر
٢٤	١٩	كتاب أبى جعفر إلى عبد الله بن علىّ
٢٤	٢٠	كتاب الأمان لعبد الله بن علىّ — كتبه ابن المقفع
٢٦	٢١	« أبى جعفر إلى أبى مسلم
٢٧	٢٢	« أبى مسلم إلى أبى جعفر
٢٧	٢٣	رد أبى جعفر على أبى مسلم
٢٨	٢٤	كتاب أبى مسلم إلى أبى جعفر
٢٩	٢٥	« أبى جعفر إلى أبى داود
٣٠	٢٦	« أبى داود إلى أبى مسلم
٣٠	٢٧	رسالة ابن المقفع فى الصحابة — كتبها للمنصور
٤٨	٢٨	الرسالة اليتيمة لابن المقفع
٥٣	٢٩	تحميد لابن المقفع
٥٤	٣٠	كتاب ابن المقفع إلى بعض إخوانه
٥٤	٣١	وله فى وصف أحد إخوانه
٥٥	٣٢	كتابه إلى صديق له يهنئه بمولودة
٥٦	٣٣	كتابه يعزى عن ولد
٥٦	٣٤	« « « «
٥٦	٣٥	« « « بنت
٥٦	٣٦	« « « «
٥٧	٣٧	كتاب تعزية له
٥٧	٣٨	كتاب آخر
٥٨	٣٩	كتابه إلى صديق له يستقضيه حاجة
٥٨	٤٠	كتاب آخر
٥٩	٤١	كتاب له فى السلامة
٥٩	٤٢	« آخر إلى ابن الثقفى

رقم الصفحة	رقم الرسالة	الرسالة
٦٠	٤٣	كتاب آخر
٦٠	٤٤	كتاب فى السلامة
٦١	٤٥	« لابن الثقفى فى السلامة
٦١	٤٦	كتاب ابن المقفع إلى يحيى بن زياد الحارثى
٦٣	٤٧	رد يحيى بن زياد على ابن المقفع
٦٥	٤٨	كتاب أبى نصر الرقاشى إلى يحيى بن زياد
٦٧	٤٩	جواب يحيى بن زياد
٧٠	٥٠	كتاب حماد عجرد إلى يحيى بن زياد
٧١	٥١	جواب سلامة لمحمد بن زياد الحارثى إلى المنصور
٧٢	٥٢	كتاب له فى الشكر
٧٣	٥٣	« آخر
٧٣	٥٤	« «
٧٤	٥٥	كتابه إلى صالح بن علىّ
٧٥	٥٦	كتاب عبد الله بن الحسن إلى صديق له
٧٥	٥٧	أبو جعفر المنصور وعبد الله بن الحسن
٧٥	٥٨	كتاب أبى جعفر إلى النفس الزكية
٧٩	٥٩	رد النفس الزكية على أبى جعفر
٨١	٦٠	رد أبى جعفر على النفس الزكية
٨٧	٦١	كتاب أبى جعفر إلى الحسن بن زيد
٨٨	٦٢	كتب بين أبى جعفر وسلم بن قتيبة
٨٨	٦٣	كتاب المنصور إلى عيسى بن موسى
٩٢	٦٤	رد عيسى بن موسى على أبى جعفر
٩٥	٦٥	كتاب عيسى بن موسى إلى المنصور
٩٦	٦٦	كتاب آخر
٩٦	٦٧	رد المنصور عليه
٩٧	٦٨	كتاب المنصور إلى عيسى بن موسى
٩٧	٦٩	« « « « « «

رقم الصفحة	رقم الرسالة	الرســـــالة
٩٨	٧٠	كتاب عبيد الله العمرى إلى جعفر المنصور
٩٩	٧١	رد أبى جعفر على العمرى
١٠٠	٧٢	كتاب أبى جعفر إلى محمد بن سليمان
١٠١	٧٣	رسالة غسان بن عبد الحميد فى العتاب
١٠٧	٧٤	كتاب » » » » » فى تهنئة بتزويج
١٠٨	٧٥	تحميد له
١٠٨	٧٦	تعزية له
١٠٨	٧٧	» » إلى خليفة
١٠٩	٧٨	» »
١١٠	٧٩	» »
١١٠	٨٠	» »
١١٢	٨١	رسالة عمارة بن حمزة فى على بن ماهان
١١٧	٨٢	كتاب له فى السلامة
١١٨	٨٣	» له
١١٨	٨٤	» جبل بن يزيد إلى بعض إخوانه
١١٩	٨٥	» » » » » » »
١٢٠	٨٦	» » » » » » »
١٢٠	٨٧	كتاب له فى المطر
١٢١	٨٨	تعزية له
١٢١	٨٩	تعزية له
١٢٢	٩٠	تعزية له إلى الخليفة
١٢٣	٩١	فصل له فى الذم
١٢٤	٩٢	كتاب بشر البلوى إلى يزيد بن منصور
١٢٥	٩٣	» أبى جعفر إلى عامله بحضرموت
١٢٥	٩٤	فصل من كتاب أبى جعفر إلى الآفاق بالبيعة للمهدى
١٢٧	٩٥	كتاب بعض الهاشميين إلى المهدى وهو ولىّ عهد
١٢٨	٩٦	كتاب أبى جعفر عند موته يوصى بالمهدى

رقم الصفحة	رقم الرسالة	الرسالة
١٢٩	٩٧	كتاب لجبل بن يزيد تعزية وتهنئة للمهدى
١٣٠	٩٨	تعزية لغسان بن عبد الحميد عن خليفة
١٣١	٩٩	فصل من تعزية له
١٣٢	١٠٠	كتاب له فى المودة
١٣٢	١٠١	عهد من المهدى إلى أحد ولاته
١٣٤	١٠٢	كتاب المهدى إلى محمد بن سليمان
١٣٨	١٠٣	كتاب بشر البلوى إلى على بن سليمان
١٣٨	١٠٤	كتاب عيسى بن موسى بنزوله عن ولاية العهد لموسى الهادى
١٤١	١٠٥	« المهدى إلى روح بن حاتم
١٤٢	١٠٦	« أبى عبيد الله إلى المهدى
١٤٢	١٠٧	تحميد لأبى عبيد الله
١٤٤	١٠٨	« « « «
١٤٥	١٠٩	« « « «
١٤٥	١١٠	« « « «
١٤٦	١١١	« « « « فى آخر كتاب
١٤٦	١١٢	كتاب إبراهيم بن أبى يحيى الأسلمى إلى المهدى
١٤٦	١١٣	جواب تعزية لشبيب بن شيبة
١٤٧	١١٧	كتاب فى البيعة لمحمد بن حجر
١٤٨	١١٥	رسالة ابن سيابة إلى يحى بن خالد البرمكى
١٤٩	١١٦	بين ابن سيابة وصديق له
١٥٠	١١٧	كتاب جعفر بن محمد بن الأشعث إلى يحيى بن خالد
١٥٠	١١٨	« آخر
١٥٠	١١٩	« آخر
١٥١	١٢٠	« يوسف بن القاسم إلى يحيى بن خالد
١٥١	١٢١	رد يحيى عليه
١٥٣	١٢٢	رد يوسف بن القاسم عليه
١٥٣	١٢٣	كتاب يوسف بن القاسم إلى محمد بن زياد الحارثى

رقم الصفحة	رقم الرسالة	الرسالة
١٥٣	١٢٤	بين يوسف بن القاسم ومحمد بن زياد
١٥٤	١٢٥	كتاب ليوسف بن القاسم عن الفضل بن يحيى
١٥٥	١٢٦	كتاب يحيى بن خالد إلى ابنه الفضل
١٥٥	١٢٧	رد الفضل عليه
١٥٦	١٢٨	كتاب يحيى بن خالد إلى ابنه الفضل
١٥٧	١٢٩	« أبي العباس بن جرير إلى الفضل بن يحيى
١٥٨	١٣٠	« للفضل بن يحيى
١٥٨	١٣١	« عمر بن مهران إلى الرشيد
١٥٩	١٣٢	« أبي الربيع محمد بن الليث إلى جعفر بن يحيى
١٦٠	١٣٣	« له في السلامة
١٦٠	١٣٤	« له في الاعتذار
١٦١	١٣٥	« منصو النمرى إلى الرشيد
١٦١	١٣٦	« محمد بن عبد الله بن حرب
١٦٣	١٣٧	« محمد بن عليّ إلى محمد بن يحيى بن خالد
١٦٣	١٣٨	رد محمد بن يحيى عليه
١٦٤	١٣٩	كتاب جعفر بن يحيى إلى أحد عماله
١٦٤	١٤٠	« حميد بن مهران إلى عامل معزول
١٦٥	١٤١	تحميد لأنس بن أبي شيخ
١٦٦	١٤٢	كتاب بشر البلوى إلى إبراهيم بن عبد الله الحجبي
١٦٨	١٤٣	« بشر البلوى إلى إبراهيم بن عبد الله الحجبي
١٧٣	١٤٤	« بشر البلوى إلى إبراهيم بن عبد الله الحجبي
١٧٤	١٤٥	كتابه إلى يحيى بن خالد البرمكي
١٧٥	١٤٦	« إلى يحيى بن خالد البرمكي
١٧٧	١٤٧	« إلى بشار بن رضابة
١٧٨	١٤٨	كتاب مطرف بن أبي مطرف إلى أحد إخوانه
١٨٠	١٤٩	« آخر له
١٨٢	١٥٠	« آخر له

رقم الصفحة	رقم الرسالة	الرسالة
١٨٢	١٥١	كتاب آخر له
١٨٣	١٥٢	« آخر له
١٨٤	١٥٣	« آخر له
١٨٤	١٥٤	« آخر له
١٨٥	١٥٥	« آخر له
١٨٧	١٥٦	« آخر له
١٨٨	١٥٧	« آخر له
١٩٠	١٥٨	« يحيى بن خالد إلى ابنه جعفر
١٩١	١٥٩	« يحيى بن خالد إلى أيوب بن هرون بن سليمان
١٩١	١٦٠	« يحيى بن خالد إلى الرشيد
١٩١	١٦١	بين يحيى بن خالد والرشيد
١٩٤	١٦٢	عهد الأمين على نفسه للرشيد
١٩٩	١٦٣	صورة أخرى
٢٠٣	١٦٤	عهد المأمون على نفسه للرشيد
٢٠٦	١٦٥	كتاب الرشيد إلى عماله
٢٠٩	١٦٦	رسالة يحيى بن زياد الحارثى فى تقريظ الرشيد
٢١٧	١٦٧	رسالة أبى الربيع محمد بن الليث التى كتبها للرشيد إلى قسطنطين ملك الروم
٢٧٤	١٦٨	كتاب نقفور ملك الروم إلى الرشيد
٢٧٥	١٦٩	رد الرشيد عليه
٢٧٥	١٧٠	رواية أخرى
٢٧٦	١٧١	كتاب الرشيد إلى على بن عيسى بن ماهان
٢٧٧	١٧٢	عهد الرشيد لهرثمة بن أعين وقد ولاه خراسان
٢٧٩	١٧٣	كتاب هرثمة بن أعين إلى الرشيد
٢٨٣	١٧٤	رد الرشيد عليه
٢٨٥	١٧٥	كتاب لهرثمة بن أعين
٢٨٥	١٧٦	« لقمامة بن زيد فى السلامة إلى الخليفة
٢٨٥	١٧٧	« آخر

رقم الصفحة	رقم الرسالة	الرســــالة
٢٨٦	١٧٨	كتاب إسحق بن الخطاب إلى الهزبر بن صبيح
٢٨٧	١٧٩	« إسحق بن الخطاب إلى زيد بن الفرج
٢٨٨	١٨٠	« للهزبر فى التنصل
٢٨٩	١٨١	« محمد بن كثير إلى الرشيد
٢٨٩	١٨٢	« أبى هرون العبدى إلى زبيدة بنت جعفر
٢٨٩	١٨٣	« الأمين إلى أخيه المأمون
٢٩١	١٨٤	« الأمين إلى أخيه صالح
٢٩٤	١٨٥	« عيسى بن واضح إلى الفضل بن الربيع
٢٩٤	١٨٦	« موسى بن عيسى إلى الأمين
٢٩٥	١٨٧	« المأمون إلى الأمين
٢٩٧	١٨٨	رد الأمين على المأمون
٢٩٨	١٨٩	رد المأمون على الأمين
٢٩٨	١٩٠	رد الأمين على المأمون
٢٩٩	١٩١	كتاب المأمون إلى الأمين
٣٠٠	١٩٢	رد أحد أعيان أهل العسكر
٣٠٠	١٩٣	كتاب رسول المأمون إليه
٣٠١	١٩٤	رد الأمين على المأمون
٣٠١	١٩٥	كتاب المأمون إلى أعيان أهل العسكر ببغداد
٣٠٢	١٩٦	« المأمون إلى علىّ بن عيسى بن ماهان
٣٠٥	١٩٧	« المأمون إلى الأمين
٣٠٥	١٩٨	« الأمين إلى المأمون
٣٠٦	١٩٩	رد المأمون على الأمين
٣٠٧	٢٠٠	كتاب طاهر بن الحسين إلى المأمون
٣٠٧	٢٠١	« الأمين إلى طاهر بن الحسين
٣٠٨	٢٠٢	« طاهر بن الحسين إلى المأمون
٣١٢	٢٠٣	« طاهر بن الحسين إلى أبى عيسى بن الرشيد
٣١٣	٢٠٤	« السيدة زبيدة إلى المأمون

رقم الصفحة	رقم الرسالة	الرسالة
٣١٤	٢٠٥	كتاب السيدة زبيدة إلى المأمون
٣١٥	٢٠٦	رد المأمون عليها
٣١٦	٢٠٧	كتاب أحمد بن يوسف فى قتل الأمين
٣١٧	٢٠٨	رسالة الخميس لأحمد بن يوسف
٣٣٤	٢٠٩	تحميد لأحمد بن يوسف إلى الولاة عن الخليفة
٣٣٤	٢١٠	تحميد لأحمد بن يوسف
٣٣٥	٢١١	تحميد لأحمد بن يوسف فى فتح السند
٣٣٥	٢١٢	تحميد لكاتب خزيمة بن خازم فى فتح الصنارية
٣٣٦	٢١٣	كتاب للفضل بن سهل
٣٣٦	٢١٤	« إبراهيم بن إسماعيل بن داود إلى ذى الرياستين
٣٣٧	٢١٥	« إبراهيم بن إسمعيل بن داود إلى علىّ بن الهيثم
٣٣٨	١٥٦	رد ابن الهيثم عليه
٣٣٩	٢١٧	كتاب الحسن بن سهل إلى أخيه الفضل
٣٣٩	٢١٨	« الفضل بن سهل إلى أخيه الحسن
٣٤٠	٢١٩	عهد المأمون لعلىّ بن موسى الرضى
٣٤٤	٢٢٠	صدر رسالة لإبراهيم بن المهدى فى الخميس
٣٤٥	٢٢١	رسالة الشكر لأحمد بن يوسف
٣٥٦	٢٢٢	كتاب المأمون إلى الحسن بن سهل يعزيه بأخيه
٣٥٧	٢٢٣	« المأمون إليه يعزيه بأبيه
٣٥٧	٢٢٤	« المأمون إليه
٣٥٨	٢٢٥	« الحسن بن سهل إلى المأمون
٣٥٩	٢٢٦	« الحسن بن سهل إلى محمد بن سماعة القاضى
٣٦٠	٢٢٧	رد ابن سماعة عليه
٣٦٠	٢٢٨	كتاب الحسن بن سهل إلى الحسن بن وهب
٣٦١	٢٢٩	ردّ الحسن بن وهب عليه
٣٦١	٢٣٠	كتاب المطلب بن عبد الله بن مالك إلى الحسن بن سهل
٣٦٢	٢٣١	ردّ الحسن بن سهل عليه

رقم الصفحة	رقم الرسالة	الرسالة
٣٦٢	٢٣٢	فصول للحسن بن سهل
٣٦٣	٢٣٣	كتاب الفضل بن الربيع إلى المأمون
٣٦٣	٢٣٤	« أحمد بن يوسف إلى المأمون
٣٦٤	٢٣٥	كتابه إلى المأمون
٣٦٦	٢٣٦	كتابه إلى إبراهيم بن المهدى
٣٦٦	٢٣٧	كتاب له عن المأمون
٣٦٧	٢٣٨	كتابه إلى بعض إخوانه يهنئه بمولود له
٣٦٧	٢٣٩	كتاب آخر
٣٦٨	٢٤٠	« آخر
٣٦٨	٢٤١	« آخر
٣٦٩	٢٤٢	كتابه فى تهنئة بإفراق من مرض
٣٦٩	٢٤٣	كتاب له
٣٦٩	٢٤٤	كتابه إلى بعض أخلائه
٣٧٠	٢٤٥	كتاب له
٣٧١	٢٤٦	ومن كلامه
٣٧٢	٢٤٧	ومن كلامه
٣٧٢	٢٤٨	ومن كلامه
٣٧٢	٢٤٩	كتاب له فى الاعتذار
٣٧٣	٢٥٠	ومن كلامه
٣٧٣	٢٥١	كتابه إلى بنى سعيد بن مسلم
٣٧٤	٢٥٢	كتاب له
٣٧٥	٢٥٣	كتاب له فى العدل والإنصاف
٣٧٥	٢٥٤	كتابه فى إنصاف قوم تظلموا
٣٧٦	٢٥٥	كتاب له فى السلامة
٣٧٦	٢٥٦	وله صدر فى السلامة
٣٧٧	٢٥٧	فصل له فى السلامة
٣٧٧	٢٥٨	فصل له فى الشكر

رقم الصفحة	رقم الرسالة	الرسالة
٣٧٧	٢٥٩	فصل له فى الشكر
٣٧٧	٢٦٠	كتاب له فى الشكر
٣٧٨	٢٦١	« له فى الاعتذار
٣٧٨	٢٦٢	« آخر
٣٧٩	٢٦٣	« آخر
٣٧٩	٢٦٤	« آخر
٣٧٩	٢٦٥	« له فى حاجة
٣٨٠	٢٦٦	« له فى الشوق
٣٨١	٢٦٧	فصل له فى الإخاء
٣٨١	٢٦٨	كتاب له فى العتاب
٣٨١	٢٦٩	« له فى الذم
٣٨٢	٢٧٠	« له فى الذم
٣٨٢	٢٧١	« إلى أحمد بن يوسف من صديق له
٣٨٢	٢٧٢	« القاسم بن يوسف إلى صديق له
٣٨٣	٢٧٣	« أحد غلمان الديوان إلى آخر منهم
٣٨٤	٢٧٤	رده عليه
٣٨٥	٢٧٥	رسالة سهل بن هرون فى البخل
٣٩٤	٢٧٦	كتاب سهل بن هرون إلى صديق له
٣٩٥	٢٧٧	كتابه إلى صديق له
٣٩٥	٢٧٨	ومن رسالة له يفضل الزجاج على الذهب
٣٩٦	٢٧٩	كتاب الحسن بن سهل إلى سهل بن هرون
٣٩٧	٢٨٠	كتاب العتابى إلى بعض إخوانه
٣٩٧	٢٨١	« آخر له
٣٩٨	٢٨٢	« آخر له
٣٩٨	٢٨٣	كتابه إلى بعض أهل السلطان
٣٩٨	٢٨٤	كتابه إلى صديق له
٤٠٠	٢٨٥	تعزية له

رقم الصفحة	رقم الرسالة	الرســـــالة
٤٠٠	٢٨٦	كتاب له
٤٠٠	٢٨٧	فصول للعتابي
٤٠١	٢٨٨	كتاب لابن الكلبي
٤٠٢	٢٨٩	« آخر
٤٠٢	٢٩٠	« على بن عبيدة إلى ابن الكلبي
٤٠٢	٢٩١	« عنبسة بن إسحق إلى المأمون
٤٠٣	٢٩٢	رد المأمون عليه
٤٠٣	٢٩٣	كتاب طاهر بن الحسين إلى يحيى بن حماد
٤٠٥	٢٩٤	« يحيى بن حماد إلى طاهر بن الحسين
٤٠٦	٢٩٥	عهد طاهر بن الحسين لابنه عبد الله
٤١٦	٢٩٦	كتاب إلى طاهر بن الحسين من بعض عماله
٤١٦	٢٩٧	رد طاهر عليه
٤١٦	٢٩٨	كتاب إبراهيم بن المهدى إلى طاهر
٤١٧	٢٩٩	« أحمد بن يوسف إلى عبد الله بن طاهر يعزيه بأبيه
٤١٨	٣٠٠	« عبد الله بن طاهر إلى نصر بن شبث
٤٢٠	٣٠١	« عبد الله بن طاهر إلى نصر بن شبث
٤٢٠	٣٠٢	أمان عبد الله بن طاهر لنصر بن شبث
٤٢٢	٣٠٣	كتاب عبد الله بن طاهر إلى عبد الله بن السرى
٤٢٢	٣٠٤	« المأمون إلى عبد الله بن طاهر
٤٢٣	٣٠٥	« أحمد بن يوسف إلى عبد الله بن طاهر
٤٢٤	٣٠٦	« الهزبر بن صبيح إلى عبد الله بن طاهر
٤٢٥	٣٠٧	« عبد الله بن طاهر إلى الحسن بن عمرو
٤٢٦	٣٠٨	« عبد الله بن طاهر إلى المأمون
٤٢٦	٣٠٩	« المأمون إلى قثم بن جعفر
٤٢٧	٣١٠	« أبي العتاهية إلى الفضل بن معن بن زائدة
٤٢٨	٣١١	« عمرو بن مسعدة إلى المأمون
٤٢٨	٣١٢	رد المأمون عليه

رقم الصفحة	رقم الرسالة	الرســـالة
٤٢٩	٣١٣	كتاب عمرو بن مسعدة إلى الحسن بن سهل
٤٢٩	٣١٤	كتابه إلى الحسن بن سهل
٤٣٠	٣١٥	» إلى المأمون
٤٣٠	٣١٦	» فى وصاة
٤٣١	٣١٧	» إلى بعض أصحابه
٤٣١	٣١٨	» إلى المأمون
٤٣٢	٣١٩	» إلى بعض الرؤساء
٤٣٣	٣٢٠	كتاب له
٤٣٤	٣٢١	كتابه إلى أبى الرازى
٤٣٥	٣٢٢	كتاب إبراهيم بن العباس إلى عمرو بن مسعدة
٤٣٥	٣٢٣	» أبى جعفر الكرمانى إلى المأمون
٤٣٦	٣٢٤	كتابه إلى بختيشوع
٤٣٧	٣٢٥	كتاب العباس بن الحسن إلى جرير بن يزيد
٤٣٨	٣٢٦	» العباس بن الحسن إلى المأمون
٤٣٩	٣٢٧	» لجرير بن زيد البجلى
٤٤٠	٣٢٨	» آخر
٤٤٠	٣٢٩	» آخر
٤٤١	٣٣٠	» محمد بن سعيد فى السلامة
٤٤٢	٣٣١	» إلى المأمون من عامل
٤٤٢	٣٣٢	» رجل إلى المأمون
٤٤٢	٣٣٣	رد المأمون عليه
٤٤٣	٣٣٤	كتاب إحدى جوارى المأمون إليه
٤٤٤	٣٣٥	الرقعة التى علقت على رأس علىّ بن هشام بعد قتله
٤٤٦	٣٣٦	كتاب ثوفيل ملك الروم إلى المأمون
٤٤٨	٣٣٧	رد المأمون عليه
٤٤٩	٣٣٨	كتاب عبد الله بن طاهر إلى إسحق بن إبراهيم
٤٥١	٣٣٩	رد إسحق بن إبراهيم عليه

رقم الصفحة	رقم الرسالة	الرسالة
٤٥٢	٣٤٠	كتاب ابن الحرون إلى أحد إخوانه
٤٥٤	٣٤١	» المأمون إلى إسحق بن إبراهيم
٤٥٨	٣٤٢	» المأمون إلى إسحق بن إبراهيم
٤٦١	٣٤٣	» المأمون إلى إسحق بن إبراهيم
٤٦٩	٣٤٤	» منصور بن محمد إلى المريسى
٤٦٩	٣٤٥	» راشد الكاتب إلى ابن الزيات
٤٧٠	٣٤٦	رد ابن الزيات عليه
٤٧١	٤٤٧	كتاب المأمون إلى عماله

فهرس أعلام الكتاب

مرتب بترتيب الحروف الهجائية

مع إتباع اسم كل كاتب بأرقام الصفحات التي وردت فيها رسائله

ا

إبراهيم بن أبي يحيى الأسلمى ١٤٦
إبراهيم بن إسمعيل بن داود ٣٣٦
إبراهيم بن سيابة ١٤٨، ١٤٩
إبراهيم بن العباس ٤٣٥
إبراهيم بن المهدى ٣٤٤، ٤١٦
ابن الثقفى ٦١
ابن الحرون ٤٥٢
ابن الكلبى ٤٠١، ٤٠٢
أبو جعفر المنصور ١٠، ١١، ١٣، ١٨، ٢٠، ٢١، ٢٣، ٢٤، ٢٦، ٢٧، ٢٨، ٢٩، ٣٠، ٧١، ٧٥، ٧٧، ٨١، ٨٧، ٨٨، ٩٦، ٩٧، ٩٩، ١٠٠، ١٢٥، ١٢٨
أبو داود ٣٠
أبوالعباس بن جرير ١٧٥
أبو العباس السفاح ٩، ١٣، ١٤، ١٨
أبو عبيد الله ١٤١، ١٤٢، ١٤٤، ١٤٥، ١٤٦
أبو العتاهية ٤٢٧
أبو مسلم الخراسانى ١٣، ٢٠، ٢٣، ٢٦، ٢٧، ٢٨
أبو نصر الرقاشى ٦٥
أبو هرون العبدى ٢٨٩
أحمد بن يوسف ٣١٦، ٣١٧، ٣٣٤، ٣٣٥، ٣٤٥، ٣٦٣، ٣٦٤، ٣٦٥، ٣٦٦، ٣٦٧، ٣٦٨، ٣٦٩، ٣٧٠، ٣٧١، ٣٧٢، ٣٧٣، ٣٧٤، ٣٧٥، ٣٧٦، ٣٧٧، ٣٧٨، ٣٧٩، ٣٨٠، ٣٨١، ٣٨٢، ٤١٧، ٤٢٣
إسحق بن إبراهيم ٤٥١
إسحق بن الخطاب ٢٨٦، ٢٨٧
الأمين ١٩٤، ١٩٥، ٢٨٩، ٢٩١، ٢٩٧، ٣٠١، ٣٠٥، ٣٠٧، ٣١٦
أنس بن أبي شيخ ١٦٥

ب

بشر البلوى ١٣٧، ١٦٦، ١٧٣، ١٧٤، ١٧٧

ث

ثوفيل ٤٤٦

ج

جبل بن يزيد ١١٨، ١١٩، ١٢٠، ١٢١، ١٢٢، ١٢٣، ١٢٩

جرير بن يزيد ٤٣٩، ٤٤٠
جعفر بن محمد بن الأشعث ١٥٠
جعفر بن يحيي البرمكى ١٦٤

ح

الحسن بن سهل ٣٣٩، ٣٥٨، ٣٥٩، ٣٦٠، ٣٦٢، ٣٩٦
الحسن بن وهب ٣٦١
حماد عجرد ٧٠
حميد بن مهران ١٦٤

ر

راشد الكاتب ٤٦٩

ز

السيدة زبيدة ٣١٣، ٣١٤

س

سلم بن قتيبة ٢٦
سليمان بن على ١٥
سهل بن هرون ٣٨٥، ٣٩٤، ٣٩٥

ش

شبيب بن شيبة ١٤٦

ص

صالح بن على ١٤، ٢٢، ٢٣

ط

طاهر بن الحسين ٣٠٧، ٣١٢، ٤٠٦، ٤١٦، ٤١٨، ٤٢٠

ع

العباس بن الحسن ٤٣٧. ٤٣٨
عبد الله بن الحسن ٧٥
عبد الله بن صالح ٢٢
عبد الله بن طاهر ٤١٨، ٤٢١، ٤٢٢، ٤٢٥، ٤٤٩
عبد الله بن على ١٩، ٢١
عبد الله بن المقفع ٢٤، ٣٠، ٤٨، ٥٣، ٥٤، ٥٥، ٥٦، ٥٧، ٥٨، ٥٩، ٦٠، ٦١، ٦٣
عبد الله العمرى ٩٨
العتابى ٣٩٧، ٣٩٨، ٤٠٠
على بن عبيدة ٤٠٢
على بن الهيثم ٣١٦
عمارة بن حمزة ١٩، ١١٢، ١١٧
عمر بن مهران ١٨٥
عمرو بن مسعدة ٤٢٨، ٤٣٠، ٤٣١، ٤٣٢، ٤٣٣، ٤٣٤، ٤٣٥
عنبسة بن إسحق ٤٠٢
عيسى بن موسى ٩٢، ٩٥، ٩٦، ١٠٤
عيسى بن واضح ٢٩٤

غ

غسان بن عبد الحميد ١٠١، ١٠٧، ١٠٨، ١٠٩، ١١٠، ١٣٠، ١٣١

ف

الفضل بن الربيع ٣٦٣
الفضل بن سهل ٣٢٦، ٣٣٩
الفضل بن يحي ١٥٥، ١٥٨

ق

القاسم بن يوسف ٣٨٢
قامة بن زيد ٢٨٥

ك

الكرمانى ٤٣٥

م

المأمون ٢٠٣، ٢٨٩، ٢٩٨، ٣٠١، ٣٠٢، ٣٠٥، ٣٠٦، ٣١٥، ٣٤٠، ٣٥٦، ٤٠٣، ٤٢٢، ٤٢٦، ٤٢٨، ٤٤٢، ٤٤٨، ٤٥٤، ٤٥٨، ٤٦١، ٤٧١
محمد بن حجر ١٤٧
محمد بن زياد الحارثى ٧١، ٧٢، ٧٣، ٧٤، ١٥٣
محمد بن سعيد ٤٤١
محمد بن سماعة ٣٦٠
محمد بن عبد الله بن الحسن (النفس الزكية) ٧٩
محمد بن عبد الله بن حرب ١٦١
محمد بن عبد الملك الزيات ٤٧٠
محمد بن على ١٦٣
محمد بن الليث ١٥٩، ١٦٠، ٢١٧،
محمد بن كثير ٢٨٩
محمد بن يحيى ١٦٣
مطرف بن أبي مطرف ١٧٨، ١٨٠، ١٨٢، ١٨٣، ١٨٤، ١٨٥، ١٨٨
المطلب بن عبد الله بن مالك ٣٦١
موسى بن عيسى ٢٩٤
منصور بن محمد ٤٦٩
منصور النمرى ١٦١
المهدى ١٣٢، ١٣٤، ١٤١

ن

نقفور ٢٧٤

هـ

هرثمة بن أعين ٢٧٩، ٢٨٥
هرون الرشيد ٢٠٦، ٢٧٥، ٢٧٦، ٢٧٧، ٢٨٣
الهزبر بن صبيح ٢٨٩، ٤٢٤

ى

يحيى بن حماد ٤٠٥
يحيى بن خالد البرمكى ١٥١، ١٥٥، ١٩٠، ١٩١
يحيى بن زياد ٦٣، ٦٧، ٢٠٩
يوسف بن القاسم ١٦، ١٥٠، ١٥١، ١٥٣، ١٥٤

فهـــرس

بعض ماورد فى الهامش من الفوائد التى قد يحتاج القارئ إلى مراجعتها

رقم الصحيفة		رقم الصحيفة	
٢٦	ولد رشدة وولد زنية	٢٩٣	الديوان
٣٠	قتل أبى مسلم الخراسانى	٢٩٤	البريد
٦٣	ذو بُعد وبُعدة	٢٩٦	ذو الرياستين
٧٦	عذيرك من خليلك من مراد	٣١١	الأرباع
٨٣	التسرى بالسبايا	٣١٧	رسالة الخميس
٨٦	عام الرمادة	٣٤٥	قتل الفضل بن سهل
٩٠	أمور الله جارية أذلالها	٣٥٩	القارح
٩٨	الحمراء	٣٦٤	النيروز
١٣٤	زياد	٣٨٥	بخل سهل بن هرون
١٤٠	ألبتة	٣٨٨	الطلحات
١٤٠	طلاق الحرج	٣٩٥	الأحمران
١٦٦	الأبناء	٤٠٣	ذو اليمينين
١٧١	المعذّرون	٤٢٣	ليهنئك الولد
١٧٣	الداية	٤٣٢	جدع الحلال أنف الغيرة
١٧٧	الغدو والرواح	٤٣٦	بختيشوع
١٩٠	لاشوى لها	٤٤٥	الخرمية ـ بابك الخرمى
١٩٢	الحدّثان والحدْثان	٤٤٨	الحنيفية
٢٢٣	وَسْط ووسَط	٤٥٤	فتنة خلق القرآن
٢٤٤	الحرب بينهم سجال	٤٦٢	فتنة خلق القرآن
٢٦٨	يوشع وحبس الشمس		

جمهرة رسائل العرب

في

عصور العربية الزاهرة

الشطر الثاني من رسائل

العصر العباسي الأول

تأليف

أحمد زكي صفوت

المكتبة العلمية
بيروت - لبنان

جمهرة رسائل العرب

في

عصور العربية الزاهرة

الجزء الرابع

الشطر الثاني من رسائل

العصر العباسي الأول

وهو يحوي رسائل العباسيين من أول خلافة المعتصم إلى استيلاء بني بويه على بغداد سنة ٣٣٤ هـ

تأليف

أحمد زكي صفوت

وكيل كلية دار العلوم بجامعة القاهرة سابقا

المكتبة العلمية

مقدمة

بسم الله الرحمن الرحيم

حمداً لك ربى على ما أوليتنى من سابغ نعمك، وأبليتنى من بالغ توفيقك، وصلاة وسلاما على رسولك الأمين، سيدنا ومولانا محمد صلى الله وسلم عليه وعلى آله وصحبه الهداة الأعلام.

وبعد: فها أنذا أصدر الجزء الرابع من « جمهرة رسائل العرب » حاويا الشطر الثانى من رسائل العباسيين فى العصر العباسى الأول — من أول خلافة المعتصم إلى استيلاء بنى بويه على بغداد سنة ٣٣٤ هـ — وقد بقيت من هذه الجمهرة حَلْقة خامسة هى « رسائل الأندلسيين » أرجو أن يوفقنى المولى القدير إن شاء الله إلى إنجازها، كما وفقنى إلى إنجاز إخوتها الأربع، ومن قبلُ ما وفقنى إلى إصدار « جمهرة خطب العرب » فى حلقاتها الثلاث، فله أوفر الحمد وأوفاه.

وقد سَلَختُ حتى الآن فى تأليف هاتين الجمهرتين سَبعَ سنين دَأَباً — ثلاثاً فى جمهرة الخطب، وأربعاً فى الأخرى — قطعت فيها أشواطهما السبعة، مثابراً على العمل فيهما صيفَ شتاء، سَحابةَ النهار أجمعَ وقِطَعاً من الليل فى بعض الأحايين، واهباً لهما كل أوقات فراغى من عملى الدراسى — عدا ما أخرجته فى هذه الفترة من مؤلفات أخَر (١) — دون أن أُنيل نفسى حظها من الجَمام والراحة، والآن — بعد أن كدّها

(١) وهى: ترجمة الإمام على بن أبى طالب كرم الله وجهه، وكتاب الكامل فى النحو والصرف، فى أربعة أجزاء لطلبة دار العلوم، وكتاب علم البيان، وكتاب علم المعانى، وتاريخ الخطابة فى الجاهلية والإسلام، وتاريخ الجدل والمناظرة، وهذه الكتب الثلاثة الأخيرة بالاشتراك مع بعض حضرات الزملاء.

ذلك الإيجاف ، الذى كاد يُشرف بها على البُهْر والإعجاف ـ أراها ظمِئة ظَمأً مُلِحًّا إلى فترة راحة قصيرة ، تستجِمُّ فيها وتستروِح ، حتى تئُوب إلى الميدان فَتيَّةَ النشاط ، قويَّةَ الرَّكض ، فتقطع الشوط الأخير فى غير ضَجَر ولا ملالة ، فإلى القراء الكرام معذرتى فى هذا التريُّث ، وإلى الملتقى القريب ، إن شاء الله .

وإنى لأحتمل فى سبيل ذلك العمل الشاقّ المضنى ما ألقاه فيه من جَهد ولُغُوب ، بصدر رحيب ، وعين قريرة ، وليس لى من ورائه مطمع إلا أن يذكر اسمى فى عِداد من نصبوا أنفسهم لخدمة هذه اللغة العربية الشريفة ، ففازوا على تعاقب الأجيال بطيب الذكرى ، وخالد الأثر ، سددنا الله وإياكم إلى طريق الخير والصلاح ، وكتب لنا سعادة الدنيا والأخرى ، إنه المنعم المتفضل المحمود ؟

أحمد زكى صفوت

وحرر بالقاهرة فى { جمادى الآخرة سنة ١٣٥٧هـ
أغسطس سنة ١٩٣٨م }

الباب الخامس

الرسائل

في

العصر العباسي الأول أيضاً

١ — كتاب المعتصم إلى عبد الله بن طاهر

وروى صاحب زهر الآداب قال :

وكتب المعتصم ، حين صارت له الخلافة سنة ٢١٨ هـ ، إلى عبد الله بن طاهر :

« عافانا الله وإياك ، قد كانت في قلبي منك هَفواتٌ غفَرها الاقتدارُ ، وبقيَتْ حزَازات[1] أخاف منها عليك : عند نظري إليك ، فإن أتاك ألفُ كتاب أستَقدِمُك فيه فلا تَقْدَم ، وحَسْبُك معرفةً بما أنا مُنْطوٍ لك عليه ، إطْلاعي إيّاك على ما في ضميري منك . والسلام » . (زهر الآداب ٣ : ٩١)

(١) الحزازة : وجع في القلب ، من غيظ ونحوه .

٢ — كتاب المعتصم إلى عبد الله بن طاهر

وروى صاحب العقد الفريد قال :

كتب المعتصم إلى عبد الله بن طاهر :

« أعزِزْ علىَّ بأن أراكَ عليــلَا ... أو أن يكون بكَ السَّقامُ نَزيلا

فوَدِدْتُ أنِّىَ مالِكٌ لسلامتى ... فأُعيرها لك بُكرةً وأصيــلا

فتكون تبقَى سالمًا بسلامتى ... وأكون مما قد عرَاكَ بديلَا

هذا أخٌ لك يشتكى ما تشتكِى ... وكذا الخليلُ إذا أحبَّ خليلَا »[1]

(العقد الفريد ١ : ٢٣٠)

٣ — كتاب المعتصم إلى الآفاق عند القبض على بابك الخرمى

وهذه نسخة كتاب كُتب بها عن المعتصم ، إلى ملوك الآفاق من المسلمين ، عند قَبْضِ الأفشين حيدر بن كاوس على بابَكَ الخُرَّمىّ[2] ، وهى :

« أما بعد ، فالحمد لله الذى جعَلَ العاقِبَة لدينه ، والعِصْمَةَ لأوليائه ، والعِزَّ لمن نَصَرَه ، والفَلْجَ[3] لمن أطاعه ، والحقَّ لمن عرَفَ حقَّه ، وجعل دائرةَ السَّوْء على مَن عصاه وصَدَف عنه[4] ، ورَغِبَ عن رُبوبيَّته ، وابتَغى إلهًا غيرَه ، لا إله إلا هو وحْدَه لاشريكَ له ، يحمَدُه أمير المؤمنين حَمْدَ من لايعبُدُ غيرَه ، ولا يتوكَّلُ إلا عليه ، ولا يفوِّض أمْرَه إلا إليه ، ولا يرجو الخير إلا من عنده ، والمزيدَ إلا من سَعَةِ فضله ،

---

(١) أقول : الظاهر أن المعتصم كتب إليه هذا الكتاب ، قبل أن يلى الخلافة .

(٢) تقدمنا لك فى الجزء الثالث ما كان من أمر بابك الخرمى فى خلافة المأمون (انظر ص ٤٤٤) فلما ولى المعتصم الخلافة وجه لحربه سنة ٢٢٠ الأفشين التركى — وكان من أجل قواده — ونشبت بينه وبينه وقعات وحروب ، كانت خاتمتها أن فتحت البذ — مدينة بابك — ودخلها المسلمون واستباحوها ، وأسر الأفشين بابك ، وقدم به على المعتصم بسر من رأى ، فقتل وصلب بها سنة ٢٢٣ هـ .

(٣) الفلج : الظفر والفوز .

(٤) ...

ولا يستعينُ في أحواله كلِّها إلا به ، ويسأله أن يصلِّيَ على محمد عبدِه ورسوله وصَفْوَتِه من عباده ، الذي ارتضاه لنبوَّته ، وابتَعَثَه بوَحْيه ، واختصَّه بكرامتِه ، فأرسله بالحق شاهداً وَمُبشِّرًا وَنَذِيراً وَدَاعِياً إِلَى اللهِ بِإِذْنِهِ وَسِرَاجًا مُنِيراً ، والحمدُ لله الذي أتوجَّه لأمير المؤمنين بصُنعه ، فيَسَّر له أمرَه ، وصدَّق له ظنَّه ، وأنجحَ له طَلِبتَه ، وأنفذَ له حيلتَه ، وبلغ له محبَّتَه ، وأدرك المسلمون بثأرهم على يده ، وقتَلَ عدوَّهم ، وأسْكَنَ رَوْعَتَهم[(١)] ، وَرَحِم فاقَتَهم ، وآنَسَ وَحْشَتَهم ، فأصبحوا آمِنِين مطمئنين مقيمين في ديارهم ، متمكِّنين في أوطانهم ، بعد القتلِ والخوف والتشريد وطول العَناء ، وتتابُعِ البَلاء ، مَنًّا من الله عز وجل على أمير المؤمنين بما خَصَّه به ، وصُنْعا له فيما وفَّقه لطلبه ، وكرامةً زادها فيما أجْرَى على يده ، فالحمد لله كثيرا كما هو أهلُه ، ونَرْغَب إلى الله في تمام نعمه ، ودوامِ صُنعه ، وسَعَةِ ما عنده بمَنِّه ولُطفه .

ولا يعلَمُ أميرُ المؤمنين — مع كثرةِ أعداء المسلمين ، وتكنُّفِهم[(٢)] إياه من أقطاره ، والضغائن التي في قلوبهم على أهله ، وما يترصَّدونه من العداوة ، وينطوُون عليه من المكايدة ، إذ كان هو الظاهرَ عليهم[(٣)] ، والآخِذَ منهم — عَدُوًّا كان أعظمَ بَلِيَّةً ، ولا أجلَّ خَطبًا ، ولا أشدَّ كَلَبًا[(٤)] ، ولا أبلغَ مكايدةً ، ولا أرْمَى بمكروه ، من هؤلاءِ الكفرة الذين يغزُوهم المسلمون ، فيستَمْلُون عليهم ، ويضعون أيديَهم حيث شاءوا منهم ، ولا يقبلون لهم صُلحاً ، ولا يميلون معهم إلى مُوادَعة ، وإن كان لهم — على طول الأيام ، وتصرف الحالات ، وبعضِ مالا يزال يكون من فَ اتِ وُلاةِ الثغور — أدنَى دولةٍ من دَوْلات الظفر ، وخُلْسَة من خُلَس الحرب ، كان بما لهم من خوف العاقبة في ذلك منغِّصاً لِما تعجَّلوا من سروره ، وما يتوقعون من الدوائر بعدُ ، مكدِّرا لِما وصَلَ إليهم من فَرْحة .

(١) أي فزعهم . (٢) تكنفوه : أحاطوا به .

فأمّا اللعينُ بابَكُ وَكَفَرَتُهُ ، فإنهم كانوا يَغزُونَ أكثر مما يُغزَوْن ، وينالون أكثرَ مما يُنالُ منهم ، ومنهم المنحرفون عن الموادَعَة ، المتوحِّشون عن المراسَلَة ، ومَن أُدِيلُوا[١] مِن تتابُعِ الدول ، ولم يخافوا عاقبةَ تَدْرِكُهم ، ولا دائرةً[٢] تدور عليهم وكان مما وطَّأ ذلك ومكنه لهم ، أنهم قوم ابتدءوا أمرهم على حالِ تشاغُلِ السلطان ، وتتابُعٍ من الفِتن ، واضطرابٍ من الحبْل ، فاستقبَلُوا أمرهم بعِزَّةٍ من أنفسهم ، وضعفٍ واستثارةٍ ممن بَاراهم ، فأجْلَوا مَن حولَهم لتَخلُصَ البلادُ لهم ، ثم أخربوا البلاد لِيعِزَّ مطلَبُهم ، وتشتدَّ المُؤْنةُ ، وتعظُمَ الكُلْفَة ، ويقوَوا فى ذاتِ أيديهم ، فلم يتوافَ إليهم قُوَّادُ السلطان إلا وقد توافَتْ إليهم القوةُ من كل جانب ، فاستفحَلَ أمرهم ، وعظُمَتْ شوكتُهم ، واشتدت ضروراتُهم ، واستجمَعَ لهم كَيْدُهم ، وكثر عددُهم واعتدادُهم ، وتمكَّنَتِ الهَيْبَةُ فى صدور الناس منهم ، وتحقَّق فى نفوسهم أن كلَّ ما يَعِدُهم الكافِرُ ويُمَنِّيهم أخْذٌ باليد ، وكان الذى بَقِى عندهم منه كالذى مَضى وبدون هذا مايُختَدَعُ الأريبُ ، ويُسْتَنزَل العاقلُ ، ويُعتَقَل الفَطِنُ ، فكيف بمن لا فِكرةَ له ولا رويةَ عنده !

هذا مع كل ما يقوم فى قلوبهم من حَسَد أهل النعم ، ومنافستهم على مافى أيديهم ، وتقطُّعهم حَسَراتٍ فى إثْرِ ما خُصُّوا به ، وأنهم إن لا يكونوا يَرَوْن أنفسَهم أحقَّ بذلك ، فإنهم يَرَون أنهم فيه سواء .

ولم يزل أمير المؤمنين قبل أن تُفْضِىَ إليه الخلافةُ ، مادًّا عنقَه ، موجِّهاً همَّتَه ، إلى أن يولِّيَه اللهُ أمرَ هؤلاء الكفرة ، ويُملِّكَهُ حربهم ، ويجعلَه المقارِعَ[٣] لهم عن دينه ، والمناجِزَ لهم عن حقه ، فلم يكن يألُوا[٤] فى ذلك حِرْصاً وطَلَباً واحتيالا ، فكان أمير المؤمنين — رضى الله عنه — يأبَى ذلك لِضَنَّةٍ به ، وصيانته بقُربه ،

(١) الإدالة : الغلبة ، أداله الله من عدوه . (٢) الدائرة : الهزيمة .
(٣) المقارعة : المناضلة . (٤) ألا ، يألو : قصر .

مع الأمر الذى أعدَّه الله له وآثَرَه به ، ورأى أن شيئاً لا يَفِى بِقوام الدين ، وصَلاح الأمر .

فلما أفضى اللهُ إلى أمير المؤمنين بخلافته ، وأطلق الأمْرَ فى يده لم يكن شىء أحبَّ إليه ، ولا آخَذَ بقلبه ، من المعاجَلَة للكافر وكَفَرَتِه ، فأعزَّه الله ، وأعانه الله ، فله الحمدُ على ذلك وَتَيَسُّرِه ، فأعدَّ من أمواله أخطرَها ، ومن قُوّاد جيشه أعلمَهم بالحرب ، وأنهَضَهم بالمُعْضِلات ، ومن أوليائه وأبناء دعوته ودعوة آبائه ـ صلوات الله عليهم ـ أحسنَهم طاعةً ، وأشدَّهم نِكايةً ، وأكثرهم عُدَّةً ، ثم أتبعَ الأموالَ بالأموال ، والرجالَ بالرجال ، مِن خاصَّتِهِ مَواليه وعَدَد غلمانه ، وقبْلَ ذلك ما اتَّكل عليه من صُنع الله جل وعز ، ووجَّه إليه من رغْبته . فكيف رأى الكافرُ اللَّعينُ وأصحابُه المَلاعِينُ ؟ ألم يُكْذِبِ الله ظُنونَهم ، ويَشْفِ صدورَ أوليائِه منهم ؟ يقتلونهم كيف شاءوا فى كل مَوطِن ومُعْتَرك ، ما دامت عند أنفسهم مقاومةٌ .

فلما ذَلُّوا وقَلُّوا ، وكرِهوا الموتَ ، صاروا لا يتراءوْن إلا فى رءوس الجبال ، وَمَضايِق الطُّرُق ، وخَلْفَ الأودية ، ومِن وراء الأنهار ، وحيثُ لا تنالهم الخيلُ ، حِصْناً للمطاولة ، وانتظارًا للدوائر ، فكادهم الله عند ذلك ، وهو خير الكائدين ، واستدرَجَهم حتى جَمَعَهم إلى حِصنه معتصِمِينَ فيه عند أنفسهم ، فجعلوا اعتصامَهم لِحَيْنٍ(١) لهم ، وصُنْعٍ لأوليائه ، وإحاطةً منه به تبارك وتعالى ، فجمَعَهم وحصرهم لكيلا تَبقَى منهم بقيةٌ ، ولا ترْجَى لهم عاقبةٌ ، ولا يكون الدينُ إلا لله ، ولا العاقبةُ إلا لأوليائه ، ولا التعْسُ والنَّكْسُ إلّا لمن خذَلَه .

فلما حَصَرهم الله ، وحبَسَهم عليهم ، وَدَانَتْهم(٢) مَصارِعُهم ، سلَّطهم الله عليهم كَيَدٍ واحدة ، يختطفونهم بسيوفهم ، وينتظِمُونهم(٣) برماحهم ، فلا يجدون

(١) الحين : الهلاك . (٢) دانتهم : أى قاربتهم . (٣) انتظمه بالرمح : أختله .

مَلْجَأً ولا مَهْرَبا ، ثم أمكنهم من أهاليهم ، وأولادهم ، ونسائهم ، وحُرَمِهم ، وصيَّروا الدارَ دارهم ، والمَحِلَّةَ مَحِلَّتَهم ، والأموالَ قَسْماً بينهم ، والأهلَ، إماء وعبيداً ، وفوقَ ذلك كله مافعَل بهؤلاء وأعطاهم من الرحمة والثواب ، وما أعدَّ لأولئك من الخِزْى والعقاب ، وصار الكافر بابك لا فيمن قُتِل ، فسَلِم مِن ذُلِّ الغَلَبة ولا فيمن نجا ، فنالَ في الحياةِ بعضَ العِوَض ، ولا فيمن أُصيب ، فيشتغِلَ بنفسه عن المصيبة بما سواه ، لكنه سبحانه وتعالى أطلقه وسَدَّ مذاهِبَه ، وتركه مُتَلَدِّدًا[1] بين الذل والخوف ، والغُصَّة والحَسْرَة ، حتى إذا ذاق طعمَ ذلك كلِّه وفَهِمَه ، وعرَفَ موقِعَ المصيبة ، وظنَّ مع ذلك كلِّه أنه على طريق من النجاة ، فضَرَب الله وجهَه ، وأعمَى بصَره ، وسَدَّ سبيله ، وأخذ بسَمْعه وبَصَرِه ، وحازه إلى مَن لا يَرِقُّ له ، ولا يَرْثِى لمَصْرَعه . فامتثلَ ما أُمِرَ به الأفشين « حيدر بن كاوس[2] » مَوْلى أمير المؤمنين في أمره ، فبَثَّ له الحبائل ، ووضعَ عليه الأرصادَ ، ونصَبَ له الأشراكَ ، حتى أظفره الله به أسيراً ذليلاً مُوثَقاً في الحديد ، يراه في تلك الحالة مَن كان يراه رَبّاً ، ويرَى الدائرةَ عليه من كان يظن أنها ستكون له .

فالحمد لله الذى أعزَّ دينه ، وأظهر حُجَّته . ونصر أولياءه ، وأهلك أعداءه ، حمداً يُقضَى به الحقُّ ، وتَتِمُّ به النِّعمة ، وتتصل به الزيادة ، والحمد لله الذى فتَحَ على أمير المؤمنين وحقَّق ظنَّه ، وأنجح سعيَه ، وحاز له أجرَ هذا الفتح وذُخْرَه وشَرَفه ، وجعله خالصاً لتمامه وكماله ، بأكمل الصُّنع وأحسن الكِفاية ، ولم يرِ بؤساً فيه ما يُقذِى عينَه ، ولا خلا من سُرُور يراه ، وبشارةٍ تتجدَّد له عنه ، فما يَدرى أميرُ المؤمنين ما مُتِّع فيه من الأمل ، أو ماخُتِم له من الظفَر ، فالحمد لله أولا ، والحمد لله آخرا ، والحمد لله على عطاياه التى لا تُحْصَى ، ونِعمَه التى لا تُنْسَى ، إن شاء الله تعالى » .

(صبح الأعشى ٦ : ٤٠٠)

---

(١) تلدد : تلفت يمينا وشمالا ؟ وتحير متبلدا ، وتلبث .

(٢) هكذا فى تاريخ الطبرى (١٠ : ٣٠٧) وفى زهر الآداب (١ : ٣٢٤) وفى صبح الأعشى « حيدر بن طاوس » بالطاء .

٤ — كتاب المعتصم إلى ملك الروم

وكتب ملك الروم إلى المعتصم كتابا يتهدده فيه ويتوعده ، فأمر بجوابه ، فلما قرئت الأجوبةُ عليه لم يَرْضَها ، وقال لبعض الكتاب اكتب ، وأملى عليه :

« بسم الله الرحمن الرحيم : أما بعدُ ، فقد قرأتُ كتابك ، وفهمتُ خطابك ، والجواب ما ترَى لا ما تسمع ، وَسيعلم الكافرُ لِمَنْ عُقْبَى الدَّارِ » .

(زهر الآداب ٣ : ٩٢ ، وصبح الأعشى ١ : ١٩٢ ، ونهاية الأرب ٧ : ٢٦١ ، وأدب الكتاب ص ٢٣٥)

٥ — كتاب إبراهيم بن المهدى إلى المعتصم

وشَخَصَ المعتصم غازيا إلى بلاد الروم سنة ٢٢٣ هـ ، بعد قتل بابك ، ففتح عَمُّورِيَّة[1] ، وكتب إليه إبراهيم بن المهدى يهنئه ، بخروجه عن أرض الروم ، بعد فتح عمورية :

« الحمد لله الذى تَمَّم لأمير المؤمنين غزْوتَه ، فأذلَّ بها رقابَ المشركين ، وشَفَى بها صُدُورَ قَوْمٍ مُؤْمنين ، ثم سَهَّلَ الله له الأَوْبَة سالِمًا غانما ، (وكذا وكذا) ولْيَهْنِئْهُ ما كَتَبه الله له مما أحصاه فلا ينساه ، لِيَقِفَه به موقفاً يرضاه ، فإنه عز وجل يقول : « إِنَّ اللَّهَ اشْتَرَى مِنَ الْمُؤْمِنِينَ أَنْفُسَهُمْ وَأَمْوَالَهُمْ بِأَنَّ لَهُمُ الْجَنَّةَ ، يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللهِ فَيَقْتُلُونَ وَيُقْتَلُونَ وَعْدًا عَلَيْهِ حَقًّا فى التَّوْرَاةِ وَالْإِنْجِيلِ وَالْقُرْآنِ ،

---

(١) عمورية : بلد من بلاد الروم ، فتحه المعتصم سنة ٢٢٣ هـ ، و كان المنجمون قالوا له : إنا نجد فى كتبنا أن مدينتنا لا تفتح إلا فى وقت إدراك التين والعنب ، وبيننا وبين ذلك الوقت أشهر ، ويمنعك من المقام البرد والثلج ، فأبى أن ينصرف وأكب عليها حتى فتحها ، فأبطل ماقالوا ، وفى ذلك يقول أبو تمام فى مطلع بائيته المشهورة مهنئا له :

السيف أصدق أنباء من الكتبِ ... فى حده الحد بين الجد واللعب

وفيها يقول :

يايوم وقعة عمورية انصرفت ... عنك المنى حفلا معسولة الحلب

وَمَنْ أَوْفَى بِعَهْدِهِ مِنَ اللهِ ، فَاسْتَبْشِرُوا بِبَيْعِكُمُ الذِى بَايَعْتُمْ بِهِ ، وَذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ » .

فطوى اللهُ لأمير المؤمنين نازِحَ[1] البعد بَرّا وبَحْرا ، ووقاه وَصَبَ السَّفَرِ سهلا وَوَعْرا ، وحاطه بحِرَاسته كالِئاً[2] ، ودافع عنه بحفظه راعيا ، حتى يؤدِّيَه إلى المَحَلِّ مِن داره ، والوطَنِ من قَراره ، وجزاه عن الإسلام خاصَّةً . وعن رعيَّته كافَّةً ، بتخيُّره مُستَخْلَفاً عليهم ، وقائما مَقامَه فيهم : هرونَ[3] ابنَ أمير المؤمنين ، فقد استخلفه رفيقا شفيقا ، حليا وَقورا ، يقظانَ سا كنا ، لم يُشَذِّب[4] عليه أمرٌ ، ولم ينتشِرْ عليه طَرَف ، ولم يضع معه سبيل ، ولم يُسْخِط وليًّا مُسكاَنِفا ، ولا عدوا مخالفا ، بلا سيف أشْرَعه ، ولا سُوطٍ أقْرَعَ به[5] ، فمثَّل جزاء أمير المؤمنين فى تخيُّره إياه ، فجزاه الله على ماحفِظ من وَصَاتِه على محمود مَقامه ، إنه مجيب الداعى » .

(اختيار المنظوم والمنثور ١٣ : ٢٩٨)

٦ — كتابه إلى إسحق بن إبراهيم الموصلى

وأهدى إبراهيم بن المهدىّ ، إلى إسحٰق بن إبراهيم المَوْصِلِىّ[6] ، جِراب مِلْح ، وجراب أُشْنان[7] ، وكتب إليه :

« لولا أن القِلَّةَ قَصَّرَتْ عن بلوغ الهمَّة ، لأتعبْتُ السابقين إلى بِرِّك ، ولكن البضاعة قَعَدَتْ بالهمة ، وكرِهْتُ أن تَطْوَى صحيفةُ البِرّ ، وليس لى فيها ذِكر ، فبعثْتُ

---

(١) النازح : البعيد . (٢) كالئا : أى حارسا حافظا .

(٣) هرون : هو الملقب بالواثق بالله، وقد ولى الخلافة بعد أبيه سنة ٢٢٧ وتوفى سنة ٢٣٢ هـ

(٤) التشذيب : التفريق ، والطرف بالتحريك : الناحية .

(٥) أشرع نحوه الرمح والسيف وشرعهما كمنع : أقبلهما إياه وسددهما له ، وأقرع الدابة بلجامها وقرعها كمنع : كفها به وكبحها .

(٦) هو إسحق بن إبرهيم الموصلى، المغنى المشهور ، المتوفى سنة ٢٣٥ ، وقد أورد صاحب الأغانى، كثيرا جدا من أخباره فارجع إليها فيه .

(٧) الأشنان بالضم والكسر : نبات حمض (والحمض من النبات — كشمس — كل نبت مالح أو حامض يقوم على سوق ولا أصل له) تغسل به الأيدى على أثر الطعام ، معرب ، وعربيه حرض كعنق انظر لسان العرب مادة أشن وحرض ، وشفاء الغليل ص ١١ .

مبتدأً به لِيُمْنه وَبَرَكته ، والمختوم به لطيبه ونظافته ، وأما ماسوى ذلك ، فالمعبِّرُ عنا فيه كتابُ الله تعالى ، إذ يقول : « لَيْسَ عَلَى الضُّعَفَاءِ وَلَا عَلَى الْمَرْضَى وَلَا عَلَى الَّذِينَ لَا يَجِدُونَ مَا يُنفِقُونَ حَرَجٌ ، إِذَا نَصَحُوا لِلَّهِ وَرَسُولِهِ ، مَا عَلَى الْمُحْسِنِينَ مِنْ سَبِيلٍ ، وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ »[1] . (العقد الفريد ٣ : ٣٠٨)

٧ — رواية أخرى

وفى رواية أخرى ، أن يحيى بن خالد بن برمك ، عزم على خِتَانِ ولده ، فأهدى إليه وجوهُ الدولة كلٌّ منهم بحَسَب حاله وقدرته ، فصنع بعض المتجمِّلين العاجزين خريطتين[2] ، وملأ إحداهما ملحاً مطيَّبا ، والأخرى سُعْداً[3] معطَّرا ، وكتب معهما رقعة فيها :

« لو تمّت الإرادة ، لأسعفَتِ العادة ، ولو ساعدت القدرة على بلوغ النعمة ، لتقدَّمْتُ السابقين إلى خدمتك ، وأتعبتُ المجتهدين فى كرامتك ، لكن قعدَتْ بى القدرةُ عن مساواة أهل النعمة ، وقصّرت بى الجِدَةُ[4] عن مباهاة أهل المَكِنة[5] ، وخشِيتُ أن تُطوَى صحيفةُ البرّ ، وليس لى فيها ذِكْر ، فأنفذْتُ المفتتح بيُمْنِه وبركته ، وهو المِلح ، والمختَتم بطيبه ونظافته وهو السُّعد ، باسطاً يد المعذرة ، صابرا على ألم التقصير ، متجرِّعاً غُصَصَ الاقتصار على اليسير ، والقائمُ بعذرى فى ذلك : « لَيْسَ عَلَى الضُّعَفَاءِ وَلَا عَلَى الْمَرْضَى وَلَا عَلَى الَّذِينَ لَا يَجِدُونَ مَا يُنْفِقُونَ حَرَجٌ »

(١) وفى رواية الصولى ، فى كتاب الأوراق ٢ : ٣٠ « عن إسحق قال : طهرتِ بعض ولدى ، فكتب إلى إبراهيم بن المهدى : لولا أن البضاعة قصرت عن الهوى ، لأتعبت السابقين إلى برك ، وحسبك أن تطوى صحيفة البر ، وليس لى فيها برة ، وقد بعثت إليك ما المبتدأ به ليمنه ، والمختوم به لطيبه وبركته ، جراب ملح ، وجراب أشنان » .

(٢) الخريطة وعاء من أدم وغيره .

(٣) السعد . نبت طيب الريح .

(٤) الجدة : الغنى . (٥) المكنة : القوة والشدة .

والخادمُ ضارعٌ فى الامتنان عليه بقبول خدمته ومعذرته ، والإحسانِ إليه ، بالإعراض عن جراءته ، والرأى أسمى » .

ثم دخل دار يحيى ، ووضع الخريطتين والرقعة بين يديه ، فلما قرأ الرقعة أمر أن تفرّغا وتملأ إحداهما دنانير والأخرى دراهم » .

(غرر الخصائص الواضحة ص ٤٤٨)

٨ — كتابه إلى صديق له

وكتب إبراهيم بن المهدى إلى صديق له :

« لو كانت التُّحفة على حَسَب ما يوجبه حقُّك ، لأَجْحَفَ بنا أدْنَى حقوقك ، ولكنه على قدر ما يُخرِج الوَحْشةَ ويُوجِب الأُنْسَ ، وقد بعثتُ بكذا وكذا » .

(العقد الفريد ٣ : ٣٠٩)

٩ — كتاب له

« وصل كتابك السّارُّ المُؤْنِس ، فكان أسرَّ طالِعٍ إلىّ ، وأحسَنَه مَوقِعا منى ، إذ كنت أستمِلى بطُولِك ، وأرَى نعمتَك تنحطُّ إلىّ ، ويتّصل بى ما يتصل بالأدْنَيْن من لُحمتك[١] ، وحَمَلة شكرك ، ومَظانِّ معروفك ، والمقيمين على تأميلك ، فلا أعدَمَنى الله ما أستَجْنِى [منك][٢] ، ولا أزالَ عنى ظِلّك ، ولا أفقدَنى شخصَك » .

(الأوراق للصولى ٢ : ٣٢)

---

(١) اللحمة : القرابة .

(٢) استجنى : طلب الجنى ، والمعنى ما أطلبه وآمله منك ، وكلمة « منك » ليست فى الأصل ، والمقام يقتضيها .

١٠ — كتاب له

كتبتُ إليك ونحن فى عافية مجدَّدة ، والحمد لله المتطوِّل بالنعمة ، المرجوِّ للمَزِيد ، ولست وإن باعدتْك الدارُ منى ، ونأى بك الزمنُ عنا ، بمَقْصِيٍّ القلب عن بِرِّك بالذكر والعناية ، ولا اللسانِ بالدعاء والمسألة ، ولا النية فى الإخلاص والمحبَّة لإحياء العهد بالمكاتبة ، وتجديد الوُصْلة بالمراسلة ، فإن النبي صلى الله عليه وسلم قال : « التواصُلُ بين الناس فى الحَضَر التزاوُر ، وفى السفر التكاتُب » .

(الأوراق للصولى ٢ : ٣٢)

١١ — كتاب له فى التشوق

« أما بعد ، فإنى مُذْ فارقتُك ، وغاب عنى شَخْصُك ، وبَعُدَ منى قُرْبُك ، أجِدُ مِن نفسى مُنازِعاً إليك ، وأملًا واقفاً عليك ، وشوقا مُزْعِجاً إلَى قربك ، والأخذِ بالحظِّ منك ، وإن عدَانى عن مشاهدتك باللقاءِ ، أو بكتابٍ ، تقصيرٌ مَشُوبٌ بعذر ، وأنا أسأل الله راغباً إليه أن يجمعنا فى دوامٍ من نعمته ، وظِلٍّ من كرامته ، وكِفاية من حِراسته » .

(اختيار المنظوم والمنثور ١٣ : ٣٩٥)

١٢ — كتاب له

وله فى ترك وَداعٍ عند فِراق :

« أما بعدُ ، فإن الله عزَّ وجل قد جعل لنا من الأنس بمودَّتك ، والسرورِ بمكانتك ، ما لو وصفْناه فأطنَبْنا ، لجاوز[١] ذلك ما انطوى عليه ، وقد تركت من توديعك عند شخوصى عن البلد الذى يجمعنا ، ما لولا حسنُ ظنى بك ، لَوَقَع منه

(١) فى الأصل « لنادر » وهو تحريف .

بأعظم مواقع المساءة والغيظ على نفسي ، وأنت مَن أعُدُّه سروري وأنسي ، وأهْوَى مشاهدةَ غُدُوِّي وَرَواحِي إليه ، ولقلَّ ما أعلمُ أنه ما استتمَّ لي سرورٌ بعدك ، أو نزل بأحدٍ ما نزَل بي من الشوق إليك ، أو حَلَّ مني أحد بمثل مكانك ، أو استصفيت لذةً أو راحة إلا معك وفي قُربك » . (اختيار المنظوم والمنثور ١٣ : ٣٩٥)

١٣ — كتاب له

وكتب[(١)] إبراهيم بن المهدى :

« كتابي إليك كتابُ مُخْبِرٍ وسائِلٍ ؛ فأما الإخبارُ ، فعن تصرُّف الخطوب ، على ما يوجب العذرَ عند صديق العزيز عليَّ ، في إبطائي عنه بالتعهُّد له ، وأما السؤالُ ، فعن إمساك هذا الأخ الوادِّ[(٢)] عن مثل ذلك ، فإن العذر[(٣)] كاشِفٌ لما أسْلَفَ ، مُصْلِح لما استأنَفَ » .

(اختيار المنظوم والمنثور ١٣ : ٣٧٧ والعقد الفريد ٢ : ١٩٢)

١٤ — كتاب له

وكتب :

« أما بعد ، فإنك لو عرَفت فضل الحسَنِ ، لتجنَّبتَ شَيْن القبيح ورأيتُك آثرُ القولِ عندك ما يضرك ، فكنت فيما كان منك ومنا ، كما قال زُهَير ابن أبي سُلْمى :

وذى خَطَلٍ في القول يحسَبُ أنه مُصِيبٌ ، فما يُلْمِمْ به فهْوَ قائِلُه[(٤)]
عَبَأْتُ له حِلْمًا وأكرمتُ غيرَه وأعرضْتُ عنه وهو بادٍ مَقَاتِلُه[(٥)]

---

(١) في المنظوم والمنثور أن هذا الكتاب لإبراهيم بن العباس .
(٢) في العقد « هذا الأخ الودود المودود » .
(٣) وفيه « فإن البذل » .
(٤) الخطل : الخطأ . (٥) عبأ الأمر كتم : هيأه .

وأن من إحسانِ الله إلينا ، وإساءتِك إلى نفسك ، أنا صفَحْنَا عما أمكننا ، وتفاوتَ ما أعجزَك ، فلله الحمدُ كما هو أهلُه » .

(العقد الفريد ٢ : ١٩٧ ، والأوراق الصولى ٢ : ٣٦)

١٥ — كتابه إلى منصور بن المهدى

وفصل منه إلى المنصور بن المهدى :

« وما الحقُّ إلا حقُّ الله ، فمن أدّاه فلنفسه ، ومَن قصَّر عنه فعليها ، نسأل الله أن يمرَّنا بالحق ، ويُصْلِحنا بالتوفيق ، ويحصِّننا بالتقوى » .

(الأوراق الصولى ٢ : ٣٥)

١٦ — كتابه إلى العباس بن موسى

« عبد الرحمن بن عبد الله ، مَن لا أحتاج إلى وصف حاله لك ، ولعلِّى عرَفْتها بعدك ، غير أنى أحبُّ مَسَرَّتَه ، بقضاء حقه ، وواجب حُرْمته ، فى مودّته وموالاته ، وقد جعلك ممن يحافظ على ذلك ومثلِه ، أراك اللهُ ما تحبُّ أن تحفظنى ونفسَك فيه ، وتُولِيَه ما جعلك الله أهلَه ، وجعله حقيقاً به » . (الأوراق الصولى ٢ : ٣٥)

١٧ — فصل له

« لم يبق لنا بعد هذا الجنس شىء نمُدُّ أعيننا إليه ، إلا الله الذى هو الرجاء ، قبله ومعه وبعده » . (الأوراق الصولى ٢ : ٦٣)

١٨ — فصل له

(أمّا الصَّبرُ ، فَصِير كل ذى مصيبة ، غير أن الحازم يقدِّم ذلك عند اللَّوعة طلبا للمَثُوبة ، والعاجز يؤخِّر ذلك إلى السَّلْوة ، فيكون مغبوناً نصيبَ الصابرين ، ولو أن

الثواب الذى جعل الله لنا على الصبر كان على الجزع ، لكان ذلك أثقل علينا ، لأن جزع الإنسان قليل ، وصبره طويل ، والصبرُ فى أوانه أيسَرُ مئونةً من الجزع بعد السَّلْوة ، ومع هذا فإن سبيلنا من أنفسنا على ما مَلَّكنا الله منها ألا نقول ولا نفعل ما كان لله مُسْخِطا ، فأمّا مايملكه الله من حُسْن عَزاء النفس ، فلا نملكه من أنفسنا » .

(الأوراق الصولى ٢ : ٣٦)

١٩ — كتاب يعقوب الكندى إلى بعض إخوانه

وأهدى يعقوب(١) الكِنْدىّ إلى بعض إخوانه سيفا وكتب معه :

« الحمد لله الذى خصَّك بمنافع ما أُهْدِى إليك : فجعلك تَهْتزُّ للمكارم ، اهتزازَ الصَّارِم ، وتَمْضِى فى الأمور ، مَضاءَ المأثور(٢) ، وتصون عِرْضَك بالإرْفاد(٣) ، كما تصان السيوف فى الأغماد ، ويظهر دمُ الحياء فى صفحة خَدّك المَشُوف(٤) ، كما يشفّ الرَّوْنَق فى صَفَحات السيوف ، وتَصْقُل شرفك بالعَطيّات ، كما تُصْقَلُ مُتُون المَشْرَفيّات(٥) » . (غرر الخصائص الواضحة ص ٤٤٧)

---

(١) هو أبو يوسف يعقوب بن إسحق بن الصباح بن عمران بن إسماعيل بن محمد بن الأشعث بن قيس الكندى ، كان أبوه إسحق أميرا على الكوفة للمهدى والرشيد ، وكان يعقوب عظيم المنزلة عند المأمون والمعتصم ، فاضل دهره وواحد عصره فى معرفة العلوم القديمة بأسرها ، ويسمى فيلسوف العرب ، وله مؤلفات كثيرة فى علوم مختلفة من المنطق والفلسفة والهندسة والحساب (الأرثماطيقى) والموسيقى والنجوم وغيرها ، وقد عد له ابن النديم ٢٣١ كتابا فى ١٧ علما .

وله حديث مع أبى تمام ، حين أنشد المعتصم سينيته المشهورة فى مدحه (وفيات الأعيان ١ : ١٢٢) انظر ترجمته فى الفهرست لابن النديم ص ٣٥٧ ، وتاريخ الحكماء لابن القفطى ص ٣٦٦ (طبع أوربة) وطبقات الأطباء لابن أبى أصيبعة ١ : ٢٠٦ .

هذا إن صح أنه كاتب هذه الرسالة وأشك فى أنه هو ، لأن الصبغة البديعية البينة الأثر فى أسلوبها لم تفش إلا بعد ذلك العصر .

(٢) سيف مأثور : فى متنه أثر بالفتح والكسر : وهو فرند السيف ورونقه وديباجته .

(٣) الإرفاد : الإعطاء والإعانة .

(٤) المشوف : المجلو ، من شافه شوفا ، أى جلاه ، ودينار مشوف : مجلو . وفى الأصل « مشروف » وهو تحريف .

(٥) المشرفى : السيف ، نسبة إلى مشارف الشام ، وهى قرى من أرض العرب تدنو من الريف ، وقيل : نسبة إلى موضع باليمن .

٢٠ — بين عبد الله بن الحسن الأصبهانى وابن الزيات

وكان عبد الله بن الحسن الأصْبَهانى ، يخاف عمرو بن مَسْعدة على ديوان الرسائل ، فكتب إلى خالد بن يزيد بن مَزْيَد :

« إن للمعتصم أمير المؤمنين ينفُخ منك فى غير فَحْم ، ويخاطب امرأ غيرَ ذى فَهم » .

فقال محمد بن عبد الملك الزيات : هذا كلام ساقط سخيف ، جعَل أميرَ المؤمنين ينفُخ بالزِّق[1] كأنه حداد ! وأبطل الكتاب .

ثم كتب محمد بن عبد الملك إلى عبد الله بن طاهر :

« وأنت تُجْرِى أمرك على الأربح فالأربح ، والأرجح فالأرجح ، لاتسعَى بِنقُصان ، ولا تميل برُجْحان » .

فقال عبد الله الأصبهانى : الحمد لله ، قد أظهر من سخافة اللفظ ، ما دل على رجوعه إلى صناعته من التجارة[2] ، بذكره رِبْحَ السَّلَع ، ورجحان الميزان ، ونقصان الكيلِ ، والخسران من رأس المال ، فضحك المعتصم وقال : ما أسرع ما انتصفَ الأصبهانى من محمد ، وحَقَدِها عليه ابن الزيات حتى نكبَه .

(الأغانى ٢٠ : ٤٩)

---

(١) الزق : السقاء .

(٢) وذلك أنه كان جده أبان ، يجلب الزيت من مواضعه إلى بغداد ويتجر فيه ، ثم أقام هو وولده عبد الملك بالكرخ (محلة ببغداد) فنشأ عبد الملك فى التجارة ، وجد حتى صار من تجار الكرخ المياسير ، وكان يحث ابنه محمدا على التجارة وملازمتها ، فيأبى إلا الكتابة وطلبها ، وقصد المعالى ، حتى بلغ منها أن وزر ثلاث دفعات ، كما قدمنا .

٢١ — كتاب الحسن بن وهب إلى ابن الزيات

وروى أنه دامت الأمطار بسُرَّ مَنْ رَأى، فتأخر الحسن بن وهب عن محمد ابن عبد الملك الزيات، وهو يومئذ وزير، والحسن يكتب له، فاستبطأه محمد، فكتب إليه الحسن يقول:

أوجَبَ العُذْرَ فى تَرَاخِى اللِّقَاءِ ... مَا تَوَالَى مِنْ هذه الأنْواءِ (١)
لستُ أدرِى ماذا أقول وأشكو ... من سَماء تعوقُنِى عن سماءِ (٢)
غيرَ أنى أدعُو على تلك بالثُّكْـ ... ـلِ وأدعُو لهذه بالبقاءِ (٣)
فسلامُ الإلهِ أُهْدِيه غَضًّا ... لك منى ياسيِّد الوزراءِ (٤)

(الأغانى ٢٠ : ٥٤ والعقد الفريد ٢ : ١٩٣)

٢٢ — كتاب الحسن بن وهب إلى ابن الزيات

واعتلَّ الحسن بن وهب فتأخر عن محمد بن عبد الملك أياما كثيرة، فلم يأته رسوله، ولا تعرَّف خبره (٥)، فكتب إليه الحسن:

أيُّهَا ذا الوزيرُ أيَّدكَ اللــهُ وأبقاكَ لى بقاءً طويلَا
أجميلًا تراه، يا أكرمَ النا ... سِ لكيْما أراه أيضاً جميلَا
أنَّنى قد أقمتُ عَشْرًا عليلًا ... ما تَرَى مُرْسِلاً إلىَّ رسولَا

---

(١) الأنواء جمع نوء بالفتح : وهو سقوط نجم من المنازل فى المغرب مع الفجر، وطلوع رقيبه من المشرق يقابله من ساعته، وكانت العرب تضيف الأمطار والرياح والحر والبرد إلى الساقط منها، وقيل إلى الطالع، فتقول « مطرنا بنوء كذا ».

(٢) السماء الأولى : المطر، والسماء الثانية يريد بها الوزير.

(٣) الثكل: الموت والهلاك. (٤) الغض : الناضر.

(٥) هذه رواية الأغانى، وفى العقد الفريد : « وكان شاعر يختلف إلى يحيى بن خالد بن برمك ويمتدحه، فغاب عنه أياما لعلة عرضت له فلم يفتقده يحيى، ولم يسأل عنه، فلما أفاق الرجل من علته كتب إليه ... الخ.

إن يكن مُوجِبُ التعهُّد فى الصِّحَّـــــة منا علىّ منك طويلا[1]
فهو أولَى يا سيدَ الناس بِرًّا وافتقادًا لمن يكون عليلا
فلماذا تركْتَنى عُرْضة الظا نِّ من الحاسدين جيلا فجيلا
ألِذنبٍ؟ فما علِمت سوى الشكـــــرِ قرينًا لِنيَّتى ودَخيــــلا
أمْ مَلالٍ؟ فما علمتُك لِلصَّا حِبِ مثلى على الزمان مَلُولَا
قد أتَى الله بالشِّفاءِ ، فما أعـــــرفُ مِمَّا أنكرتُ إلا قليلا
وأكلْتُ الدُّرَّاجَ ، وَهْوَ غِذَاءٌ أفَلَتْ عِلَّتى عليه أُفُولا[2]
بعد ما كنتُ قد حَمَلْتُ من العِلّـــــة عِبئًا على الطباع ثقيـــلا
ولعلِّى ـ قدَّمتُ قبلك ـ آتيـــــك غداً إن وجَدتُ فيه سبيلا

(الأغانى ٢٠ : ٥٤ والعقد الفريد ١ : ٢٣٠)

٢٣ ـ رد ابن الزيات عليه

فأجابه محمد بن عبد الملك[3] :

دفَع اللهُ عنك نائبةَ الدهـــــر وحاشاك أن تكون عليلَا
أشهِد اللهَ ما علِمْتُ وماذا ك من العُذر جائزاً مقبولا
ولَعَمْرِى أنْ لو علمتُ فلازمْــــتُك حولًا لكان عندى قليلا
إننى أرتجى (وإن لم يكن ما كان مما نقِمْتَ إلا جليلا)
أن أكونَ الذى إذا أضمرَ الإخــــلاصَ لم يلتمس عليه كفيلا
ثم لا يَبذُل المودّةَ حــتى يحمل الجهدَ دونها مبذولا
فإذا قال كان ما قال إذ كا ن بعيداً مِن طبعِه أن يقولا

(١) فى الأغانى « التعمد » وهو تحريف .
(٢) الدراج : طائر من طير العراق ، وأفل النجم : غاب .
(٣) وفى العقد الفريد : « فكتب الوزير يتعذر ... الخ » .

فاجعلَنْ لى إلى التعلق بالعذ ر سبيلا إن لم أجد لى سبيلا
فقديماً ما جَادَ بالصَّفْح والعفــــو وما سامحَ الخليلُ الخليلا

(الأغانى ٢٠ : ٥٥ والعقد الفريد ١ : ٢٣٠)

٢٤ – كتاب ابن الزيات إلى الحسن بن وهب

وكتب محمد بن عبد الملك إلى الحسن بن وهب ، وقد تأخر عنه :

قالوا : جَفاكَ فلا عهدٌ ولا خَبَرٌ ماذا تراه دَهاه ؟ قلتُ : أيْلُولُ(١)
شهرٌ تُجَذُّ حِبالُ الوصلِ فيه فما عَقْدٌ من الوصل إلا وهو محلول(٢)

(الأغانى ٢٠ : ٥٥)

٢٥ – رد الحسن بن وهب على ابن الزيات

وكان محمد قد نَدَبه لأن يخرج فى أمر مُهِمّ ، فأجابه الحسن فقال :

إنى بحَوْلِ امرئٍ أعليْتَ رُتْبَتَه فحظُّه منك تعظيمٌ وتبجيلُ
وأنت عُدّته فى نيل هِمّتــه وأنت فى كل ما يَهْواه مأمولُ
ما غالَنِى عنك أيلولٌ بِلَذَّته وطِيبِه ولَنِعْمَ الشهرُ أيلولُ
الليلُ لا قِصَرٌ فيه ولا طولٌ والجوُّصافٍ، وظهرُ الكأسِ مَرْحُولُ(٣)
والعود مستنطَقٌ عن كل مُعْجِبةٍ يَصْحَى بها كلُّ قلب وهو متبولُ(٤)
لكن توقّع وَشْك البَيْنِ عن بلدٍ تَحُلُّه ، فوِكاء العين محلول(٥)

---

(١) أيلول : شهر من شهور الروم . (٢) تجذ : تقطع .

(٣) رحل البعير كمنع : حط عليه الرجل ، فهو مرحول ، أى مهيأ الركوب ، والمعنى هنا : أن الكأس مهيأة الشرب .

(٤) صحا السكران كعدا وصحى كرضى : أفاق . وقلب متبول : إذا غلبه الحب وهيمه ، وتبله الحب كنصر : أسقمه وأفسده .

(٥) وشك البين : قرب الفراق ، والوكاء : رباط القربة وغيرها ، والمعنى : فسالت عبرته .

حالى (إذا شمَّرَتْ بى عنك مبتكِراً   دُهْمُ البغال أو المُوجُ المَرَاسِيلُ)[١]
إلاَّ رِعاياتُك اللاتى يعودُ بها   حَدُّ الحوادثِ عنى وهو مَفْلولُ
(الأغانى ٢٠ : ٥٥)

٢٦ — كتاب ابن الزيات إلى الحسن بن وهب

واستسقَى الحسن بن وهب من محمد بن عبد الملك نبيذا ببلاد الروم ، وهو مع المعتصم ، فسقاه وكتب إليه :

لم تَلْقَ مِثلى صاحباً   أَنْدَى يداً وأعمَّ جُودَا
يَسْقِى النَّدِيمَ بِقَفْرةٍ   لم يَسْقِ فيها الماءَ عُودَا
صفراء صافِيَةً كأَنْـ   ـنَ بكأْسِها دُرًّا نَضِيدَا
وأَجُودُ حين أَجُودُ لا   حَصِرًا بذاك ولا بليدَا
وإذا استقَلَّ بشكرها   أوجَبْتَ بالشكر المَزِيدا[٢]
خذها إليك كأنما   كُسِيَتْ زجاجَتُها عُقُودَا
واجعَلْ عليك بأن تقو   مَ بشكرها أبداً عُهُودَا
(الأغانى ٢٠ : ٥)

٢٧ — كتاب الحسن بن وهب إلى ابن الحسن بن سهل

وكتب الحسن بن وهب ، يعزى ابن الحسن بن سهل ، عن أبيه[٣] الحسن :

« إن أحقَّ النعم المرتجَعة ، والعَوَارِىِّ المستَرَدَّة ، بأنْ تودِّعَها النفوسُ بالسكون عليها ، والرضا من الله عز وجلَّ فيها ، والسخاء عما ارتُجِع واستُرِدَّ منها ، نعمةٌ عارِيَةٌ

(١) ابتكر : بكر . والدهم جمع أدهم : وهو الأسود . والموج جمع موجاء : وهى الناقة المسرعة حتى كأن بها موجا . والمراسيل جمع مرسال : وهى الناقة السريعة السير .
(٢) استقل : نهض .
(٣) فى الأصل « عن ابنه » وهو تصحيف .

أعظم اللهُ قَدْرَها(١) ، وأَجَلَّ خطَرَها ، وفسَحَ فى مُدَّتها ، وأطالَ الانتفاعَ بها ، حتى إذا حَدَاها(٢) طولُ الثَّواء بأهلها ، وتقادُمُ الإلْفِ بينهما ، فجرى مَجْرَى أخلاقِ الأشياء بالدوام، إن(٣) كان الدوام فى شىء مأمولا ــ وأبعدِها من النَّفاد ــ إن(٤) كان النفادُ على شىء مأمونا ــ فكانوا لذلك من حالها [فى غِرة(٥)] عنها، وإغفالٍ لوقعها ، أَمْضَى(٦) اللهُ أمْرَه الذى هو نفاذ كلِّ مادونه وهلاك كل شىء إلا وجهه ، فكان ذلك قضاءه القضاءَ الفَصْل ، وحُكْمَه الحكمَ الذىليس له مَرَدّ ،ثم نبَّه به على فقد مامنح منه ، حتى عاد مشكوراً ، وعلى ما يجب به التسليم ، حتى عاد مُطاعا .

وإن أميرنا وسيدنا ومَوْئلَ نعمتنا ، ومبتدَى أسلافنا ، وكافلَ أعقابنا ، وعامِرَ مَجْدِنا ، وبانى مَكارمنا ، بالبرِّ الذى هو كان المُعتدَّ له ، ثم بالأدب الذى رفَعَ مَنارَه وأعلامَه ، وأثْمَن(٧) به لأهله، وأقام له سُوقَه ، فلم يقرِّب إلا عليه ، ولم يُحْظِ إلا من ناحيته ، فالتمسه الناسُ حين التمسوه من جهتيه اللتين : إحداهما الرغبةُ فيه لفضله ، والأخرى طلبُ المتحيِّز لمعرفته أبا محمد ، رضى الله عنه كلَّ الرضا ، ورحمة الله كلُّ الرحمة عليه ، كان ذلك النعمة التى دامت أحسن دوام ، وتلك العارِيَّة التى ثَوَتْ أطولَ الثَّواءِ ، فما أحقَّك ــ بموضعك من ولادته ــ وأحقَّنا ــ بموقعنا من جميل بلائه ــ أن نكون على ما وفَّاه من أمره شاكرين ، وعنه تبارك وتعالى راضين ، وأن نقول قولَ المحسنين المُجْمِلين المسلمين « إنَّا لِلهِ وَإنَّا إِلَيْهِ رَاجِعُونَ » وأنا أسأل الله أن يصلى على محمد وعلى آل محمد ويسلم تسليما ، وأن يحسن لنا ولك العَزاءَ ، ويوفِّر علينا وعليك

---

(١) فى الأصل « فقدها » .

(٢) من حدا الليل النهار أى تبعه ، وحدا الإبل أى ساقها ، والمعنى : صحبها ولازمها ، والثواء : الإقامة ، وفى الأصل « حتى إذا حراها طول الثواء أهلهما » وهو تحريف .

(٣) فى الأصل « وإن » . (٤) فى الأصل « وإن أيضا » .

(٥) فى الأصل « لعرمرمهم » وقد أصلحته كما ترى . (٦) جواب إذا .

(٧) فى الأصل « وآثر » وأرى أن صوابه « وأثمن » يقال : أثمنه سلعته وأثمن له ، أعطاه ثمنها . والمعنى : أجاز أهل الأدب وحباهم ، ويؤيد هذا التصويب ، قوله بعد « وأقام له سوقه » وربما كان « وآثر به أهله » .

الأجْرَ والثواب ، وأن يجزىَ أبا محمد خيراً ، بنيَّته الجميلة ، وَسعيه الحميدِ ، وأن يسُدَّ بك وبإخوتك ـ أبقاك الله لهم ، وأبقاهم لك ومعك ـ ما فَلَّتْ[1] الأيامُ من مكانه ، وأخْلَتْ من مشاهده وأوطانه ، حتى لا يعفُو لَه أثر ، ولا يُفتقَد منه إلا ما فُقِد ، وأن يستقبل بكم أيامَكم ، بأحسنِ ما مضى تمامُه ، لمن مضى منكم ، فيجعلكم الخلَفَ الذى لا وَصْمَةَ معه ، ولا وَحْشَةَ عليه فى نفسه ، وأسأله أن يتولاكم ويتولانا فيكم بما هو أهله ووليُّه .

وكتابك ـ أكرمك الله ـ بما أحضَرَكم الله من توفيقه ، الذى أرجو ألّا يغيب عنكم ، وإرشادِه الذى أرجو أن يكون مقروناً بكم فى كل أحوالكم ، ما يلزمك فى مروءتك وأخلاقك ، لا تُخْلِنى منه ، ولا تؤخِّرْ إيناسى بتعجيله ، تولّاك الله بكل صالحة وعوَّض بك من كل رزيَّة ، وأتم عليك النعمة، ولا أخلاك فيها من الزيادة » .

(اختيار المنظوم والمنثور ١٣ : ٣١٤)

٢٨ — كتاب الحسن بن وهب إلى القاسم بن الحسن بن سهل

وكتب الحسن بن وهب ، إلى القاسم بن الحسن بن سهل يعزيه :

« مَدَّ الله فى عمرك ، موفوراً غيرَ منتقَصٍ ، وممنوحا غيرَ ممتحَنٍ ، ومُعْطًى غير مستلَبٍ » .

(زهر الآداب ٣ : ١٩٩)

٢٩ — كتاب الحسن بن وهب إلى محمد بن إسحق

وكتب الحسن بن وهب ، إلى محمد بن إسحق ، يعزيه عن ابنه إسحق :

« الأمير أعلَمُ بالدِّين ، من أن يذكَّر به ، وبالدنيا ، من أن يُدَلَّ على ما خُلِقَتْ له ، وقد ورد ـ أعز الله الأمير ـ ما كان من النبأ العظيم ، والخَطْب الجليل ، فى سيف الخلافة ودِعامتها ، ورُكْنها فى يومها وغَدها ، فلو أن حادثا سبق بالنفوس آجالَها »

---

(١) أى ثلمت ، وفى الأصل « ماملت » وهو تحريف .

وأعجَلَها عن الآجال المقدَّرة ، لكانت الرزيَّةُ أحقَّ الرزايا بذلك ، فكنتُ أحق المنكوبين بمصابه أن ينالني ذلك منه » .

(اختيار المنظوم والمنثور ١٣ : ٣١٢)

٣٠ — كتابه إلى إسحق بن يحي

وكتب الحسن إلى إسحٰق بن يحي بن مُعاذ ، يعزِّيه عن ابنه :

« مَن شكَّ في موضعي من هذه المصيبة ، وبموقِعها مني ، فأنت — أعزك الله — غيرُ شاكٍّ في ذلك ولا مرتاب به ، فإنا كنا من صفاء الخُلَّة(١) على ما لم يكن عليه أخو مَوَدَّة ، نَغيب إذا غِبْنا على إخلاص ومِقَةٍ ، ونَحضُر إذا حضرنا ، على بِرٍّ وصِلَة ، ونتقارض المحبة قروضا مجزِيّة ، رضي الله عنه ، وشكر له ما كنتُ أعتدُّ به منه ، ولقد كانت الدنيا تزداد حبا إليَّ بمكانه ، وتُضَعَّف حسنا في عيني بحياته ، ولقد أحدثتْ لي مِيتته زُهدا في الحياة ، وقصداً في الشُّحّ عليها ، وذمًّا للدنيا ، واستقباحاً لصُوَرِها ، ولكن ما الحِيلة ، جُعِلت فداءك ! ؟ وممن الظُّلامة ! ؟ وما نصنع بهذه الغَرّارة ، التي سِيرتها — منذ كانت — سيرةٌ واحدة ، وأحكامها في كَدَر الصَّفاء ، وتنغيص السرور ، أحكام راتبَة(٢) ؟ والله المستعان ، والمشتكَى إليه ، وحَسْبُنا الله ونعم الوكيل ، لانقَص لك عددا ، ولا أراك في شيء من نعمه عندك فَجْعاً ولا تبديلا » .

(اختيار المنظوم والمنثور ١٣ : ٣١٢)

٣١ — كتابه إلى محمد بن عبد الله بن طاهر

وله إلى محمد بن عبد الله بن طاهر ، يعزيه :

« أطال الله بقاء الأمير مسروراً غير محزون ، ومُعْطَى غير مسلوب ، ووفقه في أحواله كلها بما يستديم به النعمَ ، ويستحقُّ به المَثُوبَة .

(١) الخلة : الصداقة المختصة لاخلل فيها . (٢) راتبة : أي ثابتة لا تتغير .

أفظَعَني[1] ما رأيت فى الأمير ـ أعزّه الله ـ من أثر هذه الرزية ، التى تكاد أن تكون أشبه بالنعم ، منها بالرزايا لِمَا وفّر الله للأمير ـ إن شاء الله ـ من ثوابها له ، وحاطه من بعدها فى نفسه ، فإن حياة الأمير ـ أعزه الله ـ حياةٌ لأهله وذَوِى نائِله ، بعد الذى جعل الله للدين والخلافة والعز بسلامته ، وللأمة من جمال مكانه وموضعه ، فوفّره الله لأمير المؤمنين ، ولا نَقَصَه ، وتولّاه بحسن المدافعة عنه ، والحياطة له ، ولا أراه سوءا فى نفس ، ولا حميمٍ بقدرته ، وأعاذ الأمير من المكاره ، وأعاذنا فيه منها ، إنه ولى قدير » .

(اختيار المنظوم والمنثور ١٣ : ٣١٦)

٣٢ — جواب تعزية له

وللحسن بن وهب جواب تعزية عن ابنه ، إلى الطائىّ[2] الشاعر :

« أمتَعَنى اللهُ بما وفّر علىّ من موافقتك ، وبلوغ الوَطَر كل الوطر من استتمام اليد عليك ، وإحاطةِ الملك لك ، زاد الله فى النعمة عندك بطولِ حياتِك ، وترَاخِى أيامِك ، وغفلةِ الدهر عنك وعن حظى منك .

كتابى ، بأبى أنت وأمى ، وطارِفى وتِلادى ، وكتابُك فى يدى ، وفلان عندى ، ونحن نصعِّد ونصوِّب فى الشعر العجيب ، الذى أنفذته فى دَرْجه[3] ، وبيننا مِن ذِكْرك أطيب من روائح الرياض غِبَّ القَطْر ، والحالُ سارّة ، والعافية شاملة بحمد الله على النعمة ، ونسأله أحسن النَّماء والزيادة ، وذكرت مشاركتك[4] إياى فى المصيبة ، وما كان أحوَجَنى ـ حين طَرَقَتْ بها الأيامُ ـ إلى أن تكون حاضرا ، فتؤيِّدَ ضعفا ،

---

(١) أفظعه : وجده فظيعا ، أى شق عليه وأحزنه .
(٢) المفهوم منه أنه أبو تمام حبيب بن أوس الطائى ، الشاعر العباسى المعروف .
(٣) فى درجه : أى فى طيه .   (٤) فى الأصل « مشاورتك » وهو تحريف .

وتعُمّ سَداداً ، فإنها(١) كانت حالا وافتْ غَرِيراً بها ، شديدَ الغفلة عنها ، حتى كأنى كنت لا أحسب الأيام على هذه الخليقة ، ولا الدهر على هذه العادة ، فسبحان الله لهذا السهو الطويل ، والتفريطِ الذى لا يُشْبِه السَّفِيهَ ، فضلًا عمن يحبّ أن يقال عاقل حليم ، وإنا لله وإنا إليه راجعون ، لا انفكّتْ أقدارُ السوء تَتَخَطَّى دونك ، والرَّدَى يُخطِئك ، وكِلَاءةُ اللهِ تُحيط بك » .

(اختيار المنظوم والمنثور ١٣ : ٣١٥)

٣٣ — تعزية له

وله تعزية :

« جَبَلك الله على التسليم لأمره ، والرضا بقضائه ، وصبَّرك على مواقع أقداره ، واحتمالِ الحقوق لنعمته ، إن الله عز وجل جعل النعم سبيلا لاختبار الشكر ، والمِحَنَ سبيلَ ابتلاء الصبرِ ؛ وأحقُّ الناس بالشكر على النعمة ، والصبرِ عند المِحْنة ، مَنْ قَرَن الله له بين الحالين ، فلم يُخْلِه من النعمة التى حقُّها الشكرُ ، ولا من المِحْنة التى حقُّها الصبرُ ، وهى حالك التى أصبحتَ عليها بحمد الله ، إلى الأحوال المنتظرة لك بعدها ، المرجُوَّة زيادةُ الله إياك فى أحسنها .

وكانت الحادثة فى أبى فلان وما آثره من طاعة مَن مضى من خلفائه ، وطاعةِ أمير المؤمنين ، الرزيّةَ المرجوّة المنتظر يومُها ، صَنَعَ الله بك وفيك فى غدها ، وحلّت من أمير المؤمنين ومن أوليائه وعوامِّ رعيته محلَّها ، ثم كنت من أمير المؤمنين بموضع الرجاء لسَدِّ ثَلْمِها ، وَلَمِّ شَعْثِها ، حتى تعفوَ بإذن الله آثارُ كُلُومِها(٣) ، ويعود الصلاح فى جميعها إلى أجلِ ماجرَتْ به عادةُ الله فيها ولها ، فإنا لله وإنا إليه راجعون ،

---

(١) فى الأصل «وتعم سداد» والمعنى: وتعمنا بالسداد فترشدنا إلى وجوب التمسك بالصبر والتنكب عن الجزع ، وربما كان الأصل « وتعلم سدادا » أو « وتضم شرادا» .

(٢) فى الأصل « فأما » وهو تحريف .

(٣) عفا الأثر . درس وامحى ، والكلوم جمع كلم بالفتح : وهو الجرح .

قَبولا من الله تبارك وتعالى لقوله ، وانتهاء إلى أمره ، وَوَلِيَك الله فى هذه المصيبة بأعظم الأجر ، وأجزل الذُّخر ، وألهمك الله فى النعم أحسن ما ألهمه محتمِلًا لنِعْمة ، أو قائما بحق ، وسَرَّبك من بعد مَن كنا نضِنُّ ببقائه ، ونشِحُّ على حياته ، ونعتدُّ بنعمة الله فيه ، نضَّر الله وجهه ، ونسأل الله أن يَهَبَ له جزاء الآخرة ، وشريفَ منازلها ، ومرافقة النبي صلى الله عليه وسلم أفضلَ ما نَقَلَهُ عنهُ من حظوظ الدنيا التى قد كان نشأ فيها ، وتقلَّب فى أعلى مراتبها ، وأثابه الله أجلَّ ما أثاب شاكرا لأَنْعُمه ، مؤدِّيا لما يستحقُّ به من طاعته ، وهَنَأَك الله ما أعطاك من رأى خليفته ، ووفَّقك لاستقبال ما تستدعِي به مرضاتَه ، والزُّلْفَة لديه ، بقدرته » .

(اختيار المنظوم والمنثور ١٣ : ٢١٥)

٣٤ — كتابه إلى إسحق بن إبراهيم

وكتب الحسن بن وهب ، إلى إسحق بن إبراهيم يعزيه ، عن يحيى بن خاقان :

« صَرفَ الله المكارهَ كلَّهَا عن الأمير ، وأبعدَها عن جَنابه ومَقَرِّ داره ، ولا فجعَه بولىٍّ يؤيِّد عِزَّه ، ويُنْهِي(١) بفضائله ، ويَقْدَح بِزَنْده ، ويحطِب فى حَبْله ، ويُرَادِى مَن رَاداه(٢) وعَنَد(٣) عن طاعته ، كان يحيى بن خاقان أحد الشيوخ ، أو شيخ الشيوخ العارفين بفضائل الأمير ، الحافِظين لمآثر أسلافه ، فلا أعلَمُنِي رأيتُ فى دار الأمير رجلا أصْفَى من جانبه ، ولا أطْهَرَ من محبّته ، ولا غائبًا كان يغيب عنها بأنْقَى من غَيْبه ، وسريرته ، ولا أنصَحَ من جَيْبه ونيّته ، وكان لى مع ذلك أبًا بعد أبى ، وكافلا بعد من كان يَكفُلُنى ، وكانت عنايته بلغتنى ، حتى خَلَطَنى بإخوته وأقاربه .

---

(١) أنهى الشىء : أبلغه .

(٢) رادى عن القوم . رمى عنهم بالحجارة .

(٣) عند عن الطريق كنصر وسمع وكرم : مال .

وأتانى خبر مُصابه، فوَحَقّ الأمير الذى أعظِّمه، لقد هدَّنى، وبلغ مساءتى وكُرهى، وتذكرتُ ما يتعطَّل على الأمير من عِمارة الأنس به، والإفضاء إليه، والاستراحة إلى خَلوته، فاستوحشتُ لذلك، وإن كنت أرجو أن يُؤنِس الله الأميرَ من سلامته، بما يسُدُّ كل خلَل وثُلمة، ويَدمُل[1] كل كَلْم ورَزِيّة، فعظَّم الله أجر الأمير، وتظاهَرتْ عنده مِنَنُ الله وطَوْله وقدرتُه على ما يشاء فى عباده».

(اختيار المنظوم والمنثور ١٣ : ٣١٧)

٣٥ — كتابه إلى عبد الرحمن بن خاقان

وله تعزية إلى عبد الرحمن بن خاقان :

«حَرَسَك الله من المكاره والغِيَر، مؤيَّدا بالتوفيق والعصمة فى القول والعمل، إن نعمة الله عليك فيما عصَم من دِينك ونفسك، وألهَمك حظَّك ورُشْدَك فى السعى لِمَعادك، والتماسِ القُرْبة إلى ربك، النعمةُ الجليلة التى تضع أكثر المَئُونةِ عن التمس تذكيرَك بالله وآياته، ووَعظَك بما يلزمك مِن تَلَقِّى نِعَمِ الله عز وجل بشكرها، ومِحْنتِه بالتسليم لها والصبر عليها .

وقد وافانا مِن خبر الحادثة فيمن أكرم الله مَثواه ومُنْقَلَبه، ما جَلّ حتى استغرغ الجميعَ، وعَمّ حتى كاد يسوِّى بين الأقرب والأبعد، فإلى الله نشكو ذلك، كما نرغب إليه تبارك وتعالى فى التجاوز عنه والرحمة له، وأن يوفّقك وإيانا من الصبر على رزيته مايُؤْمِننا من حُبُوط الأجر، ويُكمِل لنا ولك جزيلَ الذُّخر»[2] .

(اختيار المنظوم والمنثور ١٣ : ٣١٧)

---

(١) دمل الجرح كفرح واندمل : برئ والتحم وتماثل ، ودمله الدواء كنصره : أبرأه ، والكلم : الجرح .

(٢) فى الأصل « الأجر » وأرى أنه سهو من الناسخ ، إذ تقدمت هذه الكلمة فى الفقرة السابقة

٣٦ ـ كتاب تعزية له

وله تعزية أيضاً :

« قد نفذ كتابى إليك فى التعزية عن السيِّد الذى لا نُفْجَع بمثله ، ولا نؤمِّل عِوَضاً منه ، إلا باتصال أيامك ، وجميل حِياطة الله إياك ، بما أرجو أن يكون قد وصل والحمد لله ، وإليه أوجِّه الرغبة فى إلهامك الصبرَ ، وحسن المعاونة لك على قضاء الحق عليك ، وقضاء الحق لك ، وما أعتدُّ به من مودتك ، التى تقتصر على مادونها الثقةُ ، وتَستحكِمُ بأقلَّ منها الأسبابُ والمِقَةُ » .

(اختيار المنظوم والمنثور ١٣ : ٣١٠٧)

٣٧ ـ كتاب له فى الشكر

وكتب الحسن بن وهب فى الشكر :

« مَن شَكرك على درجةٍ رفعتَه إليها ، أو ثروة أقدرتَه عليها ، فإن شكرى لك على مُهْجة أحيَيْتَها ، وحُشاشةٍ[1] أبقيتَها ، ورَمَقٍ أمسكتَ به ، وقمتَ بين التلَف وبينه ، فلكل نعمة من نعم الدنيا حَدٌّ ينتهى إليه ، ومَدًى يُوقَف عنده ، وغايةٌ من الشكر يسمو إليها الطَّرْفُ ، خلا هذه النعمة التى قد فاقت الوصفَ ، وطالت الشكرَ ، وتجاوَزَتْ قدرَه ، وأنت من وراء كل غاية ، رددتَ عنا كيدَ العدو ، وَأرغمتَ أنف الحسود ، فنحن نلجأ منك فيها إلى ظل ظَلِيل وكَنَفٍ كريم ، فكيف يشكر الشاكر ، وأنَّى يبلُغُ جُهد المجتهد ؟ » .

(العقد الفريد ٢ : ١٩٥)

(١) الحشاشة : بقية الروح فى المريض والجريح .

٣٨ — كتاب فى الشكر

قال ابن طيفور :

ومن مختار ما كتب به من باب الشكر :

« أما بعد ، فما أعجزَ تعدادى عما أتعرّفُ منك وأتعرّفُه بك دانيا ونائيا ، وما أدرى ما ابتدأتنى به من معروفك ، أرهَنٌ لشكرى ؟ أم ما ثنّيتَ به من برّك ، لبَدْئك بعنايتك على تأيك ؟ أم ما ألبستنى جمالَه ، على لسانك ، بإطرائك وثنائك ؟ أم ما عقدْتَه لى عند غيرك بتلطّفك وتأتّيك[1] ؟ غير أنى أعلم أنك لم تقصّر فى استحقاق شكرٍ علىّ ، وأرجو ألّا أكون مقصّرًا فى معرفة ذلك منك ، ومَن لم يقصّر علمُه ولم يُؤْنِ[2] فى شكره إلّا مِن عِظَم المعروفِ عنده مع جهده ، فقد دخل بالعلم والجهد فى الشاكرين ، غير أن الذى آنستَنى به من رِفْدك[3] وتوطيدك ، قد زادنى وَحْشةً إليك ، وإنّ حِفظَ مَن حَفِظنى فيك — وإن لم يكن مقصّرًا — قد جدّد لى المعرفة بِوَثارة[4] مكانى عندك ، ولقد بلغتُ أنْ أصلحتَ لى الأمورَ والرجال ، وأصلحتنى إلى صلاحى لنفسك ، فليس كتابى هذا باستبطاء لأحد حتى يستبطئه ، ولا شكرى حتى يكون البدء منك ، ولكن روّحْتُ عن نفسى بذكرك ، وزيّنْتُها شكرك ، وزكّيتها بالإقرار بفضلك » . (اختيار المنظوم والمنثور ١٣ : ٢٧٨)

(١) تأتى للأمر : ترفق وأتاه من وجهه .

(٢) أنيت وأنّيت وتأنيت واستأنيت : تأخرت وأبطأت ، وفى الأصل « ولم يؤت » والأول عندى أولى .

(٣) الرفد : العطاء والصلة ، والتوطيد : التثبيت ، ووطد له منزلة : مهدها .

(٤) من وثر الشىء ككرم : إذا لان وسهل .

٣٩ - كتاب الحسن بن وهب إلى إبراهيم بن العباس

وكتب الحسن بن وهب إلى إبراهيم بن العباس :

« وصل كتابك ، فما رأيت كتابا أسهلَ فُنُونا ، ولا أملَسَ مُتُونا ، ولا أكثر عُيُونا ، ولا أحسنَ مَقاطِعَ ومَطالِعَ منه ، أنجزْتَ فيه عِدَةَ الرأى ، وبُشْرَى الفِراسة ، وعاد الظنُّ يقينا ، والأمل مبلوغا ، والحمد لله الذى بنعمته تتم الصالحاتُ » .

(العقد الفريد ٢ : ١٩٦)

٤٠ - كتابه إلى أبى تمام الطائى

وكتب الحسن بن وهب إلى أبى تمام الطائى :

« أنت - حفظك الله - تحتذى من البيان فى النِّظام ، مثلَ ما يُقصَد بحرٌ فى الدُّرَر من الأفهام ، والفضل لك - أعزَّك الله - إذ كنت تأتى به فى غاية الاقتدار ، على غاية الاقتصار ، فى منظوم الأشعار ، فتحُلُّ متعقِّدَه ، وتربط متشرِّدَه ، وتنظم أشطارَه ، وتجلُو أنواره ، وتفصِّله فى حدوده ، وتخرجه فى قيوده ، ثم لا تأتى به مهما اقتبسته مُشتَرَكا فيُلْبِس ، ولا متعقِّدا فيَطُول ، ولا متكلَّفا فيَحُول ، فهو كالمُعْجِزة ، تُضْرَب فيها الأمثالُ ، ويُشْرَح فيها المقالُ ، فلا أعدَمَنا الله هداياك وارِدةً ، وفرائدَك وافِدةً » .

(زهر الآداب ٣ : ١٠٤)

٤١ - كتاب له

« لا ترْضَ لى بيسير النظر ، فإنى لم أرْضَ لك بيسير الشكر ، وضَعْ عنى مُؤْنَة التقاضى ، ما وضَعْتُ عنك مُؤْنةَ الإلحاح ، وأحضِرْ قلبى مِن ذِكرك ما هو أكفَى من قعودى بِصَدَدِ عَينك ، فإنى أحقُّ مَن فعلتَ ذلك به ، كما أنك أحقُّ مَن فعلَه إليه وحقَّق الظنَّ ، فليس وراءك مَذْهَبٌ ، ولا عنك مُقصَّرٌ » .

(اختيار المنظوم والمنثور ١٣ : ٣٨٣)

٤٣ — كتاب ميمون بن إبراهيم إلى الحسن بن وهب

وكتب ميمون[1] بن إبراهيم إلى الحسن بن وهب يعزّيه عن أمه :

« خُطُوبُ الأيام مقضيَّةٌ على هذا الخلق ، ولو كانت مدفوعةً عن أحد ، لِكثرةِ مَن يَقِيهِ من إخوانه ، ويَفْديه منهم الأخصُّ فالأخصُّ من أعِزّائه وخُلّانه ، سلِمْتَ منها وعَرِيتَ من مُلِمِّها ، وكان سَبْقِي إلى ذلك أبرزَ سَبْق ، وحظّي في التقدم فيه أوفرَ حظّ ، ومصيبتك ـ أكرمك الله ـ بالوالدة لي مصيبةٌ ، وما نالك من ذلك لِقلبي مُوجِع . ولو كان في طاقتي أن أعلم كُنْهَ ما خامَر قلبَك من ألَمِ ذلك ، لحَمَلْتُ مثلَه على نفسي ، وإني أحبّ أن أكون أُسْوَتَك في كل سارّ وغامّ ، ولا أتمتّع بأيام غُمومك ، ولا أقصّر فيها عن مقدار حالك ، فعظّم اللهُ أجرك ، وجَبَرَ مُصابَكَ ، وضاعَفَ ثوابَك ، فإنا لله وإنا إليه راجعون ، والحمد لله الذي لا يُحْمَد على المكروه غيرُه . ثم الحمد لله الذي جعلك مكتفياً بنفسك في مواطن حقوق الله عليك ، والرجعُ في اقتصاري على الكتاب ـ إذ كان دونَ الذي ينبغي فيما يَلزَمني ، وإن كنتُ قد سلكتُ نفسي أوّلَ منْ لَقِيك مُعَزّيا ومؤاسياً ـ إلى عِلْمك بالحال في ذلك ، وإن كنت أثق بأني ممن لا يحتاج إلى اعتذار عندك ، فإن رأيت أن تُدْخِل إليَّ الرَّوْح[2] بكتابك وخبرك في نفسك ، وما رَزَقك الله من حسن التّعزّي عند مصيبتك ، لأحْمَدَ اللهَ على النعمة عندي فيما ألهمك من التوفيق والعصمة فعلتَ ، والتعزية ـ جُعِلْتُ فداءك ـ تجدِّد اللوعةَ للمحزون ، وقد توقيتُ ذلك في أبي أيوب[3] إشفاقا عليه ، فجعل الله لكل عَبْرَة أفَضْتماها ، وجَرعة تجرعتماها في هذه المصيبة ، حجابا لكما من كل سوء ، ووقايةً لكما من كل محذور » .

(اختيار المنظوم والمنثور ١٣ : ٣١٧)

---

(١) كان إليه خاص المكاتبات في أيام المتوكل ، وكان بليغا فصيحا مترسلا . . . انظر الفهرست ص ١٨٠ .

(٢) الروح : الراحة .   (٣) يعني سليمان بن وهب .

٤٣ — كتاب الحسين بن الحسن بن سهل إلى صديق له

وكتب الحسين بن الحسن بن سَهْل إلى صديق له :

« نحن فى مأدُبَةٍ لنا ، تُشْرِف على رَوضةٍ ، تُضاحِكُ الشمسَ حُسْناً ، قد باتت السماء تَعِلُّها[1] ، فهى شَرِقَةٌ بمائها ، حَالِيةٌ بنُوّارها ، فرأْيُكَ فينا ، لِنكون على سَواءٍ من استمتاع بعضِنا ببعض » .

٤٤ — رد صديقه عليه

فكتب إليه :

« هذه صفةٌ لو كانت فى أقاصى الأرض لوَجَب انتجاعُها ، وحَثُّ المَطِىِّ فى ابتغائها ، فكيف فى موضعٍ أنت تسكُنُه ، ويَجْمَعُ إلى أنيق منظَرِه حُسْنَ وجهك ، وطِيبَ شمائِلك ! وأنا الجواب » . (العقد الفريد ٢ : ١٩٢)

٤٥ — كتاب عبد الرحمن بن أحمد الحرانى إلى محمد بن سهل

وكتب عبد الرحمن بن أحمد الحَرّانى إلى محمد بن سهل :

« أعزك الله ، إن كل مجازاةٍ قاصِرَةٌ عن حق السابقِ إلى افتتاح الودّ ، وقد علمتَ أنى استقبلتك من الإقبال عليك بما لم تستدْعِه ، واعتمدتُك من الرغبة فيك بما لم تُولِه »
(العقد الفريد ٢ : ١٩٢)

---

(١) علّه كضرب ونصر وأعله : سقاه مرة بعد مرة .

٤٦ — كتاب ابن الزيات بالعهد للواثق على مكة

وكتب محمد بن عبد الملك الزيات عهد الواثق على مكة بِحَضْرَة المعتصم :

« أما بعدُ : فإن أمير المؤمنين قلَّدك مكةَ وَزَمْزَمَ ، تُراثَ أبيك الأقدم ، وجَدِّك الأكرم ، وركْضَةَ جبريل ، وسُقْيا إسمعيل ، وحَفْرَ عبد المطلب ، وسِقايةَ العباس[1] ، فعليك بتقوى الله تعالى ، والتوسِعَة على أهل بيته » .

(زهر الآداب ٣ : ٣٥٩)

٤٧ — كتاب إبراهيم بن العباس إلى الواثق

ولما تُوُفِّي المعتصم ، ووَلِيَ الخلافة بعده ابنُه الواثق ، كتب إليه إبراهيم[2] ابن العباس الصُّولى يعزِّيه بأبيه ويهنئه بالخلافة :

« إن أحقَّ الناس بالشكر مَن جاء به عن الله ، وأولاهم بالصبر مَن كان سَلَفَه رسولُ الله ، وأميرُ المؤمنين — أعزّه الله — وآباؤه — نصرهم الله — أُولُو الكتاب الناطق عن الله بالشكر ، وعِتْرَةُ رسوله المخصوصون بالصبر ، وفى كتاب الله أعظمُ الشِّفاء ، وفى رسوله أحسنُ العَزَاء :

---

(١) زمزم : بئر بمكة ، ويعنى بأبيه : إسمعيل ، وبجده : إبراهيم ، عليهما السلام ، وكانت هاجر أم إسمعيل أمة لسارة زوج إبراهيم ، فوهبتها لإبراهيم فولدت منه إسمعيل فغارت منها سارة وناشدت إبراهيم أن يخرجهما عنها ، فأخرجهما إلى أرض مكة ، وذلك حيث يقول تعالى حكاية عن إبراهيم : (رَبَّنَا إِنِّى أَسْكَنْتُ مِنْ ذُرِّيَّتِى بِوَادٍ غَيْرِ ذِى زَرْعٍ عِنْدَ بَيْتِكَ الْمُحَرَّمِ) فأنبع الله لهما عين زمزم وذلك حيث يقول ابن الزيات (وركضة جبريل) وأسقاهما منها، ثم طمت تلك البئر وما زالت مطمومة إلى زمن عبدالمطلب بن هاشم ، فأتاه آت وهو نائم بالحجر فأمره بحفرها، فحفرها وأقام سقاية زمزم الحاج ، وكانت السقاية فى الجاهلية بيد ابنه أبى طالب ثم سلمها إلى أخيه العباس ابن عبد المطلب .

(٢) هو إبراهيم بن العباس بن محمد بن صول (ابن عم عمرو بن مسعدة) كان شاعرا مجيدا ، وكاتبا بارعا ، وهو وأخوه عبد الله من صنائع ذى الرياستين الفضل بن سهل ، اتصلا به فرفع منهما ، وتنقل إبراهيم فى الأعمال الجليلة والدواوين ، فكان إليه ديوان الرسائل فى مدة جماعة من الخلفاء العباسيين، وكان واليا على الأهواز ، ومات فى خلافة المتوكل بسر من رأى ، وهو يتقلد ديوان الضياع والنفقات سنة ٢٤٣ — انظر ترجمته فى وفيات الأعيان ١ : ٩ والفهرست لابن النديم ص ١٧٦ ومروج الذهب ٢ : ٣٨٢ والأغانى ٩ : ٢٠ ومعجم الأدباء ١ : ١٦٤ .

وقد كان من وفاة أمير المؤمنين المعتصم بالله ، ومن مشيئة الله فى ولاية أمير المؤمنين الواثق بالله ، ما عفا[1] على أوّله آخره ، وتلافت بدأته عاقبته ، فحقّ الله فى الأولى الصبرُ ، وفرضُه فى الأخرى الشكرُ ، فإن رأى أمير المؤمنين أن يستنجزَ ثوابَ الله بصبره ، ويستدعِيَ زيادتَه بشكره ، فعلَ إن شاء الله تعالى وَحْدَه » .

(معجم الأدباء ١ : ١٨٩)

٤٨ — كتاب إبراهيم بن العباس إلى ابن الزيات

وكان إبراهيم بن العباس الصُّولى صديقاً لمحمد بن عبد الملك الزيات ، فوَلِيَ محمد الوزارة ، وإبراهيم والٍ على الأهواز ، فقَصَده ووجّه إليه بأبى الجهْم أحمد بن سيف ، وأمرَه بكَشْفه[2] ، فتحامَلَ عليه تحاملا شديداً ، فكتب إبراهيم إلى ابن الزيات يشكو إليه أبا الجهم ويقول : هو كافر لا يبالِي ما عَمِلَ ، وهو القائل لمّا مات غلامُه يخاطب مَلَكَ الموت :

تركتَ عُبيـــدَ بنى طاهرٍ ... وقد ملئوا الأرض عرْضاً وطُولَا

وأقبلْتَ تَسعَى إلى واحِدِى ... ضِرارًا كأنْ قَدْ قتلتُ الرسولَا

فسوف أُدِينُ بتَرْك الصـــلاةِ ... وأصْطَبِح الخمرَ صِرْفا شَمُولَا[3]

فكان تَمَدُّ العصبيته على إبراهيم وقصده له يقول : ليس هذا الشعر لأبى الجهم ، وإنما إبراهيم قاله ونسبه إليه .

(الأغانى ٩ : ٢٤ ومعجم الأدباء ١ : ١٦٩)

---

(١) عفا وعنى : محا .

(٢) أى بكشف أمره ومحاسبته على مالديه من الأموال .

(٣) اصطبح : شرب الصبوح وهوالشرب بالغداة ، صرفا : غير ممزوجة بالماء ، شمولا : باردة .

٤٩ — كتاب إبراهيم بن العباس إلى ابن الزيات

وعزل ابن الزيات إبراهيمَ بن العباس عن الأهواز واعتقله بها وآذاه ـ وكان يؤمل منه أن يسامحه ويُطْلِقهُ لقديم صحبته له ـ فكتب إليه :

فلو إذْ نَبَا دهرٌ وأنكر صاحِبٌ وسُلِّط أعداء وَغاب نَصيرُ(١)
تكون عن الأهوازِ دَارِي بِنَجْوَةٍ! ولكنْ مقاديرٌ جَرَتْ وأمورُ(٢)
وإنى لأرجو بعد هذا محمداً لِأفضل مايُرْجَى أخٌ ووَزير

(الأغانى ٩ : ٢٤ ومعجم الأدباء ١٦٩)

٥٠ — كتابه إلى عمر بن فرج

وكتب إبراهيم بن العباس إلى عمر بن فرج بعد أن عُزِل عن الأهواز، وابنُ الزيات يعذّبه بالناحية .

« ولستُ أعزّكَ الله واحدا مِن عَدَدٍ تُحَصِّلهم وتقدِّمهم ، فَتَوَسَّعَ على نفسك فى أمرى ، أنا والله واحِدُكَ ، بالأسباب التى تجتمع لى فيك وبك ، ولا تجتمع فى غيرى ، من أخ ولا ولدٍ ولا صاحب ، وقد كنتَ تدَّخرنى أعزكَ الله لطاعتك والوفاء لك ، فقد والله فعلتُ غيرَ مُمْتَنٍّ بذلك ، وقد كنتُ أرجو ألّا أضَامَ فى جِيرتك ومعك ، فلا تخذُلْنى ، فإنى فى حالةٍ إنْ أخْلَيْتَنِى فيها من نُصرتك ، لم يرجع علىّ من ذلك مقدارٌ فى نعمتى ونفسى ، إلَّا رَجَعَ عليك أكثرُ منه فى نعمتك ، وقَدْرك ، والسلام » . (اختيار المنظوم والمنثور ١٣ : ٣٦٥)

---

(١) نبا به الزمان : جفاه .
(٢) النجوة : ما ارتفع من الأرض .

٥١ — كتابه إلى ابن الزيات

وكتب إبراهيم بن العباس إلى ابن الزيات يستعطفه :

« كتبتُ إليك وقد بلغتِ المُدْيَةُ المَحزّ[1] ، وعدَتِ الأيام بك عليّ ، بعد عَدْوِى بك عليها ، وكان أسوأ ظنى ، وأكثر خوفى ، أن تَسْكُنَ فى وقت حركتها ، وتكُفّ عند أذاها ، فصُرتَ عليّ أضرّ منها ، وكفّ الصديقُ عن نصرتى خوفا منك ، وبادرَ إليّ العدوُّ تقرُّبا إليك » .

وكتب تحت ذلك :

أخٌ بينى وبين الدهــــر صاحبَ أيّنا غَلَبَا
صديقى ما استقام ، فإن نبَا دهرٌ عليّ نَبَا
وثَبْتُ على الزّمان به فعاد به وقد وَثَبا
ولو عاد الزمان لنا لَعادَ به أخاً حَدِبا[2]

(الأغانى ٩ : ٢٦ ومعجم الأدباء ١ : ١٧٠)

٥٢ — كتابه إلى ابن الزيات

قال ابن طيفور :

وكتب إبراهيم بن العباس إلى محمد بن عبد الملك الزيات وهو واقف على بابه ، وقد حُجب عنه بعد أن عزل عن الأهواز :

« جُعِلْتُ فِداءك ، بالحَيْنِ[3] وقفتُ ، وإلّا فمَنْ كان أعزّ بحالة رَضِيَها فى نفسه وعند إخوانه منى ؟ ومَن كان واحِدَكَ إذا حصَّلْتَ واحِداً ؟ وواحدى إذا خِفتُ

---

(١) ومن أمثالهم « بلغ السكين العظم » يضرب عند بلوغ الشدة منتهاها .

(٢) حدبا : أى عطوفا .

(٣) الحين : الهلاك والمحنة : أى وقفت على الهلاك وصرت إليه .

من زمانٍ نَبْوَةً ؟ أمَا واللهِ لو أمِنْتُكَ لقلتُ ، ولكنى أخاف منك حالةً لاتحتمِلُها لى، وأتوقّى منك عَتْبا لاتُنْصِفُنى فيه ، وما قُدِّر فقد كان ويكون ، وعن كل حادثة أُحْدوثة ، ولا أقولُ واللهِ ـ أعزك الله ـ إنى غَلِطت على نفسى ، فتبدَّلْتُ بحالة كنت مَغبُوطا فيها ، حالةً أنا فى مكروهها ، بل أقول : إنى قُهِرْتُ، فلما فزِعتُ إلى ناصِرِى الذى كنت أُعِدُّه[1] ، وجدتُ مَن قَهَرنى أقلَّ نيةً فى ظلمى ، ممن استنصرتُ فى نُصْرتى ، وتسبَّبَتْ المقادير أسبابُها ، وتجلت عما تجلَّتْ عنه فى أمرى[2] ، وأحمَدُ الله وأشكُرُه »[3] .

وكتب فى آخره :

وكنتَ أخى بإخاء الزمان ... فلما نَبا صرتَ حَرْبا عَوَانَا

وكنتُ أَذُمُّ إليك الزمانَ ... فأصبحتُ منك أذم الزمانا

وكنتُ أُعِدُّك للنائباتِ ... فَهَا أنا أطْلُبُ منك الأمانا

(اختيار المنظوم والمنثور ١٣ : ٣٦٥ والأغانى ٩ : ٢٧ ، ومعجم الأدباء ١ : ٢٧١
ووفيات الأعيان ١ : ١٠)

٥٣ — كتابه إلى ابن الزيات

ومما كتب إلى ابن الزيات :

« مَن رأى فى المنام مِثلَ أخٍ لى ... كان عَوْنى على الزمان وخِلِّى

رُفِعَتْ حالهُ فحاولَ حَطِّى ... وَأبَى أن يَعِزَّ إلا بذُلِّى »

* * *

---

(١) أعد : أى أتخذه عدة (٢) فى الأصل « وتجلت عما تجلت عنه أمرى » .

(٣) وصورة هذا الكتاب فى الأغانى ومعجم الأدباء « أما والله لو أمنت ودك لقلت ، ولكنى أخاف منك عتبا لا تنصفنى فيه ، وأخشى من نفسى لائمة لاتحتملها لى ، وما قد قدر فهو كائن، وعن كل حادثة أحدوثة ، وما استبدلت بحالة كنت فيها مغتبطا ، حالة أنا فى مكروهها وألمها أشد على من أنى فزعت إلى ناصرى عند ظلم لحقنى ، فوجدت من يظلمنى أخف نية فى ظلمى منه ، وأحمد الله كثيرا » ثم كتب فى أسفلها : الأبيات . . . ولم يرد منه فى وفيات الأعيان إلا الأبيات فحسب .

وكتب إليه يستعطفه :

فَهَبْنِي مسيئا مثلَ ما قلتَ ظالِمًا فعفوا جميلا كى يكون لك الفضلُ
فإن لم أكن للعفو منك ـ لسوءِ ما جَنَيْتُ به ـ أهلًا فأنت له أهلُ

(معجم الأدباء ١ : ١٨٥)

* * *

وأقام ابن الزيات على الإساءة إليه ، حتى بلغ منه كل مكروه ، ثم وقف الواثق على تحامله عليه ، فرفع يده عنه ، وأمر أن يقبل منه ما رفعه ، ورده إلى الحضرة مصونا ، فبسط لسانه فى ابن الزيات وهجاه هجاء كثيرا .

(الأغانى ٩ : ٢٧)

٥٤ — كتاب ابن الزيات عن الخليفة إلى أحد عماله

وكتب عن الخليفة إلى أحد العمال :

« أما بعد ، فقد انتهى إلى أمير المؤمنين (كذا) فأنكرَه ، ولا تخلو من إحدى منزلتين ، ليس فى واحدة منهما عذرٌ يوجب حُجةً ، ولا يُزيل لائمة[1] : إما تقصيرٌ فى عملك دعاك للإخلال بالحزْم ، والتفريطِ فى الواجب ، وإما مُظاهَرةٌ[2] لأهل الفساد ، ومُداهنةٌ لأهل الرِّيَب ، وأيَّةُ هاتين كانت منك ، مُحِلَّةُ النُّكْرَ بك ، ومُوجِبَةُ العقوبةَ عليك ، لولا ما يلقاك به أمير المؤمنين من الأناة والنَّظِرة[3] ، والأخذِ بالحجَّة ، والتقدُّمِ فى الإعذار والإنذار ، وعلى حَسَب ما أُقِلْتَ من عظيم العَثْرة ، يجب اجتهادك فى تَلَافِى التقصير والإضاعة ، والسلام » .

(العقد الفريد ٢ : ١٩٨)

---

(١) اللائمة : اللوم . (٢) ظاهره : عاونه .
(٣) الأناة : الحلم ، والنظرة . التأخير .

٥٥ — فصول لابن الزيات

وكتب ابن الزيات :

« إن حقّ الأولياء على السلطان تنفيذ أمورهم ، وتقويم أَوَدهم ، ورياضة أخلاقهم ، وأن يميِّز بينهم : فيقدِّم مُحْسِنهم ، ويؤخر مُسِيئَهم ، ليزدادَ هؤلاء فى إحسانهم ، ويزدجِرَ هؤلاء عن إساءتهم » .

وفصل له :

« إن من أعظم الحق حقّ الدين ، وأوجبِ الحُرْمة حُرْمةَ المسلمين ، فحقيق لمن راعَى ذلك الحقّ ، وحفِظَ تلك الحرمةَ ، أن يُراعَى له ، حَسَبَ مارعاه الله، ويُحْفَظَ له ، حَسَب ماحفِظ اللهُ على يديه » .

وفصل له :

« إن الله أوجب لخلفائه على عباده حقّ الطاعة والنصيحة ، ولعبيده على خلفائه بَسْطَ العدلِ والرأفة ، وإحياء السُّنَن الصالحة ، فإذا أدى كلٌّ إلى كلٍّ حقّه ، كان ذلك سببا لتمام المَعُونة ، واتصال الزيادة ، واتّساق الكلمة ، ودوام الألفة » .

(العقد الفريد ٢ : ١٩٨)

٥٦ — كتاب لابن الزيات

وتوسّل رجل إلى رجل بمحمد بن عبد الملك الزيات وادّعى قرابتَه منه ، وبلغ ذلك محمداً ، فكتب إلى المتوسِّل إليه :

« بلغنى أن رجلا ادّعَى قرابتى ، وأورد عليك كتابا ذكر أنه منى ، وما أنكِر أن ينتفع بى مَن توسَّل بنَسَبى ، إلا أنه من ادَّعى قرابةً ولا قرابةَ له ، كان استعمال الشفاعةِ فى أمره أولَى » .

(اختيار المنظوم والمنثور ١٢ : ٢٦٧)

٥٧ — كتاب رجل إلى ابن الزيات

وكتب رجل إلى ابن الزيات :

« إن مما يُطْمِعُنى فى بقاء النعمة عليك ، ويَزيدُنى بصيرةً فى العلم بدوامها لديك ، أنك أخذتَها بحقِّها ، واستوجبتها بما فيك من أسبابها ، ومن شأن الأجناسِ أن تتواصَلَ ، وشأنِ الأشكالِ أن تتقاوم[1] ، والشيء يتغلغَل فى مَعْدِنه ، ويَحِنُّ إلى عُنْصُره ، فإذا صادف مَنْبِته ، ولُزَّ[2] فى مَغرِسه ، ضَرَب بِعِرْقه ، وسَمَق[3] بفرعه ، وتمكَّن تمكُّنَ الإقامة ، وثَبَت ثَباتَ الطبيعة » .

(عيون الأخبار ١ : ٩٥)

٥٨ — كتاب الجاحظ إلى محمد بن عبد الملك الزيات

قال الجاحظ[4] :

تشاغلت مع الحسن بن وهب أخى سليمان بن وهب بشُرب النَّبيذ أياما ، فطلبنى محمد بن عبد الملك لمؤانسته . فأُخْبِر باتصال شغلى مع الحسن بن وهب ، فتنكَّر لى ، وتلوَّن علىّ ، فكتبت إليه رُقْعة نسختُها :

« أعاذك اللهُ من سوء الغضب ، وعصَمَك من سَرَف الهوَى ، وصَرفَ ما أعارك

---

(١) هو من تقاوموا فى الحرب أى قام بعضهم لبعض ، والمعنى : تتجاذب ويتصل بعضها ببعض .
(٢) لزه كرده : شده وألصقه .
(٣) سمق كنصر : ارتفع وعلا وطال .
(٤) هو أبو عثمان عمرو بن بحر الجاحظ ، صاحب الرسائل البديعة والتصانيف الممتعة، وهو أشهر من أن يذكر ، نشأ بالبصرة ، وكان ينتجع بغداد أواخر عصر المأمون ، وفى عصر المعتصم والواثق وبعض عصر المتوكل ، وكان مختصا بابن الزيات ، وتوفى سنة ٢٥٥ — انظر ترجمته فى وفيات الأعيان ١ : ٣٨٨ ونزهة الألبا فى طبقات الأدبا ص ٢٥٤ وتاريخ بغداد ١٢ : ٢١٢ والفهرست ص ١٦٩ ومعجم الأدباء ٦ : ٥٦ (طبع مطبعة هندية) وأمالى المرتضى ١ : ١٣٨ ومروج الذهب ٢ : ٢٠٠ و ٤٣٩ وسرح العيون ١٧٠ والمنية والأمل ص ٣٩ ، وله أخبار متفرقة فى الأغانى ، والفرق بين الفرق ، والانتصار ، والملل والنحل ، وغيرها .

من القوة إلى حُبِّ الإنصاف ، ورَجِّح فى قلبك إيثارَ الأَناة(١) ، فقد خِفْتُ — أيَّدَكَ اللهُ — أن أكون عندك من المنسوبين إلى نَزَق السُّفهاء ، ومُجانبةِ سُبُل الحكماء ، وبعدُ ، فقد قال عبد الرحمن بن حَسَّان بن ثابت :

وإن امرَأً أمسَى وأصبحَ سالِماً من الناس إلّا ما جَنَى لَسَعيد(٢)

وقال الآخر(٣) :

ومن دعا الناسَ إلى ذمِّــه ذمُّــوه بالحقِّ وبالباطل

فإن كنتُ اجترأت عليك — أصلحك الله — فلم أجترئ إلّا لأن دوامَ تغافلِك عنى شبيهٌ بالإهمال الذى يُورث الإغفالَ ، والعفوُ المُتتَابِـعُ يُؤمِنُ من المكافأة(٤) ، ولذلك قال عُيَيْنَةُ(٥) بن حِصْنِ بن حُذَيفةَ لعثمان رحمه الله : « عُمَرُ كان خيرا لى منك : أرهبنى فأتقانى ، وأعطانى فأغنانى »(٦) .

فإن كنتَ لاتَهَبُ عِقابى — أيدك الله — لُحرْمة(٧) ، فَهَبْه لأياديك عندى ، فإن النِّعمة تَشْفَعُ فى النِّقمة ، وإلاّ تفعلْ ذلك لذلك ، فعُدْ إلى حسن العادة ، وإلاّ فافعل ذلك لحُسْن الأُحْدُوثة ، وإلا فأْتِ ما أنت أهلُه من العفو ، دون ما أنا أهلُه من

---

(١) الأناة : الحلم ، والنزق : الطيش .

(٢) ويروى هذا البيت لحسان بن ثابت — انظر ديوان حسان ص ١٤٢ — وفى ديوان الحماسة ٢ : ١٤ أنه لرجل من بنى قريع .

(٣) ذكر صاحب زهر الآداب أنه محمد بن حازم الباهلى ، وفى الأغانى (ج ١٣ : ص ١٠) أنه العتابى أو الحكم بن قنبر ، وقبله :

مقالة السوء إلى أهلها أسرع من منحدر سائل

(٤) المكافأة : المجازاة .

(٥) هو عيينة بن حصن بن حذيفة بن بدر الفزارى ، أحد المؤلفة قلوبهم ، أعطاه رسول الله صلى الله عليه وسلم من غنائم هوازن مائة بعير — انظر سيرة ابن هشام ٢ : ٣٢١ .

(٦) بسط الجاحظ معانى هذه الرسالة بصورة أوسع ، فى رسالته « التربيع والتدوير » وأورد فيها أكثر فقرها بألفاظها — انظر الفصول المختارة من كتب الجاحظ على هامش الكامل للمبرد ص ٦٠ وما بعدها ، ومجموعة رسائل الجاحظ ، طبع الساسى ص ١١٢ .

(٧) فى الأصل « لخدمة » وهو تحريف وصوابه « لحرمة » والتصويب عن رسالة التربيع والتدوير وفيها « لحرمتى » .

استحقاق العقوبة، فسُبْحانَ مَن جَعَلَك تعفو عن المتعمِّد، وتتجافَى عن عِقَاب المُصِرّ، حتى إذا صِرْتَ إلى من هَفْوتُه بِكْرٌ[1]، وذنبُه نِسْيَانٌ، ومن لا يعرف الشكرَ إلا لك، ولا الإنعامَ إلا منك[2]، هجَمْتَ عليه بالعقوبة.

واعلم - أيدك الله - أن شَيْنَ غضبك عليّ كزَيْن صفحِك[3] عنى، وأن موتَ ذكرى مع انقطاع سَبَبِي منك، كحياة ذكرى[4] مع اتصال سببى بك، واعلم أن لك فِطْنَةَ عليم، وغَفْلَةَ كريم، والسلام.

(زهر الآداب ٢ : ١٠٨)

٥٩ — كتاب الجاحظ إلى أحمد بن أبى دواد

وكتب الجاحظ إلى أحمد[5] بن أبى دُواد يستعطفه:

«ليس عندى - أعزّك الله - سببٌ، ولا أقدِر على شَفِيع، إلاّ ما طبَعَك اللهُ عليه من الكرم والرّحمة والتأميل الذى لا يكون إلا من نِتاج حُسْن الظن، وإثباتِ الفضل بحال المأمولِ، وأرجو أن أكون من العُتَقاء الشاكرين، فتكونَ خيرَ

(١) فى الأصل «ذكر» وهو تحريف، والتصويب عن رسالة التربيع والتدوير أيضا (من الفصول المختارة) والبكر: أول كل شىء، وكل فعلة لم يتقدمها مثلها.

(٢) جاء فى رسالة التربيع والتدوير بعد ذلك: «ولا العلم إلا من تأديبك، ولا الأخلاق إلا من تقويمك، ولا يقصر فى بعض طاعتك إلا لما رأى من احتمالك، ولا نسى بعض مايجب لك إلا لما داخله من تعظيمك، صرت تتوعد بالصرم».

(٣) أى فى مقدار الأثر، أى أن الأول شديد جدا كما أن الثانى عظيم جدا، وفى رسالة التربيع والتدوير قبل ذلك: «وأن منعك إذا منعت، فى وزن إعطائك إذا أعطيت، وأن عقابك على حسب ثوابك، وأن جزعى من حرمانك، فى وزن سرورى بفوائدك».

(٤) فى الأصل «ذكرك» وهو تحريف. وصوابها «ذكرى» كما يقتضيه السياق وكما وردت فى رسالة التربيع والتدوير، وقد كنت صححتها فى زهر الآداب قبل أن أقرأها فى تلك الرسالة، وهذا التشبيه كالتشبيه السابق أيضا.

(٥) من كبار أئمة المعتزلة، وكان مقربا من المأمون أثيرا عنده، ولما ولى المعتصم الخلافة جعله قاضى القضاة وخص به أحمد، حتى كان لا يفعل فعلا باطنا ولا ظاهراً إلا برأيه، وحسنت حاله عند الواثق فى خلافته، ثم فلج فى أول خلافة المتوكل، وتوفى سنة ٢٤٠ هـ — انظر ترجمته فى وفيات الأعيان ١ : ٢٢.

مُعْتِب(١)، وأَكونَ أفضلَ شاكر ، ولعلَّ الله أن يجعل هذا الأمر سببا لهذا الإنعام، وهذا الإنعامَ سبباً للانقطاعِ إليكم ، والكَوْنِ تحت أجنحتكم ، فيكونَ : لا أعظَمَ بَرَكةً ، ولا أَنْمَى بَقِيَّةً ، من ذنب أصبحتُ فيه ، وبِمِثلك ـ جُعِلْتُ فِداك ـ عاد الذنبُ وسيلةً ، والسيئةُ حَسَنةً ، ومثلُك من انقلب به الشرُّ خيراً ، والغُرْمُ غُنْماً .

من عاقب فقد أخذ حَظَّه ، وإنما الأجرُ فى الآخرة ، وطيبُ الذِّكر فى الدنيا ، على قدر الاحتمال ، وتجرُّعِ المرائر ، وأرجو ألاَّ أَضِيعَ وأَهلِكَ فيما بين كَرَمك وعقلك ، وما أكثرَ مَن يعفو عمن صَغُر ذنبُه وعظُم حقّه ! وإنما الفضل والثناء : العفوُ عن عظيم الجُرْم ، ضعيفِ الحُرْمة ، وإن كان العفو عظيما مُستَطرَفا من غيركم ، فهو تِلادٌ فيكم ، حتى ربما دعا ذلك كثيرا من الناس إلى مخالفةِ أمْرِكم ، فلا أنتم عن ذلك تَنْكُلُون(٢) ، ولا على سالفِ إحسانكم تَنْدَمون ، وما مَثَلكم إلا كمَثَل عيسى بن مريم عليه السلام حين كان لا يمرُّ بمَلَإٍ من بنى إسرائيل إلا أسمعوه شرا وأسمعهم خيرا ، فقال له شمْعُون الصفا : ما رأيتُ كاليوم ! كلَّما أسمعوك شرا سمعتهم خيرا ! فقال « كل امرئٍ يُنفق مما عنده » وليس عندكم إلا الخير ، ولا فى أوعيتكم إلا الرحمة ، « وكل إناءٍ بالذى فيه يَنضَحُ » . (سرح العيون ص١٧٥)

٦٠ ــ كتاب له فى الاستعطاف

« زَيَّنك الله بالتقوى ، وكفاك ما أهَمّك فى الآخرة والأولى ، مَن عاقَبَ ـ أبقاك الله تعالى ـ على الصغيرة عُقوبةَ الكبيرة ، وعلى الهَفوة عقوبةَ الإصرارِ ، فقد تناهَى فى الظلم ، ومن لم يفرِّق بين الأسافل والأعالى ، والأدانِى والأقاصِى ، فقد قصَّر ، والله لقد كنت أكرَهُ سَرَفَ الرِّضا ، مخافةَ أن يؤدِّىَ إلى سَرَفِ الهَوى ،

---

(١) أعتبه : أرضاه .

(٢) نكل عنه كضرب ونصر وعلم : نكص .

فما ظنك بسَرَف الغيظ وغَلَبة الغضب ، من طَيَّاشٍ ، عَجُولٍ فَحَّاش ، ومعه من الخُرْق بقدر قِسْطه من التهاب المِرَّة[1] الحمراء ، وأنت رُوحٌ كما أنت جسم ، وكذلك جنسُك ونوعُك ، إلا أن التأثر فى الرِّقاق أسرعُ ، وضِدّه فى الغِلَاظ الجُفاةِ أكَلُّ ، ولذلك اشتدَّ جزعى عليك من سلطان الغيظ وغلَبته ، فإذا أردتَ أن تعرفَ مقدار الذنْب إليك ، من مقدار عقابك عليه ، فانظر فى عِلّته ، وفى سبب إخراجه إلى مَعْدِنه الذى منه نَجَمَ ، وعُشّه الذى منه دَرَجَ ، وإلى جهة صاحبه فى التسرع والثبات ، وإلى حِلمه عند التعريض ، وفطنته عند التوبة ، فكلُّ ذنب كان سببه ضِيق صدر من جهة القبض[2] فى المقادير ، أو من طريق الأَنَفة ، وغلبةِ طباع الحِمّيَة من جهة الجفوة ، أو من جهة استحقاقه فيما زيّن له عملُه أنه مقصَّر به فى حقه ، مؤخَّر عن رُتبته ، أو كان مبلَّغا عنه مكذوبا عليه ، أو كان ذلك جائزا فيه غير ممتنع عنه ، فإذا كانت ذنوبه من هذا الشكل ، فليس يقفُ عليها كريم ، ولا ينظر فيها حليم ، ولستُ أسمّيه بكثرة

(١) المرة والخلط (بالكسر وجمعه أخلاط) والمزاج (بالكسر أيضا وجمعه أمزجة) : واحد ، وهو ماركب عليه البدن من الطبائع الأربع : الدم والمرتين الصفراء والسوداء والبلغم . وجاء فى العقد الفريد ٣ : ٢٨٧ فى باب طباع الإنسان : « زعم علماء الطب أن فى الجسد من الطبائع الأربع اثنى عشر رطلا ، فالدم منها ستة أرطال ، والمرة الصفراء والسوداء والبلغم ستة أرطال ... » وفيه أيضا : «عن وهب بن منبه أنه قرأ فى التوراة أن الله عز وجل حين خلق آدم ، ركب جسده من أربعة أشياء ثم جعلها وراثة فى ولده ـ تنمو فى أجسادهم ، وينمون عليها إلى يوم القيامة : رطب ويابس وسخن وبارد ، قال وذلك أنى خلقته من تراب وماء وجعلت فيه يبسا ، فيبوسة كل جسد من قبل التراب ، ورطوبته من قبل الماء ، وحرارته من قبل النفس ، وبرودته من قبل الروح ، ثم خلقت الجسد بعدهذا الخلق الأول أربعة أنواع أخر ، وهى ملاك الجسد وقوامه ، فإذن لايقوم الجسد إلا بهن ، ولا تقوم واحدة إلا بالأخرى : المرة السوداء ، والمرة الصفراء ، والدم الرطب الحار ، والبلغم البارد ، ثم أسكنت بعض هذا الخلق فى بعض ، فجعلت مسكن اليبوسة فى المرة السوداء ، ومسكن الرطوبة فى الدم ومسكن البرودة فى البلغم ، ومسكن الحرارة فى المرة الصفراء ، فأيما جسد اعتدلت فيه هذه الفطر الأربع ، وكانت كل واحدة فيه وفقا لا تزيد ولا تنقص ، كملت صحته ، واعتدلت بنيته ، وإن زادت واحدة منهن غلبتهن وقهرتهن ومالت بهن ، ودخل على أخواتها السقم من ناحيتها بقدر مازادت ، وإن كانت ناقصة عنهن ملن بها وعلونها ، ودخل عليها السقم من نواحيهن ، لقلتها عنهن ، حتى تضعف عن طاقتهن ، وتعجز عن مقاومتهن » اهـ .

(٢) فى الأصل « القيض » .

معروفه كريما، حتى يكون عقله غامرا لحلمه، وعلمُه غالبا على طباعه، كما لا أسمِّيه بكفِّ العقاب حكيما، حتى يكون عارفا بمقدار ما أخذ وترك، ومتى وجدتَ الذنب بعد ذلك لا سببَ له إلا البُغضُ المحْض، والنِّفارُ الغالب، فلو لم ترضَ لصاحبه بعقاب دون قَعْرِ جَهنَّم، لعَذَرَكَ كثير من العقلاء، وصوَّبَ رأيك عالَمٌ من الأشراف، والأَناةُ أقرب من الحمد، وأبعَدُ من الذم، وأنأى من خوف العَجَلة، وقد قال الأول: «عليك بالأناة، فإنك على إيقاع ما تتوقعهُ أقدرُ منك على رَدِّ ما قد أوقَعتَه» وليس يصارع الغضبَ أيام شبابه شيء إلا صَرَعَه، ولا ينازعه قبل انتهائه إلا قَهرَه، وإنما يُحْتال له قبل هَيْجه، فمتى تمكن واستفحَلَ، وأذكَى نارَه وأشعلَ، ثم لاقى من صاحبه قُدرةً، ومن أعوانه سمعا وطاعةً، فلو استعطتَه بالتوراة، وأوجَرْتَه[1] بالإنجيل، ولَدَدْتَه[2] بالزبور، وأفرغتَ على رأسه القرآن إفراغا، وأتيته بآدم شفيعا، لَمَا قصَّر دون أقصى قوَّته، ولن يسكُنَ غضبُ العبد إلا ذِكرُه غضَبَ الرَّبِّ.

فلا تقِفْ — حفظك الله — بعد مضيِّك فى عتابى التماسا للعفو عنى، ولا تقصِّر عن إفراطك من طريق الرحمة بى، ولكن قِفْ وِقفةَ من يتَّهم الغضبَ على عقله، والشيطانَ على دينه، ويعلم أن للكرم أعداء، ويُمْسِك إمساكَ من لا يبرِّئُ نفسَه من الهوى، ولا يبرئُ الهوَى من الخطأ، ولا تُنكِرْ لنفسك أن تزِلَّ، ولعقلك أن يهفوَ، فقد زلَّ آدم صلى الله عليه وسلم، وقد خلقه بيده، ولست أسألك إلا رَيْثَمَا تسكُن نفسُك، ويرتدُّ إليك ذهنُك، وترَى الحِلمَ وما يجلب من السلامة وطِيب الأحدوثةِ، والله يعلم — وكفى به عليما — لقد أردتُ أن أفدِيَكَ بنفسى فى مكاتباتى، وكنتُ عند نفسى

(١) وجرته الدواء، وأوجرته إياه: جعلته فى فيه، والوجور كصبور: الدواء يوجر فى وسط الفم.

(٢) اللدود كصبور، وكَكريم: ما يصب بالمسعط من الدواء فى أحد شقى الفم، وقد لده إياه وألده.

فى عِداد الوَنى ، وفى حَيِّز المَلَكى ، فرأيتُ أن من الخيانة لك ، ومن اللؤم فى معاملتك ، أنْ أفديكَ بنفسٍ ميِّتة ، وأنْ أُرِيَكَ أنى قد جعلتُ لك أنفسَ ذُخرٍ ، والذخرُ معدومٌ ، وأنا أقول كما قال أخو ثقيف « مودةُ الأخ التالِدِ وإن أخْلَق ، خيرٌ من مودة الأخ الطارِفِ وإن ظهرتْ مساعيه ، وراقَتْ جِدَّتُه » سلَّمك الله ، وسلَّم عليك ، وكان لك ومعك » . (سرح العيون ص ١٧٦)

٦١ — كتابه إلى بعض إخوانه فى ذم الزمان

وكتب الجاحظ إلى بعض إخوانه فى ذم الزمان :

« بسم الله الرحمن الرحيم : حَفِظك اللهُ حِفْظَ من وَفَّقَه القناعة ، واستعمله بالطاعة ، كتبتُ إليك وحالى حالُ مَن كَثُفَت غُمُومُه ، وأشْكَلَتْ عليه أمورُهُ ، واشتبه عليه حالُ دهره ، ومَخْرَجُ أمره ، وقلَّ عنده مَن يَثِق بوفائه ، أو يَحمَدُ مَغَبَّةَ(١) إخائه ، لِاستحالةِ زماننا ، وفساد أيامنا ، ودَولةِ أنذالنا : وقِدْمًا كان مَن قدَّم الحياء على نفسه ، وحَكَّم الصدقَ فى قوله ، وآثَرَ الحقَّ فى أموره . ونَبَذَ المشتَبِهاتِ عليه من شئونه ، تَمَّتْ له السلامةُ ، وفاز بوفور حَظٍّ العافية ، وحَمِد مَغَبَّةَ مكروهِ العاقبة ، فنظَرْنا إذ حَالَ عندنا حُكْمُهُ ، وتحوَّلت دولتُهُ ، فوجَدْنا الحياء متَّصلا بالحِرْمان ، والصدقَ آفةً على المال ، والقَصْدَ فى الطلب ـ بترك استعمال القِحَةِ(٢) ، وإخلاقِ العِرْض من طريق التوكل ـ دليلًا على سَخافة الرأى ، إذ صارت الحُظْوة الباسِقَةَ(٣) ، والنعمة السابغة ، فى لؤم المشْبِئة ، وسَناء(٤) الرزق ، من جهة مُحاشاةِ الرَّخاء(٥) ، وملابَسَةِ مَعَرَّة العار .

---

(١) المغبة : العاقبة . (٢) القحة والوقاحة : قلة الحياء

(٣) الحظوة بالضم والكسر : المكانة ، والحظ من الرزق ، والباسقة : العالية ، ونعمة سابغة : أى تامة . (٤) السناء : الرفعة .

(٥) أى من جهة التباعد عن أسباب الرخاء ، وذلك بالقعود عن العمل . والإخلاد إلى الراحة والكسل .

ثم نظرْنا فى تعقُّبِ المتعقِّبِ لقولنا ، والـكاشِرِ[١] لحِجَّتنا ، فأقمنا له عَلَماً واضحا ، وشاهدا قائما ، ومَنَاراً بيِّنا ، إذ وجدنا مَن فيه السُّفُوليَّةُ الواضحةُ ، والمَثَالِبُ[٢] الفاضحة ، والـكذبُ المبرِّح ، والخُلْفُ المُصَرِّح ، والجهالةُ المُفْرِطة ، والرَّكاكةُ المستخفَّة ، وضعفُ اليقين والاستثبات ، وسرعة الغضب والجراءة قد استكمل سرُورُه واعتدلت أمورُه وفاز بالسَّهم الأغْلَبِ[٣] والحظِّ الأوفر ، والقدر الرفيع ، والجَواز الطائع ، والأمرُ النافذ ، إن زَلَّ قيل حَكَمَ ، وإن أخطأ قيل أصاب ، وإن هَذَى فى كلامه وهو يقظانُ قيل رُؤْيا صادقةٌ ، مِن نَسَمةٍ[٤] مبارَكة .

فهذه حجتنا والله على من زَعَم أن الجهل يخفِضُ ، وأن النُّوكَ[٥] يُرْدِى ، وأن الـكذب يضرّ ، وأن الخُلْفَ يُزْرِى .

ثم نظرْنا فى الوفاء والأمانة والنُّبْل والبلاغة وحُسْنِ المذهب وكمال المُروءةِ وسَعَة الصدر ، وقلة الغضب ، وكَرَم الطبيعة ، والفائق فى سَعَة علمه ، والحاكِم على نفسه ، والغالِبِ لهواه ، فوجَدْنا فلان بن فلان ، ثم وجدنا الزمان لم يُنْصِفْه من حقه ، ولا قام له بوظائفِ فَرْضه . ووجدنا فضائلَه القائمةَ له قاعدةً به ، فهذا دليلُ أن الطَّلاحَ[٦] أجْدَى من الصلاح ، وأن الفضلَ قد مضى زمانُه ، وعفَتْ آثارُه ، وصارت الدائرةُ عليه ، كما كانت الدائرة على ضِده ، ووجدنا العقل يَشْقَى به قرينُه ، كما أن الجهلَ والحُمْق يَحْظَى به خَدِينُه[٧] ، ووجدنا الشِّعر ناطقا على الزمان ، ومُعْرِبا عن الأيام حيث يقول :

---

(١) الـكاشر : من كشر له إذا تنمر له ، ورأى صوابه « والـكاسر » بالسين .

(٢) المثالب : المعايب ، جمع مثلبة بفتح الميم مع فتح اللام وضمها ، والمبرح : الشديد ، والمصرح : المتجلى الخالص ، من صرحت الخمر تصريحا : أى انجلى زبدها فخلصت .

(٣) يقال : هضبة غلباء : أى عظيمة مشرفة ، وعزة غلباء كذلك على المثل .

(٤) النسمة : النفس . (٥) النوك بالضم والفتح : الحمق .

(٦) الطلاح : ضد الصلاح .

(٧) الخدين والخدن بالـكسر : الصاحب .

تحامَقْ مع الحَمْقَى إذا ما لَقِيتَهم ... ولاقِهِمُ بالجهل، فِعْلَ أخي الجهل
وخَلِّطْ إذا لاقيتَ يوما مُخَلِّطًا ... يُخلِّط في قولٍ صحيح وفي هَزْلِ
فإني رأيت المرء يَشْقَى بعقله ... كما كان قبلَ اليوم يسعد بالعقلِ

فبقيتُ — أبقاك الله — مِثلَ من أصبح على أوفاز[1]، ومن النُّقْلة على جِهاز لا يَسُوغ له نعمةٌ، ولا تَطعَم عينُه غَمْضةً، في أهاويلَ يُبا كِره مكروهُها، ويُراوِحُه عقابيلها. فلو أن الدعاء أجيب، والتضرُّعَ سُمِع، لـكانت العِدَّةُ العظمَى[2]، والرَّجفةُ الـكُبْرَى، فليت — أيْ أخي — ما أستبطِئُه من النَّفْخة، ومن فجْأة الصَّيْحة، قُضِي فحان، وأُذِنَ به فـكان، فوالله ما عُذِّبَت أمة برَجْفة ولا رِيحٍ ولا سَخْطة، عذابَ عيني برؤية المغايَظَةِ المُدْمِنة، والأخبار المُهْلِـكة، كأنَّ الزمان يوكَّل بعذابي، أو يُنْصَب بأيامي، فما عيشُ من لا يُسَرُّ بأخ شفيق، ولا يصطبِحُ في أول نهاره إلّا برؤية مَن يكرهه، وبِغُمَّةٍ مَن يغمُّه طلْعتُه، فقد طالت الغُمَّة، وواظبت الـكرْبة، وادلَهَمَّتِ[3] الظُّلمةُ، وخَمَدَ السِّراجُ، وتباطأ الانفراج».

(العقد الفريد ١ : ١٩٥)

٦٢ — كتاب الجاحظ في استنجاز وعده

وكتب الجاحظ إلى رجل وعده:

«أما بعدُ، فإن شجرةَ وَعْدِك قد أَوْرَقَتْ، فليكن ثَمَرُها سالما من جَوائحِ المَطْل، والسلام». (العقد الفريد ١ : ٧٥، ٢ : ١٩٩)

---

(١) يقال: لقيته على أوفاز: أي على عجلة. أو على سفر قد أشخص، واحدها وفز بالتحريك والسكون: هو العجلة.
(٢) يعني الموت وموافاة الأجل المحتوم.
(٣) ادلهم الظلام: كثف واسود.

٦٣ – كتاب آخر

وكتب أيضاً :

« أما بعدُ ، فإن سحائب وعدك قد برَقَتْ ، فليكنْ وَبْلُها سالماً من صواعق المَطْل والاعتلال » . (العقد الفريد ٢ : ١٩٩)

٦٤ – كتاب آخر

وكتبَ أيضاً :

« أما بعدُ ، فقد رَسَفْنا[١] فى قيود مواعيدك ، وطال مُقَامنا فى سُجُون مَطْلِك ، فأطْلِقْنا – أبقاك الله – من ضِيقها وشديد غَمّها بِنعَمْ ، منك مُثْمِرَةً ، أوْلا مُرِيحةً » .

(العقد الفريد ٢ : ١٩٩)

٦٥ – كتاب له فى الاستمناح

وكتب :

« أما بعدُ ، فما أقبحَ الأُحْدُوثةَ من مُسْتَمْنِحٍ حَرَمْتَه ، وطالبِ حاجةٍ رَدَدْتَه ، ومثابِرٍ حَجَبْتَه ، ومنبَسِطٍ إليك قَبَضْتَه ، ومُقْبِلٍ إليك بعنايته لَوَيْتَ عنه ، فتَثَبَّتْ فى ذلك « وَلَا تُطِعْ كُلَّ حَلَّافٍ مَهِينٍ ، هَمَّازٍ مَشَّاءٍ بِنَمِيمٍ » .

(العقد الفريد ٢ : ١٩٩)

---

(١) رسف كنصر وضرب : مشى مشى المقيد .

٦٦ — كتابه إلى أبي حاتم السجستاني

وكتب إلى أبي حاتم السِّجِسْتاني[1] — وبلغه عنه أنه نال منه — :

« أما بعدُ فلو كففتَ عنا من غَرْبك[2] ، لكُنَّا أهلًا لذلك منك ، والسلام » .

فلم يعد أبو حاتم إلى ذكره بقبيح . (العقد الفريد ٢ : ١٩٩)

٦٧ — كتابه إلى قليب المغربي

وكتب إلى قُلَيْب المَغْرِبي :

« واللهِ يا قُلَيْبُ لولا أن كَبِدي في هواكَ مَقْرُوحةٌ ، ورُوحِي بك مَجْرُوحَةٌ ، لَساجَلْتُكَ[3] هذه القطيعةَ ، ومادَدْتُك حَبْلَ المصارَمة ، وأرجو أن الله تعالى يُديل[4] صَبْرِي من جَفائك ، فيردُّك إلى مودَّتي ، وأنفُ القِلَى[5] راغِمٌ ، فقد طال العهدُ بالاجتماع ، حتى كِدْنا نتناكَرُ عند الالتقاء » .

(سرح العيون ص ١٧٥)

٦٨ — فصول للجاحظ

« أما بعد ، فإن أحَقَّ مَن أسعفْتَه في حاجته ، وأجَبْته إلى طَلِبته ، مَن توسَّلَ إليك بالأمل ، ونَزَعَ نحوك بالرجاء » .

* * *

---

(١) من شيوخ أبي العباس المبرد . (٢) الغرب : الحدة .

(٣) ساجله : باراه .

(٤) أداله الله من عدوه : نصره عليه .

(٥) القلى : البغض والكراهية . وراغم : ذليل .

« أما بعد ، فإن فلانا أسبابه متّصِلة بنا ، يَلزَمنا ذِمامُه[1] ، وبُلوغُ موافقته من أياديك عندنا ، وأنت لنا موضعُ الثقة من مكافأته ، فأوْلِنا فيه ما يعرفُ به موقِفَنا من حسن رأيك ، ويكون مكافأةً لحقّه علينا » .

* * *

« أما بعد ، فإن للماضى قَبْلك الباقى لك ، والباقى بعدك المأجور فيك ، وإنما يُوَفَّى الصَّابِرُونَ أجْرَهم بغيرِ حسابٍ » .

* * *

« أما بعد ، فإن فى الله العزاء من كل هالك ، والخَلَف من كل مُصاب ، وإنه من لم يتعزَّ بعَزاء الله تنقطع نفسه عن الدنيا حسرةً » .

* * *

« أما بعد ، فإن الصبر يَعْقُبه الأجر ، والجَزَع يعقُبه الهَلَع ، فتمسَّكْ بحظّك من الصبر ، تنَلْ به الذى تطلب ، وتُدْرِكْ به الذى تأمُل » .

* * *

« أما بعد ، فكفى بكتاب الله واعظا ، ولذوى الألباب زاجرا ، فعليك بالتلاوة ، تَنْجُ مما أوعد اللهُ أهل المعصية » . (العقد الفريد ٢ : ١٩٩ ، ٢٠٠)

* * *

وله فصول فى الاعتذار :

« أما بعد ، فنِعْمَ البَديلُ من الزَّلَّةِ الاعتذارُ ، وبئس العِوَضُ من التوبة الإصرارُ » .

* * *

---

(١) الذمام : الحظ والحرمة .

أما بعد ، فإن أحقَّ مَن عطفْتَ عليه بحِلمك ، من لم يَتَشَفَّع إليك بغيرك .

* * *

أما بعد ، فإنه لاعِوَض من إخائك ، ولا خَلَفَ من حسن رأيك ، وقد انتقمتَ منى فى زَلَّتى بجفائك ، فأَطْلِقْ أسيرَ تشوّقى إلى لقائك .

* * *

أما بعد ، فإننى بمعرفتى بمبلغ حِلْمك ، وغايةِ عفوك ، ضَمِنْتُ لنفسى العفوَ عن زَلَّتها عندك .

* * *

أما بعد ، فإن من جَحَد إحسانك بسوء مقالته فيك ، مكذِّبٌ نفسَه بما يبدو للناس منه .

* * *

أما بعد ، فقد مَسَّنى من الألم ما لم يَشْفِه غير مواصلتِك ، مع حَبْسِك الاعتذارَ عن هفوتك ، ولكن ذنبك تغتفره مودتُك ، فامْنُنْ علينا بصِلَتك ، تكن بَدَلًا من مساءتك ، وعِوضا من هفوتك .

* * *

أما بعد ، فلا خيرَ فيمن استغرقَتْ مَوْجِدتُه عليك قَدْرَك عنده ، ولم يتَّسِع لهَنَات الإخوان .

* * *

أما بعد ، فإن أوْلَى الناس عندى بالصفح ، من أسْلَمه إلى مِلكك التماسُ رضاك ، من غير مقدرة منك عليه .

* * *

أما بعد ، فإن كنت ذَمَمْتنى على الإساءة فلِمَ رضِيتَ لنفسك المكافأةَ » .

(العقد الفريد : ٢ : ١٩٩)

٦٩ — رسالة الجاحظ فى بنى أمية

« بسم الله الرحمن الرحيم ، أطال الله بقاءك ، وأتمَّ نعمته عليك ، وكرامَتَه لك »

اعلم ـ أرشدك الله أمْرك ـ أن هذه الأمة قد صارت بعد إسلامها ، والخروج من جاهليَّتها ، إلى طَبقات مُتفاوِتة ، ومَنازلَ مختلِفةٍ : فالطبقة الأولى: عَصْرُ النبى صلى الله عليه وسلم ، وأبى بكر ، وعمر رضى الله عنهما، وستُّ سِنين من خلافة عثمان رضى الله عنه ، كانوا على التوحيد الصحيح ، والإخلاصِ المحْضِ ، مع الأُلْفة واجتماع الكلمة على الكتاب والسُّنَّة ، وليس هناك عملٌ قبيح ، ولا بِدْعةٌ فاحِشة ، ولا نَزْع يدٍ من طاعة ، ولا حسد ولا غِلٌّ ولا تأوُّلٌ ، حتى كان الذى كان : مِن قَتْلِ عثمانَ رضى الله عنه ، وما انتُهِك منه ، ومن خَبْطِهم إياه بالسلاح ، وبَعْج[1] بطنه بالحِراب ، وفَرْىِ أوْدَاجِهِ بالمَشَاقِصِ[2] ، وشَدْخِ هامَتِه[3] بالعُمُد ، مع كفِّه عن البسْطِ ، ونهيه عن الامتناع، مع تعريفه لهم قبل ذلك، مِنْ كم وَجْهٍ يجوزُ قتلُ مَنْ[4] شهِد الشهادةَ ! ؟ وصَلَّى القِبلةَ ، وأكلَ الذَّبيحةَ ، ومع ضرْبِ نسائه بحَضْرته ، وإقحامِ الرجالِ على حُرْمته ، مع اتِّقاء نائلةَ بنت الفَرافِصَةِ عنه بيدها ، حتى أطَنُّوا[5] إصبعين من أصابعها ، وقد كشفَتْ عن قناعها ، ورفَعَتْ عن ذيلها ، ليكون ذلك رَادِعاً لهم ، وكاسِراً من غرْبِهم[6] ، مع وَطْئِهم فى أضلاعه بعد موته ، وإلقائهم على المزْبلة جسَدَه

(١) بعجه كمنعه : شقه .

(٢) فراه كرماه : شقه أيضا ، والأوداج جمع ودج بالتحريك . وهو عرق فى العنق . والمشاقص جمع مشقص كمنبر : وهو النصل الطويل ، أو سهم فيه ذلك يرمى به الوحش .

(٣) الهامة : الرأس ، وشدخه كمنعه : كسره .

(٤) أى المسلم ، أخذه من قوله صلى الله عليه وسلم فى كتابه إلى المنذر بن ساوى « فإن من صلى صلاتنا ، واستقبل قبلتنا ، وأكل ذبيحتنا ، فذلك المسلم » — انظر الجزء الأول ص ٤٥ وكان فيما قاله عثمان فى أثناء حصاره : سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : « لا يحل دم امرىء مسلم إلا فى إحدى ثلاث : رجل كفر بعد إسلامه فيقتل ، أو رجل زنى بعد إحصانه فيرجم ، أو رجل قتل نفساً بغير نفس » فعيم أقتل ؟ — انظر تاريخ الطبرى ٥ : ١٢٢ .

(٥) أطنوا : أى قطعوا . (٦) من غربهم : أى حدتهم .

مجرّدا بعد سَحْبه ! ؟ وهي الخرَزَة(١) التى جعلها رسول الله صلى الله عليه وسلم كُفْئا لبناته(٢) وأيَامَاه وعقائِلِه ، بعد السبّ والتعطيش والحَصْر الشديد ، والمنع من القوت ، مع احتجاجه عليهم وإفحامِهِ لهم ، ومع اجتماعهم على أن دم الفاسق حرامٌ كدَمِ المؤمن ، إلا من ارتدّ بعد إسلام ، أو زنى بعد إحصان(٣) أو قتل مؤمنا على عَمْد ، أو رجلٍ عَدَا على الناس بسيفه ، فكان فى امتناعهم منه عَطَبُه(٤) ، ومع اجتماعهم على ألا يُقتَل من هذه الأمة مُوَلٍّ ، ولا يُجْهَز منها على جريح ، ثم مع ذلك كله دَمَروا(٥) عليه وعلى أزواجه وحُرَمه ، وهو جالس فى مِحْرابه ، ومُصْحَفه يَلُوح فى حجره ، لن يُرَى أن موحّدا يُقدِم على قتل من كان فى مثل صفته وحاله .

لاجَرَم(٦) لقد احتَلَبوا به دَماً لاتَطير رَغْوته ، ولا تَسْكُن فَوْرَتُه ، ولا يموت ثأرُه ، ولا يَكِلُّ طالبُه ، وكيف يضيِّع الله دمَ وَليِّه ، والمنتقِم له ! ؟ وما سمِعْنا بدمٍ بعد دم يحيي(٧) بن زكريا عليهما السلام غلا غَليانَه ، وقُتِل سافِحُه(٨) وأُدرك بطائِلَته ، وبلغ كل محبته ، كدَمِه ، رحمة الله عليه .

ولقد كان لهم فى أخْذه وفى إقامته للناس ، والاقتصاصِ منه ، وفى بيع ما ظهر من رِباعِه(٩) وَحدائقه وسائر أمواله ، وفى حَبْسه بما بَقِيَ عليه ، وفى طَمْره(١٠) حتى لا يُحَسَّ بذكره ، ما يُغنيهم عن قتله إن كان قد رَكِب كلَّ ما قَذَفوه به ،

---

(١) الخرزة : الجوهرة ، وفى الأصل « الجزرة » وهو تحريف .

(٢) تزوج عثمان رقية وأم كلثوم ابنتى رسول الله صلى الله عليه وسلم ، والأيامى جمع أيِّم ، وامرأة أيِّم : لازوج لها بكرا كانت أو ثيبا ، والعقائل جمع عقيلة ، وعقيلة كل شيء أكرمه .

(٣) أحصن الرجل : تزوج . (٤) أى هلاكه .

(٥) الدمر : الحنق والتهدد ، وفعله كنصر .

(٦) لاجرم : كلمة كانت فى الأصل بمنزلة لابد، ولا محالة ، جرت على ذلك وكثرت حتى تحولت إلى معنى القسم ، وصارت بمنزلة حقا ، فلذلك يجاب عنها باللام كما يجاب بها عن القسم .

(٧) مات يحيى مقتولا — انظر تفصيل الخبر فى ذلك إلى تاريخ الطبرى ٢ : ١٦ .

(٨) سفح دمه كقطعه : سفكه ، والطائلة : الثأر .

(٩) الرباع جمع ربع : وهو المنزل . (١٠) الطمر : الخبء .

وادَّعَوه عليه ، وهذا كله بحضرة جِلَّة[1] المهاجرين والسَّلَف المقدَّمين ، والأنصار والتابعين .

ولكن الناس كانوا على طبقات مختلفة ، ومَرَاتِبَ متباينة ، من قاتِلٍ ، ومن شادٍّ على عَضُده ، ومن خاذِلٍ عن نُصْرته ، والعاجزُ ناصِرٌ بإرادته ، ومُطيع بحُسن نيّته ، وإنما الشك منّا فيه وفى خاذِله ، ومَن أراد عَزْله والاستبدالَ به ، فأمّا قاتِلُه والمُعين على دَمِه والمُريد لذلك منهُ ، فضُلاَّل ، لاشكٍّ فيهم ، ومُرَّاقٌ ، لا امتراء[2] فى حكمهم ، على أن هذا لم يَعْدُ منهم الفجورَ : إما على سوء تأويل ، وإما على تعمُّد الشَّقاء . ثم ما زالت الفِتَن متصلةً ، والحروب مترادفةً ، كحرب الجمل ، وكوقائع صِفِّين ، وكيوم النَّهْروان ، وقبل ذلك يوم الزَّابُوقة[3] ، وفيه أُسِر ابن حُنَيْفٍ[4] ، وقُتِل حَكِيم بن جَبَلة ، إلى أن قَتَلَ أشقاها[5] عليَّ بن طالب ، رضوان الله عليه ، فأسعده الله بالشهادة ، وأوجب لقاتله النارَ واللَّعنةَ ، إلى أن كان من اعتزال الحسن عليه السلام الحروبَ ، وتخليته الأمورَ ، عند انتثار أصحابه ، وما رأى من الخَلَل فى عسكره ، وما عَرَف من اختلافهم على أبيه ، وكثرة تلوّنهم عليه ، فعندها استوى معاوية على الملك ، واستبد على بقية الشُّورى ، وعلى جماعة المسلمين من الأنصار والمهاجرين ، فى العام الذى سَمَّوه عامَ[6] الجماعة ، وما كان عامَ جماعة ، بل كان عامَ فُرقة وقَهْر وجَبَرِيَّة وغَلَبة ، والعامَ الذى تحولت فيه الإمامةُ ملكا كِسْرَويًّا ، والخلافة غَصْبا قَيْصَريا ، ولم يعدُ ذلك أجمع الضلالَ والفسقَ ، ثم مازالت معاصيه من جنس ما حَكَيْنا وعلى منازل ما رتَّبْنا ، حتى رد قضيَّة رسولِ الله صلى الله عليه وسلم

(١) أى من عظمائهم وسادتهم وذوى الأخطار فيهم .
(٢) أى لاشك .
(٣) الزابوقة : موضع قريب من البصرة ، كانت فيه وقعة الجمل أول النهار .
(٤) أى عثمان بن حنيف ، وقد تقدم خبر ذلك فى الجزء الأول ص ٣٢٢ .
(٥) هو عبد الرحمن بن ملجم المرادى لعنه الله .
(٦) هو عام ٤١ هـ إذ اجتمع الناس على معاوية وبايعه أهل الأمصار كلها .

ردا مكشوفا ، وجَحَدَ حُكْمَه جَحْدا ظاهرا ، في وَلَدِ الفِراش وما يجب العاهِر[١] ، مع اجتماع الأمة أن سُمَيَّةَ لم تكن لأبي سُفيان فِراشا ، وأنه إنما كان بها عاهِرا ، فخرج بذلك من حكم الفُجّار إلى حكم الكفار ، أوليس قتلُ حُجْرٍ[٢] بن عَدِيّ ، وإطعامُ عمرو بن العاص خراجَ مصر ، وبيعةُ يزيدَ الخليع ، والاستئثارُ بالفيء ، واختيارُ الولاة على الهَوَى ، وتعطيلُ الحدود بالشَّفاعة والقَرابة ، من جنس جَحد الأحكام المنصوصة ، والشرائع المشهورة ، والسنَن المنصوبة ! ؟ وسواء في باب ما يستحق من الكفار ، جَحْدُ الكتاب ، وردُّ السنّة إذ كانت السنةُ في شُهرة الكتاب وظهوره ، إلا أن أحدها أعظم ، وعقاب الآخرة عليه أشدّ ، فهذه أول كَفْرة كانت من الأمة ، ثم لم تكن إلا فيمن يدَّعِي إمامتَها والخلافة عليها ! على أن كثيرا من أهل ذلك العصر قد كفروا بترك إكفاره ، وقد أرْبَت[٣] عليهم نابِتةُ عصرنا ، ومُبْتَدِعةُ دهرِنا ، فقالت : « لا تسُبُّوه فإن له صحبةً ! وسَبُّ معاويه بِدْعة ، ومن يُبْغِضه فقد خالف السُّنّة » فزعمَتْ أن من السُّنة تركَ البراءة ممن جَحَد السنةَ ! ثم الذى كان من يزيدَ ابنِه ، ومن عماله وأهل نصرته ، ثم غَزْوُ مَكَّة ، وَرَمْيُ الكعبة[٤] ، واستباحَةُ المدينة[٥] ، وقَتْلُ الحسين[٦] عليه السلام في أكثر أهل بيته ، مصابيح الظلام ، وأوتادِ الإسلام ، بعد الذى أعطَى مِن نفسِه ، من تفريق أتباعه ، والرجوع إلى داره وحَرَمه ، أو الذهاب في الأرض حتى لا يُحَسَّ به ، أو المُقام حيثُ أُمِرَ به ، فأبَوْا إلا قَتْلَه ، والنزولَ على

---

(١) يعنى استلحاقه زيادا وقد تقدم خبر ذلك فى الجزء الثانى ص ٣٤ .

(٢) انظر الجزء الثانى ص ٤٠ . (٣) أربت : زادت . والنابتة : الناشئة .

(٤) يعنى غزو مكة فى عهد يزيد . سار إليها حصين بن نمير السكونى فى جيش من أهل الشام بعد فراغهم من وقعة الحرة بالمدينة لقتال عبد الله بن الزبير سنة ٦٤ ، وقد قذفوا البيت الحرام بالمجانيق وحرقوه بالنار ، وأخذوا يرتجزون ويقولون .

خطارة مثل الفنيق المزبد ترمى بها أعواد هذا المسجد

(والفنيق : الفحل المكرم لا يؤذى ولا يركب ، لكرامته على أهله) ـ انظر تاريخ الطبرى ٧ : ١٤ ـ ٠ .

(٥) يشير إلى وقعة الحرة . انظر الجزء الثانى ص ٨٩ . (٦) انظر الجزء الثانى ص ٨٤ .

حكمِهم ، وسواء قتلَ نفسَه بيده ، أو أسلمها إلى عدوه ، وخُيِّر فيها من لا يَبْرُد غليلُه إلا يشْرْب دمه ، فأَحسبوا قَتْلَه ليس بكفر ، وإباحَة المدينةَ وهَتك الحُرْمة ليس بحُجَّة، كيف تقولون فى رمى الكعبة ، وهَدْمِ البيت الحرام ، وقِبْلة المسلمين ؟ فإن قلتم ليس ذلك أرادوا ، بل إنما أرادوا المتحرِّزَ به[1] ، والمتحصِّنَ بحيطانه ، أفما كان فى حق البيت وحَرِيمه أن يحصُروه فيه ، إلى أن يُعْطِيَ بيده ؟ وأى شيء بَقِيَ من رجل قد أخِذَت عليه الأرض إلا موضعَ قدمه ؟ واحسبوا ما رَوَوا عليه من الأشعار ، التى قولُها شِرْك ، والتمثُّل بها كُفْر ، شيئا مصنوعا ، كيف تصنع بنَقْر القضيب بين ثَنِيَّتى الحسين[2] عليه السلام ، وحَمْل بنات رسول الله صلى الله عليه وسلم حواسِرَ على الأقتاب العارية[3] ، والإبل الصعاب ، والكشف عن عورة على بن الحسين عند الشك فى بلوغه: على أنهم إن وجدوه وقد أنبت[4] قتلوه ، وإن لم يكن أنبَتَ حملوه ، كما يصنع

---

(١) هو عبد الله بن الزبير .

(٢) وذلك أنه لما وجه عبيد الله بن زياد آل الحسين عليه السلام إلى يزيد بدمشق ، ومثلوا بين يديه ، أمر برأس الحسين فأبرز فى طست ، فجعل ينكت ثناياه بقضيب فى يده ، ويقول :

* ليت أشياخى ببدر شهدوا . . * الأبيات .

(٣) حواسر . جمع حاسر ، وكل مكشوفة الرأس والذراعين حاسر . الأقتاب : جمع قتب بالتحريك ، وهو الإكاف الصغير على قدر سنام البعير .

(٤) أنبت الغلام : نبتت عانته ، جاء فى تاريخ الطبرى ٦ : ٢٦٣ .

« أنه لما عرض على بن الحسين على عبيد الله بن زياد ، قال له : ما اسمك ؟ قال : أنا على بن الحسين قال : أو لم يقتل الله على بن الحسين ؟ فسكت ، فقال له ابن زياد : مالك لا تتكلم ؟ قال : قد كان لى أخ يقال له أيضا على فقتله الناس ، قال : إن الله قد قتله ، فسكت على ؛ فقال له : مالك لا تتكلم؟ قال: « اللهُ يَتَوَفَّى الأَنفُسَ حِينَ مَوْتِهَا » « وَمَا كَانَ لِنَفْسٍ أَنْ تَمُوتَ إِلَّا بِإِذْنِ اللهِ » قال : أنت والله منهم ويحك ! انظروا هل أدرك ؟ والله إنى لأحسبه رجلا ، فكشف عنه مرى بن معاذ الأحمرى ، فقال : نعم قد أدرك ، فقال : اقتله ، فقال على بن الحسين : من توكل بهؤلاء النسوة ؟ وتعلقت به زينب عمته ، فقالت : يابن زياد . حسبك منا ، أما رويت من دمائنا ؟ وهل أبقيت منا أحدا ؟ فاعتنقته فقالت . أسألك بالله إن كنت مؤمنا إن قتلته لما قتلتنى معه ، وناداه على فقال : يا بن زياد ، إن كانت بينك وبينهم قرابة فابعث معهن رجلا تقيا يصحبهن بصحبة الإسلام ، فنظر إليها ساعة، ثم نظر إلى القوم ، فقال : عجبا للرحم ! والله إنى لأظنها ودت لو أنى قتلته أنى قتلتها معه ، دعوا الغلام ، انطلق مع نسائك » .

أمير جيش المسلمين بذَرَارِيّ المشركين ، وكيف تقول فى قول عُبَيد الله بن زياد لإخوته وخاصّته : دعُونى أقْتُله ، فإنه بقيّة هذا النَّسْل ، فأحْسِمَ به هذا القَرنَ ، وأمِيتَ به هذا الداء ، وأقطع به هذه المادة .

خبِّرونا ! عَلامَ تدلُّ هذه القسوة ، وهذه الغِلْظَة ، بعد أن شَفَوا أنفسَهم بقتلهم ، ونالوا ما أحبُّوا فيهم ؟ أتدُلُّ على نَصْب[1] وسوء رأيٍ وحقد وبغضاء ونفاقٍ ، وعلى يقين مدخولٍ ، وإيمان مخروج ، أم تدلّ على الإخلاص ، وعلى حُبِّ النبي صلى الله عليه وسلم ، والحِفظِ له ، وعلى براءةِ السَّاحةِ وصحَّة السَّريرة ؟ فإن كان ما وصَفْنا لا يعدُو الفِسْقَ والضلال ـ وذلك أدْنَى منازِله ـ فالفاسق ملعون ، ومَن نَهَى عن [سَبِّ[2]] الملعون فملعون .

وزعمَتْ نابِتةُ عصرنا ومبتدِعةُ دهرنا : أن سَبَّ وُلاةِ السُّوء فِتنة ، ولَعْنَ الجَوَرة بِدْعة ، وإن كانوا يأخذون السَّمِيَّ بالسَّمِيِّ ، والوَلِيَّ بالولى[3] والقريبَ بالقريب ، وأخافوا الأولياء ، وأمَّنوا الأعداء ، وحَكَموا بالشفاعة والهَوَى ، وإظهارِ القُدْرة والتهاون بالأمة ، والقَمْع للرعية ، وأنهم فى غير مداراة ولا تقِيَّة . وإنْ عَدَا ذلك إلى الكُفر ، وجاوز الضلال إلى الجحْد ، فذاك أضلُّ ممن كفَّ عن شتمهم والبراءةِ منهم ، على أنه ليس مَن استحق اسمِ الكفر بالقتل ، كمَن استحقه بِردّ السنة وهدم الكعبة ، وليس من استحق اسم الكفر بذلك ، كمن شبَّه الله بخلقه ، وليس مَن استحق الكفر بالتشبيه كمن استحقه بالتجوير[4] والنابِتةُ فى هذا الوجه أكفرُ مِنْ يزيدَ وأبيه ،

---

(١) نصب له : عاداه ، وأهل النصب : المتدينون ببغضة على رضى الله عنه ، لأنهم نصبوا له .

(٢) فى الأصل « نهى » محل هذه الكلمه ، والسياق يقتضى ماذكرته .

(٣) يعرض بزياد ابن أبيه إذ يقول فى خطبته البتراء : « وإنى أقسم بالله لآخذنّ الولى بالمولى... » انظر جمهرة خطب العرب ٢ : ٢٧٠ وبالحجاج إذ يقول فى كتابه إلى المهلب : « فإنى أرى أن آخذ الولى بالولى ، والسمى بالسمى » انظر الجزء الثانى ص ١٤٠ من جمهرة رسائل العرب .

(٤) جوره : نسبه إلى التجوير، وفيه تعريض بغير المعتزلة، وكان المعتزلة يسمون أنفسهم أهل العدل لقولهم بعدل الله وحكمته ، قال الشهرستانى فى الملل والنحل ج ١ : ص ٥٢ : « واتفق المعتزلة على أن العبد قادر خالق لأفعاله خيرها وشرها ، مستحق على مايفعله ثوابا وعقابا فى الدار الآخرة،والرب=

وابن زياد وأبيه ، ولو ثبت أيضاً على يزيد أنه تمثّل بقول ابن الزِّبَعْرَى[1] :

لَيتَ أشياخي ببَدْرٍ شَهِدوا جَزَعَ الخزرجِ من وَقعِ الأَسَلْ[2]
لَاستطارُوا واستَهَلُّوا فَرَحًا ثم قالوا يا يزيدُ لا تَشَلْ[3]
قد قتَلْنا القَرْمَ من ساداتهم وعدَلْناه ببـــدر فاعتدلْ[4]

تعالى منزه أن يضاف إليه شر أو ظلم ، وفعل هو كفر ومعصية ، لأنه لو خلق الظلم كان ظالما ، كما لو خلق العدل كان عادلا ، واتفقوا على أن الحكيم لا يفعل إلا الصلاح والخير ، ويجب من حيث الحكمة رعاية مصالح العباد ، وسموا هذا النمط عدلا » اهـ . وجاء أيضا في مروج الذهب ج ٢ : ص ١٩٠ في تفسير الأصول الخمسة التي يذهب إليها المعتزلة : « وأما القول بالعدل — وهو الأصل الثاني — فهو أن الله لا يحب الفساد ، ولا يخلق أفعال العباد ، بل يفعلون ما أمروا به ونهوا عنه ، بالقدرة التي جعلها الله لهم، وركبها فيهم .... الخ » ومن ذلك ترى أنهم ينزهون الله تعالى عن أن يقدر على العبد المعصية ثم يعذبه عليها ، بل العبد هو الذي يفعل أفعاله جميعا بإرادته وقدرته ، ويستحق عليها الثواب أو العقاب ، وهــذا عدل منه تعالى .

ولا يغيب عنك أن الجاحظ كان من شيوخ المعتزلة وكبرائهم ، وهــو تلميذ أبي إسحق إبراهيم ابن سيار النظام ، المعتزلي المشهور ، وقد نصر الجاحظ مذهب المعتزلة بفصاحته وكتبه البليغة حتى صار لسان المعتزلة في زمانه ، وكان رئيس فرقة منهم نسبت إليه ، فسميت « الجاحظية » — انظر الملل والنحل ١ : ٨٠ وسرح العيون، ص ١٧٠ ووفيات الأعيان .

(١) هو عبد الله بن الزبعرى ؛ أحد شعراء قريش المعدودين ، وكان يهجو المسلمين ، ويحرض عليهم كفار قريش في شعره ، ثم أسلم فقبل النبي إسلامه وأمنه يوم الفتح — انظر ترجمته في الأغاني ١٤ : ١١ — وفي رواية أن يزيد تمثل بقول ابن الزبعرى حينما جيء إليه برأس الحسين وآله كما قدمنا — انظر بلاغات النساء ص ٢٥ — وفي رواية أخرى أنه حين بعث إليه مسلم بن عقبة المري برءوس أهل المدينة (بعــد انتصاره عليهم في وقعة الحرة سنة ٦٣) وألقيت بين يديه ، جعل يتمثل بقول ابن الزبعرى المذكور ، فقال له رجل من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم : ارتددت عن الإسلام يا أمير المؤمنين . قال : بل نستغفر الله ، قال : والله لا ساكنتك أرضا أبدا وخرج عنه — انظر العقد الفريد ٢ : ٢٠٧ — .

(٢) هذا البيت من قصيدة قالها ابن الزبعرى يوم أحد (وهو حينئذ مشرك) انظرها في سيرة ابن هشام ٢ : ١١٢ ، وشرح ابن أبي الحديد م ٣ ص ٣٨٢ — وكانت الغلبة يوم بدر للمسلمين . ويوم أحد للمشركين ، والأسل : الرماح والنبل ، والخزرج : قبيلة من الأنصار .

(٣) كل من رفع صوته فقد أهل إهلالا ، واستهل استهلالا ، وشلت يده تشل . كتعب يتعب وأشلت وشلت مبنيين للمجهول : يبست ، وهي جملة دعائية ، وفي الأصل « لا تسل » وهو تصحيف — وهذا البيت من قول يزيد — .

(٤) في سيرة ابن هشام :

فقتلنا الضعف من أشرافهم وعدلنا ميل بدر فاعتدل

وفي ابن أبي الحديد : « فقتلنا النصف ... » وفي بلاغات النساء : « فجزيناهم ببدر مثلها » .

كان تجويرُ التابعيِّ لربه، وتشبيهُه بخلقه، أعظمَ من ذلك وأفظعَ، على أنهم مُجْمِعون على أنه: ملعونٌ من قَتَل مؤمنا، متعمِّدا أو متأوِّلا، فإذا كان القاتل سلطانا جائرا، أو أميرا عاصيا، لم يستحِلّوا سَبَّه ولا خَلْعَه ولا نَفْيَه وَلا عَيْبَه، وإن أخافَ الصلحاء، وقَتَلَ الفقهاء، وأجاع الفقيرَ، وظلَمَ الضعيفَ، وعَطَّل الحدود والثُّغورَ، وَشَرِب الخمورَ، وأظهرَ الفجورَ! ثم ما زال الناس يتسكَّعون مَرَّةً، ويداهِنُونهم مرةً، ويقاربونهم مرة، وَيشاركونهم مرة، إلاَّ بقيَّةً مِمَّن عَصَمه الله تعالى ذكرُه، حتى قام عبدُ الملك بن مَرْوَانَ، وابنه الوليد، وعامِلُهما الحجاج بن يوسف، ومَوْلا يزيد بن أبي مُسْلِم، فأعادوا على البيت بالهدم[1]، وعلى حَرَم المدينة بالغزو[2]، فهدَموا الكعبة، واستباحوا الحُرْمة، وحوَّلوا قِبْلَة واسِط[3]، وأخَّروا صلاة الجمعة إلى مُغَيْرِبان[4] الشمس، فإن قال رجل لأحدهم: اتّق الله فقد أخَّرْتَ الصلاة عن وقتها، قَتَلَه على هذا القول جِهارا غيرَ خَتْلٍ[5]، وعَلانيةً غيرَ سِرٍّ، ولا يُعلَمَ

---

(١) يعنى ما كان من مقاتلة الحجاج عبد الله بن الزبير بمكة وحصره إياه ورميه الكعبة بالمنجنيق. فى عهد عبد الملك بن مروان سنة ٧٣ — انظر تاريخ الطبرى ٧ : ٢٠٢ (والمنجنيق بفتح الميم وتكسر: آلة ترمى بها الحجارة).

(٢) بعث عبد الملك بن مروان سنة ٦٥ حبيش بن دلجة القيسى فى سبعة آلاف إلى المدينة فدخلها ثم خرج إلى الربذة (قرب المدينة) وقدم عليه مدد من الشام، وكتب عبد الله بن الزبير إلى عباس ابن سهل الساعدى بالمدينة أن يسير إلى حبيش فسار إليه، وقد وافاه مدد من البصرة، ونشب القتال بين الفريقين، فقتل حبيش ومن معه — انظر العقد الفريد ٢ : ٢٦٣، وتاريخ الطبرى ٧ : ٨٤.

(٣) انظر ص ٩ من الجزء الثالث.

(٤) أى إلى غروبها، نقل ابن أبى الحديد فى شرحه م ٣ : ص ٤٧٠ : «كان بنو أمية يؤخرون صلاة الجمعة تشاغلا عنها بالخطبة، ويطيلون فيها إلى أن تتجاوز وقت العصر، وتكاد الشمس تصفر، فعل ذلك الوليد بن عبد الملك، ويزيد أخوه، والحجاج عاملهم، ووكل بهم الحجاج المسالح معه (والمسالح جمع مسلحة بالفتح: وهى القوم ذوو سلاح) والسيوف على رءوسهم، فلا يستطيعون أن يصلوا الجمعة فى وقتها، وقال الحسن البصرى: واعجبا من أخيفش أعيمش، جاءنا ففتننا عن ديننا، وصعد على منبرنا، فيخطب والناس يلتفتون إلى الشمس، فيقول: ما بالكم تلتفتون إلى الشمس! إنا والله ما نصلى للشمس، إنما نصلى لرب الشمس، أفلا تقولون: يا عدو الله، إن لله حقا بالليل لا يقبله بالنهار، وحقا بالنهار لا يقبله بالليل؟ ثم يقول الحسن: وكيف يقولون ذلك، وعلى رأس كل واحد منهم علج قائم بالسيف» اقرأ هناك فصلا طويلا فى مقابح بنى أمية.

(٥) الختل: الخداع.

القتلُ على ذلك إلا أقبحَ من إنكاره ، فكيف يكفِّر العبد بشيء ولا يكفر بأعظم منه ؟

وقد كان بعض الصالحين ربما وَعَظ الجبابرةَ ، وخوَّفهم العواقبَ ، وَأَراهم أن فى الناس بقيَّة ينْهَوْن عن الفساد فى الأرض ، حتى قام عبدُ الملك بن مرْوَان ، والحجاجُ ابن يوسف ، فزَجَرا عن ذلك وعاقَبا عليه ، وَقَتَلا فيه ، فصاروا لا يَتَنَاهَوْنَ عَنْ مُنْكَرٍ فَعَلُوهُ ، فاحسِبْ تحويلَ القبلةِ كان غلطاً ، وهَدْمَ البيتِ كان تأويلا ، واحسِبْ ما رَوَوا من كل وجه أنهم كانوا يزعمون أن خليفة المرء فى أهله أرفعُ عنده من رسوله إليهم[1] ، باطلا ومسموعا مُوَلَّدا ، واحسِب وَسْمَ أيدى المسلمين[2] ، ونَقْشَ أيدى المسلمات ، وردَّهم بعد الهجرة إلى قراهم ، وقَتْلَ الفقهاء ، وسَبَّ أئمةِ الهدى ، والنَّصْبَ لِعترة رسول الله صلى الله عليه وسلم ، لا يكون كفرا ، كيف تقول فى جَمْع ثلاثِ صلوات فيهن الجُمُعة ، ولا يُصَلُّون أولاهنَّ حتى تصير الشمس على أعالى الجُدْرَانِ كالمُلَاءِ المُعَصْفَرِ[3] ، فإن نطق مُسْلِم خُبِط بالسيف ، وأخذته العُمُدُ ، وشُكَّ بالرماح ، وإن قال قائل : اتق الله ، أَخَذَتْه العِزَّةُ بالإثم ، ثم لم يرضَ إلا بنَثْر دِماغِه على صدره ، وبِصَلْبِه حيث تراه عِيالُه .

---

(١) عقد صاحب العقد الفريد ١٩ فى أخبار الحجاج فصلا فيمن زعم أنه كان كافرا (ج ٣ : ص ١٩) جاء فيه أنه قال فى كلام له : « ويحكم ! أخليفة أحدكم فى أهله أكرم عليه ، أم رسوله إليهم ؟ » وجاء فى شرح ابن أبى الحديد م ٣ : ص ٤٧٠ « وخطب الحجاج بالكوفة فذكر الذين يزورون قبر رسول الله صلى الله عليه وسلم وآله بالمدينة فقال . تبالهم ، إنما يطوفون بأعواد ورمة بالية، هلا طافوا بقصر أمير المؤمنين عبد الملك ؟ ألا يعلمون أن خليفة المرء خير من رسوله ! »

(٢) وجاء فى شرح ابن أبى الحديد أيضا : « وكانت بنو أمية تختم فى أعناق المسلمين كما توسم الخيل علامة لاستعبادهم ، ونقشوا أكف المسلمين علامة لاسترقاقهم ، كما يصنع بالعلوج من الروم والحبشة » وجاء فى تاريخ الطبرى ٧ : ٢٠٦ « وفى سنة ٧٤ استعمل عبد الملك الحجاج على المدينة ، فكان يتعبث بأهلها ويتعنتهم ، واستخف فيها بأصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم فختم فى أعناقهم ، وعن إسحق بن يزيد أنه رأى أنس بن مالك مختوما فى عنقه ، يريد أن يذله بذلك ، ودعا الحجاج سهل بن سعد ، فقال : مامنعك أن تنصر أمير المؤمنين عثمان بن عفان ؟ قال : قد فعلت ، قال : كذبت، ثم أمر به فختم فى عنقه برصاص » .

(٣) أى المصبوغ بالعصفر كبرقم وهو صبغ أصفر .

ومما يدل على أن القوم لم يكونوا إلّا فى طريق التمرّد على الله عز وجل، والاستخفاف بالدين، والتهاون بالمسلمين، والابتذال لأهل الحق، أكْلُ أمرائهم الطعامَ، وشُرْبُهُم الشرابَ، على منابرهم أيام جُمَعهم[1] وجموعهم، فَعَل ذلك حُبَيْشُ ابن دُلْجَة[2]، وطارق[3] مولى عثمان، والحجاج بن يوسف وغيرهم، وذلك إن كان كفرا كلّه فلم يَبْلُغ كُفْرَ نابتة عصرنا، وروافض دهرنا، لأن جنس كفر هؤلاء غير كفر أولئك. كان اختلاف الناس فى القَدَر على أن طائفة تقول: كلُّ شىء بقضاءٍ وقَدَر، وتقول طائفة أخرى: كل شىء بقضاءٍ وقَدَر إلا المعاصىَ، ولم يكن أحد يقول: إن الله يعذب الأبناء ليَغِيظَ الآباء، وإن الكفر والإيمان مخلوقان فى الإنسان مثل العَمَى والبَصَر، وكانت طائفة منهم تقول: إن الله يرَى، لا تَزيد على ذلك، فإن خافت أن يُظَنَّ بها التشبيهُ، قالت: يرى بلا كَيْفٍ، تحرُّزا من التجسيم والتصوير، حتى نَبَتَتْ هذه النابتةُ، وتكلمت هذه الرافضةُ، فقالت جسما، وجعلت له صُورةً وحدًّا، وأكفرَتْ من قال بالرؤية على غير التجسيم والتصوير.

ثم زَعَمَ أكثرهم أن كلام الله حَسَنٌ وبيِّن وحجة وبرهان، وأن التوراة غير الزّبور، والزّبور غير الإنجيل، والإنجيل غير القرآن، والبقرة غير آل عمران، وأن الله تولى تأليفه، وجعله بُرهانَه على صدق رسوله، وأنه لو شاء أن يَزيد فيه زاد، ولو شاء أن يَنْقُصَ منه نَقَصَ، ولو شاء أن يبدّلَه بدّله، ولو شاء أن يَنْسَخَه كله بغيره نَسَخَه، وأنه نزّله تنزيلا. وأنه فَصَّله تفصيلا، وأنه بالله كان دون غيره، ولا يقدر

---

(١) وجاء فى شرح ابن أبى الحديد أيضاً: «وكانت خطباء بنى أمية تأكل وتشرب على المنبر يوم الجمعة، لإطالتهم فى الخطبة، وكان المسلمون تحت منبر الخطبة يأكلون ويشربون».

(٢) فى الأصل «حسن» وهو تحريف، وقد قدمنا لك أن عبد الملك بعثه فى جيش إلى المدينة، فلما دخلها جلس على منبر رسول الله صلى الله عليه وسلم، فدعا بخبز ولحم فأكل، ثم دعا بماء فتوضأ على المنبر — انظر العقد الفريد ٢ : ٢٦٣ .

(٣) هو طارق بن عمرو، مولى عثمان، ولاه عبد الملك المدينة سنة ٧٣ هـ، فوليها خمسة أشهر، ثم عزله عنها واستعمل عليها الحجاج سنة ٧٤ هـ — انظر تاريخ الطبرى ٧ : ٢٠٥، ٢٠٦ .

عليه إلاّ هو ، غيرَ أن الله مع ذلك كلّه لم يَخلُقه ، فأعْطَوا جميع صفات الخلق ، ومَنَعُوا اسمَ الخلق .

والعجبُ أن الخَلْق عند العرب إنما هو التقدير نفسُه ، فإذا قالوا : خلق كذا وكذا ، ولذلك قال : « أحْسَنُ الخَالِقِينَ » وقال : « وَتَخْلُقُونَ إِفْكاً » وقال : « وَإِذْ تَخْلُقُ مِنَ الطِّينِ كَهَيْئَةِ الطَّيْرِ » فقالوا : صَنَعه وجَعَله وقَدَّره ، وأنزله وفَصَّله وأحْدَثه ، ومَنَعوا « خَلَقَه » وليس تأويلُ « خَلَقه » أ كثرَ مِن « قَدَّره » ولو قالوا بَدلَ قولهم « قَدَّره ولم يَخلقه » : « خَلَقَه ولم يُقَدِّره » ما كانت المسألة عليهم إلا من وجه واحد . والعجب أن الذى مَنَعه بزَعمِه أن يزعُم أنه مخلوق ، أنه لم يسمع ذلك من سَلَفه ، وهو يعلم أنه لم يسمع أيضا من سَلَفه أنه ليس بمخلوق ، وليس ذلك يَهُمُّ ، ولكن لما كان الكلام من الله تعالى عندهم على مثل خروج الصوت من الجوف ، وعلى جهة تقطيع الحروف وإعمال اللسان والشفتَين ، وما كان على غير هذه الصورة والصفة فليس بكلام ، ولمّا كنا عندهم على غير هذه الصفة ، وكنا لِكلامنا غيرَ خالِقين ، وجَبَ أن الله عز وجل لكلامه غيرُ خالق ، إذ كنّا لِكلامنا غيرَ خالقين، فإنما قالوا ذلك لأنهم لم يجدوا بين كلامنا وكلامِه فَرْقاً ، وإن لم يُقِرُّوا بذلك بألسنتهم، فذلك معناهم وقصدهم .

وقد كانت هذه الأمة لاتُجاوز معاصيها الإثمَ والضلالَ ، إلا ما حكيْتُ لك عن بنى أمية وبنى مَرْوَان وعُمّالهم ، ومن لم يَدِنْ بإِ كفارهم ، حتى نَجَمَتِ النوابتُ ، وتابَعَتْها هذه العوامُّ ، فصار الغالبُ على هذا القرن الكفرَ ، وهو التشبيه والجبر ، فصارَ كفرهم أعظم من كُفْرِ من مَضَى فى الأعمال التى هى الفِسْق ، وصاروا شركاء[(١)] مَن كفر منهم بتولِّيهم وترك إ كفارهم ، قال الله عز وجل من قائل « وَمَنْ يَتَوَلَّهُمْ مِنْكُمْ فَإِنَّهُ مِنْهُمْ » .

---

(١) فى الأصل « وشركاء » .

وأرجو أن يكون الله قد أغاث المُحِقِّين، وَرَحِمَهم، وَقَوَّى ضعفَهُم، وكثَّر قلّتهم، حتى صار وُلاة أمرنا فى هذا الدهر الصعب، والزمن الفاسد، أشدَّ استبصارا فى التشبيه من عِلْيَتِنا، وأعلَمَ بما يلزم فيه منا، وأكشفَ القِناع من رؤسائنا، وصادفوا[1] الناس وقد انتظموا مَعانَ[2] الفساد أجمع، وبلغوا غاياتِ البِدع، ثم قرنوا بذلك العصبيةَ التى هلك بها عالَمٌ بعد عالَمٍ، والحَمِيَّةَ التى لاتُبقى دينًا إلا أفسدته، ولا دُنيا إلا أهلكتها، وهو ماصارت إليه العجم من مذهب الشُّعُوبيّة[3]، وما قد صار إليه الموالى من الفخر على العجم والعرب، وقد نجَمَتْ من الموالى ناجمةٌ، ونَبَتَتْ منهم نابتةٌ، تزعم أن المَوْلَى بوَلائه قد صار عربيا، لقول النبي صلى الله عليه وسلم: «مَوْلَى القومِ منهم» ولقوله: «الوَلاءُ لُحْمَةٌ[4] كلُحْمة النَّسَب، لا يباع ولا يوهَب» قال: فقد علمنا أن العجم حين كان فيهم المُلكُ والنبوّة كانوا أشرف من العرب، ولمّا حُوِّل ذلك إلى العرب صارت العرب أشرفَ منهم، قالوا: فنحن معاشرَ الموالى — بقديمنا فى العجم — أشرفُ من العرب، — وبالحديث الذى صار لنا فى العرب — أشرفُ من العجم، وللعرب القديمُ دون الحديث، ولنا خَصْلتان جميعا وافرتان فينا، وصاحبُ الخَصْلتين أفضلُ من صاحب الخَصْلة، وقد جعل الله المولى — بعد أن كان عجميا — عربيا بوَلائه، كما جعل حَليفَ قريش من العرب قُرَشيًّا بحِلْفه، وجعل إسمعيل — بعد أن كان أعجميا — عربيا، ولولا قول النبى صلى الله عليه وسلم «إن إسمعيل كان عربيا» ما كان عندنا إلا أعجميا، لأن الأعجمى لايصير عربيا، كما أن العربىّ لايصير أعجميا، فإنما علمنا أن إسمعيل صيَّره الله عربيا بعد أن كان أعجميا، بقول النبي صلى الله عليه وسلم، فكذلك حُكْمُ قوله «مولى القوم منهم» وقوله «الولاء لُحمة» قالوا: وقد جعل الله إبراهيم عليه السلام أبًا لمن لم يلد، كما جعله أبًا

---

(١) فى الأصل: «وصارفوا» وهو تحريف.

(٢) المعان: المباءة والمنزل. (٣) هم محتقرو أمر العرب.

(٤) اللحمة: القرابة.

لمن ولد ، وجعل أزواجَ النبى أمَّهاتٍ للمؤمنين(١) — ولم يَلدن منهم أحدا — وَجعل الجارَ وَالدَ مَن لَمْ يَلِد فى قولٍ ، وَغير هذا كثير قد أتينا عليه فى موضعه ، وليس أدعَى إلى الفساد ، ولا أجلَبَ للشرّ من المفاخرة ، وليس على ظهرها إلا فخور — إلا قليل — وأىُّ شىء أغيظ من أن يكون عَبْدُكَ يزعم أنه أشرف منك — وهو مُقِرّ أنه صَارَ شريفا بعِتْقك إياه — ؟ .

وقد كتبتُ — مَدَّ الله فى عُمرك — كتبا فى مفاخرة قَحْطان ، وفى تفضيل عَدْنان. وفى رَدِّ الموالى إلى مكانهم من الفضل والنقص ، وإلى قَدْرِ ما جعل الله تعالى لَهُمْ بالعرب من الشرف ، وأرجو أن يكون عَدْلا بينهم ، وداعيةً إلى صلاحهم ، وَمَنْبَهَةً عليهم وَلهم ، وَقد أردتُ أن أُرسِل بالجزء الأول إليك ، ثم رأيتُ ألا يكون إلا بعد استئذانك واستئمارك(٢) ، والانتهاء فى ذلك إلى رغبتك ، فرأْيُك فيه مُوَفَّق إن شاء الله عز وجل وبه الثقةُ » : « رسالة الجاحظ فى بنى أمية (٣) » .

٧٠ — رسالة أبى العاص(٤) بن عبد الوهاب بن عبد المجيد الثقفى إلى الثقفى

« بسم الله الرحمن الرحيم : أما بعدُ ، فإن جلوسَك إلى الأَصْمَعى(٥) ، وعُجْبَك بسَهْل بن هَرون ، واسترجاحَك إسمٰعيلَ بن غزْوَان ، وطعنَك على مُوَيْسِ بن عِمْران ، وخِلْطَتَك(٦) بابن مُشارِك ، واختلافك إلى ابن التَّوْءم ، وإكثارَك مِن ذِكرِ المال وإصلاحِهِ ، والقيامِ عليه واصطناعهِ ، وإطنابَك فى وصف الترويج والتثمير(٧) ،

---

(١) قال تعالى : « النَّبِىُّ أَوْلَى بِالْمُؤْمِنِينَ مِنْ أَنْفُسِهِمْ ، وَأَزْوَاجُهُ أُمَّهَاتُهُمْ » .

(٢) الاستئمار : المشاورة .

(٣) رسالة مخطوطة محفوظة بدار الكتب المصرية رقم ١٨٥٥ أدب .

(٤) ذكره صاحب الأغانى فى خلال ترجمة محمد بن مناذر — إذ كان أخوه عبدالمجيد بن عبد الوهاب صديقا حميا لابن مناذر — انظر ج ١٧ : ص ١٢ .

(٥) هو الراوية المشهور ، وكان بخيلا ، توفى سنة ٢١٦ هـ .

(٦) الخلطة بالكسر : العشرة (وبالضم : الشركة) . (٧) ثمر ماله : نماه وكثره .

وحسنِ التعهُّد والتوفير ، دليلٌ على خَبِيءِ سُوء ، وشاهدٌ على عيبٍ وإدبارٍ ، بعد أن كنت تستثقلُ ذكرهم ، وتستشنِعُ فعلَهم ، وتتعجَّب من مذهَبهم ، وتُسْرف في ذمِّهم ، وليس يَلهَجُ بذكر الجَمْعِ[1] إلا مَن قد عزَم على الجمع ، ولا يأْنَس بالبخلاء إلا المستوحِشُ من الأسخياء ، وفي تحفُّظك قولَ سهلِ بن هٰرون : في الاستعداد في حال المُهْلة ، وفي الأخذ بالثقة[2] ، وأن أقبح التفريط ماجاء مع طول المدة ، وأن الحزمَ كلَّ الحزم ، والصوابَ كلَّ الصواب ، أن تستظهِرَ على الحدَثان[3] ، وأن تجعل ما فَضَل عن قِوام الأبدان ، رِدْءًا[4] دُونَ صروف الزمان ، وأنَّا لانُنْسَب إلى الحكمة ، حتى نَحُوط أصلَ النعمة ، بأن نجعل دون فضولها جُنَّةً[5] ، شاهِدٌ[6] على عُجْبك بمذهبه ، وبرهانٌ على ميلك إلى سبيله ، وفي استحسانك روايةَ الأصمعي في : « أن أكثر أهل النار النساء والفقراء ، وأن أكثَر أهل الجنة البُلْهُ والأغنياء ، وأن أرباب الدُّثُورِ هُمُ الذين ذهبوا بالأجور[7] » برهانٌ[8] على صحة حُكمِنا عليك ، ودليلٌ على صواب رأينا فيك ، وفي تفضيلك[9] كلامَ ابنِ غزْوَان حين قال : تنعمتم بالطعام الطيِّب ، وَبالثياب الفاخرة ، وَبالشراب الرقيق ، وبالغناء المُطْرِب ، وتنعمْنا بعِز الثروة ، وبصواب النظر في العاقبة ، وبكثرة المال ، والأمن من سوء الحال ، ومن ذل الرغبة إلى الرجال ، والعجز عن مصلحة العيال ، فتلك لذَّتكم ، وهذه لذتنا ، وهذا رأينا في التسلُّم من الذم ، وذاك رأيكم في التعرّض الحمد ، وإنما ينتفِع بالحمد

---

(١) أي جمع الأموال .

(٢) أي بادخار ما يمكن ادخاره حتى يثق المرء بقدرته على مكافحة المطلوب إن نزلت به.

(٣) تستظهر : تستعين ، والحدثان : حوادث الدهر ونوبه .

(٤) الردء : العون والمادة .

(٥) الجنة : الوقاية . (٦) مبتدأ خبره « في تحفظك » .

(٧) جاء في لسان العرب : « وروى عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قيل له : ذهب أهل الدثور بالأجور ، قال أبو عبيد : واحد الدثور دثر بالفتح ، وهو المال الكثير ، يقال : هم أهل دثر ودثور ، ومال دثر » .

(٨) مبتدأ خبره : « فى استحسانك » . (٩) معطوف على الخبر السابق .

السليمُ الفارغُ البال ، ويُسَرّ باللذات الصحيح الصادقُ الحس ، فأما الفقير فما أغناه من الحمد ، وأفقرَه إلى ما به يجد طَعْمَ الحمدِ ، والطعامُ الذى آثرتموه يعود رَجيعاً[1] ، والشراب يصير بَولا ، والبناء يعود نِقْضا[2] ، والغِناء[3] ريحٌ هابّةٌ ، ومُسْقِط المروءة، وسَخافةٌ تُفْسِد ، ورَنّةٌ تَسِير[4] ، فلذّتكم فيما حوَى لكم الفقرَ ونقَضَ المروءةَ ، ولذّتنا فيما حوَى لنا الغنى وبَنَى المروءةَ ، فنحن فى بناء ، وأنتم فى هَدْم ، ونحن فى إبرام ، وأنتم فى نَقْض ، ونحن فى التماس العز الدائم مع فَوْت بعض اللذة ، وأنتم فى التعرض للذل الدائم مع فوت كل مُروءة ، وقد فهِمْنا معنى حكايتك ، وما لِجْتَ به من روايتك ، والدليلُ على انتقاض طباعك ، وإدبار أمرك، استحسانُك ضِدَّ ما كنتَ تستحسِنُ ، وعِشْقُك لِما لم تزَل تمقُت ، فبُعْداً وسُحْقاً . ولا يُبْعِدُ اللهُ إلا مَن ظلم ، والشاعرُ أبصرُ بكم حيث يقول :

فإن سمِعْتَ بِهُلْكٍ للبخيل فقل ... بُعْدًا وَسُحْقاً له من هالكٍ مُودِى[5]
تُراثُهُ جَنّةٌ للوارثين إذا ... أَوْدَى وَجُثْمانُه لِلتُّرْبِ وَالدُّودِ

وقال آخر :

تَبْلَى محاسِنُ وجهه فى قبره ... والمـالُ بين عدُوِّه مقسومُ

والحمد لله الذى لم يُعتنى حتى أرانيك وكيلًا فى مالك[6] ، وأجيرا لوارثك ، وأمَّا أنت فقد تعجّلْتَ الفقرَ قبل أوانه ، وصرت كالمجلود فى غير لذة ، وهل تزيد حال مَن أنفق جميعَ ماله ، ورأى المكروهَ فى عياله ، وظَهر فقرُه ، وشَمِتَ به عدوُّه ، على أكثرَ مِن انصراف المؤنسِين عنه ، وعلى بُغْض عياله ، وعلى خُشُونة الملبَس وخشونة

---

(١) الرجيع : الروث . (٢) النقض : المنقوض ، وهو البناء المهدوم .
(٣) فى بعض النسخ « والثناء » .
(٤) أى تذهب فى الهواء وتزول .
(٥) أودى : هلك .
(٦) أى وكيلا فى مالك لورثتك ، لاتنتفع به انتفاع المالك .

المآكل ، وهذا كلُّه مجتمعٌ في مَسْكِ[1] البخيل ، وَمصبوبٌ على هامَةِ[2] الشحيح ، ومعجَّلٌ للئيم ، ومُلازِم للمَنُوع ، ألَا إنّ المنفِقَ قد رَبِحَ المَحْمَدة ، وتمتّع بالنعمة ، ولم يعطِّل القدرة[3] ، وَوَفّى كلّ خَصْلةٍ من هذه حقّها ، ووفّر عليها نصيبَها ، والمُمْسِكَ معذّبٌ بحَصْرِ نفسه ، وبالكدّ لغيره ، مع لزوم الحجّة ، وسقوطِ الهمة ، والتعرُّض للذم والإهانة ، وَمع تحكيم المِرّة[4] السوداء في نفسه ، وتسليطها على عِرْضه ، وتمكينها من عيشه وسرورِ قلبه . ولقد سَرَى إليك عِرْق[5] ، وَلقَدْ دَخَلَ أعراقَك جَوْر[6] ، ولقد عمِلَ فيها قادِحٌ[7] ، وَلقَدْ غالَها غُولٌ ، وما هذا المذهبُ من أخلاقِ سَمِيم ثَقِيف ، ولا من شِيَمِ أعرقَتْ[8] فيها قريشٌ ، ولقد عرَضَ لك إقرافٌ[9] ، ولقد أفسدتك هُجْنةٌ[10] ، ولقد قال معاوية : « من لم يكن من بني عبد المطلب جَوادا فهو دَخِيلٌ[11] ، ومن لم يكن من آل الزبير شجاعا فهو لَزِيقٌ[12] ، ومن لم يكن من بني المُغيرة تيّاها فهو سَنِيد[13] » . وقال سَلْم بن قُتَيبة : « إذَا رأيت الثقفيّ يَعِزُّ من غير إطعام[14] ، ويكسِبُ لغير إنفاق ، فبَهْرِجْه[15] ثم بَهْرِجه ثم بَهْرِجه » وقال

---

(١) المسك : الجلد ، والمراد النفس . (٢) الهامة : الرأس ، والجمع هام .
(٣) أى لم يعطل المقدرة على فعل الخير و كسب الثناء .
(٤) المرة : المزاج ، والمزاج الأسود : هو المزاج المضطرب الكثير المخاوف والوساس .
(٥) أى اندس فى أعراق نفسك عرق خسيس ليس منها .
(٦) المراد بالجور هنا الابتعاد عن الطريق القويم .
(٧) القادح : أكال يقع فى الشجر والأسنان ، والقادح : العفن ، يقول : أصيبت هذه الأعراق والصفات بعلة قضت عليها .
(٨) صارت عريقة فى الكرم .
(٩) المقرف : من كانت أمه عربية وأبوه أعجمى ، والمراد بالإقراف هنا ما يشبه الإقراف : أى كأنك لم تكن عربياً صميما .
(١٠) الهجنة : أن تكون الأم غير عربية والأب عربيا .
(١١) الدخيل : من يعيش بين القوم وليس منهم .
(١٢) من لزق بنسب قوم وليس منهم .
(١٣) السنيد : الدعى ، وهو من ينتمى إلى غير أهله .
(١٤) المعنى : دون أن يعنى بإطعام الفقراء ومساعدة المحتاجين . وفى الأصل « طعام » .
(١٥) بهرجه : أهمله .

ابن أبى بُرْدة : « لولا شبابُ ثَقِيف وسفهاؤهم ، ما كان لأهل البصرة مال(١) »
إن الله جَواد لا يَبْخَل ، وصدوقٌ لا يكذب ، وَوَفِىّ لا يَغْدِر ، وحليم لا يعجَل ،
وعدْل لا يظلم ، وَقد أمرنا بالجود ، ونهانا عن البخل ، وأمرنا بالصدق ونهانا عن
الكذب ، وأمرنا بالحلم ، ونهانا عن العَجَلة ؛ وأمرنا بالعدل ، ونهانا عن الظلم ، وأمرنا
بالوفاء ، ونهانا عن الغَدْر ، لم يأمُرنا إلا بما اختاره لنفسه ، وَلَمْ يَزْجُرْنا إلّا عمّا لم يَرْضَهُ
لِنَفْسِهِ وقد قالوا بأجمعهم : إن الله أجودُ الأجْوَدِين ، وأمجَدُ الأمجدِين ، كما قالوا : أرحم
الراحمين ، وأحسن الخالقين ، وقالوا فى التأديب لسائليهم ، والتعليم لأجوادهم : لا تجاوِدُوا(٢)
اللهَ فإن الله جل ذكره أجودُ وأمجد ، وذكر نفسَه جلّ جلالُه وتقدّست أسماؤه ، فقال :
« ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ(٣) » وقال « ذِى الطَّوْلِ لَا إِلٰهَ إِلَّا هُوَ » وقال : « ذُو الْجَلَالِ وَالْإِكْرَامِ »
وذكروا النبيّ صلى الله عليه وسلم فقالوا : لم يَضَعْ درهما على درهم ، ولا لَبِنةً على لبنةٍ ،
وَمَلَكَ جزيرةَ العرب فقَبَضَ الصدقاتِ ، وجُبِيَتْ له الأموال ما بين غُدْرانِ العراق إلى
شِحْر عُمَان(٤) ، إلى أقصى مَخاليفِ(٥) اليمن ، ثم تُوُفِّىَ وعليه دَيْنٌ ، ودِرْعه مرهونةٌ
ولم يُسْأل حاجةً قَطُّ فقال : لا ، وكان إذا سُئِل أعطَى ، وَإذا وعد أو أطمَعَ كان
وَعدُهُ كالعِيان(٦) ، وإطماعُه كالإنجاز ، وَمَدَحته الشعراء بالجود ، وذكرته الخطباء
بالسَّماح ، وَلقد كان يَهَب للرجل الواحدِ الضاجِعةَ(٧) من الشاء ، وَالعَرْجِ(٨) من الإبل
وَكان أكثرُ ما يَهَبُ المَلِكُ من العرب مائةَ بعير فيقال : وَهَب هُنَيْدةً(٩) ، وَإنما

---

(١) أى لكثرة ما ينفقون فى البصرة ويبذلون .
(٢) أى لا تحاولوا أن تصلوا فى الجود إلى مثل جود الله .
(٣) الإفضال والإنعام . (٤) ساحل البحرين ، بين عمان وعدن .
(٥) المخلاف : الكورة ، بلغة أهل اليمن .
(٦) مصدر عاين الشىء : أبصره . والمعنى : أن وعده فى الوثوق بتحققه كالشىء المشاهد .
(٧) الضاجعة : الغنم الكثيرة .
(٨) العرج بالفتح والكسر من الإبل : ما بين السبعين إلى الثمانين ، وقيل : هو ما بين الثمانين إلى التسعين ، وقيل مائة وخمسون وفويق ذلك ، وقيل من خمسمائة إلى ألف .
(٩) هند وهنيدة : اسم للمائة من الإبل خاصة .

يقال ذلك إذا أريد بالقول غايةُ المدح ـ وَلقد وهب[١] لرجل ألفَ بعير فلما رآها تزدحم في الهَوادِي[٢] ، قال : أشهدُ أنك نبيّ ، وَما هذا مما تجود به الأنفسُ ، وفَخرَتْ هاشم على سائر قريش فقالوا : نحن أطعَمُ الطّعام ، وأضْرَبُ الهام ، وذكرَها بعض العلماء فقالوا : أجوادٌ أمجادٌ ، ذَوُو ألسنةٍ حِداد . وأجمعتِ الأمم كلُّها بَخِيلُها وسَخِيُّها وَمَمْزُوجُها[٣] ، على ذم البُخل وحمد الجود ، كما أجمعوا على ذمّ الكذب وحَمْدِ الصدق ، وقالوا : أفضل الُجودِ الجودُ بالمجهود[٤] ، وحتى قالوا في جُهْد المُقِلّ[٥] وفيمن أخرج الجهدَ وأعطى الكلّ[٦] ، وحتى جعلوا لمن جاد بنفسه فضيلةً على من جاد بماله ، فقال الفرزدق :

على ساعةٍ لو كان في القوم حاتمٌ ... على جُوده ، ضَنّتْ به نفسُ حاتِمِ[٧]

ولم يكن الفرزدق ليضربَ المثَل في هذا الموضع بكَعْب بن مَامَة ، وقد جاد بحَوْبائه عند المُصافَنَةِ[٨] ، فما رأينا عربيّا سَفّهَ حِلْمَ حاتم لجوده بجميع ماله ، ولا رأينا

---

(١) أي النبي صلى الله عليه وسلم .

(٢) الهادية والهادى : العنق ، والهادية من كل شيء : أوله وما تقدم منه ، وفي النسخ « القوادى » ولا معنى لها .

(٣) أي من امتزج فيه السخاء بالبخل ، فكان وسطا بين الكريم والبخيل .

(٤) المجهود هنا : الجهد ، أي الجود بقدر الجهد والطاقة ولو كان المعطى مقلا .

(٥) أي قالوا في الثناء على الفقير الذي يجود بما يستطيع ، ففي الأثر : « أفضل العطية جهد المقل » . وقالوا : « جهد المقل أفضل من غنى المكثر » .

(٦) أي وقالوا فيمن بذل جهده على إقلاله ، وفيمن خرج عن كل ماله في بذل المعروف .

(٧) كان الفرزدق قد صافن رجلا من بني العنبر بن عمرو بن تميم . فطلب منه العنبرى أن يؤثره على نفسه ففعل (والمصافنة في السفر : أن يقاسم الرفيق رفيقه الماء حتى لا يغبن أحدهما الآخر) ويروى البيت :

على ساعة لو أن في القوم حاتما ... على جوده ماجاد بالماء حاتم

بكسر ميم حاتم على أنه بدل من الضمير في جوده .

(٨) الحوباء : النفس . وكان كعب بن مامة الإيادى أحد أجواد العرب الذين ضرب بهم المثل في الجود ، فقيل : « أجود من كعب بن مامة » . ومن حديثه أنه خرج في ركب فيهم رجل من النمر ابن قاسط فضلوا فتصافنوا ماءهم ، فقعدوا للشرب ، فلما دار القعب فانتهى إلى كعب أبصر النمرى يحدد النظر إليه فآثره بمائه ، وقال الساقى : اسق أخاك النمرى ، فشرب النمرى نصيب كعب ذلك اليوم من الماء ، ثم نزلوا من غدهم المنزل الآخر فتصافنوا بقية مائهم ، فنظر إليه النمرى كنظره أمسه ، فقال كعب كقوله =

أحدا منهم سَفَّهَ حِلْمَ كَعْب على جوده بنفسه ، بل جعلوا ذلك من كعبٍ لإيادٍ مَفْخَرا ، وجعلوا ذلك من حاتم طيِّئ مأثُرةً لعَدْنانَ على قَحْطانَ ، ثم العرب على العجم ، ثم لسُكّان جزيرة العرب ولأهلِ تلك البرِّيَّةِ على سائر الجزائرِ والتُّرَبِ ، فمن أراد أن يخالف ما وصف اللهُ جَلَّ ذِكرُه به نفسَهُ ، وما مَنَحَ من ذلك نبيَّه صلى الله عليه وسلم ، وما فَطَرَ على تفضيله العربَ قاطبةً ، والأممَ كافةً ، لم يكن عندنا فيه إلا إكفارُه واستسقاطُه ، ولم نَرَ الأمةَ أبغضتْ جَوادا قطُّ ولا حَقَرتْه ، بل أحبَّته وأعظَمَتْه ، بل أحبَّت عَقِبَه وأعظَمَتْ من أجلِهِ رَهْطَه ، ولا وجدناهم أبغضوا جواداً لمجاوزته حَدَّ الجودِ إلى السَّرَف ولا حَقَرَتْه ، بل وجدناهم يتعلمون مناقِبَه ، ويتدارَسُون محاسنَه ، وحتى أضافوا إليه من نوادر الجَميل[1] مالم يفعله ، ونَحَلُوه[2] من غَرائب الكرم مالم يكن يَبْلُغُه ، ولذلك زعموا أن الثناء فى الدنيا يُضاعَف كما تضاعَفُ الحسناتُ فى الآخرة ، نعم وحتى أضافوا إليه كلَّ مديح شاردٍ ، وكلَّ معروفٍ مجهولِ الصاحب . ثم وجدنا هؤلاء بأعيانهم[3] البخيل على ضد هذه الصفة ، وعلى خلافِ هذا المذهب ، وجدناهم يُبْغِضونه مرةً ، ويحقرونه مرةً ، ويُبْغِضون بفضل بغضهِ وَلَدَهُ ، ويحتقرون بفضل احتقارهم له رَهْطَه ، ويُضيفون إليه من نوادر اللؤم مالم يَبْلُغه ، ومن غرائب البخل مالم يفعله ، وحتى ضاعفوا عليه من سوء الثناء بقدر ما ضاعفوا الجواد من حُسْن الثناء ، وعلى أنّا لانجد الجوائحَ[4] إلى أموال الأسخياء

= أمس ، وارتحل القوم ، وقالوا : يا كعب ارتحل ، فلم يكن به قوة النهوض ، وكانوا قد قربوا من الماء ، فقيل له : رِد — كعب — إنك رواد ، فعجز عن الجواب ومات عطشا ، فقال أبوه مامة يرثيه :

أوفى على الماء كعب ثم قيل له رد كعب إنك وارد فما وردا

« مجمع الأمثال ١ : ١٢٣ » وقوله « ولم يكن الفرزدق ليضرب المثل » أى ليتشبه بكعب بن مامة — لأنه آثر هو أيضا العنبرى على نفسه — وفى الكلام حذف ، والتقدير : لم يكن ليفعل ذلك إلا لبلوغه الغاية فى كرم النفوس .

(١) أى الفعل الجميل .
(٢) نحلوه : نسبوا إليه .
(٣) فى النسخ « بأنماتهم » .
(٤) جمع جائحة : وهى الآفة .

أسرعَ منها إلى أموال البخلاء ، ولا رأينا عددَ مَن افتقر من البخلاء أقلّ ، والبخيلُ عند الناس ليس هو الذى يبخل على نفسه فقط ، فقد يستحقُّ عندهم اسمَ البخيل ، ويستوجب الذمّ ، من لا يَدَع[1] لنفسه هوًى إلا ركِبَه ، ولا حاجةً إلا قضاها ، ولا شهوةً إلا ركبها ، وبلغ فيها غايتَه ، وإنما يقع عليه اسمُ البخيل إذا كان زاهدا فى كل ما أوجَبَ الشكرَ ، ونوّه بالذكر ، وادّخر الأجر ، وقد يملّق البخيلُ على نفسه من المُؤَن ، ويُلزِمها من الكُلَف ، ويتخذ من الجوارى والخَدَم ، ومن الدوابِّ والحَشَم[2] ، ومن الآنية العجيبة ، ومن البِزّة[3] الفاخرة ، والشّارَة[4] الحسنة ، مايُرْبِى[5] على نفقة السَّخِىّ المُثْرِى ، ويَضْعُف[6] على جُود الجواد الكريم ، فيذهبُ مالهُ وهو مذموم ، ويتغيّر حالهُ وهو مَلُوم ، وربما غَلَبَ عليه حُبُّ القِيَان[7] ، واشتهرَ[8] بالخِصْيان ، وربما أفرط فى حُبِّ الصيد ، واستولى عليه حبُّ المَراكب[9] ، وربما كان إتلافُه فى العُرْس والخُرْس[10] والوَليمة ، وإسرافُه فى الإعذار[11] وفى العَقيقة[12] والوَكيرة[13] ، وربما ذهبت أمواله فى الوضائعِ[14] والودائع ، وربما كان شديدَ

---

(١) فى بعض النسخ « ولا يدع » . (٢) الحشم : الخدم .

(٣) الهيئة ، يقال : هو حسن البزة .

(٤) الشارة هنا : الزينة واللباس .

(٥) يقال : أربى الشىء على كذا أى زاد عليه .

(٦) ضعف يضعف من باب كرم : زاد ، وفى الحديث « تضعف صلاة الجماعة على صلاة الفذ خمسا وعشرين درجة » أى تزيد عليها .

(٧) جمع القينة : وهى الأمة البيضاء ، مغنية أو غير مغنية .

(٨) أى اشتهر بحيازة الخصيان ، وذلك ضرب من البذخ .

(٩) جمع مركب : وهو ما يركب من الخيل ونحوها .

(١٠) الخرس بالضم والخراس بالكسر : طعام يصنع ابتهاجا بالولادة .

(١١) الإعذار والعذار (بالكسر) والعذير والعذيرة : وليمة الختان ، وطعام البناء .

(١٢) الشاة تذبح فى اليوم السابع من ولادة المولود ابتهاجا به ، وأصل العقيقة : الشعر الذى يكون على رأس الصبي حين يولد ، وإنما سميت تلك الشاة التى تذبح فى تلك الحال عقيقة ، لأنه يحلق عنه ذلك الشعر عند الذبح .

(١٣) الطعام يتخذه الرجل ويدعو إليه عند انتهاء ما كان يبنيه .

(١٤) جمع وضيعة : وهى مايرضه الدائن من المدين من الدين .

البخل شَدِيدَ الحبِّ للذِّكر ، ويكون بخله أَوْشَجَ ، ولؤمُه أقبحَ ، فيُنفق أمواله ، ويُتْلف خزائنه ، ولم يخرج كَفَافا(١) ولم ينجُ سليما ، كأنك لم تر بخيلا مخدوعا(٢) ، وبخيلا مَضْعوفا(٣) ، وبخيلا مِضْياعا ، وبخيلا نَفَّاجا(٤) ، وبخيلا ذهب ماله فى البناء ، وبخيلا ذهب ماله فى الكيمياء(٥) ، وبخيلا أنفق ماله فى طمع كاذب ، وعلى أملٍ خائب ، وفى طلبِ الولايات ، والدخول فى القَبَالات(٦) ، وكانت فِتنتُه بما يؤمِّل من الإمرة ، فوق فتنته بما قد حواه من الذهب والفضة ، قد رأيناه يُنفق على مائدته وفاكهته ألفَ درهم فى كل يوم ، وعنده فى كل يوم عُرْس(٧) ، ولَأن يطعَن طاعِنٌ فى الإسلام أهونُ عليه من أن يطعن طاعن فى الرغيف الثانى ، ولَشَقُّ عَصا الدين أهونُ عليه من شَقِّ رغيف ، لا يَعدُّ الثُّلمة(٨) فى عِرضه ثلمةً ، ويعدُّها فى ثَريدته من أعظم الثُّلَمِ ، وإنما صارت الآفات إلى أموال البخلاء أسرعَ ، والجوائحُ عليهم أكْلَبَ(٩) ، لأنهم أقلُّ توكُّلا ، وأسوأ بالله ظنا . والجوادُ إما أن يكون متوكلا ، وإما أن يكون أحسَن بالله ظنا ، وهو على كل حال بالمتوكِّل أشبهَ ، وإلى ما أشبهه أنزَعُ(١٠) ، وكيفما دارَ أمرُه ، ورجعَتِ الحال(١١) به ، فليس ممن يَتَّكِل على حزمه ، ويلجأُ إلى كَيْسه ،

---

(١) الأصل فى معنى الكفاف ما يكف عن سؤال الناس ويغنى ، ومعنى لم يخرج كفافا هنا : لم يخرج خاليا من الذم .

(٢) يتخيل الكاتب أن المخاطب منكر دعواه لما فيها من الغرابة فهو يتجه إليه قائلا : كأنك لم تر بخيلا مخدوعا الخ .

(٣) المضعوف : ضعيف الرأى .

(٤) النفاج : المدعى المتباهى بما ليس فيه .

(٥) الكيمياء فى زعمهم تحويل المعادن الخسيسة بالصناعة إلى معادن نفيسة .

(٦) القبالة : اسم لما يلتزمه الإنسان من عمل ودين ونحوها ، والقبيل : الكفيلُ والضامن ، وقد قبل به كنصر وسمع وضرب .

(٧) العرس : من معانيه الوليمة .

(٨) الثلمة : الشق .　(٩) أشد .　(١٠) أميل .

(١١) تتابعت الحوادث عليه .

ويرجع إلى جَودة احتياطه، وشدةِ احتراسه، واعتلالُ البخيل بالحدثان(١)، وسوء الظن بتقلّب الزمان، إنما هو كناية عن سوء الظن بخالق الحدَثان، وبالذى يُحْدِث الأزمانَ وأهلَ الزمان، وهل تَجْرِى الأحداثُ إلا على تقدير المُحْدِث لها؟ وهل تختلِف الأزمنةُ إلّا على تصريف من دبّرَها؟ أوَلَسْنا وإن جهِلْنا أسبابَها فقد(٢) أيقنّا بأنها تجرِى إلى غاياتها؟ والدليلُ على أنه ليس بهم خوفُ الفقر، وأنّ الجمعَ والمنعَ إمّا أن يكون عادةً منهم، أو طبيعةً فيهم، أنّك قد تجد المَلِك بخيلا، ومملكتُه أوسعُ، وخَرْجُه أدرُّ، وعدوُّه أسكَنُ، وتجد آخرَ أكثرَ منه جُودا(٣)، وإن كانت مملكته أضيقَ، وخَرْجُه أقلَّ، وعدوُّه أشدّ حركةً، وقد علِمْنا أن الزّنج أقصرُ الناس مِرّةً(٤) ورويّة، وأذهَلُهم عن معرفة العاقبة(٥)، فلو كان سخاؤهم إنما هو لِكَلَال حدّهم(٦)، ونقصِ عقولهم، وقلةِ معرفتهم، لكانَ ينبغى لِفارسَ أن تكون أبخلَ من الرُّوم، وتكونَ الرومُ أبخلَ من الصّقالبة(٧)، وكان ينبغى فى الرجال — فى الجملة — أن يكونوا أبخلَ من النساء — فى الجملة — وكان ينبغى للصِّبيان أن يكونوا أسخى من النساء، وكان ينبغى أن يكون أقلُّ البخلاء عقلا أعقلَ من أشد الأجواد عقلا، وكان ينبغى للكلب — وهو المضروب به المثلُ فى اللؤم — أن يكون أعرفَ بالأمور من الديك المضروب به المثلُ فى الجود(٨)، وقالوا هو أسخى من

---

(١) أى بالخوف من حوادث الدهر.

(٢) الفاء زائدة.

(٣) فى بعض النسخ «وتجد أحزم منه جوادا».

(٤) المرة: العقل والأصالة والإحكام، وفى الأصل «مدة» وهو تحريف.

(٥) أى وهم مع ذلك أسخياء.

(٦) كلال الحد: أصله فى السيف والسكين ونحوهما، والمراد هنا قلة الذكاء.

(٧) الصقالبة: جيل تتاخم بلادهم بلاد الخزر (فى الروسيا الآن) — وبحر الخزر بالتحريك هو بحر قزوين —.

(٨) وصف الديك بالجود لأن من عادته أن يدعو الدجاج ويثير لها الحب.

لافِظَةٍ(١) ، وألأم من كلب على جيفة(٢) ، وألأم من كلب على عَرْق(٣) ، وقالوا :
أجِع كلبك يَتْبَعك(٤) ، ونَعِمَ كلبٌ في بُؤْس أهله(٥) ، وسمِّنْ كلبك يأكلْك(٦)

---

(١) من أمثال العرب « أسمح من لافظة » قال الميدانى . « قد اختلفوا فيها فقال بعضهم : هى الديك لأنه يأخذ الحبة بمنقاره فلا يأكلها ولكن يلقيها الى الدجاجة ــ والهاء فيها للمبالغة هاهنا ــ وقال بعضهم : هى العنز التى تشلى الحلب فتجىء لافظة بجرتها فرحا بالحلب . وقال بعضهم : هى الحمامة ، لأنها تخرج مافى بطنها لفرخها ، وقال بعضهم . هى الرحى ، لأنها تلفظ ما تطحنه أى تقذف به ، وقال بعضهم هى البحر ، لأنه يلفظ بالدرة التى لاقيمة لها (أى لنفاستها) قال الشاعر :

تجود فتجزل قبل السؤال وكفك أسمح من لافظة

ــ انظر مجمع الأمثال ١: ٢٣٨ ــ .

(٢) أورده الميدانى فى مجمع الأمثال ١ : ١٥٤ « أحرص » .

(٣) ورد فى مجمع الأمثال ٢ : ١٣٨ والعرق العظم أكل لحمه أو لم يؤكل .

(٤) ويروى « جوع » مثل يضرب فى معاشرة اللئام وما ينبغى أن يعاملوا به، وأول من قال ذلك ملك من ملوك حمير . كان عنيفا على أهل مملكته يغصبهم أموالهم ويسلبهم ما فى أيديهم وكانت الكهنة تخبره أنهم سيقتلونه فلا يحفل بذلك . وسمعت امرأته أصوات السؤال فقالت : إنى لأرحم هؤلاء لما يلقون من الجهد ، ونحن فى العيش الرغد ، وإنى لأخاف عليك أن يصيروا سباعا ، وقد كانوا لنا أتباعا ، فرد عليها : جوع كلبك يتبعك ، وأرسلها مثلا ، فلبث بذلك زمانا ، ثم أغزاهم فغنموا ولم يقسم فيهم شيئا ، فلما خرجوا من عنده قالوا لأخيه وهو أميرهم : قد ترى مانحن فيه من الجهد ، ونحن نكره خروج الملك منكم أهل البيت إلى غيركم ، فساعدنا على قتل أخيك واجلس مكانه ، وكان قد عرف بغيه واعتداءه عليهم فأجابهم إلى ذلك ، فوثبوا عليه فقتلوه ، فمر به عامر بن جذيمة وهو مقتول وقد سمع بقوله « جوع كلبك يتبعك » فقال : ربما أكل الكلب مؤدبه ، إذا لم ينل شبعه ، فأرسلها مثلا ــ مجمع الأمثال ١ : ١١١ .

(٥) ويروى « نعم الكلب فى بؤس أهله » و « فى بؤسى أهله » وذلك أن الجدب والبؤس يكثر الموتى والجيف ، وذلك نعيم الكلب . قيل أصله أن بعض الأعراب كان له بعير يكريه فينتفع بما يعود منه، وله كلب يقصر فى إطعامه فهو يتلف جوعا ، فمات البعير ،فرجع الرجل إلى سوء حال ،والكلب إلى خصب، يضرب مثلا للرجل ينتفع بضرر غيره ، مجمع الأمثال ٢ : ١٩٥ وجمهرة الأمثال ٢ : ٢٣٤ ــ .

(٦) ويروى « أسمن» قالوا: أول من قال ذلك حازم بن المنذر الحمانى. وذلك أنه مر بمحلة همدان فإذا هو بغلام ملفوف فى ثوب خلق مبتذل ، فرحمه وحمله على مقدم سرجه حتى أتى به منزله ، وأمر أمة له أن ترضعه فأرضعته حتى فطم ، وأدرك وراهق الحلم فجعله راعيا لغنمه ، وكان لحازم ابنة ، فهويت الغلام وهويها ، وكان ذا منظر وجمال ، فكانت تتبعه إلى موضع الكلأ فيتغازلان ، ولبثا على ذلك أياما ، ثم إن أباها افتقدها يوما وفطن لها فرصدها حتى إذا خرجت تبعها، فانتهى إليهما وهما على سوءة ، فلما رآهما قال . سمن كلبك يأكلك ، فأرسلها مثلا، وأفلت الغلام ولحق بقومه همدان واختنقت الفتاة فماتت. وقيل: إن رجلا من طسم ارتبط كلبا ، فكان يسمنه ويطعمه رجاء أن يصيد به ، فاحتبس عليه بطعمه يوما فدخل عليه صاحبه فوثب عليه فافترسه ــ مجمع الأمثال ١ : ٢٢٦ .

وأحرَصُ من كلب على عِقْيِ[1] صبي ، وأجوع من كلبةِ حَوْمَل[2] ، وَلَهُو أبذأ من كلب[3] وَحَشَّ فلانٌ من خُرْءِ الكلب[4] ، واخسأْ ، كما يقال الكلب[5] ، وكالكلب في الآرِيّ[6] ، لا هو يعتلِف ، ولا هو يترك الدابةَ تعتلِفُ ، وقال الشاعر :

سَرَتْ ما سَرَتْ من ليلها ثُمَّ عَرَّسَتْ على رجُلٍ بالعَرْجِ ألأمَ من كلبِ[7]

وقال الله جل ذكره : « فَمَثَلُهُ كَمَثَلِ الْكَلْبِ إِنْ تَحْمِلْ عَلَيْهِ يَلْهَثْ أَوْ تَتْرُكْهُ يَلْهَثْ » وكان ينبغي في هذا القياس أن يكون المَراوِزةُ[8] أعقلَ البريّة ، وَأهلُ خراسانَ أدرَى البرية[9] ، وَنحن لانجد الجواد يفِرُّ من اسم السَّرَفِ إلى الجود ،

(١) مجمع الأمثال ١ : ١٥٤ والعقى : أول حدث الصبي ، وفي النسخ « عقبي ظبي » وهو تحريف.

(٢) حومل : امرأة من العرب كانت تجيع كلبة لها ، فكانت تربطها بالليل للحراسة ، وتطردها بالنهار ، وتقول : التمسي لنفسك لا ملتمس لك ، فلما طال ذلك عليها أكلت ذنبها من الجوع، قال الكميت يذكر بني أمية ويذكر أن رعايتهم للأمة كرعاية حومل لكلبتها :

كما رضيت جوعا وسوء رعاية لكلبتها في سالف الدهر حومل

(٣) أي أفحش ، وبذاءة الكلب هنا : كثرة هريره لسبب ولغير سبب .

(٤) حش المال : كثره ، أي كثر فلان ماله من أدنأ الوجوه التي تشبه خرء الكلب .

(٥) أي وقالوا لمن يطرد اخسأ كما يقال للكلب .

(٦) الآري : محبس الدابة . وحبل تشد به الدابة في محبسها .

(٧) الضمير يعود إلى الناقة ، والتعريس : نزول المسافر في آخر الليل للاستراحة ، والعرج : بلدة باليمن ، وواد بالحجاز ذو نخيل ، وموضع ببلاد هذيل ، ومنزل بطريق مكة .

(٨) المراوزة : أهل مرو الشاهجان : أشهر مدن خراسان وقصبتها ؛ جمع مروزي ، نسبة إلى مرو على غير قياس ، كأشاعرة جمع أشعري ـ انظر معجم البلدان ٨ : ٣٣ .

(٩) أي لأنهم أشد الناس بخلا ، وقد عقد الجاحظ في كتاب البخلاء (ص ١٤) فصلا طويلا في وصف بخلهم قال فيه : « نبدأ بأهل خراسان ، لإكثار الناس في أهل خراسان ، ونخص بذلك أهل مرو بقدر ما خصوا به ، قال أصحابنا : يقول المروزي للزائر إذا أتاه، وللجليس إذا طال جلوسه، تغديت اليوم ؟ فإن قال نعم ، قال : لولا أنك تغديت لغديتك بغداء طيب ، وإن قال لا ، قال : لو كنت تغديت لسقيتك خمسة أقداح ، فلا يصير في يده على الوجهين قليل ولا كثير ، وكنت في منزل ابن أبي كريمة ـ وأصله من مرو ـ فرآني أتوضأ من كوز خزف، فقال: سبحان الله ، تتوضأ بالعذب ، والبئر لك معرضة! قلت : ليس بعذب ، إنما هو من ماء البئر ، قال : فتفسد علينا كوزنا بالملوحة ! فلم أدر كيف أتخلص منه .

وقال ثمامة : لم أر الديك في بلدة قط إلا وهو لاقط، يأخذ الحبة بمنقاره ثم يلفظها قدام الدجاجة إلا ديكة مرو، فإني رأيت ديكة مرو تسلب الدجاج ما في مناقيرها من الحب، قال: فعلمت أن بخلهم شيء =

كما تجد البخيل يفرُّ من اسم البُخلِ إلى الاقتصاد، وتجد الشجاع يفرُّ من اسم المهزِمِ، والمستحِي يفرُّ من اسم الخَجِل، ولو قيل لخطيبٍ ثابتِ الجنان « وَقَاحٌ[1] » لجزِعَ فلو لم يكن من فضيلة الجود إلا أن جميعَ المتجاوزين لحُدود أصناف الخير يَكرهون اسم تلك الفضْلة[2] إلا الجواد، لقد كان فى ذلك مايُبين قدرَه، ويُظهِر فضلَه، المال فاتِنٌ، والنفسُ راغبة، والأموالُ ممنوعة، وهى[3] على مامُنِعَتْ حريصةٌ، والنفوس فى المكاثَرة عِلّةٌ معروفة، لأن من لا فكرة له ولا رويةَ، مُوكَّل[4] بتعظيم ذى الثروة، وإن لم تكن منه مَنالةٌ[5]، وقد قال الأول:

وزَادَها كَلَفًا بالحبِّ أنْ مُنِعَتْ ... وحَبُّ شىءٍ إلى الإنسان ما مُنِعا

وفى بعض كتب الفرس: كلُّ عزيزٍ تحت القُدرة فهو ذليل.

وقالت مُعاذةُ العَدوية: كل مقدورٍ عليه مَقْلِيٌّ[6] أو محقور، ولو كانوا لأولادهم يجمعون، ولهم يكُدُّون، ومن أجلهم يحرِصون، لجعلوا لهم كثيرا مما يطلُبون، ولتركوا محاسبتهم فى كثير مما يشتهون، وهذا بعضُ ما بغَّضَ بعضَ المورِّثين إلى الوارثين، وزهَّد الأخلاف[7] فى طول عمر الأسلاف، ولو كانوا لأولادهم يُمَهِّدون،

= فى طبع البلاد وفى جواهر الماء، فمن ثم عم جميع حيواتهم، فحدثت بهذا الحديث أحمد ابن رشيد فقال: كنت عند شيخ من أهل مرو، وصبي له صغير يلعب بين يديه، فقلت له ــ إما عابثا وإما ممتحنا ــ: أطعمنى من خبزكم، قال: لا تريده، هو مر، فقلت: فاسقنى من مائكم، قال: لا تريده، هو مالح، قلت: هات من كذا وكذا، قال: لا تريده هو كذا وكذا، إلى أن عددت أصنافا كثيرة، كل ذلك يمنعنيه ويبغضه إلى، فضحك أبوه، وقال: ماذنبنا، هذا من علمه ماتسمع؟ يعنى أن البخل طبع فيهم وفى أعراقهم وطينتهم ... ».

(١) الرجل الصلب الذى قل حياؤه.

(٢) أى الزيادة فى الفضلة وتجاوز الحد فيها.

(٣) أى النفس.

(٤) أى جاعل تعظيم ذى الثروة من شغله كأنه مولع به مفتون.

(٥) النال والنالة والمنال مصدر نلت أنال، ويقال: نلت له بشىء أى جدت.

(٦) قلاه يقليه قلى وقلاء، ويقلاه لغة طيء: أبغضه غاية البغض، قال ابن السكيت: ولا يكون فى البغض إلا قليت، وفى النسخ « فقلو ».

(٧) أخلاف جمع خلف بالتحريك: وهم أبناء الإنسان الذين يخلفونه بعد موته.

ولهم يجمعون ،لما جمع الخِصْيانُ الأموال ، ولَمَا كَنَزَ الرُّهبان الكنوزَ ، ولاستراح العاقِر من ذلّ الرغبة ، ولسَلِم العقيمُ من كدّ الحرص ، وكيف ونحن نجده بعد أن يموت ابنهُ الذى كان يعتلُّ به ، والذى مِنْ أَجْلِهِ كان يجمع ، على حاله[1] فى الطّلَب والحِرص ، وعلى مثلِ ما كان عليه من الجمْع والمنع ، والعامّة لم تقصِّر فى الطلب والحُكْرة[2] ، والبخلاءُ لم يحُدُّوا شيئاً من جهدهم[3] ، ولا عَفَوْا بعد قدرتهم[4] ، ولا قصَّروا فى شىء من الحرص والحَصَر[5] ، لأنهم فى دار قُلْعة[6] ، وتعرُّض نُقْلة[7] ، حتى لو كانوا بالخلود موقنين لأغفَلوا تلك الفضولَ ، فالبخيل مجتهد، والعامّىُّ غيرُ مقصر ، فمن لم يستعِنْ على ما وَصفْنا[8] بطبيعة قوية ، وبشهوة شديدة ، وبنظر شافٍ ، كان إما عامّيًّا ،وإما بخيلا شقيًّا ، ففيمَ اعتلالُهم بأولادهم ، واحتجاجُهم بخوف التلوُّن من أزمنتهم ؟ قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : لوافِدٍ كَذَب عنده كَذْبةً ـ وكان جواداً ـ : « لولا خَصْلةٌ[9] وَمِقَكَ اللهُ عليها ، لشَرَّدْتُ بك مِن وافدِ قوم » وقيل للنبى صلى الله عليه وسلم :هل لك فى بِيضِ النساء وأُدْمِ الإبل[10] ؟ قال : وَمَنْ هم ؟ قالَ : بنو مُدْلِج ، قال : « يمنعنى من ذاك قِراهم الضيفَ ، وصِلَتُهم الرَّحِمَ » وقال لهم أيضاً : « إذا نَحَروا ثَجُّوا[11] ، وإذا لَبَّوْا عَجُّوا[12] » وقال للأنصار : مَن

(١) متعلق الجار والمجرور مفعول ثان لتجد .
(٢) اسم من الاحتكار .
(٣) فى النسخ « لم يجدوا » والصواب « لم يحدوا » أى لم يحبسوا جهودهم فى جمع الأموال .
(٤) فى النسخ « ولا عفواً » بالنصب ، والصواب «ولا عفوا » أى عن الكد، والكدح بعد قدرتهم على العيش بما تجمع لديهم من مال .
(٥) الحصر : البخل .
(٦) يقال : الدنيا دار قلعة ، أى انقلاع وارتحال .
(٧) أى إن الدنيا دار يتعرض فيها المرء للانتقال .
(٨) وهو تمكن البخل والجشع فى النفوس . (٩) ومقه : أحبه .
(١٠) الأدم جمع آدم وأدماء ، والأدمة فى الإبل بالضم : لون مشرب سوادا أو بياضا أو هو البياض الواضح . والتقدير : هل لك فى قوم بيض النساء . . .
(١١) ثجوا : أسالوا دماء الذبائح فى الحج .
(١٢) التلبية فى الحج : قول لبيك اللهم لبيك ، وعج يعج بالكسر والفتح : صاح ورفع صوته .

سيدكم ؟ قالوا الْحرُّ(١) بن قيس ، على أنه يُزَنُّ(٢) فينا بِبُخل ، فقال : « وأيُّ داءٍ أدوأُ من البخل ؟ » ثم جعله من أدوإ الداء ، وقال للأنصار : « أمَا وَاللهِ ماعلِمْتُكم إلا لَتَكثُرُون عند الفَزَع ، وتَقِلُّون عند الطمع » وقال : « كفى بالمرء حِرْصاً رُكوبُهُ البحرَ » وقال : « لو أن لِابْن آدمَ وادِيَيْن من مالٍ لَابتَغَى ثالثاً ، ولا يُشْبِعُ ابنَ آدمَ إلا الترابُ ، ويتوبُ اللهُ على من تاب » وقال: « السخاء من الحياء ، والحياء من الإيمان » وقال : « إن الله جَوادٌ يُحِبُّ الجوادَ » وقال : « أنفِقْ يا بلالُ ولا تَخشَ من ذِي العرش إقلالا(٣) » وقال : « لاتوكِ فيُوكَى عليك(٤) » وقال : « لا تُحْصِ فيُحْصَى عليك » وقالوا : لاينفعُك من زادٍ ما تَبَقَّى(٥) ، ولم يُسَمَّ الذهبَ والفضة بالحجَرين إلا وهو يريد أن يضع من أقدارهما ، ومن فتنة الناس بهما ، وقال لقيس ابن عاصم : « إنما لك من مالك ما أكلت فأفنيْتَ ، وما لبِسْتَ فأبليتَ ، أو أعطيت فأمضيتَ ، وما سوى ذلك فللوارث » وقال النَّمِر بن تَوْلب :

وحَثَّتْ على جمعٍ ومنعٍ ، ونفسُها لها في صُرُوف الدهر حقٌّ كَذوبُ(٦)
وكائِنْ رأَيْنا مِن كريمٍ مُرَزَّأٍ أخِي ثِقَةٍ طَلْقِ اليدين وَهُوبِ(٧)
شهِدْتِ وفاتُوني ، وكنتُ حَسِبتِني فقيرا إلى أن يشهَدُوا وَتَغيبي(٨)
أعاذِلُ إن يُصْبِحْ صَدايَ بِقفرةٍ بعيداً نآنِي صاحبي وقريبي(٩)

---

(١) هكذا فى العقد الفريد ، وفى النسخ « جد بن قيس » .

(٢) يزن : يظن ويتهم .

(٣) فى العقد : « أنفق بلالا ، ولا تخش من ذى العرش إقلالا » .

(٤) أوكى السقاء : شد فمه بحبل . والمعنى : لا تحبس الخير عن الناس فيحبس عنك .

(٥) أى مازاد على حاجتك .

(٦) الضمير فى حثت يعود على زوجته ، يقول حثتنى على جمع الأموال ومنع السائلين وقد كذبتها نفسها حقا عند ماصورت لها الخوف من صروف الدهر وأحداثه .

(٧) المرزأ : الكريم يصاب من ماله كثيراً .

(٨) يقول . قد شهدتنى وغاب عنى هؤلاء الكرماء ، وكنت أظننى فى حاجة إلى أن يحضرونى لأنهم على شاكلتى فى الكرم والجود وتغيبى عنى لأنك تأمريننى بما لايلائم شيمتى من الجمع والمنع .

(٩) جاء فى لسان العرب : « قال أبو العباس المبرد : الصدى على ستة أوجه أحدها : ما يبقى من الميت فى قبره ، وهو جثته . قال النمر بن تولب :

أعاذل إن يصبح صداى بقفرة بعيدا نآنى ناصرى وقريبى

=

ترَىْ أنَّ ما أبقيتُ لم اكُ ربَّه ... وأن الذى أمضيتُ كان نصيبى(١)
وذى إبلٍ يسعَى ويحسَبُها له ... أخِي نَصَبٍ فى رَعْيِها وَدُءوبِ(٢)
غَدَتْ وغدَا ربٌّ سواه يَسوقُها ... وَبُدِّلَ أحجاراً وجالَ قَلِيبِ(٣)

وقال أيضاً :

قامت تَبَاكَى أنْ سبَأْتُ لفتيةٍ ... زِقًّا وخابيــــةً بعَوْدٍ مُقطَعِ(٤)
وقَرَيْتُ فى مَقْرَىً قلائصَ أربعاً ... وقَرَيْتُ بعد قِرَى قلائصَ أربعِ(٥)
أتبــكِّيا من كل شيء هَيِّنٍ ؟ ... سَفَهٌ بكاءُ العين ما لم تَدْمَعِ(٦)
فإذا أتانى إخـــوتى فَدَعِيهِمُ ... يتعلَّلوا فى العيش أو يَلْهُوا معى(٧)

= نصداه : بدنه وجثته ، وقوله : تآ نى : أى نأى عنى » (ثم قال : والصدى : الذكر من البوم . وكانت العرب تقول : إذا قتل قتيل فلم يدرك به الثأر خرج من رأسه طائر كالبومة ، وهى الهامة والذكر الصدى ، فيصيح على قبره اسقونى اسقونى ، فإن قتل قاتله كف عن صياحه) ــ وقد أورد المبرد معانى الصدى مفصلة فى شرحه لهذا البيت فى كتابه الكامل ج ١ : ص ١٧٨ ــ وقال صاحب اللسان أيضاً فى مادة نأى : « قال المبرد : ناءنى فيه وجهان : أحدهما أنه بمعنى أبعدنى كقولك زدته فزاد ونقصته فنقص والوجه الآخر فى ناءنى أنه بمعنى نأى عنى ، قال أبو منصور : وهذا القول هو المعروف الصحيح » وجاء فى الكامل : « تأويل قوله ناءنى يكون على ضربين : يكون أبعدنى . وأحسن ذلك أن يقول أناءنى ، وقد رويت هذه اللغة الأخرى وليست بالحسنة ، وإنما جاءت فى حروف ، يقال : غاض الماء وغضته ، ونزحت البئر ونزحتها ، وهبط الشيء وهبطته ــ وبنو تميم يقولون أهبطته ــ وأحرف سوى هذه يسيرة، والوجه فى فعل أفعلته نحو دخل وأدخلته ، ومات وأماته الله ، فهذا الباب المطرد، ويكون ناءنى فى موضع نأى عنى ، كما قال الله عز وجــل « وَإِذَا كَالُوهُمْ أَوْ وَزَنُوهُمْ يُخْسِرُونَ » أى كالوا لهم ووزنوا لهم » .

(١) لم أك ربه : أى لم أك صاحبه ، وإنما هو مال الوارث .

(٢) « فى رعيها » رواية المبرد ، وفى الأصل « فى شقها » .

(٣) أحجارا : أى أحجار القبر ، والجال : ناحية القبر وجانبه ، والقليب : البئر ، والمراد هنا القبر.

(٤) تباكى : أى أسفا لكثرة ما أبذل للضيوف ، وسبأ الخمر كجعل : شراها . والزق والخابية : وعاءان ، والعود : المسن من الإبل ، والمقطع : البعير قام من الهزال .

(٥) قرى الضيف كرمى قرى بالكسر : أضافه وأحسن إليه (وهو هنا على معنى أطعمت) ، والمقرى بفتح الميم : مكان القرى (وبالكسر : الجفنة) والقلائص جمع قلوص كصبور وهى الناقة الشابة القوية، والمعنى : أطعمت أضيافى قلائص أربعا ثم قريتهم بعد ذلك .

(٦) قصد بالتبكى هنا التباكى:وهو تكلف البكاء .

(٧) يتعللوا بالعيش : يتشاغلوا ويتلهوا به ، وفى الأصل « فى العيش » .

لاتَطارديهم عن فِراشى ، إنه   لا بُدَّ يوما أنْ سيخلو مَضْجَعِى[١]
هــلّا سألتِ بعادياء وبيتِهِ   والخيل والخمر التى لم تُمنَعِ[٢]

وقال الحارث بن حِلِّزَة :

بينا الفتى يسعَى ويُسْعَى له   تَاحَ له من أمره خالِجُ[٣]
يترك ما رقَّحَ مِن عيشه   يَعيث فيــــه هَمَجٌ هامِجُ[٤]
لا تَــكْسَعِ الشَّــــوْلَ بأغبارِها   إنكَ لا تَدْرى مَن الناتِجُ[٥]

وقال الهُذَلىّ :

إن الكرام مُناهِبُو   ك المَجْدَ كُلُّهم فَناهِبْ[٦]
أَخْلِفْ وأتلِفْ ، كلُّ شى   ء ذَرَّعتْه الريحُ ذاهِبْ[٧]

---

(١) أى سأموت .
(٢) عادياء : أبو السموءل ، ورواية صاحب اللسان « والخل » بدل « والخيل » .
(٣) تاح له الشىء يتوح ويتيح : تهيأ . خالج : قالم منتزع .
(٤) الترقيح والترقع : إصلاح المعيشة . والهمج : الرعاع من الناس والهمل الذين لانظام لهم ، وهامج توكيد له كقولهم يوم أيوم وليل أليل وليل لائل وليلة ليلاء ووتد واتد .
(٥) الشائلة من الإبل : ما أتى عليها من حملها أو وضعها سبعة أشهر فجف لبنها ، جمعها شول على غير قياس ، وأغبار جمع غبر بالضم : وهو بقية اللبن فى الضرع ، وكسع الناقة بغبرها كتم : ترك فى خلفها بقية من اللبن يريد بذلك تغزيرها ، وهو أشد لها ، وإذا ولى الإنسان ناقة أو شاة ماخضاحتى تضع قيل نتجها نتجا من باب ضرب ، فالإنسان كالقابلة لأنه يتلقى الولد ويصلح من شأنه ،فهو ناتج والبهيمةمنتوجة والولد نتيجة ، وأورد صاحب اللسان بعد هذا البيت بيتا آخر وهو :

واحلب لأضيافك ألبانها   فإن شر اللبن الوالج

قال « والوالج : أى الذى يلج فى ظهورها من اللبن المكسوع ، يقول : لا تغزر إبلك تطلب بذلك قوة نسلها ، واحلبها لأضيافك فلعل عدوا يغير عليها فيكون نتاجها له دونك » وقال المبرد فى الكامل ـ ج ١ : ص ١٨٠ ـ « قوله * لا تكسع الشول بأغبارها * فإن العرب كانت تنضح على ضروعها الماء البارد ليكون أسمن لأولادها التى فى بطونها ، والغبر بقية اللبن فى الضرع ، فيقول: لاتبق ذلك الإبن اسمن الأولاد فإنك لاتدرى من ينتجها فلعلك تموت فتكون للوارث أو يغار عليها » .
(٦) ناهبه : باراه فى العدو ، مناهبوك المجد : أى مسابقوك فى إحرازه .
(٧) ذرعته : حركته ، وفى البيان والتبيين : زعزعته الريح ، ونسب الشعر إلى المسعودى .

وقالت امرأة :

أنت وَهَبْتَ الفتيةَ السَّلَاهِبْ ... وإبلا يحارُ فيها الحالِبْ[1]

وغَنَما مثلَ الجرادِ الهارِبْ ... متاعُ أيامٍ ، وكلٌّ ذاهِبْ[2]

وقال تميم بن مقبل :

فأخلِفْ ، وأتلِفْ ، إنما المال عارَةٌ ... وكُلْه مع الدهر الذى هو آكِلُهْ[3]

وقال أبو ذرٍّ : « لك فى مالك شريكان : الوارثُ والحدَثانُ » وقال الحُطَيئة :

مَن يفعل الخيرَ لا يعدَمْ جَوازِيَه ... لايذهَبُ العُرْفُ بين الله والناس

وجاء فى الأثر : « إن أهل المعروف فى الدنيا أهلُ المعروف فى الآخرة » وفى المثل : « اصنع الخيرَ ولو إلى كلب » وفى الحث[4] على القليل ـ فضلا عن الكثير ـ قال الله جل ذكره : « فمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ[5] ذَرَّةٍ خَيْرًا يرَهُ ، وَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يرَهُ » وقالت عائشة فى حَبَّة عنب : « إن فيها لَمثاقيلَ ذر » ولذلك قالوا فى المثل « من حَقَر حَرَم[6] » وقال سَلْم بن قتيبة : « يستحى أحدهم من تقريب القليل من الطعام ، ويأبى أعظم منه » وقال : « جُهْد المرء أكثرُ من عفوِه[7] » وقدَّم رسول الله صلى الله عليه وسلم جُهْدَ المُقِلّ على عَفْو المُكْثِر ، وإن كان مَبْلَغُ جهده قليلا ، ومبلغُ عفو المكثِر كثيرا ، وقالوا : « لا يمنعك من معروف صِغَرُه » وقال النبى صلى الله عليه وسلم :

---

(١) السلاهب مفعول ثان لوهبت جمع سلهب كجعفر ، وهو من الخيل ما عظم وطال عظامه . وحيرة الحالب فى الإبل : كناية عن كثرتها أو غزارة لبنها .

(٢) أى وهذه متاع أيام قليلة .

(٣) العارة : العارية ، وهى الشىء يستعار ثم يرد إلى صاحبه .

(٤) فى النسخ « وقال فى الحث » وفيها « فضلا على الكثير » .

(٥) المثقال هنا : المقدار والزنة .

(٦) أى من حقر القليل الذى لديه فلم يبذله حرم كثيراً من ذوى الحاجة ، وقال الميدانى فى تفسيره « أى من حقر يسيراً مايقدر عليه ولم يقدر على الكثير . ضاعت لديه الحقوق » .

(٧) أى مايبذله المرء عن جهد وقلة أكثر ثوابا مما يبذله عن زيادة وسعة .

« اتقوا النار ولو بِشِقّ(١) تمرة » وقال : « لاتَرُدُّوا السائل ولو بِظِلْفٍ مُحْرَق(٢) » وقال : لاتَرُدُّوه ولو بِفِرْسَن(٣) شاةٍ » وقال : « لاتُحَقِّروا اللقمة فإنها تعود كالجبل العظيم(٤) » ، لقول الله جل ذكره . « يَمْحَقُ اللهُ الرِّبَا وَيُرْبِي الصَّدَقَاتِ » وقال : « لاتردُّوه ولو بصلة حَبْل(٥) » وقالت العرب . «أتاكم أخوكم يستَتِمُّكم(٦) فأتِمُّوا له» وقالوا . « مانع الإتمام ألومُ » وقالوا . « البخيل إن سأل أَلحفَ(٧) وَإن سُئِلَ سَوَّف» وقالوا . « إن سُئل جَحَدَ ، وإن أعطَى حَقَد » وقالوا . « يَرُدُّ قبل أن يَسْمَعَ ، ويغضَب قبل أن يَفهم » وقالوا . « البخيل إذا سُئل ارْتَزّ(٨) ، وإذا سُئل الجواد اهتزّ » وقال النبي صلى الله عليه وسلم . « يُنادِي كلَّ يوم مناديان من السماء يقول أحدهما . اللهم عَجِّلْ لمنفق خَلَفًا ، ويقول الآخر :اللهم عَجِّلْ لِمُمْسِكٍ تَلَفًا » وقالوا : « شَرُّ الثلاثة المُليم(٩) ، يمنع دَرَّه(١٠) وَدرَّ غــيره » وقال الله جل ذكره : « الَّذِينَ يَبْخَلُونَ وَيَأْمُرُونَ النَّاسَ بِالْبُخْلِ » وقالوا في المثل : « إذا ألجأك الدهر إلى بخيل ، شَرٌّ ما ألجأك إلى مُخَّةِ عُرْقوب(١١) » وقال النبي صلى الله عليه وسلم : « قل العَدْلَ ، وأَعْطِ الفضلَ » وقال النبي صلى الله عليه وسلم : « أنها كم

(١) الشق : النصف .
(٢) الظلف : ظفر كل ما اجتر ، وهو البقر والشاء والظباء، وشبهها بمنزلة القدم للإنسان .
(٣) الفرسن . طرف خف البعير ، وقد يستعار للشاة .
(٤) أى يعود ثوابها يوم القيامة فى عظمه كالجبل العظيم .
(٥) أى ولو بصلة من حبل .
(٦) يستتم : يطلب تمام ما يحتاج إليه .
(٧) ألحف : ألح . (٨) ارتز : أمسك وبخل .
(٩) الثلاثة : هم الآخذ والمعطى ومن يلوم المعطى ، وألام : أتى مايلام عليه .
(١٠) الدر : اللبن ، والمراد هنا الخير عامة .
(١١) ألجأك : اضطرك ، ويروى فى القاموس « شرما أجاءك إلى مخة عرقوب » وفى مجمع الأمثال « شرما يجيئك ... » ــ مضارع أجاء ــ قال الميدانى : ويروى « مايشيئك » والشين بدل من الجيم وهذه لغة تميم ، يقال : أجأته إلى كذا : أى ألجأته ، والمعنى : ما ألجأك إلى مخـــة عرقوب إلا شر أى فقر وفاقة ! وذلك أن العرقوب لامخ له وإنمــا يحوج إليه من لايقدر على شىء ، يضرب للمضطر جدا يطلب من اللئيم .

عن عقوق الأمهات ، ووَأْدِ البنات ، ومَنْعٍ وهاتِ » وقال الله عز وجل : « وَيُطْعِمُونَ الطَّعَامَ عَلَى حُبِّهِ مِسْكِيناً وَيَتِيماً وَأَسِيرًا » وقال « لَنْ تَنَالُوا الْبِرَّ حَتَّى تُنْفِقُوا مِمَّا تُحِبُّونَ » وقال « وَيُؤْثِرُونَ عَلَى أَنْفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ ، وَمَنْ يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِ فَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ » وقالوا : فى الصبر على النائبة وفى عاقبة الصبر : « عند الصباح يَحْمَدُ القومُ السُّرَى[1] وقالوا : « الغَمَرَاتُ ، ثم يَنْجَلِينَ[2] »

وقال الخُزَيمى :

ودُونَ النَّدَى فى كل قلبٍ ثَنِيَّةٌ　　لها مَصْعَدٌ حَزْنٌ ومُنْحدَرٌ سَهْلُ[3]

ووَدَّ الفتى فى كل نَيْلٍ يُنِيلُهُ　　(إذا ما انقضَى) لو أن نائلَه جَزْلُ[4]

وقالوا : خير الناس خيرُ الناس للناس ، وشر الناس شر الناس للناس » وقالوا : « خير مالك ما نفعك » وقالوا : « عَجَبًا الفَوْط الكَبْرة مع شباب الرَّغبة[5] »

وَقال الراجز :

---

(١) أول من قال ذلك خالد بن الوليد لما بعث إليه أبو بكر رضى الله عنهما وهو باليمامة : أن سر إلى العراق ، فأراد سلوك المفازة ، فقال له رافع الطائى : قد سلكتها فى الجاهلية ، هى خمس للابل الواردة (والخمس بالكسر من أظماء الإبل ، وهى أن ترعى ثلاثة أيام وترد الرابع) ولا أظنك تقدر عليها إلا أن تحمل من الماء ، فاشترى مائة شارف (والشارف : المسن الهرم من الإبل) فعطشها ثم سقاها الماء حتى رويت . ثم كتبها (أى ختم حياءها) و كعم أفواهها (أى شدها) ثم سلك المفازة ، حتى إذا مضى يومان وخاف العطش على الناس والخيل ، وخشى أن يذهب ما فى بطون الإبل ، نحر الإبل واستخرج ما فى بطونها من الماء فسقى الناس والخيل ومضى ، فلما كان فى الليلة الرابعة قال رافع : انظروا ، هل ترون سدرا عظاما (والسدر بالكسر : شجر النبق) فإن رأيتموها وإلا فهو الهلاك ، فنظر الناس فرأوا السدر فأخبروه فكبر وكبر الناس ثم هجموا على الماء فقال خالد من أبيات :

عند الصباح يحمد القوم السرى　　وتنجلى عنهم غيابات الكرى

يضرب للرجل يحتمل المشقة رجاء الراحة .

(٢) يروى « الغمرات » وكأنه قال : هى الغمرات ، أو القصة الغمرات تظلم ثم تنجلى . ويروى « غمرات » . أى هذه غمرات وهى الشدائد جمع غمرة لأنها تغمر الواقع فيها بشدتها : أى تقهره ، والمثل للأغلب العجلى ، يضرب فى احتمال الأمور العظام والصبر عليها .

(٣) الثنية : المكان المرتفع الصعب المطلع ، أى إن الكرم شاق على النفس — لأن الفضيلة شاقة ولولا مشقتها لساد الناس جميعاً .

(٤) الجزل : العظيم .

(٥) أى عجبا لامرىء هرم فان ورغبته فى الجم والكدح فتية .

كلُّنا يأمُلُ مَدًّا في الأَجَلْ والمنايا هي آفاتُ الأَمَلْ[١]

وقال عبيد الله بن عِكْراش : « زمنٌ خَئونٌ ، ووارِثٌ شَفُونٌ[٢] ، وكاسِبٌ حَزُونٌ[٣] ، فلا تأمَنِ الخئونَ ، وكن وارثَ الشَّفُونِ[٤] » وقال : يَهْرَم ابنُ آدمَ ويَشِبُّ معه خَصْلتان : الحرصُ والأملُ » وكانوا يَعيبون مَن يأكل وحدَه ، وقالوا : «ما أكل ابنُ عمرَ وحدَه قطُّ » ، وقالوا : « ما أكل الحسنُ[٥] وحْدَه قط » وسمع مُجَاشِعٌ الرَّبَعِيّ قولهم : « الشحيحُ أعذرُ من الظالم » فقال : « أخزى اللهُ أمرين خيرُهما الشحُّ » وقال بكر بن عبد الله المُزَنيُّ : « لو كان هذا المسجد مُفْعَماً بالرجال ثم قيل لى : مَن خيرهم ؟ لقلت : خيرُهم لهم[٦] » وقال النبي صلى الله عليه وسلم : « ألا أُنبئكم بشراركم ؟ » قالوا : بَلَى يا رسول الله ، قال : « من نَزَل وَحْدَه ، ومنع رِفْدَه ، وجَلَد عبدَه » وقالت امرأة عند جَنازة رجل : أَمَا واللهِ ما كان مالُكَ لبطنك ، ولا أَمْرُكَ لِعِرْسِك[٧] » .

٧١ — رسالة ابن التوءم إلى الثقفى

فلما بلغت الرسالة ابن التوءم ، كَرِه أن يجيب أبا العاص ، لما فى ذلك من المناقشة والمباينة[٨] ، وخاف أن يترقَّى الأمر إلى أكثرَ من ذلك ، فكتب هذه وبعث بها إلى الثقفيّ :

(١) هكذا فى نسخة الشنقيطى ، وفى غيرها آفات الأجل .
(٢) الشفون فى الأصل : الناظر يؤخر عينه كراهة أو عجبا . والمعنى هنا الكاره المترقب وفاة مورثه
(٣) أى شديد الحزن .
(٤) اى أنفق بحيث لا تترك شيئا لوارثك : فإذا مات استفدت من إرثه ولم يستفد من إرثك .
(٥) يعنى الحسن البصرى .
(٦) أى خيرهم أكثرهم إسداء خير لهم .
(٧) العرس : الزوجة ، أى كنت كريما مستقلا بتصريف أمورك .
(٨) أى الابتعاد والتهاجر .

« بسم الله الرحمن الرحيم : أما بعدُ فقد بلغني ما كان من ذكر أبي العاص لنا ، وتنويهه[1] بأسمائنا ، وتشنيعه علينا ، وليس يمنعنا من جوابه إلا أنه إن أجابنا لم يكن جوابنا إيّاه على قوله الثاني أحقَّ بالترك مِن جوابنا له على قوله الأول ، فإن نحن جعلْنا لابتدائه جوابا ، وجعلنا لجوابه الثاني جوابا ، خرجنا إلى التَّهاتُر[2] ، وصرنا إلى التخابُر[3] ، ومن خرج إلى ذلك فقد رَضِيَ باللَّجاج[4] حظًّا ، وبالسُّخف[5] نصيباً ، وليس يحترس من أسباب اللجاج إلا من عرَف أسباب البَلْوَى[6] ، ومن وقاه الله سوء التِّكَفِّى[7] وسُخْفَه ، وعصَمَه من سوء التصميم[8] ونَكَدِه ، فقد اعتدلتْ طبائعُه، وتساوت خواطرُه ، ومن قامت أخلاطُه على الاعتدال وتكافأت خواطره في الوزن ، لم يعرف من الأعمال إلا الاقتصادَ ، ولم يجد أفعاله أبداً إلا بين التقصير والإفراطِ ، لأن الموزون لا يولِّد إلا موزونا ، كما أن المختلف لا يولِّد إلا مختلفاً[9] ، فالمتتايِع[10] لا يَثْنيه زجرٌ ، وليست له غايةٌ دون التَّلَفِ ، والمتكَفِّي ليس له مأتًى ولا جهةٌ ، ولا له رُقْيةٌ[11] ولا فيه حيلةٌ ، وكلُّ متلوِّنٍ[12] في الأرض فمُنحَلُّ العَقْد ،

---

(١) التنويه هنا : الذكر ، أي وذكر أسمائنا ، فقد تقدم قول أبي العاص في أول رسالته إلى الثقفي « واختلافك إلى ابن التوءم » .   (٢) تهاترا : ادعى : كل على صاحبه باطلا .

(٣) تخابر الرجلان : تغالبا في العلم والمعرفة ، يقال : خابره في العلم فخبره : أي غالبه فغلبه ، وفي النسخ « التجابر » ولم نجد لها معنى .

(٤) التمادي في الخصومة .   (٥) السخف : ضعف العقل .

(٦) أي لأن اللجاج يؤدي حتما إلى شر ومصيبة ، فمن تجنب أسبابه تجنب أسباب المصائب .

(٧) القى في لسان العرب . التكفؤ : التمايل إلى قدام ، يهمز ولا يهمز ، والأصل الهمز ، تكفأ تكفؤا كتقدم تقدما ، فإذا خففت الهمزة التحق بالمعتل وصار تكفي تكفيا كتسمى تسميا ، ولكن المراد بالتكفي هنا : اكتفاء المرء برأي نفسه وتشبثه به واستبداده ، يؤيد ذلك الفقرة التالية .

(٨) التصميم : المضي في الأمر من غير إصغاء إلى نصح .

(٩) أي لأن الأفعال آثار الأمزجة ، فإذا كانت الأمزجة معتدلة متزنة أنتجت أفعالا متزنة ، وإذا كانت مضطربة أنتجت أفعالا كذلك .

(١٠) المتتايع : المتهافت على الشر المتمادي فيه المسرع إليه من غير تثبت أو تطرق الأمور .

(١١) أي لا تجد منفذا لهدايته وإرشاده ، ولا تنفع فيه الوسائل ، وهو أشبه بمن مسته الجن ، لا تنفع فيه رقية . والرقية : مايقرأ للمحموم والمصروع ليشفى .

(١٢) المتلون المتقلب في الرأي ، له في كل ساعة رأي .

مُيَسَّر لكل ريح ، فدع عنك خِلْطة الإِمَّعَة[1] فإنه حارِصٌ[2] لاخيرَ فيه ، واجتنِبْ رُكوبَ الجَمُوحِ ذى النَّزَوات ؛ فإن غايته القتلُ الزُّؤاف[3] ، ولا[4] فى الحَرُون ذى التصميم ، والمتلونُ شر من المصمِّم ، إذ كنت لاتعرف له حالا يقصِد إليها ، ولا جهةً يعمَل عليها ، ولذلك صار العاقل يخدعُ العاقلَ ولا يخدعُ الأحمقَ ؛ لأن أبواب تدبير العاقل وحِيلَه معروفةٌ ، وطُرُق خواطرِه مسلوكةٌ ، ومذاهبَهُ محصورة معدودة ، وليس لتدبير الأحمقِ وحِيَلِه جهةٌ واحدة مَن أخطأها كَذَب[5] ، والخبَرُ الصادق عن الشىء الواحد واحد ، والخبر الكاذب عن الشىء الواحد لايُحْصَى له عددٌ ، ولا يوقَف منه على حَدّ ، والمصمِّم قتلُه بالإجهاز[6] ، والمتلوِّن قتلُه بالتعذيب[7] ، فإن قلنا فليس إليه[8] نقصِد ، وإن احتججْنا فلسنا عليه نَرُدّ ، ولكنا إليك نقصِد بالقول ، وإليك نُريد بالمَشورة ، وقد قالوا : « احفظ سِرَّك فإن سِرَّك من دمك » وسواء ذهابُ نفسك وذهابُ مابه يكون قِوَامُ نفسِك[9] ، قال المُنْتَجابُ العَنْبَرِىّ : « ليس بكبيرٍ ما أصلحه المالُ[10] » وفقْدُ الشىء الذى به تصلُحُ الأمور ، أعظمُ من الأمور[11] ، ولهذا قالوا فى الإبل : « لو لم يكن فيها إلا أنها رَقُوء[12] الدم » فالشىء

---

(١) الإمع والإمعة : الرجل يتابع كل إنسان على رأيه لايثبت على شىء .

(٢) الحارص : الملتهم لايكاد يترك شيئا .

(٣) عبارة النسخ « واجتنب ركوب الجوح فإن غايته قبل الذواق ذى البدوات » وهى غير مفهومة . والقتل الزؤاف : السريع .

(٤) عطف على المجرور فى لاخير فيه ، أى ولاخير فى الحرون ، والحرون ، الدابة تعصى صاحبها فتقف ولا تمشى .

(٥) أى ليس للأحمق اتجاه واحد فى تدبيره ، حتى إذا لم يهتد إليه إنسان قيل إنه أخطأ .

(٦) المراد أن الضرر الذى يصل من المصمم يصل دفعة واحدة . فهو كالقتل بالإجهاز .

(٧) أى أن المتلون يأتيك منه الضرر فى نوبات متقطعة ، فكأنه يقتل بالتعذيب .

(٨) الضمير فى إليه يعود إلى المتلون .

(٩) أى مادام السر جزءا من الدم وهو قوام النفس ، ففقده يساوى فقد النفس .

(١٠) أى كل ضرر يستطيع المال أن يصلحه ليس بكبير .

(١١) أى فقد المال الذى يصلح اختلال الأمور أعظم من فقد أى أمر .

(١٢) رقأ الدم : جف وسكن ، والرقوء كصبور : مايوضع على الدم ليرقئه: أى أنها تحقن الدماء لأنها تدفع فى الديات فيكف صاحب الثأر عن طلبه فيحقن دم القاتل ، وجواب لو محذوف : أى لكفاها فضلا وهو من قول أكثم بن صيفى — انظر جمهرة خطب العرب ١ : ٣٠٥ .

الذى هو ثَمَنُ الإبلِ وغيرِ الإبل أحقُّ بالصون ، وقد قضَوا بأن حفظ المال أشدُّ من جمعه ، ولذلك قال الشاعر :

وحِفْظُك مالًا قد عُنيتَ بجَمْعِه أشد من الجمع الذى أنت طالبُهْ

ولذلك قال مشترى الأرض لبائعها حين قال له البائع : دفعتُها إليك بطيئةَ الإجابَةِ ، عظيمة المئُونةِ[١] ، قال[٢] دفعْتَها[٣] إليك بَطيئةَ الاجتماع ، سريعة التفرق ، والدرهم هو القُطبُ الذى تدور عليه رَحَى الدنيا . واعلم أن التخلص من نَزَوات الدرهم وتقلُّبه من سُكر الغنَى وتفلُّتِه شديدٌ[٤] ، فلو كان إذا تفلَّتَ كَانَ حارسُه صحيحَ العقل سليم الجوارح لَرَدَّه فى عِقاله ، ولَشَدَّه بوَثاقه ، ولكنا وجدنا ضعفَه عن ضَبْطه بقدر قَلَقِه فى يده[٥] ، ولا تغترَّ بقَوْلهم : « مال صامِتٌ[٦] » فإنه أنطَقُ من كل خطيب ، وأنمُّ من كل نَمَّام ، فلا تكترِثْ بقولهم : « هذين الحَجَرين[٧] » فتتوهَّمَ جمودَهما وسكونهما وقلةَ ظَعَنِهما وطولَ إقامتهما ، فإنَّ عملَهما وهما ساكنان ، ونقْضَهما للطبائع وهما ثابتان ، أكثرُ من صنيع السُّمِّ الناقع ، والسَّبُع العادِى ، فإن كنتَ لا تكتفى بصَنيعه[٨] حتى تمدَّه ، ولا تحتالُ فيه حتى يُحتالَ له ، فالقبرُ خير لك من الفقر ، والسجنُ خير لك من الذُّلِّ .

وقولى هذا مُرُّه يُعقِب حلاوةَ الأبد ، فخذ لنفسك بالثِّقة[٩] ، فقولك الماضى حُلو

---

(١) الضمير فى دفعتها يعود للأرض أى أنها لا تثمر إلا بعد مدة وهى تحتاج إلى نفقات كثيرة حتى تثمر . (٢) الضمير فى قال يعود للمشترى .

(٣) الضمير فى دفعتها يعود للدراهم وهى عن الأرض .

(٤) تقلب الدرهم : انتقاله من يد إلى يد، ويكون أكثر تقلب الدرهم بسبب الاغترار بالغنى : أى أن رياضة الدرهم ومنعه من التقلب والفرار عندما تدرك صاحبه نشوة الغنى والاستهانة بالمال ليست بالأمر الهين .

(٥) أى أننا شاهدنا ضعف مالك الدرهم عن حبسه مساويا لقلق الدرهم ورغبته فى الفرار .

(٦) المال الصامت : الذهب والفضة ونحوهما ، والمال الناطق : الحيوان .

(٧) نصبه على تقدير : احتج هذين الحجرين مثلا ، وهما الذهب والفضة .

(٨) الضمير فى صنيعه يعود إلى الدرهم ، وحتى تمده : أى تساعده على التفلت .

(٩) أى حصن نفسك بالثقة بهذا القول .

يُعقِب مرارةَ الأبد ، فخذ لنفسك بالثقة ، ولا ترضَ أن يكون الحِرْباءُ الراكبُ العُودِ أحزمَ منك ، فإن الشاعر يقول :

أنَّى أُتيحَ لهـــا حِرْباءُ تَنْضُبَةٍ   لا يُرْسِلُ الساقَ إلا مُمْسِكا ساقَا[١]

واحذر أن تُخرِج من مالك درهماً حتى ترَى مكانه خيراً منه ، ولا تنظرْ إلى كثرته ، فإنّ رملَ عالِج[٢] لو أُخِذ منه ولم يُرَدَّ عليه لذهَبَ عن آخره ، إنّ القوم قد أكثروا فى ذكر الجود وتفضيلِه ، وفى ذكر الكرم وتشريفِه ، وسَمَّوا الشَّرفَ جوداً وجعلوه كرما ، وكيف يكون كذلك وهو نِتاجُ ما بين الضعف والنَّفْج[٣] ، وكيف والعطاء لا يكون سَرَفا إلا بعد مجاوزة الحق ، وليس وراء الحق إلى الباطل كرمٌ ، وإذا كان الباطلُ كرما كان الحقّ لؤما ، والسَّرَفُ ـ حفظك الله ـ معصية ، وإذا كانت معصيةُ الله كَرَماً ، كانت طاعته لؤما ، ولئن جمعهما[٤] اسم واحد ، وشَمِلهما حكْمٌ واحد (ومضادّةُ[٥] الحقِّ للباطل كمضادَّة الصدق للكذب ، والوفاء للغدر ، والجورِ للعدل ، والعلمِ للجهل) لَيَجْمَعَنَّ هذه الخصالَ اسمٌ واحد ، وَلَيَشْمَلَنَّها حكم واحد ، وقد وجَدْنا اللهَ عاب السَّرفَ ، وعاب الحَمِيَّة[٦] ، وعاب المعصيةَ ، ووجدناه

---

(١) الحرباء مذكر والتنضبة : شجرة حجازية شائكة ، والحرباء يشتد عليه حر الشمس فيلجأ إلى ساق شجرة يستظل بظلها ، فإذا أدركته الشمس تحول إلى ساق أخرى ، وهو مثل يضرب لمن لايدع له حاجة إلا سأل أخرى — انظر مجمع الأمثال ٢ : ١١ ، وجاء فى لسان العرب مادة حرب « قال أبو دواد الإيادى : أنى أتيح له .. قال ابن برى : هكذا أنشده الجوهرى وصواب إنشاده « أنى أتيح لها » لأنه وصف ظعنا ساقها وأزعجها سائق مجد ، فتعجب كيف أتيح لها هذا السائق الجد الحازم ، وهذا مثل يضرب الرجل الحازم ، لأن الحرباء لا يفارق الغصن الأول حتى يثبت على الغصن الآخر » .

(٢) عالج : رمال معروفة بالبادية .

(٣) النفج : التفاخر الكاذب بالمال .

(٤) أى جمع السرف والكرم .

(٥) هذه الجملة حالية معترضة بين القسم (لئن جمعهما) وجوابه (ليجمعن) .

(٦) الحمية : شدة الأنفة ، وهى الغضب والإباء الحماية ، قال تعالى : « إِذْ جَعَلَ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي قُلُوبِهِمُ الْحَمِيَّةَ حَمِيَّةَ الْجَاهِلِيَّةِ »

قد خص السَّرفَ بما لم يَخُصَّ به الحَمِيَّةَ[1] ، لأنه ليس حُبُّ المرء لرَهْطه من المعصية ، ولا أَنَفَتُه من الضيم من حَمِيَّة الجاهلية ، وإنما المعصيةُ ما جاوز الحقَّ ، والحميةُ المَعيبةُ ما تَعَدَّى القصدَ ، فوجدْنا اسمَ الأنفةِ قد يقع محموداً ومذموما ، وما وجَدْنا اسمَ المعصية ولا اسمَ السَّرَفِ يقع أبداً إلا مذموما ، وإنما يُسَرُّ باسم السرف جاهلٌ لا عِلْمَ له ، أو رجل إنما يُسَرُّ به لأن أحداً لا يسميه مُسْرِفًا حتى يكون عنده قد جاوز حدَّ الجود ، وحَكَمَ له بالحق ثم أردفه بالباطلِ[2] ، فإن سُرَّ من غير هذا الوجه[3] ، فقد شارَكَ المادحَ فى الخطأ ، وشاركَه فى وضع الشىء فى غير موضعه .

وقد أكثروا فى ذكر الكرم ، وما الكرمُ إلا كبعض الخصالِ المحمودة التى لم يَعدَمها بعضُ الذم[4] ، وليس شىء يخلو من بعض النقص والوهْن ، وقد زعم الأولون أن الكرم يسبِّب الغَبَا[5] ، وأن الغَبَا يسبِّب البَلَه[6] ، وأنه ليس وراء البَلَه إلا العَتَه[7] ، وقد حَكَوا عن كسرى أنه قال : « احذروا صَوْلةَ الكريم إذا جاع ، واللئيمِ إذا شَبِع » وسواء جاع فظَلَمَ ، وأحفَظَ وعَسَفَ ، أم جاع وكذب ، وضرع وأسَفَّ[8] ، وسواء جاع فظلم غيرَه ، أم جاع فظلم نفسه ، والظلم لؤم ، وإن كان الظلم ليس بلؤم ، فالإنصافُ ليس بكرم ، وإن كان الجودُ على من لا يستحق الجود كرما ، فالجود لمن وجب له ذلك ليس بكرم ، فالجود إذا كان لله كان شكرا له ، والشكر كرم ،

---

(١) أى مع أن الله عاب الحمية فإن هناك ضربا من الحمية محمودا ، أما السرف والمعصية فمذمومان على الإطلاق ، وليس فى أحدهما نوع محمود .

(٢) أى أنه يسر بوصفه بالسرف ، لأن هذا الوصف يتضمن معنى الجود ، ثم مجاوزة الحد فيه ، فواصفه فى هذه الحال حكم له بالجود ضمنا ، وهذا حق ، ثم أردفه بالباطل وهو مدح السرف .

(٣) أى وظن أن مادحه يصفه بالجود المحمود الذى لم يخرج إلى السرف .

(٤) أى لم يفقد منها بعض الذم بتجاوزها القصد أو بالمغالاة فيها .

(٥) الغبا : عدم الفطنة ، غبى الشىء وعنه كفرح غبا وغباوة وعبارة النسخ « أن الكرم يسبب الغنى وأن الغنى ... » .

(٦) البله : ضعف العقل وبابه فرح .

(٧) فى النسخ « المتوه » والعته : نقص العقل أو فقده ، والمراد هنا الثانى .

(٨) أسف : انحط إلى دنيئات الأمور .

ولن يكون الجودُ إذا كان معصيةً كرما ، وكيف يتكرَّم من يتوسل بأياديك إلى معصيتك ، وينعَمك إلى سُخْطك ، فليس الكرمُ إلا الطاعةَ ، وليس اللؤم إلا المعصية، وليس بجودٍ ما جاوز الحق ، وليس بكرم ما خالف الشكرَ ، ولئن كان مُجاوزُ الحقِّ كريما ليكونَنَّ المقصِّرُ دونه كريما[١] ، فإن قضيتم بقول العامَّة[٢] فالعامةُ ليست بقُدوة. وكيف يكون قدوةً مَن لا ينظر ، ولا يُحصِّل ، ولا يفكرٌ ولا يمثِّل[٣] ، وإن قضيتم بأقاويلِ الشعراء وما كان عليه أهلُ الجاهليةِ الجهلاء ، فما قبَّحوه مما لا يُشَكُّ فى حُسْنه أكثرُ من أن نقف عليه أو نتشاغل باستقصائه .

على أنه ليس بجودٍ إلا ما أوجب الشكرَ ، كما أنه ليس ببُخلٍ إلا ما أوجب اللؤمَ ، ولن تكون المطيةُ نعمةً على المعطَى حتى تُراوَدَ بها[٤] نفسُ ذلك المعطَى ، ولن يجب عليه الشكرُ إلا مع شريطة القَصْد ، وكلُّ مَن كان جودُه يرجع إليه ـ لولا رجوعُه إليه لَمَا جادَ عليك ، ولو تهيأ له ذلك المعنَى فى سواك ، لَمَا قَصَدَ إليك ـ فإنما[٥] جعلك مِعْبَرا لِدَرْك حاجته ، ومَرْكَبا لبلوغ محبته ، ولولا بعضُ القول[٦] لوجَبَ لك عليه حق يجب به الشكر ، فليس يجب لمن كان كذلك شكرٌ ، وإن انتفعْتَ بذلك منه ، إذ كانَ لِنفسه عَمِلَ ، لأنه لو تهيأ له ذلك النفعُ فى غيرك لَمَا تخطَّاه إليك .

وإنما يوصَف بالجود فى الحقيقة ، ويُشْكَر على النفع فى حُجَّة العقل ، الذى إن جاد عليك ، فلك جادَ ، ونفعَك أرادَ ، من غير أن يرجِع إليه جودُه بشيء من المنافع

---

(١) أى إذا عد مجاوز الكرم إلى السرف كريما ، جاز أن يعد المقصر دون حد الكرم كريما مادام معنى الكرم لا يدرك إدراكا صحيحاً .

(٢) وهو عدهم كل سرف كرما .

(٣) لا يمثل : أى لا يصور الحقائق تصويرا صادقا .

(٤) تراود : أى تقصد وتبغى ، أى إلا إذا أريد بها نفس الآخذ لا ما ينتظر منه من فائدة .

(٥) جملة فإنما خبر المبتدأ « وكل من كان جوده » وقرن الخبر بالفاء لدلالة المبتدإ على العموم .

(٦) أى ولولا الخوف من بعض القول وهو أن نتهم بالمغالاة لقلنا بوجوب شكر الجواد للمجود عليه»

على جهةٍ من الجهات ، وهو اللهُ وَحْدَه لا شريكَ له ، فإنْ شَكَرْنا للناس على بعض ماقد جَرَى لنا على أيديهم ، فإنَّما هو لأمرين : أحدهما التعبُّد ، وقد نعبُد الله بتعظيم الوالدين وإن كانا شيطانَيْن ، وتعظيم مَن هو أسَنُّ(١) منا ، وإن كنا أفضلَ منه ، والآخرُ لأن النفس مالم تحصِّلِ الأمورَ وتميِّزِ المعانيَ ، فالسابقُ إليها حُبُّ مَن جَرَى لها على يده خيرٌ ، وإن كان لم يُرِدها ولم يقصِد إليها .

ووجَدْنَا عطية الرجل لصاحبه لا تخلو أن تكون لله ، أو لغير الله ، فإن كانت لله فثوابُه على الله ، وكيف يجب علىَّ في حُجَّة العقل شكرُهُ ، وهو لو صادف ابنَ سبيلٍ غيرى لَمَا حَمَلنى(٢) ولا أعطانى ، وإما أن يكون إعطاؤه إياى للذِّكر ، فإذا كان الأمر كذلك فإنما جعلنى سُلَّما إلى تجارته ، وسَبَبا إلى بُغْيته ، أو يكون إعطاؤه إياى من طريق الرحمة والرِّقَّة ، ولِمَا يجد في فؤاده من الغُصَّة والألم ، فإن كان لذلك أعْطى فإنما دَاوَى نفسَه من دائه ، وكان كالذى رَفَّهَ مِن خِناقه ، وإن كان إنما أعطانى على طلب المجازاة وحُبِّ المكافأة ، فأمْرُ هذا معروف ، وإن كان إنما أعطانى مِن خَوف يدى أو لسانى ، أو اجترار معونتى ونُصْرتى(٣) ، فسبيلُه سبيلُ جميع ما وصفنا وفَصَّلْنا .

فلِاسْمِ الجود موضعان : أحدهما حقيقةٌ ، والآخر مجاز ، فالحقيقة : ما كان من الله ، والمجاز : المشتقُّ من هذا الاسم(٤) ، وما كان لله كان ممدوحا ، وكان لله طاعةً ، فإذا لم تكن العطيةُ من الله ، ولا لِله ، فليس يجوز هذا فيما سَمَّوه جودا ، فما ظنُّك بما سَمَّوه سَرَفا ؟ .

---

(١) كذا في عيون الأخبار ، وفي النسخ « من هو شرمنا وإن كنا أفضل منهم » .

(٢) حمله : أعطاه ظهرا يركبه .

(٣) كذا في عيون الأخبار ، وفي النسخ « أو صرف معونتي وحضرتي » .

(٤) اسم الجود قسمين : حقيقي وهو ما كان من الله مباشرة ، ومجازي وهو ما كان مشتقاومتفرعا من جود الله وآتيا على يد مخلوق .

افهم ما أنا مُورِدُه عليك ، وواصِفُه لك إن الترَبُّح والتكسُّب والاستئكال[1] بالخديعة والطُّعَم الخبيثة فاشيةٌ غالبة ، ومستفيضةٌ ظاهرة ، على أن كثيرا ممن يضافُ اليوم إلى النزاهة والتكرُّم ، وإلى الصيانة والتوقِّي ، لَيَأْخُذُ من ذلك بنصيب وافرٍ ، وبمُدٍّ وافٍ[2] ، فما ظنُّك بدَهْماءِ الناس وجُمْهورهم ، بل ما ظنُّك بالشعراء والخطباء الذين إنما تعلَّموا المنطق لصناعة التكسُّب ؟ وهؤلاء قوم يودُّهم أن أرباب الأموال قد جاوزوا حدَّ السلامة إلى الغَفْلة ، حتى لايكونَ للأموال حارسٌ ، ولا دونها مانعٌ ، فاحْذَرهم ، ولا تنظُرْ إلى بِزَّة[3] أحدهم ؛ فإن المسكين أقنعُ منه ، ولا تنظُرْ إلى مَوْكِبه ، فإنَّ السَّائلَ أعفُّ منه ، واعلم أنه فى مَسْكِ[4] مِسكين ، وإن كان فى ثياب جَوادٍ[5] ، ورُوحه رُوح نَذْلٍ ، وإن كان فى جِرْم مَلِكٍ ، وكلُّهم وإن اختلفت وجوهُ مسألتهم ، واختلفت أقدارُ مطالبهم ، فهو مسكين إلا أن واحداً يطلب العَلَق[6] ، وآخر يطلب الخِرَق ، وآخر يطلب الدَّوانيق[7] ، وآخر يطلب الألوف ، فجهةُ هذا هى جهةُ هذا ، وطُعْمة[8] هذا هى طُعْمة هذا ، وإنما يختلفون فى أقدارِ ما يطلبون على قدرِ الحِذْق والسبب[9] ، فاحْذَر رُقَاهم[10] وما نَصَبوا لك من الشَّرَك ، واحرُس نعمتَك وما دَبُّوا لَهَا من الدواهى ، واعلم على أنَّ سِحرهم يسترِقُ الذهن ، ويختطف البصر ، قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « إنَّ من البيان لسِحْرا » وسَمِعَ عمر بن عبد العزيز رجلا يتكلم فى حاجة فقال : « هذا واللهِ السِّحْر الحلال » وقد قال رسول الله

(١) استأكل : أخذ أموال الضعفاء كالنساء واليتامى ونحوهم وعاش عليها .
(٢) المد : مكيال مقداره رطل وثلث عند أهل الحجاز ، والمراد به هنا مطلق مقدار .
(٣) البزة : حسن الهيئة . (٤) المسك : الجلد .
(٥) فى بعض النسخ « جداد » .
(٦) العلق بالكسر ويفتح : النفيس من كل شىء .
(٧) الدانق بكسر النون وتفتح والداناق : سدس الدرهم .
(٨) الطعمة : وجه المكسب . (٩) السبب : الوسيلة .
(١٠) الرقى جمع رقية ، وهى كلمات تقرأ للمحموم والمصروع ليشفى . والمعنى أن لهم كلاما كالسحر .

صلى الله عليه وسلم : « لا خِلابةَ[1] » واحْذَر احتمالَ مديحهم ، فإن محتَمِل المديح في وجهه كمادِحِ نفسِه .

إنّ مالَكَ لا يسَع مُرِيديه ، ولا يبلُغ رضا طالبيه ، ولو أرضيتَهم بإسخاطِ مِثلهم لكان ذلك خُسْرانا مُبينا ، فكيف ومَن يسخَطُ أضعافُ مَن يَرْضَى ؟ وهجاء الساخِطِ أضرُّ من فَقْدِ مديح الراضى ، وعلى أنهم إذا اعتوَرُوك بمَشَاقِصهم[2] ، وتداولوك بِسهامِهم ، لم ترَ ممن أرضيتَه بإسخاطهم أحداً يناضِل عنك . ولا يُهاجِى شاعرا دونك ، بل يُخَلِّيك غرَضا لسهامهم ، ودَرِيئةً[3] لِنبالهم ، ثم يقول : وما كان عليه لو أرضاهم ! فكيف يُرضيهم ، ورِضَا الجميعِ شيء لا يُنال ؟ وقد قال الأوَّل : وكيف يتَّفقُ لك رضا المختلفين ؟ وقالوا : منعُ الجميعِ أرضَى للجميع ، إنى أحذِّرك مصارعَ المخدوعين ، وأرْفَعُك عن مضاجع المغبونين ، ولستَ[4] كمن لم يَزَل يُقاسِى تعذُّرَ الأمور ، ويتجرَّع مرارة العيش ، ويتحمل ثِقَلَ الكَدِّ ، ويشرب بكأْسِ الذل ، حتى يكاد يَمْرُن على ذلك جِلْدُه ، ويَسْكُن عليه قلبُه ، وفقرُ مثلِك مضاعفُ الألم ، وجَزَعُ من لم يعرف الألم أشدُّ ، ومن لم يزل فقيرا فهو لا يعرف الشامتين ، ولا يَدْخُلُه المكروه من سرور الحاسدين ، ولا يُلام على فقره ، ولا يصير موعظةً لغيره ، وحديثاً يبقَى ذِكرُه ، ويلعَنُه بعد الممات وَلَدُه .

ودَعْنى من حكايات[5] المستأكِلين ، ورُقَى الخادعين ، فما زال الناسُ يحفظون أموالهم من مواقع السَّرَف ، ويجنِّبونها وجوهَ التبذير ، ودعنى مما لا تراه إلا فى الأشعار المتكلَّفة ، والأخبار المولَّدة ، والكتب الموضوعة ، فقد قال بعض أهل زماننا : ذهبتِ المكارمُ إلا مِن الكُتُب .

---

(١) الخلابة : الخداع ، وفى الحديث « إذا بايعت فقل : لاخلابة » .

(٢) المشاقص : جمع مشقص كمنبر ، وهو النصل العريض . (٣) مايستتر به .

(٤) فى النسخ إلك كمن الخ وهو غير مناسب لسياق المعنى ، لأنه يريد أن يقول : إنك لم تعتد الفقر حتى يكون ألمه خفيفا ، وفقر مثلك بعد الغنى يكون مضاعف الآلام شديد الوقع .

(٥) أى دعنا مما يخترعونه من حكايات مكذوبة فى الكرم التى تجاوز الحد لخداع ضعفاء العقول .

تخذ فيما تعلمُ، ودَعْ نفسَك مما لا تعلم ، هل رأيتَ أحدا قطُّ أنفق ماله على قوم كان غنام سببَ فقره أنه سلمٌ[1] عليهم حين افتقر فردُّوا عليه ، فضلاً على غير ذلك[2] ؟ أوَلستَ قد رأيتهم بين محمَّق ومحتجبٍ عنه ، وبين من يقول : «هلاّ أنزلَ حاجته بفلان الذى كان يُفضله ويقدِّمه ، ويؤثره ويخُصُّه ؟ ثم لعلَّ بعضهم أن يتجنَّى عليه ذنوبا ليجعلَها عذرا فى مَنعه ، وسببًا إلى حرمانه ، قال الله جل ذكره : « يَوْمَ يُكْشَفُ عَنْ سَاقٍ وَيُدْعَوْنَ إِلَى السُّجُودِ فَلاَ يَسْتَطِيعُونَ . خَاشِعَةً أَبْصَارُهُمْ تَرْهَقُهُمْ ذِلَّةٌ وَقَدْ كَانُوا يُدْعَوْنَ إِلَى السُّجُودِ وَهُمْ سَالِمُونَ[3] » فأنا القائم عليك بالموعظة والزجر والأمْرِ والنهى ، وأنت سالمُ العقلِ والعِرض ، وافرُ المالِ ، حَسَنُ الحال ، فاتَّقِ أن أقومَ غدًا على رأسك بالتقريع والتعيير ، وبالتوبيخ والتأنيب ، وأنت عليلُ القلب ، مختَلُّ العِرْض ، عديمٌ من المال ، سيئُ الحال ، ليس جُهْدُ البلاءِ[4] مَدَّ الأعناقِ ، وانتظارَ وقعِ السيوف ، لأن الوقت قصير ، والحِسَّ مغمور ، ولكن جُهْد البلاءِ أن تظاهرَ الخَلَّة[5] ، وتطول المدة ، وتعجز الحيلةُ ، ثم لا تعدم صديقا مؤنبًا ، وابنَ عمٍّ شامتا، وجارا حاسِرا[6] ، ووليًا قد تحوَّل عدوا ، وزوجةً مختلِعةً[7] ، وجارية مستَبيِعَةً[8] ، وعبدا يَحقِرك ، وولدا ينتهرك ، فانظر أين موقعُ فوْتِ الثناء من موقعِ ما عَدَدْنا عليك

---

(١) المصدر المؤول بدل من أحدا .

(٢) أى فضلا على الإيذاء والتشنيع وعدم الوفاء له .

(٣) سياق الآية الكريمة أن من استطاع أن يعمل شيئا ولم يعمله ، أسف عند فوات الفرصة على عجزه عن عمله .

(٤) جهد البلاء : غاية ما تصل إليه المصيبة .

(٥) الخلة : الفاقة والحاجة .

(٦) الحاسر : المتلهف الحزين .

(٧) المختلعة : من دفعت إلى زوجها مالا فطلقها .

(٨) استباعه الشىء : سأله أن يبيعه إياه . والجارية المستبيعة : هى التى سألت سيدها أن يبيعها ، والسبب هنا فقره وضيق الحياة عنده .

من هذا البلاء ؟ على أن الثناء طُعْمٌ[1] ، ولعلك ألاّ تُطْعِمه[2] ، والحمدَ أرزاقٌ ولعلك ألاّ تُحْرَمه ، وما يَضِيع من إحسان الناس أكثرُ[3] .

وعلى أن الحفظ[4] قد ذهب بموت أهله ، ألا ترى أن الشعر لمّا كَسَدَ أفحم أهله ، ولمّا دخل النقصُ على كل شيء أخذ الشعر منه بنصيبه ؟ ولمّا تحولت الدولة فى العجم — والعجم لا تَحُوط الأنسابَ ، ولا تحفظ المقاماتِ ، لأن من كان فى الرِّيف[5] والكفاية ، وكان مغمورا بسُكْر الغنى ، كثُر نسيانُه ، وقلّت خواطرُه ، ومن احتاج تحركت همتُه ، وكثُر تنقيرُه[6] ، وعيبُ الغنى أنه يورِّث البلادةَ ، وفضيلةُ الفقر أنه يَبْعَثُ الفكر ، وإن أنت صحِبْتَ الغنى بإهمال النفس أسكرك الغنى ، وسُكْرُ الغنى سُبّة المستأكلين ، ونُهْزَةُ الخدّاعين ، وإن كنتَ لا ترضَى بحظّ النائم ، وبعيش البهائم ، وأحببتَ أن تجمعَ مع تمام نفسِ المُثْرِى ، ومع عز الغنى وسرور القدرةِ ، فِطْنَةَ المخِفّ ، وخواطر المُقِلّ ، ومعرفةَ الهارب ، واستدلال الطالب ، اقتصدتَ فى الإنفاق ، وكنت مُعِدًّا للحَدَثان ، ومحترسا من كل خَدّاع .

لست تبلغ حِيَل لصوص النهار ، وحِيَل سُرّاق الليل ، وحيل طُرّاق البُلدان ، وحيل أصحاب الكيمياء ، وحيل التجّار فى الأسواق ، والصُّنّاعِ فى جميع الصناعات ، وحيل أصحاب الحروب ، وحيل المستأكلين والمتكسِّبين ، ولو جمعتَ الخُبْرَ[7] والسِّحر والتمائم[8] والسم ، لكانت حيلهم فى الناس أشد تغلغلا ، وأعرضَ وأسْرَى فى عُمق

---

(١) جمع طاعمة : وهى المأكلة .

(٢) أى إن جدت وأسرفت ، وقوله « ألا تحرمه » أى إن بخلت وأمسكت ، وربما كان الأصل « أن تطعمه » على تقدير « إن بخلت » كما هو التقدير فى الثانى .

(٣) أى أن الضائع من أخبار الإحسان أكثر مما يبقى منها ، فلا تغتر بأن الإحسان يبقى للمحسن الذكر فإنه عرضة للنسيان .

(٤) أى حفظ الجميل والمعروف أو حفظ أخبار الكرماء .

(٥) الريف : الأرض فيها زرع وخصب .

(٦) أى بحثه عن الأنساب ومنازل الرجال وأخبار الناس وأيامهم ليتخذ من ذلك بضاعة للمديح .

(٧) الخبر : تمام المعرفة .

(٨) التمائم : جمع تميمة ، وهى خرزة أو نحوها يعلقها الأعراب على أولادهم لدفع الشر .

البدن ، وأدخَلَ إلى سُوَيداء القلب وإلى أمِّ الدِّماغ ، وإلى صميم الكبد ، ولَهِيَ أدقُّ مَسْلَكا ، وأبعَدُ غايةً من العِرْق[١] السَّارِى ، والشَّبَهِ النازع[٢] ، ولو اتَّخَذْتَ الحيطانَ الرفيعةَ الثخينةَ ، والأقفال المُحْكَمَةَ الوثيقة ، ولو اتَّخذتَ المَارِقَ[٣] والجواسِقَ[٤] والأبوابَ الشِّداد ، والحرسَ المتناوبِينَ بأغلاظِ المُؤَن ، وأشدِّ الكُلَف ، وتركتَ التقدمَ فيما هو أحْضَرُ ضررا[٥] ، وأدومُ شرا ، ولا غُرْمَ عليك فى الحراسة فيه ، ولا مشقةَ عليك فى التحفظ منه[٦] ، إنك إن فتحتَ لهم على نفسك مثلَ سَمِّ الخِيَاطِ جعلوا فيه طريقا نَهْجا ، ولُقِّيَ[٧] رَحْبا ، فأحْكِم بابك ، ثم أدِمْ[٨] إصفاقَه ، بل أدِمْ إغلاقَه ، فهو أولَى بك ، وإن قدَرت على مُصْمَتٍ[٩] لا حيلةَ فيه فذلك أشبه بحزمك ، ولو جعلتَ الباب مُبْهَما ، والقُفلَ مُصْمَتا ، لتسوَّرُوا عليك من فوقك ، ولو رفعتَ سَمْكَه إلى العَيُّوق[١٠] لنقَبوا عليك من تحتك ، قال أبو الدَّرْداء : « نِعْمَ صَوْمَعةُ المؤمن بيتهُ » وقال ابن سِيرِين : « العُزْلة عبادة » .

وحلاوةُ حديثهم[١١] تدعو إلى الاستكثار منهم ، وتدعو إلى إحضار[١٢] غرائب شهواتهم ، فمن ذلك قولُ بعضِهم لبعض أصحابه : « كُلْ رِخْلَةً[١٣] واشربْ مِشْعَلا[١٤] ،

(١) العرق : جذر النبات .
(٢) أى شبه الأبناء بآبائهم وأجدادهم ، فإن الشبه قد يسرى إلى غاية بعيدة فى النسب .
(٣) المارق : جمع مَرق بالفتح ، هو هنا المكان الخفى للفرار .
(٤) جمع جوسق بالفتح : وهو القصر .
(٥) هو حيل المستأكلين وتملق المجتدين .
(٦) جواب لو اتخذت المارق محذوف يدل عليه ماقبله : أى لكانت حيلهم أشد .
(٧) اللقى فى الأصل : اللقاء ، والمراد به هنا مكان اللقاء .
(٨) إصفاق الباب : رده بعد أن كان مفتوحا .
(٩) المصمت والمبهم : الباب أو القفل لا يهتدى إلى طريقة فتحه إلا صاحبه .
(١٠) العيوق : نجم أحمر مضىء فى طرف المجرة الأيمن يتلو الثريا .
(١١) أى حديث المستأكلين والمتكسبين .
(١٢) أحضر الفرس : عدا ، وإحضار غرائب الشهوات : تسابقها فى الظهور .
(١٣) الرخلة : الأنثى من أولاد الضأن .
(١٤) المشعل : شىء يتخذه أهل البادية من جلود يخرز بعضها إلى بعض ، ثم يشد إلى أربع قوائم من خشب فيصير كالحوض ينبذ فيه ، يقول : اشرب قدر مافى مشعل من نبيذ .

ثم تجشأ واحدةً لو أنّ عليها رَحًى لطحَنَتْ » ومن ذلك قولُ الآخر حين دخل على قوم وهم يشربون ، وعندهم قِيانٌ ، فقالوا : اقترِحْ أيَّ صوت شئتَ ، قال : « أقترِحُ نَشيشَ[١] مِقْلًى » ومن ذلك قول المَدِينيّ[٢] : « من تصبَّح بسَبْع مَوْزات ، وبقَدَح من لَبَنِ[٣] الأَوَارِكِ ، تجشَّأ بَخُورَ[٤] الـكَعْبَةِ » . ومن ذلك قولهُم لبعض هؤلاء — وقدّامَهم خَبِيصٌ[٥] — : « أيُّما أطيبُ : أهذا أم الفالوذَج[٦] ، أم اللَّوْزِينج[٧] ؟ قال : « لا أقْضِي على غائب » ومن ذلك كلامُ الجارُودبن أبي سَبْرة لبلال بن أبي بُرْدة حين قال له : صف لي عبدَ الأعلَى[٨] وطعامَه ، قال : « يأتيه الخبّاز فيَمْثُل بين يديه ، فيقول : ما عندك ؟ فيقول : عندي جَدْيٌ كذا ، وَعَنَاقٌ[٩] كذا ، وبطّة كذا ، حتى يأتي على جميع ما عنده » قال : وما يدعوه إلى هذا ؟ قال : « لِيقتصدَ[١٠] كلُّ امرئٍ في الأكل ، حتى إذا أُتِيَ بالذي يشتهي بلغ منه حاجتَه » قال : ثم ماذا ؟ قال : « ثم يؤتَى بالمائدة فيتضايقون[١١] حتى يخوِّيَ تخوية الظَّليم[١٢] ، فيجِدُّون ويَهْزِل ،

(١) النشيش : صوت غليان القدر والمقلى ونحوها .

(٢) قال في القاموس : « والنسبة إلى مدينة النبي صلى الله عليه وسلم مدني ، وإلى مدينة المنصور وأصفهان وغيرها مديني » .

(٣) الإبل الأوارك : التي اعتادت أكل الأراك ، وفي النسخ « من لبن الأوداك » .

(٤) في النسخ « بحوز » وهي غير مفهومة .

(٥) الخبيص : نوع من الحلواء ، قال صاحب القاموس : يعمل من التمر والسمن .

(٦) الفالوذ والفالوذج والفالوذق : حلواء ، قال صاحب اللسان : تسوى من لب الحنطة ، فارسي معرب ، وسمع الحسن رجلا يعيب الفالوذج فقال : لباب البر بلعاب النحل بخالص السمن ، ماعاب هذا مسلم (العقد الفريد ٣ : ٣١٢ وعيون الأخبار ٩ : ٢٠٣) وقال الجاحظ في البخلاء ص ١٩٣ : ومدحه أمية بن أبي الصلت فقال :

إلى ردح من الشيزى عليها ... لباب البر يلبك بالشهاد

(٧) اللوزينج : حلواء شبه القطائف تؤدم بدهن اللوز ، فارسي معرب .

(٨) يعني عبد الأعلى بن عبد الله بن عامر .

(٩) العناق : الأنثى من ولد المعز .

(١٠) في الأصل « ليقتصر » وهو تحريف .

(١١) أي أخذ كل واحد يضيق مكانه حول المائدة حتى تتسع لهم جميعا .

(١٢) الضمير في يخوى يعود إلى عبد الأعلى ، وخوى : فرج ما بين عضديه وجنبيه ، والظليم : ذكر النعام .

حتى إذا فَتَروا أكل أكْلَ الجائع المقرور(١) » وقال آخر : « أشتهي ثَرِيدةً دَكْناء(٢) من الفُلفُل ، ورَقْطاء(٣) من الحِمَّص ، ذاتَ حِفَافَيْن(٤) من اللحم ، لها جَناحان من العُراق(٥) ، أضرِبُ فيها ضربَ اليتيم عند وصيِّ السُّوء(٦) » .

وسئل بعضهم عن حظوظ البُلدان في الطعام ، وما قُسِم لكل قوم منه ؟ فقال : « ذهبت الروم بالجُشَم(٧) والحشو ، وذهبت فارس بالبارد والحُلو » وقال عمر لفارس الشُّفارِج(٨) والحُمُوض(٩) « فقال دَوْسَر المديني : » لنا الهرائسُ(١٠) والقَلَايا ، ولأهل البدو اللِّبأ(١١) والسِّلاء(١٢) والجرادُ والكَمْأة(١٣) والخُبْزَةُ في الرائب والتمْر بالزُّبد ، وقد قال الشاعر :

---

(١) المقرور : الذى أصابه القر وهو البرد ـ اقرأ خبر هذا الحديث أيضا فى العقد الفريد ٣ : ٣١٢ وعيون الأخبار ٩ : ٢١٥ .

(٢) دكناء : يضرب لونها إلى السواد .

(٣) رقطاء : أى سوداء يشوبها نقط بيضاء ، أو بيضاء يشوبها نقط سوداء .

(٤) الحفاف : الجانب .

(٥) قال فى اللسان « العرق بالفتح : العظم أُخذ عنه معظم اللحم وبقى عليه لحوم رقيقة طيبة فتكسر وتطبخ وتؤخذ إهالتها من طفاحتها ويؤكل ما على العظام من لحم دقيق وتتمشش العظام ، ولحمها من أطيب اللحمان عندهم ، وجمعه عراق بالضم ، قال ابن الأثير : وهو جمع نادر » .

(٦) انظر هذا الحديث أيضا فى العقد الفريد ٣ : ٣١٣ ـ ٣١٤ ، وعيون الأخبار ٩ : ١٩٨ ، وفيهما « كما يضرب ولى السوء فى مال اليتيم » وهو أولى .

(٧) الجشم : الجوف أو الصدر بضلوعه ، وفى عيون الأخبار ٩ : ٢٠٤ « أما الرومى فذهب بالحشو والأحشاء ، وأما الفارسى فذهب بالبارد والحلواء » .

(٨) فى النسخ « الشفارق » وقال صاحب القاموس واللسان : « الشفارج : الطبق فيه الفيخات والسكرجات فارسى معرب » ـ والفيخة : (بالفتح) السكرجة ، (بضمات وتشديد الراء) فهو عطف مرادف ـ قال صاحب اللسان : « السكرجة : إناء صغير يؤكل فيه الشىء القليل من الأدم ، وهى فارسية، وأكثر ما يوضع فيها الكوامخ ونحوها » ـ وقال صاحب التاج فى السكرجة. « إن العرب كانت تستعملها فى الكوامخ وأشباهها من الجوارش على الموائد حول الأطعمة للتشهى والهضم » .

(٩) الحموض : جمع حمض بالفتح ، وهو كل نبت فى طعمه حموضة ، والملوحة تسمى الحموضة .

(١٠) الهرائس: جمع هريسة ، وهى طعام يعمل من الحب المدقوق واللحم ، والقلايا : جمع قلية كرزية وهى مرقة تتخذ من لحوم الجزور وأكبادها .

(١١) اللبأ : أول اللبن فى النتاج .

(١٢) سلأ السمن كمنع : طبخه وعالجه ، والاسم السلاء : ككتاب .

(١٣) نبات بالبادية يقال له: شحم الأرض .

ألا ليت خبزا قد تسربل رائبا ... وخيلا من البرنى فرسانها الزبد[١]

ولهم البرمة[٢] والخلاصة[٣] والحيس[٤] والوطيئة[٥] » .

وقال أعرابي : « أتينا ببر كأفواه البعران[٦] فخبزنا منه خبزة زيت[٧] فى النار ، فجعل الجمر يتحدر عنها تحدر الحشو عن البطان[٨] : ثم ثردناها فجعل الثريد يجول فى الإهالة[٩] جولان الضبعان فى الضفرة[١٠] ، ثم أتينا بتمر كأعيان الورلان[١١] يوحل فيه الضرس » .

ونعت السويق[١٢] بأنه من عدد المسافر ، وطعام العجلان ، وغذاء المبكر[١٣] ، وبلغة المريض ، يشد فؤاد الحزين ، ويرد من نفس المحدود[١٤] ، وجيد فى السمين[١٥] ، ومنعوت فى الطيب ، قفاره يجلو البلغم ، ومسمونه[١٦] يصفى الدم ، إن شئت كان ثريدا ، وإن شئت كان خبيصا ، وإن شئت كان طعاما ، وإن شئت كان شرابا .

---

(١) البرنى : نوع من التمر ، معرب .
(٢) قدر من حجارة ، ولعلها تطلق على اسم طعام يطبخ فيها .
(٣) خلاصة السمن : ماخلص منه .
(٤) الحيس : تمر يخلط بسمن وأقط [والأقط مثلثة ويحرك وككتف ورجل وإبل : شىء يتخذ من المخيض الغنمى] فيعجن شديدا ثم يندر منه نواه ، وربما جعل فيه سويق .
(٥) الوطيئة : تمر يخرج نواه ويعجن بلبن ، والأقط بالسكر .
(٦) يشبه البر فى بياضه بأفواه البعران (جمع بعير) لما يعلوها من الرغوة والزبد .
(٧) أى خبزة عجنت بزيت .
(٨) البطان : حزام قتب البعير . (٩) الإهالة : الشحم المذاب .
(١٠) الضبع بضم الباء وسكونها مؤنثة ، والذكر ضبعان بالكسر والأنثى ضبعانة أيضا . والضفرة من الرمل : ماعظم وتجمع .
(١١) الورلان جمع ورل كعيب : وهو زاحف كالضب .
(١٢) السويق : مايعمل من الحنطة والشعير .
(١٣) من يقوم فى بكرة النهار ، وفى النسخ « المتكره » .
(١٤) المحدود : المحروم .
(١٥) أى خير أنواع الطعام السمين ، وفى عيون الأخبار « وهو جيد فى التسمين » اقرأ هذا الوصف فيه ج ٩ : ص ٢٠٦ .
(١٦) سمن الطعام : لته بالسمن فهو مسمون .

وقيل لبعض هؤلاء اللَّعامِظة(١) والمستأكِلين والسَّفّافين(٢) المقَنِّعين ـ ورُئى سميناً ـ ما أسمَنَك ؟ قال : « أَكْلى الحارَّ ، وشُرْبى القارَّ ، والاتكاء على شِمالى ، وأَكْلى من غير مالى(٣) » وقد قال الشاعر :

وإن امتلاء البطن فى حَسَب الفتى قليلُ الغَناءِ وهو فى الجسم صالحُ(٤)

وقيل لآخر : ما أسمنك ؟ قال : « قلةُ الفكرة ، وطول الدَّعة ، والنوم على الكِظَّة(٥) » وقال الحجاج للغَضْبان(٦) بن القَبَعْثَرى : ما أسمَنك ؟ قال : القَيْدُ والرَّتَعَةُ(٧) ، ومن كان فى ضِيافة الأمير سَمِنَ » وقيل لآخر : إنك لحسَنُ السَّحْنة(٨) ، قال : « آكُلُ لُبابَ البُرِّ ، وصغار المعز ، وأدَّهِنُ بخام(٩) البَنَفْسَج ، وألبَسُ الكَتَّان » والله لو كان من يُسأل يُعطى لَما قام كرمُ العطية بلؤم المسألة .

ومدار الصواب على طِيب المَكْسَبة والاقتصاد فى النفقة ، وقد قال بعض العرب « اللهم إنى أعوذ بك من بعض الرزق » حين رأى نافِجَةً(١٠) من ماله من صَداق أمه .

---

(١) اللعامظة : جمع لعمظ كجعفر ، وهو الحريص الشهوان النهم كاللعموظ (كعصفور) .

(٢) فى النسخ « السفافيف » والمقنع : المتكس الرأس أبدا .

(٣) اقرأ فى عيون الأخبار ٩ : ٢٢٤ .

(٤) أى أن كثرة الأكل لاتفيد فى إعلاء شرف الفتى ، ولكنها تفيد الجسم ، وفى النسخ « الغنى » بدل « الفتى » .

(٥) وهذا أيضا فى عيون الأخبار ، والكظة : شىء يعترى الإنسان عند الامتلاء من الطعام .

(٦) من خبره أنه لما هلك بشر بن مروان وولى الحجاج العراق بلغ ذلك أهل العراق فقام الغضبان خطيبا بالكوفة يؤلبهم على الحجاج ، فكان فيما قال لهم « فاعترضوا هذا الخبيث فى الطريق فاقتلوه » « فأطيعونى وتغدوا به قبل أن يتعشى بكم » فلما قدم الحجاج الكوفة بلغته مقالته ، فأمر به فأقام فى حبسه ثلاث سنين ـ اقرأ خطبته فى جمهرة خطب العرب ٢ : ٣٢٠ .

(٧) الرتعة : الاتساع فى الخصب ، وهو مثل . وأول من قاله عمرو بن الصعق بن خويلد بن نفيل ابن عمرو بن كلاب ، وكانت شاكر من همدان أسروه فأحسنوا إليه وروحوا عنه وقد كان يوم فارق قومه نحيفا ، فهرب من شاكر فلما وصل إلى قومه قالوا : أى عمرو ، خرجت من عندنا نحيفا وأنت اليوم بادن ، فقال : القيد والرتعة ، فأرسلها مثلا ، وهذا كقولهم : العز والمنعة ، والنجاة والأمنة ، وفى عيون الأخبار (٩ : ٢٢٥) القيد والدعة .

(٨) السحنة بالفتح وتحرك : الهيئة واللون ولين البشرة ، وفى عيون الأخبار « الشحمة » .

(٩) الخام : الريح الطيبة تعبق بالثوب .

(١٠) يقال : للابل التى يرثها الرجل فتكثر بها إبله « نافجة » .

وأىُّ سائل كان ألحفَ مسألةً من الحُطَيئة وألأم؟ ومَن ألأمُ من جرير ابن الخَطَفى وأبخل؟ ومن أمنعُ من كُثَيِّر، وأشحُّ من ابن هَرْمة[1]؟ ومَن كان يشُقُّ غُبار ابن أبى حَفْصة[2]؟ ومَن كان يصطلِى بنار أبى العتاهية؟ ومن كأبى نُواس فى بخله؟ أو كأبى يعقوب الخُزَيْمى فى دِقة نظره وكثرة كَسْبه؟ ومن كان أكثرَ نحرًا لجَزَرة[3] لم تُخلَق من ابن هَرْمة؟ وأطعَنَ برُمح لم ينبُت، وأطعَم لطعام لم يُزْرَع، من الخُزَيمى[4]؟ فأين أنت عن ابن يَسير؟ وأين تذهب عن ابن أبى كَرِيمة؟ ولِمَ تقصّر فى ذكر الرّقاشىّ، ولِمَ تذكر شَرَّه؟

إن الأعرابى شرٌّ من الحاضر[5]، سائلٌ جبّار، وثّابة مَلاّق، إن مدح كذب، وإن هجا كذب، وإن أَيِس كذب، وإن طمع كذب، لا يعرفه إلا نَطِفٌ[6] أو أحمق، ولا يُعطيه إلا من يحبّه، ولا يحبه إلا من هو فى طباعه.

ما أبطأكم عن البَذْل فى الحق، وأسرعكم إلى البذل فى الباطل! فإن كنتم الشعراء تفضّلُون، وإلى قولهم ترجعون، فقد قال الشاعر:

قليلُ المال تُصْلِحه فيبقَى ولا يبقَى الكثير على الفساد

وقد قال الشَّمّاخ بن ضِرَار:

لَمَالُ المرء يُصْلِحه فيُغْنِى مَفاقِرَه، أعفُّ من القُنُوع[7]

---

(١) هو إبراهيم بن هرمة شاعر عباسى، وكان مولعا بالشراب، ولما ولى المنصور شخص إليه فامتدحه فاستحسن شعره ووصله، وسأله ابن هرمة أن يبيح له الشراب لأنه مغرم به فقال: ويحك هذه حد من حدود الله وما كنتُ لأعطله، قال: فاحتل لى فيه يا أمير المؤمنين، فكتب إلى عامله بالمدينة: من أتاك بابن هرمة سكران فاجلده مائة واجلد ابن هرمة ثمانين، فجعل الجلواز إذا مر بابن هرمة سكران قال: من يشترى ثمانين بمائة؟ — انظر ترجمته فى الأغانى ٤ : ١٠١، والشعر والشعراء ص ٢٨٩.

(٢) يعنى مروان بن أبى حفصة، وهو شاعر عباسى مشهور.

(٣) الجزرة: الشاة السمينة، وجمعها جزر.

(٤) يقول: إن الشعراء يتخيلون وينسبون إلى أنفسهم كثيرا من أعمال الكرم والشجاعة.

(٥) الحاضر: ساكن الحضر. (٦) النطف المتهم بريبة.

(٧) المفاقر: قيل جمع فقر على غير قياس، وقيل جمع لا واحد له. والقنوع: السؤال والتذلل.

وقال أُحَيْحَة بن الْجُلَاح :

استغنِ أو مُتْ ولا يغرُرْك ذو نَشَبٍ من ابن عم ولا عمٍّ ولا خالِ
إنى أُكِبُّ على الزَّوراء أعمُرُها إن الكريم على الأقوام ذو المال(١)

وقال أيضا :

استغنِ عن كل ذِى قُرْبَى وذِى رَحِمٍ إن الغنىَّ مَن استغنى عن الناس
والبَسْ عدوَّك فى رِفْقٍ وفى دَعَةٍ لِبَاسَ ذى إِرْبَةٍ ، للدهر لَبَّاسِ(٢)
ولا يغرَّنْك أضغانٌ مُزَمَّلَة قد يضرِبُ الدَّبِرُ الدامِى بأَحْلاسِ(٣)

وقال سهل بن هٰرون :

إذا امروٌ ضاقَ عنى لم يضِق خُلُقى من أن يرانى غنيًّا عنه بالياسِ
فلا يرانى إذا لم يَرْعَ آصِرَتى مُسْتَمْرِيًا دَرَراً منه بإِبْساسِ(٤)
لا أطلُبُ المالَ كى أغنَى بفضلته ما كان مطالبُه فقراً إلى الناسِ(٥)

وقال أبو العتاهية :

أنت ما استغنيتَ عن صا حِبكَ الدهرَ أخـوهُ
فإذا احتجتَ إليـه ساعـةً مَجَّـكَ فُوهُ

وقال أُحَيْحة بن الْجُلَاح :

فلو أنى أشاء نَعِمْتُ بالا وبا كَرَنى صَبُوحٌ أو نَشِيلُ(٦)

---

(١) الزوراء : أرض كانت لأحيحة بن الجلاح ، سميت ببئر كانت فيها (والزوراء : البئر البعيدة القعر) — انظر معجم البلدان ٤ : ٤١٢ — والبيت فيه :

إنى أقيم على الزوراء أعمرها إن الحبيب إلى الإخوان ذو المال

(٢) الإربة : الدهاء .

(٣) مزملة : دفينة خفية ، من التزميل وهو الإخفاء واللف فى الثوب ، والدبر : البعير أصيب بقرحة من الرحل ، والأحلاس : جمع حلس كقرد ، وهو مايوضع على ظهر البعير تحت الرحل .

(٤) الآصرة : صلة المودة أو القرابة ، والمستمرى : الحالب ، والدرر : اللبن ، والإبساس : التلطف بالناقة عند الحلب بأن يقال لها بس بس تسكينا لها .

(٥) ماف « ما كان » مصدرية ظرفية أى مدة كون طلبه يعد فقرا إلى الناس .

(٦) باكرنى : جاءنى فى بكرة النهار ، والصبوح : ماحلب من اللبن بالغداة ، والنشيل : اللحم المطبوخ : بغير تابل ، أو اللبن ساعة يحلب .

ولاعَبَنى على الأنماط لُمسٌ على أنيابهنَّ الزَّنجبيلُ(١)
ولكنى خُلقتُ إزاء مالٍ فأبخلُ بعد ذلك أو أُنيلُ

وقال آخر :

أيا مُصلحُ أصْلِحْ ولا تَكُ مُفسِدا فإن صلاح المال خير من الفقر
ألم تَرَ أن المرء يزداد عِزَّةً على قومه أن يعلموا أنه مُثْرِى ؟

وقال عُروة بن الورد :

ذَرِينى للغنى أسعى فإنى رأيت الناسَ شَرُّهم الفقيرُ
وأبعدُهم وأهونُهم عليهم وإن أمْسَى له نسَبٌ وخِيرُ(٢)
ويُقصَى فى الندِىِّ وتزدريه حَليلتُه وينْهَرُه الصغيرُ
وتَلْقَى ذَا الغِنَى وله جَلالٌ يكاد فؤادُ صاحبه يطيرُ
قليلٌ ذنبُه ، والذنبُ جَمٌّ ولكنَّ الغِنَى ربٌّ غفورُ

وقال سعيد بن زيد بن عمرو بن نُفَيْل :

تلك عِرْساى تنطِقان على عَمْـــدٍ لِىَ اليومَ قولَ زُورٍ وهَتْرِ(٣)
سَألَتانِى الطلاقَ أنْ رَأَتا ما لِى قليلا، قد جئتمانى بنُكْرِ(٤)!
فلعلِّى أنْ يكْثُرَ المالُ عندى ويُعرَّى من المغارم ظَهرِى
ويُرَى أعبُدٌ لنا وأَوَاقٍ ومناصيفُ من خوادِمَ عَشْرِ(٥)

---

(١) الأنماط : جمع نمط كسبب ، وهو ثوب صوف ذو لون يفرش ، لمس : أى نساء لمس جمع لمساء . وصف من اللمس بالتحريك ، وهو سواد مستحسن فى الشفة .
(٢) الخير : الكرم والشرف .
(٣) العرس : الزوجة ، والهتر : تمزيق العرض ، هتره كضرب وهتره : مزقه .
(٤) سال من باب خاف لغة فى سأل المهموز .
(٥) الأواق : جمع واقية ، وهى الحافظة الصائنة ، ويريد بها الخادمة . ومناصيف : جمع منصف كمنبر ومقعد ، وهى الخادم ، وجمعها مناصف ومناصيف .

وتُجَرُّ الأذيالُ في نعمةِ زَوْ ل، تقولان ضَعْ عصاكَ لِدهرِ (١)
وَيْ كأنْ من يكن له نَشَبٌ يُحْـــبَبْ، ومن يفتقر يعِشْ عيشَ ضُرِّ (٢)
ويُجَنَّبْ سِرَّ النَّجِيِّ ولكنْ أخا المالِ مُحْضَرٌ كلَّ سِرِّ (٣)

وقال الآخر :

وللمال مني جانبٌ لا أُضيعه وللهو مني والبَطالةِ جانبُ (٤)

وقال الأخنسُ بن شِهاب :

وقد عشتُ دهرا والغُواةُ صَحابتي أولئك إخواني الذين أصاحِبُ
فأدّيتُ عني، ما استعَرْتُ من الصِّبا وللمال مني اليومَ راعٍ وكاسِبُ

وقال ابن أُذَينةَ الثقفي :

أطعتُ النفسَ في الشَّهوات حتى أعادتني عسيفاً عبدَ عَبْدِ (٥)
إذا ما جئتُها قد بِعتُ عِتْقاً تعانقُ أو تُقبِّلُ أو تفدَّى (٦)
فمن وجَدَ الغِنَى فليَصْطنِعْهُ ذخيرتَه ويَجْهَد كلَّ جَهْدِ

وقال :

مَن يجمعِ المالَ ولا يَثْبَهُ (٧) ويتركِ العامَ لِعامِ جَدْبِه (٨)
* يَهُنْ عَلَى النَّاسِ هَوَانَ كَلْبِهِ *

وقد قيل في المثل : « الكَدُّ قبل المَدّ (٩) » وقال لقيط : « ألقمْ وأَذْرِ لِلِقَاح وأَحِدَّ السلاح (١٠) ».

(١) الزول : الحسنة المعجبة ، ومعنى الشطر الثاني ، تقولان : ألق عصاك لدهرك فلا تكدح فيه ، ولا تنتقل في طلب الرزق فقد تمت عليك النعمة .
(٢) وي بمعنى أتعجب ، وكأن مخففة من الثقيلة ، وهي هنا بمعنى حقا ، والنشب : المال الأصيل .
(٣) في النسخ «شر النجي» و « محضر كل شر» وفيها أيضاً «أخا الفقر» والنجي :من تساره .
(٤) الرواية المشهورة « وقفة مني » . (٥) العسيف : الأجير ، والعبد المستهان به .
(٦) العتق : الشرف والحرية ، أي إذا ماجئت النفس وقد بعت شرفي وحريتي تسرني .
(٧) ثبي المال : جمعه و كثره .
(٨) أي أنه إذا كان في عام خصب ترك الادخار حتى يحل به عام قد يكون جدبا .
(٩) الكد : التعب ، والمد : البسط والسعة .
(١٠) أي ألقم إبلك بيدك إذا أبت أن تأكل بنفسها ، وأذر : أي ألق الغذاء ـ من ذرت الريح الشيء تذروه وأذرته وذرته إذا أطارته ـ اللقاح : وهي النوق التي لقحت أي حملت ، وأحد السلاح : أي سنه ، والغرض من ذلك : العناية بالمال وأخذ العدة لحوادث الدهر .

وقال أبو المُعافَى :

إن التوانى أنكحَ العجزَ بنتَه ... وساقَ إليها حين زوَّجها مَهْرَا[١]
فِراشا وَطِيئاً ثم قال لها اتَّكِى ... فقَصْرُكما لابُدَّ أنْ تَلِدَا الفقرا[٢]

وقال عثمان بن أبى العاص : « ساعةً لدنياك وساعة لآخرتك » .

وقال رسولُ الله صلى الله عليه وسلم : « أنهاكم عن قِيلَ وقالَ ، وكثرةِ السؤال ، وإضاعةِ المال » وقال : « خيرُ الصَّدقة ما أبقَى غِنًى ، واليدُ العُليا خيرٌ من اليد السُّفلى[٣] ، وابدأْ بمَن تَعُول » وقال النبى صلى الله عليه وسلم : « الثلثُ ، والثلثُ كثير ، إنك أنْ تَدَعَ ولدَك أغنياء خيرٌ من أن يتكففوا الناسَ » وقال ابن عباس : « وَدِدْتُ أن الناس غَضُّوا من الثلث شيئاً ، لقول النبى صلى الله عليه وسلم : « الثلث ، والثلث كثير » وقال النبى صلى الله عليه وسلم : « كَفَى بالمرء إثما أن يُضيعَ مَن يَقُوت » .

وأنتم تَرَون أن المجد والكرم أن أُفْقِرَ نفسى بإغناء غيرى ، وأن أَحُوط عيالَ غيرى بإضاعة عيالى ، وقال فى ذلك ابن هَرْمة :

كتاركةٍ بَيْضَها بالعَراء ... ومُلبِسةٍ بيضَ أُخرى جَنَاحَا[٤]

وقال آخر :

كمُفْسِدِ أدناهُ وَمُصْلِحِ غيرِه ... ولم يأتمِرْ فى ذاك أمرَ صلاحِ

---

(١) أى أن التوانى زوج ابنته العجز ولم يكلفه مهرا ، بل بعث إليه بابنته وساق معها مهرها .

(٢) فراشا بدل من مهرا : أى ثم قال لها اتكئى على هذا الفراش الوثير واستريحى ولا تعملى شيئا ، وقصرك أن تفعل كذا ، وقصارك بالفتح وبضم وقصيراك وقصاراك بضمهما : أى جهدك وغايتك ، أى غاية أمركما التى لا مناص منها أن تلدا مولودا اسمه الفقر .

(٣) اليد العليا : المعطية . والسفلى : المعطاة .

(٤) يعنى النعامة ، وقد ضربوا بها المثل فى الحمق فقالوا « أحمق من نعامة » قال الميدانى فى شرحه « وذلك أنها تنتشر للطعم فربما رأت بيض نعامة أخرى قد انتشرت لمثل ما انتشرت هى لهتحضن بيضها وتنسى بيض نفسها ، ثم تجىء الأخرى فترى غيرها على بيض نفسها ، فتمر لطيتها (أى لوجهها) وإياها عنى ابن هرمة بقوله : كتاركة بيضها . . . » ثم قال « وزعم أبو عبيدة أن ابن هرمة عنى بقوله : كتاركة بيضها الحمامة التى تحضن بيض غيرها وتضيع بيض نفسها » .

وقال آخر :

كمُرْضِعةٍ أولادَ أخرى وضيَّعتْ　　بنيها ولم ترْقَع بذلك مَرْقَعا

وقال الله تبارك وتعالى : « وَلَا تُبَذِّرْ تَبْذِيراً . إِنَّ الْمُبَذِّرِينَ كَانُوا إِخْوَانَ الشَّيَاطِينِ » وقال : « وَيَسْأَلُونَكَ مَاذَا يُنْفِقُونَ قُلِ الْعَفْوَ[1] » فأذِنَ فى العفو ولم يأذن فى الجَهْد ، وأذِن فى الفضول ولم يأذن فى الأصول[2] ، وأراد كعبُ بن مالك أن يتصدق بماله ، فقال له النبى صلى الله عليه وسلم : « أمسِك عليك مالَك » فالنبى صلى الله عليه وسلم يمنعهُ من إخراج ماله فى الصدقة. وأنتم تأمرونه بإخراجه فى السَّرَف والتبذير ! . وخرج غَيْلَانُ بن سَلَمَةَ من جميع ماله ، فأكرهه عمر على الرجوع فيه ، وقال : « لو مُتَّ لرجمتُ قبرك كما يرجَم قبرُ أبى رِغَال[3] » وقال الله جل وعز : « لِيُنْفِقْ ذُو سَعَةٍ مِنْ سَعَتِهِ وَمَنْ قُدِرَ عَلَيْهِ رِزْقُهُ فَلْيُنْفِقْ مِمَّا آتَاهُ اللهُ » وقال النبى صلى الله عليه وسلم : « يكفيك ما بلَّغك المحَلَّ[4] » وقال : « ما قلَّ وكفَى خيرٌ مما كثُر وألهَى » وقال الله تبارك وتعالى « وَالَّذِينَ إِذَا أَنْفَقُوا لَمْ يُسْرِفُوا وَلَمْ يَقْتُرُوا وَكَانَ بَيْنَ ذَلِكَ قَوَامًا » وقال النبى صلى الله عليه وسلم : « إن المُنْبَتَّ لا أرضاً

---

(١) العفو : مايفضل عن الحاجة .

(٢) الفضول جمع فضل : وهو الزيادة ، والمراد بالأصول : المال المحتاج إليه فى حياة الرجل ، أو صناعته أو تجارته .

(٣) قال صاحب القاموس : « وأبو رغال ككتاب ، فى سنن أبى داود ودلائل النبوة وغيرهما عن ابن عمر : سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم حين خرجنا معه إلى الطائف فمررنا بقبر فقال هذا قبر أبى رغال ، وهو أبو ثقيف وكان من ثمود . وكان بهذا الحرم يدفع عنه ، فلما خرج منه أصابته النقمة التى أصابت قومه بهذا المكان فدفن فيه » وقال صاحب اللسان : « أبو رغال ؛ اسمه زيد بن مخلف ، عبد كان لصالح النبى على نبينا وعليه الصلاة والسلام ، بعثه مصدقا ، وأنه أتى قوما ليس لهم لبن إلا شاة واحدة ولهم صبى قد ماتت أمه فهم يعاجونه بلبن تلك الشاة — يعنى يغذونه ، والعجى كغنى : الذى يغذى بغير لبن أمه — فأبى أن يأخذ غيرها ، فقالوا : دعها نحايى بها هـذا الصبى . فأبى فيقال : إنه نزلت به قارعة من السماء ، ويقال : بل قتله رب الشاة ، فلما فقده صالح قام فى الموسم ينشد الناس فأخبر بصنيعة فلعنه ، فقبره بين مكة والطائف يرجمه الناس » — وقد قدمنا عنه كلمة فى نسب ثقيف فى الجزء الثانى ص ١٤٦ .

(٤) يروى فى خطبة أكثم بن صيفى أمام كسرى « يكفيك من الزاد مابلغك المحل » — انظر جمهرة خطب العرب ١ : ٢٢ .

قطعَ ولا ظهرا أبقى(١) » وقال الله جل ذكره : « وَلَا تَجْعَلْ يَدَكَ مَغْلُولَةً إِلَى عُنُقِكَ وَلَا تَبْسُطْهَا كُلَّ الْبَسْطِ فَتَقْعُدَ مَلُومًا مَحْسُورًا » ولذلك قالوا : « خير مالك ما نفعك ، وخير الأمور أوساطها ، وشرُّ السَّيْرِ الحقْحَقةُ(٢) ، والحسنةُ بين السيئتين » وقالوا : « دين الله بين المقصِّر والغالى(٣) » وقالوا فى المثل : « بينهما يرمى الرامى(٤) » وقالوا : « عليك بالسَّداد والاقتصاد ، لا وكْسَ ولا شَطَطَ(٥) » وقالوا : « بين المُمِخَّة والعَجْفاء(٦) » وقالوا : « لا تكن حُلوا فتُبتلَعَ ، ولا مُرًّا فتُلْفَظ » وقالوا فى المثل : « ليس الرِّيُّ عن التَّشَافّ(٧) » وقالوا : « يا عاقِدُ اذكر حَلًّا(٨) » وقالوا : « الرَّشْف(٩)

---

(١) المنبت المنقطع عن أصحابه فى السفر ، والظهر الدابة ، قاله صلى الله عليه وسلم لرجل اجتهد فى العبادة حتى هجمت عيناه : أى غارتا ، فلما رآه قال له : إن هذا الدين متين فأوغل فيه برفق،إن المنبت: أى الذى يجد فى سيره حتى ينبت أخيرا — سماه بما تئول إليه عاقبته كقوله تعالى : « إِنَّكَ مَيِّتٌ وَإِنَّهُمْ مَيِّتُونَ » مثل يضرب لمن يبالغ فى طلب الشىء ويفرط حتى ربما يفوته على نفسه .

(٢) الحقحقة : أشد السير وأتعبه للظهر ، أو أن يلج فى السير حتى تعطب راحلته أو تنقطع ، قال صاحب اللسان : « وتعبد عبد الله بن مطرف بن الشخير فلم يقتصد ، فقال له أبوه : «ياعبد الله العلم أفضل من العمل ، والحسنة بين السيئتين ، وخير الأمور أوساطها ، وشر السير الحقحقة » هو إشارة إلى الرفق فى العبادة . يعنى : عليك بالقصد فى العبادة ، ولا تحمل على نفسك فتسأم ، وخير العمل ماديم وإن قل ، وإذا حملت على نفسك من العبادة مالا تطيقه انقطعت به عن الدوام على العبادة وبقيت حسيرا ، فتكلف من العبادة ماتطيقه ولا يحسرك » .

(٣) أى أن الدين هو الطريقة المثلى بين التقصير والمغالاة .

(٤) أى بين التقصير والمغالاة الاعتدال الذى يجب أن يقصد إليه القاصد .

(٥) الوكس : النقص ، والشطط : الجور .

(٦) أمخت الشاة : سمنت ، والعجفاء : الهزيلة ، وهو مثل يضرب فى التوسط .

(٧) الاشتفاف والتشاف : أن تشرب جميع مافى الإناء مأخوذ من الشفافة بالضم ، وهى بقية الماء فى الإناء ، يقول : ليس من لا يشتف لا يروى ، فقد يكون الرى دون ذلك . وهو مثل يضرب فى قناعة الرجل ببعض ماينال من حاجته : أى ليس قضاؤك الحاجة أن لا تدع قليلا ولا كثيرا إلا نلته ، فإذا نلت معظمها فاقنع به .

(٨) ويروى « ياحامل » فإذا قلت ياعاقد فقولك حلا يكون نقيض العقد ؛ وإذا رويت ياحامل فالحل بمعنى الحلول ، يقال حل بالمكان يحل حلا وحلولا ومحلا . وأصل المثل فى الرجل يشد حمله فيسرف فى الاستيثاق حتى يضر ذلك به وبراحلته عند الحلول ، يضرب مثلا للنظر فى العواقب .

(٩) الرشف : التأنى فى الشرب ، أنقع:أذهب وأقطع للعطش ، مثل يضرب فى ترك العجلة .

أنقعُ للظمآن » وقالوا : « القليلُ الدائم أكثر من الكثير المنقطع » وقال أبو الدَّرْداء « إنى لَأَستَجِمُّ نفسى ببعض الباطل ، كراهةَ أن أحمِل عليها من الحق ما يُمِلُّها » وقال الشاعر :

وإنى لَحُلْوٌ تعترينى مرارةٌ وإنى لصَعْبُ الرأس غير جموح (١)

وقالوا فى عَذْل المُصْلح ولائمة المقتصِد : « الشحيحُ أعذَرُ من الظالم (٢) » وقالوا : « ليس من العَدْل سُرعة العَذْل » وقالوا : « لعلَّ له عذرا وأنت تلوم (٣) » وقالوا : « رُبَّ لائم مُليمٌ (٤) » وقال الأحنف : « رُبَّ مَلُومٍ لا ذنب له (٥) » وقال : « إعطاء السائلِ تضريةٌ (٦) ، وإعطاء المُلْحِف مشاركةٌ (٧) » وقال النبى صلى الله عليه وسلم : « لا تَصْلُح المسألةُ إلا فى ثلاثٍ : فَقرٍ مُدْقِع (٨) ، وغُرْمٍ مُفْظِع ، ودمٍ مُوجِع (٩) » وقال الشاعر :

ألحرُّ يُلْحَى والعصا للعبدِ وليس للمُلْحِفِ غيرُ الرَّدِّ (١٠)

وقالوا : « إذا جدَّ السؤال جَدَّ (١١) المنعُ » وقالوا : « احذر إعطاء المخدوعين (١٢) »

---

(١) ويروى لحسان بن ثابت :

وإنى لحلو تعتريني مرارة وإنى لتراك لما لم أعود

(٢) يقول : إنهم حين تجنوا على المقتصد ولاموه ووصفوه بالشح كذبا ، جعلوا له فى شحه عذرا أقوى من عذر الظالم .

(٣) مثل يضرب لمن يلوم من له عذر لا يعلمه اللائم ، وهو عجز بيت وصدره :

* تأن ولا تعجل بلومك صاحبا *

(٤) ألام : أتى بما يلام عليه ، والمثل لأكثم بن صيفى .

(٥) قال الميدانى « هذا من قول أكثم بن صيفى ، يقول : قد ظهر للناس منه أمر أنكروه عليه وهم لا يعرفون حجته وعذره فهو يلام عليه . وذكروا أن رجلا فى مجلس الأحنف بن قيس قال : ليس شىء أبغض إلى من التمر والزبد فقال الأحنف « رب ملوم لا ذنب له » .

(٦) التضرية : التعويد والإغراء . وأصله من ضرى الكلب بالصيد كفرح : تعود ، وأضراه صاحبه به وضراه : عوده وأغراه .

(٧) أى مشاركة له فى الإلحاف لأنك بإعطائه عاونته وأجرته .

(٨) أى شديد ملصق بالدقعاء ، وهى الأرض .

(٩) أى فى حال جمع المال لدية القتيل .

(١٠) يلحى : يلام ، لحاه يلحاه : لامه . (١١) أى قوى واشتد .

(١٢) المصدر مضاف لفاعله : أى احذر أن تعطى وأنت مخدوع .

« يذلّ المغبونين ، فإن المغبون لا محمودٌ ولا مأجورٌ » وقد لك قالوا : « لا تكن أدنى العَيْرين(١) إلى السّهم » يقول : إذا أعطيت السائلين مالك صارت مَقاتِلُك أظهرَ لأعدائك من مَقاتِلهم ، وقالوا : « الفِرارُ بِقِرابٍ أكيسُ(٢) » وقال أبو الأسود : « ليس من العز أن تتعرض للذل ، ولا من الكرم أن تستدعىَ اللؤمَ » ومن أخرج ماله من يده افتقر ، ومن افتقر فلا بد له من أن يَضْرَع(٣) ، والضَّرَع لؤم . وإن كان الجود شقيق الكرم ، فالأنفةُ أولى بالكرم(٤) ، وقد قال الأول : « اللهم لا تُنْزِلنى(٥) ماءَ سَوْء ، فأكونَ امرأَ سَوْء » .

وقد قال الشاعر :

واخْطُ مع الدهر إذا ما خَطَا ... واجرِ مع الدهر كما يجرى

وقد قال الآخر :

ياليت لى نعلَيْن من جِلد الضَّبُعْ ... وشُرُكا من ثَفْرِها(٦) لا تنقَطِعْ
كلَّ الحِذاءِ يحتذى الحافى الوَقِعْ(٧)

وقد صدق قول القائل : « من احتاج اغتفَر ، ومن اقتضى(٨) تجوَّزَ » وقيل

---

(١) العير : الحمار ، والعيران هنا السائل والمسئول ، فإذا أعطى المسئول كل ماله للسائل تعرض لسهام أعدائه ولم يقو على نزالهم .

(٢) القراب : الغمد ، والمثل لجابر بن عمرو المازنى . وذلك أنه كان يسير يوما فى طريق إذ رأى أثر رجلين ، وكان عائفا قائفا (والعائف: المتكهن بالطير أو غيرها ، والقائف : من يعرف الآثار) فقال: أرى أثر رجلين شديدا كلبهما عزيزا سلبهما والفرار بقراب أكيس . أراد ذو الفرار أى الذى يفر ومعه قراب سيفه إذا فاته السيف أكيس ممن يفيت القراب أيضا .

(٣) أى يذل .

(٤) يقول : إذا كان الجود شقيق كرم النفس ، وجب على الجواد ألا يسعى إلى إذلال نفسه ، وأن يحافظ على أنفتها وإبائها ، وإنما يكون ذلك بالمحافظة على ماله .

(٥) هكذا فى الحيوان للجاحظ ، وفى النسخ « لا تترلى » .

(٦) هكذا فى مجمع الأمثال ، وفى النسخ « من استها » والشرك جمع : شراك ككتاب ، وهو سير النعل .

(٧) وقع الرجل كفرح : إذا حفى من مره على الحجارة ، وهو مثل يضرب عند الحاجة تحمل على التعلق بما يقدر عليه .

(٨) اقتضى دينه وتقاضاه بمعنى .

لِدِيسِيمُوس(١) : تأكل فى السوق ! قال : « إن جاعَ [ديْسِيموسُ(٢)] فى السوق ، أكَلَ فى السوق » وقال(٣) : « من أجدَبَ انتجعَ ، ومن جاع جشِـم » وقال : « احذَروا نِفَارَ النعمة فإنها نوَارٌ(٤) ، وليس كل شاردٍ بمردود ، ولا كل نادٍّ(٥) بمصروف » وقال على بن أبى طالب : « قلَّما أدبَرَ شىء فأقبل » وقالوا : « رُبَّ أكلة تمنع أكَلاتٍ(٦) ، ورُبَّ عَجَلَةٍ تهب رَيْثا(٧) » وعابوا من قال : « أكْلة وموْتة(٨) » وقالوا : « لا تطلبْ أثَرا بعد عَيْن(٩) » وقالوا : « لا تكن كَمَنْ تغلبه

---

(١) جاء فى كتاب الحيوان للجاحظ : « حدثنى العتبى قال : كان فى اليونانيين ممرور (وهو الذى غلبت عليه المرة بالكسر : أى معتوه) له نوادر عجيبة وكان يسمى ديسيموس ، قال : والحكماء يروون له أكثر من ثمانين نادرة » .

(٢) الزيادة بين القوسين من الحيوان للجاحظ .

(٣) القائل صعصعة بن صوحان ، تغذى عند معاوية فتناول من بين يديه شيئا ، فقال معاوية : يا بن صوحان : انتجعت من بعد ، فقال : من أجدب انتجع .

(٤) النوار كسحاب : المرأة النفور من الريبة .

(٥) ند البعير كضرب : نفر وذهب على وجهه شاردا .

(٦) أول من قاله عامر بن الظرب العدوانى ، وهو مثل يضرب فى ذم الحرص على الطعام .

(٧) أول من قاله مالك بن عوف بن أبى عمرو بن عوف بن محلم الشيبانى ، وكان سنان بن مالك ابن أبى عمرو بن عوف بن محلم شام غيثا فأراد أن يرحل بامرأته — وهى أخت مالك بن عوف — فقال له مالك : أين تظعن يا أخى ؟ قال : أطلب موقع هذه السحابة ، قال : لا تفعل فإنه ربما خيلت وليس فيها قطر ، وأنا أخاف عليك بعض مقانب العرب (جمع مقنب كمنبر : وهو جماعة الخيل والفرسان) قال : لكنى لست أخاف ذلك فمضى ، وعرض له مروان القرظ بن زنباع العبسى ، فأعجله عنها وانطلق بها وجعلها بين بناته وأخواته ولم يكشف لها سترا ، فقال مالك بن عوف لسنان . ما فعلت أختى ؟ قال : نفتنى عنها الرماح ، فقال مالك : رب عجلة تهب ريثا ، ورب فروقة يدعى ليثا (والفروقة بالفتح : الجبان الشديد الفزع) ورب غيث لم يكن غيثا ، فأرسلها مثلا . يضرب الرجل يشتد حرصه على حاجة ويخرق فيها حتى تذهب كلها .

(٨) أى آكل وأملأ بطنى ولو كان فى ذلك الموت .

(٩) من أمثالهم « تطلب أثرا بعد عين » و« لا أطلب أثرا بعد عين » يضرب لمن ترك شيئا يراه ثم تبع أثره بعد فوت عينه ، وأول من قاله مالك بن عمرو العاملى ، وذلك أن بعض ملوك غسان كان يطلب فى عاملة ذحلا (أى ثأرا) فأخذ منهم رجلين يقال لهما مالك وسماك ابنا عمرو ، فاحتبسهما عنده زمانا ثم دعاهما فقال لهما : إنى قاتل أحدكما فأيكما أقتل ؟ فجعل كل واحد منهما يقول : اقتلنى مكان أخى ، فلما رأى ذلك قتل سماكا وخلى سبيل مالك ، فقال سماك حين ظن أنه مقتول أبياتا منها :

وأقسم لو قتلوا مالكا لكنت لهم حية راصده

وانصرف مالك إلى قومه ، فلبث فيهم زمانا ، ثم إن ركبا مروا وأحدهم يتغنى بهذا البيت فسمعت =

نفسهُ على ما يظُن ، ولا يغلبها على ما يستيقِن » فانظر كيف تُخرج الدرهم؟ ولِم تُخرجُهُ؟ وقالوا : « شرٌّ من المَرْزِئة سوء الخَلَف[(١)] » وقال الشاعر :

إن يكن ما به أُصِبْتَ جليلًا   فذهابُ العَزاء فيه أجلُّ

ولَأَنْ تفتقر بجائحةٍ نازلة خيرٌ لك من أن تفتقر بجناية مكتَسَبَة ، ومن كان سببا لذهاب وَفْره ، لم تعدَمْه الحسرةُ من نفسه ، واللائمةُ من غيره ، وقلةُ الرحمة ، وكثرةُ الشماتة ، مع الإثم المُوبِق والهوانِ على الصاحب ، وذكر عمر بن الخطاب فتيانَ قريش وسَرَفهم فى الإنفاق ، ومسابقتهم فى التبذير ، فقال : « لَخُرْقَةُ[(٢)] أحدهم أشدُّ عليَّ من عَيْلته » يقول : إن إغناء الفقير أهون عليَّ من إصلاح الفاسد :

ولا تكن على نفسك أشأمَ من خَوْتَعَة[(٣)] ، وعلى أهلك أشأمَ من البَسُوس[(٤)] ،

= بذلك أم سماك ، فقالت : يامالك قبح الله الحياة بعد سماك ، اخرج فى الطلب بأخيك ، فخرج فى الطلب فلقى قاتل أخيه يسير فى ناس من قومه ، فقال : من أحس لى الجمل الأحمر ؟ فقالوا له — وعرفوه — : يامالك لك مائة من الإبل فكف ، فقال لا أطلب أثرا بعد عين ، فذهبت مثلا ، ثم حمل على قاتل أخيه فقتله ، والمعنى : لا آخذ الدية وهى أثر الدم وتبعته ، وأترك العين يعنى القاتل .

(١) المرزئة : المصيبة ، وسوء الخلف ما تخلفه من الجزع ، أى إذا فقدت مالك كان جزعك على ضياعه أشد من ضياعه .

(٢) الخرقة : الحمق ، وسوء التصرف فى الأمور . والعيلة : الفقر .

(٣) هو رجل من بنى غفيلة كجهينة دل كثيف (كزبير) بن عمرو التغلبى وأصحابه على بنى الزبان (بالفتح) الذهلى ، لترة كانت له عند عمرو بن الزبان ، فأتوهم وهم قد جلسوا على الغداء ، فقال عمرو لاتشب الحرب بيننا وبينك ، قال : كلا ، بل أقتلك وأقتل إخوتك ، قال : فإن كنت فاعلا فأطلق هؤلاء الفتية الذين لم يتلبسوا بالحروب ، فإن وراءهم طالبا أطلب منى ، يعنى أباهم ، فقتلهم وجعل رءوسهم فى مخلاة ، وعلقها فى عنق ناقة لهم يقال لها الدهيم (كزبير) فجاءت الناقة والزبان جالس أمام بيته ، فبركت ، فقال : ياجارية هذه ناقة عمرو ، وقد أبطأ هو وإخوته ، فقامت الجارية فجست المخلاة فقالت : قد أصاب بنوك بيض نعام ، وأدخلت يدها فأخرجت رأس عمرو أول ما أخرجت ، ثم رءوس إخوته ، فغسلها الزبان ووضعها على ترس وقال : آخر البز على القلوص ، فأرسلها مثلا — والبز : القلوص — أى هذا آخر عهدى بهم لا أراهم بعده . وخبر أن خوتعة هو الذى دل على ولده ، فأثخن فى بنى غفيلة حتى أبادهم — اقرأ المثل مطولا فى مجمع الأمثال ١ : ٢٥٥ .

(٤) هى البسوس بنت منقذ التميمية خالة جساس بن مرة قاتل كليب ، والتى من أجلها نشبت حرب البسوس المشهورة بين بكر وتغلب — اقرأ المثل مفصلا فى مجمع الأمثال ١ : ٢٥٤ .

وعلى قومك أشأمَ من عِطرِ مَنْشِم(١) ، ومن سلَّط الشهواتِ على نفسه ، وحكَّمَ الهوى فى ذات يده ، فبقِى حسيرا ، فلا يلومَنَّ إلا نفسَه ، وطُوبَى لك يوم تقدِر على قديم(٢) تنتفع به ، وقال بعض الشعراء :

أرَى كل قوم يمنعون حَريمَهم ... وليس لأصحاب النبيذ حَرِيمُ
أخوهم إذا مادارت الكأسُ بينهم ... وكلُّهمُ رثُّ الوِصالِ سَئُومُ
فهذا بيانى لم أقل بجهالةٍ ... ولكننى بالفاسقين عليمُ

وقد كان هذا المعنى فى أصحاب النبيذ أوجَدَ(٣) ، فأمَّا اليومَ فقد استوى الناسُ ، قال الأضبط بن قُرَيْع لمَّا انتقل فى القبائل فأساءوا جِواره بعد أن تأذَّى ببنى سَعْد . « بكل وادٍ بنو سعد » .

خذ بقولى ودع قول أبى العاص ، وخذ بقول من قال : « عَشٍّ ولا تغترَّ(٤) » ويقول من قال : « لاتطلب أثَرا بعد عَيْن » وبقول من قال : « املأْ حُبَّكَ(٥) من أول مَطْرة ، ودع مايَرِيبك إلى مالا يَرِيبك ، أخوكَ مَن صَدَقَك ، ومن أتاك من جهة عقلك ، ولم يأتك من جهة شهوتك ، وأخوكَ من احتمل ثِقَل نصيحتك فى حظك(٦) ، ولم تأمَن لائمتَه إياك فى غَدِك » .

---

(١) ويقال : « أشأم من منشم » وكانت منشم امرأة عطارة تبيع الطيب ، فكانوا إذا قصدوا الحرب غمسوا أيديهم فى طيبها وتحالفوا عليه أن يستميتوا فى تلك الحرب ، ولا يولوا أو يقتلوا ، فكانوا إذا دخلوا الحرب بطيب تلك المرأة يقول الناس : قد دقوا بينهم عطر منشم ، فلما كثر منهم هذا القول سار مثلا ، فمن تمثل به زهير بن أبى سلمى حيث يقول :

تدارکتما عبسا وذبيان بعدما ... تفانوا ودقوا بينهم عطر منشم

وقيل : إن منشم كانت امرأة تبيع الحنوط ، وإنما سموا حنوطها عطرا فى قولهم : قد دقوا بينهم عطر منشم ، لأنهم أرادوا طيب الموتى .

(٢) يراد بالقديم : المال المدخر ، وفى النسخ « على قدم » .

(٣) أى أكثر وجودا فيهم .

(٤) مثل يضرب فى الحث على الحيطة . وأصله أن رجلا أراد أن يفوِّز بإبله ليلا ، واتكل على عشب يجده فى الطريق ، فقيل له : عش ولا تغتر «وفوَّز بإبله : ركب بها المفازة » .

(٥) الحب : وعاء كبير الماء .

(٦) أى فى سبيل سعادتك .

وقال الآخر :

إن أخاك الصَّدْق من لم يخدعَكْ وَمَن يَضِير نفسَه لينفعَكْ(١)

وقد قال عَبيد بن الأبرص :

واعلمَنْ عِلْماً يَقيناً أنه ليس يُرجَى لك مَن ليس مَعَكْ

ولا تزال بخير ما كان لك واعظٌ من نفسك ، وعَيْنٌ من عقلك على طباعك ، أو: ما كان لك أخ نصيح ، ووزير شفيق ، والزوجةُ الصالحة عَوْنُ صدق ، والسعيدُ من وُعظ بغيره ، فإن أنت لم تُرْزَق من هذه الخصال(٢) خَصلةً واحدة ، فلا بُدَّ لك من نكبة مُوجِعَة ، يَبْقَى أثرها ، ويلُوح لك ذكرها؛ ولذلك قالوا : «خير مالك مانفعَك» ولذلك قالوا : « لم يذهب(٣) من مالك ما وعَظَك » .

إن المال محروصٌ عليه ، ومطلوب فى قَعْر البحار ، وفى رءوس الجبال ، وفى دَغَلِ الغِياض(٤) ، ومطلوب فى الوُعُورة كما يُطْلَب فى السُّهولة ، وسواء فيها(٥) بطونُ الأودية ، وظهورُ الطرق ، ومَشارِقُ الأرض ومَغاربُها ، فطُلِبَت بالعز ، وطلبت بالذل، وطلبت بالوفاء ، وطُلِبت ، بالغدر ، وطلبت بالنُّسْك كما طلبت بالفَتْك، وطُلبت بالصدق كما طلبت بالكذب ، وطُلبت بالبَذاء ، وطلبت بالمَلَق ، فلم تُترك فيها حيلةٌ ولا رُقْية

(١) يقال : هذا الرجل الصدق بالفتح ، فإذا أضفت إليه كسرت الصاد ، وقوله لم يخدعك بنصب الفعل بعد لم ، قال صاحب المغنى : « وزعم اللحيانى أن بعض العرب ينصب بها كقراءة بعضهم « ألم نَشْرَحَ » وقوله :

فى أى يومى من الموت أفر أيوم لم يقدر أم يوم قدر

وخرجا على أن الأصل نشرحن ويقدرن ثم حذفت نون التوكيد الخفيفة وبقيت الفتحة دليلا عليها ، وفى هذا شذوذان : توكيد المنفى بلم ، وحذف النون لغير وقف ولا ساكنين ، اه . وربما كان الأصل « من لن يخدعك » ويضير نفسه : يضرها ، والمثل فى مجمع الأمثال « إن أخا الهيجاء من يسعى معك ، ومن يضر نفسه لينفعك » يضرب فى المساعدة .

(٢) أى الخصال التى ذكرت آنفا ، وهى أن يكون له واعظ من نفسه الخ .

(٣) ويروى « لم يضع » وهو مثل لأكثم بن صيفى، قال المبرد: أى إذا ذهب من مالك شىء فحذرك أن يحل بك مثله ، فتأديبه إياك عوض من ذهابه .

(٤) الدغل : الشجر الكثير الملتف ، والغياض : جمع غيضة بالفتح ، وهى الأجمة ومجتمع الشجر .

(٥) فيها: أى فى الأموال ، والمراد فى طلبها ، فهى مطلوبة فى بطون الأودية الخ .

حتى طُلبت بالكفر بالله ، كما طلبت بالإيمان ، وطُلبت بالسُّخف كما طلبت بالنُّبل ، قد نصبوا الفِخاخ بكل موضع ، ونصَبوا الشَّرَك[١] بكل رَبْع، وقد طلبك مَن لا يقصِّر دون الظفَر ، وحَسَدك من لا ينام دون الشِّفاء .

وقد يهدأ الطالبُ الطَّوائِل[٢] والمطلوبُ بذات نفسه ، ولا يهدأ الحريصُ، يقال: إنه ليس فى الأرض بلدة واسطةٌ[٣] ، ولا باديةٌ شاسعة ، ولا طَرَف من الأطراف ، إلا وأنت واجدٌ بها المدينىَّ والبصرىَّ والحِيرىَّ، وقد ترى شَنَف[٤] الفقراءِ للأغنياء ، وتسرُّعَ الرغبة إلى الملوك ، وبُغضَ الماشى للراكب ، وعمومَ الحسد فى المتفاوتين ، وإن لم تستعمل الحذَرَ ، وتأخذْ بنصيبك من المداراة ، وتتعلَّم الحزمَ ، وتُجالِسْ أصحابَ الاقتصاد ، وتعرف الدهورَ ودهرَك خاصَّةً ، وتمثِّلْ لنفسك الغِيَرَ[٥] حتى تتوهَّم نفسك فقيرا ضائعا ، وحتى تتهم شِمالَك على يمينك ، وسمْعَك على بصرك ، ولا يكون أحد أتْهَمَ[٦] عند نفسك من نفسك ، ولا أولَى بأخذ الحذَر منه من أمينك ، اُختُطِفتَ اختطافا[٧] ، واستُلِبْتَ استلابا ، وذوَّبوا مالَك وتحيَّفوه[٨] ، وألزموه السُّلَّ ولم يُداووه ، وقد قالوا : « يَلِى المالَ ربُّه وإن كان أحمقَ » فلا تكوننَّ دون ذلك الأحمقِ ، وقالوا : « لاتعدَم صَناعٌ ثَلَّةً[٩] » فلا تكوننَّ دون تلك الصناع ، وقد قال الأول فى المال المضيَّع المسلَّطِ عليه شهواتُ العِيال : « ليس لها راعٍ ، ولكنْ حَلَبَةٌ[١٠] » .

---

(١) الشرك : حبائل الصائد ، واحدته شركة كقصبة ، ويجمع على شرك كعنق نادرا .

(٢) الطوائل : جمع طائلة ، وهى الثأر . (٣) أى متوسطة .

(٤) شنف له شنفا كفرح : أبغضه وتنكره . (٥) حوادث الدهر المغيرة .

(٦) أى أكثر إتهاما ، من أتهمه كأكرمه إذا اتهمه .

(٧) فى بعض النسخ « واحتفظت احتفاظا » .

(٨) أى تنقصوه ، من حيفه . والحيف كعنب جمع حيفة بالكسر : وهى الناحية .

(٩) امرأة صناع اليدين : حاذقة ماهرة بعمل اليدين . والثلة : الصوف تغزله المرأة ، مثل يضرب لمن إذا عدم عملا أخذ فى آخر لحذقه وبصيرته .

(١٠) الحلبة: جمع حالب ، مثل يضرب للرجل يؤكل وليس له من يبقى عليه، وفىالنسخ « خلية » .

وليس مالك المالَ المُغْفَى من الأضراس فيقالَ فيه : مَرْعَى ولا أَكُولَةَ[١] ، وعُشْبٌ ولا بعير ، فقُصَارَاك مع الإصلاح أن يقوم ببطنك وبحوائجك وبما ينُوبك ، ولا بقاء للمال على قلة الرَّعْى وكثرة الحَلْب ، فكِسْ[٢] فى أمرك ، وتقدَّمْ فى حفظ مالك ، فإن مَن حفظَ مالَه فقد حفِظ الأكرمَيْن ، والأكرمان : الدِّينُ ، والعِرض ، وقد قيل : « الرمى يُراشُ السهمُ[٣] » و « عند النِّطاح تغلِبُ القَرْناء[٤] » .

وإذا رأت العرب مستأكِلا وافقَ غُمْرًا[٥] قالت : « ليس عليك نَسْجُه فاسْحَبْ وخَرِّق[٦] » وقد قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « الناس كلُّهم سواء كأسنان المُشْطِ » والمرء كثير بأخيه ، ولا خيرَ لك فى صحبة من لا يَرَى لك مِثلَ ما يرى لنفسه ، فتعرَّفْ شأن أصحابك ومَعْنِيَّ[٧] جلسائك ، فإن كانوا فى هذه الصفة فاستعملِ الحزمَ ، وإن كانوا فى خلاف ذلك عَملتَ على حَسَب ذلك .

إنى لست آمُرُك إلا بما أمرك به القرآنُ ، ولست أُوصِيك إلا بما أوصاك به الرسولُ ، ولا أَعِظك إلا بما وَعَظ به الصالحون بعضُهم بعضا ، قال رسولُ الله صلى الله عليه وسلم : « اعقِلْها وتوكَّلْ » وقال مُطَرِّف بن الشِّخِّير : « من نام تحت صَدَفٍ[٨] مائل وهو ينوى التوكلَ ، فليَرْمِ بنفسه من طَمَارِ[٩] وهو ينوى التوكل » فأين

---

(١) الأكولة: الشاة التى تعزل للأكل وتسمن ، مثل يضرب للمتمول لا آكل لماله .

(٢) أمر من الكيس بالفتح ، وهو العقل والفطنة .

(٣) راش السهم يريشه : ألزق عليه الريش ، ورواه الميدانى فى مجمع الأمثال « قبل الرمى يراش السهم » مثل يضرب فى تهيئة الآلة قبل الحاجة إليها ، وهو مثل قولهم « قبل الرماء تملأ الكنائن » أى تؤخذ الأهبة للأمر قبل وقوعه .

(٤) أى ذات القرن ، ومن أمثالهم « عند النطاح يغلب الكبش الأجم » ويغلب بالبناء للمجهول ، والتيس الأجم : الذى لا قرن له ، يضرب لمن غلبه صاحبه بما أعده له .

(٥) الغمر بالفتح والضم وكتب وكتف . من لم يجرب الأمور :

(٦) رواه الميدانى « ليس عليك نسجه فاسحب وجر » أى أنك لم تتعب فيه فلذلك تفسده .

(٧) معنى : مقصد .   (٨) الصدف: كل شىء مرتفع من حائط ونحوه .

(٩) طمار : اسم للمكان العالى ، قال الشاعر :

« وآخر يهوى من طمار قتيل » .

ينشد من طمار بفتح الراء ومن طمار بكسرها منونا وغير منون ، وقيل هو اسم جبل .

التوقِّى الذى أمر الله به ، وأين التغريرُ الذى نهى عنه ؟ ومن طَمِع فى السلامة من غير تسلّمٍ (١) ، فقد وضع الطمعَ فى موضع الأمانىّ ، وإنما يُنجِزُ الله الطمعَ إذا كان فيما أمرَ به ، وإنما يحقِّق من الأمل ما كان هو المسبِّب له ، وفرّ عمر من الطاعون فقال له أبو عبيدة : « أتفرُّ من قَدَر الله ؟ » قال : « نعم إلى قدر الله » وقيل له : « هل ينفع الحذَر من القَدَر ؟ » فقال « لو كان الحذر لا ينفع لكان الأمر به لَغْوا » فإبلاء العذر (٢) هو التوكل ، وقال رسولُ الله صلى الله عليه وسلم لرجل قال فى خُصُومة : حسبى الله : « أَبْلِ اللهَ عذرا ، فإذا أعجزك أمرٌ فقل : حسبى الله » .

وقال الشاعر :

ومن يكُ مثلى ذا عِيالٍ ومُقتِرا   من المال يَطرحْ نفسَه كل مَطرَحِ

لِيُبْلِىَ عذرا أو لِيَبْلُغَ حاجةً   ومُبْلِغُ نفسٍ عُذرَها مثلُ مُنجِحِ

وقال الآخر :

فإن يَكن القاضى قَضَى غيرَ عادلٍ   فبَعْدَ أمورٍ لا أَلومُ لها نفسى

وقال زهير البابىّ (٣) : « إن كان التوكل أن أكون متى أخرجتُ مالى أيقنتُ بالخلف ، وجعلت الخلفَ ما لا يرجع فى كِيسى ، ومتى ما لم أحفَظْه أيقنتُ بأنه محفوظ ، فإنى أُشْهدكم أنى لم أتوكل قطُّ ، إنما التوكل أن تعلم أنك متى أخذت بأدب الله تتقلب فى الخير فتُجزَى بذلك إما عاجلا وإما آجلا » ثم قال : فلِمَ تَجَرَ أبو بكر ؟ ولِمَ تَجَرَ عمر ؟ ولم تَجَرَ عثمان ؟ ولم تَجَرَ الزبير ؟ ولِمَ تَجَر عبد الرحمن (٤) ؟ ولِمَ علَّمَ عمرُ الناسَ يَتَّجِرون ، وكيف يشترون ويبيعون ؟ ، ولم قال عمر : « إذا اشتريت جملا

(١) المراد بالتسلم هنا : الأخذ بأسباب السلامة والعمل لها .
(٢) إبلاء العذر : تقديمه ، وكل من لم يقصر فى عمل شىء ولم ينجح فيه فقد أبلى عذراً .
(٣) قال ياقوت فى معجم البلدان ٢ : ١٣ وينسب إلى باب الأبواب جماعة منهم زهير بن نعيم البابى وفى بعض النسخ « الثانى » وهو تصحيف .
(٤) أى عبد الرحمن بن عوف .

فاجعله ضَخْماً ، فإن لم يبعه الخُبْرُ[١] باعه المنظَرُ » ؟ ، ولِمَ قال عمر : « فرِّقوا بين المنايا ، واجعلوا الرأس رأسين[٢] » ؟ ولم قال عثمان حين سئل عن كثرة أرباحه : « لم أرُدَّ من ربح قطُّ » ؟ ولم قيل : « لاتشتر عيبا ولا شيبا[٣] » ، وهل حَجَر على بن أبى طالب على ابن أخيه عبد الله بن جعفر إلا فى إخراج المال فى غير حقه ، وإعطائه فى هواه ؟ وهل كان ذلك إلا فى طلب الذكر ، والتماس الشكر ؟ وهل قال أحد إن إنفاقه[٤] كان فى الخمور والقِمار ، وفى الفُسُولة[٥] والفُجور ؟ وهل كان إلا فيما تسمونه جودا ، وتعدُّونه كرما ؟ ومن رأى أن يحجُر على الكرام لكرمهم رأى أن يحجُر على الحلَمَاء لحلمهم[٦] ! وأىَّ إمامٍ بعد أبى بكر تريدون ؟ وبأىِّ سَلَفٍ بعد علىٍّ تقتدون ؟ .

وكيف ترجو الوفاء والقيامَ بالحق والصبر على النائبة من عند لُمْمُوظٍ[٧] مستأكِلٍ وملّاقٍ مُخادِع ، ومنهوم بالطعام شَرِهٍ لايبالى بأى شىء أخذ الدرهمَ ، ومن أىِّ وَجْهٍ أصاب الدينارَ ؟ ولا يكترث للمِنَّة ، ولا يبالى أن يكون أبداً منهوما منعوماً عليه ، وليس يبالى إذا أكل كيف كان ذلك الطعامُ ؟ وكيف كان سببُه ؟ ، وما حكمُه .

فإن كان مالُك قليلا فإنما هو قِوامُ عيالك ، وإن كان كثيرا فاجعل الفاضلَ لعُدَّة نوائبك ، ولا يأمن الأيامَ إلا المضلَّلُ ، ولا يغترُّ بالسلامة إلا المغفَّلُ ، فاحذَرْ

---

(١) الخبر : العلم والمعرفة .
(٢) انظر ص ٣٩٦ من الجزء الثالث .
(٣) الشيب معروف ، والمراد هنا لازمه . وهو الضعف ، وكبر السن ، أى لا تشتر ذا عيب ولا ذا ضعف .
(٤) الضمير فيه يعود إلى عبد الله بن جعفر .
(٥) الفسولة : الدناءة .
(٦) أى لو كان حجر على رضى الله عنه على عبد الله بن جعفر لكرمه لساغ الحجر على الحليم ، وساغ الحجر على كل ذى فضيلة ، يريد أن يقول : إن إنفاق ابن جعفر لم يكن كرما .
(٧) الحريص الشهوان .

طوارقَ البلاء ، وخُدَع رجال الدهاء ، سَمْنُك فى أديمك[١] ، وغَثك خير مِنْ سَمِين غيرك[٢] لو وَجدتَه ، فكيف ودونَه أسَلٌ[٣] حِدادٌ ، وأبوابٌ شداد ؟ قالت امرأة لبعض العرب : « إن تزوجتنى كفيتُك » فأنشأ يقول :

إذا لم يكن لى غيرُ مالِكِ مَسَّنى خَصَاصٌ وبان الحمدُ منِّىَ والأجرُ[٤]
وما خيرُ مالٍ ليس نافعَ أهلِهِ وليس لشيخ الحىِّ فى أمره أمرُ ؟

وقال المُلَوَّطُ القُرَيْعِىّ :

أبا هانئٍ لا تسألِ الناسَ والتَمِسْ بكفَّيْك سَتْرَ الله فالله واسِع
فلو تسألُ الناسَ الترابَ لأوْشكوا إذا قيل هاتوا أن يَمَلُّوا فيمنَعوا[٥]

(كتاب البخلاء ص ١٢٩)

---

(١) من أمثالهم « سمنكم هريق فى أديمكم » وكثيراً مايقولون « سمنهم فى أديمهم » يضرب الذى لا يتجاوزه خيره ، قال أبو عبيدة : الأديم : المأدوم من الطعام ، أى جعلوا سمنهم فيه ولم يفضلوا به . وقال الأصمعى : أصله فى قوم سافروا ومعهم نحى سمن، فانصب على أديم لهم ، فكرهوا ذلك، فقيل لهم: ماقص من سمنكم زاد فى أديمكم .

(٢) أول من قال هذا المثل معن بن عطية المذحجى . وذلك أنه كانت بينهم وبين حى من أحياء العرب حرب شديدة ، فمر معن فى حلة حلها برجل من حزبه صريعاً فاستغاثه وقال : امنن على كفيت البلاء ، فارسلها مثلا ، فأقامه معن وساربه حتى بلغه مأمنه ، ثم عطف أولئك القوم على مذحج فهزموهم وأسروا معنا، وأخا له يقال له روق ـ وكان يضعف ويحمق ـ فلما انصرفوا إذا صاحب معن الذى نجاه أخو رئيس القوم فناداه معن ، وقال : ياخير جاز بيد أوليتها نج منجيك .

فعرفه صاحبه فقال لأخيه: هذا المان على ومنقذى بعد ما أشرفت على الموت. فهبه لى، فوهبه له فخلى سبيله، وقال : إنى أحب أن أضاعف لك الجزاء ، فاختر أسيرا آخر ، فاختار معن أخاه روقا، ولم يلتفت إلى سيد مذحج وهو فى الأسارى ، ثم انطلق معن وأخوه راجعين ، فمر بأسارى قومهما ، فسألوا عن حاله فأخبرهم الخبر ، فقالوا لمعن : قبحك الله! تدع سيد قومك وشاعرهم لاتنكه وتفك أخاك هذا الأنوك النسل الرذل ، فوالله مانكأ جرحا ، ولا أعمل رمحا ، ولا ذعر سرحا ، وإنه لقبيح المنظر ، سيء المخبر ، لئيم ، فقال معن . « غثك خير من سمين غيرك » فأرسلها مثلا .

(٣) الأسل : الرماح ، واحدته أسلة .

(٤) الخصاص : الفقر كالخصاصة .

(٥) اطلعت فى خلال اشتغالى بهذا المؤلف على تحقيق وشرح لكتاب البخلاء لأستاذى الجليلين على بك الجارم ، وأحمد بك العوامرى ، وقد استعنت بمجهودهما الموفق فى هذه الرسالة، فلهما منى ومن قراء العربية جزيل الشكر .

٧٢ — كتاب عمرو بن عثمان القينى إلى محمد بن عبيد الله العتبي

وكان محمد(١) بن عُبَيد الله العُتْبيّ صديقا لعمرو بن عثمان القَيْنيّ ، فكتب إليه العُتبي كتابا فزاده فى الدعاء ، فكتب إليه عمرو :

يابنَ الذَّوائبِ من قريشٍ والذُّرَى ... وسَليلَ سادةِ ساكِنِي البَطْحاءِ(٢)
حاشاَ لِمثلك أن يرانى قائلا ... بكرامةٍ تُزْرِى لديه بِرائى
لم تَرْضَ إذ كَنَّيتَنى وبدأْتَ بى ... حتى دعوتَ الله لى ببقائى
ولو اقتصرت على التى هى قيمتى ... فيما تَبُتُّ قَضِيَّةُ الحكماء
لَكتَبْتَ لى: «عمرو بن عثمان» ولم ... تُتْبِعْه فى العُنوان حَرْفَ دُعاءِ
فاتركْ ـ جُعِلتُ فِداك ـ إكرامى بما ... أخشَى به عند الورى استغنائى(٣)
فالعينُ تُصْغِرُ أن تُقدِّمها على ... أولاد «حَرْب» السَّادةِ الكرماء
حَلُّوا من العِزِّ المَنيعِ نِيَافَهُ ... يَحْمُون غيرَهم ذُرَى العلياء(٤)

(أدب الكتاب ص ١٥٩)

---

(١) هو محمد بن عبيد الله بن عمر بن معاوية بن عمرو بن عتبة بن أبى سفيان بن حرب بن أمية ، وكان أديبا فاضلا وشاعرا مجيدا ، والعتبي : نسبة إلى جده عتبة بن أبى سفيان . قال ابن خلكان : ويجوز أن تكون نسبته إلى عتبة التى كان يقول الشعر فيها ، وتوفى سنة ٢٢٨ ـ انظر ترجمته فى وفيات الأعيان ١ : ٥٢٢ .

(٢) الذوائب : جمع ذؤابة بالضم ، وذؤابة كل شيء : أعلاه . والبطحاء : بطحاء مكة ، أى مسيل واديها .

(٣) أى عدى من الأغنياء .

(٤) النياف : الجبل العالى الطويل ، والمراد هنا : القمة والذروة ، ويقال أيضا جمل نياف : أى طويل فى ارتفاع ، وقصر نياف : أى مرتفع ، قال فى اللسان :«وقد يجوز أن يكون نياف مصدرا ووصف به كما يوصف بالمصادر» .

٧٣ — كتاب المتوكل فى الإعلان بلقبه

ولما مات هرون الواثق بن المعتصم سنة ٢٣٢ هـ بويع بالخلافة أخوه جعفر ، ولُقِّب المتوكِّلَ على الله ، فأحضر محمد بن عبد الملك الزيات وأمر بالكتاب بذلك إلى الناس ، فنفذَتْ إليهم الكتب ، نسخة ذلك :

« بسم الله الرحمن الرحيم : أمَر — أبقاك الله — أميرُ المؤمنين — أطال الله بقاءه — أن يكون الرَّسم الذى يجرِى به ذِكْرُه على أعواد منابره ، وفى كُتُبه إلى قُضاته وكتّابه وعماله وأصحاب دواوينه وغيرهم من سائر مَن تجرى المكاتبةُ بينه وبينه : « من عبد الله جعفر الإمام المتوكل على الله أمير المؤمنين » فرأيك فى العمل بذلك وإعلامى بوصول كتابى إليك موفَّقا إن شاء الله » .

(تاريخ الطبرى ١١ : ٢٦)

٧٤ — كتاب المتوكل إلى عماله فى النصارى وأهل الذمة

وفى سنة ٢٣٥ هـ كتب المتوكل إلى عمّاله فى الآفاق ، بشأن النصارى وأهل الذمة :

« بسم الله الرحمن الرحيم : أما بعدُ ، فإن الله تبارك وتعالى بعِزّته التى لا تحاوَل ، وقدرته على ما يريد ، اصطفَى الإسلام فرضِيه لنفسه ، وأكرَمَ به ملائكته وبعَث به رسُلَه ، وأيَّد به أولياءه ، وكنَفَه بالبرّ ، وحاطه بالنصر ، وحرَسَه من العاهة ، وأظهره على الأديان ، مُبَرّأً من الشُّبُهات ، معصوما من الآفات ، محبُوًّا بمناقب الخير ، مخصوصا من الشرائع بأطهرها وأفضلها ، ومن الفرائض بأزكاها وأشرفها ، ومن الأحكام بأعدَلِها وأقنَمِها ، ومن الأعمال بأحسَنها وأقصَدِها ، وأكرَمَ أهلَه بما أحلّ لهم من حلاله ، وحرّم عليهم من حرامه ، وبيّن لهم من شرائعه وأحكامه ، وحَدّ لهم من حدوده ومَناهجه ، وأعدّ لهم من سَعةِ جَزائه وثوابه ، فقال فى كتابه فيما أمر به

ونهى عنه ، وفيما حضَّ عليه فيه ووَعَظ : « إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالإِحْسَانِ وَإِيتَاءِ ذِي الْقُرْبَى وَيَنْهَى عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنكَرِ وَالْبَغْيِ يَعِظُكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ » وقال فيما حَرَّم على أهله مما غَمَطَ(١) فيه من ردىء المَطعَم والمشرَب والمَنكَح ، لينزِّههم عنه ، وليُطهِّر به دينهم ليفضلهم عليهم تفضيلا : « حُرِّمَتْ عَلَيْكُمُ الْمَيْتَةُ وَالدَّمُ وَلَحْمُ الْخِنْزِيرِ وَمَا أُهِلَّ لِغَيْرِ اللَّهِ بِهِ(٢) وَالْمُنْخَنِقَةُ وَالْمَوْقُوذَةُ وَالْمُتَرَدِّيَةُ وَالنَّطِيحَةُ ، وَمَا أَكَلَ السَّبُعُ إِلَّا مَا ذَكَّيْتُمْ وَمَا ذُبِحَ عَلَى النُّصُبِ وَأَنْ تَسْتَقْسِمُوا بِالْأَزْلَامِ ذَلِكُمْ فِسْقٌ » ثم ختم ما حرَّم عليهم من ذلك في هذه الآية بحراسة دينه ممن عَنَدَ(٣) عنه ، وبإتمام نعمته على أهله الذين اصطفاهم ، فقال عز وجل : « الْيَوْمَ يَئِسَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ دِينِكُمْ فَلَا تَخْشَوْهُمْ وَاخْشَوْنِ ، الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الْإِسْلَامَ دِينًا » وقال عز وجل: « حُرِّمَتْ عَلَيْكُمْ أُمَّهَاتُكُمْ وَبَنَاتُكُمْ وَأَخَوَاتُكُمْ وَعَمَّاتُكُمْ وَخَالَاتُكُمْ وَبَنَاتُ الْأَخِ وَبَنَاتُ الْأُخْتِ ، وَأُمَّهَاتُكُمُ اللَّاتِي أَرْضَعْنَكُمْ ، وَأَخَوَاتُكُمْ مِنَ الرَّضَاعَةِ وَأُمَّهَاتُ نِسَائِكُمْ وَرَبَائِبُكُمُ اللَّاتِي فِي حُجُورِكُمْ مِنْ نِسَائِكُمُ اللَّاتِي دَخَلْتُمْ بِهِنَّ ، فَإِنْ لَمْ تَكُونُوا دَخَلْتُمْ بِهِنَّ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ ، وَحَلَائِلُ أَبْنَائِكُمُ الَّذِينَ

---

(١) أى عابه وثلبه .

(٢) أى سارفع الصوت لغير الله به فذبح على اسم غيره ، كقولهم : باسم اللات والعزى عند ذبحه. والمنخنقة : التى ماتت بالخنق : والموقوذة . المقتولة ضربا بخشبة أو حجر . والمتردية : التى تردت وسقطت من علو فماتت . والنطيحة : التى نطحتها أخرى فماتت . وما أكل السبع : أى وما أكل منه السبع فمات ، إلا ما ذكيتم : التذكية : الذبح ، أى إلا ما أدركتم فيه الروح من هـذه الأشياء فذبحتموه ، وماذبح على النصب : وهى أحجار كانت منصوبة حول الكعبة يذبحون عليها ويعدون ذلك قربة ، وقيل هى الأصنام ، أى وماذبح على اسم النصب ، وأن تستقسموا : أى تطلبوا معرفة ما قسم لكم ، والأزلام : جمع زلم بفتح الزاى وضمها مع فتح اللام ، وهو قدح (كقرد) صغير لاريش له ولا نصل ، وكانوا إذا قصدوا فعلا أجالوا ثلاثة قداح ، مكتوب على أحدها أمرنى ربى ، وعلى الثانى نهانى ربى ، والثالث غفل . فإن خرج الأول مضوا فى الأمر ، وإن خرج الثانى تجنبوه ، وإن خرج الثالث أجالوها ثانية .

(٣) أى مال عنه .

مِنْ أَصْلَابِكُمْ ، وَأَنْ تَجْمَعُوا بَيْنَ الْأُخْتَيْنِ إِلَّا مَا قَدْ سَلَفَ ، إِنَّ اللهَ كَانَ غَفُورًا رَحِيماً » وقال « إِنَّمَا الْخَمْرُ وَالْمَيْسِرُ وَالْأَنْصَابُ وَالْأَزْلَامُ رِجْسٌ(١) مِنْ عَمَلِ الشَّيْطَانِ فَاجْتَنِبُوهُ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ . إِنَّمَا يُرِيدُ الشَّيْطَانُ أَنْ يُوقِعَ بَيْنَكُمُ الْعَدَاوَةَ وَالْبَغْضَاءَ فِي الْخَمْرِ وَالْمَيْسِرِ وَيَصُدَّكُمْ عَنْ ذِكْرِ اللهِ وَعَنِ الصَّلَاةِ ، فَهَلْ أَنْتُمْ مُنْتَهُونَ » .

فحرَّم على المسلمين من مآكل أهل الأديان أَرْجَسَها وأنجسَها ، ومن شرابهم أَدْعاه إلى العداوة والبغضاء ، وأَصَدَّه عن ذكر الله وعن الصلاة ، ومن مَنا كِحِهم أعظمَها عنده وِزْرا ، وأولاها عند ذوى الحِجَا والألباب تحريما ، ثم حَبَاهم محاسِنَ الأخلاق ، وفضائِلَ الكرامات ، فجعَلَهم أهل الإيمانِ والأمانة ، والفضل والتراحُم ، واليقين والصدق ، ولم يجعل فى دينهم التقاطُعَ والتدابُرَ ، ولا الحميَّةَ ولا التكبُّرَ ، ولا الخيانةَ ولا الغَدْر ، ولا التَّباغِيَ ولا التظالُمَ ، بل أَمَر بالأُولَى ، ونهَى عن الأخرى ، ووَعَد وأوعدَ عليها جَنَّته وناره ، وثوابَه وعِقابَه ، فالمسلمون بما اختصَّهم الله من كرامته وجعل لهم من الفضيلة بدينهم الذى اختاره لهم ، بائِنُون على الأديان بشرائِعهم الزاكية ، وأحكامهم المَرْضِيَّةِ الطاهرة ، وبراهينهم المُنيرة ، وبتطْهير الله دينَهم بما أحلَّ وحرَّم فيه لهم وعليهم ، قضاءً من الله عز وجل فى إعزاز دينه حتْماً ، ومَشِيئةً منه فى إظهار حقه ماضيةً ، وإرادةً منه فى إتمام نعمته على أهله نافذةً « لِيَهْلِكَ مَنْ هَلَكَ عَنْ بَيِّنَةٍ وَيَحْيَا مَنْ حَيَّ عَنْ بَيِّنَةٍ » وليجعلَ الله الفوزَ والعاقبة للمتقين ، والخزْىَ فى الدنيا والآخرة على الكافرين .

وقد رأى أمير المؤمنين ـ وبالله توفيقُه وإرشادُه ـ أن يحملَ أهلَ الذِّمّة جميعا بحَضْرته وفى نواحى أعماله أقربِها وأبعدِها ، وأخصِّهم وأخَسّهم ، على تصيير

---

(١) الرجس : القذر .

طيالِسَتهم(١) التى يلبَسونها ، مَن لَبِسها من تجّارهم وكتّابهم وكبيرهم وصغيرهم ، على ألوان الثياب العَسَليّة ، لايتجاوز ذلك منهم متجاوزٌ إلى غيره ، ومن قَصُر عن هذه الطبقة من أتباعهم وأرذالهم ومن يقعُد به حالُه عن لُبْس الطيالسة منهم ، أُخِذ بتركيب خِرْقتين ، صِبْغُهما ذلك الصِّبغ ، يكون استدارةُ كلٍّ واحدة منهما شِبْرا تامًّا فى مِثله ، على موضعٍ أمامَ ثوبه الذى يلبَسُه تِلقاءَ صدره ومن وراء ظهره ، وأن يؤخذ الجميع منهم فى قَلانِسِهم(٢) بتركيب أزِرَّة عليها ، يخالفُ ألوانُها ألوانَ القلانس ، ترتفع فى أماكنها التى تقَع بها ، لِئلّا تُلصَقَ فتُستَر ، ولا ما يركَّبُ منها على حِباكٍ(٣) فيَخْفَى ، وكذلك فى سروجهم باتخاذِ رُكُبٍ(٤) خَشَبٍ لها ، ونَصْبِ أُكَرٍ على قَرابيسِها(٥) تكون ناتِئَةً عنها ومُوفِيةً عليها ، لايُرخَّصُ لهم فى إزالتها عن قرابيسهم وتأخيرِها إلى جوانبها ، بل تتفقَّدُ ذلك منهم ليقع ما وقع من الذى أَمَر أمير المؤمنين بحَمْلهم عليه ظاهِراً يتبيَّنه الناظِرُ من غير تأمل ، وتأخذه الأعينُ من غير طلب ، وأن تؤخذ عَبيدهم وإماؤهم ومَن يلبَس المناطِق من تلك الطبقة بشدِّ الزَّنانيرِ والكَساتِيجِ(٦) مكان المناطق التى كانت فى أوساطهم ، وأن تُوعِزَ إلى عمّالك فيما أَمَر به أمير المؤمنين فى ذلك إيعازاً تحدُوهم(٧) به إلى استقصاء ما تقدّم إليهم فيه ،

---

(١) الطيالسة جمع طيلسان بفتح الطاء وتثليث اللام : ضرب من الأكسية أسود ، فارسى معرب .

(٢) القلانس : جمع قلنسوة بفتحتين فسكون فضم ففتح ، وهى لباس الرأس .

(٣) الحباك : حبل يشد به على الوسط .

(٤) الركب ، جمع ركاب بالكسر ، والركاب للسرج كالغرز للرحل .

(٥) القرابيس : جمع قربوس بفتح أوله وثانيه ، وهو حنو السرج (بكسر الحاء) ، وله قربوسان . والكرة : معروفة ، وأصلها كروة فحذفت الواو ، وتجمع على كرات وكرين ، وتجمع أيضا على أكر وأصله وكر ، مقلوب اللام إلى موضع الفاء ، ثم أبدلت الواو همزة لا نضمامها ، وناتئة : مرتفعة .

(٦) المناطق : جمع منطقة كمكنسة ، وهى ما يشد على الوسط ، والزنانير : جمع زنار كتفاح ، وهو مايشد على وسط النصارى والمجوس ، والكساتيج جمع كستيج بالضم : وهو خيط غليظ يشده الذمى فوق ثيابه دون الزنار .

(٧) أى تسوقهم .

وتحذِّرهم إدْهانا(١) ومَيْلا ، وتتقدّم إليهم فى إنزال العقوبة بمن خالف ذلك من جميع أهل الذمة عن سبيل عِنادٍ ، وتَهْوِينٍ إلى غيره ، ليقتصرَ الجميع منهم على طَبَقَاتهم وأصنافهم على السبيل التى أَمَر أمير المؤمنين بحَمْلهم عليها ، وأخذِهم بها إن شاء الله .

فاعلَمْ ذلك مِنْ رَأْيِ أمير المؤمنين وأَمْرِه ، وأَنْفِذ إلى عُمَّالك فى نواحى عملك ما وَرَدَ عليك من كتاب أمير المؤمنين بما تعمَلُ به إن شاء الله ، وأمير المؤمنين يسأل الله رَبَّه ووليَّه أن يصلِّيَ على محمد عبدِه ورسوله ، صلى الله عليه وملائكته ، وأن يحفظه فيما استخلفه عليه من أمر دينه ، ويتولَّى ما ولاَّه مما لا يبلُغُ حَقَّه فيه إلا بعَوْنه ، حِفظا يحمِل به ما حَمَّله ، وولايةً يقضِى بها حَقَّه منه ، ويوجب بها له أكملَ ثوابه ، وأفضلَ مزيده ، إنه كريم رحيم » .

وكتب إبراهيم بن العباس فى شَوَّال سنة خمس وثلاثين ومائتين .

(تاريخ الطبرى ١١ : ٣٦)

٧٥ ـ كتاب المتوكل بولاية العهد لبنيه

وفى سنة ٢٣٥ هـ أيضاً عقد المتوكل البيعة لبنيه الثلاثة ـ المنتصر والمعتز والمؤيَّد ـ بولاية العهد ، وضم إلى المنتصر إفريقية والمغرب وما يضاف إليها ، وإلى المعتز كُوَرخُراسان وما يضاف إليها ، وإلى المؤيد الشأم ، وكتب بينهم كتابا نسخته :

« هذا كتابٌ كتبَه عبدُ الله جعفرٌ الإمامُ المتوكِّلُ على الله أمير المؤمنين ، وأَشْهَدَ اللهَ على نفسه بجميع مافيه ، ومَن حَضَرَ من أهل بيته وشيعته وقُوَّادِه وقُضاتِه وكُفَاتِه وفُقهائِه وغيرهم من المسلمين ، لمحمدٍ المنتصر بالله ولأبى عبد الله المعتزِّ بالله ، وإبراهيم المؤيَّد بالله بَنِي أمير المؤمنين ، فى أصالةٍ مِن رأيه ، وعُموم من عافية بَدَنه ،

---

(١) الإدهان : الغش .

واجتماعِ مِن فَهْمه ، مختاراً لما تَعهد به ، متوخّيا بذلك طاعةَ ربه ، وسلامةَ رعيّته واستقامتَها ، وانقيادَ طاعتِها ، وَاتّساعَ كلمتها ، وصلاحَ ذاتِ بينِها ، وذلك في ذى الحِجّة سنةَ خمسٍ وثلاثين ومائتين ، إلى محمدٍ المنتصرِ بالله بن جعفر الإمامِ المتوكّلِ على الله أمير المؤمنين ولايةُ عَهْدِ المسلمين في حياته ، والخلافةُ عليهم مِن بعـــده ، وأمَرَه بتقوى الله التي هي عِصمَةُ مَن اعتصم بها ، ونجاةُ مَن لجأ إليها ، وعزُّ مَن اقتصر عليها فإنّ بطاعة الله تَتِمُّ النعمةُ ، وتجبُ من الله الرحمةُ ، والله غفور رحيم ، وجعل عبد الله جعفرٌ الإمامُ المتوكل على الله أميرُ المؤمنين الخلافةَ من بعد محمدٍ المنتصر بالله ابن أمير المؤمنين ، إلى أبى عبد الله المعتزّ بالله ابن أمير المؤمنين ، ثم من بعد أبى عبد الله المعتزّ بالله ابن أمير المؤمنين الخلافة إلى إبراهيم المؤيَّد بالله ابن أمير المؤمنين .

وجعل عبدُ الله جعفرٌ الإمامُ المُتوكلُ على الله أميرُ المؤمنين لمحمدٍ المنتصر بالله ابن أمير المؤمنين، على أبى عبد الله المعتزّ بالله وإبراهيمَ المؤيَّد بالله ابنَيْ أمير المؤمنين: السمعَ والطاعةَ والنَّصيحة والمُشايَعةَ والمُوالاةَ لأوليائه ، والمعاداةَ لأعدائه ، في السِّرِّ والجَهْر ، والغَضَب والرِّضا ، والمَنْع والإعطاء ، والتمسكَ ببَيْعته ، والوفاء بعهده ، لا يَبْغيانه غائلةً[1] ، ولا يحاولانه مُخَاتَلةً ، ولا يُمالِئان[2] عليه عدوًّا ، ولا يستبدَّان دُونَه بأمرٍ يكون فيه نقصٌ لِمَا جَعَلَ إليه أميرُ المؤمنين ، من ولاية العهد في حياته والخلافةِ من بعده .

وجَعَل عبدُ الله جعفرٌ الإمامُ المتوكلُ على الله أمير المؤمنين على محمدٍ المنتصر بالله ابن أمير المؤمنين ، لأبى عبد الله المعتز بالله وإبراهيمَ المؤيَّد بالله أبنى أمير المؤمنين : الوفاءَ بما عقَده لهما ، وعهِد به إليهما، من الخلافة بعد محمدٍ المنتصر بالله ابن أمير المؤمنين - وإبراهيمُ المؤيَّد بالله ابن أمير المؤمنين الخليفةُ من بعد أبى عبد الله المعتز بالله ابن أمير المؤمنين - والإتمامَ على ذلك ، ولا يخلعهما ، ولا واحدا منهما ، ولا يَعقِد دونهما

(١) الغائلة : الداهية . والمخاتلة : المخادعة .
(٢) مالأه على الأمر : ساعده وشايعه .

ولا دونَ واحدٍ منهما بَيعةً لولد ولا لأحدٍ من جميع البَرِيّة، ولا يؤخِّر منهما مقدّما، ولا يقدِّم منهما مؤخَّرا، ولا يَنقُصُهما، ولا واحدا منهما شيئا من أعمالهما التى ولّاهما عبدُ الله جعفرٌ الإمامُ المتوكلُ على الله أمير المؤمنين، وكلَّ واحدٍ منهما، من الصلاة والمعَاون والقضاءِ والمَظالم والخَراج والضِّياع والغنيمة والصَّدَقات وغير ذلك من حقوق أعمالهما، وما فى عمل كلِّ واحد منهما من البريد والطِّراز[(١)] وخَزْن بيوت الأموال والمَعاون ودُورِ الضَّرب، وجميع الأعمال التى جعلها أمير المؤمنين ويجعلها إلى كل واحد منهما، ولا يَنقُل عن واحد منهما أحدا من ناحيته من القُوّاد والجند والشاكِرِيّة[(٢)] والمَوالِي والغِلمان وغيرهم، ولا يعترض عليه فى شىء من ضِياعه وإقطاعاتِه وسائرِ أمواله وذخائره وجميع ما فى يده وما حَواه ومَلَكَتْ يدُه، من تالدٍ وطارِف، وقديمٍ ومستأنف، وجميع ما يستفيده ويُستفاد له، بنقْض، ولا بخَرْمٍ، ولا بجَنَف[(٣)]، ولا يَعرِض لأحد من عُمّالِه وكُتّابه وقُضاته وخَدمه ووكلائِه وأصحابه وجميع أسبابه، بمناظرة ولا محاسَبة، ولا غير ذلك من الوجوه والأسباب كلِّها، ولا يَفسَخُ فيما وكَّده أمير المؤمنين لهما فى هذا العقد والعهد بما يُزيل ذلك عن جهته، أو يؤخِّره عن وقته، أو يكون ناقضا لشىء منه.

وجعل عبد الله جعفر المتوكلُ على الله أمير المؤمنين على أبى عبد الله المعتزِّ بالله ابن أمير المؤمنين، إن أفْضَت إليه الخلافةُ بعد محمد المنتصر بالله ابن أمير المؤمنين، لإبراهيم المؤيَّد بالله ابن أمير المؤمنين، مِثلَ الشرائط التى اشترطها على محمد المنتصر بالله ابن أمير المؤمنين، بجميع ما سُمِّى فيه وَوَصَفَ فى هذا الكتاب، وعلى ما بَيّن وفَسَّر، مع الوفاء من أبى عبد الله المعتز بالله ابن أمير المؤمنين، بما جعلَه أمير المؤمنين

---

(١) انظر ص ١٩٥ من الجزء الثالث.

(٢) الشاكرى: الأجير والمستخدم.

(٣) أصل الخرم: ثقب الخرزة. ومعناه هنا: النقص. والجنف: الميل والجور. وفى الأصل «ولا بحرم ولا بجنف» وأراه مصحفا.

لإبراهيم المؤيَّد بالله ابن أمير المؤمنين مِن الخلافة وتسليم ذلك رَضِيًّا مَمْضِيًّا له مقدَّما مافيه حقُّ الله عليه وما أمرَه به أمير المؤمنين، غير ناكِثٍ ولا ناكِبٍ[1] بذلك ولا مُبَدِّل، فإن الله تعالى جدُّه، وعزَّ ذِكرُه، يتوعد من خالف أمرَه، وعَنَدَ[2] عن سبيله فى مُحْكَمِ كتابه: «فَمَنْ بَدَّلَهُ مِنْ بَعْدِ مَا سَمِعَهُ فَإِنَّمَا إِثْمُهُ عَلَى الَّذِينَ يُبَدِّلُونَهُ إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ».

على أن لأبى عبد الله المعتز بالله ابن أمير المؤمنين، ولإبرهيمَ المؤيَّد بالله ابن أمير المؤمنين، على محمدٍ المنتصر بالله ابن أمير المؤمنين [إذا أفضت الخلافة إليه[3]] وهما مقيمان بحضرته، أو أحدُهما، أو كانا غائبَيْن عنه، مجتمعَيْن كانا أو متفرّقَيْن، وليس أبو عبد الله المعتزُّ بالله ابن أمير المؤمنين فى ولايته بخُراسان وأعمالها المتصلة بها والمضمومة إليها، وليس إبراهيمُ المؤيد بالله ابن أمير المؤمنين فى ولايته بالشام وأجنادِها، فعَلَى محمد المنتصر بالله ابن أمير المؤمنين أن يُمْضِيَ أبا عبد الله المعتزَّ بالله ابنَ أمير المؤمنين إلى خُراسان وأعمالها المتصلة بها والمضمومة إليها، وأن يسلِّم له ولايتَها وأعمالها كلَّها وأجنادَها، والكُوَرَ الداخلةَ فيما وَلَّى جعفرٌ الإمامُ المتوكلُ على الله أمير المؤمنين أبا عبد الله المعتزَّ بالله ابن أمير المؤمنين، فلا يُعَوِّقُه عنها، ولا يحبسُه قِبلَه، ولا فى شىء من البُلْدان دون خراسان والكُوَرِ والأعمالِ المضمومة إليها، وأن يُعجِّلَ إشخاصَه إليها، وَالِيًا عليها وعلى جميع أعمالها، مُفْرَدًا بها، مفوَّضًا إليه أعمالُها كلُّها، لِيَنزِلَ حيثُ أحبَّ مِن كُوَر عمله، ولا ينقله عنها، وأن يُشخِصَ معه جميعَ مَن ضَمَّ إليه أميرُ المؤمنين، ويَضُمُّ من مَواليه وقواده وشاكِريَّته وأصحابه وكُتَّابه وعُمَّاله وخدمه، ومن اتبعه من صنوف الناس بأهاليهم وأولادهم وعِيالهم وأموالهم، ولا يحبسُ عنه أحدا، ولا يُشْرِك فى شىء من أعماله أحدا، ولا يوجِّه عليه

---

(١) نكب عنه كنصر وفرح: عدل.

(٢) عند عن الطريق كنصر وسمع وكرم: مال.

(٣) مابين القوسين ساقط من الأصل، والسياق يقتضيه، وسيرد نظيره فى الرسالة نفسها بعد.

أمينا ولا كاتبا ولا بريدا ، ولا يَضرِب[1] على يده فى قليل ولا كثير ، وأن يُطْلِق محمدٌ المنتصرُ بالله لإبراهيم المؤيد بالله ابن أمير المؤمنين الخروجَ إلى الشأم وأجنادها ، فيمن ضَمَّ أمير المؤمنين ويضمُّه إليه ، من مواليه وقواده وخَدَمه وجنوده وشاكِريّته وصحابته وعُمّاله وخُدّامه ، ومن اتبعه من صنوف الناس بأهاليهم وأولادهم وأموالهم ولا يحبِسُ منهم أحداً ، ويسلِّم إليه ولايَتَها وأعمالَهَا وجنودَها كلَّها ، لا يعوِّقهُ عنها ولا يحبسه قِبَله ، ولا فى شىء من البُلدان دونها ، وأن يعجِّل إشخاصَه إلى الشأم وأجنادها ، والياً عليها ، ولا ينقلُه عنها ، وأنَّ عليه له فيمن ضُمَّ إليه من القُوّاد والموالى والغلمان والجنود والشاكريّة وأصنافِ الناس ، وفى جميع الأسباب والوجوه مثلَ الذى اشتُرِطَ على محمد المنتصر بالله ابن أمير المؤمنين لأبى عبد الله المعتز بالله ابن أمير المؤمنين فى خراسان وأعمالها ، على ما رُسِم من ذلك وبُيِّن ولُخِّصَ وشُرِح فى هذا الكتاب .

ولإبرهيم المؤيد بالله ابن أمير المؤمنين على أبى عبد الله المعتز بالله ابن أمير المؤمنين إذا أفضَتِ الخلافةُ إليه وإبراهيمُ المؤيد باللهمقيم بالشأمأن يُقِرّه بها،أو كان بحضرته أو كان غائبا عنه، أن يُمْضِيه إلى عمله من الشأم، ويسلِّم إليه أجنادَها وولايتها وأعمالها كلها ، ولا يعوِّقه عنها ، ولا يحبِسه قِبَلَه ولا فى شىء من البلدان دونها ، وأن يعجِّلَ إشخاصه إليها ، والياً عليها وعلى جميع أعمالها ، على مثل الشرط الذى أُخِذ لأبى عبد الله المعتز بالله ابن أمير المؤمنين على محمد المنتصر بالله ابن أمير المؤمنين ، فى خراسان وأعمالها ، على ما رُسِم ووُصِف وشُرِط فى هذا الكتاب لم يجعل أميرُ المؤمنين لواحد ممن وَقَعت عليه وله هذه الشروطُ ، من محمد المنتصر بالله وأبى عبد الله المعتز بالله وإبراهيم المؤيد بالله بَنِى أمير المؤمنين ، أن يُزيل شيئا مما اشترطنا فى هذا الكتاب ووَكَّدْنا ، وعليهم جميعا الوفاء به ، لا يقبَلُ الله منهم إلا ذلك ولا التمسكَ إلا بعهد الله فيــــه ، وكان عَهْدُ الله مَسْئُولاً .

(١) ضرب على يده : منعه من أمر أخذ فيه ، كحجر عليه .

أشهدَ اللهَ ربَّ العالمين جعفرٌ الإمام المتوكلُ على الله أميرُ المؤمنين ومَن حَضَرَ من المسلمين بجميع ما فى هذا الكتاب ، على إمضائه إياه ، على محمد المنتصر بالله وأبى عبد الله المعتز بالله وإبراهيم المؤيد بالله بَنِى أمير المؤمنين ، بجميع ما سَمَّى وَوصَفَ فيه ، وكَفَى بالله شهيدا ومُعِينا لمن أطاعه راجيا ، ووفَى بعَهْدِه خائفا ؛ وحَسِيباً ومُعاقِبا مَن خالفَه مُعانِدا ، أو صَدَفَ[1] عن أمره مجاهِداً .

وقد كُتِب هذا الكتاب أربعَ نُسَخ ، وُقِّعت شهادةُ الشهود بِحَضْرة أميرالمؤمنين فى كل نسخةٍ منها ، فى خِزانة أمير المؤمنين نسخةٌ ، وعند محمد المنتصر ابن أميرالمؤمنين نسخة ، وعند أبى عبدالله المعتز بالله ابن أمير المؤمنين نسخة ، ونسخة عند إبرهيم المؤيد بالله ابن أمير المؤمنين .

وقد وَلَّى جعفرٌ الإمامُ المتوكلُ على الله أبا عبد الله المعتز بالله ابن أمير المؤمنين أعمالَ فارس وأَرْمِينِيَّة وأذْرَبيجان إلى ما يَلِى أعمالَ خراسان وكُوَرَها وأعمالها المتصلة بها والمضمومة إليها ، على أن يجعل له على محمدٍ المنتصر بالله ابن أمير المؤمنين فى ذلك ، الذى جَعَل له فى الحياطة فى نفسه ، والوَثاق فى أعماله والمضمومين إليه وسائر مَن يستعين به من الناس جميعا ، فى خراسان والكُوَرِ المضمومة إليها والمتصلة بها ، على ما سمّى ووَصَفَ فى هذا الكتاب » . (تاريخ الطبرى ١١ : ٣٩)

٧٦ — كتاب عبيد الله بن يحيى بن خاقان إلى الحسن بن عثمان

وفى سنة ٢٤١ هـ ضُرب عيسى بن جعفر بن محمد بن عاصم ، صاحب خان عاصم ببغداد ألف سوط فيما قيل .

وكان السبب فى ذلك أنه شهد عليه عند أبى حَسَّان الزيادىّ قاضى الشرقية ، أنه

---

(١) صدف عنه كضرب : أعرض .

شتم أبا بكر وعمر وعائشة وحَفْصة(١) ، سَبْعَةَ عَشَرَ رجلا ، شهاداتهم فيما ذكر مختلفة من هذا النحو ، فكتب بذلك صاحب بريد بغداد إلى عُبيد الله(٢) بن يحيى بن خاقان ، فأنهَى عبيد الله ذلك إلى المتوكل(٣) ، فأمر المتوكل أن يكتب إلى محمد بن عبد الله بن طاهر(٤) يأمره بضرب عيسى هذا بالسياط ، فإذا مات رُمى به فى دجلة ، ولم تدفع جيفته إلى أهله ، فكَتَب عبيد الله إلى الحسن بن عثمان(٥) جوابَ كتابه إليه فى عيسى :

« بسم الله الرحمن الرحيم : أبقاك الله وحَفِظك ، وأتم نعمتَه عليك ، وصل كتابُك فى الرجل المسمَّى عيسى بن جعفر بن محمد بن عاصم صاحب الخانات ، وما شَهِد به الشهودُ عليه مِن شَتْمِ أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم ولَعْنِهم وإكفارهم وَرَمْيِهم بالكبائر ، ونسبتهم إلى النفاق ، وغير ذلك مما خرج به إلى المعاندة لله ولرسوله صلى الله عليه وسلم ، وتثبُّتِك فى أمر أولئك الشهود وما شهِدوا به ، وما صَحَّ عندك من عَدَالة مَن عَدَل منهم ، وَوَضَح لك من الأمر فيما شهِدُوا به ، وشَرْحك ذلك فى رُقْعةِ دَرْجٍ(٦)

---

(١) هى حفصة بنت عمر بن الخطاب .

(٢) وزير المتوكل ــ انظر الفخرى ص ٢١٦ ، ذكر الطبرى أنه استكتبه سنة ٢٣٦ هـ ــ تاريخ الطبرى ١١ : ٤٤ .

(٣) وكان مقر الخلافة يومئذ مدينة سر من رأى (سامرا) بفتح الميم ، وهى مدينة بين بغداد وتكريت على شرق دجلة . وذلك أن جيوش المعتصم كانوا قد كثروا حتى بلغ عدد مماليكه من الأتراك سبعين ألفا ، فمدوا أيديهم إلى حرم الناس ، وسعوا فيها بالفساد ، وضاقت عنهم بغداد ، وكان إذا ركب مات جماعة من الصبيان والعميان والضعفاء لازدحام الخيل وضغطهم ، فاجتمع أهل الخير على باب المعتصم وقالوا له : إما أن تخرج من بغداد فإن الناس قد تأذوا بعسكرك ، وإما أن نحاربك ، فقال : كيف تحاربونى ؟ قالوا : نحاربك بسهام السحر ، قال : وما سهام السحر ؟ قالوا : ندعو عليك ، فقال : لا طاقة لى بذلك ، وخرج من بغداد وبنى « سر من رأى » سنة ٢٢١ هـ ونزل بها ، وأقام بها ابنه الواثق ثم المتوكل ، وبنى بها قصورا كثيرة ــ ولم يبن بها أحد من الخلفاء من الأبنية الجليلة مثل مابناه المتوكل ، ولم تزل فى صلاح وزيادة وعمارة إلى آخر أيام المنتصر بن المتوكل ، ثم أخذت فى التناقص إلى أن كان آخر من انتقل إلى بغداد من الخلفاء وأقام بها وترك « سر من رأى » المعتضد بالله المتوفى سنة ٢٨٩ هـ انظر معجم ياقوت ٥ : ١٢ والفخرى ص ٢١١ .

(٤) قال الطبرى (١١ : ٤٥) « وفى سنة ٢٣٧ قدم محمد بن عبد الله بن طاهر من خراسان ، فولى الشرطة والجزية وأعمال السواد وخلافة أمير المؤمنين بمدينة السلام ، ثم صار إلى بغداد » .

(٥) صاحب بريد بغداد . (٦) الدرج : الذى يكتب فيه .

كتابك ، فعرضتُ على أمير المؤمنين — أعزّه الله — ذلك ، فأمر بالكتاب إلى أبي العباس محمد بن عبد الله بن طاهر مولى أمير المؤمنين — أبقاه الله — بما قد نفذ إليه مما يُشْبِه ما عنده — أبقاه الله — من نُصرة دين الله وإحياء سُنّته ، والانتقامِ ممن ألحدَ فيه ، وأن يُضرَب الرجل حدًّا في مَجْمَع الناس حدّ الشتم ، وخمسمائةِ سوطٍ بعد الحدّ للأمور العِظام التي اجترأ عليها ، فإن مات أُلقِيَ في الماء من غير صلاة ، ليكون ذلك ناهيا لكل مُلْحِد في الدين ، خارجٍ من جماعة المسلمين ، وأعلمتُك ذلك لتعرِفَه إن شاء الله تعالى ، والسلام عليك ورحمة الله وبركاته » .

وذكر أن عيسى هذا لما ضرب تُرِكَ في الشمس حتى مات ، ثم رمى به في دجلة .

(تاريخ الطبرى ١١ : ٥١)

٧٧ — كتاب أبي العيناء إلى عبيد الله بن يحيى بن خاقان

وحَمَل محمد بن عُبَيد الله بن يحيى بن خاقان أبا العَيْناء[١] على دابّة زعم أنه غير فارِهٍ[٢] ، فكتب إلى أبيه عبيد الله :

« أعلِمُ الوزير — أعزّه الله — أن أبا على محمدا أراد أن يَبَرَّنى فعَقَّنى ، وأن يُرْكبنى فأرْجَلنى ، أمَرَ لى بدابة تقف للنَّبْرة[٣] ، وتعثُر بالبَعْرة ، كالقضيب اليابس

---

(١) هو محمد بن القاسم بن خلاد ، وكان فصيحا بليغا شاعرا ، وكان من ظرفاء العالم ، وفيه من اللسن وسرعة الجواب والذكاء مالم يكن فى أحد من نظرائه ، وله مع المتوكل مجالس ، ولد سنة ١٩١هـ وعمى وعمره أربعون سنة وتوفى سنة ٢٨٢ — انظر ترجمته فى وفيات الأعيان ١ : ٥٠٤ ، وزهر الآداب ١ : ٢٨٩ — ٢٩٦ . والفهرست لابن النديم ص ١٨١ .

(٢) الدابة : مادب من الحيوان ، وغلب على مايركب ، ويقع على المذكر ، والفاره من الدواب : الجيد السير ، قالوا : ويقال البغل والحمار والبرذون : فاره ، ولا يقال للفرس فاره ، ولكن رائع وجواد .

(٣) يقال . نبر الرجل نبرة : إذا تكلم بكلمة فيها علو ، والنبرة : صيحة الفزع ، ونبرة المغنى : رفع صوته عن خفض .

عَجَفاً(١) ، وكالعاشق المهجور دَنَفا(٢) ، قد أذكرت الرُّواة عُرْوَةَ(٣) العُذْرِيَّ ، والمجنونَ العامريَّ(٤) ، مساعِدُ أعلاه لأسفله ، حُباقُهُ(٥) مقرون بسُعاله ، فلو أمسَكَ الترجِّيتُ ، ولو أفردَ لتعزَّيتُ ، ولكنه يجمعهما فى الطريق المعمور ، والمجلسِ المشهور ، كأنه خطيبٌ مُرْشِد ، أو شاعر مُنْشِد ، تضحك من فعله النِّسوانُ ، وتتناغَى(٦) من أجله الصِّبيانُ ، فمن صائحٍ يصيح دَاوِه بالطَّباشير(٧) ، ومن قائل يقول : نوِّله(٨) الشعيرَ ، قد حفظ الأشعارَ ، وَرَوَى الأخبار ، ولحق العلماء فى الأمصار ، فلو أُعِين بنطق ، لَرَوَى بحقٍّ وصِدْق ، عن جابرٍ الجُعْفِيّ ، وعامر الشَّعْبي(٩) .

وإنما أُوتيتُ من كاتبه الأعور ، الذى إذا اختار لنفسه أطابَ وأكثَرَ ، وإن اختار لغيره أخْبَثَ وأنْزَرَ(١٠) ، فإن رأى الوزير أن يُبْدِلنى به ، ويُرِيحنى منه بمركوب.

---

(١) العجف : الهزال .

(٢) الدنف : المرض الملازم .

(٣) فى الأصل « عذرة » وهو تحريف وصوابه « عروة » وهو عروة بن حزام بن مهاصر العذرى صاحب عفراء بنت عقال بن مهاصر — بنت عمه — وهو شاعر إسلامى ، وأحد المتيمين الذين قتلهم الهوى ، مات من حب ابنة عمه عفراء — انظر ترجمته فى الأغانى ٢٠ : ١٥٢ ، والشعر والشعراء ص ٢٣٧ ، واقرأ قصيدته النونية فى الأغانى ، وفى كتاب النوادر لأبى على القالى عقب ذيل الأمالى ، والعـــذرى نسبة إلى عذرة : قبيلة من اليمن ، وهم مشهورون بالعشق والعفة ، ومنهم جميل بن عبد الله ابن معمر العذرى صاحب بثينة ، وخبره مشهور — انظر ترجمته فى الأغانى ٧ : ٧٢ ، ووفيات الأعيان ١ : ١١٥ .

(٤) هو قيس بن الملوح مجنون بنى عامر ، صاحب ليلى ، وخبره مشهور أيضاً — انظر خبره فى الأغانى ١ : ١٦١ ، ٢ : ٢ .

(٥) الحباق : الضراط .

(٦) ناغت المرأة الصبي : كلمته بما يعجبه ويسره .

(٧) الطباشير : دواء يكون فى جوف القنا الهندى .

(٨) نوِّله : أعطاه .

(٩) الجعفى : نسبة إلى جعفى بن سعد العشيرة بن مذحج ، أبو حى باليمن ، وأعقب جعفى من ولديه حران (كرمان) وصرح (كزبير) ومن ولد مران جابر بن يزيد الفقيه — انظر شرح القاموس ٦ : ٥٧ ، وعامر الشعبي : هو عامر بن شراحيل (بفتح الشين) كوفى تابعى جليل القدر وافر العلم ، قال الزهرى : « العلماء أربعة : سعيد بن المسيب بالمدينة ، والشعبي بالكوفة ، والحسن البصرى بالبصرة ، ومكحول بالشام » والشعبي نسبة إلى شعب ، وهو بطن من همدان ، وكانت أمه من سبي جلولاء ، وتوفى سنة ١٠٤ هـ — انظر ترجمته فى وفيات الأعيان ١ : ٢٤٤ .

(١٠) أنزره : قلله .

يُضحِكني كما أضحَكَ مني ، ويمحو بحُسْنه وفراهته ، ماسطَّره العَيبُ بقبحه وَدَمامَته[١] ، ولست أذكر أمر سَرجه ولجامه ، فإن الوزير أكرم من أن يَسْلُب مايُهْديه ، أو ينقُض ما يُمْضيه » .

فوجَّه عبيد الله إليه بِرْذَوْنا[٢] من بَراذينه بسرجه ولجامه ، ثم اجتمع مع محمد ابن عبيد الله عند أبيه ، فقال عبيد الله : شكوتَ دابة محمد ، وقد أخبرني الآن أنه يشتريه منك بمائة دينار ، وما[٣] هذا ثمنه لايُشتكَى ! فقال : أعز الله الوزير ، لو لم أكذب مسترِيدا[٤] ، لم أنصرف مستفيدا ، وإني وإياه لكما «قَالَتِ آمْرَأَةُ الْعَزِيزِ : الآنَ حَصْحَصَ[٥] الْحَقُّ ، أَنَا رَاوَدْتُهُ عَنْ نَفْسِهِ وَإِنَّهُ لَمِنَ الصَّادِقِينَ» فضحك عبيد الله وقال : حُجتك الداحِضة[٦] ، بملاحتك وظَرفك، أبلغُ من حجة غيرك البالغة .

(زهر الآداب ٢ : ١٦٥)

٧٨ — كتاب عبد الله بن خاقان إلى أبي الجهم

ولعبد الله[٧] بن خاقان إلى أبي الجهْم .

« أما بعدُ فإني إن بدأتُ بصفة فضلك ، وما خَصَّك الله به ، فأنت أفضلُ مما أصِفُك ، وإن قدَّمتُ الصفة لنفسي في الإخبار عنها بما هي عليه في المودة والهوَى ، رأيتُك قد ابتدأت متفضّلا متطوّلا بما لايُؤمِّلُ أكثرُ منه ، ولا يُلتَمس على الاستحقاق في حدِّ الجزاء » . (اختيار المنظوم والمنثور ١٣ : ٣٩٤)

---

(١) الدمامة : القبح .
(٢) البراذين من الخيل : ما كان من غير نتاج العراب .
(٣) «ما» هنا موصولة .
(٤) استزاد فلان فلانا : إذا عتب عليه في أمر لم يرضه .
(٥) حصحص : تبين وظهر .
(٦) حجة داحضة : باطلة .
(٧) ربما كان « عبيد الله » .

٧٩ – كتاب أبى العيناء إلى أبى نوح

وكتب أبو العيناء إلى أبى نوح يهنئه بإسلامه :

« لقد عظُمت نعمةُ الله عليك ، فى منابذة(١) أهل الذِّلة والصَّغار ، والكفر والإصرار ، الذين أحلُّوا قَوْمَهُمْ دَارَ الْبَوَارِ ، جَهَنَّمَ يَصْلَوْنَهَا وَبِئْسَ الْقَرَارُ ، وَالَّذِينَ جَعَلُوا لِلَّهِ أَنْدَادًا ، وَدَعَوْا لِلرَّحْمَٰنِ وَلَدًا ، وَمَا يَنْبَغِي لِلرَّحْمَٰنِ أَنْ يَتَّخِذَ وَلَدًا ، إِنْ كُلُّ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ إِلَّا آتِي الرَّحْمَٰنِ عَبْدًا ، وَلْيَهْنِئْكَ نعمةُ الله عليك فى أخوّة المهاجرين والأنصار والتابعين لهم بإحسان، فقد أصبحت لهم أخا، وأصبح الدعاء لهم عليك من الله فرضا ، قال الله عز وجل : « وَالَّذِينَ جَاءُوا مِنْ بَعْدِهِمْ يَقُولُونَ رَبَّنَا اغْفِرْ لَنَا وَلِإِخْوَانِنَا الَّذِينَ سَبَقُونَا بِالْإِيمَانِ ، وَلَا تَجْعَلْ فِي قُلُوبِنَا غِلًّا لِلَّذِينَ آمَنُوا ، رَبَّنَا إِنَّكَ رَءُوفٌ رَحِيمٌ » .

ولله أبوك ! لقد قَدَحْتَ فأَوْرَيْتَ ، واستضأتَ فاهتديتَ ، ومخضتَ الأمرَ ثم اقتنيت ، لا كمن فَكَّرَ وَقَدَّرَ فقُتِلَ كَيْفَ قَدَّر ، فالحمد لله الذى أفاز(٢) قِدْحَك ، وأعلى كَعْبَك ، وأنقذ من النار شِلْوَك(٣) ، وخلَّصك من لَبْس الحَيْرة ، وحَيْرة الشِّرْك ، إن الشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ . وَمَنْ يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَكَأَنَّمَا خَرَّ مِنَ السَّمَاءِ فَتَخْطَفُهُ الطَّيْرُ أَوْ تَهْوِي بِهِ الرِّيحُ فِي مَكَانٍ سَحِيقٍ(٤) ، فأصبحت أكرمك الله وقد استبدلتَ بالبِيَعِ المساجدَ ، وبالآحادِ الجُمَعَ ، وبقِبْلة الشامِ البيتَ الحرامَ . وبتحريف الإنجيل صحةَ التنزيل ، وبارتياب المشركين يقينَ الموحِّدين ، وبحُكم الأسْقُفِّ رأسِ المُلحدين ، حُكمَ أمير المؤمنين ، وسيِّد المرسلين ، فهنأك الله بما أنعم به عليك ، وأحسنَ فيه إليك ، وأوزَعَك(٥) شكره ، وزادك بشكره من فضله » .

(اختيار المنظوم والمنثور ١٣ : ٣٠٥)

---

(١) أى مخالفة .

(٢) أى جعل الفوز من نصيبه ، يقال : أفازه الله بكذا : أى أظفره .

(٣) الشلو : الجسد . (٤) أى بعيد . (٥) أى ألهمك .

٨٠ — كتاب أبي على البصير إلى عبيد الله بن يحيي بن خاقان

وكتب أبو على البصير(١) إلى عبيد الله بن يحيى بن خاقان :

« وإن أمير المؤمنين لمّا استخلصك لنفسه ، وأتمنك على رعيّته ، فنطق بلسانك وأخذَ وَأعطَى بيدك ، وأوردَ وأصْدَر عن رأيك ، وكان تفويضُه إليك بعد امتحانه إياك ، وتسليطهِ الحقَّ على الهوَى فيك ، وبعد أن مَيّل(٢) بينك وبين الذين سَمَوا لَمرتَبتِك ، وجرَوا إلى غايتك ، فأسقطهم مِضمارُك(٣) ، وخفُّوا في ميزانك ، ولم يَزِدْك — أكرمك الله — رفعةً وتشريفا ، إلّا ازددتَ له هَيْبَةً وتعظيما ، ولا تسليطا وتمكينا ، إلا زِدت نفسَك عن الدنيا عُزُوفا(٤) وتنزيها ، ولا تقريبا واختصاصا ، إلا ازددت بالعامة رأفةً ، وعليها حَدَبا(٥) ، لا يُخرِجك فَرْطُ النُّصْح له عن النظر لرعيته ، ولا إيثارُ حقِّه ، عن الأخذ بحقّها عنده ، ولا القيامُ بما هو له عن تضمُّن ماهو عليه ، ولا يَشْغلك مُعاناةُ كبار الأمور عن تفقُّدِ صِغارها ، ولا الجِدُّ في إصلاح ما يُصْلَح منها عن النظر في عواقبها ، تُمْضِي ما كان الرشدُ في إمضائه ، وتُرْجِي(٦) ما كان الحزم في إرجائه ، وتَبذُل ما كان الفضلُ في بَذْله ، وتمنع ما كانت المصلحة في مَنعه ، وتَلين في غير تكبُّر ، وتخُصُّ في غير مَيْل ، وتعُمّ في غير تصنُّع ، لا يشقَى بك المُحِقُّ وإن كان عدوًّا ، ولا يَسعَد بك المُبْطِلُ وإن كان وَلِيًّا ، فالسلطان يعتدُّ لك من الغَناء(٧) والكفاية ، والذَّبِّ والحِياطة ، والنصح والأمانة ، والعِفّة والنزاهة ، والنَّصَب فيما أدَّى

---

(١) هو أبو على الضرير «الفضل بن جعفر» ، شاعر بليغ مترسل . وهو أحد من جمع له حظ البلاغة في الموزون والمنثور ، وكان بينه وبين أبي العيناء مهاجاة ومكاتبات طيبة — انظر الفهرست لابن النديم ص ١٧٨ ، ووفيات الأعيان ١ : ٥٠٤ ، وزهر الآداب ١ : ٣٤٠ .

(٢) التمييل بين الشيئين كالترجيح بينهما ، وفي الأصل « مثل » .

(٣) المضمار : غاية الفرس في السباق .

(٤) عزفت نفسه عنه كضرب عزوفا : زهدت فيه وانصرفت عنه .

(٥) حدب عليه كفرح : عطف .

(٦) أرجأه : أخره . (٧) الغناء : الكفاية .

إلى الراحة، بما يراك معه، حيث انتهى إحسانُه إليك، مستوجباً للزيادة، وكافَّة الرعية ـ إلّا من غَمط[١] منهم النعمةَ ـ مُثنُون عليك بحسن السِّيرة، ويُمْن النَّقيبة[٢]، ويَعُدُّون من مآثِرك أنك لم تُدْحِض[٣] لأحد حُجةً، ولم تَدْفع حقا لشُبْهة، وهذا يسيرٌ من كثير، لو قصَدْنا التفصيلَ، لأنفَدْنا الزمانَ قبل تحصيله، ثم كان قصدنا الوقوف دون الغاية منه». (زهر الآداب ١ : ٣٤١)

٨١ — كتابه إلى عبيد الله بن يحيى بن خاقان

وكتب إليه أيضاً:

«بسم الله الرحمن الرحيم: أوجَبُ المعروفِ شكرا، وأحسَنُه عند الأحرار مَوْقِعا، معروفُك عندى، وذلك أنك تطوَّعتَ به مُبتدِئا، وشَفَعْتَ ماتقدَّم منه متفضِّلا، عن غير كدٍّ لى ألْزمَك دَيْنا. أو أوجَب عليك حقا، ثم يَقطعُنى عن الأخذ بحظى من نائلك، وتعريفِك ما أنا عليه من شكر إنعامك، والانتساب إلى نعمتك، وإفرادى إياك بالتأميل دون غيرك، تخلُّفِى عن منزلة الخاصّة، ورغبتى عن مشاركة العامّة[٤]، وأنى لست معتادا الخِدْمة، ولا الملازَمة، ولا قويّا على المُغاداةِ والمُرَاوَحة، فلا يَمنَعنَّك ارتفاعُ قدرك، وعلوُّ منزلتك، وما تُعانى من جلائل الأمور التى تَشْغَلُ عمن قَدُمَت حُرْمته، ووجب حقُّه، ونسِيَ أن يذكِّرَ بنفسه، من أن تتطوَّل[٥] بتجديد ذكرى وخَبَرى، والإصغاء إلى مَن يحثُّك على وَصْلِى وبِرِّى، وبرغَّبك فى الصنيعة عندى، وأنا أسأل الذى وهب ذلك منك بغير سَعْى منى له، ولا نَصَب

---

(١) غمط النعمة كضرب وسمع: بطرها.
(٢) النقيبة: النفس والطبيعة.
(٣) أدحض الحجة. أبطلها.
(٤) وفى زهر الآداب: «ورغبتى عن الحلول عل العامة».
(٥) أى تمن وتتفضل.

كابدتُه فيه ، أن يُنسِىءَ(١) لك ولـكافة الأحرار فى أجلك : وأن يَمُنَّ عليك بحياطة نعمتك ، وكَبْتِ(٢) عدوك ، والزيادة فى القدرة لك ، ولا يُخْلى مكانك منك ، والله يعلم أنى لا أحبُّ أن أتحمل مِنَّةً إلا لك . ولا أعتدَّ عارفةً مذكورة إلا منك » .

(اختيار المنظوم والمنثور ١٣ : ٣٨٤ ، وزهر الآداب ١ : ٣٤١)

* * *

وله إليه آخر فصل من كتاب :

« وأنا أسأل الذى رَحم العبادَ بك ، على حين افتقارٍ منهم إليك ، أن يُعيذهم مِن فَقْدك ، ولا يُعيدهم إلى المَـكارهِ التى استنقذهم منها بيدك » .

(زهر الآداب ١ : ٣٤١)

٨٢ ــ كتاب أبى علىٍ البصير إلى أبى العيناء

وكتب أبو على البصير إلى أبى العيناء :

« من أبى علىّ البصير ، ذى البُرهان المُنير ، المُبْلِـغ فى التحذير ، المُنْذِر فى النَّـكِير ، إلى أبى العَيْناء الضَّرير ، ذى الرأى القصير ، والخَطَل الـكثير ، والإقدام بالتعيير » .

سلامٌ على المخصوصين بالسلام ، من أجْلِ حقيقة الإسلام ، المؤمنين بالحلال والحرام ، والفرائض والأحكام ، فإنى أحمَدُ اللهَ إلى نفسه وأوليائه مِن خلقه ، على ما هدانى له مِن دِينه ، وعرَّفنى من حقّه ، وامتَنَّ عَلَىَّ به من تصديق رُسُله ، والأخذِ بسُنَنه واتِّباعِ سُبُلِه ، وصلَّى الله على محمد نبى الرحمة ، الداعى إلى ربِّه بالحـكمة .

أمّا بعدُ ، فإنك الرجل الدقيقُ(٣) حَسَبُه ، الردىء مذهبُه ، الدنىء مكسَبُه ، الخسيسُ مَطْلَبُه ، البَذِىُّ لسانُه ، القَلِىُّ(٤) مكانُه ، المبلُوُّ به إخوانُه ، أخَصُّهم بذلك

(١) أى يطيل وعد . (٢) كبت العدو كضرب : أخزاه وأذله ورده بغيظه .

(٣) وربما كان « الرقيق » .

(٤) قلاه كرماه ورضيه قلى : أبغضه وكرهه غاية الـكراهة .

مَن عظُمت [عنده] نِعمهُ وتظاهرَ إحسانُه ، قد صيَّرتَ القِحةَ[1] جُنَّةً ، وشَتْمَ الأعراض سُنَّةً ، والاقتصادَ فى ذلك مِنةً ، عَدوُّك بمَعْزِل عنك ، وصديقُك على وَجَل منك ، إن شاهدتَه عافَك ، وإن غِبتَ عنه خافك ، تسأله فوق الطاقة ، وترْهِقه عند الفاقة ، فإن اعتذر إليك لم تَعْذِره ، وإن استنظَرَك لم تُنْظِره[2] ، وإن أنعم عليك لم تشكُره ، لاتَزيدك السِّنّ إلا نقصاً ، ولا يُفيدك الغِنَى إلا حِرصا ، تسمو إلى الكبير ، بقَدْر صغير ، وتُسِفُّ إلى الطفَيف ، لا للتخفيف ، وتَعرِضُ للناس بالسؤال ، غيرَ محتشِم من الإملال ، ولا كارِهٍ أنْ يُنظَرَ إليك بالاستقلال ، حتى لقد أخرجتَ الأضغانَ ، وقبَّحتَ الإحسان ، وزهَّدْتَ فى اصطناع المعروف ، وإغاثة الملهوف ، وعذَرْتَ الناسَ فى خُلْف العِدَاتِ ، ودفعِ مُمْكِن الحاجات ، وأغريتَهم ببُغض العُمْيان دون أهلِ العاهات ، مَن أطاعك فى ماله حربْتَه[3] ، وَمن مَنَعك بعذر واضح سَبَبْتَه ، إذا عَنَّ لك طمع كنتَ عبدَه ، بتَذَلُّل وتخشع لمن هو عندَه ، وتنوى قبل إحرازه جَحْدَه ، مَن أكرمَك أهنتَه وتطاولت عليه ، ومن أهانك استكنت[4] له ولِنْتَ فى يديه ، ومَن سالَمَك لم تسالمه ، وَمن ناجَزَك لم تقاومْه ، الناسُ منك بين أسرار تُفْشَى ، وبوائقَ[5] تُخْشَى ، وشَناعاتٍ واردة ، ونوادِرَ باردة ، تُدْرِجُ[6] كلامَك خوفَ التحصيل ، وتورِّى عن عِيِّك بالقال والقِيل ، معاشرتُك متجنِّبة ، وأحاديثك متكذِّبة ، لايُستَجنَى بها فَهمٌ ، ولا يستفاد منها علم ، تُهامَس بسقوطها فلا يَحشِمك ، وتُتَلَقَّى بالردِّ لها فلا يُؤْلمك ، تسمع كلام خِيار السَّلَف فتدَّعيه ، إفساداً وإلحاداً فيه ، والتماساً لإبطال حُجَج الدين ، وتَشكيكا لأهل البصيرة واليقين ، فإن

---

(١) القحة : الوقاحة . والجنة : الوقاية .
(٢) أنظره : أخره .
(٣) حربه حربا كطلبه طلبا : سلب ماله .
(٤) فى الأصل « اسكنت » .
(٥) جمع بائقة : وهى الداهية .
(٦) أى تطوى .

امتُحِنْتَ بدون ما ادَّعيتَ ، أحجمْتَ وتعادَيْتَ(١) ، وإن كُلِّفْتَ مضاهاتَه هَذَيْتَ وعوَيت ، ظاهِرُ إسلامك تقِيَّة ، وسريرتُه مدخولةٌ رَدِيَّة ، تَضْغَثُ(٢) فى الخَبَرِ عن الرسول ، وتدفَع المعروفَ منه بالمجهول ، وُدُّك تخلّق ، وشكرك تملُّق ، ولُطفُك متعسَّف ، وظَرْفك متكلَّف ، أعظمُ المصائب عندك نَيْلٌ حُرمَتَه ، لا تَحفِلُ مع إدراكه بشىء عَدِمْتَه ، إرْثُكَ عن أبيك السِّعاية ، ونَقْلُ الأخبار والوِشاية ، لا يُعرَف له غيرها طُعْمَة(٣) ، ولم يكن له إلّا بها نعمة ، مشهورٌ بذلك فى مِصْره ، غير مرتاب من أمره، ثم أنت تبسُط لسانك فى الأحرار ، وتتطاول على ذوى المُرُوءات والأقدار ، فلا أصلٌ راسخ ، ولا فرعٌ شامخ ، ولا نَسَبٌ معروف ، ولا أدب موصوف ، أغراك حِلْمُنا [عليك بالتطاوُل](٤) علينا ، وإبطاؤنا عنك بالتسرُّع إلينا،فتأنَّيْناك(٥) وراقبناك ، واحتججنا عليك [فلم تُنْكِر معتذِرا] ولم تَقْصِر مُزْدَجِرا ، بل(٦) لم تُجبِنى عن واحد منها ، تعابِياً(٧) بها وعَجزا عنها ثم أوهمتَ أخلاطا من الناس أهلَ جهلٍ بالتمييز والقياس — لا ينظرون بفَهْم . ولا يحكُمون بعلم ، ولا يُنزِلون الأمورَ منازِلَها ، ولا يعرفون حقَّها وباطلَها ، يظنّون البلاغة فى الهَذَر(٨) ، ويكتفُون بالنظر من الخبَرِ — أنك مترفِّعٌ(٩) عن جوابى . وغير محتفِلٍ بعتابى ، ومَنَّتْك نفسُك —

---

(١) تعادى : تباعد .

(٢) ضغث الحديث كمنع : خلطه ، وفى الأصل « تصعث » وهو تصحيف .

(٣) الطعمة : وجه المكسب .

(٤) مابين القوسين بياض بالأصل ، وقد أتممت الجلة بما يناسب المقام .

(٥) تأنيته : انتظرته وتأخرت فى أمره ولم أعجل ، وفى الأصل هكذا « فاسساك » .

(٦) فى الأصل : « ولم تقصر مزدجرا بنا لم تجبنى عن واحد منها . . . » ويظهر أنه قد سقط من الناسخ هنا كلام ، بدليل أن الضمير فى « منها » لم يتقدم له مرجع ، وأن كلمة « بنا » إن صحت فليس لها موقع فى معنى العبارة .

(٧) عىّ بالأمر وعيِي كرضى وتعايا واستعيا وتعيا : ولم يهتد لوجه مراده ، أو عجز عنه ولم يطق إحكامه .

(٨) الهذر : سقط الكلام .

(٩) فى الأصل « متوقع » وهو تحريف .

وقديما ما أغرتك ، فجنت عليك وضرتك — أنى أعذرك فيما تركت ، وأمسك عنك ما أمسكت ، وأقف عند أول هذا الأمر دون آخره ، وأكتفي بباطنه من ظاهره ، وهيهات لظنك الكاذب ، وتبا لرأيك العازب[1] ، كلا والله دون أن أغصك بالريق ، وأضطرك إلى المضيق ، وأهدم ما أسست ، وأكشف ما لبست[2] ، وأظهر ما جمجمت ، وأبطل ما أوهمت ، وأبين[3] الشريف منك ، وأخذل[4] اللفيف عنك ، حتى تعود إلى وتنزع عن غيك ، وتقيم جوزك ، ولا تعدو طورك ، وحتى تستعطف الناس فى حوائجك إليهم ، وتدع العنف بهم والتسحب[5] عليهم.

وسيقرأ كتابى هذا الكاتب الأديب ، والفقيه اللبيب ، والشاعر الأريب ، والمصقع[6] الخطيب ، والظريف الممتع ، والحصيف المقنع ، وكل هؤلاء وكيلى عليك فى طلب الجواب ، من طريق التطوع والاحتساب ، محمودين مأجورين ، مسئولين غير مأمورين .

وقد نفذت لى إليك رسالة العتاب ، على مخرج ألفاظ الكتاب ، ظلمتك فى المطالبة بالإجابة عنها ، وبهظتك[7] بما حملتك منها ، وتناولتك بالشعر وأنت مفحم[8] ، وأنا لك فى ذلك أظلم ، وقد ملت إلى السجع على علمى بخساسة حظه ، وركاكة

---

(١) تبا له . أى ألزمه الله هلاكا وخسرانا ، العازب . أى الغائب البعيد عن الصواب.

(٢) التلبيس : التخليط والتدليس ، وفى الأصل «مالبثت» وهو تحريف . والجمجمة : إخفاء الشيء فى الصدر .

(٣) أى أقطعه عنك ، وفى الأصل «وأبين الشريف منك» وهو معنى صحيح أيضا : أى أظهر له مساوئك فيتجنب مخالطتك .

(٤) فى الأصل «واخذل» وهو تصحيف .

(٥) تسحب عليه : تدلل .

(٦) المصقع : البليغ ، أو العالى الصوت ، أو من لا يرتج عليه فى كلامه ولا يتتعتع ، وحصف ككرم : استحكم عقله ، فهو حصيف .

(٧) بهظه الأمر : كمنع ، غلبه وثقل عليه وبلغ به مشقة .

(٨) المفحم : العيى ، ومن لا يقدر أن يقول شعرا .

معانيه ولفظه ، إذ كنتَ تَلوِى به لسانَك ، وتَثْنِي إليه عِنانَك ، فَطلَبًا لحجَّتك ، وإزاحةً لعلتك ، فإن أجبتَ فقد كشفتَ لنا ما لديك ، وإن اعترفت بالعجز عطفْنا ذلك عليك ، والسلام » . (اختيار المنظوم والمنثور ١٣ : ٤١٧)

٨٣ — كتاب لأبي على البصير في الاعتذار

وكتب أبو على البصير يعتذر عن هفوة :

« ذكرتَ — أعزَّك الله — في كتابك ما يعلم الله اغتمامى به ، واستكانتي له ، وقَلَقِي عند ما وَرَدَ عليَّ منه ، وإكبارى قدرَ البليَّة به والمصيبةِ فيه ، والعالمُ بالسرائر ، المطَّلعُ على الضمائر ، يشهدُ — وكفَى به شهيداً — أنى ما أقفُ على ما ذكرتَ ولا أتوهَّمُه ، ولا يُومِئُ لى ظنٌّ إليه ، وإنى لأفكِّر مُذْ وَرَدَ كتابُك بما ورد به ، فما أجد ذُكْرِى⁽¹⁾ يُحيط بشيء منــه ، وإنَّ أقْصَى حِفظِى عما كان في ذلك المجلس لَغلَبةُ الشُّكْرِ عليَّ ، ثم خانني فهمى ، فما كان بعد ذلك فبغير علمى ، ولا تَعمُّدٍ منى .

ومما زاد في غمِّي ، وضاعَفَ المكروهَ عليَّ ، تحقُّقك للأمر وهو خَبَرٌ معترِضٌ الشكُّ فيه والبُطلانُ أولَى به ، حتى ألزمْتَنِي إياه ، وقرَّعتَني⁽²⁾ به كأنَّه قَرَع سَمْعَك ، فإن ذلك أرانى صورةَ المَقْتِ منك لى ، والغِلظة علىَّ ، والإسراع إلى قبول القبيح المُضاف إلىَّ ، ووالله لو واجهتُك على تلك الحال بما أُنْهِيَ إليك — وبالله أعوذ من ذلك فيما بيني وبين من هو دونك عندى من إخواني — لكان فيما أطلعْتُك عليه العِشرةُ الطويلة ، والخِبْرة القديمة ، من إجلالى إياك ، وخالِصِ محبتى لك ، مع ما يضطرُّنى إليه متقدِّمُ برِّك وإحسانك ، ومَرْضِيَّاتُ أخلاقك من البُعد بقلبى ولسانى من كل ما ساءك ما يَدُلُّك على أن ما كان من ذلك كان آفةً نالَتْنى في عقلى ، ومِزاجًا فاسدا رَدِيئًا

(١) الذكر بالضم ويكسر : التذكر .
(٢) قرعه : لامه وعنفه .

استولى علىّ . ووالله الذى لا إله إلا هو عالم الغيب والشهادة ، ما كتبتُ إلا بالحقيقة عندى ، ولا تحرّيْت زيادة ولا نقصا ، فإن تقبَلْ تتخذْ بذلك عندى يدًا ، وتُوجب علىّ شكرا مُجدَّدا ، وإن تقِمْ على مَوْجِدتك(١) أُقِمْ على تنصُّفِك واستعطافك والتذلُّل لك ، والتضرّع إليك ، والتحمّل عليك ، حتى يَعْدِل حُكمُك ، ويَفِيَ به كرمُك » .

(اختيار المنظوم والمنثور ١٣ : ٣٨٧)

٨٤ — كتاب آخر

وكتب أيضاً :

قد كنتُ أرجو أن أكون قد أبرأتُ صدرَكَ ، وأنّ ما كتبتُ به قد أتى من وراء ما فى نفسك ، فامتحنتُ ذلك بلزوم منزلى ، وحَبْسى كتبى ورسلى ، لأفرق بين رغبتك فى قربى وبين زُهدك ، ولأرى صورةَ حالى عندك ، فإذا تنصُّلِى واعتذارى لم يَبْلُغا بى استيجابَ رضاك — أطال الله بقاءك — وإذا أُعانى غيرُ البريَّةِ(٢) المصدَّقة فى حديثى إياك ، على طول مدة صُحْبتى لك ، دون ما أتحرّى الصدقَ فيه ، وأجتهد حَلِفاً عليه ، إلا أن يكون عن علّة عرَضَتْ لك منعتْك مما كنت تتطوّل به مِنَ الأمر بتعرُّف خَبَرى عند انقطاعى عنك ، فقدّم الإشفاق على مَكانى منك سوء الظن بصحة عذرك ، وسلامةِ صدرك ، وبالله العظيم قسما ثالثا ، لا كاذبا ولا حانثا ، إنى الخالِصُ لك كله . سِرّه وجَهْره ، وغَيْبه ومَشْهَده ، البعيد بقلبه ولسانه مما نُفِثَ فى سمعك ، ووَقَر فى قلبك ، وعلمُك بحاجتى إلى حسن رأيك ، ودوام الحال عندك . شاهدٌ عَدْلٌ على صدق إياك ، إن استخبرتَه شفاك ، وإن اقتصرتَ عليه كفاك ، هذا إذا كنتُ لنفسى دون صديق ، ولم أكن أعمل إلا على سوق يومى ، ولا أصلُح إلا لمن صَلَح به

---

(١) الموجدة : الغضب . وتنصفه : سأله أن ينصفه .

(٢) مسهل عن البريئة .

معاشى ، وكيف وقد علمتَ مجانبتى لهذه الصفة[1] ، ودوام عهدى الصديق على الحرمان والجفوة ، وأنت لا تُلِمّ من جهلٍ بك ، ولا تُنبَّه من غفلةٍ فيك ، وليس مثلك مَن جَرح بقينه الظنُّ ، ولا أفسدَ الحرَّ عنده العبدُ ، ولو صح منى الذنب إليك لكان الصفح عنى أولَى بك ، فإن رأيتَ أن تعود كعهدى كان بك ، قبل التكذّب عَلَىَّ عندك ، وأن تمُنَّ بذلك عَلَى من يُقدّم إخاءك فى مودتك ، وعَندَك[2] فى إجلالك وتعظيمك والمسارعة إليك والطاعة لك ، فعلْتَ ، ذا مِنّة عظيمةٍ إلى مِنَنٍ لك قديمة إن شاء الله ، ووهب لى عطفك ورضاك » . (اختيار المنظوم والمنثور ١٣ : ٣٨٦)

٨٥ — كتاب آخر

وله أيضا جواب اعتذار إليه :

« بلغنى اعتذارُك، ووافَى منى تطلُّعا شديدا إليه ، وكانا قدْ قدَّمتُ المواطَنة[3] له عندى . فسكّن النُّفْرَةَ، وأذهب الوَحشةَ ، وجدَّد عهد المودة ، وأوجبتُ لك به التطوُّلَ والمِنّةَ واليدَ المشكورة ، ولم أكن كالمتعنِّت المتسحِّبِ[4] الذى يطلُب العلّة ، ويغتنم الزَّلة ، ويَصْدِف[5] عن الحُجّة ، وتضيقُ عنه المعذِرة ، وما نظرتُ لك إلا عَلَى نفسى ، ولا بدأتُ إلا بحظى فيما استثبتُّ من رأيك ، وحاميتُ عليه من إخائك ، واللهَ أسألُ حسنَ المدافعة عنك ، وامتناعى بما وَهَبَ لى منك ، والسلام » .

(اختيار المنظوم والمنثور ١٣ : ٣٨٨)

---

(١) فى الأصل «الطبقة» وأراه محرفا .
(٢) العند مثلثة : الناحية ، وبالتحريك : الجانب .
(٣) واطنه على الأمر : وافقه .
(٤) تسحب عليه : تدلل .
(٥) أى يعرض .

٨٦ — كتابه إلى على بن يحيي

وكتب إلى على[١] بن يحيي يشكر ويعتذر :

«النعمة شفيعُ صدقٍ عند وليِّها ، تقتضيه رِبَابَتَها[٢] ، والزيادةَ فيها ، والمحافظةَ عليها وإرغامَ أعدائها وحُسَّادها الملتمسين لإفسادها وإزالتها ، والإغضاء عَلَى ما يُغْضِى الحرُّ عَلَى مثله فى استتمامها ، سيَّما إذا كانت عند أهلها ، وفى موضعها ومَحَلِّها ، وكان المقلَّد لها مَن يقوم بشكرها ونَشْرِها ، ويُشِيد بذكرها ، ويستفرِغُ المجهودَ من نفسه فى شكرها ، ويُعطيها ما يجب لها من الاعتراف بها ، والانتساب إليها ، والمحاماة عليها ، وأنا أحَدُ من أسْكَنْتَه ظِلَّك ، وأعلَقْتَه[٣] حبائلك ، وحبَوْتَه بلطيف بِرِّك وخاصِّ عنايتك ، فانتصفتُ بك من الزمان ، واستغنيتُ بك عن الإخوان ، فأنا لا أرغب إلا إليك ، ولا أعتمِدُ إلا عليك ، ولا أستنجِحُ[٤] طَلَبًا إلا بك ، واللهَ أسأل البقاء لك ، ودوام عزِّك وعزِّنا بك ، وحِراسةَ النعمة عندك وعندنا فيك .

وكان فرَطَ منى قول إن تأوَّلته[٥] لى أراك وجه عذرى ، وقام عندك بحجتى ، وأغنانى عن توكيد الأيمان على حسن نيتى ، وإن تأوَّلتَه علىَّ — وبالله أعوذ من ذلك — ألحَقَ بى لائمتك[٦] ، وجَنَى على حالى ومنزلتى عندك ، وقد أتيتُك معترفًا بالزَّلة ،

---

(١) هو أبو الحسن على بن يحيي بن أبى منصور المنجم ، وكان من خاصة ندماء المتوكل ، وخص به وبمن بعده من الخلفاء إلى أيام المعتمد ، وكان مقدما عندهم ، يفضون إليه بأسرارهم ، ويأمنونه على أخبارهم ، وكان راوية للأشعار والأخبار شاعرا محسنا ، وتوفى سنة ٢٧٥ — انظر الفهرست ص ٢٠٥ .

(٢) رب النعمة كنصر ربا بالفتح وربابا وربابة بكسر الراء فيهما وربيها : نماها وزادها وأتمها وأصلحها وحفظها ورعاها .

(٣) أى وصلته بحبال ودك وعطفك . وحبوته : منحته .

(٤) أى أطلب نجحه .

(٥) أول الكلام وتأوله : فسره ، وفى الأصل « إن تأملته » وقد أصلحته كما ترى ، ويؤيد ذلك مقابلته بما بعده .

(٦) اللائمة : اللوم .

مستَكِينا المَوْجِدة[١] ، عائذا بالصفح والإقالة ، فإن رأيتَ ألّا تَقْرَى عيناً قَذِيَت[٢] بنعمتك عندى ، ولا تسْلُبَنى منها ما أبقيتَ ، وأن تقتصِرَ من عقوبتى على المكروه الذى نالنى بسبب عَتْبك ، وتأمرَ بتعريفى من رأيك ما يطامن[٣] حَشَاى ، وتَسْكن إليه نفسى ، ويأمن به رُوعى[٤] . . . » .

(اختيار المنظوم والمنثور ١٣ : ٣٨٨)

٨٧ — كتاب آخر

وله فى الصفح :

« إن الذى فَرط منك وإن تجاوز منى ما أرْضَى لك ، لم يبلُغْ ما يُغْضِبنى عليك ، وحيث انتهى ما يخالفنى من قولك وفعلك ، فإن وراءه تغمُّداً[٥] منى لإساءتك ، وصفحا عن زَلَّتك ، فإن تأمَنّا لا نخُنْك ، وإن يَسُؤْ ظنك فإنما تحتاج إلى إصلاحه منك » .

(اختيار المنظوم والمنثور ١٢ : ٢٦٠)

٨٨ — فصول لأبى على البصير

فصل له :

« قد أكّد الله بيننا من المودّة ما تأمَن الدهر على حلِّ عَقْده ، ونَقْضِ مَرِّه[٦] ، وما يستوى منه ثِقَتُنا بأنفسنا لك ، ولأنفسنا بما عندك » .

* * *

(١) استكان : خضع . والموجدة : الغضب .
(٢) أى تأذت ، والقذى : ما يقع فى العين ، وقذيت عينه كرضى : وقع فيها القذى .
(٣) أى يسكن .
(٤) الروع بالفتح : الفزع ، وبالضم : القلب وجواب الشرط محذوف للعلم به أى فعلت .
(٥) أى ستراً .
(٦) فى الأصل « مزاره » وهو تحريف ، وأرى أن صوابه « مره » والمر بالفتح : الحبل ، أو « مراره » بالكسر ، جاء فى اللسان : « والمر بضم ففتح : الحبل الذى أجيد فتله ، ويقال المرار بالكسر والمر بالفتح ، وفى الحديث أن رجلا أصابه فى سيره المرار : أى الحبل ، قال ابن الأثير : هكذا فسر ، وإنما الحبل المر ولعله جمعه » اه أو صوابه « مرره » بكسر ففتح جمع مرة بالكسر : وهى طاقة الحبل ، أو « مرائره » جمع مريرة أو مرير : وهو الحبل الشديد الفتل .

وفصل له :

« الحال فيما بيننا يحتمل الدَّالَّةَ ، ويُوجب الأُنْسَ والثقةَ وبَسْطَ اللسان بالاستزادة، وأنا أَمُتُّ إليك بالحُرْمة المتقدمة ، والأسباب المؤكَّدة ، حتى تُحِلَّ صاحِبَها مَحَلَّ خاصّةِ الأهل بالقرابة » . (العقد الفريد ٢ : ١٩٢)

٨٩ — كتاب لغسان بن عمرو الباهلى فى الذم

« إنه انتهى إلىَّ ما بلَّغك فلان ، وقد كفانى سقوطُه مَئُونَةَ إسقاطه ، وشدةُ تعدِّيه لِقَدْره الوصفَ لإفراطه ، فعرفتُك بحاله عُذْرٌ لى عندك يُدْحِض(١) حجته ، ويكذِّب قوله ، وعقوبةٌ مثلِه الصفحُ عن ذنبه إذا قَصُر عن المجازاة قدرُه ، ولم يحتمل المعاتبةَ عقلُه ، فصفَحْتُ عن سبيله رغبةً بنفسى عن ذكره، ولولا ذلك لنَضَحتُه(٢) بسهامٍ نافِذة ، وأكذبتُ مقالتَه بحُجَجٍ واضحةٍ ، والسلام » .

(اختيار المنظوم والمنثور ١٣ : ٤٢١)

٩٠ — كتاب آخر له فى الذم

« فلان ممن شرَّفتَ أمرَه ، وأعليتَ ذِكْرَه ، وولَّيتَه نَشْرَ مكارمك فطوَاها ، وإظهارَ محاسِنك فأخفاها ، وعَمَد إلى أمورك فتعدَّاها ، استخفافاً بالحُرَم ، وقلةَ شكرٍ للنعم ، صرتُ إليه فوجدتُه ظاهِرَ الغَدْر ، عظيمَ الكِبْر ، أسودَ القلب ، لم يُشْرِق نورُ الحكمة فى قلبه ، ولم يَجْرِ ماء الحياء على وجهه ، فيه ثلاثة أمور : الفساد والخِبّ(٣) والكذب ، (قد أخرج الناسَ(٤)) من فُسْحة العدل إلى ضيق

---

(١) أدحض حجته : أبطلها .

(٢) نضحه بالنبل : رماه .

(٣) الخب : الخداع والخبث والغش .

(٤) فى الأصل « الفساد والخب والكذب من فسحة العدل إلى ضيق الجور » وقد زدت مابين القوسين ليستقيم المعنى .

الجَوْر ، حتى باعوا الطارِف والتِّلادَ ، وهمُّوا ببيع النساء والأولاد ، إذعانًا القهرَ ، واستبسالا الجَهْد ، ومُخالفةً الذل ، ثم لم يُقنِعه ذلك حتى أخذ منهم ما كان الله قد وضع ثِقْلَه عنهم ، ولم تَعْمَلْ به الولاة قبله ، تضعيفا البلاء ، واستعمالًا للّأْواء[١] .

وجَعَلك عُرضة لدعاء المظلومين ، وسُمْعة فى قلوب المؤمنين ، فأيِسَ الملهوف من رَوْح[٢] عدلك ، والمكروبُ من رجاء فضلك ، وفَعَل « كذا » تكريرا الشُّنَع[٣] ، وأخْذاً بالبِدَع ، وإماتة السُّنن ، وَجعل منزله مَنيضاً[٤] لِلماجبى ، وسِيرَةً لِما حوَى ، ليختزن الفُضول[٥] ، ويستُر ذلك عن العيون ، حتى إذا حَمَّلهم الجهدَ فنفِدَت الطاقةُ ، وماتت الحيلةُ ، وترِحَت النفوسُ ، كَشَفَ لهم عن خُطَّة الجَوْر ، نابيةَ الأطراف ، متراخية الشُّقَّة[٦] ، يعجِز عن تجشُّمها ذو القدرة الغنىُّ ، وذو المُنّة[٧] القوىُّ ، وأبرزَ لهم غُرَّة السيف ذى الشُّطَب[٨] ، وهامة الجُرْز[٩] ذى الشُّعَب ، فخبَّروه بجَهدهم ، وكشفوا له عن عُذرهم ، ففعل بهم « كذا » ، حتى أعطَوُا المَقادةَ كارهين ، وعلى أنفسهم خائفين ، لِمَا عاينوا من القول الشنيع ، والأمر الفظيع ، فأرْمَض[١٠] بذلك قلوبَ المؤمنين ، وكرِهَ جِوارَه أهلُ الفضل والدين ، إذ لم يستطيعوا لما صنَع تغييرا ، ولم يجدوا إلى أمره بالمعروف سبيلا ، فإن رأيتَ أن تُنْصِف كرِمى من لُؤمه ، وتَعبِى من دَعَته ، وعُسْرى من سَعَته ، فقد خالَفَ طاعتك وأمرك ، وتحامَل على أهل مودتك وشكرك ، فعلتَ » . (اختيار المنظوم والمنثور ١٣ : ٤٢١)

---

(١) اللأْواء : الشدة. (٢) الرَّوْح : الرحمة . (٣) فى الأصل « الشبع » وهو تحريف .
(٤) كذا فى الأصل والمعنى عليه صحيح ، وربما كان « مقبضا » وكلاهما اسم مكان .
(٥) الفضول : جمع فضل ، وهو الزيادة . وفى الأصل « لتحرل » وهو تحريف وصوابه « ليختزن »
(٦) ترح : ضد فرح . والشقة : المسافة . (٧) المنة : القوة .
(٨) شطوب السيف وشطبه (بضمتين) وشطبه (بضم ففتح) : طرائقه التى فى متنه ، واحدته شطبة بضم ، وبضم ففتح ، وبكسر .
(٩) الجرز كقفل وعنق : العمود من الحديد ، وفى الأصل « الحزر » وهو تصحيف .
(١٠) أرمضه : أوجعه وأحرقه.

٩١ — كتاب آخر له

وله أيضاً :

« إنك صرفتَ حاجتى إلى فلان ، فوجدتُه ظاهرَ الغَدْر ، عظيم الكِبْر ، فاشىَ النَّوْك[١] ، لاتقوَى له وجوهُ الأحرار ، فرأيُكَ فى عزله عن أياديك ، وصَرْفِ حاجتنا إلى وجهٍ قريب ، موفَّقاً ، إن شاء الله » .

(اختيار المنظوم والمنثور ١٣ : ٤٢٣)

٩٢ — كتاب محمد بن عبد الله بن طاهر إلى المتوكل

وكتب محمد بن عبد الله بن طاهر إلى المتوكل يعزّيه بابن له :

« إنى أعزّيك ، لا أنّى على ثقةٍ من الحياة ، ولكن سُنَّةُ الدِّين

ليس المُعزَّى بباقٍ بعد ميّتهِ ولا المُعزِّى ، وإن عاشا إلى حين »

(العقد الفريد ٢ : ٣٦)

٩٣ — تحميد لإبراهيم بن العباس صدر رسالة الخميس

وكتب إبراهيم بن العباس للمتوكل رسالة الخميس صدرها :

« أما بعد ، فالحمد لله الذى جلَّت نِعَمُه ، وتظاهرَتْ مِنَنُهُ ، وتتابعَتْ أياديه ، وعمَّ إحسانُه ، إلهِ كلِّ شىء وخالقِه وبارئه ومُصوِّره ، والكائنِ قبلَه ، والباقى بعدَه ، كما قال فى كتابه : « كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُ لَهُ الْحُكْمُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ » العالِى فى مشيئته ، والقاهرِ فوق عباده ، المتعالِى عن شبَه خَلْقِه « لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ » خلق العِبادَ بقُدرته ، وهداهم برَحْمته ، وأوضح لهم السبيلَ

---

(١) النوك بالضم والفتح : الحمق .

إلى مَعْرفته ، بمـا نَصَب لهم من دلائله ، وأراهم من عِبَره ، وصَرّفهم فيه من صُنْعه كما قال جل جلاله : « ٱلَّذِي أَحْسَنَ كُلَّ شَيْءٍ خَلَقَهُ وَبَدَأَ خَلْقَ الْإِنْسَانِ مِنْ طِينٍ . ثُمَّ جَعَلَ نَسْلَهُ مِنْ سُلَالَةٍ مِنْ مَاءٍ مَهِينٍ . ثُمَّ سَوَّاهُ وَنَفَخَ فِيهِ مِنْ رُوحِهِ وَجَعَلَ لَكُمُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَارَ وَالْأَفْئِدَةَ قَلِيلًا مَا تَشْكُرُونَ » .

وذلك كلُّه مِنْ خَلْقِه إيام بتمثيله ما مَثَّلَ لهم من الدلائل التى نصبها لهم ، والأعلامِ التى جعلها إزاء قلوبهم وأسماعهم وأبصارهم ، ويَسَّر لهم خواطرهم وفِكَرَهم ، والهيئةِ التى هيأهُم لها ، ليقعَ الأمرُ والنهى عليهم ، فلا يكلِّفهم فوق طاقتهم ، ولا يُجشِّمُهم ما يَقْصُر عنه وُسعُهم ، نظرا منه تبارك وتعالى إليهم ، ورحمةً بهم ، ليؤمنوا به ويعبدوه ، فيستحِقُّوا به رحمته ورضوانه ، والخلودَ فى النعيم المقيم ، والظلِّ المَدِيد ، والعيشِ الدائم ، كما قال تعالى ذكره : « إِلَّا مَنْ رَحِمَ رَبُّكَ وَلِذَٰلِكَ خَلَقَهُمْ » . وكان مِن نَظَرِه ورأفته بهم أنْ بعثَ فيهم أنبياءه ورسلَه ، يدعونهم إلى طاعته ، ويبينون لهم هداه ، ويوضِّحون لهم سبيلَه ، ويَهدونهم إلى رحمته ، ويَعِدونهم ثوابَه ، ويُنْذِرونهم عقابَه ، ويَبْسُطون لهم توبته ، ويحذِّرونهم سُخطه ، ويبيِّنون لهم سننه وشرائعه ، ويكشِفون لهم مواعِظَه ، ويعلِّمونهم كتابه وحكمته ، كما قال تبارك وتعالى : « لِيَهْلِكَ مَنْ هَلَكَ عَنْ بَيِّنَةٍ وَيَحْيَا مَنْ حَيَّ عَنْ بَيِّنَةٍ ، وَإِنَّ اللَّهَ لَسَمِيعٌ عَلِيمٌ » وكان من رأفته بهم ونظره لهم أنْ بعثهم إليهم بالحجج الظاهرة ، والأعلام البيِّنة ، والشواهدِ الناطقة ، التى أظهر بها صِدقَهم ، وأقام بها برهانَهم ، وأوضَح بها دليلَهم ، وأثابَهم عَمَلَ سواهم ليكون أدعَى لهم إلى تصديقهم والقبول عنهم ، وأوكَدَ الحُجَّة على من أبَى ذلك منهم » .

(اختيار المنظوم والمنثور ١٣ : ٢٧٢)

٩٤ — تحميد لإبراهيم بن العباس في فتح إسحق بن إسماعيل

« الحمد لله مُعِزِّ الحقّ ومُديله[١] ، وقامع الباطل ومُزيله ، الطالب فلا يفوته مَن طلَبَ ، والغالب فلا يُعجزه مَنْ غَلَبَ ، مُؤيِّد خليفته وعبيده ، وناصر أوليائه وحزبه ، الذين أقام بهم دعوته وأعلَى بهم كلمتَه ، وأظهر بهم دينه ، وأدال بهم حقَّه وجاهَدَ بهم أعداءه ، وأنار بهم سبيلَه ، حمْدا يتقبَّله ويرضاه ، ويُوجِب أفضلَ عواقب نصره ، وسوابغَ[٢] نَعْمائه » .

(اختيار المنظوم والمنثور ١٣ : ٢٦٩)

٩٥ — ومن رسالة له في قتل إسحاق بن إسماعيل[٣]

« وقسّم الله عدوّه أقساما ثلاثة : رُوحاً مُعجَّلةً إلى عذاب الله ، وجُثّةً منسوبة لأولياء الله ، ورأسا منقولا إلى دار خلافة الله ، استنزلوه من مَعْقِلٍ إلى عِقَال[٤] ، وبدَّلوه آجالاً من آمال ، وقديما غذَّتِ المعصية[٥] أبناءها ، فحَلَبَتْ عليهم من دَرِّها[٦] مُرْضِعَةً ، وبسطتْ لهم من أمانيها مُطْمِعَةً ، ورَكبَتْ بهم مَخاطِرَها مُوضِعةً[٧] ، حتى إذا وَثِقوا[٨] فأَمِنوا ، ورَكِبوا فاطمأنُّوا ، وانقضى رَضاعٌ وآن فِطام ، سَقَتْهم سُمًّا تفجَّرتْ مجاري ألبانها منها دما . وأعقبَتْهم من حُلو غذائها مُرًّا ، ونقلتهم من عز إلى ذل ، ومن فَرْحة إلى تَرْحة ، ومن مَسَرَّة إلى حَسْرة ، قتلا وأسرا ، وغَلَبة[٩]

---

(١) أداله الله عليه : نصره . (٢) نعمة سابغة : أي تامة .

(٣) الظاهر أن التحميد السابق صدر لتلك الرسالة .

(٤) المعقل : الملجأ ، والعقال : الحبل الذي يعقل به البعير ، والمراد الذل والإسار .

(٥) وفي الطبري « العصبية » . (٦) الدر : اللبن .

(٧) أوضعت الناقة ووضعت : أسرعت في سيرها .

(٨) وفي مروج الذهب « رتعوا » .

(٩) وفيه « وإباحة » . وقسره على الأمر كضرب : أكرهه عليه وقهره .

وقَمْرا ، وقَلَّ مَن أوضَعَ فى الفتنة مُرْهِجاً[١] ، واقتحم لَهبَها مُؤَجِّجا ، إلا استلْحَمَتْه آخِذةٌ بمُخَنَّقه[٢] ، ومُوهِنَة[٣] بالحقِّ كيده ، حتى جعلَته لعاجله جَزَرا[٤] ، ولآجله حَطَبا ، وللحق موعظةً ، وعن الباطل مَزْجَرَةً[٥] ، أُولٰئِكَ لَهُمْ خِزْىٌ فى الدُّنيا ، وَلَعَذَابُ الآخِرَةِ أَكْبَرُ ، وَمَا رَبُّكَ بِظَلَّامٍ لِلْعَبِيدِ » .

(تاريخ الطبرى ١٢ : ٧٩ ، ومروج الذهب ٢ : ٣٨٣)

٩٦ — تحميد له

« الحمد لله الغالب ذى القدرة ، والقاهر ذى العِزَّة ، الذى لم يقابل بالحق باطِلاً فى مَوْطِنٍ من مَواطن التحاكُمِ بين عباده ، إلاَّ جَعَلَ أولياء الحق منهم حِزْبَه وجُنْده ، وجعل الباطل بهم فَلًّا[٦] منكوبا ، ودَحِيضا[٧] زَهُوقا ، إن نَهض به أولياؤه كانت مَراصِدُ عواقبه مفرِّقةً ما جُمِع ، ومُبَتِّرة[٨] ما أُعِدَّ ، وقائدة بأشياعه إلى مَصْرَع الظالمين ، حتى يكون الحقُّ الطالبَ الأعز ، والباطلُ المطلوبَ الأذَلّ ، وأولياء الحق الأعْلَينَ يَدًا وأيْدا[٩] ، وأشياعُ الضلال الأخسَرين أعمالا وكَيْدا ، قضاء الله وسنَّته ، وعادة الله وإرادته ، فى الفِئة المنصورة ، أنْ تَعِزَّ فلا تُرَام ، وأن يمكِّن لها فى الأرض كما مَكَّن للذين من قبلها ، وفى الفئة الناكبين عنه ، أن تَذِلَّ ، فتكون كلمتها السُّفْلَى ، وكَلِمَةُ اللهِ هِىَ الْعُلْيَا وَاللهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ » .

(اختيار المنظوم والمنثور ١٣ : ٢٦٩)

---

(١) الرهج كشمس وسبب : الغبار ، وأرهج : أثار الغبار . وأجج النار : ألهبها .
(٢) استلحم الطريدة : تبعها ، والمخنق : الحلق .
(٣) أوهنه : أضعفه .
(٤) يقال : تركوهم جزر السباع : أى قطعا من اللحم تأكلها السباع .
(٥) وفى مروج الذهب « وللباطل حجة » .
(٦) قوم فل : منهزمون .
(٧) دحيضا : أى مدحوضا باطلا ، من دحضت الحجة إذا بطلت ، وزهوقا : أى مضمحلا .
(٨) من بتره : أى قطعه واستأصله .
(٩) الأيد : القوة .

٩٧ ـ تحميد له فى فتح

«أما بعد، فالحمد لله الذى حَمِد نفسَه، وفرَض حَمْده على خَلْقه، وأعزَّ دينَه، وأكرم بطاعته أولياءه، وأكرم طاعته بأوليائه فجعل جُنْدَه منهم المنصورين، وحِزْبه منهم الغالبين، نَهَج[1] بهم سبيلَه، وأقام بهم حُجَّتَه، وجاهَدَ بِهم أعداءه، وأظهر بهم حَقَّه، وقمع بهم الباطلَ وأهلَه، وأعلى كلمتهم، وأيَّد نصرهم، وألَّف لهم وبهم، ومَكَّن لهم فى الأرض، فَجَعَلَهم أئمةً وجعلهم الوارثين.

والحمد لله المُعزِّ لدينه، المُظْهِر لحقه، الناصر لخلفائه، المكِّن لِحزبه، المنتقِم بهم ممن صَدَفَ عنه، مؤيِّدا دينَه بالنصر، ليُظهِره على الأديان، وحَفَّه بالعز، فلا يأتيه الباطلُ من بين يديه ولا من خلفِه، وجُنودَه بالفَلَج[2] فهم الأعْلَون إن استنصر بهم، والأعَزُّون إن كاد بهم، والأقربون منه إخلاصاً وعملا، حَمْدا يُوازى نعمَه، ويُمْتَرَى[3] بمثله فَواضِلُه ومَزِيده».

(اختيار المنظوم والمنثور ١٣ : ٢٧١)

٩٨ ـ تحميد آخر له

وله فى فتح ابن البَعيثِ لمَّا ظفر به :

«أما بعد، فالحمدُ لله ناصر أنبيائه وخلفائه، وهادى أوليائه، أولياء الحق وحِزْب الهُدَى، الذين أقام بهم سُبُلَ الرشاد، ونَصَب بهم مَناهِجَ الدين، فأظهره على الدين كله ولو كَرِه المشركون».

(اختيار المنظوم والمنثور ١٣ : ٢٧٢)

---

(١) نهج : أوضح. (٢) الفلج : الظفر والفوز.

(٣) يمترى : أى يطلب، من امترى الشىء إذا استخرجه، والريح تمترى السحاب : أى تستخرجه وتستدره.

٩٩ — تحميد له

« الحمد لله الذى أنجز وَعْدَه ، ونصر عبدَه ، وأيَّد جندَه ، وجعل فتوح أمير المؤمنين شرقا وغربا مشفوعة بين إقامة حق ، وإدالة(١) باطل ، وإزالة عاندٍ ، وإبادةِ عائد ، وإقالةِ مُستقيل ، ويسأل الله أميرُ المؤمنين مسألةَ العبدِ سَيِّدَه ومولاه ، رغبة إليه ، متذلِّلا له ، أن يصلِّى أفضلَ صلواته عنده على أكرم أنبيائه » .

(اختيار المنظوم والمنثور ١٣ : ٢٩٦)

١٠٠ — تحميد له فى فتح

« والحمد لله بجميع محامده التى حُمِد بها ، على جميع آلائه وجميع بلائه ، فيما وَلِى به خليفتَه ، ونصر به دينَه ، وأقام به حَقَّه ، وأعزَّ به وليَّه ، وقمع به من ألحدَ عن سبيله ، حمدا يؤدِّى حقَّ نعمته ، ويوجب به أفضل مزيده ، بمَنِّه وطَوْله » .

(اختيار المنظوم والمنثور ١٣ : ١٩٥)

١٠١ — تحميد له فى آخر كتاب فتح

« فالحمد لله المُزيل لما يمهِّد المُبْطلون ، ويمكُر بهِ الماكرون ، ويكيد بهِ المُلْحِدون ، تمكينا لعبده وخليفته ، وذَبًّا عن دينه وحقه ، وإظهارا لأوليائه وحزبهِ ، وإمضاء لعزائمه وقدرتهِ ، مُنْعِما قادرا ، ومُمْليا(٢) مُمْهِلا ، عَدْلا إذا استدرَجَ ، متفضِّلا إذا أنعم ، حَمْدا يُستنزَل به نصرُه ، ويُبلَغ بهِ رضوانُه ، ويُمْتَرَى بمثله فواضِلُ مزيده » .

(اختيار المنظوم والمنثور ١٣ : ٢٩٥)

---

(١) الإدالة : الغلبة . والعاند : السائل ، وفى الأصل « مشفوعة بين حق وإدالة باطل ، وإزالة عاند وإبادة ومستقتل وإقالة » .

(٢) أملى له : أمهله .

١٠٢ — كتابه إلى بعض إخوانه فى شفاعة

وكتب شفاعة لرجل إلى بعض إخوانه :

« فلان ممن يَزْكُو[١] شكرُه ، ويحسُنُ ذِكْرُه ، ويَعْنِينِى أمرُه ، والصنيعةُ عنده واقعةٌ موقعَها ، وسالكةٌ طريقَها .

وأفضلُ ما يأتيه ذو الدِّين والحِجَى   إصابةُ شكرٍ لم يَضِعْ معه أجرُ »

(الأغانى ٩ : ٢٥ ، ومعجم الأدباء ١ : ١٧٨)

١٠٣ — كتابه عن المتوكل إلى أهل حمص

ولما قرأ إبرهيم بن العباس على المتوكل رسالته إلى أهل حِمْص ، الخارجين عليه ، والداعين إلى العَصَبية ، وهى :

« أما بعد ، فإن أمير المؤمنين يَرَى مِن حق الله عليه ، مما قَوَّم به من أَوَد[٢] ، وعدَّل به من زَيْغ ، ولَمَّ به من مُنتشِر ، استعمالَ ثلاث ، يقدِّم بعضهن على بعض ، أولاهن ما يتقدَّم به من تنبيه وتوقيف ، ثم ما يستظهر[٣] به من تحذير وتخويف ، ثم التى لا يقع بحَسْم الداءِ غيرُها[٤] .

أناةٌ ، فإن لم تُغنِ عَقَّب بعدَها   وَعِيداً ، فإن لم يُغنِ أغنَتْ عزائمُه »

عجب المتوكل من حسن ذلك ، وأومأ إلى عبيد الله بن يحيى بن خاقان : أمَا تسمع! فقال : يا أمير المؤمنين، إن إبرهيم فضيلة خبأها الله لك ، وذخيرة ذَخَرها على دولتك» .

(معجم الأدباء ١ : ١٨٧ ، ووفيات الأعيان ١ : ١٠)

---

(١) زكا يزكو : نما .

(٢) الأود : الاعوجاج .   (٣) أى يستعين .

(٤) كذا فى الأصل ، وهو على تضمين يقع معنى يقوم ، وربما كان « لايتم حسم الداء بغيرها » .

١٠٤ — كتابه عن المنتصر إلى طاهر بن عبد الله

وكتب عن المنتصر بالله بن المتوكل إلى طاهر بن عبد الله يعزيه عن محمد ابن إسحق :

« أما بعد ، تولَّى الله توفيقَك وحياطَتَك ، وما يرتضيه منك ورضاه عنك . إن أفضل النعم نعمةٌ تُلُقِّيتْ بحق الله فيها من الشكر ، وأوفَرَ حادثةٍ ثواباً حادثةٌ أُدِّيَ حقُّ الله فيها من الرضا والتسليم والصبر ، ومثلُك مَن قَدَّم ما يجب لله عليه في نعمة فشَكَرَها ، وفي مصيبة فأطاعه فيها ، وقد قضى الله سبحانه وتعالى في محمد بن إسحاق[1] مَوْلَى أمير المؤمنين — عفا الله عنه — قضاءه السابقَ والمتوقَّع ، وفي ثواب الله ورضا أمير المؤمنين — أدام الله عزه — وتقديم ما يقدِّم مثلَه أهلُ الحِجَى والفهم ، ما اعتاضه معتاضٌ ، وقدَّمه موفَّق ، فليكن الله عز وجل ، وما أطَعْتَه به ، وقدَّمْتَ حقه فيه ، أولَى بك في الأمور كلِّها ، فإنك إن تتقرَّبْ إليه في المكروه بطاعته ، يُحْسِن ولايتَك في توفيقك لشُكر نِعَمِه عندك » . (اختيار المنظوم والمنثور ١٣ : ٢٠٧)

١٠٥ — كتابه عن المعتز ولى العهد إلى طاهر بن عبد الله

وكتب إبرهيم بن العباس عن المعتز ولى العهد إلى طاهر بن عبد الله يعزيه عن محمد بن إسحٰق :

فإن أولَى حقٍّ خصَصْتُ وقَدَّمْتُ ، حقُّك، بمحلك الذى أحِلُّك به ، ومكانِك الذى لك عندى ، ولله عليك نعمةٌ أنت حقيق بشكرها ، وامْتِراءِ[2] مزيده بها ، ولله فى خَلَل نعمٍ مُلِمَّاتٌ ، مِثلُك قدَّم طاعته فيها فرَضِيَ مستدعيا بالرضا ثوابَه ، وسلَّم

---

(١) هو ابن عم طاهر بن عبد الله ، وذلك أن طاهرا هو ابن عبد الله بن طاهر بن الحسين بن مصعب ابن رزيق بن ماهان ، ومحمدا هو محمد بن إسحق بن إبراهيم بن مصعب بن رزيق بن ماهان .

(٢) مرى الشيء وامتراه : استخرجه .

مستدعيا بالتسليم ما يقربُه منه ، وقد قضى الله عز وجل فى محمد بن اسحٰق قضاءه الآتى على من مضى ، والمكتوب على من بقى ، حتى يَرِثَ اللهُ الأَرْضَ وَمَنْ عَلَيْهَا وَهُوَ خَيْرُ الْوَارِثِينَ ، فارضَ بثواب الله عِوَضا من مصيبتك ، وارجع إلى ما وهب لك من خليفته ـ أدام الله تأييده ـ من إيثاره واختصاصه ، فاجعل ذلك أولىَ ما عزَّاك عن مصائبك ، وقدَّمتَ بهِ الشكرَ فى حق الله عنك ، واستصحِبْ فى أمورِك كلّها نيةَ الشاكر عند النعمة ، والراضى عند المحنة ، تَزِدْ وتُكفَ إن شاء الله » .

(اختيار المنظوم والمنثور ١٣ : ٣٠٧)

١٠٦ ـ كتابه عن المؤيد وهو ولى عهد إلى طاهر بن عبد الله

« فإن من حقِّ الله على أهل النعم تقديمَ طاعته عند مصائبهم ، والتقرُّبَ إليه فيما يعرُوهم منها بالرضا والتسليم ، وقد قضى الله عز وجل فى محمد بن إسحٰق ـ عفا الله عنه ـ قضاءه فى جميع خلقه حتى يبقى ويَرِث الأرضَ ومن عليها وهو خير الوارثين ، فتلقَّ ـ أمتع الله بحسن توفيقك ـ قضاء ربك بالتسليم له ، وتعزَّ عن مُصابك بطاعته ، فإن مثلك مَن اكتفى بما فَهِم ، من أن يعزَّى ، واستغنى بما علم ، عن أن يُوعَظ إن شاء الله والسلام » . (اختيار المنظوم والمنثور ١٣ : ٣٠٧)

١٠٧ ـ كتابه إلى طاهر بن عبد الله

وكتب إبرهيم بن العباس إلى طاهر بن عبد الله يعزيه :

« أما بعد ، فإن أحقَّ مَن أرْضَى اللهَ فى نعمته بشُكرِه ، وفى مصائبه بالتسليم له ، مَنْ فَهِمَ مافى شكرِ النِّعَم من استدعاء تمامها ، وما فى التذلُّل المقادير من استحقاقِ رضوانه ، وقد جعل الله محلَّك من الحالتين جميعا محلَّ المتقدِّم بنيَّته ومعرفته ،

واللهُ يتمّمُ أمير المؤمنين فيك بصالح قَسْمه فيمن مضى ، والجارى على من بقِىَ ويبقى ، حتى يؤدِّى الفَناء الذى لا بقاء معه ، إلى البقاء الذى لا فناء بعده .

وأميرُ المؤمنين يَعظكَ بالله ، وهو أحق مَن وَعَظ به ، ويُرْشدكَ من إيثار الله لِمَا ندَبَك له منهُ ، وسهّل لعظيم نعمتِه عليك ، فى هذه النازلة ، بما صَحِب بهِ علىُّ بن طاهر مولى أمير المؤمنين أيامَه ، ومَضَى عليه من بصيرتِهِ وطاعته ، تقدِّمْ حقَّ الله عليك بطاعتك له فيما أمَرك بهِ ، واتّقِ الله فى مواقع أقداره بك ، تقتضِ بذلك من ثواب الله أفضَل عِوَضِ الصالحين ، وبارك الله لعلىّ فيما أصاره إليه ، وأحسَن اللهُ لما قرَّبَك منه توفيقَك ، وعلَى أرضاهُ عنك عوْنَكَ[1] ، والسلام » .

(اختيار المنظوم والمنثور ١٣ : ٣٢٧)

١٠٨ — كتابه إلى طاهر بن عبد الله

وكتب إلى طاهر بن عبد الله فى وفاة إسحٰق بن إبراهيم .

« أما بعد ، فإن الله عز وتعالى توحَّد بتقدير عباده ، وإمضاء إرادتِه فيهم ، وجعل لكل منهم نهاية إليها يجرى بهم مُنْقَلَبُهم ومتَصرَّفهم ، فإذا جاء أمرُ الله ، وانقضت مدةُ البقاء ، سَعِدَ أهلُ الحق بحقِّهم ، وكانت العاقبـــــة للتقوَى ، وخسِر المُلْحِدون .

وإن إسحٰق بن إبرهيم مولى أمير المؤمنين ـ أبقاه الله ، وأحسَنَ سعيَه وعملَه ـ كان عبدا من عباد الله أيّد الله به خلفاءه ، وخليفتَه كَنَفَ[2] ، فصحِبَ عُمْرَه ذابًّا عن دينِ الله ، محافظا عليه ، مُطيعا لله فى حقه ، ناصرا لهُ ، متقرِّبا إلى الله فى خلفائه بما يرضاه منهم ، ويُرضيهم به عنهُ ، إلى أن قبَضَهُ الله على أحسن حالاتِهِ التى نسُرُّه

---

(١) توفيقك مفعول أحسن ، وعونك معطوف عليه ، وأرضى : أفعل تفضيل .
(٢) كنفه : صانه وحفظه وحاطه وأعانه ، أى أيد به خلفاءه الماضين ، وكنف به خليفته الحاضر ، وفى الأصل « وخليفته وكيف »..

أيامَ لقائه ، من طاعةٍ ومناصحة وإخلاصٍ على فكانت المصيبةُ به — عفا الله عنه — مصيبةً خصَّ أميرَ المؤمنين موقعُها ، ثم وَصَلَتْ من بعد أمير المؤمنين إلى مَن وصلَتْ إليه فيك من ولده وأهله .

وأميرُ المؤمنين يعزِّى نفسه عن إسحٰق ، بما سَبَقَ من اختيار الله له في مثله من أوليائه و (ذوى) إخائه ، ثم يعزِّيك عنه إذا كانت مصيبتُك به أَولَى مصائبك بأن تُرْمِضَك(١) جلالةً وموقعا ، وأولَى مصائبك بأنْ يعزِّيَك (فيها) إذ كنتَ منها بين ثواب الله ورضا خليفته ، ولو استغنى ذو نازلةٍ ومصيبةٍ عند أمير المؤمنين عن تعزيته بفضلِ ما جعله الله عنده ، كنتَ بما مَنَحَكَ الله عن ذلك غنيا ، ولولا أن أميرالمؤمنين أوجَبَ لك حقَّ التعزية ، لكان في علمه ما أغناه عن تناولك بها .

متَّع الله أميرالمؤمنين بك ، ووفَّقك لرشدك بهذه النازلة الواقعة بحقِّ الله فيها عليك وارضَ ثوابَ الله منها عِوَضا ، وما جعل الله لك عند أمير المؤمنين خَلَفاً كريماً ، وقعتْ به مقاديرُ الله من ذلك ، بحيثُ اختيارُ المطيع لربِّه ، والمقدِّم لِغَده ، والراضى ما رَضِى الله لهُ ، واكتب إلى أمير المؤمنين بما يسّرك الله له عند انتهاء الخبر إليك ، مؤيِّدَك(٢) ومسدِّدَك » . (اختيار المنظوم والمنثور ١٣ : ٣٢٨)

١٠٩ — كتابه إلى طاهر

وكتب إلى طاهر أيضاً :

« أما بعد ، فإن أمير المؤمنين يُوجبُ لك من كل فائدةِ نعمةٍ ، وحادثِ (رَزِيّةٍ) تهنئتَك بمتجدِّد مواهب الله عز وجل ، وتعزيتَك عن مُلِمَّاتِ أقداره ، وقد قضى الله في محمد بن إبرٰهيم مَوْلَى أمير المؤمنين ، ما هو قضاؤه في عباده ، حتى يكون الفناء لهم

---

(١) أرمضه : أوجعه وأحرقه .

(٢) حال من لفظ الجلالة .

والبقاء (له)، وأميرُ المؤمنين يعزِّيك عن محمد بما أوجبَ اللهُ لمن أمَره (بالصبر[١]) في مصائبه، من جزيل ثوابه وأجره، فليكُن اللهُ وما قرَّبك منـــه، أولَى بك في أحوالك كلها، فإن مع شكر الله مَزيدَه، ومع التسليم لأمر الله رضاه، وبالله توفيقُ أمير المؤمنين، والسلام». (اختيار المنظوم والمنثور ١٣ : ٣٢٨)

١١٠ — كتابه إلى طاهر

وكتب إلى طاهر يعزيه :

«أما بعد، فإن أحقَّ من أطاع الله في مصائبه، مَن حَسُنَ بلاء الله عنده في نعمته وعلى حَسَب مواهب المعرفة تؤكَّد الحجةُ، وقد انتهى إلى أمير المؤمنين قضاء الله في محمد بن الحسن بن مُصْعَب، وفَّر الله لك ثوابَ رُزْئه، فقدِّمْ حقَّ الله فيما أصابك منه مُسَلِّما، وفيما جَدَّد لك شاكراً، وارضَ بالله مُنْجِزا لك، واعلم أنك لم تُرْزَأ مِن أهلك مَن هو أمضى[٢] لسبيلِ مُنقلَبِه على سبيل سيرةٍ واستقامةٍ منه، والله يُحْسِن توفيقَك وعونَك، والسلام». (اختيار المنظوم والمنثور ١٣ : ٣٢٩)

١١١ — كتابه إلى عبد الرحمن بن خاقان

وكتب إلى عبد الرحمن بن خاقان يعزيه عن أبي زكريا يحيى بن خاقان :

«أما بعد، فقد جرى من قضاء الله في وفاة يحيى بن خاقان ـ على أحسن مايُتَوَفَّى عليه ذو طاعة ونصيحة وقيامٍ بحق إمامه وسلطانه ورعيته ـ ما جَرَى على الأولين، وهو جارٍ على الآخرين، حتى يَرِثَ الله الأرض ومَن عليها وهو خير الوارثين.

وأميرُ المؤمنين يأمرك بالرجوع إلى أمر الله، والرضا بقضائه، وتَلقِّي النعمة

---

(١) مابين الأقواس الثلاثة ساقط في الأصل.

(٢) في الأصل «من مضى».

برضا الله عن يحيى ، وما تبعه من الدعاء ، وخلفه فى عقبه بما يستديمها به من الصبر والتسليم ، وبالشخوص إلى باب أمير المؤمنين إذا ورد عليك كتابه هذا ، بعد أن تخلف فى عملك من يقوم فيه مقامك ، منبسط الأمل ، منفسح الرجاء ، واثقاً بما يرعى أمير المؤمنين منك بنفسك فى طاعته وموالاته ، وأسبابك ، والسلام » .

* * *

ونسخة التوقيع بخط أمير المؤمنين فى هذه التعزية :

« يا عبد الرحمن ، ثق بالله وبالذى لك عند أمير المؤمنين ، وطب نفساً ، ولا تحمل على نفسك من الغم مالا ينفعك ، لا بل يضرك ، ويغتم به أمير المؤمنين ، وهذا خط أمير المؤمنين إليك والسلام » . (اختيار المنظوم والمنثور ١٣ : ٣٢٩)

١١٢ — كتابه إلى الحسن بن رجاء

« أنت والله يا أبا على (يمين[١] مصدرها عن محتاط لنفسه فيها) المتقدم بنيته وأثره وجميل ما أبلى[٢] الله به وعرف منه ، فأحسن الله جزاءك عن خليفتك ولياً مجتهداً ، وأحسن الله جزاءك عنا أخاً متفضلا ، وبلغنا محبتنا فيما قلدت ، وبالله لئن كنت على أفضل حد[٣] (إنى[٤]) لعلى نهاية مما عليه المعتمد بنعمتك ، المسرور بما أجرى الله لك به ، وإنى لأرجو ألا أكون مقصراً فى حقك عن حقك » .

(اختيار المنظوم والمنثور ١٣ : ٣٦١)

---

(١) أى وتلك يمين ... والجملة اعتراضية .

(٢) الإبلاء : الإنعام .

(٣) الحد : منتهى الشىء ، وربما كان « على أفضل جد » والجد بفتح الجيم : الحظ والحظوة والعظمة ، والاول أولى لقوله بعد « لعلى نهاية » .

(٤) مابين القوسين بياض بالأصل.

١١٣ — كتابه إلى محمد بن الحسن بن الفياض

ووقّع إلى محمد بن الحسن بن الفيّاض وقد حَمل مالا :

« إذا جزَى الله وليًّا ، بأداء الفرض عليه ، وتأديةِ حق الشكرِ عن نفسه خيرًا ، فأحسَنَ اللهُ جزاءك ، فبالله لئن كنا قدَّمنا حسن الظن بك ، لقد وصلتَ ذلك بكفاية حَسَنة ، وأثرٍ صالح ، وأمورٍ أقلُّ منها يَزيد فى الثقة بك ، وإنى لأرجو أن يسُرَّك الله به إن شاء الله ، ووافَتِ الأموالُ حاجةً منا إليها ، ومُؤَناً تراجَعَتْ ، أعان الله على أكثرها بعنايتك وتسويدك ، والسلام » . (اختيار المنظوم والمنثور ١٣ : ٣٦١)

١١٤ — كتابه إلى عامل له

ووقّع إبراهيم بن العباس فى كتاب عامل له يعتــدُّ بحُسْن أثرٍ ، ويَمُتُّ بمقام محمود :

« يا هذا ، لستُ أشكُّ أن لك أثرا فى التوفير ، كان مَن تقدَّمك مقصِّرا عنه ، وأنك مَعْنِيٌّ ومحتاط ، غير أنك عفَّيت(١) على ما أحمَدتُ منك ، بما يتناهى إلىَّ عنك ، على ألسُنِ المتظلمين وأصحابِ الأخبار .

وذكر لى فلان ما جرَى بينك وبين أخيه مما كثُر وصفُه له ، وقام منه وقعد ، وتالله لأكونَنَّ الباحث عليك ، والمطالبَ لك دونَه ، لإقدامك على شيخ ابن ستين سنةً ، بما أقدمتَ به عليه ، وأفٍّ لدنيا اضطرَّتْ إليكم ، فكنتم خِيارَ من يعمل فيها ! وأبرَأ إلى الله من أعمالكم التى رَجَعتم بها إلى أنفسكم ونيّاتكم » .

(اختيار المنظوم والمنثور ١٣ : ٣٦٣)

---

(١) أى محوته وأزلته .

١١٥ - كتاب له فى السلامة

«أما بعد، فإن أوْلَى نعمةٍ تُشْكَر، سلامةٌ شمِلَتْ، عَزَّ فيها الحقُّ فوقَع مواقِعَه، وذَلَّ فيها الباطلُ فتَمِعَ أشياعُه، وتقلَّبَ فى سَترها وأمْنها خاصَّةٌ وعامَّةٌ، فانبسَطَ فى تأميل فضلها وعائدتها رَعِيَّةٌ حاضِرةٌ وقاصِية.

وأميرُ المؤمنين حيثُ كتبتُ إليك، فى أعمّ السلامة أمْنا وعزّا وأدوم نعمة موقِعا وخَطَرا، وفى أجلِ بلاء(١) الله، يتعرّفه فى نفسه وولده وأوليائه وعوامّه، وبالله عَوْنُ أمير المؤمنين على شكر نِعَمِه، وتأدية حقه.

أعلمك أمير المؤمنين ذلك لِتعرِفَه ولِتعتدَّ النعمةَ به، ولتكتب إلى عمالك فى نواحى أعمالك، فيشكروا الله ومَن قِبَلهم بلاء الله فى خليفتهم، بما وهَبَ لهم منه، وأجْرَى لهم به.

وأمير المؤمنين معنِيٌّ بما يرِد عليه من أخبارك وأعمالك وأمورك: خاصِّها وعامِّها، ولطيفها وجليلها، وفى أوليائه ورعيته قِبَلك، فاكتب إلى أمير المؤمنين من ذلك عما هو متطلّع إليه، متابِعا كتبَك إليه على شَرْح خبرك وتلخيصه إن شاء الله».

(اختيار المنظوم والمنثور ١٣ : ٣٦٦)

١١٦ - كتاب له فى السلامة

«أما بعدُ، فإنّ لكل فرعٍ أصلا، عنه مُؤدّاه(٢) ومُستَنبَطُه، وإليه مَرْجِعُه ومَوْئِلُه، ومتى رُجِع من أصول الأمور إلى تأتُّلها(٣) وتمكُّنها، رُجِع من فروعها إلى استتبابها واستقامتها، وأفضلُ ما تُدبِّره: أمورُ دينِ اللهِ وخلافته، وحُقوقُ اللهِ

---

(١) أى نعمته.

(٢) فى الأصل «مواده» وأراه محرفا عن «مؤداه» وربما كان الأصل «مورده».

(٣) تأتل: تأصل.

وعبادِه ، فكان الأصلُ وزَكاؤه[1] ما جَمع بإذن الله سكونَ الدَّهماء[2] ، وصلاحَ البَيْضةِ[3] وَأَمْنَ السَّرْب[4] ، وتظاهرَ النعمِ فيما قَرُب وبَعُد ، ودنا ونأى ، وبلاء الله جيداً هو عند أمير المؤمنين ، مع كتابه هذا إليك فى نفسه وولده ، وفى أحبّائه وخاصّته وقاصِيته ، وفى أنصاره ، من عموم الأمن وشُموله ، وصلاح الحال واستقامتها ، (بلاء يربو[5]) عن الإحاطة بذكره دون شكره ، وعن إحصاء مواهب الله فيه دون إحصائه :

أَعْلَمَك أميرُ المؤمنين ذلك معتَدًّا بنعمة الله فيه ، ومُشِيدا بذكره ، ومنبِّها على جميل آلاء الله ، ومستديما حمده به ، التأمرَ بإنفاذِ كُتُبك إلى عمّالك فى نواحى أعمالك بما يُنسَخ من كتاب أمير المؤمنين هذا إليك ، لتقرأه على مَن بحَضْرتهم وأطرافهم من قواد أمير المؤمنين وجنوده وأوليائه ورعيته وخاصته وعامّته ، فيحمَدوا اللهَ على ما أَبْلَى[6] أميرَ المؤمنين فى نفسه وفيهم ، ليجدوا مِن شكر الله على ذلك ما بِمثله استدِيمت النعمةُ ، وامْتُرِى[7] صالحُ المَزِيد ، فافعَلْ ذلك مُعانًا على أمرك ، متحَرِّيا لأداء حق الله عليك ، والسلام » .

(اختيار المنظوم والمنثور ١٣ : ٣٦٧)

١١٧ — كتاب آخر

وكتب فى سلامة الأضحى :

« فإن أحقَّ مَن أشاد بنِعَم الله ناطقًا بلسان شكرها ، وقائلا بأحسن نَشْرها ، ومقدِّما حقَّ الله بذلك فيها ، مَن أُلبِس مِن نعم الله أعزَّ ملابسها ، وحُبِيَ منها بأفضل مواهبها ، ومن لم تَزل عادةُ الله عنده فى متجدِّد نِعَمه عليه ، بتيسيره لأداء

---

(١) الزكاء : الصلاح والنماء ، وفى الأصل وزكاوها » وأراه محرفا .
(٢) الدهماء : جماعة الناس . (٣) البيضة : حوزة كل شىء . (٤) السرب : النفس .
(٥) فى الأصل « بد ... » وقد أعمت العبارة كما ترى .
(٦) أى أنعم عليه . (٧) امترى الشىء : استخرجه .

حقه فيها ، ذلك أمير المؤمنين فيما يعتدُّ به من جليل آلاء الله لديه فيما يخُصّه ، وجَليلِ فضلهِ عليه فيما وفَّقه له ، وبالله عَوْنُ أمير المؤمنين بتبليغه شكرَه ، واستحقاقِه مَزيده ، وإحراز ما هو أرضَى وأزكى له عنده .

وكتابُ أمير المؤمنين إليك يوم النَّحْر ، انصرافَه من المصلَّى ، وقد عرَّفه الله فى عيده ومَخْرَجه ، من السلامة وعمومِها ، والنِّعَم وتظاهُرِها فى نفسه وولده وقوَّاده وأوليائه وفى خاصَّته وعامَّته ، أفضلَ مالم يَزَل يعرِّفه إياه أمْناً[(1)] كَنَفَ به ، وعِزاً ألبسَه ، وشكرا وفَّق له ، ونِعَماً أيَّد بها وقَمع ، وأعلَى بها وَوَضَع ، فجعل للأولياء دينه وحقِّه من العلوّ والكرامة ، وعلى أعدائه من الذِّلَّة والحسرة ، ماقدبما تفضَّلَ بمثله على أمير المؤمنين بما استخلفه عليه واستحفظه فيه ، تفضُّلا منه وإحسانا ، وحياطة وإنعاما ، ولله بذلك أرضى شكرٍ ، وله أفضل ماقرَّب منه وأزْلَفَ[(2)] عنده .

أحَبَّ أميرُ المؤمنين الكتابَ بذلك إليك ، لِتَعرِفه وتَحمَدَ اللهَ عليه ، وتنشُره فيمن قِبَلك ، فيحمَدوا الله ويعتدُّوا نعمَه عليهم فيه ، فإن مع معرفة النعمةِ شكرَها ، ومع التوفيق لشكرها حِراستَها ووجوبَ مَزيدها ، وأميرُ المؤمنين يأمرك بالكتاب إليه بِخَبرك وخَبَرِ مَن قِبَلك بِمَا هو متطلِّع إليه وإلى معرفته ، يَهيجُ بِمَا يَرِدُ عليه منه ، فتابِعْ ـ أصلح الله بك ـ إلى أمير المؤمنين كتبَك إن شاء الله » .

(اختيار المنظوم والمنثور ١٣ : ٣٦٧)

١١٨ — ومن فصوله

« المودةُ تجمَعنا محبتُها ، والصِّناعَةُ تُؤَلِّفنا أسبابُها ، وما بين ذلك مِن تَرَاخ فى لِقاء ، أو تخلُّفٍ فى مكاتبة ، موضوعٌ بيننا ، يُوجِبُ العذرُ فيه » .

(العقد الفريد ٢ : ١٩٢)

---

(١) فى الأصل « منا » وأراه محرفا . (٢) أى قرب .

١١٩ — ومن كلامه

« ووجَدَ أعداء الله زُخْرُفَ باطلهم ، وتَمويهَ كَذِبِهِمْ ، سَرَاباً بِقِيعَةٍ(١) يَحْسَبُهُ الظَّمْآنُ مَاء حَتَّى إِذَا جَاءَهُ لَمْ يَجِدْهُ شَيْئاً » وكوَمِيض بَرْقٍ عرَض فأسرَع ، ولَمَعَ فأطمَعَ ، حتى إذا انحسَرتْ(٢) مغاربُه ، وتشَعَّبَتْ مولِّيَةً مَذاهِبُه ، وأيقن راجِيه وطالبُه ، أنْ لَا مَلاذَ ولا وَزَرَ ، وَلَا مَوْرِدَ ولا صَدَرَ ، ولا من الحرب مفرٌّ ، هنالك ظهرت عواقِبُ الحق مُنْجِيةً ، وخواتمُ الباطل مُرْدِيةً ، سُنَّةُ الله فيما أزاله وأدالَهُ ، وَلَنْ تَجِدَ لِسُنَّةِ اللهِ تَبْدِيلًا ، ولا عن قضائه تحويلا » .

(معجم الأدباء ١ : ١٩٠)

١٢٠ — كتاب الفضل بن حباب إلى إبراهيم بن العباس

قالَ إبراهيم بن العباس الصُّولى : كاتبت القاضىَ أبا خليفة الفَضْل بن حُبَاب الجُمَحِىَّ فى أمور أرادها ، فأغفلتُ التاريخ منها فى كتابين ، فكتب إلىَّ بعد الثانى :

« وصل كتابك ـ أعزك الله ـ مُبْهَمَ الأوان ، مُظْلِمَ المكان ، فأدَّى خبرا ما القربُ فيه بأولَى من البُعْدِ ، فإذا كتبتَ ـ أكرمك الله تعالى ـ فلتكن كتبك موسومةً بتاريخ ، لِأَعْرِف أدنَى آثارك ، وأقربَ أخبارك ، إن شاء الله تعالى » .

(زهر الآداب ٣ : ١٤٣)

---

(١) القيعة جمع قاع : وهو ما انبسط من الأرض وفيه يكون السراب نصف النهار ، قال فى اللسان : « ولا نظير له إلا جار وجيرة ، وذهب أبو عبيد إلى أن القيعة تكون الواحد » .

(٢) أى انكشفت .

١٢١ — كتاب رجل إلى المتوكل

وكتب رجل إلى المتوكل على الله ، وقد أهْدَى إليه قارورةً من دُهْن الأُتْرُجّ :

« إنَّ الهدية يا أمير المؤمنين ، إذا كانت من الصغير إلى الكبير ، كلما لَطُفت(١) وَدقَّت كانت أبْهَى وأحسَنَ ، وإذا كانت من الكبير إلى الصغير ، كلما عَظُمت وجَلَّتْ كانت أنفع وأوقع ، وأرجو ألّا تكون قَصَّرتْ بى همةٌ أصارتنى إليك ، ولا أخَّرنى(٢) إرشادٌ دلنى عليك ، وأقول :

ما قَصَّرتْ همةٌ بَلَغَتْ بها ... بابَك يإذا النَّداءِ والكرمِ(٣)

حَسْبِى بودِّك إنْ ظَفِرْتُ به ... ذُخْرًا وعِزًّا يا واحِدَ الأُمَمْ

(العقد الفريد ٣ : ٣٠٩)

١٢٢ — كتاب رجل إلى مالك بن طوق

وكتب رجل إلى مالك بن طَوْق(٤) لمّا عُزِل عن عمله .

« أصبحتَ واللهِ فاضِحاً مُتْعِبا : أمّا فاضِحاً فلكل والٍ قبلَكَ بحُسْنِ سِيرتك ، وأمَّا مُتْعِباً فلكل والٍ بعدَكَ أن يَلْحَقَكَ » .

(اختيار المنظوم والمنثور ٣ : ٣٠٠)

---

(١) لطف الشيء ككرم : صغر ودق .

(٢) فى الأصل « ولا أحرى » وهو تحريف .

(٣) الندى بالقصر : الكرم والجود ، ومده الشعر .

(٤) كان أميرا على الأهواز فى خلافة المتوكل — انظر الأغانى ١٣ : ٢٢ .

١٢٣ — كتاب الحسن بن وهب إلى مالك بن طوق

وكتب الحسن بن وهب إلى مالك بن طوق فى ابن أبى الشِّيص :

« كتابى إليك كتاب خَطَطْتُهُ بيمينى ، وفرّغت لهُ ذِهنى ، فما ظنُّك بحاجةٍ : هذا مَوقعُها منى ؟ أتُرانى أقبَلُ العذرَ فيها ؟ أو أقصِّر فى الشكر عليها ، وَابن أبى الشِّيص قد عَرَفتَ حالَهُ ونَسَبَه وصفاتِه(١) ، ولو كانت أيدينا تنبسط ببره ما عدَانا إلى غيرنا ، فا كتفِ بهذا منا » .

(العقد الفريد ٢ : ١٩٣ ، واختيار المنظوم والمنثور ١٣ : ٣٩٤)

١٢٤ — كتاب أحد الكتاب إلى إبراهيم وأحمد ابنى المدبر

وكتب بعض الكتاب إلى إبراهيم وأحمد ابنى المدبّر(٢) وقد نالتهما مِحْنَةٌ ، ثم رَدِفَتها نعمة :

---

(١) وفى المنظوم والمنثور « وكفايته » .

(٢) قال ابن النديم فى الفهرست ص ١٧٨ . « بنو المدبر : أحمد ومحمد وإبرهيم ، وجميعهم شاعر مترسل بليغ » ، وقال أبو الفرج الأصبهانى فى الأغانى — فى ترجمة إبراهيم بن المدبر ج ١٩ ص ١١٤ — « إبراهيم بن المدبر شاعر كاتب متقدم من وجوه كتاب أهل العراق ومتقدميهم وذوى الجاه والمتصرفين فى كبار الأعمال ومذكور الولايات ، وكان المتوكل يقدمه ويؤثره ويفضله » وقال : « كان أحمد بن المدبر ولى لعبيد الله بن يحيى بن خاقان عملا ، فلم يحمد أثره فيه . وعمل على أن ينكبه ، وبلغ أحمد ذلك فهرب ، وكان عبيد الله منحرفا عن إبرهيم شديد النفاسة عليه لرأى المتوكل فيه ، فأغراه به وعرفه خبر أخيه ، وادعى عليه مالا جليلا ، وذكر أنه عند إبراهيم أخيه ، وأوغر صدره عليه حتى أذن له فى حبسه ولإبراهيم فى حبسه أشعار كثيرة حسان مختارة أورد صاحب الأغانى بعضها — وطال حبسه ، فلم يكن لأحد فى خلاصه منه حيلة ، حتى خلصه محمد بن عبد الله بن طاهر ، وبذل أن يحتمل فى ماله كل مايطالب به ، فأعفاه المتوكل من ذلك ، ووهبه له » .

وقال ياقوت فى معجم الأدباء ج ١ : ص ٢٢٦ : « هو إبراهيم بن محمد بن عبيد الله بن المدبر ، تولى الولايات الجليلة ، ثم وزر للمعتمد ، ومات سنة ٢٧٩ وهو يتقلد للمعتضد ديوان الضياع ببغداد » أقول : وأكبر ظنى أنه « المدبر » بفتح الباء . وهو الصواب إذ رأيت بعد فى كتاب المشتبه فى أسماء الرجال للذهبى ص ٤٧٢ طبع أوربة « إبراهيم بن المدبر (بفتح الباء الموحدة) الأخبارى يحكى عنه جحظة » .

« بسم الله الرحمن الرحيم : لو قُبِلْتُ فيكما ، ودانيتُ قدرَيْكما ، لقلتُ : جعلنى الله فداكما ، ولكن أُخِّرت عنكما ، فلا أُقْبَلُ فيكما[1] ، وقد بامتنى المحنةُ التى لو مات إنسان غمًّا بها لَكُنْتُهُ ، ثم اتصلتْ بى النعمة التى لو طار[2] إنسان فرحا بها لكنتهُ » .

وكتب تحته :

وليس بتزويق اللسان وصَوْغِهِ ولكنه قد خالط اللحم والدَّمَا

(زهر الآداب ٣ : ١٦ ، وأدب الكتاب ص ١٥٣)

١٢٥ — كتاب عمر بن أيوب إلى أحمد بن المدبر

وكتب أبو حَفْص عُمَر بن أيوب إلى أبى الحسين أحمد بن محمد بن المدَبَّر ، يعاتبه فى أنْ دعا له « مَدَّ الله فى عُمْرك » :

« يا جَــواداً بالثَّنا وبخيلًا بالعَطَا

إنّ : « مَدّ اللهُ فى عُمْــرك » من كُتْب الجفَا

ليس يُسْتَعْمَل هذا الصَّــدْرُ بين الأَصْفِيَا

فتفضَّلْ يا فَتَى النّا سِ بِتَفخِيم الدُّعا »

(أدب الكتاب ص ١٦٠)

١٢٦ — كتاب أبى العباس المبرد إلى إبراهيم بن المدبر

وقال أبو الحسن الأخفش[3] على بن سليمان : استهدَى إبراهيم بن المدبِّر

(١) وفى أدب الكتاب : « ولكنى لا أجزى عنكما ، ولا أقتل بكما » .

(٢) فى الأصل « أدب الكتاب » طال وهو تحريف .

(٣) هو الأخفش الأصغر النحوى المعروف ، توفى ، سنة ٣١٥ — انظر ترجمته فى وفيات الأعيان ١ : ٣٣٢ ، والفهرست لابن النديم ص ١٢٣ ، ونزهة الألبا فى طبقات الأدبا ص ٣١٢ .

أبا العباس(١) محمد بن يزيد جيسا يجمع إلى تأديب ولده الإمتاعَ بإيناسه(٢) ، فندَبني لذلك وكتب إليهِ معي :

« قد أنفذتُ إليك ـ أعزك الله ـ فلانا وَجُمْلةُ أمرِه أنه كما قال الشاعر :

إذا زرتُ الملوكَ فإن حَسْبي   شفيعاً عندهم أنْ يَخْبُرُوني »

(زهر الآداب ١ : ١٤٤)

١٢٧ ـ كتاب إبراهيم بن المدبر إلى أبي عبد الله بن حمدون

قال صاحب الأغاني :

وكتب إبراهيم بن المدبّر إلى أبي عبد الله بن حمدون في أيام نكبته يسأله إذ كانَ المتوكل والفتح بن خاقان بأمره :

كم ترَى يَبْقَى عَلَى ذا بَدَنِي؟   قد بَلِي مِن طُول هَمٍّ وَضَنِي

---

(١) هو أبو العباس المبرد النحوى المشهور صاحب كتاب الكامل ، كان إماما فى النحو واللغة ، روى عنه الأخفش المذكور ، وتوفى سنة ٢٨٥ ـ انظر ترجمته فى وفيات الأعيان ١ : ٤٩٥ والفهرست لابن النديم ص ٨٧ ، ونزهة الألباء ـ ص ٢٧٩ .

جاء فى وفيات الأعيان ١ : ٤٩٧ « والمبرد بضم الميم وفتح الباء والراء المشددة لقب عرف به ، واختلف العلماء فى سبب تلقيبه بذلك ، فالذى ذكره ابن الجوزى فى كتاب الألقاب أنه قال : سئل المبرد لم لقبت بهذا اللقب؟ فقال : كان سبب ذلك أن صاحب الشرطة طلبنى للمنادمة والمذاكرة فكرهت الذهاب إليه ، فدخلت إلى أبى حاتم السجستانى ، فجاء رسول الوالى يطلبنى ، فقال لى أبو حاتم : ادخل فى هذا ، يعنى غلاف مزملة (وهى البرادة التى يبرد فيها الماء) فارغا ، فدخلت فيه وغطى رأسه ، ثم خرج إلى الرسول ، وقال : ليس هو عندى ، فقال : أخبرت أنه دخل إليك ، فقال : ادخل الدار وفتشها ، فدخل فطاف كل موضع فى الدار ولم يفطن لغلاف المزملة ، ثم خرج فجعل أبو حاتم يصفق وينادى على المزملة المبرد المبرد ، وتسامع الناس بذلك فلهجوا به ، وقيل إن الذى لقبه به شيخه أبو عثمان المازنى ، وقيل غير ذلك » وجاء فى المزهر للسيوطى ٢ : ٢٦٧ فى « فصل فى معرفة الألقاب وأسبابها » : « قال السيرافى : لما صنف المازنى كتابه الألف واللام سأل المبرد عن دقيقه وعويصه فأجابه بأحسن جواب : فقال له : قم فأنت المبرد بكسر الراء أى المثبت الحق ، فغيره الكوفيون وفتحوا الراء » .

(٢) ذكر صاحب الأغانى فى ترجمة ابن المدبر أنه كان يتولى البصرة (ج ١٩: ص ١٢٤) فالظاهر أن ذلك الاستهداء كان إبان توليه إياها ، وقد كان المبرد من أئمة النحويين البصريين .

أنا فى أمْرٍ وأســبابِ رَدًى ... وحَــديدٍ قادحٍ يَكلمُنِى (١)
يابنَ حَمْدُونَ فتى الُجودِ الذى ... أنا منه فى جَنَى وَرْدٍ جَنِى (٢)
ما الذى تَرْقُبُه ، أم ما ترَى ... فى أخٍ مضــطهَدٍ مرتَهَنِ ؟
وأبو عِمْرانَ موسى حَنِقٌ ... حاقدٌ يطالبــنى بالإحَنِ (٣)
وعُبَيــد الله أيضاً مِثــلُه ... وَنجاحٌ بى مُجِــدٌّ ما يَنِى (٤)
ليس يَشفيه سوى سَفْكِ دمى ... أو يرانى مُدْرَجاً فى كَفَنِى
والأميرُ الفتْحُ إن أذكرته ... حُرْمَتِى قام بأمرى وعُنِى
قال : صِدْقٌ حين أدعو باسمِه ... وسرورٌ حين يَعرُو حَزَنى
قل له : يا حُسْنَ ما أوليتنى ... ما لِما أوليتَنى من ثمَنِ
زاد إحسانَكَ عنــدى عِظَماً ... أنّه بادٍ لِمن يعرفنى
لست أدرى كيف أجْزِيك به ... غيرَ أنِّى مُثقَلٌ بالمِنَنِ
ما رأى القومُ كذَنبِى عندهم ... عُظْمُ ذنبى أننى لم أخُنِ
ذاك فعلى وترَاثِى عن أبى ... واقتدائى بأخى فى السُّنَنِ
سُنَّةٌ صالحــةٌ معروفةٌ ... هى مِنّا فى قديم الزمن
ظفِرَ الأعداءُ بى عن حِيلةٍ ... ولعلَّ اللهَ أن يُظفِرنى
ليتَ أنى وهُم فى مجلسٍ ... يَظْهرُ الحقُّ به للفَطِنِ
فترَى لى ولهم مَلْحَمــةً ... يَهلِكُ الخائنُ فيها وَالدَّنِى (٥)
والذى أسأل أن يُنْصِفنى ... حاكمٌ يقضى بما يلزمُنى

---

(١) تمدحه كتمه : أثقله . وكلمه كضربه : جرحه .
(٢) الجنى كغنى : كل مايجنى ، وثمر جنى كغنى : جنى من ساعته .
(٣) فى الأصل « حاقن » وأراه محرفا ، والإحن : جمع إحنة بالكسر : وهى الحقد .
(٤) أى مايفتر . وفى الأصل « ونجاح فى ... » وهو تحريف .
(٥) الملحمة : الوقعة العظيمة القتل .

قل لحمدونَ خليلي وابنِــهِ ولعيسى حرِّكوه يا بَنِي[١]

فلم يزالوا فى أمره حتى خلصوه . (الأغانى ١٩ : ١١٩)

١٢٨ — كتابه إلى عريب

وكان بين إبراهيم بن المدبّر وبين عَرِيب[٢] المغنية حال مشهورة ، كان يهواها وتهواه ، ولهما فى ذلك أخبار كثيرة .

وقد كتبت إليه مِن سُرَّ مَنْ رَأى كتابا تتشوقه فيه ، وتخبره باستيحاشها له ، واهتمامها بأمره ، وأنها قد سألت الخليفة فى أمره ، فوعدها بما تحب .

فأجابها عن كتابها ، وكتب فى آخر الكتاب :

لعمرُك ما صوتٌ بديع لِمَعْبَدٍ[٣] بأحسَنَ عندى من كتاب عَرِيبِ

تأمّلتُ فى أثنائه خطَّ كاتب ورِقَّةَ مشــتاقٍ ، ولفظَ خطيبِ

وراجَعَنِي مِن وَصْلها ما استرَقَّنِي وزهّدنى فى وصـــلِ كلِّ حبيبِ

فصرت لهـا عبدا مُقِرًّا بِمِلْكها ومستمسِكاً من ودّها بنصيبِ[٤]

(الأغانى ١٩ : ١١٦)

١٢٩ — كتاب لابن المدبر

ولابن المدبّر :

« وصل كتابك المفتَتَح بالعتاب الجميل ، والتقريع اللطيف ، فلولا ما غَلَب علىَّ من السروّر بسلامتك ، لتقطّعتُ غمًّا بعتابك ، الذى لطُفَ حتى كاد يَخْفَى عن أهل

---

(١) قال صاحب الأغانى : يعنى يابنى الزانية .

(٢) انظر أخبارها فى الأغانى ١٨ : ١٧٥ .

(٣) هو معبد بن وهب المغنى المشهور ، كان فى عهد الدولة الأموية ، ومات فى أيام الوليد بن يزيد بدمشق — انظر ترجمته فى الأغانى ١ : ١٨ .

(٤) وقد أورد صاحب الأغانى مكاتبات شعرية بين إبراهيم بن المدبر وبين عريب وغيرها فارجع إليها فيه

الرّقة والفِطنة ، وغلُظ حتى كاد يفهمه أهلُ الجهل والبَلَه ، فلا أعدمنى الله رضاك مجازِيا به على ما استحقّه عَتبُك ، فأنت ظالم فيه ، وعتابك وليُّ المَخْرَج منه » .

(العقد الفريد : ٢ : ١٩٤)

١٣٠ — الرسالة العذراء لإبراهيم بن المدبر

وهى رسالة فى موازين البلاغة وأدوات الكتابة ، كتب بها أبو اليسر إبراهيم ابن محمد بن المدبِّر :

« بسم الله الرحمٰن الرحيم : فتَق اللهُ بالحكمة ذهنَك ، وشَرَح بها صدرَك ، وأنطق بالحق لسانك ، وشرّف به بيانك . وصل إلىّ كتابك العجيب الذى استفهمتنى فيه — بجوامع كلِك — جوامعَ أسباب البلاغة ، واستكشفْتنى عن غوامض آداب أدوات الكتابة : سألتنى أن أقِفَ بِكَ على وَزْن عُذوبة اللفظ وحلاوته ، وحُدود فخامةِ المعنى وجزَالته ، ورَشاقةِ نَظْم الكتاب ، ومُشاكَلةِ سَرْدِه ، وحُسْنِ افتتاحه وخَتْمِه ، وانتهاء فُصوله ، واعتدال وُصوله ، وسلامتهما من الزّلل ، وبُعْدِها من الخَطَل[1] ، ومتى يكون الكاتب مستحقّا اسمَ الكتابة ، والبليغُ مَسَلَّما له معانى البلاغة ، فى إشارته واستعارته ، وإلى أىّ أدواته هو أحوجُ ، وبأىّ آلاته هو أعمَلُ ، إذا حَصْحَصَ[2] الحقّ ، ودُعِىَ إلى السَّبْق ، وفهمتُه .

وأنا راسِمٌ لك — أيّدَكَ الله — من ذلك ما يجمع أكثر شرائطِك ، ويعبِّرُ عن جملة سؤالك ، وإن طوّلتُ فى الكتاب وعرّضتُ ، وأطنبتُ فى الوَصف وأسهَبْتُ ، ومُستقْصٍ على نفسى فى الجواب ، على قدر استقصائك فى السؤال ، وإن أخَلّ به الْتِياثُ[3] الحال، وسكونُ الحركة ، وفتُورُ النشاط ، وانتشارُ الرويّة ، وتقسُّمُ الفِكر ، واشتراكُ القلب ، واللهُ المستعانُ .

---

(١) الخطل : الخطأ . (٢) حصحص : وضح واستبان .
(٣) الالتياث : الاختلاط والالتفاف .

اعلمْ - أيدك الله - أن أدوات ديوان جميع المحاسن، وآلاتِ المكارم، طائعة مُنقادة لهذه الصناعة التي خطبتَها، وتالية تابعة لها، وغير خارجة إلى جحْد أحكامها، ولا دافعة لما يلزمها الإقرارُ به لها، إضرارًا منها إليها، وعجزًا عنها، فإن تقاعسَتْ نفسُك عِلمَها، ونازعَتْك همّتُك إلى طلبها، فاتخذِ البرهانَ دليلا شاهدًا، والحقَّ إمامًا قائدًا، يقرِّبْ مسافةَ ارتيادك، ويسهِّلْ عليك سُبُل مطالبها، واستوهِبِ اللهَ توفيقًا تستنجحُ به مَطالِبَك، واستمنِحْه رشدًا يُقبِل إليك بوجه مذاهبك، فاقصِدْ في ارتيادِك، وتأمَّلِ الصواب في قولك وفعلك، ولا تسكُنْ إلى جحود قَصْدِ السابق باللَّجاج، ولا تخرُجْ إلى إهمال حقِّ المُصيب بالمعانَدة والإنكار، ولا تستخفَّ بالحكمة ولا تُصَغِّرْها حيث وجدتَها، فترْحَلَ نافرةً عن مواطنها من قلبك، وتَظْعَنَ شاردةً عن مكانها من بالك، وتتعفَّى[1] بعد العِمارة من قلبك آثارُها، وتنطمِسَ بعد الوضوح أعلامُها.

واعلم أن الاكتساب بالتعلُّم والتكلُّفِ، وطول الاختلاف إلى العلماء، ومدارَسَة كتب الحكماء، فإن أردتَ خوضَ بحار البلاغة، وطلبتَ أدواتِ الفصاحة، فتصفَّحْ من رسائل المتقدِّمين ما تعتمد عليه، ومن رسائل المتأخرين ما ترجِعُ إليه، في تلقيح ذهنك، واستنجاح بلاغتك، ومن نوادر كلام الناس ما تستعين به، ومن الأشعار والأخبار والسِّيَر والأسمار[2] ما يتَّسع به منطِقُك، ويعذُبُ به لسانك، ويطول به قلمُك، وانظر في كتب المقامات والخُطَب، ومحاورات العرب، ومعاني العجم، وحدود المنطق، وأمثال الفرس ورسائلهم وعهودهم، وسِيَرهم ووقائعهم، ومكايدهم في حروبهم، بعد أن تتوسط في علم النحو والتصريف واللغة والوثائق والسور والشروط ككتب السِّجلات والأمانات، فإنه أول ما يحتاج إليه الكاتب، وتَمَهَّرْ[3] في نزع

(١) تعفى الأثر: درس وامحى. (٢) في الأصل: «والأسماء» وهو تحريف.

(٣) وفي العقد: «لتكون ماهرا».

آي القرآن في مواضعها ، واجتلاب الأمثال في أماكنها ، واختراع الألفاظ الجزلة ، وقرض الشعر الجيد وعلم العروض ، فإن تضمين المثل السائر ، والبيت الغابر البارع، مما يزين كتابتك ، مالم تخاطب خليفة أو ملكا جليل القدر ، فإن اجتلاب الشعر في كتب الخلفاء والجلة الرؤساء ، عيب واستهجان الكتب ، إلا أن يكون الكاتب هو القارض للشعر والصانع له ، فإن ذلك مما يزيد في أبهته ، ويدل على براعته ، وإن شدوت[1] من هذه العلوم مالا يشغلك محله ، وتنقيت من هذه الفنون ما تستعين به على إطالة قلمك ، وتقويم أود[2] بيانك .

بعد أن يكون الكاتب صحيح القريحة ، حلو الشمائل ، عذب الألفاظ ، دقيق الفهم ، حسن القامة ، بعيدا من الفدامة[3] ، خفيف الروح ، حاذق الحس ، محنكا بالتجربة ، عالما بحلال الكتاب والسنة وحرامهما ، وبالملوك وسيرها وأيامها ، وبالدهور في تقلبها وتداولها ، مع براعة الأدب ، وتأليف الأوصاف ، ومشاكلة الاستعارة ، وحسن الإشارة ، وشرح المعنى بمثله من القول ، حتى تنصب صورا منطقية تعرب عن أنفسها ، وتدل على أعيانها ، لأن الحكماء قد شرطوا في صفات الكتاب : اعتدال[4] القامة ، وصغر الهامة[5] ، وخفة اللهازم[6] ، وكثافة اللحية ، وصدق الحس ، ولطف المذهب ، وحلاوة الشمائل ، وخفة الإشارة ، وملاحة الزي ، حتى قال بعض المهالبة[7] لولده : « تزيوا بزي الكتاب ، فإن فيهم أدب الملوك ، وتواضع السوقة » .

ومن كمال آلة الكتابة : أن يكون الكاتب بهي الملبس ، نظيف المجلس ، ظاهر المروءة ، عطر الرائحة ، دقيق الذهن ، صادق الحس ، حسن البيان ، رقيق حواشي

---

(١) شدا : أخذ طرفا من الأدب.   (٢) الأود : الاعوجاج .
(٣) الفدامة : العي عن الكلام في ثقل ورخاوة وقلة فهم ، فدم ككرم فهو فدم كصعب .
(٤) في رسائل البلغاء « طول القامة » .
(٥) الهامة : الرأس .
(٦) اللهزمتان : ناتئان تحت الأذنين من أعلى اللحيين والخدين .
(٧) المهالبة : بنو المهلب بن أبي صفرة .

اللسان ، حُلو الإشارة ، مليح الاستعارة ، لطيف المَسْلَك ، مُسْتفرَه[١] المَرْكَب ، ولا يكون مع ذلك نَضْفاضَ الجُثّة ، متفاوت الأجزاء ، طويل اللحية . عظيم الهامة ؛ فإنهم زعموا أن هذه الصورة لا يليق بصاحبها الذكاء والفطنة .

وإذا احتجت إلى مخاطبة الملوك والوزراء والعلماء والكُتّاب والخطباء والأدباء والشعراء وأوساط الناس وسُوقتهم ، تخاطب كُلاً على قدر أُبّهته وجلالته ، وعلوّه وارتفاعه ، وتفطّنه وانتباهه ، واجعل طبقاتِ الكلام على ثمانية أقسام ، فأربعةٌ منها للطبقة العُلْوية ، وأربعة دونها ، ولكل طبَقة منها درجة ، ولكلّ قِسمةٌ حظّ لا يتسع الكاتب البليغ أن يقصِّر بأهلها عنها ، ويَقلِبَ معناها إلى غيْرها . فالطبقة العليا : الخلافةُ التى أجَلّ الله قدرها ، وأعلى شأنها عن مساواتها بأحد من أبناء الدنيا فى التعظيم والتوقير والمخاطبة والترسُّل . والطبقة الثانية الوزراء والكُتّاب الذين يخاطبون الخلفاء بعقولهم وألسنتهم ، ويرتُقُون الفُتوق بآرائهم ، ويتجمّلون بآدابهم . والطبقة الثالثة : أمراء ثغورهم وقُوّاد جيوشهم ، فإنه يجب مخاطبة كل امرئ منهم على قدره وموضعه وحَظه وغَنائه[٢] وجَزائه واضطلاعه بما حمل من أعباء أمورهم ، وجلائل أعمالهم . والطبقة الرابعة : القضاة ، فإنهم وإن كان لهم تواضع العلماء ، وحِلْيةُ الفضلاء ، فمعهم أبّهة السلطنة ، وهَيْبة الأمراء .

أما الطبقات الأربع الأخرى ، فهم الملوك الذين أوجبت نِعمُهم تعظيمَهم فى الكتب إليهم ، وأفضالُهم تفضيلَهم فيها . والثانية : وزراؤهم وكُتّابهم وأتباعهم الذين بهم تُقرَع أبوابهم ، وبعنايتهم تستماحُ[٣] أموالهم . والثالثة : هم العلماء الذين يجب توقيرهم فى الكُتُب ، لِشَرَف العلم وعلو درجة أهله . والرابعة : أهل القدر والجلالة والظَّرف والحلاوةِ والطّلاوة[٤] والعلم والأدب ، فإنهم يَضطرُّونك بحِدّة أذهانهم ، وشدة تمييزهم وانتقادهم وأدبهم وتصفحهم ، إلى الاستقصاء على نفسك فى مكاتبتهم .

---

(١) الفاره من الدواب : الجيد السير ، واستفرهها : استكرمها أى انتقاها كريمة فارهة .

(٢) أى كفايته . (٣) استماحه : سأله العطاء ، وفى النقد « تستباح » وهو تحريف .

(٤) الطلاوة مثلثة : الحسن والبهجة .

واستغنَيْنا عن الترتيب للتجار والسُّوقة والعوامِّ رتبةً ، لاستغنائهم بتجارتهم عن هذه الآلات ، واشتغالهم بمُهِمَّاتهم عن هذه الأدوات .

ولكل طبقة من هذه الطبقات مَعانٍ ومذاهبُ يجب عليك أن تراعيَها في مراسلتك إياهم في كتبك ، فتَزِن كلامَك في مخاطبتهم بميزانه ، وتُعطيَه قِسْمه ، وتوفِّيَه نصيبَه ، فإنك متى أهملت ذلك وأضَعته ، لم آمَن عليك أن تَعدِل بهم عن طريقهم ، وتسلُك بهم في غير مَسالكهم ، وتُجْرِيَ شُعاعَ بلاغتك في غير مجراه ، وتنظِمَ جوهر كلامك في غير سِلْكه .

فلا تَعْتَدَّ[١] بالمعنى الجَزْل مالم تُلْبِسه لفظا جزْلا لائقا بمن كاتبتَه ، ومشابها لمن راسلتَه ، فإن إلباسَك المعنى — وإن شَرُف وصلُح — لفظا مختلفا عن قدر المكتوب إليه ، لم تَجْرِ به عادتُهم ، تهجينٌ[٢] للمعنى ، وإخلال بقَدْره ، وظلم لحقِّ المكتوب إليه ، ونقصٌ مما يجب له ؛ كما أن في اتِّباع[٣] تعارُفهم ، وما انتشرت به عاداتُهم ، وجرَت به سُنَّتهم ، قَطْعا لعُذرهم ، وخروجا من حقوقهم ، وبلوغا إلى غير غاية مُرادهم ، وإسقاطا لحُجَّة أدبهم ، فمن[٤] الألفاظ المرغوب عنها ، والصدُورِ المستوحَش منها ، في كُتُب السادات والأمراء والملوك — على اتفاق المعانى — مثل : « أبقاك الله طويلا » و « عَمَّرَك مليًّا[٥] » ، وإن كنا نعلم أنه لا فُرْقان بين قولهم : « أطال الله بقاءك » وبين قولهم : « أبقاك الله طويلا » ولكنهم جعلوا هذا أرجَح وزنًا ، وأنبه قدراً ، في مخاطبة الملوك ، كما أنهم جعلوا : « أكرمك الله وأبقاك » أحسنَ منزلةً في كتب الفضلاءِ والأدباءِ ، من « جُعِلْتُ فداك » على اشتراك معناه ، واحتماله أن يكون فداءً من الخير ، كما يحتمل أن يكون فداءً له من الشر ، ولولا أن رسول الله صلى الله عليه وسلم

---

(١) في رسائل البلغاء « فلا يفيد المعنى الجزل » . (٢) التهجين : التقبيح .
(٣) في رسائل البلغاء « كما أن في امتناع تعارفهم ... وضعا لقدرهم » وهو تحريف .
(٤) في العقد « ضمن » وهو تحريف .
(٥) عمره الله وعمّره : أبقاه ، ومليا : أي دهراً طويلا ، والفرق والفرقان واحد .

قال لسعد بن أبى وَقاص : « ارْمِ ، فِداك أبى وأمّى » لكرِهتُ أن يكتب بها أحد . على أن كُتاب العسكر وعوامَّهم قد أُولعوا بهذه اللفظة ، حتى استعملوها فى جميع محاوراتهم ، وجعلوها هِجِّيرَاهم[1] فى مخاطبة الشريف والوضيع ، والكبير والصغير ولذلك قال محمود الوَرّاق :

كُلُّ مَن حَلَّ « سُرَّ مَن رَا » من النا ... س ، ومَن يُصاحِب الأملا كا
لو رأى الكلبَ مائلاً فى طريق ... قال للكلب : يا جُعِلْتُ فِدا كا

وكذلك لم يُجيزوا أن يكتبوا بمثل « أبقاك الله وأمتعَ بك » إلا إلى الحُرْمة والأهل والتابع المنقطع إليك ، وأمّا فى كتب الإخوان فغيرُ جائز ، بل مذمومٌ مرغوبٌ عنه ؛ ولذلك كتب عبد الله بن طاهر إلى محمد بن عبد الملك الزيات :

أَحُلْتَ عمّا عَهِدتُ من أدبك ... أمْ نِلتَ مُلكاً فتِهتَ فى كُتُبكْ ؟[2]
أم هل ترى أنَّ فى التواضع للإخوان نقصا عليك فى حَسَبك ؟
أتعَبْتَ كفّيك فى مكاتبتى ... حَسْبُك مما تَزيد فى تعبِكْ
إنَّ جفاءً كتابُ ذى أدبٍ ... يكتب فى صدره : « وَأمتعَ بك »[3]

فكتب إليه محمد بن عبد الملك :

أنكرتَ شيئا فلستُ فاعِلَهُ ... فلن تراه يُخَطُّ فى كُتُبكْ
فاعْفُ ـ فَدَتْك النفوسُ ـ عن رجل ... يعيش حتى المماتِ فى أدبِكْ
كيفَ أخُونُ الإخاءَ يا أَمَلى ... وكلُّ شىء أنالُ من سَبَبِكْ
إن يكُ جهلاً أتاك من قِبَلى ... فعُد بفضل علىَّ من حسبِكْ

---

(١) يقال : هذا هجيراه : أى دأبه وشأنه .
(٢) حال يحول : تحول وتغير ، والتيه بالكسر : الكبر والصلف .
(٣) وفى رواية العقد الفريد :
أكان حقا كتاب ذى مقة ... يكون فى صدره : « وأمتع بك » ؟

وأما صدورُ السَّلَفِ فإنما كانت من فلان بن فلان إلى فلان ، كذلك جَرَتْ كتب رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى العَلاء بن الحضرمىّ ، وإلى أقيال اليمن ، وإلى كِسْرى وقَيْصر ، وكُتُب أصحابه والتابعين كذلك ، حتى استخلص الكُتّاب هذه المُحْدَثات من بدائع الصدور ، واستنبطوا لطيف الكلام ، ورتّبوا لكلٍّ رتبة ، وجَرَوْا على تلك السُّنّة الماضية إلى عصرنا هذا فى كتب الخلفاء والأمراء ، وثبتوا على ذلك المِنهاج فى كتب الفتوحات والأمانات والسّجلاّت .

ولكل مكتوب إليه قَدْرٌ ووَزْن ينبغى للكاتب أن لايتجاوز به عنه ، ولا يقصّر به دونه ، وقد رأيتُهم عابوا الأحوص [١] حين خاطب الملوك بمخاطبة العوامّ فى قوله :

وأراك تفعلُ ماتقولُ ، وبعضُهم مَذِقُ الحديث ، يقول ما لا يفعلُ [٢]

فهذا معنى صحيح فى المدح ، ولكنهم أجَلُّوا أقدار الملوك أن يُمدَحوا بما يمدح به العوامّ ، لأن صدق الحديث وإنجاز الوعد وإن كان مدحا ، فهو واجب على كلٍّ ، والملوكُ لايُمدَحون بالفروض الواجبة ، وإنما يحسن مدحهم بالنوافِل [٣] ، لأن المادح لو قال لبعض الملوك : إنك لاتزنى بحَلِيلة [٤] جارك ، وإنك لاتخون ما استُودِعتَ ، وإنك تَصدُق فى وعدك ، وتَفِى بعهدك ، كان قد أثنى بما يجب ، ولكنه لم يصل بثنائه إلى مَقْصِد ، وقال ما لايستحسَن مثلُه فى الملوك .

ونحن نعلم أن كل أميرٍ تولَّى من أمور المؤمنين شيئا فهو أمير المؤمنين ، غير أنهم لم يُطلِقوا هذه اللفظةَ إلا للخلفاء خاصّةً ، ونعلم أن الكَيْسَ هو العقل إذا عَنَوا به ضِدَّ الحُمْق [٥] ، ولكنك لو وصفت رجلا فقلت : « إن فلانا لَعاقلٌ »

---

(١) شاعر أموى من أهل المدينة توفى سنة ١٠٥ — انظر ترجمته فى الأغانى ٤ : ٤٠ ، والشعر والشعراء ص ٢٠٤ .

(٢) مذق اللبن كنصر مذقا فهو ممذوق ومذيق ومذق كفرح : خلطه بالماء ، ومنه قيل : فلان يمذق الود : إذا لم يخلصه .

(٣) النوافل ، جمع نافلة ، وهى ماتفعله مما لم يجب . (٤) الحليلة : الزوجة .

(٥) وله معان أخر ، وهى : الجود والطيب والجماع والغلبة بالكياسة .

كنت قد مدحته عند الناس ، ولو قلت : « إنه كيِّس » كنت قد قصّرت به عن وصفه ، وصغّرتَ من قدره ، إلا عند أهل العلم باللغة ، لأن العامة لاتلتفت إلى معنى الكلمة إلا إلى حيثُ جرَتْ منها العادة فى استعمالها فى الظاهر ، إذ كان استعمال العامة لهذه الكلمة مع الحداثة والغِرَّة وخَساسة النفس وصغر السِّنّ ، وقد روينا عن علىّ رضى الله عنه أنه تبجّح[1] بالكَيْس حين بنى سجْن الكوفة فقال فى ذلك :

أمَا ترَانى كيِّسًا مُكَيَّسًا بنيتُ بعد نافِعٍ مُخَيَّسًا[2]
* حِصْنًا حَصِينا وأمينا كيِّسًا[3] *

وقال الشاعر :

« ما يصنع الأحمقُ المرزوقُ بالكَيْسِ ، وتَعْلَم أن الصلاة رحمة ، غير أنهم قد حرّموها[4] إلّا على الأنبياء ، كذلك رُوِى عن ابن عباس رضى الله عنه ، وسمع سعد بن أبى وقّاص أخا له يُلَبِّى ويقول فى تلبيته : « لَبَّيْك يا ذا المَعارِج[5] » فقال : نحن نعلم أنه ذو المعارج ، ولكن ليس كذلك ، كنا نلبى على عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم ، إنما كنا نقول : لَبَّيك اللهمَّ لَبَّيك » وكان أبو إبْراهِيم المُزَنِىّ قال فى بعض

(١) تبجح بالشىء : إذا فخر به ، وفى العقد « أنه تسمى بالكيس » .

(٢) الكيس المكيس . الظريف والمعروف بالكيس ، والمخيس بكسر الياء المشددة وفتحها : السجن ، لأنه يخيس المحبوسين أى يذلهم ، أو هو موضع التخييس ، واسم سجن بناه على رضى الله عنه بالكوفة ، وكان أولا بنى سجنا بها سماه نافعا ، وكان غير مستوثق البناء — وكان من قصب — فكان المحبوسون يهربون منه ، وقيل إنه نقب وأفلت منه المحبسون ، فهدمه على وبنى لهم المخيس من مدر ، وجاء فى شفاء الغليل ص ١٠٩ : « ولم يكن فى زمن النبى صلى الله عليه وسلم وأبى بكر وعمر وعثمان رضى الله عنهم سجن ، وكان يحبس فى المسجد أو فى الدهليز حيث أمكن ، فلما كان زمن سيدنا على رضى الله عنه أحدث السجن ، وكان أول من أحدثه فى الاسلام ، وسماه نافعا ولم يكن حصينا ، فانفلت الناس منه ، فبنى آخر وسماه مخيسا وقال فيه . . . . . » .

(٣) فى الأصل « وأميراً » وفى اللسان والقاموس والشفاء « وأمينا » .

(٤) فى العقد « كرهوا الصلاة » .

(٥) المعراج بكسر الميم والمعرج بكسرها وفتحها : السلم . والمرقاة ، بالكسر والفتح أيضاً .

ما خاطب به داود بن خَلَف الأصبهانى : « وإن قال كذا فقد خرج عن المِلّة ، والحمد لله » فنقض ذلك عليه داود ، وقال فيما رد عليه : تحمَد اللهَ على أن تُخرِج امرأ مسلما من الإسلام! هذا موضع استرجاع، والحمد مكانٌ يليق به وإنما يقال فى المصيبة: « إنَّا لِلهِ وَإنَّا إِلَيْهِ رَاجِعُونَ » .

فامتثِلْ هذه الرسومَ والمذاهبَ ، واجْرِ على آدابهم ، فلكلٍّ رسومٌ امتثَلوها ، وتحفَّظْ فى صدور كتبك وفصولها ، وافتتاحها وخاتمتها ، وضَعْ كل معنى فى موضع يليق به ، وتخيَّرْ لكل لفظة معنًى يُشاكلها ، وليكن ماتختم به فصولك فى موضع ذكر الشكوى بمثل : « والله المستعان ، وحَسْبنا الله ونِعْمَ الوكيل » وفى موضع ذكر البَلْوَى : « نسأل الله دفع المحذور ، ونسأل الله صَرْف السوء » وفى موضع ذكر المصيبة بمثل « إنا لله وإنا إليه راجعون » وفى موضع ذكر النعم بمثل : « والحمد لله خالصاً ، والشكر لله واجباً » فإنها مواضع ينبغى للكاتب تفقُّدها ، فإنما يكون كاتبا إذا وضع كل معنى فى موضعه ، وعلَّق كل لفظة على طِبْقها من المعنى ، فلا يجعل أول ما ينبغى له أن يكتب فى آخر كتابه فى أوله ، ولا أولَه فى آخره ، فإنى سمعت جعفر بن محمد الكاتب يقول : « لا ينبغى للكاتب أن يكون كاتبا ، حتى لا يستطيع أحد أن يؤخر أول كتابه ، ولا يقدِّم آخِرَه » .

واعلم أنه لايجوز فى الرسائل استعمال ما أتى فى آى القرآن ، من الاقتصار والحذف ، ومخاطبة الخاصِّ بالعام ، والعامِّ بالخاص ، لأن الله سبحانه وتعالى إنما خاطب بالقرآن قوما فُصَحاء ، فَهِموا عنه جل ثناؤه أَمْرَه ونَهْيَه ومُرادَه ، والرسائل إنما يخاطَب بها قوم دُخَلاء على اللغة لا علمَ لهم بلسان العرب ، وكذلك ينبغى للكاتب أن يتجنب اللفظ المشتَرَك والمعنى الملتبس ، فإنه إن ذهب الكاتب على مثل قوله تعالى : « وَاسْأَلِ القَرْيَةَ الَّتِي كُنَّا فِيهَا وَالْعِيرَ الَّتِي أَقْبَلْنَا فِيهَا(١) » وقوله :

(١) تأويله : واسأل أهل القرية .

« بَلْ مَكْرُ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ » احتاج أن يبين معناه : بل مكركم بالليل والنهار ، ومثل هذا فى القرآن كثير لايتسع الكتاب لذكره .

وكذلك لايجوز أيضا فى الرسائل والبلاغات المشهورة مايجوز فى الأشعار الموزونة ، لأن الشاعر مضطر ، والشعر مقصور[1] مقيَّد بالوزن والقوافى ؛ فلذلك أجازوا لهم صَرْفَ ما لا ينصرف من الأسماء ، وحذف مالا يحذف منها ، واغتفروا فيه الإغراب وسوء النظم ، وأجازوا فيه التقديم والتأخير ، والإضمار فى موضع الإظهار وذلك كله غير مُسَاغ[2] فى الرسائل ، ولا جائز فى البلاغات ، فمما فى الشعر من الحذف :

قول الشاعر :

« قَوَاطِناً مَكَّةَ من وُرْقِ الحِمِى[3] » يعنى الحمام

وقول الآخر :

« صِفْرُ الوِشَاحَيْنِ صَمُوتُ الخَلْخَلِ[4] » يريد الخلخال

وكقول الآخر :

« دَارٌ لِسَلْمَى إذْهِ مِن هَوا كَا[5] » يريد إذ هى

---

(١) أى مقيد ، من القصر وهو الحبس .

(٢) من أساغ فلان الشراب: إذا ابتلعه بسهولة ، وفى العقد « منساغ » أى جائز ، بناه من انساغ وجعله مطاوعا لساغ ، يقال : ساغ له ذلك ، أى جاز فهو سائغ أى جائز ، ولاداعى إلى استعمال المطاوع هنا مادام الفعل يؤدى المعنى .

(٣) قاله العجاج ، ويروى فى شواهد كتب النحو (باب إعمال اسم الفاعل) « أوالفا » ، وورق : جمع ورقاء ، وهى الحمامة التى يضرب بياضها إلى سواد ، والحمى : أصله الحمام حذفت الميم الأخيرة وقلبت الألف ياء ، وقلبت الفتحة كسرة للروى .

(٤) الوشاح : أديم عريض يرصع بالجوهر ، تشده المرأة بين عاتقها وكشحيها ، والصفر : الخالى ، وصفر الوشاحين : أى ضامرة الخصرين ، وقال صاحب اللسان : « والخلخل كجعفر وبرقع من الحلى : معروف ، قال الشاعر : « براقة الجيد صموت الخلخل » ثم قال : « والخلخال كالخلخل ، والخلخل لغة فى الخلخال أو مقصور منه ، واحده خلاخيل النساء » .

(٥) جاء فى شرح التصريح (١ : ١٠٣) : « وفى هو وهى الجميع ضمير ، وهو مذهب البصريين وذهب الكوفيون إلى أن الضمير هو الهاء فقط ، والواو والياء إشباع » وفى حاشية الصبان (١ : ٨٩) : =

وكقول الحطيئة :

فيه الرماحُ وفيه كلُّ سابغةٍ   جدْلاء مَسْرُودةٍ مِن صُنْعِ سَلامِ (١)

يريد سليمان بن داود ، وكقول النابغة :

« وَنَسْجُ سُلَيْمٍ كلَّ قَضَّاء ذائلِ (٢) »

« وقد تحذف الواو والياء منهما اضطراراً ، وتسكنهما قيس وأسد ، وتشددها همدان » .

أقول: ومما جاء بالتشديد قول الشاعر: وإن لسانى شهدة يشتفى بها   وهو على من صبه الله علقم

وهاك كلمة لصاحب اللسان فى هذا الصدد قال : « قال الكسائى : هو ، أصله أن يكون على ثلاثة أحرف مثل أنت ، فيقال : هو فعل ذلك ، ومن العرب من يخففه فيقول : هو فعل ذلك، وحكى الكسائى عن بنى أسد وتميم وقيس : هو فعل ذلك ، باسكان الواو ، وأنشد لعبيد :

وركضك لولا هو لقيت الذى لقوا   فأصبحت قد جاوزت قوما أعاديا

وقال الكسائى : بعضهم يلقى الواو من هو إذا كان قبلها ألف ساكنة فيقول: حتاه فعل ذلك وإنماه فعل ذلك ، قال : وأنشد أبو خالد الأسدى :   * إذاه لم يؤذن له لم ينبس *

قال : وأنشدنى خشاف :   إذاه سام الخسف آلى بقسم   بالله لا يأخذ إلا ما احتكم

قال : وأنشدنا أبو مجالد المجير السلولى :

فبيناه يشرى رحله قال قائل   لمن جمل رث المتاع نجيب

وقال ابن جنى : إنما ذلك لضرورة فى الشعر ، وللتشبيه الضمير المنفصل بالضمير المتصل فى عصاه وقناه، ولم يقيد الجوهرى حذف الواو من هو بقوله إذا كان قبلها ألف ساكنة ، بل قال : وربما حذفت من هو الواو فى ضرورة الشعر، وأورد قول الشاعر : فبيناه يشرى رحله ، وكذلك الياء من هى ، وأنشد : « دار لسعدى إذه من هواكا » اهـ — لسان العرب ج ٢٠ : ص ٣٦٦ .

(١) الهاء فى فيه تعود على قوله فى بيت قبله :

وجحفل كبهيم الليل منتجع   أرض العدو ببؤس بعد إنعام

ودرع سابغة : تامة طويلة ، ودرع جدلاء : محكمة ، والسرد : نسج الدرع ، وسلام : يعنى سليمان بن داود عليهما السلام — وإنما أراد داود — وكان يصنع الدروع ، قال تعالى فيه: « وَأَلَنَّا لَهُ الْحَدِيدَ أَنِ اعْمَلْ سَابِغَاتٍ وَقَدِّرْ فِي السَّرْدِ » وقال « وَعَلَّمْنَاهُ صَنْعَةَ لَبُوسٍ لَكُمْ لِتُحْصِنَكُمْ مِنْ بَأْسِكُمْ » واللبوس : الدرع ، والبيت من قصيدة الحطيئة فى مدح أبى موسى الأشعرى — انظر ديوان الحطيئة ص ٣٦ .

(٢) هو شطر بيت من قصيدة النابغة الذبيانى، قالها فى وقعة غزو عمرو بن الحرث الأصغر الغسانى لبنى مرة بن عوف بن سعد بن ذبيان — انظر ديوان النابغة ص ٩١ — والبيت :

وكل صموت نثلة تبعية   ونسج سليم كل قضاء ذائل

والصموت كصبور : الدرع الثقيلة ، والنثلة بالفتح : الدرع الواسعة ، وتبعية نسبة الى تبع ، وسليم : أى سليمان ، يريد داود كما تقدم ، والقضاء : الدرع المحكمة ، ودرع ذائل وذائلة ومذالة بضم الميم : طويلة .

وقول الآخر : « من نَسْجِ داودِ أبى سَلَّامِ [١] »

وقول الآخر : « والشيخ عثمانُ أبى عفّان »

أراد عثمان بن عفان ، وكما قال الآخر :

وسائلةٍ بثَعْلَبَة بنِ سَيْرٍ وقد عَلِقَتْ بثعلبةَ العَلُوقُ [٢]

أراد ثعلبة بن سيَّار ، وقول الآخر :

ولستُ بآتيهِ ولا أستطيعُه ولَاكِ اسْقِنِى إن كانَ ماؤكَ ذا فَضْلِ [٣]

أراد ولـكن :

وكذلك ينبغى فى الرسائل ألا يصغَّر الأسم فى موضع التعظيم ، وإن كان ذلك جائزا ، مثل قولهم : دُوَيْهِية تصغير داهية ، وجُذَيْل تصغير جِذل ، وعُذَيْق تصغير عَذْق ، قال لبيد :

وكلُّ أناسٍ سوف تدخل بينهم دُوَيْهِيَةٌ تصفرُّ منها الأناملُ [٤]

وقال الُحبَاب بن المُنْذِر يوم سَقِيفة بنى ساعدة : « أنا عُذَيقُها المُرَجَّبُ ، وجُذَيْلُها المُحَـكَّك [٥] » .

---

(١) هو شطر بيت للأسود بن يعفر — انظر لسان العرب ١٥ : ١٩٣ — والبيت:

ودعا بمحكمة أمين سكبها من نسج داود أبى سلام

(والسك بالفتح : الدرع الضيقة الحلق) قال صاحب اللسان : وقالوا فى سليمان اسم النبى صلى الله عليه وسلم : سليم وسلام فغيروه ضرورة ، قال : ومثل ذلك فى أشعارهم كثير ، واستشهد بالأبيات الثلاثة المذكورة ، وبشاهد آخر وهو :

مضاعفة تخـيرها سليم كأن قتيرها حدق الجراد

(والقتير بالفتح : رءوس مسامير حلق الدرع) .

(٢) العلوق . المنية ، وجاء فى اللسان (٦ : ٥٨) « جعله سيرا للضرورة ، لأنه لم يمكنه سيار لأجل الوزن ، قال ابن برى : البيت للمفضل النـكرى يذكر أن ثعلبة بن سيار كان فى أسره » .

(٣) البيت للنجاشى من أبيات قالها فى ذئب لقيه على ماء فدعاه أن يؤاخيه — انظر الأبيـات فى حاشية الأمير على المغنى ج ١ : ص ٢٠٨ — .

(٤) المراد بالدويهية : الموت .

(٥) قال الحباب ذلك وقد قام يطلب بحق الأنصار فى الخلافة — انظر جمهرة خطب العرب ١ : ٦٥— والجذيل تصغير الجذل (بالـكسر) وهو أصل الشجرة ، وعود ينصب للإبل الجربى لتحتك به وتتمرس =

ومما لا يجوز فى الرسائل ، وكرهوه فى الكلام أيضاً ، مثل قولهم : كلمتُ إياكَ وأعنى إياك ، وهو جائز فى الشعر ، قال الشاعر :

وأحسِنْ وأجمِلْ فى أسيرك إنه ضعيفٌ ، ولم يأسِرْ كإياك آسِرُ

وقال الراجز : « إياك حتى بلغتْ إياكَ »

وإساءةُ النظم فى التأليف فى الشعر كثير .

وتكون الكلمة بَشِعةً حتى إذا وُضعتْ موضعها ، وقُرِنت مع أخَوَاتها ، حَسُن حالها وراقت ، كقول الحسن بن هانى[١] : « ذو خَصِرٍ أفْلَتَ مِن كَدِّ الأُبَلْ[٢] » والكدُّ كلمة قَلِقة لا سيما فى الرقيق والغزل والتشبيب ، غير أنها لما وقعت فى موضعها حَسُنت ، كما أن اللفظة العَذْبة إذا لم توضَع موضِعَها نَفَرت ؛ قال الشاعر :

رأتْ عارِضاً جَوْناً فقامت غَرِيرةً بِمِسْحَاتِها قبلَ الظلامِ تُبَادِرُه[٣]

فأوقع الجِلْفُ[٤] الجافى هذه اللفظة غير موقعها ، وظلَمها إذ جعلها فى غير مكانها ، لأن المَسَاحى لا تكون ولا تصلح الغرائر ، وأين كان عن قول الشاعر :

غَرائرُ ، ما حُدِّثْنَ يُهْدِين أُنْسَهُ فما فوقَه منهن غيرُ غَرائرِ

حديثٌ لَوَ انَّ العُصْمَ تُدْعَى به أتَتْ ودونَ يد القَحْشاء حدُّ البواتِرِ[٥]

فتخيَّرْ من الألفاظ أرجَحَها وزناً ، وأجزلَها معنى ، وأشرَفَها جوهراً ، وأكرمَها

والمحكك : الذى تحككك به ، والمذيق تصغير المذق (بالفتح) : وهو النخلة ، والمرجب الذى جعل له رجبة (كركبة) وهى دعامة تبنى حولها من الحجارة ، وذلك إذا كانت النخلة كريمة وطالت تخوفوا عليها أن تنقعر من الرياح العواصف ، وهو مثل ، والمراد أنه رجل يستشفى برأيه وعقله .

(١) هو أبو نواس الشاعر العباسى المشهور .

(٢) ذو خصر : أى ذو ثغر خصر أى بارد ، وفى الأصل « حضر » وهو تصحيف .

(٣) العارض : السحاب المعترض فى الأفق ، والجون : الأسود (والأبيض أيضاً ، ضد) والمسحاة ماسحى به الطين ، أى قشر وجرف ، والغريرة : الشابة لا تجربة لها .

(٤) الجلف : الجافى .

(٥) أنسه : أى أنس الحديث ، والعصم : جمع أعصم ، وهو الوعل الذى فى ذراعيه بياض وسائره أسود أو أحمر ، والباتر : السيف القاطع .

حَسَباً، وَأَلْيِقْها في مكانها، وأشكَلَها في موضعها، وليكن في صدر كتابك دليلٌ واضح على مُرادك، وافتتاح كلامك بُرْهانٌ شاهد على مقصدك، حيثما جرَيْت فيه من فنون العلم، ونزَعتَ نحوه من مذاهب الخطب والبلاغات[١]، فإن ذلك أجزلُ لمعناك، وأحسنُ لاتِّساق كلامك، ولا تُطِيلَنّ صدر كلامك إطالةً تُخرجه عن حدِّه، ولا تقصِّر به عن حقه، ولو صُوِّر اللفظُ وكان له حَدٌّ، لوقَفْتُك عليه، غير أنهم - في الجملة - كرهوا أن يَزيدوا صدور كتب الملوك على سطرين أو ثلاثة، وهذه إشارة لاتعبِّر إلا عن الجملة من المقصود إليه، لأن الأسطر غير محدودة.

واعلم أن أول ما ينبغى لك، أن تُصْلِح آلَتَك التى لابدّ لك منها، وأدواتِك التى لا تتمّ[٢] صناعتك إلا بها، وهى دَوَاتُك، فابدأ بِعمارتها وإصلاحها[٣]، وتخيّرْ لها لِيقةً[٤] نقيّة من الشَّعر والوَذَح، لئلا يخرج على حَرْف قلمك ما يُفسد كتابَك، ويَشْغَلك بتنقيته، وخذ من المِداد الفارسىّ خمسةَ دراهم، ومن الصَّمغ العربى درهما، وعَفْصا[٥] مسحوقا نصفَ دِرهم، ورَماد القِرطاس المُحْرَق درهمين، ثم تَسْحَقها وتغَرْبلها، وتجمعها ببياض البيض، ثم تَبْندِقها[٦] واجعلها فى الظِّلّ، فإذا احتجت إليها أخذت منها مقدار حاجتك فكسرته وحَشَوتَ به دواتك، وإذا نقعتَه فى ماء السِّلْق حتى ينحَلّ ويذوب ويختمر، ثم أمددت من مائه دواتَك، كان أجودَ وأنقى.

ثم اختَرْ بعد ذلك من أنابيب القصب الذى يصلُح لكتابة القراطيس، أقله عُقَداً،

---

(١) فى العقد «وأفضل الكتب ما كان فى أول كتابه دليل على حاجته، كما أن أفضل الأبيات مادل أول البيت على قافيته.

(٢) فى العقد «لاتتم».

(٣) وفى العقد «فلينعم ربها إصلاحها» أى فليجد.

(٤) الليقة: الصوفة التى توضع فى الدواة، والوذح: ماتعلق بأصواف الغنم من البعر والبول. وفى الاصل «الودح» وهو تصحيف.

(٥) العفص: الذى يتخذ منه الحبر، مولد، وليس من كلام أهل البادية.

(٦) أى اجعلها بنادق، والبندق: الذى يرمى به واحدته بندقة.

وأ كثفَه لحا ، وأصْلبَه قِشْرًا، وأعدَلَه استواءً ، وتجنّب الأقلام الفارسية ما استطعت، فإنها ما تصلح إلا للكواغِدِ والرُّقُوق[1] .

واجعل لقلمك بَرْيةً حادَّةً ، فإنَّ تمشُّرَ يدِ الكاتب وقت قطع القرطاس ، ناقصُ مُرُوءتَه ، ومُخِلٌّ بظَرْفه ، وإن قدَرت ألا تقطع القرطاس إذا فرغتَ من كتابك إلا بخُرْطوم قلمك ، فافعل ، فإن ذلك أكمل لمروءتك ، وأبدعُ اظَرفك ، وقطْعِك .

واستعمِلْ لِبَرْى القلم سِكِّيناً طواوِيسيّا[2] ، مُذْلَقَ الحدِّ ، وميضَ الطرْفِ ، فيكونَ ذلك عونا لك على بَرْى أقلامك ، فإن محل القلم من الكاتب محلُّ الرُّمح من الفارس ، ولئِن قيل كأنه الرمح الرُّدَيْني[3] ، لقد قال الكاتب كأنه القلم البَحْرِيّ ، وتفقّدِ الأُنبوبة قبل بَرْيِكَها لئلا تجعلها منكوسة ، وابْرِها من ناحية نبات القصبَة ، وارهَفْ[4] — ماقدَرت — جانبي قلمك ، لِيُردَّ ما انتشر من المِداد ، ولا تُطِلْ شقَّه . فإن القلم لا يمجّ المداد من شقه إلا مقدار ما احتملَتْ شُعْبَتاه[5] . فرفِّع شُعْبَتَيْه ليجمعا لك حواشيَ تصويره .

---

(١) الرقوق : جمع رق بالفتح ويكسر : وهو جلد رقيق يكتب فيه .

(٢) نسبة إلى طواويس ، وهى اسم ناحية من أعمال بخارى بينها وبين سمرقند ، وذلق السكين وذلقه وأذلقه : حدده .

(٣) الرديني : نسبة إلى ردينة ، وهى امرأة سمهر ، وكانا يقومان الرماح بخط هجر .

(٤) رهفه كنفع وأرهفه : رققه .

(٥) فى الأصل « شبتاه ، فارفع شيتيه ليجمعا لك حواشى تحضيره » وهو تحريف ، جاء فى أدب الكتاب ص ٨٦ : « من كلام مسلم بن الوليد ، فى صفة برى القلم قوله : « حرف قطة قلمك قليلا ليتعلق المداد به ، وأرهف جانبيه ليرد ما استودعته إلى مقصده ، وشق فى رأسه شقا — غير عاد — ليحتبس الاستمداد عليه ، ورفع من شعبتيه ليجمعا حواشى تصويره . . . . » وأورد صاحب صبح الأعشى قول مسلم فى ذلك (٣ : ٦) وفيه : « ماخلا قلما جوف باريه بطنه ليطلق المداد به ، وأرهف جانبيه ليرد ما انتشر منه إليه ، وشق رأسه ليحتبس الاستمداد عليه ، وأربع من شفتيه ليجمعا حواشى تصويره إليه . . . » والصواب : ورفع من شعبتيه كما قدمنا .

وأما قطُّ القلم فعلى قدر القلم الذى يتعاطاه الكاتب من الخطّ ، غير أن المُسَلْسَل (١) لا يكاد يتسلسل إلا بالقلم المربَّع القطّ ، كما أن كتب الملوك والسّجلّات لاتحسُن إلا بالقلم المحرَّف الكوفى ، وأمّا قلم اللَازَوَرْد فهو المعتمد عليه والمقصود إليه فى النوائب والمُهِمّات .

ورأيت كثيرا من الكتاب يختارون قلم النَّرجس-لتجعُّده وتجانسه ، ومن اللازورد أبسط منه وأقوم حروفا ، وأما الموشّع والمولّع والمُدَبّج والمُنَمْنَم والمسهَّم ، فعلى قدر رشاقة خط الكاتب وحلاوة قلمه ، وأما حسن الخط فلست أجد له حدّاً أقف عليه أكثر من قول علىّ النَّصْرَابَاذِىّ (٢) الكاتب ، فإنى سألته واستوصفته الخطّ ، فقال : أعلّمك الخط فى كلمة واحدة ، فقلت له : تفضل بذلك ، فقال: لاتكتبنّ حرفا حتى تستفرغ مجهودك فى كتابة الحرف المبدوء به ، وتجعل فى نفسك أنك لا تكتب غيره ، حتى لا تعجَلَ (٣) عنه إلى غيره ، وإياك والنقطَ والشكلَ فى كتابك ، إلا أن تمر بالحرف المُعْضِل الذى تعلم أن المكتوب إليه يعجَز عن استخراجه ، فإنى سمعت سعيد بن حُميد الكاتب يقول : « لَأَنْ يُشْكِلَ علىّ الحرف، أحب إلىّ من أن يعاب بالنقط والإعجام » وقال المأمون لكتّابه : إياكم والشُّونِيز (٤) فى كتبكم ، يعنى النقط ؛ ولذلك قال ابن هانىْ :

لم ترضَ بالإعجام حين كتبته ... حتى كتبتَ السَّبَّ بالإعراب

ولا تُغْفِل الصلاة على النبى عليه الصلاة والسلام ، فقد قال أبو العَيناء : « إن

---

(١) فصل القلقشندى فى صبح الأعشى الكلام على أنواع الأقلام فى الفصل الثانى من الباب الثانى فى الخط — اقرأ هذا الفصل فى ج ٣ : ص ٥ — ١٥٢ من باب الخط (ج ٢ : ص ٤٤٠ — ج ٣ : ص ٢٢٦)

(٢) نسبة إلى نصرا باذ : محلة بنيسابور، ومعناها بالفارسية عمارة نصر، تنسب إلى نصر بن عبد العزيز الخزاعى، وكان قد ولى الرى فى أيام السفاح ، ولم يزل عليها إلى أن قتل أبو مسلم الخراسانى، وفى رسائل البلغاء : « على بن زرنر النصرانى » وهو تحريف .

(٣) فى العقد « حتى تعجز عنه » .

(٤) الشونيز : الحبة السوداء ، فارسية ، والكلام على التشبيه .

بنى أمية هم الذين كانوا أمروا كتّابهم فطرَحوا ذلك من كتبهم ، فجرت عادةُ الكتاب إلى يومنا هذا على ماسَنُّوه » وقد قال عليه الصلاة والسلام : « لا تجعلونى كقَدَح[1] الراكب ، ولكن اجعلونى فى أول الدعاء وأوسطه وآخره » صلى الله عليه وعلى آله وسلَّم أوَّلا وأوسَطَ وآخِراً .

وأحِبّ أن تجعل بدلَ الإشارةِ[2] الترابَ ، فإن النبى صلى الله عليه وسلم قال : « أتْرِبوا كتبكم ، فإنه أنجح للحاجة » ولا تَدَعِ التاريخ ، فإنه يدل على تحقيق الأخبار وقُرْبها وبُعدها ، وانظر إلى ما مضى من الشهر وما بقى منه ، فإن كان الماضى أقلَّ من نصف الشهر قلت : لكذا ليلةً مَضَت من شهر كذا ، وإن كان الباقى أقل من النصف قلت : لكذا أيضاً بقيتْ ، وقد قال بعض الكتاب : إن الماضى من الشهر تُحْصيه ، والباقى لاتحصيه ، لأنك لاتدرى : أيَتِمُّ الشهر أو ينقُص ، وليس هذا بشىء ، لأن تاريخ الكتاب ليس من الأحكام فى شىء ، وما على الكاتب أن يكتب إلا بما ظَهَرَ وتبيَّن لا بما يظن .

ولا تجعل سَحَاةَ[3] كتبك غليظة إلا فى العهود والسجلات التى تحتاج إلى خواتمها وطوابعها ؛ فإن محمد بن عيسى الكاتب كاتب آل طاهر أخبر عنهم أن عبد الله بن طاهر كتب إلى العراق فى إشْخَاصِ كاتب كان كتب إليه ، فكتب وغلَّظ سَحاة كتابه ، فردَّ الكتاب إليه ، فقدِمَ عليه راجياً البِرَّه وجائزته ، فقال عبد الله بن طاهر : إن كان معك مِسْحاة[4] فاقطع خَزْمَ كتابك وانصرف وراءك ،

---

(١) معناه : لا تؤخرْونى فى الذكر ، لأن الراكب يعلق قدحه فى آخر رحله عند فراغه من ترحاله وبجعله خلفه ، قال حسان بن ثابت يهجو أبا سفيان بن الحارث بن عبد المطلب :

وأنت زنيم نيط فى آل هاشم كما نيط خلف الراكب القدح الفرد

(٢) أشر الخشبة كقتل : شقها ، لغة فى النون ، والمئشار : المنشار ، قال الشاعر :

* أناشر لا زالت يمينك آشره *

فجمع بين لغتى النون والهمزة ، فالأشارة هى النشارة الدقيقة التى تتخلف عن شق الخشب .

(٣) سحاة القرطاس : ماأخذ منه ، وسحا القرطاس وسحاه : أخذ منه سحاة ، أو شده بها ، وسحا الكتاب وسحاه وأسحاه : شده بسحاة .

(٤) المسحاة : كالمجرفة إلا أنها من حديد .

وكذلك لاتعظِّم الطِّينة ، ففى المثل : « مَن عظَّم الطِّينة فإنه مظلوم » ولا تَطْبَعْها إلا بعد عُنْواناتها ، فإن ذلك من أدبهم (١) ، وقد يجب عليك عِلْمُ إلصاق القراطيس ونَحْوِها ، ولم أَرَ شيئا فى إلصاقها ألطفَ من أن يُنقَع الصَّمغ العربى فى الماء ساعةً حتى يذوب ، ثم يُلصَق به ، وكذلك ماء الكَثِيراء والنَّشاسْتَج (٢) ، ثم تطويه طَيًّا رقيقا ، وتجعله فى مِنديل نظيف ، ويُرفعُ تحت وِسادة حتى يجفّ . وأما نَحْوها ، فعلى قدر لطف الكاتب وتأتّيه ، غير أنه ينبغى له أن لايلقُط السواد من القرطاس إلا بمثل الشمع المسخَّن واللُّبان الممضوغ ، وما أشبههما ، ثم يكون لَقْطُه رُوَيْداً رُوَيدا ، كلما لقَط جانبا حوّله إلى الجانب الآخر .

وأما قراءة الكتب المختومة والتلطُّف لنقض خواتيمها ، فما لا نذكره خوفا من سَفِيهٍ .

وأما تضمينُ الأسرار فى الكتب حتى لايقرأها غيرُ المكتوب إليه ، ففيه أدب يجب معرفتهُ ، وقد تعلقت العامّة بالمعَمَّى ، قال الأصبهانى (٣) : وكان أبو حاتم سهل ابن محمد قد وضع منه أشياء جليلة من تبديل الحروف تبديلا يَخْفَى ، وألطفُ من ذلك أن تأخذ لبناً حليباً فتكتب به فى قرطاس ، فيَذُرّ المكتوب إليه عليه رَمادا حارا من رماد القراطيس ، فإنه يُظهر ما كتبت به إن شاء الله ، وإن كتبت بماء الزاج الأبيض وذُرَّ عليه العَفْص المدقوق بزاج ، أو بماء العَفْص وذر عليه شيئًا من الزاج ، أو تنقع شيئًا من وُشَّق (٤) ثم تكتب به ، ثم نثرت عليه الرماد فإنه يظهر ، وإن أحببته لا يقرأ بالنهار ويقرأ بالليل فا كتبه بمَرارة السُّلَحفاة .

وإن حاولت صنعة رسالة أو إنشاء كتاب ، فزِنِ اللفظة قبل أن تُخرجها بميزان

---

(١) فى الأصل « فإن ذلك مراد بهم » وهو تحريف .
(٢) هو النشا ، فارسى معرب حذف شطره تخفيفاً .
(٣) فى رسائل البلغاء : « تعلقت العامة بالقمى والأصبهانى » وهو تحريف .
(٤) الوشق والأشق كسكر : صمغ نبات .

التصريف إذا عرضْتَ ، وعايِرِ الكلمة بعياره إذا سَنَحت ، فربما مرَّ بك موضع يكون مخرج الكلام إذا كتبت : « أنا فاعل » أحسن من أن تكتب : « أنا أفعل » وموضع آخر يكون فيه « استفعلت » أحلى من « فعلت » .

فأدِرِ الألفاظ على أعكانها(١) ، واعْرِضْها على معانيها ، وقلِّبها على جميع وجوهها ، فأى لفظة رأيتها فى المكان الذى نَدَبْتها إليه ، فانْزِعها إلى المكان الذى أوردتها عليه ، وأوقِعْها فيه ، ولا تجعل اللفظة قَلِقَةً فى موضعها ، نافِرةً عن مكانها . فإنك متى فعلت هَجَّنتَ الموضع الذى حاولتَ تحسينَه ، وأفسدت المكان الذى أردت إصلاحه ، فإنّ وضع الألفاظ فى غير أماكنها ، وقَصْدَك بها إلى غير نِصابها(٢) ، إنما هو كترقيع الثوب الذى إذا لم تتشابَهْ رِقاعُه ، ولم تتقارَب أجزاؤه ، خرج من حدِّ الجِدَّة ، وتغيّر حُسْنُه ، كما قال الشاعر :

إن الجديد إذا ما زِيدَ فى خَلَقٍ   يُبينُ للناس أن الثوب مرقوعُ

وَارتصِدْ لكتابك فراغ قلبك ، وسَاعة نشاطك ، فتجدَ ما يمتنع عليك بالكَدِّ والتكلف ، لأن سماحة النفس بمكنونها ، وجُود الأذهان بمخزونها ، إنما هو مع الشهوة المفرطة فى الشعر(٣) ، والمحبة الغالبة فيه ، أو الغضب الباعث منه ذلك . قيل لبعضهم لم لاتقول الشعر ؟ قال : كيف أقوله ، وأنا لا أغضب ولا أطربُ ! وهذا كله إن جرَيْت من البلاغة على عِرْق(٤) ، وظهرت منها على حظ ، فأما إن كانت غير مناسِبة لطبعك ، ولا واقعة شهوتُك عليها ، فلا تُنْضِ(٥) مطيَّتَك فى التماسها ، ولا تُتْعب

---

(١) الأعكان والعكن (بضم ففتح) : الأطواء فى البطن من السمن ، وواحدة العكن عكنة بضم فسكون ، والكلام على التشبيه ، وفى رسائل البلغاء : « فأدر الألفاظ فى أماكنها . . . . . حتى تقع موقعها » .

(٢) النصاب : الأصل .

(٣) فى الأصل « الشر » وهو تحريف .

(٤) العرق : الأصل .

(٥) أنضاه : هزله .

بدَنك فى امتهانها ، واصرِف عِنانك عنها ، ولا تطمع فيها باستعارتك ألفاظَ الناس وكلامَهم ، فإن ذلك غير مُثمر لك ، ولا مُجْدٍ عليك ، ومن كان مرجعه فيها إلى اغتصاب ألفاظِ مَن تقدّمه ، والاستضاءةِ بكوكب مَن سبَقَه ، وسَحْبِ ذيل حُلّة غيره ، ولم يكن معه أداة تولّد له من بنَات قلبه ، ونتائج ذهنه الكلامَ الحُرّ ، والمعنى الجَزْل ، لم يكن من الصناعة فى عِير ولا نَفير[1] ، على أن كلام العظماء المطبوعين ، وَدرْسَ رسائل المتقدمين على كل حال مما يَفتُق اللسان ، ويوسّع المنطق ، ويشحَذُ الطبع ، ويستثير كوامنه إن كانت فيه سجيّة ، قال العَتّابى : « ما رأينا فيما تصرفْنا فيه من فنون العلم ، وجرَيْنا فيه من صنوف الآداب، شيئاً أصعبَ مَراما ، ولا أوعرَ مَسْلَكاً ولا أدلّ على نَقص الرجال ورَجاحَتِهِمْ ، وأصالة الرأى وحسن التمييز منه واختياره ، من الصناعة التى خطبْتها ، والمعنى الذى طلبته » وليس شىء أصعبَ من اختيار الألفاظ وقَصْدك بها إلى موضعها ؛ لأن اللفظة تكون أخت اللفظة وقسيمتَها فى الفصاحة والحسن ولا تحسُن فى مكان غيرها . وبتمييز هذه المعانى ، ومناسبة طبائع جَهابِذتها[2] ، ومشاكَلة أرواحهم ، جعلوا الكتابة نَسَباً وقرابة ، وأوجبوا على أهلها حفظها .

قال الحسن بن وهب : الكتابة نفْس واحدة تجزأت فى أبدان متفرقة ، ومن لم يعرف فضلَها وجَهِل أهلها ، وتعدّى بهم رُتبتَهم التى وصفهم الله بها[3] ، فإنه ليس من الإنسانية فى شىء .

وقالت البرامكة : رسائل المرء فى كتبه دليل على عقله ، وشاهِدٌ على غَيْبه . وقال الشاعر :

وتُنكر ودَّ المرء فى لَحظِ عينه ... وتعرفُ عقل المرء حين تُكاتبُه

---

(١) من أمثال العرب : «لا فى العير ولا فى النفير» مثل يضرب الرجل يحط أمره ، ويصغر قدره ، وقد تقدم شرحه فى جمهرة خطب العرب ٢ : ١٣٧ .

(٢) جهابذة : جمع جهبذ ، بكسر الجيم والباء وهو النقاد الخبير .

(٣) يشير إلى قوله تعالى : « كِرَامًا كَاتِبِينَ » .

وقال آخر :

وشعرُ الفتى يُبْدِى غريزة طبعه ... وبالكُتْبِ يبدو عقلُه وبلاغتُه

وقيل للشَّعْبى : أى شىء تعرِف به عقل الرجل ؟ قال : إذا كتب فأجاد .

وقال العُتْبى : عقول الناس مدوَّنة فى كتبهم ، وقال ابن المقفَّع : كلام الرجل وافِد عقله .

وشبّهت الحكماء المعانىَ بالغوانى ، والألفاظ بالمعارِض ، فإذا كسا الكاتبُ البليغُ المعنى الجَزْلَ لفظا رائقا ، وأعاره مَخْرجا سَهْلا ، كان للقلب أحْلَى ، وللصدر أملى[(١)] ، ولكنه يبقى عليه أن يَنْظِمَه فى سِلْكه مع شقائقه ، كاللؤلؤ المنثور الذى يتولَّى نظمَــه الحاذقُ ، والجوهرىُّ العالِمُ يُظهر بإحكام الصَّنعة له حُسْنا هو فيه ، ومنحة بهيجة هى له ، كما أن الجاهل إذا وضع بين الجوهرتين خَرَزَةً ، هَجَّن[(٢)] نظمَه ، وأطفأ نوره . كان حَبيب[(٣)] بن أوْسٍ ربما وَقَع على جوهرة فجعلها بين بَعْرتين ، قال الشاعر :

ولو قَرَنْتَ بدُرٍّ فاخرٍ خَرَزًا ... من الزجاج لَقُلْنا بئس ما نَظما

والياقوتُ حَسَن ، وهو فى جيد الحسناء أحسنُ ، وكذلك الشعرُ الجيِّد مُونِق[(٤)] ولكنه من أفواه العظماء آنَقُ ، والتاجُ الشريف بهىّ المنظر ، وهو على المَلِك أبهَى ، كما قال ابن قيس الرُّقَيَّات[(٥)] :

---

(١) سهل عن أملأ . (٢) التهجين : التقبيح .

(٣) هو أبو تمام الشاعر العباسى المشهور ـ انظر ترجمته فى وفيات الأعيان ١ : ١٢١ ، والأغانى ١٥ : ٩٦ ، والفهرست لابن النديم ص ٢٣٥ .

(٤) آنقنى الشىء إيناقا : أعجبنى .

(٥) هو عبيد الله بن قيس ، وإنما لقب بذلك لأنه شبب بثلاث نسوة سمين جميعا رقية ، كان زبيرى الهوى ، وخرج مع مصعب بن الزبير على عبد الملك بن مروان ، فلما قتل مصعب وقتل عبد الله بن الزبير هرب فلجأ إلى عبد الله بن جعفر بن أبى طالب ، فسأل عبد الملك فى أمره فأمنه ـ انظر ترجمته فى الأغانى ٤ : ١٥٤ ، والشعر والشعراء ص ٢١٢ .

يعتدل التاجُ فوق مَفْرِقِهِ(١)

قال أبو العتاهية لابن مناذر(٢) : بلغنى أنك تقول الشعر فى الدهر ، والقصيدة فى الشهر ، فقال : نعم ، لو رضِيتُ لنفسى أن أؤلف تأليفك ، وأقول : « يا عُتْبَ يادُرَّةَ الغَوّاصِ(٣) » لقلت فى اليوم والليلة ألف قصيدة ، وقال عمر(٤) بن لجأ لشاعر : أنا أشعر منك ، قال : ولم ؟ قال : لأنك تقول البيت وابن عمه ، وأنا أقول البيت وأخاه .

فإن مُنيت بحب الكتابة وصناعتها ، والبلاغة وتأليفها ، وجاش صدرُك بشعر معقود ، أو دعتك نفسك إلى تأليف الكلام المنثور . وتهيأ لك نظمٌ هو عندك معتدِل ، وكلامٌ لديك متَّسِق ، فلا تدعونَّك الثقةُ بنفسك ، والعُجْب بتأليفك ، أن تهجُم به على أهل الصناعة ، فإنك تنظر إلى تأليفك بعين الوالد لولده ، والعاشق إلى عشيقته ، كما قال حَبيب :

---

(١) المفرق كمقعد ومجلس : وسط الرأس ، وهو الذى يفرق فيه الشعر ، وهذا صدر بيت وعجزه: « على جبين كأنه الذهب » وهو من قصيدة قالها فى مدح عبد الملك ، ولما أنشده إياها ووصل إلى هذا البيت ، قال له عبد الملك : يابن قيس تمدحنى بالتاج كأنى من العجم ، وتقول فى مصعب :

إنما مصعب شهاب من الله ـه تجلت عن وجهه الظلماء

ملكه ملك عزة ليس فيه جبروت منه ولا كبرياء

أما الأمان فقد سبق لك ، ولكنى والله لا تأخذ مع المسلمين عطاء أبداً .

(٢) أبو العتاهية شاعر عباسى معروف ، وله ترجمة مطولة فى الأغانى ٣ : ١٢٢ ، وفى الشعر والشعراء ص ٣٠٩ ، ووفيات الأغانى ١ : ٧١ ، والفهرست ص ٢٢٧ . وابن مناذر : هو محمد بن مناذر ، شاعر عباسى أيضا ـ انظر ترجمته فى الأغانى ١٧ : ٩ ، والشعر والشعراء ص ٣٦٤ .

(٣) عتبة التى كان أبو العتاهية يشبب بها : هى جارية لريطة بنت أبى العباس السفاح ، وكانت تحت المهدى ، فلما بلغ المهدى إكثاره فى وصفها غضب فأمر بحبسه ، ثم شفع له يزيد بن منصور الحميرى خال المهدى فأطلقه ، وجاء فى الأغانى (١٧ : ١١) « اجتمع أبو العتاهية ومحمد بن مناذر ، فقال له أبو العتاهية: يا أبا عبد الله ، كيف أنت فى الشعر ؟ قال: أقول فى الليلة إذا صنع القول واتسعت القوافى عشرة أبيات إلى خمسة عشر ، فقال له أبو العتاهية : لكنى لو شئت أن أقول فى الليلة ألف بيت لقلت ، فقال ابن مناذر : أجل ، والله إذا أردت أن أقول مثل قولك :

ألا ياعتبة الساعه أموت الساعة الساعه

قلت : ولكنى لا أعود نفسى مثل هذا الكلام الساقط ، ولا أسمح لها به ، فخجل أبو العتاهية وقام يجر رجله » .

(٤) شاعر أموى ، وكان ممن هجا جريراً ـ انظر خبره فى الشعر والشعراء ص ٢٦١ ، وفى الأغانى فى ترجمة جرير ٧ : ٣٥ والفرزدق ١٩ : ٢ .

ويُسِيء بالإحسان ظنّا ، لا كمن هو بِابْنِهِ وبشعره مفتـــونُ

ولكن اعرِضْه على البلغاء والشعراء والخطباء ممزوجا بغيره ، فإن أصغَوا إليه ، وأذِنوا[1] له ، وشَخَصوا بالأبصار ، واستعادوه وطلبوه منك وامتزج ، فا كشِف من تلك الرسالة والخطبةِ والشعر اسْمَه ، وانسِبْهُ إلى نفسك ، وإن رأيت عنه العيون منصرفةً ، والقلوب عنه ذاهبة[2] ، فاستدِلَّ به على تخلفك من الصناعة ، وتقاصُرِكَ عنها ، واسترِبْ رأيَك عند رأى غيرك من أهل الأدب والبلاغة ، فقد بلغنى أن بعض الملوك دعا إنسانا إلى مؤانسته ، حتى ارتفعت الحِشْمة بينهما ، فأخرج له كتابا قد غشّاه بالجلود ، وجمع أطرافه بالإبْرَيْسَم[3] ، وسوّى ورقه ، وزخرف كتابته ، وجعل يقرأ عليه كلاما قد حبَّره[4] فيه ، ونمَّقه عند نفسه ، وجعل يستحسن مالا يَحْسُن ، ويقف على مالا يستثقل قراءته ، حتى أتى على الكتاب ، فقال له : كيف رأيتَ ما قرأتُ عليك ؟ فقال : أرى عقل صانع هذا الكلام أكثر من كلامه ، ففطِنَ له ولم يعاوِدْه ، إلى أن وقف به على تَنُّور مسجور[5] ، ثم قذف بالكتاب فى النار ، وهذا رجل فى عقله فضلة ، وفيه تمييز .

وإنما البليَّةُ فيمن إذا بيِّنت له سوء نظمه واختياره ، ووقفْتَه على سَخافة لفظه ، هجرك وعاداك ، فاجعل هذا الأصل ميزانا تزن به مذهبك فى رسائلك وبلاغتك ، ولا تخاطِبَنَّ خاصًّا بكلام عام ، ولا عامًّا بكلام خاص ، فمتى خاطبت أحداً بغير ما يشاكله ، فقد أجريت الكلام غير مُجْراه ، وكشفته ، وقصْدُك بالكلام الشريف للرجل الشريف تنبيهٌ لقدر كلامك ، ورفعٌ لدرجته ، قال :

فلم أمدحـــه تفخيما لشعرى ولكنى مدحت بك المَدِيحا

---

(١) أذن إليه وله كفرح : استمع معجبا ، أو عام .

(٢) فى الأصل « واهية » .   (٣) الإبريسم : الحرير .

(٤) التحبير : التحسين .

(٥) التنور : الذى يخبز فيه ــ الفرن ــ وسجر التنور : أحماه .

فلا تخرجن كلمة حتى تزنها بميزانها ، فتعرفَ تمامها ونظامَها ، ومَوارِدها ومصادِرها ، وتجنّبْ ما قَدِرَتَ الألفاظَ الوحشية ، وارتفِع عن الألفاظ السَّخيفة ، واقتضِب كلاماً بين الكلامين .

قال الجاحظ : « ما رأيت قوما أمثلَ طريقةً فى البلاغة من هؤلاء الكُتّاب ، فإنهم التمسوا من الألفاظ مالم يكن متوعِّرا وَحْشِيًّا ، ولا ساقطا سُوقِيًّا » . وقال خالد ابن صَفْوان : « أبلغُ الكلام مالا يحتاج إلى كلام ، وأحسنُه مالم يكن بالبدوى المُغْرِب ولا القَرَوىِّ المُخْدَج[1] ، الذى صحَّت مَبانيه ، وحسُنَت معانيه ، ودار على ألسُن القائلين ، وخفَّ على آذان السامعين ، ويزداد حسنا على مَرِّ السنين ، بتجلية الرُّواة ، وتنقية السَّراة » .

والكاتب المستحق اسم الكتابة ، والبليغ المحكوم له بالبلاغة ، مَن إذا حاول صيغةَ كتاب سالت على قلمه عُيُون الكلام من ينابيعها ، وظهرت من معادنها ، ونَدَرَتْ[2] من مواطنها ، عن غير استكراه ولا اغتصاب .

حدَّثنا صديق العَتَّابى قال له : اعمل لى رسالة ، فاستمدَّه مُدَّة بعد أخرى ، فقال له : ما أرى بلاغتك إلا شاردةً عنك ، فقال له العتابىُّ : إنى لمّا تناولتُ القلم تداعَتْ علىَّ المعانى من كل جهة ، فأحببتُ أنْ أترك كل معنى يرجِع إلى موضعه ، ثم أجْتَنِى لك أحسَنَها .

وأمْلَى يزيد بن عبد الله أخو ذُبْيان[3] على كاتب له ، فأعجَلَ الكاتبَ ، ودارَكَ فى الإملاء عليه[4] ، فتعثَّر قلم الكاتب عن تقييد إملائه ، فقال له متحرِّشا : اكتب

---

(١) الإعراب : الإتيان بالغريب ، والمعنى المغرب صاحبه . والمخدج : الناقص ، من قولهم : أخدجت الناقة : أى جاءت بولد ناقص فهى مخدج (بكسر الدال) والولد مخدج (بفتحها) ، ورجل مخدج اليد : ناقصها .

(٢) أى ظهرت ، ندر الشىء ندورا : سقط من جوف شىء ، أو من بين أشياء فظهر ، وربما كان « بدرت » أى سبقت وعجلت ، وفى رسائل البلغاء « وتدرب » وهو تصحيف .

(٣) فى رسائل البلغاء « أخو دينار » وهو تحريف .

(٤) وفى رسائل البلغاء : « وأعجل عليه الإملال » وأمل عليه الكتاب بمعنى أملى .

يا حمار ، فقال له الكاتب : أصلح الله الأمير ، إنه لما هطلت شآبيب[١] الكلام ، وتدافعت سيوله على حرف القلم ، كلّ القلمُ عن إدراك ما وجب عليه تقييدُه ، فليتذكر الأمير عذرى ، فكان حضور جواب الكاتب أبلغ من بلاغة يزيد .

وقال له يوما وقد نطّ حرفا فى غير موضعه : ما هذا ؟ قال : طُغيان فى القلم .

وكلما احلولى الكلام وعذُبَ ورقّ وسهُلت مخارجه ، كان أسهلَ ولُوجا فى الأسماع ، وأشدّ اتصالاً بالقلوب ، وأخفّ على الأهواء ، ولا سيما إذا كان المعنى البديع مترجَما بلفظ مُونِق[٢] شريف ، ومعبَّرا بكلام مؤلَّف رَشيق ، لم يشِنْه التكلُّف بميسمه[٣] ، ولم يُفسِده التعقيد باستهلاكه ، كقول ابن أبى كَريمة :

قَفاه وَجْهٌ حَسَنٌ ، والذى   قفاه وَجْهٌ يُشْبِه الشمسا

تهجّن المعنى بتوعُّر مخارج الحروف ، وأخذه الحسن بن هانئ فسهّله وقال : « بذّ[٤] حُسْنَ الوجوه حُسْنُ قفاكا » وكلاهما من حسّان حيث يقول :

قَفاؤك أحسنُ من وجهه   وأمُّك خيرٌ من المُنْذِرِ[٥]

وانظر إلى سلاسة الحسن بن سهل حيث قال :

شَرِسْتَ بل لِنْتَ بل قابلتَ ذاك بذا   فأنت لاشكّ فيك السهلُ والجبل

وكتب عيسى بن لَهِيعَة كتابا إلى أخيه أبى الحسن ، فعقّد كلامه ، وجاز المقدارَ فى التنطع ، فوقّع فى أسفل كتابه :

---

(١) شآبيب : جمع شؤبوب كعصفور ، وهى الدفعة من المطر .
(٢) أى معجب .
(٣) وسمه : أثر فيه بسمة ، أى علامة ، والميسم : الآلة التى يوسم بها .
(٤) بذ : فاق .
(٥) القفا قد يمد كما فى هذا البيت ، والعرب تؤنثه ، والتذكير أعم . وكان حسان بن ثابت زار الحرث ابن أبى شمر الغسانى ـ وكان النعمان بن المنذر يساميه ـ فقال الحرث لحسان : لقد نبئت أنك تفضل النعمان على ، فقال : وكيف أفضله عليك ؟ فو الله لقفاك أحسن من وجهه ، ولأمك أشرف من أبيه ، فى كلام كثير ، فقال له : هذا لايسمع إلا فى شعر ، فنظمه فى أبيات منها هذا البيت ـ انظر ديوان حسان ص ١٨٢ ومروج الذهب ١ : ٢٩٩ .

أنّى يكون بليغاً ... مَنِ اسْمُه كان عِيًّا
وثالثُ الحرف منه ... إذا كتبْتَ مُسِيًّا[1]

وبلغنى أن بعض الكتاب عاد بعض الملوك فوجده يئنّ من علّة ، فخرج من عنده ، ومر بباب الطاق ، وإذا بطير يدعى « الشفانين[2] » فاشتراه وبعث به إليه ، وكتب كتابا يتنطّع فى بلاغته ، وذكر أنه يقال له شفانين ، وأرجو أن يكون شفاء من أنين ، فوقع فى أسفل الكتاب : « والله لو عَطَسْت ضَبًّا لم تكن عندى إلا نَبَطِيًّا[3] » ، فأقْصِر[4] عن تنطُّعك ، وسهِّل كلامك ، وفى هذا المعنى قال مَخْلَد المَوصِلىّ يهجو حبيب بن أوس الطّائى :

أنت عندى عربىٌّ ... ليس فى ذاك كلامْ
شَعْرُ ساقَيْك وفخذَيْـــك خُزامَى وثُمَامْ[5]
وقَذَى عينيك صمغٌ ... ونَواصيك شَبَامْ[6]
وضُلُوع الصَّدر من شِلْـــوك نَبْعٌ وبَشَـــامْ[7]

---

(١) مسيا مسهل عن مسيئا بمعنى سيء ، يريد أن الشطر الثانى من اسمه « سى » يشبه رسمه رسم « سىء » .

(٢) عده الجاحظ فى أنواع الحمام ، وقيل : هو الذى تسميه العامة اليمـام — انظر كلمة عنه « فى حياة الحيوان الكبرى » للدميرى ٢ : ٧٤ .

(٣) فسره فى العقد قال : « قوله : لو عطست ضبا : يريد أن الضباب من طعام الأعراب ، وفى بلدهم يقال : لو عطست فنثرت ضبا من عطاسك لم تلحق بالأعراب ولم تكن إلا نبطيا ، وقد جاء فى بعض الحديث : إن القط من نثرة عطسة الأسد ، وإن الفأر من نثرة عطسة الخنزير ، فقال هذا : لو أن الضب من نثرتك لم تكن إلا نبطيا » اه . والنبط : قوم كانوا ينزلون بالبطائح بين العراقين .

(٤) أى كف ، وفى الأصل « فأقصر عن بعضك » وهو تحريف .

(٥) الخزامى : نبت زهره أطيب الأزهار نفحة ، والثمام : نبت أيضا .

(٦) فى العقد « شعام » وهو محرف ، وأرى أن صوابه « شبام » وهو نبات يشب (أى يحسن) به لون الحناء .

(٧) الشلو : الجسد من كل شىء ، والنبـع : شجر القسى والسهام ، والبشام : شجر عطر الرائحة يستاك بقضبه .

لو تحرَّكْتَ كذا لانْـــجَفَلَتْ منـــك نَعام.[1]
وظِبَــــاء راتِعاتٌ وَيَرَابِيـــعُ عِظام.[2]
وَحَمامٌ يتغَـــــنَّى حَبَّذا ذاك الحَمامْ
أنا ما ذَنبِيَ إنْ كَذْ ذَبنى فيـــك الأنامْ
وقَفَا يحلِفُ ما إن أعرَقَتْ فيهِ الـكِرَامْ
ثم قالوا هـــاشِمِيٌّ من بَنِي الأنباط حامْ
كَذَبوا ما أنت إلاَّ عربِيٌّ والســـلامْ

وسألنى بعض أهل العلم أن أكتب له قِصَّةً إلى جعفر بن عبد الواحد القاضى ، وقال : اكتب لى قصّة سهلة بليغة الألفاظ ، فقلت له : دعنى أكتب لك ما يصلُح للقضاة ، فغضب وقال : ما أسأل أن تعطيَنى شيئاً إنما أسألك هذا المعنى الرخيص ، فاحتملتُ عَتْبة الذِمَام[3] ، فكتبت له قصة لاتصلح أن تُدْفَع إلا لرُؤْبَة[4] بن العجَّاج يقرؤها أو الطِّرِمَّاح[5] ، فلما حَصَلَتْ بيد القاضى أراد قراءتها فإذا هى مُغلَقَة عليه ، فقال له : أنت كتبت هذه القصة ؟ قال : نعم ، قال : إذن فاقرأها ، فذهب ليقرأها ، فإذا هى بالسُّودانية ، استعجاما عليه ، فقال له : أصلح الله القاضى ، إنما أقرؤها فى بيتى ، فقال له : فاطلب حاجتك إذن فى بيتك ، فرجع إلىَّ غضبانَ أسِفاً يشتِمُ ويؤذى ،

---

(١) انجفل : أسرع الهرب .

(٢) اليرابيع : جمع يربوع بالفتح ، وهو دويبة نحو الفأرة لكن ذنبه وأذناه أطول منها، ورجلاه أطول من يديه ، عكس الزرافة .

(٣) الذمام : الحق والحرمة .

(٤) هو راجز مجيد مشهور كأبيه العجاج ، وكان بصيرا باللغة عالما بحوشيها وغريبها، وهو من مخضرمى الدولتين ، مدح بنى أمية وبنى العباس ومات سنة ١٤٥ هـ ـ انظر ترجمته فى الأغانى ٢١ : ٥٧، ووفيات الأعيان ١ : ١٨٧ ، والشعر والشعراء ص ٢٣٠ .

(٥) هو الطرماح بن حكيم ، شاعر أموى مشهور . قال رؤبة : كان الطرماح والكميت يصيران الى فيسألانى عن الغريب ، فأخبرهما به ، فأراه بعد فى أشعارهما. وسئل ابن الأعرابى عن ثمان عشرة مسألة كلها من غريب شعر الطرماح فلم يعرف منها واحدة ، يقول فى جميعها : لا أدرى لا أدرى ـ انظر ترجمته فى الأغانى ١٠ : ١٤٨ ، والشعر والشعراء ص ٢٢٨ .

وسألنى أن أكتب له قصة على ما أرى ، فكتبت له كتاباً يُشْبه أن يكون من مِثله إلى القضاة ، فقرأه وقضى حاجته ، وعلم أنه لم يكتب واحدة منهما .

والكتاب إذا لم يكن شبيهاً بحالة[١] صاحبه ، كان أحد الأسباب المانعة ، والمعانى كلها مُتَمَثِّلَةٌ ، والكلام مُشْبَع[٢] ، ولكن سياسته صعبة ، وتأليفه شديد ، إلا عَلَى جَهَابذته وفُرسانه أمراء الكلام ، يصرِّفونه كيف شاءوا ، ولا يستحق اسم البلاغة حتى يسابق معناه لفظه ، ولفظه معناه ، ويكون اللفظ أسبَقَ إلى الأسماع من معناه إلى القلوب[٣] .

قال الجاحظ : كان لفظُه فى وزن إشارته ، وَطَبْعُهُ فى معناه فى مطابقة معناه .

وذكر الحسن بن وهب أحمد بن يوسف فقال : ما كنت أدرى: أَلَفْظُه آنَقُ أم معناه، أوْ مَعْنَاهُ أجْزَلُ أم لفظه ؟

والمعانى وإن كانت كامنةً فى الصدور ، فإنها مصوَّرة فيها ومتّصلة بها ، وهى كاللآلئ المنظوية[٤] فى أصدافها ، والنار المخبوءة فى أحجارها ، فإن أظهرتها من أكنانها[٥] وأصدافها ، تَبيَّن حُسْنها ، وإن قدَحْتَ النار من مَكامنها وأحجارها انتفعت بها ، وإلاّ بقيَتْ محجوبة مستورة ، وربما يُستثار الكامن منها ، ويُسْتَخْرَجَ المستَسِرُّ[٦] من جواهرها ، بقدر حِذْق المستنبط ، وصواب حركات المستخرِج ، وقصْدِ إشارته ، ولطف مذاهبه ، وكذلك ليس كل ناطق ولا كاتب يوضح عن المعنى ، ولا يصيب إشارته ، وكلما كان الكلام أفصح ، والبيان أوضح ، كان أدلَّ

---

(١) فى الأصل « بحاجة » وأراه محرفا .

(٢) امتثله : تصوره حتى كأنه ينظر إليه ، ومشبع من قولهم : رجل مشبع العقل بفتح الباء أى وافره ، وفى الأصل « مشبعا » وهو تحريف .

(٣) وجاء فى نهاية الأرب ٧ : ٨ « وقالوا : لايستحق الكلام اسم البلاغة حتى يكون معناه إلى قلبك أسبق من لفظه إلى سمعك » .

(٤) فى الأصل « المنظومة » وهو تحريف .

(٥) الأكنان : جمع كِن ، وهو الستر ، بالكسر ، فيهما .

(٦) استسر : استتر وخفى .

على حسن وجه المعنى ، وقد رأيتهم شبهوا المعنى الخفيّ بالرُّوح الخفي ، واللفظ الظاهر بالجُثْمان الظاهر ، وإذا لم ينهض بالمعنى الشريف لفظ شريف جَزْل ، لم تكن العبارة واضحة ، ولا النظام متَّسقاً ، وتضاءل المعنى الحسن تحت اللفظ القبيح ، كتضاؤل الحسناء في الأطمار[1] الرَّثَّة .

وإنما يدل على المعنى أربعةُ أصناف : لفظ ، وإشارة ، وعُقَد وخَطٌّ ، وقد ذكر أرسطاطاليس صنفاً خامساً في كتاب المنطق ، وهو الذى يسمى النَّصْبة ، والنَّصْبةُ : الحالُ الدّالة التى تقوم مقام تلك الأصناف الأربعة ، وهى الناطقة بغير لفظ ، والمشيرة إليه بغير يد ، وذلك ظاهرٌ فى خلق السموات والأرض ، وفى كل صامت وناطق ، وهى داخلة فى جملة هذه المعانى الأربعة ، وخارجة منها بالحِلْية ، ولكل واحدة من هذه الدلائل صورة مخالفة لصورة صاحبتها ، وحِلْية غير مُشا كلة لحلية أختها ، غير أنها فى الجملة كاشفة عن أعيان المعانى ، وسافرة[2] عن وجوهها[3] . وأوضح هذه الدلائل ، وأفصح هذه الأصناف ، صنفان منها ، وهما اللسان والقلم ، وكلاهما يترجمان ويدلان على القلب ، ويستمليان منه ، ويؤديان عنه ما لا تؤدى هذه الأصناف الباقية . فأما اللسان فهو الآلة التى يخرج الإنسان بها عن حد الأستبهام إلى حد الإنسانية بالكلام ، ولذلك قال صاحب المنطق : حَدّ الإنسان : الحى الناطق . وقال هشام ابن عبد الملك « إن الله رفع درجة اللسان فأنطقه من بين الجوارح بتوحيده ، وما جعل اللهُ مَن عبَّر عن شىء مثلَ من لم يعبِّر عنه » . وقال على بن عَبْدة : « إنما يُبين عن الإنسان اللسان ، وعن المودّة العينان » . وقال آخر : « الرجل مخبوء تحت لسانه[4] » . وقالوا « المرء بأصغرَيه : قلبه ولسانه » .

---

(١) الأطمار : جمع طمر بالكسر ، وهو الثوب الخلق .
(٢) أى كاشفة أيضا .
(٣) وقد عقد الجاحظ فصلا طويلا فى الكلام على أصناف الدلالات على المعانى — انظر باب البيان من كتابه البيان والتبيين ج ١ : ص ٤٢ .
(٤) من الحكم المروية عن الإمام على كرم الله وجهه « المرء مخبوء تحت لسانه » .

وقال الشاعر :

وما المرء إلا الأصغران ، لسانُه ومعقولُه ، والجسمُ خَلْقٌ مصوَّرُ
فإن تَرَها راقَتْك يوما ، فربّما أمرَّ مَذاقُ العُودِ والعودُ أخضرُ[1]

وقال الأعور التَّيمى[2] :

لسان الفَتى نصفٌ ونِصْفٌ فؤادُه فلم يبقَ إلا صورةُ اللحم والدم

وقال آخر :

إن الكلام لفى الفؤاد وإنما جُعل اللسان على الفؤاد دليلا

وقال الطائى :

ولما كانت الحكماء قالت لسان المرء مِن خَدَمِ الفؤاد

وللخط صورة معروفة ، وحلية موصوفة ، وفضيلة بارعة ، ليست لهذه الأوصاف ، لأنه ينوب عنها فى الإيضاح عند المَشهَد ، ويفضُلُها فى المَغيب ؛ لأن الكتب تُقرأ فى الأماكن المتباينة ، والبُلدان المتفرقة ، وتُدْرَس فى كل عصر وزمان ، وبكل لسان، واللسان وإن كان ذَلِقا فصيحاً لا يعدُو سامعه ، ولا يجاوزه إلى غيره ، وكفى بفضيلة العلم والخط قول الله عز وجل : « الَّذِى عَلَّمَ بِالْقَلَمِ . عَلَّمَ الْإِنْسَانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ » وأقسَمَ[3] به كما أقسم بغيره[4] ، ثم أقسم بما يكتبه القلم ، إفصاحاً عن حاله ، وإعظاماً لشأنه ، وتنبيهاً لذكره ، فقال : « وَمَا يَسْطُرُونَ » . ومن فضيلة الخط : أنه لسان اليد، ورسول الضمير[5] ودليل الإرادة، والناطق عن الخواطر، وسَفير العقول، وَوَحْى الفِكْر ، وسلاح المعرفة ، ومحادثة الأخِلَّاء على التنائى ، وأُنْسُ الإخوان عند الفُرقة ، ومستودَع

(١) الضمير يعود على مفهوم من السياق : أى صورته .

(٢) وفى رواية الزوزنى أن هذا البيت لزهير بن أبى سلمى من معلقته .

(٣) قال تعالى : « ن وَالْقَلَمِ وَمَا يَسْطُرُونَ » .

(٤) من السماء والطارق والفجر والشمس والليل والضحى والتين والزيتون . . . الخ مما ورد فى القرآن ، والآيات فى ذلك معروفة .

(٥) وفى العقد والصبح ونهاية الأرب « وبهجة الضمير » .

الأسرار ، وديوان الأمور ، وتَرْجُمان القلوب ، والمعبِّر عن النفوس ، والمُخْبِر عن الخواطر ، ومُوَرِّث الآخِر مكارمَ الأوّل ، والناقل إليه مآثِرَ الماضى ، والمخَلِّد له حكمَتَه وعِلمَه ، والمُسامِرُ للعين بسِرِّ القلب ، والمخاطِب عن الناصت[١] ، والمجادل عن الساكت ، والمُفْصِح عن الأبكم ، والمتكلّم عن الأخرس ، الذى تشهَدُ له آثاره بفضائله ، وأخبارُه بمناقبه .

وقد وضعت البلاغةُ من القلم[٢] علوَّ القدر ، وباذخ[٣] العز ، كأبى مُسْلِم صاحب الدولة : فرّقت شَمْلَه ، وبدّدت جَمْعَه ، ونقضَت بَرْمَه[٤] ، وأفسدت صلاحَه ، وضَعْضَعَت بُنْيانه ، مع ذكائه وتفطّنه ، ومكايده ودهائه ، وأصالة رأيه وشدة شَكِيمته[٥] ، وامتناعه على أبى جعفر ونِفاره عنه ، كيف استنزَّه ابنُ المقفع ، وصالح بن عبد القُدُّوس ، وجَبَل بن يزيد ، واستمالوه بسحر ألفاظهم ، وبلاغة أقلامهم ، حتى نزل من باذِخ عزه ، وجاء مبادِراً حتى وقع فى الشَّرَكِ المنصوب له ، فتفرّق جمعُه ، وانطفأ نُوره ، وصار خَبَرًا سائراً ، ورَسْما دائِراً[٦] .

ورَفَع القلمُ خاشِع الطَّرْفِ ، صغير الخطَر[٧] ، لئيم الجِنس ، دَرَجَ من عُشّ التُّجّار ، ونشأ بين المِكْيال والميزان ، كيف شالت[٨] البلاغة بِضَبْعيه ، ورفعت من ناظريه ، حتى شافهت به عنانَ السماء ، ورَفَعَتْ بناءه فوق البناء ، حتى طَلَبه الراكب ، وقصَده الطالب ، وخشَعَت له الرجال ، ولحظَتْه العيون بالوَقار ، وتمكّن من الصنائع ،

(١) نصت كضرب ، وأنصت : سكت .
(٢) فى رسائل البلغاء : « وقد وقت البلاغة من العلم » وهو تحريف .
(٣) الباذخ : العالى .
(٤) يقال برم الحبل برما وأبرمه إبراما .
(٥) الشكيمة : الأنفة .
(٦) أى دارسا ممحوا .
(٧) الخطر : القدر .
(٨) أشال الحجر ، وشال به يشول شولا : رفعه ، فانشال هو — ولا يقال شلت بالكسر — والضبع . العضد كلها أو وسطها ، والمنان . السحاب واحدته عنانة .

ومُدَّت نحوه الأصابعُ ، فشُكِرَت منهُ اللَّفظةُ ، ورُجِيت منه اللَّحظة ، كمحمد[1] ابن عبد الملك بن الزيات ، وفيه يقول علي بن الجهْم[2] :

أحْسَنُ من عشرين بيتاً سُدًى جَمْعُك معناهنَّ في بيتِ

ما أحوَجَ المُلْكَ إلى مَطْرةٍ تغسِلُ عنـــه وَضَرَ الزيتِ[3]

فأجابه محمد بن عبد الملك :

رَقِيتَ في القول إلى خُطَّةٍ قَدْرَك فيها قد تعدَّيْتَ

---

(١) كان جده أبان يجلب الزيت من مواضعه إلى بغداد ويتجر فيه ، وكان أبوعبد الملك تاجراً من مياسير التجار بالكرخ (محلة ببغداد) فكان يحثه على التجارة ، وملازمتها ، فيأبى إلا الكتابة ، وطلبها ، وقصد المعالي حتى بلغ مرتبة الوزارة كما قدمنا ، وكان في أول أمره من جملة الكتاب ، وسبب تقدمه أن المعتصم ورد عليه كتاب من بعض العمال ، فقرأه عليه وزيره أحمد بن عمار بن شاذي البصري ، وكان في الكتاب ذكر الكلأ ، فقال له المعتصم : ما الكلأ ؟ فقال لا أدري — وكان قليل المعرفة بالأدب — فقال المعتصم : خليفة أمي ووزير عامي ! — وكان المعتصم ضعيف الكتابة — ثم قال : أبصروا من بالباب من الكتاب ؟ فوجدوا ابن الزيات المذكور فأدخلوه إليه ، فقال له : ما الكلأ ؟ فقال : الكلأ العشب على الإطلاق ، فإن كان رطبا فهو الخلا ، فإذا يبس فهو الحشيش ، وشرع في تقسيم أنواع النبات ، فعلم المعتصم فضله فاستوزره وحكمه وبسط يده — انظر الأغانى ٢٠ : ٤٦ ووفيات الأعيان ٢ : ٥٤ ، والفخرى ص ٢١٣ ، وغرر الخصائص الواضحة ص ١٤٣ .

(٢) شاعر عباسي مشهور ، توفي سنة ٢٤٩ — انظر ترجمته في الأغانى ٩ : ٩٩ ، ووفيات الأعيان ١ : ٣٤٩ .

(٣) الوضر : وسخ الدسم ، وفي العقد الفريد (٣ : ١١١) : « وقال محمد بن الجهم يهجوا ابن الزيات : أحسن من سبعين بيتا . . . » وجاء في الأغانى (٢٠ : ٥١) . « كان محمد بن عبد الملك يعادى أحمد بن أبي دواد ويهجوه ، فكان أحمد يجمع الشعراء ويحرضهم على هجائه ويصلهم ، ثم قال فيه أحد بيتين كانا أجود ما هجيا به ، وهما : أحسن من خمسين بيتا . . . » وفي وفيات الأعيان : (٢ : ٥٦) « وكان ابن الزيات قد هجا ابن أبي دواد بتسعين بيتا ، فعمل القاضي أحمد فيه بيتين وهما : أحسن من تسعين بيتا . . . » وجاء فيه أيضا (١ : ٢٥) « وهجا بعض الشعراء ابن الزيات بقصيدة عدد أبياتها سبعون بيتا ، فبلغ خبرها القاضي أحمد فقال . . . فبلغ ابن الزيات ذلك — ويقال : إن بعض أجداد القاضي أحمد كان يبيع القار (الزفت) — فقال :

ياذا الذى يطمع في هجونا عرضت بي نفسك للموت

الزيت لايزرى بأحسابنا أحسابنــا معروفة البيت

قيرتم الملك فــلم ننقه حتى غسلنا القار بالزيت

وقيره : أطلاه بالقار .

قَبْرَتَمُ المُلْكَ فلم نُنَقِّهِ حتى غسَلْنا القارَ بالزَّيْتِ[1]

وقال حبيب بن أوس يمدحه ويصف قلمه :

لك القـلَمُ الأعلى الذى بشَبَاتِهِ تُصابُ من الأمرِ الكُلَى والمَفَاصِلُ[2]

وكان محمد من ألطف الناس ذِهناً ، وأرَقِّهِمْ طبعاً ، وأصدقهم حِسًّا ، وأرْشَقِهم قلماً ، وأملَحهم إشارةً ، إذا قال أصاب ، وإذا كتب أبْلَغ ، وإذا شَعَرَ[3] أحسن ، وإذا اختصر أغنى عن الإطالة : أمره الواثق أن يتلطف بعبد الله بن طاهر ، ويُعلمه أنه صرفه عن أمر الجزائر والعواصم[4] ، وفوَّضَ ذلك لابن عمه إسحٰق بن إبراهيم ، فكتب :

« أما بعد ، فإن أمير المؤمنين رأى أن يخلع ما فى يمينك ، من أمر الجزائر والعواصم ، فيجعله فى شِمالك ، والسلام عليك ورحمة الله وبركاته[5] » .

وقال سهل بن بَرَكة يهجو أبا نوح النصرانى الكاتب :

بأبِى وأمّى ، ضاعت الأحلامُ أم ضاعت الأذهان والأفهامُ ؟[6]
مَن صَدَّ عن دين النبى محمدٍ ألَهُ بأمر المسلمين قِيامُ ؟
إلاَّ تكن أسيافُهم مشهورةً فينا ، فتلك سيوفُهم أقلامُ

---

(١) البيتان على هذه الرواية فيهما عيب شعرى وهو الإصراف ، لأن حركة روى البيت الأول فتحة ، وحركة روى البيت الثانى كسرة .

(٢) الشباة : حد كل شىء ، وهذا البيت هو الأول من أبيات تسعة مشهورة ـ انظرها ، فى العقد الفريد ٢ : ١٧٩ ، ونهاية الأرب ٧ : ٢٥ ، وصبح الأعشى ٢: ٤٤٨ ، وأدب الكتاب ص٧٥ وزهر الآداب ٢: ٣٥ .

(٣) شعر كنصر وكرم قال شعراً ، أو شعر بالفتح : قال شعراً ، وشعر بالضم : أجاده .

(٤) العواصم : ولاية كانت قصبتها أنطاكية .

(٥) ليس ابن الزيات فى هذا المعنى ببدع ، بل اقتبسه من يحى بن خالد البرمكى ـ انظر ما قدمناه فى ص ١٥٥ من الجزء الثالث .

(٦) الأحلام : العقول .

وقال عبد الرحمن بن كَيْسان : « استعمال الكلام أجدر بإحضار الذهن عند تصحيح الكتاب من استعمال اللسان على تصحيح الكلام[1] » .

ولم يُختَلَف في شرف القلم ، وإنما اختُلِف في كيفية البلاغة وما هيَّتها ، وقد مدحها كل قوم بأوضح عبارتهم ، وأحسن بيانهم ، فقال صاحب اليونانيين : « البلاغة تصحيح الأقسام ، واختيار الكلام» وقال الرومى : « البلاغة وضوح الدلالة ، وانتهاز الفرصة ، وحسن الإشارة[2] » وقال الفارسى[3] : « هى معرفة الفصل من الوصل » وقال الهندى : « هى البصر بالحجة ، والمعرفة بمواضع الفرصة ، ثم أن تَدَع الإفصاح بها إلى الكناية عنها ، إذا كان الإفصاحُ أوعرَ طريقاً ، وربما كان الإطراق عنها أبلغ فى الدَّرْك ، وأحقَّ بالظفر » وقال غيره : « جِماعُ البلاغة التماس حسن الموقع ، والمعرفة بساعات القول ، والحِذق بما التبس من المعانى وغمُض ، وبما شَرَد عليك من اللفظ وتعذّر » ثم قال : « وزَيْنُ ذلك كلِّه وبهاؤه ، وحلاوته وسَناؤه ، أن تكون الشمائل معتدلة ، والألفاظ موزونة ، واللهجة نقية ، فإنْ جامَعَ ذلك السِّنُّ والسَّمْتُ[4] والجمال وطول الصمت ، فقد تم كل التمام[5] » .

وقيل لهندى ما البلاغة ؟ فأخرج صحيفة مكتوبة عندهم فيها[6] : « أول البلاغة

---

(١) وفى البيان والتبيين ١ : ٥٥ «وقال عبد الرحمن بن كيسان: استعمال القلم أجدر أن يحس الذهن على تصحيح الكتاب من استعمال اللسان على تصحيح الكلام » .

(٢) وفى البيان والتبيين ١ : ٤٩ « وقيل للرومى : ما البلاغة ؟ قال : حسن الاقتضاب عند البداهة ، والغزارة يوم الإطالة ، وقيل للهندى : ما البلاغة ؟ قال : وضوح الدلالة ، وانتهاز الفرصة وحسن الإشارة » (وكذا فى زهر الآداب ١ : ١٣٠) . قال الجاحظ : وقال بعض أهل الهند : « جماع البلاغة البصر بالحجة . . . . » .

(٣) يعنى أبا على الفارسى . (٤) السمت : هيئة أهل الخير .

(٥) انظر البيان والتبيين ١ : ٤٩ .

(٦) جاء فى البيان والتبيين (١ : ٥١) « قال معمر أبو الأشعث : قلت لبهلة الهندى أيام اجتلب يحيى بن خالد أطباء الهند ، ما البلاغة عند أهل الهند ؟ قال بهلة : عندنا فى ذلك صحيفة مكتوبة ولكنى لا أحسن ترجمتها لك ، ولم أعالج هذه الصناعة فأثق من نفسى بالقيام بخصائصها ، وتلخيص لطائف معانيها ، قال أبو الأشعث : فلقيت بتلك الصحيفة التراجمة ، فإذا فيها : أول البلاغة اجتماع . . . . . » انظر أيضا زهر الآداب ١ : ١٢٠ .

الجمّاع[1] آلة البلاغة ، وذلك أن يكون البليغ رابطَ الجأش[2] ، ساكن الجوارح ، قليل اللحظ ، متخيِّر اللفظ ، لا يكلِّم سيد الأمة بكلام الأمة ، ولا الملوك بكلام السُّوقة ويكون فى قواه فَضْلُ التصرف فى كل طبقة ، ولا يدقِّق المعانى كلَّ التدقيق ، ولا ينقِّح الألفاظ كل التنقيح ، ولا يصفِّيها كل التصفية[3] ، ولا يهذِّبها غاية التهذيب ، ولا يكون كذلك حتى يصادفَ فيلسوفاً حكيماً عليماً ، ومَن قد تعوَّد حذفَ فضل الكلام ، وأسقط مشتَرَك اللفظ »[4] وقال أنو شِرْوان لبُزُرْجَمِهْر[5] : متى يكون العيِيُّ بليغاً ؟ فقال : إذا وصف بليغاً ، وقال أرسطاطاليس: «البلاغة حسن الاستعارة» وقال بشر بن خالد[6] : « البلاغة التقربُ من المعنى البعيد ، والتباعُدُ عن خسيس الكلام ، والدلالة بالقليل على الكثير » وقال خالد بن صَفْوان : « ليس البلاغة بخِفَّة اللسان ، ولا بكثرة الهَذَيان ، ولكنها إصابةُ المعنى ، والقَرْعُ بالحُجَّة » وقال عمر بن عبد العزيز : « البليغ مَن إذا وجد كثيرا مَلأه ، وإذا وجد قليلا كفاه » ، وقال ابن عُتبة : « البلاغة دُنُوّ المآخِذ ، وقَرْعُ الحجة ، والاستغناء بالقليل عن الكثير » وقال بعضهم : « إنى لأكره للإنسان أن يكون مقدار لسانه فاضلا عن مقدار عقله ، كما أكره أن يكون مقدار عقله فاضلا عن مقدار لسانه وعلمه ، يكفى من حظ البلاغة

---

(١) فى رسائل البلغاء « احتمال » .

(٢) الجأش : رواع القلب إذا اضطرب من الفزع ، ونفس الإنسان . وربط جأشه رباطة (بالكسر) اشتد قلبه .

(٣) فى رسائل البلغاء « ويصفيها كل التصفية » .

(٤) جاء فى البيان والتبيين ، وزهر الآداب عقب ذلك « لقد نظر فى صناعة المنطق على جهة الصناعة والمبالغة ، لا على جهة التصفح والاعتراض . ووجه التظرف والاستطراف » .

(٥) بزرجمهر : مركب من بزرج معرب بزرك أى الكبير ، ومهر : أى الروح ، وهو : بزرجمهر ابن البختكان وزير كسرى أنو شروان ملك الفرس ، وكان سديد الفكر حصيف الرأى .

(٦) وفى العقد « جعفر بن خالد » وفى زهر الآداب ١ : ١٣٤ « قال أعرابى : البلاغة التقرب من البعيد ، والتباعد من الكلفة ، والدلالة بقليل على كثير » .

أن لا يُؤْتَى السامعُ من سوء إفهام الناطق ، ولا يؤتى الناطق من سوء فهم السامع[١] » وقيل لعمرو بن عُبَيد[٢] : ما البلاغة ؟ فقال : « ما بلَّغك الجنَّة ، وعَدَل بك عن النار ، وما بصَّرك بمواقع رشدك ، وعواقب غيِّك ، فقال السائل : ليس هذا أريد ، فقال : من لم يُحْسِن أن يَسكت لم يُحْسِن أن يستمع ، ومن لم يحسن الاستماع لم يُحْسِن القول[٣] ، قال : ليس هذا أريد : قال : قال النبي عليه الصلاة والسلام : « إنا معاشرَ الأنبياء بِكَاء »[٤] وكانوا يكرهون أن يزيد منطِقُ الرجل على عقله ، فقال له السائل : ليس هذا أريد ، قال : كانوا يخافون من فتنة القول ومن سَقَطات الكلام ، مالا يخافون من فتنة السكوت وسَقَطات الصَّمْت[٥] ، فقال : ليس هذا أريد ، فقال : فكأنك إنما تريد تخيُّر اللفظ فى حسن إفهام ، قال : نعم ، قال : إنك إن أردت تقرير حجة الله فى عقول المكلَّفين[٦] ، وتخفيفَ المُؤنة على المستمعين ، وتزيين تلك المعانى فى قلوب المريدين[٧] ، بالألفاظ المستحسنة فى الآذان ، المقبولة عند الأذهان ، رغبةً فى سرعة استجابتهم ، ونفى الشواغل عن قلوبهم ، بالموعظة الحسنة الناطقة عن الكتاب والسنة ،

---

(١) جاء فى البيان والتبيين ١ : ٤٩ « قال الإمام إبراهيم بن محمد : يكفى من حظ البلاغة . . . . الخ » انظر أيضا زهر الآداب ١ : ١٣٤ ، وفى نهاية الأرب ٧ : ٧ « وقيل لآخر ما البلاغة ؟ قال: ألا يؤتى القائل من سوء فهم السامع ، ولا يؤتى السامع من سوء بيان القائل » .

(٢) وردت هذه المحاورة فى زهر الآداب ١ : ١١٧ ، ونهاية الأرب ٧ : ٧ ، وعمرو بن عبيد ابن باب : إمام من أئمة المعتزلة توفى سنة ١٤٤ — انظر ترجمته فى وفيات الأعيان ١: ٣٨٤ .

(٣) وفى نهاية الأرب : « قال: من لم يحسن أن يسكت لم يحسن أن يسمع ، ومن لم يحسن أن يسمع لم يحسن أن يسأل ، ومن لم يحسن أن يسأل لم يحسن أن يقول » .

(٤) بكأ الرجل بكاءة بالفتح فهو بكىء، من قوم بالكسر : قل كلامه خلقة، وأصله من بكأت الناقة والشاة كجعل وكرم بكئا وبكاءة بالفتح فيهما ، وبكوءا وبكاء بالضم فيهما ، فهى بكىء وبكيئة : إذا قل لبنهم — وفى الحديث « إنا معشر النبآء بكاء » وفى رواية « نحن معاشر الأنبياء فينا بكء وبكاء» بالضم أى قلة كلام إلا فيما تحتاج إليه — انظر لسان العرب والقاموس مادة بكأ .

(٥) فى رسائل البلغاء « قال كانوا يخافون من فتنة السكوت وسقطات الصمت » والتصحيح من زهر الآداب .

(٦) وفى نهاية الأرب « المتكلمين » .

(٧) وفيه « المستفهمين » .

كنت قد أُوتيتَ فَصْلَ الخطاب ، واستوجبت من الله سبحانه جزيلَ الثواب[١] .

وقال الخليل بن أحمد : كلُّ ما أدَّى إلى قضاء الحاجة فهو بلاغة ، فإن استطعت أن يكون لفظُك لمعناك طِبْقاً ، ولتلك الحال وَفقاً ، وَآخِر كلامك لأوّله مشابها ، وموارِدُه لمَصادره مُوازِناً فافعلْ ، واحرِصْ أن تكون لكلامك متَّهِما ، وإن ظَرُف ولنظامك مستريبا وإن لطُف . بمواتاة[٢] آلتك لك ، وتصرُّف إرادتك معك ، فافعل إن شاء الله .

وهذه الرسالة عذراء ، لأنها بِكْر معانٍ لم تفترِعْها بلاغةُ الناطقين ، ولا لَمَسَتْها أكُفُّ المفوَّهين ، ولا غاصت عليها فِطَن للتكلمين ، ولا سبق إلى ألفاظها أذهان الناطقين ، فاجعلها مثالاً بين عينيك ، ومصوَّرة بين يديك ، ومسامِرةً لك في ليلك ونهارك ، تهطُلْ عليك شآبيبُ منافعها ، ويُظِلّك منها بركاتُها ، وتُورِدك مناهلَ بلاغاتها ، وتدلك على مَهْيَع[٣] رشدها ، وتُصْدِرك وقد نُقِع[٤] ظمؤك بينابيع بحر إحسانها إن شاء الله عز وجل ، والحمد لله وحده ، وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم[٥] » . (رسائل البلغاء ص ١٧٦ ، والعقد الفريد ٢ : ١٧١)

---

(١) وجاء في زهر الآداب عقب ذلك : « فقيل لعبد الكريم بن روح الغفارى : من هذا الذى صبر له عمرو هذا الصبر ؟ قال : سألت عن ذلك أبا حفص الشمرى فقال : ومن يجترىء عليه هذه الجراءة إلا حفص بن سالم ؟ » أقول: وحفص هذا هو أحد دعاة المعتزلة الذين أنفذهم واصل بن عطاء إلى الآفاق ، وبثهم في البلاد ، لنشر مذهب الاعتزال ، وقد بعثه واصل إلى خراسان — انظر المنية والأمل ص ١٩ » والبيان والتبيين ١ : ١٤ .

(٢) المواتاة : الموافقة والمطاوعة . (٣) طريق مهيع : أى بين .

(٤) نقع الماء العطش كقطع: سكنه، وفي المثل « الرشف أنقع » أى إن الشراب الذى يترشف قليلا قليلا أقطع للعطاش وأنجع ، وإن كان فيه بطء ، مثل يضرب في ترك العجلة .

(٥) ذكر الأستاذ كرد على في رسائل البلغاء أنه نقل هذه الرسالة من مجموع قديم من كتب الشيخ طاهر الجزائرى ، وقد أورد صاحب العقد الفريد نحواً من شطرها في باب أدوات الكتابة ، وأخبار الكتاب ، غير أنه لم يوردها على النمط الذى ورد في رسائل البلغاء، بل تصرف فيها كثيراً بالحذف والزيادة والتقديم والتأخير ، وتراه يلقب إبراهيم بن محمد بن المدبر كاتبها بالشيبانى ، فيقول : قال إبرهيم بن محمد الشيبانى . . . . وأورد القلقشندى في صبح الأعشى. فقراً منها — انظر ج ٢ : ص ٤٥٧ و ج ٣ ص ٦، وكذا النويرى في نهاية الأرب — انظر ج ٧ ص:١٢ ، ١٣ ، ١٩ وكلاهما يلقبه بالشيبانى أيضاً ، والظاهر أنه ينتمى إلى شيبان بالولاء .

١٣١ – كتاب محمد بن مكرم إلى إبراهيم بن المدبر

وكتب محمد[١] بن مكرّم إلى إبراهيم بن المدبر .

« الحمد لله رب العالمين ، حمدا يجوز حَمْدَ الحامدين ، الذى جعل قضاءه خِيَرَةً لك ، فإن زادك نعمةً وفّقك لشكرها ، وإن امتحنك ببلوَى مِن نَفْثِ[٢] حاسدٍ ، أو كيدِ كائدٍ ، أنار برهانَكَ ، وأفلجَ[٣] حُجّتَك ، وجَمع بين وَلِيِّك وعدوِّك فى الشهادة لك ، وإن نَقَل أمرًا عن يدك فربما يَرْجعه إليك مختلاً لِفَقْدِك ، هذا إلى ما جعل عندك من خواصِّ النعم التى إن ذكرناها فأطنَبْنا، أو تجوّزْنا فقصّرْنا ، كان غايتنا إلى الحُسُور[٤] دون مَدَى غايتك ، وقد زادك الله بهذا الحادث فضلا عظيما ، لِمَا ظهَر مِن وَلَه العامة إليك ، وتطلُّعها إلى ما كانت فيه ، من لِين إنصافك وكريم أخلاقك ، ووَحْشَةِ الخاصّة لِمَا فَقَدَتْ من حسن معاملتك ، وكثير تفضُّلك ، وأيقنَ أهل الرأى والتأمل لصفحات الأمور أنّ كل ما خرج عنك فعائدٌ إليك ، ومتصلٌ به غيرُه ، حتى تستقرَّ فى يدك عُرَا الأمور ومَعَاقِدُها ، وتُفْتَح برأيك وتدبيرك أبوابُها ومَغالقها ، فلْيَهْنِئْك أن كلَّ ما زاد غيرَك نقصاً ، زادك فضلا ، وكلّ ما نقصَ من الرجال وحطَّها ، ألحقَ بك شرفا فزادك الله وزادنا منك ، وجعلنا ممن يَقْبَلُه رأيك ، ويقدِّمه اختيارُك ، ويقَعُ من الأمور بموافقتك ، ويجرى منها على سبيل طاعتك » .

(اختيار المنظوم والمنثور ١٣ : ٣٠١)

---

(١) كاتب بليغ مترسل ، وكان بينه وبين أبى العيناء مداعبات ، انظر أخباره فى الفهرست لابن النديم ص ١٧٩ ، وفى خلال ترجمة أبى العيناء فى وفيات الأعيان وزهر الآداب كما قدمنا .

(٢) النفث شبيه بالنفخ ، والمعنى مما يصدر من الحاسد .

(٣) أى نصرها .

(٤) الحسور : الكلال والانقطاع .

١٣٢ — كتابه إلى أحمد بن المدبر

وكتب ابن مكرَّم إلى أحمد بن المدبَّر :

« إن جميع أكْفائك ونُظَرائك يتنازعون الفضلَ ، فإذا انتهوْا إليك أقرُّوا لك ، ويتنافسون المنازلَ ، فإذا بلغوك وقَفُوا دونَك ، فزادك اللهُ وزادنا بك وفيك ، وَجعَلَنا ممن يقبَلُه رأيُك ، ويقدِّمه اختيارك ، ويقع من الأمور بموقع موافقتك ، ويجرى فيها على سبيل طاعتك » . (العقد الفريد ٢ : ١٩٦)

١٣٣ — كتابه إلى أحمد بن دينار

وكتب محمد بن مكرَّم إلى أحمد بن دينار يعزيه بأخيه :

« الذى حَرَّكنى للكتاب أيها الأميرُ تعزيتك بمن لا ترْميك الأيامُ بمثلِ الحادثِ فيه ، ولا تعتاضُ مما كان الله جمعه لك عنده ، من الميل إليك ، والاستباق(١) فى صفوك ، والصبرِ على مكروه جفائك ، مع ما كان الله أعاره من قوة العقل ، وأصالة الرأى ، ومَدَّ له من عِنانه إلى قُصْوى غايات أمله ورجائه، أبى محمد رضى الله عنه، وإنا لله وإنا إليه راجعون ، على ما أفاتَتْنا الأيامُ منه حين تمّ واستوى ، وعالَى فى الثروة وتناهَى ، وعند الله أحتسِبُ المُصابَ به ، وعظّم الله لك الأجرَ ، وأجزل لك العِوَضَ والذُّخر ، فكل ماضٍ من أهلك فأنت سِدادُ ثُلْمته ، وجابرُ رزيّته، والمُؤْنِس من وَحْشته وفقده ، وقد خلف مَن أنت أحقُّ الناس به : مِن عجوز وَليتَ تربيتَك(٢) وحِياطتَك فى طَبَقات سِنِّك ، ووَلَدٍ رُبُّوا فى حِجْرك ، ونَبتُوا فى حَوْزتك ، وليس لهم بعد الله مَرجِعٌ سواك ، ولا مَقِيلَ إلا فى ظِلِّك وذَرَاك(٣) ، فأَنْشُدُك اللهَ فيهم ، فإنه

---

(١) فى الأصل « الإساق » وهو تحريف .

(٢) فى الأصل « فرسك » .

(٣) الذرى . الظل ، يقال : أنا فى ذراه : أى فى كنفه وستره .

رضى الله عنه أخْرَبَهم بِعمارة مُرُوءته ، وقطعَهم بِصِلة(١) فضله ، فالله يَجْزِيه بجميل أثره ، ويُخلِف عليهم ما هو أهله ، فإنْ رأى الأمير أن يضمَّهم إليه ، ويحقِّق ثقةَ أبيهم كانت به ، ويُجْرِىَ على أمّه ما يقوم بعِصْمتها وصيانتها ، فعَل إن شاء الله » .

(اختيار المنظوم والمنثور ١٣ : ٣١٨)

١٣٤ — كتابه إلى أحمد بن دينار

وكتب إلى أحمد بن دينار :

« نحن من السرور أيها الأميرُ بما قد استفاض من جَميل أثَرك فيما تَلِى من أعمالك ، وزَمِّكَ إياها بحَزْمك وعزمك ، وانتياشِكَ(٢) أهلَها مِن جوْرِ مَن وَلِيَهم قبلك ، وسرورهم بتطاوُل أيامك ، والكوْنِ فى ظِلٍّ يدك وجَناحك ، فى إعانةِ مَن تخُصُّه وتَعُمُّهُ نِعْمَتُك ، وتحول به الحَوْلُ حيث حالت بك ، فالحمد لله الذى جعل العاقبة لك ، ولم يرُدَّ علينا آمالنا فيك منكوسةً ، كما ردَّها على غيرنا فى غيرك ، ولوَدِدْتُ أن أباك كان عاين آثارَك هذه ومناقِبَك ، وإن كان الافتراقُ لم يقع بينكما حتى عَلِم أنك خَلَفُه ، وألقى إليك بأمره ومَعاقدِ ثِقَتِه ، وجعلك موضِعَ اختصاصه وأثرَتِه ، وصَرَف ذلك عمن كان لايستحقه ، وذمَّ سالِفَ رأيه فيك وفيه ، وحمِد آخِرَه ، ثم نعمة اتصلَتْ لك بما قبلها ، انتظمَتْ بها أمورُك فاعتدلَتْ ، وتلاحَمَتْ عليها واتَّسقَتْ : ما مُنِحْتَ فى كاتبك ، ومستقَرٍّ ثقتك ، وحامِلِ أعبائك ، من الكفاية والنصيحة ، ووضعِه عن قلبك مَئُونة التُّهَمة والقَصِّ لأثَره ، وإدخاله راحةَ الطمأنينة إليه ، ورَوحَ الثقة به ، لا كما ابتُلِىَ أخوك(٣) ، فإنه صحِبَه مَخلَط عليه أمرَه ، وأفشى أسرارَه إلى صاحب بَرِيده ، فأنغل(٤) ذلك بينهم ، وقَطَّعَ حبالهم ، حتى هُجِّنت(٥)

---

(١) فى الأصل « بمقلة » .
(٢) انتاشه : انتشله واستنقذه .
(٣) جاء فى تاريخ الطبرى ١٠ : ٣٦٢ « وفى سنة ٢٢٤ — فى خلافة المعتصم — ولى جعفر بن دينار اليمن » وجاء فيه أيضا ١١ : ١٨ « وفى سنة ٢٣١ ولى الواثق جعفر بن دينار اليمن » .
(٤) الإنغال : أخذ الرجل الفأس القطع القتاد لإبله ، والمعنى هنا نقطع .
(٥) أى قبحت .

آثاره مع حُسْنِها ووضوحها ، وصفِرت يدُه مِن حَظٍّ عمله ، ولزمه الذمُّ من أهله ، فهذه كتبه إلىّ ، فى اطِّراح نصيحة له كانت فيه ، ويسألنى أن أُشْخِص إليه كاتبا يحمل ثِقْلَه ، ويفتح له ما أرتجه(١) من أمره ، وهذا من سعادة جَدِّك ، ويُمْن طائرك ، وإقبال الأمور إليك ، وسَعْيِها على طريق موافقتك ، وهنيئاً ، هنأك الله نعمه خاصَّها وعامَّها ، وأوزَعَك(٢) شكرَها ، وأوجب لك بالشكر أحسنَ المَزِيد فيها » .

(اختيار المنظوم والمنثور ١٣ : ٣٠٠)

١٣٥ – كتابه إلى نصرانىّ أسلم

وكتب محمد بن مكرَّم إلى نصرانى أسْلَمَ .

« أما بعد : فالحمد لله الذى وَفَّقك لشكره ، وعرَّفك هدايتَه ، فطهَّر من الارتياب قلبَك ، ومن الافتراء عليه لسانَك ، وما زالت مَخَايِلُك ممثِّلةً لنا جميلَ ماوهبه الله لك ، حتى كأنك لم تزل بالإسلام موسوما ، وإن كنت على غيره مقيما ، وكنا مؤمِّلين لما صِرتَ إليه ، مُشْفقين لك مما كنت عليه ، حتى إذا كاد إشفاقنا يستعلِى رجاءنا ، أتتِ السعادةُ بما لم تزَلِ الأنفس تعدّ منك ، فأسألُ الله الذى نوَّر لك فى رأيك ، وأضاء لك سبيلَ رشدك ، أن يوفقك لصالح العمل ، وأن يؤتيَك فى الدنيا حسنة ، وفى الآخرة حسنةً ، ويَقِيَك عذابَ النار » .

(اختيار المنظوم والمنثور ١٣ : ٣٠٥ ، وزهر الآداب ١ : ٣٢٥)

١٣٦ – كتابه إلى حاجّ

وكتب تهنئة لحاجّ :

« بلَّغك الله الرضا فى أمَلِك ، من نُجْحِ كل حاجة ، وإبلاغ كل أمنيَّة ، وتقبُّلِ كلِّ دعوة خَصَصْتَ بها نفسك أو عَمَمْتَ بها أحداً من أهلك ، فى مجامع

---

(١) أى ما أغلقه . (٢) أى ألهمك .

وُفُوده ، ومُعْتَزَلِ قَراره . فكنت شافِعَ مَن شاهَدَك ، ووافِدَ من غاب عنك ، يَسْتفتح بدعائك ، ويُرَجِّى بركة تحضرك ، والقُرْبةَ إلى الله عز وجل بفضل جاهك» .

(اختيار المنظوم والمنثور ١٣ : ٢٩٩)

١٣٧ — كتابه إلى بعض الرؤساء

وكتب ابن مكرم إلى بعض الرؤساء يعتذر :

« نَبَتْ بى عنك[١] غِرَّة الحداثة ، فَرَدَّتْنى إليك التجربةُ[٢] ، وباعدتْنى عنك الثقةُ بالأيام ، فأدْنَتْنى إليك الضرورةُ ، ثقةً بإسراعك إلىَّ وإن أبطأْتُ عنك ، وقَبولك لِعُذرى ، وإن قصَّرتُ عن واجبك ، وإن كانت ذنوبى قد سَدَّت علىَّ مَسالكَ الصَّفح عنى ، فراجِعْ فىَّ مجدَك وسُؤدُدَك ، وإنى لا أعرف موقِفا أذلَّ من موقفى ، لولا أن المخاطبة فيه لك ، ولا خُطَّةً أدنأ من خُطَّتى ، لولا أنها فى طلب رضاك[٣] » .

(زهر الآداب ٣ : ٣٨٢ ، وعيون الأخبار م ٣ : ص ١٠٥)

١٣٨ — كتابه إلى سليمان بن وهب

وله إلى سليمان بن وهب يعزّيه عن أخيه الحسن :

« لئن أطنبتُ فى وصف جلالة المصيبة بفلان ، لأجدَنَّ من القول مُستعرَضا فَسِيحاً يَزيدُ الإمعانُ فيه على غايته بُعداً ، ولئن أسهبْتُ فى ذكر ثوابها — الذى إذا خَطَرتِ الدنيا لأقلّه لما كانت به وَفاء وله تَبعا[٤] — لأجدَنَّ أرحبَ منه مَذْهبا ،

---

(١) نبا عنه : تجافى وتباعد ، والغرة: الغفلة .

(٢) وفى عيون الأخبار « الحنكة » — بالضم — .

(٣) وفيه : « وإن كانت ذنوبى قد سدت عليك مسالك الصفح ، فأى موقف هو أدنأ من هذا الموقف ، لولا أن المخاطبة فيه لك ، وأى خطة هى أودى بصاحبها من خطة أنا راكبها ، لولا أنها فى رضاك ؟ » .

(٤) فى الأصل هكذا « تبعا » .

وأوسعَ مجالا ومُضْطرَبا ، فجعل الله حظَّك حظَّ الصابرين المحتسبين ، الذين عرَفوا فسلَّموا ، وأيقنوا فصبَرُوا ، وإنا لله وإنا إليه راجعون ، أخذًا بأدَب الله الذى قرَن به صلاتَه ورحمتَه ، ورحِم الله فلانا رحمةً تأتى مِن وَراء زَلَله ، وتُعَفِّى على فَرَطات لسانه ويديه ، فلقد ظَعَن عن الدنيا محموداً مفقوداً ، قد أطال تفَجُّعَ عشيرِه وخليله ، وصدَع فى قلبه ، وجَافَى جنبَه ، وأعدَمه سَلْوَة العِوَض ، وراحةَ السكون إلى أحد .

وبعدُ ، فإن الرَّمَض(١) والهلَع إنما يكونان للمصيبة الخاصَّةِ التى لاتعدُو صاحبَها ، ولا يجدُ مُسْعِدا عليها ، ولا شريكا فيها ، وقد أعانك الله على مصيبتك بالواشج(٢) رَحِماً بك ، والبعيد نَسَباً منك ، وجَمَعَ فى ثِقَل تحمُّلِها وألَم فَجْعِها صديقَك وعدوَّك ، وكلٌّ مُكْتَسٍ منها سِرْبالَ وحْشَةٍ ، ومُنطوٍ على دخيلِ حزن ، وناظرٌ من أعقابها فى مَنظرٍ وَعْرٍ ، فجميعهم(٣) فيها مشترك ، وأنت بالتعزّى حقيقٌ قَمَنٌ(٤) ، على أنها لو خصَّتك لكان فى علمك — بأن كل مصيبة سَلِمتْ من شائِنَةٍ تَنتقِصُ ثوابَها فهى النعمةُ الوافية ، وكلَّ مصيبة تحَيَّفَ(٥) جزَعُها أجرَها فهى الرَّزيةُ الباقية — ما أغناك وكفاك عن أن تعيش من غيرك ، أو تعوِّل فى حظِّك على سواك ، وأن يتخطَّى الجزَعُ نعمةَ الله عليك إلى قلبك ، أو يجتازَها إلى عزمك ، اللهمَّ إلَّا مالا تملكه النفسُ فى بَدْء الصَّدْمة من لَوْعة الفُرقة حتى تَقْسِمَ أمرها ، وتَصيرَ إلى أخذ مالَها وتركِ ماعليها ، فتَفْثَأ(٦) بفوز قِدْحِك ، ويغْنَم سَهْمِك ، ويُبْقِى الله أثرَك منْهَجا لغيرك ، فقَدِيما وهب الله لك الخِيَرَةَ فى رأيك ، والتوفيقَ فى إيرادك وإصدارك ، فله الحمدُ ومنه المعونةُ على الشكر ، وبطَوْله يُستحقُّ المزيدُ ، فإن رأيتَ أن تأمر

---

(١) الرمض : حرقة الغيظ .

(٢) وشجت بك قرابته كوعد : اشتبكت ، والواشجة : الرحم المشتبكة .

(٣) فى الأصل « فجلك » .

(٤) أى حقيق أيضاً ، بكسر الميم وفتحها وكأمير .

(٥) أى تنقص .

(٦) فثىء كفرح : انكسر غضبه ، وفى الأصل نعشا ، وربما كان « فتهنأ » .

بالكتاب إلىّ بما نفسي إليه متطلّعة ، وإليه مرجعي ، مِنْ صَبْرٍ إن كان عُزِم لك عليه ، أتخذك فيه إماما ، وأُرَوِّح عن قلبي براحة قلبك ، أو غيرِه[1] ـ لا ابتلاك الله به ـ فأقضِيَ فيه معك ، وأُحِلَّ فيه مَحَلَّتَكَ ، فعلتَ إن شاء الله » .

(اختيار المنظوم والمنثور ١٣ : ٣١٩)

١٣٩ — كتاب محمد بن مكرم إلى أبي العيناء

وكتب محمد بن مُكَرَّم إلى أبي العيناء .

« أما بعدُ ، فإني لا أعرف للمعروف طريقا أَحْزَنَ[2] ولا أوعَرَ من طريقه إليك ، ولا مستودَعًا أقلّ زَكاء[3] ولا أبعدَ من ثمرة خيرٍ مِنْ مكانِه عندك ، لأنه يحصُلُ منك المعروفُ في حَسَب دَنِيء ، ولسانٍ بذِيء ، وجَهْلٍ قد مَلَك عليك عِنانَكَ ، فالمعروفُ لديك ضائع ، والشكرُ عندك مهجور ، غايتُك في المعروف أن تَجْزُرَه[4] ، وفي وَلِيِّه أن تَكْفُرَه »[5] .

(المنظوم والمنثور ١٣ : ٤١١)

١٤٠ — فصول لابن مكرم

فصل له :

« إن من النعمة على المُثْنِي عليك ألّا يخافَ الإفراط ، ولا يأمن التقصير ، ويأمن

---

(١) معطوف على « صبر » .

(٢) أي أوعر ، من الحزن بالفتح : وهو ما غلظ من الأرض .

(٣) الزكاء : النماء والصلاح .

(٤) أي تقطعه وتستأصله . وفي الأصل « تحرزه » وهو تصحيف . وربما كان « تحقره » كما في العقد .

(٥) تقدم لك (في الجزء الثالث ص ٣٨١) أن صاحب العقد الفريد روى هذا الكتاب — بصورة أخصر من ذلك — معزوا إلى أحمد بن يوسف . ولم أورد هنا رد أبي العيناء على ابن مكرم لما فيه من إفحاش صريح لا يليق نشره .

أن تَلْحَقَه نقيصةُ الكذب ، ولا ينتهى به المدح إلى غايةٍ إلا وجدَ فضلَك تجاوَزها ، ومن سعادة جَدِّك أن الداعىَ لا يعدَم[1] كثرةَ المتابعين له والمؤمِّنين معه » .

* * *

وفصل له :

« السيفُ العتيق إذا أصابه الصَّدَأ ، استغنى بالقليل من الجِلاء ، حتى تعود جِدَّته ويظهر فِرِنْدُه[2] ، لِلين طبيعته ، وكرم جوهره ، ولم أصِفْ نفسى لك عَجَبا بك بل شكرا » .

* * *

وفصل له :

« زاد معروفك عندى عِظَما أنه عندك مستور حقير ، وعند الناس مشهور كبير[3] » .

* * *

وكتب فى التنصل :

« لاقِ عظيمَ أملى فيك ، ماأتيتُ فيما بينى وبينك ذَنْبا : مُخْطِئا ولا متعمِّدا ، ولعلَّ فَلْتَةً لم أُلْقِ لها بالاً ، فأُوطِّئَ لها اعتذاراً ، وإن تكن ، فبُغْية حاسدٍ زَخْرَفَها على لسان واشٍ نَبَذَها إليك فى بعض غِرَّاتك ، أصابت منى مَقْتَلاً ، وشفَتْ منك غَليلا » . (العقد الفريد ٢ : ١٩٤ ، ١٩٦)

* * *

---

(١) فى الأصل « لايقدم » وهو تحريف .

(٢) فرند السيف : جوهره .

(٣) أخذه الشاعر فقال :

زاد معروفك عندى عظما ... أنه عندك مستور حقير
تتناساه كأن لم تأته ... وهو عند الناس مشهور كبير

وله :

« لاتتركَنِّى معلقًا بحاجتى ، فالصبر الجميلُ خيرٌ من المَطْل الطويل » .

* * *

وله :

« إنه يسهِّل علىَّ فى طلَب حاجتى إليك أمران فى نفسى ، وأمران فيك فأما اللذان فى نفسى فأنى لستُ أَضِيقُ عنك بعذرى ، ولا أصونُ عنك شكرى . وأما اللذان فيك، فسرورُك إن أجْدَيْتَ(١) ، وصحةُ عذرك إن أكْدَيْتَ(٢) .

(اختيار المنظوم والمنثور ١٣: ٣٩٣)

١٤١ — كتاب سعيد بن موسى إلى أبى شراعة

وكتب أبو شُراعة(٣) إلى سعيد بن موسى بن سعيد بن مُسْلِم بن قُتَيْبَة يستهديه نبيذا ، فكتب إليه سعيد :

« إذا سألْتَنى — جعلنى الله فداءك — حاجةً فاشْطُطْ ، واحتكِمْ فيها حكمَ الصبى على أهله ، فإن ذلك يسرُّنى وأُسارع إلى إجابتك فيه » .

وأمر له بما التمس من النبيذ ، فزجه صاحب شرابه وبعث به إليه .

١٤٢ — ردّ أبى شراعة على سعيد بن موسى

فكتب إليه أبو شُراعة :

« أَسْتَنْسِى(٤) الله أجَلَك ، وَأستعيذه من الآفات لك ، وأستعينه على شكر ماوهب من النِّعمة فيك ، إنه لذلك وَلِىّ ، وبه مَلِىّ :

---

(١) أجدى : أعطى . (٢) أكدى : بخل أو قل خيره أو قلل عطاءه .

(٣) هو أحمد بن محمد بن شراعة ، من بكر بن وائل ، شاعر بصرى من شعراء الدولة العباسية ، جيد الشعر ، وهو كالبدوى فى مذهبه ، وكان يتعاطى الرسائل والخطب مع شعره ، وكان صديقاً لإبراهيم ابن المدبر أيام تقلده البصرة أثيرا عنده — انظر ترجمته فى الأغانى ٢٠ : ٣٥ .

(٤) أى أسأله أن يطيل أجلك .

أتانى غلامك المليحُ قَدُّه، السعيدُ بمَلَكَتك[1] جَدُّه، بكتاب قرأته غيرَ مُستكرَهِ اللفظِ ولا مُزْوَرّ[2] عن القصد، ينطق بحكمتك، ويُبين عن فضلك، فوالله ماأوضح لى خَبِيًّا، ولا زادنى بك علما، وإذا أنت تسأل فيه أن تَهَبَ، وتحبّ أن تُحْمَد، ولا غَرْوَ[3] أن تفعل ذلك، ومِن كَثَبٍ[4] أخذتَه، وعن كَلالةٍ[5] وغير كلالةٍ وَرِثته، موسى أبوك، وسعيد جدك، وعمرو عمك، ولك دار الصِّلة ودار الضيافة، وصاحب البغلة الشَّهْبَاء[6]، وحُصَيْنُ بن الحُمام[7]، وعروة بن الوَرْدِ[8]فنى أىّ غَلَوَات[9] المجد يطمع قرينُك أن يستولى على المَدَى والأَمَدِ، والأمدُ دونك.

وَكتابُك إلىّ أن أحكمَ عليك تحكمُ الصبيّ على أهله، فلشدَّ ماجَرَرْتَ إلى معروفك، ودَلَلْتَ على الأنس بك، وحاشا المحكوم له والمحكوم عليه فى ذات الحَسَب العتيق[10]، والمنظر الأنيق، الذى يسرّ القلب، ويلائم الرُّوح، ويطرُد الهمّ:

تَدِبُّ خِلالَ شئُونِ الفَتَى   دَبِيبَ دَبَا النملةِ المنتعِش[11]

---

(١) الملكة: الملك.

(٢) ازور: مال وانحرف، والقصد استقامة الطريق.

(٣) لاغرو ولا غروى: لاعجب.

(٤) أى من قرب.

(٥) الكلالة: مالم يكن من النسب لحا، قال الفرزدق: «ورثتم قناة الملك لا عن كلالة» أى ورثتموها وراثة قرب لاوراثة بعد، قال عامر بن الطفيل:

وما سودتنى عامر عن كلالة   أبى الله أن أسمو بأم ولا أب

ومنه قولهم: هو ابن عم كلالة، أى بعيد النسب، فإذا أرادوا القرب قالوا هو ابن عم دنية (بكسر الدال).

(٦) شهباء ذات شهبة بالضم، وهى بياض يصدعه سواد.

(٧) كان سيد بنى سهم بن مرة، وكان يقال له: مانع الضيم، وهو شاعر جاهلى مقل - انظر ترجمته فى الأغانى ١٢: ١١٨، والشعر والشعراء ص ٢٤٧.

(٨) شاعر من شعراء الجاهلية، وفارس من فرسانها، وكان يلقب: عروة الصعاليك، لسخائه، وهو من بنى عبس - انظر ترجمته فى الأغانى ٢: ١٨٤، والشعر والشعراء ص ٢٦٠.

(٩) الغلوة: الغاية قدر رمية سهم أبعد مايقدر عليه، ويقال: هى قدر ثلثمائة ذراع الى أربعمائة، وقد تستعمل الغلوة فى سباق الخيل، - وهو المقصود هنا - والمدى والأمد: الغاية.

(١٠) يعنى الخمر.   (١١) الدبا: أصغر النمل.

إذا فُتِحَت فَغَمَتْ رِيحُهــــا وإن سِيلَ خَمَّارُها قال: « خش[١] »

فإن كنت رَعَيْتَ لها عهدا ، وحفِظت لها عندك يدا ، فانظر رَبَّ الحانوت[٢] فامْطُله دَينَه ، واقطع السبب بينك وبينه ، فقد أساء صُحبَتَها ، وأفسد بالماء جُثّتها[٣] ، وسلّط عليها عدوها ، واعلم بأن أباك المُتمثِّل بقوله :

يَرَى درجاتِ المَجْدِ لايستطيعها فيقعُــد وَسْطَ القوم لايتكلم

وقد بسطَتْ قدرتُك لسانك ، وأكثرَتْ لك الحمدَ ، فدُونك نُهزَة[٤] البديهة منه فقال :

وبادِرْ بمعروفٍ إذا كنت قادرا زوالَ افتقارٍ أو غِنًى عنك يُعقِبُ

وقد بعثت إليك بقرابة[٥] مع الرسول ، وأنشأت فى إثرها أقول :

إليك ابنَ مُوسَى الجودِ أعملْتُ ناقتى مُجَـــلَّلةً يَضفو عليها جِلالُها[٦]

كَتُومُ الوَجَى لاتشتكى أَلَم السُّرَى سواءٌ عليها مَوْنُها واعتلالُها[٧]

إذا شربَتْ أبصرْتَ ماجَوْفُ بطنها وإن ظمِئَتْ لم يَبْدُ منها هُزالُها

وإن حَمَلتْ حِملا تَـكلَّفُ حِملَهَا وإن حُطَّ عنها لم أبَلْ كيف حالُها[٨]

بعثنا بها تسمو العيونُ وراءها إليك ، وما يُخشَى عليها كَلاَلُها[٩]

وغَنَّى مُغنّينا بصوتٍ فشاقَنى متى راجِعٌ مِن أم عمرو خَيالُها

---

(١) فغمه الطيب كنم : سد خياشيمه ، وسال يسال : لغة فى سأل المهموز، وخش : كلة فارسية تفسيرها : طيب .

(٢) الحانوت : دكان الخمار ، ويقال : مطله حقه ، وبه .

(٣) وربما كانت « حسنها » .

(٤) النهزة : الفرصة . (٥) أى بذى قرابة .

(٦) الجلال جمع جل بالضم والفتح : وهو ماتلبسه الدابة لتصان به، وجللها : ألبسها الجل، وثوب ضاف : أى سابغ .

(٧) الوجى : الحفى أو أشد منه ، والسرى : سير عامة الليل .

(٨) يقال : ما باليته وما باليت به : أى لم أكترث به ، ولم أبال ولم أبل ، حذفوا الألف تخفيفا لكثرة الاستعمال .

(٩) الكلال : الإعياء .

أحِبُّ لكم قيسَ بن عَيْلانَ كلَّها ... ويُعجِبُنى فُرسانُها ورجالُها[1]
ومالِىَ لاأهْوَى بقاءَ قبيلةٍ ... أبوك لها بَدْرٌ وأنت هلالُها !

فبعث إليه برسوله الذى حمل إليه النبيذ ، وبصاحب شرابه ، وكل ما كان فى خزانته من الشراب ، وبثلثمائة دينار . (الأغانى ٢٠ : ٤٠)

١٤٣ — كتاب البيعة للمنتصر بالله

ومات المتوكل على الله سنة ٢٤٧ هـ فبويع ابنه للمنتصر بالله بالخلافة ، وكانت نسخة البيعة التى أخذت له :

« بسم الله الرحمن الرحيم : تُبايعون عبد الله المنتصرَ بالله أميرَ المؤمنين ، بَيْعةَ طَوْعٍ واعتقادٍ ، ورضا ورغبةٍ ، بإخلاصٍ من سرائركم ، وانشراحٍ من صدوركم ، وصِدقٍ من نيّاتكم ، لا مُكرَهين ولا مُجْبَرين ، بل مُقِرّين عالمين بما فى هذه البيعة وتأكيدها ، من طاعة الله وتقواه ، وإعزازِ دين الله وحقّه ، ومن عُموم صلاح عباد الله ، واجتماعِ الكلمة ، ولَمِّ الشَّعَث ، وسُكونِ الدَّهْماء[2] ، وأمْنِ العواقب ، وعِزِّ الأولياء ، وقَمْعِ المُلْحِدِين ، على أن محمدا الإمامَ المنتصر بالله عبدُ الله وخليفتُه المفترضُ عليكم طاعتُه ومناصَحَتُه ، والوفاءُ بحقه وعَقْده ، لا تَشُكّون ولا تُدْهِنون[3] ولا تَميلون ولا تَرتابون ، وعلى السَّمْع له والطاعة ، والمسالمة والنُّصْرة ، والوفاءِ والاستقامة ، والنصيحة فى السِّر والعلانية ، والخُفُوف[4] والوقوفِ عند كل مايأمر به عبدُ الله الإمامُ المنتصرُ بالله أمير المؤمنين ، وعلى أنكم أولياء أوليائه ، وأعداء أعدائه

---

(١) لكم أى لأجلكم ، وقيس : هو قيس بن عيلان بن مضر . والمعنى : أحب جميع العرب المضرية لأجلكم (وسعيد المكتوب إليه من باهلة ، وهم بنو مالك بن أعصر بن سعد بن قيس) .

(٢) الدهماء : جماعة الناس .

(٣) الإدهان : إظهار خلاف مايضمر ، والغش .

(٤) الخفوف : العجلة وسرعة السير .

من خاصٍّ وعامٍّ ، وأبعدَ وأقربَ ، وتتمسكون ببيعته بوفاء العَقْدِ ، وذِمَّة العهد ، سرائرُكم فى ذلك مثلُ عَلاَنيتكم ، وضمائرُكم مثلُ ألسنتكم ، راضين بما يرضاه لكم أمير المؤمنين فى عاجلكم وآجلكم ، وعلى إعطائكم أمير المؤمنين بعد تجديدكم بيعته هذه على أنفسكم ، وتأكيدكم إياها فى أعناقكم ، صَفْقَةَ أيمانكم راغبين طائعين عن سلامةٍ من قلوبكم وأهوائكم ونيّاتكم ، وعلى ألاّ تسْعَوا فى نقضِ شىء مما أكّد الله عليكم ، وعلى ألاّ يَميل بكم مَيلٌ[1] فى ذلك عن نُصرة وإخلاص ، ونُصح ومُوالاة وعلى أن لا تُبَدِّلُوا ، ولا يرجِع منكم راجع عن نيته وانطوائه إلى غير علانيته ، وعلى أن تكون بيعتكم التى أعطيتم بها ألسنتكم وعهودَكم ، بيعةً يطّلع اللهُ من قلوبكم على اجْتِبائها[2] واعتقادِها ، وعلى الوفاء بذمته بها ، وعلى إخلاصكم فى نُصرتها ومُوالاةِ أهلها ، لا يَشُوبُ ذلك منكم دَغَلٌ[3] ولا إدْهانٌ ، ولا احتيال ولا تأوُّل ، حتى تلقَوُا الله مُوفين بعهده ، ومؤدِّين حقَّه عليكم ، غيرَ مستشرِفين[4] ولا ناكثين ، إذ كان الذين يبايعون منكم أميرَ المؤمنين إنَّمَا يُبَايِعُونَ اللهَ ، يَدُ اللهِ فَوْقَ أَيْدِيهِمْ فَمَنْ نَكَثَ فَإِنَّمَا يَنْكُثُ عَلَى نَفْسِهِ ، وَمَنْ أَوْفَى بِمَا عَاهَدَ عَلَيْهُ اللهَ فَسَيُؤْتِيهِ أَجْرًا عَظِيماً ، عليكم بذلك وبما أكّدَتْ هذه البيعةُ فى أعناقكم ، وأعطيتم بها من صَفْقَةِ أيمانكم ، وبما اشترط عليكم بها ، من وفاء ونصرٍ ومُوالاةٍ واجتهاد ونُصح ، وعليكم عهدُ الله إن عهده كان مسئولا ، وذِمةُ الله وذمةُ رسوله ، وأشدُّ ما أخذَ على أنبيائه ورسله وعلى أحد من عباده من متأكِّد وثائقه ، أن تسمعوا ما أُخِذ عليكم فى هذه البيعة ولا تبدِّلوا ، وأن تُطيعوا ولا تَعْصُوا ، وأن تُخْلِصُوا ولا ترتابوا ، وأن تتمسّكوا بما عاهدتم عليه تمسُّكَ أهْل الطاعة بطاعتهم ، وذوى العهد والوفاء بوفائهم

---

(١) ميل بالفتح مصدر كميل ، ويصح أن يكون بالضم ، اسم فاعل .

(٢) اجتباه : اختاره .

(٣) الدغل : الفساد .

(٤) استشرفه حقه : ظلمه ، وسيأتى فى كتاب البيعة للمعتز « غير مستربين » .

وحقهم ، لايَلْفِتكم عن ذلك هَوًى ولا مَيل ، ولاَ يَزيغ بكم فيه ضلالٌ عن هدى ، باذِلين فى ذلك أنفسكم واجتهادكم ، ومقدِّمين فيه حق الدين والطاعة ، بما جَعلتم على أنفسكم ، لا يقبَل اللهُ منكم فى هذه البيعة إلا الوفاء بها ، فمن نَكث منكم ممن بايَع أميرَ المؤمنين هذه البيعة عما أُكِّد عليه ، مُسِرًّا أو مُعلِناً ، أو مُصَرِّحا أو محتالا ، فأدْهَنَ فيما أعطى اللهَ من نفسه ، وفيما أُخِذَتْ به مواثيقُ أمير المؤمنين وعهودُ الله عليه ، مستعملا فى ذلك الهُوَيْنَى دون الجِدِّ ، والرُّكونَ إلى الباطل دون نُصرةِ الحق، وزاغَ عن السبيل التى يعتصم بها أولو الوفاء منهم بعهودهم ، فكلُّ ما يَملِك كلُّ واحد ممن خان فى ذلك بشىءٍ نقَضَ عهده ، من مال أو عَقَار أو سائمةٍ أو زَرْع أو ضَرْع صدَقَةٌ على المساكين فى وجوه سبيل الله ، محرَّمٌ عليه أن يرجع شىء من ذلك إلى ماله ، عن حِيلة يقدِّمها لنفسه أو يحتال بها، وما أفاد[1] فى بقية عمره من فائدة مال يَقِلُّ خَطَرُها أو يجِلُّ قدرُها، فتلك سبيله إلى أن توافيَه منيَّتُه، ويأتىَ عليه أجَله، وكلُّ مملوك يملكه اليوم إلى ثلاثين سنةً من ذكر أو أنثى ، أحرارٌ لوجه الله ، ونساؤه يوم يلزَمه الحِنثُ ، ومن يتزوج بعدهن إلى ثلاثين سنةً ، طوالِقُ ألبَتَّةَ طلاقَ الحَرَج[2] ، لامَثْنَوِيَّة[3] فيه ولا رَجْعَةَ ، وعليه المشىُ إلى بيت الله الحرام ثلاثين حِجَّةً[4] لا يقبلُ الله منه إلا الوفاء بها ، وهو برىء من الله ورسوله ، واللهُ ورسولهُ منه بريئان ، ولا قَبِلَ الله منه صَرْفا ولا عَدْلاً[5] ، والله عليكم بذلك شهيد ؛ وكفى بالله شهيدا ».

(تاريخ الطبرى ١١ : ٧١)

---

(١) أى استفادة . (٢) انظر ص ١٤٠ من الجزء الثالث .

(٣) أى لا استثناء . (٤) الحجة : السنة .

(٥) الصرف : التوبة ، والعدل : الفدية .

١٤٤ — كتاب المنتصر إلى محمد بن عبد الله بن طاهر

وفى سنة ٢٤٨ أغْزَى المنتصرُ وَصِيفاً التركى — أحد كبار الموالى الأتراك — بلادَ الروم، وكتب إلى محمد بن عبد الله بن طاهر كتابا نسخته :

« بسم الله الرحمن الرحيم ، من عبد الله محمد المنتصر بالله أمير المؤمنين إلى محمد بن عبد الله مَوْلى أمير المؤمنين :

سلام عليك فإن أمير المؤمنين يحمَدُ إليك اللهَ الذى لا إله إلا هو ، ويسأله أن يصلِّىَ على محمد عبدِه ورسوله صلى الله عليه وعلى آله .

أما بعد : فإن الله — وله الحمدُ على آلائِه ، والشكرُ بجميل بَلَائه — اختار الإسلام وفضَّله ، وأتمَّه وأكملَه ، وجعله وسيلةً إلى رضاه ومَثُوبته ، وسبيلًا نَهْجًا[1] إلى رحمته ، وسبباً إلى مَذْخور كرامته ، فقَهَر له مَن خالَفَه ، وأذلَّ له مَن عَنَدَ عن حقه ، وابتغَى غيرَ سبيله ، وخصَّه بأتمِّ الشرائع وأكملها ، وأفضلِ الأحكام وأعدَلها ، وبَعث به خِيرَته من خلقه ، وصَفْوتَه من عباده ، محمداً صلى الله عليه وسلم ، وجعل الجهادَ أعظمَ فرائضه منزلةً عنده ، وأعلاها رُتبةً لديه ، وأنجحَها وسيلةً إليه ، لأن الله عزّ وجل أعزّ دينه ، وأذلّ عُتَاةَ الشِّرك ، قال الله عزّ وجل آمِرا بالجهاد ، ومفترضاً له : « انفِرُوا خِفافاً وَثِقالًا وَجاهِدُوا بِأَمْوالِكُمْ وَأَنفُسِكُمْ فِى سَبِيلِ اللهِ ، ذَلِكُمْ خَيْرٌ لَكُمْ إِنْ كُنتُمْ تَعلَمُونَ » .

وليست تَمْضى بالمجاهِد فى سبيل الله حالٌ لا يكابِدُ فى الله نَصَباً ولا أذًى ، ولا يُنفِقُ نفقةً ، ولا يقارِعُ عدوّا ، ولا يقطع بَلَدا ، ولا يطأُ أرضاً ، إلّا وله بذلك أمرٌ مكتوبٌ ، وثوابٌ جزيل ، وأجرٌ مأمول ، قال الله عزّ وجلّ : « ذٰلِكَ بِأَنَّهُمْ لَا يُصِيبُهُمْ ظَمَأٌ وَلَا نَصَبٌ وَلَا مَخْمَصَةٌ[2] فِى سَبِيلِ اللهِ وَلَا يَطَئُونَ مَوْطِئاً

---

(١) النهج : الطريق الواضح .　　(٢) المخمصة : المجاعة .

يَغِيظُ الْكُفَّارَ وَلَا يَنَالُونَ مِنْ عَدُوٍّ نَيْلًا إِلَّا كُتِبَ لَهُمْ بِهِ عَمَلٌ صَالِحٌ إِنَّ اللهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ . وَلَا يُنفِقُونَ نَفَقَةً صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً وَلَا يَقْطَعُونَ وَادِيًا إِلَّا كُتِبَ لَهُمْ لِيَجْزِيَهُمُ اللهُ أَحْسَنَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ » ثم أثنى عزّ وجل بفضل منزلة المجاهدين على القاعدين عنده ، وما وَعَدَهم من جزائه ومَثُوبته وما لهم من الزُّلْفَى عنده فقال : « لَا يَسْتَوِى الْقَاعِدُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ غَيْرُ أُولِى الضَّرَرِ وَالْمُجَاهِدُونَ فِى سَبِيلِ اللهِ بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ ، فَضَّلَ اللهُ الْمُجَاهِدِينَ بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ عَلَى الْقَاعِدِينَ دَرَجَةً ، وَكُلًّا وَعَدَ اللهُ الْحُسْنَى ، وَفَضَّلَ اللهُ الْمُجَاهِدِينَ عَلَى الْقَاعِدِينَ أَجْرًا عَظِيمًا » .

فبالجهاد اشترى الله من المؤمنين أنفُسَهم وأموالَهم ، وجعل جَنَّته ثمنًا لهم ، ورضوانه جزاءً لهم على بَذْلِهَا وَعْداً منه حَقًّا لا رَيْبَ فيه ، وحُكْماً عَدْلا لا تبديلَ له ، قال الله عز وجل : « إِنَّ اللهَ اشْتَرَى مِنَ الْمُؤْمِنِينَ أَنفُسَهُمْ وَأَمْوَالَهُمْ بِأَنَّ لَهُمُ الْجَنَّةَ يُقَاتِلُونَ فِى سَبِيلِ اللهِ فَيَقْتُلُونَ وَيُقْتَلُونَ وَعْدًا عَلَيْهِ حَقًّا فِى التَّوْرَاةِ وَالْإِنْجِيلِ وَالْقُرْآنِ ، وَمَنْ أَوْفَى بِعَهْدِهِ مِنَ اللهِ ، فَاسْتَبْشِرُوا بِبَيْعِكُمُ الَّذِى بَايَعْتُمْ بِهِ ، وَذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ » وحكم الله عز وجل لأحياء المجاهدين بنصره ، والفوز برحمته ، وأشهَدَ لمَوْتاهم بالحياة الدائمة ، والزُّلْفى لديه ، والحظ الجزيل من ثوابه ، فقال : « وَلَا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ قُتِلُوا فِى سَبِيلِ اللهِ أَمْوَاتًا بَلْ أَحْيَاءٌ عِنْدَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ ، فَرِحِينَ بِمَا آتَاهُمُ اللهُ مِنْ فَضْلِهِ ، وَيَسْتَبْشِرُونَ بِالَّذِينَ لَمْ يَلْحَقُوا بِهِمْ مِنْ خَلْفِهِمْ أَلَّا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ » .

وليس من شيء يتقرب به المؤمنون إلى الله عز وجل من أعمالهم ، ويسعَوْنَ به فى حَطِّ أوزارهم ، وفَكَاكِ[1] رقابهم ، ويستوجبون به الثوابَ من ربهم ، إلاَّ والجهادُ عنده أعظمُ منه منزلةً ، وأعلَى لديه رُتبةً ، وأَولَى بالفوز فى العاجلة والآجلة ، لأن

---

(١) فَكاك الرهن بالفتح ويكسر : مايفتك به .

أهله بَذَلوا لله أنفسَهم ، لتكونَ كَلِمَةُ اللهِ هِيَ الْعُلْيا ، وتَمَحوا بها دونَ مَنْ وَرَاءهم من إخوانهم وحَرِيمِ المسلمين وَبَيْضَتهم ، ووقَمُوا(١) بجهادهم العدوَّ .

وقد رأى أمير المؤمنين - لِمَا يُحِبّه من التقرب إلى الله بجهاد عدوه ، وقضاءِ حقّه عليه فيما استحفَظَه من دينه ، والتماسِ الزُّلْفَى له فى إعزاز أوليائه ، وإحلالِ البأس والنِّقمة بمن حادَّ من دينه ، وكذَّب رسلَه ، وفارق طاعته - أن يُنهِض « وصيفاً » مَوْلَى أمير المؤمنين فى هذا العَام إلى بلاد أعداء الله الكَفَرَةِ الرُّوم غازِياً ، لِمَا عرَّفَ اللهُ أميرَ المؤمنين من طاعته ومناصَحَته ، ومحمودِ تعبِئته ، وخلوصِ نيَّته فى كل ماقرَّبه من الله ومن خليفته .

وقد رأى أمير المؤمنين - واللهُ وَلِيُّ معُونته وتوفيقه - أن يكون مُوافاةُ « وصيفٍ » فيمن أنهض أمير المؤمنين معه من مواليه وجنده وشاكِرِيَّته(٢) ثغرَ مَلَطْيَةَ(٣) ، لِاثْنَتَىْ عشرةَ ليلةً تخلو من شهر ربيع الآخِر سنة ثمان وأربعين ومائتين ، وذلك من شهور العَجَم النِّصْف من حَزِيران ، ودخوله بلاد أعداء الله فى أول يوم من تَمُّوز .

فاعلم ذلك واكتب إلى عمالك على نواحى عملك بنسخة كتاب أمير المؤمنين هذا ، ومُرْهم بقراءته على مَن قِبَلهم من المسلمين ، وترغيبِهم فى الجهاد وحَثِّهم عليه ، واستنفارِهم إليه ، وتعريفهم ماجعل الله من الثواب لأهله ، ليعملَ ذوو النيَّات والحِسْبة والرغبة فى الجهاد على حسب ذلك فى النهوض إلى عدوِّهم ، والخُفُوفِ إلى معاونة إخوانهم ، والذِّياد عن دينهم ، والرمى من وراء حَوْزتهم ، بموافاة عسكر « وصيف »

---

(١) أى أذلوا وقهروا .

(٢) الشاكرى : الأجير والمستخدم .

(٣) قال ياقوت فى معجمه « ملطية» بفتح أوله وثانيه وسكون الطاء وتخفيف الياء ، والعامة تقوله بتشديد الياء وكسر الطاء : بلدة من بلاد الروم مشهورة مذكورة تتاخم الشام » .

مولى أمير المؤمنين مَلطْيَةَ فى الوقت الذى حَدَّه أميرُ المؤمنين لهم إن شاء الله ، والسلام عليك ورحمة الله وبركاته » .

وكتب أحمد بن الخصيب[1] لسبع ليالٍ خَلَون من المحرم سنة ثمانٍ وأربعين ومائتين .

(تاريخ الطبرى ١١ : ٧٤)

١٤٥ — رقعة المعتز والمؤيد فى خلع أنفسهما من البيعة

وسعى الأتراكُ سَعْيَهم — بتدبير الوزير أحمد بن الخصيب — لَدَى المنتصر ، فى أن يخلع أخويه أبى عبد الله المعتزّ وإبراهيم المؤيَّد من الخلافة ، فلم يزالوا به حتى فعل ، واستكتَبَ كلا منهما رُقْعة بخطِّه أنه خلع نفسه من البيعة ، وقاما فيمن اجتمع من وُجُوه الناس فأعلنَا ذلك لهم ، وكانت النسخة التى كتباها .

« بسم الله الرحمن الرحيم : إن أمير المؤمنين المتوكِّل على الله رضى الله عنه قلّدنى هذا الأمر ، وبايع لى وأنا صغير ، من غير إرادتى ومحبّتى ، فلما فهمتُ أمرى علِمت أنى لا أقومُ بما قلّدنى ، ولا أصْلُح للخلافة المسلمين ، فمن كانت بيعتى فى عُنقه فهو مِن نَقْضِها فى حِلّ ، وقد حلَّلتكُم منها ، وأبْرأتكم من أيمَانكم ، ولا عهدَ لى فى رقابكم ولا عقدَ ، وأنتم بُرَآء من ذلك » .

وكان الذى قرأ الرقعة أحمد بن الخصيب ، ثم قام كل منهما فقال لمن حضر : هذه رقعتى وهذا قولى ، فاشهدوا علىّ ، وقد أبرأتكم من أيمانكم وحلَّلتكم منها ؛ فقال لهما المنتصر عند ذلك : قد خار الله لكما وللمسلمين .

(تاريخ الطبرى ١١ : ٧٧)

---

(١) كان وزيرا للمنتصر — انظر خبره فى الفخرى ص ٢١٧ ومروج الذهب ٢ : ٣٩٩ .

١٤٦ — كتاب المنتصر بخلع المعتز والمؤيد

وكتب المنتصر كتابا إلى العمال بخلعهما ، وهذه نسخة كتابه إلى أبى العباس محمد بن عبد الله بن طاهر فى ذلك :

« من عبد الله محمد الإمام المنتصر بالله أمير المؤمنين إلى محمد بن عبد الله مولى أمير المؤمنين .

أما بعد ، فإن الله ـ وله الحمدُ على آلائه ، والشكرُ بجميل بلائه ـ جعل وُلاةَ الأمر ، من خلفائه القائمين بما بَعَثَ به رسوله صلى الله عليه وسلم ، والذَّابِّين عن دينه ، والداعين إلى حقه ، والمُمْضِين لأحكامه ، وجعل ما اختصَّهم به من كرامته قِوَاما لعباده ، وصلاحا لبلاده ، ورحمةً عمّ بها خَلْقَه ، وافترض طاعتَهم ووصَلَها بطاعته وطاعة رسوله محمد صلى الله عليه وسلم ، وأوجبَها فى مُحْكَم تنزيله ، لِما جَمَع فيها من سُكون الدَّهْماء ، واتِّساقِ الأهواء ، ولَمِّ الشَّعَث ، وأَمْنِ السُّبُل وَوَقْم العدو ، وحِفظِ الحريم ، وسَدِّ الثغور ، وانتظام الأمور ، فقال : « أَطِيعُوا اللهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَأُولِي الْأَمْرِ مِنْكُمْ » فمن الحقِّ على خلفاء الله الذين حَبَاهم بعظيم نعمته ، واختصَّهم بأعلى رُتَب كرامته ، واستحفظَهم فيما جَعَلَه وسيلةً إلى رحمته ، وسببا لرضاه ومَثُوبته ، أن يُؤْثِروا طاعتَه فى كل حال تَصَرَّفَتْ بهم ، ويُقيموا حقَّه فى أنفسهم ، والأقربِ فالأقربِ منهم ، وأن يكون محلُّهم من الاجتهاد فى كل ما قرَّب من الله عز وجل حَسَبَ مَوقعهم من الدين ، وولايةِ أمير المسلمين ، وأميرُ المؤمنين يسأل الله مسألةً ، رغبةً إليه وتذلُّلا لعظَمَته ، أن يتولاه فيما استرعاه ، ولايةً يجمع له بها صلاحَ ما قلده ، ويحمل عنه أعباء ما حمَّله ، ويُعينه بتوفيقه على طاعته ، إنه سميع قريب .

وقد علمتَ ما حضرتَ من رَفْع أبي عبد الله وإبراهيم ابنى أمير المؤمنين المتوكِّل على الله رضى الله عنه إلى أمير المؤمنين رُقْعَتين بخطوطهما يذكُران فيهما ما عرَّفهما الله مِنْ عطف أمير المؤمنين عليهما ورأفتِه بهما، وجميلِ نظره لهما، وما كان أميرُ المؤمنين المتوكِّلُ على الله عَقَدَه لأبي عبد الله من ولاية عهدِ أمير المؤمنين، ولإبراهيم من ولاية العهد بعد أبي عبد الله، وأن ذلك العَقْدَ كان وأبو عبد الله طِفْلٌ لم يبلُغ ثلاث سنين، ولم يفهم ما عُقد له، ولا وَقَف على ما قُلِّده، وإبراهيم صغير لم يبلغ الحُلُمَ، ولم تجْزِ[(١)] أحكامُهما، ولا جرَت أحكامُ الإسلام عليهما، وأنه قد يجب عليهما إذ بلغا ووَقَفا على عجزهما عن القيام بما عُقِد لهما من العهد، وأُسْنِد إليهما من الأعمال، أن يَنْصَحا لله وللجماعة المسلمين، بأن يُخرِجا من هذا الأمر الذى عُقِد لهما أنفسَهما، ويعتزلا الأعمال التى قُلِّداها، ويجعلا كلَّ مَن فى عُنُقه لهما بيعةٌ وعليه يمينٌ، فى حِلٍّ، إذ كانا لا يقُومان بما رُشِّحا له، ولا يصلُحان لتقلُّده، وأن يُخْرَج مَن كان ضُمَّ إليهما ممن فى نواحيهما من قُوّاد أمير المؤمنين ومواليه وغِلمانه وجنده وشاكِرِيّته وجميع من مع أولئك القواد بالحضرة وخُراسان وسائر النواحي عن رسُومهما، ويُزال عنهم جميعا ذكرُ الضَّمِّ إليهما، وأن يكونا سُوقَةً[(٢)] من سُوَقِ المسلمين وعامَّتهم، ويصِفانِ مالم يزالا يذكُران لأمير المؤمنين من ذلك، ويسألانه فيه، منذ أفضَى اللهُ بخلافته إليه، وأنهما قد خَلَعا أنفسهما من ولاية العهد وخرجا منها، وجعلا كلَّ مَن لهما عليه بيعةٌ ويمينٌ، مِن قواد أمير المؤمنين وجميع أوليائه ورعيته قريبِهم وبعيدهم، وحاضرِهم وغائبهم، فى حِلٍّ وسَعَةٍ من بيعتهم وأيْمانهم، ليخلعوهما كما خَلَعا أنفسهما، وجَعَلا لأمير المؤمنين على أنفسهما عَهْدَ الله وأشدَّ ما أَخَذ على ملائكته وأنبيائه وعباده من

---

(١) وربما كان «ولم تجز».

(٢) السوقة: الرعية، الواحد والجمع والمذكر والمؤنث، وقد يجمع على سوق بضم ففتح.

عهد وميثاق ، وجميع ما أكده أمير المؤمنين عليهما من الأيمان ، بإقامتهما على طاعته ومناصحته وموالاته فى السر والعلانية ، ويسألان أمير المؤمنين أن يظهرَ ما فعلاه وينشُره ، ويُحْضِر جميع أوليائه ليسمعوا ذلك منهما ، طالبَين راغبَين ، طائعَين غيرَ مُكرَهين ولا مُجبَرين ، ويقرأ عليهم الرُّقعتان اللتان رفعاهما بخطوطهما ، بما ذَكَرَا من وُقوع الأمر لهما من ولاية العهد وهما صبيّان ، وخَلْعهما أنفسَهما بعد بلوغهما ، وما سألا من صَرْفهما عن الأعمال التى يتوليّانها ، وإخراجِ مَن كان بها ممن ضُمَّ إليهما فى نواحيهما من قُوّاد أمير المؤمنين وجُنده وغِلمانه وشاكريّته وجميعِ من مع أولئك القوادِ بالحضْرة وخراسان وسائر النواحى عن رسومهما ، وإزالة ذِكْر الضمّ إليهما عنهم ، وأن يُكتَب الكتاب بذلك إلى جميع عمال النواحى ، وأن أمير المؤمنين وَقَفَ عَلَى صِدْقهما فيما ذَكَرَا وَرفَعا ، وتقدّم فى إحضار جميع إخوته ، ومَن بحضرته من أهل بيته وقواده ومَواليه وشيعته ورؤساء جنده وشاكريّته وكُتّابه وقُضاته والفقهاء وغيرهم وسائر أوليائه الذين كانت وقعَتْ البيعةُ لهما بذلك عليهم . وحَضَرَ أبو عبد الله وإبراهيمُ ابنا أمير المؤمنين المتوكِّل على الله رضى الله عنه ، وقُرِئت رُقعتاهما بخطوطهما بحضرتهما فى مجلس أمير المؤمنين عليهما وعلى جميع مَن حضَر ، وأعادا من القول بعد قراءة الرقعتين مِثلَ الذى كتَبا به ، ورأى أمير المؤمنين أن يجمَع فى إجابتهما إلى نشرِ ما فعلاه وإظهارِه وإمضائِه ذلك ، قضاء حقوقٍ ثلاثة : منها حقُّ الله عز وجل فيما استحفَظَه من خلافته ، وأوجب عليه من النظر لأوليائه فيما يجمَعُ لهم كلمتَهم فى يومهم وغدِهم ، ويؤلِّف بين قلوبهم ، ومنها حقُّ الرعية الذين هم ودائِـعُ الله عنده ، حتى يكون المتقلِّد لأمورهم مَن يراعيهم آناء الليل والنهار ، بعنايته ونظرِه وتفقُّده وعَدْله ورأفتِه ، ومَن يقوم بأحكام الله فى خلقه ، ومن يضطلِع بثِقْل[1] السياسة وصواب التدبير ، ومنها حقُّ أبى عبد الله وإبراهيم فيما يوجبه أمير المؤمنين لهما بأُخُوّتهما وماسَّ رَحِمهما ، لأنهما لو أقاما على ما خرجا منه ، مع عَجْزِهما عنه ، لم يُؤْمَن تأدى ذلك إلى ما يَعظُمُ فى الدين

(١) الثقل : الحمل ، واضطلع به : قوى على حمله .

ضررُه ، ويعمُّ المسلمين مكروهُه، ويرجع عليهما عظيمُ الوِزْرِ فيه ، فخلعهما أميرُ المؤمنين إذ خلَعا أنفسَهما من ولاية العهد ، وخلَعَهما جميعُ إخوة أمير المؤمنين ومَن بحضْرته من أهل بيته ، وخلَعهما جميعُ مَن حضر من قواد أمير المؤمنين ومَواليه وشيعته ورؤساء جنده وشاكريّته وكُتَّابه وقضاته والفقهاء وغيرهم من سائر أولياء أمير المؤمنين ، الذين كانت أخِذَتْ لهما البيعةُ عليهم ، وأمَرَ أمير المؤمنين بإنشاء الكتب بذلك إلى جميع العمال ، ليتقدَّموا فى العمل بحسَب ما فيها ، ويخلَعوا أبا عبد الله وإبرٰهيم من ولاية العهد ، إذ كانا قد خلعا أنفسهما من ذلك، وحَلَّلا الخاصَّ والعامَّ ، والحاضرَ والغائبَ ، والدانىَ والقاصىَ منه ، ويُسْقِطوا ذِكْرَهما بولاية العهد ، وذِكْرَ ما نُسِبا إليه مِن نِسَب ولاية العهد ، من المعتزّ بالله والمؤيَّد بالله من كتبهم وألفاظهم ، والدعاء لهما على المنابر، ويُسْقِطوا كلَّ ماثبَتَ فىدواوينهم من رسومهما القديمة والحديثة الواقعة على من كان مضموما إليهما ، ويُزيلوا ماعلى الأعلام والمَطَارِدِ[1] من ذِكْرِهما ، وما وُسِمَت به دوابُّ الشاكريّة والرَّابطة من أسمائهما ، ومَحَلُّك من أمير المؤمنين وحالُك عنده على حَسَب ما أخلَصَ اللهُ لأميرالمؤمنين من طاعتك ومناصحتك ومُوالاتك ومشايعتك ما أوجب الله لك بسَلَفك ونفسك ، وما عرَّف اللهُ أميرَ المؤمنين من طاعتك ، ويُمْنِ نقيبتك[2] ، واجتهادك فى قضاء الحق ، وقد أفردك أمير المؤمنين بقيادتك ، وإزالةِ الضمِّ إلى أبى عبد الله عنك ، وعمَّن فى ناحيتك بالحضْرة وسائر النواحى ، ولم يجعل أمير المؤمنين بينك وبينه أحدا يَرْأَسُك ، وخرج أمرُه بذلك إلى وُلاة دواوينه . فاعلم ذلك واكتب إلى عمالك بنسخة كتاب أمير المؤمنين هذا إليك، وأوعِزْ إليهم فى العمل على حَسَبه إن شاء الله والسلام » .

---

(١) المطرد كمنبر : رمح قصير يطرد به .

(٢) النقيبة : النفس .

وكتب أحمد بن الخصيب يوم السبت لعشر بقين من صفر سنة ثمان وأربعين ومائتين .
(تاريخ الطبرى ١١ : ٧٧)

١٤٧ — كتاب البيعة للمعتز بالله

وتوفى المنتصر بالله سنة ٢٤٨ هـ فولى الخلافة أحمد بن محمد بن المعتصم ، ولقب بالمستعين بالله ، وفى عهده قويت شوكة الأتراك .

وفى سنة ٢٥١ انحدر المستعين من سامرا[1] إلى بغداد ، وما لبث الأتراك أن ثاروا به ، وأخرجوا المعتز[2] بالله وبايعوه ، وكانت نسخة بيعته[3] :

« بسم الله الرحمن الرحيم ، تبايعون عبد الله الإمامَ المعتزَّ بالله أمير المؤمنين ، بيعةَ طَوْعٍ واعتقاد ، ورضا ورغبةٍ وإخلاصٍ من سرائركم ، وانشراحٍ من صدوركم ، وصِدْقٍ من نيّاتكم ، لا مُكْرَهين ولا مُجْبَرين ، بل مُقِرِّين عالمين بما فى هذه البيعة وتأكيدها من تقوى الله وإيثارِ طاعته ، وإعزاز حقه ودينه ، ومن عُموم صلاح عباد الله ، واجتماعِ الكلمة ، ولَمِّ الشَّعَثِ ، وسُكُون الدَّهْماء ، وأَمْنِ العواقب ، وعِزِّ الأولياء ، وقَمْعِ المُلْحِدين ، على أن أبا عبد الله المعتزَّ بالله ، عبدُ الله وخليفتُه ، المفترَضُ عليكم طاعتُه ونصيحتُه ، والوفاء بحقه وعهده ، لا تَشُكُّون ولا تُدْهِنون ولا تَميلون ولا ترتابون ، وعلى السمع والطاعة والمشايَعة والوفاء والاستقامة والنصيحة فى السرِّ والعَلانية ، والخُفُوفِ والوقوفِ عند كل ما يأمر به عبدُ الله أبو عبد الله الإمام المعتزّ بالله أمير المؤمنين ، من موالاة أوليائه ، ومُعاداةِ أعدائه ، من خاصٍّ وعامٍّ ، وقريبٍ وبعيدٍ ، متمسِّكين ببيعته بوفاء العَقْد ، وذمة العهد ، سرائرُكم فى ذلك كعَلانيتكم ،

---

(١) سامرا لغة فى سر من رأى ، وقد قدمنا كلمة عنها فى ص ١٣٤ .

(٢) وكان المعتز والمؤيد فى حبس فى الجوسق (أى القصر) فى حجرة صغيرة ، مع كل واحد منهما غلام يخدمه ، موكل بهم رجل من الأتراك يقال له عيسى خليفة بلبان ، ومعه عدة من الأعوان .

(٣) هى نسخة بيعة المنتصر مع تغيير طفيف ويظهر أنه من الناسخ .

وضمائرُكم فيه كمثل ألسنتكم ، راضين بما يَرْضَى به أمير المؤمنين بعد بَيْعتكم هذه على أنفسكم ، وتأكيدكم إياها فى أعناقكم ، صَفقةً ، راغبين طائعين ، عن سلامة من قلوبكم وأهوائكم ونيّاتكم ، وبولاية عهدالمسلمين لإبرٰهيم المؤيّد بالله أخى أميرالمؤمنين وعلى ألاّ تسعَوْا فى نقض شىء مما أكّد عليكم ، وعلى أن لا يَمِيل بكم فى ذلك مَميلٌ عن نُصرة وإخلاص ومُوالاة ، وعلى ألا تُبدّلوا ولا تغيِّروا ، ولا يرجع منكم راجع عن بيعته وانطوائه إلى غير علانيته ، وعلى أن تكون بيعتكم التى أعطيتموها بألسنتكم وعهودكم بيعةً يطّلِع اللهُ من قلوبكم على اجْتبائها واعتمادها ، وعلى الوفاء بذمة الله فيها وعلى إخلاصكم فى نصرتِها ومُوالاةِ أهلها، لا يشوبُ ذلك منكم نفاقٌ ولاَ إدْهَانٌ، ولا تأوُّل، حتى تلقَوُا الله مُوفين بعهده ، مؤدِّين حقَّه عليكم ، غير مُسْتَرِيبين ولا ناكثين ، إذ كان الذين يبايعون منكم أمير المؤمنين ، بيعةَ خلافته وولاية العهد من بعده لإبرٰهيم المؤيد بالله أخى أمير المؤمنين ، إِنَّمَا يُبَايِعُونَ اللهَ ، يَدُ اللهِ فَوْقَ أَيْدِيهِمْ ، فَمَنْ نَكَثَ فَإِنَّمَا يَنْكُثُ عَلَى نَفْسِهِ ، وَمَنْ أَوْفَى بِمَا عَاهَدَ عَلَيْهُ اللهَ فَسَيُؤْتِيهِ أَجْرًا عَظِيماً ، عليكم بذلك وبما أكّدتْ عليكم به هذه البيعةُ فى أعناقكم ، وأعطيتم بها من صَفْقة أيمانكم ، وبما اشترِط عليكم من وفاء ونُصرة وموالاة واجتهاد ، وعليكم عهد الله ، إن عهده كان مسئولا ، وذمَّةُ الله عزّ وجل وذمة محمد صلى الله عليه وسلم، وما أخذَ الله على أنبيائه ورسله وعلى أحدٍ من عباده من مَواكيده ومَواثيقه ، أن تَسْمعوا ما أُخِذَ عليكم فى هذه البيعة ، ولا تبدّلوا ولا تَميلوا ، وأن تَمسّكوا بما عاهدتم الله عليه تمسُّك أهلِ الطاعة بطاعتهم ، وذوى الوفاء والعهد بوفائهم ، لاَ يَلفِتكم عن ذلك هوًى ولا ميل ، ولا يُزِيغ قلوبكم فتنةٌ أو ضلالة عن هدى ، باذلين فى ذلك أنفسكم واجتهادكم ، ومقدّمين فيه حقَّ الدين والطاعة والوفاء بما جعلتم على أنفسكم ، لا يقبل الله منكم فى هذه البيعة إلا الوفاء بها ، فمن نكَثَ منكم ممن بايع أمير المؤمنين وولى عهد المسلمين أخا أمير المؤمنين هذه البيعة ، على ماأخذ عليكم ، مُسِرًّا أو مُعْلِنا ،

مُصَرِّحا أو محتالا أو متأوِّلا ، وأدْهَنَ فيما أعطَى اللهَ من نفسه ، وفيما أُخِذَ عليه من مواثيق الله وعهوده ، وزاغ عن السبيل التى يعتصم بها أُولو الرأى ، فكلُّ ما يملك كلُّ واحدٍ منكم ممن خَتَرَ(١) فى ذلك منكم عهده ، من مال أو عَقارٍ أو سائمةٍ أو زَرْع أو ضَرْع ، صَدَقةٌ على المساكين فى وجوه سبيل الله ، محبوسٌ محرَّمٌ عليه أن يَرْجِع شيئا من ذلك إلى ماله ، عن حِيلةٍ يقدِّمها لنفسه أو يحتال له بها ، وما أفاد فى بقية عمره من فائدةِ مالٍ يقِلُّ خَطَرُها أو يجِلُّ ، فذلك سبيلُها إلى أن توافِيَه منيّتُه ، ويأتى عليه أجَلُه وكل مملوك يملكه اليومَ وإلى ثلاثين سنةً من ذكر أو أنثى ، أحرارٌ لوجه الله ، ونساؤه يومَ يَلْزَمُه فيه الحِنْثُ ومن يتزوج بعدهنّ إلى ثلاثين سنةً ، طوالِقُ طلاقَ الحَرَج ، لا يقبل الله منه إلا الوفاء بها ، وهو برىء من الله ورسوله ، والله ورسولُهُ منه بريئان ، ولا قَبِلَ الله منه صَرْفا ولا عَدْلاً ، والله عليكم بذلك شهيد ، ولا حَوْلَ ولا قوةَ إلا بالله العلى العظيم ، وحَسْبُنَا اللهُ وَنِعْمَ الوكيل » .

(تاريخ الطبرى ١١ : ٩٨)

١٤٨ — كتاب عن محمد بن عبد الله بن طاهر إلى أهل بغداد

(كتبه سعيد بن حميد)

ولما بايع الأتراك المعتز بسامَرَّا ، أمر المستعين محمدَ بن عبد الله بن طاهر بتحصين بغداد ، فتقدَّم فى ذلك ، وعقَد المعتزُّ لأخيه أبى أحمد بن المتوكل على حرب المستعين وابن طاهر وولاّه ذلك ، فسار إلى بغداد فى جمع من الأتراك والمغاربة ، فصَدَّم ابنُ طاهر وأوقع بهم ودارت عليهم الدائرة .

وأمر ابن طاهر سَعيد بن حُميد فكتب كتابا يذكر فيه هذه الوقعةَ ، فقرئ على أهل بغداد فى مسجد جامعها ، ونسخته :

---

(١) الختر : الغدر والخديعة أو أقبح الغدر ، وفعله كضرب ونصر .

« بسم الله الرحمن الرحيم : أما بعدُ ، فالحمدُ لله المُنْعِمِ فلا يَبْلُغ أحدٌ شكرَ نعمتِه ، والقادرِ فلا يعارَضُ فى قدرته ، والعزيز فلا يَذِلُّ فى أمره ، والحكمِ العَدْلِ فلا يُرَدُّ حُكمه ، والناصرِ فلا يكون نصرُه إلا الحق وأهلِه ، والمالكِ لكل شىء فلا يخرُج أحدٌ عن أمره ، والهادى إلى سبيل رحمته فلا يضِلُّ مَن انقادَ لطاعته ، والمقدِّمِ إعذارَه ليظاهِرَ به حجَّته، الذى جعل دينه لعباده رحمةً ، وخلافَتَه لدينه عِصْمةً ، وطاعةَ خلفائه فَرْضا واجبا على كافَّة الأمة ، فهم المستَحْفَظون فى أرضه على ما بَعَث به رسلَه ، وأُمَناؤه على خلقه فيما دعاهم إليه من دينه ، والحاملون لهم على مِنْهاج حقِّه ، لئلا تتشعَّبَ بهم الطُّرُق المخالِفةُ لسبيلِه ، والهادون لهم إلى صِراطه ، ليجمعهم على الجادَّة[(١)] التى نَدَب إليها عبادَه ، بهم يُحمَى الدين من البُغاة الطاغين ، وحُفِظت معالِمُ الحق من الغُواة المخالفين ، محتجِّين على الأمم بكتاب الله الذى استعملهم به، ورُعاةً للأَمرِ بحق الله الذى اختارهم له ، إن جادلوا كانت حجة الله معهم ، وإن حاربوا حُكِم بالنصر لهم ، وإن جاهدوا كانت فى طاعة الله نصرهم ، وإن يناهم عدو كانت كِفاية[(٢)] الله حائلة دونهم ، ومَعْقِلا لهم ، وإن كادهم كائد فاللهُ من وراء عَوْنهم ، نَصَبَهم الله لإعزاز دينه ، فمن عاداهم فإنما عادى الدينَ الذى أعزَّه وحَرَسه بهم ، ومن ناوأهم[(٣)] فإنما طعن على الحق الذى يَكلَؤه بحِراستهم. جيوشُهم بالرُّعب[(٤)] منصورة ، وكتائبهم بسلطان الله من عدوهم محُوطَة[(٥)] ، وَأيديهم بذَبِّها عن دين الله عالية ، وأشياعُهم بتناصرُهم فى الحق غالبة ، وَأحزابُ أعدائهم ببغيهم مَقْمُوعة[(٦)] ، وحجتهم عند الله وَعند خلقه داحِضة[(٧)] ، ووسائِلهم إلى النصر مردودةٌ ، وأحكامُ الله بخِذْلانهم واقعةٌ

---

(١) الجادة : الطريق الواضح ، وندبه إلى الأمر كنصر : دعاه وحثه .
(٢) وفى المنظوم والمنثور « نكاية » .
(٣) ناوأه : عاداه ويكلؤه : يحرسه ويحفظه .
(٤) وفى الطبرى « بالنصر والعز » .
(٥) وفيه « محفوظة » وأيديهم عن دين الله دافعة » . (٦) قمعه كمنعه : قهره وأذله .
(٧) دحضت الحجة كمنع : بطلت ، وفى الطبرى « راخصة » وهو تحريف .

وأقدارُه بإسلامهم إلى أوليائه جاريةٌ ، وعادته فيهم وفى الأمم السالفة والقرون الخالية ماضيةٌ ، ليكونَ أهل الحق على ثقةٍ من إنجاز سابق الوعد ، وأعداؤه محجُوجين بما قُدِّم إليهم من الإنذار ، مُعَجَّلةً لهم نقمةُ الله بأيدى أوليائه ، مُعَدًّا لهم العذابُ عند ربهم ، والخزىُ موصول بنواصيهم فى دنياهم ، وعذابُ الآخرة من ورائهم ، وما الله بظلّام للعبيد ، وصلَّى الله على نبيه المصطفى ، ورسوله المرتضَى ، والمنقِذِ من الضلالة إلى الهدى ، صلاةً تامَّةً ناميةً بركاتُها ، دائمًا اتصالُها ، وسلّم تسليما ، والحمد لله تواضُعا لَعظمته ، والحمد لله إقرارا بربُوبِيَّته ، والحمد لله اعترافا بقصور أقصَى منازلِ الشكر عن أدنى منزلةٍ من منازل كرامته ، والحمد لله الهادى إلى حَمْدِه ، وَالموجبِ به مزيدَه ، وَالمُحْصِى به عوائدَ إحسانه ، حَمْداً يرضاه وَيتقبّله ، وَيوجِبُ طَوْله وَإفضاله ، والحمد لله الذى حكم بالخذلان عَلَى من بَغَى عَلَى أهل دينه ، وسَبَقَ وعدُه بالنصر لمن بُغِيَ عليه من أنصــار حقه ، وأنزل بذلك كتابه العزيزَ موعظةً للباغين ، فإن أقلعوا كانت التذكرةُ نافعةً لهم ، والُحجَّةُ عند الله لِمَن قام بها فيهم ، ثم أوجَبَ بعد التذكرة والإصرارِ جِهادَهم ، فقال فيما قَدَّمَ مِن وَعْدِه ، وأبان من بُرهانه : « وَمَنْ بُغِيَ عَلَيْهِ لَيَنْصُرَنَّهُ اللهُ » وَعْدًا من الله حقا ، نَهَى به أعداءه عن معصيته ، وثبَّتَ به أولياءه على سبيله ، واللهُ لا يُخْلف الميعادَ .

ولله عند أمير المؤمنين - فى رئيس دَعوته ، وسيفِ دولته ، والحامِي عن سلطانه ، ومَحَلِّ ثِقَتِه ، والمتقدِّم فى طاعته ونصيحته لأوليائه ، والذّابِّ عن حقه ، والقائمِ بمجاهدة أعدائه ، محمد بن عبد الله مَوْلَى أمير المؤمنين - نعمةٌ يرغَبُ إلى الله فى إتمامها ، والتوفيقِ لشكرها ، والتطوُّلِ بمن أراد المزيدَ فيها ، فإن الله قدَّر لآبائه القيامَ بالدعوة الأولى لآباءِ أمير المؤمنين ، ثم جَمَعَ له آثارَهم بقيامه بالدولة الثانية ، حين حاوَلَ

أعداء الله أن يَطمِسوا معالِمَ دينه ويُعَفُّوها[١] ، فقام بحق الله وحقِّ خليفته ، مُحامِياً عنها ، ومُرامِياً مِن ورائها ، متناوِلًا للبعيد برأيه ونظره ، مباشِرًا القريب بإشرافه وتفقُّدِه ، باذِلًا نفسَه فى كل ما قرَّبه من الله ، وأوجب له الزُّلْفَةَ عنده ، وسيمنَعُ الله أمير المؤمنين به وَلِيًّا مُكانِفا[٢] على الحق ، وناصراً مُؤازِراً على الخير ، وظَهيرا مُجاهِدا لعدوِّ الدين .

وقد علمتم ما كان كتابُ أمير المؤمنين تقدَّم به إليكم فيما أحدثته الفِرْقةُ الضالَّة عن سبيل ربها ، المفارِقةُ لِعصْمة دينها ، الكافرةُ بنعم الله ، ونعم خليفته عندها ، المبايِنَةُ لجماعة الأمة التى ألَّف الله بخلافتِهِ نِظامَها ، المحاوِلةُ لِتشتيتِ الكلمة بعد اجتماعها ، الناكثةُ لبيعته ، الخالعةُ لِرِبْقة[٣] الإسلام من أعناقها ، المَوالى الأتراك وما صارت إليه من نَصْبِ الغلام المعروف بأبى عبد الله بن المتوكل لإمامتها[٤] ، عند مَصير أمير المؤمنين إلى مدينة السلام ، محلِّ سلطانه ، ومجتمعِ أنصاره وأبناء أنصار آبائه ، وما قابَلَ به أميرُ المؤمنين خيانتَهم ، وآثَرَهُ من الأناة فى أمرهم ، ثم إن هؤلاء الناكثين جمعُوا جَمْعا من الأتراك والمغاربة ومَن وَلَجَ فى سوادِهم ، ودخل فى غمارهم[٥] مُؤَاتياً للفتنة من ألْفَافِ[٦] الغَيِّ ، ورأَّسُوا عليهم المعروف بأبى أحمد بن المتوكل ، ثم ساروا نحو مدينة السلام فى الجانب الشرقىّ ، مُعلِنين للبغى والاقتدار ، مُظهِرين للغَيِّ والإصرار ، فتأنَّاهم[٧] أميرُ المؤمنين ، وفَسَحَ لهم فى النَّظِرَة لهم ، وأمر بالكتاب إليهم بما فيه تبصيرُهم الرشدَ ، وتذكيرُهم بما قدّموا من البيعة ،

---

(١) عفاه كدخل وعفاه : محاه .
(٢) كانفه : عاونه وساعده ، والظهير : المعين .
(٣) الربقة واحدة الربق بالكسر ، وهو حبل فيه عدة عرى تشد به البهم ، والمراد هنا العهد.
(٤) فى الأصل « تاريخ الطبرى » : « من نصر » وفيه أيضا « لإقامتها » وهو تحريف .
(٥) ولج يلج : دخل ، وسوادهم : عامتهم ، وغمارهم بالضم والفتح : زحمتهم وكثرتهم .
(٦) مؤاتيا : مطاوعا ، والألفاف جمع لف بالكسر وهو الحزب والطائفة ، من الالتفاف .
(٧) جاء فى اللسان « تأنى فى الأمر أى ترفق وتنظر ، استأنى به أى انتظر به ، ويقال : تأنيتك حتى لا أناة بى » ، وفسح له كمنع : وسع ، والنظرة : التأخير .

وإفهامُهم ما لله عليهم وله فى ذلك من الحق ، وأن خروجهم مما دخلوا فيه من بيعتهم طَوْعاً الخُرُوجُ من دين الله والبراءةُ منه ومن رسوله ، وتحريمُهم أموالهم ونساءهم عليهم ، وأن فى تمسّكهم به سلامةَ أديانِهم ، وبقاءَ نعمتهم ، والاحتراسَ من حُلُول النقَم بهم ، وأن يُبيِّنَ لهم ما سَلَفَ من بلائه عندهم ، من أسْنَى المواهِب ، وأرفع الرغائب ، والاختصاص بِسَنِيِّ المراتب ، والتقدُّم فى المَحَافِل ، فأبَوْا إلا تمادِياً ونِفاراً ، وتمسُّكا بالغيِّ وإصراراً ، فقلّد أميرُ المؤمنين نَصيحتَهُ المُؤْتَمَنَ وَوَلِيَّهُ محمد بن عبد الله مَوْلَى أمير المؤمنين تدبيرَ أمورهم ، ودعاءهم إلى الحق ما كانت الإنابةُ ، أوْ محاربتَهم إن جَنَح بهم غيُّهم ، وتتلّعوا[1] فى ضلالهم ، فلم يألُهم[2] نظرًا وإفهاما ، وتبيينا وإرشادا ، وهم فى ذلك رافِعُون أصواتهم بالتوعُّد لأهل مدينة السلام ، بسَفْكِ دمائهم ، وسَبْيِ نسائهم ، وتغنُّم[3] أموالهم ، وقبلَ ذلك ما كانوا فى مسيرهم على السبيل التى يستعملها أهل الشِّركِ فى غاراتهم ، ويميلون إليها عند إمكان النُّهْزَة[4] ، لا يجتازون بعامِرٍ إلا أخربوه ، ولا بحَرِيم[5] لِمُسْلِم ولا غيره إلا أباحوه ، ولا بمُسْلِم يعجِز عنهم إلا قتلوه ، ولا بمال لمسلم ولا ذِمِّيٍّ إلا أخذوه ، حتى انتقل كثير ممن سبقَتْ إليه أخبارُهم ممن أمامَهم عن أوطانهم ، وفارقوا منازِلَهم ورِباعَهم[6] ، وفزِعوا إلى باب أمير المؤمنين تحصُّنا من مَعَرَّتهم ، لا يُعْزَون بغنِيٍّ إلا خلَعوا عنه لباسَ الغِنَى ، ولا بمستورٍ إلا هَتَكوا عن الذُّرِّيّة والنساء سِتْره ، لا يرقُبُون فى مؤمنٍ إلًّا[7] ولا ذِمّةً ، ولا يتوقّفون عن مسلم بِهَتْكٍ ولا مُثْلَةٍ[8] ، ولا يرغبون عما حَرَّم اللهُ من دمٍ ولا حُرْمة .

---

(١) المتلع : الشاخص للأمر والرافع رأسه للنهوض والتقدم.

(٢) ألا يألو : قصر . (٣) اغتنمه وتغنمه : عده غنيمة .

(٤) النهزة : الفرصة .

(٥) حريمك : ما تحميه وتقاتل عنه .

(٦) الرباع جمع ربع بالفتح : وهو المنزل . (٧) الإل : العهد .

(٨) مثل به بالتخفيف مثلة ، ومثل به بالتشديد تمثيلا : نكل .

ثم تلقَّوُا التذكِرَة بالحرب ، وقابلوا الموعِظة بالإصرار على الذنب ، وعارَضوا التبصيرَ بالاستبصار فى الباطل،فدَلَفُوا[1] نحوَ باب الشَّمَّاسيَّة،وقد رتّب محمد بن عبد الله مولى أمير المؤمنين بذلك الباب والأبوابِ التى سبيلُها سبيلُه من أبواب مدينة السلام الجيوشَ فى العُدّة الكاملة، والعِدَّة المتظاهِرة ، مَعاقِلُهم التوكُّل على ربهم، وحُصونُهم الاعتصامُ بطاعته ، وشِعارُهم التكبيرُ والتهليلُ أمامَ عدوهم ، ومحمدُ بن عبد الله مولى أمير المؤمنين يأمرهم بتحصين ما يَليهم ، والإمساكِ عن الحرب ما كانت مَندوحةٌ[2] لهم ، فبادأهم الأولياء بالموعِظة ، وبَدأَهم الغُواة الناكثون بحَربهم ، وغادَوهم أياما بجموعهم وعِدادهم ، مُدِلِّين بعدّتهم ومقدِّرين أنْ لا غالبَ لهم ، ولا يعلمون بالله أنّ قدرته فوق قدرتهم ، وأن أقدارَه نافذةٌ بخلاف إرادتهم ، وأحكامَه عادلةٌ ماضيةٌ لأهل الحق عليهم ، حتى إذا كان يوم السبت للنِّصْف من صفر ، وافَوْا بابَ الشماسية بأجمعهم ، قد نَشَروا أعلامهم ، وتنادَوْا بشعارهم، وتحصَّنوا بأسلحتهم، وبدا الأمر منهم لمن عايَنهم ، ليس لهم وعيدٌ دونَ سَفْكِ الدماء ، وسَبْيِ النساء ، واستباحةِ الأموال ، فبدأهم الأولياء بالموعِظة فلم يسمعوا ، وقابلوهم بالتذكِرة فلم يُصْغُوا إليها ، وبدءوا بالحرب منابِذِين لها ، فتسرّع الأولياء عند ذلك إليهم ، واستنصروا اللهَ عليهم ، واستحكمتْ بالله ثِقتهم ، ونفَذَت به بصائرُهم ، فلم تزَل الحربِ بينهم إلى وقت العصر من هذا اليوم ، فقتل الله من حُماتِهم وفُرسانهم ورؤسائهم وقادَة باطِلِهم جماعةً كثيراً عَدَدُها ، ونالت الجِراحة المُثْخِنَةُ[3] التى تأتى على من نالَتْه أكثرَ عامَّتهم ، فلما رأى أعداء الله وأعداء دينه أنْ قد أكذبَ ظنونَهم ، وحال بينهم وبين أمانيِّهم ، وجعل عواقِبَها حَسَراتٍ عليهم ، استنهضوا جيشاً من « سامَرّا » من الأتراك والمغاربة : فى العَتاد[4] والعُدّة والجَلَد والأسلحة ،

---

(١) دلفت الكتيبة فى الحرب كضرب : تقدمت .

(٢) مندوحة : أى سعة .

(٣) أثخن فى العدو : بالغ الجراحة فيهم .

(٤) العتاد : العدة .

فى الجانب الغربىّ طالبين المَعَرَّة ، ومؤمِّلين أن ينالوا نَيلا من أهله ، باشتغال إخوانهم فى الجانب الشرقىّ بأعدائهم ، وقد كان محمد بن عبد الله مَوْلَى أمير المؤمنين شحَنَ الجانِبَيْنِ جميعا بالرجال والعُدَّة ، ووكَّل بكل ناحيةٍ مَنْ يقوم بحفظها وحِراستها ، ويكُفُّ عن الرعية بَوَائِقَ[1] أعدائهم ، ووكَّل بكل باب من الأبواب قائدا فى جمعٍ كثيفٍ ، ورتَّب على السُّور مَنْ يُراعيه فى الليل والنهار ، وبثَّ الرجال ليعرِفَ أخبار أعداء الله فى حَرَكاتهم ونهوضهم ، ومُقَامهم وتصرُّفهم ، فيعامِل كل حال لهم بحالٍ يفُتُّ اللهُ فى أعضادهم[2] بها ، فلما كان يومُ الأربعاء لإحدى عَشْرَةَ ليلةً بقيت من صفر ، وافى الجيشُ الذى أنهضوه من الجانب الغربى البابَ المعروفَ بباب قُطْرَبُّل[3] ، فوقفوا بإزاء النا كثين المعسكرين بالجانب الشرقىّ من دِجْلة ، فى عددٍ لايَسَعُه إلا الفضاء ، ولا يَحمله إلا المجالُ الفسيح ، وقد تواعدوا أن يكون دُنُوّهم من الأبواب معا ، لِشَغْل الأولياء بحربهم من الجهات ، فيضعُفوا عنهم ، ويغلِبوا حقَّهم بباطلهم ، أمَلًا كادهم الله فيه غيرَ صادق ، وظنًّا خائبا لله فيه قضاءٌ نافذ ، وأنهض محمد بن عبدالله نحوهم محمدَ بن أبى عَوْن وبُنْدارَ بن موسى الطبرى مولى أمير المؤمنين وعبـــد الله بن نصر بن حمزة من باب قُطْرَبُّل ، وأمَرهم بتقوى الله وطاعته ، والاتِّباعِ لأمره ، والتصرف معَ كِتابه ، والتوقُّف عن الحرب حتى تَسْبِقَ التذكرَةُ الأسماعَ ، وتنزل الحجةُ بالتتابع منهم والإصرار ، فنَفَذوا فى جمع يقابل جمعهم ، مستبصِرين فى حق الله عليهم ، مسارعين إلى لقاء عدوهم ، محتسِبين خُطاهم ومَسِيرهم وَاثقين بالثواب الآجِل ، والجزاء العاجل ، فتلقاهم ومن معهم أعداء الله قد أطلقوا نحوهم أعِنَّتَهم ، وأشرعوا[4] لنحورهم أسنَّتَهم ، لايَشُكُّون أنهم نُهْزَة المختلِس ، وغنيمة المنتَهِب ، فنادَوْهم بالموعظة نداءً مُسْمِعاً فجَّتها أسماعُهم ، وعَميت عنها

---

(١) البوائق جمع بائقة : وهى الداهية .

(٢) فت فى عضده : أضعفه .

(٣) اسم قرية بين بغداد وعكبرا ينسب إليها الخمر .

(٤) أشرع نحوه الرمح والسيف وشرعهما : أقبلهما إياه وسددهما له .

أبصارُهم ، وصدَقهم أولياء الله فى لقائهم بقلوبٍ مستجمِعةٍ لهم ، وعِلْمٍ بأن الله لا يُخلفُ وعدَه فيهم ؛ فجالت الخيلُ بِهِم جولة، وعاودَتْ كَرَّةً بعد كرة عليهم،طَعْنا بالرماح، وضَرْباً بالسيوف ، ورَشْقا بالسهام ، فلما مسَّهم أَلَمُ جِراحها ، وكلَمَتْهم[1] الحربُ بأنيابها ، ودارت عليهم رحاها وصَمَّم عليهم أبناؤها ، ظمأً إلى دمائهم،وَلَّوا أدبارَهم ومَنَحَ اللهُ أكتافَهم، وأوقع بأسَه بهم ، فقُتِلت منهم جماعة لم يحترسوا من عذاب الله بتوبة ، ولم يتحصَّنوا من عقابه بإنابةٍ[2] ، ثم ثابَتْ ثانيةً فوقَفوا بإزاء الأولياء ، وعَبَر إليهم أشياعُهم الغاوُون من عسكرِهم بباب الشماسية ألفَ رجل من أنجادهم[3] فى السفن ، معاوِنين لهم على ضلالتهم ، فأنهض محمد بن عبد الله خالدَ بنَ عِمران والشاهَ ابن مِيكال مولى طاهرٍ نحوهم ، فنفَذوا ببصيرة لا يتخوَّنها فُتُورٌ، وَنيَّة لا يَلْحَقُها تقصير ، ومعهما العباس بن قارن مولى أمير المؤمنين فلماوَافَى الشاهُ فيمن معه أعداءَ الله وكَّلَ بالمواضع التى يتخوَّفُ منها مَدْخَلَ الكُمَناء ، ثم حمل ومن توجَّه معه من القوادِ المسَمَّيْن ماضِينَ لا يَعُوقهم[4] الوعيد ، ولا يشكُّون من الله فى النصر والتأييد ، فوضعوا أسيافهم فيهم ، تُمْضِى أحكامَ الله عليهم ، حتى ألحقوهم بالمعسكَر الذى كانوا عسكروا فيه وجاوزوه ، وسلبوهم كلَّ ما كان من سلاح وكُراع[5] وعَتادِ الحرب ، فمِن قتيل غُودرتْ جُثتُه بمَصْرَعه ، ونُقِلت هامَتُه[6] إلى مَصِيرٍ فيه مُعتَبَرٌ لغيره ، ومِن لاجئ من السيف إلى الغَرقِ ، لم يُجِرْه الله من حِذاره ، ومن أسيرٍ مصفُودٍ[7] يقادُ إلى دار أولياء الله وحِزْبه ، ومِن هارب بحُشَاشَة[8] نفسه ، قد أسكن

---

(١) كلمه كضرب : جرحه .

(٢) فى الأصل « بأمانة » والظاهر أنها « بإنابة » لتناسب قوله قبل « بتوبة » .

(٣) أنجاد جمع نجد ، والنجد كشمس وكتف ورجل : الشجاع الماضى فيما يعجز غيره .

(٤) فى الأصل « لايتوبهم » وأراه محرفا وصوابه « لا يعوقهم » .

(٥) الكراع : اسم يجمع الخيل . (٦) الهامة : الرأس .

(٧) صفده كضربه : شده وأوثقه كأصفده وصفده .

(٨) الحشاشة : بقية الروح فى الجريح والمريض .

الله الخوفَ قلبَه ، فكانت النِّقمة بحمد الله واقعةً بالفريقين : مَن وافَى الجانبَ الغربيَّ قادِما ، ومَن عَبَرَ إليهم من الجانب الشرقى مُنْجِدا لم ينْجُ منهم ناجٍ ، ولم يعتصم منهم بالتوبة معتصم ، ولا أقبلَ إلى الله مُقْبِل ، فِرَقًا أربعا يجمعها النارُ » وَيشمَلُها عاجِلُ النَّكال ، عِظةً ومعتَبَرًا لأُولِي الأَبصار ، فكانوا كما قال الله عز وجل : « أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ بَدَّلُوا نِعْمَةَ اللهِ كُفْرًا وَأَحَلُّوا قَوْمَهُمْ دَارَ الْبَوَارِ[1] ، جَهَنَّمَ يَصْلَوْنَهَا وَبِئْسَ الْقَرَارُ » ولم تزل الحربُ بين الأولياء وبين الفرقة التى كانت فى الجانب الشرقىّ ، والقتلُ محتَفِلٌ[2] فى أعلامهم ، والجِراحُ فاشيةٌ فيهم ، حتى إذا عاينوا ما أنزل الله بأشياعهم من البَوار ، وأحلَّ بهم من النِّقمة والاستئصال ، مالهم من الله من عاصِم ، ولا من أوليائه مَلْجأ ولا مَوْئِل ، وَلَّوا منهزِمين مَفْلولين منكوبين ، قد أراهم الله العِبَرَ فى إخوانهم الغاوية ، وطوائفهم المُضِلة ، وضلَّ ما كان فى أنفسهم ، لِمَا رأوا مِن نصر الله لجنده ، وإعزازِه لأوليائه ، والحمد لله رب العالمين ، قامِعِ الغُواةِ النا كِبين عن دينه ، والبُغاةِ الناقِضِين لعهده والمُرَّاق الخارِجين من جُمْلة أهل حقه حَمْداً مُبَلِّغا رضاه . ومُوجِبا أفضلَ مَزِيده ، وصلّى الله أولا وآخِراً على محمد عبدِه ورسوله الهادى إلى سبيله ، والداعى إليه بإذنه ، وسلَّم تسليما » .

وكتب سعيد بن حُميد يوم السبت لسبع خَلَون[3] من صفر سنة ٢٥١

(تاريخ الطبرى ١١ : ١٠٦ ، واختيار المنظوم والمنثور ١٣ : ٢٨٤)

---

(١) البوار : الهلاك .

(٢) من احتفل : أى اجتمع .

(٣) هكذا فى الأصل وأراه خطأ وصوابه « بقين » لأن الوقعة استمرت إلى «يوم الأربعاء لإحدى عشرة ليلة بقيت من صفر » كما جاء فى هذه الرسالة .

١٤٩ — كتاب سعيد بن حميد إلى بعض أهل السلطان

وكتب سعيد[١] بن حُميد إلى بعض أهل السلطان فى يوم النَّيروز :

« أيُّها السيد الشريفُ ، عِشْتَ أطولَ الأعمار ، بزيادةٍ من العُمر موصولةٍ بفرائضها من الشكر ، لاينقضي حقُّ نعمةٍ حتى يُجدِّد لك أخرى ، ولا يَمُرّ بك يومٌ إلا كان مقصِّرا عما بعدَه ، مُوفيا عما قبله .

إنى تصفحتُ أحوالَ الأتباع الذين يجب عليهم الهدايا إلى السَّادَة ، فالتمستُ التأسِّيَ[٢] بهم فى الإهداء ، وإن قصَّرَتْ بى الحالُ عن الواجب ، وإنى إن أهديتُ نفسى فهى مِلْكٌ لك ، لاحظَّ فيها لغيرك ، ورميت بطَرْفى إلى كرائمِ مالى فوجدتُها منك ، فإن كنتُ أهديتُ منها شيئا فإنى لمُهْدٍ مالَكَ إليك ، ونزَعتُ إلى مودتى فوجدتها خالصةً لك ، قديمةً غيرَ مستحدَثَة ، فرأيتُ إن جعلتُها هديتى لم أجدِّد لهذا اليوم الجديد برًّا ولا لُطفا ، ولم أميِّز منزلةً من شكرى بمنزلة من نعمتك إلا كان الشكر مقصِّرا عن الحق والنعمة ، زائداً على ما تَبلُغه الطاقة ، فجعلتُ الاعترافَ بالتقصير عن حقك هديةً إليك ، والإقرارَ عما يجب لك بِرًّا أتوصَّلُ به إليك ، وقلتُ فى ذلك .

إن أُهْدِ مالاً فَهْو واهِبُهُ ... وهُوَ الحَقِيقُ عليه بالشكر
أو أُهْدِ شكرى فهْو مرتَهَنٌ ... بجميلِ فِعلِك آخرَ الدهرِ
والشمسُ تستغنِى إذا طَلَعَتْ ... أن تستضىء بسُنَّة البَدْرِ[٣]

(العقد الفريد ٣ : ٣٠٧)

---

(١) كان كاتب أحمد بن الخصيب ، وقلده المستعين ديوان الرسائل ، وكان كاتبا شاعرا مترسلا عذب الألفاظ مقدما فى صناعته ، وهو من أبناء المجوس . وكان يدعى أنه من أولادملوك الفرس — انظر ترجمته فى الفهرست لابن النديم ص ١٧٩ ومروج الذهب ٢ : ٤٠٨ وتاريخ الطبرى ١١ : ٧٠ والأغانى ١٧ : ٢ .

(٢) قال فى اللسان : التأسى فى الأمور : الأسوة أى القدوة ، وفلان يأتسى بفلان : أى يقتدى به .

(٣) السنة : الوجه .

١٥٠ — كتاب سعيد بن حميد إلى صديق له

وكتب سعيد بن حميد إلى صديق له يوم نيروز :

« هذا يومٌ سهلتْ فيه السُّنةُ للعبيد الإهداء للملوك ، فتعلّقت كلُّ طائفة من البرّ بحسَب القدرة والهمة ، ولم أجد فيما أملكُ ما يَفِي بحقّك ، ووجدت تقريظَك أبلغَ في أداء ما يجب لك ، ومَنْ لم يُؤتَ في هديّته إلا من جهة قُدرته فلا طعنَ عليه » .

(صبح الأعشى ٢ : ٤٢٠)

١٥١ — كتاب سعيد بن حميد إلى أبي العباس بن ثوابة

وكان سعيد بن حُمَيد صديقا لأبي العباس[١] بن ثَوَابَة ، فدعاه يوما ، وجاءه رسول « فَضْل[٢] » الشاعرة ، يسأله المصير إليها ، فمضى معه وتأخر عن أبي العباس ، فكتب إليه رُقعة يعاتبه فيها معاتبةً فيها بعضُ الغلظة : فكتب إليه سعيد :

أَقْلِلْ عتابَك ، فالبقاء قليلُ ... والدهرُ يَعْدِل تارةً ويَميلُ
لم أبْكِ من زمن ذَممْتُ صُروفَه ... إلّا بكيتُ عليه حين يزولُ
ولكلِّ نائبةٍ أَلَمَّتْ مدةٌ ... ولكلِّ حال أقبلَتْ تحويلُ
والمُنتمُون إلى الإخاء جماعةٌ ... إن حُصِّلوا أفناهم التحصيلُ[٣]
ولعلَّ أحداثَ الليالي والرَّدَى ... يوما ستَتَصَدَّعُ بيننا وتَحُولُ[٤]

---

(١) آل ثوابة بن يونس من بلغاء الكتاب العباسيين ، منهم أبو العباس أحمد بن محمد بن ثوابة (توفي سنة ٢٧٧) ، وابنه أبو عبد الله محمد بن أحمد وكان مترسلا بليغا ، وكتب للمعتضد ، وأخوه أبو الحسين جعفر بن محمد بن ثوابة ، تولى ديوان الرسائل في أيام عبيد الله بن سليمان الوزير ، ثم ابنه أبو الحسين محمد بن جعفر بن ثوابة ؛ ثم ابنه أبو عبد الله أحمد بن محمد بن جعفر بن ثوابة ، ولي ديوان الرسائل بعد أبيه محمد بن جعفر سنة ٣١٢ في أيام المقتدر إلى أن مات وهو متوليه في أيام معز الدولة سنة ٣٤٩ — انظر معجم الأدباء ٤ : ١٤٤ ، ٢٤٣ و ٧ : ١٨٧ والفهرست ص ١٨٧ — ١٨٨

(٢) جارية مولدة من مولدات البصرة ، أهديت إلى المتوكل ولم يكن في نساء زمنها أشعر منها — انظر أخبارها في الأغاني ج ٢١ ص ١١٤ .

(٣) التحصيل : تمييز ما حصل . (٤) يصدع : أي يفرق .

فلئنْ سبقْتُ لَتَبْكِيَنّ بحسْرة ... ولَيكْثُرَنَّ علىّ منك عَويلُ
ولتفْجَعَنَّ بمُخلِص لك وامقٍ ... حَبْلُ الوفاءِ بحبله مَوصولُ(١)
(الأغانى ١٧ : ٦)

١٥٢ — كتاب سعيد بن حميد إلى فضل الشاعرة

وغضِبَت فضل الشاعرة على سعيد بن حميد ، فكتب إليها :

يأيها الظالمُ مالِي ولكْ ؟ ... أهكذا تَهجُرُ مَن واصلكْ ؟
لاتَصرِفِ الرحمةَ عن أهلها ... قد يعطِفُ المَوْلَى على من مَلَكْ(٢)
ظلمت نفساً فيك عُلِّقْتُها ... فدارَ بالظلم علىَّ الفَلَكْ(٣)
تبارَكَ اللهُ ، فما أعلمَ اللهَ بما ألْقَى ، وما أغفلَكْ !

فراجعت وصله وصارت إليه جوابا للرقعة .

(الأغانى ١٧ : ٦)

١٥٣ — كتابه إلى فضل الشاعرة

وكتب سعيد بن حميد رُقعة إلى فَضْل الشاعرة يعتذر إليها من تغيُّر ظنها به ، وفى آخرها :

تظنُّون أنى قد تبدَّلْتُ بعدكمْ ... بَديلًا، وبعضُ الظن إثمٌ ومُنْكَرُ
إذا كان قلبي فىَ يديكِ رهينةً ... فكيف بلا قلبٍ أُصافِي وَأهْجُرُ ؟
(الأغانى ١٧ : ٤)

---

(١) الوامق : المحب .
(٢) المولى هنا : السيد .
(٣) علق فلان امرأة (بالبناء للمجهول) : أحبها .

١٥٤ – كتابه إلى فضل الشاعرة

وتغاضَبَ سعيد بن حميد وفضل الشاعرة أياما ، ثم كتب إليها :

تَعالَىْ نُجدِّدُ عهدَ الرِّضَا ونصفَحُ فى الحبِّ عما مَضَى
ونَجرِى على سُنَّةِ العاشقينَ ونَضمَنُ عنى وعنكِ الرِّضا
وَيبذُل هـذا لِهـذا هَوَاهُ ويصـبِر فى حبِّه للقَضَا
ونَخضعُ ذُلًا خُضوعَ العبيد لِمَوْلًى عزيزٍ إذا أعرَضَا
فإنّىَ مُذْ لجَّ هذا العِتابُ كأنّىَ أبْطِنتُ جَمْرَ الغَضا[١]

فصارت إليه وصالحته[٢] (الأغانى ١٧ : ٥)

١٥٥ – كتابه إلى أبى هفان

وبلغ أبا هَفَّان[٣] عن سعيد بن حميد كلام فيه جفاء وطعن على شعره ، فتوعَّده بالهجاء . وكان الحاكى عن ذلك كاذبا ، فبلغ سعيدا ما جرى ، فكتب إلى أبى هفان .

أمْسَى يخوِّفنى العَبْدِى بصولته وكيف آمَنُ بأسَ الضَّيْغَم الهَصِرِ[٤]
من ليس يُحْرِزُنى من سيفه أجَلِى وليس يمنعنى من كيده حَذَرِى
ولا أُبارِزه بالأمر يَكرَهُه ولو أُعِنْتُ بأنصارٍ من الغِيَرِ[٥]

---

(١) الغضا : شجر له جمر يبقى طويلا .
(٢) وقد أورد صاحب الأغانى عدا ماقدمنا مكاتبات شعرية بين فضل وسعيد بن حميد وبينها وبين غيره ، فارجع إليها فى ترجمتيهما فيه .
(٣) هو أبو هفان عبد الله بن أحمد بن حرب الشاعر – انظر ترجمته فى نزهة الألبا فى طبقات الأدبا ص ٢٦٧ .
(٤) الضيغم : الأسد ، وكذا الهصر ، من هصره إذا كسره .
(٥) غير الدهر : أحداثه المغيرة .

له سِهامٌ بلا رِيش ولا عَقَبٍ وقوسُه أبدا عُطْلٌ من الوَتَر (١)
وكيف آمَنُ مَن تَجْرِى له غَرَضٌ وسَهْمُه صائبٌ يَخْفَى عن البصر ؟
(الأغانى ١٧ : ٧)

١٥٦ — كتابه إلى بعض إخوانه

وكتب سعيد بن حميد إلى بعض إخوانه يهنئه بعزل عن عمله :

« جَعَلَنى الله من السوء والمكروه فِداءَك ، وأطال فى الخير والسرور بقاءَك ، وأتَمَّ نِعمَه عليك ، وأحسن منها مَزِيدَك ، وبلَّغك أقصى أمنيَّتك ، وقدَّمنى أمامَك ، وقد بلغنى ما اختار الله لك ، فسُرِرْتُ من حيثُ يَغْتَمُّ لك مَنْ لا يعرِف قدرَ النعمة عليك ، ولا يراك بعين استحقاقك ، ولَئِن ساءنى ما ساء إخوانَك مِنْ عَزْلك ، لقد سَرَّنى ما يَسَّر اللهُ لك ، والحمد لله الذى جعل انصرافك محموداً ، وقَضَى لك فى عاقبتك الحُسْنَى ، وأقول :

لِيَهْنِكَ أنْ أصبحتَ مُجْتَمَعَ الحَمْدِ وراعِىَ الْمَعَالِى، والمُحَامِى عن المجدِ
وأنك صُنْتَ الأمرَ فيما وَلِيتَه ففرَّقت ما بين الغَواية والرُّشْدِ
فلا يَحْسَبِ الباغُون عَزْلَك مَغْنَماً فإنَّ إلى الإصدار عاقبةَ الوِرْدِ
وما كنتَ إلا السَّيفَ جُرِّدَ لِلوَغَى فأُحْمِدَ فيها ثم رُدَّ إلى الغِمْدِ

وقد قال الأول :

فَمَنْ يكن بوُرُودِ العَزْلِ مكتئِباً فإنَّنى بُورود العزل مسرورُ
بعد الوِلاية عَزْلٌ يستبين به طَوْلُ الوُلاةِ ، وبعد العزل تأميرُ

أمّا ما عندى معَ تصوُّر العاقبةِ لك فى نفسى ، فيمَسُّنى فى أمرك فى حال المِحْنة ما يخصُّنى منه فى وقت تجدُّد النعمة ، وبحَسْب ضميرك الشاهِدِ على ما عندى ما أجده

---

(١) العقب : العصب الذى تعمل منه الأوتار .

لك فى نفسى ، فلا زلتَ فى نِعَم متتابعة متجدِّدة ، ولا عَدِمْتَ الثَّروةَ والزيادة ، وبلَّغَكَ الله أقصَى أملك وأملِ أخيك لك ، وكَبَتَ(١) أعداءك ، وجعلنى وقاءك المقدَّم عنك .

أُحبُّ أن تشرح لى صُورة الأمر ، إلامَ تأدَّتْ ؟ وكيفَ كان الابتداء ؟ فإنى لا أشكُّ أنها حيلةٌ ونيَّةٌ من عزِّ الصاحب الجليل القدر ، ولها عاقبةٌ منه إن شاء الله محمودة ، وتُفْضِى من ذلك إلى ما تسكُن إليه نفسى ، إن شاء الله » .

(اختيار المنظوم والمنثور ١٣ : ٣٠١)

١٥٧ — كتابه إلى بعض إخوانه

وكتب سعيد بن حميد إلى بعض إخوانه يهنئه بعزل عن عمله :

« حَفِظك الله بحِفظه ، وأسبَغَ عليك كرامتَه ، وأدام إليك إحسانه .

إن سرورى بصَرْفك ، أكثرُ من سرور أهل عَمَلك بما خُصُّوا به من ولايتك ، وقد كنتَ أعزكَ الله — فيما يُرْبأ(٢) بك عنه ، بما أنت عليه فى قدرك واستِئْهالِكَ ، ولكنا رجَوْنا أن يكون سبباً لك إلى ما تستحق ، فطِبْنا نفساً بالذى رَجَوْنا ، فالحمد لله الذى سلَّمك منه ، ونسأله تمامَ نِعمه عليك وعلينا فيك ، بتبليغك أمَلَك وآمالَنا فيك ، وشَفْعِ ما كان من ولايتك بأعظم الدرجات ، وأشرفِ المراتب ، ثم خصَّك الله بجميل الصُّنع ، وبلَّغك غاية المؤمِّلين .

إن من سعادة الوالى — حَفظك الله — وأعظَمِ ما يُخَص به فى عمله وولايته ، السلامةَ من بَوائِقِ(٣) الإثم ، ونوائبِ الدنيا وشرها ، والعاقبة مما يخاف منها ،

---

(١) كبته : أذله ورده بغيظه .

(٢) يقال : إنى لأربأ بك عن هذا الأمر : أى أرفعك عنه ، واستأهله : صار أهلا له ومستحقا ، قال صاحب القاموس : وهى لغة جيدة ، وإنكار الجوهرى باطل (إذ يقول : ولا تقل مستأهل ، والعامة تقوله) .

(٣) البوائق جمع بائقة : وهى الداهية .

وقد خصّك الله منها - بمنّه وطَوْله - ما ترجو أن يكون سببا لك إلى نَيْل ما تستحق من المراتب ، والله نسأل إيزاعَك[1] شُكرَ ما مَنّ به عليك ، وتبليغَك غايةَ أملِك في جميع أمورك ، برحمته وفضله » .

(اختيار المنظوم والمنثور ١٣ : ٣٠١)

١٥٨ - كتابه إلى بعض إخوانه

وكتب إلى بعض إخوانه :

« سَرّك اللهُ بتتابع نِعَمه ، وترادُفِ إحسانه ، وزادك من فواضِل أقسامه ، بلغني - أكرمك اللهُ - ما وهب الله لك من سلطانك ، فقوّاك الله على ما استرعاك ، ورزقك الشكرَ على ما أولاك ، والسلامة منه في الدنيا » .

(اختيار المنظوم والمنثور ١٣ : ٢٩٩)

١٥٩ - كتابه إلى بعض إخوانه

وكتب إلى بعض إخوانه :

« أنا أهنئ بكَ العملَ الذى وُلِّيتَه ، ولا أُهنّئك به ، لأن الله أصاره إلى مَن يُورِده مَوارِدَ الصواب ، ويُصْدِرُه مَصادِرَ الحُجّة ، ويصونه من كل خَلَل وتقصير ، ويُمْضيه بالرأى الأصيل ، والمعرفة الكاملة ، قرَن اللهُ لك كل نعمة بشكرها ، وأوجب لك بطَوْلِه المزيدَ منها ، وأوزَعَك من المعرفة بها ما يصُونُها من الفِتَن ، ويَحُوطها من النقص » .

(اختيار المنظوم والمنثور ١٣ : ٢٩٩)

١٦٠ - كتاب له في السلامة

« كتابى إليك عن سلامة ، ووَحْشَتى لِفراق البلدِ الذى يجمع السّادةَ والإخوانَ ، والأهلَ والجيرانِ ، على حَسَب الأُنس بمكانى فيه ، والسرورِ به ، ولكنّ المقدار

---

(١) أوزعه الله : ألهمه .

يجرى فيتصرَّف معه ، وَقَع ذلك بالهَوى أو خالَفَه ، ولئن كانت هذه حالى فى الوَحْشة، إنَّ أكثر ذلك وأوفره لِفراقك وما بَعُدْنا من الأُنسِ بك ، فأسأل الله أن يَهَبَ لنا اجتماعا عاجلاً فى سلامة من الأبدان والأديان ، وغِبْطةٍ من الحال ، وغنًى عن المَطالِبِ برحمته » .

(اختيار المنظوم والمنثور ١٣ : ٣٧٥)

١٦١ — كتاب له فى الشوق

« كتابى واللهُ يعلم كيف وَحْشَتى لك ، لا أوحشَكَ اللهُ من نعمه ، ولا فرَّق بينك وبين عافيته ، وكان مما زاد فى الوَحشة أنها جاوزت الأملَ المتمكِّنَ فى الأُنس بقرب الدار ، وتَدانِى المَزارِ ، نحمَد الله عز وجلَّ على نعمه ، ونستديمه لك ولنا فيك أجملَ بلائه ، ونسأله ألاّ يُخْلِيَك من شكره ومَزِيده ، ولو كنتُ فى كل يوم أكتبُ إليك كتاباً ، بل لو شخصتُ نحوَك قاصداً ، لكان ذلك دونَ الحق ، ولكنى غَلِقٌ[١] بما تعلَمَ من العمل ، وأكرَه أن أتابع كتبى فأسلُكَ سبيلا من سُبُل الثِّقَل ، وأقفُ بمنزلة توسُّطٍ ، أرجو أن أسلَمَ بها من الجفاء والإبرام[٢] ، وأنا وإن أبقيتُ عليك من الزيادة فى شغلك ، فلستُ بممتنعٍ من مسألتك التطولَ بتعريفى جملةً من خَبَرك أسكُنُ إليها ، وأعتدُّ بالنعمة وأحمَدَ الله عليها » .

(اختيار المنظوم والمنثور ١٣ : ٣٧٥)

١٦٢ — كتاب آخر

« كتابُك ليس من الحق أن أسألَكَه فى كل ما نَفَذَ لى رسولٌ ، ومن الجفاء[٣] أنْ أُعْفِيك منه فى كل وقت ، ولكن اسلُكْ بنا سبيلا بين السبيلين تَخرُج نحن وأنت بها من حَدِّ المُبْرِمين ، وتخرج أنت بها من حَدِّ الجفاء » .

(اختيار المنظوم والمنثور ١٣ : ٣٧٥)

---

(١) من غلق الرهن : إذا لم يفتكك فى الوقت المشروط ، والمعنى أنى مقيد بقيود من العمل لا أحل منها ، مرهق بالشواغل الجمة التى ملكت على أوقاتى .

(٢) أبرمه : أضجره . (٣) فى الأصل « رسول من الجفاء . . . . » .

١٦٣ — كتاب آخر

« أنا أتعمّد فى كتبى إليك ما يخفّ ويسهلُ عليك ، فأُمسِكُ عن الكتاب أحياناً بالإبقاء[١] ، وأَكتُبُ أحياناً لئلاّ يُتَوهَّم علىّ الجفاء ، فإن يَجْرِ الأمر عندك فيها هذا المَجْرَى ، وإلاّ فالمُستَعتَبُ قريب ، ومتابعةُ الكتبِ علىّ سهلٌ مُمكنٌ » .

(اختيار المنظوم والمنثور ١٣ : ٣٧٥)

١٦٤ — كتاب له فى توصية

« مَن شكَرَ فقد قَضَى حقّ النعمة ، واستوجَبَ من المنعمِ الزيادةَ ، وقد شكر فلانٌ ما وعدتَه فى حاجته ، فاستوجَبَ الإنجاز بالشكر ، وكلُّ ما ناله من مَرفَقٍ وحظّ فهما واصلان إلىّ دونَه ، فأحبُّ أن تأتِىَ فى أمره ما أنت أهلُه » .

(اختيار المنظوم والمنثور ١٣ : ٣٨٣)

١٦٥ — كتاب له فى الاعتذار

« مَن قَبِلَ عذرك فى ترك إجابته فلا قبِلَ اللهُ عذرَه ، ومن حَسَّن أمرَك فى تركك ابتداءه بالكتاب فلا حسَّن الله أمرَه ، فإنك الآن بفضل حِذقك أردتَ أن تجفُوَنى بحُجّة ، وتقصّر فى بِرّى ببرهان قاطعٍ يقوم عند الجاهل — غيرك — مقامَ المقبول من الأمر ، ولكنه إذا تصفّحه أهلُ النظر علموا أنه طرَفٌ من الحيلة استعملتَه ، وطريقٌ من الغدر سلكتَه ، واللهِ إنّ فى طمعك فىّ أنْ أقبلَ إقرارَك بالعجز عن إجابتى ، لمُساومةٌ منك بعقلى ، وتشكيكٌ لى فيما تحيط به معرفتى ، وتُقرُّ لى بالجهل من حيثُ شهِدْتَ بالعلم لى ، وأبلَغُ المناقضةِ ما لم تطُلْ فيه المجاذبة ، وما استُشْهِد فيه على المُنازع من قوله ، وعُدِل عن التماس الدليل من جهةٍ تُبعِد بينه وبين صاحبه ،

---

(١) أى بسبب الإبقاء عليك ، والإشفاق من الزيادة فى شغلك ، لعلمى بكثرة أعمالك .

قد صدَقْتَ ـ أعزك الله ـ فى كلّ ما قدَّمتَ من الدعوى ، وفَلَجْتَ[1] فيما ذهبت إليه من الحجَّة ، وعَجَزت بالحقيقة عما انتحلتَ العجزَ عنه فى الظاهر ، فقد كتبتَ إلىّ كتابا لم تَعدُ فيه طريقَ العادة ، هو كتابنا ، فا كتبِ الآنَ الجوابَ ، وأنت محمودٌ يا صَلِفُ[2] ، وحَسْبي من معاتبتك ، فليس يجبُ للفارغ أن يكلِّف المشغولَ النظرَ فى أكثرَ من هذا المقدار من كتابه فيما لا يُجْدِى ولا يعود بحظٍّ » .

(اختيار المنظوم والمنثور ١٣ : ٣٩٠)

١٦٦ ـ كتاب تعزية له

« إذا استوى المعزَّى والمعزِّى فى النائبة ، استُغْنِيَ عن الاكثار فى الوصف لِمَوقع الرزيّة ، والعُذرُ فى التأخّر يكاد ظهوره يُنْبِيءُ عن التنبيه عليه ، وأنت أولىَ بما تتطوّل به فى قَبُوله ، وأنا أقول : إنا لله وإنا إليه راجعون ، إقرارا له بالمَلَكَة ، واعترافا بالمَرْجِعِ إليه ، وتسليما لقضائه : ورِضاً بمواقع أقداره ، وأسأل الله أن يصلِّيَ على محمد صلاةً متصلةَ بركاتُها ، وأن يوفِّقك لما يُرضيه عنك قولا وفعلا ، حتى يُكْمِل لك ثوابَ الصابر المحتسب ، وجزاء المطيع المتنجِّز للوعد ؛ ويرحم فلانا ويُحِلّه أعلى منازِل أوليائه الذين رَضِيَ سعيَهم ، وتطوّل بفضله عليهم ، إنه ولىٌّ قدير » .

(اختيار المنظوم والمنثور ١٣ : ٤)

١٦٧ ـ كتاب تعزية له إلى محمد بن عبد الله بن طاهر

وكتب تعزية إلى محمد بن عبد الله بن طاهر عن بعض أوليائه :

« وردَ علىّ الخبرُ ـ أعز الله الأمير ـ بحادِثِ قضاء الله فى الولىّ الناصح ، المطيع الشاكر ، فلان ـ رحمه الله ـ فكان وقعُ المصاب به على حَسَب على بمحلّه كان من

---

(١) أى انتصرت وظفرت .

(٢) الصلف بالتحريك : مجاوزة قدر الظرف والادعاء فوق ذلك تكبرا .

الأمير وما يرعاه من حق طاعته ونصيحته ، وما يَجْرى عليه من أدبه وسلوك نَهْجه ، والتمسُّك بأمره ، وما يوجبه الأمير لمن وَسَمه بمعروفه ، وشرّفه باختياره ، واختصّه بالقرب من خدمته ، هذا مع ما أخلَصَ اللهُ بيني وبينه من المودة الصادقة ، والثقة الصحيحة التي بعثتنا على التمسك بحَبْل الأمير ، والاتصال بأسبابه ، والوقوف في ظِلِّه ، فإنّ الله عز وجل جعل ذلك سببا يجمع أهله ، وإن اختلفت بهم الأسبابُ ، وتفرقت بهم الديارُ ، وتباعَدَت الأشكالُ .

وأعظَمَ اللهُ للأمير الأجرَ ، وأجزَلَ له المثُوبة والذُّخْرَ ، وجعل الله الأمير وارثَ أعمارِنا ، والباقيَ بعدنا ، والمؤمَّل لخُلُوفنا وأعقابنا ، ورَحِم الله أبا فلان ونَقَلَه إلى جنته التي لا يجاوزها أمَلٌ ، ولا يوازيها خَطَر ، فما أكادُ أشهَد مَشْهَدًا من مشاهد التمييز والنظر ، إلا وهم شاهدون له بالفضل الذى شرّفه به اصطناعُ الأمير واختيارُه والنصيحة له ، وقدّمه الله به على أكفائه[(١)] ، فلقد رفعه الله به إن شاء اللهُ في حياته [وأورثه[(٢)]] ثناء جميلا بعد وفاته » . (اختيار المنظوم والمنثور ١٣ : ٣٠٧)

١٦٨ — تعزية له في مثله

« لولا أن التعزية على المصائب سبيل لا يُنْكَر على مِثْلي مِن خدمِ الأمير وعبيدِه سلوكُها ، لأجلَلْتُ الأمير أن أذَكّرَه من الصبر وحسن العزاء ما أعلَمُ أنه بفضل نعمة الله عليه ، وما خَوّله من العلم الذى جعله به قدوة ، وإنما أسأل الله عز وجل أن يوفق أمير المؤمنين لِما يُعظِم به أجرَه ، ويُجْزِل به مَثُوبَتَه ، ولا يَهُدّ له ركنا ، ولا يُريه في شيء من عواريه لديه ومَنائحه نقصاً ولا غِيَرًا ، ولا تبديلا ، بمَنّه ولطفه » .

(اختيار المنظوم والمنثور ١٣ : ٣٠٧)

---

(١) في الأصل « والنصيحة له التي قد الله به على كفاية » وهو تحريف .

(٢) زدت هذه الكلمة لتستقيم العبارة .

١٦٩ — كتاب له

وكتب :

« شُغْلك يَقطَعنا عن مطالبتك بالحق فى جوابات كُتُبنا إليك، وصِدْقُ مودَّتنا لك يمنعنا من التقصِّى فى الحُجَّة عليك ، ومن يَـكِلك إلى رأيك فإنه لا يَفِى بك إلا لك ، صِلةَ إخوانك والتعاهُدَ لهم من بِرِّك بما يُشْبه فضلَك ، والنعمة عليهم فيك .

وفلان بينى وبينه مودةٌ أقدِّمه بها على الأُخُوّة ، لأنك تعلم قُرْبَ ما بين المودَّة والقرابة ، وقد بَلَوْتُه(١) على الحالات كلِّها ، فلم يزدنى اختبارُه إلا اختياراً له ، ولا أعلم بالعسكر جليلا إلاَّ وهو لى صديق ، يشكر بشكره ، ويوجب على نفسه المِنَّةَ فيما آتِى إليه ، فأمَّا مَن بين إخوانه فلست أعدِلُ عن قضاء حقه ، ولا أتأخر عن معروفٍ أُسْدِى إليه ، فإن رأيتَ أن تُحِلَّهُ بالمَحَلّ الذى يستحقه بنفسه وسَلَفِه ، فوالله ما رأيتُ سُوقَ الأحرار أنفَقَ(٢) منها عندكم ، أهلَ البيت ، أبقى الله تبارك وتعالى باقِيَكم ، وَرَحِم ماضيَكم » . (اختيار المنظوم والمنثور ١٠٢ : ٢٥٩)

١٧٠ — تحميد له فى فتح

وله تحميد فى فتح عن وَصِيف :

« أما بعد ، فالحمدُ لله الحميد المَجيد ، الفَعَّالِ لِمَا يُرِيد ، الذى خلق الخلق بقُدرته ، وأمضاه على مشيئته ، ودبَّره بعلمه ، وأظهر فيه آثار حكمته التى تدعو العقولَ إلى معرفته ، وتَشْهَدُ لذوى الألباب بربُوبيَّته ، وتدلّ على وَحْدانيته ، لم يكن له شريك فى ملكه فينازِعَه ، ولا مُعِينٌ على ما خَلَق فتلزَمُه الحاجةُ إليه ، فليس يتصرَّف عبادُه فى حال إلا كانت دليلا عليه ، ولا تقعُ الأبصار على شىء إلا كان شاهدا له ، بما

---

(١) بلاه يبلوه : اختبره . (٢) أى أروج .

وَسَم فيه من آثار صُنعه ، وأبان فيه من دلائل تدبيره ، إعذاراً بحُجّته ، وتطوُّلا بنعمته ، وهدايةً إلى حقه ، وإرشاداً إلى سبيل طاعته « وَهُوَ الَّذِى يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ وَهُوَ أَهْوَنُ عَلَيْهِ ، وَلَهُ الْمَثَلُ الْأَعْلَى فِى السَّمٰوَاتِ وَالْأَرْضِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ » .

والحمد لله العزيز القهّار ، الملك الجبّار ، الذى اصطفى الإسلام واختاره ، وارتضاه وطهّره ، وأعلاه وأظهَرَهُ ، فجعله حُجةَ أهلِه على من شاقّهم[1] ، ووسيلتَهم إلى النصر على مَن عَنَدَ[2] فى حقهم ، وابتغى غيرَ سبيلهم ، وبعث به رسلَه يدعُون إلى حقه ، ويَهْدُون إلى سبيله بالآيات التى يبيّنون بها عن المخلوقين ، ويُوجبون بها الحجةَ على المخالفين ، حتى انتهت كرامةُ الله إلى خاتَم أنبيائه ، وحَامل كتابه ، ومفتاح رحمَتِه صلى اللهُ عليه وسلم عَلَى حِين فَتْرَةٍ من الرُّسُلِ ، واختلافٍ من المِلَل ، ودُثورٍ[3] من أعلام الحق ، واستعلاء من الباطل ، والناسُ عانِدون عن سبيل ربهم ، يتسافكون دماءهم ، ويُحِلُّون ما حرّم الله عليهم ، ويعبدون من دون الله ما لا يضرهم ولا ينفعهم ، وأيّده بالبرهان الواضح ، والحُجَج القواطع ، والآياتِ الشواهد ، وأنزل عليه كتابه العزيز الذى لا يأتيه الباطِلُ من بينِ يَدَيْه ولا مِنْ خَلْفِهِ ، تنزيلٌ من حَكِيمٍ حَمِيدٍ ، وجعَل فيه أوضح الدليل على رسالته ، وأعدلَ الشواهد على نبوّته ، إذ عَجَزَ المخلوقون من أن يأتُوا بمثله على مَرِّ الأيام ، وكثرة الأعداء والمنازعين ، يتحدّاهم به فى المواسم ، ويَقْصِدهم بحُجّته فى المحافِل ، ولا يزدادون عنه إلا حُسُوراً[4] وعجزا ، ولا تزداد حجة الله عليهم إلا انتظاهُرا وعلُوّا ، ثم أيّده بالنصر بأنصارٍ ألّف بينهم بطاعته ، وجَمَعهم على حقه ، ولَمَّ شَعَثَهم بنُصرة دينه ، بعد الشِّقاق المتصِلِ بينهم ، والحرب المفرِّقة لجماعتهم كما قال عز وجل : « هُوَ الَّذِى أَيَّدَكَ بِنَصْرِهِ وَبِالْمُؤْمِنِينَ » وقدّم إليه وَعدَه بالنُّصرة والتمكين ، فجعله بُشْرَى للمؤمنين ، وحُجة على الكافرين ، ودليلا على ما بعثه

---

(١) أى خالفهم وعاداهم .
(٢) أى مال .
(٣) دثر الأثر كدخل دثورا : درس .
(٤) أى كلالا وانقطاعا .

به من الدين ، فهزَم بالقليل مِن عددهم الكثيرَ من عدد أعدائهم ، وغلب بضعفائهم أهلَ القوة ممن ناوأهم[1] ، ففلَّ به حَدَّهم ، وفضَّ جموعهم ، وافتتح حصونَهم وحَرِيزَ[2] مَعَاقِلِهم ، وأظهر بحجته ونصره عليهم ، وأنجز سابق وَعْدِه لهم وفيهم ، وَٱللهُ لاَ يُخْلِفُ الِميعَادَ » . (اختيار المنظوم والمنثور ١٣ : ٢٨٢)

١٧١ — فصول لسعيد بن حميد فى المودة

وكتب سعيد بن حميد :

« إنى أهديتُ مودتى رغبةً إليك ، ورضيتُ بالقَبول منك مَثُوبةً ، فصرتَ بقبولها قاضيا لحقّ ، ومالكا لِرِقّ ، وصرتُ — بالتسرع إلى الهدية ، والتخيُّر للمَثُوبة — مُرْتَهَنَ اللسان بالرضا ، واليَدَيْن بالوَفا » .

* * *

وفصل له :

« إنى صادقتُ منك جوهر نفسى ، فأنا خير محمودٍ على الانقياد لك بغير زِمام ، لأن النفس يقود بعضها بعضا » .

* * *

وفصل له :

« لسانى تَرَطَّب بذكرك ، وقلبى معمور بمحبتك ، حضرتَ أو غِبتَ ، سِرْتَ أو أقمت » . (العقد الفريد ٢ : ١٩٢)

---

(١) أى عاداهم .

(٢) الحريز : الحصين ، والمعقل كمجلس : الملجأ .

١٧٢ — كتاب سعيد بن عبد الملك إلى سعيد بن حميد

وكتب سعيد بن عبد الملك إلى سعيد بن حُمَيْد :

« أكْرَهُ ـ أطال الله بقاءك ـ أن أضَعَك ونفسى موضعَ العُذْر والقَبول ، فيكونَ أحدُنَا معتذِرا مقصِّرا ، والآخَرُ قابِلا متفضِّلا . ولكن أذكُرُ ما فى التَّلاقى من تجديد البِرِّ ، وفى التخلُّف من قِلَّة الصبر ، وأسأل الله تعالى أن يوفقك وإيَّانَا لِما يكون منه عُقبَى الشكر » .

١٧٣ — رد سعيد بن حميد عليه

فأجابه سعيد بن حميد :

« وصل كتابك ـ أكرمك الله تعالى ـ الحاضِرُ سرورُه ، اللطيفُ موقعُه ، الجليلُ صُدُورُه ومورِدُهُ ، الشاهِدُ ظاهِرُه على صِدق باطِنه ، ونحن ـ أعزك الله ـ نجعل عَزاءك الاعترافَ بفضلك ، ومجازاتَك التقصيرَ دونك ، ونَرَى أنْ لاعذرَ فى التخلُّف عنك وإنْ حالَ الاشتغالُ بيننا وبينك ، فإن كنتَ سامحتَ على العُذْر قبل الاعتذار ، وسبقْتَ إلى فضيلة الاغتفار ، فلا زلتَ على كل خيرٍ دليلا ، وإليه داعيا ، وبه آمرا ، وقد التقينا قبل وصول كتابك لِقاء أحْدَثَ قَطْرًا[1] ، وهاجَ شوقًا ، وأرجو أن تتَّسع لنا الجمعة بما فاضت به الأيامُ ، فننالَ حظًّا من محادثتك والأُنسِ بك » .

(زهر الآداب ٣ : ٣٦١)

١٧٤ — كتاب لسعيد بن عبد الملك فى السلامة

« أما بعدُ ، فإن أَوْلَى نعمةٍ تُشكَر وتُقْبَل ، نعمةٌ حَصَّت فاستقامت بها الأمورُ واقعةً بمصالحها ، جاريةً على أقصد[2] سُنَنها ، وأجَلِ ماوَلِيَ اللهُ به منها ،

(١) أى قطر الدموع ، كناية عن شدة تأثير اللقاء .

(٢) أى أقوم : أفعل ، من القصد وهو استقامة الطريق .

وعمّت فألّفت البشرَ ، وجمعتِ الكلمةَ ، وآمنتِ السِّرْبَ(١) ، وسَكنَتْ بها الدَّهماء(٢)

وإن أمير المؤمنين كتبَ إليك ، وهو مِن ترادُف النعم الخاصَّة عنده فى نفسه وولده وأدَانيه وأوليائه ، من شمول السلامة والنعمة والصُّنع وتتابعه فى رعيته وأموره بحضْرته وقاصيته وكذا . . .

فالله يتولى لأمير المؤمنين فى ذلك شكرَ تفضُّله ، وإليه الرغبةُ فى إدامة أحسن ما أنعم به عليه ، إنه ولىّ قدير » .

(اختيار المنظوم والمنثور١٣ : ٣٦٦)

١٧٥ — كتاب له فى سلامة الفطر

« أما بعدُ ، فإن الله هو وَلِىُّ أمير المؤمنين فيما استحفظه من النظر فى سياسة عباده ومراعاة نبيه صلى الله عليه وسلم ، وإقامة شرائع دينه ، ودَلالة الأمة إلى مَراشِدها فى قضاء حق الله عليها ، وجَمْعها فى المواطن التى ندَبها إليها ، وجعل نَوَافِل(٣) الخير والبِرّ فيها ، فأدام الله صلاحها ، ولا أخلاها من بَرَكة رعايته ، ومن ولايته وسياسته ، ولا زالت فى كَنَف السلامة بسلامته ، وظِلِّ العافية بعافيته ، وعلى سبيل نجاة هدايته .

وقد كتبتُ إلى أمير المؤمنين فيما وليَه الله به فى مَخرَجه إلى عِيده من يوم فِطْره ، وما وفّقه له من التقرب إليه بوسائل التذلّل فى طاعته ، والاجتهاد فى شكره ، والمناصحة فى مخاطبة مَن حَضَره ، وإنصاتهم لوعظه وتذكيره، وما وَليَه اللهُ به من العافية والسلامة الشاملة ، والنعمة الكاملة (والسلامة(٤) التامة) والعز الموصول بالسكينة ،

---

(١) السرب : النفس . (٢) الدهماء : جماعة الناس . (٣) النافلة : العطية .

(٤) هكذا فى الأصل ، ويلاحظ أن كلمة « السلامة » قد تقدمت ، فلعله سهو من الناسخ ، أو قد يكون الأصل « والسلطة التامة » .

والإخبات[1] والخشوع ، وحُسْن الرغبة والدِّعة والوقار والاستغفار والتكبير ، والتهليل ، وما منحه الله من كثرة الدعاء ممن شاهد من خاصّته وعامّته ، ومَن أوفى من البُلدان والأمْصار ، وآتاه مِن تفرُّغهم لشكر النعمة عليهم ، وأفرشهم[2] من عدله وإحسانه ، وفضلِه وامتنانه ، وأعانهم على ما كانوا يتشوَّفونه[3] ، ويُمِدُّون له في أعيادهم ، مِن رفع حوائجهم وذِكْرِ مَظالمهم ، مَنًّا من الله خصّ به خليفتَه ، وأعطاه فضلَ مزيته ، بما وفّقه له من العدل والنَّصَفة ، والبِرّ والمَرْحَمَة ، والعطف[4] والرأفة ، كتابا أمرت بِنَسْخه لك آخِرَ كتابي هذا ، فافعل وافعل . . . والسلام » .

(اختيار المنظوم والمنثور ١٣ : ٣٧١)

١٧٦ — كتاب له في الاعتذار

« حَفِظَكَ الله بمغفرته ، وعاد عليك وعلينا بعفوه ، فنسأل الله ما لا يقبلُه على العلم والقدرة غيرهُ ، لو بُدِّلتُ مكانَ سوء الظن أحسنَه ، وتيقنتُ أن قليل ما يُلِمُّ بصديق — مما يَطْرِفُ عينَه ، ويؤذيه سماعُه ، دون ما يخاف مِن لَوَاحِق[5] عيبه — لا يُزايلُ خَلَدَى الاهتمامُ به ، حتى يجعلَ اللهُ مَخْرَجا ، كنتُ روَّحتُ عن قلبك وعني في استبطائك » . (اختيار المنظوم والمنثور ١٣ : ٣٨٩)

١٧٧ — تعزية لسعيد بن عبد الملك

« لكل مُعَزًّى — أعزَّ الله الأمير ، سبيلٌ في موقعه من التعزية والعزاء ، وحَقُّ الأمير لا يَقضيه طولُ السعي فيه ، لجلالة خَطَرِه ، وعِظَم قَدْرِه ، وكلُّ ما أُدِّي إليه منه

---

(١) أخبت : خشع وتواضع .
(٢) من أفرش فلانا بساطا : إذا بسطه له كفرشه .
(٣) تشوف إليه : تطلع .
(٤) في الأصل « والعطة » وهو تحريف .
(٥) في الأصل « من لوحق عيبه » وأراه محرفا .

فهو دون ما يجب له (وما[1] قصَّر عنه) لفضلِ منزلته، وارتفاع مَزيد النعمة عليه وتَوَالِيها[2]، فإن النعم على الأمير متكاملة قد وفَّرته عن الجزع لحادثِ المصيبة، وذلَّته بالتقوى لخالص الشكر، وعلَتْ به فى كل أمرٍ يحدُث له أو عليه، وحطَّت درجةَ مِثلى عن تعزيته إلا بالدعاء، فثبَّت الله الأمير بعزيمة الصبر، ووفَّاه متكاملَ الأجر وزاده فى مدة العمر، ولا أخلاه فى السَّرَّاء والضرَّاء من نعمة تثبِّته على شكر يجمع له به ذخائر البر، ووهب لميِّتهِ رضوانَه ومغفرته، وبَرْدَ عفوه فى جنته التى لايجاوزها أملٌ، ولا يَبْلُغها خَطَر».

(اختيار المنظوم والمنثور ١٣ : ٣١٢)

١٧٨ — تعزية له

«المصائب ـ أكرمك الله ـ هدايا لقوم، وبلايا على آخرين، فجعلك الله ممن عَقَل، عند ما استعمَلَ الشكرَ عند الإمتاع، والصَّبر عند الارتجاع».

(اختيار المنظوم والمنثور ١٣ : ٣١٧)

١٧٩ — كتاب له فى توصية

«للمودة أسباب تؤدِّى إلى اتصال المحبة، واجتماع المودة، واتِّساق نَظْم الأُخوَّة وكتابى هذا من أسبابها القوية، إذ كان فى سبيل البرِّ والمَثُوبة، ولفلان قِبَلك حاجة، فافعل وافعل».

(اختيار المنظوم والمنثور ١٣ : ٣٩٣)

---

(١) ما هنا نافية، والجملة حالية.

(٢) فى الأصل «وتواجيها» وهو تحريف.

١٨٠ — كتاب آخر

« كتابى إليك لك ، فإن قبِلْته كان شبيها بكرمك ونعمةِ الله عندك ، وما أقبلُ منك إلّا أن تقبَلَه ولا تؤخّره ، وهو أنك قد عرَفتَ مايجب الفلان ، وما كتبتُ به له ، وما أرجِع عليه بلوْمٍ فى حسن ظنّه بك ، وصبرِه عليك ، ووفائِه لك ، ولا أرضَى منك أن تَغفُل عنه ، وأن تجعل حاجته فيما تدافِع به أو تعتلّ فيه ، فقد ضمِنْتُ له عنك أن يكون جوابه النُّجحَ ، وقد اقتصر على كتابى واقتصرت له عليه ، وأرجو ألّا تُخالَّ به ، ولا تردَّه بغير حظ إن شاء الله » .

(اختيار المنظوم والمنثور ١٣ : ٣٩٣)

١٨١ — كتاب له فى إطلاق محبوس

« معرفتى أنك لاتجاوز فى العقوبة سبيلَها من مواقع الأدب بالحق ، تحمِلُنى على مسألتك ما أنت مُوجِبٌ له ، والذِّكرَى تنفع المؤمنين ، ولولا ذلك لاستغنى صاحبُ كتابى عنه ، فإن كان ذنبه صغيرا ، فالعقوبةُ تُخرِجه من حبسه ، وإن كنت تناهيتَ فى حبسه إلى مدة ذَنبه ، فالحقُّ يُخرجه ، وكتابى متقاضٍ لك » .

(اختيار المنظوم والمنثور ١٣ : ٣٩٤)

١٨٢ — كتاب له

وكتب سعيدُ بن عبدالملك :

« كتبتُ — على شُغُلٍ — فى قِطَعٍ من القِرطاس ، ولم يَقطع بى حسنُ الظن بك فى قبولك العذرَ ، وتحسينِك ما أنت أهل لتحسينه ، فإنك تَقبَل دونَ حقك ، وتَهَب الذنبَ فيه ، فيكون شكرك جاريا على سبيلين ، كلاهما يُبين لك عن فضلك ، ويُوجِب لك مالا يقصِّر معهُ إلا مَغبُونُ الحظّ ، خسيسُ النصيب » .

(اختيار المنظوم والمنثور ١٢ : ٢٦٤)

١٨٣ — ومن فصوله

فصل له :

« أنا صَبٌّ إليك ، سامِى الطَّرْفِ نحوَك ، وذِكْرُك مُلْصق بلسانى ، واسمُك حُلْوٌ على لَهَواتى[1] وشَخصُك ماثلٌ بين عينَىّ ، وأنت أقربُ الناس من قلبى ، وآخَذُهم بمَجامِع هواى » .

* * *

وفصل له :

« لَنحن أحقُّ بابتدائك بما ابتدأتَنا به من الصِّلة ، إلا أنك أحقُّ بالفضل الذى سبقْتَنا إليه » . (العقد الفريد ٢ : ١٩٢)

١٨٤ — كتاب محمد بن عبد الله بن طاهر إلى المعتز

وطفِق أمرُ المستعين يَضْعُف ، والمعتزّ يقْوَى ، فلما رأى ذلك محمد بن عبد الله ابن طاهر كاتَبَ المعتزَّ ، وَجَنَح إليه ، ومال إلى الصلح على خَلع المستعين ، وكانت عاقبةُ أمره أنْ خَلَع نفسه من الخلافة وبايع المعتز (سنة ٢٥٢) فأخذ له ابن طاهر البيعةَ ببغداد ، وأشهد عليه الشهودَ من بنى هاشم والقضاة والفقهاء والقواد ، وأخذ منه البُرْدةَ والقضيب والخاتم ، ووجَّه ذلك مع أخيه عُبيد الله بن عبد الله بن طاهر إلى المعتز بسامَرَّا ، وكتب إليه :

أما بعد ، فالحمدُ لله مُتمِّم النعم برحمته ، والهادى إلى شكره بفضله ، وصلّى الله على محمد عبده ورسوله الذى جمَعَ له مافرّق من الفضل فى الرسل قبْلَه ، وجعل تُراثه راجعا إلى من خَصَّه بخلافته وسلم تسليما .

---

(١) لهوات جمع لهاة : وهى اللحمة المشرفة على الحلق .

كتابى إلى أمير المؤمنين ، وقد تمم الله له أمره ، وتسلمت تراث رسول الله صلى الله عليه وسلم ممن كان عنده ، وأنفذته إلى أمير المؤمنين مع عُبَيد الله ابن عبد الله مولى أمير المؤمنين وعبده » .

(تاريخ الطبرى ١١ : ١٣٢)

وجاء فى مروج الذهب للمسعودى :

وقدم على المعتز عبيد الله بن عبد الله بن طاهر أخو محمد بن عبد الله بالبردة والقضيب والسيف وبجوهر الخلافة ومعه شاهك الخادم ، وكتب محمد بن عبد الله إلى المعتز فى شاهك :

« إن من أتاك بإرث رسول الله صلى الله عليه وسلم لجدير أن لا تُخْفَر ذِمَّته(١) »

(مروج الذهب ٢ : ٤٢٠)

ثم أُحدِر المستعين إلى « واسط » وقُتِل فى شوال من سنة ٢٥٢ هـ .

١٨٥ — كتاب محمد بن عبد الله بن طاهر إلى عمال النواحى

ولما أفضت الخلافة إلى المعتز ، أمر بالعقد لأنصاره على النواحى ، وأطلقهم فى أشعار أعدائهم وأبشارهم(٢) ودمائهم ، فلما بلغ محمدَ بن عبد الله بن طاهر ما أمر به فى النواحى أنشأ كتابا نسخته :

« أما بعد : فإن زَيْغَ الهوى صَدَف(٣) بكم عن حَزْم الرأى ، فأقْحَمَكم(٤) حبائلَ الخطأ ، ولو ملَّكتم الحقَّ عليكم ، وحكَّمتم به فيكم ، لأوْرَدَكم البصيرةَ ، ونفى عنكم غَيابَةَ(٥) الحَيْرة ، والآنَ ، فإن تجنحوا(٦) للسِّلْم تحقِنوا دماءكم ، وتُرْغِدوا

(١) أخفره : نقض عهده وغدره .

(٢) أشعار : جمع شعر كشمس وسبب ، وهو معروف ، وأبشار : جمع بشر كسبب : وهو ظاهر الجلد جمع بشرة كرقبة ، والمعنى : أباح لهم ضربهم وجلدهم .

(٣) صدف عنه كضرب : أعرض ، وصدفه : صرفه .

(٤) أى رمى بكم .

(٥) غيابة كل شىء : ماسترك منه .

(٦) تجنحوا : تميلوا .

عيشكم ، ويصفح أمير المؤمنين عن جريرة[١] جارمكم ، وأخلى لكم ذروة سبوغ النعمة عليكم ، وإن مضيتم على غلوائكم[٢] ، وسوّل لكم الأمل أسوأ أعمالكم ، فأذنوا[٣] بحرب من الله ورسوله بعد نبذ[٤] المعذرة إليكم ، وإقامة الحجة عليكم ، ولئن شنّت الغارات ، وشبّ ضرام[٥] الحرب ، ودارت رحاها على قطبها ، وحسمت[٦] الصوارم أوصال حماتها ، واستجرت العوالي[٧] من نهمها ، ودعيت نزال[٨] ، والتحم الأبطال ، وكلحت[٩] الحرب عن أنيابها أشداقها ، وألقت التجرد عنها قناعها ، واختلفت أعناق الخيل ، وزحف أهل النجدة إلى أهل البغى ، لتعلمنّ أىّ الفريقين أسمح بالموت نفسا ، وأشد عند اللقاء بطشا ، ولات حين معذرة ، ولا قبول فدية ، وقد أعذر من أنذر ، وسيعلم الذين ظلموا أىّ منقلب ينقلبون » .

(تاريخ الطبرى ١١ : ١٤٩)

١٨٦ – رد الأتراك على كتاب ابن طاهر

فبلغ كتاب محمد بن عبد الله الأتراك فكتبوا جواب كتابه :

« إنّ شخص الباطل تصوّر لك فى صورة الحق ، فتخيّل لك الغىّ رشدا ،

---

(١) الجريرة : الذنب ، وجرم كضرب وأجرم : أذنب ، وسبوغ النعمة : اتساعها .
(٢) الغلواء : الغلو .
(٣) أى كونوا على علم بها ، من أذن بالشىء كسمع : علم به .
(٤) أى تقديم ، وأصل النبذ : الطرح .
(٥) شب : أوقد ، والضرام : دقاق الحطب الذى يسرع اشتعال النار فيه .
(٦) حسمت : قطعت .
(٧) العوالى : جمع عالية : وهى أعلى الرمح ، والجرة بالكسر : مايفيض به البعير من بطنه فيأكله ثانية ، وقد اجتر وأجر ، ولم يرد فى كتب اللغة استجر بهذا المعنى .
(٨) نزال : معدول عن المنازلة فى الحرب ، ولذا أنث ، قال الشاعر :

ولنعم حشو الدرع أنت إذا   دعيت نزال ولج فى الذعر

وقال آخر .

* فدعوا نزال فكنت أول نازل *

(٩) الكلوح : بدو الأسنان عند العبوس ، وفعله كمنع .

كَسَراب بِقِيعَةٍ(١) يَحْسَبُهُ الظَّمْآن مَاء حَتَّى إِذَا جَاءَهُ لَمْ يَجِدْهُ شَيْئاً ، ولو راجعتَ عُزُوبَ(٢) عقلك ، أنار لك برهانَ البصيرة ، وحَسَم عنك مَوَّادَّ الشُّبْهة ، لكن حِصْتَ(٣) عن سُنَّة الحقيقة ، ونكَصْتَ على عَقِبَيْك ، لِمَا مَلَكَ طباعَك مِن دَواعِي الحَيْرة ، فكنتَ في الإصغاء لهُتافه ، والتعرُّد إلى وُرُودِه ، كَالَّذِي اسْتَهْوَتْهُ الشَّيَاطِين في الأَرْض حَيْرَانَ ، وَلَعَمْرُك يا محمد : لقد وَرَد وَعْدُكَ لنا ، ووَعِيدك إيانا ، فلم يُدْنِنا منك ، ولم يُنْئِنا عنك ، إذ كان مَحْصُ اليقين قد كَشَفَ عن مكنون ضميرك ، وألفاك كالمكتفِي بالبَرْق نَهْجًا إذا أضاء له مَشَى فيه ، وإذا أظلَمَ عليه قام ، ولعمرك لئن اشتدَّ في البغي شَأْوُك(٤) ، ومُتِّعتَ بِصُبَابة من الأمل ، ليكونن أمرك عليك غُمَّةً ، ولَنَأْتِيَنَّك بجنود لاقِبَل لك بها ، ولنُخْرِجنَّك منها ذليلا وأنت من الصاغرين ، ولولا انتظارنا كتابَ أمير المؤمنين بإعلامنا ما نعمل في شاكلته(٥) ، بلَغْنا بالسياط النِّياطَ ، وغَمَدْنا السيوفَ وهي كالَّةٌ ، وجعلنا عاليَهَا سافِلَها ، وجعلناها مأوَى الظُّلْمان(٦) والحيَّات والبُوم ، وقد ناديناك مِن كَثَب(٧) ، وأسمعناك إن كنت حيا ، فإن تُجِب تُفلِح ، وإن تأْبَ إلا غَيًّا نَجْزِك به ، وعَمَّا قليل لَتُصْبِحُنَّ نَادِمِينَ » .

(تاريخ الطبرى ١١ : ١٥٠)

---

(١) السراب ما تراه نصف النهار ، كأنه ماء ، والقيعة : جمع قاع : وهو أرض سهلة مطمئنة قد انفرجت عنها الجبال والآكام .

(٢) العزوب : الغيبة والذهاب ، أى عقلك الذاهب .

(٣) حاص عنه يحيص : عدل وحاد ، والسنة : الطريقة ، ونكص على عقبيه : رجع عما كان عليه من خير ، خاص بالرجوع عن الخير ، أو فى الشر نادر .

(٤) الشأو : السبق والغاية ، والصبابة : البقية .

(٥) الشاكلة : الطريقة والمذهب ، والنياط : عرق متصل بالقلب من الوتين إذا قطع مات صاحبه .

(٦) الظلمان : جمع ظليم : وهو ذكر النعام .

(٧) أى من قرب .

١٨٧ — كتاب محمد بن عباد إلى جعفر بن محمود الإسكافى

وكتب محمد بن عباد إلى أبى الفضل جعفر بن محمود الإسكافى[١] وزير المعتز بالله — وكان المعتز يختص به ويتقرب إليه قبل الوزارة — :

« مازِلتُ — أيدك الله تعالى — أذمُّ الدهر بذمِّك إياه ، وأنتظِر لنفسى ولك عُقباه ، وأتمنَّى زوالَ مَن لا ذنبَ له إلى عاقبة محمودة تكون بزوال حاله ، وأترك الإعذار فى الطلب ، على الاختلال الشديد ، ضِنًّا بالمعروف عندى إلا عن أهله ، وحَبْسًا لشِعْرى إلا عن مستحِقِّه » .

١٨٨ — رد جعفر على محمد بن عباد

فوقع فى كتابه :

« لم أؤخِّر ذِكرَكَ ناسيا لحظِّك ، ولا مُهمِلا لواجبك ، ولا مُوهِناً لمُهِمّ أمرك ، لكنى ترقبتُ اتساع الحال ، وانفساحَ الأعمال ، لأَخُصَّك بأسناها خَطَرًا ، وبأجلِّها قدرا ، وأعوَدِها نفعا عليك ، وأوْفرِها رِزقا لك ، وأقربها مسافةً منك ، فإذا كنت ممن تَحفِزه[٢] الأعمالُ ، ولا يتسع له الإمهالُ ، فسأختار لك خيرَ ما يشير إليه الوقت ، وأُنْعِم[٣] النظرَ فيه ، فأجعله أولَ ما أُمضيه » . (زهر الآداب ٣: ١٩٨)

---

(١) انظر خبره فى الفخرى ص ٢٢١ ، وفى زهر الآداب أنه ابن محمد وهو تحريف ، وصوابه ابن محمود كما فى الفخرى ، ويدل على ذلك ماجاء فيه ص ٢٢٢ : « واستوزره المعتز ثانية ، ولما تولى الوزارة فى المرة الثانية قال بعض الشعراء :

يا نفس لا تولعى بتفنيد وعلِّى القلب بالمواعيد
وانتظرى قدرأيت ماساقه الله إلى جعفر بن محمود

وفى تاريخ الطبرى أنه جعفر بن محمود أيضا — انظر ج ١١ : ص ١٦١ .

(٢) فى الأصل « تحفره » وهو تصحيف ، وصوابه « تحفزه » كما أثبته ، من حفزه كضربه أى دفعه وأعجله .

(٣) فى لسان العرب : أنعم النظر فى الشىء : إذا أطال الفكرة فيه ، وفيه أيضا وفى القاموس : أنعم فى الأمر بالغ .

١٨٩ — كتاب ابن طاهر إلى عماله

وفى سنة ٢٥٣ هـ مات محمد بن عبد الله بن طاهر — وكانت علته التى مات فيها قروحا أصابته فى حلقه ورأسه فذبحته — واستخلف محمد قبل موته أخاه عبيد الله على أعماله ، ووصى بذلك وكتب به إلى عماله ، ثم وجه المعتز الخلع وولاية بغداد إلى عبيد الله .

وهذه نسخة الكتاب الذى كتبه محمد بن عبد الله إلى عماله باستخلافه أخاه عبيد الله بعده :

« أما بعد : فإن الله عز وجل جعل الموت حَتْمًا مقضيًا جاريًا على الباقين من خَلْقه ، حسَبَ ما جَرَى على الماضين . وحقيقٌ على من أعطى حظا من توفيق الله أن يكون على استعدادٍ لِحُلُول ما لا بُدَّ منه، ولا مَحِيصَ[1] عنه فى كل الأحوال .

وكتابى هذا وأنا فى عِلّة قد اشتد الإشفاقُ منها ، وكاد الإياسُ يغلِب على الرجاء فيها ، فإن يُبِلْ[2] اللهُ ويَدْفع فبقدرته وكريم عادَته ، وإن يَحْدُث بى الحَدَثُ الذى هو سبيلُ الأولين والآخِرين ، فقد استخلفتُ عبيد الله بن عبد الله مَوْلَى أمير المؤمنين، أخى الموثوقَ باقتفائه أثرى ، وأخذه بِسَدِّ ما أنا بسبيله من سلطان أمير المؤمنين ، إلى أن يأتيه من أمره ما يعمل بحَسَبه ، فاعلَمْ ذلك وأْتَمِرْ فيما تتولاه بما تَرِدُ به كُتُبُ عبيدِ الله وأمرُه إن شاء الله » .

وكُتِب يوم الخميس الثلاثَ عَشْرَةَ خلت من ذى القعدة سنة ٢٥٣ هـ .

(تاريخ الطبرى ١١ : ١٥٥)

---

(١) أى لامفر ولا مهرب منه .

(٢) أى يبرئ ، من بل من مرضه إذا برأ ، وأبل أيضا .

١٩٠ — رقعة المعتز بخلع نفسه

واضطرب أمر المعتز واضطره الأتراك أن يخلع نفسه ففعل ، وبايعوا بالخلافة محمدا المهتدى بالله بن الواثق بالله سنة ٢٥٥ ، ثم قتلوا المعتز ، وكانت نسخة الرقعة بخلع المعتز نفسه :

« بسم الله الرحمن الرحيم : هذا ما أُشْهِدُ عليه الشهود المسَمَّوْن فى هذا الكتاب ، شَهِدوا أن أبا عبد الله ابن أمير المؤمنين المتوكل على الله أقرَّ عندهم وأشهدهم على نفسه ، فى صحة من عقله ، وَجَوازٍ من أمره ، طائعاً غيرَ مُكْرَه ، أنَّه نظر فيما كان تقلَّده من أمر الخلافة والقيام بأمور المسلمين ، فرأى أنه لا يَصْلُح لذلك ولا يَكْمُلُ له ، وأنه عاجز عن القيام بما يجب عليه منها ، ضعيف عن ذلك ، فأخرجَ نفسه وتبرَّأ منها وخَلَعها من رقبته وخلع نفسَه منها ، وبرَّأ كلَّ مَن كانت له فى عنقه بَيعةٌ ، من جميع أوليائه وسائر الناس ، مما كان له فى رقابهم من البيعة والعهود والمواثيق والأيمان بالطلاق والعتاق والصَّدَقة والحج وسائر الأيمان ، وحَلَّلهم من جميع ذلك ، وَجَعلهم فى سَعَةٍ منه فى الدنيا وَالآخرة ، بعد أن تبيَّن له أن الصلاح له وللمسلمين فى خروجه عن الخلافة والتبرِّى منها ، وأشهَدَ على نفسه بجميع ما سُمِّى ووُصِفَ فى هذا الكتاب جميعَ الشهود المسَمَّيْن فيه وجميعَ مَن حضر ، بعد أن قُرِئَ عليه حرفاً حرفا ، فأقرَّ بفهمه ومعرفته جميعَ ما فيه طائعاً غيرَ مُكْرَه ، وذلك يوم الاثنين لثلاث بقين من رجب سنة ٢٥٥ » .

فوقَّع المعتز فى ذلك :

« أقرَّ أبو عبد الله بجميع ما فى هذا الكتاب وكَتَبَ بخطه » .

وكتب الشهود شهاداتهم : شهدَ الحسن بن محمد ، ومحمد بن يحيى ، وأحمد بن جَناب ، ويحيى بن زكرياء بن أبى يعقوب الأصبهانى ، وعبد الله بن محمد العامرى ، وأحمد بن الفضل بن يحيى ، وحماد بن إسحاق ، وعبد الله بن محمد ، وإبراهيم بن محمد .

(تاريخ الطبرى ١١ : ١٦٢)

١٩١ — كتاب الموالى بالكرخ والدور إلى المهتدى

وفى سنة ٢٥٦ هـ انتشر الخبر فى العامة أن القوم على أن يخلَعُوا المهتدى ويفتِكوا به ، فتحرَّك المَوالِى بالكَرْخ والدُّورِ[1] ، وَوَجّهوا إلى المهتدى وسألوه أن يوجِّه إليهم أحد إخوته ، فوجَّه إليهم أخاه أبا القاسم ، فذكروا أنهم سامعون مُطيعون لأمير المؤمنين ، وأنه بلغهم أن موسى بن بغا وبايكباك وجماعة من قوّادهم يريدونه على الخلع ، وأنهم يبذُلون دماءهم دون ذلك ، وأنهم قد قرءوا بذلك رقاعا ألقيت فى المسجد والطُّرُقات ، وشكَوا مع ذلك سوءَ حالهم وتأخُّرَ أرزاقهم ، وما صار من الإقطاعات إلى قوادهم التى قد أجْحَفَتْ بالضِّياع والخراج ، وما صار لكبرائهم من المَعَاوِن والزيادات من الرسوم القديمة ، مع أرزاق النساء والدُّخلاء الذين قد استغرقوا أكثر أموال الخراج ، وكثر كلامهم فى ذلك ، فقال لهم أبو القاسم : اكتبوا هذا فى كتاب إلى أمير المؤمنين أتولَّى إيصاله لكم ، فكتبوا ذلك .

١٩٢ — رد المهتدى عليهم

فكتب المهتدى جواب كتابهم بخطه وخَتَمه بخاتمه ، وغدا أبو القاسم إلى الكرخ فوافاهم بكتاب المهتدى فقرئ عليهم ، وإذا فيه :

« بسم الله الرحمن الرحيم ، والحمدُ لله وصلَّى على محمد النبي وعلى آله وسلم تسليما كثيرا ، أرشَدَنا الله وإياكم ، وكان لنا ولكم وَلِيّا وحافظا ، فهمتُ كتابكم ، وسرَّنى ما ذكرتم من طاعتكم ، وما أنتم عليه ، فأحسَنَ الله جزاءكم ، وتولَّى حِياطتكم ، فأمّا ما ذكرتم من خَلَّتكم[2] وحاجتكم فعزيزٌ علىَّ ذلك فيكم ، ولوَدِدْتُ والله أن

---

(١) الكرخ : محلة ببغداد ، ودور بغداد : موضع بها أيضا .
(٢) الخلة : الحاجة .

صلاحكم يُهَيَّأْ بأن لا آ كلَ ولا أُطْعِم ولدى وأهلى إلا القوتَ الذى لا يَسَع شىء دونه، ولا أُلبِسَ أحدا من ولدى إلا ما سَترَ العورةَ ، ولا والله ـ حاطكم الله ـ ما صار إلىَّ منذ تقلدتُ أمركم لنفسى وأهلى وولدى ومتقدِّمى غِلمانى وحَشَمى إلا خمسةَ عشَرَ ألفَ دينارٍ ، وأنتم تقِفُون على ما وَرَد ويرِد ، وكل ذلك مصروف إليكم ، غيرُ مدَّخَر عنكم ، وأما ما ذكرتم مما بلغكم وقرأْتم به الرقاعَ التى أُلقيتْ فى المساجد والطرق ، وما بذلتم من أنفسكم ، فأنتم أهل ذلك ، وأين تعتذرون مما ذكرتم ، ونحن وأنتم نفس واحدة ، فجزاكم الله عن أنفسكم وعهودكم وأماناتكم خيرا ، وليس الأمر كما بلغكم ، فعلى ذلك فليكن عملكم إن شاء الله ، وأما ما ذكرتم من الإقطاعات والمَعَاون وغيرها ، فأنا أنظر فى ذلك وأصيرُ منه إلى محبتكم إن شاء الله والسلام عليكم ، أرشدنا الله وإياكم ، وكان لنا ولكم حافظا ، والحمد لله رب العالمين ، وصلى الله على محمد النبى وآله وسلم تسليما كثيرا » . (تاريخ الطبرى ١١ : ١٩٥)

١٩٣ — كتاب الموالى بالكرخ والدور إلى المهتدى

فلما فرغ القارئْ كثر الكلام ، فقال لهم أبو القاسم اكتبوا بذلك كتابا ، فكتبوا بعد أن دَعَوُا الله فيه لأمير المؤمنين:

« إن الذى يسألون أن تُرَدَّ الأمور إلى أمير المؤمنين فى الخاصّ والعامّ ، ولا يعترض عليه معترض ، وأن تردَّ رسومُهم إلى ما كانت عليه أيامَ المستعين بالله ، وأن يكون على كل تسعة منهم عَريف ، وعلى كل خمسين خليفة ، وعلى كل مائة قائد ، وأن تسقط أرزاق النساء والزيادات والمَعاون ولا يدخل مَوْلًى فى قَبَالة[1] ولا غيرها ، وأن يوضع لهم العطاء فى كل شهرين على مالم يَزَل ، وأن تبطُلَ الإقطاعات ، وأن يكون أمير المؤمنين يَزِيد من شاء ويرفع من شاء » .

---

(١) قبل به كنصر وسمع وضرب قبالة : كفل ، والقبيل : الكفيل والضامن .

وذكروا أنهم صائرون فى إثر كتابهم إلى باب أمير المؤمنين ، ومقيمون هناك إلى أن تُقضَى حوائجهم ، وأنه إن بلغهم أن أحدا اعترض على أمير المؤمنين فى شىء من الأمور أخذوا رأسه ، وإنْ سقط من رأس أمير المؤمنين شعرة قتلوا به موسى بن بغا وبايكباك ومفلحا وياجور وبكالبا وغيرهم ، ودَعَوُا الله لأمير المؤمنين ، ودفعوا الكتاب إلى أبى القاسم فانصرف به حتى أوصله .

١٩٤ — كتاب المهتدى إليهم

فأخذ المهتدى كتابهم ، ووقّع بإجابتهم إلى ما سألوا ، ثم كتب كتابا مُفْرَداً بخطه وختمه بخاتمه ، ودفعه إلى أبى القاسم . وصار أبو القاسم إليهم بكتاب أمير المؤمنين فقرئ عليهم فإذا فيه :

« بسم الله الرحمن الرحيم : الحمد لله وحْـدَه . وصلى الله على محمد النبى وآله وسلم .

أرشدكم الله وحاطكم وأمْتَع بكم ، وأصلح أموركم وأمور المسلمين بكم ، وعلى أيديكم ! فهِمتُ كتابكم وقرأته على رؤسائكم ، فذكروا مِثل الذى ذكرتم ، وسألوا مِثلَ الذى سألتم ، وقد أجبتكم إلى جميع ما سألتم ، محبةً لصلاحكم وأُلفتكم واجتماع كلمتكم ، وقد أمرت بتقرير أرزاقكم ، وأن تصير دارّةً عليكم ، فليست لكم حاجة إلى حركة ، فطيبوا نفسا والسلام » .

(تاريخ الطبرى ١١ : ١٩٧)

١٩٥ — كتابهم إلى المهتدى

فتكلموا كلاما كثيرا ، ثم كتبوا كتابا يعتذرون فيه بمثل العذر الأول إلى أمير المؤمنين ، وذكروا فيه خِصالا مما ذكروه فى الكتاب الذى قبله ، ووصفوا أنه لا يُقنِعهم إلا أن يُنفِذ إليهم خمسة توقيعات : ـ توقيعاً بحَطِّ الزيادات ، وتوقيعاً برَدِّ

الإقطاعات، وتوقيعا بإخراج الموالى البَوّابين من الخاصّة إلى عِداد البَرّانيين[١]، وتوقيعا بردّ الرسوم إلى ما كانت عليه أيام المستعين، وتوقيعا بردّ التلاجي[٢] — حتى يَدفعوها إلى رجل يضمُّون إليه خمسين رجلا من أهل الدور، وخمسين رجلا من أهل سامَرّا يتنجّزون من الدواوين، ثم يصيِّر أمير المؤمنين الجيشَ إلى أحد إخوته أو غيرهم ممن يَرَى، لِيَسفُرَ[٣] بينه وبينهم بأمورهم، ولا يكون رجلا من الموالى، وأن يُؤمر صالح بن وصيف فيحاسَب هو وموسى بن بغا على ما عندهم من الأموال، وأنه لا يُرضيهم دون ما سألوا فى كتبهم كلها، مع تعجيل العطاء وإدرار أرزاقهم عليهم فى كل شهرين، وأنهم قد كتبوا إلى أهل سامَرّا والمغاربة فى موافاتهم، وأنهم صائرون إلى باب أمير المؤمنين لِيُنجز ذلك لهم، ودفعوا الكتاب إلى أبى القاسم.

١٩٦ — كتابهم إلى القواد

وكتبوا كتابا آخر إلى موسى بن بغا وبا يكباك ومحمد بن بغا ومفلح وياجور وبكالبا وغيرهم من القواد كتابا ذكروا فيه:

« أنهم قد كتبوا إلى أمير المؤمنين بما كتبوا، وأن أمير المؤمنين لا يمنعهم ما سألوا إلا أن يعترضوا عليه، وأنهم إن فعلوا ذلك وخالفوهم لم يوافقوهم على شىء، وأن أمير المؤمنين إن شاكَتْه شوكةٌ أو أخِذ من رأسه شعرة، أخذوا رءوسهم جميعا، وأنهم ليس يُقنعهم إلا أن يَظهر صالح بن وصيف حتى يُجمَع بينه وبين موسى

(١) من قولهم « من أصلح جوانيه أصلح الله برانيه » أى من أصلح سريرته أصلح الله علانيته، أخذ من الجو والبر، والجو: كل بطن غامض، والبر: المتن الظاهر، فهاتان الكلمتان على النسبة إليهما بالألف والنون، وأصل البرانى من قولهم خرج فلان برا إذا خرج إلى البر والصحراء، وليس من قديم الكلام وفصيحه.

(٢) التلاجىء: جمع تلجئة، وهى الإكراه تفعلة من الإلجاء.

(٣) سفر بينهم كضرب ونصر: أصلح.

ابن بغا حتى ينظر أين موضع الأموال ، فإن صالحا قد كان وعدهم قبل استتاره أن يعطيهم أرزاق ستة أشهر » .

ثم دفعوا هذا الكتاب إلى رسول موسى .

١٩٧ — كتاب المهتدى إليهم

فأمر المهتدى سليمان بن وهب[1] بإنشاء الكتب على ما سألوا فى خمسة رِقاع ، فأنفذها المهتدى فى دَرْج كتاب معه بخطه ، ودفعه إلى أخيه أبى القاسم ، وكتب القواد إليهم جواب كتابهم ، ودفعوه إلى صاحب موسى ، فصار إليهم أبو القاسم وقرأ عليهم كتاب المهتدى فإذا فيه :

« بسم الله الرحمن الرحيم : وفَّقنا الله وإيا كم لطاعته وما يُرضيه ، فهمت كتابكم ـ حاطكم الله ـ وقد أنفذتُ إليكم التوقيعاتِ الخمس على ما سألتم ، فوكّلوا من يتنجّزها من الدواوين إن شاء الله ، وأما ما سألتم من تصيير أمركم إلى أحد إخوتى ليوصِّل إلىّ أخباركم ، ويؤدِّىَ إلىّ حوائجكم ، فوالله إنى لأحبُّ أن أتفقدَ ذلك بنفسى ، وأن أطَّلِعَ على كل أمركم وما فيه مصلحتكم ، وأنا مختار لكم الرجلَ الذى سألتم من إخوتى أو غيرهم إن شاء الله ، فا كتبوا إلىّ بحوائجكم وما تعلمون أن فيه صلاحكم ، فإنى صائر من ذلك إلى ما تحبُّون إن شاء الله ، وفقنا الله وإيا كم لطاعته وما يُرضيه » .

(تاريخ الطبرى ١١ : ١٩٨)

١٩٨ — كتاب القواد إليهم

وأوصل إليهم رسولُ موسى كتابَ موسى وأصحابه فإذا فيه :

« بسم الله الرحمن الرحيم ، أبقا كم الله وحفظكم وأتم نعمته عليكم ، فهمنا

---

(١) وزر للمهتدى بالله ، ثم من بعده للمعتمد على الله ، انظر ترجمته فى وفيات الأعيان ١ : ٢١٦ ، والفخرى ص ٢٢٣ والأغانى ٢٠ : ٦٧ .

كتابكم، وإنما أنتم إخواننا وبنو عمنا، ونحن صائرون إلى ما تحبون، وقد أمر أمير المؤمنين - أعزه الله - فى كل ما سألتم بما تحبُّون، وأنفذ التوقيعاتِ به إليكم، وأما ما ذكرتم من أمر صالح مولى أمير المؤمنين وتغيُّرنا له، فهو الأخ وابن العم، وما أردنا من ذلك ما تكرهون، فإن وَعَدَكم أن يُعطيَكم أرزاق ستة أشهر فقد رفعنا إلى أمير المؤمنين رِقاعا نسأله مثل الذى سألتم، وأما ماقلتم من ترك الاعتراض على أمير المؤمنين وتفويض الأمر إليه، فنحن سامعون مطيعون لأمير المؤمنين، والأمور مفوَّضة إلى الله، وهو مولانا ونحن عبيده، وما نعترض عليه فى شىء من الأمور أصلا، وأما ما ذكرتم أنا نريد بأمير المؤمنين سوءا، فمن أراد ذلك فجعلَ الله دائرة السوء عليه، وأخزاه فى دنياه وآخرته، أبقاكم الله وحفظكم وأتم نعمته عليكم». (تاريخ الطبرى ١١ : ١٩٨)

١٩٩ - كتاب على بن يحيى إلى سليمان بن وهب

ونالت علىَّ بن يحيى جَفوةٌ من سليمان بن وهب، فكتب إليه:

جَفانى أبو أيوبَ، نفسى فِداؤه ... فعاتَبْتُه كيما يريعَ ويُعْتِبا[1]

فواللهِ لولا الظنُّ منى بُودِّه ... لكان سُهَيْلٌ من عتابيهِ أقربا[2]

٢٠٠ - رد ابن وهب عليه

فكتب إليه سليمان:

ذكرتَ جفائى وهْو من غير شيمتى ... وإنِّى لَدانٍ من بعيدٍ تقرُّبا

فكيف بخِلٍّ لى أضِنُّ بوُدِّه ... وأُصفيهِ ودّا ظاهراً ومُغَيَّبا[3]

---

(١) راع يريع: رجع، وأعتبه: أعطاه العتبى بالضم وهى الرضا.

(٢) سهيل: نجم.

(٣) أصفيته الود: أخلصته.

عليُّ بنُ يحيَى لا عَدِمْتُ إخاءه فما زال فى كل الخصال مُهَذّبا
ولكنَّ أشغالاً عدَتْ وتواترَتْ فلما رأيتُ الشغلَ عاقَ وأتعبَا
ركَنْتُ إلى عُذْرِ الأخلاَّء إنهم كرامٌ وإن كان التواصُلُ أوجبَا
فإن يَطَّلِبْ منى عتابُك أوْبَةً ببرٍّ تجِدْنى بالإنابة مُعْتِبــــا(١)
(الأغانى ٢٠ : ٧٠)

٢٠١ — كتاب ابن وهب إلى سليمان بن عبد الله بن طاهر

وأهدى سليمان بن وهب إلى سليمان بن عبد الله بن طاهر سِلالَ رُطَبٍ من ضَيعته، وكتب إليه :

أذِنَ الأميرُ بفضلِهِ وبجُودِه وبنَيْــلِهِ
لِوليّه فى برِّهِ بجَنَاهُ شُكْرَ نخلِهِ
فبعثْتُ منــه بسَلَّةٍ تَحْكِي حلاوةَ عدلِهِ
(الأغانى ٢٠ : ٧١)

٢٠٢ — كتاب رجل إلى سليمان بن وهب

وكتب رجل إلى سليمان بن وهب وهو يتولى شيئاً من أعمال الضِّياع :

أطال اللهُ إســـعا دَكَ فى الآجِلِ والعاجِلْ
أمَا ترْعَى لِمن أمَّـــلَ فضلا حُرْمةَ الآمِلْ ؟
وعندى عاجلٌ من رِشْـــوة يَتْبَعُهـــا آجِلْ
وأنت العــالِمُ الشاهِـــدُ أنى كاتِبٌ عامِلْ
فوَلِّ الــكافِلَ الباذ لَ دُونَ العاجزِ الباخِلْ
فمــا أُنْثِي إلك السِّرَّ فِعَالَ الأخرقِ الجاهِلْ

---

(١) فى الأصل « بالأمانة » وهو تحريف .

٢٠٣ — رده عليه

فضحك وكتب فى رقعته :

أَبِنْ لى ما الذى تَخْطُبُ شَرْحاً أيها الباذِلْ ؟
وما تُعطِى إذا وُلِّيتَ تَعجيلاً وما الآجِلْ ؟
أَفِى الإسلافِ تنقيصٌ أمِ الوزنُ له كامِلْ ؟
وفى الموقوفِ تضمينٌ أمِ الوعْدُ به حاصِلْ ؟
وهل مِيقَاتُه الغَلَّةُ فى العامِ أو القابِلْ ؟
أَبِنْ لى ذاكَ ، واردُدْ رُقْعتى يا كاتبا عامِلْ

فلما قرأها الرجل قطع ما بينه ، ورد الرقعة عليه ، وولاه سليمان ما التمس .

(الأغانى ٢٠ : ٧١)

٢٠٤ — كتاب اعتذار لسليمان بن وهب

« أنا مُقِرٌّ معترف ، فما تُراك صانعا بمن أَعْلَقَك زِمامَه ، وأمكنَكَ من قِياده ، وحكَّمَك فى أمره ، معاقِباً له أو متفضِّلا عليه بالعفو عنه ؟ لـكنى أرجو أن أستقبلَ طاعةً لا تمتنِعُ مِن شُكرها ، واغتفار كل تقصيرٍ خَلاَ فى جَنبها ، فالأيام بما تحبُّ أمامَك » .

(اختيار المنظوم والمنثور ١٣ : ٣٨٥)

٢٠٥ — كتاب أبى العيناء إلى أبى الصقر إسمعيل بن بلبل

ولما وَلِىَ أبو الصَّقْر إسمعيل(١) بن بلبُل الوزارة للمعتمد(٢) على الله ، خيّر أبا العيناء فيما يحبُّه حتى يفعلَه به ، فقال : أريد أن تكتب إلى أحمد بن محمد الطائى

(١) انظر خبره فى الفخرى ص ٢٢٩ .

(٢) هو أبو العباس أحمد بن المتوكل . ولى الخلافة سنة ٢٥٦ ومات سنة ٢٧٩ ، وكان مستضعفا ، وكان أخوه الموفق طلحة هو الغالب على أمره .

تعرّفه مكانى ، وتُلْزِمه قضاء حقٍّ مثلى مِن خدمه ، فكتب إليه كتابا بخطه ، فوصّله إلى الطائى ، فسَيَّبَ[1] له فى مدة شهر مقدارَ ألفِ دينار وعشرة أجْمُل ، فانصرف بجميع مايحبه ، وكتب إلى أبى الصقر كتابا مُضَمَّنه :

« أنا ـ أعزك الله ـ طَلِيقُك من الفقر ، ونَقيذُك[2] من البؤس ، أخذتَ بيدى عند عَثْرة الدهر ، وكَبْوَة الكِبَر ، وعلى أيةِ حال حين فقدتُ الأولياء[3] والأشكالَ ، والإخوان والأمثال ، الذين يفهمون فى غير تعب ، وهم الناس الذين كانوا غِياثا الناس ، فحَلَلْتَ عُقدةَ الخَلّة[4] ، ورددت إلىّ بعد النفور النعمة ، وكتبت لى كتابا إلى الطائى ، فإنما كان منك إليك أثَبْتُه[5] ، وقد استصعبتْ[6] علىّ الأمورُ ، وأحاطت بى النوائب ، فكثَّر مِن بِشْره ، وبذَل من يُسْرِه ، وأعطَى من ماله أكرمَه ، ومن بِرِّه أحكمه ، مُكرِمًا لى مدةَ ما أقمتُ ، ومُثَقِّلا لى من فوائده لَمّا وَدَّعتُ ، حَكَّمنى فى ماله ، فتحكمتُ ، وأنت تعرف جَوْرى إذا تمكنتُ ، وزاد فى طَوْله[7] فشكرتُ ، فأحسنَ الله جَزَاك ، وأعظم حِمَاك ، وقدّمنى أمامك ، وأعاذنى من فَقْدك وحَمَاك ، فقد أنفقتَ علىّ مما ملَّكك الله ، وأنفقتُ من الشكر مايسّره الله لى ، والله عز وجل يقول : « لِيُنْفِقْ ذُو سَعَةٍ مِنْ سَعَتِه » فالحمد لله الذى جعل لك اليدَ العالية ، والرُّتبة الشريفة ، لاأزَال الله عن هذه الأمة مابَسَطَ فيها من عَدْلك، وبَثَّ فيها مِن رِفْدِك[8] » .

(زهر الآداب ٣ : ٩٥)

---

(١) السيب : العطاء ، وسيب هنا معناه : أعطاه .
(٢) النقيذ : المنقذ (بفتح القاف) .
(٣) الأولياء : جمع ولى ، وهو النصير ، والأشكال : جمع شكل ، وهو المثل .
(٤) الخلة : الفقر والحاجة ، وفى المثل « الخلة تدعو إلى السلة » والسلة بالفتح : السرقة .
(٥) أثابه : رجعه ورده .
(٦) استصعب الأمر : صار صعبا كصعب وأصعب (واستصعبه : وجده صعبا ، فهو لازم متعد) .
(٧) الطول والتطول : التفضل والامتنان .
(٨) الرفد : العطاء والصلة .

٢٠٦ — كتاب أبي العيناء إلى بعض الرؤساء

وكتب أبو العيناء إلى بعض الرؤساء — وقد وعده بشيء فلم يُنجزه : —

« ثِقَتِي بك تمنعني من استبطائك ، وعِلمِي بشُغْلك يدعوني إلى إذكارك ، ولستُ آمَنُ ـ مع استحكام ثقتي بطَوْلك ، والمعرفةِ بعلوّ همتك ـ اخترامَ الأجلِ ، فإن الآجال آفاتُ الآمال ، فسَحَ اللهُ في أجلك ، وبلَّغك منتهى أملك ، والسلام » .

(وفيات الأعيان ١ : ٥٠٥)

٢٠٧ — كتاب أبي العباس بن ثوابة إلى إسماعيل بن بلبل

وكتب أبو العباس[1] أحمد بن محمد بن ثَوَابة إلى إسمٰعيل بن بُلْبُل حين صاهَرَ الناصرَ لدين الله الموفَّقَ بالله :

« بسم الله الرحمن الرحيم ، بلغني ، الوزير — أيده الله — نعمةٌ زاد شكرها على مقادير الشكر ، كما أربَى مقدارها على مقادير النعمة ، فكان مَثَلُها قولَ إبراهيم بن العباس :

بَنُوكَ غَدَوا آلُ النبيِّ ووارِثوا الْـــخلافة والحاوُون كِسْرى وهاشما

وأنا أسأل الله تعالى أن يجعلها مَوْهِبة تَرتبطُ ماقبلها ، وتنتظِمُ ما بعدها ، وتصل جلالَ الشرف ، حتى يكون الوزير — أعزه الله — على سادة الوزراء مُوفِيا ، وبجميل العادة مستحقا ، ولمحمود العاقبة مستوجبا ، وأن يُلْبِس خَدَمه وأولياءه من هذه الحُلَل الغالية ما يكون لهم ذكرًا باقيا وشرفا مُخلَّدا » .

(معجم الأدباء ٤ : ١٥٧)

---

(١) انظر هامش ص ٢٤٧ .

٢٠٨ — كتاب عبيد الله بن عبد الله بن طاهر
إلى عبيد الله بن سليمان

ولما وَلِيَ عُبَيد الله[1] بن سليمان بن وهب الوزارة للمعتمد ، كتب إليه عبيدُ الله ابن عبد الله بن طاهر كتابا ، وفيه شعر له :

أَبَى دهرُنا إسعافَنا فى نفوسنا ... وأسعفَنَا فيمن نحبُّ ونُعْظِمُ
فقلتُ له : نُعْماكَ فيهم أَتِمَّها ... ودَعْ أمرَنا إنَّ المُهِمَّ المقدَّمُ

فلما قرأ عبيد الله هذا الشعر قال : ما أحسنَ ما احتال فى شكوى حالهِ بين أضعاف مدحه ، وأمر بإيصال رِقاعه إليه ، وقضى كل حاجة كانت له .

(أدب الكتاب ص ٢٣٤ ، ووفيات الأعيان ١ : ٢١٧ ، وزهر الآداب ٢ : ١٩٨)

٢٠٩ — كتاب سعيد بن عبد الملك
إلى عبيد الله بن سليمان

وحُجِب سعيد بن عبد الملك عن عبيد الله بن سليمان .

فكتب إليه :

« سِرْتُ إلى بابك — أعزك الله — عند ما حَدَث من أمرك ، فلم يُقضَ لِقاؤك ، وعلمتُ أن ثقتك بما عندى قد مثَّلتْ لك حالى من السرور بنعمة الله عندك ، وأرَتْك موضعى من الاعتداد بكل ما خصَّك وَوَصَلَ إليك ، فوكَلْتُ العذرَ إلى ذلك .

ثم إنا نأتيك مُتَيَمِّنين بطَلْعتك ، مشتاقين إلى رؤيتك ، فيحجُبُنا عنك ملاحظ ،

---

(١) انظر خبره فى الفخرى ص ٢٣١ ، وفى زهر الآداب : « ولما ولى سليمان بن وهب الوزارة . . . . »

وهو – كما علمتَ – كِنُّ[1] الصنيعة، لئيمُ الطبيعة، يحجُب عنك الكرامَ، ويأذَنُ عليك لِلئام، كلما نجمَتْ[2] له يدٌ بيضاء، أتبعَها يداً سوداء، فإن رأيتَ – أعزك الله – أن تصرِفَه من باب مكارمك فعلتَ إن شاء الله».

(زهر الآداب ٢ : ١٢١)

٢١٠ – كتاب أبي العيناء إلى عبيد الله بن سليمان

وكتب أبو العيناء إلى عبيد[3] الله بن سليمان بن وهب وزير المعتمد:

«أنا – أعزك الله تعالى – وولدى وعيالى زَرْعٌ من زرعك، إن أسقيته راعَ[4] وزكا، وإن جفوته ذَبُلَ وَذَوَى[5]، وقد مسَّنى منك جفاءٌ بعد برّ، وإغفالٌ بعد تعاهُد، حتى تكلم عدوّ، وشمِتَ حاسدٌ، ولعِبَتْ بى ظنونُ رجال كنتُ بهم لاعباً، ولهم مُخرِسا، ولله درُّ أبي الأسود في قوله:

لا تُهِنِّى بعدَ إذ أكرمتنى ... وشـديدٌ عادةٌ مُنتَزَعَهْ

(زهر الآداب ١ : ٢٩١، وعيون الأخبار ٨ : ١٩٥)

٢١١ – رد عبيد الله عليه

فوقّع في رقعته:

«أنا – أسعدك الله – على الحال التى عهدت، وميلى إليك كما علمتَ، وليس مَن أُنْسِيناه أهملناه، ولا من أخَّرناه تركناه، مع اقتطاع الشغل لنا، واقتسامه زماننا، وكان من حقك علينا أن تذكّرنا بنفسك، وتُعْلِمَنا أمرك، وقد وقَّعتُ لك برزق شهرين، لِتُزيحَ عِلَّتك، وتعرفنى مبلغَ استحقاقك، لأُطْلق لك باقىَ أرزاقك، إن شاء الله، والسلام». (زهر الآداب ١ : ٢٩١)

---

(١) كن الشيء: ستره. (٢) أى ظهرت.
(٣) وفى عيون الأخبار «إلى أبى القاسم بن عبيد الله بن سليمان» والصواب «إلى أبى القاسم عبيد الله بن سليمان».
(٤) راع يريع: نما وزاد، وزكا يزكو: نما أيضاً. (٥) أى ذبل.

٢١٢ — كتاب أبي العيناء إلى عبيد الله بن سليمان

وكتب أبو العيناء إلى عبيد الله بن سليمان ، وقد نكبه وأباه المعتمدُ[١] ، وهما يطالَبان بمال يبيعان له ما يملكانه من عَقارٍ وأثاثٍ وعَبْدٍ وأمَة ، وقد أُعطِيَ بخادم أسود لعبيد الله خمسون دينارا :

« قد علمتَ ـ أصلحك الله ـ أن الكريم المنكوبَ أجدَى على الأحرار من اللئيم الموفور ؛ لأن اللئيم يزيد مع النعمة لؤما ، والكريم لا يزيد مع المِحْنة إلا كَرَمًا ، هذا متّكِل على رازقه ، وهذا يُسيء الظن بخالقه ، وعَبْدُك إلى مِلك « كافور » فقيرٌ ، وثمنُه ـ على ما اتصل بى ـ يسير ، لأنه بخدمته السلطانَ ، يعرِّفني الرؤساء والإخوان ، ولستُ بواجدٍ ذلك فى غيره من الغِلمان ، فإن سَمَحْتَ به فتلك عادتُك ، وإن أمرت بأخذ ثمنه فالكَ ما دَّتى ، أدام الله دولتك ، واستقبلَ بالنعمة نكبتك » .

فأمر له به . (زهر الآداب ١ : ٢٩١)

٢١٣ — جواب لأحمد بن سليمان بن وهب

وقال الحسين بن إسحٰق : كنت عند أحمد[٢] بن سليمان بن وهب ، ونحن على شَراب ، فوافَتْه رُقعةٌ فيها أبياتُ مدح ، فكتب الجواب :

« وصَلَتْ رقعتُك ـ أعزّك الله ـ فكانت كوصل بعد هَجْر ، وغنًى بعد فقر ،

---

(١) قدمنا أن الموفق طلحة . كان هو الغالب على أمر أخيه المعتمد ، وجاء فى الأغانى (ج ٢٠ ص ٧٢) « أن الموفق إنما استكتب سليمان بن وهب وابنه عبيد الله ليقف منهما على ذخائر موسى بن بغا وودائعه فلما استقصى ذلك نكبهما لكثرة مالهما » وجاء فى تاريخ الطبرى (ج ١١ : ص ٢٠١) « وفى سنة ٢٦٤ خرج سليمان بن وهب من بغداد إلى سامرا ، ومعه الحسن بن وهب ، فلما صار بسامرا غضب عليه المعتمد وحبسه وقيده وانتهب داره ودارى ابنيه وهب وإبراهيم . . . » .

(٢) انظر ترجمته فى معجم الأدباء ٣ : ٥٤ .

وظَفَر بعد صَبْر ، ألفاظُها دُرٌّ مَشُوف[1] ، ومعانِيها جَوهر مرصوف ، وقد اصطحبا أحْسَن صُحبْة ، وتألّفَا أقربَ أُلفة ، لا تمُجُّها الآذانُ ، ولا تتعبُ بها الأذهانُ ، وقرأتُ في آخرها من الشعر مالم أملِكْ نفسي أن كتبتُ ـ لجلالته عندي ، وحُسْنِ موقعه من نفسي ـ بما لا أقومُ به ، مع تحيُّفِ[2] الصَّهباء لُبِّي ، وشُرْبها من عقلي مِقدارَ شُرْبي ، ولكنّي واثق منك بطيِّ سيِّئتي ، ونشرِ حَسَنَتي :

نفسِي فِداؤكَ يا أبا العباس وافَى كتابُك بعد طُول اليَاسِ
وافَى ، وكنتُ بوَحْشَتي متفرِّدًا فأصارني للجَمْعِ والإيناس
وقرأتُ شعرَكَ فاستطَلْتُ لحُسْنه فخراً على الخُلطاء والجُلّاس[3]
عاينتُ منه عيونَ وَشْيٍ سُدِّيَتْ ببدائعٍ في جانب القِرطاسِ[4]
فاقت دقائقُه وجَــلَّ لحُسْنه عن أن يُحَدَّ بفِطْنة وقياس
شِعرٌ كجَرَى الماء يخرجُ لفظُه مِن حُسْن طبعك مَخْرَجَ الأنفاسِ
لو كان شِعر الناس جِسْمًا لم يكن لِكماله إلّا مَكانَ الرّأسِ

(معجم الأدباء ٣ : ٥٠٦)

٢١٤ — كتابه إلى ابن أبي الأصبغ

وكتب أحمد بن سليمان بن وهب إلى ابن أبي الأصْبَغ[5] :

« لو أطعتُ الشوقَ إليك ، والنِّزَاعَ[6] نحوكَ ، لكثُر قَصْدِي إلك وغِشْياني[7]

---

(١) مشوف : مجلو ، من شافه يشوفه شوفا : أي جلاه .
(٢) تحيفه : تنقصه من حيفه ، والحيف كعنب : جمع حيفة بالكسر ، وهي الناحية .
(٣) الخلطاء : جمع خليط ، وهو المخالط ، وفي الأصل « على الخلفاء » وأراه محرفا .
(٤) الوشي : نقش الثوب ، سديت ببدائع : أي جعلت البدائع سدى لها ، والسدى بالفتح : الخيوط التي تمد طولا في النسج (واللحمة بالضم والفتح : ماينسج عرضاً) .
(٥) هو أبو العباس أحمد بن محمد بن أبي الأصبغ، انظر الفهرست لابن النديم ص١٨٤، وفي الأصل « ابن أبي الإصبع » .
(٦) نزع إلى أهله كضرب نزاعة بالفتح ، ونزاعا بالكسر ، ونزوعا بالضم : اشتاق .
(٧) غشيه غشيانا : جاءه .

إياك ، مع العِلّة القاطعة عن الحركة ، الحائلةِ بيني وبين الركوب ، فالعِلّةُ إن تخلفتُ مُخَلِّفتي ، وإيثارُ التخفيف يؤخِّر مكاتبتي : فأمّا مودّة القلب ، وخلوصُ النية ، ونقاء الضمير ، والاعتدادُ بما يجدّده الله لك من نعمة ، ويرفعك إليه من درجة ، ويبلِّغك إياه من رُتبة ، فعلى ما يكون عليه الأخُ الشقيق ، وذو المودّة الشفيق ، وأرجو أن يكون شاهِدِي على ذلك من قلبك أعدلَ الشهود ، ووافِدِي بإعلامك إياه أصدقَ الوُفود ، وبِحَسْبِ ذلك انبساطي إليك في الحاجة تَعرِض قِبَلك ، ويُعْنَى بالنجاح منها عندك ، وعَرَضَتْ حاجةٌ ليس تمنعني قلّتُها من كثير الشكر عليها ، والاعتدادِ بما يكون من قضائك إياها ، وقد حَمّلتُها يحيى لتسمعَها منه ، وتتقدّمَ بما أُحِبُّ فيها ، جارياً على كَرَم سَجِيّتك ، وعادةِ تفضُّلك إن شاء الله » .

(معجم الأدباء ٣ : ٦٠)

٢١٥ — كتابه إلى أخيه عبيد الله بن سليمان

وكتب إلى أخيه الوزير عُبيد الله بن سليمان — وقد سافر ولم يودِّعه — :

« أطال الله بقاء الوزير ، مُصْحِبا له السلامةَ الشاملة ، والغِبْطةَ المتكاملة ، والنِّعمَ المتظاهِرَةَ ، والمواهِبَ المتواتِرَة ، في ظَعْنه ومُقامه ، وحَلِّه وتَرْحاله ، وحركته وسكونه ، وليلِه ونهاره ، وعجّلَ إلينا أَوْبته ، وأقرّ عيوننا بِرَجْعته ، ومتّعَنا بالنظر إليه .

كان شخُوصُ الوزير — أعزه الله — في هذه المدة بَغتة أعجَلَ عن توديعه ، فزاد ذلك في وَلَهِي ، وإضرامِ لَوْعَتي ، واشتدت له وَحْشَتي ، وذكرتُ قول كُثَيِّر :

كنتم تَزِينُون البلادَ ففارقَتْ (عَشِيَّةَ بِنْتُمْ) زَيْنَها وجَمالَهَا

(١) حدائك : ساقك .

فقد جعل الراضونَ إذ أنتُمْ لِما بخِصْبِ البلاد يشتكون وبالمَا

والوزير — أعزه الله — يعلم ما قيل فى يحيى بن خالد :

ينْسى صنائِعَه ويذكُرُ وعْدَه ويَبيتُ فى أمثالِهِ يتفكَّرُ »

(معجم الأدباء ٣ : ٦١)

٢١٦ — كتابه إلى صديق له

وكتب إلى صديق له :

« ليس عن الصديق المخلِص، والأخِ المشارِكِ فى الأحوال كلها مَذْهَب، ولا وراءه للواثق بهِ مَطْلَب، والشاعر يقول :

وإذا يُصيبك (والحوادثُ جَمَّةٌ) حَدَثٌ حَذَاكَ إلى أخيك الأوثقِ[١]

وأنت الأخ الأوثق، والولىُّ المشفِق، والصديق الوَصول، والمشارِك فى المكروه والمحبوب، قد عرَّفنى الله من صدق صَفائك، وكَرَم وفائك، على الأحوال المتصرِّفة، والأزمنة المتقلِّبة، ما يستغرِقُ الشكرَ، ويستعبد الحُرَّ، وما من يوم يأتى علىَّ إلا وثِقَتِى بك تزداد استحكاماً، واعتمادى عليك يزداد تأكُّداً والتئاماً، أنبسِط فى حوائجى، وأثِقُ بنُجْح مسألتى، واللهَ أسألُ لك طولَ البقاء فى أدوَمِ النعمة وأسْبَغِها[١]، وأكمَلِ الموافى وأتمِّها، وألَّا يسلُبَ الدنيا نَضْرَتَها[٢] بك، وبهجتها ببقائك، فما أعرِفُ بهذا الدهر المتنكر فى حالاته، حَسَنَةً سواك، ولا حِيلةً غيرَك، فأُعيذُكَ بالله من العيون الطامِحة، والألسنة القادِحَة، وأسأله أن يجعلك فى حِرْزِه الذى لا يُرام، وكَنَفِهِ الذى لا يُضام، وأن يحرُسَك بعينه التى لا تنام، إنه ذو المَنِّ والإنعام» .

(معجم الأدباء ٣ : ٦٢)

---

(١) أى وأتمها . (٢) أى بهجتها ورواؤها .

٢١٧ — كتاب أبي العباس بن ثوابة إلى عبيد الله بن سليمان

ومن فصل لأبي العباس أحمد بن محمد بن ثوابة إلى عبيد الله بن سليمان :

« لم يُؤتَ الوزيرُ من عدم فضيلة ، ولم أُوتَ من عدم وسيلة ، وغُلَّةُ الصادِى[١] تأبَى له انتظارَ الوارد ، وتُعْجِل عن تأمُّل ما بين الغدير والوادى ، ولم أزَلْ أترقَّب أن يُخْطِرنى بباله ، ترقُّبَ الصائم لِفطره ، وأنتظِرُه انتظارَ السَّارى الفَجْره ، إلى أن بَرِح الخفاء[٢] ، وكُشِفَ الغِطاء ، وشمِتَ الأعداء ، وإنَّ فى تخلُّفى وتقدُّمِ المقصرين ، لآيةً للمتوسمين ، والحمد لله رب العالمين » .

(معجم الأدباء ٤ : ١٤٧)

٢١٨ — كتاب له

ومن كلام أبي العباس :

« مِن حقِّ المكاتبة أن يسبِقَها أُنْسٌ ، وينعقِد قبلها وُدٌّ ، ولكنَّ الحاجة أعجلَتْ عن ذلك ، فكتبتُ كتابَ من يُحْسِن الظن إلى من يحقِّقه » .

(معجم الأدباء ٤ : ١٧٤)

٢١٩ — كتاب ابن ثوابة إلى عبيد الله بن سليمان

وكتب ابن ثَوابة إلى عبيد الله بن سليمان يعتذر إليه من تركه مكاتبته بالتفْدِية[٣] :

« الله يعلم ـ وكفى به عليما ـ لقد أردتُ مكاتبتك بالتفدية ، فرأيتُ عَيْبا أن أفْدِيَك بنفسٍ لابُدَّ لها من الفناء ، ولا سبيل لها إلى البقاء ، ومَن أظهر لك شيئاً

---

(١) الغلة : حرارة العطش ، والصادى : العطشان .

(٢) أى انكشف الأمر ووضح ، أخذه من قول حسان :

ألا أبلغ أبا سفيان عنى مغلغلة فقد برح الخفاء .

(٣) فى زهر الآداب « فى التعزية » .

يُضمِر خِلافَه فقد غشَّ ، والأمرُ إذا كانت الضرورة توجبه ، وتُحقِّق أنه ملك لا يتحقَّقُ ، وعطاء لا يتحصَّلُ ، لم يَجُز أن يخاطَب به مثلُك(١) ، وإن كان عند قوم نهايةً من نهايات التعظيم ، ودليلًا من دَلالات الاجتهاد ، وطريقًا من طرق التقرب » .

(أدب الكتاب ص ١٥٥ ، وزهر الآداب ٣ : ٢٦)

٢٢٠ — جواب عن تعزية لابن ثوابة

« وصل كتابك بالتعزية عن أخي وفهمتُه ، وقد جَلَّت مصيبتي به وعظُمَت ، فنكأَتِ(٢) القلبَ ، وهدَّتِ الركن ، وأذهبت القوة ، ونغَّصَتِ العيشَ ، وأزْرَتْ بالأمل ، فعند الله أحتسبُه ، وإياه أسأل تفضُّلًا عليه ، وصفحًا عنه ، وتغمُّدًا(٣) لذنوبه ، وصبرًا على حادث قضائه ، واستعدادًا للموت وتأهُّبًا له ، فإنه مَصْرَع لا بد منه ، ومَوْرِدٌ لا مَحِيصَ عنه .

وقد كنت استجفَيْتُ كتابك ، وأنكرت تأخُّر تعزيتك وعدَدْتُ ذلك من هَفَوات الإخوان الذين يقع التقصير منهم ، وتصِحُّ نِيَّاتهم وضمائرهم ، فرددتُ الزللَ من فعلك ، إلى موثوقٍ به من نيتك وضميرك ، وأسأل الله ألَّا يُعْدِ مَنَاك على أحوالك كلِّها ، ويمتّعنا بمواهبه فيك » .

(اختيار المنظوم والمنثور ١٣ : ٣١٣)

٢٢١ — تعزية له إلى ابني عمر

« أنا أستهجنُ وصْفَ مشاركتكما عند كل حادث من نازلةٍ بكما ، اكتفاء بالحال ، ومتأكِّد الوصل والأسباب ، وَحَدَثَت هذه المصيبةُ ، فالله يعلم ما أثَّرَتْ بقلبي ،

---

(١) في زهر الآداب « والأمر إذا كانت الضرورة توجب أنه ملك لا يحقق إعطاء ، ولا يتحصل لم يجب أن يخاطب به مثلك » وفي أدب الكتاب « فقد غش ، والأم ، إذ كانت الضرورة توجبه ، وتحقق أنه ملق لا يتحقق ، وعطاء لا يتحصل ، وإن كان عند قوم . . . » وكلاهما محرف .

(٢) من نكأ القرحة كمنع : قشرها قبل أن تبرأ فنديت .

(٣) أي سترا وغفرانا لها .

وهدّت من قوتى ، ومثّلت مِن قُرب المنيّة لى ، فإن المصائب نوائب ، ومَن رأى حُلُولَها بغيره عَلِمَ أنها حالّة فى نفسه ومَن يتصلُ به ، ولقد اشتد جزعى لذلك وَوَحْشتى منه ، وَمِن خُلُوِّ منازلكما من الأم البَرّة ، والأخت الطاهرة ، مع قِصَر أيام ، وقُرب مدة ، وعدم سَلْوة ، رضى الله عنكما ، ولا نَقَصَ لكما عددا .

وعزيزٌ علىّ أن أتخلّف عن حقكما ، أو أمرٍ يَلزَمنى فيه ما يلزم كافّةَ أهلكما ، لكنى فى حال قد عرَفتماها[(١)] ، فإن اتسع لى العذرُ مع ما تازعنى فيه من أحوالكما ، وإلّا فإنّ فى تفضّلكما موضعَ احتمالِ الهفوة ، وتغمُّد الزّلة ، وإقالة العثرة ، والرجوع إلى نية قد صحّت ، وطَوِيّة قد خَلَصَتْ واستحكمت » .

(اختيار المنظوم والمنثور ١٣ : ٣١٣)

٢٢٢ — عهد من الموفق إلى أحد الولاة
كتبه ابن ثوابة

« هذا[(٢)] ماعَهِد به أبو أحمد الموفّق بالله ولىّ عهد المسلمين ، إلى فلان ، حين ولّاه الصلاة بأهل كُورَة الرّىّ ودُنْباوَنْد[(٣)] ونواحيها والحرب والأحداث فيهما .

أمَره بتقوى الله وطاعته ، وخَشْيته ومراقبته ، فى سِرّه وعلانيته ، وظاهِرِ أمره وباطنه ، والعملِ بما أمرَ اللهُ به ، والانتهاء عما نهى عنه فيما وافقه وخالَفه ، وأرضاه وأسخطه ، فإنه من يتّقِ الله يَقِه ، وَمن يعتصم به يَهْدِه ، ومن يُطِعْه يتولَّه ويكفِه ، « إنّ اللهَ مَعَ الّذِينَ اتّقَوْا وَالّذِينَ هُمْ مُحْسِنُونَ » .

وأمرَه أن يُشْعِر قلبَه خيفةَ الله وهيبته والتفويضَ إليه ، والاعتمادَ عليه ، وأن يجعلَ كتاب الله عز وجل له إماما ، وسُنّة نبيه صلى الله عليه وسلم مِثالاً ، فإن فيهما دلالةً وتِبْيانا ، وضياء ونوراً وشِفاء لِما فى الصدور ، وهُدًى وَرَحْمةً للمؤمنين .

---

(١) فى الأصل « قد عرّفتكما » وربما كان الصواب « قد عرّفتكما إياها » .

(٢) تأثر فيه عهد المهدى السابق واقتبس منه — انظر ص ١٣٢ من الجزء الثالث .

(٣) جبل من نواحى الرى .

وأمَرَه أن يكون أول ما يُعْنَى به ويقدّمه ، ويراعيه ويُؤثره ، إقامة الصـــلاة لمواقيتها ، بإتمام ركوعها وسجودها ، وأداء فرض الله فيها ؛ إذ كانت عمادَ الدين ، وأفضلَ ما تقرَّبَ به المؤمنون ، وكان من أضاعها وقصَّر في واجبها ، أشدّ تضييعا لما سواها من حقوق الله عزوجل وفرائضه ودينه وشرائعه «وَإِنَّهَا لَكَبِيرَةٌ إِلاَّ عَلَى الْخَاشِعِينَ» .

وأمره أن يُلْهِمَ نفسَه في كل حال من حالاته ، وصغيرٍ وكبيرٍ من أمره ، ذِكْرَ الله جل ثناؤه ، وقدرَته عليه ، وألاَّ يمضِيَ أمرا إلا بعد استخارة الله عز وجل فيه ، واستقضائه في ذلك بالذي هو له أرْضَى ، وعنده أزكَى ، فإن العاقبة للتقوى ، وإن أفضل الأمور خيرُها عاقبةً ، وأحمَدها مَغَبَّـةً ، وما التوفيق إلا بالله ، عليه يتوكل المتوكّلون :

وأمَره أن يُحْسِن الولاية لأهل عمله ، والسياسةَ لمن اسْتَرْعِي أمْرَهُ ، ويُكثِر الجلوسَ لهم ، والنظرَ في أمورهم ، ويُفيض العدلَ والنَّصَفة فيهم ، ويكُفّ العدو الظالم عنهم ، ويسوِّي الحق بين كافتهم ، ولا يميل إلى شريف في شرَفه ، ولا على خامل لسقوط منزلته ، وأن يختـــار الولاية أعماله حاضرِها ونائيها ، وقريبها وبعيدها ، ذوى العفاف والشهامة والكفاية ، ويُوعِز إليهم في الرفق بأهلها ، والتألُّفِ لمن حَسُنت طاعتهُ ، واستقامت طريقته ، والشدةِ على من خالف الحقّ مذهبُه ، ولا يكون لأحد عنده إغضاء عن ريبةٍ يشتمل عليها ، وسبيل غير محمودةٍ يسلُكُها ، فإن في إقامة الحق صلاحا وخيراً كثيراً ، وفي التَّفريط ضررا وخَلَلا عظيما .

وأمَرَه أن يتفقَّد مَن معه من مَوالى أمير المؤمنين وأوليائه ، ويُحْسِنَ صُحبتهم وَعِشْرَتَهُمْ ويتفقَّد أمورَهم ومصلحتهم ، ويراعى أحوالهم في طاعتهم ومناصحتهم ومذاهبهم فيما يُصَرِّفهم فيه ، ويُهيب[١] بهم إليه ، ويُنزِلهم منازلهم على حَسَب مايحمَد ويذُمّ منهم ، ليزداد محسِنُهم في إحسانه ، ويَنزِع مُقصِّرهم عن تقصيره .

---

(١) أهاب به : دعاه .

وأمَرَه أن يقدِّم أهل الفضل والصلاح والشايعة والمُوالاة والنصيحة للسلطان ويُدْنيهم ويقرِّبهم ، ويسمع منهم ، ويعرف لهم ما سَدُّوا ، ويَظْهر من نصائحهم ، ويُحْمَد من حالاتهم ، حتى يدعوَ مِن فعله بهم غيرَ هم إلى سلوك مناهجهم ، والاقتداء بهم ، والزوم لِهَدْيهم ، وأن يتخذ أهل العفة والرأى والسِّنِّ والوَرَع جُلساءه وبطانته ويشاورَهم فى أمره ، ويستعين بآرائهم فيما هو مُصْدِره ، حتى يكون ما يُمْضى ويُنْفِذ منه بحَسَب ما يجتمعون عليه ، ويرَوْنه موافقا للحق والعدل ، ومجانبا للظلم والجَوْر .

وأمَرَه أن تكون أحكامُه فيما ينفرد بالنظر فيه ، وإقامتُه من الحدود وما أشبهها ، بما يجب لله عليه فى ذلك ، من اتّباع مُحْكَمِ تنزيل ، أو مأثورِ سُنَّةٍ ، أو رأى يتفق عليه تَبيلٌ[1] مُحْسِنٌ ومن يليه من الفقهاء وذوى المعرفة ، وألاَّ يُقْدِم على سَفْك دم ، ولا تخليةِ سبيل محبوس ، ولا قَطْعِ مستحِقٍّ القطع ، حتى يكتبَ إليه باسمِ مَن وجَبَ ذلك عليه ، واسمِ أبيه وقِصَّته ، فى إقرارٍ إن كان منه ، أو بيِّنةٍ إن قامت عليه ، وأسماءِ تلك البينة ، وما تُعْرَف به فى أنسابها ومواضعها ، وما شهِدَتْ به ، وعدْلها فيمن هى منه ، ليأتيَه الأمرُ فيه بتمثله ، فإن هذين الحدَّيْن من أجلِّ الأحكام منزلةً ، وأعظمِها تَبِعةً ، وأولاها بالحَظْر ، إلى أن يوقَف على حقيقة ما يجب فيها ، ويأمر السلطان — أعزه الله — بما يوفّقه الله فى إقامتها إن شاء الله .

وأمَرَه ألاَّ يأخذ أحداً من الرَّعية بقِرْفة[2] ولا إحْنَة ، ولا يعرِض لأحد من أهل البراءة والسلامة والاستقامة ، ولا يُلْحق بِهِمْ جرائرَ أهل النَّطَفِ[3] والرِّيبة ، وأن يُشْرِف على أهل الدَّعارة والفساد فى عمله . ويَقْمَعهم ويرْدَعهم ، فيشرِّد بهم ، ويعاقب مَن استحق العقوبة منهم بقَدْر جُرْمه ، وبحَسَب ما حُدَّ فى مثله ، من غير أن يبلُغَ بأحدٍ ممن لا يجب عليه الحدُّ حدًّا ، فإن لكل شىء قدرا ، ولن يستطيع الرأىَ فيمن

---

(١) فى الأصل « سبيل » وأراه محرفا ، والنبيل : الذكى النجيب ، والواو فى « ومن » للمعية .

(٢) قرفه بسوء : رماه به واتهمه ، والقرفة بالكسر : التهمة ، والإحنة: الحقد .

(٣) نطف كفرح وعنى نطفا بالتحريك ونطافة ونطوفة : اتهم بريبة وتلطخ بعيب وفسد .

أشكلَ عليه مقدارُ تأديبه ، ومن لا يُصْلِحه إلا المبالغةُ فى عقوبته ، ويكتب بحاله وشَرْح جريمته ، ليأتيَه الرأىُ فيه بما يعمل به إن شاء الله .

وأمَرَه أن يصرفَ عنايته إلى النواحى التى تصاقِبُ[1] عمله ، من نواحى الأعداء المكتنِفَةِ له ، ويرتِّب بإزائها مَن يسُدُّ خَلَلَها ، ويَرْتُق فتقَها ، ويراعيهم بإشرافه وتفقُّده ، ويعاجل مَن يحتاج إلى معاجلته ممن نَجَمَ[2] وينجُم بها ، ويخاف عاديتَه وشرَّته ، ويناهضه بنفسه وبكافَّة الأولياء الذين معه ، ويستعمل فى أمره ما يَدْفع اللهُ به مكروهَه ومَعَرَّتَه ، مُؤْثِرًا فى ذلك اليَقَظةَ على الغَفْلة ، والجِدَّ على الفُتُور ، فإن مراعاة أولئك الأعداءِ وكَفَّ عاديتهم ، من أهم الأمور التى يتقلَّدها ، ويؤمِّل عنده الكفايةُ لها ، وأن يتقدَّم إلى مَن قِبلَه من التجار وغيرهم ألاَّ يجاوزوا شيئًا من عمله إلى شىء من تلك النواحى بالمِيَرِ[3] والأسلحة ، ولا يحملوا تلك المِيَرَ إليها ، ويُظْهِر النداءَ فيهم ، فمن تجاوَزَ أمرَه وتعداه تقدَّم فى حبسه وكتب باسمهِ واسم أبيه وإحصاءِ ما وُجد معه من أصناف المِيَر وغيرها ، ليأتيه الأمر بما يمتثله إن شاء الله .

وأمَرَه أن يتفقدَ طَرَفَ عملِه ومَسَالِحَه[4] بالضَّبْط لها ، وبَذْرَقَةِ[5] السَّابلةِ المختلفة فيها ، ويبلغ فى ذلك المبلغَ الذى يرجو معه بإذن الله أمْنَها وسلامتها ، ويرتِّب فيها الثقاتِ من أصحابه ، وأهلَ الجَلَد من جنده وأعوانه ، ويأمرهم بمراعاة ما يوكِّلُهم به منها ، ورَفْع مَئُوناتهم عمن يجتاز بها ، حتى لا يُلزِمَهم جنايةً بسبب ثأر ولا غيره ، وألاّ يحمِّل أحدا منهم كُلْفةً ولا نائبة[6] ، فإن فى ذلك رِفقا بهم ، وصلاحا لهم ،

---

(١) صاقبه : قاربه .
(٢) أى ثار ، من نجم النبات : إذا ظهر وطلع .
(٣) جمع ميرة بالكسر : وهى الطعام .
(٤) المسالح جمع مسلحة بالفتح : وهى الثغر ، والقوم ذوو سلاح .
(٥) البذرقة : الخفارة ، فارسية معربة ، والمبذرق : الخفير .
(٦) فى الأصل « ياسه » والنائبة : ماينوب الإنسان أى ينزل به من المهمات والحوادث .

وعمارةً لِطُرقهم ، ودُرُوراً لتجاراتهم ، ووصولا للنفع إلى البُلْدان التى يقصِدونها التجارات ، وأمْنا من انقطاعها عنها بإذن الله .

وأمَره أن يُحْسِن مَعُونةَ أحمد بن محمد ، للتقلّد لأعمال الخراج والضِّياع قِبَله ، على ما استعانه عليه ، بما فيه زَجَاء[1] الخراج ، ودُرُورُ جبايته ، وبُزِيحَ عِلَّتَه[2] فيمن يحتاج إلى إشخاصه اليوم[3] من المتنِعين والدافِعين بما يجبُ عليهم ، وفى سائر ما يلتمسُ منه المعونةَ عليه ، وأن يضُمَّ إليه من الأعوان العِدَّةَ التى لم تَزَلْ تُضَمّ إلى المتولِّى لِما قُلِّده ، ويعمل على أن ذلك من أَولَى ما قدَّمه وآثَرَه ، واستفرغَ فيه وُسْعَه ، للصلاح العائد به ، والحظِّ الراجع فيه إن شاء الله .

وأَمَره أن يتفقَّد مَن فى الحبس قِبَله ، ويُكْثِر عَرْضَهم والنظرَ فى أمورهم ، والأسباب التى حُبِسوا بها ، ولا يَقصِد لإطالة حَبْسِ من لا يجب ذلك عليه ، ولا لإطْلاق ما يوجب الحقُّ تخليدَه ، ويعمل فى أمورهم ومشاورةِ أهل الفِقه فيهم ، وإقامة التأديب والحدودِ عليهم ، بما حُدَّ فى أمثالهم إن شاء الله .

وأمرَه ألاّ يَقسِم على أهل عمله قِسْمةً بسببِ نُزُلٍ[4] ولا غيره ، مما كان شِرارُ العُمَّال يوظِّفونه ويقسِمونه على أهل أعمالهم ، ويتجنَّب الطُّعَم[5] الشائنةَ ، والمكاسبَ الرديئة ، ويَحذر أن يَعرِض لشىء منها ، أو يُطلقَهَ لأحدٍ من كُفاته ، فيَرِدَ عليه من النَّكير ما هو حَرِىٌّ بتوقّيه والتصوُّن عنه .

وأمرَه أن يتقدَّم فى تعريف ما يوجد من الضَوَالِّ[6] فى عمله والإشادةِ بذكرها ، فإن عَرَف أحد ضالَّةً منها ، وأوضَحَ مِلكَه إياها بما يوضّح به مثله ، سُلِّمت إليه ،

---

(١) زجا الخراج يزجو زجاء : تيسرت جبايته .
(٢) فى الأصل « ويرتج عليه » وهو تصحيف .
(٣) كذا فى الأصل ، والأظهر أنه « إلينا » .
(٤) النزل كعنق وقفل : ماهيء للضيف أن ينزل عليه .
(٥) الطعم جمع طعمة بالضم : وهى وجه المكسب .
(٦) الضوال جمع ضالة : وهى الحيوان الضائع لايعرف له رب ، وقد تطلق الضالة على المعانى .

وأشْهِد بها عليه ، وإن لم يحضُر لها طالب ، وأشفَقَ من ضَياعها ، باعها فى أسواق المسلمين بأقْصَى أثمانها ، وأحْوَطِ ما يُعْمَل به فى أمرها ، وسَلَّم ثمنها إلى عامل الخراج قِبلَه ، ليجعله عَزْلاً(١) فى بيت المـال ، فإن استحقَّه مستحقٌّ بعد ذلك دفعـه إليه إن شاء الله .

وأمره أن يحبس مَن ظفِرَ به من أبّاق(٢) أرقّاءِ المسلمين والمعاهَدين ويستوثق منهم ، ويسأل عن أسمائهم وأسماء مواليهم ومواضعهم ، ويكتب بذلك إلى العمال الذين هم فى أعمالهم ، ويدفع كل عبد منهم أو أمَةٍ إلى مولاه ، إذا قامت البيِّنةُ العادلة على أنه رِقٌّ له ، أبَق منه ، ويُشْهِد بذلك عليه إن شاء الله .

وأمره أن يتخيَّر للحِسْبة على أهل الأسواق وسائر أصحاب الصناعات والبيَاعات(٣) فى عمله ، مَن يُعْرَف بالقَصْد فى مذهبه ، والسَّتْر فى نفسه ، والعَفاف فى طُعْمته ، واستيفاء الحق فيما يُقلَّده ويُستكفَى القيامَ به ، ويتقدّم إليه فى أخذ كل طبقةٍ من أهل الطبقات التى يقع فى الحِسبة فيها ، بتصحيح المعاملة ، ورَفْع الغش ، وتجنُّب كل ما عاد بمَضَرّة على المسلمين وتحيُّفِ(٤) لهم ، وتعيير(٥) المكاييل والموازين فى سائر عمله ، وإقامتها على الوفاء والعدل ، وخَتْمِها بالرّصاص ، وحَمْلِ المبتاعين فيها وغيرهم عليها ، والإشراف على ما يَرْسُمه ويتقدم بامتثاله فى سائر وجوه الحِسْبة ، حتى لا يخالَفَ شىءٌ منه إلى غيره، ومعاقبة مَن عسى أن يُقْدِم على مخالفته فيه ، يَرْدَعه ويَعِظُ مَنْ سواه ، فإن الله عز

---

(١) العزل : مايورد بيت المال تقدمة غير موزون ولا منتقد .

(٢) جمع آبق : وهو الهارب .

(٣) البياعات جمع بياعة بالكسر وهى السلعة ، وفى الأصل « الساعات » وهو تحريف .

(٤) تحيفه : تنقصه من حيفه ، والحيف كعنب : النواحى جمع حيفة بالكسر .

(٥) قال فى اللسان : « عيرت الدنانير : وهو أن تلقى ديناراً ديناراً ، فتوازن به ديناراً ديناراً ، وكذلك عيرت تعييراً إذا وزنت واحدا واحداً ، يقال هذا فى الكيل والوزن ، قال الأزهرى : فرق الليث بن عايرت وعير ، فجعل عايرت فى المكيال وعيرت فى الميزان . . . . » .

وجل يقول : « أَوْفُوا الْكَيْلَ وَلاَ تَكُونُوا مِنَ الْمُخْسِرِينَ . وَزِنُوا بِالْقِسْطَاسِ الْمُسْتَقِيمِ . وَلاَ تَبْخَسُوا النَّاسَ أَشْيَاءَهُمْ وَلاَ تَعْثَوْا فِي الْأَرْضِ مُفْسِدِينَ » .

وأمره : إن كان فيما يؤدّى إلى صلاح ما ولاه واستقامته ووقوع الاحتياط فيه ، موافقةُ أمرٍ لم يَعْهَدَ إليه فيه ، واحتاج إلى استثماره فى ذلك ، أن يتوقف عن إحداث حَدَثٍ فى شىء منه ، ويكتب إليه به ، ليأتيه الأمرُ فى ذلك بما يعمل به ويقتصر عليه ، وإن كان مما سبيلُه أن يُمْضِيَ فيه رأيَه ، عمِلَ فيه بما يُوفِّقه الله له ، ممتثلا ذلك أعدلَ السِّيَرِ وأقصَدَها إن شاء الله .

وأمره أن يقرأ عهده على أهل عمله ، ويُعْلمهم رأيه فيه ، وعنايته بما فيه صلاحهم ، والإحسان إليهم ، والعدل عليهم ، والتقرب إلى الله بذلك فى أمرهم ، لِيَنْبَسِطَ آمالهم ، ويُحْسِن ظنونَهم ، ويحمَدوا الله على ما أنعم عليهم إن شاء الله » .

هذا عهدى إليك ، وأمرى إليك فيما قلّدتك وأسندتُ إليك ، فامتثِلْه واعمَلْ به ولا تُجاوِزه ، واستعِنْ بالله فيما غلبَك منه يَقِلْك ، والله أسأل أن يصلى على محمد عبده ورسوله ، وأن يوفقك ويُحْسن كفايتَك ، والسلام » .

(اختيار المنظوم والمنثور ١٣ : ٣٤٦)

٢٢٣ — كتاب جعفر بن ثوابة إلى عبيد الله بن سليمان

وكتب أبو الحسين جعفر بن محمد بن ثَوابة إلى عبيد الله بن سليمان :

« قد فتحتَ للمظلوم بابَك ، ورفعْتَ عنه حجابَك ، فأنا أحاكِمُ الأيامَ إلى عدلك ، وأشكو صَرْفَها(١) إلى عَطْفك ، وأستجير من لؤم غَلَبتها بكرم قدرتك ، فإنها تؤخّرنى إذا قدَّمَتْ ، وتحرمُنى إذا قسَمَت ، فإن أعطَتْ أعطَتْ يسيراً ، وإن ارتجعت ارتجعت كثيرا ، ولم أشكُها إلى أحد قبلَك ، ولا أعددتُ لإنصافها إلا

---

(١) صروف الدهر : نوائبه .

فضلَك ، ودَفَع ذِمامَ(١) المسألةِ وحَقَّ الظُّلامةِ حقُّ التأميل وقِدَمُ صـدقِ الموالاةِ والمحبَّة ، والذى يملأ يدى من النَّصَفة ، ويُسْبِغ العدلَ عَلَىَّ ،حتى تكون إلىَّ مُحْسِنا ، وأكونَ بك للأيام مُعْدِيا ، أن تَخلطنى بخواصِّ خَدَمك،الذين نقلتَهم من حال الفَراغ إلى الشغل ، ومن الخمول إلى النباهة والذكر ،فإن رأيت أن تُعْدِيَنى(٢) فقد استعديتُ ، وتُجِيرَنى فقد عُذْتُ بك ، وتوسِّع عَلَىَّ كَنَفَك فقد أَوَيْتُ إليه ، وتشملَنى بإحسانك فقد عوَّلتُ عليه ، وتستعمل يدنى ولسانى فيما يصلُحان لخدمتك فيه ، فقد دَرَسْتُ كُتُبَ أسلافك ، وهُم الأئمةُ فى البيان ، واستضأْتُ برأيهم ، واقتفيْتُ آثارهم اقتفاء جعلنى بين وَحْشِىِّ كلام وأنيسه ، ووقفنى منه عَلَى جادَّةٍ متوسّطة ، يَرْجِع إليها الغالى ، ويسمو نحوها المقصِّر ، فعلتَ إن شاء الله تعالى » . (معجم الأدباء ٧ : ١٨٨) .

٢٢٤ — كتاب أحمد بن أبى طاهر إلى على بن يحيى

وكتب أحمد(٣) بن أبى طاهر يشكر على(٤) بن يحيى :

« وصلَ إلىَّ — وصَلَ الله نعمتَك بالمَزيد — ما ابتدأتَ به من برِّك المتتابع ، وفضلك الواسع ، فصَادَفَنا عَلَى حالٍ من الخَلّة(٥) قد دعَتنا ضرورةُ الحاجة بها إلى ذُلِّ المسألة ، فرَمَّ(٦) ما ثَلَمه الدهرُ من مُرُوءتنا ، وسدَّ ما كشفه من خَلّتنا ، وكفانا مئونةَ الامتحانِ للإخوان فى مودَّتنا ، وستَر وجوهَنا بالصِّيانة عن المسألة ، وأبقى جاهَنا

---

(١) الذمام : الحق والحرمة .

(٢) أعداه : نصره وأعانه وقواه ، واستعداه : استعانه واستنصره .

(٣) هو أبو الفضل أحمد بن أبى طاهر طيفور ، صاحب كتاب المنظوم والمنثور ، ولد ببغداد سنة ٢٠٤ وتوفى سنة ٢٨٠ — انظر ترجمته فى الفهرست ص ٢٠٩ ومعجم الأدباء ٣ : ٨٧ .

(٤) هو أبو الحسن على بن يحيى بن أبى منصور المنجم ، وكان من خاصة ندماء المتوكل ، وخص به وبمن بعده من الخلفاء إلى أيام المعتمد، وكان مقدما عندهم، يفضون إليه بأسرارهم، ويأمنونه على أخبارهم ، وكان راوية للأشعار والأخبار شاعرا محسنا ، وتوفى سنة ٢٧٥ — انظر الفهرست ص ٢٠٥ .

(٥) الخلة : الحاجة والفقر .

(٦) رمه : أصلحه .

عند أهل المودّة ، فما ظنُّك بمعروفٍ صادَفَ حاجةً ، وصنيعةٍ كان إلباسُها بلا ذِلَّةٍ ولا بَذْلَةٍ(١) ، ومَعُونةٍ جاءت بلا مَئُونة ، وغيثٍ جاء بلا عارضٍ ولا مُخِيلَةٍ(٢) ، وأملٍ أدرِكَ بلا تعب ، وحقٍّ أُوجِب بلا حُرْمة ولا سَبَب ؟ ما كان إلا كالقَطْرِ في الأرض القَفْرِ ، أغفلَهَا الزمانُ ، وجَفَاهَا العُمرانُ ، وكلُّ معروف وإن كثُرَ فأ كثَرُ منه فضلُك ، وكل صنيعةٍ وإن كَبُرتَ فأ كبرُ منها الأملُ فيك ، وكل شكرٍ بلغ غايةَ محمودة فأقلُّ كرَمِك يستغرقُه ، وكبيرُه يَقْصُرُ عن تطوُّلك به ، فتَّ والله المادحَ المُطْنِبَ ، وقصَّرَ عنك لسانُ الشاكرِ المعترف ، والحامدِ المجتهد ، وأنفدَ فضلُك المحاسنَ ، واستوفى أقلُّك جميعَ الفضائل ، وكَلَّ دونك لسانُ الخطيب والشاعر ، وتزيّنت بك الأيامُ ، وازدحمت عليك الآمالُ ، وامتثلَ مكارمَك الكرامُ ، وقصَّر عنك الجيادُ والأجوادُ ، فإلى الذى زيَّننا بإخائك ، ترغب فى بقائك ، ونسأله أن يَهَبَك لفاقتنا إليك ، واتِّكالنا بعده عليك ». (اختيار المنظوم والمنثور ١٣ : ٣٨٢)

٢٢٥ — كتابه إلى على بن يحيى

وله إلى على بن يحيى :

« إن أحقَّ معروف بأن يُشْكَر ، ويدٍ بارّةٍ لا تُكْفَر ، وأحقَّ واجبٍ بأن يُؤدَّى ، وإحسانٍ وبِرٍّ بأن يُجازَى ، معروفُك ـ أعزك الله ـ عندى ، ويدُك قِبَلى ، وحقُّك علىّ ، وإحسانك إلىّ ، لأن المعروف يَحْسُن عند الأحرار موقعُه ، ويجب عليهم شكرُه ونَشْره والإشادة بذكره ، تتطوَّع مبتدئا ، وتَشْفَع ما تَقَدَّم مُعَقِّبا ، وتُحْسِن رَبَّ ما أسديتَه متفضِّلا ، لا أخلاك الله من بِرٍّ وإحسان ، ولا أخلانا منك فى حال».
(المنظوم والمنثور ١٣ : ٣٨)

---

(١) البذلة : اسم من الابتذال : وهو امتهان النفس وعدم صيانتها .

(٢) العارض : السحاب المعترض فى الأفق ، والسحابة المخيلة (بياء مشددة مكسورة) والمخيلة (بكسر الخاء) : التى تحسبها ماطرة .

٢٢٦ — كتابه فى ذم ابن ثوابة

ولأحمد بن أبى طاهر فى ذم ابن ثوابةَ حين وَلِىَ طَسَاسِيجَ[١] الكوفة :

« أما بعد ، فإن فلانا قَدِم علينا شامِخاً بأنفه ، عاقِدا لعُنقه ، ذاهبا بنفسه ، يَرَى أن الجنة خُلِقَت لمن أطاعه ، والنارَ لمن عصاه ، وأن الملائكة المقرَّبين لم تنزِل على مَن نزلتْ عليه من الأنبياء إلَّا بتوكيدِ ذلك له ، فلا يعذِّب الله العبادَ إلا على معصيته ، ولا يُثِيبهم إلا على طاعته ، ولا أن الصَّيْحَةَ أخذَتْ قومَ ثَمُود إلا لاعتراضٍ كان منهم على أوَّلِيَّة أجداده ، ولم يرسل الله الرِّيحَ العَقِيمَ على قوم عاد إلا عن خِلافٍ كان منهم لآبائه ، وأن الواجب على هذه الأمّة ، والفرض المحتوم الذى لا يُقْبَل منهم غيرُه، طاعته وقلّةُ الخلاف عليه، بالاستحقاق منه لذلك فى نفسه ، وللوراثة عن آبائه وأجداده، كأنه قُدَارُ[٢] عاقِرُ ناقةِ ثمود فى خلقته ، وفرعونُ ذو الأوتاد فى جَبَرِيَّته ، يحسِبُ الُجودَ ذُلّا ، والبخل عزا ، والجوْر عدلا ، وأنّ ما نهى الله عنه من قبيح فهو الجميل الذى أمَره به ، وما أمر به من جميل فهو القبيح الذى نهاه عنه ، لايستكثِر الخلافة فيحدِّث بها نفسَه تِيهاً ، ولا النُّبوة يتمناها على ربِّه عُجْبا، وإذا قعد على فرشه وأخذ مجلسه ، وَرَمى بطَرْفه فى منازله ، دخلَتْه العِزَّةُ ، وعلَاْه الأبَّهةُ ، وغلَب عليه الكِبْرُ ، حتى يخيَّل إليه أن بيت الله الحرام بعض داره ، وأنّ صَحْنها هو الصَّرْح المُمَرَّد[٣] الذى ذكره الله فى كتابه ، وأنّ مَهْبِط الملائكة على ظهر كنيسته ، وبئر زمْزَم من بعض آباره ، وما بين الصَّفا والمَرْوَة مَرَاغَةٌ لِدَوَابِّه ، يضع من قدر نفسه ، ويرفَع من قدر

---

(١) طساسيج جمع طسوج (بفتح الطاء وضم السين المشددة) : وهو الناحية ، وجاء فى ترجمة ابن ثوابة فى معجم الأدباء « وكان عبيد الله بن سليمان الوزير قد صرف أحمد بن محمد بن ثوابة عن طساسيج كان يتقلدها . . . . » .

(٢) هو قدار بن سالف .

(٣) الصرح : القصر وكل بناء عال ، والممرد : المملس ، يشير إلى قوله تعالى :
« قَالَ إِنَّهُ صَرْحٌ مُمَرَّدٌ مِنْ قَوَارِيرَ » .

طعامه، فيرى أن مائدته هى التى ذكرَ اللهُ فى كتابه(١) ، فمن أكلَ منها كان رِقًّا له بأكلته ، تجرى عليه أحكامُه ، وينفذُ فيه أمره ، ضيفُه أشدُّ الناس شبها بالملائكة : طعامه التسبيح ، وشعارُه الصبرُ ، وكل حَشَمِه طائفة من الجنّ ، مُبَرَّحُون(٢) بالشمّ دون الأكل ، وبالمصّ دون الشرب ، ولولا ما كَفَى الله من غَرْبه(٣) ، بالغَرْب(٤) الذى به لَضَجَّت الأرضُ إلى الله من تِيهه ، ولتعبَّدت الأئمةُ لله بالابتهال إليه من تجبُّره ، يَرَى أن قارونَ(٥) كان من بعض أكرَتِهِ ، والخِضْرَ(٦) صلواتُ الله عليه من بعض فُيُوجه ، ولولا ماتقدَّم من حقِّه ، وما سبقَ من مودته ، والذى أنا عليه من الميل إلى ناحيته ، والنُّصرَة لمذاهبه ، والحِيطة مِن ورائه ، والذَّبِّ عنه ، وأنى لا أرَى أن أصِفَه إلا بأحسنِ مافيه ، ولا أستحلُّ ذلك منه ، لَانطَلَقَ لسانى من وصف عجائبه ، ولطيف بدائعه ، بما لم يخطُر على قلب بشر » .

(اختيار المنظوم والمنثور ١٣ : ٤١٩)

---

(١) يشير إلى قوله تعالى : « قَالَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ اللَّهُمَّ رَبَّنَا أَنْزِلْ عَلَيْنَا مَائِدَةً مِنَ السَّمَاءِ تَكُونُ لَنَا عِيدًا لِأَوَّلِنَا وَآخِرِنَا وَآيَةً مِنْكَ وَارْزُقْنَا وَأَنْتَ خَيْرُ الرَّازِقِينَ » .

(٢) برح به الأمر تبريحاً : جهده واشتد عليه . (٣) الغرب : الحدة .

(٤) بعينه غرب : إذا كانت تسيل فلا تنقطع دموعها .

(٥) قال تعالى : « إِنَّ قَارُونَ كَانَ مِنْ قَوْمِ مُوسَى فَبَغَى عَلَيْهِمْ . وَآتَيْنَاهُ مِنَ الْكُنُوزِ مَا إِنَّ مَفَاتِحَهُ لَتَنُوءُ بِالْعُصْبَةِ أُولِي الْقُوَّةِ » كان ابن عم موسى وابن خالته ، والأكار بالتشديد الحراث ، جمعه أكرة ، كأنه جمع آكر فى التقدير .

(٦) هو النبي الذى لقيه موسى عليه السلام ، وفتاه يوشع بن نون ، فى طريقهما ، وفى ذلك يقول تعالى : « فَوَجَدَا عَبْدًا مِنْ عِبَادِنَا آتَيْنَاهُ رَحْمَةً مِنْ عِنْدِنَا وَعَلَّمْنَاهُ مِنْ لَدُنَّا عِلْمًا » . والفيوج جمع فيج بالفتح : وهو رسول السلطان الذى يسعى بالكتب .

٢٢٧ – كتاب ابن أبي طاهر إلى أبي على البصير

وكتب أحمد بن أبي طاهر إلى أبي على البصير يعاتبه على مؤاخاة ابن مكرَّم، معدِّدا سيئاته ومَثالِبَه:

« وفَّر الله يا أخى من كل خيرٍ حظَّك، وأجزَلَ منه قَسْمك، وبلَّغك غايةَ هِمَمك، ونهايةَ طَلِبتك، ومتَّع إخوانك بما مَنَحهم منك، وأعاذهم من الغِيَر فيك، إنه يقال - جعلنى الله فداءك - : أخوك مَن صَدَقك، وعدوّك مَن نافَقَك، وعليك لأخيك مثلُ الذى عليه لك، والعِتابُ أمارة الإشفاق، ودليلُ الضِّنّ من الإخوان، ومن جادَلَ نفسهُ فى هواه، عَرَف صوابه وخطأه، وعلى النَّصَفة ثباتُ المودة، ومع المشاكلة تكون الموافقة[١]، ولولا رجائى يا أخى أن تستميلك المعاتبةُ، وتُزْعِجَك[٢] المراقبةُ، وعِلمى أن فيما أعدِّد عليك، وأذكِّرك به، وأتقدَّم فيه إليك، ما يَثْنِى أخلاقَك، إلى ما يُشْبه أعراقَك[٣]، وأنى قد بلغتُ بك فى النَّظِرَة[٤] الموضعَ الذى يتعذّر مَخْرَجُ العذرِ عليك منه، إلا أن تعود بالإقرار، بمُقامك على الجفاء والإصرار، وما أرجِع إليه من الثقة بك، وإخلاص المحبة والمِقَة لك، وما أعرفه من صحة ودِّك، وكريم عهدك، وحسن اختيارك وتمييزك، ما عتَبْتُ عليك ولا استعتبتُك، وخَلَّيْتُك وما اخترتَ، ولم أنبِّهك على ما أضعتَ، ولما وصلتُ ما قطعتَ، حتى يثُوب إليك حازمٌ من رأيك، وعاطفٌ من ودك وإخائك، ولكنى ما أمسكتُ عن المعاتبة، وتأنيتك[٥] بالمراقبة، ورأيتك قد رضيت بالمِهَنة[٦] التى تلزمك فى المُجْنة، وكنتُ

---

(١) وربما كان « المرافقة ».
(٢) فى الأصل « وتوجعك » وهو تحريف.
(٣) أى أصلك وفى الأصل « إلى ما لا يشبه ».
(٤) أى الإمهال والتأخير.
(٥) تأناه: انتظره.
(٦) المهنة: الخدمة، وامتهنه: ابتذله واحتقره، والمجنة: مايعيب.

إلى لِين استعطافك ، وحُسْنِ إنصافك ، أحوجَ منى إلى قَطْع أسبابك ، والمُقام على تَرْك عِتابك ، وكنتُ مستعداً لاحتمال ما يَضيمُنى منك ، ويتناهى إلىَّ عنك ، لِمَيل النفس بالرغبة إليك ، وإقبالها ـ وإن أدبَرْتَ عنها ـ عليك ، لأن العُدْوان فى المعاملة مِن شأن مَن يُحْظَر عليه فى المواصَلة ، سيَّما مَن قد أخلَقَ عندك إخاؤه ، ورَثَّ فى نفسك وفاؤه ، ودعاك طولُ عهده إلى مَلَالة ودّه ، لم أجد بُدًّا من رَدِّك ، باستعتابك إلى ماهو أولَى بك ، رَدَّك الله إلى أجمل العادة ، وما هو أولَى بك فينا من النَّصفة .

أأخى ـ أقبلَ اللهُ بك إلى الواجب ـ أنا الخليل الذى لايُزِيله عن ودّك وقديم عهدك سَكَرٌ [١] ، ولا يُغيِّر مَن قد بلاك وبَلَوْتَه [٢] ، وامتحنَك فاختارك واخترته ، أوَّلُك عنده حَميد ، وآخِرُك [٣] عنده جديد ، مَوَدّتُه لك غيرُ مدخولة ، وعِشْرته غير مملولة ، لم تَنْبُ [٤] عنك خلائقُه ، ولم تتشعّبْ عنك طرائقُه ، يَغُضُّ من نفسه ليرفَعَك ، ويضرّها لينفعك ، فحين نطقتُ بلسانك فيما ضرّنى ، وتقدمتُ لك فيما أخّرنى ، وأخدمتُ [٥] مودتَك نفسى وعِرضى ، وهتَكتُ لك أدبى ومُروءتى ، فوَدِدْتُ بودِّك ، وصَدَدْتُ بصَدِّك ، ووقفتُ بك حيث وقفتَ بنفسك ، وانقَدْتُ لك حيث سلكْتَ بى محبّتُك ، ولم أُجَشِّمك الوقوفَ عند هَوَاىَ ، ولم أَسُمْك الانصرافَ إلى رضاىَ ، إلا فى أمر تسلَمُ عاقبته ، ولا تسوءُك مَغَبَّتُه ، أوثِرُ على محبتى ماسَرَّك ، وأقدِّم على أمرى أمرَك ، لا أُوازنك المعامَلةَ ، ولا أُقارضك المشاغلةَ ، ماتحبّ فمضمونٌ لك عندى ، وما تكرَهُ فمصروفٌ عنك منى ، أحمِلُ عنك الثقيلَ ، وأتوعَّر ليسهل لك السبيلُ ، أوسِّعُ لك فى الذَّنْب المَنهج ، إذا ضاق عليك من العذر

---

(١) فى الأصل « شكر » وهو تحريف ، والسكر بالتحريك : الغضب والغيظ ، وربما كان الأصل « شكوى » .

(٢) بلاه : اختبره .

(٣) فى الأصل « وأجرك » .

(٤) أى لم تضق .

(٥) أخدمت فلانا : أعطيته خادما يخدمه ، أى جعلت نفسى وعرضى خادمين لمودتك .

المخرجُ ، أطْلِعكَ على مكنون سِرى ، وأُظْهِرك على باطن أمرى ، لا أقول هذا تمننًا ، ولا أعتَدُّ به تبجُّحا[1] ، ولا أقتضِيكَ عليه شُكرا ، إذ كنتُ أرَى أنى أؤدّى به فرضا واجبا ، وأقضِى به حقّا لازما ، ولكنى أذكّرك ما نسِيتَ ، وأنبّهك على ما أضعتَ ، وأحتجُّ عليك إذ قصَّرْتَ ، وقدَّمتَ علىّ فى إخائك مَن ليس مِن أكفائى ولا أكفائك ، المَقْلِىَّ المُذَمَّم ، المَهِينَ « ابنَ مكرَّم » ، العاقَّ لأبيه ، والمنتفِىَ من أخيه ، والقاذف لأمه ، والقاطع لرَحِمه ، المهتوكَ الحُرْمة ، الوضيعَ الهمَّة ، الضيِّق الصدر ، القريب القعْر ، السريعَ إلى الصديق ، البطىء عن الحقوق ، المشهور بالزّناء[2] ، المعروف بالبِغاء . . . .[3] ، العاكف على ذَنبه ،[4] الصادِفَ[5] عن ربه ، الوضيع فى خلائقه ، العاتى[6] على خالقه ، الدائم البِطْنة ، النَّطِف[7] الدِّين والجَيْب ، الدَّنِس العِرْض والثوب ، عدوُّه آمِنٌ من غائلته ، وصديقُه خائفٌ من بائقته ، جَهْلُه جهلُ الصِّبيان ، وضعفُه ضعفُ النِّسوان ، سَهِكُ[8] الرِّيح ، ثقيل الرُّوح ، خفيف العقل والوزن ، خبيث الفَرْج والبطن ، جليسُه بين نَتْن وأذى ، وقذَر وبَذَى[9] ، مَن استخفَّ به أكرمه، ومن وَصَله صَرَمه ، غَثّ الخلقة ، رَثّ الهيئة، وَسِخ المروءة، يحلِف لِيَحْنَث ، ويعْهَد لِيَنْكُثَ ، ويَعِد ليُخْلِف ، ويحدِّث ليكذب ، إن تكلَّم ملأ الأسماع عِيًّا ، والأنف نَتْنا ، وإن سكت قَرَى[10] العيونَ قبحا ، والقلوبَ مَقْتا ،

---

(١) تبجح به : فخر .

(٢) فى الأصل « المشهور إليه » هكذا . والزنا والزناء بالقصر والمد .

(٣) حذفنا فقرتين هنا لما فيهما من البذاءة .

(٤) فى الأصل « على دينه » وهو تصحيف .

(٥) أى المعرض .

(٦) عتا : استكبر وجاوز الحد .

(٧) نطف كفرح وعنى : تلطخ بعيب واتهم بريبة .

(٨) السهك محركة : ريح كريهة ممن عرق ، سهك كفرح فهو سهك .

(٩) البذاء : السفه والإفحاش فى المنطق، وقد قصره من مد .

(١٠) أى قدم إليها ، من قرى الضيف يقريه إذا أحسن إليه — وهو تهكم .

إسنادُه عن المخنّثين ، وبلاغته فى ذم الصالحين ، وطُرَفه قَذْفُ المُحْصَنَاتِ[١] ، وسَعْيُه فى كَسْب السيئات وخَلْوَتُه لاقتراف السَّوْءات وتَمَنِّى الشهوات ، أَحْسَنُ عنده مِن مَدْحه الأفراطُ فى ذمِّه ، كما أنه أجمَلُ مِن وصله التَمامُ على صَرْمه[٢] .

هذا قليل من كثير ما أعرف عنه ، ويسيرٌ فى (جنب ما[٣]) يوصَف منه ، فأنى يا أخى اخترتَه؟ ولأىِّ شىء علىَّ آثرته ؟ . . . .[٤] وأىَّ أموره استلْنَتَ؟ أتَنَدِيدَه بالإخوان[٥] ، أم محافظتَه على الخِوان[٦] ، أم أُنْسه بالخيانة ، أم شَتْمه الصحابة ، أم موْا كلتَه الـكلابَ ، أم مُقامَه على الاغتياب ، أم نَتْن رائحته ، أم سوء معاشرته ، أم مَلالَه وضَجَره ، أو وَضَرَه وبَخَره[٧] ؟ أم وصلتَه حين قطعتُه ، واخترتَه حين اطَّرَحتُه ؟ .

وإن مما حقّق ظنى بك فيه ، أنك لم تـكن له زَوّاراً فواظبتَ عليه ، وكنتَ عنه متثاقِلا فأسرعتَ إليه ، وله دائمًا فلسانُك رَطْبٌ بمدحه ، حتى كأنك إلى غاية مكروهى أجْرِيتَ فى أمره ، وإلا فـكيف أنِسْتَ بالجانب الوحشىِّ من الثقة ، وأوحشتَ الجانبَ المعمورَ لك بالأنس والمِقَة ، وقد تظاهَرَتْ عليه بمـا قلتُ الشهادةُ ، وهتَفَتْ به الألسنُ من كل ناحية ، وتحاماه كل ذى دين ومُروءة ، فأعطيتَ المودةَ غير أهلِها ، ومنَحتَ الجفوةَ غير مستحِقّها ، ووصلْتَ مَن قطعَك ، وقطعتَ من وصَلَك .

---

(١) المحصنة : العفيفة أو المتزوجة ، قال ثعلب : كل امرأة عفيفة فهى محصنة بفتح الصاد وكسرها وكل امرأة متزوجة فهى محصنة بالفتح لاغير .

(٢) أى قطعه .

(٣) مابين القوسين بياض بالأصل ، وقد تممت به الجملة .

(٤) بياض بالأصل .

(٥) ندد به : صرح بعيوبه وشهره وسمع به ، وفى الأصل « أتنديداً على الإخوان » والذى فى كتب اللغة تعدية هذا الفعل بالباء .

(٦) الخوان : كغراب وكتاب : مايؤ كل عليه الطعام ، والمراد به الطعام .

(٧) وضره : أى وسخه وقذره ، وأصل الوضر : وسخ الدسم واللبن ، والبخر : نتن الفم .

فبادِرْ يا أخى فى يومك منه بتَرْك مالا ينفعك فى غدٍ معرفتُه ، وتوقعْ هجاءه(١) لك عن قليل ، ونُبُوَّ(٢) أخلاقه عنك عن قريب « وَسَيَعْلَمُ الَّذِينَ ظَلَمُوا أَيَّ مُنْقَلَبٍ يَنْقَلِبُونَ » . (اختيار المنظوم والمنثور ١٣ : ٤٢٣)

٢٢٨ — كتاب عبد الله بن المعتز إلى عبيد الله بن سليمان

وكتب عبد الله بن المعتز(٣) إلى عبيد الله بن سليمان بن وَهب فى يوم عيد :

« أخَّرَتنى العِلَّة عن الوزير — أعزه الله — فحضرتُ بالدعاء فى كتابى لينوبَ عنى، ويَعْمُرَ ما أخْلَتْه العوائقُ منى ، وأنا أسأل الله تعالى أن يجعل هذا العيد أعظم الأعياد السالفة بركةً على الوزير ، ودون الأعياد المستقبَلة فيما يُحِبُّ ويُحَبُّ له ، ويقبل ماتوسَّل به إلى مَرْضاته ، ويضاعِف الإحسانَ إليه على الإحسان منه ، ويمتِّعه بصُحْبة النعمة ولِباس العافية ، ولا يُرِيَه فى مَسَرَّة نقْصا ، ولا يقطَعَ عنه مَزِيدا ، ويجعلنى من كل سوء فِداءه ، ويصرِف عيون الغِيَر(٤) عنه وعن حظى منه » .

(زهر الآداب ١ : ٢٠٢)

---

(١) فى الأصل « حجابه » وأرى أنه محرف .

(٢) من نبا الطبع عن الشىء : أى نفر ولم يقبله ، ونبا الشىء عنى : تجافى وتباعد ، ونبا فلان عن فلان : لم ينقد له ، وفى الأصل « ونبو أخلاقه عليك » وربما كان : « وتبوأ خلافه عليك » أى مخالفته لك .

(٣) هو أبو العباس عبد الله بن المعتز بن المتوكل العباسى ، كان أديباً بليغا شاعراً مطبوعاً سهل اللفظ حسن الإبداع للمعانى ، وفى خلافة المقتدر (الذى ولى الخلافة من سنة ٢٩٥ إلى سنة ٣٢٠) اتفق مع ابن المعتز جماعة من رؤساء الأجناد ووجوه الكتاب ، فخلعوا المقتدر سنة ٢٩٦ وبايعوا ابن المعتز ، ثم إن أصحاب المقتدر تحزبوا وتراجعوا وحاربوا أعوان ابن المعتز وشتتوهم ، وأعادوا المقتدر إلى الخلافة ، واختفى ابن المعتز ثم أخذ وقتل ، وأقام فى الخلافة يوما وليلة — انظر ترجمته فى وفيات الأعيان ١ : ٢٠٨ ونزهة الألبا ص ٢٩٩ وكتب التاريخ .

(٤) الغير : حوادث الدهر المغيرة .

٢٢٩ — كتابه إلى عبيد الله بن سليمان يهنئه بقدومه

وكتب عبد الله بن المعتز إلى الوزير عبيد الله بن سليمان يهنئه بقدومه :

« الحمد لله على ما امتَنَّ به على الوزير — أعزه الله — من جميل السلامة ، وحُسْن الإياب[1] ، حمداً مستَمَدًّا من مزيده[2] ، وإخلاصاً مستدْعِياً لقَبوله ، وبارك الله له في قدومه ومَسِيره ، وفي جميع أموره ، وجعلَ له مِنّة وافية على نعمه ، وأبقاه لمُلْك يحرُسُه ، ومؤمِّلٍ يُنْعِشُه ، وعاثِرٍ يرْفعه ، وحفِظَ له ما خوَّله[3] ، كما حفِظَ له ما استرعاه ، ووفقه فيما طوَّقه ، وزاده كما زاد منه » .

(الأوراق الصولى ٢ : ٢٨٨)

٢٣٠ — كتابه إلى عبيد الله بن سليمان يعزيه عن ابنه

وكتب إليه يعزيه عن ابنه أبي محمد :

« عِلْمُ الوزير — أيده الله — بذخائر الأجر يُغنى عن تعزيته فيه ، وسَبْقُه إلى الصبر يكفيني تذكِرَةً به ، لكن لوَلِيِّ الوزير — أيده الله — موضعٌ إن أخلاه دَخَل في جُملة المضيِّعين لحقِّه ، اللّاهين عما عنَاه ، وقد كان من قضاء الله في أبي محمد — رضى الله عنه — ما خَصَّت به المصيبةُ مواقعَ نِعَم الوزير ، وآثارَ إحسانه ، حاش لله إقراراً بالحق ، وتنجزاً للوعد منه ، وعظّم الله أيُّها الوزيرُ أجرَك ، ووفَّرَ ذُخْرَك ، وعمَّر بقيَّتك ، وكثَّر عَددَك ، وسرّك ولا ساءك ، وزادك ولا نقَصَك ، ووَصَل بسلام الزمانِ نعمتَك ، وَولّيك بما تحبُّ فيما خوّلك ، وكلُّ مصيبة وإن عظُمتْ صغيرةٌ في ثواب الله عليها ، ضئيلةٌ بين نِعَم الله قبلَها وبعدها ، وما زال أولياءُ الله يُعْرَضون على المِحَن ، فيستقبلونها بالصبر ، ويُتْبِعونها بالشكر ، وتنفذُ بصائرهم

---

(١) في الأصل « وحسن الإيابة » والذى في كتب اللغة : الأوب ، والإياب ، والأوبة ، والأيبة والإيبة ، والتأويب والتأييب والتأوب ، أى : الرجوع ، وليس فيها الإيابة .

(٢) في الأصل « حمداً يستمد أمر مزيده » وأراه محرفا. (٣) أى ملكه .

مذمومَ أوائلها إلى محمود عواقبها ، ويعدُّونها مَرَاقِيَ إلى شرف الآخرة ، ومراتبَ لأهل السعادة ، فى دارٍ لاتَلجُها الهمومُ ، ولا يزول فيها النعيمُ .

وإذا تأمل الوزير ما تجاوزَتْ هذه الحادثةُ عنده من النعَم ، فى ولده أبى الحسين، الذى قد نهض بما حَمَّله ، وَوَفَّى آماله ، وأقرَّ عينَه ، وغاظ حاسِدَه ، واكتَسى لباسَ كرامته ، وقام للخلافة بخلافته ، عَلِم أنه رابح على الدهر ، حقيقٌ بتجاوزِ الصبر إلى الشكر ، فجعل اللهُ الخلفَ للوزير من الماضى ، طُولَ عمرِ الباقى ، وحرَسه من المكارِهِ كلِّها ، وكفاه وكفانا فيه » .

(الأوراق للصولى ٢ : ٢٨٨)

٢٣١ — وله فصل من تعزية بولد

« لئن حُرِم الأجرَ ببِرِّك ، لقد كُفِى الإثمَ بعُقوقك ، ولئن فُجِعْتَ بفقده ، لقد أمِنْتَ الفِتنةَ به » .

(الأوراق للصولى ٢ : ٢٩٠)

٢٣٢ — وله تعزية

« عاريةٌ سَرَّكَ اللهُ بمدَّتها ، وآثَرَك بثوابها ، وأثابَك عن ارتجاعها ، فأبشِرْ بعاجِلٍ مِن صُنْعه ، وآجِلٍ من جزائِه ومَثُوبته .

عَظَّم الله أجْرَك ، وجعل الثوابَ عِوَضَك ، ووفَّقك لنَيل مَرْضاته عنك ، وإنا لله ، قَوْلاً بما علَّم ، نتنجَّزُ به ما وَعَد » .

(الأوراق للصولى ٢ : ٢٩٤)

٢٣٣ — وله تعزية أخرى

« الخلودُ فى الدنيا لا يُؤَمَّل ، والفناء لا يُؤمَن ، ولا سُخْطَ على حكم الله ، ولا وحشَةَ مع خلافتِه والأنسِ بطاعته ، فأَدِّ ما استرَدَّ صابرا ، وأصبِحْ لِما استرْجَعَ مسلِّما ، فإن مَن علِمَ أن النعمة تفضل مِن واهبِها ، شَكَرَها مُقبِلةً ، وصَبَر عنها مُوَلِّيةً ،

جعلك الله محتملا للنعمة ، مؤدِّيا للشكر ، صابِراً عند المِحْنة ، محفوظا موفور أجرها ، والفوز بالصبر عليها » .
(الأوراق للصولى ٢ : ٢٩٤)

٣٢٤ — وله تهنئة بمولود

« اتَّصل بى خبرُ مولودك ، فسَرَّنى لك ما سَرَّك ، وأنا أسأل الله أن يُتبِع النعمةَ به عليك ببقائه لك ، وأن يعمِّرك حتى ترَى زيادةً إليه منه ، كما رأيتَها به » .
(الأوراق للصولى ٢ : ٢٩٣)

٢٣٥ — وله فصل فى قبول عذر

« كيف أرُدُّ عُذْرَ مَن لا تهتدى إليه المَوْجِدة[1] ، ولا تتسلَّط عليه التُّهَمَة ، ووالله ما عرَضْتُ لك وحرَّكتُ منك إلا بُخلاً بما ذَخَرْتُه مِن مودتك ، واعتمدت عليه من إخلاصك ، لخوفى مع ذلك أن تصهر غفلتك تغافلا ، وزلّتُك تعمُّدا ، وهذا مالا أحبه لك ، وإن كنت أحتمِله منك ، وما أعتذِر من مطالبتك بما جعلك أهلا المعرفة به ، وجعلنى بودِّك مستحِقًّا له » .
(الأوراق للصولى ٢ : ٢٩٠)

٢٣٦ — وله فصل فى حاجة

« موصِّلُ كتابى فلان ، وقد جعلتُ الثقةَ بك مطِيَّتَه إليك ، فلا تُنْضِها[2] بمَطْلِك ، وأَسرِعْ رَدَّها بسابِقِ إنجازِك ، وتصديقِ الأملِ فيك والظنِّ بك » .
(الأوراق للصولى ٢ : ٢٩٠)

---

(١) الموجدة : الغضب .
(٢) أنضاها : هزلها .

٢٣٧ — وله فصل

« قد مِلْتُ إليك فما أعتدِلُ ، ونزلتُ بك فما أرتحِلُ ، ووقفتُ عليك فما أنتقِلُ».

(الأوراق الصولى ٢ : ٢٩١)

٢٣٨ — وله فصل

« لولا أن الإطناب فى وصفِ مطيَّــةَ المتخرِّصِ(١) ، وتُهمَة المُخْلِص(٢) ، لَأَطَلْتُ به كتابى ، وكفى بمقاساةِ ذى النقصِ مُذكِّرًا بأهل التمام ، وقد لبثتُ بعدك بقلبٍ يودُّ لو كان عينا ليراك ، وعينٍ تودُّ لو كانت قلبا فلا تخلو من ذكراك » .

(الأوراق الصولى ٢ : ٢٩١)

٢٣٩ — وله فصل

« كيف ينقطع ذِكرى لك بغير خَلَفٍ منك ، وينصرف قلبى عنك والتجاربُ تَزْوِى(٣) إليك . والله يعلم أنّ خيالَك شمسُ نفسى إذا نِمْتُ ، وذِكْرك سِراجُها إذا انتبهتُ ، وإن ذلك لأقلُّ حقوقِك ، ولا غلبتُ غيرَك بك ، ولا مِلْتُ عليه لك » .

(الأوراق الصولى ٢ : ٢٩١)

٢٤٠ — وله فصل

ذكرتَ حاجة فلان ، لا فَصَّلها الله بالنجاح ، ولا يسَّر بابَها بالانفتاح ، ووصفتَ عُذْراً له نَصَح به غيرَ نفسِه ، وما نصح عنها ، ولكنه نصح عليها ، وأنا والله أصونك عنه ، وأنصحُ لك فيه ، فإنه خبيث النيّة ، فاسِدُ الطوِيّة ، جائرُ المَعاتِب ، طالِبٌ للمعايب ،

---

(١) تخرص عليه : افترى .

(٢) فى الأصل « المتخلص » وأراه محرفا .

(٣) زواه : نحاه ، أى تصرفنى إليك ، وتوجهنى نحوك .

مقلّب لسانه بالمَلَق ، ساترٌ بالتخلّق وجهَ الخُلُق، موجود عند الرجاء . مفقود مع البلاء ، فأتعِبْ عقلَك باختيـاره ، ولا توحِشْ نعمتَك باصطناعه » .

(الأوراق للصولى ٢ : ٢٩٢)

٢٤١ - وله فصل فى الشوق

« إنى لآسَف على كل يومٍ فارِغٍ منك ، وكلِّ لحظةٍ لا تؤْنِسها رؤيتُك ، وسَقْياً لدهر كان موسوماً بالاجتماع معك ، معموراً بلقائك ، جَمعَ اللهُ شَملَ سرورى بك ، وعمَّر بقائى بالنظر إليك » . (الأوراق للصولى ٢ : ٢٩٢)

٢٤٢ - وله شفاعة فى شغل

« مَن عظُمَت النعمةُ عليه ، كثُرَت الرغبةُ إليه ، فاستَجْلِبْ بالإنعام منك إنعامَ اللهِ عليك ، واستزِدْ بما تَهَبُ[١] منك ما يَهَبُ لك ، واجعل حظِّى من ولايتك قبولَ اختيارى لك هذا الرجلَ ، واخلِطْه بأوليائك القائلين[٢] فى ظِلِّك ، فقد أفردَك برغبته ، وصَرَف إليك وجهَ رجائه ، وليس فيه فضل للانتظار ، ولا بقيّة للإذكار ، فعجِّل إن نويتَ جُودا ، وبادِرْ إن نويت صُنْعا ، ولا تكن ممن ولايتُه وَعْدٌ ، وصَرْفُه اعتذار » . (الأوراق للصولى ٢ : ٢٩٣)

٢٤٣ - وله فصل فى فراق

« كأنَّ الدهر أبخَلُ من أن يُملِّينى[٣] بك ، وأنكَدُ من أن يُسوِّغَنى[٤] قربَك ، وإنى له لَصابِرٌ إلاّ على فقدِك ، وراضٍ إلاّ ببعدك » . (الأوراق للصولى ٢ : ٢٩٣)

---

(١) فى الأصل « واسترد مانهب منك » وهو تحريف .
(٢) قال يقيل : نام فى القائلة ، وهى نصف النهار .
(٣) ملاه الله حبيبه : متعه به وأعاشه معه طويلا .
(٤) سوغه إياه : تركه له خالصا .

٢٤٤ — وله فصل

« تولى الله عنى مكافأتَك ، وَأعان على فعل الخير نيتَك ، وأصحَبَ بقاءك عزًّا يبسُطُ يدَك لوليِّك ، وعلى أعدائك ، وكِلاءةً[1] تَذُبّ عن ودائع مِنَنه عندك ، وزاد فى نعمك وإن عظُمَتْ ، وبلَّغك آمالَك وإن انفسَحَتْ » .

(الأوراق للصولى ٢ : ٢٩٤)

٢٤٥ — وله فصل

« لا أزال الله عنا ظِلَّك ، وأعلَى فى شرفِ المنازل مُرتقاك ، ولا أعدَمَنا فيك إحسانا باقيا ، ومَزيدا متصلا ، ويوما محمودا ، وغَدًا مأمولا ، وعِزا يُمكِّن قَبضَتَك ، ويَمُدُّ بَسْطَتَك » .

(الأوراق للصولى ٢ : ٢٩٤)

٢٤٦ — وله فصل

« لن تَكسِب — أعزك الله — المحامدَ ، وتستوجب الشرف ، إلا بالحمل على النفس والحال ، والنهوض بِحَمْل الأثقال ، وبَذْل الجاه والمال ، ولو كانت المكارم تُنال بغير مُؤْنة ، لاشترك فيها السِّفَلُ والأحرار ، وتساهَمَها الوُضَعاء من ذوى الأخطار ، ولكن الله تعالى خص الكرماء الذين جعلهم أهلها ، فخفَّف عليهم حِمْلها ، وسَوَّغهم فضلَها ، وحَظَرها على السِّفْلة لِصغَر أقدارهم عنها ، وبُعْد طباعهم منها ، ونفورها عنهم ، واقشِعْرارُها منهم » .

(زهر الآداب ٣ : ٣١٣)

---

(١) كلأه كمنعه كلاءة بالكسر : حرسه .

٢٤٧ ـ وله في وصف البيان

« البيان تَرْجُمان القلوب ، وصَيْقَلُ العقول ، ومُجَلِّي الشُّبْهة ، ومُوجِب الحجّة ، والحاكم عند اختصام الظنون ، والمفرِّق بين الشك واليقين ، وهو من سُلطان الرُّسُل الذي انقاد به المستَصْعِب ، واستقام الأصْيَدُ(١) ، وبُهِتَ الكافر ، وسلَّم الممتنِع ، حتى أَشِبَ(٢) الحقُّ بأنصاره ، وخلا رَبْعُ الباطل من عُمّاره .

وخيرُ البيان ما كان مصرِّحا عن المعنى ، ليُسْرِع إلى الفهم تلقِّيه ، وموجَزاً ليخِفَّ على اللفظ تعاطيه ، وفضلُ القرآن على سائر الكلام معروف غير مجهول ، وظاهرٌ غيرُ خفيّ ، يشهد بذلك عجْزُ المتعاطين ، وَوَهْنُ المتكلِّفين ، وتحيُّر الكذّابين وهو المبلِّغ الذي لا يَمَلُّ ، والجديد الذي لا يَخْلَقُ ، والحق الصادع ، والنور الساطع ، والماحي لظُلَم الضلال ، ولسان الصدق النافي للكذب ، ونذيرٌ قدَّمته الرحمةُ قبلَ الهلاك ، وناعِي الدنيا المنقولة ، وبشير الآخرة المخلَّدة ، ومِفتاحُ الخِيرة ، ودليل الجنّة ، إن أوجَزَ كان كافيا ، وإن أكثَرَ كان مذكِّرا ، وإن أومأ كان مُقْنِعا ، وإن أطال كان مُفْهِما ، وإن أمَرَ فناصِحاً ، وإن حَكَم فعادِلاً ، وإن أخبر فصادقا ، وإن بيَّن فشافياً ، سهلٌ على الفهم ، صعب على المتعاطي ، قريب المأخَذ ، بعيد المَرَام ، سراجٌ تستضيء به القلوبُ ، حُلو إذا تذوَّقتْه العقول ، بحر العلوم ، وديوان الحِكَم ، وجوهر الكَلِم ، ونُزْهة المتوسِّمين ، ورُوح قلوب المؤمنين ، نزل به الرُّوحُ الأمين ، على محمد خاتَم النبيين ، صلى الله عليه وعلى آله الطيبين ، فخَصَمَ الباطلَ ، وصَدَع بالحق ، وتألَّف من النُّفْرَة ، وأنقَذَ من الهَلَكة ، فوصَلَ الله له النصر ، وأضْرَعَ(٣) به خدَّ الكفر » .

(زهر الآداب ١ : ١١٤)

---

(١) الأصيد : المائل العنق .

(٢) من أشب الشجر كفرح : أى التف .   (٣) أى أذل .

٢٤٨ — وله في وصف الكتاب والقلم

« الكتابُ والِجُ الأبواب ، جَرِيء على الحُجّاب ، مُفْهِم لا يَفْهَم ، وناطق لا يتكلم ، به يَشْخَص المشتاق ، إذا أقعده الفِراق[١] .

والقلم مجهِّز لجيوش الكلام ، يخدُم الإرادة ، ولا يَمَلُّ الاستزادةَ ، يسكت واقفا ، وينطق سائرا[٢] ، على أرضٍ بياضُها مُظلِم ، وسوادُها مُضيء ، وكأنه يقبِّل بِساط سُلطان ، أو يفتتح نُوّارَ بستان[٣] » .

(زهر الآداب ٢ : ٣٢ ، والعقد الفريد ٢ : ١٨١ ، والأوراق للصولى ٢ : ٢٩٢)

٢٤٩ — كتاب أحمد بن إسمعيل إلى بعض الكتاب

وكتب أحمد بن إسمعيل إلى بعض الكتاب — وقد نال رتبةً فتَقَصَّ إخوانَه في الدعاء — :

« الكِبْرُ — أعزّك الله — مَعْرِض يستوى فيه النبيهُ ذِكرا ، والخامِلُ قَدْرا ، ليس أمامَه حِجاب يَمنَعه ، ولا حاجِزٌ يحظُره ، والناس أشدُّ تحفظا على الرئيس المحظوظ ، وأكثرُ اجْتلاءً لأفعاله ، وتتبُّعا لمَعايبه : وتصفُّحا لأخلاقه ، وتنقيرا[٤] عن خصاله ، منهم ، عن خامل لا يُعْبَأُ به ، وساقِطٍ لا يُكْتَرَثُ له فيَسيرُ عيبِ الجليلِ يَقدَح فيه ، وصغيرُ الذّنب يَكبُرُ منه ، وقليلُ الذم يُسرِع إليه .

والحالُ التى جدَّدها الله لك — وإن كنتُ أراها دون حقّك ، وناقصةً عن همّتك ، وأرضاً عند سمائك — حالٌ : الحاسِدُ عليها كثيرٌ ، وآمالُ المنافِسين إليها

---

(١) وفى كتاب الأوراق للصولى « ومنه يداوى الفرق » .

(٢) وفى العقد « يسكت واكفا ، وينطق ساكتا » .

(٣) النوار : الزهر أو الأبيض منه .

(٤) نقر الشيء وعنه : بحث عنه ، وفى الأصل « وتنفيرا » بالفاء ، وهو تصحيف .

تَسيرُ ، والمودَّةُ تقتضِي النصيحةَ ، والمِقَةُ[١] تدعو إلى صِدق المَشُورة ، وليس يحرُسُ النعمة ويحوطُها ، ويحسِمُ الأطماعَ ويَصرِفها ، ويستجيب القلوبَ النافرةَ ويُطلِقها ، إلاّ تَرْكُ ما أراك تستعمله فى ترتيب المكاتَبة ، وتمييز المخاطبة والمُحَاصَّة[٢] فى ألفاظ الدعاء ، والبخل بيسير الثناء ، وتطبيق[٣] إخوانك ومماليك فى ذلك ، حتى صار عندك كأنه نَسَبٌ لاتتعداه ، ونَعْتٌ لهم لا تتخطّاه ، فأمّا إخوانُك فليس من حقك أن تحطَّهم حالُ رفعَتك ، وأن تنقُصهم دولةٌ زادَتك ، كما ليس من حقك عليهم أن يغالطوك ، فيُمْسِكوا عن خطابك ، ويتحامَوا عن عتابك » .

(أدب الكتاب ص ١٠٥)

٢٥٠ — كتاب أحمد بن إسمعيل إلى صديق له

وكتب أحمد بن إسمعيل إلى صديق له نَقَصَه فى دعائه ، ولَحَن فى كتابه :

« وما أنا والكتابُ إلى صديقٍ أَدِينُ من الوفاء بغير دِينِه ؟
أُعَظِّمه ويَحقِرُنى ، وأدعو له باللفظ يدعو لى بدونِه !
وَيَنقُصُنى ولم أنقُصه حقّاً ويُخْشِنُ لفظَه من بعد لينِه !
فقام كتابُه بالردِّ عنى لكثرة ما تَضَمَّن من لُحُونِه »

(أدب الكتاب ص ١٦١)

٢٥١ — كتاب أحمد بن يحيى الأسدى إلى الحسين بن سعد

وقال أحمد بن يحيى الأسدى : كتب إلىَّ الحسين بن سعد ، فنقَصنى فى الدعاء ، فكتبت إليه :

---

(١) المقة : المحبة .
(٢) يقال: تحاصوا،وحاصوا : أى اقتسموا حصصا ، وفى الأصل « والمحاضة » وهو تصحيف .
(٣) أى تعميم وتسوية .

« قد علمتَ — أعزك الله — أن السبب فى العداوة بين محمد بن عبد الملك الزيات وإبراهيم بن العباس الصُّولى ، أنه لما وَلِىَ وزارة المعتضد(١) نقَصَ إبراهيمَ عما يستحقه من الدعاء ، فلم تحتمِلْ ذلك نفسُه ورياسته وموضعُه من الصِّناعة والدَّولة ، فعاتَبَ فى ذلك فلم يُعتِبه ، فألْهَبَ له نارَ هجاء لا يُطفئها الدهر ، وعلامةُ ذلك قوله فى كلام منثور قد ذكَرَه : « ولِىَ هذا الأمرَ فما ظنَّ أن الرياسة تنجذِب إليه ، ولا أن العزَّ يتحصلُ له ، إلاّ بحَطِّ إخوانه عن منزلتهم ، وتَقْصِهم عن مرتبتهم ، فبَخَسَنى(٢) فى المكاتبة ، وساءنى فى المعاملة » فى كلام له طويل ، ثم نظم ذلك فى شعر فقال :

مَنْ رَأَى فى الأَنامِ مِثْلَ أخٍ لى؟ ... كان عَوْنى على الزمانِ وخِلِّى
رَفَعَتْهُ حالٌ ، فحاوَلَ حَطِّى ... وأَبَى أنْ يَعِــزَّ إلاَّ بذُلِّى

وكان هذا الخطاب فى أول الأمر ، ثم أنحَى عليه بالهجاء ، فافتقِدْ ـ أعزك اللهُ ـ إنصافَ إخوانك ، وتجنَّبْ ظلمَهم ، يصفُ لك غديرُ وُدِّهم » .

(أدب الكتاب ص ١٥٩)

٢٥٢ — كتاب أحمد بن على المازرانى إلى ابن بشر المرثدى

وروى الصُّولى أيضا فى أدب الكتاب قال :

لما وِلِىَ ابنُ بِشْرٍ المَرْثَدىّ كتابة الموفَّق بالله ، نَقَص أحمدَ بن على المازَرانىّ فى الدعاء حين كاتبَه ، فكتب إليه :

كلما رُمْتُ أنْ أُخَلِّفَ مَن كا ... ن أمامى خَلَفْتُ عمَّن ورائى(٣)
أَنَقَصْتَ الدُّعاء لى منك لَمَّـا ... زادك اللهُ رِفعــةً فى دعائى ؟

---

(١) هكذا فى الأصل ، وهو خطأ ، فإن ابن الزيات إنما وزر للمعتصم والواثق والمتوكل ، ثم نكبه المتوكل وقتله سنة ٢٣٣ ، وأما المعتضد فإنه ولى الخلافة سنة ٢٧٩ وتوفى سنة ٢٨٩ ، والصواب أنه « الواثق » . (٢) أى نقصنى .

(٣) يقال : خلفه وراءه أى جعله وراءه فتخلف عنه : أى تأخر عنه ، ويقال أيضاً : خلف عن أصحابه : أى تخلف .

فلَئِنْ تمّ ما أراه وأصبحتُ وزيرا لَتَطْعَمِنّ جزائى(١)

فاعتذر إليه وزاده فى الدعاء .

وكان هذا فى كلام منثور لمن كان قبل المازَرانى : « وكنتُ آمُلُ لك الرفعة ، ولم أدرِ أنها تُكسبنى الضَّعَةَ ، وأرجو لك الثروة ولم أدر أنها تؤدينى إلى الإضافة ، فكان المُنَى طرد الغنا ، والدعاء سبب الثراء » . (أدب الكتاب ص ١٦٠)

٢٥٣ — فصل لعبد الله بن أحمد فى الشكر

« إن مِن حَقّ النعمة أن تُذكَر وتُنْشَر ، ومِن كُفرِها أن تُنْسَى وتُستَر ، وما أحبُّ أن أتزيَّن بنعمتك وأكون عُطُلا(٢) من شكرك ، ولا أن تكون مِنَنُك مُوَفَّرةً عندى وأنا ناقصُ الحظ من رعاية ما أوليتنى ، لَنِعْمَ إذَنْ ما أتيت إلىّ ، إذ صرفتَ أفضلَ نظرك نحوى ، ولَبِئْسَ ما اخترتُ لنفسى ، إذ حَرَمْتُها فضلَ الشكر لِمن أنعم علىّ فجعلتُ حظّى فى قضاء حقّ النعمة ، وما فى الشكر من استيجابِ الزيادة » . (اختيار المنظوم والمنثور ١٣ : ٣٨٠)

٢٥٤ — كتاب ابن عبدكان عن أحمد بن طولون إلى ابنه العباس

وكتب ابن عَبْدكان(٣) عن أحمد بن طُولون إلى ابنه العباس حين عَصَى عليه بالإسكندرية(٤) ، مُنْذِراً له ومُوبِّخا له على فعله .

---

(١) لتطعمن : أى لتذوقن ، وفى الأصل « لتطعمنى » وهو تحريف .

(٢) من قولهم : امرأة عاطل وعطل : إذا لم يكن عليها حلى .

(٣) هو أبو جعفر محمد بن عبد الله بن عبد كان ، كان على المكاتبات والرسائل فى عهد الدولة الطولونية ، وكان بليغا مترسلا فصيحا — انظر الفهرست لابن النديم ص ١٩٧ ومعجم الأدباء ٦ : ٨٥ .

(٤) كان الخليفة المعتز قد ولى بابكيال مصر ، فولى عليها بابكيال من قبله أحمد بن طولون سنة ٢٥٤ =

« من أحمد بن طُولون مَوْلَى أمير المؤمنين[1] ، إلى الظالم لنفسه ، العاصى لربِّه ، المُلِمِّ بذَنْبِه ، المُفْسِد لِكَسْبه ، العادِى[2] لطَوْره ، الجاهل لِقَدْره ، الناكِص على عَقِبه ، المرْكُوس[3] فى فِتنته ، المبخوس مِنْ حَظِّ دنياهُ وآخرته .

سلام على كل مُنِيب مستجِيب ، تائبٍ من قريب ، قَبْلَ الأخذ بالكَظَم[4] ، وحُلولِ الفَوْتِ والندم .

وأحمَدُ اللهَ الذى لا إله إلا هو حَمْدَ معترِفٍ له بالبَلاء الجميل ، والطَّوْلِ الجليل ، وأسأله مسألةَ مُخْلِصٍ فى رجائه ، مجتهِد فى دُعائه ، أن يصلِّيَ على محمد المصطَفَى ، وأمينه المرتضَى ، ورسوله المجتبَى ، صلى الله عليه وسلم .

= ثم استقل ابن طولون بمصر سنة ٢٥٧ فى عهد الخليفة المعتمد ، ثم أراد أن يوسع نطاق ملكه فأغار على الشام ٢٦٤ ، وفى أثناء غيابه بها عصى عليه ابنه العباس ، وجاء فى تاريخ الكامل لابن الأثير فى هذا الصدد (ج ٧ : ص ١٠٧) : « كان أحمد بن طولون قد خرج إلى الشام واستخلف ابنه العباس على مصر ، فلما أبعد عن مصر حسن للعباس جماعة كانوا عنده أخذ الأموال والانسراح إلى برقة ، ففعل ذلك ، وأتى برقة فى ربيع الأول سنة ٢٦٥ ، وبلغ الخبر أباه فعاد إلى مصر ، وأرسل إلى ابنه ولاطفه واستعطفه ، فلم يرجع إليه ، وخاف من معه فأشاروا عليه بقصد إفريقية ، فسار إليها وكاتب وجوه البربر ، فأتاه بعضهم ، وامتنع بعضهم ، وكتب إلى إبراهيم بن الأغلب يقول : إن أمير المؤمنين قد قلدنى أمر إفريقية وأعمالها ، ورحل حتى أتى حصن « لبدة » ففتحه أهله له ، فعاملهم أسوأ معاملة ونهبهم ، فمضى أهل الحصن إلى إلياس بن منصور رئيس الإباضية هناك ، فاستعانوا به ، فغضب لذلك وسار إلى العباس ليقاتله ، وكان إبراهيم بن الأغلب قد أرسل إلى عامل طرابلس جيشاً وأمره بقتال العباس ، فالتقوا واقتتلوا قتالا شديدا ، قاتل العباس فيه بيده ، فلما كان بالغد وافاهم إلياس بن منصور الإباضى فى اثنى عشر ألفاً من الإباضية ، فاجتمع هو وعامل طرابلس على قتال العباس فقتل من أصحابه خلق كثير ، وانهزم أقبح هزيمة ، وكاد يؤسر فخلصه مولى له ، ونهبوا سواده وأكثر ما حمله من مصر وعاد إلى برقة أقبح عود ، وشاع بمصر أن العباس انهزم فاغتم والده حتى ظهر عليه ، وسير إليه العساكر لما علم سلامته ، فقاتلوه قتالا صبر فيه الفريقان ، فانهزم العباس ومن معه ، وكثر القتل فى أصحابه ، وأخذ العباس أسيراً وحمل إلى أبيه فحبسه فى حجرة فى داره ، إلى أن قدم باقى الأسرى من أصحابه ، فلما قدموا أحضرهم أحمد عنده والعباس معهم ، فأمره أبوه أن يقطع أيدى أعيانهم وأرجلهم ففعل ، فلما فرغ منه وبخه أبوه وذمه ، ثم أمر به فضرب مائة مقرعة ، ودموعه تجرى على خده رقة لولده ، ثم رده إلى الحجرة واعتقله وذلك سنة ٢٦٨ » ومات ابن طولون سنة ٢٧٠ » .

(١) يعنى المعتمد على الله .

(٢) عدا الأمر وعنه : جاوزه ، والطور : القدر .

(٣) الركس : قلب أول الشىء على آخره .

(٤) الكظم : مخرج النفس .

أما بعدُ ، فإن مَثَلَك مَثلُ البقرة تثيرُ المُدْيةَ بقَرْنيها ، والنملةِ يكون حَتْفها في جناحيها ، وستعلم — هَبِلَتْك(١) الهَوَابِلُ ! أيها الأحمقُ الجاهل ، الذى ثَنَى على الغَيِّ عِطفَه،واغترَّ بضِجاج المواكِب خلفَه — أىَّ مَوْرِدَةِ هَلَكةٍ بإذن الله تورَّدْتَ، إذ على الله جل وعز تمرَّدْتَ وشَرَدْتَ ، فإنه تبارك وتعالى قد ضرب الك في كتابه مثلا : « قَرْيَةً كَانَتْ آمِنَةً مُطْمَئِنَّةً يَأْتِيهَا رِزْقُهَا رَغَداً مِنْ كُلِّ مَكَانٍ فَكَفَرَتْ بِأَنْعُمِ اللهِ فَأَذَاقَهَا اللهُ لِبَاسَ الْجُوعِ وَالْخَوْفِ بِمَا كَانُوا يَصْنَعُونَ » .

وإنا كنا نقرِّبك إلينا ، وننَسُبك إلى بيوتنـــا ، طمعا فى إنابتك ، وتأميلا لِفَيْئتك(٢) ، فلما طال فى الغَىِّ انهما كُك ، وفى غَمْرة الجهل ارتباكُك ، ولم نرَ الموعِظةَ تُلين كَبِدَك ، ولا التذكيرَ يُقيم أَوَدَك(٣) ، لم تكن لهذه النسبة أهْلا ، ولا لإضافتك إلينا موضِعا ومَحَلاًّ ، بل لا نُكْنَى بأبي العباس إلا تكرُّها ، وطَمَعاً بأن يَهَبَ الله منك خَلَفا نُقلِّده اسمَك ، ونُكْنَى به دونَك ، ونعدُّك كنت نَسْيا مَنْسيا(٤) ، ولم تك شيئا مَقْضِيا ، فانظر — ولا نَظَرَ بك — إلى عارٍ نِسْبَتَه تقلَّدْتَ ، وسَخَطٍ مِن قِبَلنا تعرَّضتَ ، واعلم أن البلاء بإذن الله قد أظلَّك ، والمكروهَ إن شاء الله قد أحاط بك ، والعساكر بحمد الله قد أتَتْك كالسَّيْل فى الليل ، تُؤْذِنك بحَرْب وبوَيْل ، فإنا نُقسم — ونرجو أن لا نَجُور ونَظلم — ألا نَثْنِيَ عنك عِنانا ، ولا نُؤْثِرَ على شانك شانا ، ولا نتوقَّلَ(٥) ذِروةَ جبل ، ولا نَلِجَ بَطْنَ وادٍ ، إلا تَبِعْناك(٦) بحَول الله وقوته فيهما ، وطلبناك حيث أَمَمْتَ منهما ، مُنْفِقين فيك كلَّ مال خطير، ومستصغِرين بسببك كل خَطْب جليل، حتى تستمرئَ من طعْم العيش ما استحلَيْتَ، وتستدفِعَ من البلايا ما استدعيتَ ، حين لا دافعَ بحَوْل الله عنك ، ولا مُزَحْزِحَ لنا

---

(١) هبلته أمه كفرح : ثكلته ، وامرأة هابل وهبول .

(٢) الفيئة : الرجوع . (٣) الأود : الاعوجاج .

(٤) النسى : ما نسى . (٥) وقل فى الجبل كوعد وتوقل : صعد .

(٦) فى الأصل « جعلناك » والظاهر أنه محرف، وصوابه « تبعناك » كما ذكره مصحح صبح الأعشى.

عن ساحتك ، وتَعرِف من قدر الرخاء ماجَهلتَ ،وتودُّ أنك هُبلْتَ ولم تكن بالمعصية عَجِلْتَ ، ولا رأَىَ مَن أضلّك مِن غُواتِك قبلْتَ ، فحينئذ يتفرَّى(١) لك الليلُ عن صُبحه ، ويَسفِر لك الحقُّ عن مَحْضِه ، فتنظر بعينين لا غِشاوةَ عليهما ، وتسمَع بأُذُنين لا وَقْرَ(٢) فيهما ، وتعلم أنك كنت متمسّكا بحبائل غُرور ، متمادياً فى مَقَابح أمور ، مِن عُقوقٍ لا ينام طالبُه ، وبَغيٍ لا ينجو هاربُه ، وغَدرٍ لا ينتعِشُ صَريعُه ، وكُفرانٍ لا يُودَى(٣) قَتيلُه ، وتقِف على سوء رَويتك ، وعِظَم جَريرتك ، فى تركِك قَبولَ الأمانِ ، إذ هو لك مبذول ، وأنت عليه محمول ، وإذِ السيفُ عنك مَغمود ، وبابُ التوبةِ إليك مفتوح ، وتتلهَّف والتلهفُ غيرُ نافِعك ، إلا أن تكون أجَبْتَ إليه مُسْرِعا ، وانقدْتَ إليه منتصِحا .

وإن مما زاد فى ذنوبك عندى ما ورد به كتابك علىَّ بعد نفوذى على الفُسطاط من التمويهات والأعاليلِ(٤) ، والعِدَات بالأباطيل ، من مصيرك — بزَعمِك — إلى إصلاح ما ذكرتَ أنه فَسَدَ علىَّ ، حتى مِلْتَ إلى الاسكندرية فأقمتَ بها طول هذه المدة ، واستظهاراً عليك بالحجة ، وقطعاً لمن عسى أن يتعلّق به مَعْذِرة عِلْمٍ بأن الأَناةَ غيرُ صادَّة ، ولا أنه خالَجَنى شكٌّ ولا عارَضَنى ريب فى أنك إنما أردت النزوحَ(٥) والاحتيالَ للهرَب والنزوعَ إلى بعض المواضع التى لعلَّ قَصْدَك إياها يُودِيك(٦) ، ولعل مصيرك إليها يَكفينيك ، ويُبلِّغ إلىَّ أكثرَ من الإرادة فيك ، لأنك إن شاء الله

---

(١) تفرى : انشق ، والمعنى هنا ينكشف ، وسفر الصبح كضرب وأسفر : أضاء وأشرق .

(٢) الوقر : الصمم . (٣) ودي القتيل كوعى : أعطى ديته .

(٤) أخذها من قول الإمام على كرم الله وجهه فى بعض خطبه : « أعاليل بأضاليل » وفى كتب اللغة « العلالة بالضم والتعلة كتحية والعلة بالفتح : مايتعلل به » ولم أجد فيها كلمة أعاليل ولا مفردها ، ولا بد أن تكون جمع أعلولة بالضم ، كأعاجيب وألاعيب . . . الخ . والأباطيل : جمع أبطولة بالضم أو إبطالة بالكسر أو باطل على غير قياس .

(٥) النزوح : البعد .

(٦) الذى كتب فى اللغة « أودى الرجل : هلك ، وأودى به الموت : أهلكه » .

لاتَقصِدُ موضعا إلا تَلَوَّثَتْك ، ولا تأتى بلدا إلا تَفَوَّتُك ، ولا تلوذ بعصْمة تظُن أنها تُنْجيك إلا استعنتُ بالله عز وجل فى جَدِّ حَبْلِها ، وفَصْمِ(١) عُرُوتِها ، فإنَّ أحداً لايُؤْوِى مِثلَك ولا ينصره إلا لأحد أمرين من دِين أو دنيا ، فأمّا الدِّين فأنت خارج من جملته ، لمُقَامِك على العقوق ، ومخالفةِ ربك وإسخاطه ، وأما الدنيا فما أراه يَفِى معك من الحطام الذى سرقْتَه وحَمَلْتَ نفسك على الإيثار به ، ما يتهيأ لك مكاثَرَتُنا بمثله ، مع ما وهب الله لنا من جزيل النعمة التى تستودعه تبارك وتعالى إياها ، ونرغَب إليه فى إتمامها ، إلى ما أنت مُقيم عليه من البغى الذى هو صارِعُك ، والعقوق الذى هو طالبُك .

وأما ما منَّيْتَناه من مصيرك إلينا فى حُشُودك وجموعك ومن دخَل فى طاعتك ، لإصلاح عملنا ، ومكافحة أعدائنا ، بأمرٍ أظهَروا فيه الشماتة بنا ، فما كان إلا بسببك ، فأصْلِح أيها الصبىُّ الأخرقُ أمرَ نفسِك قبل إصلاحك عَمَلَنا ، واحزِمْ فى أمرك قبل استعمالك الحزْمَ لنا ، فما أحوجَنا اللهُ — وله الحمد — إلى نُصرتك ومُوازَرتك ، ولا اضطَرَّنا إلى التكثُّر بك على شِقاقك ومعصيتك « وَمَا كُنْتُ مُتَّخِذَ المُضِلِّينَ عَضُداً » .

وليت شعرى على من تَهوَّل بالجنود ، وتُمَخرِقُ(٢) بذكر الجيوش ؟ ومَن هؤلاء المسخَّرون لك ، الباذلون دماءهم وأموالهَم وأديانهم دُونك ، دُونَ رِزقٍ تَرْزُقُهم إياه ، ولا عطاء تُدِرُّهُ عليهم ؟ فقد علمتَ — إن كان لك تمييز ، أو عندك تحصيل — كيف كانت حالك فى الوقعة التى كانت بناحية أطْرَابُلُس(٣) ، وكيف خَذَلك أولياؤك والمرتزِقة معك حتى هُزِمْتَ ، فكيف تغترُّ بمن معك من الجنود الذين لا اسْمَ لهم

(١) الجد : القطع . والفصم : القطع والكسر أيضاً .
(٢) المخرقة : التمويه ، والمخرق : المموه .
(٣) يقال فيها : طرابلس وأطرابلس كما جاء فى معجم ياقوت .

معك ، ولا رِزق يجرى لهم على يدك ؟ فإن كان يدعوهم إلى نُصْرتك هيبتُك والمداراةُ لك ، والخوفُ من سلطانك ، فإنهم لَيَجْذِبُهم أضعافُ ذلك منا ، ووجُودُهم من البَذْل الكثير والعطاء الجزيل عندنا مالا يجدونه عندك ، وإنهم لأَحْرَى بخذلك ، والميلِ إلينا دونك ، ولو كانوا جميعا معك ، ومقيمين على نُصرتك ، لرجَوْنا أن يُمكِّن اللهُ منك ومنهم ، ويجعلَ دائرَةَ السَّوْءِ عليك وعليهم ، ويُجرِيَنا من عادته فى النصر وإعزاز الأمر على مالم يَزَل يتفضلُ علينا بأمثاله ، ويتطوَّلُ بأشباهه ، فما دعانى إلى الإرْجاء لك ، والتسهيلِ مِن خِناقك[1] ، والإطالة من عِنانك ، طولَ هذه المدة إلا أمران : أغلبُهما كان علىَّ احتقارُ أمرك واستصغارُه وقلةُ الاحتفال والاكتراث به ، وأنى اقتصرتُ من عقوبتك على ما أحْللته[2] بنفسك من الإباق إلى أقاصى بلاد المغرب ، شَريداً عن منزلك وبلدك ، فَريدا من أهلك وولدك ، والآخر أنى علمتُ أن الوَحْشة دعَتْك إلى الانحياز إلى حيثُ انحزْتَ إليه ، فأردتُ التسكين من نِفارك ، والطُّمأنينةَ مِن جَأْشك[3] ، وعلِمْتُ على أنك تحِنُّ إلينا حنينَ الولد ، وتتُوقُ إلى قُرْبنا توَقانَ ذى الرَّحِم والنسب ، فإن فى رِفقنا بك ما يَعطِفك إلينا ، وفى تآخينا إياك ما يردُّك علينا ، ولم يسمع منا سامع فى خَلاء ولا مَلَإ[4] انتقاصاً بك ، ولا غَضًّا منك ، ولا قَدْحا فيك ، رِقَّةً عليك ، واستِتْماماً لليَدِ عندك ، وتأميلًا لِانْ تكون الراجعَ مِن تِلقاءِ نفسك ، والموفَّق بذلك لرُشْدك وحَظِّك ، فأمَّا الآنَ مع اضطرارك إياى إلى ما اضطررتنى إليه من الانزعاج نحوَك ، وحَبْسك رُسلى النافذين بعهد كثير إلى ماقِبَلك ، واستعمالِك المُوارَبَةَ والخداعَ فيما يجرى عليه تدبيرك ، فما أنت بموضع الصِّيانة ، ولا أهل للإبقاء والمحافظة ، بل اللعنةُ عليك حالّةٌ ، والذِّمَّةُ منك بريَّة ، واللهُ طالِبُك ومؤاخِذك بما استعملت من العقوق والقطيعة ، والإضاعةِ

---

(١) الخناق : الحبل يخنق به .

(٢) فى الأصل « ما أخلقته » وأراه محرفا ، والصواب ماذكرته ، والإباق : الهرب .

(٣) الجأش : رواع القلب إذا اضطرب عند الفزع .

(٤) الملأ : الجماعة .

بِرَحِمِ الأبوّة ، فعليك من ولد عاقّ مُشاق[1] لعنةُ الله ولعنة اللاعنين والملائكة والناس أجمعين ، ولا قَبِلَ الله لك صَرْفًا ولا عَدْلًا[2] ، ولا ترك لك مُنقلَبا ترجع إليه ، وحذَلَك خِذلانَ من لا يُؤْبَه[3] له ، وأثكلَكَ ولا أمهَلَك ، ولا حاطك ولا حفظك ، فوالله لَأَستعملنَّ لَعْنَك فى دُبُر كل صلاة ، والدعاء عليك فى آناء الليل والنهار ، والغُدُوِّ والآصالِ ، ولَأَكتُبَنَّ إلى مصر وأجناد الشامات والثغور وقِنَّسْرِين والعواصم والجزيرة والحِجاز ومكّة والمدينة ، كُتُبا تُقرأ على منابرها فيك ، باللَّعن لك ، والبراءةِ منك ، والدّلالةِ على عقوقك وقطيعتك ، يتناقلها آخِرٌ عن أوّل ، ويأثُرُها[4] غابرٌ عن ماض ، وتُخلَّد فى بطون الصحائف ، وتحملها الرُّكبانُ ، ويُتَحَدَّث بها فى الآفاق ، وتُلحِق بك وبأعقابك عاراً ، ما اطَّرد الليل والنهار ، واختلف الظلام والأنوار .

فحينئذ تعلم أيها المخالفُ أمْرَ أبيه ، القاطعُ رَحِمَه ، العاصِى ربَّه ، أىَّ جناية على نفسك جنيتَ ، وأىَّ كبيرة اقترفتَ واجتنيتَ ؟ وتتمنى لو كانت فيك مُسْكة[5] ، أو فيك فضلُ إنسانية ، أنك لم تكن وُلِدْتَ ، ولا فى الخلق عُرِفتَ ، إلا أن تُراجِع من طاعتنا ، والإسراع إلى ما قِبَلنا ، خاضعا ذليلا كما يلزمُك ، فتُقيم الاستغفار مُقام اللعنة ، والرِّقَّة مقام الغِلظة ، والسلام على من سَمِع الموعظة فوعاها ، وذكر الله فاتقاه ، إن شاء الله تعالى » .

(صبح الأعشى ٧ : ٥)

٢٥٥ — كتاب بمذهب القرامطة

قال الطبرى :

وفى سنة ٢٧٨ هـ وَرَدَت الأخبار بحركة قوم يعرفون بالقَرامطة بسَواد

---

(١) أى مخالف ، وفى الأصل « شاق » وهو تحريف .
(٢) الصرف : التوبة ، العدل : الفدية .
(٣) أى لا يحتفل به لحقارته .
(٤) أى ينقلها ويرويها . (٥) المسكة : مايتمسك به .

الكوفة(١) ، وكان فيما حكوا عن هؤلاء القرامطة من مذهبهم أن جاءوا بكتاب فيه :

« بسم الله الرحمن الرحيم ، يقول الفرج بن عثمان ، وهو من قرية يقال لها نصرانة: إنه داعية إلى المسيح ، وهو عيسى ، وهو الكلمة ، وهو المهدىّ ، وهو أحمد بن محمد ابن الحنفيّة ، وهو جبريل ، وذكر أن المسيح تصوّر له فى جسم إنسان ، وقال له : إنك الداعية ، وإنك الحجّة ، و الناقة ، وإنك الدّابة ، وإنك روح القُدس ، وإنك يحيى بن زكرياء ، وعرّفه أن الصلاة أربعُ ركعات : ركعتان قبل طلوع الشمس ، وركعتان قبل غروبها ، وأن الأذان فى كل صلاة أن يقول : اللهُ أكبرُ

(١) قال الطبرى: فكان ابتداء أمرهم قدوم رجل من ناحية خوزستان إلى سواد الكوفة، ومقامه بموضع منه يقال له النهرين ، يظهر الزهد والتقشف ، ويسف الخوص ، ويأكل من كسبه ، ويكثر الصلاة، فأقام على ذلك مدة ، فكان إذا قعد إليه إنسان ذاكره أمر الدين ، وزهده فى الدنيا ، وأعلمه أن الصلاة المفترضة على الناس خمسون صلاة فى كل يوم وليلة ، حتى فشا ذلك عنه بموضعه ، ثم أعلمهم أنه يدعو إلى إمام من أهل بيت الرسول ، فلم يزل على ذلك يقعد إليه الجماعة فيخبرهم من ذلك بما يعلق بقلوبهم، وكان يقعد إلى بقال فى القرية . . . . » إلى أن قال : « ثم مرض فمكث مطروحا على الطريق وكان فى القرية رجل يحمل على أثوار له ، أحمر العينين شديدة حمرتهما ، وكان أهل القرية يسمونه « كرميته » لحمرة عينيه ، وهو بالنبطية « أحمر العينين » ، فكلم البقال كرميته هذا فى أن يحمل هذا العليل إلى منزله، ويوصى أهله بالإشراف عليه والعناية به ، ففعل وأقام عنده حتى برئ ، ثم كان يأوى إلى منزله ، ودعا أهل القرية إلى أمره ووصف لهم مذهبه ، فأجابه أهل تلك الناحية وكان يأخذ من الرجل إذا دخل فى دينه دينارا ، ويزعم أنه يأخذ ذلك للإمام ، فمكث بذلك يدعو أهل تلك القرى فيجيبونه ، واتخذ منهم اثنى عشر نقيبا أمرهم أن يدعوا الناس إلى دينهم ، وقال لهم : أنتم كحوارى عيسى بن مريم، فاشتغل أكرة تلك الناحية عن أعمالهم بما رسم لهم من الخمسين صلاة ، التى ذكر أنها مفترضة عليهم ، وكان للهيصم فى تلك الناحية ضياع ، فوقف على تقصير أكرته فى العمارة ، فسأل عن ذلك فأخبر أن إنسانا طرأ عليهم فأظهر لهم مذهبا من الدين ، وأعلمهم أن الذى افترضه الله عليهم خمسون صلاة فى اليوم والليلة ، فقد شغلوا بها عن أعمالهم ، فوجه فى طلبه فأخذ وجيء به إليه ، فسأله عن أمره ، فأخبره بقصته ، فحلف أن يقتله ، فأمر به فحبس فى بيت وأقفل عليه الباب ووضع المفتاح تحت وسادته وتشاغل بالشرب ، وسمع بعض من فى داره من الجوارى بقصته فرقت له ، فلما نام الهيصم أخذت المفتاح من تحت وسادته وفتحت الباب وأخرجته ، وأقفلت الباب وردت المفتاح إلى موضعه ، فلما أصبح الهيصم دعا بالمفتاح ففتح الباب فلم يجده، وشاع بذلك الخبر ، ففتن به أهل تلك الناحية ، وقالوا : رفع ، ثم ظهر فى موضع آخر ، ولقى جماعة من أصحابه وغيرهم، فسألوه عن قصته فقال : ليس يمكن أحدا أن يبدأنى بسوء ، ولا يقدر على ذلك منى ، فعظم فى أعينهم ، ثم خاف على نفسه فخرج إلى ناحية الشام فلم يعرف له خبر ، وسمى باسم الرجل الذى كان فى منزله صاحب الأثوار كرميته ، ثم خففت فقالوا قرمط » .

الله أكبر ، الله أكبر الله أكبر ، أشهد أن لا إله إلا الله مرتين ، أشهد أن آدمَ رسول الله ، أشهد أن نوحا رسول الله ، أشهد أن إبراهيم رسول الله ، أشهد أن موسى رسول الله ، وأشهد أن عيسى رسول الله ، وأشهد أن محمدا رسول الله ، وأشهد أن أحمد بن محمد بن الحنفية رسول الله ، وأن يقرأ فى كل ركعة الاستفتاحَ ، وهى من المُنْزَل على أحمد بن محمد بن الحنفية ، والقبلة إلى بيت المَقْدِس ، والحجّ إلى بيت المَقْدِس ، ويوم الجمعة يوم الاثنين لايُعمل فيه شىء ، والسُّورة الحمد لله بكلمته وتعالى باسمه المتخَذِ لأوليائه بأوليائه ، قل إن الأهِلة مواقيتُ للناس ، ظاهِرُها لِيُعْلَمَ عددُ السنينَ والحساب والأشهر والأيام ، وباطِنُها أوليائى الذين عرّفوا عبادى سبيلى اتَّقُون يا أولِى الألباب ، وأنا الذى لا أُسْأل عما أفعل ، وأنا العليم الحكيم ، وأنا الذى أبْلُو عبادى ، وأمتحِن خَلْقِى ، فمَنْ صَبَر على بلائى ومِحْنتى وَاختبارى ألقيتُه فى جنتى ، وأخلدتُه فى نعمتى ، ومن زال عن أمرى وكذّب رُسُلى ، أخلدتُه مُهَانا فى عذابى ، وأتممتُ أجَلِى ، وأظهرتُ أمرى على ألسِنة رسلى ، وأنا الذى لم يعْلُ علىَّ جبّارٌ إلا وضعتُه ، ولا عزيزٌ إلا أذلَلْتُه ، وليس الذى أصرّ على أمره ، وداوم على جَهالته ، وقالوا لَن نَبْرَح عليه عا كفين ، وبه مؤمنين ، أولئك هم الكافرون .

ثم يركع ويقول فى ركوعه : سبحان رَبِّىَ رب العِزة وتعالى عما يصف الظالمون ، يقولها مرتين ، فإذا سجد قال : الله أعلى الله أعلى ، الله أعظم الله أعظم .

ومن شرائعه أن الصوم يومان فى السنة ، وهما المِهْرَجان والنَّوْرُوز ، وأن النبيذ حرام ، والخمر حلال(١) ، ولا غُسْل من جَنَابة إلا الوضوء كوضوء الصلاة ، وأن من حاربه وجب قتله ، ومن لم يحاربه ممن خالفه أُخِذت منه الجزية ، ولا يؤكل(٢) كلُّ ذى ناب ، ولا كل ذى مِخْلَب [ويشترك فى المرأة جماعة من الرجال(٣)] .

(تاريخ الطبرى ١١ : ٣٣٩ ، وغرر الخصائص الواضحة ص ٢١٣)

---

(١) وفى غرر الخصائص « وأن النبيذ والخمر غيرحرام » .

(٢) وفيه « ويؤكل » .

(٣) مابين القوسين وارد فى غرر الخصائص .

٢٥٦ — من كتاب عن المعتضد إلى خمارويه بن أحمد ابن طولون

ولما حُمِلَت قَطْرُ النَّدى بنت خُمارَوَيه بن أحمد بن طولون إلى المعتضد(١) ، كتب معها أبوها يذكِّره بخدمة سَلَفِها(٢) ، ويذكُر ما تَرِد عليه من أُبَّهة الخلافة ، وجلالة الخليفة ، وسأل إيناسَها وبَسْطَها ، فبلغَتْ من قلب المعتضد لمّا زُفَّت إليه مبلغا عظيما ، وسُرَّ بها غاية السرور ، وأمر الوزيرَ أبا القاسم عبيد الله بن سليمان بن وهب بالجواب عن الكتاب ، فأراد أن يكتبه بخطه ، فسأله أبو الحسين بن ثَوابة أن يُؤْثِره بذلك ففعل وغاب أياما ، وأتى بنسخة يقول في فصل منها :

« وأمّا الوديعةُ فهي بمنزلة شيء انتقَلَ من يمينك إلى شِمالك ، عنايةً بها، وحِياطة عليها ، ورعاية لمودَّتك فيها » .

ثم أقبل على عُبيد الله يَعجَب من حسن ما وقع له من هذا ، وقال : تسميتى لها بالوديعة نصف البلاغة ، فقال عبيد الله : ما أقبحَ هذا ! تفاءلْتَ لامرأة زُفَّت إلى صاحبها بالوديعة ، والوديعةُ مستَرَدَّة ، وقولك : من يمينك إلى شِمالك أقبح ، لأنك جعلت أباها اليمين ، وأمير المؤمنين الشِّمال ، ولو قلتَ على حال :

« وأما الهديةُ فقد حَسُنَ مَوْقِعُها منا ، وجَلَّ خَطَرُها عندنا ، وهى — وإن بعُدَتْ عنك — بمنزلة ما قَرُبَ منك ، لتفقُّدنا لها ، وأُنْسِنا بها ، ولسرورها بما وردَتْ عليه ، واغتباطِها بما صارت إليه لكان أحسن ، فنفَذَ الكتاب » .

(زهر الآداب ٢ : ٢٨٩)

---

(١) هو أبو العباس أحمد بن الموفق طلحة بن المتوكل ، ولى الخلافة سنة ٢٧٩ ، وتوفى سنة ٢٨٩ وولى خمارويه ملك مصر بعد وفاة أبيه سنة ٢٧٠ وقتل سنة ٢٨٢ .

(٢) كان جدها طولون مملوكا للمأمون ، وأصله من بخارى من قبائل التركستان، أهداه إلى المأمون عامله ابن أسد الصامانى فى جملة من أرسلهم إليه سنة ٢٠٠ هـ وقد أعجب به المأمون فألحقه بحاشيته ، ومازال يرقيه حتى جعله رئيس حرسه ، ولقبه بأمير الستر — وهو منصب لم يكن يناله إلا من كان الخليفة ثقة خاصة بأمانته وإخلاصه ، ليكون محافظا على حياته الشخصية — وكان فى عهد المعتصم رئيس بطانته من المماليك .

٢٥٧ — كتاب عن المعتضد بلعن معاوية بن أبى سفيان

وروى الطبرى قال :

وفى سنة ٢٨٤ ﻫ عزم المعتضد بالله على لعن معاوية بن أبى سفيان على المنابر ، وأمر بإنشاء كتاب بذلك يُقرأ على الناس .

وذكر أن المعتضد أمر بإخراج الكتاب الذى كان للمأمون أمر بإنشائه بلعن معاوية، فأُخرج له من الديوان ، فأخذ من جوامعه نسخة هذا الكتاب ، وكانت نسخة الكتاب الذى أنشئ للمعتضد بالله :

« بسم الله الرحمن الرحيم : الحمدُ لله العلىِّ العظيم ، الحليم الحكيم ، العزيز الرحيم ، المنفرد بالوَحْدانية ، الباهرِ بقدرته ، الخالق بمشيئته وحِكمته ، الذى يعلَم سوابقَ الصدورِ وضمائرَ القلوب ، لا يَخْفَى عليه خافيةٌ ، ولا يعزُبُ عنه مِثقالُ ذرَّةٍ فى السموات العُلَى ولا فى الأرَضِينَ السُّفْلَى ، قد أحاط بكل شىء عِلْما ، وأحْصَى كلَّ شىء عَدَدًا ، وضرَب لكل شىء أمَدًا ، وهو العليم الخبير ، والحمد لله الذى برَأ خَلْقَه لعبادته ، وخَلَق عباده لمعرفته ، على سابق عِلمِه فى طاعة مُطِيعهم ، وماضى أمْرِه فى عِصيان عاصيهم ، فبيَّن لهم ما يأتون وما يتقُّون ، ونَهَجَ لهم سُبُلَ النجاة ، وحذَّرهم مسالِكَ الهَلَكة ، وظاهَرَ عليهم الحُجَّةَ ، وقدَّم إليهم المعذِرةَ ، واختار لهم دينه الذى ارتضى لهم وأكرمهم به ، وجعل المعتصِمين بحَبْله والتمسِّكين بعُرْوته أولياءه وأهلَ طاعته ، والعانِدين[1] عنه والمخالفين له أعداءه وأهلَ معصيته : « لِيَهْلِكَ مَنْ هَلَكَ عَنْ بَيِّنَةٍ وَيَحْيَا مَنْ حَيَّ عَنْ بَيِّنَةٍ وَإِنَّ اللَّهَ لَسَمِيعٌ عَلِيمٌ » والحمد لله الذى اصطفى محمدا رسولَه من جميع بَرِيَّته ، واختاره لرسالته ، وابتعثه بالهُدَى والدِّين المرتضَى إلى عباده أجمعين ، وأنزل عليه الكتاب المُبين المستبين ، وتأذَّنَ له بالنصر والتمكين ، وأيَّده بالعِز والبرهان المتين ، فاهتدى به مَن اهتدى ، واستنقذَ به مَن

---

(١) أى المائلين .

استجاب له من العَمَى ، وأضلَّ مَن أدبَرَ وتولَّى ، حتى أظهر الله أمْرَه ، وأعز نصرَه ، وقهرَ مَن خالفه ، وأنجز له وَعْدَه ، وختَم به رُسُلَه ، وقبَضه مؤدِّيا لأمره ، مبلِّغا لرسالته ، ناصحاً لأمته ، مَرْضياً مُهتدِياً إلى أ كرَمِ مآب المنقلبين ، وأعلى مَنازِل أنبيائه المرسلين، وعباده الفائزين، فصلَّى اللهُ عَلَيْهِ أفضلَ صلاةٍ وأتمَّها، وأجَلَّها وأعظمها، وأزكاها وأطهرَها ، وعلى آله الطيِّبين ، والحمد لله الذى جعل أمير المؤمنين وسَلَفه الراشدين المهتدين ، وَرَثةَ خاتمِ النبيين ، وسيِّدِ المرسلين ، والقائمين بالدين ، والمقوِّمين لعباده المؤمنين ، والمستحفَظين ودائعَ الحكمة ومواريث النبوَّة ، والمستخلَفين فى الأمة ، والمنصورين بالعز والمَنَعة ، والتأييد والغَلَبة ، حتى يُظْهِر اللهُ دينَه على الدين كُلِّه ولو كره المشركون .

وقد انتهى إلى أمير المؤمنين ما عليه جماعةٌ من العامَّة ، من شُبْهة قد دخلَتْهم فى أديانهم ، وفسادٍ قد لحِقَهم فى معتقَدهم ، وعصبيَّة قد غلبَتْ عليها أهواؤُهم ، ونطقَتْ بها ألسنَتُهم ، على غير معرفة ولا رويَّة ، وقلَّدوا فيها قادةَ الضلالة بلا بيِّنة ولا بصيرة، وخالفوا السُّنن المتبعة إلى الأهواء المبتدَعة ، قال الله عز وجل : « وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّن اتَّبَعَ هَوَاهُ بِغَيْرِ هُدًى مِنَ اللهِ ، إنَّ اللهَ لَا يَهْدِى الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ » خروجاً عن الجماعة ، ومسارَعَةً إلى الفتنة ، وإيثاراً للفُرقة ، وتشتيتا للكلمة ، وإظهاراً لموالاة مَن قطَع اللهُ عنه الموالاةَ ، وبتَرَ منه العصمةَ ، وأخرجه من الملّة ، وأوجب عليه اللعنةَ ، وتعظيماً لمن صغَّر اللهُ حقَّهُ ، وأوهن أمرَه ، وأضعفَ رُكنَه ، من بنى أمية الشجرة الملعونة ، ومخالفةً لمن استنقذهم الله به من الهلَكة ، وأسبغ عليهم به النِّعْمةَ ، من أهل بيتِ البركة والرحمة ، قال الله عز وجل: « يَخْتَصُّ بِرَحْمَتِهِ مَنْ يَشَاءُ وَاللهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ » فأعْظَمَ أميرُ المؤمنين ما انتهى إليه من ذلك ، ورأى فى ترك إنكاره حَرَجا عليه فى الدين ، وفسادا لمن قلَّده الله أمرَه من المسلمين ، وإهمالا لما أوجبه الله عليه من تقويم المخالفين ، وتبصير الجاهلين ، وإقامة الحجة على الشاكِّين ، وبَسْطِ اليد على العاندين .

وأمير المؤمنين يُخبركم معاشرَ المسلمين ، أن الله عز وجل لما ابتعث محمدا بدينه ، وأمَره أن يَصْدَع بأمره ، بدأ بأهله وعشيرته ، فدعاهم إلى ربه وأنذَرَهم وبشَّرهم ، ونصَح لهم وأرشدهم ، فكان مَن استجاب له وصدَّق قولَهُ واتبع أمرَه نَفَرٌ يسير من بنى أبيه ، من بين مؤمن بما أتَى به من ربه ، وبَيْن ناصرٍ له وإن لم يتَّبع دينه ، إعزازا له وإشفاقا عليه ، لماضى عِلْم الله فيمن اختار منهم ، وَنَفَذَت مشيئته فيما يستودعه إياه من خلافته وإرث نبيه ، فمؤمِنُهم مجاهِدٌ ببصيرته ، وكافِرُهم مجاهد بنُصرته وحَمِيَّته ، يدفعون مَن نابَذَه ، ويَقْهرون مَن عارَّه(١) وعانَدَه ، ويتوثَّقون له ممن كانَفَه وعاضَدَه ، ويبايعون له مَن سَمَح بنصرته(٢) ، ويتجسَّسون له أخبار أعدائه(٣) ويَكيدون له بظَهْر الغَيب كما يكيدون له برَأى العين ، حتى بلغ المَدَى ، وحان وقتُ الاهتداء ، فدخلوا فى دين الله وطاعته وتصديقِ رسوله والإيمان به ، بأثْبَتِ بصيرةٍ ،

---

(١) عاره معارة وعرارا : قاتله وآذاه، وفى شرح ابن أبى الحديد « عازه » بالزاى ، يقال: عازنى فعززته أى غالبنى فغلبته ، وكانفه : عاونه وساعده .

(٢) يعنى بذلك جده العباس بن عبد المطلب ، وما كان منه فى بيعة العقبة الثانية ، وذلك أن رسول الله صلى الله عليه وسلم (قبل هجرته من مكة) كان قد تواعد مع أنصاره من أهل المدينة الذين استجابوا لدعوته (فى موسم الحج) أن يجتمع بهم عند العقبة ليلاخفية من قريش ، ووافاهم هناك ومعه عمه العباس ، وهو يومئذ على دين قومه ، إلا أنه أحب أن يحضر أمر ابن أخيه ويتوثق له ، فلما جلس كان أول متكلم العباس ، فقال : يامعشر الخزرج ــ وكانت العرب إنما يسمون هذا الحى من الأنصار الخزرج ، خزرجها وأوسها ــ إن محمدا منا حيث قد علمتم ، وقد منعناه من قومنا ممن هو على مثل رأينا فيه ، فهو فى عز من قومه ومنعة فى بلده ، وإنه قد أبى إلا الانحياز إليكم واللحوق بكم ، فإن كنتم ترون أنكم وافون له بما دعوتموه إليه ، ومانعوه ممن خالفه ، فأنتم وما تحملتم من ذلك ، وإن كنتم ترون أنكم مسلموه وخاذلوه بعد الخروج به إليكم ، فمن الآن فدعوه ، فإنه فى عز ومنعة من قومه وبلده . . . الخ ــ انظر تاريخ الطبرى ٢ : ٢٣٨ ، وسيرة ابن هشام ١ : ٢٦٦ .

(٣) يعنى ما كان من العباس فى غزوة أحد ، وذلك أن جيش المشركين كان قد خرج من مكة لمحاربة رسول الله صلى الله عليه وسلم ــ انتقاما لما أصابهم يوم بدر ــ حتى نزلوا مقابل المدينة ، وبلغ الخبر رسول الله من كتاب بعث به إليه عمه العباس مع رجل استأجره لذلك ولم يخرج معهم فى هذه الحرب ، محتجا بما أصابه يوم بدر ولم يساعدهم بشىء (وقد قدمنا فى ص ٨٧ من الجزء الثالث أنه كان خرج مع المشركين يوم بدر وأسر وأخذ رسول الله منه الفدية) وكان بمكة يكتب إلى رسول الله بأخبار المشركين ، وقيل : إنه كان قد أسلم قبل الهجرة ، وكان يكتم إسلامه ــ انظر أسد الغابة ٣: ١١٠ والسيرة الحلبية ٢ : ٢٣٠ .

وأحسَنِ هُدًى ورغبةٍ ، فجعلهم الله أهلَ بيت الرحمة ، وأهل بيت الدين ، أذهَبَ عنهم الرِّجْسَ[1] وطَهَّرهم تطهيرا، ومعدِنَ الحكمة ، ووَرثةَ النبوّة ، وموضعَ الخلافة ، وأوجب لهم الفضيلةَ ، وألزم العباد لهم الطاعةَ .

وكان ممن عانده ونابَذَه وكذَّبه وحارَبَه من عشيرته العددُ الأكثر ، والسَّواد الأعظم ، يتلقَّونه بالتكذيب والتثريب[2]، ويقصدونه بالأذيَّة والتخويف ، ويبارزونه بالعداوة ، وينصِبون له المحاربةَ ، ويصُدّون عنه مَن قَصَدَه ، وينالون بالتعذيب مَن اتّبعه ، وكان أشدَّهم في ذلك عداوةً ، وأعظَمهم له مخالفةً ، أوّلُهم في كل حرب ومناصَبةٍ ، ورأْسهم في كل إجلاب[3] وفتنة ، لا يُرْفَع على الإسلام رايةٌ إلا كان صاحبَها وقائدها ورئيسها في كل مواطن الحرب ، مِن بَدْرٍ وأُحُد والخَنْدق والفتْح ، أبو سفيان بن حرب وأشياعه من بني أمية الملعونين في كتاب الله ، ثم الملعونين على لسان رسول الله في عِدّة مواطن وعدة مواضع ، لِسابِق علم الله فيهم ، وماضِي حُكْمه في أمرهم وكفرهم ونفاقهم ، فلم يزَلْ ـ لعَنه الله ـ يُحارب مجاهداً ، ويدافع مُكايداً ، ويجلِبُ مُنابذا ، حتى قهره السيفُ ، وعلا أمرُ الله وهم كارهون ، فتقوّلَ[4] بالإسلام غيرَ مُنطوٍ عليه ، وأسَرَّ الكفرَ غيرَ مُقلِعٍ عنه ، فعرَفه بذلك رسول الله صلى الله عليه وسلم والمسلمون ، وقَبِله وقَبِلَ ولدَه على عِلْمٍ منـــه بحاله وحالهم ، وميَّز له المؤلَّفةَ قلوبُهم[5] .

---

(١) الرجس : كل ما استقذر من العمل .

(٢) التثريب : اللوم .

(٣) الجلبة بالتحريك : اختلاط الأصوات وفعله كضرب ونصر ، وقد أجلبوا وجلبوا .

(٤) وفي شرح ابن أبي الحديد « تعوذ » .

(٥) وذلك أن رسول الله صلى الله عليه وسلم لما انتصر على هوازان وثقيف وجوعهم بحنين سنة ٨ هـ (وحنين بصيغة التصغير : واد بين مكة والطائف) غنم منهم سبيا وغنائم كثيرة ، فاعطى المؤلفة قلوبهم (وهم من أسلم من أهل مكة) وكانوا أشرافا من أشراف الناس ، يتألفهم ويتألف بهم قومهم ، فكان أولهم أبا سفيان بن حرب ، أعطاه أربعين أوقية من الفضة ومائة من الإبل ، قال : وابني يزيد ؟ فأعطاه كذلك قال : وابني معاوية؟ فأعطاه كذلك ، فأخذ أبو سفيان ثلاثمائة من الإبل ومائة =

فيما لعنهم الله به على لسان نبيه صلى الله عليه وسلم ، وأنزل به كتابا قوله «وَالشَّجَرَةَ الْمَلْعُونَةَ فِي الْقُرْآنِ ، وَنُخَوِّفُهُمْ فَمَا يَزِيدُهُمْ إِلاَّ طُغْيَانًا كَبِيرًا » ولا اختلاف بين أحد أنه تبارك وتعالى أراد بها بنى أمية(١) ، ومما ورد من ذلك فى السُّنَّة ، ورواه ثقاتُ الأمة ، قولُ رسول الله صلى الله عليه وسلم فيه ، وقد رآه مقبلاً على حمار ، ومعاويةُ يقود به ، ويزيدُ ابنُه يسوق به : لعن الله الراكبَ والقائد والسائق(٢) » .

= وعشرين أوقية من الفضة ، وقال : بأبى أنت وأمى يارسول الله ، لأنت كريم فى الحرب وفى السلم — انظر السيرة الحلبية ٣ : ١٣٧ ، وتاريخ الطبرى ٣ : ١٣٦ ، وسيرة ابن هشام ٢ : ٣٢٠ وميزله : أى لأجله : وميز الشيء : فصل بعضه من بعض ، والمعنى انه أفرد المؤلفة قلوبهم بفضل من العطاء امتازوا به على من سواهم .

(١) لا . بل قد اختلفوا فى هذه الشجرة ، فالأكثرون قالوا : إنها شجرة الزقوم المذكورة فى القرآن فى قوله : « إِنَّ شَجَرَةَ الزَّقُّومِ . طَعَامُ الأَثِيمِ » وقوله : «أَذَٰلِكَ خَيْرٌ نُزُلاً أَمْ شَجَرَةُ الزَّقُّومِ . إِنَّا جَعَلْنَاهَا فِتْنَةً لِلظَّالِمِينَ . إِنَّهَا شَجَرَةٌ تَخْرُجُ فِي أَصْلِ الْجَحِيمِ . طَلْعُهَا كَأَنَّهُ رُءُوسُ الشَّيَاطِينِ . فَإِنَّهُمْ لآكِلُونَ مِنْهَا فَمَالِئُونَ مِنْهَا الْبُطُونَ » والمراد بلعنها لعن طاعمها على الإسناد المجازى ، وكان أبو جهل لما سمع بذكرها قال : يزعم محمد أن نار جهنم تحرق الحجارة حيث قال « وَقُودُهَا النَّاسُ وَالْحِجَارَةُ » ثم يقول بأن فى النار شجرا ، والنار تأكل الشجر ، فكيف يولد فيها ! . وقال ابن عباس : الشجرة بنو أمية ، يعنى الحكم بن أبى العاص قال : رأى رسول الله صلى الله عليه وسلم فى المنام أن ولد الحكم يتداولون منبره (وسيرد ذكر هذه الرؤيا فى تلك الرسالة بعد) فقص رؤياه على أبى بكر وعمر وقد خلا فى بيته معهما ، فلما تفرقوا سمع رسول الله الحكم يخبر برؤيا رسول الله ، فاشتد ذلك عليه ، واتهم عمر بإفشاء سره، ثم ظهر أن الحكم كان يتسمع إليهم ، فنفاه رسول الله ولعنه ، قال الواحدى : هذه القصة كانت بالمدينة ، والسورة مكية ، فيبعد هذا التفسير ، إلا أن يقال : هذه الآية مدنية ، ولم يقل به أحد، ومما يؤكد هذا التأويل قول عائشة رضى الله عنها لمروان بن الحكم : أما أنت يامروان فأشهد أن رسول الله لعن أباك وأنت فى صلبه ، فأنت فضض من لعنة الله (وفضض كجبل : أى قطعة) وروى عن عائشة أيضا أنها قالت لمروان بن الحكم : سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول لأبيك وجدك : إنكم الشجرة الملعونة فى القرآن — انظر تفسير الفخر الرازى ، مفاتيح الغيب ٥ : ٦٠٩ وروح المعانى للآلوسى ٤ : ٥٤٦ وغيرهما من التفاسير .

(٢) وجاء فى مخاصمة بين الحسن بن على رضى الله عنه وبين معاوية أن الحسن قال له : « وأنشدك الله يامعاوية ، أتذكر يوم جاء أبوك على جمل أحمر ، وأنت تسوقه ، وأخوك عتبة هذا يقوده ، فرآكم رسول الله صلى الله عليه وآله فقال : « اللهم العن الراكب والقائد والسائق » — انظر شرح ابن أبى الحديد م ٢ : ص ١٠١ .

ومنه ما روته الرواة عنه من قوله يوم بَيْعة عثمان : « يا بنى عبد مَناف تلقَّفُوها تلقُّفَ الكُرَة ، فما هناك جَنةٌ ولا نارٌ » وهذا كُفر صُراح يَلْحَقه به اللعنةُ من الله ، كما لحِقَتِ الذين كفروا من بنى إسرائيلَ على لِسَانِ دَاوُدَ وَعِيسَى بْنِ مَرْيَمَ ، ذَٰلِكَ بِمَا عَصَوْا وَكَانُوا يَعْتَدُونَ . ومنه ما يروُون من وقوفه على ثَنِيَّة أُحُدٍ بعد ذهاب بصره[1] وقوله لقائده : هاهنا رمَيْنا[2] محمدا وقتلنا أصحابه . (ومنه الكلمة التى قالها للعباس قبل الفتح ، وقد عُرِضت عليه الجنودُ : لقد أصبح مُلْكُ ابن أخيك عظيما ! فقال له العباس : وَيْحَكَ ! إنه ليس بملك ، إنها النبوة . ومنه قوله يوم الفتح ، وقد رأى بلالاً على ظهر الكعبة يؤذِّن ويقول : أشهد أن محمداً رسول الله : لقد أسعد الله عُتبة[3] بن ربيعة إذ لم يَشْهَد هذا المشهدَ[4]) ، ومنه الرؤيا التى رآها النبى صلى الله عليه وسلم فوَجَم[5] لها . فما رُئى ضاحكا بعدها ، فأنزل الله : « وَمَا جَعَلْنَا الرُّؤْيَا الَّتِي أَرَيْنَاكَ إِلَّا فِتْنَةً لِلنَّاسِ » فذكروا أنه رأى نفراً من بنى أمية يَنْزُون[6] على منبره . ومنه طَرْدُ رسول الله صلى الله عليه وسلم الحكمَ بن أبى العاص لحكايته إياه فى مِشيته، وألحقه الله — بدعوة رسوله — آفةً باقية ، حين التفتَ إليه فرآه يتخلَّج يحكيه ، فقال له : كن كما أنت ، فبقىَ على ذلك سائرَ عمره[7] ، هذا إلى ما كان من مَرْوانَ ابنه

---

(١) الثنية : الطريق فى الجبل ، وكان أبو سفيان قد فقئت عينه يوم الطائف، وفقئت عينه الأخرى يوم اليرموك — وقد شهد اليرموك ، وكان هو القاص فى جيش المسلمين يحرضهم ويحثهم على القتال — ولما عمى كان يقوده مولى له — انظر أسد الغابة ٣ : ١٢ وصبح الأعشى ١ : ٤٤٨ .

(٢) وفى تاريخ الطبرى « ذببنا محمدا » .

(٣) هو حمو أبى سفيان ، وجد معاوية لأمه هند .

(٤) مابين القوسين وارد فى رواية ابن أبى الحديد ، ساقط من طبعة الطبرى التى بأيدينا .

(٥) وجم كوعد : سكت على غيظ .

(٦) نزا ينزو : وثب ، جاء فى كتب التفسير : روى أنه صلى الله عليه وسلم رأى قوما من بنى أمية يرقون منبره وينزون عليه نزو القردة ، فقال : هذا حظهم من الدنيا يعطونه بإسلامهم .

(٧) كان الحكم يحكى رسول الله صلى الله عليه وسلم فى مشيته وبعض حركاته ، وكان صلى الله عليه وسلم يتكفأ فى مشيته) فالتفت يوما فرآه وهو يتخلج فى مشيته (أى يضطرب) فقال : كن كذلك ، فلم يزل يرتعش فى مشيته من يومئذ، وطرده رسول الله ولعنه وأخرجه إلى الطائف وقال له : لاتساكنى فى بلد أبدا، وصار مشهورا بأنه طريد رسول الله ، ولم يزل منفيا حياة النبى ، فلما ولى أبو بكر =

في افتتاحه أولَ فتنةٍ كانت في الإسلام[١] ، واحتقابِه[٢] لكل دمٍ حرامٍ سُفِكَ فيها ، أو أُريق بعدها ، وما أنزل الله منه على نبيّه في سورة القدر « لَيْلَةُ الْقَدْرِ خَيْرٌ مِنْ أَلْفِ شَهْرٍ » قالوا : مُلْكُ بني أمية[٣] ، ومنه أنّ رسول الله صلى الله عليه وسلم دعا بمعاوية ليكتبَ بين يديه ، فدافعَ بأمره واعتلّ بطعامه ، فقال النبي : « لا أشبَعَ الله بطنَه[٤] » فبقيَ لايشبَع ، وهو يقول : والله ما أتركُ الطعام شِبَعاً ، ولكن إعياء[٥] ومنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : « يطلُعُ من هذا الفجّ[٦] رجل من أمتي

= الخلافة قيل له في الحكم ليرده إلى المدينة فقال: ما كنت لأحل عقدة عقدها رسول الله، وكذلك عمر، فلما ولي عثمان الخلافة - والحكم عمه - رده وقال : كنت قد شفعت فيه إلى رسول الله فوعدني برده - انظر أسد الغابة ٢ : ٣٤ .

(١) هي الفتنة التي نجمت في أواخر خلافة عثمان ، وأفضت إلى قتله ، ثم إلى انشقاق عصا المسلمين ، وكان مروان غالبا على أمر عثمان ، وقد طلب الثوار إليه أن يسلم إليهم مروان ، إذ اتهموه بأنه افتعل عليه كتابا إلى عامل مصر ، وبعثه مع غلام عثمان ، يأمره فيه بقتل المصريين منهم ، فأبى عثمان أن يسلمه والقصة مشهورة .

(٢) احتقب الراكب الحقيبة : شدها من خلف ، ثم توسعوا في اللفظ حتى قالوا : احتقب فلان الإثم: إذا اكتسبه ، كأنه شيء محسوس جمعه واحتقبه من خلفه .

(٣) مما ذكره المفسرون في تفسيرها ، ماجاء في تفسير الفخر الرازي (٨ : ٦٣٠) قال : «روى القاسم بن فضل عن عيسى بن مازن قال : قلت للحسن بن علي عليه السلام : يامسودوجود المؤمنين، عمدت إلى هذا الرجل فبايعت له ! - يعني معاوية - فقال : إن رسول الله رأى في منامه بني أمية يطئون منبره واحداً بعد واحد ، وفي رواية : ينزون على منبره نزو القردة ، فشق ذلك عليه ، فأنزل الله تعالى : « إِنَّا أَنزَلْنَاهُ فِي لَيْلَةِ الْقَدْرِ » إلى قوله « خَيْرٌ مِنْ أَلْفِ شَهْرٍ » يعني ملك بني أمية . قال القاسم « فحسبنا ملك بني أمية فإذا هو ألف شهر » اهـ ، وذكر ذلك أيضاً الآلوسي في روح المعاني (٩ : ص ٤٢٢) وأرى أن الخبر موضوع ، وأن ذلك التأويل لاينهض عليه دليل ، على أن ملك بني أمية ليس « ألف شهر لايزيد يوم، ولا ينقص يوم » كما يقول القاسم بن فضل ، فقد قامت الدولة الأموية سنة ٤١هـ وسقطت سنة ١٣٢ ، فولايتها أكثر من ألف شهر .

(٤) روى ابن الأثير في أسد الغابة (ج ٤ : ص ٣٨٦) قال : « عن ابن عباس رضي الله عنهما قال : كنت ألعب مع الصبيان ، فجاء رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فتواريت خلف باب ، قال : فجاء فحطأني حطأة (والحطو : تحريك الشيء مزعزعا) وقال: اذهب فادع لي معاوية ، فجئت فقلت:هو يأكل ، ثم قال : اذهب فادع لي معاوية ، فجئت فقلت هو يأكل ، فقال : لا أشبع الله بطنه ، أخرج مسلم هذا الحديث بعينه لمعاوية » .

(٥) أعيا إعياء : كلّ .

(٦) الفج : الطريق الواسع بين جبلين .

يُحشَر على غير ملتي » فطَلَع معاوية[1] ، ومنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : « إذا رأيتم معاوية على مِنْبري فاقتلوه » ومنه الحديث المرفوع المشهور أنه قال : « إن معاوية في تابوت من نار في أسفل دَرَكٍ من جهنم ينادي : يا حَنَّانُ يا مَنَّان ، فيقال له : « آلآنَ وَقَدْ عَصَيْتَ قَبْلُ وَكُنْتَ مِنَ الْمُفْسِدِينَ ! » ومنه انبراؤه بالمحاربة لأفضل المسلمين في الإسلام مكاناً ، وأقدَمهم إليه سَبْقاً ، وأحسَنِهم فيه أثرا وَذِكْرا : عليّ بن أبي طالب ، يُنازعه حقَّه بباطله ، ويجاهد أنصاره بضُلّاله وغُوّاتِه ، ويحاول مالم يَزَل هو وأبوه يحاولانه من إطفاء نور الله وجحودِ دينه « وَيَأْبَى اللهُ إِلاَّ أَنْ يُتِمَّ نُورَهُ وَلَوْ كَرِهَ الْمُشْرِكُونَ » ويستهوي أهلَ الغباوة ، ويُموِّهُ عَلَى أهل الجهالة ، بمكره وبَغْيِه اللَّذَين قدَّم رسولُ الله صلى الله عليه وسلم الخبَرَ عنهما ، فقال لعَمَّار[2] ابن ياسر : « تقتُلك الفئة الباغية ، تدعوهم إلى الجنة ويدعونك إلى النار[3] » مُؤْثِرًا

---

(١) أرى أن هذا الحديث والحديثين بعده موضوعة .

(٢) هو عمار بن ياسر رضى الله عنه ، أحد السابقين الأولين ، وقدعذبه المشركون في بدء الدعوة الإسلامية فاحتمل العذاب ، وكان يعذب هو وأخوه وأبوه وأمه بالنار ، فمر بهم رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال : صبرا آل ياسر فوعدكم الجنة ، اللهم اغفر لآل ياسر » .

(٣) روت أم سلمة زوج النبي صلى الله عليه وسلم قالت : لما بنى رسول الله مسجده بالمدينة أمر باللبن أن يضرب وما يحتاج إليه ، ثم قام فوضع رداءه، فلما رأى ذلك المهاجرون والأنصار وضعوا أرديتهم كسيتهم يرتجزون ويقولون ويعملون :

لئن قعدنا والنبي يعمل ... ذاك إذن لعمل مضلل

قالت : وكان عثمان بن عفان رجلا نظيفا متنظفا ، فكان يحمل اللبنة ويجافى بها عن ثوبه فإذاوضعها نفض كفيه ، ونظر إلى ثوبه . فإذا أصابه شيء من التراب نفضه ، فنظر إليه على رضى الله عنه فأنشد :

لايستوي من يعمر المساجدا ... يدأب فيها را كعاوساجدا
وقائما طوراً وطورا قاعدا ... ومن يرى عن التراب حائدا

فسمعها عمار بن ياسر ، فجعل يرتجزها وهو لايدرى من يعنى ، فسمعه عثمان فقال : يابن سمية (وسمية أميه) ما أعرفني بمن تعرض ومعه جريدة ، فقال : لتكفن أو لأعترض بها وجهك ، فسمعه النبي وهو جالس في ظل حائط فقال : « عمار جلدة مابين عيني وأنفي ، فمن بلغ ذلك منه فقد بلغ مني » وأشار بيده فوضعها بين عينيه ، فكف الناس عن ذلك وقالوا لعمار : إن رسول قد غضب فيك ، ونخاف أن ينزل فينا قرآن ، فقال : أنا أرضيه كما غضب ، فأقبل عليه فقال : يارسول الله مالي ولأصحابك ؟ قال : مالك ولهم ؟ قال : يريدون قتلي ، يحملون لبنة ويحملون على لبنتين ، فأخذ به وطاف به في المسجد ، وجعل يمسح وجهه من التراب ويقول : «يابن سمية ، لا يقتلك أصحابي ، ولكن تقتلك الفئة الباغية» فلما قتل =

للعاجلة ، كافِرًا بالآجلة ، خارجا من رِبقة الإسلام ، مستحِلاً للدم الحرام ، حتى سُفِكَ في فتنته ، وعلَى سبيل غَوايته وضلالته ، مالا يُحْصَى عددُه من خِيار المسلمين الذَّابِّين عن دين الله ، والناصرين لحقه ، مجاهداً في عداوة الله ، مجتهداً في أن يُعْصَى اللهُ فلا يُطاع ، وتَبْطُل أحكامه فلا تُقام ، ويخالَفَ دينُه فلا يُدَان[1] ، وأن تعلوَ كلمةُ الضّلالة ، وترتفع دعوةُ الباطل « وَكَلِمَةُ اللهِ هِيَ الْعُلْيَا » ودينه المنصور ، وحُكْمُهُ النافِذ ، وأمرُه الغالب ، وكَيْدُ من عاداه وحادّه[2] المغلوبُ الداحِضُ ، حتى احتمل أوزار تلك الحروب وما تَبِعها ، وتطوّق تلك الدماء وما سُفِك بعدها ، وسَنّ سُنَن الفساد التي عليه إثْمُها وإثم مَن عمِلَ بها إلى يوم القيامة ، وأباح المحارِمَ لمن ارتكبها ، ومَنعَ الحقوق أهلَها ، واغترّه الإملاء[3] ، واستدرَجه الإمهالُ ، والله له بالمِرْصاد .

ثم مما أوجب الله له به اللعنةَ ، قَتْلُه مَنْ قَتَلَ صَبْرا[4] من خيار الصحابة والتابعين ، وأهل الفضل والدين ، مثل عمرو بن الحمِق الخُزاعِيِّ ، وحُجْر بن عَدِيّ الكِنْدِيّ[5] فيمن قتل من أمثالهم ، في أن تكون لهم العزّة والمُلْك والغَلَبة ، ولله العزة والملك والقدرة ، والله عزّ وجل يقول « وَمَنْ يَقْتُلْ مُؤْمِناً مُتَعَمِّداً فَجَزَاؤُهُ جَهَنَّمُ خَالِدًا فِيهاَ وَغَضِبَ اللهُ عَلَيْهِ وَلَعَنَهُ وَأَعَدَّ لَهُ عَذَاباً عَظِيماً » ومما استحق به اللعنةَ من الله ورسوله ادّعاؤه زِيادَ بنَ سُمَيَّةَ أخاه ، ونسبته إياه إلى أبيه جُرْأةً على الله ، والله يقول « ادْعُوهُمْ لِآبَائِهِمْ ، هُوَ أَقْسَطُ[6] عِنْدَ اللهِ » ورسولُ الله صلى الله عليه

= بصفين — وكان من أصحاب علي — وروى هذا الحديث عبد الله ابن عمرو بن العاص ، قال معاوية : ثم قتلوه ، لأنهم أخرجوه إلى القتل ، فلما بلغ ذلك عليا قال : ونحن قتلنا أيضا حمزة لأنا أخرجناه ؟ — انظر العقد الفريد ٢ : ٢٣٢ .

(١) أي فلا يدان به .

(٢) حاده : غاضبه وعاداه وخالفه ، داحض : أي باطل .

(٣) أملى له الله : أمهله ، وفي ابن أبي الحديد « وغرته الآمال » .

(٤) صبر الإنسان على القتل : أن يحبس ويرمى حتى يموت .

(٥) انظر خبرهما فيما قدمنا في الجزء الثاني (ص ٤٥ وص ٦٠) .

(٦) أي أعدل .

وسلم يقول « ملعونٌ مَنِ ٱدَّعَى إلى غير أبيه ، أو انتمى إلى غير مَواليه » ويقول : « الولد للفِراش وللعاهِرِ الحَجَرُ »(١) فخالَفَ حُكْمَ الله عز وجل وسنّةَ نبيه صلى الله عليه وسلم جهارا ، وجَعَلَ الولد لغير الفراش ، والحجر لغير العاهر(٢) ، فأحَلَّ بهذه الدَّعوة من محارِمِ الله ومحارم رسوله فى أم حَبيبة(٣) زوجة النبى صلى الله عليه وسلم وفى غيرها مِن سُفُور ووجوهٍ ما قد حرَّمه الله ، وأثبَتَ بها قُرْبَى قد باعَدَها الله ، وأباح بها ما قد حَظَرَه الله ، مما لم يدخل على الإسلام خَلَلٌ مِثلُه ، ولم ينَل الدينَ تبديلٌ شِبْهُه، ومنه إيثارُه لخلافة الله على عباده ٱبنَه يزيدَ السِّكِّيرَ الخِمِّيرَ ، صاحب الديوك والفهود والقرود ، وأخذُه البيعةَ له على خيار المسلمين بالقهر والسطوةِ والتوعُّد والإخافة والتهدُّد والرهبة ، وهو يعلم سَفَهَه ، ويطَّلع على خُبثه ورَهَقه(٤) ، ويعاين سَكَرانَه(٥) وفجورَه وكفره ، فلما تمكَّن — قاتله الله — فيما مكَّنه منه ، ووطَّأه له ، وعَصى اللهَ ورسوله فيه ، طلَبَ بثارات المشركين وطَوائلهم(٦) عند المسلمين ، فأوقع بأهل المدينة فى وَقْعة الحَرَّة(٧) الوقعة التى لم يكن فى الإسلام أشنعُ منها ، ولا أفحَشَ مما ارتكب من الصالحين فيها ، وشَفى بذلك عَبَدَ(٨) نفسِه وغليلَه ، وظن أنه قد انتقم من أولياء الله ، وبلغ النَّوَى(٩) لأعداء الله ، فقال مجاهِراً بكفره ، ومُظهِراً لشركه :

ليت أشـياخى ببَدْرٍ شَهِدُوا ... جَزَعَ الخَزْرَجِ مِن وَقْعِ الأَسَلْ
قد قتلْنا القَرْمَ من ساداتهم ... وعَدَلْنا مَيْـلَ بدرٍ فاعتدل(١٠)

---

(١) انظر ص ٣٧ من الجز الثانى .
(٢) وفى الطبرى « والعاهر لا يضره عهره » .
(٣) هى بنت أبى سفيان ، وسفرت المرأة كضرب سفورا : كشفت عن وجهها .
(٤) الرهق : السفه والحمق والخفة وركوب الشر والظلم وغشيان المحارم .
(٥) أى سكره . (٦) الطوائل : جمع طائلة ، وهى الثأر .
(٧) انظر الجزء الثانى ص ٨٩ . (٨) العبد : الغضب .
(٩) النوى . الحاجة والوجه الذى تنويه وتقصده، وفى ابن أبى الحديد « وبلغ الثأر » .
(١٠) القرم: السيد .

لَأَهَلُّوا واستهلُّوا فَرَحاً ثم قالوا يا يزيدُ لا تُشَلْ[١]
لستُ من خِندِفَ إن لم أنتقِمْ من بني أحمدَ ما كان فعل[٢]
لَقِنَتْ هاشِمُ المُلْكَ ، فلا خَبَرٌ جاء ولا وحيٌ نَزَل[٣]

هذا هو المُروق من الدين ، وقولُ من لا يرجع إلى الله ، ولا إلى دينه ، ولا إلى كتابه ، ولا إلى رسوله ، ولا يؤمن بالله ولا بما جاء من عند الله ، ثم مِن أغلظِ ما انتهكَ ، وأعظِم ما اجْتَرَم ، سَفْكُه دَمَ الحسين بن عليّ ، وابن فاطمة بنت رسول الله صلى الله عليه وسلم ، مع مَوْقِعه من رسول الله صلى الله عليه وسلم ومكانِه منه ، ومنزلته من الدين والفضل ، وشهادةِ رسول الله صلى الله عليه وسلم له ولأخيه بسيادة شَباب أهل الجنة ، اجتراء على الله ، وكفرا بدينه ، وعداوةً لرسوله ، ومجاهَدةً لِعترته ، واستهانة بحُرْمته ، فكأنما يَقتلُ منه ومن أهل بيته قوماً من كُفّار أهل التُّرك والدَّيْلَم ، لا يخاف من الله نِقمةً ، ولا يَرْقُب منه سَطوةً ، فَبَتَرَ[٤] الله عمره ، واجتثّ أصلَه وفرعَه ، وسَلَبه ما تحت يده[٥] ، وأعدّ له من عذابه وعقوبته ما استحقه من الله بمعصيته .

هذا إلى ما كان من بني مَرْوان ؛ من تبديل كتاب الله وتعطيل أحكامه ، واتخاذ مالِ الله دُوَلاً[٦] بينهم ، وهَدْم بيته ، واستحلالِ حَرامه ، ونَصْبِهم المجانيقَ

---

(١) هذا البيت والبيتان بعده من قول يزيد .

(٢) خندف: هي أم مدركة وطابخة وقمعة (كقربة) أبناء إلياس بن مضر بن نزار بن معد بن عدنان

(٣) لقن كفرح : حفظ بالعجلة ، وفي الأصل « تاريخ الطبري » « لعبت هاشم بالملك » وهو تحريف وقد أصلحته كما ترى ، وربما كان « ولت هاشم بالملك » « بدون صرف » .

(٤) بتره : قطعه ، والمعنى أماته حدثا في شرخ شبابه ، فقد مات وهو ابن بضع وثلاثين سنة ، وفي ابن أبي الحديد « فتبر » والتتبير : الكسر والإهلاك ، واجتثه : قطعه .

(٥) فقد انتقلت الخلافة بعده إلى ابنه معاوية الثاني الذي لم يلبث في الخلافة إلا أربعين يوما ثم مات وانتقلت الخلافة إلى البيت المرواني .

(٦) جمع : دولة بالضم ، أي متداولا بينهم دون سائر المسلمين .

عليه ، وَرَمْيِهم إياه بالنيران ، لا يأْلُون[١] له إحراقا وإخرابا ، ولِما حرَّم اللهُ منه استباحةً وانتهاكاً ، ولِمَن لجأ إليه قتلاً وتنكيلا ، ولِمَن أمَّنه الله به إخافةً وتشريدا ، حتى إذا حَقَّتْ عليهم كلمةُ العذاب ، واستحقّوا من الله الانتقامَ ، وملئوا الأرض بالجَوْر والعُدْوان ، وعَمُّوا عبادَ الله بالظلم والاقتسار[٢] ، وحَلّت عليهم السَّخْطَةُ ، ونزلَتْ بهم من الله السَّطوَةُ ، أتاح الله لهم من عِتْرة نبيه وأهل وراثته مَن استخلصهم منهم لخلافته ، مثلَ ما أتاح الله من أسلافهم المؤمنين ، وآبائهم المجاهدين لأوائلهم الكافرين ، فسَفَكَ الله بهم دماءهم مرتدِّين ، كما سفك بآبائهم دماء آباء الكفرة المشركين ، وقطَعَ الله دابرَ القوم الظالمين ، والحمدُ لله رب العالمين ، ومكَّن الله المستضعفين ، وردَّ الله الحقَّ إلى أهله المُستحقين ، كما قال جل شأنُه : « وَنُرِيدُ أَنْ نَمُنَّ عَلَى الَّذِينَ اسْتُضْعِفُوا فِي الْأَرْضِ وَنَجْعَلَهُمْ أَئِمَّةً وَنَجْعَلَهُمُ الْوَارِثِينَ » .

واعلموا أيها الناس أن الله عز وجل إنما أمرَ ليُطاع ، ومثَّل ليتَمَثَّلَ ، وحَكَمَ ليُقبَل ، وألزَمَ الأخذَ بسُنَّة نبيه صلى الله عليه وسلم ليُتَّبَع ، وأن كثيراً ممن ضل فالتوى وانتقل من أهل الجهالة والسَّفاهِ ، ممن اتخذوا أحبارَهم ورُهبانَهم أرباباً من دون الله ، وقد قال الله عز وجل : « فَقَاتِلُوا أَئِمَّةَ الْكُفْرِ » وقال : « إِنَّ اللهَ لَعَنَ الْكَافِرِينَ وَأَعَدَّ لَهُمْ سَعِيرًا » وقال : « أُولَئِكَ يَلْعَنُهُمُ اللهُ وَيَلْعَنُهُمُ اللَّاعِنُونَ » فانتهُوا معَاشِرَ الناس عما يُسخِط اللهَ عليكم ، وراجِعوا ما يُرْضيه عنكم ، وارضَوا من الله بما اختار لكم ، والزموا ما أمركم به ، وجانبوا ما نهاكم عنه ، واتَّبِعوا الصراط المستقيم ، والحجةَ البيِّنة ، والسُّبُل الواضحة ، وأهلَ بيتِ الرحمة الذين هداكم الله بهم بَدِيئاً[٣] ، واستنقَذَكم بهم من الجَوْر والعُدْوان أخيرا ، وأصاركم إلى الخفض والأمن والعزِّ بدولتهم ، وشَمِلكم الصلاحُ في أديانكم ومعايشكم في أيامهم ، والعَنوا مَن لعنَه اللهُ ورسوله ، وفارِقوا مَن لا تنالون القُرْبةَ من الله إلا بمفارقته ، اللهم الْعَنْ أبا سفيان

(١) لا يألون : أي لا يقصرون . (٢) الاقتسار : القهر . (٣) أي أولا .

ابن حرب ومعاوية ابنَهُ ويزيد بن معاوية ومَرْوان بن الحكم وولدَه وولد ولدِه ، اللهم العن أئمةَ الكُفْر ، وقادةَ الضلالة ، وأعداء الدين ، ومجاهدى الرسول ، ومغيِّرى الأحكام ، ومبدِّلى الكتاب ، وسفَّاكى الدم الحرام ، اللهم إنا نتبرأ إليك من موالاة أعدائك ، ومن الإغماض لأهل معصيتك كما قلتَ : « لاَ تَجِدُ قَوْمًا يُؤْمِنُونَ بِاللهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ يُوَادُّونَ مَنْ حَادَّ اللهَ وَرَسُولَهُ » يأيها الناس ، اعرفوا الحقَّ تعرفوا أهله ، وتأمَّلوا سُبُلَ الضلالة تعرفوا سابلَها ، فإنه إنما يُبِين عن الناس أعمالُهم ، ويُلْحِقهم بالضلال والصلاح آباؤُهم ، فلا يأخُذْكم فى الله لومةُ لائم . ولا يَمِيلَنَّ بكم عن دين الله استهواءُ مَن يستهويكم ، وكَيْدُ من يَكيدكم ، وطاعةُ من تُخْرِجكم طاعته إلى معصيةِ ربكم . أيها الناس ، بنا هداكم اللهُ ، ونحن المستحفَظُون فيكم أمْرَ الله ، ونحن وَرَثَةُ رسول الله ، والقائمون بدين الله ، فقفوا عند ما نقفكم عليه ، وأنفذوا لِمَا نأمركم به ، فإنكم ما أطعتم خلفاء الله وأئمةَ الهدى ، على سبيل الإيمان والتقوى ، وأميرُ المؤمنين يستعصمُ اللهَ لكم ، ويسألهُ توفيقكم ، ويرغبُ إلى الله فى هدايتكم لرُشْدكم ، وفى حفظ دينكم عليكم ، حتى تلقوْه مستحقِّين طاعته ، مستحقبين[1] رحمته ، واللهُ حسبُ أمير المؤمنين فيكم ، وعليه توكُّلُه ، وبالله عَلَى ماقلَّده من أموركم استعانتهُ ، ولا حَوْلَ لأمير المؤمنين ولا قوة إلا بالله ، والسلام عليكم » .

وكتب أبو القاسم عُبَيد الله بن سليمان فى سنة ٢٨٤[2] .

(تاريخ الطبرى ١١ : ٣٥٥ ، وشرح ابن أبى الحديد م ٣ : ص ٤٤٢)

---

(١) أى حاملين .

(٢) قال الطبرى : « تخوفه عبيد الله بن سليمان بن وهب اضطراب العامة ، وأنه لا يأمن أن تكون فتنة ، فلم يلتفت إلى ذلك من قوله . وقال : « وذكر أن عبيد الله بن سليمان أحضر يوسف بن يعقوب القاضى وأمره أن يعمل الحيلة فى إبطال ما عزم عليه المعتضد ، فمضى يوسف بن يعقوب فكلم المعتضد فى ذلك ، وقال له : يا أمير المؤمنين إنى أخاف أن تضطرب العامة ويكون منها عند سماعها هذا الكتاب حركة ، فقال : إن تحركت العامة أو نطقت وضعت سيفى فيها . فقال : يا أمير المؤمنين ، فما تصنع بالطالبيين الذين هم فى كل ناحية يخرجون ويميل إليهم كثير من الناس لقرابتهم من الرسول ومآثرهم ، وفى هذا الكتاب إطراؤهم ، وإذا سمع الناس هذا كانوا إليهم أميل ، وكانوا هم أبسط ألسنة وأثبت حجة منهم اليوم ، فأمسك المعتضد فلم يرد عليه جوابا ، ولم يأمر فى الكتاب بعده بشىء » .

٢٥٨ — كتاب أم الشريف إلى ابن أخيها محمد ابن أحمد بن عيسى

وفى سنة ٢٨٦ هـ أناخ المعتضد بجنده على « آمِد[1] » ، وقد تحصَّن بها محمد بن أحمد ابن عيسى ، فبثَّ المعتضدُ جيوشه حولها وحاصرها ، ووجَّه شُعْلة بن شِهاب اليَشْكُرِىّ إليه ، ليأخذ بالحجة عليه ، فسار إليه ، واتصل الخبر بأم الشريف عمة محمد ابن أحمد ، فتحدثت إليه فى أمر ابن أخيها ، ثم كتبت معه إليه كتاباً لطيفاً حسناً ، أجزلَتْ فيه الموعظةَ ، وأخلصَتْ فيه النصيحة .

وكتبت فى آخره هذه الأبيات :

اِقبلْ نصيحةَ أمٍّ قلبُها وَجِعٌ عليك خوفاً وإشفاقاً وقُلْ سَدَدَا[2]
واستعمِلِ الفِكرَ فى قولى، فإنك إن فكَّرتَ ألفَيْتَ فى قولى لك الرَّشَدَا
ولا تَثِقْ برجالٍ فى قلوبهمُ ضغائنٌ تبعَثُ الشَّنْآنَ والحسَدَا[3]
مثل النِّعاج خُمُولٌ فى بيوتهمُ حتى إذا أَمِنوا ألفيْتَهُمْ أُسُــدَا
وداوِ داءك والأدواءُ ممكِنةٌ وإذ طبيبُك قد ألقى إليك يدا
أعطِ الخليفة ما يُرْضيه منك ، ولا تمنَعْه مالًا ولا أهلًا ولا ولدا
واردُدْ أخا يَشْكُرٍ رَدًّا يكون له رِدْءًا من السُّوء ، لا تُشْمِتْ به أحدا

فأخذ شعلة الكتاب وسار به إلى محمد بن أحمد ، فلما نظر فيه رمى به إليه ، ثم قال : يا أخا يشكر ، ما بآراء النساء تُساس الدولُ ، ولا بعقولهن يساس الملك ، ارجع إلى صاحبك ، فرجع إلى المعتضد وأخبره الخبر وأراه كتاب أم الشريف فأعجبه شعرُها وعقلها .

(مروج الذهب ٢ : ٤٦٨)

---

(١) آمد : مدينة من مدن ديار بكر . (٢) السدد والسداد : الاستقامة .
(٣) الشنآن بسكون النون وفتحها : البغض .

٢٥٩ — كتاب أم الشريف إلى المعتضد

فلما عضَّتهُ الحربُ وجَّه إلى المعتضد يطلب الأمان فأجابه إليه ، ثم وجه المعتضد شُعلة بن شِهاب فى طلب أم الشريف ، فلما رأته بكت وضربت بيدها على الأخرى وقالت : ياشهاب ، كأنى والله كنت أرى ما أرى ، فإنا لله وإنا إليه راجعون ! فقال لها : إن أمير المؤمنين قد وجهنى إليك ، وما ذاكِ إلا لحسْن رأيٍ منه فيك ، فقالت له : فهل لك أن توصل إليه كتابى هذا بما قلت فيه ؟ قال : نعم ، فكتبتْ إليه بهذه الأبيات :

قل للخليفة وَالإمامِ المرتضَى ... رأسِ الخلائقِ من قُرَيْشِ الأَبْطَحِ
بك أصلَحَ اللهُ البلادَ وأهلَها ... بعد الفساد وطالما لم تَصْلُحِ[1]
وتزحزَحتْ بك قُبَّةُ العِزِّ التى ... لولاك بعد الله لم تتزحزَحِ
وأراك رَبُّك ما تحِبُّ ، فلا ترَى ... ما لَا تحِبُّ ، فَجُدْ بعفوك وآصفَحِ
يا بهجةَ الدنيا وبدْرَ ملوكها ... هَبْ ظالِمِىَّ وَمُفْسِدِىَّ لمُصْلِحِ

فسار بالكتاب إلى المعتضد فأعجبته الأبيات ، وأمر أن يحمل إليها تُخُوتٌ[2] من الثياب وجملة من المال ، وإلى ابن أخيها محمد بن أحمد مثل ذلك ، وشفعها فى كثير من أهلها ، ممن عَظُمَ جُرْمه ، واستحق العقوبة عليه (مروج الذهب ٢ : ٤٦٩)

٢٦٠ — كتاب صاحب الشامة إلى بعض عماله

ومن كتاب صاحب الشامة الحسين بن زكرَوَيْه القَرْمطى[3] إلى بعض عماله :

---

(١) أى من قريش التى تسكن أبطح مكة ، وهو مسيل واديها .
(٢) التخوت : جمع تخت بالفتح ، وهو وعاء تصان فيه الثياب .
(٣) كان داعية قرمط رجلا يسمى زكرويه بن مهرويه ، فلما تتابع من المعتضد توجيه الجيوش إلى من بسواد الكوفة من القرامطة ، وألح فى طلبهم ، وأثخن فيهم القتل ، ورأى زكرويه أنه لامدفع عن

« بسم الله الرحمن الرحيم ، من عبد الله أحمد بن عبد الله المهدىّ المنصور بالله الناصر الدين الله ، القائم بأمر الله ، الحاكم بحكم الله ، الداعى إلى كتاب الله ، الذّابّ عن حُرَم الله ، المختار من ولد رسول الله ، أمير المؤمنين ، وإمام المسلمين ، ومُذِلّ المنافقين ، خليفة الله على العالمين ، وحاصِد الظالمين ، وقاصم المعتدين ، ومُبيد المُلْحِدين ، وقاتل القاسطين(١) ، ومُهلِك المفسدين ، وسِراج المُبصرين ، وضياء المستضيئين ، ومُشتِّت المخالفين ، والقيِّم بسُنّة سيد المرسلين ، وولد خير الوصيِّين ، صلى الله عليه وعلى أهل بيته الطَّيبين ، وسلم كثيراً ، إلى جعفر بن حُمَيد الكُردىّ :

سلام عليك ، فإنى أحمَد إليك الله الذى لا إله إلا هو ، وأسأله أن يصلِّى على جَدِّى محمد رسول الله صلى الله عليه وسلم ، أما بعدُ : فقد أُنهِىَ إلينا ما حدث قِبلَك من أخبار أعداء الله الكفَرَة ، وما فعلوه بناحيتك ، وأظهروه من الظلم والعَيْث(٢) والفساد فى الأرض ، فأعظَمْنا ذلك ، ورأينا أن نُنفِذ إلى ما هناك من جيوشنا مَن ينتقم الله به من أعدائه الظالمين ، الذين يسعَون فى الأرض فسادا ، وأنفذنا « عُطَيراً » داعِيَتَنا وجماعةً من المؤمنين إلى مدينة حِمْص ، وأمددناهم بالعساكر ، ونحن فى إثرهم ،

= أقسهم عند أهل السواد ولاغناه ، سعى فى استغواء من قرب من الكوفة من أعراب أسد وطيء وتميم وغيرهم من قبائل الأعراب ، ودعاهم إلى رأيه ، وزعم لهم أن من بالسواد من القرامطة يطابقونهم على أمره إن استجابوا له ، فلم يستجيبوا له .

وكانت جماعة من « كلب » تخفر الطريق على البر بالسماوة ، فيما بين الكوفة ودمشق على طريق تدمر وغيرها ، وتحمل الرسل وأمتعة التجار على إبلها ، فأرسل زكرويه أولاده إليهم ، فبايعوه وخالطوهم وانتموا إلى على بن أبى طالب ، وإلى محمد بن إسمعيل بن جعفر الصادق ، وذكروا أنهم خائفون من السلطان، وأنهم ملجئون إليهم ، فقبلوهم على ذلك ، ثم دبوا فيهم بالدعاء إلى رأى القرامطة فلم يقبل ذلك أحد من الإلا الفخذ المعروفة ببنى العليص بن ضمضم بن عدى بن جناب ومواليهم خاصة ، فبايعوا فى آخر سنة ٢٨٩ بناحية السماوة ابن زكرويه المسمى بيحيى ، ثم قتل فى بعض الوقعات ، فنصبوا أخاه الحسين ابن زكرويه ، وزعم لهم أنه أحمد بن عبد الله بن محمد بن إسمعيل بن جعفر الصادق ، وأظهر شامة فى وجهه ذكر أنها آيته ، فعرف بصاحب الشامة : وظهر على جند حمص وغيرها من أرض الشام ، وتسمى بإمرة المؤمنين على منابرها ، وكان ذلك سنة ٢٨٩ وسنة ٢٩٠ — انظر تاريخ الطبرى ١١ : ٣٧٧ .

(١) أى الجائرين .

(٢) العيث : الإفساد .

وقد أوعزنا إليهم فى المصير إلى ناحيتك ، لِطَلَب أعداء الله حيث كانوا ، ونحن نرجو أن يُجْزِيَنا اللهُ فيهم على أحسن عوائده عندنا فى أمثالهم، فينبغى أن تشُدّ قلبك وقلوبَ مَن معك من أوليائنا ، وتثقَ بالله وبنصره الذى لم يَزَل يعوِّدُناه فى كل مَنْ مَرَقَ عن الطاعة ، وانحرف عن الإيمان ، وتُبادِر إلينا بأخبار الناحية وما يتجدد فيها ، ولا تُخْفِ عنا شيئا من أمرها إن شاء الله ، «سُبْحَانَكَ اللَّهُمَّ وَتَحِيَّتُهُمْ فِيهَا سَلَامٌ ، وَآخِرُ دَعْوَاهُمْ أَنِ الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ » ، وصلى الله على جَدِّى محمد رسول الله وعلى أهل بيته وسلم كثيرا » .

(تاريخ الطبرى ١١ : ٣٨٤)

٢٦١ — كتاب بعض عماله إليه

وهذه نسخة كتاب عاملٍ له إليه :

« بسم الله الرحمٰن الرحيم ، لعبد الله أحمد الإمام المهدى المنصور بالله (ثم الصَّدْرُ كله على مثال صَدْر كتابه السابق إلى قوله : وعلى أهل بيته الطيبين وسلم كثيرا) ثم بعد ذلك :

من عامر بن عيسى العَنْقَانىّ .

سلام على أمير المؤمنين ورحمة الله وبركاته ، أما بعد : أطال الله بقاء أمير المؤمنين وأدام عِزّه وتأييده ، ونَصْرَه وسلامته ، وكَرامته ونعمته وسعَادته ، وأَسْبَغ نِعَمَه عليه، وزاد فى إحسانه إليه ، وفضلِه لديه .

فقد كان وَصَلَ كتابُ سيدى أمير المؤمنين — أطال الله بقاءه — يُعلِمنى فيه ما كان من نفوذ بعض الجيوش المنصورة مع قائد من قوّاده إلى ناحيتنا ، لمجاهدة أعداء الله بنى القَصِيص ، والخائنِ ابن دُحيم ، وطلَبِهم حيث كانوا ، والإيقاعِ بهم وضِياعهم ، ويأمرنى — أدام الله عزه — عند نظرى فى كتابه ، بالنهوض فى كلِّ مَن قَدِرْت عليه من أصحابى وعشائرى ، لِلقائهم ومكانَفةِ الجيش ومعاضدتهم ، والمسيرِ

بسيرهم ، والعَقْد إلى كلّ ما يوعَزون إليه ويأمرون به ، وفهمْتُه ، ولم يصل إلىّ هذا الكتاب — أعزّ الله أمير المؤمنين — حتى وافت الجيوش المنصورة ، فنالت طَرَفا من ناحية ابن دُحَيم ، وانصرفوا بالكتاب الوارد عليهم من مسرور بن أحمدَ الداعية، ليلقَوه بمدينة « أفامِيَة[1] » ثم ورد علىّ كتاب مسرور بن أحمد فى دَرْج[2] الكتاب الذى اقتصصتُ ما فيه فى صدر كتابى هذا ، يأمرنى فيــه بجمْع مَن تهيّأ من أصحابى وعشيرتى ، والنهوض إلى ما قِبَله ، ويحذِّرنى التخلفَ عنه ، وكان ورودُ كتابه علَىّ وقت صَحّ عندنا نزولُ المارق شُبْك عَبْد مُفْلِح بمدينة « عِرْقَة[3] » فى زُهاء ألف رجل ، ما بين فارس وراجل ، وقد شارَفَ بلادَنا ، وأطالَّ على ناحيتنا ، وقد وجَّه أحمدُ ابن الوليد عبدُ أمير المؤمنين — أطال الله بقاءه — إلى جميع أصحابه ، ووجَّهت إلى جميع أصحابى ، فجمعناهم إلينا ، ووجّهنا العيونَ إلى ناحية « عِرْقة » لنعرفَ أخبارَ هذا الخائن ، وأين يريد ؟ فيكون قصدنا ذلك الوجه ، ونرجو أن يُظْفِر الله به ، ويُمكن منه ، بمنّه وقدرته ، ولولا هذا الحادثُ ، ونزولُ هذا المارق فى هذه الناحية ، وإشرافه على بلادنا ، لَمَا تأخرتُ فى جماعة أصحابى عن النهوض إلى مدينة « أفامِيَة » لتكون يدى مع أيدى القوّاد المقيمين بها ، لمجاهدة مَن بتلك الناحية ، حتى يَحْكُمَ اللهُ بَيْنَنَا وَهُوَ خَيْرُ الحَاكِمِينَ ، وأعلمتُ سيدى أمير المؤمنين — أطال الله بقاءه — السببَ فى تخلُّفى عن مسرور بن أحمد ، ليكون على علم منه ، ثم إن أمَرنى — أدام الله عزه — بالنفوذ إلى « أفامية » ، كان نفوذى برأيه ، وامتثلتُ ما يأمرنى به إن شاء الله ، أتَمّ الله على أمير المؤمنين نعمَه ، وأدام عزه وسلامته ، وهَنّأه كرامتَه ، وألبَسَــه عفوَه

---

(١) أفامية : مدينة من سواحل الشأم و كورة من كور حمص .

(٢) درج الكتاب : طيه وداخله ، يقال فى درج الكتاب كذا و كذا .

(٣) عرقة : بلدة فى شرقى طرابلس الشام ، بينهما أربعة فراسخ وهى آخر عمل دمشق ، فى سفح جبل .

وعافيته والسلام على أمير المؤمنين ورحمة الله وبركاته ، والحمد لله رب العالمين ، وصلى الله على محمد النبي وعلى أهل بيته الطّاهرين الأخيار » .

(تاريخ الطبرى ١١ : ٣٨٤)

٢٦٢ — كتاب محمد بن سليمان الكاتب إلى القاسم بن عبيد الله

وفى سنة ٢٩١ هـ وجّه القاسم(١) بن عبيد الله وزير المكتفى بالله(٢) محمد بن سليمان الكاتب — وكان إليه ديوانُ الجيش — وضَمّ جميع القواد إليه لمناهضة ذى الشامة وأصحابه ، فالتقوا به قرب « حَمَاة » ، وهُزِم أصحاب القَرْمطىّ وقُتلوا ، وأسر من رجالهم بشر كثير ، وتفرق الباقون فى البوادى .

وكتب محمد بن سليمان إلى الوزير بالفتح :

« بسم الله الرحمٰن الرحيم ، قد تقدمت كتبى إلى الوزير — أعزه الله — فى خبر القرمطى اللعين وأشياعه ، بما أرجو أن يكون قد وصل إن شاء الله » .

(تاريخ الطبرى ١١ : ٣٨٦)

٢٦٣ — كتاب ابن المعتز إلى القاسم بن عبيد الله

وكتب عبد الله بن المعتز إلى القاسم بن عبيد الله يعتذر .

« ترفَّعْ — أعزك الله — عن ظلمى إن كنتُ بريئا ، وتفضَّل بالعفو عنى إن كنتُ مسيئا ، فوالله إنى لأطْلُبُ غفر ذنبٍ لم أجْنِه ، والتمس الإقالةَ مما لا أعرِفه ، لتزدادَ تطوُّلا ، وأزدادَ تذلُّلا ، وأنا أُعِيذُ حالى عندك بكرمك من وَاشٍ يَكيدها ،

---

(١) استوزره المعتضد بعد وفاة أبيه عبيد الله بن سليمان بن وهب سنة ٢٨٨ ، انظر خبره فى الفخرى ص ٢٣٢ ، ومروج الذهب .

(٢) هو أبو محمد على بن المعتضد ، ولى الخلافة بعد موت أبيه سنة ٢٨٩ ، وتوفى سنة ٢٩٥ .

وأحرُسُها بوفائك من باغٍ يحاول إفسادها ، وأسأل الله تعالى أن يجعل حظّى منك بقدر ودِّى لك ، ومحلِّى من رجائك بحيث أستحقُّ منك » .

(زهر الآداب ١ : ٢٠٨ ، والأوراق للصولى ٢ : ٢٩٢)

٢٦٤ — كتاب ابن المعتز إلى القاسم

وله إليه :

« لو كان فى الصَّمت موضع يَسَع حالى ، لخفَّفت عن سمع الوزير ونَظَره ، ولم أشْغَل وجها من فِكره ، وما زالت الشكوى تُعرب عن لسان البَلْوى ، ومن اختلَّت حالته ، كان فى الصمت هَلَكته ، وقد كان الصبر ينصرنى على سَتْر أمرى حتى خَذَلنى » .

(زهر الآداب ١ : ٢٠٨)

٢٦٥ — كتابه إلى بعض الرؤساء

وله إلى بعض الرساء :

« لا تَشِنْ حُسْنَ الظَّفَر بقُبح الانتقام ، وتجاوزْ عن مُذْنبٍ لم يسلُك بإقرارٍ طريقا ، حتى اتخذ من رجاء عفوك رفيقا » .

(زهر الآداب ١ : ٢٠٧ ، والأوراق للصولى ٢ : ٢٩٣)

٢٦٦ — كتابه إلى عليل

وكتب إلى عليل :

« أذِن الله فى شِفائك ، وتلقَّى داءك بدوائك ، ومَسَحَ بيد العافية عليك ، ووجَّه وافِدَ السلامة إليك ، وجعل عِلَّتك ماحِيَةً لذنوبك ، مضاعِفة لثوابك » .

(زهر الآداب ١ : ٢٠٢ ، والأوراق للصولى : ٢٩٠)

٢٦٧ — كتاب ابن المعتز إلى بعض الوزراء

وكتب إلى بعض الوزراء :

« ما زال الحاسد لنا عليك أيها الوزير يَنصِب الحبائل ، ويطلُب الغوائل ، حتى انتهز فرصتَه ، وأبلغَك شيئاً زَخرَفه ، وكَذِباً زَوَّره ، وكيف الاحتراسُ ممن أحضُر ويَغيب ؟ ويقول وأمسك ؟ مُرتَصِد لا يَغفُل ، وماكِرٌ لا يَفتُر ، وربما استُنصِح الغاشُّ ، وصُدِّق الكاذب ، والحُظوةُ لا تُدرَك بالحيلة ، ولا يجرى أكثرُها على حسب السبب والوسيلة » .

٢٦٨ — رده عليه

فأجابه :

« حصولُ الثقة بك ـ أعزك الله ـ يُغني عن حضورك ، وصدقُ حالتك يحتجُّ عنك ، وما تقرَّر عندنا من نيتك وطويَّتك يُغنِي عن اعتذارك » .

(زهر الآداب ٣ : ٢٠٤)

٢٦٩ — كتاب قينة إلى ابن المعتز

قال أبو العباس بن المعتز : كان لنا مجلس حظّ ، أرسلتُ بسببه خادمةً إلى قَينة[1] ، فأجابت ، فلما مرت فى الطريق وجدت فيه حارسا حَرَاميًّا[2] ، فرجعت ، فأرسلتُ أعاتبها . فكتبتْ إلىَّ :

« لم أتخلفْ عن المسير إلى سيدى فى عشيّتى أمس ، لأرى وجهه المبارك ، وأجيبَ دعاءه ، إلاّ لِعِلّة قد عرفتْها فلانة ، ثم خِفتُ أن يسبق إلى قلبه الطاهر أنى قد تخلفتُ

---

(١) القينة : الجارية المغنية أو أعم .

(٢) نسبة إلى حرام : وهى قبيلة من بنى سليم ، وقبيلة من بنى سعد بن بكر .

بغير عذر ، فأحببتُ أن تقرأ عذرى بخطى ، ووالله ما أقدِرُ على الحركة ، ولا شىء أسرُّ إلىَّ من رؤيتك والجلوس بين يديك ، وأنت يا مولاى جاهى وسَنَدى ، لافقدت سَنَدِى ، ورأيُك فى بَسْطِ العُذر مُوَفَّقا » وكتبت فى أسفل الكتاب .

أليس من الحِرمان حظٌّ سُلِبْتُه وأحوجَنى فيه البَلاء إلى العُذْر ؟
فصــبرا ، فما هذا بأوّلِ حادثٍ رمَتنى به الأقدار من حيث لا أدرى

٢٧٠ — رده عليها

فأَجَبْتُها :

« كيف أردُّ عذرَ من لاتتسلط التُّهمَة عليه ، ولا تهتدى المَوْجِدة(١) إليه ، وكيف أعلّمه قَبولَ المعاذير ، ولا آمَنُ بعضَ جواهره إلىَّ يَسِيرُ إلى انتهاز فُرصةٍ فيما عاد إلى الفُرْطة(٢) ، فإن سلِمْتُ من ذلك ، فمن يجيرُنى مِن توا كُله على تقديم العذر ، ووقوعهِ موقعَ التصديق فى كل وقت ، فتتصل أيام الشغل والعِلّة ، وتنقضى أيام الفراغ والصحة ، فتطول مدة الغيبة ، وتدرُس آثار المودة » ، وكتبت آخر الرقعة .

إذا غبتِ لم تعرف مكانِىَ لذةٌ ولم يلق نفسى لَهْوُها وسرُورُها
وبُدِّلت سمعا واهيا غير ممسِك القول ، وعينا لايرانى ضميرُها
(زهر الآداب ٣ : ٢٠٣)

---

(١) الموجدة : الغضب .
(٢) الفرطة : اسم الخروج والتقدم ومجاوزة الحد .

٢٧١ — كتاب ابن المعتز إلى بعض إخوانه يصف سر من رأى

وكتب عبد الله بن المعتز إلى بعض إخوانه يصف سُرَّ مَنْ رَأى، ويذكر خرابها، ويذُمّ بغدادَ وأهلَها، ويفضّل سامَرّا(١) :

« كتبتُ إليك من بلدة قد أنهض(٢) الدهرُ سُكانَها، وأقعد جُدرانها، فشاهِدُ اليأسِ فيها ينطِق، وحَبْلُ الرجاء فيها يَقْصُر، فكأنَّ عُمرانها يُطوَى، وكأنَّ خَرابها يُنْشَر، وقد وُكِّلتْ إلى الهَجْرِ نواحيها، واستُحِثَّ باقيها إلى فانيها، وقد تمزّقتْ بأهلها الديار، فما يجب فيها حقُّ جِوار، فالظاعنُ(٣) منها مَمْحُوُّ الأثَر، والمقيمُ بها على طَرَف سَفَر، نهارُه إرْجاف(٤)، وسروره أحلام، ليس له زاد فيرْحَلَ، ولا مرعًى فيرتَعَ، فحالُها تصِف العيون الشكوى، وتُشير إلى ذم الدنيا، بعد ما كانت بالمَرْأى القريبِ جنةَ الأرض، وقَرارَ الملك، تَفيض بالجنود أقطارُها، عليهم أرديةُ السيوف، وغَلائل(٥) الحديد كأن رِماحهم قُرون الوُعُول، ودُروعهم زَبَد السُّيُول، على خيل تأكل الأرضَ بحوافرها، وتمُدّ بالنَّقْع(٦) سُرادِقَها، قد نُشِرتْ فى وجوهها غُرَرٌ(٧) كأنها صحائف البرق، وأمسكها تحجيلٌ كأنه أسْوِرةُ اللُّجَين، وقُرِّطت(٨) عُذُرًا كالشُّنوف، فى جيش يتلقَّفُ الأعداء أوائلُه، ولم تَنْهض أواخِرُه،

(١) لغة فى سر من رأى، وقد قدمنا كلة هنا فى ص١٣٤ .

(٢) أى أنهضهم للرحيل . (٣) أى المسافر الراحل .

(٤) أرجفوا : خاضوا فى أخبار الفتن ونحوها .

(٥) الغلائل جمع غلالة بالكسر : وهى الشعار التى يلبس تحت الثياب مما يلى الجسد، والوعول جمع وعل كشمس وكتف : وهو تيس الجبل .

(٦) النقع : الغبار .

(٧) الغرر جمع غرة بالضم : وهى بياض فى جبهة الفرس فوق الدرهم، والتحجيل : بياض فى قوائم الفرس، واللجين : الفضة .

(٨) العذر جمع عذار ككتاب : وهو من اللجام ما سال على خد الفرس : وقرط الجارية : ألبسها القرط، والشنوف جمع شنف بالفتح : وهو القرط الأعلى .

وقد صُبَّ عليه وقارُ الصبر ، وهبَّت له روائحُ النصر ، يصرِّفه مَلِكٌ يملأُ العيونَ جمالا والقلوبَ جلالا ، لا تُخلِف مَخيلتُه[1] ، ولا تُنقَض مَرِيرتُه ، ولا يُخطئُ بسهم الرأي غرَضَ الصواب ، ولا يَقطَع بمطايا اللهو سَفَرَ الشباب ، قابضا بيد السياسة على قِطَار[2] مُلْك لا ينتشر حَبْلُه ، ولا تتشظَّى عصاه ، ولا تُطفَأ جمرته ، في سِنِّ شبابٍ لم يجْنِ مَأْثَمًا ، وشيْبٍ لم يُراهِق[3] هرَمًا ، قد فَرَش مِهادَ عدله ، وخَفَض جَناح رحمته ، راجمًا بالعواقب الظنونَ ، لا يطيش ، عن قلب فاضل الحزم ، بعيد العزم ، ساعيا على الحق يعمل به ، عارفا بالله يقصد إليه ، مُقِرّا الحِلمَ وَيَبذُله ، قادرا على العقاب ويعدل فيه ، إذ الناس في دهر غافل ، قد اطمأنت بهم سِيرةٌ[4] لَيِّنة الحواشي ، خَشِنَة المَرَام ، تطير بها أجنحةُ السرور ، ويَهُبُّ فيها نسيم الحُبور[5] ، فالأطراف على مَسرَّة والنظرة إلى مَبرَّة ، قبل أن تَخُبَّ[6] مطايا الغِيَر ، وتُسْفِر وجوهُ الحذَرَ ، وما زال الدهر مليئا بالنوائب ، طارقا بالعجائب ، يُؤْمِن يومُه ، ويَغدِر غَدُه .

على أنها — وإن جُفِيتْ — مَعشوقةُ السُّكنَى ، حبيبة المَثْوَى[7] ، كوكبُها يقظانُ ، وجوُّها عُرْيان[8] ، وحَصْباؤها جوهر ، ونسيمها مُعطَّر ، وترابها مِسْكٌ أذفَر[9] ، ويومها غَداة ، وليلها سَحَر ، وطعامها هنيء ، وشرابها مَرِيء ، وتاجرها مالِكٌ ، وفقيرها فاتِك[10] ، لا كبغدادِكم الوَسِخة السماء ، الوَمِدَة[11] الهواء ، جوها

---

(١) المخيلة : الظن ، والمريرة : العزيمة .

(٢) القطار في الأصل : أن تقطر الإبل بعضها إلى بعض على نسق واحد ، وتشظى العود : تطاير شظايا جمع شظية كغنية : وهى الفلقة (بالكسر) من العصا ونحوها .

(٣) أى ولم يقارب الهرم والشيخوخة ، يقال : دخل مكة مراهقا : أى مقاربا لآخر الوقت حتى كاد يفوته التعريف ، وراهق الغلام : قارب الحلم .

(٤) السيرة بالكسر : اسم من السير أى الذهاب . (٥) الحبور : السرور .

(٦) الخبب بالتحريك : ضرب من العدو وبابه رد ، وسفرت المرأة كضرب : كشفت عن وجهها .

(٧) المثوى : المنزل . (٨) أى صحو خلو من الغيوم .

(٩) مسك أذفر وذفر كفرح : جيد إلى الغاية ، من الذفر بالتحريك : وهو شدة ذكاء الريح ، والغداة : البكرة ، أو ما بين صلاة الفجر وطلوع الشمس .

(١٠) فتك بالمكان كنصر : أقام به ، أى أنه ، لا يرحل عنها إلى سواها ، إذ يجد بها ما يعوزه .

(١١) الومد بالتحريك : أن تسكن الريح مع شدة الحر .

نار ، وأرضُها خَبار[١] ، وماؤها حَميم ، وترابها سِرْجين ، وحيطانها نُزُور[٢] ، وتَشْرِينها تمُّوز ، فكم مِن شمسها من محترِق ، وفي ظِلِّها مِن غَرِق ، ضيِّقة الديار ، قاسية الجِوار ، ساطعة الدخان ، قليلة الضِّيفان ، أهلها ذئاب ، وكلامُهم سِباب ، وسائلهم محروم ، ومالُهم مكتوم ، لايجوز إنفاقه ، ولا يُحَلُّ خِناقُه[٣] ، حُشُوشُهم مَسايِل ، طرقهم مَزَابِل ، وحيطانُهم أخصاص ، وبيوتهم أقفاص ، ولكل مكروهٍ أَجَلٌ ، وللبِقاع دُول ، والدهر يسير بالمقيم ، ويمزُج البؤسَ بالنعيم ، وبعد اللَّجاجة انتهاء ، والهَمُّ إلى فُرْجة ، ولكل سائِلةٍ قَرارٌ ، وبالله أستعين . وهو المحمود على كل حال .

غَدَتْ مُرَّ مَنْ رَا في العَفاء ،
« قِفَا نَبْكِ من ذِكرى حبيب ومنزل[٤] »

وأصبح أهلوها شبيهاً بحالها « لِما نَسَجَتْها من جَنوب وشَمْأَلِ[٥] »
إذا ما امرؤٌ منهم شكا سوء حاله « يقولون لاتَهْلِكْ أسًى وتجمَّلِ »

(معجم البلدان ٥ : ١٨ و ٢ : ٢٤١ وزهر الآداب ١ : ٢٠٧)

---

(١) الخبار : مالان من الأرض واسترخى ، والحميم : الماء الحار ، وفي رواية « وماؤها طين » والسرجين والسرقين بكسرهما : الزبل .

(٢) النز بالفتح ويكسر : مايتحلب من الأرض من المـــاء ، وتشرين وتموز : شهران من الشهور الرومية ، وتشرين من أشهر البرد (يبتدئ تشرين الثاني من ١٤ نوفبر) وتموز من أشهر الحر (يبتدئ من ١٤ يوليو) .

(٣) الخناق : الحبل يخنق به ، والحشوش جمع حش مثلث الحاء : وهو الكنيف وموضع قضاء الحاجة .

(٤) الأشطار الثانية في الأبيات الثلاثة مقتبسة من معلقة امرئ القيس المشهورة ، والعفاء : الدروس والامحاء .

(٥) الشمأل : ريح الشمال .

٢٧٢ — كتاب ابن المعتز إلى أحمد بن سعيد الدمشقى

وكتب ابن المعتزّ إلى أحمد[1] بن سعيد الدمشقىّ جوابا عن كتاب استزاده فيه :

« قيِّدْ نعمتى عندك بمثل ما كنتَ استدعيتَها به ، وذُبَّ عنها أسبابَ سوء الظن . واستدِمْ ما تحبُّ منى بما أحِبُّ منك » .

(معجم الأدباء ٣ : ٤٩ وزهر الآداب ٢ : ١٨١)

٢٧٣ — كتاب آخر إليه

وكتب إليه جوابا عن اعتذار كان من الدمشقى ، فى شىء بلغ ابن المعتز عنه :

« والله لا قابَلَ إحسانَك منى كُفْرٌ ، ولا تبِعَ إحسانى إليك مَنٌّ ، فلك عندى يَدٌ لا أقبِضُها عن نفعك ، وأخرى لا أبْسُطها إلى ظُلمك ، فتجنَّبْ ما يُسْخِطنى ، فإنى أصونُ وجْهَك عن ذُلِّ الاعتذار » .

(معجم الأدباء ٣ : ٤٩ وزهر الآداب ٢ : ١٨١)

٢٧٤ — كتاب إلى عبد الله بن شبيب من صديق له

وحدّث عبد الله بن شبيب قال : كتب إلىَّ بعض إخوانى من البصرة — وقد تأخر كتابى عنه — كتابا أوجز فيه ، وملُح :

« أطال الله بقاءك كما أطال جفاءك ، وجعلنى فداءك إن كان فى فداؤك .

كتبتُ ولو قَدَرتُ هوًى وشوقا إليك لكنتُ سَطْرا فى الكتاب[2] »

(أدب الكتاب ص ١٥٣)

---

(١) كان مؤدب ولد المعتز ، واختص بعبد الله بن المعتز ، مات سنة ٣٠٦ ، انظر ترجمته فى معجم الأدباء ٣ : ٤٦ ، وفى زهر الآداب « أحمد بن محمد » وهو تحريف .

(٢) البيت لأبى تمام .

٢٧٥ - كتابه إلى محمد بن طيفور من بعض إخوانه

وورد على محمد بن طَيفور، وهو عامل على أصفهان كتاب من بعض إخوانه في شأن رجل استماحه له في منزله :

« أنت - أعزك الله تعالى - أجلُّ من أن يُتوسَّل بغيرك إليك، وأن يستماحَ جودُك إلا بك، غيرَ أني أذكِّرك بكتابي في أمرِ حامِله ما شَرَع كرمُك، وزرَع إحسانُك، من الأجْر قِبَل الصادرين والواردين، فهَنَأَك اللهُ تعالى ذلك، ولا زالت يدُ الله بجميل إحسانه ونعمته متواترةً عليك » .

فقال محمد للرجل : احتَكِم لك وله، فأخذ منه ألف دينار ولمن كتب إليه فيها مثلها .

(زهر الآداب ٣ : ٢٩٦)

٢٧٦ - كتاب إلى محمد بن طيفور من بعض خاصته

وكتب محمد بن طيفور لبعض خاصَّته بمال كثير وَصَلَه به ، فكتب الرجل إليه :

« قد استغرقَتْ نعمتُك وجوه الشكر لك، وغُرَرَ الحمد فيما سَلَف، ولولا فرْطُ عجزِ مَن عَجَزَ عن كُفْءِ ما يجب لك من الحمد، لقَبِلْتُ ما أنفذْتَه » .

٢٧٧ - رده عليه

فكتب إليه محمد :

« قد صَغَّر شكرك لنا ما أسلفناه إليك، فخذ ما أنفذناه ثوابًا عن معرفتك بشكر ما أسديناه، وإلا سَمَح شكرك بما رأيناك له أهلا، إلى أن يسع قبولُ مثلك ما يستحقُّ به جميل الدعاء، وجزيل الثناء، إن شاء الله تعالى » .

(زهر الآداب ٣ : ٢٩٧)

٢٧٨ — كتاب صاحب البريد بالدينور

قال الطبرى : وفى سنة ٣٠٠ هـ ورد كتاب صاحب البريد بالدِّينَوَر[(١)] يذكر أن بغلة هناك وضعت فِلْوَة[(٢)] ، ونسخة كتابه :

« بسم الله الرحمن الرحيم ، الحمد لله الموقظِ بِعِبَره قلوبَ الغافلين ، والمُرْشِد بآياته ألبابَ العارفين ، الخالق لما يشاء بلا مِثال ، ذلك الله البارئُ المصوِّر فى الأرحام ما يشاء ، وإن الموكَّل بخَبَر التَّطواف بقَرْماسِين رفع يذكُرُ أن بغلة لرجل يُعْرَف بأبى بُرْدَة من أصحاب أحمد بن على المُرِّىّ وضعت فَلُوَّة ، ويصف اجتماع الناس لذلك ، وتعجُّبهم لما عاينوا منه ، فوجَّهتُ مَن أحضرنى البغلة والفَلُوَّة ، فوجدت البغلة كَمْتاء[(٣)] خَلُوقِيَّة ، والفلوة سَوِيَّة الخلق[(٤)] ، تامة الأعضاء ، مُنسدِلة الذَّنَب ، سبحانَ المَلِك القُدُّوس ، لامُعقِّب لِحُكْمِه وهو سَرِيعُ الحِسَاب » .

(تاريخ الطبرى ١٢ : ٢١)

٢٧٩ — كتاب على بن الفرات عن المقتدر فى المواريث

وفى سنة ٣١١ مات أحمد بن محمد بن خالد الكاتب ـ وكان من مشايخ الكتاب ورؤسائهم ـ وخلَّف وَرَثة أحداثا ، فأُنْهِيَ[(٥)] كثرةُ ماخلَّف من المال إلى المقتدر[(٦)] ،

---

(١) دينور : مدينة من أعمال الجبل بفارس ، بقرب قرماسين .

(٢) الفلو بالكسر وكعدو وسمو : المهر .

(٣) الكمتة بالضم : لون بين السواد والحمرة يكون فى الخيل والإبل وغيرهما ، والكميت من الخيل كزبير يستوى فيه المذكر والمؤنث ، قال فى اللسان: والجمع كمت بالضم كسروه على مكبره المتوهم وإن لم يلفظ به ، لأن الملونة يغلب عليها هذا البناء الأحمر والأشقر ، قال طفيل :

وكمتا مدماة كأن متونها ... جرى فوقها واستشعرت لون مذهب

والخلوقية : نسبة إلى الخلوق كصبور : طيب يتخذ من الزعفران وغيره من أنواع الطيب وتغلب عليه الحمرة والصفرة ، والمعنى : تشبه الخلوق فى لونه .

(٤) أى مستوية الخلق معتدلته .   (٥) أنهى الشىء : أبلغه .

(٦) ولى أبو الفضل جعفر المقتدر بالله بن المعتضد الخلافة سنة ٢٩٥ وقتل سنة ٣٢٠ .

فأمر بالتوكيل بِخزانته وداره ، فسار بعضُ الورثة إلى المحسِّن بن على بن الفُرات ، وضمنوا له مالا ، على إزالة التوكيل وحَلّ الاعتقال ، فكلم المحسن أباه فى ذلك (وكان أبوه وزير[1] المقتدر فركبَ إلى المقتدر) فقال له : إن المعتضد والمكتفى قد كانا قطعا الدخول على الناس فى المواريث ، وأنا أرى لمولاى أن يُحيِيَ رسومَهما ، وأن يأمر بإثبات عهد ألَّا يُتعرّض لأحد فى ميراث ، فأجابه المقتدر إلى ذلك ، إذ ظن أنها نصيحة منه ، فسُلِّمت الدار إلى ورثة الكاتب ، وأنشأ ابن الفرات كتابا عن المقتدر ، نسخته :

« بسم الله الرحمن الرحيم : أما بعدُ ، فإن أمير المؤمنين المقتدر بالله يُؤْثِر فى الأمور كلها ما قرّبه من الله عز وجل ، واجتلَب له جزيلَ مَثُوبته ، وواسِعَ رحمته وحَسَنته ، العائدةِ على كافة رعيته ، كما جعل الله فى طبعه ، وأولَجَ فى نيته ، من التعطف عليها ، وإيصالِ المنافع إليها ، وإبطالِ رسوم الجَوْر التى كانت تُعامَلُ بها ، جارياً مع أحكام الكتاب والسُّنة ، عاملا بالآثار عن الأفاضل من الأئمة ، وعلى الله يتوكل أمير المؤمنين ، وإليه يفوِّض ، وبه يستعين » . (تاريخ الطبرى ١٢ : ٦٠)

٢٨٠ — كتاب الوزير بن مقلة إلى القواد والعمال

ومن حوادث سنة ٣١٨ الإيقاع بجند الرَّجّالة المَصَافِيَّة[2] ببغداد ، وقد كتب الوزير محمد بن على بن مُقْلة فيهم بعد قهرهم نسخة أُنفِذت إلى القوّاد والعمّال ، وهى :

« بسم الله الرحمن الرحيم ، قد جرى — أعزك الله — من أمر الرَّجّالة المَصَافِيَّة

---

(١) وزر أبو الحسن على بن الفرات للمقتدر ثلاث مرات وقتل سنة ٣١٢ ـ انظر ترجمته فى الفخرى ص ٢٣٩ وتاريخ الطبرى ١٢ : ٢٠ .

(٢) نسبة إلى المصاف جمع مصف : وهو الموقف فى الحرب الذى يكون فيه الصفوف ، وقد كان هؤلاء الرجالة فى صفوف جرس الخلافة ،وتدلل قوادهم على الخليفة وعلى الوزير حتى كان لايقدر أن يحتجب عن واحد منهم فى أى وقت جاء من ليل أو نهار ، ولا يرد عن حاجة كائنة ما كانت ، وتحكموا على القضاة ، وطالبوهم بحل الحباسات وإخراج الوقوف من أيديهم ، وما كتنفوا الجناة ، وعطلوا الأحكام ، واستطالوا على المسلمين .

بالحضْرة ماقد اتصل بك ، وعرَفْتَ جملتَه وتفصيلَه ، ووجهَتَه وسبيلَه ، وقد خار الله عز وجل لسيدنا أمير المؤمنين وللناس بعده ، بما تهيَّأ من قَمعهم ورَدْعهم ، خِيرةً ظاهرة متصلةً بالكفاية الشاملة التامة ، بمَنّ الله وفضله ، ولم يَرَ سيدنا — أيده الله — استصلاحَ أحد من هذه العُصبة إلا السودان ، فإنهم كانوا أخفَّ جنايةً ، وأيسرَ جريرةً ، فرَأى — أعلى الله رأيَه — إقرارَهم على أرزاقهم القديمة ، وتصفيتَهم بالعَرْض على المِحْنة ، لعلمه أن العساكر لابد لها من رَجّالة ، وأمرَ — أعلى الله أمرَه — أن يستخدم بحضرته مَن تُؤْمَن بائقتُه ، وتخِفّ مؤونتُه ، وتُرجَى استقامتُه ، وبالله ثقة أمير المؤمنين وتوفيقُه ، وقِبَلك وقِبَل مثلِك رجّالةٌ أنت أعلم بمن مَرِضَتْ طاعتُه منهم ومن يعود إلى صحّة وصلاح ، فإن قَنِع مَنْ ترضاه منهم بأصل الجارى عليه ، فتمسَّكْ به ، وأقِرَّه على جارِيه ، ومَن رأيتَ الاستبدالَ به فأْمُرْه إليك ، والله المستعان » .

(تاريخ الطبرى ١٢ : ٧٧)

٢٨١ — كتاب أحمد بن الضحاك إلى صديق له يصف شعب بوان

وكتب أحمد بن الضحَّاك[1] الفلكى إلى صديق له يصف شِعْب بَوّان[2] :

« بسم الله الرحمن الرحيم : كتبت إليك من شعب بَوّانَ ، وله عندى يدٌ بيضاء مذكورة ، ومِنَّةٌ غرّاء مشهورة ، بما أولانيه من مَنظرَ أعْدَى[3] على الأحزان ،

(١) جاء فى تاريخ بغداد ج ٤ : ص ١١٢ : « حدثنا أبو عبد الله أحمد بن الضحاك الواسطى ببغداد سنة ٢١١ ... الخ » وربما كان هو صاحب هذا الكتاب .

(٢) شعب بوان : بأرض فارس بين أرجان والنوبندجان ، وهو أحد متنزهات الدنيا ، موصوف بالحسن وكثرة الأشجار وتدفق المياه وكثرة أنواع الأطيار ، وقد وصفه المتنبى فى قصيدته التى مطلعها :

مغانى الشعب طيبا فى المغانى ... بمنزلة الربيع من الزمان

(انظر ديوان المتنبى ص ٤٦٣ ، ومعجم البلدان ٢ : ٢٩٨) .

(٣) أعداه عليه : نصره وأعانه وقواه .

وأقالَ مِن صُروف الزمان ، وسَرَّح طَرْفى فى جداولَ تَطَّرِدُ بماء مَعينٍ[1] مُنسَكِب ، أرقَّ من دموع العُشَّاق ، مَرَّرتْها لَوْعةُ الفِراق ، وأبردَ من ثُغور الأحباب ، عند الالتئام والاكتئاب ، كأنها ـ حين جرَى آذِيُّها[2] يترَقْرَق ، وتدافَعَ تيَّارُها يتدفَّق ، وارتَجَّ حَبابُها يتكسَّر ، فى خلال زَهر ورياض ترنُو[3] بحَدَق مُوَلَّهٍ ـ قُضُبُ[4] لُجَيْنٍ فى صفائح عِقيان ، وسُمُوطُ دُرّ بين زَبَرْجَد ومَرْجان ، أثرٌ على حِكمة صانعه شهيدٌ ، وعَلَمٌ على لُطف خالقه دليل ، إلى ظلٍّ سَجْسَج أحْوَى ، وخَضِل أَلْمَى[5] ، قد غَنَّت عليه أغصانٌ فَيْنانة ، وقُضُبٌ غَيْدانة[6] ، تشوَّرَتْ لها القدودُ المُهَفْهَفةُ خَجَلاً وتقيَّلَتْها[7] الخصورُ المُرْهَفَةُ تشبُّهاً ، يَستَمِيلها النسيمُ فتنقاد ، ويَعدل بها فتعتدِل ، فمِن متورِّدٍ يَروق منظَرُه ، ومُرْتَجٍ يتهدَّل مُثمِرُه ، مشتركة فيه حُمرةُ نُضْجِ الثمار بنَفْحَةِ[8] نسيمِ النُّوَّار .

وقد أقمتُ به يومًا وأنا لخيالك مُسامِرٌ ، ولشَوقك منادِمٌ ، وشربت لك

---

(١) تطرد : تجرى ، والمعين : الماء الجارى على وجه الأرض ، من معن الماء ككرم ومنع : أى جرى ، أو من عان الماء يعين : أى جرى أيضا .

(٢) الآذى : الموج ، وحباب الماء : الفقاقيع التى تطفو فوقه كأنها القوارير .

(٣) رنا : أدام النظر ، والموله : الذاهب العقل وفى الأصل « تولد » .

(٤) فى الأصل « قصب » وهو تصحيف ، واللجين : الفضة ، والعقيان : الذهب ، وسموط جمع سمط بالكسر : وهو القلادة .

(٥) أرض سجسج : ليست بصلبة ولا سهلة ، ويوم سجسج : لاحر مؤذ ولاقر ، وكل هواء معتدل طيب : سجسج ، وأحوى : وصف من الحوة بالضم : وهى سواد إلى الخضرة ، أو حمرة إلى السواد ، والخضل : كل شىء ند يترشف نداه ، وألمى : وصف من اللمى ، واللمى مثلثة اللام : سمرة فى الشفة .

(٦) امرأة فينانة : كثيرة الشعر طويلته ، والغيد بالتحريك : النعومة ولين الأعطاف ، والوصف منه على أفعل فعلاء ، فالأغيد من النبات : الناعم المتثنى ، والغيداء : المرأة المتثنية من اللين ، وقد جاء بالوصف منه هنا على فعلانة ، ولم أجده فى كتب اللغة .

(٧) تشورت : خجلت . يقال شورت الرجل وبالرجل فتشور . إذا خجلته فخجل ، وجارية مهفهفة أى ضامرة البطن دقيقة الخصر ، وتقيله : أشبهه ، والمرهفة الرقيقة اللطيفة .

(٨) فى الأصل « بنفحه » .

تذكارًا ، وإذا تفضّل الله بإتمام السلامة إلى أن أوافى شيرازَ ، كتبت إليك من خبرى بما تقِف عليه إن شاء الله تعالى . (معجم البلدان ٢ : ٢٩٩)

٢٨٢ — كتاب عن الإخشيد إلى أرمانوس ملك الروم

وكتب الإخشيد[1] محمد بن طغْج صاحب الديار المصرية ، وما معها من البلاد الشاميّة ، والأعمال الحِجازية ، إلى أرمانُوس ملك الروم ، وقد أرسل أرمانوسُ إليه كتابا يذكر من جملته بأنه كاتَبَهَ وإن لم تكن عادته أن يكاتِبَ إلا الخليفةَ ، فأمر بكتابة جوابه ، فكتب له الكُتَّاب عِدة أجوبة ، ورفعوا نُسخَها إليه ، فلم يرتضِ منها إلا ما كتبه إبراهيم بن عبد الله النِّجْيرَمى[2] — وكان عالما بوجوه الكتابة — ونسخته :

« من محمد بن طُغْج مَوْلَى أمير المؤمنين إلى أرمانوس عظيم الروم ومَن يَليه :

سلامٌ بقَدْرِ ما أنتم له مستحِقُّون ، فإنّا نحمَد اللهَ الذى لا إله إلا هو ، ونسأله أن يصلى على محمد عبدِه ورسوله صلى الله عليه وسلم .

أما بعد ، فقد تُرْجِمَ لنا كتابُك الواردُ معقولا وإسحاقَ رسولَيْك ، فوجدناه مفتَتَحًا بذكر فضيلة الرحمة ، وما نُمِيَ[3] عنا إليك ، وصَحَّ من شِيَمنا فيها لديك ، وبما نحن عليه من المَعْدِلة وحُسْن السيرة فى رعايانا ، وما وصلتَ به هذا القولَ من ذِكر الفِداء ، والتوصُّل إلى تخليص الأسرى ، إلى غير ذلك مما اشتمل عليه وتفَهَّمْناه .

---

(١) ولى حكم مصر سنة ٣٢٣ فى خلافة الراضى بالله أحمد بن المقتدر (الذى ولى الخلافة سنة ٣٢٢ ومات سنة ٣٢٩) وتوفى الإخشيد سنة ٣٣٠ (وقد استولى بنو بويه على بغداد سنة ٣٣٤ فى خلافة المستكفى بن المكتفى بن المعتضد) .

(٢) نسبة إلى نجيرم ، وقال ياقوت فى معجم البلدان : « بفتح أوله وثانيه وياء ساكنة وراء مفتوحة ، ويروى بكسر الجيم . بليدة مما يلى البصرة على جبل هناك على ساحل البحر ، وقد نسب إليها قوم من أهل الأدب والحديث ، منهم إبراهيم بن عبد الله النجيرمى . . . . » .

(٣) نميت الحديث : رفعته .

فأمّا ما أطنبتَ فيه من فضيلة الرحمة ، فمن سَديد القول الذى يَليق بذوى الفضل والنُّبْل ، ونحنُ — بحمدِ الله ونِعَمه علينا — بذلك عارِفُون ، وإليه راغبون ، وعليه باعِثُون ، وفيه — بتوفيق الله إيانا — مجتهدون ، وبه مُتَوَاصُون وعامِلُون ، وإياه نسأل التوفيقَ لمَرَاشدِ الأمور ، وجوامِـع المصالح ، بِمَنِّه وَقُدْرته .

وأمّا ما نسبتَه إلى أخلاقنا من الرحمة والمعدلة ، فإنا نرغب إلى الله جل وعلا ، الذى تفرَّدَ بكمال هذه الفضيلة ، ووهبَها لأوليائه ، ثم أثابهم عليها ، أن يُوَفِّقنا لها ، ويجعلَنا من أهلها ، ويُيَسِّرَنا للاجتهاد فيها ، والاعتصام من زَيْغ الهوى عَنْها ، وعَرَّةِ(١) القَسْوة بها ، ويجعلَ ما أودعَ قلوبَنا من ذلك موقوفا على طاعته ، وموجِبات مَرْضاته ، حتى نكونَ أهلا لِما وصَفْتنا به ، وأحقَّ حقًّا بما دَعَوْتَنا إليه ، وممن يستحق الزُّلْفَى من الله تعالى ، فإنا فقراء إلى رحمته ، وحُقَّ لمن أنزله الله بحيث أنْزَلَنَا ، وحمَّله مِن جسيم الأمر ما حَمَّلنا ، وجَمَع له من سَعة الممالك ما جمَعَ لنا بمولانا أمير المؤمنين ـ أطال الله بقاءه ـ أن يَبتهِل(٢) إلى الله تعالى فى مَعُونته لذلك وتوفيقه وإرشاده ، فإن ذلك إليه وبيده « وَمَنْ لَمْ يَجْعَلِ اللهُ لَهُ نُورًا فَمَا لَهُ مِنْ نُورٍ » .

وأمّا ما وصفتَه من ارتفاع محَلِّك عن مرتبةِ مَن هو دون الخليفة فى المكاتبة ، لِمَا يقتضيه عِظَمُ ملككم ، وأنه المُلْكُ القديم الموهوب من الله ، الباقى على الدهر ، وأنك إنما خصَصْتَنا بالمكاتبة لِمَا تحقَّقْته من حالنا عندك ، فإن ذلك لو كان حقا ، وكانت منزلتُنا ـ كما ذكرتَه ـ تَقْصُر عن منزلة مَن تُكاتبه ، وَكان لك فى تَرْك مكاتبتنا غُنْمٌ ورُشد ، لكان من الأمر البيِّن أنْ أحْظَى وأرْشَدَ وأوْلَى بمن حَلَّ مَحَلَّكَ أن يعمل بما فيه صلاحُ رعيته ، ولا يراه وصْمَةً ولا نقيصة ولا عَيْبا ، ولا يقَع فى معاناةِ صغيرةٍ من الأمور تَعقُبُها كبيرةٌ ، فإن السائسَ الفاضل قد يركبُ الأخطار ، ويخُوضُ

---

(١) العرة بالفتح : المعرة والخلة القبيحة ، وبالضم : القذر ، وتستعار للمساوى والمعايب .

(٢) الابتهال : الاجتهاد فى الدعاء وإخلاصه .

الغِمَارَ ، ويُعرِّضُ مُهْجتَهَ فيما ينفعُ رعيته ، والذى تجشَّمْتَهَ من مكاتبتنا إن كان كما وصفتَه ، فهو أمر سهل يسير ، لِأمرٍ عظيمٍ خطير ، وجُلُّ نَفْعِه وصلاحِه وعائدتِه[1] تخُصُّكم ، لأن مذهبَنا انتظارُ إحدى الحُسْنَيَيْن ، فمن كان منا فى أيديكم فهو على بيِّنةٍ من ربه ، وعزيمةٍ صادقة من أمره ، وبصيرة فيما هو بسبيله ، وإن فى الأُسارَى مَنْ يُؤْثِر مكانه من ضَنْك الأمر ، وشدة البأساء ، على نعيم الدنيا وخيرها ، لِحُسْنِ منقَلَبه ، وحميدِ عاقبته ، ويعلم أن الله تعالى قد أعاده من أن يَفتِنَه ، ولم يُعِذْه من أن يَبتليَه ، هذا إلى أوامر الإنجيل الذى هو إمامُكم ، وما تُوجبه عليكم عزائم سياستكم ، والتوصلُ إلى استنقاذ أُسَرائكم ، ولولا أن إيضاح القولِ فى الصواب ، أوْلَى بنا من المسامحة فى الجواب ، لأضْرَبنا عن ذلك صَفْحا ، إذ رأَيْنا أن نفسَ السببِ الذى من أجله سما إلى مكاتبة الخلفاء عليهمُ السلامُ مَن كاتبَهم ، أو عداعنهم إلى مَن حلَّ محلَّنا فى دولتهم بل إلى مَن نَزَل عن مَرْتبتنا ، هو أنه لم يثق من مَنْعه ، ورد مُلتَمَسه ممن جاوره ، فرأى أن يقصِدَ به الخلفاء الذين الشَّرَفُ كلُّه فى إجابتهم ، ولا عارَ على أحد وإن جَلَّ قدره فى رَدِّهم ، ومَن وثِق فى نفسه ممن جاوره ، وجَدَ قَصْدَه أسهَلَ السبيلين عليه ، وأدناهما إلى إرادته ، حَسَبَ ما تقدَّم لها من تقدّم ، وكذلك كاتَبَ مَن حلَّ محلَّنا مَن قَصُرَ عن محلِّنا ، ولم يقرُبْ من منزلتنا ، فممالِكُنا عِدَّة ، كان يتقلَّد فى سالِفِ الدهر كلَّ مملكة منها مَلِكٌ عظيمُ الشأن .

فمنها مُلْكُ مِصرَ الذى أطغَى فِرْعَوْن ، على خَطَرِ أمره ، حتى ادَّعَى الإلٰهيَّة ، وافتخر على نبىِّ الله موسى بذلك .

ومنها ممالك اليمن التى كانت للتبابِعة ، والأَقْيال العَبَاهِلَة[2] ، ملوك حِمْير ، على عِظَم شأنهم ، وكثرة عددهم .

---

(١) العائدة . المنفعة .

(٢) العباهلة : الذين أقروا على ملكهم فلم يزالوا عنه (بالبناء للمجهول) انظر الجزء الأول ص ٦٠

ومنها أجناد الشأم ، التى :

منها جُند حِمص ، وكانت دارَهم ودار هِرَقْل عظيم الروم ومَن قَبْلَه من عظمائِها .

ومنها جند دِمَشْقَ على جَلالته فى القديم والحديث ، واختيارِ الملوك المتقدمين له .

ومنها جند الأُرْدُنِّ على جَلالة قدره ، وأنه دار المَسيح صلى الله عليه وسلم وغيره من الأنبياء والحَوارِيِّين .

ومنها جند فِلَسطِين ، وهى الأرض المقدَّسة ، وبها المسجد الأقصى ، وكرسىُّ النّصرانية ، ومعتقَدُ غيرها ، ومَحَجُّ النصارى واليهود طُرّا . ومَقرّ داود وسليمان ومسجدُهما ، وبها مسجد إبراهيم وقبرُه ، وقبر إسحٰق ويعقوب ويوسف وإخوته وأزواجهم عليهم السلام ، وبها مولد المسيح وأمّه وقبرُها .

هذا إلى ما نتقلده من أمر مكة المحفوظة بالآيات الباهرة ، والدّلالات الظاهرة ، فإنا لو لم نتقلّد غيرَها ، لكانت بشَرفها ، وعِظَم قدرها ، وما حَوَتْ من الفضل ، تُوفِى على كل مملكة ، لأنها مَحَجّ آدم ، ومَحَجّ إبراهيم ووارثه ومُهاجَرُه ، ومَحَجُّ سائر الأنبياء ، وقبلتنا وقبلتهم عليهم السلام ، ودارُه وقبرُه (١) ومَنْبِت ولده ، ومَحَجُّ العرب على مرّ الحِقَب (٢) ، ومَحَلّ أشرافها وذوى أخطارها ، على عِظَم شأنهم ، وفخامة أمرهم ، وهو البيت العَتِيق المحرَّم المحجوجُ إليه من كل فَجٍّ عميق ، الذى يعترف بفضله وقِدَمه أهلُ الشرف ، مَن مَضَى ومَن خَلَف ، وهو البيت المعمور ، وله الفضل المشهور .

ومنها مدينةُ الرسول صلى الله عليه وسلم المقدَّسة بتُرْبته ، وأنها مَهبِط الوَحْى ، وبَيْضَةُ هذا الدين المستقيم الذى امتد ظِلُّه على البر والبحر ، والسَّهْل والوعْر ، والشرق

---

(١) كذا فى صبح الأعشى ، وقد جاء فى هامشه : « كذا فى المغرب فى أخبار المغرب أيضا ــ وهو الذى نقل عنه القلقشندى هذا الكتاب ــ ويظهر أنه مقدم على مابعده ــ أى ونبت ولده ويكون الضمير فيه عائدا على سيدنا إسمعيل ، فإن مكة كانت داره ومنبته » .

(٢) الحقب : جمع حقبة بالكسر ، وهى مدة من الدهر لا وقت لها ، والسنة .

والغرب ، وصحارى العرب على بُعد أطرافها ، وتَنازُحِ[1] أقطارها ، وكثرة سكانها في حاضرتها وباديتها ، وعِظَمها في وفودها وشدّتها ، وصدق بأسها ونجدتها ، وكِبَر أحلامها[2] وبُعْد مَرامها ، وانعقاد النصر من عند الله براياتها ، وأن الله تعالى أبادَ خَضْراء[3] كِسْرَى ، وشَرَّد قَيصرَ عن داره ومحلّ عِزّه ومجده بطائفة منها .

هذا إلى ما تعلمه من أعمالنا ، وتحتَ أمْرنا ونَهْينا ثلاثةُ كراسيَّ من أعظم كراسيّكم : بيتُ المَقْدِس ، وأنطاكيةُ ، والإسكندرية ، مع ما إلينا من البحر وجزائره ، واستظهارِنا بأتمّ العَتَاد[4] ، وإذا وفَّيتَ النظر حقّه ، علِمْت أن الله تعالى قد أصفانا[5] بجُلّ الممالك التى ينتفع الأنامُ بها ، وبشَرَفِ الأرض المخصوصة بالشرف كلّه دُنيا وآخرةً ، وتحقَّقتَ أن منزلتنا بما وهبه الله لنا من ذلك فوق كل منزلة ، والحمد لله وليّ كل نعمة .

وسياستُنا لهذه الممالك قريبها وبعيدها ، على عِظَمها وسَعتها ، بفَضْل الله علينا ، وإحسانه إلينا ، ومَعُونته لنا ، وتوفيقه إيانا كما كتبتَ إلينا ، وصَحّ عندك من حُسْن السيرة ، وبما يؤلف بين قلوب سائر الطَّبقَات من الأولياء والرعية ، ويجمَعهم على الطاعة واجتماع الكلمة ، ويوسِعها الأمنَ والدَّعةَ فى المعيشة ، ويُكسبها المودةَ والمحبة .

والحمدُ لله رب العالمين أوّلا وآخرا ، على نِعَمه التى تَفُوت عندنا عددَ العادّين ، وإحصاءَ المجتهدين ، ونَشْرَ الناشرين ، وقولَ القائلين ، وشكر الشاكرين ، ونسأله أن يجعلنا ممن تحدّث بنعمه عليه شكرًا لها ، ونَشْرا لما منحه اللهُ منها ، ومن

---

(١) أى تباعد ، وهو تفاعل من نزحت الدار كمنع وضرب : أى بعدت .

(٢) الأحلام . العقول ، جمع حلم بالكسر .

(٣) الخضراء : سواد القوم ومعظمهم ، وفى حديث الفتح « أبيدت خضراء قريش » أى دهماؤهم وسوادهم .

(٤) استظهر به : استعان، والعتاد : العدة .

(٥) أصفاه بكذا : آثره به .

رضِيَ اجتهادَه في شكرها ، ومن أراد الآخرةَ وسَعَى لها سَعْيها وكانَ سعيُه مشكورا إنه حميد مجيد .

وما كنتُ أحبُّ أن أباهِيَك بشيء من أمر الدنيا ، ولا أتجاوز الاستيفاءَ لما وهبه الله لنا من شرف الدين الذي كرّمه وأظهره ، وَوعَدَنا في عواقبه الغلبةَ الظاهرةَ ، والقدرةَ القاهرة ، ثم الفوزَ الأكبر يومَ الدين، لكنك سلكتَ مَسْلَكا لم يحسُنْ أن نعْدِل عنه، وقلتَ قولا لم يَسَعْنا التقصيرُ في جوابه ، ومع هذا فإنا لم نقصد بما وصفناه من أمرنا مكاثَرَتَك ، ولا اعتمدْنا تعيين فضلٍ لنا نموذ به ، إذ نحن نَتَكرَّم عن ذلك ، ونرَى أن نُكْرِمك عند محلك ومنزلتك ، وما يتصل بها من حسن سياستك ومذهبك في الخير ومحبتك لأهله ، وإحسانِك إلى من في يدك من أسْرَى المسلمين ، وعَطفِك عليهم ، وتجاوُزِك في الإحسان إليهم جميعَ من تقدَّمك مِن سَلَفك ، ومَن كان محمودا في أمره رُغِبَ في محبته ، لأن الخيِّر أهلٌ أن يُحَبَّ حيثُ كان ، فإن كنت إنما تؤهِّل لمكاتبتك ومُماثَلَتك ، مَن اتسعَتْ ممالكتُه ، وعظُمَت دولتُه ، وحسُنت سيرتُه ، فهذه ممالكُ عظيمة ، واسعة جَمَّة ، وهي أجلُّ الممالكِ التي ينتفع بها الأنام ، وسِرُّ الأرض المخصوصة بالشرف ، فإن الله قد جمَع لنا الشرفَ كله ، والولاء الذي جُعِل لنا من مولانا أمير المؤمنين — أطال الله بقاءه — مخصوصين بذلك ، إلى مالَنا بقديمنا وحديثنا وموْقِعنا ، والحمد لله رب العالمين الذي جمَع لنا ذلك بمَنّه وإحسانه ، ومنه نرجو حُسن السعي فيما يُرْضيه بلُطْفه ، ولم ينطوِ عنك أمرنا فيما اعتمدناه . وإن كنت تجْرِي في المكاتبة على رَسْمِ مَن تقدَّمك ، فإنك لو رجعتَ إلى ديوان بلدك ، وجدتَ من كان تقدَّمك قد كاتَبَ مِنْ قَبلنا مَن لم يحُلَّ محلَّنا ، ولا أغنَى غَناءَنا(١) ولا ساس في الأمور سياستَنا ، ولا قلّده مولانا أمير المؤمنين — أطال الله بقاءه — ما قلَّدَنا ، ولا فوَّض إليه ما فوّض إلينا ، وقد كُوتب أبو الجيش خُمَارَوَيْه

---

(١) أغنى غناءه : كفى كفايته .

ابن أحمد بن طولون ، وآخِرُ مَن كُوتِب بِتَكْين مَوْلَى أمير المؤمنين ، ولم يكن تقلّد سوى مصر وأعمالها .

ونحن نحمد الله كثيرا أوّلا وآخرا ، على نعمه التى يفوت عندنا عَدَدُها عدّ العادّين ، ونَشْرَ الناشرين ولم نُرد بما ذكرناه المفاخرةَ ، ولكنا قَصَدْنا بما عَدَدْنا من ذلك حالات : أوّلُها التحدثُ بنعمة الله علينا ، ثم الجوابُ عما تضمّنه كتابك من ذكر المحل والمنزلة فى المكاتبة ، ولِتَعلمَ قدرَ ما بسطَه الله لنا فى هذه الممالك ، وعندنا قوةٌ تامّة على المكافأة على جميل فعلك بالأسارى ، وشكرٌ وافٍ لِما تُولِيهم وتتوخّاه من مسرّتهم ، إن شاء الله تعالى وبه الثقة ، وفقّك الله لمواهبِ خيرات الدنيا والآخرة ، والتوفيق للسّداد فى الأمور كلها ، والتيسير لصلاح القول والعمل الذى يحبه ويرضاه ويُثبت عليه ، ويَرْفع فى الدنيا والآخرة أهلَه ، بمَنّه ورحمته .

وأما المُلْك الذى ذكرتَ أنه باق على الدهر ، لأنه موهوب لكم من الله خاصةً ، فإنّ الْأَرْضَ لِلّهِ يُورِثُهَا مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَالْعَاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ ، وإنّ المُلْكَ كُلَّهُ لِلّهِ ، يُؤْتِى الْمُلْكَ مَنْ يَشَاءُ ، وَيَنْزِعُ الْمُلْكَ مِمَّنْ يَشَاءُ ، وَيُعِزُّ مَنْ يَشَاءُ ، وَيُذِلُّ مَنْ يَشَاءُ ، بِيَدِهِ الْخَيْرُ وَإِلَيْهِ الْمَصِيرُ ، وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ، وإنّ الله عز وجل نسَخَ مُلْك الملوك ، وَجَبَرِيّةَ الجبّارين ، بنبوة محمد صلى الله عليه وسلم وعلى آله أجمعين ، وشفَع نبوّتَه بالإمامة ، وحازها إلى العِتْرة الطاهرة من العُنْصُر الذى منه أمير المؤمنين - أطال الله بقاءه - والشجرةِ التى منها غُصْنُه ، وجَعَلها خالدةً فيهم يتوارثها منهم كابِرٌ عن كابر ، ويُلْقيها ماضٍ إلى غابر ، حتى يَجَز أمرُ الله ووعدُه ، ويَبَهَر نَصْرُه وكلمته ، وأظهر حجّته ، وأضاء عمودَ الدين بالأئمة المهتدين ، وقطَع دابِرَ الكافرين ، ليُحِقّ الحق ويُبْطل الباطل ولو كره المشركون ، حتى يرِثَ اللهُ الأرض ومَن عليها وإليه يرجعون .

وإنّ أحقّ مُلْكٍ - أن يكون من عند الله ، وأولاه وأخلَقَه أن يَكْنُفَه(١) الله

(١) كنفه كنصره : صانه وحفظه .

بحراسته وحياطته ، ويحفّه بعزه وأيْدِه[1] ، ويُجَلِّله بَهاءَ السكينة فى بَهْجة الكرامة ، ويحمِّله بالبقاء والنّجاء[2] ، مالاح فجرٌ وكرَّ دهرٌ — مُلْكُ إمامة عادلة ، خَلَفت نبوَّةً فجرَتْ على رَسْمِها وسَنَنِها ، وارتسمَتْ أمرَها ، وأقامت شرائعَها ، ودعت إلى سُبُلها ، مستنصرةً بأيدها ، منتجزَةً لوعدها ، وإن يوما واحدا من إمامة عادلة خيرٌ عند الله من عُمر الدُّنيا تملُّكا وجَبَرِيَّةً .

ونحن نسأل الله تعالى أن يُديم نعمه علينا ، وإحسانَه إلينا ، بشرف الولاية ، ثم بِحُسْنِ العاقبة بما وفَّر علينا فخرَه وعُلاهُ ، ومَجْدَه وإحسانه ، إن شاء الله، وبه الثقة، وهو حَسْبنا ونِعْم الوكيلُ .

وأمّا الفداءُ ورَأْيُك فى تخليص الأسرى ، فإنا وإن كنا واثقين لمن فى أيديكم بإحدى الحُسْنَيَيْن ، وعلى بيِّنةٍ لهم من أمرهم ، وثَباتٍ من حُسْنِ العاقبة وعِظَمِ المَثُوبة ، عالمين بما لهم ، فإن فيهم مَن يُؤْثِر مكانَه من ضَنْك الأسر وشِدَّة البأساء ، على نعيم الدنيا ولذّتها ، سُكونًا إلى ما يتحققه من حسن المنقلَب ، وجزيل الثواب ، ويعلم أن الله قد أعاذه من أن يَفتِنَه ، ولم يُعِذْه من أن يبتَلِيه[3] ، وقد تبيَّنا مع ذلك فى هذا الباب ما شرَعه لنا الأئمةُ الماضُون ، والسَّلَف الصالحون ، فوجدنا ذلك موافقا لما التمستَه ، وغيرَ خارج عما أحببْتَه ، فسُرِرنا بما تيسَّر منه ، وبعثْنا الكتبَ والرسل إلى عُمَّالنا فى سائر أعمالنا ، وعَزَمْنا عليهم فى جمع كل مَن قِبَلهم وأتباعهم بما وفر الإيمان فى إنفاذهم ، وبذلنا فى ذلك كلَّ ممكن ، وأخَّرنا إجابتك عن كتابك ، ليتقدم فِعلُنا قولَنا ، وإنجازُنا وَعْدَنا ، ويُوشِك أن يكون قد ظهر لك من ذلك ما وقع أحسنَ الموقع منك إن شاء الله .

وأما ما ابتدأتنا به من المواصلة ، واستشعَرْتَه لنا من المودة والمحبة ، فإن عندنا فى مقابلة ذلك ماتُوجبه السياسةُ التى تجمَعنا على اختلاف المذاهب ، وتقتضيه نسبة الشرف الذى يؤلِّفنا على تباين النِّحَل ، فإن ذلك من الأسباب التى تخصنا وإياك ،

---

(١) الأيد : القوة .   (٢) النجاء : النجاة .   (٣) مكرور مع ماسبق .

ورأينا من تحقيق جميل ظنك بنا إيناسَ رُسُلك وبَسْطهم ، والاستماعَ منهم، والإصغاء إليهم ، والإقبالَ عليهم ، وتلقّينا انبساطَك إلينا ، وإلطافَك[1] إيانا ، بالقَبول الذى يحقّ علينا ، ليقع ذلك موقعَه ، وزدنا فى توكيد ما اعتمدته ما حمّلناه رسلَك فى هذا الوقت – على استقلالنا إياه – من طرائف بلدنا وما يَطرأ من البلاد علينا ، وإن الله بمَنّه وحكمته أودعَ كل قرية صِنفا ، ليتشوّف إليه مَن بَعُد عنه ، فيكون ذلك سببا لِعمارة الدنيا ومعايِش أهلها ، ونحن نُفردك بما سلّمناه إلى رسولك لِتقفَ عليه إن شاء الله .

وأما ما أنفذته للتجارة ، فقد أمكنّا أصحابَك منه ، وأذِنّا لهم فى البيع ، وفى ابتياع ما أرادوه واختاروه ، لأنا وجدنا جميعَه مما لا يَحْظُره علينا دينٌ ولا سياسة ، وعندنا مِن بَسْطك وبسط مَن يَرِد من جهتك ، والحرص على عمارة ما بدأْتَنا به ورعايته ، وَرَبِّ[2] ما غَرَسْته أفضلُ ما يكون عند مثلنا لِمثلك ، والله يعين على ما ننْويه من جميل ، ونعتقده من خير ، وهو حسبنا ونعم الوكيل .

ومَن ابتدأ بجميل لَزِمَه الجرىُ عليه والزّيادة ، ولاسيما إذا كان من أهله وخَليقاً به ، وقد ابتدأْتَنا بالمؤانسة والمباسَطة ، وأنت حقيقٌ بعمارة ما بيننا ، وباعتمادنا بحوائجك وعوارضك قِبَلنا فأبشِرْ بتيسير ذلك إن شاء الله .

والحمد لله أحَقَّ ما ابتُدِئَ به ، وخُتِم بذكره ، وصلى الله على محمد نبىِّ الهدى والرحمة ، وعلى آله وسلم تسليما » . (صبح الأعشى ٧ : ١٠)

٢٨٣ — كتاب أبى الطيب المتنبي إلى أحد إخوانه

وكتب أبو الطيّب المتنبي بعد أن أبلَّ[3] من مرض إلى أحد إخوانه :

« وصلتَنى — أعزّك الله — مُعتَلا ، وقطعتَنى مُبِلاًّ ، فإن رأيتَ ألاَّ تكدِّر الصحة علىّ ، وتحبِّب العِلّة إلىّ ، فعلتَ » . (مفتاح الأفكار ٣٧٣)

---

(١) ألطفه بكذا: أتحفه وبره به .

(٢) رب النعمة كنصر : حفظها وراعاها ورباها كما يربى الرجل ولده .

(٣) أبل من مرضه : صح .

٢٨٤ - كتاب الراضى إلى المتقى

وكتب الراضى إلى أخيه المتَّقِى[١] — وكان قد جرى بينهما كلام بحضرة المؤدِّب ، وكان المتقى قد اعتدى على الراضى — :

« أنا معترف لك بالعُبُودية فرضاً ، وأنت معترف لى بالأُخُوَّة فَضْلا ، والعبدُ يُذْنب ، والمولى يعفو ويغفر ، وقد قال الشاعر :

ياذا الذى يغضَبُ فى غيرِ شئٍ أَعْتِبْ فعُتْباك حبيبٌ إلىّ[٢]
أنت (على أنك لى ظـــالِمٌ) أعـــزُّ خلقِ الله طرًّا علىّ

فمضى إليه المتقى راضياً ، وأكبَّ عليه باكيا . (غرر الخصائص الواضحة ص ٢٨٣)

---

(١) هو أبو إسحق إبراهيم بن المقتدر ، ولى الخلافة بعد أخيه الراضى من سنة ٣٢٩ إلى سنة ٣٣٣ .
(٢) أعتبه : أعطاه العتبى ، وهى الرضا .

التوقيعات
فى العصر العباسى الأول

السفاح

كتب إلى السفّاح جماعة من أهل الأنبار[١] يذكرون أن منازلهم أُخِذَت منهم ، وأُدْخِلَت فى البناء الذى أمر به ، ولم يُعْطَوا أثمانَها ، فوقّع :

« هذا بناء أُسِّسَ على غيرِ تقْوى » .

ثم أمر بدفع قِيَمِ منازلهم إليهم .

ووقّع فى كتاب أبى جعفر ، وهو يحارب ابن هُبَيْرة بواسط[٢] :

« إنّ حِلْمَك أفسد علمَك ، وتَرَاخِيَك أثَّر فى طاعتك ، فخُذْ لى منك ، ولك من نفسك » .

ووقّع إليه فى ابن هُبَيرة بعد أن راجعه فيه غيرَ مرَّة : « لستُ منك ولستَ منى إن لم تقتُلْه[٣] » .

وجاء كتاب من أبى مُسْلِم يستأذنه فى الحج وفى زيارته ، فوقّع إليه :

« لا أَحُول بينك وبين زيارة بيت الله الحرام وخليفته ، وإذْنُك لك » .

ووقع فى كتاب جماعةٍ من بِطانته يَشْكون احتباسَ أرزاقهم :

« مَن صَبَر فى الشِّدة ، شُورِكَ فى النعمة » .

ثم أمر بأرزاقهم .

---

(١) الأنبار : مدينة على الفرات فى غربى بغداد ، وكان أول من عمرها سابور بن هرمز ذو الأكتاف ملك الفرس ، ثم جددها أبو العباس السفاح ، وبنى بها قصورا ، وأقام بها إلى أن مات .

(٢) انظر ص ١٠ من الجزء الثالث .

(٣) انظر ص ١٣ من الجزء الثالث .

ووقع إلى عامل تظلّم منه : « وَمَا كُنْتُ مُتَّخِذَ الْمُضِلِّينَ عَضُداً » .

وفى قوم شكوا غرق[1] ضياعهم فى ناحية الكوفة :

« وَقِيلَ بُعْدًا لِلْقَوْمِ الظَّالِمِينَ » .

ووقع إلى أبى سلمة الخلال[2] ، وقد كتب إليه يستأذنه فى تولية قوم من الحاشية والشيعة :

« يا أبا سلمة ، ما أقبح بنا أن تكون لنا الدنيا ، وأولياؤنا خالون من حسن آثارنا » !

ووقع إلى ساعٍ : « تقرّبت إلينا بما باعدك عن الله ، ولا ثواب لمن خالف الله » .

ووقع إلى أخيه فى بعض الجناة : « إذا كان الحلم مفسدة ، كان العفو معجزة » .

المنصور

ووقع المنصور فى كتابه إلى عبد الله بن على عمه[3] :

« لا تجعل للأيام فىّ وفيك نصيباً من حوادثها » .

ووقع إليه أيضا :

« ادْفَعْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ فَإِذَا الَّذِي بَيْنَكَ وَبَيْنَهُ عَدَاوَةٌ كَأَنَّهُ وَلِيٌّ حَمِيمٌ ، وَمَا يُلَقَّاهَا إِلَّا الَّذِينَ صَبَرُوا وَمَا يُلَقَّاهَا إِلَّا ذُو حَظٍّ عَظِيمٍ » فاجعل الحظ لك دونى ، يكن لك كله » .

---

(١) فى الأصل « حرق » وأراه محرفا .

(٢) هو أبو سلمة حفص بن سليمان الخلال ، أول وزير وزر لأول خليفة عباسى، وقد فوض السفاح إليه الأمور ، وسلم إليه الدواوين ، و كان يقال له وزير آل محمد (كما كان يقال لأبى مسلم أمين آل محمد) ثم اتهم بانحرافه عن بنى العباس ، فتنكر له السفاح ، و كتب مع أخيه المنصور إلى أبى مسلم بخراسان، يعلمه بما عزم عليه أبو سلمة من نقل الدولة عنهم ، وبما يتخوف منه ، فبعث أبو مسلم قوما من أهل خراسان قتلوه وقالوا قتله الخوارج — انظر تاريخ الطبرى ٩ : ١٤٠ والفخرى ص ١٣٦ .

(٣) انظر ص ١٨ من الجزء الثالث .

ووقّع إلى عبد الحميد صاحب خُراسان :

« شكوتَ فأشكَيْناك[١] ، وعَتَبْتَ فأعتَبْناك[٢] ، ثم خرجتَ عن العامّة ، فتأهّبْ لفِراق السلامة » .

ووقع إلى أهل الكوفة — وشَكَوا عاملَهم — :

« كما تكونوا يُؤَمَّر عليكم[٣] » .

وإلى قوم تظلَّموا من عاملهم : « لاَ يَنَالُ عَهْدِى الظَّالِمِينَ » .

وفى قصة رجل شكا عَيْلةً[٤] : « سَلِ اللهَ من رِزْقِه » .

وفى قصة رجل سأله أن يبنى بقريةٍ مسجدا : « فإن الصلاة على بُعْدِ ذلك ، أعظمُ لثوابك » .

وفى رواية أخرى :

ورفع رجل من العامَّة إليه رُقعةً فى بناء مسجد فى مَحَلّته ، فوقع :

---

(١) أشكاه : أزال شكايته (وأشكاه أيضا : زاده أذى وشكاية ، ضد) .

(٢) أعتبه : أرضاه .

(٣) أخذه من قوله صلى الله عليه وسلم : « عمالكم كأعمالكم ، وكما تكونوا يولى عليكم » — انظر نهاية الأرب ٣ : ٣ — ذكروا أن بعض النحويين أعمل ما المصدرية حملا على أن المصدرية ، وخرج عليه هذا الحديث ، وقيل : لاحاجة إلى جعل «ما» هنا ناصبة ، بل الفعل بعدها مرفوع ، ونون الرفع محذوفة للتخفيف ، وقد سمع حذفها نثرا ونظما ، جاء فى الحديث : « والذى نفسى محمد بيده لاتدخلوا الجنة حتى تؤمنوا ، ولا تؤمنوا حتى تحابوا » وقال الشاعر :

أبيت أسرى وتبيتى تدلكى ... وجهك بالعنبر والمسك الذكى

وقيل : الكاف مختصرة من كى ، فهى الناصبة وما زائدة .

(انظر حاشية الصبان ٣ : ١٨٧ باب إعراب الفعل ، وحاشية الخضرى على ابن عقيل ٧ : ١٠٠) وجاء فى حاشية يس على التصريح ٢ : ٢٣٢ : « فى فتاوى الجلال السيوطى : مسألة : هل ورد فى الحديث « كما تكونون يولى عليكم » ؟ الجواب : نعم ، رواه ابن جميع فى معجمه من حديث الحسن ابن أبى بكرة ، وفيها بعد ذلك : أنه سئل عن لفظ حديث « كما تكونوا يولى عليكم » حذفت النون من تكونوا دون ناصب وجازم ، فأجاب : بأن هذا الحديث رواه البيهقى فى شعب الإيمان بلفظ كما تكونوا بلانون ، وقد خرج على ثلاثة أوجه : أحدها أنه على لغة من يحذف النون دون ناصب وجازم ، الثانى : وهو رأى الكوفيين والمبرد أنه منصوب أوردوه شاهداً على مذهبهم أن «ما» تنصب ، الثالث : أنه من تغييرات الرواة » .

(٤) العيلة : الفقر .

« إن من أشراطِ[١] الساعةِ أن تَكثر المساجد ، فزِدْ فى خُطاك يُزَدْ فى أجرك » .

وفى قصة رجل قُطِعَتْ عنه أرزاقه :

« مَا يَفتَحِ اللهُ لِلنّاسِ مِنْ رَحْمَةٍ فَلاَ مُمْسِكَ لَهاَ ، وَمَا يُمْسِكْ فَلاَ مُرْسِلَ لَهُ مِنْ بَعْدِهِ ، وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ » .

وفى قصة رجل شكا الدَّيْنَ :

« إن كان دَيْنك فى مَرْضاةِ الله قضاه » .

وإلى صَرُورةٍ[٢] سأله أن يحجّ :

« وَلِلهِ عَلَى النَّاسِ حِجُّ الْبَيْتِ مَنِ اسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلاً » .

وإلى صاحب مصرَ حين كتب يذكر نُقصان النيل :

« طهِّرْ عسكرَك من الفساد ، يُعطِك النيلُ القِيادَ » .

وإلى عامله على حِمْص — وجاء منه كتاب فيه خطأ — :

« استَبْدِل بكاتبك ، وإلاَّ استُبْدِلَ بك » .

وإلى صاحب أرْمينية :

« إن لى فى قفاكَ عيناً ، وبين عَيْنَيك عَيْناً ، ولهما أربعُ آذان » .

وإلى رجل استوصله[٣] : « لا مانعَ لما أعطاه الله » .

وفى كتاب أتاه من صاحب الهند ، يخبره أن الجند شغَبوا[٤] عليه ، وكسروا أقفال بيت المال ، فأخذوا أرزاقهم منه :

---

(١) أشراط : جمع شرط كسبب ، وهو العلامة ، والساعة: القيامة ، ورواية الطبرى : « من أشراط الساعة كثرة المساجد ، فزد فى خطاك تزدد من الثواب » .

(٢) رجل صرور وصرورة : أى لم يحج .

(٣) أى طلب صلته .

(٤) شغبهم وبهم وعليهم كمنع وفرح : هيج الشر عليهم .

« لو عَدَلْتَ لم يَشْغَبوا ، ولو وفَيْتَ لم ينتهبوا » .

وشكا إليه رجل من بعض عماله ، فوقّع فى قصته إلى العامل :

« ا كفِنِي أمره ، وإلاّ كفيتهُ أمْركَ » .

وكتب سَوّار[1] بن عبد الله القاضى إليه : « إن عندنا رجلا شديد الترفُّض[2] يُدْعَى السيدَ الحِمْيَرِىّ[3] » فوقع فى كتابه :

« إنا بعثناك قاضياً لا ساعِياً » ؛

ووقع فى كتابِ بليغٍ استماحه[4] :

« إن البلاغة والغِنَى إذا اجتمعا فى رجل أطْغَيَاهُ وقد رُزِقْتَ إحداهما، فا كتفِ بها، واقتصِرْ عليها » .

وكتب إليه عبدالله بن زياد بن الحارث رقعة بليغة يستمنحه فيها ، فكتب عليها :

« إن الغنى والبلاغة إذا اجتمعا فى بلد أبطراه ، وأمير المؤمنين مشفق عليك ، فا كتف بالبلاغة[5] » .

---

(١) ولاه المنصور قضاء البصرة منذ سنة ١٣٨ وتوفى سنة ١٥٧ ـ انظر تاريخ الطبرى ج ٩ : ١٧١ حوادث سنة ١٣٨ ومابعدها .

(٢) أى القول بالرفض ، والرافضة : فرقة من الشيعة ، وكان زيد بن على قد بايعه على إمامته خمسة عشر ألف رجل من أهل الكوفة ، وخرج بهم على والى العراق يوسف بن عمر الثقفى عامل هشام بن عبد الملك على العراقين ، فلما استحر القتال بينه وبين يوسف ، قالوا له : إنا ننصرك على أعدائك بعد أن تخبرنا برأيك فى أبى بكر وعمر اللذين ظلما جدك على بن أبى طالب . فقال زيد : إنى لا أقول فيهما إلا خيراً وما سمعت أبى يقول فيهما إلا خيرا ، وإنما خرجت على بنى أمية الذين قتلوا جدى الحسين ، وأغاروا على على المدينة يوم الحرة ، ثم رموا بيت الله بحجر المنجنيق والنار . ففارقوه عند ذلك ، حتى قال لهم : رفضتمونى ، ومن يومئذ سموا رافضة ـ انظر الفرق بين الفرق ص ٢٥ ، ومقدمة ابن خلدون ص ٢١٩ .

(٣) كان السيد الحميري من شيعة محمد بن الحنفية ، وكان يعتقد أن ابن الحنفية لم يمت ، وأنه فى جبل رضوى (جبل بالحجاز) بين أسد ونمر يحفظانه ، وعنده عينان نضاختان تجريان بماء وعسل، ويعود بعد الغيبة فيملأ الأرض عدلا كما ملئت جورا ، انظر الملل والنحل ١ : ١٥٥ .

(٤) استماحه : سأله العطاء .

(٥) كان المنصور يرمى بالبخل ، وكان يلقب أبا الدوانق (والدانق بكسر النون وفتحها والداناق: سدس الدرهم) لقب بذلك لأنه لما بنى بغداد كان ينظر فى العمارة بنفسه ، فيحاسب الصناع والأجراء ، فيقول لهذا : أنت نمت القائلة، ولهذا : أنت لم تبكر الى عملك ، ولهذا : أنت انصرفت لم تكمل اليوم .

ورفع رجل إليه يشكو عامله أنه أخذ حَدًّا من ضَيْعته ، فأضافه إلى ماله ، فوقع إلى عامله فى رُقْعة المتظلِّم :

« إن آثرتَ العدلَ صَحِبتْك السلامةُ ، فأنصِف هذا المتظلِّمَ من هذه الظُّلامة » .

وتظلم رجل من أهل السواد من بعض العمال فى رقعة رفعها إليه ، فوقع فيها :

« إن كنتَ صادقاً فجِئْ به ملبَّباً[1] ، فقد أذِنّا لك فى ذلك » .

المهدى

ووقّع المهدى فى قصة متظلِّمين شكَوا بعضَ عماله :

« لو كان عيسى عامِلَكم قُدْناه إلى الحق ، كما يُقاد الجمل المَخْشُوشُ[1] » .

يريد عيسى ولده .

ووقع إلى صاحب أرمينية — وكتب إليه يشكو سوء طاعة رعاياه — :

« خُذِ العَفْوَ وَأْمُرْ بِالعُرْفِ وَأَعْرِضْ عَنِ الجَاهِلِينَ » .

وإلى صاحب خراسان فى أمر جاءه : « أنا ساهِرٌ وأنت نائمٌ » .

وفى قصة قوم أصابهم قَحْطٌ :

« يقدَّر لهم قوتُ سَنَةِ القَحْطِ والسَّنَةِ التى تَلِيها » .

وإلى شاعر[2] : « أسرفْتَ فى مديحك ، فقصَّرْنا فى حِبائك[3] » .

---

(١) لبب الرجل : جعل ثيابه فى عنقه وصدره فى الخصومة ثم قبضه وجره ، ويقال أيضا . أخذ بتلبيبه وتلابيبه : إذا جمع عليه ثوبه الذى هو لابسه عند نحره وصدره وقبض عليه يجره .

فيعطى كل واحد منهم بحسب ماعمل فى يومه ، فلا يكاد يعطى أجرة يوم كامل — اقرأ حكايات بخله فى غرر الخصائص الواضحة ص٢٩٢ .

(٢) الخشاش ككتاب : مايدخل فى عظم أنف البعير من خشب لينقاد ، وخششت البعير : جعلت فى أنفه الخشاش .

(٣) قال صاحب العقد الفريد : « أظنه مروان بن أبى حفصة » وهو شاعر عباسى مشهور .

(٤) الحباء : العطاء .

وفى قصة رجل من الغارمين[١] :

« خذ من بيت مال المسلمين ما يُقضَى به دَيْنُك ، وتَقَرُّ به عينُك » .

وفى قصة رجل شكا الحاجة :

« أتاك الغوثُ » .

وإلى رجل من بطانته استوصَلَ :

« ليت إسراعَنا إليك يقومُ بإبطائنا عنك[٢] » .

وفى قصة قوم تظلموا من عاملهم، وسألوا إشخاصه إلى بابه :

« قد أنْصَفَ القارَةَ مَن رَاماها[٣] » .

« وفى قصة رجل حُبِس فى دمٍ :

« وَلَكُمْ فِي الْقِصَاصِ حَيَاةٌ يَا أُولِي الْأَلْبَابِ[٤] » .

وإلى صاحب خراسان ـ وكتب إليه يُخبره بغَلاء الأسعار ـ :

« خذهم بالعَدْل فى المِكيالِ والميزان » .

وإلى يوسف الرومى حين ظُفِر[٥] به بخراسان :

« إلك أمانِى ، ومؤكَّدُ أَيْمانى » .

---

(١) الغارمون : هم المدينون فى غير معصية ومن غير إسراف إذا لم يكن لهم وفاء ، وهم ممن تصرف لهم الزكاة كما جاء فى القرآن الكريم .

(٢) ويروى أن هذا القول قاله عتبة بن أبى سفيان لأعرابى استماحه فى موسم الحج سنة ٤١ — انظر جمهرة خطب العرب ٢ : ٢١١ .

(٣) هو مثل ، والقارة : قبيلة ، وهم قوم رماة ، ويزعمون أن رجلين التقيا ، أحدهما قارى، فقال القارى : إن شئت صارعتك ، وإن شئت سابقتك ، وإن شئت راميتك، فقال الآخر : قد اخترت المراماة، فقال القارى : قد أنصفتنى ، وأنشأ يقول :

قد أنصف القارة من راماها   إنا إذا ما فئة نلقاها

* نرد أولاها على أخراها *

ثم انتزع له بسهم فشك به فؤاده .

(٤) وفى خاص الخاص أن هذا التوقيع ليحيى بن خالد البرمكى .

(٥) فى الأصل « حين ظفر بخراسان » وأراه محرفا كما يدل عليه معنى التوقيع .

وكتب إليه سَلْمُ[1] بن قُتَيْبة يسأله أن يُشرِّفه بالإذن له فى تقبيل يده ، فوقَّع إليه :

« يا أبا قُتَيْبة ، إنا نَصُونك عنها ، ونَصُونها من غيرك » .

الهادى

وكتب موسى الهادى إلى الحسن بن قَحْطَبة فى أمر راجَعَه فيه :

« قد أنكرْناك منذُ لزِمْتَ أبا حنيفة ، كفاناه اللهُ » .

وإلى صاحب إفريقيةَ فى أمر فَرَط منه :

« يابن اللَّخْناءِ[2] أنَّى تتمرَّس ؟ » .

هرون الرشيد

ووقع هرون الرشيد إلى صاحب خُراسان :

« دَاوِ جُرْحَك لا يتَّسِع » .

وإلى عامله على مصر :

« احذَرْ أن تُخرِّبَ خِزانَتِى[3] وخِزانةَ أخى يوسف ، فيأتِيَك منه مالا قِبَل لك به ، ومِنَ الله أكثرُ منه » .

ووقع فى قصة البرامكة :

« أنبتَتْهم الطاعةُ ، وحَصَدَتْهُمُ المعصيةُ » .

---

(١) هو سلم بن قتيبة الباهلى ، وكان والى البصرة فى عهد المنصور ـ انظر تاريخ الطبرى ٩ : ٢٦٠ حوادث سنة ١٤٥ .

(٢) اللخن بالتحريك : قبح ريح الفرج ، وامرأة لخناء ويقال اللخناء : التى لم تختن ، وهى من شتم العرب ، كأنهم يقولون : يادنىء الأصل ، أو يالئيم الأم ، وتمرس بالشىء : احتك به .

(٣) يشير إلى قوله تعالى حكاية عن يوسف عليه السلام حين قال لملك مصر :

« قَالَ اجْعَلْنِي عَلَى خَزَائِنِ الأَرْضِ إِنِّى حَفِيظٌ عَلِيمٌ » .

وإلى عامله على فارس :

« كن منّى على مثل ليلة البَيَاتِ[1] » .

وإلى عامل خراسان :

« إن الملوك يُؤْثَر منها الحظُّ » .

وإلى خُزيمة بن خازم[2] إذ كتب إليه أنه وَضَع السيف حين دخل أرض أرمينية :

« لا أُمَّ لك[3] ، تقتُلُ بالذنب مَن لاذَنْبَ له ؟ » .

وفى قصة محبوس : « مَن لجأ إلى الله نجا » .

وفى قصة متظلم : « لا يُجاوَز بك العدلُ ، ولا يُقَصَّر بك دون الإنصاف » .

وإلى صاحب السِّند إذ ظهرت العصبية[4] :

« كل من دعا إلى الجاهلية ، تَعَجَّلَ إلى المنيَّة » .

وفى رواية أخرى : وكتب إليه صاحب السِّند بظهور العَصَبية ، فوقع :

« من أظهر العَصَبيَّة فعاجِلْه بالمنيَّة » .

وإلى عامله على خراسان :

« كل مَن رفَعَ رأسه فأزِلْه عن بدنه » .

وفى رقعةِ متظلمٍ مِن عامله على الأهواز ـ وكان بالمُتظلِّم عارفا ـ :

« قد ولَّيناك موضعه . فتنكَّبْ[5] سيرته » .

---

(١) بيت العدو : أوقع بهم ليلا ، والاسم البيات .

(٢) وله خبر فى فتنة الأمين ـ انظر تاريخ الطبرى ١٠ : ١٩٢ .

(٣) لاأم لك : شتم وسب ، معناه .ليس لك أم حرة ـ وذلك أن بنى الإماء عندالعرب مذمومون ليسوا بمرضيين ولالاحقين ببنى الحرائر ـ وقيل معناه : أنت لقيط لاتعرف لك أم ، ولايقول الرجل لصاحبه لا أم لك إلا فى غضبه عليه مقصرا به شاتما له (وربما وضع موضع المدح ، بمعنى التعجب منه)

(٤) فى الأصل « العصية » وهو تحريف ـ انظر مابعده .

(٥) أى اعدل عنها .

وفى كتاب بَكّار الزُّبَيْرى إليه يخبره بسرّ من أسرار الطالبيِّين :

« جزى الله الفضلَ[1] خيرَ الجزاء فى اختياره إياك ، وقد أثابك أمير المؤمنين مائةَ ألف بحُسْنِ نيتك » .

وإلى محفوظ صاحب خراج مصر :

« يا محفوظ ، اجعل فَرْع[2] مصر فَرْعا واحدا وأنت أنت » .

وإلى صاحب المدينة :

« ضع رجليك على رِقاب أهل هذا البطن[3] ، فإنهم قد أطالوا ليلى بالسُّهاد ، وَنَفَوا عن عينى لذيذَ الرُّقاد » .

ووقع إلى السِّنْدِى[4] بن شاهَكَ :

« خَفِ اللهَ وإمامَكَ ، فهما نجاتُك » .

وإلى سليمان بن أبى جعفر فى كتابٍ وَرَدَ عليه منه يَذْكُر وُثوب أهل دمشق :

« استَحَيْتُ لشيخٍ وَلَدَه المنصورُ أن يَهْرُب عمّن وَلَده كِنْدَةُ وطَيِّئٌ ، فهلَّا نابذتَهم بوجهك ، وأبدَيْتَ لهم صَفْحَتَك[5] ، وبذلْتَ لهم مِنْحتَك ، وكنت كمَرْوان[6] ابن عمِّك ؟ إذ خرج مُصْلِتا[7] لسيفه ، متمثِّلا ببيت الحجَّاف ابن حكيم :

---

(١) يعنى الفضل بن يحيى البرمكى .

(٢) فى الأصل العقد الفريد « اجعل فرح مصر فرحا واحدا » وهو تحريف ، وأرى أن صوابه « اجعل فرع مصر فرعا واحدا » والفرع : المال الطائل المعد ، أو صوابه « اجعل خراج مصر خراجا واحدا » والمعنى . ابعث بخراج مصر دفعة واحدة ، وأنت قارّ فى مكانك دون أن تحضر برفقته .

(٣) البطن من الأرض : المطمئن .

(٤) كان صاحب الحرس ، وله خبر فى فتنة الأمين أيضا — انظر تاريخ الطبرى ١٠ : ١٩٧ .

(٥) أبدى لهم صفحته : جاهرهم بالعداوة .

(٦) يعنى مروان بن محمد الجعدى آخر خلفاء بنى أمية .

(٧) أصلت السيف . سله وجرده .

متقلدين صفائحاً هندية يتركن من ضربوا كأن لم يولد[١]

فجالد به حتى قُتِل ، إما بِدْعةً ، وإمّا خَلّةً ، أشد هِراشاً[٢] ، وأخشن مِراسا ، ولولا أن يقال . . . لقلت رَحِمه الله ، لله أمٌّ تندُبه ، وأبٌ أنهضه ! » .

وكتب متملك الروم إلى هرون الرشيد : « إنى متوجِّه نحوك بكل صليب فى مملكتى ، وكلِّ بطَل فى جندى » فوقع فى كتابه :

« سيَعْلَمُ الكافِرُ لِمَنْ عُقْبَى الدّارِ[٣] » .

وكتب إليه نقفور ملك الروم يتهدده ، فوقع فى كتابه : « الجواب ما تراه لا ما تقرؤه[٤] » .

ووقع إلى صاحب النصرانية بالروم : إنا بالأثر ، وعلى الله الظَّفَر » .

وكتب إليه يحيى بن خالد من الحبس حين أحس بالموت : « قد تقدَّم الخَصْمُ إلى موقف الفصْل ، وأنت بالأثرِ ، والله الحَكَمُ العدْل ، وستَقْدَم فتعْلَم » . فوقع فيه الرشيد :

« الحَكَمُ الذى رضيتَه فى الآخرة هو أعْدَى الخصومِ عليك ، وهو من لا يُرَدُّ حُكمه ، ولا يُصْرَف قضاؤه[٥] .

ووقع إلى على بن عيسى بن هامان ، وقد كتب إليه بقتل العُمَرُكِىّ[٦] :

« بُعْدًا لِلْقَوْمِ الظّالِمِينَ » .

---

(١) الصفائح : السيوف العريضة ، والهندية : المطبوعة بالهند .
(٢) الخلة . الخصلة ، وهراشا : أى تقاتلا .
(٣) انظر ص ٢٧٦ من الجزء الثالث .
(٤) انظر ص ٢٧٦ من الجزء الثالث .
(٥) انظر ص ١٩٤ من الجزء الثالث .
(٦) نسبة إلى عمرك منحوتا من عمر كسكر (كما قالوا حضرمى فى النسب إلى حضرموت) وكسكر كجعفر : كورة واسعة كانت قصبتها واسط التى بين البصرة والكوفة ، والعمر بالضم: الدير النصارى ، وهذا العمر فى شرق واسط ، يحيط به بساتين نخيل بينه وبين دجلة .

المأمون

ووقع المأمون فى قصة متظلمٍ من على[1] بن هشام :

« يا أبا الحسين ، الشريفُ[2] من يظلم مَنْ فوقه ، ويظلِمُه مَن دونه ، فانظر أىُّ الرجلين أنت ؟ » .

وإلى هشام : « لا أُذْنِيك ولك ببابى خَصْم » .

وإلى الرُّسْتُمِىّ وقد تظلَّمَ منه غَرِيمٌ[3] له :

« ليس من المروءة أن تكون أوانيك من الذهب والفضة ، وجارُكَ طاوٍ[4] ، وغريمُك عاوٍ » .

وفى قصة متظلم من عمرو بن مَسْعَدة :

« يا عمرو ، عمِّرْ نعمتك بالعدل ، فإن الجَوْر يهدِمها » .

وفى قصة متظلم من أبى عبَّاد :

« يا ثابت ، ليس بين الحقِّ والباطل قرابةٌ » .

وفى قصة متظلم من أبى عيسى أخيه :

« فَإِذَا نُفِـخَ فِى الصُّورِ فَلاَ أَنْسَابَ بَيْنَهُمْ يَوْمَئِذٍ وَلاَ يَتَسَاءلُونَ » .

وفى قصة متظلم من حُمَيْد الطُّوسىّ :

« يا أبا غَنْم ، لا تغترَّ بموضعك من إمامك ، فإنك وأخسُّ عبيده فى الحق سيَّان » .

وفى رواية أخرى : « يا أبا حامد ، لا تتَّكِلْ على حسن رأيى فيك ، فإنك وأحد رعيتى عندى فى الحق سواء » .

---

(١) انظر ص ٤٤٤ من الجزء الثالث .

(٢) وفى رواية العقد : « من علامة الشريف أن يظلم . . . » .

(٣) الغريم : الدائن .

(٤) أى جائع ، من الطوى : وهو الجوع ، وفى رواية العقد : « وغريمك خاو » .

وإلى طاهر[1] صاحب خراسان :

« احْمَد ، أبا الطيب ، إذا أحلَّك خليفة مَحَلّ نفسه من نفسه ، فما لكَ موضعٌ تَسْمُو إليه نفسُك إلا وأنت فوقه عنده » .

وفى كتاب بشر بن داود[2] :

« هذَا أمانٌ عاقدتُ الله فى مناجاتِى إياه » .

وفى كتاب قُثَم بن جعفر فى فَدَك حين أمره بردِّها[3] :

« قد أرضيتَ خليفةَ الله فى فَدَك ، كما أرضى الله خليفته فيها » .

وفى قصة متظلم من محمد بن الفضل الطُّوسى :

« قد احتملْنا بَذاءك[4] وشَكاسَةَ خُلُقك ، فأمَّا ظُلْمُك الرَّعية فإنا لا نحتمله » .

ووقع إلى بعض عماله :

« طالِعْ كلَّ ناحية من نواحيك ، وقَاصِيَةٍ من أقاصيك ، بما فيه استصلاحُها » .

وكتب إليه إبراهيم بن المهدى فى كلام له : « إن غَفَرتَ فبِفَضْلك ، وإن أخذتَ فبِحقِّك » فوقع فى كتابه :

« القُدرةُ تُذْهِب الحَفيظة[5] ، والنَّدَم جُزء من التوبة ، وبينهما عفْوُ الله » .

ووقَّع فى رُقعة مَوْلًى طلب كِسْوة :

« لو أردتَ الكسوة ، لَزِمْتَ الخِدْمة ، ولكنك آثرتَ الرُّقاد ، فحظُّك الرؤيا » .

---

(١) هو طاهر بن الحسين ، وكنيته أبو الطيب .

(٢) انظر تاريخ الطبرى ١٠ : ٢٨١ .

(٣) انظر ص ٤٢٦ من الجزء الثالث وفى الأصل « إبراهيم بن جعفر » وصوابه « قثم بن جعفر » .

(٤) البذاء والبذاءة : السفه والفحش فى المنطق ، وقد بذؤ ويثلث فهو بذى ، وشكس كَكَرُم فهو شكس كصعب وكتف ورجل (بفتح فضم) أى صعب الخلق .

(٥) الحفيظة : الغضب ، ويروى أن قول ابن المهدى ورد المأمون عليه كان مشافهة لا مكاتبة — انظر جمهرة خطب العرب ٣ : ١٢٦ .

ووقع في يوم عاشوراء لبعض أصحابه — وقد وافته الأموالُ — :

« يُؤْمَر له بخمسمائة ألفٍ لطول هِمَّته ، ولثُمَامَة بن أَشْرَس بثلثمائة ألف لتركه مالا يَعْنيه ولأبي محمد اليَزِيدي يؤمر له بخمسمائة ألف لِكِبَرِه ، وللمُعَلَّى بخمسمائة ألف لصحيح سُنَّته[1] ، ولإسحق بن إبراهيم بخمسمائة ألف لصِدْق لهجته ، وللعباس بخمسمائة ألف لفصاحة منطقه ، ولأحمد[2] بن أبي خالد بألف ألف لمخالفته شهوتَه ، ولإبراهيم ابن بُوَيه كذلك لسرعة دَمْعَته ، وللرَبِيعيّ بثلثمائة ألف لإسباغ وضوئه[3] ، ولعبد الله بن بِشر بمثلها لحسن وجهه » .

ووقع إلى الواقديّ وقد كتب يذكُر دَيْنا عليه ويستمنح :

« فيك خَصْلتان : سَخاء وحَياء ؛ أمّا السخاءُ فهو الذى أطلق يدك فيما مَلَكْتَ ، وأما الحياء فهو الذى حَمَلك على أن ذَكرتَ بعض دَيْنك دُونَ كلِّه ، وقد أمرتُ لك بضِعف ما كتبتَ ، فزِدْ في بَسْطِ يدك ، فإن خزائن الله مفتوحة ، ويَدَه بالخير مبسوطة » .

ووقع إلى عامل شكاه أهل عمله :

« إن آثرتَ العدلَ حصَلْتَ على السلامة ، فأنصِفْ رعيتك من هذه الظُّلامَة » .

ووقع إلى نصر بن سيّار[4] :

---

(١) في الأصل « سنه » وأراه محرفا .

(٢) أحد وزراء المأمون — انظر خبره في الفخرى ص ٢٠٥ .

(٣) أسبغ الوضوء : أبلغه مواضعه ووفى كل عضو حقه .

(٤) كذا جاء في خاص الخاص ، وهو خطأ ، فإن نصر بن سيار مات في ساوة بالقرب من همذان سنة ١٣١ — انظر وفيات الأعيان ١ : ٢٨٢ في خلال ترجمة أبي مسلم ، وتاريخ الطبرى ٩ : ١١٢ — وقد لمحنا لك في ص ٢٨٢ من الجزء الثالث أن رافع بن الليث بن نصر بن سيار خرج على الرشيد بسمرقند وخلعه سنة ١٩٠ ، فالظاهر أن الذى كتب إليه المأمون هذا التوقيع هو ابن رافع هذا .

« يا أبا رافع ، إِنِّى رَافِعُكَ إِلَىَّ وَمُطَهِّرُكَ مِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا[1] » .

ورَفع إليه أهل السَّواد قصة فى إتيان الجراد على غلَّاتهم ، فوقع فيها :

« نحن أولَى بضِيافة الجراد ، من أهل السواد ، فليُحَطَّ عنهم نصفُ الخَرَاج » .

وكتب إليه عبد الله بن طاهر يشكو إليه بُعْده عن حَضْرته ، ويسأله الإذن له فى الإلمام[2] بها ، فوقع فى كتابه :

« قُرْبك يا أبا العباس إلىَّ حبيبٌ ، وأنت من قلبى حيثُ كنت قريبٌ ، وإنما بَعُدتْ دارك ، نظَرا بك ، ورغبةً إليك ، مع قول الشاعر :

« رأيتُ دُنُوَّ الدار ليس بنافع   إذا كان ما بين القلوب بعيدُ »

ولما مات عمرو بن مَسْعَدة رُفِعت إلى المأمون رُقعة أنه خلَّف ثمانين ألفَ ألفِ درهم ، فوقَّع فى ظهرها :

« هذا قليل لمن اتصل بنا ، وطالت خدمتُه لنا ، فبارك الله لولده فيما خَلَّف ، وأحسن لهم النظرَ فيما تَرَكَ » .

الواثق

وكتب محمد بن حَماد يعرّض فى حاجة له ببيتى شعر إلى الواثق يقول :

جذبتُ دواعى النَّفس عن طلب الْمُنَى   وقلتُ لها كُفِّى عن الطلب الْمُزْرِى

فإن أمير المؤمنين بكفّه   مدارُ رحًى بالرزق دائبة تجرى

فوقع تحتهما : « جذبُك نفسَك عن امتهانها بالمسألة دعانى إلى صَونك بِسَعَة فضلى عليك ، فخذ ما طلبتَ هَنِيا » .

---

(١) اقتباس من الآية الكريمة : « إِذْ قَالَ اللهُ يَا عِيسَى إِنِّى مُتَوَفِّيكَ وَرَافِعُكَ إِلَىَّ وَمُطَهِّرُكَ مِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا » .   (٢) ألم به : نزل .

أبو مسلم الخراسانى

ووقع أبو مسلم الخراسانى فى كتاب سليمان[(١)] بن كُثَيِّر الخزاعى :

« لِكُلِّ نَبَإٍ مُسْتَقَرٌّ وَسَوْفَ تَعْلَمُونَ » .

وإلى أبى العباس فى يزيد بن عمر بن هُبَيرة :

« قلَّ طريقٌ سَهلٌ تُلقَى فيه الحجارةُ إلا عاد وَعْرا ، والله لايَصْلُحُ طريق فيه ابنُ هبيرة أبدا[(٢)] » .

وإلى محمد بن صُول ــ وكتب إليه بسلامة أطرافه ــ :

« وَأَمَّا بِنِعْمَةِ رَبِّكَ فَحَدِّثْ »

وإلى عامله ببَلْخ : « لاتؤخرْ عمل يوم لغد » .

وإلى أبى سَلَمة الخلّال حين أنكر نيته :

« وَإِذَا لَقُوا الَّذِينَ آمَنُوا قَالُوا آمَنَّا آمَنَّا ، وَإِذَا خَلَوْا إِلَى شَيَاطِينِهِمْ قَالُوا إِنَّا مَعَكُمْ » .

عمرو بن عبيد

وكتب أبو جعفر المنصور إلى عمرو[(٣)] بن عُبَيد .

« أبا عثمان ، أعِنّى بأصحابك، فإنهم أهل العدل،وأصحاب الصدق ، والمُؤْثِرُونَ له »

فوقع فى كتابه : « ارفع عَلَمَ الحق يَتْبَعْكَ أهلُه » .

---

(١) أحد دعاة العباسيين ــ انظر الجزء الثانى وبعد أن تم الأمر للسفاح اتهم أبو مسلم سليمان بن كثير فقتله ــ انظر تاريخ الطبرى ٩ : ١٤٢ .

(٢) انظر ص ٣ من الجزء الثالث .

(٣) هو أحد أئمة المعتزلة ، وكانت أخته زوجة واصل بن عطاء ، توفى سنة ١٤٤ ، انظر ترجمته فى وفيات الأعيان ١ : ٣٨٤ والمنية والأمل ص ٢٢ .

أبو عبيد الله

وكتب إلى أبي عُبَيْدِ الله كاتب المهدى رجل يعتذر ولا يُحْسِن ، فوقّع في كتابه :

« ما رأيتُ عُذْرا أشبهَ باستئنافِ ذنبٍ من هذا » .

الفيض بن أبي صالح

ووقع الفَيْض[١] بن أبي صالح في رُقعة معتذر تائبٍ :

« التوبة للمُذْنِب كالدواء للمريض ، فإن نَصَحَتْ[٢] توبتُه ، أتمّ الله شفاءهُ ، وإن تكن الأخرى أدام الله داءه » .

يحيى بن خالد البرمكى

ووقع يحيي بن خالد البَرْمكى في جواب رُقعةٍ لابنه الفضل « ما أهونَ التدبيرَ بالوصف » .

وفي رقعة متظلّمٍ ليَعْرِض التوقيع على من شكاه : « أنصِفْ مَن وَلِيتَ أَمْرَه ، وإلّا أنْصَفَه منك مَن يَلِي أمْرَكَ[٣] » .

وإلى رجل استبطأه واستزاره : « أجْنَحُ إليك بغالِبِ الفضل ، وأعتَذِر إليك بصادق النيَّة » .

---

(١) وزر للمهدى ، وتوفى سنة ١٧٣ ـ انظر ترجمته في الفخرى ص ١٦٩ .
(٢) أى خلصت .
(٣) ويعزى هذا التوقيع إلى ابنه جعفر .

جعفر بن يحيى البرمكى

ووقّع جعفر بن يحيى البرمكى فى قصة محبوس التمس الإطلاقَ : « لِـكُلِّ أَجَلٍ كِتَابٌ »[٤] .

ووقّع فى مثله : « العدلُ أوقَعَه ، والتوبة تُطْلِقه » .

وفى قصة مُتَنَصِّح[١] : « بعضُ الصدق قبيح » .

وأ كثرَ الناسُ شـكِيَّةَ عامل فوقع إليه فى قصتهم :

« يا هذا ، قد كَثُرَ شاكُوكَ ، وقلّ شاكروكَ ، فإمَّا اعتدلتَ ، وإما اعتَزَلْتَ »[٢] .

وفى قصة رجل شكا بعض خَدَمِه :

« خذ بأُذْنِه ورأسه ، فهو مَالُكَ »

وإلى عامل فارس فى رَجل كتب إليه بالوَصاة :

« كن له كأبيه ولو كان مكانك »

وإلى عامل مصر فى رجل من بِطانته يوصيه :

« إنه رَغِبَ إلى شِعْبِكَ[٣] ، فارغب فى اصطناعه »

وفى قصة متظلِّم من بعض عماله : « إنى ظلمتُكَ دونَه » .

وفى قصة محبوس : « الجناية حبَسَتْه ، والتوبةُ تُطْلِقه » .

---

(١) وفى خاص الخاص أن هذا التوقيع لأبيه يحيى بن خالد .

(٢) تنصح : تشبه بالناصح .

(٣) وفى رواية الـكامل للمبرد : « وقل حامدوك ، فإما عدلت . . . » وفى نهاية الأرب : « و كتب محمد إلى يحيى بن هرمة — وكان عامله على أصفهان — وقد تظلم منه أهلها : « يايحيى . . . » ولا ندرى من محمد المذكور ، إذ لم يرد بعده مايبينه » وجاء فى شرح نهاية الأرب عن يحيى بن هرمة : (كذا فى الأصل ، ولم نقف على هذا الإسم فيمن تولى عمل أصفهان ، ولعل صوابه « هرثمة ») .

(٤) الشِّعْب بالـكسر : ما انفرج بين جبلين ، يعنى به وادى النيل .

وإلى قوم : « عينُ الخليفة تَكْلَؤُكم[(١)] ، ونَظَرُه يعمُّكم » .

وفي رقعة صَرُورةٍ استأذنه في الحج : « من سافَرَ إلى الله أنْجَحَ »[(٢)]

وفي قصة رجل شكا عُزْبة[(٣)] : « الصوم لك وِجَاء »[(٤)].

وفي رقعة رجل سأل ولاية : « لا أُوَلِّي بعضَ الظالمين بعضا » .

وفي قصة رجل سأل أن يُقْفِلَ[(٥)] ابنَه ، فقد طالت غَيْبَتُه عنه :

« غيبةُ يوسف صلى الله عليه وسلم كانت أطول » .

وفي قصة رجل تظلم من أحد عماله : « إِنَّ[(٦)] لِئَلَّه حتى يُنصفَك » .

وفي قصة قوم شكوا سُوء جِوار بعض قرابته : « يَرْحَل عنكم » .

وفي قصة مستمنِح كان قد وصَلَه مِراراً :

« دَعِ الضَّرْعَ يَدِرُّ لغيرك كما درَّ لك »[(٧)]

وإلى الفضل بن الربيع ، وجاء منه كتاب غَمَّه وأَكْرَبَه :

« كثرة مُلاحاة[(٨)] الرجال ، ربَّما أراقت الدماء »

وإلى منصور بن زياد في أمر عاتبه فيه : « لم نَزْرَعْك لتَحصُدَك » .

وإلى بعض عماله : « اجعل وسيلتَك إلينا ما يَزِيدك عندنا » .

وكتب إليه رجل يستبطئه ، فوقع في ظهر كتابه :

---

(١) أي تحرسكم .

(٢) أنجح : صار ذا نجح .

(٣) العزبة : العزوبة .

(٤) أخذه من قوله صلى الله عليه وسلم : « يامعشر الشباب من استطاع الباءة فليتزوج ، فإنه أغض للبصر ، وأحصن للفرج ، ومن لم يستطع فعليه بالصوم فإنه له وجاء » والباءة النكاح ، ووجأ التيس وجئا ووجاء : إذا دق عروق خصيته بين حجرين من غير أن يخرجهما ، أي أن الصوم يقطع الشهوة للنكاح كما يقطعها الوجاء ، إذ أن الموجوء لايضرب .

(٥) أقفل الجند : ردهم من الغزو إلى وطنهم .

(٦) أي بث شكواك وتوجع ، أمر من أن يئن : أي تأوه من الوجع .

(٧) وفي خاص الخاص أن هذا التوقيع لأبيه يحيى .

(٨) الملاحاة : المنازعة ، وفي العقد « ملاحاة الدما » وأراه محرفا .

« أحتجُّ عليك بغالِب القضاء ، وأعتذِرُ إليك بصادق النِّيّة »(١) .

وإلى بعض نُدمائه : لا تُبْعِد مَن ضَمَّك » .

ووقَّع إلى متنصِّل من ذنب : « حُكْمُ الفَلَتَاتِ خِلَافُ حكم الإصرار » .

وكُتِب إليه أنّ صاحب الطريق قد اشتطَّ فيما يطلب من الأموال فوقَّع : « هذا رجل منقطِعٌ عن السلطان ، وبين ذُؤْبانِ(٢) العرب ، بحيثُ العَدَدُ والعُدَّة ، والقلوبُ القاسيةُ ، والأنوفُ الحميَّةُ ، فَلْيُمْدَدْ من المال بما يَستصلِحُ به مَنْ معه ، لِيَدْفَعَ به عدوَّه ، فإن نفقات الحروب يُسْتَظْهَرُ لها ، ولا يُستظْهَرُ عليها » .

ووقَّع في رقعة معتذِرٍ من ذَنْب :

« قد تقدَّمَتْ طاعتُك ، وسبقَتْ(٣) نصيحتُك ، فإن بَدَرَتْ منك هَنوةٌ فلن تغلِبَ سيئةٌ حَسَنتين » .

ووقَّع — وقد قرأ كتابا فاستحسن خطَّه — :

« الخطُّ خيطُ الحِكمة ، يُنْظَم فيه منثورُها ، ويفصَّلُ فيه شُذُورُها(٤) » .

ووقَّع : « الخَراج عمودُ المُلْك ، وما استغْزِر(٥) بمثل العدل ، وما استُنْزِر بمثل الجَور » .

وكتب عَمْرُو بن مَسْعَدة إلى ضَمْرَة الحَرُورِيّ(٦) كتابا ، فنظر فيه جعفر بن يحيى فوقع في ظهره :

---

(١) انظر ص ٣٨٣ .

(٢) ذؤبان العرب : لصوصهم وصعاليكهم .

(٣) وفي زهر الآداب « وظهرت » .

(٤) الشذر (بالفتح) : قطع من الذهب ، خرز يفصل بها النظم ، أو هو اللؤلؤ الصغار ، واحدته شذرة .

(٥) استغزر : كثر ، واستنزر : قلّ .

(٦) كان الخوارج يسمون « الحرورية » نسبة إلى حروراء ، وهي قرية بظاهر الكوفة نزلوها حين اعتزلوا عليا بعد رجوعه من صفين .

« إذا كان الإكثار أبلغَ كان الإيجاز مقصِّرا ، وإذا كان الإيجاز كافيا كان الإكثار عِيًّا » .

ويروى أن جعفر بن يحيى قال لكُتّابه : « إن قدَرتم أن تجعلوا كُتُبكم كلها توقيعاتٍ فافعلوا[1] » .

وقال ابن خلدون فى مقدمته[2] : « وقد كان جعفر بن يحيى يوقِّع فى القصص بين يدى الرشيد ، ويرمى بالقصة إلى صاحبها ، فكانت توقيعاته يتنافس البلغاء فى تحصيلها، للوقوف فيها على أساليب البلاغة وفنونها ، حتى قيل إنها كانت تباع كل قِصة منها بدينار » .

وقال ابن خلِّكان فى وَفَيات الأعيان[3] : « ويقال إن جعفر بن يحيى وقّع ليلةً بحَضْرَة هرون الرشيد زيادةً على ألف توقيع ، ولم يخرج فى شىء منها عن مُوجِب الفِقْه » .

وقال الجاحظ فى البيان والتبيين[4] : « وخبرنى جَعفر بن سعيد رضيع أيوب بن جعفر وحاجبه قال : ذكرت لعمرو بن مسعدة توقيعات جعفر بن يحيى قال : قد قرأت لأم جعفر توقيعات فى حواشى الكتب وأسافلها ، فوجَدتها أجود اختصارا ، وأجمع للمعانى » .

الفضل بن يحيى

ووقّع أخوه الفضل : « بئس الزادُ إلى المَعَاد ، التعدِّى على العباد » .

---

(١) انظر الكامل للمبرد ١ : ١٤٤ وأدب الكتاب ص ١٣٤ وص ٢٢٨ والصناعتين ص١٦٦ وجاء فى الصناعتين أيضا (ص١٨١) إنه مع إعجابه بالإيجاز قال : « متى كان الإيجاز أبلغ كان الإكثار عيا ، ومتى كانت الكتابة فى موضع الإكثار كان الإيجاز تقصيرا » .

(٢) انظر باب ديوان الرسائل والكتابة ص ٢٤٠ .

(٣) انظر ج ١ : ص ١٠١ .

(٤) انظر ج ١ : ص ٦١ .

الفضل بن سهل

وكتب الفضل بن سَهْل إلى أخيه الحسن :

« احْمَدِ اللهَ يا أخى ، فما يَبِيتُ خليفةُ اللهِ إلا على ذِكْرِك » .

وإلى طاهر بن الحسين : « تخيَّرْ ما اصطنعْتَ » .

وإليه أيضا : « لِشَرٍّ ما سَمَوْتَ » .

وإلى هَرْثَمَة ـ وأشار عليه برأى ـ « لا يُحَلُّ ما عَقَدْتَ » .

وفى قصة متظلِّم : « كَفَى باللهِ للمظلوم ناصِرًا » .

وفى قصة مَنْ نَقَبَ بيتَ المال : « يُدْرَأُ[1] عنه الحَدُّ إن كان له فيه سَهم » .

ووقَّع إلى حاجبه : « تَمَهَّلْ وَتَسَهَّلْ » .

وإلى صاحب الشُّرْطة : « تَرَفَّقْ تُوَفَّقْ »

وفى قصة متظلِّم : « طِبْ نَفْساً ، فإن اللهَ مع المظلوم » .

وإلى رجل شكا غَلَبَة الدَّيْن :

« قد أمَرْنا لك بثلاثين ألفا ، وسنَشْفَعُها بمثلها ، ليرغَبَ المتَنَصِّحون »[2] .

وإلى رجل شكا إليه الدَّين :

« الدَّيْنُ سوءٌ يَهِيضُ[3] الأعناق ، وقد أمرنا بقضائه » .

وفى قصة قوم قطعوا الطريق :

« إِنَّمَا جَزَاءُ الَّذِينَ يُحَارِبُونَ اللهَ وَرَسُولَهُ وَيَسْعَوْنَ فِى الْأَرْضِ فَسَادًا أَنْ يُقَتَّلُوا أَوْ يُصَلَّبُوا أَوْ تُقَطَّعَ أَيْدِيهِمْ وَأَرْجُلُهُمْ مِنْ خِلَافٍ أَوْ يُنْفَوْا مِنَ الْأَرْضِ ذَٰلِكَ لَهُمْ خِزْىٌ فِى الدُّنْيَا وَلَهُمْ فِى الْآخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٌ » .

---

(١) يدفع . (٢) المتنصح : قبل النصح .
(٣) هاض العظم يهيضه : كسره بعد الجبور .

وفى امرئ قاتلٍ شهِد عليه العُدُولُ فشُفِعَ فيه : « كتابُ الله أحقُّ أن يُتَّبَعَ » .

وفى قصة رجل شُهِد عليه أنه شتم أبا بكر وعمر : « يُضْرَب دون الحدّ وَيُشْهَر(١) ضربُه » .

وفى رقعة ساعٍ :

« نحن نَرَى قَبُولَ السِّعاية شراً منها ، لأن السِّعاية دلالةٌ ، والقبولَ إجازة ، وليس مَن دلَّ على شىء وأخبر به كمن قَبِلَهُ وَأَجازَهُ ، فاتقوا الساعِىَ فإنه لو كان فى سِعايته صادقاً ، لكان فى صدقه آثِماً ، إذ لم يحفظ الحُرْمةَ ، ويستُر العَوْرة ؛ والشىء يُقْرَن مع جنسه » .

ووقّع إلى تميم بن خزيمة(٢) :

« الأمور بتمامها ، والأعمالُ بخواتمها ، والصنائعُ باستدامتها ، وإلى الغاية يجرى الجوادُ ، فهناك كشَفَتِ الخِبرة قِناعَ الشكِّ ، فحُمِد السابق ، وذُمَّ الساقط » .

الحسن بن سهل

ووقع الحسن بن سهل فى قصة متظلّم :

« يُنظر فيما رَفع ، فإن الحق متَّبَعٌ ، وإلاَّ فشأنُ السَّليم دواء السَّقيم » .

وفى قصة قوم تظلَّموا من واليهم :

« الحقُّ أولَى بنا ، والعدلُ يُغنيِنُا ، وإن صَحَّ ما ادَّعيتم عليه صَرَفناه وعاقبناه » .

وفى قصة امرأة حُبِس زوجها : « الحقُّ يحبِسه والإنصافُ يُطلِقه » .

---

(١) شهره كنمه ، وشهره . أظهره فى شنعة .

(٢) وفى كتاب بغداد لابن طيفور والعقد الفريد : ووقع طاهر بن الحسين إلى خزيمة بن خازم : « الأعمال بخواتيمها ، والصنيعة باستدامتها ، وإلى الغاية ماجرى الجواد ، فحمد السابق ، وذم الساقط » .

وكتب إلى رجل من الشعراء يقول له :

رأيتُ فى النوم أنى راكبٌ فرساً ... ولى وَصِيفٌ وفى كفى دنانيرُ[1]

فقال قوم لهم فَهْمٌ ومعرفةٌ : ... رأيتَ خيرا وللأحلامِ تعبيرُ

رُؤياك فَسِّرْ غَداً عند الأمير تجدْ ... فى الحُلْمِ دُرًّا وفى النوم التباشِيرُ

فوقع فى أسفل كتابه : « أَضْغَاثُ أَحْلَامٍ[2] وَمَا نَحْنُ بِتَأْوِيلِ الْأَحْلَامِ بِعَالِمِينَ ، والحق لله ما التمسه[3] » .

وكتب إليه رجل يتوسل بسالف إحسانه ، فوقَّع :

« مرحَباً بمن توسَّلَ إلينا بنا » وأمر له بصِلَة .

طاهر بن الحسين

ووقع طاهر بن الحسين فى رقعة مُتَنَصِّح : « سَنَنْظُرُ أَصَدَقْتَ أَمْ كُنْتَ مِنَ الْكَاذِبِينَ » .

وفى رقعة مستبطئٍ إياه فى الجواب : « تَرْكُ الجواب جوابٌ » .

ورَفَع إليه مستمنِحٌ وكَذَب فى عدد عِياله ـ وكان طاهر يعرفهم ـ فوقَّع : « لا جَوَابَ لكذَّاب» ثم عاود وصَدَق فى عددهم، فوقَّع : «الْآنَ جِئْتَ بِالْحَقِّ » وأمر له بصلة .

ووقَّع فى كتاب رجل تظلَّم من أصحاب نصر بن شَبَث[4] :

---

(١) الوصيف : الخادم والخادمة .

(٢) أضغاث أحلام : رؤيا لايصح تأويلها لاختلاطها .

(٣) وفى رواية أخرى لصاحب العقد : « عن البطين الشاعر قال : قدمت على على بن يحيى الأرمنى ، فكتبت إليه . . . » والبيت الثالث :

رؤياك فسر غدا عند الأمير تجد ... تعبير ذاك وفى الفال التباشير

فجئت مستبشرا مستشعرا فرحا ... وعند مثلك لى بالفعل تبشير

(٤) فى العقد « نصر بن شبيب » وهو تحريف ، وقدتقدم .

« طلبتَ الحقَّ فى دار الباطل » .

ووقّع فى قصة قَهْرَمان[1] له شكا سوء معاملة :

« اسْمَحْ يُسْمَحْ لك » .

ووقّع فى قصة رجل طَلَب قَبَالَةَ[2] بعض عماله :

« القَبَالَةُ مِفتاح الفساد ، ولو كانت صلاحا ما كنتَ لها مَوْضِعا » .

وإلى السِّنْدِىّ بن شَاهَك — وجاءه منه كتاب يسأله الأمانَ — :

« عِشْ ما لم أرَكَ » .

وإلى العباس بن موسى الهادى — واستبطأه فى خراج الكوفة — :

وليس أخو الحاجاتِ مَن باتَ نائما ولكنْ أخوها مَن يَبِيتُ على وَجَلْ

ووقّع فى قصة رجل شكا أنَّ بعض قواده نزل فى دار له وفيها حُرَمُه[3] :

« إذا رأيتَه فى ناحيةِ دارِك فقد حَلَّ لك قتلُه » .

ووقّع فى قصة رجل ذكَرَ أنَّ أخاه قُتل فى طاعة المأمون :

« سالِكُ طاعةِ اللهِ : واللهُ وَلِىُّ جزائه » .

ووقّع فى قصة رجل ذكر أنه قتل فى يوم واحدٍ عشرةً من أصحاب المخلوع « الأمين » .

« لو كنتَ كما وصفتَ لم يخفَ علينا ما ذكرتَ » .

ووقع فى قصة رجل ذكر أن منزله أُحْرِق بالنار :

« أخطَأَك مَنْ قَصَدَك » .

ودخل على طاهرٍ كاتبُ العباس بن موسى — وكان ركيكا — فقال : أَخَيُّك

---

(١) هو كالخازن والوكيل الحافظ لما تحت يده ، والقائم بأمور الرجل بلغة الفرس ، معرب .

(٢) القبالة : الكفالة ، قبل به كنصر وسمع وضرب فهو قبيل : أى ضامن وكفيل .

(٣) حرم الرجل : نساؤه وما يحمى .

ابنُ موسى يُقرِئك السلام ، قال : وما تَلِي مِن أمرِه ؟ قال : أنا كاتبه الذى أُطعِمُه الخبزَ ، فوقع :

« يُعزَل العباسُ ، بسوء اختياره الكفاء[1] » .

وفى قصة محبوس : « يُخرَج ولا يُخرَج » .

ووقع فى قصة آخر : « يُطلَق ويُعتَق » .

ووقع فى قصة مستمنح : « يُبَلُّ حالُه »[2] .

ووقع فى رقعة مستوصِل : « يُقامُ أوَدُه[3] » .

ووقع فى قصة مستجير : « أنا جارُه » .

ووقع فى قصة مستأمَن : « يؤمَّن سِربُه[4] » .

ووقع فى قصة قاتِل : « لا يؤخَّر قتلُه » .

ووقع فى قصة شاعر : « يعجَّلُ ثوابُه » .

ووقع فى قصة لِصّ : « ينفَّذُ حُكمُ الله فيه » .

ووقع فى قصة ساعٍ : « لا يُلتفَتُ إليه » .

ووقع فى قصة قوم شَغَبوا على عاملهم :

« الشَّغَب للفرقة سبب ، فلتُمحَ أسماؤهم ، وتُخسَن آدابُهم ، وتُقطَعَ بالنفي آثارُهم » .

---

(١) الكفاء والأكفاء جمع كفء ، وربما كان الأصل « الكفاة » بضم الكاف ، جمع كاف

(٢) بله كنصره : نداه ، وبل رحمه : وصلها ، استعاروا البل لمعنى الوصل كما استعاروا اليبس لمعنى القطيعة ، وفى الحديث « بلوا أرحامكم ولو بالسلام » أى ندوها بالصلة ، وربما كان الأصل « يبلى حاله » من بلاه يبلوه إذا اختبره .

(٣) الأود : الاعوجاج .

(٤) السرب : النفس والقلب .

عبد الله بن طاهر

وأدّب عبد الله بن طاهر بعض قواده فمات، فرفع إليه أن الناس يقولون : إنه قتله، فوقع : « إنما أدّبْنا فوافق الأدبُ الأجَلَ » .

وأهدى نصر بن شَبَث[1] إليه هدايا كثيرة، فردّها، فزاد فيها وبعثها ليلاً مع رُقعة في معناها، فردّها ووقّع في الرقعة :

« لو قبِلتُ الهدية ليلا لَقَبِلْتها نهارا ، وما آتَانِيَ اللهُ خَيْرٌ مِمَّا آتَاكُمْ ، بَلْ أَنْتُمْ بِهَدِيَّتِكُمْ تَفْرَحُونَ[2] » .

ووقع إلى عمّال له شكاهم الرعية :

« قد قدّمتُ إليكم الإعذارَ ، واحتججتُ إليكم بالإنذار ، وليت العتابَ بالِغاً ما أردتُ ، ولقد هَمَمْتُ بأن أجعلَ معاقدَتى لكم معاقَبة ، فانتبهوا من سِنَتِكم[3] ، وانظُروا لأنفسكم ، وأحسِنوا بالأكَرَةِ[4] ، فإن الله تعالى جَعَلَ أيديَهم لنا طعاما ، وألسنتهم سلاما ، وظُلْمهم حَرَاما ، وَمَا عِنْدَ اللهِ خَيْرٌ وَأَبْقَى أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ؟ » .

وكتب إليه بعض قواده يسأله حَطَّ خراجه والزيادةَ في أرزاقه ، فوقع في كتابه :

« أفى النوم أبصرتَ ذا كلَّه ؟ فخيراً رأيتَ ، وخيراً يكون ! »

---

(١) في نسخة الخاص « نصر بن شبيب » أيضا ، وهو تحريف .

(٢) وفي رواية أخرى أن تلك القصة كانت لعبد الله بن طاهر مع عبيد الله بن السرى بمصر — انظر ما قدمناه في ص ٤٢٢ من الجزء الثالث .

(٣) السنة : النعاس .

(٤) الأكار : الحراث ، وجمعه أكرة ، كأنه جمع آكر في التقدير .

يوسف بن القاسم

ووقع يوسف[1] بن القاسم - والد أحمد بن يوسف - إلى عامل :

« إن كنتَ مُنْصِفا من نفسك فلِمَ تظلِمُ لغيرك ؟ وإن ظلمتَ لغيرك فكيف تنتصف من نفسك ؟ » .

ووقع فى رقعة رجل استماحَه :

« قد أمرْنا لك بشىء هو دونَ قدرك على الاجتهاد ، وفوق كفايتك مع الاقتصاد[2] » .

ولما ولَّى الرشيد على بن عيسى بن ماهان خراسانَ ، سأل الرشيدَ أشياءَ ثقُلَت عليه ، فقال ليوسف ، عرِّفه مقدارَ مافعلتُ به ، فإنى أظنّه جَهِلَه ، فوقَّع إليه :

« قد كفيناك بما ولَّيناك ، وخراسانُ تَسَعك ما وَسِعَكَ عُمرُ » .

ووقَّع إلى بعض ولده :

« إذا لم يكن معروفك إلَّا عند من تعرِفُ ، لم يَجُزْ معروفُك رُواق بيتك » .

ووقَّع : « مِن جَور الدنيا أنها لاتُعْطِى أحدا مايستحق ، إمّا أن تَزِيده وإما أن تَنْقُصَه » .

ووقع إلى بعض ولده :

« إياك وصحبةَ فلان ، وإن كان قريبَ النسب منك ، فإنه بعيد الشَّبَه بك ، فقد يَفسُد على الإنسان بعضُ جَسَده فيقطعه وهو أولَى به وأقرب » .

ووقّع : إنّ إسَاءة المحسن أن يكُفَّ عنك إحسانَه ، وَإحْسانَ المسىء أن يكُفَّ عنك إساءته ، وَابعُدَ ما بينهما ! » .

---

(١) روى الصولى فى كتاب الأوراق ١ : ١٥٦ أن يوسف بن القاسم كان يخلف يحيى بن خالد على التوقيع فى داره ودار أمير المؤمنين .

(٢) ورد فى العقد الفريد أن الحسن بن سهل كتب هذا التوقيع فى قصة رائد ، وفيه «فى الاستحقاق» على قوله « على الاجتهاد » .

ووقع إلى رجل كذَب في شيء :

« لو صُوِّر الصدق لكان أسَدًا ، ولو صوِّر الكذب لكان ثعلبا ، وما صاحباها ببعيدَيْن من هاتين الصورتين » .

أحمد بن يوسف

ووقع أحمد بن يوسف إلى عامل ظالم :

« الحقُّ واضح لِمَن طلَبه ، تهديه مَحَجَّتُهُ ، ولا تُخَافُ عَثْرَتُهُ ، وتؤمَن في السِّرِّ مَغَبَّتُهُ ، فلا تنتقِلَنَّ منه ، ولا تَعدِلَنَّ عنه ، فقد بالغتُ في مناصحتك ، فلا تُحْوِجْني إلى معاودتك ، فليس بعد التقدِمَة إليك ، إلا سَطْوةُ الإنكارعليك » .

* * *

ووقع في كتاب رجل يحثه على استتمام صنائعه عنده :

« مستَتِمُّ الصَّنيعة مَن صابَرَها ، فعَدَّل زَيغَها ، وأقام أوَدَها ، صيانة لمعروفه ، ونُصْرَةً لرأيه ، فإنّ أول المعروف مستخَفّ ، وآخِره مستثقَل ، تكاد أوائله تكون لِلْهَوَى ، وأواخِرُه تكون للرأى ، ولذلك قيل :[1] رَبُّ الصنيعةِ أشَدُّ مِنَ ابتدائِها » .

* * *

ووقع في عناية بإنسان إلى بعض العمال :

« أنا بفلان تامُّ العناية ، وله شديد الرعاية ، وكنت أحبُّ أن يكون ما أرعيتهُ طَرْفَكَ من أمره في كتابي ، مستودَعًا تَمَهّك من خطابي ، فلا تعدِلَنَّ بعنايتك إلى غيره ، ولا تَمْنَحَنَّ تفقّدَك سواه ، حتى تُنيلَه إرادتَه ، وتتجاوز به أُمْنِيَّتَه ، إن شاء الله » .

* * *

---

(١) رب الصنيعة كنصر: تماها وزادها وأتمها وأصلحها، وفي زهر الآداب «تتميم الصنيعة ...» .

ووقع إلى رجل غَصَب رجلا على ضَيْعة وكان غائباً فاستغَلَّها سنين ، وقَدِم الرجلُ فطالبه فقال : الضيعةُ لى وفى يدى ، فوقع إليه أحمد بن يوسف :

« الحق لاتَخْـلَقُ (١) جِدَّتُه ، وإن تطاولَتْ بالباطل مدتُه ، فإن أنطقتَ حُجتك بإفصاح ، وأزلْتَ مُشْـكِلَها بإيضاح ـ غيرَ « لى وفى يدى » فـكثيراً ما أراها ذريعةَ الغاصبِ ، وحجةَ الغالبِ ـ وُفِّر حقك عليك ، وسِيقَ بلا كَدٍّ إليك ، وإن ركَنْتَ من البيان إليها ، وَوقفْتَ من الاحتجاج عليها ، كانت حُجَّتُه بالبينة أعلَى ، وكان بما يدَّعيه أولَى ، إن شاء الله » .

* * *

ومن توقيعاته :

« ما عند هذا فائدة ولا عائدة (٢) ، ولا له عقل أصيل ، ولا فعل جميل »

* * *

ووقع إلى عامل قد أخَّرَ حَمْلَ مالٍ :

« قد استبطأك الإغفالُ ، وأبطَرَك الإهمالُ ، فما تُصْحِب قولَك فعلا ، ولا تُتْبِـع وعدَك إنجازا ، وقد دافعتَ بمال نَجْمٍ (٣) لَزِمَك حَمْلُه ، حتى وَجَب عليك مِثلُه ، فاحمل مالَ ثلاثةِ أنْجُمٍ ، ليكون ما يُتعجَّل منك أداءَ ما أخِّرَ عنك إن شاء الله » .

* * *

ووقع إلى رجل استماحه :

« وددْتُ لو ملكتُ بغيَتك ، لبلَّغْتُكَ أمنيَّتَك ، ولـكنى فى عمل قصدتُ فيه

---

(١) خلق الثوب كنصر وكرم وسمع : بلى .
(٢) العائد : النفعة والمعروف .
(٣) النجم والقسط : الحصة ، وكانت العرب تؤقت بطلوع النجوم ، لأنهم ما كانوا يعرفون الحساب ، وإنما يحفظون أوقات السنة بالأنواء ، وكانوا يسمون الوقت الذى يحل فيه الأداء نجما تجوزا لأن الأداء لايعرف إلا بالنجم ، ثم توسعوا حتى سموا مايؤدى نجما لوقوعه فى الأصل فى الوقت الذى يطلع فيه النجم ، واشتقوا منه فقالوا : نجمت الدين تنجيما إذا جعلته نجوما .

اتخاذَ المحامد ، وعدَلتُ عن اقتناء الفوائد ، فخَسّ(١) نصيبي من الوَفر ، ووُفِّرَ حظي من الشكر ، وقد أمرتُ لك بما يجِلُّ عنه قدرك ، غيرَ مختارٍ له ، بل مُضطرا إليه ، فليكن منك عُذرٌ فيه ، وشكرٌ عليه ، إن شاء الله » .

عمرو بن مسعدة

وقال عمرو بن مَسْعَدة : كنت أوقّع بين يدى جعفر بن يحيى البرمكى ، فرفع إليه غلمانه ورقةً يستزيدونه فى رواتبهم ، فرمى بها إلىّ ، وقال : أجِبْ عنها ، فكتبت : « قليلٌ دائم خير من كثير منقطع » فضرب بيده على ظهرى وقال : « أىُّ وزير فى جِلدك(٢) ! » .

محمد بن يزداد

ومن توقيعات محمد بن يزداد(٣) :

« أبوابُ الملوك مَعادِنُ الحاجات(٤) ، ومَواطِن الطَّلِبَاتِ ، وليس لاستنجاحها واستنجازِها كالصبر والملازمة ، والمُغَاداة والمراوَحَة » .

ومنها : « ما استحالت لى فيك نيّةٌ ، ولا تغيَّرتْ عقيدةٌ ، فكيف أُخْلِفُ وعدَك ، وأحُلُّ عَقْدَك ، وأَنقُضُ عهدك ، وأنسَى رِفْدك ؟(٥) » .

---

(١) فى الأصل « فحسن » وأرى أنه محرف وصوابه فخس وهو مايقتضيه المقام ، والوفر : الغنى .

(٢) وفى خاص الخاص : « ورفع إلى يحيى بن خالد قوم من حشمه يستزيدونه فى أرزاقهم ، فأمر أنس بن أبى شيخ بالتوقيع فى قصتهم ، فوقع بين يديه « قليل دائم خير من كثير منقطع » فأعجب به يحيى فقال : قد فاحت منك رائحة الوزارة » .

(٣) هو أبو عبد الله محمد بن يزداد بن سويد آخر وزراء المأمون — انظر خبره فى الفخرى ص ٢٠٨ .

(٤) قدمنا لك فى ص ٣٦٤ من الجزء الثالث أن المأمون وقع فى كتاب لأحمد بن يوسف : « الخير متبع ، وأبواب الملوك مظان لطالبي الحاجات . . . » وفيه روايتان أخريان ، انظرها هناك .

(٥) الرفد : العطاء والصلة .

عبد الله بن محمد بن يزداد

ووقع عبد الله بن محمد بن يزداد إلى بعض أصحابه :

« يا أبا العباس ، ليس عليك باسٌ ، ما لم يكن منك باسٌ » .

ووقع إلى عامل اغترَ[1] بكفايته وزاد :

« يا هذا : أسْرَفتَ ، وما أنصفتَ ، وأوجَفْتَ[2] حتى أعْجَفْتَ ، وأدْلَلْتَ حتى أمللْتَ ، فاستصغِرْ ما فعلتَ تبلُغْ ما أمَّلْتَ » .

إبراهيم بن العباس

وورد كتاب بعض الكتاب إلى إبراهيم بن العباس يمدح رجل وذم آخر ، فوقَّع فى كتابه :

« إذا كان للمحسن من الجزاء ما يُقْنِعهُ ، وللمُسيء من النَّكال ما يقْمَعه[3] ، بَذَلَ المحسنُ الواجبَ على رغبةٍ ، وانقاد المسيء للحق رَهْبَةً » .

فوثب الناس يقبلون يده .

ووقع لرجل مَتَّ[4] إليه بحُرْمة :

« قد مَتَتَّ بحُرْمة مألوفة ، ووسيلة معروفة ، أقوم بواجبها ، وأرعاها من جميع جوانبها » .

---

(١) فى الأصل « خاس الخاس » « اعتذر » وأرى أنه محرف ، وأن صوابه « اغتر » أو « اعتز » أو « اعتد » .

(٢) وجف الفرس والبعير كوعد وجيفا : عدا ، وأوجفه : أعداه ، وعجفت الدابة كتعب : هزلت ، وعجفها كنصر وضرب وأعجفها : هزلها ، وأدل عليه وتدلل : انبسط ووثق بمحبته فأفرط عليه .

(٣) قمه كمنعه : قهره وذلله .

(٤) أى توسلت .

محمد بن عبد الله بن طاهر

ووقع محمد بن عبد الله بن طاهر إلى الكُتَّاب ، وقد ضاقت بهم الكواغدُ[1] في أيام فتنة المستعين والمعتز .

« دقِّقوا الأقلام ، وأَوْجَزوا الكلام ، فإن القراطيس لا تُرام ، والسلام » .

واعتذر رجل إلى محمد بن عبد الله بن طاهر من شيء بلغه عنه ، فرأى خطه قبيحا فوقَّع في رقعته :

« أردْنا قبولَ عُذرك ، فاقتطعَنا عنه ما قابَلَنا من قبيح خطك ، ولو كنتَ صادقا في اعتذارك ، لساعدَتْك حركةُ يدك ، أو ما علمتَ أن حسن الخط يناضِل عن صاحبه بوضوح الحجة ، ويمكِّن له دَرْك البُغْية ؟ » .

عبيد الله بن سليمان بن وهب

ورَفَع إلى عُبَيد الله بن وهب عامل من عماله : « إن في بَيْت النار كانُونا من آثار الأكاسرة ، وفيه أكثر من ألفَى رطل فضةٍ ، وفى فضّته توفيرٌ لبيت المال » فوقع :

« حِرْصُك على تَقْفِيَة آثار الأوائل ، يدلُّ على لؤم أصلك ، فبُعْدا وسُحْقاً[2] لك » .

ووقع في كتاب متَنَجِّز إياه وعدا : « الشرطُ أَمْلَكُ ، والوعدُ كالأَخذِ باليد ، والوفاء من سجايا الكرام » .

وفى كتاب مثله: ليس كل من أُنسيناه أهملناه، ولا من أخّرناه تركناه، مع اقتطاع

---

(١) الكواغد جمع كاغد بالفتح : وهو القرطاس ، معرب .

(٢) السحق بالضم وبضمتين : البعد .

الشغل إيانا، واقتسامه زماننا[1] ».

ووقع فى شأن عامل: « أنا قادر على إخراج هذه النُّعَرة[2] من رأسه، والوَحَرةِ[3] من صدره، والنَّخْوة[4] من نفسه ».

ووقع إلى ابن طولون: « اتق الله فى الأَرْصاد، فإن الله بالمِرْصادِ ».

عبد الله بن المعتز

وكتب إلى عبد الله بن المعتز قَهْرَمانُه[5] ينسُب وكيله إلى الخيانة والسَّرقة، ويستأمِره فى الاستذلال به، فوقَّع فى رقعته:

« أغنِ مَن ولَّيتَه عن السَّرِقة، فليس يَكفِيك مَن لم تَكْفِه ».

وكتب إليه بعض مواليه يذكر جِدَّه فى خدمته وتوقُّعه زيادة نظرٍ له، فوقَّع:

« مَن نَصَحَ الخدمة نصحَتْه المجازاةُ ».

على بن عيسى

وكتب إلى على بن عيسى[6] بعض العمال فى ذكر أموال متخيَّرة، وتفاصَحَ فى كتابه:

---

(١) انظر ماقدمناه فى ص ٢٨٣.

(٢) النعرة بضم ففتح وكرقية: الخيلاء والكبر، يقال: إن فى رأسه نعرة: أى كبراً، والأصل فيه أن الحمار إذا نعر (كفرح) ركب رأسه، فيقال لكل من ركب رأسه: فيه نعرة، وفى خاص الخاص « النغرة » وهو تصحيف.

(٣) الوحرة فى الأصل: وزغة تكون فى الصحارى أصغر من العظاءة (بكسر العين) وهى على شكل سام أبرص، وقيل: ضرب من العظاء، وهى صغيرة حمراء تعدو فى الجبابين، لها ذنب دقيق تصبع به إذا عدت، وهى أخبث العظاء، لاتطأ طعاما ولا شرابا إلا سمته، ولا يأكله أحد إلا أخذه قىء، وربما هلك آكله، والوحر بالتحريك أيضا، غش الصدر وبلابله والغيظ والحقد، قالوا: وأصل هذا من تلك الدويبة التى يقال لها الوحرة، شبهوا العداوة ولزوقها بالصدر بالتزاق الوحرة بالأرض، وفى خاص الخاص « والوغرة » وهو تحريف.

(٤) النخوة: الكبر والعظمة، وفى زهر الآداب « والنحرة » وهو تحريف.

(٥) القهرمان: هو كالخازن والوكيل الحافظ لما تحت يده، والقائم بأمور الرجل بلغة الفرس.

(٦) هو على بن عيسى بن الجراح، ولى الوزارة للمقتدر مرارا، وكان هو وعلى بن الفرات يتناوبان الوزارة — انظر خبره فى الفخرى ص ٢٤١.

« دعنى من تَشْدِيقك وتقْعِيرك ، وتفاصَحْ على نظيرك ، فخيرُ الكلام ماقَلَّ وَدلَّ ولم يُمِلَّ » .

وكتب إليه ابن الفُرات يستشهده على زُور فوقع فى رقعته :

« لا تلُمنى على نُكُوصى عن الشهادة لك بالزُّور ، فإنه لا بقاءَ لاتفاق على نِفاق ، ولا وفاءَ لذى مَيْن[1] واختلاق[2] ، وأحْرَى بمن تعدَّى الحق فى موافقتك إذا رضىَ ، أن يتخطَّى إلى الباطل فى مخالفتك إذا سخِطَ ، وبمن كَذَب لك ، أن يكذبَ عليك » .

(العقد الفريد ١ : ٨٣ ، ٢ : ١٦٥ ، ١٨٧ ـ ١٩١ وزهر الآداب ١ : ٢٣٠ ،٤٢٣٠ ، ٣٠٥ ، ٣٠٦ ، ٣٣٤ و ٢ : ٤٣ و ٣ : ١٩٩ ، ٣٥٤ وخاص الخاص للثعالبى ص ٦٨ ـ ٧٢ ووفيات الأعيان ١ : ١٠٥ ، ٣٩٠ والكامل للمبرد ١ : ١٤٣ ونهاية الأرب ٧ : ٢٦١ ومقدمة ابن خلدون ص ٢٧٤ وعيون الأخبار م ٣ : ص ١٠٠ وتاريخ الطبرى ٩ : ٣١٥ وكتاب الاوراق لأبى بكر الصولى ١ : ١٥٨ ، ١٦١ ، ١٦٢ ، ٢٢٩ ، ٢٣٠ ، ٢٣١ ومعجم الأدباء ٦ : ٩٠ (طبع هندية) وأدب الكتاب ص ٥٣ وغرر الخصائص الواضحة ص ٣٥ ، ص ٢٩٥ وكتاب بغداد لابن طيفور ٦ : ١٢٧ ـ ١٢٩) .

---

(١) المين : الكذب .

(٢) فى الأصل « واختلاف » وهو تصحيف .

استـــدراك

فاتنا أن نورد هذه الرسالة فى موضعها من الجزء الثالث، وها هى ذى:

رسالة الإمام مالك فى السنن والمواعظ والآداب

كتبها
إلى أمير المؤمنين
هارون الرشيد
ووزيره يحيى بن
خالد البرمكى

بسم الله الرحمن الرحيم

« الحمد لله رب العالمين ، والصلاة والسلام على أشرف المرسلين ، سيدنا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين .

أما بعد : فإنى كتبت إليك بكتاب لم آلُكَ فيه رُشْدا ، ولم أدَّخِرك فيه نُصحا ، تحميداً لله ، وأدبا عن رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فتدبَّرْه بعقلك ، وردِّدْ فيه بَصَرك ، وأَرْعِهِ سمعَك ، ثم اعقِلْه بقلبك ، وأحضِرْه فَهمَك ، ولا تُغيِبَنَّ عنه ذهنك ، فإن فيه الفضلَ فى الدنيا ، وحسنَ ثوابِ الله تعالى فى الآخرة .

أذكرْ نفسَكَ غَمَراتِ الموت وكُرَبَه ، وماهو نازل بك منه ، وما أنت موقوف عليه بعد الموت ، من العَرْضِ على الله سبحانَه ، ثم الحسابِ ، ثم الخلودِ بعد الحساب ، وأعِدَّ لله عز وجل ما يسهِّل به عليك أهوال تلك المشاهد وكُرَبها ، فإنك لو رأيت أهل سُخْطِ الله تعالى ، وما صاروا إليه من ألوان العذاب ، وشدة نِقمته عليهم ، وسمعتَ زَفيرهم فى النار وشهيقهم ، مع كُلُوحِ[1] وجوههم ، وطول غمهم وتقلُّبهم فى دَرَكاتها على وجوههم ، لايَسْمَعون ولا يُبْصرون ، ويَدْعون بالويل والثُّبُور[2] — وأعظمُ من ذلك حسرةً إعراضُ الله تعالى عنهم ، وانقطاعُ رجائهم ، وإجابتُه إياهم بعد طول الغم بقوله : « اخْسَئُوا فِيهَا وَلاَ تُكَلِّمُونِ » — لم يتعاظَمْك[3] شىء من الدنيا إن أردت النجاةَ من ذلك ، ولا أمَّنَك من هوله ، ولو قدّمتَ فى طلب النجاة منه جميعَ ما مَلَك أهلُ الدنيا ، كان فى معاينتك ذلك صغيرا ، ولو رأيتَ أهلَ طاعةِ الله تعالى ، وما صاروا إليه من كرم الله عز وجل ، ومنزلتهم مع قُربهم من الله عز وجل ، ونَضْرةَ وجوههم ،

(١) كلح كمنع كلوحا وكلاحا : تكشر فى عبوس .
(٢) الثبور : الهلاك . (٣) تعاظمه : عظم عليه .

ونورَ ألوانهم ، وسرورهم بالنعيم المقيم ، والنظر إليه ، والمكانة منه ، التقلّلَ فى عينك عظيمُ ما طلبتَ به صغيرَ ما عند الله ، ولصَغُر فى عينك جسيمُ ما طلبتَ به صغيرَ ذلك من الدنيا ، فاحذَر على نفسك حذرا غيرَ تغرير ، وبادِرْ بنفسك قبل أن تُسْبَق إليها ، وما تخاف الحسرةَ منه عند نزول الموت ، وخاصِم نفسَك على مَهَل ، وأنت تقـــدِر بإذن الله على جرّ المنفعة إليها ، وصَرف الحُجَّة عنها ، قبل أن يتولى الله حِسابَها ، ثم لا تقدر على صرْف المكروه عنها .

واجعل من نفسك لنفسك نصيبا بالليل والنهار ،وصَلِّ من النهار اثنتى عشرةَ ركعةً ، واقرأ فيهن ما أحببتَ ، إن شئت فصلِّهن جميعا ،وإن شئت متفرقاتٍ ،فإنه بلغنى عن النبى صلى الله تعالى عليه وسلم أنه قال :« من صَلَّى من النهار اثنتى عشرةَ ركعةً بنى الله له بيتا فى الجنة » ، وصَلِّ من الليل ثمانىَ ركعات بجزء من القرآن ، وأعطِ كلَّ ركعة حقَّها والذى ينبغى فيها من تمام الركوع والسجود ، وصلِّهن مَثْنَى مَثْنَى ، فإنه بلغنى عن النبى صلى الله عليه وسلم أنه كان يصلى من الليل ثمانىَ ركعات،والوتر ثلاثُ ركعات ،سوى ذلك ،يسلِّم من كل اثنتين،وصُمْ ثلاثةَ أيام من كل شهر :الثالثَ عشرَ والرابعَ عشرَ والخامس عشرَ، فإنه بلغنى عن النبى صلى الله عليه وسلم أنه قال:« ذلك صيامُ الدهر » .

وأعطِ زكاةَ مالك طيبةً بها نفسُك ، حين يَحُول عليها الحولُ ، ولا تؤخِّرْها بعد حِلِّها[1] ، وضَعْها فيمن أمَرَ الله تعالى ، ولا تضَعْها إلا فى أهل ملّتك من المسلمين ، فإنه بلغنى عن النبى صلى الله عليه وسلم أنه قال:« إن الله تعالى لم يرضَ من الصَّدقة بحكم نبى ولا غيره حتى حَدَّها هو على ثمانية أجزاء»، قال عزَّ وجل:«إِنَّمَا الصَّدَقَاتُ لِلْفُقَرَاءِ وَالْمَسَاكِينِ وَالْعَامِلِينَ عَلَيْهَا وَالْمُؤَلَّفَةِ قُلُوبُهُمْ وَفِى الرِّقَابِ وَالْغَارِمِينَ وَفِى سَبِيلِ اللهِ وَابْنِ السَّبِيلِ »واحجُجْ حَجةَ الإسلام من أطيب مالك، وأزكاه عندك ، فإن الله تعالى

---

(١) حل الحق حلا وحلولا : وجب .

لا يقبل إلا طيِّبا ، وبلغنى أن قوله تعالى : « فَمَنْ تَعَجَّلَ فِي يَوْمَيْنِ فَلَا إِثْمَ عَلَيْهِ ، وَمَنْ تَأَخَّرَ فَلَا إِثْمَ عَلَيْهِ » غَفْرٌ(١) له .

مُر بطاعة الله ، وحبِّب عليها ، وانْهَ عن معاصى الله تعالى ، وأَبغِضْ عليها ، فإنه بلغنى عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال: « مُروا بالمعروف ، وانهَوْا عن المنكر ، فإنما هَلَكَ من كان قبلكم بتركهم نَهْيَهم عن المعاصى ، ولم يَنْهَهم الرَّبَّانيُّون والأحبار(٢) ، فمُروا بالمعروف ، وانْهوا عن المنكر ، من قبل أن ينزل بكم الذى نزل بهم ، فإن الأمر بالمعروف ، والنهى عن المنكر ، لا يُقدِّم أجلا ، ولا يقطع رزقا » .

أحسِنْ إلى من خوَّلك(٣) اللهُ تعالى، واشكر تفضيلَه إياك عليهم ، فإنه بلغنى عن النبي صلى الله عليه وسلم « أنه كان يُصلِّى فانصرف وقال : أطَّت(٤) السماءُ ، وحُقَّ لها أن تئِطَّ ، ما فيها موضعُ أربع أصابعَ إلا عليه جَبْهةُ مَلَكٍ ساجد، فمن كان له خَوَلٌ(٥) فليُحْسِن إليه ، ومَنْ كَرِه فَلْيَسْتَبْدِلْ ، ولا تعذِّبوا خَلْقَ الله » . أَلْزِمِ الأدبَ مَن وَلِيتَ أمره وأدبَه ، ومن يجب عليك النظرُ فى أمره ، فإنه بلغنى عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال قال للفضل بن العباس : « لا تَرفَعْ عصاك عن أهلك ، وأَخِفْهم فى الله » ،

لا تستسلِمْ إلى الناس، واستَجْرِهم(٦) فى طاعة الله ، لا تَغْمَص(٧) الناس، واخفِضْ لهم جَناحك ، فإنه بلغنى عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال : « أَلَا أحدِّثكم بوصيةِ نوحٍ ابنَه ، قال : آمُرك باثنين ، وأنهاك عن اثنين : آمُرك يقول : لا إله إلا الله ، فإنها لو كانت فى كِفَّة ، والسموات والأرض فى كفة ، وزنَتْها ، ولو وضعتَها على

---

(١) الغفر : الغفران .

(٢) الربانى : منسوب إلى الرب أى الله تعالى كقولهم إلهى : هو المتأله العارف بالله ، والحبر بالكسر ويفتح : العالم .

(٣) التخويل : التمليك ، خوله الله نعمة: ملكه إياها ، والمعنى : إلى خدمك وعبيدك الذين علكهم وتلى أمرهم .

(٤) أط يئط أطيطا : صوت .

(٥) الخول : ما أعطاك الله من العبيد والخدم ، والواحد خائل ، وقد يكون الخول واحدا .

(٦) استجرهم . أى استخدمهم ، والجرى كغنى : الخادم .

(٧) غمصه كضرب وسمع وفرح : احتقره وعابه وتهاون بحقه .

حَلْقة تصمتُها ، وقل : سبحانَ الله وبحَمْده، فإنها عبادة الخلق،وبها تُقْطَع[(١)] أرزاقهم، فإنهما يُكثِران لمن قالهما الوُلوجَ على الله عزّ وجل . وأنهاك عن الشِّرك والكِبْر ، فإن الله محتجِب عنهما، فقال له بعض أصحابه:أمِنَ الكِبْر أن يكون لى الدابة النَّجيبةُ[(٢)]؟ قال : لا ، قال : أمِن الكبر أن يكون لى الثوب الحَسَن ؟ قال : لا ، قال : أفمن الكبر أن يكون لى الطعامُ أجمَع عليه الناس؟ قال: لا ، إنما الكبر أن تَسْفَه[(٣)] الحق، وتَغْمَص الخلق » .

وإياك والكِبْرَ والزَّهْوَ ، فإن الله عز وجل لا يحبهما ، وبلغنى عن بعض العلماء أنه قال : « يُحْشَر المتكبرون يوم القيامة فى صُوَر الذَّرِّ[(٤)] ، تَطَؤهم الناس بتكبّرهم على الله عز وجل » ، لا تأمنْ على شيء من أمرك مَن لا يخاف الله ، فإنه بلغنى عن عمر بن الخطاب رضى الله عنه أنه قال : « شاورْ فى أمرك الذين يخافون الله » .

احذَر بطانة السوء وأهلَ الردى على نفسك،فإنه بلغنى عن النبى صلى الله عليه وسلم أنه قال : ما من نبىّ ولا خليفةٍ إلا وله بطانتان : بطانة تأمره بالمعروف وتنهاه عن المنكر ، وبطانة لا تألُوه خَبَالا[(٥)] ، وهو مع التى استولت عليه ، ومن وُقِىَ بطانةَ السوءِ فقد وُقِىَ » واستبطِنْ أهل التقْوَى من الناس . وأكرم ضيفك فإنه يحق عليك إكرامُه . وارْعَ حَقّ جارك : ببَذْلِ المعروف ، وكف الأذى عنه ، فإنه بلغنى عن النبى صلى الله عليه وسلم أنه قال : « من كان يؤمن بالله واليوم الآخر فلْيُكرِم جاره ، ومن كان يؤمن بالله واليوم الآخر فليكرم ضيفه » . وتكلم بخير أو اسكت ، فإنه بلغنى عن النبى صلى الله عليه وسلم أنه قال : « من كان يؤمن بالله واليوم الآخر فليقلْ خيرا أو لِيَمْسِكْ » .

واتّقِ فُضُولَ المنطق، فإنه بلغنى عن ابن مسعود أنه قال:«أُنْذِركم فضولَ المنطق» .

---

(١) أى تقدر .

(٢) النجيبة : الكريمة التى يسابق عليها .

(٣) سفه كفرح : جهل .

(٤) الذر : صغار النمل .

(٥) الخبال : الفساد .

وأكرم مَن وادَّك وكافِئه بمودته، وإياك والغضبَ في غير الله. لا تأمر بخير إلا بدأت بفعله، ولا تَنْه عن سوء إلا بدأت بتركه. دَعْ من الأمر مالا يَعنيك، فإنه بلغني عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال: «مِنْ حُسْنِ إسلام المرء تركُه مالا يَعنيه» صِلْ مَن قَطَعَك، واعفُ عمن ظلمك، وأعْطِ مَن حَرمك، فإنه بلغني عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال: «إنها أفضلُ أخلاق الدنيا والآخرة».

اتَّقِ كثرة الضحك، فإنه يدعو إلى السَّفَه، فإنه بلغني عن النبي صلى الله عليه وسلم أن ضحكه كان تبسُّما. لا تَمزَحْ فتذُمَّ نفسك، فإنه بلغني عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال: «إني لأمْزَحُ ولا أقول إلا حقًّا». لا تُخالِفْ إلى ما نُهِيتَ عنه، وإذا نطقت فأوجِزْ، فإنه بلغني عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال: «وهل يَكُبُّ الناسَ في نار جهنمَ إلا هذا؟ يعني لسانه». لا تُصَاعِر[١] خدَّك للناس، فإنه بلغني عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال: «إن أهل الجنة كلُّ هَيْنٍ لَيْنٍ سَهْلٍ طَلْقٍ».

اترك من أعمال السِّر مالا يَحْسُن بك أن تعمله في العَلانية. اتَّقِ كل شيء تخاف فيه تُهمةً في دينك ودنياك، بلغني عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال: «من كان يؤمن بالله وباليوم الآخر فلا يقِف مواقِف التهم».

أقلِلْ طلب الحوائج من الناس، فإن في ذلك غَضاضةً[٢]، وبلغني عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال لرجل: «لا تسأل الناس». وليكن مجلسك بيتك أو مسجدك، فإنه بلغني عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال «المساجد بيوت المتقين». لا تُكثر الشُّخوصَ من بيتك إلا في أمر لابُدَّ منه، فإنه بلغني عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال: «ستةُ مجالسَ المسلمُ ضامِنٌ على الله ما كان في شيء منهن في سبيل الله، أو في بيت الله، أو في عِيادة مريض، أو شهود جنازة، أو جُمعة، أو عند إمام مُقْسِط[٣] يعزِّره ويوقِّره».

---

(١) صعر خده وصاعره وأصعره: أماله عن النظر إلى الناس تهاونا من كبر.

(٢) الغضاضة: الذلة والمنقصة.

(٣) مقسط: عادل (وفي العدل لغتان: قسط وأقسط. وفي الجور لغة واحدة، قسط بغير الألف) والتعزير: والتفخيم والتعظيم.

أحسِنْ خُلُقَك مع أهلك ومن اعتزّ بك ، فإن فى ذلك رضاً لربك ، ومحبة فى أهلك ، ومثراةً(١) فى مالك ، ومَنْسَأةً(٢) فى أجلك ، فإنه بلغنى عن بعض العلماء من الصحابة أنه قال ذلك أحسِنِ البِشْرَ إلى عامّة الناس ، واتّق شتمَهم وغيبَتَهم ، فإن الله تعالى قال: « أيُحِبُّ أحَدُكُمْ أنْ يأكُلَ لحَمَ أخيهِ مَيْتاً فكرِهتُمُوهُ » وبلغنى عن النبى صلى الله عليه وسلم أنه قال : « لاتَشْتُمِ الناس » .

اتق أهل الفُحْش ، ومجالسةَ أهل الرَّدَى ، ومعادنَةَ الضَّعَفةِ(٣) من الناس ، فإنه بلغنى عن ابن مسعود رضى الله عنه أنه قال : « اعتَبِرِ الناسَ بأخدانهم(٤) ، فإنما يخادِن الرجُلَ الرجلَ مثله » .

أكرِمِ اليتيمَ وارحَمْه واعطِف عليه ، فإنه بلغنى عن النبى صلى الله عليه وسلم أنه قال : « من كَفَلَ يتيما له أو لغيره كنتُ أنا وهو فى الجنة كهاتين » وأشار بأصبعيه ، فضمَّهما .

اعرِف لابن السبيل حقّه ، واحفظ وصيَّةَ الله تعالى فيه ، فإنه بلغنى أن أول من أضافَ(٥) الضيف إبراهيمُ الخليل عليه السلام .

أعِنِ المظلوم ، وانصره ما استطعتَ ، وخذ على يد الظالم ، وادْفَعْه عن ظلمه ، فإنه بلغنى عن النبى صلى الله عليه وسلم أنه قال : « من مشى مع مظلوم حتى يثبت له حقّه ، ثبَّت اللهُ قدَمه يوم تزول الأقدام » .

اتق اتباعَ الهوى فى ترك الحق ، فإنه بلغنى عن النبى صلى الله عليه وسلم أنه قال : « إنى أخاف عليكم اثنين : اتّباعَ الهوى وطولَ الأمل ، فإن اتباع الهوى يصُد عن الحق ، وطول الأمل يُنسى الآخرة » .

---

(١) مثراة : أى مكثرة . (٢) منسأة: أى تأخير . (٣) جمع ضعيف .

(٤) الأخدان جمع خدن بالكسر وهو : الصاحب ، وخادنه : صاحبه .

(٥) أضاف الرجل وضيفه : أنزله به ضيفا ، وضافه يضيفه ضيفا وضيافة وتضيفه : نزل عليه ضيفا. وفى الأصل « ضاف » وهو تحريف .

أنصِفِ الناسَ من نفسك ، ولا تستطِلْ عليهم ، فإنه بلغنى عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال : « أشرف الأعمال ثلاثة : ذِكرُ الله على كل حال ، ومواساةُ الأخ من المال[١] ، وإنصاف الناس من نفسك » . آغضُضْ بصرك عن محارمِ الله ، فإنه بلغنى عن على كرم الله وجهه أنه قال : « لاتُتْبِـع النظرةَ النظرةَ ، فإنما لك النظرةُ الأولى ، وليست لك الأخرى » .

اتق المطعمَ الوَبِىَّ[٢] ، والمشرَبَ الوبىَّ ، والملبس الوبىَّ ، فإن ذلك تذْهب أُنفَتَه[٣] ، وتبقى عاقبته ، وإن الله سبحانه أدَّب رسله ، فقال : « كُلُوا مِنَ الطَّيِّبَاتِ وَاعْمَلُوا صَالِحاً » وقال النبي عليه الصلاة والسلام: «من أكل بأخيه المسلم أكلةً أطعمه الله مكانها أكلةً من نار ، ومن سمَّع[٤] بأخيه المسلم سمَّع الله به يوم القيامة ، ومن لبِس بأخيه المسلم ثوبا ألبسه الله مكانه ثوبا من نار » .

اقبَلْ عذر من اعتذر إليك ، ورَجِع عما كَرِهتَ ، فإنه بلغنى عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال : « من اعتذر إلى أخيه المسلم فلم يَعذِره ، كان عليه مثلُ وِزْر صاحب مَكْس[٥] » .

لتكن يدك العليا على كل من خالطتَ ، فإنه بلغنى عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال : « اليد العُليا[٦] خير من اليد السُّفلى » .

---

(١) آساه ماله : أناله منه وجعله فيه أسوة أى قدوة .

(٢) الوبى : مسهل عن الوبىء ، يقال : أرض وبيئة ووبئة : أى كثيرة الوباء وهو الطاعون ، والمراد هنا : المكسوب من طريق غير شريف ، المأخوذ من غير حل .

(٣) أنف الشيء وأنفته : أوله وابتداؤه .

(٤) التسميع : التشنيع والتشهير .

(٥) جاء فى لسان العرب : المكس : الضريبة التى يأخذها الماكس ، وهو العشار ، ويقال للعشار صاحب مكس ، وفى الحديث« لايدخل صاحب مكس الجنة » وفى حديث ابن سيرين قال لأنس: « تستعملنى على المكس أى على عشور الناس فأماكسهم ويماكسونى » قيل معناه: تستعملنى على ماينقص دينى ، لما يخذف من الزيادة والنقصان فى الأخذ والترك اهـ نقلا عن النهاية فى غريب الحديث لابن الأثير — انظر ج ٤ : ص ١٠٣ .

(٦) اليد العليا : المعطية ، واليد السفلى : المعطاة ، وهو حث على البر والصدقة .

أَصْحَبِ الأَخيارَ ، فإنهم يُعينونك على أمر الله عز وجل ، فإنه بلغنى عن النبى صلى الله عليه وسلم أنه قال : « ما تحابَّ رجلان فى الله إلا كان أفضلهما أشدُّهما حُبًّا لصاحبه » .

صِل رَحِمَك وإن قطعك ، ولا تكافئْه بمثل ما أتى إليك ، فإنه بلغنى عن النبى صلى الله عليه وسلم « أن رجلا قال له : إن لى أقرباء ، أعفو ويظلمونى(١) ، وأَصِلُ ويقطعونى ، وأحسن ويُسيئون إلىَّ(٢) ، أفأ كافئهم ؟ فقال صلى الله عليه وسلم : إذن تُترَكوا جميعا ، ولكن إذا أساءوا فأحسِنْ فإنه لن يزالَ لك عليهم من الله ظَهِيرٌ(٣) » .

ارحَمِ المسكين المضطرَّ ، والغريبَ المحتاج ، وأعِنْه على ما استطعتَ من أمره ، فإنه بلغنى عن ابن عباس أنه قال : « كل معروف صدقةٌ » .

ارحم السائل واردُدْه من بابك بفضل معروفك ، بالبَذل منك، أو قول معروف تقوله له ، فإنه بلغنى عن النبى صلى الله عليه وسلم أنه قال : « رُدَّ عنك مَذَمَّةَ السائل ، [ولو] بمثل رأس الطير من الطعام » .

لاتزْهَد فى المعروف عند مَن تعرفُه ، وعند من لاتعرفُه ، فإنه بلغنى عن النبى صلى الله عليه وسلم أنه قال : « لاتزْهَدْ فى المعروف ، ولو أنْ تَصُبَّ من دَلْوك فى إناء

---

(١) هكذا فى الأصل ، وقد ذكروا أن نون الرفع تحذف جوازا بكثرة فى الفعل المتصل بنون الوقاية نحو قوله تعالى « قُلْ أَفَغَيْرَ اللهِ تَأْمُرُونِّى أَعْبُدُ أَيُّهَا الْجَاهِلُونَ » بتخفيف النون فى قراءة نافع ، فالصحيح عند سيبويه أن المحذوف نون الرفع والمذكور نون الوقاية . وقيل المحذوف نون الوقاية، وتحذف نون الرفع جوازا بقلة فى غير ذلك نحو قوله :

أبيت أسرى وتبيتى تدلكى ... وجهك بالعنبر والمسك الذكى

وفى الحديث : « والذى نفس محمد بيده لاتدخلوا الجنة حتى تؤمنوا ، ولا تؤمنوا حتى تحابوا» .

(٢) وفى الأصل « ويسيئونى » والذى فى كتب اللغة أن « ساء » متعد بنفسه ، يقال : ساءه يسوءه : فعل به مايكره، نقيض سره ، وأساءه متعد بحرف الجر ، يقال: أساء إليه نقيض أحسن إليه ، ويقع متعديا بنفسه ولكن بمعنى أفسد ، يقال أساء الشىء : أى أفسده ولم يحسن عمله .

(٣) أى معين .

المستقى » . أرِدْ بكل ما يكون منك من خير إلى أحدٍ الله ، فإنه بلغنى عن النبى صلى الله عليه وسلم أن قوله عز وجل : « فَوَيْلٌ لِلْمُصَلِّينَ . الَّذِينَ هُمْ عَنْ صَلَاتِهِمْ سَاهُونَ ، الَّذِينَ . هُمْ يُرَاءُونَ وَيَمْنَعُونَ الْمَاعُونَ » قال : « المنافق » . الذى إن صلى رَاءى ، وإن فاتته لم يبلغ إليها ، « ويمنعون الماعون » قال . الماعون . الزكاة التى فرضها الله عز وجل .

إياك والرِّياءَ ، فإنه بلغنى أنه لا يَصْعَد عملُ المرائى إلى الله عزّ وجل ، ولا يزكّيه عنده . إن استطعت أن تعمَلَ ما عملتَ فيما بينك وبين الله فافعل ، فإنه بلغنى عن النبى صلى الله عليه وسلم أنه قال . « نضّر الله امرأً سَمِع مقالتى فوعاها حتى يبلّغَهَا غيرَه ، فرُبَّ غائبٍ أحفظُ من شاهد ، ورُبَّ حاملِ فقهٍ غيرُ فقيهٍ » لا يَغِلُّ قلبُ امرئٍ مسلم عن ثلاث خصال : إخلاصِ العمل لله ، والنصيحةِ للإمام العادل ، والنصيحة لعامة المسلمين ، فإن دعوتَهم تُحيط من ورائهم . إياك وسوء الخلق ، فإنه يدعو إلى معاصى الله تعالى ، وقد بلغنى عن النبى صلى الله عليه وسلم أنه قال : « خِيارُكم أحسنُكم أخلاقا » .

اخضع لله إذا خلوتَ بعملك ، فإنه بلغنى عن النبى صلى الله عليه وسلم « أن مَلَكا أتاه فقال : إن ربك يُقرِئك السلام ويقول : إن شئت أجعلك مَلِكا نبيا ، أو عبداً نبيا ، فأشار إليه جبريل عليه السلام أنْ تواضعْ ، فما أكل متكئا حتى مات » . لا تظلِمِ الناسَ فيُديلَهم[1] الله عليك ، فإنه بلغنى عن بعض العلماء من الصحابة أنه قال : « ما ظلمتُ أحداً أشدَّ علىَّ ظلما من أحد لا يستعين علىَّ إلا بالله تعالى .

احذر البغى ، فإنه عاجِلُ العقوبة ، بلغنى عن النبى صلى الله عليه وسلم أنه قال : « إن أعجَلَ الخير ثوابا صلةُ الرحم ، وإن أعجل الشر عقوبةً اليمينُ الغَمُوسُ[2] »

---

(١) أى فينصرهم ويعطيهم الغلبة .

(٢) اليمين الغموس : هى اليمين الكاذبة التى يتعمدها صاحبها عالما بأن الأمر بخلافه ، وسميت بذلك لأنها تغمس صاحبها فى الإثم ثم فى النار .

تترك الديارَ بلاَقِعَ[1] » . لا تحلف بغير الله فى شىء ، فإنه بلغنى عن النبى صلى الله عليه وسلم أنه قال : « لا تحلفوا بآبائكم ، لِيحلِفْ حالفٌ بالله أو ليَسكُتْ » ولا تحلف بالله فى كل شىء ، فإنه بلغنى أن ذلك قوله تعالى : « وَلاَ تَجْعَلُوا اللهَ عُرْضَةً لِأَيْمَانِكُمْ » .

ارحم الناس يَرحَمْك الله ، بلغنى عن النبى صلى الله عليه وسلم أنه قال : « من لا يرحم الناس لا يرحمه اللهُ » . أحبِبْ طاعة الله يُحبَّك الله ويُحَبِّبْك إلى خَلقه ، قال عز وجل لنبيِّه : « قُلْ إِنْ كُنْتُمْ تُحِبُّونَ اللهَ فَاتَّبِعُونِى يُحْبِبْكُمُ اللهُ » وقال عليه الصلاة والسلام : « إن الله جعل قُرَّةَ عينى فى السجود » وقال بعض العلماء : « ما أسَرَّ عبد قطُّ سريرةَ خيرٍ إلا ألبسه الله رِداءها ، ولا أسَرَّ سريرةَ شرٍّ قطُّ إلا ألبسه الله رداءها » .

وليكن عليك السكينةُ والوَقار فى مَنطِقك ومجلسك ومَركَبك ، فإنه بلغنى عن النبى صلى الله عليه وسلم أنه قال ، والناس يَرحَفون حوله : « عليكم بالسكينة » . أعطِ دابتك إذا رَكِبتَها حظَّها من الأرض ، وحظَّها من القَصد عليها ، بلغنى عن النبى صلى الله عليه وسلم أنه قال : « إذا ركبتم هذه الدوابَّ العُجْمَ فأعطُوها حظَّها من الأرض » .

عليك بالحلم والإغضاء عما كرِهتَ ، ولا تتَبَّع[2] ذلك من أحد بلغك عنه أذى ولا تكافِئْه ، فإن فى ذلك الفضلَ فى الدنيا والآخرة ، بلغنى عن النبى صلى الله عليه وسلم أنه قال : « إن الله يحب الحليم الحَيِيَّ العفيفَ المتعفِّف » . ادفع السيِّئةَ بالتى هى أحسنُ ، بلغنى عن النبى صلى الله عليه وسلم أنه قال : « أيها السُّلَمِيُّ : اتق العقوقَ وقطيعةَ الرَّحِم ، فإن فى ذلك شَيْناً فى الدنيا ، وتباعدا فى الآخرة » ، وبلغنى عن النبى

---

(١) جمع بلقع كجعفر : الأرض القفر .
(٢) فى الأصل « ولا تتبع » وأراه محرفا .

صلى الله عليه وسلم أنه قال : « اشتكت الرَّحِمُ إلى الله عز وجل ممن يقطعها ، فردَّ الله عليها : أَمَا ترضَيْن أن أصِلَ مَن وَصَلَك ، وأقطع مَن قَطَعك ! » .

إذا غضبتَ من شيء من أمر الله ، فاذكر ثواب الله على كَظْم الغيظ ، قال عزَّ وجل : « وَالْكَاظِمِينَ الْغَيْظَ وَالْعَافِينَ عَنِ النَّاسِ ، وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ » . وبلغني عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال : « ما امتلأ رجل غيظا ، فكظَمه الله ، إلا ملأه الله رضوانا يوم القيامة » .

إذا وعدت مَوْعِدا في طاعة الله فلا تُخْلِفْه ، وإذا قلت قولا فيه رضا الله فأوفِ به ودُم عليه ، بلغني عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال : « من تكفَّلَ لى بِستٍّ أتكفَّلْ له بالجنة : إذا حدَّث لم يكذب ، وإذا وعد لم يُخلِف ، وإذا اؤتمن لم يَخُن ، وغَضَّ بصرَه ، وحفظ فرجَه ، وكَفَّ يده » .

إذا حلَفت على يمين ليست من طاعة الله فلا تَهُمَّنَّ بها وكفِّرها ، فإنه بلغني عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال : « لا نَذْرَ في معصية الله » وكفارتها كفارة يمين ، والنذر يمين ، وإذا حلفت على يمين ثم رأيت غيرها خيرا منها ، فأْتِ الذى هو خيرٌ وكفِّر عن يمينك ، فإنه بلغني عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال ذلك . إياك والتزيُّدَ في القول ، وأن تقولَ قولا وأنت تعلم أنه لم يكن ، فإنه بلغني عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال : « ثلاثة لا ينظر الله إليهم يوم القيامة : الإمام الكذاب ، والعائلُ المزهوُّ[(١)] ، والشيخ الزانى » .

بِرَّ[(٢)] والديك وخُصَّهما منك بالدعاء في كل صلاة ، وأكثِرْ لهما الاستغفار ، وابدأ بنفسك قبلهما ، فإن إبراهيم عليه السلام قال : « رَبِّ اغْفِرْ لِي وَلِوَالِدَيَّ » فبدأ بنفسه قبل والديه ، وبلغني عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال : « من سَرَّه أن

(١) العائل : الفقير ، عال يعيل عيلا وعيلة : افتقر ، والمزهو : المتكبر ، من الزهو : وهو الكبر والتيه والفخر ، وقد زهى كعنى ، وكدعا قليلة .

(٢) فعله كعلم وضرب .

يُنسَأُ(١) له فى عمره ، ويزاد فى رزقه ، فليتق الله ربه ، وليصِلْ رَحِمَه » . اشكرِ الناس ما أتَوا إليك من خيرهم ، وكافِئهم إن قَدِرت عليه ، فإنه بلغنى عن النبى صلى الله عليه وسلم أنه قال : « من لم يشكرِ الناسَ لم يشكرِ اللهَ » .

إذا ركبت دابة فوضعْتَ رجلك فى الرِّكاب فقل : باسم الله ، وإذا استويت راكبا فقل : « سُبْحَانَ الَّذِى سَخَّرَ لَنَا هٰذَا وَمَا كُنَّا لَهُ مُقْرِنِينَ(٢) » . فإنه بلغنى عن النبى صلى الله عليه وسلم أنه كان يقول ذلك كلما ركب دابة. إذا أكلت وشربتَ فاذكر اسم الله ، فإن نسيت فى أول حالك فاذكره إذا ذكرتَ، بلغنى عن ابن مسعود رضى الله عنه أنه قال : « تذكَّرِ اسمَ الله حين تأكل(٣) ، فإنه يحول بين الخبيث وبين أن يأكل معك(٤) ، ويتقيَّأ ما أكل » ، فإذا فرَغتَ فقل : الحمد لله الذى أطعمنا وسقانا وجعلنا مسلمين ، فإنه بلغنى عن النبى صلى الله عليه وسلم أنه كان يقول ذلك إذا أكل وشرب ، وإذا أكلتَ ومعك آخرُ فكل مما يليك بيمينك ، ولا تأكل من فوق الطعام ، ولا من بين يدى أحد . فإنه بلغنى عن النبى صلى الله عليه وسلم أنه قال للرجل يفعله : « اذكر اسم الله ، وكُلْ مما يليك ، وكل بيمينك ولا تأكل بشمالك » ، وبلغنى عن النبى صلى الله عليه وسلم أنه قال : « إنها أكْلة الشيطان » .

لا تسافر ما استطعْتَ إلا فى يوم الخميس ، فإنه بلغنى عن النبى صلى الله عليه وسلم أنه كان يستحبّ أن يسافر يوم الخميس ، لا يسافِرُ إلا فيه . إذا أصابك كرب فقل : يا حَىُّ يا قَيُّومُ ، برحمتك أستغيثُ ، فإنه بلغنى عن النبى صلى الله عليه وسلم أنه كان يقول ذلك عند الكرب .

---

(١) أى يؤخر .

(٢) أى مطيقين ، أقرن للأمر: أطاقه وقوى عليه ، وعن الأمر ضعف ضد ، وأول الآية الكريمة « وَجَعَلَ لَكُمْ مِنَ الْفُلْكِ وَالْأَنْعَامِ مَا تَرْكَبُونَ ، لِتَسْتَوُوا عَلَى ظُهُورِهِ ثُمَّ تَذْكُرُوا نِعْمَةَ رَبِّكُمْ إِذَا اسْتَوَيْتُمْ عَلَيْهِ وَتَقُولُوا سُبْحَانَ الَّذِى . . . » .

(٣) فى الأصل « تذكر » وأراه محرفا .   (٤) فى الأصل « معه » .

احترس ممن يقرّب إليك بالنّميمة ، ويبلّغ الـكلام عن الناس ، بلغنى عن النبى صلى الله عليه وسلم أنه قال : « ملعونٌ مَن لعَن أباه ملعونٌ مَن لعَن أمَّه ، ملعونٌ من غيّر تُخُوم(١) الأرض ، ملعون كلُّ صَقَّار ، وهو النمَّام » . لا تجُرَّ ثيابك ، فإن الله لايحب ذلك . وبلغنى عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال : « من جرَّ ثيابه خُيَلاء لم ينظر الله إليه يوم القيامة » . أطِـع الله فى معصية الناس ، ولا تُطع الناس فى معصية الله ، بلغنى عن النبى صلى الله عليه وسلم أنه قال : « لاطاعَةَ لمخلوق فى معصية الخالق» .

إذا أصابك حزن أو سَقَم أو ذِلة أو لَأْواء(٢) — يعنى الجوع — فقل : الله ربى لا أشرِك به شيئا ، ثلاث مرات ، بلغنى عن النبى صلى الله عليه وسلم أنه كان يأمر بذلك من أصابه شيء من ذلك . اصبِر على ما أصابك من فجائع الدنيا وأحزانها ، لقول الله تعالى : « إِنَّمَا يُوَفَّى الصَّابِرُونَ أَجْرَهُمْ بِغَيْرِ حِسَابٍ » والصبرُ من الإيمان بمنزلة الرأس من الجسد .

لا تمارِيَنَّ أحداً وإن كنت مُحِقًّا ، بلغنى أن قول الله عز وجل : « فَلَا رَفَثَ(٣) وَلَا فُسُوقَ وَلَا جِدَالَ فِي الْحَجِّ » أنه المِراء(٤) . إذا همَمتَ بأمر من أمور الدنيـــا ففـكِّر فى عاقبته ، بلغنى عن النبى صلى الله عليه وسلم أنه قال : « إذا هممت بأمر من أمور الدنيا ففـكِّر فى عاقبته ، فإن كان رُشْداً فأَمْضِه ، وإن كان غَيًّا فانتَهِ عنه » .

إياك والتجريدَ(٥) خاليا ، فإنه ينبغى لك أن تستحيى من الله إذا خلوتَ ، فإنه بلغنى عن النبى صلى الله عليه وسلم أنه قال : « لا أحِبُّ أن يَلِيَ لى شيئا مَن لايستحيي

---

(١) التخوم : الفصل بين الأرضين من المعالم والحدود .

(٢) فى اللسان : اللأْواء : الشدة وضيق المعيشة ، ومنه الحديث « من صبر على لأواء المدينة ...» واللأْواء: المشقة والشدة ، وقيل القحط ، يقال أصابتهم لأواء وشصاصاء بالفتح وهى الشدة ، وتـكون اللأْواء فى العلة .

(٣) الرفث : الجماع والفحش .

(٤) كذا فى كتب التفسير قالوا : ولا جدال : أى ولا مراء مع الخدم والرفقة ، والمراء: المجادلة

(٥) التجريد : التعرية من الثياب .

من الله في الخلاء » . وإياك أن تدخل الحمّام وللماء إلا بإزار ، ولا يدخل معك أحد الحمّامَ إلا بإزار ، ولن تقدر على ذلك ، فإن لم تقدر فغُضَّ طَرْفَكَ عن كل أحد كان مكشوفا ، بلغني عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال : « لا يحِلّ لامرئ يؤمن بالله واليوم الآخر أن يدخل الحمام إلا بإزار » . أفْشِ السلام ، وإن استطعت ألاّ يَسْبِقك أحد إليه فافعل ، تُعط بذلك فضلا عن الناس ، وبلغني عن ابن مسعود أنه قال: « السلام اسم من أسماء الله وَضَعه فيكم فأفشوه فيكم ، فإن الرجل إذا سلَّم كُتب له عشرُ حَسَنات » .

أدِّبْ ولدك ومن وليتَ أمرَه على خُلُقِك وأدبك ، حتى يتأدبوا على ما أنت عليه ، فيكونوا لك عوناً على طاعة الله ، بلغني عن ابن مسعود أنه قال : « كل مؤدِّب يحبّ أن يؤخَذ بأدبه ، وإنّ أدب الله هو القرآن » . وإذا استشارك أحد فإن شئت تكلمت ، وإن شئت سكتَّ ، واجتهدْ رأيك ، فإنه بلغني عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال : « المستشار بالخيار ، إن شاء تكلم ، وإن شاء سكت » . لا تُفْشِ على أحد سرا أفشاه إليك ، فإنما هي أمانةٌ استودَعَكَها وائتمنَك عليها ، إلا أن يكون إفشاؤه خيراً لهُ في دنياه وآخرته ، فأفْشِها عليه وانْصَحْه فيها ، بلغني عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال : « مِن حقّ المسلم على المسلم إذا استنصحه أن ينصحه » .

إذا تعلَّمت علما من طاعة الله فلْيُرَ عَلَيْك أثرُه ، ولْيُرَ فيك سِمَتُهُ ، وتعلَّمْ للذى تعملُه ، وتعلَّمْ لهُ السكينةَ والحلم والوقار ، بلغني عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال : « العلماء وَرَثَةَ الأنبياء » . رُدَّ جوابَ الكتاب إلى كلّ أحد كتب إليك ، فإنما هو كردّ السلام ، قال الله عز وجل : « وَإِذَا حُيِّيتُمْ بِتَحِيَّةٍ فَحَيُّوا بِأَحْسَنَ مِنْهَا أَوْ رُدُّوهَا » وقال ابن عباس رضي الله عنهما : « أرى رَجْعَ الكتاب عليّ حقا ، كما أرى رجعَ السلام » . الزم الحياء فإنه خُلُق الإسلام ، بلغني عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال : « لكل شيء خُلق ، وخلق الإسلام الحياء » . إذا سافرت فقل : اللهم إني أعوذ بك

من وَعْثاء[1] السفر ، وكآبة المنقلَب ، ودعوة المظلوم ، وسوء المنظر فى الأهل والمال ، والحَوْر بعد الكَوْر[2] ، بلغنى عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه كان يقول ذلك إذا سافر .

إياك وظلمَ الضعيف ومَن لا يستعين عليك إلا بالله ، بلغنى عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال : « ثلاثة لا تُرَدّ دعوتهم : الإمام العادل ، والصائم حتى يُفطِر ، ودعوة المظلوم فإنها تصعَد فوق الغمام ، فيقول الله لها : وعِزّتى وجلالى لأنصرَنّكِ ولو بعد حين » . إذا ودّعتَ مسافرا فقل : زوّدك اللهُ التقوى ، وغفَر لك ذنبك ، ويسّر لك الخير حيثما كنتَ ، أستودِعُ اللهَ دينَك وأمانتك وخواتيمَ عملك ، بلغنى عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه كان يأمر بها أصحابه .

إذا حضرتَ أمراً ليس لله بطاعة ، ولا تقدِرُ على أن تدفعه ، فقم عنه ولا تقعد ، بلغنى عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال : « لا يمنعَنّ أحدَكم مخافةُ الناس أن يقول الحق إذا شهِده أو علِمَه » . الزَم السِّواك فإنه سُنّة ، بلغنى عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال : « السِّواك من سُنن المرسلين » . أفشِ الصّدَقةَ فإنها تدفع مِيتةَ السوء ، وليكن ذلك من أطيب مالك ، فإن الله تعالى لا يقبل إلا الطيِّب ، بلغنى عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال : « إن أحدكم ليتصدّق بالتمرة إذا كانت من طيِّب - ولا يقبل الله إلا الطيِّب - فيجعلُها فى كفِّه ، فيربّيها له كما يربى أحدكم فِلْوَه[3] أو فَصيلَه ، حتى تكون فى يده مثل الجبل » .

إذا نزلتْ بك كُربةٌ من كرب الدنيا فليكن مَفْزَعك فيها إلى الله عز وجل حين تنزل بك . بلغنى عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال : « لن ينزل بعبد قطُّ أمرٌ

(١) الوعثاء : المشقة .

(٢) الحور : النقصان ، والكور : الزيادة ، وفى الحديث : « نعوذ بالله من الحور بعد الكور » أى من النقصان بعد الزيادة ، وقيل معناه من فساد أمورنا بعد صلاحها .

(٣) الفلو بالكسر وكعدو وسمو : الجحش أو المهر فطما أو بلغا السنة ، والفصيل ولد الناقة إذا فصل عن أمه .

كان مَفزَعُه فيه إلى الله إلا فرّج الله عنه » . لا تضطجعْ على بطنك إذا نمت ، ولاَ فى غير نومك ، بلغنى عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال : « إنها الضَجْعــــة يُبغضها الله » . أوفِ بالعهد إذا أعطيتَه من نفسك لكل أحد ، بلغنى عن النبى صلى الله عليه وسلم أنه قال : « أحقُّ ما وُفِّىَ بهِ عهدُ الله » .

إذا حضرت السلطانَ فاشفع بخير ، وإياك والكلامَ عنده إلا بما يُرْضى اللهَ ، بلغنى عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال: « إن الرجل ليتكلم بالكلمة مِنْ سُخط الله ما يظن أنها تبلغ ما بلغَتْ ، يكتب لهُ بها سخطَه إلى يوم القيامة ، وإن الرجل ليتكلم بالكلمة من رضوان الله ما يظن أنها تبلغ ما بلغَت ، يكتب لهُ بها رضوانَه إلى يوم القيامة » . أسِرَّ ما أردتَ بهِ اللهَ ما استطعتَ ، بلغنى عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال : « صدقة السِّر تطفئُ غضب الرب » . اتق كثرة التزكية لنفسك ، أو ترْضَى بها من أحد يقولها لك فى وجهك . بلغنى أن رجلا امتدح رجلا عند النبي صلى الله عليه وسلم فقال : « وَيْحك قطعتَ عنقه ! ولو سمعها ما أفلح أبدا » . إياك ومدحَ الناس والثناء عليهم فى وجوههم ، بلغنى عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال : « احثُوا[1] الترابَ فى وجوه المدّاحين » . طهِّر ثيابك وَنقِّها من معاصى الله تعالى ، فإنه بلغني أن قوله « وَثِيَابَكَ فَطَهِّرْ » يأمره ألاَّ يَلبسَها على عَذِرة[2] . واكره لكل أحد ما تكره لنفسك ، بلغنى عن النبى صلى الله عليه وسلم أنه بايع جَرِيرا البَجَلىَّ على الإسلام والنصيحة لكل مسلم .

إياك والحسدَ والشَّرَهَ ، بلغنى أنهما خُلُقان مُرْدِيان لصاحبهما فى الدنيا والآخرة ، وقال صلى الله عليه وسلم : « لا حَسَدَ إلا فى اثنتين : رجل آتاه الله مالا وسلّطه على إنفاقه فى الحق ، ورجل آتاه الله حكمةً فهو يقضى بها ويعلّمها » . اقتدِ فى أمورك برأى

(١) حثا التراب فى وجهه يحثوه ويحثيه حثوا وحثيا : رماه .
(٢) العذرة : الغائط .

ذوى الإنصاف من أهل التقوى ، بلغنى عن النبى صلى الله عليه وسلم أنه قال « خِيارُكم شبانكم المتشبِّهون بشيوخكم ، وشِرارُكم شيوخكم المتشبِّهون بشبانكم » . لا تحتكِرْ[1] أحدا ، ولا تُجالِسْ مأبونا[2] ، فإن الوَحْدة خير من جليس السوء .

عليك بمعالى الأخلاق وكريمها ، واتق رذائلها وما سَفْسَفَ منها ، بلغنى عن النبى صلى الله عليه وسلم أنه قال : « إن الله يحب معالىَ الأخلاق ، ويكره سَفْسَافها[3] » . إذا رأيت مَن فَضَلْتَ عليه فى دينك ودنياك فأكثِرْ حمدَ الله عليه ، فإن ذلك من الشكر ، بلغنى أن النبى صلى الله عليه وسلم قال : « ما أنعم اللهُ على عبد بنعمة فقال الحمد لله ، إلا كان ذلك أعظمَ من تلك النعمة وإن عظُمَت » .

لا تَركب المِيثَرَةَ[4] الحمراء ، ولا تلبَس المُعَصْفَر ، فإنه بلغنى عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه نهى عن ذلك . إذا غضِبتَ وأنت قائم فاقعد ، وإن كنت قاعداً فاضطجع ، بلغنى ذلك عن النبى صلى الله عليه وسلم . لاتتطيرَنَّ من شىء تراه أو تسمعه ، وإذا كان من ذلك شىء فقل : اللهم لا يأتى بالخير إلا أنت ، ولا يدفعُ السوء إلا أنت ، ولا حولَ ولا قوة إلا بالله ، بلغنى أنّ النبى صلى الله عليه وسلم كان يأمر بذلك لمن رأى من ذلك شيئا . لا تتوضأ بشىء مما تأكل من الطعام ، ولا تَدْلُكْ به فى الحمام ، فإن ذلك من الجفاء ، لا تتخلقَنَّ بالخَلُوق[5] إلا أن يكون فى إثر النُّورة[6] ليُذهِب ريحها ، بلغنى عن النبى صلى الله عليه وسلم أنه قال : « بينما رجل فى بُردتين له متخلِّق

---

(١) الحكر بالفتح : سوء المعاشرة ، وفعله كضرب ، يقال : فلان يحكر فلانا إذا أدخل عليه مشقة ومضرة فى معاشرته ومعايشته .

(٢) أى متهما بشر .

(٣) سفساف الأخلاق : رديئها .

(٤) الميثرة : مركب من مراكب الأعاجم من ديباج أو حرير ، وثوب معصفر : مصبوغ بالعصفر

(٥) الخلوق : ضرب من الطيب ، وتخلق : تطيب .

(٦) النورة : حجر الكلس ثم غلبت على أخلاط تضاف إلى الكلس من زرنيخ وغيره وتستعمل لإزالة الشعر .

يتبختر فيهما إذ ساخت به الأرض فهو يتجلجل(١) فيها إلى يوم القيامة .

لا تُغَيِّرَنّ(٢) أظفارك بالحنّاء ولا يديك إذا دخلت الحمام ، فإنه ليس من سِيمى أهل الفضل ، ولا تحلف بالطلاق ولا بالعتاق ، فإنها من أيمان الفُسّاق . بلغنى عن عمر رضى الله تعالى عنه أنه قال : « أربعٌ جائزة إذا تُكُلِّمَ بهن : الطلاق والعتاق والنكاح والنذر ، وأربعة يُمسون والله عليهم ساخط ، ويُصبحون والله عليهم غضبانُ : المتشبهون من الرجال بالنساء ، والمتشبهات من النساء بالرجال ، ومن أتى بهيمة ، أو عمِل عَمَل قوم لوط » . لا تتطيبَنَّ بشىء من الطيب يظهَر لونه ، فإن النبى صلى الله عليه وسلم قال : « طِيبُ الرجل ما بَطَن لونه وظهَرَ ريحُهُ ، وطيب النساء ما ما ظهر لونه وبطن ريحه » .

الزَم الرأى الحسن ، والهَدْى(٣) الحسن ، والاقتصاد . بلغنى عن ابن عباس رضى الله عنهما أنه قال : « الرأى الحسن جزء من خمسةٍ وعشرين جزءا من النبوة » . إن استطعت ألاّ تدع العمامة والبُرد فى العيدين والجمعة فافعل . بلغنى عن النبى صلى الله عليه وسلم أنه كان يلبس العمامة والبُرْد فى العيدين والجمعة ، وقال : « إن الله تعالى أعزَّ الإسلام بالعمائم والألوية » . إذا طلاك أحد بالنُّورة فبلَغَ المَرَاقَّ(٤) فلا يَلِ ذلك منك إلا نفسُك ومن يُحْسِن ذلك من نسائك ، فإنه بلغنى عن بعض العلماء أنه كان يَلِى ذلك من نفسه .

لا بأس أن تغتسل بماء الحَمّام وأنت جُنُبٌ وتصلِّىَ ، بلغنى عن ابن عباس أنه سئل عن الجُنُب يغتسل فى الحمام ، فقال : إن الماء لا يَجْنُبُ(٥) ، وإذا تنحَّت

---

(١) التجلجل : السئوخ فى الأرض .
(٢) غيره به تغييرا : لطخه به ، وفى الأصل « لاتغيرن » وهو تصحيف .
(٣) الهدى : الطريقة والسيرة .
(٤) مراق البطن : مارق منه ولان ، جمع مرق ، أو لا واحد لها .
(٥) أى لا ينجس .

فى المسجد فادفِنه ، بلغنى عن بعض العلماء أنه قال : « هى خطيئة ، وكفّارتها دفنُها ».
إذا نمت فقل عند منامك : « اللهم أنت القائم الدائم لا تزول ، خلقت كل شىء لا شريكَ لك ، علِمْتَ كل شىء بغير تعليم ، اغفر لى فإنه لايغفر الذنوب إلا أنت» .
بلغنى عن النبى صلى الله عليه وسلم أنه قال : « ألاَ قلتم كما قال علىّ بن أبى طالب » رضى الله عنه ! وهو الذى قال ذلك . إذا أتيت الحاجة فلا تستقبِل القبلةَ بفَرجك ولا تستدبِرْها ولا تستنجِ بيمينك ، بلغنى عن النبى صلى الله عليه وسلم أنه كان يأمر أصحابه ألاّ يستقبلوا القبلةَ ، ولايستنجوا بأيمانهم، ولا يستنجوا بعَظْم ولا رَوْث .

إذا انصرفت من الصلاة فقل : « اللهم إنى أسألك من الخير كلِّه ما علمتُ منه وما لم أعلم ، وأعوذ بك من الشر كله ما علمتُ منه وما لم أعلم . اللهم إنى أسألك من الخير ما سألك عبادُك الصالحون ، وأعوذ بك من الشر ما عاذ منه عبادك الصالحون . اللهم آتِنا فى الدنيا حسنة ، وفى الآخرة حسنة ، وقِنا عذابَ النار » ، بلغنى عن ابن مسعود أنه قال : ما دعا مرسَلٌ ولا عبد صالح بشىء حَسَن إلا هو فيه . يعنى فى هذا الدعاء . لا تشتم عبداً لك ولا أمَة بزنى . فإنه بلغنى عن النبى صلى الله عليه وسلم أنه قال : « من قَذَف أمَةً أو حُرة أو يهودية أو نصرانية ، فلم يُضْرَب فى الدنيا ضُرب يوم القيامة ثمانين جَلدة » .

إذا كنت مسافراً أو مقيما فامسح إن شئت على خُفَّيك، إن كنت مسافراً ثلاثةَ أيام ولياليَهن ، وإن كنت مقيما فيوما وليلة . بلغنى عن النبى صلى الله عليه وسلم أنه قال ذلك ، وعمر بن الخطاب رضى الله عنه وعلىّ بن أبى طالب وابن عباس رضوان الله عليهم قالوا ذلك . إذا صافحك أحد فلا تنزِعنّ يدك عن يده حتى يكون هو الذى ينزِع يده عن يدك ، بلغنى عن النبى صلى الله عليه وسلم أنه لم يصافح أحداً فنزع يده حتى يكون هو الذى ينزع يده . إذا أقبل عليك رجل بوجهه يحدِّثك فلا تصرفْ وجهك عنه حتى يكون هو الذى يصرفُ وجهَه عنك ، وإذا جلست إلى جَنْب رجل

أو جلس إلى جنبك رجل ، فلا تقومَنَّ من بين يديه ، ولا تجاوزنَّ ركبتُك ركبتَه . بلغني عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه لم تتجاوز ركبته ركبةَ جليسٍ له. وإذا أحسست من أمير ظُلاَمةً أو تغطرُساً فقل : اللهُ أكبر اللهُ أكبر اللهُ أكبر، أعزُّ من خلقه جميعا، اللهُ أكبر مما أخاف وأحذر ، وأعوذ بالله المُمسِكِ السماء أن تقع على الأرض إلا بإذنه من شر فلان ، اللهم كن لى جاراً من فلان وجنوده أن يَفرُط[1] علىَّ أحدٌ منهم أو أن يَطغَى ، جَلَّ جلالك ، وعز جارك ، ولا إله غيرك ، تقول ذلك ثلاث مرات ، بلغنى عن ابن عباس أنه قال ذلك وأمرنا به ، وإذا كتبت إلى أحد من غير أهل الإسلام فلا تكتبَنّ : « سلام الله عليك » ولكن اكتب : « السلام على من اتبع الهدى » . بلغنى عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه كتب ذلك إلى مسيلمةَ . إذا عطَست فى الخلاء فاذكر اسم الله خفيا .

لا تدَّهن فى مَدْهُن ذهب ولا فضة ، ولا تستجمِر فى مجامر[2] الذهب والفضة . بلغنى عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه نهى عن الشرب فى إناء الذهب والفضة ، لا تنم على الحرير والدِّيباج فإنه لِبسة النساء . بلغنى عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه نهى عن لُبْس الحرير والديباج إلا للنساء . إذا رأيت أمراً فى أهلك وخاصَّتك مما ينبغى تغييره ، فلا تحابِيَنّ منهم أحدا ، وقم فيه بالذى يحقُّ عليك ، بلغنى عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال : « انصر أخاك ظالما أو مظلوما » .

إذا هممْتَ بأمر من طاعة الله عز وجل فلا تحبِسه إن استطعت فُواقا[3] حتى تُمضيَه ، فإنك لا تأمن الأحداث ، وإذا هممت بأمر غير ذلك ، فإن استطعت ألاَّ تُمضيه فُواقا فافعل ، لعل الله تعالى يُحدِث لك تركَه . لا تستحْىِ إذا دُعيت لأمر ليس بحق أن تقول لا ، فإن الله تعالى يقول : « وَاللهُ لاَ يَسْتَحْيِي مِنَ الْحَقِّ » .

---

(١) أى يعجل على بالعقوبة .
(٢) المجامر جمع مجمرة بالكسر : وهى المبخرة .
(٣) الفواق بالضم ويفتح : مابين الحلبتين من الوقت ، أو مابين فتح يدك وقبضها على الضرع .

إذا سمعت المؤذن يؤذن فقل كما يقول ، إلا أنك تقول إذا قال : حَيَّ على الصَّلاة ، حَيَّ عَلَى الفلاح ، لاحول ولاقوة إلا بالله . بلغني ذلك عن النبي صلى الله عليه وسلم «لا تخلُوَنَّ بامرأة ليست لك بمَحْرَم[1]» بلغني عن عمر بن الخطاب رضي الله عنه أنه قال : «ماخلا رجل بامرأة ليست له بمَحْرَم إلا كان ثالثهما الشيطان» ، إذا قال الإمام آمينَ ، فقل آمين ، فإنه ينبغي إذا فرغ من أم[2] القرآن أن يقول آمين ، وَيقوله مَن خَلْفَه سِرًّا ولا يَجهَر بِهِ . بلغني عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال : « إذا أمَّن الإمام فأمِّنوا ، فإن الملائكة تؤمِّن لتأمين الإمام ، فمن وافق منكم تأمين الملائكة غُفِر له ما تقدم من ذنبه » .

إذا قضيتَ الحاجة فلا تبدأ بشيء حتى تغسِلَ فرجك بالماء . بلغني عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال لأهل مسجد قُبَاء : إنما نزلت هذه الآية فيكم « فِيهِ رِجَالٌ يُحِبُّونَ أَنْ يَتَطَهَّرُوا وَاللهُ يُحِبُّ الْمُطَّهِّرِينَ » . فأَنبِئونى ماهذا التطهيرُ الذى ذُكِرتم به فأُثْنِيتم[3] عليه ؟ قالوا : « والذى بعثك بالحق نبيا ، ما مِنَّا امرأة ولا رجل يأتى الخلاء فيبدأ بشيء دون غسل فرجه بالماء » . إذا أكلت طعاما فَعلِقَ بين أصابعك فالْعَقْها ، وأسنانك فتخلَّل . فإنه بلغنى عن النبى صلى الله عليه وسلم أنه قال : « ليس شيء أشدَّ على المَلَك من أن يرى فى الرجل طعاما وهو يصلي » .

إذا نزلت منزلا فقل : « أعوذ بكلماتِ الله التامَّات من شر ما خلق » . بلغنى عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال : « من نزل منزلا فقال هذه الكلمات وُقِيَ شرَّ منزله حتى يرتحِلَ منه » . لا تأكل شيئاً من ثمن طعام لا يحِلّ لك أكله ، ولا شيئاً من ثمن شرابٍ لا يحل لك شُربه ، قال النبي صلى الله عليه وسلم فى الخمر : « إن الذى حرَّم شربها حرَّم ثمنها » ولا تَدَاوَ بشيء لا يحل لك أكلُه ولا شربُه ،

---

(١) المحرم : ذات الرحم فى القرابة التى لايحل تزوجها .

(٢) أم القرآن : الفاتحة . (٣) فى الأصل « فاثنيتوا » .

ولا تبعه ولا تشتره ولا تطعمه ولا تُطعمه أحدا ولا تسقه . ولا تُداوِ بهِ أحدا صغيراً ولا كبيرا ولا بهيمة ولا غيرها ، بلغنى عن بعض علماء الصحابة أنه نُعِت لبعير له خمر فقال : « لا والله لا أُوجِرُه[١] خمرا » .

لا تأكل لحم شيء من السباع ولا ذا مِخْلَب من الطير . بلغنى أن النبي صلى الله عليه وسلم نهى عن أكل كُلِّ ذى ناب من السباع . إذا فزِعتَ فى منامك فقل : « أعوذ بكلمات الله التّامات من غضبه وعقابه ، ومن شر عباده ، ومن شر الشياطين ، وأن يَحضُرونِ » . بلغنى عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال : « إذا فزِع أحدكم فى منامه فليقل ذلك » . إذا قلتَ لأحد أقسمتُ عليك لتفعلَنَّ ، فلم يفعل الذى أقسمتَ عليه أن يفعله وجب عليك الحِنثُ ، وكفِّر عن يمينك ، وكذلك إن قلت له : أَحلِف عليك أو أشهد عليك لَتفعلَنَّ فلم يفعل ، وجب عليك الحِنْث ، وكذلك إذا كنت وقَّتَّ له وقتا معلوما فتركه حتى جاوز الوقتَ .

لاتبدأنَّ أحداً من غير أهل الإسلام بالسلام ، لكن لو سلَّم هو فقل : وعليكم . بلغنى أن النبي صلى الله عليه وسلم أمر بذلك . لا بأس أن تأكل جُنُباً ـ وإن كنت لم تتوضأ ـ إذا غسلت يديك . لا تقل لأحد صلى الله عليك . بلغنى عن ابن عباس رضى الله عنهما أنه قال : « لا تنبغى الصلاة من أحد لأحد إلا النبي عليه الصلاة والسلام » ولا تقل لأحد : جعلنى الله فداءك . بلغنى أن الزبير قال للنبي صلى الله عليه وسلم ذلك وهو مريض ، فقال لهُ النبي صلى الله عليه وسلم : « ما تركتَ أعرابيتَك بعدُ ! » وبلغنى عن بعض العلماء أنه قال : لا يَفدِ أحد أحدا .

لا بأس بمصافحة الجُنُب ومباشرته . بلغنى عن ابن مسعود أنه قال : « أربعة

---

(١) أوجره الدواء : صبه فى فيه .

ليس عليهم جنابة : الأشْنان[1] والماء والثوب والأرض » . لا بأس بمصافحة اليهودى والنصرانى والصلاة فى بيوتهم . لا تَبْلُغ بشىء من أدبك إذا أدَّبتَ وعاقبتَ أحداً على جُرم اجترمه أربعين سوطا ، قال صلى الله عليه وسلم : « من بَلَغ حداً فى غير حَدٍّ فهو من المعتدين » . إذا أحببت أحدا لله فأعلِمْه « لَمَّا قال رجل للنبى صلى الله عليه وسلم إنى أحبُّ فلانا لله ، قال : أمَا أخبرتَه؟ قال : لا ، قال : فأخبِرْه ، فلما أخبره قال: أحبَّك اللهُ الذى أحببتَنى له » .

لا تَشفَع فيمن وجب عليه حَدٌّ من حدود الله إذا انتهى إلى الإمام ولا تَحُلْ دونه، ولا بأس أن تشفَعَ قبل ذلك ، قال ذلك بعض علماء الصحابة ــ وتشفَّعَ فى سارق ــ فقيل له : أتشفَع فيه وأنت من الصحابة ؟ فقال : لا بأس به قبل أن يبلغ الإمامَ ، فإذا بلغه فلا عفا الله عنه إن عفا عنه . الزَم الصمتَ ، قال النبى صلى الله عليه وسلم : « لا يستكمل الرجل الإيمانَ حتى يخزُن لسانَه » . وإذا أتيت قرية أو بلدا فقل : « اللهم ارزقنا خيرَها ، واصرف عنا وباءها » ، كان النبى صلى الله عليه وسلم يقول ذلك إذا دنا من قرية .

إذا عَطَست فقل : الحمد لله ، فإن قال قائل : يرحمك الله ، فقل : غفر الله لنا ولك . وإن عَطَس عندك مسلم فقال : الحمد لله ، فقل يرحمك الله ، كان علىّ رضى الله عنه يقولها لمن عطس ويقول ذلك : يَهْديك الله ويُصْلح بالك . وكان ابن مسعود يقول لمنْ عَطَس : يرحمنا الله وإياك ، ويقول ذلك : يغفر الله لنا ولك ، ولا تشمِّته[2] حتى يحمَد الله ، قال النبى صلى الله عليه وسلم : « من حق المسلم إذا عَطَس أن يُشمَّت

---

(١) فى الأصل « الأسنان » ورأى أن صوابه « الأشنان » وقد تقدم شرحه فى ص١٢ ، والكلام على حذف مضاف أى ذوو الأشنان . . . الخ . والمعنى أن هذه الأشياء الأربعة لاتتعدى إليها جنابة الجنب ، فلا بأس باستعمالها ومباشرتها إن استعملها هو وباشرها .

(٢) التشميت : الدعاء للعاطس .

إذا حمد الله » . وَقِّرِ الكبير وارحم الصغير ، قال النبي صلى الله عليه وسلم : « ليس منا من لم يرحم صغيرَنا ويوقِّرْ كبيرنا » .

لا تصافِحِ امرأة ليست لك بزوجة ولا مِلْك يمين ، ولا تضع يدها على شيء من جسدك ، ولا تضع يدك على شيء من جسدها، ولا تقبّل يدك ولا شيئاً من جسدك ، ولا تعانق رجلا ولا تقبّله ليس بذى رحم لك ، واصنع ذلك بذى رحمك « ضَمَّ النبي صلى الله عليه وسلم جعفر بن أبى طالب حين قَدِم من الحبشة إلى نفسه وقبّل بين عينيه » لا ترفع صوتك فى مسجد جماعة ، ولا تَشْهَر فيه سلاحا . فقد نهى النبي صلى الله عليه وسلم عنه. إذا دُعِيتَ إلى تحمُّل شهادة فإنك مخيَّر ، فإن شهدتَ فلا يسعك الامتناع إذا دُعيت إلى الأداء .

لا تَمُنَّنْ على أحد بإحسانك فإنه يُبْطل أجرك ، قال الله عز وجل : « لاَ تُبْطِلُوا صَدَقَاتِكُمْ بِالْمَنِّ وَالْأَذَى » ومَن أولاك معروفا وعجزتَ عن مكافأته ، فأَثْنِ عليه واذكُره به ، قال النبي صلى الله عليه وسلم : « من أُولِيَ معروفا فلم يقدر على مكافأته إلا بالثناء فقد شكره ، ومن كتَمه فقد كَفَرَه » .

وإذا طعِمْتَ وعندك أحد فادْعُه ، قال النبي صلى الله عليه وسلم : « إن فى الجنة غُرَفاً يُرَى ظاهرُها من باطنها ، وباطِنُها من ظاهرها » قيل : لمن هى ؟ قال : « لمن أطعم الطعامَ ، وتابعَ الصيامَ ، وطيّب الكلامَ ، وصلّى بالليل والناس نيامٌ » .

إذا عمِلت عملا لله فأحسِنه ، لقوله تعالى : « لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلاً » .

لا تعجَل على أحدٍ بعقوبةٍ ولا بتهمة حتى تُحِقَّه[1] . لا تأتِ أهلك أو جاريتك وغيرُها يراك أو يسمع حِسّك ، قال صلى الله عليه وسلم : « استحيُوا من الله حقّ الحياء ، قالوا : وكيف نستحيي من الله حق الحياء ؟ قال : احفظوا الرأس وما حَوَى ، والبطنَ وما وَعَى ، واذكروا الموت والبِلَى ، وذَرُوا زينة الحياة الدنيا » .

---

(١) حقه كذبه وأحقه : غلبه على الحق .

إذا أصبحت فقل : اللهم لا إله إلا أنت ، وحدَك لاشريك لك ، لك الملك ولك الحمد لا شريكَ لك عشر مرات ، قال النبي صلى الله عليه وسلم : « من قالها عشر مرات حين يُصْبح وُكّل به مَلَكان يَحرُسانه حتى يُمْسى ، وإذا قالها ليلا فكذلك حتى يُصْبح » . وإذا كنت فى العيدين والجمعة ويوم عرَفة بعرفة فاغتسل ، وإن توضأت أجزأك . سأل رجل عليا عن الغُسل فقال : الجمعة والعيدين وعرفة . إذا رأيت الهلال فلا تستقبِلْه حتى تدعوَ وقل : الله أكبر الله أكبر ، الحمد لله ، أسألك من خير هذا الشهر ، وأعوذ بك من شر القدر وشر يوم المَحشَر .

لا تؤمَّنَّ أحدا فى بيته ولا سلطانه إلا أن يأذن لك . وذلك أنه بلغنى عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال : « لا يؤمَّنَّ الرجلُ الرجلَ فى بيته ولا فى سلطانه إلا بإذنه » . ولا تحب من الناس أن يَمثُلوا لك قياما . قال صلى الله عليه وسلم : « من سَرَّه أن يَمثُل له ابنُ آدم قياما وجبت له النار » . أجِبِ الدعوة إذا دُعِيتَ . قال صلى الله عليه وسلم : « الدعوةُ يومَ العُرس حق » وقال : « لو دُعِيتَ إلى كُراع[1] لأجبتُ » . إذا حلفت على شىء وحَلَف والداك أو أحدهما على خلافه فأطِعْهما مالم يكن معصية». احتجِمْ فى سبعَ عشرةَ وتسعَ عشرةَ وإحدى وعشرين ، أمر النبي صلى الله عليه وسلم بذلك .

إذا عُدت مريضاً فأخِفَّ العيادة ، وأقِلَّ اللُّبث . إذا مررت بالمقابر فقل : السلام عليكم أهلَ الدار المؤمنين والمسلمين ، وإنا إن شاء الله بكم لاحقون، أنتم لنا فَرَط[2] ونحن لكم تَبَع ، أسأل الله لنا ولكم العافية . لا بأس أن تمشى أمام الجنازة . مشى النبي صلى الله عليه وسلم وأبو بكر وعمر وابن عمر أمامها ، وإذا كنت راكبا فلا تسبِقْها،

---

(١) الكراع من البقر والغنم بمنزلة الوظيف من الفرس : وهو مستدق الساق .

(٢) فرط : أى متقدمون ، والفرط فى الأصل : المتقدم إلى الماء يتقدم الواردة فيهيء لهم الأرسان والدلاء ويملأ الحياض ويستقى لهم ، يقال رجل فرط ، وقوم فرط .

ولا تنزل حتى توضَع عن عواتق الرجال ، بلغنى ذلك عن بعض الصحابة . لا تنفُخ فى الطعام والشراب فإنه جَفاء ، قاله بعض العلماء .

ارفع يدك فى عشرة مواطن : إذا دعوتَ عند افتتاح الصلاة والعيدين والقنوت والتكبير وعند استلام الحَجَر وعَرَفة وجَمْع[1] والصَّفا والمَرْوة والجِمار، روى ذلك عن ابن عباس ، وعند افتتاح الصلاة والقنوط والعيدين ترفعهما حتى تحاذِيَ إبهامُك أذنَك ، وتبسُطهما عند صدرك فى باقى ذلك . لا تلعب بالنَّرْد ، لعن النبى صلى الله عليه وسلم اللاعب به وقال : « إيا كم وإياه » . لا تمضغ العِلْك[2] ، ولا تحلُل إزارك ، ولا تجرَّد ولا تحذِف[3] . قال النبى صلى الله عليه وسلم « إنها من أخلاق قوم لوط » . اجمع الصُّوَّام عند فطرك على طعامك ، قال صلى الله عليه وسلم : « من فطَّر صائماً كان له مثل أجره ، ولا يَنقُص من أجر الصائم شىء » .

واعلم ـ رحمك الله ـ أن الله تعالى خَصَّك من موعظتى بما نصحتك ، وأنهيتُ إليك منه ما أرجو أن يكون سعادةً لك وسببا إلى الجنة ، فليكن منك فيما كتبت إليك من القيام بأمر الله تعالى واتباع ما هو أهلُه ما ترجو به القُربة عند الله تعالى ، ولا يكن ذلك مما تَظْلِف[4] عنه نفسك ، وتعاهَدْها بالأخذ والتأديب عليه إن شاء الله حتى توقفها على الذى لا ينبغى لك التقصير بها عنه إن شاء الله تعالى ، والله الموفق للصواب ، وإليه المرجِعُ والمآبُ » .

« رسالة مطبوعة بالمطبعة الأميرية سـنة ١٣١١ هـ ، ومنها نسخة محفوظة فى دار الكتب المصرية رقم ١٣٠١ تصوف وأخلاق[5] » .

---

(١) جمع : المزدلفة .

(٢) العلك : ضرب من صمغ الشجر كاللبان يمضغ .

(٣) حذف فى مشيته حرك جنبه وعجزه أو تدانى خطوه .

(٤) ظلف نفسه عنه كضرب : كفها .

(٥) وقد طبعت حديثا بمطبعة مصطفى البابى الحلبى وأولاده بمصر .

فهـــرس

الجزء الرابع

من جمهرة رسائل العرب

فهرس الرسائل

رقم الصفحة	رقم الرسالة	الرســـــالة
٥	١	كتاب المعتصم إلى عبد الله بن طاهر
٦	٢	» » » » » » » »
٩	٣	» » » الآفاق عند القبض على بابك الخرمى
١١	٤	» » » ملك الروم
١١	٥	» إبراهيم بن المهدى إلى المعتصم
١٢	٦	كتابه إلى إسحاق بن إبراهيم الموصلى
١٣	٧	رواية أخرى
١٤	٨	كتابه إلى صديق له
١٤	٩	كتاب له
١٥	١٠	» »
١٥	١١	» » فى التشوق
١٥	١٢	» »
١٦	١٣	» »
١٦	١٤	» »
١٧	١٥	كتابه إلى منصور بن المهدى
١٧	١٦	» إلى العباس بن موسى

رقم الصفحة	رقم الرسالة	الرســـــالة
١٧	١٧	فصل له
١٧	١٨	فصل له
١٨	١٩	كتاب يعقوب الكندى إلى بعض إخوانه
١٩	٢٠	بين عبد الله بن الحسن الأصفهانى وابن الزيات
٢٠	٢١	كتاب الحسن بن وهب إلى ابن الزيات
٢٠	٢٢	» » » » » » »
٢١	٢٣	رد ابن الزيات عليه
٢٢	٢٤	كتاب ابن الزيات إلى الحسن بن وهب
٢٢	٢٥	رد الحسن بن وهب على ابن الزيات
٢٣	٢٦	كتاب ابن الزيات إلى الحسن بن وهب
٢٣	٢٧	كتاب الحسن بن وهب إلى ابن الحسن بن سهل
٢٥	٢٨	» » » » إلى القاسم بن الحسن بن سهل
٢٥	٢٩	» » » » إلى محمد بن إسحق
٢٦	٣٠	» » » » إلى إسحق بن يحيى
٢٦	٣١	» » » » إلى محمد بن عبد الله بن طاهر
٢٧	٣٢	جواب تعزية له
٢٨	٣٣	تعزية له
٢٩	٣٤	كتابه إلى إسحق بن إبراهيم
٣٠	٣٥	» إلى عبد الرحمن بن خاقان
٣١	٣٦	كتاب تعزية له
٣١	٣٧	» له فى الشكر
٣٢	٣٨	» فى الشكر
٣٣	٣٩	كتاب الحسن بن وهب إلى إبراهيم بن العباس
٣٣	٤٠	» » » » إلى أبى تمام الطائى
٣٣	٤١	كتاب له
٣٤	٤٢	كتاب ميمون بن إبراهيم إلى الحسن بن وهب
٣٥	٤٣	» الحسين بن الحسن بن سهل إلى صديق له

رقم الصفحة	رقم الرسالة	الرســــالة
٣٥	٤٤	رد صديقه عليه
٣٥	٤٥	كتاب عبد الرحمن الحرانى إلى محمد بن سهل
٣٦	٤٦	« ابن الزيات بالعهد للواثق على مكة
٣٦	٤٧	« إبراهيم بن العباس إلى الواثق
٣٧	٤٨	« « « « إلى ابن الزيات
٣٨	٤٩	« « « « « « «
٣٨	٥٠	« « « « « عمر بن فرج
٣٩	٥١	« « « « « ابن الزيات
٣٩	٥٢	« « « « « « «
٤٠	٥٣	« « « « « « «
٤١	٥٤	« ابن الزيات عن الخليفة إلى أحد عماله
٤٢	٥٥	فصول لابن الزيات
٤٢	٥٦	كتاب لابن الزيات
٤٣	٥٧	كتاب رجل إلى ابن الزيات
٤٣	٥٨	« الجاحظ إلى ابن الزيات
٤٥	٥٩	« « إلى أحمد بن أبى دواد
٤٦	٦٠	« « فى الاستعطاف
٤٩	٦١	« « إلى بعض إخوانه فى ذم الزمان
٥١	٦٢	« « فى استنجاز وعد
٥٢	٦٣	« آخر
٥٢	٦٤	« «
٥٢	٦٥	كتاب له فى الاستمناح
٥٣	٦٦	كتاب إلى أبى حاتم السجستانى
٥٣	٦٧	كتابه إلى قليب المغربى
٥٣	٦٨	فصول الجاحظ
٥٦	٦٩	رسالة الجاحظ فى بنى أمية
٦٨	٧٠	« أبى العاص بن عبد الوهاب بن عبد المجيد الثقفى إلى الثقفى

رقم الصفحة	رقم الرسالة	الرســـــالة
٨٨	٧١	رسالة ابن التوءم إلى الثقفى
١٢٣	٧٢	كتاب عمر بن عثمان القينى إلى محمد بن عبيد الله العتى
١٢٤	٧٣	» المتوكل فى الإعلان بلقبه
١٢٤	٧٤	» المتوكل إلى عماله فى النصارى وأهل الذمة
١٢٨	٧٥	» المتوكل بولاية العهد لبنيه
١٣٣	٧٦	» عبيد الله بن يحيى بن خاقان إلى الحسن بن عثمان
١٣٥	٧٧	» أبى العيناء إلى عبيد الله بن يحيى بن خاقان
١٣٧	٧٨	» عبيد الله بن خاقان إلى أبى الجهم
١٣٨	٧٩	» أبى العيناء إلى أبى نوح
١٣٩	٨٠	» أبى على البصير إلى عبيد الله بن يحيى بن خاقان
١٤٠	٨١	» » » » » » » » » » »
١٤١	٨٢	» » » » إلى أبى العيناء
١٤٥	٨٣	» » » » فى الاعتذار
١٤٦	٨٤	» آخر
١٤٧	٨٥	» »
١٤٨	٨٦	كتابه إلى على بن يحيى
١٤٩	٨٧	كتاب له فى الصفح
١٤٩	٨٨	فصول لأبى على البصير
١٥٠	٨٩	كتاب لغسان بن عمرو الباهلى فى الذم
١٥٠	٩٠	» » » » » » » »
١٥٢	٩١	» آخر له
١٥٢	٩٢	كتاب محمد بن عبد الله بن طاهر إلى المتوكل
١٥٢	٩٣	تحميد لإبراهيم بن العباس صدر رسالة الخميس
١٥٤	٩٤	» » » » فى فتح إسحق بن إسماعيل
١٥٤	٩٥	من رسالة لإبراهيم بن العباس فى قتل إسحق بن إسماعيل
١٥٥	٩٦	تحميد له
١٥٦	٩٧	» » فى فتح

رقم الصفحة	رقم الرسالة	الرســــــالة
١٥٦	٩٨	تحميد آخر له
١٥٧	٩٩	تحميد له
١٥٧	١٠٠	» » فى فتح
١٥٧	١٠١	» » فى آخر كتاب فتح
١٥٨	١٠٢	كتابه إلى بعض إخوانه فى شفاعة
١٥٨	١٠٣	» عن المتوكل إلى أهل حمص
١٥٩	١٠٤	» عن المنتصر إلى طاهر بن عبد الله
١٥٩	١٠٥	» عن المعتز ولى العهد إلى طاهر بن عبد الله
١٦٠	١٠٦	» عن المؤيد وهو ولى عهد إلى طاهر بن عبد الله
١٦٠	١٠٧	» إلى طاهر بن عبد الله
١٦١	١٠٨	» » » » » »
١٦٢	١٠٩	» » » » » »
١٦٣	١١٠	» » » » » »
١٦٣	١١١	» إلى عبد الرحمن بن خاقان
١٦٤	١١٢	» إلى الحسن بن رجاء
١٦٥	١١٣	» إلى محمد بن الحسن بن الفياض
١٦٥	١١٤	» إلى عامل له
١٦٦	١١٥	كتاب له فى السلامة
١٦٦	١١٦	» » » »
١٦٧	١١٧	» آخر
١٦٨	١١٨	ومن فصوله
١٦٩	١١٩	ومن كلامه
١٦٩	١٢٠	كتاب الفضل بن حباب إلى إبراهيم بن العباس
١٧٠	١٢١	» رجل إلى المتوكل
١٧٠	١٢٢	» » إلى مالك بن طوق
١٧١	١٢٣	» الحسن بن وهب إلى مالك بن طوق
١٧١	١٢٤	» أحد الكتاب إلى إبراهيم وأحمد ابنى المدبر

رقم الصفحة	رقم الرسالة	الرســـــالة
١٧٢	١٢٥	كتاب عمرو بن أيوب إلى أحمد بن المدبر
١٧٢	١٢٦	« أبى عباس المبرِّد إلى إبراهيم بن المدبر
١٧٣	١٢٧	« إبراهيم بن المدبر إلى أبى عبد الله بن حمدون
١٧٥	١٢٨	كتابه إلى عريب
١٧٥	١٢٩	كتاب لابن المدبر
١٧٦	١٣٠	الرسالة العذراء لإبراهيم بن المدبر
٢١٣	١٣١	كتاب محمد بن مكرم إلى إبراهيم بن المدبر
٢١٤	١٣٢	« « « « إلى أحمد بن المدبر
٢١٤	١٣٣	« « « « إلى أحمد بن دينار
٢١٥	١٣٤	« « « « « « « «
٢١٦	١٣٥	« « « « « نصرانى أسلم
٢١٦	١٣٦	« « « « « حاج
٢١٧	١٣٧	« « « « « بعض الرؤساء
٢١٧	١٣٨	كتابه إلى سليمان بن وهب
٢١٩	١٣٩	كتابه إلى أبى العيناء
٢١٩	١٤٠	فصول لابن مكرم
٢٢١	١٤١	كتاب سعيد بن موسى إلى أبى شراعة
٢٢١	١٤٢	رد أبى شراعة على سعيد بن موسى
٢٢٤	١٤٣	كتاب البيعة للمنتصر بالله
٢٢٩	١٤٤	كتاب المنتصر إلى محمد بن عبد الله بن طاهر
٢٣٠	١٤٥	رقعة المعتز والمؤيد فى خلع أنفسهما من البيعة
٢٣١	١٤٦	كتاب المنتصر بخلع المعتز والمؤيد
٢٣٥	١٤٧	كتاب البيعة للمعتز بالله
٢٣٧	١٤٨	كتاب عن محمد بن عبد الله بن طاهر إلى أهل بغداد ـ كتبه سعيد بن حميد
٢٤٦	١٤٩	كتاب سعيد بن حميد إلى بعض أهل السلطان
٢٤٧	١٥٠	« « « « إلى صديق له
٢٤٧	١٥١	« « « « إلى أبى العباس بن ثوابة

رقم الصفحة	رقم الرسالة	الرســـالة
٢٤٨	١٥٢	كتاب سعيد بن حميد إلى فضل الشاعرة
٢٤٨	١٥٣	» » » » » » »
٢٤٩	١٥٤	» » » » » » »
٢٤٩	١٥٥	» » » » إلى أبي هفان
٢٥٠	١٥٦	» » » » إلى بعض إخوانه
٢٥١	١٥٧	» » » » » » »
٢٥٢	١٥٨	» » » » » » »
٢٥٢	١٥٩	» » » » » » »
٢٥٢	١٦٠	كتاب له فى السلامة
٢٥٣	١٦١	كتاب له فى الشوق
٢٥٣	١٦٢	كتاب آخر
٢٥٤	١٦٣	كتاب آخر
٢٥٤	١٦٤	كتاب له فى توصية
٢٥٤	١٦٥	كتاب له فى الاعتذار
٢٥٥	١٦٦	كتاب تعزية له
٢٥٥	١٦٧	كتاب تعزية له إلى محمد بن عبد الله بن طاهر
٢٥٦	١٦٨	تعزية له فى مثله
٢٥٧	١٦٩	كتاب له
٢٥٧	١٧٠	تحميد له فى فتح
٢٥٩	١٧١	فصول لسعيد بن حميد فى المودة
٢٦٠	١٧٢	كتاب سعيد بن عبدالملك إلى سعيد بن حميد
٢٦٠	١٧٣	رد سعيد بن حميد عليه
٢٦٠	١٧٤	كتاب لسعيد بن عبد الملك فى السلامة
٢٦١	١٧٥	كتاب لسعيد بن عبد الملك فى سلامة القطر
٢٦٢	١٧٦	كتاب له فى الاعتذار
٢٦٢	١٧٧	تعزية لسعيد بن عبد الملك
٢٦٣	١٧٨	تعزية لسعيد بن عبد الملك

رقم الصفحة	رقم الرسالة	الرســـالة
٢٦٣	١٧٩	كتاب له فى توصية
٢٦٤	١٨٠	كتاب آخر
٢٦٤	١٨١	كتاب له فى إطلاق محبوس
٢٦٤	١٨٢	كتاب له
٢٦٥	١٨٣	فصول له
٢٦٥	١٨٤	كتاب محمد بن عبد الله بن طاهر إلى المعتز
٢٦٦	١٨٥	كتاب محمد بن عبد الله بن طاهر إلى عمال النواحى
٢٦٧	١٨٦	رد الأتراك على كتاب ابن طاهر
٢٦٩	١٨٧	كتاب محمد بن عباد إلى جعفر بن محمود الإسكافى
٢٦٩	١٨٨	رد جعفر على محمد بن عباد
٢٧٠	١٨٩	كتاب ابن طاهر إلى عماله
٢٧١	١٩٠	رقعة المعتز بخلع نفسه
٢٧٢	١٩١	كتاب الموالى بالكرخ والدور إلى المهتدى
٢٧٢	١٩٢	رد المهتدى عليهم
٢٧٣	١٩٣	كتاب الموالى إلى المهتدى
٢٧٤	١٩٤	كتاب المهتدى إليهم
٢٧٤	١٩٥	كتابهم إلى المهتدى
٢٧٥	١٩٦	كتابهم إلى القواد
٢٧٦	١٩٧	كتاب المهتدى إليهم
٢٧٦	١٩٨	كتاب القواد إليهم
٢٧٧	١٩٩	كتاب على بن يحيى إلى سليمان بن وهب
٢٧٧	٢٠٠	رد ابن وهب عليه
٢٧٨	٢٠١	كتاب ابن وهب إلى سليمان بن عبد الله بن طاهر
٢٧٨	٢٠٢	كتاب رجل إلى سليمان بن وهب
٢٧٩	٢٠٣	رده عليه
٢٧٩	٢٠٤	كتاب اعتذار لسليمان بن وهب
٢٧٩	٢٠٥	كتاب أبى العيناء إلى أبى الصقر إسمعيل بن بلبل

رقم الصفحة	رقم الرسالة	الرســـــالة
٢٨١	٢٠٦	كتاب أبي العيناء إلى بعض الرؤساء
٢٨١	٢٠٧	كتاب أبي العباس بن ثوابة إلى إسمعيل بن بلبل
٢٨٢	٢٠٨	كتاب عبيد الله بن عبد الله بن طاهر إلى عبيد الله بن سليمان
٢٨٢	٢٠٩	كتاب سعيد بن عبد الملك إلى عبيد الله بن سليمان
٢٨٣	٢١٠	كتاب أبي العيناء إلى عبيد الله بن سليمان
٢٨٣	٢١١	رد عبيد الله عليه
٢٨٤	٢١٢	كتاب أبي العيناء إلى عبيد الله بن سليمان
٢٨٤	٢١٣	جواب لأحمد بن سليمان بن وهب
٢٨٥	٢١٤	كتابه إلى ابن أبي الأصبغ
٢٨٦	٢١٥	كتابه إلى أخيه عبيد الله بن سليمان
٢٨٧	٢١٦	كتابه إلى صديق له
٢٨٨	٢١٧	كتاب أبي العباس بن ثوابة إلى عبيد الله بن سليمان
٢٨٨	٢١٨	كتاب له
٢٨٨	٢١٩	« ابن ثوابة إلى عبيد الله بن سليمان
٢٨٩	٢٢٠	جواب عن تعزية لابن ثوابة
٢٨٩	٢٢١	تعزية له إلى ابني عمر
٢٩٢	٢٢٢	عهد من الموفق إلى أحد الولاة ـ كتبه ابن ثوابة
٢٩٦	٢٢٣	كتاب جعفر بن ثوابة إلى عبيد الله بن سليمان
٢٩٧	٢٢٤	« أحمد بن أبي طاهر إلى علي بن يحيي
٢٩٨	٢٢٥	« « « « « « « « «
٢٩٩	٢٢٦	كتابه في ذم ابن ثوابة
٣٠١	٢٢٧	كتاب أحمد بن أبي طاهر إلى أبي على البصير
٣٠٥	٢٢٨	« عبيد الله بن المعتز إلى عبيد الله بن سليمان يهنئه بالعيد
٣٠٦	٢٢٩	« « « « « « « « « « « « « « بقدومه
٣٠٦	٢٣٠	« « « « « « « « « « « « يعزيه عن ابنه
٣٠٧	٢٣١	فصل لابن المعتز من تعزية بولد
٣٠٧	٢٣٢	تعزية له

رقم الصحيفة	رقم الرسالة	الرســـالة
٣٠٧	٢٣٣	تعزية أخرى
٣٠٨	٢٣٤	وله تهنئة بمولود
٣٠٨	٢٣٥	فصل له فى قبول عذر
٣٠٨	٢٣٦	« « فى حاجة
٣٠٩	٢٣٧	« «
٣٠٩	٢٣٨	« «
٣٠٩	٢٣٩	« «
٣٠٩	٢٤٠	« «
٣١٠	٢٤١	« « فى الشوق
٣١٠	٢٤٢	وله شفاعة فى شغل
٣١٠	٢٤٣	فصل له فى فراق
٣١١	٢٤٤	« «
٣١١	٢٤٥	« «
٣١١	٢٤٦	« «
٣١٢	٢٤٧	وله فى وصف البيان
٣١٣	٢٤٨	وله فى وصف الكتاب والقلم
٣١٣	٢٤٩	كتاب أحمد بن إسماعيل إلى بعض الكتاب
٣١٤	٢٥٠	كتاب أحمد بن إسماعيل إلى صديق له
٣١٤	٢٥١	« « « يحيى الأسدى إلى الحسين بن سعد
٣١٥	٢٥٢	« « « على المازرانى إلى ابن بشر المرثدى
٣١٦	٢٥٣	فصل لعبد الله بن أحمد فى الشكر
٣١٦	٢٥٤	كتاب ابن عبدكان عن أحمد بن طولون إلى ابنه العباس
٣٢٢	٢٥٥	« بمذهب القرامطة
٣٢٥	٢٥٦	من كتاب عن المعتضد إلى خمارويه بن أحمد بن طولون
٣٢٦	٢٥٧	كتاب عن المعتضد بلعن معاوية بن أبى سفيان
٣٣٩	٢٥٨	« أم الشريف إلى ابن أخيها محمد بن عيسى
٣٤٠	٢٥٩	« « « إلى المعتضد

رقم الصحيفة	رقم الرسالة	الرســــالة
٣٤٠	٢٦٠	كتاب صاحب الشامة إلى بعض عماله
٣٤٢	٢٦١	« بعض عماله إليه
٣٤٤	٢٦٢	« محمد بن سليمان الكاتب إلى القاسم بن عبيد الله
٣٤٤	٢٦٣	« ابن المعتز إلى القاسم بن عبيد الله
٣٤٥	٢٦٤	« « « « « « « «
٣٤٥	٢٦٥	« « « إلى بعض الرؤساء
٣٤٥	٢٦٦	« « « إلى عليل
٣٤٦	٢٦٧	« « « إلى بعض الوزراء
٣٤٦	٢٦٨	رده عليه
٣٤٦	٢٦٩	كتاب قينة إلى ابن المعتز
٣٤٧	٢٧٠	رده عليها
٣٤٨	٢٧١	كتاب ابن المعتز يصف سُرَّ من رأى
٣٥١	٢٧٢	« « « إلى أحمد بن سعيد الدمشقى
٣٥١	٢٧٣	« آخر إليه
٣٥١	٢٧٤	« إلى عبد الله بن شبيب من صديق له
٣٥٢	٢٧٥	« إلى محمد بن طيفور من بعض إخوانه
٣٥٢	٢٧٦	« « « « « من بعض خاصته
٣٥٢	٢٧٧	رده عليه
٣٥٣	٢٧٨	كتاب صاحب البريد بالدينور
٣٥٣	٢٧٩	« على بن الفرات عن المقتدر فى المواريث
٣٥٤	٢٨٠	« الوزير ابن مقلة إلى القواد والعمال
٣٥٥	٢٨١	« أحمد بن الضحاك إلى صديق له يصف شعب بوان
٣٥٧	٢٨٢	« عن الإخشيد إلى أرمانوس ملك الروم ـ كتبه النجيرمى
٣٦٥	٢٨٣	« أبى الطيب المتنبى إلى أحد إخوانه
٣٦٦	٢٨٤	« الراضى إلى المتقى

التوقيعات فى العصر العباسي الأول

رقم الصفحة	
٣٦٧	توقيعات السفاح
٣٦٨	« المنصور
٣٧٢	« المهدى
٣٧٤	« الهادى
٣٧٤	« الرشيد
٣٧٨	« المأمون
٣٨١	« الواثق
٣٨٢	« أبي مسلم الخراسانى
٣٨٢	« عمرو بن عبيد
٣٨٣	« أبي عبيد الله
٣٨٣	« الفيض بن أبي صالح
٣٨٣	« يحيى بن خالد البرمكى
٣٨٤	« جعفر بن يحيى البرمكى
٣٨٧	« الفضل بن يحيى
٣٨٨	« الفضل بن سهل
٣٨٩	« الحسن بن سهل
٣٩٠	« طاهر بن الحسين
٣٩٣	« عبد الله بن طاهر
٣٩٤	« يوسف بن القاسم
٣٩٥	« أحمد بن يوسف
٣٩٧	« عمرو بن مسعدة
٣٩٧	« محمد بن يزداد

٣٩٨ توقيعات عبد الله بن محمد بن يزداد
٣٩٨ » إبراهيم بن العباس
٣٩٩ » محمد بن عبد الله بن طاهر
٣٩٩ » عبيد الله بن سليمان بن وهب
٤٠٠ » عبد الله بن المعتز
٤٠٠ » على بن عيسى

---

٤٠٢ رسالة الإمام مالك بن أنس

فهرس أعلام الكتاب

مرتب بترتيب الحروف الهجائية

مع إتباع اسم كل كاتب بأرقام الصفحات التي وردت فيها رسائله

ا

إبراهيم بن العباس ٣٧ ، ٣٨ ، ٣٩ ، ٤٠ ، ١٥٢ ، ١٥٤ ، ١٥٥ ، ١٥٦ ، ١٥٧ ، ١٥٨ ، ١٥٩ ، ١٦٠ ، ١٦١ ، ١٦٢ ، ١٦٣ ، ١٦٤ ، ١٦٥ ، ١٦٦ ، ١٦٧ ، ١٦٨ ، ١٦٩ ، ٣٩٨

إبراهيم بن المدبر ١٧٣ ، ١٧٥ ، ١٧٦

إبراهيم بن المهدى ١١ ، ١٢ ، ١٤ ، ١٥ ، ١٦ ، ١٧

ابن التوءم ٨٨

ابن عبد كان ٣١٦

ابن مقلة ٣٥٤

أبو شراعة ١٤١

أبو الطيب المتنبي ٣٥٣

أبو العاص بن عبد الوهاب ٦٨

أبو العباس بن ثوابة ٢٨١ ، ٢٨٨ ، ٢٨٩ ، ٢٩٠ ، ٢٩٦

أبو العباس المبرد ١٧٢

أبو عبيد الله ٣٨٣

أبو على البصير ١٣٩ ، ١٤٠ ، ١٤١ ، ١٤٥ ، ١٤٦ ، ١٤٨ ، ١٤٩

أبو العيناء ١٣٥ ، ١٣٨ ، ٢٧٩ ، ٢٨١ ، ٢٨٤

أبو مسلم الخراسانى ٣٨٢

أحمد بن أبي طاهر طيفور ٢٩٧ ، ٢٩٨ ، ٢٩٩ ، ٣٠١

أحمد بن إسمعيل ٣١٣ ، ٣١٤

أحمد بن سليمان بن وهب ٢٨٤ ، ٢٨٥ ، ٢٨٦ ، ٢٨٧

أحمد بن الضحاك ٣٥٥

أحمد بن على المازرانى ٣١٥

أحمد بن يحيى الأسدى ٣١٤

أحمد بن يوسف ٣٩٥

أم الشريف ٣٣٩ ، ٣٤٠

ج

الجاحظ ٤٣ ، ٤٥ ، ٤٦ ، ٤٩ ، ٥١ ، ٥٢ ، ٥٣ ، ٥٦

جعفر بن ثوابة ٢٩٦

جعفر بن محمود ٢٦٩

جعفر بن يحيى ٣٨٤

ح

الحسن بن وهب ٢٠ ، ٢٢ ، ٢٣ ، ٢٥ ، ٢٦ ، ٢٧ ، ٢٨ ، ٢٩ ، ٣٠ ، ٣١ ، ٣٢ ، ٣٣ ، ٣٤

الحسن بن سهل ٣٨٩

الحسين بن الحسن بن سهل ٣٥

ر

الراضي ٤٨٤

الرشيد ٣٧٤

س

سعيد بن حميد ٢٣٧ ، ٢٤٦ ، ٢٤٧ ، ٢٤٨ ، ٢٤٩ ، ٢٥٠ ، ٢٥١ ، ٢٥٢ ، ٢٥٣ ، ٢٥٤ ، ٢٥٥ ، ٢٥٦ ، ٢٥٧ ، ٢٥٩ ، ٢٦٠

سعيد بن عبد الملك ٢٦٠ ، ٢٦١ ، ٢٦٢ ، ٢٦٣ ، ٢٦٤ ، ٢٦٥

سعيد بن موسى ١٤١

السفاح ٣٦٧

سليمان بن وهب ٢٧٧ ، ٢٧٨ ، ٢٧٩

ص

صاحب الشامة ٣٤٠

ط

طاهر بن الحسين ٣٩٠

ع

عبد الرحمن بن أحمد الحراني ٣٥

عبد الله بن أحمد ٣١٦

عبد الله بن الحسن الأصبهاني ١٩

عبد الله بن خاقان ١٣٧

عبد الله بن طاهر ٣٩٠

عبد الله بن محمد بن يزداد ٣٩٨

عبد الله بن المعتز ٣٠٥ ، ٣٠٦ ، ٣٠٧ ، ٣٠٨ ، ٣٠٩ ، ٣١٠ ، ٣١١ ، ٣١٢ ، ٣١٣ ، ٣٤٤ ، ٣٤٥ ، ٣٤٦ ، ٣٤٧ ، ٣٤٨ ، ٣٥١

عبيد الله بن سليمان بن وهب ٢٨٢ ، ٣٩٩

عبيد الله بن عبد الله بن طاهر ٢٨٢

عبيد الله بن يحيى بن خاقان ١٢٣

على بن عيسى ٤٠٠

على بن الفرات ٣٥٣

على بن يحيى ٢٧٧

عمر بن أيوب ١٧٢

عمرو بن عبيد ٣٨٢

عمرو بن عثمان القيني ١٢٣

عمرو بن مسعدة ٣٩٧

غ

غسان بن عمرو الباهلي ١٥٠ ، ١٥٢

ف

الفضل بن حباب ١٦٩

الفضل بن سهل ٣٨٨

الفضل بن يحيى ٣٨٧

الفيض بن أبي صالح ٣٨٣

م

المأمون ٣٧٨

مالك بن أنس ٤٠٢
المتوكل ١٢٤ ، ١٢٨
محمد بن سلمان ٢٦٢
محمد بن طيفور ٣٥٢
محمد بن عباد ١٨٧
محمد بن عبد الله بن طاهر ١٥٢ ، ٢٦٥ ، ٢٧٠ ، ٣٩٩
محمد بن عبد الملك الزيات ١٩ ، ٢٠ ، ٢١ ، ٢٢ ، ٢٣ ، ٣٦ ، ٣٧ ، ٣٨ ، ٤١ ، ٤٢ ، ٤٣
محمد بن مكرم ٢١٣ ، ٢١٤ ، ٢١٥ ، ٢١٦ ، ٢١٧ ، ٢١٩
محمد بن يزداد ٣٩٧
المعتز ٢٣٠ ، ٢٣٥ ، ٢٧١
المعتصم ٤ ، ٥ ، ١١
المنتصر ٢٢٧ ، ٢٣١
المنصور ٣٦٨
المهتدى ٢٧٤ ، ٢٧٦ ، ٣١٧
المهدى ٣٧٢
ميمون بن إبراهيم ٣٤

ن

النجيرمى ٣٥٧

هـ

الهادى ٣٧٤

و

الواثق ٣٨١

ى

يحيى بن خالد البرمكى ٣٨٣
يعقوب الكندى ١٨
يوسف بن القاسم ٣٩٤

فهـــــرس

بعض ماورد فى الهـامش من الفوائد التى قد يحتاج القارئ إلى مراجعتها

رقم الصفحة	
٢	بابك الخرمى
١١	عمورية
١٢	الأشتان
١٨	أبو يوسف يعقوب الكندى
٢٠	الأنواء
٣٦	زمزم والسقاية
٤٧	المِـرة والخِـلط والمزاج
٥١	لقيته على أوفاز
٥٧	لاجرم
٦٠	على بن الحسين وابن زياد
٦١	المعتزلة أهل العدل
٦٣	مقابح بنى أمية
٧٩	بخل أهل خراسان
٨٢	الصدى
١٠١	الخبيص والفالوذج واللوزينج
١٠٢	الشفارج
١٠٥	إبراهيم بن هرمة
١٠٦	الزوراء
١١٠	أبو رغال
١١٧	إن أخاك الصِّدْقَ من لم يخدعك
١٣٤	سر من رأى
١٥١	شُطَّب السيف
١٧٣	تلقيب أبى العباس صاحب الكامل بالمبرد
١٨٣	سجنا نافع والمخيَّس
١٨٥	حذف الواو والياء من هو وهى
١٩٢	لاتجعلونى كقدح الراكب
١٩٢	المئشار والمنشار
١٩٦	ابن قيس الرقيات
١٩٧	عتبة وأبو العتاهية
٢٠٧	ابن الزيات والوزارة
٢٠٧	ابن الزيات وابن أبى دواد
٢١٠	بزرجمهر
٢١١	إنا معشر النباء بكاء
٢٢٢	الكلالة ـ الغَلَنْكَوة
٢٢٢	لم أبال ولم أبل
٢٤٧	آل ثوابة بن يونس
٢٨٧	دُعَيتَ تنزال
٢٧٥	من أصلح جَوَّانيَّه أصلح الله برانيّه
٣١٦	العباس بن أحمد بن طولون وعقوقه لأبيه

رقم الصفحة

٣٢٣ ، ٣٤٠ القرامطة

٣٣٠ الشجرة الملعونة فى القرآن

٣٣١ الحكم طريد رسول الله

٣٣٣ عمار بن ياسر

٣٦٨ أبو سلمة الخلال

٣٦٩ حديث « كما تكونوا يولى عليكم »

٣٧١ الرافضة

٣٧١ السيد الحميرى

رقم الصفحة

٣٧١ بخل أبى جعفر المنصور

٣٧٤ يابن اللخناء

٣٧٥ لا أم لك

٣٨٥ حديث « يامعشر الشباب من استطاع الباءة فليتزوج . . . . »

٣٩٢ بل رحمه

٣٩٦ تنجيم الديون

٤١٢ ساء وأساء

فهـــــرس

الأمثال التي ورد شرحها في الهامش

رقم الصفحة		رقم الصفحة	
٣٩	بلغ السكين العظم	١١٤	رب أكلة تمنع أكلات
٧٣	أجود من كعب بن مامة	١١٤	رب عجلة تهب ريثا
٧٧	أسمح من لافظة	١١٤	تطلب أثرا بعد عين
٧٨	جوع كلبك يتبعك	١١٥	أشأم من خوتعة
٧٨	نعم كلب من بؤس أهله	١١٥	أشأم من البسوس
٧٨	سمن كلبك يأكلك	١١٦	أشأم من عطر مَنْشِم
٧٩	أجوع من كلبة حومل	١١٦	عَشّس ولا تغتر
٨٧	عند الصباح يحمد القوم السرى	١١٧	إن أخا الهيجاء من يسعى معك ومن يضر نفسه لينفعك
٨٧	غمرات ثم ينجلين	١١٧	لم يذهب من مالك ماوعظك
٩٢	لا يرسل الساق إلا ممسكا ساقا		لاتعدمْ صنّاعٌ ثلّة
١٠٤	القيد والرتعة	١١٨	ليس لها راغ ولكنْ حلّبة
١٠٩	كتاركة بيضها بالعراء وملبسة بيض أخرى جناحا	١١٩	الرى براش السهم
١٠٩	أحمق من نعامة	١١٩	اقبل الرّماء علأالكنائن
١١٠	إن المنبتّ لاأرضا قطع ولا ظهرا أبقى	١١٩	عند النطاح تغلب القرناء . عند النطاح يُغلب الكبش الأجم
١١١	شر السير الحقحقة	١١٩	ليس عليك نسجه فاسحب وخرق
١١١	الرشف أنقع الظمآن	١٢٢	سمنك فى أديمك
١١١	ليس الرىّ عن التشاف	١٢٢	غثّك خير من سمين غيرك
١١١	ياعاقد اذكر حلا	١٨٧	أنا جُذَيلها المحكك وعُذَيقها المرجّب
١١٢	رب لائم مليم		
١١٢	رب ملوم لاذنب له		
١١٣	الفرار بقراب أكيس	٢٧٣	قد أنصف القارة من راماها

بحمد الله تعالى تم طبع كتاب :

جمهرة رسائل العرب

بقلم الأستاذ أحمد زكى صفوت

وكيل كلية دار العلوم - جامعة القاهرة سابقاً